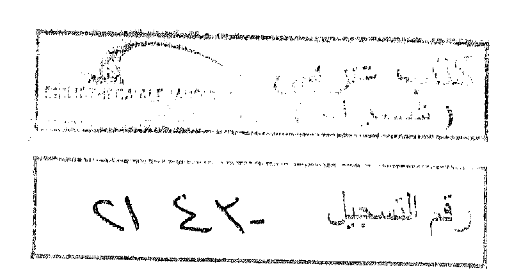
محمود عبد الحليم
عضو الهيئة التأسيسية



الإخوان المسلمون

أحداث صنعت التاريخ

رؤية من الداخل

الجزء الأول
١٩٢٨ - ١٩٤٨

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع
٦ شارع منشا . محرم بك (الإسكندرية)

الطبعة الخامسة
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الباب الأول

فى شارع الناصرية

الفصل الأول

العمل الطلابى المنظم

الموضوع	الصفحة
ب – معركة مع المخابرات البريطانية	٨٤
جـ – مع المعركة فى فلسطين	٨٨

الفصل الثانى

الدعوة على مفترق طريقين

الباب الثانى

فى ميدان العتبة الخضراء

الفصل الأول

إبراز الإخوان باعتبارهم فئة متميزة من الفئات الأساسية فى المجتمع المصرى

الموضوع	الصفحة

الفصل الثانى

الأخذ بأساليب عملية فى التكوين والتربية ونشر الدعوة

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث

مهاجمة الانجليز واليهود والانطلاق بقضية فلسطين

الفصل الرابع

الفتنة الأولى

الباب الثالث

فى ميدان الحلمية الجديدة فى المبنى القديم

الفصل الأول

فى البناء الداخلى

التركيب البنائى للدعوة فى هذه المرحلة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الفصل الثانى

فى العمل الوطنى فى ظل الحرب العالمية الثانية

الموضوع	الصفحة

الباب الرابع
فى ميدان الحلمية الجديدة
فى الدار الجديدة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية

الفصل الأول
وصول الدعوة إلى قمة النفوذ الشعبى

الموضوع | الصفحة

الفصل الثانى

فى قضية فلسطين

الموضوع | الصفحة

الفصل الثالث

خطط التآمر العالمى للقضاء على الدعوة

الموضوع	الصفحة

الفهرس

الخطة الأخيرة للإبادة

جريمة القــرن العشرين

اغتيال المرشد العام

الفصل الأول

التمهيد للجريمة

الفصل الثانى

التدبير الأثيم

الفصل الثالث

شخصيات ومواقف كشفت عنها المحنة القاسية

الموضوع	الصفحة

الفصل الثانى
المحـــاكمات

الفصل الثالث
معالم فى هذه القضايا

الفصل الرابع
البوليس السياسى والتعذيب

الباب الرابع

أخيراً المؤامرة تتحطم على صخرة صلدة من نزاهة القضاء المصرى

الفصل الأول

مكانة القضاء فى الأمم وموضعه فى الإسلام

الفصل الثانى

من الأحكام الخالدة

الفصل الثالث

تعقيب وتحليل لهذه الأحكام الخالدة

نوع	الصفحة

الباب الرابع
نظرة أخيرة إلى حسن البنا

الفصل الأول
تاريخ أرادوا طمسه

الفصل الثانى
حسن البنا بين مختلف الطوائف والأفكار

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث
حسن البنا والطائفة الخامسة أو موقفه من الساسة والحكام

الفصل الرابع
آخر ما كتبه حسن البنا بخط يده للنشر

الفصل الخامس
حسن البنا وكبار الدعاة فى العالم الإسلامى فى العصر الحديث

الباب الخامس

الدعوة فى مهب الرياح

الفصل الأول

الدعوة تنبت من جديد

الفصل الثانى

شبهة خطرة ماكرة

الفصل الثالث

الاتجاه إلى الأستاذ الهضيبى

الفصل الرابع

شبه تثار حول المرشد الجديد

الباب السادس

المرشد العام الجديد يتبوأ منصبه والبلاد أمام تطورات جديدة الدعوة تحتل مكان الصدارة

فهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
الفصل الثانى : كبح مؤامرة اشرأبت بعنفها مرة أخرى	٥٦٣
وإذاً الرواية لم تتم فصولاً ! !	٥٦٥
الأفغانى بين الحقيقة والافتراء	٥٦٦
قصور البحث . . وغياب المنهج	٥٦٧
كلمة أخيرة عن جمال الدين الأفغانى	٥٧٨
الفصل الثالث : إلى هذا الحد يزيف التاريخ	٥٨٣
القسمة الأولى	٥٨٤
القسمة الثانية	٥٨٥
الباب العشرون : أضواء على هذه الحقبة من الزمن	٥٩١
الفصل الأول : وشهد شاهد من أهلها . . تصديق على ملاحظاتنا	٥٩٣
لماذا قرر « كوبلاند » نشر كثير من الوقائع السرية	٥٩٥
« لعبة الشعوب » أو « مركز اللعب »	٥٩٦
لماذا تحولت الخارجية الأمريكية عن الاتجاه المثالى ؟	٥٩٨
ما الذى قررته لجنة الخبراء ؟	٥٩٩
لماذا اختارت اللجنة مصر لتنفيذ العملية الكبرى	٥٩٩
هل كانت هناك جهود بذلها روزفلت فى مصر من قبل ؟	٦٠٠
ما سبب استعجال المخابرات الأمريكية لحل مشكلة التفهم مع الدول الغربية ؟	٦٠١
اتفاق المخابرات الأمريكية مع « الناصريين »	٦٠٢
ماذا فى الاتفاق عن إسرائيل	٦٠٣
شعور الضباط الناصرين نحو الشعب المصرى	٦٠٤
تحويل أنظار الشعب عن أعدائه الحقيقيين	٦٠٥
خلاصة نتائج تجارب المخابرات الأمريكية فى سوريا	٦٠٥
الاتفاق مع المخابرات الأمريكية قبل الانقلاب يشمل برنامج السياسة الداخلية	٦٠٧
من أسباب اختيار المخابرات الأمريكية لعبد الناصر	٦٠٨
موقف الحكومة الأمريكية من قوانين البطش والاضطهاد الناصرية	٦٠٩
تقرير إيخلبرجر اليهودى الأمريكى الذى اعتمده عبد الناصر دستوراً له	٦١٠
القاعدة الغوغائية لنظام عبد الناصر	٦١٢

الموضوع	الصفحة

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

◆ إلى روح الرجلين العظيمين .. اللذين وضع أولهما الأساس للدعوة الإسلامية في هذا العصر وثبته في الأعماق وأشعل جذوة الإيمان .

ثم جاء الثاني فرفع القواعد وسط الرياح الهوج والأعاصير العاتية .. وراح كلاهما شهيدي هذه الجذوة أن تنطفئ .

◆ إلى الرجال الذين استجابوا لندائهما واتبعوهما وعزروهما ونصروهما .. "فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا"

◆ إلى شباب هذا الجيل الذي حجبت عنه الحقائق لينشأ غريبا عن أهله ودينه وقيمه .. لعله يرجع إلى أصالته ودينه وقيمه بعد غيبة قاربت ثلاثين عاما

محمود عبد الحليم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم بقلم :
الداعية الأستاذ مصطفى مشهور

إن هذه الشجرة الطيبة التى غرسها الإمام الشهيد حسن البنا منذ أكثر من خمسين عاما ورواها بدمه هو والشهداء من قبله ومن بعده تعمقت جذورها وامتدت فروعها واستعصت على أعداء الله أن يقتلعوها رغم محاولاتهم الشرسة المتتالية ، إنها فى الحقيقة دعوة الله ، والله غالب على أمره ولن يطفىء نور الله بشر .

واستقراء من سنة الله فى الدعوات ، توقع الإمام الشهيد ما ستتعرض له هذه الجماعة من الابتلاءات والمحن ومن إلصاق التهم الباطلة بها من أعداء الله لصد الناس عن سبيل الله .فكتب للإخوان يصارحهم بهذة الحقيقة :

أحب أن أصارحكم أن دعوتكم لا زالت مجهولة عند كثير من الناس ويوم يعرفونها ويدركون مراميها وأهدافها ستلقى منهم خصومة شديدة وعداوة قاسية ، وستجدون أمامكم

كثيراً من المشقات ، وسيعترضكم كثير من العقبات ، وفى هذا الوقت تكونون قد بدأتم تسلكون سبيل أصحاب الدعوات أما الآن فلا زلتم مجهولين ولا زلتم تمهدون للدعوة وتستعدون لما تتطلبه من كفاح وجهاد . سيقف جهل الشعب بحقيقة الإسلام عقبة فى طريقكم ، وستجدون من أهل التدين ومن العلماء الرسميين من يستغرب فهمكم للإسلام ،وينكر عليكم جهادكم فى سبيله ، وسيحقد عليكم الرؤساء والزعماء وذوو الجاه والسلطان ، وستقف فى وجهكم كل الحكومات على السواء ، وستحاول كل حكومة أن تحد من نشاطكم وأن تضع العراقيل فى طريقكم .

وسيتذرع الغاصبون (١) بكل طريق لمناهضتكم وإطفاء نور دعوتكم ، وسيستعينون فى ذلك بالحكومات الضعيفة والأخلاق الضعيفة والأيدى الممتدة إليهم بالسؤال وإليكم بالإساءة والعدوان. وسيثير الجميع حول دعوتكم غبار الشبهات وظلم الاتهامات وسيحاولون أن يلصقوا بها كل نقيصة وأن يظهروها للناس فى أبشع صورة معتمدين على قوتهم وسلطانهم ، ومعتدين بأموالهم ونفوذهم . «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون» .

وستدخلون بذلك ولا شك فى دور التجربة والامتحان : فتسجنون ، وتقتلون ، وتشردون ، وتصادر مصالحكم ، وتعطل أعمالكم ، وتفتش بيوتكم ، وقد يطول بكم مدى

---

(١) المستعمرون

هذا الامتحان : «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناوهم لا يفتنون» ولكن الله وعدكم بعد ذلك كله نصرة المجاهدين ومثوبة العاملين المحسنين : «يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم .... فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم ، فأصبحوا ظاهرين» فهل أنتم مصرون على أن تكونوا أنصار الله ؟ (١)

وحدث ماتوقعه الإمام ، ودخل الإخوان دور الامتحان والابتلاء ، ولقوا كل ألوان التعذيب والتنكيل، وطال بهم مدى هذا الامتحان فصبروا وما جزعوا وضربوا الأمثال فى الوفاء بالعهد وصدق اللقاء ... وحفظ الله هذه الدعوة وقيض لها الإمام حسن الهضيبي رحمه‌الله فى تلك الفترة وكان رمزا للثبات والصمود وعدم التفريط فى أمانات الدعوة وصلابة الحق أمام بطش وجبروت أهل الباطل حتى لقى الله وقد قرت عيناه : أن هذه الجماعة لن يحلها قرار حل ولن تجتث شجرتها .

وان كانت هذه الظروف القاسية والصراع المرير والواجبات التى تتزاحم والمسئوليات الملقاة على عاتق هذه الجماعة فى طورها العالمى الجديد يجعل تسجيل تاريخ الجماعة لا يجد الوقت والجهد المناسب فى الوقت الذى ينقرض فيه الجيل الذى حمل عبء الدعوة فى مراحلها الأولى ، ولكن رغم ذلك فهناك جهد يبذل فى هذا الجانب والحمد لله .

والأخ الفاضل الأستاذ محمود عبد الحليم ، من الرواد الأوائل الذين سبقوا إلى هذه الجماعة وعاشوا وجاهدوا فى ظلها وعاصروا أحداثها منذ الثلاثينات ، وقد حباه الله بذاكرة جيدة وحافظة قوية ، فعز عليه أن يرى

---

(١) عن رسالة «بين الأمس واليوم» للامام الشهيد حسن البنا

أعداء الله والمغرضين والأقلام المأجورة يزورون تاريخ الجماعه ويزيفون الحقائق ويشوهون الصورة ، وشعر أن السن تتقدم به – وأحس بواجب تسجيل هذه المذكرات ؛ لتكون مادة تعين الباحثين على مهمة التأريخ الصادق لهذه الجماعة ، ومصدراً يرجع إليه كل إنسان شريف ينشد الحقيقة فى مظانها الصحيحة .. فجزاه الله خير الجزاء على ما بذل من جهد .

هذا و كما قال الأخ محمود فى المقدمة ، عما أبداه من رأى وتحليل لبعض القضايا التى كانت تعرض فى مذكراته ، كان تعبيراً عن رؤيته الشخصية ووجهة نظره الفردية «ليس من حقى أن أقرر أن تحليلى هو التحليل الأوحد، أو أن رأيى هو الرأى الأصوب فلكل إنسان أسلوب فى التحليل ورأى فيما يعالج من قضايا» وهذا وإن كان أمرا بديهيا ولكن ذكره له فى التقديم تذكير مشكور .

وإذا كان تسجيل تاريخ أى حركة هو جزء من الحركة وأمر لازم ومفيد ، فأحب أن ألفت نظر الأخ القارئ أن مثل هذه المذكرات التى تروى بعض جوانب حركة الأخوان المسلمين تعطى دروسا تربوية للأجيال الناشئة لا مجرد سرد لأحداث وما أكثر العبر والدروس فى تاريخ الحركات الإسلامية وما أحوج الأجيال الناشئة إليها حتى لا يبدأوا من فراغ .

وأسأل الله أن ينفع بهذه المذكرات وأن يجازى الأخ الأستاذ محمود عبد الحليم خيرا ، وأن يؤيد هذه الجماعة الظاهرة على الحق وكل عامل للإسلام حتى يأتى نصر الله ويمكن لدينه فى الأرض .. إنه تعالى أكرم مسئول .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

مصطفى مشهور

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة الله وسلامه على رسوله الكريم ؛ محمد الذى أرسله إلى الناس كافة منقذاً ومصلحاً ومبشراً ونذيرا ، وأنزل عليه الكتاب الذى وصفه لمثال :

«ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين»

«وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيرا من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟»

وبعد

فإن دعوة الإخوان المسلمين هى صدى الدعوة الأولى وليست بالدعوة المستحدثة ، فهى طور من أطوار الدعوة الإسلامية ظهرت فى هذا القرن بظهور حسن البنا سنة ١٩٢٨ .. وتتأهب فى أيامنا هذه لطور جديد .

والذى بين دفتى هذا الكتاب ليس تاريخاً لهذه الدعوة ، وإنما هى جوانب منها عاصرتها وشاركت فى أحداثها وكنت جزءاً منها ... ولا أدعى أن هذه الجوانب هى كل جوانبها . ولا يستطيع أحد أن يدعى لنفسه مثل ذلك ، فى دعوة بلغت من اتساع الرقعة حداً يقصر عن الإحاطة بمداه نظر ناظر واحد – مهما قوى بصره – وتشعبت تشعباً جعل متابعته فى كل اتجاه أمراً مستحيلا ، فحسب كل ناظر أن يصف ما وقع فى مجال نظره ، وحسب كل ذى موقع فيها أن يتحدث عما مكنه موقعه من الإحاطة به..وبعد أن يصف الجميع ما رأوا ، وبعد أن يتحدث جميع ذوى المواقع فيها عما أحاطوا ، يأتى دور المؤرخين الذين يجمعون كل ما رأى الراءون وتحدث المتحدثون ليخرجوا من مجموعه بتاريخ لهذا الطور من أطوار هذه الدعوة .

والذى يتمرس بدراسة هذا الطور من الدعوة الإسلامية سيجد نفسه أمام سلسلة متداخلة الحلقات من الأحداث . وأقصد بالتداخل أنها ليست أحداثا مترادفة يتلو بعضها بعضاً ، فكلما انتهى حدث

بدأ آخر ، بل إن أكثر من حدث قد يقع في وقت واحد ، ذلك بأن هذه الدعوة تعمل في أكثر من ميدان ، وتحارب في أكثر من جبهة .. ومن هنا رأيت أن أقرر للقارئ – بادئ ذي بدء – حقيقة يجب أن أقررها هي أنني حين أكتب هذه الصفحات لن أكون مؤرخا يجمع شتات الأحداث ، ويجري وراءها حيث كانت حتى لا يفلت منه شيء ، وإنما أنا أكتب عن أحداث وقعت بين يدي وشاركت فيها .. وقد أكون خالفت هذه القاعدة في نقطتين اثنتين : أولاهما ما كتبته عن قيام الدعوة في الإسماعيلية ، وقد راعيت فيه الاختصار التام ، وقد سمعته من الأستاذ الإمام نفسه ، والأخرى بطولات الإخوان في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ، وقد أثبت في بابها أني نقلت أكثر ما كتبته عنها من كتاب الأخ الكريم الأستاذ كامل الشريف الذي كان من كبار قادتها .

* * *

وتحليل الأحداث ، وإبداء الرأي في القضايا ، أمر لا مفر منه لإنسان عاصر هذه الأحداث وباشر هذه القضايا . ولكن ليس من حقي أن أقرر أن تحليلي هو التحليل الأوحد ، وأن رأيي هو الرأي الأصوب ، فلكل إنسان أسلوب في التحليل ، ورأي فيما يعالج من قضايا .. وحسبي أني بسطت المواضيع ، وألقيت الأضواء على الظروف والملابسات ، وكشفت القناع عن كثير مما غشيه الغموض .. وهذه هي المعلومات الكافية لتغذية القوة الحاسبة في العقل البشري لتخرج لك الحكم الصحيح والرأي السديد .

* * *

وليس المقصود من تسطير ما سطرت ، ومن سرد ما أوردت ، ومن الإشارة فيما أوجزت ومن الإفاضة فيما أسهبت .. هو إمتاع القارئ بقصة طولها خمسون عاماً ، يملأ بها فراغ وقته ، ويزيد بمعلوماتها مخزون علمه ، وإنما المقصود من ذلك أن أبرز له صورة محددة المعالم للفكرة الإسلامية ، وأوضح له كيف حمل الفرد المسلم أعباء هذه الفكرة ، وكيف أخذ بها نفسه ، وكيف خاطب بها مجتمعه . وأبين له كيف تلقت المجتمعات هذه الفكرة : فمجتمع الأكثرية المغلوبة على أمرها من الفقراء والضعفاء ، تلقوها بترحاب . ومجتمع الأغنياء والمترفين والحكام تلقوها برفض وصلف . ومجتمع ذوي المصالح من المستغلين والمستعمرين تلقوها بحذر ومكر وتآمر – وأجلي له الأسلوب الذي واجه به حامل هذه الفكرة هذه المجتمعات ، والصراعات التي نشأت خلال هذه المواجهات ، وكيف اشتدت ، وكيف احتدمت ، وكيف تفاقمت ، وإلى أية نهاية انتهت .

* * *

وقراء هذه المذكرات من أبنائنا من هذا الجيل الجديد ، سيجدون أنفسهم حين يقرأونها أمام أحداث وشخصيات لا عهد لهم بأكثرها .. فهل يصرفهم ذلك عن قراءتها أم يكون ذلك حافزاً لهم

على الإقبال عليها واستيعابها ؟ .. فإذا صرفهم ذلك عن قراءتها فسيكون ذلك دليلا على ان المؤامرة العالمية ضد الدعوة الإسلامية قد تم لها النجاح ، واكتملت لها أسباب الفوز ، فإن الحلقة الأخيرة في سلسلة هذه المؤامرة هي إسدال ستار كثيف على هذه الأحداث وعلى هذه الشخصيات ، ومحاولة محوها من صفحة التاريخ ، وإذا لم يكن بد من إبراز بعضها فليكن إبرازه في صورة مقلوبة أو مشوهة على الأقل .. ذلك أن مدبرى المؤامرة العالمية حريصون كل الحرص على أن لا يعرف هذا الجيل والأجيال التي تليه أن هذه الأحداث هي التي صنعت التاريخ الذى يعيشونه .

* * *

ومن نافلة القول أن نقول : إن شعباً يجهل حقيقة ماضيه محال أن يتطلع إلى مستقبل مشرق . والمعلومات التاريخية لا تؤخذ عن الطريق الرسمى ، لأن حرص الحكام على استبقاء أزمة السلطة في أيديهم وفى أيدى شيعتهم من بعدهم ، يدفعهم عادة إلى صياغة التاريخ بالأسلوب الذى يحقق أمانيهم ويظهرهم فى أعلى قمم العدالة ، ويظهر منافسيهم فى أدنى درك من الخسة والنذالة .. وهم لا يقتصرون في الصياغة على تزوير الأحداث التى تجرى فى أيامهم فحسب ، بل تمتد أيديهم إلى الأحداث التى سبقتهم فيعملون فيها المسخ والتزوير . ولو ادارك علمهم فى أحداث المستقبل لزوروها لحسابهم..ولكنهم مع قصور علمهم بأحداث المستقبل يثقون فى أنهم مسيطرون عليها بما زوروا من أحداث أيامهم وأحداث سابقيهم ؛ فعقول الجيل التى صيغت بالمعلومات المزورة ، ولقنت عليها وملئت بها لن تبنى مستقبلها إلا على ضوء ما ملئت به من زيف وتزوير ..

ومن هنا كان الخطر الداهم والكارثة المروعة .. ومكمن الخطر والترويع فى ذلك أن هذا الجيل حين يتجه بمستقبل بلاده إلى الهاوية – إكمالا للخط الذى رسم له فى ماضيه وحاضره – يتجه واهما أنه متجه إلى الأمن والسلامة ؛ فهو لا يلتفت إلى محذر ، ولا يستمع إلى ناصح .. وأمثال هؤلاء أنبأنا القرآن عنهم وحذر من خطورة انحدارهم إلى الهاوية وهم غافلون فقال «قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالا ؟ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً» .

وإذا كان الله عز وجل قد تكفل لكلمة الحق أن لا تطفأ شعلتها وأن لا يخبو ضوؤها ، فهذا شأنه سبحانه وهذه مشيئته .. أما أن يكشف معصوبو العيون العصائب عن أعينهم ليروا هذه الكلمة فهذا شأن آخر تركه سبحانه لعباده إن شاءوا رفعوها فرأوا ، وإن شاءوا أبقوا عليها وتشبثوا بها فظلوا فى ضلالهم سادرين «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» وقد رتب على هذا التخيير الثواب

والعقاب وحدد يوماً للحساب «إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها» كما تحيط العصابة – التى يتشبثون بها – بأعينهم فتحاصرها عن رؤية الحق وهم بذلك راضون وعن الحق ناكبون .

* * *

ومما ينبغى أن يعلمه القارئ أن هذه الدعوة .. على مكانتها بين دعوات العالم ، ومع صراعها مع الظلم والطغيان فى الداخل والخارج طيلة خمسين عاماً – فإنها لم تعن بجانب التسجيل عناية كافية. ولقد لا يحس بخلوها من هذه الناحية الهامة إلا من عرض نفسه – مثلى – لتسجيل أحداثها ..

ولقد يعزى ذلك إلى أن هذه الدعوة قد تملكت من أول يوم أفئدة من آمنوا بها وعاهدوا على العمل لها ، بحيث لم تدع لأحد منهم فرصة يخلو فيها إلى نفسه ، أو يخلد فيها إلى راحته ، فهو دائب الحركة ، يواصل الليل بالنهار ، متنقلا بين المجتمعات ، غارقاً فى محادثات ومناقشات ، عاكفاً على إعداد خطط ومناهج .. حتى إذا أوى إلى فراشه منهكاً لا تكتحل عيناه بنوم حتى تجتر مخيلته ما عاناه طول يومه من حقوق الدعوة عليه .. ويصحو من نومه حين يصحو على ما أوى إلى فراشه عليه من التفكير فى الدعوة وحقوق اليوم الجديد ، فهو فى سباق مع الزمن ، لا يفرغ لحظة من ليل أو نهار .. فأنى لهؤلاء أن يسجلوا ؟!

ثم كانت أحداث جسام ، وظلمات طال ليلها ،ولهرو كبت وتعذيب وإعنات .. طال الأمد على الكلمة المسجونة فى أغوار الذاكرة أكثر من عشرين عاماً ، حتى بات استخراجها منها أمراً عسيرا.واختلطت الكلمات فى سجنها بعضها ببعض بفعل الزمن حتى لم يعد صاحب الذاكرة يعرف أيها السابق وأيها اللاحق ، وتداخلت التواريخ ، وأصبح صاحب الذاكرة على خطر عظيم .

* * *

هذه حقائق مرة واجهتها فى أول يوم أمسكت فيه بالقلم لأسجل أحداثا لهذه الدعوة عاصرتها وشهدتها وساهمت فى الكثير منها .. وجدت مخزون ذاكرتى على ما صورت . وحاولت الرجوع فى شأن هذه الأحداث إلى مرجع فوجدت الساحة خاوية الوفاض .. أغفل الإخوان فى غمرة تفانيهم فى دعوتهم أن يولوا ناحية التسجيل أدنى اهتمام .. ثم أتت يد الإثم والعدوان من عربدة الحكام على الوثائق والمحررات والصحف والمجلات فى كل مكان خاص وعام ، فلم يبق شئ يرجع إليه أو يعتمد عليه .. حتى المكتبات العامة جردوها من كل ما يمت إلى هذه الدعوة بصلة .

وبالرغم من طول الأمد ، وترادف الأرزاء ، وانقطاع الصلات ، فإن الأحداث التى عاصرتها لم تند عن خاطرى لأنها كانت فلذة من كبدى ، وقطعة من ذات نفسى ، وجزءاً من

أعصابي ودمي ، فكيف أنساها ؟ .. ولكن الذي أعياني هو الترتيب الزمني لبعض هذه الأحداث وهو أمر جوهري لا غنى عنه لمن أراد يسجل أحداثاً .

ولم أجد أمامي إلا مراجعة الصحف اليومية التي صدرت في خلال أربعين عاماً مضت .. ولقد عكفت على مراجعة هذه الصحف ردحاً طويلا من الزمن ، فوجدت فيها طلبتي في الترتيب الزمني لما في خاطري من أحداث .. ولقد أفدت من مراجعتي هذه الصحف فائدتين ، أولاهما ترتيب الأحداث كما أسلفت ، والأخرى نصوص بعض المذكرات والخطابات ..

ومما يدل على أن جانب التسجيل لم ينل حظه في دعوة الإخوان المسلمين ظهور كتاب في هذه الأيام يضم «مذكرات الدعوة والداعية» للأستاذ الإمام حسن البنا رحمه الله ، فقد جاءت هذه المذكرات برهانا قاطعاً على إغفال هذه الناحية الهامة ، فلم يسجل في هذه المذكرات عشر معشار ما مر بصاحبها من أحداث . ولم يكن – رضى الله عنه – عاجزا عن تسجيلها وتحليلها ولكن شكلة شاءت الأقدار .

وهذا الفراغ في ميدان التسجيل الذي رأيت دعوة الإسلام في هذا القرن تعانيه هو الذي دفعني إلى النهوض بهذا الواجب ملأ لجزء من هذا الفراغ ، وأداء لحق هذه الدعوة علي ، وإعذاراً إلى الله في حق هذا الجيل والأجيال القادمة .

* * * *

ولقد تعرضت في هذه المذكرات لمعالجة نقاط ذات حساسية بالغة ، وربما تحاشى الكثيرون التعرض لها ، وحاولوا تفاديها . ولكنني آثرت التعرض لها مدفوعاً إلى ذلك بدوافع منها : أن هذه النقاط – مهما بلغت درجة حساسيتها – هي جزء من تاريخ هذه الدعوة ، وكان لها آثار عميقة في هذا التاريخ . وما كان ينبغي لعارض أحداث تاريخ أن يغفل جزءاً منه استحياء من ذكره أو طمساً لمعالمه ، أو إهالة التراب عليه حتى لا يراه الناس .. والتاريخ – كما يقولون – لا يرحم . فإذا تعامى عنه أصحابه وأغفلوه فسيتولى نشره غيرهم .. وحينئذ لا يلام الناشرون إذا هم نشروه مشوها أو محرفاً .

ومن هذه الدوافع أنني كنت أكثر الناس ملابسة لهذه النقاط ، وأشدهم اتصالا بها ، وأقربهم رؤية لحقائقها ، فكان لزاماً علي أن أتعرض لها لأكشف النقاب عن كثير مما غاب عن الرائين من بعد من ملابساتها ، وأن أميط اللثام عما خفي من ظروفها وبواعثها ، وأن أقضي حق التاريخ في تمحيصها وتجليتها .

ودافع ثالث هو أن ألفت النظر – نظر أصحاب الدعوات وأتباعها من الأجيال القائمة والأجيال القادمة – إلى أن إطلاق العنان للعواطف – مهما نبلت هذه العواطف ومهما حسن مقصدها – قد يجنى على الدعوات ومجتمعاتها .وأن السبيل الأقوم دائما فيما يتصل بالمجتمعات هو الاقتصاد فى العواطف والسيطرة عليها والحد من انطلاقها.

كما ألفت نظر القائمين على شئون الدعوات الشريفة إلى أن تملق نفوسهم بأبهة المناصب فيها، ومحاولة الاستئثار بمواقع السلطة والنفوذ بها ، قد يكون عاملا مدمراً لهم ولها..وأن هذه الدعوات لا يصلح لها إلا من يهبها قلبه كله ووجدانه كله .. أما الذين يتذبذبون بين نداء دعوتهم ونداء مصالحهم الشخصية أو العائلية ، فسرعان ما تشدهم الجاذبية الأرضية بمغرياتها فيهوون إلى القرار «واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه» .

ولما كانت الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ، لم تأت لتخاطب طائفة معينة ، ولا لتتعامل لفئة محدودة ، ولا لتعالج قضايا زمن خاص أو مكان محدد، لقد كان عليها أن يكون كتابها منشوراً لا يخفى صغيرة ولا كبيرة دون أن يبرزها بين يدى العالم كله .. فلا حجب ولا أسرار ، ولا خصوصيات يحتفظ بها وراء أستار .. ولقد تعرض القرآن الكريم نفسه لأحداث هى من أخص خصوصيات محمد صلى الله عليه وسلم وأسرته ، قد يتحاشى الكثيرون إذا وقع لهم مثلها أن يسمحوا بذكرها بل يحاولون إخفاءها حتى لا يطلع عليها الناس .. ولكن القرآن تناولها فى آياته التى تتلى ليل نهار ، وعلى ملأ الدنيا كلها ، وعلى مر الزمن فى كل مكان .. تناولها لا بمجرد الإيماء والإشارة العابرة ، بل تناولها بالبسط والإسهاب وبالتحليل والتفصيل والتعقيب ، وخرج منها بقواعد عامة تنتفع بها المجتمعات .. وما نبأ حادثة الإفك ببعيد .

* * * *

وقد يكون من حق القارئ أن أعتذر إليه فيما قد يلاحظه فى الصفحات الأولى من هذه المذكرات من أسلوب هو أقرب إلى الهدوء منه إلى الإثارة ... ذلك أننى .. كما قدمت – لست أتخير موضوعات لمجرد الإمتاع ، وإنما أنا ملتزم بالتمشى مع هذه الدعوة فى أطوارها . فإذا كانت الدعوة فى مهدها لا تزال تخطو حابية وليدة – كدأب كل كائن وليد – فما كان لى أن أنتحل لهذا الوليد ما ليس من طبيعته وما هو فوق طاقته .

وعلى القارئ أن يوطن نفسه على أن الذى بين يديه فى هذه المذكرات تاريخ حياة لا قصة من نسج الخيال. ولكل طور من أطوار الحياة سمات وخصائص ، فلا يتعجل ما ينشد من أحداث مثيرة ، فإن الوليد الذى تضرب فوقه الكلل ، وتسدل من حوله الستائر ، لن يلبث حين يشب أن ينبثق عنه فارس مغوار يأتى بالعجب العجاب ، ويأخذ بالقلوب والألباب .

* * * *

وهناك قضية جديرة أن يضعها القارئ موضع التمحيص والمناقشة ؛ هى أن يجنح كاتب المذكرات فى ثنايا تسجيله لأحداث الدعوة ومواقفها إلى تناول بعض جوانب حياته ومعالم شخصيته.. فهل فى هذا ما يعد خروجا عن الموضوع ، وانتقالا بالقارئ من ميدان هيأ نفسه وفكره لاستطلاعه إلى ميدان آخر لا يعنيه أمره ؟.

أما أنا فأعتقد أن هذا الأسلوب هو الأسلوب الأمثل فى كتابة المذكرات بل وفى تأليف الكتب عامة ، فإن القارئ حين يقرأ كتابا لا يعرف عن مؤلفه إلا اسمه ، يكون كالغريب الذى يرتاد مدينة واسعة الأرجاء ، مترامية الأطراف ، لا عهد له بها ، دون دليل معه من أهلها . فقد يضرب فى شوارعها وحاراتها وأزقتها على غير هدى ، وقد يرى من معالمها ما تقع عليه عيناه ، وقد يأوى فى النهاية إلى مأوى فيها .. لكنه فى ذلك كله لا يشعر بألفة ولا بائتناس ، ولا يخرج بصورة واضحة عنها – أو يكون الذى يتخبط طريقه فى الظلام بغير مصباح يكشف له معالمه ، ويدخل الاطمئنان إلى نفسه ، فهو يخطو ما يخطو متوجسا خائفاً .

فتقديم المؤلف نفسه إلى قارئه ، وكشفه له عن بعض جوانب نفسه ، وإلقاء الضوء بين يديه عن شيء من معالم حياته .. يدخل الأنس إلى نفس القارئ ، ويبعث روح الألفة بينه وبينه ، فيسير فى قراءة الكتاب وقد عقد مع المؤلف صداقة أتاحت لهما أن يكونا متلازمين فى رحلة طولها طول الكتاب .. وكلما قرأ عن موقف أو حدث أو فكرة قرأها وهو يرى جذورها التى نبتت منها وبذورها التى انفلقت عنها . فلا تكون القراءة فى هذه الحالة قراءة سطحية لا يصل أثرها إلى أعماق النفس .

ثم إن حياة الدعوات ليست إلا حياة رجالها ودعاتها . والفصل بين حياتهم وحياتها أمر غير مستطاع لا سيما إذا كانت الدعوة قد شكلت حياتهم ، وسيطرت على كل تصرفاتهم حتى لتواليها فصاروا وإياها كما قال الشاعر :

وما زلت إياها وإياى لم تزل ... ولا فرق بل ذاتى لذاتى احبت

وموقى بها وجداً حياة هنيئة ... وإن لم أمت فى الحب عشت بغصة

فكيف إذن نفصل بين حياة الدعوة وحياة دعاتها ؟ .. وإذا تجردت حياة الدعوة من حياة دعاتها صارت مجرد فكرة مجالها الدراسة العلمية الفلسفية ، وانقطعت صلتها بواقع الحياة .

• • • •

وتقع هذه المذكرات بطبيعة موضوعها فى ثلاثة أجزاء . يعالج الجزء الأول منها الدعوة فى عهد المرشد الأول ، ويعالج الجزء الثالث منها الدعوة فى عهد المرشد الثانى .ويعالج الجزء الثانى الدعوة فيما بين العهدين

ولما شرعت فى تبويب الجزء الأول لاحظت أن أطوار الدعوة فيه مرتبطة بالأمكنة التى شغلها المركز العام فى خلال تلك الحقبة من الزمن ، فعنونت كل باب منها بعنوان من عناوين المركز العام فجاءت بذلك أربعة أبواب .

ولقد وطأت للمذكرات بمدخل قدمت فيه نفسى إلى القارئ ، وأومأت إلى تأثير نشأتى فى اتجاهى الذى انتهى بى إلى دعوة الإخوان المسلمين ، والطريق الذى سلكته إليها .

• • • •

على أنى وقد طرقت باب التسجيل فى دعوة الإخوان المسلمين ، لا أدعى أنى ألممت بكل شئ . وحتى القليل الذى ألممت به لا أدعى أنى أوفيت فيه على الغاية .. ولكنه جهد المقل .. وحسبى أن تحسست الطريق وارتدته لمن يرغب فى سلوكه من بعدى .

• • • •

والله تعالى أسأل أن يجعل هذا المجهود لوجهه ، وأن يتقبله فيما يتقبل من العمل الصالح ، وأن يرفعه وينفع به ، إنه أكرم مسئول وأعظم مأمول ، وإنه نعم المولى ونعم النصير .

محمود محمد عبد الحليم

الاسكندرية فى ٥ من شهر ربيع الأول ١٣٩٨
١٢ من فبراير ١٩٧٨

المدخل

إلى متى تمضي بنا الأيام والسنون وعامل التسويف هو العامل المتصرف فى حياتنا وأعمالنا ؛ فنفكر ثم نعزم ثم يقوم عامل ما فنؤجل . وتمضي الأيام سراعاً – وليتها تمضي مليئة بالعمل – ثم نتذكر فنفكر ونعزم ثم يكون التأجيل ... وماهو العمر حتى يتسع لعشرات من هذه الدورات التى لا نكاد تنتهى حتى نبدأ ؟ !..

وقد لا يكون موضوع التفكير والعزم مثيراً وهاماً لأن أصحابه لم ينتهوا إلى النهاية المثيرة التى تستحق الإعجاب وتثير الاشتياق ؛ إلا أن الحكم بمجرد النهاية قد يكون حكماً قاصراً وظالماً ، فقد يكون استعراض سلسلة الأحداث مما يغير رأى الذين لاينظرون إلا إلى النهايات وحدها .... ثم إن اعتبار الهزيمة نهاية أمر فيه نظر ، فانهزام الأشخاص فى حياة الدعوات لايعدو أن يكون أمراً عارضاً وإن هو إلا طور من أطوارها ؛ كالبذرة التى يعتبر دفنها واختفاؤها تحت التراب زمناً حتى تطأها أقدام الغافلين طوراً من أطوار حياتها لا تستقيم حياتها إلا به .... وهذه ظاهرة فيما أعتقد وأعلم تلازم كل الدعوات على اختلاف أهدافها وأفكارها .. وقد اعتبرها الإسلام سنة لم يستثن نفسه منها ؛ فتاريخ الدعوة الإسلامية منذ بزغ نوره تتنابه هذه السنة ... فصباحه بين التبلج والخفوت حتى يظن أنه أنطفأ .

وإذا كان لكل شئ عدو من جنسه ، فالدعوة التى تقوم على فكرة اقتصادية تنبرى لها فكرة اقتصادية أخرى همها الانتصار عليها غير مبالية بما سواها من دعوات تقوم على أفكار أخرى والدعوة القائمة على فكرة اجتماعية تنبرى لها فكرة اجتماعية أخرى همها دحرها واحتلال مكانها ، وهكذا تتبع كل فكرة الفكرة التى من جنسها حتى تقضى عليها وتحل محلها ... فالدعوة الإسلامية بشمولها نواحى الحياة جميعاً من عقيدة إلى اقتصاد إلى اجتماع إلى سياسة إلى لغة إلى عادات ..... قد جرت عليها طبيعة الشمول هذه الأعداء من كل جانب ومن كل اتجاه...وبذلك كانت محاولات القضاء عليها ومحوها من الوجود أمراً لا مفر منه لولا استنادها إلى عنصر خلت منه كل الدعوات وهو ركونها إلى ركن شديد من تكفل الله جلت قدرته لها بالنصر « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون » (١٧١ – ١٧٣ الصافات)

ولقد برزت على طول الزمن أفكار ودعوات تألقت حيناً ثم خفتت ثم اختفت من الوجود وحل محلها أفكار أخرى مناقضة لها نصدت لها وظلت تطاردها حتى قضت عليها إلى الأبد ، حتى

صارت مجرد ومضة برقت فى التاريخ ومضت مضى البرق الذى لا رجعة له، ثم تصدت هذه أيضاً فكرة أخرى فعلت بها ما فعلت هى بسابقتها وهكذا حتى صار الجميع مجرد حديث يرويه التاريخ ولا أثر له فى الوجود ... أما الدعوة الإسلامية بأفكارها وأهدافها ووسائلها فانها لم تكن بمثابة ومضة البرق التى تضىء فتبهر ثم تختفى إلى غير رجعة ، بل إنها كانت بمثابة الشمس التى أشرقت فأخرجت العالم من ظلام الليل إلى وضح النهار ، ثم اعتورتها سحب منها الخفيف ومنها الكثيف فكانت تحجب من ضوئها بقدر كثافتها حتى خيل إلى بعض المغرورين أنهم استطاعوا أن يستأصلوا شأفة الشمس مضالين من حولهم بكثافة السحب ... ثم لم تلبث هذه السحب الكثيفة أن انجابت فبرزت الشمس ساطعة كما كانت وذهبت السحب إلى غير رجعة « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين . واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون . وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين » (٣٨ القصص) « ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاديبين. فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين . فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلا للآخرين » (من ٥١-٥٦ الزخرف)

وهكذا نقرأ التاريخ فتبدو لك شمس الدعوة الإسلامية ساطعة ثم يخبو ضوؤها حيناً - مهما طال ذلك الحين - وراء سحب من المؤامرات التى تحاك لها من داخلها أو من خارجها ، ثم لا تلبث هذه السحب - مهما ادلهم ظلامها - أن تنجلى لتبرز لك شمس الدعوة الإسلامية متألقة كما كانت . ولعل هذا مصداق قول صاحب هذه الدعوة إذ يقول « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » (٣٢ التوبة) وقوله « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (٩ الحجر).

والدوافع وراء المؤامرات التى تدبر للدعوة الإسلامية تنحصر عادة وتنبع دائماً من حب السيطرة الذى يستولى على نفوس بعض الحكام سواء أكانوا من المنتسبين إلى الإسلام بحكم مولدهم أم كانوا من غير المسلمين ، يجد هؤلاء فى الدعوة الإسلامية العقبة الكبرى أمام تحقيق مطامعهم فى السيطرة لأن الإسلام بطبيعته ما جاء إلا لتحرير الانسان والقضاء على الاستبداد والاستعباد لغير الله.

ولتوضيح ذلك يجمل بنا ونحن فى مستهل الحديث عن طور من أطوار الدعوة الإسلامية أن نحاول تصوير هذه الدعوة تصويراً مجملا ، مبرزين الخطوط العريضة المكونة لهيكلها فنجدها ثلاثة هى : أولا : العقيدة ثانيا : العبادة ثالثا : المعاملة

أولا : العقيدة :

هى حجر الأساس وهى الركيزه العظمى التى لا قيام للدعوة الإسلامية إلا عليها ، كما لا قيام لأية دعوة إلا عليها ... ولكل دعوة سواء أكانت ديناً سماوياأو وضعيا عقيدة.وعلى قدر سلامة العقيدة ينجح العمل المبنى عليها...ونقصد بسلامة العقيدة ،موافقتهاللفطرةللعقل والمنطق،ومجافاتها للأوهام والتعقيد ، وتجاوبها مع الفطرة السليمة .

وعقيدة الاسلام لله وحده،هى هىمانزلوما دعا إليهكلنبىورسول سبقنبينا الكريم،فهىنفس عقيدة المسيح عيسى وعقيدة موسىوعقيدة إبراهيم« قل آمنا بالله وما أنزل عليناوما أنزل على إبراهيم واسماعيل وإسحقويعقوبوالأسباط وما أوتىموسىوعيسىوالنبيونمنربهم لا نفرقبينأحدمنهمونحن له مسلمون » (٨٤ آل عمران) إلا أن أطماع الدنيا وتسلطها على نفوس من آلت إليهم أمور الإفتاء فى شئون الدين بعد الأنبياء فعلت فعلها فجعلت من هؤلاء الورثة أداة طيعة فى أيدى المستبدين من الحكام فحرفوا فى كتبهم وأخفوا منها وزادوا عليها حتى يستقر الأمر لهؤلاء الطغاة من الحكام « وقطعناهم فى الارض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون . فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون » (١٦٨-١٦٩ الأعراف)

وكيف يستطيع حاكم مستبد أن يحكم قوماً وفى أعماق كل رجل منهم وامرأة وطفل مناد يهتف بهم فى كل وقت من ليل أو نهار أن لا خضوع إلا لله وأن لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق وأن لا خوف إلا من الله وأن لا فضل إلا من عند الله « قل أغير الله أبغى رباً وهو كل شئ » (١٦٤ الأنعام) . « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شئ قدير » (الأنعام ١٧) . « قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم » (الأنعام ١٤) . « أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه » (الزمر ٣٦) . « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم.

إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » (آل عمران ١٧٣-١٧٥)

والعداء بين الطغاة من الحكام وبين العقيدة الإسلامية مستحكم من قديم ، فهذا الحاكم المستبد الذى أحس خطورة هذه العقيدة على استبداده فاستدعى « إبراهيم » عليه السلام وهو فى غرور سلطته وأدار معه حواراً على النحو الذى ورد فى الآيه الكريمة « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين » (البقرة ٢٥٨) وينهزم الحاكم المستبد حين يدخل مع العقيدة الإسلامية فى الحوار فيطيش صوابه ولا يجد فى جعبته إلا البطش والإرهاب فيأمر بإحراق صاحب هذه العقيدة لعلها تحترق باحتراقه وتبيد ويستريح منها ولا يجد أمام استبداده عائقاً يقف فى وجهه « وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون » (العنكبوت ١٧) « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون . وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ومالكم من ناصرين » (العنكبوت ٢٤ ، ٢٥) .

والجلادون فى كل عهد من عهود الاستبداد هم يد الطاغية التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وعينه التى ينظر بها وأذنه التى يسمع بها ، ولولاهم لما قامت لمستبد قائمة ، ولا تلطخت صفحات التاريخ بين الحين والحين بأقذار الطغيان . ولذا نجد القرآن لا يوجه الإنذار للطاغية وحده بل يخاطب معه حاشيته وزبانيته فيقول : « ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون » (الزخرف ٣٩) . « ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » (غافر ٤٦) . « إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار » (البقرة ١٦٦ - ١٦٧) . « وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا » (الأحزاب ٦٧-٦٨) . « قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون » (الأعراف ٣٨) .

والقارئ للقرآن حين يقرأ قصة موسى وفرعون ويرى القرآن يقلبها بين صفحاته وفى ثنايا سوره على كل وجه من وجوهها ليبرز من معانى الظلم والاستبداد ومن ألوان الزهو والكبر والغرور من فرعون وحاشيته ومن أفانين الاضطهاد والتعذيب وأصناف التنكيل والإبادة الموجهة إلى العقيدة الإسلامية التى كان يحملها فى ذلك الوقت قلة من بنى إسرائيل ... هذا القارئ سيبين له لماذا يكن الملوك المستبدون والحكام الطغاة الكراهية لهذا الكتاب ولماذا يحيكون ضده المؤامرات فهو يؤجج ثورة عارمة ضد كل مستبد ظالم « طسم . تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » (القصص ١-٦) .

ورسالة موسى رسالة واضحة صريحة ، لا تخرج عن كونها دعوة لإنقاذ شعب اضطهده حاكم مستبد لا لشئ إلا لأنه مستمسك بعقيدته التى تتعارض وطغيان هذا الحاكم « فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل » (الشعراء ١٦-١٧) . ويحس فرعون من موسى قوة وصلابة فيحاول استمالته فيقول له « ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين » (الشعراء ١٨-١٩) ... وقد يلين الرجل إذا ذكر بهذا الفضل الذى لا يجحد فى كل موقف إلا فى موقف واحد هو موقف يتعلق بالعقيدة التى لا مساومة عليها فيرد عليه موسى فيقول « فعلتها إذن وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكماً وجعلنى من المرسلين » (الشعراء ٢٠-٢١) ثم يقرر موسى مبدأ خطيراً بأن استعباد الناس جريمة يذهب مع فظاعتها كل فضل أتاه المستبد فيقول « وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل » (الشعراء ٢٢) .

ويأخذ الطاغية فى أسلوب يحاول به إخفاء صورة طغيانه فيفعل ما فعل طاغية إبراهيم إذ يدخل معه فى حوار « قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون » (الشعراء ٢٣-٢٨) وهنا يفحم الطاغية كما أفحم أخ له من قبل فيفقد صوابه حين رأى نفسه أمام حجج لا قبل له بمكابرتها فيكشر عن أنيابه « قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين » (الشعراء ٢٩)

ولسنا بصدد السير مع قصة موسى وفرعون بكل الوجوه التى قلبها القرآن ، فإن ذلك مجال جد فسيح ، وإنما قصدنا إلى إيراد وجه من هذه الوجوه لندرك منه مدى خطورة هذه العقيدة على طموح المستبدين وآمال الطغاة الظالمين ، وكيف أن هذا الكتاب بما جاء به من عقيدة هو تحد قائم لا ينثنى وسيف مصلت لا ينثلم حده فى وجه الطغيان والاستبداد .

ثانيا : العبادة :

لا شك فى أن العبادة وليدة العقيدة ، وكل عبادة ليست وليدة عقيدة إنما هى نوع من النفاق لأن العبادة هى أقوى مظاهر الاعتراف بالفضل ، ومظاهر الاعتراف بالفضل كثيرة متنوعة ، ولكن قمة هذه الأنواع الاعتراف بالعبودية لصاحب الفضل . ويحث الإسلام الناس على الاعتراف بالفضل للمخلوقين بجميع مظاهر الاعتراف إلا بمظهر العبودية الذى حرمه على الناس إلا لله وحده وجعل الاعتراف بمظهر العبودية لغير الله شركا لا يغفره الله « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً » (النساء ٤٨) .

والمقصود من العبادة أولا أن يرى الله تعالى من عباده مدى امتثالهم لأمره . والامتثال هو نوع من الطاعة إلا أنه أعلى درجاتها ؛ فإذا كانت الطاعة هى تنفيذ الأمر فيما يسيغه العقل ويسلم به المنطق فإن الامتثال هو الصدوع بالأمر لمجرد أنه أمر ، وكل مبرراته الثقة الكاملة فى الذى أصدره . فإذا أمرنا الله تعالى بخمس صلوات فى اليوم والليلة فى مواقيت محددة وكل منها ركعات محددة فإن هذا التوقيت وهذا التحديد إذا عرضا على العقل والمنطق لم يجدا لهما تعليلا ولا تبريراً ؛ فالتزامك بأداء هذه الصلوات بهذا التوقيت وهذا التحديد هو امتثال لأمر الله لأنك تؤديها لمجرد أنه أمر من الله عز وجل الذى آمنت به من قبل عن طريق العقل والمنطق .. وفى الامتثال معنى العبودية الكاملة التى أرادها الله حيث يقول «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» (الذاريات ٥٦).

والمقصود الآخر من العبادة هو أن تكون وسيلة للتعرف على الله والتقرب إليه واستمداد العون منه باعتباره سبحانه هو وحده القادر الوهاب الفعال لما يريد .. وإذا كانت الحياة الدنيا بشرورها وغرورها مسلطة على قلب الإنسان. وإذا كان الإنسان بطبيعته لا يقوى على مدافعة هذه الشرور وهذا الغرور وقد قال الله تعالى فى شأن الإنسان «يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا» (النساء ٢٨) فما كان أحوجه إلى ركن شديد يأوى إليه وإلى سند منيع يفزع إليه ؛ فكان من فضل الله على عباده أن أتاح لهم فرصاً للفزع إليه والاستمداد منه ؛ فشرع لهم العبادة

صلة بينهم وبينه وباباً يهرعون إليه كلما حزبهم أمر أو قست عليهم نوائب الحياة «ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إنى لكم منه نذير مبين » (الذاريات ٥٠ – ٥١) . «ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون » (العنكبوت ٥٦) ... ولذا فإن المؤمن لا يتطرق اليأس إلى قلبه مهما ادلهمت عليه الخطوب وأظلمت فى وجهه سبل الحياة... وكيف يجد اليأس سبيلا إلى قلبه وهو يسمع واهب الحياة ومدبر الأمر وصاحب الملك كله يناديه فيقول «ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » (الأعراف ١٥٦) . ويقول «ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون» (يونس ٥٧ – ٥٨) . ويقول «وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فأستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين » (الأنبياء ٨٧–٨٨) .

والعبادة تلعب الدور الأكبر فى تكوين الأمة ؛ لأنها تكون الفرد وتصقل روحه وتصفى قلبه وتزكى نفسه وتغسل بما فيها من مناجاة الله صدره . فهو بها دائم التذكر لربه دائم الخوف من عذابه ، دائم الشوق إلى جنته ، يرى الجنة دائماً عن يمينه والنار عن شماله ؛ومثل هذا لايصدر منه إلا فضائل الأعمال ... وما الأمة إلا مجموعة من الأفراد «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» (آل عمران ١١٠).

والفرد المسلم فى هذه الحالة لا يندفع إلى قول أو عمل إلا من صميم قلبه لا من آمال تتعلق بمتاع الدنيا ، وكلما شدته الدنيا إلى متاعها ، وجرته إلى مغرياتها ، وحاولت تلويثه ببهرجها ، وكادت تغمسه فى فتنتها ؛ سمع المؤذن ينادى إلى الصلاة فكان الأذان منبهاً له من غفلته فيترك ما هو فيه من شأن ويجيب النداء فيتوضأ ويقف بين يدى ربه فيذكر الله بلسانه فينبه لسانه قلبه ثم يستعرض فى صلاته عظمة ربه وجلال فضله وشدة عذابه وواسع مغفرته ومدى رقابة الله عليه ومدى احتياجه إلى عونه فيخرج من الصلاة خلقاً آخر كأنما اغتسل من قذر ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول «أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهراً يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يترك ذلك من درنه شيئاً ؟ قالوا لا قال ذلك مثل الصلوات الخمس» وكما يقول الله تعالى فى الزكاة «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها» (التوبة ١٠٢) . وكما يقول فى الصيام «يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » (البقرة ١٨٣) . ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحج «من حج فلم يفسق ولم يرفث رجع كيوم ولدته أمه»

والأمة التى يتجه زعماؤها وحكامها فى تربيتها إلى غير هذا الطريق إنما هى أمة تائهة ؛ لأن القوانين – مهما تضمنت من عقوبة – لا تردع الفرد متى استطاع التهرب من طائلتها فإن حراس القانون لايستطيعون مراقبة كل فرد فى كل وقت وفى كل مكان . فإذا لم يكن للفرد رقابة على نفسه من نفسه فهيهات أن تجدى القوانين ... وهذه الرقابة النفسية إنما هى الأثر المباشر للعقيدة والعبادة . فالعقيدة تزرعها فى النفس والعبادة تتعهدها فترويها وتنميها وإلى ذلك يشير قوله تعالى « وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون عن عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » (يونس ٦١).

والتهرب من القانون وحراسه أمر سهل وميسور ، أما التهرب من الله عز وجل فأمر غير مستطاع ولذا فإن القرآن قدجعل الإيمان باليوم الآخر شرطاً لا يقوم الإيمان إلا به ، فنى فاتحة الكتاب التى يرددها المسلم كل يوم سبع عشرة مرة فى صلاته يقول «الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم مالك يوم الدين » ويوم الدين هو يوم الحساب .. وفى أول سورة البقرة جعل أول وصف للمتقين الإيمان بالغيب وهو الحساب والجنة والنار « ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب » وأشار القرآن الكريم إلى أن انفراط العقد وحبوط العمل إنما سببه ومرده عدم الايمان بلقاء الله حيث يقول « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذينهم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون» (يونس ٧–٨).

والأمة الإسلامية التى تربت على هذه الأسس أثمرت فيها هذه التربية ثمراً ستظل روعته مضرب المثل فى التاريخ ؛ وحسبنا أن نذكر مثالين وأنموذجين : فهذا «ماعز» وقد زل فأتى خطيئة لم يره أحد حين أتاها ولم يعلم بها أحد ويعرف فظاعة عقوبتها ويعرف أنه أصبح بمنجى من هذه العقوبة لكنه مع ذلك نراه يذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول له يارسول الله : لقد زنيت . فيحاول رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصرفه عن هذا الاعتراف فيقول له : لعلك قبلت فيقول : لا لقد زنيت حتى يقول له : لعلك فاخذت فيقول : لا لقد زنيت ويصر على قوله ويطلب تنفيذ الحد عليه فيأمر رسول الله به فيرجم بالحجارة حتى يموت . فيصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرى من عمر تخلفاً عن الصلاة عليه بدعوى أنه زان ؛ فيغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول « لقد تاب والله توبة لووزعت على أهل الأرض لوسعتهم» .

وفى موقعة القادسية لما دخل المسلمون إيوان كسرى وزالت بذلك دولة الفرس وأرسلت الغنائم إلى المدينة ووزعت الغنائم كما شرع الله ولم يعد أحد يشك فى أن كل ماغنم لله سلم إلى بيت المال ؛ تقدم جندى من جنود الموقعة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وسلمه أثمن ما كان يملكه كسرى ؛ سيفه ومنطقته وزبرجدته. فنظر إليها عمر وقال قولته المشهورة «إن قوماً أدوا هذا ولم يستأثروا به لذوو أمانة».

ثالثا : المعاملة :

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «الدين المعاملة».وما من دين أنزله الله وما من نبىأرسله إلا وهو يدعو إلى حسن المعاملة بين الناس بعضهم مع بعض . ولكن الدعوة إلى حسن المعاملة كانت فى كل ما سبق الدعوة المحمدية دعوة مجملة أو مركزة فى ناحية واحدة ؛ فدعوة هود كانت مركزة فى النهى عن التطاول فى البنيان وفى الاقتصاد فى البطش والجبروت .. ودعوة صالح كانت مركزة فى النهى عن الرفاهة وفى الدعوة إلى العدالة فى اقتسام مياه الرى ... ودعوة لوط كانت مركزة فى النهى عن إتيان الفاحشة... ودعوة شعيب كانت مركزة فى النهى عن الغش فى الكيل والميزان ... وهكذا حتى بلغت الإنسانية رشدها فبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالرسالة الخاتمة وبالكتاب الكامل الشامل فوضع لكل نوع من أنواع التعامل بين الناس حدوداً مفصلة وقوانين محددة ؛ فوضع أسس تكوين الأسرة كما حدد حقوق الفرد نحو مجتمعه وحقوق مجتمعه عليه ، فعلاقة البيع والشراء والعلاقات التجارية والزراعية وحقوق المال وحقوق العمل كما نص على عقوبات الجنايات ... وحسبك أن تعلم أن أطول آية فى كتاب الله إنما نزلت فى معالجة موضوع الديون وكيفية كتابة وثائقها وهى الآية ٢٨٢ من سورة البقرة .

فالإسلام نظام كامل شامل لإدارة الدنيا فى جميع شئونها ونواحيها ، ولا يصلح أن يقتبس منه جزء يرقع به نظام آخر فكل جزء منه مرتبط ببقية الأجزاء فإما أن يؤخذ بالنظام الاسلامى كله وإما أن يترك كله ؛ فإذا لم ترتكز قوانينه فى المال والجنايات والأسرة على أساسين من العقيدة والعبادة كانت هذه القوانين جسما بلا روح ... وهذا ما تعانيه بعض الدول الإسلامية التى ظهر فيها زعماء لم يفقهوا هذا المعنى فراحوا يدعون إلى الأخذ بالشريعة الإسلامية فى المال والجنايات فى حين أن شعوبهم فاقدة الأصل الأصيل من العقيدة والعبادة فانتهوا إلى مجموعة من المظاهر التى تنتسب إلى الإسلام تخفى تحتها نفوساً لا تمت بصلة إلى الإسلام وصدق الذى قال :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا   فلا ديننا يبقى ولا مانرقع

ورحم الله أستاذنا الإمام فقد كان يقول : إن القاضى الذى صقلت نفسه التربية الإسلامية يستطيع بهذا القانون الوضعى أن يخرج لنا أحكاماً تتفق مع روح الشريعة الإسلامية .. أما القاضى الذى ليس له نصيب من التربية الإسلامية فإنه حتى إذا حكم بالقانون الإسلامى فإن أحكامه تكون مجافية للعدالة وروح الإسلام ...

نعم لابد من أن تكون الشريعة هى قانون البلاد ، ولكن لابد من أن ترافق ذلك تربيةإسلامية على أساس من العقيدة والعادة تكون الفرد المسلم الذى سيكون بمثابة الروح لهذه القوانين ، والذى يصبغ بشخصيته المجتمع الذى يعيش فيه أو يتصل به ، والذى يكون الأداة الفعالة للإبداع فى كل عمل يزاوله ، والذى سيعفى الدولة مما تتورط فيه الحكومات من إنشاء رقابة من فوقها رقابة من فوقها رقابات حتى تضمن من أفرادها أداء ما وكلته إليهم من أعمال .

إن محاولة الإصلاح عن طريق القوانين دون التربية الإسلامية لأفراد الأمة هو نوع من البناء على الرمال ... فإذا رافقت التربية الإسلامية الحكم بالشريعة كانت أحكام الشريعة فى هذه الحالة أشبه بالبذور تنزل على أرض أخذت حقها من الإعداد والرى فأنبتت نباتاً حسناً وجاءت بأطيب الثمر ... أما إذا نزلت هذه البذور – وهى فى أجود حالاتها – على أرض وعرة أو أرض سبخة لم تمتد إليها يد الإصلاح فإن جودة البذور لن تغنى عنها شيئاً وستموت على هذه الأرض

ولست أقصد من هذا أن تنتظر الأمة الإسلامية فى عصرنا هذا ممثلة فى دولها حتى تتم تربية شعوبها ثم تبدأ بعد ذلك فى الأخذ بأحكام الشريعة الإسلامية .

وإنما الذى أقصده هو أن تتخلص هذه الدول من تصور خاطىء سيطر على تفكير قادتها ، وهو أن النظام الإسلامى منحصر فى الأخذ بالقوانين الإسلامية ضاربة عرض الحائط بماسوى ذلك من أصول التربية الإسلامية القائمة على الأساسين الركينين من العقيدة والعبادة ... فهذه الدول تريد الأخذ بالقوانين الإسلامية فى الوقت الذى تنشر وسائل الإعلام فيها ليلا ونهاراً وفى كل شارع وفى كل بيت الدعوة إلى الفساد والتهتك والانحلال الخلقى .. تريد الأخذ بقوانين الشريعة وهى تاركة لنسائها الحبل على الغارب لإغراء الشباب المجرد من أسلحة المناعة الخلقية .. تريد الأخذ بقوانين الشريعة وكبار موظفيها وصغارهم لا وازع لهم من ضمير ولا رادع لهم من خلق والقوانين الإسلامية وحدها لا تخلق الضمير ولا تنشىء الخلق .

إذا كانت هذه الدول جادة فى الأخذ بقوانين الشريعة فلتأخذ بها فى الوقت الذى تأخذ فيه بأساليب التربية الإسلامية لشعوبها حتى تكون قوانين الشريعة مدعومة بهذه الأساليب التى

يظهر أثرها فى وسائل الإعلام وفى صفوف المدارس وفى مكاتب الموظفين وفى مسلك الرجال والنساء . أما الأخذ بقوانين الشريعة وكل أجهزة الدولة سائرة فى خط معاكس لهذه القوانين فهو الذى نرفضه لأنه لن يعود على الأمة بفائدة ولا يكون إلا تشويها لسمعة الشريعة الإسلامية .

ولعمرى ما أيسر الحكم بالشريعة الإسلامية فإن ذلك لن يكلف الحاكم شيئاً إلا أمراً بذلك يصدره . أما تربية الشعب وإعداده ليكون شعباً مسلماً تعيش فى قلب كل فرد منه رقابة الله فإن ذلك هو الأمر العظيم الذى لا يقدر عليه كل أحد ولا يقدر عليه إلا كل عظيم من الناس ؛ لا يقدر عليه إلا القدوة الحسنة.وتحول الفرد إلى أن يكون قدوة حسنة يقتضيه الكثير من التضحيات فهذه هى الوظيفة الكبرى للأنبياء ولايقدر على ذلك من بعدهم إلا ورثة الأنبياء على أن لا يكونوا من الأدعياء .

النشأة :

رأيت أن أبدأ بهذه العجالة التى ترسم الخطوط العريضة للفكرة الإسلامية ، والتى يتبين منها مدى خطورة هذه الفكرة على ذوى المطامع من الجبارين والمستبدين والمستعمرين ؛ ولذا فإن الذى شرعها — عز جاره وجل شأنه — شرع معها الجهاد لحمايتها والذود عنها وجعل هذا الجهاد ذروة سنامها كما جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذه الفكرة بهذا التخطيط والشمول لم يكن لها — منذ خمسين عاماً — وجود فى أذهان المسلمين فى أنحاء الأرض ، وإنما كان الموجود منها فى الأذهان نتفاً وأجزاء .. وكان هذا نتيجة خطط محكمة اختطها الاستعمار الذى كان إذ ذاك مسيطرا على جميع البلاد الإسلامية ، وقد تمكن بهذه الخطط من مسخ الفكرة الإسلامية فى أذهان الناس ؛ فأصبحت العقيدة مجرد ألفاظ تلوكها الألسن فى حلقات الذكر فاقدة معانيها ؛ فمعنى تحدى الظلم الذى هو أبرز معانى العقيدة حل محله الدعوة إلى العزلة وتحريم التصدى للحاكمين مهما طغوا وظلموا بل وتحريم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فكانوا إذا رأوا أحداً يتصدى لذلك يقولون له : دع خلق الله فى ملك الله» ، «لايقع فى ملكه إلا مايريد» «يأيها الذين آمنو عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون » (المائدة ١٠٥) .

مع أن الانحراف بهذه الآية الكريمة عن معناها إلى عكسه هو الذى حمل أبا بكر رضى الله عنه وهو على المنبر أن يفسرها ويقول للناس «إنكم تحملون هذه الآية على الدعوةإلى العزلة وترك

[redacted]

الناس تفعل ما تشاء ألا إن معناها هو أن الله تعالى يأمر المؤمنين بأن لا يسيروا فى ركب أهل الضلال مهما كثروا وقويت شوكتهم بل على المؤمنين أن يخالفوهم ويتمسكوا بكتاب الله ... وناهيك بالتمسك بكتاب الله وما فيه من حث على الجهاد ومقاومة للظلم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وكان الناس يؤدون العبادة بنفس هذا المعنى الميت ؛ فهى طقوس نؤدى وحركات وألفاظ يرثها جيل عن جيل ليس لها هدف ولا مغزى ... حتى الدروس فى المساجد لم تكن أكثر من حلقات للتسلية والامتاع... وبهذه الصورة لم يكن المستعمر وأذنابه من الحكام يعارضون فى بناء المساجد وفى إتيان الصلاة وإلقاء الدروس بها لأنها لم تكن مصدر إقلاق لهم بل كانت وسيلة من وسائل إشاعة روح التخاذل والإلهاء والخضوع فى الناس على حد ما كانوا يقولون : ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

وكان الذين يفهمون الإسلام فهماً صحيحاً قلة من الناس . ومن فضل الله على أن أهلى وأسرتى كانوا من هذه القلة . لأنهم لم يؤتوه عن طريق رسمى فى مدارس الحكومة وإنما تلقوه من أصوله فى أمهات الكتب التى كانت تزخر بها مكتبتهم التى ورثوها كابراً عن كابر وكان كل جيل يزيد فيها .

ولا شك فى أن أعظم عامل يؤثر فى حياة الفرد هو البيئة التى أحاطت به فى نشأته فإنها كفيلة أن تحدد له اتجاهه فى الحياة لأنها تسكب فى قرارة نفسه وتخلط مع مهجة قلبه وتحفر فى ثنايا عقله قيمها ومفاهيمها ... وهكذا نشأت فى بيئة تجمع بين الدين والعلم والأدب والوطنية ؛ فلقد كانت أسرتنا برشيد متميزة بكل هذه المعانى وكان لها مدرسة تخرج فيها جيل من الناشئين على يدى عمين لى كانا أمة كاملة للسمو البشرى بمختلف ألوانه ؛ فلقد كانا يعيشان لا لنفسيهما بل للمجتمع الذى نشآ فيه ، فكانا قادة كل حركة تقاوم الظلم والاستبداد والاستعمار . عاشا ماعاشا يبذلان ولا يأخذان ، وينفعان ولا ينتفعان .. لم يكونا من حملة الشهادات الدراسية لكنهما كانا طودى علم وأدب

من آثار البيئة :

معذرة للقارىء فقد أكون شغلت جانباً من وقته بحديث قد لا يعنيه ولكن من حق أصحاب الفضل أن يذكروا ... وأعود إلى السياق فأقول ؛ فى هذه البيئة نشأت فوجدت بين يدى كتباً كانت غذاء لعقلى ومهذباً لطبعى . ورأيت بين يدى مثلا حيه لكثير من أروع ما قرأت ؛ فلقد

كان اتصالى بعمى هذين أكثر من اتصالى بأمى وأبى ... وكنت الابن الوحيد فى تلك الآونة للأسرة كلها فعمل كل على بثى كل ماعنده، وعلى تنشئتى على الصورة التى هى فى قرارة نفسه .. وقد هيأ لى هذا الاتصال أن أقرأ وأنا بعد فى سن مبكرة فى دراستى الثانوية كتباً ذات شأن كشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ووفيات الأعيان لابن خلكان ورسالة التوحيد لمحمد عبده والعقد الفريد لابن عبد ربه والبيان والتبيين للجاحظ والكامل لأبى العباس المبرد كما قرأت ديوان أمرىء القيس وديوان المتنبى وديوان البارودى والمعلقات السبع وغيرها من أمهات كتب الدين واللغة والأدب .

ويجدر بى فى هذه المناسبة أن ألفت النظر إلى الأدب العربى شعره ونثره وإلى ماينطوى عليه هذا الأدب من توجيهات إلى السمو بالنفس عن الدنايا وإلى تبصير الإنسان بما يجعله إنساناً موفور الكرامة . مرفوع الرأس محبباً إلى الناس فهو يوضح له المواقع التى عليه أن يتجنبها وتلك التى يسلكها ويعلمه كيف يعامل الناس وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول «إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة» ويخيل إلى أن الحكمة الهادية لا يكاد يجدها المرء بعد كتاب الله وحديث رسوله إلا فى كتب الأدب نثراً وشعراً حتى إنه ليبدو لى أن الأديب حين يكتب وأن الشاعر حين يقول الشعر تتولاه حالة يكون مهيأ فيها لنوع من الإلهام فتراه يضمن كلامه أو شعره حكماً سامية وتوجيهات رائعة ينتفع بها قارئها وقد لا ينتفع هو بها ... ولعل فى هذا إشارة إلى قول الله تعالى «والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم ترأنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون مالا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا» .. (٢٢٤ – ٢٢٧ الشعراء)

وحين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم معلقة زهير بن أبى سلمى الشاعر الجاهلى التى منها :

ومن لا يصانع فى أمور كثيرة	يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنـــه	وإن يرق أسباب السماء يسلم
ومهما يكن عنـد أمرىء من خليقة	وإن خالها تخفى على الناس تعلم

قال عليه الصلاة والسلام «هذا من كلام النبوة »

وإنك لواجد فى أشعار الشعراء من التوجيهات والحكم مالا تجده فى غيرها وما يوجهك أحسن توجيه فحين تسمع قول الشاعر :

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا ترد إلى قليل تقنع

تعرف كيف تسوس نفسك وتحملها على مالا يعيبك وتخرج بذلك من إسار العرف الذى يدعى أن النفس طبعت على طبائع لايمكن التخلص منها وحين تسمع هذين البيتين :

بلاء ليس يعدله بلاء ... عداوة غير ذى حسب ودين

يبيحك منه عرضاً لم يصنه ... ويرتع منك فى عرض حصين

تعرف كيف تعامل من لاخلاق لهم من الناس فلا تحتك بهم ولا تعاملهم معاملة الند ......

وحين تقرأ :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها ... هواناً بها كانت على الناس أهونا

فهمت أن احترام الناس لك مرهون باحترامك لنفسك

وذكر عن على كرم الله وجهه أنه لما بلغه وفاة طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه قال : رحم الله أبا محمد فقد كان كما قال الشاعر :

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه ... إذا ماهو استغنى ويبعده الفقر

وأنشد النابغة الجعدى النبى صلى الله عليه وسلم شعره حتى وصل إلى قوله :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ولا خير فى جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

والشعر المأثور عن شعراء الجاهلية وشعراء الإسلام فى صوره المختلفة وأغراضه المتباينة يزخر بدرر من التوجيهات والحكم لا يمكن تعليل ورودها على ألسنة قائليها إلا بأن وضع الإنسان نفسه فى المجال الموسيقى للشعر يجعله فى توائم مع تلقى نوع من الإلهام .

وقد أردت بهذه الإلماحة إلى فضل الأدب والشعر فى توجيه الناس إلى المحامد وصرفهم عن المثالب أن ألفت نظر الجيل الناشىء إلى أن ينظروا إليهما نظرتهم إلى منهل يعينهم على تكوين شخصيتهم المسلمة .

ولولا خصال سنها الشعر مادرى ... بغاة العلا من أين تؤتى المكارم

ورضى الله عن الفاروق عمر الذى كان يقول : الشعر ديوان العرب .

التعلق بالقرآن :

إن النفس العربية ، فى البيئة العربية ، وفى جو الأدب الرفيع الذى يدفع إلى السمو ؛ يجد المرء نفسه جاثياً أمام كتاب الله العزيز ، ناهلا من صافى سلسبيله ، مسترويًا من عذب مائه ... وهكذا وجدتنى منذ الصغر وأنا فى سن السابعة أجلس بين يدى كتاب الله ، أتلو منه وحدى والله وحده يعلم هل كنت فى أول عهدى به كثير الخطأ فى تلاوته أم قليله .. لأنى لم أكن أتلو أمام غيرى ... وقد جربت فى إحدى الأجازات الصيفية وأنا فى تلك السن المبكرة أن ألتحق بأحد الكتاتيب فى رشيد فلم ترقنى طريقتهم التى تعتمد على الاستظهار والحفظ دون التلاوة ، فانقطعت عنه واكتفيت بالتلاوة المنزلية ؛ فكنت أقرأ المصحف بالترتيب ، ولم أكن – كما قدمت – أوقن أنى أقرأ قراءة صحيحة إلا أنى تنبهت بعد فترة من الزمن – نحو خمس سنين – حين كنت فى أوائل الدراسة الثانوية فوجدتنى ماهراً فى تلاوته ، واستطعت فى خلال دراستى الثانوية أن أجمع إلى المهارة فى التلاوة الحذق فى التجويد دون أن يكون ذلك عن دراسة منظمة لفن التجويد ؛ فاللسان العربى قادر بطبيعته مع القليل من التوجيه والملاحظة على النطق الصحيح وإخراج الحروف من مخارجها الصحيحة ... وقد تكون مداومتى على التلاوة دون انقطاع مما سهل لى هذا الأمر .

أول فراق لرشيد :

لم يكن برشيد فى ذلك الوقت مدارس ثانوية ، فكان على أن أرحل إلى الاسكندرية ، وكم كان ذلك شاقاً على نفسى وعلى نفس والدى .. إلا أنى أفدت الكثير من هذا الفصال الذى فطمنى عن عهد الطفولة وأحيا فى نفسى عوامل الرجولة والاعتماد على النفس ، وأوجدنى فى بيئة ضممت مزاياها إلى مزايا البيئة التى نشأت فيها ... نعم كنت طالباً «داخلياً» تعد المدرسة لى الطعام والمنام ووسائل النظافة لكن هذا ليس كل شىء فى الحياة ... لقد تعرفت على أقوام من شتى البلاد وخالقتهم وعاشرتهم وأضفت إلى أصدقائى التقليديين من أهل بلدتى أصدقاء آخرين من بلاد أخرى وكان ألصقهم بنفسى الطالب محمد جمال الدين نوح الذى كان والده زميل والدى وكانوا مقيمين فى الاسكندرية إلا أنه كان طالباً «داخلياً» .

ومن أجل مزايا نظام «الداخلية» تنظيم حياة الطالب ، فالاستيقاظ من النوم فى الصباح فى موعد محدد ، والإفطار الجماعى فى موعد محدد والغداء والعشاء كذلك والوجبات التى تقدم على

مدار الأسبوع أنواع محددة ، ثم المذاكرة فى مكان محدد وموعد محدد وتحت إشراف أستاذ يرشد ويعين ، ثم النوم فى موعد محدد .

كانت فترة دراستى الثانوية فى الاسكندرية فترة إنضاج فكرى وروحى لى : فلقد دخلت هذه المرحلة فى سن الثانية عشرة وأنا مزود بشحنات من نور القرآن، وبثقافة سياسية وأدبية — وقد أفردت لأول مرة دون من كنت أستمد منهم وأتلقى عنهم — فوجدتنى مهيأ لدور قيادى فى هذه المدرسة . فبغير إرادة منى وجدتنى قدوة يقتدى بى زملائى فى المدرسة ؛ فصلاى التى كانت تلازمنى بجانب فراشى جعلت كل من تهفو نفسه إلى الاستقامة والخير يتجه إلى ؛ ثم فى مسجد المدرسة — وكان مسجداً عظيما . وجدنى أوجه زملائى .

ومما يدل على أن التدين لا يرتبط بدراسة معينة أن هذه المدرسة كانت تعج بمدرسى اللغة العربية والدين من المتخرجين فى الأزهر ودار العلوم ، ومع ذلك فلم يكن يصلى معنا فى هذا المسجد من المدرسين إلا مدرس واحد هو الأستاذ عفيفى مدرس المواد الاجتماعية ، وهو الذى كان يؤمنا ، كما أن ناظر المدرسة حين رأى إقبال الطلبة على الصلاة فى المسجد انتدب الأستاذ عفيفى ليؤمهم .

ولا أنسى هنا أن أشيد بذكر رجل كان له فضل على كبير فى تنمية ثقافتى الإسلامية ، ذلك هو الشيخ محمد على أمين ، الفراش النوبى المختص آنذاك بمغسل المدرسة ، فقد كان هذا الرجل عالماً عابداً ذا خلق ودين . وكان يقتنى أقيم الكتب ، فقد قرأت من كتبه غير قليل من زاد المعاد لابن القيم والفتاوى الكبرى لابن تيمية وشرح مسلم للنووى والمجموع فى فقه الشافعى للنووى أيضاً وغير ذلك مما غاب عن خاطرى الآن بعد هذه المدة الطويلة ... وهو الذى دلنى على تفسير القرطبى وقت أن بدأت دار الكتب المصرية فى طبعه .. كان هذا الرجل مهذباً كريم المعشر عالى النفس مثلا حياً للإسلام ، وكنت أحترمه كما احترم أقرب أساتذتى إلى نفسى ؛ ولم يكن يدخر وسعاً فى معاونتى على الإلمام بمختلف القضايا التى تتصل بالإسلام ... وكان عضواً فى جمعية أنصار السنة المحمدية بالاسكندرية ؛ ولهذه الجمعية مزايا لا تنكر ؛ أهمها أنها دلت المنتسبين إليها على كنوز من الكتب الإسلامية عفى عليها زمن التخلف الذى شمل العالم الإسلامى بضعة قرون ، ومن بينها كتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وكتب السنة عموماً ؛ فقد كان من معالم تقهقر المسلمين فى القرون الأخيرة هجرهم كتب السنة والاكتفاء بتآليف المتأخرين ، وكان كل متأخر يعلق على كلام سابقه حتى نسيت السنة فى غمار هذه التعليقات والمجادلات اللفظية .

ومن حق هذا الرجل على أن أنوه بفضله ، وأن أدعو الله له أن يحسن جزاءه لأن له عندى يداً لا أنساها ؛ فإنه أحس حين التقيى فى غمار عمله ضمن من يلقى من الطلبة أنى أهل لتوجيهه ، وكنت بعد فى سن مبكرة حوالى الثانية عشرة ، ومثلى لم يكن ليستطيع فى مثل هذه السن أن يقرأ فى أمهات كتب الفقه والسنة ، فكيف كشف هذا الرجل بنافذ بصيرته استعدادى للقراءة فى مثل هذه الكتب ؟ لقد كان رجلا متقد الذهن نافذ البصيرة ، كنت تقرأ فى قسمات وجهه ، وفى بريق عينيه ، وفى شحوب وجنتيه ، وفى وضاءة جبينه ، مع وسامة وهدوء ؛ كنت تقرأ فى ذلك سمة قوام الليل صوام النهار .

ومع أنه كان عضواً بارزاً فى جماعة أنصار السنة المحمدية كما قدمت ، غير أنى – وقد عاشرته خمس سنوات – كانت كلها مدارسة ومناقشة لم أسمع منه كلمة واحدة عن آيات الصفات والاستواء ؛ مع أن أعضاء هذه الجماعة – وقد احتككت بهم فيما بعد فى القاهرة وكانت لى معهم تجارب ومواقع – لم يكن لهم حديث مع الناس حتى العوام منهم إلا عن هذه الآيات التى فرقت آراؤهم فى تفسيرها المسلمين وغرست بذور العداء فيما بينهم ... ولا عجب مع ذلك فى تجنب عضو بارز كالشيخ محمد على أمين الخوض مع الناس فى مثل هذه المواضيع فإن المنشغل بمهام الأمور لايجد وقتاً لسفسافها وصدق البارودى إذ يقول :

ودع من الأمر أدناه لأبعده فى لجة البحر مايغنى عن الوشل

لقد ازددت على يد هذا الرجل علماً وفقهاً وتعرفت على رجال فى تاريخ الدعوة الإسلامية والفقه الإسلامى لا ينبغى لمسلم يتصدى للدعوة الإسلامية أن يجهلهم كابن تيمية وابن القيم ومحمد ابن على الشوكانى وهو إمام يمنى من أهل القرن الثانى عشر الهجرى أحيا بمؤلفاته مااندثر من السنة ولعل أشهر كتبه «نيل الأوطار» .

وقد لا يكون خروجاً عما نحن بصدده الآن أن نتوقف لحظة عند ابن تيمية .. فهذا الرجل وهو إمام الأئمة ليس له من الآثار ، فى عالم الكتب والتأليف ما يصلح أن يسمى مؤلفاً ؛ فآثاره رسائل صغيرة أكبرها ما يسمى «بالفتاوى الكبرى» ولا يخرج عن كونه مجموعة من الفتاوى صدرت عنه فى مناسبات متفرقة جمعها أحد تلاميذه ... ذلك أن هذا الإمام لم يكن همه موجها إلى تأليف الكتب وتصنيفها لأنه كان منشغلا بما لم يكن أحد يقدر عليه غيره وهو حمل لواء الدعوة الإسلامية ، فهو الذى هدى الله على يديه التتار حين تحدث مع زعمائهم فكان إسلام التتار من المواقف الحاسمة فى تاريخ الدعوة الإسلامية بل وفى تاريخ العالم... لم يكن وقته يتسع للتأليف

[redacted]

والتصنيف ولكنه استطاع أن يؤلف رجالا منهم ابن القيم الذى ملأ الدنيا كتباً ومؤلفات تعد من أعظم ذخائر المكتبة الإسلامية .

ولما كان ابن تيمية هو حامل لواء الدعوة الإسلامية فى عصره ، كان كثير الأتباع كما كان كثير الأعداء ، وأعداء الدعاة عادة هم من الحكام أو من اللائذين بالحكام ، وقد غلت مراجل الحقد فى صدور هؤلاء اللائذين من أدعياء العلم على ابن تيمية لا لتفاف الناس حوله ، فوشوا به عند السلطان الذى أودعه السجن حتى مات فيه ، وانتهت حياته بما تنتهى به عادة حياة حملة لواء هذه الدعوة فى كل زمان .

بلورت دراساتى الخاصة فى منزلنا ثم دراساتى على يدى الشيخ محمد على أمين فى المدرسة بلورت الفكرة الإسلامية فى رأسى بحيث تحددت صورتها تماماً ، واختمرت هذه الفكرة ، ولم يكن بد بعد ذلك من أن أوضحها لزملائى ؛ وأتيحت لى الفرص واستجاب كثيرون وكثر المصلون وشعر الجميع سواء فى ذلك زملائى الطلبة وأساتذتى ورجال إدارة المدرسة بأننى الذى يمثل الدعوة الإسلامية ؛ فكانت المدرسة إذا رغبت فى الاحتفال بمناسبة تمت إلى الإسلام بصلة دعتنى للاشتراك مع الإدارة فى تنظيم الحفل ، وكنت أؤم المصلين فى المسجد فى غياب الأستاذ عفيفى .. وكان المشرف على الداخلية — بعد أن هداه الله إلى الصلاة — يرسل إلى كل صباح من يأخذ مصلاى ليؤدى عليها صلاة الصبح .

فى أجازات الصيف

كان طبيعياً أن تكون أجازة الصيف فى رشيد فرصة سانحة لعرض الفكرة الإسلامية بالصورة التى اكتملت فى خاطرى على أصدقائى وزملائى ... وكان مما هيأ لى أحسن الفرص أننا — أنا ومجموعة من أترابى — قد تعودنا على أداء أكبر عدد من أوقات الصلاة فى مسجد «المحلى» ثم ننطلق بعد صلاة العصر إلى الرمال فى خارج رشيد للتريض معاً ... وكان زملاؤنا الطلبة الذين يكبروننا سناً قد أنشأوا نادياً سموه «نادى الطلبة» لم يكن نشاطه يتعدى الاجتماع فيه للمرح واللهو ولم يكن هذا أسلوبنا ... فلما استجاب لى كثير من الأصدقاء والزملاء فكرنا فى إنشاء جمعية لنشر هذه الفكرة ، واستقرت الآراء على تسميتها : «جمعية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» وقد اتخذت مقراً لها مؤقتاً فى منزلنا حيث كانت مدرسة أعمامى تعمل نهاراً ، ونستغل نحن المكان لنشاط الجمعية ليلا ... وقد عكفنا على وضع القانون الأساسى لهذه الجمعية ... ومع أننا كنا

صغاراً فإننى لا زلت أذكر أن المواد التى تضمنها هذا القانون قد شملت كل الأهداف الإسلامية ، وأحاطت بما تحتويه من معالجة لحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وأشرنا إلى وجوب إيجاد صلات بين المسلمين فى أنحاء الأرض باعتبارهم أمة واحدة ... وكان هذا فى ذاته أمراً عجباً لأن المسلمين فى ذلك الوقت لم يكونوا يفهمون الإسلام على هذه الصورة .

ثم انتقلت الجمعية إلى دار فسيحة فى وسط المدينة تبرع بها والد عضوين معنا وكان لهذه الدار فناء فسيح . وكانت الدار تزخر طيلة اليوم والليلة بعدد كبير من الطلبة وغير الطلبة من الشباب العامل فى مختلف الحرف ، وقد تعرف هؤلاء على الجمعية نتيجة ما كانت تقيم من حفلات تلقى فيها المحاضرات والخطب والقصائد كلها فى شرح الفكرة الأسلامية وفى إيقاظ الهمم لإحياء مجد الإسلام .

وفى صيف سنة تالية كثر عدد الأعضاء وأقبلت عناصر جديدة كانت تستنكف من قبل أن تشترك معنا فلما رأوا نجاح جمعيتنا رأيناهم يأتوننا هرولة .

جمعية الشبان المسلمين برشيد

ضاقت الدار التى كنا نشغلها بالوافدين الجدد الذين تركوا نواديهم وقدموا إلينا ، وما كان لنا أن نرد قادماً أو نرفض وافداً ؛ وسر إخواننا بهذه الوفود الجديدة ؛ ولكننى كنت منقبض الصدر لأننى أعلم أن هؤلاء الوافدين لم يدفعهم إلينا إيمانهم بفكرتنا بل كان الدافع لهم أنهم رأوا لنا نجاحاً أرادوا أن يستغلوه فى الظهور والبروز ... ولم يكن بد من فتح الأبواب لهم ، فلما استقر بهم المقام اقترحوا أن تتخذ الجمعية اسماً آخر غير اسمها ، وصوروا للأعضاء الآخرين من إخوانى وزملائى أن اتخاذ اسم مشهور يبرز الجمعية فى المجتمع ويعلى صوتها ويرفع مكانتها واقترحوا أن يكون الاسم الجديد هو جمعية الشبان المسلمين برشيد ، واستقر الرأى على ذلك .

وكان لى خبرة بجمعية الشبان المسلمين بالاسكندرية فى ذلك الوقت حيث كان لى زميل بالمدرسة مشتركاً فيها وعضواً فى فريق كشافتها وفهمت منه أن هذه الجمعية تهتم بالنواحى الرياضية ولا تولى الناحية الدينية اهتماماً يذكر فلما جلسنا لوضع القانون الأساسى لهذه الجمعية اشترطت على اللجنة المنوط بها هذا الأمر – وكنت عضواً فيها – أن ينص على أن هذه الجمعية برشيد لاعلاقة بينها وبين جمعيات الشبان المسلمين فى القاهرة والاسكندرية وتمسكت بهذا الشرط حتى أجازته اللجنة .

واتخذت الجمعية لأول مرة مقراً مستقلا بأجر شهرى وفى أبرز مكان فى المدينة واتسعت وذاع صيتها حتى أن النحاس باشا – وكان فى ذلك الوقت زعيم البلاد غير منازع – كان مدعواً فى حفل كبير أقامته له لجنة حزب الوفد برشيد، لم يقم بعد انتهاء الحفل بزيارة لأى مكان أو لأية شخصية إلا لهذه الجمعية ؛ والطريف أنه حين قدمنا له دفتر الزيارات ليكتب لنا كلمة فيه سألنا قائلا : هل جمعيتكم هذه فرع من جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة فنفينا ذلك وأطلعناه على قانون الجمعية وما فيه من نص على ذلك فابتسم وقال : لو كانت جمعيتكم فرعاً من جمعية القاهرة ماقبلت أن أكتب لكم شيئاً. ومع أن الجمعية قد استكملت مظاهر الأبهة وتقاطر الناس على الاشتراك فيها فكثرت أموالها إلا أنى كنت أرى عوامل الفشل تدب فى أعضائها وتنخر فى عظامها فقد كثر المتسللون إليها من ذوى الأغراض وطلاب المناصب وعشاق المظاهر وصار من الصعب مقاومتهم حيث صاروا أغلبية فحولوا الجمعية عن أغراضها ولم تعد أكثر من ناد يؤمه الفارغون والمتسكعون فقررت البعد عنها وأعلنت ذلك للجميع .

افتقاد الضالة المنشودة

أعلنت انفصالى عن الجمعية التى أنشأتها ؛ وحملت معى فكرتى الإسلامية التى تمكنت من نفسى تمكناً جعلنى أزن بها كل ما يعرض على ، وأقيس بها ما يقدم لى . ولم أخرج من هذه الجمعية وحدى بل خرجت بالمجموعة التى كنت بثثها ماعندى من أحاسيس وأفكار ، ولم تكن هذه المجموعة من علية القوم ولا من أكبر مثقفيهم لكنها كانت مجموعة مؤمنة بما أؤمن به وتضطرم نفسها بما تضطرم به نفسى ، وهى المجموعة التى التفت حولى من أول يوم .

كانت وطأة الاستعمار على البلاد على أشدها ، وكان فى البلاد أحزاب يدعى كل منها أنه صاحب الفكرة المثلى لمقاومة الاستعمار فكان حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين والحزب الوطنى وحزب الاتحاد ... وبدراسة هذه الأحزاب تبين لى أن الوفد أكثرها جداً وبذلاً وتضحية ، واتصالا بالجماهير ومعاداة للملكية فركنت إليه ...

وظهرت فى ذلك الوقت جمعية مصر الفتاة التى أنشأها الأستاذ أحمد حسين المحامى ، وكانت تصلنا فى المدرسة مجلتها «الصرخة» تفيض بالحماسة الدفاقة ؛ وكنت أميل إليها باعتبارها فكرة ناهضة إلا أنى لم اتخذها لى مبدأ وفكرة لأن نفسى كانت تشمئز من الانتماء إلى التراب ، واتخاذ مصر إلها نقدم له القرابين ؛ إذ كان مبدأها «مصر فوق الجميع» وهو ادعاء على غير أساس وتمييز عنصرى يستطيع كل جنس أدعاءه وما أنزل الله به من سلطان .

وكان «لمصر الفتاة» فى تلك الحقبة إنجاز يستحق التسجيل إذ كان لباس الرأس فى تلك الأيام هو الطربوش المصنوع من الصوف أو الجوخ الأحمر ، ولم يكن أحد يجرؤ على كشف رأسه أو تغطيتها بشىء آخر غير الطربوش ، وكان هذا الطربوش يصنع فى خارج البلاد . فنادى الأستاذ أحمد حسين بتمصير لباس الرأس وتكونت لجنة بمشروع سمته «مشروع القرش» يجمع من المواطنين قروشاً لبناء مصنع فى القاهرة لصنع الطرابيش ونجح المشروع فعلا وأنشىء المصنع ولبس المصريون من انتاجه واستغنوا عن استيراده .

كنت أميل إلى الوفد باعتباره الحزب الذى يقف للملك بالمرصاد ؛ إلا أنى كنت أحس بأن فى الفكرة الإسلامية الغناء عن هذه الأحزاب ؛ ولكن الميدان فى مصر خلو من جماعة تبرز هذه المعانى السياسية فى الفكرة الإسلامية ... وهذا هو الذى كان يحملنى على الانتساب إلى الوفد آملا فى أن أجد فى يوم من الأيام الجماعة الإسلامية التى تملأ هذا الفراغ .

إلى الجامعة فى القاهرة

أول لقاء عابر لى مع الأستاذ حسن البنا

بعد حصولى على شهادة الثانوية العامة نزحت إلى القاهرة للالتحاق بالجامعة التى كانت تسمى فى ذلك الوقت بالجامعة المصرية لأنها الجامعة الوحيدة فى البلاد ...

وكان أصدق صديق لى خلال دراستى الثانوية — كما قدمت — زميلى محمد جمال الدين نوح ، وكان والده زميل والدى وصديقه ... وقد توطدت الصداقة بينى وبين جمال إلى حد أننا لم نكن نطيق الافتراق ..... وكانت المدرسة قد رشحتنى وجمالا أن نكون من العشرة الأوائل فى شهادة الثانوية العامة معتمدة فى ذلك على مقدرتنا العقلية إلا أن طبيعتنا فى عدم الصبر على الاستظهار لم تتح لنا فرصة أن نكون من العشرة الأوائل كما أملوا فينا ولكننا حصلنا على مجموع لا بأس به

لأول مرة فى حياتى سافرت وزميلى جمالا إلى القاهرة لنلتحق بإحدى الكليات .. وحين وصلنا إلى القاهرة قال لى جمال إن والده أوصاه أول ما يصل إلى القاهرة أن يزور صديقاً له وكان فى يوم من الأيام تلميذاً له أسمه «الأستاذ حسن البنا» وقال لى إن والده أعطاه عنوانه وهو رقم ٥ حارة الروم بالغورية وانطلقنا نبحث عن هذا العنوان فى أحشاء حى عريق فى القدم حتى وصلنا إليه فرأينا بيتاً على الطراز العتيق يشبه الربع وسألنا فيه عن الأستاذ حسن البنا فصعدنا عدة درجات

من سلم جانبى ودخلنا غرفة كبيرة ثبت على جدرانها رفوف خشبية مملوءة بالكتب والمجلدات ، ورأينا مكتباً تحيط به الرفوف من كل جانب يجلس إليه شاب أبيض الوجه مستديره ذو لحية سوداء يرتدى بدلة وعلى رأسه طربوش ؛ فكان هذا منظراً عجيباً حيث لم يكن مألوفاً فى ذلك الوقت أن يكون أحد معفياً لحيته إلا ويرتدى جبة وعمامة ... فلما رآنا ترك مكتبه وتلقانا بترحيب حار ، وقال إن الأستاذ محمد خلف نوح أستاذى ... وتحدث معنا فيما جئنا إلى القاهرة من أجله وشجعنا على مواصلة الدراسة وألح علينا أن ننزل فى ضيافته فشكرناه ؛ فطلب إلينا أن نتصل به فى كل ما يلزمنا وانصرفنا ؛ ولكن صورة هذا الرجل وحديثه وأسلوبه وأدبه وجلوسه وسط هذه الأكوام من الكتب واللافتة التى رأيناها تعلو باب هذا البيت المكتوب عليها «الإخوان المسلمون» تشغل أفكارنا .

والتحقنا معاً بكلية العلوم فكنا فى صدر المقبولين بها وخيرنا بين البقاء بها والانتقال إلى كلية الطب لكبر مجموعنا فرأى جمال البقاء فى كلية العلوم ورأيت أنا أن أحول أوراق إلى كلية الزراعة وكان لهذا التحويل قصة قد ارجع إليها عند الحديث عن الشيخ طنطاوى جوهرى إن شاء الله .

كيف تعرفت على الاخوان المسلمين

كنا آنذاك فى السنة الدراسية ١٩٣٥–١٩٣٦ وكانت هذه السنة سنة نشاط سياسى كبير ، إذ أعقبت بضع سنوات تولى الحكم خلالها إسماعيل صدقى وفعل – كما أفهمنا زعماء الوفد – بالبلاد الأفاعيل ، وكان من هذه الأفاعيل أنه ألغى دستور سنة ١٩٢٣ ووضع دستوراً بدلاً منه سماه دستور سنة ١٩٣٢ كنا ندرسه فى التربية الوطنية فى السنة الثالثة الثانوية وإن كنت الآن قد نسيت محتوياته إلا أننى أذكر أنه فى مجموعه كان يهدف إلى الحد من سلطة الشعب – وكانت الدولة المستعمرة – بريطانيا – تؤازر هذا الاتجاه ... وكنت فى مساء كل يوم أذهب إلى مقر حزب الوفد وكان يسمى «النادى السعدى» وكان يفد إليه خليط من الطلبة وصغار الموظفين والعمال والتجار كما كان أقطاب الحزب يحضرون ... وقد رأى هؤلاء نشاطى فى إقناع الوافدين من الطلبة بفكرة الوفد فأعدوا لى مكتباً بالنادى ... وفى تلك السنة أنشأ الوفد كتائب القمصان الزرقاء فكنت أحد أفراد أول نواة لها وكانت هذه النواة كلها من طلبة الجامعة والأزهر وكان يقودها طالب بكلية الطب اسمه محمد بلال .

أما اليوم الدراسى فى الكلية فكانت تتخلله فترات لا بأس بها من الفراغ كنت استغلها فى

إدارة نقاش سياسي مع الطلبة في فناء الكلية ، وكان النقاش في بعض الأحيان يحتدم ويطول ويزداد عدد الطلبة الملتفين حولي ومنهم من يأتف للاشتراك في المناقشة ومنهم من يلتف لمجرد السماع والملاحظة ، وتنتهي أكثر هذه المناقشات عادة بكسب أنصار للوفد.

وفي أثناء إحدى هذه المناقشات تقدم إلى طالب وأسر في أذني أنه يريد أن يتحدث إلى حديثاً خاصاً بعد انتهاء المناقشة ... وانهيت المناقشة في وقت مناسب ؛ وانتحيت وهذا الطالب جانباً فقال لي : أنا زميل لك بالسنة الأولى ومن الفيوم واسمي «اسماعيل الخبيرى» وأنا خالي الذهن عن أية أفكار أو مبادىء ، وقد استمعت إليك كثيراً وأعجبني أسلوبك في المناقشة وأحس فيه الصدق والإخلاص ، وقد رأيت أن اسلمك نفسي لتوجهني إلى المبدأ الذي تختاره لي ... وأنا أراك تدافع عن الوفد فهل تختار لي أن أكون وفدياً ؟...

فقلت لا ... فتعجب الشاب من هذا الرد الذي لم يكن يتوقعه ... قال : كيف نكون وفدياً ولا تختار لي أن أكون كذلك ؟... قلت إنك شاب عديم الخبرة بالمبادىء والأفكار ، وقد استشرتني والمستشار مؤتمن . ولا أرضى لنفسي أن استغلك منتهزاً فرصة خلو ذهنك لأحشوه بما أريد .

قال : إذن لماذا ترى ؟....

قلت : الذي أراه أن تذهب بنفسك إلى منتديات الأحزاب وتستمع بنفسك إلى قادتها وتناقشهم وتقضي في كل ناد عدة ليال ، وتجيء كل صباح تقص علي ما رأيت وماسمعت حتى إذا أتممت الجولة على كل النوادي نجلس معاً لتقرر بنفسك الاتجاه الذي تسلكه ... قال إذن أرشدني إلى أماكن هذه النوادي فأرشدته وكانت هذه النوادي هي : الوفد—الأحرار الدستوريون— السعديون — مصر الفتاة — الحزب الوطني .

ويجدر بي بهذه المناسبة أن أذكر أنني منذ أقمت بالقاهرة — وكان مقر دراستي وسكني بالجيزة — كنت حريصاً على أداء صلاة الجمعة دائماً في مسجد الرفاعي بالقلعة لأن خطيب هذا المسجد الشيخ محمود على أحمد كان خطيباً مفوها وكانت خطبه ذات اتصال بالحياة ، وكان رواد هذا المسجد الفسيح من أعلى طبقات القاهرة ثقافة ... وكنت ألاحظ دائماً بعد الصلاة وفي مستهل الدرس الذي يلقيه الشيخ بعد الصلاة أنه كان يلفت نظر الحاضرين إلى شاب بين يديه مجلات يوزعها ويحثهم على اقتنائها فكنت أحد الذين يشترونها ... وقد تركت هذه المجلة في نفسي — وكان اسمها «الإخوان المسلمون» — أثراً عميقاً عندما وقع نظري على واجهتي غلافها ؛ فعلى وجهها وملء

الصفحة رسمت الكرة الأرضية مركوزاً عليها علم كتب عليه «إنما المؤمنون إخوة» . وتمسك بالعلم قبضة يد قوية كتب تحتها «الإخوان المسلمون» – أما ظهرها فيملأه «أكلشيه» بعنوان «عقيدتنا» تحته سبعة بنود يتكون كل بند من جزءين أولهما مبدوء بكلمة «أعتقد» والآخر مبدوء بكلمة «أتعهد» ... ولقد لخصت هذه البنود السبعة الفكرة الإسلامية كما تصورتها بجميع أبعادها . إلا أن «التعهدات» قد نقلت هذه الفكرة المجردة إلى معترك الحياة فى جميع ميادينها ... وحرصاً منى على انتفاع القارىء بهذه البنود رأيت أن أثبتها بنصها لأنها خير مايصلح أن يكون دستوراً ينظم حياة الفرد المسلم والأسرة المسلمة والأمة المسلمة فى أوجز العبارات وأدقها وأجمعها للمعانى .

عقيـــــدتنا

١ – أعتقد أن الأمر كله لله – وان سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم رسله إلى الناس كافة، وأن الجزاء حق وأن القرآن كتاب الله . وأن الإسلام قانون شامل لنظام الدنيا والآخرة .

وأتعهد بأن أرتب على نفسى حزباً من القرآن الكريم . وأن أتمسك بالسنة المطهرة ، وأن أدرس السيرة النبوية وتاريخ الصحابة الكرام .

٢ – أعتقد أن الاستقامة والفضيلة والعلم من أركان الإسلام .

وأتعهد بأن أكون مستقيماً أؤدى العبادات وأبتعد عن المنكرات ، فاضلا أتحلى بالأخلاق الحسنة ، وأتخلى عن الأخلاق السيئة ، وأتحرى العادات الإسلامية ما استطعت ، وأوثر المحبة والود على التحاكم والتقاضى ، فلا ألجأ إلى القضاء إلا مضطراً ، وأعتز بشعائر الإسلام ولغته ، وأعمل على بث العلوم والمعارف النافعة فى طبقات الأمة

٣ – أعتقد أن المسلم مطالب بالعمل والتكسب ، وأن فى ماله الذى يكسبه حقاً مفروضاً للسائل والمحروم .

وأتعهد بأن أعمل لكسب عيشى ، واقتصد لمستقبلى ، وأؤدى زكاة مالى ، وأخصص جزءاً من ايرادى لأعمال البر والخير ، وأشجع كل مشروع اقتصادى إسلامى نافع ، وأقدم منتجات بلادى وبنى دينى ووطنى ، ولا أتعامل بالربا فى شأن من شئونى ، ولا أتورط فى الكماليات فوق طاقتى .

٤ – أعتقد أن المسلم مسئول عن أسرته وأن من واجبه أن يحافظ على صحتها وعقائدها وأخلاقها

وأتعهد بأن أعمل لذلك جهدى ، وأن أبث تعاليم الإسلام فى أسرتى ، ولا أدخل أبنائى

أية مدرسة لا تحفظ عقائدهم وأخلاقهم ، وأقاطع كل الصحف والنشرات والكتب والهيئات والفرق والأندية التي تناوىء تعاليم الإسلام .

٥ — أعتقد أن من واجب المسلم إحياء مجد الإسلام بانهاض شعوبه وإعادة تشريعه وأن راية الاسلام يجب أن تسود البشر ، وأن من مهمة كل مسلم تربية العالم على قواعد الإسلام .

وأتعهد بأن أجاهد في سبيل أداء هذه الرسالة ما حييت ، وأضحى في سبيلها بكل ما أملك

٦ — أعتقد أن المسلمين جميعاً أمة واحدة تربطها العقيدة الإسلامية ، وأن الإسلام يأمر أبناءه بالاحسان إلى الناس جميعاً .

وأتعهد بأن أبذل جهدى في توثيق رابطة الإخاء بين جميع المسلمين ، وإزالة الجفاء والاختلاف بين طوائفهم وفرقهم .

٧ — أعتقد أن السر في تأخر المسلمين ابتعادهم عن دينهم، وأن أساس الإصلاح العودة إلى تعاليم الإسلام وأحكامه ، وأن ذلك ممكن لو عمل له المسلمون .

* * *

فكانت هذه أول مرة أصادف قوماً يعتقدون ما أعتقد بتفاصيله ودقائقه ، فكان تجاوباً عجيباً ، ولكن تجربتي السابقة في جمعيات رشيد التي أشرت إليها قبلا ، أفقدتني الثقة في الذين يدعون العمل للاسلام .

كان إسماعيل يقابلني في الكلية كل صباح ، ويقص على ماسمع ومارأى في ليلته الماضية وأناقشه ويناقشني ، ويخرج في كل مرة برأى معين ونقيم لكل مارأى وكل ماسمع .. حتى طاف بجميع الأحزاب والهيئات ولم أره شعر برضاً عن أى منها .. فوجهته إلى جمعيات إسلامية كانت موجودة ومشهورة منها جمعية مكارم الأخلاق والجمعية الشرعية وجمعية أنصار السنة ؛ فطاف بها جميعاً ولم يخرج منها بشيء يرضى شغفه ويملأ فراغ نفسه ، وأحسست منه ضجراً مما قد يسلم إلى اليأس . وتذكرت المجلة التي أشرت إليها آنفاً فقرأت عنوان الدار التي تصدرها وقلت له : لم يبق في جعبتي إلا جمعية واحدة قرأت عن مبادئها فأعجبتني وملأت نفسي لكن عندى سوء ظن بالناس الذين يعملون بالجمعيات الإسلامية نتيجة تجربة لى سابقة فسأعطيك عنوان هذه الجمعية لتذهب إليها لا لتناقش مبادئها وأفكارها بل لتراقب لى العاملين بها لا سيما رئيسها .. ولقد كنت تقضى في كل حزب أو هيئة ثلاث ليال أو أربع لكنى أريد أن تقضى في هذه الجمعية فترة طويلة لا تقل عن الشهر لأن مراقبة العاملين تستغرق وقتاً طويلا ..

ذهب إسماعيل إلى هذه الجمعية فى العنوان الذى كتبته له وهو ١٣ شارع الناصرية بالسيدة زينب وكان كل صباح يقص على مارأى وما سمع ومالفت نظره ، وكان يمكث بالجمعية كل ليلة حتى تغلق أبوابها . أخبرنى عن رئيسها ووصفه لى فتذكرت الرجل الذى زرته وصديقى جمال فى حارة الروم ووجدت أوصافه حين وصفه اسماعيل تنطبق عليه تماماً .

بعد انقضاء الشهر شعرت بأنى أصبحت مقتنعاً بالعاملين فى هذه الجمعية كما شعرت بأن إسماعيل يبادلنى نفس الشعور ، وقد قرر بمحض اختياره أنه يركن مطمئناً إلى هذه الجمعية. وقد زكيت اختياره وقلت له : إذن فاذهب الليلة إليهم وحرر طلب التحاق بها ، وواظب على اجتماعاتها فقال لى : أنا وحدى ؟.. قلت : نعم أنت وحدك . قال ولم لاتكون أنت قبلى وأنت أحق منى وأنفع ؟. قلت : إن لى ارتباطات مع هؤلاء القوم ، والحركة السياسية الآن على أشدها ، ولا أستطيع أن أنسلخ والحالة هذه فيقال إنى جبنت . فذهب إسماعيل والتحق .

كنا نحن – الطلبة الوفديين– نعد العدة للقيام بمظاهرات ضد القصر والحكومة القائمة – وزارة أحمد نسيم – ومن ورائهما الإنجليز . فكنا نجمع الطلبة فى النادى السعدى ونشحنهم بأفكارنا وبالخطب التى كان يلقيها النحاس باشا وبعض كبار أعضاء الوفد .. وكان السكرتير العام للوفد مكرم عبيد يحضر إلى الجامعة ويخطب فيها ويحمله الطلبة على أكتافهم هاتفين – وصحف الوفد فى نفس الوقت تشعل الحماس بمقالات ملتهبة ... كل ذلك هيأ الظروف لقيام مظاهرة ضخمة ضمت عدة آلاف من طلبة الجامعة وسميت هذه المظاهرة فيما بعد بمظاهرة كوبرى عباس .

مظاهرة كوبرى عباس ١٩٣٦

لا شك فى أن مظاهرة كوبرى عباس هذه كانت الخط الفاصل فى حياتى ، كما أنها أيضاً كانت حركة تاريخية جعلت الطلبة والأهالى على بينة من أن الإنجليز أعداء ألداء ، فقد خرج طلبة الجامعة المصرية من كلياتهم بالجيزة فى مظاهرة سلمية لا تمتد يدها إلى تخريب أو عنف ، وإنما كانت تهتف هتافات موحدة بسقوط وزير بريطانى اسمه صمويل هور لأنه هو الذى أوحى بإلغاء دستور سنة ١٩٢٣ ، ويطالبون فى هتافهم بارجاع هذا الدستور ، كما يهتفون بسقوط حكومة نسيم .

وقد سارت المظاهرة فى سلام من حرم الجامعة مخترقة شارع المدارس ثم ميدان الجيزة ثم اتجهت إلى الشارع المؤدى إلى كوبرى عباس الذى يصل القاهرة بالجيزة ، ودخلت الجموع

كوبرى عباس حتى إذا صارت فى منتصفه إذ بالكوبرى يفتح فجأة فيقسم المظاهرة قسمين ، قسم كان قد عبر الجزء المفتوح وأصبح فى الجزء المؤدى إلى الروضه وقسم حال فتح الكوبرى بينه وبين مواصلة السير للحاق بزملائه فكان عليه أن يرجع أدراجه الى الجيزه .

حاول هذا الجزء الرجوع فإذا به يجد نفسه محاصراً بقوات تطلق العيارات النارية ، وحاول الجزء الآخر مغادرة الكوبرى إلى الروضة فإذا به يجد نفسه محاصراً بقوات عند نهاية الكوبرى تطلق العيارات النارية . والذى دبر هذه المؤامرة الغادرة ضباط إنجليز على رأسهم حكمدار القاهرة الإنجليزى « رسل باشا» رأيناهم بأعيننا يصدرون الأوامر إلى جنودنا المغلوبين على أمرهم بضربنا بالرصاص .

كان الرصاص يملأ الأرض والجو ويطلق فى كل اتجاه وامتلأت الأرض بالمصابين ، ولم يكن أمام الطلبة العزل المساكين إلا أن يجروا فى كل اتجاه باحثين عن مهرب من هذا المطر المنهمر من الرصاص كأنما هى حرب بين بادين غدرت إحداها بالأخرى بينما كانا على مائدة الصلح ، فإحداها عزلاء حتى من عصا فى يدها والأخرى كانت تخفى تحت ثيابها أفتك السلاح... غدر لا مثيل له

استطعت بعد الخوض بين جثث الزملاء الملقاة على الأرض أن أغادر الكوبرى وأنزل تحته حيث الأحراش والطين، ومع ذلك لم نسلم من الطلقات فقد تابعونا بالرصاص أيضاً .. ووقفت لحظة مع بعض الزملاء ودوى الرصاص يصم آذاننا ، وهنا تمثلت أمامى صورة لى وقد أصبت وتضرجت فى دمائى وقابلت ربى .. فماذا أقول له حين يسألنى فى سبيل ماذا قتلت ؟ سأقول له فى سبيل دستور ١٩٢٣ ... هل دستور ١٩٢٣ هو الدستور الذى أنزله الله ليحكم هذا العالم ؟ هل هو الدستور الذى قال الله تعالى فى شأنه «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» .

هنا ، وتحت كوبرى عباس ، وتحت وابل الرصاص ... وشبح الموت يطاردنا فى كل مكان ... فى تلك اللحظة قررت إن كتبت لى الحياة لأصححن اتجاهى . ولتكونن حياتى كلها لله وحده ، ولأختطن لنفسى الخط الذى أراد الله للناس أن يسلكوه إليه ، وأن تكون جهودى جميعاً فى سبيل إقامة الدولة الإسلامية التى لا يرضى الله بغيرها بديلا «قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين »

قتل من زملائنا الطلبة فى هذه المظاهرة طالبان هما «عبد المجيد مرسى» و«عبد الحكيم الجراحى» رحمهما الله رحمة واسعة وكان الأول من طلبة كلية الزراعة والآخر من طلبة كلية الآداب ...

أما نحن الذين نزلنا تحت الكوبرى فقد واصلنا السير تحته نخوض فى الطين والأحراش حتى خرجنا مقابل مبنى الجامعة .

فى الطريق الى المركز العام

كان أول شئ فعلته أن طلبت إلى إسماعيل الجبيرى ان يصحبنى معه إلى دار المركز العام للإخوان المسلمين ، ولكنه اقترح على أن نخصص هذا اليوم لزيارة طالب من أهل الفيوم ومن الإخوان المسلمين ويقيم فى شارع المنيل القريب من الجيزة وسألته عن اسمه فقال إن اسمه عبد الحكيم عدوى عابدين وهو طالب فى كلية الآداب وهو أقدم منا عهداً بالقاهرة فهو فى السنة الثانية .

فلما التقيت بهذا الطالب فى مسكنه وجدتنى أمام أديب شاعر متصوف ، وما كاد يحس منى تذوقاً لهذه الألوان نفسها حتى أقبل على كأنما عثر على ضالته فأخذ ينشدنى من شعره ويقص على من أنباء شيخه الشيخ سلامه الراضى شيخ الطريقة التى ينتسب إليها ، وهى طريقة صوفية تربى أتباعها بأسلوب فريد ، فهم يجتمعون ليلا فى مكان خال بعيد عن الحركة والضوضاء ، ويتخذ كل منهم مكاناً منفرداً بعيداً عن زملائه ، وتطفأ الأنوار ، ويغمض كل منهم عينيه ، ويتابع بمخيلته حياته منذ ولد حتى يموت ثم يدفن ثم يحاسب فى قبره ويسأل عن ذنوبه ويوقع عليه عقاب هذه الذنوب ، ثم يرى مكانه فى النار ثم يتعرض لفتن القبر ثم يبعث ثم يرى الموقف العظيم وفى أثناء هذا الاستغراق تنبعث الآهات وتعلو الاستغاثات حيث يصل الاستغراق إلى حد غياب المريد عن وعيه .

وقد كانت هذه أول مرة — مع سابق اختلاطى بكثير من المتصوفين — أسمع فيها عن هذه الطريقة وعن أسلوبها فى التربية ، وهو أسلوب ولا شك فريد وعنيف ، وقد يمحص الفرد ويزكى النفس ويسمو بها فى ليلة واحدة وفى جلسة واحدة مالا يفعله فى أشهر أسلوب الوعظ الكلامى الذى هو المتبع فى الوزع والتربية .

وقد أنشدنى عبد الحكيم قصيدة له تربو على مائة بيت نظم فيها هذا الأسلوب التربوى بجميع أطواره ، وجعل الحديث فيها على لسان أحد المريدين فهو يغمض عينيه فى الظلام ويتابع حياته بأطوارها ويصف ما كان منه وما كان له فى كل طور حتى يصل إلى الحقيقة وهى الموت والحشر والحساب .

كما أنشدنى عبد الحكيم قصائد له أخرى فى مختلف الأغراض لكن أكثرها كان يدور حول هذه المعانى الصوفية العميقة الغور التى لا يحسن التعبير عنها إلا من لابسها وذوقها .

الى دار المركز العام

قلت لإسماعيل فى اليوم التالى سأذهب معك إلى دار الإخوان ولكن لا تعرفنى برئيسهم ولا بأحد منهم كما لا نعرف أحداً منهم بى فإنى أحب أن أراقبهم دون أن يعرفوا .. ونفذ إسماعيل .. فقد دخلنا داراً عتيقة فى شارع الناصرية بالسيدة زينب ، والدار مكونة من أربع غرف وصالة صغيرة ، وكانت الدار هى الدور الأرضى من أحد المنازل المتهالكة .. وكانت ميزتها الوحيدة أن أمامها فناء فسيحاً غير مسقوف يصلح لإقامة الحفلات وإلقاء المحاضرات .

كان الرئيس هو الأستاذ حسن البنا الذى قابلته من قبل مع صديق جمال ، ولم تكن اللافتة الموضوعة على باب حجرة مكتبه بهذه الدار مكتوباً عليها كما هو متعارف كلمة «الرئيس» بل كان المكتوب عليها كلمة «المرشد العام» .. وكان الموجودون بالدار مجموعة من الشباب أكثرهم من طلبة الجامعة وقليل منهم من صغار الموظفين .. ولمست روح المحبة والود تسود كل من فى الدار حتى العلاقة بينهم وبين المرشد العام كانت علاقة محبة وود ... نعم إنهم يحترمونه ويوقرونه ولكن توقيراً نابعاً من حب ، أما هو فيتعامل معهم كأنه واحد منهم ... ثم إنك لا تسمع حديثاً داخل هذه الدار إلا عن الإسلام وما يتصل به وما يدور حوله ، وليس معنى ذلك أنهم يتناقشون فى أمور الفقه وأحكام العبادات كما يتبادر إلى الذهن ، وإنما يدور حديثهم حول قضايا الساعة ، الاجتماعى منها والاقتصادى والسياسى ويقيسونها بمقاييس الإسلام . وتحس حين تراهم وتسمعهم وتراقب حركاتهم وسكناتهم أنهم يهيئون أنفسهم ليسدوا فراغاً فى هذه الأمة طالما ظل شاغراً نتيجة للجهل ولتدابير المستعمرين ولقهر الظالمين .. فترى الشاب منهم مشتعلا بالفكرة الإسلامية باعتبارها الفكرة الوحيدة لإنقاذ العالم مما يعانيه فى مختلف نواحى الحياة .

فإذا حان موعد الصلاة قام أحدهم فأذن على باب الدار أذاناً شجاعاً ، وهرع الجميع إلى مسجد الدار ، ورأيت باب حجرة المرشد العام قد فتح ودلف المرشد ليؤم الجميع لا يتخلف منهم أحد . وتشعر حين تنتظم معهم فى الصف أنك لست فى صلاة وحسب بل تشعر مرة أنك فى ميدان القتال وتشعر أخرى أنك تدرس على المستوى العالمى طبائع النفوس وأنواعها وعلاج كل نوع منها ... وتخرج من الصلاة وقد تجددت قلباً ونفساً وعقلا وبدناً .

أما عدد رواد الدار فكان قليلا بحيث لا تعد فى ليلة من ليالى الأسبوع أكثر من عشرين فرداً

لكن طابع الجد كان يبدو فى وجوههم جميعاً كأن الواحد منهم يحمل مسئولية أمة كاملة ، مع أن أكثرهم لم يكن مسئولا حتى عن نفسه ، لأنهم كانوا طلبة أو من هم فى مستوى الطلبة . ولقد أقنعنى هذا الطابع الذى كان أبرز شئ فيهم وفى رئيسهم بأن هذه الهيئة هى بغيتى وأمنيتى .

نظـــــام الدار

كانت هناك أربعة أيام فى الاسبوع ينتظم فيها الإخوان لسماع دروس : ثلاثة منها تلقى فى مسجد الدار ، والرابع محاضرة عامة تصف لها الكراسى و «الدكك» فى فناء الدار ويدعى إليها الجمهور فدرس فى التصوف يلقيه رجل كبير السن يدعى «حامد بك عبد الرحمن» كان مفتشاً للرى وأحيل إلى المعاش ، وكان درسه فى شرح حكم بن عطاء الله السكندرى ، وقد أفدت من هذا الدرس حيث صادفت الحكم التى كان يشرحها حامد بك عندما حضرت له صراعاً نفسيا كان يهزنى هزاً فكأنما كان يخاطبنى بتلك الحكم .

ودرس فى تفسير القرآن الكريم يلقيه حكيم الإسلام الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى . وكان يفسر القرآن بالعلوم الحديثة ، وهو لون لم يكن مألوفاً فى ذلك الوقت ، وكان الرجل بارعاً فى التفسير وفى الإقناع حيث كان على قدم راسخة فى التفسير وفى العلوم الكونية معاً .

والدرس الثالث درس التكوين . وهو درس لا تستطيع أن تسميه درس تفسير ولا درس تصوف ولا درس تاريخ ولا درس أخلاق ولا درس سياسة ولا درس أدب وإنما هو جامع لذلك كله ويجمع إلى ذلك آفاقاً أخرى ليس من السهل الإحاطة بها لأن كل هذه العلوم والفنون كانت تقدم إلى السامعين ممزوجة بذوب النفس وعصارة القلب ومهجة الفؤاد ، وهو ما يجعل مزيج هذه العلوم والفنون قادراً على صهر النفوس وصياغتها من جديد .

وكان يلقى هذا الدرس المرشد العام ،ومع أن الدرسين السابقين لم يكن يواظب عليهما إلا سبعة اشخاص أو ثمانية كنت أحدهم فإن درس التكوين لم يكن يتخلف عن حضوره أحد من الإخوان . لأنه طراز لا عهد لأحد بمثله .

أما المحاضرة العامة فبالرغم من المجهود الذى كان يبذله الإخوان فى الإعداد لها وفى دعوة الناس من الشوارع المجاورة لحضورها فإن معظم المقاعد تظل خالية مع أن الذى كان يلقيها فى أكثر الأحيان هو المرشد العام ، ولا يتخلف إلا لعذر فإذا تخلف قام شقيقه «عبد الرحمن الساعاتى» بإلقائها .

وعبد الرحمن الساعاتى خطيب مطبوع مفوه تحس حين تسمعه أنك أمام عقبة بن نافع ممتطياً صهوة جواده يخاطب المحيط الأطلسى بعد أن فتح الشمال الأفريقى حتى وصل إلى شاطئه ويقول : «لو علمت أن وراءك أرضا لخضتك إليها غازياً فى سبيل الله»، كانت خطب عبد الرحمن الساعاتى خطبا تحرك القلوب وتذكر بالأمجاد وتسيل العبرات ... وإذ ذكرت عبد الرحمن الساعاتى وخطبه الرنانة فتحضرنى شخصية شاعر عربى عظيم هو «محمود غنيم» الذى يعتبر بلبل الإسلام الصداح والذى كانت قصائده التى تنشر فى مجلة الرسالة فى المناسبات الإسلامية أنشودة يتغنى بها الأدباء ويقتبس منها الخطباء ويحفظها النابهون من الشباب ، وكان «عبد الرحمن الساعاتى» كثيراً ما يحلى خطبه بأبيات من قصيدة عامرة لمحمود غنيم ، رأيت أن أنقلها هنا لروعتها ولتعبيرها أدق تعبير عن فكرة الإخوان المسلمين ، وقد نشرت بمجلة الرسالة فى العدد الخاص بالهجرة فى سنة ١٩٣٦ :

إنى تذكرت والذكرى مؤرقـــة ... مجداً تليداً بأيدينا أضعنــــاه
أنى اتجهت إلى الاســـلام فى بلد ... تجده كالطير مقصوصاً جناحــاه
وريح العروبة كان الكون مسرحها ... فأصبحت تتوارى فى زواياه
كم صرفتنـــا يد كنـا نصرفها ... وبات يملكنا شعب ملكنـــاه

كم بالعراق وكم بالهنـــد ذو شجـن ... شكا فرددت الأهرام شكواه
هى الحقيقـــة عين الله تكلؤهـــا ... فكلما حاولوا تشويهها شاهوا

هل تطلبون من المختـــار معجزة ... يكفيه شعب من الأحداث أحياه
من وحد العرب حتى كان واترهم ... إذا رأى ولد الموتور آخـــاه
وكيف كانوا يداً فى الحرب واحـدة ... من خاضها باع دنياه بأخـــراه
وكيف ساس رعـــاة الإبل مملكة ... ماساسهـا قيصر من قبل أو شاه
وكيف كان لهم عـــــلم وفلسفة ... وكيف كانت لهم سفن وأمواه
سنوا المساواة لاعرب ولا عجـــم ... ما لامرىء شرف إلا بتقــواه
وقررت مبـدأ الشورى حكومتهم ... فليس للفرد فيهـــا ما تمناه
ورحب الناس بالاسلام حين رأوا ... أن السلام وأن العـــدل مغزاه

يامن رأى عمـــراً تـكسوه بردته ... والزيت أدم له والكوخ مأواه
يهتز كسرى على كرسيـــه فرقـــاً ... من بأسه وملوك الأرض تخشاه

سل المعـــــالى عنا إننا عرب شعارنا المجـــد يهوانا ونهواه
هي العـــروبة لفـــظ إن نطقت به فالشرق والضاد والإسلام معناه
استرشـــد الغرب بالماضى فأرشده ونحن كان لنا ماض نسينـــاه
إنا مشينـا وراء الغرب نقبس من ضيائه فأصابتنـا شظايـــــاه
بالله سل خلف بحر الروم عن عرب بالأمس كانوا هنا ما بالهم تاهوا
أين الرشيد وقـــد طاف الغمام به فحين جاوز بغداداً تحـــداه
ملك كملك بنى التامـــيز ما غربت شمس عليـه ولا برق تخطـاه
ماض نعيش على أنقاضـــه أممـاً ونستمد القوى من وحى ذكراه

إنى لأعتبر الإســـلام جامعـــة للشرق لا محض دين سنـه الله
أرواحنـــا تتلاقى فيــه خافقـــة كالنحل إذ يتلاقى فى خـــلاياه
دستوره الوحى والمختـــار عاهله والمسلمون وإن شتوا رعـــاياه
لاهم قد أصبحت أهواؤنا شيعـــاً فامنن علينا براع أنت ترضـــاه
راع يعيد إلى الإســـلام سيرته يرعى بنيه وعين الله ترعـــاه

مجلة الاخوان وشعبهم

كان للأخوان فى ذلك الوقت مجلة أسبوعية هى بنفسها التى كنت أشتريها عقب صلاة الجمعة بمسجد الرفاعى والتى على غلافها صورة الكرة الأرضية مركوزاً عليها علم يمسك به قبضتا يدين كتب تحتهما «إنما المؤمنون إخوة» ..

ولم يكن هناك فى ذلك الوقت فروع للمركز العام فى القاهرة ولا فى الإسكندرية ولا فى الصعيد وإنما كانت فروعه فى الإسماعيلية وما حولها وفى بعض بلاد الشرقية والدقهلية وفى المحمودية . وكان بعض أهالى هذه البلاد من الإخوان يحضرون إلى القاهرة لزيارة المرشد العام كما كان المرشد العام يسافر لزيارتهم .

وكانت هناك شعبة فى شبراخيت وأخرى فى كفر الدوار ؛ إلا أن هاتين الشعبتين لم تكونا إلا رجلين أثنين ؛ فى الأولى الشيخ حامد عسكرية وكان واعظ شبراخيت ، وفى الأخرى الشيخ أحمد عبد الحميد وكان من العلماء الأجلاء وكان مشتغلا بالزراعة. كما كان هناك أفراد آخرون كانوا يعاملون باعتبارهم شعباً فى بلادهم منهم الأستاذ عمر عبد الفتاح التلمسانى المحامى بشبين القناطر والأستاذ محمد عزت حسن معاون سلخانة طوخ .

من هم أعضاء المركز العام ؟

قدمت أن أعضاء المركز العام الذين لا يكادون يعدون الأربعين كانوا بين طلبة وصغار موظفين . ولكن من هم هؤلاء الطلبة وهؤلاء الموظفون وكيف وصلوا إلى هذا المركز العام المغمور وسط أحشاء القاهرة والذى لا يكاد يعرفه جيرانه الملتصقون به ؟؟!.

لقد استنتجت الإجابة على هذا السؤال لأننى كنت حريصاً على تحليل كل ما أراه فى هذا المركز العام لاسيما مايتصل بالأشخاص ... المركز العام ،فى حى السيدة زينب ... وتستطيع أنتقول إنثلاثة أرباع هؤلاءالموظفين والطلبة هم من حى السيدة زينب،وأكثر هؤلاءمن شارع واحد هو شارع زين العابدين الذى كان يسكن فيه فى ذلك الوقت الشيخ طنطاوى جوهرى ، والشيخ طنطاوى من أوائل من تعرف على الأستاذ المرشد العام ونجله جمال كان أحد هؤلاء الطلبة وكان طالباً بكلية الهندسة ، وجمال الفندى وكان طالباً بكلية العلوم ومختار إسماعيل وكان مدرساً للرياضة البدنية ، كما كان من سكان الحى الطلبة جمال عامر بكلية العلوم وطاهر عبدالمحسن ومحمود أبو السعود ورشاد سلام بكلية التجارة ومحمد سليمان وابراهيم أبو النجا بكلية الطب ومحمد عبد الحميد أحمد وعبد المحسن الحسينى وأحمد عبد العزيز جلال بكلية الاداب وحسن السيد عثمان ومحمد فهمى أبو غدير بكلية الحقوق . وكان من الموظفين الأستاذ محمد حلمى نور الدين وكان كاتباً فى مصلحة الرى والأستاذ أسعد الحكيم وهو شقيق زوجة الأستاذ عبد الرحمن الساعاتى وكانا موظفين معاً فى السكة الحديد والأستاذ حسين بدر فى السكة الحديد أيضاً والأستاذ أسعد راجح وكان سكرتيراً لمدير إنجليزى والأستاذ محمد حمص وكل هؤلاء من سكان الحى .

وكان من طلبة الأزهر الشيخ أحمد حسن الباقورى وكان فى التخصص وآل شريت وهى أسرة كريمة من أسر قرية ريفا بأسيوط كان والدهم أستاذ أبالأزهر وكان من أسبق الناس إلى الدعوة ومبايعة المرشد العام وكان أبناؤه جميعاً وأبناء عمومتهم من أخلص الإخوان منهم الشيخ أحمد شريت والشيخ محمود شريت والشيخ حامد شريت وكلهم تخرجوا فى الأزهر أو دار العلوم وابن عمهم الأستاذ فتحى شريت الذى كان موظفاً بالسكة الحديد على ما أذكر .. ومن الأزهر الشيخ عبد البارى عمر خطاب وكان طالباً بالمعهد والشيخ عبد اللطيف الشمشاعى وكان طالباً بكلية أصول الدين والشيخ أحمد الشرقاوى وكان طالباً بمعهد القراءات وقد أفدت منه الكثير فى قراءة القرآن وكل هؤلاء كانوا من حى السيدة زينب أو مما يجاوره .

فإذا أحصيت بعد ذلك الأعضاء من غير الحى أو القريبين منه لم نجدهم يعدون العشرة منهم اسماعيل خيرى وأنا وعبد الحكيم عابدين وثلة آخرون .

الزعـــابدة

أشرت من قبل إلى أن أمارات الجد كانت مرتسمة على وجوه رواد الدار ؛ وكانت دروس التكوين التى يلقيها المرشد العام تذكى فى نفوسهم شعلة الجد ، فكان مجرد التحدث فيما سوى الدعوة يعد شيئاً غريباً ، فإذا وصل الأمر إلى الضحك وإن كان بريئاً فقد يعد جريمة .. وكانت مجموعة من سكان شارع زين العابدين تميل إلى شىء من الضحك أو التهريج المحدود البرىء ، فكانت مجموعتنا الأخرى تعتبر ذلك استهتاراً لا يليق برجال الدعوة وتوجه إليه اللوم والتقريع ... وظل الأمر على ذلك حتى وجدنا أنفسنا نحن رواد الدار قسمين ؛ قسم يبالغ فى الجد وقسم لايتخلف عن أداء حق الدعوة ولكنه يميل إلى الدعابة هم فريق من سكان زين العابدين ، وأطلق الأخ محمد عبد الحميد أحمد وكان طالباً من الحكماء لفظ «الزعابدة» على هذه المجموعة واتسع بعد ذلك مدلول هذا اللفظ حتى صرنا نطلقه على المهرجين أينما كانوا .

شخصيات أخرى

ومن الشخصيات الأخرى التى كانت تتردد على الدار وكانت نافت النظر الشيخ محمد زكى ابراهيم وكان مدرساً أديباً خطيباً شاعراً متصوفاً ، وكان ممن يفهمون الأسلام فهما صحيحاً وكان يشتعل حماساً للفكرة الإسلامية وممن يحسنون فهم الجو الاجتماعى والسياسى فى مصر وفى العالم الإسلامى ، ولا أدرى لم لم يبرز اسم هذا الرجل بين شعراء مصر مع أنه كان شاعراً مطبوعاً ؛ ولعل السبب فى ذلك أن النزعة الصوفية غابت عليه ... فقد لاحظت أن الرجل كان ملازماً للأستاذ المرشد طيلة المدة التى كانت فيها الدعوة مغمورة لا يعرفها إلا الأقلون ، فلما برزت الدعوة وأمها الكثيرون أخذ هذا الرجل فى الابتعاد حتى اختفى اختفاء تاماً ... ثم قرأت أخيراً فى أيامنا هذه أنه ألف جماعة سماها «العشيرة المحمدية» ولا أعتقد إلا أن هذه العشيرة تقوم على الفكرة الإسلامية الصحيحة التى كان هذا الرجل من أوائل معتنقيها والعاملين لها والمجاهدين عليها .

وقد أدركت لأول عهدى بهذه الدار شخصيتين كانتا متفرغتين للعمل بالدار هما الأستاذ حلمى الجريسى وكان معروفاً أنه سكرتير المرشد العام والأستاذ محمد طاهر العربى وكان اتصاله بالأستاذ المرشد شخصياً يكلفه بأعمال للدعوة خارج الدار ؛ وقد لاحظت أنهما انقطعا عن الدار انقطاعاً فجائياً وتاماً مما أثار دهشتنا .

ثم «محمود هبة الله» الطالب الأزهرى الذى انقطع عن الدارسة واشتغل بالزراعة فى بلده «جنبواى» مركز إيتاى البارود فكان يقضى أكثر أيامه فى المركز العام يلهب المشاعر بحماسه البالغ وعصاه الغليظة وجسمه الفارع وصوته الجهورى وهو نجل «الشيخ الجنبيهى» من كبار علماء الأزهر الذين آمنوا بالدعوة وبايعوا عليها لأول عهدها بالقاهرة ... وقد عاش محمود هذا ما عاش لدعوته فلما مرض واشتد عليه المرض وأحس باقتراب أجله أبى إلا أن يموت بين اخوانه فطلب من أهله نقله إلى دمنهور حيث كنت أسكن ، وظل بين أيدينا حتى لفظ أنفاسه الأخيرة وهو يردد شعار دعوته ويسأل الله أن يبعثه عليها رحمه الله رحمة واسعة وغفر الله لنا وله وأوسع له فى رضوانه والحقنا به فى مستقر رحمته .

وبعد أن انقطع عن الدار الأستاذان حمدى الجريسى وطاهر العربى،أحضر الأستاذ المرشد رجلا مسناً صالحاً هو الأستاذ أحمد الحسينى وكان يبدو عليه ضعف البصر حيث تغطى عينيه نظارة سميكة العوينات ،وكنت أحب أن أجالس هذا الرجل ، لأننى اعتقدت أن الأستاذ المرشد لا يأتى إلى الدار بمثل هذا الرجل المسن إلا إذا كان لهذا الرجل تاريخ ... وكان الرجل يأنس لحديث معى ... وقد تبين لى أن هذا الرجل من الأدباء الذين أفنوا أعمارهم وكادوا يفقدون بصرهم بين مراجع اللغة ومجلدات الأدب ودواوين الشعراء حيث كانوا يدرسون الأدب لذاته لا ليتكسبوا من ورائه ، وبعد أن تضلعوا من مناهل الأدب ، وجدوا أنفسهم على قارعة الطريق لا يكادون يجدون قوت يومهم ... فتلقفتهم أيدى بغاة الشهرة من السراة ؛ يستغلونهم أسوأ استغلال ، حيث يجمع لهم الأدباء ما حصلوه من درر الأدب فيأخذه السراة ويصدرون به كتباً تحمل أسماءهم زوراً وبهتاناً ملقين لهؤلاء الأدباء بدريهمات لاتكاد تقيم أودهم كما يلقون بفتات موائدهم إلى القطط والكلاب التى يقتنونها ، وصدق الله العظيم « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم» (آل عمران) .

وقد تكشف لى هذا الأمر عندما ظهر كتاب فى الأدب لكاتب شهير من «بكوات» الكتاب فاشتريته ، فلما رآه معى الأستاذ أحمد الحسينى قص على قصة هذا الكتاب وكيف كان هو ومجموعة من أمثاله من الأدباء المغمورين يستحضرهم هذا «البك» ويعد لهم مكانا فى «بدروم» قصره ليجمعوا له مواد هذا الكتاب، وعين لى الأستاذ أحمد الأبواب من هذا الكتاب التى كانت ثمرة جهده ...

ومع أن هذا الرجل كان موظفاً بالدار فإنه كان من المؤمنين بالدعوة أعمق الإيمان ؛

ويخيل إلى أن الأستاذ المرشد كان شديد الرفق به فلا يكلفه إلا بمالا يشق عليه ولعل مهمته كانت قراءة الوفيات المنشورة فى الصحف ليؤدى الأستاذ المرشد العزاء لأ

ومن هذه الشخصيات أيضاً الأستاذ أحمد السراوى وهو شخصية ذات ماض فى الحركات الوطنية كنت تجلس إليه فيأخذ حديثه بلبك فإذا رأيت تصرفاته مع الأستاذ المرشد دهشت وأخذ منك العجب كل مأخذ ... ويبدو أنه كان ذا معرفة بالأستاذالمرشدمن قديم..وكان إذا جلس إلى الأستاذ المرشد تحس أنه موضع عطفه ... وكان الأستاذ يحدثنا عن غريب أطواره ... وكانت آخر تجربة للأستاذ المرشد معه – وكنا عليها شهوداً – يوم جاء إلى الأستاذ يكاد يبكى لسوء الحال ، فاستأجر له الأستاذ محلا واشترى له مطبعة وورقاً ، وحرر بثمن ذلك كله كمبيالات بضمانة الأستاذ المرشد ، واختار له كتاباً يعيد طبعه على ورق مصقول أبيض هو كتاب «احياء علوم الدين» ... وأخرج السراوى عدة أجزاء منه وأقبل الناس على شرائه إقبالا منقطع النظير بالسعر الذى حدده هو طبعاً ؛ ومعنى هذا أنه حقق ربحاً .. إلا أننا فوجئنا بتوقف صدور الكتاب واختفاء السراوى مما اضطر الأستاذ المرشد إلى تسديد ثمن كل هذه الأشياء من جيبه الخاص.

وهذه التجربة وإن عادت على الأستاذ المرشد بخسارة مادية إلا أنها لم تكن فجيعة له ولامفاجأة فإنه كان يتوقع من الأستاذ السراوى مثل هذا التصرف ؛ وكان من طبيعة الأستاذ المرشد أن علمه بحقيقة شخص لا يمنعه من محاولة استغلال بعض مزاياه للدعوة ؛ فالأستاذ من أول يوم قام فيه بالدعوة كان يعلم أن المطبعة من أهم وألزم وسائل الدعوات ، وكان يتمنى أن نتاح له فرصة يستطيع فيها اقتناء مطبعة ، فلما لم تتح له هذه الفرصة حيث لم يكن فى الإخوان فى ذلك الوقت من يستطيع التفرغ لهذا العمل ، انتهز فرصة افتقار السراوى إلى عمل يكتسب منه ، ففعل ما فعل وكان هدفه من ذلك أن يشعر أن هذا المشروع ممكن التحقيق فاختار لذلك المحل قريباً من المركز العام وجعل ربح المشروع كله لجيب السراوى مكتفياً بالاطمئنان على أنه مشروع ناجح ،وبطبع كتاب ينتفع به كثير من الناس وهو يعده أكبر موسوعة إسلامية ... وقد تحقق للأستاذ المرشد ما أراد من هذه التجربة فلما حدث من الأستاذ السراوى ماكان يتوقعه منه لم يفرط الأستاذ فى أدوات الطباعة إلا بالقدر الذى عجز عن سداد ثمنه فا ستبقى منها أكبر قدر يمكن استبقاؤه حيث أبقى على الحروف التى سدت ثغرة كبيرة حين انتقلت الدعوة إلى دار العتبة مما سنشير إليه إن شاء الله فى حينه ... ولم تبرح فكرة المطبعة خاطر الأستاذ المرشد لحظة من ليل أو نهار على أنها أولى الوسائل المكملة لبناء الدعوة حتى حققها أخيراً فيما بعد على صورة أكبر

من هذه وكان ينوى تطويرها لتكون أعظم مطبعة فى الشرق لأن الذين يملكون الكلمة المطبوعة يملكون توجيه العقول والأفكار ، ولكن الظروف السياسية طغت موجتها فجرفت المشروع فيما جرفت .

المهمات المنوطة بالمرشد العام

كان مجهود المرشد العام موزعاً على عدة نواح أهمها : مهنته التى يكتسب منها عيشه ، وإدارة شئونه الخاصة من رعاية منزل وأسرة وأولاد ثم الدعوة ..

أما مهنته ؛ حيث كان مدرساً بمدرسة عباس الابتدائية بالسبتية ، فكان لها وقت محدد -كطبيعة العمل - لم يكن ينتقص منه لحظة بل كان يؤديه كله بأمانة .. ولم يؤثر عنه أنه تأخر يوماً عن ميعاد أو أهمل فى أداء عمل أوقصر عن المثل الأعلى للمدرس . بل إنه كان يرى فى عمله لذة ويحس فيه سعادة لأنه كان يعتقد أنه إنما خلقه الله ليكون مربياً ، وقد أهله لذلك تأهيلا كاملا ؛ فكان يرى فى المدرسة حقل تجارب لنظريات التربية القديمة والحديثة ولنظريات تربية وصل إليها بفكره الخاص ؛ حيث تضم المدرسة التلاميذ والمعلمين والفراشين وهم من مختلف البيئات والمشارب والعقليات والظروف والأعمار .

وكان مما حدثنى به فيما يتصل بذلك؛أنه كان عليه فى فترة من الفترات أن يراقب التلاميذ فى أثناء «الفسحة» وكان الأستاذ «تقلا بك» - أول مراقب مسيحى عين فى هذا المنصب فى وزارة المعارف - قد حضر إلى المدرسة فى ذلك اليوم ... وكان رجال الوزارة يحرصون على التعرف بالأستاذ المرشد حين يحضرون إلى المدرسة ... وكان الأستاذ المرشد يعلم أن التعليمات المبنية على نظريات التربية الحديثة تمنع الضرب فى المدارس لكنه أمسك بمسطرة باعتبارها عصا فى يده وتعمد إبرازها أمام المراقب حتى يسأله فى ذلك ؛ وكان أن سأله فعلا فشرح له شرحاً أثبت له خطأ هذه التعليمات وأن تربية التلاميذ فى هذا السن لابد أن يكون الضرب غير المبرح من وسائلها على أن يكون بقيود معينة حيث هناك من الطباع ما لا يقوم بغير العصا .

وحسبك دليلا على نجاح سياسته فى هذه المدرسة أن تعلم أنه كان موضع حب جميع التلاميذ والمدرسين والناظر والفراشين واحترامهم ، وأنهم جميعاً أحبوا دعوته لحبهم لشخصه ، وكان الجميع يتمنون أن يكونوا فى خدمته ليوفروا له الوقت للقيام بأعباء الدعوة، لكنه كان حريصاً على أن يقوم هو بنفسه بعمله المدرسى كاملا وأن لا يكلف أحدا بحمل أى عبء عنه .

ولقد كنا نحتاج إليه فى أمر هام يخص الدعوة فى وقت يكون هو فيه فى المدرسة فنتصل بالمدرسة تليفونياً أو نذهب إلى المدرسة لمقابلته ، وفى كلتا الحالتين – إذا كان طلبنا إياه قد صادف وجوده فى حصة من الحصص – كان يقول لمن ذهب ليبلغه بوجودنا لمقابلته أو يبلغه أننا نطلبه على التليفون : قل لهم إنه فى الحصة ولا يستطيع مغادرة الفصل حتى تنتهى الحصة فنضطر إلى الانتظار حتى تنتهى لنقابله أو نتحدث إليه فى التليفون فى فترة الاستراحة بين الحصتين .

وأما شئونه الخاصة فكان يرعاها حق الرعاية ، فلم نسمع بشقاق عائلى فى أسرته ، كما أن أولاده كانوا يحظون منه بما يحظى به الأبناء من والد مثالى . نعم كان الوقت الذى يقضيه فى بيته ضئيلا إلا أن زوجته كانت معواناً له على الدعوة وسنعرض لهذه النقطة بعد ذلك إن شاء الله .

أما الدعوة فكانت هى محور حياته ، بل هى حياته كلها ، لم يكن يشغله عنها شاغل فى ليل ولا نهار . كانت ملء عقله وقلبه بحيث لا مكان فيهما لشىء آخر .. لم أقدر النبوة حق قدرها إلا لما رأيت هذا الرجل ، وجلست إليه ، ولازمته وعاشرته .. حينئذ بدأت أحس بقدر النبى ومكانته، فرجل كحسن البنا هو دون الأنبياء ، ومع ذلك فإن الدعوة شغلته بل صهرته حتى أخرجت منه صورة مجسمة لها ؛ فإذا تكلم تكلم بالدعوة وللدعوة ، وإذا سكت كان سكوته أسلوباً آخر للدعوة ، وإذا تحرك فلها ، وإذا سكن فلها ، وإذا أحب فلها ، وإذا أبغض فلها ، وإذا ضحك فلها ، وإذا بكى فلها ... فكيف بالنبى الذى صنعه الله على عينه ؟ !.. لذا كان مقام النبوة جديراً بقول الله عز وجل «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة» ... وهؤلاء من أمثال حسن البنا هم ورثة الأنبياء لا أولئك الذين وإن تمرسوا بعلوم القرآن والسنة فإنهم لم ينفعلوا بها انفعالا أنساهم ما سواها ولن ينفعل بالفكرة الإسلامية إلا من اختلطت بدمه فصارت أساس تفكيره ، وميزان حياته وانحصرت فى أفقها كل آماله ، وصار كل مر من أجلها حلواً فى حلقه .

إن أصحاب الدعوات لا ينبغى أن نسوى بهم العباقرة ؛ فالعبقرية لاشك إحدى صفاتهم ، لكنهم صنف من الناس أوتوا بصيرة نافذة ، وقلوباً حية واسعة ، وألسنة تنطق بالحكمة البالغة ، فهم يرون ما يعجز الناس عن رؤيته ... ومع ذلك فهم قادرون على إقناع الناس بما يرونه مما لا يراه الناس .. والناس يقتنعون بكمال خلقهم قبل أن يقتنعوا بقوة حجتهم ، وطلاقة

ألسنتهم .. تجلس إليهم وأنت غير مكترث إلا بنفسك بل قد تكون لاهياً هازلا ، فتحس بعد قليل أن تياراً دافئاً أخذ ينساب فى داخلك فيشيع الدفء فى جنباتك ، ثم لا يلبث هذا الدفء أن تشتد حرارته حتى إن حرارته لتذيب جمود نفسك وتشعل فى أعماق قلبك آمالا كانت غائبة تحت أطباق من الثلوج ... وترى عقلك الذى كان زمامه بيد اللهو قد استدار دورة ألقى فيها بسالف أفكارك فى زوايا النسيان وانفتح لأفكار جديدة تستجيب لصدى ما تحرك فى قلبك من جمود نفسك ... وتقوم من مجلسك شخصاً آخر غير الذى كنت ، ويتغير مجرى حياتك بهذه الجلسة فتقوم وهموم المجتمع الذى أنت فيه هى شغلك الشاغل وهمك القاعد المقيم بعد أن كنت لا تكترث إلا بنفسك ...

ذلك بأن هؤلاء الناس طراز خلقهم الله وفى قلوبهم مراجل تغلى لا يهدأ غليانها ، فهى تشيع الحرارة حيث كانت ، وتذيب الجمود ، وتبعث الحياة فيما حولها وفيمن حولها .. ومهما سكبت على هذه المراجل من ثلوج الدنيا فإنها تذوب والمراجل لا يهدأ لها أوار ... هى قوة دافعة خلقت لتدفع ولا تندفع . ولتؤثر ولا تتأثر ... قلوبهم مستودع للحياة تسكبه على من حولها من الموتى فيحيون ، ويحس كل واحد منهم بلذة الحياة بعد الموت .. هؤلاء الناس يعطون دائماً ولا يأخذون ويمنحون ولا يستمنحون ..

هذا فى أصحاب الدعوات أيا ما كانت الدعوات ؛ أما إذا كانت الدعوة فى ذاتها تحمل كل معانى الحق والصدق ، فإن شخصية الداعية تكتسب من صدق دعوته قوة على قوة ، ولا يستطيع أحد فى هذه الحالة أن يقاوم صاحب هذه الدعوة بالحجة والبرهان ، ولا يجد أمامه من وسائل المقاومة إلا الجحود والكذب والنكران ثم وسائل العنف والعسف والجهل والاضطهاد .

هكذا كان حسن البنا ؛ صاحب دعوة وهبه الله قوة أصحاب الدعوات ، وزاده قوة أن دعوته فى ذاتها حق لا مرية فيه « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» ولذا كان إيمان حسن البنا بدعوته إيماناً تزول الجبال ولا يتزلزل ... كنت إذا رأيته لم تر إلا دعوته ، وإذا تحدثت إليه لم تسمع إلا دعوته .. حتى فكاهته ، وما كان أجمل فكاهته ، وما كان أسرع بديهته ... حتى الفكاهة ؛ لم تكن إلا فى صميم دعوته تخرج من سماعها وقد أضفت جديداً إلى عقلك وقلبك وإيمانك .

نعم إن آمال هؤلاء الأئمة من الدعاة تبدأ حيث تنتهى آمال جيلهم ... لقد تعرفنا على حسن البنا فى أواسط الثلاثينيات ، فسمعنا منه كلاماً عن المستقبل المأمول طالما قوبل من أكثر

لناس حينذاك بالاستخفاف والاستهزاء والسخرية ... وإنى لألتمس لهؤلاء الناس العذر ؛ لقد ظهر حسن البنا فى وقت خيم فيه الظلام الحالك فلا يستطيع أنفذ الناس بصيرة أن يرى أبعد من أنفه ، كانت مصر لا أقول تئن تحت كلاكل الاحتلال البريطانى بل إنها كانت مستكينة لهذا الاحتلال وادعة مسترخية ... كان الحكام يسبحون بحمد الاحتلال ... وكان الشعب يسبح بحمد هؤلاء الحكام ، وكان المثل السائد على ألسنة الناس هو الذى يقول : ليس فى الإمكان أبدع مما كان وكنت تسمع من المثقفين ومن شباب الأحزاب إذا أنت حاولت انتقاد الحكام قولهم : لا تعاند من إذا قال فعل ... لم تكن مهمة الأحزاب تتعدى التطاحن فيما بينهم على المناصب ، فكانوا فى ذلك أشبه بسواد الشعب الفقير حين يتهافتون على ماتلقيه معسكرات الإنجليز من بقايا الطعام ، فيعتبر من يحظى بقسط من هذه «الزبالة» نفسه فائزاً قد نال قصب السبق : كذلك كان الذى يحظى من الحكام بكلمة رضا من رجال السفارة الإنجليزية يعتبر نفسه قد حقق أمنيته وبلغ الجبال طولا ويقبل عليه زملاؤه بالتهانى يغبطونه على هذا الفوز العظيم . ولم تكن السراى أحسن من هذه الأحزاب .

أما الأزهر ، وهو المصدر الوحيد الذى يتلقى الناس منه تعاليم دينهم فإنه كان أداة طيعة فى يد المستعمر عن طريق الحكام ... نشر فى الناس صورة باهتة مشوهة للاسلام فكان معنى الإسلام فى نظر الناس بفضل الأزهر لا يتعدى طقوساً تؤدى داخل المساجد أو فى البيوت ، وكادت الاستكانة أن تكون مرادفة للإسلام فى نظر الناس .

ويمكن إجمال وصف الوقت الذى ظهر فيه حسن البنا بأنه ظهر والأمة ميتة تماماً لا حراك بها. فإذا خرجت عن دائرة مصر لترى ماحولها من دول عربية وإسلامية ، وجدت كل شعب من هذه الشعوب يغط فى نوم عميق والاستعمار آخذ بخناقهم جميعاً ، وقد فقد الجميع كل شىء حتى الإحساس بالظلم ؛ كما أن شعب كل دولة من هذه الدول يجهل كل شىء عن شعوب الدول العربية والإسلامية الأخرى ؛ بل كان المصرى على سبيل المثال يعرف الكثير عن البلاد الغربية ويزورها ولا يعرف شيئاً عن بلاد شقيقة متاخمة لبلاده ولا يخطر بباله أن يزورها وكذلك كان شعور سكان البلاد العربية والإسلامية الأخرى نحو مصر ونحو بعضها بعضاً .

ولذا فانها كانت مفاجأة مذهلة أن سمع الذين استقروا فى أجداثهم – وارتضوها مساكن لهم – صوتاً كالرعد يناديهم أن قوموا من أجداثكم ، ومزقوا أكفانكم ، وانفضوا التراب عن أجسامكم ، فإن أماكنكم التى أرادها الله لكم هى فوق السحاب لاتحت التراب ؛ ألستم ذرية

الذين قال الله فيهم «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ؟!.. سيروا ورائى لنحطم الأغلال ، ونبدد سحب الظلام ، لننشر النور فى الآفاق ... قوموا لننسف بروح الأخوة التى سجلها الله لكم فى كتابه ما اصطنع المستعمر من حواجز وهمية بينكم وبين إخوانكم المسلمين فى بقاع الأرض فالمسلمون أمة واحدة « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (٩٢ الأنبياء) .

أكثر الذين اخترق آذانهم هذا النداء استقبلوه استقبالهم لحلم كاذب لا يستحق إلا الامتعاض والإعراض . وحمله آخرون على أنه هذيان مخبول من حقه عليهم أن يدعوا الله له بالشفاء ؛ ولم يقع فى موقعه إلا من قلة هى التى كان عندها علم من الكتاب، وهذه القلة الواعية دائماً هى فريق من المطحونين المستضعفين .

لفتة إلى وراء:

المرشد قبل القاهرة

يجمل بنا قبل الاسترسال فى سرد ما نحن بصدده من حلقات متصلة فى تاريخ هذه الدعوة تلك الحلقات التى كنت أحد عناصرها أو كنت أحد مشاهديها ؛ أن نلقى نظرة نطل بها على أيام لهذه الدعوة لم يشأ القدر أن أشارك فيها أو أن أشهدها بنفسى ؛ فإن تعرفى على الدعوة وعلى شخصية مرشدها كما قدمت إنما كان بالقاهرة .. ولكن الدعوة – كما حدثنا الأستاذ المرشد – لم يكن مهدها القاهرة وإنما شاء الله أن يكون مولدها الذى برزت فيه إلى الوجود هو الإسماعيلية .

حدثنا الأستاذ رحمه الله أنه وأسرته من أهالى قرية «شمشيرة» مركز فوة ، وقد نزح والده وهو صغير إلى بلدة المحمودية حيث افتتح الوالد محلا لتصليح الساعات ومن هنا لقب الوالد بالساعاتى ، وقد لصق هذا اللقب بعبد الرحمن شقيق الأستاذ المرشد الذى يليه فى السن فعرف بعبد الرحمن الساعاتى . وتعلم «الأستاذ» فى المدارس الأولية ولما أتم حفظ القرآن الكريم التحق بمدرسة المعلمين الأولية بدمنهور ولما حصل على الدبلوم عين مدرسا فى مدرسة خربتا الأولية مركز كوم حمادة .

وقد رأى أن يواصل دراسته فدرس دراسة خاصة للالتحاق بدار العلوم ، وقد اضطره ذلك إلى الانتقال إلى القاهرة حيث كان مطالباً بالعمل لكسب عيشه فالتحق بعدة أعمال منها أنه اشتغل عاملا فى محل للبقالة ، ولقى فى ذلك مالقى حتى أنه لم يكن يجد وقتاً يستذكر فيه دروسه ، ولما حان موعد الامتحان المؤهل للالتحاق بدار العلوم نفسها وجد أن مطالب

الحياة الضرورية لم تدع له وقتاً تؤهله مذاكرته فيه أن يدخل الامتحان ؛ فشكا إلى الله الذى يعلم أنه لم يقصر لحظة واحدة ... يقول رحمه الله : ونمت ليلة الامتحان فإذا بى أرى فيما يرى النائم رجلا يواسينى ويقول لى : التفت إلى فالتفت إليه فإذا بيده كتاب المادة التى سأمتحن فيها فى الصباح فيفتح الكتاب عند صفحة معينة ويشير إلى أن أقرأ حتى إذا قرأت الصفحة فتح الكتاب عند صفحة أخرى فاقرأها وهكذا حتى أنهى الكتاب فأغلقه وتركنى ، فلما أصبحت وجدتنى حافظاً كل ماقرأت — وكانت هذه طبيعتى أن أحفظ ما أقرأه — ودخلت الامتحان فإذا الأسئلة كلها هى نفس ماقرأته فى الرؤيا .. وهكذا مرت ليالى الامتحان وأيامه على هذا النحو وظهرت النتيجة فكنت الأول . والحمد لله .

يقول رحمه الله : والتحقت بدار العلوم وكنت أهوى الأدب العربى ماكان منه مقرراً دراسته ومالم يكن مقرراً وكنت أكتب ما يعجبنى من قصائد فى كراريس أعددتها لذلك حتى تكامل عندى من ذلك عدة كراريس ، وكان امتحان الأدب العربى هو الامتحان الرئيسى فى الدار وكان الامتحان فيه تحريرياً وشفوياً ؛ فلما مثلت بين يدى لجنة الامتحان الشفوى فى امتحان الدبلوم النهائى لدار العلوم سألنى رئيس اللجنة عما أحفظ من الشعر فقدمت إليه الكراريس فقال لى : ماهذه الكراريس ؟ . قلت : إن ما فيها هو ما أحفظه فتعجب الرجل وقال : هل أنت على استعداد أن أسمع منك أية قصيدة أختارها من هذه الكراريس ؟ فأجبته بالايجاب .. فطفق يطلب إلى أن أقرأ فأقرأ حتى أطمأن إلى أننى أحفظ مافيها جميعاً . ثم قال لى : إنى سائلك السؤال الأخير : ماأحسن بيت أعجبك فى الشعر العربى ؟ قلت : أحسن بيت أعجبنى هو قول طرفة بن العبد فى معلقته :

إذا القوم قالوا من فتى خلت أننى عنيت فلم أكسل ولم أتبلـــــد

قال : قم يابنى ، هذا سؤال يسأل للنابهين من الطلبة فى كل عام هنا وفى الأزهر فلم يجب أحد بمثل ما أجبت به إلا الشيخ محمد عبده ... إننى أتنبأ لك يابنى بمستقبل عظيم ..

من جهود الطالب حسن البنا

الحملة الصليبية الجديدة أو الغارة التبشيرية

سبق لى أن ذكرت أن الفترة التى قام فى خلالها حسن البنا بدعوته كانت فترة حالكة فى تاريخ هذه الأمة ، وأشير هنا إلى أن هذه الحلكة لم تبدأ مع بدء ظهوره على المسرح وانما كانت

الحلكة مطبقة على الأمة من قبل ذلك ؛ وقد بلغ استهتار الانجليز بمقدارت هذه الأمة أن تجاهلوا أنها أمة مسلمة ذات مجد وتاريخ ففتحوا للحملات التبشيرية أبواب البلاد ، بعد أن مهدوا لها بنشر الجهل والفقر والمرض ، وبعد أن اطمأنوا إلى أن مقاليد الحكم فى البلاد أصبحت فى يد الفئة التى تدين لهم بالولاء والتى هى فى حقيقة أمرها غريبة عن هذه البلاد فهى كما قال الشاعر :

بلاد قد نرى العربى فيهـــا غريب الوجـــه والـيد واللسان

انتشر المبشرون فى انحاء البلاد فى الوجهين البحرى والقبلى ، فى المدن والقرى تحت سمع المسئولين من الحكام وبصرهم ، بل إن هؤلاء الحكام فى المدن والقرى كانوا بحكم تعليمات رؤسائهم يسهلون للمبشرين وسائل دخول المدن والقرى كما يسهلون لهم وسائل الاتصال بالأهالى وإجراء مايشاءون من إجراءات بل وإقامة ما يشاءون من منشآت بل واختطاف من يشاءون من أطفال ونساء ؛ فى الوقت الذى يضربون فيه بيد من حديد كل من تسول له نفسه أن يعترض سبيل هؤلاء الغزاة ولو بكلمة معتبرين ذلك اعتداء على الحكومة ... صار هذا الشعب نهباً مباحاً لهؤلاء المبشرين .

ولم تكن وسيلتهم إلى التبشير بالمسيحية عرضاً لعقيدتهم وشرحاً لها أمام الناس كما هو المتبادر إلى الذهن من لفظ التبشير ، وإنما وسائلهم هى استغلال فقر الناس وحاجتهم وجهلهم فيأخذون هذا الطراز من الناس ويأخذون نساءهم وأولادهم وينفقون عليهم ببذخ على أن يظلوا معهم داخل كنائسهم ويقولوا مثلما يقولون ... أما الشباب من أبناء الأغنياء فكانوا يغرونهم بالنساء ... كانت وسائلهم أخس الوسائل وأحطها ... وقد استمر عملهم هذا فى جميع أنحاء البلاد أكثر من سنة ومع ذلك لم يخرجوا بمحصول يزيد على عشرات الأفراد من هؤلاء الجهلة الفقراء المدقعين ..

لم تكن هذه الحملات العاتية للتبشير إذن ذات أثر يذكر فى نتائجها من ناحية تكفير المسلمين لكنها كانت صورة بشعة متوحشة للاستعمار البريطانى أمام شعب أعزل مغلوب على أمره ، تضافرت على قهره حكومته مع الانجليز ... كان الناس يبكون من شدة الغيظ لأنهم يرون بأعينهم من ينتهك حرمة عقيدتهم – وهى أعز ما يعتزون به – وهم لايستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم لأن حكامهم جعلوا الدفاع عن النفس فى هذه الحالة جريمة يعاقب مرتكبها .

كنا فى ذلك الوقت فى رشيد – ولم تكن رشيد هدفاً للمبشرين لأنهم درسوا طبيعة البلاد قبل أن يحضروا من أمريكا وفرنسا وبلجيكا وغيرها من بلاد أوربا فعلموا أن هناك مدنا مغلقة

لا أمل لهم فيها حيث ما طبيعة خاصة وتاريخ لا ينسى ومنها رشيد ، فلم يحاولوا دخولها ..
لكننا كنا نسمع عما يفعلون بالمحمودية وقراها من خطف الأطفال وإغراء الفقراء بالمال وإغرا الشباب بالعبث وبالنساء ... وكان أهل المحمودية يحضرون إلى رشيد فيروون ما يحدث عندهم فيبكون ويبكون ..

أما الصعيد فكان مرتعاً خصباً لهم ، حيث الفقر هناك والجهل والمرض أضعاف ماهو عليه في الوجه البحرى ، وحيث كان الصعيد في ذلك الوقت يعتبر من المجاهل التى تحتاج إلى من يرتادها ويكشف عن معاناة أهلها المعزولين عن الحياة ... لقد فعلوا فيه الأفاعيل .. وكانت أسيوط نقطة ارتكازهم وكان لهم فيها مستشفى يخطفون الأطفال والنساء من القرى وينقلونهم إليه ، ولا يستطيع أهل المخطوف أن يروه أو يعلموا عنه شيئاً ، كما لايجدون من يشكون إليه .

كاد الناس يفقدون إيمانهم بالله أمام هذه القوى العارمة المتضافرة ثم لا يجدون من يعترض طريقهم ؛ حتى الصحف لم تكن تشير إلى ذلك مع أنها كانت صحافة حرة لكن نفوذ الإنجليز وقانون المطبوعات الذى وضعه الإنجليز ، يعطى حكام مصر المتواطئين معهم السلطة في مصادرة أية صحيفة أو وقفها أو سحب الترخيص بها إذا هى تعرضت للمؤامرة المدبرة على إذلال الشعب وتكفيره برضاه أو رغم أنفه ؛ كما أن الأموال الطائلة المعتمدة لحملات التبشير من خزائن أمريكا وانجلترا وفرنسا ودول أوربا كانت تنفق على هذه الصحف بسخاء ..

يقول حسن البنا – الطالب بدار العلوم في ذلك الوقت – كاد صدرى يحترق من زفرات الألم كما كادت تحترق صدور الناس من حولى ، لكننى فكرت فلم أجد لهذا الألم معنى إذا لم يتحول إلى عمل ، ولكن كيف نحوله إلى عمل والحراب مشرعة في وجوهنا من رجال الحكم الذين كان يجب أن يكونوا هم ملاذ الناس ، والذين صرنا وإياهم كما قال الشاعر :

ولقد كان منا إليك الشـــكا ةفأصبحت أنت الذى تشتكى

فكر حسن البنا فرأى أمامه في الأزهر شخصيات يرجى نفعها لما يلمس فيها من غيرة على الدين واستعداد للعمل إذا وجدوا إليه سبيلا كالشيخ يوسف الدجوى . فاتصل بهذه الشخصيات فوجد فيها تحرقاً إلى العمل لكن الطريق أمامهم مسدود ... ثم لاحت في مخيلته صورة شخصية أخرى لها كيان علمى وأدبى خاص تفردت به دون غيرها ... ولها من ظروفها ما قد يعين على إيجاد بصيص من نور في هذه الحلكة القاتمة ... تلك هى شخصية «أحمد تيمور باشا» ذلك العالم الجليل سليل المجد والصديق الشخصى للملك فؤاد .

استصحب حسن البنا معه عددا ممن استجاب له من هيئة كبار العلماء وذهبوا لمقابلة أحمد باشا تيمور فى منزله ... فاستقبلهم الرجل أحسن استقبال وكان يعرفهم جميعاً عدا هذا الشاب الصغير .. وتقدم هذا الشاب الصغير فتحدث عن الموضوع . حديث الثكلى عن فلذة كبدها — ووصف الحال التى تظل البلاد وكيف يعبث المبشرون فى البلاد فساداً تحت سمع الحكومة وبصرها بل وفى حمايتها وانفجر فى البكاء حتى أبكى الباشا فأبكى الحاضرين ... وتداول المجتمعون عسى أن يجدوا مخرجاً ... وجاءت سيرة الملك فؤاد فقال تيمور باشا إنه صديقى وأثق فى غيرته على الإسلام وتعددت الاجتماعات ونوقشت أفكار ومقترحات وانتهت إلى قرار بأن أول إجراء لابد منه أن نصدر مجلة تتصدى لهذه المؤامرة وتفضح اعتداءاتها وتستنهض الهمم لمقاومتها .. وبمجهود تيمور باشا وتدخل الملك فؤاد صدرت مجلة الفتح وأسندت رياسة تحريرها إلى الكاتب الإسلامى العظيم الأستاذ محب الدين الخطيب ..

وقد حضرت فى خاطرى الآن قصة كان قد حدثنابها الأستاذ المرشد ؛ وهى تتصل بأساليب المبشرين فى إغراء أبناء الأغنياء من المسلمين بالنساء مما أشرنا إليه قبلا ... ومعذرة إلى القارىء إذ فاتنى ذكرها فى موضعها .

وقد حدثنا الأستاذ بهذه القصة فى معرض حديثه عن كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام أبى حامد الغزالى . وكان الأستاذ المرشد يرى أن هذا الكتاب هو أعظم موسوعة إسلامية ، وكانت إحدى أمانيه أن تتيح له الظروف شرح هذا الكتاب . وقد شرع فعلا فى ذلك فأعد درساً أسبوعياً فى منزله لمجموعة من الإخوان فى شرح هذا الكتاب وكان حريصاً على كتابة كل درس يلقيه فى كراسة —مما لم يفعله فى أى درس آخر — ولكن الظروف لم تسعف فقد هبت الأنواء من كل جانب على سفينة الدعوة فعصفت أول ما عصفت بهذه الدروس التى لم تدم إلا بضعة أسابيع ولله الأمر من قبل ومن بعد .

قال الأستاذ : فى أوج الحملة التبشيرية — وكنا إذ ذاك بالمحمودية — كان أحد الشبان —وذكر لنا اسمه ولكننى نسيته — من أبناء أثرياء المحمودية قد أغرى باحدى فتيات المبشرين حتى ملكت عليه فؤاده ... ولما كان الشاب مستقيما متديناً فقد أبدى رغبته للمبشرين فى الزواج منها ، فاشترطوا عليه قبل إتمام الزواج بها أن يتنصروأن يعمل خادماً فى الكنيسة .. ففعل ودخل الكنيسة يقضى فيها نهاره وليله ولا يخرج منها أملا فى أن ينال رضاهم فيحققوا له رغبته الجارفة .

وفى إحدى الليالى ، بينما هو نائم فى الكنيسة رأى فيما يرى النائم أنه فى الجنة – وفيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . – ثم رأى رجالا ثلاثة عليهم هيبة ووقار قادمين نحوه ... وتقدم أحدهم فسلم وعرف بنفسه فكان موسى عليه السلام ثم تقدم الآخر فكان عيسى عليه السلام ... ثم أشارا إلى ثالثهم وقال : أتعرف من هذا ؟ قال : لا قالا .. إنه محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين قال : فأخذتنى رعدة ... فقالا : إنما جئنا لنعتب عليك فيما فعلت ... وقال عيسى عليه السلام : كيف ترجع على عقبك وتتنصر مع أننى أنا أؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ؟...

قال الشاب : فاستحييت من النبى صلى الله عليه وسلم وتصببت عرقاً مما فعلت بدافع الشهوة والهوس وحاولت الاعتذار والتوبة فلم أستطع أن أنطق فقد ألجم لسانى ... فسكن النبى صلى الله عليه وسلم من روعى وقال لى : إذا أردت أن تصحح إيمانك فاصعد إلى أعلى الجنة – وحدد لى شجرة معينة – فستجد أبا حامد الغزالى جالساً فى ظلها فتلق عنه كتابه «إحياء علوم الدين» .

قال الشاب : فصعدت حتى رأيت أبا حامد فابتدرنى بقوله : مرحباً بمن بعث به إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثم أخذ يفتح كتابه «الاحياء» ويشرح لى وكلما شرح لى باباً انكشف عن قلبى غمة حتى استيقظت من النوم وقد غسل قلبى ولم يعد للفتاة التى أحببتها شىء فى نفسى ، وخرجت من الكنيسة واقتنيت كتاب الإحياء .

قال الأستاذ : وعكف الشاب على الكتاب فصار شغله الشاغل حتى كاد يحفظه وكنا نرجع إليه فى فهم ما يصعب علينا فهمه منه .

وبعد إيراد هذه القصة المعترضة .... أرجع إلى سياق الحديث فأقول :

أخذت مجلة «الفتح» تفضح مؤامرات الإنجليز ، فاضطر الإنجليز إلى الانحناء أمام العاصفة وبدأت الحملة الصليبية لأول مرة نواجه مقاومة . وكانت النتيجة العاجلة لفشل المؤامرة أن اضطر الإنجليز لسحب أذنابهم حكام مصر من المعركة فلم يبق فى أرض المعركة إلا الصليبيون والشعب وجها لوجه .

وتكونت لجنة فى القاهرة برياسة الشيخ محمد مصطفى المراغى الذى كان من قبل شيخاً للأزهر لمقاومة التبشير وتكونت لها فروع فى المدن والقرى ، ونصدت هذه اللجان لمن يسمون

أنفسهم بالمبشرين ، ومامن مرة تقام مناظرة بين الطرفين علناً إلا انهزم المبشرون بالحجة والبرهان ، بعد أن زال عنصر الترغيب والإغراء ، وعنصر القهر والإرهاب .

ولم تستطع الحملة الصليبية المسعورة بعد ذلك أن تثبت فى اما كنها إلا أياماً معدودة ، فكل يوم تجلو عن البلاد فرقة منهم حتى طهرت منهم البلاد فى أشهر معدودات .

إنشاء جمعية الشبان المسلمين :

كانت هذه الحملة الصليبية من أشد ما أصاب مصر من ويلات الاحتلال البريطانى ؛ إذ كان القصد منها تحويل مصر إلى معسكرين متناقضين كما فعلوا بالسودان ؛ فشمال السودان مسلمون وجنوبه مسيحيون . وقد أرضع مسيحيو الجنوب كراهية مسلمى الشمال ... كذلك أرادوا أن يفعلوا بمصر فقد ركزوا على الصعيد فأنشأوا فيه المركز الرئيسى لهم ، وكانوا ينقلون إليه من يختطفونه من أطفال الوجه البحرى ونسائه.. وشاء الله مع ذلك أن يخرج من هذا الشر المستطير خير ؛ فلولا هذه الحملة المسعورة ما استطاع حسن البنا أن يجمع على العمل للإسلام هؤلاء الرجال الذين لم تكن تجمعهم جامعة ولا تضمهم رابطة وجزى الله الشدائد كل خير .

وكان من ثمرات ذلك إنشاء جمعية تسمى جمعية الشبان المسلمين وأسندت رياستها إلى رجل مسلم غيور هو الدكتور عبد الحميد سعيد . وكان الطالب حسن البنا من أوائل من اشترك فى عضويتها .

وقد وجدت الرياضة فى هذه الجمعية باعتبارها وسيلة لجذب الشباب ، وإن كان تطور الزمن قد غلب الرياضة على جميع أغراضها حتى كادت تفقد المعنى الدينى الذى أنشئت من أجله .

كتاب « الغارة على العالم الإسلامى »

كان اختيار الأستاذ محب الدين الخطيب لتحرير مجلة «الفتح» اختياراً موفقاً ؛ فقد كان من القلائل الذين يفهمون الفكرة الإسلامية فهماً كاملا دقيقاً ، وكان من العلماء بالتاريخ الإسلامى القديم والحديث ، كما كان محيطاً بتواريخ الأمم على اختلافها ، ولم يكن مصرى المولد فالمعلوم أنه كان من أهل الشام . وشارك فى الحركات الإصلاحية الإسلامية فى نواحى العالم الإسلامى ويبدو أنه نزح إلى مصر هرباً من بطش الفرنسيين الذين كانوا لا يطيقون أن يروا كاتباً اسلامياً حراً فقد نفوا زميلا له هو الأمير شكيب أرسلان .. وقد عمل مع الشيخ محمد عبده

ومع الشيخ رشيد رضا...وكانت له مكتبة عظيمة فى شارع درب الجماميز وبها المطبعة التى تطبع له الفتح وقد نقل مكتبته بعد ذلك إلى جزيرة الروضة .. وأنا طبعاً لم أحضر مجلة الفتح فى أول ظهورها لكننى حين نزحت من أجل الدراسة إلى القاهرة كنت حريصاً على التنائها وكنت أجد فى قراءتها متعة عظيمة لأنها هى وحدها التى كانت الصوت المعبر عن الفكرة الإسلامية فى ذلك العهد، وهى وحدها التى كانت تلتقى على صفحاتها أقلام المجاهدين من أنحاء العالم الاسلامى وكان شعارها المكتوب بجانب اسمها على الغلاف هو هذه العبارة «أنت على ثغرة من ثغور الإسلام فلا يؤتين من قبلك» .

وكان من أعظم ما أخرجه الأستاذ محب الدين مما سوى مجلة الفتح كتاب « الغارة على العالم الإسلامى » هذا الكتاب يجدر بكل مسلم يريد أن يفهم الحقائق فى هذا العالم أن يقرأه . إذ استطاع هذا الكتاب أن يفضح المؤامرة العالمية التى حاكتها الدول المسيحية للقضاء على الإسلام حيث كان.. ولم يعتمد الكتاب فى فضح المؤامرة على مجرد التشهير بها والتنويه بخطورتها ورص عبارات التحذير منها ، وإنما اعتمد فى ذلك على نشر نصوص اتفاقيات سرية تم عقدها بين هذه الدول فى صورة جمعية عالمية للتبشير ألفتها هذه الدول ، وقد استطاع الأستاذ محب الدين الحصول على نصوص هذه الاتفاقيات بطريقته الخاصة . وإذا قرأت نصوص هذه الاتفاقيات وما رصدته هذه الدول لتنفيذها من مئات الملايين من الجنيهات وقرأت الوسائل التى رسموها لتقويض دعائم الإسلام فى نفوس معتنقيه لعجبت لبعد نظر هؤلاء القوم ولبراعتهم فى التنظيم والتخطيط .

وقد لقى هذا الكتاب حين صدر مقاومة عظيمة واتبعت فى مقاومته نفس الأساليب الملتوية التى خططوها للقضاء على الفكرة الإسلامية ، وربما كان من هذه الأساليب شراء كل ما يصدر من الكتاب من نسخ وإعدامها فيحولوا بذلك بين المسلمين وبين اطلاعهم على محتوياته .. وهذا أسلوب من أساليب الاستعمار فى محاربة الكلمة المطبوعة .

ليقضى الله أمراً كان مفعولا

تخرج حسن البنا فى دار العلوم ، وكان أول دفعته بمجموع يصل إلى النهايات ، وكان المتبع أن يوفد أول الدفعة فى بعثة دراسية إلى الخارج ولكن شاء الله أن يحول دون ذلك ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا ، وتؤسس دعوة الإخوان المسلمين فى سنة ١٩٢٨ بعدأن تم تعيينه مدرساً بمدرسة الإسماعيلية الابتدائية .

فى الاسماعيلية

كانت الإسماعيلية فى ذلك الوقت مدينة أجنبية بكل ما تحتمل هذه الكلمة من معان ، بل إن وصفها بهذا الوصف لا يفى بكل معانيها ، فهى قطعة من أوروبا ، فعلية أهلها أجانب من جميع الجنسيات ، والموظفون المحترمون بها أجانب ، وحاكمها « الحكمدار » أجنبى ، والجيش المرابط فيها إنجليزى ... وهؤلاء الأجانب الذين يسكنونها يعيشون عيشة أكثر رفاهية وأرغد عيشا وأقوى جاهاً من تلك التى يعيشها أهلهم وذووهم فى فرنسا وانجلترا وغيرهما من بلاد أوروبا ... لأنهم فى بلادهم قد لا يجدون من يخدمهم من أبناء جلدتهم إلا القليلين الذين يتقاضون أجراً باهظا قد يعجزون عن أدائه ومع ذلك فإن هؤلاء لا يرضون لأنفسهم — حين يخدمونهم — إلا معاملة الند للند ، لا يقبلون منهم غطرسة ولا مهانة ولا كبرياء ... أما فى الإسماعيلية فالمصريون لا يكتسبون قوتهم إلا من خدمة هؤلاء الأجانب الذين يعتبرونهم أصحاب البلد الأصليين أما هم فخدم طارئون لا يتقاضون أجراً على خدمتهم إلا التافه القليل .. أشربت قلوبهم الذل فالرجل منهم لا يشعر أنه أهين إذا ما شتمه سيده الأجنبى أو صفعه أو ركله برجله لأن هذا كان هو الشىء الطبيعى المألوف .

كان سكان هذه المدينه ثلاث فئات : جيش الاحتلال البريطانى وشركة قناة السويس وهى خليط من الأجانب ولكن أكثرهم من الفرنسيين والإنجليز والأمريكيين ... والفئة الثالثة هى خدام هاتين الفئتين وهم المصريون ... ولما كانت الطبيعة البشرية تدفع بالأدنى إلى تقليد الأعلى فقد كان هؤلاء الخدم وهم الأهالى وقد فقدوا مقومات التشبه بسادتهم فى عيشة الرفاهية والبذخ لأنهم فقراء فلم يبق أمامهم إلا التشبه بهم فى شرب الخمر والإباحية على طريقتهم الخاصة .

لم يكن أهل الإسماعيلية جميعا عمالا لدى الأجانب بل كان منهم مقاولون ، وما أفخم صدى هذه الكلمة فى الأسماع ، ولكن ماذا كان عمل هؤلاء المقاولين ؟ كان عملهم توريد الخدم (العمال) من المصريين إلى هؤلاء الاجانب ، فكانت تجارة رقيق مقنعة وكان من عملهم نهب خيرات البلاد من مختلف قراها وأسواقها من الأغذية وحرمان الشعب منها وتوريدها للمستعمرين .. وكان من عملها شراء الزبالة التى يلقى بها جيش الاحتلال من بقايا الطعام وفتات الموائد وهو ما كان يسميه هذا الجيش(Rubbish) ويبيعه المقاول الكبير إلى مقاولين صغار وهؤلاء بدورهم ينقلونه إلى مختلف بلاد القطر حيث يتهافت أهالى البلاد المحرومون على شرائه ليقتاتوا به .

لم يكن للحكومة المصرية وجود فى الإسماعيلية ، ولا للقوانين المصرية وجود .. وإنما كان الجيش البريطانى سنداً لحكومة مستقلة ذات سيادة هى شركة قناة السويس .

نزل الشاب الصغير حسن البنا هذه المدينة الصاخبة وهو فى سن العشرين ، فرأى المدينة على الحالة التى وصفنا ، ووجد أنها تتكون من سادة هم الأجانب وخدم هم المصريون ، وهاله ما رأى من صلف السادة ومهانة المصريين .. وأحس أن الله تعالى قد اختار له هذا البلد لتكون المعجزة الاسلامية واضحة بارزة ... درس الشاب المنطقة المصرية من المدينة فوجد أن المساجد بها على ندرتها لا يؤمها إلا الشيوخ الفانون وذوو العاهات،أما آلاف الشباب فلا مقر لهم بعد الخروج من عملهم إلا المقاهى .. ولما كانت الدعوة فى حاجة إلى الشباب فلابد إذن من الاتجاه إلى المقاهى .

أراد أن يلفت إليه الأنظار ، فدخل إحدى المقاهى المكتظة ، وعلى حين فجأة تناول جذوة (بصة) من إحدى النراجيل « الشيش » وألقى بها وهى ملتهبة من أعلى فنزلت على إحدى المناضد وسط الجالسين وتناثرت ، فارتاع الحاضرون وغادروا أماكنهم مذعورين وتلفتوا يبحثون عن مصدرها فرأوا شابا وسيما واقفا على كرسى يقول لهم « إذا كانت هذه الجذوة الصغيرة قد بعثت فيكم الذعر إلى هذا الحد فكيف تفعلون إذا أحاطت النار بكم من كل جانب ومن فوقكم ومن تحت أرجلكم وحاصرتكم فلا تستطيعون ردها ... وأنتم اليوم استطعتم الهرب من الجذوة الصغيرة فماذا أنتم فاعلون فى نار جهنم ولا مهرب منها » ...

وهكذا استمر فى موعظته يضرب بها على أسماع مرهفة وقلوب متفتحة وأحاسيس فى أشد حالات اليقظة على أثر المفاجأة ، فكان لها أعمق الأثر فى نفوس الحاضرين . واتجهوا إليه يسألونه عن نفسه وعن عمله وعن مقره ، وبدأوا يلتفون حوله ويغرمون بالاستماع إليه ، وقد حببهم فيه أنه شاب ، وأنه متطوع لا يتقاضى على موعظته أجراً ولا يبغى منها لنفسه نفعاً وتوالت كلماته فى المقاهى تنقل الحديث عنه من مقهى إلى أخرى حتى كثر الملتفون حوله فبدأوا فى تنظيم اجتماعاتهم به ، ولما ضاقت بهم المقاهى قرروا تكوين جمعية واتفقوا على تسميتها « الاخوان المسلمون » ثم رأوا أن يقوموا ببناء مسجد ودار يجتمعون فيها وبنوا المسجد والدار فكانت هى أول دار للإخوان المسلمين .

من آثار الدعوة فى الإسماعيلية

بنيت دار الإخوان فى الإسماعيلية وبنى مسجدهم وساهم فى بنائهما الأهالى كما ساهمت شركة قناة السويس باعتبارهما عملا دينيا تفهمه الشركة كما كان يفهمه سائر الناس فى ذلك الوقت على أنه دروشة .

شركة جباسات البلاح

وسرت روح الإيمان الجديد من عمال الإسماعيلية إلى زملاء لهم بعيدين في الصحراء حيث شركة جباسات البلاح وهى شركة أجنبية أيضاً تضم مئات من العمال . وتعلم هؤلاء العمال فيما تعلموا « الصلاة » ورأوا أن عملهم بالشركة يضيع عليهم بعض الصلوات لعدم وجود مكان بالشركة يصلح لأدائها ... فتقدم هؤلاء العمال إلى الشركة يطلبون بناء مسجد فيها لتأدية الصلاة فاستجابت الشركة لهم إذ هو مما لا يضيرها.فلما تم إنشاء المسجد أوعز إليهم الأستاذ أن يطلبوا من الشركة تعيين إمام للمسجد ليصلى بهم .. ولما كانت الشركة لا عهد لها بشروط الإمامة فقد فوضتهم فى اختيار من يصلح لذلك .

كان الشيخ محمد فرغلى طالباً أزهرياً ، نهل من معين الدعوة وارتوى ، وكان قد وضع نفسه فى خدمة الدعوة يوجهه الأستاذ حيث يشاء . فاختاره الأستاذ لهذه المهمة مهمة الامامة وخطبة الجمعة بمسجد الشركة .

ويسر وجود الإمام داخل الشركة للاخوان العمال أن يدعوا زملاءهم للصلاة لتضاعف بذلك عدد المستجيبين للدعوة من عمال الشركة .

جنرال لا إمام

أحس الأجانب المسئولون فى هذه الشركة بعد فترة من وجود هذا الإمام أن عمال الشركة قد تغيروا تغيراً ملحوظاً ، فهم وإن زادوا إخلاصاً فى عملهم حتى ظهر ذلك فى إنتاجهم إلا أنهم صاروا يعتزون بكرامتهم ولا يقبلون إهانة من أى مسئول بالشركة مهما علت مرتبته ومهما كان وراء ذلك من ربح مادى لهم .

إن هذا التطور شئ جديد .. ولم يطرأ على الشركة جديد إلا هذا الإمام الذى عين للمسجد .. إن هذا الامام ينشر أفكاراً صحيحة ونبيلة ومثالية لكنها ستحد من سلطتنا على هؤلاء العمال إذن لابد من إبعاد هذا الإمام .

ذهب أحد كبار المسئولين بالشركة واسمه المسيو فرانسوا فى اليوم التالى إلى المسجد بنفسه ونادى الإمام وقال له : إن الشركة قد قررت الاستغناء عنك وستمنحك مكافأة سخية جداً على أن تغادر المسجد الآن ولا تعود اليه .

فقال له الشيخ محمد فرغلى : ولكننى لا أستطيع مغادرة المسجد لأنك لست الذى جئت بى إلى

هذا المكان . فقال : ومن إذن الذى جاء بك ؟ قال : الأستاذ حسن البنا .. فبعث مدير الشركة فى طلب الأستاذ حسن البنا . فلما حضر قال له : يا أستاذ حسن أنت لم ترسل إلينا إماماً للمسجد وإنما أرسلت لنا جنرالا .

فسأله الأستاذ المرشد قائلا : أحب أن أسألك باعتبارك المسئول الأول فى هذه الشركة ... هل لاحظت منذ جاء هذا الإمام إلى المسجد على العمال تقصيراً فى أداء عملهم؟ قال: لا . قال: هل لاحظت عليهم سوء أدب مع زملائهم أو مع رؤسائهم ؟ قال : لا . قال الأستاذ : إذن لا مانع عندى من سحب الإمام .

زواج المرشد العام

كان من بين من استجاب للدعوة من أهل الإسماعيلية أسرة كريمة من أسرها تدعى أسرة الصولى ، وهم تجار من متوسطى الحال ... وكانت هذه الأسرة من الأسر المتدينة بطبيعتها وممن يربون أولادهم على الدين .. وكانت والدة الأستاذ تزور هذه الأسرة ، فسمعت فى إحدى ليالى زيارتها صوتاً جميلا يتلو القرآن فسألت عن مصدر ذلك الصوت فقيل لها إنها ابنتنا فلانة تصلى فلما رجعت الأم إلى منزلها أخبرت نجلها بما كان فى زيارتها وأومأت إلى أن مثل هذه الفتاة الصالحة جديرة أن تكون زوجة له ، وكان ما أشارت به ، فقد تزوجها فكانت أم أبنائه وهى التى رافقته فى السراء والضراء وكانت خير عون له فى دعوته حتى لقى ربه شهيداً مظلوما

انتشار الدعوة فى المنطقة

كان انتشار الدعوة بعد تأسيسها فى الإسماعيلية أمراً طبيعياً وقد ظل الاستاذ المرشد فى الإسماعيلية نحو خمس سنين انتشرت فى خلالها الدعوة فى منطقة القناة فى الإسماعيلية وبور سعيد والسويس وفى منطقة البحر الصغير من الدقهلية وفى بعض بلاد الشرقية — وكانت نعقد مؤتمرات لهذه المناطق فى أوقات دورية .

الباب الأول

في شارع الناصرية

- العمل الطلابي المنظم
- الدعوة على مفترق طريقين

مقدمة

إذا كان لصاحب دعوة يبغى من وراء دعوته أن يتوطد مركزه ، ويعلو مقامه ، ويكون فى عز من التفاف الناس حوله ، والتمارهم بأمره ، ومسارعتهم إلى ما يرضيه ، وتنافسهم فى التقرب إليه ، وبذلهم كل نفيس فى سبيله ، فإن ذلك كله قد توفر لحسن البنا فى الإسماعيلية وما حولها .. ونستطيع أن نقول واثقين إن حسن البنا قد صار أعظم شخصية فى هذه المنطقة .

فإذا يريد إنسان بعد ذلك ؟ إن مثل هذا الداعية – وقد تحقق له أعظم ما يخطر بخيال إنسان ليطيب له المقام حيث العز والجاه والسلطة والشهرة دون منافس ولا منازع .

ولكن حسن البنا لم يكن هدفه الحصول لنفسه على هذه المتع الشخصية التى هى منتهى آمال كثير من الدعاة ، وإنما كان هدفه أبعد من هذا بكثير ... إنه كان يرى أنه يدعو إلى دعوة عالمية ، فلا بد أن ينتقل بها إلى حيث يبلغ صوته أوسع دائرة ممكنة من هذا العالم ... نعم إنه سيترك مكاناً يشار إليه فيه بالبنان ، ويتحدث عنه فيه بالإجلال الرجال والنساء والصبيان ، وإذا نادى هرع إليه ألوف من الناس ، وإذا قال ردد قوله ألوف آخرون .. سيترك ذلك إلى مكان لا يعرفه فيه أحد ، ولن يحظى بتوقير ولا احترام ، وإذا نادى بأعلى صوته لم يستجب لندائه فرد واحد.. سيترك ذلك إلى مكان يكون فيه من غمار الناس ومجهوليهم.. كان يعلم هذا وأكثر منه ولكن طبيعة دعوته تفرض عليه أن ينتقل ..

ومن أطرف ما حدثنا به الأستاذ المرشد مما يتصل بهذه المناسبة قوله : إنه بعد انتقال الدعوة إلى القاهرة بثلاث سنين وانتقال مركزها العام إلى ١٣ شارع الناصرية بالسيدة زينب .. حضر أحد إخوان الإسماعيلية إلى القاهرة لزيارتى ، ولم يكن هذا الأخ قد زار القاهرة من قبل .. وكان يعتقد أن المركز العام للإخوان المسلمين بالقاهرة له من الشهرة ما للمركز العام السابق فى الإسماعيلية وأن الأستاذ حسن البنا من أشهر شخصيات القاهرة ..

فلما نزل من القطار فى محطة القاهرة سأل أول من قابلهم من أهل القاهرة عن المركز العام للإخوان المسلمين ، فلما سمعه هؤلاء يسألهم عن شىء مجهول – وكأنه يسأل عن أحد معالم القاهرة

اعتقدوا أنه شخص ساذج وقالوا له ساخرين – اتجه من هذا الطريق (وأشاروا إلى ناحية ما) ثم اسأل هناك... وظن الأخ أنهم جادون فى كلامهم واتجه حيث أشاروا ثم سأل فأجيب بنفس الطريقة .. وهكذا ظل يضرب فى شوارع القاهرة على غير هدى حتى قابلته صدفة وقد جاوز دار المركز العام بمسافة ... يقول الأستاذ فقص على الأخ ما حدث معتقداً أن هؤلاء الناس دلوه على الطريق وأثنى عليهم .. غير أنه لما قفل راجعاً مع الأستاذ المرشد المسافة التى جاوز بها دار المركز العام قال للأستاذ المرشد : إن كل من سألتهم عن الطريق صدقونى إلا صاحب هذا المحل (وأشار إلى محل على بعد أمتار لاتعدو الخمسين من المركز العام) فقد سألته فقال لى : امش إلى نهاية هذا الشارع (شارع الناصرية) فستجد ميدان السيدة زينب فاسأل هناك عن المركز العام .

ضحك الأستاذ المرشد ، وفهم أن الدعوة حتى بعد انتقالها إلى القاهرة بثلاث سنوات لازالت إحدى النكرات حتى ان الملتصقة دكاكينهم بدار مركزها العام لا يعرفونه .

محال إذن أن من يكون هدفه أن يعيش فى جو من الشهرة والاتباع ، والشيعة والأشياع ، أن يغادر مكاناً يتوفر له فيه كل ذلك ، لينتقل إلى مكان يكون فيه نكرة مجهولة ، وكمية مهملة ولكن المصلح يستجيب لدعوته مهما كلفته هذه الاستجابة .

انتقل فى عمله الخاص الذى يكتسب عيشه منه إلى مدرسة عباس الابتدائية بالسبتية بمصر ، واتخذ لأسرته مسكناً فى حارة الروم بالغورية ، وجعل مقره هذا مقراً للمركز العام بالقاهرة .. أما تعرفى على الدعوة فلم يكن إلا بعد أن اتخذوا المركز العام مكاناً فى شارع الناصرية ، ويعد هذا الموقع بالنسبة لموقعهم السابق كالخروج من تحت الأرض إلى ظهرها ، وإن كانت الدار كما قلت من قبل داراً قديمة متداعية .

تركيز الجهود على الطلاب

تكوين لجنة الطلبة

تحدثت عن الطلبة الذين التقيت بهم فى المركز العام حين ترددت عليه أيام محاولتى استكناه أمر هذه الدعوة وأمر العاملين فيها . وقد لفت نظرى اهتمام الأستاذ حسن البنا بالطلبة اهتماماً شديداً فإذا تخلف طالب من المنتمين إلى الإخوان لأى سبب من مرض أو غضب أو غير ذلك عطل كل أعماله وخف إلى زيارته فى مسكنه مع مجموعة من زملائه الطلبة ويقضى عنده الساعات الطوال ؛ وهو الرجل الذى يضن بالدقائق أن يقضيها فى استقبال زائر مهما علا مقامه ؛ والرجل

الذى كتب على مكتبه هذه العبارة «الوقت هو الحياة» لأنه كان يخطىء المثل الذى يقول «الوقت من ذهب» ويقول : إن الذهب إذا ضاع أمكن استرداده ولكن الوقت إذا ضاع لم يمكن استرداده . وكان على مكتبه أيضاً لافته تقول «الواجبات أكثر من الأوقات».

كان يرى أن الطالب هو أحق إنسان أن يعتنى به وأن يحرص عليه وأن يبث إليه ما فى العقل والقلب . كان حريصاً على أن تكون أمور الطلبة من اختصاصه هو دون غيره ، ويخيل إلى أن انتقاله إلى القاهرة كان أهم دوافعه أن يكون فى الموقع الذى يمكنه من الاتصال بالجامعة التى كانت فى ذلك الوقت وحيدة لا أخت لها فى بلد آخر من بلاد القطر .. ومن مظاهر حرصه على الاتصال بالطلبة والعناية بأمرهم ماحدثنى به فى ذلك الوقت الأخ الكريم محمد فهمى أبو غدير قال لى : إن الأستاذ المرشد حريص كل الحرص على الاتصال بطلبة الجامعة بكل الوسائل الممكنة ، وكان يعتبر إقناع طالب واحد فى كلية من الكليات أنفع للدعوة من دخول بلد بأسرها فيها ، وكان يتلمس وسائل هذا الاتصال فعلم أن كلية الحقوق قررت على طلبة السنة الأولى بها دراسة مائة حديث نبوى اختارتها .. فهرع الأستاذ إلى هذه الأحاديث المقررة فشرحها شرحاً رائعاً ونشرها فى مجلة الإخوان وقام الاخوان الطلبة بعرض هذا العدد من المجلة على طلبة الكلية فأقبلوا عليها وتهافتوا على اقتنائها. وبهذه الوسيلة اكتسبت الدعوة عدداً جديداً من طلبة كلية الحقوق.

وبعد فترة قصيرة من التحاق بالدعوة رأى الأستاذ المرشد أن يكون للطلبة مجلس إدارة سماه «لجنة الطلبة» تمثل كل كلية فيها بطالب فكان يمثل كلية الآداب محمد عبد الحميد أحمد وكلية الحقوق حسن السيد عثمان وكلية الطب ابراهيم أبو النجا وكلية العلوم جمال عامر وكلية التجارة طاهر عبد المحسن وكنت أمثل كلية الزراعة واختار الأستاذ المرشد حسن السيد عثمان رئيساً للجنة واختارنى سكرتيراً لها .

كان تكوين اللجنة عملا كبيراً فى أثره وإن كان فى مظهره شيئاً تافها ، فلجنة مكونة من ستة شبان صغار فى حجرة صغيرة من شقة متواضعة فى شارع غير مرموق لا تثير شيئاً من الاهتمام ، ولا تبعث فى النفوس آمالا ترتقب ... ولكن الأستاذ حسن البنا بحاسته التى حباه الله بها ، والتى يرى بها من المستقبل مالا يراه جيله ، كان يعرف ما سيكون لهذه اللجنة من آثار بعيدة المدى ، فكان يعقد عليها آمالا عريضة اثبتت الأيام أنه كان على حق فى عقدها .

وإذا كنا نريد أن نعرض لآثار هذه اللجنة فسنقول الكثير ، وسيطول القول ، وسنرى آخر الأمر أن جميع تطورات الدعوة وكل ماقامت به من أعمال وما حققت من آمال وما أخفقت فيه من ذلك ، وأن بروز الدعوة على المسرح المصرى وانتشارها فى المجالين العربى والإسلامى ، ومواجهتها للاستعمار الغربى والغزو الفكرى الروسى منذ سنة ١٩٣٦ حتى الآن : كل ذلك هو آثار من هذه اللجنة .

الفصل الأول

العمل الطلابى المنظم

على أثر تكوين لجنة الطلبة بدأ عمل منظم فى الوسط الطلابى كانت مظاهره مايأتى :

أولا : توزيع مجلة الاخوان

لم تكن مجلة الإخوان المسلمين مجلة خبرية ولا مجلة ثقافية عامة حتى يقتنيها المتشوفون إلى معرفة الأخبار أو الذين ينشدون الثقافة للمتعة والتسلية ، وإنما كانت لساناً معبراً عن دعوة الإخوان المسلمين، وكان الأستاذ المرشد يكتب بقلمه أكثر ماينشر فيها، وكان يحاول فى كتابته أن يقنع من يقرأها بالدعوة ؛ فكانت هناك سلاسل من المقالات بعناوين «دعوتنا» ، «إلى أى شىء ندعو الناس» «هل نحن قوم عمليون ؟..» وأمثال ذلك مما يوضح بأساليب متنوعة طبيعة الدعوة وأهدافها ، ووسائلها وآثارها ، وكانت بقية المقالات تدور حول المعنى نفسه .

كما لم يكن لهذه المجلة رأس مال للإنفاق منه عليها، ولما كان محرروها لايتقاضون على التحرير فيها أجراً فإن تكاليفها كانت قاصرة على أجر طباعتها وثمن ورقها وكان الأستاذ المرشد يتكفل شخصياً بالجزء الأكبر من ذلك ... ومجلة هذه حالتها وهذه ظروفها ما كان مصدروها ليفكروا فى حمل عبء آخر من أعبائها بأن يتعاقدوا مع شركة توزيع لتوزيعها ؛ وكيف يقدمون على مثل ذلك وهم عاجزون من ناحية عن تقديم مايتطلبه التوزيع من أجر ، ومن ناحية أخرى لايستطيعون طبع الحد الأدنى من النسخ حتى تصلح للتوزيع فهم يطبعون منها نسخاً بقدر ما يملكون من مال . وهذا القدر لايفى بعشر مايتطلب التوزيع العام فى مختلف الأنحاء .

لهذا كان يطبع من هذه المجلة بقدر عدد الإخوان الذين كانوا يقتنونها من أعضاء شعب منطقة القنال وما حولها وترسل إليهم عن طريق مندوبين من هذه الشعب يحضرون إلى القاهرة لتسلمها أو ترسل إلى هذه الشعب عن طريق مندوبين يحملونها إليهم وقد ترسل عن طريق البريد وكانت الكمية التى تستبقى فى القاهرة يوزعها الموجودون بالمركز العام على أنفسهم ، وقد تبقى بعد ذلك بقية لاتجد من يقتنيها .

ونظرت «لجنة الطلبة» فى موضوع المجلة فوجدت أن توزيع المجلة هو وسيلة من أهم وأجدى وسائل نشر الدعوة ووجدت أن الطلبة قد يكونون أكثر الطوائف فهما لما يكتب فيها وأحوجهم إلى قراءتها وأنفعهم للدعوة إذا اقتنعوا بأفكارها ، فقررت اللجنة أن يلتزم مندوب كل كلية بعدد من النسخ كل أسبوع يوزعه فى كليته .. وبدأت التجربة بعدد قليل وأخذ العدد فى الازدياد وكان الأستاذ المرشد يتابع هذا التوزيع باهتمام لأنه مقياس لمدى نجاح الدعوة فى كل كلية من الكليات.. وكان بعضنا – نحن أعضاء اللجنة – فى أول الأمر يسدد ثمن أكثر ما التزم به من نسخ من جيبه الخاص ولكن نجاح التجربة أغنى عن ذلك فيما بعد .

ثانيا : نشر الدعوة داخل الكليات

كانت الكليات خلواً من الدعوة الإسلامية فى الوقت الذى كانت تعج فيه بالأحزاب السياسية والأفكار المنحرفة وكانت رؤية الطلبة زميلا لهم يصلى كافية للتشنيع عليه ورميه بالرجعية ولذا كان الطالب الذى تربى فى بيته على المحافظة على الصلاة يجد مشقة فى أداء الصلاة فى كليته ، وكان يستخفى بالصلاة خشية أن يراه زملاؤه فيرشقونه بألفاظ مؤلمة .. وقد يحمل هذا الكلام على محمل المبالغة أو التخيل ... ولذا فسوف أشرح مواقف توضح للقارىء أن هذا الوصف خلو من أى معنى من معانى المبالغة .

التحقت بكلية الزراعة وكانت الكلية فى تلك السنة ١٩٣٥-١٩٣٦ لاتزال مدرسة عليا ، وكانت لا تزال هناك وجبة غداء فاخرة تقدم للطلبة وكانت فترة الغداء هذه تطول أكثر من ساعة وتمتد فترة الدراسة بعدها إلى ما بعد العصر ؛ فكان أداء صلاة الظهر أمراً لا مفر منه فى فترة الغداء ... ولما كنت طالباً جديداً وكنت حديث عهد بالكلية فقد تولتنى الحيرة أين أؤدى صلاة الظهر ، فلم أجد أمامى من أتوسم فيه معرفة ذلك إلا الفراشين فدلنى أحدهم على المكان وكان هذا المكان قبة مبنية على الأرض ، ولكى أدخل تحت هذه القبة كان على أن أهبط سبع درجات سلم حيث أدخل مكاناً مظلماً يشغل ثلاثة أرباع مساحته الضئيلة قبر عليه ستار من قماش مهلهل وحول القبر قطع بالية من حصير قذر لا يتسع لصلاة إثنين معاً ..

انقبضت نفسى حين دخلت هذا المكان وتعجبت كيف تؤدى الصلاة فى مثل هذا المكان ، ولكونى طالباً صغيراً حديث عهد بالكلية اضطررت لأداء الصلاة فيه فترة من الزمن ، حتى إذا استقرت فى خاطرى معالم هذه الكلية بدأت أبحث عن طريقة للتخلص من أداء الصلاة فى هذا

الجب البغيض . ولقد لاحظت أنه لحماية هذا المهبط إلى هذا الجب أقامت الكلية سوراً قصيراً من الحديد حوله ولكنه على وجه الأرض طوله نحو ثلاثة أمتار وعرضه نحو ذلك أو يزيد ؛ فتمنيت لو أننا صلينا فى هذا المكان ... ولاحظت أن هناك طالباً مواظباً على أداء صلاة الظهر فأحببته وتعرفت عليه وكان إسمه «محمود مكى» بالسنة الثالثة - وتبين لى بعد ذلك أنه مندوب «مصر الفتاة» » بالكلية - فعرضت عليه أن نصلى فوق الأرض فى المساحة التى يحصرها السور فهمس فى أذنى بأن هذا غير ممكن وإن أحداً لن يجرؤ على الصلاة فوق الأرض ، وأننا نصلى تحت القبة حتى لا يرانا زملاؤنا فيسخروا منا ويتهكموا علينا .

أثار فى هذا الاستخذاء وأجج فى صدرى مرجلا من الغضب فنقلت الحصير البالى من تحت القبة إلى المساحة التى يحصرها السور من سطح الأرض ، ثم وقفت فى هذا المكان وأذنت أذان الظهر بأعلى صوتى فكان أذانى هذا إحدى العجائب إذ تماطر الطلبة والفراشون وموظفو الكلية من مختلف الجهات إلى حيث أؤذن ليروا بأعينهم مالم يصدقوا فيه أسماعهم .. فكانوا يعتقدون أن اجتماعهم فى مواجهتى وتكأكؤهم على كاف لإخجالى مما أقوم به فأكف عن إكماله ، ولكننى قبل أن أقدم على ما أقدمت عليه كنت مقدراً حدوث ماحدث بل حدوث ماهو أكبر وأنهيت الأذان ، وأقمت الصلاة وصليت والجموع فى مكانها لا تتحرك وأبصار الجميع شاخصة إلى ... وفى اليوم التالى فعلت مافعلت بالأمس . والباطل لاتقوى صولته إلا إذا تخاذل أهل الحق عن حقهم أما إذا اعتزوا بحقهم . ووقفوا شامخين أمام سيل الباطل فإن الباطل ينحسر سيله ويرتد خاسئاً وهو حسير ... فبعد أيام قلائل وجد محمود مكى والطلبة الذين كانوا يستخفون بصلاتهم وجدوا فى أنفسهم الجرأة أن يصلوا معى على وجه الأرض وظل العدد يكثر يوماً بعد يوم حتى ضاقت هذه المساحة بالمصلين .

كان لهذا العمل أثره فى فتح الطريق أمام الدعوة الإسلامية وهى دعوة الإخوان المسلمين ، فلقد كان أمام الطلبة المؤمنين باب مغلق تهيب كل منهم أن يحاول معالجته فكان هذا العمل بمثابة اقتحام الباب «وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين . ياقوم أدخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا ياموسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » .

كان هذا هو العمل الذى لابد منه حتى تجد الدعوة الإسلامية الجديدة لنفسها طريقاً وسط هذا المزدحم الزاخر بالفكر والدعوات التى توطنت واستقرت فى نفوس هذا الشباب المأمول والذى عمل المستعمر وذيوله من قديم على الاستحواذ على عقله وفكره وعواطفه ومشاعره بعد أن ربوا على أيديهم وفى أحضانهم جيلا بثوا فيه أفكارهم ثم ألقوا إليه بمقاليد الأمور .

لقد كان دخول الدعوة الإسلامية كليات الجامعة أشبه برجل فقير ولد له ولد فجاء قوم من الأغنياء فاغتصبوا ولده وطردوا هذا الرجل الفقير وشردوه كل مشرد ، وربوا هذا الطفل فى قصورهم فنشأ لايعرف إلا لغتهم ولا يتغذى إلا بغذائهم ولا يتزيى إلا بزيهم ... فلما اهتدى والده بعد لأى إلى مكانه فى القصر ، اقتحم إليه فقوبل اقتحامه بعاصفة من الدهشة والاستنكار حتى من ولده الذى لم يكن يعرفه .. لما كان من الوالد – وهو صاحب حق – إلا أن ثبت فى مكانه ، وتمادى فى إصراره – ولصاحب الحق صولة – حتى بدأ قلب الولد ينبض بالرابطة الإلهية الأصيلة وألقى بنفسه بين ذراعى والده .

حرم الجامعة :

كانت مصر فى ذلك الوقت لا تزال قريبة عهد بالتعليم الجامعى ، ولم تكن الجامعة حتى ذلك الوقت الذى أتحدث عنه إلا مبنيين أثنين فى آخر شارع المدارس بالجيزة أحدهما لكلية الآداب والآخر لكلية الحقوق ، وبين المبنيين مبنى ثالث تعلوه قبة ضخمة هو إدارة الجامعة . ووسط ذلك كله أرض فسيحة مغطاة بالنجيل الأخضر تسمى «حرم الجامعة» . وكان حرم الجامعة هذا هو معترك أصحاب الدعوات ، حيث كان طلبة كليتى الآداب والحقوق فى ذلك الوقت يعدون أنفسهم بحكم ثقافتهم الأدبية والقانونية قادة الطلبة حيثما كانوا ، وهم الذين تفوضهم الأحزاب فى تمثيلها فى الأوساط الطلابية ، وكانت خزائن الأحزاب مفتوحة للطلبة المشايعين من هاتين الكليتين .

كان حرم الجامعة حتى ذلك الوقت حلبة نزال مستمر بين الأحزاب المصرية ، الوفد والأحرار الدستوريين والسعديين والحزب الوطنى ثم جد عليهم ممثلو « مصر الفتاة » ... ثم استقر رأينا فى «لجنة الطلبة» على النزول بالدعوة إلى حرم الجامعة ؛ وكنت الوحيد من خارج الكليتين العتيدتين الذى أصبح له مكان بينهم فى هذا الحرم .. وكانت المناقشات بيننا وبين ممثلى مختلف الأحزاب تستعر حتى أصبح لنا صوت مسموع فى هذا الحرم .

ثالثا : نشر الدعوة فى الاقاليم

سبق لى أن أشرت إلى أن الدعوة لم تكن معروفة إلا فى إقليم القنال وما يتاخمه من بعض بلاد الدقهلية والشرقية وبلاد معينة لأنها موطن أشخاص معينين من السابقين فى الدعوة كالمحمودية وكفر الدوار وشبراخيت وشبين القناطر ؛ ومع ذلك لم تكن الدعوة فى هذه المناطق معروفة على صورتها الكاملة بل تعرف منها جوانب محددة على القدر الذى كانت تسمح به ظروف الدعاة وظروف المدعوين .

ووجد الأستاذ المرشد ثمرة جهود سنة كاملة بين يديه من شباب الجامعة بل من أنضج شبابها قد يصل عدداً إلى المئة يفهمون الدعوة على أوسع دائرة من الفهم ومن أقدر الناس على توضيحها لغيرهم ، فكان لابد من الإفادة من هذه المجموعة التى يندر وجود مثلها فى هيئة من الهيئات .

أعد الأستاذ المرشد فى أواخر العام الدراسى مذكرة من نحو عشرين صفحة شرح فيها طرق الاتصال بالطبقات المختلفة من الناس والأساليب المثلى لمخاطبة كل طبقة ، وضمنها مجموعة من الآيات والأحاديث التى يستعين بها الداعية ، وطبع هذه المذكرة على «البالوظة» وقسم الطلبة مجموعات يضم بعضها طالبين وبعضها ثلاثة وبعضها أربعة ووزع هذه المذكرات على المجموعات وقسم القطر المصرى على هذه المجموعات فكان نصيب مجموعتناوتتكونمنطالبين: رشاد سلام من كلية التجارة وأنا – مدينة الإسكندرية .

ولما بدأت الإجازة الصيفية انتشرت هذه المجموعات فى أنحاء القطر .. وإلى هذه البعثات يرجع الفضل فى نقل الدعوة إلى كل مكان فى مصر ، وفى الانتقال بالدعوة من طور إلى طور جديد ؛ من طور كانت فيه جمعية موضعية تقارن بالجمعيات الإسلامية الأخرى التى كانت موجودة بالقاهرة مثل جمعية مكارم الأخلاق وجمعية البر والاحسان وجمعية الشفقة الإسلامية وجمعية دفن الموتى وأمثالها إلى طور آخر زاحمت فيه دعوات دينية كانت منتشرة فى كثير من بلدان القطر مثل الجمعية الشرعية وجمعية أنصار السنة كما بدأت تزاحم أفكاراً سياسية مسيطرة فى كثير من البلدان مما تعود الناس إطلاق اسم الأحزاب عليها .

وكانت المفاجأة المثيرة فى هذه البعثات أن الناس لأول مرة رأوا دعاة إلى الدين منشباب لم يكن يمت إلى الدين بصلة رسمية .. إذ كان طلاب الجامعة–وكانوا إذ ذاكعدداًقليلا– يتهمون فى عقيدتهم وينظر إليهم على أنهم أصبحوا غرباء عن بلادهم حتى فى العادات والتقاليد .. فكان

غريباً أن يروا من هذا الشباب من يغشى المساجد ومن يتكلم فى الناس كلاماً حلواً جميلا مطعماً بآيات كريمة من القرآن وبأحاديث شريفة من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ويكسو هذا الكلام الجميل روعة وجلالا وتأثيراً صدوره من قلوب مؤمنة به طاهرة نقية لا تسألهم عليه أجراً.

تمخضت هذه البعثات عن تكوين شعب فى جميع عواصم المديريات (المحافظات) وفى بعض حواضر المراكز .. نعم كان أكثر هذه الشعب يتكون من عدد قليل من الفقراء ومتوسطى الحال إلا أنهم كانوا مؤمنين بالدعوة فقد استجابوا إليها دون طمع فى منصب أو جاه أو مال ودون خوف من بطش فاصحاب الدعوة أنفسهم مجردون من ذلك كله حتى إن زعيم الدعوة ليس إلا مدرساً فى مدرسة ابتدائية .

رابعا : عام المعارك

بدأ هذا العام - وهو العام الثانى منذ التحقت بالدعوة - وقد أصبح لدعوة الإخوان كيان ملموس ، فقد أحس الطلبة فى بلادهم - وأكثرهم من خارج القاهرة - بدعاة من زملائهم انتشروا فى خلال الصيف فغزوا الريف ودخلوا بالدعوة إلى أحشاء البلاد .. وجاء هؤلاء الطلبة فى العام الدراسى الجديد إلى كلياتهم لامسين الكيان الإخوانى ، فلاعجب إذا هم نظروا إلى زملائهم من الإخوان من طلبة الكلية نظرة توحى بالاهتمام .

وكان لابد لهذا الكيان الملموس - وقد وجد - أن يعمل ، وأن يكون لعمله صدى ، وأن يكون لهذا الصدى دوى يلفت الأنظار ويشغل الرأى العام

(ا) معركة المساجد

من البدهى أن تكون الخطوة الأولى لدعوة إسلامية أن توجد المسجد الذى هو رمز الإسلام وقاعدته التى تنبعث منها أشعته فتضئ ما حولها - ولا ننكر أنه كان فى بعض الكليات مصليات لأداء الصلاة لكنها كانت فى أماكن حقيرة أنشأها عادة السعاة والفراشون ، وكان الطلبة الذين يريدون تأدية الصلاة يستنكفون أن يؤدوها فى هذه الأماكن لحقارتها وقذارتها من ناحية ، ولعدم وجود أماكن للوضوء بجانبها من ناحية أخرى ... ومن هنا نشأ ما نطلق عليه معركة المساجد وقد نشأت هذه المعارك فى أكثر الكليات فى خلال هذا العام لكن أشد هذه المعارك إثارة ما كان فى كليتى الزراعة والآداب لما كان لهما من معان كبيرة ودلالات .

فى كلية الزراعة :

أشرت آنفاً إلى المحاولات التى بذلناها فى كلية الزراعة فى السنة الماضية فى سبيل الإعلان بالصلاة والظهور بها من تحت الأرض إلى سطحها ، وما كان لتلك المحاولات – التى عدت جريئة من آثار بعيدة المدى فى نفوس الطلبة والمدرسين وإدارة الكلية . ولم نكن – نحن الإخوان – نتصور أن هذه الآثار قد وصلت إلى حد هيأت فيه النفوس تهيئة عظيمة .

رأينا – نحن إخوان الكلية–أن نطالب إدارة الكلية بفرش هذه المساحة الضئيلة التى نصلى فيها بجانب القبة بحصير جديد ... وأول إنسان اتجه إليه نظرى ، وعول عليه أملى لمساعدتنا فى هذا الأمر هو وكيل الكلية وكان معروفاً بالصلاح والتقوى ، وبأنه من دراويش مسجد الحسين فذهبت إليه وحدثته فى الموضوع وأنا واثق فى الإجابة ، ولكننى سمعت منه كلاماً صدمنى وهدم آمالى حيث قال أولا : لا داعى لهذا ، وهذه القطع من الحصير موجودة فى المصلى من قديم ولم يشك منها أحد غيركم ، فلما طلبت منه أن يحضر للصلاة معنا عليها غضب وقال : إن إدارة الكلية لا شأن لها بمثل هذه الأمور !!

نقلت ما دار بينى وبين الرجل إلى إخوانى بالكلية فأسفوا لخيبة أملهم فى الرجل المصلى الذى لا يدع السبحة من يده والذى لا يدع يوما دون أن يصلى العشاء بمسجد الحسين ثم يطوف بالمقام .. ولكن خيبة أملهم لم تقعد بهم عن مواصلة الجهد واقترحوا أن نتقدم بهذا الطلب إلى العميد – وكان الوكيل قد حذرنا من ذلك خوفاً من أن يسلبنا ما اكتسبناه من حق الصلاة فوق سطح الأرض باعتبار العميد رجلا بعيداً عن هذه الاتجاهات ... ولكن ذلك لم يمنعنا أن نجازف وتقدمنا إلى العميد وكان الأستاذ محمود توفيق الحفناوى (بك)

استمع العميد إلى مطلبنا . وأطرق قليلا ثم بعث فى طلب وكيل الكلية فحضر . فقال له : إن هؤلاء الطلبة يطالبون طلباً متواضعاً . وأنا أتابع موضوع المصلى وتطوراته التى حدثت فى العام الماضى . وأنا معجب بجهود هؤلاء الطلبة المتدينين . وأنا لا أقبل أن تكون مصلى الكلية هذا المكان الحقير . ثم قال للوكيل : أتعرف المكان الذى كان يقام فيه سرادق الفداء فى العام الماضى ؟ قال : أريد أن يقام مكانه مسجد وتلحق بالمسجد حديقة خاصة به ...

ذهل الوكيل مما سمع من العميد ثم زاده ذهولا قول العميد له : أحب أن تتفرغ أنت شخصياً لإنجاز هذا العمل فتقيم المسجد وتفرشه بأفخر فرش وتشرف على زرع الحديقة بالأزهار الجميلة المناسبة ثم تعين له إماما يتفرغ للإمامة وشئون المسجد ..

ثم قال العميد : إن هذا المشروع سيتكلف كثيراً ، ومن الممكن أن نقيمه على حساب الكلية باعتباره منشأة من منشآتها ، ولكنى أحب أن يشعر الجميع بالمعانى السامية التى تدور حول إقامة مسجد بالكلية ولا يكون ذلك إلا إذا ساهم فيه الجميع طواعية ، وسأفتتح الاكتتاب بعشرة جنيهات منى .. وأمر الوكيل بإعلان الاكتتابات وكتابة اسم كل مكتتب والمبلغ الذى اكتتب به على سبورة توضع على حامل فى مدخل مبنى الكلية ... وانهالت الاكتتابات من الأساتذة والمدرسين والطلبة ، وأشاعت هذه الطريقة فعلا روحاً جديدة فى الكلية طلبة وأساتذة .. وجميع مبلغ كبير غطى المطلوب وزاد.

وقد أفدنا من هذه التجربة ما يأتى :

١ ــ أن المجهود النابع من قلوب مخلصة لابد أن يثمر « والعمل الصالح يرفعه »

٢ ــ أن الذين ينحرفون بالمعانى الإسلامية الكبيرة إلى مظاهر الدروشة وما يصاحبها عادة من الضعف والخنوع والاستكانة ، ليسواهم الذين يصلحون أن يعينوا على النهوض بالمجتمع الإسلامى بل هم المثبطون .

٣ ــ أن هناك رجالا من أولى العزائم فى حاجة إلى ما يكشف عن عزائمهم من عمل جرئ مخلص فيرى الناس من هذه العزائم والهمم جلائل الأعمال التى يعجز عنها أكثر الناس .

وبنى المسجد وبنيت بجانبه دورة مياه خاصة به وألحقت بها حديقة غناء وصار يؤذن فيه وتقام الصلاة ويمتلئ بالمصلين وقد يضيق بهم على سعته .. وكان ذلك فاتحة عهد جديد لدعوة الإخوان المسلمين بالكلية وانتصاراً ساحقاً للفكرة الإسلامية .

فى كلية الآداب :

كان أداء الصلاة فى كلية الآداب أمراً شاقاً لعدم وجود مكان محدد معد لهذا الغرض وفى إبان معركة المسجد بكلية الزراعة استيقظت فكرة إقامة مسجد بكلية الآداب ... ولكن الوضع فى هذه الكلية يختلف عنه فى كلية الزراعة ، فالكلية عبارة عن مبنى واحد ، فليس بداخله مساحات من الأرض يمكن استغلالها فى بناء مسجد . وليس بالكلية مرافق تسهل هذه العملية .. ولذا فإن مجال الاختيار فى هذه الكلية كان محصوراً فى تخصيص حجرة من حجرات الكلية تكون قريبة من دورة مياه .

وتقدم الإخوان بالكلية إلى المسئولين بها يطلبون تخصيص حجرة لتكون مسجداً ، وكما هو

معتاد رد المسئولون يعتذرون بعدم وجود مكان لذلك ، ورفع الإخوان مظلمتهم إلى عميد الكلية وكان الدكتور منصور فهمى (باشا) ولم يكن معروفا عن الرجل اهتماماً بالدين ... وطلب العميد المتظلمين وسألهم عن الحجرة التى يريدونها ، فبينوا له عدة حجرات فقال الرجل : ينبغى أن تخصص للصلاة أكبر حجرة فى الكلية وأفخم حجرة بها .. وقال : أليس مكتب الأساتذة الانجليز يشغل أفخم حجرة فى الكلية ويلحق بها أفخم دورة مياة ؟ قالوا بلى : قال : سأوقع الآن أمراً بإخلاء هذه الحجرة وتخصيصها ودورة المياة الملحقة بها للوضوء والصلاة . وعلى إدارة الكلية إعداد حجرة أخرى لتكون مكتبا للأساتذة الانجليز .وبلغت الدهشة بالإخوان كل مبلغ لأن الإنجليز فى تلك الأيام كانوا سادة البلاد وأصحاب الكلمة والنفوذ وإن هذا الرجل بتصرفه هذا يضع نفسه فى فوهة مدفع قد يعصف بمستقبله فأراد الإخوان أن يفتحوا للعميد بابا للتراجع عن هذا القرار إلى قرار أدنى خطورة منه .

ضحك الرجل وشكر الإخوان على كريم شعورهم نحوه وإيثارهم مصلحته وقال لهم : لعلكم ظننتم أن هذا القرار كان منى وليد حماس بعثته فى نفسى حرارة الموقف وشدة التأثر .. لا والله يا أولادى ... لقد كان هذا القرار فى نفسى منذ سنوات ولكنى كنت محتاجاً إلى من يدفعنى إلى إصداره فكان مجيئكم هو هذا الدافع ...

أنا أعرف مدى سلطة الإنجليز فى بلادنا ومدى الإرهاب الذى جعل حول كل انجليزى هالة يراها المصرى فينكمش مهما كان هذا المصرى عظيماً ... ولكن سراً طويته بين أحناء ضلوعى من قديم وسأفضى به لأول مرة بين أيديكم الآن : لما كنت مبعوثا فى فرنسا واصلت دراستى بها حتى أخذت فى إعداد رسالتى للحصول على الدكتوراه ، وأعددتها فعلا ، ولما عرضتها على الأساتذة الذين سيناقشونها وبيدهم منحى الدرجة وبيدهم منعها أجمعوا على أنهم لن يمنحونى الدرجة – مع إقرارهم بأن الرسالة جديرة – إلا إذا أضفت إليها عبارات أهاجم فيها الرسول صلى الله عليه وسلم وأمام طيش الشباب . وخوفى من الرجوع إلى مصر بغير الدكتوراه فاعتبر خائباً ... أذعنت .. ومنذ ذلك الوقت وأنا نادم وأترقب فرصة تتيح لى عملا أكفر به عن هذه الخطيئة ... وقد أتحتم لى يا أبنائى هذه الفرصة فشكراً لكم ودعونى أعمل هذا العمل لعل ضميرى يستريح ..

وصدر القرار فكان مفاجأة مذهلة للجميع لا سيما للإنجليز الذين – لشدة ذهولهم – لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً إلا التنفيذ – وبذلك تحولت أعظم حجرة بالكلية وأعظم دورة مياه إلى مسجد بملحقاته .

(ب) معركة مع المخابرات البريطانية

مع أنه كانت في بلادنا حكومة مصرية إلا أنها لم تكن تعرف حقيقة ما يدور على أرض بلادها من حركات في حين كان الإنجليز يرقبون هذه الحركات ويرصدونها. كان الإخوان في الكليات حتى ذلك الوقت في طور التكوين لا يزالون يعرضون فكرتهم الإسلامية عن طريق الإقناع الفردي، وعن هذا الطريق الفردي صار للدعوة أنصار من طلبة الجامعة كثيرون ... لم تفهم الحكومة المصرية حتى ذلك العهد فكرة الإخوان ولا أهدافهم ولكن الإنجليز تنبهوا لخطورة هذه الدعوة حين رأوا فجأة استجابة لها في أوساط طلبة الجامعة ... وأقول فجأة لأنهم لم يكونوا يعرفون عن دعوة الإخوان شيئاً قبل أن تصل الجامعة، وتبين لي أن الأستاذ المرشد كان حريصاً من أول يوم قام فيه بالدعوة على أن يموه على الإنجليز، ويتفادى أي إجراء يستلفت نظرهم.

ولما تنبه الإنجليز اتخذوا إجراء عجيباً ... أرسلوا إلى القاهرة رجلا إنجليزياً أستاذاً في التاريخ لزيارة كلية التجارة، فالتف حوله الطلبة والأساتذة فعرفهم بنفسه فقال إنه إنجليزي مسلم بعد أن اعتنق الإسلام عن اقتناع سمى نفسه «خالداً» وأنه أستاذ في التاريخ وأنه جاء إلى القاهرة باعتبارها العاصمة الإسلامية الكبرى ليسعد باللقاء والحديث مع رجال الجامعة من الأساتذة والطلاب حديث الأخ لإخوته .. سرى بين الطلبة نبأ هذا الأستاذ الإنجليزي المسلم فتقاطروا عليه كل يريد أن يوجه له سؤالا ... فتن الطلبة به بل والأساتذة. وسرت روح الافتتان إلى كليات أخرى فصارت تتوافد منها مجموعات بعد مجموعات للالتقاء به في كلية التجارة.

ولا أدري لم اختار كلية التجارة بالذات ليظهر فيها دون الكليات الأخرى؟ ولكن لعل اختيارها كان لكونها تقع في حي المنيرة في وسط المدينة، ولأن الدراسة فيها تسمح للطلبة بالتجمع في حين كليات أخرى كالطب مثلا وإن كانت في وسط المدينة إلا أن الطلبة فيها مشتتون بين المعامل وعنابر المرضى.

واستجابة لطلب المفتتنين به من الطلبة والأساتذة نظمت الكلية له محاضرات يلقيها – وأنا شخصياً لم تتح لي فرصة لحضور محاضراته ولا للالتقاء به – ولكن إخوان كلية التجارة كانوا ينقلون إلينا كل شيء عنه يوما بيوم، لأننا فهمنا الهدف من إيفاده في هذا الوقت بالذات، وفهمنا اللعبة الإنجليزية التي طبعا لم تخطر على بال أحد من الطلبة ولا من الأساتذة ...

كانت محاضراته تدور حول كيفية اقتناعه بالدين الإسلامي ثم كان يتطرق من ذلك إلى

شرح الفكرة الإسلامية وأن العقيدة الإسلامية هى العقيدة الوحيدة التى تتمشى مع العقل وتخضع المنطق،وفى أثناء شرحه للفكرة الإسلامية كان يجنح بها إلى النواحى العبادية والتصوفية ، ومن طرف خفى يقصرها على هاتين الناحيتين فيبالغ بها فيهما ويباعد بها عن الشئون الدنيوية والتشريعية وكان أسلوبه هذا يلقى هوى فى نفوس الكثيرين من خلاة الذهن عن حقيقة الفكرة الإسلامية .

والإخوان المسلمون فى فهمهم للفكرة الإسلامية يعرفون أية مواضع منها توغر صدور الإنجليز باعتبارهم قادة المستعمرين فى ذلك العهد . ويعرفون أيضاً الخطط التى وضعها الإنجليز لمحاولة التخلص من هذه المواضع ، ويعرفون أن هذه المواضع هى ما يتصل من الفكرة الإسلامية بالتشريعات التى تنظم الحياة وتكون الدولة الإسلامية المثالية ... فالإنجليز يرتضون من الفكرة الإسلامية - إن كان لابد منها - الجزء الذى يتصل بالعبادة ويحاولون أن يمسخوا هذه العبادة بما يلقون عليها من ظلال الرهبانية مما يسمونه تصوفاً بحيث يتقوقع المسلم على نفسه فلا يبالى بما يدور حوله فى الحياة ، ويستوى عنده أن تكون بلاده حرة أو مستعمرة ، لأنه حسب هذا الفهم المشوه للفكرة الإسلامية ، يعتقد أنه أدى كل ما أوجبته عليه .

الإنجليز بالذات - من دون المستعمرين-لم يحاولوا مهاجمة المسلمين بالحديد والنار كما فعل الفرنسيون والإيطاليون وغيرهم ، بل إنهم مكنوا لاستعمارهم فى البلاد الإسلامية بوسيلتين اثنتين معاً : الأولى الاستيلاء بوسائل الإغراء المختلفة - من مال ومناصب - على مراكز التوجيه الإسلامية والأخرى : إبراز الفكرة الإسلامية للشعب مبتورة ممسوخة .

فعلوا ذلك فى مصر ، فبعد أن ضمنوا أن المتربع على عرش البلاد صنيعة لهم - حتى إن الخديوى توفيق طلب حمايتهم واستجابوا له - ضمنوا بذلك أن الذين سيتداولون الحكم فى البلاد هم الفئة الغريبة عن الشعب بعواطفها وآمالها وبلغتها .. ثم وجدوا أن مركز التوجية الإسلامى فى البلاد هو الأزهر فعملوا - عن طريق صنائعهم الحكام - على أن تكون مناصبه الرفيعة لمن تستهويهم المناصب ولمن يبيعون دينهم بعرض الدنيا ، وعن طريق هؤلاء سرت الفكرة المبتورة عن الإسلام فى مختلف أوساط الشعب الطيب القلب فانخدع ، وبهذا الأسلوب الهين اللين نام الشعب وغط فى نومه ولم يعد يبالى بما يجرى حوله فى بلده ولا فى أى بلد اسلامى ... فالمجازر تجرى فى سوريا وفى ليبيا وفى المغرب بأقسامه، ويقرأ عنها فى الصحف ، ولا يشعر بأى معنى من معانى التعاطف مع هؤلاء المسلمين الذين يظلمون ويقتلون ، ولا بأى معنى من معانى الغضب حيال من يقترفون هذه الجرائم ... نجح الإنجليز فيما لم ينجح فيه الطليان والفرنسيون حيث استطاعوا بطريقتهم الهادئة

الملتوية إخماد الجذوة الإسلامية فى نفوس المصريين فأصبحوا لا يحسون ولا يشعرون .

وفعلوا مثل ذلك فى الهند ، وقد اختلفت الوسائل فى مظاهرها ولكن الهدف هو الهدف ... اختاروا شاباً مسلماً آنسوا منه رقة فى الدين وتطلعاً إلى المنصب والشهرة والمال ، فأغدقوا عليه وكان اسمه «غلام أحمد» وأوعزوا إليه أن يدعى أنه نبى من عند الله أرسله الله بعد محمد وبشريعة محمد إلا أن الجهاد قد نسخ منها ... وباعتبار الهند فى ذلك الوقت شعباً موغلا فى الأمية والجهل والفقر والخرافة انخدع بعض الناس بهذا الدعى ، كما اشترى الإنجليز له بالمال أتباعاً من أمثاله يروجون له، وينشرون دعوته ، فضلا عن رجال الإدارة والحكم من الانجليز وأذنابهم الذين كانوا جميعاً فى خدمته ... وقد ألف كتاباً سماه « البيان» على ما أذكر وقد اطلعت عليه عند عمى رحمه الله ، ادعى أنه الكتاب الذى أوحاه الله إليه بعد القرآن ... ومن الطريف أنه قد بلغت به الوقاحة والاستخفاف بعقول الناس فى الهند أنه يقول فى هذا الكتاب إن الله قد بعثه بنسخ الجهاد لا سيما ضد الإنجليز ... ولما كان هذا الدعى الوقح من بلدة فى الهند تسمى «قاديان» فقد سمى دينه « بالقاديانية» أو «بالأحمدية» نسبة إلى اسمه ... وأكثر الإنجليز ممن يدعون أنهم مسلمون هم من أتباع هذا الكذاب .

وفعل الإنجليز مثل ذلك فى ايران ثم نقلوه إلى الشام وفلسطين أيام كانت تحت انتدابهم .. فقد ساندوا رجلا إيرانياً اسمه «بهاء» فادعى أنه «باب الإله» فهو درجة بين النبوة والألوهية وأن الله بعثه بدين يجمع بين الأديان السماوية الثلاثة الإسلام واليهودية والمسيحية، وأنه أيضاً جاء بالسلام فلا جهاد ، حتى العبادة جاء بها مخففة فالمسلم البهائى يصلى ركعتين مرة طول حياته ، والمسيحى يصلى صلاته فى الكنيسة مرة واحدة أيضاً وكذلك اليهودى ....

وقد ألقت الحكومة الإيرانية القبض على «بهاء» هذا وحاكمته وأعدمته وطاردت فلول أتباعه الذين هربوا من البلاد ... فمن الذى تلقاهم بالأحضان وأوسع لهم؟ تلقاهم الانجليز فأحسنوا وفادتهم ومكنوا لهم فى فلسطين ووضعوهم فى المناصب الحساسة والمناصب الرئيسية .. وقد قرأت فى ذلك الوقت إحصائية لموظفى حكومة الانتداب فى فلسطين وأديانهم فكان البهائيون يمثلون أكبر نسبة ... وهؤلاء الموظفون البهائيون فى حكومة الانتداب بفلسطين هم الذين مهدوا لقيام الصهيونية ومكنوها من أرض فلسطين ومن رقاب أهلها.

ولا داعى للحديث عن الأساليب الإنجليزية الملتوية الأخرى التى أسسوها بالتحالف مع أقطاب اليهود لتفتيت القوميات ، وتقويض العقائد ، وتفكيك أواصر المجتمع كالماسونية وأخواتها مما قد نعرض له فى فصل قادم إن شاء الله ....

وقد فعل الإنجليز كل هذه الأفاعيل بالمسلمين فى مختلف بقاع الأرض ، وكان حرصهم على نجاح خطتهم فى مصر أشد من حرصهم على نجاحها فى أى مكان آخر لأنهم يعرفون أن مصر هى مركز الإشعاع للعالم الإسلامى كله ... وقد نجحوا فى مصر كما قدمنا ، واطمأنوا لذلك تمام الاطمئنان ، وطال اطمئنانهم حتى إن الأمور صارت تجرى فى مصر على مايتمنون بالقصور الذاتى دون تدخل منهم أو جهد يبذلونه ... وحتى إنهم أخذوا يحولون جهودهم فى التخريب إلى بلاد أخرى ... غير أنهم أحسوا فجأة بدبيب حياة عاد يدب فى جسم الأمة فى مصر من جديد فهبت أجهزة المراقبة عندهم تتلاوم لم لم يحسوا بهذا البعث إلا بعد أن وصل إلى الجامعة المصرية ؛ فأخذوا فى وضع تكتيك سريع لأخذ الطريق على هذا البعث فأرسلوا هذا الأستاذ الانجليزى المسلم «خالداً» ......

واستطاع «خالد» بأسلوبه البارع الأخاذ أن يستولى على مشاعر الكثرة الغالبة من الطلبة والأساتذة، وأن يصورلهم الفكرةالاسلامية كما أرادتها حكومتهالتى أرسلته...وكان لابد لإخوان كلية التجارة من إفساد التكتيك المحكم لهذا الرجل ، وكان فى كلية التجارة مجموعة من أنضج الإخوان مثل محمود أبو السعود وطاهرعبد المحسن ورشادسلام، وكان محمود أبو السعود يتقن الحديث بالإنجليزية كأهلها .. وكان تكتيكهم الذى رسموه أن يواظبوا على حضورمحاضرات الرجل ، وأن ينبثوا فى أماكن مختلفة بين الحاضرين ، وأن يوجهوا إليه أسئلة متدرجة أعدوها يتناوبون توجيهها ، وهى أسئلة تلزمه أن يتعرض للنواحى التى يتعمد إغفالها وتفاديها من الفكرة الإسلامية وهى ما يتصل بموضوع الإسلام والدولة ، والإسلام والتشريع ، والإسلام والجهاد ، والإسلام والقومية ، والاسلام والوطنية .

وأمطروه بالأسئلة بطريقة مرتبة ومهذبة ، وكان الرجل يجيب عليها بلباقة يتمكن بها من تفادى الاجابات المحددة ؛ فإذا سئل مثلا عن الإسلام والدولة والإسلام والتشريع قال إن الإسلام كغيره من الأديان يشرع لمتبعيه أسلوباً فى الحياة ، ولو اتبع أصحاب كل دين أسلوب دينهم لسعدوا فى الحياة ولصارت لهم دولة قوية ذات شأن ... وهكذا ظل الإخوان يلقون إليه بالأسئلة وهو يتفادى حتى ضيقوا عليه الحصار تضييقاً خانقاً ووضعوه أمام سؤال لا إجابة عليه إلا بلا أو بنعم ؛ قالوا له أنت الآن رجل مسلم فهب أن حرباً نشبت بين المسلمين وبين بريطانيا فمع أى الفريقين تحارب ؟ ... وحاول الرجل التهرب من الإجابة لكن الإخوان حاصروه ؛ لاسيما

وقد لقى السؤال هوى فى نفوس جميع الحاضرين من الطلبة والأساتذة ، فأيدوا الإخوان فى سؤالهم وطلبوا الإجابة عليه .....

وأحس الرجل أن الحصار قد أحكم حوله ... وأراد الله فضح أمره فنطق – مكرها – باللفظ الذى قوض الصرح الذى بناه منذ أوفد فى مهمته حيث قال : انحاز إلى بريطانيا . فانفض الجمع الحاشد مرة واحدة مشيعينه بالاحتقار واللعنات .

وهكذا فسدت الخطة التى وضعها الإنجليز لأخذ الطريق على الإخوان المسلمين وهم لايزالون فى أول الطريق .

(ج) مع المعركة فى فلسطين

باعتبارى كنت منشغلا بالدعوة الإسلامية منذ الصغر كنت ذا إلمام بشىء غير قليل عن كل بلد إسلامى ، ومن هذه البلاد فلسطين . لكن معلوماتى عن فلسطين لم تكن تتعدى الشكل العام للأطوار التى مرت ببلاد الشام منذ وضعت الحرب الكبرى الأولى أوزارها فى سنة ١٩١٨ وماانتهى إليه الوضع من تواطؤ الاستعمار الغربى على سحب ما كانوا قطعوه للعرب من وعود ، وعلى تقسيم بلاد الشام بين الإنجليز والفرنسيين ،وكانت فلسطين من نصيب الأنجليز حيث انتدبتهم عصبة الأمم لإدارتها ، وكنت على علم بأن بلفور وزير خارجية انجلترا فى سنة ١٩١٧ قد أعطى اليهود وعداً بمنحهم وطنا قومياً فى فلسطين .

لكننى منذ حملتنى قدماى إلى المركز العام للإخوان المسلمين فى شارع الناصرية لاحظت من المرشد العام ومن هذه القلة القليلة من الإخوان بهذا المركز توجيه اهتمام خاص إلى قضية فلسطين ؛ وقرأت فى مجلتهم الكثير عن فلسطين . كما وجدت بالمركز العام مجلات واردة إليه من فلسطين ومن سورية بها من أخبار فلسطين ماكان يعد جديداً على ؛ فهمت مما قرأت أن الإنجليز يقومون بحملة مدبرة للقضاء على الكيان الإسلامى فى فلسطين وتمكين اليهود من الاستيلاء عليها ... ثم رأيت مفتى فلسطين السيد أمين الحسينى ومعه مساعده الشيخ صبرى عابدين وحوله مجموعة من قادة فلسطين رأيتهم يحضرون إلى المركز العام فى الناصرية ذلك المكان المتواضع ويتبادلون الكلمات الملتهبة مع المرشد العام ومع الإخوان الطلبة الذين كانوا أقدم منى صلة بالإخوان ... وسمعت المفتى يشرح مؤامرات الإنجليز التى تلجىء الرجل المسلم الساذج إلى بيع أرضه لليهودى تمهيداً منهم لتمكين اليهود واستيلائهم على مقاليد الأمور بفلسطين بحكم ملكيتهم لأرضها .

وقد استنتجت من زيارتهم هذا المركز العام المتواضع المجهول وسط أحشاء القاهرة أنهم لا نصير لهم فى القاهرة إلا هذه العصبة التى تأوى إلى هذا المركز العام .. وقد تبين لى فيما بعد أن استنتاجى كان صحيحاً حين دس الإخوان صحفياً كان عضواً بالإخوان إلى رئيس الوزراء يسأله عما سيفعله إزاء تصرفات الإنجليز الظالمة فى فلسطين فرد عليه رئيس الوزراء بقوله : «إننى رئيس وزراء مصر ولست رئيس وزراء فلسطين » . على أن هذا الرد حين نشر بالصحف وقرأه الناس لم يحظ بأى اهتمام من الشعب ولم يقابل بأى اعتراض أو استنكار أو امتعاض باعتبار أن فلسطين وما يتصل بها لا يعنيهم فى قليل ولا كثير فهؤلاء فلسطينيون أما هم فمصريون .

وفهمت فيما فهمت أن السيد أمين الحسينى كون هيئتين لتنظيم العمل ضد المستعمر الإنجليزى واليهود الصهيونيين تسمى إحدى الهيئتين بالهيئة العربية العليا وتسمى الأخرى بالمجلس الاسلامى الأعلى وكان هو رئيس الهيئتين. والسيد أمين كان رجلا ذكياً ورعاً شجاعاً على علم ودراية بالدين وبالسياسة وكان موضع ثقة الجميع ، وقد استطاعت هاتان الهيئتان أن تشنا حرباً شعواء ضد اليهود وحماتهم الإنجليز وقد استشهد فيها الكثيرون مثبتين بذلك أنهم شعب مسلم كريم ... وقد قرأت فى مجلة سورية كانت تصل إلى المركز العام فى تلك الأيام أن بعض ساسة البلاد العربية سألوا المفتى عما بلغهم من أن بعض العرب فى فلسطين يبيعون أرضهم لليهود فرد عليهم بقوله : ليس من طبيعة العربى أن يفعل ما تذكرون كما أنه ليس من طبيعة البلبل أن يكون أخرس ولكن المستعمر قاتله الله هو صاحب الجناية لا العربى ورحم الله الشاعر الذى قال :

بلابل الله لم تخـــــرس ولا ولدت   خرساً ولكن بوم الشؤم رباها

فهمت بعد ذلك أيضاً أن الإخوان المسلمين أخذوا على عاتقهم النهوض بمهمة محددة هى أن يقوموا بجمع تبرعات لمجاهدى فلسطين ؛ فكان الأستاذ المرشد فى كل يوم جمعة يوزعنا على عدة مساجد فى القاهرة ، يرسل إلى كل مسجد اثنين على الأقل أحدهما يخطب بعد الصلاة ويشرح للناس ما يقترفه الإنجليز من مظالم فى فلسطين ويوضح للناس أن فلسطين هى البلد الذى به بيت المقدس ثالث الحرمين وأولى القبلتين وأن الإنجليز يريدون أن يسلموا هذا الحرم المقدس إلى اليهود . ويقوم الأخ الآخر بتلقى التبرعات فى صندوق معه .

وقد نجحت هذه الطريقة فعلا فى تحقيق النتائج الآتية :

١ – فى احاطة الناس علماً بأن هناك بلداً مسلماً بجوارنا اسمه فلسطين يراد بيعه لليهود .

٢ – فى إيقاظ الروح الإسلامية فى الشعب المصرى الذى تضافرت قوى الاستعمار وأذنابه من الحكام ومحترفى الدين على تضليله وتخديره حتى نام وأغرق فى النوم .

٣ – فى إيجاد وعى لدى هذا الشعب بأن الإنجليز أعداء لنا وللإسلام ..

٤ – فى إقامة الدليل المادى الملموس على أن الحكومة المصرية مهما كان لونها أو حزبها إنما هى خادم ذليل للمستعمر الغاصب .

٥ – فى جمع مبالغ من المال من تبرعات الناس

أ – أما من ناحية النتيجة الأولى فلقد كان الناس فى مصر يجهلون فى ذلك الوقت أن هناك بلداً اسمه فلسطين ، وأن هذا البلد بجوارنا وهو أقرب إلى القاهرة من أسوان .. وبطبيعة الحال فإن من يجهل مجرد وجود بلد بهذا الإسم وأنها بلد مسلم فإنه يكون خالى الذهن عما يجرى بداخله من مؤامرات ... كما سبق أن أشرت إلى أن المصريين كانوا فى ذلك الوقت يعيشون فى عزلة ولا يعرفون أحداً ممن حولهم ولا يعنيهم أن يعرفوا .

وكان الإخوان أول من طرق أسماع المصريين بهذا الإسم ، وأول من لفت نظرهم إليه ، وأول من شغلهم بمتابعة مؤامرات اليهود ومكائد الإنجليز فى هذا البلد المسلم وأول من أثار قضية كان المصريون خلاة البال عنها تماماً وظل الإخوان يرفعون راية هذه القضية حتى شاء الله أن تكون الشاغل الأكبر بل الوحيد لمصر وللعرب وللمسلمين وللعالم كله .

ب – وأما إيقاظ الروح الإسلامية فى مسلمى الشعب المصرى المضلل فإن هذا الموضوع كان معضلة أمام دعوة الإخوان ، والإخوان وقد فهموا دعوتهم ، وجدوا أن بينهم وبين توضيح معالم دعوتهم – وهى المعانى الإسلامية العليا – لهذا الشعب عقبات كأداء مما حشا به المستعمر وأذنابه عقوله من التضليل والأوهام ، ومما تناولوا به عواطفه ومشاعره من تخدير حتى لم تعد تستجيب لداعية ملهم ولا لخطيب مفوه ، ولا تستقيم مع منطق أو برهان .. فكان لابد لكى يصل الإخوان إلى هذه العقول المضللة والمشاعر المخدرة من قارعة تحل قريباً من دارهم توقظ هؤلاء الموتى بزلزالها وتبعثهم من أكفانهم بصواعقها ... فكانت قضية فلسطين هى القارعة وهى الزلزال وهى الصاعقة .

لقد اختصر نهوض الإخوان فى ذلك الوقت بقضية فلسطين الزمن اختصاراً ، وأغنى عن الكثير من الخطب والمحاضرات والمقالات والمؤلفات ؛ فلو أن مائة محاضر مقنع ومائة خطيب مصقع بذلوا أقصى ما يستطيعون فى الإبانة عما تضمنته الفكرة الإسلامية من معانى التعاون والإخاء التى تربط بين المسلمين فى كل مكان ؛ لما أثمرت جهودهم عشر معشار ما كانت تثمره كلمة ثائرة من شاب من الإخوان يوجهها إلى جمهور المصلين بعد صلاة الجمعة يشرح فيها مايرتكبه

اليهود والإنجليز من فظائع ضد إخوانهم المسلمين فى فلسطين ، ويطلب منهم الغوث لإنقاذ بيت المقدس قبل أن ينتزعه الإنجليز من المسلمين ويسلموه اليهود ليحولوه إلى معبد يهودى .

وسأضرب مثلين يوضحان مدى تأثير مثل هذه الكلمات المستمدة من صميم الواقع والتى تعتمد فى لحمتها وسداها على قضية فلسطين ، وقد اخترت هذين المثلين لأننى لمست التأثير فيهما بنفسى : كلفت فى يوم من أيام الجمعة بالقيام بهذا الدور فى مسجد الرفاعى بالقاهرة ، وكان مسجد الرفاعى فى ذلك الوقت — وكما ذكرت من قبل — أفخم مسجد فى القاهرة ونؤمه فى صلاة الجمعة طبقة من أعلى أهل القاهرة ثقافة لأنه فضلا عن فخامته فإن خطيبه الشيخ محمود على أحمد كان خطيباً مفوهاً على مستوى يندر وجود مثله .

وبعد صلاة الجمعة وقفت وخاطبت الناس بالأسلوب المشار إليه آنفاً ، وكنت حريصاً أن أرفع المصحف بيدى طيلة مخاطبتى للجمهور وأقول لهم إن إخوانكم فى فلسطين إنما يقتلون فى سبيل هذا الكتاب وإن اليهود والجنود الإنجليز يقتحمون البيوت ويمزقون هذا الكتاب ويدوسونه بأحذيتهم .... فماذا كان بعد ذلك ؟... وماذا كان من صدى لهذه الكلمات فى نفوس الحاضرين وعقولهم ؟.....

كان التصرف الذى تصرفه خطيب المسجد — تنفيذاً لتعليمات الحكومة المصرية وحفاظاً على وظيفته أن تنتزع منه مع أنه كان من قبل صديقاً للاخوان — أن طلب من المصلين — وكان مطاعاً فيهم ونافذ الأمر عليهم — أن يمنعونى من الكلام. فلم يتقدم أحد.. واكتفوا بهذا الموقف السلبى حياء من الرجل الذى لم يتعودوا أن يعصوا له أمراً ... فلما رأى الرجل تقاعسهم أمر خدم المسجد — وكانوا كثرة أشداء — أن يمنعونى بالقوة فتقدموا نحوى ؛ وهنا نسى الجمهور تقديرهم لخطيب المسجد وبحركة غير إرادية وقفوا فى وجه الخدم وهددوهم إذا مسونى بأذى أن يقذفوا بهم خارج المسجد ، فتراجع الخدم ... فلم يجد خطيب المسجد وسيلة إلا أن يقف فوق كرسى الدرس — وأنا واقف على أرض المسجد — ويخطب ضدى ليفض الناس من حولى ولكن أحداً من الجمهور لم يلتفت إليه وظلوا جميعاً ملتفين حولى متأثرين بكلامى تأثراً ظهر أثره فى ملء الصناديق الأربعة التى كان يحملها زملائى فى نواحى المسجد ، وفى النهاية أقبلوا على يكادون يبكون من التأثر يدعون الله لنا أن يعيننا على هذا الجهاد .

والمثل الآخر صورة مماثلة للمثل السابق غير أنه يختلف عنه فى مستوى المسجد ومستوى المصلين فيه ؛ فبينما كان مسجد الرفاعى يضم عليه القوم وأعلاهم ثقافة ، كان مسجد قنطرة الدكة

بميدان الأوبرا يضم المستوى الشعبي من المصلين ، وحدث فيه نفس الذى حدث فى المسجد السابق إلا أنه فى هذا المسجد بعد أن وجد خطيب المسجد أن الخدم عجزوا عن الوصول إلى تقدم هو بنفسه نحوى وطوق صدرى بذراعيه ، وكنت واقفاً المصحف بيمناى ، فاجتمع المصلون عليه وانتزعونى منه وألقوا بالرجل خارج المسجد وهو يقول للناس : لاتخربوا بيتى إنه يشتم الإنجليز .

وهذا الذى حدث لى فى هذين المسجدين حدث مثله لزملائى فى مساجدهم بل إن منهم من كان رجال الشرطة يدخلون المسجد استجابة لطلب الإمام ويلقون القبض على الأخ الخطيب ويجرونه جراً فى الشارع حتى يصلوا به إلى قسم البوليس .

ولكن الذى أحببت أن أبينه للقارىء هو أن لجوء الإخوان إلى شرح قضية فلسطين لجمهور المسلمين فى المساجد كان أقصر الطرق للوصول بهم إلى فهم الفكرة الإسلامية فهما صحيحاً بما فيها جانب القوة والحرية والجهاد والسياسة وهو ما كانوا يعجزون عن فهمه بالأساليب المجردة من المحاضرات والمقالات وماإليها .

ج — وأما إيجاد الوعى لدى الشعب المضلل بأن الإنجليز أعداء لنا وللإسلام ؛ فقد يبدو لجيل هذه الأيام غريباً أن يكون جيش أجنبى يحتل أرض قوم ولا يشعر هؤلاء القوم بمقت هذا المستعمر والحقد عليه ، ولكن الإنجليز استطاعوا أن يخدعوا الشعب المصرى عن طريق صنائعهم من الحكام فأوهموه أن كل خير إنما يأتى عن طريق الإنجليز ، وشغلوا الشعب بمعارك جانبية حزبية ، فلم يعودوا يشعرون بوطأة الاحتلال فكان على الإخوان أن يقتحموا هذه الأسوار العالية وماكان لهم أن يفعلوا ذلك لولا تذرعهم بقضية فلسطين ومايجرى على أرضها من مؤامرات ومظالم ومذابح ضد العرب والمسلمين .

د — وأما إقامة الدليل على أن الحكومات المصرية على اختلاف نزعاتها وأحزابها إن هى إلا خادم ذليل للمستعمر ؛ فإن الشعب حتى ذلك الوقت لم يكن يرى من حكومة اضطهاداً إلا موجهاً إلى أنصار حزب معارض لها ، أما حينما قام الإخوان بأعباء الدعوة إلى تأييد العرب فى فلسطين فى محنتهم التى دبرها الانجليز فقد رأى الشعب بعينيه أن حكومات مصر على اختلاف أحزابها تقاوم الإخوان وتحاول منعهم عن الدعاية ضد الإنجليز وعن فضح إجرامهم : بل إن الشعب سمع بأذنيه أئمة المساجد وخطباءها الرسميين بإيعاز من حكومتهم يحاولون منع الإخوان ويقولون للناس بصريح العبارة فى معرض تبريرهم هذا المنع : إنهم — أى الإخوان — يهاجمون الإنجليز ، وإذا لم أمنعهم فسيعرضنى ذلك لقطع عيشى .. ففهم الناس لأول مرة أن هؤلاء

السادة الحكام الذين كانوا يعتبرونهم مثلا عليا فى الوطنية ليسوا فى حقيقة امرهم إلا خدما وأذناباً للمستعمر . فاعتماد الإخوان فى حديثهم إلى الناس على قضية فلسطين كان بمثابة جرعة منبهة لهذا الشعب المسكين أخذ يستفيق على أثرها من غشيته وأخذ يرى الأوضاع على حقيقتها .

٥ — لم يبق من النتائج إلا جمع المال وهو لم يكن مقصوداً لذاته بل كان وسيلة للتعبير عن المشاركة الوجدانية كما يقولون ؛ بمعنى أننا كنا نريد أن نعرف مدى تأثير حديثنا مع الناس فكانت هذه القروش التى يقدمها السامعون هى تعبيرهم عن تأثرهم بما نقول . ومساهمة ومزية منهم فى استعدادهم لتحمل أعباء المعركة التى يخوضها إخوانهم ضد اليهود والإنجليز . . وهذا المال الذى كنا نجمعه لفلسطين قصة ستأتى فى سياق أحداث الدعوة سنذكرها فى موضعها إن شاء الله .

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر ، فلا يفوتنى أن أنوه هنا بحملة من حملات الدعاية لقضية فلسطين كانت هذه المرة خارج القاهرة وكانت فى مسجد السيد أحمد البدوى فى طنطا ، وكان الداعية فيها الأخ عبد الحكيم عابدين وكان إذ ذاك طالباً بكلية الآداب ومعه مجموعة من الإخوان . . وقد أخترت هذه الحملة بالذات لأنها هى وحدها دون غيرها من مئات الحملات قد شاء الله لها أن تسجل بقلم الكاتب الإسلامى الرفيع الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ؛ فقد كان أحد المصلين بالمسجد فى ذلك اليوم ، وقد هاجت الحملة فى نفسه كوامن الأسى على ما آلت إليه حال المسلمين من تدهور وانحطاط فسجل هذه الكوامن كما سجل الأمانى التى بعثتها هذه الحملة فى نفسه : سجل كل ذلك فى مقال رائع على صفحات مجلة الرسالة التى كانت توزع فى ذلك الوقت على على نطاق لايقل عن نطاق توزيع جريدة الأهرام . وكان تسعة أعشار قرائها إنما يقتنونها من أجل مقال الرافعى الذى كان دائماً يتصدرها ... وقد جمعت مقالات الرافعى هذه بعد وفاته فى كتاب «وحى القلم » فى ثلاثة أجزاء .

والمقالة التى سجل فيها الرافعى هذه الحملة سماها «قصة الأيدى المتوضئة » ومن حق القارىء على أن أمتعه بنقل فقرات من هذه المقالة التاريخية المثيرة والبالغة الروعة :

«قال الراوى» : وصعد الخطيب المنبر وفى يده سيفه الخشبى يتوكأ عليه (كانت وزارة الأوقاف تلزم كل خطيب مسجد أن يمسك بسيف من الخشب وهو يخطب الجمعة)فما استقر فى الذروة حتى خيل إلى أن الرجل قد دخل فى سر هذه الخشبة ، فهو يبدو كالمريض تقيمه عصاه ، وكالهرم يمسكه ما يتوكأ عليه ؛ ونظرت فإذا هو كذب صريح على الإسلام والمسلمين ، كهيئة سيفه الخشبى فى كذبها على السيوف ومعدنها وأعمالها .

والله ما أدرى كيف يستحل عالم من علماء الدين الإسلامى فى هذا العصر أن يخطب المسلمين خطبة جمعتهم وفى يده هذا السيف علامة الذل والضعة والتراجع والانقلاب والإدبار والهزل والسخرية والفضيحة والإضحاك ، ومتى كان الإسلام يأمر بنحت السيوف من الخشب ونحتها وتسويتها وإرهاف حدها الذى لا يقطع شيئاً ، ثم وضعها فى أيدى العلماء يعتلون بها ذؤابة كل منبر لتتعلق بها العيون ، وتشهد فيها الرمز والعلامة ، وتستوحى منها المعنوية الدينية التى يجب أن تتجسم لترى ؟ ..

أى سيف من الخشب معنوية غير معنى الهزل والسخافة وبلاهة العقل وذلة الحياة ومسخ التاريخ الفاتح المنتصر ، والرمز لخضوع الكلمة وصبيانية الإرادة ؟...

قال : وكان تمام الهزء بهذا السيف الخشبى الذى صنعته وزارة أوقاف المسلمين ، أنه فى طول صمصامة عمرو بن معدى كرب الزبيدى فارس الجاهلية والإسلام (كان طول الصمصامة سبعة أشبار وافية وعرضه شبراً) فكان إلى صدر الخطيب ، ولولا أنه فى يده لظهر مقبضه فى صدر الرجل كأنه وسام من الخشب .

قال : وكان الخطيب إذا تكلف وتصنع وظهر منه أنه حمى وثار ثائره ، أرتج وغفل عن يده ، فتضطرب فيها قبضة السيف فتلكزه فى صدره كأنما تذكره أن فى يده خشبة لا تصلح لهذه الحماسة (القاعدة الشرعية أن البلد الذى يفتح بالسيف يخطب فيه الخطيب بالسيف . ولما ضعف المسلمون أنف السيف منهم وأطاعهم الخشب) .

قال : وخطب العالم على الناس ، وكان سيفه الخشبى يخطب خطبة أخرى : فأما الأولى فهى محفوظة معروفة ولا تنتهى حتى ينتهى أثرها ، إذ هى كالقراءة لإقامة الصلاة ، وكانت فى عهدها الأول كالدرس لإقامة شأن من شئون الاجتماع والسياسة ؛ فبينها وبين حقيقتها الإسلامية مثل ما بين هذا السيف من الخشب وبين حقيقته الأولى ؛ وأما الخطبة الثانية فقد عقلتها أنا عن تلك الخشبة وكتبتها ، وهذه هى عبارتها :

ويحكم أيها المسلمون ... لو كنت بقية من خشب سفينة نوح التى أنقذ فيها الجنس البشرى ، لما كان لكم أن تضعونى هذا الموضع ؛ وما جعلكم الله حيث أنتم إلا بعد أن جعلتمونى حيث أنا ، نكاد شرارة تذهب بى وبكم معاً ، لأن فى وفيكم المادة الخشبية والمادة المتخشبة .

ويحكم .. لو أنه كان لخطيبكم شئ من الكلام النارى المضطرم ، لما بقيت الخشبة فى يده خشبة وكيف يمتلئ الرجل إيماناً بإيمانه ، وكيف يصعد المنبر ليقول كلمة الدين من الحق الغالب ،

وكلمة الحياة من الحق الواجب وهو كما ترونه قد انتهى من الذل إلى ان فقد السيف روحه فى يده !

أيها المسلمون .. لن تفلحوا وهذا خطيبكم المتكلم فيكم ، إلا إذا أفلحتم وأنا سيفكم المدافع عنكم ،

أيها المسلمون .. غيروه وغيرونى .

قال راوى الخبر : ولما قضيت الصلاة ماج الناس ، إذ انبعث فيهم جماعة من الشبان يصيحون بهم ويستوقفونهم ليخطبوهم ، ثم قام أحدهم فخطب ، فذكر فلسطين وما نزل بها ، وتغير أحوال أهلها ونكبتهم وجهادهم واختلال أمرهم ، ثم استنجد واستعان ، ودعا الموسر والمخف إلى البذل والتبرع وإقراض الله تعالى ، وتقدم أصحابه بصناديق مختومة فطافوا بها على الناس يجمعون فيها القليل والأقل من دراهم هى فى هذه الحال دراهم أصحابها وضمائرهم .

قال : وكان إلى جانبى رجل قروى من هؤلاء الفلاحين الذين تعرف الخير فى وجوههم والصبر فى أجسامهم والقناعة فى نفوسهم والفضل فى سجاياهم ، إذ امتزجت بهم روح الطبيعة الخصبة فتخرج من أرضهم زروعاً ومن أنفسهم زروعاً أخرى ، فقال لرجل كان معه : إن هذا الخطيب خطيب المسجد قد غشنا وهؤلاء الشبان قد فضحوه ، فما ينبغى أن نكون خطبة المسلمين إلا فى أخص أحوال المسلمين .

قال : ونبهنى هذا الرجل الساذج إلى معنى دقيق فى حكمة هذه المنابر الإسلامية ، فما يريد الإسلام إلا أن تكون كمحطات الإذاعة : يلتقط كل منبر أخبار الجهات الأخرى ويذيعها فى صيغة الخطاب إلى الروح والعقل والقلب ، فتكون خطبة الجمعة الكلمة الأسبوعية فى سياسة الأسبوع أو مسألة الأسبوع ، وبهذا لا يجئ الكلام على المنابر إلا حياً بحياة الوقت ، فيصبح الخطيب ينتظره الناس فى كل جمعة انتظار الشئ الجديد ، ومن ثم يستطيع المنبر أن يكون بينه وبين الحياة عمل .

قال : وخيل إلى بعد هذا المعنى أن كل خطيب فى هذه المساجد ناقص إلى النصف لأن السياسة تكره أن يخلع إسلاميته الواسعة قبل صعوده المنبر ، وأن لا يصعد إلا فى إسلاميته الضيقة المحدودة بحدود الوعظ الذى هو مع ذلك نصف وعظ ... فالخطبة فى الحقيقة نصف خطبة أو كأنها أثر خطبة معها أثر سيف ...

قال : وأخرج القروى كيسه فعزل منه دراهم وقال : هذه لطعام أتبلغ به ولأوبتى إلى البلد ثم أفرغ الباقى فى صناديق الجماعة ، واقتديت أنا به فلم أخرج من المسجد حتى وضعت فى صناديقهم كل ما معى ، ولقد حسبت أنه لو بقى لى درهم واحد لمضى يسبنى ما دام معى إلى أن يخرج عنى .

قال الراوى : ثم دخلت إلى ضريح صاحب المسجد أزوره وأقرأ فيه ما تيسر من القرآن ،

فإذا هناك رجال من علماء المسلمين اثنان أو ثلاثة ثم توافى إليهم آخرون فتموا سبعة ... وكان من السبعة رجل ترك لحيته عافية على طبيعتها ، فامتدت وعظمت حتى نشرت حولها جواً وروحانيا من الهيبة تشعر النفس الرقيقة بتياره على بعد .

قال : وأنصت الشيوخ جميعاً إلى خطب الشبان ، وكانت أصوات هؤلاء جافية صلبة حتى كأنها صخب معركة لا فن خطابة ، وعلى قدر ضعف المعنى فى كلامهم قوى الصوت ، فهم يصرخون كما يصرخ المستغيث فى صيحات هاربة بين السماء والأرض .

فقال أحد الشيوخ الفضلاء : لا حول ولا قوة إلا بالله ... جاء فى الخبر «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم» ووالله ما تعس المسلمون إلا منذ تعبدوا لهذين حرصاً وشحاً «ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» ولو تعارفت أموال المسلمين فى الحوادث لما أنكرتهم الحوادث .

فقال آخر : وفى الحديث «إن الله يحب إغاثة اللهفان» ولكن ما بال هؤلاء الشبان لا يوردون فى خطبهم أحاديث مع أنها هى كلمات القلوب ؟ فلو أنهم شرحوا للعامة هذا الحديث لأسرع العامة إلى ما يحبه الله .

قال الثالث : ولكن جاءنا الأثر فى وصف هذه الأمة «إنها فى أول الزمان يتعلم صغارها من كبارها فإذا كان آخر الزمان تعلم كبارهم من صغارهم» فنحن فى آخر الزمان ، وقد سلط الصغار على الكبار يريدون أن ينقلوهم عن طباعهم إلى صبيانية جديدة .

قال الراوى : فقلت لصديق كان معى : قل لهذا الشيخ : ليس معنى الأثر ما فهمت ، بل تأويله أن آخر الزمان سيكون لهذه الأمة زمن جهاد واقتحام ، وعزيمة ومغالبة على استقلال الحياة فلا يصلح لوقاية الأمة إلا شبابها المتعلم القوى الجرئ كما نرى فى أيامنا هذه ، فينزلون من الكبار تلك المنزلة ، إذ تكون الحماسة متممة لقوة العلم . وفى الحديث «أمتى كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره» .

قال الراوى : ولم يكد الصديق يحفظ عنى هذا الكلام ويهم بتبليغه ، حتى وقعت الصيحة فى المكان ، فجاء أحد الخطباء ووقف يفعل ما يفعله الرعد ، لا يكرر إلا زجرة واحدة ، وكان الشيوخ الأجلاء قد سمعوا ما قيل ، فأطرقوا يسمعونه مرة رابعة وخامسة ، وفرغ الشاب من هديره فتحول إليهم وجلس بين أيديهم متأدباً متخشعاً ووضع الصندوق المختوم .

فقال أحد الشيوخ : ممن أنت يابنى ؟ قال : أنا من جماعة الإخوان المسلمين . قال الشيخ :

لم يخف علينا مكانك ، وقد بذلتم ما استطعتم فبارك الله فيك وفى أصحابك .

وسكت الشاب ، وسكت الشيوخ ، وسكت الصندوق أيضاً ...

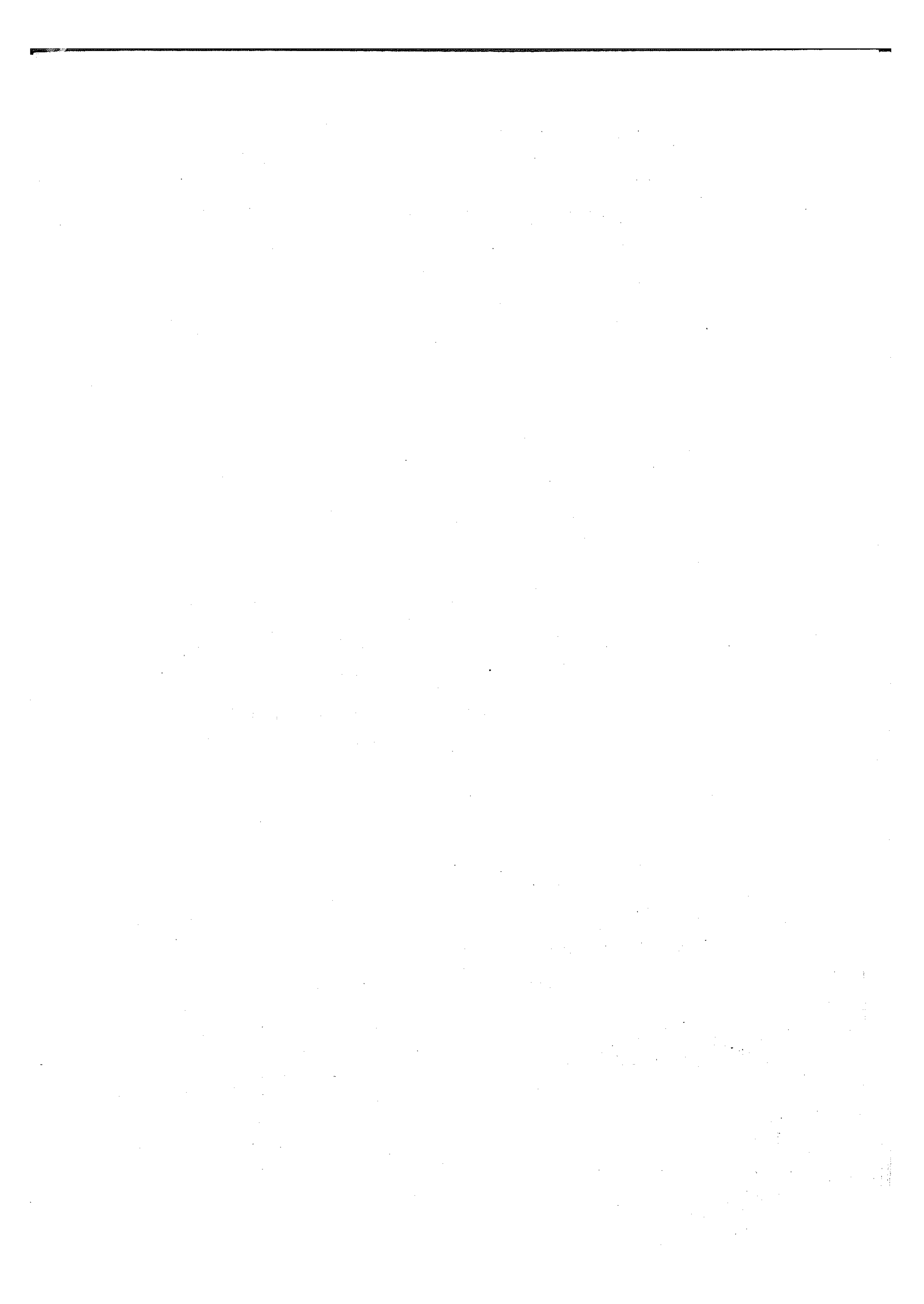
ثم تحركت النفس بوحى الحالة ،فمد أولهم يده إلى جيبه ثم دسها فيه ،ثم عبث فيه قليلا ثم... ثم أخرج الساعة ينظر فيها .

وانتقلت العدوى إلى الباقين ، فأخرج أحدهم منديله يتمخط فيه ، وظهرت فى يد الثالث مسبحة طويلة، وأخرج الرابع سواكا فمر به على أسنانه ، وجر الخامس كراسة كانت فى قبائه ، ومد صاحب اللحية العريضة أصابعه إلى لحيته يخللها ، أما السابع فثبتت يده فى جيبه ولم تخرج ، كأن فيها شيئا يستحى إذا هو أظهره أو يخشى إذا هو أظهره من تخجيل الجماعة .

وسكت الشاب ، وسكت الشيوخ ، وسكت الصندوق أيضاً ...

قال الراوى : ونظرت فإذا وجوههم قد لبست للشاب هيئة المدرس الذى يقرر لتميذه قاعدة قررها من قبل ألف مرة لألف تلميذ ، فخجل الشاب وحمل صندوقه ومضى .

أقول أنا : فلما انتهى الراوى من «قصة الأيدى المتوضئة» قلت له : لعلك أيها الراوى استيقظت من الحلم قبل أن يملأ الشيوخ الأجلاء الصندوق ،وما ختم عقلك هذه الرواية بهذا الفصل إلا بما كددت فيه ذهنك من فلسفة تحول السيف إلى خشبة ، ولو قد امتد بك النوم لسمعت أحدهم يقول لسائرهم : بمن ينهض إخواننا المجاهدون وبمن يصولون ؟ لهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «جاهل سخى أحب إلى الله من عالم بخيل» ثم يملأون الصندوق ...



الفصل الثاني

الدعوة على مفترق طريقين

« هل نهاجر ؟ »

كان حسن البنا – كدأب أصحاب الدعوات – حريصاً على أن يرتاد بدعوته أخصب أرض تنمو فيها وتترعرع . وكان يرى – كما كنا جميعاً نرى – أن مصر تزخر بالكثير من مظاهر الانحراف عن الدين مما تألم له نفس الرجل المؤمن ، وكان يفد إلينا في مصر بين الفينة والفينة أفراد من بلاد عربية وبلاد إسلامية نرى في علمهم وسلوكهم المثل العليا التي نرتجيها فاعتبرنا هؤلاء الأفراد صورة مصغرة لبلادهم ومجتمعاتهم التي جاءوا إلينا منها ، فتاقت نفوسنا إلى تلك البلاد ووددنا لو انتقلنا إليها بدعوتنا حيث نجد فيها الملاذ الطيب والملجأ المنيع والركن الشديد والخصوبة المأمولة ، وتحدثنا في ذلك معاً وتحدثنا فيه مع الأستاذ المرشد فوجدنا لحديثنا في هذا الموضوع صدى طيباً كأنما صادف هوى في نفسه .

وأخذت هذه الفكرة يعظم أمرها في نفوسنا وفي نفس الأستاذ المرشد حتى إنه جاء في يوم من الأيام وكاشفنا بأنه أصبح مقتنعاً بالفكرة وبأن انتقالنا بالدعوة إلى بلد آخر أقرب إلى الإسلام يوفر علينا كثيرا من المشاق وكثيرا من الوقت ولكنه يريد أن يعرف مدى استعدادنا للهجرة يوم تتقرر الهجرة ، وما هي إلا لحظات حتى رأى منا ما يطمئن نفسه ، فسر وانشرح صدره .

ترجمة القرآن الكريم ومعركتها

اقتراح ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأخرى ، اقتراح نشأ في أروقة الجامع الأزهر ، باعتبار ذلك الوسيلة المثلى لنشر الإسلام في بقاع الأرض ، حيث اعتقد الأزهر أن وجود القرآن الكريم باللغة العربية هو العائق الأكبر أمام من لا يعرفون العربية ، فاذا أزلنا هذا العائق بإيجاد القرآن مترجماً إلى مختلف اللغات صار انتشار الإسلام سهلا ميسوراً .

والدافع إلى هذا الاقتراح كما يبدو دافع نبيل ، يستهوى نفس كل غيور على الإسلام ، فإذا علم أن الأزهر بثقله العلمي والاسلامى يقف من وراء هذا المقترح فإن أحداً لا يتخلف عن تأييده ويتحمس لهذا التأييد ... ولهذا سرت فكرة الترجمة هذه في مختلف البلاد ومختلف الأوساط .

وقد انبثق هذا الموضوع عن الأزهر قبل أن أنزح إلى القاهرة ، وكنا نشعر – نحن قراء الصحف – أن الحكومة تؤيد هذا الاقتراح ولكنها تقدمه إلى الشعب عن طريق الأزهر حتى يكتسب صبغة تحببه إلى النفوس ، ولا أدرى الدوافع التى دفعت الحكومة إلى تأييد هذا الاقتراح .

ومع أن الأزهر هو الذى قدم الموضوع إلى الشعب والحكومة تطل إلى الشعب من ورائه ، ومع أن علماء الأزهر فى ذلك الوقت كانوا يتوخون إرضاء الحكومة ، فإن رجلا من رجال الأزهر تصدى للفكرة غير عابئ بالأزهر ولا بالحكومة ، وكتب فى جريدة الأهرام سلسلة متتالية من المقالات النارية يفند فيها فكرة الترجمة ويهاجمها مهاجمة لا هوادة فيها ولا زلت أذكر اسم هذا العالم الجرئ الشيخ محمد سليمان نائب المحكمة الشرعية العليا بالقاهرة . ونظراً لأهمية موضوع الترجمة ولروعة المقالات التى كانت تكتب لتأييده وتلك التى يكتبها هذا الرجل لمهاجمته خصص لها «الأهرام» صدر صفحته الأولى فكان الناس يتهافتون على قراءة هذه المقالات يريدون أن يصلوا إلى الحقيقة فى أمر خطير يمس الناس جميعاً فى أعز ما يعتزون به وهو القرآن الكريم .

ونزحت إلى القاهرة وموضوع ترجمة القرآن محتدم على أشده ، فلما اتصلت بالإخوان وجدت الأستاذ المرشد يهاجم فكرة الترجمة ويحجته فى ذلك أن الترجمة مستحيلة لأن التركيب القرآنى العربى فى ذاته معجز للعربى حين يحاول فهمه فهو يفهم منه بقدر طاقته فى الفهم والتصور وقد يفهم منه عربى آخر ما لم يفهمه الأول لأنه أوسع تصوراً – ويفهم من الآية فى عصر من العصور ما لم يفهم منها فى عصر سابق والآية هى الآية والألفاظ هى الألفاظ ، فالإقدام على ترجمة القرآن إقدام على مستحيل ومسخ للقرآن ونزول به عن مكانته مما يعد اعتداء على الإسلام فى أقدس مقدساته ... وكان للإخوان – على قلتهم فى ذلك الوقت – أثر ملموس فى مهاجمة هذه الفكرة لأنهم كانوا الهيئة الوحيدة التى تهاجم علناً .

وأذكر أنى بعد اقتناعى بهذا الرأى كتبت مقالة بمجلة الإخوان هاجمت فيها فكرة الترجمة من ناحية أخرى وهى ما يرجوه الأزهر من ورائها فقلت ما محصله إن الأزهر إذا كان يرجو من وراء ترجمة القرآن أن ينشر الإسلام فى بلاد لا يتكلم أهلها العربية فإن هذا وهم ، فإذا كان دستور الدعوة إلى الإسلام هو قول الله تعالى «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن» فإن الحكمة تقتضى أول ما تقتضى أن يكون الداعى موضع احترام المدعو ... ولما كانت الأمم الإسلامية لا زالت موضع احتقار الأمم الأخرى لأنها أمة متخلفة متأخرة جاهلة مستعمرة ، فإن الخطوة الأولى ليست هى ترجمة القرآن وإنما هى أن تتخلص مما هى فيه من أسباب الضعف والانهيار حتى تتبوأ مكاناً محترماً بين الأمم وحينئذ سوف تجد الدعوة إلى الإسلام وحينئذ تلقى قبولا .

فمست أن الأستاذ المرشد قد كاشفنا بأن فكرة الهجرة بالدعوة إلى بلد آخر من البلاد الإسلامية يكون أقرب إلى الإسلام من مصر قد سيطرت على تفكيره وملأت نفسه ، ولكنه لن يقدم على هذه الخطوة حتى يحدد أى هذه البلاد الإسلامية أشد قرباً من الإسلام ، وخير وسيلة لتحديد هذا البلد هو الحج ، فإن الحج يجمع جميع الطبقات من جميع بلاد العالم الإسلامى .. فإذا اختلطنا بهذه الطبقات من جميع هذه البلاد استطعنا أن تقيم كل بلد من البلاد الإسلامية تقييما صحيحاً .

ولقد صحب الأستاذ المرشد فى هذا الحج مائة من الإخوان من مختلف البلاد المصرية ولقد وحد زيهم جميعاً فكل منهم يرتدى جلباباً أبيض وطاقية بيضاء .

وسافر وفد الحجيج وقلوبنا ترفرف عليهم حيثما كانوا وأديت فريضة الحج بالوقوف بعرفة وبعد أيام قلائل جاءنا البريد بطرد كبير فتحناه فإذا هو مجموعة كبيرة من العدد الأخير من جريدة « أم القرى » وهى الجريدة الوحيدة التى تصدر فى السعودية فى ذلك الوقت وكانت جريدة شبه رسمية ، فتعجبنا من وصول هذه الجريدة إلينا لأول مرة فقد كانت تصلنا من بلاد إسلامية أخرى مجلات وصحف ولكن هذه الجريدة لم تصلنا إلا هذه المرة ولكنها إذ تصل تصلنا منها هذه الكمية الضخمة،وتصفحنا الجريدة وكانت قليلة الصفحات فوجدنا يشغل مكان الصدارة فيها خطاب للأستاذ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين ألقاه فى مؤتمر علماء المسلمين فى الحج ، وقد لاحظنا أن الخطاب على طوله-فهو يشغل أكثر صفحات الجريدة - ليس إلا مجموعات من آيات القرآن الكريم لا يفصل كل مجموعة منها عن الأخرى إلا سطر أو سطران من كلام الأستاذ المرشد

الرجوع من الحج بمفاجآت ومفاهيم جديدة

كنا نعول الكثير على رجوع الأستاذ المرشد من الحج ، فإن مستقبلنا ومستقبل الدعوة كان متوقفاً على نتائج هذه الرحلة ، وقد أعددنا لاستقباله كل ما نستطيع إعداده ، وعلى سبيل المثال كلفنا الأستاذ عبد الرحمن الساعاتى بوضع نشيد نستقبله به فأنشأ نشيداً جميلا لا يحضرنى الآن إلا مطلعه الذى يقول :

مرحباً يوم قدوم المرشد عمت الأفراح أرجاء الندى وقدمنا اليوم كيما نهتدى

وكنا نتمرن جميعاً على إنشاده معاً ، كما أننا حشدنا أكبر عدد من الإخوان بالقاهرة وغيرها حتى امتلأ فناء الدار لأول مرة مع أضواء ساطعة فى أنحائه . وقد حضر الأستاذ المرشد إلى دار المركز العام قبل أن يذهب إلى منزله فلم يره أهله وأبناؤه إلا بعد انتهاء الحفل .

وبدأ الحفل بتلاوة القرآن الكريم ثم ألقينا النشيد ثم تكلم الأستاذ عمر التلمسانى المحامى وكانت هذه أول مرة أراه فيها، وأذكر أنه افتتح كلمته بقوله: «يسير على من صناعته الكلام أن يقول ويتحدث عن مشاعره ولكنى أرانى عاجزاً عن القول ....». ثم ألقى الشيخ محمد زكى إبراهيم قصيدة رائعة كانت تقاطع أكثر أبياتها بالهتاف والتكبير، ولم تكن الكلمات التى تلقى سواء منها الشعر والنثر إلا كلمات هادفة عظيمة المدلول، ولا زال يطن فى أذنى بيت من هذه القصيدة استعيد أكثر من مرة لروعته يقول فيه:

وصلاح الدين فى عمته ... هذه دنيا قبعات عظمتنا

وناهيك بما تضمنه هذا البيت من معان تهدم دعاوى كانت رائجة فى ذلك الوقت، وكان يدعو لها حتى رؤساء الوزارات فى مصر ورؤساء الأحزاب، فقد صرح رئيس حزب الوفد مصطفى النحاس وكان رئيساً للوزارة بأنه معجب بحركة أتاتورك بدون تحفظ، وتتلخص حركة أتاتورك هذه فى أنه قضى على الدين الإسلامى، ولبس القبعة وأمر الأتراك بلبسها، وحتى اللغة التركية أمر بكتابتها بالحروف اللاتينية بعد أن كانت تكتب بالحروف العربية مدعياً أن هذه الحركة ستجعل من تركيا دولة عظيمة.

ثم قام الأستاذ المرشد ليلقى كلمته التى كنا نزن كل حرف منها بميزان، وأستطيع أن أقرر أن هذه الكلمة كانت من أهم وأعظم ما صدر عن الأستاذ المرشد لأنها وضعت أسساً جديدة للدعوة وغيرت كثيراً من المفاهيم، وأوضحت السبيل وحددته، ويمكن تلخيص ما اشتملت عليه هذه الكلمة فى نقاط ثلاث:

أولا: ذكر الأستاذ المرشد أن همه كله كان منصباً على الالتقاء بوفود المسلمين من مختلف الطبقات من كل بلد إسلامى فى العالم، والتحدث معهم، ودراسة أحوالهم، ومناقشة مشاكلهم، والتعرف على مستواهم الحضارى والثقافى والدينى، ومعرفة مدى تسلط المستعمر على بلادهم، ومستوى فهمهم للإسلام وعلاقته بالحياة. قال: وقد اتصلت بالمحكومين والحكام فى كل بلد من البلاد الإسلامية وخرجت من ذلك باقتناع تام بأن فكرة الهجرة بالدعوة أصبحت غير ذات موضوع وأن العدول عنها أمر واجب، فمصر على ما فيها من عيوب هى أحسن بيئة للدعوة الإسلامية.

ثانياً: أن دراسة أحوال المسلمين فى البلاد الإسلامية فى أنحاء العالم ضاعفت العبء الملقى على عواتقنا فقد كنا نعتقد أن هذه البلاد ستكون عوناً لنا على إصلاح مصر، فتبين لنا أنها هى فى

ذاتها عبء يقتضى منا بذل أضعاف ما نبذله فى مصر لمجرد بعث الحياة فيها ، فالبون شاسع بين مستوى هذه البلاد ومستوى مصر سواء فى الدنيا أو فى الدين .

ثالثا : أن فكرة ترجمة القرآن فكرة ساذجة وخاطئة بل وجريمة قد لا تعدلها جريمة ترتكب فى حق الإسلام ، وساق فى إثبات ذلك مثلا واقعياً فقال : لعلكم تعجبتم حين وصلكم نحو مائة نسخة من جريدة أم القرى وفى صدرها كلمة لى ... إن لهذا الموضوع قصة هى غاية فى الأهمية ، وتجربة فى الدعوة الإسلامية لم تكن تخطر ببالى ولا ببال أحد ، تجربة فسرت آيات فى كتاب الله لم نكن نفهمها على وجهها الصحيح ، وقال : إننى سافرت إلى الحج ولم أكن أنظر إلى فكرة ترجمة القرآن بنفس الخطورة التى أصبحت الآن أنظر إليها .

قال : اعتاد الملك عبد العزيز آل سعود أن يدعو كل عام كبار المسلمين الذين يفدون لأداء فريضة الحج إلى مؤتمر بمكة المكرمة تكريماً لهم وليتدارسوا أحوال المسلمين فى العالم، وكان فى وفود الحجاج من كل بلد إسلامى فى العالم وزراء وأمراء وزعماء سواء فى ذلك البلاد العربية وغير العربية فكان من مصر مثلا الدكتور محمد حسين هيكل ومن سوريةولبنانوالعراقواليمن وإمارات الخليج وشمال أفريقية حكام وزعماء وكان من بلاد أفريقية الوسطى والجنوبية ومن جميع البلاد الإسلامية فى آسيا ومن جاليات المسلمين فى أمريكا الجنوبية وأوربا ؛ كل هؤلاء وجهت إليهم الحكومة السعودية دعوات لحضور هذا المؤتمر ؛ وطبعاً لم توجه إلينا دعوة باعتبارنا من عامة الحجاج .

قال : علمت بموعد هذا المؤتمر وبمكانه الذى سينعقد فيه ، فأعددت نفسى والإخوان المائة فى هيئة موحدة هى الجلباب الأبيض والطاقية البيضاء ... وفى الموعد المحدد فوجىء علية القوم المجتمعون بمائة رجل فى هذه الهيئة يخطون خطوة واحدة يتوسط الصف الأول منهم رجل منهم هو المرشد العام... فكان هذا حدثاً مثيراً للالتفات... ودخل هؤلاء فاتخذوا أماكنهم فى نهاية الجالسين ؛ وبدأ المؤتمر بكلمة ترحيب من مندوب الملك.

ثم قام مندوب من كل بلد إسلامى فتكلم بلغة بلاده ؛ فألقيت عشرات الخطب بعشرات اللغات ومنها العربية التى ألقى بها الدكتور هيكل وأمثاله ممثلو الدول العربية ... يقول الأستاذ المرشد : وقد لاحظت أن الحاضرين يبدو على وجوههم السأم وغلب على أكثرهم النوم ... وقد ناقشت هذه الظاهرة مع نفسى وأدرتها فى خاطرى فوجدت أن السأم والنوم أمر تمليه الطبيعة البشرية فمادام السامع لا يفهم مايقال — وهو لا يستطيع أن يغادر المؤتمر — فمن حقه أن يسأم وأن يستسلم للنوم

قال فصبرت حتى انقضت الساعات الطوال التى استغرقها المندوبون فى إلقاء خطاباتهم واستغرقها الحاضرون فى النوم ؛ حينئذ أعلن مندوب الملك انتهاء المؤتمر ، وأصبح مسموحاً لمن شاء من الحاضرين أن يتقدم بملاحظاته إن كان له ملاحظات ... قال الأستاذ : فطلبت الكلمة واعتليت المنصة وارتجلت كلمة كانت أطول كلمة ألقيت ، وكانت الكلمة الوحيدة التى أيقظت الحاضرين ، وقوطعت بالإعجاب ، واهتزت لها المشاعر ، وبعثت فى المؤتمر جواً من الحيوية الدافقة ، وما كدت أنهى كلمتى حتى أقبلت على جميع الوفود تعانقنى ، وتشد على يدى ، وتعاهدنى وتطلب التعرف على وعلى من معى ، وتفتح قلوبها للفكرة التى تضمنتها كلمتى .

يقول الأستاذ المرشد : لقد أحسست وأنا جالس فى المؤتمر بأن المستعمر أفلح فى القضاء على أسباب التفاهم بين البلاد الإسلامية بعضها وبعض بالقضاء على اللغة العربية فيها وإحلال لغة غيرها محلها ؛ فأندونيسيا تتكلم بلغة أندونيسية والهند بلغة هندوسية والصين بلغة صينية ونيجيريا بلغة نيجيرية وغانا وغينيا وهكذا ... وفكرت فأسعفنى خاطرى بأن الشىء الوحيد الذى لايزال باقياً بلغته العربية ويقرأه الجميع بألفاظه العربية لأن العبادة لا تكون إلا بألفاظه التى أنزل بها هو القرآن . فالكل على اختلاف بلاده ولغاته ولهجاته يفهمه : فعزمت على أن تكون كلمتى كلها آيات من القرآن أرتبها ترتيباً يوضح كل ما فى نفسى من معانى الإسلام وأهدافه ووسائله ، وكيف يعالج النفس البشرية ويضع حلولا للمشاكل الحيوية ، ولاحظت من أول آية بدأت بها كلمتى أننى ضربت على الوتر الحساس فى قلب كل جالس فى المؤتمر ، وأحسست أن كل كلمة من آية أتلوها تقع من قلوب الحاضرين موقعها ، وتفعل فى نفوسهم فعلها ؛ حتى ذاب الثلج الذى جمد المشاعر طيلة الساعات السابقة ، وبدأ الدفء حتى غلت مراجل القلوب والتهبت المشاعر وكان لابد فى نهاية الكلمة من تجمع هذه القلوب والتفافها .

ويمكن تلخيص نتائج هذه الكلمة وآثارها فى الآتى :-

١ - أثبتت بما لا يتطرق إليه شك أن وجود القرآن باللغة العربية هو الرباط الأبدى الوحيد بين المنتمين إلى الإسلام حيثما كانوا ومهما اختلفت ألسنتهم وثقافاتهم ، وأنه فى صورته هذه التى نزل بها من السماء هو بمثابة الروح فى جسد هذه الأمة الإسلامية ، وأنه هو كلمة السر التى متى سمعها المسلم أنس بقائلها، وأحس أن بجانبه أخاً يحبه ويفتديه مهما اختلفا بعد ذلك فى كل شىء .

٢ - تبين تبيناً قاطعاً أن فكرة ترجمة القرآن ، إما أن تكون فكرة قوم من المسلمين

بلغوا من السذاجة حداً يؤسف له ، وإما أن تكون وليدة تفكير استعماري تبشيري خطير للقضاء على آخر رباط يربط الجسد الإسلامي الممزق ، أو هو قطع الشريان الوحيد الباقي في هذا الجسد ، ولذا كان على المسلمين أن يقفوا لهذه الفكرة المدمرة بالمرصاد .. وتبين كما قال الأستاذ المرشد أن قول الله تعالى عن كتابه العزيز : «إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون» معناه أن هذا القرآن لايكون قرآناً إلا إذا كان عربياً وماكنا نعقل حقاً ولا كان أحد يدور بخلده قبل هذا المؤتمر أن عروبة اللغة هي جزء من القرآن لا يتجزأ وأن العروبة اللغوية اللازمة له هي السر الخفي الذي تتحطم على صخرته مؤامرات الأعداء ومكائد الحاقدين على هذا الدين ... وعلى حد قول الأستاذ في كلمته التي ألقاها في تلك الليلة في دار المركز العام إذ قال : إن كان لابد من ترجمة فلتترجم الأمم إلى القرآن ، لا أن تترجم القرآن إلى الأمم .

٣ - أحس الحاضرون لأول مرة بحرارة التيار الإسلامي يسري في مشاعرهم ، ورأوا لأول مرة أن العالم الإسلامي قد تمخض عن داعية من نوع جديد لم يألفوا له مثيلا من قبل ؛ فهو قادر على إثارة المعاني الإسلامية في النفوس ، وقادر على جذب القلوب بالجاذبية الإلهية التي هي القرآن ، وقادرعلى جمع المتنافر منها تحت راية الإسلام ، وقادر على بث روح الأخوة التي تصهر النفوس في بوتقة الإسلام ، فهرع الجميع يلتفون حول هذا الداعية الجديد ، ومن هنا سارعت «أم القرى» إلى نشر الخطاب بنصه لشغل معظم صفحاتها ، ولم تنشر غيره بل ولم تشر إلى غيره . وبدأ آل سعود يتعرفون على الداعية الجديد .

٤ - بقدر ما كان لهذه المظاهر الإسلامية الرائعة من أثر طيب في نفوس جميع الوفود فيبدو أنها لم تقع من نفس وفد مصر نفس الموقع ، فقد شعر هذا الوفد بالمهانة حين رأى جميع الوفود انفضت عنه ولم تعره اهتماماً وهم الوزراء وكبار الساسة وأصحاب البلاد وسادة العباد ، والتفوا حول هذا الرجل النكرة الذي لم يسمعوا عنه ولم يعرفوا اسمه إلا في هذا المؤتمر ... وسوف نتحدث في باب قادم إن شاء الله عن أحداث وقعت في مصر نتيجة هذا الشعور الأثيم .

الباب الثانى

فى ميدان العتبة الخضراء

- إبراز الاخوان باعتبارهم فئة متميزة ، من الفئات الاساسية فى المجتمع المصرى
- الأخذ بأساليب عملية فى التكوين والتربية ونشر الدعوة .
- مهاجمة الانجليز واليهود والانطلاق بقضية فلسطين
- الفتنة الأولى

كان من أثر البعثات الطلابية فى أنحاء البلاد أن انتشرت الدعوة واتسع نطاق الرقعة التى استجابت لها ، وتضاعف عدد أعضائها أضعافاً كثيرة ، كل هذا فضلا عما سبق الإشارة إليه من انتشار الدعوة فى كليات الجامعة والمدارس والمعاهد والأزهر ، ولم تعد الدار بشارع الناصرية صالحة لاستيعاب هذا العدد الكبير من الناس ، وما يستتبعه من اجتماعات ومحاضرات ومؤتمرات وأوجه نشاط ؛ وكان لابد من البحث عن مقر للمركز العام يتسع لذلك ؛ وسرعان ما وفق الله إلى مكان يفى بهذه المطالب ويمتاز بالميزات الآتية :

١ — كثرة عدد حجراته واتساع مساحاتها فقد كان به سبع حجرات ، واحدة منها كانت مساحتها تبلغ مجموع مساحات جميع حجرات المركز العام السابق .

٢ — كان له «فراندة» تتسع لمئات الكراسى وتصلح لعقد المؤتمرات فضلا عن الاجتماعات والمحاضرات .

٣ — كان موقعه أحسن موقع حيث يقع فى ميدان العتبة الخضراء ، وكان إذ ذاك أعظم ميدان فى القاهرة وهو ملتقى المواصلات ومعترك التجارة ومهوى أفئدة أهل القاهرة والوافدين إليها من مختلف البلاد .

ويقع هذا المقر فى العمارة التى بها لوكاندة البرلمان التى كانت هى الأخرى معلماً من معالم القاهرة . وقد اقتضى هذا الانتقال أن ينتقل الأستاذ المرشد من مسكنه إلى مسكن قريب من المركز الجديد لأنه كان حريصاً على قرب مسكنه من المركز العام فاتخذ مسكناً فى شارع محمد على .

وكان الإخوان إلى ماقبل الانتقال إلى هذا المقر الجديد من الضآلة فى العدد ، ومن الاختفاء فى المكان بحيث لم يكن يحسب لهم حساب ، ولا يكاد يحس بوجودهم أحد ، وكانوا ذائبين فى المجتمع ، وكانت صلتهم بالقاهرة التى يعيشون فيها شبه مقطوعة فهى مقصورة على شعبهم القليلة فى منطقة القنال وما حولها ؛ وقد حاول الأستاذ المرشد سدى إشعار القاهرة بوجود الإخوان بمحاضرات يعلن عنها بدعوات و بمنشورات حتى وصل به الأمر إلى أنه انتهز فرصة إقبال شهر ربيع الأول فى تلك السنة فأعلن عن محاضرات يلقيها كل ليلة بالمركز العام فى الناصرية وطبع آلاف الإعلانات عن هذه السلسلة من المحاضرات ؛ وكنا نذهب جميعاً كل ليلة إلى مسجد السيدة زينب نؤدى صلاة العشاء ثم نخرج من المسجد ونصطف صفوفاً يتقدمنا الأستاذ المرشد ينشد نشيداً

من أناشيد المولد النبوى ونحن نردده من بعده فى صوت جهورى جماعى يلفت النظر ، وكانت الفاصلة التى نرددها هى هذا البيت :

صلى الإله على النور الذى ظهــــرا لنا بشهر ربيع الأول اشتهـــرا

وكان الناس يجتمعون فعلا علينا ، ويسيرون معنا فى الطريق ونحن ننشد بنغمة محبوبة وكان أفراد منا يوزعون الإعلانات على الناس والمحلات على الجانبين فى أثناء سير الموكب حتى إذا وصلنا إلى دار المركز العام لم يدخل معنا فيه إلا عدد قليل لا يسمن ولا يغنى من جوع ..

كان الانتقال إلى المقر الجديد طفرة بالنسبة لوضع الإخوان ولإمكانياتهم ، وتستطيع أن تقدر ضآلة هذه الإمكانيات إذا علمت أن الإخوان حتى ذلك الوقت لم يكونوا إلا مجموعة من الطلبة مهما ذكرناعن تضاعفهم عدداً فانهم لا مورد لهم وبجانبهم عدد من صغار الموظفين هم أنفسهم الذين كانوا موجودين بالمركز العام لأول مرة زرته ... والمقر الجديد يحتاج إلى نفقات كثيرة فإيجاره أضعاف إيجار القديم ونفقات تأثيثه وأجر المياه والنور فيه وأجر الكراسى التى تلزم للحفلات والمحاضرات ... وهذه النفقات لا قبل لهذه المجموعة القليلة الفقيرة بها ... ولكن الأستاذ المرشد كان لا يعير النواحى المادية اهتماماً ؛ فهو يقدم كل ما يملك ويعتقد بعد ذلك أن الله لن يخذله ؛ وكان الله سبحانه دائماً يحقق أمله وصدق الله إذ يقول فى الحديث القدسى «أنا عند حسن ظن عبدى بى» .

وقد دفع الأستاذ المرشد بكل ما معه ، ولم يدخر أحد شيئاً يستطيعه إلا قدمه ، ولم يتخلف إخوان الإسماعيلية وإخوان القنال عما تعودوه دائماً ، فقد كانوا سنداً ورداً للأستاذ المرشد فى كل موقف شديد ، وأتم الله فضله وتم الانتقال ، وأثث المكان ، وأخذ الإقبال يزداد على المكان الجديد الذى وجدوا فيه سعة .

وكان الأستاذ المرشد يرى من وراء هذه النقلة فى المكان التهيؤلنقل الدعوة إلى طور جديد له السمات الثلاث الآتية باعتبارها أهدافاً يجب تحقيقها :

١ - إبراز الإخوان المسلمين باعتبارهم فئة متميزة من الفئات الأساسية فى المجتمع المصرى .

٢ - الأخذ بأساليب عملية قوية فى التكوين والتربية .

٣ - فضح مؤامرت الإنجليز والحكومة والانطلاق بقضية فلسطين .

الفصل الأول

إبراز الإخوان باعتبارهم فئة متميزة

من الفئات الأساسية فى المجتمع المصرى

اتخذ الأستاذ المرشد لتحقيق هذا الغرض الأساليب الآتية :-

الأسلوب الأول

الشارة والمجلة

ماكاد يستقر بنا المقام فى الدار الجديدة حتى دعانا الأستاذ المرشد إلى اجتماع وعرض علينا فكرته فى وجوب أن تكون لنا شارة مميزة ، ومجلة معبرة ، ووافقنا جميعاً على الفكرة .

الشارة : اقترح كل منا هيئة معينة للشارة وانتهينا إلى أن يكون لنا نوعان من الشارات ؛ نوع يعلق على الصدر فى جانبه الأيسر ونوع يلبس فى إصبع اليد ، وقال لنا الأستاذ فكروا فى هيئة لكل من هذين النوعين من الشارات على أن يكون تفكيركم محصوراً فى صيغة قرآنية ...

وقد أخذ الأستاذ بفكرتى فى هيئة شارة الصدر ؛ وهى أن تكون قطعة معدنية مستديرة فى مساحة القرش محدبة السطح ، يطلى سطحها بالميناء الزرقاء ، ويرسم عليها - رسماً بارزاً - سيفان متقاطعان يحملان على تقاطعهما مصحفاً بلون أحمر ويكتب تحت تقاطع السيفين كلمة «وأعدوا» وقد نال هذا الاقتراح استحسان الأستاذ والإخوان ؛ وتعلق هذه الشارة بدبوس ملحوم فى ظهرها .

وأما شارة الأصبع فكان مقترح هيئتها الأستاذ المرشد ؛ فرأى أن تكون دبلة من الفضة ذات عشرة أضلاع ، ينقش على ضلعين منها بالمينا السوداء كلمتا «الإخوان المسلمون» .

أسباب اختيار هذا الوضع لشارة الإصبع :

يبدوا أن فكرة هذه الشارة بهذا الوضع كانت فكرة راودت الأستاذ المرشد من قديم ، حتى إنه حين عرض علينا موضوع أن تكون لنا شارة خاصة كان يريد أن تكون شارتنا هى هذه

الشارة وحدها دون غيرها ، ذلك أن فكرتها كانت مختمرة فى ذهنه وأن دلالاتها كانت من الروعة بحيث يقتنع بها كل من سمعها أو لاحظها وتتلخص هذه الدلالات أو المعانى أو الخصائص فيما يأتى :-

أولا : أنها باعتبارها تلبس فى الإصبع فإنها تكون ملازمة لصاحبها فى كل وقت وفى كل مكان فى الليل والنهار وفى اليقظة والنوم وحين يلبس ملابسه وبعد أن يخلعها .

ثانياً : أنها مصنوعة من الفضة ، والتختم بخاتم من الفضة من السنة التى فعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحث عليها.

ثالثاً : أن كونها ذات عشرة أضلاع تذكر لابسها بآيات كريمة من القرآن تضفى على هذا الرقم لوناً من القدسية فى حياة الناس فى الدنيا والآخرة وهاك بعض هذه الآيات :

أ - الوصايا العشر فى قوله تعالى :

قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم (١) أن لا تشركوا به شيئاً (٢) وبالوالدين إحسانا (٣) ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم (٤)ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن (٥) ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق . ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . (٦) ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده (٧) وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف نفساً إلا وسعها (٨) وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى (٩) وبعهد الله أوفوا . ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . (١٠) وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون (الآيات ١٥١، ١٥٢، ١٥٣ من سورة الأنعام)

ب - الدرجات العشر فى قوله تعالى :

(١) إن المسلمين والمسلمات (٢) والمؤمنين والمؤمنات (٣) والقانتين والقانتات (٤) والصادقين والصادقات (٥) والصابرين والصابرات (٦) والخاشعين والخاشعات (٧) والمتصدقين والمتصدقات (٨)والصائمين والصائمات (٩) والحافظين فروجهم والحافظات (١٠)والذاكرين الله كثيراً والذاكرات . أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما . (الآية ٣٥ من سورة الأحزاب .

حـ ـ فى صفات المؤمنين فى قوله تعالى :

(١)التائبون (٢) العابدون (٣) الحامدون (٤) السائحون (٥)الراكعون (٦)الساجدون (٧)الآمرون بالمعروف (٨) والناهون عن المنكر (٩) والحافظون لحدود الله (١٠) وبشر المؤمنين . (الآية ١١٢ من سورة التوبة)

د ـ مقومات البر فى قوله تعالى :

ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر (١)من آمن بالله (٢)واليوم الآخر (٣)والملائكة (٤) والكتاب (٥) والنبيين (٦) وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب(٧)وأقام الصلاة(٨)وآتى الزكاة(٩)والموفون بعهدهم إذا عاهدوا (١٠) والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس . أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون (الآية ١٧٧ البقرة)

هـ ـ الأوامر العشر فى قوله تعالى :

(١)واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً (٢) وبالوالدين إحساناً (٣) وبذى القربى (٤)واليتامى (٥) والمساكين (٦) والجار ذى القربى (٧) والجار الجنب (٨) والصاحب بالجنب (٩) وابن السبيل (١٠) وماملكت أيمانكم . إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا (٣٦ النساء) .

و ـ صفات المتذكرين فى قوله تعالى :

إنما يتذكر (١) أولو الألباب (٢) الذين يوفون بعهد الله (٣) ولا ينقضون الميثاق (٤) والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل (٥) ويخشون ربهم (٦) ويخافون سوء الحساب (٧) والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم (٨) وأقاموا الصلاة (٩) وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية (١٠)ويدرءون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار (١٩ ـ ٢٢ الرعد) .

ونفذت الشارتان ، وانتشرتا انتشاراً عظيما فى القاهرة والأقاليم . وصارت هاتان الشارتان مميزتين للإخوان وسط المجتمع .. وكان هذا المظهر بمثابة نزول بالدعوة إلى الميدان ، وهجوم صامت على الأفكار الأخرى ، هذا فضلا عما كان له من أثر فى تعريف الإخوان بعضهم ببعض حيثما التقوا .. وكثيراً ما كانت الشارة لافتة نظر الكثيرين فتقدموا يستفسرون من معانيها فكان هذا الاستفسار فاتحة لشرح الدعوة لهم . كما أنها بدأت تشعر المجتمع والحكومة بأن هناك

فئة جديدة ذات فكرة محددة تتصل بالدين قد وجدت بين ظهرانيهم . وعلى العموم فإن هذه الشارة كما كانت مميزة للإخوان فى المجتمع فانها كانت سبباً فى نشر الدعوة وتوضيحها ودفعها إلى الأمام سواء فى القاهرة أوفى الأقاليم .

المجلة :

جلسنا مع الأستاذ المرشد كذلك وتناولنا موضوع المجلة المعبرة ، وقد يسأل سائل فيقول : ألم نكن للإخوان مجلة تسمى مجلة الإخوان المسلمين ؟ فنقول بلى كانت لنا مجلة «الإخوان المسلمون» ولكن هذه المجلة قد اصطبغت بصبغة خاصة فهى تقتصر على شرح علمى ومنطقى للدعوة قلما تخرج عن ذلك فتمس الأحداث الجارية فى البلاد إلا من بعيد ، وكانت أشبه بمجلة خاصة يقرأها الإخوان ليلموا بأخبار إخوانهم فى مختلف الجهات وليقرأوا تفسير آية أو حديث ، ويقرأوا مقالةللأستاذ المرشد توضح جانباً من جوانب الدعوة ، ولذا فانها لم تكن تخرج عن نطاق الإخوان ... وليس معنى ذلك أنها لم تكن ذات غناء بل إنها كانت جانباً ضرورياً للدعوة فى طورها الذى كانت تصدر فيه ؛ فقد كان الإخوان فى ذلك الوقت فى حاجة إلى استيضاح نواحى فكرتهم ، والتيقن من صحتها ، والتمييز بينها وبين غيرها من النزعات التى انتسبت إلى الإسلام وإلى أنها ذات كفاءة عملية فى المجتمع .

ولذا فإن هذه المجلة كانت وعاء كما قدمنا لمقالات متسلسلة كان يكتبها الأستاذ المرشد فيها تحت عنوان «إلى أى شىء ندعو الناس» وتحت عنوان «دعوتنا» وتحت عنوان «هل نحن قوم عمليون» كانت هذه المقالات تثبيتاً للفكرة الإسلامية فى نفوس الإخوان ، ووسيلة ناجحة لإقناع كثير من الناس بالدعوة . وقد جمعت هذه المقالات فى رسائل كل رسالة بعنوان من هذه العناوين وصارت فى جميع أطوار الدعوة وحتى اليوم إحدى وسائل توضيح معالم الدعوة والإقناع بها .

ومع ذلك فقد اعتور هذه المجلة عقبات أهمها قلة المال فقد كانت ضئيلة الانتشار ، ومعنى ذلك أنها كانت لقلة ما يطبع منها باهظة التكاليف ، كما أنها كانت خالية من الإعلانات ، وقد أدى ذلك إلى انقطاعها لاسيما بعد أن فقد الإخوان مطبعتهم ، وقد سبق أن أشرت إلى ذلك فيما كتبت عن الأستاذ أحمد السراوى .

جلسنا نفكر فى اسم لمجلة نصدرها ، بعد أن شرح الأستاذ المرشد الوضع الذى ستكون عليه هذه المجلة ، وأنها ستكون مختلفة تماماً عن سابقتها ، حيث تكون معبرة عن الطور الجديد الذى انتقلت إليه الدعوة ، واقترح كل منا عدة أسماء ولكن الأستاذ تمسك أيضاً بأن يكون الإسم

من القرآن ... واقترحنا عدة أسماء وردت فى القرآن ثم استقر الرأى على اسم اقترحه الأستاذ هو «النذير» .

وينبغى أن أذكر بهذه المناسبة أن انتقالنا إلى الدار الجديدة هذه ، دفع إلينا بمجموعات كبيرة من الشباب كان منهم شاب اسمه «صالح عشماوى» كان أكبر منا قليلا لأنه كان قد تخرج فعلا فى كلية التجارة وكان له إيراد لا يحتاج معه إلى الالتحاق بوظيفة، وقد وقع عليه اختيار الأستاذ المرشد ليكون رئيساً لتحرير هذه المجلة : ولا أدرى هل اختاره الأستاذ لهذا العمل لمجرد أنه شخص متفرغ، أم لأنه توسم فيه مع ميزة التفرغ أنه كاتب يجيد الكتابة ، مع أنه لم يكن قد مضى على التحاقه بالدعوة إلا فترة قصيرة . وعلى كل ، فقد تكشف لنا حين صدرت المجلة أنه كاتب عظيم وأنه كان أهلا لهذه المهمة .

صدرت مجلة النذير فى ثوب جديد، وفى أسلوب جديد ؛ أسلوب ثورى ناقد ، لايترك حدثاً فى مصر ولا فى بلد عربى أو إسلامى إلا علق عليه من وجهة النظر الإسلامية تعليقاً قوياً . وبقدر ماكانت مجلة «الإخوان المسلمون» يحررها الأستاذ المرشد كلها تقريباً بنفسه ، فإنه ترك تحرير هذه المجلة لصالح متفرغاً هو لما كان يتمنى أن يتفرغ له مما لا يستطيعه غيره .. واجتذبت «النذير» بأسلوبها القوى الثورى الكتاب الشباب الثائرين فكانت فى مجموعها شعلة ملتهبة ، وكان لفلسطين من مقالاتها نصيب الأسد ؛ وقد فضحت مقالاتها ألا عيب الاستعمار فى فلسطين وتخاذل الحكومة المصرية عن مد يد العون إلى أهل فلسطين ...

وقد انتشرت هذه المجلة انتشاراً كبيراً فكان يوزع منها أكثر من عشرة أضعاف ماكان يوزع من المجلة السابقة . وكانت من الوسائل فى نشر الدعوة فى قطاعات كبيرة من الشباب الذى يميل بطبيعته إلى الثورة .... وكان مما سهل لهذه المجلة الطريق أن حروف الطباعة كانت ملك الإخوان وموجودة بالدار ذلك أن الأستاذ المرشد كان حريصاً – بعد أن وقع من الأستاذ السراوى ما وقع فى شأن المطبعة – أن يستبقى شيئاً منها فاستطاع أن يبقى على الحروف .

الأسلوب الثانى

الاتصال بالتجمعات فى مصر

ولم يكن بمصر فى ذلك الوقت تجمعات ذات صبغة غير سياسية إلا «نقابة معلمى التعليم الإلزامى» حيث لم تكن قد تكونت نقابات مهنية ولا عمالية بعد ؛ فكانت هذه النقابة أكبر تجمع

غير سياسى فى البلاد ، ويمتاز هذا التجمع بأنه تجمع مثقف ، وله فروع فى كل أنحاء القطر ، وكان أعضاؤه منتشرين فى العواصم والحواضر والمدن والقرى مهما نأت وصغرت .. ولم تكن هذه النقابة تجد فى مصر من يوليها عطفاً ولا اهتماماً .

كان الأستاذ المرشد يعرف كل ذلك عن هذه النقابة ، وكان يحس نحوهم بعاطفة لأنه كان منهم فى يوم من الأيام ولأن هذه الفئة كانت فئة مطحونة طحناً من شدة ما كانت ترزح تحته من ظلم . فهذا المعلم – وكان المعلمون فى ذلك الوقت لا يعرفون إلا التفانى فى العمل والإخلاص فى أدائه – هذا المعلم كانت الحكومة تنظر إليه نظرة ازدراء فتمنحه أدنى مرتب لموظف فى الدولة ، وتحرم عليه الترقى مهما طالت سنواته فى العمل .... وقد انتهز الأستاذ سعة هذه الدار الجديدة ، وأوسع لهم فيها مكاناً يعقدون فيه مؤتمراتهم ونعاون الإخوان معهم فى رفع مظالمهم إلى الحكام .

وهذه المجموعة الكبيرة من المعلمين – مع ما كانت ترمى به من ضيق الأفق وضحالة الثقافة ، أبرزت لنا فى مؤتمراتها بهذه الدار من الأدباء والخطباء والشعراء من يضاهئون الصفوة الممتازة من مشاهير هذه الفنون فى مصر ؛ كم ألقوا من قصائد عصماء ، وخطب رنانة ؛ ولازالت تطن فى أذنى حتى اليوم عبارة جاءت على لسان أحد خطبائهم إذ يقول : قولوا لدولة رئيس الوزراء «ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ؟» .. فكان من أروع ماسمعت من اقتباس .

أما الدعوة فقد أكتسبت الكثير من إفساح المجال فى دارها لمؤتمرات هذه النقابة العتيدة وتعاونها معهم ؛ فلقد شعر هؤلاء الناس بأن هذه الدعوة دعوتهم ، وأنها أجدر الدعوات بالانتماء إليها لأنها هى وحدها التى فتحت صدرها لهم ولأنها هى دعوة القرآن ؛ فبعد أن كانت مؤتمراتهم عندنا يقتصر الحديث فيها على مطالبهم وشئونهم الخاصة ، رأينا هذه المؤتمرات تتناول شئون الدعوة كما يتناولها الإخوان أنفسهم ولازال عالقاً بخاطرى شطرة من بيت من قصيدة عامرة ألقاها أحد شعرائهم فى أحد هذه المؤتمرات وتناول دعوة الإخوان المسلمين ، وكيف أنها ملكت عليه مشاعره ، وصارت كل شىء فى حياته فيقول : ياليت لى من بردها نكفينى .

وعن طريق هذه النقابة دخلت الدعوة كل مكان حتى النجوع والكفور ، فكان أعضاؤها هم حملة الراية حيثما كانوا ... وقد صاغت الدعوة منهم رجالا حملوا الأعباء ، وخاضوا الغمرات ، وكانوا غرة فى جبين الدعوة الاسلامية وما وهنوا وما استكانوا .

وكانت هذه الخطوة من الأستاذ المرشد من أعظم الخطوات المباركة التى أقدم عليها ، ودلت حقاً على أن خبرته بالمجتمع الذى يعيش فيه أعمق وأبعد مدى من خبرة قادة مصر فى ذلك العهد .

الأسلوب الثالث

عقد المؤتمرات الإخوانية

كانت المؤتمرات الإخوانية حتى ذلك العهد مؤتمرات موضعية ؛ كانت حفلات للتعارف أكثر منها مؤتمرات ذات قرارات إيجابية ، ولم يكن هذا تقصيراً من المؤتمرين ، وإنما كان جهد المقل حيث لم تكن الدعوة قد جاوزت منطقة القناة وماحولها ... أما والدعوة قد اتسع نطاقها حتى لم تعد تخلو مديرية (محافظة) من عدة شعب بها وبحواضرها كما أصبح للدعوة كيان بالقاهرة ، وصار لها معاقل فى الجامعة والأزهر وفى المعاهد والمدارس بل وصار لها صدى فى بلاد عربية أخرى ـ فقد آن الأوان لعقد مؤتمرات لهؤلاء المستجيبين ولتلك الشعب المتناثرة فى أنحاء البلاد حتى تحس هذه الشعب برباط يربطها معاً وحتى تتاح الفرصة لوجودها معاً فى مكان واحد فتتعارف وتتفاعل وتوجه وتنتج .

ورأى الأستاذ المرشد أن يعقد مؤتمرين أحدهما للإخوان فى الوجه البحرى والآخر للإخوان بالوجه القبلى وكانت نظريته فى ذلك أن يكون هذان المؤتمران مقدمة لمؤتمر عام للإخوان فى القطر كله يعقد فى القاهرة فيكون أسلوب التدرج هذا تمهيداً صالحاً للمؤتمر العام حتى يكون عقده محوطاً بأسباب النجاح . ورأى الأستاذ أن يعقد المؤتمر الأول فى المنصورة والآخر فى أسيوط .

١ ـ مؤتمر المنصورة :

وقد اختيرت المنصورة لتوسطها الوجه البحرى . ومع أن هذا المؤتمر كان مؤتمراً فرعياً إلا أن القرارات التى اتخذت فيه كانت قرارات خطيرة بل إنها كانت أول قرارات ذات شأن يتخذها الإخوان منذ قيام دعوتهم إذ هى قرارات عملية ... ولعل الأستاذ المرشد رأى أن يخص هذه المؤتمرات الفرعية بهذه القرارات العملية دون المؤتمر العام المزمع عقده باعتبار المؤتمرات الفرعية مهما عظم أمرها فإن الروح العائلية تكون دائماًمسيطرة عليها، أما المؤتمر العام فهو مؤتمر مفتوح قد يغشاه من غير الإخوانمن يزيدون عن حضوره من الإخوان عدداً ولذا تكون قرارات المؤتمرات قرارات عامة تتصل بشئون الدولة وتعالج مشاكلها.

كان حديث الأستاذ المرشد فى هذا المؤتمر منصباً على موضوع واحد محدد هو وجوب تميز الإخوان وكان حديث الأستاذ فى هذا الموضوع مفاجأة لكثير من الحاضرين ؛ لأن الدعوة كانت حتى ذلك الوقت لا تبالى أن يكون العضو فيها مصطبغاً بصبغات أخرى سواء أكانت

هذه الصبغات الأخرى اجتماعية أم دينية أم اقتصادية أم سياسية ... أما فى هذا المؤتمر فقد بدأت نغمة أخرى تضرب على وتر شديد مثير أخذ يهز السامعين هزاً عنيفاً ...

فهم الحاضرون من حديث الأستاذ الذى خاطب فيه العقول والقلوب أن دعوة الإخوان دعوة جامعة شاملة ينبغى لمن ينتسب إليها أن يرى فيها غناء عن غيرها ، وفهموا أن معنى ذلك هو أن يخير كل ذى مبدأ مع مبدأ الإخوان نفسه بين المبدأين ليختار أحدهما ويدع الآخر .

وتطرق الأستاذ فى حديثه عن التميز إلى نقطة هامة أخرى فقال إن تميز الإخوان يقتضيهم تكاليف قد لا يطالبون بها إذا لم يكونوا إخواناً ، فهذه الدعوة الجامعة الشاملة شاق طريقهـا ، ثقيل حملها لأنها الدعوة التى عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال ، فينبغى أن يعد العاملون بها والحاملون أمانتها أنفسهم إعداداً خاصاً بحيث يملكون زمام أنفسهم .

قد رشحوك لأمر لو فطنت لـــه فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

فلنقاوم أنفسنا فيما تعارف عليه الناس من عادات تمكنت منهم حتى ملكت أعنتهم مع أنها أمور إذا لم تضر فإنها لا تنفع وضرب لذلك مثلا بالتدخين وطلب إلى الإخوان المدخنين أن يمتنعوا عـن التدخين وعن الكيوف بأنواعها وقال : خير عادة أن لا تكون أسير عادة .

وأذكر أنه كان من بين حاضرى هذا المؤتمر الأخ الكريم الأستاذ محمد الهادى عطيه وكان محاميا شرعيا كبيراً وأستاذاً للشريعة فى كلية المقاصد الخيرية ببيروت وكان إذ ذاك فى سن يناهز الستين فرأيناه ينتصب واقفاً حين سمع كلام الأستاذ المرشد ويخرج من جيبه علبة سجاير ويفتحها ويلقى بما فيها على الأرض ويدوسه بقدمه ويعلن أنه طلق التدخين منذ هذه اللحظة . وقد أخبرنى بعد خروجنا من المؤتمر أنه ظل يدخن أربعين عاماً وكان يدخن فى ذلك الوقت فى اليوم الواحد أربعين سيجارة ... وقد كنت أنا حريصاً على متابعة هذا الأخ الكريم لأعرف عواقب هذا الامتناع المفاجئ دون تدرج فأخبرنى فى لقائى به بعد عدة أشهر بأن شيئاً مما يشاع من انهيار أو صداع أو شئ من ذلك لم يصبه ... ومعنى هذا أن العزيمة الماضية وثقة المرء فى نفسه وفى سلامة الطريق الذى يسلكه كل ذلك يكسبه مناعة ضد العوارض التى تصيب ضعفاء العزيمة الذين يدفعون إلى طريق سلكوا فيه راغمين محرجين . سلكوا فيه ونفوسهم لا زالت تتلفت إلى وراء بشوق ولهفة .

كان لهذا المؤتمر آثار بعيدة المدى سواء فى الناحية الشخصية حيث رأى الإخوان لأول مرة أن الدعوة تتدخل فى شئونهم الخاصة وفى عاداتهم وأمزجتهم . أو فى الناحية العامة فى علاقات الإخوان بالمجتمع الذى يعيشون فيه ويتكيفون حسب مصالحهم معه — لقد استغرق كل أخ من

الإخوان وقتاً طويلا فى مناقشة مقررات هذا المؤتمر مع نفسه حتى ركن إلى جانب من الجانبين . كما كان لهذا المؤتمر آثار خارج المحيط الإخوانى سنعرض لها فى مكان آخر إن شاء الله .

٢ ـ مؤتمر أسيوط :

لم أحضر هذا المؤتمر ولكن الإخوان الذين حضروه أخبرونى بأنه كان صورة من مؤتمر المنصورة واتخذت فيه نفس القرارات .

صلاة العيد فى الإسماعيلية : معذرة فى هذا الاستطراد فكما أنه استطراد منى فى الكتابة الآن فإنه كان استطراداً فى رحلتنا من القاهرة لحضور مؤتمر المنصورة فقد اقترح الأستاذ المرشد أن نمر فى طريقنا على الإسماعيلية ، وقد صادف هذا الاقتراح هوى فى نفوس الجميع لأن للإسماعيلية مكانة خاصة فى نفوس الإخوان باعتبارها الحبيب الأول ومهوى الفؤاد

نقل فؤادك حيث شئت من الهـــوى ما الحب إلا للحبيـــب الأول

وقد نزلنا الإسماعيلية ، وكانت هذه أول مرة فى حياتى ، ولم يكن أمامنا فرصة للتجول فيها لرؤية معالمها والإلمام بصورة كاملة عنها ، حيث كان المقرر أن نبيت بها تلك الليلة ـ وكانت ليلة عيد الفطر ـ ثم نصبح لنصلى فيها صلاة العيد ثم نستأنف سفرنا إلى المؤتمر . وقد قضينا بقية يوم وصولنا بدار المركز العام بها بين احتفاء إخوان الإسماعيلية بنا وبين كلمات الإعجاب التى كنا نزجيها إليهم . وكان من أجمل ما قيل فى هذا اللقاء كلمة الأخ محمد عبد الحميد أحمد ـ حيث قال : إن قيام الدعوة فى الإسماعيلية وهى معقل الاستعمار فى مصر يذكرنا بأن موسى الذى قضى على فرعون قد تربى فى بيته .

وبعد صلاة الفجر ، خرجنا متوجهين لصلاة العيد ، وقد عودهم الأستاذ المرشد على أدائها فى خارج المدينة فى مكان فسيح أشبه بالصحراء ، ولم أر فى حياتى صلاة عيد قبل هذه فى روعة هذه الصلاة ، إن المسلمين على بكرة أبيهم اتجهوا إلى هذا المكان فكل يسلك الشوارع التى تؤدى به إلى مكان الصلاة والكل يكبر تكبير العيد منذ يخرج من منزله حتى يصل إلى المكان فكل ، والتكبير بصوت جهورى فكنت ترى جميع شوارع المدينة تسيل بجموع المسلمين تصيح بالتكبير بصورة لا يملك الإنسان أمامها نفسه فترى الدموع تنهمر من العيون لروعة المنظر وروعة ما تسمعه .. وبعد أداء الصلاة لم يغادر أحد مكانه وقام الأستاذ المرشد فخطب الناس خطبة زلزلت القلوب وأبكت العيون ثم قام الناس جميعاً يتصافحون ويتعانقون والكل متجه إلى الأستاذ المرشد ليصافحه .

والحق إن صلاة العيد إذا أديت على حقيقتها بهذا الأسلوب ، فإنها تكون أعظم مظاهرة

إسلامية تحيي ميت المشاعر ، وتبعث الحياة في نفوس الخاملين .. إنها بعث سنوى للأمة الإسلامية .

٣ — المؤتمر الخامس :

أطلق على هذا المؤتمر اسم «المؤتمر الخامس» على اعتبار أنه سبق بأربعة مؤتمرات عامة بمعنى أنها كانت تمثل في كل منها شعب الإخوان التي كانت موجودة في أوقات انعقادها ، ولكن هذه الشعب كانت كما سبق أن ذكرت — قليلة العدد وفي ركن محدد من أركان البلاد ، ولذا فإنها وإن كانت عامة لجمعها كل الشعب إلا أنها كانت موضعية في حقيقتها ، ولعل هذا كان السبب في أن المجتمع المصرى لم يشعر بها ... أما هذا المؤتمر فهو في حقيقة الأمر يعد المؤتمر العام الأول لأنه أول مؤتمر اشتمل على خصائص المؤتمرات العامة ...

ولقد صادف عقد هذا المؤتمر مناسبة مرور عشر سنوات على تأسيس دعوة الإخوان المسلمين فقد عقد في عام ١٣٥٧ هجرية الموافق ١٩٣٨ ميلادية ... وقد رأى الأستاذ المرشد أن يعقده في سراى آل لطف الله بالقاهرة مع أن هذا المكان باهظ التكاليف لكن الأستاذ اختاره لأنه كان في ذلك الوقت المكان المرموق الذى تتجه إليه الأنظار — وهو المكان الذى عقد فيه المؤتمر البرلمانى العالمى لمشكلة فلسطين ، وكان الأستاذ المرشد يعتبر هذا المؤتمر أول فرصة يواجه فيها المجتمع المصرى والدولى بدعوته ، فأعد خطابا جامعاً صافياً ، وضح فيه غاية الإخوان وخصائص دعوتهم ، ووسائلهم وخطوات مناهجهم ، وموقفهم من الهيئات المختلفة . ونظراً لأهمية هذا الخطاب التاريخى والذى طبع في رسالة خاصة والذى كان له ما بعده لأنه حدد المواقف بكل وضوح وصراحة فسنوجز للقارئ صورة مصغرة منه إذا لم يتح له أن يقرأ الخطاب بأكمله :

١ — بدأ الحديث بذكر الرجال الذين كانوا أول من فاتحهم بفكرته ووجد الاستجابة منهم فذكر أحمد تيمور باشا كما ذكر من أصدقائه الأستاذ أحمد السكرى والأستاذ الشيخ حامد عسكرية والأستاذ الشيخ أحمد عبد الحميد .

٢ — شرح نظرة الإخوان إلى الإسلام باعتباره الفكرة التي تضم كل المعانى الإصلاحية .

٣ — قرر أن دعوة الإخوان دعوة سلفية سنية صوفية سياسية رياضية علمية ثقافية اقتصادية اجتماعية .

٤ — أشار إلى أن من خصائص دعوة الإخوان ما يأتى :

ا — البعد عن مواطن الخلاف　　　ب — البعد عن هيمنة الكبراء والأعيان

ح – البعد عن الهيئات والأحزاب　　　د – التدرج فى الخطوات

هـ – إيثار النواحى العملية على النواحى المظهرية

و – توائمها مع روح الشباب　　　ز – سرعة الانتشار فى المدن والقرى.

٥ – أشار إلى ستة من شباب الجامعة منذ سنوات ، وهبوا الله نفوسهم وجهودهم ، فأيدهم الله فإذا بالجامعة كلها من أنصار الإخوان المسلمين ، كما أشار بمثل ذلك إلى الأزهر .

٦ – تحدث عن تساؤل المتسائلين ، هل فى عزم الإخوان أن يستخدموا القوة وأن يقوموا بثورة عامة ؟ فقال : إن وطناً كمصر جرب حظه فى الثورات فلم يجن من ورائها إلا ما تعلمون – أما الإخوان فإنهم سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدى غيرها ، وحيث يثقون أنهم قد استكملوا عدة الإيمان والوحدة . وهم حين يستخدمون هذه القوة سيكونون شرفاء صرحاء وسينذرون أولا ، وينتظرون بعد ذلك ثم يقدمون فى كرامة وعزة ، ويتحملون كل نتائج موقفهم هذا بكل رضاء وارتياح . وأما الثورة فلا يفكر الإخوان المسلمون فيها ، ولا يعتمدون عليها ، ولا يؤمنون بنفعها ونتائجها . وإن كانوا يصارحون كل حكومة فى مصر بأن الحال إذا دامت على هذا المنوال ، ولم يفكر أولو الأمر فى إصلاح عاجل سريع لهذه المشاكل ، فسيؤدى ذلك حتما إلى ثورة ليست من عمل الإخوان المسلمين ولا من دعوتهم ، ولكن من ضغط الظروف ، ومقتضيات الأحوال ، وإهمال المرافق. وليست هذه المشاكل التى تتعقد بمرور الزمن وسيتفحل أمرها بمضى الأيام إلا نذيراً من هذه النذر ، فليسرع المنقذون بالأعمال .

٧ – وتكلم عن الإخوان المسلمين والحكم فقال : فالإخوان المسلمون لا يطلبون الحكم لأنفسهم فإن وجدوا من الأمة من يستعد لحمل هذا العبء وأداء هذه الأمانة ، والحكم بمنهاج إسلامى قرآنى ، فهم جنوده وأنصاره وأعوانه ، وإن لم يجدوا فالحكم من منهاجهم ، وسيعملون لاستخلاصه من أيدى كل حكومة لا تنفذ أوامر الله .

٨ – وتكلم عن الإخوان المسلمين والوطنية فقال : ومن هنا كان المسلم أعمق الناس وطنية ، وأعظمهم نفعاً لمواطنيه ، لأن ذلك مفروض عليه من رب العالمين ، وكان الإخوان المسلمون أشد الناس حرصاً على خير وطنهم ، وتفانيا فى خدمة قومهم

وهم يتمنون لهذه البلاد العزيزة كل عزة ومجد وكل تقدم ورقى وكل فلاح ونجاح .

٩ — وقال عن القومية العربية : الإخوان المسلمون يعتبرون العروبة كما عرفها النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه ابن كثير عن معاذ بن جبل رضى الله عنه «ألا إن العربية اللسان . ألا إن العربية اللسان» ، ومن هنا كانت وحدة العرب أمراً لا بد منه لإعادة مجد الإسلام وإقامة دولته ، وإعزاز سلطانه ، ومن هنا كان على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها وهذا هو موقف الإخوان من الوحدة العربية .

١٠ — وقال عن الوحدة الإسلامية : الإخوان المسلمون يقدسون هذه الوحدة، ويؤمنون بهذه الجامعة ، ويعملون لجمع كلمة المسلمين وإعزاز أخوة الإسلام ، ينادون بأن وطنهم هو كل شبر أرض فيه مسلم يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله .

١١ — وقال عن الوحدة العالمية : ولى أن أقول بعد هذا إن الإخوان يريدون الخير للعالم كله فهم ينادون بالوحدة العالمية ، لأن هذا هو مرمى الإسلام وهدفه ومعنى قول الله تبارك وتعالى «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» .

١٢ — ثم تناول موقف الإخوان من الأحزاب السياسية فى مصر فقرر أن العلاج الحاسم الناجح أن تزول هذه الأحزاب مشكورة فقد أدت مهمتها ، وانتهت الظروف التى أوجدتها ، ولكل زمان دولة ورجال كما يقولون .

١٣ — واختتم كلامه بالحديث عن موقف الإخوان من دول الاستعمار ، فبدأ بانجلترا ثم بفرنسا ثم بايطاليا وتكلم عن فلسطين وحيا مفتيها ورجاله ، وحذر الوفود الإسلامية فى مؤتمر المائدة المستديرة بلندن من مكر انجلترا وخداعها وأشار إلى إجرام الطليان فى طرابلس وفرنسا فى المغرب العربى ، ووجه كلامه إلى الإخوان بهذا الصدد فقال أيها الإخوان : هذا كلام يدمى القلوب ويفتت الأكباد . وحسبى هذه الفواجع فى هذا البيان فتلك سلسلة لا آخر لها وأنتم تعرفون هذا ولكن عليكم أن تبينوه للناس ، وأن تعلموهم أن الإسلام لا يرضى من أبنائه بأقل من الحرية والاستقلال فضلا عن السيادة وإعلان الجهاد ولو كلفهم ذلك الدم والمال ، فالموت خير من هذه الحياة ، حياة العبودية والرق والاستغلال . وأنتم إن فعلتم ذلك ، وصدقتم الله العزيمة فلابد من النصر إن شاء الله «كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله لقوى عزيز» .

الأسلوب الرابع
الاحتكاك بالأحزاب والهيئات

لم يكن الاحتكاك بالأحزاب والهيئات من الأساليب التى يسعى الإخوان إلى انتهاجها ابتغاء التميز الذى يهدفون إليه ، ولكن هذا الاحتكاك دخل فى أساليب التميز رغم أنفهم .. لأن كل ما حرص عليه الإخوان فيما قرروه فى مؤتمراتهم إنما كان لمجرد حفظ كيانهم والاستجابة الكاملة لفكرتهم ، ولم يقصدوا فيها قصدوا مهاجمة غيرهم أو تجريح سواهم .. ولكن الذى حدث هو أن عدداً من الإخوان فى مختلف البلاد — اقتناعاً بمقررات مؤتمرات المنصورة وأسيوط والمؤتمر العام الخامس بالقاهرة — أخذوا يتحازون إلى دعوتهم بكل قلوبهم وعقولهم وبكل ما يملكون ، وتبين فيما بعد أن هذا الانحياز قد اعتبر من جانب بعض الأحزاب والهيئات اعتداء عليها وانتقاصاً من أرضها ، مع أن دعوة الإخوان لم ترغم هؤلاء الذين انحازوا إليها على هذا الانحياز كما أنها لم تغرهم بأى نوع من أنواع الإغراء ، ذلك أنها لا تملك القليل ولا الكثير من وسائل الإرغام ولا وسائل الإغراء ، وإنما هو الإيمان والاقتناع .

والجهات التى آذتها المقررات الإيجابية لمؤتمرات الإخوان جهات ثلاث : الأحزاب السياسية التقليدية والأحزاب السياسية الناشئة والهيئات الدينية .

أما الأحزاب التقليدية وهى فى ذلك الوقت الوفد والأحرار الدستوريون والسعديون ، فهذه أحزاب أوجدتها ظروف معينة وانتهت هذه الظروف وكان يجب أن تنتهى هذه الأحزاب بانتهائها ولكنها تشبثت بالبقاء دون أن يكون لها برامج محددة أو أساليب إصلاحية معينة ، ولم يكن لها جميعاً إلا هدف واحد تسعى إليه هو الوصول إلى كراسى الحكم لا يبالون عن أى طريق يصلون ، وفى غضون هذا التهالك على الحكم ضيعت مصالح البلاد ، وديست كرامتها ، وتمكن المستعمر من رقاب أهلها ، وفقد الشعب الرؤية الصحيحة بعد أن استطاعت هذه الأحزاب قلب المفاهيم لكلمات تتصل بالروح الوطنية ، فاختفت من قاموس هذه الأحزاب كلمة المستعمر وحل محلها الحليف ، واختفت كلمة الثورة وحل محلها المفاوضة ، وزفوا إلى الشعب معاهدة الإذلال والاحتلال فى فى ثوب معاهدة الشرف والاستقلال . هذه الأحزاب بعيدة كل البعد عن دعوة الإخوان المسلمين ولا يكاد يكون بيننا وبينهم وجه شبه فى حين أن بيننا وبينهم كل أوجه الخلاف ، فنحن فى واد وهم فى واد آخر .

أما الأحزاب الناشئة أو الفتية

فهى جماعة مصر الفتاة .. ويأتى الحزب الوطنى يتأرجح بين هذا النوع الفتى وبين النوع التقليدى فهو وإن كان أقدم الأحزاب تكويناً إلا أنه لا يزال يحتفظ بمبادئ محددة ورثها عن مؤسسه الأول مصطفى كامل لكن موجة الانحراف بالوطنية طغت عليه وسلبته فاعليته ولذا قلنا إنه يتأرجح بين النوع الفتى وبين النوع التقليدى ، والذى يهمنا فى هذا القسم هو جماعة مصر الفتاة وقد قدمت فى صدر هذه المذكرات نبذة عن هذه الجماعة وعن مؤسسها الأستاذ أحمد حسين .

وإذا كان الاحتكاك بيننا وبين الأحزاب التقليدية أمراً طبيعيا ، لأن الفروق بين فكرة الإخوان وبين شعارات هذه الأحزاب فروق شاسعة هى أقرب إلى أن تكون كالفرق بين الحق والباطل ، فإن القارئ بذلك فى غنى عن شرح أسباب الخلاف ونواحى التناقض ... أما مصر الفتاة باعتبارها هيئة تنزهت عن كثير من عيوب الأحزاب التقليدية ، فإن الاحتكاك بها يدعو القارئ إلى شئ من التأمل ، ويقتضى منا التبسط فى شرح نواحى الاختلاف بين فكرة الإخوان المسلمين وفكرة مصر الفتاة ، حيث يجمع بين الهيئتين من أوجه الشبه من الإخلاص والطهر ما يجعل الاحتكاك بينهما أمراً بعيد الاحتمال .

قدمت من قبل أننى منذ أول يوم لى بكلية الزراعة تعرفت فى المكان المعد للصلاة بالكلية على طالب يسبقنى بسنتين فى الكلية اسمه محمود مكى وتوطدت الصداقة بينى وبينه ثم تبين لى بعد ذلك أنه هو رئيس طلبة مصر الفتاة بالكلية وبمرور الأيام تعرفت على زملائه بالكلية وتوطدت صلة الصداقة بينى وبينهم ، ذلك أنهم على شاكلتنا شباب طاهر مستقيم يرنو إلى الإصلاح ..... وكانت مثل هذه الصلات تربط الإخوان فى جميع الكليات بزملائهم من أعضاء مصر الفتاة .

ودعوة الإخوان وإن كانت قد تأسست قبل مصر الفتاة ببضع سنين إلا أن مصر الفتاة سبقتنا إلى الجامعة فجذبت إليها مجموعات من الشباب الغض الذى كان متلهفاً على فكرة جديدة يشعر فيها بجو جديد غير الجو المألوف من هذه الأحزاب التى جرح كل منها الآخر فأصبحت كلها مجرحة فى نظر الشباب . فلما أراد الله لدعوته أن تدق أبواب الجامعة ، كان علينا — نحن دعاتها — أن نعلنها للجميع . فكنت — كما يفعل إخوانى فى كلياتهم — انتهز الفرصة التى يكون الطلبة فيها يستجمون فى حدائق الكلية وأقف مع بعض الزملاء أتحدث عن فكرتنا فيلتف حولنا زملاء آخرون وتتسع دائرة الملتفين فأشرح لهم أهدافنا ووسائلنا فيتوجهون إلى بالأسئلة لاستيضاح ما يرغبون استيضاحه ، ويتناول الحديث برنامجنا فى الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى والسياسى

وعلاقات الدعوة ومواقفها من جميع الأفكار والمبادئ والهيئات والطوائف والدول .. وهـذه المناقشات لابد أن ينتهى المشتركون فيها إلى موقف من ثلاثة مواقف ، أفراد اقتنعوا عقلا وعاطفة وهؤلاء يعلنون انضواءهم تحت لواء الدعوة ، وأفراد اقتنعوا عقلا ولم يقتنعوا عاطفة وهؤلاء يظلون فى موقف المراقب الذى يريد مزيداً من الاقناع، وأفراد جاءوا لمجرد المجادلة والمكابرة وهؤلاء لا شأن لنا بهم ، وبالطائفتين الأوليين تثرى الدعوة ويكثر أنصارها .

والمجاملات فى الصداقة أمر مطلوب إلا فى الأفكار والمبادئ والعقائد ، فلم تكن صداقاتنا مع زملائنا من أعضاء مصر الفتاة تحملنا على مجاملتهم على حساب دعوتنا ... ولكن قيامنا بتقديم فكرتنا إلى زملائنا الطلبة فى الكليات كانت تغضب هؤلاء الأصدقاء لأنها بطبيعتها تحد من انتشار فكرتهم ولم يتعودوا من قبل على مثل ذلك . فقد تعودوا على أن تكون لهم الغلبة دائماً فهم يكسبون من أنصار غيرهم ولا يكتسب أحد من أنصارهم ، فإذا رأوا أن هذه القاعدة التى ألفوها قد تغيرت فإنهم يغضبون .

وكان لابد لنا فى ثنايا عرضنا لدعوتنا أن نتعرض للأفكار العنصرية التى كانت فى ذلك الوقت تسيطر على أفكار الشباب فى مصر وفى أوروبا حيث كانت ألمانيا تدعو بشعار يقول «ألمانيا فوق الجميع» وانجلترا تزهو بأن الإنجليز جنس متميز عن أجناس العالم فهم «الجنس الذى يجرى فى عروقه الدم الأزرق» وتركيا كانت تحكمها «جمعية تركيا الفتاة» وكان تعرضنا لهذه الأفكار والشعارات يدفع السامعين من الطلبة إلى السؤال عن شعار «مصر الفتاة» وشعار «مصر فوق الجميع» وإذ كان تعرضنا للشعارات الأوروبية المشار إليها بالمهاجمة على اعتبار أنها تمييز عنصرى لا يقره الإسلام ، كان السامعون يفهمون من تلقاء أنفسهم الرد على سؤالهم دون أن نجيبهم إجابة مباشرة

ولقد آتت الجهود التى بذلناها فى عرض فكرتنا على زملائنا الطلبة فى الكليات أكلها ، فأقبلوا على الدعوة مهرولين، ومن هؤلاء الذى أقبلوا من كان خالى الذهن من سائر الأفكار ، ومنهم من كان معتنقاً فكراً معيناً فلما حضر المناقشات ووضعت فيها الأفكار المختلفة موضع البحث ألم بأخطاء كانت خافية عليه واختار الفكر الأصوب لأنه كان باحثاً عن الحقيقة لامتعصباً لشئ معين.

وتصادف أن كان من الفريق الأخير طالبان من كلية الزراعة كانا عضوين فى مجلس الجهاد الأعلى لمصر الفتاة هما جلال عنبر وزكى صالح ، ولما كان هذا المجلس هو الهيئة العليا لإدارة الحزب، فكان لانتقال عضوين منه الى دعوة الإخوان المسلمين رجة عنيفة فى أوساط مصر الفتاة ، اضطر الحزب معها إلى موالاة اجتماعاته لبحث الأمر ، وكلف المجلس الأعلى أحد أعضائه وكان

طالبا مرموقاً فى كلية الحقوق اسمه حمادة الناحل بالاتصال بهذين العضوين وإقناعهما بالرجوع، واتصل بهما فعلا ودارت بينه وبينهما مناقشات ثم استدعاهما المجلس الأعلى مجتمعاً للمناقشة .

ولقد كنت فى مناقشاتى مع شباب مصر الفتاة بالذات رفيقاً غاية الرفق ، لأنى كنت أرى فيهم مثلا عظيمة غير أنهم فى حاجة إلى قليل من التوجيه ، ولذا فقد كنت – حين أخبرنى الأخوان الكريمان أن المجلس الأعلى قد حدد لهما جلسة لمناقشتهما – قلت لهما إننا لا نرى مانعاً من أن تكونا معهم ومعنا فنحن نرى أنفسنا مكملين لما فى مصر الفتاة من نقص ... ولكن .. لما كانت مصر الفتاة فى ذلك الوقت فى أزهى أيامها ،وفى عنفوان قوتها ، عز عليها أن تقبل بهذا الوضع وقالوا لهما : من لم يكن لنا وحدنا كان علينا .

ومنذ هذه الحادثة بدأت مصر الفتاة ترى فى الإخوان المسلمين لأول مرة – على حداثة عهدهم بالجامعة – منافساً قوياً ومزاحماً خطيراً لا تسهل مهاجمته ، إذ ليس له عورات يهاجم منها ... ويجدر بى هنا أن أعيد وأكرر أن تنافسنا مع مصر الفتاة كان تنافساً من نوع كريم ، تنافساً بين نبلاء ، فمصر الفتاة كانت فى تنافسها معنا أكرم من أن تلجأ إلى أساليب الكذب والافتراء التى تستبيحها الأحزاب التقليدية ، لأن أعضاء مصر الفتاة كان أكثرهم من صفوة الشباب وخلاصة الأمة ... ومن الطريف أن أورد هنا بيتين من قصيدة نشرت فى ذلك الوقت فى مجلة النذير للأخ الكريم جلال عنبر – وكان شاعراً عذب الشعر – لخص فيها ما انتهى إليه موقفه فقال :

إن هذا الفتى الذى كان يدعـــــو   مصر فوق الجميع طول الزمـــان
طلق اليوم مبدأ «المجـــــد للنيـــــــــل» فناء فى مبدأ الإخوان

نبل ، وتحرك من جهة إلى جهة على أساس مبادئ وأهداف بعضها أنبل من بعض ، ليس فيها أهواء ولا جرى وراء منافع مادية .

كانت مهاجمتهم للإخوان مهاجمة بالعمل الإيجابى ، الذى تراءى لهم أنه العمل الذى سيتفوقون به على الإخوان فى ميدان الأعمال ، والعمل الذى سيشد الأنظار إليهم ، وسيقنع الشباب بأنهم أحق أن يلتف حولهم ، ويظهر الإخوان بمظهر المتقاعدين المتخاذلين ....

تحطيم الخمارات

فى صباح يوم من الأيام قرأنا فى الصحف أن جماعات من مصر الفتاة هاجمت عدداً من الحانات فى القاهرة وحطمت واجهاتها وبعض محتوياتها ، وقد تم القبض على عدد من الجناة ويجرى التحقيق معهم .

وفهمت فى الحال أننا المقصودون بهذا العمل ، وأيد ذلك حين انتظمنا فى الدراسه فى ذلك اليوم أن انطلق طلبة مصر الفتاة يفخرون بهذا العمل الإيجابى ، ويتيهون به على الجميع ويتوجهون بهذا التيه إلى الإخوان ، بل ويفصحون عن ذلك صراحة فى حديثهم مع الطلبة الآخرين ...

ولما كان هذا الإجراء وهذا التحدى موجهاً إلى الإخوان بعامة وإلى إخوان كلية الزراعة بخاصة ، فقد رأيتنى فى موقف يقتضينى أن لا أقف مكتوف اليدين أمام التحدى لاسيما أن طلبة الكلية أحسوا بهذا التحدى وأخذوا ينتظرون منا رداً عليه،ورأيت أن الرد الشفوى فى هذا الصدد لا يجدى لسببين : أحدهما : أن من غير المستطاع جمع الطلبة جميعا فى مكان واحد ليستمعوا،والآخر : لأن الرد الشفوى تصاحبه عادة حالات انفعالية تجعل من العسير على المتكلم جمع أطراف الموضوع والإحاطة به من جميع نواحيه ... وكانت مجلة النذير فى هذه الأيام قد انتشرت وذاع صيتها فى أوساط طلبة الكلية فرأيت أن يكون ردى مقالا على صفحات النذير ليكون إقناعاً لإخواننا وزملائنا بالكلية ولجميع الكليات ولمختلف الطوائف فى القاهرة وفى أنحاء البلاد .

وكان المقال على ما أذكر بعنوان«تحطيم الحجارات» وملخص ما جاء بالمقال هو أن الدعوة الإسلامية باعتبارها دعوة الخلود فإنها لا تعتمد فى خطواتها على الارتجال أو الطفرة ، وإنما تعتمد على أساليب رصينة تتمشى مع العقل وتخضع للنواميس الكونية ... فرسول الله صلى الله عليه وسلم دعا أول ما دعا إلى الوحدانية ونهى عن عبادة الأصنام ، ومع ذلك ظل فى مكة ثلاثة عشر عاماً يصلى هو ومن معه من المسلمين فى الكعبة والأصنام منصوبة فوقها يعبدها المشركون ،لم يفكر هو ومن معه من المسلمين فى تحطيم واحد منها ،ثم هاجر إلى المدينة مكرهاً ، وظل بها عدداً من السنين يدعو الناس إلى الإسلام حتى التف حوله الناس ، واشتد أزره ، وقوى ساعده ، ورأى فى نفسه وفى أتباعه الكفاءة لملاقاة المشركين بمكة ، فاتجه إليها فاتحاً بعد ثمانى سنوات من الهجرة ، وانتصر واستسلمت مكة بمن فيها دون قتال، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرم وأمر بتحطيم الأصنام فأنزلت من فوق الكعبة وحطمت واحداً واحداً وهو يقول «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا» تحت سمع حماتها وبصرهم دون أن يحركوا ساكنا أو يرفعوا بذلك رأساً ، ودخل الجميع الإسلام دون حرب ولا دماء ... ولم تعد الأصنام إلى الأبد .

لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كبر عليه أن تعبد الأصنام وهو يصلى فى الكعبة وحاول تحطيمها فى أول دعوته ، ماذا عسى أن يكون قد حدث له ولدعوته ؟ ... إنه كان سيقتل هو ومن معه وتقتل معه دعوته وهى فى مهدها . ولما كان هناك فى التاريخ دعوة للإسلام ...

ثم أشرت إلى أن هذا الإجراء من تحطيم للحانات وما أشبهه ليس مما يعجز الإخوان ، فإن عدداً قليلا من قطاع الطرق يستطيعون أن يقوموا به .. ثم ما النتيجة من هذا العمل ؟ هل حرمت الخمر فى مصر ؟ هل أغلقت الحانات ؟ ... كل ما كان من نتائج هى أن الخمر استمرت كما هى مباحة، ولم تغلق الحانات ، أما الحانات التى حطمت فقد عوضتها الحكومة من جيوبنا نحن المصريين بأضعاف قيمة ما تحطم من واجهاتها ومحتوياتها فجددت تجديداً زاد من عدد روادها ... ثم ألقى عدد من الشباب الطاهر البرئ الذى لم يحسن توجيهه فى السجون .. هذا عمل كالطبل الأجوف صوت ضخم يلفت الأنظار ثم تلتفت فلا ترى وراءه شيئاً .

ووزعت «النذير» فى هذا الأسبوع توزيعاً واسعاً فالكل متلهف على معرفة موقفنا من التحدى فبقدر ما روجت مصر الفتاة لعملها هذا ووسعت من دائرة الفخر به انتشرت «النذير» .. كان لهذا المقال أثر كبير فى أوساط الشباب ، وكان صدمة لمصر الفتاة ، ألجم دعاتها ، وأفحم المتفاخرين من رجالها بل جعلهم يتوارون خجلا ... وبدأ الإخوان فى الكليات يرفعون رءوسهم ويتبوأون مكانهم ، ويواصلون مكاسبهم من المنتسبين لمصر الفتاة وغيرها .

وكان الذى فاجأ الناس أن قرأوا خطابا موجها من المرشد العام إلى وزير العدل يطالبه فيه بالإفراج عن المقبوض عليهم فى هذا الحادث لنبل مقصدهم ، ويحثه فيه على إصدار القوانين التى تطهر البلاد من المنكرات التى تثير النفوس المؤمنة وتحرج الصدور .

نحن والأحزاب التقليدية

لم تكن الأحزاب التقليدية حتى ذلك الوقت تقيم للإخوان وزناً ، لأنها أولا كانت تعتقد أن السلطة أو الحكم إنما هو دولة بينهم ، يتبادلونه واحداً بعد الآخر ، وأن كائناً من كان مهما قال ومهما فعل ، ما دام لم ينازعهم السلطة والحكم فإنه لا يعنيهم أمره . وثانيا لأن رجال هذه الأحزاب لم يكونوا يفهمون الإسلام على أنه دين ودولة ... إلا أن حدثين حدثا فى تلك الأثناء أرغما هذه الأحزاب على أن تستفيق من غرور السلطة ، وتهبط من علياء بروجها العاجية ، بعد أن أحسوا ببوادر زلزال على الأرض هز بروجهم العاجية هزاً .

أولها : الصبغة الجديدة : فإن كبار رجال هذه الأحزاب فى الريف بدأوا يرون ظاهرة جديدة ، تلك أن أشخاصا . وإن كانوا قلة – ممن كانوا يصطبغون بصبغتهم الحزبية ، بدأوا يرونهم يطرحون هذه الصبغة بحجة أنهم إخوان مسلمون . وكان المعهود حتى ذلك الوقت أن الذى يطرح صبغة حزب من الأحزاب لا يطرحها إلا ليصطبغ بصبغة حزب آخر يتوسم فيه زيادة انتفاع يعود عليه ... أما اطراح الحزبية عامة بدعوى أن الشخص من الإخوان المسلمين فإنها بدعة جديدة تستحق النظر !!

ثانيها : أول مظاهرة إسلامية بالجامعة : بدأت هذه الأحزاب تشعر بشىء من الضيق حين رأت هذه «الجمعية» أخذت تزحف نحو العاصمة «القاهرة» وتتشعب فيها أى تكون لها شعباً ، مع أن القاهرة كانت تعتبر لهذه الأحزاب حرماً آمناً .. كيف لا وهى مقر الحكام ، ومترقبى الحكم ، ومقر دور الأحزاب التى كانت كعبة القاصدين من أنحاء البلاد .

يضاف إلى ذلك أن هذه الأحزاب فوجئت فى يوم من أوائل أيام تلك السنة (١٩٣٨) بمظاهرة تخرج من الجامعة المصرية تضم أكثر من أربعة آلاف طالب ، تجوب شوارع الجيزة ، وتخترق شوارع القاهرة ، وتقطع شارع المنيل حتى تصل إلى مقر الأمير محمد على ولى العهد ، والمظاهرة تهتف مطالبة بالحكم بالشريعة الإسلامية ... نعم إنها كانت بمناسبة الاحتجاج على الكتابين اللذين قررا على طلبة قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب وفيها تهجم وسباب للنبى صلى الله عليه وسلم مما قدنبسط الكلام عنه فيما بعد إن شاء الله ... إلا أنها كانت مظاهرة إسلامية تدعو إلى الحكم بكتاب الله وبالشريعة الإسلامية .. نغمة جديدة ... ويطل عليها الأمير محمد على ويبادلها التحيات والعواطف ويعد بالعمل على إجابة مطالبها ... مثل هذه المظاهرة لم يكن يستطيع تسييرها ولا تدبيرها إلا حزب واحد فقط بعد إعداد كبير بل وبذل مادى سخى ذلك هو حزب الوفد.

كما أن حزب الوفد–بعد أن حلت فرق «القمصان الزرقاء» التى كان قد أنشأها–رأى لهذه «الجمعية» فرقاً من القمصان الكاكى وإن كانت تسمى كشافة او جوالة إلا أنها فرق لا تختلف عن فرقه التى حلت إلا فى لون القمصان وهذه الفرق فى نمو مستمر .

إن هذه «الجمعية» تستحق أن يحسب لها حساب ، وتستحق أن ينظر إليها بعين الريبة ، وتستحق أن تعد العدة لمقاومتها ، ووقفها عند حد ، أو إزالتها من الوجود .

لم يثنهم عن هذا العزم أن الأستاذ المرشد كان يقول فى محاضرات الثلاثاء : إننا لسنا طلاب حكم وإنما نحن نطالب بالحكم بالشريعة الإسلامية ، من حكم بها من الحكام فإننا مستعدون أن نغسل على قدميه ... كما لم يثنهم أننا كنا فى الأقاليم نزور ممثليهم ، ونصل حبال الود معهم ، ونتعاون معهم على النهوض بأحوال البلاد من مواساة الفقراء والمساكين .

بدأوا خطتهم فى مهاجمة الدعوة بنشر آراء فاسدة عفى عليها الزمن واندثرت فيما اندثر من أباطيل فإذا بنا نقرأ فى جريدة البلاغ وكانت جريدة حزب الوفد المسائية وكانت واسعة الانتشار مقالة عن كتاب «الإسلام وأصول الحكم» لعلى عبد الرازق تشيد فيه بمهاجمة صاحب الكتاب لفكرة أن الإسلام دين ودولة ... وقد لفت نظر الأستاذ المرشد إلى هذا المقال وعرضت عليه أن أكتب رداً عليه فأذن لى وكتبت الرد وطلبت إلى الجريدة نشره فى نفس المكان كما يقضى بذلك قانون المطبوعات واضطرت الجريدة لنشره ،

محاولتهم الايقاع بين الاخوان والحكومة

أخذت صحفهم تحاول إبراز جوالة الإخوان على أنها نظام عسكرى ، والقانون يحرم على الهيئات الشعبية أن يكون لها نظام عسكرى ، فيجب أن تلغى كما ألغيت فرق القمصان الزرقاء وفرق القمصان الخضراء ... وتقدم أحد محررى جريدة المصرى – التى كانت فى أوائل أيامها وكانت لسان حال حزب الوفد – إلى الأستاذ المرشد بأسئلة وجهها إليه فى هذا الشأن وطلب منه الإجابة عليها .. وقد اعتقدوا أنهم بذلك قد أحرجوه وأنه سيتهرب من الإجابة .. فإذا به يجيب إجابة تخطت جرأتها وثبات الظنون ....

وظهرت «المصرى» فى اليوم التالى بعنوان بالخط العريض يملأ أعلى الصفحة الوسطى يقول : «المرشد العام للإخوان المسلمين يقول : نعم أنا أدعو إلى تسليح الجيش المصرى وإلى تسليح الشعب» (فى خلال تلك الأيام كان مجرد الحديث عن التسليح يعد جريمة لأن الجيش المصرى نفسه كان محدد العدد وكان تحت رحمة لجنة عسكرية انجليزية) وفى تفاصيل الإجابات يقول : إن فرق الإخوان ليست فرقاً عسكرية وإنما هى فرق جوالة مسجلة فى جمعية الكشافة الأهلية ، وليس معنى ذلك أننى راض عن هذا الوضع الذى ألزمتنا به قوانين البلاد بل إننى أرى من الواجب أن يكون جيشنا جيشاً قوياً ، وأن يسلح أعظم تسليح ، وأن تنشر الروح العسكرية فى الشعب وأن يسلح هذا الشعب حتى يستطيع أن يحرر بلاده من الاستعمار .

فرحت الأحزاب بهذه التصريحات الخطيرة التى خيل إليهم أنهم استطاعوا أن يجروا الأستاذ المرشد إلى الإدلاء بها حتى يحقق معه ويحال إلى المحاكمة وتلغى جمعيته باعتبارها خارجةعلى القانون.

وطلب الأستاذ المرشد للمثول أمام رئيس نيابة فى القاهرة كان معروفا عنه أنه يحب الإنجليز وقد أخبرنى الاستاذ المرشد بذلك حين تسلم اعلان النيابة وقال لى : إننى كنت أهدف من حديثى فى جريدة المصرى إلى أن أطلب للتحقيق معى ، ويبدو أنهم اختاروا هذا الرجل بالذات لما يعرفون عن ميوله الإنجليزية .

ومثل الأستاذ المرشد أمام الأستاذ رفقى رئيس النيابة وفتح محضر التحقيق وظل رئيس النيابة يسأل والأستاذ يجيب ويفيض فى الإجابة ويتعب الرجل فأجل التحقيق إلى اليوم الثانى واستغرق التحقيق عدة أيام وملأ أكثر من مائة صفحة ، وقد انتهز الأستاذ المرشد فرصة التحقيق وأخذ يشرح دعوة الإخوان كما أبدى رأيه فى مختلف مرافق الدولة ، وكيفية إصلاحها ، فهو يهاجم الوضع ويشفع هجومه بالوسائل التى يمكن أن يصلح بها . وكان المحقق حريصاً على أن يحصل

من الاستاذ المرشد على اعتراف بما جاء على لسانه بجريدة المصرى فيما يختص بالناحيه العسكريه والتسليح فاعترف الأستاذ بكل كلمة نشرت وزاد على ذلك أنه يحمل الحكومة تبعة التقصير فى حق الجيش وفى حق الشعب لأنها لا تعمل على نشر الروح العسكرية والتسليح ذلك، لأن الإسلام يدعو إلى القوة والحرية .

وانتهى التحقيق وكانت الأحزاب تنتظر انتهاءه بفارغ الصبر، ليروا الأستاذ المرشد مكبلا بالأغلال مقدماً إلى المحاكمة ، وكنا نحن الإخوان لا نقل عنهم اشتياقاً إلى هذا الموقف ... وقد طلب الأستاذ المرشد من المحقق عند انتهاء التحقيق أن يأذن له بنسخة من أوراق التحقيق بحجة احتياجه إليها للدفاع عن نفسه أمام المحكمة فرفض المحقق .. وكان الدافع الحقيقى لطلب الأستاذ نسخة من التحقيق هو أنه كان يرى أن هذا التحقيق هو إحدى الوثائق الرائعة لنشر الدعوة والإقناع بها ، وأذكر أننا حاولنا بعد ذلك الحصول على هذه النسخة بطريقة غير رسمية .

وكانت المفاجأة لنا وللأحزاب أن صدر قرار بحفظ التحقيق ، وهو مالم يكن متوقعاً ، وكان أسفنا لذلك لا يقل عن أسف الأحزاب . وكل يغنى على ليلاه - وطبعاً لم يكن الموعز بالحفظ هو الحكومة ، وإنما كان الإنجليز لأنهم رأوا فى إثارة ماجاء بالتحقيق تنبيها للشعب وإيقاظاً لآماله .

مؤامرة لاغتيال المرشد العام

سأورد هذه المؤامرة كما حدثت وقائعها بين يدى وتحت سمعى وبصرى ، ولكننى لا أستطيع أن أجزم حتى اليوم هل كان تدبيرها والدافع إليها فردياً وشخصياً أم أن ذلك كان بإيعاز من الحزب نفسه ...

كنت ومجموعة كبيرة من طلبة الإخوان ندرس فى الجيزة ونسكن فيها ، وكانت الجيزة فى ذلك الوقت - كغيرها من البلدان المصرية - مدينة ليست بالشاسعة الأرجاء ، وليست مكتظة بالسكان . وهى باعتبارها عاصمة إقليم زراعى ريفى فهى مدينة ريفية ، ولكن ينساب إليها التيار الحضرى باعتبارها ضاحية من ضواحى القاهرة ... ومع أن الإخوان لم يكونوا بعد قد أنشأوا لهم شعبة يجتمعون فيها إلا أنها كانت نقطة ارتكاز للدعوة لا يستهان بها ؛ حيث كانت مساكن الإخوان الطلبة فيها شعباً بعدد هذه المساكن ، وكان إخوان القاهرة يعرفون هذه المساكن ويفدون إليها للزيارة ولمناقشة موضوعات تهم الدعوة .

وكان لحزب الوفد شخصية قوية فى الجيزة ممثلة فى محام شرعى شهير يدعى ع.ب. وهو من

أهالى الجيزة وله منزل فخم بها أشبه بالقصر يطل على الشارع العمومى المؤدى إلى الهرم ، وكان من ذوى الأملاك وعضواً بمجلس النواب وعضواً بالهيئة الوفدية ومن أكبر أعيان الجيزة .

وكانت مناصب الشيخ وأبهته، وما كان يحيط به نفسه من مظاهر الثراء ؛ وفى مقدمتها كثرة العاملين فى خدمته ، والمروجين له ؛ جعلته فى نظر الناس شيئاً آخر غير عمله الرسمى .

ولم يكن الإخوان باعتبارهم أصحاب دعوة - يرون فى إنسان الخير الذى لا شر معه كما لا يرون فى إنسان الشر الذى لا خير معه ، ولذا فإنهم كانوا يتقدمون بدعوتهم إلى كل إنسان ؛ فإذا كان هذا الإنسان شيخاً وأزهرياً ومعمماً كان أجدر أن يتقدموا إليه لاسيما وأهل الجيزة الأصليون الذين يعيشون فيها كابراً عن كابر قليلون ، والقليل من هؤلاء مثقفون ، والدعوة تتوخى الظفر بمثقفين حيث يكونون عادة أعمق فهماً ، وأوسع أفقاً ، وأقدر على إقناع غيرهم بما اقتنعوا به .

والدعوة موجودة بالجيزة منذ التحقنا بالكليات واتخذنا الجيزة سكناً لنا ، ومضى على ذلك سنتان وهذه هى السنة الثالثة، ولكن لم يخطر ببالنا أن نتصل بهذا الشيخ وهو نائب المدينة وأبرز شخصياتها ، كما لم يخطر ببال الشيخ ونحن على قيد خطوات منه أن يتصل بنا ... ولكن شيئاً جد فى الأمر جعل الشيخ يبحث عنا ، ويتقرب إلينا ، ويفسح لنا من وقته الثمين وداره الفارهة ... إن هذا الشىء الذى جد إنما هو المؤتمرات الإخوانية وما أسفرت عنه مما ألمحنا إليه ، وتصريحات الأستاذ المرشد فى جريدة المصرى وما أحاط بها من ظروف ، وقد كان من أثر هذه المؤتمرات والتصريحات أن دعمت مركز الإخوان وفتحت للدعوة أبواباً كانت مغلقة انسابت منها إلى أوساط جديدة لم تكن نعرف عنها شيئاً .

التقى بى عددمن زملائى الطلبة القاطنين بالجيزة وقالوا لى : إن الشيخ ع.ب. دعاهم إلى مكتبه فى منزله وعرض عليهم تكوين شعبة للإخوان بالجيزة ... وحين طرق سمعى هذا النبأ سرحت بخاطرى فى أجواء متناقضة عشتها ؛ منها جو «الوفد» وجو «الإخوان» وجو «مؤتمر المنصورة» وجو هذا الشعب الطيب الفقير الغافل ، وجو «الذئاب والشياطين» التى تلبس مسوح الهررة والملائكة متحلية أمام هذا الشعب الطيب بما يضفيه عليها المنصب والثراء من حلى تأخذ بالأبصار .

كيف يكون هذا ؟ الوفد يصب فى الأقاليم جام غضبه على القلة القليلة من الإخوان الذين كانوا أعضاء فى الوفد ثم أعلنوا تجردهم لدعوة الإخوان ، والوفد الذى يتآمر عن طريق جريدته «المصرى» ليوقع بين الإخوان والحكومة إيقاعاً لا يؤدى إلا الى نسف الدعوة نسفاً لولا لطف الله وحياطته لدعوته ..

كيف يستقيم هذا مع تقدم الشيخ نائب الجيزة وعضو الهيئة الوفدية إلى الإخوان فجأة يقترح عليهم تكوين شعبة للاخوان بالجيزة ، ويقول له الإخوان : إذن نبحث عن مكان للشعبة فيقول : لا داعي للبحث ، تنشأ هنا في منزلى ؟!!!... لقد أحسست أن وراء الأمر شيئاً مريباً ... ولكنى لم أبد للإخوان شيئاً مما دار في خاطرى ، وعزمت على لقاء الرجل والاستماع إليه ، وملاحظة ما يدور حوله ... وقابلت الرجل ووجدت منه استعداداً كبيراً بل تهافتاً على إنشاء الشعبة ، واحتضانها ، والتكفل بكل ما يلزم من نفقات ... وأحضر لافتة كتب عليها اسم الشعبة ، وعلقها على الدور الأرضى من منزله ، وجعل الاجتماعات في مكتبه ، وقد واظبت على هذه الاجتماعات فترة من الزمن ألممت فيها بالكثير مما كنت حريصاً على الإلمام به ، مما ضاعف ما في نفسى من شكوك .

وكلفت مجموعة من الإخوان المتمرسين بالتعرف على اتجاهات المجتمعات بالنسبة للإخوان ؛ وهى مجموعة متخصصة لها القدرة على التكيف بجو الهيئة المطلوب معرفة اتجاهها تكيفاً يشعر المسئولين بهذه الهيئة أنهم أخلص العاملين لها ؛ وبذلك يغشون الجلسات المضروب حولها نطاق السرية ، ويظهرون بذلك على أدق أسرارها .

وقد أكد لى هؤلاء ما كان يتردد في نفسى من شكوك ؛ وأخبرونى أن الشيخ ورجاله سيقيمون للأستاذ المرشد حفلا كبيراً بمناسبة لا أذكرها الآن – لعلها كانت المولد أو الهجرة أو الإسراء ،وأنهم سيحاولون في خلال هذا الحفل إحداث شغب وفى غمرة هذا الشغب يغتالون الأستاذ المرشد .

وفعلا طلب الشيخ أن يقام حفل كبير لهذه المناسبة وأصر على دعوة الأستاذ المرشد إليه متكفلا هو بكل نفقات الحفل ، وما كان الإخوان ليرفضوا عرضاً كهذا ، وحدد الموعد ، ووجهت الدعوات لحضور أهل الجيزة ، ووجهت الدعوة إلى الأستاذ المرشد .

وأرسيت قواعد سرادق فخم كبير ، ولم يبق على ليلة الحفل إلا ليلة واحدة ، ولم أكن قد قابلت الأستاذ المرشد في خلال الأسبوع السابق لانشغالى بالجيزة ، وبما يعده الناس الطيبون من أمور في الخفاء والله يكتب ما يبيتون ... ذهبت إلى المركز العام في تلك الليلة وقابلت الأستاذ المرشد على انفراد وطلبت إليه أن لايحضر هذا الحفل ، وألححت عليه في ذلك ، فتعجب وسألنى عن السبب ، فقلت له : لا داعى لمعرفة السبب ولكنى أرجو منك بحق الدعوة عليك أن لاتحضر هذا الحفل ؛ فأصر على حضوره مالم يعرف السبب فقلت له : إن القوم وضعوا خطة لاغتيالك

وقصصت عليه القصة ... فضحك وقال لى يا محمود أنخاف الموت ؟.. كيف نخاف الموت ونحن نعلم الناس أن لا يخافوا الموت ؟ والله لأحضرن إن شاء الله هذا الحفل .. وأظننى بكيت حينئذ وتركته .

تركته وسارعت بالاجتماع مع مجموعة من الإخوان المسئولين من الجيزة والقاهرة ، وأخبرتهم بما كان بينى وبين الأستاذ وقلت لهم لابد إذن من وضع خطة محكمة ، فنحن نعرف الأشخاص الذين وكل إليهم تنفيذ المؤامرة ونعرف مهمة كل منهم ... ووضعت الخطة وهى تتلخص فى قيام جوالة الإخوان بإحكام الرقابة على تنظيم الحفل .

وبدأ الحفل ، وانتظر المدبرون أن يحدث شىء مما بيتوه ولكن شيئاً لم يحدث ، ورأوا بأعينهم رجالهم الذين أعدوهم للقيام بأدوارهم ثابتين على مقاعدهم كأنما سمروا عليها ، وكأنما خيطت شفاههم أو سدت أفواههم ، ولا يستطيعون حتى أن يتلفتوا يمينا ولا شمالا فأحسوا بفشلهم ، وشعروا بأن الإخوان قد كشفوا مخططهم فلم يستطع الشيخ بعد هذا الفشل إلا أن يحاول الغض من قدر الأستاذ المرشد بأن قدم قبله عدداً كبيراً من زملائه وأصدقائه ممن يعتقد أنهم من قوة البيان والقدرة الخطابية بحيث لا يكون للأستاذ المرشد بعدهم قيمة ، ثم إنه عمل على أن يشغل الوقت بهذا العدد الكبير من الخطباء بحيث يستنزفون يقظة الحاضرين ؛ فلا يجد الأستاذ إذا قام بعدهم استعداداً لسماعه ، أو انتباها لكلامه ، بل إنه اعتقد أنهم لتأخر الوقت الذى يحين فيه دوره سيكون أكثر الحاضرين قد سئموا الاستماع وسيخرجون ويتركونه .

ونفذت هذه الخطة الجديدة بمهارة ، وكثر الخطباء وتعددوا ، وأطالوا قاصدين وأملوا وأسأموا ، وأخذ الكرى بمجامع الأجفان ، وترنح الجالسون نائمين على مقاعدهم ، حتى إذا ما تحقق للشيخ ما أراد وقد قارب الليل على الانتصاف قدم الأستاذ المرشد ؛ فوقف وحمد الله وأثنى عليه ثم نزع ببيتين أو ثلاثة أبيات من الشعر القديم وما كاد ينتهى من البيت الثالث حتى رقصت مشاعر الحاضرين ولا أكاد أذكر من هذه الأبيات الآن إلا شطرة من بيت تقول «لأنت اليوم أحسن منك أمس» ، لعبت هذه الأبيات حين ألقاها بقلوب النائمين فاستيقظت طرباً ، وكأنما استيقظوا على حلم جميل .

وظل الأستاذ يهدر من قلب مفعم متأجج ، يقذف بشآبيب من نور تشق طريقها إلى ظلمات النفوس فتبددها ، وكأنما يتلقى من عل أنوار السماء ، ويلقى بها على الناس فيحس الناس أنهم ارتفعوا من فوق الأرض حتى حلقوا فى السماء ؛ وظل كذلك ساعة وأكثر من ساعة ، وتكبير

الناس قد بلغ عنان السماء ، حتى إذا ختم كلمته ، قام الناس مقبلين عليه ، ولقد رأيت شاباً فى ربيع العمر من أهل الجيزة يقول له : أ أنت حسن البنا أقسم بالله إنك لست حسن البنا ، إنما أنت ملك .

وهكذا انتهت الليلة «بنصر الله . ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعدالله لايخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً » ....

وبدأ الشيخ منذ ذلك اليوم يتراجع فى حماسه المصطنع للإخوان ، ويتملص وينسحب حتى رجع إلى حقيقته ورفعت اللافتة التى كان يعلم الله ماذا يقصد من ورائها ، واكتسبت الدعوة عن طريق هذا الرجل ، ورغم أنفه ، خلقاً كثيرين ، ماكانوا ليتصلوا بالدعوة لولا ما كان من أمره . وإن الله- كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم- لينصر هذا الدين بالرجل الفاجر «والله من ورائهم محيط» .

نحن والهيئات الدينية

يمكن حصر الهيئات الدينية فى مصر فى ثلاث فئات : الصوفية والسنية والخيرية . وحديثنا مما يتصل بالموضوع الذى نعالجه سيكون مقصوراً على الفئتين الأوليين دون الثالثة لأن هذه بطبيعتها لا تقوم على أساس تصور معين للفكرة الإسلامية ، ثم إن أعمالها التى قامت من أجلها كانت مستوعبة ضمن أعمال شعب الإخوان فى كل مكان .

كانت أولى خصائص دعوة الإخوان منذ أول يوم وستظل كذلك بإذن الله «البعد عن مواطن الخلاف » وخير توضيح لهذه الخصيصة ما ضمنه الأستاذ المرشد خطابه الجامع فى المؤتمر الخامس حيث قال :

«فأما البعد عن مواطن الخلاف الفقهى ؛ فلأن الإخوان يعتقدون أن الخلاف فى الفرعيات أمر ضرورى ، لابد منه ، إذ أن أصول الإسلام آيات وأحاديث وأعمال تختلف فى فهمها وتصورها العقول والأفهام. لهذا كان الخلاف واقعاً بين الصحابة أنفسهم ، ومازال كذلك وسيظل إلى يوم القيامة ؛ وما أحكم الإمام مالك رضى الله عنه حين قال لأبى جعفر المنصور وقد أراد أن يحمل الناس على الموطأ : إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا فى الأمصار ،

وعند كل قوم علم ، فإذا حملتهم على رأى واحد تكون فتنة (. وليس العيب فى الخلاف ولكن العيب فى التعصب للرأى ، والحجر على عقول الناس وآدائهم – هذه النظرة إلى الأمور الخلافية جمعت القلوب المتفرقة على الفكرة الواحدة ، وحسب الناس أن يجتمعوا (على ما يصير به المسلم مسلماً) . كما قال زيد رضى الله عنه . وكانت هذه النظرة ضرورية لجماعة يريدون أن ينشروا فكرتهم فى بلد لم تهدأ بعد فيه ثائرة الخلاف على أمور لا معنى للجدل ولا للخلاف فيها ».

ومقتضى هذه النظرة أن ندعو المسلمين إلى مالا خلاف عليه وندع جانباً ما فيه خلاف ، ولكن هذه النظرة وإن لقيت الاستجابة والترحيب من أكثر الناس إلا أنها قوبلت باعتراض ومقاومة من أقوام من الفئتين المشار إليهما آنفاً .

أولا : الصوفية

الأصل فى الصوفية أخذ النفس بأسلوب يطهرها من أدرانها ويزكيها ويصقلها فيرقى بها فى مدارج الكمال الإنسانى حتى يكون المسلم أداة نافعة لنفسه ولذويه وللمجتمع ؛ وعلى هذه الأسس الرفيعة نشأت فكرة الصوفية وهى فكرة يقرها الإسلام ويعمل لنشرها ويحث عليها ؛ لأنها بهذا الأسلوب أساس لكل إصلاح ، ودعامة لكل نهضة ، وضمان لكل نجاح .

ولا بأس أن يتصدى لتربية النفوس بهذا الأسلوب رجال أوتوا مقدرة على التربية والتوجيه ، ومن هنا نشأت مدارس أو باللفظ الاصطلاحى نشأت طرق صوفية لكل طريقة شيخ ومريدون أو تلاميذ :

وكلهم من رسـول الله ملتمس غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم

ونحن–الإخوان المسلمين – نعتبر أسلوب التربية الروحية أساس دعوتنا لأن تكوين الفرد المسلم متوقف على الأخذ بأكبر نصيب من هذا الأسلوب مع مداومة الأخذ به ، واللجوء إليه ،والاستمداد من فيضه .

ولكن ليس معنى ذلك أن ينقطع المسلم لهذا الأسلوب ، وينعزل عن المجتمع لايبالى ماينال هذا المجتمع من خير ومايصيبه من مصائب .. وليس معنى ذلك أن يتخذ هذا الأسلوب وسيلة للارتزاق وجمع المال ، والتسلط على الناس ، وكسب الصيت والشهرة .

ومما يؤسف له أن بعض مشايخ الطرق قد انحرفوا بأتباعهم عن الطريق السوى واتخذوا طرقهم وسائل لألوان من هذه الأغراض المادية المشوهة لسمعة الصوفية والدين نفسه ، ومنهم من أراد أن ينعزل بمريديه عن المجتمع .

وهذان النوعان من الإنحراف – مع أنهما طرفاً نقيض هما اللذان اعترضا طريقنا فى الدعوة وراحا يعلنان الحرب علينا مادمنا لا نقرهما ولا نرضى سبيلهما سبيلا ؛ أما دعاة العزلة فقد أحسوا بأن تيار العمل الإسلامى الإيجابى قد استدرج عدداً كبيراً من أنصارهم الذين كانوا يعتقدون أن العزلة هى السبيل الأقوم لتحصيل ثواب الله ورضاه ؛ فلما عرضت عليهم الفكرة الإسلامية بشمولها وإحاطتها بكل شىء عرفوا أنهم لم يكونوا على شىء فى انتهاجهم سبيل العزلة ، فخرجوا من عزلتهم ، وساروا مع الركب حتى صاروا فى المقدمة .

وأما الآخرون من المشايخ الذين اتخذوا الصوفية مرتزقاً ، ووسيلة إلى الكسب المادى ، وسبيلا إلى استغلال جهل المسلمين وسذاجتهم فهؤلاء مفسدون فى الأرض وكان لنا معهم دور ؛ حيث كان انتشار الدعوة فى مكان بمثابة إعلان حرب على هؤلاء ، فالدعوة بطبيعتها تثقف معتنقها وتوسع مداركه وتعطيه مقياساً يقيس به الأمور فيعرف به الخير والشر ويعرف به الحق والباطل.ويعتبر هؤلاء المشايخ تفتيح أذهان الناس وتنوير عقولهم إعلان حرب عليهم ... وهؤلاء المشايخ يجدون الطريق أمامهم ممهداً فى الأرياف والأقاليم حيث السذاجة وطيبة القلب وحسن الظن والأمية والجهل ؛ وسأعرض بين يدى القارىء مثالا واقعياً وكانت وقائعه معى شخصياً بين القاهرة ورشيد :

تعرف على هذا الشيخ ، ولا أدرى كيف تعرف على ، فقد كنت فى ذلك الوقت فى القاهرة أغشى كل مكان واتصل بكل المجتمعات حتى المقاهى البلدية فى أحشاء القاهرة لأعرض الدعوة على كل مجتمع بالأسلوب الذى يناسبه وكان الكثيرون من مختلف الأوساط يستجيبون للدعوة وكان ملتقاى معهم دور شعب الإخوان ودار المركز العام ، ولكن هذا الشيخ استجاب لى واختار أن يكون ملتقاى معه فى البيت الذى أسكنه فى الجيزة ؛ فكان يزورنى ويبيت عندى .

كان هذا «الشيخ» شاباً ، لايكبرنى إلا بسنوات قلائل ، وكان وسيما يلبس ملابس المشايخ من القماش الأبيض الناصع من قمة رأسه إلى إخمص قدمه ، وكان يدعى الشيخ (م.ف) من صان الحجر وكان متوقد الذهن ، مشتعل الذكاء وإن كان حظه من التعليم ضئيلا ، وكان سريع الخاطر ألمعياً ألوفاً كثيرة المعارف والأصدقاء ... وقد لاحظت أن أصدقاءه من طبقة الأغنياء المتعلمين ، وقد عرفنى بعدد منهم فى القاهرة والجيزة .

وقد أثار عجبى أن أصدقاءه هؤلاء أو قل مريديه يسكنون الشقق الفخمة والفلل الفارهة وعندهم الرياش والخدم ويعيشون فى بذخ ،ويتمنى كل واحد منهم أن يكون الشيخ ضيفه الدائم ويلحون عليه أمامى إلحاح الملتمس من بركاته ، ومع ذلك فقد كان يأبى الاستجابة لهم ، ويؤثرنى

عليهم ، وهو يعلم أن سكنى ومعيشتى دون ذلك ، وأنه لن يجد الراحة عندى كما يجدها عندهم .

وكان مما سرنى منه أنه كان حين يعرفنى بأحد هؤلاء ، يعرفه بى باعتبارى من الإخوان المسلمين ويفاخر بذلك ويثنى ويأخذ فى شرح الدعوة لهم ... كما كان يعجبنى منه أنه لم يكن يربطنى بنفسه فى غدواته وروحاته . باعتباره ضيفاً عندى - بل كان يقوم من الصباح فلا أراه إلا بالليل ، اللهم إلا الساعات القلائل التى كان يصحبنى فيها لتعريفى بأصدقائه هؤلاء الأثرياء .

وليس معنى أنه كان يلوذ بى أنه كان دائم الوجود عندى ، وإنما كان يلوذ بى فى فترات تردده على القاهرة فقد تردد عليها فى خلال تلك السنة نحو ثلاث مرات ، يمكث فى كل مرة نحو أسبوع ، وكان حين يعزم على السفر يقول إنه مسافر لحضور مولد سيدى كذا فى بلدة كذا .

وجاءت إجازة الصيف ، وسافرت إلى رشيد لقضاء فترة بها ، وبعد وصولى إليها بأيام وبينما أنا فى منزلنا جاءنى شاب لا أعرفه وقال إنه موفدمنقبل الشيخ (م.ف). وقد أرسلنى إليك لأخبرك أنه حضر اليوم إلى رشيد وهو موجود الآن بقهوة كذا ويرجو أن يراك هناك . فقلت للشاب اذهب وأحضره معك إلى هنا ، فذهب ثم جاء يقول إن الشيخ يشكرك ويرجو أن يراك فى المقهى ... وذهبت إلى المقهى والتقيت به مرحباً وعاتبته على عدم إجابته دعوتى إياه للمنزل فشكر .. ولاحظت أن أصحاب المقهى وروادها من العمال يحتفون بالشيخ .. ثم كانت المفاجأة

قال لى : أتعرف لماذا جئت بالذات إلى رشيد ؟.. قلت : لزيارة أخيك .. قال هذا أحد الواجبات لكن الذى جاء بى فى هذا الوقت بالذات وفجأة أنى رأيت فى المنام ؛ وقص على رؤيا ملخصها أن «سيدى على المحلى» المدفون فى أكبر مسجد فى رشيد - جاءه فى المنام وعاتبه على أنه لم يحيىء له مولداً وحدد له يوم كذا موعداً للمولد - وهذا اليوم المحدد يوافق اليوم التالى لحضور الشيخ وانتهى من قصته وطلب إلى أن أعينه على هذه المهمة حتى يفى بوعده للولى... وهنا بدأ الخلاف - لأول مرة - بينى وبينه ، ونصحته بأن يعدل عن هذا العزم ، فرأيت منه إصراراً ، فرجوته بحق مابينى وبينه من صداقة أن يعدل فرفض بإصرار ؛ فأخذت أشرح له أن هذا يتعارض مع اتجاهى ، وأن البلاد كثيرة ولا داعى لاختيار رشيد لأن فى هذا الإصرار تحدياً لى وهو مالا أنتظره منه ، فلم يخفف ذلك كله من إصراره .

فقلت له : إن معنى هذا أنك لن تجد منى المعونة التى تطلبها فقال : إنك إذا لم تعنى فأهل الخير غيرك كثيرون . فقلت له : إنك بإقامتك هذا المولد ستمتهن حرمة المسجد ، وستجعل منه ساحة للفجور حيث يجتمع حولك السفلة من الرجال والنساء والأطفال ممن لا يعرفون للمسجد حرمة

ولا يجتمعون إلا على اللهو واللعب والفسق والفجور ، وأنت فى غنى عن أن تكون سبباً فى ذلك فاتق الله واعدل عن عزمك .

لم يزده ذلك كله إلا تمسكا برأيه وإصراراً على عزمه ، ويبدو أنه رأى فى رواد هذا المقهى من الأميين والبسطاء عينة مشجعة .....

وافترقنا وتركته فى المقهى ونحن على خلاف شديد بل على تناقض مؤلم . واستعدت الماضى ففهمت اللغز الذى طالما حيرنى حين كان يؤثرنى بالمبيت عندى رافضاً إجابة رجاء مريديه الأثرياء فى المبيت عندهم ، وفهمت لماذا كان يشيد بى وبدعوة الإخوان أمامهم ؛ لقد كان هذا طعماً ألقاه إلى ليصطادنى به فى الوقت المناسب ، ومقدمة لما يحدثنى الآن بشأنه ... وأسفت أشد الأسف أن يجعل هذا «الشيخ» هدفه من تعرفه بى أن يجعلنى سلماً يتسلق عليه ليصل إلى رشيد ؛ المدينة الهادئة الوادعة التى لم يطرقها «شيخ» من قبل ليستغلها باسم الدين ويقيم لأحد من أوليائها مولداً ... ومعنى أن يقيم شيخ فى بلد من البلاد مولداً أنه أضاف إلى موارده السنوية مورداً جديداً مما سيجبيه من أهالى هذا البلد باسم المولد من فقرائها وأغنيائها ومما سيقدمه السذج رجالا ونساء إلى الشيخ من قرابين لعلاج ما استعصى من مشاكلهم وأمراضهم ! !

جمعت إخوان شعبة رشيد ، وشرحت لهم علاقتى بهذا الرجل ، وماكان بينى وبينه ، وما فاجأنى به من عزمه على إقامة مولد برشيد ، وبينت لهم خطورة السكوت على ذلك .. والإخوان حيث كانوا يفهمون فكرتهم وعلى ضوء هذه الفكرة يبدون رأيهم فيما يعرض لهم من أمور وستجدهم جميعاً دون اتصال فيما بينهم رأيا واحداً واتجاها واحداً ... واتفقنا على الوقوف فى وجهه آخذين فى اعتبارنا ذكاء هذا الشاب وقوة دهائه .

وبدأ الشيخ فأعد لنفسه مجلساً بالمسجد بجانب مقصورة الولى المدفون وسط المسجد . وعلق فوق مجلسه أنواراً ساطعة جعلت الليل نهاراً ، واتصل ببعض من جاءوا يتعرفون عليه من أهل البلد ممن بهرهم المنظر وطلب من كل منهم طلباً سارعوا إلى تلبيته فبعضهم أرسل مئات الأرغفة ، وبعضهم أرسل إليه الشاى وبعضهم أرسل السكر وبعضهم أرسل إليه نقوداً .. ومد الرجل الموائد ، وتوافد عليه حثالة الناس ممن لم يغشوا المساجد من قبل ... وأخذ الشيخ يشنع على الإخوان فيخرج من جيبه إحدى بطاقات الدعاية للدعوة كان قد حصل منى عليها من قبل وكان يعتز بها ولكنه الآن يعرضها ويقول للناس : انظروا : إنهم يقولون إن لهم مبادىء .. إذن هم حزب وليسوا دعوة دينية ... والتف حول الشيخ فى هذه الليلة - وهى الأولى من سبع

ليال أعلن عنها -محبو السهر فى المقاهى التى لا يجدون فيها من الفوضى والتهريج مايجدونه هنا مما يبعث النشوة فى نفوسهم ... وتوافد الشباب المتسكع ، والنساء الساقطات على المسجد يأكلون ويشربون ويعبثون ؛ وهو مع ذلك كله ، ووسط ذلك كله يقيم حلقة الذكر وهو جالس وسطها يغذى المترنحين فيها بين الفينة والفينة بكلمة أو صيحة .

ووضع الإخوان خطة حكيمة كان من نتيجتها أن انفض الناس من حول الشيخ فوجد نفسه وحيداً مما أيأسه من هذا البلد فغادره إلى غير رجعة ووقى الله رشيد أن تكون فريسة لدجالين يتخذون الدين وسيلة لإضلال الناس وابتزاز أموالهم .

ثانيا : السنية

وهذه الفئة كانت تمثلها هيئة واحدة تسمى «الجمعية الشرعية» ثم انشقت عنها جماعة أخرى سمت نفسها «جماعة أنصار السنة المحمدية» . وتركز الجمعيتان على تنقية العقيدة الإسلامية مما علق بها من شوائب وعلى مقاومة البدع وإحياء السنن ، وتختلفان فيما بينهما فى نظرة كل منهما إلى كيفية تنقية العقيدة مما قد نرجىء الإشارة إليه إلى وقت آخر ...ولهاتين الجمعيتين أنصار كثيرون فى القاهرة وفى الأقاليم وفى طوائف المثقفين وفى طلبه الجامعة ممن لقنوا هذه الأفكار فى بلادهم قبل التحاقهم بالجامعة . والأفكار التى قامت من أجلها هاتان الجمعيتان أفكار طيبة لاشك فيها ، ولكن تصورها فى أدمغة من يحملونها إلى الناس ثم يصور المنقولة إليهم لها بعد ذلك أنشأ ما أدى إلى التطرف والتحريف فى كثير من الأحيان « وما آفة الأخبار إلا رواتها» ..

وسأضع بين يدى القارىء مثالين يوضحان هذا المعنى الذى أومأت إليه وكنت فى المثالين أحد الشاهدين :

الجمعية الشرعية : فى عام ١٩٣٩ كنت أسكن فى ضاحية بجانب الجامعة تسمى « بين السرايات» وكنت أصلى الجمعة دائماً فى القاهرة لكننى اضطررت مرة إلى الصلاة فى هذه الضاحية فدخلت مسجداً قريباً من سكنى فإذا به أحد مساجد الجمعية الشرعية ، وصعد المنبر شيخ معمم ذو لحية طويلة وخطب الناس ... فاذا كان موضوع الخطبة فى تلك الأيام التى كانت فيها فلسطين شعلة من النيران وكان الإنجليز يقتحمون بيوت المسلمين ويحطمون كل ما فيها ويمزقون ما بها من مصاحف ويطأونها بأحذيتهم، ويأخذون المجاهدين ويسومونهم ألوان العذاب ويطردون المسلمين والمسلمات من بيوتهم ليسلموها لليهود ....

كان موضوع الخطبة : قراءة سورة الكهف فى المساجد يوم الجمعة ... وأفرغ الخطيب جهده فى تقرير أمر عجيب ، هو أن قراءة سورة الكهف فى المساجد يوم الجمعة كفر ، ولم يكتف سيادته بذلك بل قال : لا أقول إنها كفر بالنعمة بل كفر بالله ورسوله بحيث لا يقبل الله من فاعلها صرفاً ولا نصراً ..... وقد أحسست أن موجة استياء قد عمت المصلين حتى إن بعضهم بدأ يفكر فى جذب الخطيب من فوق المنبر وكادت تحدث فى المسجد فتنة .

جمعية أنصار السنة : فى خلال هذه السنة أو فى السنة التى قبلها كنت فى الإجازة الصيفية وكنت فى موطنى رشيد ، وكان عندى صديق كان طالباً فى إحدى كليات الأزهر وكان ضيفاً عندى لأنه من بلدة أخرى .. وقد رأى أن نتريض بعد صلاة العصر على كورنيش النيل ، وبينما نحن نسير فى هذا الطريق والجو هادىء وممتع رأى صديقى رجلا قادماً يبدو أنه قطع الطريق الذى بدأنا فيه ثم قفل راجعاً فقال لى إن هذا الرجل القادم صديق له ، والتقينا به فإذا به شاب فى ربيع العمر معمم وذو لحية عريضة فتعانقا وصافحته .. وأخذ صديقى يعتب عليه فى انقطاعه الطويل عنه ، فاعتذر قائلا : إننى كنت نزيل المستشفى مدة تزيد على الشهر ولم أغادرها إلا منذ أيام ، فسأله صديقى عن سبب دخوله المستشفى فقال : السبب هو جهل هذا الشعب وسوء أدبه ووقاحته فسأله صديقى وما علاقة هذا بدخولك المستشفى ؟ .. قال : أوفدتنى الجمعية فى الاسكندرية لألقى درساً فى مسجد (حدده) بالرمل ، فجعلت موضوع الدرس «الصلاة فى النعلين» فقلت للناس إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى فى نعليه فقال لى أحد الحاضرين : لم تكن الشوارع فى مكة والمدينة بها من النجاسات مثل مافى شوارعنا ثم إنهم كانوا يصلون على الحصى ... قال فقلت لهم : هذه سنة وعلينا أن نقتدى بالرسول وأن نصلى فى نعالنا ندلكها ثلاث مرات ثم ندخل المسجد بها ونصلى فيها. فقامت اعتراضات كثيرة من أنحاء المسجد فوقفت وأمسكت بنعلى وقلت لهم: أليس هذان نعلى ؟.. قالوا : بلى قلت : انظروا وأخذت أدلك بهما وجهى وأقول : لكى تقتنعوا . فرأيتهم قد قاموا وهجموا على بنعالهم وظلوا يضربوننى بها حتى فقدت رشدى ولم أدر إلا وأنا بالمستشفى ومعظم أجزاء رأسى ووجهى وذراعى وظهرى وصدرى عليها الأربطة .

فأخذ صديقى يواسيه حتى طيب خاطره ثم سأله عما جاء به إلى رشيد فقال إن الجمعية أوفدته لإلقاء درس بمسجد المحلى ... فأحسست كأن الله عز وجل أتاح لى فرصة اللقاء مع هذا الداعية الأحمق لأعفى أهل بلدى رشيد من غوائل حمقه . واتصلت بإخوانى فى الشعبة فحالوا بين الرجل وبين الاتصال بالجماهير حتى رجع إلى جمعيته عازماً على أن لا يعود إلى رشيد مرة أخرى .

أما فى الجامعة فقد كان زملاؤنا الطلبة من أعضاء هاتين الجمعيتين ينتقدوننا قائلين : كان عليكم قبل أن تدعوا إلى ماتدعون إليه أن تدعوا أولا إلى تصحيح العقيدة ومحاربة البدع .. وقد كان لنا مع زملائنا هؤلاء مناقشات مستفيضة وجلسات طويلة انتهت آخر الأمر باستجابتهم للدعوة واقتناعهم بأسلوبها وفكرتها ، فصاروا من أقوى الإخوان إيماناً وأثبتهم على العهد وأجرأهم فى الحق وأصبرهم على مكارهه .

ولم يكن ردنا على إخواننا هؤلاء فى خلال هذه الفترة من حياة الدعوة رداً موضوعياً بحيث نناقش فيه تفاصيل العقيدة وتوصيف البدعة بل كنا نقول لهم : انظروا إلى العالم الإسلامى بجميع أجزائه هل ترون فيه بلداً واحداً حراً طليقاً أم أنه جميعاً مستعبد رازح تحت أثقال من الاستعمار ؟ إن مثلنا ومثلكم كمثل أسرة ورثت بيتاً شبت فيه النيران ؛ فهل يتجادل الورثة فى كيفية اقتسام البيت وترتيب أثاثه أم يلقون بحقوقهم فى الاقتسام جانباً ويتفرغون متحدين أولا لمكافحة النيران ؟ ...

وقبل أن نختم الحديث عما كان من علاقات بيننا وبين الهيئات الدينية فمن حق هذه الهيئات أن نقرر أن الخلاف بيننا وبينها لم يكن خلافاً عميق الجذور كذلك الذى كان بيننا وبين سواهم من القطاعات وإنما كان خلافاً أخوياً كانت الغيرة على الإسلام الباعث من ورائه ، وإذا كان من صور منفرة فإنها لم تكن إلا من أفراد معينين أو من مجموعات محددة لا ينبغى اتخاذها أساساً فى الحكم على هذه الهيئات العتيدة التى يرجع إليها فضل كبير فى إثراء الدعوة بأكرم مجموعة من رجالها وأنصارها .

الأسلوب الخامس

الاتصال بزعماء المسلمين فى مصر والخارج

بدأت الجهات التى تعمل باسم الإسلام الرسمى منها وغير الرسمى تحس بوجود الإخوان . وأخذ المجاهدون القدامى يتنسمون فى الإخوان روح التضحية المؤمنة التى طالما افتقدوها ؛ فأخذوا يأوون إلى كنف الدعوة بطرق مختلفة ليس بينها الطريقة العلنية الظاهرة .

التقى بالأستاذ المرشد فى تلك الحقبة من المجاهدين القدامى عزيز المصرى ومحمود لبيب وعبد الرحمن عزام وصالح حرب ومحب الدين الخطيب ... وأذكر يوم زار عبد الرحمن عزام الأستاذ المرشد بهذه الدار أننى كنت فرحاً ؛ لأننى كنت أعلم الكثير عن هذا الرجل أيام سياحتى فى

مركز أبي المطامير حيث مكثت نحو شهر أتنقل بين كبار رجالاته وشيوخه الذين كان لهم تاريخ مازال مجهولا فى حرب الطليان الإجرامية - بمعاونة الإنجليز - للشعب الليبى المجاهد ، ولقد حدثونى عن جهود هذا الشاب عبد الرحمن عزام وإيمانه وبسالته وتضحيته .....

ولما كنت أعلم عن اتصاله بالسنوسية ، وحرصاً منى على تجلية فكرة الإخوان له ، كتبت فى مجلة النذير مقالا عن السنوسية - والسنوسية دعوة قام بها السيد أحمد الشريف السنوسى فى ليبيا وكانت تقوم على التصوف والجهاد ، وكان لها أتباع كثيرون هم الذين قاوموا الاستعمار الإيطالى المؤيد بالنفوذ البريطانى وكان منهم عمر المختار ، وصار منهم عبد الرحمن عزام حين أعلنت إيطاليا الحرب على المجاهدين السنوسيين فترك عبد الرحمن عزام دراسته فى كلية الطب فى مصر وتطوع مع المجاهدين السنوسيين وأبلى أعظم بلاء - وقد تحدثت فى هذا المقال عن تسلسل قيادات الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث ومنها جمال الدين الأفغانى ثم الإخوان المسلمون ؛ ووازنت بين هذه الأطوار للدعوة الإسلامية ؛ وأثبت أن دعوة الأخوان قد استوعبت الدعوتين وزادت عليهما بنظام أشمل ، وقيادة أشد إحكاماً وأبعد نظراً .

وعزيز المصرى كان من قواد الجيش المصرى الذين لم يطق الإنجليز وجودهم فيه ، وكان هذا الرجل من المؤمنين بالفكرة الإسلامية وبالدولة الإسلامية العالمية ، وقد عمل مع الترك أيام الخلافة العثمانية باعتبارها رمزاً للدولة الإسلامية وله فى ذلك المجال تاريخ مجيد ... وعلى شاكلة عزيز المصرى كان صالح حرب فقد كان هو أيضاً غصه فى حلق الإنجليز .. وقد توفى فى تلك السنة الدكتور عبد الحميد سعيد رئيس جمعية الشبان المسلمين فرشح الأستاذ المرشد اللواء صالح حرب خلفاً له .

ومحب الدين الخطيب كاتب اسلامى أشرت إليه فى صدر هذه المذكرات ، وكان بلا شك أعظم كاتب صحفى إسلامى فى مصر ، وكان من أوسع الناس علماً وخبرة بالتاريخ الإسلامى والحركات الإسلامية القديم منها والحديث .

أما محمود لبيب فكان زميلا لعزيز المصرى وصالح حرب ، وله جولات فى تركيا مركز الخلافة ، وله إحاطة بتاريخ الحركات العسكرية السرى منها والعلنى ، وكان يمتاز بأنه رجل عمل ، عميق الإيمان ، عميق الأفكار ، هادىء الطبع وإن كان يطوى ضلوعه على بركان ثائر لايهدأ له أوار ... وقد قطع حياته العسكرية عند رتبة الصاغ (الرائد) وكرس حياته بعد ذلك للعمل الصامت للدعوة الإسلامية ... وله فى دعوة الإخوان آثار بعيدة المدى سنتحدث عنها فيما بعد إن شاء الله .

أما شمال أفريقيا وهو المغرب العربي وإن كانت الظروف السياسية لم تتح لمقابلات بين المجاهدين فيه وبين الإخوان فإن الإخوان كانوا حريصين على مراسلة هؤلاء المجاهدين للتعرف على حقائق الأحوال عندهم فكانت هناك مراسلات بيننا وبين عبد الحميد بن باديس فى الجزائر الذى كان يتزعم حركة لمقاومة خطة «فرنسة» الجزائريين للقضاء على عروبتهم وإسلامهم ، فكون جمعية جعلت مهمتها إنشاء مدارس إسلامية ..وكانت السلطات الفرنسية تلاحق هذه المدارس بالقوانين الجائرة التى تضيق الخناق عليها وتضع العقبات فى طريق إنشائها وفى طريق الملتحقين بها والمتخرجين فيها ....

وكانت هناك مراسلات بيننا وبين المجاهدين فى مراكش مثل علال الفاسى وحزبه الذين كانوا يقاومون الاستعمار الفرنسى ويقاومون «الظهير البربرى» وهو قانون أصدره الفرنسيون بذروا به بذور الشقاق بين عنصرى الأمة المغربية التى تتكون من العنصر البربرى وهم سكان البلاد الأصليون ، والعنصر العربى وهم السكان الفاتحون ... ولما كانت طبيعة الإسلام تقضى على النعرات القبلية والدعوات العرقية فقد انصهر العنصران فى بوتقة الإسلام وخرج من الإنصهار شعب لا يعرف انتماء إلا الى الإسلام فجاء الغزاة الفرنسيون ليوقظوا ما أماته الإسلام من التعالى بالآباء والأجداد ... وقد استمات هؤلاء المجاهدون من كلا العنصرين فى مقاومة هذه الفتنة وكان صدى هذه المقاومة لا يحس به فى مصر إلا الإخوان المسلمون ولا يظهر أثره إلا على صفحات مجلاتنا .

ولا داعى هنا لذكر مفتى فلسطين وزعمائها ومجاهديها فهذه قضية تبنتها الدعوة عند إنشائها يوم كان ساسة مصر وزعماؤها يعلنون أنهم ليسوا مسئولين عن هذه القضية ولا يعنيهم أمرها .

ولقد كان المجاهدون فى خارج مصر يشعرون أن قد صار لهم بوجود الإخوان موئل ومكان وصدر مفتوح ذراعاه دائماً يتلقاهم فى شوق وحب ، فكانت رسائلهم تنهال على المركز العام .. ولا أنسى يوم سمحت سلطات الاستعمار للأمير شكيب أرسلان – وكان منفياً من بلاده سورية بأمر الفرنسيين إلى سويسرا ، وسمح له بالرجوع إلى سورية فرأى أن يمر على مصر – ولم يكن مسموحا له بالإقامة فيها – فأبرق الى الإخوان بموعد مروره ، فتلقاه الأستاذ المرشد والإخوان وتعانق الجميع كأنما كانوا أصدقاء منذ نعومة الأظفار مع أن أحداً منهم لم ير الآخر من قبل «ولكن الشكوك أقارب» .

والأمير شكيب أرسلان ليس أميراً بالمعنى المتعارف عليه من الانتساب إلى بيت مالك ؛ وإنما أمره قلمه ؛ فهو كاتب لا يشق له غبار وقد لقب بأمير البيان . وهو بلاشك أقوى قلم كتب عن الإسلام والدعوة الإسلامية .. لم أقرأ مما كتب عن القرآن والدعوة الإسلامية أقوى ولا أنفذ إلى لب المعانى مما كتب الأمير شكيب فى مقدمة كتابه «حاضر العالم الإسلامى» .

وإذا كتب مؤرخ عن الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث فلا بد أنه سيكتب عن كتاب «حاضر العالم الإسلامى» لأنه أوسع وأوضح وأجمع ماكتب عن هذا الموضوع .والأصل فى هذا الكتاب رحلة قام بها مستشرق أمريكى يدعى «ستودارد» طاف فيها بأنحاء العالم الإسلامى وكتب عما شاهده رسالة أو كتيباً صغيراً سماه «حاضر العالم الإسلامى» فجاء الأمير شكيب وعلق على ماجاء بهذه الرسالة فجاء التعليق أكثر من عشرين ضعفاً للرسالة وكان التعليق أعظم من الكتاب حتى إن الكتاب كله كان معروفاً ومنسوباً إلى الأمير شكيب ... والكتاب مرجع لاينبغى لمن يرشح نفسه أن يكون داعية للإسلام أن يغفل قراءته . وقد كنت استعرته من الأستاذ المرشد وقرأته – وهو يقع فى أربعة أجزاء – ولخصته فى كراسة فقدت فيما فقد .

مقابلة المرشد لمحمد محمود باشا :

محمد محمود باشا من الشخصيات التى غمطت حقها لأن استمساكها بالمثل وتعلقها بأهداف النبل وترفعها عن الدنايا ، جعلها حصاداً سهلا لجحافل تجار السياسة ، وموطئاً ليناً لمواكب النفاق ومزورى التاريخ وعباد الحكم ...كان رجلا من عظماء مصر الذين ساهموا فى جميع أطوار الجهاد الوطنى ، وفى مقدمة المجاهدين ، ولكنه كان ذا دين وخلق ، فأبى أن يتاجر بجهاده كما تاجر زملاء له .

ورث المجد عن آبائه ، وكان على أعلى درجة من الثقافة الغربية ، ولكنه مع ذلك كان حريصاً على آداب الإسلام وتقاليد القرية...فمع توليه رياسة الوزارة أكثر من مرة لم يؤثر عنه أنه أعطى الدنية فى وطنه ، كما لم يؤثر عنه أنه جعل زوجته أو بناته عرضة لأعين الناس ولانهباً لنظراتهم ؛ بل عاش ما عاش – رحمه الله – وعاشت زوجته وبناته من بعده ما عشن لم تنهشهن عين مصرى ولا أجنبى .

ولم أكن أعلم عن هذا الرجل إلا ما نوهت عنه مما فيه الكفاية أن يجعل صاحبه موضع التقدير والتبجيل والاحترام – كما لم يكن غيرى من الناس يعلم عنه أكثر من ذلك – حتى كنت فى إحدى رحلاتى لنشر الدعوة فى إقليم البحيرة فى أواخر الثلاثينيات وقضيت فترة منها فى مركز أبى المطامير ، واتصلت هناك بشيوخ القبائل ورجالات المنطقة فكشفوا لى فى ثنايا أحاديثهم عن صفحة مجيدة مطمورة من تاريخ هذا الرجل ، عمل أعداؤه على حجبها عن الشعب ، ولم يحاول هو الكشف عنها مع أنه كان قادراً على ذلك فقد تولى رياسة الوزارة أكثر من مرة – كما قدمت – مكتفياً بما عند الله .

قال لى هؤلاء الشيوخ :

لما أعلنت إيطاليا الحرب على المسلمين فى ليبيا ، شدد الإنجليز قبضتهم على مصر حتى تقطع الصلة بينها وبين ليبيا فلا يتسرب إلى ليبيا من مصر شيء من المساعدة المادية أو الأدبية فى خلال تلك الملحمة غير المتكافئة حتى يتم لإيطاليا افتراس ليبيا والقضاء التام على المجاهدين فيها .. وكان للانجليز فى كل محافظة فى مصر موظفون من الإنجليز يشغلون المناصب الحساسة فيها حتى يكونوا عيوناً على الموظفين المصريين الكبار والصغار . وكان محافظ البحيرة فى ذلك الوقت هو محمد محمود باشا ؛ فرأى الرجل أن وقوف المصريين موقفاً سلبياً من إخوانهم فى ليبيا لا يليق ولا يقره عرف ولا دين ؛ فاتصل سراً بشيوخ مركز أبى المطامير على أن يعدوا قوافل من الطعام والسلاح والذخيرة ليرسلوها إلى المجاهدين فى ليبيا من طرق غير مطروقة ، وكلما أعدوا قافلة أخبروه قبل إطلاقها فى الطريق حتى يرسل إليهم من يلقى القبض عليهم ويودعهم الحجز فى المحافظة إلى أن تصل القافلة بسلام ... فإذا ضبط الإنجليز قافلة من هذه القوافل لم يكن هؤلاء الشيوخ مسئولين عنها لأنهم كانوا فى الحجز قبل ميعاد ضبطها .

وفى سنة ١٩٣٨ كان هذا الرجل رئيساً للوزراء . وكان معنا فى ذلك الوقت أخ كريم — أنسيت اسمه — كان موظفاً كبيراً فى وزارة الزراعة وكان صديقاً حميماً لمحمد محمود باشا ... ولشدة إعجاب هذا الأخ بشخصية الأستاذ المرشد أكثر من الحديث عنه لصديقه رئيس الوزراء حتى أغراه بأن يقابله ولكنه اشترط أن تكون المقابلة برياسة الوزارة وأن لا تزيد على ربع ساعة لكثرة شواغله وارتباطاته .... وتمت المقابلة وتناقش الرجل مع الأستاذ المرشد فى مواضيع شتى حتى انتهت ربع ساعة فقام الأستاذ مستأذناً فرفض الإذن له حتى انتهى الربع الثانى والثالث وهكذا إلى ساعتين كاملتين ... وقام رئيس الوزراء فودعه بنفسه ... فلما قابله صديقه قال له محمد محمود باشا :

«والله لولا العرف والتقاليد لعينت هذا الرجل وزيراً للخارجية ، وأنا موقن أنه سيجعل لمصر فى ظرف أشهر معدودة مكانة مرموقة بين دول العالم» .

وناهيك بالعرف والتقاليد فى تلك الأيام ... إنها كانت أقوى من القوانين ؛ فلم تكن المناصب الوزارية يتبادلها إلا أشخاص معينون لا يقلون عن سن معينة ، ومن أسر معينة .. وكان الأستاذ فى ذلك الوقت شاباً فى حوالى الثلاثين ومدرساً فى مدرسة ابتدائية .

لقاء المرشد العام بالملك فاروق :

كان الملك فاروق فى ذلك الوقت فى مستهل أيامه فقد تولى العرش فى عام ١٩٣٨ ، وكان

الناس يتوسمون الخير فى الملك الشاب ... وكان الأستاذ المرشد يرى أن أقصر طريق لتحقيق أهداف الدعوة ، والأخذ بالأسلوب الإسلامى فى إصلاح البلاد إنما يكون بالاتصال بهذا الملك الشاب وإقناعه بالدعوة ... ومعنى هذا الإقناع أن يوقن بأن انتماءه لهذه الدعوة سيصلح البلاد ويحفظ له عرشه .

وفى سبيل ابراز هذه الفكرة إلى حيز الواقع اتصل المرشد برجل محايد كان يأنس فى رجاحة عقله وفى صدق وطنيته ونزاهته ، وكان فى نفس الوقت من أقرب الشخصيات إلى الملك حيث كان أستاذه من قبل ؛ ذلك هو «على ماهر» ...وكان على ماهر من القلائل الذين يفهمون فكرة الإخوان ويقدرونها كما يقدرون الأستاذ المرشد كل التقدير ، وكان يعرف غير قليل عن قوة الصف الإخوانى وتماسكه ، وكان يرى ما كان يراه الأستاذ المرشد من أن أقرب الطرق وأسلمها لإصلاح هذا البلد هو فى إقناع الملك بدعوة الإخوان وانتمائه لفكرتهم واستناده إلى صفهم .

وكان الإخوان قد أقاموا فى صيف ذلك العام معسكراً ضخماً فى «الدخيلة» بجانب الإسكندرية وكان الإخوان من مختلف البلاد يفدون إلى هذا المعسكر ليقيموا فيه أياماً ثم يرجعون إلى بلادهم ليفد غيرهم ... وكان الأستاذ المرشد شبه مقيم بهذا المعسكر الذى كان مقرراً أن يستمر شهراً ...

وقد زرت المعسكر فى أواخر الشهر الذى كان محدداً له ضمن مجموعة من إخوان رشيد ، وكنت عازماً على قضاء سحابة النهار ثم مغادرته مساء لكن الأستاذ المرشد أصر على بقائنا ثلاثة أيام فنزلنا على أمره ، ولم أكن أعرف سبب إصراره ولكن تبين لى بعد ذلك أنه كان لأمر هام .

كنت أعرف رأى الأستاذ المرشد فيما يتصل بالملك ، ولكنى لم أكن أعرف أن استبقاءنا كان ذا علاقة بهذا الشأن حتى جاء اليوم الثالث من فترة بقائنا – وكان يوم جمعة – فإذا بالأستاذ يطلب منا جميعاً أن نرتدى زى الجوالة . ورأيناه قد ارتدى الزى قبلنا ، ثم أخبرنا أن الملك سيؤدى اليوم صلاة الجمعة فى مسجد سيدى جابر وبأننا سنكون فى استقباله أمام المسجد وبأننا سنصلى الجمعة معه ؛ وفهمت بعد ذلك أن هذا الأمر قد اتفق عليه من قبل ، ورتبت خطواته بين على ماهر والأستاذ المرشد .

وقد وضح هذا وضوحاً تاماً ، حين ذهبنا إلى المسجد واصطففنا أمامه وكنا أكثر من مائة جوال يتقدمنا الأستاذ المرشد بملابس الجوالة ، وحضر الركب الملكى يتقدمه الملك وبجانبه على ماهر – وكان فى ذلك الوقت رئيساً للديوان الملكى فيما أذكر – فحييناه هاتفين له وللإسلام ؛

فأخذ على ماهر بيد الأستاذ المرشد وقدمه للملك فسلم عليه الأستاذ مصافحاً باحترام دون تقبيل يده كما كان العرف فى ذلك الوقت – ودون انحناء.

رجعنا بعد صلاة الجمعة إلى معسكرنا ، وكان الأستاذ يشعر بالرضا النفسى لأنه أحس أنه خطا الخطوة الأولى التى كان على الداعية المصلح أن يبدأ بها ، ثم لا عليه بعد ذلك إن هى لقيت استجابة أم لقيت إعراضاً .. المهم أنه أعذر إلى الله وإلى الناس وإلى التاريخ ... حتى لا يأتى فى يوم من الأيام من يقول : لو أن هذا الداعية عرض دعوته على ولى الأمر قبل أن يسلك بها هذه المسالك .

وكنا نعتقد فى ذلك الوقت بسذاجتنا وحسن ظننا أن الله تعالى قد اختصر لنا الطريق ، واختار لنا غير ذات الشوكة ، وأن هذا الشاب الذى يبدو وادعاً فى مظهره ، وبجانبه الرجل العاقل على ماهر لابد أنه سيتجه اتجاهاً إسلامياً فيسعد ويسعد الناس ... ولم نكن نعلم ما خبأه القدر لنا كدعوة ولهذا الشاب كملك طائش مغامر ... وكأنه قد غاب عنا أن حاشية هذا الشاب . وإن كان فيها على ماهر فإن فيها ألف شيطان .

الفصل الثانى

الأخذ بأساليب عملية في التكوين والتربية ونشر الدعوة

كان أسلوب التربية فى دار الناصرية يتمثل فى درس كان يلقيه الأستاذ المرشد ليلة فى الأسبوع فى مسجد الدار الصغير ، يحضر هذا الدرس من شاء من الإخوان فقد يحضر مرة عدد قليل وقد يكثر حاضروه فى مرة أخرى ، وكان هذا الدرس يستغرق نحو الساعة ... ثم تحول هذا الدرس فترة من الزمن إلى درس فى تلاوة القرآن ، ولا أنسى أننى أفدت من هذا الدرس فى التلاوة كلمة كنت أقرأها خطأ ولم أصححها إلا بعد أن سمعت الأستاذ يقرأها أمامى فى درس من دروس التلاوة وكان يقرأ سورة يونس هى كلمة «يهدى» فقد كنت أقرأها بغير تشديد الدال وذلك فى قوله تعالى «أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى إلا أن يهدى » .

وكان أكثر وقت الأستاذ المرشد يقضيه فى إقناع شخص أو شخصين بالدعوة ، وكذلك كنا نفعل ، وتستطيع أن تقول إن هذه الفترة كانت طور الدعوة الفردية ، حيث لم يكن ممكناً أن تقوم تنظيمات على غير أشخاص ؛ فما دام العنصر الضرورى غير موجود وهو الأشخاص المؤمنون بالفكرة الإسلامية المستعدون للعمل لها ، والبذل فى سبيلها ، فلا تنظيم ولا تكتيك ... والواجب الذى تفرضه المرحلة هو بذل الجهد لتوفير العنصر الأساسى .

وقبيل الانتقال إلى الدار الجديدة كانت الدعوة قد أثمرت وآتت أكلها سواء فى ذلك القاهرة والأقاليم – وقد أشرت إلى ذلك فى سياق البعثات الطلابية التى أوفدها الأستاذ المرشد إلى الأقاليم فى نهاية العام الدراسى ١٩٣٦ – فلما تم الانتقال إلى الدار الجديدة حيث الموقع والسعة تدفق الشباب على الدار ؛ فلما وجدت المادة الخام كان على الصانع الماهر أن ينتفع بها أتم الانتفاع ، وأن يصهرها فى بوتقته ، ويستخلص منها المعدن النقى بعد أن يقشع عنه ما كان يخالطه من شوائب ، وكان عليه أن يصوغ من هذا المعدن ما ينفع الناس .

فلما توفرت المادة الخام بدأ الصائغ الصناع صياغتها بالأساليب التالية :

الأسلوب الأول

نظام الكتائب

نظام الكتائب نظام فريد مبتكر ، ولعل الأستاذ المرشد قد اشتقه من اجتماعات دار الأرقم بن أبي الأرقم حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع المؤمنين به فى ذلك الوقت المبكر – – وكانوا قلة – فيبثهم ما عنده ، ويفضى إليهم بذات نفسه ويأخذهم بأسلوب من التربية الروحية العالية حتى خرج من تلك الدار المتواضعة من كانوا أعلام الهدى ومن حملوا شعلة النور الإسلامى فأضاءوا بها جنبات الدنيا ....

وهذا النظام بين مختلف أنظمة التكوين يعد نظام التكوين المركز وأسلوب التربية العميقة المباشر لأنه وحده هو النظام الذى يجد فيه الموجه والموجه نفسيهما متجردين متفرغين كل منهما للآخر وجهاً لوجه لا تشغل أيامنهما عن نفسه ولا عن صاحبه شاغله فيكون القلب والعقل معاً فى أسمى حالات التهيؤ للتلقى والإلقاء وبالتعبير الحديث للاستقبال والإرسال .

وكان فى نية الأستاذ المرشد أن يتدرج فى إنشاء الكتائب حتى يسلك فيها كل إخوان المركز العام على أن يقوم هو بنفسه فيه بدور التوجيه والتربية ، فبدأ أول خطوة فيه بأن جمع من الرعيل الأول أربعين أخاً كانوا هم الكتيبة الأولى ثم ما لبث أن جمع أربعين آخرين فكانوا الكتيبة الثانية وكان النظام يقتضى أن تتم كل كتيبة أربعين أسبوعاً .

ويتلخص نظام الكتيبة فى الآتى :

١ – تبيت الكتيبة ليلة فى الأسبوع فى المركز العام ويبيت معهم الأستاذ المرشد .

٢ – يصلون مع الأستاذ المرشد المغرب والعشاء .

٣ – يتناولون طعام العشاء معاً طعاماً رمزياً .

٤ – يتذاكرون معـاً ويتسامرون .

٥ – بعد صلاة العشاء بوقت قصير ، وفى لحظة محددة ينامون على الأرض فى حجرة واحدة واسعة ، ويتخذ كل منهم حذاءه وسادة له وينام الأستاذ المرشد معهم على نفس الهيئة .

٦ – يستيقظون قبل الفجر بساعتين ويتوضأون ويتهجدون بعض ركعات فرادى .

٧ – تطفأ الأنوار ويجلسون منصتين إلى تلاوة نحو جزء من القرآن الكريم يتلوه قارىء الكتيبة وكان الدكتور محمد أحمد سليمان .

٨ – يضاء النور ويستمعون إلى درس من الأستاذ المرشد فى التكوين النفسى والروحى والعلمى للداعية مع عرض لتاريخ الدعوات والدعاة ، وبيان مواطن الضعف فى كل منها وفى

كل منهم ، وما يقابل ذلك فى الدعوة الإسلامية وكيف يتجنب الداعية مواطن الضعف التى عصفت بسابقيه .

٩ - فترة قبيل الفجر للاستغفار .

١٠ - أذان الفجر ثم صلاة الفجر خلف الأستاذ المرشد .

١١ - توزيع الورد القرآنى على أعضاء الكتيبة وقيام الأستاذ المرشد بتفسيره تمهيداً لحفظه . والورد القرآنى هو ورقة يجمع فيها الأستاذ المرشد الآيات القرآنية ذات الهدف الواحد ، فورد للإيمان وورد للوفاء وورد للأمل وورد للجهاد وورد للتفكر وهكذا ، وسأحاول عرض بعض أمثلة من هذه الأورادة فى نهاية الكتابة عن هذا الأسلوب من أساليب التربية إن شاء الله .

١٢ - فإذا طلعت الشمس قرأ الجميع معا فى صوت خافت «الوظيفة» وهى أدعية من القرآن الكريم ومن السنة النبوية كان يدعو بها النبى صلى الله عليه وسلم إذا أصبح وإذا أمسى .

١٣ - إفطار بسيط ثم يتجه كل منهم إلى عمله .

ويلحق بنظام الكتيبة أيضاً ما يلى :

(أ) شعار هذا النظام هو «كل وأنت شبعان ونم وأنت مستيقظ» ومعنى هذا الشعار الطاعة التامة ، والالتزام الكامل بالنظام المقرر فقد يكون إلزام نفسك بالأكل وأنت شبعان أثقل على نفسك من إلزامك بالامتناع عن الأكل وأنت جائع وكذلك نومك وأنت مستيقظ أصعب من استيقاظك وأنت نائم .

(ب) ومن شعار هذا النظام الامتناع عن تناول المكيفات من شاى وقهوة فضلا عن الدخان .

(حـ) كان يوزع على كل فرد من أعضاء الكتيبة فى أول كل شهر كشف يسمى استمارة المحاسبة ، وهو يضم عشرين سؤالا يجيب عليها الفرد كل ليلة حين يأوى إلى فراشه «بنعم أو «بلا» كتابة أمام كل سؤال وفى خانة اليوم حيث يضم الكشف ثلاثين خانة لشهر كامل - وفى نهاية الشهر يجمع عدد «لا» وعدد «نعم» فإذا رجحت «نعم» حمد الله وطلب منه التوفيق إلى الزيادة منها وإذا رجحت «لا» أسف وندم واستغفر الله وجدد التوبة وحاول مراقبة نفسه فيما حددته له الاستمارة من مواطن الضعف فى نفسه وفى تصرفاته .

(د) كان يوزع على أفراد الكتيبة رسالة تسمى «المنهج العلمى» وهى تضم أسماء مجموعة مختارة من الكتب فى كل فن من فنون العلوم الإسلامية والتاريخية والتربوية ، ويطلب من عضو الكتيبة أن يقرأ ما يستطيع من هذه الكتب لتزوده بذخيرة من المعلومات تنير له الطريق فى دعوته ، وتجعله أهلا لقيادة الدعوة فى مختلف الأماكن والظروف .

ولا شك فى أن نظام الكتائب هذا هو النظام الأمثل للتربية لأنه يجمع كل وسائل التربية الحديثة التى تحدثت عنها الكتب العلمية المتخصصة ، والتى تدرس على أنها ترف علمى يحلق بدارسه فى آفاق الخيال ؛ جمعها هذا النظام وأخرجها إلى حيز الوجود ، وطبقها تطبيقاً دقيقاً رائعاً ، وصقل بها نفوساً ، وثقف بها عقولا ، وسما بأرواح أصحابها سمواً ملائكياً ، مع مزج هذه النفوس معاً فى بوتقة واحدة هى بوتقة الفكرة الإسلامية مزجاً صاغ منها صفا متراصاً متماسكاً .

ومن تمام روعة هذا النظام أنه لم يكن يقتصر تأثيره على الليلة التى كانت محددة للمبيت ؛ وإنما كان أثره ممتداً طيلة الأسبوع ، فكشف المحاسبة أو استمارة المحاسبة كان لابد من ملء خاناتها كل ليلة ، والورد القرآنى كان يحفظ ويكرر صباح كل يوم والوظيفة كانت تقرأ كل يوم فى الصباح وفى المساء .

وإذا علمنا أن ليالى الكتائب لم تكن كلها تقضى بدار المركز العام بل كان الكثير منها يقضى خارجه ، فقد قضينا بعض هذه الليالى فى مدرسة خاصة فى شبرا — لا أذكر اسمها الآن — وكنا نصلى الفجر فى مسجد الخازندار القريب من المدرسة . وأذكر بهذه المناسبة أن الناس تعودوا أن يقرأ الإمام فى فجر الجمعة آيات من سورة السجدة تبدأ بقوله تعالى «وقالوا إذا ضللنا فى الأرض أ إنا لفى خلق جديد» وكان الأستاذ المرشد قد تعود أن يقرأ بنا فى صلاة فجر الجمعة سورة السجدة كلها من أولها لأن السنة هى ذلك ، فلما بدأ يصلى بنا الفجر فى هذا المسجد وأخذ فى قراءة السورة من أولها — وكان يصلى معنا كثيرون من أهل الحى ممن اعتادوا الصلاة فى المسجد — تعالت أصوات المأمومين يقولون «وقالوا أ إذا ضللنا » ظناً منهم أن الإمام نسى أن اليوم يوم الجمعة فقرأ بسورة أخرى .

كما قضينا بعض هذه الليالى خارج القاهرة ، وقد قضينا إحدى هذه الليالى فى ضاحية بجانب المعادى اسمها «البساتين » وفى صباح تلك الليلة باشرنا أنواعاً من الرياضة منها ركوب الخيل .

وكان من روعة هذا النظام أننا كنا نرى قائدنا وإمامنا لايتميز عنا بشىء فى مأكل ولا مشرب ولا ملبس ولا منام بل كان هو أكثرنا تضحية حيث كنا فى ذلك الوقت عزاباً وكان هو يترك بيته وزوجته وأولاده ، الأمر الذى زادنا حباً له وإجلالا .

وأثر هذا النظام وروعته لا يكاد يحس بعمقها فى النفوس ، ولا بامتزاجها بالقلب إلا من كابده وعاناه . وحسبك أن تتصور إنساناً خرج من بيته مهاجراً إلى مكان ما ، وفى هذا المكان تجرد من مظاهر الدنيا فاتخذ الأرض فراشه ، وحذاءه وسادته ، ثم فى وقت السحر قام من نومه وتوضأ وناجى ربه فى سجوده ثم استمع فى هدأة الظلام إلى جزء من القرآن يتلوه متجرد مثله

ثم أصغى بعد ذلك إلى حديث من قائد متجرد يبثه ما فى نفسه ، ويهدى إليه خلاصة تجربته ، ويذكره بفضل ربه ، ويتركه بعد ذلك يستغفر ربه ويتوب إلى خالقه حتى يؤذن الفجر .

وبعد صلاة الفجر ، فى هذا الجو الروحى ، وضمن هذه الجماعة الواعية المتجردة تزاول رياضة بدننية عادية داخل الدور إن كان المبيت فى الدور - أو رياضة قوية كالسباق وركوب الخيل والمصارعة إن كان المبيت فى ضاحية خارج الدور .

ثم لا يزال عضو الكتيبة فى كل يوم منأيام الأسبوع يعد نفسه للإجابة على أسئلة استمارة المحاسبة التى لابد أن يقف بين يديها كل ليلة قبل أن يأوى إلى فراشه ، وهذه الأسئلة لا تدع كلمة تكلمها ولا حركة تحركها ، ولا عملا صدر منه ، ولا خاطراً هجس فى نفسه إلا حاسبته عليه وطلبت منه الإجابة فى شأنه ... ولا يزال كذلك طيلة الأسبوع حتى يحين موعد الليلة التالية للمبيت بالكتيبة .

إن هذا الأسلوب قد خرج ملائكة تمشى على الأرض ، وخرج مجاهدين لا يخافون فى الله لومة لائم ، وخرج علماء بهذا الدين على نور وبينة منه ، ودعاة يهتدى بهم الناس ؛ وهم مع ذلك أساتذة كل فى فنه ومهنته .

وفى خلال إقامتنا بهذه الدار - دار العتبة - كون الأستاذ المرشد الكتيبتين الأولى والثانية ولم تتم أى من الكتيبتين المناهج المعدة لها لأسباب سنذكرها إن شاء الله فى فصل قادم .

١ - ورد المعرفة

١ - وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون - البقرة ١٨٦ .

٢ - وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ماتكسبون - الأنعام ٣ .

٣ - وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم . قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض ،وهو يطعم ولا يطعم ، قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين . قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير - الأنعام ١٣ : ١٨ .

٤ - الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل . له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون . قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون. ولقد أوحى

إليك وإلى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين . وماقدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون – الزمر (٦٢ : ٦٧) .

٥ – وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم . وتبارك الذى له ملك السموات والأرض ومابينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون – الزخرف (٨٤و٨٥) .

٦ – فللهالحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين . وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم – الجاثية (٣٦و٣٧) .

٧ – ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إنى لكم منه نذير مبين – الذاريات (٥٠ – ٥١) .

٨ – هو الله الذى لاإله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمنالعزيز الجبار المتكبرسبحان الله عما يشركون.هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم – الحشر (٢٢:٢٤) .

٩ – ياأيتها النفس المطمئنة.ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى – الفجر (٢٧ : ٣٠) .

١٠ – قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد – الإخلاص .

٢ – ورد الوفاء

١ – يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون – البقرة (٤٠).

٢ – ليس البر أن تولوا وجوهكم قبلالمشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون – البقرة (١٧١) .

٣ – ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب – التوبة (٧٨).

٤ – أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار – الرعد (١٩ : ٢٤).

٥ – وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون – النحل (٩١) .

٦ – وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا – الإسراء (٣٤) .

٧ – من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا – الأحزاب (٢٣).

٨ – إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما – الفتح (١٠).

٩ – لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيما – الفتح (١٩) .

١٠ – يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون. كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص – الصف (٤) .

٣ – ورد التفكر

١ – إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيابه الأرض بعد موتها وبث فيهامن كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون – البقرة (١٦٤) .

٢ – إن فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار – آل عمران (١٩٠و١٩١) .

٣ – إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم.

وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شى ء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون – الأنعام (٩٥:٩٩) .

٤ – إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين – الأعراف (٥٤).

٥ – هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون . إن فى اختلاف الليل والنهار وماخلق الله السموات والأرض لآيات لقوم يتقون – يونس (٥ – ٦) .

٦ – الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون – الرعد (٢ : ٤) .

٧ – وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون – النحل (١٤ – ١٦) .

٨ – ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين – المؤمنون (١٢ – ١٤) .

٩ – ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور – فاطر (٢٧ – ٢٨).

١٠ – الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله

على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما – الطلاق (١٢).

٤ – ورد المراقبة

١ – وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ، ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألاله الحكم وهو أسرع الحاسبين . – الأنعام (٢٩ : ٦٢) .

٢ – وماتكون فى شأن وماتتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداًإذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين – يونس (٦١) .

٣ – سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله – الرعد (٩–١٠)

٤ – إن ربك يعلم ماتكن صدورهم ومايعلنون . ومامن غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين – النمل (٣٧، ٧٥) .

٥ – يابنى أنها إن تلك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أوفى الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير . يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور – لقمان (١٦ – ١٧) .

٦ – وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون . وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين – فصلت (٢٢– ٢٣) .

٧ – أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون . أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون – الزخرف (٧٩ – ٨٠)

٨ – ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد . إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد–ق(١٦–١٧)

٩ – ألم تر أن الله يعلم مافى السموات وما فى الأرض مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم

ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم – المجادلة (٧).

١٠ – وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير (الملك ١٣ –١٤) .

٥ – ورد الاخلاص

١ – صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ، قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون – البقرة (١٣٨ – ١٣٩) .

٢ – يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا الله عليكم سلطاناً مبينا . إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً . إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيما. مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراًعليما–النساء(١٤٤ :١٤٧)

٣ – إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين . وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنو ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون – الأنعام (٧٩ – ٨٢)

٤ – قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون –الأنعام (١٦١ –١٦٤) .

٥ – قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً – الكهف (١١٠) .

٦ – إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار . لو أرادوا الله أن يتخذ ولداً لا صطفى مما يخلق مايشاء سبحانه هو الله الواحد القهار – الزمر (٢–٤)

٧ – قل إنى أمرت أن أعبد مخلصاً له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين . قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل الله أعبد مخلصاً له دينى فاعبدوا ماشئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين . لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده ياعباد فاتقون (الزمر ١١-١٦).

٨ – هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب . فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (المؤمنون ١٣-١٤)

٩ – الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين . هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين (غافر ٦٤ – ٦٥) .

١٠ – وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ذلك دين القيمة (البينة ٥) .

٦ – ورد الايمان

١ – يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين . الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم .الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم . إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين . (آل عمران ١٧١-١٧٥) .

٢– ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنو بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لاتخلف الميعاد . فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب(آل عمران ١٩٣ – ١٩٥)

٣ – إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم (الأنفال ٢-٤) .

٤ – إن الذين آمنو وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا

ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولا يتهم من شىء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير (الأنفال ٧٢) .

٥ – إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين (التوبة (١١١ – ١١٢) .

٦ – قد أفلح المؤمنون. الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون.والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فانهم غير ملومين .فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون (المؤمنون ١٠ –١١).

٧ – ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين (العنكبوت ١–٣)

٨ – لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً . ولما رأى المؤ منون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيماناً وتسليما . من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا . (الأحزاب (٢١–٢٣) .

٩ – قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون (الحجرات ١٤ – ١٥) .

١٠ – فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير . يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ورسوله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم (التغابن ٨ – ٩) .

الاسلوب الثانى

نظام الجـــــوالة

عند الحديث عن الدعوة فى دار شارع الناصرية فاتنى أن أذكر أنه كان مما اشتملت عليه حجو المركز العام حجرة صغيرة لفرقة الرحلات وكان يرأس فريق الرحلات الطالب محمد أحمد سليمان بكلية الطب والذى أذكره أننا جميعاً كنا أعضاء فى هذا الفريق ، وكنا نلبس الملابس الخاصة به فى المناسبات وكانت هذه الملابس تشبه ملابس ركوب الخيل فهى قيص كاكى وبنطلون كاكى طويل بمنفاخ .. ويخيل إلى أن الأستاذ المرشد رسم فى ذهنه صورة لوسائل إبراز حقيقة الدعوة الإسلامية ، فوجد أن هذه الصورة لا تكتمل إلا بوجود مظهر للقوة البدنية ولم يستطع التعبير عن هذا المظهر فى ذلك الوقت كما لم تسعفه الوسائل إلا بتخصيص حجرة من حجرات المركز العام وإن كانت أصغرها لهذا النشاط ووضع على بابها لافتة باسم هذا النشاط وإن ظلت هذه الحجرة مغلقة دائماً أو ما يقارب الدوام .

كما أنه أراد فى دار شارع الناصرية أن يعبر عن معنى الجهاد فى الفكرة الإسلامية فكلف نجاراً – بإرشاد من أحد العسكريين – بصناعة أنموذج لبندقية ، وكان هذا الأخ العسكرى يدربنا فى فناء الدار على استعمال البندقية فى مختلف الظروف والأوضاع بهذا النموذج الخشبى .

فلما تم الانتقال إلى الدار الجديدة فى العتبة ، ووجدت السعة ، ووجد الشباب المتطلع إلى الحركة والنشاط رأى الأستاذ الفرص مواتية لإبراز الصورة التى فى ذهنه إبرازاً أوضح فطور فريق الرحلات إلى فريق الجوالة .

والصورة التى رسمها الأستاذ فى ذهنه منذ قام بدعوته فى الإسماعلية عن هذا الجانب من نشاط الدعوة لم تكن هى فريق الرحلات أو فريق الجوالة ، وإنما كانت فريقاً عسكرياً يحقق فكرة الجهاد فى الإسلام ؛ إلا أن الرجل وقد آتاه الله الحكمة «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا» لم يكن يؤمن بالطفرة ، بل كان يؤمن بالتطور وبأنه قانون الحياة ، ولا بد للدعوات أن تخضع لقوانين الحياة ، إذا هى أرادت أن تشق طريقها ، ولم يكن الرجل يتجاهل ماحوله، ولا يتعامى عما بين يديه ، فتدرج بالصورة التى فى خاطره تدرج الأم بمولودها .

وكان هذا الرجل – بثاقب فكره ، ومرهف حسه ، وبخاصية أودعه الله إياها – يتحدث إلى الناس عن أمور يراها هو واقعة لا محالة ، وهى فى خواطرنا شىء من هواجس النفس ، وأوهام الخيال ؛ فإنه كان يعد من حياطات الحذر من أخطار يتوقعها ولانكاد نصدق وهو يحذرنا

منها ... ثم لاتقع هذه الأخطار إلا بعد سنوات ... وعندما نواجهنا نرى أسباب الحيطة التى اتخذها منذ سنوات – دون مبرر فى نظرنا إذ ذاك – هى وحدها التى تحصننا إزاء هذه الأخطار .

كان الأستاذ يتحرق شوقاً إلى إبراز النشاط العسكرى لتجلية فكرة الجهاد ، ولكنه رأى الدعوة لازالت فى مهدها ، ولم تتجاوز فى طورها الجديد مرحلة الحبو ، ورأى الحكومات المصرية ومن ورائها الإنجليز لابد أنهم متربصون – فى يوم ما–بالدعوة الدوائرلأنها عدوهم الأساسى ؛ إذن فلابد من أن تتحاشى الدعوة فى هذا الطور كل ما يعتبرونه فى عرفهم خروجاً على القانون. وكنا إذ ذاك فى الثلث الأخير من الثلاثينيات وكان تكوين منظمات عسكرية لايعد خروجا على القانون فحسب بل يعد إحدى الكبائر ، ... لهذا لجأ فى إبراز الطور الجديد فى خاطره إلى مظهر ألبسه لباس القانون .

لم يكن فى مصرإذ ذاك صورة فيها رائحة العسكرية مسموح بها إلا جمعية الكشافة الأهلية ، وكان صغار السن من المنتسبين اليها يسمون «كشافة» وكان الكبار يسمون «جوالة» وصار الإخوان المسلمون فرقة جوالة منتسبة إلى جمعية الكشافة الأهلية .

وتبنى الإخوان قانونالكشافة وهو يتمشى مع الفضائل الاجتماعية التى يدعو اليها الإسلام . وأذكر أننا لم نعدل فيه إلا لفظاً واحداً من إحدى مواده التى تقول : وأن أطيع رؤسائى طاعة عمياء .عدلناها إلى طاعة تامة لأن الإسلام لا يعترف بالطاعة العمياء–وشرحنا قانون الكشافة بآيات القرآن الكريم وأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم وربما كان فريق الإخوان المسلمين هو الفريق الوحيد من المنتسبين إلى جمعية الكشافة الأهلية الذى استعمل هذا القانون استعمالا كاملا وطبقه أحسن تطبيق .

مشكلة الملابس

بانتساب جوالة الإخوان إلى جمعية الكشافة الأهلية صاروا ملزمين بملابسهم المميزة الموحدة وهى تتكون من قيص كاكى وبنطلون كاكى قصير ... ولما كان الإخوان قد تعودوا أداء الصلاة فى أوقاتها مهما كانت الظروف فإنهم كانوا يؤدون الصلاة وهم فى هذه الهيئة حين يحين وقت الصلاة ... فانطلقت أفواه واسعة تسلقهم بألسنة حداد ، وكانت هذه الأفواه لطائفتين ؛ طائفة دفعتها الغيرة على الإخوان ومبلغ علمهم أن هذه الهيئة تتنافى مع الصلاة ، والطائفة الأخرى من أولئك الحاقدين الملتمسين للبرءاء العيب ؛ فما كادوا يرون الإخوان يصلون فى هذه الهيئة حتى ذهبوا يملأون الدنيا تشنيعاً ، وكانت الجمعيات الإسلامية التى أشرنا إليها فى الفصل السابق من الطائفة الأولى .

وظل الإخوان صابرين تحت هذا الوابل من النقد اللاذع أكثر من عام حتى وجد الأستاذ

المرشد حل هذا الإشكال فى كتاب البخارى تحت عنوان على ما أذكر «ماتجوز الصلاة فيه» وكان المرشد يقول إن الإمام البخارى فى كتابه الصحيح لم يكن مجرد محدث فحسب بل كاز فقيهاً مجتهداً صاحب مذهب والعناوين التى جعلها لأبواب صحيحه هى آراؤه ومذهبه وتحت هذا العنوان حديث معناه : أن رجلا جاء إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وسأله عن الملابس التى نؤدى بها الصلاة فقال له : «صل فى ثوبين ، صل فى ثوب وسروال صل فى ثوب واحد ، صل فى كذا ... حتى قال له صل فى تبان» والتبان هو ما يلبسه المصارعون .

ويكاد يكون هناك ما يشبه التلازم بين الكتائب والجوالة فعضو الكتائب يكون فى أغلب الأحيان جوالا لأن الأستاذ المرشد كان هو رئيس النظامين ؛ وإذا استثنينا الكتيبتين الأوليين اللتين تحدثت عنهما فان أسلوب الجوالة كان فى أكثر الأحوال هو الخطوة الأولى للشباب الذين انضموا تحت لواء الدعوة لأنه نظام عسكرى المظهر فيه معنى الفتوة التى تستهوى الشباب ، وكم من الشباب تم إصلاحه وظهرت مواهبه عن طريق نظام الجوالة وكان من قبل شباباً لاهيا عابثاً .

وقد لا أكون مغالياً إذا قلت إن نظام الجوالة بما فيه من مبادىء سامية وأهداف رفيعة تحث على الأخوة والإيثار والشجاعة والمروءة والتضحية لم يكن له وجود قبل إنشاء جوالة الإخوان المسلمين ، فلقد كنت على اتصال بهذا النظام منذ كنت طالباً بالدراسة الثانوية وكنت أتتبع أخباره فى مختلف البلاد المصرية وكان هذا سبباً فى أننى رفضت أن أنضوى تحت لوائه لأننى لم أر فريقاً من المنتسبين إليه كان جاداً فى انتحال مبادئه والاهتداء بتوجيهاته : حتى إننى أسأت الظن بالنظام نفسه واتهمته بأنه فى ذاته نظام غير جاد ... فلما انتسب الإخوان إلى هذا النظام شعرت كأنما كان هذا النظام جسداً لا روح فيه فكان الإخوان هم روحه ردت إليه فبعثت فيه حرارة الحياة .

ولقد كان نظام الجوالة فى الإخوان المسلمين وسيلة لإصلاح الشباب بطريقتين :

الطريقة الأولى أن الشباب الذين انتظموا فى سلكه صاغهم كما قلت صياغة جديدة بعثت من أعماق نفوسهم ما كان كامناً فيها من طاقات خارقة ، ومواهب باهرة ، وصاروا مثلا عليا فى الاستقامة والإيثار والتضحية . والطريقة الثانية بما كانت تبعثه جموعها الحاشدة ، وطوابيرها المنظمة ، وخطواتها المتسقة ، وطبولها المثيرة ، وهتافاتها المزلزلة ، وعسكريتها غير المحترفة ؛ من روح تشعر هذا الشعب بأن للحق قوة تحميه فتطمئن قلوب تحب الحق ولكنها كانت خائفة ، وتهتز فرقاً قلوب كانت سادرة فى الباطل فكانت تجاهر بباطلها اعتماداً على أن الطريق أمامها سهل مفتوح ، فلما رأت بعينها قوة الحق انكمشت بباطلها مستخفية مرتجفة .

وقد يجمل بى - فى صدد حديثنا عن الجوالة - أن أنقل للقارى من قصيدة لعمى الأستاذ محمود عبد الحليم الكبير رحمه الله وكان شاعر وشهد والب شعبة الإخوان بها يصف فيها هذه الفرق العتيدة ، التى أخذت بلبه ، وأشعلت جذوة الأمل فى نفسه فقال :

قفا نحيى الشباب الناهضين قفا ... الرافعين لمصر ذكرها شرفا
وكبروا لرجال كالسيوف ترى ... نظم السيوف وتجواب الفلا ترفا
ساروا بقلب يروع الأسد جرأته ... وصدق عزم إلى العلياء منصرفا
تقلدوا الجد والإقدام واطرحوا ... ثوب النعيم وعافوا اللهو والسخفا
واستبطنوا محض حب الخير واستبقوا ... واستظهروا حكمة فى نصرة الضعفا
أهلا بفتيان صدق شب جمعهمو ... على المروءة والإخلاص والتلفا
لهم ليوث . على النفس اعتمادهمو ... لا يضمرون لما ينتابهم أسفا
طابوا نفوساً كما طابت شمائلهم ... وللفضيلة أضحى حبهم كلفا
راضوا نفوساً بخفض العيش منبتها ... واستبدلوا بمجانى خفضه شظفا
شعارهم أن خذوا للدهر أهبتكم ... فيما تكدر من حالاته وصفا
فإن تصونوا قوى الأبدان نامية ... حفظتمو الروح والأوطان والخلفا
إن الحياة كبيداء فإن لبست ... برد الشباب تبدت روضة أنفا
وليس أعجز ممن قد أتيح له المـ ... ـحيا معافى ولاقى حتفه دنفا
وجوهر الروح أسمى فى الحقيقة من ... أن يرتضى المرء مختاراً له التلفا
الله فيها فقد شاءت عنايته ... باللؤلؤ الرطب أن سوى له الصدفا
والشعب إن زاد للعليا تعطشه ... ففى قوى النشء منه للغليل شفا
جيش أعد لمصر كى تفل به ... جيش الرذيلة والأرزاء إن زحفا
يخوض غمرة هول الدهر مقتحما ... ويمتطى غارب البيداء معتسفا
إن صوب الدهر سهماً قام معترضا ... فى وجهه ناصباً أبطاله هدفا
من كل عضب إذا شاقته مكرمة ... مضى سراعاً وإن شام الخنا صدفا
يهتز للبر إذ يدعى لمرحمة ... مساعفاً أو رأى مستنجداً هتفا
فادعوه « بكشاف » مجازفة ... حتى رأوه لعادى الضر قد كشفا
تلك الفضائل .... ماترعون حرمتها ... أرضيتم الله والأوطان والسلفا
ستشكرن مصر والتاريخ نهضتكم ... ما مجد الدهر من تاريخها صحفا

وأيام كانت الهيئات السياسية تنشئ فرقاً عسكرية من شبابها ، كانت جوالة الإخوان المسلمين موضع سخرية من هذه الهيئات ذات القمصان الملونة فالقمصان الزرقاء للوفد والقمصان الخضراء لمصر الفتاة وكانت مصر الفتاة تتيه علينا بفرقها ذات القمصان الخضراء وترمينا بالضعف لركوننا فى فرقنا إلى نظام رسمى ، وكنا نشكو إلى الأستاذ المرشد حملاتهم علينا فى هذا الصدد ونتمنى لو أن الأستاذ قبل رجاءنا وخلصنا من نظام الجوالة لنكون فرقاً ذات قمصان بلون نختاره ؛ فكان الأستاذ يطمئن نفوسنا ويقول لا تعبأوا بأقوالهم واصبروا وسترون أن العاقبة لنا ... ودارت الأيام وجاءت حكومة أصدرت قانوناً يحرم على الهيئات أن تكون لهافرق عسكرية أو شبه عسكرية ذات قمصان ملونة فألغيت هذه الفرق بين يوم وليلة ولم تبق إلا فرق جوالة الإخوان لأنها نظام معترف به فى الدولة والفرق مسجلة فى جمعية الكشافة الأهلية ؛ .. وقد رأينا أن الرجل كان أبعد نظراً منا ومن غيرنا .

وكان لنظامى الكتائب والجوالة أنشدة توحى إلى أهداف الدعوة ومعانيها فكان النشيد الأول الذى كنا ننشده بدار الناصرية وردحاً من دار العتبة هو نشيد «يارسول الله» من نظم الشيخ الباقورى وهذا نصه :

يارسول الله هل يرضيك أنا ... إخوة فى الله للإسلام قمنا
ننفض اليوم غبار النوم عنا ... لانهاب الموت لا بل نتمنى

أن يرانا الله فى ساح الفداء

إن نفساً نرتضى الإسلام دينا ... ثم ترضى بعده أن تستكينا
أو ترى الإسلام فى أرض مهينا ... ثم تهوى العيش نفس لن نكونا

فى عداد المسلمين العظماء

حبذا الموت يريح البائسين ... ويرد المجد للمستعبدين
فلنمت نحن فداء المسلمين ... سادة الدنيا برغم الكاشحين

وليسد فى الأرض قانون السماء

آن للدنيا بنا أن تطهرا ... نحن أسد الله لا أسد الشرى
قد قطعنا العهد ألا نقبرا ... أو نرى القرآن دستور الورى

كل شىء ما سوى الدين هباء

أيقظت جمعية الإخوان فينا ... روح آباء كرام فاتحينا
أسمدوا العالم بالإسلام حينا ... فاستجبنا للمعالى ثائرينا

وتسابقنا إلى حمل اللواء

غيرنا يرتاح للعيش الذليل وسوانا يرهب الموت النبيل

إن حيينا فعلى مجد أثيل أو فنينا فإلى ظل ظليل

حسبنا أنا سنقضى شهداء

وحين كنا ننشد هذا النشيد فى دار الناصرية اقترحت على الإخوان تغيير الشطرة التى تقول «أيقظت جمعية الإخوان فينا» إلى «قد أثارت دعوة الإخوان فينا» باعتبارنا أصحاب دعوة لا أعضاء جمعية .

ولما انتقلنا إلى دار العتبة نشر عبد الحكيم عابدين ديوانه «البواكير» وكان يضم مجموعة من الأناشيد اختار منها الإخوان نشيداً سموه نشيد الكتائب وهذا نصه :

هو الحق يحشد أجناده ويعتقد للموقف الفاصل

فصفوا الكتائب اساده ودكوا به دولة الباطل

***

نبى الهدى قد جفونا الكرى وعفنا الشهى من المطعم

نهضنا إلى الله نجلو السرى بروعة قرآنه المحكم

ونشهد من دب فوق الثرى وتحت السما عزة المسلم

دعاة إلى الحق لسنا نرى له فدية دون بذل الدم

***

هو الحق يحشد أجناده ويعتد للموقف الفاصل

فصفوا الكتائب آساده ودكوا به دولة الباطل

***

تآخت على الله أرواحنا إخاء يروع بناء الزمن

وباتت فدى الحق آجالنا بتوجيه «مرشدنا» المؤتمن

رقاق إذا ما الدجى زارنا غمرنا محاريبنا بالحزن

وجند شداد إذا رامنا لبأس رأى أسداً لاتهن

***

هو الحق يحشد أجناده ويعتد للموقف الفاصل

فصفوا الكتائب اساده ودكوا به دولة الباطل

***

أخا الكفر إما تبعت الهـــــداه	فأصبحت فينا الأخ المقتـــــدى
وإما جهلت فنحن الكمــــــاه	نقاضى إلى الروع من هـــــددا
إذن لأذقناك ضعف الحيــــاه	وضعف الممات ولن تنجــدا
فإنا نصـــــول بروح الإلــه	ونقفو ركاب بنى الهــــدى

***

إلى النصر فى الموقف الفاصل	إلى النصـر فى الموقف الفـاصل

المعسكرات

ويلحق بنظام الجوالة إقامة المعسكرات ، وكان الإخوان بين الفينة والفينة يقيمون معسكرات فى ضواحى القاهرة ، وكانت معسكراتهم تدريباً على الصبر والاحتمال ، وتعويداً للنفس على تحمل أشق الظروف . وكانوا يقيمون هذه المعسكرات باعتبارهم من فرق الجوالة المسجلة فى جمعية الكشافة الأهلية ، وكان من حقهم بهذا الاعتبار أن يستغلوا الأماكن التى أعدتها هذه الجمعية لإقامة المعسكرات الكشفية ، فكثيراً ما أقام الإخوان معسكرات كانت فى بعض الأحيان تستمر طول الصيف فى معسكر الكشافة بحلوان . وكان لكل معسكر برنامج يستوعبه أفراد كل دفعة يتضمن أنواعاً من الرياضة البدنية والتدريبات العسكرية والتربية الروحية ومنها حفظ قدر معين من القرآن الكريم مع تفسيره ، ويعقد فى نهاية المدة امتحان للدفعة قبل تسريحها .

وفى صيف سنة ١٩٣٨ قرر الإخوان إقامة معسكر عام كبير فى الدخيلة فى الإسكندرية ، وقرر الأستاذ المرشد أن يكون على رأس القائمين بأمر هذا المعسكر ، وضربت فى أرضه الرملية خيام ضخمة . وتوافد الإخوان على هذا المعسكر من مختلف البلاد ؛ فكان بمثابة مركز عام فى تلك الفترة ، وكان هذا المعسكر فرصة عظيمة أتاحت لكثير من الإخوان من بلاد مختلفة أن يتعارفوا . كما كانت فرصة لشباب الإخوان أن يجلسوا ويقضوا أياماً وليالى مع كبار الإخوان ، ويتناقشوا معهم ، ويمتزجوا بهم .

وقد كنت عازفاً عن المشاركة فى هذا المعسكر ؛ وربما كان سبب ذلك هو أننى حين زرته لأول مرة ؛ أحسست أن فيه ما يشبه الترف إذا ما قيس بما عهدناه من قبل فى معسكرتنا... ولكننى فهمت أخيراً أن الأستاذ المرشد – الذى كان مقيما فى المعسكر – كأنما قصد إلى هذا ليشرك فيه طبقة من الإخوان لم يتعودوا على معيشة الشظف التى ألفناها ... وقد تحقق ذلك فقد رأيت كثيرين من هذه الطبقة وهو يحاول أن يمزجهم بغيرهم من سائر الإخوان

بأسلوبه العذب المحبب ، وقد استطاع فعلا أن يجعل من هذا المعسكر أداة لمزجهم ..

ولعل القارىء يذكر أننا نوهنا عن هذا المعسكر فى الفصل السابق حين تكلمنا عن لقاء الأستاذ المرشد بالملك فاروق .

الاسلوب الثالث

لجنة الأربعة والعشرين

فى أوائل صيف عام ١٩٣٨ بعد أدائنا الامتحانات وقبيل ظهور النتيجة .. وكان ثلاثى كلية الآداب محمد عبد الحميد أحمد وعبد المحسن الحسينى وعبد الحكيم عابدين – وهم يسبقوننى فى الدراسة بعام – الدفعة الأولى وباكورة الذين يتخرجون فى الكليات من طلبة الإخوان ... دعا الأستاذ المرشد إلى اجتماع فى بيته فى شارع محمد على ؛ وكانت دعوة شخصية موجهة إلى أشخاص معينين تنبىء عن أهمية خاصة لهذا الاجتماع . والتقينا فى بيت الأستاذ فكان اجتماعاً يضم عدداً قليلا من ذوى السابقة فى الدعوة ، وكانت مجموعتنا من الطلبة الذين كانوا يحملون عبء الدعوة ضمن المدعوين .

ثم تكلم الأستاذ فقال ما ملخصه : إن الدعوة قد اتسع نطاقها ، وثقلت تبعاتها ، ولم يعد يكفى أن يحمل عبئها رجل واحد . وقال إنه فكر فى مجموعة تشاركه حمل هذا العبء وانتهى تفكيره إلى عقد هذا الاجتماع الذى يضم من يتوسم فيهم القدرة على هذه المشاركة .

وقال : إن المشاركة فى حمل هذا العبء تقتضى من صاحبها أن يجعل حياته ومستقبله وآماله طوع مشيئة هذه الدعوة ، بحيث يقدم مصلحتها على مصلحة نفسه ، ويحصر آماله فيها ، ويشكل حياته ومستقبله بحيث تكون هى الأصل ، وكل ما سواها يضحى به عن رضا نفس ... وضرب مثلا بنفسه فقال : إنى كنت أستطيع بما أكرمنى الله به من خصائص ، وما حبانى به من مواهب أن أسلك طريقاً فى الحياة يسرع بى إلى أعلى المناصب ، ويوفر لى ولأسرتى حياة الاستمتاع والرفاهية ؛ لكننى وجدت هذه الدعوة تقتضينى أن أهبها كل وقتى وكل جهدى ، فلم أتردد فى تنكب طريق المناصب والرفاهية ، وأعرضت عن ذلك كل الإعراض ، وسلكت الطريق الذى يوفر لدعوتى ماتريد ، وأنا أعلم أن مثل هذا الطريق ليس فيه لى ولأسرتى إلا حياة الخشونة والكفاف .

وتكلم الأستاذ المرشد فى ذلك وأفاض ، ونقلنا إلى جو من الجد لم ينقلنا إلى مثله من قبل ، وواجهنا فى صراحة بأمور خطيرة لم نعهدها منه من قبل ؛ فلقد كان من عادته – مهما ادلهمت

الأمور – أن يكون من الرفق بنا بحيث لا يمسنا من مخاطرها إلا أقل القليل فى الوقت الذى يواجه المخاطرة هو وحده . ولا أدرى لعله حتى ذلك الوقت لم يكن يرى فينا من النضج ما نكون معه أهلا لمواجهة المخاطر ، وتحمل التبعات .

وانتهى فى حديثه إلى أنه يريد تكوين لجنة من أربعة وعشرين عضواً يرشحون أنفسهم من بين الحاضرين يشاركونه حمل أعباء الدعوة على الأسس وبالشروط التى شرحها ... وقال إنه لايلزم أحداً من الحاضرين بمالا يستطيعه بل كل فرد مخير فى سلوك الطريق الذى يرى أنه الأمثل له فى الحياة ، لأن هذا يوم له مابعده ، وسيقرر كل فرد مصيره بنفسه دون إكراه ودون مجاملة ... ومهما اختلفت بنا طرق الحياة فسنكون مع ذلك أصدقاء وأحباء .

ومرت فترة ؛ أخذ كل من الحاضرين يراود نفسه ، ويستعرض من آماله ، ويعجم عود نفسه ، ويتخيل ما هو مقبل عليه من تضحيات لن تمسه وحده بل إنها ستشكل حياة أسرته ، ثم أخذ كل واحد يدلى بما استقرت عليه نفسه ، ويعلن ما انتهى إليه من قرار .

ولست فى هذا المجال بصدد سرد تفاصيل ماقيل فى هذا الاجتماع ، ولا بصدد ذكر من الذى توقف ومن الذى واصل السير ، ولا بصدد تحليل الشخصيات التى ضمها الاجتماع ، فكل هذا لا يعنينى ولا يعنى القارىء بقدر ما يعنينى أن أعرض لشرح خاصية من خاصيات هذا الرجل المرشد ، آتاه الله إياها ولم يؤتها إلا لقلة من القادة الذين يبنون الأمم ، ويوجهون التاريخ .

كان الأستاذ المرشد إذا دعا لاجتماع ، حدد له هدفاً وأعلنها ، إلا أنه يكون قد احتفظ لنفسه بأهداف أخرى لهذا الاجتماع ... ولا يكاد ينتهى اجتماع إلا بإصابة جميع الأهداف ؛ المعلن منها وغير المعلن دون أن يشعر أحد من الحاضرين بأن غير الهدف المعلن كان مقصوداً .

ففى هذا الاجتماع الخطير الهدف ، لاحظت وجود مستويات متفاوتة ؛ منها ما يسامت الهدف ويساميه ومنها ماهو دونه بقليل ومنها ماهو بعيد عنه ، وعجبت حين أظهرنا الأستاذ على هدف هذا الاجتماع لم دعا اليه كل هذه المستويات؟ أما كان الأنسب أن تقتصر الدعوة إليه على المستوى المسامت للهدف ؛ لاسيما وهو أدرى الناس بجهد كل أخ وطاقته وآماله ؟

وانتهى الإجتماع مسفراً عن نتائج نجملها فيما يلى :

١ – مجموعة أعطت الكلمة ، وعاهدت على المواصلة ، وسارعت إلى البيعة .

٢ – مجموعة أعطت الكلمة ، وعاهدت على المواصلة ، مؤجلة البيعة .

٣ – مجموعة اعتصمت بالصمت مبيتة نية الفرار .

لقد قصد الأستاذ من جمع هذه المستويات المتباينة إلى أن يستمعوا إلى حديثه هذا المثير الملتهب وهو يعلم أن أفرادا من الحاضرين – هو يعرفهم – لايعتبرون الحديث إلا ترديداً لما تمتلىء به نفوسهم وقلوبهم فهم به مستبشرون .ويعلم أن أفراداً آخرين من الحاضرين هم معادن نفيسة لكن الكشف عن نفاستها فى حاجة إلى طرق شديد ؛ فجاء بهم إلى هذا الإجتماع لتكون حرارة حديثه مع ما يبديه الفريق الأول من شجاعة وفتوة وفدائية بمثابة طرق عنيف لنفوسهم فى حال التهابها .. ويعلم أن أفراداً غير أولئك وهؤلاء ارتبطوا بالدعوة ، حين كانت بعيدة عن التيارات ، فى سلام وأمن وأمان ، ربط بعضهم رباط من صداقة أو قرابة أو نسب أو غيرها ،وتعودوا أن يكونوا المتصدرين فيها ، ومع تطور الدعوة وتغير ظروفها لا زالوا متشبثين بهذه الصداوة ولم يعودوا أهلا لها ؛ فصاروا بذلك عبئاً على الدعوة ، وليس من الذوق –بما لهم من قدم عهد بمناصبهم فى الدعوة – إقصاؤهم بطريقة مباشرة ؛ فجاء بهم إلى هذا الاجتماع ليستمعوا إلى الحديث نفسه وإلىمبادرات الآخرين إزاءه فيقتنعوا بأنهم سيطالبونبما لا يستطيعون فيقصون أنفسهم بأنفسهم وتتخلص الدعوة من أعباء هى فى غنى عن حملها .

ويخيل إلى أن هذا الاجتماع لم يكن هدفه إلا ماذكرت ؛ فإن لجنة الأربعة والعشرين لم تدع لاجتماع بعد هذا ... وكل الذى حدث بعد الاجتماع التاريخى أن رأينا إخواناً كانوا (راكنين) إلى الدعة قد دب فى نفوسهم النشاط ، وبدأوا ينخرطون فى سلك العاملين المجدين ، ورأينا مجموعة من ذوى القرابات والنسب والصداقات الشخصية لم يكونوا إلا أثقالا على الدعوة توهن كاهلها وقد انقطعوا عن الدار ؛ فتحررت الدعوة وانطلقت بعد أن كثرت شكوى الإخوان منهم حيث كان وجودهم عائقاً ومشكلة .

أما مجموعتنا فإنها كانت شغل الأستاذ الشاغل ، وهدفه الأصيل حيث كانت محط آماله ومنتهى رجائه وكان حريصاً على أن يحدد كل فرد منها موقفه ، ويعلن عن مدى تحمله ، كأنما كانت هى بيت القصيد فى هذا الاجتماع لا سيما وقد تمخضت عن أول بواكيرها فقد تخرج فى ذلك العام ثلاثى كلية الآداب ... والطالب طالما كان طالباً فهو الشخصية المطلقة المتحررة من كل قيد المعفاة من كل مسئولية ، فإذا ماتخرج مواجها مسئوليات الحياة لأول مرة فهو شخصية أخرى ؛ ولذا فإن الأستاذ فى حديثه كان فى أكثره موليا وجهه نحونا ، متجها ببصره إلينا كأنما كان يخصنا بهذا الحديث ، وبعد أن فرغ من حديثه اتجه إلينا بكليته وأخذ يسأل كلا منا على حدته ما الذى استقر رأيه عليه، ثم توقف طويلا عند ثلاثى كلية الآداب وبالتحديد عند عبد الحكيم عابدين وعبد المحسن الحسينى ، فإن الأستاذ المرشد كان يعلم من صفاء نفس

محمد عبد الحميد أحمد ما يجعله أهلا لوصف رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنه لولم يطع الله لم يعصه» ولكنه كان يعلم أن الاثنين الآخرين تكتنفهما ظروف معقدة ؛ ولذا فقد أولاهما التفاتاً خاصاً ، ووجه إليهما أسئلة محددة ، وطلب عنها إجابات صريحة .

ولقد كان الزميلان صريحين واضحين كل الوضوح ؛ أما أولهما وهو عبد الحكيم عابدين فقد وضع نفسه رهن إشارة الدعوة ، وقال إنه يعلم أن الطريق أمامه مفتوح فى كليته ولكنه قرر إيثار الدعوة بكل وقته وأنه سيكتفى بوظيفة إدارية لا تقتطع من وقته إلا القليل ، وأنه يبايع على ذلك مع استعداده لترك وظيفته إذا اقتضت ظروف الدعوة ذلك مع شدة حاجته إلى مورد هذه الوظيفة .

وأما الآخر فقد كان شجاعاً حسبما علمته الدعوة ، وقال : إننى فى حاجة إلى سلوك طريق الدراسة ، وإننى أعتقد أن إكمالى الدراسة مع تخصص فيما يتصل بالقرآن من العلوم العربية لن يبعدنى عن ميدان الدعوة ، وأفاض فى الإبانة عن وجهة نظره ، محاولا إقناع الاجتماع برأيه .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن الأستاذ المرشد كان قد بدأ يشعر وقد حققت الدعوة بروزاً فى المجتمع المصرى وأن فكرتها قد تبلورت تبلوراً أحس معه أعداؤها بأنها أضحت ذات شوكة لا ينبغى الغض من قيمتها ولا التغاضى عن خطورتها فأخذوا يعدون العدة للهجوم عليها من كل كل جانب — شعر الأستاذ بذلك فسارع إلى النداء فيمن يأنس فيهم القدرة على الوقوف معه فى الصف الأول أمام العدو فى المعركة الوشيكة الوقوع .

لقد كان فى موقفه هذا كموقف قائد الجيش الذى رأى جيش الأعداء مقبلا على مرمى النظر فانتدب للقائهم كبار ضباطه ؛ فإذا ببعضهم يعتذر بحجة أنه يريد الاستزادة من دراسة العلوم العسكرية فى كلية أركان الحرب .

ومعذرة إلى القارىء إذا أنا أنهيت الحديث عن هذا الموضوع دون أن أتعرض بالذكر لأسماء الذين دعوا إلى هذا الاجتماع ولأسماء الذين استجابوا ولأسماء الذين تخلفوا مكتفياً بأمثلة ، وحسب القارىء أن رأى بعينيه كيف تطورت الأمور بالدعوة وكيف تناوحتها الأحداث الجسام بعد ذلك وعمن تمخضت هذه الأحداث الجسام .

الفصل الثالث

مهاجمة الانجليز واليهود والانطلاق بقضية فلسطين

ظلت قضية فلسطين — مع كل ما بذله الإخوان فى سبيل تنبيه الأذهان إليها — شبه مجهولة إلا فى حدود المساجد التى غشيها الإخوان بكلماتهم فى أيام الجمع ؛ وهى مهما كثرت عدداً فإنها لاتصل إلى عشر مساجد القاهرة ...

وبانتقال الدعوة إلى الدار الجديدة فى العتبة قرر الأستاذ المرشد أن ينطلق الإخوان بهذه القضية انطلاقة واسعة تنتهى إلى الهدف الأساسى وهو أن نشعر الناس جميعا بها ، وأن نجعلها قضية عالمية تقض مضاجع الإنجليز واليهود .

وقد اتخذ الإخوان لتحقيق ذلك الوسائل الآتية :—

أولا : استمر نظام الخطابة فى المساجد وجمع التبرعات .

ثانياً : سلط الأستاذ على الحكومة وعلى الإنجليز قلم صالح عشماوى فى مجلة النذير ، وقد نجح صالح فى كتابة مجموعة من المقالات النارية أدت فى كثير من الأحيان إلى مصادرة المجلة ، وقد كنا نهرب أعداداً منها ... ولما كان الأسلوب الهجومى العنيف محبباً إلى نفوس الشباب ، فقد انتشرت المجلة انتشاراً واسعاً فى الجامعة وفى المصالح الحكومية وفى الأقاليم بل وقد طار صيتها إلى الأقطار الشقيقة مثل سوريا والأردن ولبنان والعراق .

ثالثاً : بدأنا فى طبع منشورات نهاجم فيها الإنجليز ونشرح مظالمهم فى فلسطين ونبين فيها خطر اليهود ، وكنا نوزعها فى الكليات والمصالح الحكومية والمحلات التجارية والمقاهى وفى الأقاليم .

رابعاً : دعونا إلى مقاطعة المحلات اليهودية فى القاهرة ، وطبعنا كشفاً بأسماء هذه المحلات وعناوينها ، والأسماء الحقيقية لأصحابها وذيلنا هذه الكشوف بهذه العبارة :

«إن القرش الذى تدفعه لمحل من هذه المحلات إنما تضعه فى جيب يهود فلسطين ليشتروا به سلاحاً يقتلون به إخوانك المسلمين فى فلسطين ».

وقد وزعنا هذه الكشوف على أوسع نطاق فى القاهرة والأقاليم ، فكان لها دوى هائل لأنها أول دعاية مست العصب الحساس لليهود ، وقد بلغ من تأثير هذا الأسلوب فى الدعاية أن علقت عليه الصحف الإنجليزية تستعدى الحكومة المصرية على مصدرى هذه المنشورات .

وإتماماً لفضح الخطة الصهيونية أصدرنا رسالة أو كتيباً صغيراً يضم أسماء الصحف اليهودية التى يصدرونها فى أنحاء العالم والبلد الذى تصدر فيه كل صحيفة والأسماء التى يتستر خلفها أصحابها الحقيقيون من اليهود ووزعنا هذا الكتيب على أوسع نطاق .

ومع أن الحكومة المصرية مدفوعة من الإنجليز قد جردت حملات قوية لمصادرة هذه المنشورات بالذات إلا أنها لم تتمكن من الوصول إلى شيء منها وكانت تفاجأ برؤيتها فى أيدى الناس فى الشوارع والمحلات وفى المدارس والمعاهد والجامعة وكان كبار موظفى الدولة والوزراء يذهبون فى الصباح إلى مكاتبهم فيجدون هذه المنشورات عليها ... ذلك أننا كنا حريصين على أن لا تدخل هذه المنشورات دار المركز العام وإنما كنا نطبعها فى أماكن بعيدة عن الأعين ونودعها فى مثل هذه الأماكن .

خامساً : كتاب «النار والدمار فى فلسطين»

أحب أن أنبه القارىء بهذه المناسبة إلى أن النقود التى كنا نجمعها لفلسطين من المساجد والمقاهى والبارات لم يكن القصد من جمعها إعانة إخواننا المجاهدين الفلسطينيين بها فهم كانوا من هذه الناحية فى غير حاجة إليها لأن أغنياء أهل فلسطين من التجار كانوا من وراء هؤلاء المجاهدين ، وقد حضر السيد أمين الحسينى فى بعض زياراته للمركز العام للإخوان ومعه بعض هؤلاء التجار وعرفنا بهم ... وإنما كان جمعنا لهذه التبرعات – كما قدمت فى فصل سابق – أسلوباً من أساليب التأثير فى نفوس الناس بهذه القضية وربطاً لقلوب الناس وعقولهم بها ، واختباراً لمدى تجاوبهم معها .

وأضيف الآن إلى ذلك أن هذه المبالغ لم تكن ترسل إلى المجاهدين بل كانت تصرف فى شئون الدعاية لهذه القضية بأمر اللجنة العربية العليا ثم إن اللجنة كانت ترسل إلينا من أموالها الخاصة مبالغ طائلة لنضيفها إلى ما عندنا للانفاق على هذه المهمة الخطيرة التى كانت اللجنة تعتبرها أهم وألزم للقضية من الجهاد المسلح الذى يقوم بأعبائه المجاهدون فى فلسطين نفسها ... وإلا لما كان

للإخوان وهم لا زالوا فى مهدهم أن ينهضوا بمهام الدعاية المجلجلة التى ألفت مضجع الإمبراطورية البريطانية والتى تحتاج إلى إنفاق واسع النطاق .

استطاعت اللجنة العربية العليا لفلسطين أن تطبع كتاباً سمته «النار والدمار فى فلسطين» وأمدتنا بعشرات الألوف منه . ويقع هذا الكتيب فى نحو ثمانين صفحة تشرح ألوان الفظائع والتعذيب التى ارتكبها الإنجليز ضد مجاهدى فلسطين .. وكل نوع من هذه الفظائع معزز بصور فوتوغرافية وبأسماء المجاهدين الذين ارتكب معهم هذا التعذيب ، فكان فى الكتاب أكثر من خمسين صورة كل واحدة منها توضح نوعاً من أنواع التعذيب أو جريمة من فظائع الإنجليز ، فصورة توضح هجومهم على أحد بيوت المجاهدين وتبرز صور الجنود الإنجليز وهم يمزقون المصحف الشريف ويدوسونه بأحذيتهم ، وصورة توضح الجنود الإنجليز وهم يعلقون مجاهداً من رجليه ورأسه إلى أسفل ويضربونه بالسياط وهو فى هذا الوضع ، كما جاءوا بصور لمجاهدين ربطهم الجنود الإنجليز من أعضاء حساسة يخجل المرء من ذكرها ...

ولقد كانت اللجنة من المهارة ومن حسن الإعداد بحيث استطاعت تسجيل هذه الفضائح على الإنجليز بالكاميرا دون أن يشعروا .. وقد جمعوا هذه الصور المثيرة التى تحرك الجبان فى هذا الكتاب وأرسلوه إلينا .

وقد قمنا بتوزيعه فى أسرع وقت فلم تمض ثلاثة أيام حتى عم الكتاب القاهرة وأنحاء الأقاليم ، وقامت قيامة الصحف البريطانية والبرلمان البريطانى لمواجهة هذه الكارثة المدمرة .

وداهمت المركز العام قوة من رجال البوليس وفتشت الدار وكان باقياً من الكتاب سبعمائة وخمسون نسخة فتحفظت عليها ، وسأل رئيس القوة عن صاحب هذه الكتب فتقدم إليه الأستاذ المرشد وقال له : أنا صاحبها . فنقلت القوة النسخ إلى سيارة كانت تنتظرها وطلب الضابط من الأستاذ المرشد أن يصحبه إلى النيابة وبدأ وكيل النيابة فى التحقيق مع الأستاذ على الوجه الآتى :

س : هل أنت صاحب هذه الكتب ؟

ج : نعم أنا صاحبها .

س : ألا تعلم أن هذه الكتب تهاجم السلطات وتثير الشعب ضد دولة صديقة وحليفة بحكم المعاهدة ؟

ج : أعلم ذلك وقد قصدت مهاجمة هذه السلطات ومهاجمة هذه الدولة الحليفة .

س : ألا تعلم أن القانون يعاقب على هذه الجريمة ؟

ج : أعلم وأنا لا أمانع فى إحالتى إلى القضاء لأنى معترف بهذه الجريمة ومصر عليها .

وأنهى وكيل النيابة التحقيق ووقعه الأستاذ المرشد وقرر وكيل النيابة حبس الأستاذ المرشد على ذمة هذه القضية حتى تحدد جلسة لنظرها .

ورفع التحقيق إلى النائب العام كما قدمت صورة منه إلى وزارة الداخلية — وأحب أن أنبه هنا إلى حقيقة مؤلمة كانت تعانى منها البلاد فى تلك الأيام هى أن وزارة الداخلية كانت فرعاً من السفارة البريطانية لقد كان وكيل هذه الوزارة بالذات ترشحه فى حقيقة الأمر هذه السفارة من المصريين الموالين لها فهو مصرى الجنسية بريطانى النزعة ، وكان لهذا الوكيل — فيما يمس مصالح الإنجليز — سلطة الوزير وفوق سلطة رئيس الوزراء .

وقامت وزارة الداخلية بتقديم صورة التحقيق إلى السفير البريطانى فى انتظار كلمة ثناء منه على هذه الخدمة العظيمة .. وقرأ السفير التحقيق حتى وصل إلى نهايته فقطب جبينه وقال لصنيعتهم : إنك بهذا التحقيق قدمت لحسن البنا أعظم خدمة دون أن تدرى .. لقد استطاع هذا الرجل أن يضحك عليكم ... لقد وزع الكتاب وأصبح فى أيدى الناس فى كل مكان .. وما صادرتموه منه لا يعد شيئا يذكر بجانب ما تم توزيعه ، إن أمنية هذا الرجل هى أن يقدم إلى القضاء ليتخذ من منصة الدفاع عن نفسه فى هذه القضية السياسية وسيلة إلى نشر أفكاره ، وإلى التشهير بنا وفضيحتنا وتوصيل ما تضمنه الكتاب إلى أسماع من لم يصل إليه عن طريق الصحف التى ستتبارى فى نشر ما يقال فى القضية كدأب الصحف فى القضايا السياسية ... هذا التحقيق يجب أن يحفظ وأن يفرج عن الأستاذ البنا فى الحال»

وأفرج عن الأستاذ المرشد فعلا قبل أن يتم فى الحبس أربعا وعشرين ساعة ، وقد فوجئ الأستاذ بهذا الإفراج لأنه كان يعتقد أن حكام مصر من الغباء بحيث لا يفهمون هدفه .. وقد زالت الحيرة من هذه المفاجأة حين جاءت عيوننا التى كانت ترصد التحركات وأخبرونا بما كان من أمر الداخلية مع السفير البريطانى ..

دوسيه لحسن البنا بالسفارة البريطانية :

وقد أخبرنا عيوننا هؤلاء أنه منذ ذلك اليوم بدأ الإنجليز يهتمون بحسن البنا وأعدوا له دوسيها جمعوا فيه تاريخ حياته ، وأخذوا يعدون العدة للقضاء عليه وعلى دعوته .

لقد كان هذا الكتاب صاعقة على الإنجليز حقاً ، لقد اقترف الإنجليز فى فلسطين فظائع يندى لها جبين الإنسانية خجلا ، وظنوا أنهم بمكرهم وبملكهم للدنيا قد أحاطوا بكل شئ قدرة وعلماً ، فارتكبوا ما ارتكبوا مطمئنين إلى أن جرائمهم هى فى طى من الكتمان وأن فلسطين نفسها أصبحت

فى عزلة عن العالم كله ، وكان الله تعالى أشد منهم مكراً فأمد هؤلاء المجاهدين بالمقدرة التى تمكنوا بها من تسجيل مخازيهم لا بالقلم وحده بل بما هو أدق وأصدق وأعمق تأثيراً فى النفوس وهى الصور الشمسية الواضحة الناطقة المعبرة . «ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين»

ومهما تكن عند امرئ من خليقــة وإن خالها تخفى على الناس تعــلم

سادسا :

« مظاهرات لأول مرة فى جميع أنحاء القطر »

قبل حلول اليوم السابع عشر من شهر نوفمبر فى تلك السنة وهو يوم ذكرى وعد بلفور المشئوم وضع الإخوان خطة بحيث يقوم الإخوان فى جميع شعب القطر كله فى ذلك اليوم بمظاهرات صاخبة ، يهتفون فيها بهتافات محددة . وقد نجحت هذه الفكرة وقامت هذه المظاهرات . وكان قيامها فى يوم واحد وبهتافات واحدة فى جميع أنحاء البلاد دليلا على قوة الدعوة ، وهزأ لمكانة الحكومة ، التى أمرت بإلقاء القبض على مدبرى هذه المظاهرات .. كما أن نجاح هذه المظاهرات جعل الإنجليز يشعرون أنهم أصبحوا لأول مرة يواجهون عدواً حقيقياً متغلغلا فى أحشاء الشعب وليس من السهل قهره لأنه يعتصم فى جميع تصرفاته بالدين .

ولقد كانت هذه المظاهرات أول تنبيه لأذهان الشعب المصرى فى القرى والمدن نحو قضية فلسطين بعد أن كان التنبيه مقتصرا تقريباً على القاهرة ولكن التنبيه فى هذه المرة جاء تنبيها قوياً مثيرا أغنى عن كثير من وسائل التنبية السابقة التى اختصت بها العاصمة .

وكما أن هذه المظاهرات كانت كسباً رائعاً لقضية فلسطين ، فإنها عادت على دعوة الإخوان المسلمين بفوائد كبيرة وأظهرت فى هذا الشعب المغلوب على أمره مواهب مذهلة ، وتوضيحها لذلك سأضرب للقارئ مثلا بما تم فى هذا الصدد بإحدى شعب الإخوان :

قام الإخوان بشعبة رشيد بمظاهرة كغيرها من الشعب ، وفى اليوم التالى وصلنى خطاب بالقاهرة يطلب حضورى إلى رشيد لأمر هام فسافرت فوجدت أن المظاهرة سببت نزاعاً بين فريقين ، أحدهما يمثله الإخوان الصغار سنا من الطلبة والعمال الذين قاموا بالمظاهرة واعتقل بعضهم ، والفريق الآخر يمثله الإخوان الكبار سنا ومكانة أدبية والذين جاءبهم الإخوان الصغار سنا وأسندوا إليهم المناصب الرئيسية فى الشعبة ليكونوا واجهة لهم أمام الأهالى ، والذين كان بعضهم قد قبل الانضمام إلى الشعبة مجاملة لى شخصياً حيث كانت تربطنى بهم صلات .

تقدم إلى هؤلاء الإخوان الكبار وقالوا : أيرضيك أن يقوم الإخوان فى الشعبة بمظاهرة يهتفون فيها هتافات ضد الحكومة وضد الإنجليز ويوقفوننا بذلك فى موقف حرج مع رجال البوليس

الذين طلبوا إلينا أن نأمر الإخوان بفض المظاهرة ، فلما حاولنا ذلك رفضوا واستمروا فى المظاهرة حتى قبض على عشرة منهم وهم الآن فى سجن المركز ؟

قلت لهم : أتعرفون لماذا قاموا بالمظاهرة ؟ قالوا : لأن المركز العام أرسل منشورا بذلك .

قلت : ما داموا قد فعلوا ما فعلوا تنفيذاً لأمر المركز العام فإنهم يستحقون الشكر .

قالوا : إذن أنت موافق على عملهم . قلت : نعم .

قالوا : إذن فلتسمح لنا بالاستقالة من الشعبة لأننا لا نستطيع تحمل هذه التبعات

ومما ينبغى ملاحظته أن هذه كانت أول مظاهرة تقوم فى رشيد أو فى أقاليم مصر بوجه عام منذ مظاهرات سنة ١٩١٩ .

والذى حدث فى شعبة رشيد من ابتعاد أشخاص لمسوا فى الدعوة خشونة كانت فوق طاقتهم قد حدث فى الشعب الأخرى . وكانت هذه أول هزة للكيان الإخوانى أو بمعنى آخر كانت أول تصفية تمخضت عن تخلص هذه الشعب من أشخاص ضعاف- أدوا دورهم - ولم يعد وجودهم بها إلا ثقلا على كاهلها .

من مواهب هذا الشعب :

من طرائف ما حدث للإخوان العشرة الصغار سنا - الذين كانوا بين طالب وعامل وصانع وصياد - والذين ألقى القبض عليهم فى رشيد وأودعوا سجن المركز ، وقد تخلى عنهم - كما قدمت إخوانهم الكبار ذوو الحيثية فى المدينة والمقربون إلى رجال الإدارة بالمركز ، أنهم أودعوا فى زنازين ، كل فى زنزانة على انفراد ولم يكن فيهم فى ذلك الوقت من تجاوز السادسة عشرة إلا القليل ، وقد أحضر أهلهم لهم طعاماً فمنع عنهم ، وعوملوا أسوأ معاملة - وتصادف أن كان فى سجن المركز بجانبهم شخص من أهل رشيد يعتبر رئيس عصابة ويعتبر أخطر مجرم فى المدينة ، وقد ارتكب عدة جنايات وسجن أكثر من مرة ، وكان فى هذه المرة متهماً فى جناية ...

وصبر الإخوان الصغار - الذين لا نصير لهم - على الإيذاء والجوع حتى حان موعد الصلاة فقام أحدهم وأذن للصلاة داخل زنزانته بأعلى صوته ، فجاء زبانية السجن وطرقوا عليه الباب وهددوه إذا هو لم يوقف الأذان أن يفتحوا عليه الزنزانة ويؤدبوه ...

وهنا سمع صوت من الزنزانة المجاورة يهدد هؤلاء السجانين بقتلهم إذا لم يتركوا الشاب الذى يؤذن يكمل أذانه وإذا لم يحضروا له ولزملائه لوازم الوضوء وإذا لم يفرشوا لهم فرشاً طاهراً يؤدون عليه الصلاة ...

كان هذا الصوت هو صوت الرجل الخطر ، الذى كانت حياته سلسلة من الجرائم المروعة ، كان صوت «محمد أبو العلا» .

وهنا توقف الزبانية عن خطتهم وبدأوا يتفاهمون مع «محمد أبو العلا» عما يريده متعجبين من اهتمامه بشباب يعملون للدين ، ولا يتصور العقل أن يكون المدافع عنهم محمد أبو العلا ملك الإجرام فى رشيد ولم يكن أمام الزبانية إلا الاستجابة كارهين لطلبات محمد أبو العلا ، الذى شفع تهديده لهم بقوله : «كل ما تريدون أن توجهوه لهؤلاء الشباب من الإهانة وجهوه إلى أنا نيابة عنهم ، أما هؤلاء فأنا أضعهم داخل عينى ، ويجب أن تضعوهم أنتم أيضا داخل عيونكم لأنهم يدافعون عن الدين» .

ويسرت للاخوان وسائل الوضوء والصلاة ، وصاروا يؤذنون لجميع الأوقات ، وسمح بدخول الطعام اليهم ، وفتحت لهم أبواب الزنازين ، وقضوا الفترة التى قضوها فى هذا الحجز معززين مكرمين ، وصدق الله العظيم إذ يقول «إن الله يدافع عن الذين آمنوا» وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول «إن الله لينصر هذا الدين بالرجل الفاجر» .

وإذا كان من تعليق على هذه الظاهرة المثيرة للدهشة فإننا نقول : إن عاطفة الانتصار للدين غريزة فى أعماق كل نفس مهما تنوعت مسالك أصحاب النفوس فى الحياة ، وإن كثيرين ممن وصمهم مجتمعهم بأنهم من عتاة المجرمين ليسوا فى حقيقة الأمر مسئولين عن مسلكهم هذا بقدر ما تقع المسئولية فى ذلك على مجتمعهم .. وقد أعجبنى مقال نشر فى إحدى المجلات الأدبية للأستاذ توفيق الحكيم فى أواخر الثلاثينيات يقول فيه : إن العقل البشرى مقسم إلى مناطق ، كل منطقة مستقلة تماماً من أخواتها ، وأن من هذه المناطق منطقة للدين ، وضرب مثلا برجل سكير تراه وهو يعاقر الخمر يسمع من يطعن فى الدين فينبرى له ثائراً فى وجهه من أجل الدين .

ولا يفوتنى بهذه المناسبة أن أشير إلى أن عدداً لا بأس به ممن كانوا قطاع طريق قد استجابوا للدعوة وصلح أمرهم وصاروا من المؤمنين الأقوياء .

سابعا :

أول مؤتمر عربي من أجل فلسطين

أقضت جهود الإخوان فى سبيل هذه القضية مضاجع الإنجليز ، فاشتعل الشعور بالنقمة عليهم لا فى الجامعة المصرية فحسب بل أحسوا بهذا الاشتعال فى أنحاء البلاد العربية من أقصاها إلى أقصاها

وكانت سياسة انجلترا تقوم على أساس فصل مصر عن البلاد العربية ، واستطاعوا فعلا

تحقيق هذا الهدف من سياستهم حيث أقنعوا المصريين بأنهم فراعنة وليسوا عرباً ، كما أقنعوا البلاد العربية بأنهم هم العرب وأن المصريين ليسوا عرباً وإنما هم فراعنة ... وكنت تشعر فعلا بأن المصريين مقتنعون بهذه الفكرة الماكرة الخبيثة كما تشعر بأن أهل الشام والعراق والحجاز واليمن والمغرب مقتنعون أيضا بذلك ، وكانت لنا مناقشات طويلة وحادة فى حرم الجامعة مع ممثلى الأحزاب فى هذه النقطة بالذات لأنها نقطة جوهرية فى دعوتها .

وكان الذى دفع الإنجليز إلى ترسيخ هذه الفكرة فى أدمغة المصريين وأدمغة سكان البلاد العربية الأخرى اعتقادهم بأن نجاح استراتيجيتهم الاستعمارية فى الشرق متوقف على عزل مصر عن البلاد العربية الأخرى فمصر تعتبر رأساً والبلاد العربية الأخرى بقية الجسد فإذا فصل الرأس عن الجسد فقد الرأس الحياة وفقد الجسم الحياة ، وعاث الإنجليز فساداً دون أن يصادفوا فى أى مكان من يعترض طريقهم أو يقف فى وجههم .

وخدع المصريون بهذه الفكرة ردحاً طويلا من الزمن ، وقامت زعامات سياسية كبيرة سايرت الخدعة ولم يخطر لها ببال أن تولى موضوع العروبة أى اهتمام . واطمئنانا إلى نجاح هذه الخدعة دبر الإنجليز جريمة بيع فلسطين لليهود وهم فى مأمن من أية مقاومة .. وكيف لا يأمنون وقد استطاعوا أن يجعلوا المصرى المثقف حين تطلب منه مساعدة لمجاهدى فلسطين يتساءل : : وأين تقع فلسطين هذه أهى فى أوروبا ؟ كما استطاعوا أن يجعلوا رئيس وزراء مصر حين يسأله أحد الصحفيين ماذا أعددتم لقضية فلسطين ؟ فيجيب : أنا رئيس وزراء مصر ولست رئيس وزراء فلسطين .. ومعنى هذا أن مصر حكومة وشعباً صاروا معزولين عزلا تاماً عن الأمة العربية ، وأخطر ما فى هذا العزل أنهم عزلوا قلباً وشعوراً وعاطفة .

لقد استطاع الإخوان المسلمون ، والإخوان المسلمون وحدهم أن يفسدوا على الإنجليز خطتهم ، وأن ينسفوا الجدار الشاهق السميك الذى شيده الإنجليز ليفصل مصر عن بقية الأمة العربية . ولكنهم لم يستطيعوا إنجاز هذه المهمة الخطيرة إلا بجهود مضنية متواصلة مكثفة استمرت أكثر من خمس سنوات متوالية . حققوا فى نهايتها المعجزة حين وصلوا قلوب شعب مصر بقلوب إخوان عرب لهم فى فلسطين ، وحين صارت قضية فلسطين قضية عامة فى مصر يتألم قلب المصرى لها ، ويكره الإنجليز من أجلها ... وبذلك استطاع الإخوان أن يمدوا بين مصر والأمة العربية أول جسر ربط بينهما .

ولقد عبرت مشاعر المصريين نحو فلسطين ممثلة فى جهود الإخوان عن طريق هذا الجسر إلى

البلاد العربية فكانت بمثابة جرعة منبهة لهذه البلاد فبدأت تحس بأنها الجسد الذى كان يفتقد رأسه وقد وجد رأسه فى مصر .

وقد استغل الإخوان هذا الجسر الذى أقاموه خير استغلال فوجهوا الدعوة لرجالات البلاد العربية لعقد مؤتمر لدراسة مشكلة فلسطين فى مصر واستجاب الكثير منهم ومثلت أكثر البلاد العربية بنخبة من كبار رجالها فى ذلك الوقت ، ولم يبق فى ذاكرتى من أسمائهم بعد هذه المدة الطويلة إلا الأستاذ فارس الخورى وهو مسيحى من ذوى المستوى الرفيع فى التفكير الذى يترفع عن التعصب ويقدر المعانى الإسلامية العليا التى تنظم العقائد والأجناس والألوان المختلفة فى سلك واحد نضيد هو الأمة الإسلامية المتيدة ، وكان هذا الرجل زعيما سوريا عظيما ، تولى رياسة الوزارة فى سوريا أكثر من مرة وكان خطيباً مفوهاً ، ومع أنه كان فى ذلك الوقت مشتعل الرأس شيباً إلا أنه شاب الروح والقلب تكلم فى المؤتمر فألهب المشاعر وأثار الشجون .

وكان هذا المؤتمر أول مؤتمر عربى يعقد من أجل فلسطين ، وقد عقد فى دار المركز العام بالعتبة ، وتعاقب فيه الخطباء من مختلف البلاد ثم تكلم الأستاذ المرشد . وانتهى المؤتمر بقرارات تطالب حكومات الدول العربية بالتدخل من أجل إنقاذ فلسطين من المؤامرة الانجليزية اليهودية وكان لهذا المؤتمر آثار بعيدة المدى لأنه جعل الحكومات العربية تحس لأول مرة أن عليها مسئولية تجاه مشكلة فلسطين .

ثامنا :

المؤتمر البرلمانى العالمى

تطايرت أنباء المؤتمر العربى الذى انعقد بدار المركز العام بالعتبة بالقاهرة إلى أنحاء البلاد العربية والإسلامية وإلى أنحاء العالم كله ، وكان أشد الناس اهتماماً بهذا المؤتمر الإنجليز .

وصار يتوافد على دار المركز العام رجال كثيرون من زعماء البلاد العربية والإسلامية ومن ذوى الرأى فيها ، وكان ممن توافد الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود والأمير أحمد بن يحيى ومعهما بعض إخوتهما ، أوفدوا من قبل والديهم ملك السعودية وإمام اليمن ليتفاهموا مع الحكومة المصرية ومع الإخوان المسلمين فيما يجب عمله لإنقاذ فلسطين

ولما كانت أكثر البلاد العربية فى ذلك الوقت رازحة تحت أثقال الاستعمار ، فقد تمخض التفاهم بين زعماء البلاد الإسلامية والإخوان عن وسيلة يتفادون بها اللجوء إلى هذه الحكومات المكبلة ، وتبرز بها البلاد العربية والإسلامية متضامنة ، وكان ذلك بأن توجه الدعوة إلى جميع برلمانات العالم لعقد مؤتمر فى القاهرة لمعالجة قضية فلسطين .

وقد وجهت الدعوة وأوفدت كثير من البرلمانات ممثلين لها ، وانعقد المؤتمر بسراى آل لطف الله بالقاهرة ، وكان هذا أول مؤتمر عالمى من أجل فلسطين ، وتحدث الكثيرون من زعماء العالم ، وشرحت القضية من جميع جوانبها ، وانتهى المؤتمر بقرارات موجهة إلى جميع دول العالم عامة وإلى حكومة انجلترا خاصة بوجوب تسوية هذه القضية بما يحفظ حقوق أهل فلسطين .

وهنا بدأت إنجلترا تشعر بأن سياستها فى فلسطين أصبحت مهددة ، فأوقفت حملات القتل والسجن والتعذيب والتنكيل ، وأبدت استعدادها للتفاهم ، وطلبت عقد مؤتمر من أجل فلسطين فى لندن يضم العرب واليهود وممثلى الحكومة البريطانية ، وكان من ممثلى العرب عدا عرب فلسطين الأميران فيصل بن عبد العزيز وأحمد بن يحيى واشترك الإخوان فى المؤتمر باعتبارهم سكرتيرين للأميرين ومترجمين لها . وأذكر أن ممن أوفد معها من الإخوان الأخ محمود أبو السعود وكان طالبا بكلية التجارة ويجيد اللغة الإنجليزية كتابة وتحدثاً ، وسمى هذا المؤتمر بمؤتمر المائدة المستديرة .

وما كان الإخوان لينتظروا من مؤتمر المائدة المستديرة قراراً يحل المشكلةأو يرد الحق إلى نصابه ، وإنما كان هدفهم أن يكون مجرد عقد هذا المؤتمر خطوة جديدة على طريق إسماع العالم مظلمة أهل فلسطين التى طالما حاول الإنجليز ومن ورائهم يهود العالم أن يلقوا عليها ستاراً كثيفاً يحجبها عن العالم .

الفصل الرابع

الفتنة الأولى

« أولا »　　أضواء على نواح من شخصية حسن البنا

(١) رأى الشيخ طنطاوى جوهرى :

عهد إلى الأستاذ المرشد فى يوم من أيام هذا العام ١٩٣٨ أن أنقل له فى كراس أرجوزة جمع فيها ناظمها كل ما يتصل بالتصوف من أهداف ووسائل ودرجات وآداب وأصول ، وأكاد أذكر أنى كنت أنقلها من كتاب لابن عجيبة فى شرحها .. وكنت جالساً ظهر ذلك اليوم وحدى فى المركز العام ، واتخذت لى مقعداً وقمطراً فى شرفة الدار .

وبينما كنت أنقلها فى شغف – حيث كان لى سابقة اتصال بالمتصوفة عملا ، كما كنت أعكف الساعات الطوال فى الأيام والليالى على قراءة «إحياء علوم الدين» للغزالى ... بينما أنا كذلك إذ دخل على رجل أحبه وأجله ، وكنت مشتاقاً إلى لقائه كما كنت أحس أنه يحبنى ولم أكن رأيته منذ كنا فى ١٣ شارع الناصرية ، ذلك هو الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى ، الذى كان يلقب فى ذلك الوقت «بحكيم الإسلام» وأظننى تحدثت عنه فى أوائل هذه المذكرات حديثاً عابراً .. ولقد علقت نفسى هذا الرجل من أول لقاء ، وقد سمعت عنه الكثير قبل أن أنزح إلى القاهرة فلقد كان الرجل شخصية بارزة فى مصر ، فلما التقيت به فى القاهرة رأيت فيه الرجل الذى يقول ما يفعل ويفعل ما يقول ، فمع أنه كان أستاذاً فى دار العلوم ، ولم ألقه إلا بعد إحالته إلى المعاش بأكثر من عشر سنين إلا أنك كنت ترى فيه شاباً فى عنفوان شبابه ، فهو متوقد الذهن ، يتحدث معك فى كل علم من العلوم الكونية من نبات وحيوان وحشرات وجيولوجيا وكيمياء وطبيعة ورياضة وميكانيكا وفلك وموسيقى كأنما هو متخصص فى كل واحد منها ، وتراه عن طريق هذه العلوم يدلك على وجود الخالق ووحدانيته وقدرته وحكمته ورحمته .

هذا فضلا عن العلوم العربية بأنواعها من نحو وصرف وبلاغة وأدب ، وقد ألف كتابا سماه «الجواهر» فى تفسير القرآن الكريم فى ستة وعشرين جزءاً أتبعها بعد ذلك كما أخبرنى بستة أجزاء أخرى ، وقد كنت أطالع فى هذا التفسير بدار الكتب ، وهو يفسر الآيات التفسير المعتاد ثم يتبع هذا التفسير بتفسير علمى يقود القارئ إلى الإيمان بالله إن كان غير مؤمن ، ويزيده إيمانا إن كان من المؤمنين.. ومما أذكره من دروسه التى كان يلقيها علينا فى دار شارع الناصرية وكانت سببا فى تشوقى إلى دراسة العلوم الزراعية بعد أن كنت قد التحقت بكلية أخرى حيث كان يفسر لنا قوله تعالى «ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت» أنه قال لنا إن علماء النبات بدراستهم توزيع أوراق الأشجار على فروعها ، وجدوا أن هذا التوزيع فى أشجار العالم كله خاضع لنظام معين لا يخرج عنه أبداً هو نظام المتواليات العددية – وهى إحدى قوانين علم الجبر – فكل عائلة من عائلات النبات تسوزع أوراقها على فروع أشجارها بموجب متوالية عددية ذات أس لا تحيد عنه مهما كثرت أشجار هذه العائلة وتعددت أماكنها واختلفت البيئات التى تنمو فيها ... وقد حاولت ملاحظة ذلك بنفسى فوجدته صحيحاً فكيف يلمس هذا النظام الرائع إنسان ثم لا يؤمن بأن لهذا الكون إلها واحداً وصدق الله تعالى إذ يقول «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون» وحيث يقول «إنما يخشى الله من عباده العلماء» .

ولقد كان الشيخ طنطاوى جوهرى فى أيامه ذائع الصيت فى مصر وفى خارج مصر ، وكثيراً ما كان يقصده العلماء من البلاد الشرقية ومن الغرب ، من أمريكا وانجلترا وفرنسا ، يتلقون على يديه علوماً معينة .. وأذكر فى فترة من أيام شارع الناصرية أنه كان يحرص بعد إلقاء درسه علينا فى المركز العام أن يكون فى بيته مبكراً – بعد العشاء – لأن مستشرقة فرنسية قدمت من فرنسا خصيصاً لتحضر عليه شرح «الرسالة القشيرية» وهى من المراجع الاساسية فى علم التصوف ، وتعد من الرسائل الفلسفية المعقدة .

وقد تقدم فى إحدى السنوات ببحث فى الموسيقى لنيل جائزة نوبل للسلام – وما كانت هذه الجائزة لتعطى لمصرى فى ذلك الوقت حتى لو لمس السماء بيده – وقد اطلعت على هذا البحث فوجدته كتيباً فى نحو مائة صفحة من القطع المتوسط . ومع أنه بحث فى الموسيقى إلا أنك إذا قرأته وجدت كل ما فيه بحوثا فى الكيمياء ولكنه أثبت بالقوانين الكيماوية – بطريقته الخاصة – أن هذا الكون إن هو إلا موسيقى .

ولم يكن هذا الرجل يدرس القرآن وما يتصل به من علوم ، ويدرس التصوف وما يحيط به من فلسفة ، بقصد الدراسة العلمية ليتشدق بها ، ويبرز فى المجتمع .. والرجل لم يكن بحاجة إلى

ما يبرزه فقد كان ذائع الصيت كما قدمت ، رفيع المكانة عند الكافة ، بل كانت دراسته دراسة يتقرب بها إلى خالقه ، وقد استنتجت ذلك من موقفين له :

الموقف الأول : أن هذا الرجل على علو قدره ، وذيوع صيته ، ورفيع مكانته ، وكبر سنه وسعة علمه ، لم يستكبر عن أن ينضوى راضيا تحت لواء الإخوان المسلمين ، وتحت قيادة حسن البنا الذى لم يكن فى ذلك الوقت أكثر من شاب مغمور ، مدرس فى مدرسة ابتدائية لا يكاد يعرفه أحد

الموقف الآخر : أن هذا الرجل كان يلقى علينا دروسه فى المركز العام بشارع الناصرية بين المغرب والعشاء ، فكان فى كثير من الأحيان يأتينا قبيل المغرب فيكلف أحدنا بشراء رغيف صغير جاف وحبة طماطم واحدة ، وحين يؤذن المغرب يأكل الرغيف بحبة الطماطم مع قليل من الملح ويكتفى بذلك إفطاراً من صيامه . ويتبين لنا فى أكثر هذه الأيام أنه كان فى بلدته «وراق العرب» وهى من ضواحى القاهرة وتبعد عنها أكثر من عشرة كيلو مترات وأنه ذهب إليها فى الصباح ماشيا ورجع منها فى المساء ماشياً .

استطردت هذا الاستطراد ليعرف القارئ قيمة هذا الرجل ، وسمو قدره ، وعلو كعبه سواء فى العلم والعمل حتى يستطيع هذا القارئ أن يقدر حديثه حق قدره ، و يحل ما يصدر عنه المحل الذى يناسب قدره ومنزلته وهاك هذا الحديث :

دخل على هذا الرجل العظيم وأنا جالس فى شرفة المركز العام بعد الظهر وحدى أنقل أرجوزة التصوف التى أشرت إليها من قبل مسلم وقت من مكافىء وتلقيته بما يتناسب مع مقامه ، وأعددت له مقعداً بجانبى فابتدرنى سائلا ماذا تفعل ؟ فأجبته فقال لى : إنها أرجوزة جميلة فى التصوف اقرأها على فأخذت أقرأها فقال لى : ما هكذا يقرأ الشعر يابنى قلت ؛ هل لحنت فى شىء مما قرأت؟ قال : لا إنك لم تلحن ولكن ماهكذا يقرأ قلت : إذن فكيف يقرأ ؟ قال : هل كانوا يقرأونه فى سوق عكاظ كما تقرأه ؟ قلت : إذن فكيف كانوا يقرأونه ؟ فتناول الكتاب وأخذ يقرأه بنغمة حلوة كأنه يغنيه ثم قال . لا معنى للشعر إذا لم يقرأ بهذه الطريقة ، ولذا فإنهم كانوا ينشدون الشعر لا يقرأونه ، أليس الشعر موسيقى ؟..

ثم قال لى عندما وصل فى الأرجوزة إلى أبيات تتحدث عن الحجب والكشف : أنصت إلى يامحمود فأنصت إليه فقال : إن الرجل ليأخذ نفسه بأساليب الرياضة النفسية فيرقى من درجة إلى أخرى حتى يدرك اسمى درجات السمو فيصل إلى درجة الكشف حيث ينكشف له الكون ويرى بنور الله ماستره الله عن خلقه من الغيب . فهل هناك منزلة أعلى من هذه المنزلة ؟ !..

قلت : لا أعتقد أن هناك منزلة أعلى من تلك .

قال : بل هناك منزلة أعلى من تلك . قلت متعجباً : وما عساها تكون تلك المنزلة ؟..

قال : هى منزلة رجال يصطنعهم ربهم ، ويختارهم من بين خلقه ، ويكل إليهم مقارعة الفساد ، ومنازلة الظلم ، وإشعال جذوة الإيمان بالله فى القلوب ، وبث روح الأخوة بين المؤمنين ؛ حتى تتكون لدعوة الله قوة ترفع صوت الله فى الأرض ، فتقف للظلمة والمفسدين بالمرصاد .. ثم قال الشيخ : واعلم يابنى أن هذه المهمة التى يختار لها الله تعالى هؤلاءالرجال تقتضى أن يحجبهم عن غيبه فهم دائما محجوبون لكنهم مع هذا الحجب أعلى درجة من أهل الكشف ؛ لأن أهل الكشف لا ينتفع بهم الناس ، أما هؤلاء فينتفع بهم خلق كثيرون بل تنتفع بهم أمم ينقلونها من حال إلى حال... قال واعلم يابنى أن من هذا النوع من الرجال الرسل فموسى أعلى درجة من الخضر ، وسليمان أعلى درجة من الذى عنده علم الكتاب ، ومنهم كبار الصحابة من أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ومنهم كبار المصلحين ومنهم حسن البنا .

قلت : أهكذا ترى حسن البنا ؟...

قال : نعم . قلت : وكيف عرفته ؟ .

قال : سمعت عنه فذهبت اليه وجلست معه وسألته إلام تدعو ؟

قال : أدعو إلى القرآن .

قلت : دع هذا اللفظ الكريم من حديثنا ؛ فإن هذا اللفظ الكريم مظلوم ظلماً بيناً : لقد انتحله الجميع وانتسبوا إليه ؛ ما من فرقة قامت فى الدولة الإسلامية – مهما كانت زائفة عن الإسلام – إلا وادعت أنها تدعو إلى القرآن ... فأجبنى بتفاصيل ما تدعو إليه فى كل ناحية من نواحى الحياة ... قال فشرح لى تفاصيل دعوته فوجدتها فى حدود كتاب الله ...

قال : ثم رأيت فى الشاب وآرائه وفهمه لكتاب الله ، وإحاطته بالتاريخ ، وفهمه للمجتمع الذى نعيش فيه ،وذكائه وألمعيته وشخصيته الأخاذة ، ومقدرته على جمع الناس على دعوته ، وصبره على المكاره، وتعففه عما فى أيدى الناس ، وبذله فى سبيل دعوته ، ولين جانبه، وتواضعه بحيث لا تكاد تميزه من أتباعه ؛ قال فرأيت فيه صفات القائد الذى يفتقده العالم الإسلامى.

أقول : وحرصاً منى على أمانة النقل أقرر أن هناك بقية لهذا الحديث ولكنى لا أذكر هل الذى قالها لى هو الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى أم أن الذى قالها لى هو الأستاذ المرشد بعد أن حدثته بما دار بينى وبين الأستاذ الكبير من حديث ، تلك هى : أنه بعد انتهاء الحوار بينهما على النحو الذى ذكرت وبعد أن أعلن الشيخ اقتناعه قال له الأستاذ المرشد : ياسيدى الأستاذ ؛

إنك أستاذنا وأستاذ الجميع وأنت حكيم الإسلام وأراك أحق بمنصب الإرشاد لهذه الدعوة منى .. وهذه يدى أبايعك ..

فقال الشيخ : لا ياأخى ... أنت صاحب الدعوة وأنت أقدر عليها وأنت أجدر بها ... وأنا أبايعك على ذلك – ومديده فبايعه – ولم ينكث – رحمه الله بيعته إلى أن لقى ربه ... حتى إنه لما وقعت الفتنة الأولى وانشق جماعة من الإخوان مما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله وأسسوا جماعة «شباب محمد» ذهبوا إليه وطلبوا منه أن يكون مرشداً عاماً لهم رفض قائلا «لا يجوز أن يكون للمسلمين إلا مرشد عام واحد » .

(٢) قوة روحية جارفة :

قد يلاحظ القارىء أننى حين أصف حسن البنا لا أتعرض لميزاته العقلية والذهنية مع أنه كان فيها الذروة التى لا تسامى خصوبة ذهن وحدة ذكاء واتقاد قريحة وحافظة تعى فلا يفلت منها شىء وذاكرة لكل مارأت أو سمعت حتى أسماء الأشخاص مهما طال عليها الزمن وتباعدت بها البلاد فقد يزور قرية فى أعماق الصعيد ويلتقى بعد سنوات فى القاهرة بفرد منها فتراه يناديه باسمه ولقبه ويسأله عن أبنائه بأسمائهم – ومع ذلك فانا لا أتعرض لهذه الميزات لأن كثيراً من الزعماء يتمتعون بأنصبة متفاوتة منها .

ولكن الميزة التى تتقطع دونها الأعناق والتى قلما يجود الزمان بزعيم يظفر بنصيب منها هى القوة الروحية الخارقة ولقد كان حسن البنا – رحمه الله – عميق الإيمان بالله ، شديد الثقة فيه ، يؤمن بالغيب الذى يسمونه الآن «ماوراء الطبيعة» وكان كثيراً مايردد قول ابن الفارض .

ولاتك من طيشـــه طروســـه   بحيث استقلت عقلــــه واستبدت
فإن وراء العقل علمـاً يجـل عن   مدارك غايات العقول السليمة

وكان يرى فى القرآن ما لايراه غيره ؛ وإن كنا جميعاً نردد عبارات مؤداها أننا نؤمن بأن القرآن هو كل شىء لكننا فى تصرفاتنا فى الحياة نتصرف وكأنما لا نؤمن بما نردد .. أما هو فكان القرآن هو حياته وهو عمله وحركته ، وهو تفكيره وسكونه ، وهو كلامه وسكوته ، وهو دائرة آماله وهو مرجعه ولا مرجع له غيره .. لقد كنت أحار فى تصور قول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه كان «خلقه القرآن » حتى لقيت حسن البنا وصاحبته فبدأت الصورة تتضح أمامى .

لم أر إنساناً يحفظ القرآن كما يحفظه هذا الرجل ؛ لم يكن يتحدث مع أى أحد كان فى أمر

من الأمور إلا صدع بالآية دون ما إعمال فكر كأنما أنزلت عليه ... ولم أكن أقدر هذه المقدرة حق قدرها إلا بعد أن حفظت القرآن وقرأته غيباً على نفسي وعلى غيري عشرات المرات ، ومع ذلك كنت إذا حاولت تذكر آية معينة في موضوع معين أعجز في أكثر الأحيان عن الإتيان بها ... وفهمت من ذلك أن حفظ القرآن شيء وخاصية الاستشهاد بآيات منه في مواضع مختلفة شيء آخر .

سألته مرة أي التفاسير تنصحني أن أقرأ ؟ فقال لي : إن كنت تريد نصيحتي فلا داعي لقراءة تفاسير ... إن القرآن واضح .. حسبك أن تعرف معاني الكلمات الغريبة عليك وهي قليلة ثم القراءة وتدبر معانيه وافتح له قلبك ، وأنت تعرف سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إذا فعلت فإنك سيتضح لك من معانيه مالا تظفر به من كتب التفسير .

وكان له مصحف من القطع الذي هو فوق المتوسط ، وكنت أرى فيه في مواضع متعددة ملاحظات كتبها بخطه ؛ لعلها معاني سنحت له وومضت في قلبه فرأى أن يقيدها أمام الآيات قبل أن ينساها ....

لم يكن يدع لحظة فراغ إلا ملأها بالقرآن ؛ حين كنا نصاحبه في السفر ، سواء أكان السفر بالقطار أم بالأتوبيس كان يمضي الطريق مغمضاً عينيه يتلو القرآن حتى نصل إلى الجهة التي نريدها .

حدثني مرة أنه قرأ في كتاب – سماه لي وقتها ولكني أنسيت اسمه الآن – أن رجلا جاء إلى الإمام أحمد بن حنبل وشكا له أن أخاه تنتابه حالة يفقد فيها وعيه ، ويمزق ملابسه ، ويهاجم من حوله ، ويريد أن يفتك بأقرب الناس إليه ، وقال إنه عرضه على الأطباء حتى يئسوا منه ولا يدرون ماذا يفعلون ... وكان الإمام أحمد بالمسجد فقال للرجل أحضر أخاك وهو في هذا الحال فلما أحضره أمره أن يرقده ثم أخذ الإمام يقرأ القرآن حتى سمع الجميع صوتاً منبعثاً من جسم الرجل المريض يستغيث بالإمام ويقول له : حسبك وسأفعل ماتريد . فقال له الإمام : دع هذا الرجل واخرج من إصبع قدمه قال الصوت سمعاً وطاعة . وخرج من إصبع قدم الرجل وإذا بالمريض يستيقظ كأنما حل من عقال ، وكأن لم يكن مصاباً من قبل .

قال لي الأستاذ : وقد شغلتني هذه القصة وكنت أتأهب – حسب جدول زياراتي – لزيارة إخوان السويس . وركبت القطار وظللت طيلة الطريق أفكر في هذه القصة وأتعجب لما فيها وأقول : أهو سر الإمام أحمد أم هو سر القرآن أم أن القصة فيها مبالغة ؟.. ولم تزل هذه الأفكار

تراودنى حتى وصل القطار محطة السويس ، ونزلت من القطار فوجدت الإخوان متجمعين فى انتظارى فعانقتهم -، ولاحظت أن واحداً منهم كان يقف وحده بعيداً ، فقربت منه فرأيت على وجهه أثر الحزن ؛ فتركت الإخوان وانتحيت به جانباً وسألته عما يحزنه . فقال لى : إن الذى يحزننى أمر خطير ، وإننى قد ضقت ذرعاً بالحياة ، وسدت أمامى الطرق ، وأحاط بى اليأس من كل جانب ... إن زوجتى أمرأة صالحة مطيعة ، ولى منها أبناء صغار ، وقد اعتراها منذ عام مرض ينتابها بين الحين والحين ؛ تفقد فيه رشدها ، وتتحول إلى وحش كاسر ؛ إذا استطاعت الوصول إلى أى منا حاولت قتله ، وتحطم كل شىء أمامها ... وقد عرضتها على الأطباء هنا وفى القاهرة حتى يئسوا ... وقد انتابها المرض اليوم ، ولما كنت أعلم بقدومك اليوم أدخلتها حجرة أغلقتها عليها وجئت أنتظرك لأعرض عليك مصيبتى لعلك تعيننى فيها ....

يقول الأستاذ لى : فابتسمت ، والأخ لايعلم لم ابتسم ... وتذكرت قول ابراهيم عليه السلام «رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى . قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ... الآية» قال الأستاذ : قلت له هيابنا إلى البيت .. واستأذنت من الإخوان . ودخلنا البيت ودخلنا الحجرة المغلقة فرأيت امرأة بها ، فقلت له : ادخل وغطها تماماً بملاءة بحيث لا يبين منها شىء . ففعل ثم دخلت الحجرة ووقفت بجانب السرير وأغمضت عينى وأخذت أقرأ القرآن ، وظللت أقرأ حتى سمعت صوتاً منبعثاً من جسم المرأة ولكنه صوت رجل يقول : كيف تكون يابنا إماماً للناس وتنظر إلى عورات النساء ففتحت عينى فرأيت جزءاً من ساق المرأة قد انكشف نتيجة ماينتابها من حركات عنيفة ... فأمرت زوجها فغطاها ثم واصلت قراءة القرآن حتى سمعنا صوت الرجل المنبعث من جسم المرأة يقول فى نغمة استعطاف : إنك إمام المسلمين وتريد أن تحرقنى وأنا مسلم ... قال الأستاذ فقلت له : إن كنت مسلماً لما آذيت مسلمة .. قال : وماذا تريد منى ؟ قلت دع هذه المرأة واخرج . قال أمهلنى .. فواصلت القراءة . فقال بعد قليل استحلفك بالله إلا أمسكت عن القراءة حتى لا أحترق وسأخرج... قلت إن كنت خارجاً فاخرج من إصبع قدمها . فأراد أن يساوم فواصلت القراءة فصرخ مستغيثاً وخرج من إصبع قدمها فقامت المرأة كأنما حلت من عقال وكأن لم تكن أصيبت من قبل .

وكان مما حدثنا به الأستاذ المرشد فى صدد ماكان من الأستاذ أحمد السراوى معه ؛ أنه فى أوائل أيام نقله إلى القاهرة من الإسماعيلية ونعرفه بالأستاذ السراوى أن طلب إليه الأستاذ السراوى أن يصاحبه فى قضاء مصلحة له فسار معه حتى دخل معه منزلا فوجد نفسه فى مكان يشبه أن يكون عيادة طبيب ، وجاء الطبيب فبالنى وأخذ يحملق فى عينى وأنا أنظر إليه فى تعجب

ولا أدرى ماذا يريد منى .. يقول الأستاذ المرشد : وبعد نحو ساعة وقف الطبيب وقال للسراوى : صاحبك هذا قوة روحية خارقة ، ليس فى الدنيا الآن قوة تستطيع التغلب عليها ولا أن تعادلها ؛ لقد حاولت معه بجميع الوسائل ولم أتركه إلا بعد أن أحسست أننى إذا زدت على ذلك لحظة فسأنام أنا ..

قال الأستاذ المرشد وبعد أن خرجنا سألت السراوى عن هذه المفاجأة فقال لى لقد لاحظت أن فيك قوة روحية خارقة ، فحاولت أن أعرف مدى هذه القوة ، فاتفقت مع هذا الرجل – وهو أقوى منوم مغناطيسى فى مصر – على مبلغ كبير إذا هو استطاع أن ينومك ، ولم أشأ أن أن تعرف عن عزمى هذا شيئاً حتى آخذك على غرة دون أن تستعد . وقد خسر الرجل المبلغ .

(٣) بصيرة نافذة ورأى ملهم : حول سيد قطب

انتهى سوق الأدب فى مصر بل فى الشرق العربى كله إلى مجلة «الرسالة» التى كانت تصدر فى القاهرة . كان يصدرها أديب كبير هو الأستاذ أحمد حسن الزيات . وقد استطاع هذا الرجل بحكمته أن يجعل مجلته هذه ملتقى أفكار الأدباء وأقلامهم على اختلاف نزعاتهم ، وتباين وجهاتهم فقد كان يكتب فيها مصطفى صادق الرافعى وهو حامل لواء الأدب الإسلامى ، كما كان يكتب فيها عباس محمود العقاد وكان معروفاً عنه فى ذلك الوقت أنه يمثل الجانب الآخر .

وكان لكل من الرجلين مدرسة على شاكلته ومريدون . وكان من تلامذة العقاد فى ذلك الوقت شاب أديب درعى اسمه «سيد قطب» ولم يكن سيد قطب مجرد تلميذ للعقاد بل كان أقرب تلاميذه إليه وألصقهم به وأشدهم تشيعاً لأدبه وأفكاره واتجاهاته ؛ حتى إن مجلة الرسالة بعد أن لقى الرافعى ربه ظلت فاتحة صفحاتها للكتابة عن الرافعى ردحاً من الزمن فكان أشد الكتاب تهجماً على الرافعى وإشادة بالعقاد هو سيد قطب ... وكان هذا التهجم على الرافعى يحز فى نفوس الألوف من قراء «الرسالة» الذين كانوا لا يقتنونها كل أسبوع إلا لمقالة الرافعى التى كان الزيات يجعلها دائماً المقالة الافتتاحية لكل عدد ، وتأتى من بعدها مقالات العقاد وغيره من أمثال أحمد أمين وطه حسين وأحمد زكى ، وكان الناس يتدارسون مقالة الرافعى حتى إن منهم من كان يحفظها عن ظهر قلب .

على أن «الرسالة» مهما أفسحت من صفحاتها للأضداد ؛ فقد كان لها من الكرامة والرهبة والوقار ما يجد الكاتب فيها نفسه ملتزماً بهذا الوقار مهما كان بطبيعته مسفاً منحلا ؛ وقد يجد هؤلاء فيما سوى «الرسالة» من الصحف مجالا لنشر آرائهم وإبراز إسفافهم .

وقد قرأت فى ذلك الوقت فى جريدة «الأهرام» مقالا لسيد قطب يدعو فيه دعوة صريحة إلى العرى التام وأن يعيش الناس عرايا كما ولدتهم أمهاتهم – وكانت هذه البدعة قد انتشرت فى بعض بلاد أوربا – وقد أثارنى هذا المقال إثارة لم أستطع معها أن أقاوم القلم الذى وجد فى العقل والمنطق والخلق والحياء ألف دليل ودليل يدحض هذه الدعوة ، ويثبت أنها دعوة تخريبية بهيمية دخيلة .

حملت المقال الذى كتبته وذهبت إلى الأستاذ المرشد – كدأبى فى كل مقال أكتبه فى غير مجلتنا – وكنت مزمعاً نشره فى «الأهرام» مطالباً إياه بنشره فى نفس المكان الذى نشر فيه المقال المردود عليه ... قرأه الأستاذ المرشد ثم أطرق طويلا – على غير ما عودنى – ثم التفت إلى وقال : يامحمود إن المقال متين الأسلوب ، قوى الحجة ، جدير أن ينشر ، وقد سبق أن أجزت لك ما نشرته فى بعض الصحف اليومية .. ولكن فى هذه المرة مرت بخاطرى عدة خواطر أحب أن أعرضها عليك فقال :

أولا : لاشك فى أن فكرة المقال فكرة مثيرة تجرح قلب المؤمن .

ثانياً : كاتب هذا المقال شاب متأثر بالبيئة التى تعرفها ونعرفها جميعاً وهى التى تغذيه بمثل هذه الأفكار .

ثالثاً : إن هدف هذا الشاب من كتابة هذا المقال ليس هو مجرد التعبير عما يؤمن به ، وإنما هو محاولة جذب الأنظار إليه على أساس عرفهم من أن الغاية تبرر الوسيلة .

رابعاً : إن قراء «الأهرام» عدد محدود بالنسبة لسكان هذه البلاد . وليس كل قراء «الأهرام» قد قرأوا هذا المقال ، فأكثر قراء الأهرام لا يقرأون فيه إلا الأخبار . وأكثر الذين قرأوا المقال لم يستوعبوا فكرته لأنهم اعتادوا قراءة المقالات غير الرئيسية قراءة عابرة .

خامساً : إذا نشرنا رداً على هذا المقال فى الأهرام «كانت لذلك النتائج الآتية :

أ) سيثير نشر الرد اهتمام الذين لم يقرأوا المقال الأصلى إلى البحث عنه وقراءته ، كما سيدفع الذين قرأوه قراءة عابرة أن يقرأوه مرة أخرى قراءة متأنية ، وستبرز بذلك فكرة المقال فى مختلف المجتمعات وتكون موضوع مناقشة واهتمام .. ونكون بذلك قد عملنا – –من حيث لا نقصد – على تحقيق مأرب صاحب المقال من جذب الأنظار إليه وجعل اسمه على الألسنة .

ب) نكون – من غير قصد – قد تسببنا فى لفت الأنظار إلى لون من الرذائل ربما علقت

به بعض النفوس الضعيفة ولو لم نرد عليه لمرت الدعوة إلى هذه الرذائل فى غفلة من الناس غير معارة أى اهتمام ولطمرت فى طيات النسيان .

ح) الرد نوع من التحدى ، والتحدى يخلق فى نفس المردود عليه نوعاً من العناد ، وهذا العناد يجعله يتعصب لرأيه مهما التنع بخطئه ، ونكون بذلك قد لطمنا عليه خط الرجعة ؛ وفى هذا خسارة نحن فى غنى عنها .

وهذا الكاتب شاب وترك الفرصة أمامه للرجوع إلى الحق خير من إحراجه ... وما يدريك لعل هذا الشاب يفيق من غفلته ، ويفىء إلى الصواب ، ويكون ممن تنتفع الدعوة بجهوده فى يوم من الأيام .

ثم قال : مارأيك فى هذه الخواطر ؟ ..

قلت : إنها مقنعة تمام الإقناع .... ومزقت الرد بين يديه ..

ولا داعى للإشارة إلى ماكان من أمر هذا الشاب ، وما يسره الله إليه من اليسرى حتى صار علماً من أعلام الدعوة ، ثم كان من شهدائها ... وإن كان شىء من نبوءة الأستاذ المرشد رحمه الله لم يتحقق فى حياته .

ثانياً : ضوء على بعض شخصيات الدعوة

أحمد رفعت :

كان ذلك فى عام ١٩٣٧. شاب لم يجاوز العشرين ، كنت تلمح فى قسمات وجهه وسامة الإيمان ، وفى بريق عينيه الذكاء والنضج ، وفى نبرات حديثه تحس الطيبة المنبعثة من قلب سليم ، كما تشعر بحماس جارف وتفان فى سبيل فكرته التى يؤمن بها — كان شاباً صغيراً إلا أنه جاد فى كل أحواله لا يعرف الهزل ولا يميل إليه ، ولا يعترف به .. تحس فى حركاته المنطلقة انطلاق السهم مدى ما يعتمل فى نفسه من آلا م وآمال . يحسن الحديث ، ويقدر على الإقناع .. إذا رأيته أحببته، وإذا خالطته ازددت له حباً ... لم يكن ينقصه مع كل هذه المزايا إلا الخبرة بالحياة والتجارب التى تجعل نظره الذكى نظراً شاملا ... كان طالباً فى مستهل الدراسة بكلية التجارة فى القاهرة ، وكان ممن تعرفوا على الدعوة بعد انتقالها إلى دار ميدان العتبة ، إلا أنه كان داعية مثمراً فى كليته ، وكان والده موظفاً فى القاهرة ويقيمون فى حى المنيرة

صديق أمين :

صنو أحمد رفعت وزميله فى الكلية وفى الإخوان وفى السن وفى السنة الدراسية وفى المستوى

الثقافى والعقلى ، ولم يكونا يفترقان إلا وقت النوم ، ولم يكن يذكر أحمد رفعت إلا ذكر معه صديق أمين فيقال : رفعت وصديق ، ومعنى ذلك أن لرفعت القيادة ... وصديق من سكان المنيرة أيضاً ، ووالده مقاول ، وهو كصنوه شخصية ذكية محببة على إيمان وعزم .

عزت حسن :

شخصية إخوانية قديمة الصلة بالدعوة لم أسعد بلقائه إلا عفواً ، ولكنى كنت معجباً به لما كنت أقرأ له من مقالات فى مجلة «الإخوان المسلمون» التى كانت تصدر قبل اتصالى بالدعوة . كان له قلم سيال ، وأسلوب طلى ، وتحس حين تقرأ له أنك تقرأ لعاشق شغفته الدعوة حباً ، وأفنت قلبه صبابة . وإذا قرأت له أحسست أنك تقرأ لأديب كبير ، ضليع فى اللغة والأدب . ولقد كنت أتصوره — وأنا أقرأ له — أنه من أفذاذ من تخرجوا فى كلية الآداب أو دار العلوم حتى فوجئت بأنه ليس على الصورة التى تصورتها وإنما هو رجل لم تسعفه الظروف بأن يواصل مراحل التعليم فاقتصر على المرحلة الابتدائية ، وانسلك فى سلك الوظائف الصغيرة حتى كان فى تلك الأيام معاون سلخانة طوخ ، وكان إذ ذاك فى العقد الرابع من السن تقريباً ، وكان مقيما فى طوخ ، ولا يحضر إلى القاهرة إلا لماماً ... فإذا حضر استقبله الأستاذ المرشد بالعناق ؛ لأنه كان يحبه ، ويقدر فيه جمال الأسلوب ، وحسن الأداء ، وفيض الروحانية ... وكان الأستاذ المرشد — باعتباره من أعلم الناس بأسرار اللغة وآدابها ، ومن أقدرهم على التعبير عما فى نفسه بل وفى نفس غيره سواء باللسان أو بالقلم — كان قديراً على فهم الرجل من كتابته . ولقد كنا نحب هذا الرجل لحب الأستاذ المرشد له .

حسن السيد عثمان :

طالب فى كلية الحقوق من أسرة مرموقة فى طما بالصعيد ، وكان أكبرنا — نحن الطلبة — سناً وجسما ، متفان فى الدعوة ، وكان عنواناً كريماً لدعوته ، وكان من الأغنياء الأسخياء ، وكنا نعده فى ذلك الوقت عثمان الدعوة وقد اتخذناه — بتوجيه من الأستاذ المرشد — رئيساً للجنة الطلبة ...ومع كل هذه الميزات الطيبة ، فقد كانت تغلب عليه روح التطرف الناشئة عن البراءة المطلقة كبراءة الطفولة ؛ فلا يكاد مثلا يسمع أو يقرأ أن المسلمين الآن لا إمام (خليفة) لهم ، وأن لصلاة الجمعة علاقة بالإمامة ؛ فيمتنع عن أداء صلاة الجمعة حتى يصير للمسلمين إمام — وهو أمل يحتاج فى تحقيقه إلى أجيال وأهوال — ومع ذلك فإنه كان يبذل الكثير فى سبيل دعوته ، وكان محبباً إلينا جميعاً ، ومحبباً إلى الأستاذ المرشد .. وكان صديقه الذى لا تكاد نراه إلا معه

هو الأخ الكريم محمد فهمى مصطفى أبو غدير ، زميله فى الكلية ومن أسرة كريمة فى الواسطى أسيوط ، وقد التحقا بالدعوة معاً أو لعل فهمى كان أسبق ، وعلى كل فهو يشترك مع صنوه حسن فى كل صفاته الطيبة ، وفى درجة إيمانه بدعوته ، لكنه كان يختلف عنه فى أنه كان أوسع أفقاً فى فهم الفكرة الإسلامية وفى معالجة الأمور بمقاييسها ، وبهذه المرونة كان فهمى أكثر إنتاجاً لدعوته وكانت مناقشاته أكثر نجاحاً ، وكان محبباً كثير الأصدقاء ، حتى من غير الأوساط الإسلامية – وكثير من هؤلاء – بهذه المرونة – صار من الإخوان ، ومن لم يصر منهم صار من محبى الدعوة وأصدقائها .

عيسى عبده :

وكان مدرساً بمدرسة التجارة المتوسطة فى القاهرة فى ذلك الوقت ، وكان بالطبع أكبر منا سنا ، وقد أخبرنا الأستاذ أن عيسى كان من أسرة مسيحية أسلمت جميعها عن اقتناع .. وكان الأستاذ المرشد يحب عيسى ويقربه ويؤثره ، ويقدمه دائماً للحديث إلى الإخوان ، لأنه كان محاضراً لبقاً ، ومحدثاً طويل النفس ؛ وكان عيسى مندمجاً فى منظمات الإخوان فكان أحد أعضاء الكتائب ؛ إلا أنه لم ينتظم فى سلك الجوالة .. وكان كأنما يرى أنه من جيل غير جيل الطلبة؛ فلم تكن بينه وبيننا نحن الطلبة صلات وثيقة ترفع فيها المجاملات ؛ مع أنه كان معنا من هو أكبر منه سناً وهو الأخ الكريم الأستاذ محمد حلمى نور الدين وكان نجله زميلا لى بالكلية ؛ ومع ذلك كنت إذا رأيته بيننا لم تحس إلا أنه طالب معنا .. وليس معنى ذلك أنه كانت بيننا وبين الأخ عيسى جفوة ، بل إننا كنا نحبه ونقبل عليه وكان يبادلنا هذا الحب والإقبال .

أحمد حسن الباقورى :

أقدم منا جميعاً صلة بالدعوة ، وقد التحقنا بالدعوة فوجدناه «شاعر الاخوان» وممثل الأزهر . والطريف أنه كان زعيما لطلبة الأزهر ومع ذلك لم يلتحق حتى ذلك الوقت من الأزهريين – الطلبة – بالدعوة غيره وآل شريت وعبد اللطيف الشعشاعى وعبد البارى عمر خطاب – ومع ذلك كان من أقرب الشخصيات إلى الأستاذ المرشد .

كان يكبرنا بسنوات قليلة إلا أنه لم يكن يحس بعد تخرجه إلا بإحساس الطالب ، ولاأعتقد أنه يحس بغير ذلك حتى الآن ؛ لأن ميزة إحساس الطالب هى تلك الحيوية الدفاقة فى أفكاره وتصرفاته وآماله .

التحقنا بالدعوة فوجدنا نشيدها من وضعه ، وإذا قرأت النشيد استطعت أن تعرف منه

شخصية الباقورى وأفكاره وما يعتمل فى نفسه – وقد أثبتنا هذا النشيد فى فصل سابق .

وقد قضت الظروف بأن تكون مجموعة من الإخوان منها الباقورى وأنا على اتصال شبه دائم لفترة طويلة تزيد على العام ، وقد استطعت خلالها أن أحس حقاً بأن جوانح هذا الشاب إنما تنطوى على قلب شاعر . ولست أقصد بذلك ما تعارف عليه الناس من الاتجاهات اللفظية للشعر ، وإنما أقصد بالقلب الشاعر ، القلب المترع بالمشاعر النبيلة ، والعواطف الجياشة ، والأحاسيس المرهفة الدفاقة .. ومعنى أن إنساناً تنطوى جوانحه على قلب شاعر ؛ أن كل مايصدر عنه لا تراه إلا مصطبغاً بألوان هذه العواطف والأحاسيس وأنه يتجه حيث الحب والامتزاج النفسى ، والانصهار الروحى ، والآمال المحلقة .

ظللنا فترة طويلة فى دار العتبة نقضى اليوم كله منذ الظهيرة حتى منتصف الليل بدار المركز العام ، وكثيراً ما كان الأستاذ المرشد يكون معنا ؛ ولم يكن لنا غداء إلا ما يحضره لنا «عبد الوهاب فراش المركز العام» من فلافل شارع عبد العزيز حتى صار شعارنا شطرة قالها الباقورى بعد أن أخذت منه الفلافل كل مأخذ : «أم الفلافل ملجأ الإخوان».

ومن الطرائف أن الأستاذ المرشد كان بعد الغداء يقيل ساعة على إحدى مقاعد المركز العام وينصحنا أن نفعل مثله إلا أننا لم نكن نفعل لقضائنا الوقت فى الحديث معاً ، ثم يستيقظ الأستاذ من النوم ونصلى معه العصر ؛ فيتذكر أن ستقام الليلة – بعد المغرب – ندوة بالدار أو محاضرة أو مناظرة أو مؤتمر فيقول للباقورى : ياشيخ أحمد اعمل لنا قصيدة تلقيها الليلة بمناسبة كذا ، فيجلس الباقورى فى ناحية وفى خلال الساعة الباقية على ميعاد الحفلة يخرج لنا بقصيدة عصماء قد يحتاج غيره لإعداد مثلها إلى أيام وأسابيع .

وبمناسبة هذا الغداء بالمركز العام ، كنت أذهب إلى المركز العام فى مثل هذا الوقت وأكون بالصدفة صائماً صيام نفل ؛ فيتفقدنى الأستاذ المرشد على مائدة الطعام فلا يجدنى فيسأل : أين ذهب فلان فيقولون له إنه أخبرنا أنه اليوم صائم ، فيدعونى ويقول لى : ماهدفك من هذا الصيام ؟ فأقول : ثواب الله فيقول لى : إذن فكل معنا وستحصل على ثوابين معاً ؛ ثواب الصيام بالنية ، وثواب أعظم منه بإدخال السرور على إخوانك بمشاركتك لهم فى الطعام .

ومع هذه الشاعرية الدافقة فى الباقورى فإنه لم يخرج لنفسه ديواناً ، ولم يسمح لنفسه أن يلقى قصيدة خارج نطاق الإخوان فى ناد من النوادى ولا فى حفل من الأحفال ولا فى صحيفة ولا فى مجلة ؛ وكثيراً ما كنت أعتب عليه فى ذلك ، وأنا أعتقد لو أنه أراد لنفسه هذا الاتجاه لكان من أشهر الشعراء .

ويبدو أن قلبه الشاعر كان يتحكم حتى فى إرادته ، وأذكر بهذه المناسبة أنه فى إحدى الليالى التى كان يقضيها معنا فى الجيزة فى منزل الأخ عبد الفتاح البساطى – وكثيراً ما كنا نترك بيوتنا الأيام والليالى سواء منا من كان يسكن فى الجيزة مثلى أو يسكن فى القاهرة مثل عبد الحكيم عابدين وعبد المحسن الحسينى ومحمد عبد الحميد احمد والباقورى ، ونقضى تلك الأيام والليالى معاً فى بيت البساطى – فى إحدى تلك الليالى بينما كان الباقورى يعبث بكتب على مكتب عبد الفتاح إذا به يفتح كتاباً منها وينظر فيه ثم ينفجر مكبراً مهللا وهو يقول : الحمد لله وجدت ما أعيانى البحث عنه . فالتفتنا إليه وسألناه ماهذا الذى أعياك البحث عنه وماهذا الذى وجدته ؟ قال : إننى أقبل يد الأستاذ المرشد وبعد كل مرة أقبل فيها يده ، أسأل نفسى هل هذا عمل يرضاه الإسلام وهل لهذا العمل سند من السنة ؟ ومع مايتلجلج فى نفسى من هذا التصرف من شكوك ومع ماوصلت إليه من يأس من العثور على أثر فى السنة أستند إليه ، فقد كنت دائماً لاأستطيع أن أقاوم نفسى فى تقبيل يد الأستاذ ... والآن وأنا أعبث فى هذه الكتب وليس فى نيتى البحث عن شىء ، تناولت هذا الكتاب وفتحته فتحاً عشوائياً فإذا بعينى تقع على هذا الحديث – (كان كتاب رياض الصالحين للإمام النووى) وقرأ لنا الحديث وكان راوى الحديث على ما أذكر عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، وفى سياق الرواية يقول «فتقدمت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبلت يده ثم ساق الحديث .

ولقد كان لهذا الحديث أجمل الوقع فى نفوسنا جميعاً فقد كان يتلجلج فى نفوسنا ما كان يتلجلج فى نفس الباقورى ، ولا نملك مع ذلك إذا التقينا بالأستاذ إلا أن نقبل يده – على كره منه ومقاومة شديدة – فكان هذا الحديث إرضاء لعقولنا فى عمل كان ينطلق من صميم قلوبنا متخطيا حواجز العقل والقياس والمنطق .

ولا أدرى حتى اليوم السبب الذى من أجله عزف الباقورى عن مجاراة طبيعته الشعرية ومحاولته إخفاء هذه الطبيعة عن المجتمع ، أهو السبب الذى من أجله نسب إلى الإمام الشافعى قوله :

ولولا الشعر بالعلماء يـــــزرى لكنت اليوم أشعر من لبيـــــد

أم هو سبب آخر ، ولكن الذى أتصوره أن مصادرة المرء لطبيعة أصيلة فيه، قد تؤدى – دون أن يريد ودون أن يحس – إلى إبراز عواطفه وانفعالاته فى صورة مشوهة لا يستطيع تداركهـا ولا تهذيبها ولا السيطرة عليها ، مع أنه لو جارى طبيعته مع شىء من القصد والمراقبة لأتت تصرفاته وتعبيراته عما فى نفسه سديدة محكمة مثيرة لإعجاب كل قارئ وكل سامع ، ولصار صاحبها من الناس ملء السمع والبصر ...

وقد يعجز الكاتب الأديب عن التعبير عن معنى عميق الغور فى نفسه إذا ألزم نفسه التعبير النثرى ، فى حين يجد المجال فسيحاً فى عالم الشعر فى لمس هذا المعنى وتصويره ، ذلك أن الشعر يسع من العواطف مالا يتسع له النثر .

وإذا كان للشاعرية من المزايا ما يعجب ويبهر ، فإن لها جانباً آخر قد يبعث على الحيرة ويثير الدهشة ، فلقد كان للباقورى مع ذلك شطحات تلقى به خارج المركز العام فنفتقده بالشهور حتى نكاد فى غمرة العمل المتواصل للدعوة أن ننساه ، لكن الأستاذ المرشد لم يكن ينساه بل كان كأنما يتغافل عنه حتى إذا احتاج إليه بعث فى طلبه فحضر بين يديه وألقى على كاهله من أعباء الدعوة ما شاء أن يلقى .

عبد الحكيم عابدين :

أوردت هذه الأسماء التى ألقيت شعاعاً من الضوء على كل منها لأن لها اتصالا بعنوان هذا الفصل ولكن عبد الحكيم عابدين لا علاقة له ولا اتصال بهذا العنوان وإن كانت فصول قادمة إن شاء الله شبيهة بهذا العنوان سيكون هو قطب رحاها ، فرأيت أن أختم به تلك الأسماء فى معرض إلقاء الضوء عليها ، لا سيما وذكر الباقورى يقتضى ذكر عبد الحكيم عابدين لأنهما فرسا رهان ، ورضيعا لبان ، نهلا من منبع واحد ، وصدرا بعد ارتواء ، تجمعهما سجية أدبية ، وسليقة عربية ، وقلب شاعر يفيض بالعواطف الدفاقة والأحاسيس المرهفة .

وقد سبق فى أوائل هذه المذكرات أن نوهت بما طبع عليه عبد الحكيم من شاعرية حين تعرفت عليه فى أول لقاء لى معه عن طريق إسماعيل الخبيرى . وحين أنشدنى قصيدة طويلة يصف فيها وسائل الطريقة الصوفية التى كان ينتسب إليها فى تربية مريديها وتهذيب نفوسهم ، ولا زال لهذه القصيدة وقع فى نفسى حتى اليوم لأنها فريدة فى بابها ، فريدة فى هدفها ، بعيدة المدى فى دلالاتها ، فهى من الناحية الشعرية لا يكاد يصدق صدور مثلها جزالة ورصانة وتصويراً من شاب لا يجاوز العشرين فضلا عن أن هذه الوسيلة فى تربية النفس هى فى ذاتها من السمو بقدر ما هى من العنف بحيث لا تتوق إليها ولا تتحمل مشقة معاناتها إلا نفس صافية شفافة عركت صاحبها الحياة وفعلت بها الأفاعيل ، ولا تكون هذه النفس عادة إلا نفس كهل على الأقل إن لم تكن نفس شيخ ... فإذا كان الذى يضع نفسه تحت طائلة هذه المحاسبة العنيفة للنفس شاباً غض الإهاب فإنه إذن لشاب فى نضج الشيوخ فهما وصبراً وعقلا .. ولذا فقد علقت نفسى هذا الشاب. منذ هذا اللقاء الاول فقد كشفت لى قصيدته هذه عن معدن نفسه ودخائلها واعتمالاتها واتجاهاتها .. ولعله بادلنى نفس

اشعور حين لاحظ وقع هذه القصيدة فى نفس ومناقشتى له فى بعض أبياتها ومقاطعها . وحين أحس منى تذوقاً للشعر من الناحية الأدبية وتذوقى لمعانى القصيدة من الناحية الصوفية .

كانت كلية الآداب كما قدمت تقوم على الثلاثى الإخوانى محمد عبد الحميد أحمد وعبد المحسن الحسينى وعبد الحكيم عابدين. وليس معنى هذا أنهم وحدهم كانوا الإخوان بها، فقد كان بها إخوان كثيرون ولكن هؤلاء الثلاثة كانوا عماد الدعوة وركيزتها ، وكان الثلاثة فى صف دراسى واحد وفى قسم اللغة العربية وفى مقدمة صفهم ، وكان لكل منهم ميزة تخصص لها : أما محمد عبد الحميد فكان حكيما ينطق بالكلمات القصار أو يكتبها فترى فيها روعة الفكرة وجمال الابتكار .. وأما عبد المحسن فكان مجادلا عن الدعوة قوى الإقناع ، وكان همه منصباً على محاولة ربط الدعوة بالتاريخ الاسلامى ، ولذا فإنه كان كثير الغوص فى مراجع التاريخ ...

وأما عبد الحكيم فكان له طريق وحده ، كان يشارك زميليه فى القيام بأعباء الدعوة فى الكلية إلا أنه كان قليل الحضور إلى المركز العام أيام كان فى شارع الناصرية ، ولعله مع إيمانه بالدعوة كان لا يزال مشدوداً إلى طريقته الصوفية... كما أن نضوجه الأدبى ، وسرعة بديهيته ، ونزعته الشعرية الأصيلة قد قربته من أساتذته فكان طه حسين يأنس إلى الجلوس معه ، ويناقشه ويحادثه ويطارحه الشعر ... ومعنى ذلك أنه وإن شغل بذلك عن ارتياد المركز العام فى ذلك الوقت؛ فإنه كان يسد ثغرة كان لا بد من سدها وهى تقديم الدعوة إلى الأساتذة فى الوقت الذى كنا نحن فيه مشغولين بنشرها بين الطلاب .

ومثالا لذلك نومىء إلى المظاهرة التى أشرنا إليها فى الفصل الأول من هذا الباب والتى دعا إليها الإخوان فى الجامعة احتجاجاً على الكتابين اللذين قررتهما كلية الآداب على قسم اللغة الإنجليزية فيها وفيهما سب للنبى صلى الله عليه وسلم وافتراء وقح عليه .. فنقول : إنه كان من آثار هذه المظاهرة أن ألغى الكتابان وأغلقت الجامعة إلى أجل غير مسمى وظلت مغلقة والدكتور طه حسين عميد الكلية معتصم ببيته وأعلن أنه لن يغادره إلى الجامعة إلا فى رفقة الطالب عبد الحكيم عابدين ... وقد ذهب عبد الحكيم إلى الدكتور طه وصحبه إلى الجامعة حيث التقيا بالأستاذ أحمد لطفى السيد مديرها فى مكتبه فأخذ لطفى بك يسأل عبد الحكيم عن دعوة الإخوان .. وشرع عبد الحكيم يشرح له الفكرة ووسائلها وأهدافها ولكن بدا بعد هذه الإفاضة فى الشرح كأن الأمر لم يتضح للطفى بك كما ينبغى ولاحظ الدكتور طه ذلك فقال : يالطفى بك .. هل تريد أن تعرف كل شىء عن الإخوان المسلمين قال : نعم .. قال : سأختصر لك ذلك فى كلمتين اثنتين : إنهم يريدون أن يستردوا الأندلس . فكان هذا من طه حسين فهما قد استوعب فيه من أهداف دعوة الإخوان ما لم يستوعبه كثير من المنتمين إليها .

هذا ولقد شاءت الظروف أن أعرف عبد الحكيم عن قرب ... ولقد عرفنى بوالده حين حضر إلى القاهرة لزيارته وكان رجلا أميا فارع الطول ، وسيما تلمح فى بريق عينيه ، وفى لسمات وجهه سلامة القلب ، ونقاء السريرة وتحس فى ثنايا حديثه وفى جرس صوته براءة البداوة ، وتستطيع أن ترى قرارة نفسه على طرف لسانه ، لا يحول بينهما حائل من مكر أو خداع .. ولم يكن لقائى مع الرجل لقاء عابراً بحيث يتصنع فيه ما شاء من التصنع ، بل كانت رفقة الأيام والليالى ذوات العدد ، فقد كنا معشر هذه المجموعة من الإخوان دار كل منا هى دار جميعنا وجيب كل منا جيب جميعنا .

وقد تركت هذه البداوة بذكائها اللماح ، وعواطفها الفياضة ، وبراءتها الطفلية الطاهرة ، طابعها الوراثى فى نفس عبد الحكيم وفى كل ما يأتى من قول وعمل وسكون وحركة وتخيل وتصور ومع أن للبداوة جمالا عبر عنه المتنبى بقوله :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية ... وللبداوة حسن غير مجلوب

فان واقع الحياة قد يصطدم بها ويتمرد عليها، فالصراحة – وهى من خصائص البداوة – وإن كانت فى ذاتها فضيلة إلا أنها – على إطلاقها – قد لا تستقيم مع طبيعة الحياة ، ولعل مما يشير إلى هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو تكاشفتم ما تدافنتم» فطبيعة التعامل مع الناس تقتضى أن لا يفيض المرء بكل ما فى نفسه من عواطف بل عليه أن يستبقى فى قرارة نفسه قسطاً كبيراً من شعوره ولا يبرز منه إلا بقدر ، وفى ذلك يقول الهادى إلى أقوم سبيل صلى الله عليه وسلم «أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما . وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما» .

ومن هذا الجانب النبيل من جوانب البداوة التى طبع عليها أتى عبد الحكيم ، ومن مأمنه يؤتى الحذر .

ولقد كان الباقورى ممن تجيش صدورهم بفيوض غامرة من العواطف المتأججة والأحاسيس لكنه كان يحجزها بسد منيع من الخوف ، الخوف من النقد .. حتى إذا أمن هذا الجانب ، ووجد نفسه بيننا فى منزلنا بالجيزة – حيث تجتمع المجموعة التى نوهت عنها آنفا – انطلق على سجيته والتقت سجيته بسجية عبد الحكيم وتبادلا من العواطف ما كان الأخ محمد عبد الحميد أحمد يسميه «بالشاعريات» وكما كان لهذه «الشاعريات» فى الدعوة آثار طيبة لأنها لم تخرج عن كونها مظهراً من مظاهر الود الذى تطرب له النفس الشفافة المشرقة ، إلا أنه اتخذ بعد ذلك ذريعة لذوى النفوس الحاقدة والقلوب المريضة مما جر على الدعوة كوارث ، ما كان أغنانا عن خوض غمارها .

ولا ينبغى أن ننسى – فى غمار إلقائنا الضوء على شخصية عبد الحكيم عابدين – أن نذكر ديوانه «البواكير» الذى نشره فى خلال تلك الفترة من دار العتبة ، وقد لقيت هذه البواكير من الأوساط الأدبية على اختلاف نظراتها ومستوياتها ترحيباً وتقديراً حيث كان أكثرها ثمراً جنيا فى تمام النضج وكمال الازدهار ، كما تلقفته الأوساط الإسلامية فى شوق باعتباره أول ديوان إسلامى تغنى بكل معانى الدعوة ، ونظم من أهدافها أناشيد رائعة هتف بها الصغير والكبير وردده فى اعتزاز القريب والبعيد .

ثالثا : خيوط الفتنة

أطلقت «الفتنة الأولى» على هذه الفتنة التى أنا بصدد الحديث عنها ، وأنا أعلم أن فتنة قبلها وقعت فى الإسماعيلية قبل نزوح الأستاذ المرشد إلى القاهرة ، ولقد سمعت عن هذه الفتنة وقرأت كتيبا كان ضمن المطبوعات المهملة بدار المركز العام بشارع الناصرية .. وقد فهمت من قراءتى لهذا الكتيب أنها كانت أسلوبا مألوفاً مكرراً يحدث فى كل مجتمعاتنا حين يبعث الحقد بعض ذوى النفوس الضعيفة على الكيد لرجال أحبهم الناس والتفوا حولهم .. ووجد هؤلاء الحاقدون أنفسهم أهون على الناس من أن يعيروهم اهتماماً فلم يجد هؤلاء إلا الكذب والافتراء والاختلاق أملا فى فض هؤلاء المحبين عن محبوبهم ، ورجاء تمزيق صفهم حتى يجدوا فى هذا التمزق راحة لنفوسهم ، وإرضاء لنزوات الحقد المشتعل فى قلوبهم... وأمثال هؤلاء قلما تتحقق آمالهم بل سرعان ما ينكشف زيفهم ، ويفتضح أمرهم ، وينقلبوا خاسرين دون أن تمس الدعوة بأذى أو ينتقص منها شىء وهذا هو ما حدث فعلا فى الإسماعيلية .

أما هذه الفتنة فهى نوع آخر ، مثلها ومثل سابقتها كمثل بيت معمور بالسكان شبت النار خارجه ومدت ألسنتها نحوه ، فتنبه الناس من خارجه ومن داخله يكافحونها حتى أخمدوها دون أن تنال من البيت شيئا ، وبعد فترة من الزمن شبت نار من داخله ولم يحس بها السكان إلا بعد أن استشرت وتأججت بما أتت عليه مما جاورها من أثاث ، فقام أهل البيت يوقظ بعضهم بعضاً ليتعاونوا على مكافحتها بعد أن كادت تأتى على ما بالبيت كله ، فكان على أهل البيت وحدهم عبء مكافحتها لأن أحداً ممن هم خارج الدار لا يعلم شيئاً مما يعانيه أهل البيت...وكان الأدهى والأمر أن عدداً كبيرا من سكان البيت رفضوا التعاون مع المكافحين مستمرئين ما يصل إليهم من دفء بعثته النيران فيهم قبل أن تصل إليهم بلهيبها ، فصارهم المكافحين همين هم مكافحة النار وهم ركل هؤلاء المستمرئين بأقدامهم حتى يتحركوا قبل أن تأكلهم النيران .

لم تنشأ هذه الفتنة عن فساد فى النفوس ، أو ضعف فى الأخلاق ، أو استهتار بالدين ، ولا عن تسابق إلى مغانم أو تلهف على عرض من أعراض الدنيا .. وإنما نشأت بين مجموعة بلغت

نفوسها من الصفاء درجة الشفافية ، وسمت أرواحهم حتى حلقت مع الملائكة ... لا أعتقد أنه كان على وجه الأرض فى ذلك الوقت قوم أصفى نفوساً ولا أنقى قلوباً ولا أعلى همماً ، ولا أشد حباً للإسلام ولا أسمح بالنفس والمال فى سبيله من هذه المجموعة التى أوقدت نار هذه الفتنة وكانت هى وقودها .

وليس أشد على دعوة من الدعوات أو مجتمع من المجتمعات ، من فتنة تنشأ من داخله .. إنها الخطر المدمر الفتاك ، الذى إذا نجح ينسف المجتمع نسفاً ويذره قاعاً صفصفاً .

ولقد هوجمت الدولة الإسلامية ، وتألبت عليها الأمم من كل جانب ، وتناسى المختلفون من الأعداء اختلافاتهم وجمعوا قوتهم ليضربوا الأمة الإسلامية ضربة رجل واحد ، فما نال كل ذلك من صلابة قناتها ولا أوهن من عزمها ولا انتقص من سلطانها ... ولكن الذى فعل بالدولة الإسلامية الأفاعيل ، وأوقف المد الإسلامى الذى عجز الأعداء عن وقفه هو تلك الفتن التى نشأت بين الحين والحين من داخل الدولة .

وقد تنشأ هذه الفتن الداخلية عن حسن قصد أو سوء نية إلا أنها تتساوى فى نتائجها المدمرة وفى أخطارها التى تصعب الإحاطة بها .

أما فتنتنا هذه التى نحن بصدد الحديث عنها فإنها كانت فتنة داخلية منبثة من حسن قصد ، وصادرة عن قلوب لا يشك فى إخلاصها ... وكان الأستاذ المرشد كثيراً ما يحذرنا من مداخل الشيطان الخفية إلى قلوب الصالحين ، ومن افتنانه فى الاحتيال على هذه القلوب فيدفع بها إلى المغالاة فى الخير مغالاة تخرج بها من حدود الخير وتلقى بها فى بحار الشر ، ويذكرنا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»

كانت الدعوة فى تلك الحقبة من الزمن فى أزهى أيامها ، تشق طريقها فى جميع البيئات والأوساط كما تشق السفينة البحر الهادئ والريح رخاء ، كل يوم تخرج بربح من رجال وشباب يقبلون على الدعوة ويبايعون عليها ... وكادت الدار - على سعتها - تضيق بالوافدين ، وأصبح للدعوة صوت مسموع فى جميع القضايا سواء على المستوى المصرى والمستوى العربى الإسلامى ، وصدرت رسالة «نحو النور» تعالج كل هذه القضايا علاجاً واضحاً عملياً لا لبس فيه ، وكأن الدعوة كانت تتهيأ لتأخذ مكانها القيادى .

بينما نحن فى ذلك إذ بمجموعة من أطهر الإخوان قلباً تستوقف هذا الركب السائر لتوجه إليه حديثاً ، فوقف الركب يستمع فإذا بالأخ أحمد رفعت يعترض على كل ما تتخذه الدعوة من

أساليب ، ويدعو الإخوان إلى أساليب أخرى ... ولم ير الإخوان فى هذا الاعتراض ما يلفت النظر فلكل أخ الحق فى نقد ما يرى أنه يستحق النقد وتنشأ عن هذا النقد مناقشة بين الاطراف تنتهى إلى الطريق الأقوم . وفى هذا كسب كبير للدعوة ونماء وثراء .

ولكننا حين أخذنا فى مناقشة أحمد رأيناه جانحاً – على غير عادته – إلى التعصب لرأيه ، والفضاً الاستماع إلى حجج من يناقشه ثم رأينا مجموعة من حوله تتعصب لأحمد وتكاد تهدد من يعارضه ، وبدا لنا أحمد فيمن حوله كأنما هو شيخ حوله مريدوه يأمر فيهم وينهى وهم يسارعون فى مرضاته... ومع كل هذا لم نعر الأمر اهتماماً خاصاً وانطلقنا فى طريقنا ولكننا رأينا بعض من كان ينطلق معنا من جنود قد توقفوا ليسيروا فى ركاب أحمد ... ورأينا أحمد ومجموعته لا يدعون اجتماعاً عاماً أو خاصا ينعقد فى الدار إلا وفرضوا أنفسهم عليه وتحدث فيه أحمد بالأسلوب المهاجم الذى لا يقبل مناقشة ولا معارضة ، فتعطلت بذلك الاجتماعات والدروس حتى محاضرة الثلاثاء .

ورأيت الأستاذ المرشد مهموماً وحاولت مواساته فطلب إلى أن أحاول إقناع أحمد ، لأن الأستاذ كان يعلم أن لى مكانة خاصة فى نفس أحمد ، فجلست إلى أحمد وحاولت إقناعه لكننى لاحظت أنه يعاملنى كأنما لم يعرفنى من قبل ، بل أحسست كأن المجموعة التى حوله تحاول التحرش بى ، فأخبرت الأستاذ المرشد بما كان من أمره معى ، فازداد الأستاذ هماً وحزناً وطلب إلى لأول مرة منذ بايعته أن أكون بجانبه فى هذه المحنة ، وأن أبدأ بإعداد كلمة ألقيها فى اجتماع الكتيبة الأولى ، ففعلت وكانت كلمة تدور حول جمع الكلمة ونبذ ما يدعو إلى الفرقة ، وأن الاجتماع على نصف الحق خير من التفرق على الحق كله وتمثلت فى ذلك بقول على كرم الله وجهه «كدر الجماعة خير من صفو الفرد» وكان لهذه الكلمة تأثير فى مجموعة من إخوان الكتيبة حصنتهم من أن ينجرفوا فى تيار الفتنة .

والظاهرة العجيبة التى لاحظتها هى أن دعوة أحمد رفعت كانت تلقى من كثير من الإخوان آذاناً صاغية واستجابة سريعة ، ولا أدرى أكان هذا لقوة حجته وبراعة إقناعه ، أم لأن دعوته المتطرفة صادفت فترة كان الإخوان فيها فى حالة جلوة روحية نتيجة النظام التربوى العنيف الذى أخذهم الأستاذ المرشد به فى تلك الأيام فكانوا يتمنون أن يجدوا من يدعوهم إلى تخطى رقاب الزمن ليحققوا ما احتبس فى صدورهم من آمال ، فما كادوا يسمعون أحمد رفعت حتى وجدوا بدعوته صدى لما يتردد فى جنبات نفوسهم فأقبلوا عليه .

مطالب أحمد رفعت :

وعقد الأستاذ المرشد جلسة ضمت صفوة الإخوان وتحدث ما شاء الله له أن يتحدث ثم دعا

أحمد رفعت ليحدد اعتراضاته على الإخوان ومطالبه التى يريدها فقام أحمد وحدد اعتراضاته ومطالبه فى ثلاثة بنود :

الأول : أنه يرى أن الإخوان تجامل الحكومة وتتبع معها سياسة اللف والدوران ويجب على الإخوان أن يواجهوا الحكومة بالحقيقة التى قررها القرآن فى قوله « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »

الثانى : موضوع المرأة وإلزامها حدود الإسلام فى عدم التبرج والاحتشام ، يرى أحمد أن الإخوان لم يتخذوا إجراء ما فى شأنه مكتفين بدعوة المرأة إلى ذلك بالنصيحة والكلام دون العمل . ويرى أحمد أن يسلك الإخوان بصدد هذا الأمر الخطير مسلكاً عملياً بأن يوزع الإخوان أنفسهم فى شوارع القاهرة ومع كل منهم زجاجة حبر كلما مرت أمامه فتاة أو امرأة متبرجة ألقى عليها من هذا الحبر حتى يلطخ ملابسها فيكون هذا رادعاً لها .

الثالث : موضوع فلسطين : يرى أحمد أن وقوف الإخوان فى مساعدة مجاهدى فلسطين عند حد الدعاية لهم وجمع المال لهم هو تقصير فى حق هذه القضية وقعود عن الجهاد وتخلف عن المعركة وعلى الإخوان أن يتركوا أعمالهم ويتطوعوا فى صفوفهم وإلا كانوا من الخالفين .

ونصدى بعض الحاضرين للرد على أحمد فى الاعتراضين الأولين فقالوا :
إن مواجهة الحكومة يجب أن لا تكون إلا بعد توفر عاملين :

١ – توعية الشعب بالحقائق الإسلامية التى لا زال حتى اليوم خالى الذهن منها ، ولا زال الشعب يجهل علاقة الإسلام بالحكم وعلاقة الإسلام بالتشريع – ونحن لولا اتصالنا بدعوة الإخوان ما فهمنا هذه المعانى .

٢ – اكتساب الدعوة قوة شعبية تستند إليها إذا ما أرادت مواجهة الحكومة ، ولازالت الدعوة حتى اليوم دعوة وليدة فى حاجة إلى تثبيت لدعائمها وبسط لرواقها .

والمواجهة بغير توفر هذين العاملين لن تكون إلا انتحاراً لا نتيجة له ولا جدوى من ورائه .

أما موضوع المرأة فكان ردهم عليه هو أننا لو أخذنا باقتراح الأخ أحمد لكانت النتيجة فى اليوم الأول للأخذ بهذا الأسلوب أن يلقى القبض على جميع الإخوان ويجرى معهم التحقيق ويودعوا السجون حتى يحاكموا أمام القضاء الذى يقضى بمعاقبتهم بالسجن والغرامة وإذا قضوا العقوبة وعادوا إلى نفس الأسلوب فإن العقوبة تضاعف ، ومادامت التى لطخت ثيابها ستعوض ثمن هذه الثياب مضاعفاً من جيوب الإخوان ثم ترى الذى لطخ ثيابها قد أودع السجن فما الذى يمنعها

من لبس ما كانت تلبسه وإذن فلا جدوى من وراء هذا الأسلوب فى ردع المتبرجات وكل الذى نجنيه هو إلقاء شبابنا فى السجون وتعطيلهم عن الدراسة وقد يكون فى تلك الأحكام قضاء على مستقبلهم .

أما موضوع فلسطين فكان الأستاذ المرشد قد اتصل فى شأنه بالسيد أمين الحسينى مفتى فلسطين فرد على الأستاذ المرشد بخطاب قرأه علينا فى هذا الاجتماع وفيه يقول سماحة المفتى :

«إن المجهود الذى يبذله الإخوان فى الدعاية لقضية فلسطين فى مصر هو القدر المطلوب والذى نحن فى أمس الحاجة إليه ولا يستطيعه غيرهم ، ولسنا فى حاجة إلى متطوعين » .

والعجيب الذى لا أزال أذكره أن بعض عقلاء الإخوان رأيتهم يقفون فى هذا الاجتماع ويتحدثون تأييداً لأحمد رفعت بعد أن اقترح هذه الاقتراحات وأذكر منهم الأستاذ عيسى عبده الذى كان موقفه هذا صدمة شديدة للأستاذ المرشد الذى ما كان يتصور منه هذا الموقف .

وانتهى هذا الإجتماع وقد ازداد عدد مؤيدى أحمد ، ولعل ذلك قد بعث فى نفسه شيئاً من الغرور فبدأ يتحدى الأستاذ المرشد مباشرة ويوجه إليه ألفاظاً نابية ويخاطبه بأسلوب لا يليق به ثم أزدادوا تطرفاً فصار هو وشيعته يسبون الأستاذ المرشد ويوجهون إليه الشتائم مما أثارنا وأخرجنا عن طورنا وحاولنا مواجهتهم بشىء من العنف ولكن الأستاذ المرشد غضب وحال بيننا وبين ما نريد وأبى علينا أن نناهم ولو بكلمة تؤلمهم ، ومع ذلك فلم يخجلوا أمام هذا النبل بل كانوا يضاعفون من سفاهتهم .

ولا يفهمن القارىء من قولى إن عدد مؤيديهم قد كثر أن قد صار معهم أكثر الإخوان ، فالكثرة الغالبة من الإخوان فى القاهرة كانت كلها فى موقف المستاء من تفكير هذه الفئة ومن تصرفاتهم ولكنهم كانوا يرون الأستاذ المرشد يحميهم من بطش الإخوان بهم فكانوا فى حيرة من أمرهم فكان الأخ من هؤلاء الإخوة الكرام إذا جاء كعادته إلى دار المركز العام تلقاه أفراد هذه الفئة فإما التزم بفكرهم وإلا أسمعوه مايكره من سبه وسب الأستاذ المرشد ورميهم بأقذع التهم ، حتى كره الإخوان أن يحضروا إلى المركز العام حتى خلا المركز العام لهذه الفئة لا يشاركهم فيه أحد سواى تقريباً حيث كنت حريصاً على الحضور كل ليلة لأكون بجانب الأستاذ كما طلب إلى .

موقف مؤلم ومدمر لا نحسد عليه ؛ فلا نحن بمستطيعين تحديهم تحدياً مباشراً خوفاً من أن يدخلوا معنا فى معارك بالأيدى والأرجل كما بدا منهم أكثر من مرة ، ولا نحن بمستطيعين منعهم من شتم الأستاذ وسبه ، ولا نحن بمستطيعين أن نقنع الأستاذ برفع حمايته عنهم أو الإقلال من حنوه عليهم وعطفه نحوهم .

توقف كل شيء في المركز العام :

مامعنى هذا ؟ المركز العام للإخوان المسلمين لتوقف فيه الحركة توقفاً تاماً فلا جلسات للهيئات الإدارية تعقد ولا اجتماعات للجوالة ولا اجتماعات للكتائب ولا محاضرات الثلاثاء ولا اجتماعات للطلبة ولا للعمال ، وينقطع جميع الإخوان عنه ، حتى إخوان الأقاليم إذا حضر وفد منهم حالت هذه الفئة بينهم وبين مقابلة الأستاذ المرشد وينصرفون دون مقابلته – وهو موجود بمكتبه بالدار – بعد أن يسمعوا ما يكرهون من سبهم وسب أستاذهم ويغادرون الدار باكين .

لابد من وضع نهاية لهذا العبث ولابد من التفكير في عمل ولابد من التفكير في حل .

الحل :

لقد وصلت إلى حل ، لكن هذا الحل متوقف نجاحه على قبول الأستاذ المرشد بفكرة انقطاعه تماماً عن المركز العام . وذهبت إلى الأستاذ وقلت له : ياأستاذ إن هذه الدعوة دعوتنا جميعاً وإنى أطالبك باسم جميع الإخوان الذين لا زالوا على العهد والبيعة أن تنقطع عن المركز العام منذ اليوم انقطاعاً تاماً .

قال : لماذا ؟... قلت لأن خطة قد وضعت لمقاومة هؤلاء الخارجين . والخطة تقتضى أن لايجد هؤلاء الحنان والحماية اللتين لا تستطيع أن تتخلى عنهما في معاملتهم . قال : ولكنى لا أقبل أن يصاب أحد من هؤلاء الإخوة بأذى مهما قالوا . قلت : نعطيك الكلمة على أن لا نمسهم بأذى . قال مادام انقطاعى عن المركز العام يعين على القضاء على هذه الفتنه فأنا عند رأيكم .

هل هو تسام أم انحدار إلى الحضيض : ؟:

لقد كان حنو الأستاذ عليهم ، والتزام صفوة الإخوان بيوتهم ، وتفرد هؤلاء الخارجين بنشر فكرتهم عن طريق المركز العام دون مقاومة ، واكتسابهم كل يوم أفراداً من الإخوان الحديثى العهد بالدعوة ، كان كل ذلك مغرياً لهم بالتمادى في ضلالهم ، والتغالى في انحرافهم ، حتى وصل بهم الغرور إلى الحد الذى أدعى فيه أحمد رفعت أنه يتلقى تعليمات وأوامر تلقياً مباشراً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ادعى أولا أنه عليه الصلاة والسلام يأتيه في الرؤيا ويوجه إليه أوامره . وقد وجد من يصدقه في ذلك ومنهم أفراد من أكرم الإخوان وأخلصهم فمنهم صديق أمين ومنهم محمد عزت حسن ومنهم حسن السيد عثمان .. وكانت هذه الأوامر والتعليمات كلها منصبة على أن الإخوان المسلمين قد تخاذلوا عن القيام بدعوتهم ، وأنهم خانوا الدعوة ، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد اختار أحمد رفعت للقيام بأعباء الدعوة بالطريقة التى شرح لنا طرفاً منها .

ثم تعاظم به الغرور فادعى أنه يتلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم جهاراً نهاراً فى تمام اليقظة ، ثم ادعى أنه صلى الله عليه وسلم يحضر معه الغداء ويتناول معه الطعام . ويتلقى منه الأوامر والتعليمات على المائدة .

ولما صار حسن السيد عثمان من مصدقيه ، والمؤمنين بخرافاته ؛ وكان حسن كما قدمت شاباً ميسورا الحال يسكن هو وإخوته الطلبة فى منزل فسيح وثير الأثاث ؛ فقد أفسح من بيته لأحمد ، وانقطع هو وأحمد وصديق من كلياتهم كما انقطع محمد عزت حسن عن عمله وحضر إلى القاهرة للإقامة معهم .

وكان مما أثارنى ، وحملنى على التفكير فى خطة حاسمة للوقوف فى وجه هذه الفتنة المتفاقمة ، أننى رأيت إخواناً كراماً من ذوى العقل والسبق والرزانة يحضرون هذه الجلسات فى منزل حسن السيد عثمان ، وعلمت أنهم كادوا يقعون فى حبائلهم بدليل توالى ترددهم على جلساتهم فى هذا المنزل ، ومن هؤلاء الإخوان الشيخ أحمد الباقورى .

تنفيذ خطة المقاومة :

لما قبل الأستاذ أن ينقطع عن المركز العام اعتبرت ذلك إيذاناً بنجاح الخطة ، وكانت الخطوة الأولى أن أحضرت كشفاً ، وكتبت فيه أسماء الإخوان الذين احتفظوا بإيمانهم بدعوتهم وقيادتهم ولزموا بيوتهم ، فوجهت إلى كل منهم دعوة لاجتماع بمنزل الأخ عبد الفتاح البساطى فى الجيزة .. وقد أستجابوا جميعا لحسن صلتى بهم — وانعقد الاجتماع وتحدثت إليهم عن تطورات الفتنة ، وما وصلت إليه،وعن قبول الأستاذ المرشد فكرة انقطاعه عن المركز العام وشرحت لهم شرحاً أقنعهم بأن التزامهم بيوتهم ، وتركهم المركز العام لهذه الفئة المحرفة ، إنما هو بمثابة إعانتهم على التمادى فى ضلالهم ، وأن حق الدعوة عليهم يقتضيهم ارتياد المركز العام كل ليلة لا يتخلف منا أحد .

ويجدر بى قبل الاسترسال فى تفصيلات هذا الاجتماع أن أستدرك فأشير إلى نقطة هامة اضطررت من أجلها إلى تأجيل موعد هذا الاجتماع أكثر من مرة حتى أستوفى بحثها ، فلقد أعددت لهذا الاجتماع العدة لسد كل ثغرة من ثغرات الشك قد تكون تطرقت إلى نفوس بعض من يحضرون ، فجمعت فى كلمتى من الآيات والأحاديث والحكم ووقائع التاريخ ما يقنع كل متردد ، إلا نقطة واحدة وقفت أمامها ساهما عاجزاً ، هى ادعاء هؤلاء رؤية النبى صلى الله عليه وسلم والتلقى عنه .

قد يكون من السهل الإقناع ببطلان ما يدعى هؤلاء المدعون أنهم تلقوه عن رسول الله صلى الله

عايه وسلم إذا كان هذا الذى تلقوه يتعارض مع نص صريح من نصوص الشريعة الإسلامية .... ولكن إذا كان الذى تلقوه مما هودون ذلك من أمور يجوز فيها الخلاف كالوسائل والخطط التى تسلك للنهوض بأعباء الدعوة ، فإن الحكم ببطلان ادعائهم فى ذلك ليس أمراً ميسوراً .

وقد شغلتنى هذه النقطة وأقضت مضجعى ، وظللت دائب البحث عن رد مقنع وإجابة شافية تملأ النفس وتزيل الحرج حتى أراد الله - وإذا أراد الله شيئاً يسر أسبابه - فقد كنت فى زيارة أخ كريم من إخواننا الطلبه الصالحين بكلية الصيدلة هو الأخ عبد المنعم أبو الفضل ، وكان والده من كبار العلماء، فبينما أنا أعبث فى مكتبة والده التقطت كتاباً وتصفحته فوقع نظرى عفواً على عنوان الموضوع الذى يشغل بالى فقرأته بتلهف فوجدت فيه طلبتى وكل بغيتى ، فالمؤلف يقول إن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يقول فيه « من رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً - فإن الشياطين لا تتمثل بى» حديث صحيح لا شك فيه ، ولكن هذا الحديث موجه إلى فئة معينة هى فئة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم دون غيرهم ، لأنهم هم وحدهم الذين رأوا رسول الله صلى عليه وسلم رأى العين وفى مخيلتهم صورته الحقيقية ، وهم بذلك الذين يستطيعون إذا رأوا فى منامهم من يدعى أنه رسول الله أن يحكموا هل هذا المدعى صادق أم كاذب ... أما من سوى هؤلاء الصحابة ممن لم يروا النبى صلى الله عليه وسلم رأى العين فإنهم إذا جاءهم فى المنام من يدعى أنه رسول الله فكيف يحكمون بصحة ادعائه وليس فى مخيلتهم صورته صلى الله عليه وسلم الحقيقية ؟

وكان هذا الكتاب هو كتاب «الاعتصام» للإمام الشاطبى .. وقد جعلنى ما قرأت من تحليل هذا الرجل لهذا الحديث أزداد إيماناً بأن فى سلفنا الصالح رضوان الله عليهم عباقرة . وقد رتب الرجل على هذه المقدمات نتائج ملخصها الحكم ببطلان كل ما يأتى عن طريق هذا الادعاء .

أثلج صدرى وقوعى على هذه الدرة الثمينة ، وأحسست بأن الله تعالى معيننا على ما نحن بسبيله ، وضاعف ذلك من همتى ، وانعقد الاجتماع كما قدمت ، وأثرت هذه النقطة وأوردت قول الشاطبى فيها ، ولقد شعرت بأن إثارتها وإيراد الرد عليها قد أزال حرجاً كان يتردد فى النفوس ولم يكن بد من إزالته . وانتهينا فى هذا الاجتماع إلى مقررات محددة هى :

أولا : الاعتقاد بأن أحمد رفعت ومجموعته ومن ياوذ بهم على خطأ

ثانيا : تعهد كل فرد من المجتمعين بارتياد المركز العام كل ليلة حسب النظام الذى سيوضع لذلك

ثالثا : التعهد بعدم مس أحد من مجموعة أحمد رفعت بأى نوع من الإيذاء

رابعا : تعهد كل فرد من المجتمعين منذ اليوم بمقاطعة أحمد رفعت ومجموعته مقاطعة تامة بمعنى

أن لا يلقى عليهم السلام وأنلايرد عليهم السلام إذا ألقوه عليه ، وأن لا يتحدث إليهم ، وأن لا يرد عليهم إذا وجهوا إليه حديثاً ، وأن لا يعيرهم سمعه ، وأن لا يومئ إليهم ولو بإشارة حتى إذا شتموهلا يرد عليهم .

خامسا : كل من يرتاد منزل حسن السيد عثمان – حيث يقيم أحمد رفعت – يسرى عليه نظام المقاطعة

سادساً : تكوين لجنة – كنت أحد أعضائها – تكون مهمتها تنفيذ هذه المقررات – وإذا رأت هذه اللجنة أن أحد الإخوان أخل بهذه المقررات قدمته إلى لجنة أخرى تناقشه وتحدد موقفه وتعلنه حتى يعامل على أساس موقفه المعلن .

سابعا : يجدد المجتمعون البيعة للأستاذ المرشد على مبادئ الدعوة وعلى الطاعةفى المنشط والمكره وعلى تنفيذ هذه المقررات .

وقد أعد محضر سجل فيه كل ما دار فى هذا الاجتماع من كلمات ومناقشات وما انتهى إليه من مقررات،ووقع جميع الحاضرين عليها ، وقد رفعته إلى الأستاذ المرشد فى بيته .

ومنذ ذلك اليوم بدأ تنفيذ نظام المقاطعة ، وقسمنا الإخوان على أيام الأسبوع السبعة بحيث يحضر كل يوم عدد محدد حتى يتمكن الإخوان من الجمع بين تنفيذ المقررات وبين قضاء مصالحهم من مذاكرة وغيرها .

وكان مشهداً رائعاً ومؤلماً معاً حين يدخل أحمد رفعت وخلفه مريدوه إلى المركز العام فيجدوه غاصاً بالإخوان – على غير ما اعتادوا – فيلقون السلام فلا يرد عليهم أحد ، فيكررون إلقاء السلام فلا يتلقون رداً ، فيجلسون ويتوجهون نحو هؤلاء الإخوان بالشتائم فلا يردون عليهم .. ثم يدخل رواد من الإخوان حديثى العهد بالدعوة فيتلقاهم إخواننا مرحبين ويبلغونهم المقررات التى اتخذت فى الاجتماع وبأن الأستاذ المرشد أقرها فيلتزم هؤلاء الرواد بنظام المقاطعة ويرجع هؤلاء إلى زملائهم وأصدقائهم من الإخوان فى كلياتهم ومعاهدهم ومكاتبهم فيبلغونهم ما بلغوا ، ومن أراد من هؤلاء أن يشهر فى وجه الخارجين سلاح المقاطعة حضر إلى المركز العام ليشترك مع المكلفين بالحضور ، وامتنع الباقون عن الحضور إلى المركز العام خوفا من أن يحرجهم الخارجون فيردوا عليهم محرجين أو مجاملين فيقعوا تحت طائلة المقاطعة .

وبذلك استطعنا أن نخلىدار المركز العام بعد أيام إلا منا ومنهم ،وصرنا وجهاً لوجه،فيجلسون الساعة والساعتين لا يجدون من يتحدث إليهم ولا من يتحدثون إليه ، ويبحثون عن الأستاذ المرشد فلا يجدون له أثراً .

وتكرر هذا نحو ثلاثة أسابيع شعر هؤلاء الخارجون بعدها أنهم قد عزلوا عزلا كاملا عن المجتمع بل عن الحياة نفسها ... وبدأ الذين كانوا يلعبون على الحبلين من الإخوان ، والذين

اتخذوها لعباً ولهواً يشعرون أن نظام المقاطعة الذى هادنهم فترة فى أول الأمر قد اقترب منهم وكاد يطبق على أعناقهم فانسحبوا من الموكب الذى طالما عززوه وصفقوا له ، وكانوا سبباً فى إيغال قائده فى الضلال ، انسحبوا منه مكرهين ولزموا بيوتهم ...

ووجد أحمد رفعت وحواريوه أن من كانوا حولهم أخذوا فى الانفصاص عنهم ، حتى لم يبق حولهم أحد ، فاضطروا إلى عدم الحضور إلى المركز العام ، الذى صار بالنسبة لهم سجناً .. ومحاولة منهم فى البحث عن مجتمع قد يجدون فيه تفريجاً لكربهم ومجالا لنشر آرائهم رضوا بما كانوا يرفضونه من قبل ، وهو الرجوع إلى كليتهم كلية التجارة التى كانوا يرون أنفسهم أعظم من أن ينتظموا طلبة فيها ، وكيف لا وقد أصبحوا أنبياء أو أقرب إلى الأنبياء .

وقد خاب رجاؤهم حين دخلوا الكلية فوجدوا طلبتها يصدون عنهم صدوداً حيث كان إخواننا الكرام بالكلية ملتزمين بنظام المقاطعة وكانوا قد أعطوا زملاءهم الطلبة صورة كاملة عن أفكار أحمد وزمرته وخرافاتهم ..

حينئذ وجد أحمد نفسه حبيساً فى بيت حسن السيد عثمان وليس معه إلا صديق أمين ومحمد عزت حسن لا أحد غيرهم يطرق عليهم البيت بالليل ولا بالنهار ، فأصيب أحمد بما يشبه الجنون . حتى رق قلبنا له ولمن معه ، وبعثت إليهم من يعرض عليهم الصلح على أن يرجعوا إلينا تائبين ، معلنين توبتهم ، فاختلفت إجاباتهم ، أما صديق فإنه جاء إلينا وأعلن توبته ، وأما حسن السيد عثمان فإنه أعلن أنه سيلزم بيته غير متعرض للدعوة بشر ، وأما محمد عزت حسن فلا أدرى ما كان من أمره غير أنه قد اختفى اسمه من مجتمع الدعوة منذ ذلك اليوم ويقال إنه ظل متابعاً لأحمد .. وأما أحمد فقد عز عليه أن يرجع إلى الصف ويعلن توبته بعد أن صور له الوهم وأوهمه من حوله - وجنوا عليه - أنه يوحى إليه ...

قرر أحمد السفر إلى فلسطين لينضم إلى المجاهدين فى محاربة الإنجليز واليهود ... ولما علمنا بعزمه هذا أرسل إليه الأستاذ المرشد وطلب إليه الحضور ليجهزه بالمال والسلاح ، ويسلمه إلى مجموعة من المجاهدين الفلسطينيين الذين كانوا يتصلون بنا حتى يؤمنوا له الطريق ، لأن المجاهدين يشكون فى كل من يرونه فى طريقهم - ماداموا لا يعرفونه - ويعدونه جاسوساً عليهم ويقتلونه فرفض أحمد طلب الأستاذ المرشد وأصر على الذهاب وحده ، وذهب فعلا ، ولقى مصرعه كما كنا نتوقع على أيدى المجاهدين .

ولعمرى لقد فعل أحد رفعت ما فعل ، ولكن قلوبنا لا تزال إلى اليوم تتقطع وتتفطر حزناً عليه لقد كان شاباً نادر المثال ولكنه ضل الطريق .

خاتمة :

استغرقت هذه الفتنة منذ كانت بصيصاً تحت الرماد حتى قضى عليها قرابة نصف عام كانت الدعوة فى خلاله ، عرضة للانتهاء والزوال ، ولكن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ... صحيح أن الدعوة توقفت توقفاً تاماً فترة تزيد على الشهر ، وهى الفترة التى كان لابد من احتجاب الأستاذ المرشد فى بيته خلالها ، ولكنها خرجت منها أقوى مما كانت ، واكتسبت من تجربتها هذه فوائد كانت لها عوناً فى أيامها التالية .

كان مما تعلمته الدعوة من هذه التجربة أن اتخاذ الحماس مقياساً تولى على أساسه الثقة للفرد المتحمس أمر يجب أن يعاد فيه النظر ، فالحماس مع السطحية فى فهم كتاب الله وتاريخ الدعوة الإسلامية والخبرة بواقع الحياة أمر من الخطورة بمكان ، فإن هذه السطحية تجعل من الحماس منحدراً إلى الحضيض ، وإن خيل لصاحبه أنه مرق فى السماء ، فأحمد لم يكن له قبل الانضمام إلى الدعوة أدنى معرفة بالإسلام ولا بالقرآن ولا بالسيرة ولا بالتاريخ الإسلامى ، وحين اقتنع بالفكرة الإسلامية انقض عليها بحماس بالغ ، وقبل أن يتزود بكل معالم الطريق اندفع اندفاعاً غير بصير فاصطدم وتحطم وكاد يحطم معه الدعوة

وكان مما تعلمته الدعوة أيضا من هذه التجربة أن اللين وإن كان هو الصفة التى يجب أن تتحلى بها القيادة فى كل أطوارها ، فإن هناك مواقف تحتاج إلى الحسم ، ولما كان الحسم يتعارض مع اللين فكان من كياسة القائد حينئذ أن يتوارى ويخلى الطريق لغيره –وقد يكون هذا الغير أصغر منه ولـــكن لا يفـــل الحديد إلا الحديد ، وترك الطابة يتفاعلون كان أجدى من تدخل القيادة بينهم

وكان مما تعلمته الدعوة كذلك أن الدعوات يجب أن تكون أشد حذرا على نفسها من أتباعها المقربين منها على نفسها من أعدائها الخارجيين ، فان أتباعها أقدر على إصابتها فى مقتل .

ولقد كنت سجلت كل ما قلته وما تحدثت به وكل ما خطر ببالى فيما يتصل بهذه الفتنة وكل ما اتخذناه من أساليب لمعالجتها فى كشكول ، دونت فيه كل المقررات وأسماء المبايعين عليها وتوقيعاتهم وآثار تلك المقررات وأودعته أحد الإخوة الكرام الذين كانوا معنا فى ذلك الوقت ولا

أدرى ألا يزال هذا الكشكول موجوداً أم عدا عليه ما عدا على غيره من غارات المباحث العامة التى لم تكن تنقطع .

وقد تكون خير خاتمة لهذه التجربة القاسية أن أثبت هنا ما جاء على لسان الأستاذ المرشد بصددها فى خطابه الجامع الذى ألقاه فى المؤتمر الخامس تحت عنوان : مصارحة :

«أيها الإخوان المسلمون وبخاصة المتحمسون المتعجلون منكم : اسمعوها منى كلمة عالية داوية من فوق هذا المنبر فى مؤتمركم هذا الجامع — إن طريقكم هذا مرسومة خطواته ،موضوعة حدوده ولست مخالفاً هذه الحدود التى اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول ، أجل قد تكون طريقاً طويلة ولكن ليس هناك غيرها — وإنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب ، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها أو يقتطف زهرة قبل أوانها فلست معه فى ذلك بحال ، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات ، ومن صبر معى حتى تنمو البذرة وتنبت الشجرة وتصلح الثمرة ويحين القطاف فأجره فى ذلك على الله ، ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين : إما النصر والسيادة ، وإما الشهادة والسعادة .

أيها الإخوان المسلمون : ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول . وأنيروا أشعة العقول بلهب العواطف وألزموا الخيال صدق الحقيقة والواقع ، واكتشفوا الحقائق فى أضواء الخيال الزاهية البراقة ، ولا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ، ولا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة ، ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها واستعينوا ببعضها على بعض ، وترقبوا ساعة النصر وما هى منكم ببعيد .

أيها الإخوان المسلمون: إنكم تبتغون وجه الله وتحصيل مثوبته ورضوانه ، وذلك مكفول لكم مادمتم مخلصين ، ولم يكلفكم الله نتائج الأعمال ولكن كلفكم صدق التوجه وحسن الاستعداد ، ونحن بعد ذلك إما مخطئون فلنا أجر العاملين المجتهدين ، وإما مصيبون فلنا ضعف أجر الفائزين المصيبين ، على أن التجارب فى الماضى والحاضر قد أثبتت أنه لا خير إلا فى طريقكم ، ولا إنتاج إلا مع خطتكم ، ولا صواب إلا فيما تعملون ، فلا تغامروا بجهودكم ولا تقامروا بشعار نجاحكم واعملوا والله معكم ولن يتركم أعمالكم والفوز للعاملين «وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم.»

خسائرنا فى هذه الفتنة :

إن فتنة كادت تودى بالدعوة ، مهما نصرنا الله عليها ، وأنقذنا من براثنها ، لا يمكن أن

تخلص منها دون خسائر ، ولسنا ننكر أنه كانت خسائر لكنها كانت فى أضيق الحدود ونجملها فيما يلى :

١ – خسرنا أحمد رفعت ومحمد عزت حسن وكانا أخوين عزيزين .

٢ – خسرنا عدداً من الإخوان الكرام ولكن خسارتنا إياهم لم تكن خسارة أبدية بل كانت خسارة مؤقتة فقد اختار هؤلاء الإخوة أن يلزموا بيوتهم لأنهم كانوا لا يزالون فى شك من أن الدعوة تسلك طريق القوة والجد الذى ينبغى أن تسلكه الدعوة الإسلامية .. ولقدلزموا بيوتهم فعلا ردحاً من الزمن حتى أثبتت لهم الأيام أنهم كانوا على خطأ حين تعجلوا مواقف قبل أوانها ، وقد دارت الأيام وواجهت الدعوة المواقف التى تعجلوها ولكن بعد أن ثبتت أركانها ، وتعمقت فى قلوب الناس جذورها ، فخرجوا من بيوتهم ولحقوا بالركب مرة أخرى وكان منهم حسن السيد عثمان وعيسى عبده

٣ – خسرنا مجلة «النذير» لأن صاحب امتيازها تخلف عن الركب ، ومع أن المركز العام للإخوان المسلمين هو صاحب الامتياز الحقيقى لهذه المجلة ، ولم يكن الأستاذ محمود أبو زيد إلا مجرد اسم اختير لأنه كان محامياً ولتتم الصورة الرسمية لإصدار الترخيص بالمجلة ، مع هذا رأى الأستاذ المرشد ترك المجلة له حين رآه متمسكا بالحقوق الرسمية

٤ – خسرنا عدداً قليلا من خيرة الإخوان على رأسهم الأخ محمد المغلاوى رحمه الله وكان محاسباً وأخا من العباد الذين يطيلون الصلاة ركوعاً وسجوداً وكان بينى وبينه مودة خاصة وحب عميق وقد صارحنى بأنه يكن لى ولإخوانى كل حب وتقدير ولكنه لا يستطيع الصبر على ما اختطته الدعوة لنفسها من أسلوب بطئ ومع ذلك فهى أحسن التكوينات الموجودة فى مصر ولذا فإنه سيحاول إنشاء تكوين جديد حثيث الخطى يتجاوب فى خطو سريع مع ما يجيش فى صدورنا وتضطرم به نفوسنا .

وقد صدق ما وعد وأسس تكوينا جديداً سماه «شباب محمد» وقد التقى فى آماله بآمال شخصية مسلمة هى شخصية الأستاذ حسين يوسف فكونا معاً هذا التكوين الجديد ، وانضم معهم مجموعة من الإخوان المتعجلين وأفراد آخرون

والأستاذ حسين يوسف رحمه الله كان مدرساً فى مدرسة الفنون التطبيقية ومع ذلك فإنه كان ناقما على ما جرت عليه هذه المدرسة من رسم الرجال والنساء عاريات وكتب فى ذلك الكثير من الاحتجاجات . وكان عضواً فى مجلس الجهاد الأعلى لمصر الفتاة ، وقد التقيت

به فى مدرسة الفنون التطبيقية حين كنت أحضرا جتماعات طلبة الإخوان بالمدرسة – وكان لنا بها شعبة قوية – فكان الأستاذ حسين يحضر هذه الاجتماعات ، ودارت بينى وبينه مناقشات وقد اقتنع بأن مصر الفتاة ينقصها عنصر الدين ولكنه يرى أن الإخوان المسلمين تعوزهم الجرأة .. ولذا فإنه ما كاد يلتقى بالأخ المفلاوى فكان وإياه كالمثل العربى الذى يقول «وافق شن طبقه» فنهضنا بإنشاء التكوين الذى يرضى ضمائرهما

ولكن هل حقق هذا التكوين الجديد آمالها ... هذا ما أجاب عليه الزمن ، ولا داعى لأن نثبت هنا حكم الزمن وإجابته فكلنا نعرفها ، وما أيسر التحليق فى سماء الخيال وما أشق مواجهة الواقع ، وكم من خيالات محلقة طواها الزمن إذا ما حاولت النزول إلى ميدان الواقع .

الباب الثالث

في ميدان الحلمية الجديدة

في المبنى القديم

- سمات هذه المرحلة وخصائصها
- في البناء الداخلي
- في العمل الوطني في ظل الحرب العالمية الثانية

مقـدمة

مد جديد :

خرجنا من هذه المأساة الأليمة ، وفى القلوب جراح لا تندمل على مر الزمن ، لأنها تتصل بأخوة قلوب لا صداقة طريق ... ولم يكن مناص من استئناف المسير بعد هذا التوقف الطويل .. ودوى نداء القائد فسرعان ما استجاب الجنود ، ورأينا الدعوة تشق طريقها شقاً ما كانت تستطيعه من قبل ... وأحسست فى التفاف الإخوان حول قائدهم كأنما شعروا وأيقنوا أن دعوتهم وقد عبرت المحنة .. هى دعوة الحق .. ودعوة الحق جديرة بالتفانى فيها والبذل فى سبيلها ، فصار الإخوان ألصق بدعوتهم من ذى قبل ...

ورأينا الشباب . من كل مهنة ، ومن كل حى ، يتقاطرون على المركز العام أفواجاً يلتمسون طريق الله لإصلاح الناس ليلتزموه وليكونوا حماته والداعين إليه ... وكانت الظاهرة الجديدة أننا رأينا بابنا يطرقه طوائف من العمال والتجار وذوى المهن ، ولم يكن حتى قبيل المحنة يطرقنا إلا الطلبة وقلة من صغار الموظفين ، وهنا بدأت فكرة تكوين شعب ذات كيان حقيق فى أنحاء القاهرة ، وهو ما كان يتوق إليه الأستاذ المرشد من قديم .

العجيب حقاً . أن الدعوة خرجت من هذه المحنة وكأنما نشطت من عقال فالإقبال عليها من كل فج عميق ، والدار ضاقت بروادها ، واتجه فكر الأستاذ إلى البحث للمركز العام عن مكان آخر يتسع للنشاط الجديد .

الانتقال إلى الحلمية الجديدة :

اهتدى الأستاذ المرشد إلى دار فى ميدان الحلمية الجديدة ، وهى منزل كامل لاجزء من منزل كالمقرين السابقين فى الناصرية والعتبة ... وميدان الحلمية الجديدة يقع فى قلب القاهرة القديمة لكنه أجمل وأنظف حى فيها . والمنزل يطل على الميدان نفسه ويتكون من دورين أحدهما يقع نصفه تحت الأرض ونصفه الآخر فوقها ، والدور الآخر مما يسمونه «السلاملك» حيث تصعد إليه بصف من الدرج . وفوق هذا السلاملك سطح فسيح . ويلحق بالمنزل فناء واسع تقرب مساحته من مساحة المنزل كله ، وبجانب بوابة المنزل على يمين الداخل حجرة منفردة كأنها حجرة البواب

ولابد أن الله تعالى علم من مستقبل دعوته ما لم نكن نعلم ، فهيأ لها مكاناً ما كنا نحلم به وموقعاً وسطاً ، كما يسر للأستاذ المرشد سكناً قريباً جداً من هذا المكان ، وهو ما كان الأستاذ المرشد دائماً حريصاً عليه .

مرحلة جديدة :

كان الانتقال بالمركز العام من دار إلى أخرى مرتبطاً بالانتقال بالدعوة من مرحلة إلى مرحلة جديدة، فكانت فترة الإقامة بدار شارع الناصرية مرحلة من مراحل الدعوة لها حدودها ولها خصائصها ولها سماتها كما بينا ، ثم كانت فترة الإقامة بدار ميدان العتبة مرحلة أخرى لها حدودها وسماتها الخاصة بها والمميزة لها ، ثم كان الانتقال إلى دار ميدان الحلمية إيذاناً بمرحلة جديدة لها سماتها ولها خطرها ... وكانت مراحل الدعوة فى نقلاتها الثلاث أشبه بالبادرة التى صارت شجيرة ثم غلظ عودها وأخرجت شطأها فآزرها وطال ساقها وألقت بفروعها ذات اليمين وذات الشمال .. نعم إنها بذلك قد اكتسبت ثباتاً وقوة لكن استطالتها وارتفاعها قد جعلها عرضة لمهب الرياح من كل اتجاه ، لقد كانت فى مرحلتيها الأولين وهى بادرة ثم وهى شجيرة فى مأمن من أن تنال منها هبات الرياح ، أما فى هذه المرحلة وقد غلظت واستطالت وتفرعت وتشعبت فإنها صارت عائقاً فى طريق الرياح من أية ناحية هبت ، فعليها حينئذ أن توطن نفسها على استقبال صفعات الرياح وأن ترد عليها بمثلها أو أن تحاول تحاشيها بحركة ماكرة ماهرة .

كان حسن البنا يعلم كل هذا وهو يعد العدة للانتقال بالمركز العام من العتبة إلى الحلمية الجديدة ، وسترى إن شاء الله خططه التى وضعها منذ الشهور الأولى فى هذه الدار ما يدلك على أن كل هذه المعانى كانت فى خاطره .

لم يغب عن خاطر الأستاذ لحظة أن عدوه الطبيعى الذى يتربص به ، والذى عليه أن يواجهه فى كل لحظة إنما هو الإنجليز .. عدو قوى ماكر : واسع الحيلة ، حسن الاستعداد ، قادر على المواجهة لكنه يؤثر التستر وراء صنائع له من أهل البلد الذى يريد السيطرة عليه ... لم يغب عن خاطر الأستاذ أن عليه أن يواجه كل هذه الأساليب ،ولم يغب عنه أن صنائع الإنجليز فى مصر كثيرون ، وقد زودهم الإنجليز بمختلف وسائل السلطة، وأن هؤلاء الصنائع بعد أن تربوا فى أحضان الإنجليز ، وتمرغوا فى خيرات بلادهم التى سلبها الإنجليز وخصوهم بها دون أصحابها ، أصبح هؤلاء الصنائع أشد عداوة لبلادهم من الإنجليز .

لم يغب شئ من هذا عن خاطره ، كما لم يغب عنه لحظة أن الإنجليز بوسائلهم الخاصة وبواسطة أذنابهم المصريين يرالبونه ويعدون عليه أنفاسه ، ويعدونه عدوهم الأصيل وعدوهم الوحيد، لأنه هو وحده صاحب مبدأ وصاحب فكرة ، وهذا وحده كاف أن يجعله مصدر خطر عليهم ، فكيف وأن هذا المبدأ وهذه الفكرة إنما تقوم على أساس القرآن الذى لا يجتمع والظلم فى مكان واحد ، لابد أن يقضى واحد منها على الآخر .

لقد عمل حسن البنا فى المرحلة السابقة كل جهده أن يتحدى الإنجليز تحدياً سافراً لفضح مظالمهم من ناحية ، وليلفت الأنظار إلى دعوته من ناحية أخرى . لأن دعوته كانت فى أمس الحاجة إلى وسيلة من وسائل الإعلام ليحس بها هذا الشعب الغافل ... أما فى هذه المرحلة فإنه لم يعد فى حاجة إلى وسائل إعلام فقد أحس الناس بالدعوة ، وأقبلوا عليها ، حتى امتلأت السفينة ولم يعد بين حافتها وبين الماء قيد شبر .. ودفعتها الرياح حتى وصلت إلى وسط البحر . وركبت أمواجه المتلاطمة ، وصارت مهمة القائد أن يحسن توجيهها ، وأن يحاول أن يتفادى ما يتدافعها من أمواج حتى تصل إلى مرفأ أمين . وعليه مهمة أخرى لابد أن ينهض بها فى وقت واحد مع مهمته الأولى ، تلك هى إعداد هؤلاء الركاب بحيث لا يأخذهم على غرة لصوص البحر وقطاع الطريق وما أكثر عددهم وأشد بأسهم .

سمات هذه المرحلة وخصائصها :

أرسى الأستاذ المرشد قواعد العمل فى هذه المرحلة على الأسس الآتية :

أولا : بدأت هذه المرحلة مع بدء اندلاع الحرب العالمية الثانية فى ١٩٣٩ ، وكان الاستاذ المرشد يرى أن الحرب العالمية تغير وجه العالم ، وتفعل فى سنواتها ما لا يتم فعله من تغيير فى مئات السنين ، فهى تختصر الزمن .. وعلى العقلاء الانتفاع بهذه الميزة قبل فواتها

ثانياً : ومن هنا فإنه يرى أن المرحلة التى يحتاج الإخوان فى قطعها إلى عشرات السنين ، يمكنهم – بالانتفاع بهذه الميزة – أن يقطعوها فى سنوات قلائل

ثالثاً : أن مواجهة الأعداء والخصوم بهيئة ضعيفة وتكوين هزيل مجازفة غير مأمونة بل إنها قد تؤدى بالفكرة الإسلامية إلى الزوال . فإذا أضفت إلى ذلك أن هذه المواجهة ستكون فى ظروف كلها ظروف استثنائية وكل المرافق مسخرة للمستعمر ، والمستعمر أعصابه على أشدها لأنه يخوض حرب حياة أو موت ، كانت المواجهة انتحاراً لا شك فيه ولا إفلات منه

رابعاً : كما أنه يرى أن انشغال المستعمر بالحرب ومن ورائه الحكومة المصرية ، فرصة للعمل للدعوة دون عوائق ، وعلى الإخوان فى هذه الحالة أن يكثفوا من جهودهم حتى ينجزوا أكبر قدر من العمل فى أصغر قدر من الزمن قبل أن تنتهى الحرب فجأة فيتفرغ هؤلاء – المستعمر والحكومة – للكيد للدعوة وبث العراقيل فى طريقها قبل أن تكون قد استكملت عناصر قوتها

خامسا : أنه يرى أن عناصر القوة التى يجب استكمالها فى أقرب وقت هى عنصران : التشعيب والتكوين . أما الأول فهو العمل على أن تصل الفكرة الإسلامية إلى كل فرد فى أنحاء

مصر وأن يصل صداها إلى البلاد العربية والإسلامية وأن يكون للدعوة شعبة في كل حاضرة ومدينة وقرية وعزبة في جميع أنحاء مصر . وأما التكوين فيكون بالعمل على ربط المنتمين إلى الدعوة معا بروابط من الأخوة والحب والتعاون في ظل أسلوب عملي من التربية البدنية والروحية والثقافية

سادساً : أنه في سبيل إنجاز هذا العمل الكبير ، يجب على الإخوان – في خلال فترة الحرب أن يغضوا الطرف عن الشئون السياسية فيتجنبوا اتخاذ مواقف سياسية محددة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا مكتفين بالتعرض لما سوى ذلك من الشئون التربوية والاجتماعية والاقتصادية وإذا دهمهم موقف سياسي معين فعليهم أن يتفادوه وأن يطوعوه لخدمة هدفهم الكبير

سابعاً : أنه يرى أنه إذا سلك الإخوان هذا المسلك فإنهم سيفاجئون العالم بعد انتهاء الحرب بأقوى هيئة قادرة على المواجهة وقادرة على النهوض بأثقل التبعات ، ويستحيل على أية قوة في الأرض أن تقضي عليها ، لأنها تكون قد تركزت في النفوس ، واختلطت بالمهج ، وضربت بجذورها في الأعماق .

على هذه الأسس السبعة سار العمل طيلة سنوات الحرب ، وشقت السفينة طريقها في بحر هادئ كالحصير ، وكلما هبت عاصفة عمل القائد الماهر على تفاديها حتى وصلت إلى شاطئ الأمان فكانت هي السفينة الوحيدة التي وصلت في سلام بجميع ركابها الذين أقلعت بهم من أول الطريق وبأضعاف هؤلاء من ركاب السفن الأخرى التي أشرفت على الغرق في أثناء الطريق فمدت إليهم يد الإنقاذ فتعلقوا بها من كل جانب .

الفصل الأول
فى البناء الداخلى

التركيب البنائى للدعوة فى هذه المرحلة

حتى ماقبل هذه المرحلة لم يكن للدعوة تركيب بنائى بالمعنى الاصطلاحى المعروف ، وإنما كان هناك المركز العام فى القاهرة وفى الأقاليم شعب متناثرة ، وتتلقى هذه الشعب تعليماتها من المركز العام وكان المركز العام يختص نفسه بأساليب معينة فى التربية لايطالب الشعب بالقيام بمثلها مثل نظام الكتائب ، ونستطيع أن نجمل النظام البنائى الذى كان سائداً بأنه كان أقرب إلى النظام المركزى ...

فلما انتشرت الدعوة وعمت أنحاء البلاد وكثرت الشعب حتى لم تعد مدينة ولا حاضرة ولا قرية تخلو من شعبة كان لا بد من نظام بنائى جديد يسهل معه العمل وتتوزع فيه المسئولية وتتحدد به الحقوق والواجبات وتتيسر عن طريقه الاتصالات والمتابعة .

والخطوط الرئيسية للنظام البنائى الجديد هى :

أولا : المكاتب الإدارية :

اعتبر كل إقليم إدارى فى الدولة مكتباً إدارياً ومعنى هذا أنه صار للإخوان المسلمين فى كل عاصمة لمحافظة مكتب إدارى هو بمثابة المركز العام للإخوان فى أنحاء المحافظة فكل شعب المحافظة تابعة له وهو يشرف عليها ويصدر إليها التعليمات ويتابع تنفيذها . ومنوط به نشر الدعوة فى الأماكن التى لم تصل إليها الدعوة فى حدود المحافظة ، كما أنه مكلف بمعالجة ما يجد من مشاكل فى شعب المحافظة وعليه نقل النظم التربوية التى يضعها المركز العام إلى جميع هذه الشعب والإشراف على الأخذ بها كما أن عليه توضيح ما تتخذه الهيئات العليا للدعوة من قرارات للشعب التابعة له مع متابعة تنفيذ هذه القرارات .

ويتكون المكتب الإدارى من أعضاء مجلس الإدارة لشعبة عاصمة المحافظة مضافاً إليهم نواب الشعب الرئيسية فى المحافظة ، وعلى كل شعبة من شعب المحافظة المساهمة بجزء من ماليتها فى تكوين رصيد للمكتب الإدارى يخصص للانفاق منه على نشر الدعوة .

ثانياً : مجالس إدارات الشعب :

يدير شئون الدعوة فى كل شعبة مجلس إدارة يتكون من عدد من الإخوان ينتخبهم أعضاء الشعبة فيما بينهم ويرأس كل مجلس إدارة نائب الشعبة ، ومهمة مجلس إدارة شعبة عاصمة المركز مع شعب بلاد المركز هى نفس مهمة المكتب الإدارى بالنسبة لشعب عواصم المركز ، وهكذا تتسلسل القيادة وتتدرج المسئولية .

ثالثاً : المركز العام :-

تعتبر القاهرة كغيرها من المحافظات مكتباً إدارياً تتبعه شعب القاهرة ، وفى القاهرة أيضاً المركز العام للإخوان المسلمين وهو شىء آخر غير المكتب الإدارى للقاهرة فهو يتعامل مع المكتب الإدارى للقاهرة كتعامله مع أى مكتب إدارى آخر .

والمركز العام هو المقر الذى يجمع اللجان والأقسام التى تمثل أوجه النشاط التى يقوم الإخوان بمباشرتها أداء لحق الدعوة وتحقيقاً لأهدافها وهذه اللجان والأقسام هى :

لجنة الطلبة واللجنة الثقافية وقسم العمال وقسم الجوالة وقسم نشر الدعوة وقسم الكتائب والأسر وقسم الخدمة الاجتماعية وقسم الاتصال بالعالم الإسلامى وقسم الأخوات المسلمات .

ولكل لجنة من هذه اللجان ولكل قسم من هذه الأقسام فرع فى كل مكتب إدارى ، تتلقى هذه الفروع تعليماتها من اللجنة الموجودة بالمركز العام وترفع إليها تقاريرها وتستعين بها فى تنفيذ برامجها ... وقد لا يكون لبعض الأقسام فروع فى المكاتب الإدارية لأن طبيعة مهمتها ترتبط بالقاهرة دون غيرها من البلاد مثل قسم الاتصال بالعالم الإسلامى .

قيادة الدعوة :

ويمثلها هيئات ثلاث هى :

أولا : الهيئة التأسيسية :

وهى الهيئة العليا للدعوة يناط بها رسم الخطوط الرئيسية لسياسة الدعوة ، ويرجع إليها فى كل ما يمس هذه السياسة أو ما يجد من أمور خطيرة أو ما يستدعى تعديلا فى هذه السياسة أو ما يتصل بكيان الدعوة من قوانين أو إجراءات أو تصرفات ... واجتماعها العادى مرة كل عام ولكن للمرشد العام دعوتها للاجتماع فى أى وقت يرى ضرورة لاجتماعها لعرض مسائل جوهرية عليهـــا .

ولقد تكونت هذه الهيئة أول ماتكونت فى سنة ١٩٤١ من مائة عضو اختارهم الأستاذ المرشد مراعيا فى اختيارهم الشروط الثلاثة الآتية :

١ - أن يكونوا من السابقين الأولين فى الدعوة .

٢ - أن يكونوا ذوى كفاءات ممتازة أو ذوى تضحيات بارزة ومن أهل الرأى

٣ - أن يكونوا ممثلين لمحافظات القطر ما أمكن .

وتعتبر الهيئة التأسيسية الجمعية العمومية للإخوان المسلمين ، ومن اختصاصها أن تنتخب من بين أعضائها لجنتين تكمل بهما هيئات قيادة الدعوة هما مكتب الإرشاد العام ولجنة العضوية .

ثانياً : مكتب الإرشاد العام :

ويتكون من اثنى عشر عضواً ومهمته تنفيذ السياسة التى أقرتها الهيئة التأسيسية وحددت خطوطها العريضة ، وإصدار القرارات فى مختلف شئون الدعوة ، التى تلتزم بتنفيذه المكاتب الإدارية وشعبها ... وهو يعتبر مجلس الإدارة للدعوة يمثلها أمام الرأى العام وأمام الجهات الرسمية

ثالثاً : لجنة العضوية :

وتتكون من سبعة أعضاء مهمتها اختيار الأعضاء الجدد للهيئة التاسيسية ، وتحقيق ما يثار حول أعضاء هذه الهيئة وإصدار القرارات فى شأنهم ... وقد رأى الأستاذ المرشد أن أكون عضواً فى هذه اللجنة لما يعلم من صلتى بالكثيرين من قدامى الإخوان وحديثهم فى القاهرة وغيرها من البلاد ، ولهذا فقد طلب إلى أن أكون بجانبه عند اختياره للأعضاء المائة ليكونوا أعضاء الهيئة التأسيسية حتى يكون ذلك نبراساً لى عند اختيار أعضاء جدد عن طريق لجنة العضوية فيما بعد . على أن أعضاء الهيئة التأسيسية لم يزد عددهم حتى منتصف الخمسينيات عن مائة وخمسين عضواً مع أنه كان من حق لجنة العضوية قانوناً اختيار عشرة أعضاء جدد كل سنة ولكن ظروفاً نشأت أعفت اللجنة من أجلها بعض الأعضاء حالت دون استيعاب هذا العدد .

ولقد كان من حكمة الأستاذ المرشد وبعد نظره أن أنشأ الهيئة التأسيسية فى هذا الوقت بالذات فقد ظهر بعد ذلك من المواقف والمشكلات والأزمات والخلافات مالولم تكن هذه الهيئة موجودة لقضى على الدعوة وانهار صرحها . وسوف يرى القارىء إن شاء الله الكثير من ذلك فيما بقى من هذه المذكرات .

كما أن وجود هذه الهيئة قد أغنى عن عقد المؤتمرات التى كانت تعقد كل سنة أو سنتين يحشد فيها أكبر عدد من مختلف بلاد القطر ليلخص أمامهم الأستاذ المرشد ما قطعته الدعوة من

خطوات منذ المؤتمر السابق وليشرح لهم بعض ملامح الخطة المستقبلة وكانت هذه المؤتمرات تكلف الإخوان الكثيرين الذين يحضرون من بلادهم الكثير من الجهد والمال كما تكلف المركز العام مثل ذلك... ومع ذلك فقد كانت طبيعة هذه المؤتمرات لا تتيح فرصة مناقشة ما يعرض من تقارير عن الماضى أو مقترحات للمستقبل .

على أن هذه المؤتمرات لم تكن ليصلح عقدها بعد أن كثرت الشعب وكثر عدد الإخوان فى كل مكان بحيث تضيق بمندوبيهم الأمكنة فى القاهرة مهما اتسع نطاقها للاجتماع والنوم .. أما وقد أنشئت الهيئة التأسيسية على القواعد الثلاث التى أشرت إليها فإن الأستاذ المرشد كان يدعوها بأعضائها المائة فتضمهم حجرة فسيحة من حجرات المركز العام فيعرض عليهم ما يشاء ويناقشهم ويناقشونه ويقترح عليهم ويقترحون عليه ، ويتحدث كل منهم عن مشاكل محافظته ويصلون فى النهاية إلى قرارات مدروسة محددة ، فيرجع هؤلاء الأعضاء إلى محافظاتهم فيشرحون لإخوانهم ما تم فى الإجتماع بتوضيح وتفصيل ... فيتحقق بهذا الأسلوب مالا تحققه المؤتمرات مع إعفاء الدعوة وإعفاء الإخوان من كثير من الجهد والمال والمشقة .

ولهذا فقد كان المؤتمر السادس الذى عقد قبيل تكوين الهيئة التأسيسية فى ٩ يناير سنة ١٩٤١ هو آخر المؤتمرات .

استطراد :

لست أدرى هل يعد استطراداً أن أترك هذا الحديث العام لأتحدث عن أمور تخصنى ، أم أن حديثى عن هذه الأمور هو من الحديث المتصل ؟.... إن هناك مجموعة فى هذه الدعوة لم تعد حياتها الخاصة منفصلة عن الدعوة بل هى جزء منها ؛ لأنها ارتضت يوم خيرها الأستاذ فى اجتماع لجنة الأربعة والعشرين فى منزله أن تضع حياتها ومستقبلها رهنا بما تطلبه الدعوة .

لقد كانت الدعوة فى شخص مرشدها تتحكم فى وقت هذه المجموعة فتوجهها التوجيه الذى تريده . فكان الأستاذ المرشد مع شدة احتياجه أن نكون بجانبه ، يمنعنا من الحضور إلى المركز العام طيلة الشهر الذى يسبق الامتحان لأنه يرى فى إنهائنا حياتنا الدراسية نفعاً للدعوة لا يتوفر لها إذا طالت هذه الحياة الدراسية . وكان الفرد من هذه المجموعة حين يتخرج لا يتجه إلى حياة عملية إلا بعد أن يستشير الأستاذ المرشد باعتباره أبصرنا بالاتجاه الأنفع للدعوة .... أفليس الحديث فى هذه الأمور إذن حديثاً فى صلب الدعوة وفى صميمها ؟...

بعد التخرج :

يحسن قبل التطرق إلى ما كان من شأنى بعد التخرج أن أبدأ بإشارة موجزة إلى الحالة الاجتماعية التى كانت سائدة فى مصر فيما يتصل بالوظائف والموظفين حتى يكون القارىء على صورة واضحة ، كان المتخرجون فى أية كلية من الكليات أو مدرسة عليا كما كان أكثرها يدعى فى ذلك الوقت لا يجد أمامه عملا يلتحق به ويرتزق منه ... كانت فرص العمل نادرة ندرة تصل إلى درجة العدم ، ولم يكن العمل إذ ذاك موجوداً إلا فى وظائف الحكومة ..

كان المتخرج يوم يتخرج يكتب طلبات التحاق بعدد وزارات الحكومة ومصالحها ويرسلها جميعا وينتظر لعله يصادف عملا فى أى منها ، ولم يكن عادة يصله رد .. ويظل هكذا عاطلا ، وبعد كل ستة أشهر يعيد كتابة الطلبات وتحفى أقدامه فى ارتياد الوزارات التى يتوسم أن يجد فيها عملا أياً كان ، فإذا كان محظوظاً وجد بعد سنتين من تخرجه عملا باليومية فى إحدى الوزارات ؛ ومعنى ذلك أنه لا يضمن أن يستمر فى العمل طول العام فقد يستغنى عنه فى أى يوم من الأيام .

لم يكن فى نيتى العمل فى وظيفة حكومية بعد تخرجى حتى ولو وجدت وظيفة مناسبة ، وإنما كانت نيتى معقودة على القيام بعمل حر ، بل إننى حددت نوع العمل أن يكون فى الألبان ، ولم نكن ندرس الألبان فى كلية الزراعة إلا فى السنة النهائية .

كاشفت الأستاذ المرشد بعزوفى عن الالتحاق بالوظائف الحكومية ، وبعزمى على الاشتغال الحر بالألبان، فزكى الفكرة ، وأبدى استعداده لمؤازرتى فى هذا السبيل ، ومن قبل نالت الفكرة قبولا لدى والدى وأبدى استعداده لإمدادى بالمال اللازم .

مشروع الألبان :

كانت الفكرة مختمرة فى نفسى ، وعزمى على تنفيذها على أشده ، ولكن كيف أنفذها ، وكيف أنتقل بهذا العزم إلى واقع الحياة ؟ كانت معضلة أمام شاب ناشىء لا خبرة له بالحياة .

وبعد أيام نادانى الأستاذ ، وكان لتوه راجعاً من رحلة له فى الصعيد وقال لى : لقد عثرت لك على طلبتك . ذهبت إلى مغاغة من أجلك لأنى أعلم أن أخاً كريماً فيها وزميلا لك تخرج فى كليتك منذ أربعة أعوام ، كان قد أنشأ معملا للألبان فيها ، وقد رأيت أن أقابله وأعرض عليه فكرتك ، وقد قابلته وعرضت عليه الفكرة فزكاها ، وأخبرنى بأنه أغلق المعمل لأنه محتاج إلى شريك ، ورحب بك شريكاً له .. وكذلك ذلل الأستاذ المرشد عقبة كئوداً كانت فى طريقى .

وكان لى زميل فى الدراسة تخرج معى هو عباس نجل الأخ الكريم الأستاذ محمد حلمى نور الدين ، وقد اقترح والده أن يكون شريكاً ثالثاً فى المشروع فرحبنا به ..

كنا فى ذلك الوقت عقب امتحان البكالوريوس مباشرة أى فى أواخر يونية وأوائل يولية سنة ١٩٣٩ ولما كان موسم الألبان يبدأ مع ظهور البرسيم فى الحقول فقد كانت أمامنا فترة نقضيها فى القاهرة قبل الذهاب إلى مغاغة حتى يجىء شهر أكتوبر على الأقل .

مفاجأة :

لم يكد يمضى علينا بعد ذلك شهر واحد وإذا بوفد من إخوان مغاغة – محافظة المنيا – يطرقنا فى المركز العام على غير موعد ويعرض علينا مشكلة غريبة .

تتلخص هذه المشكلة فى أن فى مغاغة مدرسة ابتدائية أهلية تملكها جمعية قبطية . وهى المدرسة الابتدائية الوحيدة –(المدرسة الابتدائية فى ذلك الوقت تعادل فى أيامنا هذه المدرسة الإعدادية) – التى يلتحق بها أبناء مغاغة وضواحيها الكثيرة ... وناظر المدرسة من قديم هو الأستاذ الشيخ حسن سيد وهو من العلماء وإمام وخطيب المسجد الكبير بمغاغة ... فلما أنشئت شعبة للاخوان المسلمين بمغاغة انضم إليها فضلاء أهالى مغاغة ومنهم الأستاذ الشيخ حسن سيد وأسندت رياستها إليه ... ولم يدر بخلد الإخوان ولا بخلد الأستاذ الشيخ حسن سيد أن فى هذا تعارضاً مع مصلحة المدرسة ... ولكن تبين أن هناك عقولا ضعيفة ، وصدوراً لا تنطوى إلا على الحقد والضغينة رأت فى انضمام الأستاذ الشيخ حسن إلى الإخوان خروجاً على الطاعة،وتمرداً على العبودية،فلم يفاتحوه فى ذلك ليقنعهم بخطأ نظرتهم إلى الإخوان المسلمين ، ويشرح لهم أن هذه الدعوة إنما تريد الخير لا المسلمين وحدهم بل لجميع سكان البلاد على اختلاف عقائدهم ؛ وأن الإخوان – حين انضم إليهم واختاروه رئيساً لهم – لم يروا فى عمله فى مدرسة الأقباط ما يتعارض مع دعوتهم ....

لم يفاتحوه فى ذلك بل أسروه فى نفوسهم حتى انتهى العام الدراسى فلم يفاتحوه أيضاً ، وانتظروا حتى قاربت إجازة الصيف على الانتهاء وتيقنوا أن جميع المدارس الأهلية فى القطر قد استوفت العدد اللازم لها من المدرسين والنظار وأن جميع المدرسين والنظار قد تم تعاقدهم مع المدارس ، حينئذ فاجأوا الرجل الذى أفنى زهرة شبابه فى خدمتهم بخطاب يقولون فيه إن الجمعية قد قررت الاستغناء عنه .

وينبغى أن يعلم القارىء أن المدارس الأهلية – أو كما تسمى الآن المدارس الخاصة – فى ذلك الوقت لم تكن تحت إشراف حازم من وزارة المعارف لا سيما ما يتصل بحقوق العاملين فى هذه المدارس من نظار ومدرسين وكتبة وعمال بل كان كل هؤلاء تحت رحمة ملاك هذه المدارس ؛ فهم الذين يتعاقدون معهم على المدة التى يردنها وعلى المرتب الضئيل الذى يحددونه ، وعلى عدد

الحصص التي يدرسونها في اليوم وفي الأسبوع ، وهم الذين يلغون هذه العقود في أي وقت يشاءون ودون إبداء الأسباب .

وكانت مرتبات هؤلاء المدرسين من الضآلة بحيث لا تكاد تصدق ؛ فقد لا يصل مرتب المدرس إلى ثلاثة جنيهات ... كما لا يخفى أن مرتبات موظفي الحكومة كما قدمت – وإن كانت أحسن حالا من ذلك ، إلا أن مرتبات أئمة المساجد في وزارة الأوقاف لم تكن أحسن حالا من مرتبات المدارس الأهلية فكان مرتب الإمام المتخرج في الأزهر ويحمل شهادة العالمية في حدود الجنيهات الثلاثة .

وقد رأيت أن أشير إلى ذلك حتى يتضح للقارىء فداحة المصيبة التي أصابت هذا الرجل الذي خدم هذه المدرسة ثمانية عشر عاماً والذي كان يعول أسرة كبيرة ، وقد رتب معيشته ومعيشة من يعول على أساس هذا المورد الذي يكتسبه من عمله بهذه المدرسة حيث لم يكن مرتبه من وظيفته في الأوقاف يبلغ نصف مرتبه من المدرسة ... وفي الوقت الذي انقطع عنه فيه هذا المورد أصبح عاجزاً أن يجد عملا يعوضه عنه لأن التوقيت الذي اختاروه لإخطاره بنبأ الاستغناء عنه توقيت مدبر ، أملاه الحقد الأسود بقصد القضاء على هذا الرجل قضاء تاماً ، وفضيحته أمام الناس حيث تظهر الفاقة عليه وعلى أولاده وذويه ، ويضطر إلى الاستدانة والاستجداء ... ولم يكن في ذلك الوقت في تلك المدارس حق للمفصول أو المستغنى عنه في معاش ولا مكافأة .

وامعتصماه :

كان وقع هذه القصة حين قصها وفد إخوان مغاغة على سمع الأستاذ المرشد كوقع كلمة «وامعتصماه» على سمع الخليفة العباسي المعتصم بالله حين نقلت إليه عن المرأة المسلمة التي أسرت ببلاد الرووم منتهزين فرصة أنها أمرأة وحيدة لا نصير لها في بلادهم .. وكان رد الأستاذ المرشد تماماً كرد الخليفة إذ قال لإخوان مغاغة وهو يبتسم «لا بأس . إذن تنشىء له مدرسة يكون هو ناظرها وصاحبها »

لم يكن لقولة الأستاذ المرشد هذه معنى في عرف العقل والمنطق والقياس للأسباب الآتية :

أولا : لم يبق على بدء الدراسة إلا أقل من شهر واحد .

ثانياً : أن هذا المشروع إذا أريد تنفيذه فإنه يحتاج إلى رأس مال لا يقل عن بضعة آلاف من الجنيهات في ذلك الوقت ؛ على أن يستغرق تنفيذه إذا وجد هذا المال سنة على الأقل.. فكيف يمكن مجرد التفكير فيه وليس لدى الشعبة ولا لدى المركز العام شيء من هذا المبلغ .

ثالثاً : إذا افترضنا جدلا أن مدرسة كاملة المباني وافية بجميع ما يشترط من الشروط

الصحية والاجتماعية أنزلت لنا من السماء الآن ، فإن العقبة الكبرى التي لا يمكن تذليلها هي العثور في هذا الوقت على مدرس واحد يتعاقد معه بعد أن ارتبط كل مدرس بمدرسته .

رابعاً : أن إعداد المقاعد والقماطر والسبورات اللازمة لمدرسة كهذه يحتاج إذا وجد المكان والمال إلى عدة أشهر .

خامساً : إذا افترضنا جدلا أن هذه المدرسة موجودة بكامل معداتها ومدرسيها فإنها باعتبارها مدرسة جديدة تحتاج إلى عام كامل – مع جميع وسائل الإعلام الميسورة – حتى يعلم الناس الناس بوجودها .. ثم هي لا تبدأ إلا بالسنة الأولى أي بالصف الأول فقط ، لأن الناس لن يثقوا بها إلا إذا أثبتت نتائجها جدارتها لا سيما وفي المدينة مدرسة قديمة أثبتت جدارتها من قبل والجميع يثقون بها .

تلقى وفد إخوان مغاغة وتلقينا نحن الحاضرين من إخوان المركز العام قولة الأستاذ هذه بابتسامة فيها كل المعاني التي تضمنتها الخمسة الأسباب السابقة ، ولكن الأستاذ المرشد كان مصمماً على قولته حيث كررها أكثر من مرة تكرار الواثق المتمكن ... ومع ارتيابنا بل ما نراه من استحالة في تحقيق هذا المشروع فإن ثقتنا التي تفوق كل تصور في الأستاذ المرشد جعلتنا نتهم عقولنا ونتهم المنطق والواقع ونصدق ما يقول .....

إن هذا الرجل الذي آتاه الله تعالى من العلم والحكمة ما بهر عقول كبار العلماء فطلبوا إليه أن يؤلف كتباً يودعها هذه المعارف النادرة فكان رده عليهم : إنني لا أؤلف كتباً يكون مصيرها تزيين الرفوف وأحشاء المكتبات ، وإنما مهمتي أن أؤلف رجالا أقذف بالرجل منهم في بلد فيحييه ، فالرجل منهم كتاب حي ينتقل إلى الناس ، ويقتحم عليهم عقولهم وقلوبهم ، ويبثهم كل ما في قلبه ونفسه وعقله ، ويؤلف منهم رجالا كما ألف هو من قبل .

إن هذا الرجل الذي ربى هذا الشباب الغض على أسمى المعاني الإنسانية وأجلها من إيمان وإيثار وتضحية لم تكن تربيته هذه تربية عقيما يقف بها عند حدود تطهير النفس وتزكية الروح ثم يعتزل أصحابها المجتمع متفانين في العبادة ، بل كان يربيهم هذه التربية ثم يلقى بهم في خضم المجتمع باعتبار أنهم كنوز يستثمرها المجتمع في إصلاح ما فسد منه وبناء ما انهار من بنيانه .. وكان الأستاذ نفسه هو أقدر الناس على استثمار هذه الكنوز وأبرعهم في الإفادة منها ، وأبصرهم بمكامن اللآلىء والدرر فيها ، وأكثرهم تمكنا من سد كل ثغرة من ثغرات المجتمع بما يناسبها من هذه هذه اللآلىء والدرر كما يقول المثل العربي « يضع الهناء مواضع النقب »

على أساس من معرفته بما تحت يده من هذه الكنوز قال واثقاً قولته التي قالها ... قالها وهو يعلم أنها بحكم العقل وحده والمنطق والحساب إنما هي نوع من المحال ، ولكن الذي بيده مفاتيح هذه الكنوز هو فوق العقل والمنطق والحساب « والله يرزق من يشاء بغير حساب» .

إن العنصر البشرى طاقة كامنة لا حدود لقوتها ولكنها مفتقرة دائماً إلى من يستطيع تفجيرها .

إنشاء المدرسة أو تحقيق المحال

قال الأستاذ المرشد لوفد إخوان مغاغة ، أنتم مكلفون بأمرين اثنين عليكم أن تنجزوهما :

الأول : أن تقولوا للأخ الأستاذ الشيخ حسن سيد إن الإخوان قرروا أن ينشئوا لك فى مغاغة مدرسة إبتدائية تبدأ الدراسة فيها من أول هذا العام الدراسى وتكون أنت ناظرها .

الثانى : أن تجتمعوا بإخوانكم جميعاً وتدبروا مكانا يصلح أن يكون مدرسة مهما كان إيجاره والمركز العام متكفل بدفع إيجاره .

فإذا تم تدبير المكان فأخبرونا لنكمل الخطوات الأخرى إن شاء الله .

وبعد أيام وصل وفد من مغاغة يحمل إلينا نبأ إيجاد المكان المطلوب وقالو إن الأخ المهندس الزراعى الأستاذ شلبى محمد جاد وكيل الشعبة – وهو نفسه الأخ الذى كان الأستاذ المرشد قد اتفق معه لأكون شريكاً له فى معمل الألبان – قدم لنا منزلا يملكه ملحق به فناء واسع وهو مكون من ثلاثة طوابق ليكون مقراً للمدرسة ، وتبرع بقيمة إيجاره فى السنة الأولى .

كان مدرسو المدارس الابتدائية الأهلية فى ذلك الوقت ذوى مستوى معين ، فهم عادة من ذوى الخبرة الذين لم يحصلوا على مؤهل ما ، أو من حملة الشهادة الابتدائية ، وأعلاهم مستوى كان من حملة شهادة الكفاءة وهى شهادة تقل عن الثانوية العامة بسنتين ...

وأراد الأستاذ المرشد أن يقتحم على منافسينا بصاعقة تذهلهم وتفقدهم رشدهم ، فقال لوفد مغاغة : ارجعوا إلى إخوانكم واطبعوا أكبر عدد ممكن من الإعلانات واكتبوا فيها أن المدرسة الإسلامية بمغاغة قد استقدمت جميع هيئة التدريس بها من القاهرة وكلهم من خريجى كليات الجامعة ويحملون شهادات البكالوريوس والليسانس – واكتبوا أسماءهم ومؤهل كل منهم أمام اسمه – واكتبوا فى الإعلان أنهم سيحضرون إلى مغاغة يوم كذا فى قطار الساعة كذا – وحدد لهم اليوم والساعة ...

وقال لهم : عليكم أن توزعوا هذه الإعلانات فى جميع أنحاء مغاغة وفى جميع قرى المركز .. وعليكم أن تكونوا جميعاً فى انتظارهم على محطة السكة الحديد .

ثم التفت إلى وقال : عليك أن تتأهب أنت وزميلك عباس حلمى ومحمد بسيونى (تخرج محمد بسيونى فى ذلك العام فى كلية الحقوق) للسفر معاً إلى مغاغة فى يوم كذا وفى قطار الساعة كذا وهو اليوم والساعة اللتان حددهما لإخوان مغاغة .

ودعوت زميلى وقابلنا الأستاذ فقال لنا : إنكم ستقومون بأهم دور فى هذا المشروع الذى أنا

أعده مشروع الساعة للدعوة والاختبار الدقيق لها ، وستحملون أنتم أكبر عبء فيه ... إن عليكم أن تعرفوا الناس بأنفسكم وبمؤهلاتكم ، وعليكم أن تزوروا أعيان مغاغة وجميع البيوت المعروفة فى قرى المركز ... وستكون زياراتكم هذه لهذه البيوت مبعث ثقتهم فى نجاح المشروع ، ودافعاً لهم على التبرع له بسخاء ... ثم عليكم مع ذلك أن تتعاونوا مع إخوان مغاغة فى تدبير كل مايلزم المدرسة من مقاعد وقماطر وغيرها ... وحين تبدأ الدراسة فعليكم أن تقوموا بأنفسكم بتدريس جميع العلوم وسنضم إليكم فى التدريس الأستاذ الشيخ حسن سيد الناظر ، ولا تتركوا مواقعكم فى التدريس إلا بعد أن نعثر على عدد كاف نتعاقد معه من المدرسين المحترفين ...

تلقينا هذه التعليمات من الأستاذ المرشد ولم يخطر ببالنا أننا مقدمون على أشق مهمة على الإطلاق ..

لايعرف الشوق إلا من يكابده   ولا الصبابة إلا من يعانيهـا

مظاهرات من نوع جديد :

حزمنا أمتعتنا - ولم تكن أمتعة ذات بال ، فهى لا تعدو أن تكون ملء حقيبة ضمت أمتعتنا نحن الثلاثة ... وركبنا القطار الذى حدده لنا الأستاذ وتوكلنا على الله ، حتى إذا صارت محطة مغاغة قاب قوسين أو أدنى أعددنا أنفسنا أمام باب عربة القطار التى كنا فيها لنكون أول النازلين حين يقف القطار ، ولما كنا لم ننزل بمغاغة من قبل فقد طمأننا الأستاذ أن سنجد فى انتظارنا عدداً من الإخوان الذين عرفناهم فى القاهرة .

ووقف القطار ، ولم نكد نقدم رجلا للهبوط حتى رأينا المحطة تموج بمئات من الناس الذين يبدو عليهم أنهم من علية القوم ، ورأينا الجميع يشيرون بأيديهم إلينا ، وتقدم نحونا الإخوان الذين عرفناهم فى القاهرة وتناولوا حقيبتنا وأخذوا بأيدينا وأحاطوا بنا ، وخرجنا من المحطة فى موكب ضخم مهيب نتقدمه نحن الثلاثة وحولنا إخوان مغاغة وخلفنا هذه الجموع كأننا « عرسان » يزفون ليلة الزواج والهتاف « الله أكبر ولله الحمد » يشق عنان السماء .. وسلكوا بنا فى هذا الموكب الشارع الرئيسى الذى يخترق المدينة من أولها لآخرها ، وعلى طول الطريق يرشقنا الناس على الجانبين بنظرات ، ويوجهون نحونا إشارات كأنهم كانوا على علم بمقدمنا وفى شوق لرؤيتنا ، حتى وصلنا إلى الدار التى تعد لتكون مقر المدرسة فدخلنا ودخل معنا كثير من الناس وأخذ الجميع يرحبون ويبدون سرورهم بمقدمنا .

كان باقيا على موعد بدء الدراسة فى المدارس الابتدائية أقل من شهر ، ولم يكن بد من من تقسيم المسئوليات على الإخوان لينهض كل بما يوكل إليه فى أسرع وقت ممكن ، وكان من مسئولية الأخ الأستاذ شلبى محمد جاد المتبرع بالدار أن يغير من شكل المبنى ومحتوياته فيهدم أجزاء ويضيف أجزاء حتى يتوائم المبنى مع الرسم الذى طلبته وزارة المعارف وجعلته شرطا لاعترافها بالمدرسة ، وكان على الأخ الأستاذ محمد فؤاد سليمان ومعه مجموعة من الإخوان

أن يحصلوا من مخازن الوزارة ومن المكتبات الأخرى على الكتب اللازمة والكراريس وغيرها من الأدوات المكتبيه للصفوف الأربعة . وهكذا قسم العمل وكان الموكول إلينا من المسئوليات هو أن نشترك فى النهار مع اللجان المختلفة فى مسئولياتها حتى إذا انتصف النهار وتناولنا طعام الغداء ، أعددنا أنفسنا لرحلة يومية يشترك معنا فيها الأستاذ الشيخ حسن سيد وبعض الإخوان لنزور كل يوم بلداً من بلاد المركز أو بلدين لنشرح للناس مزايا هذه المدرسة والسبب فى إنشائها وماكان من أمر الغدر بالشيخ حسن سيد كما يرون بأعينهم الأشخاص ذوى المؤهلات العالية الذين سيقومون بمهمة التدريس ، فتكون نتيجة كل زيارة من هذه الزيارات ضمان نقل أولادهم من مدرسة الأقباط إلى المدرسة الإسلامية وإلحاق أولادهم الجدد بها ، ثم تبرعاً سخيا يقدمه أثرياء البلد لحساب إنشاء هذه المدرسة .

كان هذا المجهود المتواصل شاقاً حقاً فقد كنا نغادر مغاغة كل يوم عصراً ولا نعود إليها إلا منتصف الليل لنستأنف فى الصباح الباكر العمل مع اللجان المتعددة المسئوليات .

انهالت التبرعات من أثرياء القرى التى زرناها وتمكنا بذلك من شراء جميع احتياجات المدرسة من كتب وأدوات وسبورات ومكاتب وكراسى للمدرسين والزوار وأدوات النظافة وغيرها ثم واجهتنا معضلة هى أننا نريد قماطر للتلاميذ ونريد عدداً كبيراً يتسع للعدد الذى قدرناه من التلاميذ نتيجة دعايتنا وزياراتنا ، وإذا كان معنا ثمن هذه القماطر فإن صناعتها قد تستغرق عدة أشهر ولم يبق على موعد بدء الدراسة إلا عشرة أيام .

تذكرت أن أحد أصدقائنا فى رشيد كان قد أنشأ مدرسة ابتدائية فى مطوبس ولكنه أخفق فى المشروع فباع محتوياتها فاشتراها أخ كريم من إخواننا التجار برشيد فأرسلت إليه أن يشحن لنا جميع هذه القماطر (التخت) التى اشتراها فى سفينة فوصلت مع بدء الدراسة وكانت جديدة وقد طلب فى الواحدة المزدوجة المقاعد ثلاثة عشر قرشاً وهو نفس الثمن الذى اشتراها به مع أنه كان يستطيع أن يبيعها فى ذلك الوقت بأكثر من ثلاثين قرشا . ولو أننا اضطررنا إلى صنعها لتكلفت أكثر من ضعف ذلك .

بدء الدراسة :

بدأت الدراسة فى موعدها والمدرسة مستوفية جميع مالا تستوفيه مدرسة إلا بعد مضى أربع سنوات على إنشائها أو أكثر إذا كانت الظروف مواتية ، وكادت مدرسة الأقباط تتوقف لولا ما تبقى بها من أولاد الأقباط وقليل ماهم ، وأحس المستكبرون الغادرون بفشلهم وخطأ تقديراتهم فبعثوا إلى الأستاذ الشيخ حسن سيد يطلبون الصلح معه ولكن الرجل رفض أن يضع يده فى يد غادرين .

وقمنا نحن الثلاثة بالتدريس طول اليوم ومعنا الناظر وابنه وأخ كريم حصل على دبلوم

الفنون التطبيقية في ذلك العام هو الأخ الأستاذ حسن عبد الله القبانى قام بتدريس مادة الرسم . فكان كل منا يدرس جميع حصص اليوم متصلة ، وقد يدرس لفصلين في آن واحد .. وقد انهكتنا هذه الفترة التى دخلناها ونحن فى أشد حالات الإرهاق من أثر الزيارات المتلاحقة للبلاد .... وكان الإخوان فى خلال ذلك سواء فى القاهرة وفى مغاغة يجدون فى البحث عن مدرسين للتعاقد معهم حتى وفقوا إلى ثلاثة منهم حلوا محلنا بعد شهر من بدء الدراسة ، وقد أدركونا ونحن فى الرمق الأخير .

تقييم هذه التجربة

كان هذا العمل الذى انتدب الإخوان أنفسهم للقيام به فى مغاغة ، والذى حتمت الظروف النهوض بأعبائه ، ، كان امتحاناً قاسياً ورائعاً لهذه الدعوة التى تعد فى عمر الدعوات دعوة ناشئة ، وقد كشف هذا الامتحان عن طبائع هذه الدعوة بأسلوب جلى وقد تتضح منه القسمات التالية :

أولا : أثبتت الدعوة للإخوان أنفسهم أنها دعوة إيجابية فعالة ، كما أثبتت ذلك لغير الإخوان ممن شهدوا مسرح الأحداث ، وبينت للجميع أنها دعوة لا تقف عند حد الأقوال والدعاية الكلامية والإقناع العقلى بالأسلوب المنطقى بل إنها تفعل ماتقول وقد تفعل أكثر مما تقول :

ثانيا : أثبتت أن العنصر البشرى إذا ماتربى التربية الإسلامية السليمة الكاملة النابعة من الكتاب الكريم يستطيع أن يأتى بما يشبه المعجزات ، وأنه لا تعوقه العوائق المادية مهما عظمت

ثالثا : أن القيادة القادرة التى تولت الشباب الغض وأنشأته على أقوم الأسس وأعطته من ذات نفسها هى التى تعرف مقدار مايكمن فى هذا الشباب من طاقة خارقة للعادة ، وهى التى تعرف كيف توجه هذه الطاقة ومتى توجهها لإنجاز أعمال يحكم العقل والقدرة المادية والمنطق باستحالة إنجازها .. ومن دستور هذه القيادة المأثور قولها : إذا صح العزم وضح السبيل .

رابعا : فسرت معنى الأخوة الإسلامية « المسلم أخو المسلم لا يحقره ولا يخذله ولا يسلمه » وأنها إنما تقوم على أسس من التضحية والإيثار لا على الأثرة والاستغلال ، فهذا المجهود الذى بذل فى إنشاء هذه المدرسة فى الظرف المعين الذى كان يجب أن تنشأ فيه ، لايمكن تقديره بمال مهما كثر ، ومع ذلك وبغير من ولا أذى حين اكتمل المشروع تمام الاكتمال سلم إلى الأخ الذى هبنا لنجدته يتصرف فيه كما يشاء حيث قال الأستاذ المرشد حين بلغه نبأ الغدر به « إذن ننشىء له مدرسة يكون هو ناظرها و صاحبها » .

خامسا : أثبتت الدعوة أنها مع قدرتها دعوة سلام وعفة ، فقد كان فى تصور من دبروا جريمة الغدر من قادة جمعية الأقباط ، كما كان فى تصور الناس جميعاً فى مغاغة أن رد الإخوان

على هذه الجريمة النكراء سيكون الاعتداء على هذه الجميمة باليد واللسان ، ولكن المفاجأة كانت في أن شيئا من هذا لم يحدث ، وإنما كان الرد هو ماتحدثنا عنه دون مس أي من هؤلاء المعتدين بكلمة نابية أو لفظ جارح ، ذلك أن الدعوة الإسلامية أبعدالدعوات عن فحش القول وعن الاعتداء ، لكنها تهب هبةالمذعور لحماية من اعتدى عليه من أبنائها ولا تدخر وسعاً في حمايته وحياطته ..

إلى مشروع الألبان :

بعد أن تم إنشاء المدرسة وبعد أن تسلم، المدرسون المتعاقد معهم أماكنهم في المدرسة اتجهنا إلى مشروعنا الأصلي الذي اعترض طريقه هذا المشروع المدرسي الطارىء ، وكان من توفيق الله أننا فرغنا من مشروع المدرسة في الوقت المناسب لمشروع الألبان ، وتذاكرت وشريكي الأستاذ شلبي المشروع وكان معمله مجهزاً أحسن تجهيز وكتبنا عقد الشركة وعرضناه على الاستاذ المرشد-لأنه كان حريصاً على الاطلاع عليه - ووقعناه - ولهمت من شريكي أن سبب فشله في المشروع هو عدم تصريف منتجاته فتكفلت أنا بذلك بعد أن استوثقت من إخوان القاهرة التجار استعدادهم لشراء كل ما ينتجه المعمل ، واستمرت الشركة موسم لبن كاملا كنت خلاله كثير التردد على القاهرة ثم رأيت إنهاءها .

وقد يكون مفيداً للقارىء أن أسرد على مسامعه تفاصيل هذا المشروع ولكن إيجازاً للقول أكتفي بوضع خلاصة له بين يديه ولا أكون بذلك قد خرجت على الموضوع فتاريخ الدعوة هو تاريخ القائمين بها والعاملين لها والذين كرسوا حياتهم للنهوض بها ، فلم يكن تحركي لهذا المشروع إلا بوحي من هذه الدعوة ، وما كان اهتمام الأستاذ المرشد به إلا لكونه يرى أن مثل هذه المشاريع دعائم للدعوة ، وهاك الخلاصة .

١ - لم يكن يعوزنا المال فالمال كان متوفراً ولم يكن يعوزنا تصريف الإنتاج فقد كان المطلوب منا أكثر من ضعف إنتاجنا .

٢ - لم يكن يعوزنا الإخلاص فشريكي كان من المثل العليا التي يندر وجودها وممن يخشون الله ويتقونه ، وسأذكر واقعة واحدة تنبئك عن مدى عمق إيمانه بالله ، فقد كان يملك قطعة أرض واسعة في وسط مغاغة فجاءه رجل أجنبي من خارج مغاغة وعرض عليه ثمناً مشرفاً لهذه القطعة يبلغ ضعف ماتستحق لينشىء عليها دارا للسينما وإذا لم يرغب في بيعها فليدخل معه شريكاً في هذه السينما - وكانت السينما في ذلك الوقت أربح مشروع - فطلب منه مهلة وسألني رأيي في هذا العرض فأجبته بأن السينما ما هي إلا أداة لعرض ما يراد عرضه فيها ولكن الأفلام التي تعرض هي عادة أفلام تدعو إلى الرذيلة .. فرفض عرض الأجنبي مع ما فيه من إغراء خشية أن يكون فيه ما يغضب الله .

٣ - لم نبع صفقة إلا بربح ومع ذلك خسرنا خسارة كبيرة نتيجة قلة اللبن الوارد

إلى المعمل ، والمصاريف اليومية والشهرية التي كان لا بد من صرفها على المعمل كانت تكفي لتصنيع عشرة أضعاف كمية اللبن التي كانت ترد لنا . ومن هنا نشأت الخسارة .

٤ - سبب قلة الوارد إلى المعمل ترجع إلى إيثار شريكي عدم المجازفة بدفع أثمان اللبن لأصحاب المواشي قبل توريده إلينا في حين أن تجار « السمن » في القاهرة كانوا يدفعون لأصحاب المواشي في مفاغة مبالغ كبيرة قبل بدء موسم اللبن .. وقد اختلفت وجهة نظرنا في هذا الموضوع فكنت أرى أننا أولى بالاطمئنان على مالنا إذا دفعناه إلى هؤلاء الفلاحين من أولئك الذين يعيشون في القاهرة ويدفعون لهم الأموال . ولكن شريكي - لظروف شرحها لي قابلته في تربيته وهو طفل - جعلت عنده في كل تصرفاته فرط حرص .

وكما أن قيامي بهذا المشروع كان بمشورة من الأستاذ المرشد ، فقد كان إنهائي له وفض الشركة بمشورة منه أيضاً ... على أن الذي أحب أن ألفت النظر إليه أن فض الشركة بيني وبين الأخ الأستاذ شلبي لم يكن له أي أثر على مابيننا من علاقة أخوية وسوف يأتي إن شاء الله في سياق هذه المذكرات مايوضح ذلك .

رأي عظيم لرجل عظيم

قدمت في خلال الحديث من مشروع الألبان أنني كنت في خلال فترة قيامي بهذا المشروع أتردد على القاهرة في إحدى مرات ترددي وكان مساء يوم خميس وجدتهم في المركز العام يوزعون الدعاة يوم الجمعة على عدة مساجد ، فلما رأوني بينهم أدخلوني في التوزيع فكان من نصيبي ومعي الأخ صالح عشماوي مسجد أحمد زكي باشا بالجيزة .

وذهبت وزميلي إلى المسجد قبيل صلاة الجمعة ، ولما أذن للصلاة صعدت المنبر وخطبت الناس وأنا أتفحص وجوههم ، فلاحظت من بينهم وجهاً مشرقاً لشيخ معمم ذي لحية بيضاء ووقور يرمقني وكأنه هو الذي يتفحصني ، فشغلني أمر الرجل حتى انهيت الخطبة وصليت بالناس ، ثم قدم الناس يصافحونني وأنا أبحث عن الرجل فلم أجده بين من صافحوني .. فلما انفض الجميع وقلبي منشغل بالرجل تبين لي أنه باق في مجلسه .

فلما رأى الناس قد انكشفوا عني رأيته قادماً نحوي فتقدمت نحوه ، ومد يده إلى فشددت على يده ثم صافح زميلي ثم خرجنا ثلاثتنا من المسجد وسرنا معاً وقد طلب حين خرجنا من المسجد أن نشرب عنده القهوة فقبلت على التو شوقاً إلى معرفة الرجل ، حتى إذا كنا أمام « فلة » جميلة قال تفضلوا ، ولمحت على باب « الفلة » الخارجي لافتة عليها اسم صاحبها فظننت رجلنا ساكناً بها .

فلما دخلنا وأخذنا مجالسنا قال الرجل : نريد أن نتعارف ، وقدم لي بطاقته ، فإذا عليها نفس الاسم المكتوب على لافتة « الفلة » وهو « منصور مهران » الأستاذ بدار العلوم سابقاً ،

فبدأت أعرف قدر الرجل ، وإن كنت إ أزدد له احتراماً فقد كنت أوليه لوقاره احتراماً يتواءم وهذا الوقار .. ثم التفت إلى فقلت : أنا فلان بكالوريوس زراعة و صاحب معمل ألبان فى مغاغة ، وزميلى صالح مصطفى عشماوى باكالوريوس تجارة ومحاسب .

قال الشيخ : كم تعطيكم جمعية الإخوان المسلمين التى تنتسبون إليها فى كل مرة تقومون بنشر دعايتها وإذا كانت تحاسبكم بالشهر فكم تعطيكم شهرياً .
قلت له : إن الجمعية لا تعطينا شيئاً لنشر دعوتها لا بالمرة ولابالشهر .

قال : إذن من الذى يتكفل للدعاة بمقابل أتعابهم ومصاريف انتقالهم ؟

قلت : ليس عندنا مقابل أتعاب ، وكل منا يتكفل بمصاريف انتقاله .

قال : أنتما فقط أم هذا حال جميع الدعاة ؟

قلت : هذا حال جميع الدعاة ؟ .

قال : أليس للجمعية دعاة بمرتبات تدفعها لهم ؟

قلت : كل الدعاة مثلنا متطوعون . بل إن هؤلاء الدعاة يقدمون للجمعية من جيوبهم .

قال : كم يدفع العضو فى الشهر ؟

قلت : الاشتراك فى جمعيتنا ليس محدداً ، فمن الأعضاء من لامقدرة عنده فلا يدفع شيئاً ، ومنهم من يدفع خمسة قروش ومنهم من يدفع عشرة قروش وهكذا ومنهم من يدفع جنيها أو أكثر كل حسب مقدرته ولا فرق بين الجميع .

قال : ومن هو رئيس الجمعية ؟

قلت : ليس للجمعية رئيس وإنما لها مرشد عام هو الأستاذ حسن البنا وهو متخرج فى دار العلوم وكان أول دفعته وهو مدرس بمدرسة عباس الابتدائية بالسبتية .

قال : وهل حددت الجمعية له مرتباً من ماليتها ؟

قلت : لا .. وإنما هو يقسم مرتبه الذى يأخذه من وزارة المعارف بينه وبين أولاده وبين الجمعية ، وهو يقوم بنشر الدعوة فى الأقاليم ويسافر كل أسبوع مرة أو أكثر على حسابه الخاص .

قال الرجل .. اسمعوا ياأولادى .. إن هذا اليوم أسعد يوم فى حياتى .. إننى أؤمن بأن هذا الدين لا ينهض به إلا دعاة يبذلون له ولا يرتزقون منه .. ثم قال : نحن الأزهريين عيال فى دراستنا على كتب الرجال الأمجاد الشيخ الصباغ والشيخ النجار والشيخ الحداد وهؤلاء العلماء لم يسموا بهذه الأسماء إلا لأنها أسماء صناعاتهم ، فالشيخ الصباغ كانت مهنته التى يرتزق

منها هى صباغة الأقمشة ، والشيخ النجار كانت مهنته النجارة وهكذا كان لكل مهنته التى يكتسب عيشه منها ثم فى وقت فراغه يضع هذه المؤلفات الإسلامية التى نحن مدينون بمعا رفنا لها تقرباً إلى الله .

ياأولادى ... اليوم أموت وأنا مرتاح الضمير لأن الفئة التى كانت تنقص المجتمع الإسلامى قد وجدت ، ونهضة الإسلام كانت مرهونة بوجودهم .

وهنا وقفت وزميلى مستأذنين وشاكرين للشيخ حسن ضيافته ودعوته لزيارة المركز العام فاعتذر بأنه قد لا يستطيع لضعفه لكنه حملنا التحية للأستاذ المرشد . ولما رجعنا وقابلت الأستاذ المرشد أبلغته تحية الشيخ وأطلعته على بطاقته فقال لى إنه كان أستاذه ، ولما حدثته بحديثه استمع إليه باهتمام وقال : إن أمثال هذا الرجل بمثل هذا الفهم قليل فى عالمنا اليوم .

الشاى فى الصعيد

كنت منذ صغرى من محبى الشاى ومن المقبلين على احتسائه كل صباح فى المنزل ، فلما شببت وكنت فى السنة الرابعة الثانوية ونظرت إلى هذا الشراب فوجدت له جنايتين علينا نحن نحن المصريين ، إحداهما إنه صادر عادة لنا أو بالتعبير المألوف « كيفاً » سيطر على أعصابنا بحيث لم نعد نستطيع الاستغناء عنه ، فكأنما استعبدنا فصار لنا سيداً وصرنا له عبيداً . والأخرى أنه مع ذلك بضاعة أجنبية . واقتنعت بوجوب مقاطعته .

ولما كنت فى منفلوط لاحظت أن أهل الصعيد أشد انغماسا فى هذا « الكيف » منا نحن أهل الوجه البحرى ، فالعمال مثلا ينفقون أكثر ما يكتسبون على الشاى .. وقد لمست خطورة هذا الشراب عن قرب حين كان ساكنا معى الأخ الأستاذ حسن عبد الله القبانى وهو من أهل قوص إحدى حواضر قنا وهو مدرس الرسم بالمدرسة كما ذكرت قبلا .. فرأيته يهيء لنفسه الشاى كل صباح بطريقة يكثر فيها من الشاى الجاف ويظل يغليه فى الماء حتى يصل إلى قوام يشبه قوام الزيت ، وحتى إن طعم السكر لا يظهر فيه مهما أكثرت منه عليه ، ويحتسى منه قبل أن يذهب إلى المدرسة ثلاثة أكواب صغيرة ثم يذهب إلى المدرسة ويبدأ عمله فى الساعة الثامنة حتى إذا وصلت الساعة العاشرة حيث استراحة التلاميذ نحو عشر دقائق كان فراش المدرسة فى انتظاره بكوب كبير من الشاى ، ثم يجىء إلى البيت ظهراً فيتغذى ويهيىء الشاى لنفسه بطريقة الصباح ، ثم يذهب إلى المدرسة لفترة مابعد الظهر حيث تنتهى الدراسة الساعة الثالثة فيجد الفراش بالكوب فى انتظاره ثم يشرب الشاى بعد العشاء بمثل طريقة الصباح ، وقد يشرب مرة بين الساعة الثالثة والعشاء .

إنه هو الذى ذكر لى هذا النظام الذى يلتزمه والذى إذا افتقد مرة من مراته عجز عن أداء عمله حتى يسعف بالشاى . ولقد أخبرنى أن الشاى فى حياتهم هو كل شىء حتى إن أطفالهم يفطمون على الشاى وأنه هو شخصيا فطم على الشاى .

ولما كانت القدوة هي أقوى وسائل التأثير فقد سهل على إقناع الأخ الكريم بضرر الشاى وخطورته وعاونته فى اتباع خطة انتهت إلى مقاطعة الشاى والاستعاضة عنه بمشروبات وطنية أخرى كالكركديه واليانسون والنعناع ، فأدى ذلك إلى تحرره من هذه العادة المسيطرة كما أدى إلى تحسن كبير فى صحته .

وبهذه المناسبة أذكر أنه لما جاء موعد إجازة نصف السنة وسافر الأخ حسن إلى بلدته قوص ليقضى الإجازة فيها فلما عاد من الإجازة قال لى سأروى لك شيئاً طريفا وقع لى فى هذه الإجازة .. قال : لما وصل بى القطار إلى محطة قوص ، وكان أهلى على علم بموعد وصولى نظرت من القطار فوجدتهم فى انتظارى على رصيف المحطة ، فنزلت من القطار ومعى حقيبتى فلم يتقدم نحوى أحد منهم ليحمل عنى حقيبتى كالمعتاد ، كما لم يتحرك أحد منهم كأنهم لم يرونى ، فتقدمت نحوهم حتى التصقت بهم ولم يمد أحد منهم يده لمصافحتى فعجبت وقلت لهم مالى أراكم هذه المرة تتجاهلوننى ماذا حدث ؟ قالو من أنت ؟ قلت أنا حسن عبد الله فبدا عليهم الدهشة وقالو أنت حسن ؟ . إذن أنت تغيرت كل التغير ، لقد كنت نحيفاً أسمر الوجه ونراك الآن ممتلىء الجسم أبيض الوجه ماذا حدث ؟ فتذكرت أن شيئاً لم يحدث لى إلا مقاطعتى للشاى التى أدت إلى فتح شهيتى للطعام فقلت لهم ذلك فتعجبوا .

وقد يكون الإسراف فى الشاى فعلا من أسباب ضعف الجسم فلا زلت أذكر كلمة للأخ الدكتور محمد أحمد سليمان قالها فى أثناء محاضرة كان قد ألقاها علينا فى المركز العام حيث قال : إن الشاى يحتوى على حمض العفصيك« التنيك » الذى يستخدم فى دبغ الجلود . وقال إن الهضم فى المعدة يتم عن طريق أهداب قطيفية تبطن المعدة من داخلها فإذا نزل الشاى على هذه الأهداب القطيفية دبغها أى قضى عليها فتعجز المعدة عن الهضم .

وقد جرت عادتنا منذ ألممت بمغاغة أن نزور فى كل يوم جمعة قرية من قرى المركز ، أخطب الجمعة فى مسجدها ثم ننتقل إلى بيت من يدعونا من أهلها حيث نشرح لهم الدعوة ونتناقش فى أمور البلد على ضوئها .. وفى إحدى أيام الجمعة كنا فى زيارة قرية اسمها عزبة على باشا فهمى ، وكان الأخ الأستاذ شلبى يعرف عمدتها واستقبلنا العمدة فى بيته حتى حان موعد الصلاة فخرجنا متجهين إلى المسجد .. وبينما نحن نمشى اصطدمت قدمى بحجر فى الطريق ، فقلت للعمدة ماهذا الحجر الملقى وسط الطريق ومغطى بقطعة من الخيش ؟ فضحك العمد وقال : إن هذا ليس حجراً إنه رجل وكشف قطعة الخيش فرأيته رجلا محتبيا ورأسه بين فخديه . فعجبت وسألت العمدة عن شأنه فقال : كان هذا الشاب من أجلد شباب القرية وأقواهم بنية ، وأكثرهم إنتاجاً فى عمله بالحقول ، فابتلى بالشاى حتى صار ينفق كل أجره على الشاى وأهلك الشاى بدنه دون أن يجد غذاء يقاومه به ، فضعف الشاب حتى صار إذا اشتغل ساعة عجز عن العمل حتى يأتوه بكوب من الشاى ، فأضرب أصحاب الحقول عن قبوله للعمل عندهم فصار معدماً .. فهو يلقى بنفسه هكذا فى عرض الطريق حتى يتصدق عليه بعض المارة فيشترى بصدقتهم شايا

من هذا المحل - وأشار إلى محل صغير قريب .. فيشربه فينتعش فترة ثم تخور قواه فيرجع إلى وضعه الذى رأيته فيه .

ولما دخلنا المسجد - وكان أهل القرية على علم بمقدمنا وبأنى سأخطبهم خطبة الجمعة - تقدم إلى رجل منهم وسلمنى ورقة قرأتها فوجدت بها هذه العبارة : « إننى شيخ البلد وإن الشاى قد قضى على شبابنا فأرجو أن يكون موضوع خطبتك فى بيان أضرار الشاى حتى تنقذ هذا الشباب من الدمار » فلما قرأت الورقة عجبت لهذه المصادفات المتلاحقة ، وسرنى أن عند بعض الناس غيرة على مصلحة المجتمع إلى هذا الحد الرائع .

وأجبت الرجل إلى طلبه .. وبعد الصلاة انتقل الركب إلى بيت العمدة وجلس الجميع فقال العمدة : لا أدرى ماذا أقدم لكم والتحية عندنا هى الشاى ولا أستطيع أن أقدم لكم الشاى بعدما اسمعتنا من أضراره فماذا أقدم لكم ؟ قلت : أليس فى حديقتك هذه المجاورة نعناع ؟ قال : فيها نعناع . قلت : دع رجالك يحضروا شيئاً منه ويغسلوه ثم يجهزوه كما يجهز الشاى ولكن إذا غلى أول غلية فلينزل من فوق الموقد ودعوه مغطى لبضع دقائق ثم يقدم لنا جميعاً محلى بالسكر .. وقد فعلوا وشرب الجميع وأثنوا على طعمه ومذاقه ، وقد شرحت لهم فوائده الصحية مع رخصه وتيسر وجوده فى كل مكان .

مواجهة بين المرشد العام وطه حسين

لما انتقلت الدعوة بمركزها العام إلى ميدان الحلمية الجديدة ، رأى الأستاذ أحمد السكرى أن ينتقل إلى القاهرة ورأى الأستاذ المرشد أن يهىء له ذلك فألحقه بوظيفة فى ديوان وزارة المعارف سكرتيراً لمدير التعليم الزراعى .

وفى ذلك الوقت عين الدكتور طه حسين المستشار الفنى لوزارة المعارف ، وهو منصب لم يكن موجوداً من قبل ولكنه أنشىء للدكتور طه شخصياً ، وكان لتعيين الدكتور طه فى هذا المنصب دوى هائل فى جميع الدوائر التعليمية والثقافية فى مصر وفى خارج مصر ، باعتبار أن صاحب هذا المنصب هو الذى سيوجه الثقافة فى مصر حيث يشاء ، وسيتحكم فى تلوين ثقافة البلاد باللون الذى يروقه . وقد يكون هذا المنصب أخطر المناصب تأثيراً فى بلد ناشىء كمصر تتجاذبه تيارات متضاربة لا يدرى أيها أنفع له ولا إلى أيها يتجه . ولطه حسين نزعات عرفت عنه واشتهر بها . وتوجس الكثيرون خيفة مما عسى أن يسفر عنه تعيينه فى هذا المنصب الخطير .

وطه حسين أديب ضليع تلقى الأدب على الشيخ المرصفى الذى كان إمام عصره . ودرس فى الأزهر حتى أوشك أن يحصل على شهادة العالمية منه - وهى أعلى شهاداته - ولكنهم - لسبب ما - أسقطوه مع أنه لم يكن يعوزه العلم ولا اللغة ولا الذكاء ... فاتجه منذ ذلك الوقت - مكرهاً - إلى الجامعة المصرية الناشئة وحصل منها بتفوق على الليسانس ، وأوفدته الجامعة فى بعثة إلى باريس حيث حصل على الدكتوراه وتزوج فرنسية حضرت معه إلى مصر وعين مدرسا بكلية الآداب وصار يكتب ويحاضر فى الجامعة وخارجها ... واقتحم إلى ميدان

السياسة وناصر حزب الوفد فاعتبر بذلك من المناوئين للسراى ... وألف مؤلفات فى الأدب الجاهلى والشعر الجاهلى كان لها ضجة فى أنحاء البلاد ، واستطاع بذلك أن يبرز فى المجتمع ، فحقق بذلك من آماله مالم يكن ليحققه لو أنه حصل على العالمية وسلك طريقها ..

وكاد الأزهر فى حملاته عليه أن يعصف به ويقضى عليه قضاء تاماً لولا أنه كان يأوى بانتسابه لحزب الوفد إلى ركن شديد .. ومع ذلك فإن الأزهر بعدائه له واستعدائه السراى استطاع فى إحدى الفترات أن يفصله من الجامعة فاحتضنه الوفد وأوسع له من صحفه يحرر فيها بأسلوبه الأدبى الناقد مستغنياً بذلك عن مرتب الجامعة .. ولكنه بعد كل هذا استطاع أن يرجع إلى الجامعة ويصير عميداً لكلية الآداب وتبوأ أعلى المناصب حتى وصل إلى هذا المنصب الذى استحدث من أجله تقديراً لمكانته وإقراراً بفضله .

على أن احتفاء حكومة فى بلد كمصر - لا سيما فى الزمن الذى نحن بصدده - بانسان وإحلاله فى أعلى المناصب وإضفاء الألقاب الرنانة عليه ، ليس دليلا على فضله ولا على جدارته ، فمثل هذه الحكومات إنما تستوحى قراراتها وتستلهم اختياراتها من إهواء شخصية أو عصبية حزبية أو توجيهات أجنبية ... ولست أقصد من هذا إلى الطعن فى طه حسين أو الغض من مقدرته الأدبية أو الاستخفاف بمواهبه الفطرية ، فقد ألمحت إلى ذكائه ومكانته الأدبية ، ولكننى أحببت أن لا يولى القارىء اتجاهات الحكومات فى ذلك العهد من الاهتمام والتقدير أكثر مما تستحق .

أما عن طه حسين نفسه فإنه .. مع ذكائه ونافذ بصيرته - شاب طاردته أكبر جامعة دينية فى بلده فتلقفته جامعات فرنسا ، وأوسعت له من وارف ظلها ، فأحس فى ظلالها بترحاب لم يحظ بشىء منه فى بلده وتقلب فى أحضان نعمة لم يذق مثلها فى منشئه ، ولم تكتف فرنسا بذلك كله بل حبته أيضا قطعة من نفسها حتى يكون حيث كان ومعه روح فرنسا تسيطر على بيته ونفسه وقلبه وعقله ، تلك هى زوجته ... ولولا أن طه حسين كان منطوياً على قلب حصين - لأنه كان يحفظ القرآن منذ نشأته - لما كان مثله بعد ذلك إلا فرنسياً خالصاً .

وضع طه حسين فى هذه الأثناء كتابة « مستقبل الثقافة فى مصر » ضمنه آراء فيما يجب أن تتجه إليه الثقافة فى مصر ، وكان لهذا الكتاب دوى كبير فى جميع الأوساط لاسيما الأوساط التعليمية والتربوية التى كان يعنيها موضوع الكتاب قبل غيرهم ، ولأن الكتاب كان دعوة صريحة إلى الاتجاه إلى الغرب بطريقة مزعجة فقد جاء فى الكتاب مايكاد يكون نصه « وأرى أن نأخذ بالحضارة الغربية خيرها وشرها حلوها ومرها » .

وقد تناولت الكتاب أقلام النقاد بين قادح ومادح ، وسالت أنهار الصحف بهذا النقد ، فالمادحون هم الذين تربوا فى أحضان الحضارة الغربية فهم بها مفتونون ، والقادحون كان أكثرهم من أعداء طه حسين التقليديين ... ولا أعتقد أن كتاباً فى العصر الحديث فى مصر استأثر باهتمام المشتغلين بالتربية والتعليم مثلما استأثر به هذا الكتاب ، للظروف التى صدر فيها والتى أشرت إلى طرف منها .

كنت في ذلك الوقت في عملي في مغاغة ، ولم تكن وسائل المواصلات ولا وسائل الإعلام قد تقدمت في بلادنا في ذلك العهد بعد ؛ فلم يكن الراديو قد انتشر في مصر أو قد وجد ، فكانت الأحداث التي تضطرب بها العاصمة قلما يصل من أنبائها إلى غيرها من البلاد لا سيما بلاد الصعيد ولولا أن هذا الكتاب قد ظهر وقرأت عنه وأنا أتردد على القاهرة في أوائل أيام انتقالي إلى مغاغة لكنت كأهل الصعيد خالي الذهن عنه ..

و صلني خطاب من الأستاذ المرشد يخبرني فيه أنه سيحضر لزيارة إخوان « سدس الأمراء» وأنه يريد أن أكون في انتظاره على محطة « ببا » وحدد لي اليوم وموعد وصول القطار .....» وفي الموعد المحدد كنت والاستاذ شلبي ومجموعة من الإخوان في انتظاره ، وقد صحبناه إلى سدس الأمراء – وهي قرية من أعمال مركز ببا محافظة بني سويف .. وكان يوماً كريماً من أيام الله ..

وفي أثناء ذلك انتهز الأستاذ فرصة كنت وإياه منفردين فقال لي : أتعرف يا محمود لماذا حرصت هذه المرة على أن تقابلني ؟ قلت : لعله خير إن شاء الله . قال : إن عندي حديثاً يجب أن تعرفه وظروفك حالت دون أن تكون معنا فتشهده . قلت متشوقاً : وما عساه أن يكون ؟ قال : لعلك طبعاً علمت بما كان من أمر كتاب الدكتور طه حسين الذي أصدره أخيراً عن « مستقبل الثقافة في مصر » وما تناولته الصحف من نقده . قلت نعم ... قال : لقد بلغني أن الرجل لم يكترث بكل ماكتب وأنه مصمم على وضع آرائه في الكتاب موضع التنفيذ باعتباره « مستشار الوزارة » ولم أكن لضيق وقتي قد اطلعت على هذا الكتاب بعد .. وقد اتصل بي بعض أصدقائنا من الغيورين وطلبوا إلى أن أنقد الكتاب ..فلما قلت لهم إنني لم أطلع عليه قالوا: إنه لم يعد هناك وقت وكان يجب أن تكون قد قرأت الكتاب فقد ظهر منذ عدة أشهر والدكتور طه لم يكترث بكل ماكتب ونشر وبكل ماقيل وقد قرر وضع الكتاب موضع التنفيذ ، ولا ينبغي أن يكون هناك تغيير جذري في سياسة البلد الثقافية دون أن يقول الإخوان كلمتهم قال : ولم يكتفوا بذلك بل أخبروني أنهم حددوا موعداً في دار الشبان وطبعوا الدعوات وكان الموعد بعد خمسة أيام . قال الأستاذ : ولما لم أكن أستطيع التحلل من مواعيد كنت مرتبطاً بها في خلال هذه الأيام الخمسة فلم أجد وقتاً أخصصه لقراءة هذا الكتاب إلا فترة ركوبي الترام في الصباح إلى مدرستي وفترة رجوعي منها في الترام . قال : فقرأت الكتاب – لأنه لم يكن كبيراً – وكنت أضع علامات بالقلم الرصاص على فقرات معينة .. ولم تمض الأيام الخمسة حتى كنت قد استوعبت الكتاب كله .

قال الأستاذ : وفي الموعد المحدد ذهبت إلى دار الشبان فوجدتها – على غير عادتها – غاصة .. والحاضرون هم رجالات العلم والأدب والتربية في مصر ، ليس من هو دون هذا المستوى .. ووقفت على المنصة واستفتحت بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ، وبجانبي الدكتور

يحيى الدرديرى السكرتير العام للشبان المسلمين : ورأيت الكتاب كله منطبعاً فى خاطرى بعلاماتى التى كنت علمتها بالقلم الرصاص ...

قال وبدأت أول ما بدأت فقلت : إنى لن أنقد هذا الكتاب بكلام من عندى وإنما سأنقد بعضه ببعضه ... وأخذت – ملتزماً بهذا الشرط – أذكر العبارة من الكتاب وأعارضها بعبارة أخرى من نفس الكتاب .. ولاحظ الدكتور الدرديرى أننى فى كل مرة أقول « يقول الدكتور طه فى الكتاب فى صفحة كذا وأقرأ العبارة بنصها من خاطرى ثم أقول ويناقض الدكتور طه نفسه فيقول فى صفحة كذا وأقرأ العبارة بنصها أيضا من خاطرى » فاستوقفنى الدكتور الدرديرى ، وطلب إلى أن أمهله حتى يحضر نسخة من الكتاب ليراجع معى النصوص والصفحات لأنه قرأ الكتاب ولم يلاحظ فيه هذا التناقض وكأنه لم يقرأ العبارات التى يسمعها الآن .

وأحضر له الكتاب ، وظل يتابعنى فيجد العبارات لا تنقص حرفاً ولا تزيد حرفاً ، ويجد الصفحات كما أحددها تماماً ، فكاد الدكتور الدرديرى يجن كما ساد الحاضرين جو من الدهشة والذهول ، والكل يتجه – كلما قرأت من خاطرى عبارتين متناقضتين – إلى الدكتور الدرديرى كأنهم يسألونه : أحقاً هذه العبارات فى الكتاب ؟ فيقول الدكتور الدرديرى فى كل مرة « تماماً بالنصوص والصفحات » .

قال الأستاذ : وظللت على هذه الوتيرة حتى أنهيت الكتاب كله وأنهيت المحاضرة .... فقام الجميع وفى مقدمتهم الدكتور الدرديرى بين معانق ومقبل .

قال الأستاذ : ولما هممت بالانصراف رجانى الدكتور الدرديرى أن أنتظر برهة لأنه يريد أن يسر إلى حديثاً ، واقترب منى وأسر فى أذنى سراً تعجبت له قال : لما نشرنا عن موضوع محاضرتك وموعدها اتصل بى الدكتور طه حسين وطلب إلى أن أعد له مكاناً فى هذه الدار يستطيع فيه أن يسمع كل كلمة تقولها دون أن يراه أو يعلم بوجوده أحد فأعددنا له المكان وحضر المحاضرة من أولها إلى آخرها ثم خرج دون أن يره أو يعلم به أحد .

قال لى الأستاذ المرشد : وفى اليوم التالى ، طلب الدكتور طه حسين بمكتبه بوزارة المعارف الأستاذ أحمد السكرى وقال له : أحب أن ترتب لى اجتماعاً بالأستاذ حسن البنا فى أى مكان بحيث لا يكون معنا أحد وبحيث لا يعلم به أحد ، وليكن هذا المكان فى بيته أو بيتى أو فى مكتبى هنا ، فليختر واحداً من هذه الأمكنة . قال الأستاذ : وأبلغنى الأستاذ أحمد السكرى بذلك فرأيت أن يكون الاجتماع فى مكتبه بالوزارة .

قال : وبدأ الدكتور طه الاجتماع بقوله : لعلك يا أستاذ حسن لا تعلم بأنى حضرت محاضرتك وبأنى كنت حريصاً على حضورها وعلى الاستماع إلى كل كلمة تقولها لأنى أعرف من هو حسن البنا ، وأقسم لك لو أن أعظم عظيم فى مصر كان فى مكانك ما أعرته اهتماما ....

قال لى الأستاذ المرشد : فشكرته ثم سألته عن رأيه فى المواضع التى وجهت النقد إليها فى الكتاب ، وهل لديه من رد عليها ؟

قال الدكتور طه : ليس لى رد على شىء منها ، وهذا نوع من النقد لا يستطيعه غيرك ، وهذا هو ماعنانى مشقة الاستماع إليك ، ولقد كنت استمع إلى نقدك لى وأطرب ... وأقسم يا أستاذ حسن لو كان أعدائى شرفاء مثلك لطأطأت رأسى لهم ، لكن أعدائى أخساء لا يتقيدون بمبدأ ولا بشرف ، إن أعدائى هم الأزهريون ، وقد ظنوا أنهم يستطيعون أن يمحوا اسمى من التاريخ ، ولقد كرست حياتى لإحباط مكايدهم ، وهأنذا بحمد الله فى الموضع الذى تتقطع أعناقهم دونه ... ليت أعدائى مثل حسن البنا إذن لمددت لهم يدى من أول يوم .

ثم قال الدكتور طه : هل هناك سوى ذلك مما قد تختلف عليه مما تعرفه عنى ؟

قلت : هناك قضية العلم والدين ، إنكم تنادون بأن يكون الدين فى خدمة العلم ، وهو الرأى الذى تقوم عليه الحضارة الحديثة فى الغرب ... وهذا الرأى خاطىء لأن معناه أنه إذا اصطدم الدين مع العلم فى أمر من الأمور نبذ الدين واتخذ العلم ديناً .

يجب الفصل بين العلم والدين ، لأن الدين حقائق ثابتة والعلم نظريات متطورة ، فإذا ألبسنا العلم ثوب الدين جمدنا العلم ، وإذا نحن أخضعنا الدين للعلم ، فلسفنا الدين فأخرجناه بذلك عن طبيعتة ولم يعد ديناً .

قال الأستاذ : ثم تناقشنا فى مواضيع مختلفة تدور حول طبيعة الفكرة الإسلامية ومدى إحاطتها بكل نواحى المجتمع فكان آخر حديث لى بعد أن تحدثنا أكثر من ساعتين أن قلت له : لو أن أصحاب الآراء حين يختلفون حول أمر من الأمور لم يعتقد كل منهم أن رأيه هو الصواب كله وأن آراء غيره هى الخطأ كله بل أضاف إلى اعتقاده فى صحة رأيه اعتقاداً بأنه قد يكون فى آراء الآخرين نوع من الصواب وإن لم يبن له ، .. لما اشتد الخلاف ووصل إلى خصومة تطمس فى ظلماتها معالم الحقيقة . وينقلب النقاش من كونه وسيلة للبحث عن الحقيقة إلى محاولة للانتصار للرأى والمجادلة بالباطل . قال الأستاذ وقلت له : إن خير مثل يوضح ذلك ما ذكره الإمام الغزالى من أن أربعة من العميان وقفوا حول فيل فلمس أحدهم أقرب مايقابله منه فكان الخرطوم فقال إن الفيل ماهو إلا خرطوم طويل رفيع ، ولمس الثانى أذن الفيل فقال : لا إن الفيل هو صفحة جلدية واسعة ، ولمس الثالث رجل الفيل فقال : لا ... بل هو عمود مستدير ، ولمس الأخير جسم الفيل فقال لا : بل هو حائط عريض أملس ... قال الأستاذ : فلو أن هؤلاء الأربعة لم يتعصب كل منهم لرأيه وتركوا فرصة للتفاهم فيما بينهم .. ولا يمكن تفاهم إلا إذا أفترض كل منهم أن يكون فى رأى غيره بعض من الحقيقة – لامتدت يد كل منهم إلى مواضع أيدى زملائه فيلمس مالمسوا فتتكون عندكل منهم صورة كاملة عن الفيل .

هذا ... وبعد أن رويت عن الأستاذ المرشد مارويت فى هذه الواقعة ، يجدر بى أن أقرر –

تحرياً للصدق ، وصوناً لأمانة النقل – أنني أسجل مادار في هذه اللقاءات بعد ستة وثلاثين عاماً من سماعي إياها فقد أكون أنسيت بعضاً منها – ولقد أنسيت بغير شك الكثير – ولقد لا يكون تعبيري عن البعض الباقي في الذاكرة منها دقيقاً تمام الدقة... لكنني كنت حريصاً على تسجيل الخطوط العريضة منها ، وتسجيل أن من آثار هذا اللقاء أن عدل الدكتور طه حسين عن آرائه التي سجلها في كتابه هذا وفي كتبه ومقالاته التي سبقته وكان له في بقية في حياته خط آخر استحق به أن يكون عميد الأدب العربي .

عودة الى البناء الداخلي للدعوة

بعد هذا الاستطراد الذي تناولنا فيه تجربة مغاغة والمواجهة بين الأستاذ المرشد وطه حسين ، نرجع إلى ما خصصنا له هذا الفصل مما يتصل بالبناء الداخلي للدعوة فنقول : سافرت إلى القاهرة ناوياً الإقامة فيها فرأى الأستاذ المرشد أن يسند إلى بعض مهام الدعوة حيث كنت في تلك الأثناء متفرغاً فكلفني بالإشراف مع الصحافة والطلبة .

١ – صحافة الدعوة

مجلة التعارف

بعد أن فقد الإخوان مجلة النذير في أعقاب الفتنة الأولى لم يعد للإخوان مجلة يملكون امتيازها فلجأوا إلى استئجار مجلات كان أصحابها قد حصلوا على الترخيص بها لا لإصدارها لحسابهم – لأنهم يعجزون عن ذلك – وإنما فعلوا ذلك حتى تستأجرها منهم هيئة من الهيئات..وقد ظل المركز العام منذ انتقاله إلى الحلمية الجديدة يستأجر مجلات من هذا النوع عدة سنوات وكلما صودرت واحدة استأجر أخرى ومن هذه المجلات النضال والمباحث والتعارف ...

والمجلة التي أسند إلى الإشراف عليها كانت مجلة التعارف ، وكان إشرافي عليها في الفترة التي سقطت فيها فرنسا في يد الألمان ، وكان لسقوطها دوي هائل في أنحاء العالم لأنها لم تستطع الثبات أمام هجمات الألمان حتى ركعت على ركبتيها واستسلمت وتألفت فيها حكومة جديدة على رأسها الماريشال بتيان وكان من أشهر القواد الفرنسيين ، وقد صرح تصريحاً مشهوراً سجله التاريخ أقر فيه بأن هذه الهزيمة المنكرة إنما تعزى إلى الإنهيار الخلقي الذي انحدر إليه الشعب الفرنسي .

وكان هذا التصريح مثار تعليقات في الصحافة العالمية لأمد طويل لأن سقوط فرنسا بهذه

السرعة كان مفاجأة أذهلت العالم كله .. وكان أشد الناس اهتماماً بتصريح الماريشال بيتان أولئك الذين ظلوا سنين طويلةمن قبل يحذرون شعوبهم وحكوماتهم من سوء العاقبة إذالم يتمسكوا بأهداب الدين والخلق .. وكان الإخوان المسلمون فى مصر على رأس هذا الصنف من الناس وكانت مجلتهم هى المرآة التى تعكس مدى اهتمامهم بهذا التصريح فظلت تكتب أمداً طويلا المقالات الضافية تعليقاً على سقوط فرنسا وأسباب هذا السقوط التى اعترف بها ماريشال فرنسا

وكانت هناك سلسلة متصلة من المقالات فى هذا الموضوع دبجها يراع طالب بكلية أصول الدين كانت قطعاً أدبية بالغة الروعة ، فلما وصلتنى المقالة الأولى منه أخذت بروعتها ولكننى حين رتبت وضع المقالات فى المجلة جعلتها فى الصفحات الداخلية باعتبار أنها على كل حال من كتابة طالب ولكننى حين عرضت على الأستاذ المرشد الترتيب الذى هيأته للنشر توقف عند هذه المقالة وقال لى : ألم تأخذ بلبك هذه المقالة ؟ قلت : بلى . قال : ولم لم تجعلها المقال الافتتاحى إذن : ألأنه طالب ؟ قلت : هذا فعلا هو السبب . قال : أرى أن تجعلها المقال الافتتاحى وأن تجعل كل مقالاته دائماً المقالات الافتتاحية لأننى أشم فى كتابته أدب الرافعى رحمه الله . وقال لى : إنه الرافعى الصغير ، وكان هذا الطالب الذى أطلق عليه الأستاذ المرشد لقب «الرافعى الصغير » هو إسماعيل حمدى الطالب إذذاك بكلية أصول الدين ، وكنا إذذاك فى الأجازة الصيفية فكان يرسل إلى مقالاته تباعاً من بلدته « إمرى ».

وبهذه المناسبة أذكر أن الأستاذ المرشد كان يضع أدب الرافعى فى أعلى مراتب الأدب فى عصره وينظر إلى الرافعى باعتباره رائد الأدب الإسلامى ، وناهيك بمن يحله الأستاذ المرشد هذا المحل ، فالأستاذ المرشد كان هو الرجل الذى لو شاء أن يتخصص للكتابة الأدبية لملك ناصيتها ولكان قمةالأدب ولما لحق به كل من تسنموا هذه القمة ... فكان رحمه الله – وهو صاحب الدعوة الإسلامية فى هذا العصر ... يرى الرافعى رحمه الله فى مقام حسان بن ثابت فى عصر النبوة ... وكان – كما ألمحت من قبل – يحفظ الكثير من شعر الرافعى مع أن أكثر الناس – وكنت منهم – لايعرفون أن الرافعى كان شاعراً كما كان ناثراً ولايعرفون أن له ديواناً مطبوعاً ، وأنا شخصياً لم أر هذا الديوان إلا عند الأستاذ المرشد ، ولاشك فى أن القوى الخفية المعادية للفكرة الإسلامية كانت من وراء حجب ما أمكنها حجبة من أدب الرافعى عن الجمهور لأنه كان أدباً نفاذاً إلى القلوب صادراً من قلب يضطرم باسمى العواطف الإسلامية . وحسبك أن تستمع إلى نشيده الوطنى الذى اخترق بأعجوبة هذه الحجب المصطنعة فردده الشعب فى أثناء صحوة من صحواته الوطنية والذى فاصلته :

لك يامصر السلامه وسلاماً يابـــلادى
إن رمى الدهر سهامـــاً اتقيهـــا بفـــؤادى
واسلمى فى كل حين

ومن أبياته التى كان الأستاذ المرشد يتمثل بها قوله :

لو كل مزمار لهو عنـــدنا خنث لنـــابه مدفع فنـــانه بشع
إذن لكانت لنـــا بين الورى لغة متى تقل قولهـــا فى العالم استمعوا

وكان الأستاذ المرشد حريصاً على تربية خليفة يخلف الرافعى فى أدبه لأن الدعوة الإسلامية لاتستغنى عن قلم يدافع عنها فى عالم الأدب ويرفع رايتها بين الرايات فيه ، وكان يرشح اثنين لهذه الخلافة : إسماعيل حمدى، وعبد المنعم خلاف؛ وكان يعمل دائماً على إفساح الطريق لهما بكل ما يستطيع من وسائل ولكن يبدو أن النكبات التى توالت على الدعوة لم تدع لهما فرصة .

وكان من الكتاب الذين يوصينى الأستاذ بالعناية بهم وإفساح المجال لمقالاتهم« محمد الغزالى » الذى كان إذذاك طالبا بكلية أصول الدين أيضا فقد كان الأستاذ المرشد يبدى إعجابه بقلمه وبأسلوبه .

مجلة المنار :

مجلة المنار هى المجلة التى كان يصدرها ويحررها الأستاذ الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله، وكان قوامها ماينشره فى صدرها من تفسير القرآن الكريم للشيخ محمدعبده ، حيث كان الشيخ محمد عبده يلقى درساً فى جامع الأزهر فى تفسير القرآن تحضره مجموعة من صفوة العلماء ورواد الفكر والأدب والوطنية وكان له فى مقدمتهم زميله وأقرب تلامذته إلى نفسه الشيخ محمد رشيد رضا .. وكان الشيخ محمد رشيد رضا حريصاً على كتابة مايلقيه أستاذه فى الدرس وينشره فى هذه المجلة تباعاً . ولما كان الشيخ محمد عبده على رأس رواد الفكرة الإسلامية فى هذا العهد وصاحب نظرية إصلاحية أبرزت الفكرة بصورة شاملة مما لم يكن للناس ولا لعلماء الأزهر بها عهد ، فقد كان تفسيره للقرآن طرازاً جديداً من التفسير تهافت الناس على قراءته فى أنحاء مصر وفى أنحاء العالم العربى والإسلامى وكانت الوسيلة الوحيدة إلى ذلك هى اقتناء مجلة المنار ... وبذلك حظيت هذه المجلة من الذيوع والانتشار مع التوقير والاحترام بما لم تحظ به مجلة أخرى فى العالم العربى والإسلامى لا سيما فى أوساط العلماء والأدباء والمثقفين .

ولما اختار الله الشيخ محمد عبده إلى جواره واصل الشيخ محمد رشيد رضا إصدار المنار

مقتفيا أثر أستاذه فى التفسير بنفس الأسلوب وبنفس المستوى حيث كان الشيخ رشيد فى درجة من العلم والإدراك والإحاطة لاتقل عن درجة أستاذه فيها ... ولذا فقد ظلت المنار بعد وفاة الشيخ محمد عبده فى مكانها الرفيع من نفوس العالم العربى والعالم الإسلامى .

على أن المنار لم تكن قاصرة على مقال التفسير — وإن كان مقال التفسير يشغل أكثر صفحاتها — بل كانت تحفل بمقالات وبحوث وفتاوى كان أكثرها بقلم الشيخ رشيد ، وإن كانت لا تخلو من مقالات قليلة لبعض كبار الكتاب الإسلاميين حيث لا يجرؤ أكثر الكتاب على التقدم إليها بمقالاتهم ....

وظلت « المنار » فى مكانها الرفيع حتى اختار الله الشيخ رشيد إلى جواره وكان قد وصل فى التفسير إلى سورة هود ، فأخذت أسرة الشيخ رشيد فى البحث عن أكبر عالم فى العالم العربى ليخلف الشيخ رشيد فى المنار حتى وفقوا إلى طلبتهم فأسندوا تحريرها إلى عالم جليل من سورية لا أذكر اسمه الآن فحاول متابعة التفسير على مستوى الشيخ رشيد فأتم تفسير سورة يوسف وهنا فوجىء الأستاذ بأسرة الشيخ رشيد تطلب إليه أن يقوم بأعباء « المنار » .

ولم يكن الأستاذ المرشد غريباً على أسرة الشيخ رشيد فلقد كان على صلة وثيقة بالشيخ منذ كان طالبا بدار العلوم وكانت دار مجلة « المنار » ملتقاه بأكثر من التقى بهم من رجالات الحركة الإسلامية فى ذلك العهد واتخذت أكثر القرارات فى مواجهة المؤامرات ضد الإسلام فى هذه الدار ، وظل الأستاذ على اتصال بالشيخ بعد قيام دعوة الإخوان وكان يستشيره فى كثير من الأمور .

تردد الأستاذ المرشد أمام طلب أسرة الشيخ مع علمه بأن إسناد تحرير « المنار » إليه شرف لايعادله شرف واعتراف له بالزعامة العلمية والأصالة الإسلامية ، ولكن تردده بل رفضه الذى صرح به لأسرة الشيخ كان لسببين يكتمهما عن الأسرة هما :

أولا : أن إسناد تحرير « المنار » إليه سيقتطع من وقته جزءاً كبيراً لأنه سيضطر — أخذا بطريقة الشيخ ومتابعة لخطته ومحافظة على مستوى المجلة — إلى تحريرها كلها بنفسه ، ولما كانت الدعوة لاتتيح له هذا الوقت فإنه يخشى أن تطغى واحدة منهما على حق الأخرى .. وفى حين أن الدعوة لا تستغنى عنه فقد يجدون هم فى العالم الإسلامى من يقوم بأعباء « المنار » .

ثانيا : أنه حرصاً منه على استمرار صدور « المنار » باعتباره أحد المعالم الإسلامية يرى أن لايصدرها هو ، حتى تكون فى مأمن من المكايد التى يدبرها أعداء الإسلام الدعوة ومنها

مصادرة صحفها وسحب تراخيصها ، وقال لهم : إنى مع حرصى فى هذا الطور من أطوار الدعوة على تجنب الاصطدام بالسلطات فإنهم ألغوا لنا عدة مجلات كنا نستأجرها ونصدرها ... وقال لهم : إن أعداء الدعوة من الخسة والنذالة بحيث لا يتورعون عن إلغاء « المنار » نكاية فينا لأنهم لاوازع لهم من دين أو خلق أو حياء .

وأصر الأستاذ المرشد على الرفض وأصرت الأسرة على إلزامه حتى اضطر أخيراً إلى النزول على إرادتهم بعد أن بين لهم المخاطر .

وأصدر الأستاذ « المنار » وصار يحرر أكثر ما فيها بقلمه وبدأ فى التفسير حيث انتهى سلفه فبدأ بتفسير سورة « الرعد » فخرجت « المنار » تفسيراً وتحريراً فى المستوى الرفيع الذى اعتاده قراؤها فى العالم الإسلامى أيام الشيخ محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا .

وكان لإصدار الأستاذ المرشد مجلة « المنار » أصداء فى الأوساط العلمية الإسلامية عبر عنها الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر فى ذلك العهد بمقال قدم به الأستاذ المرشد إلى قراء المنار أنصف به الرجل الأستاذ المرشد إنصافاً أقر له بالإمامة فى العلم وفى الدعوة .

وصدر من المنار بضعة أعداد ثم أصابته جائحة من الجوائح الحكومية وانقطع عن الصدور مع انقطاع المجلة الأسبوعية .

الشهاب : ثم أصدر الأستاذ « الشهاب » وهو بديل للمنار وفى نفس اتجاهه ومستواه وبعد أن صدرت منه بضعة أعداد كان مصيره مصير سابقيه .

٢ ــ الطلبة :

كانت المهمة الأساسية التى أسندت إلى وشغلت وقتى كله وجهدى كله فهى مرور دائب لا ينقطع على المدارس والمعاهد والكليات وزيارات للعواصم ومحاضرات ومساجلات ومناقشات ومؤتمرات خاصة بالطلبة كنا نعقدها بدار جمعية الشبان المسلمين وكان الأستاذ يوليها أعظم اهتمام تصدر عنها مقررات تطبع وتوزع فى القاهرة والأقاليم .

ندوة الخميس : وهى أسلوب استحدثته لمخاطبة الطلبة فقد رأيت أن « حديث الثلاثاء » غير كاف للإجابة على كل ما تختلج به نفوس الطلبة وعقولهم من أحاسيس ومشاكل وأفكار مع أن الأستاذ المرشد كان حريصاً على أن يطرق فى حديث الثلاثاء مواضيع شتى تمس جميع الفئات .

وقد اقترحت على الأستاذ المرشد أن يخصص يوماً فى الأسبوع للطلبة وحدهم يتقدمون فيه

بأسئلتهم ويجيب هو عليها . وبدأنا هذا الأسلوب عن طريق أسئلة شفهية يقوم الطالب فى الندوة فيلقى سؤاله ويقوم الأستاذ بالإجابة عليه . ثم تبين لى أن لدى بعض الطلبة أسئلة يحجمون عن التصريح بها شفاها فطورنا الندوة إلى أسئلة تكتب وتقدم للأستاذ وهو على المنصة فيجيب عليها ثم تبين لى بعد ذلك أن هناك أسئلة تتلجلج فى نفوس الكثيرين منهم ويستحيون أن يتقدموا بها ولو مكتوبة – حيث كنت أتسلمها طيلة أيام الأسبوع ثم أقدمها للأستاذ عند عقد الندوة .

فأعددنا صندوقاً ثبت على حائط يلقى فيه كل صاحب سؤال بسؤاله مكتوبا ولصاحب السؤال أن لايذكر اسمه .. وفى نهاية الأسبوع أفتح الصندوق وأتناول مافيها من أوراق وأقدمها إلى الأستاذ فيقرأها ويرتبها ويجيب عليها فى الندوة .

وكان لهذا الأسلوب آثار طيبة جداً فى توضيح ماكان غامضا على كثير من الطلبة من الحقائق والمواقف فى الفكرة الإسلامية وغيرها ، كما أنه كان وسيلة ناجحة لحل مشاكل عائلية وعقد نفسية كانت مستعصية ماكان هناك من سبيل للكشف عنها ومعالجتها بغير هذا الأسلوب .

وعن طريق هذا الأسلوب الذى وفقنا الله إليه تخرج من هذا الرعيل من الطلبة أفواج انتشرت فى أنحاء البلاد فكانوا منار هدى ودعاة خير لأنهم صاروا بهذا الأسلوب دعاة مستبصرين .

من آثار النظام الإدارى التربوى الإخوانى :

تحدثت عن النظام الإدارى الذى أخذت به الدعوة حين انتشرت فى أنحاء البلاد واقتضى الأمر أن يرتبط الإخوان بنظام تتسلسل فيه القيادات ويسهل عن طريقه الاتصال بين أعلى قيادة وأبعد فرد فى أقرب وقت ، وتتوزع فيه المسئوليات توزعاً يفتت نظام المركزية الذى من من طبيعته أن تنعدم فيه الفرص لتكوين الشخصية فى التابعين ، فى حين أن طبيعة الإسلام وأساسه توفير جميع العناصر التى تكون الشخصية لكل فرد من أتباعه « أن لا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ماسعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى »

ولاشك فى أن هذا النظام الإدارى قد آتى أكله ، وأثمر أينع الثمر ، فلقد كنت تحضر جلسة من جلسات أصغر وحدة من وحدات هذا النظام الإدارى وهى مجلس الإدارة لشعبة فرعية ، فتحس كأنك جالس وسط برلمان يتجلى فيه النظام والديمقراطية بأجلى معانيهما ، فالمناقشات تدور فى حدود جدول أعمال يقدمه نائب الشعبة فيدلى كل برأيه متوخياً المصلحة العامة مهتدياً بأضواء الفكرة الإسلامية دون أنانية ولا تعصب ، وتتلاقح الآراء ويخرجون منها بالرأى

الذى ينتهون إليه سواء بإجماعهم أدو بأغلبيتهم ... وتلمح فى عيون الجميع ابلحدوالأهتام حين يدرسون مواطن الضعف فى قريتهم وكيف يعالجون هذه المواطن كأن الواحد منهم يدرس أخص مصالحه الخاصة ، وبعد أن يشخصوا أنواع الضعف ويضعوا علاجاً لكل نوع يوزعون مسئوليات هذا العلاج على أنفسهم وعلى زملائهم بالشعبة فيعرف كل منهم ماهو منوط به من بذل أو عمل ... وبعد ذلك كله يتكلمون عن مسئولياتهم العامة أمام أمتهم باعتبارهم أعضاء فى دعوة مهمتها إصلاح مرافق الأمة الإسلامية بالأسلوب الإسلامى الحكيم ... وحين تسمع حديثهم فى هذه الناحية تنسى أنك فى قرية صغيرة فى أطراف البلاد وأنك بين أفراد من هذه القرية أقرب وصف لهم أنهم أميون أو أشباه أميين ... ولكن المثير حقاً هو ما لهذه الدعوة الإسلامية من صبغة يصطبغ بها المنتمون إليها فتطلق فيهم هذه الصبغة من طاقات الفهم والإدراك وحسن التقدير وواسع الإحاطة ما يسمو بهم إلى أعلى المستويات مهما كانوا من قبل فى أدناها .

وتحضرنى فى هذا العدد واقعة حدثت فى خلال هذه الحقبة من الزمن التى نعالج وصف حال الدعوة فيها وقد حدثنى صاحبها عنها فى وقتها :

وصاحب هذه الواقعة كان أخاً صغيراً من إخوان شعبة فوة وكان إذ ذاك فى سن دون العشرين اسمه الأخ مصطفى عنانى وكان يعمل نجاراً فى ورشة والده ولم تتح له الظروف أن يحصل على أدنى قسط من التعليم لكنه كان ملماً بشىء من مبادىء القراءة والكتابة ، فلما شب وصار فى السن الذى ذكرت كلفه والده بأن ينوب عنه فى شراء الخشب الذى يلزمهم من الإسكندرية ، فكان إذا أعد نفسه لهذه المهمة لبس « بدله » بدلا من ملابس الشغل ، وكان سفره دائما فى الدرجة الثالثة من القطار ... وكان طلاب جامعة الإسكندرية من أهل دمنهور وما حولها يذهبون صباح كل يوم إلى الإسكندرية بالقطار ويرجعون إلى دمنهور بعد انتهاء الدروس بقطار المساء .

قال لى الأخ مصطفى : أنهيت عملى فى الإسكندرية فى ذلك اليوم وذهبت إلى محطة الإسكندرية لأخذ القطار الذى يوصلنى إلى دمنهور كالمعتاد حيث دمنهور هى المحطة الأولى فى ذلك الوقت بين الإسكندرية وفوة - قال فوجدت القطار مزدحماً أشد ازدحام فى الدرجة الثالثة فانتقلت إلى عربة من عربات الدرجة الثانية فوجدت أحد دواوينها مكاناً شاغراً فاقتحمت إليه وجلست فيه .. وتحرك القطار فلاحظت أن السبعة الموجودين معى فى الديوان من طلبة جامعة الإسكندرية وأخذوا يتناقشون فى المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى كانت تشغل بال الناس فى ذلك الوقت ، وظلوا يتناقشون وأنا أستمع فكنت أنا الوحيد الذى ألتزم الصمت فى حين تكلم الجميع .. ويبدو أنهم لم يعتادوا أن يروا فى مجتمعهم هذا من يلتزم الصمت فاتجه نحوى أحدهم وسألنى

لم لم تشترك معنا فى الحديث ومارأيك فيما أثير من موضوعات ؟ فاعتذرت إليهم من هذا الصمت ودخلت معهم فى المناقشة وأخذت أتناول كل موضوع أثاروه وأحلله وأناقشه فى ضوء الدعوة فرايت الجلسة قد تغير وضعها واتخذت وضعا آخر ، فبعد أن كان النقاش يدور بحيث ينبادلون الحديث فيأخذ كل منهم بطرف رأيتهم جميعا قد التزموا الصمت واتجهوا إلى بأسماعهم وأبصارهم . قال وظللت فى تناولى للمواضيع المثارة بالأسلوب الذى ذكرت حتى أتيت عليها جميعاً ، وحينئذ كان القطار قد قارب محطة دمنهور ، فتقدم إلى كل واحد من السبعة يريد أن يتعرف على وسألونى فى أى كلية أنت ؟ فابتسمت فقالوا لا تؤاخذنا فى هذا السؤال فنحن نعرف أنك لا بد أن تكون طالبا فى الدراسات العليا ولكننا نحب أن نتعرف على كليتك لأننا معجبون بمعلوماتك وثقافتك العالية وهذه فرصة نحب أن لا تفلت منا لنحرص كل يوم على أن تكون معنا فى قطار واحد وفى ديوان واحد لنستفيد منك ... قال الأخ مصطفى فابتسمت أيضا وكان القطار قد أوشك على دخول المحطة فقلت لهم : إننى لست فى جامعة الإسكندرية ولكننى فى جامعة أعظم منها قالوا : فى جامعة القاهرة قلت : لا بل جامعة أعظم قالوا : أين هذه الجامعة ؟ قلت لهم : أنا فى جامعة الإخوان المسلمين وأنا لست طالبا وإنما أن نجار لا أكاد أحسن القراءة والكتابة ولكننى تربيت فى هذه الجامعة فخوجت منى مانرون ، ومع ذلك فما أنا إلا من أصغر طلابها ... قال الأخ مصطفى فكانت هذه الجلسة أعظم دعاية عملية للدعوة . وأن صياغتها للنفوس والعقول تأتى بما يشبه المعجزات .

وقد أوردت هذه الواقعة لأبين للقارىء بياناً عمليا ما نوهت عنه من المستوى الرفيع الذى صاغت الدعوة فى قالبه المؤمنين بها والعاملين لها والداعين إليها وأن هذا المستوى الذى تلمسه فى أعلى الهيئات الإدارية فى القاهرة ستجده هو نفسه فى الهيئة القائمة على الدعوة فى القرية النائية ، فليس هذا المستوى الذى بهر به طلبة جامعة الإسكندرية كان خاصا بالأخ مصطفى بل هو مستوى إخوانه فى الشعبة وفى مختلف الشعب « صبغة الله ومن أحسن صبغة ونحن له عابدون »

وهذه الصياغة التى صاغتها الدعوة للإخوان المسلمين ليست بدعاً ، وإنما هى طبيعة هذه الدعوة ودأبها وديدنها فهى التى صاغت من الرعيل الأول عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح وسعد ابن أبى وقاص وخالد بن الوليد وأسامة بن زيد وأبا ذر الغفارى والمثنى بن حارثة ، وإخوانهم فلم يكن هؤلاء من العلماء الذين درسوا علوم الاجتماع والتاريخ ولا فنون الحرب والسياسة حتى صاروا أعلاماً فى هذه العلوم والفنون بل كانوا رجالا كسائر رجال الجزيرة العربية الذين سماهم القرآن « الأميين » (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته

ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم »»

ثم إن هذا البرلمان الصغير فى الشعبة الفرعية للقرية إذا استشكل عليه أمر ولم يستطع أن يصل فيه إلى قرار فإن بجانبه قريباً منه برلماناً أكبر منه للشعبة الرئيسية للمركز حيث يعقد اجتماع دورى فيها يحضره مندوبو الشعب الفرعية وهى فرصة سانحة لدراسة ما استشكل على هذه الشعب من أمور. فإذا تبقى فى هذا البرلمان أمور دون حل فاجتماع المكتب الإدارى كفيل بإيجاد الحلول. وفى نفس الوقت تتبادل الآراء وتناقش المسائل عن طريق آخر هو طريق الدعاة بين الفينة والفينة من المركز العام. الذين يتحسسون أحوال الشعب فى جميع الأنحاء وينقلون نبضها إلى المركز العام ليعالج الأمور على بصيرة .

كما أن هذه التشكيلات المتتابعة فى أنحاء البلاد الساهرة على مايخص كلا منها من مسئوليات للدعوة فى الشئون المحلية تنطلق فى هذا السبيل وهى مطمئنة إلى أن لها ديدباناً فى القاهرة ساهراً لا يغمض له جفن يرقب تطورات الأحوال فى مصر وفى البلاد العربية وفى العالم الإسلامى وفى العالم كله ليسلك بالدعوة السبيل الأقوم إزاء هذه التطورات ، فهو يرقب التطورات كل يوم وكل ساعة فإذا وجد مكتب الإرشاد من هذه التطورات ماعظم عليه معالجته دعا الهيئة التاسيسية التى لكل هذه التشكيلات فى داخل البلاد أضلاع فيها لتصدر الرأى الباث والقرار الأخير .

هل تقليد هذا النظام كاف لاثمارة نفس الثمر ؟

هذا النظام الإدارى المحكم الحلقات ، ماكان لينجح ويؤتى ثماره ، لولا أنه كان مطعماً بنظام آخر تربوى روحى هو نظام الكتائب .. كان نظام الكتائب يسرى فى النظام الإدارى على اختلاف درجاته سريان الروح فى الجسد فيبعث فيه الحياة والقدرة والحركة ....

ولعل هذا هو السر فى أن هيئات كثيرة بعضها شعبى وبعضها رسمى أخذت بالنظام الإدارى للإخوان المسلمين أخذاً كاملا ولكنها فشلت ، ولم تصل به إلى شىء مما يعود عليها بفائدة أو بتماسك أو بترابط أو بنفع بل كان وبالا عليها وثقلا جديدا أضيف إلى ثقالها وحملا على كاهلها ومعوقا فى طريقها ، فلقد أخذت الهيئات بالجسد دون الروح ....

وقد تستطيع بشىء من الإنفاق أن يصنع لك الفنانون هيكلا رائعا لجسد عظيم ، ولكنك مهما أنفقت لن تستطيع أن تجد من ينفخ فى هذا الهيكل الروح « لو أنفقت مافى الأرض جميعاً

ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

قسم الأخوات المسلمات :

كان واضحاً فى ذهن حسن البنا أن دور المرأة فى الإسلام دور خطير ، له أثره البعيد فى تكوين الرجال وأمهات المستقبل ... والدعائم التى أرتكزت عليها دعوة الإخوان المسلمين هى تكوين الفرد المسلم ثم الأسرة المسلمة ثم المجتمع المسلم الذى يلد الحكومة المسلمة .

وحين أسس الأستاذ المرشد أول دار للدعوة فى الإسماعيلية وأنشأ مسجداً ، اتبع ذلك ببناء مدرستين إحداهما للابناء سماها « معهد حراء الإسلامى » والأخرى للبنات أطلق عليها « مدرسة أمهات المؤمنين » وقد عنى بهذه المدرسة عناية كبيرة -حيث لم تكن فكرة تعليم البنات قد وضحت بعد فى أذهان المسلمين - فوضع لها منهاجاً إسلاميا عصرياً يجمع بين أدب الإسلام وتوجيهه السامى للبنات والأمهات والزوجات ، وبين مقتضيات العصر ومطالبه من العلوم النظرية والعلمية والعملية .

وقد أدت المدرسة رسالتها فاستتبع ذلك إنشاء قسم للأخوات المسلمات سمى فى أول الأمر « فرقة الأخوات المسلمات » يتألف من نساء الإخوان وقريباتهن ، وتقوم بالتدريس فيه مدرسات على كفاءة خاصة من أهل الإسماعيلية نفسها .

ووضع الأستاذ لهن لائحة خاصة تنظم طرائق السير ووسائل نشر الدعوة بين السيدات والفتيات من بيوت الإخوان وغيرهن ... وقد جاء « بمذكرات الدعوة والداعية » للاستاذ المرشد فى هذا الصدد وفى صفحة ١٥٠ ما يلى :

لائحة فرق الأخوات المسلمات :

« وللذكرى نثبت هنا أول لائحة للأخوات المسلمات ، وكان عليها العمل بالإسماعيلية وبالقاهرة بعد ذلك :

فى غرة المحرم سنة ١٣٥٢ ، ٢٦ إبريل ١٩٣٣ تألفت فى الإسماعيلية فرقة أدبية إسلامية تسمى الأخوات المسلمات ، الغرض من تكوين هذه الفرقة :

التمسك بالآداب الإسلامية ، والدعوة إلى الفضيلة ، وبيان أضرار الخرافات الشائعة بين المسلمات .

وسائل الفرقة : الدروس والمحاضرات فى المجتمعات الخاصة بالسيدات ، والنصح الشخصى والكتابة والنشر .

نظام الفرقة :

١ – تعتبر عضوا فى الفرقة كل مسلمة تود العمل على مبادئها وتقسم قسمها وهو « على عهد الله وميثاقه أن أتمسك بآداب الإسلام وأدعو إلى الفضيلة مااستطعت » .

٢ – رئيس الفرقة هو المرشد العام لجمعيات الإخوان المسلمين ، ويتصل بأعضائها وكيلة عنه تكون صلة بينهن وبينه .

٣ – كل أعضاء الفرقة ومنهن الوكيلة إخوان فى الدرجة والمبدأ ، وتوزع الأعمال التى يستدعيها تحقيق الفكرة عليهن ، كل فيما يخصه .

٤ – يعقد أعضاء الفرقة اجتماعاً خاصاً بهن أسبوعياً يدون فيه ما قمن به من الأعمال خلال الأسبوع الماضى ، ومايرونه فى الأسبوع الآتى .

وفى حالة ما إذا كثر عدد الأعضاء يصح أن يقتصر هذا الاجتماع على المكلفات بالأعمال منهن .

٥ – تصدر اشتراكات مالية اختبارية حسب المقدرة ، وتحفظ فى عهدة إحدى الأخوات للإنفاق منها على مشروعات الفرقة .

٦ – يصح تعميم هذا النظام فى غير الإسماعيلية فى حدود هذه اللائحة .

٧ – يعمل بهذه اللائحة بمجرد التصديق عليها من أعضاء الفرقة التأسيسية ، والتوقيع منهن بما يفيد ذلك .

.... وبانتقال الدعوة إلى القاهرة تكونت بالقاهرة « فرقة الأخوات المسلمات » التى التى صارت فى عام ١٩٤٤ « قسم الأخوات المسلمات » .. وقد اتخذ مقراً له بالمنزل رقم ١٧ شارع سنجر الخازن بالحلمية الجديدة واختار الأستاذ المرشد الأخ الأستاذ محمود الجوهرى سكرتيراً لهذا القسم منذ إنشائه ، وظل هذا الأخ الكريم يباشر هذه المهمة ويؤديها أحسن أداء حتى الآن بمعاونة الأخت الكريمة عقيلته من الله عليها بالشفاء واسبغ عليها ثوب العافية .

وقد ساهم القسم فى المشروعات الاجتماعية النافعة من المستوصفات ودور الطفولة ورعاية

الأيتام والمدارس وتنظيم مساعدة الأسر الفقيرة .. وأنشأ « دار التربية الإسلامية للفتاة » بشارع بستان الفاضل بالمنيرة .

ولما انتشرت الدعوة فى أوساط الفتيات والأمهات فى القاهرة والأقاليم رؤى إدخال تعديل على لائحة القسم تضمن « أن يكون مقر شعب الأخوات المسلمات ودروسهن دور شعب الإخوان المسلمين أو بيوتهم أو المساجد التى يشرفون عليها بشرط أن يلاحظ إخلاء الدور من الإخوان تماماً كلما كان هناك اجتماع أو درس للأخوات» ... وقد انتشرت شعب الإخوات فى القاهرة والأقاليم حتى زاد عددها على المائة شعبة .

وكما كانت جهود الأستاذ – كما ذكرنا من قبل – موجهة فى معظمها للعناية بالطليعة من الجامعيين طلبة وخريجين ، فإنها كذلك وبنفس القدر من العناية والاهتمام كانت موجهة إلى الطليعة من الطالبات والخريجات والمدرسات ، فكان يتعهد هذه المجموعة بالدروس الأسبوعية يلقيها بنفسه ولم يكن يتخلف عن هذه الدروس حتى فى حالة المرض .

ومن هذه الطليعة تكونت لجان الزائرات اللاتى يقمن بزيارات لشعب الأخوات فى أنحاء القطر ويشرفن على سير الدعوة فيها وينظمن إقامة المعارض الإنتاجية للأخوات ويوجهن المؤسسات الثقافية والعلاجية والعملية .

وكان لقسم الأخوات نشاط فى مختلف الميادين حتى إنه فى مارس سنة ١٩٤٦ تقدم إلى المندوب السامى البريطانى بالقاهرة بمذكرة احتجاج على اعتداءات جنود الجيش البريطانى المحتل على الآمنين من المصريين .

علاقة قسم الأخوات بالنظام الادارى للاخوان :

أخرت الحديث عن هذا القسم – مع بالغ أهميته – لأننى وإن كنت أوردته ضمن الأقسام الإدارية للأخوان المسلمين فإننى كنت حريصاً على النأى به عن الارتباط الإدارى وأساليبه .. وقد نشأ حرصى هذا مما كنت ألاحظه من حرص الأستاذ الإمام رحمه الله على هذا المعنى فيما يتصل بهذا القسم الرئيسى الكبير .

ذلك أن مهمة هذا القسم فى رأى الأستاذ رحمه الله هى إعداد جيل من الفتيات والنساء يزود بأعظم قدر من التربية الإسلامية المستنيرة مع قسط من المعلومات الفقهية والتاريخية استعداداً لإنشاء البيوت الإسلامية التى قد تعتمد فى إنشائها على المرأة أكثر مما تعتمد على الرجل ...

فالزوجة هي التي تعين زوجها على النهوض بأعباء الدعوة الإسلامية ، وهي التي تقعد بهمته عنها ، والأم هي التي ترضع أبناءها وبناتها حب الخير وهي التي تدفعهم إلى الشر .

وإذا لم توجد في البناء الإخواني الأم المسلمة الصالحة ، والزوجة المسلمة الصالحة فهيهات أن يقوم هذا البناء مهما كان الرجال مثلا عليا ... ولهذا قام بناء الدعوة حين قام على أساسين معاً ، ففي الوقت الذي ينشأ فيه الرجال شيباً وشباناً كان ينشأ فيه النساء أمهات وأخوات ... جداران متوازيان ومتسامتان ...

ولكن لما كانت فرص الاجتماعات أمام الأخوات غير متاحة بالقدر الذي هي متاحة للإخوان فإن الأستاذ رحمه الله كان حريصاً على أن يجعل هذه الاجتماعات خالصة للتثقيف والتربية دون أن يقتطع من وقتها قليل أو كثير في الانشغال بالشئون الإدارية، كما كان حريصاً على أن لا يضيع جزء من جهود الأخوات في الالتفات إلى المناصب الإدارية والإعداد لها والتطلع إليها مما قد لا يتناسب مع طبيعة المجتمعات النسائية إذا أريد لها الإنتاج دون معوقات .

وربما كان هذا الاسلوب من أهم الأسباب في نجاح التنظيمات النسائية في الإخوان المسلمين بينما فشلت مثيلاتها في جهات أخرى .

ولما كانت دعوة الإخوان المسلمين دعوة عملية لا تعترف بالترف العلمي ولا تقف عند حدود التضلع من العلم الإسلامي لمجرد التضلع ، بل هي حقول تجارب يرى العضو فيها أنه مطالب بتطبيق ما تعلم أولا بأول في هذه الحقول ... في البيت وفي العمل وفي الشارع وفي النادي وفي نفسه أولا ، فإن الأخوات كن كلما تعلمن شيئا من التعاليم الإسلامية يجدن أمامهن حقل التجارب في بيوتهن يطبقن فيها هذه التعاليم على أنفسهن وعلى أزواجهن وأبنائهن وأهليهن .

ومن هنا كانت الدعوة تسير قدماً إلى الأمام لا يعوقها عائق فإن العربة متى كان يجرها حصانان وكلاهما يجر في إتجاه واحد فإنها تنطلق في طريقها آمنة مطمئنة ، إذ كل العوائق الخارجية يمكن تفاديها . أما الذي لا يتفادى ولا يقاوم ولا أمل معه في مواصلة السير فهو العوائق الداخلية .. الناشئة من داخل البيت ومن داخل الأسرة .. وناهيك بعربة يجرها حصانان ، كل يجرها في إتجاه مضاد .

بفضل قسم الأخوات المسلمات — وعلى الأسس القويمة التي أسسه عليها الأستاذ الإمام — أسست بيوت على تقوى من الله ورضوان . وأنشئت أسر متماسكة طاهرة رصينة لا يتطرق إليها

الوهن ولا يعرف طريقها التمزق الذى عصف بكثير من الأسر ... الأم والأب ذوا هدف واحد ، ويرميان عن قوس واحدة .. والابناء والبنات يقتفون آثار الأبوين على هدى وبصيرة .

لقد أثبت هذا القسم جداوته فى كل الأحوال ، فى حال الرخاء وحال الشدة ... وإذا كان تفصيل الحديث عما خاضه الإخوان من غمرات الظلم والإعنات والوحشية لم يحن بعد ، فحسب القارىء فى هذا المقام أن يعلم أن قسم الأخوات المسلمات قد خاض نفس الغمرات وتحملت عضواته من المشقات والأهوال ماقد يفوق ما تحمله الإخوان « وكلا وعد الله الحسنى : »

ولقد بهت الأعداء لما قد فوجئوا به من عمق إيمان الأخوات وشدة ثباتهن على الحق وقوة صبرهن على المكاره واستهانتهن بوسائل التخويف والإرهاب مما ذكر الناس بالسابقات الأوليات من الرعيل الأول من الصحابيات الجليلات – فقد كان منهن من قمن بدور أسماء ذات النطاقين بنت أبى بكر حين كانت تقوم بنقل الطعام والأخبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر خارج مكة بينما كانت قريش قد رصدت مائة ناقة لمن يدلها عليهما ..وكان منهن من ألقى بهن فى غياهب السجون والمعتقلات وكن يسمن فيها العذاب مما ذكر الناس بسمية أم عمار بن ياسر رضى الله عنهم جميعاً .

نظام الأسر :

باعتبار الإخوان المسلمين هيئة من الهيئات ، لها كيان حدده القانون ، ولها نشاط يجرى داخل أبنية فى مختلف البلاد ، تعقد فيها الاجتماعات وتلقى فيها المحاضرات .. كان هذا النظام الإدارى المطعم بأسلوب الكتائب كافيا لربط أواصر الكيانات الإخوانية بعضها ببعض ، .. ولكن باعتبارهم فكرة تحمل أعباء نشرها دعوة فإنهم فى حاجة إلى أسلوب آخر من أساليب الربط أداة من أداوات الاتصال .

والأفكار والدعوات بطبيعتها لا تكاد تنشأ فى مكان حتى ينشأ معها فيه أعداؤها ، ولاتكاد تذيع وتعتنق حتى تجرد لها حملات الهجوم والمطاردة ، ولا تكاد تثبت أقدامها حتى تقتلع اقتلاعا عنيفاً ليلقى بها بعيداً فى غياهب النسيان .

.. أعداؤها حريصون على محو آثارها .. وإذ هم عاجزون عن محو آثارها من النفوس فليسوا بعاجزين عن محو آثارها من الدور والبنيان ... والأنظمة الإدارية مرتبطة بالدور والبنيان فإذا زالت الدور والبنيان فإن الأنظمة الإدارية لا تغنى فتيلا .

وإذن فلابد من رباط يربط معتنقى الأفكار والمستجيبين للدعوات بعيداً عن الدور والبنيان ، ولا يترك

هذه الجموع المؤقتة متبددة ضائعة هائمة على وجوهها إذا فقدت الدور ذات اللافتات وذات المقاعد والمكاتب ... وكان هذا الرباط هو نظام الأسر .

ولم يكن الإخوان المسلمون هم أول من عرف أهمية هذا النظام ، فقد عرفه قبلهم دعوات أخرى ، كما انتظم فى مثله من بعدهم تجمعات أخرى ، لكن هؤلاء وهؤلاء سموه نظام الخلايا ... والفرق بين النظامين فرق كبير ، فنظام الخلايا نظام حيوانى مأخوذ عن الحيوان فالعلاقات فيه علاقات مادة ومصلحة وهذا الرباط يستبيح معه أعضاء الخلية أن يقتلوا عضوا منها إذا استنفدوا جهده ولم يعد صالحاً لحمل أعباء كما يفعل بعض أعضاء خلية النحل فى بعضها الآخر ،ولكن نظام الأسرة الإخوانية يقوم الارتباط فيه على أساس الأخوة والحب والإيثار والتعاون ، يحمل القوى فيها الضعف ، ويفتدى كل عضو فيها بنفسه وبماله الأعضاء الآخرين،ولهذا لم يسمها خلية بل سموها « أسرة » .

وتتكون الأسرة من خمسة أفراد ، وهذا العدد هو أدنى عدد لجماعة تريد أن تؤدى جميع أنشطة الدعوة من دراسة للفكرة ونشر لها والأخذ بتظم التربية البدنية والعقلية والروحية ، مع متابعة تطورات الأحداث ودراسة كل تطور وإصدار القرار المناسب له ، وتلقى التعليمات من القيادة ووضعها موضع التنفيذ والإلمام التام بغيرها من الأسر ، ويمكن التعبير عن الأسرة بأنها هيئة الإخوان المسلمين فى صورة مصغرة ...

وتكوين الأسرة من هذا العدد القليل يسهل لها الوجود فى أى مكان وفى أى وقت دون التقيد بمكان معين أو زمن معين . وللأسرة نقيب هو الذى يتصل بالقيادة المحلية وللقيادات المحلية نقيب يتلقى من القيادة الأعلى وهكذا حتى يكون التلقى فى أوله من المرشد العام ... وللأسرة صندوق للطوارىء ، وهذه الصناديق كلها فى النهاية هى صندوق الدعوة ، وكما أن على الأسرة أن تتلقى التعليمات فلها أن تقترح بنفس الطريق .

ونظام الأسر ليس حلقة مقفلة وليس بالنظام العقيم ، بل هو نظام ولاد مثمر فقد تلد الأسرة نتيجة اتصال أفرادها بمجتمعهم أسراً جديدة بعدد أفرادها ، وتلتزم الأسر الجديدة بنظم الأسرة المقررة من الدراسة والتربية والبذل ونشر الدعوة .—

وهكذا أعد الإخوان المسلمون أنفسهم لمواجهة الظروف التى قد تتعرض لها كل دعوة بهذا الرباط المحكم الوثيق .

النظام الخاص أو الجهاز السرى

قدمت أن الدعوة بانتقالها إلى مقرها الجديد بالحلمية الجديدة قد اشتد عودها وقوى ساعدها وبدأت تبرز قليلا قليلا على مسرح الحياة المصرية ... وأدرك الأستاذ المرشد بحاسة القيادة التى وهبه الله إياها أن أعداء الدعوةالتقليديين وهمالمستعمرون وعلى رأسهم الإنجليز ثم أذنابهم من الحكام المصريين الذين هم اليد التى يبطش بها هذا المستعمر ... أدرك أن هؤلاء الأعداء هم للدعوة بالمرصاد ، وأن الدعوة يجب أن لا تكون فريسة باردة لهم ، بل أن تكون ذات شوكة لا يسهل التهامها ... ومن هنا نبتت فكرة « النظام الخاص » للدفاع عن الدعوة .

وقد أدرك الأستاذ المرشد أن قضية فلسطين هى قضية الإخوان المسلمين ، وأن الإنجليز بتواطئهم مع اليهود لن يعدلوا عن خطتهم ويسلموا البلاد لأهلها إلا مكرهين ، وعلم الأستاذ المرشد أن الإنجليز يسلحون عصابات اليهود ، وأنه لا بد من معركة فاصلة بين الإخوان المسلمين وبين هذه العصابات مادام الإخوان مصرين على تحرير هذه البلاد وإنقاذ المسجد الأقصى الذى هو هدف اليهود الأصيل ...

وأدرك الأستاذ المرشد أن الحكومة المصرية والحكومات العربية حكومات ضعيفة هازلة متخاذلة بل متواطئة ، وأن ليس فى البلاد العربية جيوش سوى الجيش المصرى ، ولكن هذا الجيش من الهزال والجهل وعدم الخبرة بحيث لا يقوى على مواجهة عصابات اليهود المدربة المسلحةبأحدث أسلحة الإنجليزوالأمريكان والتى تحارب عن عقيدة مستمدة من دينهم ... أدرك الأستاذ المرشد هذا أيضاً فكان ذلك حافزاً على سرعة الاستعداد بتكوين « النظام الخاص »

كان ذلك فى عام ١٩٤٠ حين دعا خمسة منا هم صالح عشماوى وحسين كمال الدين وحامد شريت وعبد العزيز أحمد ومحمود عبد الحليم ، وعرض علينا الدواعى التى رآها تقتضى الاستعداد وإنشاء نظام خاص تواجه الدعوة به مسئولياتها فى المستقبل ... واقتنعنا برأيه فكون منا نحن الخمسة قيادة هذا النظام وعهد إلينا بإنشائه وتنظيمه وتدريبه ، على أن يكون على أساس من العسكرية الإسلامية القوية النظيفة ، وعلى أن يحاط بالسرية المطلقة بحيثلا يعرف عنه أحد شيئاً إلا أعضاؤه ، وعلى أن يكون تمويله من جيوب أعضائه لأن علامة الجد فيمن نتقدم للتضحية بروحه أن يضحى بماله ...

ورتب القيادة بحيث يكون صالح عشماوى الأول باعتباره المتفرغ الكامل التفرغ ويليه كمال الدين حسين فمحمود عبد الحليم فحامد شريت فعبد العزيز أحمد .

وعند مباشرة عملية الإنشاء وجدت نفسى أشبه بالعضو المنتدب لهذه القيادة حيث رأيتنى أعمل وحدى ولعل ذلك لأن إخوانى فى القيادة رأوا أنى أوثقهم صلة بالطلبة - باعتبارى مندوبا للطلبة - والطلبة هم العنصر الأساسى فى جميع التكوينات ... وقد تخيرت مجموعة منهم توسمت فيهم الجد وعمق الفهم والاتزان ، وعرضت عليهم الفكرة فاستجابوا لها وكانوا هم نواة هذا « النظام » كما تخيرت أفراداً من شباب الموظفين ومجموعة من العمال الفنيين ذوى الثقافة الإسلامية واستجاب الجميع فكان هؤلاء جميعاً هم الرعيل الأول فى هذا النظام » الذى أطلق عليه بعد ذلك « الجهاز السرى » نظراً لأنه يقوم على السرية المطلقة .

ومما ينبغى التذكير به أن هذا الرعيل الأول قد اشتركوا فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ وقد أبلوا فيها أعظم بلاء شهد به الأصدقاء والأعداء ، وقد استشهد كثير منهم على أرضها الطاهرة .

وكان برنامج المنضوين تحت لواء هذا النظام يقوم على الأسس الآتية :

١ - تقسيمهم إلى أسر - خاصة بهم - مع تسلسل القيادة - مع اشتراكهم فى جميع أوجه النشاط العامة للدعوة .

٢ - دراسة عميقة مستفيضة للجهاد فى الإسلام وما جاء بشأنه فى القرآن الكريم من سور وآيات وما جاء بشأنه فى السنة النبوية والتاريخ الإسلامى القديم والحديث مع أخذ العضو نفسه بأنواع من العبادات والصيام .

٣ - التدريب على الأعمال الشاقة

٤ » على توزيع المنشورات

٥ » على التخاطب والتراسل بالشفرة

٦ - » على استعمال الأسلحة

٧ - المبالغة على السمع والطاعة فى المنشط والمكره وكتمان السر

وقد أخذنا من أول يوم فى وضع هذا البرنامج موضع التنفيذ ، ومن طرائف ما أذكره بهذا الصدد فى الأيام الأولى لهذا التنفيذ : أن أحد الإخوان كان طالبا إذ ذاك فى إحدى كليات الأزهر وكان سمينا وكان التدريب فى ذلك اليوم على القفز من شرفة إرتفاعها ثلاثة أمتار وقد رأيت إعفاء هذا الأخ من القفز فأبى إلا أن يقفز وكادت قفزته تلحق به أذى لولا أن تداركه إخوانه .

كما أننا كنا نطبع منشورات بكلام غير ذى هدف معين غير أنه كلام يلفت النظر ويثير الاستغراب وكان إخوان النظام يوزعونها على المنازل والمكاتب والمتاجر والمدارس والملاهى

بطريقة لا يحس بها أحد مع تخصيص شارع لكل واحد منهم .. ثم يصبح فى اليوم التالى كل عمله فإذا سمعنا من زملائنا فى المصالح الحكومية وفى غيرها من أماكن التجمع استغرابهم لما جاء فى منشور وصل إليهم يقول كذا وكذا علمنا أن التدريب قد نجح .

وكانت المشقة الكبرى أمامنا هى الحصول على الأسلحة ، وقد ذلل لنا هذه الصعوبة أننا كنا إذ ذاك فى السنة الثانية من سنى الحرب العالمية ، وكانت جيوش المحور — ألمانيا وإيطاليا — قد بدأت تطرق أبواب بلادنا من ناحية الصحراء الغربية ، وجلب الإنجليز إمدادات من جنودهم وجنود الإمبراطورية من هنود واسترالين وإفريقيين ... وعن طريق هؤلاء نشأت فى صحراء مصر تجارة السلاح ، فكنا نشترى من هؤلاء التجار بنقودنا القليلة وبما كان يصلنا من مال من الهيئة العربية العليا بفلسطين .

وأقبل خلص الإخوان على الانخراط فى سلك هذا النظام الجديد ، الذى كان ترجمة لماطالما درسوه وسمعوه عن الفكرة الإسلامية الشاملة التى ما قامت إلا لتحرر الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده والتى شرع الله فيها الجهاد دفاعا عن الدين وجعله قمة الأمر وسنامه ليكون وسيلة إلى ذلك .

الابتعاد عن القاهرة :

بعد تجربتى فى موضوع الألبان مكثت فى القاهرة متأهباً لاستئناف تجربة أخرى من العمل الحر بعد أن أقضى فترة تستقر خلالها نفسى ولم يخطر ببالى أن أتقدم إلى عمل حكومى لندرة الأعمال من ناحية ولحقارتها وحقارة السبيل إليها من ناحية أخرى فقد كانت الوظيفة الحكومية على حقارتها لابد للوصول إليها من وساطة من وزير أو كبير وهو ما أربأ بنفسى عنه .

ولكن إعلانا نشر فى الصحف تطلب فيه وزارة المالية ثلاثين من الحاصلين على بكالوريوس الزراعة لتعيينهم فى وظيفة فرازين للأقطان تمهيداً لتمصير هذه الوظيفة التى لم يكن يشغلها حتى ذلك الوقت إلا الأجانب وجاء فى الإعلان أن التعيين فى هذه الوظائف الثلاثين سيكون عن طريق مسابقة تجرى بين المتقدمين

وجاءنى زملائى ليخبرونى بهذا الإعلان الذى جاء فيه ما يغرى بهذه الوظائف من الناحيتين المادية والأدبية ولكننى — لسوء ظنى بالأساليب الحكومية كما قدمت — رفضت مشاركتهم فى التقدم لهذه الوظائف فما كان منهم إلا أن تحدثوا مع الأستاذ المرشد فى ذلك فاستدعانى وأقنعنى بوجوب التقدم لهذه الوظيفة قائلا : هب أنك وجدتها كسائر الوظائف تعتمد على الوساطات

فاذا خسرت ؟ لن تخسر شيئاً إذا أنت توقفت عن المضى فى طريقها ، وقد تكون هذه الوظيفة على غير ما اعتاد الناس وتكون الحكومة هذه المرة جادة فيما نشرت من امتحانات فلا نكون قد أضعنا على أنفسنا الفرصة .

وكان رأى الأستاذ المرشد فى محله وتقدمت فرأيت بنفسى فى الامتحان الأول – الذى تقدم إليه نحو من خمسمائة منهم كثير من الموظفين – زملاء كان معهم خطابات توصية من وزير الزراعة ووكيل وزارة المالية لشئون القطن قدموها إلى لجنة الامتحان ، ولم يكونوا ضمن الستين الذين نجحوا فى هذا الامتحان وكنت أحدهم وقد شجعنى ذلك على دخول الامتحان الشفوى بعد ذلك الذى تمخض عن فوز ثلاثين كنت واحد منهم أيضاً .

ولما كانت زراعة القطن وتجارته تعم أنحاء القطر ماعداالقاهرة فقد كان ابتعادى عن القاهرة أمراً لا بد منه ، وقد رأى المرشد أن أطلب تعيينى فى دمنهور .

عبد الرحمن السندى :

لما استقر الرأى على أن ألتحق بهذه الوظيفة وأن أكون بذلك بعيداً عن القاهرة وكان الأستاذ المرشد على علم بأننى أكاد أن أكون المباشر الوحيد .. دون زملائى فى القيادة – لمهمة الإشراف على «النظام الخاص » طلب إلى الأستاذ أن أستخلف من يباشر الإشراف على هذا النظام .

وقد نظرت فإذا جميع أعضاء هذا النظام مرتبطون بأعمال تشغل أكثر وقتهم وتستفرغ معظم جهدهم والإشراف على هذا النظام يحتاج إلى تفرغ أو مايقرب من التفرغ على الأقل كما يحتاج إلى صفات معينة تتناسب مع خطورة هذه المهمة .

منذ التحقت بكلية الزراعة كنت أسكن بالجيزة ، وفى السنة الأخيرة لى بالكلية اتخذت لى سكنا مع بعض الإخوان فى منطقة خلف مبانى الجامعة تسمى «بين السرايات»وكانت الشقةالتى نسكنها فى الدور الأول من منزل رجل صالح كان يحبنا ونحبه ... فلما جاءه ساكن للدور الأرضى من المنزل رأى أن يستشيرنا ، وكان الساكن طالبا فى كلية الآداب ومعه شقيقه الطالب بالمدارس الثانوية ، فلما التقيت بالشابين وتحدثت معهما شممت فيهما الصلاح والخلق الفاضل فصارا من جيراننا ، وكان هذان الجاران هما عبد الرحمن السندى وشقيقه .

ثم كان أن جاء الأخ عبد العزيز كامل ليلتحق بكلية الآداب وكان من إخوان الإسكندرية الذين أعرفهم ، وكان يريد أن يسكن قريباً منا فسكن مع هذين الجارين مستقلا بحجرة من هذه الشقة .

ولما كانت صلتى بالأخ عبد العزيز تقتضينى أن أكثر من زيارته لأونسه من ناحية ولأنه كان قد التحق بقسم الجغرافيا بكلية الآداب وكنت أحب أن أطلع على بحوث شائقة لهذا القسم فى الأجناس والطبائع وما شابهها من ناحية أخرى .. لذا كثر ترددى على هذه الشقة فكان هذا التردد فرصة لى للتحدث مع الساكنين الآخرين بها

وقد لاحظت على عبد الرحمن هذا الهدوء والرزانة والجد ، كما لاحظت إقباله على إقبالا يوحى بأن الدعوة التى عرضتها عليه تملك شغاف قلبه وتشعر بتشوقه إلى يوم يفتديها فيه بنفسه ، وظللت طيلة ذلك العام على اتصال وثيق به ، حتى إنه كان لشدة ثقته بى ، وفرط حبه لى يعرض على مشاكله الخاصة – فلما وثقت به تماماً عرفته بالأستاذ المرشد باعتباره عضواً «بالنظام الخاص »

وقد فهمت منه فى أثناء ماعرضه على من شئونه الخاصه أن له إيراداً يمكن أن يقوم بشئونه ، فلما كنت بصدد اختيار من يخلفنى فى الإشراف على « النظام الخاص »تذكرت عبد الرحمن فرجعت إليه لألم بظروفه التى طرأت منذ انتهت دراستى بالكلية وغادرت « بين المرايات » ففهمت منه أن كل الذى طرأ عليه هو أنه لم يوفق فى امتحان تلك السنة وأنه الآن يعيد السنة الأولى ...

فشرحت له ظروفى وأننى مضطر أن أكون خارج القاهرة ، وأننى أبحث عن شخصية تخلفنى للأشراف على « النظام الخاص » وأشترط أن تكون مستوفية شروطاً معينة ، وقلت له : إن هذه الشروط تكاد أن تكون مستوفاة فيك عدا « التفرغ » فهو ليس بالأمر الميسور ... فقال لى : إننى أشكر لك حسن ظنك بى ... وأنت تعلم أولا أننى مريض بالقلب ، ومعرض للموت فى كل لحظة ، وأحب أن تكون موتتى فى سبيل الله ... كما تعلم أن لى إيراداً – وإن كان محدوداً – إلا أنه يعيننى على مطالب الحياة الضرورية ... وتعلم كذلك أننى رسبت فى السنة الأولى بالكلية وأننى أعيدها ... وقد إستقر رأيى على الانقطاع عن الدراسة وسألتحق بوظيفةفىوزارة الزراعة بالثانوية العامة ... وبذلك يتوفر لى عنصر التفوغ الذى تطلبه .

وعرضت الأمر على الأستاذ المرشدفوافق عليه ،وأحضرت عبد الرحمن للأستاذ المرشد حيث بايعه أمامى على أن يقود هذا النظام وعلى أن لا يقدم على أية خطوة عملية إلا بعد الرجوع إلى لجنة القيادة ثم إليه شخصياً .

وسار عبد الرحمن بالنظام سيراً موفقاً فحاز حب من يليه من القيادات والأفراد كما حاز ثقتنا حيث كان يرجع إلينا فى كل خطوة عملية بل فيما دون ذلك . ومع وجودى فى دمنهور

كنت أسافر إلى القاهرة فى كل شهر مرة أو مرتين يعرض على عبد الرحمن ماتم فى خلال مدة غيابى ، ومايقترحه للمستقبل .

واتسعت رقعة النظام فى القاهرة ،وأخذت تتشعب فى الأقاليم فضمت صفوة الإخوان فى مختلف البلاد .

أول عمل للنظام الخاص :

كنا فى ذلك الوقت فى أوائل أعوام الحرب العالمية الثانية ، وكانت القاهرة نعج بجحافل الجنود الإنجليز ، وكنت لاتكاد تمشى فى شارع من شوارع القاهرة لا سيما الشوارع الرئيسية خصوصاً بالليل إلا ويحتك بك جماعات من هؤلاء الجنود فى حالة سكر وعربدة ، يهاجمون الرجال والنساء ، ويعبثون بكل ماتصل إليه أيديهم ، فى الوقت الذى تلازمهم فيه أسلحتهم كأنهم فى ميدان القتال .

وجأر الأهالى بالشكوى من عبث هؤلاء الجنود ، ومن كثرة ماجنوه من قتل أبرياء ، وهتك أعراض وتحطيم محلات ، ولكن الحكومات التى تحكم البلاد لم تكن تجرؤ حتى على توصيل هذه الشكاوى إلى مسامع السادة الإنجليز .

ورأى إخوان « النظام الخاص » أن يعملوا عملا يبث الخوف فى قلوب هؤلاء الجنود العابثين ، لعل هذا الخوف يردعهم عن عبثهم حين يشعرون أن الطريق أمامهم ليس سهلا كما اعتادوا ، وأن هناك من يقف لهم بالمرصاد ، وأن حياتهم ستكون ثمناً لهذا العبث .

وقرر « النظام » لكى يكون للعمل أبلغ الأثر أن يختاروا توقيتاً معيناً ومكاناً معيناً ومناسبة معينة ، فاختاروا ليلة عيد الميلاد ، واختاروا النادى البريطانى حيث يكون مكتظاً بالجنود الإنجليز وضباطهم وألقوا عليهم قنبلة لم تقتل أحداً ولكنها بعثت الرعب فى نفوسهم وحققت الغرض منها تماماً فبدأوا يفهمون أنهم يعيشون وسط قوم يستطيعون أن يحفظوا كرامة أنفسهم بأنفسهم وأن يلقنوا من يعتدى عليهم دروساً قاسية ، وقد قبض فى هذا الحادث على بعض الإخوان أذكر منهم الأخ نفيس حمدى الذى كان إذ ذاك طالباً والأخ حسين عبد السميع .

الصاغ محمود لبيب :

ضابط من ضباط الجيش ، كان من القلائل الذين كانت تجيش صدورهم بالحسرة على ماآلت إليه حال بلادهم ، وكانوا يتناجون سراً فيما بينهم ، وكانوا يبحثون عن وسيلة لإنقاذ هذه البلاد من ذل الاستعمار ، ومن غائلة الفساد الذى نشره فى ربوعها .

وكان من رعيل عزيز المصرى وصالح حرب ، وكان ممن رحلوا إلى تركيا فى أثناء أزمتها واضعاً نفسه رهن إشارتها للمحافظة على الكيان الإسلامى الذى كانت تمثله فى ذلك الوقت الخلافة الإسلامية ، وشارك فى كل الحركات العسكرية التى قامت فى مصر وفى غيرها والتى كانت بواعثها وطنية إسلامية .

وقد أحيل الاستيداع مبكراً ولذا كان فى رتبة الصاغ (الرائد) ، ويبدو أن هذا الرجل كان خيراً بطبعه وكان ميسور الحال ... جاء ذكر اسمه على لسانى مرة أمام والدى رحمه الله فقال لى إنه يعرفه إذ كان والدى منتدباً ناظراً لمدرسة بوغاز رشيد – وكان ذلك فى أوائل الثلاثينيات – فذكر موظفو فنار رشيد أن نقطة السواحل التى بجانبهم جاءها ضابط يرأسها اسمه محمود لبيب من أتقى الناس ومن أحسنهم معاملة لمرءوسيه وللناس جميعاً ، ولم يحضر إلى هذه النقطة ضابط نال إعجاب جميع الناس والكل يحبونه إلا هذا الضابط ، قال لى والدى : وقد تعرفت عليه وجلست معه فشعرت بعاطفته الإسلامية الجارفة ووجدتنى أحببته ، إلا أن إقامته فى هذه النقطة لم تطل .

تعرف هذا الرجل على الأستاذ المرشد مبكراً فى أواخر الثلاثينيات ، وكان الأستاذ يحبه ويحترمه ، وكان الرجل – وقد تعرفنا عليه – قليل الكلام .. وكان نواة التكوينات الإخوانية فى الجيش كما أنه كان المشرف على تنظيم التدريبات العسكرية للمدنيين من الإخوان سواء من كان منهم فى « النظام الخاص » وغيره ، وكان هو ممثل الإخوان فى لجان الاتصال بين الإخوان وبين الجامعة العربية فى إعداد متطوعى الإخوان لحرب فلسطين وكان من القلائل الذين كانوا يفهمون الإسلام ديناً ودولة ، وما كاد يعلم بظهور الإخوان المسلمين حتى ألقى بنفسه وماله ووقته وكل مواهبه بين أيديهم ، فقد كانوا أمنيته وحلمه الذى تحقق ... وكان هذا الرجل الصامت من أكثر الإخوان إنتاجاً ، ولم يقبل أن يكون له منصب رسمى من مناصب الهيئة لأنه كان يكره الظهور ويكره أن يعرف الناس إنتاجه ... ومع أنه لم يكن له منصب رسمى فى الدعوة فقد كان الأستاذ المرشد يكل إليه كل ماهو عسكرى فيها فكان بمثابة وكيل الدعوة فى الشئون العسكرية ... وقد لعب فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ دوراً عظيما .

أول محاكمة فى تاريخ الدعوة
اتهام بمحاولة قلب نظام الحكم

كانت النية معقودة عند الإنجليز وأتباعهم من حكام مصر على الوقوف فى وجه المد الإخوانى الذى بدأ وكأنه السيل المنحدر من فوق الجبل . وقد اقتنع هؤلاء – بالتجربة – بأن مواجهة الدعوة

بوسائل العنف والتصدى البوليسى لها لن ينال منها بل قد يزيدها قوة ، ويزيد الرأى العام إلتفافاً حولها ، وإذن فلا بد من إلصاق تهمة ضخمة بهم أولا ، وتدبير مقدمات لهذه التهمة من الإحكام بحيث يكون حكم القضاء فيها ضد الدعوة مضموناً ودامغاً فينتزع هذا من نفوس الشعب الثقة وحسن الظن بهذه الهيئة ، وهنا تتخذ الحكومة إجراءاتها ضدها بحكم القانونوبتأييد من الشعب ... وهكذا درج الإنجليز على أن تكون خططهم فى محاولة القضاء على أعدائهم مبنية على مظهر قانونى مؤثر فى نفوس الرأى العام مثير لمشاعره .

كان ذلك فى أوائل سنى الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٢ ، وكان للإنجليز فى تلك الأيام مؤسسات منتشرة فى معظم عواصم البلاد لتكون عيوناً لهم على تحركات الوطنيين لاسيما الإخوان المسلمين ، وكانت هذه المؤسسات فى مظهرها ثقافية لتعليم اللغة الإنجليزية ونشر الثقافة البريطانية وتسمى هذه المؤسسات « المجالس البريطانية » وكانت تباشر عملها فى اصطياد الوطنيين ذوى النشاط فى المجتمع بواسطة عملاء من المصريين — وما كان أكثر هؤلاء العملاء ، وماكان أحقر نفوسهم ، باعوا أنفسهم للمستعمر لقاء دراهم معدودة ليكونوا سوطاً على ظهور أبناء جلدتهم — وقد عانيت شخصياً من هؤلاء العملاء تجربة قد أشير إليها .

قام « المجلس البريطانى » بطنطا — بالاستعانة بعملائه المصريين — بتلفيق قضية خطيرة ضد الإخوة المسلمين فى شخص فردين من خيرة أفرادهم هما الأخوان محمد عبدالسلام فهمى وجمال الدين فكيه وحشروا معهما خمسة أفراد آخرين .. والتهمة التى وجهوها إليهم « أنهم يعدون جيشاً للترحيب بمقدم «رومل» القائد الألمانى الشهير ، وأنهم يحدثون بلبلة فى الأفكار ، ويعدون عناصر معادية للحلفاء » — ولما كانت البلاد فى حالة حرب مع الأعداء فقد طالبت النيابة بإعدامهم . وسميت هذه القضية بالجناية العسكرية العليا رقم ٨٨٢ لسنة ١٩٤٢ قسم الجمرك وستأتى الإشارة إليها فى موضوع قادم إن شاء الله ...

وكان بطل التحقيق فى هذه القضية هو الأستاذ محمد توفيق رفقى رئيس النيابة الذى سبق التحدث عنه فى المحاولة الأولى لتقديم الأستاذ المرشد إلى القضاء لما نشره فى الصحف عن مطالبته بتسليح الجيش المصرى وتسليح الشعب المصرى .

وقد قدمت القضية أمام محكمة الجنايات العسكرية العليا بباب الخلق وكانت مكونة من خمسة أعضاء برياسة المستشار فؤادبك أنور وعضوية المستشارين محمد توفيق إبراهيم بك وزكى أبو الخير الأبوتجى بك (وكانو يسمونه جارومصر) ومعهم اثنان من العسكريين :

ولا زالت هذه القضية ماثلة فى خاطرى مع مرور أكثر من ثلاثين عاماً عليها ، وهذه

الثلاثون عاماً مليئة بالأحداث الجسام التي كانت جديرة أن تعفى عليها وتمحو من الذهن آثارها .. لكن الذى أبقاها فى خاطرى هو ماكنت ألاحظه من شدة اهتمام الأستاذ المرشد بها ، حتى إنه كان مواظباً على حضور جميع جلساتها ، ولم يكتف بذلك بل كلفنى بالمواظبة كذلك على حضور جلساتها وبأن أكون مجموعة من الإخوان تحضر أيضا وتكون مهمة كل واحد منهم أن يكتب كل مايحدث فى الجلسة وكل لفظ يقال فيها على أن أجمع كتاباتهم فى كل يوم وأستخرج منها صورة كاملة عن الجلسة أقدمها إليه ، وعلى ضوئها يكتب ملاحظات يقدمها لهيئة الدفاع لتستعين بها فى إعداد دفاعها ، وكان الأستاذ يقول لى : « إن هذه القضية تؤرقنى لأنها قد أعدت إعداداً محكماً ، واختير لها وقت يبرر كل إجراء استثنائى ، فالمحكمة عسكرية والمحقق خادم الإنجليز ، وشهود الزور تحت يد الإنجليز ، والحكام المصريون لايكنون لنا خيراً ، وإذ حكم على فكيه وعبد السلام فسيكون ذلك قضاء على الدعوة ، فالشعب لازال فى غفلة ، ويستطيع الحكام اعتماداً على هذا الحكم أن يلوثوا سمعتنا أمام الشعب واتخاذ مايحلو لهم من إجراءات ضدنا »

اتصل الأستاذ المرشد بأشهر المحامين فى مصر وطلب إليهم الحضور فى هذه القضية ، وترك لهم أن يحددوا أتعابهم كما يشاءون ، على أن يولوا القضية كل اهتمامهم ... ولكن هؤلاء المحامين رفضوا أن يتقاضوا أتعاباً وتطوعوا مشكورين ، وأذكر من هؤلاء المحامين الأساتذة محمد على علوية باشا وعبد الرحمن البيلى بك ومحمد فريد أبوشادى بك وعمر التلمسانى وعلى منصور ... ومع أن هذه المجموعة من أعلام المحاماة لم تجتمع فى قضية من قبل فإن الأستاذ المرشد .. رغبة فى إتمام دعم هيئة الدفاع – تاقت نفسه إلى محام كان يعد فى ذلك الوقت الحجة التى يرجع إليها فى معضلات القانون سواء إليه شخصياً أو إلى مؤلفاته وكان عميداً لكلية الحقوق واستقال لا ليترافع وإنما ليستشار فى المعضلات ذلك هو الأستاذ على بدوى بك .

كان الأخ محمد فهمى أبو غدير تلميذه ، وهو الذى لفت نظر الأستاذ المرشد إليه ، ولكن أنى لنا أن يصل إلى قلبه لاسيما ونحن لا نطلب منه مجرد استشارة بل نريده أن يتبنى القضية ويترافع فيها ، وكان فهمى يلمس فيه نزعة إسلامية لكنه لا يجرؤ أن يتفاهم معه فيما نطلب ... وفيما نحن نقلب الأمر تذكر عبد الحكيم عابدين أن الأستاذ الشيخ محمود أبو العيون هو خال على بك بدوى .. وعبد الحكيم أيام كان غارقاً فى بحار التصوف كانت له صلات قوية بكبير أسرة آل أبى العيون الشيخ محمد أبو العيون لأنهم أهل بيت علم وتصوف فانبرى عبد الحكيم لحمل مسئولية موضوع على بك بدوى ... وباتصال عبد الحكيم بخاله الأكبر الشيخ محمد أبو العيون

وبشرح دعوة الإخوان لعلى بك وبسط ظروف القضية والكشف عن أبعادها وهدف الإنجليز من ورائها قبل على بك أن يتبنى القضية ويدافع فيها دون مقابل .

وقد قضى الأخوان الكريمان فكيه وعبد السلام فترة الحبس على ذمة القضية ثمانية أشهر فى سجن الحضرة بالإسكندرية ، ولما حان موعد تقديمها إلى القضاء نقلا إلى سجن الاستئناف بالقاهرة .

وقد استغرقت المحاكمة جلسات كثيرة لا أذكر الآن عددها ، وكانت كل جلسة تستغرق اليوم كله .. وكان الذى يحير فى هو وجه رئيس هذه المحكمة فؤاد بك أنور ، فقد كنت حريصاً على أن ألاحظ ملامح وجهه وما تتركه المفاجآت التى تحدث فى أثناء الجلسات من آثار على هذه الملامح ، لعلها توحى إلينا باتجاه هذا الرجل . ولكننى لم أكن أرى فى هذه الملامح تغيراً حتى أننى كنت أقول للأستاذ المرشد كأن وجه هذا الرجل وجه تمثال .

وكان فى القضية كثير مما يثير سواء فى شهادة الشهود المملاة عليهم أو فى مهاجمة الدفاع لهؤلاء الشهود لإظهار بطلان شهادتهم أو فى مرافعة النيابة وماكالته للإخوان من تهم الخيانة العظمى وماطالبت به من تطبيق مواد الإعدام .. والذى يسمع مرافعة النيابة ومادعمت به من أدلة ومضبوطات وشهادة شهود يفهم أن هذه المرافعة ليست مرافعة رئيس النيابة الذى يقرأها بل هى خلاصة جهود متعددة تضافرت على تضييق الخناق حول أعناق هؤلاء المتهمين بقصد الإيقاع بما وراءهم من هيئة هى بنت القصيد .

وقد شهدت جلسات لقضايا مختلفة ، واستمعت إلى الدفاع فيها ، فلم أر ولم أسمع مثل هيئة الدفاع فى هذه القضية ، كان المحامون مستميتين فى الدفاع كأن المتهمين أبناؤهم ، وكانوا يفهمون أنهم لا يدافعون عن هؤلاء المتهمين وإنما يدافعون عن هيئة الإخوان المسلمين التى اقتنعوا - قبل أن يقبلوا الوكالة فى الدفاع عنها - أنها النبت الطاهر النقى الوحيد فى هذا البلد الذى يؤمل فى إنقاذ البلاد على يديه ، والذى تضافرت جهود كل ذوى السلطة من داخل البلاد وخارجها على تدميره والقضاء عليه قبل أن يكبر ويغلظ ويستوى على سوقه .

وهنا كلمة حق يجب أن تقال هى أن السلطات المصرية والبريطانية مع كل ماكانت تدمغ به من ملوك الكثير من وسائل العبث والإفساد ،فإنها لم تمد يد عبثها إلى القضاء ، فإن قدسية القضاء كان لها فى نفوس الجميع رهبة وتوقير واحترام حتى نفوس هؤلاء العابثين... نعم إنهم وجدوا من رجال النيابة من باع نفسه لهم ولكن صمام الأمان وهو القضاء نفسه كان سليما مصوناً ، وكان القاضى يرى نفسه السلطة العليا فوق كل السلطات كما كان الناس جميعاً حكاماً ومحكومين يرونه كذلك .

ولما « جاء دور الأستاذ على بدوى فى المرافعة – وكان آخر المترافعين على ما أذكر – جاء فى سياق مرافعته بصدد ما ورد فى بعض الأوراق المضبوطة من عبارات عن قنابل ومتفجرات ونحوها تعليلات طريفة فحواها أن الشعوب والأفراد تتأثر لغة تخاطبها سواء بالكلام المنطوق أو المكتوب بما تعيش فيه من ظروف ، فظروف الحرب المستعرة التى نعيشها تركت طابعها على تعبيراتنا فتشبيهاتنا واستعاراتنا وكناياتنا تلمح فيها أسماء الآلات الحربية فتسمع أو تقرأ أن فلانا ألقى بالأمس قنبلة أو فجر ديناميتاً والقصد من ذلك أن هذا الفلان جاء فى حديثه بمفاجأة وأن فلانا فرق جمعاً من خصومه ، وقال : لا يجوز فى وقت حرب كالذى نعيش فيه أن نحمل هذه الألفاظ وهذه العبارات على ظاهرها وأن لا يستنتج منها معان كانت تؤديها فى وقت السلم ، وقدم إلى المحكمة عدداً من « المصور » بعد أن قرأ منها عبارات من هذا القبيل وردت فى مقال كاتب من كتابة ، وقال لو أننا أخذنا بهذه الألفاظ وهذه التعبيرات على على ظاهرها لقدمنا هذا الكاتب إلى محكمة الجنايات .

أما بحوث الأستاذ على بدوى الفقهية فى تفنيد شهادة الشهود وما أجرى من التفتيش وتحقيق فكانت مستفيضة وكان يستشهد بفقرات من كتبه وكتب غيره ، وكانت المحكمة تنصت إليه باهتمام شديد وكثيراً ما كان رئيس المحكمة وعضواها يستعيدونه مقاطع من المرافعة يدونونها فى أوراق أمامهم ، لأنه ذو صوت خفيض ، ولولا السكون التام الذى كان يخيم على قاعة الجلسة ما سمعه أحد ، ولعل مكبرات الصوت لم يكن مسموحاً بها فى داخل الجلسات فى ذلك الوقت – وكان استماع المحكمة إلى الأستاذ على بدوى كاستماع المغرمين إلى مطرب قد أخذ بألبابهم ، مما يدل على شغف رجال القضاء فى ذلك الوقت بالبحوث الفقهية العميقة دون الوقوف عند السطحيات والقشور وشقشقة الكلام .

وبعد انتهاء المرافعات أعلنت المحكمة رفع الجلسة للمداولة لإصدار الأحكام واستمرت المداولة نحو ساعة كانت علينا وعلى الأستاذ المرشد بالذات أطول من أعوام لخطورة ما ستتمخض عنه هذه الساعة من كلمات معدودة ينطق بها رئيس المحكمة تقرر مصير هذه الدعوة المرهون بهذه الألفاظ ... وانتهت المداولة وخرجت هيئة المحكمة بكامل أعضائها ووقفنا جميعاً ونطق رئيس المحكمة بالأحكام وفى صدرها براءة فكيه وعبد السلام فهتف جميع الحاضرين « يحيا العدل » وكأنما كان هذا الحكم بعثاً للأستاذ من مرقده ، فاتجه مستبشرا إلى المحامين فهنأهم وهنأوه وعانقهم وعانقوه .

وفكيه وعبد السلام كانا قطبين من أقطاب الدعوة فى طنطا ، وكان فكيه موظفا ببلدية

طنطا ، وكان عبد السلام مهندساً فى مصلحة الطرق والكبارى بها ، وقد سافر إلى انجلترا بعد ذلك وحصل على الدكتوراه وعمل أستاذاً بكلية الهندسة بأسيوط ثم عميداً لها ثم وكيلا لجامعة الأزهر .

وزيادة فى بيان خطورة المجالس البريطانية التى لفقت هذه القضية أذكر أننى حين عينت فى دمنهور سنة ١٩٤١ كنت أغشى المجتمعات فيها وأتحدث عن دعوة الإخوان المسلمين وكانت المقاهى ضمن هذه المجتمعات ... وكان زملائى فى العمل والأقدم منى وجوداً فى دمنهور يحيطون بى ، حيث كان لهم معارف وأصدقاء من مختلف الطبقات .

وجاءنى زملائى فى يوم من الأيام وطلبوا إلى أن أتوقف عن غشيان هذه المجتمعات فترة ، فسألتهم عن السبب فقصوا على قصة مؤداها أن مؤامرة قد حيكت للإيقاع بى عن طريق شخص مثقف من أسرة كريمة من أسر دمنهور ويعمل صحفياً - وذكروا لى اسمه - وفى نفس الوقت يعمل عميلا للمجلس البريطانى بالبحيرة ، سمعنى هذا الشخص أتحدث فى إحدى المقاهى وتناول حديثى الإنجليز ، فكتب تقريرا يتهمنى فيه بمهاجمة الإنجليز ومعاداة الحلفاء وسمعه زملائى يسأل بعض الحاضرين عن اسمى وعن وظيفتى فتنبهوا إلى غرضه وحاولوا أن يثنوه عن عزمه من تقديم التقرير إلى المجلس البريطانى - وكان التقرب إلى الإنجليز فى ذلك الوقت مما يتفاخر به - لكنهم عجزوا عن ذلك ، وتذكروا أن هذا الشخص شقيق خياط كلهم كانوا زبائنه فذهبوا إليه وقصوا عليه قصة أخيه وفهم الخياط أن هذا التصرف من أخيه إذا تم فإنه سيفقده أكثر عملائه فذهب إلى أخيه وأرغمه على العدول عن تقديم التقرير ومزقه بنفسه .

محنة أولى القربى أو الفتنة الثانية

إن تقدير الإخوان للأستاذ المرشد ، وحبهم إياه ، وتفانيهم فى حبه ، وإيثاره على أنفسهم كان هو الشعور الغامر النابع من كل قلب ، وقد كنا نقرأ عن مدى حب الصحابة رضوان الله عليهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكنا نظن ذلك مغالاة من الرواة حتى قام هذا الرجل - حسن البنا - بدعوته ، وتعرفنا عليه ، وسرنا معه ، وعاملناه وعاشرناه فرأينا فى خلقه وحديثه وتوجيهاته ومعالجته للأمور صورة مصغرة من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحببناه وازددنا مع الأيام حباً له وتفانياً فى حبه ، فاستطعنا حينئذ أن نفهم ونتصور مارواه الرواة عن مدى حب الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأن ما رواه الرواة لم يكن مغالاة ولا تهويلا بل كان مجرد إشارة إلى معان يعجز التعبير عن تصويرها .

لم يكن الرجل يعيش لنفسه ، ولم يكن يدخر مالا ولا جهداً ولا وقتا ولا صحة دون دعوته وأذكر بهذه المناسبة أنه أبلغ وهو بالمركز العام بأن السيدة قرينته قد اشتد عليها المرض فطلب بالتليفون الدكتور الغمراوى - وهو الطبيب الذى كان يعالج الأسرة - ولما حضر الطبيب صحبته إلى المنزل ، وبعد إجراء الكشف أخذ الطبيب فى كتابة روشتة الدواء ، فمال على الأستاذ وطلب منى جنيها سلفة وأعطاه للطبيب . ذلك أنه كان يجعل مرتبه كله للدعوة لا ينتقص منه إلا ما يكفى الضرورات الأساسية للبيت الذى كان يعيش أدنى عيشة يعيشها بيت فى مستواه ... ولا يفوتنى أن أذكر أن الأستاذ فى أول الشهر التالى أصر على رد السلفة إلى مع أننى كنت أقول له إننا نعتبر بيتك جزءاً من الدعوة .

كان يعيش لدعوته ، وما فهمت معنى قول عائشة رضى الله عنها حين سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت « كان خلقه القرآن » إلا بعد أن عايشت هذا الرجل وعاشرته فرأيت كلامه وصمته وحركته وسكونه ويقظته ونومه وحبه وبغضه وكتابته وقراءته وفكره كلها للإسلام فكنا نراه الإسلام فى صورة بشر .. عرفنا رجالا قبله وبعده دعاة للإسلام لكن الإسلام لم يكن يشغل إلا جانبا من حياتهم وكانت أمور أخرى تشغل الجوانب الأخرى ... أليس القرآن الذى كان خلق النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى أشار إلى معنى التخلق بالقرآن حيث قال « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له » ؟ .

ألمحت هذه الإلماحة السريعة لأوضح كيف يحب الإخوان أستاذهم وإلى أى مدى يحبونه ويتنافسون فى الحظوة برضاه ، باعتبار رضاه من رضا الله عز وجل فهو لا يحب إلا لله ولا يرضى إلا لله ... وكان للأستاذ فى ذلك الوقت ولد وبنتان وكانوا صغاراً ، وكان له شقيقتان . فاتجهت أنظار الإخوان المؤهلين للزواج فى ذلك الوقت إلى شقيقته الكبرى ، وتنافس الكثيرون فى السعى للخطوة بهذا الشرف ، وكل منهم يعتقد أن له من المكانة فى نفس الأستاذ ما يجعله أهلا للخطوة ، ولم يكن أحد يجرؤ على طلب ذلك صراحه بل كان تلميحاً - وكنا نحن - من أمثالى الدين لم يكونوا بعد مؤهلين للزواج - نرقب هذا التنافس ولا نعرف أى المتنافسين سوف يخطى بما يأمل .

وأنا بحكم ما بينى وبين عبد الحكيم عابدين من اتصال دائم كنت أعلم أنه قد دخل هذه الحلبة ، وقد أسر إلى بذلك طالباً منى الرأى ... ولم يكن طلبه الرأى منى فيما إذا كان اختياره هذه

الزوجة مناسباً أم يعدل إلى غيرها ، وإنما كان طلبه الرأى منى فيما إذا كنت أراه هو مناسباً أم غير مناسب ، وقد أحسست فى عرضه الأمر على، وطلبه الرأى منى أنه يريد أن يسمع منى مايشجعه على المضى فى هذا السبيل . وقد سمع منى فعلا مايريد ... غير أنى كنت أرى فى قرارة نفسى أن دون تحقيق ذلك لعبد الحكيم خرط القتاد ، فالطلاب كثيرون والضغوط على الأستاذ المرشد من كل جانب وعبد الحكيم هو أقل الطالبين مالا وأدناهم مركزاً ومكانة فى المجتمع ؛ إنه فى ذلك الوقت لم يكن يملك مايصلح أن يكون مهراً فلا مورد له إلا مرتبه من وظيفته المتواضعة فى إدارة الجامعة ومع ذلك فهو مطالب بمسئوليات مالية لأهله - كما أشرت من قبل - والأستاذ المرشد يعلم ذلك - ... لامؤهل لعبد الحكيم إلا مواهبه الشخصية وما قدمت فى فصل سابق من هذه المذكرات من أنه أول أخ تخرج فى الجامعة وبايع على أن يجعل مستقبله رهنا بمطالب الدعوة مع أنه كان أحوج الحاضرين وأقدرهم على تنمية موارده لاحتياج أهله إلى هذا الموارد .

وكانت المفاجأة أن اختار الأستاذ المرشد عبد الحكيم زوجاً لشقيقته .. فقوبل هذا النبأ فى الظاهر بما يشبه الرضا من الجميع ، ولكننى كنت أحس بأن هناك نفوساً قد أصابها هذا النبأ بشعور من خيبة الأمل .. ومع ذلك فلم أكن اعتقد أن هذا الشعور سيؤدى إلى كوارث .

وقد ذكرنى اختيار الأستاذ لعبد الحكيم دون الآخرين بسعيد بن المسيب رضى الله عنه حين طلب إليه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أن يزوج ابنته لأبنه فأعرض عن ذلك وزوجها تلميذه الفقير عبد الله بن أبى وداعة الذى سأله سعيد . لم لم تتزوج ؟ فقال له : ومن يزوجنى وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة .

وقد انقسم الإخوان إزاء هذه المفاجأة ثلاثة أقسام :

قسم تلقى هذه المفاجأة بالإجلال والإعجاب لأنها هى نظرة المؤمنين الصالحين حين يختارون لبناتهم . وهذا القسم هو الكثرة العالية من الإخوان .

وقسم أصابته المفاجأة بخيبة أمل حيث أخطأه الاختيار وكان يتمنى أن يكون هو المختار .. وهذا القسم هو مجموعة من شبان الإخوان المؤهلين للزواج والذين عرضوا أنفسهم وهم عدد قليل .

والقسم الثالث أصابته المفاجأة بخيبة أمل مع أنهم لم يرشحوا أنفسهم ولم يكونوا صالحين لذلك لأنهم فى سن الكهولة ولهم بيوت يعولونها ولكنهم كانوا يتمنون أن لايتم هذا الزواج لعبد الحكيم بالذات ، لأنهم يعرفون أن عبد الحكيم ذو مواهب تؤهله للبروز فى المجتمع ، ولما كانوا هم يشغلون المناصب البارزة فى الدعوة ، فقد يزاحمهم عبد الحكيم فى هذه المناصب

لاسيما واختيار الأستاذ المرشد لعبد الحكيم دليل على ثقته فى هذه المواهب .

وهناك قسم رابع نشأ بعد ذلك كانت مهمته استغلال القسمين الثانى والثالث لتحقيق أغراض فى قرارة نفسه أكثرها سياسى وبعضها شخصى .

ولما كانت شخصية المرشد لها من الإجلال فى النفوس ما لايجرؤ معه أحد على النيل منه ، كما أن مسلكه فى مقدرته الفائقة على توزيع عواطفه على جميع الإخوان توزيعا يملأ نفوس الجميع لم يتح لأحد أن يجد فيه ثغرة ينفذ منها إليه ، ولامغمزاً يغمزه به ، فكان لابد إذن من البحث عن سبيل آخر لإيذائه عن طريق ملتو غير مباشر ، وكان الطريق هو محاولة تجريح شخصية عبد الحكيم والنفوذ من ذلك إلى تجريح الدعوة نفسها .

وسأعرض الآن لواحدة من هذه المحاولات كان مبعثها مبعثاً شخصيا ، وقد بدأت أحداث هذه المحاولة منذ كانت الدعوة فى ميدان العتبة وبدأ الطلبة يقبلون علينا وكنا نحسن استقبالهم ونوليهم كل ما نستطيع من اهتمام وعناية وكان من هؤلاء الطلبة طالب فى كلية الآداب اسمه (ع . س . أ) ... استقبلناه كغيره من الطلبة ولكنى رأيته مقبلا بشكل ملحوظ على عبد الحكيم عابدين مما جعلنى أرتاب فيه ، ولكن هذا الشعور لم يجعلنى أقصر فى حقه فكنت أعامله كما أعامل زملاءه ... غير أنى رأيت عبد الحكيم يوليه من العناية أضعاف ما يولى زملاءه - وعبد الحكيم كما قدمت إنسان كله عاطفة ، فما كاد يشعر باقبال هذا الطالب عليه حتى غمره بسيل من عواطفه فكان كلما قابله قابله بالعناق ، وكنت أفتقد عبد الحكيم فإذا لقيته سألته أين كنت بالأمس فيقول لى كنت عند الأخ (ع) فى بيتهم ... وقد أوسع عبد الحكيم له فى مجلة النذير فكان يكتب المقالات تمجيداً فى الإخوان المسلمين وإشادة بهم .

لم يكتف عبد الحكيم بأسلوبه العاطفى المتطرف الذى يتعامل به مع هذا الأخ بل جاء يعاتبنى فى عدم إقبالى عليه بنفس أسلوبه وأخذ يذكر لى مزايا هذا الأخ الأدبية وحماسه المتأجج للدعوة وأسلوبه فى الكتابة ، وأخذت أذكره بما سبق أن قلته له من قبل منذ كنا فى دار شارع الناصرية وبما حذرته منه من شعور البداوة الذى نشأ عليه والمبنى عن حسن الظن المطلق بكل الناس وفى كل الظروف ومن مظهر هذا الشعور البدوى من التغالى فى الحب والعناق فى كل لقاء وإباحة بيتك لكل من أحببته يدخله فى غيابك وحضورك ، ودخولك بيوتهم كأنها بيتك ، ومعاملتك أهليهم كأنهم أهلك ، وقلت له : كل ذلك لا ارضاه ..وقد أرضاه إذا ضمنت لى أنك تعيش فى بيئة أو مجتمع من الملائكة المنزهين عن الأهواء، المطهرين من سوء الظن وسوء النية .. أما المجتمع الدنيوى الذى نعيش فيه فهو يضم الطيب والخبيث ، وقد ينقلب الطيب خبيثا ، وقد ينقلب الخبيث طيباً ،

فلا ينبغى أن ننطلق فى عواطفنا انطلاقا لا حدود له مهما سمت هذه العواطف وذكرته بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك « أحبب حبيبك هوناً ما ، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما . وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما .

واشتد الحوار بينى وبين عبد الحكيم ورمانى فى نهايته بأن معاملتى « الرسمية » للإخوان لاسيما الجدد منهم من أمثال هذا الأخ تنفرهم من الدعوة فقلت له : إننى لا أعامل أحداً معاملة رسمية كما تدعى بل إننى أعطى كل إنسان حقه من حسن اللقاء ، وكل ما أحاوله هو أن أتصد فى عواطفى ، فالمصافحة عند اللقاء تكفى ، والعناق عند الرجوع من السفر أو بعد الغياب الطويل لابأس به ،والزيارة فى البيوت بدعوة ملحة من صاحب البيت كما يقولون « زر غباً تزدد حباً » وكررت تحذيرى متمسكاً بطريقتى فى المعاملة .

وغادر عبد الحكيم الغرفة التى كنا نتلاوم فيها من المركز العام وهو مصر على أنه يسلك الطريق الإسلامى الأقوم ... وشاب ذو نفس شاعرة نشأ فى بيئة بدوية ثم تلقفته الصوفية بأشد طرقها تصفية للنفس ثم اتصل بدعوة الإخوان المسلمين التى تضع مرتبة الأخوة فى الدعوة فوق مرتبة الأخوة فى الدم ، شاب كهذا قلما يعدل عن خطته فى الاندفاع بعواطف الأخوة والحب التى تتأجج بين جوانحه إلا بكارثة .

وانتقلت الدعوة إلى الحلمية الجديدة ، واستمر عبد الحكيم فى اندفاعه الذى كان يجد له تجاوباً من الطرف الآخر ، ولا أدرى لم كان هذا التجاوب الذى لا أجد مبرراته متوفرة فى هذا الطرف بل كنت أرى فيه معنى التصنع وأشم منه رائحة الاستدراج ، وظللت كعادتى أسأل عن عبد الحكيم فى بيته فلا أجده المرة تلو المرة ثم أقابله فيخبرنى بأنه كان فى بيت هذا الأخ .

ومرت الأيام وأعلنت خطوبة عبد الحكيم لشقيقة الأستاذ المرشد ، فكان هذا الإعلان بمثابة إعلان حرب لا هوادة فيها على عبد الحكيم أو قل فى الحقيقة على الدعوة نفسها ولكن اتخذ عبد الحكيم قميص عثمان .

انقلب هذا الأخ الذى أشرت إليه انقلاباً فجائياً على عبد الحكيم وخاصمه بغير مقدمات واتهمه بأنه اتخذ صداقته له وأخوته معه وسيلة إلىمداعبة شقيقته .. وبغير مقدمات رأينا هذا الأخ يعلن مقاطعته للمركز العام وتبرأه من الدعوة مالم يبتر منها عبد الحكيم ...

مفاجآت وجدت آذاناً صاغية من أولئك الذين أشرت إليهم فى القسمين الثانى والثالث ،

وجدت هذه الاتهامات الفجائية هوى فى نفوسهم فقاموا يروجونها وينشرونها بطريقة مثيرة ، وعادت إلى الذاكرة حادثة الإفك « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين » .

ولما كان الأستاذ المرشد يعلم عن عبد الحكيم ما أعلم ، كما أنه كان يتوقع أن يكون لإعلان خطوبة عبد الحكيم لشقيقته آثار لابد أن تمس بعض القلوب ، فإنه لم يرعه من هذه الحملة الفجائية إلا كونها جاءت بغير مقدمات وبطريقة مفاجئة تحس معها أن أصحابها قد فقدوا رشدهم فتخلوا عن أدنى مبادىء الأدب والحياء .

جاءنى عبد الحكيم وهو يكاد يموت غماً وقال لى : لقد فهمت الآن أنك كنت على حق ، وأنك كنت أبعد منى نظراً ، وأننى لم أكن إلا أبله لا أدرى مايراد بى ، ولا مايدبر لى ؛ لقد خالفتك وأخلصت لهذا الأخ وجعلت له من نفسى وقلبى مالم أجعله لأشقائى ؛ فكان يدعونى إلى منزلهم وعرفنى بوالده ووالدته وإخوته وأخواته كما دعوته إلى بيتى كما تعلم ، وتوالت دعواتهم لى حتى إن والديه يدعواننى دونه ؛ وكنت أعتبر والديه والدى وإخوته وأخواته إخوتى وأخواتى .. ومرضت شقيقته الكبرى مرضاً خطيراً ، ولما كانوا يعرفون عن صلتى بالأطباء (كان لعبد الحكيم صداقة وطيدة مع أشهر أطباء القاهرة وكان محببا إلى نفوسهم إلى الحد الذى كانوا يستجيبون له إذا طلبهم بليل أو نهار حيث كان ، دون أن يتقاضوا أجراً ، ولم يكن يطلب أحدامنهم لنفسه ولا لذويه إلا نادراً ، وإنما كان يطلبهم لعلاج من يلجأ إليه من الإخوان) استغاثوا بى وطلبوا إلى أن استدعى لهم طبيباً كبيراً معيناً ففعلت واستمر العلاج ولكن المرض قد استفحل حتى صارت الفتاة هيكلا عظمياً بلا لحم ولا دم ، وعلا وجهها شحوب الموت حتى إن أمها وأخواتها عافوها وابتعدوا عنها ، وشعرت الفتاة بذلك فصارت تبكى وتنعى نفسها ، وهنا اضطررت أن أجلس بجانبها ، مع أننى فى قرارة نفسى باعتبارى بشرا كأى بشر متقزز من منظرها ومن رائحتها ، ولكننى كنت أحاول أن أرفع من روحها ، وأعيد إليها ثقتها فى الحياة - ولقد كان والداها وإخوتها وأخواتها - ومنهم هذا الأخ - يشكروننى على أداء هذه الخدمات الإنسانية التى عجزوا هم عن أدائها .

قال عبد الحكيم : وبتفانى أصدقائى الأطباء فى علاجها ، وبما اتبعته من أساليب لرفع معنوياتها تحسنت حالتها ، ودبت فيها الحياة من جديد ... وحتى آخر يوم كنت موضع إجلالهم جميعا ، ولا حديث لهم إلا حول اعترافهم بجميلى عليهم ، وبإنسانيتى التى فاقت ماعرفوه من إنسانية .

قال : وفى اليوم التالى ذهبت كالمعتاد لزيارتهم فرأيت وجوماً على وجوههم حتى خيل إلى

أن الفتاة ماتت ، ولكننى رأيتها بخير ، وحاولت أن أعرف سبب الوجوم فلم أستطع فخرجت وأنا فى حيرة من هذا التبدل المفاجىء ، واستعرضت كل تصرفاتى معهم لعلى أذكر شيئاً بدر منى فأغضبهم فلم أجد إلا تقديراً منهم لكل كلمة قلتها أو تصرف أتيته ، فعزمت على أن أسأل نجلهم الأخ (ع) حين ألقاه ليلا بالمركز العام كالمعتاد فلم أجده حضر ولكننى سمعت قالة سوء توجه إلى منسوبة إليه . ولا يردد هذه القالة شخص واحد بل ترددها مجموعة معينة بطريقة تشعر بأنها مبيتة ومدبرة ... ولم أصدق أنه هو قائلها فى أول الأمر لكننى تبينت أنه هو مصدرها وأنه هو الذى باء بإثمها ، وأننى لم أكن حتى تلك اللحظة إلا سادراً فى حسن ظنى متجللا برداء غفلتى ولم أتنبه من غفلتى إلا الآن ، فإن اليوم الذى فى مسائه قلبوا لى ظهر المجن هو نفس اليوم الذى أعلن فى صباحه نبأ خطوبتى لشقيقة الأستاذ المرشد ، وما كنت منتظراً منهم إلا أن يقابلونى بالبشر والتهانى والتبريك ..

وعبد الحكيم المشبوب العاطفة ، المتصوف ، الشاعر ، البدوى ؛ لم تكن هذه الصدمة لتقف به عند حد إفاقته من غفلته . وودرشده إليه فحسب ، بل إنها قذفت به على الطرف الآخر البعيد ؛ فإذا به يقرر أن يعتزل الناس لأنه فقد الثقة فيهم ؛ فانقطع عن المركز العام وعن غشيان أى مكان آخر ماسوى بيته وعمله ، وهجر أصدقاءه وأحباءه ومعارفه وحتى أهله ، وعكف على الصيام المتصل والقيام بالليل تكفيراً عن زلته بإفراطه فى حسن ظنه بالناس .. ولما طال انقطاعه ومضى أكثر من شهر زرته فى بيته أو بمعنى أدق فى معتكفه وعاتبته على هذا الأسلوب فقال لى : ما كنت أعتقد إلا أنك آخر من يعاتبنى فى ذلك ؛ فالذى أفعله الآن ماهو إلا تكفير لمخالفتى نصيحتك . قلت : ولكن التكفير لا يكون بالانتقال من النقيض إلى النقيض ، وانقطاعك عن المجتمع لايقل ضرراً عن انهماكك فيه مندفعاً بغير حدود ، ولكن المطلوب هو التزام الوسط فى كل الأمور .. ومازلت به حتى أنهى اعتكافه وصومه ورجع إلى المجتمع ولكن بعد بضعة أشهر قطع فى خلالها شوطاً بعيداً فى حفظ القرآن أو لعله أتم حفظه

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، وإنما امتدت آثاره وتشعبت إذ صار عداء للدعوة يظهر فى صور مختلفة من ابتعاد عن الدعوة إلى استقالات إلى اعتكاف مجموعات تجتمع فى البيوت والكل يشيعون قالة السوء بغير علم ، وكلما وجدوا عدواً للدعوة لاذوا به وظاهروه عليها متناسين قول الله تعالى «والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً»

ويبدو أن بسط القرآن لقصة الإفك ؛ وجعلها صدر سورة من سوره ، والإسهاب فى سرد تفاصيلها ، وتحليل مواقف الفئات المختلفة فيها ، والتهديد بأقسى العقوبة لمثيريها وللراتعين فيها وحتى للذين يلذ لهم مجرد الاستماع إليها ثم يخرج من ذلك كله بتحذير مزلزل فيقول «يعظكم الله أن

تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » ... هذا السرد المفصل فى أبرز موضع من السورة يوحى بمدى خطورة هذا الأمر كما يوحى بأن الدعوة الإسلامية فى مختلف العهود وعلى مر الزمن عرضة لتكرار مثل هذه الحادثة فيها ولذا حذر جل شأنه من تكرارها بقوله «أن تعودوا لمثله أبداً» و قرن العودة إلى مثلها بالتخلى عن الإيمان بقوله «إن كنتم مؤمنين» ثم أشار إلى اهتمامه بالتفصيل والتوضيح لخطورة العواقب بقوله «ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » .

ذلك أن الدعوات الإصلاحية عامة والدعوة الإسلامية خاصة إن هى إلا مجتمعات يتفاعل بعضها مع بعض ، وهذا التفاعل مع اختلاف المشارب ، وتباين البيئات . وتنوع الآمال ، يؤدى بطبيعته إلى شىء من خلاف فى الرأى أو تنافس على أمل أو تسابق إلى منصب ؛ وقد يورث مثل ذلك فى بعض النفوس الضعيفة العداء ويوقظ فيها الحفيظة والحقد ... وحين تفكر هذه النفوس الضعيفة فى الانتقام من المخالف أو المنافس أو المسابق لاتجد أمامها وسيلة أيسر ولا أسهل ولا أقل تكليفاً من النيل منه بكلمة يرسلونها فى عرضه لاتكلفهم شيئاً ولا تقتضيهم جهداً ولكنها كافية إذا وجدت آذاناً ممن فى قلوبهم مرض أن تهدر كرامته وتهوى به فى المجتمع إلى الحضيض بل تخرجه من المجتمع منبوذاً . . فإذا كان هذا المنافس ركناً من أركان دعوة انهارت الدعوة بانهياره وقضى عليه وعليها معاً .

ولقد وقفنا مع الأستاذ المرشد إزاء هذا الهجوم الغادر الوقفة التى يرضاها الله تعالى ولايرضى سواها ؛ ظننا بأنفسنا خيراً كما أمر الله عز وجل فى هذا الموقف حيث يقول «لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين » وكنا كما تمنى القرآن الكريم أن يكونه المجتمع الإسلامى إذ يقول : «ولولا إذ سمعتموه قلتم مايكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم» لتولى الله تعالى عنا رد كيد الكائدين فى نحورهم وكفى الله المؤمنين القتال وخرجت الدعوة من هذه الفتنة مرفوعة الرأس بأدنى قدر من الخسائر التى هى فى حقيقة أمرها تخليص للدعوة من خبال علق بها « لوخرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين »

المؤتمر السادس

كان المؤتمر السادس هو آخر المؤتمرات العامة للدعوة كما أشرت إلى ذلك من قبل ، ذلك أن الإخوان بعد ذلك قد كثروا وتشعبوا إلى الحد الذى لم يعد مكان يتسع لاجتماعهم على هذه

الصورة ، وقد استغنى عن أسلوب المؤتمرات بنظام الهيئة التأسيسية والمكاتب الإدارية وتسلسل القيادة واللامركزية .

وقد أقيم هذا المؤتمر بدار المركز العام بالحلمية الجديدية فى ١١ ذى الحجة ١٣٢٩ الموافق ٩ يناير سنة ١٩٤١ ، وقد حضر عدد كبير جداً من إخوان القاهرة والأقاليم وكان له صدى مدو فى جميع الأنحـــاء .

ومع أننى كنت السكرتير العام المساعد لهذا المؤتمر حيث كان الأستاذ أحمد السكرى السكرتير العام له فليس لدى الآن مرجع أرجع إليه فى تفاصيل هذا المؤتمر غير ما بقى فى ذاكرتى مع أننا طبعنا رسالة خاصة بكل ما تم فيه ووزعت على أوسع نطاق .

وقد طرق الأستاذ المرشد فى بيانه فى هذا المؤتمر كل الموضوعات التى تتصل بالدعوة التى طرقها من قبل فى المؤتمرات السابقة لكنه طرق فى هذا المؤتمر موضوعين جديدين لم يطرقهما من قبل وهما :—

الاول : الشركات الأجنبية فى مصر :

كان الأستاذ المرشد إذا أراد أن يعد بياناً نيلقيه فى مؤتمر من المؤتمرات الإخوانية العامة تفرغ لنفسه ساعتين أو ثلاثاً فيخرج بالبيان الكامل الشامل ... أما إعداد بيانه لهذا المؤتمر فقد أجهد نفسه فيه إجهاداً كبيراً واستغرق منه أياماً كثيرة وقد طلب إليناأن نمده بمطبوعات إحصائية ضخمة صار يعكف على قراءتها الأيام تلو الأيام ويقتبس منها البيانات الدقيقة التى جعلها صلب خطابه .

وكان بيانه فى هذا المؤتمر أطول بيان ألقاه فى المؤتمرات.وقد تضمن لأول مرة إحصاء دقيقاً للشركات العاملة فى مصر ،وبين أنها جميعاً تقريباً شركات أجنبية،وبين جنسية كل منها . وتحدث عن مستوى المعيشة للمصريين وقارنه بمستوى المعيشة لغيرهم .

وتناول هذا الموضوع كان فضحاً لحقيقة كانت جميع الجهات فى مصر تتستر عليها فقد حدد عددها بأنها ثلاثمائة وعشرون شركة تسيطر سيطرة كاملة على اقتصاد البلا د ، وتمتص خيراتها دون أهلها .

ويخيل إلى أن تناول الأستاذ المرشد لهذا الموضوع الخطير الذىهولب الاستعمار كان من أهم العوامل التى لفتت نظر المستعمرين لخطورة دعوة الإخوان المسلمين عليهم ، والتى بدأوا من أجلها يخططون للقضاء عليهم. وكان أول أسلوب لجأوا إليه هو تلفيق تهمة تدمغهم بالخيانة ، وقد

تناولت الحديث عنها آنفاً تحت عنوان «أول محاكمة فى تاريخ الدعوة» ولولا عدالة القضاء المصرى وأصالته لتحقق للمستعمرين ما أرادوا .

على أن تناول الأستاذ لهذا الموضوع كان أمراً لابدمنه، فما كانت دعوة الإخوان المسلمين مجرد مبادىء وأفكار وفلسفة ،وإنما هى برنامج إصلاحى شامل. فكيف تتفادى الحديث عن عصابات تسرق قوت الشعب تحت اسم شركات وتنقله إلى بلادها وتترك هذا الشعب يتلوى جوعاً وعرياً وحفاء ... وما كانت المبادىء والأفكار لتغنى مثل هذا الشعب فتيلا إذا لم تعمل على توفير أسباب المعيشة الكريمة له ،وأول هذه الأسباب ؛ أن يعرف الشعب كيف يتسرب قوته وثمرة جهده إلى خارج البلاد .

وإذا كانت هذه الشركات قد استطاعت بمهارتها أن تقطع ألسنة الأحزاب السياسية فى مصر على اختلافها بأن انتقت من كل حزب أفراداً من أبرز من فيه وعينتهم أعضاء وهميين فى مجالس إدارتها بمرتبات ومكافآت خيالية فكانت رشوة مقنعة لم يتنبه إليها الشعب المضلل .. فإن الإخوان المسلمين بحكم إيمانهم بربهم واستمساكهم بعقيدتهم كانوا أمنع من أن تستحوذ هذه الشركات بأحابيلها وإغراءاتها عليهم فكانوا هم فى إعلان كلمة الحق أحق بها وأهلها .

وبقدر ما كان تناول الأستاذ لهذا الموضوع مفاجأة للشركات وللمستعمرين ولجميع الجهات المسئولة فى مصر وخارج مصر ، فلقد كانت مفاجأة أيضاً للإخوان المسلمين أنفسهم الذين حضروا المؤتمر والذين قرأوا بيانه فيما بعد ؛ لأن الإخوان لم يكونوا قد اعتادوا أن يسمعوا فى مؤتمراتهم إلا شرحاً لدعوتهم وتوضيحاً لمواقفهم ... ولكن القيادة الموهوبة هى التى تستطيع أن تنتقل بجنودها وأتباعها من ميدان إلى ميدان فى الوقت المناسب وبالأسلوب الذى تستكمل به الدعوة خطواتها وتثبت وجودها وتحقق معانيها فى واقع حياتها .

والموضوع الآخر هو الملك :

وينبغى بهذا الصدد أن نذكر أن الملك فاروقاً كان حتى ذلك التاريخ لا يزال مناط آمال الشعب وموضع احترامه ،لأن سيرته كانت سيرة مرضية ومسلكه كان مسلكاً شريفاً، ولعل ذلك نتيجة تأثير الشيخ محمد مصطفى المراغى عليه. وقد سبق لى أن أشرت إلى هذا الرجل وقلت إنه لم يكن مجرد شيخ للأزهر كسابقيه أو لاحقيه الذين كانوا مجرد موظفين يدينون بالولاء للحكومة والملك ، بل كان شخصية ذات تأثير فى الحياة الاجتماعية والسياسية للبلاد وكان موضع احترام الملك فاروق وتوقيره وكان فى صحبته إلى المساجد ، وهو صاحب فكرة إعلان القاهرة عاصمة

مفتوحة فى أثناء الحرب العالمية الثانية ،وقد أعلن ذلك وهو فى صحبة الملك فى أحد المساجد ، ولم يكن الإنجليز يرتاحون إليه ، ولما توفى الشيخ فى سنة ١٩٤٥ فى مستشفى المواساه بالإسكندرية، أدى الملك فاروق صلاة الجمعة التالية فى مسجد سيدى بشر وطلب من المصلين بعد الصلاة أن يقرأوا الفاتحة على روح صديقه الشيخ المراغى .. ولم يبدأ فاروق فى الانحراف إلا بعد وفاة الشيخ

وحسبك أن تعلم أن فاروقاً هو الذى أمر فى ذلك الوقت بجعل الهجرة النبوية من الأعياد الرسمية وأمر بالاحتفال بها وقد سجل ذلك الشاعر الكبير محمود غنيم فى قصيدة له ألقاها فى المهرجان الأدبى الذى أقيم بدار الأوبرا فى ١٢ فبراير سنة ١٩٤٢ حيث يقول :

ملك إذا الإسلام عد حماته ... كان الطليعة فى صفوف حماته
نور الصلاح يلوح فوق جبينه ... والشعب يصلحه صلاح ولاته
الله أكبر هل بصرت بركبه ... يمشى الهوينا غادياً لصلاته
والشعب يدعو الله خلف ركابه ... حتى يهز العرش من دعواته
فكأنه فاروق يثرب نفسه ... يسعى بموكبه إلى جمعاته
قل للمشيد بعيد هجرة أحمد ... جددت عهد الفتح بعد فواته
هذا جهاد فى سبيل الله ما ... نضح الدم القانى على راياته

معذرة للقارىء فى هذا الاستطراد قبل أن أدخل فى الموضوع الذى أنا بصدده فقد أحببت أن أسجل تاريخاً لعلى أكثره قد حجب عن شباب هذا الجيل بسوء قصد فقد درج حكامنا على سنة أهل النار «كلما دخلت أمة لعنت أختها» فلكى ينسب حاكم نفسه إلى الفضل لا يرضيه إلا أن يجرد سابقيه من كل فضل .. أما نحن – الإخوان المسلمين – فلا نستبيح تزوير التاريخ من أجل إبراز فضل لنا ، ولا نبالى أن نشيد بمحاسن أعدائنا إن كان لهم محاسن لأننا ملتزمون بقول الله تعالى «ولايجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى».

وليس معنى هذا أننا ننكر أن فاروقاً هذا تولاه بعد ذلك شياطين الإنس من رؤساء أحزاب وبطانة فاجرة فصنعوا منه شيطاناً فباءوا بإثمه وإثم ماحاق بالبلاد من انحطاط وتدهور ودمار ...

ولكن الحقبة التى انعقد فيها المؤتمر السادس للإخوان كان فاروق على ما وصفنا. فتعمد الأستاذ المرشد أن يفسد على الانجليز وأذنابهم محاولاتهم فى إيغار صدر فاروق على الإخوان بما ألقوه فى روعه من أن الإخوان هم أعداء الملك. فقال فى بيانه فى وضوح لا لبس فيه : «إن ما يشاع عنا من أننا أعداء الملك ليس صحيحاً بل إننا نلتزم بقول الإمام مالك رضى الله عنه

«لو كانت لى دعوة واحدة مستجابة لجعلتها للسلطان فإن صلاحه يصلح به خلق كثير » .

وعلى العموم فإن هذا المؤتمر لم يستوف حظه الجدير به من التسجيل التاريخى لفقداننا المرجع الأساسى فى شأنه وهو الرسالة الخاصة به ونجتزىء بهذا القدر عنه الآن وعسى أن نظفر فيما بعد بنسخة من هذه الرسالة فنسجل ملحقاً له إن شاء الله .

إلى دمنهور

فى ١٦ يونية سنة ١٩٤١ انتقلت إلى دمنهور حيث تسلمت عملى بمصلحة القطن بها حسب توجيه الأستاذ المرشد لى كما قدمت . ولم تكن دمنهور غريبة على فقد كنت أقضى فى ربوع محافظتها جزءاً كبيراً من أجازة الصيف كل عام لنشر الدعوة ، إذ كنت أحس إحساساً داخلياً بأن على مسئولية خاصة نحو هذه المحافظة التى ولدت بها ، .. ولم أكن أتصور أن هذه المحافظة من السعة وترامى الأطراف بهذا القدر الذى ووجهت به حين عزمت على ارتياد أنحائها ..

وتستطيع أن تقول إنه فى خلال تلك السنة وما بعدها بدأ الأستاذ المرشد يقذف كل إقليم من أقاليم القطر بثمرة من ثمرات تربيته التى عكف عليها خلال سنى الدراسة فى الجامعة .

وإذا تحدثت عن الدعوة فى أقليم البحيرة وقد ساهمت فى إرساء قواعد الدعوة فيها فإنما أعرض بذلك صورة لإرساء هذه القواعد فى كل إقليم والذى كان من نتيجته أن نشرت الدعوة رواقها على البلاد من أقصاها إلى أقصاها لم تدع عاصمة ولا مدينة ولا قرية ولا نجعاً إلا دخلته وكان لها فيه مستقر ومستودع .

فى دمنهور :

كان يتقاسم النفوذ فى هذه المدينة أسرتان ؛ أسرة تنتسب إلى حزب الوفد وأسرة تنتسب إلى الأحزاب الأخرى ، وكنا حريصين على أن نحسن صلاتنا بالأسرتين ،دون أن يمنعنا هذا من جذب بعض من شباب الطائفتين إلينا. وكان اهتمامنا ينصب أكثره على طلبة المدارس الثانوية والصناعية والزراعية ، وكنا نأخذ هؤلاء الطلبة ومعهم أتراب من ذوى الحرف بنظام الكتائب الذى خرج منهم رجالا صالحين ، .

ولم يكن عدد الإخوان بهذه الشعبة كبيراً ، كما لم يكن من بين هؤلاء الإخوان شخصيات بارزة من شخصيات المدينة ، كما لم تكن دار الشعبة فى مظهرها وأثاثها فخمة بل كانت متواضعة بدائية ، لكن كان من يرتاد هذه الشعبة يشعر بفيض غامر من الروحانية الجارفة ، لأن أفراد

هذه الشعبة على صغر أسنانهم وضآلة مراكزهم الاجتماعية كانوا أما يفهمون دعوتهم حق الفهم ويعرفون حقوقها عليهم ويعطون هذه الدعوة حقها من نفوسهم وقلوبهم وألسنتهم وعقولهم وأبدانهم . فترى الجد فى حركاتهم وسكناتهم وترى الأخوة والمحبة والإيثار فى تعاملهم فيما بينهم ، فلا تلبث حين تجلس إليهم أن تمتزج بهم .

كان الأخ المهندس الدكتور محمد عبد السلام فهمى مدير أعمال بمصلحة الطرق والكبارى بطنطا فى ذلك الوقت ، وكانت طنطا مسقط رأسه ؛ وكان من أحبابى الأقربين منذ كنا طلبة بالجيزة ... جاء لزيارتى مرة بدمنهور واختلط بإخوان الشعبة ، فطلب من إدارة الطرق والكبارى بطنطا أن تسند إليه المرور على فروعها بالبحيرة . ومع ما فى ذلك من مشقة عليه فإنه كان يقول لى : إن روحانية هذه الشعبة وما بها من امتزاج نفسى وعمل جاد متناسق كأنه الموسيقى جذبنى وهون على المشقة .

اضطهاد حكومى :

ولست أدرى لم خصت الحكومة هذه الشعبة باضطهاد دون غيرها من الشعب ودون الاضطهاد الحكومى العام ؟.. فبينما كانت الشعب جميعاً فى أنحاء القطر تنعم بالحرية كانت شعبة دمنهور تهاجم ليلا ونهاراً فى فترات متقاربة .

كان هناك بكباشى اسمه «الرفاعى» له مكتب خاص وإدارة مستقلة ووظيفته مدير الشئون العامة بالمدينة كان يهاجمنا فى أثناء المحاضرات الأسبوعية ويحاول منع المحاضرة ويطلبنا للتحقيق معنا فى مكتبه ثم لا يجد شيئاً يعتمد عليه من القانون ...

كان فى دمنهور – وأعتقد أنه كان فى كل عاصمة – قسمان للبوليس لكل قسم منهما مأمور ومعاون وضباط خاصون به ، أحدهما يسمى البندر ومهمته مايتصل بمدينة دمنهور نفسها والآخر يسمى المركز ومهمته ما يتصل بما سوى المدينة من قرى مركز دمنهور وكان القسمان فى مبنى واحد .. وكان لبندر دمنهور معاون بوليس اسمه اليوزباشى محمد أبو السعود.. وكان هذا الرجل وكأن لا عمل له إلا الاصطدام بنا ، كان يهاجمنا ليلا ونهاراً ويرسل لنا مخبراً من المباحث لحضور كل محاضرة تلقى بالشعبة ؛ وبناء على ما يكتبه هذا المخبر يأتى هذا المعاون فى اليوم التالى ليحقق معنا ، وكنت استثقل هذا الرجل السمين ذا الكرش فكنت أصادمه وأتحداه سواء فى الشعبة أو فى مكتبه فى البندر ... وقد ذكرت اسم هذا الرجل ومواقفى معه هنا لأن موقفاً قد حدث لى مع هذا الرجل بعد خمسة عشر عاماً سيأتى الحديث عنه فى حينه إن شاء الله .

ولا زلت حتى هذه الساعة أجهل الجهة التى كانت تحرض هؤلاء الناس علينا هل هى أوامر حكومية عليا ؟ وهذا مستبعد لأن الأوامر لا تخص شعبة دون أخرى . أم هو تحريض موضعى من رجال الوفد فى عهد حكومة الوفد ومن رجال الأحزاب الأخرى فى أيام حكمهم .. ولكن هؤلاء الناس من الأسرتين كانوا دائماً يحسنون استقبالنا ولا نحس منهم بروح عدوانية .. أم أنها كراهية شخصية دفعت هذين الشخصين من رجال البوليس إلى تحدينا ؟..

رب ضارة نافعة :

كانت هذه المضايقات المستمرة والمصادمات المتتالية تترك فى نفوسنا بعض المرارة ، مع أنها لم تكن تنتهى فى كل مرة بأكثر من مشاجرة بينى وبين محمد أبو السعود سواء فى دار الشعبة أو فى مكتبه .. إلا أن هذه المضايقات كان لها فائدة لم نعرفها إلا بعد نحو عام .

ذكرت أن بوليس البندر وبوليس المركز كانا فى مبنى واحد . وتبين لنا فيما بعد أن ضابطاً من ضباط بوليس المركز برتبة ملازم كان يراقب ما يحدث بيننا وبين هذا المعاون السمين ، وكان يسائل نفسه لم هذا التهجم المستمر على هؤلاء الشباب بغير جريرة ؟ ولم لم يسأم هؤلاء الناس هذا التهجم المتوالى دون هوادة فيتركوا الفكرة التى من أجلها يسامون هذا الظلم فيستريحوا من هذا العناء ؟...

وقد نقل هذا الضابط بعد ذلك رئيساً لنقطة بوليس «صفط الملوك» مركز إيتاى البارود .. وكانت الدعوة فى ذلك الوقت قد سبقت إلى ما حول هذه المنطقة ووصلت إلى آل أبى رقيق فى «المسين» عن طريق نجلهم صالح أبو رقيق الطالب إذ ذاك بكلية الحقوق بالقاهرة . وتعرف صالح على هذا الضابط فى نقطة صفط الملوك؛ .

وكأنما كان هذا الضابط أرضاً خصبة شديدة الخصوبة لا ينقصها إلا الماء لتنبت وتزدهر وتؤتى أشهى الثمار ، وكان الماء هو هذه الدعوة التى احتضنها احتضان الأم لولدها الذى آب بعد غياب طويل ... ومنذ ذلك اليوم عاش هذا الضابط لهذه الفكرة ، ونعم بها زمناً ، وشقى بها أزماناً ولكنه شقاء لم يستطع مع بالغ قسوته أن يمس القلب الذى لم تفارقه السعادة لحظة واحدة .

كان هذا الضابط هو الأخ الحبيب الأستاذ صلاح شادى ؛ الذى زرته فى بيته فى نقطة صفط الملوك فى ذلك الوقت وقص على قصة مراقبته إيانا فى مضايقات المعاون محمد أبو السعود ، وأن هذه المضايقات كانت أول شىء شد انتباهه إلى هذه الدعوة ، وأحس معه أنها دعوة حق ... وقد تصادف أن كان عنده فى ذلك اليوم زائر آخر عرفنا به فكان هو شقيق زوجته مدرساً للغة

الإنجليزية بالمدارس الثانوية بالقاهرة وكان هذا الزائر هو الأخ الأستاذ محمد فريد عبد الخالق الذى اقتنع بالدعوة وعاهد عليها وصدق ما عاهد الله عليه .

وقد أوليت الأخ صلاح شادى هذا الاهتمام لأن هذا الأخ قد نهض بأدوار خطيرة فى الدعوة ما كان لينهض بها غيره . ولقى فى سبيلها أشد مايلقاه مؤمن على يد أعتى الظالمين وسنعرض إن شاء الله لهذه الأدوار فى مواضعها .

نشر الدعوة بالبحيرة :

لم يكن بالبحيرة فى ذلك الوقت شعب للإخوان إلا فى دمنهور ورشيد والمحمودية وشبراخيت ، فرأينا أولا أن نركز على تكوين شعبة قوية منظمة فى دمنهور ثم نهضنا بنشر الدعوة فى بلاد المحافظة فكنا نخصص مساء يوم الخميس ويوم الجمعة كل أسبوع لزيارة مركز من المراكز حتى صار فى كل مركز شعبة ثم انتشرت الدعوة إلى ماسوى ذلك من المدن والقرى .. وكان للأستاذ المرشد حنين شديد لزيارة شعب هذه المحافظة التى نشأ فيها وكان له ذكريات فى كثير من مدنها وقراها ... وأذكر بهذا الصدد أننا كنا نتنقل معه بين بلاد مركز كوم حمادة حتى وصلنا إلى قرية «خربتا» فقال لنا إنه بعد أن حصل على دبلوم مدرسة المعلمين الأولية من دمنهور عين مدرساً فى مدرسة خربتا الإلزامية .

مناقشة حول الربا :

تعتبر دمنهور من أشهر بلاد القطر فى تجارة القطن وحلجه وكان بها فى ذلك الوقت ثلاثة عشر محلجاً ... ورغب زملائى فى العمل تأسيس رابطة لهم تودع أموالها فى بنك بفائدة فلما عرضوا على المشروع رفضته لهذا السبب باعتبار هذه الفائدة ربا ...

وكنت مع بعض زملائى فى زيارة صاحب أكبر محلج بالمدينة فسألنى : هل صحيح أنك تعتبر فوائد البنوك رباً فاجبت بالإيجاب فتعجب وقال وما حجتك فى ذلك ؟ .. فقلت قول الله تعالى «ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولاتظلمون » ومعنى هذا أنك إذا أقرضت إنساناً أوبنكاً مبلغاً من المال أو اقترضت منه فحين تسترد هذا المبلغ أو حين ترده يجب أن لا يزيد مليما وأن لاينقص مليما .. وهل الربا إلا عقد ترتبط فيه الزيادة فى المال بزيادة المدة ؟...

قال : إذا كان ماتقول صحيحاً فمعنى ذلك أنى فى عملى أتعامل بالربا . فقلت له وهل هناك شك فى أن تجارة القطن فى بلادنا إنما تقوم على الربا ؟ قال : إنك تعلم مدى تمسكى بالدين ... ولو علمت بأن تعاملى مع البنوك فى تجارة القطن رباً لتركت تجارة القطن ، ولكنك فاجأتنى بشىء لم أسمعه من قبل وفى البلد علماء وأزهر .

قلت سأوضح لك الأمر بمثل واقعى : إذا حددت البورصة سعر صنف من أصناف القطن بأربعين ريالا للقنطار ونزل فى مركز دمنهور مائة تاجر كل تاجر يعول بيتاً ويملك كل منهم ألف جنيه لشراء القطن من المنتجين ، وتوزعوا فى قرى المركز فنزل فى قرية منها خمسة تجار ، وعاين أحدهم الأقطان وأعطى سعراً لها ثلاثة وأربعين ريالا . ثم مر الأربعة الآخرون واحداً بعد الآخر فزادوا السعر الزيادة المعقولة فى حدود خمسة قروش لكل منهم فصار السعر الأقصى أربعة وأربعين ريالا ، ومعنى ذلك أن هؤلاء التجار المائة سيشترى عشرون منهم عشرين صفقة وسيجتمع للواحد منهم برأس ماله حوالى مائة قنطار ، يستطيع أن يحلجها لحسابه ويبيعها محلوجة ويجنى منها ربحاً مناسباً يعيش به هو وأسرته عيشة كريمة وربما عاشت بجانبه أسر .

أما الذى يحدث الآن فعلا : فصاحب محلج مثلك رأس ماله مثلا عشرة آلاف جنيه لو اشترى بها جميعاً قطناً زهراً فإنها لاتكفى لشراء أكثر من ألف قنطار . فإذا اشترى هذه الكمية ترك فرصة واسعة لمئات من صغار التجار أن يشتروا بجانبه ، ولكن الواقع المؤلم هو أنك لا تعتمد فى الشراء على العشرة الآلاف التى تملكها بل تذهب إلى البنك وتقترض منه بضمان البضاعة وبفائدة محددة فيضع البنك تحت يدك مائة ألف جنيه ، فإذا نزل هؤلاء المئات من التجار الصغار مشترين فلن يستطيعوا منا فستك فى أية قرية من القرى لأن مندوبيك فى القرى سيرفعون السعر رفعاً تقوى عليه المائة ألف جنيه ولا تقوى عليه الألف جنيه وبذلك يتعطل هؤلاء التجار ولا يجدون مناصاً من طرق بابك واللجوء إليك لتتخذ منهم عمالا بأجر زهيد عندك .

وحسب الربا ظلماً أنه يقضى على المئات الذين يريدون أن يعيشوا مجرد عيشة كريمة ليرفع على أنقاضهم فرداً واحداً ليعيش فى أعلى درجات الرفاهية .

فى فوة . تجربة ناجحة للدعوة

كان عملى الحكومى كما قدمت فى دمنهور ، وشاءت الأقدار أن يكون رئيسى فيها رجلا سكيراً لا يتعفف ، ومع أنى كنت حريصاً على أن لا أحتك به فإنه كان يعتقد أنى أطارده كالمثل الذى يقول : يكاد المريب يقول خذونى ... وقد عمل هذا الرجل بما له من صلات مع الرؤساء الكبار على التخلص منى ففوجئت بعد سنة واحدة فى دمنهور بنقلى إلى فوة .

سافرت إلى فوة وذهبت إلى المحلج الذى سأكون مسئولا عما يدور فيه من عمل ولما رأيت طريقة العمل فيه ومعاملة أصحابه لموظفى الحكومة المشرفين عليه فهمت لماذا اختار لى هذا الرئيس هذا المحلج بالذات ... عرفت أن ثلاثة عشر موظفاً من مصلحة القطن نقلوا إلى هذا المحلج قبلى ولم يستطع أحد منهم أن يستمر فيه إلا عدة أشهر نقل بعدها على أثر ضربه ضرباً كاد يفضى به إلى الموت ... كان أصحاب هذا المحلج قوماً يريدون أن يربحوا من أى طريق لا يبالون بشرف ولا دين ولا قانون معتمدين فى ذلك على انقطاع بلدتهم عن غيرها لسوء المواصلات كما أن المحلج يقع خارج العمران كما يعتمدون على فساد ذمم الرؤساء واستعدادهم لقبول المنح والهدايا .

كنت فى ذلك الوقت فى سن مبكرة لم أعد الاثنين والعشرين عاماً ولم أكن جربت حقارة النفوس التى ووجهت بها لأول مرة وعلى حين غرة ولم أكن أتصور أن يكيد رجل لم احتك به ولم أنله بأذى لشاب مثلى فى سن أحد أبنائه فيلقى به بين أنياب السباع ... أسفت وتألمت ولكن ذلك لم يكن ليؤثر فى مباشرتى عملى ؛ فقد باشرته ..ومباشرتى عملى فى مثل هذا المحلج لا تعنى إلا شيئاً واحداً هو مصادرة أصحاب المحلج فى مورد رزقهم الحرام ... ويبدو أن هؤلاء الناس لم يتعودوا على رؤية من يقف فى طريقهم لأنهم تعجبوا أولا ثم تقدم نحوى ابن صاحب المحلج وكان مديراً للمحلج ورفع يده مهدداً بصفعى ... وهنا ذهبت إلى مكتبى وكتبت استقالة والدموع تقطر من عينى وأرسلت الاستقالة إلى رئيسى .

وحضر رئيسى من دسوق وحاول إصلاح ما بينى وبين إدارة المحلج متوسلا إليهم ومحذراً إياى من أن يصيبنى ما أصاب الثلاثة عشر زميلا من قبلى ومزق الاستقالة .

وهدأت نفسى إلى أننى قبل كل شىء صاحب دعوة ، وأن البيئة التى وجدت فيها فى هذا المحلج مهما تلوثت به من مساوىء فإنها لاتخلو من خير دفين ، وعلى صاحب الدعوة أن يكشف عن هذا الخير وإلا كان فاشلا أو كانت دعوته غير جديرة أن تكون دعوة إصلاحية ، ولما كانت دعوته مما لا يتطرق الريب إلى صلاحيتها فإنه هو الذى –إذا لم يستطع النفوذ بها إلى قلوب الناس على اختلافهم – يكون فاشلا .

إن تجربتى فى هذا المحلج قد أثبتت لى أن هذا الجنس البشرى مهما تدنس وانحط إلى أسفل السافلين ، وفشلت فى علاجه وسائل الإصلاح فإنه لايستعصى على الدين .. وثبت لى أن بلادنا هذه لاتقاد إلى أعلى مراتب السمو والنبل إلا عن طريق الدين .. وكل ما سوى ذلك من وسائل الإصلاح ليس إلا مضيعة للوقت وتبديداً للجهد ... محال أن يقاد الإنسان إلا من قلبه !!!...

والناس يريدون أن يروا الإنسان الذى يخالطهم ولا يتكبر عليهم ولكنه يترفع عن متاع دنياهم ... إنهم يقبلون عليه ويحبونه ويفتدونه ... أما الذين يخالطون الناس ويخاطبونهم باسم الدين بعين ، فى حين يمدون عينهم الأخرى إلى مامتع الله به هؤلاء الناس من زهرة الحياة الدنيا ، فهؤلاء لا تفتح لهم أبواب القلوب ولايحظون منهم برضاً ولا تقدير... يروى أن الرشيد الخليفة العباسى أحس من نفسه يوماً أنه فى حاجةإلىمن يعظه : فأرسل فى طلب كبار العلماء فحضروا ، وصار كل واحد منهم يعظه فيمنحه صرة من المال ، حتى كان آخرهم عمروبن عبيد فوعظه ما شاء الله له أن يعظه ثم قام وانصرف وجد فى السير ، فأرسل خلفه من يحاولون اللحاق به لتسليمه الصرة حتى لحقوا به لكنه رفض .. فرجعوا بها إلى الرشيد فنظر إليه الرشيد وشيعه ببصره وهو يقول :

كلكم يطلب صيـــــد كلكم يمشى رويـــــد

غير عمر بن عبيد

إن الناس يتمنون فى أعماق قلوبهم أن يروا من يرى نفسه أكبر من دنياهم ليتخذوه لهم قدوة وإماماً .... ولكن أين هؤلاء وسط البحر الزاخر من عبيد المادة .

لم يمض على هذه الحادثة التى تهجم على فيها ابن صاحب المحلج أكثر من شهر حتى فعل مقلب القلوب فعله ، فإذا بصاحب المحلج نفسه الذى كان ظهيراً لولده من قبل ينادى ولده . وكان رجلا متزوجاً وذا أبناء —وقال له أمام الناس : كل ما يفعله «فلان» — يقصدنى — فى المحلج لابد أن تخضع له ، وإذا تعرضت له ولو بكلمة سأطردك من المحلج ومن البيت ... ولم يكن الرجل يقصد بكلامه هذا إحراجى كما قد يتبادر إلى الذهن بل كان يقول وهو يعنى ما يقول ، لأنه بعد أن قال ذلك طلب منى أن أجلس إليه وسألنى عن الأشياء المخالفة للقانون التى أريد أن أمنعها فسردتهاله وهى تتلخص فى منع دخول أشخاص معينين تعودوا أن يحضروا للمجلج أقطاناً مغشوشة يبيعونها له بسعر منخفض ... فطلب بواب المحلج أمامى ونبه عليه بمنع دخول هؤلاء الأشخاص مطلقاً ... ثم قال لى : يافلان لعلك تعلم أن أكثر ربحى كان من هذا النوع من الأقطان ولكننى والله قد أصبح رضاك عنى أحب إلى من هذه الأرباح .

الاقلاع عن الكيوف لايحتاج إلا إلى عزيمة :

لم يكن هذا الرجل يصلى وكان يشرب الخمر ويتعاطى الحشيش والأفيون ومن قبل كان يتعاطى الهورايين ويجدربى بهذه المناسبة أن أضع بين يدى القارىء تجربة مرت بهذا الرجل

وحدثني عنها وفى ذكرها نفع كبير لمن يقرأها ، قال لى : كنت فى شبابى من أقوى الناس بلية ، وابتليت بتعاطى الهوارين حتى أنحل جسمي إلى حد أنني صرت إذا هبت على الرياح أخشى أن توقعني على الأرض ، وكنت فى الصيف أنزح إلى الاسكندرية حيث لى بيت فيها ، وكنت خلال إقامتي فى الاسكندرية أتردد على مقهى السنانية ، وكان صاحب المقهى يشترى لى الهوراين وكانت العلبة بعشرين جنيهاً .. وفى احدى المرات اشترى علبة فلما رجعت إلى المنزل فتحتها وتعاطيت منها فلم أتأثر بها فعلمت أنها مغشوشة فرجعت بها إلى المقهى وأعطيت العلبة لصاحب المقهى وذكرت له ما كان من شأنها ، فاستدعى الذى اشتراها منه وذكر له ما قلته بصددها فرد الرجل رداً فاحشاً ثم التفت إلى وقال : إذا ذكرت ذلك مرة أخرى عن بضاعتى فسأصفعك صفعة ألقيك بها على الأرض . فكان لتهديد الرجل إياى أثر عميق جداً فى نفسى وقلت لنفسى إن هذا الرجل صادق فى كلامه فإنه إذا صفعني فإنه سيلقى بى على الأرض لأن جسمي لامقاومة فيه ... ياللهوان إلى هذا الحد أصبحت تافها حتى إن مثل هذا الصعلوك يشتمني ويهددنى ... وقررت فى نفسى أمراً ... وهنا انبرى صاحب المقهى بماله من سطوة يدافع عنى ويشيد بمكانتى ويهدد الرجل ويأمره بتغيير العلبة المغشوشة فى الحال فانصاع الرجل وأحضر العلبة الحقيقية فأخذتها ووضعتها فى جيبى وغادرت المقهى إلى المنزل .

قال لى : ودخلت شقتى واتجهت إلى المرحاض وأخرجت العلبة وفتحتها وأفرغتها فى المرحاض عن آخرها وشددت السيفون ثم دخلت حجرة النوم وبدأت الآلام تنتابنى ، وكلما مر الوقت تضاعفت الآلام حتى صرت أصرخ كالمجنون من شدة ماتمزقنى الآلام ... وجاءوا بالطبيب فقرر أن أتعاطى الهوراين وإلا فالموت ... فرفضت وآثرت الموت ثم جاءوا بأطباء آخرين فقرروا نفس القرار وأصررت على الرفض .وكانت الآلام تستبد بى حتى أفقد وعى فأنزل من المنزل وأنا لا أحس بنفسى وأهيم على وجهى كالمجنون حتى كان أهلى يجدوننى فى بعض الأحيان على بعد أميال نائماً على «دكة» أحد البوابين .

ظلت هذه الآلام المبرحة نحو شهراً ثم أخذت تخف شيئاً فشيئاً فقرر الأطباء أن أقضى شهراً فى جهة خارج المدينة فاستأجرت مكاناً فى المكس ومكثت فيه حتى اكتملت لى صحتى وعادت إلى عافيتى التى كنت أنعم بها قبل أن أبتلى بهذا «الكيف» الملعون .

وجدير بالذكر أن ننبه إلى أن «الهوراين» هو مسحوق أبيض مخدر يتعاطى عن طريق الشم بالأنف وهو أشد المخدرات تأثيراً وأخطرها سمية وأقواها استيلاء على مراكز الإحساس .. وهذه

التجربة الواقعية تثبت أن العزيمة القوية قادرة على قهر أعتى العادات والكيوف مهما تمكنت من النفس واستولت على مراكز الإحساس فيها .

وجاءنى الشيخ صاحب المحلج فى يوم من الأيام وقال لى : سأخبرك بشىء يسرك ، لقد امتنعت عن الخمر ... وبعد ذلك بفترة وجيزة أخبرنى أنه امتنع عن الأفيون ثم الحشيش ثم طلب منى حين أقوم لصلاة الظهر أن يصحبنى فكنا نصلى جماعة أنا وهو فى مكتبه ، ورأيت فى أحد أطراف فناء المحلج حجرة مهجورة مهدمة فسألت عنها فقيل إنها المسجد الذى كان من شروط الترخيص الحكومى بالمحلج أن يكون ضمن بنائه فبنى ولم يستعمل حتى تهدم .فأشرت على الشيخ أن يصلحه فأصلحه وفرشه وكنا نصلى فيه أنا وهو ومعنا كثيرون من الموظفين والعمال بالمحلج .
وجاء ميعاد الحج فاستعد الرجل لأداء الفريضة وأداها ثم قام أهل فوة بجمع تبرعات لإصلاح دورة مياه مسجد أبى المكارم أكبر مساجد فوة فلما علم بذلك تعهد بأن يقوم بهذا العمل وحده وقد هدم هذه الدورة وأنشأ دورة أخرى على أحدث طراز كلفها خمسمائة جنيه .

خلاصة القول أن الرجل أجاب داعى الله بعد أن كان غارقاً فى بحار الشر فكان برهاناً على أن الدعوة الإسلامية الخالصة هى وحدها العلاج الناجع لمجتمعنا ولاعلاج غيرها.

الدعوة فى فوة :

إذا أحببت أن تعرف معدن أهل فوة فحسبك أن تعلم أن الأستاذ حسن البنا هو من أهل فوة . ولد فى شمشيره إحدى قرى مركز فوة ... نزلت هذا البلد الكريم ولم تكن الدعوة قد وصلت إليه بعد ، ولعل السبب فى ذلك صعوبة المواصلات إليه فى ذلك العهد .. وما كدت أتصل بأهل هذا البلد الكريم حتى أقبلوا على مستجيبين لدعوة الله وأنشأوا شعبة ضمت صفوة الناس شباباً وشيباً وزاولت جميع أوجه النشاط الروحى والثقافى والرياضى والعسكرى ، وصار إخوان فوة مثلا عليا فى كل وجه من هذه الأوجه .

تجديد فى أساليب الدعوة :

لم يكن بفوة فى تلك الأيام أية مؤسسة من مؤسسات الترفيه ، فلا سينما ولا مسرح ... وقد رأيتهافرصة سانحة لنقل الأفكار الاسلامية إلى عقول الفلاحين وعقول الناشئة وأهليهم ، فصغت من أحداث نفى مشركى قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولبنى هاشم فى شعب من شعاب مكة مسرحية . وكنت من قبل قد وضعت أحداث معركة القادسية فى مسرحية طويلة ، وكانت هاتان المسرحيتان باللغة الفصحى ، فرأيت أن أصنع بجانب ذلك مسرحية باللغة العامية لتخاطب عامة

الناس وجعلت هدفها معالجة مادرج عليه الفلاحون ، فى ذلك الوقت من الاستدانة بالربا من اليهود الذين أنشأوا مكاتب فى المدن ويبعثون بمندوبهم إلى القرى والعزب للإيقاع بهؤلاء الفلاحين العوام. ولما كانت مسرحية القادسية طويلة فقد اجتزأت بفصلها الأخير .

ولقد استغرقت وقتاً طويلا فى تدريب مجموعة من شباب الشعبة على التمثيل حتى أتقن كل منهم الدور الذى أسند إليه تمام الإتقان ... وعرض لنا بعد ذلك عائق ضخم وهو المكان الذى تمثل فيه هذه المسرحيات ... ولم يطل بنا البحث فقد خطر لى أن أعرض على الحاج محمد المصرى صاحب المحلج . وكان الوقت فى مقتبل الصيف وفناء المحلج خال من القطن - أن نستعمل فناء المحلج لهذا الغرض ، ورحب الرجل كل الترحيب .

وأقام الإخوان المسرح مستفيدين بأخشاب المحلج ، وأعلن عن الحفل وأقبل الناس عليه من فوة وما حولها من القرى بالألوف مما لم يكن يتسع له مكان آخر غير هذا الفناء المترامى الأطراف . ونجح الحفل بحمد الله وتوفيقه نجاحاً لم يخطر على بال أحد ، وتأثر الناس بالأفكار التى رأوها وسمعوها وصارت حديثهم الذى يتحدثون به فى مجالسهم .. وكان هذا الحفل سبباً فى تعديل مسار كثير من الناس وسبباً فى افتتاح شعب كثيرة .. وعلى أثر هذا الحفل أدى الشيخ محمد المصرى فريضة الحج ورجع تائباً نقياً ..

بين حب الناس وحقد الرؤساء :

قدمت أن نقلى إلى فوة لم يكن إلا حقداً وضغينة من رئيس مارق ، ولما كان لهذا النقل أثر سىء على الدعوة فى البحيرة ، فقد ألح إخوان دمنهور على الأستاذ المرشد أن يعمل على رجوعى إلى دمنهور ولقد فعل وجاء أمر النقل - ويبدو أنه كان صادراً من رئيس الوزراء - حيث كان هو وزير المالية - لأن أحداً من السادة الرؤساء الحاقدين لم يستطيع أن يضع فى سبيله العراقيل ... والواقع أننى سررت به لا لشىء إلا لأقهر رئيسى المارق فى عقر داره فى دمنهور .

ولكن الذى حدث أننى رأيت نفسى أمام مظاهرة من إخوان فوة - وما أكثرهم وما أحبهم إلى نفسى - ومن الحاج محمد المصرى صاحب المحلج الذى ظن أن النقل طبيعى من الحكومة فقرر أن يذهب إلى الوزير لإلغاء هذا النقل، فلما علم بأن النقل إنما جاء عن طريق الأستاذ المرشد ، قرر السفر إليه وحمل معه مجموعة من الإخوان وطلبوا إليه إلغاء النقل ، وشرح له الحاج محمد المصرى حالته قبل وجودى بفوة وحالته بعد وجودى ... واتصل بى الأستاذ المرشد تليفونياً يسألنى عن

رأيي بعد هذه المظاهرة ولم يكن أمامي باعتباري إنساناً يقدر الناس إلا أن أوافق على إلغاء النقل والبقاء بفوة وقد كان .

ولما جاء صيف عام ١٩٤٦ أتممت زواجي ولم أكن أعلم أن الرؤساء المارقين قد تواطأوا على مؤامرة محبوكة الأطراف لنقلي إلى جهة بعيدة ، وتم لهم ماأرادوا حيث نقلت إلى ديروط بمحافظة أسيوط .

عرض من الأستاذ :

وهنا عرض على الأستاذ المرشد أن استقيل من عملي بالحكومة وأتفرغ للدعوة بمرتب أكبر من مرتبي ، فطلبت منه أن يمهلني حتى أستنير برأي والدي الذي سألته فقال لي : يامحمود لأن تعطي الدعوة خير من أن تأخذ منها» فلما أخبرت الأستاذ بما قاله والدي وقع من نفسه أحسن موقع وقال «ذرية بعضها من بعض »

في ديروط

كانت ديروط في ذلك الوقت بلداً لايزال أهلها يعيشون عيشة الجاهلية ، فكل فرد منهم يبيع كل ما يملك في سبيل أن يستأجر لنفسه رجلا أو أكثر مهمتهم أن يسيروا خلفه حيثما سار ، وأن يجلسوا حوله أينما جلس ، وكل منهم يحمل بندقيته على كتفه ؛ فالفقير يسير خلفه رجل واحد والمتوسط الحال يسير خلفه رجلان أوثلاثة والثرى يسير في موكب من هؤلاء السدنة والحراس الذين لا لزوم لهم ولا داعي إلا الظهور بمظهر العظمة والقوة المتكلفة المستعارة ... وكانت ديروط في تلك الأيام أكثر بلاد القطر جرائم ....

سافرت إلى ديروط وتسلمت عملي بها وأنا أكاد أتميز من الغيظ من نجاح هؤلاء الرؤساء المارقين الذين أرادوا أن يتخلصوا مني ليستمتعوا بالكسب الحرام دون رقيب فقذفوا بي أولا إلى فوة ،ظناً منهم أنهم ألقوا بي بين براثن الأسد ،وكادوا يحققون أملهم بتركي هذا العمل نهائياً وقد استقلت فعلا ولكن رئيسي المباشر ثناني عن الاستقالة ، ثم رأوا وجودي بفوة منع عنهم مورداً حراماً كانوا يستمتعون به من وراء سلوك محلجها سلوكاً يخالف القانون ، وباهتداء صاحب المحلج إلى صراط الله المستقيم لم ير داعياً يدعوه إلى تقديم ما كان يقدمه إليهم .. فدبروا حين علموا بزواجي أن يقذفوا بي إلى أشد بلاد القطر إجراماً في الصعيد لأمل واستقيل فيتحقق لهم مايريدون .

ذهبت إلى ديروط وحدى دون زوجتى واقمت فى فندقها الكبير امام المحطة ، وكان دوره الارضى مطعماً ومقهى وكان بالمقهى «سلاحليك» أكبر من سلاحليك مراكز البوليس ، لأن زبائنه كانوا من هذا النوع المسلح اختيالا وتفاخراً وجاهلية . فكان الزبون إذا دخل المقهى بتابعيه تناول عمال المقهى منهم السلاح وعلقوه بالسلاحليك ثم يسلمونه لهم عند خروجهم ... وكان عملى يقتضى أن أذهب إلى المحالج التى أشرف عليها صباحاً ومساء حتى الساعة التاسعة مساء كل يوم ، ولما كانت المحالج خارج البلد نصحنى قوم من عقلاء البلد أن لا أذهب إلى عملى فترة المساء اتقاء الخطر ؛ وحدث فعلا أكثر من مرة حوادث قتل فى هذه المنطقة وبلغ من جرأة المجرمين أنهم كانوا يهاجمون جنود البوليس فى هذه المنطقة ويجردونهم من سلاحهم وعجز المركز عن مقاومتهم .

وبعد فترة قصيرة من وجودى بديروط فوجئت بزائر لم أكن أعرفه ولكنه عرفنى بنفسه فإذا هو رئيسى مفتش مصلحة القطن فى محافظتى المنيا وأسيوط ، وعجبت حين رأيته يواسينى ، وقد لاحظ دهشتى فقال لى : لاتدهش فأنا مظلوم مثلك ، أنا أقدم موظف فنى فى المصلحة وأعلاهم مؤهلا ولكنى مثلك لا آكل الحرام — كان هذا الرئيس مسيحياً — فكان جزائى أن ألقوا بى هنا فى هذه الوظيفة مع أنى قاربت سن المعاش ... وأنا سمعت عنك وأتابع أخبارك بحب وإشفاق ، فلما علمت أنهم قذفوا بك إلى أسوأ بلد فى نطاق سلطة وظيفتى قدمت إليك لأعرض عليك أقصى ما أستطيعه من تخفيف عنك فى نطاق سلطتى وهو أن أنقلك إلى مغاغة التى تعد أرق بلد فى التفتيش التابع لى وأقرب بلد فيه إلى القاهرة ... ولما كانت مغاغة ليست غريبة على فلى فيها إخوة أعزاء وذكريات كريمة رحبت بعرضه وشكرته عليه ...

كيف كانت تدار شئون الدولة :

وسافر الرجل وبعد يومين وصلنى كتاب منه فيه القرار بنقلى إلى مغاغة محل السيد (ع.ح) على أن يتسلم الأخير العمل فى ديروط وعلى أن يكون التنفيذ فوراً ..

لم أكن أعرف السيد (ع . ح) هذا الذى سيحل محلى وأحل محله ، وإن كنت أعرف مغاغة تمام المعرفة فلم يمض على فراقى لها إلا سبع سنوات . وذهبت فى اليوم المحدد إلى مغاغة فرأيت عجباً وسمعت عجباً ... العجب الأول أنى حين نزلت مغاغة اتجهت مباشرة إلى شريكى السابق وصديقى وأخى الأستاذ شلبى محمد جاد وكان فى ذلك الوقت قد صار عمدة مغاغة ، فتلقانى أحسن لقاء ثم تحدثت معه عن سكن لى باعتباره أكبر مالك للعقارات فى المدينة ففوجئت بأن مغاغة ليس فيها حجرة واحدة . وقام معى فعلا ومررنا فأثبت مرورنا هذه الحقيقة المرة .

ثم رجعنا إلى مكتبه وجلسنا نتحدث وإذا بشخص يستأذن فى الدخول فرأيت رجلا يكبر با جيماً ، فى سن تجاوز الخمسين وتشرف على الستين وعلى عينيه نظارة سوداء فسلم وجلس ، وكأنه كان يريدنى دون الحاضرين فانتقل إلى جانبى وعرفنى بنفسه فإذا هو السيد (ع.ح) الذى قدمت لأحل محله .

قال لى الرجل : لعلك فوجئت بلقائى إياك فى هذا المكان ، فالمكان المعهود للقائى معك هو جهة العمل لتتم عملية التسليم والتسلم ؛ ولكننى لما علمت بأنك ستحضر إلى مغاغة اليوم أيقنت أنك ستنزل عند أخيك الأستاذ شلبى فحرصت على لقائك عنده .

قال الرجل : وسأكون معك صريحاً غاية الصراحة لأنى أعلم أنك لست كأى زميل حاول أن ينقل مكانى ... وهنا عجبت لقوله إنه سيكون معى صريحاً كأن فى الأمر شيئاً أنا أجهله . قال : إننى هنا منذ عشر سنين وقد حاولوا نقلى أكثر من مرة ففشلوا . قلت : إن هذا الكلام غامض فمن الذين حاولوا ولماذا حاولوا وما الذى يعنيهم من أمر نقلك بالذات وكيف فشلوا ؟..

قال : ياأستاذ محمود يجب أن تعلم أن كل زملائنا هنا فى الصعيد يستفيدون من وظائفهم أكثر من أضعاف مرتباتهم ، وأنت الوحيد الذى أقر الجميع بترفعك عن ذلك — وشرح لى وسائل الاستفادة — ثم قال لى : إننى هنا فى مغاغة قد توطدت العلاقة بينى وبين أصحاب المحلجين فيها وأصبحت أعيش من أثر ذلك فى رغد والحمد لله .. وإننى أعتبر نقلى من هنا قتلا لى ، ولذا فقد ضحيت بالكثير وبذلت الكثير فى سبيل إلغاء نقلى فى كل مرة ، حتى إننى فى المرة الأخيرة وكانوا قد أحكموا الخناق حول رقبتى اضطررت أن أبذل مبلغاً كبيراً فى السراى (السراى الملكية) حتى صدر أمر منها إلى وزير المالية بإلغاء نقلى وكانت صدمة للذين وضعوا الخطة .

ثم قال : لقد حدثتك بالحقيقة التى لم يكن أحد يعرفها ولم أحدث بها أحداً غيرك ، ومع ذلك فإذا قررت تنفيذ النقل فلن تلقى منى أية مقاومة لأنى لا أجرؤ على الوقوف فى وجه رجل طاهر . وإن كنت أجرؤ على الوقوف فى وجه الوزير نفسه ، وهؤلاء هم أبنائى (وأخرج من جيبه صورة لثلاثة أبناء فى مختلف المدارس وفى الجامعة) ثم قام مستأذناً بعد أن عزم على أن أكون ضيفه تلك الليلة وانصرف وهو يكاد يبكى.

وبت تلك الليلة عند أخى الأستاذ شلبى أكرمه الله فقد كان على العهد لم يتغير . ولاأنسى ما عرضه على فى تلك الليلة وألح على فى قبوله حيث قال : إن شقتى التى أسكنها واسعة مكونة من ست غرف ، وسأقسمها بينى وبينك تأخذ ثلاث غرف وأنا آخذ الثلاث الأخرى . فشكرت له جميل عرضه الذى ذكرنى بما عرضه الأنصار على إخوانهم المهاجرين ... وقلت له : يا أخى

لقد عرفت الليلة من على الذى أنتسب إليه مالم أكن أعرف ، وسأسافر صبيحة غد إن شاء الله إلى المنيا لمقابلة المفتش الذى نقلنى إلى مغاغة وأعتذر إليه بأنى لم أعثر على سكن ، وأسأل الله تعالى أن يحفظ على إيمانى وسط هذه الفتن .

عرف الإنجليز عن ديننا مالم نعرف :

فى خلال الفترة التى أقتها بديروط وحدى فى الفندق أشار على بعض الأصدقاء أن أودع نقودى فى صندوق توفير البريد حفظاً لها ... فذهبت إلى مكتب البريد - وكان معاون البريد صديقاً لى وكان شاباً ظريفا وكان مسيحياً - وقلت له إننى أرغب فى إيداع ما معى من نقودفى صندوق التوفير فسألنى : هل تريد استمارة المسلمين أم استمارة بفوائد ؟ فلما سمعت هذا السؤال منه ظننته يمزح معى لأنه يعرف أننى من الإخوان المسلمين فأراد أن يتندر بهذا الأسلوب ، فقد كنت أعرف أن البريد يخير المتعامل معه بين طريقتين : التعامل بالفوائد والتعامل بغير الفوائد ، وكان اعتقادى أن استمارة التعامل بدون فوائد مطبوع عليها «استمارة للتعامل بدون فوائد» حيث إن الأخرى مطبوع عليها استمارة للتعامل بفوائد: فقلت للمعاون : دعنا من المزاح وأعطنى الاستمارة المطبوع عليها «التعامل بدون فوائد» فرد على قائلا : إنك حملت كلامى على محمل المزاح ... إنه ليس مزاحاً وناولنى الاستمارة فرأيت مطبوعا عليها «استمارة للمسلمين» .

كان لهذا الحادث العارض فى نفسى تأثير عميق ودلالات مؤلمة ... وقلت لنفسى إن الذى أسس مصلحة البريد فى مصرهم الإنجليز وهم الذين وضعوا نظمها وأسسها وأساليبها ، ولايزال العمل يدور بهذه المصلحة على نفس النظم والأساليب التى وضعوها .

فالإنجليز إذن قد فهموا من ديننا أن المسلم بحكم أنه مسلم لا يجوز له أن يتعامل تعاملا مالياً مع أحد - ولوكان هذا الأحد مصلحة حكومية - بفوائد لأن الفوائد رباً والربا حرمه الإسلام وعلى هذا الأساس طبعوا نوعين من الاستمارات نوع بدون فوائد وسموه «استمارة للمسلمين» ونوع آخر بفوائد وفى نظرهم أنه لغير المسلمين .

ثم يأتى أكثر المسلمين متنكرين لدينهم متناسين أنفسهم معرضين عن الاستمارات التى أعدت للمسلمين متعاملين بالاستمارات الربوية ... لقد عرف الإنجليز عن ديننا مالم نعرف ، وقدرونا ولكننا احتقرنا أنفسنا .

النقل إلى دمنهور ثانية :

كانت الفترة التى قضيتها فى ديروط فترة غير مستقرة ، فقد كنت موزع الخاطر ، ثم

تخلل هذه الفترة شهور طويلة أصاب البلاد فيها وباء الكوليرا – أعاذنا الله منه ولا أعاد أيامه ، وفى خلاله كان الناس يعيشون فى خوف ، وتقطعت الصلات بين البلاد حيث أوقف سير قطارات السكة الحديد وغيرها من طرق المواصلات ، ومنع الانتقال من مكان إلى مكان حتى إننى حين أقبل العيد حاولت السفر إلى رشيد بالطائرة من أسيوط فقيل لى إن جميع الأماكن محجوزة لما بعد العيد بأسبوع ... وقد استضافنى فى أيام العيد الأخ الكريم السيد محمد حامد أبو النصر فى منفلوط المتاخمة لديروط وبالغ فى إكرامى أحسن الله إليه وعوضه خيراً عما ناله من ظلم كبير .

ولم ألبث بعد ذلك إلا قليلا حتى نقلت إلى دمنهور ، ويبدو أن مما سهل نقلى هذا أن هذه الأماكن النائية والبعيدة عن أعين الرقابة طلاباً كثيرين يتهافتون عليها .

ترشيح المرشد العام لمجلس النواب سنة ١٩٤٢

قد يبدو هذا العنوان كما يبدو العنوان الذى يليه فى هذا الفصل وكأنهما دخيلان عليه ؛ إذ أن فيهما احتكاكاً بالحكومات القائمة ولذلك قد يراهما القارىء أليق بأن يلحقا بالفصل القادم المخصص للعمل الوطنى منهما بالإلحاق بهذا الفصل الذى يعالج العمل الداخلى ... ولكن القارىء سوف يقتنع بأنهما من صميم هذا الفصل حين يعلم أن هدف الأستاذ المرشد من وراء هذا الاحتكاك إنما كان تمهيد السبيل لتثبيت دعائم الدعوة فى أنحاء البلاد ، وتأمين خطواتها فى هذا السبيل حتى تستكمل كل وسائل القوة المعنوية والمادية .

ومن المسلم به أن أية دعوة ذات أهداف نبيلة وبرامج إصلاحية تريد تحقيق هذه الأهداف والبرامج ينبغى أن يكون من وسائلها إلى ذلك العمل على الوصول بأعضائها إلى مقاعد المجالس التشريعية ، ولا يتأتى ذلك إلا بخوض المعارك الانتخابية ... ومن بدائه الأمور أنه كلما كان عدد النواب لهيئة من الهيئات أكثر كان تحقيق آمالها أيسر ؛ ولكن الإخوان كانوا يعتقدون أن حصولهم على مقعد واحد فى مجلس النواب كفيل بأن يؤثر فى هذا المجلس أبلغ التأثير إذا كان صاحب هذا المقعد هو حسن البنا ؛ ذلك أن لديه من قوة الشخصية والقدرة على الإقناع مع مايتمتع به من روحانية فياضة وبلاغة آسرة ما يشد إليه الأسماع والعيون والعقول والقلوب ، وما يفعل فى السامعين فعل السحر ... وقد استطاع بهذه المواهب النادرة أن يجمع حوله من الأنصار الذين يفتدون دعوته بأموالهم ودمائهم مئات الألوف فى أنحاء مصر وغير مصر من الدول العربية والإسلامية .

لهذا اتخذ الإخوان قراراً بترشيح المرشد العام عن دائرة الاسماعيلية فى الانتخابات التى

أعلنت حكومة الوفد إجراءها سنة ١٩٤٢ ... وإذا كان اعظم المرشحين لم يكن لتقدمه للترشيح من صدى إلا فى دائرته التى ينتمى إليها ، فإن تقدم حسن البنا للترشيح كان له صدى يتردد فى جميع محافظات القطر ومراكزه وحواضره وقراه بل وقد تعدى ذلك الصدى إلى خارج مصر ؛ ذلك أن فى كل مكان من هذه الأماكن رجالا ونساء يعقدون الآمال العريضة على هذا الترشيح .

وينبغى أن يكون مفهوماً أن ترشيح حسن البنا فى دائرة الاسماعيلية ليس له إلا معنى واحد هو أنه من قبل أن تجرى انتخابات قد صار عضواً بمجلس النواب مهما نافسه فى الترشيح مائة مرشح منهم رئيس الحكومة نفسه ،ذلك أن أهالى هذه الدائرة عن بكرة أبيهم رجالا ونساء وأطفالا يعتبرون ترشيح حسن البنا عندهم شرفاً لا يعادله شرف ، وأن انتخابهم إياه فريضة من فرائض الدين وقربة من أعظم القربات إلى الله عز وجل .

وهذه الحقيقة التى يعرفها أهل الإسماعيلية ويعرفها الإخوان فى كل مكان ؛ ويعرفها الإنجليز أيضاً ، وإن كان يجهلها - حتى ذلك الوقت - فئات أخرى منهم حكام مصر ورجال الأحزاب المصرية الذين لم يستطيعوا أن يفهموا عن الإخوان المسلمين أكثر من أنهم جماعة تدعو إلى الدين الذى لا يخرج فى تصورهم عن كونه طقوساً وعبادات ومحاربة المنكرات بالوعظ والإرشاد ... بالرغم مما يبذله الإخوان من جهود لتوضيح فكرتهم عن الإسلام باعتباره ديناً ودولة ، وعقيدة وشريعة ، وبرنامجاً إصلاحياً شاملا لجميع شئون الحياة

تقدم الأستاذ المرشد بطلب الترشيح إلى وزارة الداخلية كالمعتاد ... فما الذى حدث ؟...
بعد أيام قلائل جاءه رسول من قبل مصطفى النحاس باشا رئيس الحكومة يدعوه لمقابلته ....
وسأنقل هنا نص ماجاء فى تقرير الأمن العام عن هذه المقابلة وعن هذا الموضوع عامة وقد نشره فى جريدة الأهرام فى ١٤-٢-٧٥ الدكتور عبد العظيم رمضان مدرس التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة طنطا ضمن وثائق نشرها ، قال التقرير :

«لم يكد يذاع خبر ترشيح الأستاذ حسن البنا ويدفع التأمين إلا واتصل به حضرة عبد الواحد الوكيل بك صهر حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا ، وتكلم معه فى موقف الإخوان المسلمين ، وطلب منه الرجوع إلى رفعة النحاس باشا لكى يكون رفعته على بينة من أمرهم لأن رفعته لديه فكرة غامضة عنهم .

وبعد بضعة أيام تلقى دعوة بمقابلة رفعة النحاس باشا ، وتمت المقابلة بفندق ميناهاوس ، وقد طلب منه رفعة النحاس باشا أن يتنازل عن الترشيح. وصارحه رفعته أنه يطلب ذلك إيثاراً للمصلحة العامة ولمصلحته (أى مصلحة الأستاذ البنا) إن كان يريد الإبقاء على جماعات الإخوان

المسلمين فى مختلف البلدان . فرفض ذلك وقال إنه يستعمل حقاً من حقوقه الدستورية ولايرى ما يمنعه من الترشيح ، وإن كان هناك موانع فانه يطلب بيانها لكى يتبين مبلغها من الصحة ، وفضلا عن ذلك فإن قرار الترشيح صدر من هيئة المكتب العام لجماعة الإخوان ،وأنه شخصياً لا يملك الرجوع فى ذلك .

فرجاه رفعة النحاس باشا أن يعمل على إقناع الأعضاء بالعدول عن ذلك، وأن رفعته رأى أن يدعوه لينصح له بالتنازل وإلا اضطر إلى اتخاذ اجراءات أخرى يراها رفعته قاسية ، ولا يرتاح إليها ضميره ، ولكنه حرصا منه على مصلحة البلد مضطر إلى تنفيذها . ولما استوضحه تلك الإجراءات قال رفعته إنها حل جماعات الإخوان المسلمين ونفى زعمائها خارج القطر ؛ وتلك هى رغبة هؤلاء الناس (يقصد الإنجليز) الذين بيدهم الأمر يصرفونه كما يرون ، ونحن مضطرون إلى مجاملتهم خصوصاً فى هذه المسائل الفرعية ، وفى هذه الظروف العصيبة، لأنهم يقدرون على كل شيء ، وفى استطاعتهم إن شاءوا أن يدمروا البلد فى ساعتين .

وقد ترك رفعته فرصة للتفكير فى الأمر ، وأن تتم مقابلة أخرى فى هذا الشأن ، وقد عرض الأمر على هيئة مكتب الإرشاد فلم توافق الأغلبية على التنازل ، ولكنه هو شخصياً وافق عليه لا خوفاً من النفى ولكن حرصاً على قيام الجماعة واستمرارها فى تنفيذ أغراضها .

وأخيراً أستقر الرأى على التنازل ، وتوجه مرة أخرى لمقابلة رفعة الرئيس بوساطة سليم بك زكى الذى بسط لرفعته دعوة الإخوان ومدى انتشارها فى المدن والأقاليم ، فانتهز هذه الفرصة وطلب من رفعته ضمانات بقيام الجمعية وفروعها . وعدم الوقوف فى سبيلها وعدم مراقبتها والتضييق على أعضائها للحد من نشاطهم فوعده رفعته بما طلب » .

وقد أوردت ماجاء بتقرير الأمن العام عن هذه المقابلات لأنه هو فعلا نص ماحدثنا به الأستاذ المرشد عقب رجوعه من كل من المقابلتين ، فقد كنا فى ذلك الوقت فى المركز العام ننتظر رجوعه على أحر من الجمر لأن موضوع الترشيح كان أمراً جوهرياً بالنسبة لنا ولجميع الإخوان فى أنحاء البلاد ، ولهذا فإنه رأى بعد أن قص علينا ماحدث أن ننتقل إلى الاسكندرية وطنطا وغيرها من العواصم ليقصه عليهم حتى يكون الجميع على صورة واضحة من الموضوع .

وموقف الأستاذ المرشد فى هذا الموضوع كان أحد المواقف القليلة التى جاء رأيه النهائى فيها صدمة لمشاعر الإخوان وعواطفهم ، فما من أحد فى أنحاء البلاد إلا وشعر بهذه الصدمة التى تمثلت لنا فى صورة فرصة أفلتت منا بإرادتنا ولو أننا تمسكنا بها لأفادت الدعوة منها أعظم فائدة .

ولم يسلم الإخوان للاستاذ المرشد بما طلبه إليهم ، ولم ينزلوا على رأيه إلا للثقة التي لا حدود لها فيه ، وللاطمئنان الكامل إلى اخلاصه ومقدرته وبعد نظره وحسن تدبيره للأمور .

وتقريراً للواقع أقول إن هذا الموقف الذي وقفه الأستاذ في هذا الموضوع — وإن كان قد جرعنا في أوله بعض المرارة — إلا أنه عاد على الدعوة بما لا حصر له من الفوائد ، وحسب القارىء أن يعلم أن قوة الإخوان المسلمين في ظل هذا الموقف وفي خلال أربع سنوات بعده قد تضاعفت أضعافاً كثيرة كما وكيفاً حتى صارت أقوى هيئة شعبية في مصر وفي البلاد العربية على الإطلاق .

ومع أن حزب الوفد الحاكم في ذلك الوقت كان حريصاً على أن يخرج من تجربته هذه مع الإخوان بكسب معنوي لحسابه ، فإن الإخوان قد خرجوا منها بمكاسب لدعوتهم لا يقاس بأدناها كسب الوفد — إن كان قد كسب شيئاً — فضلا عما أشرنا إليه آنفاً من انفتاح كل الطرق أمام الإخوان لبث دعوتهم في كل مكان دون عوائق ؛ فإن هناك مزايا أخرى ما كانت لتنجز وتتخذ سبيلها إلى واقع الحياة في مصر لولا هذين اللقاءين اللذين تما بين الأستاذ المرشد والنحاس باشا وعلى رأس هذه المزايا .

١ — إحياء الأعياد الإسلامية لا سيما مولد النبي صلى الله عليه وسلم وجعله عيداً رسمياً للدولة وقد أصدر رئيس الحكومة حديثاً رسمياً مستفيضاً تحية لهذه الذكرى الكريمة .

٢ — إلغاء البغاء في أنحاء البلاد وكان وصمة عار في جبينها .

٣ — قانون بوجوب استعمال اللغة العربية في تعامل جميع الشركات والمؤسسات ومراسلاتها

٤ — تحريم الخمر — وإن كان التحريم قد اقتصر على المناسبات الدينية .

٥ — بذل جهد مشكور في وضع أساس إنشاء الجامعة العربية .

وقد كان الأستاذ المرشد قد أخبرنا فيما أخبرنا به عما دار بينه وبين النحاس باشا في هذين اللقاءين أنه كان حريصاً أن يلقى في روع النحاس باشا أن تنازله عن الترشيح لابد أن يقابله ما يسد هذه الفجوة بعمل إسلامي تقوم به الحكومة يثلج صدر الشعب الذي كان يؤمل الكثير من العمل الاسلامي من وراء دخولي مجلس النواب.وقال له إن العمل الإسلامي الذي تقوم به الحكومة يقربها إلى نفوس الشعب ويرفع اسم زعامة الوفد .. وقد تعهد النحاس باشا بالنهوض بهذه المطالب . وقد وفى الرجل بتعهده . وقد ألقى عقب هذين اللقاءين حديثاً ضمنه هذه المعاني التي اتفق عليها .

وعقب صدور هذا الحديث عن النحاس باشا تقابل عبد الواحد الوكيل باشا مرة أخرى مع الأستاذ المرشد واقترح عليه أن يصدر بياناً يسجل فيه أن التنازل قد تم احتراماً لقرار الوفد بترشيح

شخص آخر ويعلن فيه تأييده لسياسة الوفد فى التعاون مع بريطانيا لتنفيذ معاهدة التحالف — فرفض الأستاذ المرشد ذلك واكتفى بذكر فقرات من خطاب النحاس باشا معلناً أن الإخوان عون له فى سياسة الإصلاح الدينى والاجتماعى .. ونثبت هنا نص هذا الخطاب الذى وجهه الأستاذ المرشد إلى النحاس باشا كما نشر بجريدة المصرى يوم ٢٣ مارس سنة ١٩٤٢ تحت عنوان :

الإخوان المسلمون يستجيبون لنداء الزعيم — ويعلنون أنهم عون للحكومة فى تحقيق برنامجها الإصلاحى

كتاب قيم من المرشد العام للرئيس الجليل

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس الحكومة المصرية .

أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، وأحييكم فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد ....

فقد تحدثتم رفعتكم إلى الأمة المصرية حديثاً رائعاً جميلا ،ضمنتموه كثيراً من المبادىء القويمة والأمانى الطيبة التى يسر كل مصرى أن يحققها الله على يديكم ...

فقد أشدتم بالصراحة والتعاون والإخلاص ، ودعوتم الأمة إلى مصارحتكم والتقدم اليكم بالنصح ووددتم أن تمتلىء صدورنا جميعاً بهذه المعانى السامية (فنحن أبناء أسرة واحدة هى الأسرة المصرية الكريمة) .

وقررتم رفعتكم أنه من دواعى سروركم أن نتعاون الأمة والحكومة فى هذه الظروف الدقيقة فى تنفيذ سياسة خارجية حكيمة ،وتصميم سياسة داخلية بصيرة ... فالواجب يقتضينا والمصلحة تدعونا إلى أن ننفذ بإخلاص وحسن نية أحكام المعاهدة التى وقعناها بمحض اختيارنا وملء حريتنا وقصدنا من ورائها سلامة استقلالنا القومى والاحتياط لمثل هذه الظروف العصيبة .. كما أن الحكومة ساهرة على اتباع سياسة عمرانية عاجلة لخير الطبقات الفقيرة قبل غيرها .. ومن واجب الحكومة والبرلمان أن يضعا فى رأس برنامجهما درس المسائل الاجتماعية والسعى إلى حلها حلا سريعاً حاسماً

وقد أشرتم إلى التطور الجديد فى حياة العالم كله تطوراً «هو مقدمة لتطور أعمق غوراً وأبعد أثراً يجعل مظهر العالم فى غير مظهره اليوم؟» .

ثم ختمتم هذا الحديث «بأن علينا أن نعبر الطريق المحفوف بالمخاطر ، المحوط بالمكاره ، متعاونين متحدين مع الشعوب الشرقية وإخواننا أبناء العروبة الكريمة كالبنيان المرصوص يشد

بعضه بعضاً ، مترقبين بزوغ فجر الحرية والإخاء بين الشعوب ؛ فيقوم عدل الحكام على أنقاض الظلم والاستبداد ، وتتفيأ الأمم ظلال الطمأنينة والسكينة والسلام» .

أصغينا إلى هذا الحديث القيم ثم طالعتنا الصحف بنصائحكم الجليلة إلى حضرات المديرين والمحافظين ، ودعوتكم إياهم إلى «أن يكونوا أداة سلام ودعاة صلح وتفاهم بين العائلات ، وأن يديموا التجوال فى البلاد ليتبينوا مطالب الأهلين ،وينظروا فيها بالعين المجردة عن كل ميل وهوى ، وأن يستمعوا إلى شكاوى المظلومين ويعملوا على رفع المظالم عنهم »

وقرأنا فى الصحف أن معالى وزيرالصحة أخذ يدرس باهتمام مشكلة البغاء تمهيداً لتخليص مصر من وصمته الشائنة ، وأنه قرر فعلا البدء بإلغاء دور البغاء فى القرى والبنادر من أول مايو المقبل .

والإخوان المسلمون أمام هذه الآمال الصالحة ، والأعمال الطيبة النافعة ، يرون من واجبهم أن يستجيبوا لندائكم وأن يعلنوا أنهم حريصون كل الحرص على أن يكونوا عوناً لكم وللحكومة المصرية فى تحقيق برنامجكم الإصلاحى الذى أعلنتموه ، مستمسكين دائماً بآداب الإسلام العالية وتعاليمه القويمة وأخلاقه الفاضلة .

والله نسأل أن يهيئنا جميعاً لخير هذا الوطن العزيز والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد عام من هذا التاريخ ، ومع التكوين الجديد للوزارة بعد خروج مكرم عبيد باشا منها لخلافه مع النحاس باشا رغب أعضاء الوزارة فى زيارة المركز العام للإخوان ، فوجه الإخوان إليهم الدعوة ، وننقل وصف هذه الزيارة وما تم فيها كما نشرته جريدة المصرى يوم ١٧ مايو سنة ١٩٤٣ بعنوان ... الإخوان يضيفون وزراء الشعب .

«أقام المركز العام لجماعة الإخوان المسلمين حفلة كبرى بداره بالحلمية الجديدة فى الساعة السابعة من مساء أمس دعا إليها أصحاب المعالى الوزراء فلبى الدعوة فؤاد سراج الدين وزير الزراعه . و . . . . . . و . . . . . . و . . . .

وكان فى استقبالهم فضيلة المرشد العام الأستاذ حسن البنا والأستاذ أحمد السكرى وكيل الجماعة وبقية الإخوان وفرقة الجوالة الخاصة بهم ، وكان الإخوان يستقبلون كل وزير عند حضوره بالهتاف والتكبير «الله أكبر ولله الحمد »

وعلى أثر وصول الوزراء حان وقت صلاة المغرب فأذن المؤذن وأم المصلين فضيلة المرشد العام ولما كانت المصلى لا تتسع لجميع الذين حضروا فقد أدى العديدون الصلاة فى الحجرات وفى حديقة الدار وخارجها وقد فرشت بالبسط والحصير — وتصادف أن حضر فى هذه الأثناء وزير

التموين الأستاذ أحمد حمزة فأدى الصلاة مع المصلين خارج الدار ، فكان منظراً إسلامياً ديمقراطياً رائعاً رؤية أصحاب المعالى الوزراء وهم بين الإخوان يؤدون صلاة المغرب فى خشوع المؤمنين الصالحين ...

وبعد الصلاة جلس أصحاب المعالى الوزراء مع الإخوان فوق سطح الدار حول موائد الشاى والحلوى والمرطبات .. وافتتحت الحفلة بتلاوة آى الذكر الحكيم ثم ألقى الأستاذ أحمد السكرى كلمة ترحيب وتلاه الأستاذ حسن البنا بكلمة أوضح فيها فكرة دعوتهم وأهدافهم .

وألقى بعد ذلك كل من أصحاب المعالى وزراء الزراعة والتموين والشئون والتجارة كلمات مناسبة أشاروا فيها إلى مشروعات حكومة الوفد وعلى رأسها النحاس باشا وهى المشروعات التى تحقق الأغراض الإسلامية مثل إلغاء البغاء . وإحياء الأعياد الإسلامية وتحريم الخمر والموبقات وقانون استعمال اللغة العربية وغير ذلك من مفاخر حكومة الوفد .

ثم وقف الأستاذ أحمد السكرى فشكر الوزراء على ما أبدوه فى كلماتهم من استعداد طيب نحو تشجيع جماعة الإخوان المسلمين ورجاهم أن يبلغوا رفعة الرئيس تحيات الإخوان وأطيب تمنياتهم وأن يقدموا له باقة من كتاب الله وهى الآية الكريمة «ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور .

وانتهى الاحتفال فى الساعة العاشرة مساء »

وقبل أن نصل فى معالجة هذا الموضوع إلى نهايته ، لايفوتنا أن نومىء إلى غمزات وردت فى تعليق الكاتب الذى أشرنا إليه آنفاً فيما نشره بجريدة الأهرام فى ١٤ - ٢ - ١٩٧٥ حيث شكك سيادته فى صدور العبارات التى وضعنا تحتها خطوطاً مما نقلناه من تقرير الأمن العام عن النحاس باشا ، وملخصها أن الإنجليز هم الذيز طلبوا من النحاس باشا إرغام حسن البنا على التنازل

وحسبنا فى الرد على هذا المؤرخ الذى يستقى معلوماته من وثائق إدارة الأمن العام أن يطلب من هذه الإدارة وثيقة عما تم فى ترشيح الأستاذ حسن البنا نفسه فى نفس الدائرة فى سنة سنة ١٩٤٤ فى أيام وزارة أحمد ماهر ، فإذا لم يعثروا على هذة الوثيقة ، فليذهب إلى الإسماعيلية ويسأل عشرات الآلاف من أهلها الذين حضروا هذه الانتخابات ولا يزالون على قيد الحياة ليسمع منهم كيف تدخل الإنجليز بأنفسهم وبجيش احتلالهم المرابط فى الإسماعيلية لإسقاط حسن البنا مما سنفصله فى الصفحات القادمة إن شاء الله .

وسيادة المؤرخ كان مدرساً بجامعة طنطا حين أرخ لهذا الموضوع سنة ١٩٧٥ ، وهذا المنصب يكون صاحبه عادة فى سن تناهز الأربعين ، ومعنى ذلك أنه فى أثناء هذه الفترة التى يؤرخ لها كان فى عهد الطفولة .

ولكنه حين يؤرخ لهذه الفترة يؤرخ لفترة شهدها جيل لازال يعيش معه فكان عليه وهو مدرس للتاريخ المعاصر ويؤرخ لتاريخ معاصر أن يرجع إلى من عاصروا هذه الأحداث فى مواقعها ، وهم لا يزالون على قيد الحياة بدلاً من أن يقتصر فى تاريخه على الوثائق التى لايكتفى بها عادة إلا فى التأريخ لأحداث طال عليها الأمد ولم يعد على قيد الحياة من يرجع إليه فيها .

على أننا سوف نتناول تعليق هذا المؤرخ بمناقشة موضوعية فى الفصل القادم إن شاء الله .

نقل المرشد العام الى قنا

أشرت فى أوائل هذه المذكرات إلى أول بعثة أعدها الإخوان لحج بيت الله الحرام وكان الأستاذ المرشد على رأسها كما أشرت إلى المؤتمر الذى عقده الملك عبد العزيز آل سعود ودعا إليه عظماء المسلمين فى حج ذلك العام وإلى حضور الأستاذ المرشد وإخوانه هذا المؤتمر بغير دعوة باعتبارهم مستمعين ، وإلى تقدم الأستاذ المرشد إلى المنصة بعد انتهاء الخطباء الأصليين من مختلف البلاد الإسلامية ، وإلى اكتساحه كل من تقدموه ، وحظوته وحده دون جميع الخطباء بإعجاب الحاضرين حتى إن الحكومة السعودية نشرت خطبته فى جريدتها الرسمية الوحيدة فى ذلك الوقت «أم القرى» ولم تنشر سواها .

بقى أن نذكر أن من بين الذين حضروا هذا المؤتمر – مدعوين من الحكومة السعودية – ومن بين الذين خطبوا فيه وكانوا موضع رعاية خاصة من جانب الحكومة لا باعتبارهم من كبراء البلاد الإسلامية فحسب بل باعتبارهم أيضاً من كبار الكتاب والأدباء والخطباء «الدكتور محمد حسين هيكل باشا»

والدكتور محمد حسين هيكل باشا أديب من أدباء مصر ، وكاتب من أعظم كتابها ، وله مؤلفات بعضها روائى مثل قصة «زينب» وبعضها تاريخى وتحليلى مثل «حياة محمد» و «منزل الوحى» ، وهو من كبار رجال حزب الأحرار الدستوريين ، وتولى رياسة الحزب فيما بعد، وكان «رئيس تحرير جريدة «السياسة» اليومية الناطقة بلسان هذا الحزب كما كان يصدرمجلة أسبوعية تجمع إلى السياسة الأدب واللغة والتاريخ وكانت تسمى مجلة «السياسة الأسبوعية» .

تولى هذا الرجل أول منصب حكومى له فى تلك السنة (١٩٤٤) حيث أسندت إليه وزارة

المعارف العمومية ؛ وكأنما كان هذا الرجل يسر فى نفسه أموراً لم يبد بها لأحد وأنه كان يطوى على أضغان كانت تعتمل فى نفسه منذ سنين ولم يجد الفرصة لإصعاد زفراتها التى كانت تحرق قلبه ؛ فلما أتيحت له الفرصة لم يستطع أن يحبس منها شيئاً فأطلقها سوداء قاتمة ، شوهاء بشعة .. وكأنما تذكر الرجل مواقف معينة – وإن كان قد طال عليها الأمد – إلا أنها لا زالت ماثلة فى خاطره حائكة فى صدره وإليك إيماءة إلى هذه المواقف :

أولا : موقف الأستاذ المرشد فى مؤتمر مكة الذى نوهنا عنه آنفاً .

ثانيا : فى خلال فترة العشرينيات والثلاثينيات كان اتجاه المثقفين اتجاها غريباً ؛ ذلك أن الطبقة الرائدة منهم كان أكثرها ممن تلقوا تعليمهم فى جامعات أوربا ، وهؤلاء هم الذين كان بيدهم توجيه الثقافة فى مصر فنشأوا وكأنهم أجانب عن بلادهم وأهليهم ، وكان أول مظهر من مظاهر تأثرهم بالغرب تنكرهم لدينهم حتى صار التمسك بالدين وأداء فرائضه دليلا فى نظرهم على الجهل والتأخر والبعد عن الحضارة والثقافة ... ولذا كنت ترى المؤلفات تتناول ما يهم الغرب والغربيين أكثر مما يهم أهل البلاد ، وبمعنى أوضح كان الناس لا سيما القادة مفتونين بالغرب يكادون يحسون بالخزى والعار من انتسابهم إلى تاريخهم وقوميتهم ودينهم .

وكان من أوائل من تلقى العلم فى أوربا وعاد إلى مصر دون أن يفتن عن أصله ودينه محمد أحمد جاد المولى بك ، وكان المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف العمومية ، وقد وضع كتابين ، أولهما «محمد المثل الكامل» والآخر «محمد الخلق الكامل» تناول فيهما مواقف من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم منذ سعد العالم بولادته حتى لحق بالرفيق الأعلى أثبت بها أنه هو وحده الذى حقق المثل العليا التى طالما حلم بها الفلاسفة وتخيلها الحكماء .

وعلى عكس ما كان يتوقعه أترابه ومعاصروه من قادة الثقافة فى مصر صادف الكتابان قبولا فى مختلف الأوساط المصرية والعربية ، وحظيا بانتشار واسع أسال لعاب هؤلاء القادة ، ناظرين إلى ما يجنى من وراء هذا الانتشار من ربح مادى وكسب معنوى .. وجرياً وراء هذا الربح بدأوا يفكرون فى الرجوع إلى أصلهم ، والانتماء إلى أرومتهم... ولكن كيف يقتحمون هذا الميدان؟ لم يقتحموه عن طريقه السوى ، ولم يلقوا بأنفسهم بين أحضانه كما يرجع الوليد العاق التائب إلى أحضان أمه وأبيه ، بل اقتحموه عن طريق ملتو كأنما لا يعرفون طريقاً يوصلهم إلى بيوتهم إلا عن طريق الغرباء الذين اتخذوهم أئمة .

أراد الدكتور محمد حسين هيكل أن يكتب فى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يكتب ؟ .... كان أحد المستشرقين الفرنسيين واسمه «ديرمنجهام» قد وضع كتاباً سماه «حياة

محمد» فطفق الدكتور هيكل يترجم هذا الكتاب وينشر كل أسبوع فصلا منه فى مجلته «السياسة الأسبوعية» ويعلق عليه حتى إذا أتم ترجمة الكتاب ونشره فى المجلة معلقاً عليه، جمع مانشر من أصل وتعليق فى كتاب أخرجه بنفس الاسم.

لقى الكتاب رواجا. والكتاب قيم فى أسلوبه وطريقة عرضه للأحداث ومعالجته للمواقف وتحليلها... وقد نفدت طبعته الأولى لأول ظهورها، لكن فى الكتاب مغمزاً لا يدركه إلا الراسخون فى العلم وقد أدركه الأستاذ المرشد وعلق عليه فى أحاديثه الخاصة والعامة وفى مجلة الإخوان المسلمين؛ ذلك أن الدكتور هيكل اقتدى بالمؤلف الفرنسى فيما جرت عليه الحضارة المادية الغربية من إخضاع كل شىء للمقاييس العلمية التى هى نفسها المقاييس المادية مما يطلقون عليه اصطلاح «العلم التجريبى».. وهذه المقاييس إن صحت فى كل ما يتصل بالمادة بسبب فإنها لا تصلح أن تكون مقياساً لما هو وراء المادة؛ وهو الجزء الأعظم والأهم الذى يقوم على أساسه الدين.. وقد سبق أن أشرنا إلى هذه النقطة فيما كان من حديث بين الأستاذ المرشد والدكتور طه حسين.

إن الأساس الأول فى الدين هو الإيمان بالغيب، وهو أول صفة للمتقين جاءت فى مستهل سورة البقرة «ألم. ذلك الكتاب لا ريب فيه، هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب» والغيب هو ما وراء المادة أو مالا يحيط به العقل البشرى، ومالا تدركه الحواس الخمس... ومعجزات الأنبياء من هذا الباب. ومن الخطأ إخضاعها للعلم التجريبى، وهو أشد خطأ من قياس الضوء بالمقياس الذى نقيس به القماش مثلا، مع أن كليهما مادة؛ فما بالك بما هو ليس بمادة؟..

ومن هنا أعرض الدكتور هيكل عن معجزات النبى صلى الله عليه وسلم جميعاً ولم يستثن منها إلا القرآن الكريم... نعم إن القرآن هو أعظم المعجزات لكن هذا لا ينفى أن هناك معجزات أخرى ثابتة بصحيح السنة لا يجوز إنكارها وقد يكون فى إنكارها مساس بصميم الإيمان.

أراد الأستاذ المرشد أن يلفت النظر إلى هذا الخطأ الكبير الذى وقع فيه الدكتور هيكل، ووقع فيه عن عمد وإصرار حيث سجل فى مقدمة كتابه تقيده بالأدلة العلمية التجريبية.. فأعلن الأستاذ المرشد عن حفل تكريمى للأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك لكتابه «محمد المثل الكامل» فى دار المركز العام ودعا إليه كبار المشتغلين بالأدب والعلم من العاملين فى حقل الدعوة الإسلامية.. وفى هذا الحفل، وفى حضور هذا الجمع المنتقى وفى مقدمتهم المكرم؛ أعطى جاد المولى بك حقه من الاحتفاء والتكريم باعتباره الرائد الأول وصاحب اللواء الذى اقتحم حلوكة الظلام وأضاء مصباحه المتبلج جنبات الميدان فهرع من خلفه مهتدين بمصباحه الجميع حتى المترددون والمعرضون وتحدث الأستاذ المرشد عن المعجزات وأفاض فيها وعن المادية الغربية وافتتان كتابنا بها....

أنا لم أحضر هذا الحفل لأنه أقيم قبل أن أتعرف على الإخوان ، ولكن الأستاذ المرشد حدثنى عنه حديثاً مستفيضاً ... ولم يكن يخطر ببال أحد أن هذا النقد الموضوعى البرىء سيحمله الدكتور هيكل فى نفسه ويدخره ليوم هو فى عرفه يوم الانتقام .

ثالثاً : الدكتور هيكل صحفى بنى مجده على الصحافة والتحرير ، ومجلة «المنار» كانت تعتبر فى العرف الصحفى فى ذلك الوقت قمة من قمم الصحافة لا المصرية وحدها بل العربية أيضاً التى يشرف صحفى مثل الدكتور هيكل أن تنشر له مقالا ... ثم يرى الدكتور هيكل — وقد اعتلى متن وزارة المعارف العمومية — مدرساً فى مدرسة ابتدائية عنده يرأس تحرير هذه المجلة الشامخة ... ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل يقرظه الشيخ المراغى شيخ الأزهر تقريظاً لا يطمع هو أن يحظى بكلمة واحدة مما جاء به ، ثم يصدر هذا المدرس المجلة الشامخة ويحررها كلها تقريباً بقلمه فيرفعها إلى القمة التى كانت عندها أيام صاحبها ... أجج هذا نار الحقد التى طوى الدكتور هيكل ضلوعه عليها .

رابعاً : هذه المواقف الثلاثة لا تمس إلا الدكتور هيكل وحده ؛ لكن هيكل لم يكن يستطيع أن ينتقم لنفسه إذا لم يصادف الانتقام هوى فى نفس الحكومة القائمة بأسرها .. وقد كان هذا الهوى معتملا فى نفس الحكومة ؛ فإنها كانت حكومة الأحزاب الشكلية التى لا قاعدة لها فى الشعب ، ولا تستند إلا إلى القصر ، الذى يتخذها مطية إلى مطامعه . وهذه الأحزاب أشد حنقاً على الإخوان منها على الوفد ، لأن الوفد حين يغار من الإخوان يحاربهم بنفسه لأنه حزب شعبى له قوة ذاتية ، أما هؤلاء الشراذم من الباشوات خدام القصر ومن هم من وراء القصر ، فإنهم لا شعبية لهم ، فليس لهم قوة ذاتية يحاربون الإخوان بها نداً لند ، وإنما يستعدون عليهم القصر والإنجليز . وشتان ما العدوان .

وسط معمعان العمل الدائب فى المركز العام الجديد بالحلمية الجديدة ، ووسط البحر الخضم بدعوة الله ، مبايعة على الإيمان والجهاد .. وسط هذا الجد كله فوجئنا بقرار هازل يجيئنا من الحكومة التافهة بتوقيع وزير المعارف هيكل بنقل الأستاذ المرشد إلى قنا على أن يكون التنفيذ فوراً ... والقرار تفوح منه رائحة الحقد الدفين النتن .

ورد الأستاذ المرشد فوراً على حامل القرار بالرفض ، ووقف الإخوان جميعاً من وراء هذا الرفض متحدين ما تصنعه هذه الحكومة الحقيرة التى يرأسها أحمد ماهر الذى نلقى أضواء على شخصيته بعد قليل إن شاء الله ... وكان حامل القرار قد أبلغ الأستاذ المرشد بأن مجلس الوزراء قرر حل الإخوان إذا لم ينفذ الأستاذ قرار النقل ... وكنا إذ ذاك فى أواخر سنى الحرب العالمية

الثانية والأحكام العرفية سيف مصلت فى يد الحكومة ... ومع ذلك قرر الإخوان تحدى الحكومة والوقوف فى وجهها ... وتواردت أفواج الإخوان من جميع نواحى القطر تعلن ولاءها ووقوفها وراء الأستاذ المرشد مهما كلفها ذلك .

ورأت الحكومة التائهة هذه السيول الجارفة من الإخوان ، ولمحت فى أعينهم أمارات الجد والاستعداد ، وأحست بأن الأمر أخطر مما كانت تعتقد ، ورأت أن مصلحتها فى التقهقر..ولكن تقهقرها بعد إقدامها على القرار المتهوس ليس أمراً ميسوراً بعد أن شاع وذاع وأصبح على كل كل لسان ... فلم تجد وسيلة أمامها لحفظ ماء وجهها إلا توسيط رجال يعرفون أنهم أثيرون لدى الأستاذ المرشد ، ، وكان هؤلاء أكثر من رجل أذكر منهم الآن الأستاذ الشيخ رضوان السيد وكان من العلماء وكان عضواً فى مجلس النواب وعضواً فى حزب الأحرار الدستوريين وكان صديقاً للأستاذ المرشد ، وأسرة الشيخ وبلده من الإخوان ... وقد تردد هذا الرجل فى تلك الفترة العصيبة على المركز العام مرات كثيرة مما ذكرنى – وأنا أكتب هذه السطور – بما نقرأه فى أيامنا عن سياسة «المكوك» التى يقوم بها وزير خارجية أمريكا «كيسنجر» فى المفاوضات بين مصر واسرائيل .

وكان الذى يحمله هؤلاء الوسطاء هو ما يشبه الاعتذار ينقلونه عن رئيس الوزراء بأن هذا القرار صدر خطأ وأنه يخشى إن أعلن فى الحال رجوعه عنه وسحبه أن يذهب هذا بهيبة الحكومة أمام الرأى العام ، لهذا فهو يلتمس أن يعينه الأستاذ البنا على تلافى الخطأ بطريقة تحفظ كرامة الحكومة وذلك بأن يقبل تنفيذ القرار لمدة شهر واحد يعود بعده إلى مكانه .

ومضى على قرار النقل الفورى أكثر من أسبوع والإخوان مع كل هذه الوساطات مصرون على الرفض ، مستعدون للتحدى .. وصار مركز الحكومة فى حرج شديد ، وهنا دعا الأستاذ المرشد إلى إجتماع للإخوان فى المركز العام كان أشبه باجتماع للهيئة التأسيسية موسع بعض التوسيع وتناول الموضوع وتطوراته وقال إنه فى خلال هذه الفترة بعد صدور القرار ومقابلة الوسطاء وتقليبه الأمر على مختلف وجوهه خرج برأى قد يكون مفاجئاً لمشاعر الإخوان هو أن ينفذ قرار النقل وأخذ فى شرح رأيه فقال :

أولا : إن صدور قرار النقل مقترناً بالتهديد بالحل ، وفرغاينا الكثير لأنه كشف لنا عما تكنه صدور هذه الأحزاب الشكلية من كراهية وحقد . والدعوة فى حاجة إلى أن تعرف أصدقاءها وأعداءها ومدى مايكنه كل منهم لها من حب وبغض .

ثانياً : أن هذا القرار قد كشف لهم عن مدى تضامننا ومقدار قوتنا مع أننا لا نزال فى أول الطريق ، كما كشف لنا عن مدى ضعفهم وتخاذلهم مع أنهم فى قمة السلطة .

ثالثاً : أن أحزاب الأقلية هذه إنما تعتمد فى وجودها على الملك ، وأن اتصال هذه الأحزاب بالملك لا يزيده إلا فساداً ، وهم يعملون على عزله عن الشعب حتى لا يرى غيرهم أمامه ، ومن مصلحة الملك وبالتالى من مصلحة الشعب أن تتاح له فرصة رؤية الإخوان المسلمين باعتبارهم الهيئة الوحيدة التى لا تسعى إلى تحقيق مطامع شخصية ، فهى وحدها القادرة على تقديم النصيحة له وبصلاح الملك تصلح البلاد .. وقد كان فى خلد هذه الحكومة أن تصدر قرار النقل ويتم التنفيذ فى يوم وليلة دون أن تثار ضجة فيشفون بذلك غليلهم دون أن يصل شىء إلى مسامع الملك ولكن الأمور جرت على غير مايحبون وكانت ضجة وصلت إلى كل مسمع ... ومن المصلحة والأمر كذلك أن لا نظهر بمظهر المتعنت . بعد أن أحس الجميع بقوتنا حتى لايجد هؤلاء فرصة لتشويه موقفنا .

رابعاً : ليس هدفنا هو منازلة أحزاب الأقلية ، ولا ينبغى لمناوشات جانبية أن نلتفت لها فيشغلنا ذلك عن المعركة الكبرى التى نعد لها ، ويجب أن ندخر لها كل قوتنا ، ولا نبدد شيئاً منها أمام الإثارات والاستفزازات .

خامساً : إننا فى حاجة – لتأمين خطواتنا القادمة فى الدعوة وهى خطوات هامة وخطيرة – إلى فترة نكون فيها بمنأى عن الرقابة البوليسية بمختلف أسمائها ، التى تلاحقنا فى كل وقت وفى كل مكان ، ولن يتأتى لنا ذلك إلا بظهورنا بالمظهر السلمى الذى قد يبدو أن فيه مساساً بكرامتنا لكن وراءه الخير الكثير للدعوة ، ولن ننسى فى موقفنا هذا معاهدة الحديبيه التى أخفت وراء بنودها – التى أغضبت كبار الصحابة – كل ما سجله الإسلام بعد ذلك من انتصارات وفتوح ... وذكر الأستاذ المرشد أن من ضمن التعهدات التى قطعتها الحكومة على نفسها – ونقلها إلينا الوسطاء إذا أنا قبلت التنفيذ أن يرفعوا عنا الرقابة البوليسية .. وقال الأستاذ المرشد : وأنا لا أتصور أن يرفعوا عنا الرقابة نهائيا ولكن قد يخففونها وهذا يكفينا .

سادساً : أن الصعيد الأعلى – لبعد المسافة وسوء المواصلات – لم ينل حظه من عناية الدعوة ، ولعل هذه فرصة أتاحها الله لتدارك ما فات من حق هذه البقعة العزيزة من البلاد .

وكانت المجموعة التى أسر إليها الأستاذ المرشد بهذه الكلمات البالغة الأهمية هم صفوة الدعوة . ومع أن حججه كانت مقنعة عقلا ، فإن عواطفهم المتأججة لم تتحمل أن ترى الأستاذ ينزل على

أمر الحكومة فبدأ أكثرهم وقد انفجر فى البكاء ... فكان هذا من الجنود هو الموقف الفدائى الأسمى ، كما كان من القيادة الموقف الذى وضح فيه أن هذه القيادة ليست من الطراز الذى تسوقه الجماهير وتجتاحه العواطف ، وإنما هى القيادة الموهوبة الواسعة الأفق النافذة البصيرة، التى قد تبتلع الهزيمة المؤقتة مسيغة مرارتها وباختيارها لارغما عنها لأنها ترى فى انسحابها هذا أمام عدوها فرصة لها ستمكنها من القضاء عليه .

ولا أستطيع أن أنكر أننا جميعاً كنا فيما يشبه المأتم بعد أن حدثنا الأستاذ حديثه هذا ، ولكن ثقتنا فيه واقتناعنا بقدرته على الرؤية البعيدة المدى . وتناوله الموضوع تناولا كأنما اخترق فيه حجب الغيب ، كل ذلك لم نملك معه إلا الموافقة والتأييد .

وأعد الأستاذ نفسه للسفر ، وقد استخلف فى هذه الغيبة الشيخ الباقورى ، ولم يبين لماذا استخلفه فى هذه المرة دون غيره ، ولكن الحكمة فى ذلك لم تكن خافية علينا ولا على الشيخ الباقورى فقد كان الأستاذ المرشد يريد أن يشعر هذه الأحزاب الحاكمة بمنتهى الأمان من جانبه، وبالتعبير الدارج كان يريد أن «ينومهم» فالشيخ الباقورى موضع ثقة منه ، وهو فى الوقت نفسه صهر الشيخ محمد عبد اللطيف دراز الذى كان فى ذلك الوقت من كبار رجال أحد حزبى هذه الوزارة وإن لم يكن عضواً رسمياً فى الحزب .

وسافر الأستاذ المرشد إلى قنا ، أو قل انتقلت الدعوة إلى قنا .. ومع أنه كان يتردد على القاهرة إلا أننا لاحظنا أن هذه المنطقة من مصر العليا صارت تحتل من تفكيره واهتمامه الجزء الأكبر فقد أخبرنا فى أول مرة حضر فيها إلى القاهرة أن هذه البلاد فى أمس الحاجة إلى دعوة الإخوان .. فأكثر المسلمين فى هذه المنطقة يسيطر عليهم الخمول والكسل مما جلب عليهم الفقر ونشر بينهم الجهل والمرض فصاروا وكأنهم عالة على غيرهم ... وقال لنا : إنى سافرت إلى هذه البقعة وأنا على عزم أن أمكث فيها الشهر الذى تم الاتفاق عليه مع الحكومة ولكنى بعد أن رأيت حالة المسلمين فيها فلن أغادرها إن شاء الله حتى أصل هؤلاء المسلمين بدينهم ليصبحوا مثلا كريمة فى النشاط والعمل والإنتاج والعلم والابتكار .

ومضى الشهر ، وانتظر المسئولون فى الحكومة ان يستنجزهم الإخوان وعدهم فلم يجدوا.. وجاء الوسطاء والتقوا بالأستاذ وأخبرهم بأنه لا يريد الرجوع الآن . فأسعد ذلك الحكومة أيما إسعاد .. وظل الأستاذ فى قنا شهراً بعد شهر وإذا بهذه المنطقة من البلاد التى تضم محافظتى قنا وأسوان قد دبت الحياة فى أوصالها وهبت من رقادها ، والتهب شعور هؤلاء الخاملين ، وفهموا الإسلام على حقيقته فأنشأوا المنشآت وأقاموا العمارات ، وافتتحوا المدارس ، وأقبلوا على العلم ، وواصلوا

الليل بالنهار فى العمل ، كأنما كانوا ماردا نائماً تحت أطباق الثرى فقام ينفض عن نفسه أثقال ما هيل فوقه من تراب وانطلق يعوض ما فاته ...

ولما كانت الفئات الأخرى من غير المسلمين فى هذه المنطقة قد أثرت وتأثلت من وراء خمول المسلمين وجهلهم وتخاذلهم ، وصاروا سادة المنطقة على حساب خنوع المسلمين وفقرهم وتقاعسهم لقد فوجئت هذه الفئات بالمسلمين وقد تبدل كسلهم نشاطاً ، وخمولهم حركة ، وتقاعسهم عن العمل دؤوباً ، وتحجر عقولهم إنتاجاً وابتكاراً ، وتفرقهم اجتماعاً ، وتشاحنهم فيما بينهم حبا وتضامناً ، ونفورهم من العلم إقبالا عليه وتسابقاً إليه ، ورضاهم بالفقر انبعاثاً فى طلب الغنى من أكرم سبله. فوجئوا بذلك ، وهالهم ما رأوا من تبدل حال بحال مما يشبه فعل السحر ... فخوفوا على ما حققوا من مراكز مالية وأدبية فى غفلة مواطنيهم المسلمين ، وأملا فى الاحتفاظ بهذه المراكز — وقد علموا أن شيئاً لم يطرأ على المسلمين فى بقعتهم فغيرهم هذا التغيير ، ونقلهم هذه النقلة التى هى أقرب إلى الخيال ، إلا وجود هذا المدرس الذى نقل إلى بلدهم منذ بضعة أشهر ...

إذن ، فلابد — تداركاً للأمر — من السعى لدى المسئولين بالقاهرة لنقل هذا المدرس من إقليمهم إلى جهة أخرى ، لأنهم تصوروا أن هذا الرجل إذا طالت إقامته فى بلدهم فسيقضى على مجدهم ويصفى مراكزهم ... وانهالت الشكاوى من وجود الأستاذ البنا تطالب من الحكومة نقله ، وقامت الوفود من الفئات ذات النفوذ وسافرت إلى القاهرة طالبين من المسئولين الغوث بنقل الأستاذ البنا ... وعلم المسلمون هناك بذلك فقامت المظاهرات تطالب ببقائه بينهم ، فصارت الحكومة مرة أخرى فى موقف لا تحسد عليه ... ما كادت الحكومة تسر لغياب الأستاذ البنا عن القاهرة ورضاه بالبقاء فى هذا المنفى الذى اختاروه له حتى فوجئت بعد بضعة أشهر بقوى ذات نفوذ تطالب بإلغاء نقله إلى قنا ، وبقوى شعبية عارمة يخشى بأسها تطالب بإبقائه بقنا ... ولم تستطع الحكومة اتخاذ أى إجراء لأنها لا تقوى على الوقوف فى وجه ذوى النفوذ من أهل قنا ولا على مواجهة جموع شعب قنا فلم تجد أمامها من سبيل للمرة الثانية إلا اللجوء إلى الأستاذ البنا لأنه هو وحده الذى يستطيع أن ينقذ الحكومة من حرجها .

واستجاب الأستاذ لرجاء الحكومة ، وقبل الرجوع إلى القاهرة وتكفل بإرضاء هذه الجموع الشعبية الثائرة .. وقد كان .. ورجع إلى القاهرة بعد أن رد الروح إلى الجسد الإسلامى الذى كان هامداً فى هذه البقعة العزيزة من البلاد .

الفصل الثانى

فى العمل الوطنى
فى ظل الحرب العالمية الثانية

كان العمل الوطنى دائماً فى الدعوة يسير جنبا إلى جنب مع العمل فى البناء الداخلى ، وما قدم أحدهما على الآخر إلا لظروف تدعو إلى ذلك ، فخلال الحقبة من الزمان التى ظلت نيران الحرب العالمية الثانية مشتعلة الأوار لم تكن فرصة العمل الوطنى متاحة ، فأذهان الناس فى جميع شعوب الأرض منشغلة بأنباء الحرب منفعلة بأحداثها ومواقعها ، مرتعدة خوفاً من شبح وصول لهبها إلى بلادها ، وكل قضايا الشعوب ومطالبها وخلافاتها كلها وضعت على الرف حتى تنقشع سحائب الهول التى أظلت العالم كله .

ورأى الإخوان أن خير ما تستغل فيه هذه الحقبة أن تستغل فى إرساء بناء داخلى راسخ للدعوة فى قلوب الشعب فى مختلف الأنحاء ، وإن اقتضى ذلك التغاضى عن مواقف عارضة فى الطريق ربما وسمت الدعوة من أجلها بسمة الضعف والانهزام ، وقد أشرنا فى الفصل السابق إلى موقفين من هذه المواقف وكشفنا النقاب عما كان وراءهما من كسب للدعوة فى الميدان الذى تريد أن تفرغ جهدها له وتبذل كل ما فى وسعها لتأمينه وتثبيت أركانه .

ومع ذلك فلم يتوان الإخوان لحظة فى أى وقت من الأوقات عن إجابة داعى الوطنية بكل ما يطلبه ذلك الداعى من جهود ، وسنرى فى هذا الفصل إن شاء الله كيف كان الإخوان دائماً عند حسن ظن ذلك الداعى .

وقد بدأت الحرب العالمية الثانية فى أواخر عام ١٩٣٩ ووضعت أوزارها فى سنة ١٩٤٥ ، وفى خلال هذه السنوات الخمس حدثت تغيرات كبيرة فى مصر وفى العالم أجمع .. وكان الأستاذ المرشد فى أوائل أيام هذه الحرب كثير الإشارة إلى أهمية سنى الحروب وإلى عمق تأثيرها فى كل شئ ، ويحذرنا من التباطؤ فى ملاحقة أيامها ويقول : إن سنوات الحرب وإن كانت عادة لا تتعدى عدد أصابع اليد فإنها تطوى الزمن طيا ، فيتم من التغيرات فى خلالها مالا يتم فى مائة عام . ويحثنا على مضاعفة الجهد حتى لا نؤخذ على غرة عندما تنتهى الحرب فنجد أنفسنا متخلفين .

ولقد كان حديث الأستاذ المرشد فى هذه الناحية على كثرة ما ردده على أسماعنا غريباً لا نكاد نفهمه، ولكننا مع ذلك كنا نستجيب له ومن ورائه فى العمل المتواصل الذى لا يهدأ ليلا ولا نهاراً. ولم نفهم معنى ما كان يحثنا عليه وما كان يحذرنا منه إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها ووقفت كل هيئة عند الخط الذى وصلت إليه فوجدنا أنفسنا فى المقدمة سابقين سبقاً عظيما. فحمدنا الله على هذه القيادة البصيرة التى قطعت بنا مسافة ما كنا نقطعها فى أربعين عاماً قطعتها بنا فى أربع سنوات ومن قبل قالوا «فى الصباح يحمد القوم السرى» .

جبهة لإنقاذ البلاد

ظل الإنجليز فى مصر نحواً من سبعين عاماً ، وديدنهم التسويف والمماطلة ، لا ينتهون مع مفاوضيهم المصريين إلى نتيجة قاطعة ، ولا إلى حل فاصل .. لكنهم فى سنة ١٩٣٦ خرجوا عن طبيعتهم ، وطلبوا من مصر وفداً ممثلا للبلاد ليعقدوا معه معاهدة ، وكأن بنود هذه المعاهدة كانت معدة لديهم فما كاد الوفد المصرى يصل إلى لندن حتى وقعت المعاهدة .

والمعروف عن الساسة الإنجليز أنهم بعيدو النظر . يعدون العدة لأمور قد لا يراها غيرهم ، ثم تقع هذه الأمور فلا يؤخذ الإنجليز على غرة . ولم يتنبه المصريون ولا ساستهم إلى أن الإنجليز كانوا متلهفين على عقد هذه المعاهده لأنهم كانوا يلمحون فى الأفق أن حرباً كانت على الأبواب ستقع فى خلال سنة أو سنتين ، وأنهم سيصطلون بنارها ، وأنهم يريدون أن يتخذوا من مصر دريئة لهم ، وأن يجعلوا من حلفائهم المصريين وقوداً لهذه الحرب .

ووقعت الحرب العالمية الثانية ، واجتاحت جحافل الألمان أوروبا فى أسابيع ثم انتقلوا إلى شمال أفريقية .. ومن ليبيا زحفوا إلى السلوم حيث كانت الجيوش البريطانية فى انتظارهم فاكتسحوها وفرت بأقصى سرعتها أمام قوات الماريشال روميل الذى وقف بقواته عند مشارف الإسكندرية فى العلمين على بعد ٧٠ ميلا من الاسكندرية .

كان أحرار المصريين يمقتون الإنجليز ، ويتربصون بهم الدوائر ، ويتمنون أن لو أصابتهم كارثة تأتى عليهم فلا تبقى منهم ولا تذر .. فلما قامت ألمانيا بهجومها المكتسح على أوروبا هب هؤلاء الأحرار ينتهزون هذه الفرصة لتخليص البلاد من يد الإنجليز ...

كون الأحرار على اختلاف نزعاتهم جبهة لإنقاذ البلاد ، وكان تكوين هذه الجبهة يجرى تحت ستار السرية التامة ، وأنا شخصيا مع أنى كنت أقوم ببعض ما كان يوكل إلى من أعمال لهذه

الجبهة – لا أعرف من الجهات المشتركة فيها ولا الأشخاص المشتركين فيها إلا الأستاذ المرشد وعلى ماهر والسيد أمين الحسينى مفتى فلسطين .

كانت خطة الجبهة تتلخص فى محاولة الاتصال بالحكومة الألمانية والاتفاق معها على أن تحمل مصر عبء الدفاع عن نفسها ضد الإنجليز فى مقابل أن تستقل وتظل صديقة لألمانيا .. وقد حدث الاتصال فعلا ، وكانت تصلنا خطب «هتلر» بنصها وكنا ننسخ منها نسخاً لتوزيعها على المشتركين فى الجبهة .

وأعدت الجبهة العدة لتهريب «عزيز المصرى» إلى ألمانيا فى طائرة من طائرات الجيش ، لكن الظروف حالت دون ذلك حيث اصطدمت الطائرة بأسلاك اضطرتها إلى الهبوط ، وقبض على عزيز المصرى وعلى قائدى الطائرة حسين ذو الفقار صبرى وعبد المنعم عبد الرءوف .. وعلى غير ما كان منتظراً أصدرت المحكمة العسكرية التى حاكمتهم حكماً براءهم مما أثلج صدور الأحرار الأطهار فى كل مكان .

كما استطاع السيد أمين الحسينى أن يهرب إلى ألمانيا ، والتقى بهتلر وتفاوض معه فيما هدفت إليه الجبهة من استقلال مصر واستقلال فلسطين والبلاد العربية ، وكان السيد أمين موضع احترام الحكومة الألمانية طيلة الفترة التى مكثها فى ألمانيا .

وظلت الجبهة تعمل وتعد نفسها لليوم الذى تطرد فيه الإنجليز من مصر حتى شاءت إرادة الله أن ينقلب الموقف رأساً على عقب ، ويتقهقر الجيش الألمانى حين دخلت أمريكا بثقلها ونزلت قوات الحلفاء فى المغرب بقيادة الجنرال الأمريكى إيزنهاور وأصبح الجيش الألمانى محاصراً بين هذا الجيش الجديد والجيش البريطانى .

ولم يكن فى حسبان ألمانيا أن أمريكا ستدخل الحرب وكانت ألمانيا تحاول دائماً استرضاءها لأنها تعلم مدى خطورتها ، ولكن تشرشل بأسلوبه المؤثر وزياراته المتكررة وإثارته نزعة الشعوب الناطقة بالانجليزية وأن هذه الشعوب فى حقيقتها شعب واحد ، استطاع – على غير توقع من هتلر – أن يجر أمريكا إلى الحرب .

وكان من نتيجة ذلك أن تمكن الإنجليز ، ويبدو أن مخابراتهم كانت على علم ببعض معلومات عن هذه الجبهة تكانت الاعتقالات التى اتخذتها حكومة الوفد فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ .

وزارة على ماهر سنة ١٩٣٩

تعد هذه الوزارة نسيج وحدها بين الوزارات التى توالت على الحكم فى مصر ، فقد تولت

أمور البلاد فى أحرج الأوقات عند بدء قيام الحرب العالمية الثانية ، وكان أعضاؤها نوعين من الوزراء فبعضهم كانوا وزراء متخصصين ، وبعضهم الآخر كانوا من ذوى التاريخ الوطنى الإسلامى الحافل ومن هذا البعض الأخير كان صالح حرب وزيراً للحربية وكان عبد الرحمن عزام وزيرا للشئون الاجتماعية وهى وزارة استحدثت لأول مرة فى مصر وللأوقاف .

وكان هناك تجاوب فكرى ونفسى بين هذه الوزارة وبين الإخوان حيث كانت هذه الوزارة وزارة كفاءات لا وزارة الحشد المألوف من ذوى الألقاب ... ولذا فإنها كانت أول وزارة منطلقة غير محدودة الأبعاد إلا بما توحيه إليها المصلحة العامة .. وقد ساعد هذه الوزارة أيضا على الانطلاق أنها كانت مؤيدة من الملك الذى كان إذ ذاك فى مقتبل أيامه ولم يكن بعد قد تلوث ، فكانت رغباته متوائمة مع رغبات الشعب ، وكان لا يزال يرى فى على ماهر شخصية المعلم الناصح القدير .. وكان البرلمان متوائما مع الملك فكان مؤيداً للوزارة ..

كان الإنجليز — وقد أعلنوا الحرب على المحور (ألمانيا وإيطاليا) — يعتقدون أن مصر — كما تعودوا منها ومن حكامها — ستكون سباقة إلى إعلان الحرب على المحور تضامناً معهم ... وقد خاب ظنهم لأول مرة فقد اقتنعت الوزارة بأن لا تعلن الحرب وبأن تعلن الحياد فكانت هذه ضربة قاصمة لظهر هؤلاء المستعمرين ... وقد لقى هذا التصرف الجرئ من الحكومة تجاوباً من جميع الأوساط فى البلاد ، وعده الشعب بطولة من على ماهر من أعظم البطولات .

وبعد أن أذاع على ماهر قرار إعلان مصر دولة محايدة ، ذهب إلى البرلمان لإلقاء بيان فى هذا الشأن وأخذ الرأى على هذا القرار ، وقد أيد مجلس النواب على ماهر بالإجماع ، ومع ذلك لم يستطع الإنجليز أن يضبطوا عواطفهم ولا أن يحتفظوا بوقارهم الذى كان شعار سياستهم الاستعمارية فلم يتورعوا فى هذا الموقف عن إسقاط هذه الوزارة وهى مؤيدة من مجلس النواب ومن الشعب ومن الملك .

محاولة الإخوان لإنقاذ هذه الوزارة :

كان على ماهر يحس بمراجل الغضب تغلى فى صدور الإنجليز ، وكان الإخوان يحسون بذلك ، إلا أن الفرق بين الإحساسين كان كبيراً فقد كان على ماهر يتصور أن الانجليز لن يخاطروا بسمعتهم فيسقطوا حكومة مؤيدة من الشعب والبرلمان والملك ؛ أما الإخوان فكانوا يعتقدون أن هذا الموقف ليس من المواقف التى يتقيد الإنجليز حيالها بأية قيود أدبية .. وقد اقترح الإخوان على الحكومة خطة تلزم الإنجليز بالتفكير عشرات المرات قبل إقدامهم على مس هذه

الوزارة بأذى ، وقد أقنع الأستاذ المرشد بهذا الرأى الأستاذ عبد الرحمن عزام ، وطلب إليه أن يبلغــه إلى رئيس الوزراء ، وقد فعــل ولكن على ماهر كان لا يزال متوهماً تصوره الذى أشرنا اليه ...

أما اقتراح الإخوان فيتلخص فى أن تعلن الوزارة على العالم نفسها حكومة إسلامية ، ويرتكز هذا الاقتراح على الدعائم الآتية :

أولا : أن الإنجليز حين يواجهون بالدين – أى دين – يشعرون بشىء من الرهبة يصرفهم عن المواجهة ، ويبحثون عن صيغة أخرى غيرها .

ثانياً : أن إعلان مصر حكومة إسلامية معناه أن المساس بهذه الحكومة سيكون مساساً بجميع المسلمين فى أنحاء العالم . ولا تقوى إنجلترا – لا سيما وهى فى حرب – على مواجهة ثورة يقوم بها المسلمون فى كل مكان تأييداً لهذه الحكومة ... ولا ننسى أن الإنجليز وهم فى حالة السلم لم يستطيعوا مقاومة مظاهرات قام بها المسلمون فى الهند احتجاجاً على تصريح صرحت به الحكومة البريطانية اشتم منه المسلمون رائحة المساس بحكومة الخلافة الإسلامية فى تركيا ، ولم يخرج الإنجليز من هذا المأزق إلا بإصدار الشيخ محمد رشيد رضا بياناً أعلن فيه أن هذا التصريح لايمس الإسلام .

ثالثاً : أن الجيش البريطانى المحارب والذى كان إذ ذاك فى مصر وفى شمال أفريقية كان أكثره من الهنود المسلمين والإفريقيين المسلمين ومساس الإنجليز لحكومة أعلنت أنها حكومة إسلامية بأذى قد يثير هؤلاء الجنود ؛ وفى إثارتهم أشد الخطر .

رابعاً : أن الإخوان فى هذه الحالة سيجدون فى يدهم حجة لإثارة المسلمين فى مصروغيرها.

ولم يعرف على ماهر أنه قد أسرف فى حسن الظن ، وأنه أخطأ فى عدم الأخذ باقتراح الإخوان إلا بعد أن أسقطت وزارته .

ولا يشك أحد فى أن هذه الوزارة كانت وزارة عظيمة وواقعية وعاملة من أول يوم على تحدى الإنجليز ؛ ففى أول اجتماع لها اعترفت بروسيا وخفضت مرتبات الموظفين ١٠٪ وأحالت بعض كبار الموظفين المعروفين بميلهم إلى الإنجليز إلى المعاش وكان منهم أمين عثمان .. وقد عملت على اختيار الرجال ذوى التاريخ الوطنى المشرف فقد عينت لقيادة الجيش الفريق عزيز المصرى وكان عدواً للانجليز ، وقد بدأ هذا الرجل يحد من تسلط الإنجليز على الجيش المصرى .. وكان الإنجليز يعرفون بواسطة أجهزتهم التجسسية صلة هذا الرجل بالإخوان فعملوا على إزاحته

وزارة الوفد فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢

هذا التاريخ من التواريخ المشهورة فى السياسة المصرية ، لأنه اليوم الذى طلب فيه الإنجليز من الملك فاروق دعوة «حزب الوفد» لتولى الوزارة وهددوه باقتحام قصره بالدبابات الإنجليزية إذا لم يلب طلبهم وقد فعل . وتعتبره الأحزاب المصرية بل ويعتبره غيرهم من الأيام السوداء حيث لجأ الإنجليز إلى التدخل السافر فى شئون مصر الداخلية ، ويصمون النحاس بالخزى والعار لأنه جاء إلى الحكم على أسنة رماح الإنجليز .

وتصدينا للحديث عن هذه الوزارة أمر لابد منه حيث كان لنا تجربة -تحدثنا عنها فى الفصل السابق - وكثير من المعلقين من الجيل الجديد الذى لم يعش هذه التجربة لم يفهموها على وجهها الصحيح ، ولذا فسوف نحاول إن شاء الله الكشف عن هذا الوجه الصحيح والإبانة عن حقيقة بعض المواقف فى هذه التجربة فنقول :

حشر المؤرخ مدرس التاريخ المعاصر بجامعة طنطا الذى أشرنا إليه قبلا «الإخوان المسلمين» ضمن قائمة أعداء الوفد وخصومه إذ جعل عنوان بحثه المنشور بجريدة الأهرام فى سنة ١٩٧٥ «٤ فبراير . وثائق جديدة .صورة من تقارير الأمن العام التى تسجل تحركات خصوم الوفد بعد الحادث» وأورد تحركات الحزب الوطنى وحزب الأحرار الدستوريين وحزب السعديين ثم أورد موضوع ترشيح الأستاذ حسن البنا .. وقد رتب سيادة المؤرخ على ذلك أن تصرف النحاس مع الأستاذ البنا فى موضوع الترشيح كان من تلقاء نفسه باعتباره الإخوان خصوماً له لا من وحى الإنجليز ، وقد أورد سيادته فى تأييد رأيه هذا الأسباب التالية :

أولا : أنه ليس من المعقول أن يعرى النحاس باشا ضعفه على هذا النحو أمام الشيخ حسن البنا لإقناعه بسحب ترشيحه . خصوصاً أن النحاس كان فى مركز قوة وليس فى مركز ضعف . فضلا عن أن علاقته بالشيخ حسن البنا كخصم سياسى لم تكن تجيز له أن يسلم خصمه سلاحاً كهذا السلاح يطعنه به .

ثانياً : الوقائع التاريخية تكذب ذلك تمام التكذيب ، فقد بدأ النحاس عهده بالإفراج عن عزيز المصرى وحسين ذوالفقار صبرى وعبد المنعم عبد الرءوف ، رغم ماهو معروف من أنه تم القبض عليهم أثناء هروبهم بطائرة إلى المحور . ولم يكتف النحاس بذلك بل أمر بشطب القضية.

فهل فعل النحاس ذلك بأوامر من الإنجليز ؟ اللهم إلا إذا كان الثلاثة قد غيروا مواقفهم وأصبحوا أنصاراً للإنجليز .

ثالثاً : أطلق النحاس سراح محمد على الطاهر المجاهد الفلسطيني وصاحب جريدة الشورى الذى لجأ إليه فى ٧ مارس سنة ١٩٤٢ وكان قد قبض عليه فى عهد حسن صبرى بطلب من الإنجليز ثم هرب من المعتقل وظل مختفياً حتى سلم نفسه للنحاس باشا ، وكان هذا الإفراج دون الرجوع إلى الإنجليز .

رابعاً : سبق أن أنكر النحاس باشا أن القبض على «على ماهر» قد تم بطلب من الإنجليز ، وأعلن فى مجلس الشيوخ أن مصطفى النحاس ليس من طراز رجال الدولة الذين يضعفون أو يستسلمون أو سيستسلمون ، فكيف يظهر استسلامه أمام البنا ويعترف بانصياعه لرغبة الإنجليز بصدده ؟

وانتهى بذلك تعليق السيد «المؤرخ» وبصرف النظر عما ينطوى عليه هذا التعليق من روح التهجم والانحياز فإننا نتناوله من الناحية الموضوعية فنقول :

أولا : لم يكن بين الإخوان وبين الوفد حتى ذلك الوقت أية خصومة أو عداء فلم يكونوا يعدون الوفد خصماً لهم ولم يكن الوفد يعدهم من خصومه . وقد سبق أن ذكرت فى مواضع أخرى من هذه المذكرات أن تعليمات الأستاذ المرشد كانت تحث الإخوان المسئولين فى هذه الفترة على إبراز الدعوة بالصورة التى تكون فيها مقبولة من الجميع على اختلاف أحزابهم ونزعاتهم ، ولم يكن المقصود بالصورة المقبولة من الجميع الأحزاب السياسية وحدها بل يقصد بذلك أن لا يكون بيننا وبين أى صاحب فكرة معينة سواء كانت سياسية أو دينية أو اجتماعية خصومة لأن الدعوة فى تلك الحقبة من الزمن كانت فى حاجة إلى أن تأخذ طريقها إلى قلوب المواطنين جميعاً على اختلاف أحزابهم وطوائفهم ومعتقداتهم دون أن تنشغل عن ذلك بمعارك جانبية تعطل مسيرتها. فحشر «الإخوان المسلمين» ضمن خصوم الوفد فى هذا الصدد مخالف للواقع كما أن تعبير «خصمه السياسى» تعبير فيه افتراء على التاريخ .

وإذا كانت المسألة مسألة الخصومة السياسية فلم لم يفعل النحاس مع السعديين والأحرار الدستوريين والحزب الوطنى وهم خصومه السياسيون دون شك ما فعله مع الإخوان المسلمين ؟.

ثانياً : أما إطلاق النحاس باشا سراح محمد على الطاهر وعزيز المصرى وزميليه ، واتخاذ الكاتب ذلك دليلا على أن النحاس كان يتصرف من تلقاء نفسه دون استيحاء من الإنجليز أو دون

مبالاة بالانجليز ، فإن هذا استنتاج نظرى وقد بترت الوقائع فيه عن ظروفها .

إن مجيء النحاس إلى الحكم على أسنة رماح الإنجليز – مهما قيل فى تعليله – كان غصة فى حلق كل مصرى ، وكان النحاس يعرف ذلك ، وكان الإنجليز أيضاً يعرفون ذلك .. فكان على الإنجليز أن يخففوا من أثر هذه الغصة بإطلاق يد النحاس فى إجراءات عليها مسحة الوطنية ، وفى الوقت نفسه لاتضر الإنجليز كإطلاق سراح محمد على الطاهر وعزيز المصرى وزميليه لاسيما وقد أخذت المحكمة التى كانت تحاكم عزيز المصرى وزميليه بنظرية الدفاع فى بطلان قانون الأحكام العسكرية ؛ فضلا عن أن الإفراج عنهم وعن الطاهر لم يكن إلا إفراجاً شكلياً ؛ لأنهم ظلوا تحت مراقبة القسم المخصوص والمباحث العامة .

ثالثاً : أما اعتقال النحاس لعلى ماهر ، وادعاء النحاس أمام مجلس الشيوخ أن هذا الاعتقال لم يتم بناء على طلب الإنجليز ، فمسألة فيها نظر ... فلاشك فى أن النحاس يعتبر على ماهر أشد أعدائه بأساً ، لأنه يعرف عنه المقدرة السياسية ، وسعة الأفق ، والذكاء اللماح ، واستقلال الرأى . وقوة الشخصية .. يعرف عنه كل ذلك ، ويتمنى لو أتيحت له فرصة القضاء عليه ؛ فإذا وجد عند الإنجليز نفس هذا الشعور نحو على ماهر ، فإنه لاشك سيسارع إلى تنفيذ هذا الإجراء دون طلب من الإنجليز ؛ كما أن الإنجليز لا يطلبونه صراحة ماداموا يثقون أنه سيتم دون أن يضطروا إلى طلبه .

أما أن ينسب النحاس هذا الإجراء إلى نفسه دون اشتراك الإنجليز فيه فهذا أمر لا يضر الإنجليز فى شيء بل إنهم يسعدهم أن يجدوا من يرضى لنفسه أن يتحمل عنهم هذا الوزر أمام الشعب وأمام التاريخ ... وهل كان على ماهر حبيباً للإنجليز فاعتقله النحاس تحدياً لهم ونكاية فيهم حتى يكون إعلانه فى البرلمان أنه اعتقله من تلقاء نفسه مشرفاً له ، ومفخرة يباهى بها ؟ إنه اعتقله فى أعقاب مأساة دستورية لم يحدث لها مثيل من قبل فى تاريخ مصر – وقد نوهنا عنها من قبل – وقد ضاق الإنجليز به ذرعاً بعد إقالته حين رأوه – بواسطة جواسيسهم – يتعاون مع الأحرار من أبناء مصر على تكوين جبهة لتخليص مصر من الاحتلال الإنجليزى ووقايتها من احتلال آخر ، حيث كانت جيوش الحلفاء فى ذلك الوقت فى هزائم متلاحقة .

فليس إذن نفى إنسان عيباً ما عن نفسه دليلا على براءته من هذا العيب إذا ما كانت كل الظروف والقرائن المحيطة به تصمه بهذا العيب .

رابعاً : ثم نرجع إلى حديث الأستاذ المرشد عن مقابلته للنحاس باشا فأقول إن الأستاذ المرشد قد قص علينا – فى اجتماع خاص بالمركز العام – ماتم بينه وبين النحاس من حديث

فكان هو بنفسه وبالحرف الواحد ماقصه على الإخوان فى الإسكندرية وطنطا وغيرهما من العواصم.

وبالرغم مما ورد فى حديثه فى كل من هذه العواصم مخاطباً الإخوان من قوله «وهذا حديث خاص بكم لا يصح إطلاع غيركم عليه» فإنه كان يعلم أن أشخاصاً من قبل الأمن العام مدسوسون فى كل اجتماع من هذه الاجتماعات ... ومعنى ذلك أنه كان دقيقاً فى نقل عبارات النقاش الذى دار فى أثناء المقابلة مع النحاس لأنه يعلم أن مندوبى الأمن العام سيعرضون هذه الأقوال التى سمعوها منه على رئيس الحكومة ... فلو أن رئيس الحكومة رأى فى هذه الأقوال تزيداً كما ادعى حضرة المؤرخ لما سكت على ذلك.

ولو أن الأستاذ المرشد كان حريصاً فعلا على أن يخص الإخوان وحدهم بحديثه، لانعقدت لذلك اجتماعات أخرى ذات صبغة أخرى لا يسهل اختراقها ولا التسمع عليها سواء من رجال الأمن أو غيرهم. وسيأتى إن شاء الله فى صفحات قادمة مايوضح مدى فهم الإخوان للاجتماعات ومدى ملاءمتها للأغراض التى تعقد من أجلها.

نظرة مجردة إلى حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ :

ينبغى أن يتساءل المؤرخون والمحللون للأحداث عن الدوافع التى حملت الإنجليز على المطالبة بمجيء الوفد إلى الحكم فى هذه الظروف ... هل كان دافعاً واحداً كما قيل وأن هذا الدافع كان أنهم فى ظروف حرب، ويجب أن يكون فى الحكم حزب الأغلبية حتى يضمنوا فى البلاد هدوءاً يساعدهم على التفرغ لشئون الحرب؟ هل كان هذا هو الدافع الوحيد أم أنه كان مع هذا الدافع دوافع أخرى؟

ألا يجوز أن يكون من الدوافع الأخرى محاولة تحطيم الوفد نفسه والقضاء على سمعته؟...

إن دهاء الإنجليز وبراعتهم السياسية، ومقدرتهم على الإفادة الكاملة من كل ظرف، أمر مسلم به ولاشك فيه؛ فهم فعلا كانوا فى ظروف دقيقة، يسهل مهمتهم فيها أن يكون على رأس الحكومة زعيم الأغلبية ... وهم يعلمون مدى تكالب الوفد على الحكم وتشوقه إليه ..ويعلمون فى نفس الوقت أن الذى يتولى الحكم فى ظروف الحرب التى تلازمها دائماً قسوة الحياة، وصعوبة وسائل التموين، مع تعرض البلاد للغارات ... كل ذلك سيخلق الكراهية فى نفوس الشعب للجالس على قمة الحكم ... وقد استطاع الإنجليز تحقيق هذه الأغراض جميعاً حين أتوا بالنحاس إلى دست الحكم ... وقد فهم الشعب بعض ماهدف إليه الإنجليز، ولكنهم لم يفطنوا إلى كل الأهداف إلا بعد أن تحققت فعلا وخرج الوفد منهذه الجولة فى الحكم خاسراً.

ولقد كانت دهشة الناس فى مصر على أشدها حين رأوا الإنجليز يطلبون الوفد للحكم ، ووجدوا الوفد يسارع بالإجابة كأنما كانا على ميعاد ... وكان الذين يحسنون الظن بالوفديتمنون أن يرفض الوفد أن يتولى الحكم بأمر الإنجليز الذين هم بغير شك أعدى أعداء البلاد ، ولكن هؤلاء حين رأوا الوفد مسارعاً إلى إجابة الإنجليز ، علموا أنهم كانوا مسرفين فى حسن الظن. ولقد عبر الكثيرون عن هذا الشعور بطرق مختلفة كان أروعها خمسة أبيات من الشعر نشرها «الأهرام» يوم ٦-٤-١٩٤٢ للشاعر الكبير الأستاذ محمود غنيم تحت عنوان : الذئب والكبش وهاك هذه الأبيات :

الكبش قـــام خطيباً فوق رابيـــة ... ينعى على الذئب فتك الذئب بالغنم
فتمتم الذئب فى أذنيه : أنت على ... رأس القطيـــع أمـــير نافـــذ الكلم
فقبل الكبش ناب الذئب معتـــذراً ... عما رماه به من سالف التهـــم
وقال للشاء : خوضوا وارتعوا معه ... من لاذ بالذئب منـــكم لاذ بالحرم
فإن تصب أحـــداً منكم مخالبـــه ... فإنهـــا بلسم يشفى من السقم

وكم كان لهذه الأبيات من صدى فى نفوس المثقفين فى أنحاء مصر . فلقد عمد الأستاذ محمود غنيم إلى الاستتار وراء التورية حين جعل الموضوع النقدى حديثاً على لسان الحيوان ، فتلقاها المثقفون بفهم لماح لأن المعنى مستقر من قبل فى نفوسهم .

على أن موضوع ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ الذى أقحمنا فيه السيد المؤرخ المعاصر إقحاماً ؛ لم يكن له فى نفوس الإخوان ولا فى أوساطهم وقع يذكر ، إذا قيس بوقعه فى نفوس السراى والأحزاب ... ذلك لأنه بالنسبة للإخوان لم يضف جديداً إلى معلوماتهم عن الإنجليز ولا عن الوفد ولا عن السراى ولا عن الأحزاب الأخرى .. فالإخوان كانوا يعرفون من تجاربهم فى قضية فلسطين أن الإنجليز إذا سنحت لهم الفرص فجروا .. والوفد منذ عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ أصبح يعتبر الإنجليز أصدقاء وحلفاء ، كما يعرف الإخوان أن الوفد أصبح يسعى إلى الحكم لإشباع شهوات أعضائه وأنصاره من مغانم الحكم ولا يبالى من الذى يدعوه إلى الحكم . أما الأحزاب الأخرى التى لا نصيب لها من الشعب فليس أمامهم إلا التقرب إلى السراى وإلى المستعمر مضحين بمصالح البلاد فى سبيل إرضائهما ، فإذا أغضى هذان عنهم وسلما أزمة الحكم لغيرهم لبسوا ثياب الوطنيين ، وأخذتهم الغيرة على الوطن ، وتباكوا على ضياع مصالح البلاد .

انشاء الجامعة العربية

نبتت فكرة إنشاء جامعة للدول العربية أول ما نبتت فى أذهان الساسة الإنجليز فى أعقاب

الحرب العالمية الثانية فى غضون سنة ١٩٤٤ . ولدحاول الإنجليز أن يوهموا العالم أنها إنما نبتت فى أذهان العرب فأوعزت إلى نورى السعيد باشا رئيس وزراء العراق أن يرفع أول صوت منادياً بها ... وكان الإخوان قد عرفوا من قبل مصدرها الحقيقى وأنها من بنات أفكار ساسة الإنجليز .. وقبل أن ينادى بها نورى السعيد كان الإخوان قد وضعوها موضع الدراسة والفحص ، وقلبوها على جميع جوانبها ، وخرجوا من الدراسة بأن يتبنوا هذا المشروع ولو أنه من وضع الإنجليز .

كان الإنجليز يهدفون من وراء هذا المشروع إلى استحداث جهاز يسهل لهم بسط نفوذهم على جميع الدول العربية ، وليس أقدر على إصابة هذا الهدف من انشاء هذه الجامعة — ولكن الإخوان رأوا فى إنشاء هذا الجهاز — مع سوء القصد فى إنشائه — رمزاً يومىء إلى معنى عزيز هو من صميم دعوتهم ألا وهو إشعار قسم ذى بال من المسلمين فى هذا العالم بأن هناك آصرة قرابة تربطهم ، وأن هذه البقعة مهما تعددت أسماء الدول فيها فإنها أمة واحدة .

ورأى الإخوان أيضاً فى إنشاء هذه الجامعة وسيلة تيسر لهم الاتصال بشعوب هذه الدول ، وتضفى على هذا الاتصال معنى الشرعية بعد أن كان هذا الاتصال شبه محرم إلا خلسة ؛ كما أنهم رأوا أنهم — مع تنبههم لأغراض الإنجليز — يستطيعون بوسائلهم الخاصة أن يدسوا أنفسهم فى هذا الجهاز أو بالمعنى الأدق فى تعديل توجيهه بحيث يحقق — بجانب ما أنشأه الإنجليز من أجله — أغراضاً نافعة تعود بالخير على البلاد العربية والبلاد الإسلامية .

وضع ميثاقها :

دعى إلى القاهرة رؤساء وزارات الدول العربية المستقلة فى ذلك الوقت ، وكانت سبع دول تقريباً هى مصر والسعودية واليمن والعراق وسوريةولبنان لوضع ميثاق لجامعة الدول العربية . ويبدو — كما هو فى خاطرى الآن — أن اجتماع هؤلاء الرؤساء كان فى الإسكندرية .

وكانت الخطة التى وضعها الأستاذ المرشد أن يكون فى استقبال هؤلاء الرؤساء وفد من الإخوان للترحيب بهم ولاشعارهم بأن المهمة التى قدموا من أجلها تلقى من اهتمام الشعب ماهى جديرة به — وهوماكان الإنجليز يحاولون إيهام الشعوب العربية به — ولذا فإن هذه الحركة من الإخوان قد نالت رضا نورى السعيد الذى كان المتبنى لفكرة الجامعة وكان هو الداعى لها ...وقد أتاح الإخوان لأنفسهم بهذا الرضا فرصة الوجود بجانب لجنة الرؤساء ، وعن طريق هذا الوجود استطاعوا أن يعرفوا كثيراً مما كان يدور خلال اجتماعات هذه اللجنة ، واستطاعوا بطريق غير رسمى الاشتراك فى بعض المناقشات .

اختار الأستاذ المرشد الأخ الأستاذ محمد لبيت البوهى رئيس الإخوان بالاسكندرية ليكون ضابط اتصال بين الإخوان وبين لجنة الرؤساء ، وكان اختياراً موفقاً فقد كان الأستاذ لبيب شخصية مقبولة وأمينة وحكيمة من أولئك الذين قيل فيهم :

إذا كنت فى حاجـــة مرسلا فأرسل حكيما ولا توصـــــه

فكان الأستاذ لبيب يعرض علينا كل يوم مادار فى الاجتماع الذى حضره ، وكان الأستاذ المرشد يدرس النقاط التى ستكون مدار النقاش فى الاجتماع القادم ويوضح الصورة التى يحاول الإخوان أن يضعوا القرار فى إطارها ، ويحملها الأستاذ لبيب حيث يجتمع الرؤساء .. وبأسلوبه اللبق ووسائله الخاصة يصدر القرار على الصورة المطلوبة أو قريباً منها .

السيد رياض الصلح :

استطاع الأستاذ لبيب أن يكتشف أن بين هذه المجموعة من الرؤساء رجلا عظيما ، وشخصية نادرة ، تفهم الأمور على وجهها الصحيح . وذات قلب كبير مفعم بالإيمان بالفكرة الإسلامية باعتبارها السبيل الوحيد لإنقاذ البلاد العربية والإسلامية .. وتبين أن الرجل يتابع من طرف خفى نشاط الإخوان وأنه يكن لهم الحب والتقدير .. وتحدث مع الأستاذ لبيب حديثاً صريحاً حول فكرة إنشاء الجامعة ، وأنه حضر بنفسه للاشتراك فى وضع ميثاقها لعله يستطيع أن يجعل منها جهازاً نافعاً للعرب كما يجب أن يكون ؛ وطلب منه أن يعتبره الإخوان ممثلا لهم فى هذه الهيئة الرسمية التى تضع الميثاق ، وعلى الإخوان أن يمدوه بآرائهم أولا بأول ليدافع عنها ويحاول إدماجها فى مواد الميثاق .

ذلك هو السيد رياض الصلح رئيس وزراء لبنان وأعظم شخصية فى تاريخ لبنان الحديث ، والرجل الذى لم يملأ الفراغ الذى خلفه بموته أحد حتى اليوم ... كان رجلا مؤمناً قوياً ، واثقاً من نفسه مرهوب الجانب ، من أعظم الرؤساء ، محبوباً من شعبه ... يرى نفسه فوق مستوى الأطماع كما كانت همته غير محدودة بالحدود المصطنعة للعالم الإسلامى المقسم ظلماً وتعسفاً .

توطدت الصلة بين الإخوان وبين هذا الرجل العظيم ، وكان اكتشاف الإخوان حقيقة هذا الرجل عنصراً من عناصر إحياء الأمل لدى الإخوان أن هناك كنوزاً مخبوءة يدخرها الله تعالى لدعوته ، فحرص الإخوان على أن تظل صلتهم به فى طى الكتمان حتى يؤدى الرجل ما يستطيع من خير للأمة العربية والإسلامية دون أن يتنبه المستعمرون فيصوبوا إليه سهامهم من كل جانب .

ومما تجدر الإشارة إليه ، ومما يجب أن يعيه المتصدون للإصلاح من أصحاب الأفكار والدعوات أن لا يحصروا آمالهم فى حدود الظروف المادية المحيطة بهم فيقعد بهم ذلك عن النهوض بالأعباء الجسام ؛ بل عليهم أن لا يتقاعسوا عن انتداب أنفسهم لأشق المهام وأصعبها مراساً ، فإن ذلك سيفتح أمامهم أبواباً وسينير لهم سبلا ماكانوا ليروها وهم قاعدون ... فيوم ووجه الإخوان بفكرة الإنجليز فى إنشاء الجامعة العربية ودرس الإخوان الفكرة ؛ فوجدوا أن ولاءهم يقتضيهم أن يتلقوا هذه الفكرة من الإنجليز ويعملوا على الإفادة منها ؛ يؤمئذ كان الإخوان فى حيرة من أمرهم كيف يقتحمون إلى هذا المؤتمر وهم يعلمون أن رؤساء الدول العربية صنائع للمستعمر ؛ ولكنهم رأوا أن واجبهم يقتضيهم أن يقتحموا ففعلوا وآمالهم معلقة بوجه الله وحده ، فكان أن فتح الله بين أيديهم أوسع الأبواب بتعرفهم على هذا الرجل العظيم وصدق الله العظيم «ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين .»... ولقد يسرت للإخوان الأمور حتى إنهم كانوا يطبعون مذكرات يشرحون فيها وجهة نظرهم فيما سيعرض أمام لجنة الرؤساء من مواضيع ويوزعونها على الوفود لتنير لهم الطريق وتهيء الجو للسيد رياض الصلح حين يتبنى رأى الإخوان ويدافع عنه .

مكاسب عن طريق رياض الصلح :

وسأحاول الآن أن اسرد بعض ما تمكن الإخوان من تحقيقه من مكاسب عن طريق هذه الجامعة عادت بالخير على الأمة العربية والإسلامية .

<u>أولا</u> : إخراج ميثاق جامعة الدول العربية فى صورة أكثر فعالية من الصورة التى كان يريدها له الإنجليز ...ومعنى ذلك أنه حتى الصورة التى أخرج عليها الميثاق لم تخل من قصور ، ولكن بعض التحسين الذى أمكن إدخاله عليها قلل من هذا القصور ، وجعل هناك مندوحة لتقارب هذه الدول بعضها من بعض تقارباً حقيقياً إلى حد ما ، كما أتاح لها أن تعمل عملا إيجابياً وإن كان محدوداً .

<u>ثانياً</u> : اختيار عبد الرحمن عزام أميناً عاماً للجامعة .. واختيار رجل كعبد الرحمن عزام لهذا المنصب ليس بالأمر الهين ، إذا عرف من هو عبد الرحمن عزام وعرف تاريخه وجهاده وأفكاره ... لقد كان اختيار هذا الرجل أمنية عزيزة للإخوان ... وقد أشرت فيما سبق إلى صلة عبد الرحمن عزام بالإخوان سواء وهو فى الحكم عضواً فى وزارة على ماهر وفى غير الحكم .

ثالثاً : تعرف الإخوان بالقاضى الكبسى ممثل اليمن فى لجنة الميثاق ... وقد ينبغى الإشارة فى هذا الصدد إلى أن الدعوة حين وجهت إلى اليمن باعتبارها دولة عربية مستقلة لتشترك برئيس وزرائها فى وضع ميثاق جامعة الدول العربية بعث الإمام يحيى حميد الدين إمام اليمن بالقاضى الكبسى ممثلا له على أن يكون مستمعاً دون أن يشترك فى المحادثات .. وقد أثار هذا النوع من الاشتراك فى اللجان تندر كثير من الأوساط الصحفية والشعبية فى مصر حتى سرت مسرى المثل ، فإذا دعا أحد أصدقاءه لغداء مثلا وأجابوا وتقدموا للطعام إلا واحداً فإن هذا الواحد يقول متندراً : اعتبرونى كبسى فى هذه الوليمة .

لكن هذا الرجل «القاضى الكبسى» كان رجلا ذكياً ؛ فإن مجرد تعرفه على الإخوان فتح عينيه على ما كان يحذره إمامه ؛ فلقد كان إمامه حريصاً على أن لا يعرف مندوبه شيئاً مما يدور فى العالم الخارجى لاسيما الدعوات التحررية التى تدعو إلى الثورة على الظلم والاستبداد . فلم يكد القاضى الكبسى يسمع من الإخوان حتى اختمرت فى ذهنه فكرة ، كانت هى نواة الثورات المتلاحقة التى خلصت اليمن من مظالم الحكم الإمامى المستبد ،وإن كان الرجل«القاضى الكبسى»نفسه قد راح ضحية فى طريق التحرير ، رحمه الله وأجزل مثوبته على ما قدم لبلاده .

رابعاً : الاعتراف باستقلال أندونسيا وباكستان .

تبنى الإخوان الدعوة إلى مؤازرة أندونسيا فى جهادها للتخلص من استعمار هولندا ، ومؤازرة باكستان فى تخليص المسلمين من اعتداءات البوذيين وعباد البقر من الهنود ، وإقامة دولة للمسلمين باسم باكستان تحمى كيانهم وتمكن الأمر لهم ....

ومع أن جهاد المسلمين فى هاتين الجبهتين جبهة أندونسيا وجبهة الهند كان له صدى مدو فى أنحاء العالم كله ، إلا أن الحكومات المصرية لم تحس بشىء من ذلك ، ولم تكن تعير هذا الجهاد العظيم اهتماماً مع أنها كانت أجدر الحكومات أن تهتم به لأنها الحكومة التى ينظر إليها المسلمون على أنها زعيمة العالم الإسلامى ومناط آماله .. ولم يفت هذا الشعور المتخاذل فى عضد الإخوان فدأبوا على المناداة بتأييد هذا الجهاد المقدس بكل وسائل التأييد ؛ فكان هناك اتصال دائم بين قادة هذا الجهاد فى أندونسيا والهند وبين الإخوان المسلمين .. وقدمت منها وفود استقبلهم الإخوان أحسن استقبال ، حتى قدم السيد محمد على جناح زعيم المسلمين فى الهند والمطالب بتكوين دولة باكستان ؛ وقد استقبله الأستاذ المرشد وأحسن وفادته وعرفه بعبد الرحمن عزام .

ولما أثمر جهاد الأندونيسين والمسلمين فى الهند وأعلنوا إقامة دولتين مستقلتين . تخاذل

الغرب عن الاعتراف بهما أملا فى القضاء عليهما وهما بعد نبتتان غضتان.. وهنا تقدم الأستاذ المرشد بمذكرة إلى جامعة الدول العربية يستثير فى رجالها النخوة العربية والغيرة الإسلامية طالباً منهم الاعتراف بالدولتين الناشئتين، ثم كان لعبد الرحمن عزام الفضل فى استصدار قرار باعتراف جامعة الدول العربية، فكان هذا القرار دعامة الدولتين فى الوجود القانونى، ولم تجد الدول الأخرى بداً من الاعتراف بهما بعد ذلك القرار.

خامساً: بلاد الشمال الأفريقى :- كانت بلاد الشمال الأفريقى - المغرب والجزائر وتونس - ترزح تحت كابوس ثقيل من استعمار فرنسى غاشم. وكانت ليبيا تئن تحت وطأة الحكم الإيطالى المستبد .... وعن طريق الجامعة العربية وعبد الرحمن عزام استطاع الإخوان أن يلعبوا أدواراً فى التوفيق بين زعامات الأحزاب فى هذه البلاد ومساندة الثورات التى شبت بها ضد المستعمر .. ولم يكن الإخوان حريصين على إبراز أنفسهم فى هذا الميدان بل كانوا حريصين على إبراز الجامعة العربية لأن إبرازها فى هذا الموقف كان أنفع لهذه البلاد وأشد تأثيراً فى السياسة العالمية، ولو أن الرجال القائمين بهذه الأدوار كان الموجهون منهم من الإخوان العاملين فى الجامعة العربية وخطة العمل فى هذا المجال كانت باتفاق بين الإخوان وبين أمين الجامعة، وقد انتهت هذه الجهود - والحمد لله - باستقلال هذه البلاد وتخلصها من وطأة الاستعمار.

سادساً: تطوع الإخوان فى حرب فلسطين :- كان لجامعة الدول العربية دور عظيم فى تنظيم التطوع فى حرب فلسطين وسنرجىء الحديث عن هذا الدور حتى نبسط الكلام فى شأن هذه الحرب إن شاء الله.

عرض من الملك عبد الله

فى خلال تلك الفترة كان الأستاذ عبد الحكيم عابدين فى رحلة خارج مصر زار فيها بلاد الشام بأقسامها ... فلما عاد من رحلته أخذ يشرح لنا ما تم فى رحلته حتى وصل إلى الأردن فقال إنه قابل الملك عبد الله الذى أبدى إعجابه بدعوة الإخوان وبقيادتهم وأنه ينتظر الخير للأمة الإسلامية على أيديهم ثم قال الملك : إن الأردن فى حاجة إلى جهود الإخوان، ولتكن أولى خطوات هذه الجهود أن يعين الأستاذ عبد الحكيم عابدين وزيراً فى حكومة الأردن على أن ينعم عليه وعلى الأستاذ حسن البنا برتبة الباشوية.

فابتسم الأستاذ المرشد وسأل : وماذا كانت إجابتك يا عبد الحكيم ؟..

قال : وهل تكون إجابتى إلا بالرفض ولكن بأسلوب مهذب ... ولكن الملك مع ذلك أصر على أن يرجأ البت فى هذا العرض حتى أرجع إلى مصر وأقابلك .

وقد رد الأستاذ المرشد على الملك عبد الله برسالة رقيقة استنهضه فيها للعمل للإسلام مشيداً بانتسابه إلى العترة الشريفة ، وأثنى فيها على حسن ظنه بالإخوان ، واعتذر إليه بأن العمل غير الرسمى للدعوة الإسلامية أحوج إلى جهود الإخوان وأنه يأمل أن تلتقى الجهود الرسمية وغير الرسمية فى سبيل هذه الدعوة .

محاولة أخرى لدخول مجلس النواب

كان ذلك فى أواخر عام ١٩٤٤ بعد أن استطاع الملك إقالة وزارة الوفد معتمداً على ماقدمته له هذه الوزارة من أسلحة بما تورطت فيه من أخطاء مست صميم الشعب فى قوته من المأكل والملبس. وأقيلت الوزارة وحل مجلس نوابها كالمعتاد ، وأعلن عن انتخابات جديدة لمجلس نواب جديد ، وقرن هذا الإعلان كالمعتاد أيضاً بالطعن فى نزاهة الانتخابات السابقة ، وبأن الانتخابات القادمة ستكون حرة مائة فى المائة .

وقرر الإخوان دخول هذه الانتخابات بترشيح الأستاذ المرشد فى دائرة الإسماعيلية وترشيح عدد آخر من الإخوان فى دوائر مختلفة .

كان هناك حرص شديد من الدولة الجديدة على إبراز هذه الانتخابات فى صورة مغايرة لتلك التى كانت عليها انتخابات حكومة ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ التى كان من أبرز ما عرف عنها وشوه صورتها منع الأستاذ المرشد العام للإخوان المسلمين من ترشيح نفسه وإرغامه على سحب هذا الترشيح ، وكان لهذا المنع ضجة فى جميع أنحاء البلاد ..

ولكن أسلوباً آخر فى الخفاء ومن وراء الكواليس كان يجرى حسب مشيئة السادة المستعمرين :– فى رسالة بعث بها الصاغ محمود لبيب رحمه الله إلى جريدة المصرى فى سبتمبر سنة ١٩٥٠ جاء فيها ما يلى :–

«فى وزارة أحمد ماهر باشا أراد المرشد العام أن يرشح نفسه ، فعلمت أنا من أحد أصدقائى أن خطاباً أرسل من السفارة البريطانية إلى أحمد ماهر باشا يطلب فيه منه أن يعمل على منع المرشد العام والأستاذ على البرير (كان من كبار السودانيين الأحرار المقيمين بمصر والمؤمنين بوحدة وادى النيل) المرشح فى دائرة عابدين من التقدم للانتخابات ...

فأسرعت إلى فضيلة المرشد فأبلغته ذلك فضحك واستبعد هذه الفكرة . وفى اليوم التالى طلبه أحمد ماهر باشا لمقابلته فلما قابله طلب منه أن يسحب ترشيحه . وحاول أن يقنعه فرفض . فقال له : لماذا تتشدد معى وقد قبلت مثل هذا من حكومة النحاس باشا وتنازلت عن ترشيحك ؟.

فرد عليه بقوله : إن حكومة النحاس باشا كانت تواجه حالة سياسية مضطربة فى الداخل والخارج ولم يكن هناك بد – إجابة لداعى الوطنية الكريمة –من أن نقبل منها هذا ؛ إذ كانت الحالة تدعو إلى توحيد الجهود لا إلى توزيعها لوجود الأعداء داخل الأراضى المصرية .

يقول الصاغ محمود لبيب : وقد قابلت بعد ذلك على البريربكفقال لى إن أحمد ماهر باشا طلبه هو الآخر وأطلعه بالفعل على خطاب السفارة الإنجليزية .

فلما ووجه القصر ممثلا فى هذه الأحزاب بإصرار الإخوان على ترشيح مرشدهم فى الانتخابات وجدوا أنفسهم أمام أمرين أحلاهما مر : ففتح الطريق أمام حسن البنا إلى مجلس النواب كارثة حيث نجاحه فى هذه الدائرة أمر لاشك فيه .. كما أن منعه من الترشيح يهدم صرح الدعاية الذى شيدوه على أساس من الحرية المطلقة التى ادعوا أنهم إنما جاءوا ليردوا إلى الشعب ماحرمه الوفد منها

وظلوا فى حيرة من أمرهم حتى اهتدوا إلى الحل الأمثل الذى علمنا أخيراً أنه إنما جاءهم من عند واضعى أدوار التمثيلية والذين اختاروا ممثليها والذين تكفلوا بإخراجها إلى الجمهور ، وتبين لنا أن واضع الرواية ومخرجها قد تضطره الظروف إلى القيام بنفسه بدور البطولة فيها وإلا فشلت التمثيلية ولم تحقق هدفها .. واتضح أن واضعى التمثيلية وموزعى أدوارها هم المستعمرون الإنجليز .

وبدا للجمهور على المسرح أن ترشيح المرشد العام لا يلقى أى اعتراض من الحكومة ونظراً لما جبل عليه الإخوان من حسن الظن وسلامة الطوية اعتقدوا أن هؤلاء الناس قد راجعوا ضمائرهم ورغبوا فى تحسين علاقاتهم بالإخوان والسير فى ركب المواطنين الصالحين .

مفاجأة :

لم يبذل الإخوان أى جهد فى الدعاية للمرشد العام فى دائرته – كدأب ما يبذل للمرشحين فى دوائرهم – لأن أهل الإسماعيلية بعثوا إلى القاهرة بوفود تمثلهم لتقديم شكرهم إلى الأستاذ المرشد العام أن آثرهم على جميع دوائر القطر بترشيح نفسه فى دائرتهم مع أن جميع الدوائر كانت تتمنى أن تحظى بترشيحه فيها .. وتكفل أهل الإسماعيلية بدفع التأمين من جيوبهم .

ولما جاء يوم الانتخاب فوجىء أهل الإسماعيلية بتدخل الجيش البريطانى فى الانتخابات بأن أحضروا أعداداً كبيرة من العمال الذين يعملون فيه فى سيارات وأدى هؤلاء العمال الانتخاب بتذاكر مزورة بأسماء ناخبين من أهل الإسماعيلية. وهؤلاء جميعاً ينتخبون المرشحين الآخرين. واحتج أهل الإسماعيلية وأهملت السلطات احتجاجاتهم وانتهى يوم الانتخابات ، وظهرت نتائج الانتخابات وكانت نتيجة دائرة الاسماعيلية إعادة الانتخاب بين الأستاذ المرشد وبين مرشح آخر .

هنا بدأ الإخوان يفهمون الوضع على حقيقته حيث بان الخفى ووضح الأمر ، وتبين أن الإنجليز تعزيزاً لمركز حكومة السعديين التى يريدونها ، وافقوا على أن تظهر هذه الحكومة أمام الشعب بمظهر الموافق على ترشيح المرشد العام على أن يتكفلوا هم – أى الإنجليز – بإسقاطه ، ويكون ذلك بالطريقة الآتية :–

أن يرشحوا ضده أكثر من واحد من المقاولين الذين يعملون معهم فى الجيش ... ونظراً لتوزع قوة الحكومة فى جميع دوائر القطر لحفظ الأمن فسيكون جهد الجيش الإنجليزى مع قوة الأمن العادية فى الإسماعيلية قاصراً على عدم إعطاء المرشد العام أغلبية مطلقة من الأصوات ... فيعاد الانتخاب بينه وبين أحد المرشحين الآخرين . وهنا فى الإعادة تتاح الفرصه لحشد أكبر قوة ممكنة من قوات بوليس الحكومة المصريه للتعاون مع الجيش البريطانى تعاونا يكفى لاسقاطه .

ولما لم يكن شىء من هذه الأفكار يخطر ببال الإخوان ، فإن الإخوان لم يكلفوا أنفسهم مئونة الذهاب إلى الإسماعيلية لشد أزر الأستاذ المرشد لتيقنهم من نجاحه بل ومن اكتساحه .. فلما فوجئوا بالواقع الأليم الذى حدث فى الإسماعيلية ، وجدوا أنفسهم مطالبين بالسفر إليها لحضور معركة الإعادة .

وينبغى أن يكون معروفاً أن حكمدار – مدير الأمن – فى محافظة القنال كان فى ذلك الوقت إنجليزياً ، وأن شركة قنال السويس كان مقرها الإسماعيلية ، وأن قيادة جيش الإحتلال البريطانى كان مقرها الإسماعيلية ، وأن عشرات الآلاف من العمال المصرين الذين يعملون فى الجيش البريطانى قد أتوا من مختلف بلاد القطر وأكثرهم من الصعيد ، وكان العامل يتقاضى من الجيش البريطانى أجراً يعادل ضعفى مايتقاضاه على نفس العمل فى أى مكان فى البلاد .

معركة الإعادة :

من التجاوز فى التعبير أن نسمى ماحدث فى الإسماعيلية فى ذلك اليوم معركة الإعادة أو

معركة الانتخابات ؛ فإن الذى حدث كان حرباً اعلنتها الحكومة المصرية متضامنة مع الجيش البريطانى ضد أهل مدينة الإسماعيلية .

لقد سافرت إلى الإسماعيلية ضمن عدة مئات من الإخوان من مختلف أنحاء البلاد لنشهد هذه المعركة التى توقعنا أنها ستكون معركة حامية ، لكن الذى رأيناه قد فاق كل ما خطر ببالنا ، ولولا أننا شهدنا بأعيننا لما صدقنا أن يحدث هذا الذى حدث .. وشاء الله أن تكون أكثر بلاد القطر ممثلة لترى بعينها الجريمة التى لم يحدث لها مثيل من قبل ولا أعتقد أن يحدث مثلها من بعد . حتى تكون كل البلاد فى مصر على علم بما حدث .

ولكى يكون القارىء فى مخيلته صورة مصغرة لما حدث فسأضع تحت ناظريه بعض مناظر من أحداث ذلك اليوم .

المنظر الأول: خرج أهل الإسماعيلية منذ الصباح الباكر متجهين إلى أماكن اللجان الموزعة فى أنحاء الدائرة ليدلوا بأصواتهم ، ومع كل منهم تذكرته الانتخابية ، فوجدوا أمام مدخل كل لجنة سيارة ضخمة من سيارات نقل الجيش البريطانى تغلق هذا المدخل وتحول بين الناخبين وبين الدخول إلى اللجنة .

المنظر الثانى : كثر عدد الناخبين بمرور الوقت أمام مقار اللجان ، ولما طال انتظارهم ولم تتحرك السيارات المعترضة ، حاولوا اقتحام السيارات للدخول فإذا بقوات ضخمة من بوليس القنال والبوليس المستقدم من القاهرة ومن جهات أخرى تعترض طريقهم وفى أيديهم الأسلحة والهراوات .

المنظر الثالث : يلجأ الناخبون إلى الأستاذ المرشد يشكون إليه فيتصل بالمحافظ فيطمئنه المحافظ ولكنه لا يعمل شيئاً فيلجأ إلى الحكدار الإنجليزى فيتز باتريك فيرد عليه بأن عنده تعليمات من الجهات العليا ينفذها.

المنظر الرابع : القوات الضخمة من البوليس فجأة تهاجم الناخبين المحتشدين أمام مقار اللجان وتعمل فيهم هراواتهم وتهددهم بأسلحتهم حتى تبعد بهم بعض الشىء عن مقار اللجان ، ثم تطوقهم تطويقاً محكماً . وهنا نرى ناقلات ضخمة من ناقلات الجيش البريطانى قادمة وهى محملة بعمال الجيش البريطانى ، وفى سرعة جنونية تتجه إلى مقار اللجان ، وتكون السيارات المعترضة للمداخل قد أفسحت الطريق فتدخل هذه السيارة حتى باب المبنى الذى به لجنة الانتخابات ، وتلصق مؤخرتها بالباب وتفرغ حمولتها من العمال فيدخل كل منهم ويقدم للجنة تذكرة باسم ناخب من ناخبى

اللجنة ، ورئيس اللجنة وأعضاؤها يعلمون أن أحداً من هؤلاء العمال لا يحمل بطاقة انتخابية باسمه بل ليس منهم من يعرف الاسم المكتوب فى البطاقة التى يقدمها ، وكل ما لقنه هؤلاء العمال هو أن ينتخبوا الاسم الذى حفظوه وهو اسم المرشح المنافس للأستاذ المرشد .

المنظر الخامس : بعد أن تفرغ السيارة حمولتها تظل فى وضعها حتى تؤدى الحمولة المهمة المكلفة بها ثم ترجع الحمولة إلى مكانها فى السيارات حتى إذا امتلأ رتل السيارات التى جاءت معاً ينطلق الرتل دفعة واحدة خارج مقر الدائرة وفى سرعة جنونية بين صفوف جنود البوليس حتى تختفى عن الأنظار داخل المعسكرات البريطانية ؛ وبعد قليل يأتى رتل آخر ويمثل الدور نفسه .

المنظر السادس : يدخل الأستاذ المرشد مقر إحدى اللجان ويضبط بنفسه أمام أعضاء اللجنة مائة تذكرة انتخابية مزورة يحملها غير أصحابها من هؤلاء العمال ، ويقدمها لوكيل النيابة فلايتخذ وكيل النيابة أى إجراء سوى أنه يتسلم التذاكر قائلا إنه سيجرى تحقيقاً دون أن يفعل شيئاً

المنظر السابع : أمام هذه المهازل وهذا الإجرام لم نتمالك نحن — الإخوان الزائرين — أعصابنا فوجدنا أنفسنا نهاجم سيارات الجيش البريطانى المحملة بالعمال ونحاول منعها من دخول اللجان ، فإذا بقوات البوليس تهاجمنا بقيادة فيتز باتريك الحكدار ، وقد رأيت هذا الحكدار الإنجليزى يأمر الجنود بحملنا فى سيارات نقل جاءوا بها وحملت أنا شخصياً مع مجموعة من الإخوان إلى إحدى هذه السيارات وسط مناقشات حادة بيننا وبين هذا الحكدار . وبعد أن دخل رتل السيارات القادم من المعسكرات البريطانية والذى كنا نهاجمه إلى مقار اللجان أمر هذا الحكدار بإطلاق سراحنا

المنظر الثامن : عند انتصاف النهار ، قرر الإخوان أن يقوموا بعمل عنيف قد يؤدى إلى وقوع ضحايا من الجانبين ، ويبلغ ذلك مسامع الأستاذ المرشد فيحضر حيث يجتمع الإخوان وينهى إليهم رأيه بعدم موافقته على هذا الإجراء ويقول : إن دماء الإخوان أعز عليه من أن تسفك فى سبيل معركة مهما بالغنا فى أهميتها فإنها لا تعدو أن تكون معركة جانبية .

ولكن أهمية هذه المعركة الجانبية أنها كشفت لنا بوضوح حقيقة الاستعمار الذى يجثم على صدر بلادنا وحقيقة ساستنا الذين يتظاهرون أمام الشعب بالوطنية وهم فى السر قد تعاقدوا مع الإنجليز على أن يكونوا مطاياهم ونعالا فى أقدامهم يدهسون بها رقاب الشعب المسكين .

وينقضى هذا اليوم الأغبر ... وتعلن نتيجة الانتخابات بسقوط المرشد العام فى الدائرة التى

يعلم كل مصرى وكل عربى بل ويعلم العالم كله أن هذه الدائرة هى عقر داره ، وأن رجالها ونساءها وأطفالها لايهتفون إلا باسمه ويؤثرونه على آبائهم وأمهاتهم .

موقف مسرحي للانجليز :

بدت إقالة الملك لوزارة الوفد يوم إقالتها وكأنها انتصار للملك ... لا لأنه أقال وزارة وفدية — فقد أقال من قبل وزارات وفدية — وإنما لأن وزارة الوفد التى أقالها هذه المرة كانت مؤيدة تأييداً سافراً من الإنجليز ، ولا زال التحام الدبابات البريطانية سور قصر عابدين لإرغام الملك على استدعاء النحاس للحكم ماثلا فى الأذهان ... فكأن الملك وقد تمكن من إقالة هذه الوزارة قد انتصر على الإنجليز وتغلبت إرادته على إرادتهم ...

ويبدو أن الإنجليز كانوا راغبين فى إيهام الشعب بهذا المعنى فتظاهروا بأنهم غلبوا على أمرهم ... وتركوا وسائل إعلامنا تبرز هذا المعنى أيضاً حتى استقر ذلك فى نفوس الشعب .

وقد استطاع الإنجليز — بهذا الموقف المسرحى — تحقيق الأهداف التالية :

الهدف الأول : أنهم حطموا الوفد باعتباره الهيئة الشعبية المسيطرة ، فقد دخل الوفد الحكم وله فى نفوس الشعب الحب والإعزاز . وغادره فاقداً هذا الحب والإعزاز وحل محلها البغض والمرارة حيث عانوا فى ظل حكمه شظف العيش وقسوة الحياة نتيجة ندرة مواد المعيشة ، واستيلاء الجيش البريطانى على أطيابها ثم تسلط أتباع الوفد من كبار الموظفين والتجار على البقية الباقية من هذه المواد بالسلب والنهب والاستغلال .. وهو الهدف الذى أشرنا إليه من قبل عند مناقشتنا لحادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ... ولا يخفى أن الطريقة السافرة التى اختارها الإنجليز فى ٤ فبراير لتمكين الوفد من الحكم هى فى حد ذاتها قد زلزلت ثقة الكثيرين فى الوفد — لكن ما ارتكبه الوفد من أخطاء فى أثناء حكمه قد أتت على البقية الباقية له فى النفوس ... وربما كان احساس الوفد بنجاح سياسة الإنجليز فى افقاده ثقة الشعب هو الذى دفعه بعد ذلك إلى تغيير سياسته التقليدية فى معاداة الملك وابدالها بسياسة التزلف إليه والتملق له .

والهدف الثانى : أنهم رغبوا فى إنساء الشعب مرارة ما استقر فى نفوسهم من آثار الاعتداء والصلف وامتهان الكرامة فيما اتخذوه من إجراء يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ .. وقد رأوا أن ظهورهم بمظهر المستكين المغلوب على أمره أمام السلطة الشرعية المتمثلة فى الملك مسحاً لهذه المرارة أو تخفيفاً منها على الأقل .

ويبدو أن هدف الإنجليز فى هذا الصدد قد تحقق إلى حد كبير ، فقد كنت تسمع من الكثيرين فى مختلف الأوساط يوم إقالة وزارة الوفد كلاماً فيه معنى الشماتة فى الإنجليز .

والهدف الثالث : أنهم أرادوا أن يهيئوا جواً يجعل الشعب على شوق لاستقبال الوزارة القادمة استقبال الأبطال المنقذين . الذين جاءوا رغم أنف الإنجليز ليمسحوا عار يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ وليردوا للشعب كرامته وشخصيته .

وهذا ما تحقق فعلا كذلك ؛ فقد بدا الناس كأنما استرد الملك كرامة الشعب فى شخصه ، كما بدالهم كأنما جاء الملك متحدياً سلطة الإنجليز بالرجال الذين هم أعداء الإنجليز ، بدليل أن الإنجليز يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ قرروا إبعادهم عن الحكم ... إذن فرحباً بهم رغم أنف الإنجليز ... وتظاهر هؤلاء الرجال بأنهم جاءوا إلى الحكم لإنقاذ الحرية رغم أنف الإنجليز .

انكشاف المؤامرة بين الإنجليز والسعديين :

خدع الشعب تماماً أمام مكر الإنجليز ونفاق السعديين ... والشعب معذور فى أن يخدع فقد أحكم الإنجليز خططهم ، واستطاع الملك وأنصاره السعديون أن يتقنوا تمثيل الدور الذى رشحهم الإنجليز لأدائه ، ولم يكن الشعب يعلم شيئاً عما كان يدور خلف الكواليس قبل أن تفتح أمامه الستارة ليرى على المسرح هؤلاء الرجال وعلى رأسهم الملك وقد ظهروا وبأيديهم سيوف تقطر دماً مدعين أنه دم الإنجليز المعتدين .

ولم يفطن الشعب إلى أن مارآه على المسرح لم يكن إلا خدعة كان هو ضحيتها ،ولم يبدأ يسترد وعيه شيئاً فشيئاً ، ويفهم ما كان يدور خلف الكواليس إلا بعد أن صدمته فاجعتان .

أولاهما : انتخابات الاسماعيلية وما أثبتته من أن تسلط الإنجليز وتبجحهم يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ لم يكن أوقح ما عندهم إذ أنهم كانوا فى انتخابات الإسماعيلية أكثر تسلطاً وأشد وقاحة وتبجحاً .

ففى يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ لم يجدوا معاضدة فى عدوانهم من السلطة الحكومية ممثلة فى بوليسها ورجال إدارتها ،أما فى الإسماعيلية فقد وجد العدوان الإنجليزى من بوليس الحكومة المصرية ورجال إدارتها ورئيس حكومتها عوناً بل خدماً يحمون عدوانه ، ويتهافتون على نيل الحظوة لديه ...

فى ٤ فبراير كان عدوان الحكومة البريطانية موجها إلى الملك وإلى حفنة وراءه من صنائعه

البشوات سدنه شهواته وخدام نزواته ، ومطلب الإنجليز كان استدعاء الحزب الشعبى للحكم أى أنه كان مطلباً فى ظاهره على الأقل فى جانب الشعب ... أما فى الإسماعيلية فقد كان عدوان الإنجليز مؤيداً بالملك وصنائعه السعديين ، موجها توجيها مباشراً وسافراً ضد الشعب نفسه ... مما لم يدع للشعب مندوحة للتعليل أو للتأويل أو لحسن الظن فى أن هذه المظاهرة التى قام الملك بتدبيرها مع أذنابه السعديين لم تكن إلا خدعة للشعب ، واستخفافاً بعقليته ، واستهتاراً بفهمه ووعيه ... ولم يعد عند الشعب أدنى شك فى أن هذه الوزارة السعدية وعلى رأسها الملك ليست إلا صنيعة حقيرة للإنجليز .

ومن سوء حظ الإنجليز وأذنابهم أنهم ظنوا أن معركة انتخابات الإسماعيلية لن تكون أكثر من معركة فى دائرة من ثلاثمائة دائرة أو نحوها لن يشعر بما يدور فيها إلا أهل المنطقة .. ولم يدر بخلدهم أن جميع دوائر القطر ستكون ممثلة يوم الانتخابات فى هذه الدائرة ، وأن هؤلاء الممثلين سيرجعون فى اليوم التالى إلى بلادهم ويروون لأهل هذه البلاد ماشاهدوه بأعينهم من مآس واعتداء وإجرام .

وهكذا استيقظ الشعب المصرى فى اليوم التالى على فهم جديد ، ووعى جديد ، ونظرة جديدة إلى الناس وإلى الأمور وإلى الحكومة التى جاءت إلى الحكم باسم حكومة التحرير والإنقاذ ، تحرير الشعب من ديكتاتورية الوفد ، وإنقاذ شرف البلاد من وصمة ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ .

أما ثانية الفاجعتين التى استيقظ الشعب على دويها فهى حيرته لم سحب الإنجليز تأييدهم لحكومة الوفد التى ضحوا فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ بجانب كبير من سمعتهم فى سبيل إسناد الحكم إليها ، ثم نقلوا تأييدهم إلى الجانب الآخر الذى داسوه بأقدامهم فى ذلك اليوم ؟ ...

ظلت الحيرة مستبدة بأفكار الشعب ، لا يجدون لها تعليلا ، حتى استقرت الأمور لهذه الحكومة ، وحظيت بمجلس نواب صنعته بيديها بالمواصفات التى حددها الإنجليز ، حينئذ انطلقت القنبلة التى أفاق على دويها الشعب من حيرته ، حيث استبان له ما كان ملتبساً عليه ، وظهر له ماكان مستوراً عنه وتكشف السر الذى كان فى طى الكتمان بين السعديين وبين الإنجليز وكان ذلك حين أعلنت الوزارة السعدية برياسة أحمد ماهر الحرب على المحور (المانيا وايطاليا) .

وقد سبقت الإشارة من قبل إلى أن الإنجليز منذ أعلنوا الحرب على ألمانيا سنة ١٩٣٩ وهم يلحون على الحكومات المصرية المتعاقبة أن تعلن الحرب على ألمانياتنفيذاًلبنود معاهدة سنة ١٩٣٦ فقد ألحوا فى ذلك على وزارات على ماهر وحسن صبرى وحسين سرى ولكن لما كانت هذه

الحكومات ترى أن لا مصلحة لمصر مطلقا فى إعلان الحرب على دول لم تمسنا بأى نوع من أنواع الاعتداء ، فإنهم جميعاً أصروا على رفض هذا المطلب حتى صار رفضه سياسة عامة للدولة يقف وراءها الشعب كله بجميع أحزابه وطوائفه .

حتى وزارة الوفد التى جاء بها الإنجليز فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ عجز الإنجليز عن إحراجها فى اتخاذ هذا القرار .. ويبدو أن هذا كان هو السر الحقيقى وراء تخلى الإنجليز عن تأييدها آخر الأمر لا سيما بعد أن عقدوا فى الخفاء الصفقة مع السعديين .

وجاء أحمد ماهر مطمئناً إلى تأييد الإنجليز ، متحدياً إرادة الشعب التى أجمع عليها بكل طوائفه متجاهلا شعوره وعواطفه ، وأعلن الحرب على المحور ، ظناً منه أن تأييد الإنجليز يحميه من غضب الشعب ، ولكن غضب الشعب كان أقوى مما يظن ؛ إذ قام شاب فدائى من غمار هذا الشعب الغاضب اسمه محمود العيسوى يعمل محامياً فأفرغ فيه طلقات أردته قتيلا ، ولما سئل محمود العيسوى فى التحقيق عن الدافع الذى دفعه إلى قتل أحمد ماهر قال بصريح العبارة : إعلانه الحرب على المحور وما قد يجره ذلك على البلاد من دمار فى حرب لاناقة لنا فيها ولا جمل .

أحمد ماهر

إذا وصل الرجل فى قومه أو فى دولته بأية وسيلة من الوسائل إلى مركز الصدارة سواء أكان هذا المركز شعبياً أو رسمياً فقد أصبح من حق الناس فى قومه أوفى بلده أن يتعرفوا على تاريخه ، وأن ينبشوا عن دفائن أسراره ، وأن يتعقبوا ما يستخفى به من مسلك بالليل وما يعلن به فى النهار ، حتى يكشفوا عن حقيقة أمره ، ويميطوا اللثام عن كنه شخصيته .

وإذا كان لكل قوم خصائص ومثل ، وهذه الخصائص والمثل قد تختلف من قوم لقوم ومن شعب لشعب ، فلقد رأينا شعوب أوربا وأمريكا لا يقوم فيهم زعيم ولا يتصدر رياستهم رئيس إلا كشفوا من أمره – على ضوء هذه الخصائص والمثل – ما يجعلهم على بينة من حقيقته ، فإذا رجحت كفته رفعوه إلى مكان الصدارة بأكتافهم ، وحاطوه بقلوبهم ، وإذا خفت موازينه وكشفوا زيفه قذفوا به مع أمثاله المضللين إلى غياهب النسيان .

وما أخال الإسلام – باعتباره دعوة عالمية – كان بدعاً من الدعوات فى هذه القاعدة السليمة والطبيعة المستقيمة فلقد تتبع القرآن شخصية محمد صلى الله عليه وسلم التى رشحها لقيادة الدنيا إلى يوم القيامة تتبعاً وصل به إلى أدق أسراره الشخصية فى بيته مع نسائه . وجعل البحث فى مثل هذه الأسرار من حق الأمة التى رشح لقيادتها .. ولا أعتقد أن شخصية من شخصيات العالم مهما بلغت

خطورة المنصب الذى أسند إليها أو الزعامة التى سيطرت بها قد أبيح لشعبها أن يعرف من أسرارها الخاصة عشر معشار ما عرف الشعب الإسلامى فى أنحاء العالم من أسرار محمد صلى الله عليه وسلم

ومعذرة فى هذه المقدمة التى ذهبت بنا بعيداً عن واقع الحال الذى نعالجه فى مذكراتنا هذه عن بلادنا المغبونة الحظ ، المسلوبة الإرادة ، المجنى عليها دائماً .. لقد انفردت الأحزاب بهذا الشعب الطيب ، وشكلت تفكيره بالشكل الذى يرضيها ، فهو لا يتلقى معلوماته إلا منها ، ودرج -كما علمته- على أن يتلقى ما يتلقاه منها على أنه حقائق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

ولا أنكر أنه قد أتى على وعلى أترابى حين من الدهر كنا ضمن هذا الشعب المغرر به ، فكنا نتلقن من حزب الوفد المعلومات التى تبرز لنا أحمد ماهر هذا فى صورة البطل ، وفى صورة الإنسان المثالى .. حتى إذا انفصل عن الوفد وكون ما يسمى بحزب السعديين ، رماه الوفد بجميع النقائص ونسب إليه كل العيوب وجرده من كل المزايا .. واقتنع الشعب بذلك مع أنه كان مقتنعاً بالأمس بعكسه .

هذا منطق لايقره عقل ولايسيغه ذوق ... ولكن على هذا درج شعبنا المضلل ، وبهذا الأسلوب السقيم ارتضى لنفسه أن يسير فى الحياة معصوب العينين مشلول الإرادة وفى أذنيه وقر ومن بينه وبين الحقائق حجاب .

أما والإخوان المسلمون أصحاب فكرة مضيئة ، ومنهج واضح المعالم، وغاية بينة القسمات، فإن الفرد منهم لايضل ولا ينحرف لأن ميزانه بين يديه لايفارقه لحظة ، يزن به كل شخص من تصرفه ،ويقيم ما يقابله من أفكار ومناهج وأهداف ،وصدق الله العظيم « ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم »

فى فترة الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات كان المتخرجون -كما أسلفنا- فى مختلف الكليات لا يكادون يجدون - مع الوساطات - وظائف حتى باليومية ، وكان الواحد منهم يظل السنوات ذات العدد لا يجد عملا .. وكان الأخ طاهر عبد المحسن قد تخرج فى كلية التجارة قبل بسنة أو سنتين وظل هو وزملاؤه يبحثون عن عمل ... وتصادف أن أعلنت وزارة المالية عن وظائف عندها لحاملى بكالوريوس التجارة ستجرى مسابقة للمتقدمين منهم لهذه الوظائف ؛ فتقدم الجميع آملين أن يكون لهم من هذه الوظائف نصيب .

ثم أعلنت الوزارة عن المسابقة وحددت لها تاريخاً وساعة معينة فى ذلك التاريخ . كما حددت

مكاناً معيناً هو ديوان وزارة المالية ؛ فاستعد طاهر لهذه المسابقة . فلما جاء اليوم المحدد فوجىء طاهر بأن هذا اليوم المحدد بالتاريخ يوافق يوم الجمعة وأن الساعة المحددة هى الساعة الثانية عشرة ظهراً ... ومعنى هذا أن الذين سيحضرون هذه المسابقة سيتركون صلاة الجمعة ، فاغتم طاهر لذلك وعزم على أن يذهب قبل الميعاد بساعة إلى ديوان الوزارة ليتقدم بشكوى إلى الوزير ضد هذا الموظف المستهتر الذى حدد هذا الميعاد ، ويطلب منه تأجيل هذا الميعاد حرصاً على أداء صلاة الجمعة ...

وذهب طاهر إلى ديوان الوزارة ، واستفسر عن اسم الموظف الذى حدد الميعاد ففوجىء بأن الذى حدد الميعاد هو الوزير نفسه ، وأنه هو الذى سيمتحن المتقدمين للمسابقة بنفسه .. فطلب مقابلته فلما دخل عليه شكا له طاهر من أن هذا الموعد سيضيع على من يحضرون المسابقة صلاة الجمعة وطلب منه تأجيله إلى ما بعد صلاة الجمعة ..فرد عليه الوزير رداً وقحاً فيه كل الاستهتار والاستهزاء بالدين وبصلاة الجمعة وبالصلاة على اختلافها . فثار طاهر عليه ولعنه وألقى بخطاب الوزارة فى وجهه وخرج تاركا هذه المسابقة لهذا الوزير الوقح البذىء المستهتر ... وجاء فى المساء إلى المركز العام وقص علينا القصة .

أتعرف أيها القارىء من هو هذا الوزير ؟ إنه الدكتور أحمد ماهر ....

وبأى مقياس قاسه طاهر عبد المحسن ... وبأى ميزان وزنه ؟ إنه بمقياس الفكرة الإسلامية وميزانها الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

وقد شاء الله أن يكشف لنا حقيقة هذا الرجل مبكراً ... فكثير من الناس لا يصلون .. ولكن أحدهم حين يواجه بهذا يقر بخطئه وتشعر بأنه فى خجل من هذا الخطأ ... أما هذا الرجل الذى هو فى منصب وزير وليس فوقه سلطة تلزمه بتحديد ميعاد فى وقت معين فيقوم متطوعا مختاراً بتحديد اليوم بيوم الجمعة وتحديد الساعة بالثانية عشرة ظهراً ... ثم يواجه بهذا الخطأ فيكشف عن أنه اختاره متحدياً شعور المسلمين الذين ينتسب إليهم زوراً وبهتاناً . مثل هذا الرجل هو من أشارت إليهم الآية الكريمة «وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون» وقوله تعالى «أرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله »

الماسونية :

يلزمنا سياق الحديث ونحن نكشف اللثام عن شخصية أحمد ماهر أن نلقى بعض الضوء على

الماسو نية حتى يكون هذا الإسم أوهذا الاصطلاح ذامدلول عند القارىء ..

ولفظ الماسون كما يفهم من لفظه الفرنسى فيه معنى البناء وقد نشأت الماسونية فى أوربا وأطلقت على نفسها هذا الإسم مدعية أن الماسونيين هم البناة الأحرار وكان ذلك منذ أكثر من قرن من الزمان وهى فكرة يهودية من الأفكار التى وضع اليهود أسسها بعد أن حددوا أهدافها الحقيقية التى احتفظوا بها لأنفسهم ولكنهم أعلنوا لها أهدافاً أخرى لاتمت إلى هدفها الحقيقى بسبب . فأهدافها المعلنة هى :

«أنهم يريدون إيجاد أخوة عالمية تذوب فى غمارها فوارق العقيدة والقومية والوطنية» وهذا الهدف يبدو للرجل الخالى الذهن القليل التجارب هدفاً إنسانياً رائعاً تهفو إليه النفوس وتتهافت عليه القلوب ... إنها إخوة إنسانية رفيعة .

ولكن هاك حقيقة هذا الهدف .:

إن خطورة هذا الهدف إنما تكن فى نصفه الأخير الذى يقول :تذوب فى غمارها فوارق العقيدة والقومية والوطنية » .

فالإسلام إنما جاء وهدفه هو إيجاد أخوة عالمية «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا »ولكن إذابة فوارق العقيدة والقومية والوطنية هى بمثابة الديناميت لهذا الهدف كن يبنى صرحاً شامخاً ويضع فى أساسه ديناميتاً يكفى لنسفه ونسف ماحوله من صروح ... وتوضيحاً لذلك أضرب المثل التالى :

إذا كنت ماسونياً مسلماً فأخوتك العالمية هذه تقتضيك أن تفضل أخاك فى الماسونية ولوكان غير مسلم أو كان ملحداً على إخوتك فى الإسلام ..

إذا كنت ماسونياً مصرياً فأخوتك العالمية هذه تقتضيك أن تفضل أخاك فى الماسونية ولو كان غير مصرى على إخوانك فى الوطنية .

إذا كنت ماسونياً عربياً فأخوتك العالمية هذه تقتضيك أن تفضل أخاك فى الماسونية ولو كان غيرعربى على إخوتك فى القومية العربية .

ومعنى هذا بأسلوب أوضح إذا كنت عربياً مصرياً مسلماً وكنت ماسونياً وطلب إلى المصريين مقاتلة الإنجليز المستعمرين لإخراجهم من مصر فإذا رأيت هؤلاء الإنجليز المستعمرين لبلادك إخواناً لك فى الماسونية فعليك فى هذه الحالة أن تفضل هؤلاء الإنجليز على بنى وطنك وأن

لاتقاتلهم بل عليك أن تعمل على ما فيه مصلحتهم وإن كان فى ذلك قضاء على مصالح بلادك وعلى تحريرها . وإذا قيل لك إن اليهود فى فلسطين قد قتلوا المسلمين والنصارى وانتزعوا أرضهم وعليك أن تقاتلهم ثم وجدت أن هؤلاء اليهود إخوان لك فى الماسونية فهم عندك أفضل من المسلمين والنصارى أصحاب البلاد وأصحاب الأرض وأصحاب الحق وكنت فى جانب اليهود وضد أهل دينك وقوميتك وأهل الحق .

ومعنى هذا على المستوى الواقعي أن شعباً تنتشر فيه الماسونية سيكون شعباً متخاذلا متفككاً لا يدافع عن نفسه ولا يطالب بحقوق وطنه ولا يستجيب لنداء دينه .

فإذا كان أفراد من الماسونيين فى هذا الشعب المهيض الجناح ذوى مناصب مرموقة وذوى نفوذ وسلطة فإنهم سيكونون أشد بلاء على بلادهم وعلى قومهم وعلى دينهم لأن ماسونيتهم تهيىء لهم فرص التواطؤ مع الأعداء على بلادهم وقومهم ودينهم ، إذا ما كان هؤلاء الأعداء من الماسونيين

وواضعو أسس الماسونية تواطئوا فى وضعها مع الطبقات الحاكمة فى دول أوربا على أن تكون الماسونية فى خدمة أغراضهم وعلى أن يكون الشرق الإسلامى بما فيه من كنوز وخيرات هدية تقدم اليهم بين يدى أطماعهم واستغلالهم ، ففى عصر الاستعمار الذى كانت انجلترا فيه رائدة ركبه كان رؤساء وزاراتها ووزراء خارجيتها من الماسونيين ، فهم يخدمون أغراض اليهودية العالمية من ناحية باعتبارها صاحبة الفضل عليهم وعلى بلادهم ولأنها من ناحية أخرى هيأت لهم عن طريق الماسونية بلاد الشرق ليلتهموها لقمة سائغة على أساس نشرهم الماسونية فى ربوع هذا الشرق الغافل .

الطريقة العملية للماسونية : وليست الماسونية نظريات تدرس ويتجادل حولها ولا أفكار صاغها مفكرون لمجرد أن تكون غذاء فكرياً كدأب النظريات والأفكار التى تمخضت عنها عقول الفلاسفة ، بل إنها نظام عملى وضع للتنفيذ من أول يوم وضع فيه والذين وضعوه حاكوا بوضعه مؤامرة خطيرة ضد نظام هذا العالم المتماسك لتقويضه من أساسه وتحويله إلى ألعوبة فاقدة الإرادة فى يد اليهودية العالمية التى هانت على نفسها وعلى العالم ، فلا هى بعددها المحدود تستطيع أن تخضع العالم لإرادتها ، ولا هى مستطيعة أن تقنع بنصيبها فى الحياة باعتبارها أقلية من الأقليات. وإذن فلا سبيل أمامها لتحقيق أطماعها إلا بحبك مؤامرات لتفكيك أواصر هذا العالم حتى تتمكن من تحقيق أطماعها وترضى دفين أحقادها .

ويقوم النظام الماسونى على السرية المطلقة وعلى أساليب الإيحاء والإحاطة بهالات من الأوهام وعلى الرموز والألقاب التى اشتق أكثرها من المعابد اليهودية .

وقد لايكون هذا مقام تفصيل هذا النظام ، وحسبنا مجرد الإشارة إلى أسسه التى يقوم عليها حتى تتاح فرصة أخرى للافاضة فى شرحها ، ولنعد إلى الحديث عن الشخصية التى تطرق الحديث عنها وإلى إلقاء بعض الضوء على الماسونية وآثارها فى بلادنا فنقول :

إن الماسونية قد غزت مصر والبلاد العربية منذ أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، وساعد على غزوها هذه البلاد وجود الاستعمار ووجود جاليات من اليهود بعضهم من أهل البلاد وبعضهم الآخر قدم من أوربا ... وكان هؤلاء اليهود لا سيما الأجانب منهم هم نواة المحافل الماسونية فى مصر والبلاد العربية (المحفل الماسونى هو النادى أو المقر الذى يجتمع فيه الماسونيون فى بلد من البلاد أو فى حى من أحياء عاصمة كبيرة ، وغير مسموح لغير أعضائه بدخوله . وإذا دخلته وجدته صورة طبق الأصل من المعبد اليهودى حيث ترى المذبح والقناديل والتراتيل والملابس الرسمية السوداء) .

وقد رأى الغازون أن يكون اليهود الأجانب نواة هذه المحافل لأن هذا الصنف من اليهود كانوا يمثلون أرفع المراكز الأدبية والمادية فى البلاد ففى الوقت الذى كانوا يسيطرون فيه على اقتصاد البلاد ومرافقها كانوا يتمتعون بقسط لابأس به من العلم والثقافة ، وكانو باعتبارهم أجانب فى بلد مستعمر طبقة متميزة يتمنى الكثيرون من أهل البلاد أن يجدوا لهم مكاناً بالقرب منها.

وتهافت الكثيرون من سكان الريف والمدن على التمسح بهذه الطبقة . فوجدت هذه الطبقة الفرصة المواتية لتختار من بين هؤلاء المتهافتين المجموعة التى جاءت الماسونية لاصطيادها ، وهما طائفتان :

ا – طائفة خلاة الأذهان ، طيبو القلوب ، سريعو الاستجابة ، طيعو الانقياد من أعيان الريف وتجار المدن .

٢ – طائفة المثقفين ذوى الأطماع الذين لايتقيدون بدين ولا يتمسكون بمبدأ و لايعترفون بمثل ....

وتكونت المحافل فى أنحاء البلاد لا سيما فى العواصم التى تؤثر فى الحياة الاجتماعية والحياة السياسية فى سائر البلاد .. والأسلوب المتبع هو أن يشعر كل هؤلاء المنتسبين إلى الماسونية من الطائفتين بمزايا ملموسة لهذا الا نتساب ، فهناك فى جميع المحافل إشارات سرية يتعلمونها ، فإذا دخل عضو ماسونى متجراً أو مصنعاً أو محكمة أو إدارة حكومية وكان له حاجة يرجو

قضاءها ، فما عليه إلا أن يؤدى هذه الإشارة فاذا رأى من يبادله مثلها علم أنه أخوه فى الماسونية ولقضى حاجته فوراً ويقدم على غيره مهما كان غيره أحق منه .

وكثيرون من التجار والزراع والصناع والموظفين ، حسنت أحوالهم وأخذ بأيديهم إلى أعظم الأوضاع وأرق المناصب عن هذا الطريق .. وضمن قادة الماسونية بذلك وجود قاعدة عريضة لهم فى أحشاء الشعب تدين لهم بالولاء وتسبح لهم بالحمد .

ولما كانت الناحية السياسية فى ذلك الوقت وفى تلك البقعة من العالم هى بيت القصيد ، فقد عكف القادة الموجهون على العناية بعدد من أفراد الطائفة الثانية لهم صلة بالأحداث السياسية ، فهدوا لهم أسباب البروز – وكانت إذ ذاك فى أيديهم – وفتحوا أمامهم طريق المناصب العليا فى الدولة حتى وصلوا بهم إلى حيث ينتهى إليهم توجيه السياسة فى البلاد ، فوجد الشعب هؤلاء يتصدرون إدارة الحكم فى البلاد دون أن يعرف كيف كان وصولهم لا سيما والأصابع الخفية للماسونية تحرق البخور أمامهم وتنفخ فى أبواق المجد من خلفهم والشعب الذى لا يدرى من أمر نفسه شيئاً مأخوذ بهذه الهالات التى أحيط بها هؤلاء الصنائع المدسوسون عليه والمزورون فى الانتساب إليه .

القطب الأعظم : ومن هذه الشخصيات «أحمد ماهر» فقد تولوه يافعاً وعكفوا على العناية به شاباً وكهلا حتى وصلوا به فى مراتب الماسونية إلى أعلاها فقد صار «القطب الأعظم» ، كما وصلوا به فى مناصب السياسة حتى صار «رئيس الوزراء» .

وإنه لما يثير الأسف والإشفاق معاً على شعبنا المصرى وشعوبنا العربية أنها لم تكن حتى ذلك الوقت تنظر إلى الماسونية نظرة تشوبها أيه شكوك أوريب بل إن بعض المنتسين إلى الماسونية – كانوا يخرجون على ماتعهدوا به من الكتمان – ويذكرون لذويهم والمحيطين بهم على سبيل الفخر أنهم ماسونيون ويجدون فيمن حولهم من يغبطونهم على هذا المقام العظيم .

والله وحده يعلم كم من المزايا حققتها الماسونية العالمية لحلفائها المستعمرين على حساب مصالح بلادنا عن طريق هؤلاء الذين توفرت على تغذيتهم والعناية بهم وفتح الطريق أمامهم حتى بوأتهم أعلى مناصب الدولة دون أن يحس الشعب التائه المسكين .

ولم يكن أحمد ماهر وحده هو الذى تبنته الماسونية العالمية بل إن هناك كثيرين غيره قد وصلوا إلى مناصب الوزراء عن هذا الطريق ومما يؤسى له أن بعض هؤلاء كانوا من أسر ذات سمعة دينية وكانوا من علماء الأزهر الشريف ...

ونتقل للقارىء هنا ما نشرته جريدة الأهرام فى ٢٠-٣-١٩٤٥ بعد اغتيال أحمد ماهر تحت عنوان : «وفد الماسونية السورية واللبنانية» :

«قدم إلى القاهرة وفد يمثل الماسونية فى سوريا ولبنان لحضور حفل التأبين التى ستقام للمغفور له الدكتور أحمد ماهر باشا بوصفه «القطب الأعظم» للمجلس الماسونى السامى فى مصر وملحقاتها وهى سوريا ولبنان والبلاد العربية - وهذا الوفد مؤلف من الأساتذة حسين اللاز وإلياس فازان وخليل النصولى وميشيل حداد ومترى الصدى - وقد نزل حضراتهم ضيوفاً على المحفل الأكبر الوطنى المصرى» .

ولا أنكر أن الأيام تطورت بعد ذلك وعمل التاريخ عمله وجاء قوم ممن تعلموا فى مدرسة الإخوان المسلمين ففهموا الحقائق التى يجهلها الشعب عن الماسونية وغيرها ، وتصدروا منصة الحكم فى مصر فألغوا الماسونية باعتبارها أداة للاستعمار ... غير أن كل ما فعلوه لهذا الإلغاء هو صدور أمر أو قرار بذلك دون أن يستأصلوا جذورها أو يلغوا ماخلفت من آثار جعلت الشعب يشعر حتى اليوم أنه يعيش فى حياة متناقضة فالماسونية تلغى ولكن تمجيد قادتها مازال أمراً واقعاً فالمؤسسات لازالت تحمل أسماءهم والشوارع والميادين تسمى بأسمائهم .

على هامش قضية اغتيال أحمد ماهر :

تولى رياسة الوزارة بعد مقتل أحمد ماهر زميله وصديقه وظله محمود فهمى النقراشى فأمر بإحالة القضية إلى المحكمة العسكرية العليا برياسة محمود منصور بك وعضوية حسن حمدى بك واثنين من العسكريين ... وقد ترافع عن المتهم على بك بدوى فدافع دفاعاً رائعاً ، ودفع بعدم اختصاص القضاء العسكرى . وتبين أن المتهم كان منتسباً إلى شباب الحزب الوطنى .

وفاجأ المتهم المحكمة بأنه يطلب النقراشى شاهد نفى فسألته المحكمة عن أسباب ذلك فقال :

أولا : إن دولته يعلم أن الحرب كانت ستعلن هجومية وترسل قوات إلى الشرق الأقصى وأوربا ، وأن هذ الوضع تغير بعد ارتكاب الحادث .

ثانياً : أن إعلان الحرب كان بناء على تدخل الإنجليز وكان أحمد ماهر والنقراشى عند السفير البريطانى فى يوم الحادث مما يدل على أن هناك تدخلا من الإنجليز فى شئون مصر الداخلية .

ثالثاً : أن النقراشي قال لي شخصياً إن الحكم في هذه القضية سيكون رادعاً .
وقام علي بك بدوي وأيد هذا الطلب .

من دفع علي بك ضد القضاء العسكري : جاء في دفع علي بك بدوي بعدم اختصاص القضاء العسكري نظر هذه القضية ما يلي :

«إنه لا يجوز نزع المتهم من قضاته العاديين الطبيعيين وهم قضاة محكمة الجنايات ، وليس معنى هذا أنني أشك في القضاء العسكري أو أفاضل بينه وبين القضاء العادي ، وإنما في القضاء العادي وسائل تجعل المتهم أكثر اطمئناناً ، وفيه ضمانات لحرية دفاعه والتأني في محاكمته .

وفي القضاء العادي أربع درجات هي الإحالة ومحكمة الجنايات ومحكمة النقض ومرتين في بعض الحالات . والإحالة مرحلة مهمة ؛ فقاضي الإحالة ليس قنطرة كما يراه البعض ، بل هو يملك بنص القانون تعديل وصف التهمة ، وقد يكون هذا التعديل في صالح المتهم .

ثم إن المحكمة العسكرية تستطيع أن تحكم بالإعدام مثلا غيابياً ، وينفذ الحكم عند اعتقال المتهم دون سماع دفاعه . أما القضاء العادي فيظل الحكم معلقاً حتى يقبض على المتهم فيسقط الحكم وتعاد محاكمته من جديد . . فالمتهم قد حرم من كل هذه الدرجات .

ثم إن نظر القضية أمام المحكمة العسكرية يؤدي في النهاية بعد الفصل فيها إلى شيء من الحرج ، فقد يكون هناك وجه بنقض الحكم الصادر بالإعدام مثلا وبه أخطاء تستدعي نقضاً ، فترى النيابة حرجاً من الإشارة إلى هذا الخطأ ، كما يرى دولة الحاكم العسكري حرجاً في إلغاء الحكم إذا تبين له خطؤه نظراً لصلة الصداقة الوثيقة بدولة القتيل ، فالمتهم لا يطمئن إليه كسلطة نقض نظراً لما يربط بينه وبين الفقيد من الصلة القوية ، ولحرصه على أن تكون العقوبة رادعة شديدة ، فهو لا يرضى لنفسه هذا الموقف ففي قبول الدفع رفع الحرج الشديد عنه » .

وكان تكوين هذه الدائرة وإسناد رياستها إلى محمود منصور بك ذا دلالة خاصة ربما وضحت هذه المذكرات ذلك في مواضع قادمة إن شاء الله حتى إن المتهم ألح في طلب إحالة القضية إلى دائرة أخرى وقال إن هذه الهيئة أصدرت حكماً في قضية مشابهة استبعدت فيه الصفة السياسية للجريمة بل اعتبرت هذه الصفة ظرفاً مشدداً ...وقد رفضت المحكمة هذا الالتماس مما اضطره إلى التقدم بطلب رد المحكمة وقد رفضته المحكمة أيضاً .. وطلب المتهم شهادة النقراشي والنحاس وعلى ماهر ومكرم عبيد وحافظ رمضان والدكتور محمد هاشم وعبد العزيز الشوربجي وفتحي رضوان والأستاذ حسن البنا . ورفضت المحكمة هذا الطلب في أول الأمر فلما هدد علي بك بدوي بالانسحاب

وافقت على دعوتهم فلما حضروا قررت سماعهم فى جلسة سرية وقد احتج على بك على ذلك ولكن المحكمة أصرت .

وعلى العموم فإن هذه القضية والأساليب التى اتبعت فى إجراءاتها كانت وصمة عار فى جبين القضاء المصرى فحسبك أن تعلم أن قضية حول المتهم فيها اتجاه الحكومة الذى كان مبيتاً مع السفير البريطانى من إعلان حرب هجومية على المحور إلى حرب دفاعية وأدلى بالشهادة فيها جميع زعماء البلاد ، هذه القضية لم يستغرق نظرها أمام هذه الدائرة إلا نحو أسبوعين ، ، فكأنما كانت هذه الدائرة مجرد بوق لتنطق بالحكم الذى هدد به رئيس الحكومة النقراشى المتهم عندما قابله فى أثناء تحقيق النيابة معه ... وخير ما نلخص به هذه القضية وهذه الدائرة أن نثبت هنا ما ختم به الأستاذ الكبير على بك بدوى مرافعته التى استغرقت ثلاثة أيام حيث قال :

«وهناك كلمة أخرى أريد أن أقولها وهى أنه متى تجتمع روح الفقيد وروح هذا الشاب أمام الله فإنه سيحكم بينهما بعدله المطلق دون فارق بين هذا وذاك ... وقد تقدمت لحضراتكم بدفع شكلى وبدفاع موضوعى .ودفاعى فى الموضوع كله ظروف تبرر إنقاذ المتهم من الإعدام ؛ فإن قضيتم على دفعى الشكلى وحكمتم برفضه فإنى سأبكى المبادىء القانونية أحر البكاء ، وإن نبذتم دفاعى وقضيتم بإعدام هذا المتهم فإنى سأبكى من بعده أخلاقه النبيلة وحال هذه الأمة التعسة » .

الباب الرابع

في ميدان الحلمية الجديدة

في الدار الجديدة
بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية

الفصل الأول

وصول الدعوة إلى قمة النفوذ الشعبى

مقـــدمة

بحلول عام ١٩٤٤ كانت الدعوة قد وصلت إلى أوج الذيوع والانتشار ؛ فلم يعد مكان فى مصر يخلو من شعبة ، كما أصبحت الجامعة والأزهر قلعتين من قلاع الدعوة ، وصار للدعوة وجود فى كل بلد عربى ، كما صارت البلاد الإسلامية الأخرى تعتبر الإخوان فى مصر قيادة لها .. صار الإخوان فى مصر أعلى صوت شعبى ، وصار لهم أقوى نفوذ على مستوى الأمة بأسرها :؛ وذلك كما أشرت من قبل بفضل التكتيك البعيد المدى الذى حصن الأستاذ المرشد به خطوات الدعوة حيال الجبهات المختلفة الحاكمة .

اتجه الجميع يخطبون ود الدعوة ، وينثرون الزهور فى طريقها ، وحاول الكثيرون من الشخصيات البارزة أن يجدوا لهم أماكن فيها ، ولم تعد ترى المركز العام فى ليلة من الليالى خالياً من وفد يمثل بلداً عربية أو إسلامية ... حتى أبناء الأسر الأرستقراطية بدأوا يتطلعون إلى أماكن لهم فيها ، وما كان للدعوة أن ترفض أى إنسان يتقدم إليها «ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً» .

ومن النماذج الفردية التى خطبت ود الدعوة فى ذلك الوقت ، وكانت ملفتة للنظر ومثيرة للاستغراب الأستاذ عباس محمود العقاد ؛ فقد كان معروفاً عنه أنه رجل يختط لنفسه فى الحياة خطاً لا يلتقى مع الدعوة فى يوم من الأيام ..وجدنا هذا الرجل يتقرب إلى الدعوة ويمد لها يده ، ويدعو سعيد رمضان إلى بيته ويطلب إليه أن يبلغ الأستاذ المرشد إجلاله واحترامه ، وأنه يرى فيه أعظم شخصية لمصلح ، وأن هذه الدعوة هى الأمل الوحيد الذى يجب أن تكرس له كل الجهود حتى تنقذ البلاد من الاستعمار الداخلى والخارجى .

ويأتى سعيد فيبلغنا ذلك فنتعجب ، ونزداد تعجباً حين يذكر لنا أن العقاد منفعل بالدعوة كل الانفعال وأنه اتصل به عن طريق « مكوجى» كان يكوى الملابس للعقاد فسأله العقاد : ألا تعرف سعيد رمضان ؟.. فقال إنه يكوى ملابسه عندى وأعرفه ، فطلب إليه العقاد أن يعرفه

بسعيد ... ويقول سعيد إن العقاد استحلفه أن يكثر من زيارته وأن لا ينقطع عنه لأنه يريد أن يسمع منه الكثير عن الإخوان المسلمين .

حديث الثلاثاء :

ظل الأستاذ المرشد مواظباً على إلقاء حديث الثلاثاء من أول يوم عرفت فيه دار الإخوان سنة ١٩٣٦ ، ولعله كان مواظباً عليه قبل ذلك ... ولقد كنت أحضر هذا الحديث فى المركز العام فى شارع الناصرية ولا يكاد يتعدى عدد الحاضرين فيه أصابع اليدين ، وقد أشرت إلى الوسائل التى كان الأستاذ يلجأ إليها محاولا جذب انتباه سكان هذه المنطقة من حى السيدة زينب إلى دار المركز العام لعل عددا من يحضرون هذا الحديث يتضاعف ، ومع ذلك كله لم يتضاعف .

وبانتقال المركز العام إلى ميدان العتبة ازداد عدد من يحضرون هذا الحديث أو المحاضرة فكان فى بعض الأحيان يزيد على المائة ، ولما انتقل المركز العام إلى ميدان الحلمية الجديدة فى الدار الأولى تضاعف العدد فكان يصل إلى المائتين والثلاثمائة فلما اشترى الإخوان قصر آل «أبو حسين» وهو المبنى المقابل لهذه الدار – ضاقت الداران بفناء يهما وحجراتهما بمن يحضرون هذا الحديث فاحتشد أكثر الحاضرين فى الميدان والشوارع المحيطة بالدارين وصار حديث الثلاثاء شيئاً آخر ؛ تحول إلى مؤتمر كالمؤتمرات التى كان يعقدها الإخوان كل عام أو كل عامين ولكنه يعقد كل أسبوع ، ويحضره أكثر ممن كانوا يحضرون المؤتمر السنوى . وتمثل فيه شعب القاهرة – على كثرتها – كما يفد إليه الكثيرون من الأقاليم ، وأصبحت تناقش فيه قضايا الساعة .. ولذا فإن صدى هذا المؤتمر الأسبوعى كان يتردد فى جنبات جامعة القاهرة ، فيصل صداه إلى جامعة الإسكندرية ، وتجد الجامعتان تجاوباً من الأزهر العتيد ؛ كلها تنشد نغمة واحدة ، وتضرب على وتر واحد ، هو نفسه الذى تطرب له جنبات الوادى من أقصاه إلى أقصاه ، ثم ترتد النغمة المرسلة – بعد سياحتها الطويلة – إلى مصدرها فى المركز العام للإخوان الذى صار بالنسبة لمصر مركز الثقل الذى تنتهى إليه الآمال أو مركز الدائرة ينبعث منه الإشعاع .

لقد كان ما آل إليه حديث الثلاثاء فى أواسط الأربعينيات مفاجأة خامت قلوب الإنجليز والقصر والأحزاب ... ما كانوا يعتقدون أن هذا الرجل ذا اللحية السوداء ، المدرس الابتدائى ، الذى رضى لنفسه أن يخرج مهزوماً من معركته مع الأحزاب الملكية حين قررت نقله إلى قنا ، ومن معركته مع الوفد حين قرر ترشيح نفسه فى دائرة الإسماعيلية لمجلس النواب ... ما كانوا يعتقدون أنه قادر على انتهاز فرصة انشغالهم ، بالكيد بعضهم لبعض ، فيفعل بهذا الشعب ما يشبه

السحر حتى استطاع أن يصهره بمختلف أحزابه وطوائفه فى بوتقة أفكاره ومبادئه وأخرج منه صفاً كالبنيان المرصوص .

لم يعد فى مصر من يستطيع أن يجمع حوله كتل هذا الشعب شبابه وشيبه ، رجاله ونساءه وأطفاله غير حسن البنا ... لم يعد أى حزب من الأحزاب أو هيئة من الهيئات حتى الوفد يستطيع أن يحظى فى مؤتمر مهما حضر له شهوراً بعدد من الناس يعادل عدد من يحضرون حديث الثلاثاء كل أسبوع بغير تحضير وبغير دعوة ... حتى الحفلات التى يقيمها الملك فى ليالى شهر رمضان ويدعو إليها الشعب ليسمعوا مشاهير القراء وليجلسوا على الأرائك الوثيرة وتقدم لهم أطيب المرطبات ... حتى هذه الحفلات لا تحظى بمثل العدد الذى يحضر حديث الثلاثاء بغير دعوة وبدون مقاعد .

إن حديث الثلاثاء كان وحده كافياً أن يكون مقياساً صادقاً أقر بصدقه الجميع حكومة وقصراً وهيئات وأحزاباً يدل على قوة الإخوان وعلى أنهم أصبحوا من القوة بحيث لا يستطاع مواجهتهم ولا حتى منافستهم .

من أراد أن يرى الشعب كله بجميع طوائفه وطبقاته ومثقفيه وتجاره وصناعه وفلاحيه وعماله ورجاله ونسائه فليس أمامه إلا منصة واحدة إذا وقف عليها وتطلع من فوقها رأى هذا الشعب هى منصة حديث الثلاثاء .

الجوالـــة :

وكما تطورت محاضرة الثلاثاء أو حديث الثلاثاء حتى صارت مؤتمراً حاشداً ضاقت به الأمكنة على اتساعها ، فازدحمت بمن يحضرونه الشوارع وقوفاً على أقدامهم الساعة والساعتين بلا ضجر ولا تأفف ، فكذلك تطورت جوالة الإخوان المسلمين حتى صارت جنداً كثيفاً يفرح لرؤيته قلب كل مؤمن ، ويحترق غيظاً وكمداً قلب كل متكبر حقود .

منذ دخل نظام الكشافة مصر ، كانت الفرق التى تنشأ لا تضم الفرقة الواحدة منها إلا صنفاً واحداً وطبقة .واحدة ففى المدارس فرق كلها طلبة وفى المصانع فرق كلها عمال . وفى النوادى فرق للطلبة وفرق أخرى للعمال ؛ ذلك أن الطلبة يرون أنفسهم صنفاً أرقى من العمال فهم يستنكفون أن تجمعهم والعمال فرقة واحدة .

أما فرق جوالة الإخوان المسلمين فترى فى الفرقة الواحدة الطالب بجانبه العامل ،والفلاح بجانبه المدرس ، والتاجر بجانبه إمام المسجد ، والصانع بجانب المهندس ، والمرءوس بجانبه الرئيس والشاب بجانبه الشيخ ؛ ذلك أن هؤلاء جميعاً على اختلاف أسنانهم ومؤهلاتهم ومهنهم

وطبقاتهم الاجتماعية والاقتصادية . والثقافية ، لم ينخرطوا فى سلك الجوالة إلا بعد أن صهروا فى بوتقة الدعوة الإسلامية ثم صيغوا من جديد صياغه نزعت من نفوسهم الأنانية والأثرة والكبر والتعالى . وأحلت محلها روح الأخوة والإيثار والتواضع والحب .

وإذا كانت فرق الكشافة والجوالة فى مختلف الأنحاء لا تتعدى أهدافها إسعاف غريق ومساعدة شيخ ضعيف وتجبير كسر ، فإن جوالة الإخوان المسلمين كانت أهدافها أبعد من ذلك مرمى ، وأشق طريقاً ؛ فكل جوال منهم نذر نفسه أن يكون فداء للمجتمع ، ويعتبر انخراطه فى سلك الجوالة طريق الإعداد ليوم الجهاد ..ولعل هذا هو الذى جعل الناس ينظرون إلى جوالة الإخوان المسلمين نظرة أخرى غير تلك التى ينظرون بها إلى الجوالة الآخرين .

ولو أنك شاهدت عرضاً لجحافل جوالة الإخوان المسلمين وهى تخترق شوارع القاهرة فى شجاعة ونظام وعلى رأسها الأخ الكريم سعد الدين الوليلى ، لأحسست بالفخر والاعتزاز أن أصبح للحق والفضيلة حماة أشداء وجنود أوفياء .

ولم تكن هذه الجحافل قاصرة على القاهرة وإنما كانت كل حاضرة فى القطر تعتز بجحافلها وتنساب منها روح الفخر والاعتزاز بالحق إلى أهلها ، ولم تخل شعبة مهما صغر حجمها وبعد مكانها من فرقة خاصة بها تجمع شبابها وشيوخها .

ولم يكن هؤلاء الجنود يحطمون الخمارات أو يقتحمون أماكن الفجور أو يتعقبون الأشرار والمفسدين ومع ذلك فإن الفساد والفجور والشر كان يتوارى خوفاً وفزعاً من هذه القوة التى علموا أنها من وراء الحق والفضيلة ، ولم يعد أحد ممن كانوا يجاهرون بالرذيلة يستطيع أن يرفع رأسه ، بل إن كثيرين من هؤلاء أقلعوا عن الشر وتابوا ، واتخذوا أماكنهم فى صفوف هذه الجحافل ... وصدق الله العظيم إذ يقول «لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لايفقهون » و إذ يقول «عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم» وكان الأستاذ كثيراً ما يقول « لا قيام للباطل إلا فى غفلة الحق » .

أثر الجوالة فى نفوس الشعب : انقسم الشعب من ناحية تأثير الجوالة إلى الفئات الآتية

فئة كانت تحلم بأن ترى للايمان والحق والفضيلة قوة تحميها ، فلما تحقق الحلم ورأت بعينها هذه القوة سارعت إليها وانضوت تحت لوائها مقدمة نفسها ودمها ومالها فى سبيل تحقيق هذه الأهداف السامية ، وهذه الفئة كان منها الشاب والكهل والشيخ والفقير والغنى والأمى والمثقف وبعض هؤلاء كانوا من أنشط المنتسبين إلى الهيئات الأخرى والأحزاب .

وفئة أخرى كانت تائهة فى بيداء الحياة ، تتقاذفها الرياح وتلقى بها فى كل اتجاه ، وهى لاتعرف لنفسها اتجاهاً ولا مستقراً ، لم تجد فى توهانها من يمد لها يداً ولا من يضىء بين يديها مصباحاً ؛ حتى استفاقت على صوت هؤلاء الجنود يرج الأرض رجاً وإلى هتافاتهم تهز القلوب هزاً فأحسوا أن باباً كان مغلقاً قد فتح أمامهم إلى طريق أمن وأمان .. ولكثرة ما تقطعت بهم السبل من قبل خامرهم شىء من الشك فراودوا أنفسهم حتى اطمأنت فتقدموا إلى الصف واتخذوا أماكنهم فيه وأكثر هؤلاء من الكهول .

وفئة ثالثة من الشعب رضيت لنفسها من أول يوم أن تكون دائماً فى موقف المتفرج الذى يبدى رأيه فى كل ما يراه ولكنه - مهما أعجبه مايراه واقتنع به - لا يساهم فيه؛ ومهما ساءه ما يراه لا يقاومه ، فهى فئة سلبية فى كل حال ... وهؤلاء حين رأوا جنود الجوالة من الإخوان ولمسوا فيهم القوة القادرة ومع ذلك لم يفعلوا ما فعلته فرق القمصان الزرقاء من التسلط على الناس وفرض الإتاوات عليهم ؛ أعجبوا بهم ، وكان مظهر إعجابهم التصفيق لهم فى أثناء عرضهم ، والإشادة بهم كلما جاء ذكرهم .. وتضم هذه الفئة ناساً من جميع الطبقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وهى الفئة الغالبة فى الشعوب المستضعفة التى قتل الاستعمار حيويتها .

وفئة رابعة من الشعب نشأت فى الرذيلة واستمرأتها حيث صارت الرذيلة مرتزقها وتضم هذه الفئة قطاع الطرق «والفتوات» والعاملين فى دور اللهو وروادها وأبناء الأثرياء والطلاب الفاشلين الذين ألقى بهم فشلهم آخر الأمر وسط عصابات اللصوص والقتلة ... وهذه الفئة هى التى دوخت رجال الأمن وغصت بهم السجون ومع ذلك فشرهم فى ازدياد ، والشعب منهم فى رعب وخوف .

هذه الفئة كانت نظرتها إلى جنود الإخوان نظرة واعية ؛ رأوا بأعينهم لأول مرة «فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى» انتظموا فى هذه الصفوف تاركين أعمالهم هاجرين بيوتهم وراحتهم واضعين حياتهم على أكفهم فى سبيل دعوة الإصلاح والانقاذ.فقالت هذه الفئة لنفسها : إذا كان لا يفل الحديد إلا الحديد إذن فقد آن لنا أن نخلى الطريق لهذه القوة الجديدة وأن ندخل جحورنا حتى لا تجتاحنا جحافلها العاتية .

وهذا هو الذى حدث فعلا ؛ فكان فى قلب كل شرير ومجرم رهبة لا تفارقه من أنه إذا لم يكف عن شره فإن بطش هذه القوة سيصل إليه فى يوم من الأيام ... ومع ذلك فإن بعض هذه الفئة من كبار عتاتها كان منطوياً على قلب سليم غشى عليه ظلام الجهل والإهمال ، فكان فى ظهور هذه القوة الجديدة جلاء قلبه وشفاء بصره فاستجاب وانخرط فى سلك المؤمنين .

والفئة الخامسة والأخيرة هى فئة الحكام ومحترفى السياسة . وهؤلاء – فى بلد لا يصعد فيها المستعمر إلى سدة الحكم إلا من تواطأ معه على صفقة خاسرة ضحيتها مصالح البلاد – هم أعداء كل إصلاح لا سيما إذا كان فى هذا الإصلاح مظهر من مظاهر بعث روح الجد والفتوة والشجاعة فى نفوس الشباب ... ولذا فقد كانت جوالة الإخوان غصة فى حلوق هذه الفئة سواء منهم من كان فى سدة الحكم ومن كان خارجه .

ولقد حاول من كان فى الحكم منهم أن يوقف تيار هذه الروح الدافقة بتسليط رجال القسم المخصوص بوزارة الداخلية فاستعملوا معهم كل ما فى جعبتهم من أساليب حتى إنه من طريف ماحدث فى هذا الصدد أن قيادة الجوالة أعلنت فى إحدى المناسبات عن استعراض يقومون به فاتخذ البوليس – وكان ذلك فى القاهرة والاسكندرية – جميع وسائل المنع حيث حاصروا المركز العام وجميع الشعب ولكنهم فوجئوا بالاستعراض يدك شوارع القاهرة والإسكندرية فى نفس الموعد المحدد ، وكان ذلك بأن القيادة أعطت أمراً سرياً بأن يتجه كل فرد من أفراد الجوالة إلى ميدان محدد فى لحظة محدودة وهو بملابسه الملكية وفى حقيبته ملابس الجوالة . وفى اللحظة المحددة كان جميع الأفراد موجودين فى هذا الميدان وأطلق القائد صفارته فخلع كل فرد ملابسه وارتدى ملابس الجوالة وانتظمت الصفوف وبدأ الاستعراض .

وهكذا وجد عتاولة وزارة الداخلية أنفسهم أعجز من أن يقفوا فى وجه هذا التيار الإسلامى الجارف ، فأبلغوا سادتهم الحكام ؛ فبيت هؤلاء مع أولياء أمورهم الإنجليز خططاً بعيدة المدى سنعرض لها إن شاء الله فى صفحات تالية .

مقياس فى الزعامة الدينية :

بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، أخذت كل دولة فى إعادة النظر فى شأن مرافقها وسياستها الداخلية والخارجية . ورأت الحكومة المصرية أن تعيد النظر فى سياستها التعليمية – وقررت وزارة المعارف أن تستعين بكبار العلماء المتخصصين فتسند إلى كل متخصص الفرع الذى تخصص فيه ليدرسه ويمحصه ثم يدلى بما عنده فى مؤتمر يضم كبار رجال الفكر يعقد فى قاعة الجمعية الجغرافية بالقاهرة على أن يخصص يوم لكل متخصص فى فرعه .

علمنا نحن الإخوان بنبأ هذا المؤتمر حين أخبرنا الأستاذ المرشد بأن وزارة المعارف أرسلت إليه خطاباً تنبئه فيه بأنه قد وقع عليه الاختيار ليدلى بآرائه ومقترحاته فى التعليم الدينى وحدد له اليوم لإلقاء بيانه .. كانت نفوسنا تتوق إلى حضور جميع أيام هذا المؤتمر لنستمع إلى ما يلقى فيه

مما لا يخلو من فائدة ولكن تكاليف الدعوة وأعباءها لم تدع لنا فرصة لذلك ، ولكن كان لزاماً علينا أن نرافق الأستاذ المرشد فى يومه المخصص له فى هذه الجمعية .

ودخلنا القاعة التى لم نكن قد دخلناها من قبل،فوجدناها غاصة بكبار رجال الفكر عمداء الكليات وكبار رجال وزارة المعارف وزراء المعارف السابقون وكبار الأدباء والكتاب .. ولقد لفت نظرنا عند دخولنا الردهة المؤدية إلى القاعة أن وجدنا موظفى الجمعية والمسئولين عن تنظيم المؤتمر يستقبلوننا باهتمام ظاهر وشوق عظيم ويسألون عن شخصية الأستاذ البنا.. ولقد سألتهم لم هذا الاحتفاء المثير ؟ فقالوا :

إن هذه المؤتمرات تعقد كل يوم خلال الأسبوع ولم يكن يحضر فى كل يوم إلا عدد قليل من أصدقاء المحاضر أما اليوم فقد أدهشنا أن وجدنا كل رجال الفكر الذين لم يجتمعوا معاً من قبل قد بكروا بالحضور ، وكانوا حريصين على أن لا تفوتهم محاضرة الأستاذ حسن البنا فزادنا هذا شوقاً إلى رؤية هذا الرجل الذى أجمع كل رجال الفكر على تقديره .

ودخلنا القاعة وأخذنا مجالسنا وقام المسئول فقدم الأستاذ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين ليلقى بيانه عن التعليم الدينى .. ووقف الأستاذ المرشد على المنصة وبدأ بحمد الله وبتحية السادة الحاضرين ثم استهل محاضرته بكلمة هزت مشاعر الجميع حيث قال : «انتدبتنى الوزارة للحديث عن التعليم الدينى وليس من رأيى أن تهتم بالتعليم الدينى وإنما عليها أن تهتم بالتربية الدينية ثم أخذ فى شرح الفرق بين التعليم الدينى وبين التربية الدينية وقال إننا فى مصر لا يعوزنا التعليم الدينى فالأزهر يقوم بأداء هذه الرسالة منذ مئات السنين أما الذى يعوزنا حقاً فهو التربية الدينيـــــة .

وقال : إن ملء الرأس بالمعلومات الدينية ليس هو الذى يهذب الخلق ويوجد الوازع الذى يحث على الخير ويبعد عن الشر وإنما الذى يؤدى إلى ذلك هو التربية الدينية التى تعتمد أول ما تعتمد على القدوة الصالحة . وتحدث بعد ذلك عن التربية الدينية وأفاض فى الحديث عنها وضرب أمثلة لها من التاريخ الإسلامى .

ثم تحدث عما نسميه نحن «التعليم الدينى فى انجلترا» وبين أنه ليس تعليماً دينياً بل هو تربية دينية ، وشرح برامج هذه التربية الدينية فى مدارس انجلترا إلى ما قبل الحرب وما أدخلوه على هذه البرامج بعد الحرب من تعديل وبين دور الكنيسة فى مدارس الأطفال ، وما أضافته وزارة التربية والتعليم فى تلك البلاد من أعباء جديدة على كاهل رجال الكنيسة إزاء هذه المدارس ..

واستشهد بتقرير وضعته اللجنة الموكول إليها إصلاح التعليم فى مدارس إنجلترا ؛ وكان أبرز مافيه هو إلحاح اللجنة على مضاعفة الوقت المخصص للتربية الدينية فى المدارس على اختلاف درجاتها لأنه السبيل لوقاية الأجيال القادمة من الانحراف ولتأهيلها لتحمل أشق الأعباء.

ثم وازن بين إمكانيات التراث الإسلامى فى التربية وإمكانيات غيره من التراث والأفكار وأثبت تفوق التراث الإسلامى فى ذلك وثراءه الذى لا يجارى.

وكأن الأستاذ المرشد مقدراً أن الذين سيحضرون هذه المحاضرة هم الذين حضروا فعلا، فقد أعدها إعداداً يناسب هذه المستويات، فلقد كان فى محاضرته هذه أستاذ الأساتيذ حقاً، لقد كنت أنظر فى وجوه هؤلاء الجهابذة فى أثناء إلقاء المحاضرة فأراها مأخوذة ذاهلة، وكأن الجميع وهم علية القوم قد نسوا مكانتهم العلمية فى المجتمع وتحولوا إلى تلاميذ بين يدى أستاذهم .... وبعد انتهاء المحاضرة أقبل الجميع على الاستاذ المرشد يصافحونه بحرارة وعبارات الإعجاب تترى على ألسنتهم .. وكان أشد الحاضرين إعجابا الدكتور منصور فهمى عميد كلية الآداب ورائد الفلسفة فى مصر.

ومع كل هذا التوفيق وهذه الروعة وهذا الإعجاب الذى أبداه الجميع سواء بالقلب مرتسماً على قسمات وجوههم، أو باللسان فى عبارات ترجمت عن القلوب، فإن القاعة لم تخل من حركات متمردة على هذا الإجماع، وهى وليدة حقد قديم لم تزده روعة المحاضرة إلا تفاقما؛ ولعل الذى دفع صاحبه إلى الحضور اعتقاده أنه سيسمع كلاماً معاداً وأفكاراً فجة وحديثا عتيقاً بالياً كالذى دأب الناس على سماعه من علماء الدين، فيشفى ذلك صدره، ولكنه فوجئ بما لم يكن يحتسب، فكانت منه هذه الحركة التى لم تزد فى هذا الجو الروحى الرائع عن أن تكون حركة سلبية، حيث انسحب صاحبها عقب المحاضرة مباشرة وخرج من القاعة، ولم يكن السيد هيكل وزير المعارف الأسبق يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك .. وإن كان ما بيته فى نفسه أكبر «وما تخفى صدورهم أكبر»

الأستاذ أحمد حسين :

بعد قيام الحرب الكبرى سنة ١٩٣٩ وبعد إعلان الأحكام العرفية فى مصر، تعثرت خطوات حزب مصر الفتاة ... فلقد كان الحزب يعتمد على الجو المفتوح، كما قام من أول يوم على أسلوب المجابهة المكشوفة .. وبهذا الأسلوب استطاع أن يحظى بإعجاب الشباب فجمع حوله منهم أعداداً كبيرة .. وكان الحزب يعيب على الإخوان الأسلوب الهادئ الذى يعتمد على الإقناع بالغاية

واتباع أسلوب التكوين والتربية ويرميهم بالضعف والجبن حين يتركون مواجهة العواصف ويعكفون على التربية والتكوين .

فلما فقد الحزب الجو المفتوح وجد نفسه مكتوف اليدين، وتوقف إنتاجه، وبدأالذين تجمعوا حوله ينفضون عنه ، فلما أراد الأستاذ أحمد حسين أن يتدارك الموقف بدأ يتحرك كما كان يتحرك فى الجو المفتوح فاعتقل ، وباعتقاله بدأ الحزب يتفكك ، فلما أطلق سراحه حاول الذين أطلقوا سراحه (الوزير فؤاد سراج الدين) أن يثيروا حول نزاهته الشكوك فأشاعوا أن سراج الدين منحه منزلا ومبلغاً من المال .. ولما كانت نفوس الناس فى الجو المغلق تتلقف أى كلام فقد أثرت هذه الإشاعة تأثيراً سيئاً فى الحزب فانفض أكثر الباقين حتى أقرب الأعضاء إلى أحمد حسين مثل فتحى رضوان وحماده الناحل ، وذهب فتحى رضوان إلى الحزب الوطنى وأسس مع الدكتور نور الدين طراف وبعض من شباب الحزب الوطنى «اللجنة العليا للحزب الوطنى» وأخرج مجلة اللواء الجديد .

ورأى أحمد حسين أن يتجه بحزبه اتجاها جديداً لعله يصادف من النجاح ما صادف الإخوان فأنشأ الحزب الاشتراكى الإسلامى وحاول بذلك استعادة ما فقدة من أنصار لكن حزبه الجديد لم يكن أحسن حظاً من حزبه السابق فحوله بعد ذلك إلى الحزب الوطنى الاشتراكى .

وحينئذ لم ير أمامه من سبيل إلا أن يلجأ إلى الاستاذ المرشد الذى كان يبادله الحب والإجلال فحضر إلى المركز العام أكثر من مرة ، وأخبرنا الأستاذ المرشد بأن الأستاذ أحمد حسين جاء ليعرض على الإخوان أن يتحد حزبه مع الإخوان ويعملا معاً وفى اتجاه واحد كما عرض عروضاً أخرى مشابهة لذلك ، ولكن الإخوان مع ثقتهم الكاملة فى شخصية الأستاذ أحمد حسين وفى نزاهته واستعداده الفطرى للالتزام بالفكرة الإسلامية فإنهم يرون فى شخصيات أتباعه نوعيات مهما قيل فى حماسها وفى وطنيتها فإنها لا تلتقى مع الفكرة الإسلامية فى كثير من نواحيها ، ولهذا رأى الإخوان أن يظل الأستاذ أحمد حسين فى حزبه ويعمل بوحى من مبادئه على أن يكون الإخوان من ورائه يدعمونه ويؤيدونه فى كل خطوة يرونها فى اتجاه دعوتهم ، وقد بر الإخوان بوعدهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

إحساس الوفد بخطورة الإخوان عليه :

لم يكن الوفد حتى إقالة وزارته التى وليت الحكم فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ يقيم للإخوان وزنا أكثر من أنهم جماعة دينية كسائر الجماعات الدينيه غير أنها جماعة نشطة على رأسها شاب

طموح يريد أن يظهر ، وحسبه تحقيقاً لطموحه أن يصل إلى مجلس النواب ..

وكان الوفد يثق فى نفسه أنه ممثل الشعب وارثاً هذه الثقة عن مؤسسه سعد زغلول ثقة لا يهزها أخطر الأحداث ولا أفدح الكوارث ... ألم ينسحب من مجلس إدارته ثمانية أعضاء من مؤسسيه ولم يؤثر ذلك فيه ، بل ظل كما هو .. وكل ما حدث بعد انسحابهم أن انقلب الشعب عليهم ، وحين أسسوا حزباً سموه حزب السعديين أطلق الشعب على حزبهم هذا «حزب السبعة ونص» احتقاراً لهم وتهويناً من شأنهم ؟ ... وحين خرج مكرم عبيد السكرتير العام للوفد على رئيسه مصطفى النحاس وألف «الكتاب الأسود» فى إظهار مثالب النحاس مؤيداً بالوثائق والأسانيدثم ألف حزباً سماه «حزب الكتلة الوفدية» لم يؤثر ذلك فيه أيضاً بل ظل صرحه كما كان شامخاً عالياً لا يطاول ولاينال ، وكل ما حدث هو تضاؤل صورة مكرم عبيد وحزبه وكتابه تضاؤلا مستمراً حتى صار نسياً منسياً ؟

وقد سقت هذه الأحداث لأ بين للقارئ مدى ثقة الوفد فى نفسه وأنه البنيان الشعبى الأوحد الذى لا ينال ... وأنه لا يعنيه ولا يشغل باله إذا ما رأى أو سمع عن أحزاب تنشأ أو جماعات تتكون أو مؤتمرات تعقد أو حفلات تقام .. فهؤلاء جميعا فى نظره إن هم إلا أطفال يلعبون بجانب صرحه العظيم ، فإما أن يظلوا يلعبون حتى يشبوا عن الطوق فيشرفوا بدخول الصرح الشامخ وإما أن يتلاشوا ..وهكذا كان ينظر الوفد إلى الإخوان المسلمين وينتظر لهم إحدى النهايتين

وقد ظن الوفد أنه تغلب على هذا الشاب الطموح حسن البنا حين نصحه بالعدول عن ترشيح نفسه لمجلس النواب فانتصح ، واعتقد الوفد أنه قد استطاع أن يطوى هذا الشاب وجماعته تحت جناحه ، وأنه مهما تحرك فإن مجاله منحصر تحت هذا الجناح ... ثم أقيل الوفد الإقالة المهينة التى ظل بعدها نحو عامين يجمع ما تشتت من أمره ، ويلم ما تشعث من شئونه .. فلما استفاق من غشيته واسترد رشده ويقظته استيقظ على أحلام مزعجة .

استيقظ فوجد هذه الجماعة قد استفحل أمرها ، وتفاقم خطرها حتى غزته فى عقر داره ... إن رأس ماله الذى يعتز به ويفخر ويتيه هو هذا الشعب الذى لا يعترف إلا به - ومع كل ما تضافر عليه الملك والانجليز وأعوانهم من حيل وعنت ومؤامرات وإغراءات لم يستطيعوا أن يمسوا نفوذه الشعبى فى قليل ولا كثير - لكن هذه الجماعة قد استطاعت أن تشاركه فى رأس ماله وأن تقاسمه هذا النفوذ الشعبى العتيد .

والحكم على أن زعيما أو حاكماً أو حزباً أو هيئة لها نفوذ شعبى لا يكون بادعاء ذلك ، ولا بالخطب الرنانة ولا بمقالات ضافية فى الصحف ولا بالمقدرة على شراء الأصوات فى الانتخابات

بأموال القصر ثم الوصول إلى الحكم عن هذا الطريق ، وإنما يعترف بالنفوذ الشعبى للحزب أو للهيئة التى تستطيع وهى فى صفوف الشعب أن تؤيد حكومة فتقوم فإذا سحبت تأييدها لها سقطت .

وقد دخل الوفد تجربتين أيقن بعدهما أنه لم يعد هو وحده الذى يحتكر النفوذ الشعبى وأنه صاحب الكلمة الأولى والأخيرة فى التوجية الشعبى :

أما التجربة الأولى فهى حين تقدم إسماعيل صدقى طالباً تأييد الإخوان لوزارة يؤلفها لمفاوضة الإنجليز لاسترداد حقوق البلاد ، وقطع على نفسه عهوداً بالتزام خطة رسمها له الإخوان ، وألف الوزارة فى ظل تأييد الإخوان ، وحمل الوفد علية حملة شعواء ، واستعدى عليه الشعب بجميع أساليب الاستعداء ، لكن ذلك كله لم يهز الوزارة ولم يؤثر فيها ... فلما رأى الإخوان أن إسماعيل صدقى بدأ يحيد عن الخطة التى رسموها له أعلنوا سحب تأييدهم له فقامت المظاهرات فى كل مكان ، واختل الأمن فى البلاد واضطرت الوزارة إلى الاستقالة .

وأما التجربة الثانية فهى حين أعلن النقراشى عزمه على عرض قضية البلاد على مجلس الأمن وتصدى له الوفد لمنعه من القيام بهذه الخطوة وألق بثقله فى سبيل ذلك .. وشعر النقراشى بحرج موقفه فلجأ إلى الإخوان طالبا التأييد فأيدوه .. وبفضل هذا التأييد استطاع أن يواجه تحديات الوفد وأن يمضى فى خطوته إلى نهايتها .

تجربتان قاسيتان أقضتا مضجع الوفد ، وأحس بعدهما لأول مرة فى تاريخه أنه مهدد فى كيانه نفسه ، وأن سكوته على ذلك ضياع وهلاك .. إذن فليدع الوفد كل ما كان يشغله من أمر أعدائه التقليديين من أحزاب وقصر وإنجليز وليتفرغ للاخوان المسلمين .

ولما كانت هاتان التجربتان هما صلب الجهود الوطنية التى استؤنفت عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية لاستخلاص حقوق البلاد فى الحرية والاستقلال وإجلاء قوات الاحتلال ، فسوف نبين للقارئ فى الصفحات التالية إن شاء الله دور الإخوان فى هاتين التجربتين .

خطوات عملية لاستخلاص حقوق البلاد

أشرنا من قبل إلى أن إيذان الحرب العالمية الثانية بانتهاء كان حافزا لكل ذى حق دولى أن يستأنف المطالبة بحقه ، وكان على المصريين أن يهبوا مطالبين بحقوق بلادهم فى الحرية والاستقلال وإجلاء الجيوش المحتلة التى جثمت على صدرها زهاء السبعين عاماً فوقفت حائلا بينها وبين العلم والنور والحضارة والحرية والرخاء ومزقت وحدتها فجعلتها فرقاً وأحزاباً ووأدت مواهبها التى كانت كفيلة أن تبرزها فى مكان مرموق بين دول العالم وشعوبه .

ولما خرجت مصر من هذه الحرب ولا زال فى عنقها غل معاهدة سنة ١٩٣٦ فكان عليها أولا أن تحرر عنقها من هذا الغل فتنطلق بذلك فى عالم الحرية مع المنطلقين .. والفترة التى ساهم الإخوان خلالها فى المطالبة بحقوق البلاد بعد أن وضعت الحرب أوزارها قد استغرقت نحو أربع سنوات تولى الحكم فيها ثلاث وزارات أولاها وزارة النقراشى الأولى من مارس سنة ١٩٤٥ حتى فبراير سنة ١٩٤٦ وثانيتها وزارة إسماعيل صدقى من فبراير سنة ١٩٤٦ حتى ديسمبر سنة ١٩٤٦ ثم الثالثة وزارة النقراشى الثانية من ديسمبر سنة ١٩٤٦ حتى آخر سنة ١٩٤٨ .

وزارة النقراشى الأولى

تولى النقراشى رياسة الوزارة خلفاً لأحمد ماهر عقب اغتياله .. والنقراشى رجل قد يصلح لكثير من المناصب لكنه لا يصلح للعمل السياسى المتشعب لا سيما فى بلد مثل مصر كثير المشاكل والمتاعب يحتاج مع الإرادة والحزم إلى المرونة وسعة الأفق وبعد النظر .

ولكن هكذا كان . ورأى الإخوان أنفسهم أمام أمر واقع لا مفر منه ولا معدى عنه هو أن الأداة الرسمية التى لابد أن تطالب البلاد بحقوقها عن طريقها هى هذه الحكومة السعدية النقراشية

ومما يؤسى له وينبغى أن يعلمه القارئ أن هذه الحكومة قد جاءت إلى الحكم وارثة حقداً أسود على الإخوان المسلمين عن رئيسها السابق كان ذلك الرئيس يطوى عليه دون مبرر .. وسأكتفى بإيراد مثال واحد ينبئ القارئ عن مدى هذا الحقد وأسبابه ودواعيه :

حقد موروث دفين

كانت الكفة الأخرى فى ميزان السياسة المصرية فى ذلك العهد التى تحاول أن تعادل الكفة الشعبية التى يمثلها الوفد ، هى القصر متحالفاً مع حزب السعديين الذى يتزعمه أحمد ماهر والنقراشى وإبراهيم عبد الهادى والدكتور السنهورى ، وكان حزب الأحرار الدستوريين بزعامة الدكتور محمد حسين هيكل قد ارتضى لنفسه فى ذلك الوقت أن يكون ذيلا للسعديين .

ولما كانت وزارة الوفد التى تولت الحكم عقب حادثة ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ قد استطاعت بأساليبها الدعائية وصحافتها الواسعة الانتشار أن تنسى الشعب مرارة هذه الحادثة ، رأى القصر بعد نحو سنتين من هذه الحادثة أن يذكر الناس بها ، تأليباً للشعب على الوفد ، فأوحى إلى عملائه السعديين أن يدبروا خطة لذلك .....

ورأى السعديون أنهم لكى يحققوا ذلك لابد لهم من أن يتعاونوا مع الأحزاب الأخرى والهيئات المختلفة ، فاتصلوا فى سرية تامة بالأحرار الدستوريين والحزب الوطنى والحزب الاشتراكى

ومجموعة أخرى من الأحزاب والهيئات كانت موجودة فى ذلك الوقت ، واستجاب الجميع إلى عقد اجتماع سرى لهذا الغرض ما عدا الإخوان المسلمين الذين رفضوا فى أول الأمر بدعوى أن فى مجموعة الأحزاب والهيئات التى استجابت الكفاية ولا يضرهم تخلف هيئة واحدة، لكن السعديين ألحوا إلحاحاً شديداً فاستجاب الإخوان أخيراً مكتفين بإيفاد أخ صغير كان إذ ذاك لا يزال طالبا بكلية الحقوق هو الأخ سعيد رمضان .

وانعقد الاجتماع فعلا فى ظل الكتمان برياسة الدكتور السنهورى ، وأخذ السنهورى يشرح المقصود من الاجتماع وهو أن تقوم الهيئات الحاضرة متضامنة بحركة عنيفة كمظاهرة تذكر الناس بحادثة ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ وبأن الوفد جاء إلى الحكم على أسنة رماح الإنجليز ، ولا مانع من القيام ببعض التفجيرات لإيقاف حركة المواصلات لإثارة انتباه الجماهير ، ثم طلب السنهورى من ممثلى الأحزاب والهيئات الحاضرين أن يدلى كل برأيه ففعلوا وكان إجماعاً بالموافقة على اقتراح السنهورى ، فتهلل وجهه فرحاً ... وكان سعيد قد طلب أن يكون آخر المتكلمين وكان فعلا أصغر الموجودين سناً ومركزاً اجتماعياً ، فلما جاء دوره قال : إننى لا أوافق على هذه الخطة ولن يشترك الإخوان فى شئ منها . فكانت كلماته بمثابة ديناميت نسف الاجتماع كله لأنه كان هو مركز الثقل فى الاجتماع كله .

والتفت إليه السنهورى باشا مغضباً وسأله عن سبب رفضه . فقال سعيد :

«ياسعادة الباشا أرجو بعد أن تحدثت فى الاجتماع بكل ما فى نفسك أن تعرفنى بالموجودين فيه فرداً فرداً ، كلا باسمه» .

فالتفت السنهورى إلى الموجودين فوجد نفسه عاجزاً عن معرفة أكثرهم ... فقال سعيد : إن إجتماعاً على هذه الغاية من السرية وللاتفاق على أعمال خطيرة لا يعرف رئيس الاجتماع أسماء الحاضرين ولا شخصياتهم ، لهو اجتماع فاشل لم يكن يستحق أن نحضره ، وما حضرنا إلا بعد إلحاحكم ، ولنثبت لكم ياسعادة الباشا — مع احترامى لشخصك — أنكم تتصرفون تصرف الأطفال

وما كاد يخرج المجتمعون، وما كادوا يصلون إلى مقر هيئاتهم وإلى بيوتهم إلا وأطبق البوليس السياسى عليهم واستدعوهم فرادى إلى وزارة الداخلية وواجهوا كلا منهم بما قاله فى الاجتماع بالحرف الواحد ، دليلا — كما أشار سعيد — على أنه كان من بين الحاضرين أشخاص مدسوسون من عملاء البوليس السياسى .

من آثار هذا الاجتماع : كان المفروض أن يكون فشل هذا الاجتماع دافعاً لحزب السعديين

على الإعجاب بهذا الشاب وبالهيئة التى ربته هذه التربية ، وأن يتعلموا منه كيف يتعاملون مع الناس وكيف تعقد الاجتماعات التى يرجى لها النجاح ... ولكن هل كان هذا أثره فى نفوس السعديين ؟ هل قالوا كما قال عمر بن الخطاب لمن أرشده إلى خطأ صدر منه «رحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا» وحين راجعته المرأة وهو على المنبر فقال على الملأ قولته المشهورة «أصابت المرأة وأخطأ عمر» ؟ هل تحلوا بصفات المؤمنين التى بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله «الحكمة ضالة المؤمن ، يأخذها أنى وجدها ولا يبالى من أى وعاء خرجت» ؟

لم يكن الأثر فى نفوس السعديين هو هذا الأثر النبيل بل كان الأثر عكس ذلك تماماً .... كان الأثر أن امتلأت نفوسهم حقداً على الإخوان المسلمين ، وأخذ يسيطر على زعمائهم شعور بأن هذه الهيئة - بما رأوا من حصافة أصغر أعضائها - هى القادرة على قيادة الشعب والوصول عن طريقه إلى قمة السلطة ، فلابد إذن من الكيد لها والعمل بكل الوسائل الشريفة وغير الشريفة على القضاء عليها وإبادتها من الوجود .... وكان هذا الشعور من الغليان فى نفوسهم حتى إنه كان يفيض فى بعض الأحيان على ألسنتهم ، وقد فاه به رئيسهم أحمد ماهر أكثر من مرة متخطياً حدود اللياقة والأدب أمام مجموعات من الشباب بعضهم من شباب الإخوان وهو لا يدرى .

وكانت أولى خطواتهم فى سبيل تسميم الآبار أن ذهبوا إلى الملك يعتذرون له عن فشل ما طلب إليهم إنجازه بأن الإخوان المسلمين هم الذين كانوا سبب الفشل ، وأنهم أعداء الملك ، وأنهم يتآمرون مع الوفد ضد الملك ... ثم عملوا على قطع السبيل على الأستاذ المرشد أن يقابل الملك لأن الأستاذ كان حريصاً على مقابلته لإقناعه بدعوة الإخوان المسلمين وبأنه إذا تعاون معهم على تحقيق أهداف هذه الدعوة فإنهم يستطيعون أن يجمعوا الشعب حوله ، وفى ذلك تثبيت لعرشه ، وتثبيت العرش على أسس من حب الشعب خير من محاولة تثبيته بالقوة والإرهاب . أو بالخداع والإغراء

وقد قطع السعديون فى هذا الاتجاه الحاقد الآثم أشواطاً بعيدة ، حتى إنهم تركوا الوفد - عدوهم التقليدى - جانباً ، وجعلوا القضاء على الإخوان المسلمين هدفهم الأوحد الذى يؤرقهم بالليل ، ويشعل النار فى صدورهم بالنهار .. وكان أحمد ماهر يصرح بذلك فى اجتماعاتهالسرية فى نظره والمفضوحة أمام الإخوان فى الحقيقة فيقول : لن أهدأ حتى أقضى على هذا الرجل ... «أبو دقن» يقصد الأستاذ المرشد ، ويكيل له الشتائم القذرة . ويقول : أبو دقن ده المدرس الابتدائى .. نعجز نحن ومعنا جميع الأحزاب والهيئات عن إخراج مظاهرة مادام هو لا يريد إخراجها ؟ ما هذا الشباب المغفل الذى وصلت به البلاهة أن يتركنا ولا يعيرنا اهتماماً ويسير وراء هذا المدرس الابتدائى الحقير أبو دقن .. لابد من القضاء عليه .

كان هذا السفه يبلغ الأستاذ المرشد ويبلغ الإخوان ، وكان الأستاذ مع ذلك يهون الأمر على الإخوان ويقول : لازال عندنا أمل أن يهديهم الله وينزع من صدورهم الحقد والضغينة ويحل محلها الحب والإخاء .

لكن تقرب الإخوان إليهم لم يكن يزيدهم إلا حقداً ، وقد كنا وإياهم كما قال الله تعالى على لسان نوح عليه السلام «وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً» .

فى سبيل تحرير البلاد :

مع كل ما كان يعلمه الإخوان من سوء نية السعديين وما يضمرونه من حقد عليهم فإن الإخوان كانوا يتجاوزون عن ذلك ويتغاضون عنه ويتناسونه حين يذكرون حق بلادهم عليهم وأن الفرصة السانحة للمطالبة بحقوقها إذا أفلتت فقد لا تعود ؛ ففى أعقاب الحروب العالمية تتغير عادة خريطة العالم فتنشأ دول وتطمس دول وترتفع دول وتنخفض دول حتى إذا استقرت الأمور لم يعد ميسوراً إدخال أى تعديل فى أوضاع الدول والشعوب ... ولما كان الإخوان أصحاب دعوة تلزمهم بأن يبذلوا كل شئ فى سبيل تحرير بلادهم ، ولا يمكنهم أن يحققوا ذلك إلا عن طريق الحكومة القائمة إذن فليتجاوزوا عن كل شئ وليتعاونوا مع هذه الحكومة فى سبيل تحقيق هذا الهدف الأسمى ، فكان الإخوان فى ذلك كما قال أبو الطيب :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بد

ولقد أخذ الإخوان يحثون الحكومة على الجلد فى المطالبة بحقوق البلاد فى الاستقلال والوحدة لوادى النيل .. ولسنا ندعى أننا كنا وحدنا الذين يحثون الحكومة على ذلك بل كانت جميع الهيئات والأحزاب تحث على ذلك ولكن الهدف كان مختلفاً فقد كان هدفنا من ذلك تبصير الحكومة وتقوية موقفها أمام المستعمر فى حين كان حزب كالوفد يهدف من ذلك إلى إحراج مركزها .

ولكن الذى حدث فعلا هو أن الحكومة لم تأخذ هذا الأمر الخطير مأخذ الجد . وأخذت تسوف وتتهاون وتؤجل وأخيراً تقدمت إلى الحكومة البريطانية على استحياء وخجل بمذكرة هزيلة تشعر بأنها تطالب بما هى ليست مؤمنة به مما أطمع الإنجليز وجعلهم لا يردون حتى برفض هذه المطالب الهزيلة . وقد أثار ذلك جميع الهيئات فى مصر فأصدرت كل هيئة بياناً أوضحت فيه احتجاجها على هذا التهاون المخزى . ولما كان الإخوان يرون انتزاع حقوق البلاد المسلوبة فى هذه الفرصة السانحة قضية المصير فقد عقدت الهيئة التأسيسية جلسة غير عادية استمرت يومين

ناقشت فيها هذا الموضوع وأصدرت البيان التالى الذى نشر بالصحف يوم ٥-٢-١٩٤٦ وكان وكان البيان بياناً مطولاً استعرض المذكرة المصرية والرد البريطانى ثم قال :

«الذى يلفت الأنظار فى المذكرة المصرية أنها سلكت مسلك الضعف والاستجداء فى أسلوبها مما يسر للإنجليز التهرب من الاعتراف بحقوقنا التى أنعقد إجماع الأمة عليها :

أولا : بنت الحكومة مطلبها على تعديل المعاهدة التى أثبتت الظروف أنها لم تعد صالحة لأن تكون أساساً للعلاقات بين الدولتين ، بل إن هذه الظروف نفسها قد فرضت بطلان هذه المعاهدة وإلغاءها إلغاء تاماً لأسباب أهمها : زوال عصبة الأمم من الوجود ، وقيام ميثاق الأمم المتحدة الذى اشتركت مصر فى توقيعه ، وتغير الظروف الاستثنائية التى أبرمت فيها المعاهدة ، فضلا عما بذلته مصر من مجهود أثناء الحرب فاق ما قررته المعاهدة بمراحل كثيرة ، وفاق ماكان منتظراً منها مما أدى إلى تغيير فى مجرى الحرب فى جانب الحلفاء كما اعترف بذلك قادة الحرب وزعماء الدول الكبرى أنفسهم .

ثانياً : لم تحدد الحكومة فى مذكرتها مطالب البلاد فى قوة وصراحة ، وكان أولى بها وهى صاحبة الحق أن توضح هذا الحق توضيحاً قوياً تؤكد فيه أنها لن ترضى عن الجلاء ووحدة وادى النيل بديلا .

ثالثاً : السودان ... شطر الوادى لقد فجع أبناء الوادى لهذا الأسلوب المتخاذل الذى صاغت فيه الحكومة قضية السودان ، بل قضية وادى النيل ؛ فلقد طلبت فى ذيل مذكرتها أن تشمل المحادثات مسألة السودان «مستوحية» مطالب السودانيين وأمانيهم ... وكان أحرى بها أن لاتردد هذه النغمة الملتوية التى يذكرها الإنجليز على الدوام ليفرقوا بين شطرى الوادى. ولقد أعلنا غير مرة أن مطالب السودانى وأمانيه هى بعينها مطالب المصرى وأمانيه .

إن الإخوان المسلمين فى أنحاء الوادى ليعلنون فى قوة ووضوح أنهم لن يرضوا بعد اليوم ذلا ولاهواناً ، ولن يقبلوا تردداً فى نيل حقوقهم ومطالبهم ، ويدعون الشعب كله أفراداً وجماعات وهيئات أن يقفوا معهم صفاً واحداً فى المطالبة بهذه الحقوق والعمل على تحقيقها أو الفناء فى سبيلها .

أيها المواطنون ....

إن الإخوان المسلمين ليسجلون على الحكومة هذا الموقف الضعيف ، ويسجلون على الإنجليز هذا الجحود

ولقد علمتنا التجارب أن الاستقلال والحرية ماكانت يوماً من الأيام صكاً يكتب أو اتفاقاً يعقد لايشفي غلة ولا يروى أواراً ، ويهيبون بالأمة أن تستعد لجهاد متصل عنيف ، فليس للهوان بعد اليوم من سبيل .

ولتعلموا أن المفاوضة وسيلة وليست غاية مقصورة لذاتها ، ولا يمكن أن نقدم على الوسيلة إلا إذا أطمأننا على أسس بينة لتحقيق هذه الغاية ، فلنتعظ بالماضى ، وليحذر الساسة ألاعيب المستعمرين ، ولتتوحد الصفوف وتتحد الجهود بتوجيه وطنى خالص لوجه الله والوطن .

أيها المواطنون ....

إن حقوقكم قد اجتمعت عليها كلماتكم ، وارتبطت على المطالبة بها قلوبكم ، وهى الجلاء التام عن وادى النيل بلا مراوغة ولا تسويف ووحدة الوادى بلا تردد ولا إمهال ، وحل المشاكل الاقتصادية المعلقة بيننا وبين الإنجليز على وجه السرعة حتى تتنسم البلاد ريح الحرية ويطمئن الناس على حياتهم ومستقبلهم .

والإخوان المسلمون حين يضعون هذه الحقوق والأهداف من رسالتهم موضع العقيدة والإيمان يرون أنها ليست مما يصح أن يكون محلا للمساومة على الإطلاق ، وكل من حاول ذلك فهو خارج على وطنه ، متحمل وحده تبعة عمله منبوذ من سائر مواطنيه .

مظاهرة كوبرى عباس الثانية فى ٩ فبراير ١٩٤٦ :

ولم يكن بيان الإخوان هذا هو البيان الوحيد الذى ووجهت به الحكومة إزاء موقفها الضعيف المتخاذل بل إن كل الهيئات والأحزاب التى كانت خارج الحكم قد أصدرت بيانات بهذا المعنى ولكن الحكومة كانت تتلقى بيان الإخوان بجدية واهتمام لأن الهيئة الوحيدة التى كانت قادرة على إتباع بيانها بحركة شعبية عملية معبرة عن السخط هى هيئة الإخوان ، فكل بيان يصدر عن الإخوان يتردد صداه فى جنبات الجامعة وفى أحياء القاهرة وفى مختلف بلاد القطر . ولما كان هذا البيان قد أشعر الجميع باليأس من هذه الحكومة التى ظلت فى الحكم قوابة العام دون أن تخطو خطوة جادة لاستخلاص حقوق البلاد ، فقد وقعت مصادمات عنيفة عقب صدور هذا البيان بين البوليس والشباب فى القاهرة والاسكندرية فى ٩ نوفمبر سنة ١٩٤٦ وكان هذا يوماً مشهوداً تكررت فيه مأساة كوبرى عباس التى حدثت فى ١٩٣٦ والتى أشرنا إليها فى مستهل هذه المذكرات ولكن الفرق بينهما كان فى شىء واحد هو أن الذى أمر بضرب الطلبة بالرصاص فوق كوبرى عباس سنة ١٩٣٦ كان إنجليزياً فى حين أن الذى أمر بضربهم بالرصاص فوق

نفس الكوبرى فى هذه المرة كان وياللأسف مصرياً تبرأ منه مصريته وهو عبد الرحمن عمار بك وكان المنفذ مصرياً أيضاً هو اللواء سليم زكى باشا ... وقد أصيب ١٦٠ طالباً إصابات شديدة وفقد ٢٨ طالباً حيث كانوا يلقون بأنفسهم من فوق الكوبرى فى النيل من شدة الضرب بالرصاص

وفى نفس اليوم قامت مظاهرات فى المنصورة وأسوان – وقامت قوات كبيرة من رجال البوليس بمحاصرة المركز العام للإخوان ودور الإخوان بالقاهرة ومنعوا دخول الإخوان وقد أرسل وكيل الإخوان برقية احتجاج إلى جريدة المصرى على هذا الحصار محملا الحكومة نتيجة هذا التصرف الجائر فكان أن صادرت الحكومة جريدة المصرى يوم ١١-٢-١٩٤٦.

وأمام هذه المقاومة الشعبية العارمة اضطرت هذه الحكومة لتقديم استقالتها يوم ١٤-٢-١٩٤٦ فقبلت .

موقف شائن لهذه الحكومة إزاء أندونسيا : كانت أندو نسيا وهى بلاد إسلامية تضم نحو سبعين مليوناً ترزح تحت حكم هولندا ، فلما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها هبت كما هب غيرها من البلاد مطالبة بالاستقلال وبجلاء الجيوش الهولندية عن أراضيها ، وتألفت فيها حركة مقاومة تزعمت هذه المطالبة وقد استطاعت هذه الحركة أن تصل بقضيتها إلى هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن مطالبة بإصدار قرار من هذا المجلس بإجلاء الجيوش الهولندية والجيوش البريطانية التى جاءت إلى أندونسيا لتعزيز سيطرة الهولنديين الذين عجزوا عن صد مقاومة الوطنيين .. وقد تقدمت روسيا إلى المجلس باقتراح لتأليف لجنة للتحقيق فى شئون أندونسيا .

وكان يمثل مصر فى هيئة الأمم المتحدة فى ذلك الوقت الوزير السعدى ممدوح رياض ، فانظر أيها القارىء إلى ماقاله ممثل مصر فى خطابه الذى افتتحت به جلسة مجلس الأمن بصدد هذا الموضوع قال « إن مثل هذه اللجنة لن تأتى بالثمرة المطلوبة .. وقال .. إن وجود القوات البريطانية هناك لا ينطوى على أى تهديد بل إن وجودها ماهو إلا لتنفيذ أوامر الحلفاء وقيادة الحلفاء العليا فى الباسفيك ، وإنه لمن واجب السلطات العسكرية فى الدول ذات الشأن معالجة الموقف الحالى .

أما فيما يتعلق بالناحية السياسية ، فإنه ينبغى لنا أن نثق بروح التسامح والسخاء التى يبديها مندوبو هولندا ... وتكلم بعد ذلك عن الحركة الوطنية الأندونيسية فقال :

أحب أن أشير إلى أن الحركات الشعبية يمازجها دائماً الغلو وتجاوز حد الاعتدال . ويخيل إلى أنه يصعب إيجاد فارق واضح بين الحركة الشعبية وبين هذه العناصر التى تجنح للغلو . وقد تحدث المستر بيفين (وزير خارجية بريطانيا) عن الفاشية فى أندونسيا وأظن أنه لاتزال فى تلك

البلاد بقية من هذه العناصر . وختم حديثه بقوله «ترى هل الحالة فى أندونسيا قائمة حقاً كما تصور لنا ؟.... »

ولن أتعرض هنا لتعليق الإخوان على هذا الخطاب المزرى فقد ذكرت فى فصل سابق جهود الإخوان العملية التى بذلوها فى مؤازرة الشعب الأندونسى التى كانت ثمرتها إعلان الجامعة العربية اعترافها الرسمى بدولة أندونسيا مما دعا دول العالم إلى الاعتراف بها ؛ ولكننى سأعرض موقف القلة القليلة من الأعضاء الأحرار بمجلس النواب والشيوخ فى ذلك الوقت الذين تصدوا لهذا التصريح الرسمى وطلبوا مناقشته . وأجتزئ بشىء مما جاء فى كلمة لفكرى أباظة حيث قال: «ومن عجب أن نسمع ممثل الحكومة المصرية يصرح بهذا التصريح الذى صرح به فى اجتماع الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة ويقول إنه يعارض فى قيام لجنة التحقيق التى اقترحتها روسيا وأن إجراءات الهولنديين إجراءات سليمة ... لقد جاء هذا التصريح ضربة قاسية علينا وعلى البلاد التى تنشدوتقدر الحرية حتى إن الصين عارضت فى هذا وأيدت الطلب الروسى وهو قيام لجنة لتحقيق ما يجرى وماجرى فى هذه البلاد .

ونحن كزعماء للحركة العربية يجب أن نهتم جداً بهذه المسائل وأشار إلى تصريح بدوى باشا وعلاقته بالدول العربية (كان بدوى باشا مندوباً لمصر فى الأمم المتحدة فى هذه الحكومة نفسهاقبل ممدوح رياض وصرح تصريحا أساء إلى العرب) ثم قال : نحن نطلب الجلاء ووحدة وادى النيل ولنا مطالب خاصة بشأن فلسطين وبشأن تدعيم استقلال البلاد العربية . فإذا كنا كذلك فيجب أن يكون ممثلو حكومتنا فى تصريحاتهم مؤيدين لهذه السياسة » .

وقد سقت هذه الواقعة ليعرف القارىء العقليات التى كانت تسوس هذه البلاد المنكودة ، والتى استباحت لنفسها أن تدافع عن الاحتلال البريطانى لبلد إسلامى شقيق فى الوقت الذى أوهمت الشعب المصرى أنها تقوده إلى مقاومة هذا الاحتلال وطرده من بلادنا .

وزارة إسماعيل صدقى

كان إسماعيل صدقى أحد كبار الساسة المصريين القديرين وكان يرى نفسه أكبر من أن يكون تابعاً لحزب ، فعاش ماعاش شخصية مستقلة إلا أنه كان يعد عدواً لحزب الوفد ، وكان الوفد يخشى بأسه ، لأنه كان قديراً فى عمله ، جريئاً فى إجراءاته .. وكان الوفد حريصاً على تشويه كل إصلاح يأتى عن طريقه معتمداً على شعبيته وعلى جهل أكثر المواطنين ، ولازلت أذكر وأنا صغير كيف شوهت مجلات الوفد مشروع خزان جبل الأولياء الذى أنشأه هذا الرجل على النيل فى السودان لتصور

المجلة شخصاً مصرياً يطلب كوب ماء من عامل مقهى فيقدم له العامل الكوب ويقول له : بعد إتمام خزان جبل الأولياء سيكون ثمن هذا الكوب قرشاً صاغاً — وكان القرش الصاغ فى ذلك الوقت ثمناً باهظاً . وتم هذا المشروع فعاد بأعظم الفوائد .

وهكذا كانت الحياة الحزبية فى مصر نوعاً من أنواع الدجل والاستغلال ؛ فهى أحزاب لابرامج لها ، وهدفها جميعاً الوصول إلى الحكم لا لشىء إلا لترشو أنصارها بالإغداق عليهم من خزانة الدولة حتى تضمن أن يكونوا بجانبها إذا أبعدوا عن الحكم أملا فى الرجوع إليه مرة أخرى يعوضون خلالها ما فاتهم من مغانم .

فالإصلاح مثلا فى نظر حزب من هذه الأحزاب لا يكون إصلاحاً إلا إذا أتى عن طريقه ، وتم على يديه وفى أيام حكمه فإذا تم إصلاح على يد حزب آخر فلابد من تشويهه والتمويه عليه ، وقد أنشأت وزارة للأحرار الدستوريين كان يرأسها محمد محمود باشا طريق سكة حديد ربط مدن مديرية المنوفية وكان هذا فى الحقيقة عملا جليلا ، ولكن الوفد تناول الحديث عن هذا المشروع بتهكم كاريكاتورى فى إحدى مجلاته الفكاهية يظهر فيه رئيس الوزراء فى شكل مثير للضحك وتحت هذا الرسم كتبت الآتى :

قربت منوفـــــاً من بنهـــــا　　　وكـــــذا الباجـــور وإسطنها
سرس سبك قربت منهـــــا　　　بطريق حـــــديد يامحمـــد

ولذا فإن الإخوان كانوا حريصين دائماً على المطالبة بإلغاء هذا النوع من الحزبية المدمرة ، وما من مؤتمر من مؤتمرات الإخوان إلا وتعرض لهذا المعنى ... ولهذا كان الإخوان أبعد الناس عن أن يقيدوا أنفسهم بالولاء لحزب من هذه الأحزاب أو بالارتباط معه أو بالانحياز إليه، وكانت العلاقة بينهم وبين هذه الأحزاب تتلخص فى شىء واحد هو أن يؤيدوا الخطوة التى يتخذها حزب منها ويراها الإخوان فى مصلحة البلاد .

وبعد سقوط وزارة السعديين ورؤى إسناد الوزارة إلى إسماعيل صدقى ، وكان هذا الرجل واقعياً ولمس فى واقع الحياة المصرية أن الإخوان المسلمين صاروا العنصر الفعال والقوة الشعبية المسيطرة ورأى أنه مقبل على مواجهة موقف خطير يتوقف عليه مستقبل البلاد فقرر أن لا يقبل هذا المنصب إلا إذا اطمأن إلى تأييد من هذه الهيئة الشعبية .. ويبدو أن القصر الذى رشحه لهذه المهمة كان مسلماً بهذا الواقع الجديد فترك له الفرصة الكافية للتباحث مع الإخوان فى هذا الشأن .

اتصال صدقى بالأستاذ المرشد :

اتصل صدقى بالأستاذ المرشد وكاشفه باتجاه النية إلى اختياره لرياسة وزارة غير حزبية

لمفاوضة الإنجليز ، وبأنه أرجأ رده بالقبول أو الرفض حتى يعرض الأمر على الإخوان المسلمين وينتهي معهم على وضع معين . فصارحه الأستاذ المرشد بقوله : إن ماشاع بين الناس عن تاريخك السياسي قد يبعث على النفور منك . ولكننا نحن الإخوان المسلمين مقيدون بقول الله تعالى «ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً» فنستمع إليك ونزن ما تقول بميزان دعوتنا .. فقال الرجل : إنى أعلم ما أشاعه أعدائى عنى ، وإن كان كل إجراء اتخذته ضدهم كان له مايبرره من وجهة النظر الحزبية المصرية التى لا تتقيد بآداب ولا بمثل ولا بخلق وإنما هى كيد شخصى يكيده فرد لفرد وحزب لحزب .. وهكذا كانت الحياة السياسية فى مصر ... أما وقد تطورت هذه الحياة السياسية ونشأت فيها هذه الهيئة التى تقوم على الدين والخلق فلا يسعنى حين أتقدم إليها إلا أن أخلع الثوب الذى لبسته طول حياتى وأعلن لها توبتى وافتتاح صفحة جديدة .. وللهيئة أن تأخذ على ماتشاء من مواثيق وأن تجربنى هذه المرة .

اجتماع الهيئة التأسيسية

طلب الأستاذ المرشد من صدقى باشا أن يمهله حتى يجمع الهيئة التأسيسية للإخوان ويعرض عليهم الأمر ... والأمر فى هذه الحالة يقتصر على أخذ رأى الهيئة فيما إذا كانت تقبل التفاهم مع رجل مثل صدقى باشا له ماض مريب ، وقد جاء مقراً بأخطائه ، معلناً التوبة ، عازماً على افتتاح صفحة جديدة .. ودار نقاش طويل فى هذا الاجتماع استمر طول الليل وانتهى بقرار من الهيئة بقبولها مبدأ التفاهم مع الرجل مادام قد جاء يريد فتح صفحة جديدة على أسس يرتضيها الإخوان .

الاتفاق مع صدقى على أسس المفاوضات

تم الاجتماع الثانى بين الأستاذ المرشد وصدقى باشا أبلغه الأستاذ المرشد قرار الهيئة بقبول مبدأ التفاهم معه. وطلب من صدقى باشا شرح وجهة نظره فيما سيطالب به الإنجليز فى المفاوضات : ثم أخذ الأستاذ يشرح له وجهة نظر الإخوان والحد الأدنى الذى لا يقبل الإخوان بأقل منه من مطالب البلاد فى الجلاء والاستقلال ووحدة وادى النيل ... ووافق صدقى باشا على الحد الأدنى من المطالب الذى حدده الأستاذ المرشد وأعطى العهد والميثاق بذلك على نفسه .

اجتماع ثان للهيئة التأسيسية

ونظراً لخطورة الموضوع فقد دعا الأستاذ المرشد الهيئة للمرة الثانية فى ظرف نحو أسبوع ليعرض عليها ما تم الاتفاق عليه من مطالب هى الحد الأدنى لما يرتضيه الإخوان ، وقد ناقشت

الهيئة البنود وأقرتها ، وقررت أن يكون الإخوان وراء هذه الوزارة ما سارت فى الطريق الذى حدده لها الإخوان ، فاذا ما حادت عنه فإن الإخوان يسحبون تأييدهم لها ويتخذون من المواقف ما تلزمهم به دعوتهم .

وأبلغ صدق بالقرار ، وأعلن تشكيل الوزارة التى لم يشترك فيها السعديون ، وشاع فى مختلف الأوساط أن هذه الوزارة مؤيدة من الإخوان ... وبالرغم مما أعده الوفد من حملات على هذه الوزارة فإن الظروف قد استقرت لها فى ظل تأييد الإخوان ، واستمرت كذلك حتى بدأت جلسات المفاوضات ، وهى المفاوضات المشهورة باسم «مفاوضات صدق – بيفن» وكان بيفن هذا وزير خارجية حكومة العمال فى بريطانيا ، وكان من كبار الدهاة الماكرين .. وقداستغرق تشكيل الوزارة وإجراء المفاوضات نحو عام ، انتهى بإخفاق صدقى فى تحقيق ما اتفق عليه من مطالب تعد الحد الأدنى لحفظ كرامة البلاد ... وحاول صدقى إقناع الشعب بأن التافه القليل الذى حققه هو نجاح للمفاوضات محاولا البقاء فى الحكم .. وهنا أعلن الإخوان سحب تأييدهم له ، ولكنه أخذ فى التشبث بأهداب الحكم إلا أنه اضطر أخيراً إلى الاستقالة تحت وطأة موجات عارمة من المقاومة الشعبية التى لم يسبق لها مثيل .

بيان واضح عن موقف الإخوان من هذه الوزارة

بعد أن لخصنا موقف الإخوان من وزارة صدقى باشا ، نعود فنتناول هذا الموقف بشئ من التفصيل نظراً إلى أن هذا الموقف كان حدثاً تاريخياً غير مسبوق ، ومفاجأة فى عالم السياسة المصرية لم يسبق لها مثيل ، ولهذا فقد وقف الشعب إزاءه مشدوهاً وانقسم فى نظرته إليه ثلاثة أقسام :

١ – قسم فهم الإسلام حق الفهم فعرف أنه دعوة تدور مع الحق حيث يدور فلا تبالى أن تؤيد من رفع راية الحق وإن كان عدواً ، ولا تبالى أن تضرب على يد من يجادل بالباطل وإن كان صديقاً «ولا يجر منكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى» «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، قالوا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً ؟ قال : بأن تضربوا على يديه» .. وهذا القسم تابع خطوات الإخوان مع هذه الوزارة بكل الاقتناع منذ ظاهر الإخوان هذه الوزارة حتى عملوا على إسقاطها .

٢ – وقسم كانت له السيطرة الشعبية على السياسة المصرية رأى فى مساندة الإخوان لهذة الوزارة انتقاصاً من سيطرته فسخر وسائل إعلامه لتشويه هذه المساندة ، والخروج بها عن معانيها الإسلامية السامية إلى معان مادية حقيرة آملا من وراء ذلك فى استعادة ما فقد من سيطرة شعبية .

٣ - وقسم ثالث خدع بما أذاعته وسائل إعلام القسم الثانى إما لأنه كان ساذجاً لم يستطع متابعة الأحداث وتفهمها تفهما سليما ، وإما لأنه رأى فى التجاوب مع ما أذاعته هذه الوسائل تفادياً لخطر محدق به أو تقرباً من هدف يرمى إليه .

وكان القسم الثانى هو حزب الوفد الذى كان يملك من وسائل الدعاية ما لا يملك الإخوان عشر معشاره ودوافع الوفد إلى ذلك سنرجئ الحديث عنها حتى يجئ دورها ..وهذا القسم لا يعنينا أمره ، وليس هو المقصود بهذا التوضيح الذى نحن الآن بصدده ، وإنما المقصودون بهذا التوضيح هم القسم الثالث الذى خدعته وسائل القسم الثانى .. وإذا كان أصحاب النظرة السطحية للأمور من هذا القسم يلتمس لهم وجه العذر فهم محتاجون إلى من يأخذ بأيديهم ، فقد لا يلتمس وجه عذر لمن سايروا وسائل الدعاية لمجرد تفادى عقبة أمامهم أو الخروج من مأزق ، ولكننا مع ذلك سنلتمس العذر للجميع ونتصدى لإبانة واضحة لهذا الموقف تبدد ضباب اللبس وتمزق حجب الافتراء والتضليل .

ومما يدعونا أيضا إلى التوضيح والإبانة أن رجالا لهم فى نفوسنا كل التقدير لم يسلموا من الوقوع فى هذا الخطأ ومن حقهم علينا أن نوضح لهم ما عساه كان خافياً عليهم حتى يصححوا نظرتهم ومن هؤلاء الرجال الرئيس أنور السادات فقد تعرض فى كتابه «الثورة المصرية وأسبابها السيكولوجية» إلى هذا الموقف تعرضا يستحق التعليق .. فالرئيس السادات كان فى خلال تلك الفترة من حكم إسماعيل صدقى رهين السجن على ذمة قضية اغتيال أمين عثمان ، وما كان لرجل فى مثل تلك الظروف لتتاح له فرص متابعة مواقف سياسية لم يكن أكثر ما يتصل بها يعلن على صفحات الجرائد ... فإذا تعرض مثل هذا الرجل بعد ذلك للكتابة عن فترة كان بحق يعد غائباً عنها ، فإنه سيستقى أنباءها من غيره ، وقد يكون هذا الغير مغرضاً .

كما لا ننسى أن نقول إن الفترة التى وضع فيها كتابه كانت فترة حالكة حرجة فى سنوات ١٩٥٤ وما قبلها وما تلاها كان على الذى يريد أن يحتفظ لنفسه بالأمن من البطش والغدر أن يقدم برهاناً على أنه ليس من الإخوان المسلمين ، فإذا كان إنسان مدموغاً بأنه كان على صلة بهم والوشايات تلفه من كل جانب من هذه الناحية ، فإن عليه أن يسارع بتقديم برهان يدحض به حجج الواشين ، فإذا ما كرر قالة شاعت فى وقت ما فقد يلتمس له العذر .

نظرة الإخوان إلى الأحزاب :

سبق أن أومأنا إلى هذه النظرة من قبل ونعود إلى الحديث عنها بتفصيل فنقول إن هذه الأحزاب

لم تكن إلا أسماء على غير مسميات ، أنشأتها الأهواء والمطامع الشخصية ، وآلت كلها بعد قليل إلى أن أصبحت نعالا ينتعل منها المستعمر ما يشاء ليطأبها كرامة المصريين ويرغم أنوفهم .

أما نظرة الإخوان إلى الوفد ، فإنهم يرونه حزباً قائماً على قاعدة شعبية بلا شك ، لكنهم لا يرون فى تاريخه ما يؤهله لقيادة شعب يريد تحقيق آماله فى الحرية ويصل حاضره بماضيه ..... فثورة سنة ١٩١٩ كانت ثورة عارمة حقاً ، نابعة من صميم الشعب ، وقد عمت جميع مدنه وقراه وكان هدف الشعب فيها محدداً لا لبس فيه ولا غموض وهو الحصول على الاستقلال التام الناجز وطرد المستعمر من الأراضى المصرية .. وسواء أكان سعد زغلول قد اعتلى موجة الثورة أم كان هو باعثها فقد كان المطلوب منه أن يستغل هذه الثورة لمصلحة البلاد أحسن استغلال بإذكاء شعلتها إذكاء متواصلا لتظل على اشتعالها حتى تتحقق الآمال التى قامت الثورة من أجلها ، على أن الشعب فى ذلك الوقت لم يكن بحاجة إلى من يذكى أوار ثورته ، بل كان من اليقظة بحيث لا يضن بالتضحيات بالنفوس والأموال .

ولكن الذى حدث كان غير الذى كان متوقعاً ، فقد رأينا سعداً بدلا من أن يذكى أوار الثورة يعمل على إخماد جذوتها ، ويستغل براعته الخطابيه وثقة الشعب فيه استغلالا عكسياً ، فيوهم الشعب أن الذى اتفق مع الإنجليز عليه من استقلال زائف مقيد بأثقل القيود هو كل المستطاع وليس فى الامكان أبدع مما كان ... ولا زال الناس من الجيل الماضى السابق لجيلنا يتحدثون عن لجنه ملنر وهى تتلخص فى استفتاء شعب أمى سياسيا ، مفتون بشخصية زعيم بارع أولاه ثقته ، واعتقد أنه هو وحده القادر على تحقيق أمانيه .. فإذا كان هذا الزعيم هو الذى يخالف زملاءه فى الوفد الممثل لمصر .. والقابع فى لندن للتعبير عن آمال الشعب ، فأكثر أعضاء الوفد مصممون على مطالب الشعب كاملة ، وسعد هو الذى يريد أن غير ذات الشوكة تكون له فلا عجب أن ينخدع الشعب – كدأب الشعوب البدائية فى الثقة بزعمائها – ويختار رأى سعد لمجرد ثقته المطلقة فى شخصه

وهكذا استطاع سعد أن يميع الثورة المصرية التى قلما يتاح مثلها ، وأن يستقطبها لنفسه وأن يخمد جذوتها وأن يقف بتيارها الجارف الهدار عند حد ، وأن يحقن السياسة المصرية بميكروب خطير هو ما سمى بعد ذلك بأسلوب المهادنة والمفاوضات ، ولا يخفى على القارئ أن هذا الأسلوب إذا كان بين ضعيف وقوى ومسلح وأعزل فليس له معنى إلا التخاذل والذل والاستجداء .

ولو أن البلاد فى ذلك الوقت قد أتيح لها زعيم له مثل مواهب سعد ولكنه لم يؤثر السلامة وواصل الجهاد الذى أعلنه الشعب والتضحيات التى استعذبها الشعب ، لتغير تاريخ شعبنا المغبون الذى جنى عليه وهو لا يدرى .

هكذا تكون حزب الوفد ، وعلى هذا الأسلوب سار بالقضية المصرية أيام مؤسسه ، وعلى نفس الأسلوب سار خلفه النحاس حتى نسى الشعب معنى كلمة الجهاد وظنها عراقة من الخرافات وكان الشعب فى ذلك معذوراً لأنه رأى زعماءه يسمون المستعمر حليفاً ويتخذون الغاصب صديقاً ويطلقون على المعاهدة التى عقدوها معه سنة ١٩٣٦ معاهدة الشرف والاستقلال وهى فى حقيقتها معاهدة القيود والأغلال ، والتى كان من أصدق ما وصفت به ما وصفها به أحد المنصفين فى مقال كتبه فى ذلك الوقت فى جريدة الأهرام إذ شبه ما اتفقت انجلترا معنا عليه فى هذه المعاهدة بما اتفق عليه أعرابى فتاك نزل عند أعرابى مسالم ضعيف وطلب منه أن يشتركا معاً فى إعداد وجبة من العصيدة ، وقال له إنى لن أطلب منك شططاً فسأقسم مكوناتها بينى وبينك بالعدل على هذا النحو :

منك الدقيق ومنى النار أوقدها ـــــ والماء منى ومنك السمن والعسل

فإذا كانت هذه هى نظرتنا إلى الأحزاب المصرية فى ذلك الوقت ونظرتنا إلى حزب الوفد ، فهل نحن مقيدون بعد ذلك بأن نقيس الأمور بمقياسهم أو أن نزن الأشخاص بميزانهم أو أن نعالج الأحداث بطريقتهم ؟ هل إذا كرهوا شخصاً كان علينا أن نكرهه ، وإذا ناصبوه عداء فعلينا أن نناصبه أو قاطعوه فعلينا أن نقاطعه ؟

ولما كان «كل حزب بما لديهم فرحون» ظن حزب الوفد أن اختلاف معالجتنا للأحداث عن معالجته لها هو نوع من العقوق الذى يستحق العقاب ويستوجب التأديب ، لا سيما وهو لم يجرب من قبل خروجاً على أسلوبه إلا ممن يناصبونه العداء الشخصى ، ولما كان هو ومنافسوه التقليديون لا يعرفون للقيم مكاناً لا فى أخلاقهم ولا فى تعاملهم فقد استباح لنفسه فى هجومه علينا الكذب والافتراء والزور والبهتان مستغلا فى ذلك كل ما يسر له من وسائل الدعاية والإعلام .

وإذ تحددت للقارئ نظرة الإخوان إلى هذه الأحزاب فلنعرض ظروف موقف الإخوان إزاء الأحداث فى خلال هذه الفترة الهامة من تاريخ مصر فنقول :

أولا : بعد ما تعهد به صدقى باشا للإخوان من المطالبة الجادة القوية بحقوق البلاد أو التخلى عن الحكم إذا تعسرت الأمور ، كون وزارته من حزب الأحرار الدستوريين ومن المستقلين وكان صدقى باشا مضطراً إلى إيجاد وزارة من هذا الحزب أو من حزب السعديين لأن الحزبين معاً ـ الأمر الواقع ـ يكونان أغلبية أعضاء مجلس النواب .. وعند عرض صدقى وزارته على مجلس النواب طالباً الثقة بها حصل على الثقة بالأغلبية وامتنع السعديون عن التصويت .. وقد احتفظ صدقى باشا لنفسه بالرياسة والداخلية والمالية وكان وزير الخارجية أحمد لطفى السيد وكان تأليف هذه الوزارة فى ١٨-٢-١٩٤٦ .

ثانياً : تأييداً لهذه الوزارة وتثبيتاً لمركزها أمام الإنجليز قامت فى ٢١-٢-١٩٤٦ مظاهرات ضخمة بالقاهرة من جميع طبقات الشعب لإظهار شعورها نحو مطالب البلاد وكانت مظاهرات تتسم بالقوة والنظام ، وفى الوقت الذى لم تتعرض فيه قوات البوليس لهذه المظاهرات برزت فجأة قوات من الجيش البريطانى تصدت لهذه المظاهرات وهاجمت المتظاهرين المسالمين العزل بأسلحتها وفتكت بعدد كبير منهم ؛ مما أثار النفوس وزادها حقداً على الإنجليز ... ومن صفاقة الحكومة الإنجليزية وعدم حيائها أنها على أثر هذه المظاهرات وما أزهقه هجومهم الغادر عليها من أرواح بريئة أرسلت إلى الحكومة المصرية مذكرة تطلب منها الطلبات الثلاثة الآتية :

١ – معاقبة المسئولين ٢ – دفع تعويضات عن الخسائر ٣ – المحافظة على الأمن

ثالثا : فى ٢٤-٢-١٩٤٦ قابل وكيل الإخوان رئيس الوزراء صدقى باشا بمكتبه بالرياسة وأطلعه على رأى الإخوان فى الموقف الحاضر وسلمه بياناً عن الحوادث الأخيرة ورأى الإخوان فيما يجب أن يتبع حيالها ، ونورد فيما يلى نص هذا البيان :

حضرة صاحب الدولة إسماعيل صدقى باشا رئيس مجلس الوزراء

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

فقد توليتم دولتكم الحكم والشعب يجتاز أدق مرحلة فى تاريخه ، فى الوقت الذى هبت فيه شعوب الأرض جميعاً تطالب بحريتها واستقلالها . ولقد دبت اليقظة فى نفوس الأمة المصرية عن بكرة أبيها ، وقامت هى الأخرى تطالب بحقوقها المغصوبة ، وأجمعت بمختلف طبقاتها وهيئاتها على ضرورة نيل هذه الحقوق مهما تكلفها ذلك من مرتخص وغال .

ولقد كان للوعى القومى فى مصر واليقظة المشبوبة فى قلوب المصريين أثر هائل تجاوبت به الأصداء فى مختلف بلاد العالم ، وكان حرياً بالوزارة السابقة أن تستغل هذا الشعور القومى الرائع فتنتفع به فى مواجهة المستعمرين وتستند إليه فى مطالبتها بحقوق البلاد كاملة غير منقوصة ، ولكنها فشلت كل الفشل فى ذلك ، وظهرت على الأمة بمذكرتها الهزيلة الملتوية ورد البريطانيين المثير على هذه المذكرة مما أزعج النفوس وأثار العواطف ، وكان ما كان نتيجة سوء تصرفها فى سياستها الداخلية فضلا عن فشلها فى السياسة الخارجية ، وإساءة ممثليها فى هيئة الأمم المتحدة إلى القضية المصرية خاصة وقضية الأمم العربية والإسلامية بوجه عام .

ولقد ظلت الأمة على يقظتها – وستظل كذلك حتى تتحقق لها أهدافها – وفى يوم الخميس الماضى قام الشعب بمختلف طبقاته من شباب وشيب وعمال وطلبة يظهرون شعورهم فى إجماع رائع

لم تشبه شائبه ولم يدفعه غرض مستتر اللهم إلا إعلان مطالبهم المشروعة والاستمساك بحقوقهم المغتصبة فلم يعكر صفوه معكر حتى كان هذا الحادث المؤلم الذى إن دل فإنما يدل على استهتار عجيب بعواطف المصريين وتحد ظاهر لمشاعرهم وإحساساتهم إذ اعتدى على المتظاهرين من جانب الإنجليز اعتداء ظاهراً للعيان شهده كل إنسان ، ولا شك أن التحقيق العادل المنصف سيثبت أن الإنجليز هم البادئون وأنهم هم المعتدون ، فهذه اللوريات الضخمة الأربعة التى هجمت على صفوف المتظاهرين من الأبرياء فى شارع القصر العينى فقتلت من قتلت وجرحت من جرحت بلا رحمة ولا شفقة ولا هوادة كانت الشرارة الأولى التى أثارت النفوس وطيرت الألباب .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل انطلقت المدافع الرشاشة من مكانها تفتك بالمصريين العزل الذين لم يجدوا ما يرد عنهم غوائل المعتدين ، ولولا حكمة القادة منهم وحسن توجيه أولى الأمر من رجالهم لتفاقم الخطب وعم الخطر وسادت الفوضى .

لهذا ياصاحب الدولة ولما يحسه الشعب لهذه التصرفات الجائرة لا يسع الإخوان المسلمين أمام هذه الظروف إلا أن يتقدموا للحكومة المصرية بالمطالب الآتية :

أولا : التقدم إلى الحكومة البريطانية على وجه السرعة بمذكرة صريحة تطلب فيها الجلاء التام عن أرض وادى النيل ووحدة الوادى وحل المشاكل الاقتصادية التى تسبب عنها مانراه من اضطراب فى الأسواق وكساد فى التجارة وعسر مالى لا يعلم إلا الله مدى ما يجر إليه البلاد من تدهور وخطر

ثانياً : سحب ممثلى مصر فى هيئة الأمم المتحدة وهم الذين أساءوا إلى قضية البلاد وقضايا الأمم العربية والإسلامية . وإيفاد من يمثل مصر تمثيلا صحيحاً مشرفاً .

ثالثا : عرض القضية على مجلس الأمن فى أول انعقاد له إذا لم تستجب انجلترا لطلب الحكومة المصرية فى موعد عاجل محدد .

رابعا : أن تطلب الحكومة المصرية من الإنجليز اعتذاراً رسمياً عن سوء تصرف الجنود البريطانيين فى الحوادث الأخيرة مع دفع تعويضات مناسبة لأهالى القتلى والمصابين .

خامسا : اعتبار المدن المصرية (القاهرة والاسكندرية وبور سعيد والسويس والإسماعيلية) مناطق حرام على الجنود البريطانيين إلى أن يتم ترحيلهم إلى بلادهم .

سادساً : أن تطلب الحكومة المصرية عقد مجلس الجامعة العربية بصفة استثنائية لعرض تطورات القضية المصرية عليه واتخاذ قرار حاسم إجماعى أسوة بما اتخذ فى قضايا الدول الشقيقات سوريا ولبنان وفلسطين .

هذا فيما يختص بالسياسة الخارجية والحوادث التى سببها الإنجليز ، أما فيما يختص بالموقف الداخلى فيرى الإخوان :

أ — الإسراع فى تحديد المسئولية فى الحوادث الأخيرة التى أساءت فيها الحكومة السابقة إلى الشعب أيما إساءة حيث صادرت الحريات ونكلت بالطلبة الأطهار وأسالت الدماء الزكية ، ومحاكمة المسئولين والمتسببين فى هذه االحوادث الخطيرة .

ب — الاستغناء عن خدمات موظفى البوليس والجيش المصرى من الإنجليز .

ح — الإفراج عن جميع المعتقلين الذين زج بهم فى السجون ولا ذنب لهم إلا النداء بمطالبهم والهتاف لوادى النيل .

د — تعويض أهالى الشهداء الذين ذهبوا فداء حرية الوطن واستقلاله .

ياصاحب الدولة :

هذا ما أردنا أن نتقدم به إلى دولتكم .. وأنتم اليوم على رأس الحكومة المصرية ، والبلاد تجتاز أدق مرحلة فى تاريخها ، وسيسجل التاريخ فى صفحاته الخالدات لكل امرىء ما قدمت يداه — وإن مصر العزيزة التى لها من ماضيها أروع آيات المجد والفخار لترقب من أبنائها جميعاً يقظة شاملة وجهداً متصلا حتّى يتحقق لها أملها ، وتصل إلى ما ترجو من مستوى رفيع بين سائر الأمم والشعوب .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ....

رابعاً : كان «الوفد» — محاولة منه لزعزعة مركز الوزارة الصدقية — قد أوعز إلى زعماء الطلبة التابعين له أن يقرروا إضراب الطلبة ثلاثة أيام احتجاجاً على ضحايا الوزارة السابقة ، واجتمع الطلبة فعلا فى حرم الجامعة وخطب فيهم هؤلاء الزعماء ... وحضر الأستاذ محمد حسن العشماوى باشا وزير المعارف وألقى كلمة ذكر فيها أن الوزارة الحاضرة جاءت لتنفيذ ما يريده الشعب من المطالبة بحقوقه فإذا لم تستطع فلن تظل فى الحكم ساعة...وقام الطالب مصطفى مؤمن ممثل الإخوان وطلب من الطلبة العدول عن الإضراب ثلاثة أيام والاكتفاء بيوم واحد فى الأسبوع القادم وكتابة مذكرة بمطالبهم للملك فأطاع الطلبة ... وكانت هذه أول لطمة تلقاها الوفد ...

وقد أصدر الوفد بياناً حث فيه الشعب على مقاومة الحكومة الجديدة ، وأصدر الإخوان بياناً يطلبون فيه إلى الأمة اعتبار يوم ٤ مارس ١٩٤٦ يوم حداد عام تكريماً لأرواح الضحايا

والشهداء الذين راحوا ضحية اعتداء الجيش البريطاني الغاشم وأعلنوا في البيان عن تكوين لجنة تمثل فيها جميع الطوائف والأحزاب لتنظيم الإضراب العام في ذلك اليوم وقد مثلت في هذه اللجنة مختلف الطوائف ، ماعدا الوفد الذي رفض الاشتراك ، ومع ذلك لقد استجاب الشعب لهذه اللجنة وتم الإضراب الشامل في ذلك اليوم كما قررت نقابة الصحفيين احتجاب الصحف وأضرب المحامون والمؤلفون وعمال شركات الغزل وأصحاب المحال المختلفة . وقد شاركت السودان وسوريا ولبنان والبلاد العربية في الحداد على الشهداء وأعلنوا الإضراب العام .

خامساً : في ٢ مارس تقابلت اللجنة القومية مع رئيس الوزراء وعرضت عليه مطالبها ودارت بينها وبينه مناقشة حول هذه المطالب انتهت بموافقة رئيس الوزراء عليها ، وعلى أثر ذلك صدر بيان أذيع بالراديو وأبلغ للصحف ... وجاء في هذا البيان :

«أعلن رئيس الحكومة أنه يشارك الأمة رغبتها في تكريم الشهداء وهو يقدر كل التقدير عواطف الشعب ، ولم تتردد الحكومة من جانبها في الاحتجاج بشدة على الاعتداء على هؤلاء الشهداء وستعمل فوراً على تعويض عائلات الشهداء والجرحى تعويضاً سخياً عما أصابهم من أضرار وهي على استعداد لتلقي اقتراحات اللجنة القومية لتكريم الشهداء تكريماً يبقى على مر الزمن ».. ورئيس الحكومة يعد البلاد أنه لن يتوانى عن إطلاع الأمة إذا جد الجد واعترض سبيل تحقيق المطالب الوطنية عقبات لم تستطع تذليلها » .

وفي جلسة مجلس النواب في ٢٧-٢-١٩٤٦ كان صدقي باشا قد ألقى بياناً صرح فيه بأنه رفض المطالب الثلاثة التي كان قد طلبتها الحكومة البريطانية عقب مظاهرات يوم ٢١-٢-٤٦ فأيده المجلس ، وممن أيدوه الأستاذ فكري أباظة (كان فكري أباظة في ذلك الوقت عضواً بالحزب الوطني) مع أنه قد أعلن عدم الثقة بالحكومة منذ أسبوع . وتكلم فكري أباظة فقال : أرجو أن أستميح دولة رئيس الوزراء أن أنحي مسألة المفاوضات جانباً فليس موضوعها الليلة ثم قال : في هذه اللحظة الرائعة الممتازة أود أن أقول بل من واجبي أن أقول : إنني أؤيد رئيس الحكومة على طول الخط في الموقف الحازم الذي وقفه .

وفي اليوم التالي لمقابلة رئيس الوزراء للجنة القومية طلبت الحكومة المصرية من الحكومة البريطانية رسمياً إجلاء جنودها فوراً عن القاهرة والإسكندرية .

سادساً : يلاحظ القارىء أن الوفد قد تخلف عن مواكبة الحركة الجماعية التي دعا إليها الإخوان وكان هو وحده الهيئة التي تخلفت عن الاشتراك في اللجنة القومية ، إذا ما أسقطنا من حسابنا

حسابنا حزب السعديين الذى جاءت حكومته بالخزى وأسقطها الشعب منذ قليل . ، وما كان ممثلوها ليشتركوا فى لجنة تؤلف للاحتجاج على جرائم ارتكبتها حكومتهم .

وظن الوفد أن عدم اشتراكه فى اللجنة القومية سوف يحبط عملها ويشل حركتها ولكن الذى حدث كان غير ذلك فقد نجحت النجاح التام الذىأشرنا إليه ، فبدأ الوفد فى مشاغباته بأن نشر فى «المصرى» أن شباب الأزهريستنكرونأن يمثله فى اللجنة القومية الشيخ محمد شريت لأنه موظف فى وزارة الأوقاف وليس طالباً ولا مدرساً فى الأزهر (عاماً بأن أسرة شريت هذه من أعرق الأسر المصرية صلة بالأزهر فكبيرها كان من كبار علماء الأزهر ومدرسيه وجميع أفرادها تقريباً من علماء الأزهر) .

ولا شك فى أن إحراز هذه اللجنة التى دعا إلى تكوينها الإخوان هذا النجاح كان عجماً لعود الإخوان المسلمين ، وامتحاناً خطيراً لمدى شعبيتهم وتأثر الشعب بدعوتهم .

وفى ٢ مارس سنة ١٩٤٦ كتبت مجلة «دى تابليت » البريطانية مقالا قالت فيه : إن مصر تتولىالزعامة بين الدول الإسلامية التى فقدتها تركيا بعدالحرب الماضية وصحف القاهرة تهدد الآن جامعة الأمم البريطانية بجهاد دينى وقد أكد صدقى باشا من جديد صداقته مع بريطانيا ولكنه مصر على أن تسحب القوات البريطانية فوراً .

سابعاً : قررت الحكومة فى ١٩ مارس تأليف هيئة للمفاوضات ، وعرضت على «الوفد» الاشتراك فيها على أن يمثل كل حرب بفرد واحد ويمثل الوفد بفردين « فرفض الوفد وطالب بأنتكون له الأغلبية والرياسة فتكونت الهيئة من صدقىرئيساً وحسين سرى وعلى ماهر وعبد الفتاح يحيىوشريف صبرى وعلى الشمسى ولطفىالسيد ومكرم عبيد وحافظ عفيفى والنقراشى وهيكل وإبراهيم عبد الهادى أعضاء .

كما تشكل الوفد البريطانى فى ٣ ابريل برياسة أرنست بيفن وزير الخارجية وعضوية لورد ستانسجيت وزير الطيران والسفير البريطانى رونالد كامبيل وقواد البحر والجوالبريطانيين فى الشرق الأوسط – ومن جهة أخرى حضر إلى مصر الوفد السودانى برياسة إسماعيل الأزهرى ...

ويلاحظ فى تكوين الهيئة المصرية للمفاوضات أنها مكونة من اثنى عشر عضواً منهم أربعة فقط من الحزبيين والثمانية الباقون من المستقلين ومنهم الرئيس، وفى فريق المستقلين أشخاص يثق الإخوان فى وطنيتهم وقوة شخصيتهم .

ثامناً : تخللت هذه الفترة عملية التجديد النصفى لأعضاء مجلس الشيوخ ، وقد حرص

قيادتهم الموقف الرائع الذى نشرته الصحف فى ٦-٤-١٩٤٦ وهو «تلقينا من جمعية الإخوان المسلمين أنها اتفقت مع رؤساء المناطق لمناسبة التجديد النصفى لمجلس الشيوخ على أن لاتتدخل شعب الهيئة بصفتها الرسمية فى هذه المعركة ، ولكل أخ مطلق الحرية فى أن ينتخب من شاء من حضرات المرشحين متى اعتقد أنه أقدرهم على خدمة المصلحة العامة بغير نظر إلى أى اعتبار آخر ، وأن لاتتخذ دور الإخوان مقراً لدعاية انتخابية من أى لون كان . وأن لاتقبل الهيئات الإدارية للإخوان تبرعات ما من أحد المرشحين لأى غرض من الأغراض طول هذه الفترة

تاسعاً : فى ٨ مايو صدر البيان البريطانى الذى أذاعته السفارة البريطانية بالقاهرة ونصفه: « إن السياسة البريطانية المقررة لحكومة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة هى توطيد محالفتها مع مصر على أساس المساواه بين أمتين تجمع بينهما مصالح مشتركة . وتطبيقا لهذه السياسة بدأت المفاوضات فى جو من الود وحسن النية. وقد عرضت حكومة المملكة المتحدة إجلاء جميع قواتها البرية والبحرية والجوية عن الأراضى المصرية والمفاوضة لتحديد مراحل هذا الجلاء وموعد إتمامه والتدابير التى تتخذها الحكومة المصرية لتحقيق تبادل المعونة فى زمن الحرب أو فى حالة توقع التهديد الوشيك بها طبقاً للتحالف » .

وتبادل الطرفان المصرى والبريطانى المذكرات والمشاريع وتعددت الاجتماعات بينهما حتى توقفت المفاوضات عند تقدم الطرف البريطانى بمشروع لا يكاد يختلف عن معاهدة ١٩٣٦ فيطلب خمس سنوات لإتمام الجلاء ، ويطلب فى حالة الحرب أو التهديد بها أن تسمح مصر للقوات البريطانية باستخدام أرضها بصفة كاملة كقاعدة حربية .

وفى ٢٥ سبتمبر تقدم الجانب المصرى برد على المشروع البريطانى . ويتضمن هذا الرد أن يكون الجلاء فى سنتين واستبعاد مادة خطر الحرب أو التهديد بها ونص على وجوب وحدة وادى النيل .

عاشراً : رأت الحكومة إدخال بعض تعديلات على هذا الرد فرفضت هيئة المفاوضات ذلك بأغلبية أعضائها - وهم المستقلون - ولما وصل الرد إلى الجانب البريطانى قرر قطع المفاوضات وغادرت هيئة المفاوضين الإنجليز إلى لندن .. وعرض صدقى أن يسافر بنفسه إلى لندن لمتابعة المفاوضات فيها فرفضت الهيئة بنفس الأغلبية ذلك ، وصرح على ماهر وعلى الشمسى : بأن على مصر أن لا تعقد أية معاهدة مع بريطانيا ... فاضطر صدقى إلى تقديم استقالة وزارته إلى الملك الذى حاول إسنادها إلى شريف صبرى فرفض فاضطر الملك إلى رفض استقالة صدقى .

الحادى عشر : لما شعر الإخوان بأن الوزارة راغبة فى التساهل مع الإنجليز فى حقوق البلاد اعتبروا هذا إخلالا من صدقى فى تعهده لهم ونكثاً منه فى وعده الذى قطعه على نفسه وأبدوه على

أساسه ؛ فأعلنوا تخليهم عن تأييده ، ووضح هذا فى عريضة رفعوها إلى الملك فى ١٨ نوفمبر ١٩٤٦ وفى خطاب أرسلوه إلى صدقى باشا فى نفس التاريخ وقد نشر كلاهما فى الصحف فى نفس اليوم ، ونثبت فيما يلى نصهما :

إلى مقام جلالة الملك :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله ومن والاه والله أكبر ولله الحمد

حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

فقد تتابعت الأيام والشهور ومضت الحوادث يتلو بعضها بعضاً وكلها تثبت أن المفاوضات بين مصر وبريطانيا لم تعد الوسيلة الصالحة لتحقيق مطالب البلاد ، وأنها ليست أكثر من إجراء يقصد من ورائه الإنجليز التعاقد لحماية مصالح يدعونها لا تتفق قطعاً مع استقلال البلاد وحريتها مع تفويت الفرص السانحة وكسب الوقت والعمل على تفريق كلمة الأمة .

وقد أدرك شعب وادى النيل بفطرته السليمة هذه الحقيقة فحدد مطالبه تحديداً واضحاً ثم انتظر وصبر طويلا ، حتى إذا لم يبق فى قوس الصبر منزع طلب إلى الحكومة ممثلا فى كل هيئاته الوطنية وصحفه وجرائده ، بل على لسان بعض أعضاء وفد المفاوضة نفسه أن تعلن فشل هذه المفاوضات وتتجه اتجاها سليما ، فترفع الأمر إلى هيئة الأمم المتحدة ، وتعلن سقوط معاهدة ١٩٣٦ التى أصبحت بحكم الحوادث والظروف غير ذات موضوع كما صرح بذلك معالى وزير الخارجية المصرية فى مجلس النواب ، وتطلب إلى الإنجليز وغيرهم سحب جميع القوات الأجنبية عن أرض الوادى وجوه ومائه ، وتدعو الأمة وتنظم معها سبيل الجهاد للوصول إلى الاستقلال الكامل والحرية الصحيحة كما تفعل كل أمة مجاهدة نكبتها الحوادث بظلم واحتلال غير مشروع ...

ولكن حكومة صدقى باشا الأولى والثانية لم تصغ إلى هذا الصوت القوى والوطنى المخلص وأصرت على المضى فى طريقها ، حتى بعد أن سافر المفاوضون الإنجليز إلى بلادهم واعتزم صدقى باشا أن يلاحقهم إلى هذه البلاد وأن يسافر إلى لندن لاستئناف المفاوضات التى لا خير فيها ولا فائدة ترجى من ورائها .

وأمام هذا الموقف الضار بمصلحة الوطن فى وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى الدقائق فضلا عن الأيام والشهور ننفقها فى العمل المنتج – يفزع الإخوان المسلمون إلى جلالتكم راجين أن

حقوق البلاد لتنهض بذلك حكومة قوية على هذه القواعد السليمة والأسس الصالحة .

ويعتقد الإخوان المسلمون من كل قلوبهم أنهم إنما يعبرون بذلك عن شعور أمة وادى النيل جميعاً من الشمال إلى الجنوب ، وإن جلا لتكم وأنتم الوطنى الأول خير من تتحقق على يديه الآمال وتنصلح بسامى حكمته وجميل إرشاده وتوجيهه الأحوال .

وفقكم الله للخير وحقق للوادى فى عهدكم الزاهرمايرجوه من صلاح وحرية واستقلال والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

إلى رئيس الوزراء :

حضرة صاحب الدولة إسماعيل صدقى باشا ..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته   وبعد ...

فقد أسندت إلى دولتكم مقاليد الحكم فى فبراير سنة ١٩٤٦ وكان معروفاً أن المهمة الأولى للحكومة هى مفاوضة الإنجليز لاستخلاص حقوق الشعب الحقة التى أعلنتها الأمة وسلمت بها الحكومة (الجلاء التام ووحدة وادى النيل) .

وكان المفروض أن لا تستغرق هذه المفاوضات أكثر من شهر أو شهرين أوثلاثة فى نظر أطول الصابرين صبراً ، وخصوصاً وحقوق الوطن واضحة لا تحتاج إلى كثير من لف أودوران ..وقد درست القضية درساً وافياً من الجانبين ، وضاع على الأمة عام كامل أو يزيد بتفريط الحكومة الماضية وعدم مبادرتها إلى المطالبة بحقوق البلاد منذ وضعت الحرب أوزارها فى وقت تتقرر فيه مصائر الأمم وتقف فيه الشعوب على مفترق الطرق أحوج ما تكون إلى الدقائق الساعات بله الشهور والسنوات .

ولكن المفاوضة طالت حتى أسأمت وأملت فتوقفت واستؤنفت ثم انقطعت ووصلت ثم يتجنى علينا المفاوضون الإنجليز فهزوا أكتافهم وجمعوا أوراقهم وانصرفوا عنا إلى بلادهم هازئين ساخرين .

وكان المنتظر بعد هذه اللطمة القاسية وبعد أن عبث الغاصبون بحقوقنا ووقتنا ورجالنا هذا العبث وأضاعوا علينا كل هذا الوقت الطويل ، وارتفعت الأصوات من كل جانب تهيب بالحكومة أن تعدل عن هذه الخطة التى لاخير فيها ولا فائدة ترجى من ورائها .وبلغت إليها قرارات

بأجمعها من الشمال إلى الجنوب ، ووضح أن المشروع الإنجليزى والمشروع المصرى لا يحققان مطالب البلاد ، ولا يزيد كل منهما عن أنه تنظيم مهذب الحواشى للحماية والاحتلال ، وأن الإنجليز غير مستعدين إلى أى تغيير جوهرى فيما عدا الصيغ والألفاظ .

كان المنتظر من الحكومة أمام هذا كله أن تصغى إلى هذه الأصوات الوطنية القوية المخلصة وتحترم إرادة الشعب الذى تدعى أنها تحكم باسمه وتبادر فتتخذ هذه الخطوات :

إعلان فشل المفاوضات الحالية وأنها لن تقبل بعد الآن أن تدخل مع الإنجليز فى مفاوضات أخرى بعد أن أثبتت الحوادث كلها أن بريطانيا لا تريد من وراء أى مفاوضة إلا التعاقد والاعتراف بمصالح تدعيها تتعارض كل التعارض مع حريتنا واستقلالنا وحقوقنا الثابتة المقررة .

وإعلان سقوط معاهدة ١٩٣٦ التى ألغتها الحوادث العالمية وأقر وزير الخارجية المصرية فى مجلس النواب أنها أصبحت غير ذات موضوع .

وأن تطلب إلى الإنجليز وغيرهم فى عزم وإصرار سحب جميع قواتهم البرية والبحرية والجوية من الوادى كله ، وإلا اعتبر وجود هذه القوات اعتداء مسلحاً على سيادة البلاد تترتب عليه آثاره العملية من عدم التعاون مع بريطانيا ، والقانونية من قطع العلاقات الدبلوماسية بيننا وبينها .

وتدعو الأمة إلى الجهاد فى سبيل حقوقها ، وتنظم معها وسائله وأساليبه كما تفعل كل أمة ترجو الحياة العزيزة ، وتؤثر الموت الكريم فى ظل الاستشهاد على الإستكانة والذل والاستعباد .

ولكن حكومة دولتكم لم تفعل شيئاً من هذا بل أصرت إصراراً عجيباً على موقفها الضعيف المتخاذل ، وأمعنت فى الإصرار والتمسك بأهداف أمل خائب باعتزامكم السفر إلى لندن لاستئناف المفاوضات هناك ، وأخذت تكبت شعور الهيئات والجماعات والأفراد وتصادر الحريات ، وتمنع الاجتماعات ، وتتهيأ لقمع الحركات الشعبية المخلصة بالحديد والنار .

وأمام هذا الموقف الضار بقضية الوطن ومصالحه فى الداخل ، وأمام قرار الجمعية العمومية للإخوان المسلمين الذى يقضى بأن الحكومة المصرية إذا أصرت على المفاوضة ، ولم تنزل على رأى الأمة ، ولم تعلن الخطوات السابقة خلال شهر سبتمبر الماضى فإن الأمة تعتبرها متضامنة مع الغاصبين فى الاعتداء على استقلال الوطن وحريته وتجاهدها معهم سواء بسواء .

يسجل المركز العام للإخوان المسلمين على حكومة دولتكم أنكم بإصراركم هذا تفوتون على هذه البلاد أثمن الفرص وتكونون بذلك قد تضامنتم بقصد أو بغير قصد مع الغاصبين فى الاعتداء

على استقلال الوطن وحريته وأن هذه الحكومة لا تمثل رأى البلاد فى شىء ، وكل إجراء تتخذه باطل أساساً ، وعليكم أن تدعوا أعباء الحكم لمن هو أقدر منكم على سلوك النهج القويم ،وإعلان حقوق الوطن كاملة من غير حاجة إلى تصديق الغاصبين ، وتنظيم قوى الأمة لتكافح الظالمين المعتدين — وستجاهد الأمة كل معتد على حقوقها من أبنائها أو من الأجانب عنها بكل وسيلةمشروعة حتى تصل إلى ماتريد — وهى واصلة بإذن الله والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

الحادى عشر : فهم صدقى باشا عقب هذين الخطابين أنه لم يعد له من سند شعبى يستند إليه وأن الشعب الذى ظل هادئاً طيلة مدة وزارته السابقة سيتحرك ، ومعروف للجميع أنه هو الحاكم الجبار الذكى القوى البارع فى استغلال سلطاته الحكومية فى محاربة أعدائه السياسيين والذى طالما لجأت إليه السراى الملكية لتأديب المتمردين على طاعتها من الزعماء الوطنيين ..وإذن فلابد من رجوعه إلى طبيعته وحشد قواته وتعبئة جنوده لمواجهة هؤلاء الوطنيين الجدد ... وقد سبق له أن أذل من هم أعظم منهم شأناً فأدخلهم جحورهم ...وكان أن فعل صدقى ماكان متوقعاً منه فاتخذ الإجراءات الآتية :

١ — قررت الحكومة تأجيل الدراسة فى الجامعة وجميع المعاهد والمدارس إلى مابعد عيد الأضحى ٩ نوفمبر أى نحواً من شهر .

٢ — فى ١٥ أكتوبر أصدر النقراشى وهيكل بياناً يتحديان فيه رأى الإخوان ويقولان : لقد رأينا فى سفر رئيس الوزراء ووزير الخارجية الضمان الكافى لبيان وجهة النظر المصرية — وكان وزير الخارجية فى ذلك الوقت إبراهيم عبد الهادى .

٣ — صودرت جريدة الإخوان المسلمين . وصدر قرار حظر من النيابة يحظر نشر أية أخبار عن حوادث المظاهرات.وأجرى تحقيق مع وكيل الإخوان ورئيس الإخوان فى الإسكندرية

٤ — أصدرت وزارة الأوقاف أمراً إلى أئمة المساجد بعدم السماح لغير وعاظ الحكومة بالخطابة فى المساجد .

٥ — فى ٢٤-١١-١٩٤٦ سافر صدقى ووزير خارجيته الجديد إبراهيم عبد الهادى إلى لندن وأتى بمشروع معاهدة ادعى فيه فى بيان أذاعه أن مشروعه حقق مطالب البلاد فى الجلاء ووحدة وادى النيل .

٦ — أذاع مستر إتلى رئيس وزراء بريطانيا ومستر بيفن بياناً كذبا فيه صدقى من ناحية السودان وأعلنا أن بريطانيا لن تجلو عن السودان حتى ولو تخلت مصر عنه .

٧ — حاول صدقي عرض مشروعه على هيئة المفاوضات فرفضه سبعة أعضاء منها وهم المستقلون . فطلب من الهيئة إرجاء البت في المشروع حتى اجتماع آخر ثم رفض دعوة هذه الهيئة بعد ذلك .

٨ — أصدر المعارضون السبعة بيانا بأن المشروع لايحقق أهداف مصر في الجلاء ووحدة وادى النيل . فصدر مرسوم ملكي بحل هيئة المفاوضات وذلك في ٢٦-١١-١٩٤٦ .

٩ — بعد أن تخلصت الحكومة من هيئة المفاوضات عرضت مشروعها على مجلس النواب الذى يمثل السعديون والأحرار الدستوريون أغلبية ساحقة فيه ، فانسحب ٥٥ عضواً هم أعضاء الحزب الوطني وحزب الكتلة والمستقلون وطلبت الحكومة عقد جلسة سرية . ومنحها هذا المجلس الثقة بأغلبية ١٥٩ صوتاً . وشكر صدقي الأعضاء الذين أيدوه ، وقد امتنع ثلاثة عن التصويت هم الرجال وشوكت التوني ومحمد بريري — وكان ذلك في ٢٧ -١١-١٩٤٦ .

الثاني عشر : وقعت حوادث شديدة في أنحاء القاهرة ، فقد قام الأهالي بالتجمهر في ميدان سليمان باشا وكذلك في ميدان الملكة فريدة وفي شبرا ، وقامت مظاهرات أشعلوا النيران في كومة من الكتب الإنجليزية وفي بعض عربات الترام كما حطموا واجهات بعض المحلات في شارع فؤاد وفي القصر العيني قلبوا بعض عربات الترام . وفي باب الشعرية هاجم الأهالي مكتبة تبيع الكتب الإنجليزية واستولوا عليها وأحرقوها ... وفي مساء ذلك اليوم أصدرت وزارة الداخلية ورياسة مجلس الوزراء بلاغين نسبا فيها هذه الحوادث إلى الإخوان وتوعداهم بأشد العقوبات إذا تكررت هذه الحوادث ... مع أن هذه الأحداث وما تلاها لم تكن إلا يقظة شعبية عامة ولم يكن دور الإخوان فيها أكثر من بعث الوعي الوطني .

الثالث عشر : بعد حصول صدقي على الثقة التي أشرنا إليها من مجلس النواب اعتقد أنه قد أضحى في مأمن ، وقد استخدم بكل ما عرف عنه من فجور كل وسائل القمع والإرهاب حتى يوقف التيار الزاحف نحوه فاعتقل الوكيل العام للاخوان وعاث في البلاد فساداً محتمياً في قرار حظر أنباء المظاهرات الذى أصدرته النيابة ولكن استجواباً قدمه النائب موريس فخرى عبد النور هتك الستار الذى حاكه حول إجرامه ، ونورد نص هذا الاستجواب الذى يقول :

«تواترت الأخبار بأن حوادث مؤلمة وقعت يوم ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٤٦ على طلبة أبرياء ، ومنها أن طلبة كلية العلوم بالعباسية وفؤاد الأول وفاروق الأول ومصر الثانوية والأهرام الثانوية والهندسة التطبيقية هاجمهم البوليس وقد قتل منهم الكثيرون ، كما اقتحمت دبابة مبنى

إحدى المدارس وأطلقت نيرانها الحامية على الطلبة العزل فأصابت الكثيرين ، كما قبض على مئات في مختلف أنحاء القطر»

وفى ٢-١٢-٤٦ نشرت جريدة الديلى ويركر الإنجليزية مقالا وصفت فيه الاضطرابات التى وقعت فى مصر أخيراً وقالت إن صدقى باشا كان محروساً بأورطة كاملةمن رجال البوليس المسلحين عندما وصل إلى البرلمان لإحراز قرار الثقة الأخير .

الرابع عشر : بعد كل هذا أصر صدقى باشا على إيفاد وزير خارجيته إبراهيم عبد الهادى إلى لندن لتوقيع المعاهدة .

الخامس عشر : على أثر ذلك وقعت فى القاهرة أحداث خطيرة وصفتها الصحف فقالت : ليس لهذه الأحداث الغريبة أو الخطيرة بعبارة أصح وأوضح من سابقة بل لعلها الأحداث الأولى من نوعها :

١ - فى أيام ٣-١٢ وما تلاها بعد الساعة العاشرة من مساء اليوم الأول سمع سكان القاهرة دوياً هائلا ملأ الأرجاء وأحدث هزات عنيفة فى بعض المساكن فأخذوا فى تبين مصدر هذا الدوى المفاجئ . ولجأ بعضهم إلى أحد الأقسام لينبئها بالخبر ولكنه تبين أن هذا القسم كان مبعث الدوى والانفجار ، ذلك أن قنبلة ألقيت عليه فانفجرت فأحدثت هذا الدوى الهائل .

وقد حدث هذا فى وقت واحد فى أقسام بوليس الموسكى والجمالية والأزبكية وباب الشعرية ومصر القديمة وفى نقطة بوليس السلخانة .

وقد سببت تحطيماً لنوافذ هذه الأقسام ولم يصب أحد ولم يعرف الفاعل .

٢ - أضرب المحامون

٣ - اعتكف صدقى فى اليوم نفسه وعقد اجتماعاً فى بيته برجال الأمن

٤ - ألقيت قنبلتان على سيارة هيكل باشا انفجرت إحداهما فحطمت السيارة وأصابت جندى الحراسة إصابة بسيطة .

٥ - بالرغم من تشديد الحراسة على مراكز البوليس بوقوف حراس مسلحين على سطوحها توالى إلقاء القنابل على أقسام عابدين والخليفة والجيزة ومركز إمبابة وعلى معسكر بريطانى بمصر الجديدة .

٦ - قامت قوات كبيرة من البوليس بقيادة اللواء سليم زكى باشا حكمدار العاصمة بمحاصرة

المركز العام للإخوان المسلمين بالحلمية الجديدة وبتفتيشه وتفتيش دار الجريدة والمطبعة لم يعثر على شئ .

السادس عشر : أقنعت هذه الأحداث الأخيرة صدقى باشا بوجوب نزوله على إرادة الأمة فقدم استقالته فى ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٦ ولم يكن هذه المرة أمام القصر بد من قبولها .

تعقيب :

بعد فراغنا من سرد الأحداث التى توالت على البلاد فى خلال سنتين ابتداء من تولى وزارة النقراشى باشا عقب انتهاء الحرب فى فبراير سنة ١٩٤٥ حتى استقالة وزارة صدقى باشا الثانية فى ديسمبر سنة ١٩٤٦ ، نرى أن لاندع هذا السرد التاريخى يمر دون نظرة فاحصة فيه ، وتحليل دقيق لأحداثه ، وتعليق واع على نتائجه وثمراته ، لما كان لهذه الأحداث من آثار بعيدة المدى فى مستقبل هذه الأمة .

أولا : لم يكن الإخوان دخلاء حين زجوا بأنفسهم فى خضم المطالبين بحقوق الشعب فى الحرية والاستقلال، فطبيعة الاسلام تأبى أن يعيش المسلمون تحت سلطان غيرهم ، يحتلون أرضهم بجيوشهم ، يستغلون خيراتهم لأنفسهم والله تعالى يقول : «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» ومن الأحكام المقررة فى الفقه الإسلامى أنه إذا ديست أرض الإسلام صار الجهاد فرضاً على كل مسلم ومسلمة . والحديث الشريف يقول «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»

فإذا كان الذين يتحركون فى هذا الأمر إنما تحركهم الأهواء والمطامع ويهدفون إلى الجاه والمناصب ، فتحرك الإخوان فى هذا الأمر إنما هو بدافع من صميم الدين والهدف منه إرضاء رب العالمين ، فهم يبذلون ولا يقبضون ويضحون ولا يغنمون .

ثانيا : أن مساندتهم لحاكم أو معارضتهم لحاكم لم يكن الدافع إليها تحقيق مأرب شخصى أو نفع مادى ، وإنما كان الدافع إليها الحرص على تحقيق مطالب البلاد ، وانتزاع حقوقها فى الحرية والاستقلال .. ولو كان هدفهم شخصياً لما أيدوا صدقى باشا أول الأمر حين قطع على نفسه عهداً بالعمل على تحقيق هذه المطالب كاملة ، ولما عارضوه حين بدا منه التفريط فى بعض هذه الحقوق وحين أصر على فرض اتفاقيته القاصرة على الشعب .

فمساندة الحاكم لمغنم تظل على حالها لا تتغير ما ظل الحاكم قابضا على أزمة السلطة قوياً فى مركزه ، وحكومة صدقى باشا ظلت قابضة على أزمة السلطة متمتعة بتأييد الملك والبرلمان حتى آخر يوم من أيامها ، ولولا معارضة الإخوان لها لما تزعزع مركزها .. فإذا كان هدف الإخوان

من مساندتها تحقيق المآرب وجنى المغانم لما عارضوها وزعزعوا مركزها لتظل لهم بقرة حلوباً .

ونحب بهذه المناسبة أن نوجه سؤالا إلى الذين يلقون بظلال من الشك على علاقة الإخوان بوزارة صدقى باشا فنطالبهم بأن يذكروا لنا المغانم التى جناها الإخوان المسلمون من تأييدهم لهذه الوزارة سواء أكانت هذه المغانم للدعوة عامة أو لأفراد من أعضائها .. فإن عجزوا عن ذلك — وهم عاجزون لاننا أعلم بأنفسنا منهم وسجل التاريخ بين أيدينا — كان كلامهم أو كتابتهم فى هذا الصدد نوعاً مما أشار الله تعالى إليه فى قوله «والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً» ونقول نحن لهؤلاء ما قال الله تعالى من قبل «لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين»

أما تلقف أراجيف من أفواه الذين يملكون أبواق الإذاعة والإعلان ، والتقرب بها إلى حاكم جاهلية فهو فى ذاته إثم كبير وتزوير للتاريخ ، وعلى الذين ارتكبوا هذا الخطأ أن يصححوه ويرجعوا إلى الحق فيه قبل أن يسجله التاريخ عليهم فيبوئوا بإثمة ولا يجدوا من دون الله من ولى ولا نصير .

وليست هذه أول فرية ولا آخر فرية تفترى على الإخوان المسلمين ولكن الله تعالى كان للمفترين بالمرصاد ففضح افتراءهم وكشف سوءاتهم وخرج الإخوان وصفحتهم ناصعة البياض وذهب هؤلاء بما تكشف من زورهم وافترائهم وإجرامهم إلى الجحيم «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض كذلك يضرب الله الأمثال»

ثالثا : أن إسقاط صدقى باشا لم يكن هزيمة شخصية له بل كان هزيمة له وللحزبين المؤيدين له السعديين والأحرار الدستوريين وللملك من ورائهم وللسياسة الإنجليزية التى كانت متلهفة على عقد المعاهدة فى أقرب وقت ممكن تثبيتا لمركزهم فى مصر فى الوقت الذى يوهمون فيه المصريين بأنهم نزلوا عند إرادتهم وتنازلوا عن معاهدة ١٩٣٦ التى أحسوا أنها فقدت فاعليتها وآذنت بانتهاء

رابعا : كشفت هذه الأحداث عن القوة الحقيقية للإخوان ، وليس معنى ذلك أن الأطراف المختلفة لم تكن تعرف أن الإخوان قوة كبيرة لها وزنها — فلقد كان الكل يعرفون — ولكن هذه الأحداث أماطت اللثام عن قدر هائل من القوة فاق ما كانوا يعتقدون وتخطى ما كانوا يتصورون ونورد فيما يلى مقالا نشرت ترجمته جريدة المصرى فى يوم ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٦ تحت عنوان : رأى لندن فى الأحزاب المصرية :

لندن – لمراسل المصرى الخاص :

كتبت جريدة «التيمس» مقالا هاماً فى نسختها الأسبوعية عن «الروح الوطنية فى مصر» جاء فيه «إن المعارضة الرئيسية فى مصر للبريطانيين صادرة من أربع هيئات رئيسية فى الوقت الحاضر هى : حزب الوفد القوى والحزب الوطنى الصغير وحزب مصر الفتاة والإخوان المسلمون» أما الوفديون والوطنيون فهم حزبان سياسيان منظمان ، وموقفهما تجاه تعديل المعاهدة ومسألة العلاقات بين بريطانيا ومصر يخضعان لاعتبارات سياسية ولا نستطيع إن نقول أن أحدهما يعادى الأجانب.

أما حزب مصر الفتاة فهو جماعة تغالى فى الوطنية تسير على برنامج يدل على أن زعماءها قد درسوا نظم جمعيات الشباب الهتلرى والفاشيستى .

على الإخوان المسلمين يزعمون أنهم من طراز آخر يختلف عن ذلك ، وقد وصفهم الشيخ حـ مؤسس هذه الهيئة وزعيمها بقوله : إنهم ليسوا سياسيين أو حزباً سياسياً ، ولكنهم وطنيون يعملون لخير مصر واسترداد حقوقها المغتصبة .. ومع ذلك فإن هذا وصف شامل لجمعية تستحق نشأتها وتأثيرها فى الحياة المصرية العامة دراسة وبحثاً، فقد أنشأ الشيخ حسن البنا الإخوان المسلمين منذ ١٩ عاماً حينما كان مدرساً فى الاسماعيلية ، ولم تتقدم هذه الحركة تقدماً حقيقياً إلا بعد انتقاله إلى القاهرة فى عام ١٩٣٤ .

ولما كان حسن البنا شديد الإيمان بالتعاليم الإسلامية ، وخطيباً مفوها ، فإنه ما لبث أن كسب أتباعاً وأنصاراً كثيرين ونفوذاً كبيراً ، وأظهر أنه سياسى بارع، فقد أصبح للجمعية بفضل إدارته الحكيمه فروع فى جميع أنحاء مصر ، وبدأت مبادئه تنتشر فى البلدان العربية المجاورة ، ثم أصدر جريدته فى أوائل عام ١٩٤٦ .

وتتألف هذه الجمعية التى يقدر عدد أعضائها ما بين ٣٠٠ ألف ، ٦٠٠ ألف عضو من طبقة العمال ، ولكنها تضم عدداً من الطلبة وبعض المثقفين من الطبقة الوسطى ولا سيما المعلمين . ولم تبد طبقة أصحاب الأراضى حماسة كبيرة نحو الإخوان المسلمين خوفاً من احتمال ازدياد قوتهم مما يقضى إلى إضعاف سلطة الطبقة العليا على الفلاحين .

ويلوح أن لهذه الهيئة طابعاً عسكرياً فأعضاؤها يسيرون فى طوابير ويتدربون ويظهرون فى زى عسكرى أمام الجمهور .

والهدف الرئيسى للهيئة هو العمل على إحياء الإسلام مما قد يفيد حياة الأمة المصرية بأسرها ، ولتحقيق هذا الهدف تقضى الضرورة لتنشئة جيل جديد يفهم معنى الإسلام ويتبع التعاليم الإسلامية.

ويعتقد الإخوان المسلمون أن المدنية الغربية الحديثة تقوم على الماديات وحدها ، وهى المسئولة إلى حد كبير عن تدهور السلوك والأخلاق ، ونشر الفقر والبؤس فى مصر . ويرون كذلك وجوب إثارة الشعور المعادى للأجانب فى مصر . وقد قال الشيخ حسن البنا فى العام الماضى إنه يتكلم باسم ٥٠٠ ألف من الإخوان المسلمين الذين يمثلون مبادئ وآمال ٧٠ مليون عربى و ٣٠٠ مليون مسلم . وأضاف إلى ذلك أن مهمة الإخوان المسلمين ليست سياسية بما فى هذه الكلمة من معنى ولكنهم يتمسكون بالإصلاح الإجتماعى مما قد يجعلهم قريبين من الشئون السياسية . ومع أن بعض المصريين قد بلغوا شأواً كبيراً من المدينة والتقدم إلا أن معظم السبعة عشر مليوناً المواطنين فى هذه البلاد يعيشون كالحيوانات (كذا) ولابد للمصريين أن يشغلوا جميع فروع الحياة المصرية ثم يرحبوا بالأجانب فى الفروع الباقية الأخرى بعد ذلك . ولا ريب أن القوة والحرية وتعاون الدولة أمور ضرورية لتحقيق هذه الأهداف ، ولهذا يتعاون الإخوان المسلمون مع الوطنيين والسياسيين . ولقد اتهم الإخوان بالتعصب الدينى ولكن الإسلام أوصى بالتسامح ولذلك فهم لا يشعرون بالتعصب الدينى ضد الأجانب .

وقد تدخل الإخوان المسلمون للمرة الأولى فى الشئون السياسية المحضة فى عام ١٩٣٦ وكانوا من مشجعى الأعمال المعادية للبريطانيين فى مصر حينما نشبت الثورة العربية فى فلسطين ، وهم ما فتئوا من أنصار مفتى فلسطين ، وضاعفوا من نشاطهم بعد ما وضعت الحرب أوزارها . وكان هناك ما يحمل على الاعتقاد فى عام ١٩٤١ على أنهم يقومون بأعمال التخريب ، ويجمعون المعلومات عن قوات الحلفاء ويقومون بالدعاية المعادية لهم ومحاولة إحباط مجهودهم الحربى بصفة عامة فى مصر

وفى أكتوبر عام ١٩٤١ اعتقل الشيخ حسن البنا غير أنهم أطلقوا سراحه بعد ذلك بشهر واحد . وفى عام ١٩٤٢ بعد ما تولت حكومة النحاس باشا الحكم أعلن تأييده الصريح للحكومة والمعاهدة المصرية الإنجليزية . ولما أصدر الشيخ حسن البنا تعليماته إلى أتباعه بعدم معارضة الحكومة بدا أنه يؤيدها بعض الوقت تعرض لانتقاد شديد من أنصاره غير أنه تغلب على هذه المعارضة ومضى فى تعزيز مركزه .

وشرع فى تنظيم حملة واسعة النطاق لاكتساب أعضاء جدد لمبادئه . ولم يمض وقت طويل حتى وصف الوفد الإخوان المسلمين بأنهم أصبحوا خطراً على البلاد واتهمهم بالتدخل فى السياسة تحت ستار الدين ، وسارت العلاقات بين الإخوان المسلمين والوفد — وهى علاقات لم تكن طيبة فى وقت من الأوقات — من سيئ إلى أسوأ .

ويتدخل الإخوان المسلمون فى الوقت الحاضر فى الشئون السياسية علانية ، ويعتقدون أن

البريطانيين ما زالوا معتدين واستعماريين وأن على مصر أن تقطع المفاوضات وتعلن إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وتطالب البريطانيين بسحب قواتهم بدون قيد أو شرط فى وقت محدد يعينه الخبراء العسكريون المصريون . فإذا رفضوا ذلك اعتبروا معتدين مسلحين ولابد من طلب معونة من هيئة الأمم المتحدة .

ويرى الإخوان المسلمون أن لا تقبل أى معاهدة أو تحالف مع البريطانيين ما دام الاحتلال قائماً ، ويجب أن يستعد سكان وادى النيل للكفاح من أجل حقوقهم وأن لا يكون هناك تعاون من الآن مع البريطانيين .

ولم يظهر بعد تأثير هذه الدعاية المعادية للأجانب ، وطبيعى أن تسمع آراء الإخوان المسلمين عن الأمانى المصرية إذ لا ريب أن دعواتهم الوطنية قد لاقت آذاناً مصغية من قبل كثير من المصريين الأوفياء المخلصين . غير أنه لا يمكن التسامح أو التهاون تجاه محاولة خلق عداوة وشكوك بين شعبين نشأت بينهما صداقة كبيرة وعشرة طويلة عادت عليهما بالمنفعة المتبادلة ، ولحسن الحظ لا يزال المصرى العادى والبريطانى العادى بعيدين كل البعد عن كراهية كل منهما للآخر .»

خامسا : كما أن هذه القوة التى كشفت عنها هذه الأحداث قد وضعت هذه الهيئة فى وضعها الصحيح فى مكان الصدارة ، فإنها جرت عليها ويلات ومصائب من كل جانب ، فالوفد أحس أن مركزه الشعبى صار فى خطر – وسنفرد لذلك فصلا إن شاء الله – وأحس الملك أنه أصبح لأول مرة – وجها لوجه – أمام هيئة شعبية قادرة مسيطرة لا مطامع لها فى حكم ولا مناصب ، وهذه المطامع هى التى كان يقود بها الزعماء الشعبيين وغير الشعبيين من مناخرهم ليركعوا تحت أقدامه . وأحس محترفو السياسة من الزعماء الوهميين من خدام القصر أنهم أصبحوا بذلك مهددين . وأحس الإنجليز والمستعمرون أنهم أصبحوا أمام وضع جديد يهدد سياستهم فى مصر والبلاد العربية والبلاد الإسلامية .

وزارة النقراشى الثانية

بعد سقوط وزارة صدقى باشا كان الناس ينتظرون أن تسند الوزارة إلى شخصية قوية ذات تاريخ وطنى مشرف ، وكان آخر ما يخطر بالبال أن يستدعى لتأليفها رجل تخاذل أمام الإنجليز بمذكرته الضعيفة المتهالكة التى سجلت عليه الخزى والتفريط فى حقوق الوطن ... ولكن الذى حدث كان عجيباً فقد استدعى فعلا محمود فهمى النقراشى باشا فألف وزارته الثانية كأن البلاد قد أقفرت من الرجال .

ومع ما فى هذا التصرف الملكى من تحد لمشاعر الشعب عامة ومشاعر الإخوان خاصة ، فإن الإخوان -إنقاذاً لقضية البلاد وتلافيا لضياع الوقت الثمين- تناسوا تاريخ الرجل وسابق فشله وسوء تصرفه وتقدموا إليه بخطة كاملة ونصيحة مخلصة ، فقد بعثوا إليه فى ٥-١-١٩٤٧ بالخطاب التالى :

دولة النقراشى باشا رئيس الوزراء .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

فقد وصل الموقف فى الداخل والخارج إلى الحال التى تعلمونها دولتكم من الضيق والحرج ، وأصبح من الحتم اللازم على كل غيور على مصلحة هذا البلد أن ينسى نفسه وحزبه ويذكر شيئاً واحداً هو خير هذا الوطن والعمل السريع الحازم لعلاج هذه الحال .

كل تصرفات الإنجليز ياباشا فى لندن وفى السودان وفى أى مكان تدل على أنهم لا يريدون أن يسيروا مع المطالب المصرية خطوة واحدة إلى الحق ، فهذه التصريحات المتوالية من رئيس الحكومة البريطانية ومن حاكم السودان . وهذه التصرفات العملية من إقصاء الموظفين المصريين والاستئثار بكل شىء دون حكومة مصر فى جنوب الوادى . وهذا التحدى كل يوم بقول جديد وعمل جديد ، كل هذه أدلة متوالية صريحة سافرة لا تقبل جدلا ولا تأويلا على أن القوم قد نفضوا أيديهم من الصداقة المزعومة والمجاملة الموهومة وآثروا أن يفرضوا ما يريدون فرضاً بالقهر أو بالغدر ولن يستطيعوا بإذن الله .

وكل شىء فى الداخل مظهر سافر واضح من مظاهر القلق والألم والأسى والأسف والحزن والضيق . هذه المعاهدة المعطلة وهذه الحريات المكبلة وهذا الرعب تمتلىء به الصدور وهذا الحذر من الحاكم والمحكوم . وهذه القوات من البوليس السرى والعلنى ترابط فى كل مكان . وتبعث الرهبة والريبة فى كل يوم ، ولا يمكن أن تعيش فى هذا الجو أمة مهما كان صبرها طويلا ومهما كان صدرها واسعاً وحلمها عظيما -والضغط يولد الانفجار ، لابد إذن من عمل شىء ، والسبيل أمامنا والحمد لله مهيأة والوسائل ممهدة ولا ينقصنا إلا الحزم والإقدام فإلى الأمام .

أعلن ياباشا فشل المفاوضات واقطعها فى عزة وكرامة ، وصارح البريطانيين بأنهم أحوج إلى صداقتنا منا إلى صداقتهم ، وأننا نعرف الوسائل التى تنال بها حقوقنا كاملة غير منقوصة ، وأننا لم نؤثر سبيل المفاوضات إلا إقامة للحجة وإثباتاً للمسالمة وإعذاراً إلى الله والناس ، ثم اطلب إلى الإنجليز جلاء قواتهم عن أرض الوادى فلا يليق بدولة عضو فى هيئة الأمم المتحدة أن تحتل

ثواتها أرض دولة أخرى هى عضو فى الهيئة كذلك كما هو نص القرار ؛ والإكان وجودهم عدواناً مسلحاً على سيادة الوطن وخروجاً على ميثاق هيئة الأمم وتهديداً للأمن والسلام فى الشرق الأوسط .

فإن لم يفعلوا فتقدم بقضية الوطن إلى مجلس الأمن وإلى محكمة العدل وإلى كل مجمع دولى نأنس فيه ميلا إلى الإنصاف . ونفوراً من الظلم والعدوان بعد الدراسة الكاملة والتمحيص الواسع والتنظيم الدقيق ورعاية كل الظروف والملابسات .

ثم أطلق الحريات كاملة ولاتخش شيئاً ياباشا ، ولاتخف على الأمن والنظام فإنك لن تجد شعباً يقدر الأمن ويحب النظام ويدين بالطاعة كهذا الشعب المصرى الذى لا يعرف أن يحيا إلا فى ظل النظام والطاعة .

ثم وجه الدعوة إلى مواطنيك فى جنوب الوادى وشماله فى برنامج شامل مفصل يوضح غايتك ووسيلتك لتحقيق المطالب التى أجمعت عليها البلاد (الجلاء التام عن الوادى كله والحرص التام على وحدته) وادع الأمة جميعاً إلى أن تكون معك على ذلك ، وإلى أن تتألف من هيئاتها وأحزابها وجماعاتها ومفكريها جبهة قومية سودانية مصرية واحدة تتعهد الشعور الوطنى وتسدده إلى الخير وتقف به عن العدوان ، وتنظم الدعاية الشعبية فى الداخل والخارج ، فتعمل الحكومة بوسيلتها الرسمية وتعمل تلك الجبهة القومية إلى جانبها بوسائلها الشعبية .. والجميع يرمون عن قوس واحدة ، ويهدفون إلى غرض واحد معروف مقدس عزيز ... ولاتستبعد هذا ياباشا ولا تظنه من الخيال فقد رأيت وسمعت ولمست وأحسست استعداد الجميع العظيم لمثل هذا معارضين ومؤيدين ، على أثر بياناك بمجلس النواب .. فإذا خطوت بعده هذه الخطوة العملية فسيكون الجميع معك لا بمجرد التصفيق والاستحسان ولكن بالقول والعمل واللسان والسنان ، ولن يتخلف عنك فى ذلك إلا من فى قلبه مرض فيخسر نفسه وجهاده وماضيه ويظل مع الخوالف .

وثق ياباشا أنه لن يكون معك شعب وادى النيل وحده ولكن سيكون معك سبعون مليوناً من العرب يؤازرهم ثلاثمائة مليون من المسلمين تخفق قلوبهم لمصر وتتحرك مشاعرهم وعواطفهم لمشاعرها وتسكن بسكونها وليس ذلك بقليل .

دعنى أصارحك ياباشا وأنت لا شك عليم بأن الأمة ليست كما كانت بالأمس ، فقد امتلأت أفئدتها بشعور جياش قوى ، وأصبح الوعى الوطنى اليوم تام الاكتمال قوى الأثر ، والشعور الوعى قوة أية قوة وهما عدة الشعوب المجاهدة وسلاح الأمم المناضلة . كما أتاح الله لهذه الأمة من

رجالها وهيئاتها من جمع كلمتها الشعبية فى تشكيل منظم مرتب ، وفى وحدات مؤمنة بأدلة — والتجميع والتنسيق والنظام الدقيق قوة أخرى ولا شك — قوة تسرع إلى الخير وقوة تحول دون الشر فالزمام أبداً معقود ولن يفلت بإذن الله ..

يادولة الباشا — لقد تقدمت لدولتك بمثل هذه النصيحة منذ عام مضى وهأنذا أتقدم بها اليوم وأعتقد أنى بذلك قد أبرأت ذمتى وأديت أمانتى والوقت من ذهب فسر على بركة الله والله معك وأقدم ولا تتردد فتفلت الفرصة السانحة وتعود من جديد إلى التجارب القاسية ، ونستبين النصح ضحى الغد حيث لا يفيد ولا ينفع ألا قد بلغت اللهم فاشهد والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

هذا هو نص الخطاب الذى تقدم به الإخوان للنقراشى باشا بعد تسلمه مقاليد الحكم بأقل من شهر ويلاحظ فيه القارىء عدا الخطة المفصلة المقترحة ؛ بث روح الاطمئنان فى نفسه إلى أن الإخوان سيكونون بجانبه ومن ورائه وأن تنظيماتهم الشعبية قادرة على النهوض بأعباء الجهاد ضد المستعمر إذا ما ارتضت الحكومة سلوك سبيل الجهاد ، وهذا لعمرى هو نكران الذات حقاً أمام رجل لم يمض على اعتدائه على الشعب وعلى الإخوان بالذات إلا عام واحد .. بل يبدو أن بعض الطلبة أرادوا أن يبثوا الرعب فى نفوس الإنجليز حتى يرغموهم على التفاهم مع هذه الحكومة بأن انتهزوا أعياد الميلاد يوم ٢٥ ديسمبر فانفجرت خمس قنابل فى الاتحاد المصرى الإنجليزى وخلف باركاليفورنيا فى شارع توفيق وفى شارع جلال وشارع الملكة فريدة وعلى سيارة تاكسى كان يركبها الجنود الإنجليز أمام مدرسة بغمرة وهذه هى الأماكن التى يأوى إليها الجنود والضباط الإنجليز — على أن أحداً لم يصب .

مواقف متناقضة لهذه الحكومة :

١ — بعد توجيه الإخوان خطابهم إلى النقراشى وإصدارهم بياناً إلى الشعب بنفس المعنى أعلن النقراشى أنه قرر قطع المفاوضات مع الإنجليز وعرض القضية على مجلس الأمن ، ومعنى هذا أنه نابذ الإنجليز بالعداء .

٢ — بعد سقوط وزارة صدقى عشية حصوله على ثقة شبه إجماعية من مجلس النواب ثبت للنقراشى باشا ولغيره أن اعتماد الحاكم فى مصر لتثبيت مركزه وتأمين خطواته على تأييد هذا المجلس لم يعد كافياً وأنه لابد من الاستناد إلى قوة شعبية حقيقية ، ولما كان من المستحيل أن يحظى من الوفد بتأييد فلا مناص من اللجوء إلى الإخوان .

٣ — أعلن الإخوان تأييدهم لهذه الحكومة بعد أن أعلنت استجابتها لمطالب البلاد — ومعنى تأييد هيئة شعبية لحكومة كان يأمل المستعمر من وراء ضعفها الحصول على مكاسب له أن يحاول الدس

بين هذه الحكومة وبين هذه الهيئة حتى ينفرد بالحكومة وحدها فيملى عليها ما يشاء .

وكان الإخوان حريصين على أن لا يتيحوا الفرصة للمستعمر ، ولكن المستعمر لجأ إلى أساليب حقيرة — مستغلا الصبغة الدينية للإخوان — فسلط بعض صنائعه من المصريين فهاجموا بعض الكنائس والمعابد .

وقد ظهر أثر ذلك فى مقال نشرته جريدة فيلادلفيا تربيبون فى ٢٥-٥-٤٧ تعرضت فيه فيه للإخوان المسلمين بقولها « إن عدم الاستقرار فى مصر لا يرجع كله إلى الحمية الوطنية بين المصريين أنفسهم ، فهناك على سبيل المثال ما يسمونه جمعية الإخوان المسلمين وهى التى غدت مسئولة عن عدد من الحوادث التى وقعت فى مصر أخيراً . إن نشاط هذه الجمعية فى صالح الإسلام أكثر منه فى صالح المصريين ، وضد المسيحية أكثر منه ضد البريطانيين ؛ وهذا يفسر الهجوم الذى وقع أخيراً على كنيسة قبطية والهجوم الذى وقع منذ عام مضى على الكاتدرائية البريطانية فى القاهرة وعلى معابد اليهود والكنائس اليونانية فى الإسكندرية .. لقد بدأت هذه الحوادث تظاهرات سياسية وانتهت كمظاهرات للعنف يقوم بها المتعصبون المسلمون والدولة التى راقب هذه التطورات باهتمام . وتعتبر الدولة التى تستفيد من ذلك هى روسيا فإذا استطاعت أن تثير الدول العربية ضد الدول الأوربية فإن الشرقين الأدنى والأوسط قد ينفجران ؟ » .

هذا بعض ما جاء بهذه الجريدة ولا داعى للتعليق عليه فالباعث عليه واضح والهدف منه ظاهر وهذا هو أسلوبهم فى الوقيعة بين الطوائف لا سيما حين ييأسون من مواجهة الحق البين والهيئات المؤمنة ذات المبادىء التى لا تشترى ضمائرها فى سوق النفاق والشهوات . وقد ثبت أن الهجوم على الكنائس من تدبير الإنجليز .

٤ — علم الإخوان كما علم غيرهم أن هذه الحكومة بالذات هى أضعف من أن تقوم بأعباء مواجهة الإنجليز لأن رئيسها النقراشى يحمل إصر تأييده المفاوضات القديمة واشتراكه واشتراك حزبه فيها وخطابه المشهور الذى تحدى فيه طوائف الشعب كله بتأييده بكل قوة مشروع صدقى — بيفن فى الجلسة السرية لمجلس النواب فعمل الإخوان على تكوين جبهة من جميع الهيئات المصرية المحايدة ضمت الشبان المسلمين ومصر الفتاة والحزب الوطنى والكتلة وحزب الفلاح وحزب العمال وانضم إليها السعديون الأحرار كما ضمت الشخصيات المستقلة. وكانت مهمة هذه الجبهة هى العمل على وحدة الصفوف فى مواجهة الإنجليز . وقد بذلت هذه الجبهة أقصى ما استطاعت من جهد ولكن نتيجتها قد أجملها صالح حرب باشا فى بيان أذاعه يوم ٢٤-٣-١٩٤٧ جاء فيه . :

«إن شباب الأمة فوضنى فى محاولة توحيد الصفوف فقمت بمقابلة الجهات المختلفة وتبين أنها ثلاث جهات :

١ — معسكر الحكومة ويتكون من حزبى الأحرار والسعديين .

٢ — معسكر الوفد .

٣ — معسكر الأحزاب والهيئات الأخرى (وهى التى تتكون منها الجبهة التى فوضته)

فالمعسكر الثالث رحب بالتوحيد ، ولكن المعسكر الأول رفض حل مجلس النواب الحالى فى الوقت الذى اشترط فيه المعسكر الثانى حل مجلس النواب الحالى .

فشلت هذه الجبهة فى مساعيها وظل النقراشى على تمسكه بأن يواجه الإنجليز وحده ، فدارت مناقشات واجهه بعض أعضاء مجلس الشيوخ فى أثنائها بمواطن الضعف فى موافقه السابقة مما يضعف حجته أمام خصوم البلاد ، فأصر على رأيه ...

حتى الموظفون الأخصائيون واجهوه بمثل ذلك فعندما أبلغ النقراشى باشا محمود حسن باشا سفير مصر فى الولايات المتحدة باعتزامه تقديم القضية إلى التحكيم الدولى نصح السفير بأن تكون الهيئة التى تتولى ذلك ممثلة للرأى العام المصرى بأجمعه .

ولكن النقراشى أصر على رأيه .. وحينئذ رأى الإخوان أنهم أمام أمرين أحلاهما مر إما أن يعملوا على إسقاط النقراشى وفى هذا إضاعة للوقت الثمين وللجهد الوطنى المخلص وفى هذا مواجهة مباشرة للملك الذى أبدى إصراراً على التمسك بهذا البرلمان وما يتفرع عنه من حكومات هزيلة ... وستتحول المعركة من مواجهة المستعمر إلى مواجهات داخلية وهوما يتمناه المستعمر.. وإما أن يؤيدوا النقراشى بعد أن قيد نفسه بتصريحات رسمية أنه سيفتح صفحة جديدة فى مواجهة المستعمر .. واختار الإخوان أمراً اعتبروه أخف الأضرار .

٥— كان أمل الإخوان كما كان أمل كل مصرى أن ينجز النقراشى وعده فينبذ إلى الإنجليز على سواء وفى أقرب فرصة ولكن الذى حدث أنه ظل يؤجل المواجهة يوماً بعد يوم بحجج مختلفة حتى فوت على البلاد بهذا التأجيل المصطنع ثمانية أشهر ، استطاع الإنجليز فى خلالها تكوين جبهة من السودانيين مناهضة لمصر برياسة المهدى وتطالب بالاستقلال عن مصر .وطرد حاكم السودان فى خلالها قاضى قضاة السودان المصرى وأبدله بسودانى عينه هو كما طرد مدير التعليم المصرى أيضاً ، فجعل ذلك مهمتنا فى المطالبة بوحدة وادى النيل أمراً صعباً ؛ ولو أن النقراشى أخذ

بنصيحة الإخوان فأعلن إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ واتفاقية سنة ١٨٩٩ الخاصة بالسودان لما استطاع الإنجليز ولما وجدوا الفرصة لفعل ما فعلوا فى السودان ولكان موقفهم موقف المدافع عن نفسه لا موقف المهاجم .

٦ – فى الوقت الذى تدعى فيه الحكومة أنها تتأهب لمهاجمة الإنجليز ودمغهم بالاعتداء ويقوم الإخوان بتعبئة الشعور الشعبى لهذه الخطوة :

(أ) فيطبعون كتاباً عنوانه «إلى الشهداء الأبرياء» تقوم هذه الحكومة بمهاجمة دار الإخوان ومصادرة النسخ التى طبعت من هذا الكتاب .

(ب) القنابل التى ألقاها بعض الطلبة فى ليلة عيد الميلاد على الأماكن التى يتردد عليها الإنجليز والتى أشرنا إليها من قبل والتى ألقيت بحكمة بحيث تخيف الإنجليز دون أن تقتل أحداً ، تلقى الحكومة القبض على الطالبين حسين عبد السميع ومحمود نفيس وتقدمهما إلى محكمة الجنايات كأنهما مجرمان .

(ﺣ) يقوم جوالة الإخوان باستعراض فى القاهرة لبعث الروح فى الشعب فى ٣٠–٦–٤٧ فيقوم بوليس الحكومة بمهاجمتهم ويحاول منعهم من مواصلة الاستعراض حتى تقوم بينهم وبين البوليس معركة .

٧ – عند عرض القضية على مجلس الأمن وإصرار النقراشى على أن يكون هو وحده وحزبه ممثل مصر فيها يقع ما كان محذوراً ؛ فقد كان الأساس الذى بنى عليه عرض القضية على هذا المجلس هو قطع المفاوضات لفشلها ، وكان لا بد أن يذكر النقراشى ذلك فى بيانه أمام المجلس ؛ فكان السير الكسندر كادوجان مندوب بريطانيا فى المجلس يقذف فى وجه النقراشى بالحجة وهى أن النقراشى نفسه هو الذى أيد مواصلة المفاوضات ووافق على مشروع صدقى – بيفن ... وبذلك انهار دفاع النقراشى كله حيث انهار أساسه وفشلت القضية أمام المجلس .

٨ – لم تقصر الأمة من جانبها فى مساندة هذه الحكومة فالأستاذ أحمد حسين رئيس مصر الفتاة سافر إلى الولايات المتحدة قبل عرض القضية بفترة طويلة وأخذ يشرح جوانبها للشعب الأمريكى – وفى أثناء عرض القضية على مجلس الأمن قام الأخ الأستاذ مصطفى مؤمن مندوباً عن شباب الإخوان بعمل جرىء لإثارة اهتمام العالم بقضية مصر – ونثبت نص ما جاء بالصحف ووكالات الأنباء عن هذا العمل فيما يلى :

«نيويورك فى ٢٢–٨–١٩٤٧ :

فى جلسة مجلس الأمن بعد الظهر افتتحت الجلسة فى موعدها ، ولكن حادثاً لم يسبق له مثيل فى تاريخ المجلس وقع فى مستهلها ؛ فإن الأستاذ مصطفى مؤمن ماكاد يرى النقراشى باشا يحتل مكانه المعتاد ليلقى بيانه حتى خرج من مكان المتفرجين إلى مكان الأعضاء والسكرتيرين فحدثت ضجة بين الأعضاء ، فطلب الرئيس منه أن يلزم النظام ثم دعا الحراس لإخراجه من قاعة المجلس .. وكان الأستاذ مؤمن يلبس الطربوش كعادته .

وقد علمت أن الأستاذ مؤمن كان يريد أن يخطب فى أعضاء المجلس باسم الشعب المصرى ، وجاء فى الكلمة التى استطاع إلقاءها ما يلى :

سيدى الرئيس

أتقدم اليكم باسم جميع شعوب الشرق الأوسط وبالنيابة عن الإخوان المسلمين .. نحن نطلب أن تعامل قضيتنا بالعدالة التى أصبحت جديرة بها ، فإذا لم يحدث ذلك فإن ألوفاً من الناس سيبذلون حياتهم رخيصة فى الكفاح من أجل حرية بلادهم .. ثم قال وهو يلوح بأوراق معه : «ونحن نطلب الحرية» – ولكن حارسين مع نائب رئيس ضباط الأمن أخرجوه . ولكنه ظل يخطب بصوت عال حتى خرج ... فساد الذهول أعضاء المجلس ليذكر أعضاءه بالحقوق المهضومة التى يسكتون على هضمها .

وبعد أن خرج الأستاذ مؤمن من الجلسة تبعه بعض مندوبى الصحف إلى قاعة الصحافة الواقعة خلف قاعة مجلس الأمن مباشرة – وقد تأثر الأعضاء لقول مؤمن : إن ثورة ستجتاح وادى النيل بدون ريب إذا حدثت مفاوضات ، وإن النذير قد بدأ اليوم فى حوادث القاهرة وأنه يريد أن يعلن ذلك على العالم كله .. وقال ..

«أيها السادة أريد أن أكرر عليكم ما أبلغته لمجلس الأمن قبل مناقشة المسألة المصرية اليوم ، فإنى أعلن أولا أن استئناف المفاوضات سيلقى مقاومة شعب وادى النيل بأسره ، وأعلن ثانياً أن فصم عرى وحدة وادى النيل ستضر السلام العالمى . وأعلن ثالثاً أن سياسة الدول الكبرى التى تسعى إلى مصالحها الاستعمارية دون النظر إلى الأمم المهضومة الحقوق ستدفع هذه الهيئة إلى المصير نفسه الذى اندفعت إليه هيئة الأمم ؛ أى الموت والاندثار من عالم الوجود..وقد تلقيت من القاهرة اليوم وثيقة كتبها شباب مصر بدمهم ، وهم يعربون فيها عن الرأى الذى أبديته لكم الآن تماماً . وما يجمع شعب وادى النيل عليه هو تطهير جبين البلاد من وصمة الاحتلال البريطانى فوراً ،

وإنهاء الحكم التعسفى الذى أقاموه لأغراضهم الخاصة فى السودان» .

٩ — فى نفس يوم اجتماع مجلس الأمن لنظر قضية مصر — وكان يوم جمعة — دعا الإخوان الهيئات الوطنية والشعب لإعلان تضامنه مع الحكومة فى مطالبتها بحقوق البلاد . فخرجت مظاهرة ضخمة من الجامع الأزهر وأمامها علم الإخوان المسلمين تهتف بمطالب البلاد .. فإذا ببوليس الحكومة يهاجمها مهاجمة وحشية فأصيب الأستاذ المرشد بعدة ضربات فى وجهه وفى أحد أصابعه ... وقد أخبرنى الأخ الأستاذ محمود الجوهرى وكان حاضراً فى هذه المظاهرة أنه لما جرح إصبع الأستاذ المرشد وسال منه الدم نظر إليه وتمثل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مثل هذا الموقف وقال :

هـــــل أنت إلا إصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت

وكان يتمثل بهذه الكلمات الكريمة حين اجتمعوا بعد المظاهرة فى بهو الاستقبال وقد أخذوا يضمدون له جراحه .

كما أخبرنى الأخ الأستاذ محمود — وكان بجانب الأستاذ المرشد طيلة فترة هذه المظاهرة — أنه لاحظ — كما لاحظ الأستاذ المرشد نفسه — أن تصرف رجال البوليس فى ذلك اليوم كان يشعر بأن هناك خطة مرسومة لاصطياد الأستاذ المرشد منفرداً للتخلص منه ... ذلك أن قوات البوليس حاصرت الأزهر وكانت تعمل على تفريق من يخرجون منه وتشتيتهم أولا بأول حتى إذا خرج الأستاذ المرشد اصطادوه وحده ... وكان الأستاذ آخر من خرج من المسجد وكأنهم ظفروا بما أرادوا فحاصروه بالقوة كلها راكبة الخيل وهو منفرد .. وهنا تصرف الأستاذ المرشد تصرفاً مذهلا إذ اختطف عصاً من أحد أفراد القوة وأخذ يضرب بها كل حصان على أنفه فيرفع الحصان رجليه الخلفيتين فيهوى الجندى الذى يمتطيه على الأرض وبذلك تمكن من إسقاط أفراد القوة كلها ، وكان الإخوان قد لحقوا به فى خلال هذه المنازلة البارعة والتفوا حوله وعادوا به إلى المركز العام وقد نجاه الله من موت محقق كان مدبراً له فى ذلك اليوم والله غالب على أمره .

وقد توفى فى تلك المظاهرة ثلاثة رجال وكان أحدهم الأخ الشهيد محمد عبد الرحيم الأنصارى من عمال السكة الحديد .. وقد أخبرنى الأخ الأستاذ محمود الجوهرى أيضا قال : كنا نستعد للتجمع لهذه المظاهرة وكانت وقفتى بجانب الأخ محمد عبد الرحيم وهو مسند ظهره إلى سور مدرسة المحمدية بشارع أحمد عمر قريباً من المركز العام وكان فى زيه المعروف به وهو الجلباب الأبيض والعمامة

البيضاء الكبيرة وسمعته يقول قولة لا أنساها «إنى أشم اليوم رائحة الجنة» وأذكر أن الأخ الأستاذ لبيب البوهى قد أخرج قصة باسمه فى ذلك الوقت .

وقد رأيت بإيراد هذه اللمحات أن يتبين القارئ فى ضوئها صورة المواقف ومدى البون الشاسع بين الأم الثكلى والنائحة المستأجرة .

ولم يفت الأستاذ المرشد فى خلال هذا الإجراء الغاشم من البوليس أن يعتب على اللواء سليم زكى حكمدار القاهرة ...

وفى نفس اليوم قامت مظاهرات فى طنطا وبور سعيد والإسكندرية ... وكانت هذه المظاهرات من الضخامة بحيث هزت أنباؤها أرجاء العالم حتى إن مراسل جريدة المصرى فى نيويورك أرسل إلى جريدته يقول : تلقت نيويورك قبل ظهر اليوم أنباء المظاهرات التى وقعت فى القاهرة ، وانتشرت هذه الأنباء بسرعة عظيمة هنا فى نيويورك ، وكان لها أثر قوى على الجميع – ولم يشأ أعضاء الوفود المختلفة أن يعلقوا بشئ .. وقد أعرب كثيرون فى ليك سكسس عن أسفهم لإصابة كثيرين فى خلال المظاهرات ... وقد عاق السير والترسمارت على هذه الأنباء بقوله : إنه يخشى أن تكون الحالة قد تطورت فأصبحت خطيرة للغاية .

ومع هذا التناقض المزرى فى مواقف الحكومة إذتهاجم مظاهرات قامت لتأييدهاوتقوية مركزها فى مجلس الأمن فإن الإخوان لم ينثنوا عن مواصلة تأييد الحكومة إذ تم اجتماع بين الإخوان والهيئات الوطنية وبين خشبة باشا نائب رئيس الوزراء وسويت المسألة وقرروا الإضراب يوم ٢٦–٨ استنكاراً لمعاهدة سنة ١٩٣٦ .

١٠ – يحار المرء أمام تصرفات النقراشى باشا التى لا تدل على أنه كان جاداً يومأعلن فى مجلس النواب أنه سيهاجم الإنجليز ويصمهم بالاعتداء ، فلا شك على سبيل المثال فى أن العمل الجرئ الذى قام به مصطفى مؤمن فى مجلس الأمن كان أعظم أثراً وأجدى نفعاً للقضية المصرية منألف خطبة كالتى ألقاها النقراشى فى هذا المجلس فلقد لفت أنظار العالم كله إلىمظالم الإنجليز واعتدائهم على حرية الشعب المصرى بطريقة عملية مثيرة لا سيما وقد شفعت بمظاهرات ضخمة فى القاهرة هزت مشاعر العالم ... وكان أدنى ما ينتظر من رئيس وزراء مصر أن يحتضن هذا الشباب فى شخص مصطفى مؤمن ومن معه ويشيد بهم .. فانظر ماذا فعل هذا الرجل :

الذي جاء بالصحف فى ذلك الوقت وقرأناه ولا زال مسجلا فيها إلى اليوم هو أن الأستاذ أحمد كامل قطب كان شاباً وطنياً وكان محامياً ورئيساً لحزب الفلاح .. وسافر هو الآخر إلى نيويورك ليشارك فى الجهود الشعبية من أجل القضية ، فلما قام مصطفى مؤمن بحركته وألقى الكلمات التى أشرنا إليها قبلا وأخرجوه من قاعة المجلس ، قام الأستاذ أحمد كامل قطب بمثل الدور الذى قام به مصطفى مؤمن فأخرجوه أيضاً .. ويبدو أن مفاجأة مصطفى مؤمن لم تدع فرصة للنقراشى ليفكر ويكون رأيا فيما حدث فلما قام أحمد كامل قطب بنفس الدور كان النقراشى قد كون رأياً فاتجه إلى احمد قطب وقال له أمام الجميع : اخرج يا مجرم .

وقد عز على الأستاذ أحمد كامل قطب أن يرميه رئيس وزراء مصر بالإجرام واعتقد أنها مجرد زلة لسان فقابله فى اليوم التالى أمام وفد مصر وعتب عليه فيما صدر منه إليه وقال له يا دولة الباشا إن العمل الذى قمت به هو جهاد شريف لتأييدك وتأييد قضية البلاد وما كان ينبغى أن ترمينى من أجله بالإجرام فرد النقراشى باشا عليه قائلا : إنك بالعمل الذى قمت به أمس فأنت مجرم فما كان من الشاب المجاهد إلا أن قال للنقراشى : إذا كان أحد مجرماً إذن فالمجرم أنت . وتركه وانصرف .

أما تصرف النقراشى باشا إزاء مصطفى مؤمن فقد كنت على علم به فى تلك الأيام ولكنى قد حملته يوم بلغنى على محمل المبالغة وكنت عازماً على إغفال ذكره فى هذه المذكرات لهذا السبب ، ولكن شاءت الأقدار أن تجمعنى الظروف بزميل لى فى العمل لا علاقة له بالإخوان المسلمين ولا بالسياسة ولكنه يرتبط برباط القرابة مع المرحوم الأستاذ عثمان عبيد الذى كان فى ذلك الوقت قنصلا لمصر فى نيويورك ، وفى معرض حديثه عن خلق قريبه وشجاعته قال لى إنه رحمه الله حدثه أنه بعد الانتهاء من عرض القضية على مجلس الأمن جاءه الطالب مصطفى مؤمن الذى استطاع أن يجتذب انتباه العالم إلى مصر وإلى قضية مصر وشكا إليه أنه أنفق كل ما كان معه من نقود وأنه يريد أن يرجع إلى مصر وطلب إليه أن تتكفل القنصلية بمصاريف سفره . قال الأستاذ عثمان فوافقت لأن التعليمات تقضى بذلك .. قال الأستاذ عثمان فلما علم النقراشى باشا بذلك استدعانى وعنفنى على موافقتى على ترحيل مصطفى مؤمن على نفقة القنصلية ، فبهت لهذه المفاجأة لأننى كنت أعتقد أن مصطفى مؤمن بما أداه من خدمة للقضية سيكون موضع تكريم من الحكومة ورئيسها ... فسألته عما يريدنى أن أفعله . فقال : ارفض ترحيله على نفقة القنصلية . فقلت له : وكيف أرفض

والتعليمات عندى تلزمنى بالموافقة ؟ قال : أنا رئيس الحكومة وأنا آمرك . فقلت له : إذا كان الأمر كذلك فلا بد من أمر كتابى .. فلما أحس بأنى أحمته تقهقر .

١١ — أصدر مجلس الأمن قراراً بتأجيل قضية مصر إلى أجل غير مسمى ، ورجع النقراشى إلى مصر وكان الجميع ينتظرون منه حين يرجع أحد موقفين إما أن يقود الشعب المهيأ تمام التهيئة للنضال ضد الإنجليز وإما أن يقدم استقالته .. ولكنه رجع واتخذ موقفاً آخر غير هذين هو موقف السكوت المطبق .وقد طال سكوته حتى أسأم أهل مصر جميعاًوأهل وادى النيل وكاد يبعث فى نفوسهم اليأس وإليك نموذجاً من البيانات التى صدرت من الهيئات المختلفة معبرة عن هذا المعنى وهذا البيان صادر من حزب مصر الفتاة يقول :

«إن دولة النقراشى باشا خيب آمال البلاد منذ عودته من أمريكا فقد لاذ بالصمت المطلق ، ولم يحاول أن يوجه البلاد أو يقودها نحو تحقيق أهدافها . ثم توالت الحوادث فى الخارج والداخل فراح حاكم السودان يفاجئ الحكومة بتصرف جديد كل يوم جاهداً فى العمل على فصل السودان نهائياً ولم تفعل الحكومة المصرية شيئاً بل ولم تقل شيئاً :وليس هناك ما يكشف عن عجز الحكومة كأزمة ضباط البوليس (قاموا بإضراب) واختتم البيان بأنه يجب على الحكومة أن تفسح الطريق لحكومة أخرى تكون أكثر قدرة منها على التعاون مع الشعب وحل مشكلاته وأزماته بروح جديدة وعزم جديد» .

وإذا كان هذا نموذجاً يمثل رأى الهيئات الشعبية فى موقف هذه الحكومة وقد صدر فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٤٧ فقد تمادت الحكومة فى موقفها هذا المهين حتى إن الحزب المشارك للسعديين فى الحكومة وهو حزب الأحرار الدستوريين قد استبد به الضجر فعقد اجتماعاً فى ١٦ ديسمبر سنة ١٩٤٧ ووقف رئيسه الدكتور هيكل يصف موقف الحكومة من القضية بأنه «سبات عميق» وقد نشر ذلك فى الصحف فى ذلك اليوم .

ونورد نموذجاً آخر يمثل رأى المستقلين من ذوى الفكر فيما جاء فى كلمة ألقاها فى مجلس الشيوخ فى ١٣–١–١٩٤٨ وهيب دوس بك عضو المجلس حيث قال «إن الذى تشعر به البلاد ويشعر به الناس جميعاً هو أن رئيس الوزراء يلوذ بالصمت دائماً فى كل أمر يتطلب إليه بيانه ، وهذا ما يجب أن يوضع له حد» ثم قال : أما وقد ذهب وفد مصر إلى مجلس الأمن وعاد فقد كان مفروضاً أن الحكومة قد أعدت عدتها لمواجهة حالتى النجاح والفشل ، وبقاء القضية معلقة فى المجلس ليس

هو النجاح الذى ذهب وفد مصر إلى ذلك المجلس من اجله ، فكل ما فيه ان المجلس لم يحكم برفض الدعوى ، فإذا أعدت الحكومة لذلك ؟ وقد ثبت أن الخطوات التى خطتها لم تفد البلد شيئاً على الأقل ويجب أن لا يبقى الأمر على طريقة عدم كشف الأوراق ، بل يجب أن تعرف البلاد حقيقة الموقف فإذا كانت الحكومة أعدت خطة معينة أزمعت تنفيذها فعليها أن تصارح البلاد بها .

واستطرد فقال : إن المندوب البريطانى فى مجلس الأمن واجه وفد مصر بأن هذا المجلس غير مختص إلا بنظر الحالات التى تهدد الأمن العالمى . وتساءل كيف فات الحكومة ذلك فظلت الحالة على ما يرام وظل الإنجليز على قناة السويس لا يعكر صفوهم معكر ، على أن الأمن لا يهدد إلا إذا كانت مصر تنوى أن تعمل عملا .

ورأى أن السكوت على تصرفات حاكم السودان إنما هو تكملة للعبارة التى قالها المرحوم سعد زغلول باشا حين قال : «هل عندكم تجريدة ؟» وتساءل عن الأساس السحرى الذى ننتظره لإزاحة الإنجليز من بلادنا إذا كنا بلا تجريدة وبقى الإنجليز حيث هم فى بلادنا لا يجلون عنها . وقال : إنى لو كنت صاحب الأمر يوم أمر حاكم السودان بإخراج الموظف المصرى من السودان فى ٢٤ ساعة وإلا اعتقل لما ترددت فى أن أستدعى الموظفين الإنجليز فى مصر جميعاً وأعلنهم بأن عقود استخدامهم قد ألغيت . وهذا كان أبلغ رد على إخراج موظف مصرى من أرض هى جزء من بلده .

١٢ — فى الوقت الذى طالبت فيه كل الهيئات والأحزاب الممثلة للشعب بتخلى هذه الحكومة عن مركزها بعد فشلها التام نرى جريدة التيمس تعبر عن وجهة النظر الرسمية فى لندن فتثنى على النقراشى وتقول إن الواجب يحتم عليه البقاء فى الحكم وتقول : إن جماعة الإخوان المسلمين يضعون أمام النقراشى مشكلة أخرى ، وإن هذه الجماعة قد برهنت على منفعتها كجبهة معارضة لخصمها وهو الوفد ، ولكن زعامة الإخوان المسلمين لا تتحمل مسئولية ، وتشددها يجعل تأييدها ميزة ليست لها قيمة مؤكدة » .

وكان من المنتظر أن يقوم الإخوان بعمل قوى يصحح الوضع يلزم هذه الوزارة بالتخلى عن تبلدها وبأن تقود البلاد إلى مقاومة المستعمر حتى يخرج من البلاد وإما أن تترك مكانها لحكومة ترضى لنفسها أن تحمل هذا العبء ... ولكن كارثة كبرى حلت بالعالم الإسلامى أذهلت كل مسلم فى الارض وجعلت كل دولة عربية وإسلامية تنسى مشاكلها الخاصة أمام هذه الكارثة تلك

هى صدور قرار هيئة الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين .. مما جعل الإخوان يضعون كل ثقلهم وراء العمل على دفع هذه الكارثة وتجاوبت جميع الشعوب العربية بهذا الشعور حتى اضطرت حكوماتها المتهالكة إلى الظهور بمظهر المتجاوب هى الأخرى .

ورأى الإخوان أن تكريس جهودهم لدفع هذه الكارثة المروعة أجدر أن يقدم على كل ماسواه وقد أرجأوا مواجهة هذه الحكومة آملين فى أن تحظى قضية فلسطين بتأييد من هذه الحكومة ، فتأييد هذه الحكومة ضرورى لتأمين ظهر الإخوان فى محاولتهم دفع الكارثة الحائقة بفلسطين. وكان الإخوان قد رفعوا إلى الملك فاروق عريضة فى شأن القضية المصرية وما آلت إليه وما ينبغى أن يتخذ فى شأنها ، فلما وقعت كارثة قرار هيئة الأمم بتقسيم فلطسين بعثوا فى ١٨-١-١٩٤٨ برسالة إلى النقراشى باشا أشاروا فى مستهلها إلى أن الوزارة عدت عريضة الجماعة المرفوعة أخيراً إلى جلالة الملك معارضة لها ضاق صدرها بها ثم قالوا : «إن الإخوان المسلمين يجاهدون وحدهم تارة ومع المجاهدين تارة أخرى فى سبيل فلسطين العربية ، وقد أعلنت الحكومة اهتمامها بهذه القضية وتشجيعها للعاملين فى سبيلها . وإنهم حين يعملون لفلسطين يعملون لها مخلصين ولا يسمحون لأنفسهم بأن تعلق بهذا الجهاد شبهات السياسة المحلية . وهم على استعداد لشكر الحكومة المصرية فى هذا المعنى إذا قامت بواجبها ، ولتنبيهها إذا قصرت ولنقدها أشد النقد إذاأصرت على التقصير ».

ويلاحظ القارىء أن فى هذه الرسالة نوعاً من اللين والملاطفة لحكومة يعلم الإخوان من بلادتها مايعلمون ولكن الظروف المحيطة بالبلاد الإسلامية وبالتبعات الملقاة على عاتق الإخوان حيالها اقتضت هذه الملاينة مع حكومة كانت هى الأمر الواقع وقد ضمنت تأييد الملك بجعلها إبراهيم عبد الهادى رئيساً للديوان الملكى ولا ينبغى للعاقل أن يحارب فى جبهتين ، لاسيما وقد نبتت بجانب قضية فلسطين وفى نفس الوقت قضية أخرى ألقت على كاهل الإخوان عبئاً آخر تلك هى قيام «ثورة اليمن»

ثورة اليمن

فى خلال الأربعينيات أثر عن بعض كتاب الغرب الذين جابوا البلاد العربية قولهم : «إن مصر متخلفة عن أوربا مائة عام ، والسعودية متخلفة ثلاثمائة عام ، أما اليمن فإنها لا زالت تعيش فى عصر ماقبل التوراة»

وقد لا يكون فى قولهم هذا مبالغة ؛ فإن اليمن كانت رازحة تحت لون من الحكم يدعى لنفسه أنه الحكم الإسلامى الوحيد فى العالم حتى إن الحاكم كان يطلق على نفسه لقب «الإمام» ويقصد بذلك أنه الحاكم الإسلامى الذى يجب أن يدين له بالطاعة كل مسلم على وجه الأرض ... لكن هذا الحاكم كان أبعد الناس عن الإسلام بل إنه كان سبة وعاراً فى جبين الأمة الإسلامية .

نعم استطاع حكم هؤلاء الأئمة أن «يحفظ» هذه البلاد - كما يدعون - من أن تمتد إليها يد المستعمر ولكن هذا «الحفظ» كان أشبه بالاستجارة من الرمضاء بالنار ، فلقد استطاع هؤلاء الأئمة أن «يحفظوا» اليمن من أن ينفذ إليها بصيص من النور ، ومن أن تسرى فيها نسمة من نسمات الحياة ... عزلوا اليمن عن العالم كله ، وكبلوا أهلها بأغلال الفقر والجهل والإذلال ؛ فجميع ماتقل الأرض هو للامام ، فتراخى الناس عن فلاحة الأرض حتى جدبت .. والتعليم محرم إلا على أسرة الإمام وفى حدود لا تنير العقل ولاتفتق الذهن .. والمواصلات منعدمة ولا أقول قليلة أو نادرة ، فلم تكن هناك وسيلة للمواصلات إلا الدواب فليس فى البلاد خط حديدى واحد وليس فيها طريق معبد يصلح للسيارات وليس فى اليمن كلها إلا سيارة واحدة هى سيارة الإمام .. أما انعدام الطب والدواء والمستشفيات فأمر طبيعى مع فقد العمل والتعليم والمواصلات .. وهدف الأئمة من هذا «الحفظ» الذى يدعونه هو أن يأمنوا على عرشهم من أن يقوم فى اليمن من ينازعهم فيه أو حتى من يسألهم عما يفعلون .. وأنى يقوم رجل من هذا القبيل فى بلد كل أهله جهلاء وأكثرهم مرضى وفقراء ولاتستطيع قرية أن تتصل بجيرانها إلا بشق النفس ؟!..

ولم يكتف الأئمة بكل هذه الوسائل من وسائل «الحفظ» بل إمعانا فى «الحفظ» تذرعوا بوسيلتين جهنميتين أخريين :

أولاهما : أنهم نشروا زراعة نبات مخدر يسمى «القات» وأكثروا من زراعته وعملوا على ترويج تعاطيه - وما أسهل نشر الفساد - فصار مضغ القات شغل أهل اليمن الشاغل .. وبذلك ضمن الأئمة أن قضى هذا «القات» على البقية الباقية فى هذا الشعب الذى لا يكاد يفيق من التخدير

والوسيلة الأخرى : هى أن يأخذ الإمام من كل شيخ قبيلة أحد أبنائه ويبقيه عنده موثقاً وهينة لديه حتى لا يفكر أحد الشيوخ فى الخروج عن طاعة الإمام فيقتل ولده .

وليس هذا الوصف الذى أوردته لليمن مستقى من مقال كتب أو من مؤلف وضع قد يشك فى اتجاه كاتبه أو هدفه ، وإنما هو وصف وصفه لى أحد الإخوان الفضلاء كان هو أول بعثة

تعليمية أوفدت إلى اليمن هو الأخ الأستاذ جمال عمار وذلك بعد أن أنشئت الجامعة العربية وكان ذلك أول اتصال اليمن بالحياة .. أخبرنى حين رجع من اليمن بمشاهداته هناك وهى التى استخلصت منها ماقدمت من وصف موجز لحال اليمن .. ومما ذكره لى أيضاً عن رجال الشرطة فى صنعاء أن الإمام لا يكاد يعطيهم مرتبات فهم عادة حفاة ومن المناظر المألوفة أن ترى الواحد منهم يجرى فى الأزقة وقد خطف بعض الدواجن والمرأة صاحبة الدواجن تجرى خلفه مستغيثة تتوسل إليه أن يرد لها ماخطفه من دواجنها ؛ فالشرطة الذين يفترض فيهم أنهم يحمون الشعب من المعتدين هم الذين يعتدون ويستبيحون أموال الناس تحت سمع الإمام وبصره .

هذا قليل من كثير مما أنبأنى به الأخ الأستاذ جمال عمار مما رآه بنفسه فى اليمن .. وحين كنت بمكة سنة ١٩٥٠ كنت أنظر إلى الرجل فأعرف أنه يمنى فأسأله فيتبين صدق فراستى وكانت العلامة التى أميز بها اليمنى هى نحول جسمه وشحوب لونه وضعف بنيته ، كلهم مرضى بفقر الدم فلا غذاء ولا دواء ولا عمل ولا أمل ، وأكثرهم جاءوا من اليمن إلى السعودية مشياً على الأقدام .

وتاريخ اليمن ينبئنا بأنها كانت من أخصب البلاد تربة ومن أغناها تجارة ومن أذكاها عقولا وهى الأرض التى قال الله تعالى فى وصفها «لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور » والتى قال رسول الله صلى الله عليه فيها «الإيمان يمان والحكمة يمانية» ولكنها أجدبت على أيدى «الأئمة» الذين احتكروا الإسلام وأرادوا أن يحتكروا الحكم والسلطة .

اتصال الإخوان باليمن :

كان أول اتصال للإخوان باليمن عند انعقاد المؤتمر البرلمانى العالمى لقضية فلسطين سنة ١٩٣٨ وقرر المؤتمر إيفاد وفد عربى لحضور مؤتمر المائدة المستديره فى لندن فأوفدت المملكة العربية السعودية الأمير فيصل بن عبد العزيز وأوفدت اليمن اثنين من أبناء الإمام يحيى حميد الدين هما على ما أذكر سيف الإسلام أحمد وسيف الإسلام عبد الله .. وحضر الأمراء الثلاثة إلى القاهرة وأوفد المركز العام للإخوان مع السيوف الأخ محمود أبوالسعود ليكون سكرتيراً لهما أو مترجماً لإجادته اللغة الإنجليزية ، ولما رجع من هذه الرحلة روى لنا العجب العجاب من أمر هذين السيفين وجهلهما بالحياة حتى إنه خجل من وجودهما فى مثل هذا المؤتمر .

وكان الاتصال الثانى فى أثناء الجلسات التمهيدية لإنشاء جامعة الدول العربية ، وقد أشرت من قبل إلى إيفاد اليمن القاضى حسين الكبسى لحضور هذه الجلسات على أن يكون مستمعاً دون أن يشترك فى المناقشات .. وفى خلال هذه الاجتماعات تفتحت عينا هذا القاضى — وكان رجلا ذكياً — ومن معه من اليمنيين على الحياة وتمنوا لو أن بلادهم أخذت بنصيب منها .

كما أن أفراداً من شباب اليمن الذين وفدوا إلى القاهرة لتلقى دراسة بالأزهر اتصلوا بالإخوان فنبه هذا الاتصال مشاعر فيهم كانت خامدة وفهموا من الإسلام مالم يكونوا يفهمون فاستقر فى وعيهم أن بلادهم فى أمس الحاجة إلى إصلاح يتناول جميع شئونها وكل مرافقها ... ولكن كيف يتم مثل هذا الإصلاح والأئمة مسيطرون ؟..

دوافع القيام بالثورة :

لم يكن القيام بالثورة فى اليمن ضد الحكم الإمامى الغاشم أمراً غريباً ، فإن المظالم التى كانت ترزح تحتها اليمن كانت أضعاف المظالم التى قامت من أجلها الثورة الفرنسية .. أما أن الثورة بتدبير الإخوان المسلمين أو قامت بتدبير الفئة المثقفة من أهل اليمن أو قامت بتضامن الجهتين معاً ؛ فأمر لا يعنى الذين يبحثون عن الأسباب الداعية للثورة وهل هى جديرة بالتقدير أم هى أسباب مفتعلة لا أساس لها من الواقع .

وعلى كل حال فإن مبلغ علمى أن الإخوان منذ عرفتهم كانوا يتمنون أن يتخلص اليمن من حكم «الأئمة» حتى تدب فى أوصاله الحياة .. ولست أدعى أنى كنت مشاركاً فى تدبير هذه الثورة فلقد كنت فى تلك الأثناء بعيداً عن القاهرة ، ولكننى أستطيع أن أقرر أن فكرة إعداد الشعب اليمنى للثورة قد نبتت فى المركز العام ؛ أما تفاصيلها وخطوطها فلا أعتقد أن المركز العام قد تدخل فى رسمها .

الفضيل الورتلانى وعبد الحكيم عابدين :

عند تناول ثورة اليمن بالتسجيل نجد أنفسنا أمام شخصيتين من غير اليمنيين كانا قطبى رحى هذه الثورة هما «الفضيل الورتلانى وعبد الحكيم عابدين» .

وأولهما كان إذ ذاك شاباً جزائرياً من زعماء المجاهدين الذين طاردهم الاستعمار الفرنسى فهرب إلى مصر واتصل بالإخوان وكان كثير التردد على المركز العام حتى ليكاد يتردد عليه كل

يوم باعتبار هذه الدار مركز الحركات التحررية ضد الاستعمار فى كل بلد إسلامى .. وكان الفضيل لماع الذكاء ، سريع الحركة كثير المعارف ، لا يقتصر تحركه على ما يخص موطنه الأصلى -الجزائر - بل كان يرى العالم الإسلامى وحدة لا تتجزأ وأنه مطالب بتحرير كل جزء منه ... وأعتقد أن الفضيل كان أول من سافر إلى اليمن وأسس هناك شركة للتجارة .

أما عبد الحكيم عابدين فإنه سافر إلى اليمن بعد ذلك وكان سفره تلبية لطلب حكومة الثورة التى ألفت برئاسة القاضى عبد الله بن أحمد الوزير .

تطور الأمور فى هذه الثورة :

١ - تلقت جريدة الأهرام فى ١٥ يناير سنة ١٩٤٨ برقية من عدن من سيف الإسلام الأمير ابراهيم نجل الإمام يحيى ينعى فيها والده ويعلن نبأ إنشاء حكومة دستورية فى بلاد اليمن وعلى رأسها السيد عبد الله بن أحمد الوزير . وقد وقع البرقية بصفته «رئيس مجلس الشورى فى الحكومة الجديدة » .

وسيف الإسلام ابراهيم هو النجل الثامن لإمام اليمن يحيى وهو شاب فى الثلاثين إذ ذاك عرف بتمرده على والده مما أدى إلى سجنه مرتين . وقد لجأ إلى عدن حيث التف حوله لفيف من اليمنيين وألفوا «جمعية الأحرار اليمنية الكبرى » واتخذ لنفسه لقب «سيف الحق» بدلا من «سيف الإسلام» .

كما تلقى عبد الرحمن عزام أمين الجامعة العربية من السيد حسين الكبسى برقية بعد ذلك بثلاثة أيام هذا نصها :

«مات الإمام يحيى ونودى بالوزير إماماً»

وأرسل السيد الفضيل الورتلانى برقية من صنعاء إلى بعض الدوائر العربية فى القاهرة مؤداها أن الإمام يحيى اغتيل هو وثلاثة من الأمراء ورئيس الحكومة اليمنية .

٢ - أرسل السيد حسين الكبسى نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية فى حكومة الثورة معرباً عن استعداده للاسترشاد بآراء دول الجامعة العربية فى حدود ميثاقها ، ثم أرسل إلى عبد الرحمن عزام برقية يدعوه فيها إلى زيارة اليمن حيث يشاهد «بناء جديداً على قواعد جديدة تصنعها حكومة ديمقراطية فى ظل ملك ديمقراطى» وسأل مندوب جريدة الأهرام السيد عبد الرحمن عزام

هل يسافر إجابة لهذه الدعوة ؟ فقال إنه لا يتأخر عن السفر إذا تطلبت المصلحة ذلك .. كما استطلع مندوب الأهرام رأى عربى كبير مسئول فى موقف المملكة العربية السعودية إزاء اليمن بعد الحوادث الأخيرة فقال : «إن موقف جلالة الملك آل سعود هو موقف الجامعة العربية بل تأييد لها» .

٣ — أذاعت وكالة الأنباء العربية من عدن : «لم يكد يذاع فى صنعاء رسمياً أن السيد عبد الله بن أحمد الوزير نودى به ملكاً دستورياً على اليمن حتى احتشد نحو عشرة آلاف من الخلق لتحيته خارج قصر غمدان فى صنعاء . وصرح السيد محمد نعمان الذى كان يتزعم فى المنفى «جمعية اليمن الكبرى» قبل هرب الأمير إبراهيم . والذى صار وزيراً للزراعة فى وزارة الثورة بأن ثلاثة من أبناء الإمام يحيى وهم الأمراء سيف الإسلام اسماعيل ويحيى ولا أذكر الثالث قد اعترفوا بالملك الجديد فعينوا فى وظائف كبيرة من وظائف الدولة .

٤ — سيف الإسلام أحمد أكبر أبناء الإمام يحيى والمطالب بعرش أبيه غادر مقره فى «تعز» والتجأ إلى قبائل الشمال يؤلبهم على الحكومة الجديدة .. وترسل الحكومة الجديدة إلى الملك عبد العزيز آل سعود تطلب إليه تزويدها بطائرات لمقاومة سيف الإسلام أحمد فيبلغ الملك عبدالعزيز الجامعة العربية بأنه لن يجيب هذا الطلب حتى يتبين له رأى الجامعة .

٥ — توالت برقيات من وزير خارجية الحكومة الجديدة تستعجل وتستنجز حضور وفد الجامعة برياسة الأمين العام ولكن الأمين العام أخذ يتلكأ فلم يعلن عن تكوين الوفد إلا فى ٢٤ فبراير مكوناً من الأمير السعودى حاكم جدة وعبدالرحمن عزام وعبد الوهاب عزام سفير مصر فى السعودية وحيدر مردم وزير سوريا فى جدة وعبد الجليل الراوى وزير العراق فى القاهرة وتقى الدين الصلح سفير لبنان فى القاهرة وسعيد المفتى وزير داخلية شرق الأردن وتقرر سفرهم يوم ٢٦ فبراير .

٦ — فى خلال هذه الفترة استطاع سيف الاسلام أحمد أن يضلل سكان حجة والحديدة وكون منهم جيشاً وبعث إلى الجامعة يطلب التحكيم وقد استجابت الجامعة لطلب أحمد وأرسلت برقية إلى الحكومة اليمنية وإلى أحمد تطلب منهما إيقاف القتال حتى تصل بعثة الجامعة. ثم اجتمعت اللجنة بالنقراشى ثم قصد عزام إلى منزله حيث وافاه فى الساعة الرابعة إبراهيم عبد الهادى رئيس الديوان الملكى ودام اجتماعهما وقتاً طويلا ؛ وتقرر أن يرافق الوفد الدكتور حسين حسنى السكرتير الخاص للملك ممثلا الحكومة المصرية .

وقرر الوفد السفر إلى اليمن (بحراً) من بور سعيد يوم ٢٨ فبراير إلى جدة حيث ينضم إليه المندوب السعودى ثم يواصل السفر (بحراً) إلى الحديدة حيث يستقل الوفد السيارات إلى صنعاء ويستغرق قطع المسافة بين الحديدة وصنعاء بالسيارة يومين وبعض اليوم .

٧ — فى الوقت الذى كانت تتوالى برقيات الحكومة الجديدة تستحث وفد الجامعة كان الإخوان على اتصال مستمر بعبد الرحمن عزام يستحثونه من جانبهم ولكن دون جدوى وكان الإخوان يريدون قيام وفد منهم بالسفر إلى اليمن لتعزيز مركز الحكومة الجديدة ولكنهم رأوا أن يعملوا جاهدين على قيام وفد الجامعة لأن وجوده فى اليمن فيه كل التعزيز .. فلما وصلوا أخيرا إلى تحديد ميعاد لسفر هذا الوفد ، قام الإخوان باستئجار طائرة خاصة أقلتهم ومعهم مندوبو نقابة الصحفيين المصريين ومعهم أيضاً مكبرات للصوت لمخاطبة القبائل والجماهير . ويلاحظ أن الضجر من هذا التلكؤ وصل بالحكومة إلى الحد الذى هددت فيه بالالتجاء إلى الأجانب لتقاعس الدول العربية .

٨ — وصلت الطوافة فاروق مقلة وفد الجامعة إلى جدة وقد غادرتها إلى بورسودان للتزود بالمؤن اللازمة استعداداً لرحلتها إلى صنعاء حيث قرر الوفد السفر إلى صنعاء عن طريق البحر أيضاً لرداءة الجو ولما وصل الوفد إلى جدة سافر إلى الرياض لمقابلة الملك عبد العزيز الذى أعرب لهم عن استيائه الشديد لمصرع الإمام يحيى .. وتمت هذه المقابلة يوم ٤ مارس سنة ١٩٤٨ .

٩ — وصلت إلى جدة بعثة الإمام الوزير إلى الملك عبد العزيز لمقابلته ومقابلة وفد الجامعة ، ويتألف الوفد السيد أحمد بن عبد الله الوزير نجل الإمام والفضيل الورتلانى مدير الشركة المصرية اليمنية والقاضى محمد محمود الزبيرى وزير المعارف وقد أقلت هذا الوفد إلى جدة الطائرة المصرية التى حملت وفد الإخوان المسلمين إلى اليمن وقد استأنف أعضاء هذا الوفد سفرهم بسرعة إلى الرياض وقد طلب ابن الوزير من الملك عبد العزيز طائرات ودبابات وجاء فى البرقية :

«ويسعدنا أن تشرفوا جلالتكم بنفسكم لتحكموا على الحقيقة عن مشاهدة أو ترسلوا من تثقون به » .

وقد سأل أحد الصحفيين الوفد اليمنى : كيف تقولون إن حبل الأمن مضطرب فى البلاد مع أن راديو صنعاء وحكومتها يقولون غير هذا ؟ فكان الجواب أن صنعاء ذاتها فى أمن وطمأنينة ولكن الاضطراب والفوضى يتسع مداها على الأيام ؛ لااختلافاً على الحكم ومن يتولاه ولكن لمجرد السلب والنهب وإطلاق العواطف والنوازع التى ظلت مكبوتة عشرات السنين .

ويبدو أن سيف الإسلام أحمد قد استغل هذا الشعور فى الشعب وجاراه فى عواطفه ونوازعه وحثه على التمادى فى السلب والنهب ووعدهم إذا نصروه على ابن الوزير أن يفتح لهم خزانة الدولة على مصراعيها فانطلقوا كالذئاب الجائعة ، وقد دخل أحمدصنعاء على رأس جيش من المحرومين هذه هى دوافعه وحوافزه وآماله .

١٠ – طال انتظار هذا الوفد لمقابلة الملك عبد العزيز حتى دخل سيف الإسلام أحمد صنعاء يوم ١٤ مارس فأرسل الملك عبد العزيز إلى هذا الوفد من يقول له : إن الملك يرفض مقابلتكم لأنه غير مستعد لاستقبال لصوص وقتلة .. وعاد عبد الرحمن عزام لى القاهرة دون أن يدخل اليمن .

تعليق على هذه الأحداث :

بدأت الثورة باغتيال الإمام يحيى ثم أعلن عن قيام حكومة جديدة برياسة القاضى عبد الله بن أحمد الوزير وكان من أكبر شخصيات اليمن ومن القلائل المتفتحين .. وقد بايعه بالإمامة أهل الحل والعقدفى اليمن كما ينص على ذلك دستورالبلادفإن هذا الدستورالذى هو من وضع الإمام يحيى وأسلافه لا يقرأن أن تكون الإمامة وراثية بل تكون لمن يبايعه أهل الحل والعقد .. وبذلك لم يكن عبد الله بنأحمد الوزير دخيلا على الإمامة ولا مغتصباً إياها من أحد .. ومن وزراء هذه الحكومة القاضى حسين الكبسى الذى كان أول مندوب لليمن فى الجامعة العربية . والقاضى محمد محمود الزبيرى من أعظم أدباء اليمن وشعرائها .

وقد سيطرت هذه الحكومة على البلاد تمام السيطرة وألقت القبض على «السيوف»وهم أبناء الإمام يحيى . وبحسن ظن أرسلت إلى الجامعة العربية تطلب إليها إرسال وفد برياسة أمينها العام ليرى بنفسه استقرار الأمور وليسهم بالمشورة فى وسائل الإصلاح فى مختلف المرافق وقام المركز العام للإخوان من ناحيته يحث الجامعة العربية على إجابة طلب الحكومة اليمنية .

وتلكأت الجامعة العربية فى إيفاد وفدها تلكؤاً لفت أنظار العالم كله ، ولم يكن لهذا التلكؤ المقصود من معنى سوى أنه محاولة لإحباط هذه الثورة ، وبعد كل هذا التلكؤ قام الوفد ولم يتوجه إلى اليمن مباشرة كما كان ينتظر بل اتجه إلى السعودية ومكث فى السعودية أياماً تلقى نصائح العاهل السعودى الذى قد لا يسعده أن يقوم حكم فى جارته المتاخمة له يضرب بنظام الوراثة والأسر المالكة عرض الحائط ويختار الأصلح غير عابىء بالأسرة التى ينتمى إليها .. ثم أقل وفد الجامعة راجعاً إلى مصر دون أن يدخل اليمن .. فكأنما كان موكولا إليه تمثيل دور معين رسم له وقد أتقن تمثيله فلما تم الدور دلف إلى مكانه وراء الكواليس .

وقد فهم الإخوان المغزى من الحركات المريبة التى كانت تجرى على المسرح ، فهذا التلكؤ الذى لفت الأنظار وافتضح أمره حين أرادوا أن يتظاهروا بالخروج من دائرته المفرغة واضطروا إلى تحديد موعد للسفر . سبق هذا السفر حركات تشبه المؤامرة نذكر منها :

أولا : مقابلة الأمين العام للنقراشى صباحاً يعقبها فى المساء وفى منزل الأمين العام مقابلة لإبراهيم عبد الهادى رئيس الديوان الملكى وتدوم المقابلة وقتاً طويلا .

ثانياً : يضاف إلى الوفد السكرتير الخاص للملك فاروق على أن يكون ممثلا للحكومة المصرية

ثالثاً : فى ٢٦ فبراير أى بعد نحو شهر ونصف من قيام الثورة ببرق السيد المؤيد مندوب اليمن فى الجامعة العربية إلى سيف الإسلام أحمد بأن الملك فاروق يعزيه فى والده .

رابعاً : يقرر الوفد أن يكون السفر عن طريق البحر وهذا وحده كاف أن يكون دليلا على أن المقصود هو إضاعة الوقت وإلا فهل تعجز الجامعة العربية عن استئجار طائرة كالتى استأجرها الإخوان ؟.

خامساً : أن تخصص للوفد الطوافة فاروق حتى يشعر الوفد أنه فى كنف الملك .

سادساً : يعدل الوفد عن خطته التى أعلن عنها فلا يقوم من جدة مباشرة إلى اليمن بل يتجه إلى الرياض فى ضيافة الملك عبد العزيز .

هذا ولقد عالجت موضوع ثورة اليمن بطريقة لم تمس بواطن الأمور فى تفاصيلها وأسرارها تاركاً ذلك لمن عانوها واصطلوا بنارها وقد سمعت من الأخ الأستاذ عبدالحكيم عابدين بعد رجوعه من اليمن شيئاً من هذه التفاصيل والأسرار ، ولكننى أوثر أن يناقش هو بنفسه هذه التفاصيل وهذه الأسرار لأن البيئة والظروف التى وقعت فيها هذه الأحداث لا أحسها أنا كما يحسها إنسان عاش فيها وتلبث بها .

آثار هذه الثورة :

كان لهذه الثورة آثار على المستوى المصرى وأخرى على المستوى العربى وثالثة على المستوى العالمى ... أما على المستوى المصرى فإنها ألقت فى روع القائمين على الحكم فى مصر أن هذه الثورة نذير لهم بين يدى عذاب شديد ؛ فليلقوا بثقلهم أولا لإحباطها ثم ليعدوا العدة للقضاء على مدبريها وهم الإخوان المسلمون الذين بلغوا أشدهم حتى إنهم يقيمون الدول ويسقطونها .

فوجد فاروق فى مصر تجاوباً لأحاسيسه عند عبد العزيز آل سعود فى السعودية وقد قربت مابينهما

وأنستهما الخلافات التي كانت بينهما ظناً منهما أن الثورة كانت ضد الملكية مع أن ابن الوزير قد بايعه العلماء ملكاً .

وأما على المستوى العالمي فقد طمأن فشل الثورة قلوب الطاغوت الاستعماري المتمثل في أمريكا وانجلترا وفرنسا إلى أن العالم العربي لازال لقمة سائغة لهم . كما أن الطاغوت وقد عرف العرق الوحيد الذي ينبض بالحياة في جسم العالم العربي وهو الإخوان المسلمون .. إذن فلابد من خطة لاستئصال هذا العرق حتى يظل الجسم فاقداً رشده مستكيناً لهم .

وأما أثرها على الإخوان فقد كانوا يتمنون أن تنجح الثورة ليكون للإسلام في هذا العالم دولة ولكن شاءت إرادة الله أن يتأخر تحقيق هذه الأمنية ، فأحس الإخوان بقوى الشر تتألب عليهم وتجمع شتاتها لتفترسهم .

الفصل الثانى

فى قضية فلسطين

وصلنا بهذه القضية فى الباب السابق إلى تطور انتهى بعقد مؤتمر مائدة مستديرة بلندن حضره ممثلون عن البلاد العربية ، وقد أصدرت الحكومة البريطانية فى أعقاب هذا المؤتمر مايسمى «الكتاب الأبيض» وأهم ما فى هذا الكتاب أنه وضع حداً لهجرة اليهود إلى فلسطين .

ويبدو أن اليهود وجدوا فى هذا الكتاب الأبيض ما يعرقل خططهم المرسومة لاحتلال فلسطين فلجأوا إلى الحكومة الأمريكية التى سرعان مااستجابت لهم وطلبت تكوين ما يسمى «لجنة التحقيق البريطانية الأمريكية» وكانت هذه اللجنة وسيلة قانونية تسترت أمريكا وراءها لنسف الكتاب الأبيض وتحقيق مآرب اليهود .

وطافت هذه اللجنة بالبلاد العربية متظاهرة بأنها لجنة تبحث عن العدالة بالاستماع إلى أطراف النزاع وقد حضرت إلى مصر وعقدت فى القاهرة جلستين ، وكانت جلستها الأخيرة فى ٥-٣-١٩٤٦ وقد استمعت فى هذه الجلسة إلى السيد مراد البكرى وعبد المجيد صالح باشا وصالح حرب باشا والدكتور منصور فهمى باشا والأستاذ المرشد العام .. تقول جريدة المصرى : وقد تكلم الجميع فى حماس مخل ثم ساد الجلسة السكون عند ماجاء دور الشيخ حسن البنا وقد ارتجل كلمة هادئة رزينة باللغة العربية جمعت بين قوة الحجة وسرعة البديهة وحضور النكتة . وتولى الترجمة الأستاذ أحمد السكرى وكيل الإخوان المسلمين .

وقد استهل الشيخ البنا كلمته بالاعتذار عن إلقائها باللغة الإنجليزية ثم قال إنه لا يريد أن أن يتحدث عن مشكلة فلسطين من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية فقد طال فيها البحث ولاحاجة إلى تكرارما قيل . واستطرد قائلا : باسم الإخوان المسلمين أؤيدماأعلنه العرب وزعماؤهم ومندوبوهم وكذلك الجامعة العربية .

والناحية التى سأتحدث عنها نقطة بسيطة من الوجهة الدينية ، لأن هذه النقطة قد لا تكون مفهومة فى العالم الغربى ، ولهذا فإنى أحب أن أوضحها باختصار ؛ فأقرر أن خصومتنا لليهود ليست دينية لأن القرآن الكريم حض على مصافاتهم ومصادقتهم ، والإسلام شريعة إنسانية قبل

أن يكون شريعة قومية ، وقد أثنى عليهم وجعل بيننا وبينهم اتفاقا « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن»

وحينما أراد القرآن الكريم أن يتناول مسألة اليهود تناولها من الوجهة الاقتصادية والقانونية فقال تعالى وهو أصدق القائلين «فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل » .

ونحن حين نعارض بكل قوة الهجرة اليهودية ، نعارضها ، لأنها تنطوى على خطر سياسى اقتصادى ، وحقنا أن تكون فلسطين عربية .

ولى كلمة أخيرة من الوجهة الدينية ؛ فإن اليهود يقولون عن فلسطين إنها أرض الميعاد .. ونحن لا مانع لدينا من أن يكونوا فى يوم القيامة معنا .

(وقد أثارت هذه العبارة عاصفة من الضحك لم تلبث أن اتصلت بأخرى عندما استطرد الشيخ البنا قائلا (: لاحظت أن هذه الهيئة الموقرة منعت التدخين فى قاعة الاجتماع خشية أن يؤذى بعض الحضور . وإذا كنتم تحرصون على أمزجة الناس من فعل الدخان ، فخليق بكم أن تحرصوا على أهل فلسطين من النيران ...

الرئيس : ولكن بين الحضور من يدخن الآن (وكان يدخن فى القاعة عبد المجيد ابراهيم صالح باشا وصحفى أمريكى ومندوب جريدة المصرى)

الشيخ البنا : خالفوا القوانين (ضحك)

واختتم الأستاذ البنا كلمته بقوله : لقد استمعت اللجنة إلى رجاء اليهود ، وتركت الرجل الأول الجدير باستشهاده فى قضية فلسطين وهو الحاج أمين الحسينى وكذلك المجاهدين المبعدين فأكون سعيداً إذا عملت اللجنة على الإفراج عنهم جميعاً . »

وبعد طواف اللجنة بالبلاد العربية واستماعها إلى من استمعت إليهم أصدرت تقريرها فى آخر ابريل سنة ١٩٤٦ وكان هذا التقرير مفاجأة أليمة للعرب الذين كانوا يحسنون الظن بها فقد تضمن تقريرها السماح بالهجرة إلى فلسطين لمائة ألف مهاجر يهودى واستمرار الانتداب البريطانى وتعديل قانون بيع الأراضى وإشراف الحكومة على الأماكن المقدسة ..وضج العرب فى كل مكان وأعلنوا احتجاجاتهم ، وقد عقب السيد جمال الدين الحسينى بقوله : إن هذا التقرير الذى وضع تحت ضغط الولايات المتحدة يحكم على فلسطين بأن تصبح أرض الدماء والبؤس .. وانهالت

برقيات الاحتجاج على جامعة الدول العربية ومنها برقية من المرشد العام .

ومما زاد العرب حنقاً على هذه اللجنة وعلى الحكومة الأمريكية أن أصدر الرئيس ترومان عشية إصدار اللجنة قرارها تصريحاً قال فيه :

«إنى سعيد جداً بأن أيدت لجنة التحقيق البريطانية الأمريكية طلبى بالسماح لمائة ألف يهودى بالهجرة إلى فلسطين فى الحال . وهكذا يجب أن ينفذ نقل هؤلاء القوم التعساء بأسرع وقت مستطاع ولعل أهم ما جاء فى تقرير اللجنة أنها تهدف إلى حماية العرب فى فلسطين بضمان حقوقهم المدنية والدينية وبالعمل على إنهاض مركزهم الثقافى والاقتصادى .

وقد سررت بإلغاء اللجنة كتاب سنة ١٩٣٩ الأبيض الذى يحد من هجرة اليهود ويمنعهم من شراء الأراضى ، ولا شك أن لهذه التوصية أثراً كبيراً فى العمل على النهوض بالوطن القومى اليهودى» .

وكان تنبؤ السيد جمال الحسينى صادقاً فلقد تحولت فلسطين بعد تقرير هذه اللجنة إلى شعلة من النيران ولكن بين كفتين غير متوازيتين فالعرب الفلسطينيون يجاهدون وحدهم فى الميدان لا سند لهم إلا جهودهم الذاتية حيث الأمة العربية ممزقة الأوصال مغلوبة على أمرها يحكمها حكام يدينون بالولاء للمستعمر أكثر مما يدينون به لعروبتهم ، أما اليهود فوراءهم ثروات اليهود فى كل بقاع الأرض ووراءهم أمريكا تمدهم بالمال وتسندهم بالنفوذ ثم حكومة فلسطين البريطانية مهمتها سن التشريعات التى تسهل لليهود تحقيق أغراضهم وتضع العقبات أمام العرب وجنود الجيش يهاجمون العرب فى الليل والنهار ويقتلون المجاهدين ويحمون اعتداء اليهود وإجرامهم .

وأتى العرب مرة أخرى من إفراطهم فى حسن الظن فلقد أنشئت فى سنة ١٩٤٥ فى أعقاب الحرب العالمية الثانية هيئة عالمية جديدة سميت «هيئة الأمم المتحدة» ووضع لها ميثاق يسمى «ميثاق حقوق الإنسان» من قرأ بنوده وجد فيها العدالة المطلقة ، فظن العرب أن هذه الهيئة هى خير ملجأ إليه لاستخلاص حقوق أهل فلسطين فاجتمع رؤساء الدول العربية فى جامعة الدول العربية وقرروا عرض هذه القضية على هذه الهيئة .

وتبارى الخطباء العرب من رؤساء الدول العربية ووزراء خارجيتها فى إلقاء بيانات ضافية فى ساحة هذه الهيئة مدعومة بأقوى الحجج التاريخية والقانونية عن حقوق العرب فى فلسطين ولكن تبين أخيراً أن هذه الهيئة لم تكن أخف جوراً ولا أهون ظلماً مما سبقتها من لجان لقد أصدرت قرارها بأغلبية ٢٥ صوتاً ضد ١٣ مع امتناع ١٧ عضواً عن الاقتراع فى ٢٩ نوفمبر

سنة ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين إلى دولتين إحداهما عربية والأخرى يهودية .

مظاهرة مصر الكبرى لتأييد فلسطين فى ١٥–١٢–٤٧

وقع قرار تقسيم فلسطين على العرب جميعاً موقع الصاعقة وأعلنت الدول العربية رفضها له وعدم اعترافها به ، وأعد الإخوان لمظاهرة اهتزت لها جنبات القاهرة اشترك فيها الأزهر والجامعة وتجمعت فى ميدان الأوبرا حيث خطب فيهم السيد وياض الصلح والأمير فيصل بن عبد العزيز والشيخ محمود أبوالعيون وجميل مردم بك وصالح حرب باشا والقمص متياس الأنطونى والسيد اسماعيل الأزهرى والأستاذ المرشد العام .. وكانت المظاهرة أشبه بمؤتمر على أعلى المستويات الشعبية والرسمية عقد فى فندق الكونتننتال ،وقد تهدم بعض مبانى الفندق من شدة ضغط الجماهير وكان الهتاف كله من أجل فلسطين ، ومما يؤسى له أن بعض المندسين فى المظاهرة ممن لم يفهموا سغزاها ولا معناها ولا أهدافها حاولوا الهتافللنحاس باشا ولكن الناس أسكتوهم حتى لا يذهبوا بجلال الموقف .

وخطب الأستاذ المرشد فقال : «لبيك فلسطين .. دماؤ نا فداء فلسطين وأرواحنا للعروبة.. يازعماء العرب ... ياقادة الأمة العربية .. إننى أنادى الأمم المجاهدة ، الحجاز وسوريا والعراق وشرق الأردن ولبنان وأبناء وادى النيل وكل عربى يجرى فى عروقه دم العروبة الحر .

أيها الزعماء ... أنتم القادة ... وهؤلاء الجنود ... قد وقفوا دماءهم لدفاعكم المقدس .. إن هذا الشباب ليس هازلا .. ولكنهم جادون .. عاهدوا الله وعاهدوا الوطن على أن يموتوا من أجله .

إنه وإن كان ينقصنا اليوم السلاح فسنستخلصه من أعدائنا ونقذف بهم فى عرض البحر .. لقد تألبت الدنيا تريد أن تسلبنا حقنا ، وقد عاهدنا الله أن نموت كراماً أونعيش كراماً»

إننى أعلن من فوق هذا المنبر أن الإخوان المسلمين قد تبرعوا بدماء عشرة آلاف متطوع للاستشهاد فى سبيل فلسطين .. وهم على أتم استعداد لتلبية ندائكم .

أثبتنا هنا كلمة الأستاذ المرشد لما كان لها من دلالة تتصل بلب المشكلة وواقعها فإن القضية قد أشبعت كلاماً ولم يعد يجدى فيها غير العمل .. والعمل الشاق المضنى الذى تهون فيه النفوس وترخص الأرواح ... وهو ما أشار إليه الأستاذ المرشد فى كلمته إشارة ظاهرة محددة .

وفى مايو سنة ١٩٤٨ كان زعماء الدول العربية مجتمعين فى «عالية» بلبنان فأرسل إليهم الأستاذ المرشد العام برقية يعدهم فيها بما وعد من قبل فى كلمته بادخال عشرة آلاف مجاهد كدفعة

أولى إلى فلسطين وكان من أثر إعلان الإخوان لهذه الخطوة العملية ما يلي :

١ - الأثر المباشر وهو أن أعد كل أخ نفسه ، وسارعوا إلى تقديم أنفسهم وأموالهم إلى المركز العام حتى ضاق هو وشعب القاهرة على سعتها بأفواجهم المتلاحقة .

٢ - أشعل هذا الإعلان الحماس فى نفوس مجموعة كريمة من ضباط الجيش المصرى فاستقالت من الجيش وأعلنت تطوعها .

٣ - جعل اليهود يشعرون أن الطريق ليس ممهداً أمامهم لتحقيق أمانيهم بعد أن ظنوا أنهم بمكرهم وأموالهم وبخداع الإنجليز قد قضوا على كل مقاومة كانت تعترض سبيلهم لا سيما أن الذين يتحدونهم ليسوا جنوداً محترفين . بل هم شباب متطوع دفعته إلى التطوع عقيدته وإيمانه . وهذا النوع من الجنود قوى الشكيمة شديد المراس .

٤ - جعل دول الغرب وهى التى تحتضن اليهود تشرئب بأعناقها إلى هذا الإعلان الجرىء لتعرف كنهه وتتبين مدى جديته فقد عهدوا العرب قوالين غير فعالين ، فتقاطر المراسلون الصحفيون لهذه الدول على المركز العام وأمطروه بالأسئلة ، ورأوا بأعينهم أفواج الإخوان المتطوعين .

٥ - تشجيع الرؤساء العرب . وبث روح الطمأنينة فى نفوسهم حتى لا يتخاذلوا ويتهربوا من المسئولية .

دور الإخوان فى حرب فلسطين

ليس المقصود من الكتابة عن دور الإخوان فى حرب فلسطين سرد تاريخهم فى هذه الحرب ، ولا الحديث عن خططهم ومعاركهم ، فهذه أمور جديرة أن توضع فيها مجلدات ، وأن تكون هذه المجلدات بين يدى كل عربى ومسلم ليستمدوا منها روحاً وقوة ، وليستلهموا منها معانى الاعتزاز والفخر بالانتماء إلى أمتهم العظيمة .. ومما يؤسى له أن لا يكون بين أيدينا ... نحن العرب - هذه المجلدات . وأن تكون هذه المجلدات عند أعدائنا الذين لا يدعون صغيرة ولا كبيرة إلا درسوها وتعلموا منها.. ولذا فإننا حين نكتب عن دور الإخوان فى هذه الحرب فانما نومىء إلى ذلك مجرد إيماء بلمع مما بقى فى الخاطر بعد هذا العهد الطويل .

سارع الإخوان من أنحاء البلاد إلى التطوع من أول يوم فتح الأستاذ فيه باب التطوع ، وكان الأستاذ يشترط فى المتطوعين من الشباب شروطاً أهمها أن يكون المتطوع قد تطوع برضا الوالدين. وأذكر بهذه المناسبة أننى كنت فى ذلك الوقت بالمركز العام ، فأقبل على شاب عرفنى بنفسه وقال

لى : إننى حمدت الله أن قابلتك هنا لأ نك تعرفنى حيث كنت عندنا فى دمنهور ، وأنا أعرف أن الأستاذ المرشد يثق فيك ،قلت له:وماذا تريدنى أن أفعل ؟ قال : لما أعلن الأستاذ المرشد فتح باب التطوع عزمت على التطوع وبعت كل ما فى دكانى من بضاعة واشتريت بثمنها سلاحاً وذخيرة ومئونة للجهاد وأغلقت دكانى وحضرت اليوم إلى المركز العام ليلحقنى الأستاذ بالفوج المسافر إلى فلسطين .. ولكن الأستاذ سألنى : هل أبواك راضيان ؟ فلم أستطع أن أكذب .. فقال لا تسافر حتى يكونا راضيين . فخرجت من عنده وأنا فى أشد الحزن .. وأرجوك أن تشفع لى عند الأستاذ المرشد ليقبلنى فى هذا الفوج قبل أن يسافر فإن الحصول على موافقة والدى ليس متوقعاً .

فقلت له : إن الأستاذ المرشد لا يقبل الشفاعة فى مثل هذا ، وعليك أن تحصل على رضا والديك ، وإلا فرضاهما أولى . فتركنى وهو يبكى .

وقد أوردت هذه الواقعة ليتصور القارىء اليقظة الروحية التى بعثتها دعوةالإخوان المسلمين فى نفوس هذه الأمة حتى ألحقتها بالرعيل الأول من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم كان رسول صلى الله عليه وسلم يستعرض جيش المسلمين استعداداً لغزوة بدر فرد من استصغر سنه فكان ممن رده أسامه بن زيد ورافع بن خديج والبراء بن عازب وأسيد بن ظهير وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت ورد عمير بن أبى وقاص فبكى فأجازه ، وكان منهم من وقف على أطراف أصابعه ليبدو أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا فيجيزه .

تدخل الجيوش العربية :

بدأ الإخوان يعدون العدة لتنظيم حركة عسكرية لإنقاذ فلسطين عندما أصدرت هيئة الأمم المتحدة قرارها المشار إليه وكانت منظمات اليهود العسكرية هى منظمة الهاجاناه أى حراس المستعمرات ومنظمة أرجون زفاى ليومى ومنظمة اشتيرن وفرقة البالماخ الفدائية التى أنشئت على النمط الروسى

وكانت المنظمات العربية الفلسطينية اثنتين هما النجادة والفتوة فوجه الإخوان اهتمامهم إلى هاتين المنظمتين على أمل أن تصبحا قادرتين على الوقوف فى وجه المنظمات اليهودية ، ولكن سرعان ماقام خلاف بين قواد هاتين المنظمتين .. وقد حاول الإخوان إصلاح ما بينهما ، ولم يكن بد لإتمام هذا الصلح من إنفاذ الصاغ محمود لبيب ، فتم على يديه هذا الصلح ، وارتضته

المنظمتان مدرباً لهما ولكن بعد فترة غير طويلة تنبهت حكومة الانتداب الإنجليزية إلى خطورة وجود الصاغ محمود لبيب فى فلسطين على خططها ومؤامراتها ضد العرب ، فاصدرت هذه الحكومة أمراً إليه بمغادرة البلاد كما طاردت جميع الأخوان الذين دخلوا فلسطين ، ولكن كثيراً من الإخوان كانوا قد تمرسوا على حرب مستمرة مع منظمات اليهود ولم تستطع أن تصل إليهم يد الحكومة لتخرجهم من البلاد .

فلما انسحب الإنجليز من فلسطين فى مايو ١٩٤٨ دخلت الجيوش العربية من الشرق والغرب والجنوب لتعيد الأمن إلى نصابه .. وبذلك أصبح فى فلسطين نوعان من القوات العربية : النوع الأول : المتطوعون وهم متطوعو الإخوان المسلمين والمتطوعون من ضباط الجيش المصرى الذين استقالوا من الجيش ، وقد انضم هؤلاء الضباط إلى متطوعى الإخوان ، واتخذهم الإخوان قادة لهم . وكان من أبرز هؤلاء الضباط القائمقام (العقيد) أحمد عبد العزيز الذى ارتضاه الإخوان قائداً لهم لما كان يمتاز به من الإيمان والشجاعة والتضحية والجرأة الخارقة .. والنوع الآخر هو الجيوش العربية .

هل كان دخول الجيوش العربية صواباً أم خطأ :

وأترك الإجابة على هذا السؤال إلى الأخ الذى عاصر هذه الحرب وخاض غمارها من أول يوم حتى نهايتها وهو الأخ كامل إسماعيل الشريف حيث يقول فى كتابه صفحة ٨١ : الرد على هذا السؤال هو أن العصابات لا يمكن أن تقاتل عصابات مثلها وتنتصر عليها . وأن العصابات لا يمكن أن تحسم الحرب بمفردها ، ولكنها كانت ولا تزال سلاحاً خطراً لو سارت فى ركاب جيش منظم وأحسن تدريب أفرادها وقيادتهم ؛ فيحتل الجيش المنظم المدن والمراكز ويتولى الدفاع عنها بينما تقوم العصابات المدربة بتحطيم قوى العدو ومهاجمة وحداته وطرق مواصلاته .

وإذن فلم يكن هناك بد من دخول الجيوش العربية لتحقيق الهدف الذى حاربنا من أجله ؛ ولكن الخطأ أولا وآخراً فى عدم استعداد هذه الجيوش استعداداً يكفل لها أداء مهمتها ،وجهلها المطبق بقوى العدو الذى تحاربه . والخطأ بعد ذلك خطأ الزعماء السياسيين الذين لم يدخلوا فى حسابهم هذه الهيئات الدولية ومدى خضوعهم لها أما دخول الجيوش نفسها فلا غبار عليه ولا مفر منه ، ولا يمكن أن تحسم الحرب بدونه لا فى الماضى ولا فى المستقبل إذا أردنا حقاً أن نعاود الكرة لتحرير الأرض المقدسة .

هذا هو رأى الأخ الأستاذ الشريف على أن هناك فى هذا الموضوع آراء أخرى .

الإخوان يتطوعون من جميع الأنحاء :

يقول الأستاذ الشريف كانت القوة الأولى من إخوان مصر قد دخلت فلسطين ورابطت فى النقب وافتتحت أولى معارك الجنوب فى «كفار ديروم» فى ١٤ ابريل ١٩٤٨ . وفى نفس هذا الوقت كانت القوة الثانية بقيادة اليوزباشى محمود عبده (كان ناظراً لمدرسة ثانوية) تنتقل إلى معسكر «قطنة» بسوريا ، لتستكمل تدريبها ثم ترابط فترة فى النقب وتشترك مع زميلتها الأولى وأخيراً تصحب الشهيد أحمد عبد العزيز فى جولته الموفقة قبل أن يستقر فى جنوب القدس ويكون من نصيب هذه القوة أن يوكل إليها الدفاع عن مرتفعات «صور باهر» الحصينة ، وهناك تلحق بها قوة كبيرة من الإخوان المسلمين فى شرق الأردن بقيادة المجاهد عبد اللطيف أبوقورة رئيس الإخوان فى عمان ، وتندمج القوتان فى فرقة واحدة متحدة القيادة ، ليكون لها الفضل بعد ذلك فى المحافظة على تلك المرتفعات ، وعرقلة الخطط اليهودية التى كانت ترمى إلى احتلالها لتتحكم فى القوات المصرية المتطوعة المرابطة فى مناطق «الخليل وبيت لحم»

ولم يكن الإخوان فى سوريا بأقل نصيباً من غيرهم إذ أدخلوا قوة من رجالهم يقودها الأستاذ مصطفى السباعى رئيس الإخوان فى دمشق عملت بهمة ونشاط فى مناطق «المثلث» و«القدس» وساهمت مساهمة فعالة فى الدفاع عن هذه المناطق الحيوية .

وكانت العصابات غير النظامية التى شكلتها شعب الإخوان فى فلسطين تعمل منذ بداية الحركة فى المناطق الشمالية والوسطى تحت القيادات العربية المحلية وتقوم بغارات ناجحة على مستعمرات اليهود وطرق مواصلاتهم رغم الضعف الشديد الذى كانت تعانية سواء فى التسليح أو التدريب .

ولقد اضطر الإخوان إزاء القيود التى فرضتها الحكومة إلى تقديم شبابهم للعمل تحت قيادة الجامعة العربية ، فتشكلت منهم ثلاث كتائب أتمت تدريبها فى معسكر اها كستيب ثم تسللت إلى فلسطين قبيل زوال الانتداب البريطانى . وكان يقود الكتيبة الأولى الشهيد «أحمد عبد العزيز» الذى قام بنشاط ملحوظ فى مهاجمة اليهود فى النقب قبل أن تتخذ موقعاً دفاعياً عن مناطق جنوبى القدس .. وكانت الكتيبة الثانية بقيادة البكباشى «عبد الجواد طبالة» ترافق الجيش المصرى وتشترك معه فى الدفاع عن منطقة غزة ، وتتولى حصار بعض المستعمرات ، وتقوم بحراسة بعض النقط الهامة فى خطوط المواصلات ثم تستقر بعد ذلك مع زميلتها فى «بيت لحم» عقب استشهاد المرحوم أحمد عبد العزيز .

وتتجمع هذه القوات فى تلك المنطقة وتنجح فى المحافظة عليها وتسليمها للجيش الأردنى بعد حصار شاق طويل ، وهجمات عنيفة من العدو أظهرت فى صدها الكثير من البطولات .

وهكذا وبالرغم من تلك القيود القاسية التى فرضها الاستعمار وحافظ عليها أذنابه من بعده فقد اشترك الإخوان فى الحرب بأعداد كبيرة كانوا يتحملون الإنفاق على معظمها ويتكبد مركزهم العام ألوف الجنيهات فى شراء الأسلحة والمعدات ... ولكى نضع بين يدى القارئ صورة توضح مدى فعالية القوة القتالية للإخوان فى فلسطين فسنقتبس بعض صفحات من كتاب الأستاذ كامل إسماعيل الشريف يشرح فيها بعض مواقع لهم مع اليهود .

أول معركة للاخوان بفلسطين :

فى صفحة ٦٩ من كتاب الأستاذ الشريف يقول :

لم يكن الإخوان يعلمون عن المستعمرات اليهودية وتحصيناتها أكثر مما عرفته إدارة المخابرات فى الجيوش العربية النظامية ، فلقد هونت هذه المخابرات من شأن التحصينات اليهودية وقللت من أهميتها ، حتى لقد قدرت إحداها ٧٢ ساعة ليفرغ جيشها من احتلال فلسطين كلها ، وحتى سمعنا أحد المسئولين العسكريين فى جيش عربى كبير يقول للوحدات العسكرية الزاحفة إنها ذاهبة فى «نزهه عسكرية إلى تل أبيب لا أكثر ولا أقل» وحتى لا يقطع على الضباط والجنود دهشتهم قال لهم إن الناس فى قريتى حين يقيمون الأفراح والليالى الملاح يطلقون الرصاص فى الهواء دليلا لفرحهم وعلامة على ابتهاجهم ، وإن الأسلحة التى معكم تكفى جداً لهذه المهمة الهينة اللينة .

كان الإخوان فى الفترة الأولى من الحرب يجهلون المستعمرات اليهودية وطرق تحصينها ، فظنوا أن فى مقدورهم مهاجمتها واحتلالها رغم ما كانوا يعانونه من نقص فى الأسلحة والمعدات . ولقد تمت المحاولة الأولى فى الساعة الثانية من صباح ١٤ إبريل ١٩٤٨ وكان الغرض منها احتلال مستعمرة «كفار ديروم» المحصنة . وهذه المستعمرة وإن كانت صغيرة الحجم إلا أنها كانت مقامة فى وضع بالغ الأهمية لقربها من الحدود المصرية ، ولوقوعها على طريق المواصلات الرئيسى الذى يربط مصر بفلسطين ، وكان فى استطاعة حراسها أن يراقبوا الداخل والخارج وأن يقطعوا هذا الطريق فى أى وقت يشاءون وهم يختفون خلف أبراجهم المسلحة دون أن يتعرضوا لشئ من الأذى ... لذلك كله اهتمت القيادة اليهودية بهذه المستعمرة وبالغت فى تحصينها وإقامة الأبراج الشاهقة حولها ، وإحاطتها بحقول كثيفة من الألغام والموانع السلكية الشائكة ثم زودتها بعدد كبير من نخبة رجال «الهاجاناه» وفرقة «البالماخ» الفدائية .

هذا وصف موجز لهذا «الجيب» اليهودى الخطر الذى حاول الإخوان تطهيره واحتلاله ، ثم تلقوا على يديه درساً قاسياً ، وكانت هذه المعركة هى نقطة التحول التى غيرت خطتهم وصرفتهم عن معاودة الهجوم على المستعمرات دون أن يملكوا المعدات اللازمة لهذا النوع من القتال .

هاجم الإخوان المستعمرة فى وقت مبكر من صبيحة اليوم ، ونجحوا فى المرور خلال حقول الألغام عبر ممرات أعدوها طوال الأسبوع الذى سبق المعركة ، واجتازوا عوائق الأسلاك الشائكة .. كل هذا تم بدقة وسرعة دون أن يتنبه حراس المستعمرة لما يجرى حولهم ولم يفيقوا إلا على صوت انفجار هائل أطاح بأحد مراكز الحراسة ، ثم بدأت المعركة داخل الخنادق وعلى أبواب الأبراج و«الدشم» وأبدى الإخوان فى هذه المرحلة من ضروب البطولة والفدائية مالا يمكن حصره ولا تصويره . واستطاع اليهود أن يسدوا الثغرات التى أحدثها المجاهدون فى دفاعات المستعمرة ثم حاصروا القوة الصغيرة التى نجحت فى التسلل إلى أوكارهم ومضوا يحصدونها ببنادقهم ورشاشاتهم .

وهكذا فشلت المحاولة الأولى ومضى الإخوان يحملون شهداءهم وجرحاهم وكان عددهم يربو على العشرين وانتهت المعركة على هذه الصورة المؤسفة ولكنها ظلت مثلا فريداً للبطولة والتضحية .

من بطولات هذه المعركة :

مما زاد فى روعة هذه المعركة أنها كانت المعركة الليلية الوحيدة التى شهدتها معارك الجنوب ، وتمت فى خفة وهدوء يدلان على مستوى عال فى التدريب والمقدرة ، وظل الإخوان طوال فترة الحرب يتذاكرون المثل العليا التى سجلها المجاهدون فيها ، والتى أعادت إلى الأذهان صوراً حية من جهاد الصدر الأول ، فهذا أحدهم وهو المجاهد «محمد سلطان» من مجاهدى الشرقية يزحف على بطنه حاملا لغماً هائلا وهدفه أحد مراكز الحراسة فى المستعمرة .. يتنبه إليه الحراس وهو قيد خطوات من هدفه فيطلقون عليه رصاصات تصيبه فى ذراعه وتعجزه عن المضى فى زحفه ، ولكنه يتحامل على نفسه ويزحف بصعوبة والدماء تنزف من جراحه والرصاص يتناثر من حوله ويظل يجاهد بعناد حتى يقترب من هدفه فيشعل اللغم ويدمر مركز الحراسة ويقضى على البطل الفذ ويمضى ليلاقى ربه شهيداً .

وهذا المجاهد «عبد الرحمن عبد الخالق» يقود إحدى جماعات الاقتحام فى المعركة ويستمر فى قتاله الرائع رغم أوامر الانسحاب التى صدرت إليه فيقول : كيف ننسحب وإخواننا فى داخل

المستعمرة ؟ ثم يذكر من معه بقول الله تعالى «يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار» ويظل يقاتل بشدة حتى تصيبه رصاصة قاتلة فى رأسه لتضع اسمه فى عداد الشهداء

وهذا مجاهد آخر هو «عمر عبد الرءوف» تصيبه رصاصة فى صدره لتبدو على وجهه ابتسامة مشرقة ويهتف بمن حوله «أترون ما أرى ؟» ثم يأخذ نفساً طويلا ، ويقول : هذه هى الجنة .. إننى أراها .. وأشم رائحتها » ثم يلفظ أنفاسه الطاهرة .

ما استفاده الإخوان من هذه المعركة :

خرج الإخوان من هذه المعركة بنتيجة واحدة ، فهموها وظلوا يعملون على أساسها طوال الفترة التى قضوها فى فلسطين ، فهموا أن مهاجمة المستعمرات اليهودية بهذا النقص الواضح من الأسلحة والمعدات هو انتحار محقق ، وفهموا كذلك أنهم لن ينجحوا إلا فى حرب عصابات ينزلون فيها الضربات على خصومهم خارج هذه المستعمرات دون التعرض لحصونهم واستحكاماتهم. ولقد قلت للإخوان عقب هذه المعركة مباشرة : «إن اليهود أقوياء فى هذه الحصون والأبراج ، فلن نهاجمهم فيها بعد اليوم ولكننا سنغير على قوافلهم ونضطرهم إلى قتالنا فى الأرض المكشوفة» وعلى هذه الطريقة بدأ الإخوان ينظمون أنفسهم فى عصابات صغيرة ترابط على طرق المواصلات وتهاجم شبكات المياه ومراكز التموين ، حتى اضطر اليهود إلى إخراج كثير من قواتهم لحراسة المواصلات والقوافل ، فاستطاع الإخوان بذلك أن يوقعوا بهم ضربات حاسمة سريعة وأن يغنموا منهم كميات كبيرة من العتاد والسلاح . وإليك مثالا للأخذ بهذه السياسة :

أسلوب جديد فى مهاجمة اليهود :

حدث مرة أن قامت قوة من الإخوان بقيادة المجاهد حسن عبد الغنى بتدمير شبكات المياه بين مستعمرتى (بيرى) و (أتكوما) وأباحت أنابيب المياه لأعراب المنطقة ينتزعونها منا لأرض تحت حراستهم ، حتى نزعت من الأنابيب مساحات شاسعة ؛ ثم رابطت فى المنطقة تمنع العدو من إصلاحها . وصبر اليهود يومين عساها تنصرف لشأنها ولكن القوة العنيدة ظلت تواصل تدمير الأنابيب ونزعها والتعرض للمصفحات والقوافل التى تحاول إصلاحها ؛ فلم تجد القيادة الإسرائيلية بداً من الدخول فى معركة مباشرة . فجمعت عدداً من المصفحات من جميع المستعمرات وأحاطت القوة الصغيرة من جميع الجهات ، وأخذت تقترب منها على أمل أن تظفر بها .. وصمد الإخوان صموداً عجيباً ، وأوقعوا من اليهود عدداً من القتلى قبل أن يبعثوا فى طلب النجدات من معسكراتهم

وجاءت مصفحات الإخوان وألامت نطاقاً حول مصفحات العدو الذى أسقط فى يده حين رأى نفسه محصوراً بين نارين ، فاضطر إلى طلب نجدات أخرى من المستعمرات القريبة ، وامتلأ ميدان المعركة بقوات كبيرة من الجانبين واشتد القتال بين الفريقين شدة لم يسبق لها مثيل حتى يئس العدو من زحزحة الإخوان عن موقفهم فأخذ يطلق سحباً من الدخان ليستر انسحابه .. وما كادت أطباق الدخان تنجاب عن ميدان المعركة حتى سارع الإخوان يجمعون غنائمهم من السلاح ويعودون لتدمير الأنابيب من جديد .

حقارة اليهود : وأيقن اليهود أنه لا قبل لهم بمواجهة هذه القوات المتفانية فى حرب شريفة ، فلجأوا إلى أسلحة الغدر والخيانة ؛ وحاولوا تسميم آبار يستعملها الإخوان فى منطقة «خزاعة» حيث كان المجاهد نجيب جويفل يرابط فيها بسريته .. ولكن عين الله المبصرة ويقظة الإخوان مكنتهم من اكتشاف الجريمة قبل وقوعها : وذلك أنهم لمحوا رجلين يرتديان الملابس العربية ويتظاهران باستجلاب الماء ، وكان منظرهما يدعو إلى الريبة ، فاقترب منهم الجندى الحارس وأمرهما بالوقوف فلاذا بالفرار فتعقبهما الحارس وعدد من إخوانه حتى أدركوهما ولم يبق بينهما إلا خطوات وأمرهما بالتسليم مهددين إياهما بإطلاق النار فرفعا أيديهما بالتسليم ، وحين اقترب الإخوان منهما انبطحا على الأرض فى سرعة وقذفا على المهاجمين عدداً من القنابل اليدوية ، فأسرع الإخوان بملاصقة الأرض ثم أطلقوا عليهما النار فأردوهما قتيلين .

وبلغت النقمة بالإخوان من هذا الغدر أن حملوا الجثتين إلى مستعمرة «نيريم» وهناك على مقربة من العدو نضحوا الجثتين بالبترول وأشعلوا فيهما النار على مرأى من المستعمرة .. وجن جنون اليهود وأخذوا يلوحون بأيديهم فى غضب وانفعال .. وحين جن الليل هاجموا مواقع الإخوان فى «خزاعة» انتقاماً لهذا الحادث ولم يتمكنوا من زحزحة الإخوان وإن كانوا قد نجحوا فى قتل أحد المجاهدين الأبرار الشهيد عيسى إسماعيل عيسى من إخوان الشرقية الكرام .

وهكذا نجحت الخطة الجديدة ، ولم يعد الإخوان فى حاجة إلى معاودة الهجوم على المستعمرات المحصنة والتعرض لنيرانها ؛ ذلك لأن اليهود قد اضطروا إزاء هجمات الإخوان المولقة على قوافلهم وطرق مواصلاتهم إلى تعيين دوريات ميكانيكية وقوات كبيرة من المشاة لحراسة تلك الطرق والمنشآت وحمايتها أمام تلك الهجمات .. ولم يكن الإخوان ليضيعوا الفرصة الثمينة فأخذوا يغيرون على هذه القوات المبعثرة فى الصحراء ويرغمونها على القتال إرغاماً حتى تحولت تلك المنطقة إلى ساحة حرب قوية.. ولم يكن يمر يوم فى تلك الفترة دون أن تنشب معركة عنيفة تنتهى حتماً بقتل عدد من جنود العدو وتدمير عدد آخر من مركباتهم ومدرعاتهم .

ولقد حاولت القيادة اليهودية أكثر من مرة القضاء على هذه العصابات وتطهير المنطقة منها ، فكانت ترسل عدداً كبيراً من قواتها ، وكان هذا أقصى مايريده الإخوان فيستدرجونهم إلى المناطق الوعرة ويحاصرونهم فى الشعاب والوديان .

وإذا نظرنا إلى هذه الفترة نجد أن الإخوان قد وصلوا إلى نتيجتين لم يكونوا يستطيعون الوصول إليهما بدون هذه الأعمال العصابية ؛ فالنتيجة الأولى هى خروج اليهود من مستعمراتهم وحصونهم لمقاومة عصابات خفيفة محصنة فى بطون الشعاب والوديان . والنتيجة الثانية أن الإخوان استطاعوا الحصول على كثير من الغنائم والمعدات التى لم يكونوا يملكونها كالمصفحات الضخمة والأسلحة الرشاشة البعيدة المرمى ، هذا عدا أنواع مختلفة وكميات كبيرة من الذخائر والقنابل .

من البطولات الخارقة :

يقول كامل الشريف فى صفحة ١١٤ : «وكان هذا النجاح حافزاً على القيام بحركة جديدة ذلك أن مستعمرة «تل بيوت» دأبت على إطلاق النيران من برجها الضخم وتسبب عن ذلك كثير من الخسائر والأضرار مما اضطر أحمد عبد العزيز إلى إصدار أوامره إلى الأخ المجاهد «حسين حجازى» ليتولى تدمير هذا البرج الخطر.. وفى ليلة ٤ يونيوانطلقت جماعةمن الإخوان منبيت لحم وأحيط انطلاقهم بتكتم كبير حتى إن زملاءهم فى القوة لم يعلموا حقيقة المهمة التى سيقومون بها ، حتى لمعت برقة خاطفة أضاءت صفحة السماء وأعقبها انفجار هائل ارتجت له أركان المدينة وشاهد الناس أحجار البرج الضخم تتناثر فى الهواء ثم تتهاوى لتصنع من تراكمها قبراً كبيراً يضم تحته رجال الهاجاناه .

الهدنة الأولى أو الكارثة العظمى

وقد علقت جريدة «أخبار اليوم» فى عددها الصادر فى ٥ يونية سنة ١٩٤٨ تصف هذه العملية الجريئة فقالت بعد كلام طويل : «وفى الليل تسلل (حسين) ومعه أربعة جنود .. وزحفوا على الأشواك فى «صور باهر» أربعة كيلو مترات تحت تهديد الرصاص الطائر فى الهواء والحيات الزاحفة بين الأحجار ... وقرب الفجر سمعت «بيت لحم» انفجاراً مدوياً ، وتهدمت ثلاثة حصون من (تل بيوت) . وفى الصباح عاد (حسين حجازى) ليتلقى تهنئة قائده ومنها لقب «بطل تل بيوت» .

«وبينما المجاهدون يوجهون ضربات مركزة فى كثير من المناطق ، ويعدون أنفسهم للوثوب

على القدس الجديدة إذا بالدول العربية تقبل الهدنة الأولى وتصدر أوامرها لجيوشها بوقف إطلاق النار لمدة أربعة أسابيع تبدأ من يوم ١١ يونية ١٩٤٨ » .

موقف الإخوان من الهدنة الأولى :

الذى اقترح الهدنة الأولى هى الأمم المتحدة يمثلها الكونت برنادوت ، والذى اعترض على هذا الإقتراح هم الإخوان المسلمون لأن الإخوان كانوا هم أدرى الناس بحقيقة الموقف فى فلسطين ... كانت القوات العربية جيوشاً ومتطوعين فى انتصار ساحق ، وكان اليهود فى هزائم متلاحقة وارتباك شديد .. وفهم الإخوان أن اليهود لم يجدوا لهم مخرجاً من الورطة التى وقعوا فيها إلا بحيلة ماكرة يستردون فيها أنفاسهم . ويعيدون خلالها تنظيم صفوفهم ، ويستغلون فيها غفلة خصومهم . فأوحوا إلى مؤيديهم فى الأمم المتحدة – وما أكثرهم – أن يطلبوا تقرير هدنة يسحب الطرفان خلالها قتلاهم لمدة أسبوعين .

فهم الإخوان ذلك ، وكل المتابعين لأنباء القتال فى فلسطين فى ذلك الوقت كانوا يفهمون ذلك ، والصحفيون الذين كانوا فى الميدان وخارج الميدان كانوا يفهمون ذلك .. وكان على حكومة مصر أن تكون أول من يفهم ذلك .. لكن هذه الحكومة وقفت موقف الأبله لا بل موقف المتباله

كان على الحكومة المصرية أن ترفض هذه الهدنة أو أن تتلكأ على الأقل فى قبولها عدة أسابيع وإذن لتغيرت نتيجة هذه الحرب ، ولما كانت هناك مشكلة تسمى مشكلة فلسطين ولا دولة تسمى دولة إسرائيل .

لم يدخر الإخوان وسعاً فى تقديم النصيحة للحكومة أن لا تنخدع وتقبل الهدنة . وقد افترض الإخوان –بحسن الظن أن الحكومة لم يتضح لها خطورة الموافقة على هذه الهدنة فشرحوا لها مدى الأضرار التى ستحيق بالمجاهدين وبالجيوش العربية وبالأمة العربية وبالأمة الإسلامية إذا ماوافقت على الهدنة وصارت هى وجيشها والمجاهدون ملتزمين بها فى حين أن اليهود لن يلتزموا بها بل إنها ستكون فرصة لهم لإعادة تنظيم صفوفهم بعد أن مزقت كل ممزق .

وقد كتب الأستاذ المرشد مقالا افتتاحياً فى جريدة الإخوان اليومية الصادرة فى ٣ يونية سنة ١٩٤٨ تحت عنوان «حول اقتراح الهدنة... ماذا وراء هذا الرد ؟ » ننقل للقارىء نص هذا المقال لبالغ أهميته التاريخية .. يقول المرشد العام ...

«هنا حقائق ثلاث لا يجادل فيها أحد من الناس :

الحقيقة الأولى أن هذه العصابات الصهيونية الآثمة الغادرة فى فلسطين قد اعتدت اعتداء منكراً على المدن الفلسطينية الكبرى وعلى القرى الصغرى ، وارتكبت من الفظائع ما تشيب له الرءوس ، وكان عن عدوانها هذا أن شردت عشرات الألوف من عرب فلسطين وهاجروا إلى الأوطان المجاورة، وتركوا ديارهم وأموالهم وبيوتهم ومصالحهم نهباً مقسما فى أيدى هذه العصابات التى تحتل الآن حيفا ويافا وعكا وطبرية وهى أعظم مدن فلسطين . ولهذا لم تجد الدول العربية بدأ من امتشاق الحسام لتأديب هؤلاء الطغاة ولاستنقاذ هذه المقدسات ، ولتأمين حياة المقيمين . ورد المهاجرين العرب إلى أوطانهم ، وطرد السفاكين من الصهيونيين إلى البلاد التى قذفت بهم .

والحقيقة الثانية أن الجيوش العربية منتصرة مظفرة بيدها زمام الموقف والحمد لله ، وأن كل يوم يمضى يزيدها ظهوراً وتمكيناً ، وأن الشعوب العربية قد انتفضت فتكشفت عن أروع وأجلّ وأفضل خصال آبائها وأجدادها نجدة وعزة وبذلا وتضحية وقوة وبسالة.وأنها تبذل الدم والمال والنفيس والرخيص ولا تبقى على شئ ء فى فرح وسرور وطمأنينة وارتياح،وأن عنوان هذا كله قد قرأه الخاص والعام على جبهات الأبطال من رجالنا وشبابنا فى الميدان .

والحقيقة الثالثة أن جامعة الدول العربية قد طاولت حتى تعبت المطاولة نفسها ، وقد صبرت على عبث الساسة الدوليين حتى مل الصبر ذاته ، وقد أضاعت فرصاً كثيرة وأوقاتاً غالية ثمينة فى سبيل الظفر بتقدير الرأى العام العالمى وإثبات حسن النية والأخذ بالحكمة والعقل والتبصر ، وأصبح الأمر كما قال الأستاذ العقاد فى إحدى مقالاته ، لن نجنى بعد ذلك من الحكمة والتعقل إلا أن نعرف بعد فوات الأوان أننا كنا أشد تعقيلا من المجانين .

هذه هى الحقائق الثلاث التى كانت ولا زالت تفرض على الدول العربية أن ترفض كل اقتراح يشير إلى هدنة أو شبه هدنة إلا بعد أن تدخل جيوشها تل أبيب وتطرد هذه العصابات الآثمة من حيفا ومن يافا ومن عكا ومن طبرية وتطوق كل مستعمراتهم أو تستولى عليها وترد المهاجرين من عرب فلسطين إلى ديارهم .. ثم إذا قيل بعد ذلك « الهدنة» فيها وإلا فالقتال حتى يقذف بآخر يهودى صهيونى إلى البحر وتطهر فلسطين المباركة من هذا الرجس .

ومن هنا كان الرد المطاط المرن غريباً علينا نحن الإخوان المسلمين ؛ فنحن فى ساعات الجد الحازم الذى لا يحتمل العبث مع العابثين من رجال ليك سكسيس وأمثالها .

ونحن فى الحقيقة حائرون فى السبب الذى جعل اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية تؤثر هذا الوضع وترد بمثل هذا الرد ؟ ..

وهل حقيقة ما يقال من أن بريطانيا هى التى دفعت بالدول العربية إلى القتال لتسوى خلافاتها معها فى ظل انشغالها بهذا الميدان حتى إذا «لحمتها هذه اللخمة؛» أرادت الهدنة بعد ذلك لتصل فى هذه االفترة إلى ماتريد ؟ وأنها بذلك تلعب على الحبلين وتظن أنها قد أرضت العرب بتظاهرها بالوقوف إلى جانبهم حيناً من الزمن ثم تحاول إرضاء اليهود بتشجيع الهدنة التى يستطيعون فى ظلها أن يتنفسوا مما هم فيه من ضيق ؟.

أم أن ذلك غير صحيح والصحيح أن قادة العرب أنفسهم هم الذين يريدون هذه الهدنة لأمور جدت وحوادث حدثت بعد الاستيلاء على القدس القديمة .. ونحن لا نستطيع أن نصدق هذا ولاذاك ولا أن نرى له نصيباً من الصحة فقادة العرب فى تماسكهم وتضامنهم واتفاقهم على كل شىء ووطنيتهم أعظم غيرة وحرصاً على مصلحة فلسطين ومصلحة أوطانهم من أن يكون هناك ظل لهذا التفكير .

وإذا لم يكن هذا ولا ذاك فهل الصحيح أن حكام الشعوب العربية لا زالوا مغرمين بالأساليب السياسية كارهين لكل مايتصل بالحرب والجهاد بسبب، يؤثرون دائماً أنيصلوا من غير هذه الطريق ولو لم يكن هناك طريق غيرها ، وأنهم وجدوا فى الهدنة المقترحة ما يتفق مع هذا الهوى ويماشى هذا المنطق فقبلوها مرحبين ..؟.

ونحن لا نريد أن نصدق هذا أيضاً فالحكام بعد أن رأوا هذا الإجماع الرائع و هذه الحماسة البالغة من شعوبهم لايمكن أبداً إلا أن تتحول فى أنفسهم طبيعة المسالمة بل عادة المسالمة والملاينة التى ألفوها ويؤمنوا أقوى إيمان بأن الجهاد هو أقرب طريق لتحقيق الآمال وما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا .

لم يبق إذن إلا فرض واحد هو أن اللجنة السياسية تريد أن تبرهن من جديد على حسن نية الدول العربية وحبها الدائم للسلام لتكسب بذلك عطف الرأى العام العالمى ولتكسب الوقت أيضاً ولتحرج الصهيونية أمام مجلس الأمن .

ومع جواز هذا فى عرف السياسة فنحن نعتقد أن العدول عن الحزم وعدم أخذ الأمور بمنتهى الشدة والجد فى الموقف الذى نحن فيه لا يكون وراءه إلا تعقد الأمور وزيادة المتاعب ،

:نا نؤثر أن يكون شعارنا اليوم وبعد أن يئسنا من أساليب الدبلوماسية هذااليأس ماقاله من قبل د المؤمن بن على :

وحكم السيف لا تعبأ بعافيـــــة وخلها سيرة تبقى على الحقب
فما تنـــال بغــير السيف منقبــة ولانرد صدور الخيل بالكتب

كان يطاع لقصير رأى !!...

إننا متشائمون من هذه الهدنة لا نرضى بها ولا نوافق عليها . ونحمل الذين اختاروا هذه طريق تبعة عملهم بين يدى الله والناس . ولله الأمر من قبل ومن بعد ولا حول ولاقوة إلا بالله على العظيم ...»

ولم تكن الهدنة الأولى فى حقيقتها إلا أسلوباً جديداً ابتكرته هيئة الأمم لمساعدة اليهود وتمكينهم ن جلب الأسلحة الثقيلة والذخائر . ولقد كان قبولها منجانب العرب اعترافاً فعلياً بقيام إسرائيل لم تقف فائدة الهدنة لليهود عند حد جلب السلاح والعتاد فحسب ، ولكنها أيضاً كانت وسيلة لاحتلال المواقع الهامة ، إذ أنأغلب المراكزالخطيرة لم يستطعاليهوداحتلالها إلا بهجمات غادرة قاموا بها خلال الهدنة .. وكانت الحجة دائماً عند هيئة الأمم وعند حكومة إسرائيل أن أصحاب هذه الحركات الغادرة ليسوا إلا عصابات فوضوية متطرفة ، وكانت الدول العربية تصدق هذا الزعم وتشفق على هيبتها وكرامتها أن تجارى عصابات فوضوية وهى الدولذات المركز والسلطان . وعن هذا الطريق احتل اليهود أغلب المناطق التى وقعت فى أيديهم .

الموقف بعد الهدنة الأولى :

يقول كامل الشريف فى صفحة ١٤٨ : أود قبل أن أستطرد فى بيان ما خفى من نشاط الإخوان المسلمين وأثرهم فى الميدان أن أشير إلى بعض التغييرات الجوهرية التى طرأت على جبهات القتال بعد فرض الهدنة الأولى ليكون القارىء على حقيقة بينه من الموقف .

لزم الجيش المصرى مواقعه التى احتلها . وأخذت وحداته تنظم الدفاع عن نفسها وتستعد لاستئناف القتال ، وعند نهاية الهدنة أخذ الجيش يهاجم مراكز اليهود بعنف وشدة ، ويضيق الخناق على المستعمرات الجنوبية حتى كادت تموت جوعاً وعطشاً ، وأدركت القيادة اليهودية حقيقة الخطر الذى يحيط بهذهالمستعمرات فحاولت تموينها بالطائرات ولم تنجح فى هذه الخطةأيضاً إذ كان السلاحالجوى المصرى فى ذلك الحين لا يزال يسيطر . وأذكر أنهم قاموا بمثل هذه المحاولات فى

المستعمرات التى يتولى جنود الإخوان حصارها غير أن الإخوان أرغموها أكثر من مرة على إلقاء حمولتها بعيداً عن المستعمرات تحت تأثير نيران المدافع الرشاشة التى كانت تسلط عليها من أبعاد قريبة والفرار راجعة إلى قواعدها . وكانت هذه الحركة مصدر غنائم جديدة للإخوان ومصدر مضايقات مثيرة لليهود .

الهدنة الثانية أو ثالثة الأثافى

وهنا فرضت الهدنة الثانية التى استطاع اليهود فى خلالها أن يجلبوا أنواعاً جديدة من الأسلحة الثقيلة والطائرات الضخمة ... وحين آنسوا فى أنفسهم شيئاً من القوة والإعداد ، ضربوا بالهدنة عرض الحائط وبدأوا عمليات جريئة واسعة النطاق ؛ فهاجموا (تقاطع الطرق) فى ١٤ أكتوبر واحتلوها.

وبذلك تحطم الحاجز الذى يفصل الشمال عن الجنوب ، وانطلقت القوات اليهودية المدرعة تحمل الأسلحة والجنود وانتفضت المستعمرات الهادئة الوادعة ، ودبت معالم الحياة والنشاط فى أوصالها وقامت لتؤدى دورها المرسوم فقطعت طرق المواصلات حين كان الضغط يشتد على خطوط الجيش الأمامية مما اضطر قيادة الجيش إلى تقصير خطوطه والتخلى عن مناطق المجدل واسدود تاركة خلفها قوة قوامها خمسة آلاف جندى فى منطقة (الفالوجا) لم تستطع الإفلات والحاق بالجيش المنسحب إلى غزة .

بطولات خارقة لحماية انسحاب الجيش المصرى

فرضت السياسة الخرقاء لحكومة المصرية على الجيش المصرى فى فلسطين بقبولها الهدنتين الأولى والثانية الوضع الذىيكون فيهالانسحاب هوأقلالضررين،ولم يتوان الجيش فى إعداد خطة الانسحاب ، ولكن كان لابد لتأمين انسحابه من الاحتفاظ بمواقع معينة إذا فقدها فشلت خطة الانسحاب وصار الجيش معرضاً للفناء ، وننقل فيما يلى عن الأستاذ كامل الشريف لمامن بطولات رائعة للإخوان فى سبيل تأمين الجيش المصرى .

١ – استرداد العسلوج

كان احتلال العسلوج يعنى قطع مواصلات الجيش المصرى فى الجبهة الشرقية ؛ مما دعا القيادة العامة إلى تنظيم خطة لاستردادها . وفى اليوم التالى تحركت قوة كبيرة من الجيش النظامى تعاونها المدفعية والسيارات المدرعة ، ولكنها فشلت فى الاقتراب من القرية لاستماتة العدو فى الدفاع عنها

فاستنجدت القيادة العامة بالبكباشي أحمد عبد العزيز الذى وكل الأمر لليوزباشي محمود عبده قائد الإخوان فى «صور باهر» ليتولى إرسال قوة من رجاله تسترد هذه المواقع ، وأترك وصف النتيجة لسعادة اللواء أحمد محمد المواوى بك القائد العام وهى مقتبسة من شهادة أدلى بها بين يدى القضاء فى إحدى قضايا الإخوان المسلمين التى عرفت باسم «قضية سيارة الجيب» وكانت إجابته رداً على سؤال وجهه إليه الدفاع فى القضية المذكورة .

– هل كلفتم المتطوعين بعمل عسكرى خاص عند مهاجمتكم العسلوج » ؟..

– نعم ... العسلوج بلد تقع على الطريق الشرقى واستولى عليها اليهود فى أول أيام الهدنة . ولهذا البلد أهمية كبرى بالنسبة لخطوط المواصلات ، وكانت رياسة الجيش تهتم كل الاهتمام باسترجاع هذا البلد ، حتى إن رئيس هيئة أركان الحرب أرسل لى إشارة هامة يقول فيها (لابد من استرجاع العسلوج بأى ثمن) فكانت الخطة التى رسمتها لاسترجاع هذا البلد هى الهجوم عليها من كلا الطرفين من الجانبين ، فكلفت المرحوم أحمد عبد العزيز بك بإرسال قوة من الشرق من المتطوعين وكانت صغيرة بقيادة ملازم ، وأرسلت قوة كبيرة من الغرب تعاونها جميع الأسلحة ولكن القوة الصغيرة هى التى تمكنت من دخول القرية والاستيلاء عليها .

ولما سأله المحامون عن السبب فى تغلب القوة الصغيرة أجاب :

– القوة الغربية كانت من الرديف وضعفت روحهم المعنوية بالرغم من وجود مدير العمليات الحربية فيها إلا أن المسألة ليست مسألة ضباط .. المسألة مسألة روح ، إذا كانت الروح طيبة يمكن للضابط أن يعمل ما يشاء ، ولكن إذا كانت الروح ميتة فلايمكن للضابط أن يعمل شيئاً ... لابد من وجود الروح المعنوية .

يقول كامل الشريف : وهكذا تحررت «العسلوج » وكان تحريرها على يد قوة من الإخوان بقيادة ضابط ملازم هوالأخ المجاهد «يحى عبد الحليم » من إخوان القاهرة ... ومع هذا النجاح الباهرالذى أحرزه الإخوان وعظم الخسائر التى منى بها العدو ، كانت خسائرنا صغيرة جداً لاتتجاوزعدداً من الجرحى من بينهم قائد القوة المهاجمة المجاهد «يحى عبد الحليم»

١ – استرداد تبة اليمن :

نجح العدو فى ١٩ اكتوبرفى اقتحام مرتفع شاهق يعرف بتبة اليمن ... وهأنذا أنقل نص إشارة رسمية بعثتها قيادة (بيت لحم) إلى الجهات العسكرية المسئولة بتاريخ ٢٠ اكتوبر :

«قام العدو بهجوم عنيف على جميع مواقعنا الدفاعية تحت ستار غلاله شديدة من نيران الأسلحة الأوتوماتيكية والهاونات وقاذفات الألغام والمدفعية الثقيلة – صدت قواتنا الهجوم – تمكن العدو

من الاستيلاء على مواقعنا بجبل «اليمن» -قامت قوة من الإخوان المسلمين بقيادة الملازم أول خالد فوزى بهجوم مضاد فطردت العدو بعد أن كبدته خسائرنا فادحة - خسائرنا ضعيفة. وقد أبلغنا مراقبى الهدنة ».

وقد علقت أغلب الجرائد العربية واليهودية على هذه المعركة وذكرت جهود الإخوان فيها بالإكبار والإعجاب .. وكتبت جريدة «الناس» العراقية فى عددها الصادر يوم ٧-١١ مقالا تحت عنوان «بسالة متطوعة الإخوان المسلمين » جاء فيه :

«وإن اليومين الماضيين امتازا ببسالة منقطعة النظير من متطوعة الإخوان المسلمين فقد استولى اليهود شمال غرب بيت لحم بعد محاولات عديدة على جبل مرتفع يسمى «تبة اليمن» ويشرف على قرى الولجة وعين كارم والمالحة وما جاورها وأصبحوا يهددون كل المناطق المحيطة بها ، ورأت قيادة الجيش المصرى ضرورة تطهيرها فندبت لذلك عدداً من متطوعة الإخوان المسلمين فى «صور باهر» فتقدمت سرية منهم .. ولم تمر ساعة حتى كانت هذه الفرقة قد أجهزت على القوة اليهودية وغنمت ذخيرتها ومتاعها وحررت قرية «الولجة» وأصبحت تسيطر على منطقة واسعة .. وقد أصدرت قيادة الجيش المصرى أمراً بتسمية الجبل «تبة الإخوان المسلمين» . وقد استشهد من الإخوان كل من مكاوى سليم على من الزقازيق والسيد محمد قارون من المنصورة وإبراهيم عبد الجواد من الفيوم رحمهم الله رحمة واسعة » .

أقول : وقد نشرت الصحف المصرية نبأ هذه الموقعة وقد قرأتها فى ذلك الوقت فى جريدة الأهرام بنفس هذه المعانى .

٣ - حماية الجيش المصرى فى مرحلة الانسحاب :

فى مرحلة انسحاب الجيش المصرى بعد الهدنة الثانية حاول الجيش تثبيت أقدامه فى منطقة «غزة» وجمع قواته المبعثرة بعد الإنسحاب ... يقول كامل الشريف : والعدو الماكر يأبى إعطاء قوات جيشنا فرصة للتفكير فى أمرها بما يقوم به من هجمات «وهمية» على غزة ومن غارات جبارة على مراكز الجيش بها ، ويزيد فى إشغالها بالمناورات البحرية التى تقوم بها قطع أسطوله وتحاول قطع الطريق الساحلى الذى تسلكه القوات فى انسحابها من المجدل .

ولم تكن هناك خطة منظمة للدفاع عن هذه المناطق إذ كان الجيش - كما ذكرت - مشغولا فى عمليات الانسحاب ، ولم يكن فى هذه المنطقة كلها حتى ذلك الحين غير عدة سرايا من الإخوان

المسلمين ، ووجد هؤلاء الإخوان أنفسهم أمام حقيقة واقعة هي عبء المحافظة على جيش مصر وحمايته من أي عدوان يحركه اليهود من هذه المنطقة ، ولا يستطيع أحد أن يتكهن بفداحة الكارثة التي كانت وشيكة الوقوع لولا وجود هذه الفئة المؤمنة المجاهدة في ذلك الحين .

شعرنا بخطورة الموقف ، فقدمت مشروعاً إلى القيادة العامة بينت فيه الأخطار الكبيرة التي يمكن أن تقع لو فكر اليهود في مهاجمة هذه المناطق وقطع خط الرجعة على الجيش ، وطالبت في ختام التقرير بإطلاق يد الإخوان وإعطائهم العتاد اللازم والترخيص لهم باحضار قوات أخرى من مصر حتى يمكنهم تنفيذ ذلك المشروع .

وكان المشروع الجديد يقضي باحتلال مواقع (حاكمة) حول كل مستعمرة من المستعمرات الكبيرة ومحاصرتها وعدم إعطائها أية فرصة للتكتل حتى يفرغ الجيش من تنظيم خطوطه الدفاعية . ولقد استدعتني القيادة العامة في «غزة» وناقشتني في تفاصيل الخطة ، ثم أبدت موافقتها المطلقة على تنفيذها . وأذكر أن اللواء المواوي قد وعدني بكتابة خطاب إلى الأمانة العامة للجامعة العربية وإلى رياسة أركان الحرب يطلب فيه تجنيد كتيبة من الإخوان عن طريق المركز العام والشعب وإرسالهم فوراً إلى الميدان ليتمكن من السيطرة على الموقف .

ولقد ذهبت من فوري إلى فضيلة الأستاذ الشيخ محمد فرغلي رئيس الإخوان في فلسطين وعضو مكتب الإرشاد العام وأطلعته على تفاصيل الخطة، فسافر من فوره إلى مصر ليعمل على تجهيز هذا العدد الكبير وعمل الترتيبات اللازمة نحو ترحيلهم إلى الميدان . وأذكر أن اللواء موسى باشا لطفي — وكان يشرف على إدارة العمليات الحربية في الميدان — قابلني بعد ذلك وأبدى إعجابه الشديد بالمشروع ، وأفهمني أن هذه الخطة لو نفذت بدقة وإحكام فسوف يكون لها الفضل الأول في حماية الجيش في هذه المرحلة الخطيرة والاحتفاظ بهذه المنطقة الباقية من فلسطين ، فوعدته خيراً ومضيت إلى المعسكر لأعد العدة وأبدأ العمل .

جمعت الإخوان في ساحة التدريب بالمعسكر وقلت لهم إن الله قد فتح لهم باباً جديداً للجهاد وإن الظروف قد ألقت على كواهلهم عبء المحافظة على الجيش وكرامته ، وإنه لولا ثقتي في قوة إيمانهم ورغبتهم في الكفاح ما قبلت أداء هذه المهمة الشاقة التي أعلم فداحتها وخطرها . ولن أستطيع أن أصور شعور الإخوان وهم يستمعون لهذه الأنباء ، كانوا يقبلون على في ابتهاج واضح وكأنهم يدعون إلى حفلة عرس أو نزهة خلوية لا لميدان قتال فيه من المشقة والخطر ما فيه .

ولقد خرج الإخوان المسئولون في استكشاف حول المستعمرات ، وعاينوا المواقع التي رأوا

احتلالها ثم عاد كل واحد منهم يعد «فصيلته» ليحتل بها مواقعه .. وكانت مشكلة المشاكل إقناع أفراد من الإخوان بالتخلف عن فصائلهم والبقاء فى المعسكر ، ولست أنسى ما كان من أمر المجاهد الشاب «عبد الحميد بسيونى خطاب» نجل العالم الجليل الشيخ بسيونى خطاب ، لقد كان هذا الشاب يبكى بكاء مراً حين أمره قائد فصيلته بالبقاء فى المعسكر ، ومازال يبكى ويبعث بالوساطات حتى أشفقت عليه فسمحت له بالخروج .. وخرج من المعسكر وهو أشد ما يكون فرحاً وابتهاجاً . ولقد أخلص النيه للجهاد فاجتباه ربه وأكرمه واتخذه شهيداً فى إحدى المعارك المشهورة التى جاءت بعد ذلك .

وأقيمت المواقع الجديدة حول المستعمرات ، ولم تكن سيارة يهودية تجرؤ على التنقل بين مستعمرة وأخرى إذ أقام الإخوان «الكمائن» على الطرق وملأوا الأرض بالألغام ، وأخذت دورياتهم المصفحة تجوب الصحراء الواسعة وتصل فى طوافها حتى مدينة «بئر السبع» نفسها .

ولكى أصور أهمية هذه الحركة وأثرها يمكن أن أقول إن خمس عشرة سيارة مصفحة ودبابة قد دمرت خلال أسبوع واحد من بدء العمل ، عدا أنابيب المياة التى كانت تدمر كل يوم مما اضطر اليهود إلى ملاقاة الإخوان وجهاً لوجه ، فنشبت معارك رهيبة سقط فيها بعض الإخوان ولكنها جاءت بأحسن النتائج وأبرك الثمرات ولقد ضج اليهود بالشكوى وأبلغوا مراقبى الهدنة احتجاجاتهم أكثر من مرة ، وعلقت محطة إسرائيل على هذه الحركات وهددت باستئناف القتال ضد الجيش إن لم تكف عصابات الإخوان عن نشاطها فى هذة المنطقة .

ولقد فكر بعض كبار الضباط فى زيارة تلك المواقع البعيدة الواقعة حول (وادى الشلالة) و (تل حجه) و(الرابية) و(الشعوث) وكان برفقتهم أحد الإخوان يدلهم على الطريق ، فلما رأوا أنفسهم يتوغلون فى الصحراء مبتعدين عن خطوط الجيش لأكثر من خمسة عشر كيلو متراً إلى الشرق وهالهم أن رأوا المستعمرات اليهودية خلفهم داخلهم شئ من الشك والريبة ومال أحدهم على الجندى المرافق لهم يسأله (أتراك ضللت الطريق ؟) فلما أخبره أنهم يسيرون فى الطريق الصحيح قال له (إنى أعتقد أنكم متفقون مع اليهود وإلا لما جرؤتم على التوغل فى مناطقهم بهذه الصورة الجنونية) وضحك الأخ المرافق وضحك الضباط جميعاً .. وحين رجعوا إلى معسكراتهم أخذوا يشيدون بما رأوا من بسالة الإخوان وشدة بأسهم . ...وهكذا تمت عمليات الانسحاب وبدأ الجيش يستقر فى المواقع الجديدة التى اختارها .

٤ — معركة التبة ٨٦ :

نتيجة ظروف سياسية سنعرض لها فى الفصل التالى إن شاء الله أمر الإخوان بالانسحاب من

مواقعهم الحاكمة لتمكن اليهود من الاستيلاء على مرتفع هام جداً جنوبي دير البلح يعرف باسم «التبه ٨٦» وكان نجاحهم فى احتلال هذا الموقع يعنى عزل حامية غزة وتمثيل مأساة «الفالوجا» مرة أخرى .

ويقول كمال الشريف : ولقد رأينا كيف اضطر الجيش إلى إخلاء مناطق برمتها عندما احتل اليهود موقعاً مشابهاً عند (بيت حانون) وكان هذا ما يرمى إليه اليهود من معارك (الطرق) التى اتسمت بها حربهم فى فلسطين من قطع مواصلات الجيش وإرغامه على التقهقر ، ثم طلب الهدنة لتمكنهم من المحافظة على ما وقع فى أيديهم ، وكان هذا ما أرادوه من احتلال مرتفع (دير البلح) الذى نتحدث عنه .

ولقد تحدث إلى الأمير الاى (محمود بك رأفت) قائد قطاع (دير البلح) بالتليفون فى ساعة متأخرة من ليلة ٢٣ ديسمبر وأخبرنى أن العدو قد نجح فى اختراق خطوطنا الأمامية فى دير البلح وانتزع المرتفع من أيدى جنودنا الذين أذهلتهم (المفاجأة) ، وقواته تتجمع الآن وتحاول الوصول إلى طريق المواصلات الرئيسى ، ولكن قوات الجيش تحاول حصره فوق المرتفع حتى الصباح حيث يمكننا أن نقوم بهجمات مضادة لاسترداده وتطهيره . ثم صارحنى بأن الموقف جد خطير ، وأن هذه المعركة سوف يكون لها أثر بالغ فى النتيجة العامة للحرب . وختم حديثه طالباً أن يستعد الإخوان ليكونوا آخر (ورقة) نقذف بها فى وجه اليهود ...

فألقيت سماعة التليفون وخرجت من المكتب وكانت أصوات الانفجارات العنيفة تسمع عن بعد فى جبهة القتال فأمرت بصفارة الإنذار لتجمعت قوات الإخوان ، وطلبت تجهيز سرية للاشتراك فى هذه المعركة ، فتهافت الجميع ، فلما وقع الاختيار على الفصائل الثلاث اللازمة ، هلل أفرادها وكبروا وأخذوا يهتفون من أعماق قلوبهم «هبى ريح الجنة هبى» ومضوا يعدون أسلحتهم ويستعدون لمنازلة العدو .. وبعد ساعة تحركت السيارات بمن فيها لترابط قريباً من أرض المعركة

كان الوقت الفجر ، وكان اليهود حتى ذلك الحين لا يزالون فوق المرتفع الذى احتلوه ولا تزال مدافعهم تسيطر على مساحات واسعة من الأرض المنبسطة حوله .

ولم تكد الشمس ترسل أول أشعتها حتى صدرت الأوامر لجنود الجيش بالتقدم فانسابوا فى أفواج متلاحقة تريد أن تصل إلى القمة وتطرد العدو الرابض فيها ، ولكن ارتفاع الموقع وسيطرة أسلحة اليهود على الأرض المحيطة به كانا يمنعان الجنود من الاقتراب ، وظلت الحالة هكذا موجات إثر موجات وجرحى كثيرون وشهداء يسقطون دون الهدف ... وكيف للحوم آدمية أن تقاوم

القنابل والرصاص .. والعدو الماكر يربض خلف خنادقه التي أعدها بعناية ويصوب نيرانه منها على لحوم بشرية متراصة .. وبدا جليا للعيان أن لا أمل مطلقا فى كسب المعركة إلا فى حضور عدد من الدبابات فأرسلوا فى طلبها على عجل .. وجاءت الدبابات ودفعت إلى المعركة واحدة تلو الأخرى فتعطلت منها اثنتان على سفح التل ولم يستطع أحد الاقتراب من مواقع العدو.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد الظهر ، والريح لا تزال تقوى بشدة ، وتسوق أمامها قطعانا من السحب الكثيفة وعواصف المطر الباردة .. ووقف الضباط يتطلعون إلى السماء يلتمسون العون من الله العلى الكبير بعد أن جربت كل الأسلحة ووضح جليا أن هذه المعركة قد (ماعت) وضعف الأمل فى حسمها قبل الليل .

وكان لابد من إلقاء الورقة الأخيرة فطلب الأميرالاى محمود بك رأفت إحضار الإخوان على عجل ، وما إن سمع الجنود والضباط اسمم الإخوان حتى سرت فى نفوسهم روح جديدة من الأمل والثقة . وطلبت من القائمقام على مقلد قائد الفرسان أن يوفر دباباته ليدفع بها أمام جنود الإخوان

وبعد لحظات وصل جنودنا إلى ميدان المعركة ، وترجلوا عند مكان أمين لتنظيمهم وإعدادهم ... وكانت الخطة تقضى بتقسيم الإخوان إلى ثلاث مجموعات : تهاجم اثنتان منها الموقع من الأمام ومن جهة الشمال بينما القوة الثالثة تدور حول الموقع وتهاجم مؤخرته وتمنع تدفق الإمدادات عليه وتجذب اهتمام المدافعين إليها وتشغلهم عن القوتين الأخريين .. وكان المفروض أن تتقدم الدبابات متجمعة أمام قوة الإخوان تحت ستار من نيران المدفعية والأسلحة الرشاشة وتحت غلالة من قنابل الدخان التى كانت تطلقها مدافع الهاون التابعة للإخوان ، وبدأت المعركة على هذا الأساس وانطلق الإخوان إلى أهدافهم وقد علت وجوههم إشراقة الإيمان القوى وكانوا ينشدون بحماس نشيدهم المعروف :

هو الحق يحشد أجنــــــاده ويعتد للموقف الفاصـــل
فصفوا الكتائب آســـــاده ودكوا به دولة الباطـــل

وأمسك الضباط والجنود أنفاسهم وهم ينظرون إلى هذا الشباب المؤمن يتواثب فى ثبات وقوة ولا يثنيه الرصاص والقنابل عن التقدم .. لقد آمن الضباط والجنود أن هناك نتيجتين لا ثالث لها : إما أن ينتصر هؤلاء الشباب أو يموتوا جميعاً لأن الانسحاب والتراجع لا يدخل فى برنامجهم

إطلاقاً ، وخاصة فى مثل هذا الموقف الحرج الخطير .. وظلت مدافع الإخوان تقذف الموقع بقنابل الدخان فترة طويلة حتى أحالت القمة إلى سحابة قاتمة لا ترى خلالها إلا ألسنة من اللهب الناتج عن انفجارات القنابل ... وسكتت المدافع وانساب المجاهدون إلى أهدافهم وبدأت معركة الخنادق . وروع اليهود حين رأوا الإخوان يلقون بأنفسهم فوقهم فى الخنادق والدشم ويعاركونهم بالقنابل والحراب والأيدى ... ورغم كثرة الضحايا من الإخوان فإن القوة قد تمكنت من احتلال أطراف خنادق العدو وأخذت تطهرها جزءاً جزءاً ... ولم يجد اليهود بداً من إخلاء الموقع فصمتت مدفعيتهم وأسلحتهم وشوهدت مصفحاتهم تتحرك للخلف حاملة الجرحى والهلكى . وكان هذا المنظر حافزاً للجنود الآخرين ملهباً لحماسهم فأخذوا يتكاثرون على الموقع ويتمون تطهيره حتى جاءت أخيراً الحمالات (قاذفات اللهب) تطارد فلول العدو المنهزمة وانتهت المعركة بنصر حاسم . وكانت إحدى المعارك الكبرى التى تكبد فيها العدو خسائر فادحة دون أن يحصل على نتيجة تذكر ... ووجد ضمن القتلى عدد من كبار الضباط الإسرائيليين وبينهم قائد المعركة وهو «كولونيل» روسى يحتل مركزاً هاماً فى الجيش الإسرائيلى ووجدت فى جيبه تفاصيل الخطه التى اتبعت فى دير البلح والخطط المقبلة التى كان يراد منها إلقاء الجيش المصرى فى أعماق البحر .

كانت الشمس قد مالت للمغيب حين انتهت المعركة . وأخذ الجنود يحتلون الموقع بعد فرار اليهود منه . أما جنود الإخوان فقد انسحبوا فى هدوء وسكون بعد أن أخذوا معهم كميات وفيرة من الأسلحة الألمانية والروسية وأكداساً من القنابل والذخائر وكان كبار الضباط يعانقونهم عند خروجهم ويهنئونهم بهذا النصر الحاسم ويشيدون بجهودهم وفضلهم .

ولقد زارنى فى الصباح مندوب من قبل القائد العام فؤاد صادق وأخبرنى أن اللواء فؤاد صادق يرغب فى مطالبة الحكومة بالإنعام بأوسمة عسكرية رفيعة على الإخوان إشادة بفضلهم واعترافاً بجهادهم فى هذه المعركة وغيرها وهو يريد منى كشفاً بأسماء «الإخوان» الذين اشتركوا فى معركة الأمس . فمانعت أولا فى تقديم كشف لهذا السبب وقلت إن الإخوان لا يعملون بغية أوسمة وشارات وإنما هم طلاب ثواب ومغفرة وليس لهم مطمع من جهادهم غير الاحتفاظ بكرامة أمتهم وجيشهم والإبقاء على عروبة فلسطين كجزء من وطنهم الإسلامى الكبير ... ولكنه ألح إلحاحاً شديداً وحاول إقناعى بأن الإنعام على الإخوان لا يعد انتقاصاً لبلائهم وثوابهم بل هو اعتراف من الدولة بشجاعتهم وصدق جهادهم ثم هو فوق ذلك اعتراف بفضل الدعوة التى صنعتهم .. وأمام هذا الإلحاح أعطيته الكشف .

مظاهر متناقضة :

كان من التناقض العجيب أن مصر كانت تحارب اليهود فى فلسطين وهى تعلم أن جزءاً كبيراً من تمويل المعركة ضد قواتنا إنما يصل إلى اليهود من مصر عن طريق اليهود الذين يعيشون فيها فأعظم متاجر القاهرة والإسكندرية كانت فى يد اليهود كما أن دور اللهو الكبيرة المغرية كانت ملكاً لهم ...

الفصل الثالث

خطط التآمر العالمى للقضاء على الدعوة

منذ انتقلت دعوة الإخوان المسلمين إلى القاهرة ، وأحس الإنجليز بوقوفها بجانب أهل فلسطين ضد اليهود وتبنيها هذه القضية ، وكان ذلك فى أوائل سنة ١٩٣٧ ، منذ ذلك التاريخ ومحاولات الإنجليز عن طريق صنائعهم من حكام مصر متوالية ومتصلة لا تنقطع ولا تهدأ لتعويق الدعوة وبث العقبات فى طريقهاوقد ألممنا بأمثلة لهذهالمحاولاتفىالفصولالسابقةمنهذهالمذكرات

ولكن الدعوة برعاية الله سبحانه ، وبما وفق الله مرشدها إليه من سعة فى الأفق وبعدفى النظر وإخلاص فى العمل ، استطاعت أن تتخطى هذه العقبات ، وأن تثب فوقها وثباً سبقت به أقرانها المتحررين من عقبات الطريق وكمائن الأعداء .. وبهت الأعداء حين رأوها وقد شبت عن طوقها ، وبلغت رشدها ، وامتد رواقها حتى كسا أرض مصر وظلل الكثير من الأرض العربية والعالم الإسلامى .. ولم يعد فى مصر – وهى المنار الذى يهتدى به كل عربى ومسلم – صوت أعلى من صوتها ولا يد أقوى من يدها ولا كلمة أنفذ إلى القلوب من كلمتها .

وكانوا يعتقدون – بعد أن رأوا نفوذها قد تعاظم .. أن هذا النفوذ مهما تعاظم فمجاله مصر لا يتعداها ، فإذا بهم يفاجأون بهذا النفوذ يصل إلى أبعد البقاع العربية ، فيديل دولة فى اليمن ويقيم دولة أخرى بها ، وتبسط الدولة الجديدة سلطانها ويستتب لها الحكم ... ومعنى هذا أن هذه هى الحلقة الأولى من سلسلة لا تلبث الدول العربية أن تقع واحدة تلو الأخرى ، وتتحقق بذلك نواة الدولة الإسلامية ... وهنا لا يكون للاستعمار إلا أن يحمل عصاه على عاتقه ويرحل إلى غير رجعة ، فإن هذا الكتاب «القرآن الكريم» لا يقبل حيث حكم إلا أن يكون سيداً ، ولا يرضى أن يكون له فى السيادة شريك .. وهذا أمر يفهمه كل المستعمرين فمنهم من يسره فى نفسه ومنهم من يجهر به .

فأيام كانت إيطاليا تجند الألوف من شبابها للإغارة على ليبيا للاستيلاء عليها فى العشرينيات من هذا القرن كانت الفقرة التى تتكرر بعد كل مقطع من النشيد الذى يردده هذا الشباب هى :

«دعينى يا أمى أحطم هذا «الكتاب» الذى لا أمل لنا فى أن نسود العالم ما دام موجوداً»

فالمستعمرون لم يقدموا على استعمار البلاد الإسلامية إلا بعد أن درسوا مقومات استقلال هذه البلاد فعرفوا أن لب هذه المقومات هو الحكم بالقرآن ، فصوبوا سهامهم إليه ... فإذا قامت هذه الدول الإسلامية من جديد — على يد الإخوان المسلمين — محتكمة إلى القرآن ، إذن فقد ضاعت الفرصة على الاستعمار .

وإذن فلا بد من تخطيط ... لقد رسموا خطة قوضوا بها دعائم ثورة اليمن ... فهل يفرحون بهذا النصر مكتفين به ؟ إنهم ليسوا السذج ولا البسطاء .. إنهم أبعد نظراً وأشد حذراً لقد فهموا أن الذى أشعل هذه الثورة التى أحبطوها يستطيع أن يشعل ثورات فى أماكن أخرى ويستطيع أن يعيد الكرة فى اليمن نفسها ... فهل يكون هدفهم تتبع الثورات والعمل على إحباطها ؟ ! إن هذا أمر يطول أمده ولا يرجى أن تكون له نهاية .. فليكن هدفهم إذن محاولة القضاء على الروح التى تنفخ الحياة فى كل مكان ... فليكن هدفهم طمس مصدر النور الذى ينفذ شعاعه إلى الظلام فيبدده حيث كان ... فليكن هدفهم التضامن مع أى كان ، والتحالف مع الشيطان للقضاء على الإخوان المسلمين .

تهديد أمريكى مقنع :

نشرت الصحف المصرية فى ذلك الوقت ترجمة لما جاء بإحدى كبريات الصحف الأمركية عن حسن البنا ما ملخصه «وصفته شكلا وثقافة وسناً وذكاء ومقدرة على حسن الأداء وعلى تملك قلوب سامعيه وعلى سيطرته على المجتمع الإسلامى ثم عقبت على ذلك بقولها : إن هذا الرجل هو أقوى رجل فى العالم الإسلامى اليوم ولا يمكن أن يغلب إلا أن تصير الأحداث أكبر منه»

ولم نفهم نحن الإخوان فى ذلك الوقت من تعقيب الصحيفة فى قولها «إلا أن تصير الأحداث أكبر منه» أن هذا أسلوب خطير من أساليب التهديد وأن هذه الصحيفة بهذه العبارة تستحث قوى الشر فى كل مكان أن تتجمع لوضع مخطط للقضاء على هذا الرجل الذى ضاقوا به ذرعاً ... وإذا كانت السياسة الأمريكية سياسة أقرب إلى الصراحة فإن السياسات الأخرى فى الدول الاستعمارية كانجلترا وروسيا هى سياسات التكتم والسرية المطلقة .

وهذه الدول لا تأخذ على عاتقها إلا التخطيط ، أما التنفيذ فإنها تسخر له غيرها ممن هم ألصق بالمجال الذى يخططون له ويحيكون المؤامرات لتنفذ فيه .. وقد يصل إحكام المؤامرة إلى حد أن يقوم المسخر بتنفيذها وهو لا يشعر أنه مسخر بل يعتقد أنه يقوم بها لحسابه الخاص .. وقد

وجدت هذه الدول فى مصر من يتحرقون شوقا إلى القيام بأى دور للقضاء على الإخوان المسلمين : وجدت ملكا غارقاً فى شهواته يرى الإخوان أكبر خطر على شهواته التى لم يعد يعيش إلا بها فهو يرى القضاء عليها قضاء عليه ، ووجدت حزباً حاقداً موتوراً رضى رجاله أن يكونوا سدنة شهوات هذا الملك الفاجر ، فوجودهم مرتبط بوجود هذا الملك بشهواته ، وإذا طهرت البلاد من رجس هذا العرش العفن كانوا هم أول من يركلوان بالأقدام .. ووجدت حزباً كبيراً منافساً يمكن استغلاله فى تشويه صورة الإخوان فى أعين الشعب .. ورأوا شباباً كثيراً متسكعاً يمكن إغراؤه بما يرضى نزعاته .. وبهذا صارت مهمتهم ميسرة .

وفى الصفحات التالية نسوق إن شاء الله بعضاً من هذه الخطط :

١ ـ البوليس السياسى :

وهذا أسلوب مكشوف وبدائى ، وقد لجأت إليه الحكومات المصرية على اختلاف أحزابها ضد الإخوان . فهم يبثون رجال هذا البوليس فى المجتمعات الإخوانية على أمل أن ينقلوا إلى الحكومة أسرار هذه المجتمعات ... وكان الإخوان بفراستهم يكتشفون الشخصيات المتنكرة لهذا البوليس ، كما أن الإخوان كانوا إذا أرادوا أن يتداولوا فى أمر ذى بال لم يتداولوا إلا فى اجتماعات خاصة يعرف كل منهم فيها أخاه ولا يستطيع أى شخص آخر أن يتسرب إليها .. على أن نظام الأسر المتسلسل والذى يربط كل الإخوان العاملين كان جداراً متيناً يجعل التسرب أو التسمع أمراً مستحيلا .

وإذن فإن الذى كانوا يتوخونه من بث رجال هذا البوليس فى اجتماعات الإخوان من وصولهم إلى أسرارهم قد فشلوا فيه ...

على أن كثيرين من هؤلاء وهم ذوو ضمائر ميتة – كانوا يستبيحون لأنفسهم أن يختلقوا كلاماً وينسبوه إلى الإخوان ليشعروا رؤساءهم أنهم يعملون عملا .. والعجيب أن هذا الغش كان يروج على رجال هذه الحكومات .

ومع أن تسليط هؤلاء الرجال على مجتمعات الإخوان لم يحقق شيئاً مما كانت تأمله الحكومات ، فإن كثرة تطفلهم على هذه المجتمعات خوف بعض من كان يغشى هذه المجتمعات من ذوى الإيمان الضعيف فجعلهم يحجمون عن غشيانها ؛ فقد كان من المألوف فى أثناء إلقاء محاضرة أسبوعية فى شعبة من الشعب أن يدخل ضابط من البوليس السياسى ويطلب فض الاجتماع وأن تقوم مشادة

بينه وبين إخوان الشعبة وقد يؤدى ذلك إلى أن يأخذ المسئول عن الشعبة إلى أقرب قسم بوليس ويحرر له محضراً .

ويجب أن يكون معروفاً أن البوليس السياسى فى تلك الأيام لم يكن يعمل لحساب الحكومة المصرية وحدها بل كان يعمل لحسابها ولحساب السفارة البريطانية بل إن بعض ضباطه كانت صلتهم بالسفارة البريطانية أقوى من صلتهم بالحكومة المصرية ، ولم يكن هذا يغضب المسئولين بالحكومة . وقد كان مثار فخر يحسد المسئولون فى الحكومة المصرية عليه القائمقام محمد ابراهيم إمام مدير البوليس السياسى أن تنشر الصحف المصرية صورة له والسفير البريطانى السير رونالد كامبل يسلمه نيشان الإمبراطورية البريطانية فى ٢١ مايو سنة ١٩٤٧ تقديراً لخدماته .

ولقد كان منظراً مألوفاً أن ترى القائمقام محمد ابراهيم إمام أو أحد رجاله داخلا دار المركز العام ومعه أمر بمنع اجتماع أو بمصادرة عدد من المجلة أو استدعاء بعض الإخوان للتحقيق معهم.. وقد يتحداه الإخوان فى بعض الأحيان ؛ وهكذا كانت العلاقة بين الإخوان وبين البوليس السياسى أو القسم المخصوص كما كان يسميه البعض كحرب سجال يقيدون الإخوان مرة ويتحداهم الإخوان مرة أخرى .

وهذا الأسلوب من أساليب مضايقة الدعوة والكيد لها قد اتبع منذ فجر قيامها لم يفتر يوماً واحداً مع اختلاف درجات ضغطه . فكان يزداد الضغط فى بعض الأحيان ويخف فى أحيان أخرى ، كما كان يشتد على شعبة من الشعب ويفتر مع شعبة أخرى .. وعلى كل فلم يكن ذا تأثير خطير على الدعوة أمام تنظيماتها المحكمة البناء .. ولكن دورهم الخطير مع الإخوان سيأتى ذكره فى مكان آخر إن شاء الله .

٢ — جمعية إخوان الحرية

من أساليب السياسة الإنجليزية الماكرة أنها حين تخطط لما بين يديها من ظروف لا يشغلها هذا عن أن تخطط فى نفس الوقت للمدى البعيد ؛ فكان المفترض وقد اشتعل أوار الحرب العالمية وانجلترا نفسها هى الهدف الذى تصب فوق رأسه حممها ويراد تدميره وإزالته من خريطة العالم ، كان المفترض أن يكون تخطيط الإنجليز مقتصراً على محاولة إنقاذ بلادها وبلاد حلفائها من هذه الويلات ، ولكن الذى حدث أن الإنجليز لم يكتفوا بالتخطيط لهذا وحده بل كانوا يخططون فى نفس الوقت لمقاومة التيار الجديد الذى أخذ يكتسح مصر والبلاد العربية والإسلامية لا يقف أمامه شىء ، ألا وهو تيار الإخوان المسلمين .

لقد أخذ الشباب ينفض من حول الزعامات التى صنعوها وينضوى تحت لواء الإخوان المسلمين ، مع أن لعبة الزعامات كانت لعبة ناجحة تمام النجاح واستطاع الإنجليز بها أن يشغلوا الشباب عن الجد وعن اللب قانعاً بالشمارات وبالقشور ؛ فإذا استطاع الشباب أن يرفعوا زعيما إلى سدة الحكم استقر فى خاطرهم أنهم قد حققوا كل آمال بلادهم ، ولا عليهم بعد ذلك ، فليطمئنوا وليفرحوا ولينامو ويستغرقوا فى النوم فقد تحقق مالا أمل بعده .

فإذا كانت هذه اللعبة قد انكشف زيفها وافتضح أمرها وتبين الشباب أنهم كانوا مخدوعين فانفضوا عنها إلى الإخوان المسلمين ، إذن فلابد من التفكير فى لعبة أخرى تكون أشد تأثيراً وأقوى إغراء لجذب هذا الشباب جذباً يصرفه عنهم .

اتجه تفكيرهم إلى جذب الشباب من أحط غرائزه – وهى أسهل مايقاد منه الشباب – ولكنهم اتبعوا خطة الشيطان حين يخطط لإغواء الصالحين ؛ فهو لا يدخل عليهم ناهياً إياهم عن صلاحهم بل يدخل عليهم مباركاً ماهم عليه من صلاح ليأنسوا إليه فيسلسوا له القياد فيقودهم بعد ذلك إلى مهاوى الضلال .

واقتداء بالشيطان فى خططه الخادعة أنشأوا جمعية أطلقوا عليها «جمعية إخوان الحرية» فالإخاء الذى يفخر الإخوان بالدعوة إليه وتمكينه بين النفوس رفعته هذه الجمعية شعاراً لها . وبلاد مثل مصر تشكو وطأة الإحتلال وتطالب بالحرية يكون للفظ الحرية أجمل صدى فى أسماع شبابها ... ورؤساء هذه الجمعية إنجليز مؤهلون تأهيلا خاصاً يسهل لهم سبل الاتصال بالمصريين وبالعرب فهم يتكلمون العربية وعلى درجة عالية من الثقافة ، وعلى دراية واسعة بأحوال البلد الذى سيعملون فيه ، وفضلا عن ذلك فهم مزودون بسلاحين قاطعين هما المال والنساء .

من هم رؤساؤها ؟.

لم تكن هذه هى المحاولة الأولى من الإنجليز لإرساء أساس لجمعية تناوىء الإخوان المسلمين فقد أنشأوا فى سنة ١٩٤٠ جمعية فى القاهرة سموها «جمعية الإصلاح الوطنى» . أسندت رياستها لجمال الدين هيورث دن وهو إنجليزى سبق له أن أقام فى مصر وتعلم العربية الدارجة وادعى الإسلام وتزوج من مصرية مسلمة كانت تقيم معه فى لندن.. وقد أنشأ مطبعة أمام السفارة البريطانية لإصدار المنشورات المضللة ... وانتهت هذه المحاولة بالفشل فلجأ الإنجليز فى أثناء الحرب العالمية الثانية إلى إنشاء جمعية إخوان الحرية .

وقد أسندوا رياستها للمستر فاى وكان محاضراً سابقاً بكلية التجارة بجامعة القاهرة ثم انتقل

إلى قسم النشر بالسفارة البريطانية . ومن زعمائها الآنسة فريا استارك التى ألفت عدة كتب عن العرب ، والمستر سكيف رئيس القسم الإنجليزى بكلية الآداب بجامعة القاهرة سابقاً .

وقد بدأت باتخاذ مقر لها فى بيت السنارى بحارة منج شارع الكومى بالسيدة زينب ثم لم تلبث أن افتتحت لها فروعاً وشعباً فى طول البلاد وعرضها حتى القرى مقتفية فى ذلك طريق الإخوان المسلمين فى الدخول بالدعوة إلى أعماق البلاد حتى إن بعض الصحف المصرية قد نشرت فى مارس سنة ١٩٤٧ عن رحلة قام بها فى ذلك الوقت المستر فاى إلى الوجه القبلى يصحبه من يسمى بالشيخ الزواوى وذكرت الصحيفة أنهما اتصلوا بعرب الجهمة والأنصار وامتدت رحلتهما إلى قنا وأسوان.. ولما كان التقرب إلى الإنجليز فى ذلك الوقت هو البضاعة الرائجة وكانت خزانة الحكومة البريطانية مفتوحة على مصراعيها فسرعان ما تضخمت هذه الجمعية بما ضمت لعضويتها من ذوى المصالح والمنافقين ، وبعد أصدرت الجمعية فى ذلك العام كتاباً باللغة العربية فى ثلاثمائة صفحة يتضمن أسماء أعضائها وكان بينهم أناس يحتلون مراكز خطيرة فى المجتمع .. وكانت الجمعية تصدر نشرات لا تستحى أن تشيد فيها بدور بريطانيا فى فلسطين وبتدخل أمريكا فى الشئون الداخلية للدول الصغيرة كما تنشر فيها خطب السفير البريطانى .

خطة الجمعية وأهدافها :

لم يكن الإخوان لينزعجوا للعدد الضخم من الأسماء الرنانة وغير الرنانة التى انضوت تحت لواء هذه الجمعية والتى حواها المجلد الضخم ذو الثلاثمائة صفحة الذى أصدرته ، فإن هؤلاء هم غثاء السيل وممن قال الله فى أمثالهم «لو كانوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلا لكم» وإنما أزعج الإخوان هو خطة جهنمية وضعتها هذه الجمعية الايقاع بالشباب الغض الإهاب الخالى الذهن السهل القياد .

لقر الجمعية فى القاهرة مؤثث بأفخر الأثاث ومزود بجميع وسائل الترفيه ثم توجه الجمعية الدعوة إلى الشباب فى معاهده الدراسية وفى نواديه الرياضية وفى مختلف أماكن تجمعاته لحضور محاضرة لرئيس الجمعية أولأحد محاضريها فى مقرها مساء يوم محدد ، وموضوع المحاضرة جذاب يتصل بالحرية التى هى من حق كل المجتمعات ، فيستجيب لهذه الدعوة فى أول الأمر عدد قليل من الشباب .. وحين يستمع إلى المحاضرة ويتمتع بالجلوس على الطنافس والرياش وتقدم إليه المرطبات صيفاً والمشروبات الساخنة شتاء مع بعض الحلوى الفاخرة ؛ فيخرجون من هذه المحاضرة لا هجين بالثناء على مارأوا وما سمعوا وماقدم لهم من طعام وشراب . فإذا مادعت الجمعية

إلى محاضرة أخرى تضاعف عدد المستجيبين وهكذا حتى يصل الحال إلى التسابق للظفر بالجلسة المتعة المشبعة والتى لا تكلفهم كثيراً ولا قليلا .

حينئذ .. وبعد أن يطمئن القائمون على الجمعية إلى أن مجموعة ضخمة من الرواد قد أصبحوا أسرى هذه المتعة الحلال حتى الآن .. يبدأون تطعيم محاضراتهم التى تدور كلها حول التغنى بالحرية وأنها أشرف مايطلب - بلون من الحرية فيه الإغراء هو حرية الاختلاط بين الشباب والفتيات .. وتبدأ الفتيات التابعات لقيادة الجمعية فى مجالسة هؤلاء الشباب ومجاذبتهم أطراف الحديث وما أسرع الشباب الذى استهوته من قبل المتعة الحلال إلى الاستجابة إلى المتعة الجديدة التى هى أشد إغراء من الطعام والشراب والتى تبدأ عادة بشىء فى ظاهره فى حدود الحياء والأدب ثم تتدرج حتى تصل إلى الحرام .

وهكذا يأخذ القادة «المرشدون» فى التوسع فى معنى الحرية بعد أن أوقعوا ضحاياهم فى شرك الإثم وفقد كل منهم احترامه لنفسه ، لتتجه المحاضرات إلى العقيدة ، وتأخذ فى توجيه سهام النقد نحوها ، وتبرز المتمسك بعقيدته فى صورة المتعصب المتزمت ، وأن الحرية تقتضى أن يدع عقيدته جانباً حتى لا تكون هناك عوائق تعوق سبل الأخوة بين الناس من مختلف الأديان.

ويلاحظ أن إقناع صرعى شهواتهم بمثل هذا لايحتاج إلى كثير جهد ولا إلى عظيم عناء ، فتجريد الواحد منهم من عقيدته ماهو إلا إجهاز على جريح مثخن بالجراح ؛ ولذا فإن المحاضرات التى كانت تنمق بأقوى الأساليب إقناعاً تتحول بعد صرع الشباب أمام شهواتهم إلى ما يشبه التعليمات والأوامر لا تستغرق وقتاً ولا تتخللها مجاملة ، ولذا ترى خطوات الانحدار تتوالى فى سرعة مذهلة لا تلبث أن ترى الشباب فى نهاية المنحدر أشبه بالجثة الهامدة لأنها فقدت إنسانيتها وفقدت حتى آدميتها .

فى الخطوات الأخيرة التى تتخذ مع هذا الشباب للإجهاز على ما بقى فيه من آدمية حتى يبدو أمام نفسه حيواناً أو بهيمة يعقد حفل يضم الجنسين وتقدم الخمور وتعزف الموسيقى المثيرة للأعصاب حتى تلعب الخمر بالعقول ويفقد كل الحاضرين سيطرتهم على أعصابهم ويغيبوا عن وعيهم ولا تستيقظ إلا حيوانيتهم وتطفأ الأنوار . وإذ يترك للحيوانية العنان فلا يفيق الجميع إلا وقد وجد كل نفسه فى حضن فتاة .

ومن الأساليب التى قد يعجز الشيطان عن ابتكار مثلها ، أنه إمعاناً فى إذلال الشباب وتمادياً فى الاستيلاء عليه وأسره وقطع صلته بالحياة وتحويله إلى آلة يسخرونها حيث شاءوا ... إنهم لا يكتفون باستعمال الفتيات التابعات للجمعية فى الإيقاع بالشباب بل يكلفون هؤلاء الشبان -

تمشياً مع نداء الحرية – باصطحاب أخواتهم معهم ، فيحضرن ويمررن بالخطوات التى مر بها إخوتهم حتى يصلن إلى الحضيض الذى انحطوا إليه .

ولقد وصل الأمر إلى أن انتهت حفلة من الحفلات الصاخبة التى أشرت إلى طبيعتها الحيوانية فلما أصبح الصباح وجد أحد الشبان نفسه فى حضن أخته .. ولقد سمعت بأذنى قوماً أعرفهم من أهل حى السيدة زينب يتحدثون فى حزن وأسى عن هذا الشاب وأخته وما آل إليه أمرهما فى تلك الليلة وكان الشاب وأخته من أهل الحى نفسه ومن أسرة سميت أمامى .

فطبيعة خطة هذه الجمعية طبيعة جهنمية ؛ فهم يجهدون أنفسهم فى محاولة جذب الشباب إلى الجمعية مرة واحدة ، ثم يتركون هذه المهمة لهذا الشباب نفسه بعد أن جردوه من آدميته ليقوم عنهم بهذه المهمة ... وقد اعتمدوا فى ذلك على خطة نفسية تتلخص فى أن الشاب بعد أن غرروبه حتى فقد آدميته يتولد فى نفسه حقد على زملائه الشبان الذين لا زالوا يحتفظون بآدميتهم وإنسانيتهم وعقيدتهم ، وهو إذ يرى نفسه عاجزاً عن أن يسترد ما فقده فإنه يحاول أن يراهم وقد فقدوا مافقده ليتساووا معه .. ولذا فإن شبان الدفعة الأولى أوضحايا الدفعة الأولى يلحون بكل الوسائل على جر زملائهم من الشبان للذهاب إلى دور الجمعية متكتمين عنهم ماحدث لهم ، غير ذاكرين لهم إلا مايغريهم بالذهاب لسماع المحاضرات والاستمتاع بالمقاعد الوثيرة والمشروبات المرطبة والحلوى الشهية دون مقابل ، ولا يزالون يغرونهم حتى يستجيبوا فينالهم مانال سابقيهم وهكذا .

مثال لمحاولات سابقة :

ويجدر بنا أن نذكر أن الانجليز منذ أحسوا بظهور دعوات جادة فى مصر أخذ الشباب يلتف حولها ويستجيب لندائها وذلك فى منتصف الثلاثينيات ، حاولوا بث أفكار معاكسة لهذه الدعوات تتمثل فى دعوة الشباب إلى نوع من الميوعة مثيرين فيه نزوات الغرائز الوضيعة ، محاولين بذلك فض الشباب عن هذه الدعوات الجادة النابتة حديثاً .. وإذا كان بعض كتابنا الكبار الآن قد لبسوا رداء الجد والفضيلة فإن بعضهم كان فى ذلك الوقت مطية ذلولا لترويج هذه الأفكار الدنيئة ، فقد كان أحد هؤلاء الكتاب يترجم كتباً كان الكتاب الواحد منها بمثابة شحنة مستوردة من الديناميت تكفى لتدمير أخلاق أمة ولم يكتف هذا الكاتب بذلك بل أنشأ جمعية أنسيت اسمها الآن ولكننى لم أنس آثارها فى تخنيث الشباب وسلب روح الرجولة منه .. والذى جعلنى غير ناس هذه العملية مع طول الأمد الذى انقضى على أيامها أنه كان لنا معها حديث طويل .

وبدأ هذا الحديث – وأنا طالب فى كلية الزراعة – بأن رأينا بعض زملائنا من الطلبة أخذوا يصففون شعورهم بطريقة مثيرة ، وأخذوا يلبسون بنطلونات ملفتة للنظر ، وأخذوا ينشرون

بين الطلبة أفكاراً تدعوا إلى التخنث وإلى مهاجمة المتدينين والداعين إلى الدين باعتبار ذلك رجعية .. وأخذت هذه الأفكار تنتشر كما انتشرت مظاهر التخنث فى المظهر والملبس بين الطلبة وكان هؤلاء يحملون شارة خاصة لهذه الجمعية .. فكان أن تصدينا – نحن الإخوان – لهم ، وأخذنا نجادلهم أمام الطلبة فى أفكارهم ، ولكن انتشار الفساد أسرع من تقبل الحق ، فنحن كنا حين ندعو إلى الجد كأنما نقد فى صخر أماهم إذ يدعون إلى الفساد والتخنث فكأنما كانوا قد خلى بينهم وبين ما يشتهون .

ولقد كان هذا حافزاً للدعوتين الجادتين أن توحدا جهودهما فى الوقوف أمام هذا التيار الجارف ؛ فوقف الإخوان ومصر الفتاة فى الكلية وقفة كريمة .. وكان لى صديق من شباب مصر الفتاة فى كلية الزراعة اسمه محمد محمود نصار وكان شاباً صالحاً قوياً لا يخشى فى الحق لومة لائم .. فتداولنا معاً فى أمر هذا الشباب الذى يزداد عدده يوماً بعد يوم ؛ تستهويه الكلمات التى تخاطب فيه شهوته ؛ واستقر رأينا على خطة رجونا أن يكون فيها الحل لهذه المشكلة .

كان قد أظلنا إذ ذاك شهر رمضان وكان من مقتضيات ظهور هذه الجمعية بمظهر المحتقرين للدين أن يستعلن أعضاؤها بالإفطار .. وكان يشد من أزر أعضاء هذه الجمعية فى تحديها للدين والمتدينين أستاذ قدم من أوربا فى نفس هذا العام ، ومما يؤسف له أنه أستاذ مصرى مسلم ..وكنت وصديقى نصار قد استمددنا خطتنا من قوله تعالى «فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون» فاتفقنا على أن نحطم رأس هؤلاء الداعرين المتمثلة فى شخصيتين هما شخصية هذا الأستاذ وشخصية الطالب الذى يعتبر زعيم الفكرة الإجرامية .. ودخلنا قاعة المحاضرات فتعمد الأستاذ أن يشعل سيجارة وبدأ الطالب الزعيم يتناول قطعة من الشيكولاته .. وتنفيذاً للخطة تحرش نصار بالطالب يريد منعه من تناول الشيكولاته فرفع هذا صوته محتجاً على نصار ومستنجداً بالأستاذ الذى تدخل قائلا : ماهذا التدخل فى حرية الغير .. كل إنسان حر يفعل ما يشاء . فيقوم أحد الطلبة الإخوان ويقول للأستاذ : إن للحرية حدوداً بحيث لا تؤدى إلى إيذاء الغير . فيرد الأستاذ بأن هذا تعصب . فيقول له نصار : وأنت كذلك يجب أن تراعى إحساسنا وتطفىء السيجارة . فيرى الأستاذ فى هذا إهانة لكرامته ويصيح بصوت مرتفع بأنه يحتقر هذا التعصب وهذا الجهل وهذه الرجعية . فيرى نفسه وقد أحاط به مجموعة من الطلبة الإخوان يؤازرهم طلبة متدينون ويتقدم نحوه نصار ويقول له: أطفىء السيجارة وإلا فستضرب ضرباً نعرف به قيمة نفسك . فيلقى بالسجارة راغماً ويدوسها الإخوان بأحذيتهم ويخرج هارباً إلى مكتب

العميد ويطلب منه أن يحميه من فلان وفلان ويعين اسمي واسم نصار فيرسل العميد معه من يخرجه من باب خلفي للكلية ... وفي اللحظة التي هرب فيها الأستاذ لاذ بالفرار الطلب الزعيم والطلبة يلاحقونه بالتهديد .

ومن أروع ما يسجل بالفخر والإعجاب أن العميد الأستاذ محمود توفيق الحفناوي باشا حين سمع شكوى الأستاذ قال له قبل أن يستدعينا : أنت المخطىء لأنك بإعلانك الإفطار في رمضان خرجت عن حدود الأدب والخلق والذوق الذي كان جديراً أن يتحلى به أستاذ مثلك .. ولما استدعانا بعد ذلك العميد ذكرنا له ماداب عليه هذا الأستاذ من تحد للدين والعرف والخلق فأثنى على مافعلنا وعمل على إبعاد هذا الأستاذ عن الكلية .

وكانت هذه الخطة كفيلة بالقضاء على هذه الجمعية.وما أجبن الباطل إذا ما واجهه حق قوى .

وسائل الإخوان في مكافحة جمعية إخوان الحرية :

حين ظهرت هذه الجمعية في القاهرة في أثناء الحرب العالمية فهم الإخوان أنهم هم المقصودون بها ، وأنها أنشئت خصيصاً لتكون معول هدم لما يبنيه الإخوان ، وأنها سلاح ضدهم أقوى من أسلحة الهجوم والمواجهة ، وأنها تحتاج منهم إلى تخطيط دقيق لمقاومتها وإحباط خطتها ، وقد كانت خطتهم لمقاومتها تقوم على المحاور الآتية :

أولا : أوفدوا إلى مقر هذه الجمعية مجموعة من كرام الشباب من الإخوان لاستطلاع أحوالها وجمع معلومات عن قادتها وعن مهمة كل فرد من أفراد هذه القيادة ،وتتبع خطوات هؤلاء الأفراد داخل مقر الجمعية وخارجه والإلمام باتصالاتهم والوصول من هذا التتبع إلى مصدر تمويلهم .

ثانياً : أوفدوا مجموعة أخرى من الإخوان للاشتراك في نشاطات الجمعية والتظاهر بالتجاوب مع القائمين بهذه الأنشطة — مع الاحتفاظ بأنفسهم من التلوث بحجج مختلفة — حتى يلموا بكل ما يحدث للشباب داخل هذه الاجتماعات إلماماً عن معاينة تنفي كل شك وأن ينقلوا صور ما يحدث إلى قيادة الإخوان أولا بأول .

ثالثاً : أوفدوا بعد ذلك — وبعد أن عرفوا عن هذه الجمعية كل شيء — مجموعة أخرى من الإخوان الأقوياء الحجة والواسعي الثقافة إلى الاجتماعات العامة للجمعية التي تلقى فيها المحاضرات باعتبار هذه المحاضرات هي المصيدة التي يقع بين فكيها الفرائس من الشباب الساذج الخالي الذهن — ومهمة هذه المجموعة هي التعرض بالنقد إلى الأفكار التي تتضمنها هذه المحاضرات ، على أن يتبادل

أفراد المجموعة – الذين يجلسون في أماكن متفرقة – هذا التعرض واحداً بعد الآخر حتى يلقوا أولا ظلالا من الشك على هذه الأفكار أمام الحاضرين لتتزعزع ثقتهم بالمحاضرين ، ثم يتدرج أفراد المجموعة فى المناقشة حتى يبدأوا فى كشف ألاعيب الجمعية وفضحها أمام الشبان فضحاً خفيفاً لتؤجل المحاضرة .

رابعاً : تكرر المجموعة حضور المحاضرة فى الموعد الذى أجلت إليه وتكمل مهمتها بالمهاجمة والنقد والمناقشة المنطقية ثم العنيفة ثم بفضح ألاعيب الجمعية وإفسادها للشباب البرىء والقضاء على مثله وعقيدته ونشر روح الانحلال الخلقى بعد وقوعه فى الشرك ... وهنا يحتد المسئولون فى الجمعية مكذبين هذه الادعاءات فيقوم فرد – هو أحد أفراد المجموعة التى تضمنها البند ثانياً – ويقف بين الحاضرين ويعرفهم باسمه وبتاريخ انضمامه للجمعية ويقص عليهم الخطوات التى اتبعتها الجمعية معه ومع زملائه لإفساد أخلاقهم وتلويث شرفهم وبث روح الانحلال العقدى والخلقى فيهم وما رآه بنفسه مما اقترف مع زملائه فى خلال حفلات ماجنة دبرت لهم ... وهنا تتعالى أصوات الاحتجاج على الجمعية من كل مكان ويسود الهرج ويحدث بعض التحطيم فى أمتعة الجمعية ويلوذ المحاضر ومن معه من المسئولين بالهرب .

وهذه الخطوات التى أثبتها آنفاً هى خطة وضعت فى دار المركز العام على أنها مجرد أفكار ، غير أنها حين وضعت موضع التنفيذ جاء الواقع مصداقاً لها كأنما كانت وحياً فقد حدث كل ما تصوره واصفوها وكانت وسيلة ناجحة لإحباط نشاط الجمعية فى المجال الشبابى الخطير .

خامساً : كان ظهور هذه الجمعية من أقوى البواعث على النشاط فى تكوين الشعب فى القاهرة فلم يمض عام إلا وكانت الشعب قد عمت جميع أحياء القاهرة . وكان الذى دعا الإخوان إلى ذلك أنهم أرادو أن يجعلوا صوت الدعوة قريباً من الشباب فى كل مكان فيقيمون بذلك تحصينات لهذا الشباب تحميه من إغراءات الفساد بمختلف صورها ، فإن أخطر شىء على الشباب أن تتركه خالى الذهن أمام الغارات الوافدة بما تحمله من مظاهر خادعة فلا تلبث أن تجد فى ذهنه الخالى أرضاً خصبة تنغرس فيها وتنمو وتترعرع ولا يسهل بعد ذلك نزعها بعد أن ثبتت جذورها

عرفت هواهـــا قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبـــاً خاليـــاً فتمكنـــا

فمنذ ذلك الحين أخذ الإخوان فى تقسيم القاهرة إلى مناطق يتحمل مسئولية الإشراف على الدعوة فى كل منطقة منها مجلس يكرس جهده على نشر الدعوة فى منطقته وتأسيس الشعب فى أنحائها ومباشرة أنشطة الدعوة فى كل شعبة منها ؛ فمحاضرة أسبوعية وفريق جوالة للشباب فيها ومدرسة

جمعة للأطفال بها وكتيبة للصفوة ممن نضجوا من العاملين فى أنشطتها حيث دراسة القرآن وحفظه مع مسابقات فى الحفظ والتفسير .. ثم يفد إلى محاضرة الثلاثاء بالمركز العام من تسعفه ظروفه فيستوعب شحنة قوية يفرغها فى شعبته طيلة أيام الأسبوع .

سادسا : قام الإخوان الطلبة فى كليات الجامعة والمدارس على اختلاف أنواعها بحملة توعية لإخوانهم وزملائهم جعلت هذه المعاهد والكليات مغلقة فى وجه دعاة هذه الجمعية بعد أن كانت آمالهم معقودة على هذه المجتمعات الشبابية الزاخرة بالصيد السمين السهل الاصطياد - كما أن قسم العمال بالمركز العام ضاعف من نشاطه فصارت المصانع ومراكز التجمعات العمالية بالقاهرة والإسكندرية فى مأمن من غارات هذه الجمعية وأفكارها الخطرة الهدامة .

أثر خطة الإخوان:

إذا قلنا إن خطة الإخوان إزاء هذه الجمعية قد نجحت فليس معنى هذا أن الجمعية قد أغلقت دورها وانسحبت من البلاد ، وإنما كان نجاح الخطة فى إنقاذ عنصر الشباب من بين براثن هذه الجمعية وتحصينه ضد أفكارها ومغرياتها .. وهذا العنصر هو العنصر المرجى ففساده ضياع للبلاد وقضاء على مستقبلها وصلاحه هو تأمين للبلاد ومستقبلها .. أما العناصر الأخرى الذين ظلت دور هذه الجمعية بعد ذلك تعج بهم فهم حثالة الناس مهما علت مراكزهم لأنهم عبيد المادة وطلاب المنافع والمتلونون بكل لون وهذه أصناف لا يعيرهم الإخوان اهتماماً لأنهم يكثرون عند الطمع ويقلون بل ينعدمون عند الفزع .

وقد ظلت الجمعية موجودة ذات دور وذات أعضاء ولكنها كسيحة تنفق على أعضائها وتهيئ لهم الفرص الحرام حتى جاء من بصق عليها بصقة واحدة فذابت فى التو واللحظة وصارت كأن لم تكن .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامـــــر

(٣) إعلان الحرب على الجريدة اليومية

لا أعتقد أن عناصر النجاح لمشروع لإنشاء جريدة يومية توفرت من قبل أو ستتوفر فيما بعد ، كما كانت متوفرة لإنشاء جريدة يومية للإخوان المسلمين ... فالمال متوفر حيث جيوب الإخوان أغنياء وفقراء مفتوحة للمشروع لا تغلق دونه ، والثقافات المختلفة التى يحتاج إليها التحرير والطبع

والإعلان واستقاء الأخبار متوفرة ومتوثبة للعمل تطوعاً أو بأجر زهيد .. وجمهور المشترين الذي يعتبر شراء هذه الجريدة عبادة كالصلاة والصوم جمهور ضخم تزخر به أنحاء البلاد في كل مدينة وفي كل حي وفي كل شارع وفي كل قرية مهما نأت عن العمران .

واذا كان فرد من أسرة «تقلا» قد استطاع أن ينشئ جريدة يومية هي «الأهرام» وتمكن من إصدارها مائة عام . وإذا كان فردان هما مصطفى أمين وعلى أمين قد استطاعا أن ينشئا جريدة «الأخبار» وأن يستمرا في إصدارها أكثر من عشرين عاماً .. وتجد هذه الصحف مكانها في كل بيت تقريباً ... أفلا تستطيع أقوى هيئة في مصر وأعظم هيئة تنظيماً أن تصدر جريدة يومية وأن تكون حتى في مستوى جرائد الأفراد ؟ .

لم يفكر الإخوان المسلمون في إصدار جريدة يومية إلا بعد أن اطمأنوا إلى توفر جميع إمكانيات نجاحها على أعلى مستويات النجاح ... كان ينقصهم الأرض التي ينشئون عليها دار الجريدة فاشتروا قطعة أرض في قلب القاهرة تزيد مساحتها على نصف فدان ، ووضع أكبر مهندسي معماري في مصر الدكتور سيد كريم تصميم البناء المكون من اثنى عشر طابقاً .وقدرت تكاليف إنشائه ، وأسست شركتان مساهمتان إحداهما لإنشاء المطبعة والأخرى لإصدارالجريدة وجمع المال ، وخاطب المسئولون في شركة الطباعة أكبر شركات أوربا لعرض ما عندها من أحدث نماذج المطابع .. ولما كان إنشاء الدار وورود المطبعة يستغرق أكثر من عام فقد رؤى إصدار الجريدة مؤقتاً في مطبعة كبيرة اشتريت من داخل البلاد ريثما يتم البناء وتصل المطبعة الحديثة من الخارج .

فما الذي حدث بعد ذلك ...... وهل نجح المشروع ؟ ؟

إن الإجابة على هذا السؤال مأساة تاريخية .. وإنها لجريمة ضد هذا الشعب أن تخفى حقيقة المأساة عن هذا الجيل المجنى عليه والذي نشأ في ظل الظلام .. فإن تعريف هذا الجيل بهذه المأساة سيفتح عيونه على حقائق مرعبة ، وسيكون في استطاعته بعد ذلك أن يقيم كثيراً من عناصر التاريخ المخفاة عنه أو المزيفة عليه ...

حتى نحن الذين كنا نعيش وسط المعارك في ذلك الوقت ، وكنا نعتقد أننا أصبحنا - بعد أن عركتنا الأيام - أدرى الناس بالناس المعايشين لنا ، وكنا نعتقد أننا قد أحطنا بكل الظروف المحيطة بنا ، وبالألاعيب والمؤامرات التي يمكن أن تحاك ... حتى نحن قد فوجئنا بما أذهلنا وسلب ألبابنا وكاد أن يقذف اليأس في نفوسنا .

لقد كان إصدار الجريدة اليومية تجربة لا أقول قاسية بل إنها ألسى تجربة مرت بنا .. إنها جرحت قلوبنا وقهرت نفوسنا وكشفت لنا أن أعداء الإسلام أقوى مما كنا نعتقد وأكثر مما كنا نظن ... وأقنعتنا بأننا كنا مسرفين فى حسن الظن .

يبدو أن الإنجليز – وهم المخططون لكل مؤامرة وإن عهدوا بتنفيذها إلى صنائعهم – كانت نظرتهم إلى مشروع الجريدة اليومية على الوجه التالى :

قالوا لأنفسهم ولصنائعهم : إذا كان الإخوان وهم يعدمون وسائل النشر والإعلام إلا الكسيح منها قد وصلوا إلى ما وصلوا إليه من القوة حتى اكتسحوا الميدان السياسى متخطين كل ما ألقى فى طريقهم من عقبات ، فكيف إذا توفرت لهم أقوى وسائل النشر والإعلام وهى الجريدة اليومية ؟ ! .. إذن لقضوا على كل معارض ولسحقوا منافسيهم سحقاً ولملكوا زمام الحكم لا فى مصر وحدها بل فى العالم العربى بل ولحققوا أمنيتهم فى إحياء الخلافة الإسلامية ... إذن فلنحل بكل وسيلة مشروعة وغير مشروعة بينهم وبين الإفادة من هذه الجريدة اليومية .

وسائلهم فى محاربة الجريدة اليومية :

لم يتورع الإنجليز وصنائعهم عن استخدام أقذر الأساليب فى محاربة هذه الجريدة ... وقد استفرغوا جهدهم فى سبيل تحقيق الفكرة التى استبدت بعقولهم، وهى أن حرمان الإخوان من هذه الجريدة هو آخر سهم فى جعبتهم لوقف المد الإخوانى الجارف .. وقد أخذت وسائلهم فى الحرب الصور الثلاث التالية :

أولا : حرب التحرير

كان فى أوساط الإخوان من الكفاءات النادرة ما يكفى لتحرير جميع أبواب الجريدة بأوفى ما تحرر به الصحف خبراً ومقالة وأسلوباً وتعليقاً .. إلا أننا نعلم أن الناس قد ألفوا أسماء معينة يسعدهم أن يقرأوا لها ، وإذا رأوا مقالا ممهوراً بتوقيع واحد منهم اعتقدوا أن فى هذا المقال من الافتنان ما يشبه الوحى فى الوقت الذى قد لا يكون فيه ما يستحق أن يقرأ ... وقد عرضت هذه الفكرة على الأستاذ المرشد فأيدها وسألنى عمن أختار من الكتاب المرموقين ليكتب عندنا ، فاقترحت اسم الدكتور محمود عزمى ... وكان الدكتور محمود عزمى فى ذلك الوقت صحفياً مشهوراً ليس له لون حزبى وكان يعد أعظم المعلقين السياسيين فى مصر وكان يكتب تعليقاته فى أكثر من جريدة

فوافق الأستاذ المرشد على التراحى وانتدب أحد الإخوان الذين يعرفونه للاتفاق معه على أن يكون المعلق على الأنباء السياسية بجريدة الإخوان وله أن يقدر أتعابه كما يشاء ... وكنا واثقين أنه سيسارع مستجيباً لا سيما والجريدة مضمون توزيعها من أول عدد على أوسع نطاق كما أننا تركنا له تقدير أتعابه بنفسه ولكن المفاجأة المذهلة كانت حين جاء الرسول ليقول : إن الرجل يطلب مهلة قبل أن يعطى الكلمة ... وانقضت المهلة فكان جواب الرجل «الاعتذار» ... واقترح غيرى من الإخوان أسماء أخرى واتصلوا بهم بعروض سخية فكانت أجوبتهم «الاعتذار»

وبدأنا حينئذ نحس كأن يداً خفية تمتد فى الظلام برسائل لهؤلاء الكتاب وحين يقرأها الكتاب يحجمون ويعتذرون . وقلبنا مع الأستاذ المرشد الأمر على وجوهه فخرجنا بهذا التصور الذى أيأسنا من فئة الكتاب الصحفيين المحترفين . وجلسنا مع الأستاذ المرشد نستعرض عدة أسماء ننتقل من اسم لآخر من غير المحترفين ولا نجد فى أنفسنا الجرأة لمفاتحة أى منهم لما نعلم من نواحى ضعف فى كل منهم قد توقفهم معنا موقف الصحفيين المحترفين ...

وأخيرا خطر لى خاطر شمت فى انبلاجه فى خاطرى نور الأمل يشق ظلمة اليأس التى أحاطت بنا ، فقلت : يا أستاذ حسبنا ما نالنا من خيبة أمل حين اتجهنا إلى الغرباء نلتمس عندهم العون ، فلندع الغرباء جانباً ولنتجه إلى من تربطنا بهم وشائج المبادئ وروابط الوطنية . قال : ومن تقصد إذن ؟ قلت إن الحزب الوطنى هو أقرب الوطنيين إلينا ونكاد نعتقد أنه جزء من دعوتنا ، كما يحس أعضاؤه بأنهم كذلك منا ، وحافظ رمضان باشا رئيس الحزب الوطنى شخصية صارت فى الأيام الأخيرة من الشخصيات ذات الشهرة فى الأوساط المختلفة..وإذا قرأ الناس له فى جريدتنا فسيكون ذلك عاملا من عوامل إقبالهم عليها .. وبينك وبين الرجل صلة قوية ، ولا إخاله إذا كلمته إلا مسارعاً إلى الكتابة لا سيما والحزب الوطنى ليس له جريدة تنطق بلسانه .

فتهلل وجه الأستاذ المرشد ، وكأنه وقع على طلبته التى كان يفتقدها ، وأمسك بالتليفون وطلب حافظ رمضان باشا فرد عليه وتبادل معه التحيات والأشواق والأستاذ يبتسم ثم أخذ يفاتحه فى الموضوع الذى اتفقنا عليه .. وسرعان ما اختفت الابتسامه من وجه الأستاذ ولاحظنا أن حل محلها تقطيب يشعر بالألم وينم عن الغضب .. وأنهى الأستاذ المكالمة ووضع التليفون وتنهد طويلا وقال بصوت متهدج كأنما خرج مهزوماً من معركة :

وزهدنى فى الناس معرفتى بهم ... وطول إختبارى صاحباً بعد صاحب
فلم ترنى الأيام خلا تسرنى ... مباديه إلا ساءنى فى العواقب

ففهمنا ما حدث ، وأطرقنا جميعاً ذاهلين لا ندرى ما نقول ولا ندرى ما نفعل وطال صمتنا حتى قطع الصمت صوت الأستاذ المرشد يقول :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة　　　على النفس من وقع الحسام المهند

حافظ رمضان الذى كنا ندخره لخطير الأمور ... يتخاذل حين نطلبه لكتابة مقال فى جريدة الإخوان ؟ ! ما هذه المفاجآت ؟ ! وبمن نثق بعد ذلك ؟ ! ... هل جريدة الإخوان غول مخيف يبعث الرعب فى قلوب الصحفيين ؟ ... كلهم خافوا منها ... حتى حافظ رمضان ؟ ! ياحسرة على العباد .

قلت : يا أستاذ ... إن حافظ رمضان بعد أن دخل الوزارة — خارجاً على سنة أسلافه من رؤساء الحزب الوطنى — قد صار فى عداد عبيد القصر ... ولا بد أن الملك — وهو فى نظرهم واهب القوى والقدر — قد أوحى إلى عبيده جميعاً بمقاطعتنا .

وإذ ذكرنا هذه المواقف المخزية حتى من رجال كنا نعدهم من الأبطال ، فينبغى أن نذكر بالفخر والإعجاب موقف الأستاذ محمد الشافعى اللبان الذى استجاب وحده لنداء الأستاذ المرشد وصار بكل شجاعة يوالى الكتابة فى الجريدة مع أنه كان من كبار الموظفين الحكوميين .

ثانيا : حرب الإعلان :

من المعروف أن أهم مورد تعتمد عليه الصحف لتعويض مصروفاتها هو أجور الإعلان ، ذلك أن التوزيع مهما اتسع نطاقه فإن إيراده لا يفى بما صرف ... ولهذا تبذل الصحف قصارى جهدها فى الوصول بتوزيعها إلى أرقام مثيرة حتى يكون ذلك مغرياً للمعلنين أن يعلنوا عن منتجاتهم فيها ... وأكثر الصحف إعلانات هى أغناها وأكثرها مورداً ، وأقل الصحف إعلانات هى أفقر الصحف ويعتبر هذا نذير إفلاسها .

وجريدة كجريدة الإخوان المسلمين اليومية ، سبق إصدارها دعاية واسعة واستقر فى أذهان الناس جميعاً فى مصر وفى خارج مصر ان توزيع هذه الجريدة على أوسع نطاق مضمون بضمان الفروع والشعب المنتشرة فى كل مكان .. كان مفروضاً أن تنهال عليها طلبات الإعلان لأن دوافع المعلنين إلى الإعلان فيها مكتملة ... ولهذا كان من أوائل ما اهتمت به إدارة الجريدة قبل إصدارها أنها أنشأت إدارة للإعلان على أعلى المستويات . وقد تكونت هذه الإدارة من فئتين : فئة ذات خبرة سابقة وفئة لا خبرة لها ولكنها تأنس فى نفسها ميلا واستعداداً لهذا النوع من العمل

أما الفئة ذات الخبرة السابقة فإنها عناصر كان لها مكان مرموق فى صحف أخرى ولكنها تركت مكانها ، وضحت بما يدره عليها من إيراد استجابة لنداء من ضميرها بوجوب وضع خبرتها فى خدمة أول صحيفة يوميه إسلامية كان إصدارها أملا عزيزاً طالما تاقت إليه نفوس المؤمنين ولكنه كان بعيد المنال .. أما وقد تحقق فلا أقل من تجنيد الخبرات له ... واذا ذكرنا هذه الفئة فيجدر بنا أن نذكر بالثناء والتقدير الأستاذ عبد المجيد وافى الذى كان إذ ذاك الشاب الأزهرى الموهوب الذى كان آية فى فن الرسم ، والذى كان دعامة فى جريدة الأهرام فترك مكانه فيها وقدم نفسه وموهبته وخبرته فى خدمة الجريدة الناشئة ضارباً بما عرضته عليه جريدة الاهرام من إغراء مادى عرض الحائط لأنه اعتبر انتقاله هذا واجباً يمليه عليه الضمير ويفرضه عليه الدين .

وأما الفئة الأخرى التى تكونت منها إدارة الإعلان وهى فئة لم يكن لها سابق خبرة ولكنها تأنس فى نفسها استعداداً فكان نواتها أخ كريم كان إذ ذاك حديث التخرج فى كلية التجارة وقد أعرض عن وظائف الحكومة وجاء مسارعاً إلى قسم الإعلان بالذات فى الجريدة ذلك هو الأخ الكريم الأستاذ محمود عساف .

وضمت إدارة الإعلان أيضا مجموعة من الإخوان الشباب من ذوى الكفاءات المختلفة ، وكانت مجموعة المندوبين مثالا للنشاط واللباقة ، وهى المجموعة التى ينتشر أفرادها فى مختلف أنحاء القاهرة للحصول للجريدة من أصحاب المتاجر والمصانع والشركات على عقود للاعلان مدداً يتفق عليها ... وقد ابتكر الأستاذ محمود عساف عدة ابتكارات فى عالم الإعلان كشفت فعلا عن مواهبه وقدراته كما أن الأستاذ عبد المجيد وافى أتى بالعجب العجاب فى إبراز فكر الأستاذ محمود عساف بالرسم .

وقد فصلت بعض التفصيل فى أ الإعلان وتكوينها وشخصياتها لأ بين للقارئ إلى أى مدى كان الاهتمام بالإعلان وإلى ا لهذه الجريدة إمكانيات النجاح فى عالم الإعلان بل إمكانيات الاكتساح فى هذا الميدان ... وإذا كان تزويد إدارت الإعلان فى مختلف الصحف اليومية بالكفاءات مرهونا بما تغدقه الصحف من أموال فإن جهاز الإعلان فى جريدة الإخوان قد اجتمع له ما لم يجتمع لصحيفة يومية من الكفاءات القادرة لم يجمعها إلا دافع من القلوب ونداء ملؤه الإخلاص والتفانى .

تحرك جهاز الإعلان وهو يجمع فى يديه كل مقومات النجاح وبذل أكرم الجهود وواصل

الاتصال بالشركات والمصانع والمتاجر عارضاً عليهم تصميمات مبتكرة ذهل لروعتها كل من رآها ، متساهلا فى الأجر حتى يتم الإغراء ... ولم يستطع مسئول واحد فى كل هذه الجهات أن يظهر عيباً فى تصميم أو يلاحظ نقصاً فى ابتكار أو حتى أن يكتم إعجابه بما عرض عليه من تصميات أو أجور ، ولكن المفاجأة كانت فى المحصلة الضئيلة لهذه الجهود ... كانت المحصلة عقوداً من متاجر تربطها بالإخوان وشائج ، أما المتاجر الكبيرة والمصانع الضخمة والشركات ذات الثراء فقد وقفت موقف الإحجام دون سبب ولا مبرر ، فقد أكثر «المندوبون» من التردد عليها يطلبون من المسئولين فيها مجرد إبداء الأسباب .. فلم يحظوا بجواب .

هبت أجهزة الإخوان بوسائلها المختلفة بحثاً وتنقيباً وراء السر الدفين لهذه الظاهرة العجيبة وانتهى البحث بالوصول إلى السر ... وكان السر يكمن فى دار السفارة البريطانية التى كانت تقبض بإحدى يديها على دفة الاقتصاد المصرى كما كانت تقبض بيدها الأخرى على دفة السياسة المصرية ، فقد كانت أكثر الشركات الكبرى والمتاجر الرئيسية ملكاً للأجانب . كما كان القصر الملكى وما يتبعه مما كانوا يسمونه وزارات واجهة مصرية للسفارة البريطانية .

شركة الإعلانات الشرقية :

ولما كان الإنجليز يقدرون مدى خطورة القلم الحر على سياستهم الاستعمارية ، وكانت سياستهم تنبنى دائماً على عدم المواجهة ، فقد وضعوا خطة لإخضاع الصحف لسلطانهم بمهاجمتها من من الخلف عن طريق التحكم فى مصادر الإعلان ... ولم يكتفوا بأن أكثر الشركات والمتاجر ملك لهم بل وحدوا المصب الذى نصب فيه الاعلانات من أى مصدر من المصادر حتى ولو كان المصدر مصرياً فى شركة للإعلان أنشأوها وجعلوها فرعا فى مصر لوزارة المستعمرات البريطانية وأطلقوا عليها زوراً وبهتاناً وتضليلا اسماً هو براء منها هو «شركة الإعلانات الشرقية» وهى الشركة التى كان كل العاملين فيها من رجال المخابرات البريطانية ومن مدبرى المؤامرات من دهاقين اليهود . والتى حيكت بين جدرانها وفى مكاتبها كل المؤامرات الإجرامية ضد الشعب المصرى وإن كان الذين تطوعوا لتنفيذها ــ وبالأسف ــ مصريين ممن أغرتهم مناصب الحكم وأعماهم الذهب البراق عن الحقيقة فباعوا أنفسهم لمن سخروهم لتدمير أهلهم وبلادهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

ولكى ألقى بعض الضوء على هذه الشركة حتى تتضح للقارئ حقيقتها سأكتفى بإيراد فقرات من مقالات نشرتها إحدى صحف الوفد فى ٢٢ حتى ٢٤ مارس سنة ١٩٤٧ أيام كان الوفد خارج الحكم تحت عنوان «صحف شركة الإعلانات الشرقية وحقوقنا الوطنية» :

«دأبت الصحف التي تصدر في مصر بلغات أجنبية عن شركة الإعلانات الشرقية على تحدى الشعور الوطني المصرى والسوداني ، فطالعتنا جريدة «لا بورص إجبشيان» أول أمس بمقال التاحى فندنا مزاعمه في عدد أمس وعدنا إليه اليوم في مكان آخر . وخرجت علينا «الإجبشيان جازيت» مساء أمس بخطاب مفتوح إلى المصريين ممن زعم نفسه صديقاً لمصر وسنرد عليه غداً .»

«والمسئول عن صحيفة» «لا بورص إجبشيان» هو «جان ليجول» وقد اتفق أخيراً مع الصهيونيين على العمل معهم في فلسطين ، وسيشد رحاله بعد قليل إلى هناك ليقوم بدوره في محاربة قضية العرب العادلة بعد أن أدى دوره في مصر في محاولة النيل من قضية مصر ومعاضدة الاستعمار البريطاني في استغلالنا والوقوف حجر عثرة في طريق تقدمنا »

«كشفنا الستار في عدد أمس عن الألعبان «جان ليجول» داعية الاستعمار والصهيونية . وهو الذي ظل طوال مدة الحرب ينفث سمومه من أبواق «شركة الإعلانات الشرقية» التي يتولى إدارتها العامة «هنرى حاييم» الصهيوني تحت إشراف ضباط انتدبتهم القيادة العليا البريطانية بدعوى مراقبة تحرير صحيفتي «الاجبشيان جازيت» و «الاجبشيان ميل» اللتين تصدران باللغة الإنجليزية»

ومن المؤلم حقاً أن نقول : إن الصحف التي كانت تصدر في مصر في ذلك الوقت — مهما اختلفت أسماؤها وانتسبت في ملكيتها وتحريرها إلى أحزاب مصرية أو إلى أشخاص مصريين فإنها جميعاً في حقيقتها لم تكن إلا نشرات تصدر عن شركة الإعلانات الشرقية، فللكتاب في كل صحيفة منها أن يكتبوا ما يشاءون ولكن في نطاق حددته لهم هذه الشركة ، وهم يلزمون بالطاعة والامتثال لأنها تستطيع أن تقطع عنهم أجورهم بحرمان جريدتهم من الإعلانات ... ويلاحظ أن الجريدة الوفدية التي نقلنا فقرات من مقالاتها في شأن هذه الشركة كانت تعاني أزمة إعلانات لأن سياسة الوفد في ذلك الوقت كانت تقضى بمهاجمة الإنجليز .

ولو أن جريدة أخرى غير جريدة الإخوان قد اتبعت معها هذه الطريقة الجهنمية لأغلقت أبوابها من أول يوم ، ولكن جريدة الإخوان استطاعت أن تواجه هذه الحرب الشعواء لأن الإخوان كانوا يعتبرونها جزءاً من حياتهم فرصدوا لها ما يقيم أودها ويسد ثغراتها .

وقد يخطر لسائل أن يسأل : ألم يكن الإخوان — وهم ذوو خبرة بالواقع الأليم لبلادهم — يتوقعون هذا الموقف الذي ووجهوا به قبل أن يواجهوا به ؟ والجواب على هذا هو أن الإخوان كانوا حقا يتوقعون الكثير من الإنجليز وأذنابهم ، لكنهم لم يكونوا يتوقعون أن تصل الخسة بهم إلى

هذا الحد ، كما لم يكونوا يتصورون أن لشركة الاعلانات الشرقية عن السيطرة على مصادر الإعلان هذا القدر الذى تستطيع به وقف الصحف من الصدور إذا شاءت وقفها .

ثالثا – حرب التوزيع :

دأب الإخوان منذ أول عهدهم بإصدار مجلات تنشر أفكارهم على توزيعها بأنفسهم عن طريق التسليم باليد فى القاهرة ، وعن طريق البريد فى الأقاليم حيث يرسلون إلى كل بلد بها شعبية كمية من كل عدد ، حتى إذا وصلت الكمية إلى الشعبة تولت توزيعها على أعضائها ، وتجمع المتحصل من بيع المجلة وترسله إلى المركز العام عن طريق البريد أو عن طريق أحد أعضائها المسافرين ... وبهذه الطريقة كانت توزع كميات كبيرة من المجلة قد لا تحظى بمثلها مجلات مشهورة فى مصر فى ذلك الوقت .

لكن هذه الطريقة لا تصلح لتوزيع جريدة يومية أخص خصائصها أنها – بما تحوى من أنباء وتعليقات – هى بنت يومها ، فإذا فات يومها فقدت قيمتها وعادت قصاصة من ورق قد تصلح لأشياء مختلفة لكنها لا تصلح للقراءة...ومعنى هذا أن إصدار جريدة يومية يقتضى أن تصل نسخها إلى القارئ – مهما بعد مكانه – فى نفس يوم صدورها بل فى نفس ساعة صدورها إن كان ذلك ممكناً ، ولا يتأتى هذا إلا بجهاز متخصص للتوزيع مزود بجميع الوسائل الحديثة وله مراكز تابعة له فى كل محافظة ومدينة وقرية .. وقد تمرست بهذا العمل شركات قليلة العدد .. وقد فهمنا أخيراً أن هذه الشركات كانت تنتهى جميعاً إلى يد واحدة .

وكان على جريدة الإخوان أن تتعاقد مع إحدى هذه الشركات . وقد تعاقدت فعلا ، وكانت سيارات هذه الشركة تحمل قبل فجر كل يوم نسخ الجريدة وتأخذ مسارها مع الجرائد الأخرى كالأهرام والأخبار والمصرى وتصل معها إلى كل مكان فى القطر ، ومن مراكز التوزيع تسلم إلى الموزعين أى باعة الصحف .

ولم يكن قراء الصحف فى تلك الأيام بالكثرة التى نراها الآن ، فكان على الموزعين أن يبذلوا جهوداً لإغراء الناس بشراء الصحف حيث يرتبط دخل الموزع بالعدد الذى يوزعه .

والمفاجأة التى أذهلت الإخوان فى هذا الميدان أنه فى مساء كل يوم كانت تصل إلى إدارة جريدة الإخوان فى القاهرة مرتجعات بالآلاف ويصل معها فى نفس الوقت أضعاف عدد هذه المرتجعات شكاوى من الإخوان فى كل مكان بأن الجريدة لم تصل إليهم .. فتتصل إدارة الجريدة بشركة التوزيع لافتة نظرها إلى هذه المفارقات فتقوم شركة التوزيع بإطلاع مندوب الجريدة على

كشوف التوزيع التى توضح أن الجريدة تصل إلى جميع الموزعين فى كل مكان من القطر ... وصارت هذه الظاهرة تتكرر كل يوم .

وكشف الإخوان السر العجيب .. فاتضح أن الشركة – شركة التوزيع – توصل الجريدة إلى الموزعين فعلا – حتى تكون أمام القانون منفذة بنود العقد – ولكنها فى نفس الوقت ترسل عن طريق مندوبيها تهديدا شفوياً إلى كل موزع بأنه إذا أظهر جريدة الإخوان ووزعها فسيكون عرضة للاستغناء عنه وإبداله بغيره ثم أتبعت الشركة التهديد بإغراء مؤداه أن تعطى للموزع مكافأة تتناسب مع عدد النسخ التى يحبسها عن التوزيع من هذه الجريدة .

وقد أنبئت وأنا بالقاهرة بهذا الكشف العجيب إلا أننى لم أكد أصدقه – لتجاوزه حدود التصور – حتى ذهبت إلى بلدتى رشيد لقضاء فترة من الصيف فيها فرأيت الإخوان يشكون مر الشكوى من عدم وصول الجريدة إليهم إلا أعداداً قليلة جداً .. وكان لى على موزع الجرائد فى رشيد أياد تجعله دائماً مسارعاً فيما يرضينى ، وكان يعلم أن من أوائل ما يرضينى أن يوافينى فى منزلنا بالجريدة فى صبيحة كل يوم طيلة فترة إقامتى برشيد فلاحظت أنه يحضرها يوماً ويتخلف عن إحضارها أياماً فشددت عليه الطلب حتى أحرجته ثم أنذرته فبكى الرجل وأخذ يفضى إلى بما هو واقع تحت طائلته من أسلوبى التهديد والإغراء من شركة التوزيع ، واعترف لى بأنه يحاول أن يحبس النسخ كلها عن التوزيع لولا خوفه من بطش بعض الإخوان فيكتفى بتوزيع بعض النسخ ويرد إلى الشركة الباقى وهو معظم ما يرد إليه كل يوم ، وأنه يستفيد مادياً من جريدة الإخوان بهذه الطريقة بأكثر مما يستفيده من توزيع الجرائد الأخرى مجتمعة .

لم يقف الإخوان أمام هذه المؤامرة مكتوفى الأيدى ، وإنما حاولت كل شعبة بجميع الوسائل انتزاع نسبة لا بأس بها من نسخ الجريدة من الموزعين بحيث يحصل معظم الإخوان على نسخ منها . لكن هذا الأسلوب وإن كان قد أرضى شوق الإخوان إلى مطالعة جريدتهم إلا أنه لم يحقق الأمل الذى كان يرتقبه الإخوان من إصدار جريدة يومية تصل إلى أيدى غيرهم من الشعب قبل أن تصل إلى أيديهم ، لأنها عن هذا الطريق وحده كانت ستغزو بأفكارهم – غزواً يومياً – ميادين فسيحة شعبية ضخمة ليس من اليسير غزوها بطريقة أخرى .

النتيجة :

بهذه الحرب الضروس الثلاثية الشعب استطاع التحالف الإجرامى أن يقضى على جريدة الإخوان اليومية ... نعم إن الجريدة لم تحتجب ولم تتوقف عن الصدور ، إلا أنها فقدت قيمتها التى أنشئت

من أجلها ، وأصبحت أشبه بنشرة خاصة تصدرها مجموعة من الناس لنفسها .. وقد أدى هذا إلى التوقف عن المضى فى مشروع بناء دار المطبعة والجريدة الذى أشرنا إليه ... فقد برزت بظهور الجريدة فى ثوبها المؤقت عوامل لم تكن فى حسبان الإخوان وهى المؤامرات الثلاث التى أومأنا إلى طرف يسير منها .. وكان التعقل والروية يقضيان بإعادة النظر فى هذه المشاريع وإعادة صياغتها من جديد على ضوء هذه العوامل .

وكانت النية متجهة إلى التخطيط الذى أساسه عدم الاعتماد على الغير فى أية جزئية تتصل بالجريدة من قريب أو من بعيد ، فيبدأ أولا بغزو إخوانى مكثف لميدان الإعلان بإنشاء شركة له ثم اقتحام ميدان التوزيع بإنشاء شركة أخرى له . وعندما يتمكن الإخوان من هذين الميدانين يبدأون فى مشروعى المطبعة والجريدة ... وقد بدأ الإخوان فعلا اقتحام ميدان الإعلان فأنشأوا مكتباً للإعلان فى الإسكندرية فى ميدان المنشية ، وخطا هذا المكتب خطوات موفقة كانت مبشرة بنجاح كبير .

ولم يكن الإخوان عاجزين عن دخول هذه الميادين بل والسيطرة عليها فلديهم كل مقومات النجاح ولقد بدأوا قبل ذلك بقليل مشروعاً لا يقل أهمية عن هذه المشاريع وهو إنشاء المدارس الخاصة وبدأوه فى الإسكندرية أيضا ونجح نجاحاً باهراً ... ولكن هذا النجاح وما يعرفه المستعمرون من مقدرة الإخوان على إحراز النجاح فى الميادين الأخرى التى أشرنا إليها والتى احتكروها لأنفسهم باعتبارها المؤمنة لقبضتهم على عنق البلاد ، كل ذلك جعلهم يحيكون خيوط مؤامرة جديدة حاكتها أيديهم الخفية ونفذتها العقول الغبية والأيدى الملوثة حتى يوقفوا المد الإخوانى المكتسح قبل أن يصل إلى هذه الميادين .

(٤) الفتنة الثالثة
أو الاقتحام إلى البناء الداخلى للدعوة

عانيت الكتابة فى هذه المذكرات حتى الآن عن لفتنتين ، وهأنذا أبدأ المعاناة فى الكتابة عن فتنة ثالثة .وقد عبرت عن الكتابة فى هذه الفتن بالمعاناة لأن الكتابة فيها تمض النفس وتجرح القلب وتكاد تقطع نياط الفؤاد ، فكل ما ينال الدعوات من أذى خارجى لا ينفذ إلى داخلها هو أذى تتحمله نفوس المؤمنين لأنه سحابة صيف عن قريب تقشع ، والعزاء فيه للمؤمنين أن بناءهم الداخلى رصين متماسك ، أما إذا كانت المصيبة فى البناء الداخلى نفسه فهى المصيبة التى لا عزاء فيها ، ولا

أمل فى إجتيازها أو الخروج منها إلا أن تمتد إلى البناء يد القدرة الإلهية فتحفظه من الانهيار .

وإذا كانت عوامل الفتن تنشأ فى الدعوات بنشوئها ، فان هذه العوامل تكبر وتستفحل بنمو الدعوات واتساع نطاقها ، وإذا كانت محاصرة الفتن - والدعوات لا تزال محدودة الانتشار - أمراً سهلا وميسوراً فإن محاصرتها والإحاطة بها إذا اتسع نطاق الدعوات ليس بالأمر السهل ولا الميسور لأن الفتن تكون فى هذه الحالة متشعبة ضاربة بشعبها وشظاياها فى كل اتجاه .

وقد وصلت دعوة الإخوان المسلمين فى الزمن الذى نحن بصدد الحديث عنه من سعة الانتشار واتساع النطاق إلى الحد الذى أشرنا إليه آنفاً ، والذى صارت بسببه هدفاً تراش السهام له من كل جانب وتوجه نحوه من كل اتجاه ، وصارت وقايتها هذه السهام أمراً متعذراً أشد التعذر .

ومعالجة الحديث عن هذه الفتنة تتطلب الإلمام بطرف مما يتصل بالشخصيات التى كانت محور رحاها . وفيما يلى سنحاول بإذن الله إلقاء شعاع من الضوء على هذه الشخصيات :

الدكتور إبراهيم حسن : طبيب نابه ، من أسرة تنتسب إلى الصوفية فى الشرقية . اتخذ له عيادة فى حى السيدة زينب قبالة المدرسة السنية على مقربة من دار المركز العام فى شارع الناصرية ... اتصل بالدعوة فى القاهرة فى وقت مبكر ، وعقدت فى عيادته اجتماعات هامة . وقد عينه الأستاذ المرشد وكيلا للدعوة ، وهو رجل هادئ الطبع ، ولا أذكر الآن كيف تعرف على الدعوة ولكن يخيل إلى أنه تعرف عليها عن طريق عبد الحكيم عابدين الذى كان إذ ذاك حديث التخرج فى كلية الآداب - والذى رجح عندى أن يكون تعرفه عن طريق عبد الحكيم أن عبد الحكيم كان أكثر الإخوان اختلاطا به حتى إن أكثر وقته كان يقضيه فى عيادته .. ومجال نشاط الدكتور إبراهيم فى الدعوة كان محدوداً حيث تغلب عليه النزعة الصوفية كما أن عمله الخاص كان يشغل أكثر وقته وقد ظل يشغل منصب الوكيل العام فى الدعوة حتى نزح إلى القاهرة الأستاذ أحمد السكرى فقلد هذا المنصب وصار الدكتور إبراهيم الوكيل الثانى .

الأستاذ أحمد السكرى : شاءت الأقدار أن أتعرف على الأستاذ أحمد السكرى فى منزلنا برشيد .. فبعد أن اتصلت بالدعوة فى القاهرة فى سنة ١٩٣٦ ذهبت إلى رشيد لأقضى ردحاً من الإجازة الصيفية بها .. وفى خلال هذه الفترة زارنا بالمنزل زائر كريم - وكان منزلنا فى ذلك الوقت مثابة الطارئين على رشيد من كرام رجال العلم والدين من الموظفين - وكان هذا الزائر موضع

تكريم وإعزاز من والدى وعمى . وقد كان والدى حريصاً على تعريفى به ... وكان هذا الزائر الكريم هو الأستاذ أحمد السكرى .

وقد قص على الأستاذ أحمد القصة التى بسببها وجد فى رشيد ، وهى تتلخص فى أنه – وهو من كرام أهل المحمودية – أنشأ جمعية دينية فى المحمودية أحست الأسرة التى كانت تهيمن على البلد بأن وجود هذه الجمعية ينتقص من هيبتها ، فأخذت هذه الأسرة فى العمل على إحباط هذه الجمعية وفض الناس عنها فلما لم تجد لجهودها فى هذا السبيل أثراً عملت على حرمان الجمعية من منشئها ومحور الحركة والنشاط فيها ببذل الجهد فى نقله من المحمودية .. ولما كان الأستاذ أحمد فى ذلك الوقت يعمل سكرتيراً للمدرسة الابتدائيه بالمحمودية فقد أسفرت جهود هذه الأسرة مع جهود مضادة من قبل الأستاذ أحمد عن نقله إلى رشيد سكرتيراً لمدرستها الابتدائية ... وفهمت من الأستاذ أحمد أنه مع هذا النقل لم يلق السلاح فصلته بالمحمودية لم تنقطع وإشرافه على الجمعية مستمر ولا ينقضى أسبوع حتى يكون بالمحمودية .

وحتى تلك اللحظة التى أتم فيها سرد قصته هذه على لم أكن أعلم عن صلته بالأستاذ حسن البنا كما أنه أيضاً لم يكن يعلم عن صلتى به .. وباعتبارى من دعاة الإخوان المسلمين رأيت من الواجب على أن أقدم إلى الأستاذ أحمد دعوة الإخوان المسلمين لا سيما وقد لمحت فيه غيرة إسلامية جارفة وهمة عالية فأخذت أتحدث إليه عن الدعوة وأشرح له جهودنا الإسلامية فى الجامعة .. وقد لاحظت فى أسارير والدى وعمى فى أثناء حديثى إعجاباً بهذه الدعوة – ولم يكونا قد سمعا عنها من قبل – وكنت أتوقع أن أرى وأسمع من الأستاذ أحمد مثل هذا الإعجاب ولكننى سمعت منه غيرما كنت أتوقع... سمعت منه تهويناً من شأن الدعوة وقائدها بأسلوب يشعر بالسخرية والاستعلاء ، فيقول وهو يبتسم «مش الشيخ حسن . ؟ دا كان عندنا فى المحمودية ولما عملت الجمعية عملته سكرتير لها وكنت أنا رئيسها» وأخذ يتحدث عن الشيخ حسن» وعن نفسه بهذا الأسلوب مما أثارنى فبدرت منى – مع حرصى الشديد على إحاطته بكل مظاهر الحفاوة والإكرام – عبارات عاتبنى عليها والدى بعد انصراف الأستاذ أحمد .. ولكن هذه العبارات كشفت للأستاذ أحمد عن حقائق كان يجهلها هى أن «الشيخ حسن» هذا مهما قال فيه ومهما سخر منه ومهما استعلى عليه فإنه أسس فى القاهرة دعوة برز بها على مسرح الحياة المصرية وأنه استطاع أن يوجد لدعوته هذه مكاناً فى الجامعة المصرية التى كانت تتقطع الأعناق دون اقتراب بدعوة للإسلام من أبوابها ، وأنه صار يعالج قضايا خارج حدود مصر لبلاد عربية هوت إليه وإلى دعوته أفئدة قادتها وزعمائها كقضية فلسطين وقضية المغرب وأنه يصدر مجله أسبوعية أصبح لها قراء فى الجامعة المصرية وفى الأزهر وفى أنحاء مصر وخارج

حدود مصر .. كشفت عباراتى للأستاذ أحمد عن ذلك كله وعن أكثر منه ... فأخذ يقارن هذا الانطلاق وهذا الأفق الفسيح بالنظرة الضيقة والأفق الموضعى المحدود الذى يعيش فيه والذى ظن أنه هو الحياة كلها .

وقد تحدثت بعد رجوعى إلى القاهرة إلى الأستاذ المرشد فيما كان من تعرفى على الأستاذ أحمد وفيما قصه على من أمر نضاله ضد هذه الأسرة – ولكنى لم أذكر له ما كان من حديث فيما يتصل بشخصه – فوجدت أن الأستاذ المرشد كان على علم بهذا النضال وأنه كثيرا ما أخذ على الأستاذ أحمد قصر جهوده على هذا الأسلوب .

ويبدو أن عباراتى قد عملت عملها فى خاطر الأستاذ أحمد فقرر فى نفسه قراراً باتجاه جديد – ولم تطل إقامته برشيد فقد بذل جهوداً رجع بها إلى مكانه بالمحمودية – وكان قراره الجديد أن يعمل على الخروج من حدود الدائرة التى يعيش فيها فأخذ يكثر من زيارته للأستاذ المرشد بالقاهرة ويصل حبله بحبال الدعوة بها وصار يحضر جلسات مكتب الإرشاد حتى تهيأت الظروف لانتقاله فى وظيفة بوزارة المعارف إلى القاهرة فأسند إليه الأستاذ المرشد منصب الوكيل العام للدعوة وهو المنصب الذى كان يشغله – كما قدمنا – الدكتور إبراهيم حسن .

وهنا رأيت من حق الدعوة على أن أفضى إلى الأستاذ المرشد بالذى دار بينى وبين الأستاذ أحمد فيما يتصل بشخصه والذى كتمته عنه حيث لم يكن هناك داع لإثارته ما دام الأستاذ أحمد بعيداً عن القاهرة .

ولم يكن الاحتكاك بينى وبين الأستاذ أحمد قد اقتصر على ماحدث بينى وبينه فى منزلنا برشيد ، بل جدت أمور أخرى تكرر معها الاحتكاك فقد كنت – كما قدمت – أقضى فترة من إجازة الصيف فى المرور ببلاد محافظة البحيرة التى كنت أعتبرها من مسئوليتى كما كان الأستاذ المرشد يعتبرها كذلك ... ولما كانت المحمودية إحدى مراكز البحيرة فكنت أمر على دار الإخوان بها . ونشأ الاحتكاك من مرورى بهذه الدار ... فهذه الدار كانت تعتبر نفسها بدعاً من دور الإخوان المسلمين ، فدور الإخوان فى أنحاء القطر كله إذا دخلت أيا منها تشعر بأنك فى فرع من فروع الدعوة يدين بالولاء للمركز العام ولقائد الدعوة ولكن دار الإخوان فى المحمودية إذا دخلتها لم تشعر فيها بهذه المعانى وإنما تحس منها معانى الاستقلال والولاء لقيادة أخرى وقد آلمنى ذلك وصارحت إخوان الدار بشعورى ولفت نظرهم إلى مظاهر فى الدار كالصور المعلقة لا تشعر من آراها بأن هذه الدار شعبة من شعب الإخوان المسلمين كما أن من استمع

إلى حديثهم لم يشعر بولاء لقيادة الدعوة . وقد طلبت إلى إخوان الدار أن يبلغوا الأستاذ أحمد بملاحظاتى ... وكررت الزيارة لهذه الدار فلم أجد تغيراً قد طرأ عليها مما يتصل بملاحظاتى ، فأحسست فى هذا الإصرار دلالات خطيرة لاسيما والمسئول عنه قد أضحى فى أبرز مكان فى الدعوة بعد المرشد العام . ولا أحد غيرى يعرف عنه ما أعرف ولا يحس الذى أحس ، فاستقر رأيى على مفاتحه الأستاذ المرشد فى هذا الموضوع الخطير الذى يوشك إذا لم يعالج ويوضع له حد أن تنهار به الدعوة .

وكان ذلك فى عام ١٩٣٨ على ما أتذكر أو قبل ذلك وكنا فى سفر بالقطار إلى الإسماعيلية وكنت أحد رفقاء الأستاذ المرشد فى هذا السفر فانتهزت هذه الفرصة - وكان من عادة الأستاذ فى السفر أن يحاول الانفراد بنفسه ليستعيد مع نفسه قراءة أكبر قدر من القرآن مغمضاً عينيه - فانتقلت إلى جانبه وطلبت إليه أن يستمع إلى فى حديث خاص يحرج صدرى فأقبل على وأخذت أقص عليه موضوع الأستاذ أحمد السكرى منذ التقيت به فى منزلنا برشيد حتى آخر مرة زرت فيها دار الإخوان بالمحمودية ... فحاول الأستاذ أن يهون الأمر ويشعرنى بعدم أهميته فى أول الأمر ، ولكنه رأى منى جداً لم يكن يتوقعه حيث قلت له : إن هذه الدعوة لم تعد دعوتك وحدك ، ويخيل إلى أنك حملت حديثى إليك على محمل أننى أحدثك فى أمر شخصى يخصك وحدك تتهاون فيه إن شئت ... إن هذا الأمر هو من أخطر ما يتصل بكيان الدعوة ، ومن حق كل فرد انتسب إلى هذه الدعوة وبايع عليها أن يعرف هل لهذه الدعوة قيادة واحدة أم أكثر من قيادة ، وقد رأيت أن أفضى إليك بما يحتبس فى صدرى باعتبارك أحق الناس بالإلمام به وأقدرهم على معالجته فإن أصررت على الاستهانة به فسيكون من حقى أن أكاشف به جميع الإخوان ليتولوا هم علاجه .

فلما رأى الأستاذ منى هذا الأسلوب الجاد البالغ الجد ترقرقت عيناه بالدموع ووجه إلى عبارات كأنما يسرها فى أذنى وقال : «والله يامحمود إننى كنت أعرف كل الذى قلته من قبل أن تقوله وأعرف أكثر منه وقلبى يتقطع ألماً لهذا الذى أعرفه ، ولكننى كنت حريصاً على أن لا يعرف ذلك أحد غيرى ... أما وقد عرفته فأستحلفك بالله أن لا تفضى لأحد به وتجعل ذلك سراً بينى وبينك وأن تدع لى معالجته فى الوقت المناسب فإن مصلحة الدعوة تقتضى إرجاء هذا الأمر الآن» . فقلت له : أعطيك العهد والموثق على ذلك ، ولكن موضوع دار الإخوان فى المحمودية لن أسكت عليها فلقد هددتهم فى آخر زيارة لها إذا لم تزل مظاهر التمرد والنشوز التى بها أن أتقدم بمذكرة إلى مكتب الإرشاد أطلب فصلها من الإخوان المسلمين .. فقال الأستاذ سأبلغ الأستاذ أحمد ملاحظاتك عن المحمودية وسأحاول التقريب بينك وبينه .

وأبلغ الأستاذ المرشد الأستاذ أحمد بملاحظاتي عن شعبة المحمودية وبعزمي على التقدم إلى مكتب الإرشاد طالباً فصلها .. ولما كان الأستاذ أحمد حريصاً على أن لا يذيع أمر المحمودية وما فيه من دلالات على الاستعلاء على قيادة الدعوة فقد جلس إلى ووعد بإزالة ماطلبت إزالته من دار الشعبة وقد فعل .

وكان الأستاذ الأستاذ المرشد حريصاً في كل مناسبة على التقريب ما بيني وبين الأستاذ أحمد كما كان الأستاذ أحمد حريصاً على تذكيري بالعلاقة الشخصيةالتي بينه وبين والديوكنتمنجانبي حريصاًعلى تأكيد احترامي الشخصي له ولكنني أرى حقوق الدعوة فوق هذا المستوى الشخصي ، كما أن الأستاذ المرشد كان حريصاً ما استطاع على الإشادة بالأستاذ أحمد وتقديمه في المواقف التي يعلم أنه يجب أن يقدم فيها ؛ لعل ذلك يمحو من نفسه الشعور الذي يعرف الأستاذ أنه قد يحتمل في نفسه .

والأستاذ أحمد السكري كفاءة لا شك فيها ورجل نشأ في أحضان التصوف وتربى في البيئة التي تربى فيها الأستاذ المرشد في المحمودية على يد الأستاذ الشيخ محمد زهران وترافق والأستاذ المرشد في كل عمل ديني واجتماعي قاما به في المحمودية ، ولما كان الأستاذ أحمد يكبر حسن البنا سناً وكان حسن البنا لا يزال طالباً صغيراً في الوقت الذي كانيعمل فيهالأستاذأحمد بالتجارة فكان طبيعياً أن يكون الأستاذ أحمد في التكوينات الإدارية لهذه الأعمال الدينية والاجتماعية رئيساً في حين كان الطالب الصغير سكرتيراً .. والأستاذ أحمد ذو مواهب يغبط عليها فهو خطيب مطبوع ذو حنجرة ذهبية يخرج الكلام منها كأنه موسيقى .وذو قوام فارع وسمت جميل وهندام جذاب—إذا رأيت سمته واستمعت إلى حديثه أحسست أنك أمام رجل من أبناء الطبقةالأرستقراطية في ذلك العهد . ومع أن دراسته الرسمية لم تتعد الثانوية فإن ثقافته واسعة ، وعقليته ناضجة وأفقه فسيح ولسانه قويم ، وغيرته على الإسلام نابعة من قلب عامر ، وكان جديراً بالمنصب الذي أسنده الأستاذ المرشد إليه في الدعوة .

وقد قدمت أن الأستاذ المرشد كان يقدمه في المواطن التي يعلم أنه يتطلع إلى التقدم فيها . فكان يختاره سفيراً له في مقابلة العظماء من المسئولين من رجال الدولة ورؤساء الدول العربية ورجال القصر وساسة البلاد ، ولكنه كان كثيراً ما يحذره من الانزلاق في هاوية الافتتان بمظاهر حياتهم وما يتقلبون فيه من بذخ ورفاهية ، ويذكره بأننا لسنا إلا دعاة إلى الله وحملة لشعلة الإيمان به والرجوع إليه والعمل بدينه .

والوقع أن هذا التحذير وهذا التذكير كان لابد منهما لأن كثيرين منا لا سيما المحتكين منا بالبيئات الأرستقراطية المتعالية الغارقة فى الترف والمظاهر الأخاذة الخادعة ، كانوا ينسون حقيقة مهمتهم وجوهر دعوتهم فى غمرة هذه المظاهر ؛ فلقد كان البون شاسعاً بين حياتنا التى نعيشها وحياة هذه البيئات ، ولولا هذا التذكير والتحذير لفقدنا أنفسنا فى تيارهم .

وقبل أن أنهى تقديمى لشخصية الأستاذ أحمد السكرى للقارىء أنقل من «مذكرات الدعوة والداعية» الذى كتبه الأستاذ المرشد بقلمه ولم أطلع عليه إلا هذا العام (١٩٧٧) فقرتين تتصلان بما جاء فى هذا التقديم ويلقيان بعض الضوء على ما عالجناه من نقاط فى هذا الموضوع :

جاء فى صفحتى ١٣٥ ، ١٣٦ من «مذكرات الدعوة والداعية» التى سجل فيها الأستاذ بعض أحداث الدعوة حتى سنة ١٩٣٩ ما يلى :

خواطر :

حضر إلى اليوم .... و ... من المحمودية . وتكلمنا كثيراً عن جمعيات الإخوان المسلمين. أريد أن أكتب عنه فلا يتسع لى مجال الكتابة فأكل أمره إلى الله ، وأسأل الله أن يوضح لى الطريق الذى أسير فيه .

على أن ملخص خطراتى أن فرعى جمعية الإخوان بالمحمودية وشبرا خيت سوف لا تنفع كثيراً لأنها أنشئت بغير أسلوبى ، ولا ينفع فى بناء الدعوة إلا ما بنيت بنفسى وبمجهود الإخوان الحقيقيين الذين يرون لى معهم شركة فى التهذيب والتعليم وهم قليل . ونفس فرع الإسماعيلية ستحدث فيه تعديلات كثيرة ولكنه سيسير سيراً نافعاً إن شاء الله .. إنه لله ...

إنه قائد موهوب ولكنه منصرف بهذه القيادة وهذه المواهب إلى السفاسف ، مسرف فى وقته لا يقدر له قيمة ، قلبه مملوء بأوهام لا حقيقة لها ومنصرف إلى ناحية لا تثمر إلا العناء ، فالاعتماد عليه ضرب من المخاطرة العقيمة .

والأخ الشيخ ... له أساليبه الخاصة به ، وهو ينظر إلى كأخ زميل فلا يصغى لآرائى إلا قليلا ومن هذه الناحية يكون توحيد الفكرة ضرباً من التعسر ، فالاعتماد عليه مخاطرة كذلك .

نفسك ياهذا وإياك والخلق

ربك ونفسك وحسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين

من الطريف أن الأخ الزائر من المحمودية رأى هذه الكتابة فى حينها فكتب بخطه فى الصفحة المقابلة هذه العبارة : «سامحك الله أيها الأخ الكريم؛»لقد تغاليت فى ظنك هذا ، وكل ما أرجوه أن تبدى لك الأيام غير ما ظننت . ولست أزكى نفسي فالله أعلم غير أنك لابد راجع إلى صوابك فى ، عالم أن النفس التى أحملها بين جبينى هى نفس علم الله فيها بعلمه السابق الأزلى أنها تصطرم غيرة وتتفتت حسرة وأسى على أما أصاب الإسلام وأهله .

وجاء فى صفحتى ٢٥٢ ، ٢٥٣ ما يلى :

« الحفلة الكبرى للاخوان المسلمين »

« سراى آل لطف الله»

«الإخوان المسلمون صرحاء فى دعوتهم لا ينون عن بذل أوقاتهم ومهجهم فى سبيلها ، ولا تفوتهم الفرص والمناسبات لتدعيم الحق وإزهاق الباطل ونشر لواء الإسلام . فهم قد رأوا فى مجلس النواب والشيوخ معركة كلامية طالما أذكوها ومهدوا لها ، وهم الآن يريدون تدعيمها ، وسيجمعون النواب والشيوخ المحترمين فى صعيد واحد بغض النظر عن حزبيتهم وألوانهم السياسية . وسيكون منهم روح القوة والعمل على نصر دين الله ، وسيكون ذلك فتحاً مبيناً له مابعده إن شاء الله . وسيكون هذا الحفل الجامع فى سراى آل لطف الله بالزمالك ...

لهذا سيكون حفلا رائعاً تتجلى فيه دعوة الإخوان المسلمين بأجلى مظاهرها إن شاء الله . وسيكون من بين حضرات الخطباء الأفاضل : سمو الأمير شكيب أرسلان ، وسعادة علوبة باشا ، والأستاذ الكبير محمود بسيونى والنائب المحترم سعد اللبان وفضيلة الأستاذ الشيخ عبد اللطيف دراز والدكتور عبد الحميد سعيد ومدكور بك والدكتور عبد الوهاب عزام .. الخ.

وسيتولى فضيلة المرشد العام شرح وجهة نظر الإخوان المسلمين من روح الإسلام . وسيؤمها كبراء المملكة المصرية ورجال الأحزاب السياسية وقادة الرأى ليسمعوا كلمة الإخوان المسلمين والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

«من آثار حفل تكريم النواب بسراى آل لطف الله» .

«انتهى حفل النواب بسراى آل لطف الله وكان ملحوظاً فيه حضور ممثلين للأحزاب المصرية المختلفة وللطبقات المختلفة كذلك.وقد كان لهذا الحفل آثار بدت طفيفة ولكنها تحولت إلى عميقة عنيفة بعد فترة قصيرة من الزمن . فقد اعتقد فريق من الإخوان أن الأستاذ أحمد السكرى الذى

كان يشرف على نظام الحفل و يقوم بتقديم الخطباء كان يتملق بعضهم والملق يكرهه الإخوان ، وكان يحاول أن يظهر بمظهر المتصدر الآمر الناهى وليس ذلك من خلق الإخوان . وكان يؤثر بعض الناس بالتقديم ويحول بين غيرهم وبين المنصة ، ويوجه الأمور توجيهاً يظهر فيه الغرض الخاص . والإخوان لا يفهمون إلا لغة الوضوح والاستقامة التامة . وفى أول اجتماع بعد الحفل ظهرت هذه الملاحظات وأخذت أدافع عنها وأفسر مظاهرها لهؤلاء الإخوان تفسيراً حسناً وأحملها على أفضل المحامل وهم غير مقتنعين . وكان هذا الشعور نواة لتفسيرات لا حقة لتصرفات كثيرة مشابهة ، ومازال يتضخم حتى صار أساس فتنة ذهبت بمجموعة من خيار الإخوان وحالت بينهم وبين العمل فى هذا الميدان . وسيمر بنا تفصيل ذلك فى حينه ولله فى خلقه شئون . »

الأستاذ عبد الحكيم عابدين مرة أخرى :

تناولنا شخصية عبد الحكيم عابدين من قبل أكثر من مرة كان عبد الحكيم فى خلالها لا يزال الطالب اليافع أو المتخرج الناشىء الذى لم يتمرس بعد بمسئوليات الدعوة وتبعاتها الثقيلة ، ولكن السنوات التى مرت عليه بعد ذلك وأثقلت كاهله بتبعاتها وأحداثها قد جلت مواهبه وصقلت قريحته وكشفت عن قدراته مما جعله أهلا لأن يشركه الأستاذ المرشد معه فى التصدى لأعقد المشاكل وأخطر الأمور. وهى المشاكل والأمور التى كانت من قبل وقفاً على الأستاذ أحمد السكرى ... ولا أقصد بهذه العبارة أن أقول إن الأستاذ المرشد قد أعفى الأستاذ أحمد مما كان يكله اليه من خطير الأمور وإنما قصدت أن أقول إن الأستاذ المرشد أراد أن يستفيد للدعوة من مواهب عبد الحكيم وقدراته فأشركه مع الأستاذ أحمد فى النهوض بالأمور الجسام التى تضاعفت مشاكلها وثقلت تبعاتها بتشعب الدعوة واتساع رقعتها واقتحامها ميادين جديدة بحيث أصبحت هذه الأمور الجسام ينوء بحملها رجل واحد .

ولم تكن هذه المواهب وهذه القدرات جديدة على عبد الحكيم عابدين فقد أشرت إلى طرف منها منذ كان طالباً ، وكل ماحدث أن مرور الأيام جلى هذه المواهب وأبرز هذه القدرات. فمع أن عبد الحكيم لم يكن حسن الهندام ولا المتأنق فى ملبسه بل كان فى هذه الناحية أقرب إلى عكس ذلك فإنه كان بحدة ذكائه واتقاد قريحته وسرعة بديهته ورشاقة لفظه وسعة حفظه للقرآن وللشعر وسجيته الأدبية وغامر روحانيته وحسن بداوته (التى أشار إليها المتنبى فى قوله : (وللبداوة حسن غير مجلوب) . فإنه كان مقبولا ومحببا إلى نفوس طبقة من الناس لم تكن لتعرف عن الدعوة

شيئاً لولا تسلل عبد الحكيم إلى قلوبها وامتزاجه بنفوسها . فكل كبار أطباء القاهرة ، وكل أساتذة الجامعة وعلية القوم من أعرق الأسر وأكرم العناصر لم يعرفوا الدعوة إلا عن طريق عبد الحكيم . وليس معنى معرفة هؤلاء بالدعوة واقتناعهم بأفكارها أنهم انتظموا جميعاً فى تشكيلاتها أو احتلوا مناصبها وإنما قد صار للدعوة باقتناعهم بها صف له صداه فى أوساطهم وفى الرأى العام بعد ذلك ، وهذا كسبه له قيمته وله وزنه . وما كان لدعوة كدعوة الإخوان المسلمين تريد أن تؤخذ بفكرتها لتكون أساساً لحكم البلاد أن تجد لفكرتها سبيلا إلى واقع الحياة دون أن تقتنع بها هذه الطبقة التى مهمتها التثقيف والتوجيه .

وقد نهض عبد الحكيم بما ألقى على كاهله من جسام أمور الدعوة نهوضاً كريماً وأظهر مقدرة جعلت اسمه يلمع بجانب اسم الأستاذ أحمد ، وسر الأستاذ المرشد لذلك كما سر الإخوان جميعاً أن وجدت الدعوة وقد تضاعفت مسئولياتها من أبنائها من يشارك فى حمل العبء وهذا دليل على خصوبة الدعوة وحسن استجابتها ونجاح أساليبها كما أنه يشير بتحقيق آمالها ووصولها إلى غايتها .

ولكن هل عم هذا السرور جميع الإخوان . ؟

الأستاذ حسين عبد الرازق :

يقتضينا الحديث عن حسين عبد الرازق أن نتحدث عن أسرة عبد الرازق التى ينتسب إليها والتى هو أحد أفرادها وإن لم يكن من الشخصيات البارزة فيها .. وربما كان انتسابه إلى دعوة الإخوان هو الذى أبرزه وجعل لاسمه ذكراً بين أفراد هذه الأسرة . وهذه الأسرة من الأسر الشهيرة المرموقة فى الصعيد وموطنها قرية أبى جرج إحدى قرى مركز بنى مزار بمحافظة المنيا ..وهى وإن كانت أسرة ميسورة الحال إلا أن شهرتها لا ترجع إلى يسر حالها فهناك أسر أخرى أيسر حالا وأوسع ثروة ولكنها لا تحظى بمثل شهرة آل عبد الرازق الذين امتازوا على غيرهم بكثرة المتعلمين وذوى المناصب الكبيرة من أبنائهم .

وكان أبرز أبناء هذه الأسرة فى المجتمع المصرى أثنان هما الشيخ مصطفى عبد الرازق الذى كان استاذاً للفلسفة الإسلامية بكلية الآداب حين كنا طلبة بالجامعة والشيخ على عبد الرازق الذى كان مدرساً بأحد المعاهد الأزهرية والذى وضع كتاباً سماه «الاسلام وأصول الحكم» حاول فيه نفى أن يكون للاسلام صلة بالحكم من قريب أو من بعيد ، وقد ثار الأزهر فى ذلك الوقت على هذا التهجم على الإسلام وعلى محاولة تجريده من أصل من أصوله المقررة وحاكم المؤلف

محاكمة علمية انتهت بإصدار قرار بسحب شهادة العالمية منه ... وكان لوضع هذا الكتاب فى تلك الوقت دوافع سياسية كما كان لواضعه طموح سياسى فقد استطاع بوضعه هذا الكتاب أن يصيب عدة أهداف ، لقد أثار ضجة كبيرة وجدلا حاداً فى المجتمعات وفى الصحف لفت النظر إلى واضعه وأكسبه بروزاً فى المجتمع كما أنه أرضى المستعمر - وقد أشرنا فى فصول سابقة إلى محاولات الانجليز تجريد الإسلام من هذه الناحية بالذات . - وإن كان فى نفس الوقت قد أغضب الملك الذى كان يريد الاستزادة من السلطة عن طريق الأزهر مما كان يراه الإنجليز خطراً عليهم.. وكان للماسونية فى تحقيق أغراض الانجليز باصدار هذا الكتاب اليد الطولى فقد كانت هى اليد الخفية التى تتحسس فى المجتمع المصرى الأشخاص الطموحين الذين يصلحون لأداء أدوار معينة على المسرح المصرى .

الأستاذ كمال عبد النبى :

عندما كان يذكر الأستاذ حسين عبد الرازق كان يذكر دائماً الأستاذ كمال عبد النبى، ولست أعرف السبب فى ذلك فلعلهما كانا صديقين التحقا بالدعوة معاً وربما كان التحاقهما بالدعوة عن طريق الأستاذ عبد الحكيم عابدين وإن كان الذى أقطع به هو أن الأستاذ حسين عبد الرازق قد تعرف على الدعوة عن طريق الاستاذ عبد الحكيم .

نشوء الفتنة وتطورها :

١ - قد يكون نشوء الفتنة قد بدأ بترسبات فى أعماق نفس الدكتور إبراهيم حسن حين انتقال الأستاذ أحمد السكرى إلى القاهرة وأسند إليه الأستاذ المرشد منصب الوكيل العام الذى كان يشغله الدكتور إبراهيم ، فاعتبر الدكتور ذلك إهانة له موجهة من الأستاذ المرشد شخصياً ، ولكنه أسر ذلك الشعور فى نفسه لأن الظروف فى ذلك الوقت لم تتح له أن يفعل أكثر من ذلك.

٢ - يتبين للقارىء من تحليل الشخصيات الذى أثبتناه آنفاً أن الأستاذ أحمد السكرى قد رضى بمنصب الوكيل العام وبإسناد المرشد كل خطير الأمور إليه رضى بذلك كحد أدنى لأنه كان يرى نفسه أكبر من هذا وأحق بما هو أعظم . أما وقد قضت الظروف بهذا القدر فقط فلا بأس بذلك مؤقتاً.واحتكار البروز فى الأوساط الراقية والمجتمعات ذات الشأن كفيل بتوسيع نطاق هذا القدر شيئاً فشيئاً مما يقرب الأمل المنشود ، وإذا لم يتحقق الأمل فإن استمرار احتكار البروز فى هذه الأوساط سيجعل منصب الوكيل العام هو المنصب الذى يدير دفة الدعوة والذى يرجع إليه فى كل شئونها .

٣ — لم يكن إصهار عبد الحكيم إلى الأستاذ المرشد موضع ارتياح من الأستاذ أحمد السكرى خشية أن يكون فى هذا الإصهار تقريب لعبد الحكيم من نفس الأستاذ المرشد لا سيما والأستاذ أحمد يعرف عن مواهب عبد الحكيم ... وإن كان الأستاذ أحمد يثق فى قرارة نفسه أن الأستاذ المرشد لا يعدل بالصلة الروحية أية صلات أخرى من قرابة أو صداقة أو نسب ... وقد تم الإصهار بعد أن اقترن بمؤامرة حيكت له وخرج منها عبد الحكيم سليما معافى بعد تجربة قاسية .

٤ — ما كانت مؤهلات عبد الحكيم الخلقية من هيئة وملبس ومنشأ فى أسرة فقيرة لتؤهله أن يجد لنفسه طريقاً إلى الأوساط الراقية والمجتمعات ذات الشأن ، ولكن فوجىء الجميع وأولهم الأستاذ أحمد بأن مواهب عبد الحكيم وميزاته التى أشرنا إليها أهلته للسبق إلى هذه الأوساط حتى أصبح اسمه ألمع من اسم الأستاذ أحمد فيها ، أضف إلى ذلك أن طبيعته غير الارستقراطية قربته إلى نفوس عامة الإخوان الذين لم يكونوا يأنسون إلى الطبيعة الارستقراطية .

٥ — كان الأستاذ المرشد — كدأب أصحاب الدعوات — يلتمس التأييد لدعوته من جميع الأوساط البيئات . وإذا كانت الدعوة قد قامت على أكتاف عامة الناس وضعفائهم ، فإنه كان يتوق ويتمنى لو أن الله تعالى هدى إلى دعوته الأغنياء وذوى الأبهة والسلطان . وهذه طبيعة لم يخل منها بشر حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم «أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك أن لا يزكى» .

واستجاب للدعوة بضعة أفراد من هذه البيئات المتعالية ... ومع أن الأستاذ المرشد كان يوسع لهم فى مجلسه ويغدق عليهم من بشره ، فيرحب بمقدمهم ، ويخصهم بتكرمته إلا أن هؤلاء لم يستطيعوا أن يمتزجوا بالإخوان ولا أن يزيلوا حجاب الكلفة بينهم وبينهم ، فكان لابد لوجودهم فى مجتمع إخوانى من وجود الأستاذ المرشد فيه، كأنما هو المادة الموصلة بين الفريقين ، فإذا لم توجد المادة الموصلة انقطع التيار .. وما أكثر ما عانى الأستاذ المرشد فى سبيل مزج هذه الفئة بسائر الإخوان ، ولكنه لم يحقق الكثير مما كان يأمل فى هذه الناحية .

هناك أفراد من هذه الطبقة كان امتزاجها بسائر الإخوان امتزاجاً كاملا من أول يوم غشوا فيه مجتمعات الإخوان من أمثال حسن العشماوى ومنير الدلة وهرون المجددى ... لكن أفراداً آخرين لم يمتزجوا مما يدل حقاً على أن الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف . وصدق الله العظيم «لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم» .

وكان هؤلاء الأفراد هم الهدف السهل لمحاولى النيل من الدعوة ، وكان الأستاذ حسين عبد الرازق والأستاذ كمال عبد النبى بالتبعية من هؤلاء الأفراد .

٦ — بعد التحاق الأستاذ حسين بالدعوة بفترة غير قصيرة أخذت السراى الملكية فى انتهاج سياسة جديدة تستهدف احتواء أسرة عبد الرازق التى اعتبرت السراى انضمام فرد منها إلى الإخوان وانتظامه عضواً فى الهيئة التأسيسية تطوراً خطيراً يخشى معه أن يستفحل أمرها باستيعابها العنصر الوحيد الذى ينقصها وهو عنصر الأسر الكبيرة ذات النفوذ والثراء ... وبدت خطوات هذه السياسة متتابعة فيما يلى :—

أ) اختير الشيخ مصطفى عبد الرازق فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ وزيراً للأوقاف فى وزارة أحمد ماهر .

ب) وبعد ذلك بنحو عام عينه الملك شيخاً للأزهر وهو شرف ماكانت تحلم به الأسرة طوق الملك به جيدها .

حـ) وفى ١٤-٢-١٩٤٦ أنعم الملك على الشيخ مصطفى عبدالرازق شيخ الأزهر بوسام كبير

د) فى ١٦-٢-١٩٤٧ توفى الشيخ مصطفى عبد الرازق وهو شيخ للأزهر ، وفى ٢٢ من نفس الشهر تقدمت هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف بالتماس إلى الملك تطلب إصدار عفو عن الشيخ على عبد الرازق بعد عشرين سنة من القرار الذى يحرمه من تولى أى منصب حكومى ... حتى يتولى فضيلته وزارة الأوقاف وقد كان وتولى هذه الوزارة .. وماكان لهيئة كبار العلماء أن تتقدم إلى السدة الملكية بطلب العفو عن الرجل الذى طرده الملك منذ عشرين سنة إلا أن يكون ذلك بإيعاز من الملك نفسه .. وبعد أن صدر العفو وتولى الشيخ على عبد الرازق وزارة الأوقاف قامت الهيئة بمقابلة رئيس الديوان الملكى لإبلاغ جلالة الملك شكرها على هذا التفضل .

هـ) فى ١-٣-١٩٤٧ كانت خطة التمرد التى أعلنها الأستاذ حسين عبد الرازق قد بلغت أوجها فصدر قرار بإيقافه وإيقاف الأستاذ أحمد السكرى والدكتور إبراهيم حسن والأستاذ كمال عبد النبى باعتبارهم خارجين عن الجماعة .

وقد رأيت أن أضع بين يدى القارىء الوقائع بتسلسلها وبتواريخها حتى يلمح فى هذا التسلسل كيف تطورت الأمور بمندوب هذه الأسرة فى الإخوان المسلمين هذا التطور الفجائى

المريب ؛ فلقد التحق حسين عبد الرازق بالدعوة عن طريق عبد الحكيم عابدين كما قدمت ، وكانا لا يكادان يفترقان ، وكان عبد الحكيم جرياً على طبيعته البدوية يقضي مع حسين فى بيته الوقت الطويل ويعتبر بيت حسين بيته فيطلب الطعام بنفسه ويشيع السرور فى البيت بأسلوبه الأدبي المحبب ، وبنفسه الصافية الشفافة ، فإذا حبست الشواغل عبد الحكيم عن زيارة حسين طلبه حسين فى كل مكان حتى يعثر عليه ... وظلت هذه العلاقة على هذا الحال دون فتور نحو عامين كانا خلالهما مثلا كريماً للصديقين الحميمين .

٧ - كانت أقرب شعب القاهرة إلى المركز العام شعبة حى عابدين وكانت تضم مجموعة أكثرها من الطلبة والشباب الصغير من صغار الموظفين ، وبقدر ما كان حسين عبد الرازق على صلة وثيقة بعبد الحكيم عابدين فإنه كان هو وأترابه من كبار القوم لا يختلطون بعامة الإخوان حتى إن هؤلاء الإخوان كانوا يعيبون عليهم هذا المسلك ويعدونه - كما قدمت - ترفعاً لا تقره دعوة الإخوان المسلمين . . ويبدو أن وحياً من الأستاذ حسين أخذ يصل إلى إخوان شعبة عابدين كان من نتيجته أن رأينا هذا شباب فجأة يشيع قالة سوء عن عبد الحكيم عابدين ورأينا الأستاذ حسين عبد الرازق أول من يتلقفها ويسارع إليها ويتبناها ، ورأينا مجموعة من هذا الشباب تمشى فى ركابه وصارت بطانة له.

وشباب شعبة عابدين بحكم قربهم من المركز العام كانوا فعلا أكثر إخوان الشعب اتصالا بالأستاذ عبد الحكيم عابدين ، وكانوا يلوذون به حين يبحث الواحد منهم عن زوجة يطمئن إليها ، وهو يعتبر نفسه والد هؤلاء الشباب ، وقد دخل بيوت أهليهم - كطبيعته البدوية .- وألم بما فى كل بيت من فتيان وفتيات فتم الزواج على يديه ؛ وباعتبار الزوج والزوجة من أبنائه يزورهما فى بيتهما الجديد ، ويطلب الطعام ، ويمزح معهما المزح الذى يزيدهما امتزاجاً وألفة .

وهذه بلاشك صورة فى ذاتها وهدفها كريمة تستحق الثناء ولكن الذين فى قلوبهم مرض قد يجدون فيها مرتعاً خصيباً لتحقيق أغراضهم وإرضاء نفوسهم .

لقد دخل عبد الحكيم بيت حسين عبد الرازق أكثر مما دخل أى بيت من بيوت إخوان شعبة عابدين فلماذا لم يأت حسين فى يوم من الأيام شاكياً عبد الحكيم دخول بيته ؟ ..

٨ - تقدمت فجأة مجموعة من شباب شعبة حى عابدين إلى المركز العام بمذكرة تتهم فيها الأستاذ عبد الحكيم عابدين بالتحام بيت زميلهم الأخ على عبد المعطى ونرى وسط أسماء الشاكين

اسم شقيق الزوجة . فتهب زوبعة يثيرها أفراد من الماشين فى ركاب الأستاذ حسين عبد الرازق فيترك الأستاذ المرشد كل ما بين يديه من أمور جسام ويتفرغ مهموماً لتحقيق هذه التهمة الخطيرة ويصدر قرارين حاسمين :

الأول : بإيقاف عبد الحكيم عابدين وإبعاده عن المركز العام حتى يصدر قرار بإنهاء هذا الإيقاف أو بجعله دائماً

الثانى : بتكوين لجنة تحقيق لا يحضرنى الآن من أسماء أعضائها إلا الاستاذ حسين عبد الرازق والأستاذ كمال عبد النبى ، وقد بقى فى خاطرى هذا الاسمان لأننا يوم صدر قرار تكوين هذه اللجنة تعجبنا وذهب بنا العجب كل مذهب أن يكون هذان هما مثيرى هذه الفتنة – والاستاذ المرشد يعرف ذلك – ومع ذلك يجعلها من أعضاء اللجنة ، وقد ثبت لنا أخيراً أنه كان أبعد نظراً .

وتقوم لجنة التحقيق بالتحقيق فى التهمة فتحدث المفاجأة التى أحبطت تدبيرهم وفضحت مؤامرتهم حين سئل الزوج وهو الاخ على عبد المعطى الذى نوهنا عنه آنفاً فكذب كل ما قيل واستنكر ما أثير وأثنى على الاستاذ عبد الحكيم عابدين أحسن ثناء وقال : إن الاستاذ عبد الحكيم عابدين ما قام بينى وبين زوجتى إلا بما يقوم به الوالد للتوفيق بين أبنائه – ولم يكتف الأخ على عبد المعطى بما قرره أمام اللجنة بل ذهب إلى الاستاذ المرشد وأعاد امامه ما قرره أمام اللجنة ، فلم يسع الاستاذ المرشدبعد ذلك إلا أن يصدر قراراً بإنهاء فترة إيقاف عبد الحكيم عابدين وإعلان براءته .

ولا يفوتنى أن أذكر أننى مع كل ما بينى وبين عبد الحكيم عابدين من صداقة وطيدة وثقة تامة متبادلة فإننى باعتبارى بشراً وجدت نفسى أمام الحملة المسعورة التى أثارها هؤلاءالمرجعون وقد اهتزت هذه الثقة فى نفسى ، ووجدتنى ألقى عبد الحكيم فى المركز العام وأعرض عنه ، وقد لاحظ عبد الحكيم ذلك أكثر من مرة فاقتحم على والدموع تترقرق فى عينيه ووجه إلى عتاباً باكياً أن تؤثر المؤامرة حتى تهز ثقة محمود عبد الحليم فى أخيه عبد الحكيم . . وقد أجبته وأنا أغالب الدموع فى عينى بقولى : معذرة يا عبد الحكيم إنك عزيز على نفسى وحبيب إلى قلبى ولكن الدعوة أعز على وأحب إلى ، ويجب أن تلزم بيتك حتى يتم التحقيق .

وقد قصدت من ذكر ما كان من لقائى مع عبد الحكيم فى غمار هذه الفتنة أن أبين إلى أى مدى وصل تأثير الدعاية الأثيمة التى أثارتها هذه الفئة والتى سهروا على تفجيرها تفجيراً يهز القلوب ويقتلع الثقة من النفوس .

وقد فقدنا فى غمار هذه الفتنة أخاً كان أثيراً لدينا هو الأخ الدكتور إبراهيم حسن الوكيل

الثانى للاخوان.ولست أدرى حتى اليوم هل كان اعتزاله لمجرد تأثره بهذه الدعاية التى ثبت زيفها أم كان لشعوره بأن منصبه فى الدعوة لم يعد يحظى من اهتمام الإخوان بمثل ما كان يحظى به من قبل، فرأى التعلل بالتأثر بهذه الدعاية فرصة يخفى وراءها السبب الاصيل .

ولما ظهرت براءة الاستاذ عبد الحكيم عابدين وأعلنت هذه البراءة ، اعتقد الإخوان أن الامر قد انتهى عند هذا الحد ، وأن كل أخ ممن رتعوا فى الفتنة سيستغفر الله ويرجع إلى مكانه فى الدعوة ولكن الغريب فى الامر أن حسين عبد الرازق وكمال عبد النبى وهما كانا من أعضاء لجنة التحقيق وكانا أولى الناس بالرجوع إلى الحق قد ركبا رأسيهما وأصرا على رأيهما دون مبرر وأعلنا اعتزالهما محتويين الدكتور إبراهيم حسن والعدد الذى كان مفتونا بهما من أعضاء شعبة حى عابدين على أن من هذا العدد من فاء إلى الحق ورجعوا بعد ذلك نائبين .

وهكذا فعل التأثير العائلى فى رجل آمن بفكرة وبايع عليها ثم رأى أنها صارت تتعارض مع مصالح أسرته فضحى بفكرته فى سبيل هذه الأسرة . وصدق الله العظيم حيث يقول « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين».

٩ — فى ذلك الوقت نفسه وفى غمار هذه الاحداث الخطيرة ووسط تلك الضربات المذهلة المفاجئة وعلى أثر عدد من أوجه النشاط الاجتماعى والسياسى برز فيها دور عبد الحكيم عابدين ممثلا للدعوة فى مصر وخارج مصر ؛ فاض الكيل بالاستاذ أحمد السكرى الذى كان يعانى من قديم شعوراً خاصاً أشرنا إليه . . ويبدو أنه رأى هذه الظروف القاسية فرصة سانحة فبدأ بإثارة أن الاستاذ المرشد قد هضم حقه وسلبه اختصاصه وتخطاه بما خص به عبد الحكيم عابدين من اتصالات وتمثيل للاخوان فى مواقف هامة ، وبدت من الأستاذ أحمد بوادر فيها رائحة التمرد لأول مرة وحاول الأستاذ المرشد رده إلى الصواب فقابله بالإصرار فرأى الاستاذ المرشد أن يرجع فى هذا الأمر إلى الهيئة التأسيسية فدعاها إلى الاجتماع وأذكر أن هذا الاجتماع ظل ثلاث ليال متتالية كل ليلة تبدأ من صلاة المغرب وتستمر حتى صلاة الفجر فطلوع الشمس .

وقد بدأ الاستاذ المرشد الحديث فى الليلة الأولى فسرد المواقف التى دعت إلى تكليف الأستاذ عبد الحكيم عابدين بما عهد إليه به وأوضح الأستاذ أن ذلك لا يمس كرامة وكيل الإخوان ولا

ينتقص من قدره في قليل ولا كثير إلا أن تكون هناك حساسية ، وأن هذه الحساسية لا ينبغي أن يكون لها وجود في مجتمع قائم على الإيمان والأخوة ثم تطرق من ذلك إلى أن لقائد الدعوة أن يعهد بما يشاء لمن يشاء لأنه أدرى بالأصلح للأداء وله على الجميع حق الطاعة . . ثم طلب إلى الاستاذ أحمد أن يقول ما عنده فشرح وجهة نظره ثم دارت بينه وبين بعض الأعضاء مناقشات تدخل في بعضها الأستاذ المرشد ، واستمرت المناقشات طيلة الليلتين الأولى والثانية .

وفي الليلة الثالثة فاجأ الأستاذ المرشد الجلسة بإثارة الموضوع الذي كنت تكلمت معه فيه في أوائل أيام اتصالي بالدعوة في خلال عامي ١٩٣٦ ، ١٩٣٧ والذي أشرت إلى طرف منه في بدء الحديث عن هذه الفتنة . وقد طلب الى الاستاذ المرشد أن أشرح للهيئة الموضوع بالتفصيل ففعلت . . ودارت مناقشات طويلة حول الموضوع استغرقت الليل كله . . ويبدو أن حديثي إلى الهيئة كان له وقع عميق في نفوس الاعضاء بدا أثره في مناقشاتهم حتى أيقن الاستاذ أحمد أن الاتجاه الإجماعي للهيئة ينذر بفصله مع أنه كان يطمع أن يجد من الأعضاء من يسند ظهره ويؤازر موقفه على أن الاستاذ المرشد لن يثير إلا موضوعه مع الأستاذ عبد الحكيم عابدين .

وأذن الفجر وأقيمت الصلاة وصلينا خلف الأستاذ المرشد ، ثم استؤنفت الجلسة ، وكان مفروضاً أنها تستأنف لأخذ الاصوات على قرار . . ولكن الذي حدث أن الأستاذ أحمد طلب الكلمة ، فوقف وتحدث حديثاً حلواً كأنما غسلت الصلاة قلبه ، وكان حديثه اعترافاً بأخطائه وتوبة إلى الله منها ورجوعاً إلى الحق وقد طلب في آخر كلمته الصفح مني نحوه فقمت من مكاني وتوجهت اليه وعانقته وتبادلنا القبلات وكلانا تنهمر دموعه سروراً وفرحاً . . . وكانت ساعة من أجمل ما مر علينا من ساعات الحياة فاضت فيها عيون الجميع وتعانقت قلوبهم وصفت نفوسهم ووقف الأستاذ المرشد فحمد الله تعالى وأثنى عليه إذ وفق إلى هذه النهاية الطيبة وقابل اعتذار الاستاذ أحمد إليه بالإشادة بفضله .

وانقضى الاجتماع وطلعت الشمس وانصرف أعضاء الهيئة كل إلى بلده مسروراً ليحمل إلى إخوانه هذه البشرى المأمولة والنتيجة الطيبة .

ارتداد : ما كاد أعضاء الهيئة التأسيسية يصلون إلى بلادهم حتى فوجئوا بموقف أذهلهم وعلع ألبابهم ، ذلك أن صحف حزب الوفد — التي كانت في ذلك الوقت تشن حملة على الإخوان — صدرت بنبأ عجيب أن الاستاذ أحمد السكري الوكيل العام للاخوان المسلمين استقال من الإخوان المسلمين ثم إن صيغة استقالته لم تكن مجرد صيغة استقالة بل كانت تهجماً على الدعوة وعلى مرشدها .

كان اللغز المحير هو أنه لو كان فى نية الأستاذ أحمد الاستقالة فلم لم يستقل فى جلسة الهيئة التأسيسية التى امتدت ثلاث ليال متتالية قبل أن يواجه بالنقد ؟! ولم أعلن اعترافه بأخطائه فبكى وأبكى وأحس لأول مرة أن قلوب ممثلى الدعوة فى كل مكان قد انفتحت له وبعد أن عانقه عناق حب وصفاء من واجهوه بالنقد ؟! . .

لو كان فى نيته الاستقالة لما انتظر حتى يرشق بالسهام من كل جانب . . بل لما حضر هذا الأجتماع الذى كان يعرف أنه سينعقد لمحاكمته . . . ولا ستقال احتجاجاً على مجرد الدعوة لاجتماع يعقد لمحاكمته . . ولكان بهذه الاستقالة قد تفادى موقف الاتهام .

استعرضنا الموضوع من جميع نواحيه وعللناه من مختلف احتمالاته فلم نجد لهذه الاستقالة المفاجئة مع الظروف التى سبقتها معنى ولا مبرراً ولا يمكن أن تتسق مع مقدماتها . . فلابد أن يكون عامل خارج عن الموضوع قد تدخل ، وأخذنا نستعرض ما خطر على بالنا من عوامل حتى اهتدينا إلى العامل الأقرب احتمالا .

كانت قد توطدت صداقة بين الأستاذ أحمد وبين الاستاذ حسين عبد الرازق منذ انضوى الأخير تحت لواء الدعوة ، ولكنها صداقة من نوع آخر غير النوع الذى يربط بين حسين عبد الرازق وعبد الحكيم عابدين انها صداقة ارستقراطية لم يتعودها الإخوان فى مجتمعاتهم . . وكان الأستاذ حسين يعرف مآخذ الإخوان على الأستاذ أحمد وأن الإخوان لا يتغاضون عنها ، كما كان يعلم أنه ليس من السهل قبول الأستاذ أحمد توجيه اللوم اليه من أجل هذه المآخذ . . وكان موقناً بأن جلسة المحاكمة إذا لم تنته بانفصال الأستاذ أحمد فلا أقل من أن تنتهى بتوسيع شقة الخلاف بينه وبين الإخوان . . أما وقد انتهت الجلسة بما لم يكونوا يحتسبون . . بالمصافاة والوئام . . إذن فلابد من التدخل .

لقد كان الأستاذ أحمد السكرى صيداً سميناً لهواة الصيد فى الماء العكر وما كان أكثرهم فى ذلك الوقت . . إن الجميع فى ذلك الوقت كانوا يتربصون بالإخوان شراً ، القصر وأحزابه والوفد الذى خلع العذار فى إعلان حرب دنيئة على الإخوان . . ومن وراء هؤلاء جميعاً الإنجليز الذين هم العدو الاصيل الذى استطاع بمكره أن يجد فى هؤلاء المصريين ما يغنيه عن أن يضرب بيده . . .

ولا شك فى أن حسين عبد الرازق كانت تنطوى جوانحه على عناصر من الخير ، لكن يبدو أن هذه العناصر لم تكن من القوة بحيث تثبت أمام عناصر أخرى تكالبت عليه من أسرته فانهار بين يديها وصارت تحركه بعد ذلك حيث تشاء . . . وكأن أسرته رأت أن تثبت « لسيد البلاد » الذى

بوأ عميدها منصب مشيخة الأزهر والذى احتضن ابنها بعدأن أصدر ضده قانون الحرمان لمدة عشرين عاماً وبوأه منصب وزارة الأوقاف أن تثبت له ولاءها وتفانيها فى خدمته ، ولم يكن فى يديها ورقة تلعب بها فى هذا المضمار أربح من ابنها الذى كان من الإخوان المسلمين فسلطته على أحمد السكرى بحكم الصداقة بينهما .

ولم يكن حسين عبد الرازق أبله حتى يوجه صديقه بعد أن يشحنه إلى الارتماء على أعتاب القصر فإنه يعلم أن أحمد السكرى مهما شحن ضد إخوانه فهو يربأ بنفسه أن يكون فى هذا الموضع . . وإذن فليكن التوجيه إلى الوفد الذى كان فاتحاً ذراعيه لأصغر صغير من الإخوان فما بالك بالوكيل العام للاخوان .

ونجح التدبير الآثم ، وصارت « صوت الأمة » لسان حال الوفد تطالعنا كل صباح فى صدرها بكلمات للأستاذ أحمد السكرى . . وكان حزننا شديداً وأسفنا عميقاً لا لهجمات الأستاذ أحمد على الإخوان فإن ذلك لم يضر الإخوان فى قليل ولا كثير ، ولكن كان أسفنا أن يقع مثل الأستاذ أحمد فى الفخ ، وأن يتمكن الأعداء لامن الإيقاع به فحسب بل ومن إحراجه فى كتابة يعلمون أنها تقطع عليه خط الرجعة .

كان الأستاذ أحمد السكرى أعز على نفس الأستاذ المرشد من أن يراه مخطئاً فلا يقيل عثرته ، وأكرم عليه من أن يتركه مهما كثرت المآخذ عليه دون أن يأخذ بيده . . ولكن الشحنة التى شحنها الأستاذ أحمد أذهلته عن نفسه وغشت على بصيرته حتى لم يعد يرى أبعد من موطئ قدمه مع أنه ممن لا يغيب عن مثله أن هؤلاء الذين تلقوه فى أحضانهم بهما عتهم الكذب وهدفهم الاستغلال ولا مكان فى صفوفهم لرجل لم يعش منذ حداثته إلا فى رحاب الدين والأخلاق..فإذا استقبلوا مثله لايلبثون بعد أن يستعملوه فى أغراضهم أن ينبذوه نبذ النواة .

ولكن الأستاذ أحمد لم يدع للأستاذ المرشد فرصة يقيله فيها من عثرته بعدأن كتب ما كتب أو بالأحرى والأدق بعد أن استكتبوه ما أرادوا فأوغر بذلك صدور الإخوان نحوه فى كل مكان. وجدير بى أن أقرر أن الأستاذ المرشد كان شديد الحرص على أن يحمى عرض الأستاذ أحمد فلم يكن حتى جلسة الهيئة التأسيسية التى أشرت إليها والتى عقدت خصيصاً لمحاكمته يسمح بأن يعلم بالمآخذ التى أخذت عليه إلا أعضاء الهيئة ليس غير ، وكان الاتجاه المقرر أن لايثير الأعضاء فى بلادهم ما دار فى الجلسة حول هذه المآخذ حتى تظل صدور الإخوان بعيدة عن الحرج نحو الأستاذ أحمد..

أما وقد أوغر الأستاذ أحمد بنفسه صدور الإخوان نحوه فلم يعد للأستاذ المرشد سبيل لإقالة من عثرة ولا لأخذ بيد . . ومن هنا كان حزن الأستاذ المرشد وأسفنا . . وكان ما توقعناه فقد استغل اسمه فترة ثم اختفى ، بدأوا بإبراز كلمته فى صدر الجريدة ثم تقهقروا بها إلى داخلها ثم ألقوا بها فى زاوية منها ثم لما رأوا أن لا أثر لها ولا نتيجة قد تحققت منها عدلوا عنها .

(٥) مع الوفد وجها لوجه

ألممنا فى صفحات سابقة بمناسبات قليلة ألقت بعض الضوء على تصور كل من الهيئتين الوفد والإخوان كل منها للأخرى ، ويتلخص هذا التصور فى الصورتين الآتيتين :

الوفد يتصور الإخوان جماعة دينية بالمعنى المبتور للدين الذى استقر فى أذهان الناس من أنه « دروشة » وعلى رأس هذه الجماعة شاب طموح يريد أن يستغل هذه الجماعة ليبرز حتى يصل إلى كرسى البرلمان، وأن هذا الشاب من السهل على الوفد احتواؤه وإرضاء طموحه بصورة أو بأخرى

والإخوان يتصورون الوفد ثروة شعبية ضخمة اختلسها مؤسسه سعد زغلول وورثها من بعده مصطفى النحاس ، وكان ذلك كله قد تم فى غفلة من صاحب هذه الثروة الأصيل وهو الدعوة الإسلامية . . وأنه ما دام صاحب الثروة الأصيل قد استيقظ من غفلته وثاب إلى رشده فقد وجب أن يسترد ثروته . . والإخوان لا يرون اللجوء إلى القوة وسيلة هذا الاسترداد بل يرون انتهاج وسيلة سلمية ملخصها أن نعلن الدعوة الإسلامية عن نفسها ، وتثبت للشعب أصالتها ، وفى هذا الإعلان وحده ما يكفى لإثارة الحنين فى قلوب الأبناء الذين اغتصبوا والذين طالت غربتهم للالتقاء بأبيهم والرجوع فى حضن أمهم .

وعلى هذين التصورين سارت الهيئتان كل فى سبيلها ، فالوفد لا يريد أن يرى الإخوان أكبر من الصورة التى رسمنا إطارها ، والإخوان يعلمون الإطار الذى وضع الوفد صورتهم فيه ، وقد أسعدهم هذا التصور لأنه أتاح لهم فرصة العمل الدائب للاتصال بالجماهير وعرض دعوتهم عليها دون أن يتعرض لهم الوفد بالمعاكسة أو التعويق . . وظل ذلك سنوات اكتسبوا خلالها مكانة مكينة فى قلوب كثرة غالبة من الشعب .

واستيقظ الوفد أخيراً من غروره ، فرأى ثروته المدعاة والتى كان يتيه بها فخاراً قد تسرب أكثرها ، والتفت فوجد هذه الثروة المتسربة وقد اجتمعت عند الإخوان المسلمين . . . فجن جنون الوفد لأنه قد أتى من مأمنه ، فهو لم يكن يحذر هذه الناحية التى كان يراها أهون من أن يعيرها

اهتماماً أو يوليها حذراً . . فكيف استطاعت هذه الجماعة أن تسحب الأرض من تحت قدميه ؟!

الوفد يعلن الحرب على الإخوان :

لقد عاصرت الوفد منذ نشأتى وكنت على مقربة من كبار رجاله، ورأيت بنفسى كيف كان القصر وكيف كانت الأحزاب الأخرى تكيد للوفد وتفعل به وبأتباعه الأفاعيل فكانت تنكل بتابعيه كباراً وصغاراً بل إنها حاولت اغتيال رئيسه . . ورأيت كيف كان الوفد يهاجم القصر ويهاجم الأحزاب فى صحفه وفى خطب رئيسه وفى مجتمعاته ونواديه ... ولكنى لم أر هجوماً للوفد كهجومه على الإخوان المسلمين .

لقد كان هجوم الوفد على القصر وعلى الأحزاب رداً لهجومهم عليه . . هم بدأوه بالاعتداء فهو يرد اعتداءهم ، أما الإخوان فإنهم لم يهاجموا الوفد ولم يتعرضوا له بأدنى إهانة أو اعتداء فلم إذن هجومه الضارى عليهم هجوماً لم يسبق له مثيل .

لقد خلع الوفد العذار فى هجومه على الإخوان وتخلى عن الأخلاق والآداب والمثل واندفع كالمجنون الذى فقد عقله..ونسى أن له أعداء أذاقوه ألوان الهوان والإذلال ولازالوا يذيقونه.. ترك هؤلاء جانبا وتفرغ للإخوان يهاجمهم بكل ما يملك من وسائل ، فسخر لمهاجمتهم صحفه الجاد منها والهازل وألسنته سواء ألسنة الزعماء وألسنة الأتباع ، واستباح فى ذلك الكذب والتمويه والزور والاختلاق . . . ولم يقابل الإخوان هذا الهجوم الغادر بمثله بل تذرعوا بالصبر وواصلوا مسيرتهم فى هدوء وكان الأستاذ المرشد يتمثل بقول الشاعر

من كان يخلق ما يقول فحيلتى فيه قليلة

وقد سبق لى أن ذكرت أن بدء شعور الوفد بخطورة الإخوان عليه كان فى تجربة حكومة إسماعيل صدقى حين قرر الوفد إسقاط هذه الحكومة إبان توليها الحكم وحشد كل قواته الشعبية ووسائله الإعلامية لذلك ولكنه عجز عن إسقاطها حين أعلن الإخوان تأييدهم لها . . وقدتولت هذه الوزارة الحكم فى فبراير سنة ١٩٤٦ . . ويعتبر هذا التاريخ هو الوقت الذى أخذ الوفد يراجع فيه خططه ويعدلها على ضوء هذه المفاجأة التى أذهلته وطارت بصوابه وقد اتخذ تعديلها الأسلوب الآتى :

أقنعت زعامة الوفد أعضاءه بأن خطورة الإخوان المسلمين عليه تفوق خطورة كل أعدائه لأنها تنازعه الزعامة الشعبية نفسها التى هى رأس ماله . . وإذن فلابد من حشد كل الوسائل المتاحة للوفد ضد الإخوان المسلمين . . وهذه الوسائل نوعان :

نوع تقوم به فروع الوفد فى أنحاء البلاد ضد شعب الإخوان بها من التحرش بهذه الشعب وتوجيه السباب والألفاظ النابية إلى أعضائها وإثارتهم بمختلف وسائل الإثارة ومحاولة جرهم إلى معارك وقد قامت فروع كثيرة من فروع الوفد بهذه المهمة فى مختلف البلاد ولكن تعليمات الأستاذ المرشد كانت عاصمة لهذه الشعب من الاستجابة لهذه المحاولات حيث اعتصموا بالصبر – وهم قادرون على المواجهة والتأديب – لفوتوا على هذه الفروع تحقيق ما كانوا يأملون . . ولم تنجح هذه المحاولات إلا فى جهة واحدة هى بور سعيد حيث دبر فرع الوفد بها هجوماً مباغتاً على الإخوان فى دارهم فكان لزاماً على الإخوان أن يدافعوا عن أنفسهم فأدى ذلك إلى اصابات فى الجانبين تولت النيابة تحقيقها وقدمتها إلى القضاء . . ومع ذلك فقد ذهب الأستاذ المرشد بنفسه إلى بور سعيد واجتمع بأهل بور سعيد من الجانبين وشرح لهم موقف الإخوان وأن دعوتهم تجمع ولا تفرق وأنهم وقد اعتدى عليهم لهم فى سبيل جمع القلوب وتصفية النفوس وتوحيد كلمة الأمة قد تسامحوا فى حقهم . . أما فى الجامعة فقد حاول الطلبة الوفديون التحرش بالطلبة الإخوان فقمعهم الإخوان بوسيلة ألجمتهم حين احتكم الطرفان إلى عامة الطلبة إذ دعا ممثلو الوفد إلى الإضراب ثلاثة أيام ودعا ممثلوا الإخوان إلى الاضراب يوما واحداً فاستجاب الطلبة إلى رأى الإخوان ورفضوا الرأى الآخر ، كما قام الوفديون بمحاولات أخرى فى الجامعة باءت كلها بالفشل .

والنوع الآخر من الوسائل تقوم به الصحافة الوفدية التى كانت تمثلها فى ذلك الوقت صحيفة « المصرى » التى كان يصدرها الأستاذ محمود أبو الفتح وأخواه الاستاذان حسين أبو الفتح وأحمد أبو الفتح ومع أن هذه الجريدة كانت جريدة حزبية تمثل حزب الوفد وتطلع كل يوم على الناس بآرائه المعارضة للحكومات المختلفة ومع أنها كانت تفيض أنهارها فى كل عدد منها بالمقالات الضافية المؤيدة للوفد فإنها كانت تفيض أيضاً بروح الجد ونزاهة القلم وعفة اللسان . . ولذا فإنها كانت أوسع الصحف اليومية انتشاراً وأكثرها قراء وأقواها تحريراً وأغزرها مادة وحيوية . .

وأرادت زعامة الوفد صحيفتها هذه المعبرة عن آرائها أن تفسح من صفحاتها للحملة التى يعدها الوفد على الإخوان المسلمين ولكن الأستاذ محمود أبو الفتح وأخواه عارضوا فى ذلك ورأوا بجريدتهم أن تلطخ صفحاتها بالبذاءة والكذب والاختلاق . . فعدت زعامة الوفد ذلك تمرداً من آل أبى الفتح وقررت أن تصدر صحفاً أخرى يكون أصحابها الممثلين الرسميين للوفد حتى لا تتمرد على نشر ما يقرر الوفد نشره فأصدرت صحيفتين يوميتين هما « الوفد المصرى » و « صوت الأمة » وقد تقدم بطلب الترخيص بإصدار الجريدة الأخيرة (صوت الأمة) إلى وزارة الداخلية الأستاذ محمد صبرى أبو علم باشا السكرتير العام للوفد شخصياً لما يعقده الوفد على هذه الجريدة من آمال

كبار وحشد لتحريرها مجموعة من أعظم الكتاب وأشهرهم منهم الدكتور طه حسين والدكتور محمود عزمى والدكتور عزيز فهمى والاستاذ محمد عبد القادر حمزة ، وصدر العدد الأول منها فى أول أغسطس سنة ١٩٤٦ . وقد يكون من الأحداث الهامة ذات الدلالة فى هذا الصدد أن العدد الأول من جريدة الإخوان اليومية قد صدر فى ٥ مايو سنة ١٩٤٦

وقامت جريدة « صوت الأمة » بالمهمة الملقاة على عاتقها نحو الإخوان فى أول الأمر بحذر ودون إسفاف ، ولعل الوفد كان يتربص بالإخوان موقفاً حرجاً مما يعترى الدعوات فيكون هجومه المركز فى هذه الحالة إجهازاً على الإخوان كما يجهز العدو الضعيف الغادر على جريح . . فلما اعترى « الإخوان » هذا الموقف الذى كان يترقبه وكان من صنع القصر وأحزابه رآها الوفد الفرصة السانحة لتوجيه هجومه إذ يكون الإخوان قد حصروا بين نارين .

لما بدأ الوفد يشم رائحة الفتنة الثالثة بين صفوف الإخوان أخذ يعد العدة لإذكاء نار حملته على الإخوان وإمدادها بوقود جديد من البذاءات والسفاهات وهجر القول.وراح ينحط بها فى هذا الحضيض مستمداً من خيوط الفتنة وقائع اختلقها اختلاقاً . . وأخذت « صوت الأمة » تخرج علينا كل صباح بسيل من الشتائم والسباب وألفاظ يعاف القلم أن يشير إليها تحت عنوان أوحى إليهم به ما يعتمل فى صدورهم من حقد هو « هذه الجماعة تهوى » ويبدلونه فى بعض الأيام بالعنوان « هذه الجماعة تسقط » .

وقد استخدمت « صوت الأمة » إخواننا الذين أشرنا إليهم قبلا والذين صنعوا الفتنة الثالثة ورتعوا فيها ، استخدمتهم بعض الوقت حتى إذا استنفدوا أغراضهم ألقوا بهم فى سلة المهملات وبدأوا فى أسلوب جديد من أساليب الافتراء بنشر قوائم طويلة بأسماء أعضاء من مختلف البلاد استقالوا من الإخوان وكان هذا برهاناً جديداً على كذب ما تنشر هذه الجريدة فكل بلد من هذه البلاد التى نشرت أسماء المستقيلين منه يعرف أن هذه الأسماء لم تكن فى يوم من الأيام أعضاء فى الإخوان وإنما هم من الوفديين .

وقد يظن القارئ فى تعبيراتى عن بذاءة ما كانت تنشره «صوت الأمة » بعض المبالغة ، ولكن أعداد هذه الجريدة مازالت تحتفظ بها المكتبات العامة فى القاهرة والإسكندرية وبعض العواصم فليرجع إليها من شاء . . وأنا ذا شخصياً — وقد كنت ملامساً للأحداث وأعرف الناس بكذب ما تنشره الجريدة — قرأت ما نشرته « صوت الأمة » فى صبيحة أحد الأيام وكان بأسلوب تعف العاهرات عن النطق به فأثارنى حتى إننى ذهبت إلى الاستاذ المرشد وسألته منفعلا : هل قرأت ما كتبته

« صوت الامة » اليوم ؟ فأجابنى مبتسما : نعم قرأته إنها ليست « صوت الأمة » إنها « صوت آلامه » و كان الاستاذ المرشد يشير بذلك إلى ما يشتعل فى صدور هؤلاء الناس من الحقد وما يتميز به جحيم حقدهم من الغيظ لفداحة ما ألحقه الإخوان بهم من خسائر شعبية لا يسهل تعويضها .

على أن سفه هذه الجريدة وإسفافها لم تسلم منه جريدة « المصرى » وهى لسان حال الوفد والتى لولاها لما وصلت آراء الوفد وتوجيهاته إلى الشعب فهى وحدها من جرائده التى تصل كل صباح إلى كل بيت وإلى كل يد أما جرائدة الاخرى فهى محدودة الانتشار ، ومع ذلك فإن « صوت الأمة » فى نفس الوقت الذى كانت تهاجم فيه الإخوان كانت تهاجم « جريدة المصرى » لتقول فى عددها الصادر فى ١٢ - ٥ - ١٩٤٧ تحت عنوان « جريدة المصرى وأخبار اليوم إخوان » : ليس عجيباً أن تمضى جريدة « المصرى مع سنن «أخبار اليوم » فى محاولة إلصاق كل اتهام إلى الوفديين خدمة للحكومة وللعهد الحاضر ، لأن الجريدتين شركة واحدة وأغراض واحدة . . ولا يغرن القارئ محاولة هذه الجريدة الإيهام بأنها وفدية « معتدلة » فذلك زعم واضح الكذب ومنهار من تلقاء نفسه وإن كان أصحابه يتعلقون بأهدابه لأن لهم فيه مآرب أخرى .

نماذج من عفة الإخوان فى الرد على الحملة :

ما كان لنا حين نعرض نماذج من رد الإخوان على هذه الحملة أن نسمح لأنفسنا بأن نورد نصوصاً من فحش القول الذى لطخوا به صحيفتهم . . على أن ما كتبه الإخوان فى هذا الصدد لم يكن رداً على سفههم وإنما هى كتابة موضوعية بعيدة كل البعد عن أساليبهم .

(١) بعد عدة أشهر من بدء الحملة الوفدية الأثيمة وفى أوائل شهر مايو سنة ١٩٤٧ كتب الاستاذ المرشد خطاباً إلى النحاس باشا رئيس حزب الوفد سلمه إليه الاستاذ عبده قاسم السكرتير العام للإخوان فى ذلك الوقت جاءت فيه الفقرات الآتية :

«إن الوفد يعلن خصومته للإخوان ويحاربهم بأسلحة وأساليب غريبة عجيبة لا تتفق مع خلق أو دين أو مصلحة . . . وصحفه تفيض أنهارها بألفاظ جافية تشمئز لها كل نفس مهذبة» .

«إن الوفديين لا يزالون يفكرون بعقلية سنة ١٩٢٠ فيقولون : إن الأمة هى الوفد والوفد هو الأمة وإن الشعب قد منحه توكيلا لا نقض فيه ولا إبرام . ويسقطون من حسابهم ربع قرن فى حياة هذا الوطن ، تبدلت فيه الأرض غير الأرض وتغيرت النفوس . . وانتقل إلى الدار الآخرة أكثر الوكلاء والموكلين على السواء . . وهذا التفكير تخلف عن ركب الحياة . . وعلى هذا الأساس يحارب الوفد الإخوان كما حارب الشبان وكثيراً من الجماعات» .

« إن الوفد فى أيامه الأخيرة قد تخللت صفوفه طوائف وأفواج من ذوى والآراء الخطرة والمبادىء الهدامة الذين لا يدينون بغير الشيوعية» .

«وهل ترون أن الوفد قد أدى واجبه بهذا الموقف السلبى الذى يقفه فى هذه الساعات العصيبة فى تاريخ الوطن مع أنه كان ولا يزال فى وسعه أن يعمل الكثير لو أراد . وأية فائدة تعود على الشعب من مهاجمة صدقى باشا فى سهوم جيا توتى وشغل الناس بهذا الهراء أو من مهاجمة حافظ وعفان باشا بغير الحق وهو الرجل العف اليد واللسان ... إنه فى استطاعته أن يرسل الوفود إلى عواصم الدول الأجنبية وإلى مقر هيئة الأمم المتحدة تناضل عن حق مصر» .

٢ - وعقب هذا الخطاب أخذت جريدة الإخوان اليومية تنشر سلسلة من المقالات تحت عنوان «بطلان التوكيل» تأتى فيها بحيثيات كثيرة تثبت أن التوكيل الذى منحته الأمة المصرية الوفد المصرى سنة ١٩١٨ قد أصبح باطلا بطلانا أكيداً .

٣ - وفى أواخر شهر يونية سنة ١٩٤٧ نشرت جريدة الإخوان اليومية مقالا للأستاذ المرشد جاء فيه : «والخصومة بيننا وبين القوم أى الوفديين ليست خصومة شخصية أبداً ، ولكنها خصومة فكرة ونظام . هم يريدون لهذه الأمة نظاماً اجتماعيا ممسوخا من تقليد الغرب فى الحكم والسياسة ونحن نريد لها وضعاً ربانيا سليما من تعاليم الإسلام» .

من آثار هاتين الفتنتين :

لم تكن خسائر الإخوان فى هاتين الفتنتين ذات بال ، فإن فقد الأستاذ حسين عبد الرازق واثنين أو ثلاثة من أمثاله وخروج الأستاذ أحمد السكرى لم ينل من بناء الإخوان أى منال ، بل أستطيع أن أقرر أن خروج هؤلاء وحملة الوفد بعد تآمر الأحزاب الأخرى قد أبرز الإخوان أمام الرأى العام الداخلى والخارجى لأول مرة بناء شامخاً له معنى الاستقلال فلا هو شرقى ولا هو غربى .. وكل الذين كانوا يتهمون الإخوان بأنهم يعملون لحساب أحزاب القصر ، وكل الذين كانوا يتهمونهم بأنهم يعملون لحساب الوفد أسقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، واعترف الأعداء قبل الأحباء بأن الإخوان المسلمين دعوة مستقلة .

كما أن الجميع بعد أن رأوا ثبات الإخوان فى مواقعهم دون أن تؤثر فيهم حرب الوفد المستعرة المسعورة ... مع أن فى يد الوفد أسلحة ماضية يستطيع القضاء بها على خصومه حين يوجه إليهم بعضها وأن يقضى عليهم بين عشية وضحاها .. ولكنه مع الإخوان لم يدخر سلاحاً إلا شهره

أقر الجميع بعد ذلك أن الإخوان بناء منيع لا ينال بل إنهم القوة العظمى على أرض مصر والبلاد العربية .

أما الإخوان أنفسهم فإنهم قد ازدادوا إيماناً مع إيمانهم بأن الاعتصام بحبل الله هو السلاح الذى لا يفل ، فازدادوا استمساكا بدعوتهم ، وثقة فى قيادتهم ومحبة فيما بينهم .. وأيقنوا أن هذه الدعوة حقا على معتنقها أن يهبها كل نفسه ويحصر فيها كل آماله ويؤثرها على أهله وماله وعشيرته وإلا كان ممن يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، فوهبوا دعوتهم كل نفوسهم وآثروها على أهلهم ومالهم وذويهم .. وقد اتضح صدق إيمانهم يوم دعاهم داعى الجهاد إلى فلسطين .

مدى كراهية الملك للإخوان :

أثبتت هاتان الفتنتان بما لا يدع مجالا للشك أن جوانح الملك فاروق تنطوى على كراهية عميقة وحقد دفين على الإخوان المسلمين . وأن كراهيته لهم فاقت كل تصور ، فهو يكره الوفد كراهية ورثها عن أبيه ، وكان المعتقد أن كراهيته للوفد تفوق كل كراهية ، فلما وقعت هذه الفتنة تبين أن كراهيته للإخوان تفوق كراهيته للوفد ، فلعله كان الموعز إلى آل عبد الرازق بسحب ابنهم من الإخوان ولعله كان الموعز إليهم بالوسوسة إلى أحمد السكرى لينقلب على الإخوان .. ومع ذلك فقد رضى عن التجائه إلى الوفد مع أن التجاءه إلى الوفد فيه تعزيز للوفد .. وقد طابت نفسه أن يعزز الوفد ما دام هذا التعزيز يرجى أن ينال من قوة الإخوان .

(٦) الشيوعية

لم أكن أجهل وجود تيار شيوعى فى مصر . وباعتبارى من دعاة الفكرة الإسلامية ، كنت أدرس الشيوعية باعتبارها فكرة اقتصادية واجتماعية وسياسية وأدرس أهدافها ووسائلها ومراميها

وكانت لى تجربة قديمة فى أوائل الأربعينيات مع شابين جمعنى بهما قطار الدلتا وسط مجاهل محافظة البحيرة ، وكانا فيما يبدو لى من مظهرهما أنهما موظفان صغيران فى وزارة الزراعة أو فى دائرة زراعية . وكان بادياً فى بريق أعينهما حينما جمعهما ديوان القطار بى أنهما سعيدان إذ أتاحت الظروف لهما فرصة الحصول على صيد سمين .. وأخذا ينصبان شباكهما حولى وأنا أتغافل حتى ينكشف لى ما يهدفان إليه فلما تكشف لى أنهما شيوعيان — وكنت خبيراً بأسلوب الشيوعيين فى المناقشة — التفت إليهما وطلبت إليهما أن يشرحا لى كل ما يعرفان عن الشيوعية من مزايا وتعهدت

لها بأن لا أقاطعها طالما كانا يعرضان على ما عندهما .. على أن لا يعترضاني بأي مقاطعة طالما جاء دورى فى عرض ما عندى عليهما – وهذا الأسلوب الذى اشترطته لإجراء المناقشة هو الأسلوب الوحيد الذى لا يدع للشيوعى مجالا لتمييع المناقشة وتشعيبها إذا ما وجد أن من يناقشه أقوى منه حجة– وبعد أن فرغا من عرض ما عندهما أخذت فى شرح الفكرة الإسلامية لها بطريقة التقسيم إلى بنود يتناول كل بند منها ناحية من نواحى الحياة وطريقة معالجة الشيوعية لها ثم طريقة معالجة الإسلام لها ثم أوازن بين العلاجين مثبتاً نواحى النقص فى العلاج الشيوعى وكيف تلافى العلاج الإسلامى هذا النقص فإذا أنهيت البند أخذت إقراراً منهما بتفوق العلاج الإسلامى .

حتى أنهيت البنود كلها وأخذت إقراراً منهما بتفوق العلاج الإسلامى عليها جميعاً ، طلبت منهما إقراراً بتفوق الفكرة الإسلامية على الفكرة الشيوعية فى إصلاح المجتمع فأقرا بذلك ....

فلما طلبت إليهما بمقتضى هذا الإقرار أن يتركا الشيوعية إلى الإسلام رفضا ، فتعجبت لهذا الرفض الذى ينافى العقل والمنطق وسألتهما عن سبب الرفض مع أنهما سلما بتفوق الفكرة الإسلامية فردا على رداً كأنما أنفذا خنجراً فى صدرى قالا :

إن الفكرة الإسلامية أكمل وأتم فكرة للإصلاح وليس لها دولة تحميها ، ولكن الفكرة الشيوعية على نقصها لها دولة تحميها .

كانت هذه إحدى تجاربى مع الشيوعيين رأيت إثباتها لما فيها من دلالات ، كما كان للإخوان تجارب كثيرة فى هذا الميدان بل وضع الإخوان مؤلفات تناولوا فيها الشيوعية من مختلف وجوهها وقابلوها بالفكرة الإسلامية الرصينة .

كنت أعرف كل هذا عن الشيوعية وأعرف أكثر منه ، وكنت أرى فى معاناة الطبقات الفقيرة فى بلادنا مرتعاً خصيباً للشيوعية ، ولذا كانت دعوة الإخوان تحتضن كل تجمع عمالى صناعى أو زراعى ضد مستغليهم من أصحاب المصانع وملاك الأراضى ، وكانت شعب الإخوان فى المناطق الصناعية كشبرا الخيمة والإسكندرية . وفى المناطق الزراعية ككفر الشيخ موئلا لنقابات العمال والعمال الزراعيين فى الوسايا ، وكان محامو الإخوان سنداً دائماً لهذه التجمعات العمالية ضد أصحاب العمل وملاك الأراضى وكان فى المركز العام قسم خاص للعمال لرعاية مصالحهم وحل مشاكلهم ونشر الوعى الإسلامى فى أوساطهم .

ولم يكن الإخوان غافلين عن الشيوعية باعتبارها فكرة تريد أن تغزو بلادنا – والفكرة لا يقهرها إلا فكرة – فلم تكن وسيلة الإخوان إلى قهر الشيوعية أن يتعرضوا لها بالنيل منها

وتسفيه أهدافها بل كانت وسيلتهم التى رسمها الأستاذ المرشد هى توضيح الفكرة الإسلامية ونشرها على أوسع نطاق ، فنى نشر الفكرة الإسلامية فى مجموعة من الناس فى مكان ما تحصين لهذه المجموعة ولهذا المكان ضد أى غزو يراد سواء أكان الغزو المراد شيوعيا أو غير شيوعى .

كان الأستاذ المرشد يرى أن الوقت الذى نضيعه فى مهاجمة فكرة كالشيوعية نحن أحوج إليه لنشر فكرتنا وتوضيح معالمها وأهدافها .. حتى الكتب التى ألفها بعض الإخوان عن الشيوعية لم يكن المقصود منها أكثر من تفقيه الإخوان فى الأفكار التى يضطرب بها العالم من حولهم .

ومع أن الإخوان لم يتعرضوا للشيوعية تعرضاً مباشراً مما يعده الناس مقاومة إيجابية ، فإن الشيوعية العالمية كانت تعد الإخوان المسلمين ألد أعدائها وأكبر عائق فى طريقها ، فى حين كان حكامنا البلهاء يعتقدون أنهم بقوانينهم التى اعتبرت الشيوعية جريمة يعاقب مرتكبها بالسجن والنفى هم العائق الأكبر أمام الشيوعية ، ولكم استغلت الشيوعية بلاهة هؤلاء الحكام واتخذت من هذه القوانين التى سنوها والقضايا التى نشأت عنها أسلوباً قوياً من أساليب ترويج فكرتها والدعاية لها ولفت النظر إليها واستجلاب العطف عليها باعتبارها فكرة مضطهدة ومجنيا عليها . وكم كسبت الشيوعية أنصاراً عن هذا الطريق ، وهؤلاء الذين عطفوا على الشيوعية واستجابوا لها يلتمس لهم العذر لأنهم رأوا فكرة تضطهد دون يروا فكرة بديلة يعرضها عليهم هؤلاء الحكام .. وهكذا فقد الشعب نفسه بين دعاة يحملون فكرة – أيا كانت هذه الفكرة – وبين حكام يعيشون دون أن يكون لهم مبدأ محدد ولا فكرة فى الحياة وكل بضاعتهم البطش والتنكيل .

ولقد كنت من أشد الناس اقتناعاً بخطة الأستاذ المرشد فى مقاومة الفكر الهدامة بإغفال ذكرها وعدم التعرض لها أو الهجوم عليها ، واستغلال كل الوقت والجهد فى توضيح فكرتنا ونشرها على أوسع نطاق ، كما كنت أعرف أن الشيوعية العالمية تتميز غيظاً من هذا السلاح الإخوانى الرهيب ، وأعرف أننا بهذا السلاح – الذى يبدو للبلهاء سلبياً – قد أغلقنا أمامها مئات البلاد وآلاف المجتمعات فى مصر وفى غيرها من البلاد العربية .

ومن المعروف أن الولايات المتحدة الأمريكية التى تولت زمام العالم الغربى بعد الحرب العالمية الثانية قد رصدت آلاف الملايين من الدولارات لمقاومة الشيوعية فى أوروبا وفى أنحاء العالم ، واتضح بذلك أن الشيوعية قد صارت منذ وضعت الحرب أوزارها أعدى أعداء أمريكا وانجلترا والعالم الغربى كله ... وتمشيا مع هذه الحقيقة كان يجب أن تبارك هذه الدول جهود الإخوان المسلمين التى قضت على آمال الشيوعيين فى أن يجدوا لهم موطن قدم فى مصر .

ولكن يبدو أن هناك عدواً تعتبره هذه الدول أحق بمعاداتها من الشيوعية ، وأن هذا العدو هو الإسلام والدعوة الإسلامية .. ولا أدرى لم تقف هذه الدول من الإسلام هذا الموقف مع ادعائها أنها تعمل من أجل خير البشرية جميعاً ومن أجل المحافظة على حقوق الإنسان .. وهذه هى نفسها الأهداف التى يعمل الإسلام لتحقيقها .. فلم إذن العداء إلا أن تكون هذه الدول تغرر بالشعوب حين تدعى أهدافاً تعمل فى حقيقة الأمر على عكسها .

والجديد الذى لم أكن أعرفه عن الشيوعية والذى كان مفاجأة لى هو أن الشيوعية تستبيح لنفسها أن تستغفل الناس ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، وأنها تستغل جهلهم بمجريات الأحداث استغلالا قذراً وأنها فى سبيل ذلك تستعين بالكذب وتلجأ إلى الاختلاق .. إننى أفهم أن تلجأ الشيوعية إلى الكذب فتدعى وتعلن أنها ليست ضد أمانى الشعوب فى الحرية والاستقلال وإدارة شئونها بنفسها فى الوقت الذى تسلب شعبها نفسه فى روسيا حريته وتحرمه أدنى حقوق الإنسان فى اختيار عقيدته ودينه ، فإنها أى الشيوعية تستطيع أن تموه على هذا الاعتداء على الحرية بألوان خادعة من المظاهر الدعائية التى قد تخدع بعض الناس .. ولكن الكذب على الحقائق المسجلة فى الأوراق الرسمية والأرقام المعلنة فإنه كذب قد تخطى حدود الكذب إلى ما يسمى بالفجور .

تأسست شركتا الجريدة والطباعة للإخوان المسلمين وسجلتا فى الإدارة المختصة بالحكومة المصرية باعتبارهما شركتين مساهمتين ، ولم يتعد مجموع رأس مالها معا مائة ألف جنية .. وقررت الهيئة التأسيسية – كما قدمنا – أن يستقيل الأستاذ المرشد من وظيفته فى وزارة المعارف العمومية ليتفرغ لإدارة الشركتين وتحرير الجريدة اليومية ، لقاء مرتب شهرى قدره مائة جنية ، ومنحته الهيئة التأسيسية أسهماً فى حدود مائة سهم قيمتها أربعمائة جنية ليكون ضمن هيئة المؤسسين كما يطلب القانون .

ولم يكن للأستاذ المرشد إيراد قط غير مرتبه من الوزارة من قبل ثم مرتبه من الشركتين من بعد وهذه الأسهم المائة الاسمية .. ورجل مثله له بيت وأسرة وأولاد وظل ينفق على دعوته من مرتبه منذ أول يوم قام بالدعوة فهل يبقى له مدخرات يدخرها ؟

لقد كان بيته حتى آخر لحظة فى حياته شقة فى الدور الأرضى من أربع حجرات فى بيت قديم فى شارع خلف المركز العام القديم فى الحلمية الجديدة ، ولم يكن به من الأثاث إلا ما أبقت عليه يد البلى بعد عشرين عاماً من أثاث مدرس فى مستوى زملائه .. فإذا علمت أنه كان من أبر الناس بأهله وأنه كان يبر أبويه الشيخين فأى مدخر من مال يدخره مثله ؟

فى أواخر الأربعينيات – بعد أن أصدرت حكومة السعديين قرار حل الإخوان بأيام – كنت أؤدى عملى فى أحد محالج القطن فى دمنهور ، وكانت لى صلات طيبة بكل العاملين فى المحلج ، وكان لأحد العاملين بالمحلج من أهل دمنهور ولد فيه كثير من السذاجة وكان يعمل بالمحلج أيضا .. وكدأب كثير من العاملين فى استشارتى فيما يعن لهم جاءنى هذا الشاب الساذج وقال لى : يا فلان .. لقد انضممت إلى الشيوعيين فقلت له متى ؟ قال : منذ أسبوعين فى خلية – سمى لى زملاءه فيها كما سمى لى رئيسها ولم أكن أعرفهم – وقال لى : لقد وزعوا على كل منا فى الاجتماع الأخير ورقة مكتوب فيها معلومات وأرقام وطلبوا منا حفظ – استظهار – هذه المعلومات والأرقام وأنا غير قادر على حفظها وسيقومون بتسميعها لنا فى الاجتماع القادم فما رأيك هل أتركهم لأننى لم أكن أتوقع أن يمتحنونا وقد تركت المدرسة كما تعلم لأننى أكره الامتحانات .. فطلبت منه الورقة فأعطانيها فقرأت فيها ما أذهلنى :

قرأت فيها أن حسن البنا هو أكبر رأسمالى فى مصر وأنه يملك أسهما قيمتها ربع مليون جنيه (بالارقام والحروف) فى شركة الجريدة ، وربع مليون جنيه فى شركة الطباعة ونصف مليون جنية فى شركة المناجم والمحاجر (وهى شركة إخوانية رأسمالها لم يصل إلى عشرة آلاف جنيه) ونصف مليون فى شركة كتبوا اسمها ولكنى لم أسمع عنها من قبل .. وهكذا أنصاف ملايين وأرباع ملايين فى شركات لا وجود لها حتى صار مجموع ما يملكه أكثر من مليونين ونصف مليون جنيه

وأذكر حينذاك أنى أطلعت صديقاً لى بالمحلج كان يحسن الظن بالشيوعية على هذه الورقة فتعجب من جرأة هؤلاء الناس الذين افترضوا الجهل والغباء فى غيرهم فذهبوا فى الاختلاق إلى هذا الحد ، وقال : إننى كنت أعتقد قبل قراءة هذه الأرقام وهذه الأسماء للشركات الوهمية أن الشيوعيين قوم جادون ولكننى الآن أصبحت أراهم قوما هازلين .

وقد أيقنت بعد قراءة هذه الورقة أن هناك تواطؤاً بين الغرب والشرق أى بين الرأسمالية والشيوعية على إبادة هذه الدعوة الإسلامية من الوجود .. أما الغرب فأدواته هم حكامنا وأما الشيوعية فإنها تفترس الشباب الغافل خالى الذهن فى غيبة الحقائق عنه وفى ظل حكم إرهابى كمم أفواه البرءاء ليطلق رعاع الشيوعيين عليهم ألسنة حداداً وألسنة كذاباً آمنين من أن يعترض طريقهم من يستطيعون أن يفضحوا كذبهم ويدحضوا افتراءاتهم .

(٧) المحاكمات والتعذيب

فى الوقت الذى كانت قيادات المصريين المتمثلة فى الأحزاب السياسية لاهية فى لعبة

التسلق إلى دست الحكم عن طريق التقرب إلى المستعمر كان شباب الإخوان المسلمين ساهراً أرقاً تتمزق نفسه ألماً وحسرة على ما آلت إليه حال البلاد من فوضى خلقية وانحلال اجتماعى وذل سياسى . يتلمسون طريقاً لإنقاذ البلاد وتخليصها من هذا الدمار الحائق بها ، وكلما اهتدوا إلى طريق وجدوه بعد قليل مسدوداً ، والذى يسده هو تضامن من الملك وحكام السياسة مع المستعمر تضامن الخادم المطيع لسيده ، كل همه أن يرى سيده راضيا عنه ، فهولا يبالى مايفعل ، مادام ذلك يرضى السيد .

وإذا سدت الطرق المعدة للوصول وأغلقت الأبواب فلامناص من التماس منافذ أخرى مهما أحاط بها الخطر .. لقد كان هذا الشباب الطاهر - الذى وهب نفسه لبلاده - يرى بلاده بيتاً تشتعل النار داخله وقد أغلقت أبوابه ووقف على كل باب حراس يذودون الناس عنها ، كلما حاولت مجموعة منهم دخول البيت من باب من أبوابه لإطفاء الحريق وإنقاذ سكان البيت حال هؤلاء الحراس بينهم وبين الدخول ... فهل أمام هذه المجموعات من ذوى المروءة والنجدة إلا اقتحام البيت بأية وسيلة يستطيعونها ؟...

كان هذا شعور شباب الإخوان وكان هذا حالهم ؛ وجدوا أنفسهم أمام أمرين أحلاهما مر ؛ إما أن يسلموا بالأمر الواقع وقد يئسوا من دخول البيت من أبوابه فيسكتوا مع الساكتين وهم يرون النار تلتهم البيت من داخله مؤثرين السلامة غير عابئين بأهليهم الذين فى داخل البيت ، وإما أن يخاطروا باقتحام البيت من منافذه الأخرى .

كانت الفكرة المسيطرة على هذا الشباب هى أنهم لابد من أن يقوموا بعمل ما مهما كانت خطورة عواقبه لفصم عرى التضامن الأثيم بين حكام مصر وبين المستعمر ، لأن كل الشرور التى تحيق بالبلاد لا تأتى إلا من هذا التضامن ... فالمستعمر أجبن من أن يواجه البلاد سافراً وجهاً لوجه ؛ أما بتضامن هؤلاء الحكام معه فإنه يستطيع أن يفعل بأيديهم ما يشاء .. وإذن فإن فصم هذه العرى بينهم وبينه هو وسيلة التخلص منه .. ولكى يشعروا هذا التحالف الأثيم أن هذا هذا الشعب لم يعد لقمة سائغة فى حلوقهم ، لابد من أن يقضوا مضاجعهم ويبثوا الفزع فى نفوسهم ويثيروا الجوى من حولهم .

أعد الشباب الإخوانى العدة لهذه الخطة المجازفة وهو يعلم ما ينتظره من جرائها من مطاردة وتنكيل ولكن لابد من تنغيص الحياة على هؤلاء المتواطئين ... وإذا كان الشعب المسكين لايزال يغط فى نومه فليتقدموا هم لإيقاظه ... والشعوب المغلوبة على أمرها لا تستيقظ ولا تنتفض إلا إذا تقدمت فئة من أبنائها لمواجهة الظالمين حتى ولو راحت هذه الفئة ضحية مواجهتهم .

وإذا كنا قد تكلمنا فى الفصول السابقة عن قضية فلسطين باعتبارها النكبة الثانية فى التاريخ الاسلامى بعد نكبة الأندلس فإن العنصر الذى اعتمد عليه الاستعمار العالمى فى تأجيج نار هذه النكبة حتى أرسيت على ما أرسيت عليه من تدمير أهل هذه البلادهذاالعنصر هو نفسه الذى كان حليف الإنجليز فى مصر وعقلهم المدبر للمؤامرات ضد أهلها ، ولذا ملكه الأنجليز مرافق البلاد وأعصاب اقتصادها ، كان هذا العنصر اليهودى اليد اليمنى للمستعمر فى مصر فما من مؤسسة تجارية ذات شأن إلا وهى ملك لليهود وما من مرفق من المرافق فى أبرز موقع فى القاهرة إلا وهو ملك اليهود . وكان أكثر هؤلاء اليهود من ذوى جنسية مصرية يحسبهم الجاهل مصريين بالتجنس ، وكانت هذه إحدى الحيل التى لجأ إليها اليهود لتسهيل مهمة المستعمرين فى استغلال الشعب المصرى ونهبه وإذلاله .

ورأى شباب الإخوان أن تقليم أظافر المستعمر الغاصب ، إنما يتم بتأديب أذنابه وبث الذعر فى نفوسهم سواء فى مصر وفى فلسطين .

ومن هذا المنطلق الوطنى النبيل كانت أعمال بطولية رائعة — فغر المستعمرون أفواههم لجرأتها وشجاعتها — قوضت صرح الأمن الذى أقامه حكام مصر للمستعمر ينعم فيه ويستمتع ؛ فبدأ لأول مرة يحس بحرج موقفه وبمخاطر تكتنفه من كل جانب ، وبأن هؤلاء الحكام لم يعودوا الجدار المتين الذى يستند إليه .

ومهما قيل ومهما حدث بعد ذلك ، فإن أحداً لا يستطيع أن ينكر أو يمارى فى أن العالم العربى قد استيقظ من سباته على دوى هذه الضربات ، وأن كل ما تذرع به المستعمرون بعد ذلك من وسائل الضغط والتآمر والإرهاب لم تستطع أن تعيده إلى الزنزانة التى كانوا يسجنونه فيها .. ... وبدأ عهد جديد من المواجهة بين هذا العالم العربى المنهوب خيره المسلوبة حريته وبين غاصبيه حتى تخلص منهم سواء منهم الغرباء ومن كانوا من بنى جلدته .

أما ما يستحق التسجيل بالخزى والعار فهو موقف الحكومة المصرية ، حكومة الأحزاب المصطنعة من خدام القصر وسدنة نزواته ،فإنها قد اتخذت من هذه الأحداث البطولية الرائعة وسيلة للتشهير بالإخوان .. ولا أقول إنها جندت الصحف ؛ فإن الصحف كانت مجندة نفسها لخدمة المستعمر الذى كانت تنعم فى فيض من إغداقه .. وحسبك أن تعلم أن أكثر الصحف المصرية إن لم تكن كلها كانت واقعة فى مجال النفوذ المسيطر لشركة الإعلانات الشرقية التى سبق أن كشفنا الستار المزيف الذى كانت تستتر خلفه من اسمها الخداع .

وقد قصدت الحكومة الصنيعة من وراء هذا التشهير أن تهيىء نفوس الرأى العام لتقبل ما سوف تتخذه بعد ذلك ضد هذا الشباب من اعتقال وتنكيل وتعذيب ... وقد فعلت هذه الحكومة ذلك كله ، ثم قدمت عدداً كبيراً منهم آخر الأمر إلى القضاء ... فلم يجد هذا الشباب الإنصاف إلا فى آخر المطاف حين قدم إلى القضاء الذى كان لا يزال بخير .

وإحقاقاً للحق ، ووفاء بحق التاريخ ، واستجابة لقول الله عز وجل «يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين» تقرر أن هذا الشباب الذى أنجز هذه الأعمال البطولية الرائعة كانت منه سقطة انحرفت ببعض أفراده عن الطريق وخرجت بهم عن الجادة التى حددتها قيادة الدعوة فاتخذوا من تلقاء أنفسهم عملا ضد أحد رجال القضاء ، فأعلنت قيادة الدعوة تبرءها منهم ... وسنفرد إن شاء الله صفحات قادمة للحديث بإفاضة عن هذا العمل وما أحاط به من ملابسات وظروف وما تمخض عنه من نتائج .. كما تتناول الأعمال البطولية التى أشرنا اليها هنا بالإفاضة مكتفين فى هذا الفصل بهذه الإشارة العابرة .

وكل ما استطاعت الحكومة أن تتقرب به إلى المستعمر زلفى فى صدد هذه الأحداث أنها سخرت جهاز إعلامها المتمثل فى الإذاعة والصحف — التى كانت تحت طائلة الرقابة والأحكام العرفية — فقلبت الحقائق ووصمت الإخوان بالوحشية والاعتداء على المسالمين الآمنين ، وادعت عليهم أنهم قد أعدوا العدة لقلب نظام الحكم ثم انتهزت فرصة القبض على بعض الإخوان والتحقيق معهم فسلطت عليهم سفهاءها وجلاديها فأذاقوهم ألواناً من التعذيب وصنوفاً من التنكيل .. محاولة بذلك الفت فى عضد هذه الدعوة ، وتحطيم معنوياتها أملا فى أحد أمرين : إما أن تزول من الوجود وتختفى من المسرح ليخلو الجو لهم مع سادتهم المستعمرين ، وإما أن تغير من خط سيرها على الأقل وتنتهج نهجاً آخر تعفى نفسها فيه من أخطار مواجهة المستعمر ... لكن شيئاً من ذلك لم يتحقق لهم وظلت الدعوة ثابتة على مبادئها أرسخ من الجبال الشم .. ولنا عودة إلى هذه المحاكمات فى الجزء القادم إن شاء الله من هذه المذكرات .

(٨) استغلال حرب فلسطين للقضاء على الدعوة

نعود فى هذا الفصل أيضاً إلى حرب فلسطين التى كانت فى فصل سابق أحد المظاهر التى تجلت فيها قوة الإخوان تجلياً أخفت كل صوت شعبى فى مصر وفى العالم العربى كله .. وأعود

إلى ذكرها فى هذا الفصل لأننى أعتبر هذه الحرب كما أنها كانت مظهراً لقوة الإخوان فانها أيضاً كانت مصيدة أعدت لاصطيادهم وقد أستطيع إبراز هذا المعنى فى الصور الآتية التى أعرضها بين يدى القارىء :

أولا : إظهار قوة الإخوان :

لم يكن نهوض الإخوان بأعباء القتال فى فلسطين وسيلة انتهزوها لإظهار قوتهم كما قد يتبادر إلى بعض خلاة الأذهان عن حقيقة الإخوان وطبيعة دعوتهم وطريقة تربيتهم فإن نكران الذات هو الصفة المميزة لشخصية الأخ المسلم ؛ وكيف لا وهو يفقه أمر الرجل الذى أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله : الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل ليذكر والرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية أيهم فى سبيل الله ، ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو فى سبيل الله » ، كما أنهم يعرفون أن هذا القتال ليس إلا نوعاً من العبادة ويقرأون قول الله تعالى « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً»

ولقد حاولت فى الفصل السابق إيراد نتف من وصف بعض المواقع فى هذه الحرب ليتبين للقارىء أن هذا الشباب الذى ترك أهله وعمله وماله وتجارته وانخلع من كل متاع الحياة ، لم يذهب إلى فلسطين إلا لتحقيق أمل واحد هو أن يحظى بالشهادة فى سبيل الله ؛ وإلا لوكان يطلب متاع الدنيا لما تحرك إلى قتال لا يجد فيه مؤازرة من حكومة ولا تشجيعاً من أحد يرجى عنده أجر أو تؤمل لديه منزلة ... فما بالك وهو يذهب إلى قتال يجد كل الجهات التى يتجه إليها طلاب الدنيا تعاديه وتتربص به وتضع العراقيل فى سبيله .

ومنذ أول يوم فى هذه الحرب رأى متطوعو الإخوان بأعينهم أن إخوانهم الذين استشهدوا لم تقرر الحكومة لأهلهم معاشاً ولم ترصد لأبنائهم وزوجاتهم تعويضاً وحتى الصحف والإذاعة لم تعلن أسماءهم ولا حتى أشارت إليهم ... فكيف يبقى هؤلاء المتطوعون فى صفوف القتال — وهم مخيرون وقد علموا هذه المواقف— إلا إذا كان هدفهم أسمى من ذلك وأكرم وهوما وعدهم الله به فى قوله «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم» .. كما أنهم يعلمون علم اليقين أن الهيئة التى ينتسبون إليها لا تملك أن تعطى وإنما هى تنفق على الضروريات التى لا غنى عنها من جيوب أعضائها الذين هم عادة من طبقة الفقراء وأشباه الفقراء .

وقد أوضحت من قبل أن اتصال الإخوان بقضية فلسطين اتصال قديم يوم كان الشعب المصرى عامته وخاصته يجهلون كل شيء عن هذه القضية .. والذين يريدون أن يظهروا على مسرح حياة الشعب لا يربطون أنفسهم بقضية مجهولة وإنما يربطون أنفسهم بما يشغل بال الناس ويستولى على ألبابهم .. وقد واصل الإخوان العمل لهذه القضية التى كان هدفهم أن يشهروها بأنفسهم لا أن يشهروا أنفسهم بها .

أما أن هذه الحرب قد أظهرت للعالم قوة الإخوان ، فهذه حقيقة لا مراء فيها ، ولكن هذه الحقيقة لم تكن هدف الإخوان ولا مما سعى الإخوان له .. وليس ذلك بغريب فى تاريخ الدعوة الإسلامية فالرعيل الأول من المجاهدين سجل التاريخ لهم بمداد الفخر مواقف فى حروبهم لازال العالم يتغنى بها ومع ذلك فقد كانوا أئمة المخلصين .

وما كان للإخوان أمام تطور الأحداث فى قضية فلسطين من خيار فى موقف يتخذونه ، فما كان لقوم نذروا أنفسهم لهذه القضية منذ أول أيامها أن يتخلوا عن إجابة ندائها فى الدور الحاسم من أدوارها ، وهو اليوم الذى كانوا يترقبونه من قديم ، ولم يكن ليبطئ بهم عن الاستجابة لهذا النداء أن يعرفوا ما وراء هذه الاستجابة من إظهار العدو - الحكومة المصرية العميلة والمستعمر - على مدى قوتهم ، فإن هذه الاستجابة كانت أشبه برد الفعل الذى لا يمكن التحكم فيه أو كانت بمثابة الدفاع عن النفس وهو مالا مجال معه للاختيار .

ثانيا : استعداء اليهود حلفاءهم ضد الإخوان :

لم يكن اليهود يجهلون حقيقة الإخوان المسلمين بل كانوا يعرفونهم من قديم منذ أوائل الثلاثينات وكانوا أشد الناس حذراً منهم وكراهية لهم وحقداً عليهم .. وكانوا موقنين منذ قرار هيئة الأمم فى نوفمبر سنة ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين من أن الإخوان لن يقفوا مكتوفى الأيدى أمام هذا القرار .. ولهذا أخذ اليهود فى كل مكان فى العالم يعدون لحملة استعداء لحلفائهم ضد الإخوان لأنهم يعلمون أن لا طاقة لهم بقوم يشتهون الموت ولا يهابون شيئاً ..

ونسوق هنا جزءاً من مقال كتبته فتاة صهيونية تدعى «روث كاريف» ونشرته لها جريدة «الصنداى ميرور» فى مطلع ١٩٤٨ ونقلته جريدة «المصرى» لقرائها فى حينه . قالت فيه الكاتبة :

«إن الإخوان المسلمين يحاولون إقناع العرب بأنهم أسمى الشعوب على وجه البسيطة ، وأن الإسلام هو خير الأديان جميعاً وأفضل قانون تحيا عليه شعوب الأرض كلها . ثم استطردت

تصف خطورة حركة الإخوان إلى أن قالت : والآن وقد أصبح الإخوان المسلمون ينادون بالمعركة الفاصلة التي توجه ضد التدخل المادى للولايات المتحدة فى شئون الشرق الأوسط وأصبحوا يطلبون من كل مسلم أن لا يتعاون مع هيئة الأمم المتحدة ، لقد حان الشعب الأمريكي أن يعرف أى حركة هذه . وأى رجال يتسترون وراء هذا الاسم الرومانتيكي الجذاب اسم «الإخوان المسلمون» وقالت — وهذا هو بيت القصيد — : إن اليهود فى فلسطين الآن ، هم أعنف خصوم الإخوان المسلمين ، ولذلك كان اليهود هم الهدف الأساسى لعدوان الإخوان وقد قام أتباعهم بهدم أملاك اليهود ونهب أموالهم فى كثير من مدن الشرق الأوسط ، وهم يعدون الآن العـــدة للاعتداء الدموى على اليهود فى عدن والبحرين وقد هاجموا دور المفوضيات والقنصليات الأمريكية وطالبوا علنا بانسحاب الدول العربية من هيئة الأمم المتحدة .

«وبعد هجوم عنيف على سماحة المفتى الأكبر السيد أمين الحسينى وعلى المرشد العام للإخوان المسلمين الأستاذ حسن البنا ختمت مقالها قائلة : وإذا كان المدافعون عن فلسطين — أى اليهود — يطالبون الآن مجلس الأمن بإرسال قوة دولية لتنفيذ مشروع التقسيم الذى أقرته هيئة الأمم المتحدة ، فإنهم لا يطالبون بذلك لأن الدولة اليهودية فى حاجة إلى الدفاع عن نفسها ، ولكنهم يريدون إرسال هذه القوة الدولية إلى فلسطين ، لتواجه رجال الإخوان المسلمين وجها لوجه ، وبذلك يدرك العالم كله الخطر الحقيقى الذى تمثله هذه الحركة .

وإذا لم يدرك العالم هذه الحقيقة فى وقت قريب ، فان أوروبا ستشهد ما شهدته فى العقد الماضى من القرن الحالى إذ واجهتها حركة فاشية نازية ، فقد تواجهها فى العقد الحالى إمبراطورية إسلامية فاشية تمتد من شمالى أفريقيا إلى الباكستان ومن تركيا إلى المحيط الهندى .»

ولم يكن هذا المثال هو الأول من نوعه ولا الأخير فقد دأبت الصحف الأوربية والأمريكية على نشر مقالات طويلة من هذا النوع كلها استعداء لهذه الدول على الإخوان المسلمين .

ومن العبارات ذات الدلالة الخطيرة ما نشرته إحدى الصحف الأمريكية فى تلك الفترة وسبق أن أشرت إليه فى فصل سابق حين وصفت الأستاذ حسن البنا وصفاً دقيقاً استعرضت فيه سماته البدنية وسماته الفكرية والنفسية ثم قالت : إنه صار أقوى شخصية فى الشرق العربى ، وإن هذه الشخصية لن تهزم إلا أن تصير الأحداث أقوى منها .

والدلالة التى تطل من وراء هذه العبارات هى أن الجريدة — الواسعة الانتشار — تسوق هذا

الوصف الدقيق لشخصية المرشد العام للإخوان المسلمين فى أسلوب تحذيرى فيه معنى استعداء الشعب الأمريكي وحلفائه وحثهم على تدبير مؤامرات لخلق أحداث جسام تقهر هذه الشخصية ، وتقضى على عظمتها وتسلبها المقدرة على بسط سلطانها على الشرق العربى الذى تعتبره حكومات هذه الدول الكبرى مجال نفوذها .

ومما تجدر الإشارة إلية أن العالم العربى فى ذلك الوقت كان يعج بالأحزاب والهيئات السياسية والاجتماعية ، ففى مصر كانت الأحزاب والزعامات التى طالما أشرنا إليها كما كان فى سورية ولبنان والعراق حزب البعث السورى الذى يدعى أنه قام لبعث العرب من سباتهم ضد المستعمر ، كما كان بسورية الحزب القومى السورى .. إلا أن المستعمرين حين جد الجد لم يوجهوا حملتهم إلى حزب من هذه الأحزاب ولا إلى هيئة من هذه الهيئات التى تنادى بأنها ضد الاستعمار والمستعمرين وإنما وجهوا حملاتهم إلى الإخوان المسلمين وألقوا بثقلهم كله عليهم وحدهم ، ذلك أنهم كانوا يعلمون أن جهود هذة الأحزاب والهيئات لن تتعدى خطباً تلقى ومقالات تنمق وشعارات يهتف بها ومظاهرات إن قامت فهى مزايدات للتنافس على الحكم فى ظل سلطة الاستعمار .. أما الإخوان المسلمون فقد جرب المستعمر معهم وسائله فلم تفلح واحدة منها لأنهم أصحاب فكرة يؤمنون بها ولا يقبلون المساومة عليها .

ثالثا : استنفاد جهود الإخوان :

ومما لا شك فيه أنه كان لنداءات اليهود واستعداءاتهم صدى فى نفوس حلفائهم فى أنحاء العالم ، ولابد أن هؤلاء الحلفاء قد دبروا أمراً ووضعوا خطة وشرعوا فى تنفيذها لا سيما والوقوف فى وجه الدعوة الإسلامية الزاحفة أمر طالما شغلهم من قبل أن يظهر اليهود على مسرح الأحداث .. فإذا كان القدر قد وضع اليهود فى مواجهة الإخوان المسلمين .. إذن فلتكن الخطة هى الوقوف وراء اليهود يمدونهم بالمال والأسلحة الحديثة والتدريب ثم استغلال إخلاص الإخوان لدعوتهم وتهافتهم على القتال ، فتلق هذه الدعوة بفلذات كبدها فى المعركة فتستنفد قوتهم أولا حيث تطحنهم الحرب طحناً ثم تبدأ مباشرة المؤامرة العالمية للاجهاز عليهم .

رابعاً : الحاقدون بين عاملين :

كان الإنجليز والمستعمرون عموماً قد حددوا اليد التى سيضربون بها الإخوان المسلمين ، واطمأنوا إليها ، وعلموا أن هذه اليد تتحرق شوقاً إلى أن تستخدم فى ضرب الإخوان لأن قلوبها

ممتلئة حقداً عليهم ، ولولا أنها لا ترى فى نفسها القوة الكافية لضربتهم من زمن بعيد .. وهى لذلك تنتظر فى شوق وتشوفت إلى قوى خارجية تسندها وتشد من أزرها .. ولم تكن هذه اليد إلا الملك السادر فى غيه وعصابته من المستوزرين من السعديين ..

فلما صدر قرار تقسيم فلسطين وقابله العرب والمسلمون فى كل بقاع الأرض بغضب جارف ، وكان اتجاه الجميع فى العالم العربى أن لابد من عمل إيجابى ، وأعلن الإخوان عزمهم على اقتحام ساحة القتال ، وجد الحاقدون أنفسهم أمام أمرين أحلاهما مر : هل يفسحون المجال للإخوان ليرسلوا متطوعيهم إلى فلسطين ؟ وإذا دخل هؤلاء المتطوعون المعركة - مع مايتصفون به من فدائية وبسالة - فإنهم سيرفعون من ذكر الإخوان فى مصر وفى العالم كله .. وهم-أى الحاقدون- يرون فى ذلك القضاء المبرم على نفوذهم بل على وجودهم ... أم يحولون - بمالهم من سلطات حكومية - بين متطوعى الإخوان وبين الخروج إلى ميدان المعركة فيضمنوا بذلك الحد من ازدياد قدر الإخوان فى نفوس الشعب ؟

وفى هذا الصدد ننقل من كتاب الاستاذ كامل الشريف «الإخوان المسلمون فى حرب فلسطين» ما يلى :

«جاء شهر مايو من عام ١٩٤٨ وكان بداية تحول كبير فى مجرى الحوادث إذ أنهى فيه الإنجليز انتدابهم وختموا آخر صفحة لسياستهم فى فلسطين .. وظن الإخوان أن عهد التضييق والإرهاب قد انتهى بانسحاب الإنجليز ، وأنهم يستطيعون الآن إدخال قواتهم دون خوف أو وجل وأن الوقت قد آن ليفى مرشدهم العظيم بوعده ليدخل إلى فلسطين عشرة آلاف مقاتل كدفعه أولى كما سبق له أن قرر فى برقيته المشهورة التى بعث بها إلى زعماء الدول العربية فى اجتماعهم «بعالية» .. ظن الإخوان ذلك ولكن جاءت الحوادث لتخلف ظنهم وتقنعهم أن سياسة الإنجليز باقية وإن انسحبت جنودهم من الميدان ..

طلب الإخوان من حكومة النقراشى باشا السماح بإدخال فوج من مجاهديهم ليرابط فى الجزء الشمالى من صحراء النقب فرفضت الحكومة هذا الطلب وأصرت على عدم السماح لهم بذلك ، مما اضطر بعضهم إلى طلب السماح لهم بالقيام فى رحلة علمية إلى «سيناء» فوافقت حكومة النقراشى بعد إلحاح شديد ، وحضرت تلك المجموعة إلى «سيناء» وتسللت منها إلى فلسطين سراً حيث لحقت بها دفعات أخرى تسللت بطرق مختلفة ، وكانت حيلة دخلوا بها إلى فلسطين . وبدخول هذا الفوج بدأ القتال الفعلى فى صحراء النقب ، فأخذ يهاجم المستعمرات اليهودية بصلابة وعناد رغم قلة عدده وضعف أسلحته ، وتجمع حوله المجاهدون من أهل فلسطين وبدأت حرب عصابات منظمة

كانت تبشر بنجاح رائع .. ومر شهران وعلمت الحكومة فطلبت إلى المركز العام سحب قواته من النقب ، وكان طبعياً أن يرفض الإخوان ، فلجأت الحكومة إلى قطع الإمدادات والتموين ومراقبة الحدود بشدة لتضمن عدم وصول شيء منها إلى المجاهدين حتى تضطرهم للعودة إلى مصر ، ورأى المجاهدون أنفسهم خلال قتالهم الرائع يعيشون أياماً طوالا على التمر والماء وعلى الخبز اليسير الذى يشترونه من نقود قليلة يرسلها أهلوهم بين حين وآخر ....

بقى المجاهدون فى ميدانهم يعملون ، ووجدوا من إخوانهم العرب كل معونة ورعاية حتى دخل الجيش المصرى وأخذ يهاجم المستعمرات اليهودية فى النقب ، واشترك الإخوان فى معظم العمليات الحربية التى قام بها . وكان طبيعياً أن ينقص عددهم بفعل المعارك الطاحنة وما سقط منهم فيها من الجرحى والشهداء .. وحتى فى تلك الأوقات الحرجة لم تحاول الحكومة أن تراجع موقفها وأن تسمح للإخوان بدخول الميدان ولا لتعويض هذه الخسائر الكبيرة فى الأفراد بل شددت رقابتها أكثر من ذى قبل . وكان الإخوان يعلمون حقيقة الموقف فى فلسطين ويتشوقون للحاق بإخوانهم ، ولكن قيود الحكومة كانت تقف حائلا دون التنفيذ مما اضطر كثيرين منهم إلى المجىء سيراً على الأقدام .

ولا زلت أذكر ذلك اليوم الذى حضرت فيه جماعة من الإخوان قوامها خمسة عشر شاباً لم تكن تزيد أعمارهم عن السادسة عشرة وكانوا كلهم طلاباً فى المدارس الثانوية . وسألتهم عن سبب مجيئهم فقالوا إنهم يرغبون فى تأدية فريضة الجهاد بعد أن نجحوا فى امتحاناتهم لهذا العام . ثم أخذوا يقصون على أنباء رحلتهم الشاقة وكيف غافلوا رجال البوليس وقفزوا إلى عربات البضائع فى قطارات السكك الحديدية ، وكيف ساروا مسافات شاسعة فى صحراء سيناء الموحشة بمعونة دليل من البدو .

ثم لجأت الحكومة السعدية إلى حيلة أخرى فأمرت بوليسها أن يمنع عودة المجاهدين الذين يغادرون الميدان لزيارة أهلهم فى إجازات قصيرة ، حتى ينقص عددهم وينتهى أمرهم ، وقد فطنا إلى الحيلة بعد مدة فألغينا الإجازات وقررنا نسيان الأهل والولد حتى نضيع على الحكومة فرصتها ونستمر فى جهادنا» .

ويقول الاستاذ كامل الشريف : «طالب اللواء الموادى بك قائد الجيش المصرى فى فلسطين بإحضار عدد كبير من شباب الإخوان وإرسالهم فوراً إلى الميدان ، وسافر لهذه الغاية إلى القاهرة الأستاذ الشيخ محمد فرغلى رئيس الإخوان فى فلسطين . ولقد حدثنى الصاغ محمود لبيب

وكيل الإخوان للشئون العسكرية أن عبد الرحمن عزام باشا أمين الجامعة العربية قد استدعاه فى ذلك التاريخ ورجاه أن يعمل على تجنيد هذا العدد لأن خطورة الموقف العسكرى تتطلب إرسالهم على وجه السرعة ، ومضى الصاغ لبيب فاتصل بشعب الإخوان فى القطر وأمر كل شعبة بتجهيز فرد واحد من أعضائها وإبقائه مستعداً للسفر فى مدة معينة .

ولكن ما إن تناهى النبأ إلى مسامع النقراشى باشا حتى هاج وماج ورفض قبول الفكرة من أساسها ولم يستطع الإخوان تعليل ذلك الرفض حتى جاءت الحوادث القريبة بعد ذلك لتعلن الحقيقة المرة ، وهى أن النقراشى كان مشغولا فى ذلك الوقت بتنظيم خطة للقضاء على الإخوان ومحوهم من الوجود» .

ولقد رأيت أن أنقل هذه الفقرات لأكشف لأبناء هذا الجيل المضلل عن صفحة من صفحات الخزى والعار عمل الساسة المتواطئون مع العدو على طمسها وحجبها عنهم تزويراً للتاريخ وستراً على جرائمهم التى تتضاءل أمامها الخيانات العظمى .

ولكن هل استكان الإخوان ويئسوا ورضوا من الغنيمة بالإياب ؟ لا بل إنهم لجأوا إلى حيلة أخرى هى أنهم قدموا شبابهم للعمل تحت قيادة الجامعة العربية .

ويتضح من ذلك أن الحاقدين قد استقر رأيهم على أن يحولوا بين الإخوان وبين الوصول إلى أرض المعركة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .. ولكن لأن هذه الحرب لم يكونوا هم الطرف الوحيد فيها بل كانت الدول العربية أطرافاً فيها أيضاً فانهم لم يستطيعوا الحيلولة الكاملة التى أرادوها بل كل ما استطاعوه هو الحد من عدد الإخوان ، وحرمانهم من الأسلحة الكافية والذخيرة اللازمة .

خامسا : الانقضاض من الخلف على المجاهدين :

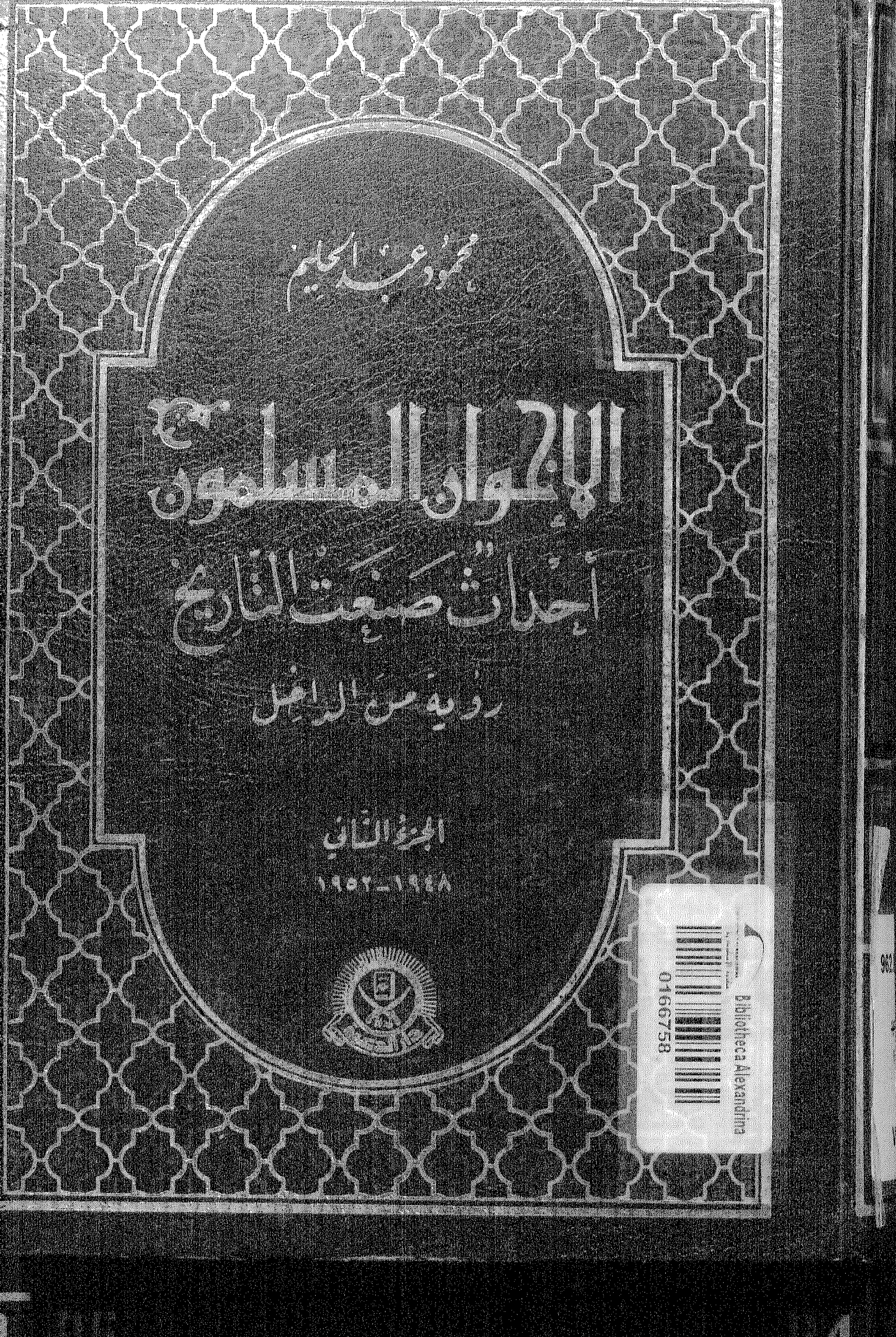
لما خرج الأمر من يد الحاقدين ورأوا أنفسهم أمام أمر واقع من تدفق المتطوعين من الإخوان على الميدان فى فلسطين . لا سيما بعد أن ساءت حال القوات المصرية فى الميدان نتيجة سوء تصرف الحكومة السعدية وخضوعها السياسى بل تواطئها مع المستعمر فقد حاصرت قوات اليهود الجيش المصرى وطلب قائد الجيش المصرى أن يمد بقوة من الإخوان المسلمين لإنقاذ الموقف وأنقذ الإخوان الموقف فعلا وفكوا الحصار عن الجيش المصرى وأشادت قيادة الجيش بالإخوان المسلمين كما أشادت صحف العالم بهم .. حينئذ أكل الحقد قلوب السعديين كما أكل قلب معبودهم فاروق .

وقد أعماهم الحقد الأسود فسلكوا طريقاً ظنوا أن فيه نجاتهم وتدمير الإخوان ، فكان فيه

دمارهم ودمار البلاد . وكان فيه التمكين اليهود .

أما الطريق الذى سلكوه والذى وجههم إليه الأخطبوط العالمى للتآمر الأمريكى الأوروبى فى خدمة اليهودية العالمية والذى اكتملت بسلوكه سلسلة المؤامرات للقضاء على الإخوان المسلمين ، فسنرجئ تناوله بالحديث إلى الجزء الثانى من هذه المذكرات إن شاء الله وهو يتضمن الحلقتين التاسعة والعاشرة الباقيتين من خطط التآمر التى عالجنا منها ثمانى حلقات حتى الآن . وهاتان الحلقتان هما قرار الحل واغتيال المرشد العام .

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق الرسمية
٧٩/٤٧٦٤


محمود عبد الحليم
الإخوان المسلمون
أحداث صنعت التاريخ
رؤية من الداخل
الجزء الثاني
١٩٤٨_١٩٥٢
Bibliotheca Alexandrina
0466758

الاخوان المسلمون

أحداث صنعت التاريخ

محمود عبد الحليم
عضو الهيئة التأسيسية

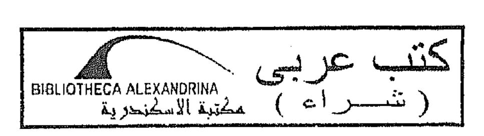
الإخوان المسلمون

أحداث صنعت التاريخ

رؤية من الداخل

الجزء الثاني

١٩٤٨ – ١٩٥٢



دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع
١ شارع منشا - محرم بك - الاسكندرية

الطبعة الخامسة
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لما ظهر الجزء الاول من هذا الكتاب ، تلقيت آراء بعض الذين طالعوه ٠ فقال بعضهم انه تاريخ ممتع ، وقال بعض آخر انه أسلوب فى التأليف يغرى بالقراءة لما فيه من تنقل بالقارىء من ميدان الى ميدان ومن موضوع الى موضوع ٠ وقال آخرون انه ليس تاريخا فحسب بل هو برنامج ومنهج بين المعالم محدد الخطوات ٠٠٠

وهكذا تنوعت الآراء ٠٠ وأرجو أن يكون الكتاب جديرا بها جميعا ، فانها جميعا كانت أهدافا متوخاة ـ ولكن الهدف الاول الذى كنت حريصا على ابرازه فى هذا الكتاب بأجزائه ، هو أن أوضح للقارىء حقيقة غائبة عن أكثر الناس ، هى أن دعوة الاخوان المسلمين هى التى صنعت تاريخ مصر خاصة والامة الاسلامية عامة فى هذا العصر الذى نعيشه صنعا جديدا ، وحولت مسار هذا التاريخ الى مسار آخر ٠٠٠ ولولا ظهور هذه الدعوة فى هذه الحقبة من الزمان ، لتوقف التاريخ بنا حتى اليوم عند الحال التى كنا عليها فى أواخر العشرينيات من هذا القرن ٠

فلقد عالجنا فى الجزء الاول من الكتاب توضيح الحالة الاجتماعية والسياسية التى كانت سائدة خلال العشرينيات والثلاثينيات للشعب المصرى خاصة وللشعوب العربية والاسلامية عامة ٠٠ وكيف واجهت دعوة الاخوان المسلمين الناشئة هذه الحالة التى كانت تبدو للمصلحين يائسة موئسة ٠٠ فالشعوب فى هذه البلاد تغط فى نوم عميق ، فاقدة الوعى ، مقطعة الاوصال ، مستسلمة للغاصبين ، مسترخية ، لا تدرى ما يفعل بها ولا ما تفعل ـ سواء فى ذلك عامة هذه الشعوب وزعماؤها ٠ ورحم الله الشاعر العظيم أحمد محرم اذ يصف حال هذه الامم الاسلامية فى ذلك الوقت فى الياذته المشهورة فيقول :

فى دولة للمسلمين تشوقهم ... ايامها ، وتهزهم ذكراها
يا ويح للامم الضعاف اتنقضى ... دنيا الشعوب وما انقضت بلواها؟
امم هوالك ، ما لمست جراحها ... الا بكت وبكيت من جراها
لم أدر اذ ذهب الزمان بريدها ... ماذا من القدر المتاح دهاها ؟
ان الذى خلق السهام لمثلها ... جمع المصائب كلها فرماها

[redacted]

وبينا للقارئ كيف استطاعت هذه الدعوة - بقيادة ملهمة حكيمة بارعة ، وجهود مضنية خالصة مخلصة ، وبتكتيك وئيد منسق منظم راسخ الخطوات ، بعيد الاهداف ، لا يستحثه المستبطئون ، ولا يستخفه المعجبون، ولا ينهنه من عزمه الموتون - استطاعت أن تبث روح الحياة فى هذه الشعوب من جديد ، فأيقظتها من رقادها ، وبعثتها من سباتها ٠٠ فقامت تنفض عن نفسها غبار نوم طال أمده ، وأخذت تتعرف على نفسها ، وتستعيد هويتها ، وتحن الى أصلها ، وتأسف على ما فرط منها فى حق هذا الاصل الكريم ، عاقدة العزم على استرداد ما سلبته من حقوق ، وما ضيعته من أمجاد٠

وبهذه الامة الجديدة الفتية المستيقظة المتوثبة ، واجهت الدعوة بعقيدتها المستقرة فى أعماق النفوس ، الممتزجة بشغاف القلوب مآسى الامة الاسلامية التى تقطعت معها اربا ، وتوزعت تحت وطأتها شيعا ، وأثخن بدنها على مر الايام طعنات وجراحا ، وديست أرضها بنعال المحتلين من المستغلين وشذاذ الآفاق ٠

واجهت ذلك كله بأسلوب جديد لا عهد للمتصدين للقيادة فى أنحاء العالم الاسلامى كله به ٠٠٠ أسلوب الواثق بنفسه ، المطالب بحقه ، المقتنع بعدالة قضيته ، المنبعث من سويداء قلبه ، المستند الى أعدل رسالة ، الداعى الى أقوم سبيل ، المندفع بآمال أوسع من رحاب الدنيا ، المؤثر الموت الكريم على العيش الذليل ٠

وكما أيقظت الوعى فى النفوس والعقول فى مصر ، أيقظته أيضا فيما سوى مصر من البلاد العربية والاسلامية ، فامتد أثرها حتى وصل الى اندونيسيا وباكستان - وتعهدت القضية الفلسطينية فوصلت بها من حالة كانت فيها مجهولة تماما من البلاد العربية والاسلامية نفسها - سواء فى ذلك شعوبها وحكامها - الى حالة صارت فيها القضية الاولى لهذه البلاد شعوبا وحكاما ٠

وتجاوب مع الدعاة فى القاهرة كل الطبقات المثقفة المستنيرة فى أنحاء العالم الاسلامى ، متخذين القاهرة منارتهم الهادية وسط الظلام الدامس الذى كان مخيما على هذا العالم الاسلامى ٠٠ فواجه الاستعمار العالمى لاول مرة منذ قرون انتفاضات واعية ، وحركات مواجهة جادة عارمة ، تؤججها روح اسلامية شابة ملتهبة ، سواء فى مصر وفى الشرق العربى والمغرب العربى ، وفى الهند وفى جنوب شرقى آسيا ٠٠ حركات وانتفاضات ، ليست من الطراز المعهود للاستعمار من قبل ، تلك التى كان يمتص حدتها بوعود



تبذل أو بمناصب تسند ٠٠٠ وانتهت هـذه الانتفاضـات بتحـرير هـذه الشعوب منربقة الاستعمار ٠

وبحث الاستعمار العالمى هذه الظاهرة الخطيرة التى هددت وجوده فى كل مكان ٠٠ فلم يجد ان جديدا قد طرأ على هذه البلاد ـ منذ وطئت أقدامه أرضها وتم له احتـواء كل ما نشـأ فيهـا من هيئات وأحـزاب ـ لم يجـد جديداً قد جد سوى « دعوة الاخوان المسلمين » ٠٠ فجمع الاستعمار شمله ، وأعد عدته ، ووضع خططا خطيرة ماكرة لمواجهة السيل الجارف المثل فى هذه الدعـوة ، وقرر معـاجلتها بضربة قاضـية قبل أن تسـبق هى بضربه هذه الضربة ٠

كل هذه المعانى التى أدرنا الحديث حولها فى الجزء الاول كانت واضحة تمام الوضوح فى خاطرى وفى مخيلتى حين سطرتها ، لاننى لابستها وعايشتها واعتقد انه قد كان لها نفس الوضوح فى مخيلة القراء من جيلنا حين طالعوها لانهم عايشوها كذلك ٠٠ ولكن السؤال الحائر الذى يبحث عن جواب هو : هل كان لهذه المعانى بالذات الوضـوح الكافى فى نفـوس الذين قـرأوها من الاجيال الجـديدة التى لم تعايش هـذه الاحـداث ، والذين نشأوا ولقنوا تاريخا مزورا ممسوخا وهم لا يشعرون ؟

ان على هذه الاجيال أن تعلم ان كل ما سردناه فى الجزء الاول إنماهو الا مجموعة من الحقـائق التاريخية الثابتـة التى لا تجحـد ٠ ولكن الذى حجبها ومـوه عليها تواطؤ متعمـد بين الاستعمار الخـارجى والاستبـداد الداخلى ٠٠ واذا كان لهذين القدرة على حجب الحقائق ، فانه لا قدرة لهما على تغييرها أو محوها الى الابد ، فان الاحداث التاريخية جزء من الزمن ٠

* * *

واذا كانت أحداث الجزء الاول قد وقع أكثرها والعالم الاسلامى لا يزال فى غفوة ، وكان من طبيعتها أن لم يكن لها الصـخب الكافى الذى يلفت اليهـا الانظار ، فسهل بذلك على المغرضين حجبها ، فان أحداث الجزء الثانى هذا جاءت صاخبة متؤججة مدوية ٠٠ ولكنها مع ذلك لم تكن الا نتيجة الاحداث التى سردناها من قبل ، والتى لا يعيبها انهـا كانت حادثة رزينة ، والمثـل العربى يقول : « أول الحرب الكلام » ٠

فماذا يقول الجاحدون حين ننقل للقراء أحداث الجزء الثانى المثيرة المشتعلة من مظانها ، وقد سجلتها اضابير المحاكم ، وسائت بذكرها والتعليق

عليها أنهار الصحف فى الداخل والخارج ، ورددت صداها اذاعات العالم ، وشهدت لها سجون البلاد ومعتقلاتها ؟

.. وهل كانت هذه الاحداث الصاخبة التى يطالعها القراء ان شاء الله فى هذا الجزء الا صدى للعمل الهادىء الوئيد المخطط الدءوب الذى استمر عشرين عاما دون ملل ولا صخب ولا هوادة .. وبفضل الحكمة ومهارة القائد أمكن أن تحجب الدعوة الوليدة عن أعين المتربصين من الخونة والمستعمرين ، فلم يتنبهوا لها الا وقد صارت ماردا جبارا يجتاح الظلام والظالمين .

***

ونحب هنا أن نقف وقفة قصيرة أمام قضية قد يثيرها بعض الناس ... ذلك أن الجزء الاول من هذا الكتاب ـ بطبيعة مسايرته لاطوار الدعوة منذ كانت فكرة يجب الاقتناع بها ـ قد استعرض كثيرا من آى الكتاب العزيز وبعضا من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ... وقد لا يجد القارىء فى هذا الجزء مثل ذلك فيقول بعضهم : أين موضع هذا الجزء من الدين ، ولم نقرأ فيه تفسيرا لآيات ولا شرحا لاحاديث ولا تعرضا لاحكام فقهية تتصل بالعبادة ؟

ولهؤلاء الاخوة الكرام نقول : ان المسلمين قد درجوا فى عهودهم التى طمست فيها معالم دينهم على أن يروا أن الكتب التى تتعلق بالدين هى الكتب التى تنحو بالقارىء ناحية علمية نظرية ، تزيد من معلوماته الدينية وتثريها . أما ما سوى ذلك من الكتب فانها فى نظرهم كتب ليست من الدين فى شىء .. مع أن الدين ممارسة عملية قبل أن يكون دراسة علمية .

ذلك أن الاسلام شقان : أحدهما المعلومات والآخر التنفيذ والتطبيق .. ولم يشغل الشق الاول بكل ما فيه ـ من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياة الرعيل الاول معه ـ الا جزءا من ألف جزء شغلها الشق الآخر . حيث كانت حياتهم كلها مرصودة للنهوض بأعباء نشر الفكرة الاسلامية وتثبيتها فى النفوس ، وللعمل المتواصل لاقامة الدولة الاسلامية على النهج الذى جاء به القرآن ، وللجهاد الذى لا يفتر لتحرير الشعوب من ربقة الظلم والاستبداد ، وانقاذ الناس من عبادة العباد الى عبادة الله ـ ولقد دخل الجنة رجل عاهد النبى صلى الله عليه وسلم على أن يضرب بسهم من هنا فيخرج من هنا ، والمعركة قائمة ، فصدق الله فصدقه الله ، ودخل الجنة قبل أن يركع لله ركعة .

وليس معنى هذا اننا نغض من قيمه الشق العلمى فى الاسلام . وانما قصدنا أن نلفت النظر الى أن هذا الشق – مع عظيم قيمته – لا ينبغى أن يستوعب من حياة المسلم الا القليل ، على أن يخصص الجزء الاكبر من حياته لتنفيذ ما حازه من معلومات . وأكثر من تسعين فى المائة من المعلومات فى الاسلام تتصل بالمجتمع وتطالب المسلم أن يساهم بكل ما أوتى من قدرات ومواهب فى اصلاح هذا المجتمع حتى يستقيم على أمر الله مهما كلفه من تضحيات « يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الامور » .

وما كان الصحابة رضوان الله عليهم – على علو قدرهم – يعرفون من من الاحكام الفرعية فى الدين عشر ما يعرفه الآن طلاب المراحل الاولى من الدراسة الازهرية ، ولكن حياتهم مع ذلك كانت ممارسة عملية لما تعلموه من المعلومات الاساسية القليلة من أحكام الدين ، فكانوا يتحركون للدين ، ويسكنون للدين ، ويفرحون للدين ، ويغضبون للدين .. ويعيشون للدين ، ويموتون للدين ، وكانوا هم الذين حققوا قول الله تعالى « قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

ولقد مد الله تعالى فى عمر عبد الله بن مسعود رضى الله عنه حتى رأى أجيالا – لا شك انها كانت أحسن منا حالا وأقرب الى الدين منا – ومع ذلك قال عنهم : « انزل القرآن عليهم ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملا – ان أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته الى خاتمته ما يسقط منه حرفا وقد أسقط العمل به » .

فالاسلام ممارسة وعمل وصبر وجهد قبل أن يكون معلومات يتعمق فى دراستها ، ويتبحر فى الخوض فيها .. واذا انت طالعت كتابا فى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تقرأ الا عن سلسلة متصلة الحلقات من الصبر والمصابرة والتجلد والثبات أمام شآبيب من نار التنكيل والتعذيب والسجن والقتل والاضطهاد والتشريد والاعنات .. وهذا هو الرسول الذى خاطبنا الله فى شأنه فقال « لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » .

والتاريخ يعيد نفسه .. ولا يزال المقتدون برسول الله صلى الله عليه وسلم يشقون نفس الطريق الذى شق ، ويعانون الآلام التى عانى ، ويواجهون الاضطهاد الذى واجه .. حتى تقوم الساعة « الم . احسب الناس

ان يتركوا ان يقـولوا آمنا وهم لا يفتنون • ولقـد فتنـا الذين من قبلهـم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » •

والذى يطالعه القراء فى هذا الجزء من هذا الكتاب هو حلقة من حلقات هذه السلسلة التى كان الرسول صـلى الله عليه وسـلم وصـحابته الحلقة الاولى فيها ـ فالاهداف هى الاهدافه ، والوسائل هى الوسائل ، والعقبات هى العقبات •• وان اختلفت شكلا فقد اتفقت موضوعا •

* * *

هذه وقفة •• وهناك وقفة أخرى من حق الاخوة الذين طالعوا الجزء الاول أن نعـرض لها حتى تطمئن نفوسهم ، تلك هى أن هـذا الكتاب هـو مذكرات تسجل أحداثا تاريخية • والاحداث التاريخية لا تخرج عن كونها مواقف لاشخاص •• ولا يمكن فصل المواقف عن الاشخاص الذين اتخذوها ـ فاذا كان الحدث التاريخى موقفا كريما ، فأمانة التاريخ تقتضى تسجيله لصاحبه دون أدنى محاولة للغض منه ، أو غمز لصاحبه ، أو افراغ ما قـد يكون فى نفس الكاتب من شـعور نحوه « ولا يجرمنـكم شنآن قـوم على أن لا تعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » •

وهكذا جاءت مواقف سجلنـاها لاصحابها • مرهونة بأوقاتهـا التى اتخذت فيها ، مشدودة الى الظروف التى أحاطت بها • مستحقة من الثناء أو الذم ما أوحت به هذه الاوقات وما حكمت به هذه الظروف •

واذا كان الله تعالى ذكره قد قطع على نفسه عهدا فى حسابه لعباده أن لا يغفل لعبد منهم عملا صدر عنه مهما صغر هذا العمل فقـال « ونضـع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسـبين » ثم زاد هذه القاعـدة وضوحا فقـال « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ثم تعالى فضله وكرمه فوق أعلى مستويات العدل فقال « ان الله لا يظلم مثقال ذرة ، وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما » •

ونحن ـ معشر المـؤمنين ـ مطالبون بأن نتخلـق باخـلاق الله ••• فكيف نضيق ذرعا بذكر مـوقف كريم ـ على سبيل التسـجيل التاريخى ـ لانسان رأينا له فيما بعد مواقف قد لا تتواءم مع هذا الموقف ؟

احب ان يكون مستقرا فى خلد الاخوة القراء أن أمانة التاريخ ، ونقـل

صور الاحداث ، وتسجيل المواقف ٠٠ أمر يجب أن يؤدى دون أن يتأثر بعاطفة الكاتب من حب للشخصيات التى يكتب عنها أو كراهية ٠

واذا كان شريط التسجيل عند الله يسجل الاحداث والمواقف ظاهرها وباطنها ، فان شريط التسجيل البشرى يسجل الاحداث والمواقف بظاهرها دون بواطنها ، ذلك ان الله تعالى وحده هو المحيط بكل شىء علما وهو العالم بالسر وأخفى ٠٠ اما نحن فلا ندرك الا ما يقع فى مجال حواسنا ٠

وليس معنى أن انسانا كان فى وقت من الاوقات على حال ما ، أن يظل على هذه الحال فى كل وقت ٠٠٠

على أننى ما رأيت صديقا فتنه منصب أو أبطره جاه الا وكان شعورى نحوه شعور الاشفاق ٠٠ لا الاشفاق عليه وحده ، بل الاشفاق على نفسى أيضا أن لو وضعت فى موضعه فقد يغلبنى ما غلبه ، وقد يستهوينى ما استهواه ٠٠٠ وقلب العبد المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن « فمن يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » ونسأل مقلب القلوب ونضرع اليه أن يثبت قلوبنا على دينه ٠

***

وبعد هاتين الوقفتين القصيرتين نرجع الى ما كنا بصدده فنقول : ان الاحداث التاريخية الكبرى تجرى فى احداثها سنة الكون ، فتبدأ حياتها جنينا صغيرا يخلق خلقا من بعد خلق فى بطون الامم فى ظلمات ثلاث ٠٠ حتى اذا تكاملت أسباب الحياة فيه أخذ الحمل تشتد أوجاعه ، وتتفاقم آلامه ، وتتصعد آهاته ، بالضجر من ثقله ٠٠ حتى اذا تمت للحمل ساعاته وأيامه وشهوره بدأ المخاض ٠٠ وما اشق المخاض ، وما أصعب لحظاته ٠٠ حتى تكون الولادة ٠

واذا كان الحدث البشرى تجرى عليه هذه الاطوار فى بطن امه حتى يولد فى اشهر معدودة ، فان الحدث التاريخى يستغرق لاستكمال أطواره هذه فى بطن الامة سنين عددا ٠

وهكذا ساير القراء فى الجزء الاول من هذا الكتاب الحدث التاريخى الذى بدأ والامة الاسلامية ساهية لاهية تائهة ، ثمّ التقت بالدعوة الناشئة فاحتضنتها ، فبدأ الحدث التاريخى الكبير أول اطواره ، وأخذ ينمو فى بطن الامة ويتطور عشرين عاما ٠٠٠ وعلى حين غرة فوجىء الغاصبون الذين كانوا قد أوهموا هذه الامة بأنها عقيم ووضعوا ايديهم على كل مقدراتها من ثروة

ومتاع – فوجئوا بأن الامة على وشك ولادة حدث خطير ، يزلزل أقدامهم ، ويسلبهم كل ما يستمتعون به من ثروة أمة ومتاعها ·· فأتوا مذعورين ، وأجمعوا كيدهم على اجهاضها متغاضين فى ذلك عن كل مبادىء الاخلاق والانسانية والرحمة والقانون ·

وانتهى القارىء فى الجزء الاول مع استعراض ثمانى محاولات من هؤلاء الغاصبين لهذا الاجهاض ·· فلما فشلت هذه المحاولات لجأوا الى محاولتين وحشيتين قصدوا بهما قتل الجنين والام معا ·

والاحداث التى تصنع التاريخ لابد لها من أن تمر بهذا الطور البالغ العنف والشدة والقسوة والوحشية ·· وقد رأينا أن نفرد لهذا الطور بابين فى هذا الجزء الثانى من الكتاب ، حيث عملت أيد خفية على حجبه ، لايهام الاجيال الجديدة التى لم تعش أيامه أن التاريخ الذى يعيشونه هو من صنع صور تحركها أمامهم هذه الايدى ·· وهذه الصور المحركة من وراء هم الدين قال الله تعالى فى شأنهم « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » ·

***

يطالع القارىء فى هذا الجزء مجابهة صريحة بين الدعوة الفتية وبين القوة الغاشمة · وكيف فعلت القوة الغاشمة بشباب هذه الدعوة ورجالها ونسائها من فظائع ترتجف لهولها النفوس وتقشعر الابدان ·· وكيف تلقى هذا الشباب الطاهر المؤمن هذه الوحشية بالصبر والايمان والثبات ·· وكما أذهل هذا الشباب العالم أجمع بشجاعة وفدائية منقطعة النظير فى ميدان القتال ، أذهله كذلك بصبره وجلده وثباته فى ميدان المحنة والابتلاء ·

كانت هذه الفترة هى أشد ما مر بالدعوة من محن وما اعترض طريقها من شدائد ·· انها كانت جائحة لا يقف أمامها شىء الا اقتلعته من جذوره ·· فالدولة كلها بكل ما تملك من قدرات قد سخرت نفسها وقدراتها لاجتثاث هذه الدعوة من أعمق أعماقها ·· وقد تخلت هذه الدولة فعلا قرابة عام كامل عن كل مهمات الدول وتفرغت لهذه المهمة ، مستبيحة جميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة ·

ولقد كنا نحن – الاخوان المسلمين – فى ذلك الوقت ، لشدة ما نرى من تضافر جميع القوى ضدنا ، نلتفت يمينا وشمالا فلا نرى الا أعداء أو شامتين ·· حتى الشعب المسكين بدا يتأثر بما لم يعد يسمع غيره مما تكيله لنا وسائل الاعلام من تهم وافتراءات · فالتنكيل والتعذيب يتم فى خفاء ومن

وراء ستار ، والتهم والافتراءات تكال ملء الصفحات وفى الاذاعة الساعات تلو الساعات ، وبألسنة حداد وبلاذع العبارات ٠٠ فكأنما كنا المخاطبين بقوله تعالى « اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ٠ هنالك ابتلى المؤمنين وزلزلوا زلزالا شديدا » ٠

ولم نكن ندرى بعد ، أن هذا الذى نعانيه هو طور لابد منه لافراز حدث تاريخى جديد ٠٠ لم نكن ندرى أن هذا هو طور المخاض لحمل تكون فى بطن الامة خلال عشرين عاما وقد آن للمولود أن يولد ـ واذا كانت فترة المخاض لافراز المولود البشرى لا تعدو أن تكون ساعة أو نحوها ، فانها تمتد لافراز الحدث التاريخى شهورا وسنين ٠

* * *

ولعمرى انها لحقائق تاريخية لسنا فى ايرادها متخيلين ولا متوهمين ولا مدعين ٠٠ واذا كان هناك من يدعون أن لهم فضلا فى صنع هذا التاريخ فليأتونا بما سجله التاريخ لهم من فكرة محددة المعالم بثوها مدة عشرين عاما فى أذهان الشعب المصرى والشعوب العربية والاسلامية ، فأحيت هذه الشعوب من موات ، وأيقظتها من سبات ، وجمعتها بعد شتات ، وواجهت بها ـ بعد تربية على أعلى المستويات ـ الفساد فى الداخل والاغتصاب والاستعمار فى الخارج ٠

ولو كان الاستبداد الداخلى والاستعمار الخارجى قد وجدا أمامهما من يعترض طريقهما أو من يخشيان على وجودهما منه ، لكان لهما معه موقف شبيه بموقفهما من الاخوان المسلمين :

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم   اذا جمعتنا يا جرير المجامع

* * *

لقد نكلت الحكومة الحاقدة المؤيدة بكل قوى البغى الداخلية والخارجية برجال هذه الدعوة وشبابها ونسائها ومزقتهم كل ممزق ٠٠٠ ثم لم تكتف بذلك بل ارادت أن تمحو هذه الدعوة من التاريخ ، فتقدمت بالحطام الذى أبقى عليه التنكيل والتعذيب من هؤلاء الشباب الابطال الى القضاء ، بقضايا مجهزة بأخطر التهم وباعترافات خطية مفصلة ٠٠ فكانت هذه الخطوة هى اشد علينا من كل ما لقينا من عنت وظلم وافتراء وتعذيب ٠٠ ذلك أن كلمة القضاء هى الكلمة الفاصلة التى يتلقاها التاريخ بتجلة وثقة

واحترام ·· واذا ضلل القضاء فقال كلمته ـ بناء على ما قدم اليه من أدلة مزورة والقضاة بشر لا يعلمون الغيب ـ فان كلمته هـذه تدمـغ المقضى ف شأنه دمغا يمحـو تاريخـه ويقضى على مستقبله ·· ان كلمة القضاء قبر يوارى فيه من دمغته كلمته الى الابد ·

ولكن الله جلت قدرته صدق وعده اذ قال « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » فقد تكفل هذا العليم الخبير القدير بأن يجعل هذا القبر الذى أعدوه لهذه الدعوة قبرا لهم ·· أو ليس هو سـبحانه الذى وصـف قـدرته فقـال « ويخلـق مالا تعلمون » وسجل وعده فقال « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين · انهم لهم المنصورون · وان جندنا لهم الغالبون » وقال « وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين » ؟

ولا يحسبن القارىء الكريم أن الغلبة والنصر اللذين وعـد الله بهما لا يتحققان الا بتولى الموعودين مناصب الحكم ·· فمناصب الحكم عارضة وزائلة ، وستنسى عـلى الايام وينسى من شـغلوها ، ولا يبـقى فى أذهان الناس الا رذائلهم وسخافاتهم وطيشـهم ·· وانما النصر هـو التمكين فى الارض ·· هو تغلغل الفكرة التى تدعو اليها فى عقـول الناس وقـلوبهم ، وامتزاجها بدماء مهجهم ، وصـياغتها الاجيال تلو الاجيال على النمط الذى توحى به والطراز الذى تنشده ، مهما تعاقبت الايام وتغيرت الظـروف ·· لا تعترف بالعقبات ، ولا تكترث بالمعوقات ·· فهى ماضية فى طريقها كوكبا هاديا فى ظلمات ليل بهيم حتى ينبلج الفجر فتكون هى شمسه المشرقة التى ينعم الجميع بنورها ويستمتعون بدفئها وحيويتها ·

كان لابد للشعب ان يشهد ويقرا ويسمع ـ بعد أن طال أمد تضليله ـ عن طريق ساحات القضاء ما حجب عنه من بطـولات أبنـائه وشجـاعتهم وفدائيتهم ، وأن يشهد ويقرأ ويسمع ما أخفى عنه ـ من مخازى تلك العهود وخياناتها وتواطئها مع المستعمر ـ ما يحرك شعور هذا الشـعب ويثـير حفيظته ، وما يعده اعدادا عقليا ونفسيا وعاطفيا لثورة عاصفة لا تبقى من هذه العهود على أثر ··

***

والمستعمرون وآلاتهم من حكام الشعوب المستضعفة لا يملون ولا ييأسون مهما فشلت خططهم ، ومهما حبطت مؤامراتهم ، فلقد لجأوا أخيرا والدعـوة

لا تزال فى طور ما بين الحياة والموت الى تطويقها عن طريق التشريعات والقوانين ··· وهذا باب من أخطر الابواب الخبيثة الماكرة ، فهو أسلوب هادىء للاعدام بالسم الزعاف الذى لا يسمع له صوت ولا يحس له ضجيج ·· هذا هو أسلوب الاحتواء الذى يقضى على شخصية الهيئات والافكار والدعوات دون أن تحس هى أو يحس غيرها ـ ولا يلجأ اليه عادة الا الحكام الماكرون المفتونون بغرور السلطة ، الذين يعميهم الغرور فينسون أنهم زائلون ·· وقد عانت الدعوة أيضا هذا النوع من طرق الابادة ، وأفردنا له فصلا كاملا لما له من خطورة بالغة على حياة الدعوات وعلى حياة الامم نفسها·

* * *

وقد لا يعيب الاخوان المسلمين أن يعترفوا بأن اغتيال المرشد العام بالطريقة التى رتبت لاغتياله كان أشد أثرا فى تعريض الدعوة للتبدد والفناء من كل ما ووجهت به من أساليب القهر والكبت والعسف والتعذيب ـ ذلك أن دعوة بلا قيادة هى جسم بلا رأس ·· ولا يعيبهم اذا قالوا انهم عانوا من هذا الموقف طويلا أشد المعاناة ·

فلقد كان حال الاخوان فى ذلك الوقت حال سفينة غاصة بركابها ، عصفت بها الرياح الهوج وهى وسط بحر صاخب مائج موجه كالجبال · فاختطفت الرياح الهوج أول ما اختطفت ربانها الذى كان ساهرا على قيادتها وتوجيهها ·· ثم أخذت الرياح تلعب بدفتها فترنحت السفينة يمينا وشمالاحتى ألقى بها على صخرة عاتية متشعبة فتحطمت،وصار ركابها حيارى لا يرون لانفسهم من الهلاك منجى ولا مهربا ··

كل ذلك والحشد الحاشد الواقفون على الشاطىء يرقبون السفينة منذ عصفت بها الرياح ومزقتها الامواج ، ويرون الركاب يغالبون الموت وهو محيط بهم من كل جانب ·· ولم يعد من بريق امل فى نجاتهم ·· وثبت المراقبون أنظارهم على السفينة المحطمة ليروها حين تهوى ويبتلعها اليم وتغوص بمن فيها الى العمق السحيق ·

وبينما هم يترقبون هذه اللحظة الاخيرة ، اذا بهم يرون واحدا من هؤلاء المغالبين قد غالب الموج حتى غلبه ، وشق طريقه الى الدفة المترنحة فأمسك بها بيدين قويتين ، فاوقف تذبذبها ، ووجه ما بقى من حطام السفينة بمن فيه الى بر الامان ·

فما كان من الحشد الحاشد على الشاطىء الا ان تلقوهم بالعناق

والاحضان . وقد أقنعهم ما رأوا بأعينهم أن هذا الربان الذى أنقذ السفينة بمن فيها من الهلاك المحقق ، جدير أن يتخذوه فى البر قائدا ومرشدا وأميرا ..

* * *

وهكذا استطاع الاخوان أن يخرجوا من محنتهم ومن حيرتهم ، ومن ضياع كان محيطا بهم ، ومن تشتت كاد يأتى عليهم - بالتفافهم حول مرشد جديد رشحته لهم العناية الالهية فى أقسى الظروف وأحرج الاحوال .

وهكذا خرج الاخوان من محنتهم ، لا ليستردوا حريتهم فحسب ، بل ليتسلموا لواء القيادة فى السلوك ببلادهم الى طريق جديد .. فلقد كان فى خروجهم من أتون المحنة سالمين ، فى أتم عافية ، ما أذهل الذين أوقدوا لهم هذا الاتون .. فأسقط فى أيديهم ، ولم يملكوا الا أن يقفوا أمام هذه الآية خاشعين .

ومع ذلك فان القيادة الجديدة لم تسلم من عقبات المعوقين من داخل البناء الاخوانى ، كمالم تسلم من مكر الكائدين من خارجه .. ولكن هذه القيادة - بحكمة خطواتها ، وبصلابة عودها ، وباخلاص نياتها ، والتفاف الاخوان من حولها - استطاعت بفضل الله أن تتفادى هذه العقبات ، وأن تشق طريقها بهذه الامة الى الغاية التى كان الشعب يتمناها ، وهى تحريره من تاريخ طويل مظلم مستبد ، الى تاريخ مشرق جديد .. وقد نجحت هذه القيادة فى تحقيق هذا الامل العظيم ، وزحفت بالشعب حتى بلغت به نهاية الشوط ، ووضعته على أول الطريق الجديد .

محمود عبد الحليم

الاسكندرية فى { ٢٥ من صفر الخير سنة ١٤٠١
أول يناير سنة ١٩٨١ م }

الباب الأول

آخر ما كان في جعبة التآمر العالمي وهما : خطتا الإبادة

- الخطة الاولى : الحــل
- الخطة الاخيرة : جريمة القرن العشرين

مقـدمة

وقفنا فى الفصل الاخير من الجزء الاول من هذه المذكرات فى استعراضنا لخطط التآمر العالمى على دعوة الاخوان المسلمين عند الخطة الثامنة ، وأرجأنا تناول الخطتين الاخيرتين من هذه الخطط الى هذا الجزء من المذكرات ...

وما كان المتآمرون يعتقدون أنهم سيحتاجون الى اللجوء الى هاتين الخطتين فى يوم من الايام ، فالخطط الثمانى السابقة كانت كافية – فى نظرهم وحسب تجاربهم – لسحق أعظم هيئة تقف فى طريقهم ... ولكنهم فوجئوا بما لم يكونوا يحتسبون ، من فشل الخطط الثمانى فى النيل – ولو خدشا – من البناء الاخوانى المتين .

وجدوا أنفسهم – حينئذ – مضطرين الى اللجوء الى الخطتين المدخرتين ، وهم يعلمون أنهما خطتا ابادة ومحو من الوجود ، لانهما من الفظاعة والجرأة والعنف والتوحش بحيث يرتاع العالم لفظاعتهما وتوحشهما ، وبحيث يغطى دويهما على أصداء الاحداث الجسام التى كانت تجرى على أرض مصر والبلاد العربية فى ذلك الوقت .

ولم يقدم المتآمرون على النزول بهاتين الخطتين الى ميدان المعركة الا بعد ان وثقوا منتوفر جميع أسباب نجاحهما .. ومما يؤسف له ، ومما يدمى القلب أن أهم هذه الاسباب أن يكون تنفيذهما بأيد مصرية ... وقد اطمأنوا تمام الاطمئنان الى وجود هذه الايدى مستعدة متلهفة .

وقد يختلف المحللون للاحداث فى تعليل التوقيت الذى اختاره المتآمرون للاقدام على ارتكابهما ، فيعلل بعضهم الاقدام عليهما فى ذلك الوقت بأنه كان تغطية لفشل الحكومة المصرية فى تحقيق الاهداف الوطنية ، ولعجزها عن احراز أى نجاح فى الوصول بالقضية المصرية الى أدنى ما يؤمله المصريون .

ويعلل آخرون هذا التوقيت بأنه كان لاسدال ستار على مهازل هذه الحكومة فى قضية فلسطين ، ولصرف أنظار المصريين عن النهاية الاليمة للجيش المصرى فيها نتيجة السياسة الخرقاء التى عالجت بها هذه الحكومة شئون هذه الحرب ، وتخبطها وتناقضها واستبدادها برأيها ، ورفضها الاستماع الى نصائح الناصحين وتحذير الخبراء المخلصين .

واطلاقا لضباب كثيف يحجب الرؤية عما تخلل هذه الحرب من خيانات ، ظهر أثرها فى الاسلحة الفاسدة التى أمد بها الجيش ، فكانت

الذخيرة الموجهة الى العدو ـ بدلا من أن تنفجـر فيه ـ تنفجـر فى جنـودنا وضباطنا فتفتك بهم وتقضى عليهم ٠

ويرى بعض المحللين أن ثورة اليمن التى نشبت ضـــد الامام يحيى حميد الدين كانت الدافع الحقيقى الى هذا التوقيت ، فقد نشبت هذه الثورة فىأوائل عام ١٩٤٨ وقرار الحل صدر فى أواخر العام نفسه ٠

وهناك من يرى أن ظهور القوة المذهلة للروح الفدائية لمتطوعى الاخـوان المسلمين فى فلسطين هى التى حددت هذا التوقيت ، وحملت مدبرى المؤامرة العالمية على التعجيل بما كانوا يدخرون من خطط الابادة ٠

على أننا نرى أن هذه التعليلات كلها مجتمعة هى التى تضافرت معا على تحديد هذا التوقيت ٠

الخطة الأولى للإبادة

الحل

صدور أمر عسكري بالحل

- صدور امر عسكرى بالحل .
- من هو الآمر الحقيقى بالحل ؟
- تفنيد اسباب الحل .

الفصـــل الاول

صدور أمر عسكري بالحل

صدور أمر عسكرى بالحل كان هو الخطة التاسعة فى سلسلة خطط التآمر انعالى على الدعوة ، الا انه كان خطة بعيدة المدى ، فادحة الآثار ، بالغة العنف ، لما اقترن بها من أساليب فاقت فى التوائها وغرابتها وتجافيها عن الذوق والعقل والقانون والمنطق والانسانية أساليب اللصوص والمجرمين وقطاع الطريق ·

ويبدو أن المتآمرين قد اختاروا لتنفيذ هذه الحلقة من السلسلة النقراشى رئيس الوزراء فى ذلك الوقت ، لما يعلمون عنه من ضيق الافق وقصر النظر وبلادة التفكير · وهى مؤهلات تضمن لهم أن يكون التنفيذ بطريق الطاعة العمياء ··· ولا يصلح لهذه المهمة الا رجل اجتمعت فيه كل هذه الخصال ·· وقد وثقوا من ذلك بعد أن أثبتته مواقفه السياسية الداخلية والخارجية خلال سنوات ثلاث تولى خلالها رياسة الوزارة مرتين ·· فكان هو طلبتهم والشخصية التى يندر وجودها بل وقد يستحيل وجودها ·· فكل البلاد المتحضرة لا يصل الى رياسة الوزارة فيها الا الرجل الكفء القدير البعيد النظر الواسع الافق الذى يجمع بين الذكاء والمرونة التى هى محصلة كل صفات الكفاءة ·

أما فى مصر ، وفى تلك الحقبة من الزمان ، فان استهتار الملك بالشعب وانغماسه فى شهواته ، قد اقتضى أن يستدعى الى سدة الحكم ، ويحكم فى رقاب الشعب ، حزبا من الاحزاب المصطنعة ، ما كان له أن يصل الى الحكم فاذا استدعاه الملك ، ضمن هذا الملك ان يجد تحت قدميه حكاما يصدعون بأمره ، ويذعنون لصافه ، ويلهجون بذكره ، ويسبحون بحمده ، ويتنافسون على اشباع نزواته ·

وقتل رئيس هذا الحزب(١) – المسمى حزب السعديين – فخلفه على كرسى الوزارة نائبه فى الحزب ·· وكثيرا ما يكون نائب الرئيس فى

(١) أحمد ماهر ·

التجمعات السياسية صالحا لممارسة كل الاعمال الا الرياسة ٠٠ وكان النقراشى باشا من هذا الطراز ٠٠ فتولى الوزارة مرتين جر خلالهما على البلاد نكبات لم تمن بمثلها من قبل ، ففى عهده هوجم الطلبة بالمدافع الرشاشة فحصدوا حصدا ــ اذ هو صاحب موقعة كوبرى عباس الثانية التى نوهنا عن فظاعتها فى الجزء الاول من هذا الكتاب ٠٠ وفى عهده ثبت الاحتلال البريطانى أقدامه فى أرض مصر ٠٠ وفى عهده فقدنا السودان وانقطعت آخر الروابط بيننا وبينه ٠٠ وفى عهده ضاعت فلسطين وسلمت الى اليهود وتأسست دولتهم على ارضها ، وجلل الجيش المصرى الباسل بالخزى والعار لهزائم لا دخل له فيها ، ولا ذنب عليه فيما حاق به منها ، ولكنها هزائم ورط فيها هذا الجيش نتيجة سوء تصرف هذا الحاكم وقصر نظره وفساد تقديره وتحجر عقله ، وارتضائه أن يكون العوبة فى يد المستعمر ٠

وظهرت براعة المتآمرين فى اختيارهم منفذ المؤامرة ٠ واقتصرت مهمتهم بعد ذلك على وضع هذا المنفذ على قمة المنحدر ، وارتضى هو لنفسه هذا الوضع واهما ــ لقصر نظره ــ أنه يقعد على أرض منبسطة ٠٠ وأخذ فى الانطلاق فاذا به يتدهور ، وكل تدهور يسلمه لما هو أنكى منه ، وهو لا يملك من أمر نفسه شيئا ، ولا يجد حاجزا يحجزه فيقف بتدهوره عند حد ٠٠٠ حتى تحطم وتحطمت معه البلاد ، والمتآمرون يتفرجون فرحين جذلين ٠

وكان الوهم الذى سلط على العقلية القاصرة للنقراشى باشا أنه ــ وقد أيد بسلطة الملك ، لا سيما ومستشار الملك ورئيس ديوانه هو ابراهيم عبد الهادى صنوا النقراشى ونائبه فى الحزب ٠٠ ومن ورائه مجلس نواب صنعه بيده واعضاؤه من صنائعه ٠٠ ثم انه مسلح بامضى سلاح يشهره فى وجه من يشاء وكيفما شاء هو سلاح الاحكام العرفية ــ فقد ظن اذن أنه فى مأمن من عوادى الدهر وكوارث الايام ، وفى حصن منيع تنتطح دونه الرقاب ، ويرجع عنه كل هجوم عليه وهو كسير حسير ٠

وهكذا يعمى هيلمان السلطة من يقع فى شركها من قصار النظر من الحكام عن رؤية الحقائق فى الوقت المناسب ، فيعيشون فى دائرة الوهم ، ويدورون معه حيث يدور ، ويندفعون فى تياره حيث يدفعهم ، حتى يرتطموا أخيرا بصخرة الواقع فيتحطمون ، وحينئذ يفيقون بعد فوات الاوان ٠٠٠ وخطورة هذا التحطم انه يجر معه الخراب والدمار على البلاد التى ابتليت بهذا النوع من الحكام ٠

ومما يضاعف من أضرار هذا النوع من الحكام أنهم لا يحيطون أنفسهم فى الحكم الا بأمثالهم من قصيرى النظر من هواة السلطة وعشاق المناصب – وقد قيل من قبل : شبيه الشىء منجذب اليه – فيكملون بذلك حلقة الظلام المطبقة حولهم – فترى الذين يصلون الى المناصب الحساسة المحيطة بهم أحد رجلين ، أما متسلق ميت الضمير ، واما من هو على شاكلتهم من ضيقى الافق وقاصرى الادارة وممن لا يتعدى مدى بصرهم أطراف أنوفهم – مع أن هذا النوع من الحكام هم أحوج أن يكون بجانبهم مساعدون على أعلى مستوى من الذكاء والمرونة وبعد النظر حتى يكملوا ما بهؤلاء الحكام من نقص ، وحتى يبصروهم بما لا يرون من عواقب الامور ، فتصدر القرارات بذلك مجانبة للخطأ قريبة من الصواب .

ولكن هكذا كان ... أن تولى النقراشى – قيادة البلاد فى إحرج ظروفها – وهو ما هو مما وصفنا – واستعان مع ذلك بمن هم شر منه من أمثال عبد الرحمن عمار الذى اختاره وكيلاً لوزارة الداخلية للامن العام – وسوف يرى القارىء فى صفحات قادمة ان شاء الله مدى ادراك هذا الرجل أيضا ونصيبه من الفهم والبصيرة والذكاء .

صورة تخطيطية لهيئة الاخوان فى ذلك الوقت :

وقبل أن ننقل للقارىء نص قرار الحل ومذكرته التفسيرية نضع بين يديه صورة تخطيطية مجملة لهيئة الاخوان المسلمين فى ذلك الوقت ، حتى يتصور القارىء عظم الجريمة التى أقدم عليها اللاعبون بالنار ممن اصدروا هذا القرار وهم عامدون .

كانت صورة هذه الهيئة تضم فيما تضم ما يأتى :

١ – المركز العام للاخوان المسلمين بالقاهرة .

٢ – اكثر من ٢٠٠٠ (ألفى) شعبة فى أنحاء القاهرة والاقاليم .

٣ – ما يقارب هذا العدد من جمعيات البر والخدمة الاجتماعية للاخوان المسلمين فى انحاء القطر ، وبالكثير منها مستوصفات ومدارس ونواد رياضية .

٤ – جيش من الفدائيين يحارب فى فلسطين ، وكان فى تلك الفترة يحمى مؤخرة الجيش المصرى ، وكان القائد العام للجيش المصرى بفلسطين يطالب الحكومة المصرية فى نفس تلك الفترة بالانعام باوسمة البطولة ونياشينها على ضباط هذا الجيش الفدائى وجنوده لما أظهروا من بطولات

فاقت كل تقـديـر ، ولمـا قـدموا من خـدمات للجيش المصرى لا يستطيعها غيرهم ٠

٥ ـ شركة دار الاخوان للصحافة ، شركة مساهمـة مصرية مركزها القاهرة ، وتصدر جريدة يومية ومجلة أسبوعية عدا مجلتين شهريتين ٠

٦ ـ شركة دار الاخوان للطباعة ـ شركة مساهمة مصرية مركزها القـاهـرة ٠

٧ ـ دار الطباعة والنشر الاسلامية بالقاهرة ، وهى تصدر سيلا من الكتب الاسلامية القيمة والرسائل النافعة ٠

٨ ـ شركة المناجم والمحاجر العربية ـ شركة تضامن ، ومنضم اليها شركة المعاملات الأسلامية بالقاهرة ٠

٩ ـ شركة الاخوان للنسيج بشبرا ٠

١٠ـ شركة الأعلانات العربية بالقاهرة ٠

١١ـ شركة الاخوان للتجارة بميت غمر ٠

١٢ـ شركة لاصلاح الاراضى بنجـع حمـادى و ٠٠٠ وغير ذلك من المؤسسات ٠

ثم ننقل فيما يلى نص الامر العسكرى الهمجى الذى أصدره النقراشى باشا للقضاء على أعظم هيئة نافعة فى تاريخ مصر ، فكان كالطفل الذى أوقد النار فى بيتهم وهو يلعب فأتت عليه وعلى أبيه وأمه وأسرته ٠

نص الامر العسكرى رقم ٦٣ لسنة ١٩٤٨
بحـل الاخـوان المسلمين

الاربعاء ٧ صفر ١٣٦٨ ـ ٨ديسمبر ١٩٤٨
أمـــر عسـكرى
بحل جمعية الاخـوان المسلمين وجميع شعبها

بعد الاطلاع على المرسوم الصادر فى ٣١ مايو ١٩٤٨ باعلان الاحـكام العرفية ٠

وعلى المادة الثالثة (بند ٨) من القانون رقم ١٥ لسنة ١٩٢٣ الخاص بنظام الاحكام العرفية والقوانين المعدلة له ٠

وبمقتضى السلطات المخولة لنا بناء على المرسوم المتقدم ذكره نقرر ما هو آت :

مادة ١ ـ تحل فورا الجمعية المعروفة باسم جماعة الاخوان المسلمين

بشعبها فى جميع انحاء المملكة المصرية وتغلق الامكنة المخصصه لنشاطها ، وتضبط الاوراق والوثائق والسجلات والمطبوعات والمبالغ والاموال ، وعلى العموم كافة الاشياء المملوكة للجمعية .

ويحظر على اعضاء مجلس ادارة الجمعية المذكورة وشعبها ومديريها وأعضائها والمنتمين اليها بأية صفة كانت مواصلة نشاط الجمعية ، وبوجه خاص عقد اجتماعات لها أو لاحدى شعبها او تنظيم مثل هذه الاجتماعات أو الدعوة اليها أو جمع الاعانات أو الاشتراكات أو الشروع فى شىء من ذلك . ويعد من الاجتماعات المحظورة فى تطبيق هذا الحكم اجتماع خمسة فأكثر من الاشخاص الذين كانوا أعضاء بالجمعية المذكورة .

كما يحظر على كل شخص طبيعى أو معنوى السماح باستعمال أى مكان تابع له لعقد مثل هذه الاجتماعات أو تقديم أية مساعدة مادية أو أدبية أخرى .

مادة ٢ — يحظر انشاء جمعية أو هيئة من اى نوع كانت أو تحويل طبيعة جمعية أو هيئة قائمة اذا كان الغرض من الانشاء أو التحويل القيام بطريق مباشر أو غير مباشر بالنشاط الذى كانت تتولاه الجمعية المنحلة أو احياء هذه الجمعية على أية صورة من الصور كما يحظر الاشتراك فى كل ذلك أو الشروع فيه .

مادة ٣ — على كل شخص كان عضوا فى الجمعية المنحلة أو منتميا اليها وكان مؤتمنا على أوراق أو مستندات أو دفاتر أو سجلات أو أدوات أو اشياء من أى نوع كانت متعلقة بالجمعية أو باحدى شعبها أن يقدم تلك الاوراق والإشياء الى مركز البوليس المقيم فى دائرته فى خلال خمسة أيام من تاريخ نشر هذا الامر .

مادة ٤ — يعين بقرار من وزير الداخلية مندوب خاص تكون مهمته استلام جميع اموال الجمعية المنحلة وتصفية ما يرى تصفيته منها ، ويخصص الناتج من التصفية للاعمال الخيرية أو الاجتماعية التى يحددها وزير الشئون الاجتماعية بقرار منه .

مادة ٥ — على كل شخص كان عضوا فى الجمعية المنحلة أو منتميا اليها وكان مؤتمنا على اموال — أيا كان نوعها — تخص الجمعية أو احدى شعبها أن يقدم عنها اقرارا للمندوب الخاص المشار اليه فى المادة السابقة فى خلال اسبوع من تاريخ نشر هذا الامر ، وعليه ان يسلمها الى ذلك المندوب فى الميعاد الذى يحدده لهذا الغرض او فى تاريخ استحقاقها على حسب الاحوال .

مادة ٦ - يجب على كل شخص طبيعى او معنوى كانت له معاملات مالية من أى نوع كانت أن يقدم عنها اقرارا مبينا به طبيعة هذه المعاملات والمستندات المؤيدة لها ، وما اذا كان مدينا او دائنا بأى مبلغ وموعد الاستحقاق الى غير ذلك من البيانات التى تسمح بتعرف مع الجمعية أو احدى تلك المعاملات . ويقدم هذا الاقرار الى المندوب الخاص المعين طبقا للمادة الرابعة بكتاب موصى عليه فى خلال أسبوع من تاريخ نشر هذا الامر.

ويجوز دائما للمندوب الخاص الغاء جميع العقود التى كانت الجمعية المنحلة أو احدى شعبها مرتبطة بها ولم يبدأ أو لم يتم تنفيذها دون أن يترتب على هذا الالغاء أى حق فى التعويض للمتعاقدين معها .

مادة ٧ - كل مخالفة لاحكام المواد ١ ، ٢ ، ٣ يعاقب مرتكبها بالحبس مدة لا تقل عن ستة أشهر ولا تزيد على سنتين وبغرامة لا تقل عن مائتى جنيه ولا تجاوز ألف جنيه أو باحدى هاتين العقوبتين ، وذلك مع عدم الاخلال بتطبيق أى عقوبة أشد ينص عليها قانون العقوبات أو أى قانون أو أمر آخر ، فضلا عن مصادرة الاموال موضوع الجريمة ، ويجوز لرجال البوليس أن يغلقوا بالطريق الادارى الامكنة التى وقعت فيها الجريمة .

مادة ٨ - كل مخالفة لاحكام المادة الخامسة يعاقب مرتكبها بالحبس وبغرامة قدرها خمسون جنيها ، فاذا كانت قيمة المبلغ الذى لم يقدم عنه الاقرار المشار اليه فى المادة الخامسة تزيد على خمسين جنيها كانت العقوبة الحبس وغرامة تعادل قيمة المبلغ المذكور بحيث لا تزيد على ٤٠٠٠ (أربعة آلاف) جنيه .

مادة ٩ - اذا كان الشخص المحكوم عليه فى احدى الجرائم السابقة موظفا أو مستخدما عموميا او بمجالس المديريات أو المجالس البلدية أو القروية او أية هيئة عامة أخرى أو كان عمدة أو شيخا تحكم المحكمة أيضا بفصله من وظيفته ، وإذا كان طالبا فى احدى معاهد التعليم الحكومية أو الواقعة تحت اشراف الحكومة تحكم ايضا بفصله منها وحرمانه من الالتحاق بها لمدة لا تقل عن سنة .

مادة ١٠ - يكون للمندوب الخاص المعين طبقا للمادة الرابعة صفة رجال الضبطية القضائية فى تنفيذ أحكام المادتين ٣ ، ٥ وله فى هذا السبيل حق دخول المنازل وتفتيشها كما ان له تفويض من ينحبه لهذا الغرض فى اجراء عمل معين من تلك الاعمال .

ويعفى المندوب المذكور والمفوضون عنه وكذلك رجال الضبطية

القضائية فى مباشرة تلك الاجراءات من التقيد بالاحكام الموضوعة لهذا الغرض فى قانونى تحقيق الجنايات ٠

المذكرة التفسيرية

وفيما يلى نص المذكرة المرفوعة الى دولة رئيس الوزراء بطلب حل جمعية الاخوان المسلمين :

تألفت منذ سنوات جمعية اتخذت لنفسها اسم « الاخوان المسلمون » وأعلنت على الملأ أن لها أهدافا دينية واجتماعية دون أن تحدد لها هدفا سياسيا معينا ترمى اليه ، وعلى هذا الاساس نشطت الجمعية وبثت دعايتها ، ولكن ما كادت تجد لها أنصارا وتشعر بأنها اكتسبت شيئا من رضا بعض الناس عنها حتى أسفر القائمون على أمرها عن أغراضهم الحقيقية ، وهى أغراض سياسية ترمى الى وصولهم الى الحكم وقلب النظم المقررة فى البلاد ٠

وقد اتخذت هذه الجماعة — فى سبيل الوصول الى أغراضها — طرقا شتى يسودها طابع العنف ، فدربت أفرادا من الشباب أطلقت عليهم اسم « الجوالة » وأنشأت مراكز رياضية تقوم بتدريبات عسكرية مستترة وراء الرياضة ٠ كما أخذت تجمع الاسلحة والقنابل والمفرقعات وتخزنها لتستعملها فى الوقت الذى تتخيره ، وساعدها على ذلك ما كانت تقوم به بعض الهيئات من جمع الاسلحة والعتاد بمناسبة قضية فلسطين ٠ وأنشأت مجلات أسبوعية وجريدة سياسية يومية تنطق باسمها سرعان ما انغمست فى تيار النضال السياسى متغافلة عن الاغراض الدينية والاجتماعية التى أعلنت الجماعة أنها قامت لتحقيقها ٠

ولا أدل على هذا مما أثبته ممثل النيابة العسكرية العليا فى مذكرة له فى شأن ما أسفر عنه تحقيق قضية الجناية العسكرية رقم ٨٨٢ لسنة ١٩٤٢ قسم الجمرك ، اذ قال عن جمعية الاخوان المسلمين « وبفحص المكاتب الاخرى اتضح من الاطلاع على التقرير المرسل من بعض أعضاء الجماعة فى طنطا أنهم يعيبون على الجمعية سياستها الحالية التى تصطبغ بصبغة دينية بحتة ، ويطلبون ان تكشف الجمعية للجمهور عن حقيقة مراميها وعن الغرض الاساسى من تكوينها الذى ينصب بالذات على أن الجمعية ليست جمعية دينية بالمعنى الذى يفهمه الجمهور ، وانما هى جمعية سياسية دينية اجتماعية تنادى بتغيير القوانين واساليب الحكم الحالية ، وان الخطب الدينية لا تفيد فى توجيه الجمهور الى تفهم غرضها الحقيقى ، وان الوسيلة لبلوغ هذا هو اثارة الجمهور بطريقة طرق مشاعره وحساسيته

لا عقله وتقديره ، اذ أن هذه الناحية الاخيرة هى ناحية ضامرة فيه .... الخ » وقد كتب الشيخ حسن البنا رئيس الجماعة بخط يده على هذا التقرير انه مؤمن بما ورد فيه موافق على ما تضمنه من مقترحات .

ومما يؤيد هذا الاتجاه ما حدث فى ٨ فبراير ١٩٤٦ باحدى قرى مركز اجا اذ قام طالب يخطب الناس حاثا اياهم على الانضمام لشعبة الاخوان المسلمين فى تلك القرية ، ومحرضا على مقاومة كل من يتعرض لهذه الجماعة من رجال الادارة وغيرهم ، ولو أدى ذلك الى استعمال السلاح .

وقد استمر قادة الجماعة ورؤساؤها يعالجون الامور السياسية فى خطبهم وأحاديثهم ونشراتهم جهرة متابعين الاحداث السياسية ، منتهزين كل فرصة تسنح لهم للوصول الى أغراضهم .

وكان بعض الموظفين قد استهوتهم الاهداف الاجتماعية والدينية التى اتخذتها الجماعة ستارا لاغراضها الحقيقية فأصبح موقفهم بالغ الحرج لان القانون لا يسمح بانتساب الموظفين لاحزاب سياسية .

كما امتدت دعوة الجماعة الى أوساط الطلبة ، واجتذبت فريقا منهم ، فأفسدت عليهم أمر تعليمهم وجعلت من بينهم من يجاهر بانتسابه اليها ويأتمر بأمرها فيحدث الشغب ، ويثير الاضطراب فى معاهد التعليم ، مما أخل بالنظام فيها اخلالا واضح الاثر .

ولقد تجاوزت الجماعة الاغراض السياسية المشروعة الى أغراض يجرمها الدستور وقوانين البلاد ، فهدفت الى تغيير النظم الاساسية للهيئة الاجتماعية بالقوة والارهاب ، ولقد أمعنت فى نشاطها فاتخذت الاجرام وسيلة لتنفيذ مراميها — وفيما يلى بعض أمثلة قليلة لهذا النشاط الاجرامى كما سجلته التحقيقات الرسمية فى السنوات الاخيرة :—

أولا — أوضحت تحقيقات الجناية العسكرية العليا سنة ١٩٤٢ قسم الجمرك حقيقة أغراض هذه الجماعة ، وأنها تهدف الى قلب النظم الاساسية للهيئة الاجتماعية متخذة طرقا ارهابية بواسطة فريق من أعضائها دربوا تدريبا عسكريا وأطلق عليهم اسم « فريق الجوالة » .

ثانيا — وبتاريخ ٦ يونيو ١٩٤٦ وقع اصطدام فى مدينة بور سعيد بين أعضاء هذه الجماعة وخصوم لهم استعملت فيه القنابل والاسلحة ، وأسفر عن قتل أحد خصومهم واصابة آخرين . وضبطت لذلك واقعة الجناية رقم ٦٧٩ لسنة ١٩٤٦ قسم ثان بور سعيد .

ثالثا – وبتاريخ ١٠ ديسمبر ١٩٤٦ ضبط بعض افراد هذه الجماعة بمدينة الاسماعيلية يقومون بتجارب لصنع القنابل والمفرقعات ·

رابعا – كما وقعت بتاريخ ٢٤ ديسمبر ١٩٤٦ حوادث القاء قنابل انفجرت فى عدة أماكن بمدينة القاهرة وضبط من مرتكبيها اثنان من هذه الجماعة ، قدما لمحكمة الجنايات فقضت بادانة أحدهما (قضية الجناية رقم ٧٦٧ لسنة ١٩٤٦ قسم عابدين – ١١٧ سنة ١٩٤٦ كلى) ·

خامسا – وقد تعددت حوادث اشتباك أفراد هذه الجماعة مع رجال البوليس ومقاومتهم لهم بل والاعتداء عليهم وهم يؤدون واجبهم فى سبيل حفظ الامن وصيانة النظام ، مثال ذلك ما حدث فى يوم ٢٩ يونيه ١٩٤٧ بدائرة قسم الخليفة من اعتداء فريق جوالة الاخوان المسلمين على مأمور هذا القسم ورجاله ·

سادسا – وقد ثبت من تحقيق الجناية رقم ٤٧٢٦ لسنة ١٩٤٧ الاسماعيلية أن أحد أفراد هذه الجماعة ألقى قنبلة بفندق الملك جورج بتلك المدينة فانفجرت وأصيب من شظاياها عدة أشخاص ، كما أصيب ملقيها نفسه باصابات بالغة ·

سابعا – وحدث فى ١٩ يناير ١٩٤٨ أن ضبط خمسة عشر شخصا من جماعة الاخوان المسلمين بمنطقة جبل المقطم يتدربون على استعمال الاسلحة النارية والمفرقعات والقنابل ، وكانوا يحرزون كميات كبيرة من هذه الانواع وغيرها من أدوات التدمير والقتل ·

ثامنا – وفى ١٧ فبراير ١٩٤٨ اعتدى فريق من هذه الجماعة على خصوم لهم فى الرأى بأن أطلقوا عليهم أعيرة نارية قتلت أحدهم ، وكان ذلك بناحية كوم النور مركز ميت غمر وضبطت لذلك واقعة الجناية رقم ١٤٠٧ لسنة ١٩٤٨ ·

تاسعا – كما عثر بتاريخ ٢٢ أكتوبر ١٩٤٨ بعزبة فرغلى رئيس شعبة الاخوان المسلمين بالاسماعيلية على صندوق يحتوى على قنابل ، مما استدعى تفتيش منزله ، فاذا بأرض احدى الغرف سردابان بهما كميات ضخمة من القنابل المختلفة والمفرقعات والمقذوفات النارية والبنادق والمسدسات وأحد عشر مدفعا · كما عثر فى فجوة بأرض الغرفة على وثائق تنطق بأن هذه الجماعة تعد العدة للقيام بأعمال ارهابية واسعة النطاق ·

عاشرا – وحرقت فى ١٨ يناير ١٩٤٧ احطاب لاحد الملاك بناحية كفر بدواى ، واتهم بوضع النار فيها فريق من شعبة الاخوان المسلمين بتلك

القرية • ولما قام البوليس بالفحص عن أحوال تلك الشعبة تبين ان احد اعضائها مقدم لمحكمة الجنايات فى جريمة قتل شيخ خفراء البلدة •

حادى عشر ــ وبتاريخ ٣ فبراير ١٩٤٨ قام بعض أفراد شعبة الاخوان المسلمين بناحية البرامون بايهام الاهالى بأنهم سيعملون على زيادة أجورهم وارغام تفتيش أفيروف الذى يقع بزمام القرية على تأجير أراضيه مقسمة على الاهالى بايجار معتدل ، وقاموا بمظاهرات طافت بالقرية تردد هتافات مثيرة ، ولما أقبل رجال البوليس لقمع الفتنة اعتدوا عليهم باطلاق النار وقذف الاحجار •

وقد وقع شجار بعد ذلك بنفس القرية فى يوم ١٣ مارس ١٩٤٨ بين جماعة الاخوان المسلمين ومن اليهم وبين خصوم لهم فأسفر عن قتل احد الاشخاص واصابة آخرين •

ثانى عشر ــ وفى يوم ٢٦ يونيه ١٩٤٨ حرض الاخوان المسلمون عمال تفتيش زراعة محلة موسى التابع لوزارة الزراعة على التوقف عن العمل مطالبين بتملك أراضى هذا التفتيش ، الامر الذى سجلته القضية رقم ٩٢١ لسنة ١٩٤٨ جنح كفر الشيخ •

ثالث عشر ــ من الاساليب التى لجأت اليها الجماعة ارسال خطابات تهديد لبعض الشركات والمحال التجارية لابتزاز أموال منها على زعم أنها مقابل الاشتراك فى جريدتهم ، واقتنصوا بالفعل أموالا بهذه الوسيلة • وقد تقدمت بعض هذه الشركات بالشكوى من هذا التهديد طالبة حمايتها من أذى هذه الجماعة •

ولم تقف شرور هذه الجماعة عند هذا الحد • بل عمدت الى افساد النشء ، فبذرت بذور الاجرام وسط الطلبة والتلاميذ ، فاذا بمعاهد التعليم وقد انقلبت مسرحا للشغب والاخلال بالامن وميدانا للمعارك والجرائم • ومن أمثلة ذلك الحوادث التالية :

أ ــ حدث ببندر دمنهور فى يوم ٢٥ مايو ١٩٤٧ بمدرسة الصنايع أن اعتدى تلاميذ الاخوان المسلمين على أحد المخالفين لهم فى الراى وشرعوا فى قتله بطعنة سكين • وضبطت لذلك واقعة الجناية رقم ١٢٤٨ لسنة ١٩٤٧ ببندر دمنهور •

ب ــ وفى يوم ٣ فبراير ١٩٤٨ حرض بعض التلاميذ من اعضاء هذه الجماعة زملاءهم تلاميذ مدرسة الزقازيق الثانوية على الاضراب ، والقى

احدهم قنبلة يدوية انفجرت وأصابت بعض رجال البوليس ، كما ضبط مع آخر منهم قنبلة يدوية قبل ان يتمكن من استخدامها فى الاعتداء ٠

جـ - ويوم ٢٤ يناير ١٩٤٨ تحرش بعض تلاميذ مدرسة شبين الكوم الثانوية من المنتمين الى الاخوان المسلمين بزملاء لهم ، الامر الذى أدى الى حادث قتل ٠

ولم تتورع هذه الجماعة عن أن يمتد اجرامها الى القضاء الذى ظل رجاله فى محراب العدل ذخرا للمصريين ، وملاذا لهم ، ينعمون بثقة المتقاضين وطمأنينتهم - اذ قصدوا الى ارهاب القضاة عن طريق قتل علم منهم هو المغفور له أحمد الخازندار بك وكيل محكمة استئناف مصر ، الذى حكم بادانة بعض اعضاء الجماعة لجرائم قارفوها باستخدام القنابل - وقد ثبت أن أحد المجرمين القاتلين كان سكرتيرا خاصا للشيخ حسن البنا ٠

ولقد ادركت الحكومات المتعاقبة خطورة الاهداف والمقاصد التى تسعى هذه الجماعة لتحقيقها فحاولت - فى حدود القوانين القائمة - أن تحد من شرورها وساعدت الاحكام العرفية التى أعلنت خلال الحرب العالمية الاخيرة على اعتقال بعض قادة هذه الجماعة ، وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت الجماعة سادرة فى جرائمها ، الامر الذى استوجب اصدار الامر العسكرى بحل شعبتي الاخوان المسلمين بالاسماعيلية وبور سعيد ٠

ولقد وقعت فى يوم ٤ ديسمبر ١٩٤٨ حوادث مؤلمة بجامعة فؤاد الاول بالجيزة ، القى فيها الطلاب قنابل على رجال البوليس واطلقوا عليهم الرصاص وقذفوهم بالاحجار فأصيب عدد منهم ، كما حدث فى نفس اليوم أن اعتصم بعض طلبة كلية الطب بأسطح مبنى الكلية ، واشعلوا النار فى أماكن متفرقة وقذفوا رجال البوليس الذين كانوا يحافظون على النظام ببعض القنابل وكميات هائلة من الاحجار وقطع الاخشاب وزجاجات مملوءة بالاحماض ثم القوا على حكمدار بوليس العاصمة قنبلة أودت بحياته ٠

وحدث فى يوم ٦ ديسمبر ١٩٤٨ أن تجمع طلبة المدرسة الخديوية واندس بينهم بعض الغرباء والقوا قنبلتين على رجال البوليس الذين كانوا خارج اسوار المدرسة ، فاصيب ضابط وسبعة من العساكر - وكان مقترفو هذه الحوادث المروعة من المنتمين لجماعة الاخوان المسلمين ٠

ولا تزال النيابة العامة ماضية فى تحقيق حادث ضبط سيارة بها مواد متفجرة وذخائر ومستندات خطيرة ، بدائرة قسم الوايلى يوم ١٥ نوفمبر ١٩٤٨ ٠ وقد ادى التقصى عن ظروف هذا الحادث الى ضبط كميات

هائلة من القنابل والمفرقعات جاءت أضعافا مضاعفة لما ضبط فى تلك السيارة • وقد كشفت ملابسات هذا الحادث حتى الآن عن أن جماعة من الاخوان المسلمين يكونون عصابات اجرامية هى المسئولة عن حوادث الانفجارات الخطيرة التى حدثت فى مدينة القاهرة خلال الشهور الستة الاخيرة ، وكان آخرها حادث نسف شركة الاعلانات الشرقية يوم ١٢ نوفمبر ١٩٤٨ وما نجم عنه من هدم وتخريب فى المبانى وقتل بعض الاهالى ورجال البوليس وجرح عدد غير قليل من الاشخاص •

وبما أنه يتبين بجلاء من استعراض هذه الحوادث ـ وهى قليل من كثير ـ أن هذه الجماعة قد أمعنت فى شرورها بحيث أصبح وجودها يهدد الامن العام والنظام تهديدا بالغ الخطر ، لذلك أرى أنه بات من الضرورى اتخاذ التدابير الحاسمة لوقف نشاط هذه الجماعة التى تروع أمن البلاد فى وقت هى أحوج ما تكون فيه الى هدوء كامل وأمن شامل ضمانا لسلامة أهلها فى الداخل وجيوشها فى الخارج •

وكيل الداخلية
عبد الرحمن عمار

اجراءات أشد شذوذا

بعد أن أوردنا نص قرار الحل ومذكرته التفسيرية نقول : ان قرار الحل فى ذاته ـ متسترا برداء الاحكام العرفية ـ أمر شاذ ، ومع ذلك فان مصدرى هذا الامر لم يكتفوا به بل أتبعوه باجراءات أشد شذوذا •

فالامر العسكرى ببنوده العشرة مع ما فيها من اعتداء صارخ على الحريات وحرمان من الحقوق ، قد تم تنفيذه دون أن يتعرض أحد من أعضاء الجماعة للمنفذين •• فلم اذن تعدى مصدرو الامر حدود بنوده ؟ هل هو استمرار للظلم ؟ هل هو اشباع لغريزة الانتقام ؟ هل هو استهتار بالشعب ؟ هل هو تفان منهم فى محاولة ارضاء سادة لهم دفعوهم وهم من ورائهم يرقبون ؟ هل هو اثبات لهؤلاء السادة أن المنفذين يستحقون أن تضاعف لهم المكافاة بعد أن برهنوا على أنهم ملكيون أكثر من الملك وانجليزيون أكثر من الانجليز ؟

لقد اتبعوا تنفيذ بنود الامر العسكرى بأساليب مبتكرة لم يكن لهذا الشعب بها عهد من قبل ، من اعتقالات هوجاء ، ومصادرات عمياء ، وبطش عنيف دون مبرر •••

على أن كل هذه الاجراءات الجائرة ـ مع كل ما فيها من شذوذ ـ فان هناك من يستطيع أن ينتحل لها مبررا مما سبق أن سقناه على سبيل الاستفهام ـ أما الاجراء الذى لا يمكن تبريره ، ومن أجل ذلك يمكن اعتباره أخطر اجراء اتخذوه فهو أنهم حالوا بين المرشد العام وبين الاخوان ، فلا هو مسموح له أن يتصل ولو بفرد واحد منهم ولا يستطيع أحد منهم أن يتصل به حتى بالتليفون الذى قطعوه عن منزله ، بل ان أى انسان يقترب من منزله كان يقبض عليه ولو كان من غير الاخوان .

خطورة هذا الاجراء :

وانى لاتعجب لاولئك الذين قرروا هذا الاجراء ، الذى ان دل على شيء فانما يدل على التناقض والتخبط وسوء التصرف وقصر الادراك ، فنصوص الامر العسكرى الذى أصدروه ، ونصوص مذكرته التفسيرية التى بنوه عليها، توحى الى القارىء بأن مصدرى هذا الامر ينظرون الى الاخوان المسلمين على أنهم مجموعة ضخمة من الشباب المتهور الذى لا يبالى بشيء .. وهم يعلمون أنهم ـ مهما بالغوا فى البطش والاعتقال ـ فان الاخوان المسلمين من الكثرة بحيث يكون الباقون منهم خارج أسوار المعتقلات والسجون أضعافا مضاعفة لمن هم فى داخلها ، والكثرة الغالبة منهم من الشباب المتحمس الثائر .. كما أنهم يفهمون أن الامر العسكرى الذى أصدروه هو تحد مباشر لمشاعر هذا الشباب واستفزاز له ، وأنه بمثابة اعلان للحرب عليهم ، وحكم صدر باعدامهم بل باعدام ما هو أعز عليهم من أنفسهم ..

وفى الوقت نفسه يفهم هؤلاء المسئولون ويعلمون تمام العلم أن الانسان الوحيد الذى يستطيع أن يوجه هذا الشباب ، والذى بيده زمام هذا الشباب هو المرشد العام ...

فما معنى الحيلولة بين المرشد العام وبين هذا الشباب اذن ؟ ... لقد شاع فى ذلك الوقت وعقب اذاعة الامر العسكرى بحل الاخوان مباشرة وحين أحس الناس بما تضمنه هذا الامر من عنف وضراوة لم يعهد مثلهما ـ من قبل ـ شاع على ألسنة الخاصة والعامة أن هذا التحدى البالغ العنف لابد أن تكون حياة النقراشى ثمنا له .

ولقد خبرت الحكومة المصرية على اختلاف ألوانها وأحزابها مقدرة المرشد العام الخارقة فى التأثير فى هذا الشباب ، واستطاعته أن يقنعهم برأيه مهما كان رأيه معارضا لاتجاههم ومصادما لعواطفهم .. خبروا ذلك فى موقفين خطيرين : أحدهما حين قررت احدى الحكومات الحزبية نقله الى قنا، والآخر حين طلبت منه احدى الحكومات الوفدية التنازل عن ترشيح نفسه

لمجلس النواب ـ وقد تحدثنا عن هذين الموقفين بتفصيل فى الجزء الاول من هذا الكتاب ··· المرشد العام وحده اذن هو القادر على كبح جماح هؤلاء الشباب اذا لم يحل بينه وبينهم ·

فما معنى هذا الاجراء الغريب الموغل فى الغرابة ؟ والذى قد لا نجد له تعليلا ولا تحليلا ولا تبريرا الا أن يكون حقد اسود قد غشى على بصائر هؤلاء الناس وأبصارهم فهم فى ضلالهم يعمهون ·

وهناك رؤية قد يراها الحانقون من المراقبين للاحداث الذين لايكتفون من الاحداث بظواهرها دون بواطنها ، يلخصها هؤلاء الحذاق فى أن مخططى المؤامرة من غير المصريين ـ وهم على اعلى مستوى فى الخبرة النفسية ـ خططوها بحيث يكون دورهم فيها مقتصرا على اشعال فتيلها ثم تركها بعد ذلك متاججة يأكل بعضها بعضا حتى تتحقق كل أهدافهم دون حاجة الى ظهورهم على المسرح فى أى دور من أدوارها · وقد رأوا فى اختيار النقراشى بالذات ـ كما شرحنا ذلك من قبل ـ الضمان الكامل للوصول الى النهاية التى يأملون ·

ومع ذلك فان المرشد العام لم يأل جهدا فى الاتصال بهم ، وأخذ يبصرهم بخطأ تصرفهم فى الحيلولة بينه وبين الاتصال بالاخوان ، وحذرهم مغبة هذا الاجراء الذى تدعو مصلحة البلاد الى العدول عنه ، ولكنه لم يتلق على الحاحه المستمر جوابا الا وعودا فى الهواء ·

فكان من نتيجة تمسك الحكومة بهذا الاجراء الاخرق أن وجد هذا الشباب الثائر المجروح المضطهد المطارد نفسه بغير قيادة ، فتصرف من تلقاء نفسه وبدافع من عاطفته ·· فكانت أحداث جسام بدأت بما كان يتوقعه الجميع من اغتيال النقراشى فى حصنه الحصين بوزارة الداخلية ثم تفاقمت بعد ذلك الاحداث تفاقما لم يخطر ببال احد اذ أفلت الزمام ·

اغتيال النقراشى باشا :

بعد عشرين يوما من صدور الامر العسكرى بحل الاخوان المسلمين ، وفى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ اغتيل النقراشى باشا فى وزارة الداخلية وهو محاط بحراسة مكثفة لا ينفذ من خلالها الهواء ·· فكان هذا مصداق قوله تعالى « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » ودليلا على أن الحاكم لا يحميه الا عدله وتجاوبه مع شعبه ·

جاء فى مرافعة الاستاذ أحمد حسين أمام المحكمة العسكرية العليا فى قضية اغتيال النقراشى فى ١٩٤٩/٩/٢٠ قوله : « نشرت جريدة أخبار

اليوم أن مصطفى امين قابل النقراشى باشا وحذره من الاقـدام على حـل الاخوان لانه سيقتل ، فلما أصر ، خرج باكيا عليـه • فلما قتـل بعـد ذلك بأسبوع لم يبك عليه فقد بكاه من قبل ـ وكل من كان حول النقراشى باشا كانوا يشعرون هذا الشعور ـ اذن كان هناك شبه اجماع وصـل الى حـد النشر على صفحات الجرائد أن حل الاخوان كان معناه قتـل النقـراشى • فما معنى هذا التلازم ومن أين جاء هذا الشعور ؟

هل جاء فقط من ناحية خطورة الاخوان المسلمين ؟ ولكن مهما بلغ خطر الاخوان فهل يمكن ان يقاس بقوة الدولة ؟ لقد كان النقراشى باشا حاكما عسكريا ، ولديه من السلطات مالا عين رات ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر •• ففيم كانت هذه العقيدة التى تكونت بأن القتل سيكون مصيره ؟!

اننى أخشى أن يكون ذلك هو مظهر الشعور بالاقـدام على أمـر غير طبيعى ، وأمر شاذ ، وأمر متناه فى القوة والعجلة ، فضلا عن أنه ضد القانون وضد الدستور وضد سلامة الشعب » •

هذا ما قاله الاستاذ أحمد حسين • ونحن نقول : ان هذا الرجل قـد ذهب ضحية صـلفه وحقده وضـيق أفقـه ، واستبداده برأيه واستسلامـه للغاصب المستعمر ، وتأليهه لملكه الغارق فى شهواته • مما سوف نضعه ان شاء الله موضع المناقشة بعد قليل •

ابراهيم عبد الهادى باشا يخلف النقراشى باشا :

وفى اليوم التالى أسند الملك رياسة الوزراء الى ابراهيم عبد الهادى باشا • وهو مـن النقراشى بمثابة النقراشى مـن أحمـد ماهر ، يبوء بـاثم ميراث وبىء من التفريط فى حقوق البلاد ، والتواطؤ مع المستعمر ، والتهالك على منصب الحكم ، والتسابق الى أن يكون فى خدمة نزوات الملك وفى عبادته من دون الله •

جاء هذا الرجل الى الحكم كالذئب المتعطش للدماء • جاء ومعه تفويض الهى من الهه فاروق بأن يفعل ما يشاء ولن يسأل عما يفعل « يـذبح ابناءهم ويستحيى نساءهم » بحيث يبيد هذه العصبة الوحيدة المتمردة على عبادة فاروق والسير فى ركابه •••

ولا بد ان ابراهيم عبد الهادى هذا كان يعتقد فى ذلك الوقت أن فاروقا قادر على كل شىء • وغاب عنه أن هناك الها آخر غير فاروق هو الاله الحـق الذى يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ••• ذلك ان ما فعله هـذا

الرجل ، وما ارتكبه من آثام لا يمكن أن يقدم عليه انسان فى قلبه مثقال ذرة من ايمان ٠٠٠

ففى عهد هذا الرجل بلغت الاحداث الجسام ذروتها ، وارتكبت أفظع جريمة فى هذا القرن بتدبير حكومته وهى اغتيال المرشد العام ٠

وقبل أن نشرع فى استعراض أيام هذا الرجل السوداء ، وما سجلته من مآثم يندى لها جبين الانسانية خجلا ، نتناول بالتمحيص موضوعا خطيرا ذا دلالات جوهرية فى تاريخ هذه البلاد ، لا ينبغى أن يسبقه فى صدد ما نحن فيه موضوع آخر ٠ وهو ما نفرد له الفصل الآتى ان شاء الله ٠

الفصل الثانى

من هو الآمر الحقيقى بالحل ؟

خرج الامر العسكرى بحل « جمعية الاخوان المسلمين » ـ فعلا ـ من دار رياسة مجلس الوزراء ، ممهورا بتوقيع النقراشى باشا رئيس مجلس الوزراء ··· وعند انصراف دولته من دار الرياسة فى مساء يوم ٨ ديسمبر ١٩٤٨ صرح للصحفيين قائلا : اننى أصدرت أمرا عسكريا بحل جماعة الاخوان المسلمين ·

ويدعى النقراشى باشا ويصر على أنه هو الذى أصدر هذا الامر من تلقاء نفسه وأن أحدا غيره لم يتدخل فيه ولم يوعز به ·

ولكن هناك ما يلقى ظلالا كثيفة من الشك على هذا الادعاء ، بل هناك ما يعارضه وينقضه ويظهر زيفه ··· ونورد هنا ما جاء فى هذا الصدد فى مرافعة الاستاذ شمس الدين الشناوى فى قضية السيارة الجيب أمام محكمة الجنايات بالقاهرة فى ٢١ـ١ـ١٩٥١ كما نشرته جريدة « المصرى » فى ذلك اليوم حيث قال :

« انهم أدخلوا الجيش المصرى فلسطين حتى يتذرعوا بذلك لاعلان الاحكام العرفية ، حتى يتمكنوا فى ظلها من ارتكاب جريمة حل الاخوان المسلمين ·

وثيقة

وهنا رفع يده ملوحا وبها ورقة فى حجم الكارت البوستال وقال :
« هذه هى الفضيحة الكبرى ، وهذا هو الدليل المادى الذى ينطق بالحق ·
هذه هى وثيقة مكتوبة باللغة الانجليزية » ·· وسلمها للمحكمة ··

وأخذ يتلو نص الوثيقة باللغة العربية · وهى عبارة عن رد من القيادة العليا للقوات البريطانية فى الشرق الاوسط على اشارة وردت اليها من السفارة البريطانية · وتقول القيادة فى الوثيقة :

« لقد أخطرت هذه القيادة رسميا بأن خطوات دبلوماسية ستتخذ لاقناع السلطات المصرية بحل الاخوان المسلمين فى أقرب وقت ممكن » ·

وقد ذيلت الوثيقة بامضاء رئيس ادارة قوات القيادة العليا الحربية البريطانية فى الشرق الاوسط ·

وبعد ان تلا هذه الوثيقة أخذت المحكمة فى مناقشتها · وهنا وقف الاستاذ محمد عبد السلام بك ممثل النيابة وتساءل عن المصدر الذى أتت عنه هذه الوثيقة ـ فرد الاستاذ الشناوى مداعبا وقال : ان جاسوسية الاخوان هى التى أتت بهذه الوثيقة ـ فقال ممثل النيابة : لا يمكن التمسك بمثل هذه الوثيقة الا اذا صح ما جاء فيها ·

وهنا قال سعادة رئيس المحكمة : الى أن تقرر السفارة البريطانية بأن هذه الوثيقة مزورة وغير صحيحة ، فانها يجب أن تعد صحيحة · (وقبل أن ينتهى الرئيس من كلامه سمع تصفيق هائل وتعالت الهتافات : يحيا القضاء العادل · يحيا القضاء النزيه)

وفى جلسة المحكمة فى ١٠ـ٢ـ١٩٥١ قدم ممثل النيابة كتابا من السفارة البريطانية يكذب الوثيقة ونصه : عزيزى وحيد رأفت بك (مستشار الرأى لوزارتى الخارجية والعدل)

طلب الى سفير حضرة صاحب الجلالة بأن أقرر أن نظره قد استرعى أخيراً الى خبر نشر بالصحف بشأن محاكمة قائمة أمام المحاكم جاء فيها أن محاميا يدعى الاستاذ شمس الدين الشناوى حاضرا عن المتهم أحمد عادلكمال صرح بأن الحكومة البريطانية أوعزت الى الحكومة المصرية فى ١٩٤٨ بالغاء وحل الاخوان المسلمين · وأن الاستاذ الشناوى دلل على ذلك بصورة كتاب مؤرخ فى ٢٠ نوفمبر ١٩٤٨ زعم أنه موقع عليه بمعرفة الكولونيل أ · م · ماك درموث نيابة عن السلطات العسكرية البريطانية ·

وأرى من واجبى اخباركم بأن هذه الوثيقة ان وجدت تكون مصطنعة فضلا عن أن أمرحل الاخوان المسلمين أو ما شابه ذلككما زعم الاستاذالشناوى لم يثر ولم يكن محل حديث بين هذه السفارة والحكومة المصرية · ولعلكم ترون أن من الضرورى لمصلحة العدالة احاطة المحكمة علما بما تقدم ·

التوقيع
مورى جراهام
المستشار القانونى للسفارة البريطانية

وهنا قام الاستاذ الشناوى وقال : ان تكذيب السفارة لهذه الوثيقة لا يفيد من قريب أو من بعيد ، لان السفارة لم ترسل بهذه الوثيقة ، وانما هى صدرت من القيادة العليا للقوات البريطانية فى الشرق الاوسط ، وهى

مذيلة بامضاء السير ماك درموث قائد القوات البريطانية ـ وأضاف قائلا بأن المهم هو معرفة حقيقة هذا الامضاء ـ وأمام هذا الامر لا يصدر التكذيب الا من صاحب التوقيع الفعلى ، وهو بنفسه الذى يحق له انكار الوثيقة ٠

وثائق أخـــرى

واستطرد قائلا : نحن واثقون من صحة الوثيقة التى تقـدمنا بهـا ، ولدينا من الادلة ما يؤيدها ويعززها ولسوف نقدمه لكم فى القريب ٠

يستنصر الانجليز

وأضـــاف أن السبب فى تكذيب الســفارة لهـذه الوثيقـة هو أن دولة ابراهيم عبد الهادى باشا وجد السفارة لا تحرك ساكنا ، وقد مضت قـرابة العشرة الايام ، فطلب منهم أن ينصروه كما نصرهم أخ له من قبل ٠٠ وقـد طالعتنا جـريدة أخبار اليـوم بأن هناك اتصـالات حـــدثت وأن ابراهيم عبد الهـادى ألح فى مقابلة المستر أندروز وتمت مقابلته فى منزل عبد الهـادى باشا بالمعـادى ٠

وقال : انه ظاهر أن المستر أندروز طلب من عبد الهادى باشا أن يكذب الوثيقة بنفســه ، ولكن عبد الهـادى قال ان الوثيقة صـدرت من الانجليز فيجب أن يكون تكذيبها من جانبهم ٠٠ وأشـــار الى أن عـدد « المصـور » أول أمس نشر أن عبد الهادى سئل عن سبب المقابلة الطـويلة فقرر أنها لم تتناول مسائل سياسية ولكنها كانت خاصة بتكذيب الوثيقة ٠

ممثل النيابة : ان الوضع الطبيعى هـو أن يكون عبء اثبات صـحة الوثيقة وصحة التوقيع عليها على عاتق الدفاع ٠ ومن القواعـد المقـررة أنه اذا أنكر المستند فان على الذى يتمســك به أن يثبت أن الكتابة والتـوقيـع صادران من خصمه ٠

المحكمة : الدفاع يقـول ان الجهـة التى أصدرت التكذيب ليست هى الجهة التى صدرت عنها الوثيقة ٠

النيابة : السفارة مختصة ٠ والتوقيع ولو أنه صادر عن غيرها ألا أنى أرى أن المســتر ماك درمـوث وهو الموقـع على الوثيقـة يتكلم فيها باسـم السفارة البريطانية ٠

الدفاع : ان هذا الطعن غير منتج ٠ وهذا التكذيب ان هو الا مـؤامرة سياسية لا تجدى ولا تفيد ٠

المحكمة : يرجأ البحث فى الوثيقة حتى يطلع الدفاع على رد السفارة ويقدم المستندات التى يراها .

وفى جلسة ١٥ـ٢ـ١٩٥١ وقف الاستاذ شمس الدين الشناوى وتكلم بشأن الخطاب الوارد من السفارة الانجليزية وقرر أن هذه الوثيقة رسمية صادرة من موظف رسمى مختص بتحريرها وهو المستر ماك درموث ، وقال : ان الورقة الرسمية لا يطعن فيها الا بالتزوير ، وكذلك الصورة الفوتوغرافية المأخوذة لهذه الوثيقة ، بخلاف الورقة العرفية فان صورتها الفوتوغرافية تكون مجرد قرينة ، وذلك تطبيقا للمادة ٣٩٠ من القانون المدنى . ولذلك يكون الطريق الذى سلكته السفارة غير سليم ، ولا يمكن أن يؤثر فى صحة الورقة أو ينال منها .

دليل على تدخل الانجليز

وأشار بعد ذلك الى تدخل الانجليز فى شئون البلاد الداخلية وقال : ان بيده الآن أحد أعداد جريدة الاساس (جريدة الحزب السعدى) وأخذ يتلو منه مقالا تحت عنوان : « لماذا يتلكأون ؟ » جاء فيه :

« **ان الحكومة السعدية تعجب لعدم تسليم الثلاثة من الاخوان الذين هربوا الى برقة ، فى حين أن السفارة الانجليزية هى التى كانت تطلب الى السلطات المصرية وضع حد لنشاطهم بمصر** . فلما اشتدت وطأة البوليس المصرى على الارهابيين حمتهم السلطات البريطانية فى برقة . والسلطات المصرية فى انتظار تغير موقف السلطات البريطانية فى برقة حتى ينسجم مع موقف السفارة البريطانية فى القاهرة .

تدخل سافر

ثم قدم الاستاذ الشناوى هذا العدد الى المحكمة قائلا : ان هذا هو اعتراف صريح من السعديين بالتدخل البريطانى السافر لا فى شئوننا الخارجية فحسب ، وانما فى شئوننا الداخلية أيضا .

قرائن تؤيد صحة الوثيقة :

هذا ما كان من أمر الوثيقة . وليس يعنينا بعد ايرادها وايراد مادار حولها من نقاش أن نقيم هذا النقاش ، وأن نتعقب ما كان من شأن الوثيقة بعد ذلك ، وهل تقدم موقعها السير ماك درموث بتكذيبها والطعن فى توقيعه بالتزوير أم وقف الامر عند هذا الحد وهو تكذيب السفارة ـ واصدار

السفارات تكذيبا هو عرف متبع فى جميع السفارات حين يفتضح تدبير دبره بلد ضد بلد آخر ، تقوم سفارة البلد المتهم باصدار تكذيب ··· ومبلغ علمنا أن صاحب التوقيع لم يكذب الوثيقة ولم يطعن بالتزوير فى توقيعه·ولو كان قد فعل لوصل نبأه الى هيئة المحكمة ·· على أن شيئا من ذلك لم يصل اليها حتى انتهت من نظر القضية ـ كما اننا لم نر ولم نسمع أن الموقع تقدم الى اية جهة قضائية بمثل هذا الطعن ·

وانما الذى يعنينا هو أن ندرس الظروف والقرائن التى تحيط بهذا الاتهام ، وتتصل به من قريب أو من بعيد ، حتى يستطيع القارىء أن يركن فى هذه القضية الخطيرة الى قرار تطمئن اليه نفسه · وهأنذا أضع بين يدى القارىء بعض هذه الظروف والقرائن :

القرينة الاولى ـ ذكرنا فى الجزء الاول من هذا الكتاب ، وفى الفصل الاخير منه ، كيف أن اليهود كانوا يستعدون علنا حلفاءهم الاوربيين والامريكيين على الاخوان المسلمين ، مما كانت تسيل به أنهار الصحف فى أوربا وأمريكا فى ذلك الوقت · وأوردنا جزءا من مقال كتبته فتاه صهيونية تدعى « روث كاريف » ونشرته جريدة الصنداى ميرور فى مطلع عام ١٩٤٨· وقد يحسن بنا أن نعيد نقل بعض سطور منه الان حيث قالت بعد هجوم عنيف على مفتى فلسطين وعلى المرشد العام للاخوان المسلمين : « واذا كان المدافعون عن فلسطين ـ أى اليهود ـ يطالبون الان مجلس الامن بارسال قوة دولية لتنفيذ مشروع التقسيم الذى أقرته هيئة الامم المتحدة ، فانهم لا يطالبون بذلك لان الدولة اليهودية فى حاجة الى الدفاع عن نفسها ،

ولكنهم يريدون ارسال هذه القوة الدولية الى فلسطين لتواجه رجال الاخوان المسلمين وجها لوجه ، وبذلك يدرك العالم كله الخطر الحقيقى الذى تمثله هذه الحركة ··· واذا لم يدرك العالم هذه الحقيقة فى وقت قريب فان اوربا ستشهد ما شهدته فى العقد الماضى من القرن الحالى اذ واجهتها حركة فاشية نازية ، فقد تواجهها فى العقد الحالى امبراطورية اسلامية فاشية تمتد من شمال أفريقيا الى الباكستان ومن تركيا الى المحيط الهندى »اهـ ·

واذا عرف أن اليهود هم طليعة جيوش الحلفاء وعيونهم فى الشرق الاوسط ، فان ما يكتبونه فى هذا الشأن لا يكون من قبيل الاستجداء وطلب المعونة ، وانما بمثابة اعطاء مقدمة الجيش اشارة البدء للجيش كله ليقوم بالهجوم ·

والا فكيف نعلل أن يكون استعداء اليهود الغرب ضد الاخوان بهذا الاسلوب الذى ينم عن الفزع والهلع منذ مطلع عام ١٩٤٨ حيث لم يكن مجهود الاخوان يتعدى مجرد تدريب بعض المنظمات العسكرية للمجاهدين الفلسطينيين .. فلما انتصف ذلك العام كانت قوات الاخوان قد دخلت فلسطين وأذهلت العالم كله بشجاعة منقطعة النظير ، ودخلت الجيوش العربية ، فكانت تلجأ الى قوات الاخوان فى أحرج المواقف .. ثم لا ينتهى العام نفسه الا بصدور أمر حل الاخوان المسلمين وتطويق قواتهم فى فلسطين ونقلها الى المعتقلات فى مصر .

وهل كان من الممكن أن تفرض الاحكام العرفية لو أن الجيوش العربية لم تدخل فلسطين ؟ .. واذا علم أن هذه الجيوش قد دخلت فلسطين فجأة ودون أدنى استعداد - وقد أثبتت التحقيقات ذلك فيما بعد - فما تعليل دخولها وهى فى هذه الحالة الا أن يكون هناك ايحاء خارجى بذلك ليكون دخولها مجرد تبرير لاجراءات معدة تبدأ باعلان الاحكام العرفية وتنتهى بحل الاخوان وأبادتهم .

والدليل على ذلك أن أصحاب الامر - دول الغرب - حين رأوا جيش مصر - الذى كان مفروضا أن يهزم من أول معركة - بتعاونه مع قوات الاخوان قد حقق انتصارات على اليهود ، عملوا على اتاحة فرصة لتزويد اليهود بعتاد كثيف ، فأوعزوا بطلب الهدنة .. وسرعان ما وافق عليها النقراشى رغم تحذيرات الخبراء وابتهال الاخوان له أن لا يوافق عليها ...

ثم وجد أصحاب الامر أن هذه الهدنة لم تكن كافية لقلب ميزان المعركة فأوعزوا بهدنة ثانية لم يتوان النقراشى عن قبولها ضاربا بالتحذيرات والابتهال عرض الحائط ، مما يدل على أنه كان ينفذ خطة متفقا عليها لامع المصريين - فقد كانوا جميعا ضد فكرة الهدنتين - بل مع آخرين !!!

القرينة الثانية - على أن ائتمار حكام مصر بأمر الانجليز لم يكن شيئا غريبا ، فلقد أشرنا الى طرف من ذلك عند الكلام على ترشيح المرشد العام لمجلس النواب فى عهدى النحاس وأحمد ماهر . فقد صرح النحاس للمرشد العام بما ذكرنا نصه من قبل ، كما أن احمد ماهر أطلع « على البرير » على تبليغ السفارة البريطانية للحكومة المصرية بوجوب منع المرشد العام وعلى البرير من الترشيح .

كما ان المتهم باغتيال احمد ماهر أثبت أمام المحكمة أن اعلان أحمد ماهر الحرب ضد المحور كان بناء على تدخل الانجليز ، وأن أحمد ماهر

والنقراشى كانا عند السفير البريطانى فى يوم الحادث ، وهو اليوم الذى كان مزمعا اعلان الحرب فيه • وقد طلب المتهم الاستشهاد بالنقراشى على ذلك •

القرينة الثالثة ـ فى أثناء نظر قضية قنابل ٦ مايو ـ وهى قضية سياسية ليست من قضايا الاخوان ـ أمام محكمة الجنايات بالقاهرة دائرة حسن فهمى بسيونى بك وفى جلسة ٩ـ١١ـ١٩٤٨ نودى على صالح حرب باشا (رئيس جمعية الشبان المسلمين فى ذلك الوقت) باعتباره شاهدا •• وردا على سؤال من المحامى اسطفان باسيلى بك عما دار بينه وبين المتهم الاستاذ عبد السلام وفا باعتباره صحفيا فقال : اننى أعرف الاستاذ وفا لانه انضم الى جمعية الشبان المسلمين فى سنة ١٩٤١ ثم انقطع عنها بعد ابعادى الى أسوان • ثم قال : اذا كان المقصود ما دار بينى وبين دولة النقراشى باشا بشأن رياسة جمعية الشبان المسلمين فاننى أردت أن أقول له : ان الانجليز لم يحملوا النقراشى باشا وحده على طلب تنحيتى عن رياسة جمعية الشبان المسلمين بل ان هذا الطلب طلب أيضا من أحمد ماهر باشا ومن حكومة الوفد • وهذه المسألة تتصل بحادث ٤ فبراير ١٩٤٢ •

ولما رأت المحكمة عدم الخوض فى المسائل السياسية طلب المحامى أن يوضح صالح باشا الحديث الذى دار بينه وبين الاستاذ وفا ـ وقد نشر فى جريدة البلاغ ـ عن تصرفات النقراشى باشا حول رياسة صالح باشا لجمعية الشبان المسلمين فقال :

« اننى أذكر هذا الحديث ، وقد اطلعت عليه ، ولاحظت أنه يشمل أشياء لم أقلها • وان الذى حدث فعلا هو أننى كنت فى أسوان ، واتصل بى دولة النقراشى باشا بالتليفون ، وطلب عند حضورى الى القاهرة أن أقابله • فلما حضرت اتصلت به تليفونيا واتفقنا على موعد للمقابلة ـ وكان دولة النقراشى باشا فى ذلك الوقت رئيس الوزارة ووزير الداخلية ـ فلما ذهبت للقائه فى الموعد أخرج لى خطابا بالانجليزية من اللورد كليرن السفير البريطانى يقول فيه السفير انه طلب من الحكومات المتعاقبة أن تحمل صالح حرب باشا على الاستقالة من رياسة جمعية الشبان المسلمين ، ولم ينم شىء من ذلك ، وظل حسن رفعت باشا وكيل الداخلية يكتب له (أى للسفير) أن صالح حرب باشا قد انقطعت صلته بالجمعية ولا شأن له بادارتها • ويقول السفير : ان الذى ترامى الينا أنه لا يزال وثيق الصلة بالجمعية ولا يزال يديرها سواء كان قريبا منها أو بعيدا عنها •

وأضاف السفير فى خطابه انه هو أى السفير والقائد العام للجيوش

البريطانية فى مصر والقائد العام للطيران فى الشرق الاوسط يطلبون من النقراشى باشا أن يساعد على حمله على الاستقالة من الجمعية .

وقال الشاهد : بعد أن اطلعت على الخطاب سألنى دولة النقراشى باشا عن رأيى . فقلت له : « اننى أعجب من أن تتدخل السفارة البريطانية فى شئوننا الداخلية حتى فى رياسة جمعية كجمعية الشبان المسلمين » فقال لى دولة النقراشى باشا : ان الحالة لا تزال حالة حرب وان كانت الحرب قد انتهت . فقلت له : اننى لن أستقيل . فقال دولة النقراشى باشا: انك ستسبب لنا مشاكل . فقلت له : أرجو من دولة الباشا أن يكون على الحياد وأن يترك الامر بينى وبين الانجليز لان بيننا خصومة ترجع الى عام ١٩١٥

يضع اصبعه

فقال دولة النقراشى باشا : أرجو أن لا يكون هذا آخر ما عندك . وأن تعيد النظر فى الامر ، والوقت فسيح أمامك ، فقلت له : ان هذا هو آخر ما عندى لان هذا الطلب طلب منى قبل اليوم ، وأنا لن أستقيل ولا توجد قوة فى الارض تحملنى على الاستقالة .... **وهنا وضع النقراشى باشا اصبعه على كلمة « قائد قوة الطيران فى الشرق الاوسط » التى وردت فى الخطاب وزذد لقبه** . فقلت له : ان قوة بريطانيا كلها لا تستطيع حملى على الاستقالة ، وان الذى يحملنى على الاستقالة هو شىء واحد ، هو أن ترغب جمعية الشبان المسلمين نفسها فى ذلك .

ثم سأل المحامى الشاهد : هل كذب دولة النقراشى باشا الحديث الذى نشر فى جريدة البلاغ حول هذه الواقعة ؟ فرد الشاهد : لا أذكر ، ا هـ .

وقد أوردنا هذه الشهادة ليعلم القارىء أن حكام مصر عامة وأن السعديين منهم بوجه خاص ، وأن النقراشى باشا بوجه أخص ، كانوا يستوحون تصرفاتهم من وحى المستعمر ، ويتلمسون رضاه فى كل عمل يعملونه ، ويلتزمون أمره فى كل ما يأمرهم به حتى فى أتفه الامور .

فرياسة جمعية الشبان المسلمين ، وهى جمعية بعيدة كل البعد عن السياسة ، ويكاد يقتصر عملها على النواحى الرياضية والثقافية ، تصر السفارة البريطانية والقائد العام للقوات البريطانية فى الشرق الاوسط والقائد العام لقوة الطيران البريطانى بالشرق الاوسط على تنحية فرد عن رياستها ، وتلح فى اصرارها بعد أن حاول وكيل وزارة الداخلية ايهامها بأن هذا الفرد قد قطع صلته بها .. دليلا على أن للسفارة عيونا ترصد ما يجرى فى مصر وتتتبعه ... فما بالك بهيئة الاخوان المسلمين التى اقضت مضاجع

بريطانيا ، وهددت وجودها فى مصر ، وألبت الشعب ضدها ، وكشفت له عن سوآتها وجرائمها ، وكادت تفسد المخطط البريطانى الامريكى فى فلسطين لولا تواطؤ الحكومات العربية ، وأيقظت الوعى الوطنى الاسلامى فى أنحاء البلاد العربية حتى أصبح عملاء الاستعمار فى كل مكان فى حرج من أمرهم ؟! ... هل تصبر حكومة بريطانيا هذه على هذا الخطر الداهم لمصالحها دون أن تستغل ولاء حاكم مصر لها فى القضاء على ألد أعدائها وأقوى خصومها ؟ وهى لم تطق الصبر على وجود فرد ما فى رياسة جمعية الشبان المسلمين ...

القرينة الرابعة - وفى ختام مانسوق من ظروف وقرائن ننقل كلمة قصيرة وردت فى سياق مرافعة الاستاذ فتحى رضوان أمام محكمة الجنايات فى احدى جلسات قضية السيارة الجيب ، وكان ذلك فى ٢٠-٢-١٩٥١ . ولهذه الكلمة أو الواقعة من الدلالات ما نترك للقارىء تصوره لحقيقة حكام مصر فى ذلك العهد ، ولحقيقة النقراشى باشا بالذات :

أشار الاستاذ فتحى رضوان الى أسباب دخول الجيش المصرى فى فلسطين فى ١٥ مايو بالذات فقال : انه أشيع فى ذلك الوقت أن « شرق الاردن » (المملكة الاردنية الآن) عازمة على دخول الحرب ولو منفردة اذا كانت مصر والبلاد العربية غير مستعدة ... ومن الغريب أن حافظ رمضان باشا سأل النقراشى باشا تليفونيا عما اذا كانت مصر مستعدة لدخول الحرب ، **فطلب اليه أن يتصل به عن طريق تليفون آخر لان تليفونه مراقب من الانجليز .**

وقال الاستاذ فتحى رضوان : ان النقراشى باشا لم يكن راغبا فى دخول الحرب ، وانما ضغط عليه الانجليز الذين أرادوا أن يؤدبونا لاننا رفضنا شروط المعاهدة التى أرادوا املاءها علينا ، مما أشعرهم أن هناك وعيا قوميا فى البلاد العربية لابد أن يموت ويقضى عليه ، وأن يموت حسن البنا زعيم أكبر هيئة اسلامية - وأن يموت النقراشى - وينكل بالاحرار ، وتدبر القضايا لينشغل الرأى العام بها عن مطالبه القومية .

الفصـــل الثـالث

تفنيد أسباب الحل

لم يكن ممكنا فى ظل الحرب المعلنة من الحكومة المصرية على الاخوان المسلمين ، أن يجد الاخوان فرصة للرد على اتهامات الحكومة ، التى سخرت لاذاعتها – باسم الاحكام العرفية – جميع وسائل النشر والاعلام ، وحرمت على الاخوان أن يسمع لهم صـوت أو تنشر لهم كلمة ٠٠٠ وكيـف لا وقـد أصـدر الحـاكم المفتون بغـرور السلطة حـكما باعـدامهم ٠٠ واذن فهم غير موجودين بحكم أمر الحـل ٠٠

ولكن المرشـد العام لم يكن الرجـل الذى يستسلم مهما أحاط به عدوه من كل جانب ، ومهما جردوه من كل سلاح يمكن الدفاع به ٠٠ انهم جردوه فعلا من كل سلاح ، لكن سلاحا واحدا لم يستطيعوا أن يجردوه منه ، ذلك هو ايمانه العميق بدعوته ، وثقته الكاملة فى طهرها ونقائها ٠٠

ومع أنه كان يعلم أن دفاعه عن دعـوته بالحجـة والبرهان سيحـول هؤلاء الحكام بينه وبين أن يصل الى الشعب ٠٠ الشعب المضلل الذى هـو فى أمس الحاجة الى من ينير له الطريق فى هذه القضية المصيرية ، وينتشله من وهدة الذهول والحيرة التى تردى فيها أمام ما فوجىء به من سيل جارف من اتهامات خطيرة قذفت بها هذه الحكومة فجأة فى وجه دعوة كانت حتى آخر لحظة مناط أمله ومعقد رجائه ٠

ثم انه – أى الشعب – لم تعد تقع عينه بعد ذلك ، ولا يقرع سمعه ليلا أو نهارا الا مقالات ضافية وأحاديث مسـتفيضة كلهـا تسـبح بحمـد الحكومة وتصب اللعنات على أم رأس الاخوان ٠٠٠

كان المرشد العام يعـلم ذلك ٠ ولكن ذلك لم يقعـد بهمتـه لحظة عن انتهاج كل سبيل يتاح له أن يكتب بقلمه أو ينطق بلسانه ما يستطيعه من دفاع عن دعوته بالحجة والبرهان ، تاركا ذلك للزمن الذى يعتبره جزءا مـن العلاج ٠٠٠ فاذا كان هذا الشعب قد ابتلى بهؤلاء الحكام ، فكانوا مرضه الذى غيبه عن رشده ، فان الزمن كفيل أن يكشف عنه هذا البلاء فيصحـو ويستعيد قدرته على النظر والادراك « وتلك الايام نداولها بين الناس » ٠

ولقد فعل الزمان فعله ، لم يمض وقت طويل حتى أتيح لهـذا الشعب

وللعالم كله أن يقرأ دفاع هذا الرجل المؤمن العظيم عن دعوته ، وذوده بأقوى سلاح من الحجة والبرهان عن حياضها ·· واستبان للجميع ـ فى ضوء ما سلط فى ثنايا هذا الدفاع من أشعة كاشفة ـ حقيقة الدوافع التى دفعت هؤلاء الحكام الى ارتكاب جريمة اصدار هذا الامر ·

واليك الخطوات التى اتخذها الاستاذ المرشد العام فى هذا السبيل :

أولا ـ محاجة باللسان :

لما بلغه أن الحكومة مصممة على اصدار الامر العسكرى بحل الاخوان ، تناسى ما يعلمه من أن هذه الحكومة صنيعة المستعمر ، وأنها حكومة فاشلة حاقدة ، وطلب مقابلة النقراشى باشا · فلما حيل بينه وبين ذلك ذهب اليهم فى عقر دارهم بوزارة الداخلية فى الليلة التى يضعون فيها اللمسات الاخيرة لنصوص الامر العسكرى وجلس مع كبيرهم عبد الرحمن عمار · وقارعه الحجة بالحجة ، فأثبت له زيف ما بنوا عليه هذا الامر ، وشرح له ولمن معه ما سوف يحيق بالامة من أضرار بالغة من جراء هذا الامر اذا هم أقدموا عليه ، وناشدهم أن يجنبوا الامة هذه الاخطار بالعدول عن اصداره ·· وقد أبدى لهم استعداده أن يتعاون معهم بالوسائل المشروعة على ما يعود على هذه الامة بالخير ··· أسلوب رجل أكبر من الاحداث ، وأقوى من أن تجرفه العواطف ·· فهو يكره القوم ، ولكن كرهه اياهم لا يمنعه من أن يبذل جهده فى اقالتهم من عثرة ستودى بالبلاد وتحطم مستقبلها ·

انه يعلم أنهم يعدون قرارا بتجريمه ، ولكنه ـ لثقته فى نفسه وليقينه من براءة ساحته ـ يذهب اليهم ويمحضهم النصح ، ويعاملهم معاملة الوالد الذى استبد بأبنائه العقوق فجلسوا يدبرون أمرا يعلم هو أن فيه هلاكهم وهلاك أهليهم ، فأخذ يبصرهم بالعواقب ، ويمد لهم يده للتعاون معهم على انقاذهم وانقاذ أهليهم ··· ولكن العقوق كان قد بلغ بهم مبلغا لا يدع للنصح الى نفوسهم سبيلا ، وأصروا على مؤامرتهم ، وأخرجوها الى حيز التنفيذ ···

ثانيا ـ تفنيد مسجل بالكتابة :

لما لم تجد المحاجة باللسان ، وأصدروا الامر العسكرى والمذكرة التفسيرية التى بنى عليها هذا الامر ، لجأ الاستاذ المرشد الى اعداد مذكرة فند فيها كل ما نسبته المذكرة التفسيرية الى الاخوان من اتهامات ، وأثبت زيفها ، ووضح فيها دعوة الاخوان المسلمين ومواقفها من الاحداث ، وجهادها

الكريم فى مختلف الميادين ، وأشار بأصابع الاتهام الى جهات أجنبية معينة صدر عذا الامر لحسابها ٠٠ وتعد هذه المذكرة مرجعا شاملا ورائعا وتاريخيا يحرص كل منصف على الاطلاع عليه ـ واليـك نص هـذه المذكرة التى لم تنشر الا بعد عام من كتابتها فقد نشرت فى ١٢ـ١٢ـ١٩٤٩ تحت عنوان :

« رد حسن البنا على مذكرة عمار بك بحل الاخوان »

« عمار بك يقر بأن قرار الحل جاء نتيجة للضغط الاجنبى على النقراشى باشا »

بسم الله الرحمن الرحيم ـ الحمد لله الذى يقول الحق وهـو يهـدى السبيل ٠ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ٠

وبعـــد :

فقد تقدم سعادة وكيل الداخلية عبد الرحمن عمار بك بمذكرة ضافية بتاريخ ٢٨ـ١٢ـ١٩٤٨ عن تاريخ الاخوان المسلمين وغايتهم ووسيلتهم ٠ وطلب فى نهايتها اتخاذ التدابير الحاسمة لوقف نشاط هـذه الجمـاعة التى تروع أمن البلاد فى وقت هى أحوج ما تكون فيه الى هدوء كامل وأمن شامل ضمانا لسلامة أهلها فى الداخل وجيوشها فى الخارج ٠

الامـــر العســـكرى

وقـد اتخذ دولة الحاكم العسكرى من هذه المذكرة سببا لاصدار الامر العسكرى بحل (جمعية الاخـوان المسلمين) ومصـادرة أنديتهم وأمـوالهم وأملاكهم ونشاطهم فى جميع أنحاء البلاد ، واعتقـال رؤسـائهم وكثـير من أعضاء هيئتهم بالجملة فى كل مـكان ، واعـلان حـرب عنيفة لم توجـه الى الصهيونيين الذين شرعت الاحكام العسكرية من أجلهم ، وأذن بها من أجل اتقاء شرهم ٠٠ واقرارا للحق فى نصابه أردت أن أناقش ما جاء فى هذه المذكرة ليرى الرأى العام المصرى والعربى والاسلامى تفاهة هذه الاسباب ، ومـدى العدوان الذى وقـع على أكبر مؤسسة اسـلامية شعبية نافعـة فى مصر أدت للوطن وللدين أجل الخدمات طوال عشرين عاما كاملة ٠

بطلان دعوى الاجـرام والارهاب

يقول وكيل الداخلية فى مذكرته « ولقد تجاوزت الجماعـة الاغـراض السياسية المشروعة الى أغراض يحرمها الدستور وقوانين البلاد ، فهدفت الى تغيير النظم الاساسية للهيئة الاجتماعية بالقوة والارهاب ٠ ولقد أمعنت فى نشاطها فاتخذت الاجرام وسيلة لتنفيذ مراميها » وأخذ سعادته بعد ذلك يستشهد ببعض الحوادث ويورد « بعض أمثلة قليلة لهذا النشاط الاجرامى

كما سجلته التحقيقات الرسمية ، وذكر ثلاث عشرة حادثة كلها مردودة ، ولا توصل الى ما يريد سعادته من ادانة هيئة الاخوان المسلمين ووصف نشاطهم القانونى المثمر بأنه نشاط اجرامى ·

وهذا القول منقوض من أساسه ، فلم يكن الاجرام يوما من الايام من وسائل هيئة الاخوان المسلمين فان وسائلهم ظاهرة معروفة ، فهذه المحاضرات والدروس ، والرسائل والصحف ، والاندية والدور ، والمساجد والمنشآت ، ناطقة بأن وسائل هيئة الاخوان المسلمين لم تتعارض مع القانون فى يوم من الايام ·

حقيقة الحوادث

ويكفى للرد على سعادة الوكيل أن القانون حمى هذا النشاط عشرين سنة ولم يستطع أحد الاعتداء عليه الا فى غيبة القانون وفى ظل الحكم العرفى الاستثنائى الفردى البحت - والذى ينص الدستور فى المادة (١٥٥) بأنه اذا عطل الحريات فان ذلك لا يكون الا تعطيلا مؤقتا ينتهى هذا التعطيل بانتهاء الاحكام العرفية ··· أما ما عدد سعادته من الحوادث فها هى ذى حقيقتها فى وضعها الصحيح :

الجناية رقم ٨٨٣ :

أولا - الجناية العسكرية العليا رقم ٨٨٣ لسنة ١٩٤٢ قسم الجمرك - وقد كان موضوع الاتهام فيها الدعاية للمحور · وشاء ذوو الاغراض أن يقحموا فيها الاخوان المسلمين · وأدعى أحد المتهمين أنه عرض على الاستاذ البنا شخصيا أنواعا من السلاح والعتاد الالمانى ، وأن الاستاذ البنا سر بذلك ، ورحب بالحصول على هذه الاسلحة ، وأن الوسيط فى ذلك أخوان من اخوان طنطا ، وقد قبض عليهما فى السجن ثمانية أشهر ·· وماذا كانت النتيجة بعد ذلك ؟

كانت النتيجة ان كذب هذا المدعى نفسه حين ضيق عليه المحقق الخناق وهدده بالمواجهة - وحكم ببراءة الاخوين براءة نقية واضحة كاملة - فهل تصلح مثل هذه النتيجة تكأة للاتهام أمام سعادة وكيل الداخلية وهو من رجال القانون ؟

ويتصل بهذه القضية ما ذكره سعادة الوكيل من موافقة الاستاذ حسن البنا على تقرير لاحد اخوان طنطا وكتابته بخطه أنه مؤمن بما ورد فيه ··· وعرض الموضوع على هذه الصورة فيه انتقاص للحقيقة · فلقد كان التقرير

مطولا ، وكانت اشارتى عليه بالموافقة على بعضه وتعديل بعضه • ولو كان
فى هذا التقرير ما يؤاخذ عليه لحوكم صاحبه ولما صدر قرار المحكمة ببراءته
فقد كان أحد المتهمين المقبوض عليهما فى الجناية السابقة •

الجناية رقم ٦٧٩ :

ثانيا – الجناية رقم ٦٧٩ لسنة ١٩٤٦ قسم ثان بور سعيد – ويعلم الخاص والعام أن الاخوان المسلمين كانوا معتدى عليهم فيها ولم يكونوا معتدين • فقد أخذوا على غرة ، وحوصرت دارهم ، وحرق ناديهم الرياضى ولم تثبت ادانة أحد منهم فى شىء • ولم يكن القتيل الذى قتل خصما من خصوم الاخوان ، ولكنه كان صبيا فى الطريق – جعله الله لاهله ذخرا – ولكن سعادة الوكيل يأبى الا أن يجعله خصما من خصوم الاخوان ليوهم الناس أنهم يعتدون على خصومهم بالسلاح •

فى ١٠ ديسمبر :

ثالثا – بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٩٤٦ ضبط بعض أفراد هذه الهيئة بمدينة الاسماعيلية يقومون بتجارب لصنع القنابل والمفرقعات ••• وهى واقعة لا أصل لها بتاتا فيما أذكر • وانى لاسأل سعادة الوكيل من هم هؤلاء الاشخاص ؟ وهل حوكموا ؟ وبماذا حكم عليهم ؟ لان الاخوان بالاسماعيلية معروفون كفلق الصبح ، ولا أذكر أن أحدا منهم وجه اليه مثل هذا الاتهام فى يوم من الايام •

الجناية رقم ٧٦٧ :

رابعا – والشخص الذى أدين فى قضية الجناية رقم ٧٦٧ لسنة ١٩٤٦ قسم عابدين بمناسبة حوادث ٢٤ ديسمبر ١٩٤٦ لم يثبت أنه أمر بهذا من قبل الاخوان أو اشترك معه فيه أحد منهم • وقد كانت هذه الحوادث شائعة فى ذلك الوقت بين الشباب بمناسبة الفورة الوطنية التى لازمت المفاوضات السابقة • ولقد حدث بالاسكندرية أكثر مما حدث بالقاهرة ، وضبط من الشباب عدد أكبر وصدرت ضدهم أحكام مناسبة ، ولم يقل أحد انهم من الاخوان المسلمين فتحمل الهيئة تبعة هذا التصرف لا حق فيه ولا مبرر له •

الجوالة ومأمور الخليفة :

خامسا – حادث اشتباك الجوالة بمأمور قسم الخليفة يوم ٢٩ يونيه ١٩٤٧ حادث عادى ولم يكن فيه اعتداء بالمعنى الذى صوره سعادة الوكيل ،

فقد اعترض المامور ورجاله سير طابور نظامى من جوالة الاخوان المسلمين ، وأراد منعهم بالقوة واشتبك مع قائدهم • وأشيع بينهم ان المـامور مـزق المصحف الذى كان يحمله احدهم • فثارت نفوسهم ، ثم انتهى الامر بالتفاهم كما تنتهى عادة مثل هذه الاحتكاكات بين البوليس والجمهور فى أى اجتماع من الاجتماعات يتصرف فيه رجل البوليس بغير الكياسة واللباقة المناسبة للموقف •

الجناية رقم ٤٧٢٦ :

سادسا ـ الجناية رقم ٤٧٢٦ لسنة ١٩٤٧ • ثبت ان الذى اتهم فيها غير مسئول عن عمله ، وسقط الاتهام ضده ، وما زال فى المستشفى الى الآن• فما وجه الاستشهاد بها فى مذكرة رسمية ؟ وهل تكون هيئة الاخوان المسلمين مسئولة عن عمل شخص يتبين انه هو نفسه غير مسئول عن عمله ؟!

فى ١٩ ينـاير :

سابعا ـ هؤلاء الخمسة عشر الذين ضبطوا فى ٩ يناير ١٩٤٨ بعضهم من الاخوان ومعظمهم لا صلة له بالاخوان أصلا • ولقـد برروا عملهم بأنهم يستعدون للتطوع لانقاذ فلسطين حينما أبطأت الحكومة فى اعداد المتطوعين وحشد المجاهدين الشعبيين • وقد قبلت الحكومة منهم هذا التبرير وأفرجت عنهم النيابة فى الحـال • فما وجه ادانة الاخـوان فى عمـل هـؤلاء الافـراد خصوصا وقد لوحظ انه نص فى قرار النيابة بأن الحفظ لنبل المقصد وشرف الغـاية •

الجناية رقم ١٤٠٧ :

ثامنا ـ والجناية رقم ١٤٠٧ لسنة ١٩٤٨ كوم النور كان الاشتباك فى حادثتها لاسباب عائلية بحتة لا صـلة لهـا بالرأى • وان كان كل فـريق ينتمى الى هيئة من الهيئات • وكثيرا ما يقع مثل هذا الاشتباك فى القـرى بين من لا صلة لهم بحزب أو هيئة •

الشيخ محمـد فرغلى :

تاسعا ـ وما نسب الى الاستاذ الشيخ محمد فرغلى فى المذكرة ما زال رهن التحقيق • ومن الانصاف انتظار ما يسفر عنه • ولكن المعروف رسميا وعند الجميع ان الشيخ محمد فرغلى هو رئيس معسكر النصيرات ـ لا معسكر البريج ـ بجوار غزة ، وانه تطوع للجهاد من فبراير ١٩٤٨ الا الآن ، ولازم متطوعى الاخوان فى هذه المنطقة طوال هذه الفترة وأسندت اليه قيادتهم ،

وأقرته قيادة الجيش المصرى على ذلك • كما أنه معروف أن فضيلة الشيخ محمد فرغلى كان من أنصار المجاهد الكريم الشهيد عبد القادر بك الحسينى وكان ممن يسهلون له مهمة الحصول على ما يريد • فالاتهام قبل التحقيق ظلم صارخ • وقد سألت النيابة الشيخ محمد فرغلى ثم أفرجت عنه ، وان كان الامر العسكرى قد صدر بعد ذلك باعتقاله •

حوادث كفر بدواى :

عاشرا وحادى عشر – أما مايتصل بحوادث كفر بدواى ومنية البرامونى فالثابت والمعروف أن أساس النزاع وأصل الاتهام فيها أن عمدة كل منهما يريد أن لا تقوم فى القرية أية جماعة يكون لها مظهر وكيان • وكلا العمدتين صهر للآخر ، وخطتهما فى ذلك واحدة • وقد كان الاخوان هدفا لاضطهادهما اضطهادا قاسيا لولا ما فى أنفسهم من ايمان لما ثبتوا له ساعة نهار •

تفتيش ميت موسى :

ثانى عشر – وحادثة تفتيش ميت موسى مأساة تستحق الدراسة والرثاء ، فقد كان الاخوان عامل تهدئة لنفوس هؤلاء المظلومين المحرومين الذين يستغيثون ولا مغيث • فاتهموا بالاثارة والتحريض وقبض على أربعة منهم من خيرة الشباب ، واستمروا فى الحبس أربعين يوما تحت التحقيق دون مبرر مكبلين بالحديد بين طنطا وكفر الشيخ • وماذا كانت النتيجة بعد ذلك ؟ •• أفرجت عنهم النيابة بلا ضمان – فهل هذه احدى الحجج التى يريد سعادة وكيل الداخلية ادانة الاخوان بها ووصفهم بالاجرام ؟

خطابات التهديد :

ثالث عشر – وخطابات التهديد التى ذكرها سعادة الوكيل تحدث فيها سعادته مع الاستاذ صالح عشماوى فرد عليه مدير الجريدة رسميا بخطاب مسجل نفى فيه بشدة هذا الاتهام ، ورجاه أن يقف موقفا حازما من هذه الشركات التى تتهم المصريين بالباطل • وانا لنرجو أن يتفضل سعادته ببيان مقدار هذه الاموال التى امتصها الاخوان بالفعل • وسعادته يعلم تمام العلم أن الاخوان ليسوا هم الذين يحسنون امتصاص أموال الشركات أو غير الشركات •

اثارة الشعب

وقد انتقل سعادته بعد ذلك الى اتهام الهيئة باثارة الشعب فى معاهد التعليم • وهى تهمة باطلة ، يشهدببطلانها الاساتذة أولا ورجال الامن بعد بعد ذلك لو خلوا الى أنفسهم واستنطقوا ضمائرهم غير متاثرين باتجاة

خاص · ولقد كان كثير من الناس يعيبون على طلبة الاخوان الاغراق فى الهدوء والمبالغة فى الانصراف الى الدرس ، فيجيبون بأن واجبهم الاول أن يكونوا طلابا · ولقد تخرج فى ظل الدعوة مئات الطلاب من مختلف المعاهد فكانوا من أوائل الناجحين فى شهاداتهم ، وكانوا من أفاضل الموظفين فى أعمالهم ·

الحوادث لا تنتج ما أريد بها

والحوادث التى ذكرها سعادة الوكيل لا تنتج ابدا ما يريد، ولا تسأل عنها هيئة الاخوان المسلمين · فقد كان ولا يزال معلوما أن عنصرا جديدا طرأ على المدارس والمعاهد بعد الحرب الماضية كان له أثر عميق فى توسيع هوة الخلاف وتعميقها بين الطلاب ، واستغلال التعصب للحزبية السياسية أسوأ استغلال ، ودفع المواقف الى العنف والاحتكاك · والله يشهد والمتصفون ان طلاب هيئة الاخوان المسلمين كانوا أكبر ملطف لحدة هذه الظاهرة وأول الناهضين والواقفين فى وجهها - وفى كل هذه الحوادث كان أعضاء هيئة الاخوان المسلمين فى موقف المدافع دائما ، وما زالت جميعا تحت التحقيق ·· ومن الثابت أن الطالب الذى استشهد فى مدرسة شبين الكوم هو احد طلاب الاخوان المسلمين · وقد أغفلت المذكرة عمدا هذه النقطة لتظهر الاخوان بمظهر المعتدى مع أنهم هم المعتدى عليهم ·

وعرضت بعد ذلك الى حادث الخازندار بك · وكل ذنب الاخوان فيه ان أحد المتهمين شاع أنه سكرتير خاص للمرشد العام ، مع أن هذه الصلة لم تثبت فى التحقيق ، وان أصرت المذكرة على وصفها بالثبوت مع أنه على فرض ثبوتها لا يمكن ان تتخذ سببا لادانة هيئة الاخوان المسلمين ·

تبعة حوادث ٤ ، ٦ ديسمبر

وقد حمل سعادة الوكيل فى مذكرته الاخوان المسلمين تبعة حوادث ٤ ديسمبر ١٩٤٨ فى الجامعة وكلية الطب وحوادث ٦ ديسمبر ١٩٤٨ بالمدرسة الخديوية · مع أن المعروف أن هذه الحوادث بدأت بمظاهرة سلمية بمناسبة موقف حاكم السودان العام من مصر والمصريين وبعثة المحامين ، ثم تطورت بعد الاحتكاك برجال البوليس الى تلك النتائج المؤسفة حقا ·· ولم يكن دور الاخوان فيها أظهر من دور غيرهم من الطلاب · والمقبوض عليهم الآن معظمهم من غير الاخوان ، ولم يعلن بعد قرار الاتهام ، ولم يثبت أن لهيئة الاخوان يدا فى التحريض على هذا الذى حدث - فتحميل الاخوان هذه التبعة سبق لكلمة القضاء ·

حادث سـيارة الجيب

أما حادث سيارة الجيب فقد ضبط فيه عدد كبير من مختلف الهيئات ٠ وما زال التحقيق يدور فى تكتم شديد ٠ ويقول وكيل الداخلية « ان ملابسات هذا الحادث كشفت عن أن جماعة من الاخوان المسلمين يكونون عصابة اجرامية ٠٠٠ الخ » ومقتضى هذا القول لو أن الامور تسير فى حدودها الطبيعية أن تنتظر الحكومة نتيجة التحقيق فاذا ثبت على هؤلاء المقبوض عليهم أخذوا بجرمهم ٠ ومن غير المعقول أن تؤخذ الهيئة بتصرفات بعض أعضائها ٠٠٠ وتقول المذكرة نفسها انهم كونوا من أنفسهم عصابة أخرى تتنافى أغراضها ووسائلها مع أغراض الجماعة ووسائلها القانونية السليمة ٠

* * *

ومن هذه المناقشة الهادئة يتضح لكل منصف أن جميع هذه الحوادث العادية الفردية لا يمكن أن تلون دعوة الاخوان المسلمين بهذا اللون ، وقد مكثت عشرين عاما صافية نقية ٠ أو تنهض دليلا على أنهم عدلوا عن وسائلهم القانونية الى وسيلة اجرامية ٠ وبالتالى لا يمكن أن تكون بمفرداتها أو بمجموعها — وقد حشدتها المذكرة هذا الحشد المقصود — سببا فى هدم بناء اصلاحى ضخم جنت منه مصر والبلاد العربية والاسلامية أبرك الثمرات ٠ بل ان الدليل القاطع الدامغ ينادى ببراءة الاخوان من هذا الاتهام ، فهذه دورهم وشعبهم وأوراقهم وسجلاتهم ومنشآتهم قد وضعت كلها تحت يد البوليس فى جميع أنحاء المملكة المصرية فلم يعثر فى شىء منها على ورقة واحدة تصلح أن تكون دليلا أو شبه دليل على هذا الانحراف المزعوم — بل لم تجد الحكومة أمامها الا المدارس تقدمها للمعارف ، والمشافى والمستوصفات تقدمها لوزارة الصحة ، والمصانع والمعامل تقدمها لوزارة التجارة والصناعة٠٠ وكفى بهذا شرفا واشادة بجهود الاخوان الاصلاحية النافعة لهذا الوطن العزيز ٠

وبعد ٠٠٠ فمن تمام الفائدة بعد هذه المناقشة الهادئة أن نتناول بعض هذه النقاط التكميلية بشىء من البيان والتوضيح ٠

بين الدين والسياسة

اشارت مذكرة وكيل الداخلية الى ان الاخوان اتخذوا من الدين وسيلة لخوض غمار السياسة ، وأنهم أرادوا بذلك الوصول الى الحكم وقلب النظم المقررة فى البلاد — وكل من اتصل بالاخوان ودرس نظمهم يعلم تمام العلم بطلان هذا الاتهام ٠ وكل ما هناك أن الاخوان كهيئة اسلامية جامعة مزجته

الوطنية بروح الدين ، واستمدت من روح الدين أسمى معانى الوطنية • ولم تبتدع ذلك ابتداعا ، ولم تخترعه اختراعا ، وانما هى طبيعة الاسلام الحنيف الذى جاء للناس دينا ودولة • وكل مواقف الاخوان فى ميدان السياسة مواقف وطنية خالصة بريئة كل البراءة عن حب الدنيا أو الرغبة فى الوصول الى الحكم أو الغنيمة ـ تهدف الى اصلاح النظم المقررة فى البلاد حتى تتفق مع دينها وعقيدتها ونص دستورها الذى ينادى بأن دينها الرسمى هو الاسلام •

الاوراق ليست حجة

وليست الاوراق التى توجد بأيدى الافراد وفى حيازتهم حجة على هيئة عاشت تعمل وتجاهد فى حدود ظاهرة عشرين عاما كاملة • ولكن الحجة هى قوانين هذه الهيئة ولوائحها ونشراتها التى اعتمدتها جهات الاختصاص •• ومنذ صدور القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٤٥ الخاص بتنظيم جماعات البر والاعمال الخيرية حدد الاخوان نواحى نشاطهم تحديدا واضحا دقيقا ، وفصلوا بين العمل للبر والخدمة الاجتماعية وبين العمل للوطنية ونشر الدعوة الاسلامية • ووضعوا لكلتا الناحيتين نظاما دقيقا ولوائح مفصلة اعتمدتها وزارة الشئون الاجتماعية ، وفيها بيان غايتهم ووسيلتهم كاملة ـ وساروا فى حدود هذه الاوضاع يلتزمونها بكل دقة الى الآن ، وليس من هذه الوسائل الجريمة ولا الارهاب كما تريد المذكرة أن تقول •

الاخـــوان وفلســطين

ولعل الذى يسر للحكومة سبيل هذا الاتهام وسهله عليها وأوجد بين يديها بعض الشبهات ـ لا الادلة ـ عليه ، هو عمل الاخوان وجهادهم فى سبيل فلسطين ، وان كان هــذا العمل من أنصــع الصفحات وأمجـدها فى تاريــخ دعوتهم ـ فقد احتاجت فلسطين الشقيقة الى السلاح قبل التقسيم بأشهر ، ونشطت فى جمعه بعض الهيئات ، وأذنت الجهات المختصة من طرف خفى بهذا الجمع ، وشجعت الاخوان على التعاون مـع تلك الهيئات باعتبارهم أقــدر الناس على بذل هذه المعونة لانتشار شعبهم وامتداد دعوتهم الى كل مــكان فأبلى الاخوان فى ذلك أحسن البلاء وكانوا عند حسن الظن •

جهـــاد الاخـــوان

واعلن التقسيم ونشبت الثورة فى فلسطين ، واتتحم العرب واليهود معارك شعبية ، وللاخوان فى فلســطين اكثر من عشــرين شعبة فى الشمال والوسط والجنوب • وتدفق ســيل الاهلين من الفلســطينيين يريدون شراء الاسلحة من مصر ، وفتحت الحكومة المصرية لهم الباب • وعقدت الجامعة

العربية عدة اجتماعات ، وألفت لجنة لمساعدة هؤلاء الاهلين حتى يحصلوا على ما يريدون • وقبل الاخوان رسميا فى هـذه اللجنة وتطوع بعض شبابهم لهذه الغاية ، وتركوا مصالحهم وراءهم ظهريا ، وبذلوا فى ذلك غاية المجهود، وقدموا كل ما يستطيعون ، واحتملوا كثيرا من التضحيات المالية فى هذه السبيل ، وبخاصة بعد أن عدلت الحكومة عن خطتها وصادرت كثيرا من المشتريات التى اشتريت لاهل فلسطين بمعرفتهم أو عن طريق الاخوان ••• وكان جزاء هؤلاء الاخوان أخيرا السجن وسوء الحساب •• وأقرت الجامعة العربية فكرة التطوع ، فتقدم اليها الآلاف من شباب الاخوان يريدون الموت فى سبيل الله • وظلت الجامعة والحكومة مترددتين بين الاقدام والاحجام • والحماسة تشتد ، والنفوس تغلى • مما دعا المركز العام الى أن يبعث بمائة الى معسكر قطنة بسورية ، وهم كل ما استطاع أن يقنع المسئولين هناك بقبوله • ولكن ذلك لم يشف غلة الاخوان فاستأذنوا فى اقامة معسكر خاص لهم بالقرب من العريش ، يمارسون فيه التدريب استعدادا لدخول فلسطين، واذن لهم بذلك • وأقاموا معسكرا كبيرا لعدد منهم يزيد على المائتين • يمدهم فيه المركز العام بكل ما يحتاجون من أدوات وتموين وسلاح وعتاد باذن الحكومة وعلمها ، حتى تم تدريبهم ، ودخلوا فلسطين فى مارس ١٩٤٨ أى قبل دخول القوات النظامية بأكثر من شهرين • واحتلوا هناك معسكرا النصيرات جنوبى غزة •• وكان لوجودهم هناك أحسن الاثر فى رد عدوان اليهود وطمأنينة السكان •

وتحركت الحكومة وهيئة وادى النيل العليا لانقاذ فلسطين ، وأعدت معسكر هاكستيب لتدريب المتطوعين • تقدم اليه أكثر من ألف أخ ، انتخب منهم أكثر من ستمائة على دفعات • جهزتهم الحكومة ودخلوا مع القوات النظامية • ووزعوا على مختلف الجهات • وظفروا بحمد الله بتقدير كل من عرفهم أو اتصل بهم أو رأى حسن بلائهم واخلاص جهادهم ، فقد رابط الاخوان فى « صور باهر » وفى « بيت لحم » وعلى مشارف القدس » واقتحموا « رامات راحيل » فى جبهة الوسط ، واحتلوا معسكر النصيرات ومعسكر البريج ، ونسفوا مستعمرة « ديروم » ، واشتركوا فى معارك عسلوج ، وحاصروا « المسنة » وبيروت اسحق » ، وترددت نقطهم الثابتة والمتحركة فى كل مكان فى جبهة الجنوب ، واستشهد منهم قرابة المائة وجرح نحو ذلك، وأسر بعضهم •• وكانوا مثال البسالة والبطولة والعفة والشرف والنزاهة وحب الاستشهاد •••• فكان طبيعيا أن تحصل الحكومة على بعض عتاد لم ينقل ، وأن تجد فى بعض الاماكن بقايا من هذه المخلفات •• ولكن ليس معنى ذلك أبدا أن الاخوان المسلمين المؤمنين المجاهدين المحسنين قد أصبحوا

خطرا يهدد سلامة الاهلين فى الداخل وهم دعامتهم ، وسلامة الجيوش فى فى الخارج وهم زملاؤهم ٠

الدوافع الحقيقية فى موقف الحكومة

مستحيل أن يكون الدافع الحقيقى لهذه الخطوة الجريئة من الحكومة مجرد الاشتباه فى مقاصد الاخوان أو اعتبارهم مصدر تهديد للامن والسلام - وهو مالم يقم عليه دليل ولا برهان - ولكن الدافع الحقيقى فيما نظن هو انتهاز الأجانب فرصة وقوع بعض الحوادث ، مع اضطرابات السياسة الدولية ، وقلق الموقف فى فلسطين ، وتردد سياسة مصر بين الاقدام والاحجام - فشددوا الضغط على الحكومة ٠ وقد صرح بذلك عمار بك نفسه ، وأقر بأن سفراء بريطانيا وأمريكا وفرنسا قد اجتمعوا فى فايد وكتبوا لدولة النقراشى باشا فى صراحة بأنه لابد من حل الاخوان المسلمين٠٠وكان فى وسع دولته أن يزجرهم عن مثل هذا التدخل فى شأن داخلى بحت ، وأن ينظرهم حتى تظهر نتيجة التحقيقات ، وأن يتعاون مع المسئولين فى الاخوان على ازالة هذا الوهم من أنفسهم ٠٠ ولكنه بدلا من ذلك استجاب لهذه الرغبة الاجنبية ، وأصدر قرار الحل فأشمت الاعداء وأحزن المؤمنين الاتقياء ٠

وهكذا يقيم الشواهد كل يوم على أن مصر للاجانب قبل أن يكون لاهلها منها نصيب ، وأن خلاصة شعبها لا مانع من أن تقدم حرياتها قربانا لارضاء السفراء ورعايا الدول التى طالما ناصبتنا العداء ، وأنزلت بنا البلاء، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ٠

ويكون لما يشاع عن قرب الاتفاق بين الحكومة المصرية والحكومة البريطانية أصل فى هذه الخطوة أيضا ، كما قد يكون للموقف الحزبى والتأهب للانتخابات القادمة دخل كذلك ٠ ولا يعلم بالحقيقة غير الله ، ولله عاقبة الامور ٠

التعسف فى التنفيذ

ولقد كان الامر العسكرى غريبا فى نفسه وفى طريقة تنفيذه ، فلا يمكن أن يقول انسان ان حل هيئة من الهيئات يستلزم اتهام كل ما يتصل بها أو حمل اسمها بالجرم والعدوان ومصادرته فى حريته وماله وعمله ومهاجمته فى كل مكان ٠٠ ولئن جاز فى عرف الاحكام العسكرية أن تحل الهيئات فما بال الشركات التى لا صلة بينها وبينها الا مجرد الاسم مع تمام الفصل فى كل الاعمال ونواحى النشاط ٠

شركات لا صلة لها بالهيئة

ان شركة المناجم والمحاجر العربية ، وشركة الاعلانات العربية ، وشركة الاخوان للنسيج ، وشركة دار الاخوان للصحافة ، وشركة دار الاخوان للطباعة ، وشركة مدارس الاخوان بالاسكندرية ··· كلها شركات لا صلة لها بالهيئة · جمعت رءوس أموالها من أفراد بصفتهم الشخصية ·· وكيف يصح فى ذهن أحد أن تصادر أموالها لا لشىء الا أنها تحمل اسم الاخوان ·

وهذه العشرات من الاخوان من كرام الشباب ·· لماذا يعتقلون بغير جريرة ولا سبب ، وتمنع عنهم أدواتهم الضرورية ، ويلقى بكثير منهم فى سجون الاقسام مع المجرمين أمثال « صبيحة وعنتر والشنتاوى » وغيرهم من أرباب السوابق ومعتادى الاجرام ، ويتركون فريسة للبرد والجوع ولا يسمح بأن يقدم لهم الغذاء والغطاء ·

والصحف أيضا

وهذه الصحف الشخصية التى ليس لها صلة بالهيئة ، ولا تدعو لفكرتها من قريب أو بعيد ، لماذا تصادر ويصادر أصحابها وعمالها فى أعمالهم وموارد رزقهم ·

ولقد ضربت الرقابة الشديدة حول مسكن المرشد العام ، وأحيط بسياج من البوليس الملكى مزودين بموتوسيكل حتى اذا دخل داخل أو خرج خارج ادركوه فقبضوا عليه كائنا من كان ، وذهبوا به الى أحد الاقسام ، حيث يقضى ليلة أو ليلتين أو ما شاء له حضرات الضباط ، ثم يعمل له بعد ذلك تشبيه وتحر ويطلق سراحه أو يظل معتقلا الى ما شاء الله ·

اسلوب الحرب

هذا الاسلوب من الحرب والتعسف لم تسلكه الحكومة مع الصهيونيين ولا مع أشد الأعداء عداوة للوطن والحرب على أشدها ، ولم يعمد اليه الانجليز ابان الحرب الماضية · ولكن لجأت اليه الحكومة مع الاخوان المسلمين فى هذا الوقت ·

حكم هذا الحل فى فعله وآثاره

ان هذا القرار فيما نعلم باطل شكلا لانه ليست هناك جماعة الاخوان المسلمين وانما هناك جماعات اسمها أقسام البر والخدمة الاجتماعية للاخوان المسلمين وهناك هيئة الاخوان المسلمين العامة ·

وباطل موضوعا لانه تجاوز لحقوق الحاكم العسكرى الممنوحة له فى مرسوم الاحكام العرفية ، ومناف لروح الغاية التى فرضت من أجلها هذه الاحكام . ومحال أن تطبق الاحكام التى فرضت للصهيونيين على خصوم الصهيونية الالداء .

الحل أوقف نهضة كبرى

لقد أوقف هذا الحل نهضة اجتماعية كبرى تهيأ لها شعب هذا الجيل من أبناء الوطن وأفضل العقائد وترك فى النفوس أعمق الآثار .

وسيقول التاريخ كلمته ، ويظهر المستقبل القريب آيته ، ولن تستطيع القوة أن تمحو عقيدة أو تبدل فكرة « كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فاما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض » « والعاقبة للمتقين » . (انتهت بذلك مذكرة المرشد العام) (١) .

ثالثا ـ تفنيد فى صدد الاغتيالات :

لم ييأس الاستاذ المرشد ـ مع تفاقم الاحداث ـ فلم يقطع صلته برجال الحكومة ، آملا أن يفيئوا الى رشدهم ، ويرجعوا الى جادة الصواب ، ويتركوا له فرصة الاتصال برجال الاخوان ليعمل على تهدئة خواطر هذا الشباب الذى أثاروه باجراءاتهم الشاذة فوجد الشباب نفسه بغير قيادة فانطلق لا يلوى على شىء ...

وهنا وجد الاستاذ من وزراء الحكومة من يحضر الى دار الشبان المسلمين لمقابلته والتفاهم معه أو قل من يتظاهر بأنه جاء من قبل رئيس الوزراء للتفاهم معه ... وتمخضت الاجتماعات بينه وبينهم عن أن يجاب لطلبه فى الافراج عن أعضاء مكتب الارشاد ليستطيع معهم تهدئة الامور اذا هو أصدر بيانا يستنكر فيه اغتيال النقراشى باشا .

وأصدر الاستاذ المرشد البيان ، ونشر فى الصحف تحت عنوان « **بيان للناس** » وان كان ممثلو الحكومة قد ألزموه باثبات عبارات معينة فى البيان لم يكن هو راضيا عنها . ولكنه ـ أملا فى تدارك الموقف المتفاقم ـ اجازها كارها ... واليك هذا البيان الذى نشر فى ١١ـ١ـ١٩٤٩ :

ملحوظة : الجناية رقم ٨٨٣ لسنة ١٩٤٢ قسم الجمرك التى جاءت فى مذكرة وكيل الداخلية . وفى رد الاستاذ المرشد عليها فى البند « أولا » فى صفحة ٤٦ هى نفسها القضية العسكرية العليا التى تناولناها فى الجزء الاول من هذا الكتاب فى الفصل الاول من الباب الثالث تحت عنوان « اول محاكمة فى تاريخ الدعوة ـ اتهام بقلب نظام الحكم » .

« كان هدف دعوتنا حين نشـأت (العمـل لخير الطن واعـزاز الدين ومقاومة دعوات الالحاد والاباحية والخروج على أحكام الاسلام وفضائله) تلك الدعوات التى دوى بوقها ، وراجت سوقها فى تلك الايام · واذ كان ذلك كذلك ؛ فما كانت الجريمة ولا الارهاب ولا العنف من وسائلها ، لانها تأخذ عن الاسلام ، وتنتهج منهجه ، وتلتزم حدوده · ووسيلة الاسلام فى الدعـوة مسجلة فى كتاب الله (ادع الى سبيل ربك بالحـكمة والمـوعظة الحسنة) ـ والقرآن الكريم هو الكتاب الذى رفع من قدر الفكر ، وأعلى من قيمة العقل ، وجعله مناط التكليف ، وفرض احترام الدليل والبرهان ، وحرم الاعتداء حتى فى القتال فقال (ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين) ·

والاسلام الحنيف هو دين السلام الشامل ، والطمأنينة الصـافية ، والمثل الانسانية الرفيعة · ومن واجب كل مسلم ينتسب اليه أن يكون مظهرا لهذه الحقيقة التى صورها النبى الكريم صلى الله عليه وسلم بقوله (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) ·

ولقد حدث أن وقعت أحداث نسبت الى بعض من دخلوا هذه الجماعة دون أن يتشربوا روحها أو يلتزموا نهجها ، مما ألقى عليها ظلا من الشـبهة فصدر أمر عسكرى بحلها ، وتلا ذلك هذا الحادث المروع حادث اغتيال دولة رئيس الحكومة المصرية محمود فهمى النقـراشى باشا الذى أسـفت البلاد لوفاته وخسرت بفقده علما من أعلام نهضتها وقائدا من قادة حركتها ومثلا طيبا للنزاهة والوطنية والعفة من أفضل أبنائها ، ولسنا أقل من غيرنا أسفا من أجله ، وتقديرا لجهاده وخلقه ·

ولـما كانت طبيعة دعوة الاسلام تتنافى مع العنف بل تنكره ، وتمقت الجريمة مهما يكن نوعها ، وتسخط على من يرتكبها ، فنحن نبرأ الى الله من الجرائم ومرتكبيها ··· ولـما كانت بلادنا تجتاز الان مرحلة من أدق مراحل حياتها ، مما يوجب أن يتوفر لها كامل الهدوء والطمأنينة والاستقرار ـ وكان جلالة الملك المعظم حفظه الله قد تفضل فوجه الحكومة القائمة ـ وفيها هذه الخلاصة من رجالات مصر ـ هذه الوجهة الصالحة ، وجهة العمل على جمـع كلمة الامة وضم صفوفها ، وتوجيه جهودها وكفاياتها مجتمعة لا موزعة الى ما فيه خيرها وصلاح أمرها فى الداخل والخارج · وقد أخـذت الحكومة من أول لحظة تعمل على تحقيق هذا التوجيه الكريم فى اخلاص ودأب وصدق · وكل ذلك يفرض علينا أن نبذل كل جهـد ، ونستنفذ كل وسـع فى أن نعين

الحكومة فى مهمتها ، ونوفر لها كل وقت ومجهود للقيام بواجبها والنهوض بعبئها الثقيل ، ولا يتسنى لها ذلك بحق الا اذا وثقت تماما من استتباب الامن واستقرار النظام – والعمل على استتباب الامن واستقرار النظام واجب كل مواطن فى الظروف العادية فكيف بهذه الظروف الدقيقة الحاسمة التى لا يستفيد فيها من بلبلة الخواطر وتصادم القوى وتشعب الجهود الا خصوم الوطن وأعداء نهضته ٠

٠٠٠لهذا أناشد اخوانى لله والمصلحة العامة أن يكون كل منهم عونا على تحقيق هذا المعنى ، وأن ينصرفوا الى اعمالهم ، ويبتعدوا عن كل عمل يتعارض مع استقرار الامن وشمول الطمأنينة حتى يؤدوا بذلك حق الله والوطن عنهم ٠ والله أسأل أن يحفظ جلالة الملك المعظم ويكلأه بعين رعايته ويسدد خطى البلاد حكومة وشعبا فى عهده الموفق الى ما فيه الخير والفلاح آمين ٠ »

هذا هو البيان ٠٠٠ والهيئة التى ينشر قائدها هذا البيان ويوضح فيه أهداف دعوته ٠ وكلها أهداف اصلاحية نبيلة ـ ويصرح فيه بموقفها من الجريمة بوجه عام ومن اغتيال النقراشى لا شك فى أنها ليست الهيئة التى تلصق الحكومة بها الاتهامات التى كالتها بدون حساب ٠٠٠ فكان هذا البيان فى حد ذاته تفنيدا آخر لما ادعته الحكومة على الاخوان وأصدرت أمر الحل بناء عليه ٠٠

على أن الظروف التى أحاطت بصدور هذا البيان كانت ظروفا بالغة الحرج والخطورة ، وسنرجىء تناولها الى باب قادم ان شاء الله ٠

الخطة الأخيرة للإبادة

جريمة القرن العشرين
إغتيال المرشد العام

- التمهيد للجـريمـة
- التـدبير الاثيم
- شخصيات ومواقف كشفت عنها المحنة القاسية
- لوذات سـوار لطمتنى ؟ مـن هم السـعديون ؟
- هذه القضية ـ تطورها الاجرائى أمام القضاء ـ

كانت اقامتى فى عام ١٩٤٨ فى مـدينة دمنهـور ، حيث نقلت اليهـا فى منتصف عام ١٩٤٧ . وكان مقر عملى فى أكبر محلـج للقطن فيها .. وكانت علاقات الاخوان مع حكومة السعديين برياسة النقراشى باشا فى خلال تلك الفترة لا تزداد كل يوم الا سوءا ، مع أننا كنا نحاول استرضاء هذه الحكومة – رغم أخطائها الجسيمة فى حق البلاد – من أجل قضية فلسطين التى طغت على جميع القضايا فى البلاد العربية والتى كانت تجتاز فى تلك الايام أحرج مواقفها .

وقد أتاح لى وجودى فى هذا المحلج فرصة التعرف على شخصية لم أكد أتعرف عليها حتى شعرت أنها تبادلنى حبا بحب وتقديرا بتقدير ، تلك هى شخصية الاستاذ (ع. عنان) مهندس ماكينات المحلج .

كان هـذا الرجـل يكبرنى سنا ، لكنه لم يكن منذ تعـرف على يأنس لانسان بالمحلج ولا بدمنهـور الا لى . وقـد صـارحنى بذلك .. وكان وقت فراغه كله يقضيه معى فى مكتبى بالمحلج .

ومع ما بينى وبين الاستاذ (ع) من توافق روحى من أول يوم ، فقد كنا على خلاف كبير فى وجهات النظـر الى كثير من المسـائل الجـوهرية فى الحياة السياسية لبلادنا . وكان الخلاف يشتد بيننا فى بعض الاحيان فى أوائل تعارفنا الى الحد الذى يخيل لمن يحضر نقاشنا أنه لابد أن يؤدى الى قطيعة ، غير أنه لم يوهن فى يوم من الايام من وشائج الود بيننا .

كان الاسـتاذ (ع) مـن الرجال الاتقيـاء الذين يعـتزون بكـرامتهم ولا يخافون فى الحق لومة لائم ، وكان على ذكاء وفطنة ، وعلى درجة واسعة من الثقافة العامة ، كما كان من أصل كريم من أسرة عنان وهى أسرة عريقة فى الدقهلية .. وكان ابراهيم عبد الهادى باشا يمت الى أسرتهم بصـلات نسب . ولذا فانه كان بحكم هذه الصلات سعديا . وكان مقتضى ذلك أن يكره ما سوى السعديين ، فيكره الوفـد ويمقت الاخـوان المسلمين .. ومـع أن الرجل قد عرف أننى من الاخوان المسلمين فانه كان يصارحنى برأيه هذا ، ويتعجب من أن يكون شاب مثلى من الاخوان المسلمين ..

وفى أثناء مناقشاتى معه تبين لى أن الرجل معذور فى كراهيته للاخوان المسلمين ، أولا لان الصورة التى وضع السعديون الاخوان فى اطارها صورة منفرة مخالفة للحقيقة والواقع ، ثم ان الظروف لم تسعف الرجـل من قبـل

بالتعرف على اشخاص من الاخوان يمثلون الدعوة الاسلامية فى اخلاقهم وتصرفاتهم وتعاملهم مع الناس ··· وكان الرجل مقتنعا بى كل الاقتناع - وأول شرط لنجاح الداعية الى اية فكرة أن يقتنع به من يخاطبه - ولذا فقد سهل على بعد عدة جلسات معه أن أصحح له صورة الاخوان بوضعها فى اطارها الصحيح ··· وكان قد أظلتنا الايام التى بلغ فيها التوتر بيننا وبين السعديين أشده ·· وكان الرجل على اتصال بأهله وذويه ومنهم ابراهيم عبد الهادى وأسرته ·

وأسر الى الرجل بأنه قد اقتنع بالاخوان المسلمين الا أنه يرى أن لا يجهر بذلك ، وأن يظل على ولائه للسعديين ، لانه علم أن أحداثا جساما على وشك الوقوع فى البلاد ، وأنه يريد أن يقف بجانبى فى خلالها ليدفع عنى ما يستطيع دفعه من شرورها ·· وكنت أعترض أن أكون بمنجى مما يتعرض له اخوانى ، فكان يقول لى : « اننى أعلم أنك لا تبالى فى سبيل دعوتك عذابا ولا تنكيلا ، لكنك بوصفك صديقا حللت فى قلبى محل الابناء او الاخ الصغير، واعلم فى نفس الوقت أنك على الحق وان أعداءكم على الباطل ، فاننى أرى نفسى ملزما - رضيت أم كرهت - أن أؤدى واجبى نحوك ، وأن أخفف من المصائب القادمة ما أستطيع ·· ثم قال : ليتنى أستطيع دفع الويلات عن الاخوان جميعا ، اذن والله لفعلت ولكنه جهد المقل ولا يكلف الله نفسا الا وسعها » ·

وتحقق الذى أسره الى ، فصدر أمر الحل ، وتبعه ما اشرت اليه من اعتقال الاخوان ، وعجبت أن أترك دون اعتقال ·· ولاحظت منذ اليوم الذى صدر فيه أمر الحل أن الاستاذ (ع) يلازمنى طول اليوم لا يكاد يفارقنى ، ولا يدعنى أبارح المحلج الى بيتى دون أن يرافقنى حتى أدخل باب البيت ·· وكنت أثور عليه فى بعض الاحيان فكان يقول لى : يا فلان أليس ايمانك بدعوتك كما هو لم يمس ؟ وما فائدة أن تعتقل اذا كان يمكنك أن لا تعتقل دون أن يمس ايمانك ودون أن يتعرض لك السفهاء بما تكره ؟ أليس النبى صلى الله عليه وسلم يقول « سلوا الله العافية » ؟

الفصـــل الاول

التمهيد للجريمة

ظهر للمحللين فيما بعد ان الاصابع الخفية التى نسجت خيوط المؤامرة العالمية للقضاء على الدعوة الاسلامية فى هذا القرن ، كانت قد نسجت هـذه الخيوط على ان يكون الخيط الحابك لها جميعا هـو اغتيال المرشـد العـام مؤسس الدعوة وقائدها وروحها ، والرجل الذى أعياهم الاقتحام اليه بـكل ما يملكون من وسائل الترغيب والترهيب ، والجدار الشاهق الصلب المتين الذى تستند اليه هذه الدعوة ٠٠ فاذا أمكن نسفه انهارت بانهيار الدعوة بين عشية وضحاها •

ولقد عبر عن هذا المعنى الذى سيطر على أفكارهم الضابط محمد الجزار حين قال لاحد الاخوان المتهمين فى احدى القضـايا التى لفقوها : لقـد كنتم تستندون على وجود الجماعة وعلى وجود المرشد ، فالجماعة حللناها والمرشد قتلناه فأى سند لكم بعد ذلك ؟

وسأحاول ان شاء الله فى هذا الفصـل ابراز صـورة واضحة المعـالم للتخطيط الذى وضعه المتآمرون لاتمام هذه الجـريمة التـاريخية النكراء فى الخطوط العريضة التالية :

الخط الاول للتمهيد ــ حل الاخوان المسلمين :

ويندرج تحت هذا الخط العريض الخطوط التالية :

١ ــ عدم الوقوف فى وجه العمل الفدائى للاخوان فى فلسطين ، باعتقاد ان ذلك يستنزف قـوتهم ويعين على سهولة القبـض عليهم بعد ذلك دفعـة واحدة •

٢ ــ عن طريق جمع السلاح للفدائيين وللمجاهدين الفلسطينيين يمكن ضبط مخازن هذا السلاح فى مصر ليكون هذا الضبط مبررا للقبض على البقية الباقية من الفدائيين من الاخوان الذين لم يتمكنوا من السفر الى فلسطين وتلفيق قضايا لهم بمحاولة قلب نظام الحكم •

٣ ــ ادخال الجيوش العربية الى فلسطين لتتحطم روحها المعنوية من جهة ــ نظرا لضعف تسليحها وعدم تدريبها ــ ومن جهة اخرى ليكون دخول هذه الجيوش مبررا لاعلان الاحكام العرفية •

٤ ـ اختيار النقراشى باشا لاصدار أمر الحل لما يعلمون من شدة حقده على الاخوان ولصفاته التى أشرنا اليها من قبل ، حتى ينطبع فى بنود هذا الامر آثار هذا الحقد من الشراسة والتحدى والاستفزاز ، مما يدفع شباب الاخوان الى القيام بأعمال انتقامية ٠

٥ ـ توريط النقراشى فى اصدار أمر الحل سيدعوه الى حماية نفسه باصدار أوامر أخرى باعتقالات يتسع نطاقها يوما بعد يوم حتى يكون الاخوان جميعا تحت يد الحكومة فى يوم قريب ٠

الخط الثانى ـ عدم اعتقال المرشد العام :

ويندرج تحت هذا الخط العريض الخطوط التالية :

١ ـ اظهار الحكومة أمام الرأى العام بمظهر الاعتدال اذ هى فى استطاعتها اعتقاله ومع ذلك فانها تقديرا لشخصيته لا تعتقله ـ فى حين أن عدم اعتقاله لا يجعل الحكومة مسئولة عما قد يتعرض له من اعتداء أو اغتيال ٠

٢ ـ وجود المرشد العام حرا ـ فيما يبدو للناس ـ يجعله مصيدة لاصطياد من يتصل به من الاخوان الذين قد لا تكون أسماؤهم مدونة فى السجلات التى صادروها ٠

٣ ـ وجوده حرا دون اعتقال يجعله دائب البحث عن وسيلة للتفاهم مع الحكومة لايجاد مخرج من الازمة التى أوجدها امر الحل ، مما يدعوه الى الاتصال برجال الحكومة ، وعن هذا الطريق يمكن ضبط تحركاته اذ تكون تحت عيونهم ٠

الخط الثالث ـ قطع الصلة بينه وبين الاخوان :

ويندرج تحت هذا الخط العريض الخطوط التالية :

١ ـ أن يفقد الاخوان لا سيما الشباب منهم قيادتهم ، فيندفعوا بحكم حماسهم وبتأثير أعمال الاستفزاز التى تقوم بها الحكومة ضدهم الى ارتكاب أخطاء وأعمال انتقامية تدينهم أمام الرأى العام ، وتزيد من تمكن الحكومة منهم وتشديد قبضتها عليهم ٠

٢ ـ كان فى ذهنهم احتمال كبير لقيام هذا الشباب باغتيال النقراشى باشا ، مما يزيد نار العداء تأججا بين السعديين ومن ورائهم الملك وبين الاخوان ، مما يدفع السعديين الى الانتقام ٠

الخط الرابع ـ تجريده من الحماية الشخصية :

ويدخل تحت هذا الخط العريض الخطوط التالية :

١ ـ اعتقال أشقائه جميعا لا سيما عبد الباسط ضابط البوليس ٠

٢ ـ تجريده من مسدسه الخاص وسحب رخصته ٠

٣ ـ الاستيلاء على سيارته الخاصة حتى يحد ذلك من حركته ، فيضطر الى استخدام وسائل المواصلات العامة مما يسهل لهم أن يكون تحركه تحت أعينهم ٠

٤ ـ عدم السماح له بمغادرة القاهرة الى أى مكان آخر فى داخل البلاد أو خارجها ٠

الخط الخامس ـ اغلاق جميع الطرق أمامه :

ويدخل تحت هذا الخط العريض الخطوط التالية :

١ ـ حاولوا أولا سد جميع الطرق أمامه ، ولكنه سارع من أول لحظة وقدم طلبا للعضوية بجمعية الشبان المسلمين ٠ فلما لم يفلحوا فى اغلاق هذا الطريق جعلوه هو الطريق الوحيد أمامه ، ورسموا خطة على هذا الاساس ٠

٢ ـ استغلوا هذا الطريق الوحيد فى ايهامه باستعدادهم للتفاهم معه ٠

٣ ـ اختارت الحكومة لتمثيل دور الوسطاء بينها وبينه شخصيات حكومية معروفة بالخداع والمداهنة والالتواء ٠

٤ ـ استطاعت هذه الشخصيات أن تحصل منه على البيان الذى أذيع بعد مقتل النقراشى باشا تحت عنوان « بيان للناس » الذى أشرنا اليه من قبل ، وقد تأتى الاشارة فيما بعد الى الطريقة التى أخذوه بها ٠

٥ ـ استطاعوا بأسلوب الخداع والغدر والالتواء أن يحددوا له موعدا لنقاء بدار الشبان المسلمين فى ساعة محددة من مساء يوم معين لاتمام التفاهم على حل نهائى للازمة ، مما جعله يسارع متلهفا الى الحضور فى الميعاد حرصا على مصلحة دعوته ٠٠ وعلى أساس من هذا التحديد للمكان والزمان وضعوا خطة الاغتيال ٠

مزيد من الاضواء على هذه التمهيدات

أولا ـ المرشد يطلب من الحكومة أن تعتقله :

ان الاستاذ المرشد حين وجد أن الاخوان معتقلون دونه ، شعر بأن هذا

الوضع مقدمة لمؤامرة تستهدفه شخصيا ، فطلب من الحكومة وألح فى طلبه اما أن تعتقله مع اخوانه واما أن تفرج عنهم ٠٠ ولكن الحكومة أصرت على هذا الوضع الغريب ، فطلب منها أن تفرج عن أعضاء مكتب الارشاد وهم اثنا عشر شخصا لتتاح له الفرصة معهم فى العمل على تهدئة الخواطر حتى لا تتفاقم الامور ٠٠ ولكن الحكومة أصرت على الوضع نفسه ٠

ثانيا : الشعب كله داخله شعور بالارتياب :

ازداد ارتياب المرشد العام فى نية الحكومة من تركه دون اعتقال حيث سحبت منه سلاحه المرخص وسحبت رخصته ، واعتقلت شقيقه عبد الباسط فى الوقت الذى طوقت بيته بنطاق من البوليس الملكى ٠٠ وقد شكا ذلك صراحة فى مذكرته التى رد بها على مذكرة عمار بك وكيل الداخلية ٠٠ ويبدو أن شعور الارتياب هذا لم يداخل المرشد العام وحده بل داخل الشعب كله ٠ لان الاجراءات غريبة كل الغرابة ولا تحتمل الا الارتياب ٠٠ وقد يبدو هذا الارتياب فى اوضح صورة فى نقاش دار بين الدكتور عزيز فهمى المحامى وبين المرشد العام ٠ وقد أوردت هذه الواقعة جريدة المصرى فى ٤ـ٥ـ١٩٥٢ تحت عنوان « بين الشهيدين حسن البنا وعزيز فهمى » قالت الجريدة :

« روى أمس بعض الذين قدموا للعزاء بدار عبد السلام فهمى باشا (والد الدكتور عزيز) القصة التالية وقد وقعت بين المرحومين الشيخ حسن البنا والدكتور عزيز فهمى ٠ وتتلخص فى أن المغفور له الشيخ حسن البنا كان قد وكل المغفور له الدكتور عزيز فهمى فى قضايا الاخوان بعد حلها ٠

وكان الشيخ حسن البنا فى مكتب الدكتور عزيز قبل اغتياله بيومين لمراجعات خاصة بالقضايا ٠ وسأل الدكتور عزيز الشيخ حسن البنا : هل معك سلاح ؟

فرد رحمه الله بقوله : السلاح أخذوه ، والاخ سجنوه

فسأله الدكتور عزيز : وبماذا تدافع عن نفسك ؟

فقال رحمه الله :

أى يومى من الموت أفر　　يوم لا يقدر أم يوم قدر
يوم لا يقدر لا أرهبه　　ومن المقدور لا ينجو الحذر

ثم قال رحمه الله للدكتور عزيز : انى اخشى عليك أن تموت صغيرا فعقلك اكبر من سنك بمراحل ٠ ثم كان ان اغتيل الشيخ حسن البنا بعد يومين من هذه المقابلة ، وتوفى الدكتور عزيز بعد ثلاثةاعوام رحمهما الله ٠

ثالثا – اللواء صالح حرب باشا يكشف عن خبث نيات الحكومة

كاد ارتياب المرشد العام فى نية الحكومة نحوه أن يكون يقينا ، فطلب من الحكومة السماح له بمغادرة القاهرة الى أى مكان اخر ، فلم تحر الحكومة على هذا الطلب جوابا ٠٠ واترك القاء الضوء على هذا الخط أو على هـذه الخطة الاثيمة من المؤامرة الدنيئة للرجل الذى كان ملابسا لظروفها ، ومحيطا بأبعادها ، والذى سجل له التاريخ موقف رجولة نادرة ، وبطولة انعدم مثلها فى تلك الايام المدلهمة ، ذلك هو اللواء صالح حرب باشا رئيس جمعيةالشبان المسلمين فى ذلك الوقت ٠ ونقتطف باقة من خطاب ألقاه فى عيد الجهاد الموافق ١٥–١١–١٩٤٩ حيث قال :

«فى مثل هذا اليوم من العام الماضى ، وقفت موقفى هذا أنعى فيه على الحكومة القائمة يومذاك موقفها السلبى من قضية البلاد وأهدافها الوطنية ، متسترة خلف ما أسمته تجاهل وجود الغاصبين – وما كان أسعد الغاصبين بهذا التجاهل ٠٠ وهل اذا سئلوا أن يتمنوا فهل كانوا يتمنون أكثر من ذلك التجاهل الذى ترجمته الواقعية هى التسليم لهم بلا قيد ولا شرط فى حقوق البلاد ، وكانت نتيجته ما وصلت اليه الحالة اليوم فى السودان وبقاء جيش الاحتلال فى أرض الوطن ، ثم قتل الروح الوطنية ، وتعويد الشعب على أن ينسى قضاياه القومية ، وصرفه عنها بشتى الوسائل ، وكان أفتكها سلاحا سيف الاحكام العرفية المصلت على الرقاب ، والارهاب الحكومى الذى صير كل مصرى مشغولا بنفسه ، لا يدرى ما مصيره ولا ما يأتى به الغد ٠ فعشش الخوف فى النفوس وافرخ ٠٠ وفى غمرة هذه الاحداث وصل الغاصبون الى غاياتهم وهم فى أمن وسلام ٠

أما الامن والسلام فلا رعى الله أمنا يمشى فيه المصرى ولا يدرى ان كان سيصبح فى بيته أو فى معتقل ، ويصبح فلا يدرى أن كان سيمسى بين أهله أو بين المجرمين فى سجن ٠٠ أما نزاهة الحكم فيا لسخرية القدر ٠٠ أين هى ؟ دلونا عليها يازعماء البلاد وساسة الحكم ، فان لم تستطيعوا فاسألوا عنها سمعة مصر فى بلاد العالمين ، وسلوا عنها كساد الحال وركود الاعمال وارتفاع الاسعار ، واثراء ذوى النعمة وقد كانوا من المفلسين ٠

لقاؤه بالاستاذ البنا بعد قرار الحل :

ثم قال : وأرى من واجبى فى هذه المناسبة أن أميط اللثام عن موقف المغفور له الشهيد الشيخ حسن البنا بعد صدور الامر بحل الاخوان ٠ وقد زرته فى منزله ، وكان المنزل مراقبا عقب حل الجماعة فقال لى : لقد سعيت عقب الحل مباشرة للاتصال بالنقراشى باشا فتعذر ذلك بل استحال ،وكتبت له عندما أمعنوا فى القبض على كبار الرجال فى الجماعة أننى مستعد أن

أتعاون مع الحكومة تعاونا صادقا لتهدئة الحال واقرار الامن والسلام ·· فلم يعبأ بما كتبت له · ولجأت الى بعض الوزراء أستعين بهم لديه ولم يتم شيء · وسعيت هنا وهناك حتى كدت أنتعل الدم فلم يبال أحد بسعيى ورجائى ··· ولست أدرى لماذا يتركوننى اليوم طليقا وقد اعتقلوا جميع أصحابى ماداموا لايرغبون فى اشراكى معهم لتهدئة الخواطر بل ولايرغبون فى الاتصال بى ·· لماذا اذن لا يعتقلوننى كما اعتقلوا غيرى · والاعتقال خير لى من الحال التى أصبحت فيها بين توجع النساء ، ولوعة الشيوخ ، وبكاء الاطفال ، واحتياجهم جميعا لمن يعولهم ومن يعينهم · ومن أين لى وقد جمدوا ووضعوا يدهم على كل مايملك الاخوان ؟

ثم قال اللواء صالح حرب : وقد قلت له : ثق يافضيلة المرشد أن دار الشبان المسلمين دارك ، وهى مفتوحة لك دائما ··· وتردد الشيخ على الدار ، فامتعضت الجهات الرسمية وخاطبوا الجمعية فى ذلك فكان الجواب أن هذه الدار دار المسلمين جميعا ، لن يوصد بابها فى وجه مسلم ، ومن باب أولى لايوصد فى وجه الاستاذ الشيخ حسن البنا ، وستظل هذه الدار داره مادام راغبا فى زيارتها ·

أساليب ملتوية كشفت نية الحكومة

واخيرا بدت من الحكومة رغبة فى الاتصال به · وطلبوا اليه أن يذيع بيانا يدعو فيه الى الهدوء والسكينة حتى تعود الطمأنينة الى النفوس · فكتب بيانه وعرضه على المسئولين · فطلبوا اليه أن يستنكر بصراحة الاعتداء على النقراشى باشا ففعل ·· وظل البيان بين المحو والاثبات حتى أقروه ونشر تحت عنوان « بيان للناس » والشيخ فى كل هذه الايام لايشغله شاغل غير الرغبة الصادقة فى التعاون مع الحكومة على اقرار السلام ، ولا يشترط غير اطلاق سراح كبار الاخوان ليعاونوه ·

وكم كانت دهشتى عندما قرأت فى أثناء محاكمة قاتل النقراشى باشا أن هذا البيان كان وسيلة من الوسائل التى استعملت فى زلزلة معنويات القاتل واضعاف عقيدته ·· فقلت عفاء على أخلاق عظماء الرجال فى مصر ·

واطمأن الشيخ على أنه بعد هذا البيان سوف يتغير الموقف ، ويسود التفاهم ، وتتوالى الخطوات فى سبيل تهدئة الخواطر واقرار السلام · ولكن لسوء الطالع لم يمض يومان على صدور البيان حتى وقع حادث الشروع فى نسف محكمة الاستئناف · فجاءنى الشيخ فى حالة من الجزع والفزع لم يسبق أن رأيته عليها ، وقد عقد لسانه ، وجف ريقه ، وملكه الم كاد يفقده

صوابه .. وأنا اقسم بعد أن شاهدت الشيخ المرشد على تلك الحال انه مستحيل على مثله أن يدعو الى الاجرام أو يأمر به أو يشارك فيه . وظللت وقتا طويلا أهدىء من روعه حتى سكن قليلا واستطاع الكلام فقال : أرأيت هذا المفتون ماذا كان ينوى أن يفعل ؟ والله ماهذا الشقى مسلما ولا من الاخوان .. ولما خوطب الشيخ من الجهات الرسمية فى هذا الحادث تبرأمن هذا الشاب واستنكر بكل شدة فعلته ، وأظهر استعداده لان ينشر بيانا آخر يذيع فيه أن هذا المفتون وأمثاله ليسوا مسلمين .

بعد هذا الحادث ظهر أن نيات الجهات الرسمية من ابتدائها لم تكن مخلصة فى مفاوضاتها مع الشيخ . وبدأ القلق يساوره فقلت له : من الخير أن تطلب من الحكومة الرحيل من القاهرة الى جهة نائية تقيم فيها حتى تنقشع غياهب الاحداث .

فقال : انى خيرت المسئولين فى واحدة من أربع : اما أن يطلقوا سراح كبار الاخوان لنعمل معا جادين مخلصين حسب توجيه الحكومة حتى تطمئن ويزول ما فى النفوس وتهدأ الخواطر - واما ان يختاروا قرية ألجأ اليها ولو كانت فى مكان قفر - واما أن يسمحوا لى بمغادرة القطر الى أى بلد عربى أو اسلامى - واما أن يعتقلونى كما اعتقلوا أصحابى - ولكنهم الى الان لم يستجيبوا الى واحدة من هذه الاربع .

فتبينت العبث ظاهرا فى هذه المعاملة ، وطلبت من الشيخ بالحاح أن يغادر القاهرة من تلقاء نفسه الى أى قرية بعيدة يختارها ، ويخطر الحكومة بانتقاله اليها - وقمت الى أسوان متألما من الموقف بعد أن وثقت من أن الشيخ سيغادر القاهرة غداة سفرى الى قرية بها شيخ كبير السن من الاخوان يعيش بجواره .. ولست أدرى ما الذى أخر سفره ؟ ، ومرت الايام وأنا باسوان حتى سمعت بمقتله ... واين ؟ على باب الشبان المسلمين التى قدم طلبا بالانضمام الى عضويتها .. فياللخيانة ويا للغدر .. مات الشيخ حسن البنا فمات بموته خلق كثير » .

شهادة محافظ القاهرة تلقى أضواء أكثر :

ويحسن فى هذا المقام زيادة فى الايضاح بعد هذا البيان الجامع للواء صالح حرب أن نورد ما يتصل بهذا الموضوع من شهادة الاستاذ فؤاد شيرين محافظ القاهرة فى ذلك الوقت أمام مستشار التحقيقات محمد على جمال الدين فى ١٩٥٣/٣/١٨ حيث وجه المحقق اليه سؤالا على الوجه الآتى :

س : هل تقدم الشيخ حسن البنا لحضرتك بطلب التصريح له بالسفر للخارج ؟

ج : أذكر جيدا أنه وصلنى جواب من المرحـوم حسن البنا يقول فيه انه يريد السفر الى بلدة بتاندة قليوبية للاقامة عند قريب له • وحدث بعـد ذلك أن قابلت الاستاذ ابراهيم عبد الهادى رئيس الحكومة فى مكتبه ، ووجدت انه على علم بهذا الخطاب وقال لى : لا ترد عليه • فقلت له : انه يطلب الرد • فقال لى : أليس هناك أشخاص يكتبون اليك ولا ترد عليهم ؟ فقلت : نعم • فقال : اذن افعل ذلك معه •

وانتهى الحديث عند هذا الحد ، وأظن أن حضرة ابراهيم عبد الهادى يذكر ذلك •• وبناء على ذلك لم اتصل بالشيخ حسن البنا ، ولم يتصل هو بى لانه قتل بعد فترة قصيرة •

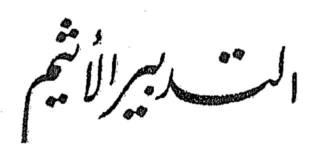
س : ألم تفهم من حديث ابراهيم عبد الهادى ما هو السبب أو الداعى فى عدم الرد وعدم التصريح للشيخ البنا فى السفر والاقامة مع قريبه فى بنها؟

ج : لا •• لم أفهم شيئا ، ولكنى تألمت لانى كنت أريد أن أرد عليه •

س : ألم تعلم باعتقال الشخص الذى كان البنا يريد الأقامة عنده ؟

ج : لا •• لان شئون الاخوان لم تكن تعرض على ولا أخطر بها •

الفصـــل الثـانى



وقعت هذه الجريمة فى اليوم الذى اعتقد فيه المرشد العام - أمام المواثيق التى قدمتها اليه الحكومة عن طريق وسطائها - أنه اليوم الذى ثابت فيه الحكومة الى رشدها ، وأرادت أن تخرج بالبلاد من ورطتها ، وانقاذها مما آل اليه حالها من تدهور فى الامن ، وفقد للطمانينة والامان ، وتحول البلاد الى ميدان حرب بينها وبين الشعب •

وقد تلمح هذا المعنى فيما جاء بشهادة عبد الفتاح عشماوى أبو النصر حين استدعاه المحقق فى ١٩٥٣/٣/١٧ فقال : انه موظف بوزارة المعارف وانه من الاخوان المسلمين • وقد اتصل به البوليس السياسى ليعمل مرشداً فى خدمته فابلغ ذلك للشيخ حسن البنا الذى طلب منه مسايرة البوليس لمعرفة اغراضه • واستطرد يقول : فاشتغلت بمكتب عبد المجيد العشرى الضابط بالقلم السياسى ، وطلب منى أن اخبره بكل اجتماعات مكتب الارشاد • وكنت أطلع الشيخ البنا على كل أخبار البوليس السياسى •

وفى يوم الحادث كنت انا والاستاذ أحمد سليمان المدرب بالسعيدية الثانوية - وهو من الاخوان وكان مرشداً أيضا البوليس السياسى - عند الاستاذ المرشد العام لتبليغه خبر اعتقال الشيخ البراوى • فاخبرنا أنه سوف لا يخرج فى اليوم المذكور لان الحكومة فى سبيل السماح له بزيارة المعتقلين وتسوية المسائل ••• وخرجنا على أن نعود اليه فى اليوم التالى ولكنه اغتيل •• وقال لى الضابط عبد المجيد العشرى : احنا أخذنا بالثأر •
فسأله المحقق : لماذا لم تبلغ هذه الوقائع فى حينها ؟ فقال : كل واحد كان يتقدم للشهادة كان يعتقل •

وهكذا خدع المرشد العام •• وما كان له الا أن يخدع ، فهو انسان لم يعد يملك لنفسه شيئا أمام حكومة جردته من كل شىء : من اخوانه واهله وسلاحه وسيارته وقلمه ، فى الوقت الذى تجردت هى فيه من جميع القيم ، ومن ابسط قواعد الاخلاق ، ومن أدنى صفات الانسانية • واباحت لنفسها مالا تبيحه عصابات السطو والاجرام ، فاستباحت اول ما استباحت الكذب والنفاق والخداع والختل والخيانة والغدر •

تطورات الاحداث حتى وصلت الى نهايتها

ولكى يتتبع القارىء تطور الاحداث حتى وصلت الى نهايتها نقول :

مسارعة المرشد لتدارك الامر :

١ ـ عقب صدور أمر الحل مباشرة سارع المرشد العام الى مقابلة ابراهيم عبد الهادى باشا رئيس الديوان الملكى فى ذلك الوقت ، وسلمه بيانا أعده لاذاعته على الاخوان يناشدهم فيه التزام الهدوء والسكينة ، وأن يتركوا له أمر التفاهم مع الحكومة بما يتفق ومصلحة البلاد العليا ..

فلما تسلم النقراشى باشا هذا البيان رفض نشره بالصحف وأنكره على المرشد العام قائلا : ان اخلاد الاخوان الى الهدوء والسكينة من شأن الحكومة وليس من شأن حسن البنا .

على نفسها جنت براقش :

٢ ـ كان من أثر هذا الصلف والغرور والجهل الذى تسلط على عقلية ذلك الرجل النقراشى باشا فأعماه عن الحقائق ، وشرد به عن الواقع ، فصار يعتقد أن الشعب ليس الا قطيعا من الغنم متى رفع عليه العصا اتجه حيث يريد ... كان أول أثر أن راح صاحب هذه العقلية الضحية الاولى لصلفه وجهله وغبائه فاغتيل فى سويداء عرينه الذى لم يغن عنه شيئا .

الحكومة تدفع الشباب الى عمل أهوج :

٣ ـ قبض على قاتل النقراشى وعلى عدد معه من الاخوان ، واتبع فى التحقيق معهم أساليب لا يقرها القانون ، وانتزعت منهم اعترافات بوسائل دنيئة ، فى ظل نيابة عامة على راسها النائب العام محمود منصور الذى تحدثنا عنه من قبل ... وخيل الى شاب ممن ينتسبون الى الاخوان ـ الذين عزلتهم الحكومة الغاشمة عن قيادة ترشدهم وتحسن توجيههم ـ خيل اليه أن انقاذ اخوانه الذين سيموا العذاب فى هذا التحقيق لا يكون الا بنسف المحكمة التى أجرى فى حجراتها هذا التحقيق وحفظ فى خزاناتها أوراقه .

وناهيك بعقلية شاب فى العشرين ، فاقد الاعصاب لفظاعة ما تتبعه الحكومة من أساليب القهر والاستفزاز ، ويجد نفسه وحيدا ، حيث لا يبيح أمر الحل أن يجتمع مع أى آخر من اخوانه ليتبادل معه الرأى ، فضلا عن أن يتاح له لقاء مع المرشد العام .. فهو يفكر وحده ، ويفكر شاردا مطاردا .. فهل يتفتق ذهنه الا على افكار خاطئة ؟ !

الحكومة تخادع المرشد العام :

٤ ـ عقب اغتيال النقراشى باشا تم لرسل الحكومة الحصول من المرشد العام على « بيان للناس » الذى طلبوا اليه أن يستنكر فيه اغتيال النقراشى باشا ٠ ونشروا هذا البيان فى الصحف ٠٠ وتبين بعد ذلك أنهم انما طلبوا هذا البيان ليزلزلوا به عقيدة قاتل النقراشى كما جاء فى خطاب اللواء صالح حرب باشا الذى نشرناه آنفا ـ وكان فى هذا من معانى النذالة ما فيه ٠

وعقب محاولة نسف محكمة الاستئناف ـ وكان المرشد العام فى حالة من التأثر الشديد كما وصف اللواء صالح حرب ٠٠ جاء رسول الحكومة واستطاع الحصول من المرشد العام فى ظل هذه الحالة من التأثر على بيان آخر عنوانه « ليسوا اخوانا وليسوا مسلمين » ٠

وقد القى رسول الحكومة فى روع المرشد العام أن الحكومة فى أمس الحاجة الى بيان بهذا المعنى يهدد فيه المرشد العام الاخوان اذا تكرر منهم حادث آخر أن يقدم نفسه للقصاص ٠٠ وألح الرسول فى طلب البيان فى الحال لينشر فى الصحف مباشرة قبل أن يقدم الاخوان على حوادث أخرى ٠

تصرف مريب ازاء هذا البيان :

٥ ـ أخذت الحكومة هذا البيان ، وبدلا من أن تنشره فى الحال ، احتفظت به دون نشر نحو شهر ٠٠ ولم يكن مفهوما تعليل لهذه التصرفات المناقضة لنفسها ٠٠ حكومة تلح فى الحصول على البيان بحجة حاجتها الى سرعة نشره ليكون وازعا للاخوان عن الاقدام على أعمال أخرى ٠٠ حتى اذا اخذت البيان حجبته عن النشر لا يوما ولا اسبوعا بل شهرا كاملا ٠٠٠ ولكن الاحداث تكفلت فيما بعد بالتفسير الواضح والتفسير الوحيد لهذه التصرفات العجيبة مما نفصله فيما بعد ان شاء الله ٠

رئيس الحكومة يستدرج المرشد الى حيث يغتاله :

٦ ـ كان المرشد العام دائم الالحاح على الحكومة فى كل اجتماع يجتمع فيه برسلها أن تتيح له فرصة الالتقاء بالمسئولين من الاخوان ، اما بالافراج عنهم واما بالسماح له بزيارتهم فى المعتقل ليستعين بهم على تهدئة الحال وتنقية الجو ٠٠ وكانت الحكومة دائمة الرفض لهذا الطلب ٠٠ ولكنها فجأة ودون مقدمات وافقت وحددت موعدا يقوم فيه المرشد العام بزيارة الاخوان المعتقلين ٠٠٠ وكان هذا التغير الفجائى فى موقف الحكومة ـ دون مقدمات ودون أن يطرأ عنصر جديد يصلح ان يكون مبررا لهذا التغير ـ امرا غير

مفهوم ، يقف العقل أمامه مشدوها متحيرا ٠٠٠ ولكن الاحداث أيضا تكفلت فيما بعد بالتفسير الواضح والتفسير الوحيد لهذه المفاجاة الذهلة ٠

ونورد فى هذا الصدد ما جاء فى شهادة زكى على باشا الوزير بوزارة عبد الهادى أمام المحكمة مما يلقى ضوءا باهرا على هذا التغير المفاجىء :

المحكمة ـ ما معلوماتك فيما يتعلق بحادث الشيخ البنا ؟

الشاهد ـ الشيخ البنا جانى أثناء كنت وزير دولة ٠ وكان بينى وبينه علاقة قديمة بصفتى وكيل جمعية الشبان المسلمين ، وقال لى : أنا جيت لك أحب أن تكلم رئيس الوزراء فيما يتعلق بالاخوان ٠ فقلت له : أنا مش مختص ٠ وسألته عن طلباته فقال : أنا مضطهد ، وكل مجلس الارشاد معتقل، ومافيش داعى لهذا الاعتقال ٠٠ فاتصلت برئيس الوزراء فقال : اذا كان هو حقيقة حسن النية يذكر لنا أسماء الاشخاص اللى بيشك فيهم أن عندهم أسلحة ، ومن جهة أخرى يرشدنا عن محطة الاذاعة السرية التى كانت تذيع كل يوم الساعة السابعة صباحا ٠٠٠ فرجعت الشيخ البنا وقلت له عن المطلوب فقال : ان مسألة محطة الاذاعة لا أعرفها اطلاقا ، وان الاشخاص اللى بتقول عندهم أسلحة ما أعرفهمش ، واللى يعرف عن هذا مجلس الارشاد ، كما قال لى : ان أمكننى الاتصال بالمعتقلين يمكن أعرف حاجة ٠٠

فأنا قابلت ابراهيم عبد الهادى باشا وقلت له رغبة الشيخ البنا ٠ فقال لى : المحطة تذيع أخبارا لايعرفها الا الشيخ البنا ٠ وأما من جهة مسألة الاخوان ومجلس الارشاد فانه لا يمكن اجابته لطلبه ٠٠ فقلت هذا للشيخ البنا فقال لى : أنا مصر أن أقابل أعضاء مجلس الارشاد بالمعتقل ويمكن أعرف حاجة فقلت له طيب ٠٠ وقابلت رئيس الوزارة وقلت له ، فكان متشددا فى هذه المرة فخرجت ٠

وبعد بضعة أيام جه رئيس الوزارة وقال لى : تقدر تقول للشيخ البنا انه يقابل جماعة الارشاد يوم الاثنين التالى ٠

وهذا الكلام كان يوم الاربع أو الخميس أى قبل الحادث ٠ فأنا قلت أنا أروح له يوم الجمعة وابلغه ، وأنا كنت اعتقد ان هذا الكلام يسره ٠ ويوم الجمعة لم يحضر الشيخ البنا ، فاتصلت بالاستاذ الناغى سكرتير الجمعية وقلت له : إعمل معروف اتصل بالشيخ البنا وقل له انه يقدر يقابل الجماعة، واظن قلت له يوم الاثنين المقابلة ـ وبعد كده لم اعرف هل هو بلغ الشيخ البنا أم لا ، ولم أعرف الحادث الا ثانى يوم الصبح لما قرات الجرايد ٠

٧ ـ كان التغير الفجائى فى موقف الحكومة حيال السماح للمرشد العام بزيارة المعتقلين تطورا هاما جدا وملفتا للنظر ، ومثيرا للاهتمام · لانه ذو دلالات بعيدة المدى بالنسبة للجريمة حتى ان المحكمة والنيابة استفسرتا من الشاهد عن هذا التغير على الوجه الآتى :

المحكمة ـ ما قالش لك الاستاذ البنا انه مراقب وانه مهدد ؟

الشاهد ـ قال لى انه مراقب وموش متمتع بحريته ، واذا كانوا عايزينه يترك البلد فهو على استعداد ·

المحكمة ـ ما عرفتنش من الناغى الاجراءات التى حدثت قبل الجريمة ؟

الشاهد ـ الناغى قال لى انه راح قابل رئيس الوزارة واتفق معه على زيارة الشيخ البنا للمعتقل وانه طلب الشيخ البنا فى الجمعية الساعة الخامسة يوم الحادث ، وبعدين خرج من الجمعية وانصرف ·

المحكمة ـ هل كنت تعلم أن الاستاذ الناغى كان حلقة اتصال بين الشيخ البنا ورئيس الوزراء بصفته من أقربائه ؟

الشاهد ـ لا

النيابة ـ سيادتك بتقول انك اتصلت بابراهيم عبد الهادى وطرحت عليه انه يسمح للشيخ البنا بمقابلة المعتقلين كان يرفض · وانه بعد كده سمح بذلك · ما الذى جعله يغير رأيه ؟

الشاهد ـ اللى فهمته انه اتخذ احتياطه عند تنفيذ الفكرة ·

٨ ـ ترتب على هذا التغيير الفجائى فى موقف الحكومة ادخال عنصر جديد فى الموقف بالنسبة للمرشد العام ـ عنصر فيه بالنسبة له رائحة الامن ، فقد شعر بأنه ظفر أخيرا بما كان يامله ويلح عليه منذ صدور أمر الحل ·· وما كان لمثل الاستاذ المرشد أن يحمل هذا التصريح الا على محمل الجد ، فانه تصريح من رئيس الحكومة الى وزير من وزرائها ثم أكده لاحد أقربائه الذى يشغل منصبا كبيرا فى الحياة الاجتماعية للبلاد هو الاستاذ الناغى العضو المؤسس لجمعية الشبان المسلمين ·· مما جعل هذا الاخير يرسل أقرب شخصيات جمعية الشبان المسلمين الى نفس المرشد العام وهو الاستاذ محمد يوسف الليثى رئيس قسم الشباب بالجمعية الى بيت المرشد العام ليلقى اليه بالنبأ السار ، الذى يؤمل المرشد من ورائه حل الازمة كلها ، ويطلب اليه الحضور الى دار الجمعية فى الساعة الخامسة من مساء ذلك

اليوم السبت الموافق ١٤ ربيع الثانى ١٣٦٨ - ١٢ فبراير ١٩٤٩ للتفاهم معه فى هذا الموضوع .

٩ - عنصر الامن هـذا الذى ولده التغير المفاجىء فى موقف رئيس الحكومة هو الذى جعل المرشد العام يغير من خططه ، ويعدل عن عزمه الذى اتفق عليه مع اللواء صالح حرب من مغادرة القاهرة الى مكان آخر من تلقاء نفسه - دون استئذان الحكومة - ثم يبلغها بمكانه الجديد .

حتى ان سروره بتلقى هذا النبأ وما يؤمله من ورائه من خير قد طغى على شعوره بعكس ذلك مما تؤيده الوقائع ، وما تبعثه فى النفس الظروف الغامضة المسيطرة .

فلقد كان شعور الريبة الذى أشرت اليه آنفا هو الشعور الذى تنطق به الظروف ، لافى نفس المرشد العام وحده ، بل فى نفس كل من كان يعايش هذه الظروف .. فقد جاء فى شهادة الاستاذ محمود محمد جبر شاعر الشبان المسلمين قوله :

« قبل الحادث بيوم ، رأيت رؤيا قصصتها على الاستاذ البنا : شفته بيصلى أمام بيتنا ، وبعد الانتهاء من الصلاة رحت أسلم عليه . وأخذته وخرجنا من الجامع فقال : أنا عاوز أشرب . فلقيت واحدة فى الحارة طلبت منها شوية ميه . فأحضرت لى ميه فى كوز . ولاحظت دماء على ذراع المرشد فبعد أن شرب مسحت له الدم من على ايده بالميه ومشيت » .

بل ان المرشد العام نفسه رأى فى تلك الليلة فيمايرى النائم أنه سيقتل فى اليوم التالى . وأخبر أسرته وأولاده بما رأى . فلما جاءه الاستاذ الليثى ونقل اليه ما أخبره به الاستاذ الناغى أخذ فى التاهب للخروج للموعد ، فتوسل اليه أولاده وبكوا أن لا يخرج فى ذلك اليوم ، ولكنه أصر على الخروج قائلا : كيف نهاب الموت والله تعالى يقول « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » .

طغى شعوره بالامل فى اصلاح الامور عن طريق لقائه بالاخوان المعتقلين على ذلك كله . حتى انه حين جاءه الاخوان اللذان وكل اليهما موافاته بأنباء البوليس السياسى وأخبراه بأن الحكومة اعتقلت الشيخ النبراوى الذى كان سيأوى اليه فى بنها لم يكترث بهذا معتقدا أن هذه المسألة الجديدة ستعالج ضمن معالجة الموضوع كله ، ورد عليهما الرد الذى أشرنا اليه فى مستهل هـذا الفصـل .

١٠ ــ كان الذى أوصل النبأ الى الاستاذ المرشد هــو الاستاذ محمــد الليثى ، والذى كلفه بهذه المهمة هو الاستاذ الناغى · ويبدو أن توصيل النبأ عن طريق الاستاذ الليثى شخصيا كان أمرا مقصودا ، لـما يعلمون من ثقــة الاستاذ المرشد فيه · وكان اهتمام الاستاذ الناغى واضــحا حتى انه قال لليثى : اننى قابلت ابراهيم عبد الهادى باشــا فى الصــباح وعنــدى أخبار سارة ، روح انده لى بالشيخ البنا وأنا لن أخلع ملابسى الا بعد أن تخبرنى بالنتيجة بعد الظهر · فقال له الليثى : تذهب أنت اليه فى البيت · فــرفض فذهب الليثى وألح على الاستاذ المرشد بناء على الحاح الاســتاذ الناغى ·· ولابد أن الحاح الناغى كان بناء على الحاح قريبه ابراهيم عبد الهادى ·

والله وحده يعلم هل كان الناغى فى ذلك ساعيا فى الخير أم كان متواطئا مع قريبه · ولــكننا نستبعد ذلك ونقــدم حسن الظن ونقــول ان ابراهيم عبد الهادى على عادته فى استمــراء النذالة قــد استغل قريبه الناغى أســوأ استغلال ·· وان كانت هناك أقوال فى شهادة الاستاذ الليثى تلقى ظلالا من الشك على حسن الظن فقد قال : ان الناغى نزل من الجمعية الساعة الثامنة الا عشر دقائق ، وبعدها قعدت مع الشيخ وقال لى « ان الحديث مكرر وليس هناك جديد » · ولـما سألته المحكمة : هل كان الناغى مستعجل عندما أرسلك فى طلب الشيخ البنا ؟ أجاب : كان مهتم جدا ومتضايق لتأخير الشيخ ·

ولكن غياهب الشك هذه تنقشع حين نسمع اجابة الاستاذ عبد الكريم منصور ــ المحامى وزوج شقيقة الاستاذ المرشد العام وكان مــرافقه فى تلك الليلة ــ على رئيس المحكمة حين سأله : وايه معلوماتك عن الاستاذ الناغى ؟ فيقول : أنا أعتقد بما أحســه بقلبى أنه برىء ورجــل طيب ، ولكن هو كتم بعض الاقوال اللى قالها ابراهيم عبد الهادى وكان عايز الامام ييجى الجمعية· ولكن مظهره وتقواه وشكله باين انه لا يرتكب جريمة ·

مراقبة دائمة على منزل المرشد العام :

١١ ــ كانت هناك مراقبة دائمــة من البلبس الســياسى على منزل المرشد العام سأل المحقق عنها الاستاذ فؤاد شيرين محافظ القاهرة فى ذلك الوقت فقال انه ليس لديه معــلومات عن الرقابة على الشــيخ البنا ، اذ كان ذلك من اختصاص القسم السياسى بالاتفاق مع رئيس الحكومة ووزارة الداخلية ·· فلما بدأ التحقيق فى هذا الموضوع انكر ضباط البوليس السياسى وجود هذه الرقابة · وقد سأل المحقق المخبر عبد المنعم ابراهيم الذى كان يراقب منزل الاستاذ البنا فأكد انه ظل يراقبه حتى ليلة اغتياله ــ فسئل :

س — هل تتبعت الشيخ البنا فى اليوم الذى وقع فيه الحادث ؟

ج — أيوه

س — من أصدر اليك أمر المراقبة ؟

ج — البوليس السياسى ٠ وأنا كنت فى مكتب الصاغ محمد كمال عبد المنعم ومحمد على صالح ، والاخير هو الذى كلفنى شخصيا بذلك ٠

س — هل كنت ترفع تقارير ؟

ج — نعم كنت أعمل تقارير توذع فى ملف خاص بالمكتب ٠

س — ألم يصدر لكم الامر فى ذلك اليوم بالكف عن المراقبة ؟

ج —أبدا ٠٠٠ أبدا ٠

س — هل قدمت تقريرا كالمتبع فى ذلك اليوم ؟

ج — لم يطلب منى أحد تقريرا ، وأنا ذهلت من حادث اغتياله ٠

وقام المستشار المحقق بالاطلاع على تقارير مراقبة منزل الشيخ حسن البنا ، فتبين أنها كانت ترفع يوميا موقعة من المخبر السابق سؤاله وزميله، وأنه مؤشر عليها تارة من الصاغ توفيق السعيد أو الجزار أو محمد على صالح ، وأنه لا يوجد تقرير عن مراقبة يوم الحادث ٠

مواجهة : واستدعى البكباشى محمد على صالح فنفى أنه هو الذى كلف المخبر بمراقبة الشيخ حسن البنا ، وقال ان مسائل الاخوان كانت من اختصاص الجزار وتوفيق السعيد ٠ فلما ووجه بامضائه على أحد التقارير أصر على كلامه ، كما أصر على تكذيب المخبر ٠ نووجه به وتمسك المخبر بأن الضابط المذكور هو الذى كلفه بحراسة منزل الشيخ حسن البنا ٠

ارتكاب الجريمة :

١٢ — بعد مقابلة المرشد العام للاستاذ الناغى ، غادر الناغى الجمعية فى الساعة الثامنة الا عشر دقائق من مساء ذلك اليوم ١٢ فبراير ١٩٤٩ ٠ وحوالى الساعة الثامنة والنصف خرج الاستاذ المرشد العام والاستاذ عبد الكريم منصور ومعهما الاستاذ الليثى الذى طلب من أحد سعاة الجمعية أن ينادى على سيارة أجرة ٠ فجاءت السيارة وركب فيها الاستاذ المرشد وعلى يساره الاستاذ عبد الكريم منصور — ولم تكد السيارة تبدأ السير حتى انقض عليها الجناة ٠٠ وخير وصف لما حدث ما جاء فى شهادة الاستاذ عبد الكريم منصور حيث طلبت منه المحكمة وصف ما حدث فقال :

« واحنا خارجين من الجمعية شفت ثلاثة أشخاص على ناصية الشارع الفاصل بين الجمعية ووابور المياه ، ولم أشك فى الامر · وركبنا السيارة · وبعدين بدأ الضرب من الجانبين · وحاول أحد الجناة أن يفتح الباب من ناحيتى فأنا قاومته فتغلب على وفتح الباب وضربنى بالمسدس ، والرصاص جه فى الاول فى الزجاج وتهشم ولم يصب · ولما فتح وضربنى بالرصاص جت الرصاصة فى ساعدى ··· وفى هذه اللحظة لاحظت أن الجانى الثانى بيحاول فتح الباب وتمكن من فتح الباب اللى ناحية الامام الشهيد وضرب الامام بالرصاص فجرى الامام وراه · وتبين انه أصيب · ولما رجع سألته هل مسكت الجانى فقال : لا دول ركبوا عربية نمرة ٩٩٧٩ ، فسألته هو انت أخذتها فقال أيوه وبعدين رحنا الاسعاف ·

١٣ ــ يقول الاستاذ الليثى فى شهادته : لما دخلت الجمعية بعد وقوع الضرب لاطلب الاسعاف وجدت السماعة مرفوعة ، وتذكرت أن التليفون منتظرنى للمكالمة · وما ان رفعت السماعة حتى عرفت أن المتكلم هو الصاغ محمد الجزار · فقلت له ان الشيخ البنا قتل الآن · فقال بصوت هادىء : لا ياشيخ مات ولا لأ ؟ ــ وهنا لاحظت أن التاكسى تحرك فجريت خلفه حتى وصلت الاسعاف · وهناك وجدت شابا أسمر يلبس جلبابا وطربوشا وقال لى : أنا شفت نمرة العربية التى ارتكبت الحادث وذكر لى رقم ٩٩٧٩ فكتبت النمرة على ورقة ــ وأثناء ذلك أخرج الشيخ البنا على نقالة الى القصر العينى · وطلبت من هذا الشاب التوجه للجمعية لانتظارى هناك ·

عدت الى الجمعية لمقابلة الشاب الذى صرح اى برقم السيارة ، ولابلاغ النيابة بالامر ، فمنعت من دخول الجمعية حيث كانت محاصرة بقوات كبيرة من البوليس ، وأخيرا استطعت الدخول ·

بيان « ليسوا اخوانا وليسوا مسلمين » المدخر :

١٤ ــ البيان الذى عنوانه « ليسوا اخوانا وليسوا مسلمين » الذى أخذوه من المرشد العام عقب محاولة نسف محكمة الاستئناف التى وقعت يوم ١٢ يناير ١٩٤٩ ، لم ينشروه الا بعد وقوع الجريمة فى ١٢ فبراير ١٩٤٩

اى بعد شهر · وكان حجبه هذه المدة ونشره بعد الحادث نوعا من أنواع الخداع والتمويه التى رتبوها لايهام الناس أن الاخوان هم الذين ارتكبوا هذا الحادث ــ ونكتفى الآن بهذه الاشارة ولنا تعليق على هذه النقطة فيما بعد ان شاء الله ·

طرف الخيط أو الدليل الوحيد :

١٥ – يقول العلماء المتخصصون : ان أية جريمة ترتكب مهما اتخذ مرتكبوها من وسائل الاحتياط والحذر ، ومهما أوتوا من ذكاء وبراعة ، فانهم لابد أن يتركوا أثرا يستدل منه عليهم ٠٠ وهذه الجريمة قد توفر لمرتكبيها جميع أسباب الحذر والاحتياط ، فواضعو الخطة هم رئيس الحكومة ووزير الداخلية بتوجيه من الملك وحاشيته ووكيل الداخلية للامن العام الذى كان من قبل مديرا (محافظا) لجرجا ، وكان خبيرا فى معرفة من يكل اليه أمر تنفيذ مثل هذه الجريمة ، فاختار رجلا من كبار رجال الوزارة له تاريخ هو يعرفه ٠ وهذا الرجل هو مدير المباحث الجنائية بالوزارة – وتداول الرجلان بما لهما من خبرة لاختيار مخبرين عريقين فى الاجرام ممن عملوا تحت رياستهما فى جرجا ، وقد وقع اختيارهما على ثلاثة مخبرين ٠

وقد استقدما هؤلاء الثلاثة الى القاهرة منتدبين للعمل بالوزارة – دون اسناد أى عمل اليهم – وكان دور رئيس الحكومة ووكيل الداخلية فى الجريمة هو ما أسلفنا فى الفصل السابق من اخلاء جو البلاد من الاخوان بحلهم واعتقالهم وبتجريد المرشد العام من كل سلاح أو حراسة ٠٠ وتكفل رئيس الحكومة وحده باحضار المرشد العام الى دار جمعية الشبان المسلمين فى يوم معين وفى ساعة معينة بحيث لا يغادرها الا ليلا ٠

وكانت مهمة مخطط التنفيذ مدير المباحث الجنائية أن يخصص سيارته الحكومية لتوصيل الجناة الحكوميين الى مكان الجريمة ثم نقلهم – بعد ارتكابها بأسلحة وزارة الداخلية – بعيدا عن مسرح الحادث بآخر سرعة ٠

وكل هذا يتم تحت رعاية السراى الملكية التى كان هؤلاء جميعا فى ذلك الوقت يعتبرونها المعبود القادر على كل شىء ٠٠ ويتم هذا فى ظل الاحكام العرفية بعد تشبيع الجو مدة شهرين – عن طريق الصحف ووسائل الإعلام – بروح القهر الحكومى والارهاب الرسمى ، حتى ان احدا مهما رأى أو سمع لا يجرؤ أن يخاطر بنفسه فيتقدم للشهادة ٠

ونورد هنا شهادة اليوزباشى عبد الباسط البنا شقيق الامام الشهيد حيث يقول امام المحقق :

« كنت ملازما لشقيقى حتى اعتقلونى عندما وجدونى أننى أتبعه بمسدسى لحراسته ٠ وقال : اننى اعتقد أن ما تم حتى الآن فى القضية هو تحقيق مع فريق من ثلاث فرق أو عصابة من ثلاث عصابات تسمى عصابة التنفيذ ٠ أما العصابتان الباقيتان فهما عصابة الآمرة وعصابة التمويه ٠

أما عصابة المؤامرة فتتكون من الملك السابق وابراهيم عبد الهادى الذى اعتقل جميع الاخوان ولم يعتقل حسن البنا الذى كان يقول « أنتم تقتلونى بعدم اعتقالى » • واتخذ عبد الهادى مع الشهيد سياسة تنبىء بخبيث النوايا ، فكان يتظاهر بأنه يريد أن يصل معه الى اتفاق لانهاء التوتر بين الحكومة والاخوان ، وكلف اثنين من الوزراء للمفاوضة معه ، بينما كان يمهد لتنفيذ ما بيت عليه العزم مع بقية العصابة ، ثم استدعاه بواسطة قريبه الاستاذ الناغى الى جمعية الشبان المسلمين حيث تم تنفيذ الخطة •

وقال : وكذلك اشترك فى الجريمة الاستاذ حامد جوده ، فعندما كان رئيسا لبعثة الحج سنة ١٩٤٨ كان الشهيد يؤدى فريضة الحج ، دبرت مؤامرة لاغتياله ، فطن اليها جلالة الملك عبد العزيز آل سعود فعين له حراسة قوية ، وأعطاه سيارة مسلحة لحراسته مما أنهى هذه المؤامرة بالفشل – وقد علمت من تحرياتى الخاصة أن حامد جوده استصحب معه أفرادا من عصابة له من بلده « درنكة » ليقوموا بهذا العمل ، وأنه كان ينوى أن يموه بأن جناة من أقطار أخرى ارتكبوا الحادث • ولعل مما يؤيد ذلك ما جاء بأقوال عبد الرحمن عمار من أن القتلة من قبل امام اليمن •

وعبد الرحمن عمار هو الذى أعد للجريمة عدتها ، واستخدم سلطته لتنفيذها ، فقد أجرى نقل الجناة جميعا كما هو واضح ، وجمعهم حول رئيسهم محمود عبد المجيد • وقد اتضح من غير هذه القضية أن مهمة هؤلاء انما هى القتل • وآخر أفراد عصابة المؤامرة هو مندوب السراى وصفى الذى فضل أن ينتحر •

أما عصابة التمويه لابعاد التهمة عن الجناة فيشترك فيها عبد الرحمن عمار واللواء عبد الهادى الحكمدار وقتئذ واللواء احمد طلعت » أ هـ •

ويتضح من ذلك ان الظروف المواتية ، والوسائل المتاحة التى توفرت لمخططى هذه الجريمة ولمرتكبيها لم يتوفر مثلها لمرتكبى الجرائم من قبل ••• ولكنهم مع كل هذه الاحتياطات وكل هذا الحذر قد أغفلوا طرفا واحدا لخيط رفيع لم يخفوه حين أخفوا باتقان جميع أطراف الخيوط – وكان هذا الطرف هو رقم السيارة •

محنة الاستاذ الليثى برقم السيارة :

١٦ – لقد لقى هذا الشاب محمد يوسف الليثى من العنت والارهاق ، وعانى من فتنة الاغراء ورعب التهديد ، مالا يصبر عليه الا من تولاه الله وربط

على قلبه من أهل الايمان واليقين ·· وكان هذا كله من أجل عزمه على أداء الشهادة ، وابلاغ المحقق برقم السيارة الذى أخذه من الشاب الاسمر الذى قابله فى دار الاسعاف ·

جبهات البوليس الضالعة فى الجريمة :

كان هناك من جبهات البوليس ـ غير الجبهة التى أسند اليها دور ارتكاب الجريمة ـ جبهتان أخريان دورهما حراسة هذه الجبهة ، واتمام اسدال الستار عليها · وهاتان الجبهتان هما :

١ ـ البوليس السياسى ·

٢ ـ الحرس الحديدى ·

أما البوليس السياسى فمعروف وتحدثنا عنه فى الجزء الاول من هذا الكتاب حديثا موجزا وحديثه موصول باسهاب فى هذا الجزء ان شاء الله ·

وأما الحرس الحديدى فقد تبين أن الملك فاروقا كان قد الف عصابة من رجال البوليس ورجال الجيش مهمتها حراسته واغتيال من يعتقد أنه يقف فى طريق عبثه ومجونه · وكان على رأس هذه العصابة الضابط الاميرلاى محمد وصفى الذى كانت وظيفته الرسمية قائد حرس الوزارات ·

وهاتان الجبهتان تصدتا للشاب محمد الليثى حين علمتا أنه عرف رقم السيارة · واليك بعض الاساليب التى لجأت اليها العصابتان فى التصدى له ·· وهو بعض ماقصه هذا الشاب على المحكمة فيما بعد :

الضابط محمد الجزار :

أ ـ محاولاته فى التأثير بالاغراء :

يقول الاستاذ الليثى للمحكمة : وحوالى الساعة العاشرة والنصف من ليلة الحادث ، حضر القائمقام مصطفى حلمى الى الجمعية وسأل عنى وأخذنى الى حجرة السكرتيرية فوجدت السماعة مرفوعة ، وطلب منى ان اتكلم فى التليفون ، وعرفت أن المتكلم هو الصاغ محمد الجزار ، الذى طلب منى أن أكلمه من تليفون أخر بعيد عن الناس ، وسألنى عن معلوماتى ، وطلب منى عدم الادلاء بمعلومات أمام النيابة ، ونصحنى بعدم الشهادة خالص · وقال لى : سارسل لك عربة لتوصيلك الى منزلك حتى تكون مطمئنا وانشهادتك سوف تسبب لك متاعب كثيرة ·

وحوالى الساعة ١٢ مساء حضر مصطفى حلمى مرة أخرى وقال : شوف مين عاوزك على الباب • فوجدت الجزار نفسه • قال لى : الف مبــروك لنجاتك •• أنت مجنون تعرض نفسك لضرب الرصاص؟ وأناجاى مخصوص علشان أنصحك بعدم الشهادة • فقلت لايمكن لان النيابة تعلم أنى شاهد ـ فقال : لا دى مسألة فى ايدينا ، والاخوان المسلمين مش حينفعوك ، واحنـا قطعنا راس التعبان والسم انتهى • فقلت له : أنا قلت للصحفيين على نمرة العربية ، وأنا اللى أحضرت الشيخ البنا من بيته والناس تقول على لابـد شريك فى الجريمة • فقــال : سأعين لك حراســة تمشى وراك ولاتخــاف • والصحافة فى ايدينا ••• فشككت فى الامر فقلت له : أنا يمكن أختلف فى رقم واحد فأقول النمرة ٩٩٧٩ أو ٩٩٩٧ ـ فقــال لى : لازم تغير الرقم كلــه • فرفضت وأخرجت الورقة التى بها رقم السيارة من جيبى فخطفها من يـدى ومزقها وقال : هات ايدك واقــرأ الفاتحة وأنا سأفــرج لك عن توفيق بــلال ومحمود شكرى اللى كلمتنى عنهم •

وبعد ذلك حضرت مجموعة من الضباط من بيـنهم محمد وصفى ، وحضر المحقق • وكنت كلما استرسلت فى الحديث عن نمرة العربية واحد يضربنى بالكرسى من الخلف ، فقلت النمرة ٩٩٧٩ أو ٩٩٩٧ والسيارة سوداء على العموم ، فلقيت وصفى قال : لا النمرة ماهش كده •ولما نزلت حضر لى الضابط ماهر رشدى وهددنى وقال لى : انت ارهابى كبير من الاخوان •

والحق أنى كنت فى أشد ضيق بعد أن غيرت رقم العربة ، حتى أنى كنت اشاهد صورة الشيخ البنا أمامى أينما ذهبت ، كأنما يعتب على لتغيير شهادتى • وبعد ذلك انتظرنا حتى حضر النائب العمومى محمـود منصور (اشرنا اليه من قبل) وقال لى : شرفت ياحضرة شاهد الاثبات • وبعدذلك حضر عبد العزيز حلمى المحقق فقلت له : أنى غيرت النمرة تحت ضغط الجزار والنمرة الحقيقية هى ٩٩٧٩ فاثبت ذلك •

وبعد نصف ساعة اتصل بى الجزار وقال : مبروك أفرجنا عن أصحابك وطلب منى ان اقابله فى محل نيوزبار خلف الجمعية • ولما تقابلنا هناك قال لى : أنت أعصابك تعبانة وهيا نشرب كاسين ويسكى ونفرفش •• وطلب من الجرسون احضار عشاء وكاسين ويسكى ؛ ثلاثة ورفضت الشــرب •• واخذ يسب فى الشيخ البنا ويقول انه راجل ساحر ، وهو الذى قتل الخازندار والنقراشى وسليم زكى ، وسيبك من الجماعة دول ، ومحدش حينفعك ، وخليك تعيش لاولادك ، ويلا نقضى ليــلة كويسة ••• ولازم تروح قســم

عابدين وتغير أقوالك ، وتطلع من جيبك ورقة مكتوب فيها النمرة غلط وتصر عليها ٠٠ فرفضت ٠

وأثناء الحديث التفت الجزار الى فتاة كانت تجلس بجوارنا وابتسم لها وبادلته الابتسام وقال لى : اضحك لها فرفضت وقلت أنا متزوج فقال لى ولا يهمك انامتجوز كمان ٠٠ وأخرج من جيبه رزمة فلوس وقال لى دى هدية لك من الحكومة مبلغ ٥٠٠ جنيه (خمسمائة جنيه) علشان تروح القسم ، ولو أردت أى مبلغ آخر لما تروح النيابة أنا مستعد ٠٠ فاعتبرت ذلك جرحا لشعورى ورفضت ٠ وبعدين عرض على الفلوس ثانى للذهاب للقسم ساعتها فرفضت ٠ وقبل ما أقوم أخرج ورقة وقال لى ٠ اكتب رقم العربية ٧٩٩٩ أحسن تنساها ، فأنا قلت له : لا أنا فاكرها واحنا على العموم حنتقابل بكره وروحت ٠

وفى هذا اليوم نمت خارج البيت ٠ وخفت منه لانه ضابط بوليس ، وتذكرت حديثه معى وتهديده لى - ونزلت الصبح بدرى ، وقعدت على القهوة، وطلبت حرم اللواء صالح حرب فى التليفون ، وقلت لها : أنا عاوز أقابلك فى أمر هام نظرا لسفر اللواء صالح فى أسوان ٠ ورحت لها البيت وسألتنى عن الحادث فذكرت لها ما حدث بينى وبين الجزار ٠ فقالت لى : اتصل بالاستاذ مصطفى الشربجى فاتصلت به فقال : أنت تروح للاستاذ فتحى رضوان وتفهمه الموضوع لانه هو اللى ماسك قضايا الاخوان وتقول له الشوربجى هو اللى قال لى أروح لك ويروح معك النيابة ٠

وبعد كده رحت الجمعية وقابلت السكرتير والمراقب بها ، وقلت لهما القصة ٠ فاتصلوا بزكى على وكيل الجمعية فرحت له الوزارة لانه كان وزير فى وزارة عبد الهادى وقصيت له القصة فقال لى ٠ مافيش مانع تقول الحقيقة٠

واتصلت بالاستاذ فتحى رضوان فقال لى : تعال عندى المنزل بمصر الجديدة ٠٠ لما ذهبت اليه اعتذر عن الذهاب معى للنيابة لعدم جواز حضور المحامى مع شاهد ٠ فاتصلت بعد ذلك بالاستاذ أبو الخير نجيب وكان محررا بجريدة الاهرام ، فاقترح على الاتصال بعمر عمر نقيب المحامين لاخذ رأيه فى الموضوع فاتصلت به فلم أجده ٠

فذهبت الى النيابة وأدليت لها باقوالى ، وذكرت لهم كل التفاصيل التى دارت بينى وبين الجزار سواء بالتليفون أو أثناء مقابلاتى له ٠٠ ولقد دهشت ياحضرات المستشارين عندما علمت على لسان الجزار أن شاهدا هو الاستاذ حسنى عباس المدرس بكلية التجارة قد ذكر رقما للسيارة التى

ارتكبت الحادث يخالف الرقم الحقيقى الذى تأكدت منه ، وطلب منى الجزار أن أتوجه لقسم عابدين لاؤيد رواية هذا الشاهد فاعتقدت أن هذا الكلام غير صحيح والمقصود هو تغيير رأيى بأى وجه من الوجوه ٠

ولقد أرسلت تلغرافا الى النيابة أطلب منها حمايتى نظرا لما أدليت به فى حق البوليس السياسى ٠

ب ـ أسلوب فاجر لوصم الشرفاء :

كان ضباط البوليس السياسى يختارون من بين ضباط البوليس الذين لا ضمير لهم ولا حياء عندهم ولا خلق ولا دين ٠ ولذا فانهم كانوا يستبيحون كل منكر ، ويرون اللجوء الى الكذب والافتراء والصاق التهم بالبرءاء وسائل مشروعة لا يؤنبهم عليها الضمير لانهم خلو من الضمير ٠٠٠

ومن هذه الوسائل أنهم اذا حاولوا تجنيد انسان لخدمة أهدافهم الدنيئة ففشلوا فى تجنيده ٠٠ يرمونه بأنه كان عميلا لهم ، وأنه كان يأخذ من الاموال السرية ٠٠ وهذه التهمة من السهل عليهم رمى أى انسان بها لانه كان من حق أى ضابط فى البوليس السياسى أن يطلب من الاموال السرية ما يشاء وينفقها كما يشاء ، دون أن يطالب بتسجيل طريقة انفاقها فى سجل معين ٠٠ فاذا رمى ضابط منهم انسانا بأنه كان عميلا له ، لم يجد هذا المتهم وثيقة يرجع اليها فى دفع هذا الاتهام ٠

وقد حاول الضابط الجزار ـ من قبل حل الاخوان بزمن طويل ـ تجنيد الليثى لينقل اليه أخبار جمعية الشبان المسلمين وأسرارها فلم يفلح ٠ وكان الليثى يخبر اللواء صالح حرب أولا بأول بمحاولات الجزار معه ٠٠ فلما لم يفلح وجاء حل الاخوان ، وفتحت جمعية الشبان المسلمين دارها للمرشد العام ، ووضعت الحكومة خطة لاغتياله ، وارتكبت الجريمة ، وحصل الليثى على رقم السيارة ٠٠ أعاد الجزار محاولاته مع الليثى بالاسلوب الذى رواه أمام المحكمة ٠ ولما انتهت محاولاته بالفشل أيضا واسقط فى يده ٠ لجا الى الاسلوب الذى أشرنا اليه ، وهو الاسلوب الوضيع من رمى الليثى بالعمالة للبوليس السياسى ٠٠ ولكن الليثى استطاع أن يثبت زيفه ، ويبين كذب ادعائه وتناقضه مع نفسه اذ قال فى شهادته :

« وفى النيابة فوجئت بأنهم يعتبروننى من رجال البوليس السياسى ٠ وكان المحقق ليس من رجال النيابة بل هو توفيق السعيد زميل الجزار ٠ ودهشت حين قال لى السعيد : ان الجزار استغنى عن خدماتك لانك لا تقدم تقارير عن الجمعية فانا استغربت لانه لو كنت من البوليس السياسى حقيقة

لما أمكن للجزار الاستغناء عنى وخصوصا فى هذه الفترة التى كان يتردد فيها الشيخ البنا على الجمعية وكان فى حاجة الى من يمده بالمعلومات ٠

الاميرلاى محمد وصفى ممثل الملك فى الجريمة :

حتى بعد أن تم ارتكاب الجريمة ، أرادت الجبهتان الاطمئنان الى ما تحقق مما هدفوا اليه من خطتهم وهو ازهاق روح حسن البنا لا مجرد الاعتداء عليه ٠ يقول الاستاذ الليثى فى شهادته : « ذهبت الى القصر العينى ورأيت الاستاذ الامام حين أدخل حجرة العمليات ، وكانت حالته فى نظرى غير خطيرة ، بدليل أنه حينما طلب الدكتور من التومرجى خلع ملابس الشيخ البنا هب الشيخ وجلس وخلع ملابسه بنفسه ، كما انهم لما طلبوا أخذ عنوان الاستاذ عبد الكريم منصور رد الشيخ البنا وقال : اتركوا عبد الكريم لان حالته خطيرة وأعطاهم هو العنوان ٠

وبعد ذلك وجدت شخصا يقول للدكتور : أنا جاى من قبل الحكمدار لاعرف حالة الشيخ البنا ٠ فرد الدكتور بأن حالته ليست خطيرة ٠٠ فانتهزت الفرصة وقلت لذلك الشخص انى أعرف نمرة السيارة ، فنظر الى بسخرية دون أن يتكلم ٠ وعرفت بعد ذلك أنه الاميرلاى محمد وصفى » ٠

هذه الجبهات كانت تعد للجريمة منذ زمن طويل :

ويجدر بنا هنا أن نلفت النظر الى أمرين من الاهمية بمكان :

أولهما : أن هذه الجبهات كانت تمهد للجريمة من قبل وقوعها بزمن طويل ، فبعد صدور أمر الحل وما تبعه من اعتقال ومن عزل الاستاذ المرشد العام عن الاخوان وتجريده من كل سلاح يدافع به عن نفسه ، صور لهم الوهم انه قد يكون مرتديا تحت ملابسه درعا يحميه من وصول الرصاص الى جسمه اذا ما هو ضرب بالرصاص ٠

يقول الاستاذ عبد الكريم منصور فى شهادته :

« بعد صدور قرار الحل ، قرر الاستاذ الامام رفع دعوى امام مجلس الدولة يطالب فيها بالغاء امر الحل ٠ وعند دخولى انا والاستاذ مجلس الدولة فتشنا ، وجاء شخص فتش الاستاذ الامام تفتيشا عجيبا كانه يبحث هل هو يلبس درعا ٠ ولما سألت عن هذا الشخص قيل لى : انه شخص غريب وانه مرسل من قبل الاستاذ الدماطى مدير مكتب رئيس الوزراء ٠

وثانيهما : تبين من وصف الاستاذ الليثى لحالة الاستاذ الامام وهو

فى حجرة العمليات بالقصر العينى ومن رد الدكتور الذى كشف على جسم الاستاذ الامام ــ على استفسار محمد وصفى عن حالته « ان حالته ليست خطيرة » ··· ومعنى ذلك أن علاجه ممكن وميسور ·· فى حين أن حالة الاستاذ عبد الكريم منصور هى التى كانت خطيرة بدليل أنه لم يستطع الاجابة عن عنوانه حين سأله الطبيب عنه وتولى الامام الاجابة عنه ··· فكيف يستقيم هذا مع النتيجة التى انتهت اليها حالة هذين المصابين ···؟

بعد ساعات تعلن وفاة الاستاذ الامام وشفاء الاستاذ عبد الكريم منصور ··ما هذه المفارقات المذهلة ؟ ··· ان التعليل الذى يسيغه العقل ، والذى تناقله الناس فى ذلك الوقت عن شهود عيان من موظفين وعمال كانوا يباشرون عملهم بالقصر العينى فى تلك الليلة أن أمرا عاليا صدر ــ بعد تبليغ تلك الجهة العالية بحالة الاستاذ الامام عن طريق محمد وصفى ــ بأن يترك الاستاذ البنا بالقصر العينى تنزف جراحه حتى يموت ·

١٧ ــ الدرك الاسفل من النذالة والخسة :

بلغ من خسة هذه الحكومة بعد أن ارتكبت الجريمة النكراء ان ادخلت جثمان الامام الشهيد الى منزله وسط مظاهرة من رجال البوليس شاهرة المسدسات والبنادق فى وجه سيدات أسرته العزل من كل سلاح · وأرغمت السيدات على حمل الجثمان الى النعش · ولم يسمح لواحد من رجال هذه الاسرة بالاقتراب من الجثة ··· حتى القرآن حرم عليهم تلاوته ·

ثم نقل النعش وسط هذه المظاهرة المسلحة الى مسجد قيسون القريب من المنزل ، ولم يسمح لاحد بالصلاة عليه ولا بالدخول الى المسجد الا لوالده· ثم نقل الجثمان الى المقابر ، ولم يسمح لاحد بتشييعه ، حتى ان البوليس كان اذا رأى أحد المارة يقرأ الفاتحة باعتباره يرى ميتا اى ميت ، كانوا يلقون القبض عليه ·· وقد خاطر بعض الناس بزيارة قبره فاعتقلوا ··· ولم يستطع احد من تقديم العزاء فيه الا مكرم عبيد باشا ··· وظلت الحراسة المسلحة قائمة على القبر حتى تغير العهد ·

عنصر الزمن :

١٨ ــ قلنا فى البند الخامس عشر ان مخططى الجريمة ــ بالرغم من توفر جميع وسائل الحذر والحيطة والذكاء لهم قد اغفلوا شيئا واحدا هو طرف خيط رفيع تمثل فى رقم السيارة التى ارتكب بها الحادث ·· ونقول الآن ان اغفالهم هذا الطرف لم يكن وحده كافيا لكشف جريمتهم ولا لفضح مؤامرتهم

.. ولكن العنصر الذى أغفلوه حقا وكان كافيا لكشف جريمتهم وتعرية سوءاتهم هو عنصر الزمن .

وهذا العنصر مع بالغ أهميته ، وخطير أثره يغفله أكثر مخططى الجرائم ويتعامون عنه مع انه ظاهر ملموس . وكلما كانت امكانات المخططين أعظم كان اغفالهم لهذا العنصر أكثر .. فاذا كان المخططون أصحاب السلطة كان اغفالهم له اغفالا تاما ، لانهم فى هذه الحالة يكون قد سيطر عليهم الشعور الذى صورته الآية الكريمة « حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت **وظن أهلها أنهم قادرون عليها** » .

فالسلطة التى كانت تتمتع بها حكومة السعديين فى ذلك الوقت كانت سلطة مطلقة ، فهى تباشر الحكم وهى تحس أنها ربيبة واهبى السلطات جميعا ابتداء من الملك وانتهاء بالدول العظمى فى العالم ، ويتخلل ذلك برلمان مصنوع يدين لها بالولاء .. ذلك أنها تنفذ الخطة التى أجمعت عليها كل هذه السلطات .. ولقد كانت هذه السلطات دائبة البحث عن منفذ مصرى فاجر لخطتها .. فاذ وجدوه فى هذه الوزارة ، فلم لا يمنحونها السلطة المطلقة والتأييد الابدى ؟ !

ولو أطلع مطلع على مخيلة ابراهيم عبد الهادى فى ذلك الوقت ، لما وجد فيها أثارة باحتمال فقده للسلطة المطلقة التى كان يتمتع بها أو حتى الانتقاص منها .. وكيف تفقد أو تنتقص وهو على الولاء التام الكامل لواهبى السلطات وتحت يده برلمان لا يعصى له أمرا ؟ !

ولهذا ، فحين أوشكت فترة الاحكام العرفية على الانتهاء ، طلب من هذا البرلمان مدها لمدة سنة أخرى ، فاستجاب له مجلس النواب بما يشبه الاجماع ، كما استجاب له مجلس الشيوخ ولم يعارض فيه الا ثلاثة عشر عضوا .

ومن العجيب أن هؤلاء الذين لا يعترفون بعنصر الزمن هم أولى الناس بالاعتراف به .. فحسبهم أن ينظروا الى أنفسهم ويسائلوها : كيف آل الينا الحكم ؟ الم يؤل الينا على أنقاض آخرين سبقونا ؟ واذن فلابد اننا تاركو هذا الحكم لغيرنا راضين أو كارهين .. وهذا هو الذى قرعت به الآيات المحكمات آذان هؤلاء الغافلين فى قول الله تبارك وتعالى « أو لم تكونوا اقسمتم منقبل مالكم من زوال؟وسكنتم فىمساكن الذين ظلموا انفسهم،وتبين لكم كيف فعلنا بهم ، وضربنا لكم الامثال . وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ان الله عزيز ذو انتقام » .

وهكذا شهد الاستاذ محمد الليثى امام المحقق برقم السيارة ، وابلغ

جريدة « المصرى » بالرقم فنشرته ٠٠ وكان هذا هو كل ما فعله طرف الخيط الرفيع الذى أغفلوه ٠٠٠ فهل أجدى وحده ؟

لم يستطع وحده أن يغنى فتيلا ٠٠ فقد صودرت جريدة « المصرى » ٠ وقد سأل المحقق الاستاذ محمود يوسف الموظف بدار الكتب والذى كان رقيبا للنشر بجريدة « المصرى » فى ذلك الوقت فقال انه حذف ما حذف عن مقتل الاستاذ حسن البنا ورقم السيارة بناء على تعليمات تليفونية من الاستاذ توفيق صليب مدير الرقابة ٠ وسئل الاستاذ أنور حبيب فى ذلك فأحضر الملف الخاص بالرقابة على « المصرى » يوم الحادث ـ وقد قام المستشار المحقق بالاطلاع على مجلد الرقابة المذكور فتبين فيما يختص بيوم الحادث انه يحوى البيانات الآتية :

« تعليمات لحضرات الرقباء الساعة الحادية عشرة والنصف مساء ١٢ فبراير ١٩٤٩ ٠ حادث اطلاق الرصاص أمام جمعية الشبان المسلمين ، ينشر الحادث كما وقع أى مجرد وقائع مجردة عن المقدمات والتعليقات والعنوانات الكثيرة ولا تنشر صور فوتوغرافية بتاتا ، ولا شىء عن جماعة الاخوان المسلمين المنحلة ٠ وكل ما يراد نشره بعد تنفيذ هذه التعليمات يعرض قبل التوقيع باجازة النشر ٠ وكل ما هو معروف الى الآن « أن الشيخ حسن البنا كان خارجا من جمعية الشبان المسلمين ومعه آخر فأطلق مجهول الرصاص عليهما ونقلا الى القصر العينى » ٠ وقد أرفق بها بروفات « المصرى » التى اشر عليها الرقيب بالحذف ».

هذا هو ما كان من أمر رقم السيارة ونشره بجريدة «المصرى» ـ كما أن النائب العام فى ذلك الوقت كان صنيعة العهد محمود منصور وقد أمر بحفظ التحقيق وتقييد الجناية ضد مجهول ٠ ولم يستطع احد ـ تحت سيف الارهاب الحكومى الفاجر ـ أن يدلى بشهادة أو أن ينبس ببنت شفة ٠٠٠ وقتل حسن البنا وورى التراب ووورى معه قضيته ، واعتقد الجناة انهم قد دفنوا هذه القضية فى أعماق الاعماق وتحت أطباق الثرى يوم دفنوا جثة فريستهم دون ان يراها احد أو يشيعها أحد ٠

وهنا صفا لهم الجو « **وظنوا أنهم قادرون عليها** » وأخذوا فى مكافأة كبير المنفذين للجريمة صاحب السيارة التى نشر رقمها فى جريدة « المصرى » وشهد به الشاب الخاطر الاستاذ الليثى ٠٠ فقد ظهر فى الصحف علنا فى يوم ١٩٤٩/٧/٤ ما يأتى :

« تفضل جلالة الملك فانعم برتبة البكوية من الدرجة الثانية على حضرة الاميرالاى محمود بك عبد المجيد مدير المباحث الجنائية بوزارة

الداخلية – وقد قوبل الانعام السامى بالاغتباط لمايبديه حضرته من جهود فى خدمة الامن » .

طغيان مسعور :

١٩ – هذا الشعور الذى استولى على تفكير هذه الحكومة ، والذى أشرنا اليه بقوله تعالى « **وظنوا انهم قادرون عليها** » دفع بهم الى طغيان مسعور ، فملأوا السجون والمعتقلات .. وقد فتح ابراهيم عبد الهادى خزانة الدولة على مصراعيها لرجال البوليس ، يكافأ الواحد منهم بقدر ما يورد للمعتقلات من أفراد الشعب . حتى ان الصحف نشرت فى ١٩٤٩/٥/٤ أن شابا كان ماشيا فى حى السيدة زينب بالقاهرة فاعترضه رجال البوليس وسألوه عن اسمه فارتبك – كشأن أى شاب صغير يفاجأ بمثل ذلك – وبتفتيشه وجدوا فى جيبه ورقة بها أبيات من الشعر تذم رئيس الوزراء ، فاعتقلوه واعتقلوا الطالب الذى قال الشعر . والطالبان هما عبد الله المنياوى وزميله الشاعر مهدى محمد يوسف الطالبان بمدرسة المنيرة الثانوية .

ومع دلالة هذه الحادثة الصغيرة على مدى تشوف رجال البوليس فى تلك الحقبة من الزمن الى الاغتراف من خزينة الدولة المفتوحة لهم ، والمشروط الاغتراف منها بمدى التهجم على الشعب ، فانها تدل أيضا على مقدار ما يكنه الشعب لهذه الحكومة من كراهية ومقت وما تحسه هى نحوه من شكوك وفزع .

وبدافع من هذا التشوف ، قام البوليس – تحت قيادة البوليس السياسى – بحملات مكثفة على بيوت الاخوان لاعتقالهم بغير مبرر . وقد أدى هذا الاعتداء وهذا التحدى الى ترك كثير من الاخوان بيوت أهليهم الى بيوت أخرى استأجروها ، هربا من الاعتقال واشفاقا على أهليهم من غارات البوليس – ولكن البوليس مع ذلك تتبعهم وطاردهم فقتل بعضهم وقبض على بعض آخر ، ناسبا اليهم تدبير مؤامرات لقلب نظام الحكم ، مدعيا عليهم حيازتهم لاسلحة ومتفجرات ، وسمى المنازل التى اختفوا فيها هربا من الاعتقال سماها أوكارا .

ولما رأى شباب الاخوان المطارد أن الحكومة قد فعلت بالاستاذ المرشد ما فعلت ، وأنها تواطأت ودبرت مؤامرة اغتياله ، ثم انها بعد ذلك حفظت التحقيق وقيدت القضية جناية ضد مجهول – اثار ذلك بعض هذا الشباب فأرادوا أن يقتصوا بأنفسهم من القاتل الحقيقى ابراهيم عبد الهادى . فتربص عدد منهم له فى طريق عودته الى منزله – مع علمهم بأنه لا يتحرك

الا وسط جيش لجب من الحراس ٠٠ ولكن تبين أن الذى مر فى ذلك الوقت كان حامد جود مرئيس مجلس النواب وقبض على هؤلاء الشباب ٠

وسنفرد ان شاء الله لهذه القضايا وما تم فيها من محاكمات وتحقيقات وتلفيقات وأساليب وحشية تكشف عن حقيقة هذا العهد ومخازيه فضلا خاصا ٠

وقد جاء وصف لهذا الطغيان المسعور فى الكلمة التي اوردناها فى الفصل السابق للواء صالح حرب ، ونورد وصفا آخر لهذا الطغيان جاء فى بيان نشره فى ١٩٤٩/٧/٥ بجريدة « المصرى » الاستاذ أحمد حسين رئيس حزب مصر الفتاة بعد رجوعه من لندن قال فيه :

« وفى وسط هذا الجو الذى عشته فى انجلترا ، تلقيت من الوطن أنباء تجديد الاحكام العرفية التى يعتبر العالم مجرد اسمها يرمز الى طراز من الحكم قد انقضت ايامه الى غير رجعة ٠٠ فوقع على هذا النبا موقع الصاعقة٠ ولم يزدنى السبب الذى أعلن تبريرا لهذا الاجراء الشاذ الا فزعا واستنكارا، فقد قيل ان الاحكام العرفية جددت بسبب حوادث الارهاب ٠

ان الجميع يعلمون أن هذه الحوادث الارهابية لم تنشأ الا فى ظل الاحكام العرفية وما تخوله للحكام العسكريين من سلطة مطلقة من شأن مزاولتها ايغار الصدور ٠ فهل سنظل ندور فى دائرة مفرغة ، بمعنى أن يشتد القمع فيولد الارهاب ، فنبقى محكومين بالاحكام العرفية الى ما شاء الله دون عباد الله اجمعين ؟ !

وعدت الى مصر فوجدت آلافا من الشباب لا تزال المعتقلات تغص بهم ٠ ولا يكاد الانسان يفتح اليوم صحيفة من الصحف الا ويطالع فيها نبأ الهجوم على أوكار ارهابية جديدة أو خلايا شيوعية ، والقبض على الناس بالجملة، وتفتيش البيوت بالعشرات والمئات ٠٠ وليست هذه البيوت التى تفتش فى نهاية الامر الا بيوتا مصرية ، وليس هؤلاء الذين يقبض عليهم سوى نفر من ابناء الامة المتعلمين ٠٠ والتسليم بأن هؤلاء جميعا ارهابيون أو شيوعيون معناه ان شباب مصر كله قد تحول الى شيوعى او ارهابى ، ويكون هذا فى حد ذاته قضاء على الحكم الحاضر بالافلاس ٠

وتوضع الآن قوانين تجعل مجرد حيازة كتاب من الكتب جريمة ، وتفرض عشر سنوات من الاشغال الشاقة لا على المشتغلين بالشيوعية والتى حددها القضاء المصرى تحديدا فنيا ممتازا فانها صورة من العمل على قلب نظام الحكم بالقوة ، ولكن هذه العقوبة تشمل عبارات واقوالا ما فتئنا ننادى

بها جميعا منذ سنوات لا فرق فينا بين حزب وحزب أو بين جماعة وجماعة ، دون أن يعتبر هذا اثما أو أمرا غير مشروع .

أى أن الامر قد تحول كله الى سد الثغرات والمنافذ التى يمكن للناس أن يتكلموا من خلالها أو أن يعبروا عن أفكارهم فى حرية واطمئنان . والامر كله هو قمع وبطش على كافة الصور والاشكال فى سائر الاتجاهات يمينا وشمالا .

واننى أرى أن ذلك كله دليل على أننا نعيش فى أوضاع خاطئة ، وأن الاستمرار فى هذه الاوضاع لا يعود على أحد بالخير أو الفائدة ، بما فى ذلك الذين يظنون اليوم أنهم يستفيدون بهذه الاوضاع .

وحسبى الى أن أشير الى ما قاله ممثل اسرائيل فى هيئة الامم المتحدة، وسط تصفيق دول العالم عندما قبلت دولة اسرائيل عضوا بالهيئة حيث قال : اننا لم نذهب الى فلسطين لتأليف دولة يهودية فحسب ، ولكننا ذهبنا لنحمل الى الشرق الاوسط الحرية والديمقراطية التى لم يستمتع بها أهله منذ أجيال وقرون ، ونرفع مستوى حياتهم الى مصاف الامم الراقية .

ثم قال الاستاذ أحمد حسين : ولما كنت لا أملك من الامر شيئا الا ايمانى واخلاصى لبلادى ، فلم يبق أمامى الا الاعتكاف فى الريف ، والابتعاد عن الحياة السياسية فى الوقت الحاضر ، حتى يقتنع الجميع بأن استمرار هذه الحالة الحاضرة وتجاهل ارادة الشعب ، بل ومناوأته بهذه الاساليب من شأنه أن يمعن فى العودة بمصر القهقرى » .

ولعل قد استبان للقارىء من الاشارات التى وردت فى هذه الكلمة صورة الحالة التى آلت اليها البلاد فى تلك الايام السوداء .. حتى لقد بلغ الهلع بهذه الحكومة ازاء ما تشعر به من معاداتها للشعب ومقت الشعب لها ان صارت تشتبه فى كل مصرى وفى كل مواطن حتى ان رئيس الوزارة أصدر أمرا فى ١٩٤٩/٧/٦ بتفتيش السفن فى ميناء الاسكندرية للقبض على المشتبه فيهم ... ويجدر بنا هنا أن نشير الى أن الاستاذ أحمد حسين قد تمكن من اصدار هذا البيان وأن جريدة « المصرى » قد تمكنت من نشره ، لان الاحكام العرفية كان ينتهى العمل بها فى منتصف شهر مايو ١٩٤٩ وتعمل الحكومة على مد العمل بها سنة أخرى . وتحت ضغط المعارضة فى مجلس الشيوخ تقرر تخفيف هذه الاحكام فى أثناء فترة اجراء الانتخابات التى كان قد حان ميعادها ، وقد تناول التخفيف فى خلال هذه الفترة موضوع الرقابة على الصحف .

اطمئنان الى الخلود فى الحكم :

٢٠ ـ مع أن البرلمان بمجلسيه كان العوبة فى يد هذه الحكومة ، تستصدر منه ما تشاء من قوانين استثنائية شاذة ، فان أقلية ضئيلة فى مجلس النواب من أعضاء أحرار يمثلون الحزب الوطنى والمستقلين ، واقلية اخرى من أعضاء حزب الوفد فى مجلس الشيوخ ، بدأت تثير غبارا فى وجه هذه الحكومة ٠

ففى مجلس الشيوخ قدم استجواب عن استغلال الاحكام العرفية فى التضييق على حرية النشر والصحافة ، وفى مجلس النواب قدم استجواب بهذا المعنى ٠ كما قدم طلب مناقشة فى موضوع الحكم العرفى ومبرراته بعد عقد الهدنة الدائمة فى فلسطين واتفاق رودس والموقف العسكرى والسياسى فى فلسطين ٠

ومع أن رئيس الحكومة قد استطاع بأغلبينه العددية الساحقة فى المجلسين أن يتفادى تأثير ذلك كله على حكومته ، فانه رأى أن تكرار مثل هذا الهجوم قد يحرجه فى يوم من الايام ، لا سيما وهو ـ وان كان يعتقد انه مخلد فى الحكم ـ فانه لا يستطيع مع ذلك أن يبقى على الاحكام العرفية الى الابد ٠٠٠واذن فلابد من حل ماكر يواجه به هذا التحدى ويضمن له الاطمئنان الى أن هذه السلطة المطلقة التى يتمتع بها ستظل فى يده فى المستقبل ٠

وتلخص الحل الذى اهتدى اليه فى وسيلتين احداهما مؤقتة والاخرى دائمة :

اما الوسيلة المؤقتة فهى أن يطلب مد الاحكام العرفية مدة عام ٠ وسيحل موعد الانتخابات فى خلال ذلك العام ، وسيجريها بنفسه ،وسيحصل طبعا على الاغلبية الساحقة ويظل فى الحكم ٠٠ وقد يستطيع بمجلسه الجديد ـ الذى قد لا يدع لغير أتباعه فرصة دخوله ـ أن يمد الاحكام العرفية سنة اخرى أو سنتين ٠

واما الوسيلة الدائمة ، فهى أن يسن تشريعا يسميه « تشريع تنظيم الجمعيات » يودعه كل مافى الاحكام العرفية من قيود ، بحيث يكون تكوين الجمعيات فى مصر مستحيلا الا أن تكون فرعا من فروع الحزب الحاكم تحت اسم مغاير لاسم الحزب ٠ وسنفرد لهذا التشريع فصلا مستقلا لبالغ اهميته ان شاء الله ٠

وتقدم الى برلمانه الحالى يطلب مد الاحكام العرفية لمدة سنة أخرى فوافق البرلمان فى الحال . وتقدم اليه أيضا بمشروع قانون لتنظيم الجمعيات فأحيل الى اللجنة التشريعية بمجلس النواب لاعداد تقريرها عنه .. ولم تطلب الحكومة الى برلمانها نظر هذا التشريع على وجه الاستعجال ، حيث لا داعى فى نظرها لذلك إذ أمامها عام كامل ستحكم البلاد خلاله بالاحكام العرفية .

فى انتظار المكافأة :

٢١ ـ صفا الجو لحكومة ابراهيم عبد الهادى بعد أن أدت المهمة الكبرى التى كان عليها انجازها ، فقد أزالت العقبة الكئود من طريق أولياء نعمتها ، بالتنكيل بالاخوان المسلمين واعتقالهم ، واغتيالهم المرشد العام فى جنح الظلام ، والقاء ستار كثيف من الضباب حول هذه الجريمة مما حجب الرؤية حجبا كاملا .. ثم أمنت بعد ذلك ظهرها للمستقبل ، فمدت الاحكام العرفية سنة جديدة ، وبدأت فى وضع مشروع لتنظيم الجمعيات ... ثم جلست بعد ذلك تنتظر من أولياء نعمتها المكافأة .

ولم يخطر ببال عبد الهادى أن تكون مكافأة تجديد فترة حكمه لخمس سنوات أخرى .. فهذا كان فى نظره وفى نظر الناس المعاصرين أمرا مفروغا منه ، كما أنه لم يفكر فى أن تكون المكافأة توسيع رقعة أملاكه من الارض الزراعية ، فهذا أمر فى يده هو باعتباره رئيس الحكومة وقد زاد الرقعة التى يملكها حتى صارت عشرة أضعاف ما كان يملك .

أما ما كان ينتظره مكافأة له ، فهو أن تأتيه المكافأة فى صورة انعام ملكي سام بالرتبة التى طالما حلم بها لتضعه فى البروتوكول وفى التاريخ فى مصاف النحاس باشا وعلى ماهر وحسين سرى باشا ، رتبة « حضرة صاحب المقام الرفيع » .

ولا يعجب القارىء لهذا النوع من الآمال . فلكل عهد سماته وأوضاعه وآماله . وكان من سمات هذا العهد التهالك على الرتب والالقاب ، وماتضفيه هذه الالقاب على صاحبها من أبهة وانتفاخ فى المجتمع الذى يعيش فيه ، مما يذكرنا بقول الشاعر الاندلسى :

مما يزهدنى فى أرض أندلس ... ألقاب معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها ... كالهر يحكى انتفاخا صولة الاسد

اما الشعب السكين المغلوب على أمره ، المنكوب بزعمائه ورؤسائه ، فلم يكن أمله الذى يحلم به يتعدى أن يرى هذه الحكومة ـ حكومة الملك ـ قد خففت من وطأة ظلمها ، ورفعت عن ظهور المواطنين سياط جلاديها ... أما تغيير الحكومة فأمر لا يخطر بخيال أحد ، لانها حكومة الملك ، جاء بها لتوطد أقدامه ، وقد وطدتها بتحقيق ما كان يأمله ، فأمنته من خوف كان يقض مضجعه ومضجع سادته الانجليز .

ولكن فريقا واحدا من هذا الشعب كانت آماله أوسع من ذلك مدى ، وأرحب أفقا ، وأبعد طموحا .. وكان هذا الفريق هو « الاخوان المسلمون » ، الذين كانوا يتربصون بهذه الحكومة وأولياء نعمتها عنصر الزمن ، فكانت آمالهم معقودة بخالق الزمن والمتصرف فيه .. ولو أن الاخوان المسلمين غفلوا لحظة عن ايمانهم بخالق الزمن الذى « يخلق مالا تعلمون » لما ثبتوا فى موقفهم لحظة ، ولما واصلوا كفاحهم للطغيان حزن عوادة ساعة من نهار ...وهل يستطيع من ملأ اليأس قلبه أن يثبت على قدميه ؟ ...

وسوف يرى القارىء فى فصل قادم ان شاء الله أن الاخوان المسلمين قد تحملوا فى خلال هذا العهد الاسود المنكود ما نعزه بحملة الجبال ، « فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا » ... وكما بهروا العالم بشجاعتهم المنقطعة النظير فى حرب فلسطين ، فقد أخذوا بلبه بثباتهم على مبدئهم واستمساكهم بعقيدتهم وهم فى أتون التعذيب والقهر والاهانة والتنكيل .

وعلى حين غرة من الجميع فعل عنصر الزمن فعله . فوقف الشعب كله مشدوها فاغرا فاه شاخصة أبصاره لهول ما رأى وما سمع ... لقد قذف مصرف الزمن وخالق كل شىء بمفاجأة خيبت ظنون الظالمين ، وقضت على أحلامهم ، وشتتت النوم من عيونهم ، فقد جاءهم الشر من حيث انتظروا الخير ، وأتارهم العذاب من حيث كانوا يترقبون المكافأة .. فاذا الخير الذى ينتظرون ، والغيث الذى يترقبون .. ريحا صرصرا عاتية ، اقتلعتهم من مقاعدهم وألقت بهم بعيدا فى عالم النسيان فكان حالهم كما قال الشاعر الحكيم :

اذا كان غير الله للمرء عـدة   اتته الرزايا من وجوه الفوائد

وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون

ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى

٢٢ ـ كان الاخوان فى ذلك الوقت فى معتقلاتهم وفى سجونهم وكنت انا

فى منفاى الذى اختاروه لى – مما يأتى بيانه بعد قليل ان شاء الله – وكنا نتلقى فى كل يوم من الحكومة مطارق جديدة على رءوسنا ، ففى كل يوم مطاردة ، وفى كل يوم قبض ، وفى كل يوم مؤامرة ، وفى كل يوم تهم جديدة ومحاكمة ، وفى كل يوم أوامر متلاحقة بالتضييق والتهديد والتنكيل ٠٠ وقد وطنا انفسنا على ذلك نستقبله استقبال الامر المتوقع ٠٠ ولكننا مع ذلك ، ومع انغلاق جميع المنافذ أمامنا لم يخامرنا اليأس من رحمة الله ٠٠ ولكن كيف تنفذ الينا هذه الرحمة والمنافذ كلها محكمة الاغلاق ؟ هذا ما كنا نتركه لقدرة الله وارادته ٠

رؤيا لى نادرة : وقد كنت انسانا قليل الرؤى بل أكاد أكون عديمها ٠٠ وطالما شكوت ذلك الى الاستاذ الامام فكان يطمئننى بأن هذا ليس عيبا يعيب المؤمن ٠٠ وقد مكثت الفترة الاولى التى مكثتها فى منفاى – أكثر من خمسة أشهر – لم أر خلالها رؤيا واحدة ٠٠ ولكننى فى احدى ليالى الثلث الاخير من شهر يوليو ١٩٤٩ وكان ذلك موافقا لاحدى ليالى العشر الاواخر من شهر رمضان رأيت رؤيا طويلة زاخرة أذهلتنى وأطارت لبى وأثارت وجدانى وأرسلت دموعى ٠

وحين أحاول الآن – بعد ثلاثين عاما – أن اتذكر تفاصيل هذه الرؤيا أجد أكثر هذه التفاصيل قد بهتت فى خاطرى حتى لا أكاد أراها ٠٠ ولكن الذى لا يزال ماثلا أمامى منها حتى الآن هو منظر الاستاذ الامام واقفا على منصة عالية ٠ ونحن – عددا غير قليل من الاخوان – بين يديه يحدثنا ويوجهنا ويوصينا وكأنه يريد أن يشعرنا بأنه مغادرنا ٠ ووصاياه كلها فى الحرص على الاخوة والترابط والحث على الصبر ٠٠ وكان شعورى بما يعتزمه من مفارقتنا قد جعل دموعى تنهمر لا أقوى على مدافعتها ٠٠ وقد أكثرت أنا وزملائى من الاستفسار منه عن أمور كثيرة ، وكنا فى عجلة فى توجيه الاسئلة اليه قبل أن يغادرنا المغادرة التى نشعر أن لا لقاء بعدها ٠٠٠ وكنت حريصا على أن التزمه واعانقه عناقا حارا طويلا ثم أمسك به حتى لا يفارقنا ٠٠ ولكنه كان يشعر بهذا الشعور منا فيمهلنا حتى يتم وصاياه الينا ٠٠ وكان ارتفاع المنصة ارتفاعا لا يتيح لاحد منا أن نصعد اليه الا ان ينزل هو الينا ٠

وكان مما لفت نظرى واسترعى انتباهى فى هذه الرؤيا أن الاستاذ المرشد كان خلالها حليق اللحية ، وهو منظر لم نره فيه من قبل ٠ كما أنه كان حين يتكلم ويوجه نصحه الينا ويسدى وصاياه كان يفتح فمه ويحرك شفتيه ولسانه كالمتكلم تماما ولكنه لا يصدر صوتا ، ومع ذلك كنا نفهم كل ما يقول ٠٠٠ وفجأة التفتنا فاذا بنا لا نراه ٠

وفى مساء اليوم التالى ، أتاحت لى فرصة عجيبة ـ وسط اجتماع أخوى حبيب ـ أن التقى بضيف طارىء لم أره من قبل ، وكان شيخا وقورا ذا لحية ضخمة وفى سن يناهز السبعين ـ وقد أنسيت اسمه ـ وقد علمت أنه عالم أديب ومن المجاهدين غير المصريين المطاردين ... فلما قصصت رؤياى على اخوانى فى هذا الاجتماع ابتسم هذا الشيخ ابتسامة عريضة وقال لى ولمن حولى من الاخوان : أبشروا فان الله سيغير الاوضاع ، وهـذه رؤيا صـادقة ودليل صحتها وصدقها أمران ، أولهما رؤيتك الاستاذ الرشد بغير لحية مما لفت نظرك ، والثانى كلامـه المفهوم بغير صـوت ، فالاسـتاذ الآن فى حياة البرزخ ، وهى الحياة التى بين الحياتين الدنيا والآخرة ، ومن مميزاتها أن يكون الناس فيها فى سن واحدة وبدون لحى .

وقـد يكون من القـول المعاد أن أقول أن الفترة التى رأيت فيها هـذه الرؤيا لم يكن يخطر ببال أحد فيها فى مصر لا سيما فى بال رئيس الوزراء أن تتغير الوزارة ، وكان أى محال يبدو ممكنا الا أن يخلع ابراهيم عبدالهادى من الوزارة وهو أقرب المقربين الى الملك ، ويؤيده مجلسا البرلمـان بلا تحفظ وهو الخادم المطيع للحضرة الملكية التى كانت معبودا لهم من دون الله .

وبعد أيام من هذه الرؤيا وقع النبأ الذى لم يكن متوقعا . واهتزت البلاد من أقصاها الى أقصاها ، لان الحدث كان أبعد الاحداث عن الاحتمال . وأعلن سقوط وزارة عبد الهادى وتأليف وزارة سميت « محايدة » وأعلن فى خطاب تأليفها أن مهمتها النظر فى الافراج عن المعتقلين .

وتدل مجريات الاحوال على أن اسقاط وزارة عبد الهادى وتأليف وزارة محايدة لم يكن من بنات أفكار الملك وحاشـيته ، كما لا يمكن أن يكون مـن تفكير عبد الهادى وحزبه ، وانما كان من تفكير الانجليز وسعة دهائهم ،وأنهم أمروا الملك بذلك لانهم خشوا لو طال بقاء عبد الهادى أكثر من ذلك لادى الى انفجار الموقف انفجارا قد لاتسهل السيطرة عليه .

وقد يتطلع القارىء الى معرفة الصورة الرسمية التى تم هذا التغيير فى اطارها فنقول ـ نقلا عن الصحف فى ذلك الوقت ـ أن الملك أوفد حيدرباشا ـ وكان قائدا عاما للقوات المسلحة ومن المقربين الى الملك ـ الى ابراهيم عبـد الهادى لابلاغه رغبة الملك فى استقالته ، كما أوفد حيدر باشا الى حسين سرى لابلاغه بتكليف الملك اياه لتأليف الوزارة الجديدة .

ولما كان ابراهيم عبـد الهـادى لايملك ازاء هـذه الصـفعة القاتلة الا الخضوع والاذعان ، فقد قدم استقالته ونصها :

« مولاى ـ تفضلتم فعهدتم الى بالحكم فى ظروف دقيقة . وقد استطعنا بفضـل سـامى توجيهكم ، وكريم ارشـادكم ورعايتـكم أن ننهـض

بالامانة وأن نؤديها على خير ما نرجو ـ والان وقد أوشكت الدورة البرلمانية على النهاية فان الحكومة تضع استقالتها بين يدى جلالتكم ، لتوجهوا البلاد وفق ما نرجونه لها من خير » •

وقبل أن يكتب هذه الاستقالة رد على حيدر باشا بقوله : اننى أتلقى هذا التوجيه الملكى بالاحترام والاجلال وسأبلغه الى زملائى وننزل على هذه الرغبة الكريمة •

وقد رد الملك فى نفس اليوم على عبد الهادى بقبول استقالته وجاء فى الرد : وانا اذ نجيبكم الى ملتمسكم لنذكر بالتقدير تلك الهمة العالية والوطنية الصادقة التى سستم بها أمور البلاد ، فى حرص على طمأنينتها وسعى لتوطيد الامن فى ربوعها •

هدية الملك الى الشعب : ولما كانت أقالة هذه الوزارة قد تمت فى ٣٠ رمضان ١٣٦٨ ، فقد أصدر الملك نطقا ملكيا بأن الملك قد جعل هذه الاقالة هدية الملك الى شعبه بمناسبة عيد الفطر المبارك •

وفى أول جلسة لمجلس النواب حضرها حسين سرى باشا رئيس الوزارة الجديدة القى حسين سرى بيانا مقتضبا لم يشر فيه الى المعتقلين ، فقام مكرم عبيد باشا عضو المجلس وطالب بالغاء الاحكام العرفية والافراج عن جميع المعتقلين فى الحال ، فصاح النائب السعدى نتحى المسلمى قائلا : اذا أفرج عن المعتقلين فستكون أنت أول ضحاياهم •

وكان الدليل المادى على كذب هذا النائب السعدى وحزبه هو أن رئيس الوزراء الجديد فى الوقت الذى قرر فيه أن تبقى الحراسة حول دار ابراهيم عبد الهادى كما كانت بدون تغيير ، لم يصحب هو بعد تكليفه بتشكيل الوزارة سوى ياور رئيس الوزراء وترك الحرس الكبير الذى كان يحرس رئيس الوزراء السابق ـ ورفع بوليس حرس الوزارات الذى كان قائما حول مبنى ديوان الرئاسة وديوان المالية ولم يبق سوى ثلاثة جنود موزعين فى أماكن متباعدة •

ولما قدم له عبد الرحمن عمار وكيل الداخلية للامن العام بعد عشرة أيام من تشكيل الوزارة كشوفا بأسماء من تمنحهم ادارة الامن العام مكافآت شهرية من المصاريف السرية أعاد اليه الكشوف مؤشرا عليها بعدم الصرف والغاء هذا النوع من المكافآت ـ ونقله هو شخصيا من وزارة الداخلية وكيلا لوزارة المواصلات ••• ومع ذلك لم تحدث حادثة واحدة تعكر صفو الامن •

تنفس الناس الصعداء ، وأخذت التحقيقات فى القضية المراد طمرها تشق طريقها من جديد **ولكن على استحياء** •

الفصـــل الثالث

شخصيات ومواقف كشفت عنها المحنة القاسية

مقـــدمة

كنت – منذ بدأت مؤامرة الحل – فى دمنهور تحت الحراسة الاخـوية النبيلة من الرجل الكريم الاستاذ (ع) – فلما ارتكبت الجريمة الشنعاء كاد الحزن يقتلنى ·· ومع أنه كان فيما أسر الى به الاستاذ (ع) من قبل اشارة الى احتمال وقوع هذه الجريمة ، فان ذلك لم يخفف من أثر وقوعها فعلا فى نفسى ·· ولم أفهم الحديث الذى كنت أقرأه ومعناه أن النبى صلى الله عليه سلم يقول : « اذا عظمت مصيبة أحدكم فى عزيز فليذكر مصيبته لى فتهون عليه مصيبته » الا حين وقعت هذه المصيبة ووجدتنى عاجزا عن احتمالها ، فقدرت مدى مصيبة المسلمين بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنهـا حقا أعظم مصيبة يصاب بها مسلم الى يوم القيامة ·

لقد كانت مصيبتى باستشهاد حسن البنا أعظم مما يتحمله قلب ، لقد صار المـوت أحب الى من الحياة ، ولقـد بدأت أفهم معنى قـول الله تعـالى « النبى أولى بالمؤمنين من انفسهم » وقول رسول الله صلى الله عليه وسـلم « لا يؤمن أحـدكم حتى أكون أحب اليه من ابيـه وأمـه ومن نفسه التى بين جنبيه » ·· وبدأت أفهم معنى قول الصحابى الجليل : كنا اذا احمر الحرق ، وحمى الوطيس احتمينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ·

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم هو صاحب الدعوة ، تلقاها بالوحى عن ربه · وقـد قرر القرآن له حقا على المـؤمنين أنه أولى بهم من انفسهم · وحين قرر القرآن هذا الحق لم يكن مقررا الا أمرا واقعا ، وشعورا متملـكا قلب كل مؤمن نحو هـذا الرسول الكريم ·· وبعـد أن أدى مهمته ، وبلـغ رسالته ، اختار الرفيق الاعلى ، فكانت المصيبة التى أذهلت أثبت المؤمنين جنانا ، وأصلبهم عودا ، وأقواهم شكيمة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ·

ثم كان على مر الزمن ، بين الفينة والفينة ، دعاة يقومون على أثر محمد صلى الله عليه وسلم ، يجددون دعوته ، ويجمعون الناس على لب رسالته ·· وهؤلاء الدعاة قلة على طول الزمن ·· لا يكاد الزمن يجود بواحد منهم الا بعد مرور اجيال وأجيال ، يكون الدين فى خـلالها قـد درست معـالمه ، وطمست

قسماته ، وذهبت نضارته ، وغابت تحت أكداس الزيف والترهات حقيقته ·· حتى صار أصحاب العقول يتلمسون من ينقذ الدين مما ألم به ، ومن يأخذ بيد الامة الاسلامية الضالة الحائرة فيقفها على أول الطريق ·· فيمن الله الرءوف الرحيم بواحد من هؤلاء الدعاة،فيتسابق أصحاب العقول الى مبايعته، ثم يستجيب له الناس طوائف طوائف ، فيسير فيهم سيرة النبى الكريم فى صحابته فيحبهم يحبونه،ويؤثرهم على نفسه ويؤثرونه ، ويعرفون له فضلهفى هدايتهم الى الحق ، ويحسون السعادة فى عمق تأثيره فى نفوسهم باعراضه عن متاع الدنيا ، ويتعلمون بين يديه التضحية فى سبيل الحق حين يرونه يخوض الغمرات فى سبيله ، يتعلمون بين يديه صناعة الموت ·· وما أعظم الفرق بين الموت وبين صناعة الموت ، فكل الناس يموتون ·· ولكن الذين تعلموا صناعة الموت لا يموتون الا اذا رغبوا لموتهم ثمنا غاليا وربحا كبيرا يموتون فى المواقف التى يحيى موتهم فيها أممهم وعشائرهم حيث يرجون لانفسهم فى الآخرة مكانا عليا ·

هؤلاء الدعاة ، تكون المصيبة فى فقدهم قريبة فى فداحتها على المؤمنين من مصيبة المؤمنين فى فقد رسل الله صلى الله عليه وسلم ـ وكأنما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصد هؤلاء الدعاة والمستجيبين لهم حين قال لاصحابه « ما أشوقنى الى اخوانى · فقال الحاضرون : ألسنا اخوانك ؟ قال : لا ·· بل أنتم أصحابى · اخوانى قوم يأتون بعدكم ، أجر الواحد منهم كأجر أربعين · قالوا : وكيف استحقوا هذا الاجر ؟ قال : انكم تجدون على الخير أعوانا ، أما هم فلا يجدون على الخير أعوانا » أو كما قال صلى الله عليه سلم ·

أدرت الحديث حول الدعوة والدعاة لاقرب الى خيال القارىء مدى فداحة الرزء الذى ينزل بالمؤمنين حين يفقدون مرشدهم وقائدهم ·· ولم يكن هذا شعورى وحدى ، وانما كان شعور مئات الالوف من الناس ، لافى مصر وحدها، بل فى العالم الاسلامى كله ·· لقد اذهلنى المصاب عن اهلى وعن أولادى وعن بيتى وعن عملى وعمن حولى وعن نفسى ··· واذا كانت الخنساء تقول حين فقدت اخاها صخرا وهو رجل كسائر الرجال :

ولولا كثرة الباكين حولى على اخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل اخى ولكن أعزى النفس منهم بالتأسى

فأنى لنا أن نجد عزاء فى فقد حسن البنا الذى قلما تجود الايام بمثله؟!

لم أجد بجانبى فى ذلك الوقت العصيب الا الرجل الطيب الدمث

الاخلاق الكريم المحتد الاستاذ (ع) ، قضيت معه بعد المصاب أياما لا تعدو الاربعة ، لم يكن يفارقنى فيها الا وقت النوم - ان كان هناك نوم - ثم وصلنى أمر بالنقل فورا الى « أبو تيج » . وقد تبين لى أنه ليس نقلا بالمعنى المألوف بل هو تحديد اقامة ، فقد طلب الى أن أسافر وحدى دون أسرتى وأولادى ، فلما وصلت الى هناك علمت أننى ممنوع من مغادرة ذلك البلد الى أى مكان آخر ... وقد ودعنى الرجل الكريم الاستاذ (ع) والدموع تترقرق فى عينيه ، وهو يقول لى معتذرا : لا تؤاخذنى يافلان فان هذا النقل هو أخف أجراء استطعت أن أصل اليه معهم فيما يختص بك .

أولا - شخصيات ومواقف خاصة

لما حملنى القطار الى « أبو تيج » وكنا فى المساء نزلت فى فندق بها ووجدتنى مضطرا لقضاء هزيع من الليل فى مكان آخر حتى يغلبنى النوم حيث حالة الفندق تقتضى ذلك ، فاتخذت لى مجلسا فى مقهى أمام الفندق - ولما كنت وجها غريبا فقد تقدم نحوى شابان ظريفان كانا يجلسان معا فى المقهى قريبا منى وتم التعارف بينى وبينهما . ولما علما بأننى نزلت بالفندق - وكانا يعرفان حالة الفنادق فى هذا البلد - أصرا على استضافتى فى شقتهما ذات الحجرتين الواسعتين القريبة من الفندق .

والحق ان الشابين - سعد وحسن - الموظفين بالمحكمة وأولهما من الفيوم والآخر من بنها ، كانا معى غاية فى الكرم ، فلقد حضر الاخ الكريم الحاج هاشم محمد خليل صبيحة اليوم التالى - حين علم بحضورى - وحاول انتزاعى منهما فرفضا بكل شهامة ، فأمدنى الحاج هاشم - أكرمه الله - بكل ما يلزمنى من الفراش ، وشاركتهما السكن .. وكانت حجرة حسن أوسع فشاركته فيها .

ومعذرة الى القارىء فى هذا الاستطراد فسأقص طرفا من قصتى مع هذين الشابين ومع غيرهما ممن صادفنى فى تلك الفترة من حياتى بهذا البلد الطيب، فلقد تعلمت على يد هذين الشابين أمورا فى حياة بلادنا الاجتماعية من الخير أن يلم بها القارىء . وكأننا نحن - الاخوان المسلمين - أراد الله أن يطلعنا على خبايا من الحياة الاجتماعية للجمهور الذى هو منا ونحن منه حتى اذا تحدثنا اليه تحدثنا الى من نعرف عنه الكثير .

خطورة القمار :

لاحظت أن « حسنا » قد كرر اقتراضه منى حتى اقترض منى أربع

مرات فى خلال أسبوعين • فسألت « سعدا » عن ظروفه التى دعته الى هـذا الاقـتراض ففـاجأنى بأن « حسنا » يلعب القمار • فلما واجهـت « حسنا » بذلك أنكر •

وكان من عادتى أن أستسلم للنوم بعد العشاء • فلفت « سعد » نظرى الى أن « حسنا » يسهر معظم الليل فى لعب القمار ، وحدد سعد المكان الذى يباشر فيه هذا اللعب • فلما سألت « حسنا » عن ذلك أنكر • فلما علم سعد بهـذا الانكار طلب الى أن أخالف عادتى وأسهر الليلة القادمـة • وصحبنى نحو منتصف الليل الى مكان ناء خارج المدينة وأشار الى حجرة مغلقة الباب والنوافذ فى الدور الارضى • وكنا اذ ذاك فى ليالى الشتاء الباردة • وقال هذه هى الحجرة •

وطرقنا باب الغرفة • وفتحوا لنا الباب بعد أن اطمأنوا الى أننا لسنا من رجال البوليس ، فاندفع نحونا من الباب هبة نتنة من هواء ساخن فاسد، مما حملنا على التراجع قليلا منحرفين عن الباب حتى خفت حدة هذه الهبة ، ودخلنا فاذا هى غرفة صغيرة تتوسطها منضدة ، والغرفة مكتظة بالاشخاص الذين تتراوح أعمارهم بين الشباب والكهولة ، ورأيت بينهم صديقنا «حسنا» الذى بدا على وجهه الخجل — ولا أقول احمـر وجهـه خجـلا ، لان اكتظاظ الغرفة بهذا العدد مع الانفعال المستمر أثناء اللعب جعـل الدم منـدفعا الى وجوههم فهى حمراء دائما • وبعد أن صافحنا حسنا انسحبنا من الغرفة •

ولمـا التقيت بحسن بعد ذلك اعتذر الى من هذه « الهفوة » التى حاول أن يقنعنى بأنها غلطة لن تتكرر •• وقد انتهـزت الفرصـة وشرحت لحسن خطورة مجرد وجوده داخل مثل هذه الحجـرة وتنفس هـذا الهـواء النتن ، وحذرته من أن خروجه من هذا الهواء الساخن ومقابلة الجو البارد قد يعرضه لمرض خطير •• فأقسم لى أن هذا لن يتكرر •

ولكن سعدا لفت نظرى الى ان حسنا مستمر فى خطته ، وأنه فى أكثر الليالى لا يأوى الى المنزل لينام الا بعد منتصف الليل ، وفى بعض الليالى لا يأتى الا قبيل الفجر ، وأنه حريص حين يدخل الشقة أن لا يحس به أحـد فهو يمشى على أطراف أصابعه •• اما أنا فكنت أصحو من النوم لاصلى الفجر فأراه نائما فى سريره •• ومع ذلك فقد كنت حريصا على أن اسدى اليه النصح من الناحية العامة المرة بعد المرة ، وهو يقنعنى فى كل مرة بأنه امتنع منـذ الليلة التى رأيناه فيها فى معمعان اللعب •• وكان حـريصا على أن يصـلى صلاة الصبح امامى كل يوم •

وفى صباح أحد الايام حين استيقظت لصلاة الفجر رأيت سرير حسن خاليا ، فخشيت أن يكون قد أصابه مكروه ، ولكننى بعد أن صليت الفجر واتخذت مضجعى فى السرير ثانية ، وكادت الشمس تشرق ، أحسست أن أحدا قد فتح باب الشقة بخفة ، فتظاهرت بالنوم ورايت صاحبنا قد دلف الى الحجرة فى هدوء وأوى الى فراشه .

ولما حان الموعد الذى نذاهب فيه للذهاب لاعمالنا ، استيقظ حسن وهو معتقد أننى لم أشعر بدخوله ولكننى أفهمته أننى أحسست به فانتحل بعض الاعذار .. وشددت عليه النصح حتى بكى ووعد بالحضور مبكرا .. وما هى الا أيام حتى عاد الى ما كان عليه ، ووصل الحال آخر الامر الى أنه لا يحضر الى المنزل ويستغرقه اللعب فى الحجرة الملعونة طول الليل حتى يحين موعد الذهاب الى عمله فى الصباح فيهرول ولا يصل الى عمله الا متأخرا .. ويخبرنى سعد بذلك ولا أراه أياما متتالية .. ثم يتفاقم الامر ويخبرنى سعد بأنه قد اكتشف عجز فى خزينة المحكمة وأن حسنا يواجه تحقيقا قد يؤدى الى فصله (كان حسن أمين خزينة المحكمة) ولكن زملاءه من موظفى المحكمة تعاونوا معا وأنقذوا الموقف .

وهنا طلبت من سعد أن يحضر لى حسنا الى المنزل بعد صلاة العشاء مباشرة حيث جلست معه جلسة طالت الى جوف الليل .. واجهته فيها بكل مافى نفسى وشرحت له خطورة ما هو منغمس فيه من ضلال وكذب ، وما هو مقبل عليه من دمار وتحطم .. وبينت له أن لاداعى للكذب أمام انسان يتمنى الخير لك وهو لا يملك لك ضررا ولا نفعا .. ويبدو أن حالة من الانفعال فى النصح لبستنى وكأنما لمست أخيرا موضع الاحساس من قلبه ، فتغيرت لهجته فجأة واتجه الى بقلبه لاول مرة وقال : يافلان .. أنت الآن أعز عندى من أبى ودعنى أصارحك لاول مرة بما لم أصارح به أحدا من قبل : كان والدى مدرسا فى ثانوية بنها وكنت طفلا مدللا ، فكنت ألعب « البلى » مع الاطفال فى الشارع فلم ينهنى والدى ، والبلى ليس الا نوعا من القمار فانغرس فى نفسى منذ ذلك العهد حب القمار ، فلما كبرت باشرت انواعا أخرى من القمار دون أن أجد من ينهانى فصار الشغف بالقمار مختلطا بدمى — وأحب أن أقرر بين يديك أن المقامر مهما أقسم لك أنه امتنع عن القمار فهو كاذب لان القمار داء من تمكن منه استعبده واستولى على قلبه ومشاعره بحيث لا يستطيع التخلص منه طواعية فقد يستدين ويبيع ما يملك ويسرق الا ان يجد من يحبسه عنه بالقوة ولمدة طويلة .

فقلت له يا حسن ليتنى أملك أن أحبسك ولكنك تعرف الظروف التى تحيط بى انا الآن ابكى لاننى اعرف النهاية التى تقترب منها كل يوم . وليتنى استطيع ان ادفع عنك .

وتطورت الايام بعد ذلك ، وغادرت « أبو تيج » الى بلاد أخرى ، وبعد سنوات التقيت بسعد صدفة فسـألته عن « حسن » فقـال لى : ان « حسنا » قد اغتاله « السل » والعياذ بالله ومات به ٠٠ فكان ما توقعته وحذرته منه ، أسال الله تعالى أن يتغمده برحمته ٠

من أضرار الحشيش :

أما « سعد » فلم يكن يلعب القمار ، وكان يبدو لى شابا مستقيما ، بل انه كان يلفت نظرى الى انغماس « حسن » فى القمار رجاء اصلاحـه ٠ وقـد ظللت على ظنى هذا حتى كانت ليلة أيقظنى على غير عادتى فى منتصف الليل حصر بول ، فقمت من سريرى متجها الى دورة المياه التى كان بابها قبالة باب حجرة سعد ٠٠ وقد استوقفنى عندما اسـتيقظت أصـوات منبعثة من حجرة سعد الملاصقة لحجرتنا ، ولاحظت أن الاصوات لاكثر من شخص وأكثر من شخصين ، كما لاحظت أن الالفاظ التى تبينتها من هذه الاصوات ألفاظ غير مهذبة ٠٠ فتريثت لحظات ثم أرغمنى البول على مغادرة الحجرة الى الصالة حتى اذا وصلت الى باب دورة المياه وجدت حجرة سعد مضاءة ووجدت بابها مفتوحا ورايت منظرا مهينا ٠٠ رايت هؤلاء الاشخاص بعد أن لعب الحشيش ـ الذى فاحت رائحة دخانه ـ بعقولهم وقفوا جميعا كل أمام الآخر وقد رفعوا ثيابهم وكشفوا عن عـوراتهم وكل منهم يتبول على الآخـر متفـوها بألفاظ مزرية ٠

وفى الصباح قررت أن أنقل سريرى الى مسكن آخر مع صديق ٠ وقـد عارض سعد فى ذلك أشد المعارضة ، لكنه أحس من شدة اصرارى أننى اطلعت على مالم يحب أن أطلع عليه من أمره مع أصدقائه المنحرفين ـ ويعلم الله اننى ما قصدت الى الاطلاع ـ فاضطر آسفا أن ينزل على رغبتى ٠٠ ولعله بعد ذلك قد أقلع وتاب ٠

هذا ولعلى بهذه الكلمات القصار قد ألقيت بعض الضوء على مرضـين خطيرين من أمراضنا الاجتماعية ما كنت قبل تجربتى هذه أقدر خطورتهما هذا القـدر ٠

فى النار ولا يحترق :

قدمت من قبل أننى كنت أثق كل الثقـة فى مقـدرة الاستاذ الامام على اختيار الرجال ٠ كان الاخ الحاج هاشـم محمد خليل من أوائـل من وقـع اختيار الاستاذ عليهم لعضـوية الهيئة التاسيسية ، ولم تكن معـرفتى به تتعدى فترات اللقاء فى اجتماعات الهيئة القليلة العدد ٠٠ فلما اختارت وزارة

السعديين « أبو تيج » لتكون لى منفى ، كان هذا المنفى الذى ارادوه هو أحب مكان الى بفضل تعرفى عن قرب على شخصية الاخ الحاج هاشم ٠

كان الحاج هاشم تاجرا وعالما وأديبا ، وكان أكبر تاجر للدخان فى الوجه القبلى ، يستورد أوراقه الشجرية من الخارج ويوزعه على التجار والمصانع ، وعلمت أنه ورث هذه التجارة عن أهله كابرا عن كابر ٠ وكانت شركات السجاير الكبيرة عندما تفكر فى انتاج توليفة لسيجارة جديدة ترسل اليه مندوبا يعرض عليه التوليفة ليبدى رأيه فيها ٠٠ ومع هذا كله فهو لا يدخن مطلقا حتى انه حين يختبر التوليفة المقترحة كان يتذوقها بأن يدخن منها عدة أنفاس دون أن يبتلع أى دخان منها ٠٠ وقد سألته فى هذه المفارقة العجيبة ؟ كيف يكون أكبر تاجر للدخان وفى الوقت نفسه لا يدخن ٠٠ فكانت اجابته كالآتى :

تناول نوعا من السجاير كان يعد فى ذلك الوقت أغلى وأرقى أنواع السجاير ويسمى « سيجار التوسكانى » والسجارة عبارة عن ورق شجر الدخان بحالته الطبيعية ملتف بعضه على بعض ولا يغلفه ورق عادى كالذى يغلف جميع أنواع السجاير ٠ تناول واحدة منها وأشعلها وسحب منها عدة أنفاس وتركها حتى انطفأت (طبيعة هذا النوع أنه ينطفى من تلقاء نفسه عدة مرات ويعيد مدخنه اشعال السيجار فى كل مرة) فلما انطفأت كسر السيجارة نصفين وقربهما من أنفى فشممت رائحة نتنة لم أطقها ــ فقال لى: لهذا أنا لا أدخن ٠٠٠ هذه شجرة نتنة ، ولولا أننى ورثت هذه التجارة عن أهلى وآبائى ما زاولتها ٠

قلوب تلطف عسف القوانين :

لما طال غيابى عن أولادى المقيمين فى رشيد عدة أشهر ، وتولانى القلق عليهم ، فكرت فى زيارتهم ٠ فتحدثت فى هذا الشأن مع رئيسى المقيم فى اسيوط وكان زميلا لى مسيحيا ، وطلبت منه اجازة لمدة أسبوع ٠ فتلعثم وبدا عليه الحرج ٠ ثم كاشفنى بأن هذا النقل هو بأمر وزارة الداخلية ، واطلعنى على الخطاب السرى الخاص بذلك ٠

ولما كان هذا الرئيس زميلا كما قدمت ، فقد أخذ يفكر معى فى وسيلة للخروج من هذا المازق ، وانتهى التفكير الى ان السفر اذا أمكن فلا يكون باجازة رسمية ، وابدى استعداده للقيام بعملى فى غيبتى ، لكنه لفت نظرى الى ان رقابة من وزارة الداخلية مفروضة على ٠

وكنت اعلم ان مامور المركز رجل كريم ومن اسرة عريقة ٠ فى العلم

والدين ، فذهبت الى المركز وقابلت ضابط المباحث ، وكان شابا دمث الاخلاق ذا سيرة طيبة • فكاشفته بالموضوع بصراحة تامة • فقال لى ان الرقابة المحلية هنا مقدرة لظروفكم ونستطيع التهاون فيها ، ولكن هناك رقابة أخرى من وزارة الداخلية بالقاهرة •• واتفق معى على أن أسافر فى جنح الظلام ، وأترك رقم تليفون فى رشيد ، وأن لا أشعر الناس فى رشيد بوجودى •• فاذا جد فى الامر شىء اتصلنا بك تليفونيا للحضور فى أول قطار •

ونفذت الخطة • وبعد يومين من وصولى الى رشيد جاءنى التليفون فاستقللت أول قطار وذهبت الى عملى فى أبو تيج حيث اتصل بى فيه تليفونيا مأمور المركز وطلبنى لمقابلته •• فأطلعنى على الاشارة التليفونية المرسلة اليه من وزارة الداخلية يسألونه عما اذا كنت قد غادرت أبو تيج طالبين منه سرعة الرد — ورد الرجل — أكرمه الله — عليهم ردا كريما ، دافع فيه عنى قرر أنه كان يتصل بى يوميا فى عملى وأننى لم أغادره مطلقا • وهكذا يقوم الرجال الصالحون بتلطيف القوانين مهما بلغت هذه القوانين من الجور والظلم والعدوان •

وعى فج مقلوب :

فى البلاد الصغيرة التى يعرف الناس فيها بعضهم بعضا لا يكاد الناس يتأثرن بدعايات الحكومة ولا بما تذيعه أجهزة اعلامها من زور وافتراء، حيث يسمعون ويقرأون عن الاخوان المسلمين أوصافا يجدون عكسها فيمن ينتسب الى الاخوان من أهل بلدهم •

ولهذا كان محل الاخ الحاج هاشم — بالرغم من التضييق الحكومى — ملاذا للمثقفين من أهل « أبو تيج » ومن الطارئين عليها على اختلاف مبادئهم واتجاهاتهم وآرائهم •

وفى احدى جلساتنا بمحل الحاج هاشم انطلق أحد الجالسين — وكان شابا حقوقيا يشغل منصبا اداريا مرموقا بالمدينة — يقول : لقد أثبت النحاس باشا أنه رجل طيب حقا لانه ضرب بالنار ولكنه لم يصب ، أما حسن البنا فيبدو أنه كان رجلا شريرا بدليل أنه لما ضرب بالنار اصيب وقتل •

فقلت له : مهلا يا أخى ولا تتسرع بالحكم •• فلو أننا أخذنا بمقياسك هذا لخرجنا بنتائج عجيبة •• فبهذا المقياس يكون عمر بن الخطاب رجلا شريرا ، ويكون عثمان بن عفان رجلا شريرا ، ويكون على بن أبى طالب رجلا شريرا ، ويكون الحسين بن على رجلا شريرا وهكذا ••• فبهت الشاب واسقط فى يده •

وقد سقت هذه الواقعة ليقف القارىء على مدى سذاجة الناس فى نظرتهم الى الاحداث ، وفى تقديرهم للرجال ، ومدى فقدانهم للوعى السليم،وافتقارهم الى ميزان دقيق يزنون به الامور ٠

بعثة الازهر للتوعية :

ان كل ما نزل بالاخوان فى ذلك العهد من مصائب ، وما انصب على رءوسهم من ويلات ، لم يجرح قلوبهم ، ولم يدم أفئدتهم ٠٠ ولكن الذى جرح قلوبهم وأدمى أفئدتهم هو ما سمى « بحملات التوعية الازهرية » ٠

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

وينبغى أن لا يتطرق الى ذهن القارىء أن الازهر كان عدوا للدعوة الاسلامية المتمثلة فى الاخوان المسلمين ، فان شباب الازهر كانوا هم عماد دعوة الاخوان ، وكانوا فى مقدمة من صب على رءوسهم البلاء ٠٠ ولكن الذين أقصدهم هم فئة قليلة من كبار الشيوخ عبدوا المناصب ، ونسوا الله فانساهم أنفسهم ٠

فى خلال فترة وجودى فى « ابو تيج » كان الاخ الكريم الشيخ أحمد شريت مفتش الوعظ فى محافظة أسيوط ٠ ولم تكن الحكومة قد تيقظت بعد الى أنه من الاخوان المسلمين ، فكان لذلك حر الحركة ٠ وكنا حريصين على أن لا يكون اتصاله بنا اتصالا مباشرا حتى يمكننا الابقاء على حريته ، فكان يتصل بنا عن طريق أشخاص معينين ٠

وفى يوم من الايام جاء رسول الشيخ احمد ينقل الينا الخبر التالى :

وصلت الى اسيوط بالامس « حملة الازهر للتوعية » مكونة من عدد من العلماء برياسة الشيخ محمد عبد اللطيف دراز (مدير الوعظ والارشاد بالازهر ووكيل الازهر فيما بعد) ٠ ولما كنت المسئول عن الوعظ فى المحافظة فقد كنت فى استقبالهم ، وطلبوا الى أن أرافقهم لمقابلة المحافظ — كمال الديب باشا — ليستأذنوه فى المرور ببلاد المحافظة فرافقتهم ٠

ولما دخلنا مكتب المحافظ استقبلنا الرجل واخذنا مجالسنا ٠ وشرع الشيخ دراز — باعتباره رئيس الحملة — يتحدث عن الاخوان المسلمين حديثا يطعن فى ايمانهم ٠٠ فلما احس ان الحديث بهذا الاسلوب لا يلقى قبولا لدى المحافظ اختصر الشيخ الكلام ولجا الى اسلوب آخر فقال : ان الاخوان **المسلمين هم السبب فى أن فقدت البلاد رجلين من رجالها ٠ فسأله المحافظ : ومن هما الرجلان ؟ فقال الشيخ : النقراشى باشا وحسن البنا ٠ فاذا**

بالمحافظ ينطلق قائلا : ولكن يافضيلة الشيخ « حسن البنا » لا يعوض ٠

وكأنما كانت كلمة المحافظ هذه سهما أطلقه على الشيخ فأصاب منه مقتلا ، اذ سكت الشيخ وأرتج عليه ولم يتكلم حتى استأذن وانسحب برجاله ٠

ولا داعى من ناحيتنا نحن للتعليق على كلمة هذا الرجل الكبير الذى نطق بما نطق به وهو فى منصبه الرسمى ممثلا للحكومة السعدية فى وجه شيخ كبير من شيوخ الازهر معروف بميوله لحزب الحكومة ـ كما لا أرى داعيا للتشنيع على ما قامت به حملة التوعية هذه من جوب البلاد تنشر الاكاذيب ، وتشيع البهتان ، وتثير الفتن ، مشيعين من أهل الريف الطيب فى كل مكان نزلوا فيه بالاحتقار والازدراء ٠

ثانيا ـ شخصيات ومواقف عامة

فى الاسطر القليلة السابقة أشرت الى شخصيات ومواقف لابستها فى الوضع الذى قضيت فيه أحرج أوقات المحنة ٠ وكانت هناك فى نفس الوقت أحداث تجرى ، وشخصيات تتكشف ، ومواقف تتحدد ، على مستوى القطر كله ٠٠ فى القاهرة ، حيث حيكت المؤامرة ، وحيث المسرح الذى تتصارع على خشبته القوى المتآمرة والقوى المتحالفة ، والقوى المتزلفة ، والقوى المؤمنة ، والقوى الشريفة ذات الضمير وذات المبدأ ٠٠٠

وأحاول هنا ان شاء الله أن أضع بين يدى القارىء نماذج من هذه الشخصيات ، وعينات من هذه المواقف ، ليتبين له دورها فيحكم على كل منها الحكم الذى هى جديرة به ٠

الاول :

الهيئات الدينية

وهذه الهيئات اما رسمية ويمثلها الازهر ٠ واما شعبية وهى الهيئات التى تناولنا تفصيلها فى الجزء الاول من هذا الكتاب ٠٠ أما الازهر فانه كان يستغل فى بعض المواقف أسوا استغلال ، وتجد الحكومات فى ضعاف النفوس من بعض شيوخه من يضع نفسه فى خدمتها ، وحسبنا ما ذكرناه آنفا ٠

واما الهيئات الشعبية فكانت فى تلك الايام تغط فى نوم عميق ، وترى

دورها قاصرا على تكفير بعضها بعضا لزيارة ضريح أو لتفسيرات مختلف عليها لآيات معينة · وموقفها بعد ذلك ازاء ما يجرى على أرض هذه البلاد موقف سلبى حيث تعتقد أنها اذ فعلت ما فعلت مما أشرنا اليه فقد أدت حق الله والاسلام والوطن والمروءة ·

ولكن الهيئة الاسلامية الشعبية الوحيدة التى لم ترض لنفسها هذا المقف هى جمعية الشبان المسلمين ، وذلك بفضل رئيسها الرجل الشجاع المؤمن المناضل صاحب التاريخ المجيد اللواء صالح حرب - وقد ألمحنا الى بعض مواقفه المجيدة فى مختلف المناسبات - وبفضل رجال حوله أوفياء مثل عبد القادر بك مختار والدكتور يحيى الدرديرى ·· وان كان يؤسفنا أن نذكر أن من أعضاء مجلس ادارة هذه الجمعية من لم يكونوا على مستوى رئيسهم شجاعة ومروءة ونجدة ووفاء فى خلال تلك الايام الملتهبة التى كشفت عن معادن الناس · وقد يأتى توضيح ذلك فى سطور قادمة ان شاء الله ·

الثانى :

الملك

كان يكفى دليلا على تجريم فاروق فى هذه المؤامرة الدنيئة انه هو الذى كان محتضنا حزب السعديين منذ حكومة احمد ماهر الى اخر أيام ابراهيم عبد الهادى ·· ومعروف أن السعديين حزب لا قاعدة له من الشعب ، فهو يستمد سلطته وقوته بل ووجوده من الملك ·· وما كان هذا الحزب ليجرؤ على الانقضاض على ما انقض عليه من مقدرات الشعب وحرياته لولا ثقته المطلقة فى تاييد السراى له ، ومباركتها اتجاهه الاثيم ··· ولكننا لن نكتفى بهذا الدليل الدامغ وسوف نلجأ ان شاء الله فى اثبات الادانة الى ما جاء فى التحقيقات التى اجراها القضاء فى القضية :

من شهادة الاستاذ فؤاد شيرين :

فى ١٨-٣-١٩٥٣ طلب الاستاذ فؤاد شيرين الذى كان محافظا للقاهرة أيام وزارة عبد الهادى للشهادة أمام المستشار محمد على جمال الدين الذى انتدب لاجراء التحقيق ، فسألة المحقق :

س - ألم تعلم باعتقال الشخص الذى كان الشيخ البنا يريد الاقامة عنده ؟
ج - لا ··· لان شئون الاخوان لم تكن تعرض على ولا أخطر بها · والسبب فى ذلك اننى كنت أخالف فى رايى السراى والحكومة فى موضوع الاخوان · وهذا الخلاف كان ينصب على حل هذه الجماعة · وقد أوضحت للاستاذ حسنيوسف

وكيل الديوان الملكى فى ذلك الوقت - وكانت السراى تؤيد الحكومة فى موقفها من ضرورة حل الاخوان - فأوضحت له أن ذلك قد يكون له نتائج سيئة ، اذان للاخوان هيئة يرجعون اليها فى تصرفاتهم ويخشونها ، فاذا حلت الهيئة لم يعد أفرادها يخشون أحدا ٠٠ ولكن لم يؤخذ برأيى ٠

وبعد حل الاخوان ببضعة أيام قابلت الاستاذ حسن يوسف فقال لى : ان جلالة الملك يقول لك « اننا حلينا الاخوان ولم يحدث شىء » ٠٠٠ وقال المحافظ فى التحقيق أيضا انه ليس لديه معلومات عن الرقابة على الشيخ البنا اذ كان ذلك من اختصاص القسم السياسى بالاتفاق مع رئيس الحكومة ووزارة الداخلية ٠

(ليلاحظ القارىء أن الاستاذ فؤاد شيرين صاحب هذا الرأى المخالف للحكومة والملك ، كان المفروض أن تعزله الحكومه - جريا على سياستها - أو تنقلة الى عمل اخر ، لكنها لم تفعل ولم تجرؤ على ذلك حيث كانت تربطة بالسراى صلة قرابة ونسب ٠٠ وبهذا نجا الرجل الصالح من بطش الحكومة الغاشمة ٠ وقد يذكرنا موقفه هذا بموقف مؤمن ال فرعون الذى حكى لنا القرآن عنه فقال « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وان يك كاذبا فعليه كذبه ، وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب - ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الارض ، فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا ؟قال فرعون ما أريكم الا ما أرى وما أهديكم الا سبيل الرشاد) ٠

من شهادة الاستاذ حسن يوسف وكيل الديوان الملكى

ثم استدعى المحقق الاستاذ حسن يوسف وكيل الديوان الملكى ودار التحقيق معه على الوجه التالى :

س - ألم يدر بينك وبين الاستاذ فؤاد شيرين اى حديث بخصوص جماعة الاخوان ؟

ج - اذكر أن الاستاذ شيرين زارنى وافهمنى أن من المصلحة تعاون القصر مع الاخوان ، وانه - بحكم صلته بهم - مستعد لتلقى أى توجيه من الملك ٠٠ فأخبرته بأن هذه المهمة تعتبر من المسائل السياسية واحلته على رئيس الديوان ٠٠ وأذكر اننى بلغت رغباته واقتراحه للملك فقال لى فيمايتعلق باقتراحه الخاص بالاخوان : ان ردك عليه فى محله ٠

س ـ هل لديك معلومات عن حادث اغتيال الشيخ حسن البنا ؟

ج ـ أذكر أن الملك اتصل بى تليفونيا فى مساء يوم الحادث ، وكنت فى منزلى • وأظن اننى كنت نائما • وقال لى : هل سمعت الحادث ؟ فقلت له : أى حادث ؟ فقال : الشيخ حسن البنا ضربوه بالرصاص •• وأذكر اننى قلت لا حول ولا قوة الا بالله وارجو ان لايكون قد أصيب وأن يكون الجناة قد قبض عليهم • فقال : لسه ما فيش تفاصيل •

س ـ هل تعلم ممن تلقى الملك هذا الخبر ؟

ج ـ أنا ليس لى معلومات بهذا الشأن ، وفيه بوليس سراى لذلك •• وأذكر أنه كان من عادة الملك أن يكون هو البادىء باخبار رجال الديوان بالحوادث الهامه على سبيل الزهو •

من شهادة محمد حسن الامين الخاص للملك :

ثم طلب المحقق محمد حسن الامين الخاص وكان التحقيق على الوجه الآتى :

س ـ أما كان الملك السابق يبدى تخوفه من الاخوان المسلمين قبل حصول الحادث ؟

ج ـ مافيش شك •• انه كان يبدى تخوفه من الاخوان من ناحية ان الجماعة دول راح يقلبوا نظام الحكم •

س ـ ألم يبد منه مايدل على رغبته فى التخلص من هذا الحزب ومن رئيسه ؟

ج ـ كان متخوفا منهم ، ولكنه لم يبد أمامى رغبة فى التخلص منه • وكل ما لاحظته بعد وقوع الحادث انه لم يكن ممتعضا من وقوعه ، بخلاف مالاحظته عندما قتل النقراشى حيث كان متأثرا جدا فى حين أنه وقت مقتل الشيخ حسن البنا لم يظهر أى تأثر بتاتا •

س ـ ذكرت فى أقوالك فى قضية مقتل الضابط عبد القادر طه أن الضابط محمد وصفى قال انه سينفذ الجريمة أى قتل عبد القادر طه بواسطة ضابط وعسكريين ، فهل ذكر اسم هذا الضابط والعسكريين ؟

ج ـ لم يذكرهم وانما أورد هذا فى سياق حديثه لاحمد كامل قومندان بوليس السراى ، وسمعت وصفى يقول لاحمد كامل ان دول هم اللى قتلوا الشيخ حسن البنا •

س ـ ألم تسأله عن أسمائهم ؟

ج ـ أنا لم أسأله . وما أعرفش اذا كان أحمد كامل بسأله أم لا .. ووصفى كان بيقول هذا الكلام اعتدادا بنفسه ، وبيقول أنا عندى رجالة وفيه عسكريين رايح أنقلهم من الصعيد ، وقال ان دول أولاد قتالين قتله ، ويقتلوا ولا يهمهم . وقال لنا أهم دول اللى قتلوا حسن البنا عينى عينك ولم يذكر أسماءهم ... ووصفى قال كمان انه بعد ما أصيب حسن البنا هو راح المستشفى بقصد انه اذا كان حيا يخلص عليه .

من شهادة أحمد كامل :

ثم استدعى المحقق أحمد كامل قومندان بوليس السراى وسأله عن شعور الملك السابق نحو الأخوان فقال : « كان الملك متخوفا من الاخوان كثيرا ، لدرجة أنه كلفنى فى ذلك الوقت أن أشدد الحراسة عليه فى تنقلاته ، وعمل حواجز حديدية على الابواب الرئيسية لسراى القبة وعابدين لاجبار السيارات الداخلة اليها على الوقوف والتحقق ممن فيها ــ كما طلب منى اخراج المستخدمين والموظفين الذين ينتمون الى جماعة الاخوان من السرايات والتفاتيش الملكية ــ واعتقادى الشخصى ان هذا الحادث ارتكب لحساب الملك السابق والحكومة » .

الثالث :

الاحــزاب

[أ] مصـر الفتاة :

كان موقف مصر الفتاة موقفا كريما ، وقد وضح للقارىء ذلك من مرافعات الاستاذ أحمد حسين فى قضايا الاخوان ، كما وضح فى كلمته التى نشرها فى جريدة المصرى حين رجع الى مصر من زيارة قام بها الى انجلترا .

[ب] اللجنة العليا للحزب الوطنى :

ونحب أن نذكر القارىء بان هذه اللجنه هى شىء آخر غير الحزب الوطنى . وهى مجموعة من شباب الحزب الوطنى ارادت أن تحمل الحزب على الاحتفاظ بمبادئه التى وضعها مؤسسه مصطفى كامل فلما يئست من استجابة كبار رجال الحزب انفصلت عنه وحملت هى مبادىء مصطفى كامل ورأسها الاستاذ فتحى رضوان .

وهذه اللجنة لم تأل جهدا فى الدفاع عن الاخوان حتى فى عنفوان المحنة مخاطرة فى ذلك بمستقبلها ، فلقد كانت الهيئة الوطنية الوحيدة التى احتجت

لدى حكومة النقراشى باشا على حل الاخوان المسلمين عندما صدر هذا الامر ، فقد نشرت جريدة « المصرى » فى ٨ـ٢ـ١٩٥٠ تحت عنوان « اللجنة العليا للحزب الوطنى تعترض على أمر حل الاخوان المسلمين » ما يلى :

تلقينا من الاستاذ فتحى رضوان البيان التالى باسم اللجنة العليا للحزب الوطنى :

« حينما نشر الامر العسكرى رقم ٦٣ فى ٨ ديسمبر ١٩٤٨ قاضيا بحل جمعية الاخوان المسلمين ، أذاعت اللجنة العليا للحزب الوطنى بيانا تعترض فيه على هذا الامر على أسس من الدستور . ثم قال : ولم يفت اللجنة أن تقول فى بيانها ـ الذى لم تأذن الرقابة وقتذاك بنشره ـ انها لا تحتج على حل هيئة الاخوان المسلمين تشيعا لها ولا تشيعا ضد خصومها ، وانها تصدر فى ذلك الاحتجاج عن حرص على نص الدستور وروحه .. وقد كفل الدستور فى المادة ٢١ للمصريين حق تكوين الجمعيات .. ثم قال :

ونحن نذكر اليوم ما ذكرناه بالامس من أنه لا توجد هيئة سياسية لم ينسب الى أفراد أو جماعات من التابعين لها ارتكاب الجريمة أو الجرائم . وقد صدرت أحكام ضد البارزين فى كل هيئة سياسية فى مصر ـ ومع ذلك لم يقل أحد ان هذه الهيئات تتحمل وزر عشرة أو عشرين من أعضائها .

ولعل من أبلغ الامثلة على أن ما يلقيه التطاحن السياسى على الاحزاب والجماعات السياسية من ظلال الجريمة يكون ظالما أو على الاقل يكون عارضا يزول مع الزمن أن غاندى وهو الداعى الى المسالمة قضت عليه محكمة الهند أكثر من مرة على أساس مسئوليته عن جرائم التخريب والشغب والقتل . ونحن لا نزال نذكر ان المرحومين ماهر والنقراشى اتهما بالقتل ولم ترتض بريطانيا الحكم الصادر ببراءتهما » .

[جـ] حزب الاحرار الدستوريين :

اما حزب الاحرار الدستوريين ومعه السنوزرون وهم الذين كانوا يسمون بالمستقلين ، فقد سجلوا على انفسهم الخزى والضعة ، لقد كانوا يتهربون من لقاء الاستاذ المرشد العام ، فاذا زار احدهم امضى الجلسة يتلفت يمينا وشمالا خوفا من ان يراه أحد مع الاستاذ المرشد فيبلغ رئيس الوزارة فيغضب عليه . ولقد عبر الاستاذ محمد يوسف الليثى ـ وقد كان أكثر شخص اتصالا بالاستاذ المرشد فى تلك الحقبة ـ عن ذلك فقال : ان الاستاذ المرشد كان يحس بمرارة من خسة هؤلاء الناس وجبنهم حين كان يزور بعضهم على امل ان يجد منهم من يكون وسيط خير بينه وبين الحكومة . ولقد كان يزور واحدا منهم ومعه شقيقه عبد الباسط فاذا بالرجل يفزع ويسأل : من هذا الذى يرافقك ؟ فهدأ الاستاذ من روعه وقال له لا تفزع انه شقيقى عبد الباسط البنا .

أما موقف حزب الوفد فنرى أن نؤجله حتى توضحه فصول قادمة ان شاء الله ٠

[د] الحزب الوطنى :

٠٠٠ والحزب الوطنى ــ كما سبق لنا الحديث عنه ــ هو يحكم نشأته ، وبمقتضى دستوره الذى وضعه مؤسسه مصطفى كامل رحمه الله ، وارتضاه صحبه وأنصاره ٠ هو أقرب صورة من الاحزاب السياسية ــ الى هيئة الاخوان المسلمين ــ فهو يؤمن بما يؤمن به الاخوان من الرابطة الاسلامية والامتداد التاريخى الاسلامى والتربية الاسلامية ٠٠ ولا ازال اذكر حتى الساعة أننى كنت وأنا صغير أسمع والدى وأعمامى ــ وكانوا يمثلون قيادة الحزب الوطنى فى رشيد فى ابانه ــ يتحدثون عن المسرحية التى كلفهم الحزب بتمثيلها أمام الجمهور ، وقاموا هم بتمثيل الادوار الرئيسية فيها ، وهى تشرح للمشاهدين المعانى الاسلامية العليا والروابط الاخوية بين المسلمين فى بقاع الارض والتى قامت على أساسها الدولة الاسلامية الجامعة الممثلة فى « الخلافة » ٠

ولقد تعاقب على زعامة هذا الحزب بعد مؤسسه رجلان ، اولهما محمد فريد ، وقد سار على نهج زعيمه مصطفى كامل حتى مات مشردا غريبا ــ ميتة المجاهدين ــ وخلفه من بعده حافظ رمضان فتابع سيرة سابقيه فى اول الامر محترزا من فتنة الحكم ، فكان الحزب ــ مع انحسار عدد مؤيديه ــ رمزا للثبات على المبدأ ، وللكفاح الحر الشريف العازف عن المغانم الرخيصة التى كان الكل فى ذلك الوقت يلهثون وراءها مدعين أنهم يجاهدون ٠

ومما تجدر الاشارة اليه أنه فى خلال هذه الفترة التى نتكلم عنها قد ظهرت فى أفق السياسة المصرية بدعة المفاوضة فى حقوق البلاد ، فى حين كانت النغمة التى ضرب على وترها مؤسس الحزب الوطنى وطرب لها الشعب كله هى « أن لا مفاوضة الا بعد الجلاء » ٠ واقتضى هذا المبدأ أن يقاطع الحزب مناصب الحكم ما دام الغاصب يحتل البلاد ٠

فلما ظهر الزعماء الجدد وعلى رأسهم سعد زغلول فتنوا الشعب بنغمتهم الجديدة ، فتبعوهم مولين ظهورهم للحزب الوطنى آملين ان تتحقق آمال البلاد بالاسلوب الهين اللين الجديد ٠٠ ومع توالى الايام صار الوصول الى كراسى الحكم هو الهدف الاصيل للزعماء الجدد ، وتميعت قضية حقوق البلاد ٠

على أن الحزب الوطنى لم يقف موقفا سلبيا من الاوضاع الجديدة ، بل كان له اعضاء فى مجلس النواب من أمثال محمد محمود جلال ، ومحمد فكرى أباظه ، وعبد اللطيف الصوفانى ، والدكتور عبد الحميد سعيد وعدد آخر من

أضرابهم ، كانوا يزلزلون بمساجلاتهم ومناقشاتهم واستجواباتهم أرجاء هذا المجلس · وكان الناس يترقبون نصوص ما يصدر عنهم في المجلس ليقرأوه بامعان ، حيث مستقر في نفوس الناس أن هذا هو الموقف الجاد · والرأى الاصوب والتوجيه السليم ·· لانه صادر عن أشخاص عزفوا عن مناصب الحكم وما يلازمها من ضغوط واغراءات ـ وكان هؤلاء النواب فوق كل هذا موئل كل مظلوم ، وملتجأ لكل من حافت عليه السلطة ·

ولكن يبدو أن المسئولين في هذا الحزب قد طال عليهم الامد ، وخيل اليهم أنهم اذا هم أدخلوا بعض التعديل على خطتهم فانهم قد يحققون من أهدافهم الوطنية مالم يحققوه طيلة عهودهم الماضية ـ وكان هذا التعديل الذى أدخلوه هو استعدادهم للمشاركة في الحكم مع وجود جيوش المستعمر جاثمة على صدر البلاد · وكان في هذا التعديل خروج سافر على شعارهم العتيد ، وتجاوز لمبدئهم القويم ··· أدخلوا هذا التعديل الكبير على خطتهم فانظر ماذا حققوا من وراء هذا التعديل ·

ماذا حقق الحزب الوطني بخروجه على مبدئه الاصيل ؟

١ ـ كان من أوائل الوزارات التى اشترك فيها الحزب الوطنى وزارة احمد ماهر باشا في ١٩٤٤/١٠/٩ · اشترك فيها رئيس الحزب حافظ رمضان باشا وزيرا للعدل ـ وكان منحه رتبة الباشوية دليلا على رضا السراى عنه ـ ·· وهذه الوزارة هى الوزارة التى باءت باثمين كبيرين : احدهما داخلى وهو التضامن مع جيش الاحتلال في اسقاط المرشد العام حين رشح نفسه لمجلس النواب في دائرة الاسماعيلية ـ مما أتينا على تفصيله في الجزء الاول من هذا الكتاب(١) ·

والاثم الخارجى الذىباءت به هو استجابتها للمستعمر في اعلانها الحرب على المحور ، فكانت بهذا الاعلان قد خرجت على اجماع الامة بجميع أحزابها وهيئاتها وطوائفها في وجوب أن تقف بلادنا على الحياد ·· وقد راح رئيس هذه الوزارة ضحية هذا الخروج على اجماع الامة ·

فماذا فعل اشتراك رئيس الحزب الوطنى في هذه الوزارة ؟ هل استطاع ان يحول بينها وبين التواطؤ مع المستعمر ؟ واذا فرضنا انه حاول ذلك ففشل ، فهل استقال احتجاجا على خطة لا يرضاها ؟ ··· لم يفعل من ذلك شيئا ·

٢ ـ وبعد مقتل احمد ماهر خليفة النقراشى فتولى الرياسة والداخلية والخارجية ، وأبقى على الوزارة بتكوينها الذى كانت عليه · ومعنى هذا أن

---

(١) صفحة ٢٩٤ ·

الحزب الوطنى ظل ممثلا فى هذه الوزارة برئيسه ... فماذا فعلت هذه الوزارة التى تولت الحكم فى أواخر فبراير ١٩٤٥ وماذا سجل التاريخ لها ؟

لم يسجل لها شيئا وانما سجل عليها المذكرة الزرية المتخاذلة التى تقدمت بها الى المستعمر للمطالبة بحقوق البلاد بعد نحو عام ضيعته فى اعدادها ، فكانت على حد قول القائل « سكت دهرا ونطق كفرا » مما أطمع المستعمر ، وقوى مركزه ، وجعل مصر فى موقف المستجدى لافى موقف المطالب بحق مغتصب — وقد دمغت جميع الهيئات والاحزاب هذه المذكرة بالخزى والعار .

٣ — ثم ختمت هذه الوزارة النكدة أيامها البغيضة بعار لا يمحى على الزمن .. تلك هى مذبحة كوبرى عباس الثانية التى نوهنا عنها فى الجزء الاول من هذا الكتاب(٢) ، وأصيب فيها ١٦٠ طالبا فقد منهم ثمانية وعشرون .. والفرق بين هذه المذبحة وبين سابقتها فى نفس المكان عام ١٩٣٦ أن الذى أمر بالضرب فى الاولى ضابط انجليزى ، ولكن الذى أمر بالضرب فى هذه مصرى هو عبد الرحمن عمار وكيل الداخلية المصرى الذى تتبرأ « المصرية» منه ومن وزيره الذى فوضه فى ذلك .... فماذا فعل رئيس الحزب الوطنى المشترك فى هذه الوزارة ؟

٣ — ثم جاءت بعد ذلك وزارتان أولاهما برياسة اسماعيل صدقى والاخرى برياسة النقراشى مرة أخرى . ولم يشترك الحزب الوطنى فى هاتين الوزارتين وان اشترك رئيسه فى وزارة النقراشى ثم استقال — وقد أحسنا الظن آنذاك وقلنا لعل الحزب رأى أنه مخطىء فى العدول عن خطته الاصيلة بعد أن جرب فعاد عليه الاشتراك فى الحكم بخسران مبين .. ولكن هذا الظن قد اصطدم بتصرف عجيب من الحزب نفسه .. فبعد أن أصدر حزب السعديين الامر العسكرى بحل الاخوان واغتيل النقراشى على أثره وأسندت الوزارة الى ابراهيم عبد الهادى رأينا الحزب الوطنى يشترك فى هذه الحكومة بوزيرين هما عبد العزيز الصوفانى سكرتير الحزب ومحمد زكى على أحد كبار أعضائه .

ولا داعى هذه المرة للسؤال الذى نسأله فى كل مرة اشترك فيها الحزب عما فعل اشتراكه للبلاد من خير ، فان مجرد اشتراكه فى وزارة يعلم الجميع سمتها والظروف المحيطة بها يثير الفزع ويبعث على الريبة والاشمئزاز ؛ ثم ان هذا الاشتراك قد استمر حتى بعد ارتكاب هذه الوزارة جريمة إغتيال المرشد العام !!!

٤ — ومع كل هذا الذى جنح اليه الحزب من الانغماس فى حمأة

(٢) صفحة ٣٦١ .

السياسة المشبوهة فان الاستاذ المرشد العام - بما طبع عليه من مرونة ورحابة صدر ، وتقديم لحسن الظن دائما ، والتماس العذر لكل من بدا منه انحراف أو تقصير - لم يسىء الظن بهذا الحزب ، ولم يفقد الامل فيه . بل ظل يعتبره فى مقام الاقربين الاولى بالمعروف ، والاحق بأن يتشاور معهم .. فلما صدر أمر الحل كان أول من فكر فى التشاور معه حافظ رمضان باشا ، بحثا عن وسيلة لتسوية الامور بين الاخوان والحكومة .

وقبل ان اترك مجال الحديث للاستاذ فتحى رضوان ، الذى كان أشد أعضاء هذا الحزب اتصالا بأحداث هذه الفترة ، وألصقهم بأشخاصها ، وأكثرهم معاناة لتناقضها - أرانى مطالبا أن أحيط القارىء علما بما تلاوزارة عبد الهادى من وزارات حتى أصل الى الظروف التى اضطر الاستاذ فتحى رضوان أمامها الى ان يكشف عن حقائق كان يجهلها اكثر الناس فيما يتعلق بقصة الحزب الوطنى مع الاخوان وقصته هو ومجموعة من زملائه أعضاء الحزب مع الحزب نفسه :

فقد أسند الحكم بعد سقوط عبد الهادى الى وزارة ائتلافية اشتركت فيها جميع الاحزاب ومنها الحزب الوطنى ، كما اشترك فيها مصطفى مرعى ممثلا للمستقلين ، وكانت برياسة حسين سرى . ثم استقالت هذه الوزارة وألف حسين سرى وزارة كل أعضائها محايدون أجرت الانتخابات التى أسفرت عن فوز حزب الوفد ، فألفت وزارة وفدية برياسة مصطفى النحاس وكان فؤاد سراج الدين وزير الداخلية بها ...

وعلى غير ما هو معهود فى وزارات الوفد ، ولاسباب لا يعلمها الا الوفد نفسه ، غيرت هذه الوزارة أسلوبها ، وأخذت تصانع الملك وتلاينه مما قضى على السبب الوحيد الذى كان يجعل الملك دائما فى ضيق من وزارات الوفد حيث كان يتلمس لها الاخطاء ، ويتصيد الفرص لاقالتها والتخلص منها ..

ولعل هذا الشعور الجديد بين الوفد والملك قد ألقى فى نفوس السعديين وأحزاب الاقلية الاخرى اليأس من أن تتاح لهم فرصة فى المستقبل للاستمتاع بمناصب الحكم ، فقد سد الوفد المنفذ الذى كانوا ينفذون اليها منه ... فماذا هم فاعلون ؟

اجتمعوا جميعا وقرروا رفع عريضة موقعة منهم الى الملك .. يتباكون غيرة على البلاد لما انتشر فيها من فساد فى جميع مرافقها ، ويطالبون باصلاحات فى كل ناحية ... ويومئون فى خلال فقراتها من طرف خفى الى مواطن ضعف تمس الملك شخصيا .. وكانت هذه الايماءات التى بثها السعديون بالذات بين سطورها هى بيت القصيد والامل الوحيد - كأنهم يهددون الملك قائلين : اذا لم تنتبه الينا وتعرنا التفاتا فسنجهر بها الى

الشعب ـ ونحن أعرف الناس بأسرارها لاننا نحن الذين يسرنا لك أمرها يوم كنا نعمل لحسابك ..

واستطاعت حكومة الوفد أن تحول دون وصول العريضة الى الملك . فأخذوا فى سلوك الطريق الآخر باستجواب قدمه مصطفى مرعى فى مجلس الشيوخ ـ وهو المستقبل الذى حشر نفسه وسط أصحاب العريضة ولكنه كان مستوزرا .. وقد كشف هذا الاستجواب حقيقته ، فقد ثبت منذ تلك اللحظة أنه حليف ابراهيم عبد الهادى ومولاه ويده التى يبطّش بها وعقله الذى يدبر به ويحيك المؤامرات .

وكان الاخوان فى ذلك الوقت قد خرجوا من المعتقلات ، ورأت الاحزاب التى نفذت خطة الابادة بعينيها كما رأى غيرهم أن هذه الخطة قد فشلت كل الفشل . فالاخوان عادوا كما كانوا من قبل قوة وعزما وثباتا وحيوية .. فأخذ كل حزب يتزلف اليهم ، ويتملص مما هو منسوب اليه من مساهمة فى خطة الابادة أو اعانة عليها .

والآن اترك المجال للاستاذ فتحى رضوان ليروى قصة الحزب الوطنى مع الاخوان فى خلال الفترة العصيبة التى انصهرت فى حر نارها المعادن فمازت الخبيث من الطيب :

قصة الحزب الوطنى مع الاخوان

● مساجلة حزبية بين الوفد والحزب الوطنى بصدد الاخوان :

فى ٢٦ أكتوبر ١٩٥٠ ـ فى عهد وزارة الوفد ـ نشرت جريدة الاهرام تصريحا لفؤاد سراج الدين وزير الداخلية قال فيه : ان الاخوان سيباشرون نشاطهم قبل مايو المقبل .

وقد سأل مندوب « الاهرام » حافظ رمضان باشا رئيس الحزب الوطنى فى ذلك فجاء فى رده : « وقد حاولت جهدى أن أقنع زملائى ممن وقعوا على « العريضة » المرفوعة الى جلالة الملك بالنص فيها على وجوب الغاء قرار حل الاخوان ولكنهم لم يوافقوا ـ ماعدا مكرم باشا ـ لانهم كانوا فى الحكم عندما صدر قرار الحل .

ولما قلنا لسعادته انه كان عضوا فى الوزارة التى اصدرت قرار الحل اجاب بأنه استقال قبل صدور القرار لاسباب سياسية معروفة .. وأخذ يهاجم قرار الحل .

وفى ٢٧ اكتوبر قالت « الاهرام » : تلقينا من الاستاذ عبد العزيز الصوفانى سكرتير الحزب الوطنى الكلمة التالية « قرات فى اهرام اليوم

تصريحا لفؤاد سراج الدين باشا نسب فيه الى من يقولون بعودة الاخوان المسلمين الى العمل والغاء أمر حلهم ، أنهم يتملقون هذه الجماعة باعتبارها طائفة من الجماهير — ويسألهم أين كانوا عندما صدر قرار الحل .

ولما كان حضرة صاحب السعادة حافظ رمضان باشا رئيس الحزب الوطنى هو صاحب وجهة النظر بادية الذكر ، فيكون هو المعنى من فؤاد سراج الدين باشا بما قال . ولما كنت سكرتير الحزب الوطنى ، وبحكم هذا المركز كنت أطلع على ما يدور مع رئيس الحزب ، كما كان سعادته يخبرنى أولا بأول بما يجد عنده .. أقرر الآتى :

بعد أن صدر أمر حل جماعة الاخوان المسلمين زار المغفور له الاستاذ حسن البنا المرشد العام سعادة رئيس الحزب الوطنى ليتبادل معه الرأى فيما يجب عمله ، وطلب اليه أن يبذل جهده لدى السلطات العليا لصالح الاخوان ، ويعمل على رفع الحيف الذى وقع عليهم بأمر حلهم .. فقام بهذا فعلا .. ورئى أن اللجوء الى الهيئات النيابية قد يضر ضررا بليغا اذا ما وافقت تلك الهيئات على اجراء السلطة التنفيذية فى حل هذه الجماعة .

ان الناس جميعا ومنهم فؤاد سراج الدين باشا يعرفون ان رئيس الحزب الوطنى ليس بالرجل الذى يعمل دون عقيدة حبا فى التملق للجماهير لكسب عطفهم ، لان ما يعمله دائما يصدر عن عقيدة سليمة لوجه الله والمصلحة العامة ،كما يعرف فؤاد سراج الدين باشا بل هو أعرف الناس بهؤلاء الذين يلجاون الى تملق الجماهير والعمل على كسب عطفهم بالطرق الخداعة الملتوية » .

- **الاستاذ فتحى رضوان يتصدى لكشف حقيقة موقف الحزب الوطنى من الاخوان فى محنتهم :**

وفى ٢٩ أكتوبر جاء بالاهرام ما يلى :

لمناسبة مانشرته « الاهرام » عن الاخوان المسلمين لمعالى فؤاد سراج الدين باشا وسعادتى حافظ رمضان باشا رئيس الحزب الوطنى والاستاذ الصوفانى سكرتير الحزب — كتب الينا الاستاذ فتحى رضوان المحامى ورئيس اللجنة العليا لشباب الحزب الوطنى مقالا روى فيه قصة الحزب الوطنى مع الاخوان كما عاصرها . وفيما يلى هذا المقال :

« لما كنت قد اتصلت بالحوادث السابقة على حل الاخوان ، والمعاصرة للامر العسكرى الذى قضى بتصفية نشاطهم ومصادرة اموالهم ، وما تفرع عن ذلك كله من اضطراب بلغ غايته بمقتل المرحومين النقراشى باشا

والاستاذ حسن البنا ، فقد رأيت أن أضع تحت نظر الناس بعض ما يعين على تاريخ هذه الحقيقة المضطربة حتى يتبين الاخوان المسلمون على ضوئه طريقهم ٠

في شتاء ١٩٤٨ كنت دائم الاتصال بالمرحوم الاستاذ البنا – وقد أسفر هذا الاتصال عن تفكيره رحمه الله – جديا في أن يكل نشاط الاخوان المسلمين السياسي الى الحزب الوطني ، وأن يقتصر عمله هو ودعوته على الناحية الدينية البحتة ٠

ثم وقع الحل فاتخذ المرحوم الاستاذ حسن البنا من مكتبي مكانا يلقى فيه بعض أنصاره ويتصل عن طريقه برجال السياسة والحكومة – وفي أحد الايام أفضى الي أنه يود أن يكل الى هيئة من رجال السياسة المصريين ، حزبين ومستقلين وبعض المشتغلين بالشئون العربية والاسلامية بأمر الوساطة بين الاخوان وحكومة النقراشي باشا ٠ وكان يؤمل أن تنجح وساطة هؤلاء الكبار في أن تخفف الحكومة من شدة اجراءات الاعتقال ، وأن تدع نشاط الاخوان الخيري والديني وأن تعفى من المصادرة والحل الشركات التي تمارس نشاطا اقتصاديا – وعلم الاستاذ الصوفاني بان الاستاذ البنا عندي بالمكتب ، وأننا نتداول فيما نشأ عن أمر الحل ، فحضر البنا واشترك في الحديث الى ساعة متأخرة ٠

وأحطناه علما بما كنا فيه من التفكير في دعوة لجنة من الكبار تبسط للحكومة رأى الاخوان ، وتسعى بينهما بالخير والتوفيق ٠ وأضاف الاستاذ البنا أنه كان يطمع في أن يقوم حافظ رمضان باشا بدعوة هذه اللجنة بداره ، وأن يوجه هو الى أعضائها الدعوة ٠٠ وأخذ الاستاذ الصوفاني كشفا بأسماء أعضاء اللجنة ووضعه في جيبه ٠٠٠ وفي اليوم التالي ذهب الى حافظ رمضان باشا وعرض عليه الفكرة والكشف ٠ فنصحه حافظ باشا بان يصرف النظر عن المشروع كله – وكان هذا آخر عهد المرحوم الاستاذ البنا بالاستاذ الصوفاني ورئيسه حافظ باشا ٠

وكان رحمه الله يتفضل بزيارتي كل ليلة بالمكتب ٠ وكانت بداية الحديث بيننا قوله لي مداعبا « ماذا فعل الباشا لنا وبنا ٠٠ نسينا أم غضب علينا ؟ » وكنا نضحك ٠ وكنت أقول له : أما قلت لك ان الخلاف بينك وبين الحكومة خلافه مبدئي لا تنفع فيه وساطة الوسطاء ٠ وكنت تقول : هذا باب مفتوح يجب أن نطرقه حتى لا نكون في نظر الناس قد قصرنا في شيء ٠

وعين الاستاذ الصوفاني وزيرا بعد مقتل النقراشي باشا ، واشتدت وطأة الحكومة على الاخوان ، وضاق صدرها بمن يتصلون بهم أو يدافعون

عنهم • فرأيت من جانبي ان ارجو معالي مصطفى مرعى بك ان يلقى الاستاذ البنا ويستمع اليه • وتوسطت في تحديد ميعاد لهما • وكان مكان لقائهما في منزل مصطفى بك •• وذهب المرحوم الاستاذ البنا الى الميعاد ومعه شقيقه الاستاذ عبد الباسط • وكان الاستاذ البنا يحمل معه مسدسه المرخص ، فتجمل باعطاء المسدس لاخيه حتى لا يلقى الوزير مسلحا ، وخصوصا في تلك الايام الحرجة • وتحدث هو ومصطفى بك طويلا ، واستمع اليه مصطفى بك ونزلا معا • فاذا بهما يجدان العسكرى الحارس على دار مصطفى بك قد القى القبض على الاستاذ عبد الباسط فامر مصطفى بك العسكرى باطلاق سراح عبد الباسط •• ووصل نبأ كل هذا الى السلطات فاحنق بعضها على مصطفى بك واحنق الجميع على •

وعين الاستاذ الصوفانى وزيرا • وهو كما مر بك كان يلقى الاستاذ البنا ، وكان لا يكره ان يتوسط للاخوان عند رئيسه حافظ باشا • وكان يعرف ان ما بينى وبين الاخوان ومرشدهم قبل وفاته هو الدفاع عن الحرية كمبدأ ، ومشايعة الاخوان كفكرة وطنية تدفع الاستعمار ••• فكم كان غريبا ان اسمع ان « معاليه » ذهب الى مكتب دولة رئيس الوزراء ينقل اليه ما اتصل بعلمه من أنباء تعاوني مع الارهابيين من الاخوان ••

ولما كانت الاقدار قد ساقت الاستاذ مصطفى مرعى بك فقد استمع الى هذا الحديث ، وأدهشه أن يكون للاستاذ الصوفانى من مصادر الإخبار مالم يتوافر لرئيس الوزراء نفسه ووزير الداخلية بالذات ، ورأى ان خير ما يصرف به هذا الحديث « الخطر » هو ان يسأل عن رأى الاستاذ الصوفانى في بيان اللجنة العليا – التى اتشرف برياستها – في الاحكام العرفية ومحاولة مدها •• وأدرك رئيس الوزراء ان بين رأى اللجنة العليا في الاحكام العرفية والاخبار التى وصلت الى علم الوزير الصوفانى بك صلة لا تخفى على لبيب •

وعرض أمر الاحكام العرفية على مجلس الوزراء • وانقسم المجلس الى فريقين : فريق يرى مدها ستة أشهر ، وفريق يرى اطالة عمرها عاما •• وكان من رأى وزيرى اللجنة الادارية التى يرأسها حافظ باشا رمضان ان يطول عمر الاحكام العرفية عاما •• وكان معنى ذلك ان تطول مدة اعتقال المعتقلين عاما على الاقل •

ولا يفوتنك ان المبرر الوحيد عند الحكومة في ذلك الحين لابقاء الحكومة على الاحكام العرفية هو جهادها ضد الاخوان المسلمين ودعوى اضطراب الامن • ولم يكن ثمة سبب لأضطراب الامن عند الوزارة الابراهيمية الا الاخوان ونشاطهم « اللعين » •

فاذا أضفت الى هذا كله أن القبض والاعتقال والتفتيش العسكرى والتشريد العرفى استمر فى عهد وزارة ابراهيم عبد الهادى كله ولم ينقطع يوما، وأن وزيرى اللجنة الادارية المتشرفة برياسة حافظ باشا فى وزارة ابراهيم باشا بقيا الى آخر عهدها - أمكن لك أن تعرف مدى عطف الاستاذ الصوفانى ورئيسه على الاخوان ، ومدى اعتقادهما فى صحة المثل الاعلى الذى تدافع عنه هيئة الاخوان وتؤمن به » .

● ملاحظات على بعض ما جاء فى حديث الاستاذ فتحى :

أولا - تفكير الاستاذ المرشد العام فى أن يكل نشاط الاخوان السياسى الى الحزب الوطنى ، واقتصاره هو على الناحية الدينية البحتة ، أمر لم يكن لى به سابق علم حيث كنت فى ذلك الوقت بعيدا عن القاهرة ، ولكننى لا أستبعده ، فالاستاذ رحمه الله كان رجلا لبيبا مرنا ، واسع الحيلة ألمعيا ، وكان قد رأى غيوم المؤامرات - التى أومأنا اليها - تتجمع فى الافق حتى أوشكت على سده .. فأراد بهذا الاسلوب أن يشق لدعوته منفذا تنفذ منه مؤقتا ، قبل أن تطبق عليها هذه الغيوم اطباقا كاملا فلا تجد منفذا .. حتى اذا أفلتت من هذا الاطباق عملت بعد ذلك على تفتيت هذه الغيوم واسترداد ما وزعته من مسئولياتها الثقال فى أثناء تفادى الاطباق .

والا فهو - رحمه الله - كان خير من يعلم أن فصل ما يسمونه « السياسة » عن الدين أمر لا يمكن تصوره بالنسبة للاسلام ولا فى الخيال ، كما كان يعلم أيضا أن الحزب الوطنى بتركيبه الذى كان عليه فى تلك الايام لا يصلح لحمل مثل هذه المسئولية .. ولعله - رحمه الله - كان يهدف من وراء ذلك أن يدخل الطمأنينة الى نفس الملك الذى كان أحد الاصابع المحركة فى جهاز المؤامرات المتربصة بالاخوان خوفا منهم - ويعلم أيضا - رحمه الله - أن الحزب الوطنى فى أسلوبه المستوزر الجديد اصبح من الاحزاب المرضى عنها من الملك .. ولكنه أى هذا الحزب لا زال على كل حال أقلها سوءا .

ثانيا - جاء بصدد الوزير مصطفى مرعى فى حديث الاستاذ فتحى ذكر واقعة تعرض لها الاستاذ محمد الليثى فى حديث له نشر « بالاهرام » بعد حديث الاستاذ فتحى .. وربما نقلنا بعض هذا الحديث وشيكا ان شاء الله لما فيه من أضواء ألقاها الاستاذ الليثى على شخصية الاستاذ مرعى وما لعبته من أدوار فى قضية اغتيال المرشد العام .. واستطيع أن أقول ان الواقعة التى أوردها الاستاذ فتحى فى حديثه عن الاستاذ مرعى .. ربما كانت واقعة بذاتها تمت عن طريق الاستاذ فتحى دون علم الاستاذ الليثى ، وانها وقعت قبل ان تبدأ اللقاءات الرسمية التى كلف بها الاستاذ مرعى من رئيس الوزراء والتى تمت فى منزل اللواء صالح حرب .

ثالثا ـ بمناسبة ما ذكره الاستاذ فتحى عن رأى وزيرى الحزب الوطنى فى وزارة عبد الهادى بصدد مد الاحكام العرفية ٠٠ نضيف أن أحد هذين الوزيرين وهو محمد زكى على باشا كان وزيرا ايضا فى وزارة حسين سرى باشا التى خلفت وزارة عبد الهادى ٠ وأعلنت هذه الوزارة أنها ستعود بالبلد الى حالتها الطبيعية ٠ وكان مفهوما أن الحالة الطبيعية هى رفع الاحكام العرفية ، غير أنها توانت فى ذلك ٠ فشنت جريدة المصرى حملة ضد ابقاء الاحكام العرفية ٠٠ وكانت هذه الحملة فى صورة استفتاء للرأى العام فى هذه القضية ٠ وقد وجهت السؤال فى هذا الشأن الى عدد كبير من رجال يمثلون قطاعات الرأى العام ٠ وقد استمر الاستفتاء نحو أسبوعين ٠

وفى نهاية المدة كتبت « المصرى » تلخص نتيجة الاستفتاء فقالت ـ وكان ذلك فى ٢٥ـ١٠ـ١٩٤٩ ـ :

« الآن بقى ان نذكر من امتنع عن الاجابة على سؤالنا : معالى محمود غالب باشا (سعدى) ـ معالى على أيوب بك (سعدى) معالى محمد زكى على باشا (وطنى) ـ الدكتور نجيب محفوظ (طبيب) ٠٠٠

وعلقت الجريدة على اجابة محمد زكى على باشا حين رد على سؤال الجريدة بصدد الاحكام العرفية بقوله : « ليس لى رأى » ٠٠٠ فقالت الجريدة: كم كنا نتمنى أن يكون لمعاليه ـ وهو الوزير المسئول ـ رأى فى هذه المسألة ، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ٠

وهذا الوزير كان فى ذلك الوقت وكيلا لجمعية الشبان المسلمين ٠ فلما مثل للشهادة أمام المحكمة فى ١٩٥٣/١١/١٨ ـ بعد طرد معبودهم فاروق ـ وأخذت المحكمة فى توجيه الاسئلة اليه بشأن الاستاذ حسن البنا ، كان هو الشاهد الوحيد الذى أخرج منديله ليمسح دموعه التى ذرفها حزنا على فقده ، وحين سئل فى المحكمة عن أخلاقه قال : أخلاقه ٠٠ هو حد يشك فى أخلاقه ؟٠٠

وكانت مفاجأة أن سمحت المحكمة لشاهد آخر هو الاستاذ محمد الليثى بمواجهة هذا الشاهد ٠ فقال الليثى : « أنا لم أذهب الى الاستاذ محمد زكى على بمكتبه بالوزارة الا بناء على توجيه من الاستاذ عبد القادر مختار والدكتور يحيى الدرديرى ، لانى أعلم أن الاستاذ زكى على كان غير موافق على حضور الشيخ البنا الى الجمعية بعد حل الاخوان ٠ وانني لم اذهب اليه لاستشيره بل ذهبت اليه لاستعين به بوصفه وزيرا لكى يمكنني من الادلاء باقوالى فى النيابة ٠٠ ولكنه قال لى انه لا يستطيع ان يفعل ذلك لانه وزير ٠ وانه لم يقل لى كل الحقيقة ، بل قال لى انهم يقولون ان هذا رجل مجرم ويقصد بذلك الشيخ البنا ـ ولكن مافيش مانع انك تقول الحقيقة ٠

ولما استدعته النيابة لسماع اقواله فى هذه الواقعة غضب على وأبدى

استياءه لانى ذكرت اسمه فى التحقيق ، وأعرب عن هذا الشعور عندما طلب منه اللواء صالح حرب فى احدى المناسبات أن يجلس فى مكتبى فلم يقبل وقال: خذالله ما بينى وبينه .. وذلك بعد أن سمع شهادتى أمام المحقق . وأنا لما نشرت بيانات عن الحادث فى جريدة النصرى احتج الاستاذ زكى على فى مجلس الادارة وطلب فصلى فلم يوافقه الاعضاء .

.. وأما عن زعل الاستاذ زكى منى فلم يكن لاجل تغيير النمرة ، وانما لاننى عرضته لغضب الاستاذ ابراهيم عبد الهادى عندما كان رئيسا للوزارة .

وهنا رد الاستاذ زكى على قائلا : اننى لم اكن أكره الشيخ البنا بل اننى كنت أعلم أن الشيخ البنا يريد أن يدمج الاخوان والشبان فى جمعية واحدة ، وأنا كنت ضد هذا الرأى لان مبادئنا تختلف عن مبادئهم .

[م] الاستاذ مصطفى مرعى :

أما وقد أفردنا فصلا لتقييم أشخاص وابراز مواقف فى صدد ما نعالج من أحداث تلك الفترة ، فما ينبغى لنا أن نغفل شخصية هذا الرجل الذى رضى لنفسه أن ينصب الدور الذى أترك الحكم عليه للقارئ بعد أن أضع بين يديه الوقائع التى لن تكون من الوفرة والوضوح كما كان ينبغى أن تكون ، لان الدور الذى أتم تمثيله وقع أكثره فى الظلام الدامس الذى غطى رداؤه الاسود سماء البلاد أكثر من عام .

والاستاذ مصطفى مرعى محام كبير اختاره ابراهيم عبد الهادى فى وزارته المشئومة وزير دولة .. ولم يكن هو وحده وزير الدولة فى هذه الوزارة . ولكنه كان من بين وزراء الدولة فى هذه الوزارة الوزير الوحيد الذى اختير لذاته ، فقد كان زملاؤه مرشحين من أحزابهم أما هو فلم يكن منتميا لحزب .. واذا اختار ابراهيم عبد الهادى فى وزارته تلك التى يعلم فى قرارة نفسه المهمة المنوط بها انجازها - والتى عرفها الناس فيما بعد - اذا اختار عبد الهادى لهذه الوزارة وزير دولة لذاته - فى ظل تلك الظروف - فانما ينتقيه على أساس من صفات معينة ، ومقدرة خاصة تتلاءم والمهمة الموكول الى الوزارة القيام بأعبائها .

ومهمة هذه الوزارة معروفة .. واذا كان هناك من خامره شك فى معرفتها ، فقد سجل التاريخ وسجل القضاء نوعها ومدى ارتباطها بما تم فى أيامها من جرائم .

● كيف اختار عبد الهادى مرعى وزيرا ؟

اختار عبد الهادى هذا الوزير اختيارا شخصيا بحتا ، لما يعلم من

كفاءته الفائقة لما رشحه للنهوض به من اعمال خطيرة ، يتوقف على انجازها مستقبل هذه الوزارة ومستقبل رئيسها .. وقد اجتباه لنفسه وائتمنه على اخص خصائصه ، فكان هو رئيس الوزراء والحاكم العسكري العام ووزير الداخلية ، وكان عبد الرحمن عمار – بطل مذبحة كوبرى عباس الثانية – هو وكيل الداخليـة للامن العـام ، وكان الوزير المختـار وزير دوله منـوطا به الاشراف على الامن العام ... وقد اثبت القضاء أن في ديوان هذه الوزارة – وزارة الداخلية – وفي مكاتب ادارات الامن العام بها ، قد حيكت المؤامرة الدنيئة لاغتيال المرشد العـام .

وربما لم يكن في وثائق تاليف وزارة عبد الهادى ما ينص على تعيين مرعى وزير دوله لشئون الأمن العام . ولكن الاحداث ومجـريات الامـور هى التى وضحت مهمته هذه من بين زملائه وزراء الدولة بالحكومة ، فقد جاء في شهادة الاستاذ محمد زكى على وزير الدولة بهذه الحكومة أمام المحكمة قوله : « الشيخ البنا جانى أثناء كنت وزير دولة ، وقال لى : احب أن تكلم رئيس الوزراء فيما يتعلق بالاخوان فقلت له : انا مش مختص ، وفيه وزير مختص» . فسأله رئيس المحكمة : أمال مين المختص ؟ فأجاب : الاستاذ مصطفى مرعى .

ومعنى أن وزير دولة بوزارة عبد الهادى هو المختص بشئون الاخوان معنى ذلك أنه هو المختص بشئون الامن العام لانهما في عهد هذه الوزارة كانا مترادفين .

● **حكومة الوفد مكنت الخبثاء من دسع قضية الامام :**

وقد توالت على الحكم بعد سقوط عبد الهادى وزارتان برياسة حسين سرى ، ثم جاءت وزارة الوفد فوجدت نفسها أمام عاملين شديدى الضغط عليها ولكنهما متعارضان : ضغط شعبى جارف يطالبها بفتـح باب التحقيـق من جديد في قضية اغتيال المرشد العام .. هذا من ناحية . ومن الناحيه الاخرى وجود الموضوع الاول بهذه الجريمة – الملك – على راس الدولة وهو المسيطر على شئون البلاد ... وكان خروج هذه الوزارة من المأزق ارضـاء لمشاعر الناس ومصانعة للملك ان أمرت النيابة باستئناف التحقيق وأوعزت اليها فاصدرت في نفس الوقت أمرا بحظر نشر اى شىء عن هذا التحقيق .. فكان أمر الحظر هذا بمثابة افقاد هذا التحقيق قيمته ، فاذا كان هذا التحقيق قد اتاح لبعض الشهود البرءاء من كل عرض كالأستاذ الليثى ان يقول ما عنـده كما رأى وسمع ، فانه كان مجالا فسيحا في نفس الوقت للمغرضين ان يزيفوا الحقائق ويزوروا الوقائع بالطريقة التى تحقق أغراضهم وتطمس العالم ، بحيث يهيىء للمجرمين فرص الافلات . ويلقى بظلال الجريمة على البرءاء ..

كان أمر الحظر الذى أصدرته النيابة حماية لهؤلاء المزيفين ، فقد كانوا فى مأمن من أن يفتضح زيفهم فأنى للنـاس أن يكشفوا هذا الزيـف مادام محجـوبا عنهم ؟ !

ولكن عاملا جديدا لم يكن بحسبان رجال الحكم قد طرأ على الموقف ، ذلك أن القضايا التى لفقها المسئولون فى عهد عبد الهادى ضد بعض الاخوان قد حل ميعاد نظرها أمام القضاء العادى ـ بعد أن زالت الاحكام العرفية ـ وقد طالبت هيئات الدفاع فى هذه القضايا بضم ملف التحقيقات التى أجـريت فى قضية اغتيال المرشد العام • وأمرت احدى هذه المحاكم بضم هذا الملف مع طبعه وتوزيعه على أفراد هيئة الدفاع • وعن هذا الطريق افتضح السر الذى كان المتسترون على الجريمة يريدون أن يظل دفينا •

● المراحل التى مر بها التحقيق فى القضية :

ونحب بهذه المناسبة أن نلفت النظر الى أن التحقيق فى هذه القضية قد تم على ثلاث مراحل :

المرحلة الاولى : فى عهد وزارة عبد الهادى وحين كان محمـود منصـور نائبا عاما ، وقد طوى التحقيق بعد أيام قلائل حيث لم يجـرؤ أحـد ـ أمام الارهاب الحكومى ـ على التقدم للشهادة • وقيد الحادث جناية ضد مجهول •

المرحلة الثانية : فى عهد وزارة الوفد • وقد تم التحقيق بالطريقة التى ذكرتها آنفا ، وقد استحق أن يقال عنه انه كان تحقيقا يجرى على استحياء ، فقد تستر صانعو الجريمة وراء قرار النيابة بحظر النشر وراحوا يختلقون قصصا كلها تزوير وكذب وافتراء •

المرحلة الثالثة : بعـد أن قامت الثورة وطـرد الملك فاروق • وقـد تم التحقيق فيها ، ولكن طول المدة التى مرت بين ارتكاب الجريمة وبدء التحقيق فى هذه المرحلة لم يتمكن التحقيق معها أن يصل الى أغوار القضية ، وان كان كشف الكثير من ظروفها •• وهو التحقيق المعول عليه ، والذى ننقل عنه فى بحثنا هذا من أقوال وشهادات •

● ادعاءات للاستاذ مرعى داحضة ومريبة :

وقبل أن نورد من اقوال الشهود وأقوال الاستاذ مرعى نفسه ما يلقى ضوءا على حقيقة دوره ، نوجز فى النقاط التالية بعض ادعاءاته التى أدعاها وتبين مخالفتها للحقيقة :

١ ـ ادعى امام المحقق وامام المحكمة انه لم يكن له سابق معرفة بالمرشد العام الا ما كان ينشر عن نشاطه •••

وثابت ثبوتا قطعيا أن شقيقه المرحوم الاسـتاذ امين مرعى المحـامى

بالاسكندرية كان رئيسا للاخوان بها فى فترة خلال الاربعينيات ، وانه ـ رحمه الله ـ دعا المرشد العام لزيارة موطن أسرتهم وهى قرية من أعمال مركز فوه فى البر المقابل لرشيد من النيل ، وكان والدهما رحمه الله عمدة هذه القرية · وقد حضر هذا الحفل جميع آل مرغى كما حضره عدد كبير من اخوان رشيد ·

فهل مثل مصطفى مرعى شقيق المرحوم امين مرعى يجوز له ان يدعى أنه لا يعرف المرشد العام ولا يعرف عنه الا ما يقرأه فى الصحف ؟ ··· نعم ان شقيقه قد فصل من منصبه فى الاخوان بعد ذلك ، ولكن ليس معنى هذا أن الفصل من منصب يمحو حقائق التاريخ ·

٢ ـ ادعى أمام المحققين أن الاستاذ المرشد هو الذى رغب فى مقابلته فوسط اللواء صالح حرب فى ذلك ·· وقد كذبه فى ذلك الادعاء الاستاذ محمد الليثى كما كذبه اللواء صالح حرب نفسه ·· اذ قرر أن الاستاذ مرعى هو الذى رجاه أن يهيىء له مقابلة المرشد العام فى بيته ، وقد تمت المقابلة فعلا فى بيت اللواء وتكررت ، وكل مرة كانت تتم بناء على طلب الاستاذ مرعى ·

٣ ـ ادعى أمام المحكمة أنه لم يأخذ من المرشد العام بيانا عنوانه « ليسوا اخوانا وليسوا مسلمين » ثم أدعى أنه لا يعرف شيئا عن هذا البيان ولم يسمع عنه ·· وقد كذبه فى ذلك الاستاذ محمد الليثى واللواء صالح حرب ·

٤ ـ لما أنكر أنه لم يسمع عن هذا البيان قالت له المحكمة انه نشر فى الصحف ، فادعى أنه لا يقرأ الصحف ··· ولعل القارىء يرى معى أن هذا ادعاء لا يستحق صاحبه حتى أن يكذب (بتشديد الذال المفتوحة) ·

٥ ـ ادعى امام المحكمة أنه انما كان مجرد وزير دولة فى وزارة عبد الهادى لا يعرف شيئا عن اعمال الوزارة · وقد كذبه فى ذلك الاستاذ الليثى بعبارات صدرت منه تفيد أنه كان الوزير المسئول عن الامن العام ، وبشهادة زميله الاستاذ محمد زكى على بأنه كان مختصا بشئون الاخوان ·

● **أضواء كاشفة على دور مرعى من شهادة الشهود ومن شهادته نفسه :**

والآن نورد من أقوال الشهود ومن أقوال الاستاذ مرعى نفسه ما يؤيد ما جاء فى هذه البنود الخمسة :

□ **من شهادة الاستاذ عبد الكريم منصور :**

« ان المرشد رغب فى السفر الى مكان آخر غير القاهرة ، ولكن الحكومة عملت على ابقائه فيها ليسهل اغتياله ، واتخذت مصطفى مرعى كاداة صيد

فقد أخذه مرعى بأساليب ملتوية ممقوتة للعمل على ابقائه فى القاهرة ، موهما أياه بأن الحكومة ستلغى أمر الحل وتعيد الامر الى ما كان عليه معهم ٠

فسألته المحكمة : يعنى ايه الطرق الملتوية ؟

فأجاب : كان يوهمه بأنهم جادون فى اعادة الاخوان ويقول له : بس لو سمحت تكتب بيانا صغيرا لاظهار حسن نية الاخوان ٠ وكان يملى عليه بعض الالفاظ ويعارض فيها الشهيد ، وكان يحاول اقناعه بمختلف الاساليب لكتابة هذا البيان ٠ وبمجرد ما كتب أخذه مرعى وأعطاه لرئيس الحكومة فعدلوا فيه وأحضره للشهيد وأقنعه بالتعديل ووقعه الشهيد ٠ ثم أخذوه وأعطوه لقاتل النقراشى وقالوا له ٠ شوف الشيخ حسن البنا بيقول ايه حتى يزلزلوا عقيدته ٠

ثم قال : ودليل خبث سريرة مصطفى مرعى وسوء نيته أنه كان غير كريم فى موقفه ، فقد افترى على الشهيد أقوالا لم تحدث اطلاقا ذكرها فى التحقيقات (فى المرحلة الثانية) ٠ والشهود الذين استشهد بهم مصطفى مرعى مثل صالح حرب كذبوه فى أقواله ٠٠ مما يدل على أن هناك مسألة مبيتة وأن الامور لم يكن المقصود منها مفاوضات » ٠

□ ومن شهادة الاستاذ محمد الليثى :

« بناء على تكليف اللواء صالح حرب لى ، اتصلت تليفونيا فى أوائل الامر قبل محاولة نسف المحكمة ـ بالرموز المتفق عليها ـ بالاستاذ البنا وقلت له ٠ ان الباشا (صالح حرب باشا) يطلبك ٠ فحضر وقابل صالح باشا الذى أفهمه أن مصطفى مرعى اتصل به ويريد مقابلته فى منزل اللواء الساعة الخامسة مساء ٠٠ فلما تم هذا الاجتماع علمت أن مرعى طلب من الشيخ البنا اصدار بيان يستنكر فيه قتل النقراشى ، ووافق الشيخ بشرط أن تتقف حركة الاعتقالات ٠ فردت الحكومة البيان طالبة منه التبرؤ من الاخوان ٠٠ وأخيرا صدر البيان لكن الحكومة اعتبرته ناقصا لايفى بالغرض المطلوب ٠٠٠ وبعد وقوع حادث محاولة نسف المحكمة تكررت اتصالات مصطفى مرعى باللواء صالح حرب للتفاهم على الاوضاع وأمر المعتقلين ٠٠٠ وتبرم الشيخ من هذه الاتصالات غير المجدية ورفض مقابلة مرعى خصوصا بعد حادث المحكمة ٠٠ واقترح مرعى أن يقابله فى منزله ٠٠٠ واخيرا اجتمع به وأصدر الاستاذ البنا لمرعى بيان « ليسوا اخوانا وليسوا مسلمين » ـ ورغم ذلك كله زادت حركة الاعتقالات ٠٠ وتضايق الشيخ من مرعى لانه أحس بأنه يكلمه بلهجة الامر لموظف لديه ، وشعر الشيخ بأن الامور تزداد سوءا » ٠

□ ومن مقال للاستاذ الليثى بجريدة الاهرام :

وقد نشر بتاريخ ١٩٥٠/١١/٣ قال الاستاذ الليثى :

« وقد لعب سعادة مرعى بك فى قضية الاخوان دورا خطيرا اكتنفه الغموض التام ، على الرغم من أنه لم يكن له اى اتصال سابق بالاخوان الا ما عرف من أنه شقيق الاستاذ أمين مرعى رئيس جمعية الاخوان بالاسكندرية والذى أصدر فضيلة الاستاذ البنا قرارا بفصله من رياسته لهذه الجمعية فى عام ١٩٤٧ ٠

ولقد ترتبت على اتصالات مرعى بك بالاستاذ البنا نتائج خطيرة ، مما جعل الامور تسير من سىء الى أسوأ ٠ ونقل الى الاستاذ البنا أن مرعى ينقل عنه اقوالا لم ترد على لسانه ، مما زاد موقف الاخوان سوءا على سوء ٠ وقد ايد ذلك ما جاء على لسان مرعى فى أثناء تحقيق قضية مصرع الشيخ البنا اذ قال مرعى فى ذلك التحقيق أقوالا يمنع حظر النشر فى هذه القضية من اذاعتها هنا (نشر هذا المقال فى الوقت الذى كان لا يزال ساريا حظر النشر لما يدور فى أثناء التحقيق) ولكنها تسىء بغير شك الى ذكرى الاستاذ البنا، وتهدف الى اهدار دمه ، فقد اراد أن يدخل فى روع المحقق أن الاخوان هم الذين قتلوا الاستاذ البنا » ٠

□ ومن مقال آخر للاستاذ الليثى :

وقد نشر هذا المقال ايضا فى جريدة الاهرام فى ١٩٥٠/١١/٧ ولكنه تميز بتفصيل ومعالجة امور خطيرة بالغة الاهمية جاء فيه ما يلى :

« وبعد ان وقع حادث محاولة نسف محكمة الاستئناف المؤسف ، والذى كان له أسوأ الاثر فى نفس فضيلة المرشد ، طلب مرعى من فضيلته أن يصدر بيانا آخر لنشره بالصحف يقول فيه بصراحة (انه يعتبر اى حادث من هذه الحوادث يقع من اى فرد سبق له الاتصال بجماعة الاخوان موجها الى شخصه ولا يسعه - اى الاستاذ البنا - الا ان يقدم نفسه للقصاص ، أو يطلب الى جهات الاختصاص تجريده من جنسيته المصرية التى لا يستحقها الا الشرفاء الابرياء) ٠

ولقد اوجد حادث محاولة نسف المحكمة جوا صالحا مكن مرعى من الوصول الى ما يريد من بيانات يود الحصول عليها ٠٠ وقد صدر البيان موقعا عليه من فضيلته بعنوان « ليسوا اخوانا وليسوا مسلمين » ٠

البيان لا ينشر فى موعده

وتسلمت الحكومة البيان ، ولكنها بدلا من أن تنشره فى اليوم التالى لحادث نسف المحكمة نشرته فى اليوم التالى لحادث اغتيال الشيخ البنا ٠٠

ثم قدمته لجهات التحقيق زاعمة أن الاخوان المسلمين هم الذين قتلوا شيخهم لاصداره هذا البيان ٠

ولعل هناك حكمة لا يعلمها الا علام الغيوب ثم مرعى بك فى أن يظل هذا البيان حبيسا شهرا كاملا ، وأن لا يفرج عنه الا لكى تنشره احدى الصحف (« الاساس » صحيفة السعديين) بالزنكوغراف تحت عنوان « النار بدأت تأكل بعضها ـ الارهابيون ينقلبون على شيخهم » ٠

خطاب مفترى بشأن تسليم الاسلحة

ونشرت هذه الصحيفة أيضا قصة خطاب آخر قالت ان فضيلته أرسله قبل مصرعه بيومين الى الحكومة ، وأعلن فيه استعداده لتسليم محطة الاذاعة السرية التى تتحدث باسم الجماعة واستعداده لتسليم الذخائر والاسلحة الباقية لدى بعض اخوانه ولم تقع تحت يد البوليس حتى الآن ٠

وانى لإعلن هنا أن قصة هذا الخطاب غير صحيحة ٠ وأؤكد أن فضيلته لم يرسل مثل هذا الخطاب ، وأنه قد صرح لى بأنه أبان لمن تحدثوا اليه من ممثلى الحكومة فى هذا الشأن بأنه لا يعلم شيئا مطلقا عما يسمى أسلحة وذخائر أو محطة سرية ٠

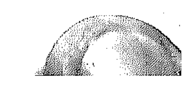
لماذا لم ينشر الخطاب المزعوم ؟

وكان من الطبيعى أن تهتم الصحيفة المشار اليها بنشر صورة زنكوغرافية للخطاب الذى أدعت فيه أن فضيلته أبدى استعداده لتسليم الاسلحة ومحطة الاذاعة ان كان لهذا الخطاب وجود ـ ولكنها لم تفعل ٠

واذا كان فضيلته قد أرسل هذا الخطاب فما الذى كان يدعو رئيس الحكومة فى ذلك الوقت الى أن يرسل فى يوم ١٢ فبراير ـ وهو يوم مصرع فضيلته ـ مندوبا من قبله ليتباحث مع الشيخ فى مسألة ضرورة تسليم الاسلحة والذخائر والمحطة ؟

تهديد الشبان المسلمين

ويقول الاستاذ الليثى : عقب صدور قرار الحل ذهب اللواء صالح حرب وعبد القادر بك مختار والدكتور يحيى الدرديرى الى الاستاذ البنا فى منزله وقالوا له : اعتبر دار الشبان هى دار الاخوان ٠ وفى اليوم التالى حضر الاستاذ البنا الى دار الشبان ٠ فلما علمت الحكومة بذلك اتصلوا بصالح حرب وقالوا له : ان هذا تحد لامر الحل ٠ واذا لم تمنعوه من دخول الدار فسنطبق عليكم بنود هذا الامر ٠ فاصر صالح حرب وقال لى : أخل حجرة



مكتبك للاستاذ البنا ، ولكن حاول أن لا يجتمع معه فى المكتب أكثر من ثلاثة أشخاص حتى لا يجتمع اكثر من خمسة فيطبق عليه قرار الحل · وقال لى : لا تدع الاستاذ البنا يعلم بشىء مما دار بيننا وبين الحكومة بشأنه ·· وقد اشترك الاستاذ البنا فى الجمعية ودفع اشتراك خمس سنوات ماضية حيث انه من مؤسسى الجمعية » (انتهى مقال الليثى) ·

● **ومن شهادة الاستاذ مصطفى مرعى أمام المحكمة :**

وكان الاستاذ مرعى قد بدأ شهادته بقوله « كنت فى وزارة عبد الهادى وزير دولة فقط · وعلى هذا لم يكن لى علم بنشاط الحكومة بخصوص القبض على الاخوان أو غيرهم ، لان هذا هو شأن وزارة الداخلية وحدها — وفى الاسبوع الاول من وزارة عبد الهادى اتصل بى السيد صالح حرب وأفهمنى أن الشيخ البنا يطلب أن يجتمع بى فقلت له لماذا ؟ قال : لاشياء يريد أن يصارحك بها حين يلقاك ·· فأنا لم أعرف عن الشيخ البنا الا ما أسمعه عن نشاطه **ولم أكن أعرفه شخصيا** ، ومع ذلك استجبت لطلب صالح حرب · ثم أنهى الاستاذ مرعى شهادته بأن أدعى أن الاستاذ البنا هو الذى طلب من تلقاء نفسه أن يكتب بيانا ··· وجاء فى مناقشة الدفاع له : ألم تقرأ جريدة المصرى بعد حادث الشيخ البنا ؟ .

مرعى — لا أذكر ·

الدفاع — ازاى دى أكبر جريدة ·· أو لا تذكر واقعة مصادرتها ؟

مرعى — لا ·· انما أذكر أن جماعة من نقابة الصحفيين شكوا الى من شدة الرقابة ·

المحكمة — ماذا تعرف عن البيان الثانى الذى أذاعه المرشد بعنوان « ليسوا اخوانا وليسوا مسلمين » ؟

مرعى — لا أعرف عنه شيئا ·

المحكمة — ألم تنشر الصحف هذا البيان بعد مقتل البنا ؟

مرعى — انا مش غاوى قراءة جرايد ، ولا أعرف الا البيان الاول ·

المحكمة دا البيان نشر فى جريدة « الاساس » بالذات ·

مرعى — هو انا غاوى « أساس » أنا لم أقرأ « الاساس » فى حياتى الا مرتين · وانا مندهش كيف يسمح لهذا الانسان المدعو الليثى بنقل التحقيق حرفيا ونشره فى الجرايد فى حين أن التحقيق كان سريا ·

(وهنا وقف الاستاذ الليثى وطلب من المحكمة السماح له بتوضيح هذه النقطة فرفضت المحكمة) ·

مرعى ــ أقول لكم كيف تمكنت من نشر مقالى فى « الاهرام » ردا على اكاذيب الليثى .. اتصلت بالاستاذ زكى عبد القادر فرحب بنشر المقال . وفى الساعة الواحدة والنصف بعد نصف الليل اتصل بى زكى عبد القادر وأخبرنى أن الرقيب منع المقال بأمر سراج الدين . فاتصلت بسراج الدين فقال لى : النشر محظور فى قضية الشيخ البنا . فسألته كيف يكون محظورا على ومباحا لليثى ؟ فقال : ما هو شأنك . فقلت له : ما هش عيب ؟ .. وذكرته بخدماتى فى أيامه السود . وتمكنت من استدرار عطفه فوافق على النشر وأدلى بنفسه بحديث « للاهرام » بأنى كنت من أشد المتحمسين للافراج عن الاخوان .

● عضو اليسار ــ ايه صلة الموضوع ده بالشهادة ؟

مرعى ــ أنا بأقول انى نجحت فى اثارة النخوة فى سراج الدين . ومضى يقول : انه مما ساعد على اثارة الغبار حول أحد أولياء الدم اسمه عبد الكريم منصور وهو كان موظف حكومة ، فرفع دعوى تعويض والمحكمة قررت ضم ملف الموظف . وأنا كنت فى ادارة قضايا الحكومة فى ذلك الوقت فغاب الدوسيه وأجلت القضية ، وفوجئت بعبد الكريم منصور يرفع على دعوى لانى ساهمت بفعلى فى الضرر الواقع عليه .

المحكمة ــ هل كنت فى الوزارة عند مقتل البنا ؟

مرعى ــ نعم

المحكمة ــ ألم تصل لكم معلومات بخصوص السيارة التى استعملت فى مقتل البنا ؟

مرعى ــ لا شأن لى بذلك . وأنا قدمت استقالتى ثلاث مرات من وزارة عبد الهادى .

المحكمة ــ لهذه الاسباب ؟

مرعى ــ لا .. لخلاف بينى وبينهم . وعلشان كده كنت بعيد عن هذه المعلومات .

المحكمة ــ يبدو غريبا أنك اطلعت على بيان الليثى سنة ١٩٥٠ ولم تطلع على الصحف التى كتبت بعد مقتل الشيخ البنا .

مرعى ــ ابدا .. أبدا .. لان هذا البيان كان يهمنى وله ظروف خاصة .

المحكمة ــ الم تذكر يوم قتل الشيخ البنا ؟

مرعى ــ ما اعرفش .

(وهنا طلبت المحكمة الاستاذ الليثى ليقول ما عنده) فقال :

ان البيانات التى نشرتها فى جريدة الاعرام كان الغرض منها الوصول الى معرفة الحقيقة فى قضية الشيخ حسن البنا ·· ونظرا لانى كنت قد قابلت الاستاذ فؤاد سراج الدين قبل توليه الوزارة ووعدنى فى هذه المقابلة باثارة قضية الشهيد حسن البنا عند عودة الوفد الى الحكم ، فانتهزت فرصة تولى الوفد الحكم ، وكان الاستاذ فتحى رضوان نشر فى ذاك الوقت بيانا أشاد فيه بموقف الاستاذ مصطفى مرعى من الاخوان والمعتقلين ·· ونظرا لانى أعرف حقيقة موقف مصطفى مرعى من الاخوان والمعتقلين من الاستاذ البنا ، **فضلا عما جاء على لسان الاستاذ مرعى نفسه فى تحقيقات قضية الشهيد من أنه قال للاستاذ البنا بأننى بحثت حالة جميع المعتقلين فوجدت أن اعتقالهم له ما يبرره** ··· كل هذه الامور هى التى دفعتنى الى الكتابة فى موضوع القضية ، ولم يكن الاستاذ مرعى هو المقصود بل انه جاء فى الطريق لانه له دور فى القضية ·

ولقد طلبت صراحة فى بياناتى التى يدعى الشاهد بأننى نشرتها بناء على ايحاء من الحكومة الوفدية من الاستاذ فؤاد سراج الدين وزير الداخلية أن يفى بوعده ويثير القضية ، خاصة وأن مرتكبيها من رجال وزارة الداخلية التى يتولاها · وقد نشر الاستاذ مرعى بيانا ضدى فى الاهرام ، ولما طلبت من الجريدة أنّ تنشر ردى عليه أبلغتنى بأن وزير الداخلية أمر بعدم نشر أى بيان لك · ولم يقف الامر عند هذا الحد بل ان الوزير نشر بيانا باسمه أشاد فيه بموقف الاستاذ مرعى من المعتقلين ·

وانى أطمئنك (الكلام موجه الى مرعى) وأقول لك بان محكمة الجنايات التى تنظر قضية الاعتداء على حامد جودة قررت ضم أوراق قضية الشيخ البنا استجابة لطلب الدفاع ، ووزعت ملفات هذه القضية على اكثر من عشرين محاميا ، وكان بينهم الاستاذ طاهر الخشاب عضو مكتب الارشاد بالاخوان المسلمين ، فأطلعنى على أقوالك التى سجلتها على نفسك فى التحقيق · فنشرتها لتاييد أقوالى التى نشرتها عنك · وأظن أن ذلك يبين لك أننى كنت أستقى معلوماتى من الاخوان وليس من الوفد كما كنت تتخيل·

● **شهادة أحد الرقباء على الصحف فى أيام عبد الهادى :**

وقد يكون مناسبا قبل أن أختم الحديث عن موقف الشخصية التى نعالج الحديث عن موقفها أن نثبت هنا شهادة للاستاذ بكر درويش الذى كان رقيبا فى عهد وزارة عبد الهادى · وقد أدلى بها أمام المحكمة بعد أن أنكر الاستاذ مرعى بطريقة مثيرة علمه بهذا البيان بيان « ليسوا اخوانا وليسوا مسلمين » وقد وصل به التنصل من هذا البيان الى حد قوله انه لا يقرأ الجرائد ···

المحكمة ـ ما هى معلماتك عن الحادث ؟

الشاهد ـ الذى أعرفه قد يكون متصلا بسر العمل ، ولكن العدالة ...

المحكمة ـ العدالة لازم تاخذ مجراها ٠

الشاهد ـ اثير اليوم موضوع البيان الذى كتبه المرحوم الشيخ حسن البنا ٠ ونشر بعد وفاته ...

المحكمة ـ بيان « ليسوا اخوانا وليسوا مسلمين » ؟

الشاهد ـ أيوه ٠٠ وأنا كنت فى ذلك الوقت رقيبا بمراقبة النشر بوزارة الداخلية ٠ وكنت أقوم بمراقبة جريدة « صوت الامة » ـ وبعد الحادث بيوم أو يومين على ما أذكر طلب منا اعطاء البيان للصحف لنشره على أساس أن يلقى فى الاذهان أن الحادث كان مرجعه الى تذمر بعض الاخوان المسلمين تذمرا أدى الى ارتكابهم الحادث ٠

المحكمة ـ هل طلب منك الايحاء بهذا لجريدة « صوت الامة » ؟

الشاهد ـ الذى أذكره أنه طلب منا هذا ٠

المحكمة ـ من كان الرقيب العام ؟

الشاهد ـ كان الاستاذ عبد الرحمن عمار ، وكان مدير الرقابة هو الاستاذ توفيق صليب ٠

المحكمة ـ وممن كنتم تتلقون التعليمات ؟

الشاهد ـ كان اتصالنا بمدير الرقابة ٠ وكان هو يتلقى التعليمات من الجهات التى يتلقى منها ٠ ولكن كان اتصال الرقباء بمدير الرقابة دائما ٠

المحكمة ـ وهل أوصيت أنت الى « صوت الامة » بذلك ؟

الشاهد ـ الذى أذكره أننى نفذت التعليمات ٠ وأذكر أنى أعطيت البيان للجريدة ونشرته ٠ ولكنى أظن أنها لم تنشر تعليقا عليه ٠

[و] جريدة « المصرى » :

من حق هذه الجريدة ـ ونحن بصدد ما نعالج من قضية ـ أن تذكر وأن يشاد بذكرها ٠٠ ومع أن هذه الجريدة كانت جريدة حزبية ، فانها كانت طيلة حياتها الصحفية تتلمس طريق الحق وتنتهجه لنفسها طريقا حتى مع حزبها الذى تنتسب اليه وتنطق باسمه ٠٠ رأيناها فى مواقف هامة تشغب عليه ، وتقف فى وجهه تريد أن تسدده لانها ترى الحق فى غير موقفه ٠ ولا زلنا حتى اليوم نذكر بالدهشة والاعجاب المقالات الضافية الصارخة التى دبجها يراع الاستاذ احمد ابو الفتح على صفحات جريدته الايام تلو الايام ، رافعا لواء العصيان حين أعلنت حكومة الوفد فى عام ١٩٥٠ عزمها على اصدار

تشريع يقيد حرية الصحافة ٠٠ وظل الاستاذ أحمد أبو الفتح يوالى مقالاته النارية حتى أحبط المشروع ٠

ولقد كانت هذه الجريدة تكن نحو الاخوان عاطفة من الود ـ لاسيما بعد أن برزت دعوة الاخوان فى أفق الحياة المصرية ، فكانت تنتهز الفرص السانحة للتعبير عن هذه العاطفة بنشر منجزات الاخوان فى مختلف المناسبات والتنويه بها ٠٠ كما أنها كانت تمتنع عن أن يسطر على صفحاتها ما يعد نيلا من الاخوان اذا ما اقتضت الشهوة الحزبية ذلك ٠

ولو لم تخاطر هذه الجريدة ، ويغشى مندوبها ميدان المعركة الخبيثة التى وقعت أمام باب جمعية الشبان المسلمين فى الليلة السوداء ، ويلتقط رقم السيارة ممن رآها ٠٠ ولولا مسارعة هذه الجريدة الى طبع كمية من هذا العدد الذى به رقم السيارة وتسريب بعضها قبل أن تنتبه الرقابة ٠٠ لو لم تقدم هذه الجريدة على هذه المخاطرة لاستطاع المجرمون أن يطمسوا معالم الجريمة الى الابد ٠

● **شهادة مدير ومحرر « للمصرى » أمام المحكمة :**

ونورد بهذه المناسبة الشهادة التى ادلى بها الى المحكمة الاستاذان محيى الدين فكرى المحرر « بالمصرى » ومرسى الشافعى مدير تحريرها :

قال الاول : كنا موجودين فى « المصرى » الساعة الثامنة مساء فبلغنا الحادث ، فنزلت وأخذت معى المصور ٠ فوجدنا عربة الاسعاف ووراءها سيارة بوليس ـ ووصلنا الجمعية وجمعنا معلومات ٠ وبعد خمس دقائق أخرجنا البوليس ، ثم عرفنا نمرة السيارة التى هرب بها الجناة من كونستابلين لابسين ملكى وقالا انهما اخذا النمرة من الاستاذ الليثى ، مع أننا لم نكن نعرف الليثى فى ذلك الوقت ٠

وقال الاستاذ الشافعى : كان فيه رقابة على الصحف ٠ فافهمت الرقيب المعلومات التى عندى ٠ فاتصل برؤسائه وكان البوليس مهتم ليلتها « بالمصرى » على غير العادة وبينزلوا المطبعة ، وكنا ابتدينا نطبع العدد وفيه صورة للشيخ حسن البنا ورقم السيارة ٠ وبعدين صودر العدد وتسرب منه بعض النسخ وحصل معنا تحقيق بعد ذلك ٠

الرئيس ـ ما تعرفش النسخ اللى تسربت قد ايه ؟

الشاهد ـ حوالى ستة آلاف نسخة ٠٠ مش متاكد ٠

الرئيس ـ والنسخ الثانية صدرت من غير النمرة ؟

الشاهد ـ أيوه ٠٠ نفذنا تعليمات البوليس فشيلنا النمرة والصور لانها تثير الشعور ٠

الرئيس ـ طيب وماعرفتش ليه منع نشر الرقم بتاع السيارة ؟ ٠ عرفنا ان الصورة انشالت علشان تثير الشعور ٠٠ طيب والنمرة ؟!

الشاهد ـ فى الوقت ده ماكانش يمكننا مناقشة الرقيب ٠٠ واحنـ فوجئنا بالبوليس داخل الجريدة ٠ (انتهت الشهادة) ٠

أقول : ثم تابعت « المصرى » بالرغم من وجود الاحكام العرفية جهودها فى نفس الاتجاه ٠٠ وقد طالع القارىء فى فصل سابق من هذا الجزء من الكتاب حديث الاستاذ المرشد العام الذى كتبه مفندا أسانيد مذكرة الحل ٠٠ وقد نقلناها عن « المصرى » وسيقرأ القارىء حديثا آخر بعد قليل ان شاء الله نقلناه أيضا عن « المصرى » ٠

فلما زالت الغمة عن البلاد بسقوط عبد الهادى ٠ أخذت « المصرى » تدعو الى رفع الاحكام العرفية ٠٠ حتى اذا خفت وطأتها ـ أى وطأة الاحكام العرفية ـ وقفت بجانب الاخوان فى موضوع بالغ الاهمية يتصل بهذه الاحكام وبكيان الاخوان بعد رفعها مما نفرد له فصلا خاصا ان شاء الله تعالى ٠

وقد تابعت قضايا الاخوان منذ عرضت على القضاء فكانت حريصة على نشر ما يجرى خلالها ، مبرزة ما يتصل من مناقشاتها بالتعذيب وانتزاع الاعترافات بالارهاب أو بالاغراء ٠

● « المصرى » تحاول كشف دور مرعى :

وكان مما حرصت « المصرى » على التنبيه اليه واماطة اللثام عنه الدور الخطير الذى مثله الوزير مصطفى مرعى الذى كان موضع سر عبد الهادى فيما يتصل بما تم فى أيامه من اجرام ٠٠ وقد بدأت « المصرى » فى ذلك فى ٢٨ أكتوبر ١٩٥٠ بجعلها « كلمة المصرى » فى ذلك اليوم بعنوان « الاخوان المسلمون » وكتبت تحته ما يلى :

« كان الاخوان المسلمون أصحاب صيحة دينية عالية ، استطاعوا بها أن يشغلوا الاذهان فترة غير قصيرة ، وأن ينقذوا كثيرا من الشباب من براثن الفراغ المقيت ، ومن ممارسة حياة اجتماعية فاسدة قد تدفع اليها ضرورات شباب متعطل ٠

ولا ينكر منكر أنهم استطاعوا ـ على هدى من ايمانهم ـ أن يكونوا أولى الطلائع المصرية بل والعربية جمعاء فى الذهاب الى أرض فلسطين عن

طواعية لاحدى الحسنيين : استخلاص فلسطين أو الاستشهاد فى سبيل استخلاصها من أيدى الصهيونيين ... وانهت « المصرى » كلمتها بالمطالبة باعادة حقوقهم اليهم .

وفى ٢ نوفمبر كتبت تحت عنوان « مصطفى مرعى بك وعد الاخوان المسلمين بالدفاع عنهم ثم أعد مذكرة كانت سبب تشريدهم » قالت « كان مصطفى مرعى بك فى وزارة النقراشى باشا رئيسا لاقلام قضايا الحكومة ، واتصل به المرشد العام فتظاهر بانه معارض للاجراءات التى اتخذتها الحكومة ضد الاخوان ، ووعد باعداد مذكرة فى ذلك . فتبين أنه حتى بعد أن صار وزيرا فى وزارة عبد الهادى كتب مذكرة معاكسة لذلك . ولما صار وزيرا فى وزارة حسين سرى باشا كان هو معارضا فى الافراج عن المعتقلين . ثم اوردت حديثا لزميل له فى الوزراة هو عبد العزيز الصوفانى بك يقرر هذا المعنى بالنسبة له وبانه كان معارضا حتى فى رفع الاحكام العرفية » .

ثم نشرت « المصرى » ردا من مصطفى مرعى تحت عنوان « مصطفى مرعى يقول : لم أهاجم الاخوان المسلمين ولم اكن ضدهم ـ كنت لهم السفير الداعى الى الهوادة والرفق والمطالب بحريتهم » . وفى رده هذا حاول أن ينفى عن نفسه ما نشر عنه من موقف معاد للاخوان .

ولكن « المصرى » نشرت فى نفس الصفحة ردا على رده تحت عنوان « كيف اصدر الشهيد حسن البنا « بيان للناس » منع تلاوة القرآن الكريم عند دفن المرشد العام » وقالت :

هذا هو رد مصطفى مرعى بك على ما نشرناه بالامس . وكنا نود ان يتضمن هذا الرد اجابة أو ايضاحا على ما اثاره عبد العزيز الصوفانى بك عن موقف سعادته من الاحكام العرفية ومن جمعيه الاخوان المسلمين .. ولا شك فى أن الصوفانى بك عندما تكلم فى هذه المسائل انما كان يتكلم عن معرفة حقيقية بحكم زمالته لمرعى بك فى وزارة عبد الهادى » .

ثم نشرت بعد ذلك تحت عنوان « معلومات الاستاذ الليثى » ما يلى :

جاءنا من الاستاذ محمد الليثى رئيس قسم الشباب بجمعية الشبان المسلمين ، والذى اتيح له أن يرافق الشيخ حسن البنا فى أيامه الاخيرة منذ حلت جمعية الاخوان حتى يوم مصرعه . وقد اطلع بحكم هذا الاتصال على جميع ما دار فى الاتصالات التى تمت بين المغفور له الشيخ حسن البنا والمسئولين فى ذلك الوقت ومن بينهم مصطفى مرعى بك ـ يقول الاستاذ الليثى عن رايه فى حقيقة موقف مصطفى مرعى من الاخوان المسلمين والشيخ حسن البنا عندما كان وزيرا للدولة فى وزارة عبد الهادى :

رغبة مرعى بك نفسه

« أحب أن أؤكد أن اتصال مرعى بك بالشيخ حسن البنا لم يتم بناء على رغبة من الشيخ حسن البنا ، بل تم هذا الاتصال بناء على رغبة من مرعى بك ، وكان فى اتصاله هذا ممثلا للحكومة ومتكلما باسمها ، ولذا وسط سعادة صالح حرب باشا الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين ليساعده على الاجتماع بالشيخ البنا .

وكان مفهوما فى أول الامر أن مرعى بك بوصفه وزير الدولة المشرف على شئون الامن فى ذاك الوقت ـ كما ذكر هو بنفسه ـ انما أراد الاتصال بالشيخ البنا ليتفاهم معه على انهاء حالة التوتر التى كانت قائمة بين الاخوان والحكومة ... ولكن اتضح بعد ذلك من المناقشات التى دارت فى اجتماعاتهما أن غرض سعادته كان ينحصر فى الرغبة فى الحصول على بيان من الشيخ يستنكر فيه مقتل النقراشى ويندد بحركة الارهاب ومرتكبيها .

ولكى يحصل على هذا البيان بسط وعودا طمأنت الشيخ البناء اذ صرح له بأنه وهو الوزير المسئول سيوقف بمجرد اصدار البيان حركة الاعتقال والتنكيل بالاخوان ، بل ذهب الى أبعد من هذا ووعد بأنه سيبحث من جديد مع ابراهيم عبد الهادى مسألة الامر العسكرى الصادر بحل الجمعية ، وسيعمل أيضا على الافراج عن المعتقلين على دفعات . وطلب من الشيخ البنا كشفا بمن يرى الاسراع فى الافراج عنهم لظروفهم الخاصة .

ولما كان الشيخ موافقا من ناحية المبدأ على اصدار البيان اذ انه رحمه الله كان لا يقر الحركات العنيفة ، علاوة على أن الوعود التى تقدم بها مرعى بك كانت ستؤدى كما فهم الشيخ الى الكف عن حركات الاعتقال بل والافراج عن المعتقلين ، فانه أقر فكرة اصدار بيان رغم ما جاء فى بعض فقراته من نصوص لم تكن ترضيه .. وصدر البيان بعد ثلاثة اجتماعات متوالية عقدت بمنزل صالح حرب باشا ونشر تحت عنوان « بيان للناس » .

وما ان صدر البيان حتى تعذر على الشيخ البنا مقابلة مرعى بك الذى كان يعتذر دائما عن المقابلة بانشغاله فى العمل .

المعتقلون

أما عن المعتقلين الذين وعد سعادته بالافراج عنهم فقد نقلوا من معسكر هاكستيب بالقاهرة الى معتقل الطور .. وكانت أول دفعة تصل الى الطور تضم ـ بين من رحلوا فيها ـ جميع من طلب الشيخ الافراج عنهم لظروفهم الخاصة .. وفتح معتقل الهاكستب لاستقبال معتقلين جدد .

كيف دخل الجثمان منزله ؟

وأين كان سعادته عندما أدخل جثمان الشيخ البنا منزله وسط مظاهرة مسلحة من رجال البوليس شاهرة المسدسات والبنادق فى وجه سيدات اسرته العزل من كل سلاح ٠٠ وأرغمت السيدات على حمل الجثمان الى النعش ، ولم يسمح لواحد من رجال هذه الاسرة بالاقتراب من الجثة ٠٠ حتى القرآن حرمت عليهم تلاوته ، كما حرم على أسرته وأقاربه زيارة قبره ، بل اعتقل بعض محبيه ممن زاروا قبره ٠٠٠

وأين كان سعادته يوم كانت الحرية تهدد بهذا الشكل الخطير ؟ وما له ينسى كل هذا ويتقدم اليوم الصفوف محاولا أن يظهر بمظهر المدافع عن الحرية ؟ (انتهى) ٠

هذا ٠٠ ولعل القارىء قد لاحظ أننا فى تناولنا تجلية موقف جريدة « المصرى » فى قضيتنا قد جاءت هذه التجلية فى معظمها امتدادا لتجلية موقف الوزير مصطفى مرعى ٠٠

وأرجو بعد هذه العجالة الخاطفة أن أكون قد وفقت الى جمع شتات ما تناثر هنا وهناك من « فتافيت » هذه الصورة التى اراد صاحبها أن يمزقها عن قصد الى « فتافيت » صغيرة ويرسلها مع الرياح فى كل جانب ، حتى لا يقوى أحد على جمعها ٠٠ فتظل بذلك صورته الحقيقية مجهولة المعالم ، ليظهر هو بالصورة التى تروقه مما يناسب كل وقت ، ويتلاءم مع كل مقام ٠٠٠وانى لادع للقارىء بعد ذلك أن يصدر حكمه على هذه الصورة بما يوحى به اليه ضميره ٠

الفصـــل الرابـــع

لوذات سوار لطمتني ؟.. من هم السعديون ؟

قد يكون فيما اسلفنا فى هذه المذكرات من سرد لتاريخ القضية الوطنية وقضية فلسطين ما يكفى لدمغ حكومات السعديين بالخزى والخيانة والعار، ولكن رأينا مع ذلك أن نختتم هذه الفصـــول التى استأسـدوا فيها على بنى جلدتهم من أبناء هذا الوطن بنبذة تكشف عما كان تحت جلود الاسود التى تطاولوا بها على مواطنيهم من قلوب الذئاب وأحلام العصافير ·

ومن حق القارىء أن يعرف الحقائق المجردة عن الشخصيات التى لعبت فى تاريخه أدوارا خطيرة لا زال الشعب يعانى من آثارها ويكتوى بنارها ·· ومما يؤسى له أن الظروف السياسية لم تتح الى اليوم ان يتصدى للكتابة عن هذه الشخصيات الا للكتاب الذين تمرغوا فيما كان هؤلاء الحكام يعتصرونه من اقوات الشعب ليشتروا به الضمائر والاقلام ·· فكان هم هؤلاء الكتاب حتى اليوم أن يحجبوا عن الشعب ما يعرفونه من آثامهم وجرائمهم ··· وبات الشعب بعد ذلك مضللا تائها ، لا يميز بين المحسن والمسىء ، ويتقلب فى المصائب يصطلى بنارها ، ويحترق فى لهيبها وهو يسبح بحمد من اشعلوا منذ ثلاثين عاما فتيلها ···

فكان حقا علينا أن نميط الاثمة عن الوجوه حتى تبدو على حقيقتها دون زيف أو تمويه أو تزوير ··· وحين نحاول هـذه المحاولة لن نلجأ الى اسلوب القدح والقذف بجارح اللفظ ، فهذا ليس أسلوب المؤمنين ، ولكننا سننقل الحقائق المادية من سطور التاريخ المجمع عليه دون تحوير ولا تنميق ولا زيادة ولا نقصان ··· ونترك الحكم بعد ذلك للقارىء حينئذ على بينة من الامر ·

والتاريخ الذى ننقل عنه قد سطر ما سطر فى فترتين مختلفتين : أولاهما كتب فيها ما كُتب فى عهد السلطة الملكية ، وهـو عهـد كان يحتضن هـؤلاء السعديين ويحميهم حتى بعد أن أبعدهم عن الحكم ، فقد يسمح بنشر بعض اخطائهم وفضح بعض جرائمهم ، ولكنه مع ذلك لا يسمح بمؤاخذتهم ولا حتى بمساءلتهم ، لانه يعتبرهم من جملة خدمـه ، وقـد يحتاج اليهم فى يوم من الايام ·

والفترة الاخرى من التاريخ هى تلك التى انقشع فيها ستار الحماية الملكية عن السياسيين المحترفين عامة بزوال الطاغوت الذى كان يحتضنهم

وهى مستهل أيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وهى فترة زالت فيها الحوائل التى كانت تحول دون أخذ المجرمين بجرائمهم ٠

أولا ــ فترة ما قبل الثورة :

كانت وزارة ابراهيم عبد الهادى قد سقطت ، وتنفس الناس الصعداء ، وأخذوا يتنفسون فى شوق أنفاسا عميقة ــ بعد أن كتمت أنفاسهم ردحا طويلا ــ وان كان الهواء الذى يتنفسونه ليس الهواء النقى الذى تهفو اليه نفوسهم ، بل هو هواء مشوب بأذى وكدر ، ولكنه على كل حال هواء مسموح بتنفسه ، يزيل بعض مافى الصدور من حرج ٠٠٠ بدأت بعض الاوراق المحجوبة تتكشف وبعض الالسنة تفصح وتتكلم ٠٠٠ واليك بعضا مما تكشف :

(١) سفير يشرح كيف جنى الجهل والانانية على قضية البلاد :

كان محمود حسن باشا سفيرا لمصر فى الولايات المتحدة الامريكية فى خلال الفترة التى كان النقراشي باشا رئيسا لوزارته الثانية التى قررت عرض قضية مصر على مجلس الامن ، وقد استقال هذا السفير فى عهد الوزارة نفسها بعد الانتهاء من عرض القضية على المجلس ٠٠٠ والآن أترك له الحديث الذى نشره « المصرى » يوم ١٣ــ١٢ــ١٩٤٩ وهو يعالج موضوعا سبق لنا أن عالجناه ، ولكنه يعالجه باسهاب معالجة الاخصائى المتمرس ، وباعتباره أحد المحاور التى كان يدور عليها الموضوع الذى يعالجه فيقول :

« ان من حق مواطنى أن يطالبونى بما أعرفه فى صدد قضيتنا ، ولكنى رأيت أن الوقت لم يكن مناسبا وقتئذ لتلبيتهم ، لان الجمهور عند عودتى لم يكن قد هدأ من أثر الصدمة التى أصابته بسبب فشلنا فى مجلس الامن ، حتى جاءت حوادث فلسطين ومأساتها فى جمعية الامم المتحدة ، واندفاعنا بسببها الى حرب أكدت الحكومة ــ رغم ملاحظاتى المتكررة ــ أنها على أتم الاستعداد لها ، وهى فى تأكيدها هذا لم تكن الا منخدعة أو مخدوعة ٠

ثم أعلنت الاحكام العرفية فقيدت الحريات ، وفرضت الرقابة على الصحف ، وفلت أقلام الكتاب ، فحال ذلك بينى وبين سرد تفاصيل القضية المصرية ، رغم ما كنت أشعر به من حق الخاصة والعامة على ولا سيما والقضية ما زالت معلقة فى مهب الرياح ٠٠٠ وقد يكون لذكر تفاصيلها نفع لمن يريد مخلصا أن يختط خطة سليمة ناجحة او محتملة النجاح لحل هذه المسألة التى ما عقدتها الا النزاعات الحزبية ، والمآرب الشخصية ، والرغبة فى الاعلان عن النفس ، واكتساب المجد الكاذب ٠

ثم ذكر كيف افادت سورية ولبنان وايران من عـرض قضـاياها على مجلس الامن ، منتهزة الفرص المناسبة ، منتفعة من اختلاف الدول الكبرى فيما بينها ، مكتسبة الدول الى جانبها ٠٠ أما مصر فقد أهملت كل ذلك ، وركزت كل جهدها فى مفاوضات طال أمدها كما لو كانت تعيش فى عام ١٩٣٦ ٠٠ وكان خليقا بها أن تعرف أن انتحاءها زاوية وحدها مع انجلترا فى عزلة عن الدول الاخرى لن تفترق بعدها الا ونحن من الخاسرين ٠

ولعل فيما جاء على لســان وزارة الخـارجية الانجليزية فى ختام فترة المفاوضات الاخيرة « أن هذا هو أقصى ما تستطيع أنتعطيه انجلترالمصر» ما يفيد أن انجلترا تنظر الينا نظرها الى المستجدى لاصحاب الحق ٠

لكنا وبكل أسف لم نلجأ الى مجلس الامن الا بعد أن أمضت (وقعت) الحكومة ــ بالاحرف الاولى ــ مشروع اتفاقية مـع الحـكومة الانجليزية ٠ فاصبحنا فى وضع شاذ ٠٠ وأكثر منه شذوذا أن يتولى الدفاع عن قضيتنا رجال قبلوا هذا المشروع ودعوا اليه ودافعوا عنه بل وخاصموا غيرهم من أجله ٠

ان الحكومة القائمة فى ذلك الوقت لم تكن جادة فى الالتجاء الى الهيئة الدولية ، بل هى اضطرت الى ذلك تحت ضغط المعارضة والرأى العام الذى اشعرها بأنها لن تستطيع البقاء فى الحكم وهى واقفة ذلك الموقف السلبى الذى كانت تقفه بعد المفاوضات ٠

وليس ادل على ذلك من انها أخذت تسوف وتؤجل ــ تارة تحت ستار السعى فى اختيار اشخاص ممثليها أو اختيار الهيئة المختصة ــ وأخرى فى انتظار انتهاء الدورة البرلمـانيــة ــ حتى كان صـيـف سـنة ١٩٤٧ رات أن تتحرك بعد أن ضيعت الفرصة تلو الفرصة ، فلا هى نجحت فى ضم الصفوف فى الداخل ، ولا هى طرحت القضية فى الوقت المناسب ، بل لعل الوقت الذى اتت فيه الى نيويورك كان ابعد الظروف ملاءمة ٠

وبعد أن اثبت سيادته نصوص الخطابات التى ارسلها الى النقراشى باشا برايه فى عرض القضية من ناحية الشروط والظروف المناسبة قال : وكان آخر خطاب منى بعد ما وصلت الى شـبه الياس وتغيرت الظـروف ، حيث عرضت قضية فلسطين على هيئة الامم ، وصاحب عرضها دعاية واسعة لصالح اليهود ضد العرب وضد مصر ، والتجاء الامير عبد الكريم لمصر وما فى ذلك من اثارة خواطر الفرنسيين ، ثم الانقلاب الذى حدث فى المجر وما صحبه من شعور متزايد بضرورة التضامن والتكاتف بين الولايات المتحدة وبريطانيا ازاء الخطر الروسى المتفاقم ٠

يقول : ومع ذلك أصر النقراشى باشا على المجىء الى نيويورك ، وتمسك ببقائى فى منصبى مع ما طلبته من اعفائى ··· فرحت أستشير ذوى الرأى فيما يجب اتخاذه من التدابير ، واقترحت استشارة محام ذى خبرة دولية فوافقت الوزارة على هذا الطلب · فرأيت أن ألجا الى أكبر مكتب فى العاصمة ، وهو المكتب الذى تولى مسألتى ايران واليونان عند عرضهما على مجلس الامن · وكان هذا المحامى يعرفنى حيث كنت ممثل مصر فى مجلس الامن عند عرض هاتين القضيتين ، فرحب بى وطلب الى أن أزوده بالمعلومات اللازمة عن قضيتنا ووعدنى بالرد فى أقرب فرصة ·· وراح بدوره يدرس القضية وظروفها وملابساتها ، ثم اتصل بى ليبدى جوابه ، فأحاطنى علما بأن مكتبهم يرى بعد الاتصالات العديدة ، وبعد جس نبض الرأى العام بالعاصمة ونيويورك بأن عرض القضية فى القريب العاجل هو أسوأ الاوقات اختيارا ، وأن قضيتنا يجب لتوافر نجاحها أن يكون بجانبها الرأى العام الامريكى ، ولكن الوقت الحاضر غير مناسب لذلك ، اذ كل البيئات متخوفة من الاتحاد السوفييتى واتجاهه نحو المجر وبلغاريا الخ ·· فعرض القضية ليس فقط بعيدا عن المصلحة فحسب بل هو مضر لمصر · وان مكتب المحامى على كل حال لا يقبل التوكيل فى هذه القضية فى الوقت الحاضر ·· ومع كل هذا فقد أصر النقراشى باشا على عرض القضية فى ذلك الوقت وأن يكون هو وحده المتقدم بها الى المجلس ·

ملحوظة : كان من بين المقترحات التى اقترحها السفير على النقراشى باشا لما رآه مصرا على عرض القضية فى ذلك الوقت غير المناسب ، أن تقوم بعرضها على المجلس هيئة تضم ممثلين عن جميع الجبهات السياسية فى مصر ، لعل ذلك يكسب القضية شيئا من القوة ويبطل حجة الانجليز فى أن الذى يتقدم بالقضية شخص سبق أن وافق ووقع على معاهدة بينه وبينهم وهو ملزم بتوقيعه ··· وقد حدث هذا فعلا وكان من أهم الاسباب التى اعتمد عليها المجلس فى رفض القضية · وان كان المجلس قد سمى هذا الرفض تعليقا ·

(٢) التستر على خيانة الجيش :

لعل القارىء الكريم يذكر أن من أهم أسباب هزيمة الجيش المصرى فى فلسطين انه أمد بأسلحة وذخيرة فاسدة ·· وقد قامت احدى الوزارات التى تولت الحكم بعد ابراهيم عبد الهادى باجراء تحقيقات فى هذا الشان كانت على جانب كبير من الاهمية باشرتها النيابة العامة ·· وقد كشفت هذه التحقيقات عن وقائع خطيرة وجنايات جسيمة ·· ولكن السراى الملكية تدخلت فى التحقيقات لصالح المتهمين حيث تبين أن بعضهم كان يعمل

لحسابها .. فأخفيت الحقائق حتى انها لما عرضت على القضاء لم يجد بين يديه من الادلة ما يكفى لادانة المتهمين ، فحكمت المحكمة ببراءة جميع المتهمين ما عدا اثنين حكمت بتغريم كل منهما مائة جنيه .. وقد جاء فى حيثيات هذه القضية التى جاءت فى مائتى صفحة وحكم فيها فى ٥ـ٧ـ١٩٥٣ ما يلى :

« ثبت أن فاروق هو الجانى الاول ، جعل لنفسه حسابا خاصا باسم ادمون جهلان ـ أحد سماسرة الاسلحة ـ وأوفد ناظر خاصته أثناء تفتيش خزانة جهلان يفرض على سلطة التحقيق اخذ أوراقه من الخزانة ... »

وفى ١٨ أكتوبر ١٩٥٠ وتحت عنوان « النقراشى باشا وعبد الهادى باشا تسترا على جرائم الجيش » كتبت جريدة « المصرى » ما يلى :

« فى الوقت الذى تعددت فيه الاجتماعات من بعض أفراد المعارضة وبعض المستقلين لوضع العريضة التى قرروا رفعها الى جلالة الملك .. وفى الوقت الذى يريد فيه موقعو هذه العريضة أن يوهموا الناس بالحرص على مصالح البلاد وتطهيرها من الفساد .. الى آخر ما جاء فى عريضتهم .. تسلم سعادة الاستاذ محمد عزمى بك النائب العام ملفا رسميا من الملفات التى تحتفظ بها وزارة الداخلية منذ عام ١٩٤٨ ، احتوى على مستندات على جانب كبير من الاهمية والخطورة ، تشير الى أن النقراشى باشا وخليفته عبد الهادى باشا تسترا واحدا بعد الآخر فى منصبيهما كرئيسين للوزارة ووزيرين للداخلية وحاكمين عسكريين على كثير من الجرائم التى ارتكبت فى حق الجيش ويدور بشأنها التحقيق الآن .

● **تفاصيل التستر :**

وترجع تفاصيل هذا التستر من جانبهما واحدا بعد الآخر الى عام ١٩٤٨ ، فقد أعلنت الاحكام العرفية فى صبيحة دخول قوات الجيش المصرى الى فلسطين ، وكان من نتائج اعلانها أن فرضت الرقابة الدقيقة على المراسلات والمخابرات التليفونية والبرقية الداخلة الى مصر والخارجة منها .

وقد حدث فى خلال أكتوبر ونوفمبر وديسمبر ١٩٤٨ ويناير وفبراير ومارس وابريل ويونيه ١٩٤٩ ـ حدث خلال هذه الشهور على وجه التحديد أن ضبطت وسجلت فى محاضر رسمية مخاطبات تليفونية ورسائل تبودلت فى الداخل ومع الخارج بين ضباط من المتهمين فى التحقيقات الدائرة وعملاء وسماسرة لتوريد الاسلحة . وقد تضمنت هذه المخاطبات والمراسلات المسجلة فى احد ملفات وزارة الداخلية الرسمية اعترافات صريحة بعدد من الجرائم التى يحقق فيها الآن ـ كما ضبطت مراسلات هى عبارة عن خطابات بأيدى بعض المتهمين تتضمن هى الاخرى عبارات تثبت الجريمة ، وضعت كلها فى

ملف المضبوطات التى تعرض على وزير الداخلية والحاكم العسكرى للبت فيهـا .

وكان النقراشى باشا وعبـد الهادى باشـا من بعـده يطلعان بحـكم منصبيهما كوزيرين للداخلية وحاكمين عسكريين على كل هذه المضبوطات.. ومع ذلك بقيت هذه المستندات الخطيرة فى الملف الذى احتواها دون أن يفكر أحد منهما فى كشف ما انطوت عليه .

(٣) حالة الجيش المصرى عند ادخاله فلسطين :

فى ٢٨ أكتوبر ١٩٥٠ نشرت المصرى هذا التحقيق البالغ الخطورة فى صفحتها الاولى فقالت :

« وفى الحقائق التى سنوردها هنا تفاصيل جديدة على جانب كبير من الخطورة تكشف كيف كانت حكومة السعديين تهزل فى معـالجتها لمصـائر البـلاد :

قبل بدء حملة فلسطين ببضعة أيام سافر سعادة اللواء المواوى بك الى الحدود للاشراف على القوات المصرية هناك التى كان قد بدىء فى ترحيلها الى مراكزها بالتدريج .

وقد عكف سعادته بعد وصوله الى الحدود على تفقد القوات المصرية والاطلاع على ما تملكه من أسلحة وعتاد ... وهال سعادته أن تكشف له أن هذه القوات ليست مستعدة بالمرة لاى احتمال بالاشتراك فى الحرب . ولمـا كانت الانباء تتحدث فى ذلك الوقت بصراحة عن استعـداد الدول العربيـة ومشاوراتها لشن حملة تأديبية على فلسطين ، فقد رأى سعادته ان الواجب يحتم عليه أن يصارح المسئولين بحقيقة الاحوال بالنسبة للقوات المصرية التى تستعد على الحدود ، فوضع سعادته ما يسميه العسكريون « أمر تقدير» أشار فيه بصراحة تامة الى أن حالة القوات من حيث العتاد والاسلحة سيئة جدا ، ولا سيما اذا كانت الحكومة تفـكر فى الاعتماد عليهـا فى حمـلة ضـد الصهيونيين فى فلسطين .

وعـــــود

وسارعت الحكومة السعدية القائمة تطمئن قـواد الجيش المسئولـين عند الحدود . وتؤكد لهم أنه اذا تطور الامر وأصبح من اللازم أن تشتبك القوات المصرية في حرب ضد الصهيونيين ستنهال الاسلحة الثقيلة والخفيفة على الميدان ، وستمتلىء سماء المعركة بطائرات القتال المصرية التى ستكون كثيرة الى حد « يحجب الشمس عن العيون » .

السيارات

وكان مما أشار به القواد فى ذلك الوقت وجوب مد القوات المرابطة عند الحدود بالسيارات ، وقبل أن تصدر الاوامر الى القوات المصرية بدخول فلسطين بليلة واحدة وصلت الى القوات المصرية فى الميدان ١٧ سيارة فقط من أكثر من ١٥٠ سيارة تعطلت فى رمال الصحراء أثناء اتجاهها الى الحدود. فاذا تصورنا أن هذا العدد الضخم من السيارات لم يتحمل عبء السفر من القاهرة الى الحدود لادركنا تفاهة الرجاء فى أن تعتمد القوات المصرية على السيارات التى تيسر لها الوصول ·

بدء القتال

وبينما القوات المصرية على هذه الحال من العجز والحاجة الماسة الى العتاد والسلاح والسيارات ، صدرت الاوامر من القاهرة ببدء الزحف لتأديب الصهيونيين فى فلسطين ·

روح معنوية عالية

ولم يسع قواد الجيش الا اطاعة الاوامر ، وبدأ الجيش المصرى الحرب وكل اعتماد قواته على الروح المعنوية وحدها التى كانت مرتفعة الى أقصى حد بين رجال الجيش ضباطه وجنوده ، وعلى أمل ان تبر الحكومة بوعدها فتمطر الميدان بما وعدت به من أسلحة ·

أول هدف

وكان من أول أهداف الجيش المصرى الزحف نحو مستعمرة يهودية · وقد قدرت المسافة بينها وبين العريش بأربعة كيلو مترات · وكان العجز فى السيارات واضحا · ولكن الروح المعنوية المرتفعة بتت فى الموقف فتقرر أن يكون اتجاه الجيش الى المستعمرة مشيا على الاقدام ·

وسار الجنود البواسل يجرون ما تيسر لهم من مدافع وراءهم · وكان عليهم أن يشقوا طريقهم فى حذر حتى لا تقع عليهم عيون العدو ، فاضطروا الى أن يسلكوا مناطق صحراوية وجداول نضبت فيها المياه ، وهكذا حتى طالت المسافة بينهم وبين الهدف ·· وشعر الجنود بالعطش بعد أن فرغ ما يحملونه من ماء ، وانهكهم المشى على الاقدام حتى ان بعض الجنود قد اضطر الى التخفيف من حملهم ، كما اضطر بعضهم الآخر الى ترك بعض المدافع التى يجرونها وراءهم ·

العودة

ووصل الجنود الى المستعمرة فعلا بعد ان قطعوا عشرة كيلو مترات ، ولكنهم كانوا فى حالة من التعب والاجهاد لم يسعهم معها الا العودة من حيث

أتوا ٠٠ وكانت هذه البداية بمثابة صدمة عنيفة لم يخفف من حدتها الا ايمان الجميع بسمو الرسالة التى وكل اليهم أمر أدائها ٠

العـــدو يشهـــد

واستمرت المعارك التى يشترك فيها الجيش المصرى ، واثبت الجيش خلالها جميعا أنه قوة فعالة جعلت الخصـــوم أنفسهم يخشـــونها ، حتى ان بعض الصهيونيين فى هذا الوقت طبعوا منشورا يقع فى ٣١ صفحة يتحدثون فيه عن بسالة ضباط الجيش المصرى وجنوده ٠ ووقعت بعض النسخ من هذا المنشور فى أيدى القوات المصرية فى ذلك الحين ، وكان لها أثر كبير فى مضاعفة الروح المعنوية وتحبيب الجنود فى التضحية والاقدام ٠

٢٥ ٪

وبقى قواد الجيش المصرى ينتظرون أن تبر الحكومة بوعودها ، ولم يترددوا مع هذا فى مواصلة الحرب بما يملكون من عتاد كان فى مجموعه لايزيد على ٢٥ ٪ مما تحتاج اليه القوات فعلا ٠

معركة دير سنيد

وجاءت معركة دير سنيد ٠ وقد اشتركت فيها القوات المصرية بروح معنوية عالية يمكن وصفها بأنها كانت رقما قياسيا من ارتفاع المعنوية ٠ وكان سبب هذا هو فرح الضباط والجنود وسعادتهم البالغة بتلك الدبابة التى تسير وهم يســـيرون خلفها ، فـكانت أول دبابة تطأ « جنـــازيرها » أرض المعركة فى فلسطين من جانب القوات المصرية ٠

الدبـابـة

وهكذا كان حال الضباط والجنود يوم معركة « دير سنيد » ٠ أما حال الدبابة نفسها فكان مصيبة بل مهزلة مبكية ٠ كانت دبابة ايطالية قديمة تركتها فلول الجيش الايطالى المنهزم أمام البريطانيين فى الصحراء الغربية٠ وكانت خالية من كل ما تزود به الدبابات من مدافع وسلاح ، ولم يكن فيها غير « الموتور » الذى يجعلها تتحرك ٠٠ ولا يعلم الا الله وحده كيف نقلت هذه هذه الدبابة من مكانها فى الصحراء الغربية الى القوات المصرية المحاربة فى فلسطين ٠

ومع هذا كانت هذه الدبابة ــ بحالها هذا ــ مصدر فزع ورعب كبيرين للصهيونيين المدافعين عن « دير سنيد » ومعنى هـذا انه لو كانت الحـكومة القائمة فى ذلك الوقت ساهرة بجـد على حاجات الجيش فى الميدان لـكان فى

وسعها أن تدرك أن شيئا من هذا الاهتمام باعداد عدد غير كبير من الدبابات المزودة فعلا بالسلاح كان من شأنه أن يمكن الجيش المصرى من القضاء على عدوه فى الايام الاولى من المعركة ، وقبل أن يتمكن من الاستعداد والتزود بالاسلحة التى مكنته فيما بعد من الوقوف فى وجه الجيش المصرى ٠

وكانت نتيجة « معركة الدبابة الواحدة » هذه أن انتصرت القوات المصرية وتمكنت من أسر ١١٢ صهيونيا كان من بينهم طبيب اعتمدت عليه القوات المصرية بعد دخولها « دير سنيد » ٠

خطر جديد

وبعد أن استتب الامر للقوات المصرية فى دير سنيد بدأ الضباط والجنود يتفقدون الحصن وما حوله ٠ وهنا تقدم الطبيب الصهيونى الاسير قائلا : هل احميكم من الموت مقابل تمكينى من انقاذ ابنتى الجريحة ؟ فقيل له : لك هذا اذا صدقت الوعد ٠ فاصطحب بعض الضباط والجنود المصريين وارشدهم الى حقول الالغام التى ثبتت بالقرب من الحصن فى طرق كانت القوات المصرية لا شك ستطرقها فى تقدمها وتجوالها فى هذه المنطقة ٠

عجز فى مجسات الالغام

ولولا هذا الطبيب الصهيونى الاسير وابنته الجريحة لتعرضت القوات المصرية لخطر داهم نتيجة لهذه الالغام ، فقد كانت القوات المصرية فى ذلك الوقت لا تملك حتى مجسات الالغام اللازمة للكشف عن حقوله التى بثها العدو ٠

الذخيرة الفاسدة

وحديث الذخيرة الفاسدة حديث طويل ٠ ويكفى أن نذكر منه الآن طلقات المدافع زنة ٢٥ رطلا ٠ وكانت هذه المدافع بالذات هى أثمن ما يملكه الجيش فى الميدان ٠

ولقد سببت الطلقات الفاسدة التى تلقتها القوات فى الميدان لهذا النوع من المدافع أن شرخ عدد كبير منها ، بل ان حادثا معينا وقع — وعلمته الحكومة فى حينه فى تقرير مفصل — يتلخص فى ان أحد تلك المدافع قد انفجر اثناء اطلاق قذيفة فاسدة فيه فأودى بحياة كل من كانوا حوله يشرفون على اطلاقه ٠

وبقى القواد مع هذا ينتظرون ان تبر الحكومة بوعدها املا فى تسلمهم أسلحة وذخائر غير فاسدة،ولكن الحكومة مضت فى تصرفاتها فراحت ترسل الى

الميدان ذخيرة فاسدة تفتك بأرواح الابطال من ابناء البلاد ٠

(٤) موادة اعداء البلاد :

لما تولت الحكم فى عام ١٩٥٠ وزارة حزب الوفد برياسة مصطفى النحاس باشا أخذت تعالج القضية الوطنية بالاساليب المعتادة التى تعتمد على التفاوض مع المستعمر واستجدائه ٠ فلما يئست من جدوى هذه الاساليب استجابت أخيرا لصوت الشعب وأقدمت على خطوة جريئة باعلانها بطلان معاهدة ١٩٣٦ واتفاقيتى ١٨٩٩ وحملت لواء مقاطعة الانجليز ، والتف حولها الشعب ، واستجاب لدعوتها جميع الزعماء على اختلاف الوانهم ونزعاتهم٠٠ وكان اجماعا رائعا قلما تحقق مثله فى يوم من الايام ٠

ولكن مصريا واحدا خرج على هذا الاجماع ، وشذ عن الشعب الثائر على المستعمر ، وذهب يتقرب الى هذا المستعمر متحديا ارادة الشعب واجماع الامة ، ذلك هو ابراهيم عبد الهادى باشا الذى انتهز فرصة عيد الميلاد فى تلك السنة وأرسل الى السفير البريطانى برقية يهنئه فيها بالعيد ويبعث اليه بأحسن التمنيات ٠

ويبدو أن عبد الهادى أراد أن يمثل الدور الذى تضمنه المثل العربى الذى يقول « رمتنى بدائها وانسلت » فأوعز الى جريدة « أخبار اليوم » أن تنشر خبرا مؤداه أن النحاس باشا أبرق الى المستر تشرشل يهنئه ٠٠ فلم يكتف النحاس باشا بتكذيب هذا الخبر بل استطاع أن يحصل من الجهات المختصة على أصول البرقيات التى أرسلت الى الخارج فى خلال تلك الفترة واستخرج منها السر الدفين ، فقد نشرت جريدة « المصرى » فى ٣٠ ديسمبر ١٩٥١ ما يلى : أدعت « أخبار اليوم » أن النحاس باشا أرسل برقية يهنىء فيها تشرشل رئيس وزراء بريطانيا بمناسبة عيد الميلاد — ولكن النحاس باشا كذبها وقال ان الذى أرسل البرقية هو ابراهيم عبد الهادى وهذا نصها:

سير رونالد كامبل

ادمبره — موراى بليس

عيد سعيد وأحسن التمنيات بالعام الجديد

امضاء

ابراهيم عبد الهادى

العنوان — ابراهيم عبد الهادى باشا بالقاهرة المعادى

٥ — الخروج على اجماع الامة وتحدى شعورها :

فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ وقع حريق القاهرة ٠ وهو حدث تاريخى كبير سيأتى الحديث عنه فى حينه ان شاء الله ، ولكن حسب القارىء الآن أن يعلم

أن هذا الحريق قد قوض الجهود العظيمة التى كتلت الامة جمعاء خلف الحكومة ضد الانجليز ٠٠ والفاعل الحقيقى لهذا الحريق هم الانجليز ٠٠٠

وقد زاد هذا الحدث الخطير المصريين على اختلاف نزعاتهم حقدا على الانجليز ومقتا لهم حتى انهم قاطعوهم ورفضوا التعامل معهم ٠٠٠ ولا عجب فى ذلك فلا زالت دماء المصريين الذين قتلوا برصاص الجيش البريطانى تخضب شوارع الاسماعيلية ومدن القناة ٠٠٠ فانظر ماذا كان موقف ابراهيم عبد الهادى وسط هذه المقاطعة الاجماعية ؟ !

فى ٢٠-٢-١٩٥٢ تحت عنوان « شكر بريطانى لعبد الهادى باشا » نشرت جريدة « المصرى » صورة لعبد الهادى باشا وهو فى الكنيسة الانجليزية بالقاهرة وكتبت تحتها ما يلى :

« نشرنا منذ بضعة أيام نبأ مبادرة ابراهيم عبد الهادى باشا الى الاشتراك فى الصلاة على روح جلالة الملك جورج السادس ملك بريطانيا ٠ وأشرنا الى التعليقات التى أثارتها تلك المبادرة من جانب دولته فى الوقت الذى امتنع فيه عن الاشتراك فى اية مظاهرة قومية ، كما أدى الى ثورة أحد أعضاء الهيئة السعدية وتهديده بالاعتكاف ٠

وقد أعادت مجلة « الدعوة » التى يصدرها الاستاذ صالح عشماوى وفريق كبير من كبار الاخوان المسلمين نشر ما جاء « بالمصرى » أول أمس فى هذا الصدد ٠ وقد علقت عليه المجلة بقولها : « ليس هذا غريبا على ابراهيم عبد الهادى باشا ، ولكن الغريب أن يبقى هذا الرجل على رأس حزب ولو من الوجهة الرسمية ٠

ونضيف الى ذلك ان دولته قد تلقى من السفير البريطانى كتابا رقيقا يشكر فيه دولته على اشتراكه فى الصلاة » ٠

وفى ٢٥-٢-١٩٥٢ نشرت « المصرى » تحت عنوان « عبد الهادى باشا يستضيف الانجليز » ونشرت صورة له وكتبت ما يلى :

« عندما علم دولة ابراهيم عبد الهادى باشا بأن كثيرا من أصحاب المبانى فى القاهرة رفضوا تأجير محال او غرف لمكتبة « سميث » التى احترق محلها يوم ٢٦ يناير ، وأن أصحاب المبانى بنوا رفضهم على أساس ان مكتبة « سميث » يملكها انجليز - عندما علم دولته بذلك بادر فاصدر أمرا باخلاء ثلاث غرف من الدور الثالث الذى تشغله جريدة « الاساس » - جريدة حزب السعديين - واستضاف المكتبة فى هذه الغرف ٠

وقد كان لهذا التصرف اعظم الاثر فى نفس الجالية الانجليزية فى مصر

.. وقد اتصل كثير من الانجليز بدولته وعبروا له عن عظيم امتنانهم لدولته لعواطفه نحوهم فى كل مناسبة .

هذا وقد اقترح بعض أفراد الجالية اقامة حفل تكريم لدولته ولكن رؤى أن الوقت غير مناسب لذلك » .

أما أنا فتعليقا على هذا أقول : صدق الله العظيم اذ يقول :

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم » .

ثانيا – بعد قيام الثورة :

مع عدم اقرارنا للمحاكمات العسكرية والمحاكمات الخاصة باعتبارها وسيلة من وسائل التقاضى ، فان النصوص التى نستشهد بها مما جرى على ألسنة رجال النيابة والشهود فيها هى نصوص من صميم الواقع التاريخى . لا علاقة لها باجراءات التقاضى .

وكل الذى فعلته الثورة – فى ابانها – هى أنها أزالت السلطة المتحكمة فى البلاد ، ألتى كانت تحمى اللصوص والخونة وانسفاحين من رجال الحكم باعتبارهم من أدوات تحكمها ولا تسمح لسلطة القانون أن تمتد اليهم – وبازالتها وجد هؤلاء المجرمون من الحكام أنفسهم فجأة أمام سلطة المساءلة وجها لوجه .

وقد نجد أكثر التهم الموجهة الى حكام السعديين بعد قيام الثورة هى نفس التهم التى وجهها اليهم من قبل حكام الوفد ، ولكنهم وقفوا بها عند حد الاتهام دون أن يجرؤا على محاكمتهم عليها .. وحتى تلك التى جرؤا على محاكمتهم عليها – خوفا من ثورة الجيش – تدخلت القوة المسيطرة وقتئذ وعلى رأسها الملك فسلبت التحقيقات فاعليتها – كما أشرنا آنفا – حتى لم يعد الاتهام حين قدم الى القضاء يقوم على قوائم من القانون .

أما عند قيام الثورة فان الجو كان خاليا من العوائق ، فوجهت الاتهامات مدعومة بأسانيدها ، وانطلقت ألسنة الشهود التى كان ملجمة من قبل بلجام من الخوف ، وأدلى كل انسان بما عنده .

واليك بعض الحقائق التاريخية التى تكشفت خلال هذه المحاكمة حيث كان ابراهيم عبد الهادى هو أول سياسى قدم للمحاكمة وحكم عليه بالاعدام ثم خفف الحكم الى الاشغال الشاقة المؤبدة . وكانت محاكمته فى حقيقتها هى محاكمة عهد حزبه قبل ان تكون محاكمة شخصية له .. ولو أن سلفه النقراشى كان على قيد الحياة وقتئذ لقدم معه فى نفس المحاكمة :

١ ـ تضاعف ثروة عبد الهادى عشرة أضعاف :

جاء فى مرافعة النيابة أن ثروة ابراهيم عبد الهادى ـ مستقاة من المصادر الرسمية ـ تضاعفت احدى عشرة مرة فى ظل المناصب الحكومية التى تولاها ، فقد صارت ٩٩٠ (تسعمائة وتسعين) فدانا وثلاثين ألف جنيه وكانت فى الاصل تسعين فدانا •

٢ ـ الزج بالجيش فى الحرب دون أدنى استعداد :

قرر الفريق محمد حيدر القائد العام للقوات المسلحة فى أيام حرب فلسطين وأيده فى ذلك اللواء موسى لطفى مدير العمليات الحربية آنذاك « أن موقف القوات المصرية بالعريش لا يسمح لها بالدخول فى المعركة بالنسبة للنقص الكبير فى العربات ، ولان الموجود منها وان كان صالحا للسير الا أنه غير صالح للقتال ـ والاسلحة والذخائر الموجود منها لا يكفى للبدء فى العمليات ويجب التأكد من وجود مورد ثابت مضمون لاستعاضة المستهلك منها ولتسليم الوحدات التى ستستدعى من الاحتياط للخدمة العاملة •

وقرر اللواء أحمد المواوى ـ القائد العام للجيش المصرى بفلسطين ـ حين سئل فى اللجنة التى جمعت الضباط يوم ١٠ـ٥ـ١٩٤٨ بصراحة تامة عما يفتقر اليه الجيش وما كان يعانيه من نقص فقال :

« لاتوجد وحدة ما فى الجيش كاملة المعدات والتسليح ، واذكر اننى فتشت على الوحدات بمجرد وصولى للعريش وقدمت لرياسة الجيش كشوفا بالنقص وهى مريعة وتجعل الوحدات عاجزة تماما عن الدخول لاية معركة » •

ويقول الفريق محمد حيدر فى التحقيق وفى لجنة الجيش « بينت للنقراشى الحالة ـ وعلى الرغم من انى عارضته صمم على دخول الحرب • وكان فى ذلك تحقيق رغبة الملك بدليل حضور رئيس الديوان ، اى أن الامر كان من السراى ، وكان فاروق يريد تزعم الدول العربية ، وهو الذى دعا رؤساء هذه الدول الى انشاص ولم تعلم الحكومة بأمر هذه الدعوة • **وأول من اشتهى دخول الحرب هو فاروق والمسئولون عن تحقيق هذه الشهوة اثنان هما رئيس الديوان ابراهيم عبد الهادى ورئيس الحكومة النقراشى** •• ولو سمعا كلام اللجنة المختصة وعملا به لاقنعا فاروق بوجهة النظر الصحيحة ، ولما دخل الجيش الحرب ، ولكنهما عملا على تحقيق شهوته ـ كما أيد هذا اللواء احمد المواوى فى شهادته الموجودة بهذا الملف وكذلك اللواء موسى لطفى •

ومما يجب ان لا ينسى أن اللواء موسى لطفى بعد أن قرر امام النقراشى

الامر الواقع للجيش قال له النقراشى « لا تتهيب » ثم قال له « أنتم تحت أوامرنا » ٠

٣ ـ تضليل البرلمان :

قرر شاهد النفى الدكتور نجيب اسكندر ـ عضو حزب السعديين وأحد وزرائهم ـ أن رئيس الحكومة النقراشى لم يكن من رأيه دخول الحرب بعد ما رأى فى مؤتمر بلودان ٠٠ ومع ذلك أعلن فى جلسات مجلس الشيوخ والنواب يوم ١٢ مايو ١٩٤٨ ما جاء بالحرف الواحد فى المضبطة السرية لمجلس النواب يوم ١٣ مايو ١٩٤٨ : « ان فى الجيش المصرى كفاية كاملة ، وأسلحة وافية ، وذخيرة متوفرة ، وان الذى يقدم على مثل هذا الامر يتخذ له عدته » ٠

٤ ـ اغفال المؤسسات المختصة :

قرر مجلس الجهاد الاعلى أن موضوع الدخول فى حرب فلسطين لم يعرض على المجلس ٠٠٠ كما قرر المحققون فى هذه القضية أنه بالبحث عن قرار مجلس الوزراء فى شأن دخول هذه الحرب تبين أن مجلس الوزراء لم يصدر قرارا فى هذا الشأن ، ولم يرد ذكر لهذا الموضوع فى محاضر جلسات المجلس أى أن الامر تقرر شفويا ٠

٥ ـ نماذج من طريقتهم فى الحكم :

[أ] يؤله أن يسمع « ان واحد ماشى بالقانون » :

فى أثناء محاكمة ابراهيم عبد الهادى طلب شاهدى نفى هما الاستاذ حسين رأفت واللواء أحمد عبد الهادى ٠ وقد استدعى الاستاذ حسين رأفت وجرت شهادته على النحو التالى وكان السائل هو المدعى :

س ـ فى أى عهد كنت مديرا (محافظا) للدقهلية ؟

ج ـ نقلت اليها ومكثت مديرا لها ثلاث سنوات فى عهد النقراشى وعبد الهادى ٠

س ـ لماذا نقلت ومتى من الدقهلية ؟

ج ـ نقلت فى مايو ١٩٤٩ الى مدير عام اللوائح والرخص ، وانا حاولت معرفة السبب الحقيقى فلم أعرفه ٠ ولكن الظروف التى كنت فيها جايز تنير الطريق ـ حصل بينى وبين النواب والشيوخ فى الحزب السعدى سوء تفاهم ووصل لرئيس الحزب وكان رئيسا للحكومة وهو السيد ابراهيم عبد الهادى وكان سببه قرب موعد الانتخابات ، فكان لهم بعض طلبات كنت أؤخرها ،

فمثلا كانوا عاوزين نقل رؤساء المدارس الاولية والمدرسين فى دائرة المديرية (المحافظة) ، فأنا قلت لهم فاضل ثلاثة أو أربعة أشهر · وفيه طلبات أخرى بالعمد والمشايخ وبعض الموظفين ·· وكانوا بيقولوا احنا عاوزين نهىء أنفسنا ، وقلت لهم لسه بدرى ولازم أعرف سبب كل شىء ـ وقمت باجازتى السنوية ، وبعدها طلبنى رئيس الوزارة وقال لى انه طلب منه كشف بتعديل الدوائر فقلت له : لماذا عملت هذا التعديل قبل حضورى ؟ فقال : انت حر فى تعديلها · وعلمت انه أرسل صورة منها لرئيس الديوان ، ويظهر أن ذلك كان بناء على طلب النواب والشيوخ ·· فقلت له : ما دامت أرسلت لرئيس الديوان حراجع ايه ؟

والسبب الثانى فى نقلى أن ابراهيم عبد الهادى كان بيطلب منى طلبات ما اقدرش أجيبها ·· وأنا كنت أسمع انه بيقول انى عامل قانونى ·· وكان بيؤلمه أن يسمع ان واحد ماشى بالقانون ·· وهو اتصل بى مرة وقال: انت اعتقلت أد ايه من الاخوان ؟ فقلت له · سبعة · فقال : سبعة ولا سبعين ·· انت منتظر لما ييجو يقتلونى ؟ ·· وبعد كده قال لى : انت بتطبطب على المعتقلين وتوديهم المعتقل كده ؟

فقلت له : أمال أعمل ايه ؟ فقال : يا أخى اسأل اخوانك ·

فقلت له : اسأل اخوانى ليه ·· أنا أتلقى أوامرى منك بس تكون فى حدود القانون ·

فقال لى : يا أخى انت دايما تقول لى ·· قانون قانون ·· ؟! ···

س ـ هل نقلت وحدك أم فى حركة ؟

ج ـ وحدى · وكان ذلك فى عيد الجلوس ·

س ـ وهل المركز الذى نقلت اليه كان يساوى مركزك ؟

ج ـ مركز المدير (المحافظ) أكبر من الناحية الادارية ·

[ب] عبد الهادى يتصل مباشرة بالضابط السنباطى متجاهلا المحافظ :

كان سعد الدين السنباطى أحد الضباط العريقين فى الاجرام فى عهد ابراهيم عبد الهادى ·· وجاء دوره فى المحاكمة بعد قيام الثورة عما اقترفه من جرائم التعذيب ·· وقد طلب هذا المتهم الاستاذ احمد راغب الدكرورى شاهد نفى ، فاستدعته المحكمة وجرت شهادته على النحو التالى :

س ـ متى كنت مديرا (محافظا) للغربية ؟

ج ـ فى نوفمبر ١٩٤٧ الى سبتمبر ١٩٤٩ حيث نقلت الى الداخلية ·

س – ما هى الوظيفة التى كان يشغلها سعد الدين السنباطى فى عام ١٩٤٩ ؟

ج – كان فى وظيفة رئيس القسم المخصوص بمديرية (محافظة) الغربية .

س – هل حصلت اعتقالات فى هذا العهد ؟

ج – أحب ان أوجه النظر الى أن السنباطى عندما نقلت للغربية كان من الموظفين الذين وثقت فيهم كل الثقة ، لانى لمست فيه الكفاية والاخلاص والجد والاجتهاد ، فقربته منى . حتى ان كثيرا من اخوانه حقدوا عليه هذه المنزلة وحذرونى منه كثيرا ، وقالولى انه رجل خطر .. ولكنى حملت هذا على أنه حقد .. وظل على هذا وأنا واثق فيه الى أن قتل المرحوم النقراشى وظفر ابراهيم عبد الهادى بالحكم . وصحب هذا كله موجة من الارهاب والطغيان أرسلها ابراهيم عبد الهادى فى القطر كله .. وليس هناك من يجهل هذه الموجة .. وكان الغرض من هذه الحملات الارهابية الانتقام من الاخوان المسلمين لقتل النقراشى .

فى هذا الوقت تغير السنباطى ومشى فى ركاب الطغيان والارهاب ، وخرج عن وفائه لى ، لانه كان أدنى الى ابراهيم عبد الهادى منه لى ، لانه صنيعته فى الاصل .. وكما علمت منه فيما بعد أنه من أخلص المخلصين له ، وانه يضحى بنفسه وماله وأولاده فى سبيل ارضائه .

فكنت ألمس أن ابراهيم عبد الهادى كان يتصل مباشرة بسعد الدين السنباطى فى كل ما يتصل بالاخوان المسلمين والاعتقالات والحبس وغير ذلك ، ويتجاهلنى تماما .. وكلنا فى هذا الوقت كنا نرهب هذا العهد لا لشىء الا لانه كان عهدا لا عقل له ، ويجوز أنه كان ينال من الابرياء .

فكان السنباطى – بصفته رئيس القسم المخصوص ، وبحكم اتصاله بابراهيم عبد الهادى – يتصرف كيفما يشاء ، ويعتقل كيفما يشاء ، ولا معقب لتصرفاته ، فكان يعتقل ويقبض كما يريد ، وما عليه الا ان يقدم مذكرة بمعلوماته – وفيها الكفاية – على أن هؤلاء الناس من أخطر الناس على الامن وكان يحصل بهذا على أوامر الاعتقال .

وقد لاحظت ان الحملة الارهابية كان يصاحبها دائما تفتيشات وضبط أسلحة ومهمات كثيرة مثل الاجهزة اللاسلكية . فلما تكررت العملية بدأت أتشكك فى أنها صحيحة ، ولكن تشككى لم يذهب الى حد اليقين . وكنت غير مرتاح لهذا .. ولهذه اللحظة ما اقدرش أقول انى متيقن من ان هذه الاشياء كانت تضبط فعلا أم أنها كانت للفتنة .

وفيما يختص باتصال سعد الدين السنباطى بابراهيم عبد الهادى واستسلام عبد الهادى لطلباته ‥ وكان سعد الدين صاغا (رائدا) فى ذلك الوقت ‥ فيه حادثة أقول لكم عليها :

سعد الدين فى موجة الارهاب أدعى أن هناك مؤامرة على قتله من الاخوان المسلمين ٠ ليه ؟ لانه داير يقبض عليهم ‥ بلغنى هذا ٠ واتخذ هو بنفسه اجراءات فيها فكان محقق ومجنى عليه ‥ فأنا أشرت ان المسألة لازم تروح النيابة ‥ وبدأ التحقيق فيها رئيس النيابة ‥ ولان القضية فيها مؤامرة على قتل موظف كبير ، حبيت أشوف التحقيق ماشى ازاى ٠ فذهبت الى البندر ووجدت رئيس النيابة أمامه أحد المتهمين وكان يسأله عن نقطة معينة أنكرها المتهم ٠ فرئيس النيابة قال له : ان زميلك اعترف بها ٠ فأجابه بأنه يمكن اعترف لانهم عذبوه كما عذبونى ٠ فأراد رئيس النيابة أن يسأله عن وقائع تعذيبه ٠ فهاج سعد الدين السنباطى وثار وترك التحقيق وانصرف قائلا لرئيس النيابة : انت بتسيب التحقيق الاصلى وعاوز تحقق فى التعذيب ؟ ‥

أنا الحقيقة ذهلت ‥ ماذا أستطيع أن أفعله ‥ بعد ما سابنا ومشى حاولنا أن نعيده مارضيش الا بعد نصف ساعة محايله ‥ وأنا وجدت انى أحسن ما أقعدش فخرجت ورحت قعدت فى النادى ‥ ثم قابلت سعد الدين فقال لى : هذا ليس بتحقيق لان رئيس النيابة يترك الموضوع الاصلى ويحقق ضدنا فى التعذيب ‥‥ ومع ذلك هو مش رايح يحقق القضية ، أنا اتصلت بابراهيم عبد الهادى ووعدنى ان النائب العمومى سيصل باكر صباحا لسحب التحقيق منه ‥

لم أستغرب ولكنى برضه استكترتها ‥ فقعدت أفكر وأنا زعلان منه لانه أساءنى ومس كرامتى وجت الحكاية دى ‥ ولو تم ما قاله سعد الدين تبقى هذه الجريمة — جريمة سحب التحقيق من رئيس النيابة — لانى أعتبرها جريمة — تقع على عاتق مين ؟ سعد الدين السنباطى ولا ابراهيم عبد الهادى ولا النائب العام ؟

انتظرت للصبح فسمعت أن النائب العام وصل للاسف ‥ رحت أشوف النائب العام فوجدت النائب العام بنفسه ومعه ثلاثة من مفتشى النيابة — سلمت عليه ثم فهمت منه بأنه جاى يفتش فوجد أن رئيس النيابة مشغول بقضية كبيرة وفيه شغل تانى كتير ، وانه راى من صالح العدالة انه يسحب التحقيق منه ويعطيه لمفتش النيابات ليتفرغ هو الى الشغل العادى ‥ وقد كان وبكل أسف وسحبت القضية من رئيس النيابة ٠

رئيس المحكمة ـ من هو النائب العام فى ذلك الوقت ؟

جـ ـ الاستاذ محمود منصور ·

بعد كده دلنى هذا على شىء هو أن فيه تعـذيب ·· ولو لم يكن فيـه تعذيب ماكانش سعد الدين ثار واتصل برئيس الحكومة ، ولا كانش رئيس الحكومة يسـوغ له العبث بالعدالة · لكن من المسئول ؟ ··· هـذه مسـألة أتركها لـكم ·

س ـ ألم يصل الى علمك أن رئيس الحكومة نكل برئيس النيابة وعطل ترقيته ؟

جـ ـ سمعت فيما بعد من رئيس النيابة أنه كان مدرجا ضمن المرشحين للترقية ، ولـما عرض على ابراهيم عبد الهـادى شطبه وأخـر ترقيته · وأنا قلت لرئيس النيابة ـ ولم يكن يعرف السبب الحقيقى ـ لا يا أستاذ حصل كذا وكذا وحكيت له حقيقة اللى حصل ·

[ج] البوليس السياسى فى عهدهم :

وجاء دور اللواء أحمد عبد الهادى حكمدار القاهرة (مدير أمن القاهرة) فى عهد عبد الهادى لاداء الشهادة فسئل عن البوليس السياسى (وكان يسمى أيضا بالقسم المخصوص) فأجاب :

« ضباط البوليس السياسى لم يكونوا خاضعين للحكمدار ، وانهم يكتبون تقاريرهم من ثلاث صور : احداها ترسـل للسـفارة البريطانيـة والثانية للسراى والثالثة للوزارة » ·

* * *

وبعـــد

فهؤلاء هم الذين كانوا يحكمون البلاد فى تلك الايام ···

ومن هؤلاء ····· جاءت مذمتنا ···

ورحم الله أبا الطيب اذ يقول :

واذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل ·

الفصـــل الخامس

هذه القضية .. تطورها الاجرائى أمام القضاء

فى سجلات النيابة العامة والقضاء نقرأ أطوار هذه القضية فى الخطوط الرئيسية التالية :

اولا ـ وقعت الجريمة فى الساعة الثامنة والنصف من مساء يوم السبت الموافق ١٢ فبراير ١٩٤٩ أمام مبنى جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة ٠

ثانيا ـ أجريت تحريات وتحقيقات وقتئذ لم تسفر عن معرفة الجناة ، وانتهى الامر بحفظ التحقيق مؤقتا ، وكان ذلك فى عهد النائب العام محمود منصور ٠

ثالثا ـ استأنفت النيابة التحقيق فى عهد وزارة حسين سرى ثم فى عهد وزارة الوفد ، وأصدرت النيابة أمرا بحظر النشر عن هذا التحقيق فلم تسفر هذه التحقيقات عن الوصول الى الجناة ٠

رابعا ـ لما قامت الثورة ، أمرت القيادة بالقبض على الاميرالاى (العميد) محمود عبد المجيد وكان مديرا (محافظا) لجرجا فى ذلك الوقت وذلك فى ٢٩ يوليو ١٩٥٢ ، كما أمرت بالقبض على المتهمين الآخرين ، وأودعوا السجن الحربى ، حيث تولى التحقيق معهم نائب الاحكام البكباشى (المقدم) ابراهيم سامى جاد الحق ٠

خامسا ـ احالة القضية الى غرفة الاتهام :

ثم أحيل التحقيق الى القضاء ، وندب الاستاذ حسن داود المستشار بمحكمة الاستئناف للقيام به ٠ وأحيلت القضية الى غرفة الاتهام برياسة الاستاذ مرسى فرحات رئيس محكمة الاستئناف وعضوية الاستاذين محمد على جمال الدين وعبد الرحمن جنينه ٠ ومثل النيابة الاستاذ فؤاد سرى ـ فقررت الغرفة الافراج عن اليوزباشى عبده ارمانيوس والبكباشى حسين كامل والامباشى حسن محمدين رضوان والجاويش محمد سعيد اسماعيل والبكباشى محمد الجزار ـ واستمرار حبس الاومباشى احمد حسين جاد ومصطفى محمد ابو الليل غريب والباشجاويش محمد محفوظ السائق والاميرالاى محمود عبد المجيد ٠ كما قررت احالة جميع المتهمين الى محكمة

الجنايات ــ وقررت أن لا محل لاقامة الدعوى على ابراهيم عبد الهادى وعبد الرحمن عمار ٠

سادسا ـ أول دائرة جنايات تنظر القضية :

ثم تولت دائرة الجنايات برياسة الدكتور كامل ثابت نظر القضية فى ١٠ نوفمبر ١٩٥٣ ، فبدأت بسماع شهود (الاثبات) فاستمعت الى الاستاذ محمد يوسف الليثى وهو الشاهد الرئيسى فى القضية ، وقد أوردنا نتفا من شهادته ٠

شهادة عبد الله خليل فواز : ــ

ثم استمعت الى شهادة عبد الله خليل فواز من اعيان جرجا ، وكان على صلة وثيقة بالمتهم الاميرالاى محمود عبد المجيد ــ وجاء فى شهادته : أنه حضر الى القاهرة فى شهر فبراير ١٩٤٩ لزيارة المعرض ، وفى يوم ١٢ فبراير دعا مدير الشرقية السابق ومعه محمود عبد المجيد للغداء فى مطعم ٠٠ وفى الساعة التاسعة مساء دخل عليهم محمد محفوظ سائق محمود عبد المجيد وتحدث معه حديثا خاصا نحو عشر دقائق ثم خرجا معا ٠

وفى اليوم التالى قابله محمود عبد المجيد وأخبره بمقتل الشيخ البنا فقال له : اننى سمعت هذه الاشاعة بعد ما تركتمونى أمس بربع ساعة ــ وقال: ان محمود عبد المجيد قال لى : ان البعض أعطى نمرة سيارتى على أنهم رأوها عند الحادث ٠٠ وحدثت مناقشة بيننا حاول خلالها أن يحملنى على أن اعترف بأن سيارته كانت تقف أمام اللوكاندة وقت الحادث ٠ الا انى نظرا لانى لم أرها قلت له : والله أنا لا أعرف حاجة ، ورفضت أن اشهد بذلك ٠٠ وطلب منى عدم السفر حتى ادلى بأقوالى التى يريدها ٠

وفى اليوم التالى قابلته بالوزارة وسألته عما تم فقال : مافيش داعى ٠٠ سافر أنت ٠٠٠

● اعتراف السائق محمد محفوظ بارتكاب الجريمة :

وبعد أسبوع رجعت الى القاهرة مرة أخرى وركبت سيارة محمود عبد المجيد مع السائق محمد محفوظ ٠٠ واثناء الطريق طلب منى محفوظ أن أتوسط لدى محمود عبد المجيد لترقيته فرفضت ٠٠٠ وفوجئت به يقول : ٣٠٠ جنيه ايه ٠٠ دى حاجة ليس لها قيمة ــ وانا كنت خالى الذهن من هذا الموضوع ٠٠ الا أنه لاعتقاده بصلتى بمحمود عبد المجيد ظن اننى اعرف كل شىء ، فبدا يصارحنى واعترف بكل شىء وقال : انا ركبته السيارة ومعى أرمانيوس ومحمدين واشخاص آخرون لا اذكر أسماءهم ، وتوجهنا الى

جمعية الشبان المسلمين ، ووقفنا فى مكان مقابل لها ، ونزل أحمد حسين — المتهم الاول — ومعه شخص لا أذكر اسمه وراحوا الجمعية وارتكبوا حادث مقتل الشيخ البنا ، وعادوا وركبوا السيارة ·· والجماعة اللى كانوا معاهم كانوا حاميين ظهورهم — وبعد الحادث ركبوا معى وأمرونى بالاتجاه لوزارة الداخلية ··· وهناك غيروا ملابسهم ·· وعاد محمد محفوظ الى اللوكاندة حيث قابل الاميرالاى محمود عبد المجيد ··· فأنا دهشت وقلت له : هذه مسائل خطيرة وتضرك كثيرا ·

● شهادة محمد حسنين عضو جمعية الشبان :

وسمعت الحكومة أيضا الشاهد محمد حسنين وجاء فى شهادته انه كان المتهم (وأشار الى أحمد حسين جاد) يتردد كثيرا على الجمعية · كما أنه شاهد المتهم محمدين يجلس القرفصاء على الرصيف أمام الدار ، وذلك قبل مصرع الشهيد بأيام — وقد أمرت المحكمة المتهمين بالوقوف فتعرف عليهما الشاهد وأصر على أقواله ·

● حرم النقراشى تعطى القاتل بقشيشا :

ثم سمعت المحكمة الشاهد سعد الله مصطفى السيد من أهالى أبو دومه بسوهاج وجاء فى شهادته ما يلى :

كنت موجودا بسوهاج بعد الحادث بشهر · وقابلنى احمد حسين جاد — وأشار الى المتهم الاول — فعرض على قطعتين من الصوف لبيعهما ·· واحنا فى سياق الحديث سألناه عن مصدر الصوف فقال : « ده هديه من ناس كبار ·· من حرم النقراشى باشا ، لانى أخذت لها ثار زوجها ·· ومحمود عبد المجيد وعبد الرحمن عمار أخذونا فى المهمة وقتلنا البنا ·· واخذونا عابدين » ثم أخذنى ابراهيم عبد الهادى لحرم النقراشى باشا فأعطتنى الهدية ، واعطونى بقشيش ٦٠٠ جنيه » ·

فقلت له : مادام صاحب القماش قتل أنا لا آخذه · وتركته ·

وسألته المحكمة : هل رأيت شيئا آخر مع المتهم ؟

فقال : ورانى صورة النقراشى مكتوب عليها « هدية لبطل الصعيد وجرجا » وموقع عليها من حرم النقراشى باشا ·

ثم سمعت المحكمة الشاهد على محمد يونس تاجر وترزى بطما ·· شهد بأن سعد الله مصطفى اخذه الى القهوة وحضر المخبر احمد حسن ومعه القماش وصورة النقراشى ، وأيد شهادة سعد الله ·

● **اعتراف السائق محمد محفوظ مرة أخرى :**

وسمعت المحكمة أيضا شهادة الباشجاويش محمد فرج على الوجه الآتى :

المحكمة : هل حدث حديث بينك وبين محمد محفوظ ؟

الشاهد ـ بعد الحادث بثلاثة أو أربعة أيام الاميرالاى محمود عبد المجيد كان عاوز يركب ويروح مجلس الوزراء فلم يجد سيارته ، فركب فى سيارتى الحكومية ووصلته وانتظرته هناك • وفى هذه اللحظة جه محمد محفوظ • وأنا قلت له ان الشيخ البنا قتلوه أول امبارح ومحدش عمل حاجه وان واحد سفرجى ضربه • فرد على وقال : الحكاية ماهيش كده •• أقول لك الحكاية وماتقولش لحد ؟ فحلفت له انى لا أقول ولكن لم يصدقنى الا بعد أن حلفت يمين الطلاق •

فقال لى : احنا كنا فى الحادث وضربناه احنا والعيال المخبرين اللى جايين من جرجا ، وكان وياانا سعادة محمود بك عبد المجيد وقت ما ضربوه • وقال لى : ان محمود عبد المجيد كان يلبس الجلابية ولافف تلفيعة على دماغه وقالوا عليه سفرجى وهو اللى ضرب أول طلقة ، وأحمد حسين هو اللى ضرب الطلقات الثانية •

وقلت له : **ازاى تعمل كده ؟ فقال : احنا نعمل ايه ؟ رغبة الحكومة كده والسراى راضية لان الاخوان قتلوا النقراشى •**

وقال كمان ان عبده أرمانيوس وحسين كامل والمخبر محمد السعيد كانوا موجودين معانا ، وكان محمد سعيد يلبس بدلة ، وكان واقف بالشارع وكانوا دول حارسين •

وقال الشاهد : ان هذه المعلومات لم أقلها الا فى القيادة بعد أن قامت حركة الجيش وعلمت أن محمد محفوظ جابوه من جرجا •

المحكمة ـ محمد محفوظ ماقالش لك انه أخذ فلوس ؟

الشاهد ـ بعد اعترافه لى بعشرين يوم تقابلنا بالوزارة • وأخذت أشتكى له الضيق وكثرة المصاريف ، فأخرج محفظة من جيبه وبها ثلاث ورقات ، ورقة بمائة جنيه والاثنين التانيين كل واحدة بمبلغ خمسين جنيه ـ فقلت له : ليه شايل المبالغ دى كلها ؟ قال لى : لو كان معايا فكة كنت أعطيت لك اللى انت عاوزه •

كما سمعت المحكمة شهادة آخرين منهم الاستاذ مصطفى مرعى والاستاذ

محمد زكى على واللواء صالح حرب ومطلقته والاستاذ مصطفى الشوربجى ..
وقد عرضنا فى الفصول السابقة لبعض ما جاء فى شهادتهم .

سابعا ـ رد هيئة المحكمة التى تنظر القضية :

فى نهاية جلسة ١٩ـ١١ـ١٩٥٣ وفى أثناء أداء اللواء صالح حرب لشهادته طلب المتهم محمد محمد الجزار عقد الجلسة سرية لانه يريد أن يقول أشياء تتصل بالليثى والشاهد وزوجته لا يجوز ذكرها فى جلسة علنية . فأصر الشاهد على أن يقول الجزار ما يشاء علنا . ولكن محامى الجزار قال للمحكمة ان موكله عدل عن طلبه ... فاذا برئيس المحكمة يقول للمحامى : هل رجعت الى موكلك فى شأن العدول عن السرية ؟

وهنا ثار الاستاذ عبد القادر عوده من المحامين المطالبين بالحق المدنى وقال :

ان المطالبين بالحق المدنى يرون فى تصرف رئيس المحكمة فى قوله للمحامى عن الجزار : هل رجعت الى موكلك بعد أن قرر العدول عن الجلسة السرية وموكله بجانبه ، يرون فى ذلك نوعا من التحيز ، لا سيما وقد سمح رئيس المحكمة للدفاع بمناقشة الشهود قبل المطالبين بالحق المدنى ، مع أن القانون يجعل للمطالبين بالحق المدنى الاولوية فى توجيه الاسئلة الى الشهود ـ وقال : ان رئيس المحكمة تربطه بابراهيم عبد الهادى روابط معينة ، كما أننى حين كنت قاضيا كنت لا أشعر فى ثقة من ناحيته وأشعر بحرج .. وأساس القضاء ليس هو العدالة ولكن الثقة فى نفوس المتقاضين ـ وطلب تنحيه .

وقررت المحكمة ـ بعد المداولة ـ احالة الاستاذ عبد القادر عوده لقاضى التحقيق على أن يتخذ هو من جانبه اجراءات الرد .

واستغرقت اجراءات رد المحكمة زمنا طويلا ، فقد عرض طلب الرد أولا على دائرة برياسة محكمة الاستئناف ، فطلب الاستاذ عبد القادر رد هذه الهيئة . فعرض بعد ذلك على هيئة برياسة اكبر مستشارى محكمة الاستئناف سنا فرفضت طلب الرد .

فاستأنف الاستاذ عبد القادر القرار أمام محكمة النقض ـ الدائرة المدنية ـ ثم الدائرة الجنائية فقررت كلتاهما عدم الاختصاص .

فظل قرار رفض طلب الرد قائما .. وحينئذ تنحت هيئة المحكمة من تلقاء نفسها عن نظر القضية .

ثامنا ـ هيئة جنايات أخرى تعيد نظر القضية :

انعقدت الجمعية العمومية للمستشارين وعهدت الى دائرة الاستاذ محمود عبد الرازق وعضوية الاستاذين محمد شفيع الصيرف ومحمد متولى عتلم بنظر القضية ، ومثل النيابة الإستاذ على نور الدين . وبدأت أولى جلساتها يوم ١٦ـ٤ـ١٩٥٤ .

وحضر عن المدعين بالحق المدنى الاساتذة عبد القادر عوده ومحمد عزمى وعبد الكريم منصور والدكتور عبد الله رشوان وعلى طمان وأحمد كامل . وطلبوا ٣٠ ألف جنيه لزوجة الشيخ البنا وأولاده ، ٣٠ ألف جنيه للاستاذ عبد الكريم منصور . كما طلب والدا المجنى عليه قرشا صاغا من المتهمين والحكومة .

وحضر عن الحكومة الاستاذ أحمد محمد أغا المستشار بقسم قضايا الحكومة وطلب رفض الدعوى المدنية وبراءة المتهمين وتألفت هيئة الدفاع عن المتهمين من الاساتذة فريد أبو شادى وأحمد الحضرى وشوكت التونى ومحمد على رشدى وعبد الجليل العمرى وسيد مصطفى وحماده الناحل وعبد الحميد رستم وحسن ادريس وعبده أبو شقة وعبد المجيد الشرقاوى والظاهر حسن ومختار قطب .

تاسعا : شهود جدد استمعت اليهم الهيئة الجديدة :

● موظف بالداخلية يقرر أن المخبرين جاءوا من جرجا لمهمة سرية :

بعد أن استمعت المحكمة الى الشهود الذين أدلوا بشهاداتهم أمام الهيئة السابقة ، أخذت فى الاستماع الى شهود آخرين لم يكونوا قد أدلوا بعد بشهاداتهم .. ومنهم الاستاذ زكى عبد التواب الموظف بوزارة الداخلية وعضو جمعية الشبان المسلمين . وجاء فى شهادته ما يلى :

قال : انه كان فى جمعية الشبان المسلمين لانه سكرتير القسم الاجتماعى بها فسمع فرقعة ، ونظر من نافذة الدور الثانى فرأى رجلا شكله شاذ يلبس جلابية وعلى رأسه تلفيحة كان واقفا عند محطة الترام .. وشهد بأنه رأى غلاما أسمر يقول انه أخذ نمرة السيارة . ثم قال : وكان واحد اسمه محمد عثمان عندنا فى الجمعية ناداني قائلا : يا زكى يا زكى .. فرحت وقال لى : ان الولد ده معاه نمرة السيارة . فسألت الولد فذكر لى النمرة وواحد من الواقفين كتبها ومش متذكره .. وبعدين الولد ركب على رفرف العربية وراح معاهم الاسعاف .. وانا قلت للعسكرى هناك : بقى ترتكب امامكم جريمة ولا تمسكوش الجانى واحنا نمسكه .. روح يا شيخ ما هو انتو الى قتلتوه

... ورحت أنا ومحمد مصطفى ومجموعة كبيرة الاسعاف وماوجدناش الشيخ البنا لانه كان راح القصر العينى .

وفى اليوم التالى رحت الوزارة - وزارة الداخلية - وسمعت مخبرين بيقولوا ما حدش ارتكب الحادث ده الا المخبرين دول . وانا تذكرت شكل الشخص اللى شفته عند الترامواى . ولما شفتهم فى الوزارة عرفتهم وسألت عنهم فقيل لى انهم من جرجا والمدير جايبهم علشان مهمة سرية . فقلت لازم هم اللى عملوا الحادث ، فنزلت علشان أتأكد من الشخص اللى شفته فلم أجدهم لانهم كانوا مشيوا . وربطت بين الحوادث دى كلها . وبعد كده بدا محمد محفوظ يتكلم مع مخبرى الوزارة .

وفيه واحد اسمه فهمى مصطفى سأل المخبر أحمد حسين قائلا : هو الشيخ البنا فين النهارده ؟ فقال له : انت بتسألنى ليه .. هو انت بتجسس على ؟ .. والمخبرين اللى فى الادارة قالوا ان محمد محفوظ بيقول لهم : احنا رحنا واستنتهم بالعربية وارتكبنا الحادث ، وأنا بيتهألى كل ما أروح الحتة دى أشوف شبح الشيخ البنا .

الرئيس - مين اللى قال كده من المخبرين ؟

الشاهد - واحد اسمه محمدين .. ومرة حصل ان محمد محفوظ كان مدين لفهمى هذا فى خمسة قروش صاغ فطلع له محفوظ ورقة بمائة جنيه .

ومضى الشاهد يقول انه حذر الليثى أكثر من مرة نظرا لاهتمامه بالحادث وقال له : يجب أن تكون حذرا لان هؤلاء الناس خطرين وان المجهودات التى يقوم بها ستضيع هباء .

الرئيس - وده اذن اللى خلاك امتنعت عن الشهادة ؟

الشاهد - أيوه .. أنا شخصيا كنت خايف ، وعارف ان السعديين خطرين ، وهم حاولوا نقل خمسة مخبرين مرة واحدة وظهر على شان كانوا بيتكلموا كتير فى الموضوع - ومرة طلب منى الليثى أن أتقدم للشهادة فقلت له : مش ممكن لانه مافيش ضمان للواحد . وأنا كان ضميرى يؤنبنى لانى عايز أقول الحاجة اللى شفتها فكتبت جواب من غير امضاء وبعته لليثى وذكرت فيه المعلومات اللى أعرفها .

الرئيس - واشمعنى بتبعته لليثى ؟

الشاهد - انا خفت أرسله للنيابة يخطفوه فبعته لليثى لانه متحمس .

الرئيس - من هو الشخص الذى اشتبهت فى وقوفه أمام محطة الترام ؟

الشاهد ـ (أشار الى أحمد حسين) وقال : هو ده ٨٠ ٪ هو ده · وبعدين شفته فى الداخلية مع المخبرين الثلاثة ·

الرئيس ـ ما شفتش حد غيره من المخبرين اللى شفتهم فى الداخلية بعد الحادث عند باب الجمعية ؟

الشاهد ـ أيوه شفت وهم دول (وأشار الى محمد اسماعيل وحسين محمدين) ·

الرئيس ـ هل بينك وبين الاميرالاى محمود عبد المجيد حزازات ؟

الشاهد ابدا ·· ابدا وأنا احترمه ·

الرئيس ـ لما سمعت انهم جابوا مخبرين من جرجا ماعرفتش مين جايبهم ؟

الشاهد ـ اللى سمعته ان عبد الرحمن عمار هو صاحب الفكرة والموعز باحضارهم لانه كان مدير جرجا وعارفهم من زمان ·

الرئيس ـ عرفت منين كده ؟

الشاهد ـ من الوزارة ·· كان الموظفين بيتكلموا وقالوا ان عبد الرحمن عمار خايف على نفسه بعد حل الجمعية ·

الرئيس ـ ايه اللى خلاك فاكر نمرة السيارة ؟

الشاهد ـ لانه رقم سهل جدا ٩٩٧٩ ·

● **شاهد آخر سمع اعتراف محمد محفوظ :**

ثم سمعت المحكمة محمد حسن ندا صاحب محل حلوى قال :

أنا فى محلى فوجدت عربية الاميرالاى محمود عبد المجيد وقفت أمام بيت أحمد سليم جابر اللى جنب المحل ، ونزل الاميرالاى عبد المجيد وفضل السواق محمد محفوظ والمخبرين ثلاثة لا أعرفهم · ومحمد محفوظ دخل جوه المحل عندى فقلت له : انتم جايين منين كده ؟ فقال : جايين من حاجة جامده ··احنا قتلنا الشيخ حسن البنا · فقلت له : ازاى ؟ فحكى لى عن الدور وانهم ضربوه بالمسدس وانكسر الزجاج والسواق اترمى على الارض ، وواحد فتح الباب من اليمين والتانى فتح الباب من الشمال ـ وكان الكلام ده يوم الحادث الساعة تسعة ونصف تقريبا ·

الرئيس ـ هل كان محمد محفوظ يتردد عليك قبل كده ، وشفت المخبرين قبل كده ؟

الشاهد ـ انا شفت محمد محفوظ كتير قبل كده ، لكن المخبرين ما شفتهومش ·

الرئيس ــ ما شفتنش حد يتردد على بيت سليم جابر غير محمود عبد المجيد ؟

الشاهد ــ كان بيجيله على حسنين المتهم فى قضية عبد القادر طه ٠

● **ومن شهادة الصول محمد البهى شرف :**

وهو موظف بادارة المباحث الجنائية يقول :

فى خلال شهر يناير ١٩٤٩ وجدت الثلاثة المخبرين دول فى بوفيه الوزارة تحت ، وكنت لاحظت أنهم بيترددوا على الصاغ حسين كامل فسألتهم أنتم مين ؟ فقالوا : احنا مخبرين وجايين نشتغل فى الوزارة هنا ٠ فدخلت أبحث عن أوراق عن كيفية نقلهم فلم أجد ، فسألت الصاغ حسين كامل عنهم فقال : أيوه ٠٠ ثم عاد وطلب منى أن أنتظر حتى يسأل الاميرالاى محمود عبد المجيد ثم **دخل لمحمود عبد المجيد وخرج بعد شوية وقال لى : دول جايين فى مأمورية خاصة ومالكش دعوة بيهم ٠**

الرئيس ــ ألم تثبت اسم أحد من المخبرين دول فى الدفاتر ؟

الشاهد ــ أظن أثبت اسم أحمد حسين جاد فى الوقت اللى سألت فيه الصاغ حسين كامل وما أثبتش الباقى علشان الامر اللى صدر لى ٠

● **جاكتة الصول للسائق محمد محفوظ :**

وجاء فى شهادة القائمقام طه زغلول أن السائق محمدى الحركى أطلعه على جاكتة صول فصلها محمد محفوظ مقدما ، حيث وعدوه بالترقية مكافأة له ٠ فأخذه طه زغلول فأوصله الى القيادة بالسجن الحربى وسلم الجاكتة للقيادة ٠

فطلبت المحكمة احضار السائق محمدى الحركى فى الحال فأحضر وبسؤاله قرر ما قاله طه زغلول ٠ فلما ووجه بمحمد محفوظ وحاول محفوظ على الانكار ، قال محمدى للمحكمة : اذا أصر على الانكار فسأذكر اسم الترزى الذى فصلها ٠٠ وقد اعتبرت المحكمة موضوع الجاكتة هذا من أهم نقط القضية ٠

عاشرا ــ من مرافعة النيابة فى القضية :

بدأت النيابة مرافعتها بالسطور التالية :

« الجريمة المقدمة اليوم تعد من أخطر الجرائم التى نكبت بها البلاد فى العهد الاخير ٠ وتتمثل خطورتها فى ناحيتين : أولا ــ انها جريمة اغتيال رجل من اكبر رجال الدين فى العصر الحديث هو المغفور له الشيخ حسن البنا

المرشد العام لجماعة الاخوان المسلمين ـ وثانيا ـ انها جريمة قتل دبرتها واشرفت عليها ونفذتها الدولة فى سبيل القضاء على فكرة معينة أو دعوة معينة كان ينادى بها الفقيد ، وكانت تلقى التأييد من عدد من المواطنين .

وكانت الدولة ترى فى هذه الدعوة ما يهدد كيانها ، فأرادت أن تقضى عليها بالتخلص من صاحبها ، وذلك باغتياله .. وهكذا سخرت الدولة قوتها وسلطاتها فى ارتكاب جريمة قتل رجل أعزل مجرد من القوة والحماية ، لا لشىء الا للرغبة فى ارضاء الحاكمين الذين رأوا أن بقاء هذا الرجل الاعزل يهدد نظام دولتهم وحكمهم ، فدبرت هذه الجريمة بوساطة رجال الامن المفروض فيهم المحافظة على أرواح المواطنين وحمايتهم .

وهكذا عادت بنا هذه الحكومة الى عصور البربرية الاولى ، حين كانت شريعة الغاب هى القانون الوحيد وحيث كان السيف هو اللغة الوحيدة لمناقشة رأى معارض أو فكرة لا تروق الحاكم ـ كيف لا وقد أهدرت هذه الحكومة كل القوانين السماوية والوضعية ، ونسيت وظيفتها الاولى فى حماية الناس وتمكينهم من التعبير عن آرائهم وأفكارهم » .

الحادى عشر ـ نص الحكم الذى أصدرته المحكمة :

بدأت هذه الدائرة فى نظر القضية يوم ١٦ من ابريل ١٩٥٤ ، وانتهت من نظرها يوم ٧ يوليو ١٩٥٤ ، وقررت تأجيل النطق بالحكم الى جلسة ٢ من أغسطس ١٩٥٤ .

وبلغ عدد الجلسات التى عقدتها المحكمة ٣٤ جلسة سمعت خلالها ٣٣ شاهدا . وبلغ عدد صفحات محاضر الجلسات ١١٠٠ ألف ومائة صفحة عدا أوراق القضية وتبلغ نحو أربعة آلاف صفحة .

وقد عقدت الجلسة يوم ٢ من أغسطس وأصدرت الاحكام التالية :

حكمت المحكمة حضوريا :

أولا ـ بمعاقبة أحمد حسين جاد بالاشغال الشاقة المؤبدة ، وكل من الباشجاويش محمد محفوظ والاميرالاى محمود عبد المجيد بالاشغال الشاقة لمدة خمس عشرة سنة ، وبالزامهم بطريق التضامن والتكافل مع الحكومة المسئولة عن الحقوق المدنية :

أ ـ بان يدفعوا عشرة آلاف جنيه على سبيل التعويض للسيدة لطيفة حسين الصولى زوجة المرحوم الشيخ حسن البنا واولاده القصر منها وفاء

وأحمد سيف الاسلام وثناء ورجاء وهالة واستشهاد الشموليين بولاية جدهم الشيخ احمد عبد الرحمن البنا ٠

ب ـ وبأن يدفعوا للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا والسيدة أم السعد ابراهيم صقر والدى القتيل مبلغ قرش صاغ واحد على سبيل التعويض المؤقت ٠

ج ـ وبان يدفعوا للاستاذ عبد الكريم محمد أحمد منصور مبلغ الفى جنيه على سبيل التعويض ٠

وألزمت المتهمين المذكورين بالمصروفات المدنية وثلاثين جنيها مقابل اتعاب المحاماة للفريقين الاول والثانى المدعين بالحق المدنى و ٢٠ جنيها للثالث ٠

ثانيا ـ بمعاقبة البكباشى محمد محمد الجزار بالحبس مع الشغل لمدة سنة ، ورفض الدعاوى المدنية قبله ٠

ثالثا ـ ببراءة كل من : مصطفى محمد ابو الليل واليوزباشى عبده أرمانيوس والبكباشى حسين كامل والجاويش محمد سعيد اسماعيل والاومباشى حسين محمدين رضوان مما أسند اليهم مع رفض الدعوى المدنية الموجهة لهم ٠

رابعا ـ وقدرت المحكمة ٢٠ جنيها لكل من المحامين المنتدبين وهم الاساتذة أحمد الحصرى وحماده الناحل وعبد الحميد رستم وعبد الفتاح لطفى تصرف لهم من الخزانة العامة ٠

* * *

وكانت المحكمة خلال هذه الجلسة فى حراسة شديدة ٠ وحضر المراسلون لوكالات الانباء والصحفيون وقد ازدحمت قاعة الجلسة بعدد كبير من رجال القانون والضباط وأقارب المتهمين والسيدات ٠ ومنع الدخول الا بتذاكر ـ وسأل الصحفيون رئيس المحكمة عن حيثيات الحكم فقال انها قد تم انجازها وهى تقع فى نحو خمسمائة صفحة ٠

وقد امرت النيابة بالقبض على البكباشى محمد الجزار المحكوم عليه بسنة حيث قضى منها فى السجن ثلاثة اشهر فقط ٠

* * *

وهكذا كان من حق القارىء علينا ان يكون على تصور كامل واضح

لمعالم المحاكمة واجراءاتها الرسمية التى انعقدت جلساتها فى خلال عامى ١٩٥٣ ، ١٩٥٤ فى قاعة الجنايات بمحكمة القاهرة ، وما دار خلالها وما أسفرت عنه من نصوص الاحكام ... فهذا بلا شك جزء لا غنى عن الالمام به لمن يريد أن يلقى على القضية نظرة شاملة .

والواقع أن هذه المحاكمة وما جرى فيها وما أسفرت عنه لم تكن فى حقيقة أمرها الا مجرد مؤشر ذى دلالة ناطقة أشار بأسلوب رمزى الى الجناة الحقيقيين من بعيد .. وأومأ من طرف خفى بنداء صامت الى أصحاب الحق أن استرداد حقوقهم من غاصبيها هو أمر فوق طاقة القضاء .

ذلك أن القضية ليست نزعا بين أفراد ، بل هى صراع بين أمم ، ونضال مرير بين مبادىء وأفكار ، وأن هذا الخلاف متأصل فى النفوس ، واصل الى أعماقها ، وأن الزمن وحده هو الذى يقضى فيه .. وهو نزاع قديم متجدد .. انه الصراع بين الحق والباطل .. هو الصراع الذى بدأت آخر حلقاته برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .. ولا زالت الحرب منذ ذلك الحين قائمة على قدم وساق ، وان تشكلت فى كل مرحلة من مراحلها بشكل معين ، وتزيت بزى مختلف .

ولعل هذا هو ما نحا بنا فى معالجة هذه القضية هذا النحو الذى جعلنا نوغل فيما أحاط بها من مؤامرات عالمية ، ومؤشرات سياسية بعيدة الغور ، حللنا فى خلالها كثيرا من مواقف الاشخاص والاحزاب والحكومات والدول .

وقد يرى القارىء فيما وقع بعد ذلك من أحداث جسام أن الحكم الحقيقى فى هذه القضية لم يصدر بعد . لان الزمن حين يصدر حكمه لا يصدره داخل جدران محكمة ، ولكن يصدره فى ميادين تراق فيها الدماء ، وترخص فيها النفوس ، وتزهق فيها الارواح ، وتقوض فيها العروش ، وتدال فيها الدول ، ويتغير معها وجه الدنيا .. وسيظل الصراع قائما هكذا حتى يتمخض آخر الامر عن انتصار الافكار التى اغتيل حسن البنا من أجلها فتحتل مكانها فى القلوب والعقول ، وتكون هى الفيصل بين الناس فى جميع شئون حياتهم ، بعد أن يثبت لهم زيف أفكار المتآمرين وافلاس أساليبهم « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم الحق ، أو لم يكف بربك انه على كل شىء شهيد » « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . انهم لهم المنصورون . وان جندنا لهم الغالبون » . « لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد » .

الباب الثانى

محاولات أخيرة للاجهاز على الجريح

- ☐ قانون الجمعيات
- ☐ المحاكمات
- ☐ معالم فى هذه القضايا
- ☐ البوليس السياسى والتعذيب

[redacted]

الفصـــل الاول

قانون الجمعيات

مقــــدمة

اعتقد الاخوان ، واعتقد أكثر الناس بأن معاناتهم ومعاناة الاخوان قد آن لها أن تنتهى بعد أن عملوا بكل جهودهم على اسقاط السعديين وتم ذلك بنجاح « الوفد » فى الانتخابات ، وتقديمه ليتسلم زمام الحكم غير منازع ، بالاغلبية الساحقة التى أولوه اياها ، وهى أغلبية تكاد تكون اجماعا ·· لاسيما وأن حصـوله على هـذه الاغلبية قد جاءه على يأس ، وكانت قد سدت أمامه السبل ·

ولم يأل المسئولون فى الوفد جهـدا فى قطع العهـود على أنفسهم وعلى حكومتهم المستقبلة أن لا يبقوا من عهد السعديين على أثر ، وأن يردوا الى الشعب والى الاخوان المسلمين كل ما سـلب من حقوقهم ، وأن يعوضـوهم عمـا أصابهم ·

وكان الجميع يعرفون أن الورقة الرابحة الوحيدة التى لعب بها الوفد فى هذه الانتخابات ضد خصومه انما هى ورقة الاخوان المسلمين ، وهى التى جعلته يكتسح اكتساحا ، وجعلت مرشحى خصومه يتوارون من الناس خجلا، وجعلتهم سخرية للناخبين ·

وتسلم الوفد بكل جدارة أزمة الحـكم · وأخـذ النـاس يتطلعون أن توافيهم الاذاعة وتطالعهم الصحف فى صـبيحة اليوم التالى بالنبأ المرتقب الذى ترتقبه كل نفس فى البلاد وهو انغاء الاحكام العرفية بكل ما نجم عنها وما ترتب عليها ··· ولكن طال أمد الانتظار ، ومـرت الايام تبـاعا دون أن يتحقق للناس ما يأملون ··

فكثر القيل والقال ، واستبد بالناس القلق · واخذوا يتساءلون فيما بينهم ، ويوجهون الاسئلة المشوبة بالغضب الى ممثليهم فى مجلس النواب·· ووجد سكرتير الوفد ووزير الداخلية الاستاذ فؤاد سراج الدين ان لابد من اجابة على هذه الاسئلة الملحة ، فصرح سيادته فى ١٨ يناير ١٩٥٠ بالتصريح التالى :

« ان الوزارة قبل أن تقدم على رفع الاحكام العرفية ستنتظر حتى تسن

قوانين لحماية البلاد ولحماية الامن ، ومن ضمنها تشريع خاص بالجمعيات ينظمها ويجعلها لا تحيد عن الطريق الذى أنشئت من أجله ، ومن بينها الجمعيات التى تنشأ لاغراض دينية بحتة » ٠

تصريح فاجأ الناس ودهمهم وصدمهم وخيب آمالهم ، وزعزع ثقتهم فى هذا الحزب لنقضه عهوده أثناء الانتخابات ٠

وهذا التصريح المخيب للآمال يضطرنا الى أن نرجع بالقارىء قليلا الى الوراء ٠٠ الى عهد السعديين لنفتش عن أواصر القربى التى ربطت بين حزب الوفد وبينهم ، والتى تدلنا على أنهما - وان اختلفا فى المظهر فانهما يستقيان من معين آسن واحد ٠

قدمنا من قبل أن ابراهيم عبد الهادى حين آذنت الدورة الاخيرة لبرلمانه بانتهاء ، واستقر فى علمه انه مهما طال الزمن وهو على راس الوزارة فلابد أنه مواجه يوما من الايام ترفع فيه الاحكام العرفية ٠٠ ولما كانت الاجراءات الشاذة المعلنة على الاخوان المسلمين مرتبطة بوجود هذه الاحكام - لانها مستمدة منها - فلابد لتأييد هذه الاجراءات من تشريع يسن بالطريق « الديمقراطى » يتضمن كل هذه الاجراءات والقيود ٠٠ ومثل هذا التشريع « الديمقراطى » يتطلب أن تضع الحكومة مشروع هذا القانون ، وتضمنه ما تشاء من قيود وشروط ، ثم تعرضه على مجلس النواب فمجلس الشيوخ٠٠ فاذا وافقا عليه وقعه الملك وصار قانونا نافذ المفعول يلتزم به الشعب وتحكم به المحاكم ٠

ولما كان التشريع لا يكون تشريعا حتى تكون له صفة العموم ، فلا يجوز أن يسن تشريع لفئة خاصة من الشعب أو لطائفة معينة منه ، فكان لابد من البحث عن صيغة يكون المقصود منها تقييد نشاط الاخوان المسلمين ووضع العقبات فى طريقهم وتأخذ فى نفس الوقت صفة العموم ٠٠٠ وكان أن تمخض تفكير مستشاريه القانونيين عن سن تشريع للجمعيات عامة ٠

وطلب عبد الهادى من حكومته وضع المشروع ٠ فوضعته فى الاطار الذى يروقه ويستوفى كل ما انطوت عليه جوانحه من ظلام وحقد ٠٠ واحيل المشروع الى مجلس النواب ، الذى أحاله بدوره - كالمعتاد - الى هيئة تضم لجنتى الشئون الداخلية والشئون الاجتماعية والعمل ٠٠ وكانت هذه الهيئة تفهم أن مهمتها تقتصر على تبرير ما تضمنه المشروع من أحكام جائرة ، واستحداث مواد جديدة تضيفها الى المشروع تزيده جورا وظلما وخروجا على العرف والدستور والقانون ٠٠ وان سمت ذلك تأكيدا للحريات وحفاظا على الدستور ٠

ولم يتعجل عبد الهادى برلمانه فى نظر المشروع واقراره ــ ولو شاء لتم له ذلك فى يوم وليلة ــ بل تمهل ــ كما قلنا من قبــل ــ لانه كان واثقــا من ان خمس سنوات طوالا هى فى انتظاره ليقضيها على رأس الحكومــة القادمــة ببرلــانه الجديد .

وأتمت هذه الهيئة البرلمانية تقريرها عن هذا المشروع فى النصف الاول من شهر يوليو ١٩٤٩ ، وتوطئة لعرضه على مجلس النواب فمجلس الشيوخ .. وقد رأينا أن نطلع القارىء على ملخص لهذا التقرير حتى يرى بنفسه ماكان يعده هذا العهد البغيض للاخوان المسلمين خاصة وللشعب عامة من اغــلال تشل يديه ورجليه ، وتكمم انفاسه ، وتقتل انسانيته ، وتلغى شخصيته :

مشروع قانون الجمعيات
فى عهد عبد الهادى وتعديلات لجنة النواب عليه

« انتهت الهيئة المكونة من لجنــة الشئون الداخلية ولجنــة الشئون الاجتماعية والعمل فى مجلس النواب من نظر القانون الخاص بالجمعيات ، وادخلت عليه بعض التعديلات . وفيما يلى نص تقرير اللجنة :

دعا منطق الحــوادث الى وجــوب تلافى النقص فى التشريــع لتنظيم الجمعيات . فلا يظل أمر تكوينها فوضى ، تنــدس فيهــا العناصر الخطرة فتنحرف بها عن الطريق السوى ، وتطوح بهــا الى هوة الجــريمة السحيقة فتقوض أركان الامن والنظام . فالتحرز فى أمر تكوينها ، والتأكد من أنها أمينة على الغرض الذى قامت من اجله أمر لا جدال فيه ، لتأمن الجرائم التى تدبر فى الخفاء ، والتى لو تركت لاستشرى خطرها ، وهزت كيان الامة هزا ، فتعوقها من اللحاق بركب التقدم والازدهار الذى أخذت نفسها به .

وهذا التشريع انما هو استكمال حق مقرر بمقتضى الدستور ، والذى مؤداه : « أن للمصريين حق تكوين الجمعيات . وكيفيــة استعمــال هــذا الحق يبينها القانون » .

لم يتعرض هــذا المشروع للجمعيات الا بالقــدر الــلازم لوقاية الامن والنظام ، لذا نراه لا يتعرض للجمعيات التى ترمى للربح المــادى لاعضائها ، ولا للجمعيات والمؤسسات المنظمة بقوانين أخــرى ، ولا للهيئات المركــزية للاحزاب السياسية الحالية لوضوح اغراض تلك الاحزاب ، ولقيامها منذ فجر الحركة الوطنية ــ وان كان يجدر وضع تشريع خاص بها اسوة بما هو متبع فى اكثر البلاد الاجنبية ، لما لها من أكبر الاثر فى حياة البلاد البرلــانية والاجتماعية .

● استصدار اذن :

وقد نص على اشتراط استصدار اذن فى حالة انضمام الموظفين والطلبة للجمعيات يكون من رئيس المصلحة بالنسبة للاولين ومن دور التعليم بالنسبة للآخرين ، حتى لا يكون التحاق الموظف بجمعية مدعاة لاضرار أهونها عدم قيامه بعمله على خير وجه ، وللطالب انصرافه عن الدرس والتحصيل ، فتنضب ثروة الامة المرتقبة من جهود شبابها المدخر الذين ينعقد عليهم مستقبلها ومجدها ٠

● مقر ثابت :

وقد فرض المشروع على الجمعيات اخطار المحافظة أو المديرية عند انشائها وموافاتها بالبيانات التى يهم السلطات العلم بها ، فاذا لم تعترض المحافظة أو المديرية فى المدة المقررة كان للجمعية الحق أن تباشر عملها ٠ كما نص على أن يكون لتلك الجمعية مقر ثابت توجد فيه جميع أوراقها ، وأن تنشىء سجلات تدون فيها جميع قراراتها وكل ما يتعلق بنشاطها لتكون واضحة الغرض ، بينة المرمى ، وليسهل على رجال الامن أمر الاشراف على تلك الاغراض ووسائل تحقيقها ٠

● قرار الحل :

والجمعية التى لا تلتزم أحكام هذا المشروع ، أو التى ترتكب مخالفة جسيمة ، أو تحيد عن هدفها ، تستهدف لقرار الحل من مجلس الوزراء ٠ كذلك اذا قامت الجمعية بتدوين بيانات غير مطابقة للحقيقة فى الابلاغ أو الاخطار ، أو اذا قامت بما يخالف الآداب والنظام العام ، أو تعدت أغراضها الاساسية ٠ ولا يعفى هذا من تطبيق العقوبات الاشد المنصوص عليها فى القوانين الاخرى ٠

وقد رأت الهيئة فى المادة (٣) اشراك رئيس الجمعية فى المسئولية عن الاحكام المنوه عنها فى المادة الثالثة امعانا فى الحيطة والحذر ، فقد لا يكون الرئيس من الداعين الى تأسيس الجمعية أو المؤسسين لها أو عضوا فى مجلس ادارتها فيفلت من المسئولية المقررة فى تلك المادة ٠

كما أضافت الهيئة فقرة أخيرة الى المادة (١٤) هذا نصها :

« اذا كان مرتكب هذه الجرائم كلها أو بعضها من الداعين لتأسيس الجمعية أو المؤسسين لها أو رئيسا لها أو عضوا فى مجلس ادارتها حسب الاحوال ، وجب أن لا تقل عقوبة الحبس عن ستة اشهر والغرامة عن مائة

جنيه ،وذلك بفرض حد أدنى لعضوية من يرتكب جريمة من الجرائم المشار اليها فى تلك المادة ، اذ أن مسئوليتهم فى الواقع اشد ، وجريرتهم أنكى من باقى الاعضاء ، فلا إقل من أن ينص على اخذهم بالشدة لضمان حد أدنى لعقوبتهم فيكونون عبرة لغيرهم » ٠

ولنفس السبب المتقدم أضافت الهيئة فقرة أخيرة للمادة (١٥) هى :

« فاذا كان مرتكب الجريمة من المنصوص عليهم فى الفقرة الاخيرة من المادة السابقة وجب أن لا تقل عقوبة الحبس عن شهر والغرامة عن عشرين جنيها » ٠

● **رجال الضبط :**

ورأت اللجنة بشأن المادة (١٦) الاكتفاء برجال الضبط القضائى فى القيام باثبات الجرائم التى ترتكب مخالفة لاحكام هذا القانون تمشيا مع نصوص مشروع قانون الاجراءات الجنائية ٠

● **القضاء العادى :**

ولاحظت اللجنة أنه قد يرد على الخاطر لاول وهلة أن تقدير ركن العمد فى تلك الجرائم وحق اتحل كان يحسن اخضاعه للقضاء العادى أو الادارى تحقيقا للعدالة ، وتوكيدا للطمأنينة ، ودفعا لمظنتى الشطط والاضطهاد ، ولكن هذا الحق المعطى لمجلس الوزراء روعى فيه اتصاله بسياسة البلاد ومصيرها فوق اتصاله بأمنها ونظامها ٠ فهو اذن مقرر لعلاج أمر يستدعى سرعة البت وقوة الحزم ٠٠ وهذا الحق لا يتأتى الا لمجلس الوزراء المنوط به مصالح البلاد العليا ، ولا شك أنه فى حكمه على تلك الامور سيكون مستهدفا الصالح العام وحده ٠

● **قطع السبيل :**

وقد راى التشريع قطع السبيل على الجمعيات التى يصدر قرار بحلها من ان تعود بصورة من الصور ، وتحرز فى ذلك بشتى الوسائل ٠ كما اعطى مهلة شهرين للجمعيات التى يسرى عليها أحكام هذا المشروع ومن انضم من الموظفين والطلبة الى جمعية من الجمعيات لمراعاة تلك الاحكام ، واستيفاء البيانات والاجراءات التى اوجبها ٠

وفى هذا المشروع دعم للامن ، فينتشر علم الصفاء على ربوع الوادى ، وتتضافر جهود الجمعيات لاقامة بناء مجده شامخا عزيز الجانب » ٠

هذا ما أعده عبد الهادى لتقييد الحريات

فما الذى فعله الوفد ؟

كان هذا هو تقرير الهيئة البرلمانية فى عهد السعديين عن مشروع قانون الجمعيات الذى قدمه عبد الهادى الى مجلس نوابه ٠٠ وكان مفروضا أن يعرض على المجلس الذى كان سيسارع بكل قوة الى اقراره ٠٠ ولكن ارادة الله وقضاءه الذى لا يرد داهم عبد الهادى فجأة فى يوم ٢٦ يوليو ١٩٤٩ بما لم يكن يحتسب ، فأقصى عن الحكم هو وجهازه الحكومى ، وهو فى أوج سلطانه ، وعنفوان تمكنه « وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه اليم شديد » ٠

وجاءت وزارة انتقالية برياسة حسين سرى كانت مهمتها تجميد أعمال برلمان عبد الهادى حتى أصدرت مرسوما فى ٥ نوفمبر بحله وحددت ٢ يناير ١٩٥٠ لاجراء انتخابات جديدة ، وأجريت الانتخابات التى تمخضت عن فوز حزب الوفد الفوز المكتسح الذى أشرنا اليه ٠

وجاءت وزارة الوفد ٠٠ فانظر ماذا فعلت ، وماذا اتخذت من موقف ٠٠ موقف مثير للألم ، ازاء هذا الموضوع الخطير الذى كاد الناس يتهمون أسماعهم وأبصارهم حين رأوا تصرفات هذه الحكومة وسمعوا تصريحات المسئولين فيها ٠٠ ونحاول ان شاء الله فى السطور التالية احاطة القارىء علما بهذه التصريحات :

أولا : تصريح مذهل :

أصدرت الوزارة بلسان وزير داخليتها وسكرتير حزب الوفد التصريح الذى أشرنا اليه من قبل والذى صدم مشاعر الناس وأذهلهم ٠

ثانيا : الوفد يحمى ظهر عبد الهادى ويتحدى الشعب :

فى ٢٠ فبراير ١٩٥٠ تقدمت حكومة الوفد الى مجلس النواب بمشروع قانون لالغاء الاحكام العرفية ، وكانت المادة الثانية منه تنص على :

« عدم سماع أى دعوى او طلب او دفع يكون الغرض منه الطعن فى تصرفات الحاكم أو السلطة القائمة على اجراء الاحكام العرفية » ٠

ومعنى هذا النص أن تهدر حقوق جميع الذين أضيروا وعذبوا واضطهدوا وشردوا واعتدى عليهم وعلى ابنائهم وزوجاتهم واهليهم ، فلا يكون لواحد من هؤلاء الحق فى مقاضاة هذا الحاكم الظالم المعتدى حيث يحميه هذا النص ، ويجعله فى حصانة من أن يطلب للمثول امام القضاء ٠

ولسنا ندرى ما هى مصلحة حزب الوفد فى حماية اجرام السعديين وتحصينهم ضد القضاء وضد من أضيروا من هذا الشعب الذى بوأهم مناصب الحكومة ليستردوا له حقوقه التى اغتصبها السعديون وداسوها بالنعال ؟

ولقد كان تضمين الحكومة مشروع القانون هذا النص صدمة للنواب الوفديين أنفسهم ، حتى ان أكثر من نائب منهم طالب بالغاء هذه المادة . ولكن سراج الدين أصر عليها . فلما رأى الضغط شديدا من جانب النواب اقترح ابدالها بنص آخر تضمن نفس المعنى بل انه كان أشد ابرازا للمعنى المرذول وهو :

« أنه لا تسمع شكوى الشاكين أمام الجهة القضائية ضد أى عمل تولته السلطة القائمة على اجراء الاحكام العرفية أو مندوبوها عملا بالسلطة المخولة لهم بمقتضى نظام الاحكام العرفية وفى حدود تلك الاحكام » .

وتكلم عدة نواب فعارضوا ذلك ، حتى ان العضو الدكتور محمد مندور ـ رحمه الله ـ استحلف النواب أن يؤيدوه فى اعطاء الحق فى مقاضاة الحاكم العسكرى وعماله اذا ثبت أنهم أساءوا استعمال السلطة التى خولت لهم .

ولكن مصيبتنا فى مصر هى أن مجالسنا النيابية التى كان مفروضا ـ كدأب البرلمانات ـ أن تكون رقيبة على الحكومة ، لا يعرف أعضاؤها مهمة لهم ألا الولاء للحكومة ، والخضوع لها ، والتزلف اليها ، وخدمة أغراضها ، والتفانى فى ارضائها مهما تعارض ارضاؤها مع مصلحة البلاد ومع حريات الشعب .. ولذا فقد نسى أعضاء هذا المجلس تعهداتهم لاهل دوائرهم الانتخابية ، ونسوا حق بلادهم ، وأعرضوا عن استحلاف زميلهم لهم ، وانطلقوا مؤيدين سيدهم وزير الداخلية .

● الوفد يستبقى الامر العسكرى بحل الاخوان :

أما المادة الثامنة من مشروع قانون الغاء الاحكام العرفية ، فانها تستبقى أو تنص على استبقا عدد من الاوامر العسكرية منها الامر العسكرى بحل الاخوان المسلمين ..

وقد نوقشت هذه المادة طويلا فى مجلس النواب ، نظرا لما فيها من تحد ظاهر لمشاعر الناخبين ، ومن حرج بالتالى لنواب هذا المجلس ..وطالب كثير من أعضاء المجلس بالغاء هذا الامر بالذات مباشرة ومن الآن.ولكن سراج الدين وزير الداخلية وعبد الفتاح الطويل وزير العدل قررا ان هذا الامر العسكرى سيستمر حتى يصدر قانون الجمعيات ـ ومما قاله سراج الدين :

« لقد كانت هذه الجماعة على صلة طيبة بنا ، ولكنا لا ندرى من الذى زج بها فى ميدان السياسة ؟ » .

ثم طلب سراج الدين اقفال باب المناقشة فى هذا الموضوع . فصدع المجلس بالامر .

ولما نظر مشروع قانون الغاء الاحكام العرفية أمام اللجنة التشريعية بمجلس الشيوخ عدلت المادة الثامنة على الوجه التالى . « استبقاء الامر العسكرى بحل الاخوان المسلمين لمدة سنة ، أو حتى يتم سن قانون الجمعيات أيهما تقدم . فاذا لم يصدر قانون الجمعيات فى خلال هذه السنة ألغى الامر العسكرى تلقائيا » .

ثالثا ـ حادث تافه ولكن ذو دلالة :

فى ٢٩ـ٣ـ١٩٥٠ وقع حادث هو فى ذاته تافه الا أن له دلالات كبيرة ، ذلك أنه أمام مسجد المنيرة بالقاهرة ـ وهو مسجد كان يؤمه كثير من الاخوان فى صلاة الجمعة ـ فبعد صلاة الجمعة فى ذلك اليوم وزعت شارات الاخوان... وقد قامت الحكومة لهذا الحادث التافه كانه جريمة نكراء ، وأمرت الحكومة باجراء تحقيق ، واعتبرت هذا التصرف مقصودا به احراج حكومة الوفد مع الاخوان .. ولا ندرى ما وجه الاحراج فى هذا مع حكومة تعهدت من قبل أنها سترد للاخوان جميع حقوقهم حين تلى مناصب الحكم ؟ !

رابعا : الاخوان يبدون استياءهم من مشروع القانون :

حين وجد الاخوان أن الحكومة مصممة على سن قانون للجمعيات طلبوا اليها فى ١٦ـ٤ـ١٩٥٠ أن تتمهل فى اصداره ، وتعرضه أولا على الهيئات والجمعيات لابداء ملاحظاتها عليه قبل عرضه على مجلس الوزراء والبرلمان . وختم الاخوان مذكرتهم التى تقدموا بها الى الحكومة بقولهم :

« وكيفما كان الامر فلن يتزحزح الاخوان عن أداء رسالتهم الكبرى كأصحاب دعوة تعمل لخير الوطن والاسلام » .

لم تستجب الحكومة لاقتراح الاخوان ، فتصدى احد جهابذة القانون لمناقشة هذا المشروع على صفحات الجرائد فنشرت « الاهرام » مقالا ضافيا للاستاذ محمد حسن العشماوى باشا ، وهو وزير معارف سابق ومن كبار رجال القانون فى مصر ، وكان عنوان المقال « حول تشريع الجمعيات » اثبت فيه أن القانون المزمع اصداره يتنافى مع الدستور ، وان التشريع المصرى فى وضعه الحالى كفيل بضمان الامن والنظام وعدم الانحراف عن النشاط المشروع ، وانه كفل بذلك الحرية كما كفل الجزاء على سوء استعمالها .

وبعد نشر هذا المقال بيومين نشر « الاهرام » الكلمة التاليه :

تلقينا كلمة من الاستاذين أحمد حسن انباقورى وكيل جمعية الاخوان المسلمين ومحمد طاهر الخشاب المحامي وعضو مكتب الارشاد بالجمعية جاء فيها مايلى :

« اذا كنا لا نملك حق الحديث عن الاخوان المسلمين لان رئيس أية هيئة هو الذى يملك الحديث عنها ، لكن هناك أمورا تدخل فى لب التفصيلات والخطط الجزئية ، وهى أشبه بالمبادىء العامة ، ويجوز لكل منتم الى تلك الهيئة أن يتناولها بالحديث ٠ ومن هذا الجانب نستطيع أن نقول : ان عودة الاخوان المسلمين حق لهم وليس منحة من أحد الناس ٠ والأخوان المسلمون موجودون فعلا ، وهم يؤدون رسالتهم الخالصة فى حدود ما يعتقدون أن فيه مصلحة لوطنهم ــ أداء كاملا لا ينقص منه عدم الاعتراف بهم من الناحية الرسمية ٠

أما قانون الجمعيات الذى تزمع الحكومة ــ كما قال معالى وزير الداخلية ــ اصداره فقد قال أحد كبار رجال القانون قوله فيه ٠ ولعل الحكومة تنصف نفسها فتعيد الى الاخوان حقهم المسلوب كاملا » ٠

خامسا : تواطؤ الاحزاب التقليدية :

كان هناك اتفاق بل تواطؤ بين جميع الاحزاب التقليدية بما فيها الحزب الوطنى على اصدار هذا التشريع القاتل للحريات ٠ فتصدت حكومة الوفد ــ ناكثة عهودها ــ لمهمة اصداره ، ووقفت الاحزاب الاخرى موقف الشيطان الاخرس لا تتكلم ولا تعترض بل تؤيد من صميم قلبها كل خطوة تخطوها الحكومة ٠ ٠ ٠

● اللجنة العليا للحزب الوطنى تشجب المشروع :

ولم يبق بعد ذلك الا القلة القليلة من الاحرار من الشباب الذى يمثله حزب مصر الفتاة والمجموعة التى يرأسها فتحى رضوان وتضم محمد زهير جرانه ومصطفى المنزلاوى والدكتور نور الدين طراف والتى اعتبرها الحزب الوطنى شاغبة عليه وأصدر هذا الحزب فى ٢٩ يناير ١٩٥٠ قرارا بفصلها ، فأعلنت عن نفسها أنها « اللجنة العليا للحزب الوطنى » وأنها صاحبة الحق فى الكلام باسم الحزب الوطنى ٠٠٠ وقد أصدرت هذه اللجنة بمناسبة تصميم الحكومة على اصدار هذا التشريع بيانا فى ٨ــ٢ــ١٩٥٠ جاء فيه :

« ولذلك ترى اللجنة ان التشريع الذى تنوى الحكومة اصداره لتحويل الامر العسكرى الرقيم ٦٣ من اجراء اقتضته ضرورات النزاع القائم بين الحكومة السابقة وجماعة الاخوان المسلمين الى قانون دائم ، هو تشريع مخالف لروح الدستور ، وأن الاحكام العرفية تعتبر باقية طالما أن هذا القانون لم يلغ ، لان المصريين لم يحسوا بوطأة الحكم العرفى فيما يخص

حملة فلسطين ، وانما أحسوا بوطأته فى حملة الحكومة ضد الاخوان المسلمين وأنصارهم ومن أخذ بشبهة الاتصال بهم أو معاونتهم ٠

ولا يفوت اللجنة أن تشير الى أن التشريع المزمع اصداره قد نص على منح وزير الداخلية حق مراقبة الاشخاص الذن كانوا معتقلين فى ظل الاحكام العرفية الملغاة ، وأن من حق هؤلاء أن يعارضوا فى قرار المراقبة أمام لجنة مكونة من رئيس محكمة ورئيس نيابة ومندوب عن قسم الرأى فى مجلس الدولة ٠

واللجنة ـ اللجنة العليا للحزب الوطنى ـ ترى أن مراقبة السياسيين هى ابتكار جديد تسبق به الدولة المصرية جميع الدول ٠ ولعل ذلك مما يصمنا فى وقت تعلو فيه الصيحة للحرية فى كل مكان ٠ وترى اللجنة أن الحكومة قد أخطأها التوفيق حتى فى اختيار الهيئة التى يعارض امامها هؤلاء التعساء الذين اعتقلوا لشبهات وظنون ، والذين يراد استمرار تعذيبهم لنفس هذه الشبهات والظنون ، فقد كان ممكنا ان يلجأوا بشكاياتهم وظلاماتهم للمحاكم العادية على اختلاف درجاتها ٠٠ فالحد من حقهم القانونى وخلق محاكم مصرية خصوصية يعيد الى الذهن ذكريات الاحتلال البريطانى القديمة ، التى لا نظن أن الحكومة تود احياءها ٠

لقد عاهدنا أنفسنا أن نخلص النصح للحكومة فى هوادة ورفق ٠ وها نحن أولاء نناشدها مناشدة المواطن لاخيه أن تعدل عن اصدار هذا التشريع ، لتلتئم جروح الماضى ، ولنسدل على مآسيه وآلامه ستارا كثيفا ، عسانا نستطيع أن نقف فى وجه ما تدبره لنا الايام من مخاطر صفا واحدا ، ملء قلوبنا الثقة بالوطن ، وبرحمة وعدل أبنائه » ٠

هذه هى مذكرة اللجنة العليا للحزب الوطنى ٠٠ أما موقف مصر الفتاة فلعل سطورا تالية ان شاء الله تجليه ٠

سادسا : مجلس الوزراء يصر ويقر مشروع القانون :

لم تعر الحكومة اقتراح الاخوان ولا نصيحة الناصحين اهتماما ٠ وفوجىء الشعب باقرار مجلس الوزراء لمشروع القانون واحالته الى مجلس النواب ٠٠ وقبل أن نعرض لما قوبل به هذا المشروع من مختلف الجهات ، نرى أن نقتطف منه البنود الهامة حتى يوازن بين هذا المشروع وبين مشروع السعديين ، وربما خرج القارىء من الموازنة بالنتيجة المؤلمة ، وهى أن المشروعين مشروع واحد ، كانت ستقدمه يد أثيمة ملطخة بالدماء والعار ، وارتضت لنفسها ان تنوب عنها فى تقديمه يد كنا نعتقد أنها تربأ بنفسها ان

تنوب عنها فى تقديمه يد كنا نعتقد انها تربأ بنفسها ان ترضى بذلك .. واليك أهم بنود هذا المشروع ثم نتبعها بالمذكرة الايضاحية له :

من مواد مشروع قانون الجمعيات لحكومة الوفد

المادة الاولى ـ يسرى هـذا القانون على الجمعيات التى تسـعى الى تحقيق اغراض اجتماعية أو دينية أو علمية أو ادبية اذا كان عدد أعضائها يزيد على عشرين شخصا طبيعيا .

المادة الثالثة ـ لا يجوز أن يشترك فى تاسيس الجمعية او ينضم الى عضويتها :

(أ) المحكوم عليهم بعقوبة جنائية (ب)المشتبه فيهم (ج)القصر .

المادة الخامسة ـ يجوز للمحافظ بقرار مسبب أن يعـارض فى انشـاء الجمعية او فروعها خلال الثلاثين يوما التالية لوصول اخطارها الى المحافظة.

المادة السادسة ـ يجب على من يناط بهم ادارة الجمعية ان يخطـروا المحافظ خلال ثلاثين يوما بكل تعديل فى النظام وبالقرار الذى يصـدر بحـل الجمعية وأسبابه ـ وفى حالة عدم توفر حكم من أحكام هذا القانون يجـوز للمحافظ أن يعارض فى التعديل بقرار مسبب خـلال ثلاثين يوما من تاريـخ الاخطار .

المادة السابعة ـ على الجمعية ان تحتفظ فى مركزها بالوثائق والاوراق والسجلات الخاصة بها والصور الفوتوغرافية للاعضاء وبمعلومات كاملة عن كل عضو ، وتدون محاضرها وحساباتها فى دفاتر مفصلة .

المادة الثامنة ـ يحظر على غير اعضاء الجمعية المقيـدة أسماؤهم فى سجلاتها أن يشتركوا فى ادارتها او فى مداولات الجمعية العمومية .

المادة التاسعة ـ لا يجوز للجمعية ان تجاوز فى نشـاطها الغرض الذى انشئت من أجله .

المادة العاشرة ـ يحظر على الجمعية ان يكون لها تشـكيلات عسكرية أو شبه عسـكرية .

المادة الحادية عشرة ـ مع عدم الاخلال باحكام المـادة ٦٦ من القانون المدنى يجوز لوزير الداخلية عند مخالفة احكام المواد ٣ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ان يطلب حل الجمعية أو فروعها او ابطال الاجراء المخالف . ويقدم الطلب الى المحكمة الابتدائية التابع لها مركز الجمعية او الفرع ويكون الحكم الصـادر منها نهائيا .

المادة الثالثة عشرة ـ عقوبات بالحبس والغرامة ٦ شهور ومائة جنيه لمن يخالف هذا القانون ٠

المادة السادسة عشرة ـ يكون لرجال الضبط القضائى فى سبيل اثبات الجرائم التى تقع بالمخالفة لاحكام هذا القانون أو القرارات المنفذة له حق الاطلاع على دفاتر الجمعية وحساباتها وأوراقها ٠

المذكرة الايضاحية للمشروع

نصت المادة ٢١ من الدستور على أن للمصريين حق تكوين الجمعيات وأن كيفية استعمال هذا الحق يبينها القانون ٠ وبناء على هذا النص فان حق المصريين فى تكوين الجمعيات أصبح مقررا فى الدستور بحيث لا يجوز المساس به ٠ وانما تكون مهمة المشرع مقصورة على تنظيم استعمال هذا الحق ومراقبة السلطة التنفيذية لاستعماله ، ضمانا لعدم تجاوز الجمعيات فى نشاطها الحد المشروع ٠

ثم قالت المذكرة : انه يبدو أن القانون المدنى بما تضمنه من أحكام خاصة بالجمعيات فى المواد من ٥٤ الى ٦٨ وفى المادة ٧٩ قد سد فراغا فى هذه الناحية ، وانما الواقع أن هذا القانون لم يعن وما كان له أن يعنى باكثر من تنظيم الجمعيات عموما من الناحية المدنية وحقوق الاعضاء قبلها ، وكيفية التصرف فى أموالها عند حلها ، وتقييد حق ملكيتها فى العقارات ، وتمتعها بالشخصية الاعتبارية بمجرد انشائها وشهرها ، وما يترتب على عدم الشهر ، وجواز ابطال القرارات التى تصدرها بالمخالفة للقانون أو لنظام الجمعية ، والجهة التى تصدر حكمها بابطال هذه القرارات ، وكذلك جواز ابطال التصرفات التى يقوم بها مديرو الجمعية متجاوزين حدود اختصاصاتهم ٠

وليس فى هذه الاحكام اى غناء عن اصدار تشريع آخر بتنظيم هذه الجمعيات من حيث خضوعها لمراقبة السلطة التنفيذيه ، ضمانا لعدم خروجها فى نشاطها عن الحد المشروع ، والاتيان بما ينطوى على اخلال بالنظام العام او الامن العام أو الآداب العامة مما يدخل فى نطاق القانون العام ٠

وتحقيقا لهذه الغاية قامت الحكومة بما وعدت به البرلمان فى دور انعقاده السابق بوضع مشروع القانون المرافق ، وضمنته أحكاما تسرى على الجمعيات التى تنظم بقوانين خاصة ٠ ويجرى العمل بمقتضاه جنبا الى جنب مع تلك القوانين الخاصة ٠

وختمت المذكرة بالقول انه من المفهوم ان احكام القانون المدنى فى شأن

الجمعيات تسرى على الجمعيات المنظمة بهذا المشروع باعتبارها احكام القانون العام فى هذا الشأن • ولتأكيد ذلك المعنى بوضوح رؤى النص فى المادة (١٧) على أنه (فيما عدا الاحكام الخاصة الواردة فى هذا القانون تسرى على الجمعيات المنصوص عليها فيه أحكام القانون المدنى) •

ومن المفهوم كذلك ان هذا المشروع لا يسرى على الجمعيات السياسية او بعبارة أخرى الاحزاب السياسية وذلك لان هذه الاحزاب لها من الاهمية والخواص ما يجعلها محلا لتنظيم خاص بتشريع يصدر مستقبلا فى المستقبل اذا رؤى لزوم ذلك ـ وهذا فضلا عن أن المصريين يمارسون حقوقهم السياسية التى خولها لهم الدستور فى حدود القوانين القائمة ، وحسبنا أن نذكر أنهم يشتركون بمالهم من تشكيلات سياسية فى حكم البلاد ، وفى توجيه سياستها عن طريق الاشتراك فى الانتخابات العامة وفى البرلمان •

سابعا : قانون الجمعيات أمام لجنتى الشئون التشريعية والداخلية بمجلس النواب

فى ١٧ـ٤ـ١٩٥٠ عرضت الحكومة مشروع هذا القانون على مجلس النواب فأحيل الى لجنتى الشئون التشريعية والداخلية •• وطلبت الحكومة مناقشته فى اليوم التالى •• فعارض بعض النواب فى هذا التعجل الذى لا داعى له •

وفى يوم ١٨ منه بدات اللجنة فى مناقشته • وكان المفروض أن لا تستغرق مناقشة مواد القانون السبع عشرة وقتا طويلا ، غير أن المعارضة التى قوبل بها القانون من فريق من الاعضاء أدت الى أن تستغرق مناقشته سبع ساعات كاملة •• وقد عقدت اللجنة اجتماعين احدهما فى الصباح والآخر فى المســاء •

● الحكومة تهدد اعضاء اللجنتين :

ولما كانت المعارضة من الشدة حتى انها دفعت ممثل الحكومة عبد الفتاح حسن بك وكيل وزارة الداخلية البرلمانى الى التهديد بان الحكومة ستضطر الى سحب مشروع القانون فى حالة رفض اللجنة له ، وتستعيض عن ذلك بحل الجمعيات بقرارات من مجلس الوزراء •

● معارضة فى المبدأ :

وقد حمل لواء المعارضة ثلاثة من أعضاء اللجنة هم الاساتذة فريد زعلوك وعوض الجندى بك ومحمود كمال ابو النصر • فقد أعلنوا فى بدء الاجتماع

أنهم يرفضون فكرة القانون من مبدئها ولا يقرونه على الاطلاق لانه يتنافى والحريات العامة • والدليل على ذلك أن القانون المدنى حدد طرق انشاء الجمعيات المختلفة وكيفية التصرف فى مواردها المالية ، كما أن قانون العقوبات نظم طرق المعاقبة على ارتكاب الجرائم •• فلا محل اذن لاستصدار تشريع جديد خاص بالجمعيات والتخوف من انشائها • وطلبوا من اللجنة أن تقرهم على طلبهم الخاص برفض نظر هدا القانون •• غير أن بقية الاعضاء لم يوافقوا على هذا الرأى •

● شروط العضوية :

وأخذت اللجنة فى مناقشة مواد القانون مادة مادة • وتوقفت طويلا عند المادة الثالثة الخاصة بشروط العضوية • واستغرقت المناقشة فيها أكثر من ساعتين كاملتين ، اذ طلب الاستاذ عوض الجندى استثناء المحكوم عليهم فى جرائم الرأى من عدم جواز اشتراكهم فى الجمعيات • غير أن الحكومة رفضت الاخذ بهذا الرأى ، وقالت ان عقوبة جريمة الرأى لا تعتبر جناية ، أما العقوبات المشددة التى تنزل بالجرائم التى يرتكبها الهدامون كالشيوعيين وأمثالهم فلا يجوز التغاضى عنها والسماح لمن صدرت ضدهم أحكام لمثل هذه الاسباب بالاشتراك فى الجمعيات •

● القصر وعدم جواز اشتراكهم :

وعارض الاستاذ فريد زعلوك فى حرمان القصر والمشتبه فيهم من الاشتراك فى الجمعيات • غير أن الحكومة خالفت هذا الرأى • وأشار ممثلها الى أن المجال متسع أمام القصر للاشتراك فى الجمعيات المدرسية وما يشابهها • وأخيرا وافقت أغلبية اللجنة على هذه المادة دون تعديل •

● حكم الحل غير نهائى :

وتمت الموافقة بعد ذلك على بقية المواد دون ادخال أى تعديل عليها ما عدا المادة الحادية عشرة التى كانت تنص على أن يكون حكم المحكمة الخاص بحل الجمعيات نافذا ونهائيا ، اذ رأت اللجنة تعديلها فنصت على أن يكون الحكم الذى تصدره المحكمة على أى جمعية حكما غير نهائى وقابلا للاستئناف •

● حق الالتجاء لمجلس الدولة :

وقررت اللجنة أيضا اضافة مادة جديدة بعد المادة السادسة نص فيها على أن اعتراض المحافظ أو المدير على انشاء الجمعية ، وكذلك اعتراضه على كل تعديل فى نظامها يمكن التظلم منه أمام مجلس الدولة •

● **الاحـزاب السياسية :**

هذا وقد اعترض الاستاذ فؤاد زعلوك على عبارة وردت فى نهاية المذكرة الايضاحية للقانون يفهم منها أن الاحـزاب السياسية ستكون محـل تنظيم خاص بتشريع سصيدر مستقبلا فى المستقبل اذا رؤى لزوم ذلك ، وطلب حذف هذه الفقرة من المذكرة فوافقت الحكومة وأقرت اللجنة على ذلك ٠

● **تسجيل راى الاقلية :**

هذا وستقوم اللجنة بوضع تقرير برأيها فى مشروع القانون اليوم فى الصباح ليعرض فى الجلسة الخاصة التى سيعقدها مجلس النواب فى مسـاء اليوم لهذا الغرض ٠

وقد اختارت اللجنة الاستاذ محمود فهمى جندية بك مقررا لرأى الآغلبية التى وافقت على المشروع ، والاستاذ فريد زعلوك ليشرح رأى الاقلية التى رفضته ٠

وكانت الحكومة ــ بعد أن حظيت من هذه اللجنة البرلمانية على ما تبتغى مستغلة فى سبيل ذلك كل ما كان متاحا لها من وسـائل ــ كانت حريصـة على عرض المشروع فى نفس اليوم على المجلس كله ٠

ثامنا : موقف الاخوان من القانون :

لم يقف الاخوان مكتوفى الايدى أمام هذا التدبير الذى قصد به قتلهم ووأد الحرية فى البلاد ٠ فقد عقدوا اجتماعا طويلا مساء ذلك اليوم ونظروا فيه فى مشروع القانون الذى يناقشه البرلمـان فى الغد على وجه الاستعجال ٠

● **رفض العودة واعداد مذكرة :**

وانتهى اجتماعهم الى قرار أعلنوا فيه رفضهم العودة فى ظل هذا القانون وأنهم يكتفـون بالـتزام مـوقفهم الحـالى ، بمعـنى أنهم مكونون فعـلا ، ولا يضيرهم أن يحرم الشعب من امتداد دعوتهم للاستفادة بخيرها ــ كما أقر الاجتماع مذكرة ناقشوا فيها المشروع وضمنوها رأيهم فيه ، وقرروا ابلاغها الى المسئولين وتوزيعها على أعضاء مجلس النواب قبل نظرهم المشروع ٠

● **نص مـذكرة الاخـوان :**

ان الاخـوان حين يبدون رأيهم فى مشروع قانون الجمعيات لا يرمـون من وراء ذلك حماية مصالحهم التى لا صلة لها بهذا القانون ٠٠ وانما يريدون

ن ينبهوا الشعب المصرى الى ما يحمله هذا المشروع من قيود فرضها على حقوق الافراد التى كفلها الدستور للمصريين فى تكوين الجمعيات ، ومن حد من نشاط هذه الجمعيات ذات الاغراض السامية ، ومن وضع لها تحت سلطان الادارة وتقلباتها الى أبعد الحدود ٠

ونريد أن يذكر نواب الامة وشيوخها الذين سيتولون مناقشة هذا القانون موقفهم المجيد فى أول الجلسة الماضية حين أريد أن يعبر القانون المجلس دون دراسة أو تمحيص ٠

وليذكروا دائما أن كل قانون رجعى لن يقتصر ضرره على جماعة من الامة دون جماعة ، بل ان مساوئه ستمتد الى جميع المصريين بما فيهم حضرات الشيوخ والنواب أنفسهم ، فان سلطان الحكم اذا كان يعفى من كثير من المتاعب مؤقتا فانه سلطان زائل ٠ أما القانون الرجعى فباق أثره السىء فى تعويق الامة عن نهضتها ٠

وانا لنتساءل أولا ٠٠ ما الداعى الى اصدار هذا القانون ؟ والقانون المدنى وما حوى من مواد تنظم الجمعيات وتراقب نشاطها كفيل بأن يحفظ لها حريتها فى حدود القانون ٠ وما نظنها بحاجة الى اضافة قيود جديدة فى صورة هذا المشروع المقدم من الحكومة أخيرا ٠

ثم نتساءل ثانيا عن المقصود بعبارة « أغراض دينية » الواردة فى المادة الاولى من المشروع ؟ ٠٠ فانها على هذا النحو لا تتفق مع الاسلام وهو دين الدولة الرسمى ، لان الاسلام من العموم فى معناه وشموله لكافة نواحى النشاط ، بحيث لا يتفق اطلاقا مع الفكرة السائدة فى الغرب من التفريق بين الدين والتربية والسياسة ٠ فان كان قصد القانون من هذه العبارة — وهو مالا يتصور غيره — هى تلك التى تدعو الى مكارم الاخلاق ، والتمسك بالفضائل فليحدد الشارع اذن هذا الغرض على اساس « الاغراض الخلقية » مثلا فيزيل اللبس ويتجنب ما قد يثور من اعتراض ٠

ونظرة خاصة الى نصوص هذا القانون تكشف عن العجلة التى صاحبت اعداده ، والرغبة فى اصداره على اى وضع ، حتى جاء مجافيا لاولويات المبادىء التشريعية ، منافيا لابسط أسس العدالة ، مهدرا للكثير من حريات الافراد وحقوقهم :

أ : الشباب احوج الى التربية :

تنص المادة الثالثة من المشروع على حرمان القصر اى الشبان من

الانضمام الى عضـوية الجمعيات ذات الغـرض الاجتماعى أو الخلـقى أو الادبى أو العلمى ٠

وهذا التحريم امر غير مفهوم وغير مقبول ، اذ أن الشباب أحوج الناس الى الانضمام لجمعيات تلك اغراضها : تربيهم وتنشر بينهم العلم ٠ وكيف تستسيغ أن يحرم على الشباب الانضمام لجمعيات تربوية وثقافية بينما يجوز لهم قانوننا الانضمام الى الاحزاب السياسية ، التى تعرضهم للفساد ، وتزج بهم فى مضمار الحزبية التى تضربهم دون أن تعود عليهم منها أية فائدة خلقية او تربوية أو علمية ٠٠ هـذا أمر غير مستساغ الا اذا كان المقصـود حماية مصالح الاحزاب دون الشباب

ولا يمكن أن يقبل الاحتجاج بأن القاصر غير مكتمل الاهلية ٠ فهـذه حجة لا صلة لها بالتربية والتثقيف عن طريق الجمعيات ، بل هو أدعى لاباحة انضمام القصر للجمعيات ٠ فضلا عن أن تشريعاتنا تحمل القصر ــ وأهليتهم غير مكتملة ــ أمانة الوظائف العامة حتى الخطير منها مثل النيابة العامة ٠

ب : ما شأن وزير الداخلية ؟

يقضى المشروع بأن وزير الداخلية هو صاحب الاشراف على الجمعيات، اذ يطلب حلها ويصدر اللوائح التنفيذية للقانون الخاص بها ٠ ولا نجد صلة الاغراض التى تسعى اليها هذه الجمعيات بوزارة الداخلية ٠٠ فـكلها أغراض اجتماعية وخلقية وعلمية وأدبية يعم نفعها المجمـوع ٠٠ فـكان من الطبيعى أن يكون الاشراف على القانون الخاص بها لوزارة تشجعها وترعى مصالحها وتتفق وأغراضها كـوزارة الشئون الاجتماعيـة ووزارة المعـارف العمومية ٠

ج : البـوليس :

اذا كان القانون قد نظم الجمعيات فى بضع مواد فقد قضى عليها فى مادة واحدة ، الا وهى المـادة السادسة عشرة ، التى تجعل لرجال البوليس حـق الاطلاع على سجلات الجمعية وكافة أوراقها لاثبات المخالفات القانونية ٠٠ فهل يمكن أن تدلنا الحكومة على الصلة بين البوليس وهذه الجمعيات ذات الاغراض السامية التى تتبع فى تحقيق اغراضها اسسا علمية ؟ ٠٠ اما كان المنطق يقضى بترك هذا الاطلاع لفنيين متخصصين ؟ أم ترى اريد أن يترك لرجال البوليس الذين يخدمون أغراضا حزبية وسياسية ؟

د :اسباب طلب حلـل :

يبدو ان الغرض الاساسى من هذا المشروع هو منح الحكومات أوسـع

سلطة ممكنة فى قتل الجمعيات بواسطة طلب حلها ـ ولا أدل على ذلك من أن المادة الحادية عشرة أعطت وزير الداخلية الحق المطلق فى طلب حل الجمعيات عند وقوع أى مخالفة للمواد ٣،٦،٧،٨،٩،١٠ من القانون ـ أى أغلب نصوصه ٠٠ مع أن طلب حل الجمعية يجب أن يراعى فيه أنه طلب خطير واستثنائى يعادل طلب الاعدام للشخص الطبيعى ٠

والمنطقى من الامر أن يقتصر طلب هذا الجزاء على المخالفات الخطيرة الجوهرية لأحكام القانون والتى تنسب الى الجمعية ذاتها ٠٠ أما المخالفات القانونية أو العرضية والتى ترجع الى الاشخاص فيكفى فيها الحكم بابطال الاجراء وتصحيح الوضع ٠

هـ : الحل بحكم نهائى :

وأريد أن أسأل أخيرا عن الداعى لجعل الحكم الذى يصدر من المحكمة الابتدائية بحل الجمعية بناء على طلب وزير الداخلية حكما نهائيا لا يجوز الطعن فيه بأى طريق من طرق الطعن فى الاحكام ٠٠ فى حين أن العقوبات الاخرى التى نص عليها القانون فى مادته الثالثة عشرة مثلا تسرى عليها القواعد فيجوز الطعن فيها بالاستئناف حتى لو لم تكن العقوبة الا بغرامة قروش معدودة ٠

فهل يرى واضع المشروع أن حل جمعية أى الحكم باعدامها أمر أهون من حكم الغرامة ٠٠ فلا يترك الباب مفتوحا أمام الجمعية للطعن فى الحكم بطرق الطعن التى قصد بها فى التشريع التامين لسلامة الاحكام ؟

و : لا حاجة بنا للقانون اطلاقا :

ان الاخوان المسلمين وان كانوا قد درسوا مشروع قانون الجمعيات وأدلوا برأيهم القانونى فيه ، فانهم لا يزالون عند رأيهم من أن أوضاعنا التشريعية ليست بحاجة اطلاقا لصدور أى قانون يضيف جديدا الى ما ضم القانون المدنى من نصوص كاملة لا تحتاج الى مزيد ٠

تاسعا : محاولة أخيرة للانقاذ :

فى ١٩ـ٤ـ١٩٥٠ نشرت الصحف بيانا عما تم فى مجلس النواب بالامس تحت العنوان التالى :

« ثلاثة آلاف متظاهر من الاخوان المسلمين أمام مجلس النواب أمس »

« فؤاد سراج الدين باشا يفند أقوال المعارضين للمشروع ـ المجلس يقر القانون » ٠

وكانت المظاهرة الاخوانية تهتف « الاسـلام دين ودنيا » « الاسـلام نظام لا يحتاج الى نظام » « الاسلام قانون لا يحتاج الى قانون » وهم يحملون المصاحف – وخطب الجموع صالح عشماوى ثم فريد عبد الخالق • ثم سمح لوفد منهم بمقابلة رئيس المجلس وتقديم مذكرة اليه ، وكان الوفد من صالح عشماوى وسعد الوليلى وفريد عبد الخالق وأمين اسماعيل •

● مناقشة فى المجلس بين أحرار قلائل وحكومة مستبدة :

وأهم ما دار فى المجلس من مناقشات فى هذا اليوم هو الآتى :

قال الاستاذ فريد زعلوك : لا حاجة قط الى هذا القانون المعروض علينا الآن ما دام القانون المدنى قد نـص فيه على تنظيم الجمعيات من النـاحية المدنية ، كما أن القانون الجنائى قد نص فيه على تنظيم الجمعيات من الناحية الجنائية • أما الجرائم السياسية فشأنها كشأن الاحـزاب السياسية التى لا تخضع لاى نوع من أنواع التنظيم أو الرقابة – وقال : ان الضمانات التى وردت فى مشروع القانون ومنها رفع الامر الى مجلس الدولة ، تشبه رجـلا نسرق نقوده ثم يقال له : اذهب الى المحكمة – فى حين أن الاصل أن لا تسرق نقـوده •

وتكلم الاستاذ عبد الحميد السنوسى فقال :

ان الهيئة التى بحثت مشروع القانون قالت فى تقريرها ان هذا المشروع مماثل لارقى التشريعات فى العالم • وقد رجعت الى القانون الانجليزى والى القانون البلجيكى وبعض القوانين الاجنبية فلم أجد فيها قانونا مماثلا أو شبيها بهـذا القـانون •• وقال : **ان مجلس الدولة قد انحـرف عن طـريق الدستور باقراره هذا التشريع •**

فقال عبد الفتاح حسن الوكيل البرلمانى : لا أذيع سرا اذا قلت ان سعادة رئيس مجلس الدولة وواضع القانون المدنى العام قد شارك فى وضع نصوص مشروع القانون المعروض عليكم •

وتكلم الاستاذ ابراهيم شكرى – مصر الفتاة – فقال :

ان هذا الاستعجال فى نظر مشروع القانون ، والظروف التى تحتم أن يصدر فى وقت معين ، قبل أن ينتهى تاريخ الامر العسكرى الذى حل جمعية الاخوان المسلمين •• **يؤيد أنه تشريـع خاص أريد به حالة خاصـة ، وهى حالة « الاخوان المسلمين » – وان هذا القانون يخـالف روح الدسـتور لانه قصد به تنظيم بوليسى للاشراف على الجمعيات •**

وقال : ان معالى وزير الداخلية واثق من أن هـذا المجلس يرى ما يراه معاليه ٠

وثار المجلس ـ كالمعتاد ـ وعد هذا الكلام اهانة له فاعتـذر ابراهيم تسكرى ٠

وانتهى الامر بموافقة البرلمان بمجلسيه على القـانون ٠٠ واستغرق الموضوع كله منذ بدء تقديم المشروع الى مجلس النواب حتى التصديق عليه من المجلسين الفترة من ١٨ـ٤ حتى ٢٥ـ٤

● تعقيب على هذا التشريع :

أوردنا هذا القانون ، وأوليناه اهتماما خاصا ، وفصلناه تفصيلا ٠ مع أنه ـ وقد أراد الذين أوحوا به وأراد الذين تحملوا اصر تمـريره بالخطوات التى جعلته قانونا ، أن يجعلوه غلا دائما فى عنق الشعب ـ أراد الله الذى بيده الامر كله أن يئده حيا ، وأن يجعل الجهد الذى بذلوه فى انجـازه كما قال فى كتابه : « وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » ٠

بعد انجاز هذا القانون ، واستوائه تشريعا فعـالا كما يقـولون ، لم يستمتع الذين أنجزوه ولا الذين أوحوا به بيوم واحد ذاقوا فيه لذة ما كانوا يأملون من لذع ظهور الشعب بسياطه ٠٠٠ فلقد تعاظمت الامـور وتفـاقمت ووجدت الحـكومة نفسها فى أمس الحـاجة الى سند يسـندها من الشعب ، فتناست هزلها الذى كانت تهزله ، وراحت تلتمس من الشعب العون والتأييد والحماية والتسديد ٠

فلم اذن كان اهتمامنا هذا الشديد بقانون لم يعمل به ، واندثر فيما اندثر من مئات القوانين ؟ ٠٠٠ لقد كان اهتمامنا لدواع منها :

أولا : الالمام بالتاريخ : وهى فترة مرت بها الدعوة ، وكانت من أعصب فتراتها ، فكان لابد من الكتابة عنها والابانة عما أحاط بها ٠٠ وهو أمر لا غنى عنه ٠

ثانيا : لفت النظر الى صفحات مطوية : فمن أخطـر الامـور أن يهمل أصحاب الدعوات النظر فى صفحات التاريخ المطوية ، وأن لا يولوا اهتمامهم الا للصفحات المنشورة ٠٠ ظنا منهم أن صفحة ما كادت تفتح حتى طويت هى صفحة عقيم ، بدليل أنها كانت عديمة الاثر فى أيامها ، فهى فى غير أيامها أشد عدما ٠٠ فى حين أن مثل هذه الصفحات لم تطو لان أحداثا أكبر منها فى أيامها طغت عليها وحجبتها ، ولكنها لا تلبث ـ وهى مستكنة ـ حين تجد

البيئة المناسبة لنموها أن تنطلق من سباتها وتكشف عن انيابها ٠

ثالثا : أن يتنبه أصحاب الدعوات الى أن لمناصب الحكم سحرها الذى لا يقاوم ، فقد يكون الرجل كريما نبيلا ، يتدفق رقة ووطنية واخلاصا ٠٠ فاذا احتل منصة الحكم صار شيئا آخر ، ونسى ما كان دعو اليه من قبل ٠

رابعا : أن يعرف دعاة الدعوة الاسلامية أن جميع القوى العاملة فى ميدان السياسة والاجتماع ـ مهما اختلفت وجهاتها ، وتباينت مناهجها ، وناصب كل منها الآخر العداء ـ تتفق جميعا وتنسى خلافاتها فى مواجهة الدعوة الاسلامية ٠

خامسا : انها لحقيقة ثابتة ، جديرة بالاعتبار والتدبر ٠٠ تلك هى « أن التاريخ يعيد نفسه » ٠ وعلى المؤمنين الكيسين الفطنين أن ينتفعوا بهذه الحقيقة ٠

وتوضيحا لهذه الدواعى الخمسة نقول :

● **الجولة الاولى لمحاولة فرض هذا التشريع الخانق :**

ليست هذه هى المرة الاولى أو بالتعبير الادق ليست هذه هى المحاولة الاولى التى حاولت فيها حكومة مصرية انشاء انقيود ، وخلق العقبات أمام تكوين الجمعيات ٠٠ فلقد بدأت هذه المحاولات وزارة الوفد التى تولت أمام الحكم فى فبراير ١٩٤٢ ٠٠ اذ وضعت هذه الحكومة مشروع قانون سمته « قانون تنظيم الجمعيات الخيرية » وعرضته على مجلس وزرائها ثم على مجلس نوابها ٠ وناقشه هذا المجلس ٠ وفى ٢٠ـ٦ـ١٩٤٤ اعتمد هذا المجلس من هذا المشروع النص التالى ٠

« تعد جمعية خيرية كل جماعة من الافراد تسعى الى تحقيق غرض من اغراض البر ، سواء أكان ذلك عن طريق المعاونة المادية أو المعنوية ٠ وتعد مؤسسة اجتماعية كل مؤسسة تنشأ بتخصيص مال لمدة غير معينة سواء أكانت هذه المؤسسة تقوم بأداء خدمة انسانية أو دينية أو علمية أو فنية أو زراعية أو رياضية أو أى غرض آخر من أغراض النفع العام دون قصد الى تحقيق ربح مادى لاعضائها ـ ويشترط فى جميع الاحوال ان لا تكون الجمعية أو المؤسسة ووسائلها فى تحقيق هذه الاغراض مخالفة للنظام او الامن العام أو الآداب العامة » ٠

واقيلت حكومة الوفد فى ٩ـ١٠ـ١٩٤٤ قبل أن يستكمل مشروع القانون خطوات اصداره ٠ وجاءت حكومة السعديين برياسة احمد ماهر الذى اغتيل فجاء من بعده النقراشى ٠٠

ومعروف أن وزاراتنا الحزبية فى مصر تاتى كل وزارة منها الى الحكم وهمها الاول أن تنقض ما بنته سابقتها ان خيرا وان شرا ٠٠ ولكن وزارة السعديين نقضت ما بناه الوفد فى وزارته الا « قانون تنظيم الجمعيات الخيرية » فانها أبقت عليه ، وتبنته ، وأخذت فى استكمال خطواته ، حتى أصدرته على نفس الاسس ، وبنفس الصياغة التى تركته بها الوزارة الوفدية وكل الذى فعلته وزارة السعديين أن عرضت على البرلمان بقية المواد التى لم تكن قد عرضت بعد ٠

ووافق برلمان السعديين على التشريع وصدر قانونا فى أبريل ١٩٤٥ ٠٠ **وكانت احدى مواده تجعل للحكومة حق حل الجمعية اذا اشتغلت بالسياسة ٠٠ وهو بيت القصيد ٠٠**

ولا شك فى أن القارىء الكريم مدرك من مجرد ما أشرنا اليه من بنود هذا القانون أنه انما كان المقصود به هيئة واحدة وجمعية معينة ٠٠ أرادوا أن يقذفوا بها بعيدا عن ميدان السياسة ، ويضعوا كل أنشطتها تحت رقابتهم ، حتى يظل ميدان السياسة دولة بينهم ، محتكرا لهم ، خاليا الا منهم ٠

ان دخول عنصر الاخوان المسلمين ميدان السياسة فى مصر كان حدثا تاريخيا ٠٠ وكان مثار غضب وفزع لدى محتكرى السياسة فى مصر من رجال الاحزاب ، وخدام المستعمر ، وعباد القصر الملكى ٠٠٠ ذلك أن هذا العنصر الجديد أراد أن يجعل للسياسة مقاييس جديدة ، وأهدافا جديدة ، ووسائل جديدة ، لا يتقبلها هؤلاء المحتكرون ولا يستطيعونها ٠٠ فهو يطالب الساسة بالشجاعة فى مواجهة الغاصب ، وبالتضحية بالمال والجهد والدم فضلا عن المناصب ٠٠ وهذه أمور لا قبل لهم بها ، وفيها قضاء على آمالهم ، ومصادرة لشهواتهم ٠

ولهذا قرر هؤلاء المحتكرون أن يتعاونوا – والحكم فى أيديهم – على حصر هذه الهيئة الناشئة فى أضيق نطاق ، وضربها ضربة تبدد شملها ، وتشغلها بنفسها ، وتقضى على أحلامها ٠٠ وانتهى تفكيرهم الى سن هذا القانون ٠

ولا يعنينا ان نعترف بان هذا القانون الذى بدأه الوفديون ، واكمل اصداره السعديون ، كان تحديا صارخا لبناء دعوة الاخوان المسلمين ٠٠ ولقد شغلنا بانفسنا فعلا عدة أشهر ٠ فلقد واجهتنا به حكومة السعديين بعد انجازه مباشرة سنة ١٩٤٥ ، وخيرتنا بمقتضاه بين ان تكون جمعية خيرية تحت اشراف وزارة الشئون الاجتماعية أو أن تكون حزبا سياسيا ٠

ووقف الاستاذ المرشد العام امام هذه المواجهة حائرا فترة من الزمن وعقدت الهيئة التاسيسية أكثر من اجتماع لاتخاذ قرار فى هذه المواجهة

الخطيرة • وكان القرار الوحيد الذى اتخذته الهيئة بعد أول دراسة للقانون هو رفض فكرة الحزب السياسى ، وفوضت الهيئة الاستاذ المرشد العام فى اتخاذ ما يراه من قرار بعد ذلك ••• واجتمع مكتب الارشاد العام عشرات المرات ، وتباحث المتخصصون فى القانون من الاخوان ، واستعان المرشد العام بالمتخصصين من غير الاخوان •• ومع ذلك ، وبعد كل هذه البحوث والاجتماعات ظل القرار الوحيد الذى أمكن اتخاذه هو قرار رفض الحزبية دون الوصول الى صيغة تخرجنا من الحيرة والحرج ••

واخيرا تفرغ الاستاذ المرشد الى نفسه ، مسترشدا بما قدم اليه من بحوث ، مستعينا بما عوده ربه من هداية وبما يسكبه فى نفسه من الهام •• وخرج علينا بعد ذلك بمشروع انتشلنا به من وهدة الحيرة ، وقادنا به الى بر الامان •• وعرض المشروع على مكتب الارشاد ثم عرض على الهيئة التاسيسية فنال الثقة الكاملة • وحمد الجميع ربهم أن وفق مرشدهم الى هذا القرار الملهم المنقذ •

● **الخطوط العريضة للقرار المنقذ :**

وينبغى للقارىء الكريم ان يعلم أن هذا القرار كان من أخطر القرارات التى اتخذها الاخوان المسلمون فى حياتهم العملية ، فكان فاصلا بين عهدين فى تاريخهم ، وكان بمثابة تجربة قاسية كان على الدعوة أن تخوضها وهى راغمة لتستبقى لنفسها حق مواصلة الحياة •• ولذا فان القرار لم يقف عند حد تعديل فى بعض مواد قانون الاخوان المسلمين ، بل تناول القانون الاساسى كله بالتغيير ، بحيث اتخذ صورة جديدة • وكان ذلك على الوجه الآتى :

١ ــ تعريف الاسلام بأنه نظام شامل لجميع شئون الحياة ، وأهدافه النهوض بكل هذه الشئون •

٢ ــ ما اختص من أهداف الاسلام بالشئون الاجتماعية تؤسس له هيئة مستقلة مركزها القاهرة تسمى « المركز العام لجمعيات البر والخدمة الاجتماعية للاخوان المسلمين » لها أعضاؤها الذين يكونون جمعيتها العمومية ولها اشتراكاتها وماليتها الخاصة بها • ولها دفاترها وحساباتها التى تخصها ــ ويقوم أعضاء جمعيتها العمومية بانتخاب مجلس الادارة الخاص بها • وتكون مسجلة فى وزارة الشئون الاجتماعية ، وتحت اشراف مندوبيها فى جميع أعمالها وتصرفاتها ــ ولهذا المركز العام أن ينشىء فروعا تابعة له فى مختلف الاحياء والبلاد ، وتكون فروعه مسجلة بوزارة الشئون الاجتماعية وتحت اشراف مندوبيها •

٣ ــ اغراض الاسلام الاخرى التى لا تدخل فى نطاق اعمال البر والخدمة الاجتماعية كنشر الدعوة الاسلامية ، وبث الروح الوطنية ، والقيام بالاعمال الاقتصادية •• تقوم بها « هيئة الاخوان المسلمين العامة » •

وبذلك تفادى الاخوان الشراك الذى نصبته الدولة لاصطيادهم ...
وقد ذهل رجال القانون الحكوميون حين تلقوا رد الاخوان .. وكانوا يعتقدون أن الاخوان سيعجزون عن الجواب الا أن يأتوا مذعنين ، فلقد أحكموا الخناق القانونى حول عنقهم فاما الاستسلام واما الاختناق وكلاهما فناء .

وكانت هذه احدى عبقريات حسن البنا التى أيأست أعداءه أن يستطيعوا النيل منه مهما أحكموا من خطط اصطياده .. ما دامت هذه الخطط فى حدود العرف والقانون ، فما كانت مشكلة يستعصى عليه حلها مهما تعاظم أمرها وتفاقم خطرها وتعقدت خيوطها وما ذلك الا بتوفيق الله تعالى له .

وكان هذا القانون محنة اجتازها الاخوان بسلام ، وتفادوا بمعونة الله وتوفيقه ما اعد لهم من مزالق ومهالك . ومنذ ذلك اليوم كنت تدخل المركز العام بالحلمية الجديدة فتجد على يمينك فى فنائه مبنى صغيرا مستقلا ، عليه لافتة كتب عليها « المركز العام لجمعيات البر والخدمة الاجتماعية للاخوان المسلمين » ولهذا المركز مجلس ادارة مستقل على رأسه الاخ الكريم الاستاذ عبد الرحمن البنا - شقيق الاستاذ المرشد العام - وتجد القانون الخاص بهذا المركز مطبوعا فى كتيب صغير مستقل ... كما أنك واجد فى كل شعبة من شعب الاخوان تقريبا فى مختلف البلاد فروعا للبر والخدمة الاجتماعية على نسق هذا المركز وتابعة له .

ولا أعتقد أن وزارة الشئون الاجتماعية تبعها فى يوم من الايام جمعيات لها عشر معشار ما كان لهذا المركز وفروعه من نشاط فى ميادين البر والخدمة الاجتماعية من انشطة صحية وثقافية ورياضية واجتماعية واصلاحية وبر واحسان .

● الجولة الثانية :

كانت هذه هى الجولة الاولى من جولات هذا النوع من الصراع . وقد رأى القارىء أنها لم تكن صراعا بين حزب معين وبين الاخوان ، بل كانت بين الباطل الحزبى كله على اختلاف أحزابه وألوانه وبين الاخوان وحدهم ، فلقد اشترك فى وضع هذا القانون حزب الوفد وحزب السعديين ومن معه من الاحزاب الاخرى ...

ثم كانت الجولة الثانية .. وكانت بتدبير نفس المدبرين الا أنها كانت نابعة هذه المرة من احط ما فى نفوسهم من خسة ونذالة ... فاذا قلنا - تجاوزا - ان الجولة الاولى كانت اشبه بالمواجهة بين خصمين ، فماذا نقول فى جولة كانت اجهازا على جريح ؟ ... هاجموا الاخوان هذه المرة وهم

يترنحون من شدة طعنات حكومة غادرة متواطئة غاشمة ، ودماؤهم تتفجر من كل جانب ، ولا يجدون من يضمد لهم الجراح ٠٠٠

ان الاعداء الشرفاء يترفعون عن شهر السلاح على عدوهم اذا وقع مثخنا بالجراح ، ولكن الاخساء يهتبلونها فرصة فيتكالبون عليه وهو فى الرمق الاخير لا يدفع عن نفسه ٠

وكانت الجولة الثانية من هذا النوع الخسيس الذى تأباه النفوس الشريفة ٠٠ أخذوا فى سن هذا القانون والاخوان ممزقون كل ممزق ، بين معتقل ومسجون ومطارد ومعذب ، وبعد أن امتدت يد الغدر والخيانة الى مرشدهم العام ٠

● **هل هناك جولات أخرى ؟**

وقد رأيت أن أتناول بشىء من الاسهاب الحديث عن هذا القانون بجولتيه ، لتتضح أمام أعين هذا الجيل والاجيال القادمة صورة حقيقية غير مزيفة لطبيعة الرجال ، وطبيعة الزعماء ، وطبيعة المجتمعات فى بلادنا ٠٠ حتى لا يتمادى بهم حسن الظن فيؤخذوا على غرة ، وحتى لا ينخدعوا بالمظاهر المصطنعة ، والخطب الرنانة ، والاحاديث المنمقة ٠٠ ألا فليعلموا أن من ورائها نفوسا لا تنطوى الا على الانانية والاثرة والغدر ٠٠ ولا هدف لها الا التسلق على أكتاف المخدوعين حتى يتسنموا قمة السلطة فيخلفوا وعودهم ويستنكروا لماضيهم ولشعبهم ولوطنهم ٠٠ وينحصر همهم بعد ذلك فى العمل على تثبيت أقدامهم فى مراكز السلطة ٠٠ ويتحول معنى الاخلاص فى نظرهم حينئذ الى مظاهر الخضوع لهم والاذعان لامرهم،ومعنى الوطنية الى التفانى فى خدمتهم والاشادة بفضلهم ، ومعنى الشجاعة الى الدفاع عن باطلهم وتبرير أخطائهم ٠٠ أما من خرج على هذا الخط الذى حددوا به معانى الاخلاص والوطنية والشجاعة ، واستنكف أن يعبد أحدا من دون الله ، فانه يعد خارجا وخائنا وارهابيا ، وتزرع أمامه الطرق بالعقبات ، وتكال له التهم ، وتلفق له العيوب ، ويلاحق بأساليب القهر والمطاردة ٠

وهذا الذى تسنم قمة السلطة ، وذاق حلاوتها ، فتشبث بأسبابها لا يريد لها فراقا ٠٠٠ أول ما يلجأ اليه فى محاربة من ارتفع على أكتافهم - ويعلم أنهم لا يقبلون بآماله الجديدة - هو أن يستغل ما تتيحه له هذه السلطة من وسائل ٠٠ وأول هذه الوسائل هى التشريعات والقوانين ، التى تجعل الحلال حراما والحرام حلالا ٠٠ وهكذا تأتى جولات وجولات ٠٠ « والله من من ورائهم محيط » ٠

الفصل الثانى

المحاكمات

مقدمة

كانت ثمرة السياسة الحاقدة الخرقاء التى انتهجتها الطغمة الحاكمة التى كانت واجهتها هى وزارات السعديين ، أن اضطربت أحوال البلاد ، وخيم عليها ظلام دامس ، لا يأمن فيه مواطن على نفسه ٠٠ وكيف يأمن والحكومة التى وظيفتها أن تحميه وتوفر له أسباب الامن رأى أنها صارت هى التى تدبر المؤامرات بل وترتكب الجرائم ٠ ٠ ٠

وأخطر من هذا وأدهى وأمر أن هذه الحكومة ـ وقد تلوثت يداها بدماء أفراد الشعب ٠٠ أضحت فريسة للوساوس والهواجس والاوهام ، فقد صور لها شعورها بجريمتها أن كل فرد يمشى فى الشارع أو يأوى الى بيت أو يدرس فى معهد او يلهو فى مقهى أو يتكلم مع أصدقائه ، خيل لها أن هؤلاء جميعا يعملون على فضح جريمتها والكشف عن مؤامرتها ٠٠ فبثت عيونها فى كل مكان يتتبعون السائرين ، ويتصنتون على المتحدثين ، ويهاجمون الآمنين ٠٠ وتفرغت بكل مقوماتها وامكاناتها لهذا الاسلوب المثير ٠

وتحولت صورة الموقف فى مصر من حكومة ترعى مصالح الشعب الى حكومة تتحدى شعبا وتقف له بالمرصاد ، تبتدع كل يوم أسلوبا جديدا لاستفزازه واثارته ٠٠ مدعية ـ زورا وبهتانا ـ أنها تحميه من الاخوان المسلمين ٠٠٠ فهل شكا اليها الشعب يوما من الاخوان المسلمين ؟ ٠٠٠ وهل الاخوان المسلمون الا أبناء هذا الشعب واخوته وأخواته وآباؤه وأمهاته وأعمامه واخواله ؟ لم يكن الاخوان المسلمون فئة محدودة تعد على الاصابع كما هو الحال فى حزب السعديين وأمثالهم حتى يقال انها عصابة تفزع الناس فى قرية من القرى أو فى حى من الاحياء ، فتقوم الحكومة بمحاصرتها حتى تقضى عليها وتوفر لهذه الجهات الامن والامان ٠

وانما الامر شىء آخر تماما ٠٠٠ الاخوان المسلمون فكرة وعقيدة سرت فى قلوب الشعب من أقصاه الى اقصاه ٠٠ دخلت كل بيت ، واستقرت فى كل نفس ، لانها فطرة الله التى فطر الناس عليها ٠ وما من مكان دخلته هذه الفكرة الا ولس اهله والمقيمون فيه من آثارها ما سرهم وأسعدهم ، من تقريب بين

النفوس ، وتثقيف للعقول ، وتصحيح للابدان ، وتطهير للقلوب ، وأخذ بيد الضعيف ... فكيف يشكو الناس من هذا الفيض الربانى الذى غمرهم فنقلهم من الظلمات الى النور ؟

لم يشك أحد من هذا الشعب المفترى عليه .. ولكن الذين شكوا هم سكان القصور فى القبة وعابدين ، ومرضى النفوس من الساسة المحترفين ، الذين رأوا فى هذه الفكرة تدمير آمالهم ، وتحطيم رفاهيتهم القائمة على استعباد الشعب ، واستغلال جهوده لانفسهم ...

لم يكن بد أمام هذا الشعب المغلوب على أمره - ممثلا فى شبابه الطاهر - الا أن تثور نفسه ازاء الاستفزاز المستمر ، فيقدم على أعمال يعلم أنها مهالك، ولكنه يقدم عليها أملا فى أن تضع حدا لهذا الاستفزاز المتوقح ، والظلم الجائر، والاستبداد الفاجر .

هى طبيعة النفوس البشرية .. لها طاقة محدودة من التحمل والصبر، فاذا زاد الضغط على حد التحمل انفجرت غير عابئة بشىء « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم ، وكان الله سميعا عليما » .

وقعت أحداث خطيرة .. كانت تعبيرا لرد الفعل لا ردا للفعل ، فان رد الفعل الذى كان يجب أن يقع - وهو كما تقول القوانين يضاد الفعل ويساويه - أن تندلع فى البلاد ثورة عاتية تقتلع الظلم والظالمين ... ولكن يبدو ان ارادة الله قدرت ان تؤجلها - كما يتضح ذلك فى ثنايا الحديث عن المحاكمات - أو لعل هذه الثورة لم تكن قد استكملت بعد كل عناصر اندلاعها ، فكانت هذه الاحداث مقدمة لها ، ونذيرا بها ، وارهاصا بقدومها ..

واذا أردنا أن نحصى هذه الاحداث ، هالتنا كثرة عددها ، ولذا فاننا نختار منها ما استطاعت أن تصل به تلك العصابة الحاكمة الى الحد الذى صورته للشعب فى صورة الاعداد للثورة عليها ، والعمل على قلب نظام الحكم، وشكلته فى هيئة قضايا خطيرة ، أمضى القضاء الجنائى فى نظرها بضع سنين ، وقامت الدنيا لها وقعدت لما أثير فيها من أسرار ومفاجآت .

ولما كنا بصدد الحديث عن المحاكمات ، فنرى علينا أولا وقبل الخوض فيها أن نعرض لقضية نسبت الى الاخوان كهيئة زورا وبهتانا ، لانها لم تكن الا عملا فرديا ، وتصرفا شخصيا ، ووحى انفعال ذاتى ، كما ينفعل اى فرد من الناس على آخر فى الطريق أو فى العمل أو فى البيت نتيجة كلمة نابية أو تصرف يمس كرامته .. فهل اذا أسفر هذا الانفعال عن ضرر يكون كل الجهة المنتسب اليها هذا الفرد مؤاخذ بآثار انفعاله ؟ ... كان هذا الانفعال

الفردى ، وما نجم عنه من تصرف شخصى بحت هو ما سمى « قضية اغتيال الخازندار » .

● **قضية اغتيال الخازندار :**

وقعت هذه الجريمة فى ٢٢ فبراير ١٩٤٨ . واتهم فيهما طالبان من المنتسبين الى الاخوان المسلمين من بين عشرات الآلاف من الطلبة المنتسبين الى الاخوان ... ولا أزال أذكر كيف وقع نبأ هذه الجريمة على الاستاذ الامام وعلينا جميعا موقع الصاعقة .. حتى ان الاستاذ - رحمه الله - تنهد طويلا وأخذ يشكو الى الله من هذا التصرف الاحمق والحماس الاعمى الذى شبهه باخلاص الدب لصاحبه ، اذ أراد أن يخلصه من مضايقة ذبابة على وجهه وهو نائم ، فأتى بحجر ضخم وألقاه على الذبابة فلم يصبها ولكنه قتل صاحبه .

تبين فيما بعد أن هذين الشابين - وكانا بعد فى الدراسة الثانوية - كانا صديقين لشابين فى مثل سنهما من الاخوان هما حسين محمد عبد السميع ومحمود نفيس حمدى ، اتهما - فى معمعان ثورة الشعب على طغيان العسكريين الانجليز وتعديهم على أفراد الشعب - بالقاء قنبلة يدوية على نادى الضباط الانجليز بالقاهرة فى ليلة عيد الميلاد من عام ١٩٤٧ ولم يصب أحد من هذه القنبلة ، ولم يقبض عليهما فى مكان الحادث بل ضبطا فى أثناء سيرهما . وبتفتيشهما وجد فى جيب الاول قنبلة لما سئل عنها قال انه وجدها فى الطريق . ولما عرضت هذه القنبلة على ضابط استكشاف القنابل قدم تقريرا بأنها ليست من النوع الذى ألقى فى تلك الليلة .. وقد قدم هذان الشابان الى محكمة الجنايات برياسة المستشار أحمد الخازندار بك فأصدرت حكمها فى ١٨ يناير ١٩٤٨ بحبس حسين عبد السميع ثلاث سنوات مع الشغل وغرامة مائة جنيه - وقد سبق أن أشرنا الى هذه الحادثة فى موضعها فى الجزء الاول من هذا الكتاب .

وفى خلال ذلك العام نفسه عام ١٩٤٧ كانت هناك أمام القضاء قضية هامة لجريمة بشعة مروعة وقعت فى الاسكندرية وقد هزت أرجاء البلاد ،سميت بجريمة سفاح الاسكندرية وكان يدعى حسن قناوى . وقد راح ضحية هذه الجريمة أكثر من قتيل . وكانت دوافع ارتكاب جرائم القتل هذه دوافع جنسية قذرة .. وكانت تفاصيل هذه القضية وما دار فى جلساتها من شهادات مما يزكم الانوف ، ويؤذى المشاعر ، من بهيمية منحطة ووحشية مرعبة .. وكان ما تنقله الصحف مما يدور فى جلسات هذه القضية يثير الذعر والاشمئزاز فى نفس كل مصرى ومصرية .. وتمنى الشعب كله ان لو استطاع

القضاء أن يخلص الانسانية من هذا الوحش الكاسر الدنىء ٠٠ وطالب الاستاذ أنور حبيب وكيل النيابة فى مرافعته برقبة المتهم فجاء طلبه مترجما لشعور الناس جميعا فى أنحاء البلاد ٠

ولكن الحكم الذى أصدرته محكمة الجنايات برياسة أحمد الخازندار بك كان صدمة لشاعر الناس ، فقد أصدرت المحكمة فى ١٢ مارس ١٩٤٧ حكمها على سفاح الاسكندرية بسبع سنوات من الاشغال الشاقة ، تلقاها المتهم ــ كما جاء بالصحف فى ذلك الوقت ــ بالابتسام بعد أن كان واجما ٠

تبين أن هذين الشابين حنقا على رئيس المحكمة أن لا يراعى فى حكمه الدوافع الوطنية النبيلة فى القضية الاولى ، وأن يساوى بينها وبين الدوافع القذرة الاثيمة فى القضية الثانية ، فأقدما على ما أقدما عليه ٠

كانت هذه الجريمة فى ذاتها ــ مع كل ما قيل فيها من اعتبارات وظروف ــ جريمة شائنة ، ولكنها بالنسبة للاخوان المسلمين ــ وهم متقيدون بالمثل الاسلامية العليا ــ كانت صدمة قاسية ، وكارثة أليمة ٠٠٠ وما كان الاخوان فى ذلك الوقت يملكون ازاءها أكثر من أن يعلنوا استنكارهم أشد استنكار ، وتبرؤهم منها ومن مرتكبيها ٠

ومع أن محاكمة الشابين أثبتت أنهما لم يستوحيا اقدامهما على الجريمة من أية جهة غير تصورهما الشخصى ، ومع أن الفحص الطبى أثبت أن بهما لوثة من الجنون ، وأصدرت المحكمة بناء على ذلك حكمها عليهما بالاشغال الشاقة المؤبدة دون الاعدام ٠٠٠ مع كل هذا فان هذه الجريمة تركت أثرها فى نفوس الرأى العام بأن كل ذلك لم يكن كافيا لابراء ذمة دعوة هى فى نظر الناس أطهر من ماء السماء ٠٠٠ وليس معنى هذا أن الرأى العام قد وصم الاخوان بهذه الجريمة ، أو اعتقد أن لهم فيها يدا ، وانما كان يتمنى أن لا يكون مرتكبا هذه الجريمة قد انتسبا الى هذه الدعوة فى يوم من الايام٠٠ وكما أن هذا الشعور كان شعور الرأى العام فانه أيضا كان شعور الاخوان أنفسهم لا سيما الاستاذ الامام ، الذى دفعه هذا الشعور الى اعداد العدة لاعادة النظر فى صفوف المنتسبين الى الدعوة ٠٠٠ ولولا معاجلة الاحداث له لنفذ الخطة التى أعدها لذلك ، وان كان المسئولون عن الدعوة من بعده قد وضعوا خطته هذه موضع التنفيذ ٠٠ مما يأتى بيانه فى فصول قادمة ان شاء الله ٠

هذا بيان موجز غاية الايجاز عن هذه القضية كان لابد من تقديمه قبل الحديث عن موضوع هذا الفصل ــ فان هذه القضية ــ وان لم تكن من قضايا

الاخوان ــ الا أنها كانت من ابعد القضايا أثرا فى دعوة الاخوان المسلمين بحيث انجهت بها اتجاها خاصا ، وشكلتها بتشكيل معين ٠

● **أهم القضايا المسماة بقضايا الاخوان :**

ثم نرجع الى ما كنا بصدده مما تمخضت عنه جهود حكومة عبد الهادى، اذ تمخضت عن عدد وافر من القضايا أهمها هذه الخمس :

١ ــ قضية اغتيال النقراشى ٠

٢ ــ قضية محاولة نسف محكمة الاستئناف ٠

٣ ــ قضية السيارة الجيب ٠

٤ ــ قضية محاولة اغتيال حامد جوده (رئيس مجلس النواب) ٠

٥ ــ قضية الاوكار ٠

وكل هذه القضايا وقعت أحداثها فى عهد عبد الهادى ماعدا قضية السيارة الجيب فقد وقعت أحداثها فى عهد النقراشى ٠٠ وقد تعارف الناس كما تعارفت الصحافة على تسمية هذه القضايا الخمس بقضايا الاخوان ٠٠ وقد استغرق نظر هذه القضايا الفترة الزمنية ما بين أيام عبد الهادى سنة ١٩٤٩ حتى بعد قيام الثورة الى عام ١٩٥٤ حيث لم يكن القضاء قد أنهى بعد نظر قضيتى حامد جوده والاوكار ــ أما القضايا الثلاث الاخرى فقد صدر حكم قضائى عسكرى فى اثنين منها وهما قضية اغتيال النقراشى وقضية محاولة نسف محكمة الاستئناف فى عهد وزارة عبد الهادى ٠٠ أما القضية الباقية وهى قضية السيارة الجيب فقد نقلت من القضاء العسكرى بعد أن نظرها حينا الى القضاء العادى حيث ألغيت الاحكام العرفية ، وأصدر القضاء حكمه فيها فى عهد وزارة الوفد سنة ١٩٥١ ٠

وفى معالجتنا لموضوع المحاكمات لن نقصد الى تناول هذه القضايا تناولا موضوعيا مفصلا ، وانما سوف نقتصر فى هذا التناول على النواحى الشكلية منها ٠٠ تلك النواحى التى جعلت من هذه القضايا بدلا من أن تكون محاكمة لافراد على تهم وجهت اليهم ٠٠ جعلت منها محاكمة تاريخية لعهد ، ولاسلوب حكم ، ولفترة مظلمة من حياة هذه البلاد ٠

ولهذا فقد حشدت حكومات ذلك العهد كل ما تملك من قوة ومال وسلطة وبطش ، وفرغت المسئولين فيها فى جميع المواقع لجمع العناصر التى لا بد من جمعها لخلق هذه القضايا وتكوينها ٠٠ وكانت غايتها من وراء ذلك أن تجد بين

يديها آخر الامر من أحكام القضاء ما يدفع الاخوان المسلمين بالجريمة ، فيكون هذا الدفع القضائى مبررا لما اتخذته ضدهم من اجراءات انتقامية شاذة فاجرة ·· ويكون فى هذا الاجهاز التام على الجريح المثخن بالجراح ولكنه لا يزال يغالب الموت ·

ومع أن معالجتنا لهذه المحاكمات هى على النحو الذى بيناه ، فاننا مطالبون مع ذلك بأن نضع بين يدى القارىء فكرة موجزة عن كل واحدة من هذه القضايا حتى يساير الحديث الذى نسوقه بعد ذلك فيما يتصل بها ان شاء الله ·

نبذة موجزة عن هذه القضايا

١ ـ قضية اغتيال النقراشى :

وقعت هذه الجريمة فى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ ، وقبض فيها على الجانى عبد المجيد أحمد حسن الطالب بكلية الطب البيطرى ··· وحسب هذه القضية ما كتبناه فى الفصول الاولى من هذا الجزء من الكتاب ، فقد أطلنا الحديث فيها عن ظروف هذه الجريمة وأسبابها ودواعيها وعن المسئول الحقيقى عن وقوعها ـ كما أشرنا الى « بيان للناس » الذى أخذوه من الاستاذ الامام بدعوى أنه وسيلة لتحسين العلاقات بين الاخوان والحكومة ، ولكنهم استعملوه لزلزلة عقيدة المتهم فى هذه القضية ·· وقد تزلزلت عقيدته فعلا فبعد أن اعترف بأنه أقدم على هذه الجريمة من تلقاء نفسه تراجع وأخذ يتهم آخرين بالتأثير عليه ·

● قرار الاتهام :

وكان محمود منصور بك فى ذلك الوقت هو النائب العام ، وكان من المتفانين فى خدمة أغراض الطغمة الحاكمة ، حتى انه كان يريد ضم جميع قضايا الاخوان فى قضية واحدة ، وتقديمها الى القضاء العسكرى ·· ولكن نظرا لطول التحقيق وكثرة عدد المتهمين ، مما يحتاج الى وقت طويل فى النسخ والاطلاع والاستعداد ، فقد رأوا أن الوقت لا يتسع لنظر هذه القضية فى العام القضائى الحالى الذى ينتهى فى منتصف يونيه ـ وان كان هذا لا يمنع من نظرها خلال العطلة ، على اعتبار أن القضايا العسكرية من القضايا التى تنظر على وجه الاستعجال ، فلا تحول العطلة القضائية دون نظرها ـ ولكن رئى اخيرا ـ لتعذر تنفيذ هذه الخطة ـ العدول عنها ·

واكتفى النائب العام بعد ذلك بضم بعض المتهمين فى قضية السيارة الجيب وقضية حامد جوده الى المتهمين فى قضية اغتيال النقراشى ، ووضع تقرير الاتهام فى هذه القضـية فى ٨ مايو ١٩٤٩ ، وجعـل المتهمين فيها ٢٤ متهما ، منهم خمسة متهمون بالاشتراك فى قتل النقراشى ، والتسعة عشر الباقون متهمون بالاتفاق الجنائى مع الخمسة للاستيلاء على الحكم بالقوة ٠ وأصدر قرار الاتهام على الصورة الآتية :

١ ـ عبد المجيد أحمد حسن سن ٢٢ سنة
طالب بكلية الطب البيطرى بسجن الاجانب

٢ ـ السيد فايز عبد المطلب سن ٢٩ سنة
مهندس ومقاول مبانى بسجن مصر

٣ ـ محمد مالك يوسف محمد مالك ـ موظف بمطار القاهرة هارب

٤ ـ عاطف عطية حلمى سن ٢٥ سنة
طالب بكلية الطب بسجن مصر

٥ ـ سيد سابق محمد التهامى سن ٢٤ سنة
مقرىء دلائل بسجن مصر

٦ ـ أحمد عادل كمال سن ٢٣ سنة
موظف بالبنك الاهلى بسجن مصر

٧ ـ طاهر عماد الدين سن ٢٥ سنة
مهندس بشركة كوكينوس بسجن مصر

٨ ـ ابراهيم محمود على سن ٣٠ سنة ترزى بسجن مصر

٩ ـ مصطفى كمال عبد المجيد أيوب سن ٢٦ سنة
ميكانيكى بسجن الاجانب

١٠ـ مصطفى مشهور مشهور سن ٢٧ سنة
مهندس بالارصاد الجوية بسجن مصر

١١ـ محمود السيد خليل الصباغ سن ٢٨ سنة
مهندس بالارصاد الجوية بسجن مصر

١٢ـ أحمد زكى حسن سن ٢٥ سنة
مدرس بمدرسة الجيزة الابتدائية بسجن مصر

١٣ـ أحمد محمد حسنين ٢٨ سنة
مراقب حسابات شركة المعادن بسجن مصر

١٤ـ محمد فرغلى النخيلى سن ٢٩ سنة
تاجـر معادن بسجن مصر

١٥- عبد الرحمن على فراج السندى سن ٣٢ سنة
موظف بوزارة الزراعة بسجن مصر

١٦- محمد حسنى أحمد عبد الباقى سن ٣٣ سنة
عضو مجلس مديرية الجيزة بسجن مصر

١٧- أحمد قدرى البهى الحارتى سن ٢١ سنة
مهندس بمصلحة الطيران المدنى بسجن مصر

١٨- محمد بكر سليمان سن ٢٦ سنة
نساج بشركة النيل للمنسوجات بسجن مصر

١٩- أسعد السيد أحمد سن ٢٦ سنة
ميكانيكى بسجن مصر

٢٠- محمد سعد الدين السنانيرى سن ٢٨ سنة
مقاول نقل بسجن مصر

٢١- على محمد حسنين سن ٢٧ سنة
قوموسيونجى بسجن مصر

٢٢- سعد محمد جبر سن ٢٨ سنة
مهندس لاسلكى بسجن مصر

٢٣- محمد محمد فرغلى سن ٤٢ سنة
واعظ الاسماعيلية بسجن مصر

٢٤- محمد ابراهيم سويلم سن ٢٢ سنة
فلاح بسجن مصر

الاول متهم بقتل النقراشى باشا والاربعة التالون اشتركوا معه بطريق الاتفاق والتحريض والمساعدة ، والجميع حتى ٢٤ متهمون بالاشتراك فى اتفاق جنائى الغرض منه ارتكاب الجنايات والجنح المذكورة بعد ، واتخاذها وسائل للوصول الى الاستيلاء على الحكم بالقوة ٠ واتحدت ارادتهم على الاعمال المسهلة والمجهزة لارتكابها ٠٠ وهذه الجرائم هى :

١ - قلب وتغيير دستور الدولة وشكل الحكومة بواسطة عصابات مسلحة ٠٠ المادتين ٨٧ ، ٨٨ عقوبات ٠

٢ - اتلاف سيارات وأسلحة الجيش المصرى المعدة للدفاع عن البلاد ، الامر المنطبق عليه المادة ٨١ عقوبات ٠

٣ - تخريب المنشآت الحكومية وأقسام ومراكز البوليس ومحطات الاضاءة والمياه وغيرها - المادة ٩٠ عقوبات ٠

٤ ــ قتل عدد كبير من المصريين والاجانب المبينة اسماؤهم بالكشف المرفق عمدا مع سبق الاصرار والترصد ، مما ينطبق عليـه المـواد ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ عقوبات ٠

٥ ــ تعريض أموال الناس وحياتهم عمدا للخطر باستعمال القنابل والمفرقعات في عدد من السفارات والقنصليات الاجنبية وغيرها من الاماكن العامة والخاصة المأهولة بالسكان والمبينة بالكشف ــ المـادة ٢٥٨ عقوبات

٦ ــ تعطيل وسائل النقل العامه بنسف قطارات السكة الحـديديه وجسورها وخطوطها ونسف الطرق والكبارى العامة وسيارات الاوتوبيس، وتعطيل القوى الكهربائية المولدة لحركة الترام ــ المادة ١٦٧ عقوبات ٠

٧ ــ اتلاف الخطوط التلغرافية والتليفونية الحكومية عمـدا فى زمن فتنة ، بقطع اسلاكها وقوائمها ونسـف أدواتها ــ المـادتين ١٦٥ ، ١٦٦ عقوبات ٠

٨ ــ سرقة البنك الاهلى وبعض المحال التجارية بطريق الاكـراه ، باقتحامها بأشخاص مسلحين ٠

٩ ــ اتلاف مبانى شركة قنال السويس ٠

١٠ ــ قتل خيول البوليس عمدا ٠

١١ ــ اقامة واستعمال محطات اذاعة سرية ٠

ثم طلبت النيابة بناء على مواد الاحكام العرفية احالة القضية الى المحكمة العسكرية ٠

● **قائمـة الشهود :**

طائفة للشهادة فى حادث قتل النقراشى باشا ، والطائفة الثانية عن حادث ضبط السيارة الجيب ٠ والثالثة عن ضبط حافظة جلدية مع المتهم مصطفى مشهور وبها باقى أوراق الجماعة ، والرابعـة عن ضـبط محطـة الاذاعة ، والخامسة عن ضبط اسلحة ومفرقعات فى دكان السنانيرى بمصـر القديمة ، والسادسة عن ضبط اسلحة ومفرقعات وأوراق الجماعة الارهابية فى مزرعة الشيخ محمد محمد فرغلى بالاسماعيلية ٠

كما وجدت اوراق لتكوين جماعة لغرض التجسس على جميع الاحزاب السياسيـة وغيرها من الهيئات كالبوليس السياسى ونقابات العمال وحزب العمال الاشتراكى ٠

وقد بلغت ملفات التحقيق الفى صفحة • وتولى التحقيق فيها محمود منصور باشا – الذى استحق أن ينعم عليه بالباشوية – ومعه كبار رجال النيابة – وتنظر القضية فى دورة يوليو ويترافع فيها محمود منصور باشا بنفسه •

ومعذرة الى القارىء ، فقد أتعبت نفسى بنقل كل هذه البنود ، ولابد أنه قد أرهق أيضا بقراءتها ، ولكنى تحملت واياه هذه المشقة مرة واحدة ، لاعفيه من قراءتها مرات بعدد القضايا • فان هذه البنود التى تفتق عنها ذهن موظف النيابة الذى وكل اليه أمر اختراعها هى التى تضمنتها قرارات الاتهام فى جميع القضايا •• ولقد كان مؤسفا ، وسنة سيئة ، اقتفت أثرها الحكومات التى جاءت بعد ذلك حين أرادت أن تنكل بخصومها السياسيين•

وأحيلت هذه القضية الى القضاء العسكرى أمام دائرة عسكرية عليا برياسة محمد مختار عبد الله بك وعضوية غالب عطية بك ومحمد عبد العزيز كامل بك واثنين من العسكريين ، ومثل النيابة الاستاذ محمد عبد السلام•

طلب رد رئيس المحكمة :

وقد تقدم المتهمان السابع السيد فايز والخامس عشر محمد نـــايل طالبين رد رئيس المحكمة •• فتنحى مؤقتا ونظر أسباب الرد العضــوان الاخران فى حجرة المداولة • وبعد ساعتين نطقت الهيئة برفض طلب الرد •

وأخذ الدفاع على رئيس المحكمة أنه قام بدور قاضى التحقيق فى هذه القضية مما يبطل هذا التحقيق ، ولكنه رفض رأى الدفاع وأصر على مواصلة نظر القضية •• وكان لهذا الرجل مواقف غريبة فى أثناء نظر هذه القضية سنشير اليها فى موضعها ان شاء الله •

وقد استمعت المحكمة فيمن استمعت اليهم من الشهود الى عبـــد الرحمن عمار •• وقد ناقشة الدفاع فى مذكرة الحل التى كان قد أعدها •• والقى مرافعة النيابة محمد عزمى بك النائب العام فى ذلك الوقت ، حيث سقطت فى خلال هذه الفترة فجاة وزارة عبد الهادى ، فلم يعد لمحمود منصور مكان فى الحكومة الجديدة التى أرادت أن تظهر للشعب بمظهر المطهر •

وبدأت جلسات هذه القضية فى ٢٧–٨–١٩٤٩ وكانت آخر جلساتها فى ٢٥–٩–١٩٤٩ • ومعنى هذا أنها لم تستغرق الا أقل من شهر • وصدر الحكم فيها فى ٩–١٠–١٩٤٩ باعدام المتهم الاول وبأحكام دون ذلك لبقية المتهمين ومنها البراءة لبعضهم •

٢ ــ قضية محاولة نسف محكمة الاستئناف :

وهى تعتبر ملحقة بالقضية السابقة لانها مرتبطة بها فى ظروفها ودواعيها التى وضحناها من قبل . وقد وقعت هذه المحاولة فى ١٢ــ١ــ١٩٤٩ والمتهم فيها هو شفيق ابراهيم أنس سنه ٢٢ سنة يعمل موظفا فى ارشيف وزارة الزراعة .. وقد أراد أن ينسف المحكمة انتقاما لما كان يجرى بين جدرانها من تزييف وتلفيق واكراه وتعذيب لاخوانه .. على أن احدا لم يصب والحمد لله .

وقد نظرت هذه القضية امام نفس المحكمة التى نظرت قضية اغتيال النقراشى . وكان ممثل الاتهام فيها هو محمد كامل القاويش .. ولم تستغرق المحاكمة الا اياما قليلة صدر بعدها الحكم على المتهم بالاشغال الشاقة المؤبدة .

٣ ــ قضية السيارة الجيب :

فى يوم ٢١ــ١١ــ١٩٤٨ نشرت الصحف نبا أذاعته وزارة الداخلية يقول : انه قد تم ضبط سيارة جيب بها كميات كبيرة جدا من المتفجرات الخطرة والاوراق فى دائرة قسم الوايلى أمام أحد المنازل . وتبين أن راكبى السيارة الذين جروا وقبض عليهم من جماعة الاخوان المسلمين .

وفى ٢٥ــ٩ــ١٩٤٩ وضع النائب العام محمد عزمى بك تقرير الاتهام فى هذه القضية ، فقدم ٣٢ متهما بتهمة الاتفاق الجنائى على قلب نظام الحكم ــ ولا داعى لإعادة اثبات البنود الاحد عشر التى دأبت النيابة على رصها رصا فى هذه القضايا أمام القضاء ــ أما المتهمون فهم :

١ ــ عبد الرحمن على السندى	٣٢ سنة	موظف بوزارة الزراعة
٢ ــ مصطفى مشهور	٢٧ سنة	مهندس بالارصاد الجوية
٣ ــ محمود الصباغ	٢٨ سنة	مهندس بالارصاد الجوية
٤ ــ احمد زكى حسن	٢٥ سنة	مدرس ابتدائى
٥ ــ احمد محمد حسنين	٢٨ سنة	مراقب حسابات شركة المعادن
٦ ــ محمد فرغلى النخيلى	٢٩ سنة	تاجر معادن
٧ ــ احمد قدرى الحارتى	٢١ سنة	مهندس بالطيران المدنى
ــ محمد حسنى عبد الباقى	٣٣ سنة	عضو مجلس مديرية الجيزة
٩ ــ احمد متولى حجازى	٢٩ سنة	تاجر راديو
١٠ــ السيد فايز عبد المطلب	٢٩ سنة	مهندس ومقاول مبانى

١١- احمد عادل كمال	٢٣ سنة	موظف بالبنك الاهلى
١٢- طاهر عماد الدين	٢٥ سنة	مهندس
١٣- ابراهيم محمود على	٣٠ سنة	ترزى
١٤- دكتور أحمد الملط	٣٢ سنة	طبيب بوزارة الصحة
١٥- جمال الدين فوزى	٣٩ سنة	موظف بالبريد
١٦- محمود حلمى فرغلى	٢٧ سنة	موظف بالداخلية
١٧- محمد احمد على	٢٥ سنة	موظف بالاشغال
١٨- عبد الرحمن عثمان	٢٢ سنة	طالب حقوق
١٩- السيد اسماعيل شلبى	٤٤ سنة	تاجر
٢٠- أسعد السيد أحمد	٢٦ سنة	ميكانيكى
٢١- محمد بكر سليمان	٢٦ سنة	نساج
٢٢- صلاح الدين عبد المتعال	١٨ سنة	طالب ثانوى
٢٣ - جمال الدين الشامى	٢٦ سنة	مهندس رى
٢٤- جلال الدين ياسين	٢٤ سنة	موظف وطالب بالتجارة
٢٥- محمد الطاهر حجازى	٢٤ سنة	طالب بالزراعة
٢٦- عبد العزيز البقلى	٢٤ سنة	ترزى
٢٧- كمال القزاز	٢٧ سنة	نجار
٢٨ محمد سعد الدين السنانيرى	٢٧ سنة	مقاول نقل
٢٩- على حسنين الحريرى	٢٧ سنة	قوموسيونجى
٣٠- محمد محمد فرغلى	٤٢ سنة	واعظ بالاسماعيلية
٣١- محمد ابراهيم سويلم	٢٢ سنة	فلاح بالاسماعيلية
٣٢- سليمان مصطفى عيسى	٢٣ سنة	فلاح بالاسماعيلية

وجاء فى ملاحظات النيابة على هذه القضية وجود رسم خارة اليهود ورسم للسفارتين الامريكية والبريطانية وتقرير عن حسن رفعت باشا (يبدو أنه كان الاستاذ الاعظم للماسونية فى ذلك الوقت) ومحل اقامته والاشخاص الذين يترددون عليه والامكنة التى يتردد هو عليها ، وتقرير عن نسف مصنع النيل للمنسوجات بشبرا ٠٠ وقد قرر المتهم محمد بكر سليمان أنه حرر هذه الاوراق بخطه ، وزعم أنه حررها من نسج الخيال لتحسين خطه ٠

والملحوظة الاخيرة هى انه ضبط فى دار المركز العام للاخوان المسلمين مشروع اعترف المتهم سليمان مصطفى عيسى بانه حرره ، وجاء فيه أنه يقترح أن يكون هذا النظام جمهوريا اشتراكيا ، وأن ينتخب رئيس الجمهورية لمدى الحياة .

وقد احيلت القضية الى دائرة جنائية عسكرية عليا . ولما رفعت الاحكام العرفية أحيلت الى دائرة جنايات عادية برياسة أحمد كامل بك وعضوية محمد عبد اللطيف بك وزكى شرف بك . ومثل النيابة محمد عبد السلام بك .. وعقدت هذه المحكمة لنظر هذه القضية جلسات متوالية . وكانت أول جلسة لنظرها فى هذه الدائرة يوم ٢-١٢-١٩٥٠ .

وقد استدعت المحكمة بناء على طلب الدفاع فى هذه القضية ابراهيم عبد الهادى واستجوبته باعتباره شاهدا ، كما استدعت كثيرين من كبار رجال الدولة وقواد الجيش ومن كبار رجالات العرب .

وفى أثناء نظر هذه القضية قام الاستاذ شمس الدين الشناوى - أحد أفراد هيئة الدفاع - بتقديم الوثيقة التى أشرنا اليها فى فصل سابق ، فكانت مفاجأة اهتزت لها الاوساط البريطانية والدوائر السياسية ... وفى أثناء نظر هذه القضية تكشفت أسرار كثيرة داخلية وخارجية .

وكانت آخر جلسة لهذه القضية فى ٢٦-٢-١٩٥١ . وتقرر النطق بالحكم يوم ١٧ مارس ١٩٥١ ، وبذلك يكون نظر هذه القضية قد استغرق أمام هذه الدائرة نحو ثلاثة أشهر ونصف شهر .

وكان للحكم الذى أصدرته هذه المحكمة فى هذه القضية ، ولحيثيات هذا الحكم ، دوى كبير فى الاوساط القانونية والاوساط السياسية فى مصر وفى خارج مصر .

٤ - قضية محاولة الاعتداء على حامد جوده :

رؤى فى أول الامر نظر هذه القضية وحدها . ونظرت عدة جلسات منها فعلا أمام محكمة عسكرية عليا - ولم يكن المقصود من هذا الحادث الذى وقع فى ٦ مايو ١٩٤٩ هو حامد جودة ، بل كان المقصود هو ابراهيم عبد الهادى ، ولكن هذا تخلف عن موعده ، ومر حامد جوده فالقيت على سيارته قنبلة وهو يمر عند جامع عمرو ، ولكنها لم تصبه .

وقدمت النيابة عشرة متهمين فى هذه القضية الى القضاء العسكرى وهم:

١ - مصطفى كمال عبد المجيد (ميكانيكى)

٢ ــ محمد نجيب جويفل (طالب)
٣ ــ عبد الفتاح ثروت (راصد جوى)
٤ ــ فتحى محمد عــلام (طالب)
٥ ــ سمير جــلال شهبندر
٦ ــ مصطفى محمد الجــابرى
٧ ــ عبد الكريم محمد السيد (عامل)
٨ ــ محمد شحاته عبد الجواد (طباع)
٩ ــ سعيد جلال شهبندر (طالب)
١٠ــ على صديق السيد فراج (طالب)

والمحكمة العسكرية العليا التى نظرت هذه القضية فى أول الامر كانت برياسة رياض رزق الله بك وعضوية عبــده المليجى بك وقطب عمــر بــك واثنين من العسكريين ٠٠ ثم أحيلت الى دائرة عسكرية أخرى برياسة مرسى فرحات بك وعضوية محمود صبرى بك وعبد الرحمن جنينة بك واثنين من العسكريين ٠

وقد ظلت هذه القضية تنظر أمام هذه الهيئة حتى جاءت وزارة الوفد وأسندت وزارة التموين الى مرسى فرحات بك فاجلت جلساتها ٠ ولما رفعت الاحكام العرفية أحيلت الى دائرة جنائية غير عسكرية برياســة حســين طنطاوى بك ٠٠ وفى الجلسة الرابعة لهذه الدائرة وافقت المحكمة على ضم هذه القضية الى قضية الاوكار واعتبارهما قضية واحدة ٠٠ وسمعت هــذه الدائرة الاستاذ حامد جوده باعتباره شاهدا ٠

وفى أثناء نظر هذه القضية أمام المحكمة العســكرية الثــانية وافقت المحكمة على طلب للدفاع بضم ملف قضية اغتيال الاستاذ الامام حسن البنا، فكان هذا هو أول تحريك لهذه القضية ٠

٥ ــ قضــية الأوكار :

هى قضية حشروا فيها كل من أرادوا حشره من الاخوان ــ الخطرين فى نظــرهم ــ وأسندوا اليهم تهما باتخــاذهم أوكارا جمعــوا فيها أســلحة وذخائر ومحطات اذاعة لقلب نظام الحكم ٠٠ وقد ضمت هذه القضية أكبر عدد من المتهمين حيث بلغ عددهم خمسين متهما وهم العشــرة المتهمون فى قضية حامد جوده ، مضافا اليهم من يأتى :

١١ ـ حلمى محمد الفيومى
١٢ ـ حسـين حامـد عوده
١٣ ـ محمد محمود دعبس
١٤ ـ فؤاد أحمـد الصـادق
١٥ ـ عبد الفتاح اسماعيل علم الدين
١٦ ـ دسـوقى ابراهيم ضيف
١٧ ـ محمد عبد الحكيم عبد العليم
١٨ ـ صـلاح الدين أحمد عـلى ٠
١٩ ـ ابراهيم عامـر محمـد
٢٠ ـ محمـد حلمى الكاشـف
٢١ ـ اسماعيـل عـلى السيد
٢٢ ـ جمـال الدين عطية محمـد
٢٣ ـ وائل محمـد زكى شـاهين
٢٤ ـ مختار حسـين ابراهيم
٢٥ ـ محمـود على حطيبة
٢٦ ـ حسن أحمـد يوسـف
٢٧ ـ يوسـف عبد المعطى شرك
٢٨ ـ ابراهيم أحمـد محـرم
٢٩ ـ محمـد طه عبد النبى
٣٠ ـ عبد الفتاح محمـد شـوقى
٣١ ـ أحمـد على يوسـف
٣٢ ـ كمال عبـد المجيـد مرسى
٣٣ ـ حسن يوسـف طويلة
٣٤ ـ مصـطفى أمين البطاوى
٣٥ ـ محمـد جـلال ابراهيم سـعده
٣٦ ـ صـالح محمـد محمـد انجنايفى
٣٧ ـ يحيى أمين البطاوى
٣٨ ـ مصطفى محمد محمود البساطى

٣٩ ــ سـعد محمد جبر التميمى

٤٠ ــ محمـد عبـد العزيز على خالد

٤١ ــ محمـد عبـد المتعال محمـد مـدنى

٤٢ ــ محمـــد نايل محمود ابراهيم

٤٣ ــ محمود يونس الشربينى

٤٤ ــ عـز الدين ابراهيم

٤٥ ــ عصـــام الدين حامد الشربينى

٤٦ ــ يوسـف عـلى يوسـف

٤٧ ــ أحمـد محمـد البساطى

٤٨ ــ أحمـــد نجيب الفوال

٤٩ ــ بيـومى مرسى جعفـر

٥٠ ــ عـلى أحمـد رياض

وجاء فى تقرير النيابة أن هؤلاء المتهمين قد قبض عليهم فى أوكار : وكر روض الفرج ووكر شبرا ووكر شارع السندوبى ووكر آخـر بروض الفرج ووكر الجيزة · وعثروا فى هذه الاوكار على محطة اذاعة وأسلحة وذخيرة · واتهمتهم النيابة باتفاق جنائى لمحاولة قتل ابراهيم عبد الهادى ·

ومن هؤلاء الخمسين متهما أربعة أفلتوا من أيدى البوليس السياسى وتمكنوا من الهرب الى ليبيا وهم : محمـود يونس الشربينى وعـز الدين ابراهيم ويوسف على وسف ومحمد جلال سعده ···

وقد قبض البوليس بعد نحو شهر فى الاسكندرية على أحـدهم وهـو يوسف على يوسف ــ أما الثلاثة الآخرون فقد تمكنوا من الفرار الى ليبيا قبل القبض عليهم · وقد نشرت الصحف صورهم بأمر الطغمة الحاكمة ، وطالبت الطغمة حكومة ليبيا بتسليمهم مهددة بقطع العلاقات اذا لم يسلموا ، ولكن عاهل ليبيا الملك ادريس السنوسى رفض تسـليمهم ، فكان مـوقفا اسلاميا بطوليا لهذا الرجل العظيم ·

وهذه القضية ــ قضية الاوكار ــ هى التى اغتال البوليس السياسى فى أثناء تتبع الاخوان فيها الاخ الشهيد أحمد شرف الدين باحد منازل حى روض الفرج ·

ولما ضمت هذه القضية وقضية محاولة اغتيال حامد جودة فى قضية

واحدة أمام الدائرة التى يرأسها حسين طنطاوى بك ، وافقت هذه الدائرة ـ بناء على الحاح الدفاع ـ على تحقيق التعذيب ٠٠٠ وجاء ذكر « العسكرى الاسود » فى سياق ما ذكره المتهمون من ألوان التعذيب التى كانوا يسامونها مما نبسط الحديث عنه فى صفحات قادمة ان شاء الله ٠٠٠ وقد افتضحت أساليب التعذيب فى أثناء نظر هذه القضية بحيث صارت جريمة ثابتة بالادلة المادية ٠

وهنا وفى جلسة يوم ٩ـ٦ـ١٩٥١ طالب الدفاع بالاجماع المحكمة بأن تفصل أولا فى بطلان الاجراءات نظرا لما سمعته من شهادات قاطعة بحدوث التعذيب واشتراك النيابة فى تزوير القضية ٠ وأصر الدفاع باجماع أعضائه على هذا الطلب ٠٠ ثم عقدت الجلسة وقام رئيس المحكمة وهو فى حالة نفسية تستدعى النظر وقرر تأجيل القضية لدور مقبل ، بعد ان اتهم الدفاع بوضع العراقيل أمام المحكمة ٠

وفى ٢٤ أكتوبر ١٩٥١ عقدت المحكمة جلسة قررت فيها الافراج عن ٢٥ منهما وهم : سمير جلال شهبندر ومصطفى الجابرى وسعيد شاهبندر وعلى صديق والمتهمين أرقام ١٢ و١٣ و١٩ و٢١ و٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٦ و٢٧ و٢٩ و٣٠ و٣١ و٣٢ و٣٦ و٣٩ و٤٠ و٤١ و٤٢ و٤٥ و٤٧ ـ وكان قد أفرج من قبل عن ستة من المتهمين ٠ واستمر حبس ١٩ متهما هم الباقون ٠ وأجلت القضية الى دور مقبل ٠٠ وظلت القضية معلقة حتى أول أكتوبر ١٩٥٤ حيث تقرر اعادة عرضها من جديد على محكمة الجنايات ٠

وكان هذا هو السبب فى ان هذه القضية لم تتم جلساتها ولم يصدر فيها حكم حتى قامت الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ٠

هيئات الدفاع

فى قضية السيارة الجيب : المحامون الاساتذة : (مرتبون حسب ترتيب المتهمين) :

محمود كامل	احمد رشدى بك	عبده ابو شقة	حسن الجداوى
على منصور	ابراهيم رياض	فتحى رضوان	الدكتور عزيز فهمى
زكى عريبى	يوسف حلمى	فهمى ابو غدير	عبد المجيد نافع
فهمى القلعاوى	مختار عبد العليم	على حسين بك	على بدوى بك
شمس الدين الشناوى	الدكتور مصطفى القللى بك	صلاح توفيق	
جمال عبد الفتاح	طاهر الخشاب	محمد السمارى	اسماعيل وهبى
حسن العشماوى	حنفى عبود	هنرى فارس	

في قضية الاوكار وجودة : المحامون الاساتذة : (بحسب ترتيب المتهمين أيضا)

عبد المجيد نافع عبد الفتاح حسن أحمد حسين مختار عبد العليم
عمر التلمسانى طاهر الخشاب عبد الرحمن الوكيل الدكتور عزيزفهمى
جلال شاهين فتحى رضوان سامى عازر جبران زكى البهنيهى بك
شمس الدين الشناوى أحمد السادة سمير حيدر

أما القضيتان الاخريان فكانت هيئة الدفاع فيهما بعض أفراد هاتين الهيئتين مضافا اليهم فى قضية النقراشى محامون آخرون منهم الاساتذة محمود سليمان غنام وحنا أنطون وعطية البقلى ٠

علما بأن هيئات الدفاع فى هذه القضايا قد ضمت أعظم المحامين وأكبر رجال القانون فى مصر فى تلك الايام ٠

الفصل الثالث

معالم فى هذه القضايا

ان القضايا التى استغرق نظرها امام القضاء زهاء أربعة أعوام ، وملأت محاضرها عشرات الآلاف من الصفحات ، وتشعبت فى كل اتجاه ·· ليس من اليسير الاحاطة بكل ما دار فيها ، ولا الالمام بكل ما تشعب منها ، ولكننا نحاول فى هذا الفصل ان شاء الله التقاط عدة صور لابرز المواقف فى هذه القضايا ، بحيث يستطيع القارىء اذا هو أنعم النظر فى هذه الصور أن تكون له رؤية واضحة لهذه القضايا ·

ولا يخفى على القارىء ان هذه المحاكمات قد بدأت والمسئولون فى الدولة ينظرون الى الافكار التى حاكموا عليها هذه المجموعة من الشباب على انها هى الكفر بعينه ، وهى الخبل والعته والجنون · وتعاقبت على هذه النظرة فى هذه المحاكمات خمس حكومات مصرية ·· وشايع الشعب هؤلاء المسئولين فى نظرتهم ردحا من الزمن ، ولكن المحاكمات نفسها - بما دار فيها وبما تكشف فى أثنائها - أخذت كل يوم تغير من نظرة الشعب ·· فما كانت تنتهى المحاكمات حتى كان الشعب قد اقتنع تمام الاقتناع بأنه كان مضللا ·· وحينئذ قام مع الجيش يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لتحقيق الافكار التى حوكم من اجلها هؤلاء المتهمون ، والتى طالما تهكم عليها حكام البلاد·· وهكذا كانت هذه القضايا وما تكشف عنها من أفكار وبطولات وفدائية ووعى جديد نتيجة تكوين وتربية استمرت عشرين عاما ·· كانت تمهيدا لا بد منه لاعداد الشعب للقيام بالثورة وتغيير الاوضاع ·

اولا - فى قضية النقراشى :

● رأى رئيس المحكمة فى القضية :

فى جلسة ٢٩-٨-١٩٤٩ جاء على لسان بعض المحامين أن هذه القضية قضية سياسية ، فاعترض رئيس المحكمة على ذلك وقال : ان هذه القضية ليست سياسية · فتصدى له الاستاذ أحمد حسين وقال : ان هذه القضية سياسية مائة فى المائة ، وانا اطلب سماع أقوال ابراهيم عبد الهادى وحامد جوده وعبد الرحمن عزام لكى ابرهن على اننى لست متعسفا ، وأقرر

انني أريد أن أصل الى أكثر من أن شخصا قتل شخصا · وانى أحمل ابراهيم عبد الهادى والآخرين نتيجة هذه الجريمة ·

● **تبجح عمار وانحياز رئيس المحكمة له :**

فى جلسة ٤ـ٩ـ١٩٤٩ استمعت المحكمة لشهود النفى ومنهم عبد الرحمن عمار · ومن أسئلة الدفاع له :

الدفاع ـ هل زارك الاستاذ البنا قبيل صدور أمر الحل بساعات ، وتحدث معك فى شأن اجتماع سفراء انجلترا وأمريكا وفرنسا فى ٦ ديسمبر الماضى ، وتقديمهم مذكرة بحل الاخوان ، وكان اجتماعهم فى فايد ؟

الرئيس ـ هل سفراء يجتمعون فى وسط الصحراء ؟ بلاش يا عمار بك الاجابة ·

عمار ـ هذه المسألة فى مذكرة سرية طبعها الاخوان بعد الحل لكى يظهروا النقراشى بأنه خاضع للتأثير الاجنبى ، وهى واقعة لا ظل لها من الحقيقة ·

الدفاع ـ لقد أوردت فى مذكرتك كثيرا من الحوادث منسوبة للاخوان ، مع حفظ التحقيق فيها أو صدور البراءة ·· فكيف تفسر ذلك ؟

عمار ـ لم أكن مقيدا بالتصرفات القضائية التى تصدر فى القضايا سواء بالبراءة أو الادانة ، وانما كنت اذكر الوقائع التى تنطق بها التحقيقات ، لان لها دلالتها ومراميها ، فأنا أتصرف فى هذا تصرف رجل الامن ·

ولما واجهه الدفاع بأنه كان يحضر فى أثناء اجراء تحقيقات النيابة قال انه حضر بعض التحقيقات لينفذ ما تشير به النيابة العمومية من اجراءات · ونفى أنه شهد أو سمع أو اشترك فى حوادث تعذيب للمتهمين ·

ولما واجهه الدفاع بأنه أورد فى مذكرته حادث مقتل طالب شبين الكوم رغم أن هذا الطالب هو القتيل وهو من الاخوان المسلمين ، فرد على ذلك بأنه أورد هذا الحادث فى مذكرته لان الاشتباك الذى نجم عنه الحادث كان الاخوان طرفا فيه ·

وناقشه الاستاذ عبد الكريم منصور المحامى فيما أورده فى مذكرته من حادث اشتباك البوليس مع الجوالة وساله : الم تسمح ادارة الامن العام للاخوان باقامة حفلة فى نفس المكان الذى حدث فيه صدام الجوالة ترضية

لهم ؟ فقال عمار : لم يحصل ٠٠ ولو عرض على لرفضته ٠ فقال الاستاذ عبد الكريم منصور : ولكن الحفل أقيم فعلا وانا حضرته ٠

وتعليقا على شهادة عمار جاء فى مرافعة الاستاذ على منصور فى جلسة ١٤ـ٩ـ١٩٤٩ ما يلى :

« وما وقعت الجريمة حتى احتدمت النيران التى كانت تأكل صدور معظم رجال الادارة بالنسبة لهذه الجماعة ٠ وظهر منها أمام المحكمة الروح التى ما استطاع كبير رجال الامن فى ذلك العهد وهو عبد الرحمن عمار أن يخفيها ، فقد اندفع ملكيا أكثر من الملك ، ممثلا حقدا هو بعض ما كان فى صدور أعوانه وأتباعه ٠ ثم قال :

« ان النيابة صورت الاخوان فى الصورة التى ارتأتها فى نظرها ، وهى ادخال كل من مت لهذه الجماعة بصلة الى داخل نطاق هذه الصورة ٠٠ وفى امكان الدفاع أن يقارع قول النيابة فى تكييف الاطار الخاص بالاخوان بأن يستشهد بأقوال ذات كبراء البلد ووزرائها يوما فى الجماعة المكونة لهذا الاطار ٠٠ ولكنه (الدفاع) لا يقر مبدأ الجمع بين هذه القضية كقضية قتل مستقلة وبين غيرها حتى لا ينحدر الى مبدأ اخذ هؤلاء المتهمين كجماعة ٠

وهاجم على منصور قرار الحل فقال : نبتت الجريمة فى جو تمهيد الطعن فى جماعة الاخوان ، وجنى على رئيس الوزراء فى خلال ذلك سياسته ومريدوه ٠ وأعقب الحادث تشريد وتشديد ، ثم تلت ذلك سلسلة من الوقائع والاجراءات التى تدور بين الترغيب والترهيب ٠

فلا يضار المتهمون بما يعزى اليهم من انتمائهم لجماعة الاخوان ٠ ولا تثريب على هذه الحفنة من الشباب فى انضوائها تحت لواء جمعية آزرتها يوما الطبقات المختلفة فى البلد ، واحتضنها لفيف من الكبراء ذوى الرأى فينا ٠

حتى ان مذكرة الحل التى بنى عليها القرار الذى انهى شكل الجماعة استندت الى أمور كانت مبررة فى نظر ولاة الامور يوما ما ، وانتهت هذه الامور رسميا وقانونا بما يؤخذ للجماعة لا عليها ، وهو اكثر حجية مما لهذه المذكرة من حجية » ٠

● اين قتلة حسن البنا ؟

طالب الاستاذ أحمد حسين بالتحقيق وكشف قتلة حسن البنا ، والذين حاولوا قتل النحاس ٠ وقال اننى اتهم السلطات بالتعصب الحزبى مقارنا

بين تتبعها قتلة النقراشى واغفالها ذلك فى النحاس وحسن البنا · وطالب باحضار عبد الهادى ومصطفى مرعى للشهادة لسؤالهما عن الظروف التى صدر فيها بيان الشيخ حسن البنا فى وقت كان كل من ينطق بكلمة يشتم منها رائحة النشاط للاخوان يرتكب جريمة · وقد كان البيان ثمرة مفاوضات طويلة متصلة بين الشيخ البنا وبين معالى مرعى بك وزير الدولة ، وكان أساسها أن يذيع الشيخ البنا هذا النداء تمهيدا للنظر فى اعادة الاخوان بعد ادخال اصلاحات على نظمهم ·

ولقد دهش الناس وقتئذ لصدور هذا البيان الذى يدل على قرب عودة المياه الى مجاريها بين البنا والحكومة ·· فلما سألت واحدا من كبار السعديين العاملين عن تفسير هذا البيان وهل هو مقدمة لعودة الاخوان ؟ اذا به يقهقه ساخرا ويقول : لقد غررنا بحسن البنا لنحصل منه على هذا البيان للتأثير به على عبد المجيد من ناحية وليكون مقدمة لما سيحل بعد ذلك بحسن البنا » ·

● شخصية حسن البنا :

وكان مسك الختام فى هذه القضية كلمة ختم بها الدكتور عزيز فهمى مرافعته حيث قال :

« ولقد افترى على الشيخ حسن البنا كثيرون فى حياته ، وظلمه كثيرون بعد قتله · ولكنه كان مؤمنا برسالته الاسلامية ، ولم يكن له مطمع سوى تحقيقها · لذلك لم يحقد رحمه الله يوما على خصومه ، بل كان يتمثل بقول الرسول عليه الصلاة والسلام « اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون » ·

واغتاله المجرمون · وليس فى مصر من يجهلهم بعد أيام فى أكبر شارع من شوارع العاصمة ، ·· وخطف مشيعوه وأرسلوا الى الطور ·· وقيد الحادث ضد مجهول ·· وأصبح الصباح وليس فى بيته كسرة من الخبز يتزود بها أهله ـ ذلك هو الرجل وهذه رسالته · ولئن قتل فى سبيلها فان رسالته لم تمت بموته ، فهى خالدة لانها رسالة الاسلام · وانها لابقى على الزمن الباقى من الزمن » ·

ثانيا ـ فى قضية السيارة الجيب :

طلب الدفاع من المحكمة ان تأمر بتوزيع ملف القضية على هيئة الدفاع مجانا نظرا لفداحة ثمنه ، وأكثر المتهمين لا يتحملون هذا الثمن · وأجابت المحكمة الطلب ·

● علاقة هذه القضية بحرب فلسطين :

قال الاستاذ طاهر الخشاب المحامى : حيث ان السيارة ضبطت فى ١٥ نوفمبر ١٩٤٨ أى بعد دخول حرب فلسطين ، فاننا نطلب شهودا كثيرين ليشهدوا بأن هذه الاسلحة كانت تجمع لحساب فلسطين · وممن طلبهم للشهادة اللواءات أحمد المواوى وفؤاد صادق وسيد طه ، والصاغات كمال الدين حسين وصلاح سالم وحسن فهمى واليوزباشيات معروف الحضرى وخالد فوزى وصلاح متولى ، كما طلب مفتى فلسطين ومأمور مركز الحمام ·

وطلب ابراهيم عبد الهادى ليشهد على أن البوليس السياسى أخذ المتهم عبد الرحمن عثمان المعترف لمقابلة عبد الهادى فى صالونه الخاص بالقطار بمحطة القاهرة ، فقابله وركب معه حتى الاسكندرية ·

(أ) من شهادة الشهود

١ ــ مصر جمهورية اسلامية :

فى الجلسة الثانية فى ٤ــ١٢ــ١٩٥٠ سمعت المحكمة أقوال الصاغ(١)محمد الجزار والصاغ توفيق السعيد اللذين قالا انهما وجدا فى أوراق المركز العام مذكرة على هيئة دستور مادته الاولى أن مصر جمهورية اسلامية ·

٢ ــ شهادة ابراهيم عبد الهادى :

وفى الجلسة الرابعة فى ١٩ــ١٢ــ١٩٥٠ سمعت شهادة ابراهيم عبد الهادى ــ ولما كانت هذه الشهادة من أهم ما أدى من شهادات فى هذه القضية بالرغم من كل ما فيها من اعتصام بالانكار وحذق فى المراوغة فاننا نثبتها بنصها لبالغ أهميتها :

المحكمة ــ عبد الرحمن عثمان أحد المتهمين فى القضية يقول انه أخذ من السجن الى محطة القاهرة ، وانه سافر معك الى الاسكندرية ، واختليت به فى صالونك الخاص · فايه الحكاية ؟

الشاهد ــ قبل سفرى الى الاسكندرية بيوم ، وكان ذلك فى شهر يوليه ١٩٤٩ كنت اسأل عن مجريات التحقيق فى القضية · فقيل لى ان احد المتهمين له اعتراف جديد · فطلبته اللواء احمد طلعت بك وسألته عن هذا الاعتراف ، فقال ان هذا المتهم يعترف على ابن خالته وهو نجل محمود يوسف باشا وكيل الخاصة الملكية وكان وقتئذ طالبا فى الكلية الحربية او البوليس ، فاحببت أن أسمع هذا الاعتراف من المتهم نفسه ، فطلبت الى طلعت بك ان يحضره لى لاسمع اقواله ·

(١) الرتب العسكرية عميد وعقيد ومقدم ورائد ونقيب كانت مسمياتها أميرالاى وقائمقام وبكباشى وصاغ ويوزباشى ·

وفى اليوم التالى جد أمر استوجب سفرى للاسكندرية ، فنزلت من مكتبى وقصدت الى المحطة لاستقل قطار الظهر ، فلحق بى طلعت بك وذكرنى برغبتى فى مقابلة هذا المتهم • وقال انه جاء به الى المحطة فطلبت اليه أن يحضره الى فى القطار • وفعلا ركب المتهم القطار واستمعت لاعترافه • ولا أدرى ماذا حدث بعد ذلك ، هل استمر فى القطار مع الضابط المرافق له الى الاسكندرية أم غادره فى الطريق ؟

المحكمة – لماذا طلبتم سماع أقوال هذا المتهم ؟

الشاهد – لكى أوجه التعليمات اللازمة • فمثلا طلب الى اعتقال الشخص الذى ذكره هذا المتهم فلم أوافق على ذلك ، وأحببت أن أعرف الحكاية ايه •

محمود كامل المحامى – من الذى يعرض على دولة الشاهد نتائج التحقيق وتطوراته ؟

الشاهد – (يجيب فى حدة) لم يعرض على أحد نتائج تحقيق ولا خلافه • ولا يعرض على شىء الا حين أسأل أنا عن شىء • فلم يعرض الحكمدار على حلقات التحقيق • وكل ما فى الامر لما يكون فيه حاجة مهمة أسأل انا عنها أو يطلعونى عليها •

ونفى دولته اختلاءه بالمتهم فى القطار ، وقال ان أحمد طلعت بك كان حاضرا الاجتماع • وكذلك نفى أنه تحدث مع المتهم فى اى شىء آخر غير موضوع اعترافه • وقال انه لا يعرف الاستاذ عبد الحكيم عابدين •

وأجاب دولته على سؤال خاص بتمويل جماعة الاخوان بأنه لا يذكر أنه سأل المتهم عبد الرحمن عثمان عن مصدر هذا التمويل ، وانه لم يتحدث اليه بشأن حل الجماعة ، ولم يعرض عليه بعض المرطبات ، وان كان قد قدم طعاما الى متهم آخر فى قضية أخرى •

وسئل الشاهد هل علم أن هناك تعذيبا وقع على المتهمين فأجاب بالنفى وقال ان هذه مجرد اشاعات • وهنا ذكر الاستاذ محمود كامل أن المتهم عبد الرحمن عثمان قال انه فى يوم ١٠ يوليو ١٩٤٩ اثناء تولى دولتك الحكم جىء به الى المحافظة وعذبه الضابط محمود طلعت والضابط محمد الجزار بوضع ساقيه فى فلكة وضربه بالسياط • وان الطبيب الشرعى اثبت الاصابات الاصابات التى فى جسمه • فهل سمعت دولتك بذلك ؟

فاجاب دولته — لم أسمع ٠

وذكر الدفاع واقعة تعذيب أخرى حدثت لهذا المتهم ، فنفى دولته حدوث أى تعذيب بعلمه ، وأنه لم يكن يحضر الى المحافظة فى أثناء التحقيق ٠

وسئل دولته هل رأى مصطفى كمال عبد المجيد ؟

فقال : انه فى ليلة وقوع حادث محاولة الاعتداء على الاستاذ حامد جودة قصد الى قسم مصر القديمة ، فوجد هناك مصطفى كمال عبد المجيد ٠ وبمجرد ان رأى دولته صاح مستغيثا به ٠ فسأله دولته لماذا فعل ذلك فأجابه أنه فعل ذلك تحت تأثير العقيدة وأنه سيعترف بكل شىء ٠ ثم صعد الى الطابق العلوى وظل فى القسم حتى حضر المحققون وباشروا التحقيق ٠

وأقسم ابراهيم عبد الهادى بشرفه ان مصطفى كمال عبد المجيد لم يعذب امامه ٠ وقال دولته ردا على سؤال انه ذهب الى المحافظة بضع مرات أثناء تحقيق قضية حامد جوده ٠ والليلة الوحيدة التى سهر فيها بالمحافظة الى الخامسة صباحا هى ليلة اعتقال محمد مالك ٠

وهنا اراد عبد الرحمن عثمان أن يوجه اسئلة الى دولة الشاهد ، فاعترضت المحكمة قائلة ان لكل متهم محاميا يسأل عنه ما يشاء — فتدخل سعادة محمد هاشم باشا المحامى ورجا المحكمة أن تفسح صدرها للمتهمين فهم أولى بالسؤال من المحامين — وبعد مناقشة سمحت المحكمة للمتهم بالقاء اسئلته عليها اولا ٠٠ وتبين من القائها أن دولة الشاهد سبق أن سئل عنها واجاب عليها وأكثر هذه الاسئلة كانت خاصة بتعذيب هذا المتهم ٠

ثم سأله المتهم : ألم تقل لى دولتك ان الشيخ حسن البنا قتل واسترحنا منه وأنت تدرس القانون ومن مصلحتك أن تنجو بنفسك وهذه قضية عسكرية ؟

الشاهد — ماكانش فيه موجب لكل هذا ٠

وسال الاستاذ زكى عريبى دولة الشاهد : تؤكد لنا دولتك ان النيابة لم تكن تتلقى وحيا ؟

الشاهد — نعم ٠٠ ثم قال انه يأمر باعتقال شخص أو الافراج عن شخص بحكم كونه حاكما عسكريا لا يعرف ان كان القبض نتيجة تحريات البوليس أو تحقيق النيابة ، انما تعرض عليه اسماء مطلوب اعتقال اصحابها ، كان لا بد أن يسأل عن سبب اعتقاله ، فالمسألة ليست مسألة توجيه النيابة ولكنها مسألة حفظ أمن البلاد ٠

وسأل الاستاذ مختار عبد العليم دولة الشاهد عن سبب استغاثة مصطفى كمال عبد المجيد حين رآه فى القسم .

الشاهد ـ كان يستغيث أنا عطشان . عايز أشرب (ضحك) .

وأجاب على سؤال بأنه لا يعرف جمال فوزى ـ وهو أحد المتهمين فى القضية ـ ولا يذكر هذا الاسم . ولا يعرف ان كان أحمد طلعت بك استأذن النيابة فى خروج عبد الرحمن عثمان من السجن أم لا .

ونفى دولته أنه تحدث الى الشيخ حسن البنا فى شأن جمع الاسلحة فى أثناء توليه رياسة الديوان الملكى . وقال ان كل ما حدث أن الشيخ حسن البنا كان يريد السفر الى اليمن أثناء الثورة اليمنية فنصحه بالعدول عن ذلك

وهنا انتهت شهادة ابراهيم عبد الهادى . وحدث أثناء خروجه من القاعة أن أخذ المتهمون يهتفون : « رحم الله شهيدا أعزل » و « يحيا الشعب وبسقط الظلم » . وقد غضبت المحكمة لهذا الهتاف وأنبت المتهمين عليه ، واعتذر الدكتور هاشم باشا بالنيابة عن المتهمين فصفحت المحكمة .

● طلب ممثل الاتهام للشهادة :

وطلب الاستاذ زكى عريبى المحامى الاستشهاد بالاستاذ محمد عبد السلام بك ممثل النيابة فى القضية عن واقعة خروج عبد الرحمن عثمان من السجن لمقابلة عبد الهادى ، اذ أنه ثابت فى دفتر أحوال السجن أنه خرج للنيابة للتحقيق . وعبثا حاول الاستاذ محمد عبد السلام ثنيه عن طلبه قائلا انه سيعرض لهذه النقطة فى مرافعته ـ كما طلب أعضاء من الدفاع آخرون سماع ممثل النيابة كشاهد ، والسؤال الذى سيوجه اليه هو :

« بعد أن قابل المتهم عبد الهادى قال له الاستاذ محمد عبد السلام فى اليوم التالى « هل قابلت الباشا ووعدك خيرا ؟ » كما أنه قال له « ان الباشا قابل مصطفى كمال عبد المجيد ووعده خيرا وان شاء الله يعدك أنت الآخرخيرا» .. فطلبت المحكمة أن يجتمع الدفاع لاعداد الاسئلة المراد توجيهها الى النيابة وتعرض على المحكمة للنظر فيها .

.... وفى الجلسة التالية قررت المحكمة عدم الموافقة على ادخال رئيس النيابة شاهدا فى القضية .

٣ ـ شهادة الصاغ محمود لبيب :

قرر أن التطوع لفلسطين يرجع الى سنة ١٩٤٧ عندما عينته الهيئة

العربية العليا قائدا عاما لمنظمة الشباب الفلسطينى • وأراد الانجليز اخراجه من فلسطين فرفض لانه عربى فى أرض عربية • وفى عودته اتصل بالمفتى وبصالح حرب •• وانتهى تشاورهم الى أن العرب لا ينقصهم العدد وانما ينقصهم العدة •• فأخذت الهيئات العربية ومنها الاخوان فى الحصول على تصاريح بجمع السلاح •

وقد بدأ المتطوعون أعمالهم فى فلسطين تحت قيادته بمهاجمة قوافل اليهود ومستعمراتهم ونسف انابيب المياه ، وهاجموا دير البلح لعجم قوة اليهود •

الاستاذ زكى عريبى (محام مصرى يهودى) - بلاش تسمية اليهود قل الصهيونيين •

الشاهد - صحيح الصهيونيين أستغفر الله •

وقال ان المتطوعين وزعوا أنفسهم على المستعمرات الصهيونية ، فكان دخول الجيش المصرى من رفح الى غزة بدون اطلاق رصاصة واحدة • كما تمكن الفدائيون بقيادة الشهيد أحمد عبد العزيز من غزو هذه المستعمرات ، لدرجة أنهم دخلوا حدود القدس الجديدة بثلاثة كيلو مترات •• كل ذلك فى ١٣ يوما •

وروى كيف تمكن المتطوعون ببسالتهم قبل دخول الجيوش النظامية بثلاثة أيام من تدمير ثمانى مصفحات يهودية ، وغنم اربع مصفحات ، كما غنموا كميات كبيرة من الاسلحة والذخيرة والمؤن •

● كيف سقطت رامات راحيل ؟

وقال انه فى خلال معركة القدس رؤى وجوب الاستيلاء على مستعمرة رامات راحيل التى كانت تمون القدس باللبن والدواجن • فتسلل الاخوان المتطوعون اليها واحتلوها • ولكنهم فوجئوا بجيش الملك عبد الله (ملك الاردن) يحضر اليها ومعه فرقة اسمها (النهاده) جعلوا ينهبون ويتشاجرون مع بعضهم ويثيرون الفوضى ، فانسحب الاخوان من المستعمرة وتمكن الأعداء من استردادها من جيش الملك عبد الله •

وعاد الاخوان واحتلوها للمرة الثانية ، رفوجئوا بجيش الملك عبد الله والنهاده الذين كانوا يقتتلون على بقر المستعمرة ، وهو من النوع الهولاندى الكبير • فترك الاخوان المزرعة مخلفين النهاده يقتل بعضهم بعضا للفوز ببقرة هولاندية • وعاد الاخوان للمرة الثالثة واحتلوا المستعمرة ، ولكنهم

لم يفاجأوا هذه المرة بظهور جنود الملك عبد الله لانهم يمكن « اختشوا على دمهم » ٠

● محاولة لفك حصار الفالوجه :

وقال انه حدث فى نوفمبر ١٩٤٨ أن أرسل اليه عـزام باشـا (الامين العام للجامعة العربية) وقابله باللواء أحمد منصور بك ضابط الاتصـال ، وأخبره بان اشـارة وردت للجامعـة العربية بضرورة ارسال كتيبتين من الاخوان بالذات لفك حصار الفالوجة ٠ وتوجه به الى صلاح صبرى مدير مكتب وزير الحربية ، وتم الاتفاق على اعداد الكتيبتين ٠ وأعد هو ١٦٠٠ (ألف وستمائة متطوع) واحدا من كل شعبة اخوانية فى القطر ٠٠٠ ثم اذا به يفاجأ بأن النقراشى باشا رفض هذا الرأى ٠

وقرر الشاهد أن الجيش المصرى فى فلسطين حدث أن طلب من الاخوان امداده ببعض المتفجرات لان الجيش لم يكن لديه سوى أسلحة انجليزية ، فى حين أن المتطوعين كانوا يملكون أسلحة وذخائر ألمانية وايطالية ٠ وقرر أن هيئة الاخوان المسلمين وزعت منشورات على المتطوعين بالحث على القتال والجهـاد ٠

● قطار اللاجئين :

وقال الشاهد ان المتطوعين كانوا يقتسمون مئونتهم مـع الـلاجئين ٠ ولقد رأوا أن يطلب من أهل الخير فى جميع أنحاء القطر التبرع بما يفيض عن حاجتهم من مؤن وغيرها ٠ وأعد لذلك قطار يدعى قطار اللاجئين ٠ واستطاعوا أن يجمعوا من القاهرة فى ليـلة واحـدة ما حمـولته ألف عـربة يد وعشرات السيارات ولكنهم فوجئوا بان وزارة الداخلية منعت ذلك ٠ فكانت صدمة حيث حظروا عملا انسانيا خيريا ٠

ملحوظـة : اللاجئون هم ضـعاف الاسـر الفلسطينية التى أخـرجهم اليهود من ديارهم ففـروا بأبنائهم ونسـائهم واطفالهم الى القـرى والمدن الفلسطينية التى يسيطر عليها الجيوش العربية وقوات المتطوعين ٠

● وسـائل خاصـة :

واجاب الشاهد بناء على أسئلة من النيابة انه بعـد دخـول الجيوش النظامية فلسطين كان الجيش يمد المتطوعين بالمؤن ٠ أما الاسلحة فكانت ترسل الى المتطوعين بوسائلهم الخاصـة عن طريق الهيئة العـربية العليا وغيرها لا عن طريق الحكومة ٠

٤ ـ شهادة اللواء أحمد المواوى بك :

كان اللواء أحمد المواوى أول قائد للجيش المصرى فى فلسطين · وجاء فى شهادته ما يلى :

● جيش بلا معدات :

قرر الشاهد أن هؤلاء المتطوعين كانت روحهم المعنوية قوية ، واشتركوا فى معارك كثيرة ، وقاموا بانتزاع الالغام من النطاق الخارجى للمستعمرات اليهودية ، واستعملوا هذه الالغام ضد اليهود الذين تكبدوا بسببها الخسائر حتى انهم تقدموا الى مراقبى الهدنة الاولى شاكين · وكان هذا العمل من الاخوان له أهميته اذ لم يكن لدى الجيوش النظامية الغام ·

الرئيس ـ هذا شىء عجيب · كيف لا يكون لدى جيش ألغام ؟

الشاهد ـ من المعروف أن الجيش دخل الحرب بدون معدات ·

ثم ذكر الشاهد كيف استماتت الاخوان حتى استردوا العسلوج بعد أن فقدها الجيش ، وكانت رياسة الجيش قد أرسلت أمرا باستردادها مهما كان الثمن لخطورة موقعها ·

وأجاب على سؤال عن الشروط التى يجب توفرها فى رجل العصابات « الكوماندوز » فقال انه يجب أن يكون مثل هؤلاء الرجال الاذكياء الذين يمتازون بالجراة وحسن التصرف بسرعة ، ولا يعتمد الواحد منهم الا على نفسه ·· هذا الى المهارة فى استعمال السلاح والتسلل والتخفى وتسلق الاشجار ، فضلا عن اعتياده على اعمال الكشافة · وقال ان نظام الفرق الفدائية قد استحدث فى الحرب الاخيرة وأصبح لا غنى عنه ·

المحكمة ـ هل فى جيشنا هذه الفرق ؟

الشاهد ـ لا ·· ولكن الفكرة موجودة ·

● عشرة آلاف متطوع :

وقرر الشاهد ان عدد المتطوعين كان حوالى عشرة آلاف شخص من مختلف البلدان والاديان ومعظمهم من الاخوان · وكانت الجامعة العربية هى التى تتولى مدهم بالسلاح ، وقد حدث مرة ان اعطيتهم بعض الذخيرة ·

● متطوع فى المائة من عمره !

واستطرد قائلا : كان فيه مشايخ متطوعين عمر الواحد مائة سنة ·

الرئيس ـ مائة سنة ويحارب ·· ده تطوع لدخول الجنة بسرعة ·

الشاهد ـ ان الروح المعنوية كانت عظيمة جدا حقا ٠

وقال ان أسلحة المتطوعين كانت مدافع خفيفة ورشاشة وتومى وقنابل يدوية ايطالية ٠

ثم سمعت المحكمة شهادة اللواء فؤاد صادق باشا ثانى قائد للجيش المصرى فى فلسطين فكانت شهادته مطابقة لشهادة اللواء المواوى ٠ وكانت شهادتهما قد أدليا بها فى جلسة ٢٠ـ١٢ـ١٩٥٠ ٠

٥ ـ شهادة الحاج عبد الرحمن على :

وهو مقاول فلسطينى ٠ وجاء فى شهادته التى أدلى بها فى جلسة ٢١ـ١٢ـ١٩٥٠ أنه كلف من الهيئة العربية العليا بجمع الاسلحة من الصحراء الغربية من ابريل ١٩٤٧ ، واستعان على ذلك ببعض الاخوان ، ومنهم الصباغ المتهم ، حتى منعه رجال الحدود من دخول الصحراء على أثر مصادرة حكومة النقراشى باشا لمخازن الاسلحة ٠

فما كان من سماحة مفتى فلسطين الا أن راجع النقراشى باشا فى هذه التصرفات ، فلم يبد النقراشى باشا استعداده لتسليمها الا على الحدود وحتى ذلك اليوم لم يتم ٠ فرؤى أن يكون ارسال السلاح من مرسى مطروح عن طريق اللاذقية بدلا من العريش ٠

وسأله الاستاذ مختار عبد العليم المحامى عن أسماء الاشخاص الذين كانوا يساعدونه فتفرس الشاهد فى وجه المحامى وقال : أنت نفسك كنت منهم٠

وقرر أن الشهيد عبد القادر الحسينى كان يدرب المتطوعين فى جهات عديدة بالقطر المصرى كحلوان والهرم ٠

٦ ـ شهادة السيد أمين الحسينى مفتى فلسطين :

سأله الاستاذ حسن العشماوى المحامى عن دور الاخوان فى حرب فلسطين فأجاب بأن الاخوان كان لهم دور كبير منذ البداية ، فقاموا بالدعاية للقضية الفلسطينية منذ عام ١٩٣٦ ٠ وأثناء الجهاد جمعوا أسلحة وذخيرة واستمروا على خدمة القضية بأقصى جهدهم ٠

وقال : كانوا يعاونون المرحوم عبد القادر بك الحسينى فى جمع الذخائر ويساهمون فى دفع ثمنها ٠ ومنهم الصباغ (المتهم) فقد اشترى بثلاثة آلاف جنيه أسلحة وقام بتسليمها للهيئة العربية العليا ، كما استشهد فريق منهم فى معركة القسطل ٠

ولقد استمروا على ذلك بعد دخول الجيوش النظامية ، كما استمرت الهيئة العربية في جمع الاسلحة ، فبعد دخول الجيوش العربية فلسطين زارنى المرحوم الشيخ حسن البنا وقال لى ما ينم عن قلقه من موقف التخاذل الذى اتخذته جيوش بعض الدول العربية ، وما لمسه من دسائس تحاك فى الظلام ، لتودى بقضية فلسطين بسبب الدسائس والتخاذل من « البعض » ٠

وابتسم سعادة رئيس المحكمة لكلمة « البعض » فابتسم سماحة الشاهد بدوره ٠

عشرة آلاف متطوع :

ومضى سماحته يقول : ان الشيخ البنا قال انه لابد من عمل حاسم ، وانه سيقوم على الفور باعداد عشرة آلاف متطوع من الاخوان ليشتركوا مع المجاهدين فى الميدان ، وانه سيعرض الامر على الحكومة حتى تمدهم بالسلاح ، فاذا تعذر ذلك فانه سيصدر أوامر الى كل شعبة للاخوان بأن تتولى تسليح متطوعيها بسلاح تشتريه ٠

لم يمكن ارسالهم :

وتابع كلامه بقوله : انه متأكد من أن الشيخ البنا كان مصمما على تنفيذ هذه الفكرة ، وانه فى سبيل تنفيذها اتصل بكافة الشعب لتجمع الاسلحة ولتدريب المتطوعين ٠ ويبدو أن العقبة كانت فى انه لم يكن من المستطاع ارسالهم ٠

وقال : ان الاخوان عملوا على شراء الاسلحة حتى بعد دخول الجيوش النظامية فلسطين ، وذلك بسبب خيبة الآمال فى بعض الجيوش العربية لتخاذلها ٠

لا تتوسل بالعنف :

وسأله الاستاذ مختار عبد العليم عن رأيه فى هيئة الاخوان المسلمين وأهدافها ووسائلها وعما اذا كان من بين وسائلها العنف والارهاب ؟ فقال : أعتقد أن الاخوان المسلمين هيئة اسلامية تعتنق المبادىء الاسلامية وتحمل دعوتها ، وتعمل على انشاء جيل على مبادىء الاسلام وأخلاقه ، وذلك لصالح المسلمين وغير المسلمين ، ولا أعتقد انها تتوسل بأى عمل يخالف الشرع كاستعمال العنف ٠

● كيف يمكن انقاذ فلسطين ؟

ووجه اليه الاستاذ مختار عبد العليم السؤال الآتى :

بوصفكم المسئول الاول عن القضية الفلسطينية هل يمكن أن تشرحوا لنا الطريقة المثلى لانقاذ فلسطين ؟

عضو اليمين – يعنى الجهاد الشعبى هو الافضل أم المجهود الحكومى ؟

الشاهد – ان اللجنة العسكرية المختصة قررت سنة ١٩٤٧ الخطة المثلى ، وذلك فى اجتماع الجامعة العربية فى عالية بلبنان . واسس هذه الخطة هى التعويل على عرب فلسطين انفسهم فى الدفاع عنها ، على ان تعاونهم الدول العربية بتسليحهم وتدريبهم وتحصين قراهم . أى تضعهم فى نفس الوضع الموضوع فيه اليهود فى فلسطين .

ولقد وافق مجلس الجامعة على تقرير هذه الخطة بالتعويل على عرب فلسطين ثم المتطوعين ، اما الجيوش العربية فتقف على الحدود مترقبة .

لماذا عدل عن هذه الخطة ؟

كانت هذه هى الخطة المثلى المتفق عليها .. ولكن حدث بعد ذلك أن قدمت احدى الدول الاجنبية مذكرة تحتج فيها على هذه الخطة . وبذلك أوقف تسليح عرب فلسطين وتدريبهم وتحصينهم ، وترتب على ذلك العدول عن الخطة المثلى .

ومضى سماحته فقال : ان كفاح فلسطين بين عقيدتين متعارضتين ، العقيدة العربية والعقيدة الصهيونية ، فالسلاح الاول فى هذه المعركة انما هو الايمان والعقيدة .

ولقد فطن الاعداء الى هذه الحقيقة ، فوجهوا كل همهم الى ابعاد العناصر المؤمنة عن ميدان المعركة . ثم ثنوا بالسعى لابعاد الفريق الثانى فى الاهمية وهم المتطوعون من العرب كالاخوان وغيرهم ، وذلك حتى يخلو الميدان فلا يبقى فيه الا الجنود النظامية . وبذلك استطاعوا ان يأمنوا .. اذ ابعدوا العناصر المصممة تصميما ابديا على الكفاح .

ثم اجاب سماحته بناء على مناقشة الدفاع انه لم يفهم من النقراشى باشا حقيقة الدافع الى مصادرة السلاح ، وان النقراشى باشا لم يخبره انه يخشى من تسرب جانب من اسلحة مخازن الهيئة العربية لاستعمالها فى حوادث داخلية .

٧ ـ شهادة صلاح أمين الحسينى :

وهو نجل سماحة مفتى فلسطين وطالب بكلية الحقوق · وقد قرر أن بعض الاخوان كانوا يقومون فعلا بجمع السلاح للهيئة العربية العليا ، وأن الهيئة تراقب استلامها حتى لا تتسرب الى جهة أخرى ، وأنه اشترك فى مشترى محطة كهربائية للهيئة ·

٨ ـ تقرير خبير الخطوط :

وهو الاستاذ محمد وهبى · انتدبته المحكمة خبيرا استشاريا لمضاهاة الاوراق المضبوطة بسيارة الجيب بخطوط المتهمين عبد الرحمن عثمان وابراهيم سوبلم ومحمد أحمد على · فقدم تقريره الى المحكمة ويقول فيه ان هذه الاوراق المضبوطة ليست بخطهم ·

***

(ب) من المرافعات

جاء فى مرافعة النيابة تهجم على هيئة الاخوان المسلمين فى نقطتين :

الاولى ـ فى موضوع اغتيال الخازندار بك والثانيــة فى شعار الهيئة السيفان والمصحف والآية ·

وجاء فى مرافعة الاستاذ عبد المجيد نافع وكانت هى المرافعة الاولى رد على النيابة فى هذين التهجمين كما تعرضت المرافعة لنقاط اخرى لها أهميتها · ونورد فيما يلى نتفا من هذه المرافعة ·

١ ـ من مرافعة الاستاذ عبد المجيد نافع :

كان أول المترافعين من هيئة الدفاع فى هذه القضية واستغرقت مرافعته عدة جلسات · وقد بدأ مرافعته فى جلسة ١٦ـ١ـ١٩٥١ وجاء فيها :

● حسن قناوى والبواعث الوطنية :

واذا كان عبد الحافظ قد قتل الخازندار بك ، فما كان ذلك الا لان المتهم أخطأ النظر فى الامور · وفى ذلك الحين كانت تدور مفاوضات بين مصر وانجلترا فى سبيل تحقيق الاهداف الوطنية وهى الجلاء الناجز ووحدة وادى النيل تحت التاج المصرى ·· واعتقد الشبان انهم يستطيعون تقوية مركز المفاوض المصرى حين يجلس على المائدة الخضراء وجها لوجه مع المفاوض البريطانى ، فالقوا القنابل التى القوها (هذه تضية أخرى غير التى اشرنا اليها قبلا وكانت فى القاهرة) ··

ونظرت قضايا هذه القنابل أمام الخازندار بك وأصدر فيها أحكاما قاسية بلغت عشر سنوات فى جريمة سياسية يحدوها باعث شريف هو تخليص مصر من الاستعمار .. وذلك فى نفس الوقت الذى حكم فيه على سفاح الاسكندرية حسن قناوى بالاشغال الشاقة سبع سنوات .

ولا شك أن لهذه الاحكام ما يبررها من وجهة النظر القانونية تماما . ولكن الشبان الصغار الذين تختل لديهم الموازين لا يدركون ذلك .. ومع ذلك فانه لا يوجد منطق فى عدالة السماء والارض يحمل الاخوان المسلمين مسئولية هذه الجرائم .

● **عهـد ملوث :**

انه فى الوقت الذى تسند فيه النيابة الى الاخوان الجرائم التى عددتها ، يتوافد الى الذهن مصرع الشهيد حسن البنا ، ينادى بأعلى الصوت وملء الفم : ان الدماء عالقة بهذا العهد ، وان يده مخضبة بدم الشهيد وغيره من الشهداء .

● **الموت لحسن البنـا :**

ولقد هدد بذلك فى جنازة النقراشى باشا على ملأ من الناس فى هتافات مدوية . فكان الشبان يصيحون من حناجرهم فى هتافات تدوى فتبلغ عنان السماء ، ويتوعدون بالويل والثبور وعظائم الامور جماعة الاخوان المسلمين بل لقد كانوا يملأون أفواههم بهتافات « الموت لحسن البنا » .

● **تنفيذ الوعيـد :**

وكان هذا فى ختام عام ١٩٤٨ وبالتحديد فى يوم وفاة المغفور له فى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ . وبعد ذلك فى مستهل عام ١٩٤٩ وبالتحديد يوم ١٢ فبراير ١٩٤٩ استشهد حسن البنا الزعيم السياسى والروحى لجماعة الاخوان المسلمين على باب جمعين الشبان المسلمين ، فى ظروف غامضة تثير الشكوك والشبهات ، وتوحى الى أية جهة أو أية جهات تتجه الشكوك وهذه الشبهات .

● **السيفان والمصحف :**

تقول النيابة : ان حسن البنا جعل شعار الجماعة سيفين بينهما مصحف وزود الشعار بهذه الآية « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » .. ولا يمكن ان يكون السيف رمزا للعنف وعنوانا للجريمة ، ولكنه رمز للقوة . لان الامم الإسلامية لا ينبغى أن تكون مستضعفة امام الاستعمار الاجنبى .

والسيف رمز للحرب المعلنة • أما الجريمة فترتكب فى الظلام وفى غفلة من الناس •

● الحمد لرب مقتدر :

ثم تلا ما استشهدت به النيابة من قول حسن البنا « انتم لستم جمعية خيرية محدودة المقاصد » فقال : انه يقول لهم أنتم لستم جمعية خيرية •• وهذا صحيح فهم ليسوا جمعية مكارم الاخلاق ولا جمعية مواساة ولا جمعية عروة وثقى ولا جماعة الحمد لرب مقتدر ••

● لن تقتلوا دعـوته :

واستطرد فقال : انهم قتلوا حسن البنا • ولكنهم لم ولن يستطيعوا أن يقتلوا دعوته فى سبيل انتشال الاسلام مما وصل اليه من ذلة وخضوع وهو دين عزة وقوة •

● الشيخ المراغى يقرظه :

يقول الشيخ المراغى عن حسن البنا « ان الاستاذ البنا رجل مسلم غيور على دينه ، يفهم الوسط الذى يعيش فيه ، ويعرف مواضع الداء فى جسم الامة الاسلامية » •

● شهادة مكرم عبيد باشا :

وقال مكرم باشا « انى لا أدرى لماذا ثار جدل عنيف حول اشتراك الاخوان فى السياسة وهم فى ذلك على دينهم ، والدين هو المظهر الاول للسياسة الوطنية » •

● رئيس المحكمة يطلب قانون الاخوان :

وبعد أن تحدث الاستاذ نافع طويلا عن نظم الاخوان وقوانينها طلب الرئيس قانون الجماعة ، فقدمه اليه الاستاذ طاهر الخشاب — واستطرد الاستاذ نافع فى مرافعته فقال : ان حسن البنا لم يبغ الى قلب نظام الحكم ، وانما كان يقصد الى اصلاح الحكم فحسب •• وهذا ما دل عليه فى جميع خطبه ومقالاته ونصحه لاخوانه ، فقد قال : « لقد نادينا بدعوة الحكومات الى عمل الاصلاح ، لان الهوة بين الغنى الفاحش والفقر المدقع اتسعت حتى كاد الشعب المصرى يخرج عن طوره ، وقد عصرته تلك المظاهر الصاخبة التى يظهر بها الاغنياء وأغلب الشعب يتضور جوعا وعريا • وانى لاقولها بأعلى

صوتى وملء فمى : ارحموا الشعب يرحمكم خالقه ، فالشعب من حقه أن يعيش ولا أقل من أن يعيش » ٠

● الاسلام دين ودولة :

وخلص من ذلك الى قوله : ان الاسلام دين ودولة يجمع بين سلطتين ، سلطة دينية وسلطة زمنية ، وهو قسمان : معاملات وعبادات ٠ وهو يضع الاصول والكليات ، ويترك الجزئيات والتفاصيل تتطور مع تطور الازمان - وان الفصل بين الدين والدولة ضلالة ٠ وقد وضع القرآن أسس الحكم ، وتنظيم الحكومات والشعوب ٠

● الانجليز طلبوا حل الاخوان :

واستهل مرافعته فى يومها الثالث بالكلام عن العوامل التى دعت الى حل الاخوان المسلمين فقال : ان السلطات البريطانية طلبت من الحكومة المصرية صراحة حل الاخوان ٠ وقد طلبت ذلك من رفعة النحاس باشا فى سنة ١٩٤٢ وقوات المحور على مشارف مصر ، ولكن النحاس باشا لم يذهب الى المدى الذى ذهب اليه النقراشى باشا فاكتفى تحت ضغط ظروف الحرب باغلاق الشعب وأبقى على المركز العام ٠

● ضحك الاقدار :

وقال : وفى عهد الظلم والظلام سنة ١٩٤٩ عندما كان ابراهيم عبد الهادى باشا يعتقد أنه سيجرى الانتخابات فيسوم البلاد الخسف والهوان خمس سنوات أخرى ، عمل جاهدا للتخلص من الاخوان لانه عرف أن قوتهم اشتدت وأنهم سوف يكتسحونه فى الانتخابات ٠ ولذلك امعن فى تشريدهم وتعذيبهم حتى يذهب ريحهم ٠٠٠ ويقدرون وتضحك الاقدار ٠

ثم ختم مرافعته بالحديث عن حقد السعديين حتى منعوا أحدا من تشييع جنازة حسن البنا ٠

٢ - من مرافعة الاستاذ هنرى فارس :

اتهم النيابة بالتحريف فقال : انها حين نقلت كلام الاستاذ البنا اغفلت كلمة « وسلام » فى قوله « نحن دعاة حق » كما انها غيرت ميعاد ضبط السيارة الجيب بدلا من الساعة الثانية ظهرا جعلته الساعة الثالثة ٠

٣ - من مرافعة الاستاذ شمس الدين الشناوى :

سبق لنا الاشارة اليها فى فصل سابق ، وذكرنا فيه موضوع الوثيقة

التى قدمها الى المحكمة والتى تثبت أن القيادة البريطانية للجيش البريطانى فى الشرق الاوسط طلبت الى حكومة النقراشى حل الاخوان ٠

٤ ـ من مرافعة الاستاذ حنفى عبود :
قال : ان حسن البنا قد نجح الى حد بعيد فى وضع المسمار الاول فى نعش الاستعمار بأن ربى جيلا جديدا ٠

● الانجليز يخافون :

وقال : وكان آية هذه الرسالة القوية ما سمعوه عن بلاء الاخوان فى حرب فلسطين مما لفت نظر العالم المستعمر وبخاصة الانجليز فملأ الخوف قلوبهم ، واتجهت لذلك نيتهم الى التخلص من هذه الجماعة عن طريق مخالب القط من رجالنا الرسميين ٠

● وثائق التاريخ :

وقال : اننا اذا قلنا الانجليز فلا نحتاج الى وثائق لاثبات ما نقول لان بيدنا الوثيقة الكبرى التى لا يستطيعون الطعن فيها الا وهى التاريخ ٠٠ وان هذا التاريخ يحدثنا عن تدخلهم فى فجر الحركة الوطنية لاقالة شيخ الازهر لانه أفتى بأن الدين يهدر دم كل كافر من أهل الكتاب اذا دخل ديارنا بدون امان من الامام ٠

وقال : ان التجارب قد علمت الانجليز أن الروح الدينية خطر على كيانهم ، فاذا ما رأوا هذه الروح من جديد فى حركة الاخوان فلا غرابة فى أن يطالبوا بالحل والتشتيت ٠

● عهد وصم نفسه بالفوضى :

واستطرد فقال : اننا كنا فى عهد عجيب وصم نفسه من اول يوم بأنه عهد الفوضى ٠٠ وان من يرجع بذاكرته الى يوم ٩ من اكتوبر سنة ١٩٤٤ ويذكر ما نشرته الصحف عقب اسناد الحكم الى رجال ذلك العهد من أنهم ركبوا الى دور الوزارات ولم ينتظروا حتى تفتح لهم الابواب بل حطموها ٠٠ فسجلوا بأنفسهم على انفسهم ومن اللحظة الاولى بعدهم عن ادراك أصول الحكم الصالح وما يتطلبه من نظام ووقار ورزانة ، وكشفوا عن خفايا النفس وما انطوت عليه من فتنة وشهوة متعطشة الى الكراسى ٠ (يقصد أول وزارة للسعديين برياسة احمد ماهر) ٠

٥ – من مرافعة الاستاذ طاهر الخشاب :

جاء فى مرافعته أن الاخوان اشتروا ٨٠٠ فدان فى نجع حمادى من الاراضى غير الصالحة للزراعة وحولوها الى جنة

٦ – من مرافعة الاستاذ فتحى رضوان :

قال : ان الاستاذ البنا بعد أن صدر قرار الحل زاره أكثر من مرة ، فكان يرحب به · وكان الاستاذ البنا يشكو اليه ، ويكرر الشكوى ، فلا يسعنى الا أن أبتسم فى وجهه ، لاننى أعلم أن الخلف بين الاخوان والسعديين لا يمكن أن يفلح فيه صلح أو مفاوضة ·

وأشار الى الحقد الذى كانت تكنه حكومة تلك العهد على كل من يناصر جماعة الاخوان ·· وقال : انه ذهب ذات يوم الى قنا للمرافعة فى احدى القضايا ، فقابله أحد أصدقائه وقال له : أصحيح ما نسب اليك من أن الشيخ البنا قد زارك فى ليلة مقتل النقراشى باشا وقال لك : لقد انتهى الامر ورد الينا اعتبارنا ؟ لقد أشيع هذا الكلام ووصل الى مسامع رئيس الوزراء ، وقال انه دهش لهذا الحديث ···· قال : ونفيت هذا الحديث لمحدثى ولم أعلق على الامر أهمية ، حتى حدثنى أحد الوزراء بعد ذلك بنفس هذه المعانى قائلا انه لا يستطيع أن يدافع عنى لدى الحكومة بعد ذلك لان رئيس الوزراء غاضب عليك لما نقل اليه من أمر هذا الحديث الذى أكد له أنك ممن يناصرون دعوة الاخوان ·

● وطنية صادقة :

وقال : ان التاريخ يشهد على صدق وطنية المصريين · وانه لم يحدث أن حوكم مصرى لانه خان وطنه ، وانما للاسف الشديد يقدم المصريون للمحاكمة لانهم أرادوا أن يقفوا فى وجه الانجليز مطالبين بحقوقهم ·

* * *

ثالثا – فى قضية جودة والاوكار :

لم تكن فى هذه القضية معالم ذات بال فيما يتصل بالسياسة العامة والافكار الوطنية والاجتماعية بخلاف القضية السابقة ولكن هذه القضية كانت ذات معلمين بارزين هما تحريك بل احياء التحقيق فى قضية اغتيال الاستاذ الامام حسن البنا ثم فضح أساليب التعذيب ·· وقد افردنا لفضح أساليب التعذيب فصلا مستقلا ··· ولذلك نقتصر فى هذا المقام على الاشارة الى نقاط فى هذه القضية أكثرها يتصل بقضية الاستاذ الامام ·:

● طلب ضم قضية اغتيال الامام :

الاستاذ نافع — (فى جلسة ٦-١١-١٩٤٩) أطلب ضم أوراق التحقيق فى مصرع الشيخ حسن البنا ٠

رئيس المحكمة — ما هى الحكمة فى ضم أوراق هذا التحقيق ؟

الاستاذ نافع — لقد اغتيل الشيخ البنا فى ١١ فبراير الماضى ، والحادث المنظور أمامنا وقع فى ٥ مايو ٠ ومن الطبيعى أننى سأتعرض فى دفاعى للباعث على الجريمة ٠ ولقد كان الشيخ البنا مرشدا عاما للاخوان ٠ ولقيام الشكوك حول موقف الحكومة من مصرعه وزنه فى تقدير الباعث فى قضيتنا وأنا لا أطلب ضم أوراق حادث مصرع الشيخ البنا فحسب بل أطلب نسخه وتوزيعه ٠٠ والشهود قد أدلوا بأن الهدف من الاعتداء لم يكن حامد جوده بل كان ابراهيم عبد الهادى ٠

ان الشيخ البنا قد قتل فى ظروف غامضة للغاية ، ومثيرة للريبة ٠ وهناك شاهد فى حادث مصرعه هو محمد الليثى أفنـدى (رئيس القسم الرياضى بجمعية الشبان المسلمين) فقد قرر عند سؤاله أنه عقب اغتيال الشيخ البنا أخبره على الفور شخص برقم السيارة التى ارتكبت بها الجريمة ٠ وان المساعى بل الجهود قد بذلت من جانب البوليس السياسى بالوعد والوعيد والتهديد بأنه اذا لم ينزل عن هذا القول الخاص برقم السيارة فانه سيكون فريسة للاعتقال ٠٠ وبرغم ذلك فقد أرشد الليثى أفندى عن رقم السيارة ٠٠ وتبين انها خاصة برئيس القلم الجنائى بوزارة الداخلية وهو الضابط محمود عبد المجيد بك — وفجأة طويت أوراق التحقيق ٠٠ فالامانة لموكلى على تنقاضانى ان الحف فى ضم هذه التحقيقات ٠

الدكتور عزيز فهمى — أؤيد طلب ضم أوراق مصرع المرحوم الشيخ حسن البنا ٠ وأن ما ذكره الاستاذ عبد المجيد نافع عن محمد الليثى أفندى جعل الليثى فى خطر محقق ومن المحتمل قتله — وأنا أحمل فى حالة وقوع اعتداء على حياة الليثى أفندى المسئولية للصاغ الجزار وكذلك مدير المباحث الجنائية الذى استخدمت سيارته فى قتل المرحوم الشيخ حسن البنا ٠٠ وحبذا لو رأت النيابة من جانبها أن تعمل على حماية الليثى أفندى ٠

(وأحنى الاستاذ فتحى مرسى ممثل النيابة رأسه بما معناه « حاضر » ٠

● طلب ضم نسخة من جريدة « المصرى » الصادرة :

الاستاذ طاهر الخشاب — أطلب ضم نسخة جريدة « المصرى » التى

صدرت صباح يوم مقتل الشيخ البنا وصودرت الطبعة الاولى منها • وهذه النسخة موجودة الآن بادارة المطبوعات • ولها أهميتها الكبرى لان فيها مفتاح الجريمة • وأؤكد أن هذه النسخة كان بها رقم السيارة التى ارتكبت بها الحادث مصودرت لذلك ، وظهرت الطبعة الاخرى وليس فيها رقم السيارة •

الرئيس ـ ما هى العلاقة بين ما تذكر والقضية •

الاستاذ طاهر الخشاب ـ ان جرائم القتل ـ وأنتم ائمة القانون ـ يبحث فيها عن الباعث • فاذا كان صحيحا ما قيل من أن الحكومة هى التى دبرت اغتيال الشيخ البنا ، وأنها أهملت التحقيق ، وأنها تسترت على المجرم بمصادرة « المصرى » مع أن فيه الدليل المادى الذى كان يمكن أن تسير وراءه النيابة •• فان موقف الحكومة هذا يكشف لنا عن الباعث فى هذه القضية • وأنا مصر على طلب هذه النسخة •

ثم قال : ان النيابة تقول عن حادث سليم زكى باشا ان شخصا أبلغ عن نفسه فحقق معه ، ولكنى كنت فى المعتقل ، وقد مر على فيه جميع المتهمين وذكروا لى أن هذا الشخص أدلى باعترافات وبأسماء أشخاص خارجة عن المحضر الذى اثبت فيه أقواله ، وأتى بسلسلة من الشخصيات نتيجة تعذيبه •

الاستاذ البيطاش (ممثل النيابة أيضا) ـ لا لا •• لقد ذكر فى أول بلاغه انه ارتكب الحادث مع آخرين ذكر أسماءهم •

الاستاذ الخشاب ـ اصر على أنه اعترف على أشخاص غير الواردين فى بلاغه ، فبدأت الاعترافات تنتزع من هؤلاء الاشخاص •

● **قضية الاستاذ الامام تصور الجو الذى صدرت فيه الاعترافات :**

الاستاذ عبد الفتاح حسن ـ ان الدفاع يرجو على الاخص ضم قضية مقتل الشيخ حسن البنا لانها ليست متعلقة بالباعث فى قضيتنا فحسب ، بل انها تصور الجو الذى صدرت فيه الاعترافات • وما دام المحققون فى قضية مقتل الشيخ البنا حاولوا أن يلتوى شاهد عن السبيل القويم ، فلا يكون هناك عجب اذا قيل ان هناك اجراءات قصد بها ابعاد التهمة عن الهيئة الحاكمة وقتئذ •

ولقد فوجئنا باعترافات قال فيها كل معترف « ألقيت قنبلة انفجرت وقصدت بها الاصابة » وهذا الاسلوب لا يعرفه متهم ، وانما يعرفه الذين

يكيفون الواقعة ويصفون التهمة ٠٠ وتلك هى وظيفة النيابة العمومية ، فهذه الاعترافات لم يكن للمتهمين بها شأن سوى تحريك ألسنتهم ٠

الاستاذ نافع ـ ان هذه القضية ليست قضية هؤلاء المتهمين ، بل هى قضية حكومة متمدينة أو غير متمدينة لم نر لها مثيلا فى عصور الهمجية والوحشية ـ ان الذى قيل ان الهدف من هذه الجريمة التى نحن بصددها هو ابراهيم عبد الهادى ، لان يده انغمست فى جريمة مقتل الشيخ حسن البنا ٠ ويجب أن اقرا القضية وابحثها بعناية لكى أرتب دفاعى كما ينبغى ، ويجوز ان أطلب ابراهيم عبد الهادى للشهادة ، وقد يوفى التحقيق بسماع شهادة امثال محمد زكى على ومصطفى مرعى وصالح حرب ومحمد الناغى ومصطفى الشوربجى ٠

الاستاذ سامى عازر ـ أطلب التصريح باعلان شهود نفى وهم الواردة اسماؤهم فى عريضة مصطفى الجابرى السابق تقديمها قبل الجلسة ، ويضاف اليهم والد الشيخ حسن البنا ومعالى مكرم باشا لسماع شهادتهما عن الطريقة التى شيعت بها الجنازة ودفن بها القتيل ٠ (استجابت المحكمة لهذا الطلب)٠

● **تليفونات جمعية الشبان المسلمين كانت مراقبة بأمر :**

الاستاذ طاهر الخشاب ـ (فى جلسة ٥ـ١٢ـ١٩٤٩) ان تليفونات جمعية الشبان المسلمين كانت موضوعة تحت المراقبة ، وأطلب ضم التقرير الذى أرسل الى المراقبة فى هذا الشأن فى الفترة ما بين الساعة الخامسة مساء يوم اغتيال الشيخ حسن البنا الى الساعة العاشرة من مساء اليوم التالى :

الرئيس ـ وما علاقة ذلك بالقضية ؟

الخشاب ـ ان قضية اغتيال الشيخ البنا ضمت الى قضيتنا ٠

الرئيس ـ ذلك لما قد يتناوله الدفاع عن الباعث ٠

الخشاب ـ ولكن الاهم أن أقدم مثلا على تصرفات الحكومة فى ذلك العهد ـ تلك الحكومة المفروض فيها المحافظة على الامن ـ والثابت فى تحقيقات مقتل الشيخ البنا أنه وقت مصرعه كانت تليفونات جمعية الشبان المسلمين تدوى باصوات رجال القلم السياسى تسأل عما اذا كان الشيخ البنا قضى نحبه ام لا يزال فيه نفس يتردد ٠

● **الحاكم العسكرى استغل الاحكام العرفية لمحاربة خصومه السياسيين:**

الاستاذ فتحى رضوان ـ : دفع بعدم اختصاص المحكمة العسكرية

بنظر الدعوى وأفاض فى البحث القانونى) وجاء فى دفعه : ان الدفاع يتهم الحاكم العسكرى - ولا داعى لذكر اسمه) - بأنه خرج عن سلطته التى منحها، ومسخ النص الذى أقامه ، فبدلا من أن يصدر أوامر حربية للاطمئنان على الجيش المصرى أصدر أوامره لمحاربة خصومه السياسيين •

ولقد أغنانا ذلك الحاكم العسكرى عن البرهنة على صحة هذا الاتهام • فقد أذاع عن طريق مكتبه ردا على النحاس باشا رئيس الوفد ، فجعل يتكلم فى بيانه عن عصابات الاخوان المسلمين لا عن عصابات الصهيونيين ، وعن الاسلحة والقنابل فى أوكار الاخوان لا عن ذخائر وأسلحة الجيش المصرى • فهو فى صراحة يعلن أن الدافع لهذه الاحكام العرفية لأ أنه يريد حماية ظهر الجيش المصرى ، ولا لانه مشغول البال بحركات جيشنا فى الميدان ، وانما ليحارب الاخوان المسلمين وغيرهم من خصومه السياسيين •

ولا يصح اطلاقا أن يأتى رئيس وزراء على خلافات سياسية مع غيره وهو فى هذه الخلافات لا يريد أن يترك مقاعد الحكم •• حتى انتهى الامر به الى ما يشبه الاقالة - لا يصح أن يسخر الاحكام العرفية فى مآربه الشخصية•

ان الشعب جميعه كان يعلم ، وكان مقتنعا بأن الاحكام العرفية لم تكن لسلامة الجيش • بل ان هيكل باشا - وهو رئيس حزب مشارك بحق النصف فى هذه الوزارة ، وهو أيضا رئيس مجلس الشيوخ أى رئيس الهيئة التشريعية - هذا المسئول الكبير قال قولا له قيمته القانونية لنا - فقد قال :

« انه يعلن أنه دائما كان ضد الاحكام العرفية والرقابة على الصحف • وضرب سعادته مثلا بأن الحكم فى مسألة اعلان الاحكام العرفية انما كان قائما على المعلومات التى رأى رئيس مجلس الوزراء وقتئذ شخصيا أن يلقيها على زملائه الوزراء » •

وعلق الاستاذ فتحى على حديث هيكل باشا قائلا : ان سعادته يعلن ويعنى أن الحاكم العسكرى قال كلاما للوزراء فهموا منه أن الحالة فى فلسطين تستدعى مد الاحكام العرفية ، وأنه استطاع بعد ذلك هيكل باشا أن يعرف أنهم كانوا مخدوعين ، وأن الحاكم العسكرى أعطى لهم بيانات غير صحيحة •

وقال الاستاذ فتحى : ان الحاكم العسكرى فى هذه الفترة (الانتخابات) فى اجازة • ولا يجوز أن تنظر محكمة عسكرية دعوى فى خلال هذه الاجازة •

وقد قررت المحكمة ضم الدفع الى الموضوع مع التصريح بتقديم مذكرات •

● من شهادة الاستاذ حامد جودة :

حضر فى جلسة ١٨-١٢-١٩٤٩ وقرر فى شهادته ان المقصود بالاعتداء لم يكن هو بل كان ابراهيم عبد الهادى . وقال انه لما وصل منزله اتصل بعبد الهادى ليحذره فوجده قد سبقه .

الاستاذ مختار عبد العليم — هل تتولى حضرتك الاشراف على جريدة « الاساس » ؟

الشاهد — تقريبا .

الاستاذ مختار — هل تذكر انه نشر بها مقال عقب مقتل النقراشى باشا بانه يجب مقاومة العناصر الارهابية بالطرق المشروعة وغير المشروعة ؟

الشاهد — مش متذكر .

الاستاذ مختار — ما السبب فى اعتقادك ان المقصود بالحادث هو ابراهيم عبد الهادى ؟

الشاهد — لانه هو الذى يقاوم الاخوان المسلمين .

المحكمة — من الذى تعتقد انه يقوم بهذه الحوادث ؟

الشاهد — الحوادث التى وقعت كانت من فعل خليط من الشيوعيين والصهيونيين والاخوان . وأن الثلاثة امتزجوا ببعض .

الخشاب — ما الدليل على ذلك ؟

الشاهد — لان جمعية الاخوان كانت تصرفه مبالغ كبيرة .

تم ساله المحامون عما اذا كان قد اتهم فى حوادث قتل او اوى مجرما فقال : انا الذى سلمت الخط .

الفصل الرابع

البوليس السياسي والتعذيب

مقدمة

أنشىء البوليس السياسى فى مصر ليكون أداة لتثبيت أقدام الاحتلال البريطانى فيها ، فهو من ناحية الشكل جهاز من أجهزة وزارة الداخلية المصرية ، وأعضاؤه ضباط وجنود وموظفون مصريون جنسية ، ولكن أعمالهم وجهودهم وأهواءهم وولاءهم للمستعمر ، الذى يعتقدون فيه ما يعتقد المؤمن فى ربه ٠

وكانت الرياسة الرسمية لهذا الجهاز فى أول الامر لغير المصريين ، فلما أبدت شخصيات من العاملين فى هذا الجهاز من المصريين نضوجا فى خيانة بلادهم وتفانيا فى الاخلاص للقائم فى السفارة البريطانية أسندت الرياسة الرسمية للمصريين ، فبذ هؤلاء الرؤساء المصريون أسلافهم الاجانب فى التسلط الاجرامى على الشرفاء من مواطنيهم تسلطا أذهل سادتهم الانجليز أنفسهم ٠

والعجيب هو أن الحكومات المصرية المتعاقبة كانت تعلم عن هذا الجهاز هذه المعلومات ، ومع ذلك لم تجرؤ واحدة منها على المساس به أو حتى على الاحتجاج عليه ، بل ان بعضها كان يستخدمه فى الكيد لمنافسيه على كراسى الحكم ٠٠ ولم تكن السفارة البريطانية ـ صاحبة الجهاز الحقيقية ـ تعارض فى ذلك ، لان هذا كان لحسابها اذ هو فى نطاق اللعبة التى اخترعتها ليتلهى بها الزعماء عن المطالبة بحقوق بلادهم ٠٠ ولكن الاساليب التى كان يتبعها الجهاز فى هذه الحالة بالذات لم تكن تتعدى فض اجتماع أو التصنت عليه ، أو مصادرة عدد من صحيفة أو منشور ، أو مضايقة سياسى فى تنقلاته ٠

واعمال البوليس السياسى الآثمة ـ ومجرد وجوده اثم ـ كانت موضع سخط الشعب باعتباره أداة للتجسس عليه ، ونقل اخباره وتحركاته بل وهمساته الى المستعمر ٠٠ ومع ذلك فان هذا الجهاز كان يعتبر هذه الاعمال ان هى الا مداعبات اذا قيست بما خول من سلطات لا حدود لها ٠٠ ولكن

سادته الانجليز كانوا يرون أن ما بقى فى هذا الشعب من رمق لا تستدعى مكافحته بأكثر من هذه الداعبات .

فلما فوجىء المستعمر بحيوية مفاجئة فى هذا الشعب ، نمت وترعرعت فى غفلة منه . نموا لم تعد الاساليب المعتادة كافية لمكافحته ، فان وجود المستعمر نفسه أصبح مهددا أمام هذا النمو الفارع المباغت .. اخذ فى استجماع قواته المصرية شكلا ليقابل بها السيل الجارف الجديد من الحيوية المتدفقة .. فاشار الى حكومة عميلة حاقدة ، فأتته طائعة جاثية ، ووضع فى خدمتها وتحت امرتها رجاله الخلصاء من البوليس السياسى ، على أن يهيىء رئيس هذه الحكومة لهم الجو المغلق باعلان الاحكام العرفية ، وعلى ان تكون أبواب خزانة الدولة مفتوحة لهم على مصاريعها .. لان هذين معا — الجو المغلق والخزانة المفتوحة — هما الوقود الدافع لهم ، والمحرك لاحط الغرائز فيهم ، حتى يحققوا الغاية التى من أجلها انشىء جهازهم،وهو ازالة كل ما من شأنه أن يهدد وجود المستعمر أو يعكر صفوه .

فاندفعوا بأحط غرائزهم اندفاع الذئاب الجائعة ، ففعلوا بالشباب الطاهر من الوطنيين المؤمنين الشرفاء ما يعجز الخيال عن تصوره من اساليب الاجرام ، وضروب الوحشية ، غير عابئين بشرف ولا مكترثين بعرف ولا قانون .

وقد رأيت حين أفردت هذا الفصل لعرض هذه الاساليب الوحشية ان لا أتدخل فى وصفها بكلمات من عندى أو بعبارات من قلمى حتى لا اتزيد فى الوصف ولا أقصر عنه .. ورايت أن أدع هذا الوصف لاولئك الذين عانوا من هذه الوحشية ، وكانوا فرائس لهذه الوحوش الآدمية الضارية ..

وليس معنى ذلك أننى آتى فى هذا الفصل على كل من عانوا ولا على كل ما عانوا — فهذا مالا يتسع له الكتاب بجميع صفحاته — لكننى اجتزىء بقليل من كثير على سبيل الامثلة والنماذج التى يهتدى القارىء بها الى ما وراءها .

أولا — فى قضية النقراشى :

● **المتهم محمد مالك :**

فى جلسة ٢٩—٨—١٩٤٩ طلب المتهم محمد مالك من رئيس المحكمة السماح له بالكلام فقال : انه لما اعتقل فى الاسكندرية جاءوا به موثق اليدين والرجلين الى المحافظة فقال له الاستاذ عبد الرحمن عمار وكيل وزارة الداخلية « أنا عمار عدو الاخوان » ثم امر رجال البوليس بتعذيبه . فانهالوا عليه بالضرب المبرح — ولما جىء به الى القاهرة اجتمع عليه ضباط القسم

السياسى ورفعوا رجليه بعد ربطهما وانهالوا عليه ضربا فى كل جسده ، وكانوا يدوسون على وجهه بأحذيتهم ، ثم شفعوا ذلك بلفحات من الكرابيج، وكان يغمى عليه ويود أن لايخرج من اغمائه حتى لا يشعر بهذا العذاب •

وخيروه بين تأييد رواية عبد المجيد وبين التعذيب ، وأعدوا له حجرة تعذيب •• ولما أدركوا أنه لم يعد يستطيع الشى أجبروه على أن يجرى ، ولما لم يستطع الوقوف أرغموه أن يقف ساعات ، وكان يترك الاسابيع دون ان يغتسل أو يبدل ملابسه •

وهنا وقفت والدة مالك وفى يدها رباط شاش وقالت ان ابنها كان كل جسده جروحا • فأسكتها رئيس المحكمة •

وكان مالك يروى بتأثر وحنق ويقول انه عاجز عن تصور ما كان يعانيه من عذاب حتى تلفت أعصابه وكان يضرب بالحديد نعله ينطق ، وكان البوليس يوجه اليه كلمات مقذعة خبيثة ، واستعانوا بصغار اخوته ليرغموه على الاعتراف •

فسأله الرئيس : ولماذا لم تخطر النيابة وقد حقق معك أكثر من مرة ؟

مالك ـ بلغت اسماعيل عوض بك رئيس النيابة بلا جدوى كما بلغت محمد عبد السلام بك •

محمد عبد السلام ـ عندما بلغنى المتهم أحلته على الكشف الطبى •

دكتور عزيز فهمى لقد عذب أيضا بعد الكشف •

وقال مالك انه لم ينج من التعذيب حتى فى الشوارع أثناء ذهابه للتحقيق •

الرئيس ـ وكيف ذلك ؟

الاستاذ أحمد حسين ـ ثابت أن المتهم كان يقاد الى التحقيق وهو يرتدى جلبابا وحافى القدمين •

● المتهم محمد نايل :

وفى نفس الجلسة قال المتهم محمد نايل أمام المحكمة انه كان يضرب على قفاه من ضباط القلم السياسى وهو جالس فى الغرفة المجاورة للمحقق ، وانه اخذ بحجة التحقيق معه فى النيابة واقتيد الى قسم عابدين ، حيث هدده رجال القلم السياسى بتشريح جسمه اذا لم يعترف •

وقال انه بعد أن نال ضربا مبرحا أخذ مكبلا الى غرفة الحكمدار ، فوجد فيها ابراهيم عبد الهادى باشا ، فدهش لوجوده ٠٠ ويظهر أن رئيس الوزراء لاحظ تلك النظرة فقال له « بتبص لى كده ليه ؟ انت عندك حاجة يا واد ؟ » ثم أمر باخراجه حيث ضرب بالفلقه ٠

وقال المتهم ان لديه شاهدا على هذا التعذيب وهو أمان الله خان ٠

الرئيس ـ من ملوك افغانستان ؟

نايل ـ فعلا من الاسرة المالكة الافغانية ، وكانت له قضية يعرفها القلم السياسى ٠

☐ **عدم اثبات الاصابات :**

وقال نايل انه لما توجه الى سجن مصر ، رفض الطبيب أن يثبت اصاباته ٠ فلما ألح عليه اكتفى بوصفها « قراحات » ٠ وقال ان هذه المعاملة الهمجية الظاهرة جعلته يطمع فى حمى النيابة ـ وهو يعتقد أنها ستنصفه ـ ولكن لما استدعاه اسماعيل عوض بك رفض أن يسجل اصاباته بناء على طلب القلم السياسى ٠

☐ **عمليات تعرف مزيفة :**

وقال ان عمليات التعرف عليه كانت مزيفة ، فان الشخصين اللذين تعرفا عليه كانا قد اجلسا قبلا بجواره طيلة ساعة كاملة ٠

☐ **صمت مخجل :**

وقال ان هناك أشياء أخرى يخجل من ذكرها أمام الناس ٠

وفى الجلسة التالية المنعقدة يوم ٣ـ٩ـ١٩٤٩ بدأ الحديث الدكتور عزيز فهمى المحامى فقال : ان المحكمة تفضلت فى الجلسة السابقة بالاستماع الى أقوال المتهمين مالك ونايل ٠ وقد اتضح من هذه الاقوال أن بعض المتهمين كان هدفا للتعذيب لحملهم على الامضاء باعترافات معينة ٠ وقد رأت المحكمة آثار هذا التعذيب على أجسامهم ، **ووصف الرئيس هذه الآثار بأنها لا تزول** مع الزمن ـ واستطرد الدكتور عزيز فقال : ولم يكن التعذيب جسمانيا فحسب ، بل كان البعض هدفا لجرائم من نوع آخر يمس أعراض المتهمين وأعراض اخواتهم وأمهاتهم وزوجاتهم ، كما اشار الى ذلك كل من مالك ونايل وامسكا اللسان عنها استحياء ٠ ثم طلب الدكتور عزيز من المحكمة أن تسمع

أقوال المتهمين فيما وقع عليهم من اعتداءات تمس الاعراض وتحقيقها لمحاكمة مرتكبيها طبقا للقانون • (ودارت مناقشة بين الدكتور عزيز فى ذلك وبين رئيس المحكمة رفض فى نهايتها رئيس المحكمة طلبه بالتحقيق فى التعذيب)

□ **لا حياء فى القانون :**

وقال الدكتور عزيز : ان المتهمين يريدان الادلاء بأقوال للمحكمة ، ومن حقهما أن يطلبا الاستماع الى هذه الاقوال • ولقد منعتهما المحكمة فى الجلسة الماضية من سرد ما ارتكب ضدهما ويمس الاعراض بحجة أنه يتضمن عبارات نابية ، مع انه لا حياء فى القانون كما أنه لا حياء فى الدين •• واصر الرئيس على عدم سماع المتهمين • فتساءل الدكتور عزيز عما اذا كانت المحكمة ترفض سماع متهم ولا تريد أن تستنير •• وقال ان الجرائم التى أشار اليها المتهمان تحمل مرتكبيها مسئولية جنائية عقوبتها الاشغال الشاقة او السجن ••• ومع ذلك أصر الرئيس •

● **المتهم عبد الفتاح ثروت شاهدا :**

وفى خلال جلسة ٣ــ٩ هذه استمعت المحكمة الى ثلاثة من المتهمين فى قضية اسيرة الجيب ــ بناء على رأى رئيس المحكمه ــ كشهود فى هذه القضية ، ومن هؤلاء الشهود عبد الفتاح ثروت الذى قرر انه راصد جوى • وما ان سألته المحكمة عن معلوماته فى القضية حتى اندفع يروى قصة تعذيبه•

وقد استهل كلامه قائلا انهم عذبوه ــ وكشف للمحكمة عن آثار التعذيب فى قدميه ــ ثم قال انه ارتكبت معه أعمال منافية للاداب •

الرئيس ــ بس •• بس •

الدكتور عزيز ــ نريد أن نسمع الشاهد •

الرئيس ــ ستسمعون ولكن ليس فى جلسة علنية •

واستانف الشاهد كلامه فقال انه كان يعذب بالضرب فى سجن الاجانب والمحافظة • وكانوا يجبرونه فى حجرة التعذيب على الوقوف من الصباح الى المساء حتى لا ينام • كما قبضوا على أقاربه ونكلوا بهم •

□ **اصبحت محطما :**

واستطرد يقول : لا يمكن أن أصور الآلام التى قاسيتها •• لقد كنت فى عملى الحكومى نشيطا ، أما الآن فقد تحطمت اعصابى ، وأصبحت فريسة

للنوبات والاضطرابات ، ولم يعمل لى طبيب السجن شيئا ٠٠ وأنا أتناول أدوية من الخارج ٠

□ تعذيب أمام النائب العام :

وقال : لقد كان رجال البوليس السياسى يحضرون التحقيق ويهددونني بعد تعذيبي ، وذلك أمام سعادة محمود منصور باشا النائب العام السابق ، وقد شكوت له فقال لى :

« لا تتعب نفسك بالشكوى فنحن نعرف والحكومة تعرف وسوف نشرحك » ٠

□ وأمام ابراهيم عبد الهادى :

واستأنف يقول : وقاموا بضربي يوما ثلاث مرات فى المحافظة ومرة فى النيابة ، وأخذوني لابراهيم عبد الهادى باشا فقال لى « تكلم أحسن لك علشان تطلع كما طلع غيرك » ـ وقال الشاهد : انه لانهيار أعصابه وقع على أوراق لا يدرى ما فيها ٠

وأجاب الشاهد على سؤال لغنام بك المحامى بأنه دخل على ابراهيم عبد الهادى باشا وملابسه ملوثة بالدماء فقال له « يا ولد انت عارف حتتكلم ازاى ولازم تقول كل حاجة » ثم أخرج بعدها الى غرفة التعذيب ٠ وقال : انهم كانوا ينصحون له بأنهم يعرفون كل شىء عن عائلته فقالوا له ان أخته مريضة بالسكر وانهم شردوا والده ٠٠ وقال ان البوليس طلب منه أن يذكر كلاما عن مالك وأن يتهمه بالاشتراك فى الحادث ٠

وأجاب على سؤال آخر لغنام بك بأنه قابل ابراهيم عبد الهادى باشا ثلاث مرات ٠ وكان البوليس يهمس فى أذنه قبل المقابلة أن الباشا فى يده كل شىء ٠ وكان الباشا يلح عليه فى ان يتكلم ٠

وقد وافقت المحكمة على احالة الشاهد الى الكشف الطبى ٠

□ الاستاذ على منصور يطالب المحكمة بتحقيق التعذيب أو ايقاف المحاكمة

وقد طالب الاستاذ على منصور المحكمة بتحقيق التعذيب أو ايقاف المحاكمة حتى تقوم النيابة بهذه المهمة حتى ترى المحكمة ما يلقيه هذا التحقيق من ظل ـ وعقب على النيابة ان التعذيب تم بحضورها ٠٠ كما هاجم تقرير الكشف الطبى على « مالك » حيث قرر أنها مجرد تسلخات بسيطة من

اثر القيد الحديدى وأنها لا تحتاج الى عـلاج بل تزول من نفسها على مرور الايام ·

وقال الاستاذ على منصور : لقد جانب هذا التقـرير الحقيقة مجـانبة سـافرة ، اذ أن الآثار التى يكشـف عنهـا « مالك » أمام المحــكمة ليست بالتسلخات البسيطة ، ومنها ما هو بالفخذ مما لا يعقل أن يكون من القيد الحـديدى ·

وقال انه يتمسك بتحقيق التعـذيب اثبـابت من الآثار المـادية التى شاهدها الجميع فى قاعة الجلسة ، كما ان لدى « مالك » شهـودا على وقائـع تعذيبه هم الدكتور جمال عامر والشيخ محمد جبر وسيد أفندى شامه ومحمد أفندى أمين حنفى ·

□ يتهم البوليس السياسى بأنهم قتلوا متهما ودفنـوه :

ثم قال الاستاذ على منصور : والدليل على ذلك أيضا انه قد توفى بين أيدى الجلادين أحد الشقيقين أحمد عبد النبى أو محمد عبد النبى ، وذلك بدار محافظة الاسكندرية حيث تولت الادارة دفنه فى مكان مجهول ثم أخطرت أهله ·

واستطرد يقول : هى حقائق مقتطفة من كثير مما ثبت لدى ولا أستطيع بيانه خوفا على مراكز من يعرفنى بها · وفى هذا الكفاية أضعه أمام الضمائر الحية لحضرات المستشارين والضباط العظام لتقديرها ·

□ الدكتور عزيز فهمى يقول «هذا التعذيب لم يقع مثله فى القرون الوسطى»

فى جلسة ٢٦ـ٩ـ١٩٤٩ جاء فى مرافعة الدكتور عزيز فهمى عن التعذيب قـــوله :

« ان هذه الجرائم التى يتحدث عنها الناس فى الاندية العامة والخاصة، لم نسمع لها مثيلا من قبل ، فلقد كان عهد فلبيدس وبدر الدين ومن اليهما من الطغاة والمستبدين ـ الذين وصفت محكمة النقض والابرام عهدهم بأنه كان اجراما فى اجرام ـ عهدا انسانيا بالنسبة لهذا العهد الاخير ·

ولقد كان فلبيدس وبدر الدين ومن اليهما ملائكة رحمـة اذا قـورنت جرائمهم بهذه الجرائم ـ ان هذه الجرائم لا يمكن ان يرتكب مثلها فى بـلاد الهمج ، ويستحيل أن يكون مثلها قد وقع فى القرون الوسطى أو فى المجتمعات البدائية دون ان ينال مرتكبوها جزاءهم الصارم ·

ثانيا ـ فى قضية السيارة الجيب :

فى جلسة ١٩ـ١٢ـ١٩٥٠ استمعت المحكمة الى ثلاثة من المتهمين فى

قضية الاوكار وجودة باعتبارهم شهود نفى فى هذه القضية وهم سعد جبر التميمى ومصطفى كمال عبد المجيد وعبد الفتاح ثروت ٠

● **سعد جبر — ضربونى بالحذاء فى وجهى :**

قال انه استأجر فيلا الزيتون ، ولم تكن الاجهزة التى بها هى لمحطة اذاعة كما أذيع وانما هى أدوات لمشروع تجارى خاص بتسجيل اسطوانات المطربين فى مصر بدلا من الخارج ٠ وقال انه اعتدى عليه بالضرب حتى منتصف الليل على يد الصاغين (الرائدين) توفيق السعيد وعبد المجيد العشرى والجاويش مصطفى التركى الذى كان يضربه بالحذاء فى وجهه ٠

● **مصطفى كمال — علقت كالذبيحة وشوونى بالسجاير أمام عبدالهادى:**

قرر أن كل ما نسب اليه فى التحقيقات هو من املاء اللواء طلعت بك بعد تعذيبه — وقال : علقونى فى شباك القسم زى الذبيحة ، ولما صرخت شوونى بالسجاير المولعة — وجاء ابراهيم عبد الهادى باشا فاستغثت به ولكنه لم يعبأ بى واشار على ضابط ضخم معه لمواصلة تعذيبى قائلا : شرحوه ٠

كما انهم لميسمحوا لى بالنوم ابدا ٠ وقد حاصرنىضابطان كانا يبادرانى بصفعى كلما همت عينى بالنوم وكانوا يجعلونى أوقع على أوراق وأنا كالجثة الهامدة — وقد استغثت بحضرة المحقق محمد عبد السلام بك فلم يعبأ بى وتخلى عنى ٠

● **عبد الفتاح ثروت مرة أخرى :**

ولما كانت حالته لاتمكنه من أداء الشهادة واقفا فقد سمحت له المحكمة بالجلوس على مقعد ٠ وقد قرر أنه لم يعترف بأى شىء فى التحقيق وان التعذيب جعله فاقد الشعور ٠

☐ **جردونى من ملابسى :**

وروى بصوت مرتعش ضعيف صنوف التعذيب فقال : ان اللواء طلعت بك هدده بالتشريح اذا لم يعترف قائلا : ان البلد فى أحكام عسكرية — ثم قال : واخذونى الى غرفة الضابطين العشرى وفاروق كمال وجردونى من ملاسى ونزلوا فى ضرب من تسعة مساء الى أربعة صباحا ٠

☐ **الفلكة انكسرت :**

ولقد قسموا انفسهم اربع مجموعات ، كل مجموعة من ١٢ عسكرى

ضابط ، ووضعوا رجلي في الفلكة واستمر الضرب حتى ان الفلكة انكسرت . ثم استعملوا كرابيج الهجانة .. ولما أفقت من اغمائي قال لي طلعت بك : هذه هي الجولة الاولى والبقية تأتي .

□ أمر بالموت :

وأخذوني الى ابراهيم عبد الهادي باشا فقال لي : انا عندي أمر انى أموتك .. ثم أمر بموالاة تعذيبي . وكان التعذيب على أربع درجات : بالضرب بالعصي والكرابيج ثم الكي بالنيران ، وأحضروا سيخ حديد محمي ولكن الضابط محمود طلعت طلب من الضباط ان يكفوا عني قائلا : ده صاحبي وسيعترف بكل شيء ... ثم نمت على الاسفلت فكانوا يطرقون الباب حتى يهرب النوم من عيني . وما كانوا في حاجة الى ذاك لانني لم أكن أستطيع الرقاد على أي جزء من جسمي المشوي كله .

□ اعتداء منكر :

ثم طالبوني بالاعتراف وهددوني ان لم أفعل أن يعتدوا على اعتداء منكرا . وفعلا تقدم واحد يريد الاعتداء على .. فقلت له : أنا أعرف انني لا استطيع مقاومتك . وأنت يمكنك أن تفعل معي هذه الجريمة . ويمكنك أن تنجو من عقاب القانون .. ولكني أريد أن أقول لك قبل أن تبدأ : ان الله لن يترك هذه الجريمة بلا حساب ... فابتعد عني .

□ هاتوه اخرس : وظل تعذيبي .. وتلفت أعصابي .. وكنت لما أذهب الى اسماعيل عوض رئيس النيابة وأشكو له يضرب الجرس ويأتي الحرس فيقول لهم هاتوه لي أخرس خالص .

□ أنا الحاكم العسكري :

وجاءني ابراهيم عبدالهادي باشا ٤ مرات وقالي: انا ابهدلك وابهدل أهلك. وأنا الحاكم العسكري . كما جاء النائب العام محمود منصور باشا فلما تقدمت له شاكيا قال : انا عارف كل حاجة . وتركني .

□ حفظة الامن :

وقال: ان من الغريب حقا انني حينما حضرت اليوم لاداء الشهادة وجدت بعض رجال البوليس السياسي معهودا اليهم المحافظة على الامن . وكنت أعتقد أنهم الآن أمام المحاكمة لمعاقبتهم على ما ارتكبوه من آثام .

الرئيس ـ هل طلبوا منك أقوالا معينة ؟

الشاهد ـ نعم ٠٠ أن أقول اننى أعرف مالك وعاطف واننى مشترك فى الاعتداء على حامد جوده ٠

□ **نوبة عصبية :**

وما كاد المتهم ينتهى من هـذه العبارة حتى ارتجـف بدنه وحملـق فى الهواء وأصيب بنوبة اغمائية ، وجعل يرسل شهيقا عصبيا مؤلما أبكى معظم الحاضرين فى القاعة ـ وبادر رجال البوليس برش المـاء على وجهه ، كما خف اليه طبيب من الموجودين وحملوه الى الخارج ٠

وقد وافقت المحكمة على اثبات ذلك فى المحضر ٠

● **عبد المجيد نافع يقول : أقسم ان عبد الهادى كان يحضر التعذيب :**

تحدث الاستاذ عبد المجيد نافع فى مـرافعته عن الاعترافات والتعـذيب فقال : ان التواتر يعتبر حجة ٠ والذى تواتر على الالسنة أن حوادث تعذيب مروعة كانت تقع على كثير من المتهمين ٠ بل كان الناس يتناقلون فى مجالسهم الخاصة والعامة أن هذا التعذيب كان يقع بأوامر من ابراهيم عبد الهـادى باشا أو على الاقل بمعرفة منه أو على أقل القليل كان يصادف هوى فى نفسه ٠

ولقد مثل ابراهيم عبد الهادى باشا بين أيديـكم ، واعتصم بالانـكار البات فيما تعلق بوقائع التعذيب ، ولكن عبد الهادى باشا انسان ، وقد كان رئيس حكومة ووزير الداخلية فلا يعقل ان يعترف أمام الرأى العام بأنه كان يأمر بالتعذيب ٠

لقد أقسم عبد الهادى باشا بشرفه انه لم يشهد التعـذيب ٠ والدفاع يقول « لقد قال لكم « بروتس » ذلك ، « وبروتس » رجل شريف وكفى » ٠

□ **يمين على أقوال ضابط :**

ثم عاد الاستاذ نافع فقال : اننى أقسـم يمينا ، ويمينا حقـا بأننى سمعت من أحد كبار الضباط ان ابراهيم عبد الهادى باشا كان يحضر بنفسه عمليات التعذيب ٠

□ **الى متى هذا البوليس السياسى :**

ثم قال : : ان البوليس السياسى قد استعمل من صـنوف التعـذيب للمتهمين مالم يتصـوره أحد ٠ حتى ان هيئة الدفاع التى شـكلت للدفاع فى

قضية قنابل ٦ مايو (ليست من قضايا الاخـوان) كانوا يصرخون ظلما من تصرفات رجال البوليس السياسى ومنهم عبد الفتاح الطويل باشا ومحمود سليمان غنام بك وعمر عمر بك وعبد الفتاح الشنقانى بـك (منهم من تولوا منصب الوزارة بعد هذه القضية التى ترافعوا فيها) ونرجو أن يعملوا شيئا لاصلاح هذه الحالة ٠

ثالثا ـ فى قضية جودة والاوكار :

فى ٦ـ١١ـ١٩٤٩ أثبت الطبيب أن أحد المتهمين نزعت أظافره ٠

□ أمر عسكرى باخضاع سجن الاستئناف للبوليس السياسى :

الاسـتاذ فتحى رضوان المحامى ـ أطلب من المحـكمة أن تأذن لى بأن يسلمنى المتهم الثانى التقرير الذى كتبه عن وقائع تعذيبه ومعذبيه وشهود التعذيب ، على أن يكون ذلك مباشرة دون أن تطلع النيابة على هذا التقرير ٠

وقد فهمت عند مقابلة المتهم فى السجن أن أمرا عسـكريا صـدر لمـدير مصلحة السجون يخرج سجن الاسـتئنـاف من سـلطة مصـلحة السجـون ، ويخضعه للحاكم العسكرى ، بمعنى أن الحاكم رأى أن يدخل ضباط القسم السياسى سجن الاستئناف وكما يشاءون ، مع أن لائحـة السجون تمنـع دخول أحد الا باذن من النيابة ٠ واطلب ضم هذا الامر العسكرى فان صدوره يعنى أن الحاكم العسكرى رأى أن الاجراءات العادية لا تمكنه من سير التحقيق على النحو الذى يرتضيه ٠

الرئيس ـ ماذا يهم الدفاع من ذلك ؟

فتحى رضوان ـ صدور هذا الامر يدل على أن المحقق ضاق ذرعا بالنظام العادى المتبع فى كل قضية وأن الاعترافات صدرت فى ظل اجـراءات شـاذة مخالفة للقوانين ٠

الرئيس ـ ما هو رقم هذا الامر ؟

فتحى رضوان ـ لم أمكن من معرفة ذلك ٠

الرئيس ـ ألا تكون المسالة وهمية ؟

عبد الفتاح حسن المحامى ـ ان الدفاع مصدق ٠ وفتحى بك يذكر واقعة محددة فى فترة معينة ، ومن حق المحكمة أن تستجليها ، كما أن من حق الدفاع أن يبرز الظروف التى شابت هذه القضية ، ومن بينها العمل على الوصل بين ضباط القلم السياسى وبين المتهمين فى سجن الاستئناف ٠

فتحى رضوان – ان واقعة هذا الامر العسكرى ليست مستنتجة أو مدعاة بل سمعتها من نفس موظفى السجن. وأطلب ضم قضية مقتل سليم زكى باشا حيث نسبت فيها لبعض المتهمين اعترافات ثم رأت النيابة حفظ القضية مع وجود هذه الاعترافات . والدفاع يستفيد حين يقدم نموذجا من تحقيقات القضايا فى ذلك العهد وظروف الاعترافات وحفظ القضايا رغم وجود اعترافات فيها .

عمر التلمسانى المحامى – أطلب ضم ملف قضية مقتل النقراشى باشا لان موكلى (الثالث) كان شاهد نفى أثناء التحقيق فيها ، وقد احيل وقتئذ على الطبيب الشرعى فاثبت وجود آثار تعذيب به ، كما أطلب ضم ملف خدمة المتهم بالارصاد الجوية ، حيث ان البوليس السياسى استطاع أن ينتزع صورة المتهم من ملف خدمته وأن يعرضها على الذين تعرفوا عليه . وقد ناقشه الرئيس فى هذا الطلب فتدخل فى المناقشة الاستاذ عبد الفتاح حسن .

عبد الفتاح حسن – ان من مصلحة الدفاع أن يضم ملف خدمة المتهم حتى يتبين للمحكمة الموقرة مدى تزيد هؤلاء الاشخاص الذين عاونوا المحقق. وذلك رصيد نقدمه لان دفاعنا سيستقى من هذا المعين ، وسنقدمه للتدليل على الاكاذيب التى اكتنفت التحقيق .

الاستاذ مختار عبد العليم – أطلب احالة موكلى (الرابع) الى طبيب اخصائى فى أمراض الاذن لانه فقد سمعه وأصبح (أطرش) نتيجة تعذيبه .

الرئيس – لقد أحيل على الكشف ولم يثبت به شىء .

مختار – الطبيب الشرعى فحص فقط الاصابات الظاهرة ، ولقد مضى على احداثها عدة شهور فامحت ، أما آثارها فباقية ومنها فقد المتهم سمعه .

عبد الفتاح حسن – ان الذى قام بالتحقيق فى قضيتنا هذه هو المحامى العام – ولا أسميه – حقق أيضا القضية المحدد لنظرها ١٥ الجارى بالاسكندرية « قضية اخفاء يوسف على يوسف » وفى القضية المذكورة تقرير من الطبيب الشرعى بأن أحد المتهمين قد انتزعت اظافره انتزاعا ، وعلى الرغم من ذلك لم يثبت المحقق هذا فى محاضر تحقيقه .

ومن حق الدفاع أن يحصل على صورة من هذا التقرير الطبى حتى يشعر المحكمة بالدليل المادى بأن التحقيق الذى باشره شخص معين كان كان يغفل الوقائع الخاصة بالتعذيب حتى الاظافر المنتزعة لا يمكن أن يكون تحقيقا أمينا . فأرجو أن تاذن لى المحكمة بصورة من هذا التقرير .

(وكان الدفاع قد طلب تقارير استشارية عن بعض المتهمين وقررت المحكمة اجابة جميع طلبات الدفاع).

□ مكافأة المتواطئين :

في جلسة ٥ـ٣ـ١٩٥١ استمعت المحكمة الى أقوال مصطفى كمال عبد المجيد ونجيب جويفل وبقية المتهمين . وكان من أقوال عبد الفتاح ثروت أن التعذيب يبتدىء بالفلقة والكرباج وينتهى بالقتل ، وأن ارهاب البوليس السياسى له بلغ حد استعداده لان يعترف بأنه قتل النقراشى رغم اعتراف قاتله ـ واعترف شهود الاثبات وأكثرهم من جنود البوليس بأنهم قبضوا مكافآت سخية من ابراهيم عبد الهادى باشا .

□ رئيس النيابة زور التحقيق :

وذكر أحد المتهمين فى سياق أقواله بأن اسماعيل عوض بك رئيس النيابة والمحقق فى قضية حامد جودة كان متخصصا فى التزوير وقلب الحقائق، فكان لا يثبت فى محاضر التحقيق الا ما يمليه عليه رجال القلم السياسى .

وهنا وقف الاستاذ صادق المهدى بك ممثل النيابة وقال انه يحتج على هذه الالفاظ التى يتفوه بها المتهمون . وقال ان المحقق وهو مستشار الآن ينزه عن ذلك الكلام .

وعلى أثر ذلك وقف الاستاذ عبد المجيد نافع المحامى وقال : ان للمتهم ان يجرح المحقق ، وله أن يهدم أدلة الاتهام بما يشاء .. ثم التفت الى ممثل النيابة وقال : انى سوف أكون على استعداد لتجريح حضرة ممثل الاتهام بالذات ، وانى سأهاجم ما استطعت المحقق فى قضية حامد جودة بالذات ، بل انى سأهاجمكم أنتم . وانى اعتبر ذلك انذارا لكم . وان الدفاع يعرف واجبه حق المعرفة وسوف يؤديه على أكمل وجه .

□ وزير الزراعة مع متهم :

فى جلسة ١٢ـ٣ـ١٩٥١ قال المتهم محمود محمد دعبس انه بعد تعذيبه ادخلوه حجرة أخرى وقالوا له : ستقابل الباشا .. فرأى عبد الهادى وبجواره شخص لا يعرفه ، فاشار عبد الهادى الى هذا الشخص وقال له : هل تعرف هذا الشخص ؟ فقالا لا . فقال انه معالى وزير الزراعة احمد عبد الغفار باشا ـ فتقدم نحوى وزير الزراعة وقال : نحن بلديات وانا اعمل لصلحتك ، والاجدر بك ان تعترف حتى تنقذ من هذا العذاب . ثم قال المتهم : ومن هذه الفترة وقف التعذيب لانى قريب الباشا .

□ البوليس يقيم فى مسكنه مع أمه وأخته :

وقال المتهم يوسف عبد المعطى ان ثلاثة من رجال البوليس السياسى أقاموا فى مسكنه مع أمه وأخته لمدة أسبوعين بعد اعتقاله واعتقال والده وقد أرسلت أخته (سن ١٢ سنة) برقية الى النائب العام تطالب باخراج البوليس من الشقة ولكن عهد الارهاب لم يستجب ٠

□ النائب العام يأمر بعدم اثبات الاصابات :

وقال المتهم محمد نايل الطالب بالهندسة انه لما عاد الى سجن مصر ــ الذى كان يثبت وقتئذ اصابات كل من يرد اليه ــ حدثت أزمة استدعت حضور النائب العام السابق محمود منصور باشا الذى أصدر أمرا بأن لايثبت السجن اصابات أى متهم ٠

□ عبد الهادى يكذب على مجلس الشيوخ :

وقال المتهم عصام الدين الشربينى وهو من طنطا : ان الضابط سعد الدين السنباطى رئيس القلم السياسى بطنطا اعتقله وعذبه ونقله الى القاهرة وهدده بأن والده وفدى ٠ وقال المتهم : بعد أن عذبت فى القاهرة حملنى الجنود وعرضونى على ابراهيم عبد الهادى باشا وأنا محمول ٠ وقد ذكرنى هذا المنظر بالمناظر التى نراها فى السينما عن رئيس العصابة وهو ينظر مزهوا الى الضحية بين يدى أعوانه ٠

ثم قال المتهم : ان فؤاد سراج الدين باشا حين وصلته أنباء اعتقالنا قدم استجوابا فى مجلس الشيوخ ، فأجاب عن الاستجواب ابراهيم عبد الهادى باشا معلنا فى كذب جرئ صريح أنه لا أنا ولا أى واحد من أسرتنا فى الاعتقال ٠٠ وقال المتهم ان ذلك ثابت فى مضبطة مجلس الشيوخ ، وانى أطالب بضمها لتروا كيف أن رئيس وزراء بلد وحاكمها العسكرى ودكتاتورها قد كذب على مجلس الشيوخ المحترمين ٠ فهل يستبعد عليه أن يلفق لنا التهم؟

□ هذا هو الطبيب الشرعى :

ثم قال : لما أدخلت على اسماعيل عوض بك رئيس النيابة حافى القدمين التمست منه أن يحيلنى على الطبيب الشرعى ٠ فاظهر سعادته استجابة سريعة لهذا الطلب ٠ واذا به يستدعى الضابط أحمد طلعت بك ويقول : هذا هو الطبيب الشرعى ٠ داويه يا أحمد بك ــ ومنذ تلك اللحظة (حرمت) أن أطالب بالطبيب الشرعى ٠

● **المطالبة بتحقيق التعذيب :**

فى جلسة ٩ـ٤ـ١٩٥١ طلب المحامون أن تبدأ المحكمة بتحقيق التعذيب، وعارضتهم النيابة · وقررت المحكمة النظر فى طلب الدفاع بعد سماع الشهود·

□ **تهافت البوليس على المكافأة الحكومية :**

وفى جلسة ١٠ـ٤ـ١٩٥١ استمعت المحكمة الى شاهد هو على محمد على الطالب بكلية الحقوق قال : انه كان يسكن هو وبعض زملائه فيلا بمنطقة الهرم ثم نقلوا منها الى فيلا مجاورة ·

وفى أول فبراير ١٩٤٩ حضر شخص ومعه سمسار لاستئجار الفيلا فارشده الى صاحبها وتم العقد · وبعد مضى شهرين لاحظ الشاهد تغيب السكان ، فذهب ومعه بعض رفقائه للسؤال عنهم ، ولكنهم فوجئوا بوجود باب السكن مفتوحا · فلما دخلوا لاستطلاع الامر وجدوا فى احدى الحجرات اجهزة لاسلكية وأدوات أخرى ·

واستطرد الشاهد يقول انهم ارتابوا فى الامر وتوجهوا فورا الى بندر الجيزة وابلغوا المأمور فأحالهم الى ضابط المباحث الذى شكرهم على هذا البلاغ ونصحهم أن لا يذكروا شيئا عنه ، وأنه سوف يجرى التحقيق ويبعدهم عن الشبهات اذا ما قرروا أنهم لم يبلغوا شيئا ، وذكرهم بأن مكافأة الحكومة لا قيمة لها ـ ومع ذلك فقد اعتقل هو ومن معه واستمروا فى السجن خمسة عشر يوما ·

فاستدعت المحكمة ضابط المباحث وهو الملازم أول حسن أبو باشا فادعى انه كلف بتفتيش المساكن المتطرفة وأنه هو الذى عثر على هذه الفيلا ·

وهنا واجهت المحكمة هذا الضابط بالشاهد فاصر كل منهما على أقواله· ولكن الشاهد لم يقتنع بهذا وطلب من المحكمة أن يحلف الشاهد على المصحف على صحة اقواله · وأيده الدفاع ولكن النيابة اعترضت بأن هذا القسم لم يرد فى القانون ·

□ **والدة متهم تربط بقيد واحد مع احدى العاهرات :**

وقبل ان ينصرف هذا الضابط وقف المتهم صالح الجنايني وأشار اليه قائلا : ان هذا الضابط احضرنى الى بندر الجيزة فى ٢٠ مايو ١٩٤٩ وهددنى بوجود مظروف سيؤدى بى الى حبل المشنقة اذا لم اعترف · فلما أخبرته بأنى لا اعرف شيئا ، امر الجنود باحضار والدتى ـ وكان قد استحضرها من بلدتى

بمحافظة الشرقية ووضعت فى الحجز ـ ولكنى لم أصدق هذا حتى تبينت لى الحقيقة المرة ووجدت العسكرى يدخلها علينا وهى مربوطة بقيد حديدى واحد مع احدى العاهرات ، وكانت العاهرة عارية الثياب · فأشار اليها الضابط

وقال لى : شوف نجعل والدتك كهذه العاهرة اذا لم تتكلم ·

واستطرد المتهم يقول : ثم أحضروا أخى الصغير ـ وهو كفيف البصر ـ ومعه ابن عمى ـ وهو مريض بالصرع ـ والدم ينزف منهما · وقال لى الضابط : أنظر بعينيك لتعرف مصيرك ومصير أهلك · ثم أخرجونى ودخلت على المحقق الذى أعرض عنى وانشغل بمكالمة تليفونية · ثم دخل هذا الضابط وأخرجنى حيث نصبت لى فلقة من نوع جديد ابتكروه لى وتوالى التعذيب ·

وسئل الضابط عن صحة هذه الوقائع فأنكرها ·

● **الدفاع يطلب سماع شهادة محققين فى هذه القضية :**

وعلى أثر افتتاح الجلسة التالية للمحكمة فى ١٣ـ٤ـ١٩٥١ طلب أحمد حسين المحامى اعفاءه من الانتداب وتنازله عن التوكيل عن المتهمين لانه لا يستطيع الاستمرار فى القضية مالم تاخذ المحكمة بما طلبه من اجراء تحقيق فيما تم من تعذيب ـ فرد عليه رئيس المحكمة بأن المحكمة وافقت على طلبات المحامين · وزملاؤه تقدموا بحوالى خمسين شاهدا للتحقيق فى وقائع التعذيب وطلبت منه تقديم ما عنده فى هذا الشان ـ فشكر المحكمة وطلب منها سماع أقوال الاستاذين عصام الدين حسونه وعدلى بغدادى وكيلى النيابة لانهما اشتركا فى تحقيق هذه القضية · فاجابته المحكمة الى هذا الطلب ·

● **هل هناك أدلة قانونية على التعذيب ؟**

فى جلسة ١٦ـ٤ـ١٩٥١ قال رئيس المحكمة ان المحكمة قررت تحقيق هذه الوقائع بالفعل · وكل متهم يقدم دليلا على تعذيبه فنحن على استعداد لتحقيقه ·

البهنيهى بك المحامى ـ المتهمون لا يستطيعون أن يقدموا أدلة ، لان التعذيب كان يحصل بين أربعة جدران · وهم لا يستطيعون الاستشهاد باحد خصوصا وأن المحيطين بهم كلهم من رجال البوليس · وكان الاطباء يدعون للكشف عليهم بعد عدة شهور من وقوع التعذيب ، مما يجعل الاطباء يثبتون آثار الاصابات وان كانوا لايستطيعون الجزم بها ·

الرئيس ـ ان المحكمة ستقدر كل ذلك ·

□ **كلهم خطرون :**

سألت المحكمة الضابط محمد الجـزار عن وظيفتهم فى هـذه القضية ، فأجاب بأننا نبحث عن جميع الخطرين ونضبطهم ٠

الرئيس ـ من من هؤلاء كان خطرا ؟

الجزار ـ اتضح أنهم كلهم كانوا خطرين ٠ ولكن لا اذكر أحدا بالذات٠

الرئيس ـ هل يعـد من الخطـرين فى الكشـوف الشـيخ عبد اللطيف الشمشاعى وهو ضرير والشيخ جبر التميمى وسنه ٧٠ سنة والشيخ أحمد الشناوى القاضى الشرعى والشـيخ ابراهيم على سـعده المـدرس فى كلية الشريعـة ؟

الجزار ـ ما أنا الا ضابط ٠ فلو صدر أمر لى بضبط أحد فأنا أضبطه ٠

□ **اغتيال البوليس السياسى أحمد شرف الدين :**

ادعى البوليس السياسى أن أحمد شرف الدين كان فى وكر بشبرا وكان يحمل مدفعا رشاشا وجهه الى القوة التى هاجمت الوكر ـ ودفاعا عن النفس ضربوه بالنار فقتلوه ولم يصب منم أحد ٠٠ وقـد دار النقاش حـول هـذا الحادث بين زكى البهنيهى بك وبين الجزار على الوجه الآتى :

البهنيهى ـ هـل كان أحمـد شرف الدين يستعمل المدفـع الرشاش فى منزل روض الفرج ويوجهه الى القوة فى نفس الوقت ؟

الجزار ـ نعم ٠

البهنيهى ـ وكيف لم يصب أحد من القوة ؟

الجزار ـ هذه ارادة الله ٠ (ضحك)

البهنيهى ـ بل هى بركة الاخوان تخلت عن الاخوان وحلت على رجال البوليس ـ الواقع يا حضرة الصاغ أن المسألة غير معقولة ٠ وقد فهمت أن استعمال المدفع الرشـاش لا يحتاج تصـويبه الى أى مجهـود فنى اطلاقا ٠ فكيـف وشرف الدين كان ضـابطا فى الاحتياطى متمرنا على استعمال هـذا المدفع وغيره ؟

● **خداع البوليس السياسى للشيخ جبر التميمى وعبد الرحمن عثمان:**

فى جلسة ٢٢ـ٤ـ١٩٥١ استمعت المحكمة الى شـهادة أحمـد طلعت

الضابط بالبوليس السياسى ·· فقدم للمحكمة ورقتين ، احداهما مكتوب فيها شهادة من الشيخ محمد جبر التميمى أنه يثنى على حسن معاملة البوليس السياسى له - فأحضرته المحكمة وسألته فاعترف بأنه كتب هذه الورقة ولكنه قال :

ظللت فى القسم حوالى عشرين يوما لم أطلب فيها ، وكانوا يعرضون على بين الفترة والاخرى المعذبين أمثال مالك وأحمد فؤاد الصادق · وكان فى القسم معتقل من الاخوان اسمه على ابراهيم كان يتولى تضميد جراح الاخوان ·

وقال الشيخ اجابة على سؤال من المحكمة : ان الاخوان كانوا يؤخذون بغير سؤال ولا جواب · وأنا شخصيا كرهت كلمة « الله أكبر ولله الحمد » لانها كانت تجر الى جحيم لا نهاية له · وقال اننى لم أكتب هذه الشهادة الا بعد أن طلبوها منى ·

● **عبد الرحمن عثمان شاهدا :**

أما الورقة الاخرى فكانت عبارة عن خطاب موجه من المتهم عبد الرحمن عثمان الى أهله مكتوب فيه : « اننى مرتاح وفى حالة جيدة وأطلب ارسال ملابس » فأحضرته المحكمة كشاهد فى هذه القضية ، فاعترف بكتابة الورقة وقال :

ان الصاغ توفيق السعيد كان يستدعينى ليلا ، ومهمته تحطيم أعصابى · وبدعوى الاشفاق على وقد رأى ملابسى قد تمزقت أن أكتب خطابا لعائلتى بخصوص الملابس ، وكتبت الخطاب ·· ومهما كان الانسان فى ضيق فلابد أن يخبر أهله أنه مرتاح - ولما كنت أعرف عن رجال القلم السياسى المكر والخداع طلبت من المحقق أن يسمح لى بارسال خطاب ·· اذ كنت على يقين بأن الخطاب السابق لن يرسل · وفعلا هذا هو الذى حصل ، وظل توفيق السعيد محتفظا بالخطاب حتى قدم للمحكمة ليكون دليلا على أننا كنا مرتاحين فى السجن ·

□ **جريمة خلقية :**

وقال المتهم عبد الرحمن عثمان : اننى أذكر يوم ١١ يوليو ذهبت برفقة الملازم أول فاروق كامل وظللت ست ساعات فى المحافظة ، واعتدى على الصاغ العشرى بالضرب ومعه عسكرى أظن أنه رقى لدرجة الصول ويدعى حسب الله ·· وما كان الضرب والتعذيب يحملانى على الاعتراف وانما التهديد بجريمة خلقية · وقد لمست فى ذلك الوقت أن مبادىء القانون قد ديست ·

وفى ١٣ يوليو استدعانى المحقق محمد عبد السلام بك فظننته حصنا لى ، ولكنى وجدته عونا لرجال السلطة التنفيذية على ٠

□ اتهامه عبد الهادى بقتل حسن البنا :

وفى يوم ١٤ يوليو حضر الملازم كمال الرازى وأخرجنى من السجن لتوصيلى الى نيابة الاستئناف ٠ ولكننى فوجئت بالصاغ محمد على صالح والملازم فاروق كامل يصحبانى الى محطة القاهرة ٠ وصعدت الى القطار الذاهب الى الاسكندرية ٠ وبمجرد تحرك القطار أدخلنى صالونا وجدت به ابراهيم عبد الهادى باشا - وأحب أن أسجل ان هذه المقابلة لم تكن كما زعم دولة الباشا بخصوص أحمد محمود يوسف ابن خالى ، وانما كانت بخصوص التحقيقات نفسها وكان مع عبد الهادى باشا محاضر التحقيقات ٠

واخذ الباشا يسالنى عدة أسئلة حتى يئس منى لانى لم أجبه على شىء - فقال لى : ما رايك فى شعور الاخوان بعد قتل مرشدهم ؟ فقلت : ان شعورهم ينحصر فى أن دولتك قاتل حسن البنا ٠ فذهل الباشا ، وكان لهذا الرد وقع اليم فى نفسه ، وطلب منى الافصاح عن هذا القول فقلت له :

اننا نعلم جميعا أن الانوار أمام جمعية الشبان المسلمين اطفئت ، وارتكب الحادث بسيارة محمود بك عبد المجيد رئيس المباحث الجنائية ٠٠٠ فأطرق الباشا مليا ، وطلب لى مشروبا « ساقع » ولكننى رفضت لانى كنت صائما فى رمضان فأذن لى بالخروج فخرجت ٠

● دماء على الحائط :

ثم قال : وقد فاتنى ان اذكر انى حينما دخلت الحجرة رقم (١٢) فى سجن الاجانب ، وجدت على الحائط آثار دماء مشارا اليها بقوس ومكتوب تحتها عبارات « لقد مزقونى اربا اربا ، وسعادتى فى ايمانى ، وايمانى فى قلبى ، ولا سلطان لاحد على قلبى » ومذيلة بامضاء اسماعيل على - واظن ان آثار هذه الدماء موجودة حتى الآن ٠

□ النيابة تنتقل :

وهنا طلب الدفاع ان تامر المحكمة بتحقيق هذه الواقعة ٠ فكلفت المحكمة الاستاذ صادق المهدى ممثل النيابة بالانتقال مع الشاهد وبصحبته الاستاذ أحمد السادة من هيئة الدفاع الى السجن ومعاينة المكان واثبات حالته ٠

ثم طلبت المحكمة المتهم اسماعيل على وواجهته بالشاهد ، فقرر انه كان

بهذه الحجرة وظل بها حوالى شهر ثم رحل بعد ذلك الى سجن مصر • وقال انه كتب كلاما كثيرا وآيات قرآنية ومنها نفس الكلام الذى ذكره الشاهد • وقرر أنه كتب هذا الكلام بواسطة قطعة من زر جرس كان بالحجرة وحفر به هذا الكلام على الحائط تحت الدم الذى كان يمسحه على الحائط من آثار الضرب والتعذيب والجروح الموجودة بجسمه •

وأضاف الشاهد قوله : انى أتذكر أن هذا الكلام مكتوب على الحائط على يسار الداخل على ارتفاع حوالى متر • وانى أنا شخصيا حفرت على الحائط عبارة « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » •

□ نتيجة المعاينة :

وجد أن كل ما قرره المتهم والشاهد صحيح ، حيث وجدت على الحائط عبارة « أيتها العصبة الطاغية ، لكم الجسد البالى فمزقوه ان شئتم اربا اربا، فان ذلك لن يشقينى أبدا أبدا ، لان سعادتى فى ايمانى ، وايمانى فى قلبى ، وقلبى لا سلطان لاحد عليه الا الله » وقد وقع على ذلك بامضاء اسماعيل على •

ووجد بجوار هذه العبارة كلمات « ايذاء زائد صبر زائد بلاء زائد صبر زائد تعذيب زائد صبر يساوى نصر » — ووجدت آثار الدماء على الحائط فى خطوط سوداء قاتمة اللون • ووجد أن مفتاح الجرس الذى أشار المتهم الى أنه استخدمه فى الحفر على الحائط مخلوع من مكانه وقد ركب بدله جرس آخر — وقد حرر محضر بكل ذلك وختم على الغرفة بالشمع الاحمر •

● العسكرى الاسود :

هو أحد معالم ذلك العهد الدنس • وهو عار لا يمحى مهما طال الزمن • وهو الشخص الدنىء الذى رضى لنفسه أن يكون آلة فى يد البوليس السياسى فى تهديد المتهمين بهتك عرضهم لحملهم على الاعتراف بما يريدون •

وقد ذكره المتهمون أمام المحاكم التى حاكمتهم • ولكن الادلة القانونية، واسمه الحقيقى ، ومكان وجوده وقت المحاكمات ، لم يكن متوفرا •• ولكن جريدة أسبوعية كانت تصدر فى ذلك الوقت وكانت ذات نشاط صحفى مبتكر تسمى جريدة « الجمهور المصرى » تبنت هذا الموضوع ، وحملت على عاتقها كشف سر هذا الشخص الدنىء •• وجازف اثنان من محرريها هما الاستاذان ابراهيم البعثى وسعد زغلول وقاما برحلة يكتنفها الخطر ، بعد أن اثبتت تحرياتهما أن هذا العسكرى قد سرح من البوليس وأنه مقيم فى بلدته الاصلية « ادفو » •

واستطاع هذان الصحفيان ـ بطريقتهم الخاصة ـ أن يلتقيا بالعسكرى الاسود فى بلدته ، ونشرت جريدة « الجمهور المصرى » اسم هذا الشخص ومحل اقامته .. وبناء على ما نشر فى هذه الجريدة أمرت المحكمة النيابة باحضاره لسماع أقواله باعتباره شاهدا .

وفى جلسة ١٠ـ٥ـ١٩٥١ حضر هذا الشخص واسمه « أمين محمد محمود مرسى النقيب » فى سن دون الثلاثين ، وتمسك بالانكار التام المطلق .. ولكن الدفاع كان قد علم بأن طريقة احضاره من بلدته وحضوره الى النيابة قد تخللها مناورات خطيرة قام بها البوليس السياسى فى القاهرة .

وقد واجهه الدفاع بما أحرجه فى كيفية تسفيره من بلدته الى القاهرة ، وفى نزوله أول ما حضر عند ضابط من ضباط القلم السياسى اسمه مرتضى.. مع أنه كان يجب أن يسلم نفسه مباشرة الى النيابة .

وطلب الدفاع من المحكمة أن تسمع أقوال سعد زغلول الصحفى فى جريدة « الجمهور المصرى » فكان الموجود زميله بالجريدة الاستاذ البعثى فسمعت المحكمة أقواله على سبيل الاستدلال فقال :

« ان زميلى سعد زغلول محاصر الآن بمنزل صديق له هو عبد الرحيم صدقى شقيق اليوزباشى مصطفى كمال صدقى . وقد عمد رجال البوليس الى محاصرة زميلى حتى لا يحضر الجلسة ، ومنعوه من الخروج من المنزل بحجة أن اخوة العسكرى الاسود ينوون قتله . ولا زال اربعة من رجال البوليس السياسى يحاصرون المنزل حتى الآن .

وكانت المحكمة قد سألت العسكرى الاسود عن تاريخه فى البوليس وعن كيفية لقائه بالاستاذين البعثى وسعد زغلول وعن كيفية حضوره وأجاب اجابات كان البوليس السياسى قد لقنها له قبل مثوله أمام المحكمة .

المحكمة ـ هل ما ذكره الشاهد الآن هو ما حصل فى ادفو ؟

البعثى ـ لا .. هناك اختلافات كثيرة فى أقواله . أولا أن هذا العسكرى قد ظل فى المحافظة سنة كاملة لا ستة أشهر كما يقول ـ ثم انه لم يكن يعرف شيئا عن القضية لدرجة أن أهالى بلدته جميعا لا يعرفون أن اسمه هو ما نشر فى الجرائد لانه مشهور باسم أمين النقيب .

□ حيدر باشا عاوز راجل صعيدى :

وقد اهتديت فى البلدة على الشيخ يوسف ناظر المدرسة لعلاقة سابقة بيننا ، ولما سألته عن أمين قال عندنا أمين الخطيب . فكلفته باحضاره فى

منزل أحد أقارب الشيخ • ولما حضر كنت متحيرا كيف أبدأ الكلام معه • وفجأة انطلق زميلى سعد زغلول وقال له : يا أمين ان حيدر باشا فى حاجة اليك لانك رجل شهم وهو فى حاجة الى رجل صعيدى زيك •

□ اعترف بالتعذيب :

ـ ثم تحول الكلام الى رجال القلم السياسى ، ووجدت منه أنه يميل الى ضباط القلم السياسى ويعرف عنهم الكثير ، حتى انه يعرف أن الصناغ العشرى نقل الى البحيرة • ولما سألته عمن كان معه أثناء تعذيب الاخوان ذكر اسم مصطفى التركى وعسكرى آخر بالفيوم ، وأنه هو وذلك العسكرى كانا مكلفين بارتكاب جرائم تعذيب الاخوان •

ولما توغلنا فى الحديث ارتعش وبدت عليه علامات الاضطراب والتفت الى وقال : أنا عارفك مش كده ؟ فقلت له أيوه أنا كنت أتردد على المحافظة أحيانا ـ ومن هذا الوقت بدأ يتخوف ويتهرب من الحديث .

وهنا ارتفع صوت العسكرى ونظر الى الاستاذ البعثى وقال : أنا خفت منك ؟ أنت يا سلام •• أمال كيف وصلتك المحطة وأنا خايف منك ؟

واستأنف الاستاذ البعثى كلامه فقال : أنا سألت شخصا فى البلد عن أمين فقال لى : ان أمين هذا عفريت •• ده يتط على البيوت • وأى واحدة تعجبه فى البلد ينط عليها بالليل الساعة ١٢ فى منتصف الليل •

واستطرد يقول : انى فهمت أثناء حديثى مع العسكرى فى بلدته أنه يكره الاخوان جدا وحاقد عليهم لاقصى حدود الحقد • وكان يسألنى أثناء الحديث هل أحد من الاخوان يتهمنى فى القضية ، أنا على كل حال كنت عبد المأمور ، وأنا مالى واحنا فى الاول خالص لم نفعل شىء مع الاخوان وانما فى الآخر الحقيقة نفذنا الاوامر ، وعملنا فيهم كتير خالص •

وبعد قضاء هذه الفترة معه فى البلدة طلب منا بالحاح أن ننام عنده ليلة فى البلدة ، ولكنا تخوفنا جدا وآثرنا السفر • وودعنا هو حتى مغادرة القطار • وعند قيام القطار من المحطة نظر الى وقال : اذا جرى لى حاجة انت تكون المسئول •• وقد نفذنا بعمرنا •

□ شبكة ••• وشبكة :

وقد فاتتنى نقطة وهى أن هناك محاميا سعديا اتصل بمأمور المركز لتهريب العسكرى • ووصل العسكرى الساعة ١٢ ظهر يوم الخميس ، فعملنا عليه شبكة • كما عمل البوليس السياسى عليه شبكة هو الآخر • وكان

البوليس على اتصال به دائما · وقد عقد البوليس اجتماعا حضره الصاغ العشرى قرر فيه قتل البعثى وسعد زغلول ·

□ **جهاز لكشف الكذب :**

ولما وجد الدفاع أن الشاهد معتصم بالانكار المستمر وقف الاستاذ عبد الرحمن الوكيل المحامى وقال : انى أود أن أقدم للمحكمة الآن موضوعا هو الفريد من نوعه ، ولم يعرض على القضاء المصرى من قبل ··· واستطرد يقول : ان هذه القضية من أخطر القضايا ، وانها ترتكز على نقطة وهى : هل هناك تعذيب أم لا · وهذا لا يثبت الا من أقوال هذا الشاهد ·

وهناك من رجال القانون من كرسوا حياتهم وجهودهم لمعرفة حقيقة أقوال الشهود ومطابقتها للحقيقة · فنرى الدكتور كيلر من شيكاغو ظل ٤٥ عاما يبحث هذه المسألة حتى وصل الى صنع جهاز يوضع عليه المتهم المراد أخذ أقواله ، ويبدأ فى استجوابه ، فيعمل الجهاز على تسجيل كل حركاته من ضغط الدم وحركات قلبه وأعصابه · وهناك شريط بالجهاز يسجل كل ما يدور من مناقشة ·

ومن حسن حظنا أن هذا الجهاز الفريد الذى اعتمد عليه القضاء فى امريكا وقد وجد فى مصر عند أحد المشتغلين بالمسائل النفسية ، وممكن أن تامر المحكمة بوضع هذا الشاهد على هذا الكرسى ·

□ **شهادة الضابط مصطفى كمال صدقى برؤيته التعذيب :**

وكان ضابطا بالجيش وحكم عليه بخمس سنوات بتهمة الاتفاق الجنائى وصدر عنه عفو ملكى · وقد قرر فى جلسة ١٥ـ٥ـ١٩٥١ انه رأى المتهمين الاخوان وحدد أسماءهم يأتون محمولين والدماء تنزف من جروحهم وكان هو يضمدها ·

● **شهادة جار لقسم مصر القديمة كشف كل ما جرى بداخله :**

وهى من أهم ما أدلى به من شهادات ، فقد استمعت المحكمة فى نفس الجلسة الى الاستاذ عبد العزيز الشيرى الموظف بوزارة الحربية وفى سن الستين ، يسكن بجوار قسم مصر القديمة ، بينه وبين القسم ستة أمتار ·

المحكمة ـ هل كنت موجودا بالمنزل يوم حادث رئيس النواب السابق ؟

الشاهد ـ نعم ·· رجعت من مصر حوالى الساعة التاسعة مساء فوجدت سيارات كثيرة تقف على جانبى الطريق وزعيق وهيصة · ولما دخلت المنزل سمعت صراخ ينبعث من حجرة سجن القسم الواقعة بجوار منزلى · فصعدت

الى سطح المنزل فى الظلام لاتبين الامر · فاذا بى الاحظ أن الحجرة المنبعث منها الصوت مضاءة بنور قوى ، وفيها يقف ابراهيم عبد الهادى باشا وبجواره أفندى يمسك ورقة وقلما ، وكثير من الضباط والعساكر ومعهم حزم عصى وكرابيج ، بعضهم يتناوب ضرب شخص لم أتبينه لانه كان تحت الشباك ·

جهنم الحمراء ـ وكان هذا الشخص المضروب يصيح بأعلى صوته ويستغيث ، فلم اتمالك أعصابى فنزلت وخرجت من المنزل ولم أعد اليه الا الساعة الثانية عشرة فى منتصف الليل · وعندما صعدت الى سطح المنزل مرة أخرى وجدت منظر جهنم الحمراء فى الحجرة ، وظل هذا المنظر المؤلم حتى الفجر ·

المحكمة ـ الثابت أن الحادثة كانت الساعة التاسعة وابراهيم عبد الهادى باشا لم يكن موجودا فى ذلك الوقت ·

الشاهد ـ أنا كنت الساعة دى مأخوذا برهبة الموقف فلم افكر فى أن انظر فى ساعتى حتى أعرف الساعة كام بالضبط ، وعلى كل حال أنا انتابتنى نوبة ولا زالت مؤثرة على أعصابى حتى الآن ـ وفى صبيحة اليوم التالى منعت أولادى من الخروج لصلاة الجمعة ·

وقد فوجئت بعد ذلك بهجوم رجال البوليس وتفتيش منزلى والقبض على وعلى أولادى وهم طبيب ومحام وطالب بالهندسة وأودعنا جميعا القسم بالحجرة نفسها التى كان يجرى بها التعذيب ، وكانت كلها ملطخة بالدماء ، ثم أخرجونا منها وأعادونا مرة أخرى ، ومكثنا بها عشرة ايام ·

النيابة ـ كيف تبينت الحجرة ومن فيها ؟

الشاهد ـ بمنظار مكبر كان معى ، وسمعت عبد الهادى باشا باذنى وهو يتفوه بألفاظ بذيئة أتنزه عن ذكرها الآن بل يتنزه عن ذكرها كل آدمى ، وكنت أسمعه يقول للشخص المطروح تحت الشباك : اخلع اللـ ·· يا ··· يا ···

شهود آخرون ـ وقد شهد شهود آخرون فى هذه الجلسة بأنهم راوا التعذيب وهم السادة : عمر السيد غانم وعبد الفتاح محمد وحسن الشافعى وفايد عبد المنعم ·

● **البوليس السياسى يمنع اسعاف المعذبين :**

اما الدكتور عبد الحميد زاغو حكيمباشى بوليس مصر والدكتور محمد كمال قاسم طبيب الامراض العصبية والعقلية لمصلحة السجون فقد شهدا فى

هذه الجلسة برؤيتهم المتهمين فى حالات تستدعى الاسعاف ، وكان البوليس السياسى يمنعهما من اسعافهم ٠

● شهادة اليوزباشى كمال صقر برؤيته التعذيب :

المحكمة ـ هل عاصرت فترة تحقيق قضايا الاخوان ؟

الشاهد ـ عاصرت معظمها ثم طلبت نقلى من القلم السياسى وانا الآن بسوارى بوليس مصر ٠

المحكمة ـ ما الداعى الى طلب نقلك ؟

الشاهد ـ لانى لم أوضع فى الوضع اللائق بى والذى كنت اطمع فيه حيث كانت وظيفتى هى نقل المتهمين من مكان لآخر ٠

المحكمة ـ هل شاهدت وقائع تعذيب ؟

الشاهد ـ رايت بعض المتهمين معذبين ومضروبين ولكنى لا اتذكرهم بالضبط ، واذا ذكرنى أحدهم بأى واقعة فربما اتذكر كل شىء ٠

(وهنا طلبت المحكمة من المتهمين الوقوف ، واستعرضهم الشاهد) ثم اشار الى مصطفى كمال عبد المجيد وقال ان هذا المتهم عندما كان يراد نقله الى دورة المياه كان يحمل على الاكتاف لانه لم يكن يقوى على الوقوف على قدميه من آثار الضرب ـ ثم اشار الى على رياض وقال : ان هذا المتهم رأيته مستلقيا على كنبة بحجرة احد الضباط ورجليه مبتورة خالص ـ واشار الى نجيب جويفل وقال : رأيته ملقى على الارض بحجرة الصاغ العشرى حوالى الساعة الرابعة مساء والدم ينزف من جسمه ٠

المحكمة ـ الا تعرف من كان يشترك فى التعذيب ؟

الشاهد ـ ثلاثة ارباع الضباط كانوا يشتركون فى التعذيب ، بل كان يجرى التعذيب من المخبرين على مرأى منهم ٠ وانا على كل حال كنت من الضباط ولكن الحمد لله (ورفع يديه الى اعلى وسكت عن الكلام) ٠

* شهادة رجال القضاء والنيابة *

نظرا لما لشهادة رجال القضاء ورجال النيابة من اهمية خاصة ، ولما لها من دلالات خطيرة ، فقد رأينا أن نلفت نظر القارىء اليها بافرادها بعنوان خاص ٠

● شهادة القاضى محمد اسعد محمود :

سئل عن معلوماته عن التعذيب حين كان يعمل وكيلا للنائب العام سنة ١٩٤٩ فقال :

بعد ان اثبت اصابات يوسف عبد المعطى ، تحادث معي الصاغ توفيق السعيد تليفونيا وأخبرنى بأن القلم السياسى يتعجب لانى أثبت اصابات يوسف عبد المعطى ، وأنه بسبيل الذهاب الى النائب العام ليشكونى اليه ٠٠ فأحسست وقتها كما قلت أن ضميرى كمحقق قد مس مسا عنيفا ، وأن عوامل خارجية تريد ان تتسلل للتاثير على فى عملى ، فلم أتمالك نفسى من الغضب وقلت : ليشك من يشاء ٠

وحضر بعد قليل صلاح مرتجى بك وكيل النائب العام وقتئذ وأخبرته بما حدث فقال لى : لاتهتم بذلك ٠ وانتظرت لان يحادثنى النائب العام فى ذلك ولكنه لم يفعل ٠

والذى أستطيع الجـزم به اننى بدات فى التحقيق فى قضية السيارة الجيب ، وحيل بينى وبين الاستمرار فيها فى ٤ يناير ٠

وسئل : هل تذكر اسم جمال الدين عطية كاتب التحقيق ؟

فقال : أيوه ٠٠ ارضاء لضميرى أقول : فى الفترة الاخيرة من عمـلى فى قضية السيارة الجيب حرر معى التحقيق ٠ وأذكر أننى دهشت عندما علمت بعد ذلك انه ضبط فىمنزل من منازل الاوكار ، لانه كان فى استطاعته والمستندات فى يده أن يتلفها أو أن يفعل ما يشاء ، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك ٠

● **شهادة الاستاذ عصام الدين حسونة :**

س ـ هل كنت وكيلا للنائب العام فى سنة ١٩٤٩ ؟
جـ ـ نعم كنت أعاون النيابة فى قضايا الاخوان ٠
س ـ هل تذكر أنك رأيت بعض المتهمين ممن لم تحقق معهم حضرتك ؟
جـ ـ كنت أعمـل فى نفس الجناح الذى يعمـل به حضرات المحققين فى القضية ٠ وكنت بحكم مكانى وعملى وثيق الصلة بالضباط الذين عهد اليهم بنقل المتهمين ، وبكتبة النيابة ، وبكل من يتصل بهذه القضية ٠ وكنت اسمع من هؤلاء جميعا يروون ما يقع على المتهمين من تعذيب واعتداء ، وكنت أيضا أشهد بعينى بعض المتهمين مصابين باصابات ظاهرة ٠

□ **قصة وكيل النيابة عدلى بك بغدادى :**

ثم قال الاستاذ عصام : والذى اذكره من وقائع معينة حتى أغنى الدفاع عن الاسئلة ، انه فى صباح ذات يوم سمعت من زملائى أن خـلافا قام بين عدلى بك بغدادى وبين اسماعيل بك عوض الافوكاتو العمومى ، لان الاستاذ عدلى وكيل النيابة شاهد فى بعض المتهمين اصابات فاثبتها وطلب احالتهم

الى الطبيب الشرعى ، فلم يوافق الافوكاتو على ذلك واخذ عليه هذا العمل ، ونعل هذا الحديث وصل الى جميع أعضاء الهيئة لانه أذيع وقتئذ أن حضرة وكيل النيابة كان محل غضب وأنه نقل بسبب هذا ٠

□ **الافوكاتو العمومى يرفض اثبات الاصابات :**

(الافاكاتو العمومى أى المحامى العام) وواصل الاستاذ عصام شهادته فقال : والواقعة الاخيرة التى أعلمها ـ ولعلها كانت فى نفسى لجسامتها ولانى علمتها من مصدر ليس محل شك فى اعتقادى ـ هى أن أحد المتهمين واسمه البساطى حمل الى غرفة المحقق حملا لشدة اعيائه بسبب اصاباته ، وأن المحقق لم يصف حالته وكان المحقق هو الافوكاتو العمومى اسماعيل بك عوض ٠

□ **مفاجأة :**

وقد سألت المحكمة الاستاذ عصام عن المصدر الذى وصلت اليه منه هذه المعلومات فأجاب بقوله « فى سبيل تحقيق العدالة والمصلحة العامة أستبيح لنفسى أن أقول انه حضرة الاستاذ فتحى مرسى ممثل النيابة فى هذه القضية٠

ممثل النيابة ـ أنا ؟ ! يظهر أن الذاكرة خانتك يا عصام بك ٠

□ **كان يسب المتهمين :**

وسئل الاستاذ عصام ألم يسمع بأن اسماعيل بك عوض كان يسب المتهمين ؟ فأجاب بقوله « لم أسمع هذه الواقعة بالتحديد ، وانما كان الحديث المتبادل بين كتبة النيابة ومن يتصل بالتحقيق أن مثل هذه الواقعة تقع أحيانا من هذا المحقق ٠

□ **معاملة الجواميس :**

وسئل هل يذكر بعد ضبط محمد مالك أنه سمع من احد رجال البوليس ان تعذيبا غير طبيعى فى بشاعته وقع عليه ؟

فأجاب بقوله « نعم سمعت من أحد كبار رجال البوليس أن هذا المتهم ضربوه بما لو أصيبت به جاموسة لنفقت ٠

صدام بين الدفاع والمحكمة

عند هذا الحد من الشهادات المثيرة التى تقطع بأن هناك تعذيبا بشعا قد وقع على المتهمين فى هذه القضية ، لم تستطع هيئة الدفاع ان تسير فى

القضية السير العادى ، واضعة موضوع التعذيب على الرف فى صورة دفوع كما تريد المحكمة ٠

ففى جلسة ٢٤ـ٥ـ١٩٥١ ـ وكان الدفاع من قبل قد طلب سماع اقوال محمود اسماعيل بك الذى كان يحقق القضية ثم نزعت منه وأسندت تحقيقاتها الى اسماعيل عوض بك ، كما طلبوا سماع اسماعيل عوض بك أيضا ـ فى هذه الجلسة قام الدكتور عزيز فهمى المحامى وقال : اننى مصر على سماع شهادة محمود اسماعيل بك ولكننى لا أوافق على سماع شهادة اسماعيل عوض بك لان المتهم لا يسمح شاهدا ، وان اسماعيل عوض بك ومحمود منصور باشا النائب العام السابق قد ارتكبا جرائم ومخالفات توقفهما موقف الاتهام ٠ ونحن نترك للمتهمين الرأى بعد الانتهاء من القضية فى رفع الدعوى العمومية ضد هذين الشخصين ٠

ومضى الدكتور عزيز يقول : ان هذه القضية قد اساءت الى سمعة مصر فى الخارج اساءة بالغة ، وما زالت الصحف الاجنبية تتحدث عن العسكرى الاسود وعن وقائع التعذيب ، وتصف التحقيقات بأوصاف لا تليق بالقضاء المصرى ، اذ ذكرت احدى الصحف الاوربية أن التحقيقات التى أجريت فى القضية لا تقارن اطلاقا بما كان يحدث فى العصور الوسطى ٠

ولما رفضت المحكمة طلبات كان قد طلبها قرر الانسحاب من الدفاع ٠

الجلسة الاخيرة والحاسمة ـ تاجيل القضية لدور مقبل :

وبعد أن سمعت المحكمة مرافعة النيابة وفى جلسة ١٠ـ٦ـ١٩٥١ قام الاستاذ عبد المجيد نافع ، وقبل ان يبدأ دفاعه ، طالب بأن تفصل المحكمة فى بطلان الاجراءات نظرا لما سمعته من شهادات قاطعة بحدوث التعذيب واشتراك النيابة فى تزوير القضية ، وسمى اسماعيل عوض بك « اسماعيل ميكيافيللى » وأبرز شهادة القاضى محمد اسعد محمود وعضوى النيابة على بغدادى وعصام الدين هحسونة وتمسك بذلك ٠

وقد أيده فى ذلك الاستاذان احمد حسين وفتحى رضوان ٠ وقال احمد حسين :

« ان الدفاع قبل أن تكون المحكمة رايها فى هذه القضية يسجل ان هذه القضية تحولت من اعتداء على حامد جودة الى قضية اعتداء على الحريات العامة فى شخص المتهمين ٠ ونحن نقول ان هذا التحقيق مبنى على الجريمة ، وان التعذيب وعدم اثباته فى التحقيق هو جريمة التزوير بعينها ، وهو تزوير

وجرائم يقال عنها انها تحقيق - فلم يكن هدف التحقيق الوصول الى الحق وانما هدفه هو تزييف الحق للوصول الى هدف خاص » •

وانضم اليه جميع هيئة الدفاع - وقال الاستاذان شمس الدين الشناوى وأحمد السادة :

« لن يتكلم محام فى موضوع القضية حتى يفصل فى هذا الدفع الذى تقوم عليه القضية • وان الدفاع فى هذا الطلب ليس متعسفا » •

وقال الاستاذ سمير حيدر : ان المحكمة كانت قد وعدت فى جلسة ٨ من ابريل الماضى بالاخذ بما طالب به الدفاع من حق التصدى للتهم الموجهة الى المحققين • وقررت ارجاء الفصل فى هذا الطلب لحين سماع شهادة شهود الاثبات ، وأنها ستقوم فى خلال سماع هؤلاء الشهود بتنفيذ قرارها فيما يتبع مع هؤلاء الشهود المتهمين •• وأصبح الموقف معلقا مبتورا •

ووقف الاستاذ طاهر الخشاب فأيد مطالبة المحكمة بحق التصدى والا فان الدفاع سيستعمل حقه فى رد أحد أعضاء المحكمة لقرابته بأحد الشهود الذين اتهموا بارتكاب التعذيب •

وهنا فطن عضو اليسار الى انه هو المقصود • فقررت المحكمة رفع الجلسة للنظر فى هذه الطلبات •• ثم عقدت الجلسة وقام رئيس المحكمة وهو فى حالة نفسية تستدعى النظر وقرر تاجيل القضية لدور مقبل •

ونحب ان نحيط القارىء علما بأن هذه القضية حين جاء ميعاد انعقاد جلسة للنظر فيها فى دور مقبل •

وكانت هناك مفاوضات تدور فى خلال ذلك بين هيئة الدفاع وبين رياسة محكمة استئناف القاهرة - انعقدت جلستها لتقرر الافراج عن عدد من المتهمين •• اما الحكم فى القضية فلم يصدر الا فى سنة ١٩٥٤ •

● عود الى البوليس السياسى :

بدانا هذا الفصل بالاشارة الى البوليس السياسى ونوهنا بدوره فى التلفيق والتعذيب •• ثم كانت وقائع هذه القضايا برهانا ساطعا على ان هذا البوليس هو دولة داخل الدولة ، وانه يتعالى على القانون ، ويرى من حقه ان يسخر أجهزة الدولة لتنفيذ أغراضه ، لا يستثنى منها اجهزة النيابة العامة والتحقيق •• وانه فى تعامله مع المواطنين لا يعترف بحقوق المواطنة ولا الانسانية ولا الآدمية •

ولم يكن الاخوان المسلمون أول من عانى من ارهاب هـذا الجهاز ومن تسلطه واجرامه ، بل عانى منه جميع من عملوا فى حقل السياسة المصرية ، وان كان معاناة الاخوان هى أشد أنواع المعاناة ... غير أن هيئة من هـذه الهيئات السياسية حين أتيح لها أن تتصدر منصة الحكم لم تجرؤ كما سبق القول على مس هذا الجهاز أدنى مساس .

وشاءت الاقدار أن يكون عرض هذه القضايا على القضاء فى أيام حكم حزب الوفد ، الذى كان أكبر عامل مهد له الطريق الى الحـكم هـو ما ارتكبه البوليس السياسى من مآثم ضج لها الشعب وكفر بالقائمين على الحـكم فى أيامها .. فلما جاءت حكومة الوفد انتظر الناس منها عملا حاسما ازاء هـذا الجهاز الاجرامى ... وطال انتظار الناس وهم يقرأون فى الصحف كل يوم من وقائع قضايا الاخوان ما يفضح جرائمه ويكشفه عن خفاياه ومآثمه .

● **الدفاع يطالب حكومة الوفد بالغاء البوليس السياسى :**

وقد تردد هذا الشعور فى ثنايا ما كان يدور فى جلسات هذه المحاكم من مناقشات وما يلقى فيها من مرافعات ، ومن ذلك ما أشرنا اليه من قبل وما جاء على لسان الاستاذ عبد المجيد نافع المحـامى فى جلسـة ٢٧ مارس ١٩٥٠ فى قضية الاوكار حيث قال « إن البوليس السياسى فى مصر هو منظمة انجليزية اسما ولحما ودما وعظاما ونخاعا . فالانجليز هم الذين أوجدوه . ولن تغب عن الذاكرة تلك المآسى التى مثلت على المسرح السياسى منذ عصر قمبيدس الى اليوم . ثم قال : فى قضية قنابل ٦ مايو ترافع فيها أصحاب المعالى والعزة عبد الفتاح الطويل باشا وسليمان غنام بك وعبد اللطيف محمود بك الوزراء ، وعبد الفتاح حسن بك الوكيل البرلمانى وكامل يوسف صـالح بك وكيل مجلس النواب ، والاستاذ مصطفى موسى عضـو مجلس النواب كان منهما .. وكل هؤلاء يجأرون بالشكوى من البوليس السـياسى ، وحـدثت مشادات فى الجلسة حامية الوطيس .. وها هم الآن قد أصبحوا فى الحكم ، وبيدهم السلطات التشريعية والتنفيذية .. فلماذا لا يلغون القلم السياسى؟!

سؤال فى مجلس النواب :

وفى ١٦-٤-١٩٥١ تقدم الاستاذ فوزى البرادعى عضو مجلس النواب الى وزير الداخلية بالسؤال التالى :

« ما هى الاجراءات التى اتخذتها الوزارة حيال الجرائم التى ارتكبها رجال البوليس السياسى فى القضايا التى نظرت أمام محاكم الجنايات والتى تنظر الآن ، واعترافات مالك السجين . وما هى الاجراءات التى تتخذها الوزارة لوقف هذا السيل من الجرائم مستقبلا ؟ » .

ولكن حكومة الوفد كانت فى ذلك الوقت منهمكة فى اعداد تشريع يقيد حق تكوين الجمعيات الذى بسطنا الحديث فيه فى فصل سابق - ومثل هذا التشريع يكون تنفيذه بطبيعة كونه قيدا على الحرية موكولا الى هذا الجهاز ... ولذا فان الحكومة لم تعر سؤال النائب أدنى اهتمام .

استجواب لوزير الداخلية :

ولكن النواب الذين قطعوا العهود لناخبيهم على ان يكون اول عمل لحكومتهم أن تستجيب لشعور الشعب وتطهر الاداة الحكومية من هذا الجهاز وجدوا أنفسهم فى موقف لا يحسدون عليه ، بين شعب متلهف وحكومة معرضة ، أنستها مناصبها ما قطعت للشعب من وعود .

فلما رفعناهم الى غاية العلا | باكتافنا حيث الامور بهم تجرى
لووا رأسهم عنا وعن كل مبدأ | اليه دعوا اذ هم يعيشون فى فقر

واخيرا تقدم عضو آخر من أعضاء مجلس النواب هو الاستاذ سليمان عبد الفتاح باستجواب لوزير الداخلية نوقش فى جلسة المجلس يوم ١٤-٥-١٩٥١ وهاك نص الاستجواب :

« ان قلم البوليس السياسى هو اثر من آثار الانجليز ، فقد انشىء فى عهد اللورد كرومر ليكون عونا للانجليز ، وسوط عذاب على الوطنيين . وفى الميزانية حوالى مائتى ألف جنيه تنفق على هذا البوليس السياسى كل عام . وقال النائب : ان البوليس السياسى أصبح نقمة على هذه البلاد ، ويجب قبل أن نبدأ بجلاء الانجليز عن القنال أن نبدأ بجلاء البوليس السياسى عن مصر .

ثم قال : انه يودع مكتب المجلس كشوفا بأسماء الموظفين الذين تولوا تعذيب المتهمين فى القضايا السياسية . وأشار الى حادث كوبرى عباس . فذكر ان طلبة الجامعة خرجوا يوم ٩ فبراير ١٩٤٦ لاعلان غضبهم على تهاون الحكومة فى حقوق البلاد وفى تحقيق أهدافها الوطنية ، فصدرت الأوامر من موظف كبير مسئول مازال يشغل منصب وكيل وزارة (.وهنا سئل من هو فقال : عبد الرحمن عمار بك) بفتح الكوبرى والهجوم على الطلبة بالدافع الرشاشة والبنادق والعصى ، وراح الطلبة يتساقطون فى النيل كاوراق الشجر فى ايام الخريف ، وأسفر الحادث عن اصابة ١٦٠ طالبا بعاهات مستديمة وفقد ٢٨ طالبا لم يعرف مقرهم حتى الآن .

وتلا حضرته بيانا أصدره النحاس باشا حينذاك طالب فيه بضرورة معاقبة الموظفين الذين تسببوا فى هذا الحادث وارتكبوا هذه الجرائم . ثم

قرأ حيثيات حكم صادر فى قضية تعويض أقامها طالب ضـد الحكومة بسبب اصابته فى المظاهرة ٠

وتكلم عن محاولة اغتيال النحاس باشا وفؤاد سراج الدين باشا وعن اغتيال الشيخ حسن البنا وعن حوادث التعـذيب فى قضـايا مقتل النقراشى باشا وسيارة الجيب ـ وقال :

« انه اذا عجز مصطفى النحاس باشا وفؤاد سراج الدين باشا فى ذلك الوقت عن اثبات الجرائم ، فليس مستحيـلا عليهما الآن ٠٠٠ ولكن الامـور ظلت كما هى ، ولم تحرك الحكومة ساكنا » ٠

وتكلم عن خطاب وصله من متهم يصف فيه كيف عذبوه ، ثم جاءوا له بالعسكرى الاسود فاضطر أن يعترف بما أملوه عليه ٠

وروى النائب أن أحـد رؤساء النيابة أثبت فى محضره بعـض حوادث التعذيب فكان جزاؤه النقل الى جهة نائية بعد أن سحبوا منه التحقيق ٠ وأن أحد وكلاء النيابة عـلم أن بعـض المتهمين قد أوحى اليهم أن يقحمـوا اسم النحاس باشا فى التحقيق حتى يستدعيه المحقـق لسماع أقـواله ، وعنـدئذ ترتكب جريمة ضده ، وعلى أثر ذلك اتصـل وكيل النيابة بالنحـاس باشـا وحذره من الحضور ، فكان جزاؤه النقل الى جهة نائية أيضا ٠

□ الحكومة تمالىء البوليس السياسى :

وقال النائب : ان الحكومة تتعمد ممالأة هـؤلاء الموظفين الذين ارتكبوا هذه الجرائم ـ ثم اقترح تأليف لجنة برلمانية لتحقيق هذه الجرائم وعـرض تقريرها على المجلس ، وطالب الحـكومة من الآن بحـل البوليس السـياسى وبالتحقيق فى جرائم التعذيب والقتل ٠

□ نتيجة الاستجواب :

تكلم عبد الفتاح حسن بك مدافعا عن الحكومة وقال ان وزارة الداخلية قررت تأليف لجنة يكون واجبها الاطلاع على جميع القضايا المحفوظة والتى ينطبق عليها وصف هذا الاستجواب ، لتحديد مسئولية الموظفين المشار اليهم

على أن رد عبد الفتاح حسن هذا لم يكن أكثر من مسكن ، فان أى اجراء ايجابى لم يتخذ حيال هذا الجهاز ٠

الباب الثالث

أخيرًا
المؤامرة تتحطم على صخرة صلدة
من نزاهة القضاء المصرى

- مكانة القضاء فى الامم وموضعه فى الاسلام
- من الاحكام الخالدة
- تعقيب وتحليل لهذه الاحكام

الفصل الاول

مكانة القضاء في الأمم وموضعه في الإسلام

القضاء الصالح النزيه هو فى حياة الامم قلبها النابض ، ومركز الاحساس فيها ، الذى يتوقف بقاء حياتها عليه ... واذا تطرق الفساد الى مؤسسات دولة من الدول ، وبقى قضاؤها سليما نظيفا ، كان هذا القضاء حصنا لها دون الموت والفناء .. إذ أن قضاءها النظيف قمين أن يبعث الحياة والنظافة والنقاء فى أعصاب بقية المؤسسات .. ذلك أنه هو صمام الامان ، فلا تنفجر الدولة من داخلها مهما اختلت أجهزتها ما دام صمام الامان صالحا وعاملا ..

وعند فساد أجهزة الدولة يكون أفراد الامة هم ضحية هذا الفساد . فاذا وجد هؤلاء الافراد من يلجأون إليه من ظالمهم ، فان انصاف القضاء اياهم يكون بمثابة انذار لمغتصبي الحقوق بأن فوقهم سلطة تلزم كل فرد — مهما عظم شأنه — حدوده ، وترده الى حجمه ، وتخضعه راغما لطائلة الحق والقانون ... فلا يجد هؤلاء المتطاولون بمناصبهم على عباد الله بين أيديهم من سبيل الا أن يرعووا عن غيبهم ، ويكفوا من غرب غطرستهم ، ويفيئوا الى الحق والصواب .. ومن هنا تجد العدالة طريقها الى كل أجهزة الدولة .

والمقصود بصلاح القضاء صلاح رجاله ، فان القانون وحده لا يردع مالم يقم على اعماله انسان . فاذا كان هذا الانسان صالحا أخرج للناس من القانون أداة فعالة وخلقا سويا ، واذا كان غير ذلك أخرج من القانون مسخا منفرا وخلقا مشوها ، وصار القانون فى نظر الناس أضحوكة يتندرون عليها ، وألعوبة يشكلونها حسب أهوائهم ، ووفق شهواتهم .

والقوانين المتحضرة — مهما اختلفت تفاصيلها — كلها تتوخى تحقيق العدالة بين الناس ، وكلها تعتبر المتهم بريئا حتى تثبت ادانته ، وكلها تعطى المتهم الفرص الكاملة للدفاع عن نفسه ، وكلها ترفض الاغراء والاكراه وسيلة للحصول على اعتراف المتهم ، وكلها تعتبر المواطنين جميعا سواء امام القانون .

وهكذا فأصول القوانين واحدة ٠٠ ولكن القوانين على كل حال أجساد هامدة حتى ينفخ القاضى فيها روح الحياة فتنبض وتعمل وتؤثر وتوجه ٠٠٠ ولذا كان اهتمام المصلحين ومنشىء الدول منصبا جله على شخصية القاضى وتفكيره وخلقه وأسلوبه ومسلكه ٠

وأعظم دليل على ما لشخصية القاضى من مكانة فى الحياة هو أن الله سبحانه وتعالى جعل القاضى خليفة له فى الارض فقال جل شأنه معقبا على حكم أصدره داود عليه السلام فى قضية عرضت عليه « ياداود انا جعلناك خليفة فى الارض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » ٠٠ ولم يكن هذا التعقيب الالهى والتحذير الشديد الا لان داود ترك لعواطفه — وان كانت عواطف نبيلة — أن تتدخل فى صياغة الحكم ٠٠ فما بالك اذا كانت العواطف التى ينبعث حكم القاضى منها غير نبيلة ؟ !٠٠ انها تكون البلاء والدمار والخراب ٠٠ أليس القاضى يحكم فى دماء الناس وأعراضهم وأموالهم ٠

واذا عرف القاضى مكانته هذه فى المجتمع فان عليه اذا جلس مجلس القضاء أن يتجرد من نوازع نفسه ، ومن أهوائه وعواطفه التى كان عليها قبل أن يجلس هذا المجلس ٠٠ وعليه أن يرى نفسه فى هذا المكان أعلى مكانة وأرفع قدرا من كل انسان فى المجتمع لانه صار خليفة الله فى هذا المجتمع ٠

ولقد بلغ تقديس القضاء فى الدولة الاسلامية مبلغا لم يبلغه فى دولة أخرى على مدى التاريخ ، فلم يكن فى هذه الدولة المترامية الاطراف انسان يرى نفسه أكبر من أن يمثل بين يدى القاضى ولو كان هذا الانسان هو أمير المؤمنين ٠٠٠ روى الامام الشعبى أنه كان بين عمر بن الخطاب وأبى بن كعب خصومة ٠ فتقاضيا الى زيد بن ثابت ٠ فلما دخلا عليه أشار لعمر الى وسادته (أى قدم اليه وسادته ليجلس عليها) فقال عمر : هذا أول جورك ٠٠ أجلسنى واياه مجلسا واحدا ٠ فجلسا بين يديه ٠

وكما اشتد الاسلام فى كتابه الكريم وحديث رسوله العظيم فى تحذير القضاة من الميل مع الهوى ، فقد عنى أيضا بالخصوم فوجه اليهم تحذيرا عنيفا ، حتى تكتمل بذلك العدالة ، التى هى هدف الاسلام وغايته الكبرى . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انما أنا بشر ، وانكم تختصمون الى ٠ ولعل بعضكم أن يكون الحن بحجته من بعض ، فأقضى له بنحو ما أسمع ٠ فمن قضيت له بحق أخيه فانما أقطع له قطعة من النار » ٠

واللحن بالحجة لا ينتهى مدلوله عند حد البراعة فى الالقاء ، والافتنان

فى تزويق الكلام ، والبلاغة فى الاسلوب ـ كما قد يتبادر الى الخاطر ـ بل انه يذهب الى أبعد من ذلك بكثير . فقد يكون اللحن بالحجة تعبيرا عن خصمين أحدهما حاكم والأخر محكوم ، ولدى الحاكم من وسائل القهر وأساليب التخويف والاغراء ما يلجم به لسان المحكوم فلا يجرؤ على بسط مظلمته والكشف عما يلقاه من قهر خصمه ، رهبة منه وتوجسا وخوفا ...

ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين يتحدث فى الشئون العامة لايكون هدفه من الحديث مقتصرا على ما يعالج من مشكلة بذاتها فى أيامه ، وانما هو يصوغ الحديث بحيث يتسع لما قد يجد فى الامة الاسلامية على مر الزمن .

قال الامام ابن العربى ـ فيما أورده القرطبى ـ فى معنى قوله تعالى « وعزنى فى الخطاب » التى ختمت بها الآية « ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب » قال : يعنى غلبنى فى شرح الحجة . واختلف فى سبب الغلبة فقيل معناه غلبنى ببيانه ، وقيل غلبنى بسلطانه لانه لما سأله لم يستطع خلافه .

ومن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة حكام المسلمين من بعده انهم كانوا لا يختارون للقضاء بين الناس الا أعظم العلماء ممن اشتهروا بالذكاء ، واتصفوا بالورع ، وتنزهوا عن الشبهات . ولذا فان أحكامهم كانت مضرب الامثال .. قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : لا يستقضى (أى لا يختار قاضيا) الا من كان عالما بآثار من مضى ، مستشيرا لذوى الرأى ، حليما نزيها ورعا ـ وقال الامام مالك بن انس رضى الله عنه : ينبغى للقضاة مشاورة العلماء ، وينبغى أن يكون القاضى متيقظا كثير التحذر من الحيل ـ وقال الامام القرطبى فى تفسيره : دل هذا على بيان وجوب الحكم بالحق ، وأن لا يميل الى أحد الخصمين لقرابة أو رجاء نفع أو سبب يقتضى الميل من صحبة أو صداقة أو غيرهما .

روى الامام الليث قال : تقدم الى عمر بن الخطاب خصمان . فأقامهما (صرفهما) ثم عادا فأقامهما ، ثم عادا ففصل بينهما . فقيل له فى ذلك فقال : تقدما الى فوجدت لاحدهما مالم أجد لصاحبه ، فكرهت ان أفصل بينهما على ذلك ، ثم عادا فوجدت بعض ذلك ، ثم عادا وقد ذهب ذلك ففصلت بينهما .

وكان أمير المؤمنين نفسه لا يرى لنفسه الحق فى الجلوس مجلس القاضى ليحكم فى قضية يعلم هو علم اليقين من هو صاحب الحق فيها ، قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه « لو رأيت رجلا على حد من حدود الله ما اخذته حتى يشهد على ذلك غيرى ـ وروى أن امرأة جاءت الى عمر رضى الله عنه

فقالت له : احكم لى على فلان بكذا فانت تعلم مالى عنده فقال لها : ان أردت أن أشهد لك فنعم وأما الحكم فلا ٠

وكان على بن أبى طالب كرم الله وجهه أعظم من أوتى مواهب القضاء، شهد له بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « اقضاكم على » ٠ وكانت أحكامه التى يصدرها فيما يعرض عليه من قضايا يحار ذوو العقول الكبيرة فى فهمها حتى يشرحها لهم ، ويبين لهم كيف استنبط حكمها من كتاب الله وسنة رسوله ٠٠ وهى أحكام رائعة لولا ضيق المقام لاثبتنا هنا طرفا منها ، ولكننا هنا نكتفى ـ مناسبة للمقام ـ بنقل فقرات من كتاب له رضى الله عنه فى كيفية إختيار القضاة وكيفية معاملتهم ٠

● من كتاب على رضى الله عنه الى مالك بن الحارث الاشتر :

وهذا الكتاب هو الذى عهد فيه الى مالك بن الحارث الاشتر بالولاية على مصر ـ ويعد هذا الكتاب احدى الوثائق التاريخية ، بل احدى الذخائر النادرة ، التى لم يجد الدهر بمثلها ، ولا تفتقت اذهان علماء الادارة المتخصصين حتى اليوم عن شىء يقارنها أو يدانيها ٠

فكتابه ـ كرم الله وجهه ـ هذا جمع فيه طرائق الحكم ، وأساليب الادارة ٠٠ هو دستور كامل جامع مفصل ، فيه كل ما يحتاجه حاكم ليرسى دعائم حكم صالح ، يسعد الناس فى كل نواحى حياتهم ٠٠ ويقع هذا الكتاب فى اثنتى عشرة صفحة ٠ وجدير بكل حاكم من حكام المسلمين اليوم أن يطلب هذا الكتاب ويرجع اليه ويطالعه بنظره وعقله وقلبه ، ويتخذه دستورا لحكمه ليسعد ويسعد ، ويسير فى حكمه على هدى ونور ـ وهاك فقرة من هذا الكتاب مما يتصل بكيفية إختيار الحاكم للقضاة وكيف يعاملهم :

« واردد الى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ، ويشتبه عليك من الامور ، فقد قال الله تعالى لقوم أحب ارشادهم « يايها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول » فالرد الى الله الاخذ بمحكم كتابه ، والرد الى الرسول الاخذ بسنته الجامعة غير المفرقة ٠

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيق به الامور ، ولا تمحكه الخصوم ، ولا يتمادى فى الزلة ، ولا يحصر من الفىء الى الحق اذا عرفه (لا يضيق صدره من الرجوع الى الحق) ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفى بادنى فهم دون اقصاه ٠٠ أوقفهم فى الشبهات ، وآخذهم بالحجج ، وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم ، وأصبرهم على كشف الامور ٠

وأصرمهم عند اتضاح الحكم · ممن لا يزدهيه اطراء ، ولا يستميله اغراء ·· وأولئك قليل ·· ثم أكثر من تعاهد قضائه ·

وأفسح له فى البذل ما يزيل علته ، وتقل معه حاجته الى الناس · واعطه من المنزلة لديك مالا يطمع فيه غيره من خاصتك ، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك ·

فانظر فى ذلك نظرا بليغا فان هذا الدين قد كان أسيرا فى أيدى الاشرار يعمل فيه بالهوى ويطلب به الدنيا » ·

● القضـــاء المصرى :

لا يستطيع أحد أن ينكر أن الفســاد كان مستشريا فى جميـع مـرافق البلاد ، وأن جهازا واحدا من أجهـزة الدولة لم يكن يخـلو من فســاد ، حتى السلطة التشريعية الممثلة فى مجلس النواب والشيوخ كشفت بعض الظروف انها لم تكن أقل فسادا ·

اما الجهاز الذى يحق لمصر ان تفخر به وتعتز ، والذى لم يستطع أن يتطرق اليه الفساد مع انه ينحدر من أعلى راس فى الدولة ـ فهو جهاز القضاء ·· هذا الجهاز قد صان نفسه مع تقلب العهود عن ان يكون مطية لعهد ، او حليفا لحكومة ، أو مشايعا لنظام ، أو مجاملا لكبير ·· بـل كان يرى نفسه اكبر من كل عهد ، وأعظم من كل حكومة ، وارفع شأنا ومقاما من كل كبير ·

وينبغى أن يكون مفهوما أن التزام القضاء لحدود مهمته ، وترفعه عن مستوى من حوله ، ليس معناه أن يسلخ نفسه من الوطنية التى ينتمى اليها ، أو أن يتعامى عما يدور فى بلاده من أحداث ···· فالفرق شاسع بين الوطنية عامة وبين الحزبية ، كما أن الفرق شاسـع بين من يرتكب جـريمة دفاعا عن النفس وبين من يرتكبها اعتداء على الآمنين ·· ويقاس على ذلك من يرتكبون جريمة للتخلص من مستعمر غاصب وبين من يرتكبون الجريمة ضد المسالمين الشرفاء من أبناء وطنه ·· ان مراعاة القضاء لاهداف الجريمة والدوافع اليها لا يقدح فى عدالة القضاء ، ولا ينال من حياده ، ولا يغض من ترفعه ·

ولم يكن القضــاء المصرى فى يوم من الايام متعاميا عن هـذه المعانى الانسانية والوطنية العامة،بل كان بصيرا مرهف الحس ـ لا نحو الاشخاص ـ ولكن نحو المعانى السامية ·· فكانت أحكامه دائما مثلجه لصدور الوطنيين المعتدى عليهم من الظلمة والطغاة والمستعمرين ·· لم يساووا فى أحكامهم بين الدوافع الوطنية النبيلة وبين الدوافع الشخصية الوضيعة ·· كان القضاة المصريون دائما مكملين لنقص القانون ، سادين لثغراته ·

واذا لم يكن القاضى كذلك فلا خير فيه ، لانه يكون عديم الشخصية ٠ واذا كان القاضى مجرد لسان ينطق بنص قانونى على أنه الحكم أو القرار ، فانه يكون بلاء على نفسه وعلى الناس ٠٠ وكيف لا والمتقاضون ينتظرون أن يكون حكم القاضى نتيجة تفاعل بين القانون وظروف القضية وعقل القاضى؟ ٠٠ وقد يتصل بهذا المجال ما قضى به عمر بن الخطاب حين جاءه الرجل بأجير عنده سرق ، فلما أحاط عمر بظروف القضية ، وعلم أن الرجل يظلم أجيره ويقتر عليه فى الاجر تقتيرا لا يجد معه الاجير ما يسد حاجاته الضرورية ٠٠ لم يقض عمر بالنص القانونى الذى يقضى بقطع يد السارق ، بل كان قضاؤه أن أعفى السارق من العقوبة ووجه انذارا الى صاحب العمل بأن يزيد من أجر أجيره ، والا فاذا عاد الاجير الى السرقة مدفوعا اليها بالحاجة فانه سيقطع يد صاحب العمل ٠

والامثلة كثيرة للقضاة الذين تجاوزوا النص أمام ظروف القضايا ٠٠ جاء فى تفسير الامام القرطبى لقوله تعالى « وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » قوله : قال القاضى أبو بكر بن العربى « فأما علم القضاء فلعمر الهك(١) انه لنوع من العلم مجرد ، وفصل منه مؤكد ، غير معرفة الاحكام ، والبصر بالحلال والحرام ، ففى الحديث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقضاكم على وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل » ، وقد يكون الرجل بصيرا بأحكام الافعال ، عارفا بالحلال والحرام ، ولا يقوم بفصل القضاء » ٠

وعلى هذا سار القضاء المصرى الذى استمد أصالته من تاريخه الاسلامى الحافل ، ومن الذكاء المصرى الفطرى ٠ واذا شذ عن هذا الاجماع قاض أو عدد قليل من القضاة ، فان ذلك لا يطعن فى الحكم العام على القضاء المصرى ٠ كما أن هذا الشذوذ لا يحملنا على افتراض سوء النية فيمن شذوا ملتزمين بحرفية النصوص فان هذا مبلغ علمهم ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها ، وفى درجات التقاضى متسع لتدارك أخطاء هؤلاء الشاذين ٠

● صفحة مجيدة للقضاء مع الاخوان :

أما القضاء بالنسبة للاخوان المسلمين فان له معهم صفحة مجيدة رائعة تسجل القضاء المصرى بحروف من نور : فلقد محص القضاء قضاياهم تمحيصا كشف خباياها ، وأوضح ما طمس من معالمها ، واقتحم من خلالها الى معاقل الظلم والقهر والعدوان ٠ وبين للرأى العام المصرى والعالمى من هو البرىء ومن هو المعتدى ٠

---

(١) قسم (بفتح العين وتسكين الميم)٠

ولقد كان التخطيط مؤسسا على أن يقدم هؤلاء المتهمون الى القضاء فى ظل الارهاب الحكومى الذى كان على رأسه ابراهيم عبد الهادى ، والذى سيكون سبحه ماثلا أمام كل متهم فلا يجرؤ على الافضاء بما سيم من سوء العذاب • ولذا فقد رأينا النائب العام محمود منصور باشا — خادم ذلك العهد — قد أجهد نفسه فى ضم جميع قضايا الاخوان مع قضية مقتل النقراشى باشا فى قضية واحدة ، تتقدم للقضاء فى أقرب فرصة ليصدر حكمه فيها مرة واحدة قبل أن ينقشع ظلام الارهاب الحكومى • ولكن أعوانه من رجال النيابة عجزوا عن تلبية طلبه لكثرة عدد المتهمين ، ولما سيكون عليه ملف هذه القضية من ضخامة تعجز من يطلع عليه أن يحيط بكل ما فيه •

فلما أراد الله أن يزلزل أقدام الطاغية •• وزال الشبح •• تكلم المتهمون ووجدوا من يستمع اليهم ، فكشفوا عما كان يقترف من جرائم التعذيب واهدار الكرامة — لا تحت سمع الحكومة وبصرها فحسب — بل وبأمر من رئيس حكومتها وتوجيهه ••• ولقد هز الكشف عن هذه الجرائم البلاد من أقصاها الى أقصاها ، لان هذه البلاد بالرغم من شدة وطأة الاستعمار عليها فانها كانت لا تزال تحتفظ بقسط من الشعور والحيوية •

ولقد كانت هذه القضايا فرصة أتيحت • كشف الدفاع — الذى كان الكثير من أعضائه متطوعا — عن حقيقة الاخوان المسلمين وعن جهادهم وتضحياتهم ، مما كان الاخوان حريصين على اخفائه ايثاراً لما عند الله • فعرف المصريون والعرب لاول مرة ان لهم فى تاريخهم الحديث مفاخر تذكر بمفاخرهم فى عصورهم الاولى من الدعوة الاسلامية الباكرة ، واستقر فى أذهانهم أن هذا الطراز من الرجال هو الذى يرجى على يديه اجلاء اليهود عن البلاد المقدسة التى مكنهم الاستعمار من اغتصابها •

ولقد كان للشهادات التى أدلى بها أمام القضاء القائدان العامان للقوات المصرية فى فلسطين اللواءان أحمد المواوى وفؤاد صادق صدى مدو فى أسماع العالم كله ، لاسيما فى أسماع المصريين — المجنى عليهم دائما — والذين لم يكونوا يسمعون من أبواق الحكومة السعدية الا ذما وافتراء وتحقيرا لهذه الفئة الطاهرة المجاهدة •

ولم يكتف القضاء باصدار أحكام تبرىء ساحة هؤلاء المجاهدين بل كانت الروعة فى حيثيات هذه الاحكام التى أشادت بهم ودمغت ذلك العهد بالاستبداد والتعنت والارهاب •

وينبغى ان يكون ماثلا فى ذهن القارىء انه ليس معنى ان هذه الاحكام وقد صدرت بعد سقوط وزارة السعديين ان العهد الذى تلا هذه الوزارة كان

عهدا جديدا ٠٠ لا بل ان العهد كان ممتدا ، لم يتغير فيه شيء الا الاشخاص الذين اتى بهم على المسرح ٠٠ أتى بهم المسيطر على المسرح ٠٠ المحرك من المصريين كان هو الملك وكان مؤلف المسرحية هم الانجليز ٠٠ وكان هذان موجودين ، وكانا هما المسيطرين على مقادير البلاد ٠٠ ولكنهما مع ما كان لهما من رهبة فى صدور الناس ، وقد استطاعا التدخل فى كل شيء واستطاعا افساد كل شيء فانهما عجزا عن أن يقتحما الى ساحة القضاء التى كانت حيالهما أمنع من عقاب الجو ٠

واذا كان الشيء بالشيء يذكر ونحن بصدد الابانة عن مناعة مقام القضاء حتى ذلك العهد ، أرانى مذكرا بمشكلة من هذا القبيل كثر حولها الجدل فى خلال عامى ١٩٥١ ، ١٩٥٢ حين وليت الحكم وزارة الوفد مؤيدة بأغلبية شعبية ساحقة ، ومشمولة بتأييد الملك لاول مرة ٠٠ ومعنى هذا أنها كانت وزارة وطيدة الاركان راسخة الاقدام نافذة الكلمة مما لم يتوفر لوزارة على الصعيد المصرى من قبل ٠

وكان الدكتور عبد الرزاق السنهورى فى ذلك الوقت رئيسا لمجلس الدولة ــ وهو العالم القانونى المشهود له من الجميع ــ غير أن الدكتور السنهورى كانت له صفة أخرى هى أنه كان من قبل عضوا فى حزب السعديين وتولى منصب الوزارة فى بعض وزاراتهم ٠

فلما جاءت وزارة الوفد أراد النحاس باشا رئيس الوزراء ــ بهذه السلطة المطلقة التى يملكها ــ أن يقتلع السنهورى من منصبه القضائى بدعوى أنه رجل حزبى ٠ وأرسل اليه من يطلب اليه الاستقالة من منصبه ، فكان أن أعلن السنهورى على صفحات الجرائد انه يوم تولى منصبه فى القضاء تخلى عن حزبيته وقطع صلته بها ، وأنه لن يتخلى عن منصبه القضائى الا أن ينحيه مجلس القضاء الاعلى ٠٠ ولما كان السنهورى كفاءة قانونية نادرة فقد تمسك به مجلس القضاء ٠

وبذلت حكومة الوفد جهودا جبارة بجهازيها التنفيذى والتشريعى وبنفوذها الصحفى والاعلامى ، طيلة عام كامل ٠٠ دون أن تتمكن اقوى حكومة تولت الحكم فى مصر فى عهد الملكية من زحزحة السنهورى عن منصبه ٠٠٠ وسقطت الحكومة فى عام ١٩٥٢ وظل القاضى فى منصبه ٠

الفصل الثانى

من الأحكام الخالدة

أولا - الحكم فى قضية السيارة الجيب :

مقـــدمة

لعل قد استبان للقارىء من الصفحات السابقة الصورة التى كانت التحقيقات تجرى فى اطارها ، والمجزرة البشرية التى كانت ترتكب جريمتها باسم هذه التحقيقات بين جدران السجون ومكاتب البوليس ، والاعترافات التى كانت تملى على المتهمين ، ويوقعونها وهم فى شبه غيبوبة من أثر الضرب والتعذيب ..

وظن المزورون أنهم استطاعوا أن يذللوا كل عقبة اعترضت طريقهم بازاحة كل رجل بوليس فيه بقية من شرف أو مسكه من ضمير عن طريقهم .. وحتى رجال النيابة .. انتقوا منهم قلة شاذة باعت نفسها للشيطان ، وشردوا الاخرين الذين رفضوا الخضوع لشيئتهم .

وكانوا يعتقدون أنهم بذلك قد أتموا المشوار الى آخره ، وأكملوا طبخ الطبخة ومهكوا عناصرها بعضها ببعض حتى فقدت هذه العناصر معالمها فلم تعد تميز عنصرا فيها عن آخر ، ثم مزجوا بها السم الزعاف فسرى فى كل ذرة من ذراتها وأعادوا مهكها مرة بعد مرة ، حتى خرجت من تحت أيديهم عنصرا واحدا يشهد بمهارة الطابخين ... طبخوها فى عزلة وفى تأن وهدوء ، فقد كان الوقت فى أيديهم يتصرفون فيه كما يشاءون .. ولم يقدموها للقضاء الا بعد أن استكملت تجانسها وصارت مهيأة للالتهام .

فالقضاء واجد أمامه اعترافات صريحة مذيلة بتوقيعات المتهمين . وان كان اكراه أو تعذيب فقد كان يجرى بين أربعة جدران ، ما من شاهد عليه ولا دليل ، وقد مضى عليه شهور طويلة كادت تذهب بآثاره .. فماذا يفعل القضاء امام هذه الظروف الا أن يصدر الاحكام التى رتب الظالمون هذه القضايا لتصدر فيها ؟! .

ولا عجب فى هذا ، فقد رأينا فى قضية الاوكار حين قررت المحكمة سماع

أقوال الشهود فى موضوع التعذيب ، رأينا أحد كبار المحامين فى القضية وهو الاستاذ زكى البهنيهى يقرر للمحكمة أن استجلاء هذا الموضوع بهذا الاسلوب غير مجد لان التعذيب كان يجرى بين أربعة جدران ، ولم يكن يحضره الا المتهم والقائمون بتعذيبه ٠

لم يكن القضاء ـ كما رأى القارئ ـ هو القضاء الساذج المتسرع الذى يؤخذ بالظواهر والمناظر فيلتهم الطبخة الناضجة الفائحة الرائحة التى قدمت اليه ٠٠ بل انه سد أنفه وأخذ يجيل النظر فى محتوياتها ٠٠ ولفت نظره الاعترافات الكاملة من كل المتهمين والمكتوبة بأسلوب قانونى وبعبارات اصطلاحية لا يحذقها الا الاخصائيون المتمرسون بالتحقيقات القانونية ٠٠ فهل هؤلاء المتهمون جميعا ـ ومنهم الطبيب والمهندس والمعلم والازهرى والطالب والعامل والميكانيكى والتاجر ـ كلهم على درجة عالية من الدراية بالاصطلاحات القانونية التى لا يفهمها الا الاخصائيون ؟

لم يكن القضاء اللقمة السائغة للملفقين كما كانوا ينتظرون ، بل انه خيب آمالهم ، فقد أفسح صدره ، وتتبع الآثار حتى وصل الى أصلها ٠ وتعاون مع الدفاع فى تقصى الحقائق واستجواب الرءوس الكبيرة ـ التى كانت تعتقد أنها أمنع من أن يهبط بها من عليائها ـ وأوقفها أمام المتهمين وجها لوجه ٠٠٠ واقتحم بسلطانه العادل الى معاقل الظلم فعاين زنازين السجون المحصنة التى استقل بها البوليس السياسى وعزلها عن الدولة ٠

ترك القضاء الطبخة كلها جانبا ، وراح ينظر فيما بين يديه من آثار فى أجسام المتهمين ، ويستعين بالاطباء على معرفة أسبابها وأعمارها ٠ وأخذ يبحث تاريخ هؤلاء المتهمين ، وهل هم فئة مردت على الاجرام بطبيعتها أم أن هناك بواعث أخرى كانت هى السبب الاصيل فى مثولهم بين يديه فى قفص الاتهام ؟ ثم أخذ يقيم هذه البواعث حتى انه قرأ القوانين الضابطة لمسيرة هؤلاء المتهمين فى الحياة ، والتى التزموا بها وبايعوا عليها من أول يوم ٠ فوجدها مثلا عليا مستمدة من القرآن الكريم ، ولكنها تتعارض مع أهواء السادة الحاكمين ، وتقف عقبة فى طريق شهواتهم ٠

وكانت القضيتان الكبريان اللتان آلتا آخر الامر الى ساحة القضاء هما قضية السيارة الجيب وقضية الاوكار وحامد جوده ٠ وضمت الاولى اثنين وثلاثين متهما وضمت الثانية خمسين متهما ٠

ومع أن القضية الثانية (الاوكار) قد عقدت أكثر من عشرين جلسة تكشفت فى خلالها فضائح وأعاجيب ـ عرضنا لبعض منها فى الفصل السابق ـ فانها انقطعت عن مواصلة الجلسات للاسباب التى أشرنا اليها ٠

ولهذا فان القضية الكبيرة والهامة التى صدرت فيها الاحكام هى قضية السيارة الجيب ليس غير • وقد رأينا أن نثبت هنا نص هـذا الحـكم ، ثم نتبعه بالحيثيات التى بنى عليها ، ليرى القارىء فى هذا الحـكم وحيثياته وثيقة تاريخية نترك له تقييمها •

ولا يفوتنا ــ بهذه المناسبة ــ أن نقول أنه لو أن قضية الاوكار قدر لهاان تتابع جلساتها لانتهت الى أحكام وحيثيات أبدع وأروع •• ولكن يبدو أن ارادة الله قد سبقته بأن تكون أحكام هذه القضية وحيثياتها لا مجرد ادانة لحكم فاروق وعصابته ، بل تقويضا لدولتهم ، وثـلا لعرشـهم بقيـام ثورة يوليو ١٩٥٢ •

● نص الحكم فى قضية السيارة الجيب :

نظرا لمـا كان للحكم فى هذه القضية من صدى داخل مصر وخارجها • ونظرا لمـا لهذا الحكم من دلالات بعيدة المدى ، ولمـا له من آثار عميقة الغور فى تاريخ مصر ومستقبلها ، فقد صدرت أكبر الصحف اليومية فى ذلك اليوم ١٨ـ٣ـ١٩٥١ وملء صفحاتها الاولى بالخط الاحمر هذا العنوان وكتب تحته « براءة ١٤ متهما من ٣٢ متهما » ــ وكتبت تحت ذلك : كان المتهمون ينشدون نشيد السجون الذى الفه أحدهم وهو :

الله أكـبر فى سـبيل الله أدخلنـا السـجون
والمخـرجـون من الديار بـلا ذنوب يحبسـون
الله أكـبر وليـكن بعـد الحـوادث ما يكـون
لا نستعين بغير ناصـرنا وما نتـقى يهـون
والله اكـبر فى سبيل الله أدخلنا السـجون

□ نـص الحـكم :

السجن ثلاث سنوات : مصطفى مشهور ــ محمود السيد خليل الصباغ احمد محمد حسنين ــ أحمد قدرى الحارتى ــ السيد فايز عبد المطلب •

الحبس سنتين مع الشغل : عبد الرحمن على فـراج السندى ــ احمـد زكى حسن ــ أحمد عادل كمال ــ طاهر عماد الدين ــ محمـود حلمى فرغلى ــ محمد أحمد على ــ عبد الرحمن عثمان ــ صلاح الدين عبد المتعال ــ جمال الدين طه الشافعى ــ جلال الدين ياسين ــ محمد سعد الدين السنانيرى ــ على محمد حسنين الحريرى •

الحبس سنة واحدة : محمد ابراهيم سويلم ٠

براءة المتهمين جميعا من التهمة الرابعة الخاصة بحيازة أجهزة وأدوات ومحطة اذاعة لاسلكية بدون اخطار ٠

براءة ١٤ منهما هم : محمد فرغلي النخيلي ـ محمد حسنى أحمد عبد الباقي ـ أحمد متولى حجازى ـ ابراهيم محمود على ـ الدكتور أحمد الملط ـ جمال الدين ابراهيم فوزى ـ السيد اسماعيل شلبى ـ أسعد السيد أحمد ـ محمد بكر سليمان ـ محمد الطاهرى حجازى ـ عبد العزيز أحمد البقلى ـ كمال سيد القزاز ـ محمد محمد فرغلى ـ سليمان مصطفى عيسى ٠

□ تعليق الدكتور محمد هاشم باشا على الحكم :

كان الدكتور محمد هاشم باشا من أكبر المحامين فى مصر فى ذلك الوقت، وقد تقلد منصب الوزارة فى وزارة محايدة ٠٠ وقد أدلى لمندوب جريدة « المصرى » برأيه فى هذا الحكم فقال :

رأيى أنه حكم سليم ، قد راعى كل الاعتبارات ، وبخاصة فيما يتعلق بالظروف التى أحاطت بالتحقيق ، وعلى الاخص من جهة المعاملة التى عومل بها المتهمون ، وكيفية انتزاع ما أسمته النيابة اعترافات منهم ٠

ومن ناحية أخرى يخيل الى وأنا لم أقرأ الحيثيات بعد ، أن المحكمة راعت الاعتبارات الخلقية والاجتماعية التى كان يقوم بها الاخوان المسلمون بصفة عامـــة ٠

والى جانب هذا فان المحكمة كانت واسعة الصدر بشكل واضح ، وقد أوسعت صدرها للاتهام أولا وللدفاع ثانيا ، ولم تترك كبيرة ولا صغيرة الا حققتها ووزنتها ٠ وقد عشنا ـ نحن القضاة والنيابة والمحامين ـ ثلاثة اشهر فى بحث هذه القضية ٠ ولم يمل المستشارون بحال من الاحوال ، بل وأرادوا أيضا أن يحققوا أكثر مما دققوا فحجزوا القضية للحكم قرابة ثلاثة أسابيع لمراجعة الاوراق من جديد ، ووزن كل ما جرى فى التحقيق وما قيل فى المرافعة من جانب الاتهام والدفاع ٠

ولا شك أن قضاة يظهرون هذا التدقيق والوزن فى كل أمر يمس هذه القضية لا يمكن بحال من الاحوال الا أن يجىء حكمهم عادلا سليما لا يرد عليه مطعن ٠

ويخيل الى أيضا أن القضاة وهم يباشرون نظر هذه الدعوى كانوا حقيقة بعيدين عن كل شىء يمس الجو العام للقضية كالدعاية وما شابهها ٠

ثم انسحبوا بعد ذلك الى محراب العدالة يستلهمون فيه حكم القانون اولا والعدل ثانيا • والقضاء ليس الا تحقيقا للعدالة فى حدود القانون •

ولعلنا بعد أن نطلع على أسباب الحكم نقتنع تماما بهذا الشعور الذى حكمنا به لاول وهلة عندما سمعنا النطق بالحكم • وهذا من غير شك يجعلنا نردد بحق تلك العبارة التقليدية التى تقول « **ان فى مصر قضاة** » •

● **حيثيات الحكم فى قضية السيارة الجيب :**

فى ١٣ـ٤ـ١٩٥١ نشرت الصحف حيثيات الحكم فى قضية السيارة الجيب على الصورة الآتية :

« المحكمة تعلن « وهى مطمئنة » أن تعذيبا وقع على المتهمين »

«كان التحقيق فوضى ، تارة تتولاه النيابة وأخرى يتولاه عبد الهادى باشا»

« المحكمة تشيد بمبادىء الاخوان المسلمين ، ولكن المتهمين

انحرفوا عنها بدوافع وطنية كأبناء بلد محتل مغلوب

على أمره » « وتحت تاثير كارثة فلسطين »

وقع أمس سعادة أحمد كامل بك رئيس دائرة الجنايات المكونة من سعادته وعضوية محمود عبد اللطيف بك ومحمد زكى شرف بك حيثيات حكمها فى قضية السيارة الجيب ، التى كان متهما فيها ٣٢ شخصا من الاخوان بالاتفاق الجنائى العام على قلب نظام الحكم واحراز الاسلحة ، وقضى ببراءة ١٤ متهما وبحبس الباقين مددا تتراوح بين ثلاث سنوات وسنة واحدة ـ ويقع الحكم فى ٣٨٥ صفحة فولسكاب • وقد بدىء بأسماء المتهمين والتهم المنسوبة اليهم وبيان الاوراق والاسلحة التى ضبطت ثم جلسات المحاكمة ـ ثم اشار الى اعترافات عبد المجيد حسن قاتل النقراشى ـ ثم عرض الى اعترافات عبد الرحمن عثمان •

□ **اعترافات مصطفى كمال :**

ثم انتقل الحكم الى سرد اعترافات مصطفى كمال عبد المجيد ـ المتهم الاول فى قضية الاعتداء على حامد جوده ـ المتضمنة انه نعرف بالمتهم عادل كمال ، وأنه كان يتردد على شعبة الظاهر ، وعلم أن محمود الصباغ اشترى سيارتين من سيارات الجيب عهد باصلاحهما لانيس انس ، وأنه اشترك مع احمد عادل فى نقل أوراق من احد المنازل بالسيارة ـ وبعد ذلك ضبط مع بعض المتهمين اثناء وجودهم فى السيارة الجيب بالوايلية ولكنه استطاع الهرب الى القاهرة وظل مختفيا تحت أسماء مستعارة ـ وانه دبر هو وزملاؤه مؤامرة

لقتل ابراهيم عبد الهادى باشا ، ولكن تصادف مرور سيارة الاستاذ حامد جوده فظنوه عبد الهادى باشا وألقوا على سيارته القنابل بمصر القديمة ·

□ عدم تعرف المعترف :

وأشارت المحكمة الى أنه بناء على هذه الاعترافات صحب المحقق هذا المتهم المعترف للارشاد عن منزل عادل كمال الذى يردده فى اعترافاته ، فاذا به لا يستطيع الارشاد عنه بل أرشد عن منزل آخر تبين أن صاحبه لا صلة له بالحادث ·

□ اعترافات صنعها التعذيب :

ثم تناولت المحكمة عدول هذا المتهم عن اعترافاته ، وقوله ان أقواله المذكورة لم تصدر منه على الاطلاق ، وأنه عذب فور القبض عليه فى ٥ مايو ١٩٤٩ على أثر محاولة الاعتداء على الاستاذ حامد جوده رئيس مجلس النواب وقتئذ ، وأن التعذيب ترك بجسمه آثارا · وان المحكمة استجابت لطلب الدفاع بضم التقرير الطبى الشرعى عنه ·

□ سبع ندب بعد عدة شهور :

ثم استطرد الحكم يقول : انه بمراجعة التقرير الطبى تبين أن الكشف على المتهم المذكور انما تم بعد خمسة أشهر من وقوع التعذيب المدعى به ، وقد وجد بساعده وعضده سبع ندب لشقوق يتراوح طولها بين سنتيمترين وستة سنتيمترات ، وأنها قد تكون معاصرة للوقت المدعي بحصول الاعتداء فيه كما قد تكون سابقة لهذا التاريخ ، وأنه لا يوجد لدى الطبيب ما يساعده على الجزم بأن هذه الآثار ناشئة بالذات عن ضرب الكرباج ، ومن الممكن تخلفها من الاحتكاك بأجسام صلبة أيا كانت طبيعتها ·

□ لولا قرار المحاكمة :

ثم استطردت المحكمة معلنة رأيها فى هذه الواقعة قائلة : انه ثابت فى صدر التقرير الطبى أن هذا المتهم مصطفى كمال عبد المجيد عندما كشف عليه تنفيذا لقرار المحكمة العسكرية العليا فى ٨ اكتوبر ١٩٤٩ لم يكن أحد قد عنى من قبل ذلك باحالته الى الكشف الطبى ·

□ فى قبضة البوليس :

وانه لا نزاع فى أن المتهم المذكور كان فى قبضة رجال البوليس وتحت سلطتهم فى الفترة ما بين ٥ مايو ١٩٤٨ وهو تاريخ القبض عليه وبين ١٠ من اكتوبر ١٩٤٩ وهو تاريخ الكشف الطبى عليه ·

□ حيموتونى يا باشا :

وحيث ان دولة ابراهيم عبد الهادى باشا رئيس مجلس الوزراء وقتذاك قد أدلى بأقواله أمام هذه المحكمة بجلسة ١٨ ديسمبر ١٩٥٠ وجاء فيها أنه عندما وصل الى علمه نبأ محاولة الاعتداء على حياة رئيس مجلس النواب السابق انتقل الى قسم مصر القديمة ، وهناك رأى مصطفى كمال عبد المجيد مقبوضا عليه ، وأنه استغاث بدولته قائلا : فى عرضك أنا عطشان حيموتونى. فسأله دولته عن الحادث واشتراكه فيه فأقر بما ارتكب .

□ الشعب المعتدى :

واضاف عبد الهادى باشا الى اقواله أنه علم أن الاهالى اعتدوا على مصطفى كمال عبد المجيد عقب القبض عليه .

□ استغاثة لها دلالتها :

وعلقت المحكمة على هذه الشهادة من ابراهيم عبد الهادى باشا قائلة : ان عبارات الاستغاثة التى أسندها دولة ابراهيم عبد الهادى باشا الى المتهم ان دلت على شىء فانما تدل على أن المتهم كان محل اعتداء بعد القبض عليه وبعد ان أصبح تحت سلطان رجال البوليس وحدهم وفى دار القسم وبعيدا عن تناول الافراد .

□ لو كان فى مأمن :

ولو ان هذا المتهم كان بعد القبض عليه فى مأمن من أى اعتداء لكانت استغاثته بدولة عبد الهادى باشا غير مستساغة ولا معنى لها .

□ من فم عبد الهادى باشا :

وحيث انه من هذا ترى المحكمة ان هذا المتهم كان محلا للاعتداء فى دار قسم مصر القديمة بعد القبض عليه ، وأن العبارات التى قال رئيس مجلس الوزراء الاسبق انه فاه بها انما تدل على ان الاعتداء كان شديدا .

□ المحكمة تعلن ثبوت التعذيب :

واستطردت المحكمة تعلنها مدوية : ان المحكمة تستطيع أن تقرر وهى مطمئنة أن الآثار التى شوهدت بجسم مصطفى كمال عبد المجيد بعد ما يزيد على خمسة أشهر من وقت ضبطه ، يمكن ارجاعها كلها أو بعضها على الاقل الى ما كان يقارفه من تولوا ضبطه والمحافظة عليه من رجال البوليس .

□ **وتعلن بطلان الاعترافات :**

وتطرقت المحكمة مرتبة على هذا الرأى الخطير نتيجة خطيرة فقالت · حيث ان ما أدلى به هذا المتهم فى التحقيقات الخاصة بهذه القضية ـ تضحية السيارة الجيب ـ عن قيادته لسيارة الجيب مع بعض المتهمين ونقـل أوراق وغير ذلك من وقائع انما كلها أتى بعد وقوع الاعتداء عليه اثر ضبطه ، ولذا فان المحكمة لا تطمئن الى أقواله جميعها ، وترى أن تسقطها من حسابها عند الكلام على الدليل ·

□ **تسليم النيابة بالاصابات :**

ولقد أرفق ممثل الاتهام الخطابات التى كتبها أحمد عادل كمال وزملاؤه بالتحقيقات · وان ارفاق هذه الخطابات دون سـؤال مرسـليها يدل على أن ما ورد بها عن اصاباتهم ـ أيا كان سببها ـ كان أمرا مسلما به · ويدل على ذلك شهادة دولة ابراهيم عبد الهادى باشا عن استغاثة مصطفى كمال عبـد المجيد به · ولا محل لسماع شهادة ممثل الاتهام عن هذه الواقعة وقـد تبينت المحكمة حصول اعتداء عليه داخل القسم ·

□ **تعذيب فصالون :**

ثم انتقل الحكم بعد ذلك الى الكلام عن المتهم عبد الرحمن عثمان فتناول الواقعة الخاصة بتعذيبه فى ١١ يوليو ١٩٤٩ بقصد الاعتراف امام المحقق فى اليوم التالى ، وواقعة أن ابراهيم عبد الهادى باشا اصطحبه معه فى صالونه الخاص فى سفره الى الاسكندرية ·

□ **ظـــروف :**

ثم استطردت المحكمة تقول : انها ترى قبل الكلام على الادلة القائمة قبل هذا المتهم أن تعرض للظروف التى تم فيها ضبطه ثم الظروف التى أدلى فيها بأقواله سـواء أكان ذلك فى التحقيقات أو بمحضر جلسـة قضـية مقتل النقراشى باشا ·

□ **انكار ينهار فجـــأة :**

وأشارت الى القبض عليه وتمسكه بالانكار ثم تقديمه طلبا الى النيابة بأنه يريد الاعتراف · وأبرزت ظروف ذلك مقررة أنها تلاحظ أن آخر استجواب للمتهم قبل اعترافه كان بتاريخ ٢٥ يونيه ١٩٤٩ وقد ووجه بجانب من تقرير الخبراء من أن التقارير المضبوطة فى المحافظة بخطه واصر رغم ذلك على الانكار

ولم يجد جديد فى شأنه حتى تقدم بالطلب المؤرخ ١١ يولية ١٩٤٩ عن طريق السجن يريد الاعتراف .

□ تعليل النيابة غير معقول :

وحيث ان النيابة فى مرافعتها قالت ان المتهم تبين بعد ورود التقرير بخطه أن انكار الحقيقة لم يعد مجديا . وهذا القول مردود لان المتهم ووجه بتقرير الفحص فاصر على الانكار . ثم كان الطلب بعد أن أصر بنحو ٢٦ يوما دون أن يجد جديد ، فلم يواجه مثلا بأقوال شاهد أو بأقوال متهم معترف عليه بل ان الطلب قدم دون أسباب أو مقدمات .

□ سر له أثر حاسم :

وحيث ان الثابت من الاطلاع على دفتر سجن الاجانب أن المتهم خرج منه مع أحد ضباط القسم السياسى وقضى ٦ ساعات فى دار المحافظة ثم ظهر أنه قدم الطلب الذى يبدى فيه رغبته للاعتراف فى نفس هذا اليوم ، وأن الطلب كتب بعد عودته من المحافظة ، وذلك ينطوى على مسألة قد يكون لها أثر حاسم فى القضية محل التحقيق .

□ خفايا المحافظة :

وحيث انه لا يوجد فى الاوراق ما يكشف عن حقيقة ما دار فى الفترة التى قضاها المتهم فى دار المحافظة ، ولم يتحدث أحد بما حصل سوى الدفاع عن المتهم الذى قرر أنه عذب واستكتب طلبا بالاعتراف .

□ الاعتداء أقل ما يقال :

والقت المحكمة برأيها فى هذه الواقعة فاعلنت أن أقل ما يقال فى هذا الشأن أن المتهم كان تحت تأثير اعتداء أو تحريض من رجال البوليس لدفعه الى كتابة ما كتب وللادلاء بعد ذلك بما أدلى من اعتراف فى ١٣ يوليو ١٩٤٩ .

وحيث انه مما يلفت النظر ، أنه فى اليوم التالى للاعتراف أخرج عبد الرحمن عثمان من السجن مرة أخرى (لتوصيله لنيابة الاستئناف) ولكنه لم يصل الى النيابة .

وقد دعا الدفاع ابراهيم عبد الهادى باشا للادلاء بأقواله أمام هذه المحكمة . وكان من بين ما قرره أن المتهم ركب معه القطار فى ذلك اليوم واستجوبه لفترة قصيرة بشأن اعترافه على قريب له هو ابن محمود يوسف باشا وكيل الخاصة الملكية ، وذلك لكى يتحقق دولة الشاهد ــ وهو الحاكم

العسكرى العام – من صحة هذا الاعتراف ويتصرف على مقتضى ما يصل اليه فى هذا الشأن • واستطرد دولة الشاهد فقال انه بعد أن سمع من المتهم ما أراد سماعه صرفه ولا يعرف ما تم فى أمره بعد ذلك •

وأمسكت المحكمة بهذه الرواية من ابراهيم عبد الهادى باشا لتبدى رأيها فيها قائلة : ان ما قرره دولة ابراهيم عبد الهادى باشا بشأن ابن محمود يوسف باشا لم يكن شيئا فى أوراق هذه القضية • ولم يخطر دولته المحقق بهذه المقابلة وبما تم فيها •

وانطلق الحكم يدوى بكلمة المحكمة : وحيث انه مع التسليم بأن من حق الحاكم العسكرى أن يدعو الافراد ويستجوبهم بنفسه وبخاصة اذا كان الامر يتعلق بالمحافظة على الامن العام ، الا أن ما تم بشأن هذا المتهم بالذات يدعو الى انعام النظر •

فلقد أخرج المتهم من السجن بحجة توصيله الى نيابة الاستئناف – ولم يصل ذلك اليوم على الاطلاق – واقتيد الى محطة القاهرة حيث ركب القطار والتقى بدولة رئيس مجلس الوزراء وقتذاك وكان ما كان بينهما مما رواه دولة الشاهد الذى لم يعن باثبات ما تم بينه وبين المتهم أو تبليغ المحقق أمر هذه المقابلة •

وواصل الحكم يجهر برأيه عن هذه الواقعة يسجل قائلا :

وحيث انه مهما يكن من سلطان الحاكم العسكرى فى هذا الشأن ، فان حريات الافراد يجب أن يكون لها حدود تقيها من العبث أيا كان مصدره ، وان لا يترك أمر استجواب المتهمين المقبوض عليهم فوضى يتولاه تارة المحقق ، وطورا الحاكم العسكرى صاحب السلطان الاكبر •• وذلك فى غيبة المحقق وعلى غير علم منه دون اخطاره بشأن الاستجواب •

□ اعترافات فاسدة :

وانتهت المحكمة من هذه الصيحة المدوية الى القول بأنها ترى أن كتابة المتهم الطلب الخاص بالاعتراف ثم اعترافه ، كل هذا شابه عوامل غير عادية قد تكون تعذيبا كما زعم المتهم أو على الاقل اغراء وتحريضا • وهذه الاقوال لا تعول عليها المحكمة وتعدها مهدرة •

وحيث ان هذه المحكمة ترى أن اطلاق يد البوليس فى مقابلاتهم للمتهمين ، يلقونهم متى يشاءون ، ويخرجونهم من السجن متى أرادوا ، ويعيدونهم ثانيا طبقا لاهوائهم ، ودون رقابة من رجل النيابة المحقق ••• هذه السلطة الطلقة

لا تتفق مع ما كفله القانون للمتهم من حرية الدفاع عن نفسه والادلاء بأقواله في جو بعيد عن شتى المؤثرات •

□ **جماعة الاخوان المسلمين :**

وتناول الحكم بعد ذلك الكلام عن جماعة الاخوان المسلمين مشيرا الى نشأتها ومسارعة فريق كبير من الشباب للالتحاق بها ، والسير على المبادىء التى رسمها منشئها ، والتى ترمى الى تطهير النفوس مما علق أو يعلق بها من شوائب ، وانشاء جيل جديد من اخوان متقفين ثقافة رياضيــة عاليــة ، مشربة قلوبهم بحب وطنهم ، والتضحية فى سبيله بالنفس والمــال •

ومضت تقول : وقد كان لابد لمؤسسى هذه الجمــاعة لكى يصــلوا الى أغراضهم أن يعرضوا أمام هذا الشباب مثلا أعلى يحتذونه ، ووجدوه فى الدين الاسلامى وقواعده التى تصلح لكل زمان ومكان ، فأثاروا بهذا المثل العواطف التى كانت قد خبت فى النفوس ، وقضوا على الضعف والاستكانة والتردد •

وهذه الامور تلازم عادة أفراد شعب محتل مغلوب على أمره ، فقام هذا النفر من الشباب يدعو الى التمسك بقواعد الدين والســير على تعــاليمه ، واحياء أصوله ، سواء أكان ذلك متصلا بالعبادات والروحانيات أو بأحكام الدنيــــا •

ولــا وجدوا أن العقبة الوحيدة فى سبيل احياء الوعى القومى فى هــذه الامة هى جيش الاحتلال ، الذى ظل بين المحتــل وبين فــريق من الوطنيين الذين ولوا أمر هذا البلد مباحثات ومفاوضــات على اقرار الامــور ليخلــص الوادى لاهله ، ولم تنته هــذه المفاوضــات والمحــاولات الكلامية الى نتيجة طيبة •• ثم جاءت مشكلة فلسطين وما صحبها من ظروف وملابسات •

ولــا كان كل هذا •• اختل ميزان بعض أفراد شباب جماعة الاخوان فبدلا من أن يسيروا على القواعد التى رسمها زعماؤهم ، والتى كانت قديرة حتما على تربيــة فريق كبير من أفــراد الشــعب وتثقيفهم واعــلاء روحهــم المعنوية •• بدلا من الســير على هــدى هــذه المبــادىء أرادوا أن يختصروا الطريق ــ ظنا منهم أن أعمال العنف تبلغ بهم أهدافهم من سبيل قصير •

فاتحدت ارادتهم على القيام بأعمال قتل ونسف وغيرها مما قد لا يضر المحتلين بقدر ما يؤذى بمواطنيهم ، وذهبوا فى سبيل ذلك مــذهبا شــائكا ، منحــرفين عن الطريق الذى رسمه لهم رؤساؤهم والذى كان أســاسا قــويا لبلوغهم أهدافهم •

وحيث انه يتبين من كل هذا أن هذه الفئة الارهابية لم يحترفوا الجريمة وانما انحرفوا عن الطريق السوى فحق على هذه المحكمة أن تلقنهم درسا ٠

□ درس رءوف :

على أن المحكمة تراعى فى هذا الدرس جانب الرفق ، فتأخذهم بالرأفة تطبيقا للمادة ١٧ من قانون العقوبات ، لانهم كانوا من ذوى الاغراض السامية التى ترمى أول ما ترمى الى تحقيق الاهداف الوطنية لهذا الشعب المغلوب على أمره ٠

❋ ❋ ❋

ثانيا ـ الحكم بوقف بيع المركز العام وممتلكات الاخوان :

دعوى رفعها الامام ودعاوى رفعها رؤساء الشعب :

على أثر صدور الامر العسكرى فى عهد النقراشى باشا بحل هيئة الاخوان ومصادرة أموالها وممتلكاتها فى أنحاء القطر ، رفع الاستاذ الامام رحمه الله دعوى أمام مجلس الدولة يطالب فيها بالغاء أمر الحل ٠ فلما أغتيل واصل أصهاره ـ الاستاذ عبد الحكيم عابدين والاستاذ عبد الكريم منصور ـ الدعوى ٠ كما أقام بعض رؤساء الشعب دعاوى مماثلة يطالبون فيها بوقف تنفيذ مصادرة الشعب وبيع ممتلكاتها ٠

□ **السنهورى يتنحى :**

وقد رأى عبد الرزاق السنهورى باشا رئيس مجلس الدولة ـ لعلاقته السابقة بحزب السعديين ـ أن يتنحى عن نظر كافة الدعاوى المتعلقه بالاخوان المسلمين ، وعهد بنظرها الى السيد على السيد بك وكيل مجلس الدولة ـ وكانت هذه كياسة من السنهورى باشا ٠

وفى يوم ٢٦ـ١١ـ١٩٥٠ عرضت بصفة عاجلة احدى هذه الدعاوى . وهى مرفوعة من محمد حمزة الجميعى بصفته رئيسا لشعبة الاخوان بدمنهور ضد وزارة الداخلية ومدير البحيرة والمندوب العام لتصفية أموال جمعية الاخوان ، يطالب فيها بالغاء أمر الحل لصدوره مخالفا للقانون والدستور ولتضمنه نصوصا بالالغاء والمصادرة لا يملكها الحاكم العسكرى ، كما يطالب بصفة عاجلة بوقف تنفيذ الامر الصادر من مدير البحيرة بناء على امر الحل ببيع أرض يملكها المدعى بصفته رئيسا للشعبة ونائبا عن المرشد العام ووضعت عليها الحراسة يدها باعتبارها من ممتلكات الجماعة ٠

□ **الوفـد ينكث وعـــده :**

وينبغى هنا أن نذكر أنه كان مفروضا حسب وعود حزب الوفد بلسان مرشحيه لمجلس النواب ، وحسب الوعود التى تطعها هؤلاء لناخبيهم ، أن تتخذ حكومة الوفد عند توليها الحكم الاجراءات التى تغنى الاخوان عن السير فى هذه الدعاوى التى رفعوها فى المحاكم ، وذلك بأن تصدر الحكومة قرارات بالغاء الاوامر العسكرية والقـرارات التى صـدرت من حـكومات السعديين بالاسـتيلاء على دور الهيئة وأمـلاكها ، وبرد هذه الامـلاك الى أصـحابها الشرعيين ٠

ولكن الذى حدث هو أن وزارة الوفد تلكأت فى اتخاذ هذه الاجراءات ـ بالرغم من استنجاز الاخوان هذه الوعود ـ حتى حان الميعاد الذى حدده الموظف المسئول عن تصفية هذه الاملاك لبيع دار المركز العام ٠

وهنا اضطر الاخوان الى تحريك دعواهم ، فعرضت الدعوى التى اشرنا اليها فى ٢٦ـ١ـ١٩٥٠ فى جلسة برياسة السيد على السيد بك ٠ وحضر عـن المدعى الاستاذ محمد طاهر الخشاب الذى طلب وقف تنفيذ قرار البيع بصفة عاجلة حيث تحدد يوم الاحد الماضى لاتخاذ اجراء بيعها ، على أن يحدد سعادة الرئيس جلسة لنظر الدعوى أمام القضاء الادارى ، اذ يستغرق الفصل فيها وقتا يصبح من المتعذر بعده اصلاح هذه الحالة الطارئة الناجمة عن قرارات الحراسة ، كما طلب ضم قضيتين أخريين مرفوعتين من الاخوان لاهميتهما فى الدعوى ٠

ودفع محامى الحكومة بعدم توافر صفة الاستعجال قائلا انه لا يوجد ضرر غير ممكن تداركه ، فطلب ايقاف التنفيذ متعلق بذمة مالية ، وخـزانة الدولة دائما عامرة يمكنها السداد اذا حكم بتعويض ٠

ثم نطق الرئيس بالقرار وهو يقضى بتاجيل القضية لجلسة ٦ فبراير القادم مع القضيتين المشار اليهما ٠٠ وتوالى التاجيل بعد ذلك ٠

هذا ٠٠ ثم حدث بعد ذلك أن ركبت حكومة الوفد راسها ، واصرت على سلوك الطريق الملتوى الذى تحدثنا عنه فى باب سابق ، وهو الطـريق تجاهلت فيـه ما قطعت على نفسها للاخـوان من عهود وشرعت فى استصدار تشريعات تكبلهم بها ، وتشل حركتهم ، وتلغى وجودهم٠٠ وتم لها من أرادت وأصدرت التشريعات التى أشرنا اليها ٠

□ **تحت ضغط الظروف فاء الوفد الى رشده اخيرا :**

ثم جاء الغاء معاهدة ١٩٣٦ فوجدت هذه الحكومة ـ كما وضحنا من قبل ـ

أنها فى أمس الحاجة الى وقوف الاخوان المسلمين بجانبها ، فتراجعت عن كل ما أجهدت نفسها فى اعداده من تشريعات ، وأخذت فى انتهاج سياسة جديدة تذكر معها سكرتير الوفد ووزير المالية موضوع دار المركز العام الذى كان معروضا للبيع منذ أكثر من عام وتعمد هو أن لا يستجيب لرجاء الاخوان باصدار تعليمات بوقف بيعه ـ وسأل الوزير رجال وزارته هل بيع المركز العام ؟ فأجيب بأن الاخوان استطاعوا أن يؤجلوا موعد بيعه بدعاوى رفعوها أمام مجلس الدولة وأن الجلسة الاخيرة لمجلس الدولة لاصدار الحكم تنعقد بعد أسبوع • وكان ذلك يوم ١١ـ٩ـ١٩٥١ • فانتهز الوزير الفرصة وسارع باصدار تصريح ظهر فى اليوم التالى بجريدة « المصرى » هذا نصه :

« علم مندوب « المصرى » أن فؤاد سراج الدين باشا أصدر تعليماته بوقف جميع الاجراءات التى كانت ستتخذ بشأن بيع دار الاخوان الذى كان محددا له يوم ١٧ الجارى ـ وستتم فى القريب اتصالات بينه وبين أقطاب الاخوان لرد ممتلكاتهم » •

ولكن الاخوان لم يعتمدوا على هذا التصريح الذى يعلمون الظروف التى اضطرت الحكومة الى اصداره ، وواصلوا دعواهم فى مجلس الدولة •

مجلس الدولة يوقف بيع دار المركز العام

ويقرر أن جمعية الاخوان المسلمين موجودة قانونا

وانعقدت محكمة مجلس الدولة فى ١٧ـ٩ـ١٩٥١ وأعلن محمد سامى مازن بك المستشار بمجلس الدولة حكم المجلس فى هذه الدعوى ، ويقضى بوقف تنفيذ القرار المذكور ـ وجاءت حيثيات هذا الحكم فى اثنين وعشرين ورقة من الحجم الكبير ، وجاء فى هذه الحيثيات ما يلى :

□ **حق تكوين الجمعيات :**

وقد أجابت المحكمة على دفع الحكومة بعدم قبول الدعوى لانتفاء صفة المدعى ولعدم وجود دعوى موضوعية ولخروج طلب وقف التنفيذ عن سلطة رئيس مجلس الدولة وولايته بما يلى :

انه للفصل فى ذلك يقتضى بيان الوضع القانونى للجمعية والصفة التى كانت لها قبل الحل ثم ما كان لهذا الامر من أثر عليها :

أما عن المسألة الاولى فان حق تكوين الجمعيات قد ورد فى المادة (٢١) من الدستور حيث تقرر أن « للمصريين حق تكوين الجمعيات ، وكيفية

استعمال هذا الحق يبينه القانون » ثم استشهدت المحكمة بما جاء فى محاضر لجنة الدستور عن هذه المادة من أن الدستور قد عهد الى القانون بتنظيم الحق فى تكوين الجمعيات بعد أن قرر قيامه ـ كما أن اللجنة اذ تحدثت عن الباب الذى وضعته فى الدستور « حق المصريين وواجباتهم » والذى يعتبر حق تكوين الجمعيات فرعا منه قالت « وقد كان المصريون يتمتعون بهذه الحقوق تدعمها النظم السياسية التى كانت جارية فى مصر وتنظيم معظمها القوانين المصرية ، غير أن تلك الحقوق لم تكن مجموعة فى باب ظاهر منشور بين الناس ، لذلك رأت اللجنة أن تضع ذلك الباب جريا على سنن الدساتير الاخرى ، وتحقيقا للغرض الذى يلتمس منه ، وليكون قيدا للشارع المصرى لا يتعداه فيما يسنه من الاحكام » ·

ثم عرضت الحيثيات لما جاء فى مذكرة وزير الحقانية عن الدستور ، وما جرت عليه المحاكم قبل الدستور وبعده لكفالة هذا الحق فى اطلاقه ـ ثم عرضت القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٤٥ فى شأن الجمعيات الخيرية والمؤسسات الاجتماعية ثم للقانون رقم ٦٦ لسنة ١٩٥١ الخاص بالجمعيات ·

□ **هيئة استوفت عناصرها :**

واستطردت المحكمة فقالت « ومن حيث ان جمعية الاخوان المسلمين قد تكونت فى ظل ذلك الحق الاصيل فى تكوين الجمعيات ، فاكتسبت صفتها ، كما تمتعت بشخصيتها المعنوية منذ تكوينها وفقا للمبادىء المقررة من اسناد هذه الشخصية الى كل هيئة استوفت عناصرها ومقوماتها من ارادة خاصة ونظام تبرز به هذه الارادة ، ومن ذمة مالية مستقلة عن ذمم أعضائها ·· وطبقا لما قضى به القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٤٥ فقد سجلت الجمعية أوجه نشاطها الخيرية فى وزارة الشئون الاجتماعية ·· وبذلك تكون قد استوت ـ فى ظل أصول القانون العام ووفق أحكام القانون الخاص ـ خلقا سويا متكاملا » ·

الاخوان يفتحون مركزهم العام بعد تسلمه

تقدير الممتلكات التى أعادتها الحكومة اليهم بمبلغ (٢٠٠) ألف جنيه

نشرت جريدة « المصرى » فى عددها الصادر يوم ١٧ـ١٢ـ١٩٥١ تحت هذا العنوان ما يلى :

كان أول عمل قام به الاخوان حين فتح المركز العام أن أقاموا به صلاة المغرب ، ثم توجهوا الى قبر الاستاذ الامام رحمه الله ·

* * *

ثالثا ـ الحكم ببطلان أمر الحل والغائه :

كان أمام مجلس الدولة أربع قضايا كل منها تطلب الحكم بالغاء قرار الحل • وقد ضمت جميعا الى القضية التى رفعها الاستاذ عبد الحكيم عابدين، ونظرت أمام محكمة القضاء الادارى بالمجلس برياسة السيد على السيد بك وكيل المجلس • وكانت آخر جلسة لها استمعت فيها الى المرافعات هى جلسة يوم ٩ـ٤ـ١٩٥٢ •

وقد ترافع فيها الاستاذ عبد القادر عودة رحمه الله ، وفى نهاية مرافعته الطويلة الشاملة قال : ان كل ذلك لا علاقة له بسلامة الجيش • وكما قرر رجال الجيش أنفسهم أن سلامتهم كانت فى وجود الاخوان ، وأنهم عندما حوصر جزء منهم فى الفالوجا طلبوا عونا من الاخوان•وكانوا كلما هدد اليهود مواصلات الجيش لجأوا الى الاخوان ليردوا هذا العدوان ، وكلما احتل اليهود موقعا له أهمية استراتيجية طلبوا من الاخوان اجلاءهم عنه •

وقال ان هذه القضية ليست قضية الاخوان ، وانما هى قضية الامـة المصرية •• قضية الامس واليوم والغد •• وان أمر هذه الامة لن ينصلح الا اذا وضع القضاء حدودا ظاهرة بين حق الحاكمين وحق المحكومين ، والا اذا علم الحاكمون أن وراءهم القضاء يحاسبهم حسـابا عسيرا كلما اعتدوا على حقوق الامة •

كلمة للاستاذ عبد الحكيم عابدين أمام المحكمة :

واستأذن الاستاذ عبد الحكيم عابدين المحكمة فى القاء كلمة فى القضية يبين فيها البواعث الحقيقية لصدور امر الحل فقال :

ان الوزارة المذكورة فى عجزها عن علاج القضية الوطنية ، وفى تهاونها أمام طغيان الحاكم العام فى السودان ، وفى صبرها على صفعات اليهـود بفلسطين ، وفى تعلقها آخر الامر بكراسى الحـكم ••• لم تجد معـكرا لصفوها ، ولا مظهرا للامة على حقيقة مخازيها ، الا جماعة الاخوان المسلمين • الذين كانوا ضوء المصباح يكشف للامة عن حقيقة الحكام الهازلين •

فلا عجب ـ منطقها الشيطانى السقيم ـ أن تتقدم على اطفاء هذا المصباح ليسود الظلام الذىيحجب الانظار عن مخازيها •• لا عجب فى ذلك ، وانمـا العجب أن تعمد الحكومة الى محو العار بالعار ، وستر الجريمـة بالجريمـة • ومحاولة محو الوزر بوزر مثله •

وختم كلمته بقوله : الا ترى أخيرا أن قرار الحل المطلوب منكم الغاؤه وأبطال آثاره لم يكن أبدا فى خدمة مصر ، ولا برا بالعروبة ، ولا وفاء للاسلام

وانما كان خدمة جلى للسياسة البريطانية التى أماتت الوعى فى مصر ، وقطعت أشواطا فى جلنزة السودان ، ونجحت فى اسكات صوت الحق والقوة والحرية ولو الى حين ٠

وبعد انهاء كلمة الاستاذ عبد الحكيم عابدين قررت ضم الدعاوى الاخرى وقررت اصدار الحكم بعد سبعة أسابيع ٠

● **حكم مجلس الدولة فى القضية :**

فى ٣٠-٦-١٩٥٢ أصدرت الدائرة الثانية لمحكمة القضاء الادارى برياسة السيد على السيد بك وكيل مجلس الدولة حكمها فى الدعوى المرفوعة من الاستاذ عبد الحكيم عابدين السكرتير العام للاخوان المسلمين ٠ ويقضى الحكم بالآتى :

أولا - برفض الدفع الذى تقدمت به الحكومة بعدم جواز سماع الدعوى ٠

ثانيا - برفض الدفع بعدم الاختصاص ٠

ثالثا - برفض الدفع بعدم القبول الذى قدمته الحكومة على أساس أن الاخوان المسلمين لا وجود لها ٠

وحكمت المحكمة فى الموضوع بالغاء الامر العسكرى رقم ٦٣ بحل جمعية الاخوان المسلمين فيما تضمنه من أحكام ترمى الى القضاء على ذات الجمعية وانهاء حياتها القانونية وتصفية الاموال المكونة لذمتها المالية ، وكذلك جميع الآثار المترتبة على أمر الحل ٠

حيثيات حكم مجلس الدولة
بالغاء الامر العسكرى بحل الاخوان المسلمين وببطلانه

فى ٤-٧-١٩٥٢ نشرت حيثيات هذا الحكم ، والى القارىء هذه الحيثيات لما لها من بالغ الاهمية :

□ **دفوع الحكومة ورد المجلس عليها :**

كانت الحكومة قد دفعت عند نظر الدعوى بدفعين :

اولهما عدم الاختصاص ، والثانى عدم القبول تاسيسا على أن جمعية الاخوان لا وجود لها قانونا ٠٠٠ وعادت عندما صدر المرسوم رقم ٦٤ لسنة ١٩٥٢ بمنع سماع الدعاوى والطعون الموجهة الى تصرفات السلطة القائمة على اجراء الاحكام العرفية ، فدفعت بعدم جواز سماع الدعوى ، مما أدى الى

تأجيل الحكم فى الدعوى حتى يوم ٣٠ يونيه الماضى لاستظهار اثر ذلك المرسوم فى الدعوى القائمة ٠

● الدفع بعدم جواز سماع الدعوى :

وقد رفضت المحكمة هذا الدفع استنادا الى حكمها فى قضية الاستاذ أحمد حسين ، وقد نشرت حيثيات ذلك الدفع ، كما أن ذلك الدفع رفض فى دعوى أخرى هامة صدر فيها أخيرا حكم تاريخى خالد ٠ وانتهى مجلس الدولة من مناقشة ذلك الدفع والمرسوم الذى تستند اليه الحكومة بأن المرسوم نفسه باطل من جميع النواحى ويقتضى عدم الاخذ به ٠ وقال مجلس الدولة انه لو كان فى معرض دعوى خاصة مباشرة بذلك المرسوم لقضينا بالغائه ٠٠ ويفهم من ذلك أن مجلس الدولة قد حكم ضمنا بالغاء المرسوم المشار اليه ٠

● الدفع بعدم الاختصاص :

بنت الحكومة هذا الدفع ـ الدفع بعدم الاختصاص ـ على أن النظام العرفى فى مصر نظام عسكرى وليس نظاما اداريا أو سياسيا ، استحدثته مصر من واقع ما حدث فى الحرب العظمى الاولى ومن قواعد القانون الدولى العام ، وشأنه شأن القيود العسكرية التى تفرضها الدول المحاربة على البلاد التى تحتلها جيوشها ٠٠ وأن المشرع المصرى اقتبس النظام العرفى القائم من نظام الاحكام العرفية العسكرية التى أعلنتها انجلترا فى مصر وقت اعلان الحماية ، وأن هذه الطبيعة العسكرية للنظام تجعله أبعد ما يكون عن ولاية القضاء ٠

وقالت الحكومة ان المشرع المصرى درج على أن يقرن رفع الاحكام العرفية بنظام يحميها عن طريق سن قانون للتضمينات ، وبذلك تمتنع مساءلة الحكومة خلال فترة قيام الحكم العرفى بمقتضى طبيعة هذا النظام . كما تمتنع مساءلتها بعد انتهائه بمقتضى قانون التضمينات ٠

وقالت الحكومة أيضا ان الامر العسكرى رقم ٦٣ لسنة ١٩٤٨ بحل جماعة الاخوان من التدابير العليا للامن الداخلى فيخرج بوضعه من اعمال السيادة عن اختصاص المحكمة ٠

● رد مفحم من مجلس الدولة على هذا الدفع :

أما مجلس الدولة فقد رد على ذلك بأن نظام الاحكام العرفية فى مصر هو نظام يستمد اساسه واصوله وأحكامه من الدستور ومن قانون الاحكام العرفية

والقوانين المكملة له .. فتنص المادة (٤٥) من الدستور على أن « الملك يعلن الاحكام العرفية ، ويجب أن يعرض اعلانها على البرلمان فورا ليقرر استمرارها أو الغاءها ، فاذا وقع ذلك الاعلان فى غير دور انعقاد وجبت دعوة البرلمان للاجتماع على وجه السرعة » .

وتنص المادة (١٥٥) من الدستور على انه « لا يجوز بأية حال تعطيل حكم من أحكام هذا الدستور الا أن يكون ذلك وقتيا فى زمن الحرب أو أثناء قيام الاحكام العرفية وعلى الوجه المبين فى القانون . وعلى أى حال لا يجوز تعطيل انعقاد البرلمان متى توافرت فى انعقاده الشروط المقررة بهذا الدستور » .

وينظم قانون الاحكام العرفية هذا النظام العرفى تنظيما شاملا ، فيبين على وجه الحصر الحالات التى يجوز فيها اعلان الاحكام العرفية ، وكيف يكون اعلان هذه الاحكام ، وكيف يكون رفعها ، وما هى السلطات الاستثنائية التى تخول للقائم على اجرائها . ويعدد القانون هذه السلطات الاستثنائية على سبيل التحديد والحصر ، ثم يجيز تضييقها أو توسيعها بقرار من مجلس الوزراء اذا دعت الحاجة الى ذلك ، بقدر هذه الحاجة ، على أن تبقى دائرة هذه السلطات الاستثنائية دائما فى نطاق محدود هوما يقتضيه صون الامن والنظام العام من تدابير واجراءات وما دعت اليه الضرورة من اعلان الاحكام العرفية .

● لماذا يجب أن تكون اجراءات الحاكم العسكرى خاضعة لرقابة القضاء ؟

وقال مجلس الدولة انه يتبين من ذلك أن نظام الاحكام العرفية فى مصر وان كان نظاما استثنائيا الا أنه ليس بالنظام المطلق ، بل هو نظام خاضع للقانون ، وضع الدستور أساسه ، وبين القانون اصوله وأحكامه ، ورسم حدوده وضوابطه .. فوجب أن يكون اجراؤه على مقتضى هذه الاصول والاحكام ، وفى نطاق هذه الحدود والضوابط ، والا كان ما يتخذ من التدابير والاجراءات مجاوزا لهذا الحد أو منحرفا عنه ـ مخالفا للقانون ـ تنبسط عليه رقابة المحكمة ..

وكل نظام للحكم أرسى الدستور أساسه ، ووضع القانون قواعده ، هو نظام يخضع بطبيعته ـ مهما يكن نظاما استثنائيا ـ لمبدا سيادة القانون ، ومن ثم لرقابة القضاء .

واضافت حيثيات الحكم تقول : انه مهما كان المصدر التاريخى الذى استقى منه المشرع هذا النظام ، فليس من شك فى أن الاختصاصات المخولة للسلطة القائمة على اجراء الاحكام العرفية مصدرها الرسمى هو القانون

الذى تولى تحديد نطاقها ، فلا يجوز بحال أن تخرج عن حدود هذا النطاق ٠٠ واذا كانت اختصاصات القائم على اجراء هذه الاحكام فى مصر بالغة السعة ، فان ذلك أدعى أن تنبسط عليها الرقابة القضائية ، حتى لا يتحول نظام — هو فى حقيقته ومرماه — نظام دستورى يقيده القانون الى نظام مطلق لا عاصم منه ، وليست له حدود ٠٠ اذ رقابة القضاء هى دون غيرها الرقابة الفعالة التى تكفل للناس حقوقهم الطبيعية وحرياتهم العامة ٠ ويؤكد ذلك ما درجت عليه الحكومات من سن قانون التضمينات عند رفع الاحكام العرفية لدفع المسئولية من جراء التدابير التى اتخذت تنفيذا لهذه الاحكام ٠ وفى سن هذا القانون اقرار واضح بمبدأ المسئولية الذى لم يسن القانون الا لدفعه ٠

وانتهت المحكمة من مناقشة ذلك الدفع الى الحكم برفضه ٠

● الدفع بعدم القبول :

أسست الحكومة هذا الدفع على أن جماعة الاخوان المسلمين لا وجود لها قانونا ، وبنت الدفع على وجهين :

الاول : أن الجماعة لم تكتسب الشخصية المعنوية أصلا لان القانون المدنى الجديد بين فى المادة (٥٢) منه الاشخاص المعنوية على سبيل الحصر وان الهيئة المذكورة لا تدخل بما لها من أغرض سياسية واجتماعية ودينية فى أى نوع منها ولا تتسق معه ٠

والثانى : أن القرار المطعون فيه قد قضى عليها قضاء مبرما ، فلم يعد لها من بعده أى وجوده ٠

● رد مجلس الدولة على هذا الدفع :

وقد رد مجلس الدولة على ذلك بأن حق تكوين الجمعيات للمصريين حق مقرر أصيل كان قائما قبل الدستور الذى جاء فأقره وأكد قيامه ، وان عهد الى القانون بتنظيم استعماله ٠ ومؤدى ذلك أن للمصريين حق تكوين الجمعيات بلا حاجة الى قانون يستمد منه هذا الحق ، لهم أن يستعملوه فى حدود القانون وما لم يرد قيد على هذا الاستعمال فهو يجرى على اطلاقه ٠

وقالت الحيثيات : ان جمعية الاخوان تكونت فى ظل هذا الحق الاصيل، فاكتسبت الشخصية المعنوية وفق المبادىء المسلمة من اسناد هذه الشخصية لكل جمعية استوفت مقومات هذه الشخصية ، من ذمة مالية مستقلة عن ذمم أعضائها ، ومن قيام هيئة منظمة تعبر عن ارادتها ٠

واستمرت الحيثيات تقول : انه لا اعتداء بما تنعاه الحكومة على

اغراض الجمعية لتدفع به اكتسابها الشخصية المعنوية ، فهى تأخذ عليها انها جمعية سياسية ، وهذا لا يحول دون اكتسابها الشخصية المعنوية . وقد اقر القضاء المصرى للهيئات السياسية بالشخصية المعنوية . هذا فضلا عن أن المصريين يمارسون حقوقهم السياسية التى خولها لهم الدستور فى حدود القوانين . وحسبنا ان نذكر انهم يشتركون بما لهم من تشكيلات سياسية فى حكم البلاد ، وفى توجيه سياستها عن طريق الاشتراك فى الانتخابات العامة فى البرلمان .

كما تأخذ الحكومة على جمعية الاخوان أنها هيئة خيرية اجتماعية الى جانب اغراضها السياسية . وهذا بدوره لا يمنع اكتسابها الشخصية المعنوية،فقد اعترف القضاء المصرى للهيئات الخيرية والاجتماعية بالشخصية المعنوية . ثم ان الحكومة اعترفت بها بصفاتها تلك فرخصت لها باصدار صحيفة تكون لسان حالها ، واقرت نشاطها من شتى وجوهه واغراضه ، بل منحتها بعض الاعانات المالية فى سبيل تحقيق هذه الاغراض الخيرية .

وبالنسبة للوجه الثانى اذ قالت الحكومة ان الامر رقم ٦٣ لسنة ١٩٤٨ قضى على الجمعية ولم يعد لها وجود قانونى ، فقد قالت الحيثيات :

ان الحاكم العسكرى اذا كان يملك بمقتضى قانون الاحكام العرفية تعطيل نشاط الجمعيات تعطيلا مؤقتا بمنع اجتماعاتها ، فهو لا يملك القضاء عليها قضاء مبرما ، بل تبقى قائمة قانونا وان تعطل نشاطها .

وانتهت المحكمة من مناقشة هذا الدفع الى القول بأنه قائم على غير اساس سليم فى القانون وحكمت برفضه .

موضوع الدعوى : الامر العسكرى رقم ٦٣

● المجلس يستعرض حجج الدفاع :

وانتقلت حيثيات الحكم بعد ذلك الى موضوع الدعى بعد أن رفضت كافة الدفوع التى تقدمت بها الحكومة ، فبدأت بسرد دفاع الاستاذين محمد طاهر الخشاب وعبد القادر عوده المحاميين وقد جاء فيه : انها هيئة اسلامية جامعة تعمل لتحقيق الاغراض التى جاء من أجلها الاسلام ، وسردا هذه الاغراض ثم الوسائل لتنفيذها ثم الادوار التى قام بها الاخوان الى ان قالا :

« ولما نشبت الحرب الفلسطينية جندت الجمعية من شبابها جيشا خاض غمارها ، وكان مثار الاعجاب لما أبدوه من ضروب البسالة . ولكن الحكومة (السعدية) — ازاء حوادث فردية وقعت من بين المنتمين اليها اندفعوا تحت تاثير حماسة جامحة ، فالتوى عليهم القصد — حملت الهيئة

بأجمعها وزر هذه الحوادث ، وألقت عليها اثمها ، فاصدر الحاكم العسكرى (دولة محمود فهمى النقراشى باشا) الامر المطعون فيه ٠

وكان مما قاله الدفاع أيضا : ان دسائس الانجليز والصهيونيين وغيرهم ، الذين ظلوا يرمون الجمعية بالتهم الباطلة ، قد أفلحت فى تأليب الحكومة ضد الهيئة ، فحالت الرقابة دون تمكينها من الرد على ما يكال لها من التهم ، بل صدر أمر الرقيب العام بتعطيل جريدة الاخوان الى أجل غير مسمى ، ثم حشدت المعتقلات بالكثيرين من أعضائها بغير ذنب وبدون مبرز ثم صدرت الاوامر المطعون فيها بحل الجمعية وتصفية ممتلكاتها ومصادرة أموالها وتجميد أموال الاعضاء ، مع مخالفة ذلك للقانون ، اذ هى تخرج عن النطاق الذى فرضت من أجله الاحكام العرفية فى ذلك الوقت وهو تأمين سلامة الجيوش المحاربة فى فلسطين ، كما أنها تخرج عن نطاق التدابير التى تدخل فى اختصاص الحاكم العسكرى ٠

● **المحكمة تناقش مذكرة الامن العام للنقراشى :**

وقد ناقشت المحكمة المذكرة التى رفعتها ادارة الامن العام الى النقراشى باشا رئيس الوزراء وقتئذ ووزير الداخلية والقائم على اجراء الاحكام العرفية ثم قالت :

انه ولئن كان ما جاء فى هذه المذكرة أن الجماعة أعلنت فى أول الامر على الملأ أن لها أهدافا دينية واجتماعية دون أن تحدد لها هدفا سياسيا معينا ترمى اليه ، ولكنها ما كادت تجد لها أنصارا حتى أسفر القائمون عليها عن أغراضهم الحقيقية وهى أغراض سياسية ترمى الى الوصول الى الحكم وقلب النظم المقررة فى البلاد بوسائل العنف ٠٠٠

وهذا يخالف الواقع لان الجمعية حددت أغراضها فى المادة الثانية من قانون نظامها الاساسى ومنها أغراض سياسية الى جانب أغراضها الدينية والاجتماعية والرياضية والاقتصادية ٠٠ وهذه الاغراض السياسية هى : تحرير وادى النيل والبلاد العربية جميعا والوطن الاسلامى بكل أجزائه من كل سلطان أجنبى ، ومساعدة الاقليات الاسلامية فى كل مكان ، وتأييد الوحدة العربية ، والسير الى الجامعة الاسلامية وقيام الدولة الصالحة التى تنفذ أحكام الاسلام وتعاليمه عمليا ٠

● **المحكمة تستأنس بحيثيات حكم قضية السيارة الجيب :**

ثم قالت المحكمة : انه مما يخالف الواقع ذلك الذى رمت به الحكومة

تلك الجمعية من أنها كانت ترمى الى قلب نظام الحكم بوسائل العنف . ولا أدل على ذلك مما ورد فى حكم محكمة الجنايات فى قضية السيارة الجيب . اذ بعد أن ذكرت المحكمة أن النيابة العامة قصدت الى تصوير الجماعة باسرها على أنها رمت لقلب نظام الحكم وأن أقوال المرشد العام (الشيخ البنا) كانت تحمل معانى التحريض السافر على القيام بهذه الجريمة ، وأن المتهمين وزملاءهم فهموا من كلام المرشد أنه يرمى الى ذلك ، وأن الغرض النهائى هو اقامة جمهورية على رأسها المرشد العام ... استعرضت نشأة الجماعة وأغراضها ووسائلها ورسائلها وتطورها ثم قالت : ان الاتهام لا يتفق مع الحقيقة المعروفة من أن الاسلام دين ودولة ، وقد سبق للمرشد العام أن تحدث فى هذا الصدد .

وقالت المحكمة انه ظهر جليا من أقوال المرشد العام أن الجماعة لا تناهض نظام الحكم القائم فى مصر بل تراه متفقا مع النظم الاسلامية . وأنها كانت تهدف الى تحقيق نظام شامل للنهضة والاصلاح وفقا لاحكام الدين الاسلامى وبالطرق الدستورية المعروفة .

ثم دحضت المحكمة ما عزى الى الجمعية من انها وقد سعت الى قلب نظام الحكم أعدت لذلك جماعة ارهابية دربت وأعدت وسميت بالنظام الخاص وقالت المحكمة ان الاتهام على هذه الصورة خلط بين أمرين :

الاول ـ التدريب على استعمال الاسلحة وحرب العصابات .

الثانى ـ ذلك الاتجاه الارهابى الذى انزلق اليه بعض المتطرفين من أفراد تلك الجماعة .

وكان نتيجة الخلط الاتهام بأن نظام الجماعة بجملته نظام ارهابى .

وقالت المحكمة بوجوب التفريق بين الامرين ، لان النظام الخاص يرمى الى اعداد فريق كبير من الشباب اعدادا عسكريا تطبيقا لما دعا اليه مؤسس الجماعة من أن الامر أصبح جدا لا هزلا ، وأن الخطب ما عادت تجدى ، وأنه لابد من الجمع بين الايمان العميق والتكوين الدقيق والعمل المتواصل وان حركة الاخوان تمر بثلاث مراحل :

الاولى ـ مرحلة التعريف بنشر الفكرة .

والثانية ـ التكوين وهى استخلاص العناصر الصالحة لحمل اعباء الجهاد المدنى من الناحية الروحية والعسكرى من الناحية العملية . وصفات هاتين الناحيتين دائما أمر وطاعة من غير بحث ولا مراجعة .

والثالثة ـ مرحلة الاعداد ٠

واستطردت المحكمة تقول : انه مما يدل على أن النية لدى أفراد النظام الخاص كانت متجهة الى مقاومة جيش الاحتلال ، تلك الاوراق التى ضبطت فى السيارة الجيب وهى تحض على أعمال الفدائيين ، وأن الصداقة البريطانية المصرية مهزلة ، وأن الانجليز يظنون شعوب الشرق الاوسط مسالمة ساذجة ، ثم تحدثت عن التدريب على استعمال زجاجة مولوتوف وعرقلة المواصلات وتعطيل وسائل النقل الميكانيكى والقوات المدرعة ٠ وانتهى كاتب هذه الاوراق الى القول صراحة بأنهم يقاومون العدو الغاصب ٠

وقالت المحكمة ان أثر ذلك التدريب الروحى والعسكرى ظهر عندما قامت مشكلة فلسطين وأرسلت الجماعة الكثيرين من متطوعيها للقتال ٠

وبعد استشهاد مجلس الدولة بهذه الفقرات من حيثيات الحكم التى اصدرتها محكمة الجنايات فى قضية السيارة الجيب ، خلصت من ذلك ومن مناقشة مذكرة الامن العام الى القول بأن ما نسبته هذه المذكرة الى جماعة الاخوان مخالف للحقيقة والواقع ٠

● مناقشة أمر الحل نفسه والحكم بأنه على غير أساس من القانون :

وانتقلت محكمة القضاء الادارى بعد ذلك الى مناقشة أمر الحل نفسه فقالت : انه استند فى ديباجته الى البند الثامن من المادة الثالثة من القانون رقم (١٥) لسنة ١٩٢٣ الخاص بنظام الاحكام العرفية ٠ وهذا النص يخول للحاكم العسكرى « منع أى اجتماع عام وحله بالقوة ـ وكذلك منع أى ناد أو جمعية أو اجتماع وحله بالقوة » ٠

وقالت المحكمة انه ليس من شك فى أن المقصود من هذا النص هو تخويل الحاكم العسكرى فى سبيل صون الامن وحفظ النظام الاشراف والهيمنة على الاجتماعات لما قد تؤدى اليه من اخلال بالامن والنظام وحفظ ذلك هو الغاية التى من أجلها وسدت اليه السلطة بموجب قانون الاحكام العرفية لمنع الاجتماع قبل عقده كاجراء وقائى ، وله حل الاجتماع وفضه بالقوة بعد عقده كاجراء علاجى ٠

واضافت المحكمة قائلة : ان المقصود باجتماع أو ناد أو جمعية هو تواجد لفيف من الناس فى مكان معين قد يخل تواجدهم فيه بالامن والنظام ٠ ولذلك خول القانون للحاكم العسكرى منع هذا التواجد ثم حله اذا تم أى تفريقه بالقوة ٠

وقالت المحكمة : انه على ذلك تكون سلطة الحاكم العسكرى فى حل الجمعية لا تشمل القضاء على شخصيتها المعنوية واعدام حياتها القانونية وتصفية أموالها التى تتكون منها ذمتها المالية ‥ وآية ذلك أن المشرع قرر الحل باستخدام القوة وهى بطبيعتها لا تتوجه الا الى الاجتماع الذى هو مظهر مادى لا الى الشخصية المعنوية التى هى وضع أو تكييف قانونى معنوى .

وانتهت المحكمة من ذلك الى القول بأنه لكل هذه الاسباب يكون الامر العسكرى رقم ٦٣ لسنة ١٩٤٨ القاضى بحل جمعية الاخوان المسلمين على غير أساس سليم من القانون ويتعين الغاؤه .

الفصــل الثالث

تعقيب وتحليل لهذه الأحكام الخالدة

أولا ـ أنشئت هذه القضايا وركبت ورتبت بحيث طمست فيها جميع المعالم التى يمكن الاهتداء بها الى الحق ، وأنشئت فيها معالم أخرى تهدى الى طريق محدد مرسوم فى نهايته نهاية هذه الدعوة واعدامها وتلاشيها لا من الوجود القانونى فحسب بل أيضا من نفوس الناس .

ثانيا ـ وتوضيحا لذلك نقول : ان الذين تعاونوا وتآمروا على خلق هذه القضايا ، وارساء أسسها ، واقامة بنيانها ، ثم طلائها ، وفتح المنفذ الوحيد بها . هم دولة كاملة بقضها وقضيضها ، منحت نفسها جميع القدرات والامكانات فى الوقت الذى حرمت فيه غيرها من كل وسائل الدفاع عن النفس، فكان رئيس الوزراء ووزراء الداخلية يخططون على هوى الجالس على العرش ومن وراءه من المستعمرين . وأجهزة الامن مع أجهزة التحقيق تتعاون معا فى التنفيذ .. وحسبك أن تعلم أن رئيس جهاز التحقيق فى الدولة كان احدى الادوات المسخرة لهذا التنفيذ ، فلم يعد القارىء يجهل محمود منصور باشا النائب العام الذى كان يشرف بنفسه على التحقيقات فى هذه القضايا ، ويختار لها المحققين الذين يانس فيهم لين الضمير ، ويستبعد عنها من يبلغه عنه أن عنده اثارة من ميل الى العدالة .. فكان رئيس النيابة الاستاذ محمود اسماعيل هو الذى تولى التحقيق فى قضية الاوكار فانتزعها منه النائب العام وأسند التحقيق فيها الى اسماعيل عوض الذى كان متهتكا فى ارضاء الحكومة .

ثم ان ضباط القسم السياسى لم يكونوا يكتفون بالوان التعذيب التى كانوا يسومونها المتهمين لانتزاع اعترافات محددة منهم ، بل كانوا أيضا يحضرون التحقيقات . وقد منحهم النائب العام حق انتزاع التحقيق من يد محقق الى محقق آخر .

ثالثا ـ كان المفروض أن يكون عرض هذه القضايا على القضاء لاصدار الحكم فيها هو الحلقة الاخيرة فى سلسلة المؤامرات ضد دعوة الاخوان المسلمين . ولما كانت الحلقة الاخيرة فى السلسلة هى الحلقة التى يكتمل بها ارتباطها بعضها ببعض لانها هى التى تضم طرف السلسلة وتغلق الدائرة، وبدونها تفقد السلسلة ارتباطها وتتعرض بقية حلقاتها للتشتت والتناثر .

فقد بذل المتآمرون أقصى جهدهم لاحكام هذه الحلقة وتامينها ، اذ كانت كل حلقات المؤامرة خادمة لهذه الحلقة وتحضيرا لها وتمهيدا . ذلك أن كل ما تم اتخاذه من اجراءات ضد الاخوان من حل واعتقال وتشريد واستيلاء وتشويه سمعة واغتيال لا يكون ذا قيمة مالم يؤيد بحكم قضائى تكتسب منه هذه الاجراءات شرعيتها .

رابعا - كان احراز المتآمرين النجاح فى احكام هذه الحلقة أمرا مفروغا منه ، لا يساورهم فيه شك ، فالجهود التى بذلت فى تحضير هذه القضايا جعلتها - كما قدمنا - كالطبخة الناضجة المشهية أمام من أشرف على الموت من الجوع ، ليس أمامه الا التهامها عن آخرها دون أن يسأل عن مكوناتها .

وان هذا الشعور لم يكن شعور المتآمرين وحدهم بل انه كان شعور كل من عايش هذه الفترة العصيبة ، ورأى اكباب كل السلطات فى الدولة على تحضير هذه القضايا ، حتى ان هذا الشعور قد ظهر على لسان أحد هيئات الدفاع فى قضية الاوكار حين أبدى رئيس المحكمة استعداد المحكمة لسماع شهادات فى موضوع التعذيب فقال الاستاذ زكى البهنيهى المحامي : « المتهمون لا يستطيعون أن يقدموا أدلة ، لان التعذيب كان يحصل بين أربعة جدران ، وهم لا يستطيعون أن يستشهدوا بأحد خصوصا وأن المحيطين بهم كلهم من رجال البوليس . وكان الاطباء يدعون للكشف عليهم بعد عدة شهور من وقوع التعذيب ، مما يجعل الاطباء يثبتون آثار الاصابات وان كانوا لا يستطيعون الجزم بها » .

خامسا - يخطىء من يظن انه بعد سقوط وزارة عبد الهادى قد صار الجو مواتيا للاخوان .. نعم تغيرت الوزارة ، تارة الى وزارة ائتلافية وتارة الى وزارة محايدة وأخيرا الى وزارة وفدية .. ونعم أيضا .. كانت هذه الوزارات على خلاف كبير مع وزارة عبد الهادى ، ولكن هذا الخلاف كان فيما سوى ما يتصل بالاخوان المسلمين ، فلقد كانوا جميعا مختلفين فى كل شىء الا فى عدائهم للاخوان . وقد أفردنا فصلا من قبل لقانون تنظيم الجمعيات حتى لا يداخل القارىء شك فى هذه الحقيقة المؤلمة المزرية .

كان العهد عهد الملك الذى كان يعمل من وراء ستار .. غاية الامر انه كان كلما علم أن المتفرجين داخلهم الملل غير المنظر ، ولكن الهدف من الرواية التى وضعها لا يتغير مهما تغيرت مناظرها أمام المتفرجين .. كان هدف الدولة القضاء على الاخوان المسلمين ، وكان يعرف ذلك الخاصة والعامة .

وكان القطاع الاكبر من العامة فى ذلك العهد مضللا ، فقد سلطت على سمعه وبصره وعقله وقلبه وسائل اعلام - كما يقولون تفتن العابد ..

وحسبك أن تعلم أن كتابا كبارا مثل عباس العقاد باعوا ضمائرهم وسخروا أقلامهم للكذب والافك والافتراء ، ورضوا لانفسهم أن يكونوا مطية ذلولا لهذا العهد البغيض ٠

سادسا ـ القضاة أمام طريق مسدود :

وسط هـذه الظروف كلها ، المواتية كل المواتاة لطرف ، والمنعدمـة كل الانعدام الطرف الآخر ٠٠٠ طلب الى القضاء أن يقول كلمته فى هذه القضايا ٠٠٠ والقضاة ـ مهما قيل فيهم ـ بشر كسائر البشر لهم عقول ولهم قلوب ، ولكن لهم أيضا مصالح وآمالا ٠

ومع ذلك فقد كان لهم فيما بين أيديهم مندوحة ٠٠ فلو أنهم تنـاولوا هذه القضايا تناولهم لسائر القضـايا التى تعـرض عليهم واقتصـروا على الاسباب الظاهرة التى لا يطالب القـاضى ـ باعتبـاره بشرا ـ بالنظر الى ما هو أبعد منها ، فحكموا بالحكم الذى تمليه هذه الاسباب فكان الحكم هـو ما أراده المتآمرون أو قريبا منـه ٠٠ لما كانوا فى ذلك مـلومين بـل كانوا معذورين امام قضايا أحكم اغلاق كل منافذها ٠٠ واذن لتفتحت أمام مصالح هؤلاء القضاة وآمالهم ابواب السعادة والرقى ، ولوجدوا احضـان الحـكومة مفتوحة فى انتظارهم لتبوئهم أعلى مناصبها ٠

ولكن الذى حدث هو أن هؤلاء القضاة قد حاك فى صدورهم شىء حين رأوا بين ايديهم قضايا كل المتهمين فيها معترفون ، وأكثرهم آثار التعذيب بادية على أجسامهم بالرغم من طول المدة منذ انتهاء التحقيق ، فلم تسترح ضمائرهم الى اخذ هذه القضايا مأخذ غيرها من سـائر القضـايا التى تكفى اسبابها الظاهرة لاصدار حكم فيها يكون عادة أقرب شىء الى الصواب ٠٠ فكان قرارهم أن يتأنوا فى نظر هذه القضايا وأن يقلبوها على جميع وجوهها ، وان يحاولوا بكل الوسائل المتاحة أن ينفذوا الى داخلها ٠

سابعا ـ براعة المحكمة فى جر عبد الهادى للشهادة :

ولمـا راى هؤلاء القضاة أنهم عاجزون عن النفوذ الى داخل هذه القضايا الا عن طريق حائكى خيوطها ، وناسجى الجدار الواقى المنيع من حولها ٠ ولما كان من المستحيل استدعاؤهم كمتهمين فى هذه القضايا ، حاولوا استدعاءهم شهودا ٠٠٠ وضربت المحكمة الاولى ـ محكمة سيارة الجيب ـ فى هذه المعركة الضربة الاولى ـ والضربة الاولى نصـف المعـركة ـ فاقتحمت الى كبيرهم واستدعته شاهدا ٠٠ وظهرت مهارة رئيس هذه المحكمة فى تهيئته المناسـبة التى تقتضى استدعاء هذا الكبير وتبرر سماع شهادته ، حيث استمعت الى

أقوال المتهم عبد الرحمن عثمان الذى جاء فيها أنه أخذ من سجنه بحجة الذهاب الى محكمة الاستئناف للتحقيق معه ولكنه بدلا من ذلك أخذ من سجنه الى محطة سكة حديد القاهرة حيث قابل ابراهيم عبد الهادى باشا فى صالونه الخاص بالقطار وظل معه حتى وصل الى الاسكندرية ، وروى للمحكمة ما دار بينه وبين الباشا من حديث ٠

فرأت المحكمة أن فى أقوال هذا المتهم ما يبرر استدعاء ابراهيم عبد الهادى باشا باعتباره شاهدا للاستفسار منه عن مدى صحة أقوال هذا المتهم ولكنها وبناء عن طلب الدفاع رأت قبل مثوله شاهدا بين يديها ان تستمع الى ثلاثة من المتهمين فى قضية الاوكار وجودة باعتبارهم أيضا شهود نفى فى هذه القضية وهم سعد جبر التميمى ومصطفى كمال عبد المجيد وعبد ال... ثروت ٠٠ وبعد أن أدى هؤلاء الثلاثة شهادتهم طلبت ابراهيم عبد الهادى باشا فمثل أمامها ٠٠ وكان ذلك كله فى جلسة ١٩ــ١٢ــ١٩٥٠ التى تعد بحق جلسة تاريخية ٠

أتى الباشا للشهادة صاغرا ، وتناوبت عليه المحكمة من جانب والدفاع من جانب آخر ، وأمطروه بالاسئلة ، وطلب المتهم مواجهته بالشاهد وتمت المواجهة ٠

وانتهز الدفاع الفرصة ــ والرجل كان يعلم أنه قد جاء للشهادة فى قضية السيارة الجيب ، وهو يعرف كل شىء عنها ، ويعرف المتهمين فيها فاستعد لكل ذلك ٠٠ ولكن الدفاع فاجأ الباشا من حيث لا يحتسب ، وباغته بأسئلة تتصل بمتهم من خارج القضية هو مصطفى كمال عبد المجيد المتهم فى قضية حامد جودة ، فكانت مفاجأة للباشا جعلته ــ رغم مهارته فى تزوير الحقائق ــ فى أحرج موقف ، حتى كان من اجابته ما أضحك الحاضرين ، وقد اضطرته المفاجأة الى الاعتراف بأمور كانت مفتاح اللغز الغامض للتعذيب ٠

وكانت حركة التفاف بارعة ماهرة ، أن استدعت المحكمة مصطفى كمال عبد المجيد واستمعت اليه شاهدا قبل أن تستمع الى عبد الهادى وفى جلسة واحدة حتى لا يعرف عبد الهادى ما كان من شهادة مصطفى كمال لو أنها كانت فى جلسة سابقة فيستعد الباشا فى شهادته لترتيب معين فى أقواله يتفادى به المآزق التى أوقعته فيها أسئلة الدفاع المفاجئة ٠

وأسفرت هذه المظاهرة المفاجئة لاكبر رأس فى المؤامرة عن شق ثقب فى الجدار المنيع استطاع القضاء أن يكشفوا عن طريقة ما وورى من سوءات المدبرين ٠

ما كان أغنى هؤلاء القضاة عن هذا العناء ؟ وقد كانوا فى حل من اقتحام هذا الطريق الشائك الوعر ، ولكن القلوب المؤمنة ، والضمائر الحية المرهفة ، لا تبالى بالعناء ، ولا تنثنى أمام العقبات ٠٠ حتى تشعر بالرضا عن نفسها ، وحتى تحس فى قرارة ضميرها أنها لم تقصر فى حق وأنها قد أبلت بلاء حسنا ٠

لقد كان مثل هؤلاء القضاة ومثل هذه السلطات المتآمرة فى هذه القضايا كمثل نفر من المشهورين بارتياد الغابات ، دعوا لارتياد غابة كثيفة فى أعماق الغابات — وقصد الذين دعوهم من دعوتهم أن يسمع الناس من أفواه هؤلاء الخبراء فى ارتياد الغابات ما ينفرهم من هذه الغابة — فرأى المرتادون أول ما رأوا فى الغابة كومة ضخمة من العقارب والافاعى والحيات ومختلف الهوام التى تقشعر لرؤيتها الابدان ٠٠٠ فقال الداعون للخبراء : أرأيتم ؟ هيا بنا نرجع أدراجنا قبل أن تفتك بنا وبكم هذه الآفات ٠ ولقد جئنا بكم لتروا بأعينكم أننا على صواب حين حذرنا قومنا من هذه الغابة وقلنا لهم انها غابة الموت والاهوال ٠٠ ألسنا على صواب ؟ ٠٠ هيا أعلنوا ذلك على الملأ ٠

ولكن فريقا من خبراء الغابات المدعوين لم يتسرعوا بالحكم على صواب ما سمعوه ممن دعوهم وقالوا لهم : دعونا نقترب من الكومة ٠٠ تكرر هؤلاء تحذيرهم ، ولكنهم أصروا مجازفين ٠٠ وصاروا يقتربون من الكومة فى حذر خطوة خطوة حتى غافل واحد منهم الداعين وفى قفزة واحدة وصل الى حافة الكومة فرأى كبرى الافاعى زابضة على هذه الحافة تتلوى وتنذرهم بالالتهام ٠٠ وبشجاعة وحذق ضربها على رأسها بعصاه فولت مذعورة وولى خلفها مئات من الافاعى والهوام ٠ فانكشف جزء من المكان الذى كانت تغطيه هذه الافاعى بأجسامها ٠٠ فأخذ هذا الخبير المرتاد ينبش بعصاه فى المكان الذى انكشف وظل يحفر حتى رأى بريقا يأخذ بالابصار منبعثا من موضع نبشه ٠٠ فدعا زملاءه فنبشوا بعصيهم فاذا به كنز مدفون قد حجب عن الناس بهذه الكومة الشاهقة المصطنعة من الآفات والافاعى والهوام ٠

فلما رأى الرواد الخبراء هذا الكنز بأعينهم طلعوا على قومهم أن أبشروا فان غابة الموت والاهوال لم تكن الا خديعة أراد مدبروها أن يحجبوا عن أنظاركم كنزا ثمينا لكم فيه الغناء والرخاء والرفاء ٠٠ حجبوه بهذه الكومة المصطنعة من الهوام التى جمعوها من هنا وهناك ٠

وهكذا لم يكتف فريق الرواد بفضح الخديعة الكبرى التى طلبوا المشاركة فى حبكها على قومهم بل انهم كشفوا فى نفس الوقت لقومهم عن الكنز المدفون تحتها لينتفعوا به ٠

ثامنا ـ خسر الاخوان فى هذه المحنة الكثير الثمين الغالى من الارواح والاجسام والمال والممتلكات • ولكن اذا وضعنا كل هذه الخسائر فى حساب الدعوة الاسلامية فى كفة الميزان لجاء ما اكتسبه الاخوان من أحكام القضاء فى الكفة الاخرى راجحا •

واذا كانت أعظم هذه الخسائر هى بلا شك فقد الاستاذ الامام حسن البنا رحمه الله ، فان فقد القائد فى الدعوة الاسلامية فى معاركها مع الظلمة والمتآمرين أمر متوقع ، سوابقه فى التاريخ الاسلامى معروفة مشهورة فقد فقد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب والحسين بن على وفقد الكثيرون من القادة والائمة فما توقفت الدعوة بفقدهم بل جادت بخلفاء لهم رفعوا اللواء وواصلوا المسيرة •

اذا مات منا سيد قام سيد قئول لما قال الكرام فعول

وسوف يرى القارىء فى الصفحات التالية ان شاء الله كيف أن الدعوة لم تمت بموت حسن البنا ، بل ان دمه الطاهر قد روى شجرتها فكان أكسير الحياة لها ، بحيث لم تعد قابلة للموت بعد ذلك باذن الله •

خسرت الدعوة ما خسرت فى هذه المحنة ولكنها اكتسبت الخلود بأحكام القضاء ، واذا عبرت بلفظ الخلود فانما قصدت التعبير عن الطور الجديد الذى تمخضت عنه هذه المحنة ، فقد صارت دعوة الاخوان فكرة عالمية ، وأصبحت احدى القوى المؤثرة فى هذا العالم سواء اعترف بها رسميا أم تجاهلها الرسميون •

تاسعا ـ قد يلاحظ القارىء أن حكم المحكمة فى قضية السيارة الجيب تناول بعض المتهمين فيها بعقوبات •• فكيف نشيد بأحكام تضمنت ادانة لبعض المتهمين ؟

وهذه ملاحظة جديرة بأن نعلق عليها فى صدد ما نحن فيه ، ذلك أن القضاة ـ مهما تفاعلوا مع مجتمعهم ، ومهما بلغوا فى تقدير الظروف ، ومهما أيقنوا من شرف الغاية ـ فانهم مقيدون أولا وأخيرا بالاسس التى يقوم عليها النظام العام للدولة •• فقضاة هذه المحكمة كانوا على تفهم تام لظروف القضية وظروف المتهمين فيها ، وكانوا مقدرين كل التقدير هذه الظروف ، وكانوا مقتنعين بشرف غاية المتهمين ، ويتمنى كل قاض منهم أن لو أتيحت الفرصة لنجاح هذه الدعوة فى تحقيق أهدافها لانقاذ البلاد مما ترزح تحته من احتلال أجنبى واستغلال داخلى •• ولكن ـ حتى يزول هذا النظام الذى

تقوم عليه مؤسسات الدولة ـ هم مقيدون بهذا النظام وبالاستناد فى احكامهم الى القوانين التى سنها هذا النظام ٠

لقد كان المطلوب هو الحكم باعدام هؤلاء المتهمين أو الحكم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة ٠٠٠ فاذا بالحكم يبرىء أربعة عشر منهما ويحكم على الباقين بأحكام أقصاها ثلاث سنوات ٠٠ وما كان لمحكمة مقيدة بنظام الدولة الا أن يكون فى حكمها ادانة ، فكانت الادانة فى أخف صورها ، مشفوعة بما يشبه التماس العذر لمن أدين ، مع الاشادة بنبل غاية الاخوان المسلمين ، وسمو مقاصدهم ، وروائع جهادهم ، والاقرار بسلامة أسلوبهم فى تربية الشباب تربية روحية رياضية عسكرية ٠

وليس أدل على اقتناع قضاة هذه المحكمة بكل هذا الذى أشرنا اليه مما ضمنوه حيثياتهم ، من أن رئيس هذه المحكمة بعد أن فرغ من هذه القضية ومما كان منوطا به من قضايا أخرى ، قرر اعتزال القضاء ، وتقدم الى الاخوان المسلمين معلنا انضواءه تحت لوائهم ٠٠ وكان احد المتطوعين فى هيئة الدفاع عن المطالبين بالحق المدنى فى قضية اغتيال الاستاذ الامام ٠

عاشرا ـ كان الحكم سيكون أروع لو تم نظر قضية الاوكار :

ومع اقرارنا واقرار كل الاوساط المثقفة لا سيما الاوساط المشتغلة بالقانون بأن حيثيات الحكم فى قضية السيارة الجيب هى احدى المعالم البارزة فى تاريخ القضاء المصرى ، والتى نطق كبار رجال القانون فى مصر حين اطلعوا عليها تعبيرا عن بالغ اعجابهم فقالوا : « ان فى مصر قضاة » ـ مع اقرارنا بذلك وبأن الضربة الاولى نصف المعركة ، وبأن هذه الاحكام وما تبعها من حيثيات كانت مفاجأة مذهلة للجميع ، فقد أذهلت السلطات القائمة لانها نسفت كل ما خططوا وأرسوا بناءه فى سنين ، وأذهلت الشعب نفسه لانه لم يكن يتصور أن فى أبنائه ـ بعد ـ من تصل به الجراة الى هذا الحد من مناطحة أكبر رءوس الدولة بمثل هذه الشجاعة المنقطعة النظير ٠

مع اقرارنا بذلك كله نقول : لو ان الظروف اتاحت لقضية حامد جودة والاوكار أن يستمر نظرها دون العوائق التى عوقتها ، لسمعنا ورأينا العجب العجاب فى احكامها وحيثياتها ٠٠ ذلك أن هذه القضية ـ وقد جاءت بعد قضية سيارة الجيب ـ لم يدخل القضاة فيها على طريق مسدود ـ كما كان الشأن فى قضية الجيب ، بل وجد القضاة امامهم بعض منافذ أنشأتها المحكمة السابقة ، وقد استطاع الدفاع بمهارته ان يوسع من هذه المنافذ شيئا فشيئا

حتى صارت طرقا سلكها القضاة فكشفوا فيها عن مواقع لم يكن المتآمرون يعتقدون أنها تكشف فى يوم من الايام ٠

ففى هذه القضية ـ الاوكار وجودة ـ كشف عن شخصية العسكرى الاسود » الذى كان الفضل فى كشفه لجريدة « الجمهور المصرى » والى الصحفيين المحررين بها سعد زغلول والبعثى ٠ وقد رأينا البوليس السياسى ـ حين علم بعثور المحكمة على هذا العسكرى ـ قد شمر عن ساقه ووضع خطة للالتقاء به قبل أن يمثل أمام المحكمة ٠ ووصل اهتمام البوليس السياسى بهذا اللقاء الى حد تطويقه الصحفى سعد زغلول فى منزل أحد أصدقائه ومنعه من الخروج حتى لا يمثل أمام المحكمة شاهدا ٠٠ ولم يكن اهتمام البوليس السياسى هذا الاهتمام البالغ الا دفاعا عن أنفسهم لانهم أيقنوا أن هذا العسكرى اذا صرح أمام المحكمة بالحقائق فانهم سيوضعون جميعا فى قفص الاتهام ٠

وفى هذه القضية شهود التعذيب ، شهود عيان كالشاهد الذى كان جارا لقسم مصر القديمة والذى وصف ما رآه بعينيه وبمنظاره المقرب وما سمعه بأذنيه من تعذيب ظل طول الليل داخل هذا القسم للمتهم مصطفى كمال عبد المجيد ، وكالشهود الذين كانوا ضباطا بالقسم السياسى ثم تركوه ٠

ولكن الحدث الجلل ، والمفاجأة المذهلة ، والطامة الكبرى على المتآمرين هى شهادة اثنين من رجال القضاء والنيابة ممن باشروا التحقيق فترة فى هذه القضية ، أحدهما من رجال النيابة والآخر قاض ٠٠ وناهيك بشهادة رجال القضاء ، ان كلمة واحدة منها ترجح فى ميزان العدالة عشرات الشهادات ٠

ومما يؤسف له أن الاخوة المتهمين فى هذه القضية قد صدر قرار بالافراج عنهم أو العفو عنهم على الاصح فى سنة ١٩٥٤ ـ وكم كنا نود لو أن محكمة الجنايات التى كانت تحاكمهم فى سنة ١٩٥١ أصدرت أحكامها قبل قيام الثورة فى سنة ١٩٥٢ ونشرت حيثيات هذه الاحكام ، اذن لسجلت لدعوة الاخوان المسلمين مجدا أروع مما سجلته لها محكمة سيارة الجيب ، ولسجلت على الطرف الآخر المتآمر خزيا وعارا ـ لا مجملا كما جاء فى أحكام قضية الجيب وحيثياتها ـ بل مفصلا تفصيلا ، لان هذه المحكمة قد كشفت من مخازيهم ما يزكم الانوف ٠ ويجرح الصدور ، وتتقزز منه النفوس ٠

□ مجلس الدولة اعتمد فى أحكامه على حيثيات قضية الجيب :

وان كنا لا ننكر أن للمحكمة الاولى الفضل فى أنها هتكت أول حجاب تنكرى كان المتآمرون يظهرون به أمام الشعب ليخدعوه ، وكانت حيثياتها

مما اعتمدت عليه حيثيات محكمة مجلس الدولة فى حكمها ببطلان الامر العسكرى بحل الاخوان والغائه ٠

أما حيثيات مجلس الدولة نفسها فانها قواعد قانونية حددت لسلطة الحاكم نطاقا لا تتعداه ، وقررت لحرية الشعب فى تكوين الجمعيات المدى الذى لا يطمع عشاق الحرية فيما هو أبعد منه ٠

وقد رأينا أن نثبت نصوصا كاملة من هذه الحيثيات حتى يستفيد القارىء بقراءتها فيعرف حقوقه المخولة له بنصوص الدستور فيحرص على السهر عليها ، والمطالبة بها ، والذود عنها ، بهذه الحجج القاطعة الدامغة التى قررتها أعظم هيئة للقانون الادارى فى الدولة ٠

ولقد كان الاخوان يطمعون فى أن يستردوا مركزهم العام وممتلكاتهم وأن يباشروا عملهم الرسمى لدعوتهم بقرار تصدره الحكومة ، ولكن شاءت أراد الله – وهو الذى يختار لدعوته – أن يختار لهم الموقف الاكرم ، والرجوع الأشرف ، عن طريق حكم القضاء حتى لا يتحملوا بجميل لاحد سوى القضاء الذى هو ملجأ كل مظلوم ٠

★ ★ ★

وبعد ٠٠ فها نحن الآن نؤرخ لفترة مضى عليها أكثر من ربع قرن ٠ تطورت فيها الامور ، وتغيرت خلالها الاحوال – كدأب الايام وطبيعة الزمن – انقضى فى أثنائها ما انقضى ، ومضى فى خلالها من مضى فصار بين يدى الله « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » ٠

فمن الذى ربح من الرجال الذين مروا بهذه التجربة القاسية ممن وضع الله فى أيديهم مصائر الناس ومن الذى خسر ؟ ٠٠ هل ربح الذين التحقوا بركب الطغاة أملا فيما عندهم من ألقاب ومناصب ، فرحوا بها حينا من الزمن ثم تركوها مخلفين وراءهم عارا لا يذكرهم مواطنوهم الا به ، وسجلوا على أنفسهم فى صفحات التاريخ خزيا لا يمحى ؟ ثم أفضوا الى ربهم الذى لا يضل ولا ينسى ٠

أم هؤلاء الذين كان من قدرهم أن يعتلوا منصة القضاء فى تلك الفترة العصيبة ، وزين لهم الشيطان – كما يزين لكافة الناس – ما ينتظرهم من متع الحياة ومباهجها ، والحظوة لدى أصحاب السلطان، فهموا بالتعلق بها – كدأب سائر البشر – لولا أن رأوا برهان ربهم فتذكروا أنهم بين يدى امتحان رهيب : متع زائلة يعقبها ذكر سىء وبىء فى الدنيا وعذاب أليم فى الآخرة ، واعراض عن هذه المتع يعقبه ذكر عطر فى الدنيا ونعيم مقيم فى الآخرة

فآثروا الآخرة على الدنيا ٠٠ فلم يخسروا شيئا وكسبوا الدنيا والآخرة ٠ وخسر هنا لك المبطلون ٠ « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ٠ وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » ٠

ألا رحم الله رجالا تبوأوا منصب القضاء فعلموا أنهم خلفاء الله فى الارض ، كلمتهم فاصلة فى المال والاعراض والدماء ٠٠ فلم يستوحوا الا ضمائرهم ، ولم يستلهموا الا ربهم ، ولم تفتنهم عن كلمة الحق رغبة ولا رهبة ، فقالوها مدوية رائعة ٠٠ تاركين لانفسهم ولامتهم ذكرا فى الخالدين « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين » ٠

ختام البـاب

وقد يجمل بنا بعد ذلك ، وفى ختام هذا الباب المتضوع بأريج نزاهة القضاء المصرى أن ننقل للقراء تحقيقا صحفيا أجرته صحيفة أخبار اليوم فى ١٢ـ٧ـ١٩٥٢ مع رئيس المحكمة التى أصدرت حكمها فى قضية السيارة الجيب ٠ وها كم نص هذا التحقيق الذى نشرته الجريدة تحت هذا العنوان ٠

المستشار الذى حاكم الاخوان المسلمين

أصبح واحدا منهم

الاسكندرية ـ مكتب « أخبار اليوم »

بدأ الاخوان المسلمون فى تعديل لائحة الجماعة ، وذلك على أثر صدور حكم مجلس الدولة ببطلان الامر العسكرى الصادر بحل الاخوان ٠

وقرر مكتب الارشاد العام اتخاذ الاسكندرية حقلا لاول تجارب اجتماعية من نوعها تقوم بها الجماعة ٠ حتى اذا ما نجحت التجربة عممت هذه المشروعات فى جميع بلاد القطر ٠

وقد اختيرت الاسكندرية بالذات لاجراء هذه التجارب الجديدة بعد أن انضم الى الجماعة سعادة أحمد كامل بك الرئيس السابق لمحكمة جنايات مصر ، الذى أصدر حكمه فى قضية سيارة الجيب ٠ وقد اختير سعادته رئيسا للجنة الاستشارية للاخوان فى العاصمة الثانية ، ليبحث وينظم هذه التجارب على ضوء دراساته وتجاربه الماضية ٠

وسيشرف سعادته على تنفيذ هذه المشروعات التى وضعت لصالح الجماعة وهى :

١ ـ الضمان الاجتماعى ٠
٢ ـ التأمين الصحى والعلاجى ٠
٣ ـ تنظيم جباية الزكاة وانفاقها فى وجوهها الشرعية ٠

□ **الرجل الذى غير مصير الاخوان :**

وقبل عامين كان أحمد كامل بك هو الرجل الوحيد فى مصر كلها ، بل فى العالم العربى كله ، الذى يتحكم فى مصير الاخوان المسلمين ٠ وكانت كلمة منه كفيلة بالقضاء على المستقبل السياسى للجماعة ، واغلاق فروعها وشعبها فى كل قرية ومدينة وفى سوريا ولبنان والباكستان ، وفى كل قطر اسلامى وقفت عنده أو امتدت اليه الدعوة الجديدة ٠

٠٠٠ كلمة واحدة فقط كان يمكن أن تغير مصير الدعوة ، وكان يمكن أن تؤدى الى نشريد كل من يدين بمبدأ الاخوان ٠٠ وأبقى الرجل على الجماعة حتى قدر اله أن يصبح واحدا منها ، يساهم بجهده من أجلها ، بعد أن ظل مصيرها كله معلقا به ٠

□ **من فوق المنبر العالى :**

وجلس الرجل فوق المنصة العالية اربعة شهور متتالية ، يدرس برامج الجماعة ، ويتعمق فى تحليل حقيقة أهدافها ومراميها ، وتلتقط اسماعه أقوالا متناثرة فى ساحة القضاء ٠٠ ليصدر بعد ذلك حكمه بأن الاخوان المسلمين جمعية اسلامية تهدف الى اقامة مجتمع اسلامى مثالى يحكمه الدين ٠

□ **اذاعة السر :**

هذه المراحل الثلاث المتضاربة بقيت سرا مكتوما فى ضمير القاضى ٠ حتى فتح قلبه « لاخبار اليوم » هذا الاسبوع ليروى القصة كاملة ٠٠ قصة القضية التى غيرت مصير الاخوان ، وغيرت أيضا مصير القاضى نفسه ٠ بحيث نقلته الى الصف الاول من صفوف المكافحين ، يجلس بينهم ، بعد أن كانوا جميعا يقفون بين يديه ، وكان ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم رهن كلمة منه ٠

□ **قصة الماضى :**

وتبدأ القصة مع الرجل فى ماضيه البعيد عام ١٩٣٠ ، عندما خلع الاستاذ أحمد كامل روب المحاماة بعد ستة عشر عاما ليرتدى وشاح القاضى ٠
وفى المنيا سمع لاول مرة عن هيئة دينية جديدة تسمى « الاخوان المسلمين » وكان يظنهم جماعة صوفية تشبع افرادها بالتعصب الدينى

وكراهية الاجانب · وتخيل أن عملهم مقصور على حفلات الذكر ·· ولم يحاول أن يصل الى الحقيقة فى هذا الامر ، فلم يكن يعنيه منه شىء · وما خطر بباله يوما أن الوصول الى حقيقته سيكون شغله الشاغل ·

□ كانت الفكرة تطاردنى :

وانتقلت نفس الفكرة معه من المنيا الى بنى مزار · وكلما تنقل بين بلاد القطر كانت الفكرة لا تزال مسيطرة عليه ، أو كما يروى « كانت تتبعنى دائما بل كانت تطاردنى · هربت منها فى اسنا ولكنها لحقتنى فى أسيوط · وتعقبت خطوانى كلما ارتقيت درجة فى السلك القضائى ، كانت معى فى طنطا ودمنهور والقاهرة ·· ولم أكن أعرف أنى سألتقى بهذه الفكرة التى رسبت فى أعماقى فى معركة حاسمة فى محكمة جنايات القاهرة » ·

□ اللقاء الاول والاخير :

وسرح الرجل بفكره وهو يذكر قصة لقائه الاول بحسن البنا ، وهو اللقاء الاخير أيضا · وكان ذلك فى الزقازيق عام ١٩٤٥ وقد أضحى القاضى الشاب مستشارا فى محكمة الجنايات وأقيم حينذاك احتفال بالمولد النبوى·

□ بين العقل والقلب :

واستمع فى هذا اليوم الى حسن البنا وهو يتحدث عن العالم الاسلامى كما ينشده الاخوان المسلمون ، وعن المجتمع المثالى كما يتخيلونه اذا نفذت برامجهم ·

وشعر حينئذ أن الرجل خطيب ممتاز يؤثر فى سامعيه · ولم يحاول أن يفاضل بين الخاطر الذى استقر طويلا فى عقله ، والخاطر الجديد الذى بدأ يطرق زوايا قلبه طرقا رقيقا هينا ولكن فى نغم حلو ·

وبين العقل والقلب قام الكفاح أربعة أشهر حتى انتهى الاثنان الى رأى واحد ، بعد أن جمعت أمامه ، بل حشدت له جميع بيانات حسن البنا وخطبه وأحاديثه الدينية ومذهبه السياسى ، جمعتها له النيابة كمستندات ضد اثنين وثلاثين شخصا من الاخوان المسلمين ، أو « الاعضاء الارهابيين فى الجماعة المنحلة » كما أطلق عليهم فى ذلك الحين ·

□ الفكرة السجينة :

وحلقت خواطر القاضى السابق بعيدا وهو يذكر تلك الايام من شهر ديسمبر ١٩٥٠ : « كانت أمامنا أوراق كثيرة ، ربما عشرة آلاف صحيفة ، وربما تزيد على ضعف هذا العدد ، وكنا مطالبين بأن نقرأها جميعا ·

واقوالها مخلصا . لم يكن يعنينا كثيرا فى هذه الايام أمر هؤلاء الاثنين والثلاثين منهما اثنين وقفوا يحملقون فينا من وراء القضبان .. بل كان يعنينا كثيرا تلك الفكرة السجينة خلف هذه القضبان ، ما هى ؟ ما حقيقتها ؟ ما وراءها من آمال ومطامع ؟ ان صح أن للدعوة مطامع على الاطلاق عدا المثالية فى مجتمع مأساته الاولى أخلاق بنيه .

كانت الفكرة السجينة هى هدف المحاكمة الاول . كنا نريد أن نحكم لها او عليها .. فاما أن يتاح لها ان تطل برأسها على مصر والعالم من جديد ، واما ان تلفظ أنفاسها صريعة داخل القضبان ، حيث يطويها العدم والفناء .

كان يعنينا كثيرا مصير عشرات الالوف بل ومئات الالوف من « رهبان الليل وفرسان النهار » كما قالت عنهم الصحف ووكالات الانباء . وكان علينا أن نقرر مرة واحدة والى الابد : هل هؤلاء جميعا يسعون الى قلب نظام الحكم واتلاف أسلحة الجيش المصرى وتخريب المنشآت الحكومية ونسف الطرق والكبارى والسرقة المسلحة ؟ .. وما أكثر ما وجه الى هؤلاء الابرياء .. الذين اصبحت واحدا منهم .

□ الحقائق مطلقة للقاضى :

ان الحقائق نسبية لجميع البشر الا للقاضى ، فانه لا يعرف الا حقيقة واحدة مطلقة . وأقل شك لديه يغير مصير حياته والخيوات الاخرى المتعلقة بكلمة القدر التى تنطق بها شفتاه .

كنت حريصا على أن أقرأ كل شىء . فتتبعت نشأتهم وأحسست اذ ذاك بروحى تجوب معهم شوارع الاسماعيلية فى عام ١٩٢٨ ، ثم تترك المدينة الضيقة لتضىء كل مكان فى مصر ، وحتى فى ميدان القتال على أرض فلسطين .

واستمعت الى أحد الشهود .. ولم أستطع أن أنسى شهادته الى الآن .. ما اكثر ما ناقشته فى تلك الايام . وكنت أنا وهو حريصين على أن نصل الى الحقيقة كاملة .. وعرفنا الحقيقة الكاملة ، انا وزميلى اللواء أحمد على المواوى بك قائد حملة فلسطين ، الذى انضم الى الاخوان المسلمين فى الشتاء الماضى عضوا فى اللجنة الاستشارية ، ليضع خطوطا جديدة لتحركات الاخوان فى الميادين الاجتماعية والرياضية .

□ من كان يدرى ؟

هل كنت أستطيع فى ذلك الوقت أن أتنبأ بأنى سأضيف الى مشروعاتهم

صفحة جديدة ؟ لا أحد يدرى ٠٠ وربما كان الاثنـان والثـلاثون متهما الذين كنت قاضيهم هم آخر من يتوقع ذلك ٠

□ القصة غيرت مجرى القضية :

ان قصة « العسلوج » غيرت كثيرا من مجـرى القضية ٠٠ لقـد روى الراوى بك القصة كاملة ، قصة الذين قيل عنهم انهم أرادوا اتلاف أسلحه الجيش المصرى ٠٠٠ لقد نفدت ذخيرة ألف وخمسمائة جنـدى من الجيش ٠ ولم يستطيعوا التقدم للاستيلاء على الموقع ٠٠ وتقـدم خمسـة وعشرون من فرسان الليل من كتيبة المرحوم أحمد عبد العزيز ليستولوا على الموقع ونجحوا فى ذلك ٠٠٠ حقيقة كانوا قـلة ، ولـكن كان لهم شـعارهم الخـالد ، شـعار الاجيال : « وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » ٠

□ تحـررت :

وبدأ فكرى يتحـرر من رواسب سـبعة عشر عاما ، وبدأت خـواطرى القديمة عنهم تتـلاشى ، وبدأ حسن البنا يفقـد فى ناظرى شخصـيه شـيخ الطريقه المتصوف الذى يعقد حلقات الذكر ، لتحل محلها شخصية قائد الدعوة

□ قاضيهم ومحاميهم :

كنت مطالبا بأن أكون عقيدة لنفسى قبل أن أكون عقيدة لغيرى ، وكان يجب أن أعيش فى القضية مكان المتهمين ومكان أعضاء الجماعـة ومـكان قائد الدعوة ، لاومن بما يؤمنون به ، أو لاكفـر بما يعتقدون أنه الحـق ٠٠ وبين الايمان والكفر كانت تنظر قضية سيارة الجيب ، لتحدد والى الابد ٠٠مصير الاخوان المسلمين ٠٠ ولتحدد بعد ذلك مصيرى ٠ فانى أعتقد أن هذه القضية هى وحدها التى هدتنى اليهم ، وهى التى دفعتنى الى أن أصبح عضوا عاملا فى الجماعة ، أسير معهم ، وأدافع عنهم عنـدما يحين لقضـية « الاوكار » أن تعرض أمام القضاء ٠

ملحوظة : قصة « العسلوج » التى جاء ذكرها فى حديث الاسـتاذ أحمـد كامل بك هذا ، كنا قد تناولناها بشىء من التفصيل فى الجزء الاول من كتابنا هذا فى صفحة ٤٢٦ تحت عنوان « بطولات خارقـة لحماية انسحاب الجيش المصرى » ٠

الباب الرابع

نظرة أخيرة إلى حسن البنا

- □ تاريخ ارادوا طمسه
- □ حسن البنا بين مختلف الطوائف والافكار .
- □ حسن البنا والطائفة الخامسة أو موقفه من الساسة والحكام
- □ آخر ما كتبه حسن البنا بخط يده للنشر
- □ حسن البنا وكبار الدعاة فى العالم الاسلامى فى العصر الحديث

الفصـــل الاول

تاريخ أرادوا طمسه

□ **بعد حسن البنا :**

حسن البنا صاحب دعوة أفنى حياته فى نشر لوائها ، فقد وصل بها الى أعماق الريف بعد أن غزا بأفكاره عقول الطائفــة الرائدة فى البـلاد من طلبـه الجامعه والازهر ، فهز بهذه الطائفة أرجاء مصر من أقصاها الى أقصــاها ٠٠ وظل يزحف بدعوته هذه يوما بعد يوم حتى ضيق الخناق على كل فكر زائف، سواء أكان عقديا أو اجتماعيا أو سياسيا ٠٠ ممــا دعا أصحاب هذه الافـكار الزائفة ــ مع ما بينـهم من خلاف مرير ــ الى تناسى خـلافاتهم ، وأجمعـوا كيدهم ثم أتوا صفا لضرب هذا الزحف الهادر ضربة رجل واحد ٠٠ فاتحدت الشيوعية الدولية مع الصهيونية العالمية مع الاستعمار الغربى مع الخـونة من المصريين ، ووجهوا الضربة القاضية الى صاحب الفكرة ، وباعث الحركة، ومنشىء الدعوة ، وقائد الزحف فأردوه قتيلا ، وسط مؤامرة محبوكة الاطراف ٠٠٠٠ وراح حسن البنا شهيد فكرته وضحية دعوته ٠

ولمـا تم لهم ما أرادوا من اغتياله ، فوجئوا بما لم يكونوا يحتسبون ٠ اذ وجدوا أنـهم لم يظفروا بما كانوا يأملون من الامن ٠٠ فقـد ظـل شبحـه يلاحقهم ويقض مضاجعهم ، ويبعث الرعب والفزع فى نفوسهم ٠٠ فجندوا كل امكاناتهم من أقلام كتاب ، الى حناجر خطباء ، الى محررى صحـف ، الى أبواق دعاية ، الى ملفقى تهم ، الى مزورى تحقيقات ، الى محترفى تعـذيب لطاردة هذا الشبح ٠٠ وظلت هـذه المطاردة عاما كاملا لا تهـدأ يوما واحـدا ولا ساعة من ليل أو نهار ٠٠ ولكنها مع ذلك فشلت فى مطاردته وتغلب عليهم ــ فاضطروا الى تغيير الاسـلوب ، ولجأوا فى المطاردة الى أسـلوب الخـداع والمداهنة عن طريق سن القوانين ٠٠ ففشلوا كذلك ٠٠ ولمـا سقط فى أيديهم سلموا بالامر الواقع راغمين ٠

استشهد حسن البنا فى ١٢ فبراير ١٩٤٩ ٠ ولكن كلمة انصاف واحدة فى حقه لم تخطها يد كاتب فى صحيفة الا فى ١٤ فـبراير ١٩٥٢ حيث كتبت جـريدة « المصرى » معبرة عن رأى أصحـابها ، فنشرت صـورة له ، وتحت عنوان « ذكرى الامام الشهيد المغفور له الشيخ حسن البنا » كتبت ما يلى :

« صـادف يوم تعطيـل « المصرى » (الجمعة ١٢ فـبراير حيث كانت

عطلتها الاسبوعية وكان لكل جريدة يوم عطلة فى الاسبوع) الذكرى السنويه للامام الشهيد المغفور له الشيخ حسن البنا (بخط كبير) · والحق ان الشهيد العظيم باق فى قلب كل مصرى · ويلتف المسلمون فى مصر والبلاد العربية حول دعوته الكريمة لانها كانت وما زالت نورا أى نور ·

واذا كان الفقيد الكريم قد انتقل الى دار البقاء ، فان دعوته خالدة ممتنعة على الزوال · وحسب الفقيد أن تلك الدعوة تنتظم الناس فى جميع الظروف ، وأن حياته المجيدة كانت جهادا فى سبيل إعلاء كلمة الله ·

رحم الله الفقيد وعاشت ذكراه الوضيئة مثلا من الانسانية المكافحة فى سبيل الحق » أ·هـ

□ تناقض مريب فى تقييم حسن البنا :

والآن ·· وبعد ثلاثين عاما من استشهاده ، تخللتها أحداث جسام كان من أبرز سماتها أنها أحداث متناقضة ، يقف المؤرخ أمامها مشدوها حائرا··· كيف يعلل هذا التناقض ؟

فقسم من الناس يثنى على حسن البنا أجمل ثناء ، وقسم اخر يغض من قدره ·· بل وصل التناقض الى حد أذهل المؤرخين ، فجهة واحدة مجدت شخصيته وشهدت له بالفضل فى ايقاظ الامة من سباتها ، وفى بعث الوعى الاسلامى فيها حتى صارت مهيأة للانتفاضة التى تخلصت فيها من معوقى نهضتها — ثم رأى المؤرخون أن هذه الجهة نفسها — بعد ان استقرت لها الامور — انقلبت فى عنف ونزق فسلبت حسن البنا كل فضيلة وألصقت به كل رذيلة ·· فوقفوا أمام هذا التناقض ذاهلين ·· كيف يكون هذا ؟ وبماذا يعللونه ؟

واذا كان بعض الاذكياء من الجيل الذى كان معايشا هذا التناقض قد استطاعوا أن يلمحوا فى ثنايا الاحداث ما يلقى بعض الضوء على هذا التناقض ، فماذا يكون وقع هذا التناقض على أجيال لم تعايش هذه الاحداث؟ لا سيما وأن ستارا كثيفا قد أسدل على الحقائق التى جرت طيلة هذه الثلاثين عاما ·· وكان مما زاد هذا الستار كثافة أن الالسنة والاقلام التى سمح لها بالتعبير كانت مأجورة من الجهة التى وقع منها التناقض ·

□ الشعب أخطأه التوفيق فى اختيار القيادة :

اننى ألتمس العذر لهذه الاجيال — بعد أن لقنت ما لقنت — فذهبت بها الظنون فى أمر حسن البنا كل مذهب ، وانتهى بها الامر الى اطراح هذه الشخصية جانبا ، والجرى وراء شخصيات أخرى أرادت لها هذه الجهة

المتسلطة أن تبدو براقة أخاذة ، فركزت عليها أضواء باهرة لتملأ فى نفوس الشباب الجديد فراغا باعتبارها الزعامة والقيادة ·

ولكننا اليوم – وقد أوشك هذا الستار أن ينقشع – هل نترك هذا الجيل وما يليه من أجيال فى هذا التيه الذى لا نهاية له الا الضياع الذى نعانى اليوم من بوادره وأخف ما فيه ·· ومع ذلك فقد ضاق الشعب بمصائبه ذرعا ، وييئس الجميع من أن يجدوا لمعضلاته حلولا ، وبات الناس وقد بلغت القلوب الحناجر ··· فكيف اذا دهمنا من معضلات هذا التيه ما هو أدهى وأمر ؟

ان أول الطريق للشعوب دائما هو الايمان بقيادة ·· فاذا وفق الشعب الى قادة صالحة ، لم ينتقل من حال الا الى ما هو أحسن منها · أما اذا أخطأه التوفيق فى اختيار القيادة فالتدهور المتلاحق هو نصيب الشعب لايفيق منه لحظة واحدة ·

والشعوب الحية قد تخطىء الاختيار ، لكنها لا تتمادى فى خطئها ، بل تعيد النظر وتقلب الطرف الفينة بعد الفينة ، على أساس من تقييم واضح وحساب دقيق ·· وبهذا الاسلوب تقيل نفسها من عثرتها ، وتسترد رشدها ، وتعدل اختيارها ، فتصحح بذلك مسارها ·· ولا يتأتى ذلك الا اذا اخترقت بثاقب نظرها سحائب الاوهام ، وبددت بحرارة ايمانها ضباب الشكوك فرأت الحقائق المستورة مجردة واضحة ·

وقد آتينا فى الفصول السابقة من هذا الكتاب على سرد تاريخى مدعوم بالادلة والاسانيد ، مشحون بالاقوال والنصوص · وكان هدفنا من وراء هذا العناء كله أن نستخلص من بين حطام المعارك التاريخية فى عهود مظلمة ما أخفى عن هذا الشعب – لاسيما الاجيال الحديثة منه – من ظروف غامضة وقرائن محجوبة ، وأسرار مكتومة ، وحقائق مغلفة بأغلفة كثيفة من الباطل·· حتى يتمكن هذا الشعب – باعادة النظر فى تاريخه – من تصحيح أخطائه ، ومن وضع عناصر هذا التاريخ – لا سيما الرجال والقادة – كل منهم فى وضعه الصحيح الجدير به ··· فربما ارتفع بذلك رجال ، وهبط الى الحضيض رجال كانوا فى نظره فى الذروة ·

□ أنموذج لمسخ التاريخ :

رأى المسيطرون على مصائر البلاد أن يصوروا حسن البنا فى صورة منفرة حتى ينفض الناس عن دعوته ·· ولا نستطيع فى عجالة كهذه أن

نستوعب ذكر جميع الصور التى صوروه فيها ، لا سيما بعد استشهاده وبعد اعتقال أنصاره واعتقال جميع الالسنة الحرة والاقلام الحرة فى البلاد ، فان هذه الصور قد حوتها نشرات وكتيبات ومجلات وصحف لو أنها جمعت لكانت فى حجمها أضعافا مضاعفة لحجم هذا الكتاب .. ولكننا نجتزىء منها جميعا بصورة واحدة تمخضت عنها قريحة كاتب كبير ، وأديب عظيم ، يضعه الجيل الحالى - مخدوعا - موضع الاجلال والتكريم ، ويفكرون فى تخليد ذكره بتمثال يجعله فى صف القادة الخالدين .

كتب عباس محمود العقاد - الاديب العملاق - فى احدى صحف ذلك العهد مقالا ، وقامت الحكومة بطبعه ونشره وتوزيعه مجانا على الناس .. ويتلخص المقال فى أن الاديب العملاق والكاتب المحقق قد اكتشف أخيراً أن حسن البنا دجال من أصل يهودى قام لتخريب الدولة الاسلامية ....

وقد اخترت هذه الصورة لانها كانت من أجرأ الاكاذيب على الحق .. وحين قرأت هذا المقال تعجبت أشد العجب لاستهتار هذا الكاتب بعقول الناس ، فحسن البنا لم يكن شخصية قديمة موغلة فى القدم مضى عليها عشرات القرون حتى يختلف الناس فى أصلها ونسبها .. وانما هو رجل من جيلنا نعرفه ونعرف أباه وأمه واخوته وأعمامه وأخواله وعماته وأجداده للابوين الى سابع جد كما يقولون ونعرف مسقط رأسه وهى قرية شمشيرة من أعمال مركز فوه محافظة كفر الشيخ - وكان والده من العلماء العاملين يرتزق من تصليح الساعات فى محل له بالمحمودية التى نزح اليها فى مقتبل أيامه طلبا للرزق ، ويشهد لهذا الوالد بالعراقة فى الدين وطول الباع فى العلم كتابه « الفتح الربانى فى شرح مسند الامام أحمد بن حنبل الشيبانى » الذى يقع فى أكثر من عشرين مجلدا .

ولكن بلادنا الاسيفة قد ابتليت بطائفة من أبنائها استحلوا الاتجار بضمائرهم ؛ فهم مع الغالب على المغلوب ، مهما كان الغالب ظالما والمغلوب مظلوما . فهذا الكاتب العقاد الذى طالع القارىء فى كتابنا هذا من قبل كيف كان يتزلف الى حسن البنا ويعده الامام المنقذ والقائد الملهم ، ويتمنى أن يظفر بالجلوس اليه - حيث كانت أسهمه فى ارتفاع .. استباح - حين رأى الحكومة الباغية قد اضطهدته وصادرت دعوته واغتالته - أن يرتع فى عرضه، وأن يكذب على نفسه وعلى الناس وعلى الحقائق الماثلة وعلى التاريخ لقاء دريهمات من خزانة هذه الحكومة الغادرة استمتع بها حينا من الدهر .

واذا كان « الاديب العملاق » قد انحدر الى هذا الحد ، فكيف بمن هم دونه علما وأدبا وثقافة ممن كانوا معايشين ذلك العهد الانكد ؟

على أن الذى يعنينا الآن هو أن نأخذ بيد المنصفين من أبناء هذا الجيل الجديد الذين لا زالوا فى حيرة من أمرهم حين يحاولون تقييم شخصية حسن البنا .. وسنحاول ان شاء الله فى الصفحات التالية ان نعرض عليهم شخصيته مقيسة بمختلف المقاييس المتعارف عليها ونترك لهم بعد ذلك تقييمها والحكم عليها .

الفصـــل الثانى

حسن البنا بين مختلف الطوائف والأفكار

اذا أردنا أن نقسم المسلمين فى مصر فى ذلك العهد الى طوائف حسب أفكارهم ومواقفهم من الدين رأينا أنهم طوائف خمس :

١ ـ طائفة المنتسبين الى التصوف

٢ ـ طائفة الداعين الى التزام السنة ومحاربة البدع

٣ ـ طائفة الصالحين من غير الطائفتين السابقتين

٤ ـ طائفة الذين لايبالون بالدين لجهلهم به

٥ ـ طائفة المترفين المنحرفين عن الدين المتمردين عليه ومنهم أكثـر الساسة والحكام ٠

ونحاول ان شاء الله فى السطور التالية تجلية موقف حسن البنا من كل من هذه الطوائف حتى يخرج القارىء بتقييم واضح المعالم لشخصيته ٠

حسن البنا والتصوف ٠

اذا ذكر لفظ «التصوف» انقسم الناس فى تصوره أربعة أقسام :

القسم الاول يتبادر الى اذهانهم هـذه الصـور وتلك المظـاهر التى نشاهدها فى الاحتفالات الرسمية والاعياد الدينية ، فيرون موكبا يتقدمـه حيالة الشرطة تتبعها طوائف من الناس على رءوسهم عمائم خضراء وسوداء وحمراء ، ويتوشحون بأوشحة ذات أشكال والوان ويرفعون أمامهم ألويـة كتب على كل منها اسم الطريقة ـ وقد يتبين للناس أن أكثر هؤلاء المشتركين فى هذه المظاهر لا يتخلقون فى حياتهم الخاصة بخلق الاسلام ، ولا يلتزمون فى مسلكهم مع الناس أحكامه وادابه ٠٠ ومن هنا ينشأ فى خواطر النـاس ازدراء للتصوف ، وانصراف عنه ، واستنكار له وللقائمين به والمنتسبين اليه

والقسم الثانى تقفز الى مخيلتهم صورة اولئك الذين اعتزلوا الحياة وانعزلوا عن الناس ، واحتجبوا داخل الزوايا والتكايا ، عاكفين على العبادة والذكر ، لا يعنيهم مـن أمـور بلادهم ومواطنيهم شىء ٠٠ حتى السعى على المعاش قعدوا عنه ، وعاشوا على صدقات الناس ، ظنا منهم ان مسلكهم هذا هو الزهد الذى حث عليه الدين ٠

والقسم الثالث وهم عادة من ذوى الثقافات الغربية ، فهموا التصوف على انه أسلوب فلسفى للحياة ، اشتقه المسلمون من نظريات فلسفية قديمة ، ونقلوه الى الاسلام ·· فلم تعد العبادة معه عبادة بقدر ما انقلبت الى فلسفة ·· وينتقل المتصوف بهذه النظريات الى متاهات لا حدود لها ، وتنتهى به عادة الى الضلال والزندقة ·

هذه هى نظرات أكثر الناس الى التصوف · ولكن نظرة حسن البنا اليه نظرة تختلف عن هذه النظرات · فهو يرى التصوف أخذ النفس بأسلوب تربوى قويم ، يصفيها من أدرانها ، ويرتفع بها عن المطامع والشهوات ·· على أن يكون هذا الاسلوب مستمدا من القرآن الكريم والسنة النبوية ، ولا حاجة بنا الى الاستعانة فى ذلك بما سواهما ففيهما الكفاية والغناء ، والامن من التفريط والافراط ، والسلامة من التورط والانحراف ·

وقد مارس حسن البنا التصوف بهذا المفهوم ممارسة عملية ، فتربى منذ صغره على أيدى شيوخ علماء أتقياء صالحين ، ويقرر فى مذكراته أنه أفاد من هذه الممارسة أعظم الفوائد · ويثنى على التصوف والمتصوفين بهذا المفهوم فيقول : « وهذا القسم من علوم التصوف وأسميه « علوم التربية والسلوك » لا شك أنه من لب الاسلام وصميمه ، ولا شك أن الصوفية قد بلغوا به مرتبة من علاج النفوس ودوائها والطب لها والرقى بها لم يبلغ اليها غيرهم من المربين،ولا شك أنهم حملوا الناس بهذا الاسلوب على خطة عملية من حيث أداء الفرائض لله واجتناب نواهيه وصدق التوجه اليه » ثم يردف ذلك قائلا :

« وان كان ذلك لم يخل من المبالغة فى كثير من الاحيان تأثرا بروح العصور التى عاشت فيها هذه الدعوات ، كالمبالغة فى الصمت والجوع والسهر والعزلة ·· ولذلك كله أصل فى الدين يرد اليه : فالصمت أصله الاعراض عن اللغو ، والجوع أصله التطوع بالصوم ، والسهر أصله قيام الليل ، والعزلة أصلها كف الاذى عن النفس ووجوب العناية بها · ولو وقف التطبيق العملى عند هذه الحدود التى رسمها الشارع لكان فى ذلك كل خير » ·

ويقول أيضا « ولا شك أن التصوف والطرق كانت من أكبر العوامل فى نشر الاسلام فى كثير من البلدان وايصاله الى جهات نائية ما كان ليصل اليها الا على يد هؤلاء الدعاة ، كما حدث ويحدث فى بلدان أفريقيا وصحاريها ووسطها وفى كثير من جهات آسيا كذلك – ولا شك أن الاخذ بقواعد التصوف فى ناحية التربية والسلوك له الاثر القوى فى النفوس والقلوب ، ولكلام الصوفية فى هذا الباب صولة ليست لكلام غيرهم من الناس » ·

ثم يتحدث عن بعض الطرق الصوفية المعاصرة وما دخل عليها من المغالاة

والانحراف فيقول « ومن واجب المصلحين أن يطيلوا التفكير فى اصلاح هـذه الطوائف من الناس ، واصلاحهم سهل ميسور • وعندهم الاستعداد الكامل له ، ولعلهم أقرب النـاس اليه لو وجهـوا نحـوه توجيها صـحيحا ، وذلك لا يستلزم أكثر من أن يتفرغ نفر من العلماء الصالحين العاملين ، والوعاظ الصادقين المخلصين لدراسة هذه المجتمعات والافادة من هذه الثروة العلمية وتخليصها مما علق بها ، وقيادة هذه الجماهير بعد ذلك قيادة صالحة » •

أما نحن فنقول : لعل اتصال حسن البنا فى مقتبل حياته بالصوفية ، وأخذه نفسه بأساليبهم فى تطهير القلب وتزكية النفس ، وحملها على السهر وتعويدها على التقشف والصبر •• هو الذى هيأه للقيام بأعباء الدعوة بعـد ذلك •• وهى أعباء ثقال ــ كما أن اندماجه هذا فى الصوفية ، وخوضه بنفسه بحارها ، ومعاناته أساليب التربية الروحية المكثفة فيها •• هو الذى جعله اهلا لتربية أتباعه بعد ذلك حين قام بالدعوة تربية روحيه قوية كان لها أكبر الاثر فى نجاحها نجاحا أذهل الاقربين والابعدين على السواء ــ ولا نعتقد أن حسن البنا كان قادرا على تحقيق هذا النجاح فى دعوته لو أنه لم يكن مؤهلا هذا التأهيل الصوفى القويم ، فان تكوين الفرد كان هو أساس نجـاح هـذه الدعوة ، والركيزة العظمى فى تكوين الفرد هى تربيته تربية روحة ، وفاقـد الشىء لا يعطيه •• ولعلنا قد جلينا أسلوب حسن البنا فى تربية أتباعه فيما قدمنا فى الجزء الاول من هذا الكتاب •

□ حسن البنا والسنة :

كما أن عوامل الاهمال والتحريف قد فعلت فعلها بمرور الزمن فى الصوفية حتى حرفتها عن أصلها وبعدت بها عن حقيقتها ، وألصقت بها ما ليس منها ، فكذلك فعلت هذه العوامل نفسها فعلها فيما يتصل بالمعتقـدات والعبـادات فدخل فيها من التحريف ما بعد بها عن السنة المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم •

وكما قام دعاة ــ حين ركن الناس مع اتساع عمران الدولة الاسـلامية الى الرفاهية والترف ــ يدعون الى الزهد والتقشـف الذى سمى فيما بعـد بالتصـوف ، فـكذلك قام دعاة ــ حين بعـد الناس عن السـنة فى العبادات والمعتقدات ــ يدعون الى الرجوع الى السنة ومحاربة ما أدخل على الدين من البدع والخرافات •

وحمل لواء هذه الدعوة فى عصرنا الحديث الامام محمد بن عبد الوهاب الذى قام فى نجد ، وكان لدعوته أصداء فى بعض البلاد الاسلامية لا سيما فى مصر ، حيث نادى بالرجوع الى السنة ومحاربة البدع الشيخ محمود خطاب

السبكى فأنشأ لهذا الغرض الجمعية الشرعية ، ثم نشأت بعد ذلك لنفس الغرض جمعية أنصار السنة المحمدية كما أشرنا الى ذلك بشىء من التفصيل من قبل ٠

وغنى عن البيان أن نذكر أن شابا كحسن البنا نشأ فى حجر والد متضلع فى علوم السنة النبوية عكف طيلة حياته على ترتيب أحاديث أكبر المسانيد الصحيحة فيها وتخريجها وتبويبها وشرحها والتعليق عليها وهو مسند الامام أحمد بن حنبل ، الذى يضم بين دفتيه أربعين ألف حديث ـ ولعل هذا الشاب قد شارك والده فى بعض المراحل فى هذا المجهود الكبير ٠٠٠ شاب نشأ هذه النشأة لابد أن يكون حب السنة قد اختلط بمهجته وامتزج بدمه وملك عليه لبه ٠٠ وسوف يرى القارىء بعد قليل ان شاء الله الى أى مدى وصل به هذا الحب ٠

حسن البنا بين طائفتى

المنتسبين الى التصوف والداعين الى محاربة البدع

والطائفتين المحايدتين

تبين مما سقناه آنفا أن التصوف والسنة باعتبارهما فكرتين ، قد أقرهما حسن البنا واعتقدهما اعتقادا راسخا ، وأخذ نفسه بهما ، وارتوى منهما وتضلع ـ لكن موقفه باعتباره داعية للفكرة الاسلامية الشاملة كان شيئا آخر ، اذ انه فى هذه الحالة لم يكن يواجه التصوف والسنة باعتبارهما فكرتين مجردتين ، وانما هو مواجههما باعتبارهما دعوتين ٠٠ وفى هذه الحالة يدخل العنصر البشرى فى الفكرتين على أساس أنه المكيف للفكرة والمحدد لها والموجه ٠٠ وهذا التكييف والتحديد والتوجيه هو الذى يخرج بالتصوف والسنة من كونهما فكرتين الى صيرورتهما دعوتين ٠٠ ومن هنا ينشأ الخلاف ٠

فالتصوف ـ كفكرة مجردة ـ يدخل فى الفكرة الاسلامية الشاملة على أساس أنه أحد عناصرها المكمل لشمولها ٠ والسنة أيضا كفكرة مؤداها الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم واتخاذه أسوة هى كذلك أحد عناصر الفكرة الاسلامية الشاملة ولا غنى عنها ٠

أما أن يحمل هاتين الفكرتين طائفتان ، وتدعى كل منهما ان الاسلام مقصور على فكرتها لا يتعداها ، فيدعى الدعاة الى التصوف أن التصوف هو الاسلام وأن الاسلام ليس الا التصوف ، ويدعى الدعاة الى السنة ان محاربة

البدع التى دخلت على المسلمين فى عباداتهم هى الاسلام وأن الاسلام ليس الا محاربة البدع – وادعاء الفريقين أن ما سوى ذلك من شئون الدنيـا من جهاد فى سبيل تحرير الوطن الاسلامى من الاستعمار ، والعمـل على اقامـة الدولة الاسلامية التى تتخذ القرآن الكريم دستورا لها ٠٠ ان هو الا اقحام للاسلام فيما لا يعنيه ٠٠ هنا رأى حسن البنا أن يكون له موقف آخر ٠

كان للطرق الصوفية فى مختلف الانحاء أتباع كثيرون ، كما أن بعـض الناس قد استجابوا لدعوة الرجوع الى السنة ومحاربة البدع ٠٠ ولكن نوعا من التحدى قد نشأ بين الطائفتين ، فتعرضت كل منهما للاخرى بالنقد اللاذع والتجريح الشديد ٠ وتربص كل طرف منهما بالطرف الآخر ، يشهر به ، وينفر منه ، ويعلن الحرب عليه ٠٠ حتى رمى كل منهما الآخـر بالكفر ٠٠ فتحـول الامر من دعوة الى التمسك بالدين الى اشـاعة التقاطـع والتباغض ونشـر الفرقة والعداء بين المسلمين ٠٠

وفى خلال هذا التلاحى والتخاصم بين هاتين الطائفتين قام حسن البنا بدعوته ٠٠ ولمـا كان اساس دعوته الاخوة ، فانه توجه بها أول ما توجه الى الطائفتين المحايدتين الثالثة والرابعة ، ممن لا تشغل بالهم قضايا الخـلاف – وهما يضمان أكثر أفراد الشعب – فالتف حوله جم غفير منهما ٠٠ فنهض بهم متخطيا حماة الخلاف ورقاب المتناحرين ، وواصل السير بعيدا عن هـذا الخلاف يدعو المسلمين الى التآخى والتآزر للوقوف فى وجه المـد الاستعمارى الذى بسط نفوذه على الامة الاسلامية فاذلها وسخرها لمصالحه بعـد أن نشـر فيها الفساد والانحلال وقضى فيها على الدين والاخلاق ٠

أحنق هذا الاسلوب فى الدعوة الطرفين المختلفين ، اذ رأيا حسن البنا لا يعير مواطن الخلاف بينهما اهتماما ، فى حين يرى كل منهما أنه يدعو الى الاسلام كله لبه وجوهره ، وأن اعتقاده هو الحق وأن اعتقاد الطرف الآخر هو الباطل ٠٠٠ فرماه دعاة السنة بأنه يدعو الى السفساف والتافـه من أمـور الاسلام ويدع العظيم والخطير منها وهـو العقيدة الصحيحة وتطهـيرها من البدع والخرافات ٠٠٠ ورماه الصـوفيون بأنه تنكب الاسـلوب الاسـلامى بدعوته الناس الى التدخل فى شئون الدنيا ، وحسـبه لو كان يريد الدعـوة الصحيحة الى الاسلام حقا أن يقتصر على دعـوة المسلمـين الى الانتظام فى سلك الطرق الصـوفية ليتربوا فى أحضـانها تربية روحيـة ، مبتعـدين عن التدخل فى شئون لا دخل لهم فيها ، فمـا لهم وللاستعمار ، ولا يقـع فى ملكه الا ما يشاء ، وليس فى الامكان أبدع مما كان ٠

وقد يقع هذا الكلام من قرائنا اليوم موقع الاستغراب ، فالحـال الآن

مغاير للحال التى نتحدث عنها ، ولكننى أؤكد لهم أن هذا الوصف الذى أوردنا طرفا منه كان هو الامر الواقع فى ذلك ، فلقد كنا ـ نحن دعاة الاخوان المسلمين ـ تعترضنا هذه الافكار حين نوجه دعوتنا الى زملائنا بالكليات • وحين كنا نغشى المجتمعات الشعبية خارجها من عامة الناس فى القاهرة والاقاليم •• وقد أشرت فى مكان سابق فى الجزء الاول من هذه المذكرات الى مواقف لى شخصيا مع زملاء لى فى الكلية من السنيين وأخرى مع أحد مشايخ الطرق •

وقد أومأ حسن البنا نفسه الى مثل هذه المواقف فى أدب جم حين كتب فى « مذكرات الدعوة والداعية » يقول « واستمرت صلتنا على أحسن حال بشيخنا السيد عبد الوهاب الحصافى حتى أنشئت جمعيات الاخوان المسلمين وانتشرت ، وكان له فيها رأى ولنا فيها رأى ، وانحاز كل الى رأيه • ولا زلنا نحفظ للسيد ـ جزاه الله عنا خيرا ـ أجمل ما يحفظ مريد محب مخلص لشيخ عالم عامل تقى ، نصح فأخلص النصيحة ، وأرشد فأحسن الارشاد » •

□ طريقته فى الدعـــوة :

وتوضيحا للطريقة التى انتهجها حسن البنا فى الدعوة الى الفكرة الاسلامية ، وفى صدد ما وجه اليه من هاتين الطائفتين من نقد شديد كتب ـ رحمه الله ـ فى مجلة « الاخوان المسلمون » فى أواسط الثلاثينيات مقالا رسم فيه مربعا كبيرا كتب على حوافه الاربع من الداخل « لا اله الا الله محمد رسول الله » ورسم فى مركز هذا المربع مربعا صغيرا • .

وكتب يقول : ان اخواننا الذين ينتقدوننا يحصرون دعوتهم فى حدود المربع الصغير الذى يقع فى مركز الدائرة • وهم بذلك يقصرونها على الذين اكتمل فيهم كل ما يرون أنه العقيدة الصحيحة •• وهذا عدد ضئيل •

لا اله الا الله محمد رسول الله

لا اله الا الله محمد رسول الله

□

لا اله الا الله محمد رسول الله

لا اله الا الله محمد رسول الله

أما نحن فنتوجه بالدعوة الى كل من يشهد ان لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله مهما كان مقصراً فيما سوى ذلك من تعاليم الاسلام وافكاره ـ وكل ما نطالبه به أن يرتبط معنا برباط الاخوة الاسلامية للعمل على استعادة مجد الاســـلام ٠

وهذه الدعوة غير المشروطة بشيء الا بالاقــرار بالشهــادتين يستجيب لها طوائف على درجات متفاوتة من الايمان بالتعاليم الاسلامية والعمل بها ، تبدأ من مجرد الايمان بالشهادتين وتنتهى بالعاملين بجميع التعاليم الاسلامية الفاقهين لاسرارها ٠

وفي ظل روح الاخوة التي تجمع بين كل هــذه الطــوائف ، وتحت لواء المبايعة على العمل لاستعادة مجد الاسلام ، وعلى ضوء توجيهات قيادة الدعوة الممزوجة بروح الحب والمــودة ٠٠ تنصهر كل هــذه الطوائف في بوتقة هــذا المجتمع فترقى كل طائفة في ايمانها وعملها وعقيدتها وفقهها ٠٠٠ ويتقبل الفرد من هذه الطوائف ـ عن طيب خاطر بل وبمسارعة ـ من النصائح والتوجيهات والافكار مالم يكن ليتقبله وهو خارج نطاق هذا المجتمــع الذى تســوده روح الاخوة والتضامن والمحبة والود ٠

وأعود الى وصف الحال الذى كان فأقــول : ان هجــوم الطائفتين على حسن البنا كان يزداد شــدة كلما ازدادت دعـــوته انتشارا ٠٠ فلما وصــل الانتشار الى الحد الذى أحسنا فيه أنه أخذ يغزو معسكريهما رفعتا درجــة الهجوم حتى شككوا في عقيدة الاخــوان وفهمهم للاســلام ٠٠٠ وهنا أصــدر حسن البنا رسالة هامة من رســائله التى كان يصــدر كلا منها بمناسبة من المناسبات ٠

☐ فهمه للفكرة الاسلامية :

وكانت هذه الرسالة هى رسالة « التعاليم » التى حدد فيها رؤية الاخوان المسلمين للتعاليم الاسلامية الاســاسية ، ورأيهم في مــواطن الخــلاف بين الطوائف ، كما تشتمل على توجيهات عملية كثيرة ٠ ولكن بيت القصيد فيها هو ما صدرت به من رسم للصــورة التى يرى الاخــوان الفكرة الاسلامية في اطارها ، وهاك هذه الصورة ـ يقول حسن البنا رحمه الله :

« أيها الاخ الصادق ٠٠٠ انما أريد بالفهم :

أن توقن بأن فكرتنا اسلامية صميمة » وان تفهم الاسلام كما نفهمــه في حدود هذه الاصول العشرين الموجزة كل الايجاز :

١ – الاسلام نظام شامل يتناول مظاهـر الحياة جميعها ، فهـو دولة ووطن أو حكومة وأمة ، وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة ، وهو ثقافه وقانون أو علم وقضاء ، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى ، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة ، كما هو عقيدة صادقة وعبادة .

٢ – والقرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم فى تعرف أحـكام الاسلام . ويفهم القرآن طبقا لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف . ويرجع فى فهم السنة المطهرة الى رجال الحديث الثقات .

٣ – وللايمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة يقذفها الله فى قلب كل من يشاء من عباده . ولكن الالهام والخواطر ، والكشف والرؤى ليست من أدلة الاحكام الشرعية ، ولا تعتبر الا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه .

٤ – والتمائم والرقى والودع والمعرفة والكهانة وادعاء معرفة الغيب وكل ما كان من هذا الباب منكر تجب محاربته « الا ما كان آية من قرآن أو رقيـة مأثورة » .

٥ – ورأى الامام ونائبه فيما لا نص فيه وفيما يحتمل وجوها عدة وفى المصالح المرسلة معمول به مالم يصطدم بقاعدة شرعيـة ، وقـد يتغير بحسب الظروف والعرف والعادات . والاصل فى العبادات التعبد دون الالتفات الى المعانى ، وفى العاديات الالتفات الى الاسرار والحكم والمقاصد .

٦ – وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك الا المعصوم صلى الله عليه وسلم . وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقا للكتاب والسنة قبلناه ، والا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع . ولكنا لا نعرض للاشخـاص – فيما اختلفوا فيه – بطعن أو تجريح ونكلهم الى نياتهم وقد أفضوا الى ما قدموا .

٧ – وعلى كل مسلم لم يبلغ درجة النظر فى أدلة الاحـكام الفرعيـة أن يتبع اماما من أئمة الدين ، ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع فى تعرف أدلة امامه ، وأن يتقبل كل ارشاد مصحوب بالدليل ، متى صـح عنده صدق من أرشده وكفايته . وأن يستكمل نقصه العلمى ان كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر .

٨ – والخلاف الفقهى فى الفروع لا يكون سببا للتفرق فى الدين ولا يؤدى الى خصومة ولا بغضاء ، ولكل مجتهد اجـره . ولا مانـع من التحقيق العلمى النزيه فى مسائل الخـلاف فى ظـل الحب فى الله والتعاون على الوصـول الى الحقيقة من غير أن يجر ذلك الى المراء المذموم والتعصب .

٩ ـ وكل مسألة لا ينبنى عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذى نهينا عنه شرعا ، ومن ذلك كثرة التفريعات للاحكام التى لم تقع ، والخوض فى معانى الآيات القرآنية الكريمة التى لم يصل اليها العلم بعد ، والكلام فى المفاضلة بين الاصحاب رضوان الله عليهم وما شجر بينهم من خلاف ، ولكل منهم فضل صحبته وجزاء نيته وفى التأول مندوحة ·

١٠ ـ معرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه هى أسمى عقائد الاسلام · وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يتعلق بذلك من المتشابه نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل ، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء ، ويسعنا ما وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه « والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » ·

١١ ـ وكل بدعة فى دين الله لا أصل لها استحسنها الناس بأهوائهم سواء بالزيادة فيه أو بالنقص منه ـ ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التى لا تؤدى الى ما هو شر منها ·

١٢ ـ والبدعة الاضافية والتركية والالتزام فى العبادات المطلقة خلاف فقهى لكل فيه رأيه ، ولا بأس بتحميص الحقيقة بالدليل والبرهان ·

١٣ ـ ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم قربة الى الله سبحانه وتعالى · والاولياء هم المذكورون فى قوله تعالى « الذين آمنوا وكانوا يتقون » والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية ، مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا فى حياتهم أو بعد مماتهم ، فضلا عن أن يهبوا شيئا من ذلك لغيرهم ·

١٤ ـ وزيارة القبور أيا كانت سنة مشروعة بالكيفية المأثورة · ولكن الاستعانة بالمقبورين أيا كانوا ، ونداءهم لذلك ، وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد ، والنذر لهم ، وتشييد القبور وسترها · واضاءتها والتمسح بها ، والحلف بغير الله ، وما يلحق بذلك من المبتدعات ، كبائر تجب محاربتها ولا نتأول لهذه الاعمال سدا للذريعة ·

١٥ ـ والدعاء اذا قرن بالتوسل الى الله بأحد من خلقه خلاف فرعى فى كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة ·

١٦ ـ والعرف الخاطىء لا يغير حقائق الالفاظ الشرعية ، بل يجب التأكد من حدود المعانى المقصود بها والوقوف عندها · كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظى فى كل نواحى الدنيا والدين ، فالعبرة بالمسميات لا بالاسماء ·

١٧ ــ والعقيدة أساس العمل ٠ وعمل القلب أهم من عمل الجارحة ٠ وتحصيل الكمال فى كليهما مطلوب شرعا وإن اختلفت مرتبتا الطلب ٠

١٨ ــ والاسلام يحرر العقل ويحث على النظر فى الكون ، ويرفع قدر العلم والعلماء ، ويرحب بالصالح النافع من كل شىء ، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها ٠

١٩ ــ وقد يتناول كل من النظر الشرعى والنظر العقلى ما يدخل فى دائرة الآخر ، ولكنهما لن يختلفا فى القطعى،فلن تصطدم حقيقة علمية صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة ، ويؤول الظنى منهما ليتفق مع القطعى ، فان كانا ظنيين فالنظر الشرعى أولى بالاتباع حتى يثبت العقلى أو ينهار ٠

٢٠ ــ لا نكفر مسلما أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض ــ برأى أو معصية ــ الا أن أقر بكلمة الكفر أو أنكر معلوما من الدين بالضرورة أو كذب بصريح القرآن ، أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال ، أو عمل عملا لا يحتمل تأويلا غير الكفر ٠

□ تعليق على بعض البنود :

يلاحظ القارىء أن السمة العامة لهذا الفهم ببنوده العشرين سمة الداعية الذى يريد أن يجمع ولا يفرق ، ويريد أن يغلب روح الاخوة على جموع التعصب ، ويريد أن يبرز سماحة الاسلام ورحابة افقه ومرونة أسلوبه وكفاءته العالية فى تكوين الشخصية المؤمنة القادرة على تعمير الحياة واصلاحها وجعلها الامة المثالية الجديرة بالقيادة والريادة ٠٠ واذا أردنا أن نتناول البنود العشرين بشىء من التوضيح طال بنا الحديث وتفرع ولذا نكتفى بتعليق مقتضب على البنود التى تتصل بما نحن بصدده فى هذا المقام فنقول :

أولا ــ قرر البند الثانى أن مرجع كل مسلم فى تعرف أحكام الاسلام ليس القرآن وحده بل السنة المطهرة معه ، وأن فهم السنة المطهرة يرجع فيه الى رجال الحديث الثقات ٠

ووراء هذا الحرص على الجمع فى النص بين القرآن الكريم والسنة قصة وموضوع خطير ، ذلك أن من الاساليب التى بيتها المتآمرون على الاسلام وأحكموا تدبيرها حتى وجدت طريقها الى أفئدة بعض المسلمين وعقولهم دون أن يقدروا خطورتهاو دون أن يعلموا أنها كافية أن تأتى على بنيان الاسلام من القواعد ، وتنسفه من أساسه ان نجحت ــ أن يلقوا فى روع المسلمين أن فى القرآن وحده الغناء فى معرفة أحكام الدين ، فالقرآن وحده هو

الكتاب الذى تكفل الله عز وجل بحفظه ، أما السنة فانها لم تحظ بمثل هذا التكفل فهى لذلك غير موثوق بها ٠

ولكى تتضح خطورة هذه المؤامرة يستعرض القارىء ما يعرفه من أحكام الاسلام الاساسية فى العبادات والمعاملات فيجد أن أكثرها مأخوذ من السنة ولم يتعرض له القرآن الا بالاشارة المجملة ٠ فالصلاة بعددها ومواقيتها وهيئاتها وأركانها وشروطها ومبطلاتها كلها جاء من السنة المطهرة ، والزكاة بمواعيدها ومقاديرها وأنواعها كذلك ، ورجم الزانى المحصن وغير ذلك من الاحكام الاساسية فى الاسلام كلها أخذت عن السنه النبوية ٠٠ والقرآن الكريم نفسه يقرر وجوب الاخذ بالسنة فى قوله « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » وقوله « وان تطيعوه تهتدوا » وقوله « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ٠

☐ أمنية لحسن البنا :

كان الكثيرون من أصدقاء حسن البنا من عارفى فضله من العلماء يحثونه على تأليف كتب فى التفسير وفى مختلف فنون الاسلام ، ويلحون عليه فى ذلك حرصا منهم على تزويد المكتبة الاسلامية بنظرات عميقة وأفكار غير مسبوقة مما يسمعونه منه فى بعض دروسه وفى مجالسه الخاصة معهم ٠٠ ولكنه كان يقول لهم :

« دعونى من تأليف الكتب ، فمهما حوى الكتاب من نظرات وأفكار فان هذه النظرات والافكار ستظل حبيسة دفتيه ، رهينة صفحاته حتى تصادف قارئا أهلا لفهمها قادرا على الانتفاع بها ٠٠ وقلما تصادف الكتب هذا اللون من القراء ٠٠ فأكثر المؤهلين لذلك لا تسعفهم ظروفهم باقتناء الكتب ولا بقراءتها ٠٠ أما أكثر الذين يقتنونها فانهم يقتنونها ليزينوا بها أثاث بيوتهم — والمكتبة الاسلامية متخمة بالمؤلفات فى جميع العلوم والفنون ، ومع هذا فانها لم تغن عن المسلمين شيئا حين قعدت هممهم وثبطت عزائمهم وركنوا الى الدعة والخمول ، واستكانوا للترف فركبهم الاعداء من كل جانب ٠٠٠

والوقت الذى أضيعه فى تأليف كتاب أستغله فى تأليف مائة شاب مسلم، يصير كل شاب منهم كتابا حيا ناطقا عاملا مؤثرا ، أرمى به بلدا من البلاد فيؤلفها كما ألف هو » ٠٠٠ وقد أثبت حسن البنا انه كان على صواب فى نظريته هذه ٠٠ وقد حققها تحقيقا لمسه العالم كله ، ولا زال العالم يعيش هذه الحقيقة ٠

أقول : انه — رحمه الله — مع عزوفه هذا عن تأليف الكتب ، فانه كانت

له امنية يسر بها الى بين الحين والحين فى مناسبات معينة ، أنه يتمنى أن تتيح له الظروف وضع كتاب واحد هو الوحيد الذى تفتقر اليه المكتبة الاسلامية وهو كتاب فى « اثبات حجية السنة النبوية »(١) ٠

وكان يقول لى : ان عدم سد هذه الثغرة فى المكتبة الاسلامية مدخل خطير للشيطان على الامة الاسلامية ، فعن طريق هذه الثغرة يستطيع الشيطان أن يفسد على المسلمين دينهم ٠

ويقول فى هذا الصدد : ان أوثق الاخبار التاريخية التى نتلقاها فى مدارسنا ومعاهدنا المتخصصة باعتبارها قضايا مسلمة وحقائق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ٠٠ لا تدانى فى موازين رواتها ولا فى مقاييس نصوصها درجة الحديث الضعيف عند علماء الحديث ، فلقد وضع هؤلاء العلماء من المقاييس والموازين لرواة الاحاديث ما جعل أدنى شبهة حول تصرف واحد لراو واحد من سلسلة رواة حديث كافيا لاسقاط هذا الحديث ورميه بالضعف واعتباره مما لا يعتد به ٠

اقول : ولما كان وضع كتاب فى مثل هذا الموضوع يقتضى تفرغه بضعة اشهر - ولم تكن مطالب الدعوة لتمهله يوما واحدا - فانه لجأ اخيرا الى اسلوب الصحافة العلمية لعله يتناول فيها الموضوع مجزءً ، كلما سنحت له فرصة كتب مقالا كل شهر أو كل شهرين ٠ وقد بدأ هذه المحاولة حين أسندت اليه رياسة تحرير مجلة المنار ، ولكن الاحداث لم تمهلها طويلا فاحتجبت بعد اشهر ، فأصدر بعدها مجلة « الشهاب » التى لم تكن أحسن حظا من أختها « المنار » اذ لحقت بها بعد بضعة أعداد ٠٠ ثم طغت الاحداث الداخلية والخارجية على النحو الذى وضحناه من قبل فلمْ تدع لتحقيق هذه الامنية سبيلا ٠

ثانيا - وضح مما قدمناه فى هذه العجالة مدى اهتمام حسن البنا بالسنة ، وتقديره لمكانتها فى الاسلام باعتبارها الركن الاساسى الذى لا يقوم الاسلام الا به ٠٠ لكنه أراد بعد ذلك أن يبين أن الانتفاع بالقرآن الكريم والسنة النبوية فى تكوين الشخصية المسلمة المتوخية الكمال لايكون الا بأخذ النفس بأساليب التربية الروحية المستمدة منهما ، فنص فى البند الثالث على أن للايمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة نورا وحلاوة يقذفها

---

(١) لعل مما يثلج الصدور فى هذا الصدد صدور كتاب « السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى » لفضيلة الدكتور مصطفى السباعى المراقب العام للاخوان المسلمين بسوريا الشقيقة ٠

فى قلب من يشاء من عباده ـ ثم الحق ذلك بتحذير من المبالغة التى قد تؤدى الى الانحراف ٠

وبذلك يكون حسن البنا قد جمع فى فهمه للاسلام بين التعاليم فى ذاتها وبين تطبيق هذه التعاليم فى نفس الفرد المسلم ٠ وهو المعنى العملى الشامل الذى قصد اليه القرآن وحثت عليه السـنة ٠ وبدون هـذا التطبيق لاتتكون الشخصية المسلمة التى هى نواة الامة المسلمة ٠ وقـد يعبر عن هـذا الفهم بالاصطلاح العصرى أنه جمع بين الالتزام بالسنة وبين التصوف٠٠ ويذكرنى هذا بما كان يحاوله ـ رحمـه الله ـ من تدريس كتاب « احياء عـلوم الدين » للامام أبى حامد الغزالى ووضع شرح له ٠ وقد بدأ فى ذلك كما اشرت من قبل ولكن الظروف حالت دون تحقيق هذه المحاولة أيضا ٠٠ ورحم الله الامام مالك ابن أنس اذ يقول : من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن تصوف وتفقه فقد تحقق ٠

ثالثا ـ الامام الذى يشير اليه البند الخامس هـو رئيس الدولة حـين يكون للمسلمين دولة ـ أما موضـوع أن الاصـل فى العبـادات التعبـد دون الالتفات الى المعانى ، وفى العاديات الالتفات الى الاسرار والحكم والمقاصد فقد جليناه فى المدخل الى الجزء الاول من هذا الكتاب ٠

رابعا ـ ويقول البند السابع « وعلى كل مسلم لم يبلغ درجة النظر فى أدلة الاحكام الفرعية أن يتبع اماما من أئمة الدين » ويجدر بنا فى هذا المقام ان ننبه الى أن الدعوة الى الرجوع الى الكتاب والسنة قد فهمها بعض الناس لا سيما الشباب الذى نال قسطا من العلم فهموها على غـير وجهها فراحـوا يهاجمون المذاهب والمتمذهبين ويرمونهم بتنكب طريق السنة ، واعتقدوا فى أنفسهم ـ وقد استطاعوا مجرد أن يقرأوا القرآن وأن يقرأوا فى كتب الاحاديث أنهم يستطيعون أن يستنبطوا الاحكام دون حاجة الى اتخاذ مذهب أو اتباع امام ٠٠ مع أن درايتهم باللغة العربية نحوها وصرفها وبلاغتهـا لا تعـدو دراية سطحية ، فهم لا يعرفون وجوه الاعراب ولا اشتقاق الالفاظ ولا الشواهد التى استند اليها علماء اللغة من كلام العرب ، كما أنهم لا يعرفـون الناسخ والمنسوخ ، ولا المام لهم بعلوم أصول الحديث وأصول الفقه ولا بعلوم التعديل والتجريح ولا بتاريخ الرجال وغيرها من العلوم التى لا يكفى مجرد الالمام بها بل لابد من التضلع فيها لمن يريد أن يستنبط من القرآن والسنة ٠

□ انموذج يوضح معنى المذاهب فى الاحكام الفقهية :

وتوضيحا لهذه النقطة من البحث ، وتقريبا للاذهان من فكرة المذاهب

فى الفقه الاسلامى ووجوب وجودها ، لانها هى الدليل على مرونة هذا الفقه ورحابة صدره وهى وليدة هذه المرونة والدليل عليها .. وسعيا وراء هذا التوضيح نتناول موضوعا قريبا من فهم أكثر الناس هو موضوع فرائض الوضوء شارحين الكيفية التى تم بها استنباط هذه الفرائض ، مستمدين ما نعرض فى هذا الموضوع من كتابى الدين الخالص وتفسير القرطبى .. ومنه يتبين كيف نشأت المذاهب والأسس التى قامت عليها هذه المذاهب .. فنقول :

إن النص الذي رجع إليه كل من ادلوا بدلائهم فى هذا الاستنباط هو قوله تعالى فى سورة المائدة « يأيها الذين امنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا بروسكم وارجلكم الى الكعبين » .

هذا النص هو المعين الذى استقى منه ائمة الفقه فخرج كل منهم للامة الاسلامية بشراب ، فكانت أشربة مختلفة طعومها ولكنها جميعا اشربة حلوة عذبة شهية سائغة لذيذة .

والقرآن الكريم – كما هو مقرر – حمال أوجه .. ولكنها أوجه لا تبين للسذج الجهلاء ولا للمثقفين السطحيين ، وانما تبين لاصحاب البصائر من أفذاذ العلماء المزودين بزاد لاينفد على طول البحث وتشعب سبل النظر ومهما ضوحت بهم أسباب الاستقصاء .

والمذاهب فى الفقه لاسلامى كثيرة متعددة بقدر ما انجبت هذه الأمة من علماء أفذاذ وأئمة فضلاء ، ولكننا فى هذه العجالة ، وفى معالجة هذا الموضوع نقتصر فى تجليته على المذاهب الاربعة التى انتشرت وتعلق بها أكثر المسلمين فنقول :

مع أن الآية الكريمة لم تشتمل من التكاليف الا على أربعة هى : غسل الوجه وغسل اليدين الى المرفقين والمسح بالرأس والارجل الى الكعبين .. مع هذا فقد كانت نظرات هؤلاء الائمة الى الآية أكثر عمقا وانفذ بصرا وأوسع احاطة .. وكان لهم أمامها ست وقفات :

الوقفة الاولى – النية :

فقد اضاف مالك والشافعى النية الى هذه الاربعة المفروضة فى الآية ، مستندين الى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « انما الاعمال بالنيات » وأحمد بن حنبل وان كان لم يقتنع بجعلها ركنا أو فرضا فى الوضوء فانه جعلها شرط صحة له .

ولكن أبا حنيفة اقتصر على الاربعة الواردة بالآية حيث لا ذكر للنية فيها ، وقال ان الحديث حديث آحاد يقبل التأويل .

الوقفة الثانية ـ المسح بالرأس :

ثم كانت لهم وقفة أمام قوله تعالى « وامسحوا برؤوسكم » واختلفت نظراتهم الى هذا التركيب القرآني العربي المعجز ... ورجعوا منهم الى رصيد لهم بالغ الثراء في علوم اللغة وآدابها وشواهدها رأى مالك ان الباء هنا مؤكدة زائدة ، وأن الرأس هي الجملة التي يعلمها الناس ضرورة ومنها الوجه . فلما ذكره الله تعالى في الوضوء وعين الوجه للغسل ، بقي باقية للمسح ، ولو لم يذكر الغسل للزم مسح جميعه ما عليه شعر من الرأس وما فيه العينان والانف والفم .

وبناء على ذلك قرر مالك ان الغرض هو مسح الرأس كله . وقد سئل عن الذي يترك بعض رأسه في الوضوء فقال : أرأيت ان ترك غسل بعض وجهه أكان يجزئه ؟ .. وكان من دليل مالك على أن الرأس هي محوى كل ما ذكر قول الشاعر القديم :

اذا احتملوا رأسي وفي الرأس اكثري وغودر عند الملتقى ثم سائري

واتفق رأى احمد بن حنبل في هذه النقطة مع رأى مالك .. ولكن الشافعي رأى أن الباء هنا للتبعيض فيجزىء ولو مسح شعرة بحد الرأس . لان الباء الداخلة على متعدد كما في قوله تعالى « وامسحوا برؤوسكم » تكون للتبعيض .

وقال مالك : لو كان معنى الباء للتبعيض لافادته في التيمم في قوله تعالى « فامسحوا بوجوهكم » ورد الشافعي على ذلك قائلا : ان مسح الوجه في التيمم بدل من غسله فلابد ان يأتى بالمسح على جميع موضع الغسل منه ، ومسح الرأس أصل ، فهذا ما بينهما .. وورد في السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم توضأ فمسح بناصيته ، فرد مالك قائلا : لعل النبي صلى الله عليه وسلم فعل ذلك لعذر ، فقد فعل ذلك في السفر وهو مظنة الاعذار وموضع الاستعجال والاختصار .

أما أبو حنيفة فقال ان المفروض قدر الربع ، لان الباء باء الالصاق ، اذا دخلت على المحل تعدى الفعل الى الآلة ـ والآلة هنا هي اليد ـ فيكون التقدير « وامسحوا أيديكم برؤوسكم » وهذا يقتضي استيعاب اليد دون الرأس . واستيعابها ملصقة بالرأس لايستغرق غالبا غير الربع ـ ويستند ابو حنيفة ايضا في ذلك الى حديث انس بن مالك قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه

وسلم يتوضأ وعليه عمامة قطرية فأدخل يده من تحت العمامة ومسح مقدم رأسه .

الوقفة الثالثة — ما يخص الرجلين:

ثم وقف الائمة مرة أخرى فى الآية الكريمة أمام قوله تعالى « وأرجلكم الى الكعبين » حيث ورد فيها ثلاث قراءات : الاولى — وهى التى نقرأها فى مصر — بنصب اللام والثانية برفعها والثالثة بخفضها — وقد أجمع العلماء على الاخذ بالقراءة الاولى حيث تكون « أرجلكم » معطوفة على « أيديكم » والعامل فى هذه الحالة هو « اغسلوا » ويكون التقدير هو « فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وأرجلكم الى الكعبين وامسحوا برءوسكم » ويعضد هذه القراءة فعل النبى صلى الله عليه وسلم .

أما قراءة الخفض فالعامل فيها الباء ، ويكون المعنى فى هذه الحالة هو مسح الرجلين لا غسلهما ، وروى عن أنس بن مالك أنه قال : نزل القرآن بالمسح والسنة بالغسل ، وكان اذا مسح رجليه بلهما — وقال عامر الشعبى : نزل جبريل بالمسح ، ألا ترى أن التيمم يمسح فيه ما كان غسلا ويلغى ما كان مسحا — وذهب ابن جرير الطبرى الى أن فرضهما التخيير بين المسح والغسل وجعل القراءتين كالروايتين أى يعمل بهما اذا لم يتناقضا .

الوقفة الرابعة — الدلك :

ورأى مالك أن الدلك أحد فرائض الوضوء لقول النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة فى الغسل : « ادلكى جسدك بيدك » والاصل فى الامر الوجوب ، ولا فرق بين الوضوء والغسل ، وأيضا فان الدلك من مسمى الغسل أو شرط فيه — ولحديث حبيب بن زيد أنه سمع عباد بن تميم عن عمه عبد الله ابن زيد أن النبى صلى الله عليه وسلم توضأ فجعل يقول هكذا يدلك .

ولكن الائمة الثلاثة الآخرين قالوا : ان الدلك سنة لا فرض لعدم التصريح به فى الاحاديث الكثيرة الواردة فى صفة الوضوء والغسل، وهو قرينة على صرف الامر بالدلك للندب . ودعوى أن الدلك من مسمى الغسل أو شرط فيه ، محل نظر . والمقرر أن فعل النبى صلى الله عليه وسلم لا يفيد الفرضية .

□ الوقفة الخامسة — الموالاة : :

وفى هذه المرة وان اتخذوا الآية قاعدة لهم الا انهم لجأوا الى السنة لتوضيح حجتهم . والموالاة أو الفور هى التتابع بان يطهر العضو اللاحق قبل جفاف السابق — وقد استنبط مالك واحمد أن الموالاة فرض من فرائض الوضوء لحديث عن بعض ازواج النبى صلى الله عليه وسلم انه رأى رجلا

يصلى وفى ظهر قدمه لمعة قدر الدرهم لم يصبها الماء ، فأمره أن يعيد الوضوء والصلاة ٠

أما أبو حنيفة والشافعى فقد رأيا فى سند هذا الحديث بقية بن الوليد وقد ضعفه غير واحد ، فقررا أن الموالاة ليست فرضا مستندين الى حديث عمر بن الخطاب أن رجلا توضأ فترك موضع ظفر على قدمه ، فأبصره النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ارجع فأحسن وضوءك ٠ فرجع ثم صلى ٠ رواه مسلم ٠ قالا . فلو كانت الموالاة فرضا لقال صلى الله عليه وسلم « ارجع فاعد وضوءك » وانما قال « أحسن وضوءك » واحسان الوضوء اكماله ٠

الوقفة السادسة ـ الترتيب :

واستنبط الشافعى ووافقه احمد أن النص القرانى بتركيبه يوحى بان الترتيب فرض من فرائض الوضوء ، بحيث لا يجوز تقديم عضو من اعضاء الوضوء على آخر بل لابد من الالتزام بالترتيب الذى جاء فى الآية الكريمة ـ وكان حجتهما فى ذلك أن الله تعالى ادخل ممسوحا بين مغسولين ، والعرب لا تقطع النظير عن نظيره الا لفائدة ، وهى هنا الترتيب ٠ والآية ما سيقت إلا لبيان الواجب ٠ ولان من حكى وضوء النبى صلى الله عليه وسلم كان مرتبا ٠

ولكن مالكا وأبا حنيفة رأيا أن الترتيب فى الوضوء ليس بواجب لان الله تعالى أمر بغسل الاعضاء الثلاثة ومسح الراس ، وعطف بعضها على بعض بالواو ، وهى لا تقتضى الترتيب فكيفما غسل كان ممتثلا ٠ ووضع الممسوح بين مغسولين لايدل على أن الترتيب فرض بل فائدته الدلالة على استحباب الترتيب ٠

وعلى ذلك كانت أركان الوضوء أو فرائضه عند هؤلاء الائمة كالاتى :

عند ابى حنيفة : أربعة : غسل الاعضاء الثلاثة ومسح ربع الراس ٠

وعند الشافعى : ستة : النية وغسل الاعضاء الثلاثة ومسح بعض الراس ولو شعرة والترتيب ٠

وعند مالك : سبعة : النية وغسل الاعضاء الثلاثة ومسح الراس كلها والدلك والموالاة ٠

وعند أحمد : ثمانية : غسل الاعضاء الثلاثة والمضمضة والاستنشاق باعتبار الفم والانف من الوجه ومسح الراس والترتيب والموالاة ـ اما النية فجعلها شرط صحة ٠

هذا .. وقد أوردت هذا القدر المقتضب غاية الاقتضاب لاعرض على شبابنا الناشيء صورة مصغرة لكينية استنباط الاحكام من الكتاب والسنة، والآلات اللازمة لها ، والمؤهلات الضرورية لمن يرشح نفسه لها ، من حفظ مستوعب للقرآن الكريم والسنه النبوية واحاطة كاملة بفنون اللغة العربية وآدابها وشواهدها وأوجه الاعراب فيها واقوال العرب ولهجاتهم ، والمام تام بالسيرة النبوية فى أدق تفاصيلها ، وبعلوم السند والرواية وتاريخ الرجال والتعديل والتجريح ، وعلم القراءات وعلم الناسخ والمنسوخ وغيرها من العلوم التى تقصر دون الاحاطة بكل علم واحد منها الاعمار فما بالك بالاحاطة بها جمعيا ؟ ثم المقدرة على استعمال كل معروفة من معارفها فى الموضع الذى يحتاج اليها وتؤتى ثمرتها فيه من أساليب الاستقصاء والاستنباط .

على ان تكون كل هذه المواهب مرتكزة على فكر ثاقب ، وعقل ناضج ، وقريحة وقادة ، وبديهة حاضرة وأفق فسيح ، وقدرة على الابتكار ، وبصيرة مستنيرة واعية — ومع كل هذه المؤهلات فلا اعتبار لها مالم يكن صاحبها ذا قلب عامر بالايمان ، مترع باليقين ، مفعم بالخوف من الله ، فهو يصدع بالحق ولا يخشى فى الحق لومة لائم .

وهؤلاء الائمة الذين نروى عنهم هم وأضرابهم .. هم من هذا الطراز الذى جمع الى المواهب الفائقة النادرة القلب الخاشع والنفس الزاهدة المتبتلة العازفة عن متاع الدنيا ، فمن هؤلاء من حفظ القران لسبع ، ومنهم من كان يصلى الصبح بوضوء العشاء ، وكلهم أوذى فى الله وجلد وسجن ومثل به جهرا بكلمة الحق عند سلطان جائر .. فهل فى اتباع هؤلاء الا اتباع للكتاب والسنة ؟ وهل عاش هؤلاء وماتوا الا حفاظا على الكتاب والسنة ؟ وهل تراثهم الذى خلفوه لنا الا الكتاب والسنة ؟ وهل كانوا بالنسبة للامة الاسلامية الا من أولى الامر الذين قال الله تعالى فيهم « ولو ردوه الى الرسول والى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا » .

وعلى اخواننا الذين يرغبون فى الاستنباط من الكتاب والسنة مباشرة ان كانوا من أهل العلم حقا أن يتوفروا على دراسة هذه العلوم التى أشرنا اليها حتى يستوعبوها جميعا فيكونوا بذلك أهلا للاستنباط . وان كان دون الوصول الى هذه الغاية خرط القتاد — وأما من كان هذا الشوط عليهم بعيدا — وهو بعيد فعلا — فحسبهم أن يتبعوا اماما ، وأن يحاولوا فهم أدلته ، لعل ذلك ينمى موهبة البحث فيهم .ويكونون بذلك قد ساروا فى اتباعهم على بصيرة، وهو ما يجدر بكل مسلم .. والا فانهم يكونون كالذين يقحمون أنفسهم فى الحرب بلا سلاح .

خامسا – أشار البند الثامن الى الخلاف الفقهى فى الفروع وما يؤدى اليه عادة من خصومة وتفرق نتيجة المراء وهو الجدال بدافع الانتصار للرأى. وكان حسن البنا رحمه الله كثير التحذير من المراء .. ولا زلت أذكر الحديث الذى كان كثيرا ما يردده والذى ينهى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم عن المراء ويغلظ فى النهى حتى انه ليقول فى نهايته « أنا كفيل ببيت فى وسط الجنة لمن ترك المراء وهو محق ، وببيت فى ربضها لمن تركه وهو مبطل » .

سادسا – وفى البند التاسع ينهى عن الخوض فى الامور التى لا ينبنى عليها عمل ، وعن الخوض فى معانى الآيات القرآنية الكريمة التى لم يصل اليها العلم بعد – وكان حسن البنا – رحمه الله – يستشهد على ذلك بقول الله تعالى فى سورة الكهف « سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم ، رجما بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل.فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم احدا » .

ففى هذه الآيات نهى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن المماراة مع سائليه عن عدد أهل الكهف كما نهاه حتى عن الاستفسار من هؤلاء السائلين وهم أهل الكتاب عن هذا العدد – ذلك أن معرفة عددهم لا جدوى من ورائها ، ولا ينبنى عليها عمل أو تجنى فائدة ، وحسب المرء أن يزداد من سياق القصة ايمانا بقدرة الله على الاماتة والاحياء وعلى البعث ... أما مدة لبثهم فى الكهف – لانها موضع العبرة – فقد حددها القرآن تحديدا واضحا بالسنين الشمسية والسنين القمرية فقال « ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا » .

وزيادة فى ايضاح هذين البندين نورد خلاصة تجربة عملية عاناها حسن البنا بنفسه فى ابان قيامه بالدعوة فى مدينة الاسماعيلية ننقلها من « مذكرات الدعوة والداعية » تحت عنوان : « فى زاوية الحاج مصطفى بالعراقية » يقول رحمه الله :

« كانت هذه الزاوية الثانية هى الزاوية التى بناها الحاج مصطفى تقربا الى الله تبارك وتعالى ، وفيها اجتمع هذا النفر من طلاب العلم يتدارسون آيات الله والحكمة فى أخوة وصفاء تام .

ولم يمض وقت طويل حتى ذاع نبأ هذا الدرس – الذى كان يستغرق ما بين المغرب والعشاء ، وبعده يخرج الى درس القهاوى – حتى قصد اليه كثير من الناس ومنهم هواة الخلاف وأحلاس الجدل وبقايا الفتنة الاولى .

وفى احدى الليالى شعرت بروح غريبة ، روح تحفز وفرقة ، ورايت المستمعين قد تميز بعضهم من بعض ، حتى فى الاماكن ، ولم أكد أبدأ حتى فوجئت بسؤال : ما رأى الاستاذ فى مسألة التوسل ؟

فقلت له : يا أخى أظنك لاتريد أن تسألنى عن هذه المسألة وحدها . ولكنك تريد أن تسألنى كذلك « فى الصلاة والسلام بعد الاذان ، وفى قراءة سورة الكهف يوم الجمعة ، وفى لفظ السيادة للرسول صلى الله عليه وسلم فى التشهد ، وفى أبوى النبى صلى الله عليه وسلم وأين مقرهما ، وفى قراءة القرآن وهل يصل ثوابها الى الميت أو لا يصل ، وفى هذه الحلقات التى يقيمها أهل الطرق وهل هى معصية أو قربة الى الله » · وأخذت أسرد له مسائل الخلاف جميعا التى كانت مثار فتنة سابقة وخلاف شديد فيما بينهم — فاستغرب الرجل وقال : نعم أريد الجواب عن هذا كله ·

فقلت له : يا أخى انى لست بعالم ، ولكنى رجل مدرس مدنى أحفظ بعض الآيات وبعض الاحاديث النبوية الشريفة وبعض الاحكام الدينية من المطالعة فى الكتب ، وأتطوع بتدريسها للناس · فاذا خرجت بى عن هذا النطاق فقد أحرجتنى ، ومن قال لا أدرى فقد افتى · فاذا أعجبك ما أقول ، ورأيت فيه خيراً فاسمع مشكورا · واذا أردت التوسع فى المعرفة فسل غيرى من العلماء والفضلاء المختصين ، فهم يستطيعون افتاءك فيما تريد ، وأما أنا فهذا مبلغ علمى ولا يكلف الله نفسا الا وسعها — فاخذ الرجل بهذا القول ولم يجد جوابا ، وأخذت عليه بهذا الاسلوب سبيل الاسترسال ، وارتاح الحاضرون أو معظمهم الى هذا التخلص ·

ولكنى لم أرد أن تضيع الفرصة فالتفت اليهم وقلت لهم : يا اخوانى ·· أنا أعلم تماما أن هذا الاخ السائل ، وأن الكثير من حضراتكم ، ما كان يريد من وراء هذا السؤال الا أن يعرف هذا المدرس الجديد من أى حزب هو ؟ أمن حزب الشيخ موسى أو من حزب الشيخ عبد السميع ؟ ·· وهذه المعرفة لا تفيدكم شيئا · وقد قضيتم فى جو الفتنة ثمانى سنوات وفيها الكفاية · وهذه المسائل اختلف فيها المسلمون مئات السنين ولا زالوا مختلفين · والله تبارك وتعالى يرضى منا بالحب والوحدة ويكره منا الخلاف والفرقة · فأرجو أن تعاهدوا الله أن تدعوا هذه الامور الآن وتجتهدوا فى أن نتعلم أصول الدين وقواعده ، ونعمل بأخلاقه وفضائله العامة وارشاداته المجمع عليها ، ونؤدى الفرائض والسنن ، وندع التكلف والتعمق حتى تصفو النفوس ، ويكون غرضنا جميعا معرفة الحق لا مجرد الانتصار للرأى · وحينئذ نتدارس هذه الشئون كلها معا فى ظل الحب والثقة والوحدة والاخلاص ، وأرجو ان تتقبلوا منى هذا الرأى ويكون عهدا فيما بيننا على ذلك ·

وقد كان • ولم نخرج من الدرس الا ونحن متعاهدون على ان تكون وجهتنا التعاون وخدمة الاسلام الحنيف ، والعمل له يدا واحدة ، وطرح معانى الخلاف ، واحتفاظ كل برايه فيها حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا •

واستمر درس الزاوية بعد ذلك بعيدا عن الجو الخلافى فعلا بتوفيق الله• وتخيرت بعد ذلك فى كل موضوع معنى من معانى الاخوة بين المؤمنين أجعله موضوع الحديث اولا تثبيتا لحق الاخاء فى النفوس ، كما اختار معنى من معانى الخلافيات التى لم تكن محل جدل بينهم والتى هى موضع احترام الجميع وتقدير الجميع ، أطرقه وأتخذ منه مثلا لتسامح السلف الصالح رضوان الله عليه ، ولوجوب التسامح واحترام الاراء الخلافية فيما بيننا •

مثل : وأذكر اننى ضربت لهم مثلا عمليا فقلت لهم : ايكم حنفى المذهب؟ فجاءنى أحدهم فقلت : وايكم شافعى المذهب ؟ فتقدم آخر • فقلت لهم : ساصلى اماما بهذين الاخوين فكيف تصنع فى قراءة الفاتحة أيها الحنفى ؟ فقال : أسكت ولا أقرأ • فقلت : وأنت أيها الشافعى ما تصنع ؟ فقال : أقرأ ولابد ــ فقلت : واذا انتهينا من الصلاة فما رايك أيها الشافعى فى صلاة أخيك الحنفى ؟ فقال : باطلة لانه لم يقرأ الفاتحة وهى من اركان الصلاة • فقلت : وما رأيك انت أيها الحنفى فى عمل أخيك الشافعى ؟ فقال : لقد أتى بمكروه تحريما فان قراءة الفاتحة للمأموم مكروهة تحريما ــ فقلت : هل ينكر احدكما على الآخر ؟ فقالا : لا • • • فقلت للمجتمعين : هل تنكرون على أحدهما ؟ فقالوا : لا • فقلت :

« يا سبحان الله !! يسعكم السكوت فى مثل هذا وهو أمر بطلان الصلاة او صحتها ولا يسعكم أن تتسامحوا مع المصلى اذا قال فى التشهد اللهم صل على محمد أو اللهم صل على سيدنا محمد • وتجعلون من ذلك خلافا تقوم له الدنيا وتقعد » •

وكان لهذا الاسلوب اثره فأخذوا يعيدون النظر فى موقف بعضهم من بعض • وعلموا ان دين الله أوسع وايسر من أن يتحكم فيه عقل فرد أو جماعة وانما مرد كل شىء الى الله ورسوله وجماعة المسلمين وامامهم ان كان لهم جماعة وامام » أ هـ •

سابعا ــ البندان الثالث عشر والرابع عشر يتناولان الاولياء فى حالتى الحياة والموت • وهذا التناول وان كان يغضب بعض المتغالين من المتصوفة فانه يقرر حقائق قررها القرآن الكريم بصريح آياته « قل لا املك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » ــ ولكن المعتدلين المتفقهين من الصوفية لا يجدون غضاضة فى عموم هذا الفهم •

ثامنا — والبند السادس عشر يحذر من التلاعب بالالفاظ وخداع الجماهير بالالفاظ الجوفاء والخداع الفقهى والدجل السياسى معا الذى يحرف الكلم عن مواضعه ، ولا يكون نصيب الشعوب منه الا الضلال والا العبارات المغرية الجوفاء كالحرية وحقوق الانسان ، دون أن تستمع هذه الشعوب فعلا بشىء من هذه الحقوق « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو الد الخصام » « يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون • كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » •

تاسعا — مع اقرار البند الحادى عشر أن البدعة التى لا أصل لها فى الدين تجب محاربتها والقضاء عليها ، فانه قيد هذه المحاربة بسلوك أفضل الوسائل التى لا تؤدى الى ما هو شر منها — والذى هو شر من البدعة هو أن تؤدى وسيلة محاربتها الى الخصومة والعداء والقطيعة بين المسلمين •• وهذا هو ما كان الاخوان حريصين على تفاديه ولو أدى الامر الى التغاضى بعض الوقت عن البدعة والدوران حولها من بعيد ، بدعوة صاحبها الى الالتحاق بالركب الاخوانى ، فاذا التحق لم يلبث الا قليلا حتى يرى نفسه قد أقلع — مقتنعا — من تلقاء نفسه عن بدعته •

كما أن البند الثامن كما أشرنا قد قرر مبدأ متفقا عليه هو أن الخلاف الفقهى فى الفروع لا يكون سببا للتفرق فى الدين ولا يؤدى الى خصومة ولا بغضاء — وجاء البندان الثانى عشر والخامس عشر فقررا أن البدعة الاضافية — وهى التى تضيف شيئا لم يكن موجودا كالاحتفال بالهجرة النبوية والمولد النبوى — والبدعة التركية وتكون بترك سنة كان معمولا بها ، والالتزام فى العبادات المطلقة ، كالتزام نافلة فى وقت معين وان كان مسموحا بالتنفل فيه الا أن السنة لم تنص على التزام نافلة معينة فيه ، والدعاء اذا قرن بالتوسل الى الله بأحد من خلقه ••• كل هذه يعتبر الخلاف بشأنها خلافا فقهيا فى الفروع لا يكون سببا للتفرق فى الدين ولا يؤدى الى خصومة ولا بغضاء •

وهنا أقول : ان نقل البدع التى أشير اليها من اضافية وتركية والتزام وتوسل من جانب الامور الاساسية الخطيرة المتعلقة بالعقيدة والتى تمس كيان الدين الى جانب الخلاف الفقهى فى الفروع ، والاقتصار فى محاربة البدعة على الوسائل التى لا تؤدى الى ما هو شر منها •• هذا النقل — وان كان قد أغضب طائفة من الداعين الى السنة ومحاربة البدع — فانه فتح الباب على مصراعيه أمام أفواج ضخمة من ذوى المشارب المختلفة من المسلمين للحاق بالركب الاخوانى الذى تولاهم باسلوبه الخاص •

وهكذا استطاع حسن البنا بهذا « الفهم » وبانتهاج هذا الاسلوب أن ينقل فى صمت وهدوء — الى صفوف العباد قوام الليل صوام النهار المجاهدين

فى سبيل الاسلام بالنفس والمال – مئات الالوف من الشباب والشيب الذين كانوا يعيشون عيشة الضياع على هامش الحياة فى اللهو واللعب – بل ان مجموعات كبيرة من صفوف شباب هذه الطوائف التى كانت تعترض عليه فى فهمه وأسلوبه قد استجابت أخيرا لدعوته ، بعد أن اقتنعوا بأن فهمه هو الفهم الامثل ، وأن اسلوبه هو الاسلوب الاقوم ، لجمع شمل الامة الاسلامية وسط الظروف القاسية التى تحيط بالمسلمين فى هذا العصر ٠

□ توسيع الدائرة :

اذا كنا قد اعتبرنا المنتسبين للتصوف والداعين الى الرجوع الى السنه ومحاربة البدعة طائفتين دب بينهما خلاف ، فانهما فى الحقيقة بالنسبة للطوائف على مستوى العالم الاسلامى ينتميان الى طائفة واحدة هى طائفة أهل السنة حيث الطائفة الاخرى على هذا المستوى العام هى طائفة الشيعة ٠

ولما كان المجال العملى لحسن البنا حين قام بدعوته هو مصر ، فلما عالجه أخذ فى توسيع دائرة عمله فاتجه الى معالجة الطوائف على مستوى العالم الاسلامى ، حيث تنتشر طائفة الشيعة فى الشام والعراق وايران وتركيا وغيرها ٠

وكانت هذه الطائفة – على كثرتها – تعيش فى عزلة تامة عن طائفة أهل السنة كأنهما من دينين مختلفين ، مع أن هذه الطائفة تضم أقواما من اكرم العناصر المسلمة ذات التاريخ المجيد والغيرة على الاسلام والذود عن حياضه ٠٠ ووجه الخلاف بينهم وبين أهل السنة ينحصر فى انهم يتغالون فى حب اهل البيت رضوان الله عليهم ٠٠ واذا كان فيهم من تطرف فان فى المنتسبين الى أهل السنة من تطرفه ٠٠٠ ولكن هل تظل هذه القطيعة قائمة بين طائفتى المسلمين والاسلام فى أمس الحاجة الى جهد كل فرد منسب اليه للوقوف فى وجه الغارة المطبقة عليه ؟

رأى حسن البنا أن الوقت قد حان لتوجيه الدعوة الى طائفة الشيعة ، فمد يده اليهم أن هلموا الينا فانتم اخواننا فى الاسلام ٠ وهيا نتعاون معا على اقامة صرحه واستعادة مجده ٠٠٠ وقد وجدت دعوته هذه من الشيعة أذنا صاغية ، اذ اسعدهم أن يسمعوا لاول مرة منذ مئات السنين صوتا ينضح بالحب ويدعو الى الاخوة الاسلامية ٠٠ فقدم الى مصر شيخ من كبار مشايخهم فى ايران هو « الشيخ محمد تقى قمى » والتقى بحسن البنا وحسن التفاهم بينهما ٠٠ وثمرة لهذا التفاهم أنشئت فى القاهرة دار ترمز الى هذه المعانى السامية اسمها « دار التقريب بين المذاهب الاسلامية » وقامت هذه الدار بجهد مشكور فى سبيل هذا الهدف ٠

ولو كانت الظروف قد امهلت حسن البنا لتم مزج هذه الطائفة بالطوائف السنية مزجا عاد على البلاد الاسلامية باعظم الخيرات – ومع ذلك

فقد وضع أساس التقارب وأنجز شيء منه ، اذ زالت القطيعة الى حد ما ، وتوحد الصوت فى المطالبة فى مختلف البلاد الاسلامية بالرجوع الى الحكم الاسلامى ٠

والذى أعلمه أن هذه الدار « دار التقريب » لا نزال موجودة بالقاهرة لكنها فقدت العنصر الفعال والرجل الذى كان قادرا على حسن توجيهها والافادة منها لخير العالم الاسلامى أعظم افادة ٠٠ ولكن حسب حسن البنا أنه اقتحم الباب المغلق ، وأرسى أساس التقارب والاتصال ٠

حسن البنا :

بين القومية والاسلامية :

كان لابد لنا من عرض موقف حسن البنا من هذا الموضوع ، لان كل الزعامات التى قامت فى هذه البلاد اتخذت لها مواقف محددة منه ٠ وقد أبانوا عن هذه المواقف ، فبعضهم أبان عنها فى خطب ومقالات ، وبعضهم أبان عنها فى رسائل وكتيبات وكتب وفلسفات ٠٠ وما كان لزعيم من هؤلاء أن يغفل الابانة عن موقفه من هذا الموضوع لان حكم الموقع والروابط الطبيعية والانسانية توجب هذه الابانة ٠

وقبل أن نعرض لموقف حسن البنا من هذا الموضوع ، نشير الى أن مواقف الزعماء الذين سبقوه والذين جاءوا من بعده لم تكن الا وليدة مصالح مادية ومنافع مأمولة ، ثم انها على كل حال لم تكن مبنية الا على آراء شخصية ونظر شخصى وتقدير شخصى ، مما يجعلها مواقف محتملة للصواب والخطأ — أما حسن البنا فبالرغم من تفوقه على سابقيه ولاحقيه من الزعماء فى المقدرة على اصدار الرأى ، وفى سعة الافق ، وبعد النظر ، ورجاحة العقل ، وحسن التقدير ٠٠ فانه لم يعتمد فى تحديد موقفه على ما هو مستمتع به من هذه الميزات ، بل اعتمد مع كل هذا على أصل ثابت وركن ركين لا يحتمل الخطأ ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ٠

فبعد أن عرضنا لفهم حسن البنا للفكرة الاسلامية وأوضحنا تصوره لابعادها ، نعرض لتصوره للوحدة القومية والوحدة العربية والوحدة الاسلامية ٠٠ وقد تولى هو بنفسه توضيح ذلك بأجلى عبارة — لما كان يعلم من أهمية هذا التوضيح — فى بيانه الذى ألقاه فى المؤتمر الخامس فقال :

« كثيرا ما تتوزع أفكار الناس فى هذه النواحى الثلاث : الوحدة القومية ، والوحدة العربية ، والوحدة الاسلامية . وقد يضيفون الى ذلك الوحدة الشرقية ٠ ثم تنطلق الالسنة والافكار بالموازنة بينها وامكان تحققها او صعوبة ذلك الامكان ، ومبلغ الفائدة أو الضرر منها ، والتشيع لبعضها

دون البعض الآخر .... فما موقف الاخوان المسلمين من هذا الخليط من الافكار والمناحى ؟ ولا سيما وكثير من الناس يغمزون الاخوان المسلمين فى وطنيتهم ، ويعتبرون تمسكهم بالفكرة الاسلامية مانعا اياهم من الاخلاص للناحية الوطنية . والجواب على هذا أننا لن نحيد عن القاعدة التى وضعناها أساسا لفكرتنا ، وهى السير على هدى الاسلام وضوء تعاليمه السامية — فما موقف الاسلام نفسه من هذه النواحى ؟

□ الوطنية أو القومية الخاصة :

ان الاسلام قد فرضها فريضة لازمة لا مناص منها ، أن يعمل كل انسان لخير بلده ، وأن يتفانى فى خدمته ، وأن يقدم فى ذلك اكبر ما يستطيع من الخير للامة التى يعيش فيها ، وأن يقدم الاقرب فالاقرب رحما وجوارا ، حتى انه لم يجز أن تنقل الزكوات أبعد من مسافة القصر الا لضرورة ، ايثارا للاقربين بالمعروف .

فكل مسلم مفروض عليه أن يسد الثغرة التى هو عليها ، وأن يخدم الوطن الذى نشأ فيه . ومن هنا كان المسلم أعمق الناس وطنيه وأعظمهم نفعا لمواطنيه — لأن ذلك مفروض عليه من رب العالمين — وكان الاخوان المسلمون أشد الناس حرصا على خير وطنهم ، وتفانيا فى خدمة قومهم . وهم يتمنون لهذه البلاد العزيزة المجيدة كل عزة ومجد ، وكل تقدم ورقى ، وكل فلاح ونجاح ، وبخاصة وقد انتهت اليها رياسة الامم الاسلامية بحكم ظروف تضافرت على هذا الوضع الكريم . وان حب المدينة لم يمنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحن الى مكة ، وان يقول لاصيل وقد اخذ يصفها : « يا أصيل دع القلوب تقر » ، وان يجعل بلالا يهتف من قرارة نفسه :

الا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بواد وحولى اذخر وجليل

وهل أردن يوما مياه مجنه وهل يبدون لى شامة وطفيل ؟

فالاخوان المسلمون يحبون وطنهم ، ويحرصون على وحدته القومية بهذا الاعتبار ، ولا يجدون غضاضة على أى انسان ان يخلص لبلده ، وأن يفنى فى سبيل قومه ، وأن يتمنى لوطنه كل مجد وفخار . هذا من وجهة القومية الخاصة » أ. هـ

وتعليقا على حديث حسن البنا رحمه الله عن الوطنية أو القومية الخاصة أحب ان أذكر انه لولا أن طبيعة دعوة الاخوان المسلمين تقوم على أساس من التربية الروحية الاسلامية ، حيث يطالب العضو فيها بدراسة عقيدة معينة واداء عبادات محددة — مما لا يجوز ان يطالب به غير المسلم — لولا هذا لفتح حسن البنا باب العضوية فى جماعته لغير المسلمين من المصريين .

ولذا فقد كان له ــ رحمه الله ــ أصدقاء من مفكرى الاقباط وذوى الثقافات الواسعة منهم ، حتى انه لما كون فى عام ١٩٤٦ لجنة استشارية للشئون السياسية للاخوان المسلمين ضم الى أعضائها بعض كبار الساسة من الاقباط وكان منهم الاستاذ وهيب دوس عضو مجلس الشيوخ آنذاك .

□ **القومية العربية :**

واستأنف حسن البنا حديثه فقال :

« ثم ان هذا الاسلام الحنيف نشأ عربيا ، ووصل الى الامم عن طريق العرب ، وجاء كتابه الكريم بلسان عربى مبين ، وتوحدت الامم باسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين ، وقد جاء فى الاثر : « اذا ذل العرب ذل الاسلام » وقد تحقق هذا المعنى حين دال سلطان العرب السياسى ، وانتقل الامر من أيديهم الى غيرهم من الاعاجم والديلم ومن اليهم . فالعرب هم عصبة الاسلام وحراسه .

واحب هنا أن أنبه الى أن الاخوان المسلمين يعتبرون العروبة كما عرفها النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه ابن كثير عن معاذ بن جبل رضى الله عنه « ألا ان العربية اللسان . ألا ان العربية اللسان » ومن هنا كانت وحدة العرب أمرا لابد منه لاعادة مجد الاسلام ، واقامة دولته . وأعزاز سلطانه ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لاحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها . وهذا هو موقف الاخوان المسلمين من الوحدة العربية » .

□ **الوحدة الاسلامية تمهيدا للوحدة العالمية :**

ثم انتقل الى الوحدة الاسلامية فقال :

« بقى علينا أن نحدد موقفنا من الوحدة الاسلامية ــ والحق ان الاسلام كما هو عقيدة وعبادة هو وطن وجنسية . وانه قد قضى على الفوارق النسبية بين الناس فالله تبارك وتعالى يقول « انما المؤمنون اخوة » والنبى صلى الله عليه وسلم يقول « المسلم أخو المسلم » و « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم »

فالاسلام والحالة هذه لا يعترف بالحدود الجغرافية ، ولا يعتبر الفوارق الجنسية الدموية ، ويعتبر المسلمين جميعا أمة واحدة ، ويعتبر الوطن الاسلامى وطنا واحدا مهما تباعدت أقطاره ، وتناءت حدوده . وكذلك الاخوان المسلمون يقدسون هذه الوحدة ، ويؤمنون بهذه الجامعة ، ويعملون لجمع كلمة المسلمين ، واعزاز أخوة الاسلام . ينادون بان وطنهم هو كل شبر ارض فيه مسلم يقول لا اله الا الله محمد رسول الله » .

ثم يختتم ـ رحمه الله هذا البيان الرائع المحدد الواضح الصريح بقوله :

« وضح اذن أن الاخوان المسلمين يحترمون قوميتهم الخاصة باعتبارها الاساس الاول للنهوض المنشود · ولا يرون بأسا بأن يعمل كل انسان لوطنه، وأن يقدمه فى الوطن على سواه · ثم هم بعد ذلك يؤيدون الوحدة العربية باعتبارها الحلقة الثانية فى هذا النهوض · ثم هم يعملون للجامعة الإسلامية باعتبارها السياج الكامل للوطن الاسلامى العام ـ ولى أن أقول بعد هذا : أن الاخوان يريدون الخير للعالم كله ، فهم ينادون بالوحدة العالمية ، لان هذا هو مرمى الاسلام وهدفه ومعنى قول الله تبارك وتعالى « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » ·

وانا فى غنى بعد هذا البيان عن أن أقول انه لا تعارض بين هذه الوحدات بهذا الاعتبار ، وبأن كلا منها تشد أزر الاخرى ، وتحقق الغاية منها · فاذا أراد قوم أن يتخذوا من المناداة بالقومية الخاصة سلاحا يميت الشعور بما عداها فالاخوان المسلمون ليسوا منهم · ولعل هذا هو الفارق بيننا وبين كثير من الناس » ·

* * *

وبعد ما نقلناه الى القارىء من هذا البيان الشامل الواضح نقول : لعل قد صار جليا أن حسن البنا لا يرى الوحدة القومية أو القومية الخاصة فى الانتماء ـ على سبيل المثال ـ الى الفراعنة ولا الى الفينيقيين ولا الى الاشوريين ، فيتعالى المنتسبون الى الفراعنة على المنتسبين الى الفينيقيين· ويتطاول المنتسبون الى الاشوريين على المنتسبين الى الفراعنة وهكذا ···

ولا يرى الوحدة العربية فى الانتماء الى يعرب بن قحطان ، ولا فى الانتماء الى مكان محدد أو زمان معين ، فيتفاخر سكان اقليم على سكان أقاليم أخرى · أو يستطيل الاقدمون عهدا بالعروبة على الاحدثين عهدا بها ·· بل يرى أن اللسان العربى هو مقياس العروبة ، فالمتكلمون باللسان العربى حيثما كانوا هم عرب وكلهم سواء ·

كما أنه لا يرى أن الوحدة القومية الخاصة والوحدة العربية هما فى ذاتهما غايتان ، بل هما وسيلتان وخطوتان فى سبيل تحقيق الهدف الاصيل وهو الوحدة الاسلامية ، تلك الوحدة التى يقربنا تحقيقها من تحقيق الوحدة العالمية ·

حسن البنا والرأسمالية والشيوعية والاشتراكية :

وقد يختلج فى صدور بعض القراء سؤال عن موقف حسن البنا فيما

يتصل بالمبادىء السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتصارعة ، والتى تتجاذب الشعوب فى عصرنا هذا من رأسمالية وشيوعية واشتراكية • فنقول: انه كان رحمه الله يرى فى الفكرة الاسلامية غناء عن كل مافى هذه الافكار من مزايا ، مع تنزه الفكرة الاسلامية عما يشوب هذه الافكار والمبادىء من عيوب •

أما أسلوبه فى مواجهة هذه المبادىء والافكار فكان أسلوبا يبدو للنظر السطحى كأنه أسلوب سلبى ، اذ هو لا يهاجم هذه المبادىء ، وانما يفرغ جهده كله فى نشر فكرته فى أوسع نطاق ، وفى تعميق معانيها وأهدافها ومراميها فى نفوس أكبر عدد ممكن من أفراد الشعب •• وهو بذلك يرى أنه قد أوصد الابواب فى وجه هذه المبادىء وفى وجه كل فكر دخيل •

وما من شك فى أن أسلوبه هذا الهادىء الرزين قد أثمر أينع الثمر ، وآتى أكله ، وحقق ما كان يرجو منه ، فلقد أحس أصحاب هذه المبادىء الدخيلة فعلا أن الطريق أمامهم مسدود ، وقد حاقت بهم خسائر جسيمة : الامر الذى حملهم – مع ما بينهم من تناقض كبير – على أن يتحدوا ضد هذا الداعية الصامت الجسور

على أن المبدأ الذى كان متسلطا على مصر فى تلك الحقبة من الزمن من هذه المبادىء الثلاثة كان الرأسمالية ، حيث الاقطاعات الزراعية الشاسعة والمصانع الضخمة ، والاسلام لا يمنع الاقتناء والتأثل ولكنه لا يرضى عن الظلم •

وليس معنى أن أسلوب حسن البنا فى مواجهة هذه المبادىء كان أسلوبا هادئا أنه لم يكن هناك احتكاك بين معسكرات هذه المبادىء وبين معسكره ، بل كانت هناك احتكاكات واصطدامات فى مواطن تجمعات العمال فى مصانع الاسكندرية وشبرا الخيمة وفى بعض الاقطاعات الزراعية الواسعة فى الريف المصرى •• لكن الاحتكاك فى كل هذه المواطن لم يكن من جانب معسكر حسن البنا وانما كان دائما من جانب المعسكر الآخر••فالمعسكر الآخر يعتبر مجرد استجابة نفر من العمال العاملين فى احدى وساياه أو فى أحد مصانعه الى دعوة الاخوان المسلمين والتفافهم حول فكرتهم ، يعتبرون ذلك تحديا لسلطتهم ، وتقويضا لنفوذهم ، فيشنون على هؤلاء العمال حربا لا هوادة فيها ، ويستعدون عليهم سلطات الحكومة التى كانت فى ذلك الوقت طوع اشارتهم ، خادمة لمصالحهم •• ومن شاء أن يقرأ عن هذه الاصطدامات فليرجع الى صحف تلك الايام وان كان العرف عند هؤلاء القوم فى تلك الايام أنهم كانوا يعتبرون المظلوم ظالما والظالم مظلوما •

ومن هذا القبيل ما جاء فى المذكرة التفسيرية للامر العسكرى رقم ٦٣ لسنة ١٩٤٨ بحل الاخوان المسلمين فى البنود « عاشرا وحادى عشر وثانى عشر » فليرجع اليها القارىء ان شاء ثم ليرجع الى ما جاء عنها من تفنيد فى مذكرة الاستاذ الامام فى الرد عليها ٠

ونحب أن نلفت النظر الى أن موقف حسن البنا من هذه المبادىء وقد احتك بها أو بتعبير أدق احتكت هى به احتكاكا شديدا ـ وإن كانت فترة الاحتكاك على شدته لم تطل اذ عاجلته المنية ـ لم يكن هدفه من ذلك الاحتكاك مجرد القضاء على هذه الافكار ثم يجلس بعد ذلك يبحث عن بديل ـ كما فعل غيره ـ بل ان البديل بكل قواعده وأصوله وتفاصيله كان بيده ٠٠ ولم يكن هذا البديل ملفقا ولا مستعارا ، كما أنه لم يكن فكرة مخترعة لم يسبق لها أن وضعت موضع التجربة ٠٠ وانما كان البديل الذى بيده كاملا شاملا مجربا مضمون النجاح ، وفضلا عن ذلك فانه بديل قريب الى النفوس تنبض له القلوب ٠

ولا شك فى أن القوى العالمية صاحبة هذه المبادىء والافكار ، متضافرة مع القوى المصرية حاملة نفس هذه المبادىء والافكار ـ هى التى دبرت المؤامرة التى راح ضحيتها حسن البنا ٠

الفصـــل الثالث

حسن البنا والطائفة الخامسة
أو موقفه من الساسة والحكام

نوع السياسة الذى كان سائدا فى مصر :

قامت دعوة الاخوان المسلمين منذ قامت ومقاليد الامــور فى البلاد فى أيدى طبقة من الساسة والحكام يتداولونها بينهم ، فيختلفون حــولها تارة ويتفقون أخرى . ولكن لهم سمة عامة تميزهم عن بقية طبقات الشعب أنهم أشبه بالاجانب المستعمرين منهم بأهليهم وشــعبهم . فهم لا يعرفون عــن تاريخ قومهم مثلما يعرفون عن تاريخ هؤلاء الاجانب من الاوربيين ،ويجيدون الحديث بلغات هؤلاء الاوربيين فى الوقت الــذى يجهلون فيه لغــة بلادهم . ويعتقدون أنهم خلقوا ليكونوا هم وشعوبهم مسودين ، وأن هؤلاء الاوربيين خلقوا ليكونوا سادة .. ولا يشعرون فى ذلك بغضاضة .

وقد لقنهم هؤلاء المستعمرون فيما لقنوهم أن الدين معوق للتقدم عــدو للحضارة والرقى .. ولذا فالدين ـ ان كان لابد مــن تــدين ـ ينحصــر فى نظرهم بين جدران المساجد ، وللطبقة من الناس الذين انقطعت بهم السبل . ولا يجوز للدين أن يخرج عن هذه الحدود ليتصل بأمور الدنيا ، فللدنيــــا قوانينها التى سنها هؤلاء السادة الغربيون ....

واذا كان الغربيون معذورين فى فهم الدين على هذه الصورة لطبيعــة دينهم ، ولما عانوه فى خلال تاريخهم الطويل من عنت الكنيسة وتدخلهــا . شئون الناس بغير مبرر ، ومحاولة رجال الدين عندهم أن يحملوا الناس على آرائهم الشخصية بعد أن يلبسوها مسوح القداسة فوقفوا بذلك حائلا بين الغرب وبين نور العلم بضعة قرون ، ولم يستطع نور العلم أن ينفذ اليــهم الا بعد حروب ضروس شنوها على الكنيسة حتى قضوا على نفوذها،والزموها حدودها التى حددتها المسيحية لها .

اذا التمسنا للغربيين العذر بعد كل هذه المعاناة ان ينظروا لدينهم هذه النظرة ، فما عذر هؤلاء الساسة المسلمين فى انتحالهم هذه النظرة نفسها الى الاسلام وطبيعة الاسلام تختلف عن طبيعة المسيحية ؟ والاسلام هو الــدين

الخاتم الذى جاء بعد أن بلغت الانسانية رشدها لينظم للناس حياتهم تنظيما يربط بين الدنيا والاخرة ، وهو دين العلم والحضارة والحياة ، ويشهد بذلك تاريخه على مدى الف عام ، وكتابه الذى نزل من عند الله على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليكون دستورا مهيمنا على كل شئون الحياة « انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » .

قام حسن البنا بدعـوته والوضـــع فى أمـــر السياسة والحـكم على ما وصفنا . فسلك بدعوته الطريق الذى واجه فيه طوائف الشـعب الاربـع بالاسلوب الذى كفل لها السلامة والنجاح والتفوق . مع جمـع الشمل ونشر الوعى وايقاظ الامة . ولم يبق بعد ذلك أمامه من طوائف الشعب الا الطائفة الخامسة .. الطائفة المترفة ـ طائفة السـاسة والحـكام .. فمـاذا كان له معهم من موقف ؟

لم يخرج فى موقفه منهم عن أسلوبه الذى اتبعه مع الطوائف الاخرى .. موقف من يريد تقويم الاعوجاج ، وتصحيح النظرة ، وتطهير النفوس مما علق بها من النفاق والضعف والانانية والتخاذل .. واذا كان قد توجه بهذا الاسلوب الى طوائف الشعب الاربع الاخرى فان توجهه به الى طائفة الساسة والحكام أدعى وألزم .. فبقاء نفوس هذه الطائفة على فسادها قد يحبط كل ما تم من اصلاح فى نفوس بقية الشعب ، اذ أن هذه الطائفة ـ على قلة عددها ـ بيدها ان تغرق السفينة بكل ما فيها ومن فيها ، فهى التى تتحكم فى توجيهها حيث شاءت لانها هى التى تمسك بدفتها وتقبض على زمامها .

وتوضيحا لما أشرنا اليه من أخلاق هـذه الطائفة من السـاسة فى تلك الوقت نقتبس سطورا من مقال كتبه الاستاذ مصطفى صادق الرافعى ـ رحمه الله ـ يصف فيه هؤلاء الساسة فيقول :

« كان (م) باشا ـ رحمه الله ـ داهيـة من دهاة السياسـة المصرية . يلتوى فى يدها مرة التواء الحبل ، ويستوى فى يدها مرة اسـتواء السـيف . ولا يرى ابدا الا منكمشا متحرزا كأن له عدوا لا يدرى اين هو ولا متى يقتحم عليه . ولكنه كغيره من الرؤساء ، الذين كانوا آلات للكذب بين طالب الحق وغاصب الحق ـ يعرف أن عدوه كامن فى اعماله .

وكان ذكيا اريبا ، غير أن ملابسته للسياسـة الدائرة على محـورها ، جعلت نصف ذكائه من الذكاء ونصفه من المكر ، فكان فى مراوغته كأن له ثلاثة عقول : احدها مصرى ، والآخر انجليزى ، والثالث خارج من الحالين .

وبهذا تقدم وعاش أثيرا عند الرؤساء من الانجليز ، واستمرت مجاريه مطردة لديهم حتى بلغوا به الى الوزارة ، اذ كان حسن الفهم عنهم ، سريع الاستجابة اليهم ، يفهم معنى ألفاظهم ، ومعنى النية التى تكون وراء ألفاظهم، ومعنى آخر يتبرع هو به لالفاظهم ... فكان هو وأمثاله فى رأى تلك السياسة القديمة ، رجالا كالافكار : يوضع أحدهم فى مكانه من الحكم كما توضع صيغة الشك لافساد اليقين ، أو صيغة الوهم لتوليد الخيال ، أو صيغة الهوى لايجاد الفتنـة .

وكان صديقى (فلان) رحمه الله صاحب سره (سكرتيره) ، وقد وثق به الباشا حتى انه كان يعالنه بما فى نفسه ، ويبثه همومه وأحزانه ويرى فية دنيا حرة يخرج اليها كلما ضـاقت به دنيا وظيفته ، ويستعير منـه اليقـين أحيانا بانه لا يزال مصريا لم يتم بعد تحويله فى الكرسى ... »

□ نوع السياسة الذى دعا اليه حسن البنا :

أراد حسن البنا أن يدعو الى سياسة تقوم على أساس وطيد من القوة والصراحة والطهر والشرف والكرامة وعلى المبادىء الخلقية الرفيعة - سياسة تقوم على التضحية والبذل من قبل الحـاكم ، لا على الاسـتغلال والتأثل - سياسة كتلك التى سأل النبى صـلى الله عليه وسلم أحـد عمـاله (حـكام الاقاليم) عن مال عنده فقال : انه مال أهدى الى . فأمـر بعـزله وقال قولته التى وضع بها قاعدة الحكم الصالح « لو قعـد أحدكم فى بيت أمـه هـل كان يهدى اليه ؟ » .

سياسة لا تجامل فى الحق ، ولا تتهـاون فى العـدل ، ولا تخشى فى الله لومة لائم - سياسة يحكمها دستور منزل من عند الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لا يرضى للمؤمنين به الذل ، ولا يقر أحـدا أيا كان على الظلم ، وينعم الجميع فى ظله حتى غير المؤمنين به « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » .

فغير المسلمين من المواطنين متساوون فى الحقوق مع المسلمين بحـكم القرآن ، لا على أسس من النفاق السياسى والاهواء والمداهنة ، فاذا رضى حاكم انصفهم واذا غضب عليهم سلبهم حقوقهم -واذا قامت الدولة على قواعد مقررة بصريح القرآن - وهو الدستور المحفوظ والمقروء والمسموع فى كل بيت وفى كل يوم - سادها الامـن والطمانينة والاستقـرار والسـلام الاجتماعى المنشود - وليس سـلام اجتماعى يقرره القـرآن الـكريم ، كذلك السـلام الاجتماعى الذى يقرره بشر تكتنفه الاهواء من كل جانب .

سياسة لا تتقبل أن يعطي المسلم الدنية في دينه ولا في وطنه مهما اقتضاه ذلك من تضحيات براحته وماله ومصالحه ودمه « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا»

ولسائل أن يسأل : لما كان حسن البنا يعلم من خطورة بقاء هذه الطائفة على فسادها ما يعلم ، فلم لم يسارع بالتوجه بدعوته اليها من أول يوم .

فنقول : انه كان يعلم هذا ولم يتوان عن توجيه الدعوة اليها في كل مرحلة من المراحل ، ولكنه حين كان يفعل ذلك كان يفعله لمجرد الاعذار الى الله واقامة الحجة عليهم ، فانه كان يعلم أن قوة صوته مرهونة بقدر القطاع الشعبي الذي يتكلم باسمه ويعبر عن مشاعره – فكان صوته في أول الامر يصل الى هؤلاء السادة في بروجهم المشيدة خافتا ضعيفا لا يكاد يسمع ، ثم أخذ في الارتفاع حتى صار آخر الامر قويا مجلجلا . وكان هذا هو السبب في تساؤل كثير من الناس لم سكت حسن البنا عن التوجه بدعوته الى هذه الطائفة البالغة الاهمية طيلة هذه المدة الكبيرة ؟ فهؤلاء الناس لم يسمعوا صوته موجها الى هؤلاء الا يوم قوى صوته فأسمعهم وأسمع الجميع معهم فظنوا أنه قصر في الاتصال بهم حتى اتصل بهم فجأة آخر الامر .

□ من مراحل توجيه الدعوة الى هذه الطائفة :

فمنذ لم تكن دعوته شيئا مذكورا عمل على الاتصال بهذه الطائفة ، منتهزا الفرص العارضة والمناسبات . ونأخذ ان شاء الله في عرض صور من هذه الاتصالات مؤيدة بتواريخها .. وقد يلاحظ القارئ ان كل صورة من هذه الصور مرتبطة بزمنها معبرة عن مرحلتها .

١ – المطالبة ببناء مسجد للبرلمان :

في ١٧–١١–١٩٣٤ أرسل باسم الجماعة خطابا الى رئيس الوزراء ووزير الاشغال يستنكر فيه « انصراف النية عن بناء مسجد البرلمان الذي قد تقرر انشاؤه » . فرد عليه وزير الاشغال بان الوزارة قررت بناء المسجد المذكور ، واعطت المقاولة الى عبد الحميد محمد عبد الله المقاول بتاريخ ٣٠–١١–١٩٣٤ .

٢ – احتجاج على النحاس باشا لتأييده أتاتورك :

وفي ١٤–٦–١٩٣٦ أرسل الى مصطفى النحاس باشا رئيس مجلس الوزراء خطابا يحتج فيه على تصريحه الذي نشر بجريدة « الاهرام » والذي

يقرر فيه « اعجابه بلا تحفظ بكمال أتاتورك الذى صاغ بعبقريته تركيا الحديثة » ويقول فى سياق اعجابه : « ولست أعجب فحسب بعبقريته العسكرية بل اعجب أيضا بعبقريته الخالصة وتفهمه لمعنى الدولة الحديثة التى تستطيع وحدها فى الحالة العالمية الحاضرة ان تعيش وان تنمو » ٠

وفى سياق خطاب الاحتجاج يقول حسن البنا :

« وبعد ٠٠ فدولتكم أكبر زعيم شرقي عرف الجميع فيه سلامة الدين وصدق اليقين ٠ وموقف الحكومة التركية الحديثة من الاسلام وأحكامه وتعاليمه وشرائعه معروف فى العالم كله لا لبس فيه ، فالحكومة التركية قلبت نظام الخلافة الى الجمهورية ، وحذفت القانون الاسلامى ، وحكمت بالقانون السويسرى مع قوله تعالى « ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون» وصرحت فى دستورها بأنها حكومة لا دينية ، وأجازت بمقتضى هذه التعاليم أن تتزوج المسلمة من غير المسلم ، وان ترث المرأة مثل الرجل واصطدمت فى ذلك بقوله تعالى « للذكر مثل حظ الانثيين » ٠ وهذا قليل من كثير من موقف الحكومة التركية من الاسلام ٠

وأما موقفها من الشرق ، فقد صرحت فى وقت من الاوقات بلسان وزير خارجيتها بأنها ليست دولة شرقية ، وقد قطعت صلتها بالشرق حتى فى شكل حروفه وفى أزيائه وعاداته وكل ما يتعلق به ٠

ثم يقول حسن البنا : لهذا كان وقع تصريح دولتكم للمراسل الخاص لوكالة الاناضول التلغرافية بالقاهرة غريبا على الذين لم يعرفوا دولتكم الا زعيما شرقيا مسلما فخورا بشرقيته متمسكا باسلامه فى أمة تعتبر زعيمة الشرق جميعا ٠

ولقد أخذ الكثير ممن طالعوا هذا التصريح يتساءلون : هل يفهم من هذا أن دولة النحاس باشا وهو الزعيم المسلم الرشيد يوافق على أن يكون لامته ـ بعد الانتهاء من القضية السياسية ـ برنامج كالبرنامج الكمالى يتولى كل الاوضاع فيها ، ويفصلها عن الشرق والشرقيين ، ويسقط من يدها لواء الزعامة ؟ ـ وانا لنعيذ دولة الرئيس من هذا المقصد الذى نعتقد أنه أبعد الناس عنه ٠

لهذا يا صاحب الدولة ٠٠ نتوجه اليكم بهذه الكلمة ، وهى كلمة الولاء المحض والنصح الخالص والاشفاق الكبير رجاء ان تتفضلوا بالحاق هذا التصريح بما يطمئن نفوسا قلقة ، ويقر افئدة مضطربة ، ويسد الطريق أمام الظنون والاوهام » ٠

٣ – معارضة المعاهدة ومطالبة الحكام بالرجوع الى الاسلام :

لما وقعت المعاهدة بين مصر وبريطانيا فى أغسطس ١٩٣٦ وقف الاخوان منها موقف المعارضة – ولما كانوا فى ذلك الوقت لا يزالون نبتة صغيرة ، فقد اكتفوا بمجرد المعارضة ، واتجهوا الى الاصلاح الداخلى باعتباره أساس بناء الامة • فوضع حسن البنا رسالة « **نحو النور** » وبعث بها الى الملك والى رئيس الوزراء والوزراء والى أعضاء مجلس النواب والشيوخ والى ملوك وأمراء وحكام العالم الاسلامى والى كثير من كبار المسئولين فى مصر وفى خارج مصر •• يطالبهم فيها بالعودة الى نظام الاسلام •

ورسالة « نحو النور » هى أولى الرسائل التى خاطب فيها حسن البنا الحكومة ببرنامج كامل للاصلاح فى جميع مرافق الحياة • بدأها بهذه العبارة :

يا صاحب •••

ان الله وكل اليكم أمر هذه الامة ، وجعل مصالحها وشئونها وحاضرها ومستقبلها أمانة لديكم ووديعة عندكم • وأنتم مسئولون عن ذلك كله بين يدى الله تبارك وتعالى • ولئن كان الجيل الحاضر عدتكم ، فان الجيل الآتى من غرسكم • وما أعظمها أمانة وأكبرها تبعة أن يسأل الرجل عن أمة : « وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » وقديما قال الامام العادل : « لو عثرت بغلة بالعراق لرأيتنى مسئولا عنها بين يدى الله تبارك وتعالى لم لم أسو لها الطريق » ؟ وصور الامام عمر بن الخطاب عظيم التبعة فى جملة فقال : « لوددت أن أخرج منها كفافا لا لى ولا على » •

□ من مزايا النظام الاسلامى :

وبعد أن أشار الى أن هذه الفترة من تاريخ الامة هى فترة انتقال وهى من أخطر الفترات فى حياة الامم ، بين أن امام الامة أحد طريقين ، اما طريق الاسلام واما طريق الغرب • ثم أخذ فى توضيح مزايا الاخذ بنظام الاسلام فقال : « واننا اذا سلكنا بالامة هذا المسلك استطعنا أن نحصل على فوائد كثيرة ، منها أن المنهاج الاسلامى قد جرب من قبل وشهد التاريخ بصلاحيته ، وأخرج للناس أمة من أقوى الامم وأفضلها وارحمها وأبرها وأبركها على الانسانية جميعا ، وله من قدسيته واستقراره فى نفوس الناس ما يسهل على الجميع تناوله وفقهه والاستجابة له والسير عليه متى وجهوا اليه ، فضلا عن الاعتزاز بالقومية والاشادة بالوطنية الخالصة ، اذ أننا نبنى حياتنا على قواعدنا وأصولنا ولا نأخذ عن غيرنا • وفى ذلك أفضل معانى الاستقلال الاجتماعى والحيوى بعد الاستقلال السياسى •

وفى السير على هذا المنهاج تقوية للوحدة العربية اولا ثم للوحـــدة الاسلامية ثانيا ، فيمدنا العالم الاسلامى كله بروحه وشعوره وعطفه وتأييده، ويرى فينا اخوة ينجدهم وينجدونه ويمدهم ويمدونه ، وفى ذلك ربح أدبى كبير لا يزهد فيه عاقل •

وهذا المنهاج تام شامل كفيل بتقرير أفضل النظم للحياة العامة فى الامة عملية وروحية • وهذه هى الميزة التى يمتاز بها الاسلام ، فهـو يضـع نظم الحياة للامم على أساسين مهمين : أخذ الصالح وتجنب الضار •

فاذا سلكنا هذه السبيل استطعنا أن نتجنب المشكلات الحيـويـة التى وقعت فيها الدول الاخرى التى تعرف هـذا الطـريق ولم تسـلكه ، بل استطعنا أن نحل كثيرا من المشكلات المعقدة التى عجزت عن حلها النظم الحالية وانا لنذكر هنا كلمة برنارد شو : « ما أشد حاجة العالم فى عصره الحديث الى رجل كمحمد يحل مشكلته القائمة المعقدة بينما يتناول فنجانا من القهوة »•

وبعد ذلك كله فاننا اذا سلكنا هذا السبيل كان تأييد الله من ورائنـا يقوينا عند الوهن ، وينقذنا فى الشدائد ، ويهون علينا المشاق ، ويهيب بنا دائما الى الامام « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليما حكيما » •

□ **الدور الآن دورنا :**

وبعد أن تحدث عن المدنية الغربية وفشلها فى اسعاد أهلها قال : «لقـد كانت قيادة الدنيا فى وقت ما شرقية بحتة ، ثم صارت بعد ظهور اليونـــان والرومان غربية ، ثم نقلتها النبوات الموسوية والعيسـوية والمحمـدية الى الشرق مرة ثانية ، ثم غفا الشرق غفوته الكبرى ونهض الغرب نهضته الحديثة فكانت سنة الله التى لا تتخلف وورث الغرب القيادة العالمية •• وها هو ذا الغرب يظلم ويجور ، ويطـغى ويحـار ويتخبط ، فلم يبق الا أن تمتـد يد « شرقية » قوية يظللها لواء الله ، وتخفق على رأسها راية القرآن ، ويمـدها جند الايمان القوى المتين ، فاذا بالدنيا مسلمة هانئة ، واذا بالعوالم كلها هاتفة « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله »•

ليس هذا من الخيال فى شىء ، بل هو حكم التاريخ الصادق ، اذا لم يتحقق بنا « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومـة لائم ذلك فضـل الله يؤتيه من يشاء » •• بيد أننا نحرص على أن نكون ممن يحوزون هذه الفضيلة ويكتبون فى ديوان هذا الشرف « وربك يخلق ما يشاء ويختار » •

□ **الاسلام يمد الامة بكل ما تحتاج اليه :**

ثم أخذ فى اثبات أن الاسلام كفيل بامداد الامة الناهضة بمـا تحتـاج

اليه ، فهو يمدها بالامل ويبعث فيها العزة القوميـة ويبث فيها روح القـوة والجهاد ويحثها على تصحيح الابدان كما يدفعها الى التزود بالعلم ويغرس فى نفوسها الاخلاق وينظم اقتصادها وينشر الرخاء فى ربوعها .

□ الاسـلام والامـل :

فتحدث عن الاسلام والامل فذكر قـول الله تعـالى « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الارض » وقوله تعالى « هو الذى أخـرج الذين كفـروا من أهـل الكتاب من ديارهم لاول الحشر،ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا ياأولي الابصار » .. أن أضعف الامم اذا سمعت هذا التبشير كله وقرأت ما اليه من قصص تطبيقية واقعية ، لابد ان تخرج بعد ذلك أقـوى الامم ايمـانا وأرواحا ، ولابد أن ترى فى هـذا الامـل ما يدفعها الى اقتحام المصاعب مهما اشتدت حتى تظفر بمـا تصـبوا اليـه من كمال .

□ الاسـلام والعزة القومية :

ثم تحدث عن الاسلام والعزة القومية وذكر أن ادعاء الامم المختلفة بأنها أعظم الامم وشعار كل جنس أنه « فوق الجميع » هو تعصب للجنس وفخر كاذب ليس له ما يسنده ، لكن الامـة الاسـلامية اذا هى حققت الاهـداف الاسلامية متسامية فى شعورها عن التراب والجنسية فانها تستحق أن تكون بحكم الله خالق الناس « خير أمة أخرجت للناس » .

□ الاسلام والقوة والجندية :

ثم تحدث عن الاسلام والقوة والجندية فذكر قوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم » وقوله تعالى « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .. ويوضح شرف غاية الجندى المسلم ودناءة غاية الاعداء فيقول « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضـعيفا » . ثم وضح أن ثمن النصر للمسلمين ليس استعباد النـاس بل هـو نشر لواء الفضيلة فقال « ولينصرن الله من ينصـره ان الله لقـوى عـزيز . الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعـروف ونهـوا عن المنكر ولله عاقبة الامور .

□ **الاسلام والصحة :**

ثم تحدث عن الاسلام والصحة العامة فذكر الاسس التى وضعها القرآن لاختيار القواد والزعماء فقال « ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم » وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف » وقوله « ان لبدنك عليك حقا ــ كما أن تعليماته صلى الله عليه وسلم فى تناول الطعام والشراب تضمن للمسلم الصحة والعافية · وكذلك حثه على السباحة والفروسية ·

□ **الاســـلام والعلم :**

ثم تناول الحديث عن الاسلام والعلم فذكر قول الله تعالى « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ثم ان الاسلام قد وزن مداد العلماء بدم الشهداء · ثم لفت النظر الى أن القرآن لا يفرق بين علم الدنيا وعلم الدين بل أوصى بهما جميعا وجمع علوم الكون فى آية واحدة وحث عليها وجعل العلم بها سبيل خشيته وطريق معرفته فذلك قوله تعالى « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ؟ وفى ذلك اشارة الى الهيئة والفلك وارتباط السماء بالارض · ثم قال « فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها » وفى ذلك الاشارة الى علم النبات وغرائبه وعجائبه وكيميائه : ثم قال : « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود » وفى ذلك الاشارة الى علم الجيولوجيا ثم قال « ومن الناس والدواب والانعـام مختلـف الوانه كذلك » وفيها الاشـارة الى علم البيولوجيا والحيوان بأقسامه من انسان وحشرات وبهائم ، فهل ترى هذه الآية غادرت شيئا من علوم الكون ؟

ثم يردف ذلك كله بقوله تعالى فى نهاية الآية : « انما يخشى الله من عباده العلماء » ·

□ **الاسلام والخلق :**

تكلم بعد ذلك عن الاسلام والاخلاق فذكر قول الله تعالى « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » وقد جعل القـرآن تغيـير حال الامم متوقفا على تغير اخلاقها وصـلاح نفوسها فقال « ان الله لا يغـير ما بقـوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ــ وليس كالاسلام عامـلا على ايقـاظ الضمير واحياء الشـعور واقامة رقيب على النفس من النفس وذلك خير الرقباء ، وبغيـره لا ينتظم قانون ما الى أعماق السرائر وخفيات الامور ·

□ **الاســـلام والاقتصاد :**

وانتهى بالحديث عن الاسلام والاقتصاد فذكر قوله تعالى « ولا تؤتوا

السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما » ويقول فى موازنة الانفاق والدخل « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط » ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم المـال الصالح للرجل الصالح » ويقول « ما عال من اقتصـد » •

وبعد أن انتهى من توضيح مزايا النظام الاسـلامى أخـذ فى تحـذير الساسة من الانحـراف عن الاسـلام واختيار تقليد الغـرب • وشرح لهم أن الاسلام يحمى الاقليات ويصون حقوق الاجانب ولا يعكر صفو العلاقات مع الغرب• كما شرح لهم كيف أن أصول النهضة فى الشرق غير أصولها فى الغرب، وأومأ الى الفرق بين دين الغـرب والدين الاسـلامى وأن رجال الدين غـير الـدين نفسه •

وانتهى من ذلك الى حث هؤلاء الحكام والمسئولين فى مصر وفى العـالم الاسلامى كله على المبادرة باتخاذ الخطوة الجريئة فى اختيار المنهج الاسلامى القويم لحكم البلاد •

وحتى لا تكون الرسالة مجرد مقال انشائى فقد ذيلها بخمسـين مطلبا عمليا تطبيقيا من مطالب الاصلاح الداخـلى : عشـرة منها تنـاولت الناحية السياسية والقضائية والادارية ، وثلاثون منها تناولت الناحية الاجتماعية والعلمية ، والعشرة الباقية تناولت الناحية الاقتصادية •

وقد ختم حسن البنا الرسالة بهذه العبارة « وبعـد •• فهـذه رسـالة الاخوان المسلمين نتقدم بها ، وانا لنضع أنفسـنا ومـواهبنا وكل ما نملك تحت تصرف أية هيئة أو حكومة تريد أن تخطو بأمة اسـلامية نحـو الرقى والتقدم ، نجيب النداء ، ونكون الفـداء • ونرجـو ان نكون قـد أدينا بذلك أمانتنا وقلنا كلمتنا ، والدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولائمة المسلمين وعامتهم وحسبنا الله نعم الوكيل • »

وفى خلال هذه المراحل الثلاث التى أتينا على صور مصغرة لكل منها لم ينقطع عن حث الحكومات المتتالية على مساندة قضية فلسطين مساندة فعالة، وعلى الوقوف بجانب قضايا الشعوب الاسلامية فى المغرب العـربى والمشرق العربى عن طريق الخطب والمحاضرات والخطابات والمنشورات والمقالات التى تملأ صفحات ما كان يصدره الاخوان من مجلات وكتب ونشرات •

ولكن هل كان لهذه التوجيهات من اثر فى اتجاه هؤلاء الساسة والحكام ؟

الواقع التاريخى يلزمنا ان نقرر انه حتى هذه المرحلة من مراحل الدعوة لم يكن لنداءات حسن البنا بمختلف صورها من اثر يذكر فى اتجاه الحكومات المتتالية التى كان يتداولها الساسة المصريون •

٤ ـ المؤتمر الخامس أو من أعلى مئذنة :

ولكن حين قويت شوكة الدعوة ، واشتد ساعدها بعد أن دارت رحى الحرب العالمية الثانية كما بينا من قبل ـ أخذ صوت حسن البنا يجلجل فأيقظ النائمين وأقض مضاجع السادة المترفين .. ولاول مرة اخترق صوته آذانهم حين وقف على منصة المؤتمر الخامس بسراى آل لطف الله بالجزيرة فى عام ١٣٥٧ هـ الموافق ١٩٣٨ يلقى بيانه الذى وضح فيه موقف الاخوان المسلمين من جميع الجهات والافكار والهيئات فى الداخل والخارج . وتعرض فيه للساسة المصريين فقال :

« والاخوان المسلمون يعتقدون أن الاحزاب المصرية جميعا قد وجدت فى ظروف خاصة ولدوافع أكثرها شخصى لا مصلحى ، وشرح ذلك تعلمونه حضراتكم جميعا . ويعتقدون كذلك أن هذه الاحزاب لم تحدد برامجها ومناهجها إلى الآن ، فكل منها سيدعى انه يعمل لمصلحة الامة فى كل نواحى الإصلاح ، ولكن ما تفاصيل هذه الاعمال ، وما وسائل تحقيقها ، وما الذى أعد من هذه الوسائل ، وما العقبات التى ينتظر أن نقف فى سبيل التنفيذ ، وماذا أعد لتذليلها ؟ كل ذلك لا جواب عليه عند رؤساء الاحزاب وادارات الاحزاب ، فهم قد اتفقوا فى هذا الفراغ كما اتفقوا فى أمر آخر هو التهالك على الحكم ، وتسخير كل دعاية حزبية ، وكل وسيلة شريفة وغير شريفة فى سبيل الوصول اليه .

ويعتقد الاخوان كذلك أن هذه الحزبية قد أفسدت على الناس كل مرافق حياتهم ، وعطلت مصالحهم ، وأتلفت أخلاقهم ، ومزقت روابطهم ، وكان لها فى حياتهم العامة والخاصة أسوأ الاثر » .

ثم قال « ان الاخوان لا يضمرون لحزب من الاحزاب أيا كان خصومة خاصة به ، ولكنهم يعتقدون من قرارة نفوسهم أن مصر لا يصلحها ولا ينقذها الا أن تنحل هذه الاحزاب كلها ، وتتألف هيئة وطنية عاملة تقود الامة الى الفوز وفق تعاليم القرآن الكريم .

« وبهذه المناسبة أقول ان الاخوان المسلمين يعتقدون عقم فكرة الائتلاف بين الاحزاب ، ويعتقدون أنها مسكن لا علاج ، وسرعان ما ينقض المؤتلفون بعضهم على بعض فتعود الحرب بينهم جذعة على اشد ما كانت عليه قبل الائتلاف ـ والعلاج الحاسم الناجع أن تزول هذه الاحزاب مشكورة فقد أدت مهمتها وانتهت الظروف التى أوجدتها ، ولكل زمان دولة ورجال كما يقولون «

ثم تناول بعد ذلك موقف الاخوان من الدول الاستعمارية فقال :

«الاسلام كما قدمت يعتبر المسلمين أمة واحدة تجمعها العقيدة،ويشارك بعضها بعضا فى الآلام والآمال · وأن أى عدوان يقع على واحدة منها أو على فرد من المسلمين فهو واقع عليهم جميعا ـ أضحكنى وأبكانى حكم فقهى رأيته عرضا فى كتاب « الشرح الصغير » على أقرب المسالك ، قال مؤلفه « مسألة امرأة مسلمة سبيت بالمشرق وجب على أهل المغرب تخليصها وافتداؤها ولو أتى ذلك على جميع أموال المسلمين » ورأيت مثله قبل ذلك فى كتاب « مجمع الانهر فى شرح ملتقى الابحر » نقلا عن كتاب « البحر » فى مذهب الاحناف ـ رأيت هذا فضحكت وبكيت · وقلت لنفسى : أين عيون هؤلاء الكاتبين لتنظر المسلمين جميعا فى أسر غيرهم من أهل الكفر والعدوان ؟ ·

« أريد أن أستخلص من هذا أن الوطن الاسلامى واحد لا يتجزأ ، وأن العدوان على جزء من أجزائه عدوان عليه كله ، هذه واحدة ·· والثانية أن الاسلام فرض على المسلمين أن يكونوا أئمة فى ديارهم ، سادة فى أوطانهم · بل ليس ذلك فحسب ، بل ان عليهم أن يحملوا غيرهم على الدخول فى دعوتهم والاهتداء بأنوار الاسلام التى اهتدوا بها من قبل ·

« ومن هنا يعتقد الاخوان المسلمون أن كل دولة اعتدت وتعتدى على أوطان الاسلام دولة ظالمة لابد أن تكف عن عدوانها ولابد من أن يعد المسلمون أنفسهم ويعملوا متساندين متحدين على التخلص من نيرها » ·

وبعد أن تناول الدول المستعمرة دولة دولة وما فعلته كل منها بالمسلمين ختم هذا الموضوع بالعبارة الآتية :

« أيها الاخوان المسلمون ـ هذا كلام يدمى القلوب ويفتت الاكباد ، وحسبى هذه الفواجع فى هذا البيان ، فتلك سلسلة لا اخر لها ، وأنتم تعرفون هذا ولكن عليكم أن تبينوه للناس ، وأن تعلموهم أن الاسلام لا يرضى من أبنائه بأقل من الحرية والاستقلال فضلا عن السيادة واعلان الجهاد ، ولو كلفهم ذلك الدم والمال ، فالموت خير من هذه الحياة : حياة العبودية والرق والاستذلال · وأنتم ان فعلتم ذلك وصدقتم الله العزيمة فلابد من النصر ان شاء الله « كتب الله لاغلبن أنا ورسلى ان الله قوى عزيز » ·

٥ ـ بيان أشبه بانذار فى المؤتمر السادس :

وبعد المؤتمر الخامس بسنتين أى فى عام ١٩٤١ عقد حسن البنا المؤتمر السادس · وقد وعدنا الاخوة القراء ـ فى الجزء الاول من هذا الكتاب فى سياق الحديث عن مؤتمرات الاخوان ـ انه اذا يسر لنا الحصول على مرجع للمؤتمر

السادس سنستنقل لهم فقرات مما جاء فى كلمة الاستاذ الامام فيه ٠٠ وقد يسر لنا ذلك والحمد لله ٠٠ فهاكم هذه الفقرات :

يقول ـ رحمه الله ـ فى مستهل خطابه :

« واذكروا جيدا أيها الاخوة أن دعوتكم أعف الدعوات ، وأن جماعتكم أشرف الجماعات ، وأن مواردكم من جيوبكم لا من جيـوب غـيركم : ونفقات دعوتكم من قوت أولادكم ومخصصات بيوتكم ٠ وان أحدا من الناس ، أو هيئة من الهيئات ، أو حكومة من الحكومات ، أو دولة من الدول٠٠ لا تستطيع أن تجد لها فى ذلك منة عليـكم ٠ وما ذلك بكثير على دعـوة اقل ما يطلب من أهلها النفس والمال « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » ٠

ويعرض لغاية الاخوان المسلمين فيقول :

« يعمل الاخوان المسلمون لغايتين : غاية قريبة يبدو هـدفها وتظهـر ثمرتها لاول يوم ينضم فيه الفرد الى الجماعة ٠٠٠ وغاية بعيدة لابد فيها من ترقب الفرص وانتظار الزمن وحسن الاعداد وسبق التكوين ٠

فأما الغاية الاولى فهى المساهمة فى الخير العام أيا كان لونه ونوعه ، والخدمة الاجتماعية كلما سمحت بها الظروف ٠

أما غاية الاخوان الاساسية ٠٠ أما هـدف الاخـوان الاسمى ٠٠ أما الاصلاح الذى يريده الاخوان ويهيئون له أنفسهم ٠٠ فهو اصلاح شامل كامل تتعاون عليه قوى الامة جميعـا ، وتتجه نحـوه الامة جميعـا ، ويتناول كل الاوضاع القائمة بالتغيير والتبديل ٠

ان الاخوان المسلمين يهتفون بدعوة ، ويؤمنون بمنهـاج ، ويناصـرون عقيدة ، ويعملون فى سبيل ارشـاد النـاس الى نظام اجتماعى يتناول شئون الحياة جميعا اسمه (**الاسلام**) ٠

والاخوان المسلمون يعملون ليتأيد النظام بالحكام ، ولتحيا من جديد دولة الاسلام ، ولتشمل بالنفاذ هذه الاحـكام ، ولتقـوم فى الناس حـكومة مسلمة ، تؤيدها امة مسلمة ، تنظم حياتها شريعة مسلمة أمـر الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم فى كتابه حيث قال « ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع اهواء الذين لا يعلمون ٠ انهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وان الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين » ٠

ثم أخذ ـ رحمه الله ـ فى تناول النظام الاجتماعى فى مصر وما فيه من فساد مستعرضا بعض نتائج هذا الفساد ٠٠ وهنا سنت نظر السادة القراء

الى أن الاستاذ الامام كان يلقى هذا الخطاب فى عام ١٩٤١ فهو يصف ما كان موجودا فى ذلك الوقت مما كان يجهله الشعب كل الجهل ولا يعلم عنه شيئا - وهذا الجزء من كلمة الاستاذ - رحمه الله - هو الذى استغرق تحضيره جهدا كبيرا وبحثا مستفيضا ووقتا طويلا أياما ذات عدد اذ تمكن من الحصول على مظان ومراجع لم تكن متداولة بين عامة الناس . وقال رحمه الله :

بعض نتائج فساد النظام الاجتماعى (الحالى) فى مصر(١)

أيها الاخــوان ..

اننا فى أخصب بقاع الارض ، وأعذبها ماء ، وأعدلها هواء ، وأيسرها رزقا ، وأكثرها خيرا ، وأوسطها دارا ، وأقدمها مدنية وحضارة وعلما ومعرفة وأحفلها بآثار العمران الروحى والمادى والعملى والفنى . وفى بلدنا المواد الاولية والخامات الصناعية والخيرات الزراعية وكل ما تحتاج اليه أمة قوية تريد أن تستغنى بنفسها وأن تسوق الخير الى غيرها . وما من أجنبى هبط هذا البلد الامين الا صح بعد مرض ، واغتنى بعد فاقة ، وعز بعد ذلة ، وأترف بعد البؤس والشقاء .

فماذا أفاد المصريون أنفسهم من ذلك كله ؟ لا شىء .. وهل ينتشر الفقر والجهل والمرض والضعف فى بلد متمدن كما ينتشر فى مصر الغنية مهد الحضارة والعلوم وزعيمة أقطار الشرق غير مدافعة ؟ !

اليكم أيها الاخوان بعض الارقام التى تنطق بما يهددنا من أخطار اجتماعية ماحقة ساحقة ان لم يتداركنا الله فيها برحمته فسيكون لها أفدح النتائج وأفظع الاثار :

١ - الفلاحون فى مصر يبلغون ثمانية ملايين . والارض المنزرعة نحو ستة ملايين من الافدنة ، وعلى هذا الاعتبار يخص الفرد الواحد نحو ثلثى فــدان .

فاذا لاحظنا الى جانب هذا أن الارض المصرية تفقد خواصها لضعف المصارف وكثرة الاجهاد ، وأنها لهذا السبب تأخذ من السماد الصناعى أضعاف غيرها من الارض التى تقل عنها جودة وخصوبة ، وأن عدد السكان يتكاثر تكاثرا سريعا ، وأن التوزيع فى هذه الارض يجعل من هذا العدد أربعة ملايين لا يملكون شيئا ، ومليونين لا يزيد ملكهم عن نصف فدان ، ومعظم الباقى لا يزيد ملكه على خمسة أفدنة ... علمنا مبلغ الفقر الذى يعانيه

---

(١) فى عام ١٩٤١ .

الفلاحون المصريون ودرجة انحطاط مستوى المعيشة بينهم درجة ترعب وتخيف ..

ان أربعة ملايين من المصريين لا يحصل أحدهم على ثمانين قرشا فى الشهر الا بشق النفس ، فاذا فرضنا أن له زوجة وثلاثة أولاد وهو متوسط مايكون عليه الحال فى الريف المصرى بل فى الاسر المصرية عامة .. كان متوسط ما خص الفرد فى العام جنيهين ، وهو أقل بكثير مما يعيش به الحمار ، فان الحمار يتكلف على صاحبه (١٤٠ قرشا خمس فدان برسيم و ٣٠ قرشا حملا ونصف الحمل من التبن و ١٥٠ قرشا أردب فول و ٢٠ قرشا أربعة قراريط عفش ذرة ومجموعها ٣٤٠ قرشا) وهو ضعف ما يعيش به الفرد من هؤلاء الادميين فى مصر . وبذلك يكون أربعة ملايين مصرى يعيشون اقل من عيشة الحيوان .

ثم اذا نظرت الى طبقة الملاك وجدتهم مكبلين بالديون أذلاء للمحاكم والبنوك . ان البنك العقارى وحده يحوز من الرعون قريبا من نصف مليون فدان . ويبلغ دينه على الملاك المصريين ١٧ مليونا من الجنيهات الى أكتوبر سنة ١٩٣٦ . وهذا بنك واحد .

وقد بلغ ثمن ما نزعت ملكيته للديون من الارض والمنازل فى سنة ١٩٣٩ (٢٥٦ر٣٤٦ جنيها) فعلى أى شىء تدل هذه الارقام ؟

٢ ـ العمال فى مصر يبلغون (١٢٧ر٧١٨ر٥) أى نحوا من ستة ملايين عامل ، يشكو التعطل منهم (١١٩ر٥١١) أى أكثر من نصف مليون لا يجدون شيئا . وهناك الجيوش من حملة الشهادات العاطلين .

فكيف يشعر انسان هذه حاله بكرامته الانسانية أو يعرف معنى العاطفة القومية والوطنية وهو فى بلد لا يستطيع أن يجد فيه القوت ؟ ولقد استعاذ النبى صلى الله عليه وسلم من الفقر ، وقديما قيل : يكاد الفقر أن يكون كفرا .. فضلا عن أن المشتغلين من العمال مهددون باستغلال أصحاب رأس المال وضعف الاجور والارهاق فى العمل . ولم تصدر الحكومات بعد التشريع الكافى لحماية هؤلاء البائسين . وقد ضاعفت حالة الحرب القائمة هذا العدد من المتعطلين وزادت العاملين بؤسا على بؤسهم .

٣ ـ شركات الاحتكار فى مصر قد وضعت يدها على مرافق الحياة والمنافع العامة . فالنور والمياه والملح والنقل ونحوها كلها فى يد هذه الشركات التى لا ترقب فى مصرى الا ولا ذمة والتى تحقق افحش الارباح وتضن حتى باستخدام المصريين فى اعمالها .

لقد بلغت أرباح شركة المياه بالقاهرة منذ تأسست فى ٢٧ مايو سنة ١٨٦٥ الى سنة ١٩٣٣ عشرين مليونا من الجنيهات . وقد بلغ التفريط والتهاون بالحكومة المصرية أن باعت حصتها فى أرباح الشركة فى عهد وزارة رياض باشا (وكان ناظر الاشغال حينذاك محمد زكى باشا) بمبلغ ٢٠ ألفا من الجنيهات مع أن حصتها فى صافى الربح من تاريخ البيع وهو ١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ الى سنة ١٩٣٤ فقط بليونين ونصف مليون من الجنيهات .

ان فى مصر ٣٢٠ شركة أجنبية تستغل جميع مرافق الحياة . وقد بلغت أرباحها فى سنة ١٩٣٨ الماضية (٧ر٦٣٧ر٤٨٢) (١) جنيها كلها من دم المصريين الذين لا يجد نصفهم القوت . ولقد ربحت شركة مياه الاسكندرية وحدها سنة ١٩٣٨ (١٢٢ر٨٥٠ جنيها) وشركة مياه القاهرة (٢٨٤ر٨٩٢) جنيها . وهذه الشركات جميعا تخالف نصوص العقود فى كثير من التصرفات ثم لايكون التصرف معها الا متراخيا ضعيفا يفوت الفائدة على الحكومة وعلى الجمهور معا .

ولعل من الظريف المبكى أن نقول ان عدد الشركات المصرية الى سنة ١٩٣٨ بلغ احدى عشرة شركة فقط مقابل ٣٢٠ ثلاثمائة وعشرين شركة أجنبية .

٤ ـ لقد استقبلت العيادات الحكومية سنة ١٩٤٣ (٧ر٤٢١ر٣٨٣) مريضا . منهم مليون بالبلهارسيا ، وأكثر من نصف مليون بالانكلستوما ، ومليون ونصف بالرمد . وفى مصر ٩٠ فى المائة مريض بالرمد والطفيليات ، وفيها (٥٥ر٥٧٥) من فاقدى البصر . ويكشف لنا الكشف الطبى فى المدارس والمعاهد والجامعة ومنها الكلية الحربية ـ حقائق عجيبة عن ضعف بنية الطلاب وهم زهرة شباب الامة .. وكل ذلك فى أمة علمها نبيها أن تسأل الله أن يعافيها فى أبدانها وفى سمعها وفى بصرها .

ثم عرض بعد ذلك ـ رحمه الله ـ للامية ومدى تفشيها وعن انحطاط المستوى الخلقى وانتشار الجرائم التى يعاقب عليها القانون والجرائم التى لا يعاقب عليها القانون مما يخالف تعاليم الاسلام كشرب الخمر والقمار واليانصيب والسباق والعبث وغيرها . ثم قال :

□ الداء والدواء

أيها الاخوان .. هذه لغة الارقام ، وهذا قليل من كثير من مظاهر البؤس والشقاء فى مصر . فما سبب ذلك ؟ .. ومن المسئول عنه ؟ .. وكيف نتخلص منه ، وما الطريق الى الاصلاح ؟ ...

---

(١) قد يقدر القارىء ضخامة هذا الربح اذا تذكر ان ميزانية الدولة فى ذلك الوقت لم تكن تتجاوز اضعاف هذا الرقم .

أما سبب ذلك ففساد النظام الاجتماعى فى مصر فسادا لابد له من علاج فقد غزتنا أوروبا منذ مائة سنة بجيوشها السياسية وجيوشها العسكرية وقوانينها ونظمها ومدارسها ولغتها وعلومها وفنونها ، والى جانب ذلك بخمرها ونسائها ومتعها وترفها وعاداتها وتقاليدها ، ووجدت منا صدورا رحبة وأدوات طيعة تتقبل كل ما يعرض عليها . ولقد أعجبنا نحن بذلك كله ، ولم نقف عند حد الانتفاع بما يفيد من علم ومعرفة وفن ونظام وقوة وعزة واستعلاء ، بل كنا عند حسن ظن الغاصبين بنا فاسلمنا لهم قيادنا ، واهملنا من أجلهم ديننا ، وقدموا لنا الضار من بضاعتهم فأقبلنا عليه ، وحجبوا عنا النافع منها وغفلنا عنه . وزاد الطين بلة أن تفرقنا على الفتات شيعا وأحزابا يضرب بعضنا وجوه بعض ، وينال بعضنا من بعض ، لانتبين هدفا ولانجتمع على منهاج .

أما المسئول عن ذلك فالحاكم والمحكوم على السواء . الحاكم الذى لانت قناته للغامزين ، وسلس قياده للغاصبين ، وعنى بنفسه أكثر مما عنى بقومه حتى فشت فى الادارة المصرية أدواء عطلت فائدتها وجرت على الناس بلاءها . فالانانية والرشوة والمحاباة والعجز والتكاسل والتعقيد كلها صفات بارزة فى الادارة المصرية ـ والمحكوم الذى رضى بالذلة وغفل عن الواجب وخدع بالباطل وانقاد وراء الاهواء ، وفقد قوة الايمان وقوة الجماعة فأصبح نهب الناهبين وطعمه الطامعين .

اما كيف نتخلص من ذلك فبالجهاد والكفاح . ولا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة ، فنتخلص من ذلك كله بتحطيم هذا الوضع الفاسد وأن نستبدل به نظاما اجتماعيا خيرا منه ، تقوم عليه وتحرسه حكومة حازمة تهب نفسها لوطنها ، وتعمل جاهدة لانقاذ شعبها ... ولئن فقدت الامم مصباح الهداية فى أدوار الانتقال فان الاسلام الحنيف بين ايدينا مصباح وهاج نهتدى بنوره ونسير على هداه .

ثم تحدث ـ رحمه الله ـ عن وسائل الاخوان العامة وذكر انها تتلخص فى الاقناع ونشر الفكرة الاسلامية بكل وسائل النشر حتى يفقهها الرأى العام يناصرها عن عقيدة وايمان . ثم النضال الدستورى ثم قال :

« اما ما سوى ذلك من الوسائل فلن نلجأ اليه الا مكرهين . ولن نستخدمه الا مضطرين . وسنكون حينئذ صرحاء شرفاء ، لا نحجم عن اعلان موقفنا واضحا لا لبس فيه ولا غموض معه . ونحن على استعداد تام لتحمل

نتائج عملنا أيا كانت ، لا نلقى التبعة على غيرنا . ولا نتمسح بسوانـــا ، ونحن نعلم أن ماعند الله خير وأبقى ، وأن الفناء فى الحق هو عين البقاء ، وأنه لا دعوة بغير جهاد ، ولا جهاد بغير اضطهاد ، وعندئذ تدنو ساعة النصر ويحين وقت الفوز ، ويتحقق قول الملك الحق المبين « حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ، ولا يرد بأسنا عـــن القوم المجرمين » .

ثم تحدث ـ رحمه الله ـ بعد ذلك عن الاخوان والسياسة ووضح نوع السياسة الذى يباشره الاخوان ثم اخذ فى توضيح موقف الاخوان من الهيئات والاحزاب والحكومات المصرية ، ونجتزىء بفقرات من مما جاء فى خطابه عن موقف الاخوان من الحكومات المصرية حيث هو عنوان هذا الفصل وهـــو القضية التى نحن بصدد معالجتها مما أقتضانا أن نذكر ست مراحل لحظنا فيها مدى عناية الاخوان المسلمين بتوجيه الدعوة الى الطائفة الخامسة وهم الساسة والحكام . وكان سادس هذه المراحل هو عقد المؤتمر السادس وخطاب المرشد العام فيه . واليك فقرات من الخطاب مما جاء بهذا الصدد :

« فأما موقفنا من الحكومات المصرية على اختلاف ألوانها فهو موقـف الناصح الشفيق ، الذى يتمنى لها السداد والتوفيق ، وأن يصلح الله بها هذا الفساد . وان كانت التجارب الكثيرة كلها تقنعنا بأننا فى واد وهى فى واد ، وياويح الشجى من الخلى .

لقد رسمنا للحكومات المصرية المتعاقبة كثيرا من مناهـج الاصـلاح . وتقدمنا لكثير منها بمذكرات ضافية فى كثير من الشـئون التى تمس صميم الحياة المصرية ..

لقد لفتنا نظرها الى وجوب العناية باصلاح الاداة الحكومية نفسها باختيار الرجال وتركيز الاعمال وتبسيط الاجراءات ومراعاة الكفايات والقضاء على الاستثناءات .

والى اصلاح منابع الثقافة العامـة باعادة النظر فى سياسـة التعليم ومراقبة الصحف والكتب والسينما والمسارح والاذاعة ، واستدراك نواحى النقص فيها وتوجيهها الوجهة الصالحة ..

واصلاح القانون باستمداده من شرائـع الاسـلام ، ومحـاربة المنكر ومقاومة الاثم بالحدود وبالعقوبات الزاجرة الرادعة .

وتوجيه الشعب وجهة صالحـة بشغله النافـع من الاعمـال فى أوقات الفراغ ..

فماذا أفاد كل ذلك ؟ .. لاشيء ... وستظل (لاشيء) هي الجواب لكل المقترحات ما دمنا لا نجد الشجاعة الكافية للخروج من سجن التقليد والثورة على هذا « الروتين العتيق » ومادمنا لم نحدد المنهاج ولم نتخير لانفاذه الاكفاء من الرجال .... ومع هذا فسنظل في موقف الناصحين حتى يفتح الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الفاتحين .

ثم نختم مقتطفاتنا من هذا الخطاب القوى الجامع بفقرة عنونها ـ رحمه الله ـ «بكلمة حق» وهى كلمة أراد أن يؤكد بها ما بدأ به خطابه وما كان هو أشد الناس حرصا عليه وهو سلامة بناء الدعوة وطهارته وتساميه عن كل ما يشوب الهيئات والدعوات فقال :

□ **كلمـة حـق :**

نحب بعد هذا أن نقول كلمة صريحة لاولئك الذين لا زالوا يظنون أن الاخوان يعملون لحساب شخص أو جماعة : اتقوا الله أيها الناس ، ولا تقولوا مالا تعلمون . واذكروا قول الله تعالى : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا » . وقول رسول الله صلى الله عليه سلم : « وان أبغضكم الى وأبعدكم منى مجلسا يوم القيامة المشاءون بالنميمة ، المفرقون بين الاحبة ، الملتمسون للبرءاء العيب » وليعلموا تماما أن اليوم الذى يكون فيه الاخوان المسلمون مطية لغيرهم أو أداة لمنهاج لايتصل بمنهاجهم لم يخلق بعد ... وأذكر أننى كتبت فى احدى المناسبات خطابا لاحد الباشوات جاء فى آخره :

« ان الاخوان المسلمون يا رفعة الباشا لا يقادون برغبة ولا برهبة ، ولا يخشون أحدا الا الله ، ولا يغريهم جاه ولا منصب ، ولا يطمعون فى منفعة ولا مال ، ولا تعلق نفوسهم بعرض من أعراض هذه الحياة الفانية ، ولكنهم يبتغون رضوان الله ويرجون ثواب الآخرة ويتمثلون فى كل خطواتهم قول الله تبارك وتعالى « ففروا الى الله انى لكم منه نذير مبين » فهم يفرون من كل الغايات والمطامع الى غاية واحدة ومقصد واحد هو رضوان الله . وهم لهذا لا يشتغلون فى منهاج غير منهاجهم ، ولا يصلحون لدعوة غير دعوتهم ، ولا يصطبغون بلون غير الاسلام « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » .. فمن حاول أن يخدعهم خدع ، ومن أراد أن يستغلهم خسر ، ومن طمع فى تسخيرهم لهواه أخفق . ومن أخلص معهم فى غايتهم ووافقهم على متن طريقهم سعد بهم وسعدوا به ، ورأى فيهم الجنود البسلاء والاخوة الاوفياء ، يفدونه بأرواحهم ، ويحيطونه بقلوبهم ، ويرون له بعد ذلك الفضل عليهم .. أكتب لكم يا رفعة الباشا لارجاء معونة مادية لجماعة الاخوان المسلمين ،

ولا رغبة فى مساعدة نفعية لاحد اعضائها العاملين ، ولكن لادعوكم الى صف هؤلاء الاخوان بعد دراستهم دراسة جدية صحيحة تقنعكم بمنهاجهم ، وتنتج تعاونكم معهم فى اصلاح المجتمع المصرى على أساس متين من الخلق الاسلامى وتعاليم الاسلام « ولله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون · بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » ·

بمثل هذا الاسلوب نخاطب الناس ، ونكتب لرفعة النحاس باشا ومحمد محمود باشا وعلى ماهر باشا وحسين سرى باشا ، وغيرهم ممن نريد أن نعذر الى الله بابلاغهم الدعوة وتوجيههم الى ما نعتقد أن فيه الخير والصواب لهم وللناس ·

أفيقال بعد هذا ان الاخوان المسلمين يعملون لحساب شخص أو هيئة كبر ذلك أم صغر ؟ قل أم كثر ·· « لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين » ومعاذ الله أن نكون فى يوم منالايام لغير دعوة القرآن وتعاليم الاسلام · »

وبعد أن أنهينا مقتطفاتنا من الخطاب نقول : ان بيان حسن البنا فى هذا المؤتمر كان شواظا من نار ، حيث تحدث لاول مرة — بتفصيل مثير — عن الاستعمار الاقتصادى فى مصر · فكشف بذلك من عورة الاستعمار ما كان مستورا بواجهة مصطنعة من ساسة مصريين ·

والمستعمرون قد يسكتون وقد يتغافلون وقد يغفرون ·· اذا هاجمهم مهاجم فى سياستهم الاستعمارية فيما يمس الحريات ·· بل نهم قد يتحملون اذا هاجمهم المهاجم فى احتلال جيوشهم أرضا غير أرضهم ·

أما الذى لا يتحمله المستعمرون ولا يتغاضون عنه ولا يسكتون عليه ولا يغفرونه فهو أن يهاجموا فى استغلالهم الاقتصادى ·· انهم حينئذ يحسون أنهم قد طعنوا فى سويداء قلوبهم ، ويشعرون انهم أصبحوا فى موقف من يدالفعون عن حياتهم ·· فيستبيحون جميع الوسائل المتاحة لهم للتعجيل بضرب هذا المهاجم والقضاء عليه قبل أن يقضى عليهم ·

ذلك أن جميع أساليب الاستعمار ووسائله من احتلال الارض ، وافساد الخلق ، وبث الفرقة ، وشراء الضمائر ، وحجب العلم ، ونشر الجهل والمرض والاذلال ·· كل هذه الاساليب والوسائل ما هى الا مقدمات وممهدات وخدما للوصول الى الغرض الاصيل من الاستعمار . وهو وضع يد المستعمر على مقدرات البلاد ، والتمكن من استنزاف خيراتها وحرمان أهلها منها ·

لقد صبر المستعمر على حسن البنا حين هاجمهم من قبل فى اعتدائهم على حريات الشعب واحتلالهم لارضه ، وافسادهم الذمم والاخلاق مع اشارة

مجملة الى استغلالهم الاقتصادى ·· واقتصر ردهم عليه على الحد من حريته ووضع العراقيل فى طريقه ـ أما حين سمعوه فى المؤتمر السادس يهاجم استغلالهم الاقتصادى بتفصيل يفهمه ويتأثر به جميع الناس حتى العوام منهم ـ مما كانوا حريصين أشد الحرص على حجبه عن سائر الشعب ـ حينئذ قرروا فيما بينهم أن لا مناص من وضع خطة اللقضاء على شخصه ـ ولكن الحرب العالمية الثانية كانت تستغرق كل جهدهم مما لا يدع لهم فرصة التفكير فيما سواها فأجلوا وضع الخطة وتنفيذها حتى تضع الحرب العالمية أوزارها ·

٦ ـ زيادة الزحف الشعبى ضد الاستعمار :

وماكادت الحرب العالمية الثانية تضع أوزارها ـ بعد أن حاول دخول مجلس النواب مرتين ـ حتى رأوا حسن البنا يتقدم صفوف المطالبين بحرية مصر واستقلالها ، ويتزعم حركة مواجهة صريحة لا تعرف هوادة ، ثم رأوه يقتحم على اليهود فى مستعمراتهم المغتصبة ، ويذيقهم بأيدى رجاله ما أذيق آباؤهم من قبل بأيدى الرعيل الاول من الصحابة الكرام فى حوارى يثرب وأزقتها حين خانوا ونكثوا العهود ·

تلقى العالم الغربى بيانى حسن البنا فى المؤتمرين الخامس والسادس على أنهما إعلان حرب مقدسة عليه وعلى ما هو مستمتع به من نفوذ فى العالم الاسلامى المستكين المهلهل المقطع الاوصال ·· واثبتت لهم الاحداث بعد ذلك انه كان جادا فى كل كلمة أعلنها ·

كما وقعت هذه البيانات وما صحبها وتلاها من خطوات عملية من الساسة المحليين موقع الصاعقة المزلزلة ، حيث هددت بنسف مطامعهم ومصالح تواطئهم ·· فوافق شن طبقه كما يقول المثل ، وتلاحمت مصالحهم مع مصالح سادتهم المستعمرين ، واتحدت ارادتهم جميعا على سحق هذه الدعوة ، ومحو قائدها من الوجود ··· وكانت المؤامرة العالمية التى أتينا فى الفصول السابقة على ملامح منها ·

وبعـــــد :

فعودا الى السؤال الذى قد يتلجلج فى صدور كثير من الناس والذى وضعناه فى اول هذا الفصل ونصه : لما كان حسن البنا يعلم من خطورة بقاء هذه الطائفة (الساسة والحكام) على فسادها ما يعلم ، فلم لم يسارع بالتوجه بدعوته اليها من أول يوم ؟

نقول : بعد أن يستعرض السائل المراحل الست التى أتينا على لمحات خاطفة مما قام به حسن البنا من جهود فى خلالها ٠٠ هل يجد السائل بعد ذلك فى نفسه حرجا من أن حسن البنا قد أولى هذه الطائفة من العناية ما هى جديرة به ، وهل كان هناك فضل من عناية أو مزيد من جهد حتى يكون قد أعذر الى الله فى شأنها ؟

ان جهود حسن البنا حيال هذه الطائفة من الساسة والحكام تذكرنا بقول الله عز وجل فى كتابه الكريم : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما » ٠

الفصل الرابع

آخر ما كتبه حسن البنا بخط يده للنشر

نشرت جريدة « المصرى » فى عددها الصادر فى أول أكتوبر ١٩٤٩ وبملء صفحتها الاولى حديثا تحت العنوان التالى :

الحديث الذى أدلى به الشيخ حسن البنا
بعد حل الجمعية ومقتل النقراشى باشا وقبيل مقتله ببضعة أيام

وتحت هذا العنوان كتبت : « صادفه قيام حرب فلسطين سلسلة من الانفجارات الداخلية والحوادث أدت الى توتر الحالة فى مصر ، وانتهت بأن أصدر المغفور له دولة النقراشى باشا أمرا عسكريا بحل جمعية الاخوان المسلمين ٠

وزاد الامر العسكرى الحالة توترا ، وباتت البلاد ونذر الشر تخيم عليها ، واذا بحادث أليم يقع فيهز أركان الوادى وهو حادث اغتيال دولة النقراشى باشا ٠

وجاء هذا الحادث ليزيد الامور تعقيدا ، واشيع فى هذه الآونة أن الاستاذ الشيخ حسن البنا مهدد بالاغتيال ، ولذلك رأى « المصرى » أن يستوضح فضيلته رأيه فى موقفه وموقف جمعية الاخوان المسلمين بعد حلها وما يتبع الحل من حوادث جسام ٠ فأدلى الينا رحمه الله بالحديث الخطير التالى مكتوبا بخطه ، ووقع فضيلته على كل اجابة ٠ وقد امتنعنا عن نشره فى حينه لظروف لعلها لا تغيب عن ذهن كل قارىء » ٠

وجاءت الجريدة فى صدر الصفحة الاولى بنص سؤال منقول بالزنكوغراف واجابة الاستاذ المرشد عليه ، والاجابة مكتوبة فعلا بخط يده وخطه ليس غريبا على ، وبجانب التوقيع ٩-١-١٩٤٩ ٠

وقد نشرت « المصرى » فى عددها الصادر يوم ٢ من اكتوبر (اليوم التالى)أن الرقابة ارسلت مندوبا بعد أن أرسلت أعداد أول اكتوبر الى المحطات لشحنها الى البلاد ــ لمصادرة الذى طبع ٠ ومع أن « المصرى » استصدر أمرا من النيابة بالغاء أمر الرقابة ، فان اكثر الاعداد لم تصل الى البلاد وتسبب ذلك فى خسائر فادحة ، وقد أبرقت « المصرى » الى رئيس الحكومة محتجة ٠

نص الحديث

● **السؤال الاول :**

كان لما حدث للاخوان المسلمين أخيرا صداه فى مختلف الدوائر السياسية التى كانت ترقب باهتمام حركات الجماعة وآثارها فى مختلف الشئون الاسلامية والعالمية ـ لذلك رأينا أن نستوضح فضيلتكم فى الاسباب التى دفعت بالمسئولين فى مصر الى اتخاذ تلك الاجراءات ؟

□ **الاجابة :**

لايمكن بالتحديد أن أحصر الاسباب التى دعت الذين أصدروا هذا القرار الى اصداره ٠ ولكن يقال ان من هذه الاسباب التحول الذى طرأ أو فى النية أن يطرأ على اتجاهات السياسة البريطانية فى الشرق ٠ ومن المعلوم أن بريطانيا تعتبر الاخوان المسلمين قوة وطنية متطرفة ، وتعزو الى دعايتهم تعطيل مشروعات الاتفاق بينها وبين مصر ٠

كما يقال ان من هذه الاسباب العوامل الحزبية التى تصاحب قرب موعد الانتخابات النيابية ، اذ أنه من المعروف أن الحزب السعدى يريد أن يظفر بأغلبية برلمانية تمكنه من الاستمرار فى الحكم ٠ ومن المعروف أن الاخوان المسلمين هم قوة شعبية ينتظر منها الصمود فى هذا الموقف ، فمن التكتيك الحزبى أن يشوه موقفهم بمثل هذا العمل قبل حلول موعد الانتخابات الذى سيكون فى أكتوبر ١٩٤٩ مالم تطرأ عوامل على الموقف ٠

ويقال كذلك ان رغبة الحكومات العربية فى انهاء قضية فلسطين ولو على غير ما تريد الشعوب كان من العوامل التى أوحت الى الحكومة المصرية بهذا الموقف ٠

ويقال أيضا انه كان هناك من الضغوط الاجنبية مالم تستطع معه الحكومة المصرية الا أن تتخذ هذا الاجراء ٠ وعلى كل حال فهو موقف يؤسف له ، وقد أدى الى عكس المقصود منه ، وما لم يعدل فى وقت قريب فان الامور فى الداخل والخارج لا يمكن أن تستقر على هذا الاساس من الضغط والظلم والتحدى والارهاق ٠

● **السؤال الثانى :**

هل تنتظرون فضيلتكم أن تقتدى الحكومات الاسلامية الاخرى بمصر فى اتخاذ اجراءات مماثلة مع فروع الجماعة ومنظماتها فى شعوبها ، أم انما هى اجراءات محلية لا تمتد الى الاخوان المسلمين بصفتها هيئة عالمية ؟

□ الاجابة :

لا أنتظر ذلك ، فان الاخوان المسلمين يقومون فى كل حكومة من هذه الحكومات ولكل شعب من هذه الشعوب بأجل الخدمات • ولولا أن لطبيعة دولة النقراشى باشا رحمه الله ولبعض العوامل النفسية والتصورات الخاصة التى استولت عليه أكبر الاثر فى هذا العمل لما حدث فى مصر نفسها ، ولهذا أعتقد انها اجراءات محلية بحتة ، وسوف لا تلبث أن تزول باذن الله •

● السؤال الثالث :

هل ترون أن الاجراءات التى اتخذت كانت من وحى تفكير مصرى خالص أو أن هناك يدا أجنبية كان لها فى ذلك تأثير ، واذن فلمن تكون هذه اليد ؟

□ الاجابة :

يقال ان هناك ضغوطا أجنبية دفعت الحكومة المصرية ، وانه كان للسفير البريطانى والسفير الفرنسى والقائم بأعمال السفارة الامريكية أثر فى ذلك • وان كانت الحقيقة أن الاخوان المسلمين لا يضمرون لدولة من الدول ولا لشعب من الشعوب ولا لطائفة من الطوائف عدا الصهيونيين المحاربين الا الخير •

● السؤال الرابع :

ما هو مصير قوات الاخوان المسلمين المجاهدة فى فلسطين فيما لو قررت الحكومات العربية الانسحاب منها ، ومهادنة اليهود أو مصالحتهم • وهل تحارب هذه القوات تحت اشراف قوة من قوى الدول العربية أم تعمل مستقلة؟

□ الاجابة :

لا تزال القوات تجاهد فى مراكزها ببسالة وشجاعة وايمان • وهى تحارب الآن تحت اشراف الجامعة العربية ، ولا يمكن الآن تحديد موقفها فى المستقبل ، وان كانت القاعدة العامة ان الاخوان المسلمين جميعا قد عاهدوا الله على ان يظلوا مجاهدين فى سبيله حتى تتحرر فلسطين من عصابات الصهيونية المعتدية وتعود الى أهلها العرب •

● السؤال الخامس :

يشيع خصومكم فى الاوساط السياسية ان الاخوان المسلمين علاقة بالشيوعيين ، ويستدلون على ذلك بالتشابه الموجود بين بعض التشكيلات والاتجاهات فى كلتا الهيئتين • فما هو نصيب ذلك من الصحة ؟ وفيما يزعم البعض من أن دولة أجنبية تساعد الاخوان ماديا ؟

□ **الاجابة :**

لقد قيل مثل هذا كثيرا ، واتهم الاخوان بأنهم على صلة بالنازية من قبل ، وأن شبابهم منظم على نسق شباب هتلر ، وأن بعض تشكيلاتهم تشبه هذه التشكيلات الخ ••• ولكنى أؤكد كل التأكيد أن الاخوان لم يتصلوا بأحد، ولم تساعدهم أية دولة أجنبية بشيء مادى أو أدبى ، وأنهم يسيرون على نمط اسلامى عربى مبين ، ويعتمدون على ايمانهم ومواردهم الخاصة • وهذا هو فى الحقيقة سر نجاحهم وثبات دعوتهم وجماعتهم للعواصف والاعاصير •

● **السؤال السادس :**

بعد الحوادث الاخيرة هل جرت اتصالات من جانبكم أو من جانب خصومكم لتسوية الموقف • وهل أنتم مستعدون للاستجابة لشيء من ذلك ؟ وما هى الاسس التى ترونها لازمة لتسوية الموقف ؟

□ **الاجابة :**

نعم جرت اتصالات بيننا وبين الحكومة المصرية ـ ولا أقول خصومنا ـ فاننا لم نفكر فى يوم من الايام بعقلية تستسيغ اشعال العداوة بين الوطنيين• وكل الذى نطلبه هو رفع هذه المظالم عن الاخوان ، والسماح لهم بمزاولة نشاطهم المشروع بالاسلوب الذى يستفيد منه الوطن ويخدم الاسلام • وأظن أن الاستعداد من جانب الحكومة المصرية لا بأس به ، اذ أن فى هذا الطريق وحده استقرار الامور ، وبعث الطمأنينة فى نفوس الاجانب والوطنيين على السواء •

وأحب أن أنتهز الفرصة فأوجه لنزلاء مصر من الاجانب المدنيين والسياسيين منهم هذه الكلمة :

« انهم يخطئون أشد الخطأ حين يعتقدون أن الاخوان خصوم لهم أو يتعصبون عليهم أو يريدون بهم شرا أو سوءا • وكل هذه دعايات سخيفة باطلة لان دعوة الاسلام تتنافى مع التعصب والاعتداء ـ ودعوة الاخوان هى دعوة الاسلام •• وكل ما هنالك أن نشوب الحرب بين مصر وبين الصهيونيين ـ وموقف الكثير من اليهود المصريين أو الاجانب المقيمين فى مصر من هذه الحرب وما تميز به من برود وشماتة ووقوف عن المساعدة ـ قد أحدث حالة من التوتر بين الاخوان المتحمسين للجهاد وبين هؤلاء اليهود الذين يصرون على مساعدة الصهيونية ويطنون مصر فى ظهرها وهى تحارب •

أما من عداهم من الاجانب أو الوطنيين غير المسلمين ـ مهما كانت عقيدتهم ـ فلم يفكر احد فى أن يمد اليهم يده أو لسانه بسوء •• وعلى هذا فمن الخير لهؤلاء الاجانب انفسهم أن يكونوا عوامل وفاق لا عوامل خصومة وخلاف بين الحكومة والاخوان • وفى هذا الخير للجميع •

● السـؤال السابع :

ماذا تنوون عمله فى المستقبل ؟ وهل تعتقدون أنه من الممكن أن يرجع الاخوان الى صيغتهم الشرعية ونشاطهم العلنى السابق ؟

□ الاجابة :

من الممكن جدا والميسور جدا كذلك أن يعود الاخوان الى صيغتهم الشرعية ونشاطهم العلنى باذن الله ، وسيكونون حينئذ من أقوى العوامل فى تربية الشعب المصرى تربية فاضلة ناضجة تقوم على أساس الايمان الصافى وتقدير الواجب ومعرفة الحقوق والتمسك بالفضيلة والمثل الانسانية العليا المستمدة من الاسلام الحنيف ، وهو خلاصة ما جاء به الانبياء والمرسلون والكتب من شرائع وتعاليم ٠

● السـؤال الثامن :

ماذا تنتظرون من آثار فى قضية فلسطين لما انكشف للحلفاء الغربيين أخيرا وكان له تأثير على الرأى العام فى الشعوب الديمقراطية من مساعدة الروسيين ومن يدور فى فلكهم لليهود بالمال والسلاح ؟

□ الاجابة :

ننتظر أن تعدل حكومات الغرب عن خطتها فى معاونة الصهيونيين ٠ ولو أن هذا التنبيه جاء بعد فوات الفرصة ٠ وهذا اذا كان المنطق والمصلحة الحقيقية ـ لا الدعايات الصهيونية واغراءات اليهودية العالمية المختلفة ـ هما اللذان يؤثران فى هذه الحكومات ٠

● السـؤال السابع :

حدثت تغييرات فى الحكومات العربية اخيرا فى وقت كان المنتظر فيه استقرار الحكم فى البلاد العربية ٠ فما رايكم فى ذلك ؟ وعلام يدل ؟

□ الاجابة :

اظن أن ذلك من الامور الطبيعية فى مثل هذه الظروف ، فان تطورات قضية فلسطين ومفاجآتها وشدة حساسية الشعوب بكل ما يطرأ من هذه التطورات ، مع مفاجآت السياسة البريطانية الدائبة ـ كل ذلك يجعل مثل هذه التغيرات أمورا عادية ٠ وهو لا يدل على شىء فيما نعتقد الا على أن سياسة الحكومات العربية ما زالت الى حد بعيد مرتجلة ، وخاضعة للتاثير البريطانى ، بعيدة عن مطالب الشعوب ومشاعرها الحقيقية ٠٠ وهو ما يؤسف له ٠ ولابد من النظر فى علاجه بوضع سياسات ثابتة مستقرة تستمد من روح الشعب وحسن توجيهه والاعماد عليه ٠ »

الفصــــل الخــامس

حسن البنا وكبار الدعاة في العالم الاسلامي في العصر الحديث

لا ينبغى فى القاء نظرتنا الاخيرة على حسن البنا أن نغفل أمرا ذا بال . هو أن نقيم أسلوبه فى الدعوة مقيسا بأساليب كبار الدعاة الذين قاموا بأعباء الدعوات فى أنحاء العالم الاسلامى فى خلال هذا القرن الذى نعيشه .. وقد يكون أبرز هؤلاء الدعاة هم :

أولا ـ السيد جمال الدين الافغانى :

وهو رائد الدعاة فى هذا القرن ، وأحد أفذاذ العلماء وأئمة الدعاة ـ نشأ فى القطاع غير العربى من العالم الاسلامى ، وحمل لواء الفكرة الاسلامية الى كثير من الاقطار الاسلامية وغير الاسلامية ـ وحضر الى مصر وأقام بها مدة .. وتتلمذ على يديه ، وتلقى عنه فكرته رعيل من كبار المفكرين وعلية القوم ، منهم الشيخ محمد عبده وسعد زغلول والامير محمد توفيق الذى صار بعد ذلك خديوى مصر وتنكر لاستاذه وناصبه العداء وأخرجه من مصر .

وانتقل السيد جمال الدين أخيرا الى الاستانة حيث يقال انه قد دس له السم فى طعامه بتدبير من الطبقة الحاكمة فذهب الى ربه يشكو ظلم الظالمين .. وكان ـ رحمه الله ـ آية من آيات الله حاد الذكاء ، قوى الحجــة ، سريــع الخاطر ، عميق الايمان بفكرته ـ وقد أصدر مجلة « العروة الوثقى » التى جعل تلميذه محمد عبده رئيسا لتحريرها .

ثانيا ـ الشيخ محمد عبده :

واذا ذكر الشيخ محمد عبده لزم ذكر الثورة العرابية ، فلقد كان أحــد أركانها ، وقد نفى مع من نفى من قادتها الى خارج مصر ـ واشتراك محمــد عبده فى ثورة عرابى يدل على أن الفكرة التى تلقاها تلامذة السيد جمال الدين منه عن شمول الفكرة الاســلامية لكل شئون الحيــاة هى التى جعلت هــؤلاء التلاميذ يرون أن الشئون العسكرية جزء من هذه الفكرة .

ولا شك فى أن الثورة العــرابية فى ذاتها لم تكن الا ثمــرة من ثمــرات التعاليم الاسلامية التى بثها السيد جمال الدين فى أذهان الصفوة من القادة الذينكانوا يلوذون به ويستمعون الى أحاديثه .

وهذه الثورة بعد أن فشلت ـ لاسباب ليس هنا موضع ذكرها ـ قد تناولها الكتاب والمؤرخون تناولا مشبوها ، اذ أخذوا ما أخذوه عنها من أفواه الاعداء المغرضين ، الذين كان همهم الاول أن يفصلوا هذه الثورة عن الفكرة الاسلامية التى أوحت بها ٠٠ مع أن قائد هذه الثورة ـ أحمد عرابى ـ قد وضع كتابا سجل فيه أطوار حياته منذ ولد ٠٠ وقارىء هذا الكتاب حين يقرأه يشعر بأن الفكرة الاسلامية كانت قوام حياة هذا الرجل ، وبأن كل ماتمخضت عنه حياته من أعمال لم تكن الا من وحى هذه الفكرة ٠ وحسب القارىء أن يعلم أن الكلمة التى أثرت عن أحمد عرابى والتى أجمل فيها كل ما يضطرم فى نفسه من مشاعر دفعته الى هذه الثورة هى قوله مخاطبا الحكام فى شخص الخديوى « كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » وهى هى نفس الكلمة التى قالها عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص أمير مصر حين ضرب ابنه ابن المصرى بغير جريرة ٠

ونرجع الى السياق فنقول : ان محمد عبده ـ بعد أن عاد من منفاه ـ عاد بفكرة جديدة ، متأثرة بما لقيه فى منفاه من اذلال واعنات ، تلك أنه صار يرى أن السبيل الاقوم لتحقيق الفكرة الاسلامية هو تعليم الشعب وتربيته دون اقتحام ميادين أخرى ٠٠ وأخذ فى العمل لهذه الفكرة حيث أنشأ هو وتلميذه السيد محمد رشيد رضا مجلة « المنار » التى أدت دورا لا ينكر فى توضيح الفكرة الاسلامية ، وتثقيف طبقة من الشعب ثقافة اسلامية مستنيرة ٠

كما حاول اصلاح الازهر باخراجه عن جموده فى بعض مناهجه الدراسية التى كادت تقطع الدارسين فيه عن المنابع الاصلية من القرآن والسنة والوقوف بهم عن آراء المتاخرين ومؤلفاتهم ٠٠ وقد آتت هذه المحاولة بعض الثمار ٠

ثالثا ـ مصطفى كامل :

أنشأ مصطفى كامل « الحزب الوطنى » الذى ـ مهما اختلفت الصور التى فى أذهان الناس عن فكرته ـ فان فكرته الاصيلة التى قام على اساسها ، وظل مصطفى كامل ـ ما عاش ـ ملتزما بها ، لا يحيد عنها ـ هى الفكرة الاسلامية ٠٠وقد أشرت الى ذلك ببعض التوضيح فى موضع سابق من هذا الكتاب ٠

وبدأ مصطفى كامل فى تنفيذ فكرته بجمع أكبر عدد من كبار الوطنيين فى القاهرة : حيث كون منهم ادارة الحزب ٠ واعتمد على خطب قوية رنانة واجه فيها الاستعمار مواجهة صريحة لا هوادة فيها ، وعلى مقالات نارية تعتبر صدى لهذه المواجهة فى جريدة اللواء التى انشاها ـ كما انه اعتمد أيضا

على جولات له فى فرنسا وبعض البلاد الاوربية القى خلالها خطبا مثيرة عن فضائح الاستعمار البريطانى أملا فى كسب رأى عام للقضية المصرية ضد انجلترا ٠

ولم تتح له ـ رحمه الله ـ فرصة أن يولى مختلف أقاليم البلاد نفس العناية التى أولاها العاصمة ٠٠ ومع ذلك فقد كان لخطبه ومقالاته وجريدته تأثير كبير فى الرأى العام فى الاقاليم ٠ ولكن هؤلاء المستجيبين والمعجبين لم يجدوا من ينظم صفوفهم ، ويثقف عقولهم ، ويتعهد نفوسهم ، وينشىء منهم أمة متراصة واعية ذات عقيدة راسخة٠٠ فلما مات مصطفى كامل أو بالاحرى لما اغتاله الاستعمار فى عنفوان شبابه ، لم يجد أتباعه ومحبوه ما يعتصمون به من فكرة بلغت من نفوسهم مبلغ العقيدة ٠٠ فتفرقوا وتوزعتهم الافكار الاخرى والمبادىء البراقة المزيفة ٠

رابعا ـ سعد زغلول :

وهو ممن تلقوا عن السيد جمال الدين أيضا ، غير أنه اتخذ لنفسه اسلوبا بعد به عن فكرة أستاذه ، حيث اكتفى بالناحية السياسية المجردة منفصلة عن الدين ـ مع أن سعدا كان أزهريا ـ نفقدت هذه الناحية بذلك روحها ومسخت ٠٠ فبعد أن كانت السياسة نضالا ومواجهة وتضحية،صارت استجداء وقناعة بفتات موائد العدو ـ وقد سبق أن جلينا وصف هذا الانحراف فى فصول سابقة ٠

خامسا ـ الدعوة الوهابية :

وقد قام باعبائها الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى نجد بالجزيرة العربية٠ وقد رأى أن الناس فى العالم الاسلامى قد انتشرت بينهم البدع والخرافات حتى كادت تحجب حقيقة العقيدة الاسلامية وتذهب بوضاءتها ، وكادت تنحرف بهم الى الشرك ٠٠ فدعا الى الرجوع للكتاب والسنة والى تطهير العقيدة الاسلامية مما علق بها من خرافات ٠ فاستجاب له خلق كثيرون من أهل نجد ٠ وكان ممن استجابوا له أمير نجد فى ذلك الوقت وكان من آل سعود، الذين آل اليهم بعد ذلك ملك الجزيرة العربية ٠٠ فاكتسبت دعوته بذلك قوة اد صارت لها دولة تقوم على أساس من فكرتها ٠

ومع أن فكرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فكرة سليمة ، فان ما نهجه قلة من غير الناضجين من دعاتها من وسائل تجنح الى التغالى فى بعض الاحيان والى التطرف ، وعدم سلوك أساليب تقوم على التفاهم والود ٠٠ قد نفر الكثيرين منها فى أول الامر حتى رمى بعضهم بعضا بالكفر وممايؤسف له ان القلة المتطرفة تجنى دائما على الدعوة المنتسبة اليها وتشوه سمعتها

وتكون حائلا بين الناس وبين معرفة حقيقة الدعوة ... ولكن بمرور الايام تضاءلت هذه القلة غير الناضجة حتى لم يعد لها وجود الآن بين الدعاة .

سادسا ـ الدعاة فى المغرب العربى :

فى الوقت الذى كان المشرق العربى تتنازعه تعاليم الافغانى من ناحية ، واغراء الحضارة المادية الاوروبية من ناحية أخرى ، تحت وطأة الاحتلال البريطانى فى مصر والسودان والعراق ، والاحتلال الفرنسى فى بلاد الشام ـ كان المغرب العربى يرزح تحت وطأة أقدام ثقال من احتلال فرنسى وايطالى غاشم مصر على القضاء على الاسلام عن طريق قطع الصلات بين هذه الشعوب المسلمة وبين القرآن والتراث الاسلامى ، بانساء هذه الشعوب اللغة العربية واحلال اللغتين الفرنسية فى الجزائر وتونس ومراكش والايطالية فى ليبيا ... فقام مصلحون لمقاومة هذا التيار المخرب وكان على رأسهم :

١ ـ فى الجزائر : عبد الحميد بن باديس :

كانت وسيلته انشاء المدارس لتعليم الشعب اللغة العربية والقرآن ـ وقد لقى هو وأعضاء الجمعية التى يرأسها ـ فى سبيل النهوض بهذا المشروع ـ عنتا وظلما ومطاردة من السلطة الفرنسية .. ولكنهم بثباتهم ومواصلة الجهود والتضحيات استطاعوا أن يحفظوا لهذا الشعب المغربى هويته وعروبته وشخصيته المسلمة .

وقد يجهل أكثر القراء اسم عبد الحميد بن باديس ولا يعرفون الا أسماء أحمد بن بيلا وبومدين واخوانهم .. وهؤلاء ممن لا يجحد فضلهم فى تحرير الجزائر .. لكن هؤلاء جميعا قد نشأوا فى مدارس عبد الحميد بن باديس ، وأشربوا الروح الاسلامية فيها . ولولا تنشئتهم فى هذه المدارس لما أحسوا بالانتماء الى الاسلام والعروبة .. هذا الانتماء الذى كان المحرك الاول للثورة ..ولولاهذه التنشئة لفقدوا هم وجيلهم الشخصية المستقلة عن فرنسا ،وان كان بن بيلا وبومدين قد حادا بعد ذلك عن الطريق الصحيح واتجها نحو دخيلة سموها الاشتراكية .

٢ ـ فى ليبيا ـ الدعوة السنوسية :

قامت فى ليبيا الدعوة السنوسية ، وهى فى مظهرها طريقة صوفية تأخذ المنتسب اليها بأسلوب يجمع بين التربية الروحية والتربية العسكرية . وتقوم بانشاء « زوايا » وهى مساجد صغيرة فى الاماكن النائية وخارج المدن . وفى هذه الزوايا يتلقى المريدون عن شيوخهم البرامج المعدة لتربيتهم التربية التى أشرنا اليها .

وقد انتشرت هذه الزوايا فى أنحاء ليبيا انتشارا أقض مضاجع المستعمرين الايطاليين الذين كانوا يستظلون فى احتلالهم هذه البلاد بظل وارف من الرعاية البريطانية المجاورة لهم فى مصر ، فقام الاستعماران الايطالى والبريطانى بشن حرب غادرة على هؤلاء المجاهدين حتى قضوا عليهم، بعد أن استباحوا الحرمات ، وارتكبوا أفظع الجرائم الوحشية ٠٠ وقد أبلى المجاهدون فى خلال هذه الحرب غير المتكافئة أعظم بلاء ، وسجل التاريخ لهم بطولات خارقة ٠

وكان أشهر رجال الاسرة السنوسية التى أنشأت الدعوة وخرجت هؤلاء الابطال السيد أحمد الشريف السنوسى الذى كان الاستعمار البريطانى يعتبره فى ذلك الوقت ألد أعدائه ٠

□ موقف حسن البنا من هؤلاء الدعاة :

ليست القيادات التى أتينا على ذكرها فى هذه العجالة هى كل القيادات التى حملت اللواء فى العالم الاسلامى خلال هذا القرن ، بل هناك قيادات أخرى لها وزنها قامت بحركات عظيمة فى المغرب وايران والهند والقارة الافريقية ٠ ولكننا اجتزأنا بمن ذكرنا من قيادات باعتبار أن الاماكن التى قامت فيها هذه القيادات هى منابر ترنو اليها أنظار العالم الاسلامى كله ، ولها صدى فى آذان المسلمين فى كل مكان ٠

والآن ، وعلى ضوء ما ألمحنا اليه من هذه الدعوات والافكار والاساليب ، نستطيع أن نتبين أين هى دعوة حسن البنا بين هذه الدعوات ، وما وضع شخصيته بين هذه الشخصيات ٠٠٠ انه عاصر بعضها فى صغره ، وقرأ عن البعض الآخر ، ودرس هذه وتلك دراسة عميقة واعية ، بعقلية الداعية المؤهل الموهوب ، فعرف مواطن القوة فى كل منها ، وألم بمواطن الضعف ٠٠ وأخذ بعد ذلك فى تحديد خطته ، مستلهما توجيه القرآن ، وخطوات النبى صلى الله عليه وسلم ، غير متجاهل الاوضاع العالمية وواقع الشعب الذى يعيش فيه ٠٠ فتجنب فى خطته التى رسمها مواطن الضعف فى تلك الدعوات وأخذ بنواحى القوة فيها ٠٠٠ وقد نستطيع تصوير هذه الخطة فى النقاط التالية :

الاولى ــ وجد أن اقتصار السيد جمال الدين ــ فى توجيه دعوته ــ على القادة وكبار القوم ، دون توجيهها الى جماهير الشعوب ، قد جعل نجاح الدعوة أو فشلها متوقفا على مزاج هؤلاء القادة والكبراء ، الذين يعيشون ــ عادة ــ فى حماة الفتنة : أمام تلويح المستعمر لهم باغراء المناصب والمال وبعصا الانذار والارهاب ٠ وقلما يستطيع الفرد منهم ــ فى بلد مستعمر ــ أن يتحرر من هذا الشعور المسلط عليه بين اونة وأخرى ٠٠ وقد وضح ذلك فى انقلاب الامير محمد توفيق على السيد جمال الدين بعد أن خلع الانجليز والده اسماعيل

عن العرش ونصبوه بعده ــ كما وضح فى انحراف سعد زغلول عن خطة استاذه حين بهرته أبهة الزعامة فهادن العدو وميع قضية الاستقلال .

وتوجيه الدعوة الى القادة والكبراء ليس مما يعاب على السيد جمال الدين ، فكل صاحب دعوة يتمنى أن يختصر الطريق ، ويتصور أنه اذا أقنع علية القوم فقد أقنع من وراءهم . حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم تمنى ذلك وحاوله حتى عاتبه القرآن فى اهتمامه بالكبراء وتقديمهم على الضعفاء من غمار الناس بقوله تعالى « عبس وتولى أن جاءه الاعمى . وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى فأنت له تصدى . وما عليك أن لا يزكى . وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى . فأنت عنه تلهى . كلا انها تذكرة . فمن شاء ذكره » .

فخالق الناس يعلم أن الاعتماد على الكبراء ــ مع ما يتنازعهم من أهواء وآمال وفتن ــ لا يحقق ما يتمناه الدعاة الى الخير من اختصار الطريق فى نشر دعوتهم بل قد يؤدى الى عكس ما يتمنون .

لهذا ركز حسن البنا جهوده على الاتصال بالجماهير ، فوجه الدعوة اليهم وخالطهم وتفاهم معهم وأقنعهم وامتزج بهم وكون منهم قاعدة عريضة لدعوته .. . واذا كانت سيطرة المستعمر وعملائه على الكبراء وذوى المناصب سهلة المنال ، فان هؤلاء المستعمرين قد يعجزون عن بسط سيطرتهم على هذه القطاعات العريضة من الجماهير فى مختلف البلاد ومختلف الطبقات .

الثانية ــ لم يقتصر فى اتصاله بالجماهير على أسلوب الخطابة الذى ــ مهما كان بليغا ــ فان أثره لا يعدو أن يكون سطحيا ومؤقتا ، بل قد أولى الجانب الاكبر من اهتمامه أسلوب الاتصال الشخصى بأولئك الذين تأثروا بخطابته ، فجلس معهم ، وتناقش واياهم ، وتوسع فى الحديث معهم ، وآخى بينهم ، وربطهم بمكان يجتمعون فيه ومواعيد يلتقون فيها ــ فعالج بذلك النقص الذى فكك أوصال الحزب الوطنى بعد وفاة مؤسسه مصطفى كامل .. ولا ننسى أن نذكر أن برنامج مصطفى كامل رحمه الله وان كان هدفه اسلاميا فانه لم يكن للتربية الروحية فيه الوضع الذى يتناسب مع أهميتها .

الثالثة ــ لم ير حسن البنا فى أسلوب التعليم والتثقيف الوسيلة الوحيدة للنهوض بأعباء الدعوة الاسلامية ، بل اعتمده ضمن مجموعة من الاساليب التى لا غنى عنها . فقد رأى فى الاقتصار على هذه الناحية دون المشاركة فى جميع مسئوليات الامة ومشاكلها فى مختلف الميادين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية جنوحا بالثقافة والعلم الى الفلسفة والعقم ، وحرمانا للامة من جهود أبنائها فى مطالبها الملحة ــ فخالف فى ذلك الشيخ محمد عبده بعد رجوعه من المنفى .

ويجدر بنا هنا أن نلفت نظر القارئ الى أن حسن البنا حين اختلف مع محمد عبده فى اقتصاره على أسلوبه التعليمى لميكن متناقضا مع نفسه حين أيد عبد الحميد بن باديس فى أسلوبه التعليمى ، ذلك أن الظروف فى الجزائر كانت مختلفة عن الظروف فى مصر ٠٠ فلقد كان الاستعمار الفرنسى يحاول فرنسة الشعب الجزائرى وجعله جزءا من الشعب الفرنسى وأن تكون الجزائر امتدادا أرضيا لفرنسا ٠ ورأى هذا الاستعمار أن السبيل الوحيد لتحقيق هذا الهدف لا يمكن الا بالقضاء على اللغة العربية واحلال اللغة الفرنسية محلها باعتبار اللغة العربية هى لغة القرآن فاذا قضى عليها انقطعت الصلة بين الشعب الجزائرى وبين القرآن وهنا تسهل الفرنسة ٠

وأمام هذا الاسلوب وهذا الهدف كانت الوسيلة الوحيدة لعرقلة الاسلوب الفرنسى واحباطه هى العمل على نشر اللغة العربية ، وتعليمها للشعب بانشاء المدارس لهذا الغرض ٠ وهو ما فعله عبد الحميد بن باديس وواجه فى سبيله الاهوال ، ولكنه نجح فيه واستطاع أن يحفظ بذلك للشعب الجزائرى عروبته واسلامه ٠

ولهذا فان حسن البنا كان يؤيد هذه الخطة فى الجزائر وكثيرا ما بعث بالرسائل والبرقيات لشد أزر السيد عبد الحميد كما كان يكتب المقالات الضافية فى مجلة الاخوان لهذا الغرض ويعلن الاحتجاجات على السلطات الفرنسية لمصادرتها لمدارس السيد عبد الحميد واضطهاد رجاله العاملين معه ٠٠ وفى ذلك الوقت لم يكن أحد من المصريين شعبا وحكاما يحس بما يجرى فى الجزائر ولا يعير ذلك أدنى اهتمام ٠

وغنى عن الذكر أن نقول ان الاسلوب البريطانى فى استعماره لمصر كان مغايرا للاسلوب الفرنسى فى الجزائر اذ كان الاسلوب البريطانى يولى جل اهتمامه الى تغيير النفس المصرية من داخلها بطرق مغرية هادئة تتسرب اليها دون أن تحس ودون أن تشعر هى ولا غيرها بقسر أو ارغام ٠٠ وهذا الاسلوب أخطر فى آثاره من الاسلوب الفرنسى ومقاومته أصعب بكثير من مقاومة الاسلوب الفرنسى ٠

الرابعة ـ تجنب حسن البنا الفصل بين السياسة والدين ، حتى لا تتحول السياسة الى أشكال ومظاهر قائمة على أهواء الزعماء وأغراض الحكام ٠ بل جعل السياسة نابعة من الدين ، متفرعة عنه ٠ فحاطها بذلك بسياج متين كان وقاية لها من الانحراف والتفريط والخداع ، فصارت السياسة بذلك سياسة ذات حدود واخلاق ، لا تعطى الدنية فى الدين ولا فى

الاهل ولا فى الوطن ـ فعدل بذلك مسار السياسة ـ بعد أن انحرف بها سعد زغلول ـ فصارت مع العدو مواجهة وعداء بعد أن كانت تذللا واستجداء ٠

الخامسة ـ سبق أن تحدثنا عن موقف حسن البنا من موضوع البدع وطريقته فى تنقية الدين منها بالالتفاف حولها وتطويقها من باب خلفى ، دون الوقوف من أصحابها موقف التحدى والرمى بالشرك والنعت بالكفر الذى يخلق العناد والتعصب ، ويقطع الصلة ، ويقضى على فرص التفاهم بينهما ـ وبذلك تجنب العيب الذى شاب طريقه بعض دعاة الوهابيين التى أوجدت دعوتهم عند كثير من الناس حجبهم هذا النفور عن أن يدرسوا هذه الدعوة ليعرفوا حقيقتها ٠

السادسة ـ أخذ من الطريقة السنوسية أسلوبها فى التربية الروحية المزوج بروح الفتوة والقوة ٠ أو بمعنى آخر بأسلوب تربوى ،يطهر النفس ويزكيها ، تطهيرا يعدها لحمل أثقل التبعات ، ويؤهلها للتضحية بالنفس والمال فى سبيل الله ٠

السابعة ـ بقى أن نقول ان هناك طائفة من أرباب اللسان والقلم الذين ألهبوا المجتمعات بخطابتهم ودبجوا المقالات وألفوا الكتب وانشدوا القصائد التى أذكت نار السخط على المستعمرين فقامت ثورات وهبت انتفاضات فى عدة أنحاء من العالم الاسلامى ، وكان على رأس هؤلاء محمود سامى البارودى والامير شكيب أرسلان ومحمد اقبال ورفيق العظم وعبد الرحمن الكواكبى ومصطفى لطفى المنفلوطى وعبد الله النديم وعلى الغاياتى ومصطفى صادق الرافعى وأحمد شوقى وحافظ ابراهيم وأبو القاسم الشابى ٠

وهؤلاء وان استطاعوا اشعال هذه الروح فترة من الزمن ، فانهم كانوا مجرد عنصر مساعد لاقادة بالمعنى المفهوم ، فكان هؤلاء عادة يعملون فى ركاب كبار الدعاة باعتبارهم أحد العناصر الفعالة فى نشر الافكار واثارة العواطف واعداد النفوس والعقول لتلقى التوجيهات والاخذ بالبرامج التى تصدر عن القادة ٠

وعناية حسن البنا بهذه الطائفة كانت عناية فائقة ، فهو نفسه كان خطيبا مفوها وكاتبا مبينا وأديبا مفتنا ٠ وقد طالع ما كتبه هؤلاء الرجال ودرس ما تركوه من آثار ثم جعله ضمن برنامج الدراسة لاعضاء كتائب الاخوان ٠٠

وقد نشأ فى ظل دعوة الاخوان المسلمين جيل لا حصر له من الكتاب والخطباء والشعراء ٠ ولا أعتقد أن دعوة من الدعوات أيا كان هدفها قد أثرت

بمثل هذا العدد الذى بلغ الشأو فى فنون الادب بأنواعها ، ولم يكن ذلك كله الا بوحي من هذه الدعوة التى ملكت على المؤمنين بها مشاعرهم ٠٠ وقد أظلم نفسى وأظلمهم اذا أنا حاولت أن أسرد أسماءهم فى هذه العجالة ٠٠ واذا كانت الدعوات الاخرى قد اقتصر وجود طائفة أرباب القلم واللسان فيها على القاهرة ودمشق والاسكندرية وغيرها من العواصم ، فان هذه الطائفة فى دعوة الاخوان المسلمين قد نبتت وأينعت وأثمرت فى كل مكان نفذت اليه أشعة هذه الدعوة حتى فى أحشاء القرى والدساكر ٠٠ وما أحوج هذه الطائفة الى من يجمع ثمرات قرائحها وينشرها كما نشرت ثمرات قرائح سابقتيهم ٠

وهكذا جاءت دعوة حسن البنا مزيجا من محاسن كل ما سبقها من دعوات متجنبة كل مواطن الضعف فيها ٠ فكانت دعوته كما وصفها بنفسه فى خطابه فى المؤتمر الخامس عام ١٩٣٨ ٠

« دعوة سلفية ، وطريقة سنية ، وحقيقة صوفية ، وهيئة سياسية ، وجماعة رياضية ، ورابطة علمية ثقافية ، وشركة اقتصادية ، وفكرة اجتماعية » ٠

موجهة الى جماهير الشعب ، وقائمة على أساليب من التفاهم والتآخى والاعداد والتكوين والتوجيه ٠

□ **أسلوب عف كريم :**

وقد يلتحق بهذا الفصل أن نشير الى أسلوب حسن البنا فى التعامل مع سلف هذه الامة الاسلامية من القادة فنقول : انه ــ رحمه الله ــ لم يكن ممن يحرصون على تتبع عورات الرجال ، ولا ممن يسعون الى عد مساوىء الناس ٠ وكانت نظرته الى هؤلاء السلف من الدعاة النظرة العامة المجملة فيأخذ الرجل منهم بمجمل حياته لا بتفاصيلها ، أعنى بذلك أنه كان حين يعلم بموطن ضعف فى أحدهم لا يتخذ ذلك ذريعة الى التشهير به والتنديد بهذا الموطن فيه ، وانما هو يتجاوز ذلك مبرزا مواطن القوة ونواحى الخير فيه ٠٠ أخذا بما جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله : « من ستر مسلما ستره الله » وقوله « من تتبع عورات الناس تتبع الله عورته » وقول الشاعر الحكيم :

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها　　كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

ومما لا حاجة بنا الى التدليل عليه ، أن انسانا أيا كان ذلك الانسان لا تخلو حياته من مواطن ضعف ٠ ولولا أن الانبياء قد عصمهم الله لما خلوا من ذلك ٠٠ فحسب الذين يبحثون فى تاريخ الامم ــ والامر كذلك ــ أن يأخذوا رجالات هذا التاريخ بمجملهم لا بتفاصيل حياتهم ودقائق خصوصياتهم ، حتى لا يخرجوا من بحوثهم صفر اليدين ٠ وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ يقول « لو تكاشفتم ما تدافنتم » ٠

ان النظرة المسددة الى المساوىء ، المتتبعة المستقصية فى حياة الرجال ، تدمر التاريخ ، وتحطم بنيان الامم ٠٠ وما أيسر الهدم ولكن ما أخطر عواقبه ٠٠ وان القرآن الكريم ليفترض وجود مواطن الضعف فى كل انسان حتى فى المؤمنين ، فحين يشيد بالاخوة بين المؤمنين فيقول«انما المؤمنون اخوة»لايقف عندها حتى يذكر بهذه المواطن فيلحق الاشادة الحاقا مباشرا بقوله « فأصلحوا بين أخويكم » والاصلاح لا يطلب الا لتلافى خلل موجود ٠

وقد يكون تتبع عورات رجال التاريخ ـ فى بعض الاحيان ـ واطالة البحث عن مثالبهم ، والتشهير بهم ، نوعا من أنواع التمرد النفسى ينتاب الاجيال الصالحة التى تعانى من افتقاد قيادة صالحة ، ولا يجدون بين أيديهم الا قيادات تافهة مغرضة متقلبة مزدوجة الشخصية ٠٠ فهذا الافتقاد وهذه المعاناة تبعث فى نفوس هؤلاء الصالحين من هذه الاجيال سوء الظن بالقيادات، وتؤجج فى صدورهم نار التمرد والغضب ، وتطبعهم بطابع التبرم والتشاؤم٠

ونحب أن نلفت النظر الى أن هذه النغمة التى يضرب على أوتارها هؤلاء المشككون هى نغمة يطرب لها الكائدون للتاريخ الاسلامى لانهم هم مخترعوها ومؤلفوها وهم مروجوها وهم صانعوا اوتارها ـ ويسعدهم كل السعادة أن يروا من يضرب على أوتارها مأجورا أو متطوعا ٠ فاذا كان الضارب متطوعا طاروا فرحا ، لان هذا معناه أن فكرتهم المسممة التىسهروا على بثها قد تسللت حتى وصلت الى عقول صالحى المسلمين وأفئدتهم فتبنوها وهم لا يشعرون ـ وهل كان لهؤلاء الكائدين من هدف الا هذا الهدف ، ولا من أمل الا هذا الامل ؟ !

على أننا حين ننعى على الذين يذيعون بمثالب القيادات لا نقصد بذلك تلك المثالب التى هى نفسها قد أعلنت عن نفسها على حد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل أمتى معافى الا المجاهدين » وانما نقصد المثالب التىيبذل الباحث وراء الوصول اليها جهدا ، والتى يتصيد الشبه من هنا وهناك ليجمع منها دليلا عليها ، والتى يحاول تأويل المواقف والالفاظ والعبارات حتى تشير اليها ٠

مزيد بيان وتحذير من تدبير خطير
تجريح قادة الدعوة الاسلامية
اسلوب خبيث لهدم هذه الدعوة فى نفوس المسلمين

ولما كان لهذا الموضوع شأن خطير فيما نحن بصدده من بحث فقد يقتضى المقام أن نزيده توضيحا مستطردين فنقول :

□ حبائل المستشرقين :

هناك قوم قد أعدوا انفسهم ، واعدتهم اجهزة خاصة فى حكوماتهم . للبحث عن اشد الاساليب فعالية فى هدم الاسلام فى نفوس اهله ، وتقويض

أسسه باعتباره دعوة قائمة ·· على أن يتوخوا فى هـذه الاسـاليب المناخ ذا السمة العلمية ـ وهؤلاء القوم ، والذين سموا بالمستشرقين لان اعدادهم لهذه المهمة التخريبية اقتضى تعليمهم اللغة العربية ، وايفادهم لقضـاء فترة من حياتهم وسط هذه الشعوب لدراسـة معتقـداتها وعاداتهـا ومـواطن القـوة والضعف فيها ·

هؤلاء المستشرقون ·· انتهزوا فرصة انشاء الجامعة المصرية ، وتطلع الاجيال الاولى من الدارسين فيها الى الاستزادة من العلم لا سيما فى التاريخ الاسلامى ··· ولما كانت أمهات الكتب التى بين يدى هؤلاء الدارسين من تراث الامة الاسلامية فى التاريخ لا تغرى بالقراءة ، لانها ليست سهلة المأخذ ولا قريبة التناول ·· فقد وضع هـؤلاء المستشرقون مـؤلفات تناولت هـذا التاريخ بأسلوب عصرى أكثروا فيه من التعليق والتحليل ·· وقد أذابوا فى هذا التعليق والتحليل كل مافى نفوسهم من حقد وضغينة على نبى الاسلام وصحابته وعلى البطولات الاسلامية التى هى مفخرة المسلمين ·

ولما كانت أحداث التاريخ مما لا يسهل تناوله بالتغيير والتبديل ، فقد لووا منها ما تمكنوا من ليه ، وحرفوا منها ما استطاعوا تحريفه ·· وما لم يستطيعوا ليه ولا تحريفه وجدوا مجالهم فيه فى التعليق والتحليل ··· ولكن هذا كله صاغوه فى مجلدات ناصـعة أنيقة ، وفى أسـلوب طلى لبق رشـيق ، تغطى فيه مهارة الكاتب ومقـدرته الادبية على ما دسـه فى سطوره من زيـف وسمـوم ·

واقبل المتطلعون لدراسة التاريخ الاسلامى على هذه المؤلفات ، سـواء منهم من تلقوها عن مؤلفيها انفسهم فى بلادهم حين أوفدوا فى بعثات علمية اليها ، ومن درسوها هنا على يد من تلقوها عن مؤلفيها ـ ولقد أغـراهم بهـا أسلوبها التحليلى الذى يجمع بين الطرافة والجدة والتشويق ·

ونجحت خطة الاستشراق بهذا الاسلوب ردحا من الزمن ، حين صارت مؤلفاتهم مرجعا يتبارى دارسو التاريخ الاسلامى فى الاقتباس منه · وفى حمل افكاره والتباهى بها واذاعتها والدعـوة اليها ·· وتسرب هـذا الزيـفـه الى الكثيرين من المثقفين عن طريق الصحف والمجلات والندوات والمحاضرات ·· وقد لا ننكر ان قليلا من هؤلاء الحملة كانوا يحملون هذه الافـكار عن غفـلة وحسن نية ، اذ لم تكن لهم خبرة سابقة بالتاريخ الاسلامى ، واعتقدوا أن الامانة العلمية اقدس من أن يجرؤ عالم على تخطى جيدها واستغلالها فى غرض دنىء ·

ثم نبت البعث الاسلامى من جديد بعد غيبة طال أمدها ، وكان متمثلا هذه المرة فى دعوة الاخـوان المسـلمين ـ ولقيت هـذه الدعـوة فى ابنائها عنتا شديدا على يد هذا الرعيل الحامل لهذا الزيف ٠٠ وكانوا هم وتلامذتهم عقبة كأداء فى سبيل هذه الدعوة ٠٠ ولكن ثبـات هـؤلاء الدعاة . وأصـالة الامـة الاسلامية ، سرعان ما كشف القناع عن وجه هذا الزيف وأبرزه على الملأ عاريا كالحا بشعا على حقيقته ٠

وبدأ المستشرقون يشعرون بحرج موقفهم ، وبأنهم لم يعودوا صالحين للظهور بعد ذلك أمام العالم الاسلامى بالمظهر الذى انتحلوه لانفسهم أمامه من قبل باعتبارهم علماء يتوخون الحقيقة ليس لهم من رائد سواها ٠

فمـاذا فعلوا ؟ ٠٠٠

□ بدائل المستشرقين :

لقد فعلوا ما أثبت أنهم كانوا جديرين لما انتدبوا له من تخريب انهم اعترفوا بالامر الواقع ، وبطغيان الموجة الاسـلامية على باطلهم ، وانتحـوا جانبا بعيدا عن الانظار ، وكفوا عن أسلوبهم الذى انكشف ، وشرعوا يبحثون عن أسلوب آخر يتناسب والبيئة الجديدة والجو الاسلامى الغامر الجديد ٠٠ ولكنه يؤدى نفس الدور ويحقق اصابة الهدف التخريبى العتيد الذى رصدوا له جهودهم ووقفوا عله حياتهم ٠

أخذوا يرقبون فى حذر ومن وراء ستار الجيـل الذى منـه دعاة الدعـوة الاسلامية النابتة ـ وكان أكثرهم فى ذلك الوقت طلابا بالجـامعة ـ وأخـذوا يتتبعون أفرادا من هذا الجيل رأوا أن فيهم من الصفات والاخلاق ما يؤهلهم لان يحمـلوا عنهم هـذا العبء ٠٠ على أن يكونوا هم من ورائهم يمـدونهم بالافـكار ، ويتعهدونهم بالرعاية من وراء ستار ، فيهيئون لهم الطريق حتى ينبوأوا منـاصب تثقيفية مـرموقة تتيـح لهم أن يصـدروا تحت أسمـائهم مؤلفات تؤدى المهمة التى كانوا يؤدونها هم من قبل ٠٠ ولكن هـذه المؤلفات الجديدة ستكون أوقع فى النفوس ، وأقـرب الى أن تسيغها العقول ، وأبعـد ما تكون عن الشبهات ، لانها صادرة من أساتذة مسلمين يشغلون أعلى مناصب التوجيه ٠

ولقد استطاع المستشرقون أن يعثروا على طلبتهم دون مشقة ، اذ كان مجال الاختيار منحصرا فى مكان محـدود ، من السهل مراقبته ٠٠ ذلك هـو الجامعة المصرية التى كانت وحيدة فى ذلك الوقت ٠

ومن حق القارىء أن لا أكتمه اننى انا نفسى ـ بعد أن دار الزمان دورته، وشبت أجيال جديدة ، سمعت من أصلح صلحائها آراء ذهلت لسماعها ، وكادت

لخطورتها تهصر قلبى عصرا ··· وعجبت كيف يحمل هؤلاء الصالحون هـذه الآراء التخريبية التى تقوض الدعوة الاسلامية من اساسها ···

فتجريح قادة الدعوة الاسلامية واحدا واحدا ورميهم بالانتساب الى الى شيء سرى مجهول يسهل نسبة أى انسان اليه ·· وافقاد المسلمين بهذه الطريقة ـ الثقة فى قادتهم ·· يهدم الدعوة الاسلامية ، ويحيلها الى مجرد فكرة لا فعالية لها ··· وهذا تحقيق للحلم الذى طالما بات أعداء الاسلام يحلمون به ويخططون لتحقيقه ، أن يحولوا الاسلام الى فكرة مجردة ، يستنفد صالحو المسلمين جهودهم وأعمارهم فى التوسع فى دراستها ، والهيمان بها فى آفاق الفلسفة والخيال وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ··· ولقد جاء على أسلافنا من المسلمين حين من الدهر فعلوا باسلامهم مثل ذلك ـ ولكن المؤرخين قد التمسوا لهم بعض العذر فلقد فعلوا ذلك حين بلغت دولتهم من الازدهار والتمكن فى الارض مالم تبلغه دولة من قبل ·· فاذا ركنوا الى الدعة ونسوا أن الاسلام دعوة قائمة وهداية نابضة وشعلة مضيئة فى حاجة الى من يحملها الى المحرومين من النور فى أنحاء الدنيا الى يوم القيامة ـ اذا نسوا ذلك فى تلك الظروف ونظروا الى الاسلام نظرة علمية بحتة فتوفروا على دراسته وقضوا أعمارهم فى فلسفة نظرياته ·· وأنتجوا فى هذا الميدان انتاجا كان بعضه كافيا لسد نهر دجلة ··· ولكن هذا الانتاج ـ مع التقاعس عن حمل لواء الدعوة الاسلامية ـ لم يغن عنهم شيئا فى أول صدام مع الباطل يوم أغارت عليهم جيوش التتار ··· فكيف يكون حال المسلمين اذا هم فقدوا ثقتهم فى قيادات الدعوة الاسلامية فأسلمهم ذلك الى الدوران حول أنفسهم وانتهوا من ذلك الى العكوف على الدراسة والاطلاع والتزود من ذلك لمجرد النقد والتشكيك والتجريح ·· هذا فى الوقت الذى لا زالت الامة الاسلامية فيه تحاول أن تنفض عنها غبار نوم ثقيل طويل ·· ؟ !

واصدق القارىء القول فأقول ، اننى لم أفق من ذهولى من سماع هذه الآراء المخربة الهدامة الا حين علمت من هؤلاء الصالحين المصادر التى استقوا منها هذه الآراء ·· فقد ذكرتنى هذه المصادر بزملاء كانوا معاصرين لنا بالجامعة · وكانوا بطبيعة نشأتهم وبما عرف عنهم من شذوذ فى الخلق والسلوك ، كانوا أعداء حقراء للدعوة الاسلامية وللاسلام المجرد وللاخلاق والفضائل فى ذاتها ·· وكانوا بذلك أهلا لان تهيئهم الايدى الخفية التى أشرنا اليها لحمل أعباء العملية التخريبية بالنيابة عنها ·

ولما كانت هذه الاجيال الجديدة لا تعرف شيئا عن تاريخ هؤلاء الا ما يرونه بين ايديهم من مناصب لامعة ، ومؤلفات فخمة ضافية واساليب معسولة رتبت بطريقة تستهوى الصالحين من هذه الاجيال ·· لهذا راجت بينهم هذه المؤلفات واحسنوا الظن بها ووقعوا ضحايا سمومها ·

فالصائد الماهر الخريت هو الذى يعد لكل نوع من الاسماك طعما خاصا به عرف الصائدون بالتجربة أنه يشتهيه ويجذبه الى آلة الصيد ـ فيقبل على الطعم ويلتهمه عن آخره ·· حتى اذا فرغ من التهامه أسلمه هذا الطعم الشهى الى آلة الصيد نفسها ليكون تحت رحمة الصياد يفعل به ما يشاء ·

وارتداء مسوح الرهبان لا يغير من نفوس المرتدين بهذه المسوح قليلا ولا كثيرا ، ولكنه قد يفتن الكثيرين ممن يجهلون حقيقة هؤلاء المرتدين ··· وهؤلاء الذين فتنتهم المسوح لا يزالون معذورين حتى يصادفوا خبيرا بحقيقة المرتدين ، يفتح عيونهم على ما تحت هذه المسوح من نثاب كاسرة ضارية ·

أما نحن وقد جربنا بأنفسنا ·· ورأينا كيف يجتزىء أناس ـ وهم متسنمون أعلى مراكز التوجيه فى بلادنا ـ على الحق وعلى التاريخ ، ويستحلون الكذب والاختلاق ، وينسجون من خيالهم وقائع وأحداثا ينسبونها ـ زورا وبهتانا ووقاحة ـ الى حسن البنا ·· وتنشر الصحف هذه الاكاذيب وتقدمها للشعب على أنها حقائق ··· ومع ذلك فلا يزال هذا الشعب ينظر الى هؤلاء الكاذبين نظرة الاجلال والاكبار ·· وما عباس محمود العقاد فى هذا المجال عنا ببعيد ·

بعد أن جربنا ذلك بأنفسنا لم نعد فريسة سهلة لاولئك الكذابين الجدد المتمسين لبراء العيب ·· مهما جاءونا اليوم يزجون الثناء العاطر لحسن البنا ولدعوته ، مقدمة يستدرجوننا بها لتقبل ما هدفوا اليه ووضعوا مؤلفاتهم من أجله مما يقوض ثقتنا فى كل من سوى حسن البنا من قادة الدعوة الاسلامية ·

واذا سمح بعضنا اليوم لانفسهم أن يتقبلوا هذه الفرى على هؤلاء القادة السابقين فلا يلومن هؤلاء المتقبلون أجيالا تأتى من بعدهم تتلقى ما اختلق على حسن البنا من افتراءات بالتصديق والقبول ·

□ مرونة وسعة أفق وسعت الجميع :

ونرجع الى ما كنا بصدده من الحديث عن حسن البنا فنقول : وكما أن هذا كان اسلوب حسن البنا ـ رحمه الله ـ مع من سبقه من القادة ، فقد كان هذا أيضا أسلوبه مع سائر الناس ·· فلقد كان له من الفطنة ونفاذ البصيرة مالا تخفى عليه معهما حقائق الاشخاص ودخائل نفوسهم ، كالذى قال فيه الشعراء ·

الالمعى الذى يظن بك الظن كان قد رأى وقد سمعا

ولكنه مع ذلك كان قديرا على أن لا يجعل لما كشفته فطنته اثرا يقعد به

عن الاقتراب من هؤلاء الاشخاص والاتصال بهم ·· وحين يتصل بهم ويتحدث اليهم لا يجدون فى حديثه ما يشعرون منه أنه مطلع على عورات منهم، ولا أنه على علم بما هم متورطون فيه من مساوىء ··· انه كان يجالس هذا النوع من الناس ، ويقبل عليهم ، ويفسح لهم فى مجلسه ، ويخصهم بمجاملات ترضى عواطفهم لا ويتحدث اليهم ويتطلف معهم فى الحديث،ولا يهاجم مواطن الضعف فيهم ، ولا يمس شعورهم من قريب ولا من بعيد ·· ولكنه يريهم من تصرفاته وتصرفات اخوانه من أدب الاسلام وسعه صدره،ورحابة أفقه ، ما يشوقهم الى هذا الاسلام الرقيق الحاشية الجديد الذى لاعهد لهم بهذهالصورة المشرقة فيه من قبل ···· فيخلو هؤلاء الى انفسهم حين يخلون،فيستعرضون ما رأوا وما سمعوا ، فيسلمهم هذا الاستعراض الى لون من النقد الذاتى ، الذى ينتهى بهم عادة ـ بعد تكرر الزيارات وتعدد الجلسات ·· الى أن يجد الواحد منهم نفسه وقد حملته قدماه ـ دون أن يدرى ـ الى حيث يقدم نفسه الى حسن البنا خلقا آخر قد تنزه عن كثير مما كان متلطخا به من مساوىء ·

لقد أفاد حسن البنا لدعوته بهذا الاسلوب أعظم افادة ، فقد أصلح الكثيرين من المنحرفين دون أن يهاجم معتقداتهم أو ينتقد مسالكهم فيقطع خط الرجعة عليهم ، بل تركهم لانفسهم فراجعوا أنفسهم بأنفسهم وأتوا تائبين ·· وبعد أن كانوا عقبة فى سبيل الدعوة صاروا لبنات فى بنائها ، وصدق الله العظيم « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » ·

كان حسن البنا يرضى من العاملين معه فى ميدان الدعوة من يعطى الدعوة كل نفسه ، ومن يعطيها نصف نفسه ، ومن يعطيها ربع نفسه ، ومن لا يعطيها شيئا الا مجرد الابتسامة والاعجاب ··· ولا يشعر انسانا من هؤلاء بشىء من التبرم به أو الضيق بوجوده ، بل يفسح لهم جميعا مجالا من نفسه ومجالا فى الدعوة ، بحيث يشعرون جميعا بالرضا والسرور ، مما ينقل الواحد منهم دون أن يشعر من درجة من درجات الايمان الى ما هو أعلى منها ·

وشعوره بأنه داعية لفكرة هو مؤمن بها أعمق الايمان . ومقتنع بسلامتها وجدارتها وتفوقها ، جعله مستعدا دائما بل متشوقا لاستقبال كل ذى فكرة مهما اختلفت عن فكرته وللسعى اليهم ، ولا يجد فى نفسه حاجا نفسيا يحجاه عن الاتصال بكل انسان ـ مهما كان موقف هذا الانسان ـ ذلك انه يعتقد أن فى كل انسان جانبا من الخير يحتاج الى من يكشف عنه ويحركه ويبعث طاقته الكامنة ، وقد يأثم الداعية اذا هو تخلف عن الكشف عن هذا الخير واطلاق هذه الطاقة ···

ومن هنا كان اتصاله بمن اشتهر عنهم أنهم أعداء للفكرة الاسلامية ٠٠ وكان يرضى من هؤلاء بعد لقائه معهم مجرد عدولهم عن خططهم المعادية حتى ولو لم يلتزموا بعد ذلك بالخط الاسلامى الواضح ٠٠ فهو يحمد لهم هذا الموقف ، وينسى لهم سابق تاريخهم ويحب أن يكون هذا موقف الاخوان منهم . ويعد ذلك نوعا من النصر للدعوة يجب أن يحرص عليه ٠

هذا هو أسلوبه فيما يتصل بالاشخاص ، أما أسلوبه فيما كانت تتخذه الحكومات المتعاقبة مما كانت تسميه اصلاحات ، فانه كان يعتبر هذه الاصلاحات علاجات جزئية ويتقبلها على أنها اسعاف مؤقت لمجرد الاحتفاظ برمق الحياة ٠٠ أما العلاج عنده فهو معرفة أصل الداء الذى تفرعت عنه كل الامراض التى استشرت فى جسم الامة حتى شلت جميع الاعضاء ، ثم اعداد العدة الكافية لاستئصال أسبابه ، ثم يوضع المريض امام العلاج الشامل وهو المنهج الاسلامى الكامل ٠ واعداد العدة هو نشر لواء الفكرة الاسلامية وتثبيتها فى نفوس الشعب حتى تنبثق عن هذه النفوس حكومة تضع المنهج الاسلامى فى جميع مرافق الحياة موضع التنفيذ ٠

□ أسلوبه فى المناقشة :

وكان رحمه الله ذا مقدرة فائقة فى مناقشاته أن لا يدع لمناقشه فرصة ينقل فيها المناقشة من الموضوع الاصيل فى نظره وهو صلب الدعوة الاسلامية الى نقط خلافية فرعية تافهة ٠٠ ونذكر فى هذا المقام لقاءه مع الصحفى البارع المبتكر مصطفى أمين فى أواسط الاربعينيات بالمركز العام بالحلمية الجديدة ، حين أراد مصطفى أمين بمهارته الصحفية أن يوجه المناقشة ويحدد موضوعها بأن استهل اللقاء بتقديمه سيجارة الى حسن البنا وهو يعلم أنه سيرفضها ، وكان قد رتب فى خاطره نقاشا يديره معه على أساس التحليل والتحريم يبتنى على نتائجه رأيا عن مدى تزمت الاخوان المسلمين ٠

ولكن الذى حدث هو أن حسن البنا بفطنته وألمعيته تنبه الى ما رتبه زائره فى خاطره ففاجأه برد لم يكن يتوقعه ولم يخطر له على بال اذ رفض السيجارة معتذرا شاكرا قائلا : اننى لا أدخن عادة لا عبادة — فسلبت هذه المفاجأة مصطفى أمين ميزة المبادأة ونقلتها الى يد حسن البنا الذى أدار المناقشة على الوجه الذى يريده(١) ٠

(١) أرجو أن لا يفهم القارىء من هذا ان حسن البنا كان يبيح التدخين ٠ ومن أراد استقصاء هذا الموضوع فليرجع الى أعداد مجلة المنار حين كان رحمه الله يترأس تحريرها ففى احد هذه الاعداد بحث ضاف له فى موضوع التدخين كتبه ردا على سؤال وجهه اليه احد القراء فى ذلك الوقت .

وقد عبر مصطفى أمين فى ذلك اليوم عن فهمه لدعوة الاخوان المسلمين بما نشره فى « أخبار اليوم » فقال : « ان حسن البنا قد استجاب له مئات الالوف فى أنحاء القطر وقد استطاع أن يؤاخى بينهم بحيث لو عطس عضو منهم فى الاسكندرية قال له عضو فى أسوان « يرحمك الله » ٠

□ مقدرته الخارقة على الاقناع :

أما قدرته الخارقة على الاقناع فحسب القارىء أن أقص عليه بصددها ما سمعته قريبا فى جلسة عارضة ضمت مجموعة من ذوى الثقافات العالية ، وكان أحد حاضريها اللواء شرطة بالمعاش سيد عبد النبى الذى قص علينا القصة التالية :

قال : كان الاستاذ محمد حياتى ياورا للنقراشى باشا حتى أواخر عام ١٩٤٧ ثم استبدل به الاستاذ اسماعيل المليجى شقيق ابراهيم عبد الهادى باشا ٠ وظل الاستاذ حياتى يعمل فى وزارة الداخلية حتى جاءت وزارة الوفد سنة ١٩٥١ فقررت التخلص من موظفى عهد السعديين الذين يشغلون وظائف حساسة ، فقررت نقل الاستاذ محمد حياتى نائبا لمأمور مركز ايتاى البارود ٠

يقول اللواء سيد عبد النبى : وكنت فى ذلك الوقت معاونا لمركز ايتاى البارود ـ وكنا بحكم الزمالة فى العمل نتحدث معا فى مختلف الشئون لا سيما فيما يتصل بالاحداث التى وقعت بعد حل الاخوان المسلمين حيث كان الاستاذ حياتى أقرب الناس من هذه الاحداث ـ وكان مما حدثنا به الاستاذ حياتى فى هذا الصدد قوله :

قبل صدور امر حل الاخوان سنة ١٩٤٨ ـ لما شعر الاستاذ البنا بأن أمر الحل يعد فعلا ، حاول مقابلة النقراشى باشا ، فقابل عبد الرحمن عمار بك وكيل الداخلية وطلب منه مقابلة النقراشى باشا فاعتذر له عمار بك بمشغولية النقراشى باشا ، فكلفه بتحديد ميعاد فتظاهر عمار بك بالاستجابة ولكنه بعد خروج الاستاذ البنا فهمنا منه انه لن يتيح للاستاذ البنا هذه المقابلة ٠

يقول الاستاذ حياتى : وكنت حاضرا وسمعت ما تم بين الاثنين وما كان من عمار بك ٠٠ فسألته لم كان منه هذا التصرف ؟ فقال : احنا لو تركنا الاستاذ البنا لمقابلة النقراشى باشا فلن يصدر امر الحل ، لان هذا الرجل قادر على اقناع النقراشى باشا ، وبذلك تحدث أزمة بين الحكومة والسراى

وتعقيبا على هذه القصة اقول : ان حسن البنا كان من اتساع الافق بحيث لا يعدم ان يجد بديلا مهما بدا لجميع الناس ان الامور قد ضاقت

واستخدمت طاقاتها حتى صار الطريق مسدودا لامنفذفيه ـ وكان هذا هو السبب فى أن كثيرين من أعـدائه كانوا يتحـاشون لقاءه لانهم كانوا واثقين من انه سوف يلزمهم الحجة ويكسبهم الى جانبه وهم لا يريدون ذلك حسدا من عند أنفسهم ٠

□ حسن البنا فى صـلواته :

كان حسن البنا رحمه الله داعية يلتزم أسلوب الداعية فى كل تصرفاته مع نفسه ومع الناس حتى فى صلاته ـ فلقد كنت ـ كما قدمت من قبل فى أوائل أيام اتصالى بالاخوان المسلمين حريصا على مراقبة كل ما يدور فى مركزهم العام لا سيما ما يصدر من مرشدهم من حديث وأعمال وتصرفات ٠٠

وقد لفتت نظرى أن صلاة المرشد ـ وكان دائما هو الامام ـ لا تكاد تختلف عن صلاة كثير من الناس ، فهى وان كان صلاة خاشعة مطمئنة ، لكن رائيها لا يمكن أن يصفها بأنها صلاة مطولة كتلك التى تمـارس فى مسـاجد بعـض الجمعيات ٠٠ وكان اعتقادى أن هذا الرجل ذا اللحية السوداء لا بد أن يكون ملتزما فى صلاته ما يلتزمه أصحاب اللحى من المنتسبين الى هذه الجمعيات ٠

ولقد تقدمت اليه وسألته فى ذلك سؤالا مباشرا فأجابنى قائلا : اننى حريص على أن لا أطيل فى الصلاة حتى لا أدع الفرصة لمن خلفى أن تشـرد أفكارهم ٠

وقد ناقشت نظرته هذه مع نفسى فوجدت أنه فعلا مصيب كل الاصابة، وخبير بطبيعة النفوس وبطبيعة المجتمع الذى يتعامل معه وأنه طبيب يعطى مريضه الدواء بالقدر الذى لو تجاوزه لاضربه ٠ فالمأمومون ـ والمامهم عادة بالقران قليل ـ اذا قرأ الواحد منهم سورة من قصار الصور التى يحفظها ثم انتظر ساكتا حتى يفرغ امامه من قراءة الكثير الذى يحفظه من القرآن ٠٠ ماذا يكون منه فى الوقفة الطويلة التى هى بالنسبة له فراغ الا أن يفلت منه الزمام فيشرد فكره فى مختلف الشئون ؟ ٠

أما فى الصلوات الجهرية فكان له فيها رحمه الله اسلوب آخر ٠٠ كان يطيل فيها من قراءة القرآن ٠٠ ولكن هذه الاطالة لم تكن مجرد اطالة ولا القراءة مجرد قراءة ، وانمـا كانت قراءة هادفة ، كانت قراءة من مواضع مختارة ٠٠ يتناول فى كل صلاة منها معالجة موضوع معين من المواضيع الحساسة التى تمس النفوس وتعالج مشاكل المجتمع ٠٠ ففى صلاة يستعرض على المأمومين أصناف الناس ، وفى صـلاة أخرى يستعـرض طبائـع النفـوس ، وفى ثالثة يعرض صورة لغرور السلطة وعواقبه ، وفى رابعة يستعرض مواقف الحق

الاعزل من الباطل المسلح ، وفى خامسة يستعرض دلائل قدرة الله من مخلوقاته ٠٠ وهكذا من المواضيع التى يخرج المأمومون من كل منها بتوجيهات محددة وتعاليم معيّنة ٠

وغير خاف على القارئ المجرب أن سماع المؤمن القرآن وهو واقف فى الصلاة بين يدى الله ذو أثر فى النفس أشد عمقا وأعظم وقعا من سماعه القرآن فى غير هذا الوضع ٠٠ وقد يفهم من القرآن فى هذا الموقف مالا يفهمه منه فى غيره من المواقف ٠٠ لا سيما اذا كان القارئ أستاذا مربيا يفهم ما يقرأ ، ويعرف كيف يتلو الآية تلاوة تبرز ما خفى من معانيها فهو يعرف كيف يكون الوقف ويعرف كيف يكون الوصل ٠٠ ولا يمر بآية وعيد وعذاب الا استعاذ فى سره بالله ، ولا يمر بآية من البشريات الا طلب فى سره من الله المزيد – وهكذا كانت الصلاة احدى وسائل حسن البنا فى تثبيت أفكار دعوته فى النفوس وفى تربية من وراءه وتوجيههم ٠

وعلى العموم ، فقد كنا نعتبر صلاة حسن البنا الجهرية بنا تكملة لدروس التكوين التى كنا نتلقاها على يديه والتى أشرنا اليها فى الجزء الاول من هذا الكتاب ٠

وينبغى هنا أن أكاشف القارئ بشعور داخلى خاص انتابنى وأنا أكتب مسودة هذه السطور التى يقرأها الآن ، فقد كان فى خاطرى – كما هى طبيعة الكتابة عن عادات الزعماء وأساليبهم فى الحياة – أن يكتب الكاتب عن أساليبهم مع المجتمع ، ثم يكتب عن أساليبهم فى حياتهم الخاصة ٠٠٠ واندفاعا بهذا الشعور وصفت صلاته التى كان يؤديها امامنا ٠٠ ثم تهيأت للكتابة عن صلاته الخاصة التى كان يؤديها وحده بعيدا عن أعين الناس ، وفى هدأة الليل ، بين جدران منزله ٠٠ ففوجئت بأنه – رحمه الله – لم تكن له حياة خاصة أمام تكاليف الدعوة التى لم تدع له فرصة من ليل أو من نهار دون ان تشغلها ، فاذا كان فى القاهرة فهو فى المركز العام ، فى لقاءات واجتماعات ودروس ومحاضرات وندوات وجلسات ادارية وتربوية ٠٠ حتى اذا انتصف الليل ، فاذا كانت هناك كتيبة فى المركز العام أو فى احدى شعب القاهرة أكمل معها بقيه الليل ، واذا لم تكن وقلما لاتكون – كان آخر من يغادر المركز العام الى بيته لينام ساعتين أو ثلاثا ثم يقوم لصلاة الفجر ليبدأ الاعداد ليومه الجديد ليكون أول قادم فى الصباح الباكر الى المركز العام الذى كثيرا ما كان يبيت فيه – واذا كان خارج القاهرة فهو مع الاخوان لا يفارقهم ولا يفارقونه لحظة من ليل أو نهار حتى يغادرهم الى بلد آخر ٠٠٠٠ فانى لمثل هذا ان تكون له حياة خاصة ؟ !

لقد اتيحت هذه الحياة الخاصة لقوم من أئمة هذا الدين فسعدوا بساعات طوال فى بطون الليالى تفرغوا فيها للعبادة ولمناجاة ربهم فروروا بهذه المناجاه ظمأ نفوسهم ، كالذى أثر عن الامام أبى حنيفة أنه كان يصلى الفجر بوضوء العشاء .. وكالذى أثر عن الامام على كرم الله وجهه حين كان يقف فى سكون الليل فى محرابه يناجى ربه ويقول للدنيا : يادنيا غرى غيرى .. ألى تعرضت .. أم الى تشوقت .. لقد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها ...

ولكن لله فى خلقه شئون .. لقد شاءت ارادة الله أن ترشح حسن البنا لدور يحرم فيه حتى لذة الظفر بمثل هذه الليالى « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » ورحم الله الرجل الصالح الذى قال : ارادتك التجريد مع اقامة الله اياك فى الاسباب ، من الشهوة الخفية .. وارادتك الاسباب مع اقامة الله اياك فى التجريد ، انحطاط عن الهمة العلية .

وخلاصة القول ، اننى نظرت فاذا الرجل لم تكن له حياة خاصة حتى أصف عبادته فيها كما وصفت عبادته وسط المجتمع .. على أننى لا أنكر أنه كان له من فرص أرضى فيها بعض ما كانت تتوق اليه نفسه من استمتاع باطالة فى الصلاة الا ما كان يؤديه فى شهر رمضان وفى المركز العام عادة من صلاة القيام التى كان يقرأ فيها كل يوم بجزء من القرآن بحيث يتم القرآن بتمام رمضان .

خاتمـــــة البـاب

مـوقف من اللغات ذو دلالة

هناك ناحية فى حياة حسن البنا ينبغى أن توضع بين يدى القراء موضع البحث والتأمل ، تلك هى نظرته الى اللغات وموقفه منها • فهؤلاء القادة الذين اتينا على ذكرهم فى هذه العجالة منذ قليل ، والذين كانوا حملة الشعلة فى العالم الاسلامى خلال قرنهم ، كانوا جميعا ملمين بمختلف اللغات •فالسيد جمال الدين الافغانى كان يتقن التحدث بجميع لغات الدنيا الحية فى أيامه تقريبا ، والشيخ محمد عبده وسعد زغلول وهما أزهريان درسا اللغة الفرنسية دراسة خاصة حتى أجاداها ، ومصطفى كامل كانت دراسته الحقوقية دراسة فرنسية ، والدعاة الذين قاموا بالمغرب كانوا بحكم الاستعمار على معرفة بلغة المستعمر — ومن المألوف والمسلم به أن على كل من يهيىء نفسه للقيادة فى الشرق العربى أن يتزود أول ما يتزود بدراسة لغة أجنبية أو أكثر ، باعتبار ذلك مؤهلا لا بد منه بل وسلاحا يتسلح به فى نشر أفكاره ••

ولكن حسن البنا لم يكن ملما بلغة من اللغات الا اللغة العربية •• وليس هذا هو موضع الاستغراب •• ولكن موضع الاستغراب أن حسن البنا كان أقدر الناس على تعلم اللغات ، فلقد كانت مواهبه النادرة تسعفه أن يتعلم أصعب اللغات وأن يجيدها ويتحدث بها كما يتحدث أهلها فى أشهر معدودات •• غير انه مع ذلك لم يتعلم أية لغة من اللغات •

فهل كان هذا مقصودا أم جاء عفوا ؟

لقد كان حسن البنا يحث اتباعه على تعلم اللغات واجادتها والتضلع منها ، لكنه هو لم يول هذه الناحية فى نفسه أدنى اهتمام ، وكان يقرأ أكثر ما يترجم الى العربية من مؤلفات كتاب الغرب لا سيما فى علوم التربية •

فهل كان ضيق وقته هو الذى حال دون تعلمه اللغات ؟ !

أم انه كان يرى لنفسه شخصيا أن الاعتصام باللغة العربية وحدها هو شعار له معناه وله مغزاه ، ذلك المغزى الذى أشرنا اليه فى الجزء الاول من هذا الكتاب عند الكلام على ترجمة القرآن الكريم •• انه كان يرى أن تترجم الدنيا بما فيها من شعوب وأمم الى القرآن والى لغة القرآن •

انه كان يعلم أن الغرب لن يقيم وزنا لاية دعوة فى الشرق مهما ملأت الدنيا كلاما مكتوبا ومسموعا بكل لغات الدنيا ، ولكنه يقيم وزنا للدعوة التى تستطيع أن توقظ الشرق من سباته ، وتبعثه من رقاده ، وتقوده لاستخلاص حقه ، وتخلق من شعوبه جيلا يسترخص الحياة فى سبيل الكرامة الانسانية

وفى سبيل استرداد الحقوق المغتصبة ٠٠ مهما أقتصرت هذه الدعوة على لغة بلادها ان هذا الغرب المتعجرف لا يفهم الا لغة القــوة ، ولا يسمع الا صــوت الاقوياء ٠٠ ولقد كان حسن البنا ـ رحمه الله ـ كثير التمثل ببيتين اصطفى صادق الرافعى وكثيرا ما كان يرددهما :

لو كل مـزمار لهـو عنـدنا خنث   لنبـابه مـدفـع فنـانه بشــــــع

اذن لكانت لنابين الورى لغـــــة   متى تقل قولها فى العـالم استمعوا

لقد استطاع حسن البنا بلغته العربية وحدها أن ينشر دعوته فى أرجاء العالم الاسلامى ، وسالت انهر الصحف فى أوروبا وأمريكا بالكتابة عن دعوته ، وأرسلت هذه الصحف مندوبيها للحصول على أحاديث منه ، وعقدت المؤتمرات بين أساطين السياســة الاوربيين والامــريكيين لدراســة هــذه الاحاديث وتخصص الدارسون الاوروبيون والامريكيون فى دراسة دعــوته ، فحضروا الى القاهرة وأقاموا بها شهورا ، وحصلوا بذلك على الدرجات العلمية العليا فى جامعاتهم ٠ ولا زالت دعوته هذا وضعها فى الجامعات الاجنبية ، كما أنها صارت عنصرا أصيلا يحسب حسابه ساسة أوروبا وأمريكا وروسيا حين يخططون لسياستهم فى الشرقين العربى والاسلامى ٠٠ كل هذا قد تم دون أن يحتاج حسن البنا الى التحدث بلغة غير لغته العربية ٠

ولقد أدى محمد صلى الله عليه وسلم رسالته التى قلبت موازين العالم كله ، ولا زالت رسالته سارية حتى اليوم والى أن تقوم الساعة ٠٠ دون أن يتحدث بغير لغته العربية ٠٠

★ ★ ★

حقا ٠٠ لقد كان حسن البنا لغز هذا الزمان وأعجوبته ٠٠ كان رجلا ٠٠ ولكنه كان أعلى من أهل زمانه فكرا ، وأوسع منهم أفقا ، وأرحب منهم أملا ٠٠ لا تستعصى عليه معضلة مهما بلغ تعقدها ، ولا تعجـزه مشــكلة مهما أظلمت جوانبها ٠٠ كان أقوى شكيمة ، وأصلب عودا من أحداث الزمان ، فهى لا تقوى على قهر نفسه مهما ادلهمت ظلماتها ، وأحاطت خطوبها ، وتفاقمت مصائبها ٠٠ فهو كالشعلة مهما نكستها تصــوبت حتى تحــرق اليــد التى نكستها ، وتظل هى مشتعلة مصوبة ٠٠ انظر اليه حين يبدى شاعر الشبان المسلمين محمود جبر اشفاقه عليه ، وتخوفه على حياته وقد تعاظمت الاحداث من حوله واحاطت به من كل جانب قبيل استشهاده بأيام فيرد عليه مبتسما ويقول :

انى لارنو الى الاحداث مبتسما   والبحر حين يرى الاحداث يبتسم

وانظر اله جين ساله وكيل قضاياه الدكتور عزيز فهمى المحامى ـ وكان

هو الآخر وطنيا من فلتات الايام ــ أين سلاحك ؟ فيجيبه : السلاح أخذوه والاخ الشفيق اعتقلوه ٠٠ فيبدى الدكتور عزيز جزعه وهلعه وبالغ ارتيابه وكأنه يقول له : وكيف تأمن على نفسك بعد هذا وتخرج من بيتك ؟ فيرد عليه متمثلا بما تمثل به فى مثل هذا الموقف الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه:

أى يومى من الموت أفر   يوم لا يقدر أم يوم قدر

يوم لا يقدر لا أرهبه   ومن المقدور لا ينجو الحذر

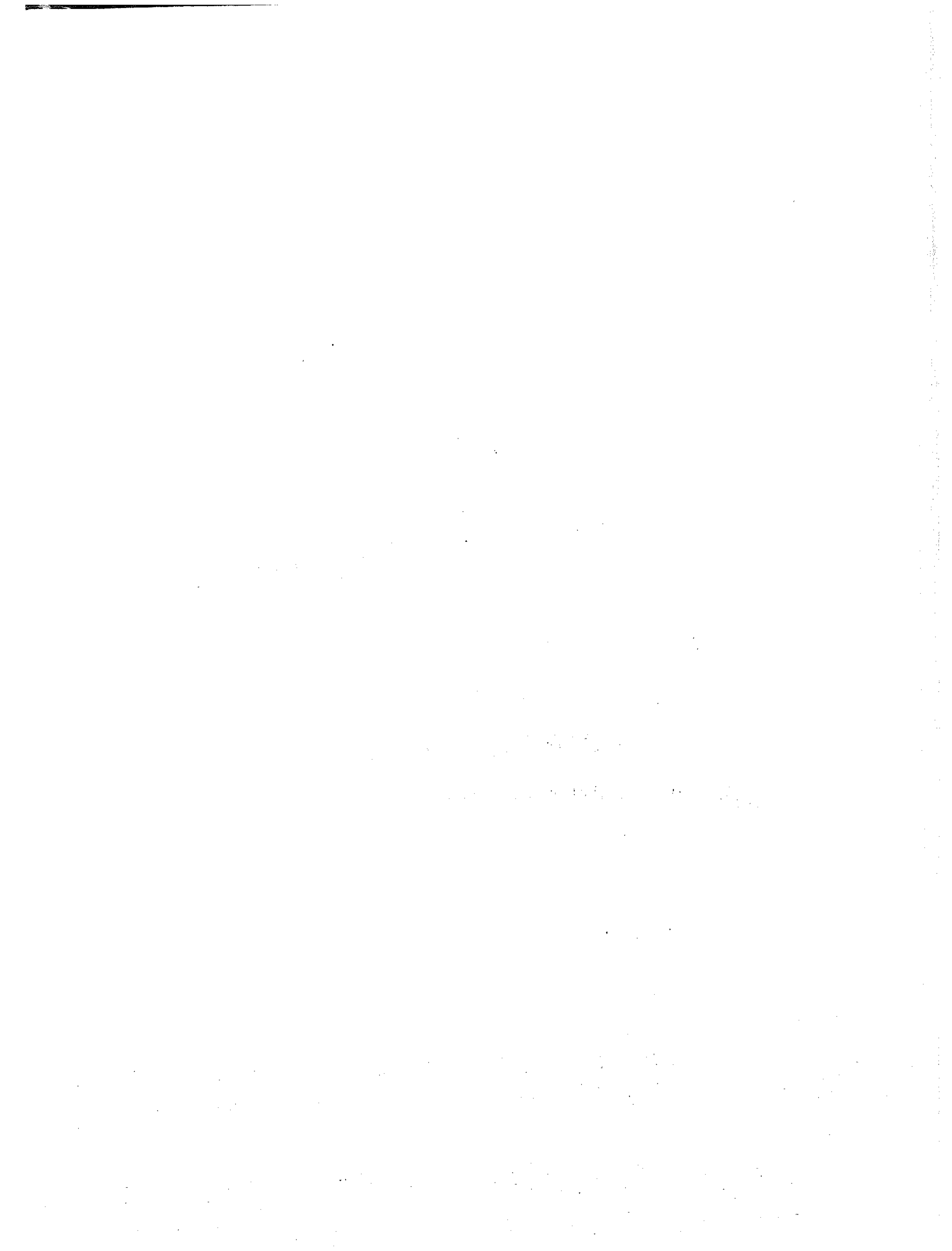
★ ★ ★

لقد حير حسن البنا أعداء الاسلام ، فلم يجدوا فى دعوته ولا فى شخصه ولا فى بنائه الذى شيده مغمزا يغمزونه منه ، ولا ثغرة ينفذون منها ، فقرروا فى شأنه ما قرره عتاة كفار قريش فى شأن صاحب الدعوة الاول صلى الله عليه وسلم ، ولكن صاحب الدعوة الاول كان قد تكفل الله عز وجل له بقوله « والله يعصمك من الناس » ٠

الباب الخامس

الدعوة في مهب الرياح

- الدعـوة تنبت من جـديد
- شـبهة خطـرة ماكـرة
- عقبات من أولى القـوة
- شبه تثار حول المرشد العام الجديد



الفصـــل الاول

الدعوة تنبت من جديد

ظلت الدعوة بعد اغتيال الامام الشهيد عامين كاملين بغير مرشد عام • وهذه الفترة هى التى اخترنا لها عنوان هذا الباب ، لانها كانت فترة حرجة امتازت بسمات خاصة ، وكانت الدعوة فى خلالها فى مهب الرياح • وهذه الفترة هى التى كان أعداء الاسلام يعولون عليها فى أن تنتهى بالاخوان الى التشتت والتناحر والزوال ــ فاذا تذكرنا خطتهم الاجرامية التى قدموها بين يدى هذه الفترة حكمنا ــ بحسب التقدير البشرى ــ بنجاح تخطيطهم وبزوال الدعوة الاسلامية من الوجود ــ ولكن هذه الدعوة متصلة بالخالق الذى تكفل لهــا بالبقاء « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين • انهم لهم المنصــورون • وان جندنا لهم الغالبون » فانها خيبت آمال أعدائها ، وأفسدت عليهم حساباتهم وخلق الله لها من الاسباب مالم يجر بخلدهم ولم يخطر ببالهم •

★ ★ ★

فوجىء المخططون بعد سقوط عبد الهادى بان الدعوة اخـذت تلم شعثها من جديد وكان شيئا مما حدث لها لم يحدث وبدأت تزاول نشاطها بحيويتها التى هى سمة من سماتها ، ولم يعد ينقصها الا مرشد عام يقودها ، والا دورها التى اغتصبتها الدولة •

كانت هذه أول تجربة لهؤلاء المخططين الصغار ، ومن ورائهم اصحاب المســرح ــ المخططون الكبار ــ الذين يباشــرون دورهم ــ فى عجلة الزمــن الدائرة ــ فى تخطيط العالم بالصورة التى يريدونه عليها ••• وهى صــورة مشوهة المعالم كريهة المنظر ، لان أسس تخطيطها اسس جشعة دنيئة نابعة من المطامع والاستغلال •• والهدف منها هو اخضاع العالم تحت أقدامهم ــ ولعلهم بهتوا حين رأوا الاخوان المسلمين بعــد أن طحنوا فى سجــون الظلم ، وتحت كلاكل الارهاب ، يخرجون ويتجمعــون ويعيدون الــكرة دون تأفف أو ضجر ، ودون ذكر لمـا أصابهم أو شكوى مما ألم بهم •

ولعل فشلهم هذا فيما خططوه جعلهم يعيدون النظر فى هذه الخطط بحثا عن مواطن الضعف فيها ليتلافوه فيما بعد •

وقد هيأت مجمــوعة القيــادة المؤقتة فى ذلك الوقت رابطتين يتجمـع الاخوان حولهما هما :

رابطة الكلمة المسموعة ورابطة الكلمة المقروءة ـ واذا قلنا « هيات » فان فى هذا القول بعض التجاوز ، لان التهيئة انما كانت فى حقيقة أمرها هداية من الله وتوفيقا ، لا تدرى كيف هيئت وكيف تمت « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم » :

□ رابطة الكلمة المسموعة :

كان الاخوان ـ المطلقو السراح منهم والمفرج عنهم من المعتقلات ـ فى فترة الفراغ هذه دائبى البحث عن شىء يجتمعون حوله ، ويكون بمثابة معلم يأتون اليه من كل صوب ٠٠ ولما كانت هذه الدعوة تحمل حيويتها فى نفسها ومعالمها هى جزء منها لا ينفصل عنها ، فان هذا المعلم الذى تطلع اليه هؤلاء الاخوان كان قريب المنال ، فان بيوت الله هى معالم هذه الدعوة لا تنفصل عنها ولا يحاول فصلها الا ظالم ، ولامر ما كان قوله تعالى « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها ، أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين ، لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » ٠٠ واذا كانت بيوت الله فى كل مكان هى مثابتهم ٠

ولو أن ماتعرض له الاخوان من القهر والارهاب تعرض لهأصحابالدعوات الاخرى ذات الافكار البشرية لزالوا من الوجود ، لان وجودهم مرهون بمكان يجمعهم ، فاذا زال المكان زالوا ، واذا طال عليهم الامد نسوا أنفسهم ونسيهم غيرهم ٠

ولما كانت القاهرة قلب البلاد ، فكان لابد من مثابة فى القاهرة ٠ وما أكثر بيوت الله فيها ٠٠ لكن المثابة التى يتطلع الاخوان اليها لا يكفى أن تكون بيتا من بيوت الله دون أن يكون فيها لسان رطب بذكر الله ، مردد لكلمات الله ، مناد بحكم الله ، حتى يؤدى هذا البيت دوره الذى يرتضيه صاحبه جل ذكره ٠٠٠ ولم يحرم الله دعوته من هذا اللسان الرطب ، وهذا الصوت الجهورى ، فقد كان ممن أفرج عنهم أخ كريم وداعية واع مؤمن ، هو الاخ الاستاذ الشيخ أحمد الشرباصى ، الذى كان صداح الدعوة فى مسجد المنيرة ، الذى صار كعبة الاخوان فى القاهرة ، لا يفد اليه الاخوان من أنحاء القاهرة فحسب ، بل يفدون اليه من أنحاء القطر كله ٠

كانت صلاة الجمعة فى هذا المسجد مؤتمرا اسلاميا جامعا يحيى موات القلوب ، ويبعث فى النفوس القوة والحياة ٠ وكانت خطب الشرباصى شواظا من نار يلهب ظهور محترفى الاجرام من الحكام ويفضح جرائمهم ٠٠ حتى اذا قضيت الصلاة رايت الالوف من المصلين يعانق بعضهم بعضا ، ويقبل بعضهم بعضا ٠ ثم ترى الاخوة المسئولين فى القاهرة يتعرفون أحوالأخوانهم

فى الاقاليم من مندوبين يفـدون كل أسـبوع لاداء صـلاة الجمعـة ، ولسماع الشيخ الشرباصى ، وللقاء اخوانهم الوافدين من الاقاليم الاخرى ، ثم لقـاء الاخوة المسئولين فى القاهرة ، وتبادل الانباء وتلقى التعليمات ٠

انه مسجد واحد ، وليس من أكبر مساجد القاهرة ولا أشهرها ، ولكنه كان فى دعوة الاخوان المسلمين معلما من أعظم معالمها ، وقد أدى فى خلال هذه الفترة دورا خطيرا ٠٠٠ ولولا أن الطغمة الحاكمة كانت قد استغرقت جهدها كله حتى لم يبق منه شىء لاطبقت على هذا المسجد من كل جانب ، وبطشت بخطيبه وأغلقته بالشمع الاحمر ٠٠ لانه كان غصة فى حلقها ، وصداعا مستمرا فى رأسها ، وتحطيما متجددا لاعصابها ، وعنوان فشـل واخفـاق لسياستها وجهودها ، وبرهانا على خطأ نظرياتها وتصوراتها٠٠كان البوليس السياسى يحيط بالمسجد ، ويحاول الاندساس بين المصلين ٠٠ ولكن لان دعوة الاخوان أساسها التآخى ، والتآخى أساس التعارف ، فكل أخ يعرف اخوانه ، فكان رجال البوليس فى هذا الوسط المتعارف مفضوحا أمرهم ٠

□ رابطة الكلمة المقروءة :

أما الكلمة المقروءة ففى الوقت الذى كانت تؤدى ذلك فيه مجلة « المباحث القضائية»التى استأجرها الاخوان لاصدارها فىخلال هذه الفترة،ورأستحريرها الاخ الاستاذ صالحعشماوى وظلت تصدر من قوليونيو١٩٥٠ حتى ٢٣ يناير ١٩٥١ ـ فى هذا الوقت نفسه ٠٠ تطوعت جريدة « منبر الشـرق » للاسـتاذ على الغاياتى أن تكون لسان حال للاخوان ومعبرة عنهم فى خلال هذه الفترة العصيبة ٠٠٠ والاستاذ على الغاياتى مجاهد قديم منالرعيل الاول الذين فهموا معنى الوطنية ـ فى بلد محتل ـ على أنها تضحية وفداء ، فلم يبخلوا بشىء فى سبيل بلادهم ، فواجه بقلمه الحر صنيعة المستعمـر الجـالس على العرش مواجهة القت به فى غياهب السجن ، فكان بذلك من شـباب الحـزب الوطنى الذين جعلوا لهذا الحزب فى التاريخ ذكرا ٠ وخرج على الغاياتى من مصر مطاردا وهو شاب ورجع اليها وهو شـيخ ٠ ويبدو أنه حين رجـع الى مصر أخذ يبحث عن ميدان يواصل فيه جهاده فلم يجد الا رجالا وراء أسوار السجون والمعتقلات ديست كرامتهم بالنعال ٠٠ ولكن بنعال من ؟ انها بنعال من قال فيهم المتنبى ـ كما قدمنا ـ :

واذا أتتك مذمتى من ناقـص   فهى الشـهادة لى بأنى كامل

كان الذين هم وراء الاسوار هم طلبته التى كان عليه أن ينتظرها ، حتى اذا لاح بصيص ضوء تلقاهم بالترحاب تلقى الحبيب لحبيب طال غيابه ٠

وقد يجمع الله الشتيتين بعـد ما   يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

ووضع نفسه وجريدته فى خدمة الدعوة المضطهدة المطاردة ، وهو يعـلم أنه يراهن ماديا على الفرس الخاسرة ، فالاخوان أفقر الناس جيبا ، وأبغضهم الى رجال المـال والاعمال الذين كانوا اذ ذاك صنائع المستعمر • فمن أين لجريدة وضعت نفسها فى خدمة هؤلاء المضطهدين أن تجد لنفسها ايرادا ؟ومع ذلك رضى الرجل كل الرضا ، بل كان يحس بسعادة غامرة أن تحقق له - وان كان فى آخر أيامه - أمل طالما راوده الاشتياق اليه •

وقد أنشأ جريدته هذه « منبر الشرق » فى جنيف عام ١٩٢٢ وخصصها « للدفاع عن الشعب الناهض » وجعل شعارها بيتين من قصيدة له كتبهما وجعلهما ملازمين لاسم الجريدة وهما :

باسم الكنانة باسم شعب ناهض   لا باسـم أحـزاب ولا زعمـاء

كل يـزول وينقـضى الا الحمى   فـوديعة الآباء لـلابنـاء

لعبت «منبر الشرق» هذه دورا أساسيا فى ربط الاخوان بعضهم ببعض، وأبرزت صورتهم ، وأسمعت الرأى العام الداخلى والخارجى صوتهم •• وأخذ « على الغاياتى » رحمه الله يدبج بقلمه مقالات ينتصف فيها للدعوة المظلومة من ظالميها ، ويهاجم الظلم الحكومى والارهاب ، ولكن بأسلوب الرجل المؤمن الثائر المجرب الحريص على أن يظل هذا اللسان قائما بمهمة الدفاع عن الحق دون توقف ، راضيا بما يحيق به من خسائر مادية ، متغاضيا عما يوجه اليه من انذارات حكومية تتهدد جريدته وشخصه •

هذا وقد ظلت « منبر الشرق » بجانب « المباحث القضائية » هما الكلمة المقروءة للاخوان حتى أصدر الاخوان فى ٣٠ يناير ١٩٥١ مجلة خاصة بهم هى « مجلة الدعـوة » •

الجو السياسى خلال هذه الفترة :

وقعت جريمة حل الاخوان المسلمين وما سبقتها من مقدمات وما تلاها من مؤامرات فى أثناء حملة حزب الوفد على الاخوان حملة وصفنا طرفا منها • وكان المتوقع أن يواصل الوفد حملته بعد أن أوقع بالاخوان • ولكن الذى حدث كان غير ذلك ، اذ أمسك الوفد عن مهاجمة الاخوان وتوقف عن حملته عليهم • ولست أدرى ما الذى دفع الوفد الى اتخاذ هذا القرار •• أهو النبل أم هو دافع آخر ؟ ولا زال الدافع الى ذلك سرا لا يعرفه الا الذين قرروا اتخاذه •• ولكن الاخوان على كل حال حمدوا للوفد هذا الموقف أيا ما كان الدافع اليه • ولقد

كان لهذا الموقف أثره حين أجريت انتخابات عامة سنة ١٩٥٠ جاءت بالوفد الى الحكم ·

□ لماذا غير الملك موقفه ؟

ولابد فى هذا المقام من اثارة موضوع هام هو الانقلاب الذى انقلبه الملك على أنصاره السعديين فى أيام حكم زعيمهم ابراهيم عبد الهادى ، ثم تدرجه فى اسناد الحكم الى أشخاص ممن يسمون بالمستقلين وان كانوا يدينون له بالولاء حتى انتهى فى تدرجه الى الوفد ·· ما السر فى هذا الانقلاب المفاجىء ؟

أهو كشفه أن السعديين خونة ؟ أهو أمر جاءه على سبيل النصيحة من الانجليز ؟ أهو اعتقاده أن الاخوان المسلمين ـ وقد صاروا من غير قيادة ـ أصبحوا جماعة لا يخشى بأسها ؟ أهو مراجعته نفسه حين فعل بالاخوان ما فعل ، واغتال مرشدهم ـ ثم رآهم بعد ذلك كله قوة متماسكة ، لم ينل من قوتها كل ما فعل ـ وهو أقصى وأقسى ما يستطيع أن يفعل ـ فأراد التقرب اليهم ، ملصقا كل ما اتخذه ضدهم من اجراءات ظالمة بالسعديين الذين طردهم من الحكم شر طردة ، مدعيا أنهم خانوه بما فعلوا بالاخوان ؟

قد يكون السر واحدا من هذه الفروض أو هو خليط مما حوته هذه الفروض ·· ولكن الارجح هو أن الفرضين الاخيرين قد غره أولهما فتعلق به وظل متعلقا به حتى وجد نفسه بعد غير كثير من الزمن وجها لوجه أمام الفرض الاخير ·

□ لماذا غير الوفد موقفه ؟

أما من ناحية الوفد نفسه فموقفه من الاخوان فى هذه الفترة يستحق البحث والتمحيص · فهو بعد أن تولى الحكم نكث بوعوده للناخبين وجرب اسلوب التحدى مع الاخوان فى صورة قانون تنظيم الجمعيات ، وأسلمته تجربته الى الفشل ، فنبذ هذا الاسلوب واخذ التقرب والتصالح ·

فهل نسى الوفد انه قبل سنتين كان قد اعلن الحرب على الاخوان،حربا لا هوادة فيها ، ولا ترعى الا ولا ذمة ؟ ·· ما هذا التطور الذى طرأ على سياسة الوفد ازاء الاخوان ؟ ما هذه المهادنة ؟

صحيح أن فؤاد سراج الدين كان ينتهج سياسة تتسم بشىء من التجديد والمرونة ، كان هدفها أن يحتوى ما يستطيع احتواءه من الاشخاص والحركات · واستطاع أن يحتوى فعلا بعض الهيئات التى كانت موجودة اذ ذاك فى الحقل السياسى · فهل كان اتجاه سراج الدين نحو الاخوان المسلمين هو نفس الاتجاه وبنفس الهدف ؟ اذن يكون اشبه بالفار الذى

يحاول أن يبتلع قطا بل نمرا .. ومثل هذا لا يخطر ببال رجل عاقل مثل سراج الدين مهما اتسع أفق آماله ..

ولكن الذى أرجحه هو أن سراج الدين كان واقعيا ، حين قيم الاخوان حق التقييم فرآهم على حقيقتهم التى أثبتتها الاحداث ـ سلمها وحربها ـ .. رآهم هيئة ذات عقيدة فى قلوب معتنقيها أثبت من الجبال الرواسى ، وأن هذه الهيئة من القوة الذاتية بحيث لا تقهر ، وأن كسب ودها أنفع له ولحزبه من معاداتها وقطع الحبال بينه وبينها .

وكان الصراع الحزبى حافزا لجرائد الوفد أن تسيل أنهارها بالكتابة عن الاخوان وما لاقوه على يد السعديين من اضطهاد وتعذيب . وكانت المادة التى تعتمد عليها فى ذلك قضايا الاخوان التى كانت فى ذلك الوقت تعرض على القضاء وتتكشف عن مخازى حكومة السعديين .. وقد أنشأ الوفد فى ذلك الوقت جريدة أسبوعية سماها « الجمهور المصرى » كان رئيس تحريرها أبو الخير نجيب ، وتكاد تكون هذه الجريدة قد خصصت لهذا الموضوع . وكان لها تأثير عميق فى نفوس الناس الذين كان محولا بينهم وبين معرفة الحقائق طيلة عام أو أكثر .

□ حيرة :

لست أدرى حتى الآن هل كان حسن البنا ـ رحمه الله ـ مؤسس هذه الدعوة ومرشدها العام ـ يعتقد أن ستكون نهاية حياته فى هذه الدنيا على الصورة التى انتهت عليها ، وأن ستكون النهاية قريبة الى هذا الحد حيث انتقل الى جوار ربه ولما يبلغ الخامسة والاربعين ؟

انه كان كثير التبصير للاخوان فى مواقف كثيرة بما ينتظرهم من أوقات عصيبة يحال فيها بينه وبينهم ، وبأهوال سيخوضونها مع أهل الباطل . ويدعوهم الى الصبر والثبات حيث العاقبة لهم .. ولكن ذلك التبصير والحيلولة بينه وبينهم .. هل كان يتصورها على الصورة التى تمت بها ، حيث صارت حيلولة مفاجئة ليست كحيلولة السجن والاعتقال ؟

ان ثقة حسن البنا فى الله كانت ثقة لا حدود لها . فلم يكن يهاب الموت ولا يرهبه . وقد كانت لى معه تجربة فى هذا الصدد فى أوائل أيامنا بالدعوة أشرت اليها فى الجزء السابق ، وقد أذهلتنى هذه التجربة لاننى لم أكن أتصور انسانا يستهين بالموت كما رأيته يستهين به ويقدم عليه ... ولكن هل معنى هذا أنه كان يتوقع أن تكون نهاية حياته على الصورة التى انتهت بها؟.

لا أعتقد ... لانه لو توقع ذلك لاعد للاخوان ما يعينهم على اختيار من يخلفه .. وهو الانسان الذى يخطط للمستقبل ـ بالهام من الله وتسديد ـ

كما يخطط للحاضر الذى بين يديه ٠٠ ولا تجد فى تخطيطه ثلمة تنفذ منها الى خطأ ، ولا تعثر على خطوة أخرها يتبين أن الخير كان فى تقديمها ، ولا على خطوة قدمها يتبين أن الخير كان فى تأخيرها ، فهو المسدد دائما كما جاء فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا » ٠

فمثله لو أنه توقع لخطط للاستخلاف ، أو على الأقل لانار لمن بعده الطريق ٠٠ فاذا أضفت الى ذلك كله شدة حرصه على دعوته ، فهى عنده آثر من أبنائه وأحب وأقرب ٠٠ والمرء حين يتوقع النهاية يوصى أبناءه أو يوصى بأبنائه ٠٠ ولو أنه ـ رضى الله عنه ـ توقع لاوصى أبناءه فى الله ولاوصى بهم

ولكنه ـ رحمه الله وعوض العالم فيه خيرا ـ مع ما كان يعرفه عن أعداء الدعوة من سوء الخلق وموت الضمير ، فانه لم يكن يجردهم من الانسانية أو يضعهم فى مصاف الوحوش الكاسرة ، بل كان دائم الامل فى أن يستطيع فى يوم من الايام أن يحرك بقية من انسانية فى نفوسهم لعلها توقظ ضمائرهم فيستجيبوا الى ما ينفعهم ٠٠٠ وقد جرب نفسه مع كثيرين من كبار الاشقياء وعتاة المجرمين فاستطاع بفضل الله أن ينقلهم من حضيض الضلال الى سماء الهدى والنور ، وأن يجعل منهم أبطالا يحمون ذمار الحق ، وأئمة يهدون بأمر الله ٠

ما كان يغيب عنه رحمه الله أن تكون نهايته كنهاية سابقيه من أصحاب الدعوات أمثال ابن تيمية والافغانى ، وكثيرا ما كان يردد ذكرهم ويذكر نهايتهم وهو سعيد بهذه الشهادة التى هى أمل كل مؤمن ٠٠ ولكن النهاية التى انتهت بها حياة هؤلاء الرجال لم تكن كالنهاية التى انتهت بها حياته ٠٠٠ كان يتصور أن يعتقل وأن يسجن وأن يطول اعتقاله وسجنه ، ويتصور أن تلفق له تهمة ليتخلص منه فيقدم الى القضاء ، ويؤتى بشهود الزور ويحكم عليه بالاعدام ٠٠ كل هذا كان يتصوره وكان يتوقعه ٠٠ ولكن هذا كله وأعنف منه لم يكن ليحول بينه وبين أن يستخلف أو يشير بشىء يعين على اختيار من يخلفه ٠٠ لم يكن الرجل يحسن الظن بخصوم الاسلام ، ولا يهون من كيدهم ومكرهم ، ولكنه كان يعتقد مع ذلك أن ستكون لديه الفرصة الكافية لوصية تنير الطريق ٠

لكن النهاية جاءت مخلفة كل ظن ، مناقضة لكل تصور ، مباغتة للعقل والمنطق والقياس والنظر بل والخيال أيضا ٠٠ لم نكن لها سابقة تقاس عليها ، ولم يحدثنا التاريخ عن مثيل لها حتى كنا أدخلناها فى خيالنا ، ولكنها كانت نسيج وحدها ، وأعجوبة زمانها بل وزمان غيرها ٠٠٠ ولا ننكر أن الظلم كان موجودا فى كل زمان وكل مكان ، وأن الطغاة والظالمين لم يخل منهم زمان ولا مكان ٠ ولكن هؤلاء كانوا اذا ارتكبوا جريمة القتل ضد أعدائهم

ارتكبوها جهرا وعلانية ، كما كان يفعل الحجاج بن يوسف الثقفى ، أو كانوا يستغلون القضاء ، أو أن يسجنوا عدوهم حتى يموت فى السجن مثلا ٠٠٠٠ أما أن تقوم الحكومة بجميع سلطاتها بدور المتآمر الذى يبيت الجريمة فى خفاء ، ويحاول الاستخفاء فى الظلام ، وتقتل عدوها الاعزل غيلة وقد أعطته الامان ٠٠ فهذا ما ليس له فى التاريخ مثيل ، وهذا عار قد يأباه حتى الطغاة المستبدون ٠

على أى حال ٠٠ فان الجريمة وقعت ٠٠ وكان خروجها عن المألوف ، وبعدها عن تصور العقل وتخيل الخيال حائلا بين الرجل وبين أن يعين من بعده فيما كان هو بغير شك حريصا على اعانتهم فيه ٠٠ وهذا هو ماجعلهم فى حيرة من أمرهم ٠

□ قيادة مؤقتة :

كان التصرف الطبيعى وقد غاب قائد الدعوة أن تتصدى لقيادتها المؤسسات التى كانت تعاونه فى القيادة وهى مكتب الارشاد والهيئة التأسيسية ٠٠ ولما كان أكثر أعضاء هاتين المؤسستين فى المعتقلات ، فقد تولى هذه المهمة الاعضاء الذين أطلق سراحهم ، ثم صار ينضم اليهم منيطلق سراحه ٠ وقد باشر هذه المهمة منهم الاعضاء المقيمون فى القاهرة خير قيام ، وكانوا يتخذون من منزل الاخ الكريم الاستاذ منير الدلة مكانا لاجتماعاتهم ٠ وينبغى أن نشير هنا الى الدور الذى أداه الاخ الاستاذ الشيخ أحمد حسن الباقورى الذى كان عضوا بمكتب الارشاد العام ، والذى كان الاستاذ الامام رحمه الله يخصه بكثير من الحب مع ما كان يعرف من شطحاته ٠٠ كانت ظروف الباقورى ــ التى أشرت من قبل الى طرف منها ــ قد أعفته من أن يعتقل أو أن يحجر على حريته ، وكان ذلك نافعا للدعوة فى هذه الظروف العصيبة ٠

فهيئة قيادة الدعوة فى خلال تلك الفترة كانت مجموعة من الشباب ، متقاربة السن ، متقاربة الثقافة ، متقاربة المنزلة الاجتماعية ، ليس لها من الخبرة نصيب ذوبال اذا قيس بما كان لقائدهم منها ٠٠ وقد ترك القائد الدعوة وهى فى أحرج مواقفها ٠٠ فى موقف لا تحسد عليه ، أخطاء من داخلها أعطت لاعدائها سلاحا بتارا أغمدوه فى ظهرها ، وأحقاد من حكام هذا البلد استغلها من الخارج دول كانت تتربص بهذه الدعوة الدوائر ٠

وقد استطاعت هذه القوى الداخلية والخارجية أن تشوه وجه الدعوة أمام الرأى العام الداخلى والخارجى ٠٠ وهذا أسلوب اخطر على الدعوة من أسلوب القتل والاعتقال والسجن والتشريد ٠٠ وهو ما سوف نتناوله بالحديث والمناقشة فى فصل قادم ان شاء الله ٠

تيـــــاران :

اذا كانت الدعوة الاسلامية بعد قائدها الاول صلى الله عليه وسلم ـ مع أنه قبل اختياره الرفيق الاعلى قد أنار لمن بعده الطريق الى حد ما ـ قـد تعرضت لتيارات متناقضة متعارضة كادت تعصف بها ولولا لطف الله وحصافة أبى بكر وعمر ومع أيمان كان لا يزال غضا يعمر القلوب .. كان هذا والناس بعد قريبو عهد بالوحي ينزل بينهم .. فما بالك بالدعوة نفسها بعـد ثـلاثة عشر قرنا ، وقد حالت الظروف دون أن ينير قائدهم لهم الطريق لاستخـلاف من يلى الامر فيهم ؟ .. انهم لمعذورون اذا اختلفوا وتضاربت آراؤهم ، وتوزعتهم الآراء والاتجاهات . ولكنهم مع ذلك قد عصمهم الله ، وربط على قلوبهم ، فلم يطف على سطح هذا الخضم المتلاطم الا التياران اللذان انتابا الدعوة الاولى .

□ التيار الاول ـ أولو القربى :

أول ما يتبادر الى أذهان الناس عادة أن أحق الناس بخلافة قائد دعوة ما بعد وفاته هم أهله وعشيرته .. وقد يكون الاهـل والعشيرة أشد الناس الناس ايمانا بهذه النظرية باعتبارها حقا شرعيا كالميراث الشرعى فى المال ، لا سيما اذا كان منهم من كان فى طليعة العاملين فى الدعوة ومن ذوى السابقة والبلاء فيها .. واذا ما أخطأهم الاختيار وأسـند الامـر الى غيرهم اعتبروا ذلك هضما لحقوقهم وتخطيا لرقابهم .

وكان من أكرم العاملين فى دعوة الاخوان وذوى السـبق والبـلاء فيها اثنان من أهل الاستاذ الامام رحمه الله وعشيرته : هما الاخوان عبد الرحمن الساعاتى (البنا) وعبد الحكيم عابدين ـ الاول شقيقه والآخر زوج شقيقته أما عبد الحكيم عابدين ـ بما يغلب عليه دائما من صـبغة صـوفية نشـأ فى أحضانها منذ صغره ـ فقد كان عازفا عن ذلك وأعلن أنه لايؤمن بهذه النظرية من حق ذوى القربى .. وأما الاستاذ عبد الرحمن الساعاتى ـ بما كان يغلب عليه من تشيع لاهل البيت رضوان الله عليهم ومن مغالاة فى هذا التشيع ـ فانه رأى نفسه ورآه أشقاؤه وبعض أهله وعشيرته أحق الناس بمكان أخيه وشقيقه فى الدعوة ... ومع أن الاستاذ عبد الرحمن كان يرى هذا الراى ويعلنه فانه لم يرفع راية العصيان فى وجه الجماعة حين رأت غـير رأيه . وان كان بعض من لا دور لهم فى الدعوة قد شغبوا فلم يجدوا أذنا واحدة صاغية .

□ التيار الآخر ـ أولو القوة :

ولم يكن بروز هذه الفئة من رجال الدعوة فى المطالبة بهذا المنصب بدعا، فقد وقف امثالهم بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم يطالبـون بأن تكـون

الخلافة فيهم ·· والانصار فى الرعيل الاول من الدعـوة الاسـلامية انما هم الفئة التى بايعت على حماية الدعوة وحماية صاحبها بالسيف من أى أعتداء عليها ·· وقد كان اخواننا العاملون فى « النظام الخاص » فى دعوة الاخوان يرون أنفسهم يمثلون فريق الانصار رضوان الله عليهم فى الرعيل الاول ·· ولذا فقد رأوا أنفسهم أحق الناس بأن يكون صاحب هذا المنصب بترشيحهم·

وقد رجع الانصار بعد قليل الى ايمانهم ، واقتنعوا بأن دعاءهم هذا الحق هو نوع من النكوص فى بيعتهم التى لم تكن الدنيا ولا المناصب غايتها ولا هدفها ، فنزلوا – راضين – على ما استقر عليه رأى المسـلمين فى اختيار أبى بكر رضى الله عنه وسمعوا له وأطاعوا ··· أما اخواننا هؤلاء فقد اتخذوا موقفا نتناول الحديث عنه بعد قليل ان شاء الله ·

الفصــــل الثـانى

شبهة خطرة ماكرة

يتشعب التخطيط الدولى فى حبك المؤامرات تشعبا عجيبا ، فبينما يهيىء أسبابا للايقاع بين الهيئة التى يتآمر عليها وبين حكومة بلدها فتضـربها الحكومة بكل قوتها لتشتت شملها وتضعضع قوتها ، مما قد يرضى أعداءها من بين فئات الشعب ـ يتجه التخطيط فى الوقت نفسه الى محبى هذه الهيئة والمتعاطفين معها من بين فئات الشعب فيلقون بذور الشك فى نفوسهم تجـاه الهيئة بأسلوب يحار اللب فيه ، ويدل على براعة أولئك المخططين ، وعمق تفكيرهم ، وواسع درايتهم بالخصائص النفسية للامم التى يخططون لها ٠

واذا كان الايقاع بين الاخوان وبين الحكومة قد أسـفر عن تضـحيات وخسائر لمسها القارىء فى سياق الابواب والفصـول السابقة ، فان اصـلاح ما أفسده الايقاع أمر يسير متدارك تكفلت به أحكام القضاء ـ أما القاء بذور الشك فى نفوس محبى الاخوان والمتعـاطفين معهم بالاسـلوب البارع الذى يتسرب الى النفوس دون أن تشعـر كيف تسـرب اليهـا ، بحيث يجـدون أنفسهم وقد تغيرت نظرتهم الى الاخوان المسلمين ، فبعـد أن كانوا سـعداء بهم ، مفاخـرين بقيـادتهم ، مباركين خطواتهم ٠٠ اذا بهم وقـد صـاروا متشـككين فى توفيـق قيـادتهم ، مرتابـين فى أهـدافهم ، معترضـين على تصرفاتهم

ان الاسـلوب الذى بث به التخطيط الدولى الشـك فى نفوس صـالحى المسلمين فى كل بقاع الارض ، لم يتعرض لدعوة الاخوان المسلمين بذم ، ولم ينتقص من قيمة الاخوان وتفانيهم وشجاعتهم ، ولكنه يقرر ـ أسفا حـزينا متحسرا على هذه الهيئة العظيمة ـ أن قيادة الاخـوان قد تسرعت فى خطاها اخيرا اذ تعجلت قطف الثمرة قبل تمام نضجها بتدخلها فى السياسة ٠٠ فحدث لها مع الحكومة ما يحدث لكل متعجل ٠ ولو انها صبرت وتركت السياسة فى فى ذلك الوقت لاربابها لمـا حدث لها ما حدث ٠

ونجح هذا الاسلوب أيما نجاح ، وغزا العقـول والنفـوس والقلوب ، فكنت لا تسمع من أقرب الناس للاخوان الا هذه النغمة من العتب الشديد ، واللوم اللاذع ، والتقريع العنيف ٠٠ لـماذا تسرعتم ؟ ٠٠ لـماذا تعجلتم ؟٠٠ لقد اضعتم الدعوة وقضيتم عليها بهذا التسرع ٠٠٠

ما كدنا نخرج من محنتنا التى عصرتنا عامين كاملين حتى فوجئنا بأهلينا وأصدقائنا باستقبال حافل باللوم والتقريع ، فكان هذا الاستقبال أشد على نفوسنا من كل ما لقينا فى محنتنا ·

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة   على النفس من وقع الحسام المهند

وخطورة هذا الاسلوب أنه أفقدك ثقة الناس فيك · وأنك مضطر — لكى تستعيد ثقتهم — الى أن تبدأ محاولات لاقناعهم من جديد ·· وقد يكون اقناع خلاة الاذهان أيسر من اقناع أمثال هؤلاء ·· ولهذا فقد كان نجاح المتآمرين فى بث الشك فى النفوس عقبة كأداء أمامنا — نحن دعاة الاخوان — فى تلك الفترة الحرجة ، وكان علينا أن نذللها قبل كل شىء حتى نسوى الطريق بين يدى الدعوة لتنطلق فيه الى تسابق مسارها ·

ولا شك فى أن محاولة اخراج شعب من أمية فى شئون الحياة ، وتبصيره بما يدبر له ، أمر من أشق الامور ، فاذا كانت هناك عوامل قوية دائبة النشاط ، مهمتها أن تعمل على احباط هذه المحاولة — فان نجاح المحاولة يحتاج الى أضعاف الوقت وأضعاف الجهد · وقلما تصل المحاولة الى نهايتها الا اذا كان المحاول مستميتا لا يجد اليأس الى نفسه سبيلا ·

وكان هذا هو حال الاخوان مع هذا الشعب المسكين الذى طال رقاده ، وطال امد تشربه أفاويق الخداع والتضليل ، فبات وعلى بصره أسداف من الغشاوات ، كلما رفع الاخوان غشاوة وجدوا تحتها أخرى ، فلما صاروا قاب قوسين أو أدنى من كشفها جميعا ، أطفأ حكام مصر الانوار ، وتركوا الشعب يعيش فى ظلام دامس ، فهو يسمع ولا يرى — وبتكميم أفواه الاخوان بالقائهم خلف الاسوار لم يعد الشعب يسمع الا نعيق هؤلاء الحكام ، وما زيفوه عليه من أنباء ، وما قلبوه من حقائق ، وملأوا به سمعه من أكاذيب ومفتريات ·

سنة كاملة اعتقلت خلالها الالسنة ، والجمت الافواه ، وحطمت الاقلام ، ولم يعد الشعب المصرى والعربى والاسلامى فى أنحاء العالم يسمع أو يقرأ الا تهما تختلق ، وأكاذيب تنمق ، حتى شك المؤمنون فى ايمانهم ، وارتاب الناس فى أقرب الاقربين اليهم ؟ وسرت موجة الشك هذه فى أوساط الامية الاسلامية ، فأخذت تعيد النظر فى تقييم الاخوان ودعوتهم ومدى التزامهم بأهداف الدعوة ووسائلها على ضوء الشكوك والريب التى تسربت الى نفوسهم ·

صار أقرب الناس الى الاخوان يعتقدون أن الاخوان قد اعتسفوا الطريق ، وتسرعوا فخرجوا عن الجادة · وعزوا ما ووجه به الاخوان من ظلم وقهر واذى الى أنه جزاء وفاق للتسرع والتعجل ·

واذا سألت أحد المعترضين عما يراه خروجا من الاخوان عن جادة دعوتهم اجابك قائـــلا : انهم تدخلوا فى السياسة · فاذا ســألته : اذن فمــاذا كنت تريدهم أن يفعـلوا ؟ قال : كان عليهم أن يكتفوا بالدعـوة الى العبـــادات والاخلاق ·· وأن يرجئوا ما سوى ذلك الى وقت آخر ···· فاذا ما سألته : ومتى يأتى هذا الوقت الآخر ؟ أرتج عليه واعتصم بالصمت لانه قد وصل الى طريق مسدود ··

□ دحض هـذه الشبهة :

ولـما كانت هذه الشبهة المضلة مما تتعرض له الدعوة على مـر الايام حين تصطدم مع هوى الحاكمين ، فقد رأينا أن نتصـدى لها تصـديا فـكريا مستمدين أسلحة هذا التصدى من صميم الفكرة الاسلامية ومن واقع الحياة العامة التى تعمل فيها هذه الفكرة باعتبارها دعوة ، فنقول :

أولا ـ ان الاخوان منذ اليوم الاول لقيام دعوتهم كانوا يقدمون دعوتهم للناس ، ويحرصون على ابراز معنى شمول الاسلام لكل نواحى الحياة من عبادية واجتماعية واقتصادية وسياسية ، وأن الاسلام دين ودولة ·· وابراز هذا المعنى الشمولى للاسلام كان هو الدافع الوحيد لقيام حسن البنا بالدعوة ·· والا فما كان هناك ما يدعـو لقيامه ، فقد كانت مصـر وغـيرها من الدول الاسلامية تعج بالجمعيات والهيئات التى تدعو الى الاسلام ولكن بمعنـاه المبتور ·· وتحت يدنا مطبوعات كنا نوزعها على طلبة الجامعة فى عام ١٩٣٦ تدعو بأصرح عبارة الى نفس ما كان يدعو اليه الاخوان فى أعـوام ١٩٤٦ ، ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ ·

ثانيا ـ ان الاخوان يوم قرروا النهوض بأعباء الدعـوة الى الاسـلام بمعناه الشامل كانوا يعرفون أن ابراز الاسـلام بمعناه الشـامل لن يرضى المستعمر ولا تابعيـه من الحـكام لان ذلك سـيحد من سلطتهم ويقضى عـلى أطماعهم ·

ثالثا ـ ان حسن البنا لتيقنه من ذلك كـان حريصـا على أن يطمئن هؤلاء الحكام بين الفينة والفينة وفى مختلف المواقف الى أن الاخوان ليسوا طلاب حكم ، ولكنهم أصحاب فكرة ، يقدمونها الى الحـكام المنتسبين الى الاسلام ليحكموا على أساسها ، وسيكون الاخوان فى هذه الحالة فى ركابهم ، وعلى حد قوله « يغسلون على أيديهم » ·· وقد وصـل فى حرصـه على طمأنة الحكام الى ذلك أن أعلن فى المؤتمر السادس ـ وكان الاخوان فى أوج قـوتهم أن الاخوان ليسوا أعداء الملك ، وانما هم أصحاب دعوة ، فى الحكم بها انقاذ البلاد وصلاح العباد ·· يتقدمون اليه بها لتكون دستور الحكم · واستشهد

رحمه الله فى ذلك بقول الامام مالك بن أنس : لو كانت لى دعوة مستجابة لجعلتها للسلطان فانه اذا صلح صلح بصلاحه خلق كثير .

رابعا - ان الاخوان حين اعلنوا شمول دعوتهم من أول يوم حتى آخر يوم لم ينقصوا من شمولها شيئا ولم يزيدوا عليه شيئا .. الا أن صوتهم فى هذا الاعلان كان متناسبا فى درجة اسماعه للآخرين مع ما وصلوا اليه من قوة ، فليس صوتهم فى الاسماع وهم مئات كصوتهم وهم ألوف ، وليس صوتهم وهم ألوف كصوتهم وهم عشرات الالوف ، وليس صوتهم وهم عشرات الالوف كصوتهم وهم مئات الالوف وهكذا .... وكلما ازداد صوت التحذير قوة صار أشد ازعاجا للصوص وهم يسرقون فى هدأة الليل وسكون الظلام .. وقد يدعو هذا اللصوص الى انتضاء السلاح .. واذا بلغ بهم الازعاج كل مبلغ تركوا المتاع الذى يسرقونه وتفرغوا أولا للقضاء على مصدر الازعاج ليباشروا بعد ذلك سرقاتهم فى أمان واطمئنان .. مع علمهم بأن هذا المصدر لا يهدف من وراء ازعاجهم الى فوزه بنصيب مما يسرقون - وقد كان يسعدهم أن يشركوه معهم لو كان فى اشراكه ما يقنعه ويوقفه عن الازعاج - ولكنهم تيقنوا من أن هدفه الوحيد من وراء الازعاج هو ايقاظ أصحاب المتاع للحيلولة دون سرقة متاعهم .

هل كان امام الاخوان مندوحة تعفيهم من المسئولية أمام الله والناس والتاريخ اذا هم تعاموا عما يرون ، وأدعوا الصمم عما يسمعون ، وسكتوا لتتم السرقة تحت سمعهم وبصرهم .. ان أيسر الطرق أمامهم كانت هى هذه الطريق ، أن يسكتوا .. ولكن ليست أيسر الطرق دائما هى الطريق القويم .. نعم لقد أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما مالم يكن اثما ... ولكن أليس السكوت فى هذه الحالة اثما ؟ .. انه اثم كبير لا حدود لكبره ...

ثم أين تجد هذه الآية الكريمة من يحققها فى مثل هذه الحال حين يقول الله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » اذا لم يلبها الاخوان وهم الذين قاموا من أول يوم يدعون الناس الى تحقيق هذا الامر الالهى ؟ ... أحين يجد الجد ، ويصبح السكوت اهدارا لحقوق الشعب فى الحرية والاستقلال . ينكصون على أعقابهم ، ويعتصمون بالصمت ، ويلجأون فى تبرير نكوصهم الى أضاليل يغشون بها الناس ، فيحق عليهم قول الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » ؟!

خامسا - ان الاستاذ الامام - رحمه الله - كان أعرف الناس كيف

بضع الشيء فى موضعه او كما يقولون « يضع الهناء مواضع النقب » ·· لم يكن رحمه الله ممن يرمون بالتسرع فى اية مرحلة من مراحل الدعوة ، بل انه كان لشدة توخيه الاناة ، ولشدة حرصه على ان يقدر لرجله قبل الخطو موضعها – كان منافسوه يرمونه بايثار العافية ، وقد اشرنا الى طرف من ذلك فى الحديث عن « الاخوان ومصر الفتاة » وفى الحديث عن بعض مواقفه مع حزب الاحرار الدستوريين وحزب الوفد ·.·

وما كانت « الفتنة الاولى » التى افضنا فى الحديث عنها فى الجزء الاول من هذا الكتاب ، والتى كادت تستأصل الدعوة من جذورها ، وفقدت الدعوة من جرائها عددا كبيرا من أكرم الاخوان ·· ما كانت الا احتجاجا على التباطؤ فى خطوات الدعوة والتقاعس – فى عرفهم – عن العمل الجرىء الشجاع الذى كانوا يصرون عليه ·· ولقد أشاد الاستاذ الامام الى ذلك وقرر استمساكه بهذا الاسلوب مهما رمى بالضعف والتخاذل ، ومهما خرج عليه الخارجون · فقال فى المؤتمر الخامس الذى عقد بعد هذه الفتنة بأكثر من سنتين « أيها الاخوان المسلمون وبخاصة المتحمسون المتعجلون منكم : اسمعوها منى كلمة داوية من فوق هذا المنبر فى مؤتمركم هذا الجامع – ان طريقكم هذا مرسومة خطواته ، موضوعة حدوده ، ولست مخالفا هذه الحدود التى اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول ·.· اجل ·· قد تكون طريقا طويلة ، ولكن ليس هناك غيرها – وانما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب · فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها أو يقتطف زهرة قبل اوانها فلست معه فى ذلك بحال · وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة الى غيرها من الدعوات – ومن صبر معى حتى تنمو البذرة ، وتنبت الشجرة ، وتصلح الثمرة ، ويحين القطاف فأجره فى ذلك على الله ، ولن يفوتنا واياه اجر المحسنين : اما النصر والسيادة واما الشهادة والسعادة » ·

افمثل هذا الرجل يرمى اخيرا بالتسرع الذى هو ليس من طبيعته ، وليس من دأبه ، بل ويتعارض مع ما جبل عليه من الاناة والحرص والحذر والمرونة وبعد النظر وحسن التقدير ·

ولكن ماذنب الحمل اذا كان الذئب قد قرر افتراسه فادعى انه عكر عليه ماء البحر الذى لا يعكره الف حمل ؟···

سادسا – لقد كان حسن البنا – رحمه الله – ابخل الناس بدم الاخوان ووقتهم–وفى مواقف كثيرة كان يتصرف فيها تصرفا يصادم عواطف الاخوان، حيث كانوا يرون فى انفسهم القوة الكافية لقهر الموقف ·· ومع ذلك يرونه يتفاداه ·· وكان يشرح لهم خطته التى تتلخص فى انه اضن الناس بقطرة من

دم الاخوان أو بدقيقة من وقتهم مالم يكن ذلك أمرا لا مفر منه ٠٠ لكن ما دام أمامه مندوحة لتفادى ذلك فسيتفاداها مهما رمى بالضعف والمسالمة ٠٠ فهل انسان كهذا يرمى بالتسرع وتعجل النتائج ؟

سابعا - كان من المأثور عنه فى خطبه العامة وفى دروسه الخاصة أنه كان يقول : نحن الاخوان ليس هدفنا نصرة الاسلام ، وانما هدفنا الحصول على رضا الله عز وجل ٠ ولولا أن الحصول على رضا الله عز وجل هو فى نصرة الاسلام لما عملنا على نصرته ٠

انسان هذه عقيدته وهذا هدفه ، عقيدة وهدف استبعدا كل ما يحجب صاحبهما عن وجه ربه ، من بريق لحلاوة النصر أو تطلع الى العلو فى الارض فهو لا يرى دائما الا وجه ربه الكريم ٠٠٠ ومن علامات اعتصام انسان بمثل هذه العقيدة أنك تراه مهما واتته الظروف ، وأفسحت له الايام من سعتها ، ثابتا على ما ألزم به نفسه من أول يوم من عيشة الكفاف ، والبعد عن الرفاهية والمتع ٠٠٠ وهذا الرجل كان يعيش فى آخر عهده بالحياة الدنيا - وقد صار أتباعه بمئات الالوف ، وصار اسمه تهتز له العروش ، وصار يجرى بين يديه مئات الالوف من الجنيهات - نفس عيشة الكفاف التى كان يعيشها وهو شاب مجهول لا يعرفه أحد ، ولا يجرى بين يديه الا اثنا عشر جنيها هى مرتبه فى الشهر ٠

ولو كان الرجل يميل الى الاستمتاع بالمال أو يتشوف الى الاستئثار بالسلطة لكان أمامه مندوحة ، فكل ذلك كان متاحا له مالم يكن متاحا لرئيس حكومة ولا لملك ٠٠ ولكنه رحمه الله كان يؤثر عيشة الكفاف ، ويزهد فى السلطة ، ويرى سعادته فى الجلوس بين اخوانه على الارض ، يؤاكلهم أخشن الطعام ، ويلبس أخشن الثياب وأرخصها ثمنا ، ويبادلهم الرأى كأحدهم ، ولا يحملهم على رأيه بل يحاول اقناعهم بالحجة والبرهان - مع أنه لو أمر لسارع الجميع الى طاعته ، ولكن شهوة الحكم والتسلط لم يكن لها فى نفسه مكان ٠٠

وكان اذا سافر من بلد الى آخر ركب فى الدرجة الثالثة من القطار ، مع أن الذين ينتظرونه على محطة الوصول أكثر عددا ممن ينتظرون رئيس حكومة ، والذين يودعونه عند العودة مثل مستقبليه عددا ، والكل مدفوع الى ذلك - لا خوفا من بطش ولا أملا فى غنم - بل حب وتفان واخلاص وايمان ٠

فهل مثل هذا الانسان يرمى بالتهالك على مظاهر الحكم والتعجل فى الجرى وراء المغانم ؟ !

☐ من واقع الاحـــداث :

قـد تكون النقاط السـبع الماضية التى ناقشنا فيها هـذه الشبهـة الزائفة تجنح المناقشة فى اكثرها الى الناحية النظرية ، مما يتصـل بطبيعة الفكرة وخصال الداعية الذى كان يقود مسيرتها ويرتاد لها الطريق • ونرى أن اتمام المناقشة يقتضى أن نشفع ذلك باستنطاق الاحداث البارزة التى شغلت اكثر الوقت من الفترة التى هى موضع العتب ، ومحل اللوم ، ومثار الشبهة ، ومبعث الاقاويل •

ومع أن هذه الاحداث قد ناقشناها من قبل فى مواضعها على أوسع نطاق فاننا هنا وفى هذا السياق نجمل مناقشتها على ضوء الشبهة المفتراة فنقول :

☐ المواقف التى ابرزت الاخوان فى المجتمع الدولى :

يمكن اجمال المواقف التى ابرزت الاخوان فى المجتمـع الدولى فى هـذه الفترة فى ثلاثة مواقف :

(أ) موقفهم من ثورة اليمن •
(ب) موقفهم من حرب فلسطين •
(ج) موقفهم من تطورات الاحداث فى مصر •

☐ موقف الاخوان من ثورة اليمن :

لانرى داعيا لاعادة القول فى اليمن وطريقة حكم الامام يحيى فيهوالحياة التى كان يعيشها الشعب اليمنى التى جعلت كتاب الغرب الذين زاروا اليمن فى ذلك الوقت يقولون ان اليمن يعيش فى عهد ما قبل التوراة ••• فهل اذا قام أحرار من مثقفى أهل اليمن بثورة على هذه الاوضاع التى يأباها الاسلام، وتنفر منها الانسانية ــ وقد بايع الشعب هؤلاء المثقفين ــ واسـتغاث هـؤلاء المثقفون بالاخوان باعتبارهم الهيئة الاسـلامية المستنيرة التى تدعـو الى الحكم الاسلامى الصحيح ، يطلبون منها معاونتهم فى ارساء حكم اسلامى فى بلادهم ــ وهم حكومة بيدهم مقاليد الامور ــ فهل يتنكر الاخوان لدعوتهم ويتقاعسـون عن اعانتهم وهم أقـــدر الناس على هـذه الاعانة •• وهـم لم يطلبوا من الاخـوان جيشـا ولا أسـلحة وانما طلبوا منهم تاييدا معنويا ، ومعاونة بالراى فى تدبير الامور على اساس من النظام الاسلامى ؟

وينبغى هنا ان يتذكر القارىء ما جاء فى ختام رسالة « نحو النور » التى بعث بها الاخوان فى عام ١٩٣٧ الى حكام الدول الاسـلامية وأصحاب الرأى فيها اذ يقول الاخوان « وبعد •• فهذه رسالة الاخوان المسلمين نتقدم بها ، وانا لنضع انفسنا ومواهبنا وكل ما نملك تحت تصرف اية هيئة او حكومة

تريد أن تخطو بأمة اسلامية نحو الرقى والتقدم ، نجيب النـداء ، ونكـون الفداء • ونرجو أن نكون قد أدينا بذلك أماناتنا وقلنا كلمتنا • والدين النصيحة لله ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم وحسبنا الله ونعم الوكيل » •

لقد كان الاخوان مخيرين بين أمـرين لا ثالث لهما ، اما أن يستجيبوا لطالبهم ، وفى ذلك ارضاء لله ورسوله وانقاذ لشعب مسلم مغلوب على أمره ، وفى ذلك أيضا تجاوب مع دعـوتهم وصـدق لما عاهـدوا الله عليه • واغاثة الملهوف هى أدنى ما يطلب من المسلم للمسلم بل من المسـلم لاى ملهـوف •• هذا لانقاذ فرد •••• فما بالك اذا كانت الاغاثة لانقاذ شعب بأسره ؟ ••• واما أن يقعدوا عن اجابة طلبهم ، ويتخاذلوا عن اغاثتهم ــ كما فعلت الجامعة العربية والمسيطرون عليها فى ذلك الوقت ــ فيـكون فى ذلك ما يثبت للنـاس وللاخوان أنفسهم أنهم كانوا كاذبين فى ادعائهم حمل لواء الدعوة الاسلامية •

ولو أنهم فعلوا ذلك لفقد الناس ثقتهم فيهم ، ولفقد الاخوان ثقتهم فى أنفسهم ، وقضوا بذلك على الدعوة الاسلامية بتقـاعسها عن اجابة أول نداء وجه اليها وفشلها فى أول تجربة تعرضت لها •• والقضاء الحقيقى على أية فكرة أو دعوة ــ كما قدمنا ــ هو القضـاء عليها فى نفـوس النـاس •• وكل الخطوب تهون أمام هذا الخطب •

☐ **موقف الاخوان من حرب فلسطين :**

وقد لا يحتاج الاخوان الى من يجادل عنهم فى هذا الموقف ولا الى مزيد بيان ، فان هذه الحرب لا تزال هى موضوع الساعة فى مصر وفى البلاد العربية وفى العالم كله •• واذا كان الاخوان هم أول من خف الى أداء واجب الدفاع عن هذه الارض المقدسة ــ ولم يكونوا فى هذا طارئين على الموقف ولا مدعين ــ فقد كانوا منذ كانت دعوتهم نبتا صغيرا حـرس هـذه الارض والذائدين عـن حيـاضها •••

واذا كان تطوعهم للدفاع عن فلسـطين واستبسالهم فى الذود عنها قـد أظهر للعالم بطولات قلما يجود الزمن بمثلها وصـارت حـديث الاعـداء قبـل الاصدقاء •• واذا كان ذلك قد أحنق حكاما وأصحاب عروش فى قلوبهم مرض، فنظروا الى هذه البطولات نظرة حقد وضغينة ••• فما ذنب الاخوان فى ذلك وهم يؤدون واجبا ما تخلفوا عن أدائه يوما من الايام ؟

على ان المجد الذى اكتسبه الاخوان من هذه الحرب لم يكن هو هدفهم يوم تطوعوا لها وتركوا وظائفهم وأعمالهم وبيوتهم وتجارتهم وأولادهم •• وانما كان هدفهم أداء الواجب ، وتحقيق أمل طالما تعشقوه وهو أن يحوزوا شرف الموت فى سبيل الله ••

واذا كانت هذه الحرب لم تحقق ما كان يأمله كل عربى ومسلم من تحرير الارض المقدسة من دنس الصهيونية ، وكانت الهزيمة لاسباب لم يكن للاخوان يد فيها ، ولم يكن فى استطاعتهم دفعها ، فان تقدم الاخوان الصفوف قد هز مشاعر المخلصين من أبناء الامة الاسلامية ، وأحرج صدور المستوزرين وأصحاب السلطة والنفوذ فى الحكومات العربية ٠

وعلى المعترضين على تطوع الاخوان فى فلسطين - ناسيين كل ما حدث من تآلب أصحاب النفوذ فى العالم عليهم الى بروزهم فى هذه الحرب - على هؤلاء المعترضين أن يستعرضوا تاريخ هذه القضية ، وكيف استطاع الاخوان أن ينقلوها من عالم المجهولات فى أوائل الثلاثينيات الى قمة المعلومات فى أواخر الاربعينيات ٠٠ وما كانوا ليحققوا ذلك بالجلوس فى بيوتهم ونواديهم وارسال الحسرات على فلسطين وأهلها كما كان يفعل أخلص المخلصين من غير الاخوان ٠

ماذا كان يريد اللائمون أن يكون موقف الاخوان ازاء هذه القضية غير ما كان لهم من موقف ؟ ٠٠هل كانوا يريدونهم أن يقفوا موقف الجبن والتخاذل خوفا من أن يزداد الملك وذيوله والمستعمرون من ورائهم حقدا عليهم ؟ ٠٠ انهم لو فعلوا ذلك لكانوا كالذى حفر لنفسه قبرا ووأد نفسه فيه خشية أن يراه أعداؤه ومنافسوه فيحقدوا عليه ويحسدوه ٠٠٠ ولكن الاخوان قد استجابوا لنداء الواجب ، ووطنوا أنفسهم على تلقى ضربات الحاقدين ، موقنين بأن لكل تضحية ثمنا فى الدنيا والآخرة ، وبأن العاقبة للمتقين ولا عدوان الا على الظالمين ٠٠ فضحوا بأعز ما يملكون ، فأحيت هذه التضحية قضية فلسطين حياة لن تموت بعدها ٠٠ أحيتها فى ضمائر جيل يورثها الاجيال من بعده ٠٠ وأحيت الفكرة الاسلامية وخلدتها بحيث صارت واضحة فى نفوس الناس وعقولهم وبحيث صارت الثقل الراجح فى ميزان السياسة العالمية ٠٠ وعن طريق هاتين تمخض تاريخ هذه البقعة من العالم عن أحداث جسام لا زلنا نعيش حتى اليوم فى حلقة من حلقاتها ٠

□ موقف الاخوان من تطورات الاحداث فى مصر :

وقد جلينا الكثير من هذا الموقف وأفضنا فى الحديث عنه من قبل ، ونستطيع الآن أن نوجزه اذا تصورنا أن محاور هذه الاحداث كانت ثلاثة هى الانجليز والملك والاحزاب ٠ أما الانجليز فقد كان الاخوان يعلمون أنهم أصل البلاء ، وأنهم من وراء كل فساد واضلال وخيانة ومحاولات للقضاء على القيم وطمس معالم الدين ، كما كان الاخوان يعلمون أن الانجليز من أقدر الناس على بث الدسائس وحبك المؤامرات ٠٠ فكانت سياسة الاخوان قائمة على أساس من الاستخفاء بالدعوة طالما هى فى مهدها ، حتى لاتتنبه لها عيون

الانجليز فتقضى عليها قبل أنترى نور الحياة ، فلما شبت الدعوة واشتد عودها انتبه الانجليز لاول مرة فرأوها فى طور لا يسهل اقتلاعها فيه ، فلجأوا الى أساليب أخرى من الدس والوقيعة والضرب بيد الغير ، ولكن الاخوان كانوا فى يقظة فلم تفلح مكايد الانجليز ولم يستطيعوا أن ينالوا من الاخوان نيلا يوقف تيار دعوتهم أو يحد من مدها الغامر ٠

وهنا فوضوا صديقهم المقرب فى ذلك الوقت (١) ـ أمين عثمان باشا وكيل وزارة المالية ـ فى الالتقاء بالمرشد العام ٠ وبناء على طلب أمين عثمان تم اللقاء ، وكان لقاء فى منتهى الوضوح والصراحة من الجانبين ٠ فقال أمين عثمان : ان الانجليز قوم عمليون ٠ فهم قد خدعوا بقيام دعوة الاخوان فى غفلة منهم ، وقد أصبحت هذه الدعوة أمرا واقعا لا يمكن تجاهله ٠٠ فهم يريدون أن يتفاهموا مع هذه الدعوة ٠٠ فماذا يريد الاخوان ؟

وكان رد الاستاذ البنا هو أن الاخوان ليسوا طلاب حكم ، ولا هواة مناصب ، وانما هم أصحاب فكرة ولهم برنامج محدد ٠ وليس هذا البرنامج من وضعهم حتى يستطيعوا أن يعدلوا فيه أو ينقصوا منه أو يزيدوا عليه ـ لانه من وضع الله خالق الكون ٠٠ وشرح الاستاذ البنا هذا البرنامج بايجاز ٠ وقال لامين عثمان : انك بلا شك قد لاحظت ان هذا البرنامج لايهدف الا الى اصلاح الناس وخير الانسانية ، وأنت باعتبارك مختلطا بالانجليز سمعتك تقول انهم يريدون الخير والاصلاح ، فماذا يضير هم أن تأخذ الدولة فى مصر بهذا البرنامج ؟

ولما كان قصد الانجليز من التفاهم هو التلويح بمناصب الحكم ، باعتبار أن هذه المناصب هى أسمى ما يتطلع اليه الزعماء ، وأن مجرد بريقها والتلويح بها كاف لاسالة لعاب أعظم الزاهدين ٠٠ ولما كان الاستاذ البنا يفهم قصد الانجليز ، فقد جاء رده جامعا مانعا كما يقولون أو بمعنى أدق جاء رده موئسا ، فلم يجد الانجليز ثلمة يدخلون منها الى البناء الاخوانى ليخربوه من داخله ، وهى الوسيلة التى يعلم دهاة الانجليز أنها الوحيدة التى يمكن عن طريقها احداث التخريب الذى يستحيل معه الاصلاح ٠٠ وكان هذا هو هدفهم من طلبهم التفاهم مع الاخوان ٠

ومنذ ذلك اليوم ـ وقد يئسوا من الحصول على فرصة تخريب الاخوان من داخلهم ـ وضع الانجليز خطة جديدة على أساس الواقع الذى لمسوه ـ على حد القول السائر : مالا يدرك جله لا يترك كله ٠٠ واذ فاتتهم فرصة التخريب من الداخل ٠٠ وهى الفرصة المثلى ـ فلا يفوتهم فرص التخريب من الخارج ،

---

(١) عام ١٩٤٢ ٠

وان كانت ليستحاسمة ولاقاصمة لكنها معرقلة ومعوقة٠٠وقد استطاع الانجليز عن هذا الطريق وضع العراقيل - كما شرحنا ذلك من قبل - فى طريق مشروعى الجريدة اليومية والمطبعة وبأساليب التآمر الاخرى ، وأصروا على ابقاء جيش احتلال لهم فى قلب القاهرة ٠٠ ورد الاخوان على ذلك كله بأعمال ايجابية أشرنا اليها أيضا مما اضطر الانجليز أخيرا الى سحب جنودهم من القاهرة الىثكناتهم الضخمة فى القنال ٠٠ فتتبعهم الاخوان بغارات على هذه المعسكرات أشاعت القلق فيهم ، وبثت الرعب فى جنودهم ، وجعلتهم يشعرون لاول مرة أنهم مهددون غير مستقرين ٠٠ وهذا الشعور أوجد عندهم استعدادا للتفاهم على الجلاء ٠

ومن هنا يتبين أن النضال بين الاخوان وبين الانجليز ليس وليد أعوام ١٩٤٦ ، ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ كما يعتقد كثير من الناس وانما هو قد بدأ بصورة جدية فى أوائل الاربعينيات حين يئس الانجليز من اصطياد الاخوان والايقاع بهم فى شرك مناصب الحكم التى أوقعوا فيه كل زعماء البلاد ٠٠ وكان النضال من جانب الاخوان فى صورة نشر الوعى الوطنى والاسلامى فى جميع الاوساط الشعبية ، فى صورة توضيح القضايا التى تعانى منها الشعوب الاسلامية فى أنحاء العالم ، وتجميع القوى الشعبية من ورائها ، وفى صورة فضح أساليب الاستعمار البريطانى فى المشرق العربى ، وأساليب الاستعمار الفرنسى فى المغرب العربى ، وفى صورة متابعة قضية فلسطين بكل أساليب المتابعة التى وضحناها من قبل ٠

أما نضال الانجليز ضد الاخوان فكان فى صورة دسائس ومؤامرات لا تكاد تفشل واحدة حتى تتبعها بأخرى مستخدمة فى ذلك صنائعها من حكام مصر ٠

فلما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها فى عام ١٩٤٥ ، وكانت الفرصة التى لا تعوض لمطالبة كل شعب بحقوقه المسلوبة ، وجاء دور المطالبة بحقوق مصر فى الحرية والاستقلال ، انتظم الاخوان فى صف المناضلين عن هذه الحقوق ٠

فهل كان يريد اللائمون أن يقف الاخوان من الانجليز غير هذا الموقف ؟ هل كان على الاخوان ان يسالموا الانجليز أو يهادنوهم ؟ وطبيعة الانجليز التى وصفهم بها أحد كبار ساستهم أنهم اذا احتلوا بلادا لم يغادروها الا اذا وجدوا أن خسائرهم فيها تفوق مكاسبهم منها ؟ !

ان الاخوان لو كانوا فعلوا ذلك لكانوا خونة لدعوتهم ولبلادهم ، ولكانت جريمتهم فى ذلك تكون جريمة تاريخية يرويها التاريخ مثالا للجبن والنفاق والتخاذل والتفريط ٠

هذا ما كان من شأن الاخوان مع الانجليز ٠٠ أما الملك والاحزاب ـ ولقد أشبعناهما من قبل درسا وتمحيصا ـ فان ايجاز موقف الاخوان منهما يتلخص فى أن الاخوان لم يقفوا منهما فى يوم من الايام موقف المهاجم ، لكنهما مع ذلك اعتبرا مجرد وجود دعوة الاخوان هجوما عليهما ، على حد القول المأثور : «يكاد المريب يقول خذونى » ٠

وكم يكون جميلا من اخواننا الذين يعتبون على الاخوان أنهم تسرعوا أن يراجعوا صفحات التاريخ ، وليس هذا التاريخ ببعيد ثم يخبروننا : هل هاجم الاخوان الملك أو الملكية فى جرائدهم أو فى منشوراتهم أو خطبهم ؟ هل وجهوا الى الملك شتما أو سبا أو أوعزوا الى من يسبه كما فعل آخرون؟٠٠ ان شيئا من ذلك لم يحدث ، وما كان ليحدث من دعوة تقوم على عفة اللسان وطهارة القلب والجوارح ٠

كما أرجو أن يراجعوا صفحات التاريخ ليبحثوا هل هاجم الاخوان حزبا معينا؟ ٠٠ انهم لن يجدوا هذا الهجوم قط ، لان الاخوان دعاة بناء لادعاة هدم ٠٠ كل جهودهم موجهة الى توضيح فكرتهم لينضم الى صفوفهم من يقتنع بها ٠٠ وكانوا يتمنون أن تقتنع هذه الاحزاب بالفكرة الاسلامية فيكونوا عوامل بناء واصلاح ٠٠ فلما يئس الاخوان من اقتناعهم توجهوا بفكرتهم الى أفراد الشعب فاستجاب لهم الكثيرون ٠٠ وقد اعتبرت الاحزاب هذه الاستجابة من أفراد الشعب الى دعوة الاخوان هجوما عليهم ٠

فهل كان على الاخوان أن يصدوا الناس عن دعوتهم لارضاء هذه الاحزاب ؟

وهل اذا آنس أحد السياسيين المحترفين فى الاخوان قوة تحمى ، فالتجأ اليهم طالبا حمايتهم ، معاهدا على أنه حين يتولى الوزارة سيطالب الانجليز بالجلاء ، واذا لم يستطع اجلاءهم فانه يستقيل ٠٠ هل اذا طلب مثل هذا السياسى الحماية من الاخوان على هذه الشروط يرفضونه ويتخلون عنه أم يمنحونه فرصة يتبين فى خلالها صدقه من كذبه ؟ ٠٠ هذا ما فعله الاخوان مع اسماعيل صدقى ٠٠ ويوم تبين لهم أنه لم يف بما تعهد به ، وأنه يريد التشبث بأهداب الحكم أرغموه على تركه ٠

هل يعد هذا مأخذا يؤاخذ به الاخوان والله تعالى يقول « ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا » فالاخوان ليسوا طلاب مناصب ، ولا هواة سلطة ، وانما هم من وراء كل من يعمل على تحرير البلاد من ربقة الاستعمار أيا كان هذا العامل ٠

وبعد ... فلعل هذه المناقشة السريعة قد أوضحت باجلى بيان أن الاخوان حتى آخر يوم قبل الحل كانوا يسيرون فى حدود الطريق الذى رسموه لدعوتهم منذ كانت مجرد أمل فى النفوس ، لم يحيدوا عن هذه الحدود ، ولم يقصروا عنها ، ولم يقفزوا فوقها شبرا واحدا ، ولا قيد أنملة ، وانما كان التشكيك فى هذا الالتزام هو من حبائل الشياطين ومكايدهم - شياطين الانس الذين تفوقوا فى دسائسهم ووساوسهم على شياطين الجن . « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن ، يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ، ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون » .

حتى أئمة الدعوة الاسلامية فى أقاصى الارض

حاصرتهم الشبهة اللعينة

كان هذا فى النصف الاخير من عام ١٩٥٠ ، حين يسر الله لى أن أؤدى فريضة الحج فى رفقة والدى ووالدتى وسيدة كانت صديقة لوالدتى .

□ **من مشاهداتى فى رحلة الحج :**

وهنا أبيح لنفسى - قبل أن أواصل الحديث فيما نحن بصدده . والشىء بالشىء يذكر - ان استطرد قليلا فاعرض على القارىء بعض مشاهداتى فى هذه الرحلة المقدسة فاقول :

ان استعداد المسلم لاداء فريضة الحج ، وتوفر كل اسبابه لديه . لا يكفى وحده لادائها الا أن يشاء الله .. فقد كنت أحد أفراد أول بعثة أوفدتها الجامعة المصرية فى عام ١٩٣٧ لاداء فريضة الحج ، وقدمت الى ادارة البعثة ما حددته من رسوم ، وأعددت كل ما يلزم الحاج فى رحلته من لوازم ، ولكن لم يشأ الله أن أؤدى الفريضة لسبب غاية فى الغرابة ليس هنا مجال الاشارة اليه .

ولكننى فى عام ١٩٥٠ بعد أن أنهيت عملى فى موسم القطن فى الصعيد نزحت الى بلدنى رشيد لقضاء فترة من اجازة الصيف ، ففوجئت حين وصلت بوالدى وقد أعدا نفسيهما للحج ، وطلبا أن أرافقهما فقبلت فى الحال - وما كان لى أن أتخلف عنهما .. غير أنى باعتبارى داعية من دعاة الفكرة الاسلامية لم يكن هدفى مجرد أداء الفريضة ، وانما كان هدفى أبعد من ذلك مدى ، فقد عزمت على استغلال هذه الرحلة المقدسة فى دراسة المجتمعات الاسلامية التى تكاد تجتمع كلها فى خلالها .

وكان السفر عن طريق البحر . وقد رغبنا فى حجز أمكنة لنا فى الدرجة

الثانية على السفينة ، ولكن يبدو أننا تأخرنا فى طلب هذه الاماكن فقد حجزت جميعا ، ولم يكن بد من السفر فى الدرجة الثالثة · وكان هذا متوائما مع هدفى الذى اشرت اليه ·· ففى الدرجة الثالثة تستطيع أن ترقب القلة القليلة من أهل الدرجتين الاولى والثانية ، وكذلك تختلط وتعيش مع الغالبية الغالبة وهم أهل الدرجة الثالثة الذين يمثلون جمهور الشعب بكل ما فيه ·

والى القارىء بعض ما صادفنى فى هذه الدراسة :

أولا – بعد أن تقدمنا بطلب التصريح لنا بالحج ، بلغنى أن بعض المسئولين من رجال الادارة يتقاضون رشوة فى مقابل ادراج الطلب المقدم ضمن الطلبات المصرح لها ·· فساءنى ذلك ، وأعلنت أمام الناس أننى لن أدفع رشوة ولو أدى ذلك الى سحب طلباتنا – ويبدو أن اعلانى ذلك بعث الخوف فى نفوس المرتشين فمرروا طلباتنا دون رشوة ·· ولعمرى انها لكارثة أن يبدأ المسلم عبادته بارتكاب اثم عظيم ·

ثانيا – لما كانت هذه هى المرة الاولى التى نقوم فيها بهذه الرحلة المقدسة ، فقد رأينا أن نستأنس بمصاحبة بعض ممن سبق لهم القيام بها من قبل ، فتعرفنا على ثلاثة أشخاص من أهل الاسكندرية سبق أن حجوا ثلاث مرات ، وكانت تربطنا بأحدهم صلة نسب ·

وقد اثبتت لنا هذه الرحلة أن الاختبار الصحيح الذى يكشف حقيقة الاصدقاء هو مرافقتهم فى رحلة شاقة وطويلة ، فانك تسمع من أكثر الناس ما يثير اعجابك ، وما يثلج صدرك ·· حتى اذا جمعت بينك وبينهم رحلة شاقة سقطوا من عينك واحدا بعد الآخر ، ولم يثبت فى مكانه منهم الا أقل القليل ·· فهؤلاء الثلاثة الذين ملأوا الدنيا وعودا أنهم سيحملون عنا كل الاعباء طول فترة الحج تخلوا عنا من أول يوم أقلتنا واياهم السفينة ·

وقد ساءنا هذا ، لكنه عاد علينا بفوائد كبيرة ، فان تحمل المرء مسئولية نفسه يبعث فيه قوة يواجه بها المواقف ، ويجابه بها المشاكل وينتصر عليها ·· وان كان فى ذلك اقتطاع من الوقت والجهد الا أن الانسان يشعر بلذة وسعادة تعوض هذا الوقت وتنسى هذه المشقة ، اذ يخرج بحصيلة من فهم للامور ، وكسب لاصدقاء ، وبث لافكار ·· وقد كان لى ذلك كله والحمد لله ·

ثالثا – قطعت بنا السفينة المسافة بين السويس وجدة فى ثلاثة أيام قضيتها – الا فترات النوم – على ظهر السفينة اتصل بجميع الراكبين ، اغشى مجالسهم ، واستمع الى احاديثهم ، وانتقى منهم من اتوسم فيه الخير فأنتحى به جانبا ، واعقد معه ما يشبه الصداقة ·

رابعا — كان احد الذين انتقيتهم رجل فارع الطول ، عريض المنكبين جهورى الصوت ، مرهوب الجانب ، لكننى احسست أن هذه الهيئة المتسمة بالعنف انما تطوى على قلب سليم ·· وحين جلست اليه أخبرنى باسمه الذى نسيته الآن ، وأخبرنى أنه تاجر مواش من طنطا ·· وفهمت منه أنه لا يعرف من أمور الدين شيئا ، وأنه يقوم بأداء الحج كما يقوم زملاؤه حتى لا يكون أقل مكانة منهم فى نظر أهل بلده — وكانت صراحته معى دليلا عندى على أنه منطو على قلب سليم ·

وهذا الصنف من الناس هم كالخامة الثمينة التى ألقيت فى القذر حتى تلوثت وطمس جمالها وشاهت وبدت بشعة مرذولة : تعافها النفوس · فاذا وجدت من تحامل على نفسه ، ويغالب اشمئزازها ، فيتناولها ويزيل ما عليها من القذر ، فانه سيكشف عن حقيقتها ، ويبرز معدنها فتبدو متألقة أخاذة ·

وهكذا كنت مع هذا « الحاج » · ما كدت أتحدث اليه فى شأن الحج ومعانيه حتى أقبل على ، وتعلق بى ، الى حد أننى كنت اذا غبت عنه بحث عنى ليستمع الى ·· ولم أكن فى كل مرة أطيل معه الحديث عملا بما أثر عن الصحابة رضوان الله عليهم من قولهم « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة » ··· وقبل أن تصل السفينة الى الشاطىء فى جدة — حيث يفترق الحجيج — عاهدنى الرجل على التوبة ·

خامسا — مكثنا فى المدينة اسبوعين قبل الحج ، وكانت دورة المياه الخاصة بالحرم النبوى منفصلة عنه ولكن مبناها قريب من مبنى الحرم · ولم أكن دخلت هذه الدورة طول مدة اقامتنا بالمدينة ، فرأيت فى آخر يوم أن ألقى نظرة على هذه الدورة — ودخلتها فاذا هى محتشدة — وبينما انا واقف أقلب نظرى فى الناس اذا بصوت ضعيف ينادى باسمى ، وكأن الذى ينادى ينادى من قريب · ولما كان اسم « محمود » من الاسماء المنتشرة بين المسلمين ، ونظرت فاذا المنادى شخص لا اعرفه ، فقد اعتقدت أنه ينادى شخصا غيرى·· وكرر المنادى النداء ولم أرد عليه ، حتى رأيته يتجه نحوى حتى صار قبالتى ، ومد يده الى مصافحا فصافحته وأنا لا أعرفه · فقال لى :ألا تعرفنى ؟ فلما رأى فى وجهى علامة الاستغراب قال : أنا أعذرك فى عدم معرفتك اياى ، فقد تغيرت تغيرا تاما ·· اننى أنا فلان — فاذا هو صديقى تاجر المواشى ، غير أنه قد انتحل جسمه حتى صار جلدا على عظم ، وشحب لونه ، وبرزت عظامه ·· فهالنى ما به ولكنه سارع قائلا :

لا تحزن لما حل بى ، فوالله اننى أسعد الناس بهذا ·· فبعد أن افترقنا فى جدة ودخلت المدينة ، دخلتها وانا عازم على التوبة ·· ولم يمر على بعد ذاك يوم واحد حتى مرضت واشتد على المرض حتى نفدت وعيى ، ويئس

زملائى منى بعد أن بذلوا جهدهم فى علاجى ، وظللت أعالب سكرات الموت أياما، ويغمرنى شعور بالسعادة أن ألقى ربى تائبا ٠٠ ولم تكن لى أمنية الا أن أراك قبل أن أموت لانك صاحب الفضل فى هدايتى ٠٠ ولكننى كنت يائسا من تحقيق هذه الامنية ٠٠ وشاء الله لى أن أبرأ من المرض منذ يومين ، فعزمت على أداء الصلاة فى الحرم ٠٠ فاذا بأمنيتى تتحقق وألقاك الآن ٠

فقلت له : أبشر فقد ذكرتنى هيئتك التى أنت عليها الآن بالحديث القدسى الشريف الذى يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه « اذا مرض عبدى فلم يشكنى الى عواده ، فلأبدلنه لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه » قال الصحابة : وما لحم خير من لحمه ودم خير من دمه ؟ قال « لحم لم يذنب ودم لم يذنب » ٠

سادسا ــ قفلنا الى مكة لنقيم بها حتى يحين موعد الحج ، ونزلنا فى منزل المطوف ، وهو منزل كبير ينزل به أكثر من خمسين حاجا من مختلف بلاد مصر ٠٠ فرأيت فى خلال فترة اقامتنا هذه عجبا ٠٠ رأيت من هؤلاء الحجاج الذين حجوا المرات ذات العدد من يسبون الدين ، ورأيت منهم من لا يؤدى الصلاة ، ويقضون أوقاتهم فى الطعام والشراب واغتياب الناس والتنابذ بالالقاب والتباهى بعدد الحجات ٠

أما خارج بيت المطوف وفى شوارع مكة ، فقد كنت أرى صعاليك المصريين يتطاولون على الحجاج الهنود ، ويسخرون منهم ، ويتغامزون عليهم ، ذلك أن الحجاج الهنود يأخذون بالطريق الاشد فيهلون ــ عند وصولهم من بلادهم لاول ميقات ــ يهلون بالحج ٠ ومعنى ذلك أنهم يدخلون لاول حضورهم من بلادهم ــ مكة محرمين ، ويظلون ملتزمين بشروط الاحرام مدة تزيد على الشهر قبل أن يحل موعد الحج ، فتطول شعورهم ، وتغظم لحاهم وتتشعث ، وتتسخ ملابس احرامهم ــ قاصدين بهذا التقشف والحرمان وجه الله ٠٠ فلا يكون من سفهاء المصريين الذين لا يفهمون معنى الحج الا التندر عليهم ، والسخرية منهم ، ورشقهم بألفاظ نابية ٠٠ وحتى الحجاج الهنود أو الماليزيون غير المحرمين ــ وملابسهم الوطنية تختلف عن ملابسنا ــ لا يسلمون من السنة الحجاج المصريين الجهلة ، فلقد كنت واقفا مع وكيل وزارة التعليم فى باكستان أتحدث معه ، فمر بنا نفر من هذا الصنف أخذوا يستهزئون بالرجل ويضحكون منه ، معتمدين على انه لا يفهم ما يقولون ٠

سابعا ــ كان أكثر همى منصبا على الاتصال بالحجاج من البلاد الاسلامية غير العربية ، لاسيما الباكستان التى كانت فى ذلك الوقت دولة ناشئة لم يمض على انشائها الا نحو ثلاثة أعوام ٠٠ وقد أتيح لى الاتصال بحجاج باكستانيين من مختلف الطبقات ، وقد فهمت من لقائى معهم وحديثى

اليهم عن حقيقة أحوال بلادهم مالم أفهمه من قراءاتى ومطالعاتى فى الصحف والمجلات ٠

ومما كان يقربنى الى نفوس هؤلاء القوم من المسلمين غير العرب ويفتح لى قلوبهم ، أننى فى خلال حديثى اليهم باللغة الانجليزية كنت أصدع بالآية والآيتين من كتاب الله ـ باللغة العربية طبعا ـ فألمح فى بريق عيـونـهم وتألق جبينهم حين يسمعونها كل معانى الاخوة والمودة والحب ـ وكان هذا مصداق ما حدثنا به أستاذنا الامام ـ رحمه الله ـ مرجعه من حجته الأولى عام ١٩٣٦ وأشرنا اليه فى الجزء الاول من هذا الكتاب من أن بقاء القرآن الكريم بألفاظه العربية صار هو الرباط الوحيد بين المسلمين فى أنحـاء الارض مهما اختلفت السنتهم ، وتعددت ألوانهم ، وتباينت لغاتهم ، وهـو الرباط الوحيد الذى أعيى المستعمرين بعد أن قطعوا أوصال الامة الاسلامية ولم يبقوا منها على شىء ٠

ثامنا ـ لاحظت أن أكثر الذين يعزمون على أداء فريضة الحج يستعدون لذلك ويعدون لها كل ما يلزم الحاج من زاد وعتاد مادى ، فهـو يحضر النقود التى يحتاجها السفر والانتقال والسكن وشراء الهدايا ، ويعد الملابس التى يرتديها هناك من زى عادى وملابس للاحرام ، وربما أعد لنفسه زادا من الطعام يكفيه طيلة الرحلة ٠٠ ولكن لا يخطر بباله أن يعد نفسه روحيا لهذه الرحلة المقدسة التى هى من أولها لآخرها رحلة روحية عبادية ٠٠

فأكثر الحجاج المصريين الذين قابلتهم لا يعرفون من مناسك الحـج شيئا ، ويعتمدون فى ذلك على من يسمـون فى مـكة والمـدينة « بالمـدعين أو المطوفين » الذين يقودونهم لاداء المناسك كما يقاد القطيع ٠٠ ولكثرة عدد هذا النوع من الحجاج الذين يفدون الى مكة والى المدينة اعتقد المطوفون الجهـل فى جميـع الحجاج ٠

ولا أنسى أننا حين نزلنا من المدينة الى مكة محرمين ، دخلنا مـكة فى ساعة متأخرة من الليل ، فلما دخلنا منزل المطوف سألته عن الطريق الموصـل الى البيت الحرام فلم يرد على سؤالى ، ونادى على أحد موظفيه وهو شاب يـكاد يكون اميا وقال لى : سـيروا خلفـه ورددوا كل ما تسمعـون منـه ٠ فأغضبنى كلام الرجل وقلت له : يا سيدى لسنا جهلة حتى نحتاج الى مثل موظفك هذا ، وليعلم موظفك هذا أن مهمته تقتصر معنا على أن يدلنا عـلى طريق البيت الحرام ٠ أما المناسك وأما الادعية فنحن اعلم بها منه ٠

تاسعا ـ لا زالت تطن فى اذنى حتى اليوم عبارة كررها والدى ـ رحمه الله ـ على سمعى مرات كثيرة فى أثناء قيامنا بأداء مناسك الحج من احـرام

وطواف وسعى ووقوف بعرفة ورمى للجمرات ٠٠ تلك هى قوله لى : يامحمود أنا لم أندم على شىء كما ندمت على ان أجلت أداء هذه الفريضة حتى كبرت ووهن عظمى ، فان الحج عبادة الاقوياء ٠

عاشرا – عندما عاد الاستاذ الامام – رحمه الله – من الحج أخذ يصف لنا المواقف التى وقفها ، وكان الموقف الذى أسهب فى وصفه ، وأطال الحديث عنه ، وحلق بأرواحنا فى سماء شعوره ، موقف صعوده على جبل الرحمة بعرفات ، حين أخذ يدعو ربه ، ويبتهل اليه ، ويستمطر فضله ٠٠ حتى قال لنا : اننى أحسست برحمة الله ورأيتها بعينى ولمستها بيدى ٠٠٠

وقد وقع منا هذا الوصف اذ ذاك موقع الاستغراب ٠٠ فاننا لم نجرب فى الاستاذ المبالغة ولا الادعاء ولكننا لم نتصور ما يقول ٠٠ ولهذا كنت شديد الشوق الى رؤية هذا الجبل ، والى صعوده ، والى مناجاة الله عز وجل والابتهال اليه وأنا على قمته ٠٠٠

فلما انتقلنا الى عرفة ، وقاربت الشمس الغروب،صعدت على هذاالجبل الصخرى الوحيد فى أرض عرفات الرملية المنبسطة الشاسعة حتى صرت على قمته ، وأخذت أدعو وأبتهل والجأ الى الله وأستمطر رحمته ، وأرجو فضله ، حتى غمرنى ما غمر الاستاذ رحمه الله ولمست ما لمس ، وأحسست بما أحس به، ونعمت بما نعم به « وما راء كمن سمعا » ٠

لا يعرف الشوق الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

□ **بيت القصيد :**

الحادى عشر – وهو بيت القصيد فيما قصدنا اليه من عنوان هذا الموضوع ٠٠ فبعد أن سعدنا بزيارة النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة ، استقر بنا المقام فى مكة المكرمة قبل الوقوف بعرفة بنحو شهر ، استمتعنا فى أوله اياما بما يطمح اليه كل حاج من ملازمة المسجد الحرام ودوام الطواف ، ثم ابتلينا بمرض أصاب الرفقاء جميعا سواى ، فكان على أن اقضى فى تمريضهم طول اليوم ، فكنت لا أكاد أسعد بالصلاة فى المسجد الحرام الا صلاتى المغرب والعشاء ٠٠ واستمر هذا الحال حتى انتهى الحج ورجعنا الى ديارنا ٠

وقد لاحظت فى ايام متتالية بعد صلاة المغرب ان افرادا من الحجاج يلقون دروسا ويلتف بعض الحجاج حولهم يستمعون لما يقولون ، ويتقدمون اليهم بالاسئلة فى نهاية الدرس فيجيبون عليها ٠ وكل محاضر يتخذ له عمودا من أعمدة المسجد يجتمع بالناس حوله ٠٠ ورأيت فى ليلة من الليالى أن أستمع

الى درس من هذه الدروس • وكان الذى يلقيه شابا هنديا يتكلم العربية الفصحى • وقد راعنى ولفت نظرى أن أسلوبه فى الحديث وأهدافه التى يهدف اليها قريبة جدا من أسلوب الاخوان واهدافهم •• حتى اذا انتهى من درسه ابدى استعداده للاجابة على أسئلة الحاضرين ، وساله اكثر من واحد واجابهم ثم تقدمت اليه بسؤال ، فالتفت الى قائلا : اننى لا أستطيع الاجابة على سؤالك هذا ، فرجائى أن نلتقى بعد صلاة العشاء لاقابلك بمن هو أوسع منى علما من اخوانى ليجيبك على سؤالك •

وبد صلاة العشاء قابلنى الشاب المحاضر بشاب أكبر منه سنا ، ذى لحية ، ويرتدى بزى العلماء الازهريين وعرفنى به وقال لى انه أمير جماعتنا فى فترة الحج • ودار الحديث بيننا طويلا ثم قال فى نهاية اللقاء : يا أخى •• ان سؤالك هذا ينبىء عن أن السائل ليس شخصا من غمار المسلمين ، وانما هو صاحب دعوة وانسان له دراية وتاريخ ، ولسنا جميعا هنا الا تلاميذ لا ينبغى لنا أن نتصدى لمناقشة أساتذة •• وسيحضر أستاذنا الاكبر فى يوم كذا (حدده) ان شاء الله ، وسنقدمك اليه لتتناقشا معا ـ ثم طلب الى أن أقوم بالقاء درس كما يقومون ، فاتخذت لى عمودا وصرت ألقى درسا حوله كل ليلة •

وفى احدى الليالى بعد انتهائنا من صلاة العشاء أخبرونى بأنهم سيقومون برحلة دعوة فى صباح اليوم التالى الى ضاحية من ضواحى مكة تسمى « وادى فاطمه » وطلبوا الى أن أرافقهم فاعتذرت بالظروف التى أشرت اليها آنفا • وسألتهم عن وادى فاطمة هذا فقالوا : ان سكان هذه الضاحية ـ بالرغم من مجاورتها لمكة ـ خلاة الاذهان عن أبسط قواعد الاسلام ؛ حتى ان كثيرين منهم يعتقدون أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو الاله • وقالوا ـ عن تجربة لهم سابقة فى هذه الضواحى ـ ان أهل هذه الضواحى فى أمس الحاجة الى من ينشر الاسلام بينهم كأنهم من أهل الفترة •

□ السيد أبو الحسن على الندوى :

وفى الليلة التى تعرفت فيها على أمير الجماعة أعطانى مجموعة من الرسائل المطبوعة ، وقال لى انها من وضع أستاذهم • وهى رسائل صغيرة الحجم لا تعدو الواحدة منها بضع ورقات • وقد طالعت هذه الرسائل فوجدتها قريبة الشبه برسائل الاخوان فى الاسلوب والهدف والروح ، منها رسالة بعنوان « الانسانية واصدقائها » ، وأخرى بعنوان « بين الصورة والحقيقة » وثالثة بعنوان « معقل الانسانية » فزادنى ذلك شوقا الى لقاء هذا الاستاذ •

لا سيما وقد لمحت فى اتباعه وتلامذته روح الاخوان فهم مجموعة من الشباب طلاب الجامعات فى الهند يتدفقون حماسا وايمانا ٠

وفى اليوم المحدد لحضور « الاستاذ » بادرت بالذهاب الى المسجد للالتقاء به ٠٠ وحين اقبل رايت شابا فى سن الاستاذ الامام رحمه الله ، ذا لحية غير كثيفة ، يرتدى بعباءة سوداء ، وهو نحيل الجسم ، يبدو عليه آثار السهر والجهد وطول العبادة ، ومع كل هذا ينبثق من بين عينيه شعاع من نور وذكاء وفطنة ٠٠ وقد استقبلنى بالعناق ، ثم صعدنا الى طابق علوى (كان يتصل بالمسجد فى تلك الايام بيوت من عدة طوابق ، ابوابها من داخل المسجد يسكنها المجاورون ٠ وبها مكتبة المسجد الحرام ومرافق أخرى) فى بيت من البيوت المتصلة بالمسجد ٠ وكان الاخوة تلامذة الاستاذ قد صفوا مقاعد فى ردهة فسيحة ، وامتلأت الردهة ، ووقف السيد أبو الحسن على الندوى فتحدث بالعربية الفصحى حديثا رائعا كدت احس معه أننى أستمع الى حسن البنا ، فهو يستشهد بآيات القرآن فى مواقعها لا يتلعثم ٠٠ يتدفق تدفق القلب المفعم يفيض من احاسيسه على سامعيه ٠٠ انسان ملك الاسلام عليه لبه فقرأ القرآن وحفظه وتغلغل فى بحار معانيه وتشربته نفسه حيث صادف قلبا ذكيا، ودرس التاريخ الاسلامى والادب العربى ، فتسمعه كما كنت تسمع حسن البنا ينشد من الشعر القديم البيت أو البيتين فكانما يضرب أوتار قلبك ٠

وبعد انتهاء خطابه قام جميع الحاضرين فصافحوه وانصرفوا لكنه استبقانى ، ثم جلسنا معا هو وانا وحدنا دون أحد من تلاميذه وأخذنا فى الحديث فقال لى : ان اخوانى حدثونى عنك حديثا فهمت منه من انت ٠ فقلت له : وماذا فهمت ؟ قال : فهمت أنك من قادة الاخوان المسلمين فى مصر ٠ فقلت : نعم ٠٠٠ قال : اننا فى الهند كنا نتابع الاخوان فى مصر ، ونعتبرهم قيادة واملا ، وقد كنت حريصا على ان التقى بالاستاذ البنا للتعارف ولايجاد صلة بين حركتنا فى الهند وبين الاخوان فى مصر ٠ ولكن الظروف الاخيرة وما حدث للاخوان فى مصر كان صدمة لنا ٠

قلت : وما رايكم فى هذه الاحداث ؟

قال : ان الاخوان تسرعوا ، وما كان لهم ان يتسرعوا ٠ وهذا التسرع هو الذى اوردهم هذا المورد وحرم العالم الاسلامى من أعظم هيئة كان يعقد آماله عليها ٠

فقلت : لقد كنت حريصا ان اسمع منك هذا الكلام ٠ واذا كان هذا الذى تقول يقوله المقيمون فى مصر فما كان لانسان بعيد كل البعد عن مصر ، ولم تتح له فرصة واحدة للالتقاء بالاخوان — الا ان يتكلم بما وقع عليه بصره

فى الصحف أو قرع سمعه فى الاذاعات ٠ وكل هذا المقروء والمسموع هو من طرف واحد ٠٠٠ واذا كان المقيمون فى مصر لا يكادون يعرفون حقيقة ما جرى فى بلادهم ، فأنتم ـ وبيننا وبينكم آلاف الاميال ـ معذورون أن لا تعرفوا حقيقة ما يجرى فى بلادنا ٠

ثم أخذت أشرح له أطوار الدعوة فى مصر ، وحقائق المواقف بها ، وناقشت معه كل موقف منها ٠٠ ثم أخذ هو يشرح لى أسلوبهم فى الدعوة فى الهند وأنه أسلوب هادىء ، ولا يمضى يوم الا ويدخل فى الاسلام عشرات ومئات من غير المسلمين ـ فقلت له : ان وضعكم فى الهند لا يقتضى أكثر من ذلك ، لانكم أقلية وسط أكثرية من غير المسلمين ، أما الاخوان فى مصر فهم مسلمون فى بلد مسلم ، ثم ان هذا البلد هو طليعة البلاد الشرقية والاسلامية على الاطلاق ٠٠ وطال الحديث بيننا حتى انتهى باقتناع الرجل بعد أن تكشفت له الحقائق التى طمسها المغرضون ٠

وبعد أن استعرضنا معا أحوال العالم الاسلامى واتفقت وجهتا نظرنا ازاء كل مشكلة من مشاكله ، رأيت فى الرجل من صفات القيادة الاسلامية ومؤهلاتها ما قد يندر وجوده ـ ولم نكن بعد فى مصر قد انتهينا الى رأى فى هذا الموضوع ـ فعرضت عليه فكرة ترشيحه لمنصب المرشد العام للاخوان المسلمين ٠ فشرح لى وجهة نظره فى هذا الموضوع شرحا مستفيضا وهى تدور حول النقاط التالية :

١ ـ أنه غريب عن مصر ، وليس ملما بأحوال أهلها ولا بظروف الحكام ولا المحكومين ٠

٢ ـ أن الظروف الحاضرة فى مصر لا تسمح لرجل مثله باقتحامها ٠

٣ ـ أن الدعوة فى الهند فى أمس الحاجة الى قيادة بل الى أكثر من قيادة لاتساع رقعة البلاد وكثرة الناس ٠

٤ ـ أن انتقاله الى مصر فى مثل هذه الظروف ربما كان ذا أثر سىء على سير الدعوة فى الهند ، فى الوقت الذى لا يضمن أن تواتيه الظروف فى مصر ٠

وقد وافقته على ملاحظاته ، ولكننى طلبت اليه أن يحضر الى مصر ليتصل بالناس فيها وليعرف أحوالها عن قرب ٠ وقلت له ٠ اننا نحن الاخوان سنكون بمنأى عنك حتى لا تقيد خطواتك أو تمنع من البقاء فيها ٠٠٠ وقد وفى الرجل بوعده وحضر فعلا الى مصر ، واتخذ مقره دار الشبان المسلمين بالقاهرة ، وألقى بها عدة محاضرات جذبت اليه أنظار الكثيرين ٠٠ وأذكر أنه طبع ـ فى فترة اقامته بها ـ كتابه الذى سماه « لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم » ٠

الفصل الثالث

الاتجاه الى الاستاذ الهضيبى

ادت بحوث اخوان مكتب الارشاد المتواصلة الدائبة الى العثور على الضالة المنشودة ، والشخصية المثالية المفتقدة ، التى تحقق كل الآمال ، وتسد جميع الثغرات فى البناء الاخوانى وفى علاقاته مع المجتمع المصرى . وكانت هذه الشخصية هى الاستاذ حسن اسماعيل الهضيبى .. وقد أيد الاخوان فى جميع نواحى القطر عن طريق مندوبيهم الذين كانوا يفدون الى القاهرة كل أسبوع .

لقى هذا الاتجاه ارتياحا من جماهير الاخوان لانهم مع اقتناعهم بجدارة الرجل باعتباره رجلا ذا تاريخ ناصع ، وله مواقف مشرفة فى الدفاع عن الاسلام والشريعة الاسلامية ، فانهم كانوا يرون فى اختياره مصالحة مع القضاء الذى يعتبرون التصالح معه رد اعتبار للدعوة ، وتصحيحا لوضعها امام الناس .

وكان الاستاذ الهضيبى اذ ذاك مستشارا بمحكمة النقض والابرام وفى السنتين الاخيرتين له قبل الاحالة الى المعاش . وكان قد اصيب بانفجار فى شرايين المخ وعولج منه لكن زملاءه أعفوه من العمل الشاق حتى لا يعاوده المرض اذا أرهقه العمل .

وقد اتصل به بعض أعضاء مكتب الارشاد وفاتحوه فى الموضوع فاعتذر بحالته الصحية . ومع تقديرهم لظروفه الصحية فانهم يرون أنه مع ذلك هو أنسب من يصلح لهذا المنصب ، ولذا فانهم ظلوا على اتصال به ، وجمعوا بينه وبين مجموعات من مختلف المستويات فى الاخوان ، بعضهم من القاهرة ، وبعضهم من اخوان الاقاليم ، محاولين بذلك التقريب بينه وبينهم ، واطلاعه على واقع الاخوان .. وقد حضرت – عرضا – احدى هذه اللقاءات فى الدار التى أشرت اليها بحى العباسية أو بحى الظاهر على الادق – ويبدو أن هذه الزيارة كانت الزيارة الاولى لهذه الدار ، وكانت عقب جلاء اخوان الجهاز عنها – وأحسست بأن الرجل كان سعيدا بهذا اللقاء .. لكننى أخبرت بعد ذلك أنه اصر على الاعتذار ، وأن اصراره هذا لم يكن للقاءاته الكثيرة مع جمهور الاخوان ، وانما كان صدى لاجتماعه باعضاء مكتب الارشاد ، الذى كانت آثار التيارين اللذين نوهنا عنهما بادية فيه ، مسيطرة على مناقشاته .

□ فى بيته بالاسكندرية :

عجز اخواننا المتصلون بالاستاذ الهضيبى من اعضاء مكتب الارشاد عن

أن ينهنهوا من غرب اصراره · وشاع نبأ هذا الفشل بين جماهير الاخوان فى كل مكان · وكان لهذا النبأ أسوأ الاثر فى نفوس الاخوان ، لان ترك هذا المنصب شاغرا يتيح الفرص لفتن لا يعلم مداها الا الله ، وسيؤوله جمهور الشعب بأن القضاء يرى هذه الدعوة غير جديرة بتقديره ·

وكان الوقت صيفا ، والتقيت فى الاسكندرية بمجموعة من أكرم الاخوان من مختلف البلاد ·· ولا أدرى والله كيف اتفق لهذه المجموعة أن تلتقى فى وقت واحد وفى مكان واحد الا أن تكون تفسيرا لقول الحق تبارك وتعالى « ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا » نعم انه التوفيق الذى جاء على لسان شعيب عليه السلام حين قال « وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب » ·

أراد الله للدعوة أن تخرج من ورطتها فوفق لهذا اللقاء ، وكان العدد غير قليل فقد كنا نحو العشرين ، ولكننى لا أكاد أذكر منهم الآن الا أفرادا قلائل منهم الاخوة عبد العزيز عطية ومختار عبد العليم وعبد القادر عوده ويوسف طلعت وعبد العزيز كامل · وقد قررنا أن نذهب بجمعنا هذا الى بيت الاستاذ الهضيبى بالمندرة ·

وتلقانا الرجل وأبناؤه بالترحاب ، ثم أخذنا فى الحديث معه فتكلم الاخوان عبد العزيز عطية وعبد القادر عوده ، وشرحا الظروف المحيطة بالدعوة وشدة حاجتها الى قيادته – وتحدث كثير من الحاضرين من مختلف البلاد معبرين عن رغبة بلادهم فى قيادته ·· ثم تكلم هو فشرح حجته فى أنه لا يستطيع أن يتسلم قيادة دعوة ، أقرب معاونيه فيها متفرقو القلوب والاهواء ، وضرب لذلك أمثلة لا داعى لذكرها الآن – ولكن تبين فيما بعد أنه كان ملهما وكان بعيد النظر – ثم قال : اننى مريض ولا أستطيع تحمل مسئولية دعوة كهذه وأنا فى الحالة التى وصفتها لكم ···

وكانت بعد ذلك هدأة ·· هى هدأة الخيبة واليأس الذى أحسسنا جميعا بمرارته فى حلوقنا ·· وما أجمل أن يذكر اليائسون وهم فى حمأة اليأس قول الله تعالى « فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا » فاذا بنا ونحن فى هذه الحال نسمع صوت أخ منا ينطلق صارخا باكيا هو الاخ الكريم يوسف طلعت يقول للاستاذ الهضيبى :

« اننا نعلم ما تعانيه ، ولكن الدعوة أعز علينا وعليك من أن نتركها بلا قيادة · وقد اتفقنا على أن تكون قائدها · واذا كنا قد بايعنا على افتدائها فلتفتدها أنت كذلك · والله قادر على شفائك اذا استجبت لدعوته ·· ولن نخرج من هذا المكان الا بنزولك على رأى الاخوان الممثل فينا » ·

ولقد كانت لكلمات الاخ يوسف ولدمعه المنهمر فعل السحر فى قلب الاستاذ الهضيبى وقلوبنا ، حتى اننا انهمرت دموعنا ، ووجدنا انفسنا قد انتقلنا الى جو روحى غامر ، لم يملك معه الاستاذ الهضيبى الا أن يبتسم والدموع تترقرق فى عينيه ويقول :

« لقد نزلت على رأيكم — وأسأل الله تعالى أن يعيننى » ٠

وقمنا جميعا نعانقه ويعانق كل منا أخاه ٠٠ وكانت جلسة قصيرة عابرة ولكنها كانت جلسة تاريخية فاصلة لها ما بعدها ٠

الفصل الرابع

شبهات حول المرشد الجديد

يبدو أن الذين كان لهم رأى يخالف رأى الجماعة فى اختيار المرشد الجديد ، أخذوا فى اثارة الشبه حول الرجل الذى أجمعت عليه الجماعة · وقد يسر لهم ذلك أن الناس فى ذلك الوقت لم يكونوا يعرفون عن الرجل شيئا أكثر من أنه قاض كبير · وهذه المعلومات وحدها لا تكفى أن تكون كل المؤهلات لرجل يقود أعظم دعوة فى العالم الاسلامى ، وجاء ليخلف حسن البنا الذى كان أقوى زعيم فى الشرق ، بشهادة الاعداء قبل الاصدقاء ·

ونرى لزاما علينا ازاء هذه الشبه المثارة ، والتى وجدت من بعض الناس آذانا صاغية ، أن نكشف للناس عن حقيقة هذا الرجل وعن مؤهلاته الاسلامية والعلمية والاجتماعية والسياسية التى لم يكن الرجل حريصا على الكشف عنها ايثارا لما عند الله وحده ، الذى كان هو هدفه وغايته ومبتغاه فى كل قول يقوله وكل عمل يعمله ·

وقد تناولت الشبه المثارة شخصية الرجل فى نواح ثلاث هى :

١ ـ خبرته فى الشئون السياسية والاجتماعية ·

٢ ـ مدى اتصاله ومدى سابقته فى الدعوة ·

٣ ـ مدى استعداده الخطابى أو اللسانى ·

أولا ـ خبرته فى الشئون السياسية والاجتماعية :

كان الاستاذ حسن الهضيبى مستشارا بمحكمة النقض والابرام ، وكان من القلائل الذين اشتهروا بين رجال القضاء بالجمع بين العلم والنزاهة والحصافة وقوة الشخصية وبعد النظر ·· وله تاريخ عريق فى المطالبة بجعل الشريعة الاسلامية قانون البلاد ، ولا زالت مضابط مجلس الشيوخ المصرى تسجل أروع دفاع له عن التشريع الاسلامى أمام أساطين علماء القانون فى مصر الذين كان يضمهم هذا المجلس ـ حين كان المجلس فى صدد مناقشة تعديل القانون المدنى وانتدب اثنين من كبار رجال القضاء للاشتراك فى هذه المناقشة ، فانتدب رئيس محكمة النقض والاستاذ حسن الهضيبى ·· وكنت احتفظ فيما أحتفظ به بنسخة من مضبطة هذا المجلس بها جزء مما دافع به هذا الرجل عن الشريعة الاسلامية · وقد كان جل همه أن يقنع المجلس بأن التشريع الاسلامى هو أوفق تشريع بمصالح الناس ، وأنه يجب أن يكون هو تشريع البلاد ·

ومما يجب أن يستحضره القارىء فى خاطره اذ يقرأ هذا الذى أكتبه الآن أن مجرد الحديث فى ذلك الوقت عن التشريع الاسلامى كان أمرا مستغربا ، بل أستطيع أن أقول انه كان أمرا مستهجنا • لان الفكرة الاسلامية بوجه عام كانت لا تزال فكرة مشوهة فى أذهان الناس عامة ، وفى أذهان قادة البلاد خاصة ، نتيجة الجهود المتواصلة التى بذلها المستعمر طيلة ما يقارب القرن من الزمان •• ولذا كان حديث الاستاذ الهضيبى فى مجلس الشيوخ يعده الاكثرون فى ذلك الوقت ضربا من الخرافة والرجعية ، ولولا أن الرجل كان على على ايمان راسخ بما يقول ، ولولا أنه كان شخصية قوية ما استطاع أن يجهر بهذه الآراء •

والاستاذ الهضيبى ينحدر من أسرة عربية تقطن فى مركز شبين القناطر• وقد تدرج فى السلم القضائى من أول درجة فيه حتى وصل الى أعلى درجاته ، وقد أثرت عنه مواقف قضائية مشرفة فى مختلف هذه الدرجات • وقد وضع الاستاذ محمد شوكت التونى – وهو محام كبير – كتابا يعد الفريد فى بابه ، ولعله أول كتاب باللغة العربية فى موضوعه ، وهو كتاب « المحاماة فن رفيع » وقد أتيحت لى فرصة قراءته فى الايام الاخيرة من معتقل سنة ١٩٥٤ • وهو يقع فى أكثر من خمسمائة صفحة من القطع الكبير ، وقد استعرض كل مايتصل بالمحاماة التى سماها القضاء الواقف فى جميع دول العالم ، كما تحدث بافاضة عن القضاء الجالس •• وكانت الشخصية الوحيدة التى اتخذها مثالا لاسمى صور العدالة والنزاهة والشجاعة والادب والعلم وبعد النظروسعة الافق هى شخصية الاستاذ حسن الهضيبى •

وقد سجل فى نفسى أول لقاء مع هذا الرجل – وكان ذلك فى الجلسة التى كانت فى بيته فى المندرة والتى أشرت اليها آنفا – أن هذا الرجل يجمع فى شخصيته صفتين هما أشبه بما وصف به المؤمنون الاقوياء من أنهم « رهبان بالليل فرسان بالنهار » فقد كان هذا الرجل مع صلابة عزمه رقيق القلب سريع الاستجابة للضعفاء بقدر ما هو عنيد لا ينثنى أمام الاقوياء ، فلقد طأطأ ونسى عناده وانثنى أمام دموع يوسف طلعت بعد أن كان مصرا على عناده أمام اخوان القاهرة وأعضاء مكتب الارشاد حتى أدخل اليأس فى قلوبهم •

ومعلوماتنا عن هذا الرجل فى مدى احتكاكه بالاحداث الاجتماعية والسياسية لبلاده قد استقيناها من مصادر مختلفة ، بعضها وثائق مطبوعة، وبعضها الآخر من زملاء له وأصدقاء •• أما الرجل نفسه فقد كان حريصا على أن تظل هذه المعلومات فى طى الكتمان لانه قد يرى فى الافضاء بها نوعا من من التباهى والتفاخر الذى كان يتجافى عنه ويكرهه •

وقد كنت فى مسودة هذه المذكرات قد سردت هذه المعلومات سردا ، ولكن لما حان وقت تبييض هذه المسودات ، كان قد ظهر فى السوق كتاب الاستاذ مصطفى أمين « سنة ثالثة سجن » قرأت فيه بابا ضم هذه المعلومات نفسها لكن ميزته أنه أوردها عن لسان المرشد العام نفسه · فآثرت أن أوردها كما جاءت عن لسانه حيث جاءت أوضح وأكثر تفصيلا

ولقد عجبت كيف استطاع مصطفى أمين أن ينتزع هذه المعلومات من بين شفتى الرجل الكتوم الشديد الحرص على أن لايبوح بشىء يتصل بنفسه، ولكن يبدو أن براعة مصطفى أمين الصحفية بالاضافة الى الظروف التى كانت محيطة بهما فى السجن من طول المدة والفراغ الذى لا حدود له هى التى هيأت الفرصة للحصول على هذه المعلومات الدفينة فى أعماق النفس ··

والى القارىء نص ما نقله الاستاذ مصطفى أمين عن لسان الاستاذ الهضيبى فى هذا الشأن تحت عنوان :

السر الذى أخفاه المرشد العام الجديد

ليمان طره فى ٨ سبتمبر سنة ١٩٦٧ ·

أمضيت وقتا طويلا مع الاستاذ حسن الهضيبى المرشد العام للاخوان المسلمين وجارى فى الزنزانة · وتحدث عن رأيه فى الاغتيال السياسى فقال : انه من حق الشعب عندما يحتله جيش أجنبى أن يقاومه بالرصاص ، ولكنه لا يوافق على ان يقتل الناس خصومهم فى الرأى ·

وروى لى أنه دخل الازهر ومكث فيه سنة واحدة ولم يستفد شيئا · ثم دخل مدرسة باب الشعرية الابتدائية ثم مدرسة الخديوية الثانوية ، وكان فى أول الامر تلميذا منطويا على نفسه ، يتفرج على الاحداث ولا يشترك فيها ·

وبعد أن حصل على شهادة البكالوريا التحق بمدرسة الخديوية ، وقد سميت كذلك نسبة الى الخديوى عباس · وذات يوم اتصل به زميله الطالب أمين صدقى وحدثه عن دخول جمعية سرية تعمل ضد الانجليز · ورحب بأن يدخل الجمعية ، وأقسم على القرآن والمسدس أن لا يفشى أسرارها لاى مخلوق · وكانت هذه الجمعية تنقسم الى عدة خلايا وكانت الخلايا لاتعرف بعضها · وكانت الخلية السرية مؤلفة من خمسة أشخاص : رئيس وأربعة أعضاء · وكان زملاء الهضيبى فى الخلية الطالب حسن مختار رسمى الذى أصبح فيما بعد وكيلا لوزارة المالية ورئيسا لمجلس ادارة شركة غزل المحلة ، والطالب مغازى البرقوقى الذى أصبح بعد ذلك قاضيا ونائبا وفديا ووكيلا لمجلس النواب ، وامين صدقى الذى أصبح بعد ذلك محاميا وحصل على

دكتوراة فى الحقوق ، والطالب عبد الخالق عطية الذى أصبح وكيلا لمجلس النواب ·· وكان الزعيم محمد فريد هو رئيس الجمعية السرية ·

وكان كل عضو من أعضاء الجمعية السرية مكلفا بأن يجند عضوا آخر ، وكان لحسن الهضيبى زميل فى الفصل يأتمنه ويثق به ، فعرض عليه الامر أن ينضم للجمعية السرية فوافق بعد أن سأل عن غرضها ، فقال له الهضيبى ان غرضها قتل الانجليز وعملاء الانجليز · ورحب الصديق بالفكرة · ولكنه فى اليوم التالى عاد يقول انه رأى نفسه فى المنام فى الليلة السابقة يخنق أخته ففزع ، ولهذا فهو قد عدل عن الانضمام الى الجمعية السرية ـ وأسقط فى يد الهضيبى وأسرع الى رئيس خليته يبلغه ما حدث · وأسرع رئيس الخلية الى قيادة الجمعية يبلغها بما جرى · وعقدت القيادة محكمة لمحاكمة حسن الهضيبى ·· أخذوه الى شقة فى بيت مهجور ، فى حى سحيق ، وأدخلوه غرفة مظلمة · وجلس ثلاثة شبان الى مائدة فوقها قرآن ومسدس وبدأ القضاة السريون يحاكمون حسن الهضيبى ، يوجهون اليه أسئلة ويجيب عليها ·· ثم أصدروا حكمهم أنهم تبينوا من التحقيق الذى أجروه أن حسن الهضيبى لم يفش لصاحبه سر الجمعية ، وأنهم لو كانوا شعروا من المحاكمة بأنه أفشى أسرارها لقتلوه على الفور رميا بالرصاص ، وأنهم لهذا يصدرون عليه حكم البراءة ·

وتنفس الهضيبى الصعداء · وكان من حسن حظه أن زميله كان كتوما فلم يفش سر صاحبه لاحد · ولكن الهضيبى تعلم من هذا درسا لم ينسه طوال حياته : أن يكون حذرا وأن يكون كتوما ·

وذات يوم أصدرت قيادة الجمعية أمرا الى الخلية السرية بأن تستعد للقيام بعملية هامة ، وهى الهجوم على قسم شرطة السيدة زينب والاستيلاء على كل ما فيه من أسلحة وتسليمها الى قيادة الجمعية ·

وعقدت الخلية السرية اجتماعا وضعت فيه خطة الهجوم على قسم الشرطة ، ووزعت على أفرادها الادوار التى سيقوم بها كل واحد منهم · وذهب أعضاء الخلية وعاينوا مكان القسم ، واختاروا الوقت الملائم للهجوم وهى الساعة التى عرفوا أن عدد الجنود فى القسم فيها يقل الى حده الادنى · وتحددت ساعة الصفر للانقضاض ··· وقالت لهم الجمعية انها عملية انتحارية قد يموتون فيها جميعا ·

وعاد الهضيبى ليلتها الى بيته فى حارة سليم بالسيدة زينب وأحرق كل أوراقه ، وبدأ يصلى استعدادا لكى يموت شهيدا ···

وعند منتصف الليل دق الباب ، وتصور الهضيبى أن المؤامرة انكشفت وأن البوليس جاء ليقبض عليه ·· وتقدم الى الباب يفتحه . واذا بأحد زملائه

أعضاء الخلية السرية يبلغه ان قيادة الجمعية قررت تأجيل العملية الانتحارية ..وسأل عن السبب فقيل له انه ليس من حقه أن يسأل عن السبب • وسأل عن موعد التنفيذ القادم فقال له صاحبه ان الاوامر ستصدر فى الوقت المناسب•

وبعد ذلك أطلق ابراهيم الوردانى الرصاص على بطرس باشا غالى رئيس الوزراء لانه اتفق مع الانجليز على الحكم الثنائى فى السودان وأراد تجديد اتفاقية قناة السويس •

وسقط رئيس الوزراء قتيلا ، وقبض على عدد من أعضاء الجمعية .. وعرف الهضيبى عندئذ أن جمعيته هى التى اغتالت بطرس غالى • فهل كانت الفكرة فى أول الامر هى مهاجمة قسم السيدة زينب والاستيلاء على أسلحته ليستعملها أعضاء الجمعية فى هجوم جماعى على مجلس الوزراء يقتلون فيه رئيس الوزراء ، ثم رأى ابراهيم الوردانى أن يقوم بهذه العملية وحده بغير شركاء ، وأن يقتل رئيس الوزراء عند خروجه من رياسة مجلس الوزراء وحده بدل عشرة أشخاص كان المفروض أن يقوموا معا بهذه العملية .. ان حسن الهضيبى لم يعرف هذا السر أبدا • كل ما يعرفه أن أحد أعضاء جمعيته قتل رئيس الوزراء ، وأن العملية الانتحارية التى كان مكلفا بها لم تتم •

ولم يقبض البوليس على حسن الهضيبى بين عشرات من أعضاء الجمعية الذين قبض عليهم للاشتباه ، ولم يتطرق الشك الى أحد أن هذا التلميذ المنزوى الطيب المطيع هو عضو فى الجمعية السرية التى أمر الانجليز بالقبض على جميع أعضائها •

وانفرط عقد الجمعية ، ولم يعرف الهضيبى كيف انفرطت ، ولماذا انفرطت ، ولكنه عرف أن خليته لم تعد تتلقى أوامر أو تعليمات •

ثم حدث أن حكمت المحكمة باسلجن لمدة ستة أشهر على الزعيم محمد فريد لانه كتب مقالا هاجم فيه الخديوى والانجليز • وهرب محمد فريد الى أوروبا • واختلف رأى الشبان فى قرار الزعيم الوطنى ، كان من رأى فريق أنه بعد أن قيدت الصحافة عقب مصرع بطرس غالى ، وبعد أن بدأت مطاردة الوطنيين ـ أصبح مجال العمل ضيقا أمام محمد فريد ، فهو سوف يكون فى أوروبا مطلق اليدين ، يهاجم الاحتلال البريطانى والخديوى كما يشاء ويقلب العالم ضد الاحتلال والفساد فى مصر •

وفريق آخر كان يرى أن واجب محمد فريد كان يقضى عليه أن يدخل السجن ولا يتخلى عن مكانه داخل المعركة ، وأن يبقى ليقاوم ويؤلب الشعب على الاحتلال •

وكان الهضيبى يؤيد هذا الرأى الاخير ... فقد شعر ان الجيش أصبح

بلا قائد ، وأن العلم الذى كان يجمعهم اختفى فجأة . وزاد فى ايمانه أنه رأى أفراد خليته السرية حيارى تائهين ، ثم لم يلبث أن رآهم نفرقوا ، لا يجتمعون ولا يتناقشون .. كأن محمد فريد عندما خرج من مصر أخذ مع حقائبه روح مصر ..

وفى سنة ١٩١٤ أعلن الانجليز الحماية على مصر . وخلعوا الخديوى عباس حلمى واعلنوا الامير حسين كامل سلطانا على مصر .

وشعر الهضيبى كأن خنجرا أغمد فى ظهره ، ثم ما لبث أن أحس أن خنجرا أكبر يغمد فى قلبه .. أعلن الانجليز الحماية على مصر .. ولم يتحرك أحد من المصريين ، لم تقم مظاهرة واحدة ، لم يلق حجر واحد على الجنود الانجليز الذين ساروا فى موكب من قشلاق قصر النيل الى قصر عابدين يزفون السلطان الجديد الى عرش مصر على أسنة حراب الاحتلال .

وأسرع الهضيبى الى زملائه أعضاء الخلية السرية ، واذا بالفجيعة تمزق قلوبهم ، العمل الوحيد الذى قام به بعض المتحمسين منهم أن وضعوا فى عنقهم أربطة سوداء .. كانت الكرافتة السوداء هى العلم الوحيد الذى رفعوه. شعر الشباب المصرى فى تلك الايام المريرة بالشقاء والذل والخزى والعار . أحسوا أن شرف كل واحد منهم لطخ بالوحل والطين .. أحذية الجيش البريطانى داست على رءوسهم جميعا .. أحسوا أكثر بالحاجة الى القائد... راحوا يقولون : لو كان محمد فريد موجودا فى مصر لعرف كيف ينظم المقاومة وكيف يرد على صفعة الاحتلال .

وأوقف أمين الرافعى اصدار جريدته ، فضل أن يحطم قلمه على أن ينشر فى جريدته نبأ أن مصر أصبحت تحت الحماية البريطانية .. أما جريدة المقطم التى كان يصدرها الدكاترة فارس نمر ويعقوب صروف وشاهين مكاريوس فقد أصدرت ملحقا بعناوين ضخمة فى الصفحة الاولى « بشرى للامة المصرية- اعلان الحماية البريطانية على مصر » وكان هذا العنوان المخزى أشبه بكفن وضعت فيه جريدة المقطم جثة الشباب الوطنى فى مصر .. ولكن شباب مصر دفن ولم يمت .. الصدمة المفاجئة جعلته يتسمر فى مكانه بلا حراك . واختفاء محمد فريد من مصر كان أشبه باختفاء المنارة التى كانت تضىء للسفن الهائمة فى أثناء العاصفة .

وأعلن السلطان الجديد تغيير اسم مدرسة الحقوق الخديوية الى اسم « مدرسة الحقوق السلطانية » .. وأذاع قصر عابدين أن عظمة السلطان قرر أن يشرف مدرسة الحقوق السلطانية بزيارته ــ وكان بناء مدرسة الحقوق مجاورا لقصر عابدين . وتحدد يوم الزيارة .. وفرشت ممرات المدرسة بالرمل الاحمر ، ورفعت الاعلام استعدادا لمقدم السلطان .

وفى يوم الزيارة تلقى طلبة مدرسة الحقوق بطاقة مطبوعة بأن فلانا الطالب بالمدرسة توفى الى رحمة الله وستشيع جنازته من منزله رقم ١١ شارع المناخ فى الساعة الحادية عشرة صباحا ، وعلى جميع الطلبة الاشتراك فى تشييع الجنازة ٠

وكانت الساعة الحادية عشرة هى الموعد المحدد لزيارة السلطان ٠

وكان العنوان المكتوب فى البطاقة هو عنوان محل جروبى فى شارع عدلى الان ٠

وترك الطلبة المدرسة ، وذهبوا لتشييع الجنازة الوهمية ، وفى جروبى تناولوا الجاتوه والحلوى على روح الفقيد المرحوم ٠٠٠ ودخل السلطان حسين الى المدرسة فلم يجد فيها طالبا واحدا ٠

وجن جنون السلطان ، وهاج وماج وثار ٠٠ وعرف أن طلبة أكبر مدرسة عالية فى مصر فى ذلك الوقت أرادوا أن يلطموا السلطان لطمة علنية عقابا له على توليه عرش مصر فى ظل الحماية البريطانية ٠

وقام السلطان ولم يقعد ، وقام الانجليز ولم يقعدوا ، وقامت الحكومة ولم تقعد ٠٠ هذه ثورة ضد السلطان وضد الانجليز وضد الحكومة ٠ وقبض على عدد كبير من طلبة مدرسة الحقوق ، وقبض على صاحب المطبعة الذى طبع بطاقة الدعوة لحضور الجنازة ٠

وعرض النائب العام على صاحب المطبعة كل طلبة مدرسة الحقوق ليتعرف على الطالب الذى طبع بطاقة الجنازة ٠٠ ولم يتعرف صاحب المطبعة على واحد منهم ، وقال ان الشخص الذى جاء لطبع البطاقة كان أكبر عمرا من هؤلاء الطلبة ٠٠ وهنا عرضت النيابة أساتذة مدرسة الحقوق على صاحب المطبعة فقال ان المجرم الاثيم ليس واحدا منهم ٠

والواقع أن المجرم الاثيم لم يكن طالبا ولا مدرسا فى مدرسة الحقوق وانما كان عربجيا ٠٠ كان العربجى الذى يقود العربة الحنطور التى تملكها أسرة الطالب فؤاد حمدى وتحمله كل يوم الى المدرسة ٠

وأصدرت الحكومة قرارا بفصل عدد من طلبة الحقوق نهائيا ، وعدد أخر لمدة عامين ، وعدد ثالث لمدة سنة واحدة ٠ وكان حسن الهضيبى أحد الذين فصلوا لمدة سنة واحدة ٠

وحاول الطلبة أن يتظلموا فوجدوا أن كل الابواب مغلقة فى وجوههم ٠ لا احد يجرؤ على أن يتوسط لهم والسلطان ثائر ، والانجليز حانقون ،

والحكومة غاضبة ·· ثم سمع الهضيبي من زملائه المفصولين أن سعد زغلول باشا وكيل الجمعية التشريعية التى عطلها الانجليز يتعاطف معهم · وذهب مع بعض زملائه وقابلوه ، فاذا به يهنئهم لانهم أعادوا الاعتبار للشعب المصرى عندما لطمه السلطان ·· واذا به يقول انه سيبذل كل ما يستطيع لرفع الظلم عنهم ، وأنه لا يملك أى سلطة ، ولكنه يعتبر نفسه ممثل الشعب الذى انتزعت سلطاته باعلان الحماية ·· ودهش الهضيبي لان رجلا فى الستين من عمره يتكلم بلغة الشباب ·· وبعد خروجه من بيت سعد زغلول قال لزميل له · هذا الرجل يستطيع أن يقود مصر بدلا من محمد فريد ·

قال له زميله : مستحيل ·· مستحيل ·

وبعد أربع سنوات قامت ثورة سنة ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول ، وصدقت نبوءة الهضيبي ··· وكان طلبة الحقوق المفصولون هم أول الذين مشوا وراء سعد زغلول وأشعلوا الثورة ·

ثانيا ـ هل الهضيبي طارىء على الدعوة ؟

ان الذين يريدون أن يقصروا صفة الاخوان المسلمين على الاشخاص الذين ضمت سجلات العضوية الرسمية أسماءهم ، والذين يؤدون اشتراكاتهم والذين ينتظمون فى تشكيلاتهم ـ يريدون أن يضيقوا واسعا ويحجروا سهلا ميسورا ·· فالاخوان المسلمون ليسوا شيئا مخترعا ، ولا فكرا مبتكرا ، ولا دعوة مبتدعة ـ وانما هى الفكرة الاسلامية : من اعتنقها وعمل لها وجاهد فى سبيلها فقد صار من الاخوان المسلمين ، له كل حقوقهم ··· وعلى هذا الاساس من المعنى الفسيح الذى أرساه القرآن الكريم بقوله « انما المؤمنون اخوة » تحدثت فى مكة المكرمة ـ كما سبق أن ذكرت ـ الى السيد أبى الحسن على الندوى فى أخطر ما يتصل بالاخوان المسلمين ·· ولم يشعر الرجل بغرابة فى حديثى معه فى هذا الشأن ، لان هذا المعنى الفسيح الرحب الجامع للاخوة الاسلامية هو أمر مقرر فى نفس كل من فهم الاسلام ،وهو احدى البديهيات فيه ·

وقد أثبت فى الصفحات السالفة كيف كان الاستاذ حسن الهضيبي عريقا فى فهمه للفكرة الاسلامية وفى جرأته فى التقدم بها وفى شرحها وفى الدفاع عنها أمام أعلى هيئة تشريعية فى البلاد ·· فهل يكون رجل كهذا غريبا على الدعوة الاسلامية ، دخيلا على الجماعة التى رصدت نفسها لنفس الفكرة ولشرحها والدفاع عنها ··· واذا كان مثله يعد دخيلا فمن اذن يكون فيها أصيلا ؟ ·

ومع ذلك فقد أثبتت الاحداث أن الاستاذ الامام كان نقادا ماهرا ، وكان قديرا فى وزن الرجال ووضعهم فى مواضعهم ، فقد رأى أن الاستاذ حسن

الهضيبى كنز ثمين يجب الحرص عليه والانتفاع به ٠٠ ولكنه رحمه الله كان يراعى ظروف بعض ذوى الوظائف الحساسة فيعفيهم من الظهور فى أوساط الاخوان ، ويجعل اتصاله بهم اتصالا شخصيا ، فهو يتبادل معهم الرأى ، ويشاورهم فى الخطير من الامور ، ويطلعهم على مواقف الدعوة وما يحيط بها من ظروف ٠٠ وكان هذا هو دأبه مع الاستاذ الهضيبى ٠٠ ولذا فلم يكن يعرف علاقة الاستاذ الهضيبى بالاخوان الا من كانت الظروف تدعو الى هذه المعرفة من قلة من الاخوان ٠ كما كان يعرف هذه العلاقة قلة من غير الاخوان ٠

فلقد قرأنا فى ثنايا أحداث الايام السوداء من عهد ابراهيم عبد الهادى أن الاستاذ الهضيبى كان الرجل الوحيد الذى كان بجانب الاستاذ الامام فى أشد هذه الايام حلوكة ، وأن الاستاذ الامام قد اتخذه صفيه ومستشاره وموضع سره، فقد كانا يجلسان معا فى دار جمعية الشبان المسلمين على انفراد ٠٠٠ ويبدو أن الاستاذ الامام قد أفضى اليه بكل ما عنده ، وشرح له جميع المواقف ، وحلل له كل الشخصيات ، بدليل أنه منذ أول يوم فوتح فيه فى خلافة الاستاذ الامام تحدث عن بعض شخصيات الاخوان حديث العليم الخبير ، مع أنه لم يسبق له اتصال بهم ٠

وأنقل للقارىء فى هذا الشأن فقرة جاءت عرضا فى شهادة الاستاذ محمد الليثى رئيس قسم الشباب بجمعية الشبان المسلمين أمام محكمة الجنايات فى أثناء نظر قضية اغتيال الاستاذ الامام وذلك فى يوم ١١ــ١١ــ١٩٥٣ حيث قال :

« ولما أحس البوليس السياسى بأن الشيخ البنا يتردد على الجمعية أخذ يراقبه لمعرفة المتصلين به ٠٠ وكنا قد اتفقنا على رموز للتفاهم بها ٠٠ حتى انه حدث أن حضر الاستاذ الهضيبى ، ونظرا لعدم معرفتى به أنكرت معرفتى بالشيخ البنا لاعتقادى أنه من البوليس السياسى ٠٠ وعرفت أخيرا من الشيخ البنا أنه هو الاستاذ الهضيبى » ٠

وفى ١٨ــ١١ــ١٩٥٣ وفى أثناء شهادة الاستاذ مصطفى مرعى أمام نفس المحكمة وفى نفس القضية ، وجه اليه الاستاذ عبد القادر عوده ــ أحد أفراد هيئة الدفاع ــ سؤالا ، ودار النقاش على الوجه الآتى :

الدفاع ــ ألم تفهم الاسباب التى من أجلها كان الشيخ البنا يمهلك فى الرد عليك ؟

مصطفى مرعى ــ كان لديه مستشار ٠

المحكمة – من المستشار ؟

مصطفى مرعى – الاستاذ الهضيبى ٠

هذا هو الاستاذ حسن الهضيبى الذى اشاع المغرضون أنه غريب عن الاخوان المسلمين ٠

ثالثا – المقدرة الخطابية أو بين عهدين :

لقد وضح تمام الوضوح أن الله تعالى يصنع لدعوته – وهو أعلم بما يصلح لها – فلقد علم أن هذه الدعوة فى العشرينيات والثلاثينيات قد طمست معالمها ، وشوه وجهها ، وغابت تحت الاضاليل قسماتها ، حتى أضحت غريبة على أهلها ، مجهولة لاقرب الناس اليها – فاختار لها داعية من الشباب قوى البدن ، ذكى الفؤاد ، ذلق اللسان ، ذا بسطة فى العلم والجسم ٠ لايمل ولايكل٠ فهو واعظ وكاتب وقائد ومعلم ومتنسك وفارس وخطيب ٠٠ اذ كانت الدعوة فى ذلك الوقت فى حاجة الى من يجالس الناس فى المقاهى ، والى من يربى من يستجيب له تربية حانية فى خفاء ، والى من يؤم الناس فى المسجد ، ويخطب فيهم خطبة الجمعة والعيدين ، والى من يكتب للناس شارحا دعوته ، مفندا ما علق بالاسلام من شوائب ٠٠ والى من يبث فى الشباب روح الفداء فهو يرتدى الملابس العسكرية ويقف معهم فى الصف ويقودهم فى الطابور ٠٠٠

كانت الدعوة فى حاجة الى من يواصل فى سبيلها الاسفار ، فهو كل يوم فى بلد ، وكل أسبوع فى مدينة ، يغشى مجالس الناس ، ويجلجل صوته وسط جموعهم ، بأساليب تناسب هذه الجموع ٠٠ ففى جمع من هذه الجموع يناقش شئون الدولة العليا على ضوء الفكرة الاسلامية ٠٠ وفى جمع آخر يخاطب الناس فيقول : ان الناس قد فشا فيهم الجهل بالدين حتى ان رجلا مسلما كان يقرأ الفاتحة فيقول : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ٠ الرحمن الرحيم ٠ مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين ٠ اهدما الصراط المستقيم » ويعلق على لفظ « اهدم » تعليقا يجعل هذه الجموع تضحك ملء أشداقها ٠٠ فيقودهم وقد تفتحت قلوبهم بهذا الضحك الى معالجة هذا الجهل بالاقبال على كتاب الله وهو ما يدعو اليه الاخوان ٠

وهكذا فهو يخاطب كل قوم بأسلوبهم ٠٠ وقد يضطر فى جمع واحد أن يخاطب فى حديث واحد كل الحاضرين بمختلف مستوياتهم الثقافية بحيث لا يشعر أى منهم أنه غريب وسط هذا الجمع ٠

كانت الدعوة بادرة صغيرة ، ونبتة ضعيفة ، فى أمس الحاجة الى من يحوطها ويطرد عنها الهوام والحشرات والحيوان من حولها حتى لا يفتك بها أو يفترسها ٠٠ كانت فى أمس الحاجة الى من ينكفىء فوقها ٠٠ يداريها من الرياح والعواصف والحر والبرد والصقيع ٠

كان حسن البنا هو الداعية الذى أهله الله تعالى بكل هذه المؤهلات ٠٠ فأدى دوره أحسن أداء ، ثم ذهب الى ربه بعد أن بهر العالم بايمانه وصبره ولسانه وقلمه وعلمه وسعة أفقه وقدرته على التكوين وصنع الرجال ــ وترك وراءه دعوة قد اكتمل شبابها ، ورسخت أقدامها ، وآتت أكلها كل حين باذن ربهـــا ٠

لم تعد الدعوة فى حاجة الى كبير عناء لشرحها للناس فقد فهمها الجميع لكثرة ما خـوطبوا بحججها باللسان والقـلم ، ثم اقتنعوا بهـا بعـد أن رأوا بأعينهم الفاسدين من الشباب وقد صلحوا ، والهازلين وقد جدوا ، والجاهلين وقد تعلموا ، وبعد أن رأوا فى نهاية الامر رعيلا كالرعيل الاول من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتسابقون الى الموت هاتفين « وعجلت اليك رب لترضى » ٠

لم تعد الدعوة فى حاجة الى من يذرع البـلاد شرقا وغربا ، ويجـوبها شمالا وجنوبا ، لا يبيت فى بيته قدر ما يبيت فى القرى والمدن ، فلقد استجابت البلاد للدعوة من أقصاها الى أقصاها ٠ ولم تعد فيها مدينة ولا قرية ولا عزبة الا وفيها شعبة للاخوان ، وفيها قلوب تنبض بحب الدعوة وتفتديها ٠

لم تعـد الدعـوة فى حاجـة الى من ينكفىء فـوقها ليقيها غوائل البرد والصـقيع أو صـفعات الرياح والعواصـف ، فلقـد نمت وترعرعت وثبتت جذورها ، وأخرجت شطأها فآزرها واستغلظت واستوت على سوقها ٠

لم تعد الدعوة فى حاجة الى ما كانت تحتاج اليه من قبل من حماية ، ولكنها وقد أزهرت وبانت ثمارها جنية شهية تسيل اللعاب ٠٠ أضـحت فى حاجة الى من يكف أصـحابها أنفسهم عنها من أن يسـيل لعـابهم فيمـدوا أصابعهم الى ثمارها ليقطفوها للاستمتاع الشخصى بها ٠٠ أضحت فى حاجة الى من يقنع الاخوان أنفسهم بأن يعلموا أن ثمار هذه الدعوة ليست ملكا لهم يستمتعون به ، وانما هى من حق الامة الاسلامية جمعاء ٠٠ والا لمـا كان هناك داع لتقديم الدماء والارواح التى قدمت عن رضا وطواعية لتروى هـذه الشجرة العزيزة ٠٠٠

ما أشبه الدعوة فى عهـديها بالدرجتين العليين المشهـورتين : الفقير الصـابر والغنى الشاكر ٠٠٠ الاول كان فى حاجـة الى كفاح مستمر ، وكـد متواصل ، وجهـد لا يفتر ، ومواصـلة الليل بالنهـار للحصـول على الرزق الكفاف الذى يحفظ عليه الحياة ــ أما الآخر فقد توفر له الرزق بكل أشكاله والوانه ، تجبى له الثمرات من كل مكان ، فهو لا يحتاج الى كد ولا كفاح ولا

سعى ، ولكنه يحتاج الى أن يكف شهواته عن الانطلاق ، والى أن يكبح جماح نفسه ، ويقف بها عند الحدود ٠

وقد استطرد فأقول ، ان نمو الدعوات لا يعمل فيه الزمن عملا متناسقا مطردا ــ كما قد يخطر بالبال ــ فتنمو الدعوة فى سنتين ضعف نموها فى سنة وفى ثلاث سنوات ثلاثة أمثال وهكذا ٠٠ بل ان من السنين ما يوقف النمو ومنها ما يضاعفه أضعافا مضاعفة ٠٠ ففى السنتين الاخيرتين قبل استشهاد الاستاذ الامام انطلقت الدعوة انطلاقا لم نعد نستطيع معه ملاحقتها كأنما نشطت من عقال ٠٠ ولعل هذا كان هو الذى دفع بالمستعمرين وأذنابهم الى التعجيل بخطتهم للقضاء عليها ٠

وأذكر أنه قبيل السنتين الاخيرتين هاتين كنت مع الاستاذ الامام فقال لى : « يا محمود ٠٠ لقد شارفت الاربعين ٠٠ وآن لكم أن تتولوا عنى الكثير مما أقوم به ٠٠ فحسب صاحب الاربعين أن يكون مرجعا يشير بالرأى ويشترك بالتوجيه » ٠

وقد رأيت اثبات هذا الحديث لابين أن الاستاذ الامام ــ رحمه الله ــ كان يتأهب لدور هو أشبه بالدور الذى تقلده ونهض به الاستاذ الهضيبى ٠٠ ولا شك فى أن الدعوة يوم تسلم قيادتها الاستاذ الهضيبى كانت قد وصلت الى الوضع الامثل لهذا الدور ٠

وأعتقد لو أن حسن البنا ــ أوسع الله له فى جناته ــ كان على قيد الحياة فى سنى الخمسينيات ما واصل النهج الذى كان ينتهجه ، بل كان يعدل عن كثير من هذا النهج ، ولسلك نفس الاسلوب الذى سلكه الاستاذ الهضيبى ، فما عادت الدعوة محتاجة من قائدها الى خطب ومحاضرات بقدر حاجتها الى قائد قادر على اتخاذ القرار ٠

والهضيبى وان لم يكن من أهل الخطابة واللسن ــ وعد بعض البسطاء هذا عيبا فيه ــ فان الاخوان المسلمين ــ وهم أدرى الناس بما تفتقر اليه دعوتهم ــ لم يروا ذلك عيبا فيه ٠٠ بل أحسوا بأن هذا الرجل بعزوفه عن الكلام ، مع مقدرته الفائقة على اتخاذ القرار ، وجرأته فى الحسم ، وجلاء بصيرته فى النظر الى الامور ، وبعد نظره فى الحكم عليها ٠٠ أحسوا بأن هذا الرجل هو رجل الساعة ٠٠ لان الظروف التى أحاطت بالدعوة فى تلك الحقبة من الزمن كانت أحوج الى تلك الصفات فى القيادة منها الى ذلاقة اللسان وبراعة البيان ، لا سيما وجماهير الاخوان كانت تعج بالخطباء والشعراء والكتاب والمحاضرين الذين لا يشق لهم غبار ٠

ومما يعد برهانا على أصالة هذا الرجل فى الدعوة الاسلامية ، وعلى اكتمال عناصر القيادة فيه ، أنه فى خلال أقل من عام استطاع ان يحتل قلب كل أخ مسلم ، لافى مصر وحدها بل فى أنحاء العالم العربى والاسلامى ٠٠ ومحال أن يستطيع ذلك انسان عادى أو انسان مخادع أو انسان ضعيف الشخصية أو انسان تنتابه نوبات الاثرة والانانية ، أو تتجاذبه رياح الاهواء والشهوات ٠٠٠ لا سيما وجمهور الاخوان المسلمين - مع اتساع نطاقه ، وكثرة عدده ، واختلاف مستوياته المادية والاجتماعية - جمهور يقظ مستنير ليس من السهل خداعه ولا التمويه عليه ٠٠

□ هل سخر الهضيبى الدعوة لاغراضه الشخصية ؟

وقد أثار المغرضون حول هذا الرجل أخيرا أنه رجل سياسى استغل الدعوة للوصول الى كراسى الحكم ٠٠ وسوف يرى القارىء ان شاء الله فى سير الاحداث التى عاشها هذا الرجل ، ومواقفه فيها ما يدحض هذه المفتريات ويقوضها من أساسها ، وما يكشف عن حقيقته التى كان هو حريصا على اخفائها ، ولكن الايام تكفلت باظهارها ، وأثبتت أن الرجل كان من أزهد الناس فى دنيا الناس ٠

والى هؤلاء المغرضين الذين رموا الرجل بأنه سخر الدعوة لاغراضه السياسة الخاصة نسوق القول فنقول :

ان الطريق الذى سلكه حسن الهضيبى كان هو نفس الطريق الذى سلكته الدعوة من قبل ، لا فى أواخر أيام حسن البنا فحسب ، بل منذ أوائل أيامها ٠٠ ففى عام ١٩٣٩ ورد فى البيان الذى ألقاه حسن البنا فى المؤتمر الخامس ما يلى :

« ان انجلترا لا تزال تضايق مصر رغم محالفتها اياها ٠ ولا فائدة فى أن نقول ان المعاهدة نافعة أو ضارة أو ينبغى تعديلها أو يجب انفاذها ٠ فهذا كلام لا طائل تحته ، والمعاهدة غل فى عنق مصر ، وقيد فى يديها ما فى ذلك شك ٠٠ وهل نستطيع أن نتخلص من هذا القيد الا بالعمل وحسن الاستعداد ؟ فلسان القوة هو أبلغ لسان ، فلنعمل على ذلك ولنكتسب الوقت اذا أردنا الحرية والاستقلال » ٠

وفى رسالة وجهها الاستاذ الامام فى منتصف الاربعينيات الى رئيس الحكومة وأعضاء الهيئات النيابية ورؤساء الهيئات الشعبية السياسية والوطنية والاجتماعية والى الامة تحت عنوان « مشكلاتنا فى ضوء النظام الاسلامى » جاء فيها :

« لقد فاوضنا فلم نصل الى شىء لتعنت الانجليز وتصلبهم ومناورتهم .. واحتكمنا فلم نصل الى شىء كذلك أمام تغليب المصالح الدولية والمطامع الاستعمارية . ولقد قال لى كاتب فاضل : اننا وصلنا الى كسب أدبى عظيم بالدعاية الواسعة لقضيتنا بطرحها أمام العالم كله ، واخراجها من حيز التفاهم الثنائى الضيق الى حيز التحاكم الدولى الواسع .. وذلك صحيح ـ ولكن هذا الكسب الادبى لن يغنى عن الحقيقة الواقعة شيئا وهى أننا ما زلنا مع الانجليز حيث كنا ، لم نتقدم خطوة ، بل ان هذا الركود مدعاة الى التساؤل والبلبلة .

لم يبق اذن الا « النبذ على سواء » **بأن نعلنهم بالخصومة الصريحة السافرة ، ونقرر فى صراحة الغاء ما بيننا وبينهم من معاهدات واتفاقات ، ونعلن اعتبار أمة الوادى معهم فى حرب ـ ولو سلبية ـ وننظم حياتنا على هذا الاعتبار :** اقتصاديا بالاكتفاء والاقتصار على ما عندنا وعند اخواننا العرب والمسلمين والدول الصديقة ـ ان كانت ـ واجتماعيا بتشجيع روح العزة والكرامة وحب الحرية ـ وعمليا بتدريب الشعب كله تدريبا عسكريا حتى يأتى أمر الله ، وتهيأ نفوس الشعب لذلك بدعاية واسعة تامة كاملة ، كما تفعل الامم اذا واجهت حالة الحرب الحقيقية ، وتتغير كل الاوضاع الاجتماعية على هذا الاساس .

وهذا العمل لا ينبغى للافراد ولا للهيئات ابتداء ولكن الحكومة هى المسئولة عنه أولا وآخرا . والعجيب أن رئيس الحكومة (النقراشى) أعلن هذا صراحة فى مجلس الامن ثم عاد فلم يعمل شيئا ، ولم يتقدم فى هذا السبيل خطوة .... وهذا واجب الحكومة قطعا .

وأما الشعب ،فنحن نقولها فى صراحة ووضوح وثقة ، انه على أتم استعداد لبذل كل شىء لو سلكت الحكومة هذا السبيل .. انه مستعد ليجوع وليعرى وليموت ويناضل ويكافح بأشد أنواع النضال والكفاح . ولكن على شريطة أن يكون ذلك فى سبيل حريته واستقلاله لا فى سبيل ارتباك اللجان الحكومية وضعف الوسائل الادارية . والتخبط فى السياسة الاقتصادية ، والوقوف أمام مكايد الانجليز وضغطهم موقف المستسلمين العاجزين .

لقد سمعت عاملا فقيرا يقول حين صدرت الاوامر بخلط الخبز : اننى مستعد أنا وأولادى أن نأكل كل يوم مرة واحدة ، اذا وثقنا من أن هذا فى سبيل الحرية والتخلص من الانجليز ...

فالشعب على أتم استعداد للبذل ، ولكن فى طريق واضحة مرسومة تؤدى

الى الحرية أو الشهادة ، بقيادة حكومة حازمة ترسم له فى قوة واخلاص مراحل هذا الطريق ــ أما اذا استمرت الحكومة فى ترددها وتراخيها واضطرابها فلن يؤدى ذلك بالشعب الا الى أحد أمرين : اما أن يثور واما أن يموت • وكلاهما جريمة وطنية لا يغتفرها أبدا التاريخ •

« هذه هى الطريق فاسلكوها فى ضوء الاسلام والله معكم ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد » •

ليت شعرى أليس هذا هو كلام حسن البنا ، أو ليست هذه هى الطريق التى شرحها وفصلها وطلب من الاخوان المسلمين سلوكها ؟ •• فهل سلك الهضيبى سبيلا غير هذا السبيل ؟ أم كان كل ما عمله هو مواصلة السير فى نفس الطريق دون أن يحيد عنها ؟ !

على الذين يتهمون الرجل بأنه خرج بالدعوة عن مسارها الذى رسمه لها قائدها الاول ، وبأنه حاد بها عن هذا المسار ، وسلك بها نهجا مبتدعا لاطماعه الشخصية •• على هؤلاء أن يقرأوا ما اقتطفناه من توجيهات القائد الاول ليعلموا أن الهضيبى لم يكن فى قيادته للدعوة الا مواصلا للخط الذى رسمه هذا القائد الاول ، لم يحد عن ذلك قيد أنملة •

وسوف يرى هؤلاء ــ بعد قليل ان شاء الله ــ أنه ــ بمواصلة هذا الطريق المرسوم ــ قد وصل بالدعوة الى الوضع الذى صارت فيه مناصب الحكم لا فى قبضة يده فحسب بل صارت تحت أقدامه ، ولكنه عزف عنها ، وترفع بالدعوة الطاهرة عن أن يلحق بها دنس الحكم فى ظل عرش آثم •• وليس هذا فحسب ، بل انه ــ مبالغة منه فى الاحتفاظ للدعوة بنقائها ، وبعدا بها عن مواطن الشبهات ــ قرر منع الاخوان من الاشتراك فى الانتخابات منعا قاطعا مع أن فوز الاكثرين منهم كان مضمونا •

فهل مثل هذا الرجل يرمى بأنه حاد بالدعوة عن طريقها المرسوم ، وسلك بها طريقا آخر سخرها فيه لمآربه الشخصية ، وجريا وراء مناصب الحكم ؟ ••• ألا فليتق الله ، وليرعوا أولئك الذين لا هم لهم الا أن يتلمسوا للبرءاء العيب ••



الباب السادس

المرشد العام الجديد يتبوأ منصبه
والبلاد أمام تطورات جديدة
الدعوة تحتل مكان الصدارة

- الضغط الشعبى للاخوان يبلغ أقصى مداه الحكومة تلغى معاهدة سنة ١٩٣٦ ·
- مقابلة الملك للمرشد العام الجديد ·
- حريق القاهرة أو الخطة الجهنمية لاحباط المقاومة ·
- الشعب يفيق من الضربة الجهنمية ويستأنف جهاده ·

مقـــــدمـة

كان مفروضا أن يكون أول عمل يستهدفه المرشد العـام الجـديد حين يتولى قيادة الدعوة أن يتفرغ تفرغا تاما لاعادة تنظيم صفوف أتباعه وجنوده، بعد أن عـدت عليهم يد الظلم ، وعملت بكامل طاقتهـا على تشتيت شملهم ، وتفريق جمعهم ، وتقطيع أرحامهم ، وتمزيقهم كل ممزق ••• وقد يستغرق ذلك فى الدعوات الوضعية أقصد الدعوات غير الربانية الاعوام والسنين حتى يلم الشعث ، وترتق الفتوق ، وتضمد الجروح ، ويرمم ما تهدم ، ويرفع البناء•

والمرشد العام حين ألقيت اليه مقاليد الامور ، وجد نفسه أمام سيل جارف من المطاليب الخطيرة تلح عليه بنداءات مدوية من كل جانب •• كلها بنت ساعتها ، لا تحتمل التأجيـل ولا تقبـل التأخير •• فاسترداد سمعـة الدعوة التى لطخها المفترون ، والحشد الكبير من الشباب الذين ألقى بهم عهد الظلم فى غياهب السجون ، ومنشآت الدعوة ومؤسساتها فى آلاف الشعب من دور ونواد رياضية ومدارس ومعاهد ومساجد ومطابع وصحف ومستوصفات وأراض زراعية ومناجم ومحاجر وغيرها •• وقد اغتصبتها السلطات الغاشمة ودمرت أكثرها •••

لكن نداء واحدا جد أخيرا وكان فى سمع المرشـد العام أعلى صـوتا ، وأقوى دويا من كل النـداءات ، لانه صـادر من الوطن المسلوب الحـرية ، المهضوم الحقوق ، المقهور الشخصية ، وقد استيقظ أخيرا حراسه الرسميون بعد أن فرطوا طويلا فى حقه ••••• فأى هذه النداءات يجيب ؟

أما الاخوان المثخنون بالجراح من أثر المحنة الجائحة فقد اعتادوا أن يضمدوا جراحهم بأيديهم ، فأتاحوا بذلك لمرشدهم الجديد أن يستجيب للنداء الطارىء الجـديد •

والمرشد العـام الجـديد رجـل يميل بطبيعته الى الهـدوء والتنسك ومناجاة ربه •• وكان يحلم بتلك الايام التى ينهى فيها عمله بالقضاء ليتنعم بما حرمه منصبه القضائى منه طول حياته – بالانتظام فى كتائب الاخـوان فى الجـو الروحى الخـالص ، ويستمتع بالليالى الربانيـة التى تذوب فيها متاعب الحياة وتتلاشى فى بحار القرب من الله والتضرع اليه فى وقت السحر مع هذه الصفوة المختارة الذين يقضون هذه الليالى بين راكع وساجد وضارع وخاشع ••• لقد كان الرجل يحـلم بتلك الايام ، وجاءت تلك الايام ولـكن الحلم لم يتحقق فما كادت تتاح له الفرصة حتى وجد نفسه أمام أمور جسام لم تمهله لحظة •• رأى نفسه مطالبا بأداء حقوق نحـو الوطن الغـالى الذى يهتف كل أخ مسلم مهما ناله من ظلم بقول الشاعر :

بـلادى وان جارت على عـزيزة   وقومى وان ضنوا على كرام

وهكذا نزل الرجل الى الميـدان من أول يوم ، ونفسه تائقة الى الجـو الروحانى الغامر ٠٠ ولكن الميدان لم يدع له فرصة الى ما تتوق اليه نفسه الا خلسا ٠٠٠ أما المتلمسون للبرءاء العيب ، والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فيرمون الرجل بأنه قد نقل الاخوان من صميم دعوتهم الى ميدان السياسة ٠٠ ويستدلون على ذلك بأنه منـذ اليـوم الاول لتوليه منصب المرشد العام قد نزل بالاخوان الى ميدان السياسـة ولم يدعها لحظة من نهـــار ٠

والى هؤلاء نعيد توجيه القـول فنقـول : ماذا كنتم تريدون أن يكون موقف الاخـوان ـ وقـد كانوا يحثون الحكام دائمـا على منـابذة المستعمر العداء ـ وجاءت حكومة آخر الامر وأخذت بنصيحتهم ، ودعتهم الى المشاركة فى حمل العبء معها فى نتائج هذه المنابذة ٠٠ هـل كنتم تريدون أن يتخلـف الاخوان ويتنكروا لدعوتهم ويقـولوا للحـكومة : دعـونا نعكف على الخطب والمحاضرات والعبادة واذهبوا أنتم وحدكم واجهوا العدو ٠٠؟!

وقد نكون فى غنى عن أن نذكر هؤلاء وغيرهم بأن العمـل على تحـرير البـلاد من ربقة الاستعمار ـ بالنسبة لدعـوة تريد للبلاد أن تحـكم حـكما اسلاميا ـ هو الخطوة الاولى التى لابد منها ولامفر من العمل على تحقيقها لسببين:

الاول ـ أن الاسـلام دين لا يرضى للمنتسبين اليـه أن يعيشوا تحت سيطرة غيرهم من الامم ، والا كانوا آثمين « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضـعفين فى الارض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » ٠

الثانى ـ أن المستعمر بطبيعة هدفه من الاستعمار يحتل البـلاد التى يحتلها ليستغل خيراتها لنفسه ، وليسخر أهلها لخدمة أغراضه ٠٠ ولا يتأتى له ذلك الا بحجب أسباب القوة عن هـذه البـلاد ، وبنشر وتمكين أسـباب الضعف فيها من فقر وجهل ومرض وفساد ، حتى لا تقوى فى يوم من الايام فتفكر فى مقاومته ـ والمستعمرون على اختلاف نزعاتهم الاستعمارية يحولون بكل الوسائل بين الشعوب الاسلامية التى يستعمرونها وبين الحكم الاسلامى

لهذا فان دعوة الاخوان المسلمين ـ بعـد أن استوى صـفها واكتملت تكويناتها ـ قد جعلت أول خطوة تخطوها لتحقيق برنامجها الاسلامى ، هى تحرير الوطن الاسلامى من ربقة الاحتلال ، واطلاقه من أسر الاستعمار ٠

ثم نرجع الى ما كنا بصـدده من مواجهة العائبين بالموقف الذى وجـد المرشد العام الجديد نفسه أمامه فنسألهم هل كان أمام الرجل من خيار وقـد وجد نفسه فى هذا الموقف من أول يوم ·· وظل هذا الموقف على أشده أعواما متتالية لم يهدأ له أوار ·· واذا كان من وجه للعجب ، فعجب أن رجلا أبل من مرض خطير وهو فى سن ما بعد الستين استطاع أن يتحمل هذا العبء الثقيل، ويضطلع بهذا الجهد المضنى المتصل طيلة تلك المدة دون كلل أو اعياء ·

الفصـــــل الاول

الضغط الشعبى للاخوان يبلغ أقصى مداه
الحكومة تلغى معاهدة سنة ١٩٣٦

اقترن انتخاب المرشد العـام الجـديد انتخـابا رسميا بحـدث جلل فى تاريخ مصر السياسى هو اعلان الحكومة المصرية الغاء معاهدة ١٩٣٦ ٠ فقد أعلنت الحكومة الغاء المعاهدة يوم ١٠ـ١٠ـ١٩٥١ وأعلن انتخاب المرشد العام يوم ١٩ـ١٠ـ١٩٥١ ٠٠ فهل كان لهـذا الاقتران مـدلول معـين أم أنه جاء بمحض المصادفة ؟

والذى نعلمه ـ وقد علمه القراء من الفصول السابقة ـ أن حكومة الوفد منذ وليت الحكم وهى دائبة البحث عن وسائل التعويق وأسـاليب الماطـلة لتسد بها الطريق أمام استرجاع الاخوان المسـلمين حقـوقهم القانونية التى سلبهم اياها أمر الحل الغاشم ٠٠ وكانت هذه الحكومة فى خلال تلك المـدة منذ آل اليها الحكم فى منتصف يناير سنة ١٩٥٠ حتى هذا التاريخ يداعبها الامل فى أن تستطيع الحصول على حقوق البلاد فى الحرية والاستقلال بطريق التفاهم والمفاوضة مع الانجليز ، ولكنها وصلت آخر الامر الى طريق مسدود٠ ٠٠ ولم يعد أمامها الا طريق انتزاع هذه الحقوق انتزاعا ٠٠٠ ولمـا كان لكل ميدان رجال ، فقد صارت الاستعانة بالاخوان المسلمين أمرا لا مفر منه ٠٠ واذن فليخطبوا ودهم ٠٠٠

هذا من جانب الحكومة ٠ أما من جانب الاخوان فانهم ما كادوا يلمحون فى الحكومة الاتجاه الجاد الى نبذ المفاوضة مع الغاصب ـ وهو مطلب طالمـا طالبوا به كل الحكومات السابقة ـ حتى نسوا مواقف هذه الحكومة منهم ، وهبوا لهذا الاتجاه مؤيدين ٠٠ فنشرت الصحف فى اليوم التالى لاعلان الغاء المعـاهـدة ما يلى :

« يسر الاخوان المسلمين أن تنجز الحكومة وعدها فى الغـاء المعاهدة ٠ ويستقلبون بالتقدير تلك الخطوات المباركة التى تتمثل فى مراسـيم الغـاء المعاهدة واتفاقيتى السودان وفى اصدار الدستور السـودانى ، وتغيير لقب الملك الى ملك مصر والسودان ٠

وينتظر الاخوان المسلمون كما تنتظر الامة جمعاء الخطوات الايجابية الحاسمة التى ينبغى أن تسارع الحكومة الى اتخاذها لصيانة الاسـتقلال

وتحقيق آمال البلاد ، مؤكدين لها أن الشعب كله من ورائها ، يشد أزرها في الجهاد المقدس لتطهير البلاد من آخر أثر للاحتلال » ٠

ثم عقدوا مؤتمرا بدارهم المؤقتة بحى الظاهر للطلاب بمناسبة بدء العام الدراسى ٠ ونشرت الصحف عن هذا المؤتمر قائلة : انهم أصدروا قرارات بصدد الغاء المعاهدة واتفاقيتى السودان ٠

وفى ١٩ من الشهر نفسه ، وفى نفس يوم انتخاب المرشد العام أصدرت الهيئة التأسيسية البيان التالى :

« بسم الله الرحمن الرحيم « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم»

يؤكد الاخوان المسلمون ما جاء فى بيانهم السابق من تقدير للخطوات الوطنية المباركة التى تتمثل فى مراسيم الغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقيتى السودان ، ولما كانت الحكومة بسبيل اتخاذ اجراءات ايجابية لتنفيذ هذه المراسيم ، والرد على اعتداءات الانجليز الاخيرة ، فان الاخوان المسلمين يعلنون استعدادهم التام لمؤازرة الحكومة والتعاون معها فى كل عمل ايجابى يؤدى الى الاستقلال ووحدة الوادى والتخلص من كل آثار الاستعمار ٠

وان الاخوان يحثون الشعب على أن يثق بنفسه ، ويؤمن بحقه ، ويعلم أن مستقبله بيده لا بيد غيره ، وأن التضحية والجهاد هما طريق الحرية ، وان الاتحاد والتعاون هما السبيل الى الغاية ، وأن التنازع والفرقة يبددان قوى الامة ، ويذهبان بريحها « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين » ٠

والاخوان يدعون الامة الى التذرع بالجلد والحكمة واجتناب الحركات الفردية وغير المنظمة ، فانها لا تؤدى الى خير ٠ وما ينفع الامة فى هذا الموقف العصيب الا الروية والاعداد والتنظيم ووقوف الحكومة والشعب صفا واحدا٠

ألا وان الاخوان ليهيبون بالامة والحكومة أن ترجع الى الله ، وتعلم أن ما عنده من النصر لا ينال بالمعاصى ولا يدرك بالقعود ، وأن تستمد منه العون فيما اعتزمته من جهاد صادق وكفاح مرير ٠

« ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز ٠ الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور » ٠

رحم الله امامنا الشهيد وشهداء الامة جميعا ، وأيد بالقوة والعافية جرحانا وأثابنا فتحا قريبا » ٠

وبعد يومين أى فى ٢١ـ١٠ـ١٩٥١ ظهرت جريدة المصرى وفى صدرها العنوان التالى :

المرشد العام للاخوان المسلمين يتحدث الى « المصرى »
الظروف الحاضرة تستوجب الافراج عن المسجونين السياسيين
فقد كان سبب سجنهم هو العداء المباشر للانجليز

قال المرشد العام : وجهة نظرنا فى أننا نرى أن الظروف التى تجتازها البلاد تستوجب أن تصدر الحكومة عفوا عن المسجونين السياسيين ، فالقانون يبيح العفو عن المسجون بسبب أى جريمة ـ ومع ذلك فقد كان عداء هؤلاء المسجونين للانجليز هو السبب المباشر للحكم عليهم بالسجن ٠٠ ونحن لا نريد أن نلح على الحكومة فى ذلك لان الالحاح فيه ينقص من الشعور بادراكها لهذه الحقيقة ٠

□ الاخوان تعودوا النظام :

وسأله المندوب عن حملة الصحف الانجليزية على الاخوان المسلمين وتحميلها اياهم مسئولية الحوادث التى وقعت بالقنال فقال : نحن لا نهتم بما تنشره الصحف الانجليزية لانه بعيد عن الحق ٠ وقد عمل الانجليز دائما على محاربة الاخوان ٠٠ وعلى أى حال فان موقف الاخوان من الحالة الحاضرة مبين فى القرارات التى صدرت عن المركز العام والتى تتلخص فى أننا نؤيد الحكومة فيما أصدرته من مراسيم ٠ ونحن ننتظر الخطوات التى ستتخذها فى سبيل تحقيق الغاية المرجوة ٠٠٠ وما زلنا ننتظر ـ أما ما وقع فى الاسماعيلية وبور سعيد فلم يصدر أصلا عن الاخوان ، وحسبك أنك لا تجد فى المعركة جريحا واحدا أو حتى ذا ثوب مقطوع من الاخوان ٠٠ والاخوان المسلمون تعودوا النظام ، ولا يمكن أن يصدر عنهم حركة طيش أو تسرع ٠

□ فى انتظار ما تقرره الحكومة :

يقول المندوب : وقد أجاب على سؤال وجهته اليه عما اذا كان الاخوان يستعدون لكفاح عملى ضد الانجليز كما حدث فى حرب فلسطين قائلا : نحن فى انتظار ما تقرره الحكومة ٠ والكفاح العملى قد يأخذ صورا مختلفة غير القتال ، كالمقاطعة الاقتصادية ٠٠ وانما اذا قررت الحكومة القتال فالامة كلها من ورائها ولن يحيد الاخوان بطبيعة الحال ٠

□ **لا كتائب حتى الآن :**

وسألته عما اذا كانوا ينوون تكوين كتائب أسـوة بما فعلته الهيئات الاخرى فكان رده : ليس عندنا كتائب ، ولم ندرس بعد هذه المسألة ٠

□ **لا اعتماد على الدول الاجنبية :**

ثم وجهت اليه سؤالا عما أبداه البعض من رأى بشأن الاستعانة بدول أجنبية فى كفاحنا ضـد الانجليز فقال : اننـا لا نؤمن بمعـاونات من الدول الاجنبية لانها جميعا ذات مصالح ، ورأينا أن تعتمد الامة على نفسها فقط ٠ واستطرد سعادته يقول : انه كان من الواجب أن لا يعاون المصريون الانجليز منذ تاريخ احتلالهم لبلادنا ، وأن لا يعمل مصرى واحد فى معسكراتهم ، فقد أدى ذلك الى رسوخ أقدامهم فى البلاد وامتناعهم عن الجلاء على وجه الاطلاق ٠٠ولكن مـع ذلك فان الامـر لا يزال فى أيدينا ٠٠ ونستطيع أن نمنـع عنهم جهود عمالنا ، ونقطع عنهم جميع معاوناتنا الاقتصادية ، وأن نتبع دستور القرآن ففيه كل وسائل حريتنا ٠

وفى ٢٢-١٠-١٩٥١ نشرت « المصرى » ما يلى تحت هذا العنوان :

جواسيس انجليز لمراقبة الاخوان

الاسماعيلية ـ لمنـدوب المصـرى ـ علمت أن السـلطات الانجليزية فى الاسماعيلية قد أوفدت جواسيس الى القاهرة ، مهمتهم الوحيدة هى تقصى أنباء الاخوان المسلمين وجمعها ورفعها فى تقارير الى مركز القيادة العسكرية٠ وقد عاد أحدهم اليوم بعد أن جمع المعلومات ٠ وكان ضمن ما قام به من جولات زيارة منطقة جبل الجيوشى ٠

وفى ٢٧-١١-١٩٥١ نشرت « المصرى » عنوانا بعرض صفحاتها الاولى هـــذا نصه :

كتائب الاخوان المسلمين تخوض المعركة فى الاسماعيلية

وكتبت تحته ما يلى :

أذاعت وكالة الاسوستيدبرس العالمية نبأ من الاسماعيلية تقول فيه :

قيل اليوم ان الاخـوان المسلمين بدأوا يشتركون فى المعـركة بدليل أن بعض الفدائيين كانوا يتكلمون اللغة الانجليزية بطـلاقة لا يمكن أن تتـوفر لجمهور الشعب ٠

وقد أوردت هذه المقتطفات مما نشر بالصحف فى تلك الحقبة من الزمن لا سيما ما نشر فى جريدة « المصرى » لسان حال الحزب الحاكم ، لانقل الى

القارىء احساس الحكومة واحساس الشعب واحساس المستعمر نحو الاخوان المسلمين باعتبارهم معقد الرجاء ومناط الامل والعنصر الفعال ٠ فالمستعمر قد عرف قوة الاخوان من قبل فى فلسطين ، وعجم عودهم ، فهو عليم بأنهم العنصر الوحيد الذى يخشى بأسه ، ويرهب جانبه ، لانهم فدائيون حقا لا يبالون بالموت ، ولا يعرفون النكوص على الاعقاب ٠

☐ **موقف ساذج للحكومة :**

ولما كانت الحكومة حديثة عهد بمواجهة مثل هذا الموقف الذى وجدت نفسها فيه فجأة ، نتيجة اعلانها الغاء المعاهدة ، فانها ظنت أن على القوات الشعبية أن تحشد نفسها حشدا لتقف مع الجيوش البريطانية فى القتال وجها لوجه ٠٠ ولكن تجارب الاخوان أثبتت أن المناوشة وحرب العصابات هى مهمة القوات الشعبية ، واذ صارت الحكومة على رأس قوى النضال فعليها أن تخطط لهذه القوى وتنظمها ٠٠ وهذا هو ما أشار اليه المرشد العام فى حديثه الى جريدة « المصرى » وهو نفس ما أشار به الاستاذ الامام ونقلناه عنه فى آخر الباب السابق ٠٠ وقد أدى عدم فهم الحكومة لدورها هذا وعدم قيامها بهذا التنظيم الى سلوك بعض هذه القوى سلوكا معيبا شكا منه الاهلون ٠

وكان المستعمر يريد أن يستدرج الاخوان ويستغل حماسهم ويستغل جهل الحكومة بطرق المقاومة ٠٠٠ فالحكومة ــ بسذاجة منها وعن طريق صحفها ــ تحرج الاخوان فينزلون الى ميدان المعركة نزول جيش لجيش فتحصدهم مدافع الجيش البريطانى حصدا ٠ ويتخلص الانجليز بذلك من العنصر الخطير ــ كما حدث حين تركت الحكومة قوة الشرطة بالاسماعيلية بسلاحها العاجز البدائى طعمة لنيران العدو فحصدتهم دون رحمة ــ ولكن المرشد العام كان احصف من أن تجوز عليه هذه الخدعة ، وأصر على مواصلة المقاومة بطريقة حرب العصابات ، التى كان ضحاياها اقل عدد ممكن ، ولكنها سببت للقوات المحتلة أفدح الخسائر ، وسلبتهم الشعور بالامن ، وشتتت النوم من عيونهم ، حتى اضطروا الى ترحيل أسرهم ٠

ودعا المرشد العام فى نفس الوقت الى تنظيم عملية هى فى ظاهرها سلبية ، لكنها أدت بهذه القوات الى الشعور لاول مرة بالحرمان والارهاق والجوع ، وهى تتلخص فى حث الشعب على عدم التعاون مع قوات الاحتلال ٠ ٠٠ وكان دور الحكومة فى هذا الحث أن تتكفل بالحاق من يستجيب لهذا الحث من العمال والمقاولين بأعمال فى دوائر الحكومة ٠

□ وموقف متناقض أيضـا :

وكان المتبادر الى الخاطر أن الحكومة ـ وقد اتجهت اتجاها جادا ـ أن يكون اتجاهها هذا اتجاها متوائما مع روح الدين وخلقه ، فتغلق أماكن العبث واللهو الحرام ، وتأخذ بالاحكام الاسلامية فى المال والعرض والنفس ، حتى يزول من الصدور الحرج من التناقض الصـارخ فى الحياة المصـرية ، فبينما شباب يركبون الخطر ، ويواجهون الموت فى ساحات القتال مـع العـدو يرى آخرون يتمرغون فى أعطاف اللهووالمجون .

ولقد شيع الاخوان فى خلال الخمسة عشر يوما الاولى من شهر يناير ١٩٥٢ ثلاثة شهداء من طلبة الجامعات هم « عادل محمد غانم » الطالب بكلية طب عين شمس و « عمر شاهين » الطالب بآداب القاهرة ، و « أحمد المنيسى» الطالب بطب القاهرة ـ وكنا نتشييع جنـازة الشهيدين الاخيرين فى مـدينة الزقازيق .. وأترك لجـريدة « المصرى » بعـد أن وصفت روعـة الجنـازة ، واشتراك جميع الطوائف فيها ، ونشرت صورة للمشيعين يتقدمهم المرشد العام أترك لها أن تذكر ما حدث فى أثناء سير الجنازة اذ قالت :

« ومن المفارقات أنه فى أثناء تشييع الجنازة فى الزقازيق .. ، والجنازة الجليلة تسير الهوينى لتوديع الشهداء الابطال الى مكانهم فى الخالدين ـ حدث أن دخل الى الصفوف عمال احدى السينمات لتوزيع اعلانات عن عرض الافلام بها .

واذا كان القارىء الآن قـد امتلأ حقـدا على هـؤلاء العمال وعلى الذين أرسلوهم لتوزيع الاعلانات فى هذه اللحظات الخاشعة ، فانه لا محالة يعذر المشيعين اذا كانوا قد اعتدوا على هؤلاء العمال بالضرب وعلى دار السينما ببعض التلف » .

هذا هو ما كتبته الجريدة .. ونحن لاننظر الى الحادثة فى ذاتها ، وانما ننظر الى ما توحى به الى النفوس من معان تثبط الهمم وتهد العـزائم .. واذا كان هذا هو ما يحدث فى الاقاليم ـ التى من طبيعتها التمسك الى حد ما بالقيم ـ فما بالك بما يحدث فى القاهرة والاسكندرية فى نوادى القمار ودور السينمات والمسارح والكباريهات ؟ !

واذا لم تذكر المحن القاسية الشعب والحكومة بالله الذى بيـده وحـده النصر فمتى يذكرون الله ويرجعـون اليـه ، ومتى يحـكمون شريعتـه ومتى يلتزمون حدوده ؟

المرشد العام يضبط المشاعر ويحدد الموقف بحزم :

والاخوان بطبيعتهم ـ كما قدمنا ـ اذا ذكر الجهاد والاستشهاد نسوا كل شيء وخفوا الى ساحة الموت

ركضا الى الله بغير زاد الا التقى وعمل المعاد

ولكن المرشد العام ـ وهو الرجل الذى حنكته التجارب ، والذى اجتمعت فى يديه كل الخيوط ـ كان هو الرجل القادر على ضبط هذه المشاعر وحسن توجيهها ، فهو لا ينسى أنه ـ قبل كل شيء ـ صاحب دعوة شاملة هدفها ارساء قواعد الحكم الاسلامى فى البلاد ، ولا ينسى أن القابضين على زمام الامور فى البلاد لازالوهم أعداء هذا الهدف ، والغارقين فى بحار اللهو والعبث والمجون ··· وفى الوقت الذى يرى أن دعوته تلزمه باجلاء المستعمر عن البلاد يرى أنها تلزمه أيضا بتطهير أداة الحكم من أئمة الفساد والمجون ·

فبينما كان كل أخ من الاخوان المسلمين يتحفز فرحا وجذلا للذهاب الى الميدان ، كان المرشد العام مشغولا بايجاد حل لهذه المعادلة الصعبة التى تجمع بين الاحتلال الخارجي والفساد الداخلى وكيفية التخلص منهما معا ·· والمشقة الكبرى أمام الرجل كانت تتمثل فى أنه يعد العدة فعلا لحل المعادلة ولكنه لا يستطيع أن يبوح لاحد بما يعد ، ولا حتى للاخوان أنفسهم ·

وأكتفى هنا بهذه الاشارة العابرة ، فتوضيح هذا الموضوع ليس هذا موضعه ، وانما يأتى موضعه فى الجزء الثالث من هذه المذكرات ان شاء الله ·· ولكننى أورد هنا بعض نصوص نشرت فى صحيفة « المصرى » فى تلك الحقبة، قد تلقى قراءتها بعض الضوء على الموضوع ، لا سيما بعد أن تكشفت الامور ووقعت الاحداث التى كان يحضر لها المرشد العام ، وأصبحت بالنسبة للناس الآن تاريخا يدرس ـ وان كان محرفا ـ بعد أن كانت فى الوقت الذى نؤرخ له آمالا فى ضمير الغيب ·

وهذه النصوص تتصل فى مجموعها بامر كان يشغل بال الشعب والحكومة والمحتل نفسه ، وهو ابراز موقف الاخوان المسلمين محددا مفصلا من أحداث الساعة ·· وقد تصدى بعض الاخوان المسئولين لتحديد هذا الموقف : بعضهم مدفوع بالتشوف الملح الى احراز الشهادة · والبعض الآخر ـ ممن يعيشون فى معمعة المعركة ورأوا بأعينهم المآسى الدامية التى خلفها الاعتداء البريطانى الآثم على السويس ـ مدفوع بالامل فى منح فرصة للمنكوبين من أهل تلك المدينة وضواحيها لاصلاح بعض شئونهم · واعداد انفسهم ليكونوا فى موقف أفضل للدفاع عن أنفسهم ·

وقد نشرت الصحف رأى الاستاذ محمد طاهر منير رئيس شعبة الاخوان بالسويس وهو يمثل نظرة أهل المنطقة التى جنت عليها نظرة الحكومة الساذجة لطريقة المقاومة وتركها الحبل على الغارب للاهالى العزل المجردين من كل سلاح ومن كل خبرة لمواجهة جيوش الاحتلال المجهزة بأحدث وسائل التجهيز ٠

ثم نشرت بعد ذلك رأى الاخ الشيخ محمد الغزالى عضو مكتب الارشاد فى ذلك الوقت وهو يمثل الفئة الاخرى فى كلمة له بعنوان « لن تبلغ أمة هدفها الا اذا نظفت جبهتها الداخلية ـ رأى الاخوان المسلمين فى الموقف » هذا نصها :

« ان الاسلام الذى يعمل الاخوان المسلمون فى حدوده ، له توجيهات واضحة بازاء الموقف الحاضر ٠ فلأول مرة التقى القانون الشرعى والقانون الوضعى على اعتبار الانجليز فى هذا الوادى محاربين لا أمان لهم ولا عهد ٠ وكان من بشائر الخير أن اتفقت الحكومة والشعب على تحمل هذا الموقف ، ومواجهة تبعاته بروح من الاصرار الواجب والكفاح المحمود ، والاسلام لا يظاهر هذه الحركة فحسب بل يؤجج نارها ، ويرمى لها بوقودها من الفدائيين والشهداء ٠

ويجب أن يعلم أن الاسلام كما يقوم على كلمة التوحيد ، يقوم كذلك على توحيد الكلمة ٠ ولن تبلغ أمة أهدافها الا اذا نظفت جبهتها الداخلية من المنتهزين والمصطادين فى الماء العكر ، فان الالتواء بعناق الامة عن غايتها التى اتحدت عليها قد يصيب نهضتها بانتكاس وخيم العاقبة ٠ ولذلك وضع الاسلام له أشد العقاب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أتاكم وأمركم جميع يريد أن يشق عصاكم فاضربوه بالسيف كائنا من كان » ٠

وفى حدود تعاليم الاسلام السابقة يمكن أن نعرف حقيقة السياسة التى لا يتخلى عنها الاخوان المسلمون غير ناظرين الى أحزاب أو أشخاص ٠٠ ومن الحقائق المقررة فى أذهان الاخوان المسلمين جميعا :

١ ـ أنه لا يجوز بقاء أى جندى انجليزى لا فى مصر وحدها ، بل فى ربوع العالم الاسلامى كله ٠

٢ ـ أن الاخوان المسلمين يسوون فى نظرهم بين أخطار الشيوعية الوافدة ، والخلل الاجتماعى القائم ، لانهم ينادون بالاشتراكية الاسلامية(١)، وفيها وحدها الانقاذ مما نعانيه ومما نتوقعه ٠

(١) تعبير « الاشتراكية الاسلامية » تعبير دخيل استعاره الكاتب ٠ والاخوان حين ينادون ينادون « بالاسلامية » دون موصوف ٠

٣ ـ ولما كانت مصر طليعة الكتلة الاسلامية التى يدور النزاع العالمى على استغلالها ، فان الاخوان يرفضون الارتباط بأية كتلة معتدية ، وهم يحاربون فقط من يعتدى على أرضهم ٠

ذلك ومن البديهى أن الاخوان الداعين الى تحكيم كتاب الله ليسوا هم الذين يشاركون فى الحكم بغير ما أنزل الله ٠ وقد أدى الاخوان واجبهم فى معركة القنال ٠ ولامة أن تعتمد على رجولتهم دائما فى ردالاذى ودفع العدوان٠

وقد يلحق بهذا المعنى الذى نحن بصدده مقال للاستاذ احسان عبد القدوس نشره فى مجلة روز اليوسف فى نفس هذه الفترة نقتطف منه الفقرات التالية :

« لا أستطيع أن أتحدث عن القوى الشعبية ، وانسى جماعة الاخوان المسلمين ٠٠ وأنا أحد المؤمنين بأن الدعوة الدينية هى دائما أقرب الدعوات الى نفوس الطبقة الشعبية ٠٠

والاخوان المسلمون اليوم ـ كما كانوا بالامس ـ هم الذين يمثلون دعوة الدين الى الجهاد ، وبفضل دعوتهم هذه شهدت ساحات فلسطين أبطالا منهم وقفوا وقفة العمالقة ، وهتفوا باسم الله ، فاذا بالبطل منهم وفى صدره عشرة أبطال ٠٠٠ ولا يستطيع ضابط ممن اشتركوا فى حملة فلسطين أو مراقب ممن راقبوا معاركها ، أن ينكر فضل متطوعى الاخوان المسلمين فيها ، أو ينكر بطولتهم وجسارتهم على الموت ، والعبء الكبير الذى تحملوه منها راضين فخورين مستشهدين فى سبيله ٠٠

أين هم اليوم فى ساحات القنال ؟ ٠٠ لنكن منصفين ٠٠ لقد عاد الاخوان من حملة فلسطين وفى ظهر كل منهم خنجر مسموم ٠٠ عادوا ليشردوا ويعتقلوا وليروا رجلهم الاول يغتال فى ظلام ـ فهل تتكرر عليهم المأساة لو اشتركوا فى حرب التحرير ؟ وهل من حقهم أن يسألوا أنفسهم مثل هذا التساؤل ؟

وهل كفر نبى بدينه وتخلى عن دعوته لمجرد أنه خدع فى فريق من انصاره ، أو أوذى من بنى قومه ؟ ! أقولها وفى القلب أمل لا يزال قويا ٠٠ فيوم أن يتحرك الاخوان المسلمون ، ويعرفون كيف يتحركون والى أين ، فيومئذ اكتملت لمصر قواها الشعبية وضمنت لايام الجهاد الاستمرار » ٠

ولما كانت الصورتان اللتان أبرز الفريقان موقف الاخوان فيهما ونشرتهما الصحف يبدوان كأنما هما مختلفتان ٠٠ فقد أشفق بعض محبى الاخوان عليهم وكتبوا يريدون أن يسمعوا من المرشد العام القول الفصل ٠

وهنا تقدم الاستاذ سيد قطب ـ وكان حتى ذلك الوقت لا يزال فى صفوف المتعاطفين مع الاخوان ـ تقدم بطلب الكلمة الفاصلة من المرشد العام، فنشر له « المصرى » فى أول يناير ١٩٥٢ الكلمة التالية تحت عنوان « رأى الاخوان ورأى الاسلام » وهذا نصها :

« ... سرنى أن أقرأ فى « المصرى » أمس كلمة الاخ الاستاذ محمد الغزالى عن موقفه الاخوان المسلمين من الكفاح الشعبى فى هذه الايام ، بعد ذلك اللبس الذى وقع عند الكثيرين من قراءة كلمة الاخ الحاج طاهر منير رئيس شعبة الاخوان بالسويس ، والتى أشار فيها الى السلم لو جنح الانجليز الى السلم٠

ان حساسية الناس شديدة فى هذه الايام ٠ وكل اشارة الى مسالمة الانجليز ، ولو كانت مشروطة بشرط أن يكفوا هم عن العدوان بالجلاء عن البلاد ـ تقابل من الناس بالتشكك وعدم القبول ، مما يدل على عزيمة هذا الشعب أن يكافح الى النهاية ، وبلا هوادة ٠

ولكن هناك كلمة صريحة يجب أن تقال للاخوان المسلمين ٠ وأحسبنى أقدر الناس على أن أقولها لهم بحكم ما بينى وبينهم من صداقة وثقة وتعاون٠

انه لا الاخ الحاج طاهر منير رئيس شعبة الاخوان بالسويس ولا الاخ الاستاذ محمد الغزالى عضو مكتب الارشاد يملك أن يقول كلمة الاخوان الرسمية ٠ فقانون الاخوان يجعل هذه الكلمة الرسمية من حق المرشد العام ٠

وهذه الكلمة الصريحة الواضحة التى قالها الاستاذ الغزالى كان يحسن أن تكون هى الكلمة الرسمية التى يقولها الاخوان ، فالناس فى حاجة ماسة الى كلمة صريحة واضحة رسمية من الاخوان فى هذه الايام ، لان هناك ما يدعو الى قولها ٠٠ وأصدقاء الحركة الاسلامية من أمثالى هم أحرص على سماع هذه الكلمة فيما تواجهه البلاد من أحداث ٠

ان دور الاسلام فى الكفاح الشعبى دور ايجابى دائما ٠ والشعب يكافح اليوم من أجل غايتين جليلتين : التحرر المطلق من كل استعمار أجنبى ٠ والعدالة الاجتماعية المطلقة من كل استغلال ٠ ورأى الاسلام فى هاتين الغايتين واضح ٠٠ فما هو رأى الاخوان ؟

ومعذرة اذا سألت هذا السؤال ، فان رأى الاخوان يجب أن يكون واضحا فى مناهج وبرامج محدودة ، لا يحيل احالة غامضة الى رأى الاسلام بل ان تقول وتعلن : ما هو رأى الاسلام الذى يراه الاخوان ٠

ان الاسلام ليس هو الاشتراكية وليس هو الشيوعية كما انه بكل تأكيد

ليس هو الرأسمالية • وعندما توازن هذه المذاهب بالنظرية الاسلامية تبدو محاولات صغيرة قاصرة ، وأوضاعا وقتية محدودة ، فهى لا تعالج الا الجانب المادى فى حياة الانسانية ، بينما يتبولى الاسلام علاج البشرية بكل مقوماتها الانسانية •

غير أن آراء الاسلام فى كل حقل من حقول الحياة يمكن أن تصور تصويرا مغرضا مشوها اذا تركت بغير تحديد واضح فى صورة مناهج وبرامج محددة فى كل جانب من جوانب الحياة • وبما أن دعوة الاخوان تمثل دعوة الاسلام فانه ينبغى أن يعلنوا للناس هذه المناهج المحددة وهذه البرامج الواضحة •• وليست العلاقة بيننا وبين الاستعمار الا جانبا واحدا تشمله هذه البرامج على أساس صريح •

ان أصدقاء الاخوان ـ قبل منافسيهم ـ هم الذين يطلبون هذا الايضاح •• وهذا وقته ، بعد ما استرد الاخوان نشاطهم واستأنفوا جهادهم • « ان أريد الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله » •

□ المرشد العام يحسم الموقف :

وهنا رأى المرشد العام أن يقول الكلمة الفاصلة ، فلفت النظر الى أمور ذات بال هى صلب الموضوع ، ولكنها غائبة عن أذهان الشعب والحكومة ، الذين ظنوا أن النصر ينتزع من الله انتزاعا مع مخالفتهم عن أمره واعراضهم عن شريعته وهو الذى يقول « وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم » ويقول : « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ـ وقد نشرت كلمة المرشد العام فى جريدة « المصرى » فى ٣ـ١ـ١٩٥٢ تحت عنوان : « الاخوان• الاخوان » وهذا نصها :

« كثر تساؤل الناس عن موقف الاخوان المسلمين فى الظروف الحاضرة •• كأن شباب مصر كله قد نفر الى محاربة الانجليز فى القنال ولم يتخلف الا الاخوان المسلمون •• وكأن دور اللهو والمجانة أغلقت وحرمت على اللاهين والماجنين •• وكأن الجالسين فى ظل ظليل ، وعيش رغد ، وأمن لا خوف فيه ، ومكاسب لا يدرى أحلال هى أم حرام •••• تركوا ذلك كله وأخذوا فى الجد من العمل والمر من الكفاح ••• ولم يجد هؤلاء وأولئك للاخوان عذرا واحدا يجيز لهم الاستبطاء بعض الشىء ، ولم يفطن أحد الى أنهم كانوا الى وقت غير بعيد مقيدين بقيود لا تسمح لهم بالحركة ، ولا يزال شبابهم المكافح رهن السجون •

وأيا كان غرض المتسائلين من تساؤلهم فان الاخوان لن يتكلموا الا اذا شاءوا ، ويحبون أن يؤدوا واجبهم فى صمت • وخير لهم ولسلامة أن تنطق أعمالهم وهم لا ينطقون ، ولا يريدون أن يقولوا ما قال واحد منهم - ليس له حق التعبير عنهم - انهم قد أدوا واجبهم فى معركة القتال • فان هذا غلو لا جدوى له ولا خير فيه • ولا يزال بين ما فرضه الله عليهم من الكفاح وبين الواقع أمد بعيد • والامور الى أوقاتها « ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » •

قال الكاتب الجليل الاستاذ سيد قطب : « ان دور الاسلام فى الكفاح الشعبى دور ايجابى دائما ، والشعب يكافح اليوم من أجل غايتين جليلتين: التحرر المطلق من كل استعمار أجنبى ، والعدالة الاجتماعيه من كل استغلال، ورأى الاسلام واضح •• فما رأى الاخوان » ؟

فاذا كان رأى الاسلام فى ذلك واضحا فما معنى السؤال ؟ •• ان رأى الاخوان كذلك واضح ، فهم يطلبون أن يحكم الاسلام تحكيما تاما فى حياة الامة كلها ، فهو دين متكامل غير قابل للتجزئة ، يسير بالحياة فى نظام عجيب ، كلما دققت فيه النظر وجدته مما لا يمكن أن ينقص منه شىء أو يزاد عليه شىء • وقد أخذ الاخوان المسلمون أنفسهم فنفذوه فيما فى طوقهم تنفيذه •• والكاتب الجليل يعلم أن أساس النظام الاجتماعى التربية والتعليم ، وهما حق للامة وواجب عليها •

وقد مضى الاخوان فى ذلك شوطا بعيدا فأصلحوا النفوس الشاردة فى الجامعة والمدارس وفى المدن والقرى وردوها الى الله ، وأدخلوا الايمان فى قلوب الضالين ، وأقاموا المستشفيات والمستوصفات لتصحيح الاجسام ، وأنشأوا المدارس • وكانت كل شعبة من شعبهم مبعثا للنور والهدايه • وانشأوا الشركات المختلفة لتدعيم الحياة الاقتصادية التى تسير على هدى الاسلام ، ذلك الى غيره من المنشآت التى صادرتها الحكومة ، ولم تبق منها الا على ما لم يتسع لها الوقت لافساده • وقد نهضوا على قرب عهدهم باسترجاع نشاطهم لمثل هذه الاعمال وأتموا منها الشىء الكثير •

وأما رفع مستوى المعيشة فلعل الكاتب يعلم من رأى الاخوان المسلمين فيه مالا يعلم غيره من وجوب توفر المسكن والملبس والغذاء والعلاج لكل فرد فى دولة الاسلام ، ويعرف أن هذا مبسوط فى كتبهم ورسائلهم ، ويعرف أنه مبسوط فى كتابه « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » الذى يدرسه الاخوان فيما

يدرسون من كتب بدقة وعناية ، ويعلم أن ما يـلزم ذلك من مال يؤخـذ من الاغنياء ويرد على الفقراء ، فتضيق المسافة بين الغنى الفاحش والفقر المذل ـ فاذا كان بعض المترفين الذين يريدون أن يجعلوا بينهم وبين الاسلام سـدا لا يقرأون أمثال هذه الكتب ، واذا كان من بيدهم الامر لا يهتمون بأن ينظروا فيها ـ ولو على سبيل حب الاستطلاع ـ فليس الذنب فى ذلك ذنب الاخوان ٠

أما أن الكاتب يريد منا أن نضع مناهج محدودة وبرامج واضحة ، فان هذا من التفصيل الذى نعتزمه حين تتوفر لنا أسباب النشر كما توفرت لنا أسباب القول فيه ، ولعل ذلك يكون قريبا ان شاء الله ٠ »

الفصـــل الثـــانى

مقابلة الملك للمرشد العام الجديد

نشرت الصحف فى ٢١ـ١١ـ١٩٥١ النبأ التالى :

فى الحضرة الملكية

المرشـد العام للاخوان المسلمين

قصد سعادة الاستاذ حسن اسماعيل الهضيبى بك المرشد العام للاخوان المسلمين الى قصر القبة العامر فى الساعة السـادسة من مسـاء أمس ، حيث تشرف بمقابلة حضرة صاحب الجلالة الملك ٠ وقد دامت المقابلة ٤٥ دقيقة ٠ ولم يشأ سعادته أن يفضى بشىء عما تم فى هذه المقابلة ٠

وفى ٢٨ـ١١ـ١٩٥١ نشرت الصحف ما يلى :

المرشد العام فى الاجتماع الاسبوعى

قال المرشد العام فى الاجتماع الاسبوعى الذى اعتاد الاخوان اقامته فى مساء الثلاثاء من كل أسبوع انه ليس من اللائق التحدث عما جرى فى مقابلته مع الملك ، ووصف ما أشارت اليه بعض الصـحف بصـدد هـذه المقابلة من اشتراطات وتعهدات بأنها مجرد تكهنات لا أصل لها من الصحة ٠

* * *

تعقيبنا على هـذه المقابلة

هذا هو ما نشرته الصحف اليومية الكبرى عن هذه المقابلة ٠٠ وكانت مقابلة الملك فى تلك الايام لشخصية غير رسمية تعتبر حدثا تاريخيا ، وتعـد مفخرة لهذه الشخصية ، تتحدث عنها جميع الاوساط ، وتعلق عليها ، وتتكهن بما سوف يعقبها ، وما يترتب عليها ، اذ هى شرف لا يدانى ، وأمل لا ينال ، وأمنية يحلم بها رؤساء الاحزاب المستوزرة ، ويقطعون عـلى أنفســهم بين يديها عهودا أن يكونوا الخدم الامناء للحضرة الملكية ولاوامرها ولمآربها ٠٠ ومع ذلك قلما يظفرون بها ٠

فاذا كانت المقابلة للمرشد العام للاخوان المسـلمين ، فانها لا تعتـبر حدثا تاريخيا فحسب ، بل تعتبر انقلابا اجتماعيا وسياسيا تعجز التكهنات عن تقدير مدى نتائجه ، وما قد يترتب عليه ، لا سيما وان هـذه المقابلة قـد حاولها من قبل غير مرة المرشد العام الاول ٠ ولكنه حيل بينه وبينها ٠٠ فمـا

الذى حدث وما الذى طرأ على مسرح الحياة السياسية فى مصر حتى تمت المقابلة فجأة دون مقدمات تمهد الاذهان لتوقعها ؟

وقد أوردنا كل ما كتبته الصحف اليومية الكبيرة عن هذه المقابلة من نشر نبأ حدوثها ومن تعليق المرشد العام على ما نشر فى مختلف الصحف ، وهو تعليق يزيد النبأ غموضا ، ويشجب التكهنات التى دارت فى الاوساط الصحفية الاسبوعية ، ولكنه لا يلقى أى ضوء على ما كان من شأن المقابلة وما تم فيها ٠٠ ولذا فقد رأينا أن نعرض بتعليق على المقابلة وأن نحلل الظروف التى أحاطت بها فى السطور التالية ان شاء الله ٠

وقد غلبت على الرجل طبيعته فى الكتمان التى اكتسبها منذ كان طالبا بالحقوق وعضوا فى جمعية اليد السوداء ، فظلت هذه المقابلة وما تم فيها سرا مكتوما يجهله جميع الناس بل ويجهله أكثر الاخوان المسلمين أنفسهم ٠٠ حتى ان هذا الجهل بحقيقة ما تم فيها قد استغله بعض الحكام المغرضين فيما بعد استغلالا دنيئا للنيل من دعوة الاخوان المسلمين ومن المرشد العام ممايأتى تفصيله فى الجزء القادم من هذه المذكرات ان شاء الله ٠

وأرى من حق التاريخ على ، وابراء لذمتى نحو الحقيقة التى انطمرت تحت ركام الاحداث وتوالى الايام ، أن أفضى الى شعبنا الذى طال أمد تضليله ــ بما أعرف عن هذه المقابلة وما دار فيها وما سبقها وما تلاها ٠٠ ومعذرة حين أسرد معلوماتى اذا أنا سردتها وسط الظروف التى تم وصولها الى فيها ، وبالاسلوب وبالالفاظ التى سمعتها بها ، ون كان فى ذلك بعض الاستطراد وبعض معلومات لا تتصل بالمقابلة لكنها لا تخلو من فائدة ان شاء الله ٠

كان ذلك فى مقتبل ربيع عام ١٩٥٢ ، ولم أكن فى تلك الاثناء قريبا من القاهرة حيث كنت لا أزال فى عملى الخاص فى الصعيد ، فلما انتهى موسم القطن فى الصعيد ــ وهو ينتهى مبكرا ــ ذهبت الى رشيد لاستجم بضعة أيام، فوصلنى من الاخوان بالقاهرة خطاب يطلبون الى فيه أن أكون فى دمنهور فى يوم كذا لان الاستاذ المرشد يقوم برحلة فى الوجه البحرى وسيكون فى هذا اليوم ان شاء الله فى دمنهور ، « وهو يريد أن يلقاك هناك » ٠

ولم تكن الظروف قد أسعفتنى بشىء من المعلومات عن مقابلة الاستاذ المرشد للملك الا ما قرأته فى الصحف التى اعتبرت هذه المقابلة حدثا تاريخيا لم يكن متوقعا ، وعدت ذلك شرفا عظيما يضفى على الاخوان المسلمين ٠

□ من أخطار الربا :

وسعدت بوجودى فى دمنهور فى ذلك اليوم ، فقد غبت عنها زمنا طويلا

منذ غادرتها منقولا عقب اغتيال الاستاذ الامام · فقابلت اخـوانا بها أعـزاء منهم الاخ الحاج عبد القادر عثمان المضيف للمرشد العام وصحبه فى منزله ، والذى استقبلنى بالعناق الحار ، وبادرنى بقوله : لقـد كنت حريصـا على لقائك لاقول لك اننى لم أخالف نصيحتك الا مرة واحدة ، وكادت هذه المخالفة الواحدة أن تؤدى الى اهلاك الحرث والنسل ـ فقد كنت نصحتنى باعتبارى تاجرا أن لا أتعامل مع البنوك ·· ولكن صديقا لى يعمل وكيلا لبنك التسليف الزراعى بالمحمودية أغرانى وألح على بكمية من الفول لم يكن معى ثمنها ·· وكان الذى أغرانى أن أسعار الفول كانت فى ارتفاع مستمر ·· ولكن بعد أن أصبحت هذه الكمية باسمى أخذت الاسعار فى الهبوط بل فى الانهيار فطالبنى البنك بالتغطية ـ أى بأن أدفع للبنك الفرق بين الثمن الجديد والثمن الذى اشتريت به ـ فدفعت اليه كل ما كان معى من نقـود ·· ثم هبط السـعر ـ وليس هناك مشترون كدأب الاشياء اذا كانت أسعارها فى انخفاض مستمر ـ فطالبنى البنك بتغطية أخرى ·· وهكذا حتى اضطررت الى بيع أثاث بيتى وكل شىء عندى حتى هذا المنزل عرضته للبيع ·· ولكن الله سلم ·

ويبدو أن الله تعالى قد اكتفى هذه المرة بتأديبى الى هذا الحد وقد عـلم منى حسن التوبة وصدق الله العظيم « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » ·

□ حديث خاص وخطير :

لم أكن حتى تلك اللحظة قد جلست الى الاستاذ المرشد العـام حسن الهضيبى أو تحدثت معه أو استمعت اليه الا المقابلتين العـارضتين اللتين أشرت اليهما قبل أن يتم انتخابه ·· وكنت أعجب لرجـل هـذا حالى معه يطلبنى بالذات لاقابله بدمنهور · وكنت حين وصلت الى منزل المضيف قد اتخذت ـ فى غرفة فسيحة من غرفاته ـ مجلسى بين الاخوان مؤتنسين بوجود الاستاذ المرشد معنا · ولكن الاسـتاذ المرشـد نادانى وطلب الى أن أجلس بجانبه ففعلت ·· وأنا أعرف أن الرجل قليل الكلام · وكانت هذه صفة من صفاتى أنا الآخر ··· وكنت حريصـا ـ بعد أن حييته ورحبت بمقـدمه الى عاصمة محافظتنا ـ على أن لا أبدأه بكلام حتى يبدأ هو لاعرف السبب الذى دعانى من أجله لمقابلته وأنا لم أخالطه من قبل ··

وبدأ الرجـل بالكلام فـرد على مافى نفسى من سؤال فقـال : « اننى لا أهتم بالاخوان المظهريين ، ولا بذوى الالسنة ، ولا بالمتحمسين · ولعلك تعلم أننى كنت رافضا هذا المنصب لعدم ثقتى فى هؤلاء ، ولولا دموع يوسف طلعت وهؤلاء الاخوة البسطاء ما قبلت ·

وقد علمت بعد ذلك بما كان من أمر النظام الخاص وتمرده على الدعوة ·

وعلمت بما كان من محاولات لاقناعهم ، وكبح جماحهم ، وبأن هذه المحاولات لم تجد معهم ٠٠ وقد كدت أرجع الى رفضى ، لاننى لا أقبل أن أكون على رأس دعوة يتسلط عليها مركز قوة من داخلها ، فان هذه المراكز هى ديناميت ينسف الدعوة فلا يبقى منها على شىء - ولولا أن قيل لى :أمهلنا حتى نرسل فى طلب أخ يحبه اخوان هذا النظام ويحترمونه ليكون ذلك آخر ورقة فى جعبتنا ٠٠ ثم قال : ولم تكن هذه أول مرة أسمع فيها عنك ، فقد حدثنى الاستاذ الامام عن كثير من شخصيات الدعوة - وقد بلغنى ما كان من حديث بينك وبين هؤلاء الاخوة وما انتهى اليه الامر من اذعانهم وانهاء تمردهم ٠٠ وقال : اننى اريد الاخوان الذين يعملون ولا يتكلمون ، والذين يعملون ويرجون وجه الله »٠

ثم قال : اننى أحب أن أعرف رأيك فى بعض الاشخاص ٠٠٠ حتى جئنا الى شخصية هامة جدا فى الدعوة فوجدت وجهة نظره فيها متفقة مع وجهة نظرى - مع أنها وجهة غائبة عن أكثر الاخوان - والعجيب أن كلينا قد قرر أن هذه الشخصية هى فى أسمى الدرجات ايمانا وعلما واخلاصا لكنها لا تحسن تقدير المواقف ، وقد عبر الاستاذ المرشد عن ذلك المعنى بكلمة فرنسية

وقد أثبتت الاحداث الجسام بعد ذلك أن تقييمنا كان صحيحا ودقيقا ٠

لقد طال الحديث بينى وبين الاستاذ المرشد حتى خشيت أن يحرج ذلك صدور الاخوان الجالسين ، ولكن أمام أهمية الحديث رأيتنى فى حل من مواصلته معتمدا على ثقة الاخوان فى مرشدهم وحسن ظنهم بى ٠

ثم التفت الاستاذ الى وقال : هل علمت ما كان من أمر مقابلة الملك فاروق؟

قلت : لا أعلم الا ما نشرته الصحف ٠

قال : هذا ما كنت أتوقعه من رجل مثلك ليس من طبيعته أن يتحشر ويتسقط الاخبار ٠٠ ولهذا حرصت على أن أقابلك وأفضى اليك بتفاصيل هذه المقابلة ، فمثلك لا ينبغى أن يجهلها ٠

□ تفاصيل المقابلة مع الملك :

وسرد على الاستاذ المرشد تفاصيل هذه المقابلة ومقدماتها وملحقاتها ساعة بساعة ولحظة بلحظة ، لكننى بعد مضى خمسة وعشرين عاما لا أستطيع أن أدعى أننى لا زلت أعى كل هذه التفاصيل ، لا سيما وهذا أول يوم منذ ذلك التاريخ أمسك بالقلم لاسجل ما سمعته ، ولذا فانى لن أثبت هنا الا ما بقى فى الخاطر - وهو قليل - لكن الذى أثبته هو النص الذى لم يتفلت من خاطرى منه شىء ٠٠ أما ما سوى ذلك من التفاصيل مما لم يبق فى الذهن منه الا ظله

فسأضرب عنه صفحا حتى لا أخلط الحق الصريح بما هو دونه ·

قال الاستاذ المرشد في يوم كذا اتصل بى الصديق فلان (أنسيت اسمه وتاريخ اليوم) وقال لى ان كريم ثابت المستشار الصحفى لجلالة الملك يريد أن يقابلك · فلم أمانع · وحضر كريم ثابت وأخبرنى بأن جلالة الملك يريد أن يقابلنى ، فأمهلته حتى عرضت الامر على مكتب الارشاد ووافق · وحدد الميعاد ·· وقال لى الاستاذ : اننى فى اجتماع مكتب الارشاد حاولت أن أهون من شأن هذه المقابلة مهتديا بالحكمة التى تقول : متى يستقيم الظل والعود أعوج

وفى اليوم السابق للميعاد اتصل بى كريم ثابت وسألنى : هل لديك ردنجوت (بدلة من أثمن أنواع الصوف الانجليزى الاسود ذات سترة طويلة ولها هى وبنطلونها شكل خاص وتفصيل خاص وتكاليفها باهظة ، ولا يسمح لاحد بمقابلة الملك الا اذا كان مرتديا بها) فقلت له : ليس عندى · فقال : سأبعث اليك بواحدة ·· قال الاستاذ : فلما رجعت الى المنزل وجدت بدلتين من الردنجوت قد بعثوا بهما لاختار أنسبهما لجسمى ·

فلما كان يوم المقابلة قررت أن لا ألبس الردنجوت · وحين جاء الميعاد حضر كريم (على ما أذكر أنا) ليصحبنى الى القصر · فوجدنى ببدلتى العادية · فسألنى : ألم تصلك البدلتان الردنجوت ؟ فقلت : قد وصلتا ، وسلمتهما له وقلت له : اننى قررت أن لا أقابل الملك الا بملابسى العادية هذه· واذا لم يكن مسموحا به فأرجو الغاء المقابلة ، لاننى لم أطلبها حتى تشترطوا على شروطا ·· قال : فظهر الحرج على وجه كريم · ولكن يبدو أنه كان مكلفا من الملك باتمام هذه المقابلة على أى وضع وبأى ثمن ، لانه مع ما أوقعته فيه من حرج قال : ما دمت متمسكا بذلك فلا مانع ·· وهذه أول مرة يقابل فيها الملك شخصا لا يرتدى الردنجوت ·

قال الاستاذ : وكان عندى مجموعة من الاخوان فى ذلك الوقت ، وقد حاولوا أن يزحزحونى عن رأيى لاخراج كريم من حرجه ، لكننى أصررت على رأيى وصممت عليه متمنيا أن تلغى المقابلة ·

ولما وصلنا الى القصر ، وجدت فى استقبالى الموظفين الرسميين الذين يستقبلون السفراء وأمثالهم حتى دخلنا مكتب سكرتير الملك (أو كبير الامناء لا أذكر) فاذا بالملك يدخل ويلقى على السلام ويصافحنى فصافحته كما أصافح أى انسان · ثم أخذنى ويده فى يدى ودخلنا مكتبه الخاص فجلس الى مكتبه وجلست الى جانبه فى الفوتيل المجاور · ثم أخذ يرحب بى ويوجه الى الحديث ويقول لا ادرى لم يسىء الاخوان الظن بى ؟ فلم أرد عليه ·

فقال : اننى رجل مسلم وأحب الاسلام وأتمنى له الخير ، وقد أمرت بانشاء مساجد كذا وكذا •• فلم يكرهنى الاخوان ؟ فلم أرد • فقال : ان الاخوان قد أفهموا خطأ أننى الذى أمـرت بحلهم واعتقالهم وباغتيال الشـيخ البنا •• هذا والله العظيم خطأ ، ولم أفعل من هذا شيئا •• ان الذين فعلوا هذا هم السعديون •• النقراشى وابراهيم عبد الهادى •• وفى اللحظة التى تمكنت فيها أقلت ابراهيم عبد الهـادى وأمـرت الوزارة التى عينتها بالافـراج عن الاخـــوان •

وقال لى الاستاذ المرشد : لقد طال حديث الملك نحو ساعة استعرض خلالها تاريخه وما عمله من خير ، ونسب كل عمل سىء الى غيره •• وبين الفينة والفينة كان يلقى السؤال نفسه « لم يكرهنى الاخوان اذن ؟ وأنا لا أرد ••• ثم قال لى الاستاذ : ويبدو أننى سهوت عن نفسى بعد قليل من بدء الحديث ، وتنبهت فوجدت نفسى فى وضع عجيب •• وجدتنى جالسا فى الفوتيل واضعا احدى رجلى على الاخرى ، ففكرت فى الرجوع الى الجلسة المناسبة ، ولكننى قررت أن لا أغير هذا الوضع ، فظللت فى هذا الوضع حتى نهاية المقابلة حين سألنى بعد أن أشعرنى أنه قال كل ما عنده : ما رأيك اذن يا حسن بك فيما قلته ، وفى أننى على استعـداد أن أعمل للاســلام ؟ فرددت عليه قائلا : اننى سأعرض ذلك على الاخوان ونسأل الله التوفيق •

قال الاستاذ فقام الملك وصافحنى وصافحته ،ووصلنى الى باب مكتبه حيث تلقانى كبار رجال القصر حتى رجعت الى المركز العام •

وقال لى الاستاذ : ووالله يا فلان لقد كنت أشعر وأنا أصافح ذلك الرجل ثم وأنا أجلس معه أننى أمام طفل صغير ، لا أشعر نحوه لا برهبة ولا حتى باحترام •• وبهذه العبارات ختم الاســتاذ حـديثه معى فى تلك الليلة أو فى ذلك اليــوم •

□ **لقة أحباب ذكرنا بالايام الحلوة الخالية :**

كان فى صحبة الاستاذ المرشد فى هذه الرحلة عدد من اخوان القاهرة ومن غير القاهرة ، غير أننى لا حظت أن المرافق الاصيل الملازم له طول هذه الرحلة التى رصد لها نحو شهر هو الاخ الاستاذ أحمد حسن الباقورى ، ذلك أننى وجدت الاستاذ المرشد كلما سئل عن شىء يتصل ببرنامج الرحلة أحال السائلين الى الاخ الشيخ أحمد ••• ولقد أثار هذا الامر عجبى لان الشــيخ الباقورى ـ وهو من لا يشك فى اخلاصه ووفائه ـ لم يكن ـ مع ما يعلم من حب الاستاذ الامام له ـ يلزم نفسه ان يكون مرافقا له فى رحلة طويلة ، مـع أنه كان اذ ذاك خفيف الظهر قليل المسئوليات •• فما هذا الذى أراه الآن

بعينى ؟ ··· لقد لا حظت أكثر من ذلك أنه على غير ما تعودت أن أراه ، اذ لم يكن يحفل بأن يأخذ نفسه بأسلوب تعبدى شاق ·· لكننى أراه الآن آخذا نفسه بهذا الاسلوب ، فهو صائم النهار ، كثير التسبيح بالليل ، كأنما هو شخص آخر غير الباقورى الذى عرفته فى بواكير أيام الدعوة ·

على كل ، فان عجبى لم يطل اذ تذكرت طبيعة الباقورى ·· طبيعة الشاعر الذى تستبد به مشاعره ، فهو طيع لها توجهه حيث تشاء دون أسباب ولا مقدمات ·· غير أن هذا الوضع الاخير الذى رأيته عليه من تمام الجد فى الدعوة وقوة الاخذ بأسباب التبتل والعبادة ، أشاع فى نفسى السرور وشرح صدرى ، وحبب الى المبيت معه ، حيث دعانى الى ذلك لنقضى ليلة طالما افتقدناها بعد أن أنهينا مرحلة الطلب ·

وليس غريبا أن يطول الحديث فى مثل هذه الليالى المختلسة من الزمن بين صديقين باعدت بينهما الايام أمدا طويلا ، وأن تتشعب شجونه · ولكن بيت القصيد ، وما يهم القارئ مما دار بيننا من أحاديث ، هو ما كان منها فى شأن الموضوع الذى نحن بصدده ·· فقد قلت له : يا أخى أحمد ·· انك تعلم أن ظروفى ونأى مكان عملى قد حرمنى أن أكون على مقربة من هذا الرجل الاستاذ حسن الهضيبى · وقد تكون أنت من أقرب الناس اليه ، ومن ألصق الاخوان به ، وأنا أحب أن تحدثنى عنه حديثا صريحا يكشف لى عن حقيقة شخصيته ·

فقال الباقورى : أنت محق فى استفسارك هذا · ومن حقك أن تعرف عن دخائله قبل أن تعرف عن ظواهره · ولقد تعرفت على هذا الرجل وجالسته وحادثته وناقشته فسرنى وأعجبنى وملأ نفسى فى جميع الجوانب التى ننشدها فى قائد للدعوة ــ غير أن شيئا بقى فى نفسى جعلنى لا أجرؤ على أن أخلطه بنفسى وأن أخلط نفسى به ، ذلك أننى كنت أحس أن الرجل من طبقة الارستقراطيين بحكم منصبه ومكانته الاجتماعية · (ينبغى أن يعلم القارئ أن كبار رجال القضاء فى ذلك الوقت ــ وكانوا قلة ــ كان الشعب ينظر اليهم باعتبارهم أعلى طبقة فى الامة ، وكانت الدولة تعاملهم بهذا الاعتبار نفسه ماديا وادبيا) ·· حتى دعانى فى يوم الى منزله ، فلما جاء وقت الطعام ، رأيت الطعام يقدم كما نقدمه فى بيوتنا ، ويجلس أبناؤه معنا كأنهم اخوتنا حتى انه بعد تناول الطعام اقترح على أن أقيل ساعة ، فاذا بى أعطى وسادة ، كما أخذ كل من أبنائه وسادة ، ونمنا على ارض الحجرة ــ حجرة الجلوس ــ تماما كما كنا نفعل فى المركز العام وفى بيوتنا وفى بيت الاستاذ الامام ــ

فعلمت أننى كنت على خطأ فى سوء ظنى بالرجل فى هذه الناحة · ومنذ ذلك اليوم وأنا أشعر أنه منا ونحن منه . كما كنا مع حسن البنا رحمه الله وكان معنا ·

□ فى أعقاب المقابلة الملكية :

بعد لقائى هذا مع الاستاذ المرشد ، التقيت فى القاهرة بالاخ الاستاذ عبد الحكيم عابدين ، وقصصت عليه ما أنبأنى به الاستاذ المرشد عن المقابلة · فأخبرنى عبد الحكيم بأن الذى حدث بعد المقابلة كان أغرب · فقد حضر الى المركز العام – بعد المقابلة بيوم أو نحوه – الاستاذ كريم ثابت باشا يحمل معه صورة فاخرة للملك فى اطار فاخر ، مهداة الى حضرة صاحب العزة الاستاذ حسن اسماعيل الهضيبى بك المرشد العام للاخوان المسلمين . وموقعة بتوقيع الملك · وقدمها كريم ثابت الى الاستاذ المرشد مقترحا عليه أن يعلقها فوق مكتبه بالمركز العام حيث كانا جالسين معا · ثم نهض الرجل وسلم وخرج ·

ودخل الاخوان بعد ذلك فرأوا الصورة ، وبهروا لفخامتها ، ومنهم من رأى جدارتها أن تعلق · ولكن الاستاذ المرشد طلب منهم ان يتركوا له اختيار مكان تعليقها ·· قال الاستاذ عبد الحكيم : وانتظرنا أن نرى الصورة معلقة فى مكتب الاستاذ أو فى أية حجرة أخرى بالمركز فلم نرها ، فسألناه فقال . اننى أخذتها فى بيتى · قال الاستاذ عبد الحكيم : فذهبت الى منزل الاستاذ المرشد منتحلا سببا من الاسباب ولكن كان قصدى أن أرى أين علقت الصورة فى بيته ، فدخلت حجرة الجلوس كالمعتاد فلم أرها · وترددت على المنزل اكثر من مرة فلم أرها · فعزمت على أن أذهب الى المنزل هذه المرة ولا أغادره حتى أعرف أين وضعت هذه الصورة ·· فدخلت البيت وتعمدت أن أتناول طعام الغداء فلم أرها فى حجرة الطعام ، فانتحلت أسبابا لدخول كل غرف البيت فلم أعثر عليها فى أية غرفة · فيئست وعزمت على أن ألح على الاستاذ ليحل لى هذا اللغز ·· حتى اذا حان وقت الصلاة طلبت أن أجدد وضوئى ، فدخلت دورة المياة ·· وكانت المفاجأة ·· فقد وجدت الصورة ملقاة على أرض الدورة مركونة على أحد جدرانها ·· فذهلت · ولما قابلت الاستاذ المرشد حدثته فى ذلك فقال لى : « هذا هو مكانها » ·

وقال لى الاستاذ عبد الحكيم : ولم يحفل المرشد بزيارات متكررة من أشخاص كان يعلم أنهم موفدون من قبل القصر ليروا أين وضعت الصورة ·

الفصــــل الثالث

حريق القاهرة
أو الخطة الجهنمية لاحباط المقاومة

□ انتخابات نادى ضباط الجيش فى ٣١-١٢-١٩٥١ :

هذه نقطة قد يظنها القارىء بعيدة عما نعالج من موضـوع ، ولـكنها فى الحقيقة هى جزء منه لا يتجزأ ، اذ هى احدى معالم الطريق الذى قرر الشعب أن يسلكه ، وهى احدى ثمرات التوعية والجهاد الطويل الممتد منـذ عشـرين عاما فى غمار الشعب وفى صفوف الجيش ٠٠ وهى ارهاص بأحـداث جسـام موشكة أن تقع فى البلاد ، تغير قسمات وجهها ، وتقلب موازينها ٠

نعم ان انتخابات نادى ضباط الجيش عملية دورية كانت تجرى دون أن يحس بها أحد ، ودون أن تثير اهتماما ، لانها فى ذاتها أمر عادى كانتخابات نادى ضباط البوليس وانتخابات نوادى التجاريين والزراعيين والاطباء ومن اليهم ٠

ولو أن هذه الانتخابات حدثت قبل هذا التاريخ بعام أو بعامين أو نحو ذلك لما كانت ذات دلالة خاصة ، ولا ذات أهمية تذكر ٠٠ ولكن وقـوعها فى هذا التاريخ جعلها وكأنها صـــدى للدوى الهائـل الذى انبعث من صفـوف الشعب واستجابت له الحكومة آخر الامر ، فألهب المشاعر ، وفجر العواطف الوطنية ٠

ولقد تحفزت الجبهات المختلفة فى البلاد لهذه الانتخابات ، وأعدت كل منها العدة لخوضها ، باعتبارها احدى جولات المباراة النهائية فيما بينها ، فالملك ومن ورائه النفعيون يحشدون أنصـارهم ، ويقفـون وراء مـرشحيهم التقليديين بالمـــال والنفوذ والوعود والاغراء - والاخوان ومـن يدورون فى فلكهم بضباطهم الصغار يعدون العدة لاسقاط مرشحى الملك وانجاح رجـل عرف بالشجاعة والنزاهة والتدين والوطنية هو اللواء محمد نجيب الذى كان الملك يعتبره عدوه اللدود ٠

ونظرا لاهمية هذه الانتخابات وخطورة نتائجها رأينا أن نرشح بها لهذا الفصل وسنورد هنا تفصيلات دقيقة لمـــا تم فى الاجتماع الـذى وضع أسسهـــا وتمخضت عنه نتائجها وهو اجتماع الجمعية العمومية ٠ واليك القـرارات والتفصيلات ٠

أولا ـ ضم هذا الاجتماع نحوا من خمسمائة ضابط ومنهم الفريــق عثمان المهدى باشا رئيس أركان حرب الجيش ٠

ثانيا ـ تقرر فيه ضم نادى سلاح البحرية الى ادارة النادى حتى تمثل جميع أسلحة الجيش ٠

ثالثا ـ رفض اقتراح بضم سلاح الحدود كسلاح منفصل حيث ان هو الا فرع من فروع الجيش ـ ومما يجدر ذكره ان اللواء حسين سرى عامـر قد عين ـ بعد الحكم الذى أصدرته المحكمة ببراءته ـ مديرا لسلاح الحدود محل اللواء محمد نجيب الذى نقل الى سلاح المشاة ٠ وسرى عامر كان رجل الملك ومن أقرب المقربين اليه ـ وبذلك استبعد سرى عامر من الانتخابات نهـائيـا ٠

رابعا ـ عدلت المادة السابعة من قانون النادى والتى كـانت تقضى بأن يكون رئيس النادى هو رئيس هيئة أركان الجيش ، اذ رؤى أن يكون رئيس النادى بالاقتراع ـ وينشأ منصب جديد هو رئيس شرف النــادى يتولاه القائد العام للقوات المسلحة ، باعتباره قائد جميع أسلحة الجيش لا بصفته الشخصية ، على أن يعطى الرئيس المنتخب جميع حقوق الرياسة ، وبذلك تئول اليه الاختصاصات التى كانت منوطة برئيس أركـان حرب الجيش وهى التكلم باسم النادى وتمثيله ٠

خامسا ـ رفض اقتراح بأن يعين وكلاء شرف للنادى رئيس أركـان حرب الجيش وقائد الطيران وقائد البحرية ٠

سادسا ـ العدول عن قيام كـل سلاح بانتخاب ممثليـه فى مجلس الادارة ، وتقرر أن تقوم الجمعية العمومية للنادى مجتمعة بانتخاب هـؤلاء الممثلين ٠

سابعا ـ العدول عما جاء بالمادة الثامنة من أن يدير النــادى مجلس ادارة مؤلف من رئيس لا تقل رتبته عن أميرالاى وسكرتير وأمين صندوق لا تقل خدمتهما عن ١٥ سنة وكذلك ١٩ عضوا يمثلون الضباط بتوزيــع الاسلحة ـ وتقرر الاستغناء عن شرط مدة الخدمة بالنسبة للسكرتير وأمين الصنــدوق ٠

ثم أجرى الانتخاب فأسفر عن الاتى :

الرئيس ـ اللواء محمد نجيب ٢٧٦ صوتا (انتخب) ـ اللواء سيد محمد بك ٣٤ صوتا ـ اللواء ابراهيم زكى الارناءوطى ١٩ صوتا ـ الاميرالاى محمد نايل ١٣ صوتا ٠

الحاشية العسكرية ـ بكباشى مورى يحيى امام ٢٥٩ صوتا«انتخب»

البحريـة ـ بكباشى أنـور عبد اللطيف ٢٩٨ صوتا (أنتخب) ـ بكباشى أحمد عبد الغنى ٢٦٧ صوتا « أنتخب » ـ أمير البحر أحمد ثروت بك ٧١ صوتـــا ٠

الطيران ـ قائد جناح محمد بهجت مصطفى ٢٨٤ صوتا « أنتخب » ـ قائد جناح عز الدين رمزى ٥٢ صوتا ـ قائد جناح جمال سالم ٣٧ صوتا ـ قائد أسراب عمر شكيب ٢٧ صوتا ـقائد أسراب حسن ابراهيم ٥٠صوتا

المشاة ـ بكباشى زكريـا محيى الـدين ٣١٦ صوتـا « أنتخب » ـ بكباشى أحمد حمدى عبيد ٢٩٦ صوتا « أنتخب ـ صاغ محمد جمال الـدين ٢٨٦ صوتا « أنتخب » ـ بكباشى محمد صلاح توفيق ٥٨ صوتا ـ بكباشى أسعد رفله ١١ صوتا ـ صاغ علام خالد علام ١٦ صوتا ٠

المدفعية ـ بكباشى محمد رشـاد مهنـا ٣٢١ صوتـا « أنتخب » ـ بكباشى ابراهيم عاطف ٢٢٠ صوتا « أنتخب » ـ بكباشى محمد فوزى ٣٧ صوتا ـ قائمقام ابراهيم فؤاد شرف« ١٦ صوتا ـ صاغ احمـد كامل ٦١ صوتا ـ صاغ سراج الدين ٦ اصوات ٠

الفرسان ـ الاميرالاى حسن حشمت فاز بالتزكية

الاشارة ـ يوزباشى محمد أمين شاكر ٢٥٦ صوتا « أنتخب ـ صاغ محمد لاشين ٣٨ صوتا ـ الصاغ نوفل ٣٧ صوتا ـ

المهمات ـ قائمقام عبد الرحمن فوزى ٣٠١ صوتا انتخب » ـ بكباشى أحمد حسنى السيد ٣٦ صوتا ٠

الصيانة ـ بكباشى عبد العزيز الجمل ٢٠٩ صوتا « أنتخب »

المهندسين ـ ابراهيم فهمى دعبس ٣٢٤ صوتا « أنتخب »

الطب ـ الاميرالاى عياد ابراهيم بالتزكية

خدمة الجيش ـ بكباشى عبد الرحمن أمين ٢٨٦ صوتا « أنتخب »

المحاربون القدماء ـ بكباشى جلال ندا ٢٤٥ صوتا « أنتخب »

هذا وقد حاول الملك فى خلال فترة الاعداد لهذه الانتخابات وفى اثناء اجرائها وبعد اتمامها محاولات شتى ، منها أن يأمر باغلاق النادى ، ومنها أن يصدر امرا بالغاء الانتخابات ، ومنها أن يصدر أمرا بابعاد اللواء محمد نجيب من الجيش ٠٠ ولكن مستشاريه والمقربين اليـه رأوا أن ادنى

الاضرار هو أن يترك كل ما تم يأخذ طريقه ، وأن يعمل هو بكل الوسائل على التقرب من الجيش ، واسترضاء ضباطه بالاتصال بهم والاغداق عليهم ٠٠ وقد أخذ الملك بهذه النصيحة وبنصيحة أخرى ٠ ويرى القارىء فى الصفحات القادمة ان شاء الله كيف كان ذلك ٠

حـــريـــق القـــاهـــرة

بعد القاء شعاع من الضوء على معلم من معالم هذه الفترة الحرجة مما قد يشبه أن يكون فى ظاهره استطرادا نرجع الى السياق فنقول :

انطلقت المقاومة الشعبية بالرغم من بعض الاخطاء التى تخللتها ، والتى كان مبعثها بعض تصرفات من الحكومة ومن بعض فئات لم تخض المعركة لخدمة القضية الوطنية ، بل لكسب الصيت والشهرة والتقرب الى الحكومة ٠ ولكن أمثال هذه الفئات لم تستطع المواصلة ، وسار ركب المقاومة النظيفة فى طريقه الى اخر الطريق ؟ فأشاع الذعر فى أوساط الجيش المحتل ، وأدخل اليأس فى قلوبهم من استطاعتهم وقف زحف هذه المقاومة او النيل منها أو حتى تخفيف وطأتها ٠

وليس أشد على العدو من مقاتلين يقاتلونه وهم يطلبون الموت ٠فهم لا يبالون بشىء ، ولا يوقف زحفهم سلاح ، ولا يحمى منهم دروع أو حصون ٠٠ ومع ذلك فهم يؤثرون أن لا يعلم بجهودهم الا الله وحده حتى يحفظواعنده بجزاء الشهداء كاملا غير منقوص ٠

ولقد كافح هؤلاء الرجال كفاحا مريرا ، وتساقط منهم كثير من الشهداء دون أن يعرف الناس أسماءهم ، راضين بما ادخر الله لهم من جنات عرضها السموات والارض ٠٠ ولولا أن الاخوان لم يروا بدا – لكى يلهبوا مشاعر الشعب ضد المحتل – من ابراز بعض الصور المثيرة ، لما سمحوا بتشييع جنازات بعض شهدائهم على الهيئة التى شيعت بها شعبيا ونشرت عنها الصحف الوطنية – ومع ذلك فقد كان الاخوان حريصين على أن ينسبوا هؤلاء الشهداء الى جامعاتهم وكلياتهم لا الى الاخوان ٠

- ☐ **السهم الاخير**
- ☐ **اشعال النار فى كنيسة السويس**

« فرق تسد » هى السهم الاخير دائما فى جعبة الانجليز ، وهى خطتهم المدخرة ٠ وبالرغم من خسة هذه الخطة وحقارتها فأنهم يستبيحونها ويلجأون اليها حين تتعقد أمامهم الامور ، وتنسد المسالك ويسقط فى ايديهم – وهم يحتفظون دائما بفريق من الخونة يستعملونهم فى تنفيذ هذه الخطة القذرة٠

فلما يئسوا من وقف الزحف الاخوانى المكتسح لجأوا الى هؤلاء الخونة ، فأوعزوا الى عدد منهم يتسمون بأسماء المسلمين ـ والاسلام برىء منهم ـ أن يقوموا باشعال النار فى كنيسة الاقباط فى السويس لتتجه الانظار الى الاخوان المسلمين ٠

وتمت الخطة بنجاح ، وكادت تفسد حملة المقاومة ، لولا أن تنبهت الحكومة والاخوان الى خطورة المؤامرة فقام المرشد العام بزيارة البطريرك، ونشرت الصحف نبأ هذه الزيارة فى مكان بارز فى ٥٢/١/١٩ تحت عنوان « البطريرك والمرشد يتعانقان ـ مسبحة من البطريرك للمرشد » وقالت :

« توجه الاستاذ حسن الهضيبى بك المرشد العام للاخوان المسلمين فى الساعة الخامسة من مساء أمس الى دار البطريركيه حيث قابل غبطة البطريرك الاكبر الانبا يوساب ، ودام الاجتماع نصف ساعة ، وقد حضره معالى مكرم عبيد باشا ونيافة مطران الجيزة ٠

وقد أكد غبطة البطريرك للمرشد أنه لم يتهم الاخوان المسلمين ولن يفكر فى اتهامهم بشأن حادث كنيسة السويس ، لانه يعلم مبادىء الاخوان المسلمين ومحافظتهم على حرية الاديان ٠

ودار الحديث حول الوحدة الوطنية بين الاقباط والمسلمين ٠٠ ومما قيل أنه على المسلم والقبطى أن يعبدا ربهما كل حسب تعاليم دينه ،ولكنهما فى الوطنية سواء ٠ والكفاح من أجل مصر يقع على عاتق المصريين جميعا اقباطا ومسلمين ـ وقد كان هذا الاجتماع مظهرا من مظاهر الوطنية والاخاء بين العنصرين ٠

وعند خروج فضيلة المرشد أهداه غبطة البطريرك مسبحه من الكهرمان ثم أوصله الى الباب حيث تعانقا على مشهد من جمع كبير من الاقباط والمسلمين ـ وودع غبطة البطريرك فضيلة المرشد متمنيا له كل نجاح وتوفيق فى الدعوة للدين الاسلامى » ـ ونشرت الصحف صورتهما وهما يتعانقان ٠

وفشلت الخطة ٠ وطاش السهم الاخير ٠ وافتضح التدبير الاثيم٠٠ ولم يعد أمام العدو الخاتل الا التسليم ٠٠٠ ولكنه لم يسلم ٠٠

كان شارع فؤاد الاول (شارع ٢٣ يوليو الان) فى ذلك الوقت اعظم شارع تجارى فى القاهرة ٠

وكانت أكثر المحلات التجارية فيه ملكا لاجانب من البريطانيين وغيرهم من مختلف الجنسيات ٠

وفى يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ـ حيث كانت المقاومة الشعبية ضد الجيش البريطانى المحتل قد بلغت ذروتها • ولم يجد بريطانيا نفعا تدخل دول حليفة لها مثل الولايات المتحدة ودول غرب أوروبا محاو لين وقف سيل المقاومة ـ فى صبيحة ذلك اليوم شبت النيران فى هذا الشارع على حين غرة وفجأة ودون مقدمات • وكان الاشتعال من الفظاعة بحيث ان كل قـــوات الإطفاء فى القاهرة وضواحيها لم تستطع حصر النيران ولا وقف امتدادها الا فى المساء بعد أن أتت على كل شىء •• فكان حريق هذا الشارع بما فيه وفيه ثروة البلاد ـ من الحرائق التاريخية العالمية ، وسمى بحريق القاهرة

□ حول هذا الحريق :

وحريق القاهرة هذا لم يكن أول حريق ولا آخر حريق ،ولكنه مع ذلك كان اغرب حريق ، فالامر المثير فيه هو أنه لازال حتى اليوم لغز التاريخ الذى لم يعرف له حتى اليوم حل ، ولم يعثر له على تعليل قاطع ، ولم يتوصـــل الى معلومات أكيدة عن فاعله •

ولقد وقع هذا الحادث الجسيم فجاة ودون مقدمات ، وبطريقة تنفى تمام النفى أن يكون قضاء وقدرا • فقد يشب الحريق قضاء وقدرا فى منزل من المنازل أو فى أحد المحال التجارية،وكثيرا ما يحدث هذا ••• أما أن يشب الحريق فى أعظم شارع تجارى فى القاهرة ، وفى جميع محاله فى وقت واحد•• فهذا لابد أن يكون بتدبير مسبق وبخطة محكمة ، بل لابد أن يكون المدبرون وواضعو الخطة خبراء وذوى سلطة ونفوذ •

فشارع فؤاد الاول بالقاهرة شارع فسيح وطويل ويضم أعظم المحال التجارية فى مصر • وليست هذه المحال محال لبيع البنزين أو البترول أو الكبريت أو المواد الملتهبة • كما أن هذه المحال لا تخزن فوق سطوحها حطب القطن أو قش الارز كما يحدث فى القرى حتى نقول ان هذه المواد الملتهبـة بداخل المحال والقش على سطوحها ساعدا الهواء على نقل النار من محـل الى اخـــر •

اذن لابد أن يكون هذا الحريق بتدبير • ولابد أن يكون هذا التدبير تدبير ذوى سلطة ونفوذ ، ولابد أن يكون للسياسة يد فى احداثه وفى توقيته وأن يكون لفاعليه هدف أو أهداف تحقق لهم مأربا •• ولكى يكون بحثنا وراء هذا الحادث بحثـا مستنبرا يجب أن نلم بشىء مـن الظروف التى احاطت بهذا اليوم الكئيب •

□ **صورة الموقف السياسى قبيل الحريق :**

كان الموقف فى تلك الايام فى مصر على الوجه الاتى .

أولا ـ قبل أن يتم الافراج عن كثيرين من معتقلى الاخوان المسلمين ، وقبل أن يلتئم شمل الدعوة ، كانت الانتخابات النيابية فى مصر قد تمخضت عن فوز حزب الوفد ، وتولت الحكم وزارة وفدية برياسة مصطفى النحاس ، وكان فؤاد سراج الدين أبرز شخصية فيها ـ وقد تحدثنا عن موافقة هذه الوزارة بعد مماطلات طويلة على اعادة الصفة القانونية للاخوان المسلمين لاسيما بعد أن صدرت أحكام قضائية فى صالحهم ٠ وهذه الحكومة تعلم أن الاخوان المسلمين ليسوا ممن يشترون أو يباعون ، ولكنها اتخذت هذا الاجراء الصحيح أخيرا تقربا الى الرأى العام الذى كان فى ذلك الوقت قد تكشفت له حقائق الامور ٠

ثانيا ـ وكما سايرت هذه الحكومة الرأى العام فى اعادة الصفة القانونية للاخوان المسلمين ، فانها اضطرت الى مسايرته أيضا فى أمر لا يقل خطورة عن ذلك هو الغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ ٠

ومناداة حكومة الوفد فى تلك الحقبة من الزمن ، ومناداة غيرها من الحكومات التى وليت السلطة فى نفس الحقبة بسقوط معاهدة ١٩٣٦ لم يأت من فراغ ، ولم يكن وحيا هبط على هذه الحكومات فجأة ، وانما كان وليد ضغط بدأه الاخوان منذ عام ١٩٣٨ ٠ وقد أنضج هذا الضغط وبعثه حيا فى نفوس المصريين انتشار الوعى الاخوانى فى أوساط الناس مع اتساع دائرة غزوهم لافكار الشعب وقلبه ـ ثم حول هذا الضغط الى نار مشتعلة فى النفوس حرب فلسطين وما تلاها من أحداث جسام جعلت هذا الشعب الغافل يستقيظ على حقائق مريرة طالما أخفيت عنه ٠

أقول : ان وزارة الوفد لم تقرر الغاء المعاهدة الا راغمة تحت ضغط تيار شعبى جارف لا يقوى على مواجهته حزب ولا هيئة ولا حكومة ٠٠٠

ثالثا ـ الغاء حكومة الوفد لمعاهدة ١٩٣٦ اقتضى مواجهة بين هذه الحكومة وبين الانجليز العسكريين بمنطقة القناة ٠ ولم تجد حكومة الوفد بدا من المواجهة ٠ ولكنها حاولت أن تحصر هذه المواجهة فى أضيق نطاق ، وأن تجعلها مجرد مواجهة رمزية ٠ لكن الحركات الشعبية انتهزت هذه الفرصة وحولت المواجهة الرمزية الى مواجهة حقيقية ٠ واستطاعت هذه الحركات توحيد صفوفها وقامت بدور كبير أقض مضاجع الانجليز ٠٠ وأخذت روح المقاومة تسرى فى أوساط الشعب ـ وكان الانجليز أول من

احس بخطورة هذه الظاهرة ـ ومن طبيعة الانجليز أن لا يواجهوا عدوهم اذا شعروا بمقاومة جادة منه ، ولكنهم يحاولون البحث عن وسيلة أخرى لافساد خطته قبل وقوعها ٠

رابعا ـ من الاوساط التى سرت فيها روح المقاومة الجيش المصرى ـ وقد اشترك فعلا فى المقاومة أفراد من ضباط الجيش ٠ وأحس أفراد آخرون من الجيش بأن المقاومة اذا استمرت على الطريقة البطيئة التى تسير عليها فان الامر سيطول وتكثر الضحايا ، وقد تقع الحكومة تحت ضغط لا تتحمله من العدو فتتراجع وتنكص على أعقابها ٠٠ فبدأ هؤلاء الافراد سرا يخططون لانقلاب يستولون فيه على الحكم ٠

خامسا ـ بعد أن زالت الوحشة التقليدية التى كانت بين الملك وبين حزب الوفد ، على أثر التقارب الذى تم على يد سراج الدين ، لم يشعر الملك بغضاضة فى تهيئة الجو للوفد أن يحتل مناصب الحكم عن طريق اجراء انتخابات ـ ولا أعتقد أن الملك كان سيفكر فى يوم من الايام فى التخلص من الوفد بابعاده عن الحكم ، لانه فى ظل الوفاق الذى نشأ بينهما استطاع أن يحظى بتحقيق قسط من مآربه أكبر مما كان يحظى به فى ظل الحكومات الاخرى ٠

سادسا ـ ثم طرأ موضوع الغاء معاهدة ١٩٣٦ ٠ ويبدو ان الملك لم يكن ينظر الى هذا الموضوع نظرة جادة فى أول الامر ، كما أعتقد أن الوزارة نفسها لم تكن تتصور الامر يتعدى الاجراءات القانونية يصحبها احتكاك مع الانجليز فى صورة مظاهرة شعبية ترضى عواطف الشعب ، ثم تهدأ الامور ، ويستقر الوضع كما كان ، على أن يعتبر وجود الانجليز فى منطقة القناة غير قانونى ٠٠ ويخرج الملك والحكومة من هذا الموقف ببطولة يتباهون بها أمام الشعب ٠٠ ولكن الامور لم تسر فى الطريق الذى رسموه لها ، وانما تعدته وخرجت عليه ، وتفرعت وتشعبت ، ووجد الملك نفسه وحكومته أمام معركة ضارية لا سبيل الى السيطرة عليها ولا أمل فى انهائها

أما حكومة الوفد فانها خشيت ان تراجعت أن تفقد ما بقى لها من رصيد لدى الشعب ، ولكن الملك يعلم أن لا رصيد له لدى الشعب وأن بقاءه فى منصبه مرهون برضا الانجليز عنه ٠

سابعا ـ أن الملك ـ بعد أن استنفد جميع الوسائل للقضاء على الاخوان ، ثم فوجىء برجوعهم أقوى مما كانوا ، ورأى جميع الخيوط قد صارت فى أيديهم ـ حاول استرضاءهم كما بينا من قبل ٠ وكان يظن أنهم

من السذاجة بحيث يتعامون عن كل ما هو غارق فيه من المجون ويفتحـون له أذرعتهم ـ فلما رأى عزوفهم عنه • واهمالهم لشأنه ، لم يجد له سندا الا الانجليز •

من البنود السبعة السابقة قد يستطيع القارىء أن يرى ـ من خلال الظلام الحالك المحيط بهذا الحادث ـ اصبع اتهام تشير الى جهات معينة •• وقد يكون أبرز هذه الجهات وضوحا شخصية الملك فاروق وقد تبدو من ورائها شخصية الانجليز •

□ صورة من جانب آخر للموقف قبيل الحريق :

أنا لا أدعى أن كان لدى الاخوان أية أثارة من علم بهذا الحريق قبل أن يشب ولا حتى بعد أن شب والتهم أعظم متاجر البلاد على جانبى هـذا الشارع •• ولكن الاخوان كانوا على علم بكل الاحداث وبكل الاستعدادات التى كانت مختلف الجهات فى البلاد تخطط لها ، والتى عرضت فى السطور السابقة صورا منها •

كان الاخوان يعلمون بأن حكومة الوفد ستتقدم على الغاء معاهدة١٩٣٦ وهى لا تقدر عواقب هذا الالغاء • ويعلمون أن الملك فاروقا متضامن مع هذه الحكومة على أساس أنها لعبة لا خطر فيها ولكنها سترفع أسهمه لـدى الشعب بعد أن وصلت الى الحضيض •

وكان الاخوان يعلمون مدى خطورة هذه الخطوة وهى الغاء المعاهـدة فان هذا الالغاء اذا لم يقترن بحركة مقاومة شعبية تؤيدها الحكومة فانه سيكون مجرد حبر على ورق •• وأن احراج الحكومة فى اتخاذ هذه الخطوة ثم مفاجأتها بحركة مقاومة شعبية سيضعها هى والملك فى مأزق ، وسيجعل تراجعهما أمرا مستحيلا •• ولذا فان الاخوان كانوا اول المستجيبين لحركة المقاومة التى تطوع لها شباب من مختلف الهيئات فى البلاد •• وقد وصلت المقاومة بالقضية الى الحد الذى لا يمكن لاى طرف فيها التراجع خطوةواحدة

وكان الاخوان يعلمون أن الملك فاروقا ـ نتيجة انتشار الوعى الصحيح فى الشعب والجيش ـ يفقد كل يوم أرضا •• وأنه حاول أخيراتلافى هذا الفقد المستمر فلجأ الى تملـق الجيش والاخوان •• أما الجيش فأسـبغ عليه ترقيات وانعامات تلفت النظر •• وأما الاخوان فالتقى بمـرشدهم الجـديد وحاول تقديم نفسه اليه على انه جندى من جنود الاسـلام ، كما حاول أن يعقد معه صداقة •

وكان الاخوان يعلمون أن دور الاحزاب فى مصر قد انتهى · وأن الملك يعلم ذلك ، ولذا فانه كان يتحسس فى الساحة لنفسه سندا آخر من الجيش ومن الاخوان ـ ويعلمون أن الملك فى آخر المطاف قد فهم أن الاعتماد على كبار ضباط الجيش ليس الا وهما سخيفا ، فأخذ يتقرب الى صغار الضباط ـ وكان ضباط الاخوان فى الجيش يعرفون زملاءهم من صغار الضباط الذين استمالهم الملك الى جانبه ، ولم تكن تكوينات الاخوان تخشى بأس هؤلاء لانهم لا يعملون بوحى من ايمانهم ·

كان للاخوان فى الجيش تكوينات تعمل وتعد العدة. كما كانت هناك تكوينات أخرى فى الجيش على صلة بالاخوان تعمل هى الاخرى وتعد العدة · وكان الاخوان يفسحون الطريق لجميع التكوينات السليمة الهدف أن تعمل ، على أن يكون الاخوان سند الجميع وموئلهم فى أثناء العمل وبعد العمل ·

وكان الاخوان يعلمون أن الملك قد وضح له أن محاولته كسب الاخوان الى جانبه قد باءت بالفشل وأن لا أمل فى محاولات أخرى ـ كما وضح له أن تملق الجيش لم يؤت ثماره المرجوة ، بل انه قد يكون أطمع فيه الوطنيين من الضباط حيث رأوا فى هذا التملق دليلا جديدا على شعوره بالضعف فأخذ هؤلاء يعدون العدة لانقلاب ··· وأخيرا وضح له أن لا أمل له فى سند الا أن يكون من الانجليز ·· ولكن استرضاء الانجليز مع وجود المقاومة الشعبية أمر من المحال · وأحس فى نفس الوقت أن حكومة الوفد لن تستجيب له اذا هو طلب اليها اجهاض المقاومة لان فى ذلك القضاء على ما بقى للوفد من شعبية ·

بعد أن وضح للملك كل هذا ، كان عليه أن يفكر فيما يواجه به كل هذه الاوضاع ·· وقد يتبادر الى ذهن القارىء أن أيسر الحلول لمقابلة هذه المعضلات هو أن يغير الملك طريقته فى الحياة ، ويقلع عن حياة اللهو والمجون، ويستقيم على أمر الله ·· ونقول : ان هذا هو أيسر الحلول وأجداها نفعا لان الشعب لم يكن يكره الملكية لذاتها ، وانما كان يكرهها للمثل السيئة التى كانت تشغل منصبها وما يقترن بحياتهم من الظلم والفسق والمجون·· ثم نقول : ان هذا الحل مع كونه حلا مجديا وهو أقصر الطرق فانه لم يكن واردا لان الملك كان قد انحدر فى حمأة المجون انحدارا جعله كالمدمن الذى لا يفيق ··

فما هو الحل اذن الذى هداه تفكيره اليه ؟

لم يكن الاخوان يتصورون ان يواجه الرجل هذه الاوضاع ـ وان كانت مونسة ـ بهذه الخطة الشيطانية التى لا نعتقد أنه هو الذى وضعها

وحده ، والتى تذكرنا بما فعله نيرون بروما ٠٠ واعتقادنا أن هذه الخطة لابد أن يكون الانجليز واضعيها أو أن يكونوا على الاقل المشيرين بها ، لان مصلحتهم قد اتفقت تماما مع مصلحة فاروق ٠٠ ولان فاروقا لم يكن ليجرؤ على احراق بضائع بمئات الملايين يملكها جميعا رعايا انجليز وأوربيون الا أن تكون انجلترا قدأومأت له بالتغاضى عن هذه الخسارة فى سبيل انقاذ ما هو أهم وأعظم قيمة من مصالح الامبراطورية ٠

□ حفل مريب فى توقيته :

ثامنا — ومما يعزز هذا الاتهام ، تصرف عجيب فائق الغرابة ، وقف الجميع أمامه مشدوهين ذاهلين حائرين ٠٠ هل حدث هذا التصرف مصادفة أم كان ترتيبا معدا ؟ !

ذلك هو أن يقيم الملك بقصر عابدين مأدبة غداء ابتهاجا بمولد ولى العهد ، ويدعو اليها ضباط الجيش والبوليس من مختلف الرتب ، وأن يحدد لهذه المأدبة ميعادا هو يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ ٠٠٠ والذين يعتقدون أنه كان ترتيبا معدا يقولون : انه كان وسيلة لاخلاء القاهرة فى ذلك اليوم من الضباط ليخلو الجو لمدبرى الحريق أن يبلغوا به أقصى مداه دون أن يعترضهم معترض ٠٠ ونثبت فيما يلى نص كلمة الملك التى ألقاها فى هذا الحفل :

« ضباطى ٠٠ فكرت اليوم فى الغاء هذه المأدبة بسبب الظروف الطارئة، ولكنى عدلت عن ذلك لما لكم فى نفسى من مكانة ، ولرغبتى فى أن أتحدث اليكم ٠ ولم أجد مناسبة للاجتماع بكم والتحدث اليكم خيرا من مناسبة مولد ابنى ولى العهد — ويهمنى أن أوجه نظركم الى اهتمامكم بموضوع تحركون جميعا أهميته وفائدته فى النظام العسكرى وهو موضوع « الضبط والربط » ٠

ومجرد قرزاءة هذه العبارات التى جاءت على لسان الملك مخاطبا الضباط تشعر القارىء بأن هذا الرجل اما أن يكون أبله لا يقدر الظروف التى أظلت البلاد فى ذلك اليوم ، واما أن يكون متواطئا ان لم يكن مدبرا لهذه الظروف ٠٠ فالعبارات من التفاهة بحيث لم تكن تستحق هذا الاعداد الضخم الذى حشد له هذا الحشد الكبير من ضباط الجيش والبوليس مالم يحشد مثله من قبل ٠

□ من نتائج الحريق :

(١) حول هذا الحريق بآثاره المدمرة الانظار عن منطقة قناة السويس وما كان يجرى فيها من تحرش بالجيوش الانجليزية الى قضية جديدة هى

كيف وقع هذا الحريق ومدى الكارثة التى حاقت بالبلاد بوقوعه ، وكيف تتلافى البلاد هذه الآثار ، فقد كان من هذه الآثار ما يلى :

أ ـ قبض على ثلاثمائة شخص وأحيلوا الى النيابة للتحقيق معهم ٠

ب ـ قتل ثلاثة من كبار الموظفين الانجليز ٠

جـ ـ تلقت وزارة الخارجية احتجاجات من جميع الدول لما وقع على رعاياها فى الحوادث الاخيرة ووصل عدد هذه الاحتجاجات الى عشرين احتجاجا ٠

د ـ طالبت أمريكا وبريطانيا وفرنسا وسويسرا بتعويضات مادية عما لحق أفرادها ومصالحها من أضرار ٠

(٢) أتاح هذا الحريق للملك فرصة يسترد فيها أنفاسه ، ويدبر فيها أموره مع الانجليز الذين صاروا أمله الوحيد ٠

(٣) أجهض هذا الحريق حركات كانت قد أعدت عدتها كاملة للقيام بانقلاب عسكرى فى ذلك اليوم نفسه الذى شب فيه الحريق ٠ وكان الاخوان على علم بهذا الاعداد للانقلاب وكانوا متأهبين لحمايته ٠

ويبدو أن مخابرات الانجليز ومخابرات الملك كشفوا سر هذا الاعداد قبل اليوم المحدد لتنفيذه حتى انهم اختاروا نفس اليوم لاشعال الحريق ٠

(٤) اتخذ هذا الحريق مبررا لاسقاط حكومة الوفد حيث نسب اليها الضعف والاهمال ، فكيف يشب حريق يلتهم أعظم شارع فى القاهرة دون أن تستطيع بأجهزتها المتشعبة فى كل مكان أن تضع يدها على المدبرين قبل أن يقوموا على تنفيذ جريمتهم ٠ واذا فاتها ذلك وشب الحريق فلم لم تعمل بأجهزتها على حصره فى أضيق نطاق وعلى سرعة اطفائه ٠٠٠ مسألة يوجهها الى الحكومة أدرى الناس باستحالة الوقوف فى وجه السيل المنحدر ٠

□ تقييم حكومة الوفد تقييما منصفا :

كان مجىء حزب الوفد الى الحكم هذه المرة ـ بعد طول غياب ـ مجىء انسان ضل الطريق فى صحراء مجدبة شاسعة ، وقد نفد زاده ، وأنهكه السير ، واستبد به العطش حتى أشرف على الموت ٠٠ وقبل أن يسلم أنفاسه الاخيرة رأى يدا تمتد اليه بكوب ماء فتعلق بها ٠٠ فلما شرب ارتدت اليه روحه ٠٠ ولكنه ظل متعلقا بهذه اليد ، متشبثا بها حتى لا يقع فريسة العطش القاتل مرة أخرى ٠

كان الوصول الى منا صب الحكم ضرورة من ضرورات الحزبية فى مصر فى ذلك الوقت ، فانصار كل حزب يناصرونه على أمل أن يئول اليه الحكم فى يوم من الايام فيعوضهم عما بذلوه ، ويغدق عليهم لقاء ما شدوا أزره وناصروه • وكان نصيب الوفد من فترات تولى الحكم أقل نصيب • وكانت الاحزاب الاخرى غير الشعبية والمعروفة بأحزاب الملك تحظى من هذه الفترات بنصيب الاسد ، لانها كانت تبيح للملك التصرف المطلق سواء فى شئون الحكم أو فى شئونه الخاصة الشخصية ، وهو مالم يكن يحظى بمثله فى فترات حكم الوفد •

ويبدو أن الوفد - فى خلال فترة ابعاده عن الحكم آخر مرة - فكر طويلا فى هذه الظاهرة التى لازمته منذ انشائه ، واستقر رأيه أخيرا على أن يصل الى الحكم هذه المرة ويتجنب أسباب ابعاده مبررا ذلك بأن وجوده فى الحكم يتيح له الفرصة لانجاز مشاريع ، واتمام خدمات تعود على الامة بالخير •

وولى الوفد الحكم ، واستبشر كثير من الناس ، وانتظروا على يديه الخير •• ومهما اختلف الناس فى تقدير انجازاته فان الخطوة الجريئة التى اتخذها فى القضية الوطنية كافية أن تعد وحدها أعظم انجاز ، وكانت جديرة أن تبوئه اعلى مكان فى قلوب الشعب لولا أن خطته الجديدة فى مجاراة الملك قد أحرجت صدور الناس ، حتى ان أقرب أنصاره اليه وأخلص المخلصين من جنوده تمردوا عليه ، وجاهروا بعصيانه ، لانهم وجدوا هذه الخطة الجديدة نشازا فى أسلوب الوفد ، وخروجا عن مساره ، وتلطيخا لتاريخه ، وتناقضا مع مبادئه •

ولو أن الملك كان ينتهج فى حياته الشخصية نهجا سليما ، لاغتفر الناس للوفد تغاضيه عما يجنح اليه الملوك عادة من تخط لحدودهم فى السلطة ومن تعد فى بعض الاحيان على سلطة الحكومة •• ولكن الذى أحرج صدور الناس أن الملك كان يسلك فى حياته الشخصية مسلكا معيبا ، حتى أن هذا المسلك كان موضع نقد لاذع بل وسخرية من الصحف الاجنبية ، وكانت المجلات التى تصدر فى أوربا وأمريكا تتحدث عن لياليه الحمراء وجولاته فى نوادى القمار •• ولقد كانت الحكومة المصرية تضطر الى ارسال المراسيم اليه ليوقعها فى هذه النوادى فى أوربا • ولا ننسى انتقال الوزير عبد الفتاح حسن اليه حيث وقع بعض هذه المراسيم وهو على مائدة القمار فى مونت كارلو

وبدلا من أن تحتج هذه الحكومة على هذه التصرفات المهينة أخذت فى حمايتها والتستر عليها ، فمنعت دخول هذه المجلات الاجنبية الى مصر • ثم سجلت على نفسها بعد ذلك عارا لا يمحى باصدارها قانونا يمنع الصحف

المصرية من نشر أخبار القصر والاسرة المالكة الا بعد عرضها على وزير الداخلية واذنه اذنا كتابيا بنشرها ٠

٠٠ ولما كانت مجالس النواب والشيوخ فى مصر أداة طيعة فى أيدى رؤساء الحكومات فقد أجيز القانون ٠٠ ولم يعارضه علنا الا شابان من شباب الوفد جديران أن يسجل لهما التاريخ هذه المعارضة فى صفحات الشجاعة والنزاهة والوطنية ، وهما الشابان أحمد أبو الفتح والدكتور عزيز فهمى ، فقد هاجما المشروع مشروع القانون على صفحات جريدة « المصرى » بمقالات نارية ملتهبة ، وكان ذلك فى خلال يونيه سنة ١٩٥٠ ٠

وفى الوقت الذى رفضت فيه هذه الحكومة طلب اعتماد مبلغ من المال لانصاف رجال الازهر كانت مئات الالوف من الجنيهات تعتمدها الحكومة لرحلات الملك الماجنة الى موائد القمار فى أوروبا ٠

وكانت هذه السيرة النتنة قد أزكمت الانوف حتى ان الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الازهر فى ذلك الوقت نقلت عنه الصحف تعليقا على رفض الحكومة ما طلبه الازهر من اعتماد قوله : « تقتير فى ناحية واسراف فى ناحية أخرى » ٠ وكان لهذا التعليق من شيخ الازهر صدى واسع النطاق فى جميع أوساط الشعب ، فقد قابلته هذه الاوساط بالرضا والاستحسان ٠ ولكن الحكومة ــ جريا على سياستها ــ اعتبرت هذا القول تعريضا بالملك فأصدرت قرارا باحالة شيخ الازهر الى المعاش ٠

وبعد عام من اصدار هذه الحكومة قانون منع نشر أخبار القصر والاسرة المالكة الا باذن كتابى من وزير الداخلية ، وفى شهر يونيه سنة ١٩٥٢ تقدمت الحكومة بمشروع قانون لتقييد حرية الصحافة ، وهو المشروع الذى تقدم به الى مجلس النواب النائب اسطفان باسيلى ٠٠٠ وهنا قامت قيامة الامة على اختلاف أحزابها وطوائفها ، حتى ان جريدة « المصرى » تزعمت هذه الحملة وأقامت الدنيا وأقعدتها حتى أحبطت هذا المشروع ، والحكومة مصرة عليه ومصممة على انفاذه ، حتى ان فؤاد سراج الدين فى ٣١ــ٨ــ١٩٥١ وجه الكلام الى الصحفيين فقال : « حكومة الوفد آخر من يفكر فى تقييد حرية الصحافة ، ولكن هذه الحرية ليس معناها اشاعة الفوضى والتطاول على أسمى مقام » ٠

وهكذا أرادت حكومة الوفد فى هذه المرة أن تجمع بين الضدين ، وأن تسير فى وقت واحد فى طريقين متعارضين ، وأن تجعل المسجد مسجدا وما خورا فى وقت معا ٠٠ ومثل هذا الاسلوب لا ينتهى بصاحبه الا الى التمزق والتفتت والانهيار ٠٠ وهو ما حدث للوفد فعلا ٠

لقد وقع حريق القاهرة وأسقطت حكومة الوفد ·· وقد يظن بعض الناس أنه لولا وقوع هذا الحريق مأسقطت هذه الحكومة ، ولكننا نقرر أن الشعب كان مصمما على أسقاط هذه الحكومة ، لان حزب الوفد نفسه قد سقط من أعين الناس ، وأنهار قدره العظيم من نفوسهم ـ ولكنه ـ وقد تزعم حركة الغاء المعاهدة ـ فقد رأوا أن يصبروا عليه ويمهلوه حتى يتم المشوار ويكمل المهمة ثم يتفرغوا له بعد ذلك ويحاسبوه على ماقدم منتستر على مجون الملك وحماية لنزواته ، وتهجم فى سبيل ذلك على مقدسات الشعب وحرياته ·

ويخيل الى أن وقوع حريق القاهرة كان من مصلحة الوفد فى كل ناحية من نواحيه ، فانه وقف بتدهوره على منحدر الدمار فى نفوس الشعب عند حد ، وترك للوفد فرصته بسقوط حكومته فى ذلك الوقت أن ينتحل لنفسه أعذارا فيما ارتكبته حكومته فى خلال هذه الفترة من أخطاء جسيمة كما أن هذا الحريق قد أدرك هذه الحكومة فى لحظة كانت مشرفة فيها ـ تحت الضغوط الهائلة من كل اتجاه ـ على التراجع عن الموقف الشجاع الذى سجلته لنفسها باعلانها الغاء المعاهدة ·

□ الى من وجه الاتهام القضائى فى الحريق ؟

كان على البوليس والنيابة أن يوجهوا الاتهام فى هذا الحريق الى أشخاص تبعث ظروفهم على الارتياب فيهم · ولم يكن أمامهما الا تلك الفئة من الغوغاء والمحرومين الذين ينتهزون كل فرصة تتيح لهم السلب والنهب · ·· وحريق يشب فى جميع المحال فى أكبر شارع تجارى فى القاهرة فى وقت واحد هو أعظم فرصة لامثال هؤلاء أن يتقاطروا على هذه المحال ليجمعوا لانفسهم وذويهم من بضائعها ما كانوا محرومين منه ··· وهذه الفئة ـ وان كانت هى التى ظهرت على مسرح الحادث ـ فانها ليست هى التى دبرته ولايد لها فيه ··· وقد أحالت النيابة هؤلاء ـ وهم عدد كبير ـ الى القضاء·

أما من السياسيين فان النيابة لم توجه اتهاما الا لهيئة واحدة هى الحزب الاشتراكى الذى يتزعمه الاستاذ أحمد حسين · ولم يكن ذلك لانهم ضبطوا أعضاء هذا الحزب متلبسين ، وانما بنوا ذلك الاتهام على مادأبت عليه جريدة هذا الحزب من مهاجمة للنظام الذى يحكم البلاد بأسلوب عنيف مكشوف ·· وقد اختفى الاستاذ أحمد حسين بعد الحريق فترة ثم قدم نفسه بعد ذلك الى النيابة التى امرت بالقبض عليه وحبسه على ذمة تقديمه الى القضاء ·

واحب ان اقول ، انه حتى لو كان الاستاذ احمد حسين ورجاله قد

اشتركوا فعلا فى هذا الحريق ، فانهم يكونون قد استغلوا دون أن يحسوا ودون أن يشعروا أن أحدا قد استغلهم ٠٠ وهذا النوع من الاستغلال لايمارسه الا رءوس كبيرة ذات آفاق واسعة ، وعلم غزير ، وقدرات فائقة ٠٠ وهؤلاء ـ فى دولة كانجلترا ـ هم المخططون للؤامرات ، والمدبرون للانقلابات ، يعرفون عن الزعماء والهيئات فى كل بلد مواطن القوة ونقاط الضعف ، والطباع المميزة ٠٠ وعليهم اصطناع الظروف المهيأة ، فيجد هذا الزعيم ، وتجد هذه الهيئة نفسها مندفعة لاتخاذ مكانها فى هذه الظروف المواتية لطباعها ، فتعمل عملها ، معتقدة أنها مندفعة اليه من تلقاء نفسها ، وهى فى الحقيقة مدفوعة بالايدى الخفية لاصحاب هذه الرءوس الكبيرة من المخططين ٠

الفصـــل الرابـــع

الشعب يفيق من الضربة القاضية ويستأنف جهاده

□ اقالة وزارة الوفد بعد توريطها فى فرض الاحكام العرفية :

خرج الجميع من حريق القاهرة مبهوتين ٠ اذ فوجئوا بما لم يكونوا يحتسبون ٠٠ ثم ثاب كل الى رشده وأخذ يعيد النظر فى حساباته من جديد، مدخلا هذا العنصر الجديد ـ وهو حريق القاهرة بظروفه وآثاره ـ فى حساباته

وفى حفل الضباط الذى أشرنا اليه ، والذى أقامه الملك لهم فى نفس يوم الحريق أصدر تصريحا قال فيه : « ان البلاد تجتاز مرحلة دقيقة ٠ وقد تمر بها مرحلة أقسى وأشد » ٠٠٠ وهذا كلام يكشف عن أن قائله يتحدث عن أمور لم يكن هو منعزلا عنها ولا مفاجأ بها ٠

ويبدو أن الترتيب الذى وضعه المدبرون كان ترتيبا محكما ٠ فهو لايقضى باقالة حكومة الوفد فحسب ، بل انه يرغمها قبل أن تقال على أن تعلن الاحكام العرفية ، مما يصمها بجريرة وعار ـ وهو هدف مقصود ـ كما أن من الاهداف المقصودة أيضا أن يصدر اعلان الاحكام العرفية من حكومة شعبية مما يجعل وقعه على نفوس الشعب أخفوطاة ٠٠ وهكذا أصدر النحاس باشا رئيس حكومة الوفد فى نفس يوم الحريق البيان التالى الذى ظهر فى الصحف صباح اليوم التالى :

« أيها المواطنون الاعزاء

لقد آلمنى بالامس ـ كما آلمكم ـ ما ارتكبه الانجليز المعتدون من وحشية باغية على أبنائنا فى القنال ، وبخاصة فى الاسماعيلية ، حيث روعوا الناس ، ودمروا المرافق ، وأراقوا دماء الابرياء ٠ وقد زادنى ألما الى ألم ، وحزنا الى حزن ، ما وقع اليوم من حوادث مزعجة دامية فى عاصمة البلاد ٠ فقد انتهزت عناصر من الخونة المارقين ، ودعاة الفتنة الهدامين ، الذين ينتهزون الفرص لمحاولة بث الذعر والاضطراب ، واشاعة الفوضى فى ربوع البلاد ٠٠ انتهز هؤلاء الخونة فرصة اعلان غضبكم واستنكاركم لعدوان الانجليز الوحشى الغاشم فى القنال ، وأخذوا يندسون فى صفوفكم ، ويرتكبون جرائم منكرة مدبرة بالاعتداء على المتاجر والمنشآت والمنازل ، واشعال النيران والتخريب والتدمير والنهب والسلب ٠٠ فأثاروا موجة من الفتنة والاضطراب

تنزل بالبلاد أفدح الاضرار ، وتهىء لاعداء البلاد فرصة للايغال فى البغى والامعان فى العدوان ٠

وقد اقتضى علاج تلك الحالة الشاذة الخطيرة التى تكاد تهدد كيان الوطن ، وتعرض حقوقه للخطر ، اعلان الاحكام العرفية مؤقتا فى أنحــاء البلاد حتى تتمكن الحكومة من القضاء على تلك الفتن المدبرة ، والمؤامـرات المبيتة ، وتبادر الى اقرار الامن واشاعة الهدوء والطمأنينة فى البلاد » ٠

وفى اليوم التالى أصدر الملك أمرا باقالة وزارة الوفد بالصيغة الاتية :

« حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا

أن أشد ما نحرص عليه ونعمل له ، هو أن تنعم بلادنا العزيزه بحـكم يحفظ سلامتها ، ويرعى الامن بين ربوعها ٠ تسود فيه كلمة القـانـون ، ويستتب معه النظام ، وتتوافر فى ظله طمأنينة الناس على أرواحهم وأموالهم ولقد أسفنا أشد الاسف لما أصيبت به العاصمة أمس من اضطرابات نتجت عنها خسائر فى الارواح والاموال ، وسارت الامور سيرا يدل على أن جهـد الوزارة التى ترأسونها قد قصر عن حفظ الامن والنظام ٠

لذلك رأينا اعفاءكم من منصبكم ٠ وأصدرنا أمرنا هذا لمقامكم الرفيع شاكرين لكم ولحضرات الوزراء زملائكم ما قمتم به مدة اضطلاعكم بأعبـاء منـــاصبكم ٠

هذا هو الخطاب الذى وجهه فاروق الى مصطفى النحاس يتضمــن اقالته من الوزارة ، ويؤسس هذه الاقالة على تقصير الوزارة فى حفظ الامن والنظام ـ ويتناسى هذا الحريص على حفظ الامن والنظام أنه احتجز فى قصره ضباط الجيش والبوليس من مختلف الرتب فى يوم الحريق ٠

ولا يستطيع المتتبع للاحداث الا أن يعتقد أن هذه الاقالة لم تكن الا حلقة من حلقات المؤامرة التى بدأت فى السادس والعشرين من يناير ، وأن هذا الحريق انما دبر ليتخذ مبررا للقضاء على المقاومة الشعبية باتخـــاذ اجراءات ـ فى ظاهرها ـ منطقية أولها اقالة الحكومة التى كانت تؤازر هذه المقـــاومـــة ٠

وليس هذا منا دفاعا عن حكومة الوفـد ، وانما هـو ادانة لاجراءات الملك التى تحمل فى ظاهرها البراءة والطهر والحرص على مصالح الجمهور ، وهى فى الحقيقة ليست الا املاء من المستعمر وتنفيذا لمخططه ٠

ومع ذلك ، فقد تكون هذه الاقالة قد صادفت هوى فى نفس حكومة الوفد ، بل لعلها كانت أمنية تتمناها لاخراجها هى الاخرى من ورطة تورطت فيها ، ولم تكن تظن أن الاحداث ستصل الى الجسامة التى وصلت اليها ·· فى حين أن الظروف قد حالت بينها وبين استطاعتها التراجع ·

☐ اسناد الوزارة الى على ماهر :

وفى اليوم التالى لصدور هذه الاقالة أصدر الملك أمرا باسناد الحكم الى على ماهر باشا ·· وجاء فى صيغة هذا الامر العبارة التالية :

« ولما عهدناه فيكم من خبرة واخلاص ، وأصالة رأى ومضاء عزيمة ·· رأينا أن نوجه اليكم مسند رياسة مجلس الوزراء »

وهذا الاطراء الذى ورد فى صيغة التكليف لعلى ماهر لا يعد فى الحقيقة اطراء بل هى صفات أصيلة فى هذا الرجل ، الذى أثبتت المرات التى أسند فيها الحكم اليه أنه رئيس قدير ، ذو مواهب نادرة فى الاصلاح الادارى والاجتماعى والسياسى ··· ولكن هل كان اختيار الملك اياه خلفا لمصطفى النحاس كان لسد نقص فى هذه النواحى الاصلاحية عجز عنه مصطفى النحاس

اننا نعتقد أن اختيار الملك لعلى ماهر فى هذه المرة وفى هذه الظروف لم يكن لهذه الميزات ، وانما كان لما يعرفه الملك من أن على ماهر هو أقدر رجل على مواجهة الوفد ، وعلى النيل منه ، وعلى منازلته وكشف عوراته·· ولم يجاف الملك الواقع فى اعتقاده هذا ، فان هذه حقيقة يعرفها الوفدويعرفها كل مصرى عاصر التطورات الحزبية فى مصر خلال الثلاثينيات والاربعينيات والنحاس يعتبر على ماهر أخطر أعداء الوفد على الاطلاق · وقد سمعت ذلك بأذنى من النحاس فى النادى السعدى فى سنة ١٩٣٦ فى غضون فترة المظاهرات التى كنا نقوم بها ونحن طلبة فى ذلك الوقت احتجاجا على الغاء دستور سنة ١٩٢٣ ·

☐ على ماهر يخلف ظن الملك فيه :

نعم كان على ماهر رجل الملك وعدو الوفد حين كان الملك لايزال مناط رجاء الشعب وموضع آماله ، قبل أن تحيط به بطانة السوء وحاشية المجون، وحين كان الجو السياسى والاجتماعى فى البلاد خاليا الا من الجبهتين المتصارعتين القصر والاحزاب ·· أما وقد تغيرت الاوضاع ، واقتحمت هذا الجو الجبهة الاسلامية ممثلة فى هيئة الاخوان المسلمين بعد أن أثبتتوجودها على أثر المعركة الرهيبة بينها وبين الجبهتين معا ·· فما كان لعلى ماهر ـ وهو الرجل الخبير العاقل المحنك ـ أن يتعامى عن الوضع الجديد ، لاسيما

والملك الذى كان يقف بجانبه فى الثلاثينيات وكان الشعب يحبه ويطلق عليه لقب « الملك الصالح » ليس هو الملك الذى انحدر الى هاوية الفسق والفجور وتلطخت سمعته فى الداخل والخارج ، ولما انتهى به سوء سلوكه وأساليب نفاقه الى أزمة خانقة ومأزق ألجأه الشعب اليه وحصره فيه ، نادى حليفه القديم وسنده القدير ليخرجه من المأزق ويواجه هو الشعب بدلامنه

فهل يستجيب على ماهر لهذا النداء المشبوه ؟ .. انه استجاب ولكنه استغل استجابته هذه المرة لمصلحة الشعب وضد مصلحة المستعمر .

□ **بيان من الاخوان المسلمين :**

وفى نفس اليوم يوم السابع والعشرين من يناير أصدر الاخوان البيان التالى الذى نشرته الصحف يوم ٢٨ منه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ... روعت البلاد لما حدث بالقاهرة أول أمس من أعمال الفوضى والعنف والعبث بالممتلكات واحراقها . والاخوان المسلمون يستنكرون هذه الاساليب التى لايمكن أن تكون وسيلة لتحقيق أهداف الوطن ، بل هى على التحقيق ضارة بقضيته ، وتفتح بابا خطيرا من أبواب الفتنة يصيب كثيرا من الابرياء . وكان الاجدر بمرتكبى هذه الحوادث أن يلجوا باب الجهاد الصادق الذى ولجته الامة ورأت أنه السبيل الوحيد لاكراه الانجليز على مغادرة البلاد .

ويخطىء من يتصور أن احراق حانة أو تدمير ملهى فيه قضاء على أسباب الشر والرذيلة ، مادامت القوانين القائمة يتيح قيامها وينظمه ، وقد حدث من قبل مثل هذا الاعتداء فلم تفد الامة منه شيئا ، وأعلن الاخوان أنهم لا يؤمنون بهذا الاسلوب ، وحذروا رجالهم أن يكون لاحدهم به صلة .

وطريق الاخوان المسلمين هو الجهاد بالوسائل المشروعة لتغيير هذه القوانين . وهم لم يدخروا وسعا منذ قامت دعوتهم فى توجيه المسئولين هذه الوجهة الصالحة . وقد أعلنت ذلك فى خطاب لى بمدينة الاسكندرية منذ أسابيع .

ويخطىء من يظن أن محاربة الانجليز اقتصاديا تكون عن طريق تدمير المتاجر والمؤسسات . انما طريق ذلك المقاطعة وحدها ، وتنظيمها داخليا ، والعمل على منع الاستيراد من الاسواق الانجليزية ـ ومما يساعد على القضاء على الفتنة أن تنفذ الحكومة ما وعدت به من مواجهة الموقف تجاه الانجليز بما يقتضيه من اصرار وتصميم . والله يتولانا جميعا بالرعاية والهداية والتوفيق ولله أكبر ولله الحمد .

حسن الهيضيبى

المرشد العام للاخوان المسلمين

ويلاحظ القارىء أن هذا البيان قد قصد الى أهداف ثلاثة :

الاول : أن الاخوان لا يرون فى أسلوب تدمير المتاجر واحراقها — أن كان قد وقع من مواطنين مصريين — وسيلة مجدية فى مجاهدة المحتلين ·

الثانى : بين الاخوان الطريق المجدى بالوسائل المشروعة لتغيير القوانين الوضعية التى تحمى الرذيلة وابدالها بالقوانين الاسلامية — وبمحاربة الانجليز المحتلين اقتصاديا بمقاطعة بضائعهم وعدم الاستيراد من أسواقهم ·

الثالث : حاولوا لفت نظر الحكومة الجديدة الى الطريق الذى يجب عليها أن تختطه لنفسها ، وهو مواجهة الانجليز باصرار وتصميم ·

وهكذا أسقط الملك حكومة الوفد ، وهو يرى أن الوفد قد خانه بالخطوة التى اتخذها فى اعلان الغاء المعاهدة · ويعتقد أنه أخفى عنه أن هذا الالغاء قد يكون له من العواقب ماقد يهوى بعرشه نتيجة المواجهة مع الجيش البريطانى نفسه والحكومة البريطانية — وقد اعتبر الملك ذلك من الوفد جريمة لا يستحق عليها الابعاد عن الحكم فحسب ، بل أن توجه اليه بعد الابعاد حملة تأديبية قاسية ·· وقد تناسى هذا الملك أن الوفد قد ضحى بالكثير من سمعته فى سبيل التستر على استهتاره ومجونه ·

وتولى على ماهر منصبه فى رياسة الوزارة التى الفها من عشرةوزراء واحتفظ لنفسه بالرياسة والخارجية والحربية والبحرية · وعكف علىوضع خطة عمل لوزارته — وكان الرجل لبيبا ، ممن تكفيهم الاشارة عن العبارة ، فقد فهم ماأراده الملك منه وماجاء به الى الحكم من أجله ، كما فهم ما جاء فى بيان الاخوان المسلمين ·

ولم يكتف الاخوان ببيانهم الذى أصدروه فى اليوم التالى للحريق ، بل شفعوه ببيان آخر نشر بالصحف يوم ٣٠ يناير طلبوا فيه من رئيس الحكومة سرعة الغاء الاحكام العرفية والافراج عن المعتقلين الذين سيقوا الى المعتقلات دون محاكمة أو تحقيق ، كما طالبوا بالاصلاح العام الداخلى·

□ مهزلة :

فى هذا اليوم نفسه ·· يوم الثلاثين من يناير — ووسط هذا الجو المفعم بالجد ، والمشحون بالتوقعات والمخاطر ، وبينما رجال السياسة فى حيرة من أمرهم أمام الموقف المعقد الذى تمخضت عنه الاحداث الاخيرة ، وبينما ضباط الجيش يتناجون فيما بينهم ماذا يفعلون للخروج بالبلاد من هذا المأزق ، وبينما وقف كل مصرى مبهوتا أمام ما دهى البلاد من مصائب

لم تكن تخطر على بال أحد ، مما أجهض المقاومة الوطنية التى كانتمواصلتها أملهم الوحيد فى طرد المستعمر من أرض الوطن ••• بينما كل ذلك يحدث ، ووسط هذه الهموم التى أخذت بخناق كل الاوساط والطوائف •• اذا بطائفة قد أهمتهم أنفسهم فانفصلوا شعورا واحساسا عن مواطنيهم الشرفـــاء ، وبـاتوا لا تشغلهم قضيـة البلاد ، ولم تـؤثر فيهم الدماء التى أريقت على ضفاف القنال ، ولا الارواح التى أزهقت ، ولا الامـوال التى بـددت ، ولا المؤامرات التى دبرت ، ولا المصائب التى حاقت بأهليهم وببلادهم •• وكان شاغلهم الوحيد أن يحظوا وسط اشلاء الشهداء وحطام المعارك بمكان مرموق عند الملك الفاسق الماجن •

والى القارىء صورة من هذا العبث المقيت الذى جاء على لسان واحـد من أفراد هذه الطائفة • ومما يؤسف له أنه الضابط اللواء وحيد شوقى ابن أخت مصطفى النحاس ـ من كلمة نشرتها له الصحف فى يوم الثلاثين مـن يناير المشئوم تحت عنوان « على مائدة الملك » اذ يقول فى وصف هذا الملك :

« انـه أكثر مـن ملك •• فلقد عرفنـا الملوك يقتعدون أريكة الملك ، ويستثمرون أبهة الحكم •• غير هذه الدوحة العلوية الناضرة التى نبتـت وعلت ، وبذلت وضحت ، وأنهضت ونـهضت ••• أما الفاروق العظيم فأبى الا أن يبز دوحته ، والا أن يأتى مزيدا ، وأن يختط جديدا ، رشيدا سديدا ، بل فتيا شديدا •

أى ملوك العالم والتاريخ ذلك الذى فاجأ مجلس وزرائه بالزيـــارة ليقول لهم « جئت لاطالب بحق الفقير » انه البطل ، أى والله انه البطل ، بكل ما تحمله البطولة من آماد ومن آفاق ومن أبعاد ومن أعماق • أنه البطل فى كل معنى كريم عظيم ، وفى كل مبنى سديد سليم • انه البطل فى أكبـر ما تحمل الكلمة من أوزان ، وأحلى ما ترتل من الحان ، وأجمل ما تجلو من ألوان • انه البطل تتجسم فيه البطولة وكفى »

وقد قصدت من ايراد هذا الا نموذج من النفوس أن يعلم القارىء أن بلادنا حتى وهى فى معمعان جهادها فى سبيل حريتها كانت تنوء على ظهرها بأحمال ثقال من نفاق أبنائها ، وتجر فى أقدامها أغلالا من صغر نفوس بعض كبار المسئولين من رجالها •

□ **مفـــاجأة :**

قدمت فى السطور السابقة أن الملك أسند الحكم الى على ماهر باعتباره الرجل القادر على استثمار هذا الحريق فى اتمام القضاء على روح المقاومـة الشعبية ، وتاديب الوفد على احراج الملك مع الانجليز ••• ولكن على ماهر

فاجأ الجميع بموقف كريم ، خيب آمال الملك والمحتلين ، وأرضى نفوس الوطنيين والمجاهدين ·· ويمكن تلخيص هذا الموقف فى النقاط التالية :

١ ـ أعلن تأييده لخطة حكومة الوفد فى الغاء المعاهدة · ولم يكتف بذلك بل قام بزيارة النحاس فى بيته ورد النحاس له الزيارة · فكان هذا التصرف من على ماهر بمثابة خنجر أنفذه فى صدر الملك ·· وامعانا منه فى تحدى ارادة الملك والانجليز الذين كانوا يطمعون فى حل البرلمان واعلان انتخابات جديدة أعلن على ماهر ابقاءه على برلمان الوفد ·

٢ ـ أبدى رغبته فى الاجتماع بالمرشد العام ، وتم هذا الاجتماع فى اليوم الثالث من فبراير ، واستغرق الاجتماع أكثر من ساعة ، ثم اجتمع المرشد العام بعد ذلك بوزير العدل ·

٣ ـ نشرت الصحف بعد ذلك ما يلى : « استجابة لطلبات المرشد العام بادر رفعة على ماهر باشا رئيس الوزراء فاستصدر من مجلس الوزراء بجلسته المنعقدة فى ٥ فبراير ١٩٥٢ قرارا بأن يعهد بأمر التدريب العسكرى للشباب من كافة نواحيه اليه بصفته وزيرا للحربية والبحرية بدلا من وزير الدولة ، وله أن يتخذ جميع التدابير والاجراءات اللازمة لذلك · وستقدم وزارة الحربيه والبحرية الاسلحة والادوات اللازمة لتدريب الشبان واقامة المعسكرات لهم ·

٤ ـ توالت الاجتماعات بين المرشد العام ورئيس الوزراء ·

٥ ـ كان الانجليز فى كل مفاوضة فى أمر الجلاء يقوم بها معهم رئيس وزارة مصرية ويشعرون أنهم أحرجوا وأفحموا وألزموا الحجة ، يلجأون الى اعتذار مخواه أنهم يريدون أن يفاوضوا رئيس حكومة مصرية مؤيدا من جميع المصريين ممثلين فى أحزابهم وهيئاتهم ـ وكانوا يلجأون الى هذا الاسلوب ثقة منهم فى أنهم يطلبون محالا ، فحكومة الوفد تشغب عليها الاحزاب الصغيرة الاخرى ، وحكومة هذه الاحزاب لا يرضاها الوفد ـ فأراد على ماهر أن يبطل حجة الانجليز بجمع الجميع حوله وتوحيد كلمتهم فى تفويضه والثقة فى تمثيلهم ، وتكوين جبهة وطنية منهم أمام الانجليز ·

أما الوفد فقد أعلن تأييده له حين أعلن هو أنه مواصل طريق حكومته فى التمسك بالغاء المعاهدة ·

أما الاحزاب الاخرى فانه دعا رؤساءها الى الاجتماع به فلبوا جميعا وأعلنوا تأييدهم له لاعتقادهم أنه يعمل لحساب الملك ·

٦ ـ وأما الاخوان المسلمون ـ والانجليز يعلمون أنهم قد صاروا الثقل الاكبر فى ميزان الوطنية المصرية ـ فقد كانت لقاءات المرشد العام بعلى ماهر دليلا على الثقة المتبادلة بين الرجلين ٠

□ فرط حرص يؤدى الى احراج :

وحرصا من رئيس الوزراء على ابراز معنى تضامن كل القوى الوطنية معه أمام العالم وأمام الانجليز وقع الاتى :

أ ـ كان هناك موعد لاجتماع المرشد العام برئيس الوزراء فى مكتبه فى ساعة محددة من يوم ٢٧ فبراير ٠

ب ـ تبين بعد ذلك أن رئيس الوزراء دعا رؤساء الاحزاب للاجتماع به بمكتبه فى نفس الموعد ٠

ج ـ ذهب المرشد العام الى مكتب رئيس الوزراء فى الموعد المحدد ٠ فلما دخل المكتب فوجىء بوجود جميع رؤساء الاحزاب ٠

د ـ ويبدو أن رئيس الوزراء ـ لشدة حرصه على ابراز المعنى الذى أشرنا اليه ـ كان قد دعا مصورى الصحف فالتقطوا صورة تضم المرشد العام مع رؤساء الاحزاب وفى وسطهم رئيس الوزراء ٠ ونشرت الصحف هذه الصورة فى صدر الصفحة الاولى بها ٠

هـ ـ توضيحا لهذا الموقف وما حدث فيه وما سببه من حرج ، أنقل للقارىء ما نشرته جريدة « المصرى » عنه فى ٢٩ فبراير ، فقد كتب تحت عنوان يملأ صفحتها الاولى « تصريحات لفضيلة المرشد العام عن حل القضية المصرية ٠٠٠٠ » ما يلى :

« علم مندوب المصرى من مصادر مطلعة أن فضيلة حسن الهضيبى بك المرشد العام للاخوان المسلمين كان قد أبدى رغبته لرفعة على ماهر باشا منذ بدأ مشاوراته لتشكيل الجبهة السياسية فى أن يبدى فضيلته آراءه لرفعته كلما شاء دون التقيد باجتماعات تضمه مع آخرين ٠ ولذلك فقد فوجىء فضيلته أمس الاول حين دعى للاجتماع برفعة على ماهر باشا فاذا بمكتب رفعته يضم الجميع دفعة واحدة ٠

وعلم المندوب أن فضيلته حين دخل على رفعة على ماهر باشا أمس الاول فى مجلس الوزراء كان يعتقد أن رفعته انتهى من مشاوراته مع بقية رؤساء الاحزاب ، وأن فضيلته سيجتمع برفعة على ماهر باشا وحده ، ولذلك فقد كان عقد الاجتماع من الجميع دفعة واحدة مفاجأة لفضيلته ٠

فلما سئل عن رأيه أثناء الاجتماع المذكور قال فضيلته « **اننى سبق أن بينته لرفعة رئيس الوزراء » فقال هيكل باشا لفضيلته : هل نسمح أن تذكر لنا ما قلته لرفعته ؟ فقال « ان رأينا صريح فى أنه لا مفاوضه ولا اتفاق مع أحد » وقد اكتفى فضيلة المرشد بذلك مفضلا عدم الدخول فى مناقشة طويلة مع هيكل باشا ٠**

وقد اتصل مندوبنا بفضيلة المرشد العام وسأله عن رأى الاخوان المسلمين فى الموقف بالتحديد فأجمله فى النقط التالية :

١ ـ أن الاخوان المسلمين لا يقبلون المفاوضة فى مبدأ الجلاء فى ذاته وانما فى كيفية تنفيذه وتحديد مدته ٠

٢ ـ يرى الاخوان فيما يتعلق بالسودان أن مسألة خروج الانجليز من هناك أمر واجب لابد منه ٠ أما فيما يختص بالصلة بمصر فقد أصبح من المتفق عليه أن يستفتى السودانيون فى ذلك ٠

٣ ـ أى اتفاق على الاشتراك فى أى نظام دفاعى أو اقليمى يجب أن لا يكون شرطا للمسألتين السابقتين أو مرتبطا بهما ٠ وبعد تحقيق البندين الاولين فلمصر أن تعقد من المحالفات ما يتفق مع مصلحتها ومع من ترى فى الاتفاق معهم مصلحة لها ٠

وسأل المندوب فضيلته عن السبب فى اختياره للادلاء الى الصحفيين بنص البيان المشترك الذى نشرته الصحف أمس عن الاجتماع برفعة على **ماهر باشا،وهل يفهم من هذا البيان أن المجتمعين فيه كونوا جبهةواحدةمعا؟**

فقال فضيلته : ان المجتمعين اتفقوا على أن تلقى هذه الكلمة على الصحفيين ٠ وأقترح مكرم باشا بأن ألقيها ٠ ومادام قد تم الاتفاق عليها فأى منا يلقيها ٠ والقاؤها لا يحمل أى معنى ٠ **ولكن ليس معنى ما حدث أننا كونا جبهة واحدة ٠ والاخوان المسلمون مستقلون فى ابداء آرائهم ولن يكونوا جبهة مع أحد ٠**

ملحوظة : كان البيان الذى ألقاه المرشد العام هو « لقد تبادلنا الرأى فى الموقف السياسى ، والجميع متفقون على تحقيق أهداف البلاد »

□ **صبغة الله :**

□ **هكذا يكون فهم دعوة الاخوان المسلمين :**

نعم ٠٠ ضم هذا الاجتماع الرجال الذين انتهت اليهم الرياسة فى هذا البلد ، والذين تشرئب اليهم الاعناق فيه ، والذين يتمسح بهم من

يطلبون لانفسهم المكانة والشرف بين بنى قومهم ·· ولكنهم على كل حال أصحاب مبادىء وضعية ، وأفكار بشرية ، وأهداف محدودة بالارض،وأغراض نابعة من هوى النفس ·

فهل يستوى هؤلاء مع المنتسبين الى دعوة الحق ، والمعتصمين بأسباب السماء ، والمنطلقين بأهدافهم الى ما وراء المادة ، والمخضعين هوى نفوسهم لارادة بارىء الكون ؟

قد يلتقى هؤلاء وهؤلاء عند أمر معين أو مسألة محددة أو مشكلة طارئة ولكن ينبغى أن يفهم الناس أن هذا الالتقاء ليس التقاء الشبيه بالشبيه ، ولا القرين بالقرين ، بل هو التقاء عابر ··· ولذا وجب أن يكون هناك تميز يعين الناس على فهم هذه المعانى ·· لابد للمعتصمين بأسباب السماء من التميز عن المخلدين الى الارض ·

وابرازا لهذا التميز كان حرص المرشد العام أن يكون لقاؤه مع رئيس الوزراء على انفراد ، فيفضى اليه بما عنده ، فى الوقت الذى لا يختلط الامر على الناس فيذهب بهم الظن كل مذهب · وقد يشرد بهم الظن فيعتقدون أن الاخوان صاروا حزبا من الاحزاب ·

فلما فوجىء المرشد العام بوجوده فى اجتماع ضم الجميع غضب ، وظهر الغضب فى رده على من وجهوا اليه أسئلة منهم ·· ثم شرح للناس أمر هذه المفاجأة على صفحات الجرائد ، فرد الى الناس اطمئنان نفوسهم ، وأزال ماحاك فى صدورهم من حرج ، ورجع بدعوة الاخوان الى موضعها السامى فى قلوبهم « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون »

وهنا نحب أن نوجه القول الى الذين تئول اليهم مناصب السلطة فينسون فى غمار بهرجها أن الايام دول ، وأن الزمان قلب ، وأن الفلك دوار لا يهدأ ، وأن عجلة الايام تجرى ولا قبل لقوة فى الارض أن توقفها ·· نقول ·· هكذا دارت الايام ، وارتدت الروح الى الموءودة بعد أن أهيل عليها التراب · فنفضته عن نفسها ، وخرجت من تحته بشرا سويا ، وعملاقا فتيا ·· حتى أن الذين اشتركوا فى وأدها وقفوا أمامها ذاهلين ·· ثم رغمت أنوفهم فالتفوا حولها متوسلين ، يخطبون ودها ، ويطلبون صفحها ، وينشدون رضاها ، وينتظرون كلمتها التى هى كلمة الحق والتى صارت القول الفصل ···· فهل يتعظون ؟؟

« ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شىء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور »

الباب السابع

آخر المحاولات لصد الزحف
الانهيار التام
النظام الملكى يلفظ أنفاسه الأخيرة

- الهلالى آخر محاولة يائسة لصد التيار الوطنى
- الملك يفقد توازنه ويعيش فى هلع
- المصير المحتوم

الفصـــــل الاول

الهلالى آخر محاولة يائسة لصد التيار الوطنى

لم يستطع الملك ولا الانجليز تحمل أكثر من ذلك من تصرفات على ماهر التى كانت الخطوة التالية فيها بلا شك هى استئناف المقاومة من جديد ·· ولكنها ستكون مقاومة أكثر تنظيما ، وأشد تأثيرا ، وأخطر نتائج ، فبادروا باقالته بطريقة جعلت هذه الاقالة تأتى فى صورة استقالة ·

ففى ٢ مارس ١٩٥٢ أى بعد خمسة وثلاثين يوما فقط فى الحكم استقال على ماهر على أثر اعتذار السفير البريطانى فجأة عن موعد مقابلة كان قد اتفق عليه ـ وقال على ماهر للصحفيين بعد أن قدم استقالته : اننى أشعر بعقبات فى سبيل مهمتى ·

وأسند الملك الوزارة بعده الى أحمد نجيب الهلالى · وهو وفدى سابق ، كان أحد كبار أعضاء الحزب · وقد اعتزل على أثر اختيار فؤاد سراج الدين سكرتيرا عاما للوفد ، ورأى فى ذلك تخطيا له ولامثاله من قدامى الاعضــاء وذوى السابقة فيه ـ واعتقد الملك والانجليز أن هذا الرجل هو خير من يستعان به على تقويض بناء الوفد ، وبالتالى خير من يخلص الملك من ورطة الغــاء المعاهدة وما أدت اليه من احياء روح المقاومة فى الشعب ضد الانجليز ·

وكان للاحداث التى أدت الى اجهاض المقاومة الشعبية أثر عميق فى نفوس الشعب بمختلف طبقاته وطوائفه ، فلقد تذوق الشعب لاول مرة منذعام ١٩١٩ لذة الوقوف صفا واحدا فى وجه المستعمر ، ولمس بعد وقت غير طويل من هذا الموقف أن هذا هو السبيل الصحيح لاسترداد الحقوق من الغاصبين · بل نستطيع أن نقول ان الشعب أحس بوجوده لاول مرة ··· واذا أحس شعب بوجوده فقلما تجدى معه وسائل القمع أو أساليب التمييع والمداهنة فى انسائه هذا الاحساس أو اقناعه بشعور آخر ·

وتصوير الموقف بعد اقالة وزارتى الوفد وعلى ماهر كان على هذه الصورة : الشعب المصرى أحس بوجوده ، وذاق حلاوة الجهاد فى سبيل حقوقه ـ وقوى داخلية وخارجية تحاول أن ترجع به الى الوراء ·· تحاول أن تنقله من مجال الشعور الذى يسيطر عليه الى مجال شعور آخر معاكس لهذا الشعور ·· قويد

أن ترجع به الى طريق جربه ثلاثين عاما فما جنى منه الا الخيبة والتفكك والخسارة والندم ، ولم يتقدم الى الامام شبرا واحدا ٠

ويبدو أن الاسلوب الذى تمخضت عنه أدمغة هذه القوى جاء هذه المرة ذا ثلاث شعب ، فهو يصوب الى أهداف ثلاثة ، وان كان الهدف الثالث يقع من تلقاء نفسه اذا ما أصيب الهدفان الاولان ٠٠ وهذه الاهداف الثلاثة هى الوفد والاخوان والغاء المعاهدة ٠٠ فاذا استطاعوا القضاء على الوفد وعلى الاخوان سقط الغاء المعاهدة فورا دون عناء ، لان هذين هما اللذان عملا على الغاء المعاهدة ، فالاول كان الجهة الرسمية التى أعلنت الالغاء ، والثانية هى الجهة الشعبية التى نقلته الى ميدان المواجهة والمقاومة وقدمت له الوقود ٠٠ فلما أجهض هذا الميدان وقفت تحرسه بكل قوتها حتى لا تجرؤ جهة رسمية أخرى مهما كان لونها على مس هذا الالغاء من قريب أو من بعيد ، وهى تحرسه حتى تحين الفرصة لاستئناف المقاومة فيه من جديد ٠

وجاءت هذه القوى بهذا الرجل ـ نجيب الهلالى ـ الى الحكم على أنقاض الوزارتين المشار اليهما وله هدفان : هدف خفى وهدف ظاهر ٠ أما الهدف الخفى فهو محاولة القضاء على حزب الوفد وعلى الهيئات المناهضة للملك والتى يمثلها الاخوان المسلمون ، والهاء الناس عن القضية الاصلية وهى اخراج الانجليز من مصر ٠ وأما الهدف الظاهر فهو اعلان مواصلة سياسة المواجهة مع الانجليز ـ وما كان لرئيس يتولى الحكم فى مصر فى ذلك الوقت أن يجرؤ على اعلان غير هذا الهدف ٠

☐ متى يستقيم الظل والعود أعوج ؟ :

وقد اتخذ الهلالى لتحقيق هدفه الخفى عدة خطوات ، منها أنه بدأ بحل مجلس النواب واعدا باجراء انتخابات فى أقرب وقت ٠ ثم ماطل فى البر بوعده وأجل موعد اجرائها عدة مرات ٠

وكان تبريره للتأجيل والماطلة هو ما أعلنه من أول يوم تولى فيه الحكم من أنه انما جاء ليطهر البلاد مما تزخر به من فساد ٠٠ فهو يؤجل بدعوى أن سياسة التطهير لم تبلغ بعد مداها ـ وأنى لسياسة التطهير أن تبلغ مداها أو حتى أن يرجى لها أدنى نجاح فى بلد رأس الفساد فيه ومنبعه هو حاكمه الاعلى ، الذى يعين الحكام ويقيلهم حسب نزواته وأهوائه ، والكل يتفانى فى خدمته وارضاء نزواته ؟؟

ولعل القارىء الكريم لم ينس ما طالعه فى الصفحات القليلة الماضية من أن حكومة الوفد كانت ترسل الى الملك بالمراسيم ليوقعها وهو على موائد

القمار فى أوربا ٠٠ وهذا الملك هو الذى ننقل الان ما نشرته الصحف فى السادس من مايو ١٩٥٢ فى عهد هذه الوزارة التى جاءت لتطهير البلاد ، وقد وافق هذا اليوم يوم عيد جلوسه على العرش ٠٠ واليك نص ما نشر :

« أذاع فضيلة السيد محمد الببلاوى نقيب الاشراف وحسين الجندى باشا وزير الاوقاف الاسبق ، أنهما عثرا على مايثبت نسب الملك فاروق الى السلالة النبوية الشريفة عن طريق جده محمد شريف باشا »

ولن نتعرض فى هذه العجالة لوضع هذا الاكتشاف المثير فى ميزان التصديق والتكذيب ، ولكننا نكتفى بأن نتساءل عن الدوافع التى حملت المكتشفين على اعلان اكتشافهم فى هذا الوقت وفى خلال الظروف التى يعلمها الناس فى الداخل والخارج من سيرة هذا الرجل العفنة النتنة التى أزكمت أنوف المسلمين وغير المسلمين على السواء فى أنحاء الدنيا — هل يريد هؤلاء المكتشفون أن يقنعوا الناس فى الداخل والخارج أن هذه السيرة تمثل الطهر والنقاء والسمو والعفاف والنبل ، تلك الصفات التى هى ديدن المنتسبين الى العترة النبوية الشريفة ٠

واذا كان فاروق بما هو متلطخ به فى حمأة الرذيلة والفجور والمجون يجد من كبار رجال الدولة من يجهدون أنفسهم لينسبوه الى السلالة النبوية الطاهرة ، فما هو الفساد اذن الذى جاء الهلالى ليطهر البلد منه ؟؟

استطراد على هامش التطهير :

وضح مماسبق أن عملية التطهير التى أدعى الهلالى أنه انما جاء ليباشرها لم تكن فى حقيقتها الا تمويها وخداعا والهاء للشعب ٠ لكن مرفقا واحدا من مرافق البلاد كان اجراء التطهير فيه أمرا لابد منه ، ذلك أن هذا المرفق كان متصلا أوثق اتصال بالبلاد الاجنبية لاسيما بأوروبا عامة وبانجلترا على وجه الخصوص ٠ وكان هذ المرفق هو القطن ٠٠ حيث كانت مصر تعتمد فى تجارة القطن فى ذلك الوقت على تصديره الى الخارج ، وكانت حصيلة تصديره هى قوام مالية الدولة وعصب دخلها ، حيث لم تكن مصانع الغزل المصرية اذ ذاك تستهلك عشر انتاج البلاد ٠

ولعل القارىء الكريم قد فهم عرضا مما سقته فى صفحات سابقة أن تجارة القطن فى مصر لم تكن تجارة نظيفة ٠ وتوضيحا لذلك أقول : ان المتعاملين فى تجارة القطن كانوا — كدأب غيرهم من التجار — يتوخون تحقيق اكبر ربح مستطاع من وراء تجارتهم ، مستحلين فى سبيل ذلك الطرق الحرام

ولما كانت أصناف القطن على اختلافها متشابهة تمام التشابه بحيث لايستطيع تمييز بعضها من بعض الا الخبراء المتخصصون ، فتجد صنفين من هذه الاصناف متشابهين تمام التشابه فى مظهرهما لكن سعر أحدهما ضعف سعر الآخر لتميزه فى صفاته الغزلية عن الصنف الاخر . ولهذا أنشأت الحكومة مراقبة تضم خبراء متخصصين فى هذه الناحية على أعلى مستوى من الخبرة ، ووكلت اليهم معاينة جميع الاقطان فى جميع مراحلها منذ دخولها مصانع الحليج حتى تشحن على السفن فى ميناء الاسكندرية الى الخارج . وقد سلحت هؤلاء الخبراء بقانون صارم يأخذون به من أقدم على خلط صنف بآخر .

ولما كانت المكاسب التى تعود على تجار القطن من خلط صنف بآخر مكاسب باهظة ، ولكنهم لايستطيعون تحقيق هذه المكاسب الا بالتواطؤ مع خبراء الحكومة المتخصصين ، فانهم بسطوا أيديهم لهؤلاء الخبراء كل البسط حتى لانت لهم مقادة أكثرهم .. وتحقق لهم بذلك مايريدون .

وسارت الامور فى هذه التجارة على هذا النحو ، وكل عام تزداد جرأة التجار عن العام السابق . وما دام خبير الحكومة قد أجاز عملية الخلط فان هذا الخلط لايمكن اكتشافه الا حين تغذى آلات الغزل فى مصانع الغزل بهذه الاقطان . ذلك أن الصفات الغزلية لكل صنف من الاصناف تقتضى معاملة خاصة ومقاييس خاصة تضبط على أساسها أجزاء آلة الغزل . فاذا كان الصنف مخلوطا بصنف آخر اختلت آلة الغزل ولم تنتج الغزل المطلوب ذا المقاييس المحددة .

وأخذ أصحاب مصانع الغزل فى أوروبا يبعثون بشكاواهم من أن الاقطان التى تصل اليهم من مصر يشوب بعضها الخلط الذى يسبب لهم خسائر .. وكلما زادت نسبة الاقطان المخلوطة بمرور الاعوام زادت هذه الشكاوى . حتى جاء عام ١٩٥١ وكانت نسبة الخلط قد بلغت حدا لايمكن تحمله ، فبعث أصحاب المغازل الاوروبية الى الحكومة المصرية انذارا بأنهم سيقررون مقاطعة القطن المصرى .

ولما كان معنى هذا أن الدولة تعلن افلاسها فقد بدأت الحكومة تتحرك .. ولم يكن أمامها الا أن تأخذ الامر بالحزم .

كنت فى هذا الوقت مغضوبا على ـ كما قدمت من قبل ـ فكان مقر عملى فى الصعيد . وقد انتهى موسم القطن وذهبت الى بلدتى رشيد لاقضى فيها فترة من أجازة الصيف التى كانت تمتد الى أربعة أشهر .. وبينما أنا فى رشيد وصلنى خطاب من الادارة التى اتبعها فى الصعيد بأننى قد تقرر انتدابى

للعمل بالاسكندرية فى الصيف - والعمل القطنى فى الاسكندرية كان يستمر تقريبا طوال العام - واغراء لى بالاستجابة الى هذا الانتداب ذكروا فى الخطاب أن هذا الانتداب ببدل سفر ٠

ولما كنت ناقما على كل الادارات التى ترأسنى فى هذا العمل لعدم ثقتى فى ذمتهم ، فقد رددت على الخطاب بأننى أرفض الانتداب مهما كان فيه من مزايا مادية - وبعد أيام وصلنى خطاب شخصى من زميل يكبرنى سنا ومنزلة فى العمل ، ومن القلة الطاهرة اليد التى احترمها يرجونى فيه أن أستجيب للانتداب لانه خدمة وطنية لاينبغى لمثلى أن يتخلف عنها ، وحدد لى يوما التقى به فيه فى ادارة العمل بالاسكندرية ٠

وما كان لى أن أتخلف بعد ذلك ، فسافرت الى الاسكندرية ، والتقيت بهذا الزميل الكريم فأخبرنى بأن الحكومة - أمام تهديد أصحاب المغازل فى أوروبا بمقاطعة القطن المصرى - قد قررت خطة حازمة ٠٠ وبدأت بوقف المدير العام لمراقبة القطن ومفتشى المراقبة ببعض المحافظات ، وانتدبت سامى بك الهرميل مراقبا عاما للقطن ، الذى كان أول عمل قام به أن انتدب ستة من خبراء المراقبة ، منهم أنا وأنت ، لمعاينة جميع الاقطان التى تعد فى مكابس القطن بالاسكندرية للتصدير ، وضبط المخلوط منها ٠ وقال :ان سامى بك سيحضر اليوم من القاهرة لمقابلتنا نحن الستة هنا فى ادارة الاسكندرية ٠

وحضر الرجل فعلا والتقينا به ٠ وكان اربعة من الستة من الزملاء الذين طرأت عليهم فى دمنهور فى عام ١٩٤١ وكانوا سندا لى اذ ذاك حين كنت أقوم بنشر الدعوة فى مقاهى دمنهور كما قدمت فى الجزء الاول من هذا اكتاب ٠

وتكلم الرجل فشرح لنا الموقف ، ومدى الدمار الذى يحيق بالبلاد اذا قاطع الغزالون الاوروبيون القطن المصرى ٠ وقال : أجريت بحثا دقيقا فى جميع العاملين بمراقبة القطن فى القطر وانتهى بحثى اليكم انتم الستة الذين لاتحوم حولكم أثارة من شبهة ، فقررت انتدابكم لضبط الاقطان المخلوطة الواردة من الريف قبل تصديرها من الاسكندرية حتى نرد لبلادنا اعتبارها أمام الدول ٠

وباشرنا مهمتنا،وضبطنا الاقطان المخلوطة،وأجرى تحقيق كان من نتيجته فصل المدير العام للمراقبة لاتهامه بأنه كان ضالعا مع المفتش العام لمحافظة القليوبية وخبيرى المراقبة بمحلج القناطر الخيرية ، الذى ثبت أنه كان مباءة لعمليات خلط رهيبة -ولكن لما كانت الادلة القانونية غير كافية لاثبات التهمة على المفتش والخبيرين فقد اكتفى بابعادهم عن هذه المحافظة ٠ ٠ وكان لهذه الاجراءات الحازمة صدى فى أوساط الغزالين بالخارج فعدلوا عن خطة المقاطعة

وانتهت فترة انتدابنا نحن الستة · ورجع كل منا الى مقر عمله ، كما رجع سامى بك الهرميل الى عمله الاصلى وهو رئيس حسابات الخاصة الملكية—وبهذه المناسبة أقول : لعل اهتمام الملك بهذا الموضوع هذا الاهتمام الذى جعله ينتدب رئيس حسابات خاصته لمباشرته ، أنه أى الملك كان فى ذلك الوقت أكبر منتج للقطن فى مصر · واذا قاطع الغزالون القطن المصرى فسيبور قطنه وتحيق به أكبر خسارة فضلا عن الخسارة العامة للبلاد ·

وفيما أنا أتهيأ للسفر الى مقر عملى بالوجه القبلى حيث أصبح موسم القطن على الابواب ، اذا ببعض زملائى يزجون الى التهنئة بأننى سأنقل الى محلج القناطر الخيرية أى الى القاهرة—واذ كنت ناقما كما قدمت على الزمرة المشرفة على هذه المراقبة فقد أبديت لهم رفضى البات لهذا النقل ، وكلفتهم بنقل هذا الرفض الى المسئولين ·· ولما استفسر هؤلاء المسئولين عن سبب رفضى قلت لهم : انكم نفيتمونى الى الوجه القبلى ست سنوات كاملة ، ولم أجد أحدا منكم قال كلمة انصاف فى حقى طيلة هذه المدة ·· وتأتــون الآن لتطلبونى للعمل فى أقذر محلج فى القطر كله ·

فاذا تكون ملمة أدعى لها   واذا يحاس الحيس يدعى جندب

وأصررت على الرفض · ولم أكن أعلم أن المفتش العام الجديد لمراقبة القطن بمحافظة القليوبية هو أحد أصدقائى الحميمين الطاهرين الــذين تعلمت فن القطن على أيديهم ·· وجاءنى هذا الصديق وبسط أمامى ظــروف الموضوع ، وتتلخص فى أن الحكومة قررت تطهير المراقبة فأسندت اليهمنصب الاشراف على هذه المحافظة فاشترط لقبوله هذا المنصب أن يسند اليالاشراف على هذا المحلج الذى كان سببا فى فصل المدير العام للمراقبة ·· وبالرغم من حبى لهذا الصديق وتقديرى له فقد أصررت على الرفض متأثرا بما لقيته من اضطهاد على يد المسئولين السابقين ·

وبعد ذلك بأيام طلبت لمقابلة المرشد العام الــذى بادرنى بقولــه : أن صديقك وزميلك فلان — وهو الذى نقل مشرفا على محافظة القليوبية فى القطن — حضر هنا وقابلنى وشرح لى ظروف نقله ونقلك ، وأخبرنى بأنك مصـــر على الرفض · وأنا أعرف وجهة نظرك وأقدرها حق قدرها ، ولكننى أرى أننا باعتبارنا أصحاب دعوة لاصلاح المجتمع لا ينبغى لنا أن نتخلف عن العمل فى أحرج المواطن ، ولتنس الماضى ولنعمل على تطهير هذه البؤرة من الفساد — فلما سمعت ذلك من الاستاذ المرشد زال ما كان فى نفسى وانشرح صـــدرى واستجبت لما كنت رافضه ·

□ فى بـــــؤرة الفســـــاد :

حين ذهبت لتسلم العمل فى هذا المكان الجديد لاحظت أن كل من حولى متنكر لى ، وضائق بى ، ويتمنى أن لو نزلت على صاعقة فأراحتهم منى ٠٠ وكادت تضيق نفسى لولا أن تذكرت أن وجودى فى هذا المكان انما هو من أجل الدعوة التى آمنت بها وعاهدت على العمل لها ٠

ووردت الى المحلج أقطان بأسماء تجار من عملائه فعاينتها وصادرت أكثرها ٠٠ وبدأت ادارة المحلج ـ وكانوا أجانب ـ تحتك بى على أســاس أنهم لم يتعودوا أن يروا من يقف فى وجه مصلحتهم من قبل ٠ وأبرقوا الى الجهات الحكومية العليا يتهموننى بتعطيل أعمالهم ويطلبون التحقيق معى ، فلم تأبه هذه الجهات بهم ٠٠ ووقعت احتكاكات من مختلف التجار بى ، حتى وصل الامر بأحدهم أن هددنى بالقتل اذا لم أعدل عن خطتى ٠ فكان ردى على ذلك أن الاجل بيد الله وحده ، واذا أراد الله لى ذلك فانها هى الشهادة التى أتمناها ٠٠ وظل الحال على ذلك حتى ركن الجميع الى اليأس من ناحيتى ٠

وقد دفعهم هذا اليأس الى مراجعة عقولهم وتدبر أمورهمو الثوب الى رشدهم ، فجاءونى وقالوا : يافلان ٠٠ اننا جئنا نعتذر اليك مما فرط منـا نحوك ، وعذرنا فى ذلك أننا فوجئنا بأسلوب لم نعهده من قبل ٠٠ ولكننا لما راجعنا أنفسنا وجدنا أننا قد تسرعنا وأننا مخطئون ، وأن الخطة التىتعاملنا بها هى أصلح لنا من الخطة التى كنا نعامل بها من قبل ٠٠ ان التاجر مناحين يرسل الى المحلج رسالة من القطن يعرف عدد الاكياس السليمة منها وعـــدد الاكياس المخلوطة فيها ، ويبعث الينا المحلج بنتيجة فرز الرسالة فنجد أنـك صادرت نفس العدد من الاكياس الذى نعرف أنه مخلوط ، وأجزت الاكيــاس الاخرى ٠٠ وفى هذه الحالة لم نخسر شيئا لان الاكياس التى صادرتها قــد اشتريناها بثمن بخس باعتبارها مخلوطة ، وستحلج على أنها مخلوطـة ، وتباع على أنها كذلك ، وستحقق من بيعها على هذا الاساس بعض الربح ـ والاكياس السليمة التى أجزتها ستحقق من بيعها ربحا كبيرا ٠

أما الخطة التى تعودنا عليها من قبل ، فان كل رسالة ندخلها المحلجكانت تصادر كلها سواء المخلوط منها والسليم ما لم ندفع لخبير الحكومة جنيها عن كل كيس منها ، ولا يمكن أن نجد فى السوق أقطانا مخلوطة تكفى لجعل كـــل الرسائل التى ندخها المحلج مخلوطة ـ وكان يتحتم على الواحد منا أن يحضر بنفسه مع كل رسالة ليقدم هذه الرشوة حتى لاتصادر الرسالة كلها ٠٠٠ أما الان فنحن نرسل الرسالة ولا نكلف أنفسنا مشقة الحضور معها ، ونستغلوقتنا

فى أعمالنا الاخرى ، ولا ندفع شيئا ، ولا يصادر منا الا ما يستحق أن يصادر ٠٠ وتم الصلح بينى وبين التجار وبين ادارة المحلج على أن يبدأوا من جديد حياة طاهرة نقيـــة ٠

ما أحوجنا فى التطهير الى القدوة :

وبعد أن سارت الامور على النحو الجديد ، وانقطع المدد الغامر الذى كان الجميع من تجار وموظفين وعمال ينعمون فيه ٠٠ سألت العاملين الحكوميين اللذين يعملان معى وكانا يعملان من قبل مع السابقين سألتهما بعد أشهر عن شعورهما ، وهل يشعران بالضيق والحرمان ويبكيان على الايام الخالية ، ويتمنيان لو ترجع تلك الايام ؟ فكان ردهما عجيبا ٠٠ قالا : اننا حرمنا فعلا من متع كثيرة ، ولكننا مع ذلك نشعر بسعادة ما كنا نشعر بها من قبل ، فلم نكن من قبل يخطر على بالنا أن هناك الها مطلعا علينا وسيحاسبنا على هذا الكسب الحرام ٠٠ أما الآن ، وبعد أن دللتنا على اللـه ، فاننا نجد فى اللقيمات الجافة التى نفتات بها مع أولادنا لذة ما كنا نجد مثلها فى الاطعام الفاخر الشهى ٠٠ وننظر الى الايام الماضية نظرة الضال بعد أن اهتدى ، ونضرع الى اللـه أن يغفر لنا هذا الماضى ٠٠

وهكذا استقام العاملان كما استقام كل العاملين فى هذا المحلج من تجار وموظفين،وقد حبب الله اليهم الايمان وزينه فى قلوبهم وكره اليهم الكفروالفسوق والعصيان ، وصاروا من الراشدين ـ وتوطدت العـلائق بين هؤلاء النـاس وبينى حتى ان كثيرين منهم ـ بعد أن طوحت بى الايام بعيدا عنهم ـ كانوا يزورونني ، وأحسوا بفضل دعوة الاخوان المسلمين على وعليهم وعلى المجتمع

ولقد سقت هذه القصة ـمغفلا الكثير من تفاصيلها وعجائبها ـ لابين أن الاصـــلاح لايتحقق الاعلى يد أفـراد من الشعب صالحين ـ لان فاقد الشيء لايعطيه ٠٠ أما أن يشرد الصالحون كل مشرد ، ويعهد بالمناصب الحساسةالى الفاسدين ، ثم تدعى الحكومة مع ذلك أنها بسبيل اصلاح البلاد وتطهيرهـا ٠٠ فلا نقول ان هذا أسلوب خاطىء ووسيلة غير مجدية فحسب بل نقول انه تضليل واحتيال وخداع ٠

الفصـل الثـانى

الملك يفقد توازنه ويعيش فى هلع

كان الاخوان يعرفون حالة الهلع التى يعيشها هذا الرجل مطاردا بأشباح ما ارتكب فى حق الشعب من آثام ، وما ينتظره على أيدى المظلومين من عقاب ومع أنه كان يتمتع ـ بحكم منصبه ـ بحماية جميع أجهزة السلطة فى الدولة ، فانه لم ير فى هذه الاجهزة كلها مايكفى لتهدئة روعه وتأمين خوفه ٠ ٠ ٠ ٠ فأنشأ جهازا سريا خاصا سماه « فرقة الحرس الحديدى » أنشأها له الدكتور يوسف رشاد زوج السيدة ناهد رشاد وصيفة الملكة ٠ ومهمة هذه الفرقة هى حمايته ٠ ٠ وكانت هذه الفرقة مكونة من مجموعة من صغار الضباط ، بعضهم من الجيش وبعضهم الآخر من الشرطة ، ومعهم عدد من المدنيين الافاقين ٠

وقد قامت هذه الفرقة باغتيال الملازم أول عبد القادر طه بحى الروضة بالقاهرة يوم ٢٤ مارس ١٩٥٢ ـ وشاء القدر أن لا يسلم عبد القادر طه الروح الا بعد أن أدلى الى المحققين بالطريقة التى تمت بها الجريمة ٠

وقد اتهم ـ رحمه الله ـ اللواء حسن سرى عامر (وهو أحد كبار ضباط الجيش، وكان من أقرب المقربين الى الملك ، وكان معروفا أنه رجله فى الجيش وصنيعته وقد نوهنا عنه فى حديثنا عن انتخابات نادى ضبـــاط الجيش ٠ وسيأتى ان شاء الله ذكره فيما بعد) وقال ان صديقا لسرى عامر اسمـه على محمد حسنين ألح عليه مرافقته بحجة زيارة مقر جماعة الاخوان المسلميـــن بالروضة ٠ وماكادا يصلان الى نقطة التقاء شارعى الاخشيد بالملك اظفر حتى سلطت احدى السيارات عليهما ضوء مصباحها ووقفت فجأة وأطلقت عليـه النار ٠٠ وتبين بعد ذلك أن على محمد حسنين كان أحد أفراد الحرس الحديدى

وقد لمح القارىء من خلال هذه الواقعة أن الموقف فى مصر فى تلك الحقبة من الزمن قد تمخض عن انقسام البلاد الى جبهتين : جبهة الملك وأعوانـــه والمتوهمين انه لا يزال القوة الغالبة التى يرجى الانتفاع الشخصى من ورائها وتتضمن هذه الجبهة اكثر السياسيين التقليديين وعددا من العسكريين المأجورين أما الجبهة الاخرى فهى « الاخوان المسلمون » وهى الجبهة التى تضم الاكثرية الساحقة من الشعب لافى القاهرة وحدها بل فى جميع أنحاء البلاد، ويدعمها تنظيم واع مستنتر فى صفوف الجيش ٠

ولما كان عبد القادر طه – رحمه الله – من الضباط الواعين المستنيرين فقد رأى عميل الملك المكلف باستدراجه أن استدراجه لايكون الا بعرض مكان يرافقه اليه بحيث يكون هذا المكان مقبولا لديه ، فعرض عليه أن يرافقه الى دار شعبة الاخوان المسلمين فى حى الروضة ٠

وقد رأيت أن أثبت هنا واقعة اغتيال عبد القادر طه ، لانها كانت احدى معالم فترة الانهيار التى أفردنا لها هذا الباب ، اذ كانت أشبه باعلان حرب من جانب بلغ به اليأس كل مبلغ ٠ وقد حفز اعلان الحرب هذا الجانب الآخر الى التعجيل بالضربة القاضية ٠ وقد فهم هذا الجانب الآخر أن حالة الرعب التى يعيشها الملك صورت له أو لعله نمى الى علمه عن طريق أجهزته أن هناك مؤامرة لقتله يشترك فيها عبد القادر طه والدكتور عزيز فهمى ، فأمر جلالته بوضع خطة لاغتيالهما ، فاغتيل الاول بالطريقة التى ذكرناها ، ودبر للاخر أن تصدم سيارته سيارة أخرى أدت الى موته ٠

وبمناسبة ماذكرنا من أن هناك فريقا كبيرا من المشتغلين بالسياسة كانوا يتوهمون أن الملك لازال الفرس التى يراهن عليها نقول :

ان النيابة وجهت الاتهام الى الاستاذ أحمد حسين رئيس الحزب الاشتراكى وبعض أعضاء حزبه بالتحريض على ارتكاب حوادث ٢٦ يناير بدافع العداء للنظام السياسى والاجتماعى وذلك فى يوم ١٣ / ٥ / ١٩٥٢ ، على أن تنظر القضية أمام محكمة الجنايات برياسة المستشار حسين طنطاوى بك يوم ١٨ مايو وطالبت النيابة بتطبيق عقوبة الاعدام ٠

ولما كان الاستاذ أحمد حسين متهما من قبل بالعيب فى الذات الملكية ، فقد تخلى المحامون عن الدفاع عنه جبنا ونفاقا ، فقد انتدبت المحكمة الاستاذ على عبد العظيم للدفاع فاعتذر ، ثم انتدبت الاستاذ الظاهر حسن أحمد فاعتذر ايضا – وهنا تقدم للدفاع عنه الاستاذ شمس الدين الشناوى وهو من الاخوان والاستاذ عبد المجيد نافع وهو صديق للاخوان ٠

والطريف الذى لا يخلو من دلالة أن الاستاذ سليمان زخارى رئيس تحرير مجلة الاشتراكية وضع دفاعه عن نفسه بأن الاستاذ أحمد حسين كان مسيطرا على المجلة وعلى كل شىء فى الحزب ، وقد اضطر هو للنشر خوفا من فصله – فرد الاستاذ احمد حسين بأنه كان فى يوم ٢٦ يناير طريح الفراش فى بيته ، واستشهد بعدة أشخاص منهم على ماهر ومصطفى امين ، وقد أيدوه فى ذلك ٠ فقال الاستاذ احمد حسين ان زخارى اذن كان حرا فى قبول النشر أو عدمه ٠

استغلال الاخوان الوقت

للاعـــداد لعمـــل خطيـــر

قلنا ان الهلالى حاول التقرب الى الاخوان فأعلن أنه يرى اعادةالتحقيق فى قضية مقتل الامام الشهيد وغيرها من القضايا ، ودأب على استطـلاع رأى الاخوان والاجتماع بالمرشد العام الذى ظل على اصراره أن يكون اجتماعه به على انفراد دون أن يضمه اجتماع برؤساء الاحزاب •

وبعد عدد من اللقاءات بين المرشد العام ونجيب الهلالى كون الاخـوان فكرة عن الهدف من ابدال على ماهر بالهلالى • وبدا لهم أن الهدف لا يعدو أن يكون محاولة لاضـاعة الوقت ، وشـغل الناس بما سـموه التطهير واجـراء انتخابات •• فقرر الاخوان الاكتفاء – من اتصالهم به – بإحراجه فى القضية الوطنية بحيث لا يجد فرصة للتحلل مما أجمع عليه الشعب وسارت عليـــه الوزارتان السابقتان • وانجهوا الى استغلال الوقت فى ناحيتين :

☐ **الناحية الاولى : علنية**

وهى تنظيم أنفسهم ، ونشر دعوتهم وتعميق فكرتهم فى نفوس الشعب ومثالا لذلك قاموا بما يلى :

أ – رحلة المرشد العام : طاف المرشد العام فى خلال هذه الفترة بشـعب الاخوان فى رحلة طويلة • وهى الرحلة التى التقيت مع المرشد فيها بدمنهـور والتى أشرت اليها من قبل • وقد استغرقت هذه الرحلة أكثر من شهر • وقد زار خلالها الاخوان بالوجهين البحرى والقبلى •

ب – تقوية الروابط بالشعوب الاسلامية : وقد أولى الاخوان فى خـلال هذه الفترة اهتماما كبيرا لتقوية الروابط بالشعوب الاسلامية ، وابراز دعوة الاخوان المسلمين على أنها فكرة عالمية لا تحدها حدود اقليمية • وقد عملـوا على عقد مؤتمر للشعوب الاسلامية بكراتشى فى باكستان فى أوائل شهر مايو ١٩٥٢ • وقد مثل الاخوان فيه الاخ الاستاذ صالح عشماوى ، وألقى كلمـة الاخـــوان •

ومن مقترحات الاخوان التى جاءت فى سياق هذه الكلمة : اعادة النظر فى نظام الملكية الزراعية وفى نظام الرعوية – ويقصد باعادة النظر فى نظام الملكية الزراعية ما صار يفهمه الناس فيما بعد بالاصلاح الزراعى ، وهى لفتة تشعر القارىء بأن الاخوان كانوا أول من دعا الى الاصلاح الزراعى وهى لفتة تشعر بل فى جميع البلاد الاسلامية ، ولكن ليس على أساس ما يسمونه الاشتراكية وانما على أساس أنه جزء من الفكرة الاسلامية • وقد يحسن بنا فى هذا المقام

أن ننبه القارئ الى أن صورة الاصلاح الزراعى التى أرادها الاخوان لم تكن هى الصورة التى تم بها هذا المشروع فى مصر وسيأتى تفصيل هذا الموضوع فى الجزء الثالث من هذا الكتاب ان شاء الله ٠

أما اعادة النظر فى نظام الرعوية فيقصد به اقتراح فتح الحدود المصطنعة بين البلاد الاسلامية بعضها وبعض ، واعتبار البلاد الاسلامية ــ مهما اختلفت مواقعها الجغرافية ــ أمة واحدة ودولة واحدة بحيث يكون الاسلام وطنا وجنسية ٠

واذا كانت دول أوروبا ــ ولا تربطها بعضها ببعض أية روابط ــ تسعى الى فتح الحدود فيما بينها محاولة تحقيق وحدة تامة فيما بينها ٠٠ لانها ترى ان هذا هو السبيل الوحيد لابرازها قوة عالمية مهيبة وقوة اقتصادية وسياسية متكاملة ومسيطرة ، فان الدول الاسلامية أولى بذلك وأحرى ، وكتاب هذا الدين يخاطب المسلمين حيث كانوا فيقول « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » ويقول « انما المؤمنون اخوة » ويقول رسولهم « ليس منا من دعا الى عصبية » ويقول « وكونوا عباد الله اخوانا » ٠٠٠ واذا كان التاريخ يحدثنا عن هذه الدول الاوربية حيث التناحر المستمر والعداء المستمر والحروب المتواصلة ، فان هذه الدول الاسلامية المقطعة الاوصال الان كانت على مر التاريخ منذ نشأتها أمة واحدة ودولة واحدة ٠٠ فاذا رجعت كما يطالب الاخوان دولة واحدة فانما ترجع الى أصلها وتحقق وضعها الذى كانت عليه والذى يجب أن تكون عليه ٠

وقد ختم مندوب الاخوان فى المؤتمر كلمته مرددا الحديث الذى أدلى به المرشد العام لجريدة « المصرى » فى أوائل شهر ابريل محذرا من الانحراف بالتجمع الاسلامى عن غايته حيث قال :

« وأحب أن أقول لك بهذه المناسبة انى قرأت فى بعض الصحف أنباء مرماها أن الحلف الاسلامى قد تطمئن اليه الدول الغربية لأنه سوف يكون مناهضاً للشيوعية ، أو أنه سيستخدم لهذه الغاية ٠٠ والحق ان الاسلام شيء قائم بذاته ، ونظام جمع الله فيه خير ما فى النظم جميعا ، فلا يصح أن يكون أداة فى يد أحد يستخدمها لغاياته ٠ بل يجب أن تكون خادمة للنظم الاسلامية والمصالح الاسلامية وحدها ، بلا ميل الى أى نظام أو فكرة تخالفه سواء أكانت ما يسمى الديمقراطية أو الشيوعية أو الفاشية ٠

فالاخوة والعدالة الاسلامية تجمع جميع الناس من جميع الألوان وجميع الأديان ٠ ولا تعتبر العدالة مقصورة على المسلمين ، وانما هى حق لكل من يعيش فى دولة الاسلام ٠ ولا تكون الاخوة بين المسلمين وحدهم كشأنها بين الفرنسيين الذين يعتبرون أنفسهم اخوة ويعاملون التونسيين أسوأ معاملة ٠

والامريكان معاملتهم للهنود الحمر لا تخفى على أحد • أما عدل الانجليز فهو عدل لا يعرفونه الا فى بلادهم ، فاذا خرجوا منها رأيت صورته العكسية فى قنال السويس والسودان وغيرهما »

ويبدو أن تحرك الاخوان فى هذه الفترة نحو العالم الاسلامى ،واشتراكهم فى هذا المؤتمر ، وكلمتهم التى ألقوها فيه ، قد أيقظت فى الشعب المصرى عواطف كانت نائمة فأخذ الشعب يسأل ويستفسر فقد نشرت جريدة « المصرى » فى ٢٣ مايو ١٩٥٢ تحت عنوان « المرشد العام يتحدث الى المصرى » حديثا طويلا على هيئة أسئلة وجهها اليه مندوب الجريدة وأجاب عليها المرشد العام • نجتزىء منه ما يلى :

« أما عن فكرة تكوين كتلة اسلامية فنقول : كيف يتم ذلك والاحتلال الاجنبى بين ظهر انينا ؟ اننا لا نريد أن نكون ألعوبة فى يد أحد • ومثل هذه الكتلة يصح أن تكون للتقريب بين الامم الاسلامية والعمل على انهاضها حتى تأخذ بكتاب الله ، وحينئذ يكون الاتحاد الشامل بينها •

وختم المندوب الحديث بسؤال عن مبادىء الاخوان وهل تمنع أن يكون الانسان منضما لحزب من الاحزاب وأن يكون فى الوقت نفسه أخا مسلما ؟ فقال فضيلته : ان مبادىء الاخوان لا تمنع من ذلك اطلاقا • ولكن الانسان حين ينضم اليهم سيجد نفسه منساقا الى ترك الحزبية جانبا والتفرغ لدين الله »

ج ـ **قضية السودان** : ـ ساهم الاخوان بجهد كبير فى قضية السودان التى اعتبرت جزءا لا يتجزأ من قضية الجلاء عن مصر • ولكن نظرة الاخوان الى قضية السودان كانت نظرة مختلفة تمام الاختلاف عن نظرة الحكومة المصرية والاحزاب المصرية • فهؤلاء جميعا كان همهم منصباً على الحصول على اجراء قانوني لتحقيق وضع شكلى يتيح للملك أن يحمل لقب « ملك مصر والسودان »

والله وحده هو الذى يعلم هل كان هؤلاء الذين انحصرت مطالبهم آخر الامر فى هذا الطلب المتواضع يهدفون من وراء ذلك الى ربط السودان بمصر عن طريق هذا اللقب أم أن هدفهم كان ارضاء الملك والتزلف اليه • وهو الهدف الذى كان طابع جميع ساسة مصر المحترفين فى ذلك الوقت •

أما نظرة الاخوان الى قضية السودان فانها كانت تقوم على أساس الاخوة الاسلامية التى تستمد أصلها من القرآن الكريم فى قوله تعالى « انما المؤمنون اخوة » • وقد التقى الاخوان بوفود من السودان اكثر من مرة،بعضها فى دار المركز العام وبعض آخر فى أماكن اخرى • فكانت هذه الوفود تشعر

بشعور غير الذى تشعر به فى لقاءاتها مع رجال الحكومة ورؤساء الاحزاب ٠

كان حديث الاخوان معهم لا يتناول الروابط الجغرافية ، ولا المسائل القانونية ، ولا يتناول ألقاب الملك ولا شروط الاتحاد ، وانما كان الحديث حديث قلوب تفيض بالمحبة وتترع بالاخلاص ولا تشوبها شائبة من شوائب الخداع السياسى ـ كانت هذه الجلسات جلسات انصهار روحى فى بوتقة الاخوة الاسلامية ، تنسى فيها المطامع ٠ وتذوب فيها الحزبيات والحزازات ـ ولو ترك الأمر فى موضوع السودان للاخوان ، وأتيحت لهم فرص اللقاءات بمصر والزيارات بالسودان ، وتنحت الجهات المصرية الاخرى ورفعت يدها عن الموضوع لكان للسودان ولمصر وضع آخر غير الذى تم على أيدى السياسيين المحترفين فى هذه الايام وفيما بعدها من أيام ٠٠

ولكن هذه الوفود السودانية كانت بعد انصهارها فى دار الاخوان فى بوتقة الاخوة الاسلامية ، كانت تلتقى بقوم لا صلة لهم بالمعانى الاسلامية فى قليل ولا كثير ، فتحس هذه الوفود كأنما هبطت من السماء الى الارض ، فالتعامل مادى ، والحديث مادى ، والمقاييس مادية ، والمفاوضات أشبه شىء بصفقات البيع والشراء ٠٠ وتعرف هذه الوفود أن هؤلاء الذين يفاوضونهم ـ اذا كان هناك اتحاد فيما بعد ـ هم الذين سيتعاملون معهم لان بيدهم مقاليد الحكم وبيدهم بالتالى مفاتيح الخزائن ٠

□ الناحية الاخرى : سـرية

وهى تنظيم صفوفهم من المدنيين والعسكريين ٠ وهى تنظيمات كان يلجأ اليها كل ذى نفس تتوق الى الحق والحرية ٠ وليس معنى ذلك أن البلاد كانت خالية الا من تنظيمات الاخوان ، فمن حق التاريخ أن نقرر أنه كانت هناك تنظيمات أخرى ولكنها كانت قاصرة على القاهرة ، وكان كل تنظيم منها قليل العدد ، غير قائم على أسس من المبادىء الدينية أو الخلقية ، ولا على تجانس فى الافكار والمعتقدات ، كما أنها جميعا لا تستند الى قاعدة شعبية ، فلا نصيب لاى منها فى مثل هذه القاعدة

أما تنظيمات الاخوان فانها كانت تخضع لاساليب مركزة تجمع بين التربية الروحية والتدريبات العسكرية والبرامج الثقافية ٠ ولذا فانها تقوم على أسس من المبادىء الدينية والخلقية،وعلى تجانس تام فى الافكاروالمعتقدات فضلا عن أنها تستند الى أوسع قاعدة شعبية قوية صلبة متماسكة ٠

وقد يبدو الفرق الشاسع بين هذه التنظيمات والتنظيمات الاخوانية فى الناحية الفكرية فى موضوع تحرير مصر الذى نحن بصدده ٠ فالتنظيمات

الاخرى ترى تحرير مصر من الحكم القائم بها هو الهدف وهو الغاية · بينما ترى تنظيمات الاخوان أن تحرير مصر من الحكم القائم بها هو مجرد وسيلة لتمكين الحكم الاسلامى من القيام بها ، اذ ان تحريرها هو بمثابة ازالة العوائق من طريق المصلحين الذين يريدون رفع لواء هذا الحكم القرآنى بها ، ثم توسيع نطاق هذا الحكم حتى يعم العالم الاسلامى كله ·

وبالرغم من هذه الفروق الشاسعة بين التنظيمات الاخوانية والتنظيمات الاخرى ، فان التنظيمات الاخوانية – لمجرد التقائها مع التنظيمات الاخرى فى نقطة واحدة وهى العمل على تحرير البلاد من الحكم القائم بها – فانها فتحت لهم صدرها ، وأوسعت لهم من حمايتها ، ومنحتهم من رعايتها ، وكانت موئلا لهم كلما حزب الامر ، وملجأ اذا اشتد الخطب ·

وقد يرى القارىء فى هذا الكلام بعض الابهام ، ولا يحس فيه الوضوح الكافى ·· وهذا صحيح ·· ومع ذلك فلا نستطيع الآن أن نكون أوضح من ذلك ، فكل شىء مرهون بوقته · وسوف يأتى ان شاء الله فى الجزء الثالث من هذا الكتاب توضيح ذلك وجلاء حقيقته وتفصيل مجملة ·

وخلاصة القول هى أن الاخوان فى خلال هذه الفترة أعدوا أنفسهم فى هذه الناحية ، وأعدوا الشعب تمام الاعداد ، وتلاقت عندهم كل الجهود العاملة على تغيير الوضع ، وأخذوا فعلا فى وضع خطة العمل ·

ومع أن أكثر الناس لم يكونوا يعرفون شيئا عن الاعداد السرى للاخوان ، فان الشعور العام فى مصر كان متجها اليهم ، والانظار مصوبة نحوهم ، والآمال معقودة عليهم · والكل يترقب العمل المأمول من الاخوان المسلمين · وصار المرشد العام للاخوان المسلمين هو المحور الذى تدور حوله الاحداث ، والرجل الذى عنده الكلمة الفاصلة ·

ولم يكن الطرف الاخر – أقصد الملك ومعاونيه – يجهل ذلك ، ولكنهم قد سقط فى أيديهم ورأوا أن الموجة الشعبية المستنيرة العارمة كادت تجرفهم ، ولا يستطيعون لها دفعا ··· ولعل الملك حين رأى الموجة الاخوانية العاتية ظن أن وجود جهاز سرى من العسكريين والمدنيين هو الذى أكسبهم هذا التفوق ، فدفعه ذلك الى انشاء جهازه السرى الذى سماه « الحرس الحديدى » عملا بالمثل المأثور « لا يفل الحديد الا الحديد » ولكن فات جلالته أن يذكر دلالة المثل الاخر الذى يقول « ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة » ·

الفصـــل الثـــالث

المصير المحتوم

□ آخر سهم فى كنانتهم ولكنه مسمم :

منذ وليت الحكم وزارة الهلالى وحلت مجلس النواب الذى وافـق على الغاء المعاهدة ، وهى تعلن عن عزمها على اجراء الانتخابات فى أقرب وقت ممكن ٠ ودأب رئيس الوزراء على استطلاع رأى الاحزاب والهيئات فى موضوع الانتخابـات ومـوقفهم منها ٠ وقـد تلقى اجابـات من جميعها بالترحيب بالانتخابات وعزمهم على دخولها ٠٠ الا الاخوان المسلمين فانهم أعلنوا أنهم لن يدخلوا الانتخابات ٠ وكان نص قرارهم الذى أعلنوه هو :

« عدم الاشتراك فى المعركة الانتخابية لا باسم الهيئة ولا بصفـاتهم الشخصية ٠ لان الاوضاع الانتخابية منذ عام ١٩٢٤ تقوم على أساليبتتنافى مع مثل الاخوان وطبيعة دعوتهم ٠ كما دلت على ذلك تجاربهم العملية » ٠

وكان هذا القرار قد أتخذ وأعلن فى ٢٨ مارس ١٩٥٢ أى فى أوائل أيـام تولى الهلالى مقاليد الحكم ٠

ويبدو أنه كان من الاهداف الاساسية التى جىء بهذه الوزارة الىالحكم من أجل تحقيقها أن تجر الاخوان المسلمين الى خوض المعركة الانتخابيـة ٠ ودليل ذلك أن أول اجراء اتخذته هذه الحكومة هو حل مجلس النواب والاعلان عن اجراء انتخابات ، والاتصال برؤساء الاحزاب والهيئات لتحديد مواقفهم منها ٠ وهى تعلم والكل يعلم أن جميع الاحزاب تتمنى أن تجرى انتخابـات حتى تنعم بالوصول الى كراسى الحكم ، ومن لم ينعم بكراسى الحكمفسينال ولو أقل القليل من مغانمه ـ فلما قـرر الاخـوان وحـدهم ـ رفضهم خـوض الانتخابات أسقط فى يد الحكومة وأعلنت ـ تحت ستار اتمام عملية التطهير ـ تأجيل مـوعـد اجـراء الانتخابـات ٠

وفى العاشر مـن ابريل أعـادت الحكومة الكـرة فى عملية الاستطلاع ، وكلفت وزير العدل أن يطلب من الاخوان المسلمين ابداء الاسباب التىرفضوا من أجلها دخول الانتخابات ٠ وأعاد الاخوان ـ فى مذكرة مكتوبة ـ الاسباب التى أعلنوا مجملها فى قرارهم السابق ٠ ومما جاء فى هذه المذكرة : « أن مـن المآخذ التى يأخذها الاخوان على قانون الانتخاب أنه لايلزم الناخب باستعمال حقه ، ولذلك كان معظم الذين يستعملون حقهم الانتخابى ممن يسهلاغراؤهم

والتأثير عليهم ، وأنه لا يميز المتعلم الذى يستطيع أن يكون رأيا قائما على حكم شخصى باعطائه صوتين أو ثلاثة مثلا ، وأنه لا ينص على ضرورة حمل البطاقة الشخصية المعتمدة من الجهة الرسمية المختصة منعا للتلاعب ، وأنه ليست فيه الضمانات الكافية لوقاية المعركة من تدخل رجال الادارة ، وغير ذلك من المآخذ . »

وعرضت هذه المذكرة على مجلس الوزراء الذى قرر بناء على ما جاء فيها تأجيل موعد اجراء الانتخابات الى شهر أكتوبر ١٩٥٢ حتى يمكن اجراء تعديلات فى قانون الانتخاب .

وينبغى على — وقد كنت ملابسا لهذه الظروف التى أتحدث عنها الان — أن أقرر أن كثيرين من الاخوان فى ذلك الوقت كان من رأيهم خوض المعركة الانتخابية باعتبار ذلك وسيلة من وسائل نشر الدعوة وتحقيق أهدافها ، مطمئنين الى ما يتمتع به الاخوان من تأييد شعبى واسع النطاق ولكن هؤلاء الاخوان — ثقة منهم فى مرشدهم — نزلوا على رأيه عن رضا وطواعية ، فخرج القرار قرارا اجماعيا لا رجعة فيه .

وقد وضح بعد ذلك أن هذا الرجل كان بعيد النظر ، يصدر عن قلب عامر بالايمان ، وعقل مستنير ، وأن قراره هذا قد وضع الدعوة فى موضعها اللائق بها من الطهر والسمو ، وربأ بها عن النزول الى مواطن الاسفاف وهجر القول والخداع والكذب .

ولعل فى هذا الموقف للاستاذ حسن الهضيبى أبلغ الرد على من يرمونه بأنه انحرف بالدعوة الى مزالق السياسة وأوحالها كما يدعون .

□ احباط الخطة الخطيرة أو رد سهمهم الى نحورهم :

ولقد تبين فيما بعد أن هذا الموقف الاخوانى قد أحبط خطة محكمة محبوكة الاطراف ، قد دبرت بدقة وعناية ، ذلك أنه كان يراد القضاء على القوتين الشعبيتين فى البلاد : الوفد والاخوان . (وبصرف النظر عن الاختلاف الكبير بين الهيئتين فى المبادىء والوسائل والاهداف فانهما بحكم الواقع هما الهيئتان الشعبيتان الوحيدتان فى البلاد) فجىء بالهلالى باعتباره موتورا من الوفد لا سيما من عنصره الفعال سراج الدين ، ويتمنى أن تتاح له الفرصة للنيل من الوفد وتمزيقه .

ولما كان تحقيق هذا فوق طاقة أية حكومة ، فقد رسمت له الخطة بأن يحل مجلس النواب الوفدى ويعلن عن اجراء انتخابات عليه أن يجر الاخوان

اليها ٠٠ وبذلك تقف القوتان الشعبيتان الوفد والاخوان ، كل امام الاخرى ، فتقوم كل منهما بتصفية الاخرى ــ ويتحقق بذلك ما عجز عن تحقيقه أصحاب المصلحة من الانجليز والملك وأعوانهم ٠٠ ويصفو لهم بذلك الجو ٠

عصم الله تعالى الدعوة من الوقوع فى شباك هذه الخطة الجهنمية ، بفضل التفاف الاخوان حول مرشدهم ، وثقتهم فيه ، ونزولهم عند رأيه ، وتأييدهم لخطواته ٠ وقد كسبت الدعوة الكثير من هذا الموقف ولم تخسر شيئا ٠٠ والانتخابات التى طنطنوا بها وحددوا لاجرائها الميعاد تلو الميعاد شاء العلى القدير أن لا تجرى ٠

□ اقصاء الهلالى :

ولما فشل الهلالى فى جر الاخوان الى الانتخابات أعفى من منصبه باستقالة قدمها فى آخر شهر يونيه ١٩٥٢ منتحلا اعذارا لتغطية السبب الحقيقى الذى ظل محجوبا عن المصريين ، وان كان المراقبون الاجانب فهموه وعلقوا عليه تعليق الخبراء الحاذقين ، فقد نشرت جريدة النيويورك تيمس فى ٥ مايو ١٩٥٢ برقية مطولة عن موقف الاحزاب فى مصر بمناسبة قرب الانتخابات العامة فقالت :

« ان الوفد أقدم الهيئات فى مصر وأدقها تنظيما صحيحا قويا حتى ان له لجانا تنفيذية فى جميع أنحاء القطر حتى أصغر القرى ــ وقالت : **لا شك فى أن الاخوان المسلمين قوة لا يستهان بها ٠ وقالت : انهم آثروا عدم خوض المعركة الانتخابية حتى يتم لهم تنظيم صفوفهم بالصورة التى يعتقدون أنها كفيلة بتحقيق أهدافهم** »

وزارة حسين سرى

كان سقوط وزارة الهلالى فى ٣٠ـ٦ـ١٩٥٢ علامة واضحة لا على تدهور الموقف فحسب ، بل على انهياره انهيارا تاما ، حتى ان الطبقة المثقفة من الشعب باتت فى قلق شديد ٠ وشملها شعور بأن البلاد مشرفة على تطور خطير ــ ولقد كنت فى ذلك الوقت منتدبا فى عملى الخاص بالاسكندرية ٠ وجمعتنى هذه الفرصة بعدد من أقربائى المثقفين الذين كان اشتغالهم بالسياسة طفيفا ، وجلسنا فى احدى ليالى النصف الاول من شهر يوليو ١٩٥٢ فى شرفة منزل أحدهم ، ودار الحديث حول حالة البلاد وما تعانيه من تمزق وعدم استقرار ، فكان هذا الشعور شعورهم وشعور كل مجلس وكل مجتمع فى مصر

□ شعور عام باليأس من الاصلاح :

ساد هذا الشعور جميع أوساط الشعب سواء فى الناحية الخارجية والناحية الداخلية ، فالوزارة التى يشتم منها رائحة اتجاه عملى نحو اصلاح

خارجى أو داخلى لا يلبث الشعب أن يراها بطريقة أو بأخرى قد أرديث ٠٠فمما لا شك فيه أن وزارة على ماهر كانت جادة ومتأهبة لعمل ايجابى يتطلبه الموقف ، ولكنها لم تمكن وأسقطت بأسلوب غير كريم ٠٠ ويؤتى بعدها بوزارة كل بضاعتها وعود ، ويكاد يقتصر عملها على الكيد لحزب الوفد بدافع التشفى لا بهدف الاصلاح الذى كان يقتضى تتبع الفساد فى كل الاحزاب والهيئات مهما علا مقامها ٠٠ وضاعت مصالح البلاد بين هذه الوزارات المتعاقبة ٠

ونموذجا لهذا اليأس الذى أحاط بالنفوس فى تلك الفترة من الزمن نورد حديثا لحافظ رمضان باشا رئيس الحزب الوطنى نشر بجريدة « أخبار اليوم » فى ٢٦-٤-١٩٥٢ تحت عنوان « لماذا قررت اعتزال السياسة»جاء فيه: « وقلتها صريحة فى ٢٦ سبتمبر ١٩٥٠ ان الحالة الداخلية قد بلغت حدا من المفاسد لا مزيد عليه ٠٠ وكنت أول قائل فى ٢٣ فبراير ١٩٥١ ان البلاد فى حاجة الى عملية تطهير شاملة ٠ قلت ذلك كله وجهرت به فكان أغلبه يذهب أدراج الرياح ٠

بل ان ذات الحركات التى بدرت وأملت فيها تحقيقا للمبادىء الصحيحة والافكار السليمة ، كالغاء المعاهدة المشئومة وما تلا الالغاء ، والصيحة بحركة التطهير وما أعقب الصياح ٠٠ ما لبثت أن رأيتها صادرة عن ارتجال معيب أو سارية فى تعثر ممقوت ٠٠

فالحكومة التى ألغت المعاهدة وصرحت فى مظاهرة الالغاء باتخاذها الحيطة لكل احتمال ، والعدة لكل حال ٠٠ اتضح أنها لم تقدر احتمالا ولم تفهم حالا ٠٠ والحركات التى تلت هذا الالغاء تعثر جلها برغم صدق بعضها ٠

وحركة التطهير التى أملنا فيها بعض الخير الداخلى ، تسير فى بطء غير مطمئن ، وتتأوح بينها تيارات أخشى معها أن تنقلب الى مجرد معركة حزبية أو شخصية أو انتقامية ، دون أن تسير كما ناديت أساسا لاصلاح شامل يطهر الادوات والنفوس ٠

كل ذلك الذى أراه جعلنى أشعر بالفساد ينتاب جل نواحى الحياة السياسية فى البلد ، وجعلنى أحس أن الوسائل المشروعة ، والمنطق المعقول والقيم الاخلاقية ـ وهى عدتى على ما أسلفت ـ لم تعد مجدية ٠٠ لهذا انسحبت الى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا »

وفى خلال هذه الحقبة أيضا نشرت نفس الجريدة حديثا للمرشد العام وكان فى الاسكندرية ، على الوجه الآتى :

— قلت لفضيلة الاستاذ حسن الهضيبى بك المرشد العام للاخــوان المسلمين : يبدو فى المدة الاخيرة من الاخوان المسلمين ظاهرة انكماش مـن الميدان السياسى ، فلم نعد نسمع لهم رأيا فى أحوال مصر السياسية كمـا كانوا من قبل — فكيف تعللون ذلك ؟

— فأجاب فضيلته : ان الاخوان يعتبرون الموقف السياسى فى مصـر بحرا مضطربا لا أمان لاحد فيه ، فهم يقفون على شاطئه ينظرون من يغرق فيه ، ولا يريدون أن تطيح بهم العواصف مع الغرقى • وهم بالتزامهم هذا الموقف انما يلتزمون جادة الصواب • ويكفى فى دفع اللوم عنهم أنهم يقدمون النصيحـــة للقــائمين بالامــر •

وقد أدليت برأى الاخوان فى سياسة مصر لرفعة على ماهر باشا ودولـة أحمد نجيب الهلالى باشا عندما توليا رياسة الوزارة — وسيظل هذا هو موقف الاخوان الى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا •

— هل يتغير موقف الاخوان بالنسبة للانتخابات القادمة ؟

— لا يزال الاخوان المسلمون عند رأيهم الذى اعلنوه من قبل • وهو عـدم دخولهم الانتخابات القادمة اذا أجريت • ولم تعد هذه المسألة محل بحث أحد منهم • وهى لا تشغل بالهم على الاطلاق ، فقد اتخذوا فيها قـرارهم وانتهى الامــر بالنســـبة لهم ،

ولكى يكون القارىء امام صورة واضحة المعالم لهذا الموقف وما كان يثيره فى النفوس من قلق ، نرجع الى ما نشرته جريدة « أخبار اليوم » فى ٥ يوليـه ١٩٥٢ تحت عنوان « ٣ وزارات فى ٤ أيام » فقد كتبت تقول :

« فى يوم السبت استقالت وزارة الهلالى باشا •• وكلف سرى بـاشـــا بتأليف الوزارة •• وأثناء قيام رفعته بمشاورات وزارته كان بهى الدين بركات باشا قد استدعى لتأليف الوزارة — وهكذا كان فى مصر ثلاث وزارات :

وزارة مستقيلة عليها أن تقوم بأعباء الحكم لان استقالتها لم تقبل بعد •• ووزارة يؤلفها سرى باشا •• ووزارة يؤلفها بركات باشا — واستمر هـــذا الوضع الذى واجهته مصر لاول مرة فى تاريخها حتى بعد منتصف الليـل •• يوم الثلاثاء •• وهذه قصة ثلاث وزارات فى أربعة أيام •

وبعد أن كان الصحفيون تغص بهم حجرات منزل سرى باشا فى الاسكندرية ، انتقل الصخب والضجيج وعشرات السيارات والصحفيون الى منزل بهى الدين بركات باشا فى منطقة مصطفى باشا قرب سيدى جابر •

• وبهى الدين باشا يسأل الاستاذ على حمدى الجمال المحرر « بالاخبار » وهو منه بمنزلة الابن : ماذا يرضى الشعب يا على في هذه الظروف ؟

فيجيب الصحفى الشاب : الشعب يريد الغاء الاحكام العرفية ، ورفع الرقابة عن الصحف، والافراج عن المعتقلين ، واجراء الانتخابات والحكم النظيف .

□ لماذا عدل عن بهى الدين باشا ؟

ووقع الاختيار أخيرا على حسين سرى باشا — وقد سبق لهذا الرجل أن تولى منصب الرياسة أكثر من مرة ، كما تولى رياسة الديوان الملكى عندما أخلى مكــانـــه لــوزارة الوفــد الاخيرة •

وبعد أن استقر الرأى على حسين سرى باشا تم اجتماع في الاسكندرية بين بهى الدين باشا وبين المرشد العام •• ولكننا لا ندرى لم كان الاتجاه أولا الى بهى الدين باشا ولماذا عدل عنه •• وقد يكون سبب العدول عنه أنهم تذكروا أن هذا الرجل معروف بالنزاهة المطلقة ، وبالدقة التامة في تحرى الحقائــق ، وبعدم المجاملة في مواجهة الفساد مهما علا مركز الجهة التى تحمى هذا الفساد •• والقصر الملكى كان في ذلك الوقت ذا حساسية بالغة في هذه الناحية وكــان محتاجا الى رجل يتغاضى •• وقد سبق أن تولى بهى الدين باشا منصب رياسة ديوان المحاسبة فلم يطيقوه وسارع هو بالاستقالة ••

وحسين سرى باشا مع أنه كان مشهورا بالصرامة والاستقامة ، الا أن شغله المناصب التى شغلها والتى أشرنا اليها آنفا ، قــد دل على أنه مـــن السياسيين المحترفين الذين جبلوا على اعتقاد أن القصر الملكى فوق القانــون وفوق مستوى النقد ••• فاختيار القصر لرجل سبق له أن جربه آمن له من اختيــار رجــل لم يجربــوه •

□ وزارة تـــاريخية

□ ملابسات تأليفها تنذر بانهيار العهد

ولما كانت وزارة حسين سرى باشا هذه وزارة تاريخية ، وأعنى بــذلك أنها تعتبر معلما واضحا بين حقبتين متباينتين من التاريخ — وكانت طريقة تأليفها ذات دلالات معينة مرتبطة بالاحداث الجسام ارتباطا وثيقا ، فقد وجب وضعها موضع المناقشة والبحث والتمحيص :

١ — أول ما يتبادر الى خاطر انسان يريد أن يعرف أو أن يكون رأيا عن حكومة من الحكومات هو أن يستعرض أعضاءها •• ومع أن تأليف هذه الوزارة قد مر بمراحل طويلة وشاقة وهى بيت القصيد في بحثنا هذا فاننا نبدأ باثبات الوضع الاخير لاعضاء الوزارة :

حسين سرى باشا	الخارجية والحربية والبحرية
الدكتور محمد هاشم باشا	الداخلية
محمد على راتب باشا	الشئون البلدية
نجيب ابراهيم بك	الاشغال والمالية بالنيابة
سامى مازن بك	المعارف
كريم ثابت بك	وزير دولة
سيد عبد الواحد بك	المواصلات
الدكتور أحمد زكى	الشئون الاجتماعية
الدكتور محمد على الكيلانى	الزراعة
الدكتور حسين كامل الغمراوى	التموين
الدكتور عبد المعطى خيال	التجارة والصناعة
الدكتور محمود صلاح الدين	الصحة
الدكتور على بدوى بك	العدل
الشيخ فرج السنهورى	الاوقاف

وكان النطق الملكى لهذه الوزارة هو : « أرجو أن تقدروا الظروف الدقيقة التى تمر بها البلاد، لا من الناحية السياسية وحدها بل من الناحية الاقتصادية»

٢ ـ مجرد نظرة سريعة على هذه الوزارة يفهم القارىء منها دون جهد أنها وزارة فنية غير حزبية جمعت عددا من أعظم العلماء الاخصائيين ذوى السمعة الطيبة ، وأكثرهم لم يتول منصب الوزارة من قبل ٠

٣ ـ استغرق تأليف هذه الوزارة أربعة أيام ، طلب رئيسها فى أثنائها اعفاءه من تأليفها أكثر من مرة ، وكان الملك يصر عليه فى كل مرة ٠

٤ ـ كان فى هذه الوزارة مناصب وزارية معينة نشأ عن شغلها خلاف كبير بين سرى باشا والملك ٠

ومن هذه المناصب منصب وزير المالية ، فقد رشح سرى باشا لهذه الوزارة « حلمى بهجت بدوى » ورشح الملك شخصا آخر ٠ وقد مرض حلمى بهجت فسوى بذلك الخلاف ، ولكن سرى رفض مرشح الملك وأسند هذا المنصب مؤقتا الى نجيب ابراهيم بك بالنيابة ٠٠ وقد يحس القارىء من الخلاف على هذا المنصب أن فى التصرفات المالية للقصر الملكى عورات يحرص الملك على سترها عن الاعين ٠

٥ ــ المنصب الآخر الذى كان مثار خلاف شديد ، وكاد يعصف بالوزارة كلها ، وقد مر بتطورات خطيرة ، وكانت هذه التطورات ذات أهمية تاريخيــة بالغة ، فقد كان لها ما بعدها ٠٠ وكانت هذه التطورات تجرى فى الخفاء ، ولم يكشف عنها الا بعد سقوط الوزارة وزوال العهد كله ٠٠ بل ان هذه التطورات هى التى عجلت بهذا الزوال ٠٠ ونوجز هذه التطورات فيما يلى ، مستقينــن بعض الانباء مما نشر بجريدة « أخبار اليوم » فى ٢ من أغسطس ١٩٥٢ :

أ ــ لعل القارىء يذكر انتخابات نادى ضباط الجيش التى أجريت فى ٣١ ــ١٢ــ١٩٥١ والتى حرصنا على ذكرها واثبات تفاصيل ما جرى فيها ومــا أسفرت عنه فى فصل سابق ، وأومانا الى أهمية هذه الانتخابات باعتبارهــا معلما من المعالم الاساسية التى كشفت دلالاتها عن تصدع بناء هذا العهــد ، وأشرنا الى أن الملك أحس بخطورتها على عرشه ، وكاد يتخذ ازاءها اجراء عنيفا ٠ ولكن مستشاريه أقنعوه فى ذلك الوقت بالتسليم بالامر الواقع،ورسموا له خطة أخرى تعتبر بمثابة حركة التفاف يطوق بها ماتم فى هذا النادى مــن اجــــــراءات ٠

ب ــ يبدو أن الاحداث كانت اسبق من خطوات الملك فى هذا السبيل ٠ وقد أحس بهذا السبق فقرر العدول عن نصيحة مستشاريه ٠ وعزم على انتهاج سياسة التحدى لعله يعوض ما سبقته به الاحداث ٠

ج ــ كانت سياسة التحدى تتلخص فى اجراءين اثنين هما : حل مجلس ادارة نادى الضباط ، ونقل اللواء محمد نجيب وابعاده عن القاهرة ــ كــانت هذه هى رغبة الملك ، ولكن صاحب الحق فى اصدار هذين القرارين هو القائد العام للقوات المسلحة الفريق أحمد حيدر باشا ٠٠ ومع أن أحمد حيدر كان من الشخصيات المقربة من الملك حتى انه كان يعد من صنائعه فانه كان مشفقــا على نفسه من أن يصدر هذين القرارين ٠

د ــ فى اثناء فترة تاليف الوزارة ، وفى خلال احدى مقابلات حسيــــن سرى باشا مع الملك ، طلب اليه الملك فصل حيدر من منصب القائــد العــام للقوات المسلحة ليحل محله الفريق حسين فريد رئيس هيئة أركان حــرب الجيش ، على أن يحل محل حسين فريد فى رياسة أركان حرب الجيش اللواء حسين سرى عامر حبيب الملك وصنيعته ورجله المقرب ، والذى دبر من أجلــه اغتيال الضابط عبد القادر طه ــ كما طلب الملك من رئيس الوزراء نقل اللواء محمــد نجيب خارج القاهرة ٠

هـ ــ طلب رئيس الوزراء مهلة لبحث هذه المطالب مشعرا الملك بعــدم

موافقته عليها لانه يحس أن فى البلاد غليانا ، وأن فى الجيش تذمرا • وقد عرف سرى باشا عن طريق زوج ابنته الدكتور محمد هاشم باشا أن الجيش كله ملتف حول اللواء محمد نجيب ـ وكان الدكتور محمد هاشم قد اجتمع ـ فى الخفاء ـ باللواء محمد نجيب وعرف منه الحقائق ، وأبلغها لصهره المرشح لرياسة الوزارة فاقتنع سرى باشا ـ بدافع الخلاصه للملك ـ بأن ترشيح محمد نجيب لوزارة الحربية والبحرية هو الحل الامثل للخروج من الازمة التى يعانيها الملك والتى تضطرم فى البلاد ، لا باقصائه وابعاده ••• وفعلا قرر ترشيحه فى قائمة الوزراء لهذا المنصب •

و ـ أرسل سرى باشا الى الملك يطلب منه معرفة أسباب طلبه فصل حيدر ، فجاءته ورقة من السراى مكتوب فيها بالقلم الاحمر : لكى لا يفصل جدير فعليه فى ظرف خمسة أيام أن يحل مجلس ادارة نادى الضباط،وينقل ١٢ ضابطا • فاستدعى سرى باشا حيدر وأطلعه على المذكرة وسأله عن الاثنى عشر ضابطا • فقال انه لا يعرفهم • فقال له سرى باشا : ابحث هذاالموضوع ثم عد الى ـ فرجع اليه فى اليوم التالى وقال : خلاص أصدرت أمرا بحل مجلس ادارة نادى الضباط ـ فقال له سرى باشا : لماذا تعجلت وأنا لم أكلفك باصدار هذا الامر وانما طلبت منك مجرد بحث الموضوع ؟ فرد حيدر قائلاً : أنا كنت سأفصل من عملى •

ز ـ كان هذا القرار بمثابة صب البنزين فوق النار سواء فى الاوساط الشعبية وفى الجيش •

ح ـ تقدم حسين سرى الى الملك بقائمة الترشيحات الوزارية وقدرشح فيها اللواء محمد نجيب لوزارة الحربية والبحرية • ورفض الملك القائمة لوجود محمد نجيب بها • وتمسك سرى بنجيب • وحدثت أزمة • وأصر حسين سرى على الاستقالة وذهب الى بيته ـ وفى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى زاره حيدر موفدا من قبل الملك ، ودار بينهما الحديث التالى :

حيدر ـ يا باشا أنت تعرف حبى لك وتقديرى لشخصك •••

فقطع عليه سرى الكلام وقال : احنا الآن فى جد مش فى هزل • الجيش فى تذمر وهذا التذمر سينتهى الى ثورة تأكل الاخضر واليابس • وأنتم تعيشون من ساعة لساعة وبتقولوا دى زوبعة فى فنجان وأن حكومتى حكومة جبناء •• وأحب أن أقول لك للمرة الأخيرة أن النصح والاصرار ليس جبنا •• وأنا شايف أنها ثورة وأنتم شايفين انها زوبعة فى فنجان •• وأنا شايف أن محمد نجيب محبوب فى الجيش وأنتم بتقولوا العكس ـ وأنا بقول ان سرى عامر راجل وسخ وحرامى وأنتم متمسكين بيه • والذى لا نختلف عليه أن هناك

تذمرا ، ونحن مختلفون فى تقدير مدى هذا التذمر ونتائجه • وأنا اللى بحكم وشايف كل حاجة فمفيش محل للكلام ده وأنا مستقيل » •

فلما عجز حيدر عن اقناعه أرسل اليه الملك حافظ عفيفى رئيس الديوان وقال له : ان الملك فى مأزق ، وهو يثق فيك كل الثقة ، ويرجوك أن تؤلف الوزارة • واتفق معه على أن يتولى هو بنفسه مؤقتا وزارة الحربية والبحرية

٦ ـ كريم ثابت من رجال السراى ورجال الحاشية ووظيفته السكرتير الصحفى للملك • ويلاحظ أن الملك قد حشره فى الوزارة وزير دولة ليكون عينا له على الوزارة ولعل سرى باشا قد أذعن لهذا الحشر تهدئة لروع الملك وتخفيفا من فزعه •

□ **دلائل أخرى على الانهيار التام :**

ومما يدل أيضا على خطورة الحالة فى مصر فى تلك الحقبة ما يأتى مما ننقله من « أخبار اليوم » فى ١٩ يوليه ١٩٥٢ :

أولا ـ اجتمع سرى باشا منذ يومين بأحد أصدقائه المقربين اليه • وكان هذا أول اجتماع بينهما بعد تأليفه الوزارة ـ وبادر سرى باشا قائلا : لعلك تريد أن تسألنى كيف قبلت الحكم برغم تأكيدى لك أنى لن أتولى الوزارة ؟ •

فرد سرى باشا قائلا : لقد كنت أنت على حق •• وكنت أنا أيضا على حق ـ كانت هناك محاولات لاقناعى بقبول الوزارة ولكنى رفضت ذلك رفضا باتا ••

وبعد ذلك صورحت بحقيقة الموقف وبما آلت اليه مصائر البلاد.وكيف أصبح الامر من الخطورة بحيث لا يسع أى مصرى الا أن يتقدم لحمل العبء ولو ناءت به كتفاه •• ولما وجدت الامر كذلك لم يسعنى الا أن اقبل الوزارة لعلى أنقذ شيئا •

ثانيا ـ لم يكن المصريون وحدهم هم الذين يحسون بخطورة الموقف فى البلاد وبأن البلاد مقبلة على أحداث جسام •• واليك ما نشرته « أخبار اليوم » فى نفس اليوم تحت عنوان « أنوار كاشفة » وجاء فيه .

« وقد واجهت وزارة حسين سرى باشا بعض العقبات عند تأليفها ، ولهذا فانه يمكن القول انها ولدت فى الاعاصير • وعادة أن المولود الذى يولد فى أثناء العواصف لا يتأثر كثيرا بتيارات الهواء •

ومن الطريف أن كثيرا من السفراء والوزراء المفوضين الذين زاروا

الوزراء مهنئين سألوهم : كم يعتقدون أن عمر الوزارة سيطول ؟ وهو سؤال ما كان يصح أن يوجه الى الوزراء • اذ المفروض دائما أن الوزير كالـزوج هـو آخـر مـن يعلم •• »

أمـا نحـن فنقـول :

لقد صدق حدس الشعب وحدس هؤلاء السفراء ، فقد مكثت هذه الحكومة فى الحكم سبعة عشر يوما ، ثم خلفها وزارة أخرى برياسة الهلالى مكثـت سبـع عشـرة سـاعة •

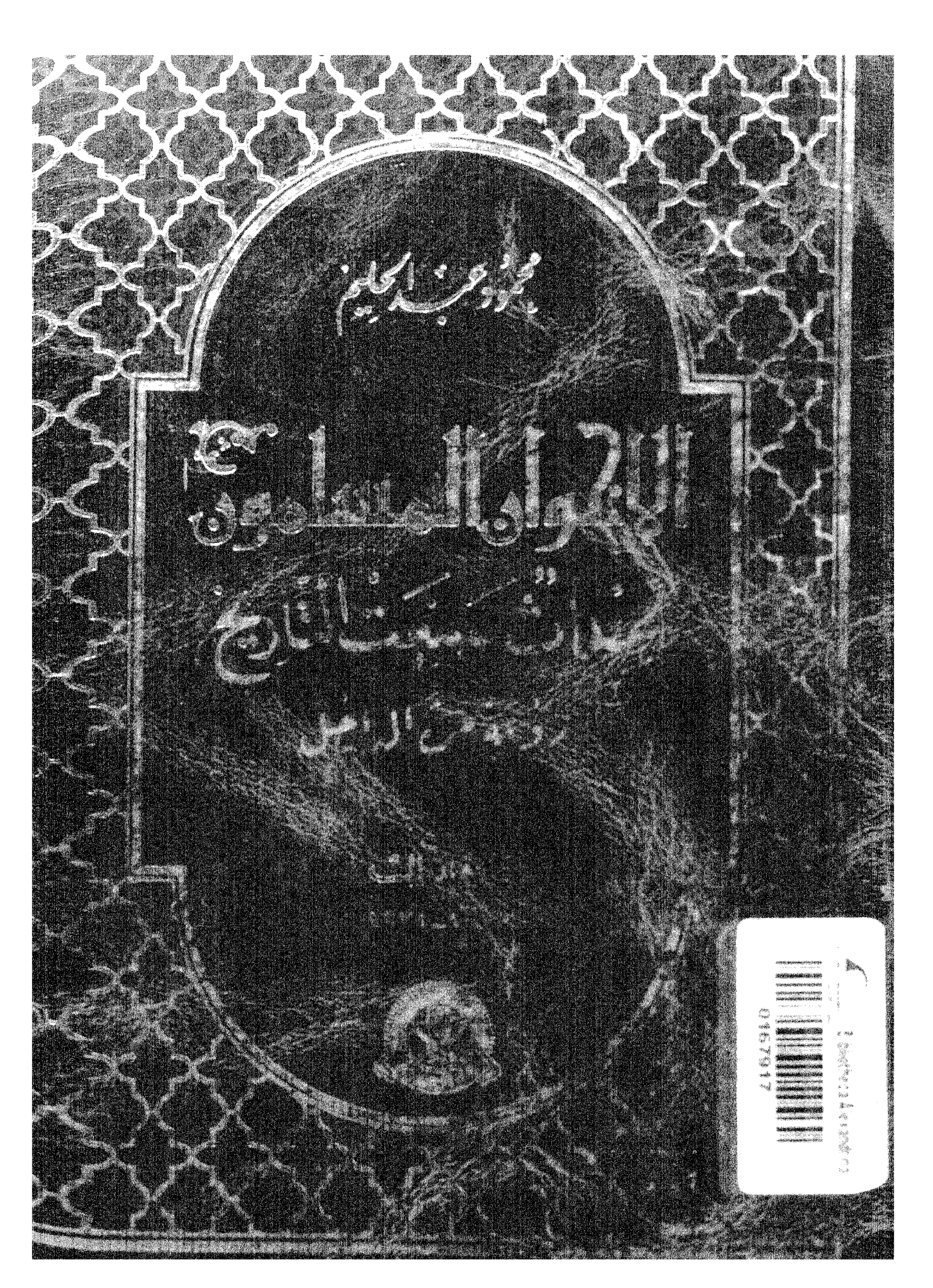
وكانت الازمة المستحكمة تتلخص فى أن البلاد صار يتنازعها تيـاران متعارضان : تيار متمسك بما أعلن من الغاء المعاهدة ، ومصمم على مواصلـة المقاومة ضد المستعمر المحتل حتى يجلو عن وادى النيل ـ والتيار الآخر يرى مصلحته فى مصالحة المستعمر والاستسلام له والرجوع عما تم اتخاذه مـن خطوات ايجابية فى الغاء المعاهدة •

والتيار الاول من ورائه الشعب كله بجميع طوائفه وهيئاته • والتيار الآخر منبعث من القصر الملكى ومعه حفنة من السياسيين القدامى المحترفين من ذوى المصالح وعشاق مناصب الحكم ، ولكنهم مع ذلك لا يجرؤون • أمام اجماع الشعب ـ على الاعلان عن نواياهم ، فهم يلجأون الى أساليب ملتوية ، وخطط باهتة المعالم ، يخفون فى ثناياها أغراضهم وأهدافهم ـ وكلما جربـوا أسلوبا فخيب آمالهم لجأوا الى أسلوب آخر •• والشعب واقف لهم بالمرصاد

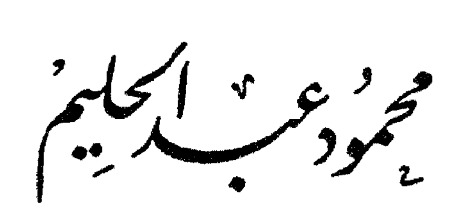
وكان الملك فى ذلك الوقت فى أشد حالات الذعر والهلع ، كالمجرم الـذى عاث فى الارض فسادا ثم وجد نفسه أخيرا وقد ضيق عليه الخناق ، وأحيط به من كل جانب • ورأى يد العدالة تمتد الى عنقه لتقتص منه ـ ولم يكن هـذا الوصف لحالة الملك مجرد تصور أو تخيل ، بل لقد تبين فيما بعد أنه كـان يفكر فى ذلك الوقت فى الهرب من البلاد •

رقم الايداع ٥١٩٣ — ١٩٨١

طبع بمطابع جريدة السفير
٤ شارع الصحافة
ت ٨٠٣٩٦٤ إسكندرية



محمود عبد الحليم
الإخوان المسلمون
أحداث صنعت التاريخ
رؤية من الداخل



عضو الهيئة التأسيسية

الإخوان المسلمون

أحداث صنعت التاريخ

رؤية من الداخل

الجزء الثالث

١٩٥٢ - ١٩٧١

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع
١ شارع منشا - محرم بك (الإسكندرية)

الطبعة الثالثة
١٤١٤هـ - ١٩٩٤

الطبعة الثانية
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

الطبعة الأولى
١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

فاجأني الإخوة الأعزاء من رجال دار الدعوة بالإسكندرية ــ بعد فترة قصيرة من ظهور الجزء الثالث من هذه المذكرات ــ بأن المطبوع منه قد نفد ، وأنهم يعدون لطبعة ثانية له ، وطلبوا إليّ أن أكتب مقدمة لهذه الطبعة إن شئت .

وقد صادف هذا الطلب عندى استعداداً ؛ فقد تلقيت من إخوة كرام رسائل كان عليّ أن أرد عليها ، فوجدت فى كتابة هذه المقدمة ما قد يغنينى عن الرد على كل منهم على حدته ، وقد يتيح لى أيضا أن أزيد بعض الجوانب وضوحاً بإلقاء مزيد من الأضواء عليها .

ومضمون هذه الرسائل من نقاط كان ماثلا فى خاطرى منذ كنت أعد نفسى لكتابة هذه المذكرات .. ولهذا حرصت فى كتابة مقدمات الأجزاء الثلاثة على أن أطرق هذه النقاط بالذات طرقا ملفتا ما استطعت ؛ حتى لا يحتاج أحد ألى التوجه إليّ بشأنها بعد ذلك .. غير أن ذلك لم يسترع انتباه بعض الإخوة فإذا هم يتوجهون بها إليّ كأنهم لم يقرأوا هذه المقدمات .. ولو كنت راداً عليهم ردودا خاصة لكان ردى هو أن أحيلهم إلى هذه المقدمات ليعيدوا قراءتها وينعموا النظر فيها .

وأنا ممن يولون قراءة مقدمات الكتب أعظم اهتمام ؛ فقد أقرأ الكتاب مرة واحدة ولكني أقرأ المقدمة أكثر من مرة ، وقد أرجع إليها فى أثناء قراءتى فصول الكتاب .

ولابد أن قارىء مقدمات هذه الأجزاء الثلاثة ــ إذا قرأها قراءة فاحصة مستبصرة ــ ستعترضه هذه النقاط فيها ، وسيحس كأن هذه النقاط قد أقحمت فى المقدمات إقحاما لهدف معين ؛ ولابد أنه واجد ما يوضح هذا الهدف فيما يقرأ من أبواب وفصول فى صلب الكتاب .

وأضرب لذلك مثالا ما جاء فى الفقرة الثالثة من الصفحة الرابعة من مقدمة الطبعة الأولى لهذا الجزء حيث قلت : « وأحب أن أحيط السادة القراء علماً بأن هذه المذكرات التى وعدتهم فى مقدمة الجزء الأول منها بإصدارها فى ثلاثة أجزاء ؛ كانت

مسوداتها جميعا معدة وكاملة حتى آخر يوم من أحداث الجزء الثالث قبل البدء فى طبع الجزء الأول منها »

ما الذى دعانى إلى إحاطة القراء علماً بأمر كهذا هو من طبيعته أنه لا يدخل فى دائرة اهتمامهم ، وهم ليسوا فى حاجة إلى إحاطتهم علماً به ؟!

إننى كتبت ذلك لأننى أعلم أننى سأتناول فى تسجيلى للأحداث عن أشخاص أفضوا إلى ربهم .

وتوقعت أن يظن بعض القراء أننى تحاشيت الكتابة عنهم وهم على قيد الحياة .... وقد وقع ما كنت أتوقع ؛ فقد جاءنى من بعض الإخوة ما يشعر بهذا المعنى .. ولو أن هؤلاء الإخوة قرأوا هذه الفقرة ووقفوا عندها قليلا ؛ لعلموا أن الكتابة عن هؤلاء الأشخاص كانت معدة من قبل عام ١٩٧٨ بأكثر من ثلاثة أعوام ؛ ولكن ظروف الطباعة والنشر هى التى جعلت وصولها إلى أيدى القراء فى المواعيد التى وصلت فيها إليهم .

* * *

وفى الوقت الذى رأى هؤلاء الإخوة أننى تناولت أشخاصا بعد أن أفضوا إلى ربهم ــ وهل التاريخ إلا هذا ؟! ــ عتب علىّ آخرون أننى أغفلت تناول آخرين يرون أنهم انحرفوا وكان علىّ أن أتعرض لهم .

ولهؤلاء الإخوة جميعاً أقول : إننى لا أرى مهمتى فى التاريخ أن أتتبع عورات الأشخاص ــ فهذه ليست من شيمتى ولا هى من شيمة المؤمنين ــ وإنما أنا أتتبع الأحداث الجسام التى شهدتها ، والتى كان لها بالغ الأثر فى مسيرة دعوة الإخوان المسلمين .. ولما كان صناع هذه الأحداث هم جزءاً منها ، ولا يمكن فصلهم عنها ؛ فقد وجدتنى مضطراً إلى أن أتعرض لهم بقدر تعرضى للأحداث نفسها ومع ذلك فأنا لم أتعرض لهم حين تعرضت بأكثر من أن حمّلتهم وزر ما صنعوا .

ثم إنى فى تعرضى لهم لم أكن منتهزاً ــ كما ذهب الظن ببعض العابثين ــ فرصة غيابهم من هذه الحياة فأنشأت اتعرض لهم ؛ بل إننى تعرضت لهم وهم على قيد الحياة ، وكان لى معهم مواقف ومواقع . وهذه المواقف والمواقع مسجلة بتفصيل وإسهاب لو أن إخواننا العابثين استعادوا ما قرأوا .

* * *

ويخيل إلىّ أن هؤلاء الإخوة قد أملى عليهم هذا العتاب أنهم كانوا يؤثرون أن تبرز

للناس ـــ حين نؤرخ لدعوتنا ـــ ما يعجب ويبهر ، وأن نحتفظ لأنفسنا بما دون ذلك .

وقد سجلت موقفى من هذا الاسلوب وحددته تحديداً بينا فى مقدمة الطبعة الأولى حيث قلت : « وهذا لون من التأريخ لا أرضاه لنفسى ، ولا أعتقد أنه يؤدى فى النهاية إلى خدمة دعوة كدعوة الإخوان المسلمين أسست على تقوى ... »

ولم يكن أسلوبى هذا الذى ارتضيته لنفسى ، والتزمته فى تسجيلى للأحداث اختراعاً منى ، ولا إرضاء لهوى يعتلج فى صدرى ؛ وإنما كان تأسيا بالأسلوب القرآنى الكريم ... وإن شئت فاقرأ ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ وأقرأ عن حادث الإفك فى سورة النور ، وأقرأ عن زواج زينب بنت جحش فى سورة الأحزاب ، وموضوع حاطب بن أبى بلتعة فى سورة الممتحنة ، وأقرأ عن عزوة أحد فى سورة آل عمران ..

ثم هكذا كان أسلوب المؤرخين المسلمين الثقات فى تسجيل أحداث الأمة الإسلامية .. لم يغفلوا موقفا خشية أن يكون فى ذكره ما يغض من قيمة عظيم من عظماء المسلمين ، ولم يتستروا على خطأ من الأخطاء ؛ لأنهم يعلمون أنهم لا يؤرخون لملائكة .. ألم تقرأ فى أنباء حروب الردة أن أبا بكر استشار عمر بن الخطاب فرأى عمر أنه لا قبل لهم بمحاربة كل قبائل العرب فغضب أبو بكر وقال له : « يا ابن الخطاب .. أجبار فى الجاهلية خوّار فى الإسلام ؟! والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه »

ليت شعرى لم سجلوا هذا الموقف الذى أخطأ فيه عمر فى أخطر قضية واجهت الإسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو أخذ برأى عمر فيها لكان مالا يعلمه إلا الله ... لم سجلوا لعمر هذا الموقف ولم يكتفوا بذكر مواقفه الأخرى التى كانت دائما فى جانب الصواب والسداد ؟!

إنه الالتزام بالأسلوب القرآنى الذى تربوا عليه وأشربوه .. وإنك لتجد ذلك ديدنهم فى كل ما سجلوا عن الصحابة والتابعين ومن تلاهم ؛ حتى إن ما كتبوه فى التأريخ لهذه الحقب كان ـــ لشدة مبالغتهم فى تحرى الصدق ـــ يعتبر ملحقا بكتب السنة .

لم تعد دعوة « الإخوان المسلمون » دعوة طائفية ولا إقليمية .. لقد تخطت ذلك كله وصارت دعوة عالمية ؛ من حق كل إنسان فى هذا العالم أن يعرف كل شىء عنها وأن يحدد موقفه منها . وأن يعرف موضعه فيها .

* * *

وهذه المذكرات فى جملتها ليست إلا سردا لأحداث ، وتعليقا وتحليلا لهذه الأحداث .. أما التعليق والتحليل فهو أمر تختلف فيه الآراء . وتتباين حوله النظرات .. وهو أمر متروك لكل إنسان . ولا يستطيع أحد أن يحتكره لنفسه ، ولا أن يدعى أنه هو وحده صاحب الحق فيه .. ولهذا كنت حريصاً على أن أقرر ذلك فى مقدمة الجزء الأول فقلت « وليس من حقى أن أقرر أن تحليلى هو التحليل الأوحد ، وأن رأيى هو الرأى الأصوب ، فلكل إنسان أسلوب فى التحليل ورأى فيما يعالج من قضايا » ..

وعتاب بعض الأحباب — فيما يتصل بالتحليل والتعليق — هو فوق عينى ورأسى ، وأتقبله دون غضب ولا غضاضة ؛ لأنى أعلم أنه صادر من قلوب عامرة بالإيمان والحب .. والحكم بينى وبينهم فى ذلك هم القراء .

أما العتاب فيما عدا ذلك مما يتصل بالأحداث نفسها ، وما كان ينبغى أن يعلن منها وما كان ينبغى أن يسدل عليه ستار .. فهو مما لا أرانى متقبلا فيه عتابا من أحد ؛ لاسيما من قوم اتخذوا القرآن لهم منهاجا ودستورا .. وهو أمر التعامل فيه تعامل مباشر بينى وبين ربى . ولا أقبل أن يتدخل أحد فى ذلك بينى وبينه ؛ فهو وحده المطلع على القلوب والسرائر ، وهو وحده الذى يحاسبنى على مدى ما تحريت من أمانة فى الرواية وصدق الحديث .

والدعوة الإسلامية — أولا وقبل كل شىء — هى صفحة منشورة لأمة موحدة الهدف ، وإن اختلفت حول الوسائل ، ولا يعيبها أن يشوب الخطأ بعض هذه الوسائل بل إن فى ذلك ما يشعر بحيوية هذه الأمة ، وقوة تفاعلها ، ووجود الحركة الدائبة فيها . وما كانت الأخطاء — التى ليس من ورائها سوء قصد أو فساد نية — بمزرية بأصحابها ، ومن أجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد . ولأمر ما جاء قوله تعالى : ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ لاحظ التناقض بين الأطمئنان وبين طبيعة الأرض .

ولما كان التزام النهج القرآنى التزاما كاملا هو أمر من المشقة بمكان . لأن المشقة فيه مشقة نفسية .. ولما كان المجتمع الإخوانى أحق المجتمعات بهذا الالتزام الكامل ؛ فقد اخترت معالم معينة من معالم هذا النهج رأيت أن هذا المجتمع فى حاجة إلى مراجعة نفسه حيالها ؛ لأن لها أهمية خاصة فى مسيرة الدعوة .

وقد اخترت هذه المعالم ومسستها مسا رفيقاً ، وجعلتها مما ذيلت به هذا الجزء لعل وضعها فيه هذا الوضع يلفت النظر إليها ، ويبقى أثرها فى خاطر القارىء .. وأخص فى

هذه المقدمة من هذه المعالم التى مسستها معلما واحدا أرى المجتمع الإخوانى فى أيامنا هذه فى أمس الحاجة إليه .

ذلك أن النفس البشرية بطبيعتها تميل إلى الاندفاع والمبالغة ؛ فإذا كرهت أعماها البغض عن كل المحسن ، وإذا أحبت أعماها الحب عن كل المساوىء . ولمست فى بعض المجتمعات الإخوانية هذا المعنى ، فهم لا يرون الناس من حولهم إلا لونين : أبيض وأسود . ولا يتعدى تصنيفهم هذين اللونين .. وأرى أنهم بهذه النظرة المحددة قد حصروا أنفسهم فى دائرة ضيقة ، وضربوا حول مجتمعهم نطاقا لا يتعدونه ، وأقاموا بينهم وبين الفريق الأكبر والأعم من الناس سوراً شاهقاً حال بينهم وبين الانتفاع من هذا الفريق لدعوتهم .

وقد وجدت فى مفتتح سورة الروم ما يخطىء هذه النظرة المحددة ، وما يفتح أعين المجتمعات القائمة على أمر الدعوة ؛ فيبدأ التفاهم ، ويتم التعارف ، وينتهى ذلك دائما بكسب جديد .

لابد من جسور تتقابل فيها الوجوه ، وتتفاهم فيها الألسنة ، وتتفاعل فيها العواطف ، وتتلاقح فيها الأفكار .. ولن يتم شى من ذلك مادادم التصنيف قاصرا على لونين اثنين ليس غير ؛ فإما الأبيض واما الأسود .

رجلان .. أحدهما بدأ حياته مناوئاً للفكرة الإسلامية . ثم صدر عنه بعد ذلك عمل طيب .. هل يحملنا بغضنا لماضيه على إغفالنا تقدير هذا العمل الطيب ، وتشجيع هذه البادرة منه ، والإشادة بها ، وجعل هذه الإشادة وسيلة إلى التقارب نحوه ، والتفاهم معه ومحاولة جذبه إلى مجتمعنا أو على الأقل كسب صداقته .

والأخر كان فى مجتمعنا ثم تورط فى أعمال أخرى .. هل يحملنا بغضنا لأعماله الأخرى على نسيان ما كان له من ماض طيب ؛ فنقاطعه ونهدم الجسور بيننا وبينه لنعين الشيطان عليه . أم نعترف بماضية ، ونبقى على الجسور بيننا وبينه لعله يفىء إلى الرشد . أو على الأقل لا نكسب عداوته ... وقلما بل يكاد يكون من المحال أن تجد إنساناً ـــ مهما ضل به الهوى ـــ يخلو من ناحية تمت إلى الخير ولو من بعيد .

إنها حقا مشقة نفسية كبيرة أن تخرج من دائرة البغض إلى دائرة الحب ، أو أن تخرج من دائرة الحب إلى دائرة البغض ؛ وكل ذلك نحو شخص واحد أو مجموعة واحدة .. ولكنه النهج القرآنى العتيد الذى أراد أن يقيم النفس المؤمنة على أساس من العدالة المطلقة ، وعلى نسيان الذات وإحقاق الحق ، ودعم المجتمع بوشائج لا تدع لبغاة الهدم منفذا ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ء أعدلوا هو أقرب

للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾

إن تصنيف الناس صنفين ليس غير أمر سهل يستطيعه كل إنسان . أما تصنيفهم بعدد ما بين الأبيض والأسود من ألوان فهو أمر صعب وشاق على النفس ويحتاج إلى مكافحة العواطف الحادة وكبح المشاعر الغائرة ﴿ وما يلقاها إلا الذين صبروا ﴾ .

وهكذا رأيت فى هذه المقدمة أن أشد انتباه السادة القراء من الإخوان المسلمين إلى هذا المعلم بالذات ؛ آملا أن يستعيدوا قراءته ، وأن يحاولوا أخذ أنفسهم بأسلوبه ؛ حتى ينتفعوا بالمجتمع الذى يعيشون فيه ، وحتى ينتفع بهم هذا المجتمع ... وإذا كانت آيات سورة الروم قد صنفت مجتمع الكافرين أصنافا ؛ فما بالك بالمجتمع الإسلامى فى داخله ؟! .. إنه أولى بذلك وأحق وأجدر .

فالإخوان المسلمون ليسوا المجتمع الإسلامى الوحيد .. قد يكونون فعلا المجتمع الإسلامى الأمثل . ولكن المجتمع الإسلامى العام يتسع لمئات من المجتمعات كلها مجتمعات إسلامية بدرجات متفاوته ﴿ هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون ﴾ .. ومطلوب من المجتمع الإسلامى الأمثل أن يتفاعل مع هذه المئات من المجتمعات الإسلامية تفاعل المحبة والود . وعليه أن يقوى الوشائج بينه وبينهم ؛ حتى يتسع كل يوم نطاق المجتمع الأمثل وتنحسر نطاقات المجتمعات الأدنى مثالية ، ويتحقق فى يوم من الأيام وعد الله تعالى ﴿ وعد الله الذين آمنو منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ﴾

أما انطواء المجتمع الإخوانى على نفسه ، وتفاعله تفاعلا داخليا فحسب ، وانعزاله بذلك عن المجتمعات الأخرى ، ونظرته إليها جميعا هذه النظرة الضيقة ، فهو وضع يتنافى مع طبيعة أنهم أصحاب دعوة يهتف داعيها الأول بأمر من الله فيقول ﴿ يا أيها الناس .. إنى رسول الله إليكم جميعا ﴾ .. وبهذه النظرة الفسيحة كسبت هذه الدعوة أنصارها ، وانتشرت فى كل المجتمعات ، وتغلغلت فى جميع الأوساط .. وليرجع القراء إلى الجزءين السابقين من هذه المذكرات ليروا برهان ذلك .

وحديثى فى هذا المعلم الذى أدعو فيه رجال الدعوة الإسلامية إلى التلطف فى معاملة مجتمعاتهم ، والترفق بهم ، والتخلى عن سوء الظن بهم .. هذا الحديث لا يندرج تحته طائفة من الناس مردوا على النفاق ، ورصدوا أنفسهم أبواقا للإضلال ، ووضعوا أقلامهم فى خدمة الهدم والهدامين ، وجعلوا رزقهم أنهم يكذبون ... وقد عقدت فى نهاية هذا الجزء فصلا للكشف عن نفاقهم ، ونبهت إلى خطورة الانخداع بزيف أسلوبهم والوقوع فى حبائل سمومهم « والمؤمن كيس فطن » .

وإذا كنا قد التزمنا مبدأ الوضوح والصراحة والصدق فى هذه المذكرات ؛ فنقدنا أنفسنا نقدا ذاتيا — كما يقول التعبير الذى شاع فى هذا الأيام — فقد يكون من حقنا أن نلتزم هذا المبدأ نفسه فى نقد مجتمعات أخرى نعايشها ، وشاءت ظروف أن تجعلها من ألصق المجتمعات بنا ولكن من وراء ستار .

فأولئك الذين نصبوا أنفسهم وصاة على العالم ، والذين يحركون هذا العالم بأطراف أصابعهم ؛ نراهم قد شغلوا أنفسهم بنا دون ما داع ولا مبرر ؛ إلا أن يكون فهما خاطئا للإسلام أشربوه منذ نعومة أظفارهم فى مدارسهم ومعاهدهم .. فأورثهم ذلك ضغْناً على الإسلام والمسلمين لا يبارحهم لحظة من ليل أو نهار ، وتقوم غطرستهم وكبرياؤهم جدارا شاهقا ، وسدا منيعا يحول بينهم وبين التفاهم فى هذه القضية التى مجال التفاهم فيها العقل والمنطق .
فالإسلام الذى يدعو معتنقيه إلى الإيمان بعيسى وبجميع الأنبياء من قبله ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ .. والإسلام الذى يخاطب معتنقيه فيقول ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ﴾

الإسلام الذى يقرر كل هذا يناصبونه العداء ، ويضمرون له الحقد ، ويحيكون له الكيد ، ويتحالفون مع الشيطان عليه ، ويضعون الخطط ويرصدون المال لإضعاف أممه ، وتضليل معتنقيه ، وبث الفرقة بينهم .. إذا لم يبلغوا بكل مخططاتهم تحقيق آمالهم فى القضاء عليه .

واليهود الذين هم أعداء الإنسانية ؛ والذين تقرر العقيدة المسيحية لكل مسيحى العالم اليوم على اختلاف مذاهبهم أنهم قتلوا المسيح وصلبوه .. هؤلاء اليهود يحتضنونهم ويؤازرونهم ويضعون كل إمكاناتهم فى خدمتهم .

ليت شعرى .. ماهذا المنطق المقلوب ؟ لم كل هذا ؟! .. ألأن اليهود حفنة صغيرة مهما قامت لهم دولة فإنها لن تزعجهم ، ولن تحد من أطماعهم ، ولن تقف فى وجه استغلالهم وتسلطهم ؟ .. ولكن إذا قامت للمسلمين دولة فإنها تقوم على أسس ومبادىء قررها القرآن .. من طبيعتها أنها تقف بالمرصاد للطمع والتسلط والاستغلال ؟!

إذن فالمسألة ليست مسألة مسيحية تحارب الإسلام — كما يريدون أن يوهموا شعوبهم — وإنما هى فى حقيقتها صليبية جديدة كصليبية العصور الوسطى .. صليبية

عمياء تتخذ شعارا مزيفا يستر وراءه أغراضا استعمارية نهمة ، هدفها تكريس جهودهم وتجميع قواهم للإبقاء على المارد الإسلامى مكبوتا فى قمقمه ؛ حتى يظل العالم الإسلامى مرتعا خصيبا لهم ، ولقمة سائغة يلتهمونها إرضاءً لنهمهم .

وقد استطاعوا بالحديد والنار أن يبقوا على المارد مكبوتا فى قمقمه ردحا من الزمن ، ولكنهم علموا أن ذلك لن يطول أمده .. فاتجهوا إلى منابع الثقافة والتوجيه فى مصر خاصة وفى العالم الإسلامى عامة ، وألقوا فى مياهها بسموم وصلت إلى شرايين المسلمين فى كل مكان فأورثتهم خَوَراً لا يفارقهم ؛ فأصبحوا لا يعرفون من الإسلام إلا إسلاما مبتورا ، لا ينفع المسلم ولا يضر المستعمر المستغل الذى يمتص دمه وهو لا يدرى ولا يحس .

ولما كان الإخوان المسلمون هم الفئة التى قامت لتوقظ المسلمين من نومهم ، وتنبههم من خَدَرهم ، وتكمل صورة الإسلام الحى القوى الكامل الشامل أمام عيونهم .. واستطاعت بعد عقدين من الزمن أن تحقق ذلك كله .. لهذا اعتبرهم هؤلاء السادة الأعداء الألداء والهدف الذى ركزوا نحوه كل مكائدهم ، ووجهوا إليه كل سهامهم ، حتى أنهم استطاعوا أن يؤلبوا عليهم أبناء جلدتهم

ونوجه القول إلى هؤلاء السادة فنقول : إنكم حقاً ملكتم خزائن الأرض ، وأذللتم رقاب العباد ، وبلغتم من التفوق المادى ما اعتقدتم معه أنكم قادرون على كل شىء .. ولكنكم فى تعاملكم معنا أغفلتم عنصراً هاماً .. أغفلتم طبيعة شعوبنا .. تلك الشعوب التى كانت مهبط جميع الرسالات .. إن شعوبنا شعوب فطرت على التدين .. قد ترى الرجل منهم يقصر فى أداء عباداته ، وقد تغلبه شهوته فينحرف ؛ ولكنه مع ذلك يستكن فى أعماق وجدانه شعور ملتهب لا يخبو أبداً .. ينطلق هذا الشعور الملتهب دون إرادته شواظاً من نار إذا أحس بأن إنسانا مس دينه .

هذه الطبيعة هى التى كان على الإخوان المسلمين إيقاظها .. وهذه الطبيعة — وقد استيقظت — لن يقف أمامها شىء .. وهذا هو السر فى أن كل محاولاتكم لقهر هذه الشعوب قد باءت بالفشل ... وقد توافق استيقاظ هذه الطبيعة مع دوران عجلة الزمن حيث جاء دورها . ومغالبة عجلة الزمن لدفعها إلى الوراء أمر ليس فى طاقة البشر .

ولو أنكم نزعتم من قلوبكم سخائم الحقد ، ورفعتم عن أعينكم أحجبة التعالى والكبر ، وحررتم أنفسكم من غوائل الابتزاز والطمع ، وأفلتم من غرور السلطان والسيطرة ... إذن لاستبانت لكم هذه الحقيقة .. ولوجهتم جهودكم وأموالكم إلى ما ينفعكم وينفع الناس . ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله

فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ».

ماذا يضيركم أيها السادة من إقرارنا دعائم العدل فى بلادنا ؟ وماذا يضيركم من إرسائنا قواعد الفضائل فى مجتمعنا ؟ وماذا يضيركم من أخذنا بأعدل وأرحم وأسمى وأسمح أسلوب تساس به الحياة ؟ .. وحسبه أنه من عند الله .. ولكنه مع ذلك قد جرب إذ حكم العالم سبقه قرون كانت أزهى أيام فى حياة البشرية حتى اليوم .

دعوا عجلة الزمن تواصل دورانها : فلن تستطيعوا ـــ مهما جمعتم قوى الأرض ـــ أن توقفوها « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ».

أما أصحاب السلطان فى بلادنا ـــ وهم إخواتنا على كل حال فلا تكلفهم أكثر من أن يعيشوا واقع الحياة : فهم ادرى الناس بما فعل أسلافهم بالإخوان المسلمين : وبواقع الحال بعد ذلك ... هل باد الإخوان المسلمون ؟ .. هل اندثروا ؟ هل وهنوا وتلاشوا ؟ .. هذه أسئلة يعلم الناس جميعا الإجابة عليها .

وهنا ينبغي أن نذكر بفئات من الشباب .. تلك الفئات التى باضت وأفرخت فى غيبة الإخوان المسلمين عن الساحة ممن سموهم بالمتطرفين .. وهؤلاء نستبعدهم من حديثنا هذا لأنهم من صنع أيدى هؤلاء المسئولين ، وثمرة غرسهم ، ونتاج سياسات ـــ تعدت الحدود ـــ من البطش والإرهاب والتعذيب ما كان لها أن تنتهى إلا بمثل هذا النتاج .. هذا النتاج الذى يحاولون اليوم التملص من تباعاته ويلصقونها بالإخوان المسلمين على حد المثل القائل : رمتنى بدائها وانسلت .

فليلق أصحاب السلطان ـــ بعد كل حدث ـــ نظرة مجردة من الهوى على مجتمعات الإخوان المسلمين والمجتمعات الأخرى .. وما يصاحب أحداها عادة من أسباب التيسير ، ومظاهر البذخ والإغراء ، والدعاية المسخر لها كل وسائل الإعلام ، وما يصاحب الأخرى من أسليب التضييق والتخويف والوعيد والشظف ... أى المجتمعين أصدق تمثيلا لهذا الشعب ؟ المجتمع الذى لا يؤمه إلا المنتفعون والآملون . أم المجتمع الذى يؤمه الباذلون المضحون الكادحون .. وهم مع ذلك أضعاف مضاعفة للأخرين عدداً .. ؟!

ثم إن الظاهرة الأهم ـــ وهى ظاهرة جديرة بالتحليل وإنعام النظر وإعمال الفكر وطول التدبر ـــ هى ظاهرة النوع . فتسعه أعشار المستجبين للمجتمعات الأخرى هم من ذوى الأسنان الكبيرة فوق الخمسين فى حين أن المستجبين لمجتمعات الإخوان المسلمين هم من ذوى الأسنان الباكرة ممن هم تحت الخامسة والعشرين .. ودلالة ذلك واضحة لا تحتاج لمزيد إيضاح .. فهذه أجيال ذاهبة غاربة .. وهذه أجيال مقبلة

قادمة .. وهذه هى دورة الزمن التى لا تقهر ؛ ولك محاولة لتغيير اتجاهها أو التحكم فيها مآلها الفشل ﴿ فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾

إن هذه الدعوة كلمة طيبة ألقاها الله فى قلب رجل مؤمن منذ ستين عاما ، فهتف بها فتلقتها قلوب رجال مؤمنين ونساء مؤمنات . فنبتت فى قلوبهم نباتا حسناً . فأعطوها من الرعاية والحدب عليها ما يملكون من فكر وجهد ومال . فترعرعت وأزهرت وأثمرت وآتت أكلها ضعفين .. وضربت بجذورها فى أعماق الأعماق حتى ثبتت ورسخت وتأصلت ... وبلغ من ثباتها ورسوخها ما أعيى كل من تصدوا لاقتلاعها ، وإنهم للعصبة أولو القوة .. جربوا ذلك بكل طاقات البشر فباءوا بالفشل .. وظلت هى ثابتة راسخة وأرسلت بفروعها فى اليمين والشمائل حتى ملأت الأرض .. بل إن هذه الفروع تشعبت وألقت بدورها جذوراً جديدة زادت الثبات ثباتاً وعمقت الرسوخ رسوخاً .

وأنا لا استطيع أن أدعى أن ثبات هذه الشجرة هذا الثبات الذى أذهل العقول وأعجز الأفهام كان بفضل جهود الإخوان المسلمين ؛ وإنما أقول إنه أحد البراهين على أن دعوتهم هذه هى دعوة القوة المسيطرة على الكون ؛ تلك القوة التى لا تغلب ولا تغفل ولا تنام .. وإلا فبأى تعليل تعللون هذا النبت الطيب الذى تمخضت عنه أرض مصر فملأ ربوها ، من الشباب الغض الزاهر ، الذى هتف بهذه الدعوة فى الوقت الذى كان جميع الإخوان المسلمين مغيبين فى فيافى القفار ووراء جدران السجون ؟! ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ﴾

لقد نشرنا فى هذا المذكرات صفحتنا نشراً لم يعد بعد معه ما قد يوصف الأسرار أو المعميات .. طرحنا القضايا طرحاً صادقاً صريحا سواء منها ما يحسب لنا وما يؤخذ علينا .. حتى ما يسمونه بالجهاز السرى وضعناه على مائدة البحث ، وشرحنا كيف أنشأناه ؟ ولماذا أنشأناه ؟ وعرضنا لطرف من الأعمال الجليلة التى قام بها .. ثم بينا كيف انحرف به بعض قادته وكيف تصدينا لهم تصدياً ألزمهم حدودهم .

نشرنا كل ذلك بعد أن صارت دعوة الإخوان المسلمين أحد معالم الحياة الاجتماعية والسياسية فى العالم ؛ وصار من حق كل فرد فى هذا العالم أن يعرف حقيقة كل ما يتصل بهذه الدعوة ... فما الذى يوقف أصحاب السلطة فى بلادنا — بعد كل هذا الوضوح — منا هذا الموقف ؟! .. أهى مجاملة للمسئولين الكبار خارج بلادنا ؟ .. أم هى حقاً سياسة الدولة المستوحاة من ضمائر المسئولين فيها ؛ حيث رأوا فى الأحتكام إلى غير القرآن مأربهم ؟! ﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض

طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴾ ؟

ألم يفكر مسئولو اليوم وهم يجلسون على مكاتبهم أين ذهب الذين تربعوا عليها من قبلهم ، وكيف حكموا وظلموا ، وكيف طغوا وتجبروا وأسرفوا على أنفسهم ؛ أين هم اليوم ؟!

رحم الله البارودى فقد قال في إخوان لهم من قبل :

عاثوا بها حقبة حتى إذا نهضت ... طير الحوادث من أوكارها وقعوا
أين المعاقل بل ، أين الجحافل بل ... أين المناصل والخُطِّية الشُّرَّعُ
لو كان للمرء فكر فى عواقبه ... ماشان أخلاقه حرص ولا طبع
وكيف يدرك ما فى الغيب من حدث ... من لم يزل بغرور العيش ينخدع
دهر يغر وآمال تسر وأعمـــ ... ــمار تمر وأيام لها خدع
يسعى الفتى لأمور قد تضر به ... وليس يعلم ما يأتى وما يدع

* * *

يا أيها السادر المزور من صلف ... مهلاً فإنك بالأيام منخدع
دع ما يريب وخذ فيما خلقت له ... لعل قلبك بالإيمان ينتفع
إن الحياة لثوب سوف تخلعه ... وكل ثوب إذا مارث ينخلع

* * *

زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم ... ولا تعطلت الأعياد والجمع

* * *

وصدق الله العظيم ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾

وبعد

فلا يفوتنى قبل أن أنهى هذه المقدمة أن أشيد بجهود مضنية بذلها الأخ الأستاذ عبد المنعم أبو حلو ومن معه من الإخوة الأعزاء ؛ فى مراجعة هذا الجزء مراجعة دقيقة حتى جاء ناصعاً قشيباً ، لا تكاد تقع فيه العين على خطأ واحد .. أسأل الله تعالى أن يجزل مثوبتهم لقاء ماهيأوا من أسباب الراحة لألاف القراء .

محمود عبد الحليم

الأسكندرية فى : أول رمضان المبارك ١٤٠٦ هـ
٩ مايـــو سنـة ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

قد يظن الكثيرون من السادة القراء ــ الذين يترقبون صدور الجزء الثالث من هذه المذكرات ــ أنهم سيقرأون فى هذا الجزء تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، غير أنهم قد لا يجدون مأربهم فيما سوف يقرأون . .

فلتاريخ هذه الثورة مظان أخرى يمكن الرجوع إليها ، وهى كثيرة وفى متناول الجميع .. وقد كَتَبَ عنها من لازم صاحبها معظم الوقت ، ومنهم من لازمه كل الوقت، ومنهم من انفصل عنه فى وقت مبكر ووقف منه موقف المراقب.. وقد ظهر أخيراً كتاب « صفحات من التاريخ » للأخ الأستاذ (صلاح شادى) ، وهو من خير ما يقرأ فى هذا الصدد ، لأن مؤلفه كان جزءاً من هذه الثورة منذ كانت حلماً فى الخواطر ثم كان من حصادها .

وقد جاء كتابه بعد كل ما صدر من كتب عن الثورة فصار مهيمناً عليها ، حيث ناقش بعضها ببعض ، وأضاف إليها من معلوماته وتجاربه ، واستخلص من ذلك كله صورة هى أقرب إلى الصواب .

ولكن كتابنا هذا لايمس تاريخ هذه الثورة إلا فيما يتصل منها بالإخوان المسلمين .. لأن موضوع الكتاب هو : « الإخوان المسلمون .. أحداث صنعت التاريخ » .. وإذ كانت ثورة ٢٣ يوليو حدثاً من أحداث التاريخ ، فمبحثنا فيها إنما يكون عند نقط التقائها بالإخوان المسلمين ، سواء أكان هذا الالتقاء التقاء بنوةٍ لهم ، أو تربٍّ فى أحضانهم ، أو قيام فى حمايتهم ، أو انتفاع بسمعتهم ، أو تمرد عليهم ، أو نقض لعهدهم ، أو تواطؤ مع العدو عليهم .. وهذه النقاط بالذات من تاريخ هذه الثورة هى التى رأى المهيمنون على منابع الثقافة فى مصر حجبها عن التاريخ ، آملين بذلك أن يصنعوا لهذه الثورة تاريخاً معيناً .

* * *

ولقد كتبت الجزءين اللذين صدرا من هذه المذكرات ، وعرضت فيهما لجهود الإخوان المسلمين ، وما أسفرت عنه هذه الجهود من أحداث متسلسلة خلال ربع

قرن من الزمان بدءاً من عام ١٩٢٨ . وكل جهد بذلوه قد تمخض عن حدث قرب الشعب خطوة نحو الهدف المأمول من فك رقبته من أغلال الظلم وقيود الاستعمار ، حتى وصلنا بهذه الجهود وما تمخض عنها من أحداث جسام إلى يوليو ١٩٥٢ ، فرأى الشعب نفسه وجهاً لوجه أمام الهدف المأمول .

ولا حاجة بى إلى إعادة القول بأن اختفاء هذه الجهود عن أعين الأجيال الناشئة فى ضباب الأكاذيب ، وضياع صوت هذه الأحداث عن أسماعهم فى ضجيج مواكب النفاق ، لن يستطيع أن يحجب هذه الحقائق إلى الأبد .. بل لابد من سطوع الشمس ولو ساعة من نهار مهما تراكم عليها من ظلام السحب .. وقد تكون جهودنا هذه فى إصدار هذه المذكرات إحدى المحاولات التى تبذل لأختراق هذا الجدار الشاهق المشيد ، المضروب حول هذه الحقائق لحجبها عن العيون والأسماع .

وأحب أن أحيط السادة القراء علماً بأن هذه المذكرات التي وعدتهم فى مقدمة الجزء الأول منها بإصدارها فى ثلاثة أجزاء ، كانت مسوداتها جميعاً معدة وكاملة حتى آخر يوم من أحداث الجزء الثالث قبل البدء فى طبع الجزء الأول منها .. وإعدادى مسودات هذه الأجزاء الثلاثة معاً فى أوائل السبعينيات ، كان انطلاقة ذهن صودرت فيه معلومات وأفكار وأحاسيس مدة عشرين عاماً ، فلا هو وجد خلالها متنفساً يطلقها منه ، ولا هو حمله اليأس على التخلص منها بإرسالها إلى منطقة النسيان .. وكان حرصه عليها اعتزازاً بقيمتها ، وضناً بها على الضياع .. لا سيما وهى معلومات هى فى حقيقتها خلاصات تجارب ، وحصيلة جهود ، وثمرة أفكار ، لم تجد طريقاً إلى النشر والذيوع .. فلما انثقب فى جدران السجن ثقب فى أوائل السبعينيات ، انطلقت الأفكار الحبيسة من سجنها ــ الذى طال أمده انطلاق القنبلة الموقوتة ، فتلقت شظاياها المضيئة صفحات كانت إليها فى شوق عظيم .. وسرعان ما انطبعت هذه الأفكار على الصفحات ، حتى كأنما كانت ــ لشدة شوقها إلى الانطباع ــ تكاد تسبق القلم .. وهكذا لم يجف مداد القلم حتى أتمها واستوفاها دون كلل ولا توقف .

وقد قصدت من إحاطة القراء علماً بذلك أن أطمئنهم إلى أنما يقرأون من معلومات فى هذه المذكرات ، وما يلحق بهذه المعلومات من تحليل أو تفسير أو تعقيب ، لم يتأثر بما جد بعد ذلك من أحداث ، وما طرأ من ظروف ، وإنما هو نفسه الذى كان مكتوباً فى المسودات يوم كتبت هذه المسودات .

* * *

وصدر الجزء الأول وتلاه الجزء الثانى... ولكننى أمام الجزء الثالث هذا

وجدتنى متردداً .. هل أصدره وفاءً بما وعدت أم أستبقيه لنفسى إرضاءً لعواطفى ؟ .. وطال هذا التردد حتى لا حظه بعض المحبين ، فوجهوا إلىّ عتاباً شديداً ، متهمين إياى بالتباطؤ فى أمر ليس من حقى أن اتباطأ فيه ، أو انكل عنه ، أو أقعد عن أدائه ، لأنه أصبح من حق التاريخ ، وأصبح شهادة يحرم كتمانها « ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » .

وما دعانى إلى التردد فى إصدار هذا الجزء إلا ما أعلمه من أن أحداثه حين أعرض لها سيلزمنى عرضها أن أتناول مواقف لإخوة أعزاء على نفسى ، قد يكون فى تناولها قهر لعواطفى .. وهو ما أتحاشاه ويتحاشاه كل ذى قلب .. ولكن الإخوة المحبين حين نظروا إلى الموضوع لم يعيروا هذه الناحية اهتماما ، ورأوا أن من حق المجتمع أن يسمع الحقائق التاريخية كاملة ، مهما كلف ذلك من لديه هذه الحقائق من آلام وأحزان .. وما كان لى بعد ذلك إلا أن أصدع بأمرهم ، وأنزل عند بليغ حجتهم .

ويعلم الله كم عانيت فى إعداد هذا الجزء من مشقة نفسية ، وآلام تلذع القلب وتدميه .. فأنا أكتب عن فترة كانت حالكة الظلام .. والأشخاص خلالها يتحركون يتخبط بعضهم فى بعض .. فربما أقبل أحدهم على آخر معانقاً — وهو يظن أنه إنما يعانق صديقاً — ولا يتبين إلا أخيراً أنه إنما عانق العدو .. وينفر أحدهم من آخر على أنه العدو ، ولا يتبين له أنه نفر من صديق إلا آخر الأمر ... والحديث من ناحيتى لابد أن يتناول كل هؤلاء ، وكل تحركاتهم كما وقعت دون إخفاء ولا تستر ولا تمويه .

وقد أكون أعلم أن لبعض هؤلاء فى تحركه الذى تحركه فى الجو المظلم وجه عذر ، غير أن ذلك لا يشفع لى أمام أمانة التاريخ أن أجامل فأخفى التحرك أو أتستر عليه أو أتجاوزه .. ولو فعلت لفضحتنى الأحداث . فقد كانت محصلة هذه التحركات أحداثاً مروعة زلزلت مصر من أقصاها إلى أقصاها ، ورجعت بها القهقرى قرنا من الزمان ، ونقلتها إلى قاع بحر الظلمات الذى لا زلنا نغالب ظلماته حتى اليوم .

ولا أستثنى نفسى من هؤلاء الذين تحركوا وسط هذا الجو الحالك المدلهم فأزكى تحركاتى خلاله من دون الذين تحركوا .. وإنما قد ألزمت نفسى أن أثبت تحركاتى — كما وقعت — وسط تحركات غيرى ، مودعاً كل ذلك سجل التاريخ ، تاركاً للقراء تقييم هذه التحركات بعد أن يدخلوا فى تقييمها ماكان يحيط بها من ظروف وملابسات .

وقد أكون حريصاً أشد الحرص — بادىء ذى بدء — على أن ألفت انتباه السادة القراء ، إلى حقيقة قد يغفلون عنها فى خضم انفعالهم بأحداث هذا الجزء .. تلك هى أن المجموعات من الإخوان — عدا رؤوس الفتنة ومدبريها — الذين لعبوا أدواراً فى خلال

هذه الأحداث؛ على اختلاف هذه الأدوار. وتعارض بعضها مع بعض؛ إنما كانت الدوافع إليها دوافع نبيلة.. فلا ينبغي أن يساء الظن بهم، أو أن يهبط بمكانتهم فى النفوس.. فهؤلاء الإخوة هم الرعيل الأول الذي تحمل أعباء هذه الدعوة من أول يوم؛ وحسبهم أن لهم فضل توصيلها إلى الأجيال الناشئة.. ولقد التقى هؤلاء جميعاً ــ حين طلع النهار ــ على كلمة سواء، وعرف كل منهم خطأه وصوابه.

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع

وليكن رائدنا إزاء هذه المواقف ماكان من مواقف لأجلاء الصحابة فى الفتنة الكبرى فى عهد الخليفتين الراشدين الثالث والرابع رضى الله عنهما. وأصحاب هذه المواقف على اختلافها وتعارضها؛ هم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ «أصحابي كالنجوم؛ بأيهم اقتديتم اهتديتم».

وما عرضنا لهذه المواقف فى هذا الجزء من المذكرات إلا للتعليم والتوجيه، وتزويد الأجيال الناشئة بثروة تاريخية تفتح أبصارهم، وتنير بصائرهم، وتجنبهم مواطن الزلل، وتمنحهم موازين دقيقة لاتتذبذب ولا تختل، يُقيِّمون بها ماعسى أن يصادفهم في معترك الحياة من مواقف وأعمال وأحداث.

* * *

ومع كل مابذلت من جهد لإلقاء الأضواء من كل جانب ــ مااستطعت ــ على أحداث هذه الفترة التى نعالج أحداثها فى هذا الجزء، فلا أدرى هل بلغت فى ذلك ماكنت آمل من الإبانة والتوضيح، أم أن ظلام الجو المحيط بهده الأحداث كان أكثف من أن تبدده هذه الأضواء المتاحة ؟.. وعلى كل.. فلتلتمس لى الأعذار إذا لم يكن الوضوح كاملاً.. فإنها لم تكن عاصفة كسابقاتها لم تنل من البناء الإخوانى إلا ماتنال ذرات التراب وحبات الحصى ــ مما تثيره العاصفة ــ من خدوش، وإنما كانت هذه المرة دوامة جائحة اخترقوا بها قلب الإخوان المسلمين فى مهجته، فعميت من غبارها العيون، وداخت من دورانها الرءوس. وذهلت بمفاجآتها العقول.. وما من فتنة دبرت لهذه الدعوة كانت أشد عليها وقعاً، ولا أفدح بها ضرراً، ولا أسوأ فيها آثاراً من هذه الفتنة.. وكيف لاوقد نشأت من صميم لبها، ونبتت فى سويداء قلبها، وتشعبت فى سائر عروقها فكانت المصيبة فيها كمصيبة الذى قال.

قلبى إلى ماضرنى داعى ... يكثر أحزانى وأوجاعى
كيف احتراسى من عدو لى ... وإذا عدوى بين أضلاعى

أو على حد قول الآخر :

كنت من كربتى أفر إليهم ... فهمو كربتى فأين الفرار

* * *

وقد يتوق بعض القراء ــ قبل أن يقرأوا ماكتبت عن أحداث هذه الحقبة من الزمن ــ أن يعرفوا هل قرأ كاتب هذه المذكرات ماكتبه غيره عن أحداث هذه الحقبة ؟ وإن الذى كتب عنها لكثير ؟.. وإلى هؤلاء السادة أقول :

إننى لم أكن حريصاً على الاطلاع على ماكتب غيرى .. لأننى لا أضع كتابا فى موضوع معين ، فعلىّ فى هذه الحالة أن أجمع له كل ماكتب غيرى فيه ، حتى يكون موضوع الكتاب قد استوفى حقه ــ وإنما أنا ــ كما قلت من قبل ــ إنسان عايشت أحداثاً وشاركت فيها ، فأنا أكتب مذكراتى عن هذه الأحداث ، لأسجلها وأسجل بجانبها إحساساتى وتحليلاتى ومشاعرى .. وفى هذه الحالة لست مطالباً بالرجوع إلى غيرى .

ولهذا فقد لايجد القراء إلا القليل من الاقتباس من نظرات غيرى وآرائهم .. وقد يكون أكثر هذا الاقتباس القليل من خارج نطاق المجتمع الإخوانى ، مما قد يكون وضعه بجانب نظرتى إلى أمر معين نفياً لمعنى التحيز من ناحيتى ، أو تأييداً لتحليل ذهبت إليه لموقف من المواقف بدا فى وقت حدوثه غريباً .. وقد يبدو حرصى واضحاً ــ فى الاقتباس القليل الذى اقتبسته من هذه المصادر البعيدة عن نطاق المجتمع الإخوانى ــ فيما ذيلت به أحداث هذا الجزء من المذكرات باقتباس فقرات من مذكرات « أجنبى » كان أحد الرؤوس التى رسمت الخطوط العريضة والدقيقة فى مؤامرة لإجهاض ربع قرن من جهود الإخوان المسلمين . وقد رأى هذا الأجنبى المسئول أن ينشر مذكراته هذه بعد أن أتم هو وزملاؤه تنفيذ هذا المخطط الرهيب بأكمله لحساب دولته .

* * *

وقد جاء هذا الجزء من المذكرات كثير الأبواب والفصول .. وكان هذا التعدد بهذه الكثرة لما فى أحداث هذه الحقبة من الزمن من تقلبات وتناقضات وتقاربات وتباعدات وتفاعلات ومفاجآت ، مما جعل الربط بين بعضها وبعض أمراً صعباً .. وقد عملت ــ مااستطعت ــ على أن تجىء الأحداث فى السياق متسلسلة كأنها قصة ، وحاولت أن استبعد منها جانب الإثارة ، وأن أجنح فيها إلى مخاطبة العقل ومطالبته بإصدار الحكم على كل ماحدث منها بعد عرضه عرضاً من صميم الواقع .. ذلك أن المذكرات التاريخية لايقصد منها إلى تحريك الهمم نحو غرض معين ، وإنما يقصد منها إثبات أحداث وقعت ، على نفس الصورة التى وقعت بها ، وإلقاء الأضواء على الظروف المحيطة بها ، وتبصير القارىء بآثارها ونتائجها .. ثم ترك المجال له بعد ذلك لإمعان النظر فيها ، والخروج منها بقاعدة يمكن الإفادة منها فى معترك الحياة .

* * *

ومن أشق مايعانى الذى يكتب للتاريخ من مشقات ، حين يعرض لأحداث تتصل به شخصياً ولايكون له عليها شهود يَعْضِدُ بهم نبأه عن هذه الأحداث .. وحين يعرض لأحداث قليل شهودها ، ويرى هؤلاء الشهود القليلون أن تغفل هذه الأحداث ، وأن يسدل عليها ستار من النسيان ، وحجتهم فى ذلك أن ذلك الإغفال لن يجد من يعترض عليه إذ هم وحدهم الشهود الوحيدون .. وقد يكون الدافع لهم فى ذلك أنهم يرون فى هذا الإغفال حفظاً لوقار الهيئة التى تنتسب إليها ، وإبرازاً لها فى صورة مشرقة ..

وهذا لون من التأريخ لاأرضاه لنفسى ، ولا أعتقد أنه يؤدى فى النهاية إلى خدمة دعوة كدعوة الإخوان المسلمين أسست على تقوى من الله ورضوان ، وشقت طريقها حاملة لواء الحق ، ملتزمة منهج الصدق .. ومن أراد أن يخدمها حق خدمتها فلامندوحة له عن التزام نفس الجادة دون أن يحيد أو يغضى أو يخفى ..

ولقد ألزمت نفسى هذا المنهج فى كل ماأوردت من أنباء أو أحداث حتى مايمسنى منها شخصياً ، فقد نقلته إلى القراء تماماً كما وقع .. تاركاً الحكم عليه بالصواب أو بالخطأ لهم .. وإن تنزيه أنفسنا عن الخطأ هو الخطأ بعينه ، لأننا مهما بلغنا من العلم والإيمان والإخلاص فإننا بشر .. وهدفنا الأكبر هو أن نعرض أنفسنا بصوابنا وخطئنا لنتعلم نحن من أخطائنا وتتعلم أجيال من بعدنا .. وبهذا الأسلوب الواضح ينتفع كل جيل من تجارب الجيل الذى سبقه ، لأن التجارب وضعت أمامه بحذافيرها ، ورأى أسباب مانجح منها ، وأسباب مالم ينته منها بنجاح .

* * *

وكل ماأصاب الإخوان المسلمين من بلاء فى هذه الحقبة من الزمان؛ إنما كان منشؤه من نفاق مرد عليه فرد من أفرادهم استطاع بحكم موقعه فى هذه الهيئة العتيدة أن يستغلها فى إنجاح عمل كريم متفق عليه لإنقاذ الشعب.. حتى إذا تم العمل بنجاح، واستوى هو على العرش، نسى ماكان يدعو إليه من قبل.

ولقائل أن يقول: أنتم المسئولون.. لماذا لم تدققوا فيمن تقدموا لعضوية جماعتكم؟
وإجابة على هذا القائل؛ نذكّره بقول الله تعالى ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا﴾ ونقول له: لاتنس أن ممن كانوا حول رسول الله ﷺ منافقين ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق، لاتعلمهم نحن نعلمهم﴾.

ولما قضت إرادة الله، وسبقت كلمته أن يركز لواء التوحيد فى الأرض، وأن يظهر الهدى ودين الحق على الدين كله؛ سلّح الداعية الأول بأسلحة لابد منها لتحقيق ذلك ﴿ياايها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله

يعصمك من الناس﴾ وكان من الأسلحة الوقائية التي سلحه بها أن أوحى إليه بأسماء المنافقين ممن يتظاهرون بصحبته.

وهذه خاصية كان لابد منها للدعوة الأولى لتثبيتها فى الأرض.. أما وقد ثبتت الدعوة فإن هذه الخاصية لاتتكرر.

* * *

ومحور هذا الجزء من المذكرات هو هذه الشخصية، وسأقصر حديثى حولها على مايتصل منها بالإخوان المسلمين . ولهذا فسأغفل جوانب لهذه الشخصية قد يراها القراء جديرة بالتناول ، مثل قوانين التأميم ووحدة سوريا ومصر وحرب اليمن والمغامرات فى أفريقيا .. ومع أن هذه الأحداث جديرة بالمناقشة وقد وضعها المؤرخون فى جانب المثالب ، فإنى أغفلها لخروجها عن موضوعنا .

وفى حديثى عن هذه الشخصية فيما يتصل منها بموضوعنا، فلن يكون همى منصباً على إبراز مساوئها وإخفاء محاسنها، وإنما سأسوق الأحداث كما وقعت، وأستنطق كل حدث منها دون أن ألون نطق هذه الأحداث بلون شعورى نحو هذه الشخصية من حب أو بغض .. وليس معنى هذا أننى حين أذكر الحدث أغفل تسجيل إحساسى بجانبه ، وإنما المقصود هو أن أسجل الحدث كما وقع تماماً دون أن أنتقص منه أو أزيد عليه أو أتناوله بتغيير أو تحوير .

وإذا كان فى هذا الأسلوب فى استنطاق الأحداث وتركها على سجيتها مالا يروق لبعض الناس ، وما لايتمشى مع مشاعرهم ، وما لايتجاوب مع عواطفهم ، فإننى أدعوهم إلى التذرع بالصبر ورحابة الصدر ، وتوطين النفس على تَقَبُّل كل شيء فى سبيل الوصول إلى الحقيقة التى هى غاية آمال كل منصف .

أما نحن ــ الإخوان المسلمين ــ فلن يحملنا بغضنا لشخص على أن نغمطه حقه إن كان له حق ، فإن ثنائى على عمل ــ يستحق الثناء ــ أتاه عدوى ، هو إنصاف للحق قبل أن يكون إنصافاً لعدوى .. ومع ذلك فإن الرجال فى ميزان التاريخ لايقومون بعمل أتوه أو عملين أو أكثر .. إنما يقومون بمجمل ماأتوا من أعمال طيلة حياتهم .. كما أن الأعمال تتفاوت قيمتها ، فرب عمل واحد عاد على المجتمع بخير عميم يَجُبُّ ألف عمل ذميم ، ورب عمل واحد سيء أجهض ألف عمل طيب « من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ، ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون » .

وإن ماجرى عليه أكثر الناس من التهوين من أمر العدو ، والحط من شأنه ، ورميه بالغباء .. ليس إلا خدعة يخدعون بها أنفسهم ، ولا تنتهى بهم فى أكثر الأحوال — إلا بمفاجآت مزلزلة .. ولو أنهم تجنبوا سوء التقدير ، والتزموا جانب الحذر لتفادوا كثيرا من المفاجآت .

وأحب أن أكرر هنا بهذه المناسبة ماسبق لى أن أثبته فى مقدمة الجزء الأول من هذه المذكرات، من أننا— نحن الإخوان المسلمين— حين نسجل صفحات من تاريخ فترة من فتراتنا لانلجأ إلى ماتواطأ عليه كثير من المؤرخين— حين يؤرخون لأحداث تمسهم شخصياً— من أسلوب يبرزون فيه مايظهرهم فى صورة وضاءة، ويخفون ماسوى ذلك أو تحريفه.

ونحن فى ذلك نسير على ماأخذنا أنفسنا به، وما عاهدنا عليه من أول يوم؛ من أن نكون قرآنيين فى كل أعمالنا وتصرفاتنا .. فالقرآن الكريم— كما قلنا فى مقدمة الجزء الأول— لم يدع صغيرة ولا كبيرة من أعمال الداعية الأول وأعمال من حوله من صحابته وتصرفاتهم إلا سجلها، سواء الصالح الرائع منها وما هو دون ذلك، وعلق على كل ذلك تعليقاً يدفع الأمة إلى أقوم طريق ﴿يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ .

وأعجب بعد ذلك لقوم ينتحلون صفة المؤرخين ، ويعرضون عن هذا الأسلوب القرآنى فى التأريخ؛ وراحوا يكتبون تاريخاً للإخوان المسلمين مستملين فى ذلك خيالهم وأهواءهم ونوازع نفوسهم.. ولا أدرى ماالذى يدفعهم إلى ذلك وهم يرون بين أيديهم تاريخاً كتبناه بأقلامنا، وأثبتنا فيه مفاخرنا كما أثبتنا فيه ماقد يؤخذ علينا..

صحيح أن المراجع لهذا اللون من التاريخ القرآنى للإخوان المسلمين قليلة نادرة، فى حين أن اللون الآخر كثير ومتنوع وفى متناول الجميع .. وإزاء هذه القضية الخطيرة لانملك إلا أن نحتكم إلى عقول القراء وأفهامهم، ونرضاها فيصلاً بيننا وبينهم ﴿قل لايستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يأولى الألباب لعلكم تفلحون﴾ .

* * *

وهذه الحقبة من التاريخ التى هى مجال هذا الجزء من المذكرات هى أحفل فترة فى التاريخ الحديث بأعمال التعذيب والتفنن فيه ، والتخصص فى جرائمه .. ولكننى

تركت هذا الجانب — مع بالغ أهميته — إلى مظانه التى صدرت أخيرا وصارت بين أيدى القراء فى كل مكان ، وتناولتها أحكام القضاء التى دمغت العهد بالقهر والظلم والفجور والإرهاب .. تركت ذلك واكتفيت بذكر أنموذج منه ، ولكنى أفضت فى ذكر أنواع من أساليب التعذيب العامة التى مست كل فرد .. مما قد يسمى بالتعذيب النفسى ، أو امتهان الكرامة الإنسانية والطبيعة الآدمية .

* * *

ولكى لاأغش نفسى ، ولكى لاأضلل قرائى ، أضربت فى هذه المذكرات عن التعويل على مأأثر عن هذه الشخصية من أقوال أو مكتوبات ، أرادت هذه الشخصية أن تجعلها وحدها هى المرجع لمن أراد أن يتعرف على أفكارها وآرائها وبرامجها مثل الدستور المؤقت ، والميثاق وقرارات مارس وغيرها من الخطب والبيانات والمقالات .

وفى الوقت الذى أضربت فيه عن التعويل على ذلك ، أفضت فى الحديث عن الأعمال ، وفصلت فى ذكر الأحداث .. لأن محصلة حياة الرجال هى مأأتوا من أعمال وما أحدثوا من أحداث ، وما خَلَّفوا من آثار لهذه الأعمال . أما الكتابات والخطب والبيانات والمقالات مالم يترجمها صاحبها إلى أعمال فإنها لاتغنى ولا تسمن من جوع عند البحث والتمحيص والتقييم .

وقد شدد القرآن الكريم النكير على هذه الظاهرة ، لخطورتها على المجتمعات فقال : « ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » .. وما من طاغية — مهما بلغ جوره ، وعم ظلمه ، وتجاوز طغيانه كل حد — أن يكتب بيده عن نفسه وعن أفكاره وآرائه مايدينه .

* * *

ومن هنا يأتى اختلاف الناس فى تقييم الرجال ، فأولئك الذين مكنتهم ظروفهم من الاحتكاك بطاغية فعانوا من ظلمه ، واكتووا بنار جوره .. كان حكمهم عليه مستمداً من أحداث عاشوها وأعمال حضروها .. أما أولئك الذين لم تُتح لهم الظروف أن يخبروا الأعمال ، ولا أن يحضروا الأحداث ، وانحصرت خبرتهم به فيما قرأوا من كتاباته وما استمعوا من خطاباته، وما ملأ سمعهم وأبصارهم من شعاراته ، فسيكون حكمهم مستمداً من هذه الكتابات والشعارات .

وهذا هو السر فى أن الأجيال الناشئة — فى تقييمها للزعماء والحكام — يأتى تقييمهم مناقضاً لتقييم سابقيهم من الأجيال . بل تجد فى الجيل الواحد نفس هذا

التناقض فى التقييم .. فهذه فئة أطلعتهم ظروفهم على الأعمال ، وهذه فئة أخرى لم يصل إلى سمعهم وأبصارهم إلا الكتابات والخطب والشعارات .

وهؤلاء الذين بنوا تقييمهم على الكتابات والخطب والبيانات والشعارت ، يجب انتحال الأعذار لهم ، وينبغي الرفق بهم ، لأنهم إنما شهدوا بما علموا ، وذلك مبلغهم من العلم .. وعذرهم فى ذلك ظاهر ملموس ، فلقد كانت كل وسائل الإعلام مسلطة ليل نهار على أسماعهم وعلى أبصارهم وعلى عقولهم . وما كان فى استطاعتهم أن يفلتوا من هذه الحلقة المفرغة التى ضربت حولهم ، وقد تلقفتهم هذه الحلقة منذ نبتوا أطفالاً ، ولم تدعهم حتى شبوا وصاروا رجالاً .. فأنى لأمثال هؤلاء أن يعلموا غير ماعلموا ؟ إلا أن تقدم لهم الحقائق الغائبة عنهم ، مقرونه بالأدلة الدامغة ، والبراهين المستمدة من الواقع الذى لايجحد .. ثم يترك لهم بعد ذلك فرصة يعيدون فيها التقييم كيفما كان هذا التقييم .

* * *

وتوضيحاً لهذا المعنى أنقل من جريدة « الأهـــرام » الصادرة فى ١٩٨٤/٧/٢٩ فى نقاش بين الأستاذ صلاح منتصر المحرر بالأهرام وبين الأستاذ توفيق الحكيم ، فيما يتصل بكتابه « عودة الوعى » الذى نشره بعد وفاة عبد الناصر ، وكان لهذا الكتاب ضجة وقت ظهوره لأن توفيق الحكيم كان من أقرب الناس إلى عبد الناصر وقد منحه أكبر وسام فى الدولة لايمنح إلا لرؤساء الدول .. ولكنه فى هذا الكتاب هاجم عبد الناصر واتهمه بأنه سلب الشعب وعيه ـــ وكان من الأسئلة التى وجهها الأستاذ صلاح منتصر إلى الأستاذ الحكيم السؤال التالى :

س ـــ عندما أشرت إلى الوعى الغائب هل كنت تقصد بذلك وعى الشعب أم وعى المفكرين أيضاً ، وقد كنت واحداً منهم ، بل كنت كبيرهم ؟ .

الحكيم ـــ عودة الوعى من مفكرين وأفراد عاديين . ولا تنبغى الدهشة من أننى كنت واحداً من هؤلاء .. فكيف كنت أعلم بكل مايجرى فى الميادين المختلفة من سياسية واقتصادية واجتماعية إلا مما تنشره الصحف ووسائل الإعلام وبعض الإشاعات . وكيف كنت أتنبأ بهزيمة مصر أمام إسرائيل ونحن فى جميع الخطب والمقالات نعلن بأننا أقوى عسكرياً من أية دولة فى المنطقة ، وأقرأ فى الشوارع إعلانات ضخمة تقول بأننا سندخل تل أبيب بعد ساعات ؟. قل لى أنت أو أى واحد من أى مصدر أكيد للمعلومات كان من الممكن أن يطلعنى على سياسة الدولة واستعداداتها الحربية غير الملفات السرية التى لم

تفتح .

وطالبت فى « عودة الوعى » بفتحها لنعرف ونحكم ، وقد تفيدنى عن مدى مسئولية عبد الناصر الذى أحبه وأثق فى وطنيته وأعتقد أنه مسئول كحاكم فى نطاق عشرين فى المائة فقط — ولكن الذين يعتقدون خطأ أو بالإستنتاج أن علاقتى بعبد الناصر لابد كانت قوية وتجعلنى مطلعاً على مجريات الأمور مخطئون . فأنا لم أجلس معه ساعة واحدة . وكل علاقتى به أننى كنت قريباً منه بالقلب والعاطفة وليس بالاطلاع على دخائل أغراضه وسياساته إلا مانعرفه كلنا من خطبه ومقالات صحفية .. ومن المنطقى أن نقول إنها سحرت الشعب وأنا منه .

س — هل من السهل على أى نظام أن يفقد الشعب وعيه ؟ .

الحكيم — من السهل جداً على أى نظام تسيطر فيه الدولة على مصادر المعلومات ، وفى يدها وحدها مفاتيح الإعلام والاتصال بالجماهير ، أن تشكل هى وعى الجماهير طبقا للصورة التى تريدها لأن الوعى عند كل إنسان يتكون فى رأسه من الصور التى تعرض له فى مرئيات أو سمعيات أو مطالعات . ولذلك نرى الآن على المستوى الدولى قيام الدول الصغيرة بالمطالبة بحرية المعلومات التى تسيطر عليها الدول الكبرى القوية بما لها من وسائل إعلام ضخمة هى التى تشكل الوعى السياسى الذى تريده سياسة هذه الدول الكبرى لتؤثر بها على هذه الدول الصغرى .

* * *

وبعد أن أوردنا هذا التوضيح نرجع إلى السياق فنقول :

إن هذه الظاهرة — ظاهرة مخالفة أعمال الحاكم أقواله — تكاد تكون أخطر ظاهرة تبتلى بها المجتمعات والأمم . لأنها أسلوب من أحقر أساليب الغش والتضليل .. وقد لفت نظرى إلى مدى خطورتها ماقرأته فى سيرة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه من نبأ يقول :

إنه لما توفى سليمان بن عبد الملك ، دعى عمر بن عبد العزيز لتولى الخلافة . وكان من المتعارف عليه أن يكون أول عمل يقوم به الخليفة الجديد أن يصلى على جثمان سلفه وأن يواريه قبره — فلما طلب من عمر بن عبد الغزيز أن يقوم بذلك ، رفض أن يدفن سليمان حتى يصدر ثلاثة كتب .. فعجب الناس وتساءلوا فيما بينهم ، أية أهمية هذه لهذه الكتب حتى جعلت الخليفة الجديد يقدمها على دفن سلفه ؟!.

أما هذه الكتب فهى الآتى بيانها :

١ ــ كتاب إلى مسلمة بن عبد الملك يطلب إليه الرجوع بجيشه . وكان قد حاصر مدينة القسطنطينية ، وطال الحصار وتفشت فى الجيش الأمراض حتى هلك كثير من الجنود من شدة البرد وقلة المؤونة حتى أكلوا الدواب ــ وكان سليمان قد حلف أن لايرجع هذا الجيش مادام حياً .

٢ ــ وكتاب بعزل أسامة بين زيد التوخى . وكان على خراج مصر . وكان ظلوماً ــ فأمر به أن يسجن فى كل جند سنة ، وأن تفك قيوده عند كل صلاة ثم يقيد ثانية .

٣ ــ وكتاب بعزل زيد بن أبى مسلم . وكان أميراً على أفريقية . وكان غشوماً يتأله ، يسبح ويهلل وهو يأمر بقتل الناس وتعذيبهم .

كانت هذه هى الكتب الثلاثة التى وجد عمر بن عبد العزيز نفسه ملزماً أن يقدمها على دفن الخليفة السابق ، لأنه رأى فى تأخيرها حتى يدفن سليمان إثماً وتفريطاً فى حق أمة أصبح هو مسئولاً عنها ... والذى يعنينا بالذات فى سياق حديثنا من هذه الكتب الكتاب الثالث . فهذا الكتاب يشير إلى المعانى التالية :

١ ــ أن هذا الحاكم كان ظالماً .

٢ ــ أنه كان يتأله أى يحرص على أن يظهر بمظهر التقى والورع .

٣ ــ أنه كان يأمر بقتل الناس وتعذيبهم ، فى الوقت الذى يغطى على مايجرى سراً من القتل والتعذيب بشعارات يطلقها ويملأ بها الأسماع من التهليل والتسبيح .

وهذا طراز فاجر من الظلم يجمع إلى الظلم لوناً خبيثاً من الغش والنفاق والتضليل ، فالذى يقرأ ويسمع لا يقرأ ولا يسمع إلا شعارات تنادى بالعدل والرحمة والحرية والسلام أما الذى يجرب التعامل مع صاحب هذه الشعارات ، فإنه لايرى وراء هذا الستار الزائف إلا الظلم والقهر والتعذيب والاستبداد .

وقد رأيت أن أسوق هذا النبأ من أنباء الخليفة الراشد الخامس ، حتى يعلم الكثيرون الذين أعفتهم ظروف معينة من التعامل مع الحاكم موضع حديثنا ، وكانت كل تجربتهم معه الاستماع إلى خطبه وبياناته وشعاراته ، أن عناصر التقييم لم تستكمل حين قيموا ، وعليهم أن يعيدوا النظر بعد إحاطتهم بكل عناصر التقييم .

* * *

وقد ظهرت فى السوق فى خلال فترة الانفتاح كتب عن الإخوان المسلمين ــ

انتهز كاتبوها خلو أذهان الناس عن أعمال الإخوان المسلمين وتاريخهم البطولى ـــ نتيجة عشرين عاماً من الكبت والتضليل ـــ وراح كل منهم يستملى هواه ، ويكتب تاريخ الإخوان المسلمين على نسق مايمليه هذا الهوى .. وكانت الضحية فى هذا هو الجيل الجديد من الشعب العربى ، الذى نشأ فى ظل إرهاب حكومى حجبه عن الحقائق ربع قرن من الزمان ، وملأ سمعه وبصره وعقله طيلة هذه الحقبة بسيل جارف من الأكاذيب الملبسة ثوب الحقائق .

وإذا كان هذا العهد قد استطاع أن ينفرد بعقول هذه الأجيال الحديثة فصاغها الصياغة التى أرادها ، فإن ابتداء عقد السبعينيات جاء وقد أوهى من قبضة هذا العهد ، فأتاح فرصة لتنفس الصعداء ، انبرى فيها أصحاب الأهواء من الكتاب فأخذوا دورهم فى توجيه هذه العقول إلى مايعملون لحسابه من المبادىء والأفكار ، معتمدين فى ذلك على مايعلمون من انطواء الإخوان المسلمين على أنفسهم ، وإغفالهم الأهمية العظمى للنشر والإعلان ، الذى صار فى عصرنا هذا أداة سحرية تستطيع أن تبرز الحق باطلاً والباطل حقاً.

وملأت هذه الكتب السوق المصرى والسوق العربى .. ووجدت من يتلقاها ويرحب بها ويقرأها بشوق ونهم ، فالسوق خال من كتاب واحد عن الإخوان المسلمين .. وهذه كتب بلغت الجرأة بكاتبيها أن أخرجوا منها كتباً تخصصت للكتابة حتى عن أسرار الإخوان المسلمين .. وما دام موضوع الكتاب هو الأسرار ، فهو إذن فرصة سانحة لاختلاق الأنباء ، وقلب الحقائق ، وتحريف الوقائع ، ودس السموم .. والهدف المقصود من ذلك كله هو تشويه صورة الإخوان المسلمين ، إرضاءً لهوى الكاتب فى خدمة جهات ترى الإخوان المسلمين أكبر عائق فى طريقها فى الشرق العربى والعالم الإسلامى .

وما كان لنا أن ننحى على مثل هؤلاء الكُتّابِ بلوم ، فإنهم قد قاموا بعمل يخدمون به مبادئهم . أما اللوم فإنه يوجه إلينا نحن الإخوان المسلمين ،لأننا تخلفنا عن أداء حق دعوتنا علينا من النشر والإعلان ، وتركنا الميدان خالياً لغيرنا فاقتحموه فى غيبتنا بهمة ونشاط .

وتقدمنا أخيراً إلى السوق ـــ وبعد أن تسممت الأفكار ـــ بالحقائق عن دعوتنا، ولكننا تقدمنا بتثاقل وكسل ، كمن يصحو على ضوضاء من نوم عميق ، فاستيقظ يتمطى ويتثاءب .. وحسبك أن تعلم أن كتاباً ككتابنا هذا لم ينشر عنه إعلان واحد فى صحيفة يومية .. كأننا بذلك لانكتب إلا لأنفسنا ..

وكتابتنا .. لأنفسنا أمر مطلوب بلا شك وذو نفع عظيم ، فإن جمهور الإخوان

المسلمين فى العالم اليوم جمهور له قيمة ووزن ــ كماً وكيفاً ــ ترجحان كل جمهور آخر ، ومن حق هذا الجمهور أن يكون دائماً أبصر الجماهير بحقائق دعوته ، وتفسير وقائعها ، وتفاصيل أسرارها ــ ولكن ليس معنى هذا أن نغفل من نعايشهم من الجماهير الأخرى ــ وهم الذين يكونون الرأى العام ــ فمن حق هؤلاء أيضاً ومن أوجب الواجبات علينا أن نضع حقائق دعوتنا بين أيديهم حتى لا ينفرد بهم المزيفون والمحرفون والمضللون .

نعم إننا على الحق الواضح الصريح ، ولكننا مطالبون بإشهار حقنا وإذاعته والمنافحة عنه ، وإيصال تفاصيله إلى كل عين وكل أذن وكل عقل بجميع وسائل الإعلام .. ولنا فى ذلك الأسوة فى رسول الله ﷺ فإنه لم يدع وسيلة من وسائل الإعلام إلا سلكها واستعان بها .. وكان الشعر فى عهده ﷺ هو أقوى وسائل الإعلام ، فلم يتخلف دونه ، فكان له شعراء ينافحون عنه ، ويدافعون عن دعوته .. وكان يسره أن يسمع شعر حسان بن ثابت فى الدفاع عن الدعوة ويقول « اللهم أيده بروح القدس » .

* * *

وهناك أيضاً قضية جديرة أن تقابل بالتوجس والحذر ، ولا ندرى إلى متى يلاحقنا النفوذ الأجنبى ، فيخرج من باب ليدخل من ألف باب .. فبعد أن حررنا أرضنا من جيوشه ، نرى أنفه مندساً فى مشاريعنا ومناهجنا ، ونرى إصبعه ــ من وراء ستار ــ تحرك الفتن فيما بيننا وتضلل الناشئة من أبنائنا .. ولقد نبهنا فى هذا الجزء من المذكرات وفى سابقه بإشارات إلى مثل هذا الأسلوب الماكر .. وفى ختام هذا الجزء وجدنا ماصدّق هذه الإشارات وأكدها .. وقد رأينا أن ننقل إلى القراء النصوص المؤكدة ، حتى تكون نذيراً للذين يحسنون الظن ، وينقادون ــ فى سذاجة ــ لكل من يتزيى بزى المؤمنين الصالحين ، فيتلقون دون تفهم ولا تقليب ، ودون أن يمدوا ببصرهم ليروا ما وراء ما يتلقون من دوافع ، ولا إلى ما قد ينتهى بهم هذا التلقى من ضياع وانهيار .

ولا يفوتنى أن أشيد فى هذا الصدد بزمرة كريمة ــ بعثت الأمل فى نفوسنا ــ من الكتاب والباحثين ، تنبهوا إلى خطورة هذا التحرك المشبوه ــ ونحمد الله أن كنا أول من تنبه إليه ونبه إليه ــ نحو محاولات مدبرة للتشكيك فيما نعتز به من تاريخنا ، ولتحطيم إيماننا بأنفسنا وقادتنا .. فتصدوا لهذه المحاولات على صفحات « الأهرام » تصديا يستحق التقدير والثناء .

* * *

وبعـد :

فهذه المذكرات يظلمها من اقتناها ليقرأها مجرد قراءة عابرة ، أو شغلاً لفراغ وقت ، فلقد أصدرتها لتدرس دراسة متأنية ، يخرج الدارس منها بخطة عمل فى حياتنا التى نعيشها اليوم ، فهى — كما قلت من قبل — ليست إلا خلاصات تجارب ، وعصارات عقول .. كما أنها طرق مبتكرة لإنشاء مواقف ومواجهة مآزق . وأساليب بارعة للتعامل مع النفوس ، وبرامج كاملة لتربية هذه النفوس ، وامتحانات — من واقع الحياة — للكشف عن معادن النفوس . وخطط لإحباط مكايد ، ووسائل لتفادى عواصف . ومثل حية فى الثبات على الحق ، والاعتصام بالصبر ، والتضحية بالمال والنفس .. ورواية كاملة الفصول — مثلت على مسرح الحياة — لوقوف الحق الخالص الأعزل أمام قوى الباطل الزائف المدجج .

ولقد كنت فى مقتبل أيام اشتغالى بالدعوة الإسلامية أقرأ الحديث الشريف الذى يقول فيه رسول الله ﷺ « إذا قرأتم القرآن فابكوا فإذا لم تبكوا فتباكوا » فأعجب لم يطالبنا الرسول ﷺ بالبكاء حين نقرأ القرآن ؟ ماالداعى للبكاء ؟.

فلما شببت وقرأت سيرته ﷺ ووجدت هذه السيرة سلسلة من المآسى والمحن والآلام والتضحيات ، وعلمت أنْ هكذا سيرة كل نبى ورسول . والقرآن يحكى لنا سير هؤلاء الصفوة من الدعاة وما لاقوا من أهوال .. فكان حقاً على من يقرأ هذه السير أن يبكى إذا كان يفقه مايقرأ .

وهكذا سير من أرادوا أن يجددوا دعوة الأنبياء ، فسوف ينالهم مانالهم . وجدير بمن يقرأ عن أحداثهم أن يتناولها بسمعه وبصره وقلبه ، حتى يقرأها ويفقهها ويحسها .. لعل ذلك يحرك فى نفسه خامد الهمم ، ويدفعه إلى اقتفاء الآثار على بصيرة وهدى ونور .

محمود عبد الحليم

الأسكندرية فى ٢٥ ذى القعدة ١٤٠٤ هـ .
٢٢ أغسطس ١٩٨٤ م .

مدخــل

من أشق الأمور على النفس ، أن يتناول إنسان مثلى بالكتابة موضوعاً يتصل بالإخوان المسلمين وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ذلك أن تناول هذا الموضوع يمض النفس ، ويهيج المشاعر ، ويثير الأحزان ..

وإذا كان الكاتب مجرد مؤرخ ـــ مدى اتصاله بالأحداث التى يكتب عنها أنه يراقب هذه الأحداث عن كثب ـــ فإن تأثره بما يؤرخ له ويسجله ـــ إن تأثر ـــ يكون سطحياً ومؤقتاً ، أما إذا كان المؤرخ أو الكاتب وثيق الصلة بالأحداث ، فإن تأثره يكون عميقاً وعنيفاً وأليماً ... فكيف بمن يكتب عن أحداث كان هو ممتزجاً بها بل كان هو جزءاً منها ، بل كان من حصادها ؟!.

لو كان الرجال الذين ظهروا على المسرح فى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ رجالاً غرباء عن الإخوان المسلمين لاتربطهم بهم رابطة ، ولا تصلهم بهم صلة ، لما جرت الأمور على النحو الذى جرت عليه ، ولما كانت الأحداث قد توالت على الصورة الكئيبة التى حدثت بها ، والتى انتهت بالكوارث التى حاقت بالإخوان المسلمين وبالتالى بالبلاد فأوردتها موارد الدمار المادى والخلقى ، ثم جللت بعد ذلك هامها بالعار الذى لاينسى على مر الزمن ، حيث دنست أرضها الطاهرة أقدام شذاذ الآفاق ، وطريدى الإنسانية .

لم يخل التاريخ من مآس لازالت الأجيال تتناقلها جيلاً بعد جيل ، والقلوب تقطر حزناً واشمئزازاً كمأساة البرامكة فى عهد هارون الرشيد ـــ ولكن البرامكة على كل حال لم يكونوا أكثر من طراء غرباء قدموا إلى ملك ثابت الأركان ، عريق فى الملك ليكونوا فى خدمته ، مستظلين بوارف فضله ، ملتمسين من واسع كرمه ... فإذا حدّثت هؤلاء أنفسهم أن يتطاولوا على سيدهم ، أو إذا أحس هارون بأنهم يتطلعون أن ينازعوه سلطته ، فقد يتاح له وجه عذر إذا هوعصف بهم .

أما مأساة الإخوان مع الثورة فكانت عكس ذلك تماماً فلقد حمل الإخوان عبء

تربية الشعب ربع قرن من الزمان ، استطاعوا خلاله أن يغيروا مفاهيمه ، وأن يوقظوا وعيه ، وأن يطهروا نفسه ، وأن يلهبوا مشاعره ... ولقوا فى سبيل ذلك أشد مايلقى المجاهدون ، وضحوا بأموالهم وأنفسهم ودمائهم وبشبابهم وشيبهم حتى يئس أصحاب السلطان أن يبلغوا منهم أى مبلغ .. وسقط فى أيدى الطغاة أخيراً ، فطأطأوا الرءوس للدعوة الإسلامية فى شخص الإخوان .. ودانت البلاد منذ بدأت الخمسينيات لهم .. وطابت نفوس الشعب إلى الحكم الإسلامى ، وصار مفهوماً أن المسألة لم تعد أكثر من مسألة وقت .

وخطب أعداء الإخوان — وهم أصحاب السلطة — ود الإخوان ، ولكنهم وجدوا من الإخوان عزوفاً عنهم وعن مظاهر سلطتهم .. لأن الإخوان يعلمون أن اختلاط الحق بالباطل فتنة ، يضل فيها الناس فلا يميزون الحق من الباطل .. ولهذا عزف الإخوان ، وتوفروا على إعداد العدة لحكم إسلامى خالص .

ولم يكن هدف الإخوان فى يوم من الأيام الاستمتاع بأبهة الحكم أو التباهى بمظاهر السلطة .. ولو كان هذا هدفهم لاختصروا الطريق ، ولأعفوا أنفسهم من كثير مما بذلوا من جهد ووقت ومال ودم .. فلقد تربع فى دست الحكم فى مصر من كان هو وشيعته التى تدين له أقل وأدنى من شعبة واحدة من شعب الإخوان علماً ومواهب وثروة بالرجال ... ولكن هدف الإخوان الذى أضناهم وأسهر ليلهم ، كما دوخ أعداءهم وأقض مضاجعهم ، أنهم يريدون أن تحكم الأرض بوحى السماء .. وهو مالا يرضاه حاكم مستبد ، ولا سلطان مفسد .

وقد قدمت فى صفحات ماضية أن الشعب المصرى كانت أنظاره مشدودة إلى الإخوان ، يترقبون اللحظة القريبة التى تنتقل فيها مقاليد الأمور إلى أيديهم ، وأن المراقبين الأجانب كان مسيطراً عليهم نفس الشعور ، حتى نشرت جريدة النيويورك تيمس فى أحد تعليقاتها فى ذلك الوقت قولها « لاشك أن الإخوان المسلمين قوة لايستهان بها » وقالت « إنهم آثروا عدم خوض المعركة الانتخابية (سنة ١٩٥٢) حتى يتم لهم تنظيم صفوفهم بالصورة التى يعتقدون أنها كفيلة بتحقيق أهدافهم » .

وهذا هو ماكان الإخوان — فى حقيقة الأمر — متوفرين عليه فى تلك الأيام — فلقد كانوا يشعرون أن انهيار أعدائهم الذى بدأت بوادره فى عام ١٩٥٠ قد وصل إلى أقصاه عام ١٩٥٢ . وليس أدل على ذلك من التخبط الذى أدى إلى توالى ثلاث وزارات على الحكم فى أقل من نصف عام .

كان الإخوان مطمئنين إلى صفوفهم فى الشعب ، وتكويناتهم المدنية والعسكرية ، وإلى تهيؤ الجو لاستقبال الحكم الإسلامى .

ولست أدعى إلماماً بتفاصيل مايتصل بالتكوينات العسكرية للإخوان ، فقد كنت أولا فى ذلك الوقت ــ بحكم عملى الشخصى ــ بعيداً عن القاهرة فى الصعيد ، ثم إننى كنت بطبيعتى ــ كما قدمت ــ عزوفاً عن التدخل فيما لم أدع إليه ... ولذا فإنى أترك الحديث عن ذلك إلى الأخ الذى كان مسئولاً عن هذه الناحية وهو الأخ الكريم اللواء صلاح شادى فأنقل شيئاً مما نشره عن لسان الصحفى سامى جوهر رحمه الله فى الطبعة السادسة من كتابه « الصامتون يتكلمون » وهو حديث ليس بالجديد علىّ فقد كان حدثنى به وبأكثر منه الأخ الأستاذ صلاح ــ أكرمه الله ــ فى الأيام الأولى للثورة ..

قال الأستاذ صلاح فى هذا الكتاب :

« فى أواخر عام ١٩٤٩ خلف حسين سرى باشا إبراهيم عبد الهادى فى رياسة الوزارة وأصدر قراراً بعودة جماعة الإخوان المسلمين ــ وحضر لى ضابط بوليس من القنطرة هو اليوزباشى ــ وقتئذ ــ عبد الفتاح غنيم لزيارتى . وأبلغنى برغبة المرحوم الصاغ ــ وقتئذ ــ صلاح سالم فى اللقاء معى .. فرحبت .. وتم اللقاء . وحدثنى صلاح سالم عن رغبة تشكيل الضباط الذى كان منضماً للإخوان المسلمين قبل قرار حلها بإعادة العلاقات مع الجماعة .. فأعلنته ترحيباً بذلك مادام الهدف واحداً وهو خدمة الوطن ، والالتزام بشرع الله نظاماً ، وطرد المستعمر . فوعدنى أن يقابلنى فى موعد آخر بالمسئول عن تنظيمهم .

وفعلا تحدد الموعد والتقينا فى مكتب المرحوم محمد العشماوى باشا . وحضر فى هذا اللقاء جمال عبد الناصر بصفته المسئول عن تنظيم ضباط الجيش .

وكنت ألقاه لأول مرة .. وإن كنت سبق أن سمعت باسمه من المرحوم محمود لبيب الذى كان وكيلاً لجماعة الإخوان على أنه أحد أعضاء تشكيل الإخوان فى الجيش هو والبكباشى عبد المنعم عبد الرءوف . وهو التشكيل الذى عرف بعد ذلك باسم تشكيل الضباط الأحرار .. وكان محمود لبيب هو الذى اختار لهم هذا الاسم حتى يبتعد تنظيمهم عن أعين الحكومة إذا عرف أنه تشكيل مرتبط بجماعة الإخوان .

وتحدثنا طويلاً فى هذا اللقاء .. وكان رأى عبد الناصر أن عبد الرحمن السندى غير مقنع للضباط . وأنه لايستطيع أن يجمع ضباط الجيش على الفكرة الإسلامية . وتحدثت معه على أن أهدافنا جعل الإسلام هو النظام الحاكم .

وتكررت لقاءاتنا .. وبدأ التعاون بيننا فى كل شيء .. حتى كان صلاح سالم يشترى لنا أسلحة من العريش للكفاح المسلح فى حرب القنال . وأذكر أنه بعد قيام الثورة أعاد لنا صلاح سالم مائتى جنيه دفعها للمرحوم عبد القادر عوده ثمن أسلحة لم يكن أتم شراءها ..

واتفقنا مع جمال عبد الناصر أن يقوم أحد الضباط من تنظيمه بتدريب الشباب من الإخوان على استخدام الأسلحة ، فاختار الصاغ — وقتئذ — مجدى حسنين ، وكان ضابطاً فى مدرسة الأسلحة الخفيفة بثكنات الجيش فى العباسية .

وفى يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ .. يوم حريق القاهرة .. جاءنا عبد الناصر مذعوراً ، وطلب منا البحث عن مكان لإخفاء أسلحة فيه . كان يخفيها فى مدرسة الأسلحة الخفيفة عند مجدى حسنين .. وأنه يخشى أن تقوم السلطات بتفتيش المدرسة فتعثر عليها .

وفى الحال تم الاتفاق .. وقام الأخوان رحمهما الله — منير الدلة وحسن العشماوى ومعهما الأخوان عبد القادر حلمى المستشار حاليا بالكويت وصالح أبو رقيق المستشار بالجامعة العربية بالتوجه بسياراتهم إلى بوابه رقم (٦) حيث كان ينتظرهم مجدى حسنين وقاموا بنقل الأسلحة داخل سياراتهم إلى منزل عبد القادر حلمى فى أول شارع الهرم .. وفى المساء حضر جمال عبد الناصر ونصح بنقل الأسلحة إلى الريف . فوقع الاختيار على عزبة حسن العشماوى فى الشرقية ... ورسم جمال عبد الناصر بنفسه كيفية تشييد مخزن السلاح وطلب أن يكون تحت الأرض بمسافة ثلاثة أمتار وتغطى جدرانه بمادة الأسبستوس العازلة من الحريق والرطوبة .

وحفرنا المخزن أسفل جراج فى العزبة .. ولم يكن يعرف مكانه سواى أنا والمرحوم حسن العشماوى والمرحوم منير دلة وصالح أبو رقيق وعبد القادر حلمى .. وطبعاً جمال عبد الناصر .. وبقيت الأسلحة بالمخزن .. وعندما قامت الثورة وفى إحدى جلساتنا مع جمال عبد الناصر سألناه عما إذا كان يريد الأسلحة فطلب أن تبقى فى مكانها .

واستمرت الاتصالات بين عبد الناصر وبينى قبل قيام الثورة .. وقبل الثورة بأيام جاءنى وأبلغنى أنه يفكر فى التعجيل بالقيام بالثورة لوجود عدد كاف من الضباط المنضمين لتنظيمه فى القاهرة .. وأنه يمكنه بواسطتهم عمل حاجة .. وطلب أن تعقد جلسة للتشاور .. فحددت له لقاءً فى شقة عبد القادر حلمى أحد الأعضاء البارزين بالجماعة وعضو مكتب الأرشاد .

ويقول الأخ صالح أبو رقيق تكملة للحديث : كان ذلك قبل قيام الثورة بليلتين ، حضر جمال عبد الناصر ومعه كمال الدين حسين إلى شقة عبد القادر حلمى ، وهى فى الطابق الثانى بالمنزل الذى كنت أقيم فيه فى أول شارع الهرم بالقرب من جامع سيدى نصر الدين ..

وقد شهد هذا المنزل كثيراً من الأحداث .. إننى كنت أقيم بالطابق الأول منه وعبد القادر فى الطابق الثانى .. وقد أخفينا فيه حسين توفيق عن أعين البوليس أياماً بعد اتهامه

باغتيال أمين عثمان .. وهى القضية التى اتهم فيها الرئيس أنور السادات أيضاً . وفى هذا المنزل تكررت اجتماعات عبد الناصر ورجال الثورة والإخوان المسلمين بعد الثورة .

جاءنا عبد الناصر وكمال الدين حسين واجتمعا بنا .. صلاح شادى وأنا والمرحوم حسن العشماوى وفريد عبد الخالق وعبد القادر حلمى .. وأبلغنا اعتزامه القيام بالثورة خلال أيام . فطلبنا منه الانتظار لحين استطلاع رأى المرشد . فطلب استطلاع رأيه فى أن يتولى الإخوان الحكم بعد نجاح الثورة .. وكان المرشد فى ذلك الوقت موجوداً بالاسكندرية .. ولكنه ألح لمعرفة رأيه بسرعة معلناً أن سيؤجل الحركة يوماً لهذا الغرض .

وفعلاً سافرت مع حسن العشماوى وعبد القادر حلمى وفريد عبد الخالق إلى الاسكندرية وقابلنا المرشد فطلب منا إبلاغ جمال عبد الناصر موافقته وتأييده وحمايته للثورة ، كما طلب إبلاغه أنه ليس من المصلحة أن تظهر للثورة علاقة بالإخوان حتى لايتدخل الإنجليز لمقاومتها ، واقترحت أن يتولى الحكم على ماهر باشا على أساس أنه غير حزبى ، وكان رئيساً للوزارة وقت وفاة الملك فؤاد واستطاع أن يقود البلاد وتطمئن له جميع الجهات .

وعدنا إلى القاهرة واتصل صلاح شادى بعبد الناصر ودعاه للحضور إلى شقة عبد القادر حلمى فى صباح اليوم التالى .. يوم ٢٢ يوليو .. وجاء عبد الناصر ومعه كمال الدين حسين وأبلغناه الرسالة .

ويقول صلاح شادى مكملاً الواقعه وقبل أن ينصرف جمال عبد الناصر انتحيت به جانباً ، وطلبت أن يقرأ معى الفاتحة أن تكون الحركة لله ولإقامة شرع الله .. فقرأها معى .. وتعانقنا وانصرف ..

وقامت الثورة .. وفى الساعة الثالثة من صباح يوم ٢٣ يوليو جاءنى حسن العشماوى وأبلغنى أن جمال عبد الناصر اتصل به تليفونياً لعدم وجود تليفون فى منزلى ، وطلب منه أن يحضر إلىّ ليكلفنى بالذهاب إلى منزله لإبلاغ أسرته أن كل شىء تم بنجاح .. وفعلا ذهبت بسيارة حسن إلى منزل عبد الناصر بكوبرى القبه .. وكانت السيدة زوجته وشقيقه عز العرب على ماأعتقد يطلان من الشرفة فى قلق .. فنقلت لهما رسالة عبد الناصر وانصرفت .

ويستأنف صالح أبو رقيق حديثه عن الأيام الأولى للثورة ويقول :

ونجحت الثورة .. وقام رجال الإخوان بحراسة المرافق ليلة الثورة .. وفى الأيام التالية اتصل كمال الدين حسين بصلاح شادى وأبلغه أن قوات بريطانية ستتحرك من السويس إلى القاهرة .. فأرسلنا مجموعة من الإخوان الفدائيين إلى الكيلو ٩٦ لعرقلة تقدم

الإنجليز .. وظلوا يحرسون الطريق عدة أيام .

وتم أول لقاء بين عبد الناصر والمرشد حسن الهضيبي يوم ٢٨ يوليو .. حضر عبد الناصر إلى منزلى حيث كان ينتظره المرشد وعبد القادر حلمى وحسن العشماوى وصلاح شادى .. وقال عبد الناصر ونحن نصعد درجات السلم :

أنا خايف على الأولاد من نشوة النصر .. ووجدتنى أقول له بسرعة نصر أيه .. ده لسه المشوار طويل .. عايزين ننظف البلد ونطهرها من الفساد وتقوم المشروعات .. وعندما وصلنا .. ودخل عبد الناصر وصافح المرشد فوجئت به يقول للمرشد :

« قد يقال لك إن احنا اتفقنا على شىء .. إحنا لم نتفق على شىء » .

وكانت مفاجأة .. فقد كان اتفاقنا أن تكون الحركة إسلامية ولإقامة شرع الله .. واستمرت المقابلة فى مناقشات أنهاها المرشد بقوله لجمال عبد الناصر :

« اسمع ياجمال .. ماحصلش اتفاق .. وسنعتبركم حركة إصلاحية .. إن إحسنتم فأنتم تحسنون للبلد .. وإن أخطأتم فسنوجه لكم النصيحة بما يرضى الله » . وانصرف جمال . وقال لنا المرشد وكأنه كان يستطلع الغيب : **« الراجل ده مافهش خير . ويجب الاحتراس منه »** .

وكانت الوزارة قد شكلت برياسة على ماهر كما اقترحنا ، لكن بعد شهور جاءنا جمال عبد الناصر يشكو من على ماهر ومماطلته فى إصدار قوانين الإصلاح الزراعى — وسأل المرشد عمن يتولى الحكم بعده .. وكان رأينا أى شخص صالح .

ويضيف صلاح شادى قائلا :

وتم تشكيل وزارة برياسة محمد نجيب .. وطلب منا جمال عبد الناصر الاشتراك فى الوزارة . استدعانى أنا وحسن وكان يوسف صديق حاضراً .. وفاجأنا بقوله : « أنا عايز ثلاثة من الإخوان يدخلوا الوزارة » فرد يوسف صديق : إحنا خنخليها فقهاء .. فقال له حسن العشماوى : ما لهم الفقهاء .. ماله واحد زى الشيخ الباقورى بغض النظر عن الموضوع . وقال عبد الناصر : أنا كنت اقترحت أنك تدخل الوزارة — والكلام كان موجها لحسن العشماوى — أنت ومنير الدلة ولكن الزملاء معترضين لصغر سنكم .. واحنا عايزين ترشحوا لنا اثنين أو ثلاثة .

وذهبنا إلى المرشد .. واجتمع مكتب الإرشاد واتخذوا قراراً بعدم الاشتراك فى الوزارة بعد منا مناقشات طويلة .. فقد رأى البعض أن اشتراكنا فى الوزارة سيجعلنا مبصرين بكل الخطوات التى تقوم بها الحكومة .. ولكن المرشد كان له رأى آخر وهو

أنه : لو حدثت أخطاء من الحكومة فإنها ستلقى على الإخوان فضلا عن أن رسالة الإخوان كما كان يراها المكتب فى تلك الآونه هى عدم الزج بأنفسهم فى الحكم .

أبلغنا جمال عبد الناصر بقرار المكتب ، فطلب من المرشد أن يرشح له أشخاصاً آخرين من غير الإخوان فرشح له أحمد حسنى وزكى شرف ومحمد كمال الديب إلا أن عبد الناصر اختار أحمد حسنى فقط كوزير للعدل . واستطاع الاتصال بالشيخ الباقورى وكان عضوا بمكتب الأرشاد وأقنعه بالخروج على قرار المكتب وقبول الوزارة وزيراً للأوقاف فقبل .

واتصل بى كمال الدين حسين وطلب منى محاولة إقناع أعضاء المكتب بقبول دخول الشيخ الباقورى الوزارة حتى لايحدث صدع بين الحكومة والإخوان — فذهبت إلى مقر الجمعية لإبلاغ المرشد بحديث كمال الدين حسين لى ، فوجدته فى حالة ثورة على صالح أبو رقيق لأنه أبلغه أن الشيخ الباقورى فى مقر قيادة الثورة ليحلف يمين الوزارة .. وكان المرشد لايريد أن يصدق أن الباقورى خالف قرار المكتب .. وبعد ساعة أذيع تشكيل الوزارة . وخرج المرشد إلى منزله — وعند خروجه قابله الصحفيون وسألوه :

هل عرضت عليكم الوزارة ؟

فأجاب : لقد عرضت علينا واعتذرنا ..

وأغضب هذا التصريح جمال عبد الناصر ..

ثم يكمل صالح أبو رقيق روايته نقلاً عما سمعه من المرشد فقال :

جلس المرشد فى صالون منزله حزيناً لخروج الباقورى على إجماع مكتب الإرشاد — وقرب منتصف الليل وصل الشيخ الباقورى إلى منزل المرشد وصافحه وقبّل يده وقال :

أنا تصرفت .. أتحمل نتيجة تصرف . وأنا مستعد أن أستقيل من مكتب الإرشاد .

ورد الهضيبى : لسه ؟ وقال الباقورى : ومن الهيئة التأسيسية .. ورد والهضيبى : لسه وقال الباقورى : ومن جماعة الإخوان المسلمين . ورد الهضيبى هكذا يجب .

وطلب الشيخ الباقورى ورقة وكتب لستقالته من جماعة الإخوان المسلمين .. وانصرف ..

وفى صباح اليوم التالى توجه المرشد إليه فى مكتبه بوزارة الأوقافِ مهنئاً له . فقال له الباقورى :

اعذرنى يامولاى .. إنها شهوة نفس .

فرد المرشد : تمتع بها كما تشاء .. اشبع بها .

وكان هذا أول صدام بين عبد الناصر وبين الإخوان المسلمين .. أراد عبد الناصر شيئاً .. وكان يعتقد أنه إذا أراد فيجب أن يطاع .. أراد أن يدخل الإخوان الوزارة .. وقال له مكتب الإرشاد .. « لا » .. الكلمة التي كانت تثيره دائما .. ولكن استمرت العلاقات فاترة بين عبد الناصر وبين الإخوان .

ثم جاء الصدام الثانى أو كلمة « لا » الثانية التى قالها الإخوان لعبد الناصر ..

يقول صلاح شادى : فى أحد الأيام فى أوائل عام ١٩٥٣ اتصل بى جمال عبد الناصر وقال لى : ياصلاح .. أنا باعت لك إبراهيم الطحاوى وسيحدثك فى موضوع هام وعايز رأيك ورأى جماعة الإخوان فيه .

وفعلا جاءنى إبراهيم الطحاوى وقال لى : إن الرئيس عبد الناصر يريد من جماعة الإخوان أن تنصهر داخل هيئة التحرير ويصبحا تنظيماً واحداً .

وقلت له : مش ممكن .. إن معنى هذا القضاء على جماعة الإخوان .. وهيئة التحرير ماهى إلا حزب سياسى ونحن جماعة دينية .

وفوجئت به يقول لى : ماهو الرئيس عايزك تمسك هيئة التحرير .

وأجبته : إننى لاأبحث عن مصلحة شخصية .. لكن من الخطأ أن تطلب منا ذلك ..

وانصرف إبراهيم الطحاوى .. وبطبيعة الحال أبلغ الرسالة إلى عبد الناصر الذى طلب أن يعقد معنا جلسة عمل فى منزل عبد القادر حلمى .. المنزل الذى شهد كثيراً من الاجتماعات .

وحضر جمال عبد الناصر ومعه عبد اللطيف البغدادى وكمال الدين حسين والمرحوم عبد الحكيم عامر وأحمد أنور الذى كان وقتئذ قائداً للبوليس الحربى .. وكان يحضر هذا اللقاء من الإخوان أنا وصالح أبو رقيق وفريد عبد الخالق وبطبيعة الحال عبد القادر حلمى الذى دعانا لتناول الغداء .. وبعد أن انتهينا منه جلس عبد الناصر يتحدث عن هيئة التحرير وعن رغبته أن تنصهر داخلها جماعة الإخوان المسلمين لتكون تنظيماً قوياً .

ويرد صالح أبو رقيق ويقول : شوف ياجمال .. الحكومة أياً كانت مادامت فى الحكم وأرادت تكوين حزب فمصيره الفشل .. سيولد الحزب ميتاً .. لأن الذين سينضمون إلى عضويته ويسارعون إليها هم أعداؤها قبل أنصارها وذلك خوفاً منها .. وعندك تجربة إسماعيل صدقى فى سنة ١٩٣٠ خير دليل على ذلك .. فعندما تولى الحكم شكل حزب الشعب وزور الانتخابات ونجح مرشحوه .. ولما خرج من الحكم انتهى

حزب الشعب وتلاشى .

وجنح جمال وقال بخبث : أنتم عصاة .

فناداه فريد عبد الخالق أن يجلس إلى جواره على أريكة فى جانب غرفة الصالون ودار بين الاثنين حديث يرويه فريد ويقول : قلت له : ياجمال إننى أرى الجو ينذر بصدام ليس من مصلحة أحد فى البلد أن يقع .. وكنت بذلك أشير إلى رغبته فى أن تنصهر جماعة الإخوان داخل هيئة التحرير وكذلك لعدة مواقف اعتبرناها عدائية ، وكان مظاهرها حذف الرقابة جميع بيانات الجماعة وعدم نشرها فى الصحف .

فأجابنى : أعملكم إيه .. ماانتم عصاه ..

تعجبت لرده وقلت له مستنكراً .

عصاة .. دى كلمة كبيرة ياجمال .. عصاه ليه .. هل نحن نقف موقفاً عدائياً من الأهداف الوطنيه للثورة ومصلحة البلد .. إننا نريد تحقيق الديمقراطية وعودة الحياة النيابية .

فأجابنى بسرعة : ماأنتم كده بتحرجونى .. طالبين انتخابات حرة .. يعنى عايزين النحاس باشا يرجع تانى وتعود نفس الأوضاع .. أنا بأقول لكم ادخلوا هيئة التحرير وتولوا أنتم أمرها وتصبح هى مسرح نشاطكم .. وأنتم بترفضوا .. عايزين إيه أمال ؟

فقلت له اسمع ياجمال .. إحنا بنصارحك .. الديمقراطية لابديل لها ، وأنت يجب أن تكون عندك الثقة فى أن الشعب سيتمسك بك ولن يرضى عنك بديلاً .. أما أن تتشكك فى ذلك فهذا أمر غريب فعلاً .. لماذا تتشكك ؟.. أما بالنسبة لدخولنا هيئة التحرير فليس هناك تعارض من أن تقود أنت التنظيم السياسى عن طريق هيئة التحرير ونبقى نحن دعاة للتربية الإسلامية — أما رأيك أن تندمج الجماعة مع هيئة التحرير فهذا بالضبط أشبه بمن يضع زيتاً وماءً فى زجاجة ويحاول أن يمزجهما ببعض .. مش ممكن أبداً يمتزجان .. ومن الأفضل للإسلام وللبلد ولك أن نبقى بعيدين عن السياسة ومؤيدين لك كحركة إسلامية .. والتزام الحكمة وضبط النفس يمكن أن يكون جسراً لتعبر من فوقه الأزمة .. وليس من هدفنا نهائيا أن ننافسك فى الحكم فنحن لانريد الحكم .. ولذلك لاأرى أى سبب للتصادم وعدم تقبل النصيحة وخاصة أن المرشد قال لك عند بدء الخلاف بالحرف الواحد : « ياجمال عندما تشعر بضيق من الإخوان أبلغنى وأنا أسلمك مفتاح المركز العام ونقفلها حتى لاتقع فتنة » .

وصمت جمال للحظات .. وأحسست أنه لايجد مايرد به .. وفجأة تكلم ليكشف

لى بما فى داخل نفسه وقال : اسمع يافريد .. أقولك اللى فى نفسى واخلص .. أنا عندى فكرة مستولية علىّ ولا أعرف إذا كانت غلط ولا صح .. أنا عايز فى خلال سنتين ثلاثة أوصل إلى أنى أضغط على زر .. البلد تتحرك زى ماأنا عايز .. واضغط على زر .. البلد تقف .

فضحكت وقلت له : احنا بقالنا ٢٧ سنة بنعمل لتربية نشء من المسلمين يفهم الإسلام فهما متكاملاً ويعمل على هدى منه .. ولا نقول رغم ذلك إننا بلغنا درجة إن احنا نجمع الإخوان فى لحظة ونفرقهم فى لحظة .. اسمع ياجمال : أنت بتفكر وكأنك ضابط فى معسكر يصدر الأمر فينفذ فى الحال .. لكن تغيير مسار المجتمعات لايمكن أن يتم إلا فى جو من الحرية والديمقراطية يسمحان بازدهار المفاهيم الصحيحة والقيم السليمة .

فأصر على رأيه قائلاً : الحقيقة ده اللى سيطر على تفكيرى .

فأتممت حديثى قائلاً : إذا كان كده .. فلا فائدة من نصيحتى أو نصيحة غيرى . وهذا شيء مؤسف جداً .. والذى سيحكم لك أو عليك هو التاريخ .

وانتهى بذلك حديثنا .. وانصرف جمال مع إخوانه ــ وبقينا نتناقش ونضحك من رغبته أن يضغط على زر فتتحرك البلد كما يريد .. ويضغط على زر فتقف البلد ــ كنا نعتقد أنه يحلم ولكنه استطاع فعلاً أن يحقق الحلم بعد ذلك .

مفاوضات الإخوان والانجليز :

وفى فبراير ١٩٥٣ بدأ الحديث عن إجراء مفاوضات مع الانجليز للجلاء عن مصر .. ولعب الإخوان المسلمون دوراً فى هذه المفاوضات يشرحه صالح أبو رقيق .. واستغله عبد الناصر بعد ذلك فى التشهير بالإخوان واتهامهم بالعمالة والتعاون مع الانجليز .. يقول صالح :

فى شهر فبراير ١٩٥٣ جاءنى المرحوم الدكتور محمد سالم وأبلغنى برغبة السفارة البريطانية فى أن يلتقى بعض المسؤلين من جماعه الإخوان المسلمين بمستر إيفانز المستشار الشرقى بالسفارة البريطانيه لاستطلاع رأى جماعة الإخوان فيما يرتضونه لنجاح مفاوضات الجلاء التى ستبدأ مع الحكومة .. وكان الإنجليز يعلمون موقف الإخوان ودفعهم بالشباب لمحاربة القوات البريطانيه فى منطقة القنال فى حرب عصابات .

وأبلغت المرشد المرحوم حسن الهضيبى بذلك .. وبعد مناقشات ودراسة أمسك

بسماعة التليفون واتصل بجمال عبد الناصر الذى رحب بذلك أشد ترحيب . وطلب أن يطلع على نتائج المحادثات .

وانتدبنى المرشد أنا ومنير دلة للاتصال بإيفانز .. وفعلاً اجتمعنا به ، وعدت للهضيبى أنقل له صورة كاملة عما دار بيننا من حوار .. فطلب منى أن أكتب تقريراً مفصلاً وتسليمه له فى اليوم التالى .. وعدت إلى منزلى فكتبت التقرير وسلمته للمرشد فى اليوم التالى فاتصل تليفونياً بعبد الناصر الذى سارع إلى منزل الهضيبى وقال بالحرف الواحد بعد أن قرأ التقرير : « كويس .. ده انتم استطعتم الوصول إلى حاجات لم يكن من الممكن أن نوصل لها » ــ وكان إيفانز ينتظر رداً على عروضه من المرشد بنفسه ، فأبلغ المرشد رغبة إيفانز لعبد الناصر الذى طلب منه مقابلته .

وفعلاً تمت مقابلة المرشد بإيفانز يوم ٩ فبراير فى منزل المرشد . وبعد أن خرج إيفانز اتصل المرشد مباشرة بعبد الناصر وأبلغه فى مقابلة تمت بعد ذلك فى منزل منير دلة كل تفاصيل المقابلة .. وتوثقت بعد ذلك اتصالات إيفانز بالإخوان بعد أن بدأت المباحثات الرسمية التى تعثرت أكثر من مرة .. حتى انتهت بتوقيع الاتفاق النهائى فى سبتمبر ١٩٥٤ .

ويضحك صالح فى ألم ويقول : ومن الغريب أنه عندما اشتد الخلاف بين عبد الناصر والإخوان بعد ذلك أخذ يُشَهِّر بهم على أساس أنهم كانوا يتصلون بالإنجليز بدون علمه وأنهم أبدوا تنازلات مما جعل موقفه محرجاً خلال المحادثات .. وجنّد لادعائه هذا كل الصحف وأغلب الأقلام الصحفية .. وصدقه الناس بطبيعة الحال .. ولم يعلن أبداً أنه كان على علم بهذه الاتصالات وأنها تمت بموافقته وتشجيعه .. تماماً كما فعل مع الأستاذ مصطفى أمين بعد ذلك باثنى عشر عاماً عندما كلفه بمعاودة الاتصال برجال السفارة الأمريكية ، ثم قدمه للمحاكمة أمام محكمة الدجوى بتهمه التجسس .. وكان يكفى لتبرئته أن يقول عبد الناصر إن تلك الاتصالات كانت بأمره كما قرر مصطفى أمين .. إلا أن عبد الناصر بعث خطاباً إلى المحكمة ينفى تكليفه مصطفى أمين بذلك .. وكشف التاريخ بعد ذلك أن مصطفى أمين كان صادقاً ــ باعتراف عبد الناصر نفسه إلى محمد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان سابقاً والدكتور فائق السمرائى سفير العراق فى القاهرة سابقاً .

الصراع الثالث :

ويسترسل صالح أبو رقيق فى الحديث عن الصراع الثالث بين عبد الناصر والإخوان

فيقول .

فى أواخر عام ١٩٥٣ اشتد الخلاف بين الإخوان وبين عبد الناصر .. كان الإخوان يطالبون بعودة الحياة الديمقراطية للبلاد وتحديد موعد لإعلان الدستور .

وحاول عبد الناصر أن يستقطب بعض أعضاء مكتب الأرشاد للوقوف ضد المرشد حسن الهضيبى . وعندما فشل أصدر مجلس الثورة قراراً فى ١٢ يناير ١٩٥٤ بحل جماعة الإخوان المسلمين ــ وكان المرشد يرى أن الثورة لم تنفذ الأحكام الإسلامية المتفق عليها . واستدعى عبد الناصر الشيخ محمد فرغلى عضو مكتب الأرشاد ، وأراد إقناعه بأن مصير الثورة والإخوان واحد ، وأن الأهداف واحدة ، وأنه يجب أن يقف الإخوان وراء الثورة . وأن المرشد حسن الهضيبى يريد أن يفرض رأيه على الثورة ، وأن التعاون معه أصبح مستحيلاً .

ونقل الشيخ محمد فرغلى حديث عبد الناصر لبقية أعضاء مكتب الأرشاد ، وأحسوا جميعاً أنه يريد إحداث فرقة بينهم ، فازدادوا تماسكاً ولم يهمهم قرار الحل .

وبدأ عبد الناصر عدة محاولات لتشويه سمعه الإخوان .. وكانت المحاولة الأولى إعلان اكتشاف مخزن الأسلحة فى عزبة حسن العشماوى ــ وكانت المحاولة الثانية اتفاقه مع عبد الرحمن السندى رئيس الجهاز السرى ــ وكان الهضيبى قد عزله بعد أن أعلن أن لاسرية فى الدعوة، وعين بدلاً منه يوسف طلعت ــ اتفق عبد الناصر مع السندى على أن يقوم بعض معاونيه باحتلال مبنى المركز العام لإرغام المرشد على الاستقالة .. وفشلت المحاولة وزاد الإخوان تمسكاً بمرشدهم .

ثم وقعت أحداث فبراير عام ١٩٥٤ بعد إعلان قبول استقالة محمد نجيب .. وخرجت المظاهرات تطالب نجيب بالبقاء . وكان من المعروف أنها من تدبير الإخوان المسلمين .. وشهدت القاهرة أعنف المظاهرات واضطر عبد الناصر إلى إعادة نجيب .

وفى يوم ٢٨ فبراير خرجت المظاهرات فرحة بعودة نجيب ، واتجهت إلى ميدان الجمهورية .. وحاول البوليس فض المظاهرات فأصيب عدد من المواطنين . وحمل المتظاهرون قمصان المصابين ملوثة بدمائهم وتوجهوا إلى قصر عابدين .. وخرج إليهم محمد نجيب محاولاً دفعهم للانصراف .. ولم يتحركوا .. ولمح بينهم عبد القادر عوده فدعاه إلى الشرفة لإلقاء خطاب لفض المتظاهرين ــ وصعد ووقف بجوار محمد نجيب الذى أعلن أنه سينشىء الجمعية التأسيسيه وسيعيد الحياة النيابيه .. وانصرفت المظاهرات . وجاء فى خطاب نجيب مايلى :

« إننا قررنا أن تكون الجمهورية جمهورية برلمانية على أساس هو أن نبدأ فوراً بتأليف

جمعية تأسيسية تمثل كافة هيئات الشعب المختلفة لتؤدى وظيفه البرلمان مؤقتاً ، وتراجع نصوص الدستور بعد أن يتم وضعها . وبعد ذلك تعود الحياة النيابية إلى البلاد فى مدى أقصاه نهاية فترة الانتقال . وهذا أمر متفق عليه .. ونحن عند وعدنا الذى قطعناه على أنفسنا من أننا لم نقم إلا لإعادة الدستور على أساس سليم فى نهاية فترة الانتقال » .

واختتم نجيب كلمته قائلاً :

« نحمد الله سبحانه وتعالى مرة أخرى على أننا اجتزنا هذا الامتحان القاسى بنجاح ــ وأؤكد لكم مرة أخرى أنى لاأطمع فى حكم أو سلطة أو جاه ، وإنما أطمع فقط فى أن أؤدى واجبى وأن تزهق روحى فى سبيل بلادى وتحريرها ، وفى سبيل اتحاد أبنائها والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وكانت تلك الكلمة سبباً فى انصراف المتظاهرين .. وفى نفس الوقت أثارت ثائرة عبد الناصر ضد الإخوان المسلمين .. فقد همس معاونوه أن أن الذى أوحى لنجيب بهذا الكلام هو عبد القادر عوده أحد أقطاب الإخوان الذى كان يقف إلى جوار نجيب فى شرفة قصر عابدين .

ومرت ثلاثة أيام .. وفى يوم ٢ مارس قامت سلطات البوليس الحربى باعتقال ١١٨ شخصاً بينهم ٤٥ من الإخوان ، ٢٠ من الاشتراكيين ، ٥ من الوفديين ، ٤ شيوعيين بادعاء أنهم كانوا يدبرون لإحداث فتنة فى البلاد مستغلين فرحة الشعب بعودة نجيب .. وكان فى مقدمة المقبوض عليهم حسن الهضيبى وعبد القادر عوده وصالح أبو رقيق وأحمد حسين زعيم الاشتراكيين .

وتعرض رجال الإخوان المسلمين لأبشع عمليات التعذيب داخل السجن الحربى . وفى ٨ مارس ١٩٥٤ بعث عمر عمر نقيب المحامين برسالة إلى نجيب وكانت قد عادت له كل السطات يطلب فيها التحقيق فى وقائع التعذيب التى حاقت بالمحامين المعتقلين وهم أحمد حسين وعبد القادر عوده وعمر التلمسانى .

وأمر نجيب بالتحقيق فوراً . ولم يبدأ التحقيق إلا بعد مرور عشرة أيام بسؤال الثلاثة . وأكدوا جميعاً أن الضابط محمد عبد الرحمن نصير كان يشرف على أعمال التعذيب وكان يشترك فى ضربهم بنفسه .. واستطاع المرشد أن يهرب رسالة من سجنه نشرت بجريدة المصرى وكان فيها :

أما بعد ، فإن مجلس قيادة الثورة قد أصدر قراراً فى ١٢ يناير ١٩٥٤ بأنه يجرى على جماعة الإخوان المسلمين قانون حل الأحزاب السياسية . ومع ما فى هذا القرار من مخالفة لمنطوق القانون ومفهومه، فقد صدر بيان نسبت إلينا فيه أفحش الوقائع وأكثرها

اجتراءً على الحق ، واعتقلنا ولم نخبر بأمر الاعتقال ولا بأسبابه . وقيل يومئذ إن التحقيق ف الوقائع التى ذكرت به سيجرى علناً ، فاستبشرنا بهذا القول لأننا انتظرنا أن تتاح لنا فرصة الرد عليه لنبين أن مااشتمل عليه وعلى الصورة التى جاءت به لاحقيقة له — فيعرف كل إنسان قدره ويقف عند حده . ولكن ذلك لم يحصل .

وإلى أن تتاح لنا الفرصة فإننا ندعوكم وندعو كل من اتهمنا وندعو أنفسنا إلى ماأمر الله به رسوله عليه الصلاة والسلام حين قال : **« فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين »** .

وقد استمرت حركة الاعتقالات طوال شهرين كاملين حتى امتلأت المعتقلات والسجون بطائفة من أطهر رجالات البلد وشبابها بلغوا عدة الآف ، لكثير منهم مواقف فى الدفاع عن البلاد وعن حرياتها شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ولم يكتفوا بالكلام كما يفعل كثير من الناس . أما كيفية الاعتقال ومعاملة المعتقلين فلن نعرض لها هنا .

وقد بدت فى مصر بوادر حركة — إن صحت — فقد تغير من شئونها وأنظمتها . وإن قرار حل الإخوان وإنزال اللافتات عن دورهم لم يغير الحقيقة الواقعه وهى أن الإخوان المسلمين لايمكن حلهم لأن الرابطة التى تربط بينهم هى الاعتصام بحبل الله المتين ، وهى أقوى من كل قوة . وما زالت هذه الرابطة قائمة ، ولن تزال كذلك بإذن الله . ومصر ليست ملكاً لفئة معينة ولا يحق لأحد أن يفرض وصايته عليها أو يتصرف فى شئونها دون الرجوع إليها والنزول على إرادتها .. لذلك كان من أوجب الواجبات على الإخوان المسلمين أن يذكروكم بأنه لايمكن أن يبت فى شئون البلاد فى غيبتهم . وكل مايحصل من هذا القبيل لن يكون له أثر فى استقرار الأحوال ولا يفيد البلاد بشىء .

وإن مادعوتم إليه من الاتحاد وجمع الصفوف لايتفق وهذه الأحوال فإن البلاد لايمكن أن تتحد وتجمع صفوفها وهذه المظالم وأمثالها قائمة .

نسأل الله تعالى أن يقى البلاد كل سوء ، وأن يسلك بنا سبيل الصدق فى القول والعمل ، وأن يهدينا إلى الحق وإلى الصراط المستقيم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وفى يوم ٢٥ مارس تم الأفراج عن جميع أعضاء الإخوان المسلمين المعتقلين . وكان للإفراج عنهم قصة يرويها صالح أبو رقيق فيقول : جاءنا فى السجن الحربى المرحوم محمد فؤاد جلال والسيدان محمد أحمد ومحيى الدين أبو العز صباح يوم ٢٥ مارس يطلبان منا الوقوف مع الثورة والتعاون معها على أساس أننا الوطنيون . فقلت لهم وأنا أضحك :

كيف يتم ذلك ونحن خلف الأسوار .. هو احنا حبسنا نفسنا .

فأجابوا ماانتم حتخرجوا على طول ..

فقلت لهم : وما الموقف وقد وجهتم إلينا أخطر اتهام يوجه إلى مواطن وهو الاتصال بالانجليز بدون علمكم ، وسنضطر للدخول معكم فى جدال لتبرئة أنفسنا وأنتم أعلم بالحقيقة .. فما الحل .. فأجابوا : نسأل عبد الناصر .. وفعلا عادوا بعد قليل وقالوا إن عبد الناصر اقترح أن يخرج المرشد فوراً ومعاونوه الستة الذين جاء ذكرهم فى بيان الاتصالات بالإنجليز ، ويذهب إليهم عبد الناصر فى منزل المرشد ويهنئهم بصفته وباسم مجلس الثورة وينشر ذلك فى الصحف .. وفعلا قبلنا ذلك لما فيه من دلالات ، وتم الإفراج عنا وحضر عبد الناصر ومعه صلاح سالم إلى منزل المرشد .

وبدأت جماعة الإخوان المسلمين تستأنف نشاطها من يوم ٢٦ مارس .. واعتقد الجميع أن الحياة النيابية ستعود .. وفى نفس اليوم بدأ عبد الناصر تنفيذ خطته ...وفوجئت القاهرة بتوقف جميع وسائل النقل بها فى الساعة الواحدة ظهراً ماعدا الترام ،وبعد أن استطاع أن يستميل إليه الصاوى رئيس اتحاد نقابات عمال النقل ليعلن إضراب شامل لمطالب خاصة .. ثم بدأت الإذاعة تذيع إضراب العمال بسبب قرارات عودة الحياة النيابية للبلاد ورغبتهم فى الإبقاء على مجلس الثورة .

وخرجت جريدتا الأهرام والأخبار تؤيدان هذا الاتجاه ، وتطالبان ببقاء مجلس الثورة .. بينما انفردت جريدة المصرى بالوقوف ضد ذلك الاتجاه .. ومحاولة الكشف عن المؤامرة التى تدبر للقضاء على الحياة النيابية الدستورية الطبيعية للبلاد .

وبدأت المظاهرات تشتد .. وهى المظاهرات التى كان يدبرها البوليس الحربى ، وكانت تطالب بعدم عودة الحياة النيابية .. واشتدت المظاهرات .. وأصدر المرشد العام بياناً يوم ٢٨ مارس هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. لاريب أن مصر الآن تمر بفترة بالغة الدقة والخطورة فى تاريخها ، بعيدة الأثر فى كيانها ومستقبلها . وهى فترة تقتضى من كل مواطن أن يهب البلاد نفسه ، ويبذل لها وجوده ، ويؤثرها بالخالص من رأيه ومشورته حتى يأذن الله بانجلاء هذه **الغمرة** ، ويبدل الوطن منها حياة أمن واستقرار ووحدة .

وقد فوجىء الإخوان المسلمون غداة خروجهم من السجون والمعتقلات بتوالى الأحداث الخطيرة التى تتعرض لها البلاد فى حدة وسرعة لم يتيسر معها معرفة أسبابها والعوامل التى تؤثر فيها ، ثم تحديد وسائل العلاج التى تلائمها .

من أجل ذلك بادر الإخوان المسلمون إلى العمل على أداء واجبهم فى التماس المخرج من

هذه الأزمة ، فبدا لهم أن من العسير أن ترسم الخطط الصالحة ، ويوضع العلاج لهذه المشاكل ، وتسمع المشورة الصادقة المستقلة فى جو الغضب والانفعال ، وقد كان رسول الله ﷺ يسأل الله أن لايستجيب له وهو غضبان .

لهذا لم يكن بد من الإسراع بلقاء المسئولين والاتصال بطرفى الخلاف للدعوة إلى اتخاذ مهلة تتجنب فيها المضاعفات ، وتنتهى فيها حالة التوتر القائمة حتى يتيسر لأولى الرأى والإخلاص أن يتقدموا للمسئولين من الأمة بخطة كاملة مدروسة تكشف عن البلاد هذه الشدة ، وتضع الحلول الكفيلة بوقاية البلاد من أن تتعرض لمثلها فى أية مناسبة .

وعلى هذا الأساس قام وفد من الإخوان المسلمين برياسة المرشد العام بلقاء البكباشى جمال عبد الناصر فى الليلة الماضية ثم بزيارة اللواء محمد نجيب لانشغاله فى هذه الليلة بالاجتماع بجلالة الملك سعود ضيف مصر الكبير ، الذى آثرها مشكوراً بكريم وساطته فى علاج هذا الموقف العصيب .

وما زال الإخوان المسلمون يواصلون خطواتهم فى إقناع المسئولين باتخاذ مهلة مع قيامهم فى الوقت نفسه بدراسة خطة العلاج الشاملة آملين أن يستجيب المسئولون إلى ندائهم فتتغلب الحكمة والوطنية على بواعث الخلاف والفرقة ، ويلتقى الجميع بإذن الله على كلمة سواء .

وإذا كانت الجهود تتوالى فى العمل على جمع الكلمة وحل الأزمة ، فإننا نناشد شعب مصر الكريم أن يعتصم بالهدوء والسكينة ورباطة الجأش ، وأن ينصرف أبناؤه جميعا إلى أعمالهم فى انتظام وطمأنينة ، مع التوجه إلى الله العلى الكبير أن يحفظ البلاد من كل سوء ، وأن يعين الساعين ، ويجمع المسئولين على الحل الكامل السليم الذى يخرج بالبلاد من المأزق الحاضر ، ويحفظ وحدة الأمة ، ويصون حقوق الشعب وحرياته ، ويحقق الاستقرار المنشود ، فى ظل حياة نيابية نظيفة محوطة بالضمانات التى تجنبها مساوىء الماضى ، وتوفر الجهود لتخليص الوطن من الغاصب المستعمر ولمتابعة حركة الإصلاحات الإيجابية التى تستكمل البلاد بها نهضتها والله ولى التوفيق » .

وأذيع هذا البيان الذى طلبه عبد الناصر من المرشد بعد اتفاق الاثنين على توقف المظاهرات لحين انتهاء زيارة سعود وإيجاد حل للأزمة ــ ونشر البيان يوم ٢٩ مارس نفس يوم مغادرة الملك سعود مصر .

ويقول صالح أبو رقيق : وذهب جميع أعضاء مجلس الثورة لتوديع الملك سعود فى مطار ألماظه ، وذهب بعض أعضاء مكتب الإرشاد لتوديع الملك .. وعند انصراف الجميع فوجئت باثنين يمسكان بذراعى ، كانا عبد الناصر والبغدادى وسألانى : أنت فطرت ؟ فقلت لهما : لا . فقالا : تعال نفطر سوياً ــ فحاولت الاعتذار ولكنهما أصرا . ودعيا

الهضيبى ولكنه اعتذر .. وذهبت معهما إلى ميس المطار ، وأثناء جلوسنا نتناول الإفطار سألنى عبد الناصر : فين حسن ؟ وكان يقصد حسن العشماوى ــ وكان حسن أقرب المدنيين إلى قلب عبد الناصر ، كما كان عبد الحكيم عامر أقرب العسكريين إلى قلبه ..

فقلت له : حسن زعلان منك ، وله حق عرب عليك .. وكنت أشير بذلك إلى حادث التشهير به بالعثور على مخزن الأسلحة فى عزبته .

فضحك وقال : طيب ده لازم يشكرنى .. دا احنا عملناله دعاية بمليون جنيه والجرايد نشرت صوره .. ثم أضاف : لا .. ده. أنا لازم أشوفه وأصالحه .. ثم بدأنا نتحدث عن الأوضاع .. والمظاهرات التى تطالب بعدم إجراء انتخابات وأنها لابد أن توقف .. وعن بيان المرشد .

وبادرنى قائلاً : أنتم عايزين انتخابات ليه .. عايزين زينب الوكيل تتحكم فى البلد تانى .. دى سبت موضع العفة للبوليس الحربى عندما توجه إليها أحد ضباط البوليس الحربى لسؤالها .. عايزينها تتحكم فى البلد تانى ؟.

قلت له : حرام عليك ياشيخ بلاش تشنيع .. المهم المظاهرات تتوقف والمرشد أذاع بيان نشرته الصحف اليوم يدعو الجميع إلى الهدوء .

فأجاب : خلاص مفيش مظاهرات .

وانصرفنا : وعلمت أنه توجهت مظاهرة فى نفس اليوم إلى مجلس الدولة ، واعتدى المتظاهرون على المرحوم عبد الرازق السنهورى .. وقد كلفنى .. المرشد بالذهاب إلى عبد الناصر لمعاتبته لإخلاله بالاتفاق وفض المظاهرات التى تحاصر جريدة المصرى وعدم الاعتداء عليها ، وتنفيذ قرارات مجلس الثورة بإعادة الحياة النيابية .. وعندما قلت له ذلك قال :

أنتم يهمكم إيه ما دمتم أنتم أحرار . مالكم ومال الباقى ..؟

فقلت له : هل تستطيع أن تعلن ذلك فى مؤتمر صحفى ؟ فضحك وقال طبعاً لا.

ومرت أزمة مارس ، وتوقفت المظاهرات ، وبقى محمد نجيب رئيساً للجمهورية وجمال عبد الناصر رئيساً للوزارة . واكتشفنا تلاعبه بالحريات والديمقراطيات .. ثم بدأت محادثات الجلاء .. وفى شهر يونيه وقع بالحروف الأولى على اتفاقية الجلاء .. ووجدنا الاتفاقية لاتحقق الهدف فعارضناها .. وبعثنا له بعريضة تتضمن أوجه اعتراضنا .

وبدأ شن حملة دعائية ضد الإخوان المسلمين .. وحاول إحداث انشقاق فى صفوف الإخوان .. وبدأت تحدث اشتباكات بين الإخوان ورجال الشرطة .. بدأت يوم ٢٧

أغسطس سنة ١٩٥٤ فى مسجد شريف بالروضة .. ووقف حسن دوح وكان زعيم الطلبة الإخوان بالجامعة وألقى خطبة تتضمن هجوماً على اتفاقية الجلاء . وبعد الصلاة خرج المصلون فى مظاهرة وحدث اشتباك بينهم وبين الشرطة .

وفى نفس اليوم هاجم عبد الناصر الإخوان علانية فى خطاب ألقاه بهيئة التحرير يوم ٥ سبتمبر ، وجند الصحف كلها لنشر أنباء عن المرشد الهضيبى — وكان فى جولة بالبلاد العربية — على أساس أنه يعلن عداءه للثورة .

وأحس بعض الإخوان بالخطر — واقترح عدد منهم كان على علاقة بالحكومة عقد اجتماع للهيئة التأسيسية لبحث الوضع بين الحكومة والإخوان . وكان عبد الناصر يتوقع أن ينجح أعوانه فى هذا الاجتماع فى اتخاذ قرار بعزل الهضيبى .

وعقد الاجتماع فى مساء يوم الخميس ٢٤ سبتمبر ١٩٥٤ واستمر ٢٠ ساعة وحضره مائة عضو من جملة الأعضاء وعددهم ١٣٧ عضواً .

وظهرت صحيفة الأهرام والجمهورية تحملان نبأ كاذباً عن انشقاق خطير فى صفوف الإخوان تضمن نشوب معركة بالأيدى بين المجتمعين — أما جريدة الأخبار فقد نشرت الحقيقة وكانت عن حدوث مشادة كلامية بين الأعضاء .

وانتهى الاجتماع على خلاف ماكان يرغب عبد الناصر .. ومرت أيام .. وفى يوم ٢٦ اكتوبر من نفس العام حدثت محاولة اغتيال عبد الناصر .. وقد تكون محاولة حقيقية أو محاوله مدبرة .. وقد تكون فردية أو بتدبير من جماعة الإخوان المسلمين . ولكن الذى ثبت أن عبد الناصر استغلها فى تحقيق ثلاثة أهداف :

تكوين زعامة شعبية لنفسه — التخلص من محمد نجيب إلى الأبد — القضاء على جماعة الإخوان المسلمين التى ساندته فى بدء الثورة .

محاولة اغتيال عبد الناصر :

سأترك لصالح أبو رقيق تناول هذا الحادث بطريقته الخاصة إذ يقول :

لن أتجنى على أحد وأقرر شيئاً عن تلك المحاولة .. وعما إذا كانت حقيقية أم محاولة مدبرة .. إنما سأسردها كما جاءت فى الصحف فى ذلك الوقت .. وللقارىء وحده أن يقارن بين الوقائع وظروف المحاكمة ويقرر هل كانت محاولة حقيقية أو مدبرة ..

الزمان : مساء ٢٦ اكتوبر ١٩٥٤ .

المكان : ساحة ميدان المنشية فى مدينة الاسكندرية .

الساحة مزدحمة بالآلاف من المواطنين .. حضروا للاستماع إلى خطاب الرئيس جمال عبد الناصر الذى سيلقيه بمناسبة توقيع اتفاقية الجلاء مع الانجليز يوم ١٩ اكتوبر من نفس العام .

ودخل عبد الناصر المنصة الرئيسية ومعه صلاح سالم وعبد الحكيم عامر وحسن إبراهيم والشيخ الباقورى والسيد / الميرغنى حمزة وزير الزراعة والمعارف بالسودان وأحمد بدر المحامى السكرتير المساعد لهيئة التحرير بالاسكندرية .

ووقف عبد الناصر ليلقى خطابه .. ومرت دقائق .. وفجأة دوى صوت الرصاص ـــ وساد الهرج المكان .. وأمسك عبد الناصر بالميكروفون يردد كلمات مرتجلة يقول :

أيها الأحرار .. حياتى فداء لكم .. دمى فداء لمصر .

أيها الرجال .. أيها الأحرار .. أتكلم إليكم بعون الله بعد أن حاول المغرضون أن يعتدوا علىّ .. فدمى فداء لكم .. إن حياة جمال عبد الناصر ملك لكم .

أيها الرجال .. أيها الأحرار .. هذا هو جمال عبد الناصر بينكم .. أنا لست جباناً .. أنا قمت من أجلكم .. من أجل عزتكم وكرامتكم وحريتكم .. أنا جمال عبد الناصر منكم ولكم .. عشت بينكم وسأعيش حتى أموت عاملاً من أجلكم ومكافحاً فى سبيلكم ، وأموت من أجل حريتكم وكرامتكم ومن أجل عزتكم .

أيها الرجال .. أيها الأحرار .. فليقتلونى .. لقد غرست فيكم العزة وغرست فيكم الكرامة .. لقد أنبت فى هذا الوطن الحرية والعزة والكرامة .. فلأمت من أجل مصر .. من أجلكم .. من أجل أحفادكم .. كافحوا واحملوا الرسالة وأدوا الأمانة من أجل عزتكم ـــ ومن أجل كرامتكم ويكرر نفس الكلام ثم يقول :

أيها الرجال .. أيها الأحرار .. منذ ٢٤ سنة اعتدت يد الاستعمار على الهاتفين بالحرية فى هذا الميدان فقتل من قتل واستشهد من استشهد ، فإذا كان جمال لم يقتل فى الماضى وجاء ليقتل اليوم بأيدى الاستعمار وأعوانه ونجا .. فقد نجوت لأحقق لكم العزة ولأحقق لكم الكرامة ولأحقق لكم الحرية .. إن الخيانة تريد أن تكبلكم وتستبد بكم فإذا نجوت فلكى أزيدكم حرية وعزة وكرامة ، وليعلم الخونة أن جمال عبد الناصر ليس فرداً واحداً فى هذا الوطن فكلكم جمال عبد الناصر .

ياإخوانى .. دمى من دمكم .. وروحى من روحكم .. ومشاعرى من مشاعركم .. أيها .. الرجال .. لقد استشهد الخلفاء الراشدون جميعاً فى سبيل الله .. وإذا كان جمال

يقتل فأنا مستعد لذلك فى سبيلكم وفى سبيل الله والسلام عليكم ورحمة الله .

وتعالت الهتافات « الله معك ياجمال » .. وأنهى عبد الناصر الكلمة التى رتجلها أو هكذا بدت .

وكانت الكلمة مذاعة على الهواء .. وسمع جميع أبناء مصر أصوات طلقات الرصاص والكلمة الرائعة التى ألقاها جمال عبد الناصر .. واحتل قلوب الجميع .. وحقق الزعامة التى كان يحلم بها .. وأصبح الأسطورة فى أحاديث كل الناس .. ولم تنم الأمة العربية بأسرها فى تلك الليلة .. الكل ينتظر الصباح ليقرأ شيئاً عن الحادث .. ومن الجانى .

وظهرت صحف الصباح ـــ صباح ٢٧ اكتوبر ١٩٥٤ تحمل فى صدر صفحاتها الأولى نبأ القبض على الجانى الأثيم بدون نشر صورته .. قالت جريدة الأهرام :

« لم يكد الجانى الأثيم يطلق رصاصاته الغادرة حتى كان الجمهور قد هجم عليه وعلى ثلاثة أشخاص يقفون على مقربة منه ودخان الرصاص يتصاعد من حولهم ، وكاد يفتك بهم لولا أن بادر رجال البوليس والمخابرات إلى القبض عليهم **وضبط السلاح فى يد الجانى** (هكذا نشرت جميع الصحف كما أنه لم ينشر شيء بعد ذلك عن الثلاثة الآخرين الذين قيل إنهم ضبطوا مع الجانى) وقد اقتيد الأربعة إلى نقطة بوليس شريف ..ويدعى الجانى محمود عبد اللطيف ويعمل سباكاً فى شارع السلام بامبابه .

وقد عثر فى المكان الذى كان يقف فيه الجانى على أربعة أظرف فارغة من عيار ٣٦ ملليمتر وهى تختلف عن طلقات المسدس الذى ضبط مع المتهم ، إذ أن المسدس الذى عثر عليه مع المتهم من نوع المشط الذى لايلفظ الأظرف الفارغة » .

كان هذا مانشرته جريدة الأهرام فى عددها الصادر يوم ٢٧ اكتوبر ١٩٥٤ . وأثار ذلك التساؤل عن سر اختلاف الأظرف الفارغة عن طلقات المسدس المضبوط فى يد الجانى .. وبدأت همسات هل هناك شخص آخر ؟!.

وفى نفس العدد نشرت الصحف أن الجانى ينتمى إلى جماعة الإخوان المسلمين ..

وتوالت فى الأيام التالية نشر اعترافات محمود عبد اللطيف وأنه من الجهاز السرى للإخوان المسلمين .. وكان مكلفاً باغتيال عبد الناصر لتبدأ حركة اغتيالات لبقية أعضاء مجلس الثورة و ١٦٠ ضابطا من الضباط الأحرار والقيام بثورة ، وأن الجهاز السرى كان سيقف أمام أى تحركات مضادة .

ومع الاعترافات بدأ نشر أنباء اكتشاف مخازن أسلحة للجهاز السرى والقبض على أفراده ، ومخازن فى جميع محافظات الجمهورية .. ومتهمين من مختلف الفئات والمهن ..

طلاب بالجامعات ومحامين ومدرسين وعمال وفلاحين وضباط بالجيش وضباط بوليس وتجار .. أى من فئات الشعب جميعها العمال والفلاحين والمثقفين والجنود والرأسمالية الوطنية .

محاكمات الإخوان :

وفى يوم أول نوفمبر ـــ أى بعد الحادث بأربعة أيام فقط أصدر مجلس الثورة برياسة عبد الناصر أمره بتأليف محكمة مخصوصة لمحاكمة المتهمين فى محاولة اغتيال عبد الناصر برياسة قائد الجناح جمال سالم . وكان المرحوم جمال سالم معروفاً للجميع بالتصرفات الشاذة ـــ وكان أمر تشكيل المحكمة شاذاً أيضاً .. فقد تضمن أن للمحكمة كل السلطات ، وإن يلحق بها مكتب للادعاءات يتولاه البكباشى زكريا محيى الدين يقوم بإعلان المتهم بالادعاءات المقامة ضده قبل المحاكمة بـ ٢٤ ساعة فقط ـــ ولا يجوز تأجيل المحاكمة أكثر من مرة واحدة ولمدة لاتزيد على ٢٤ ساعة للضرورة القصوى .. وأحكامها نهائية ولا يجوز الطعن فيها بأى طريقة من الطرق أو أمام أى جهة من الجهات .

وبدت للجميع أن نهاية جماعة الإخوان المسلمين أصبحت محققة .. فما كانت تنشره الصحف عن اعترافات الذين قبض عليهم من أفراد الجهاز السرى ، وكيف أنهم كانوا يسعون إلى قيام حرب أهلية واغتيال جميع أعضاء مجلس الثورة وتحويل البلاد إلى مجموعة من الخرائب .. كان ماينشر كافياً لشحن كل الشعور والقوى ضد الإخوان المسلمين .

فبدأ الناس فى لهفة شديدة إلى معرفة شكل الجانى الأثيم .. ومضت خمسة أيام كاملة دون أن تنشر له صورة واحدة .. وأخيراً نشرت صورته وآثار التعذيب واضحة تماماً على وجهه .. ونشر تحتها أنها صورة للجانى ويبدو فيها آثار اعتداء المواطنين عليه وقت القبض عليه .

وللتاريخ .. فإن ماينشر اليوم عن جرائم التعذيب التى ارتكبها أعوان عبد الناصر لاتوازى واحداً على الألف مما تعرض له الإخوان المسلمون عام ١٩٥٤ .

وظلت أحاديث الناس تتناول فى كل المجالات ماكان يعتزمه الإخوان المسلمون من خراب للبلاد .. كانت الناس تستقى معلوماتها مما تنشره الصحف .. وكان بعض المفكرين يراودهم الشك فى حقيقة الحادث من ضبط الجانى والمسدس فى يده والعثور على طلقات رصاص من عيار لايطابق رصاص المسدس ولا يريدون أن يصدقوا أن الحادث من تدبير الإخوان .

وفجأة وبلا أى مقدمات ـــ فى يوم ٢ نوفمبر ١٩٥٤ اى بعد الحادث بستة أيام نشرت جميع الصحف الصباحية صورة الرئيس السابق جمال عبد الناصر وأمامه عامل بناء

ممسكاً بمسدس . ومع الصورة حكاية مثيرة .. تقول الحكاية إن عامل البناء خديوى آدم .. وهذا اسمه .. كان يستقل الترام يوم الحادث عائداً إلى منزله .. وعند ميدان المنشية شاهد جماهير من الناس مجتمعة وسأل عن سر تجمعهم ، ولما علم أن عبد الناصر سيلقى خطاباً نزل من الترام واندس وسط الجماهير .

وعندما دوى صوت طلقات الرصاص وساد الهرج الآلاف المجتمعه سقط فوق الأرض وشعر بشيء يلسعه فى ساقه .. وتحسسه فوجده مسدساً وكانت ماسورة المسدس لاتزال ساخنة .. وأيقن فى الحال أنه المسدس الذى استخدمه الجانى فى إطلاق الرصاص على زعيم البلاد !! ووضع المسدس فى جيبه واعتزم بينه وبين نفسه أن لايسلم المسدس إلا لعبد الناصر شخصياً .

وتستطرد القصة فى استكمال حبكة خيوطها وحتى لايتساءل القارىء عن السر فى عدم تسليمه المسدس فى نفس الليلة وانتظاره خمسة أيام .. فتقول القصة :

إن العامل خديوى آدم رجل فقير جداً يوميته ٢٥ قرشاً .. ولم يكن يملك ثمن تذكرة قطار أو أوتوبيس يحمله إلى القاهرة .. فسار على قدميه المسافة من الاسكندرية إلى القاهرة .. فوصلها يوم أول نوفمبر وتوجه فى الحال إلى مجلس قيادة الثورة وطلب مقابلة جمال عبد الناصر .. وأعطاه المسدس فكافأه عبد الناصر بمائة جنيه !!.

وهكذا ظهر سلاح جديد فى الجريمة طلقاته من عيار ٣٦ ملليمتر لتكون من نفس أظرف الطلقات التى عثر عليها .. واختفت تماماً سيرة المسدس الذى ضبط فى يد الجانى لحظة القبض عليه ..

هكذا أراد الحاكم ورجال التحقيق ...

وفى اليوم الثانى مباشرة نشرت الصحف أن الجانى تعرف على المسدس الذى عثر عليه خديوى آدم وقرر أنه نفس المسدس الذى استخدمه لاغتيال عبد الناصر ، وأنه تسلمه من رئيسه فى الجهاز السرى المحامى هنداوى دوير . وتعرف هنداوى هو الآخر على المسدس وقرر أنه نفس المسدس الذى أعطاه للجانى وكان رئيسه فى الجهاز السرى المحامى إبراهيم الطيب أعطاه له ليسلمه للجانى .

هكذا تعرف الاثنان على سلاح الجريمة .. وهكذا اختفت تماماً سيرة المسدس الأول الذى ضبط مع الجانى لحظة القبض عليه .. واحد فقط أنكر أن المسدس الذى عثر عليه خديوى آدم يتعلق بالجهاز السرى .. هذا الشخص هو إبراهيم الطيب نفسه .. وجاء إنكاره أمام محكمة الشعب عندما عرض عليه رئيسها جمال سالم المسدس فقرر أنه ليس نفس المسدس الذى أعطاه لهنداوى .. إنما هو مسدس آخر .

ولم يحقق جمال سالم هذه النقطة الهامة .. أغفلها تماماً .. كما أغفل أثناء المحاكمة تكليف الادعاء بتقديم شهود الإثبات الذين ضبطوا الجانى لحظة ارتكاب الجريمة .. وكانوا .. وبالمصادفة من العاملين بمديرية التحرير التى أنشأها مجدى حسنين أقرب الضباط الأحرار إلى قلب جمال عبد الناصر والذى من أجله تلاعب عبد الناصر بالديمقراطية كما سيأتى فى الباب الثانى .. والشهود الثلاثة أولهم عبد الحميد محمود حبيب العامل بمديرية التحرير وكان أول من أمسك مسدس الجانى أو هكذا قال .. والثانى اليوزباشى جمال النادى وهو من مديرية التحرير أيضاً وقد كسر ذراعه أثناء مقاومة الجانى له أو هكذا قرر .. أما الثالث فهو حامد حسنين عجمى العامل بمديرية التحرير أيضاً وقد عضه المتهم فى ساقه عندما أمسك به أو هكذا قرر !!.

ولعل الادعاء خشى أن يقدمهم ويقدم خديوى آدم العامل الذى عثر على المسدس حتى لاتتخبط أقوالهم ويظهر شىء محظور كانوا يسعون لإخفائه .. إن أى طالب بالسنة الأولى حقوق يعلم أن أول شهود يستمع إليهم هم شهود الإثبات الذين لهم صلة بضبط الجانى أو مشاهدة الجريمة أو اكتشاف سلاح الجريمة ..

ولكن هؤلاء الأربعة لم يدلوا بشهادتهم عند محاكمة الجانى .

محاكمة بدون محامين :

وتقرر تقديم محمود عبد اللطيف إلى محكمة الشعب برياسة جمال سالم .. وللتاريخ فإن الأوراق التى قدمت إلى أعضاء هيئة المحكمة كانت كافية لأن تصدر أحكامها بإعدام كل الذين يقدمون إليها .. كانت أمام هيئة المحكمة أوراق تتضمن اعترافات تقول إن الهضيبى أنشأ جيشاً سرياً ضخماً لتأمين حكم الإخوان المسلمين بعد قيامهم باغتيال جمال عبد الناصر وجميع أعضاء مجلس الثورة باستثناء محمد نجيب ، وكذلك اغتيال ١٦٠ ضابطاً من الضباط الأحرار . وأن هذا الجيش كان سيقف أمام جيش مصر وبوليس مصر ، ويقوم بقمع الحركات الشعبية التى كان من المتوقع حدوثها ، وأن غرض هذا الجيش ليس محاربة المستعمر بل إعلان حرب داخلية فى مصر للاستيلاء على الحكم .. وأن الخطة كانت تقسيم بلاد الجمهورية إلى مناطق .. وكل منطقة لها قائد وفصائل وكل فصيلة لها قائد .. وأن الذين أشرفوا على هذا الجيش السرى ثلاثة هم يوسف طلعت وكان يختص بأفراد الجيش من المدنيين ، وصلاح شادى وهو قائد تنظيم رجال البوليس ، وعبد المنعم عبد الرءوف قائد التنظيم فى صفوف الجيش المصرى .. وأن جميع الأسلحة والقنابل والذخائر التى ضبطت فى مخازن الإخوان المسلمين كانت تكفى لتدمير ثلاثة أرباع مدينة القاهرة وتحويلها إلى خرائب .

وبدأت محكمة الشعب أول جلساتها يوم الثلاثاء ٩ نوفمبر ١٩٥٤ ــ وكانت عمليات القبض على بقية زعماء الإخوان المسلمين وأعضاء الجهاز السرى لاتزال مستمرة . بل كان يقبض على بعضهم وفى اليوم التالى مباشرة يقاد إلى محكمة الشعب لسماع أقواله كشاهد فى القضية الأولى التى تنظرها المحكمه .. وكانت القضية الأولى أو المحاكمة الأولى للمرحوم محمود عبد اللطيف الذى اسندت إليه محاولة اغتيال عبد الناصر بمسدس ضبط فى يده وقت الحادث ثم اعترف بارتكابه الحادث بمسدس آخر عثر عليه العامل بمديرية التحرير خديوى آدم وظهر بعد الحادث بخمسة أيام .

ووجه إلى محمود عبد اللطيف ادعاءان :

الأول : اشترك مع آخرين فى تنفيذ اتفاق جنائى الغرض منه إحداث فتنة دامية لقلب نظام الحكم ، وذلك بإنشاء نظام سرى مسلح للقيام باغتيالات واسعة النطاق وارتكاب عمليات تدمير بالغة الخطورة وتخريب شامل فى جميع أنحاء البلاد تمهيداً لاستيلاء الجماعة التى ينتمى إليها على مقاليد الحكم بالقوة .

والثانى: شرع فى قتل البكباشى أركان حرب جمال عبد الناصر رئيس الحكومة تنفيذاً للاتفاق الجنائى المشار إليه فى أولا .

وتلا رئيس المحكمة الادعائين على المتهم وسأله السؤال التقليدى :

مذنب أم غير مذنب ؟.

وعادة .. بل ودائماً يقرر المتهم فى مثل هذه الحالات أنه غير مذنب .. وهو فى ذلك يتعلق بآخر خيط من الأمل لينقذ رقبته من المشنقة . أما فى حالة محمود عبد اللطيف وأغلب زملائه الذين وقفوا أمام تلك المحكمة فإنهم كانوا يقررون أنهم مذنبون .. كان يقررها البعض عن جهالة مصدقاً ماقالوه له قبل المثول أمام المحكمة من أن زعيم البلاد سيخفف عنه الحكم بل ويلغيه ، وأن المقصود فقط هو محاكمة زعمائه فى جهاز الإخوان ..

والبعض كان يقررها لفقده الثقة فى أى بصيص من نور العدالة بعدما تعرض له من أبشع ألوان التعذيب . وكان محمود عبد اللطيف وهنداوى دوير من النوع الأول .. ويؤكد ذلك أنه يوم تنفيذ حكم الإعدام فيهما أخذ هنداوى دوير يردد فى هستيرية وهم يقتادونه إلى حبل المشنقة :

(ضحكوا علىّ .. خدعونى .. ضحكوا علىّ .. مش ده اتفاقنا .. ماكانش ده الاتفاق .. مش ده اتفاقنا) .

المهم .. إننى هنا لاأحاول أن أتجنى على شخص ما .. ولكنى أذكر الحقيقة والحقيقه التى أسجلها للتاريخ .. والتى جمعتها مما نشر فى ذلك الوقت عن تلك المحاكمات وهى صورة غريبة وغريبة جداً للعدالة فى تلك الأيام .. وبعد أن قرر المتهم أنه مذنب وقف المدعى العسكرى وقال ــ وأنا هنا أنقل بالحرف الواحد ــ « حين أعلن المتهم بالادعاءات المقامة عليه فى سجنه سألناه إذا كان قد وكل أحد المحامين للدفاع عنه فقال إنه لم يوكل أحداً . والأمر بتشكيل المحكمة لايحتم وجود محام مع المتهم أثناء المحاكمة فضلاً عن أن القضية معدة والشهود موجودون » .

أى والله هذا ماقاله المدعى العسكرى... إنه يقدم متهما بادعاءات عقوبتها الإعدام ويطلب محاكمته بدون محام يدافع عنه لأن أمر تشكيل المحكمة لايحتم وجود محام .. هكذا كان الأمر مخالفاً لأبسط مبادىء العدالة وكل الدساتير فى العالم التى تكفل للمتهم حق الدفاع عن نفسه .. ولكن دستور عبد الناصر كان خلاف كل الدساتير كما كانت أفعاله خلاف كل الأفعال .

ويلتقط رئيس المحكمة خيط الكلام من المدعى ويتوجه بالأسئلة إلى المتهم الواقف أمامه بلا حول ولا قوة ويسأله : عايز حد يدافع عنك ؟.

ويتعلق محمود عبد اللطيف ببصيص من نور الأمل ويهمس :

أيوه .. عايز ياافندم

ويدور أغرب حوار بين رئيس محكمة ومتهم يسأله رئيس المحكمة :

مين ؟ ويرد المتهم : محمود سليمان غنام

ويفاجئه رئيس المحكمة وكأنما يقرأ الغيب ويسأله : وإذا ماقبلش ؟

فيرد محمود : يبقى فتحى سلامه . ويكرر رئيس المحكمة : وإذا ماقبلش فيرد محمود : يبقى مكرم عبيد ــ ويسد رئيس المحكمة أمامه كل الأبواب ــ ويسأله : وإذا ماقبلش ؟ وكان رئيس المحكمة يتوقع من المتهم أن يجيب : يبقى أمرى لله وأترافع عن نفسى ــ ولكنه خيب أمله وقال يبقى أى واحد تانى .

ويلتفت جمال سالم إلى ناحية المدعى ويصدر قراره ونصه :

على مكتب الادعاء أن يتصل بالمحامين الذين ذكرهم المتهم بالترتيب ، فإذا حضر أى واحد منهم كان بها .. وإلا انتدب أى محام آخر . وتؤجل الجلسة ٤٨ ساعة وتعقد فى الساعة العاشرة من صباح يوم الخميس ١١ نوفمبر .

ونفذ مكتب الادعاء قرار المحكمة أو هكذا نشر فى الصحف صباح اليوم التالى :

اتصل المدعى أولًا بالأستاذ محمود سليمان غنام وصرح المدعى العسكرى أنه اعتذر لأنه أصلا يستنكر الجريمة ولا يمكنه أن يترافع عن المتهم من الناحية القومية لأنه يستنكر استخدام أساليب العنف فى الجدل السياسى ـ هكذا !!

واتصل المدعى بعد ذلك بالأستاذ فتحى سلامه وقال المدعى إنه هو الآخر اعتذر لسببين أولهما الشعور الوطنى والآخر احتقاره للمجرم الأثيم .. هكذا !! واتصل المدعى بآخر المحامين الثلاثة وهو مكرم عبيد .. وقال المدعى إنه قال حين فوتح برغبة المتهم : غريب أن يطلب منى الدفاع عن المتهم فأنا لاأستطيع أن أدافع عمن يعتدى على الرئيس جمال عبد الناصر فهذا إجرام خطير .. هكذا !!

وقالت الصحف استكمالاً للخبر السابق والذى أملاه عليها مكتب الادعاء إن مكتب الادعاء خاطب نقابة المحامين فاجتمع مجلس النقابة فى الحال برياسة عمر عمر نقيب المحامين واتصل ببعض المحامين .. ولكنهم رفضوا جميعاً .. هكذا !!

ولن أعلق على هذا الجزء من المسرحية .

وانعقدت الجلسة الثانية للمحاكمة يوم الخميس ١١ نوفمبر ١٩٥٤ .. والكل يعتقد أن المحاكمة ستتم بدون محام يعكر صفوها .. ويفاجأ الجميع أن محامياً كبيراً هو المرحوم حماده الناحل يقف معلناً تطوعه للدفاع عن المتهم بعد أن قرأ اعتذارات زملائه .. ولأن شرف المهنة يقتضيه أن يقف مدافعاً عن المتهم .

وكانت جرأة حماده الناحل وتمسكه بمبادىء المهنة وشرفها سببا لأن يتعرض بعد ذلك لأبشع أنواع التعذيب ودخل السجن ولفقت له القضايا هو وغيره من المحامين الذين كانوا يتطوعون للدفاع عن المتهمين أمام محاكم عبد الناصر الاستثنائية ..

ويتحفز رئيس المحكمة للمحامى الجرىء .. ويرفض كل طلب يتقدم به لمعاونته فى مهمته للدفاع عن المتهم .. كان يرفض الطلب قبل أن يكمل المحامى كلامه .. واتخذ رئيس المحكمة منذ اللحظة الأولى موقف المهاجم دائماً لكل شاهد .. وكان كل الشهود من المتهمين أيضاً .. يحاول أن ينكر أقواله التى سبق أن أبداها فى التحقيقات تحت الظروف المعينة التى يعرفها الجميع .

صور ومهازل من المحاكمة :

وإليك بعض المهازل أو الصور المبكية لمصرع العدالة .. وأنا أنقلها كما نشرتها الصحف فى ذلك الوقت وهى تنشر كل تفاصيل محاكمة الإخوان .

فى خلال سماع أقوال على نويتو أحد أعضاء الجهاز السرى وأثناء مناقشته عن هدف الجهاز قال الشاهد : إن الغرض من الجهاز هو تدريب شباب الإخوان المسلمين لتكوين جيش إسلامى لمعاونة حركات التحرر فى الدول الإسلامية كالجزائر وتونس ، كما يتدرب الإخوان ليساهموا فى معارك فلسطين ومعارك القناة ضد قوات الاحتلال .

ـــ سنواجه الشاهد بأقواله فى التحقيق إذ قرر مايأتى : وكانت تلك هى الحقيقة التى من أجلها انخرط آلاف الشبان فى جماعة الإخوان المسلمين ـــ ووقف المدعى العام يقول :

« الجيش الإسلامى كان سيقاوم الحكومة التى لاتحكم بالقرآن ، وأحضروا لنا الأسلحة للتدريب العسكرى . أما عن الخطة فكانوا بيقولوا لازم الشعب كله يقوم بثورة !!

وقال على نويتو : مش دى أقوالى

وصرخ فيه رئيس المحكمة : مش مضيت على أقوالك ؟

ويرد الشاهد : أنا ماقرأتش الأقوال دى ـــ ويضحك رئيس المحكمة ويقول للمدعى :

ياريت كنتم خليتوه يوقع على شيك بـ ٥٠٠ جنيه ـــ ويرد المدعى ضاحكاً : ياريت ياافندم ..

ولم يحقق رئيس المحكمة أقوال الشاهد .. ولا كيفيه توقيعه على أقوال لم يقلها .

ويقول صالح : إن كل متهم من أعضاء الإخوان المسلمين كانوا يرغمونه على التوقيع على أقوال .. دون سماعها .. كانوا يوجهون الأسئلة على الورق .. ويضعون لها الإجابة .. ثم يكلفون المتهم بالتوقيع .. ومن كان يحاول أن يقرأ أو يعترض يتعرض لكل أصناف التعذيب .

وكانت تلك صورة تتكرر مع كل شاهد .. ومع كل متهم .. كان رئيس المحكمة جمال سالم يعتقد أنها مؤامرة حقيقية ولم يخطر بباله أن الأوراق التى أمامه كلها مزيفه ـــ تماماً كما اعتقد زملاؤه أن ثورة الشعب والمظاهرات فى أزمة مارس كانت ثورة تلقائية سببها تعلق الشعب بهم .. ثم اكتشفوا بعد ذلك أنها كانت ثورة مدبرة دفع أجر لقيامها أربعة آلاف جنيه إلى الصاوى أحمد الصاوى رئيس نقابة عمال النقل وأن الذين حركوا المظاهرات هم مجموعة الضباط الذين جمعهم عبد الناصر من غرزالحشيش والمواخير كما وصفهم كمال الدين حسين ..

ولعل الدليل الأكيد على أن الرئيس السابق عبد الناصر كان لا ينقل إلى زملائه

الحقيقة أبداً .. إنما كان يعطيهم دائماً لاتصالاته الصورة التي يرسمها بنفسه .. هو ما حدث خلال جلسات تلك المحاكمات عندما كان المرحوم منير الدلة أحد زعماء الإخوان المسلمين وواحداً ممن كانوا على صلة بعبد الناصر حتى إنه رشحه للوزارة عام ١٩٥٣ .. يدلى بشهادته أمام المحكمة ودار بينه وبين رئيس المحكمة الحوار التالى :

سأله : رئيس المحكمة : هل تذكر يوم ما رحت مع صلاح شادى إلى جمال عبد الناصر فى سنة ١٩٥٣ وطلبتم منه أن تعرض عليكم مشروعات القوانين قبل صدورها ؟ وأجاب منير دلة :

إحنا قابلنا جمال عبد الناصر لنبدى له أن الإخوان المسلمين يؤيدون الثورة ، وتطرق الحديث بين الرئيس وبين صلاح شادى إلى موضوع القوانين وقال له صلاح : حبذا لو عرض الحاكم مشروعات القوانين على الشعب قبل إصدارها ودا كان رأى شخصى ولم يكن رأى الجماعة .

وقاطعه جمال سالم صارخاً : انتم قلتم لازم الحكومة تعرض القوانين على الجماعة فقال لكم : الحكومة لا تقبل وصاية الإخوان والحكومة تمثل الشعب أكثر من الإخوان .

ورد الشاهد : أنا أقسمت على كلامى — ولم يتركه جمال سالم يكمل بل قاطعه قائلا :

إحنا كان أقسمنا اليمين بيننا وبين ربنا .

فقال الشاهد : أنا أروى الواقعة كما حدثت .

فصرخ جمال سالم : كلامك ده فيه نوع من الاتهام لجمال عبد الناصر إنه مش عارف ينقل الكلام صح ..

* * * *

ولفريد عبد الخالق فى تدبير هذه المحاولة رأى يقول فيه :

لاشك أنها كانت محاولة وهمية لاغتيال عبد الناصر .. فلم يكن أحد ابتداء من المرشد إلى أعضاء مكتب الإرشاد يفكر فى اغتيال عبد الناصر .. بل إن المرشد هو الذى استجاب لنداء عبد الناصر بحل الجهاز السرى عندما طلب منه ذلك وأعلن أن لا سرية فى الدعوة .. وعندما رفض عبد الرحمن السندى حل الجهاز عزله وعين يوسف طلعت بدلاً منه تمهيداً لتصفيته .

وقال فريد : إن المعلومات التى وصلته هى أن الحكومة هى التى دبرت المحاولة

للتخلص من الإخوان ، وأن محمد الجزار الذى كان ضابطاً فى القلم السياسى قبل الثورة واتهم فى الاشتراك فى حادث اغتيال الإمام حسن البنا كان يتردد على مركز الإخوان المسلمين محاولاً تبرئة نفسه أمام قادة الإخوان .

وفى إحداى مرات تردده وكانت العلاقات بين الحكومة والإخوان متوترة سمع المرحوم هنداوى دوير وكان من الشبان المتهورين يردد « لازم نقتل جمال » .. والتقط الخيط وذهب إلى المباحث العامة فى محاولة للتقرب من السلطات وأبلغهم أن هنداوى دوير يدبر خطة لاغتيال جمال عبد الناصر .

ووجدها المسئولون فرصة .. تعقبوا هنداوى وعلموا أنه يرأس خلية فى امبابه أعضاؤها طلبة بالجامعة والسمكرى محمود عبد اللطيف .. ووقع اختيارهم على تدبير المحاولة وإسنادها إلى محمود عبد اللطيف ليكون بداية خيط للتخلص من الإخوان .

واختاروا الزمان والمكان .. ونفذت الخطة .. اختطفوا محمود وأخذوه إلى الاسكندرية ومعه مسدس عثروا عليه فى منزله ..

واقتاده ثلاثة منهم إلى ميدان المنشية .. وأجلسوه فى الصفوف الأمامية وأحاطوا به .. وفى لحظة الصفر أطلق أحدهم .. ولابد أنه من أمهر الرماة ثمانى رصاصات لم تصب واحدة منها أحداً من الذين فوق المنصة رغم كثرة عددهم باستثناء إصابة سطحية للمحامى أحمد بدر بينما أصابت الرصاصات اللمبات الكهربائية .

ويؤكد ذلك أن الجماهير قبضت على ثلاثة كانوا مع محمود عبد اللطيف ثم لم يأت ذكرهم بعد ذلك .. كما أن المسدس الذى كان مع محمود تبين أن طلقاته ليست من نفس نوع الطلقات التى أطلقت .. وبعد الإعلان أنه تم ضبطه وفى يده المسدس عادت الصحف ونشرت أن عامل بناء عثر على المسدس الذى استخدم فى الحادث .. واختفت سيرة المسدس الأول تماماً — كما أن المحكمة لم تستمع إلى أقوال الذين قيل إنهم قبضوا على الجانى ولا إلى أقوال عامل البناء رغم أهمية شهادتهم — ولعل ذلك يرجع إلى خوف المسئول عن تدبير الحادث أن يخطئوا فى أقوالهم فيكشفوا عن أن الحادث كان مدبراً .

وهناك رواية أخرى تتلخص فى أن المحاولة تمت بتدبير بين عبد الناصر وهنداوى دوير الذى استطاع أن يقنع محمود عبد اللطيف بضرورة اغتيال عبد الناصر وأعطاه المسدس ورسم له الخطة .. بينما نفذ إطلاق الرصاص أحد أعوان عبد الناصر بمسدس آخر — ويؤكد هذه الرواية أن هنداوى قام بتسليم نفسه بعد وقوع الحادث مباشرة . ولو كان مشتركاً فى الجريمة فعلا لظل هارباً حتى يقبض غليه . إنما سلم نفسه حتى يسرد اعترافات تطيح بكل جماعة الإخوان وبالرئيس محمد نجيب على أمل أن يكون له مكان مرموق بعد

ذلك .ولكن عبد الناصر تخلص من الشاهد الوحيد ضده الذى يكشف الحقيقة بإعدامه . وكان ذلك سبباً فى أنه كان يردد وهو فى طريقه إلى المشنقة : ضحكوا علينا . . ماكنش دا اتفاقنا .

* * *

الباب الأول

نظرة إلى الإخوان المسلمين قبيل قيام الثورة

الفصل الأول: مكانة الإخوان في ذلك الوقت أمام الرأى العام

الفصل الثانى: نظرة إلى الإخوان من الداخل

الفصل الأول

مكانة الإخوان المسلمين
فى ذلك الوقت
أمام الرأى العام

بعد هذه العجالة التى استعرضت تطور العلاقات بين ثورة ٢٣ يوليو وبين الإخوان المسلمين ، يجدر بنا أن نوضح للقارىء مكانة الإخوان المسلمين فى المجتمع المصرى وقت قيام هذه الثورة وقبل قيامها ، وحتى لانترك فجوة بين حقبتين من التاريخ ، لاسيما أمام جيل الثورة ، وهو الجيل الذى نشأ بعد يوليو ١٩٥٢ وتلقى معلومات معينة وقفت بالتاريخ فى نظره عند يوليو ١٩٥٢ باعتباره أول تاريخ بلاده الحديث .

ونحن وإن كنا قد اشبعنا هذه النقطة من قبل شرحاً وتوضيحاً ، وألقينا عليها الأضواء من كل جانب ، بحيث أبرزت أحداثها مكانة الإخوان المسلمين فى المجتمع المصرى قبيل قيام الثورة .. فإن ذلك لايمنع — تيسيراً على القارىء — من أن نستعير آخر صورة أوردناها فى هذا الصدد ليكون القارىء على ذكر منها فنقول :

كانت القوى المهيمنة فى مصر قبل قيام الثورة ثلاث قوى : قوة حزب الوفد، وقوة الأحزاب الأخرى، وقوة الملك . ولعل القارىء — بمتابعة ماقرأ فى هذه المذكرات من احتكاك بين الإخوان وبين كل من هذه القوى الثلاث — قد استطاع أن يتصور مدى ماكان لكل واحدة من هذه القوى من نفوذ ، وأنها بمجموعها قد استحوذت على السلطة ، وأنها تقاسمتها فيما بينها فأخذت كل واحدة منها بنصيب ، محاولة أن تغير على الأخرى لانتهاب جزء من نصيبها .. لكن السلطة والنفوذ فى نهاية الأمر لاتخرج عن نطاق هذا الثلاثى المحتكر المسيطر .. أما الشعب المسكين فكان هو النهب المباح والغنيمة الباردة لهذه القوى .

وظهرت دعوة الإخوان المسلمين وسط هذه السيطرة، وفى غمار هذا الاحتكار الذى يؤيده الاستعمار . ولقيت مالقيت من تصدى هذه القوى لها تصدياً لاهوادة فيه .. وكان لكل من هذه القوى معها دور أو أدوار ، تحت عين الاستعمار وبتوجيهه وتأليبه ... كان كل

دور منها كفيلاً بالقضاء على هذه الدعوة واستئصال شأفتها لولا ماتسلح به رجالها من إيمان بالله ، ولولا ماألهم الله به قادتها من حكمة وثبات ..وقد أومأت فى خلال مامضى من هذه المذكرات إلى دور أو أكثر مما كان للدعوة مع كل من هذه القوى .

ثم كان آخر هذه الأدوار الدور الذى استجمع الكل قواهم ـــ بعد أن استنفد الوفد كل ما فى جعبته من سهام ـــ ووجهوا الضربة القاضية التى أشرت إليها ، والتى ماكان أحد يظن أن تقوم للإخوان بعدها قائمة .. وشاء الله أن يخيب ظن الجميع ، وأن ترجع الدعوة للحياة أقوى مما كانت ، أصلب عوداً وأقوى شكيمة .. مما ألقى الرعب فى قلوب الجميع .. وما كان أمامهم من سبيل غير الاستسلام والخضوع .

وإليك صورة من مظاهر هذا الاستسلام .. مما يلقى ضوءاً على مكانة الإخوان المسلمين فى المجتمع المصرى خلال تلك الحقبة من الزمن :

الوفد : بعد الحملة الشنعاء التى حملها الوفد على الإخوان فى النصف الأخير من الأربعينيات ، والتى تفرغ لها الوفد ، وجرَّد لها جميع أسلحته ، والتى أنشأ من أجلها جريدة يومية خصصها لهذه الحملة .. بعد إعلان هذه الحرب وخوضه غمارها ..وبعد ماتبعها من حملة الأحزاب الأخرى مجتمعة مع الانجليز والملك ، بما فيه من حل واعتقال واغتيال وتنكيل وتعذيب .. جاءت وزارة الوفد عام ١٩٥٠ فوجدت أمامها الإخوان المسلمين أقوى مما كانوا ، ووجدت الشعب حولهم أكثر التفافاً ، وبمبادئهم أشد تمسكاً .. فلم تجد مفراً من مد يد الود لهم .. ورأت ـــ تقرباً إلى الشعب ـــ أن تسارع بإلغاء قرار الحل الذى لم يكن إلغاؤه إلا تحصيل حاصل ، حيث كان الإخوان قد استردوا كل شىء كان لهم إلا دورهم . ثم رأت حكومة الوفد أن تزداد تقرباً إلى الشعب فأقدمت على مالم تكن تجرؤ على الإقدام عليه من قبل فأعلنت إلغاء معاهدة ١٩٣٦ .

وكان إلغاء حكومة الوفد لمعاهدة ١٩٣٦ دافعاً قوياً ألجأ الوفد إلى التقرب إلى الإخوان المسلمين وخطب ودهم . لأنه فوجىء بأن إلغاء المعاهدة قد أوجد فراغاً لايملؤه إلا قوة شعبية أخذت نفسها بأسلوب التضحية والجهاد .. ولم تكن هيئة فى مصر قد أخذت نفسها بهذا الأسلوب غير الإخوان المسلمين ، وقد جربوا أنفسهم فى ذلك الأسلوب فى فلسطين وأبلوا بلاءً حسناً .. ورأت حكومة الوفد شهداء الإخوان من طلبة الجامعات وغيرهم يتساقطون فى ميدان الجهاد ضد المستعمر .. ورأوا المرشد العام للإخوان المسلمين الرجل الوحيد القادر على إحباط مؤامرات الإنجليز يخف إلى دار البطريركية ويقابل البطريرك الأكبر الأنبا يوساب ويظهر معه أمام الصحافة العالمية متعانقين .

وأخرج الوفد من الحكم عقب حريق القاهرة وهو يعلم من هم أصحاب النفوذ المتغلغل فى نفوس الشعب ، ومن هم القادرون على مواجهة المتسعمر وأذنابه .

الأحزاب الأخرى : أسندت الوزارة إلى على ماهر ، فكان من أوائل ماعمد إليه وقد أسندت إليه الوزارة فى ٢٧ يناير ١٩٥٢ أن قابل المرشد العام فى اليوم الرابع من فبراير ، حيث مكثا يتحدثان ساعة ، ثم قابل المرشد وزير العدل ساعة أخرى .. ثم ظهرت الصحف بعد هذه المقابلة بأيام تقول : « استجابة لطلبات المرشد العام بادر رفعة على ماهر باشا رئيس الوزراء فاستصدر من مجلس الوزراء بجلسته المنعقدة فى ٥ فبراير ١٩٥٢ قراراً بأن يعهد بأمر التدريب العسكرى للشباب من كافة نواحيه إليه بصفته وزيراً للحربية والبحرية بدلاً من وزير الدولة . وله أن يتخذ جميع التدابير والإجراءات اللازمة لذلك . وستقدم وزارة الحربية الأسلحة والأدوات اللازمة لتدريب الشباب وإقامة المعسكرات لهم » .

وتوالت اللقاءات بين رئيس الوزراء والمرشد العام . وكانت اللقاءات تتم بينهما منفردين دائماً بناءً على رغبة المرشد العام : حتى تحدد ميعاد للقاء بينهما فى ٢٧ فبراير ١٩٥٢ ، وذهب المرشد العام إلى رئاسة مجلس الوزراء ، فلما دخل مكتب رئيس الوزراء فوجىء بوجود جميع رؤساء الأحزاب ... وكان لهذه المفاجأة معنى خاص فيما نحن بصدده .. وقد يلمح القارىء هذا المعنى من بين ثنايا مانشرته جريدة « المصرى » فى اليوم التالى تحت عنوان « تصريحات لفضيلة المرشد العام عن حل القضية المصرية حيث كتبت تقول :

علم « مندوب المصرى » من مصادر مطلعة أن فضيلة حسن الهضيبى بك المرشد العام للإخوان المسلمين كان قد أبدى رغبته لرفعة على ماهر باشا منذ بدأ مشاوراته لتشكيل الجبهه السياسية فى أن يبدى فضيلته آراءه لرفعته كلما شاء دون التقيد باجتماعات تضمه مع آخرين . ولذلك فوجىء فضيلته أمس الأول حين دعى للاجتماع برفعة على ماهر باشا فإذا بمكتب رفعته يضم الجميع دفعة واحدة .

وعلم المندوب أن فضيلته حين دخل على رفعة على ماهر باشا أمس الأول فى مجلس الوزراء كان يعتقد أن رفعته انتهى من مشاوراته مع بقية رؤساء الأحزاب وأن فضيلته سيجتمع برفعة على ماهر باشا وحده ، ولذلك كان عقد الاجتماع من الجميع دفعة واحدة مفاجأة لفضيلته .

فلما سئل عن رأيه أثناء الاجتماع المذكور قال فضيلته « إننى سبق أن بينته لرفعة رئيس الوزراء » فقال هيكل باشا لفضيلته : هل تسمح أن تذكر لنا ماقلته لرفعته ؟ فقال فضيلته « إن رأينا صريح فى أنه لامفاوضة ولا اتفاق مع أحد » وقد اكتفى فضيلة المرشد العام بذلك مفضلاً عدم الدخول فى مناقشة طويلة مع هيكل باشا .

وسأل المندوب فضيلته عن السبب فى اختياره للإدلاء إلى الصحفيين بنص البيان المشترك الذى نشرته الصحف أمس عن الاجتماع برفعة على ماهر باشا ، وهل يفهم من هذا البيان أن المجتمعين فيه كونوا جبهة واحدة معاً ؟ فقال فضيلته : إن المجتمعين اتفقوا

على أن تلقى هذه الكلمة على الصحفيين . واقترح مكرم باشا أن ألقيها .. ومادام قد تم الاتفاق عليها فأى منا يلقيها ، وإلقاؤها لايحمل أى معنى .. ولكن ليس معنى ماحدث أننا كونا جبهة واحدة . والإخوان المسلمون مستقلون فى إبداء آرائهم ولن يكونوا جبهه مع أحد » .

وكان البيان الذى ألقاه المرشد العام هو « لقد تبادلنا الرأى فى الموقف السياسى والجميع متفقون على تحقيق أهداف البلاد » .

فالقارىء بغير ماجهد أو إمعان فكر يستطيع أن يرى فى هذا النص الصحفى دلالات منها :

١ ــ ان الحكومة ترى فى عقد لقاءاتها مع الإخوان المسلمين مايطمئن الشعب إلى حسن نيتها وسلامة وجهتها وجدية موقفها .

٢ ــ إن الحكومة تتلمس مايرضى الإخوان فتعلن اتجاهها إليه وأخذها به ووضعه موضع التنفيذ تقرباً إلى الشعب وإرضاء لمشاعره .

٣ ــ أن الأحزاب المختلفة ــ على تعددها وادعائها تمثيل الشعب ــ لم تر فى التفافها جميعاً حول رئيس الوزراء ــ المؤيد من الوفد أيضاً ــ مايكفى لإقناع الشعب ولا لإقناع الإنجليز بأنهم الجبهة الممثلة للأمة ، ولابد من وجود هيئة على رأسهم هى متجه الأنظار وموضوع تقدير الجميع .

٤ ــ أن هذه الهيئة ترى نفسها ــ كما يراها رؤساء الاحزاب فى قرارة نفوسهم ــ أرفع من أن يضمها معهم اجتماع ، فلجئوا إلى تدبير مايشبه الكمين ليحظوا بالظهور أمام الرأى العام وهذه الهيئة بينهم .

٥ ــ تعبيراً عن التقدير والاحترام ، وإقراراً منهم برفعة مكانة هذه الهيئة رأوا أن يتكلم باسمهم جميعاً ممثل الإخوان المسلمين أمام الرأى العام عن طريق الصحافة .

٦ ــ أن هذه الأحزاب كانت حريصة على معرفة رأى الإخوان ، علماً منهم بأنه هو الرأى الذى يجب أن ينزل الجميع عليه ، لأنه هو الرأى الذى تسنده القوة الشعبية المنظمة المتغلغلة فى جميع الأوساط .. وبدا تلهف الأحزاب على معرفه هذا الرأى فى الاستفسار الذى وجهه هيكل باشا إلى المرشد العام تو دخوله الاجتماع .

٧ ــ أن رد المرشد العام على هيكل باشا كان يحمل فى اقتضابه معنى التبرم من مجرد ضم الاجتماع له معهم .

٨ ــ إعلان المرشد العام على صفحات الصحف ــ بعد الاجتماع ــ أن الإخوان المسلمين مستقلون فى إبداء آرائهم وأنهم لن يكونوا جبهه مع أحد .. أسلوب

لايجرؤ على الجهر به وإعلانه على الملأ إلا إنسان يشعر أن أسباب القوة قد اجتمعت كلها فى يده ، وأن توجيه الأمور أضحى طوع أمره .

٩ ـــ أن الإنجليز حين أحسوا بأن الوزارة والأحزاب قد التزموا برأى الإخوان وألقوا إليهم بالقياد ـــ عملوا على التخلص من رئيس الوزراء على ماهر ، لعل غيره يأتى متحرراً من الخضوع لنفوذ الإخوان . فبعد يوم واحد من إعلان قرار هذا الاجتماع أسقط الإنجليز على ماهر ، بمضايقته ـــ متضامنين فى ذلك مع الملك ـــ مضايقة لم يستطع معها البقاء .

وخلف على ماهر فى الوزارة أحمد نجيب الهلالى الذى لم يختلف عن سابقه فى شىء إلا فى مبادأته حزب الوفد بالعداء فى ظل سياسة سماها « سياسة التطهير » ـــ أما سياسة الالتزام بإلغاء المعاهدة ومواجهة الإنجليز ـــ ولو ظاهراً ـــ فلم يستطع أن يعلن تخليه عن شىء منها ، وظل على سياسة اللقاءات مع المرشد العام .

وحل الهلالى مجلس النواب وأعلن عن موعد لإجراء الانتخابات ـــ وطلب رأى الإخوان فأعلنوه برفضهم خوض معركتها ، فلم يقنع بهذا الإعلان وطلب منهم أسباب الرفض فأوضحوا له أسباب الرفض فى مذكرة ... فأجل موعد إجراء الانتخابات أكثر من مرة ، وفى كل مرة كان يحاول جر الإخوان إليها .. وقد أفضنا من قبل فى موقف هذه الوزارة من الإخوان والانتخابات ومحاولاتها المستميتة لجرهم إلى خوضها وإصرار الإخوان على الرفض ـــ وكأن هذه الوزارة إنما جىء بها لتحقيق هذا الغرض فلما فشلت فى تحقيقه أسقطت .. ولا داعى لذكر حكومة تالية لهذه الحكومة .. وحسبك أن تعلم أنها لم تعمر أكثر من عشرين يوماً .

الملك : هو القوة الثالثة فى البلاد ـــ وكان برغم الصعوبات التى أحاطت به فى تلك الحقبة ـــ قد استطاع لأول مرة أن يسيطر على القوتين الأخريين معاً ، فقد استطاع أن يطوى الوفد تحت جناحه وأن يسلكه ضمن المسبحين بحمده ، المتغنين بمجده ، المتقبلين للطماته بالشكر والامتنان .. ولا تستطيع أن تقول إن ذلك كان وليد قوة طرأت على مركز الملك ، وإنما كان نتيجة الضعف الذى تطرق إلى أعصاب حزب الوفد ، بعد أن طالت أيام بعده عن الحكم وتحرق شوقاً إلى جلسة طويلة على كراسيه .

هذا الملك ـــ مع تحقيقه مالم يكن يحلم به يوما من الأيام من السيطرة على جميع الأحزاب فى مصر ـــ لم يشعر أنه حقق شيئاً يذكر من القوة يستطيع أن يركن إليه للاطمئنان على عرشه وللثبات فى مركزه .. لأنه ـــ أحس لأول مرة ـــ أن هناك مركز ثقل جديد انتقل إليه النفوذ الشعبى ، وأن عرشه قد أضحى بين إصبعين من أصابع هذه القوة الجديدة .

وتذكر أن بين هذه القوة وبينه ثأراً قديماً .. وتذكر أنه هو الذى سلط عليها من قبل زبانيته فشردوا أعضاءها وملأوا بهم السجون والمعتقلات ، وساموهم ألوان العذاب ، واغتالوا مؤسسها . وأوهمه زبانيته بعد أن اغتالوا مؤسسها أنه قد آن له ان ينام مطمئناً على عرشه ملء جفنيه — وتذكر فيما تذكر أن هذا المؤسس طالما طلب وألح فى الطلب أن يجتمع به ولكنه كان فى كل مرة يرفض فى صلف أخذاً بنصيحة زبانيته ، الذين كانوا يعلمون أن لقاءً واحداً بين هذا الرجل وبين الملك كاف لإصلاحه وتوجيهه إلى الخير .. وهو ماكانوا حريصين على الحيلولة دون تحقيقه .

جاء فى شهادة الأميرلاى أحمد كامل قائد بوليس القصور الملكية أمام المحكمة عند نظر قضية اغتيال الإمام الشهيد حسن البنا قوله « كان الملك متخوفاً من الإخوان المسلمين كثيراً ، لدرجة أنه كلفنى فى ذلك الوقت أن أشدد الحراسة عليه فى تنقلاته ، وعمل حواجز حديدية على الأبواب الرئيسية لسراى القبة وعابدين لإجبار السيارات الداخلة إليها على الوقوف والتحقق ممن فيها — كما طلب منى إخراج المستخدمين والموظفين الذين ينتمون إلى جماعة الإخوان المسلمين من السرايات والتفاتيش الملكية — واعتقادى أن هذا الحادث ارتكب لحساب الملك السابق والحكومة .

وهكذا دارت الأيام ، وعمل الزمن عمله ، وحقق الله تعالى سنته فى خلقه ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض** ﴾ واكتشف الملك أخيراً أنه كان مضللاً حين أوهموه أنه قد آن له أن يأمن كل الأمن وينام ملء جفنيه .. كيف وقد رأى نفسه يواجه أضخم قوة شعبية مسيطرة يتقرب إليها الجميع ، ويلتمسون رضاها — حتى زبانيته أنفسهم — ولم تكن هذه القوة إلا جماعة الإخوان المسلمين التى أوهموه أنهم قد قضوا عليها .

هذا الملك الذى رفض من قبل فى صلف وكبرياء طلبات تقدم بها مؤسس هذه الدعوة أكثر من مرة للالتقاء به .. وجد نفسه مضطراً أملاً فى الاحتفاظ بعرشه — أن يستجدى لقاءً بينه وبين مرشد هذه الهيئة الجديد .. وبعد لأى .. تم اللقاء .. ولكنه كان على الصورة التى وصفناها فى باب سابق .. وأيقن الملك بعد هذا اللقاء أن الوقت المناسب قد مضى ، وأن القطار قد فاته ، ولا أمل فى استرضاء هذه الهيئة بعد أن ضيّع — بتضليل مستشاريه — كل الفرص المواتية.

وأحس الملك أن نهايته صارت قاب قوسين أو أدنى فصار يتخبط تخبط التائه فى لجة بحر صاخب لايدرى أين يتجه ولا إلى أين تحمله الرياح .

* * * *

وقد يظن القارىء أن الإخوان المسلمين بتبوئهم هذا المكان العلىّ بين هذه القوى

الثلاث قد آلت إليهم السيطرة السياسية وحدها دون السيطرة الاجتماعية فنقول :

إن القوى السياسية فى مصر المتمثلة فى الأحزاب والملك إنما هى فى ذاتها وجه آخر للقوى الاجتماعية فى البلاد ، ذلك أن هذه الأحزاب لم تكن إلا واجهة سياسية للإقطاعيين المستغلين الذين كانوا يملكون الأرض ومن عليها . كما أن الملك وحده كان الإقطاعى الأكبر الذى لم يكتف بذلك بل كان همه أن يملك ـــ فيما يملك ـــ الإقطاعيين الآخرين .

ولم يصل الإخوان المسلمون إلى ماوصلوا إليه من مكانة مسيطرة فى تلك الحقبة من الزمن إلا بعد أن خاضوا ضد هذا النوع من الإقطاع غمار معارك دامية ـــ كنا أشرنا إليها من قبل وليس هنا مجال تفصيلها ـــ ولكن حسبك أن تعلم أن شُعَبَ الإخوان المسلمين فى العاصمتين وفى أحشاء الريف ، كانت مثابة للضعفاء والفقراء من العمال والفلاحين وذوى المهن ، وأمناً يأوون إليه فى أوقات فراغهم ، فيجدون الصدور الحانية والقلوب المحبة .. وفى ظل هذا الإشراق الروحى ، والتوجيه القرآنى يبدأون ـــ لأول مرة فى حياتهم ـــ يشعرون بوجودهم ، ويحسون بقيمتهم ، ويعرفون أن لهم حقوقاً .. لاتلك التى تحددها القوانين ، وإنما تلك التى منحها الله عباده يوم أنزل القرآن فقال : ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ .

ومن هنا كان الجفاء دائما بين هذا النوع من ذوى القلوب الصماء من الإقطاعيين وبين هذه الشُعَبْ التى اعتبروها سرطاناً أصيبت به قراهم وبلادهم .. وتفاوتت درجات الصراع بين هؤلاء الطغاة وبين الشعب حتى وصل الصراع فى بعضها إلى سفك الدماء .. وكانوا دائما هم المعتدين .

* * *

هذه لمحة خاطفة قصدنا من إيرادها فى هذا المقام أن نلفت الذين نظروا فرأوا بخاراً دفع عجلات القطار فتحركت واندفع القطار بعد سكون فسألوا البخار من أين جئت ؟

فقال لهم لقد أوجدت نفسى بنفسى ولا فضل لأحد علىّ .

فانبهروا بما فعل البخار وصدّقوا ادعاءه .. وشغلهم انبهارهم بما فعل البخار عن أن يعرضوا هذا الادعاء على عقولهم ، حتى تمحصه هذه العقول ، وتخبرهم بأن ادعاء البخار ادعاء باطل ... ولابد أن أصل البخار كان ماء بارداً بل إنه كان لشدة برودته ثلجاً .. ثم تولّته يد صناع بدفئها ـــ صابرة على هذه البرودة حتى انصهر وصار ماءً سائلاً ، فأحكمت قبضتها عليه ، وسلطت عليه من حرارة جسمها ونفسها حتى ارتفعت

حرارته..

وجاء قوم كانت مصلحتهم أن يظل هذا الماء ثلجاً جامداً ، ولم يتنبهوا إلى هذه اليد الدافئة التى تحتضنه إلا بعد أن تفكك الثلج وصار ماءً وارتفعت حرارته .. جاءوا فطاردوا هذه اليد لتدع الماء ولكنها تشبثت به ، فهبطوا عليها بهراواتهم ، فلم تجد معها الهراوات ، فجربوا مالديهم من أدوات الجرح والتعذيب تلقاها الجسم كله بصبر وإيمان واحتساب ، مدافعاً عن يده المتوالة أ. ر الماء ... ولم يدر بخلد أصحاب المصلحة هؤلاء أن ماينزلون به على هذا الجسد من الضرب والطعن يولّد فى هذه اليد حرارة جديدة عجلت بغليان الماء حتى تحول كله إلى بخار ، تفاقم ضغطه فانطلق فى وجه هؤلاء القساة فحطمهم تحطيماً .

هذه سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً ... الثورة هى مواجهة الشعب بشىء جديد غير الذى ألفه وكان يعيشه راغماً .. فإذا لم يكن هذا الشىء الجديد واقعاً من نفوس الشعب موقع الشىء المترقب المأمول ، وإذا لم تكن النفوس مهيأة لاستقباله ، معدة للتفاعل معه والترحيب به — إذا لم يكن ذلك كذلك فإنه سيقابل من النفوس بصدود ، ومن الشعب بالرفض والمقاومة .

والأشخاص الذين يظهرون على مسرح الثورات يكونون كالطفل الذى يولد ، فلا يطمئن أهل بلده إلى سلامة مولده إلا إذا عرفوا أباه وأمه . فإذا اطمأنوا إلى انتسابه إلى من يعرفون تلقوه بالقبول وهنأ بعضهم بعضاً بمقدمه ، وأفسحوا له من قلوبهم وغمروه بعواطفهم ... أما إذا لم يجد أهل البلد أن أحداً ممن يعرفون قد تقدم معترفاً بأبوته مسروراً بانتسابه إليه ، فإنهم يعتبرون الطفل لقيطاً فينفرون منه ، ويعرضون عنه ، ويعملون على التخلص منه .

* * *

والشعوب مهما اختلفت فى درجات الوعي فإنها تتفق فى مدى حساسيتها لقضايا مثيرة معينة . ومنذ بدأ النصف الأخير من الأربعينيات أخذ الشعب فى مصر يشعر بالإحباط وخيبة الأمل إزاء السلوك الشخصي للملك .. نعم إن الشعب لم يتخذ موقفاً إيجابياً من هذا السلوك ، لكنه كان يحس فى قرارة نفسه بالمقت والاشمئزاز .. وشرع يصنف العاملين فى حقل السياسة على أساس من هذا الشعور ...

واجريت الانتخابات العامة عام ١٩٥٠ — وكانت انتخابات حرة فعلاً وقد مارستها بنفسى وكنت رئيس لجنة فيها — وكان الشعب قد صنف المتقدمين لهذه الانتخابات على الأساس الذى أشرنا إليه .. فكان المنتسبون إلى الملك أو أحزاب الملك صنفاً .. والذين عرف عنهم أنهم يعارضون سلوك الملك صنفاً آخر .. وكان الصنف الأخير هو حزب

الوفد، ومن ورائه الإخوان المسلمون .. وأسفرت الانتخابات عن فوز حزب الوفد واندحار أحزاب الملك .

ثم رأى حزب الوفد بعد أن اعتلى كراسى الحكم ، وذاق حلاوتها أن يتشبث هذه المرة بهذه الكراسى . وخيل إليه أن هذه الأمنية لاتتحقق إلا إذا هو تغاضى عن سلوك الملك وسار فى ركابه ، وبذلك يقطع الطريق على الأحزاب الشكلية الأخرى التى يستدعيها الملك كل مرة حين يضيق ذرعاً بحكومة الوفد لوقوفها فى وجه أهوائه .. وهذه السياسة التى ارتآها حزب الوفد هذه المرة هى السياسة التى يحكم بها العقل المجرد لقوم نسوا أو تناسوا أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، وأنه تعالى يغير ولا يتغير وأنه تعالى ﴿ **يخلق مالا تعلمون** ﴾ .

وكان من نتيجة هذه السياسة الجديدة للوفد أن ارتكبت حكومته هذه حماقات ماكان يخطر ببال أحد أن يرتكبها الوفد ، منها سنُّ تشريع يحظر نشر أخبار الملك ، ومنع دخول مجلات أجنبية تصف مايرتكبه الملك من مهازل فى نوادى القمار بالخارج ، وسنّ تشريع لتقييد حرية الصحافة .

وكان لهذه السياسة ضجة لفتت الأنظار ، وهبطت بمكانة الوفد فى النفوس .. وضم الشعب فى تصنيفه حزب الوفد ــ آسفاً ــ إلى الصنف الأول .. ولم يبق فى الساحة بعد ذلك من الصنف المعارض للملك إلا الإخوان المسلمون وفلول من تجمعات أخرى .

ولاشك فى أن الثورة التى كان الشعب يتمناها وينتظرها هى ثورة ضد الحكم فى مصر الذى صار الملك يمثله تماماً ولا يشذ عن ذلك حزب .

ولما كان آخر تصنيف صنفه الشعب للعاملين فى حقل السياسة لم يبق فيه فى خانة المعارضين للملك من الهيئات الشعبية المتغلغلة فى أحشاء البلاد إلا الإخوان المسلمون .. فقد تعلقت أنظار الشعب بهذه الهيئة ينتظرون منها عملاً .. فلما قام بهذا العمل أفراد لايعرف الشعب عنهم شيئاً ، راقبوا اتصالاتهم فوجدوها تتم بينهم وبين الإخوان المسلمين وفى بيوت قادة الإخوان المسلمين فاطمأنت قلوب الشعب ، وعلموا أنها الثورة المأمولة فرحبوا بها وساندوها .

سقت قصة البخار لأنها سنة طبيعية لاتخلف لها ، تقوم عليها السموات والأرض ، ولأنها توضح تماماً علاقة هذه الثورة بدعوة الإخوان المسلمين .. فالثورة نبعت من هذه الدعوة ، وكانت النتيجة الحتمية لها ، والقائمون بالثورة كانوا من صفوفها .. ولو لم تقم هذه الدعوة فى الوقت الذى قامت فيه ، ولولا جهادها المستميت خلال ربع قرن من الزمن فى إيقاظ الشعب وتربيته وإعداده لما كان لثورة أن تقوم ــ ومع ذلك فأكرر ماسبق

أن قررته فى هذه المذكرات من قبل ، وهو أن الوصول إلى كراسى الحكم لم يكن هدف الإخوان وإلا لكان ذلك متاحاً لهم من قبل دون القيام بثورة فقد توالى على دست الحكم فى مصر من كان هو وشيعته أدنى من شعبة واحدة من شعب الإخوان المسلمين علماً ومواهب وثروة بالرجال .. وإنما كانوا يؤثرون دائما أن يجدوا من أتباعهم أو من غير أتباعهم من يلتزم بالحكم بكتاب الله ، على أن يكونوا هم من ورائه يؤيدونه إذا صدق ، ويبصرونه إذا التبست عليه الأمور ، ويذكرونه إذا نسى ، ويسندونه إذا اختل توازنه ، ويحمونه من نفسه ومن بطانة السوء ، ويقفون حائلاً بينه وبين منحدر الغرور والانحراف.

هذا هو الموقف الذى كان الإخوان قد اختاروه لأنفسهم ، واثروه على ماسواه من مواقف ولو أن جمال عبد الناصر — وقد اختار لنفسه أن يحكم — رضى بما اختاره الإخوان لأنفسهم من موقف ، لتجنب كثيراً مما وقع فيه من أخطاء ، ولوجد من ورائه من يسدده ، ويقيل عثرته ويشير عليه ، ويبصره ، ويحميه من نفسه ومن الانحدار الذى انتهى به وببلاده إلى الكوارث التى خلفها من بعده .

واقعة طريفة :

وإذ كان الإخوان المسلمون فى ذلك الوقت هم مناط الأمل ومتجه الأنظار ، صار المركز العام كعبة تأتى إليها الوفود من كل مكان .. وأذكر فى الأيام الأخيرة قبل الثورة بقليل أن جاء إلى المركز العام شابان أجنبيان يحمل كل منهما حقيبة صغيرة وكاميرا ، فتقدمت إليهما مستعرفاً فأخبرانى بأنهما صحفيان من السويد قدما ليأخذا حديثاً من المرشد العام — وكان المرشد العام منشغلاً مع آخرين ، فلما أخبرته بأمرهما طلب منى أن أجلس معهما حتى يفرغ من القوم الذين معه .

فجلست إليهما وتحدثت معهما فكان حديثهما معى مفاجأة لى ماكنت أتوقعها .. نعم إن مجيئهما من السويد إلى مصر للقاء المرشد العام مما لايحتاج إلى توضيح أن الإخوان المسلمين كما تألقوا فى سماء مصر وتعلقت بهم الأنظار ، فكذلك شعر المحللون السياسيون فى أنحاء العالم أن الدور صار دور الإخوان المسلمين وأن عصر الإخوان المسلمين مقبل لامحالة بعد المعارك الضارية التى استسلم فى نهايتها عهد الاستعمار وأذنابه ، فجاء هذان الصحفيان من السويد كما جاء أمثالهم من كثير من دول أوربا وأمريكا لاستطلاع آراء الإخوان المسلمين فيما ينتوون من سياسة الحكم الإسلامى فى مختلف الشئون .

وهذا ماتوقعت أن أسمعه من هذين الصحفيين . وفعلا كان أول سؤال وجهاه إلىّ هو : نحن نعرف أن الإخوان المسلمين يريدون أن يحكموا بالنظام الإسلامى . ولما

أحسسنا أن هذا النوع من الحكم أوشك أن يقوم فى مصر ، فقد رأينا آن نستفسر عن الطريقة التى تنفذون بها الحكم الإسلامى فى هذا العصر الذى نعيشه ..؟

ولما طلبت منهما أن يحددا لى نواحى معينة من نواحى الحياة لأشرح لهما تعامل الحكم الإسلامى معها قال أحدهما : سنأخذ ناحية واحدة من نواحى الحياة مثلاً لذلك ، وهى ناحية المواصلات .. كيف تتعاملون معها بالنظام الإسلامى ؟ لقد أصبحت وسائل المواصلات بالترام والقطارات والسيارات بل والطائرات ضرورة لازمة فكيف تتعاملون إسلامياً مع هذه الوسائل .. والنظام الإسلامى وسيلة مواصلاته هى الجمال ؟!

فكان ماسمعته منهما مفاجأة لى اضطررت معها أن أشرح لهماالنظام الإسلامى شرحاً مستفيضاً أخبرانى بعده أنهما لأول مرة يعرفان هذه الصورة الرائعة عن الإسلام .

* * *

الفصل الثانى

نظرة إلى الإخوان المسلمين من الداخل

حتى تكتمل صورة الإخوان المسلمين فى هذه الحقبة من الزمن ــ وقد ألقينا عليها الأضواء من خارجها ــ ينبغى أن ننفذ بأبصارنا إلى داخل هذه الصورة ، لنرى ماكان يعتمل فى أعماقها من انفعالات وتفاعلات ، وما انطوت عليه أحشاؤها من أوجاع وآلام .. وبهذا التصوير الواقعى الشامل للصورة من خارجها ومن داخلها يكون الحديث عن تطور الأحداث بعد ذلك حديثا موصولاً واضحاً مقنعاً .. يحمل كل حدث فى نفسه مبررات حدوثه ... وليس أبغض إلى نفس قارىء التاريخ من أن يجد نفسه أمام أحداث مبتورة ، بترت عن مقدماتها ، وأخفيت عنه ظروفها ومبرراتها .

وإخفاء الظروف والمبررات ، يكون سوء النية عادة من ورائه .. ولكن كثيراً ما يحدث بحسن نية وبقصد التسامح والمجاملة .. غير أنه فى كلا الحالين يكون غمطاً للحق ، وتشويها للتاريخ ، وتضليلاً للذين يدرسون التاريخ يريدون أن ينتفعوا من دراسته .

ومركز الدعوة قبيل قيام الثورة وعند قيامها أمام الرأى العام المصرى والخارجى ، وإن كنا قد حاولنا إيفاءه حقه من التوضيح والبيان ، فإن هذا الجانب من صورة الإخوان المسلمين جانب ظاهر ومعروف ومشهور للكافة الذين عاصروه ، ومسجل فى الصحف والكتب ليطلع عليه من لم يعاصروه .. أما الجانب الآخر للصورة من داخلها فهو الجانب الغامض المعقد المغلق، الذى يقف أكثر المؤرخين عاجزين عن الغوص وراء أسراره . وقد يلجأ بعضهم إلى التأويل والتفسير ، وقد يلجأ آخرون إلى انتهاز هذا الغموض فرصة للخلط والتحريف والاختلاق .. ومن هنا كان حقاً علينا أن نجلى هذه الناحية بالقدر الذى مكنتنا ظروفنا فى هذه الدعوة من رؤيته .

ونظرتنا هذه من الداخل تتناول موقفين : موقف أولى القوة وموقف أولى القربى .

موقف أولى القوة

سبق لنا القول بأن النظام الخاص (أولى القوة) فى أواخر أيام الأستاذ الإمام رحمه الله قد خرج على الخط المرسوم له ، وأتى أفعالاً لاتتواءم مع وسائل الدعوة ولا مع أهدافها ، دون الرجوع فى شأنها إلى الأستاذ الإمام ، مما جعل الدعوة والأستاذ الإمام فى أحرج المواقف . وأشرنا إلى عزم الأستاذ الإمام على إعادة النظر فى هذا النظام ، لولا أن تفاقمت الظروف وعاجلته المنية ولقى — رحمه الله — ربه والإخوان فى السجون والمعتقلات .

وذكرنا فى موضع آخر من الجزء الثانى من هذه المذكرات عند الحديث عن الظروف التى أحاطت بالبحث عن مرشد عام جديد أنه كان هناك تياران أطلا برأسيهما فى ذلك الوقت ، هما (تيار أولى القربى وتيار أولى القوة) وذكرنا أن تيار أولى القربى قد انسحب من الميدان بعد قليل ، ولكن تيار أولى القوة كان له موقف آخر ، ووعدنا ببسط هذا الموقف فيما بعد . وقد آن لنا أن ننجز هذا الوعد حيث جاء موضعه فنقول :

خرج الإخوان من السجون والمعتقلات ، وعاد كل منهم إلى بلده وإلى أهله وإلى عمله . خرجوا موحدى الشعور ، ينبضون بنبض واحد ، وينطقون بلسان واحد ، ويتجهون وجهة واحدة ، يتجهون إلى القاهرة ، حيث قيادتهم ، ينتظرون منها التوجيهات ، ويتلقون منها التعليمات .

خرج الصف الإخوانى سليماً معافى كأنما لم تمر به محنة ، ولم تنزل به كارثة — صحيح أنهم لم يكونوا قد استردوا دورهم ولا أموالهم ولا مستوصفاتهم ولا مدارسهم ولا مصانعهم بعد ، ولكن الرابطة الأخوية — التى كان مقصوداً من كل مانزل بهم من عذاب وتنكيل تفتيتها — خرجت من المحنة أقوى مما كانت .. وهذه الرابطة هى العروة الوثقى التى جاءت فى قوله تعالى ﴿ **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها** ﴾ .

ولكن الشيطان الذى أعجزه أن يفتن الإخوان عن دينهم بالسجن والحديد والنار استدار حولهم لعله يجد له منفذاً ينفذ منه إلى صفوفهم المتراصة كالبنيان المرصوص ، فلم يجد إلا منفذاً واحداً استطاع أن ينفخ فيه ، وينفث سمومه منه ، وكان هذا المنفذ هو تيار أولى القوة .

وقبل الشروع فى الحديث عن هذا الموقف يجدر بى أن أضع بين يدى القارىء حقيقة ينبغى تجليتها ، تلك هى أن النظام الخاص أو الجهاز السرى — كما يحلو للبعض أن يسموه — الذى تناولنا الحديث عنه فى الجزء الأول من هذه المذكرات نشأةً ووظيفةً ودوراً فى الدعوة — قد أدى دوره فى مختلف أطوارها خير أداء ، وكان مثلاً رائعاً مشرفا فى كل ميدان انتدب للنهوض بأعباء فيه ، ففى داخل مصر حمل العبء الأكبر من مطاردة الاحتلال البريطانى حتى طرده من القاهرة ، ثم لاحقه فى القنال حتى أطار من عيون جنوده النوم .. وفى خارج مصر حمل العبء الأكبر فى حرب فلسطين حيث سجل بطولات وألواناً من الشجاعة والتضحية والفداء بهرت العالم كله .

وظل هذا الأسلوب ديدن هذا النظام ، فكان دائما الجندى اليقظ ، والحارس الأمين لدعوته ولبلاده ولمثله التى بايع عليها ، وأعطى العهد على الوفاء بها .

لكن فئة قليلة ضمت بعض المتصدرين فى هذا النظام لعب الشيطان برءوسهم ، فاشرأبت نفوسهم إلى متاع الحياة الدنيا ، وأرادت الانحراف بهذا النظام عن طبيعته الصافية المستقيمة .. وما كان ينبغى أن يكون لفئة قليلة وسط هذه الجموع الزاخرة من المجاهدين الصادقين وزن يثير الاهتمام ويبعث على القلق — لولا أن رئيس هذا النظام كان على رأس هذه الفئة القليلة .

ومجتمعاتنا — نحن الشرقيين — لاتأتى معاناتها فى أكثر الأحيان إلا من رؤساء لما تمكنوا واستقرت لهم الأمور ، نسوا تاريخهم ، وقلبوا لمجتمعاتهم ظهر المجن . وصار هدفهم الأوحد الخلود فى مناصبهم مهما كان فى تحقيق هذا الهدف دمار هذه المجتمعات .

وانحراف هذا الرئيس وإعجابه برأيه لم يكن وليد هذه الظروف التى سوف نشرع فى الكلام عنها ، وإنما بدأ قبل محنة ١٩٤٨ بفترة قصيرة .. وكانت قيادة الدعوة فى ذلك الوقت عازمة على حسم هذا الموقف ولكن حال دون ذلك خطوب ملحّة جسام ، كان على الدعوة أن تواجهها قبل كل شيء .. وقد بسطنا الحديث عن هذه الخطوب فى الجزءين السابقين .. وقد انتهت مواجهة هذه الخطوب بالمحنة المدبرة .

* * *

وانجلت المعركة غير المتكافئة . وخرجت الدعوة الربانية من البلاء خروج السيف من الجلاء ... وظننا أن التجربة القاسية قد أصلحت ماتطرق إلى بعض النفوس من فساد ، وردت المنحرف إلى جادة الصواب .. ولكن تبين بعد ذلك أن شهوة السلطة

ولذة المنصب كانت أقوى من أن تطفىء نارها التجربة القاسية .

كنت فى تلك الأثناء بعيداً عن القاهرة ، مقيماً فى الصعيد فى بنى مزار . ولم أكن أجهل أخبار القاهرة ، ولكننى لم أكن أعلم بتفاصيلها . وكنت مطمئناً إلى سهر الإخوة الكرام أعضاء مكتب الإرشاد على الدعوة بحكمة وإحاطة وتبصر ، لاسيما وأن أكثرهم قد ضربوا أروع المثل فى نكران الذات والتفانى فى الدعوة فقد أعلنوا جميعاً خلع أنفسهم من التصدى لمنصب المرشد العام عدا اثنين يمثل أحدهما ذوى القربى ويمثل الآخر أولى القوة .

كما أننى لم أكن قد نسيت مأساة اغتيال الخازندار ، فإنها لم تكن فى عرف قيادة الدعوة مأساة فى ذاتها بقدر ماكانت المأساة فيها أنها عرض خطير من أعراض تمرد على قيادة الدعوة ، وانطلاق فى جموح ... ولا زال يطن فى أذنى صوت الأستاذ الإمام يجأر بالشكوى إلى الله من تصرف رئيس هذا النظام .. ولولا ماعاجل الدعوة من ظروف قاسية تواترت عليها فى تلك الفترة لكان له معه موقف حاسم .

* * *

لم أكن أجهل شيئاً من ذلك ، ولكننى كنت أعتقد أن مامر بنا من محن كان كفيلاً أن يقوّم ماطرأ علينا من اعوجاج ، وأن يعود بالذين ضل بهم الطريق إلى الطريق السوى .. ولكننى فوجئت بأننى مطلوب فى القاهرة .. وعندما وصلت إليها أبلغت بأن هناك شغباً قد يودى بالدعوة من داخلها .

كان الإخوان فى ذلك الوقت قد اتخذوا لهم مقراً مؤقتاً غير رسمى فى منزل قديم بالعباسية ، يلحق به فناء كان حديقة فى يوم من الأيام ، فاتجهت إليه حيث التقيت بالأخ عبد العزيز كامل .. فقص علىّ الأخ عبد العزيز تفاصيل الموقف التى تتلخص فى أن إخوان النظام الخاص لايوافقون على أن يتولى منصب المرشد العام إلا من يرشحونه هم ، بحجة أنهم هم الذين تحملوا أشد المواقف ، وبذلوا أعظم التضحيات ــ وأخبرنى الأخ عبد العزيز بأنهم قرروا ترشيح الأخ صالح عشماوى .

سألت عن الأخ صالح فقيل لى إنك تجده فى المسجد القريب مقيماً به لايكاد يفارقه ــ فدخلت المسجد ــ ولم يكن وقت صلاة ــ فوجدت صالحاً قد أعفى لحيته ولم يكن قد أعفاها من قبل ــ واتخذ له فى المسجد مكاناً أشبه بالخلوة .. فسلمت عليه وجلست إليه ، وتحدثت معه فى موضوع المرشد العام .. فقال لى ياأخى محمود .. أنا من ناحيتى ماأردتها ولكن إخوان النظام هم الذين رشحونى ، وما كان لى أن أخالفهم ــ وقد أحسست من حديثه ومن حالته التى رأيته عليها أنه جاد فى الأمر ، وأنه يعد نفسه إعداداً

روحياً حتى يكون جديراً بالمنصب .

أما من ناحيتى فإننى لن أجد فى نفسى غضاضة أن أبايع صالحاً وأن أسمع له وأطيع — وقد صارحته بذلك .. ولكن الموضوع لم يكن بمثل هذه البساطة .. إذ هناك أمران خطيران يستتران وراء ترشيح صالح : أولهما أن الاخوة الكرام أعضاء مكتب الإرشاد الذين خلعوا أنفسهم رجاء اجتياز الدعوة الظروف التى تحدثت عنها — إذا رأوا صالحاً يتقدم للمنصب فإنهم سيعدلون عن خلع أنفسهم ويتقدمون للمنصب الذى قد يرى كل منهم أنه أحق به من صالح .. وهنا تتفرق الجماعة ويذهب ريحها . وأما الأمر الخطير الآخر .. وقد يكون هو الأشد خطورة — فهو الوسيلة التى رشح صالح عن طريقها .. إن مبدأ تسلط طائفة من طوائف الجماعة على الجماعة وإلزامها برأيهم تحت تأثير القوة هو مبدأ خطير ومدمر ، وقد يؤدى إلى إلغاء شخصية الجماعة ويحولها إلى مجموعة من المغامرين وقطاع الطرق .

وقد أحسست بعد لقائى بصالح وإصراره على موقفه بأن علىّ واجباً لابد أن أقوم به — وقد أكون لظروف معينة أقدر على القيام به من غيرى — ولم يكن هذا الواجب إلا عملاً إيجابيا واحداً .. هو مواجهة هذه الطائفة ... وأنا وإن كنت بعدت عن النظام الخاص للظروف التى ذكرت طرفاً منها فإننى أحتفظ بعلاقات طيبة مع أكثر قياداته وكثير من أفراده .. وكانت قيادات هذا النظام وعلى رأسهم عبد الرحمن السندى ينظرون إلىّ باعتبارى أخاً أكبر يرجعون إليه فيما يختلفون فيه .

سألت عن عبد الرحمن لأتحدث إليه فأخبرت بأنه غير موجود — ولعله قد بلغه نبأ استدعائى فآثر أن لايلقانى اتقاء الحرج — ولم أجد إلا نائبه الأخ أحمد زكى ومعه مجموعة من أفراد النظام ... وأخبرنى الأخ عبد العزيز بأن قيادة النظام قد احتلت هذه الدار واتخذتها مقراً لها . وأنها تطارد كل من يفكر تفكيراً يخالف تفكيرهم فى اختيار المرشد ، حتى إنه لم يعد أحد غير أفرادهم يجرؤ أن تطأ قدمه هذه الدار . وأخبرنى أنه يئس من حملهم على العدول عن فكرتهم أو حتى على التخفيف من هذه القيود .

ورأيتهم فعلاً قد فرضوا نظاماً صارماً ينفر منه من أَلِفَ الجو الإخوانى المفتوح المشبع بروح الإخاء والمحبة والود ... حتى إننى حين طلبت مقابلة الأخ أحمد زكى أرادوا إخضاعى لهذا النظام المنفر ، لاسيما والأفراد المكلفون بتنفيذه من صغار الأفراد الذين لايعرفون كثيراً من الإخوان — وقد زادنى ماقوبلت به من صلف حنقاً على تصرفهم ... وكان الحديث عن هذا الصلف والجفاء هو أول حديثى مع الأخ أحمد زكى وقلت له : إذا كان الذين سيقودون الإخوان على مثل هذا الجفاء والصلف فإنهم سيوردون الإخوان موارد الهلاك ، وسيكونون أنكى على الدعوة من ألد أعدائها .

وتحدثت إليه حديثاً طويلاً بينت له فيه خطأ الاتجاه الذى عزموا على السير فيه ، وخطورة نتائجه . وختمت حديثى معه بقولى : إننى ياأحمد — كما تعلم — أحد الذين أسسوا هذا النظام .. ولكننى سأكون أول من يعمل على تقويضه إذا كان يريد أن يفرض نفسه على الدعوة .. وإذا كان أفراد من هذا النظام يطالبون بأن ينالوا مناصب فى الدعوة لقاء ماقدموا وما تحملوا من تضحيات ومتاعب ، فإن النظام يكون قد حل نفسه بنفسه ، لأنهم يكونون قد نكثوا العهد الذى أخذه كل فرد منهم على نفسه يوم أعطى البيعة أن يقدم روحه وماله لله ، ومعنى ذلك فى أبسط معانيه أنه لاينتظر على ذلك أجراً ولا منصباً ولا حتى الثناء يسمعه من الناس .

وكان الأخ أحمد ينصت إلىّ باهتمام لما يعرف عن مدى ماأحظى به من تقدير الكثرة الغالبة من قادة النظام ومقدار ماأتمتع به من حبهم وثقتهم ، كما يعلم أننى لاأسعى إلى كسب شخصى ولا أقصد فيما أقول وأفعل إلا وجه الله .. وقد طلبت إليه إبلاغ الأخ عبد الرحمن بكل كلمة قلتها وأن يبلغه أننى سأكون فى انتظاره فى هذا المكان فى نفس الموعد من الغد إن شاء الله .

وحضرت فى الموعد فوجدت الأخ أحمد الذى أبلغنى بأن عبد الرحمن قد اقتنع وقال : ماكان لنا أن نخالف أخانا الكبير .. كما أخبرنى أحمد بأن عبد الرحمن يعتذر عن الحضور لأنه سيكون خارج القاهرة لموعد سابق .. فعلمت أنه يتفادى مواجهتى فى مثل هذا الموقف .

ولم يكن لقاؤه يعنينى . وإنما الذى كان يعنينى هو أن أرى مايدل على عدولهم عن موقفهم .. فرأيت الأخ أحمد قد أصدر أمراً إلى الأفراد الذين كانوا يتناوبون الحراسة بالانصراف ، كما أعلن أمامهم العدول عن خطتهم وترك الأمر لجمهور الإخوان لاختيار من يشاءون مرشداً وأنهم سيكونون فى ركب من يقع عليه اختيار الإخوان .

* * *

وكان الإخوان قد وقع اختيارهم على الأستاذ حسن إسماعيل الهضيبى مرشداً عاماً — وقد سبق فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ذكر ذلك بإفاضة — فلما علم الإخوان بجلاء إخوان النظام الخاص عن المكان وعدولهم عن خطتهم ، دعوا الأستاذ الهضيبى لزيارة هذا المركز العام المؤقت ، فجاء فى اليوم التالى فى مجموعة من كبار الإخوان ، وكنت فى استقباله .. وكانت هذه المرة هى المرة الثانية التى ألقاه فيها .

وسعدت مع من سعد من الإخوان بهذه النتيجة ، معتقداً أن إخواننا هؤلاء من قادة النظام الخاص قد سلموا بخطئهم عن اقتناع ، وأن المشكلة بذلك قد وصلت إلى نهايتها

المأمولة .. وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين .. لقد اختفت هذه النزعة ، وبدت أمور الدعوة مستقرة واستأنفت السفينة سيرها فى بحر هادىء ، وأخذت الدعوة تحقق كل يوم تقدماً ونصراً حتى احتلت مكان الصدارة فى المجتمع المصرى والعربى والإسلامى .

وتألقت الدعوة فى سماء مصر ، وشدت جميع الأنظار إليها .. تتطلع إليها فى شوق وتلهف أنه قد حانت ساعة الخلاص ، وتحقق للناس ماطال انتظارهم له فقد قامت الثورة ، ولم يكن أحد يشك فى أنها ثمرة جهود ربع قرن تم فيه إيقاظ الشعب وتربيته وتثقيفه وتنظيمه .. وكان الأمر فعلاً كما اعتقد الناس ، ولكن لم يكن أحد يعلم أن هؤلاء الذين ظهروا على المسرح من الإخوان كانوا يكنون فى قرارة نفوسهم غدراً بالدعوة التى تربوا فى أحضانها وقامت حركتهم فى كنفها وحمايتها .. وسرعان ماوضح الخلاف بين هؤلاء وبين قيادة دعوتهم ... ولما كان لهذا الخلاف آثار بعيدة المدى على مانحن بصدده فى هذا الفصل مما يتصل بأولى القوة فقد نقف فى الحديث عند هذا الحد لنستأنفه إن شاء الله فى مواضع قادمة فقد يطول الحديث ويطول ويطول ..

موقف أولى القربى

تحدثنا فى الجزء الثانى من هذه المذكرات عن موقف ذوى القربى عند البحث عن خليفة للأستاذ الإمام ، وقلنا إن أحد هؤلاء وهو الأستاذ عبد الحكيم عابدين خلع نفسه من التصدى لهذا المنصب ، ولكن الأستاذ عبد الرحمن البنا شقيق الإمام أعلن أنه يرى نفسه أحق بأن يخلف شقيقه فى منصبه بالدعوة .. فلما رأى أن جميع من حوله من المسئولين لايقرون هذا الاتجاه انسحب من الميدان .. ولكن يبدو أن انسحابه هذا لم يكن عن اقتناع أو بمعنى أدق انسحب وفى النفس شىء أو أشياء .

أما الأستاذ عبد الرحمن نفسه فلم يحاول أن يتصدى للمرشد الجديد بعداء ، ولم يتصرف تصرفاً يؤخذ عليه ، ولكنه انكمش انكماشاً أحس معه جمهور الإخوان بأنه غير راض عن هذا الوضع الجديد ، وبأنه يسير فى ركاب الدعوة سير صاحب الحق المغلوب على أمره .

على أن هذا الموقف من الأستاذ عبد الرحمن لم يكن ليضير الإخوان فى شىء ، فالعاملون فى الدعوة كثيرون ، وإن كان المطلوب أن لايكون فى نفس الأخ وهو يسير فى ركاب الدعوة حرج ﴿ **فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجاً** ﴾ ولكن الذى حدث هو أن رأى الإخوان بعض أشقاء الأستاذ الإمام الآخرين قد وقفوا موقفاً ، واتخذوا لهم أسلوباً غير كريم ، حتى إن أحدهم نشر فى

الصحف كلاماً مثيراً ماكان لرجل منتسب إلى حسن البنا أن يفوه به .

وقد شكل هذا الموقف ثغرة فى البناء ، كان يسترها لبنات لايراها الرائى مستقرة بل يراها قلقة فى موضعها غير مستقرة ولا مشدودة بأخواتها ولا ملتحمة (معهن) وكأنها بوضعها هذا تقول لدعاة التخريب : هأنذا ومن هنا فابدأوا .

وسيرى القارىء إن شاء الله — مع الأسف — أن هذه الثغرة كانت فعلاً نقطة ضعف فى البناء الإخوانى ، وكانت هذه المجموعة من أصحاب هذا التيار موضع استقطاب من كل من حاول تخريب هذا البناء .. نعم إنها كانت فئة قليلة العدد ، ولكنها كانت عظيمة الخطر لأنها اتُخذت شعاراً ، واستعارها المخربون رمزاً ، واصطنعوا منها ستاراً يسترون وراءه خبث نياتهم وسوء سريرتهم .

وبالرغم من الإساءات التى صدرت من بعض إخوة الأستاذ الإمام فإن الإخوان لم يتخذوا أى إجراء ينتقصون به من قدر الأستاذ عبد الرحمن ، فقد كانوا حريصين على أن يرعوا له ماضيه فى الدعوة ، ويكرموا فى شخصه شقيقه الإمام فاحتفظوا له بمكانه فى الهيئة التأسيسية وفى مكتب الإرشاد وكان موضع حبهم واحترامهم .

ولكن هذا التطاول على صفحات الصحف من بعض إخوته قد أغضب الكثيرين من الإخوان فى كل مكان ، فأساءوا الظن بكل من يمت إلى هؤلاء بصلة قرابة ، فأساءوا بذلك إلى إخوان كرام بغير جريرة سوى هذه القرابة ، فى حين كانوا من أخلص الناس لدعوتهم لايعدلون بها شيئاً من قرابة أو نسب .. وأعرف من هؤلاء الإخوان أخاً كريماً وداعية كبيرا بمكتب إدارى البحيرة هو الأستاذ معروف بدر ، وكان كل ذنبه أنه من قرية فى مركز فوة ملاصقة لشمشيرة القرية التى نشأبها الأستاذ الإمام ، وتربط أسرته بأسرة الأستاذ الإمام آصرة قرابة .. أُخِذَ بهذه الجريرة ، فطورد ونظر إليه شزراً ، وأبعد عن الوسط الإخوانى فى ذلك الوقت ، مع أنى أعرف أنه برىء كل البراءة من هذه التهمة .. ولكن الفترة كانت حالكة ، والحساسيات كانت مسيطرة على الأعصاب . والجو كان مشحوناً بالتوتر .

* * *

الباب الثانى

معالــم الخــلاف

الفصل الأول: الحكم بكتاب الله

الفصل الثانى: علاقــة الحكــم بالجيش

الفصل الثالث: المدى الذى يصل إليــه الإصلاح الزراعى

الفصل الرابع: الحكم الدستورى

تقدمـــة

بعد أن اتضح للإخوان أن جمال عبد الناصر قد صارح بأنه متخذ سبيلًا غير سبيل الإخوان المسلمين ، واعتبر الإخوان ذلك أمراً واقعاً ، وارتضوا أن يعتبروه مجرد حركة إصلاحية ... كان لابد من حثه على الالتزام بمعالم وسمات تسدده ،وتصون حركته من الانحراف ، وتجعل خطواتها دائما فى صالح البلاد . وكانت هذه المعالم أربعة نشأ عن عرضها عليه وحثه عليها أربعة نقاط أساسية فى الخلاف ..

وهاك هذه المعالم الأربعة :

١ ــ الحكم بكتاب الله .

٢ ــ علاقة الحكم بالجيش.

٣ ــ المدى الذى يصل إليه الإصلاح الزراعى .

٤ ــ الحكم الدستورى .

الفصل الأول

الحكم بكتاب الله

هذه قضية فات أوان أن يرفضها حاكم رفضاً صريحاً .. نعم جاء على بلادنا وقت كان الناس يعتبرون مجرد إثارتها نوعاً من الهذيان والرجعية ، ولكن مع جهود أكثر من عشرين عاماً بذلها الإخوان فى الالتحام بمختلف طبقات الشعب ، وتبصيره وتثقيفه أخذت هذه الفكرة الدخيلة المستولية على النفوس والعقول تنقشع شيئاً فشيئاً حتى زالت هذه الفكرة الدخيلة تماماً ، وحل محلها الاقتناع بأن الحكم بكتاب الله هو الحكم الأمثل ، وأن الشريعة الإسلامية هى السماء التى لاتطاولها سماء فى عالم التشريع أيا كان مصدر هذا التشريع .

استقر هذا الشعور فى نفوس الحاكم والمحكوم على السواء .. أما المحكوم فإنه يطالب بالحكم بالشريعة الإسلامية لأنه سيعود بالخير عليه وعلى المجتمع .. وأما الحاكم وإن كان مقتنعاً بها فإن بريق السلطة المطلقة التى لايحدها قيد ، يتلألأ بين عينيه فيبهره ويزيغ بصره ، وتتراءى له هذه الشريعة عائقا يحد من سلطته .

وقد تبين للقارىء مما سبق أن الفئة من الإخوان الذين اشتركوا مع جمال فى التحضير للقيام بالثورة كانت فئة محدودة العدد وهذا هو التكتيك السليم فى مثل هذه الأمور الخطيرة التى يكون عنصر السرية فيها أهم عناصر نجاحها ... وهكذا فوجىء الإخوان فى كل مكان بقيام الثورة ، ثم اطمأنوا عقب ذلك فى الحال إلى أنها ثورتهم .. وأخذ الإخوان فى جميع أنحاء العالم يستبشرون ويهنىء بعضهم بعضاً لابأن الحكم قد آل إليهم وإنما بأن الحكم بكتاب الله قد آن له أن يتحقق . وهو الأمل المنشود ، والهدف الذى من أجل الوصول إليه اقتحم الإخوان الأهوال ، واستعذبوا مرارة الموت .

كان الإخوان فى شعور غامر من السعادة وخف كثير منهم إلى أعضاء مجلس الثورة يتبادلون العناق والقبلات . ولكن المرشد العام عرف كيف استغل جمال عبد الناصر طبيعة تكتيك الثورات من ضآلة عدد المشتركين فى الإعداد لها، كما استغل مااتفق عليه من نفى المرشد علاقة الثورة بالإخوان حرصاً عليها ، وبناء على ذلك استطاع

أن يتملص من العهود والمواثيق .. وإزاء ذلك رأى المرشد العام نفسه أمام حكومة غير ملتزمة ، وأن عليه أن يتعامل معها برفق ، وأن يتقدم إليها ــ على أساس أنها مجرد حركة إصلاحية ــ داعيا إلى الحكم بالقرآن ، شارحاً لها مزايا ذلك الحكم ، وموضحاً لها أن هذا الحكم لايتعارض مع وجود أجناس وأديان أخرى فى البلاد ، داعماً شرحه بالحجج والأسانيد ، ومزيلاً ماعسى أن يثار من شبه حول عدالة الحكم الإسلامى حيث يتمشى مع العقل ومع طبيعة الحياة .

وقد انتهز المرشد فرصة حلول ذكرى المولد النبوى فى عام ١٩٥٢ فأقام حفلاً بهذه المناسبة بالمركز العام دعا إليه رجال الثورة فحضر محمد نجيب وجمال عبد الناصر وعدد آخر كما حضره الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر وقد ألقى المرشد العام كلمة جامعة ضافية جاء فيها :

« ولسنا نطلب الأخذ بكتاب الله لنشتفى بالعقوبات الصارمة التى سنها الله تعالى ، بل نطلب الأخذ به كُلاً لايقبل التجزئة . لأنه ما من حكم فيه إلا وهو مترتب على أحكامه الأخرى . ولا تجد عقوبة إلا وقد سدت الذريعة إليها وأسقط عذر الجانى فى جنايتها .

وأول ذلك أن التعليم وهو واجب على كل مسلم ومسلمة ، وحق لهما لايجوز أن يحرما منه . وعلى ولى الأمر أن يهيىء لهما أسباب تعلم الإسلام وأحكامه وبلوغ دعوته إلى الناس . وهذا فرض عين على كل أحد . ويجب أن تكون مهمة التعليم الأولى هى تعلم إقامة الوازع النفسى فى الناس حتى يكون إقبالهم على طاعة الله والتخلق بالأخلاق الفاضلة مبنياً على هذا الوازع . فإذا غاب الوازع عن بعض الناس جاء دور العقوبة .

وقد ذكر الله تعالى العقوبات فى آيات معدودات ولم يذكرها إلا مرة واحدة ، ولكن القرآن ملىء بمناجاة النفوس وحضها على الخير والبر والأخلاق الفاضلة ﴿ **مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم** ﴾ .

وعلى ولىّ الأمر كذلك أن يهيىء لهما أسباب العلوم الأخرى التى تحتاج إليها الأمة فى شئون حياتها من زراعة وتجارة وطب وهندسة وطيران وفنون حرب إلى غير ذلك . وهذا فرض على الكفاية يلزم المسلمين جميعاً ولا يسقط عنهم إثم تركه إلا حين يتعلم منهم من يسد حاجة الأمة فى كل فن .

والواجب الثانى على ولىّ الأمر هو أن يسهر على توفير الأرزاق للناس ، فإن شريعة الله تقضى بأن يكون لكل إنسان فى الدولة مسلماً كان أو غير مسلم الحق فى منزل يرد عنه

حر الصيف وبرد الشتاء ، ويمنع عنه الأعداء والمتطفلين ، والغذاء الذى لابد منه لحفظ كيانه وصحته . والكساء الذى لابد منه للشتاء والصيف والعلاج الذى يلزمه إذا مرض.

هذه حقوق لازمة فى عنق الدولة ، وليست صدقات يأتيها الناس أولا يأتونها ــ والسبيل إلى توفيرها لهم العمل . فكل إنسان عليه واجب الحصول على عيشه من طريق العمل الحلال بحسب ماتؤهله له مواهبه ، وتهيئه له ظروف حياته ، ويجبر على العمل إذا هو قعد عنه، فالإسلام لايحب القاعدين ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ .

فإذا كان عمل العامل لايكفيه أو لم يجد عملاً أو كان غير قادر على العمل أصلاً فهو فى كفالة المسلمين عامة ــ فى كفالة الدولة ــ تمده بما يحتاج إليه أو نقص من حاجاته الضرورية .

الزكاة : وسبيل ذلك الزكاة التى يجب على كل مسلم أن يؤديها ، ويجب على الحكومة أن تحصلها . وللفقراء حق معلوم فيها لايجوز بحال من الأحوال أن يحرموا منه ، ولا أن ينتقص شىء منه قبل أن يستوفوا حقوقهم التى ذكرناها . فإذا لم تكف الزكاة فقد أصبح على كل من عنده فضل من المسلمين أن يعود به على إخوانه فى الإنسانية بما يوفر لهم حاجاتهم .

والحاكم مسئول أن يوفر له ذلك . والزكاة تصرف فى المكان الذى جمعت فيه ولا تنقل إلى جهة أخرى إلا إذا استغنى أهل الجهة التى جمعت فيها ــ وهو أحدث ماأخذ به فى معالجة الفقر فى الأزمنة الحديثة . أما تنظيم ذلك كله فهو من الأمور التى تخضع لظروف الزمان والمكان .

وهكذا أيها الإخوان رفع الإسلام الحياة الاجتماعية للناس بالعلم وبلوغ الدعوة وإعطاء الفقير حقه ، ويعالج الأمور من أساسها بطريقة عادلة ميسورة ــ ثم هو يطلق القوى والمواهب لتحصيل العيش كما يريد الإنسان ــ للمسلم أن يجمع من الثروة ماشاء بشرط أن يكون من حلال . وكل واحد من المسلمين له حق فى أن يجمع من الثروة ماشاء بشرط أن يكسب ماله من حلال وينفقه فى الحلال ، فلا يباح لأحد أن يصرف فى غير الأوجه التى أحلها الله تعالى ، فلا خمر ولا ميسر ولا شىء مما تعارف الناس على عدّهِ من المباحات ، فإذا فعل ذلك وأدى حق الله فيه فإن الإسلام يحمى ماله ويقطع اليد التى تمتد إليه .

عقوبة السرقة : إن عقوبة السرقة التى يرتجف منها الناس عقوبة فيها غاية الرحمة بالناس ، لأنه لايصح إنزالها بالسارق إلا إذا استوفى حقوقه التى ذكرناها كلها ووفر له

المجتمع تعليمه ولباسه وطعامه ومسكنه وعلاجه بل وسد عنه دينه ، وهى بعد عقوبة رادعة تمنع البغاة الذين نالوا حقوقهم من الجماعة من أن يفكروا فى السرقة . ومن فعل منهم فعليه الجزاء ﴿ **جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم** ﴾ .

ست مرات ـــ وتاريخ المسلمين الذى كان فيه هذا النوع من الحياة مستقراً لم تنفذ فيه عقوبة القطع إلا نحو ست مرات .

فلما نسى حكام المسلمين أن يهيئوا للناس تلك الحياة الاجتماعية النظيفة الراقية وجدوا أن عقوبة القطع لاتتفق مع أحوال المسلمين فمنعوها ، وهم على حق فى منعها ، ولكنهم كانوا بغاة ظالمين فى حرمانهم الناس من حقوقهم فى التعليم وضروريات الحياة وكانوا بذلك مسئولين عن تعطيل حدود الله .

الربا : إن بعض علماء الإنجليز والألمان نقدوا نظام الفائدة ، وردوا إليه الاضطرابات فى أحوال العالم الاقتصادية واقترحوا إلغاءه بالتدريج ـــ وهم فى ذلك يعودون إلى أصول الأديان من عدم التعامل بالربا . وإن كانوا يبنون آراءهم على فكرة تنمية الأعمال الاقتصادية فى العالم . وما من شك فى أن فى مقدور العقل الإنسانى أن يحل من المعاملات الناجحة فى الاقتصاد مايغنى عن الربا .

حركة الجيش ـــ أيها الإخوان .. إن حركة الجيش قد تمت بنجاح ، ويجب أن تستمر بنجاح ويجب أن يجد الناس فى الإخوان المسلمين قوماً يعملون ولا يتكلمون . ويحقون الحق ويبطلون الباطل ولو كره الناس أجمعون ﴿ **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾ .

هذا مااقتطفناه من كلمة المرشد العام أمام رجال الثورة . ولعل القارىء يلاحظ فيها ماأشرنا إليه من قبل أنها كلمة جمعت بين الحث على الأخذ بكتاب الله وبين الإقناع العقلى الذى لو وجه إلى حاكم غير مسلم لتاقت نفسه أن يسعد شعبه بمزايا هذا النظام العادل الحكيم .

ويذكرنا هذا بقول الحكيم الذى لما عرض عليه الإسلام سأل عن عدة أمور معينة فلما أجيب عليها بما جاء به الإسلام قال « **لو لم يكن هذا ديناً لكان فى أخلاق الرجال حسناً** » .

* * *

الفصل الثانى

علاقة الحكم بالجيش

من الطبيعى حين يقوم جيش بانقلاب أو ثورة أن يقوم بتصدر جهاز الحكم فيه أول الأمر فئة من أفراده ، حتى إذا استقرت الأمور ، وشعر الجيش بتأييد شامل من الشعب كان على هذا الجيش أن يرجع إلى ثكناته ويسلم قياد الأمور إلى الشعب ممثلاً فى أفراد منه يرى فيهم الشعب الكفاءة والأمانة يصعدهم إلى مناصب الحكم بمحض إرادته المتحررة من كل خوف وبالطرق الديمقراطية السليمة .

كان هذا هو مادار فى خلد كل مصرى حين قامت الثورة . وما كان غير هذا يمكن أن يدور فى خلد أحد . لأن الثورات إنما تقوم لترد للشعوب حريتها المسلوبة ، ولترسى دعائم الحكم الصالح النابع من إرادة هذه الشعوب .

ولكن الذى حدث — وكان مفاجأة للإخوان كما جاء فى الفصل الأول — أن الإخوان وجدوا أن جمال عبد الناصر متشبث بأهداب الحكم ، مصر على إبقائه فى حوزته ، وأن فكرة التخلى عن الحكم قد استبعدت تماماً فماذا كان موقف الإخوان حيال هذا التحول المفاجىء ؟.

نظرية المرشد العام :

كان للمرشد العام فى هذا الصدد نظرية مقنعة ملخصها : أن الشعوب إذا ابتليت بحاكم ظالم تبذل جهدها فى مقاومة ظلمه بجميع وسائل المقاومة ، حتى إذا فشلت كل جهودها لم يبق أمامها من ملجأ تلجأ إليه وملاذ أخير تستغيث به إلا الجيش .. فالجيش هو الملجأ الأخير لإنقاذ الشعب .. فإذا كان الجيش هو الحاكم واستبد وظلم فإلى من يلجأ الشعب لإنقاذه ؟ .

كان هذا هو منطق المرشد العام الذى خاطب به أعضاء مجلس الثورة . خاطب به جمال عبد الناصر ثم خاطب به كل عضو على حدة .. ولما كانت هذه قضية منطقية مسلماً بصحتها عقلاً ، فلم يستطع أحد منهم أن يرفضها .. لكن الذى سيطر على أفكار أكثرهم

أنهم لم يتصوروا — ماداموا هم الحاكمين — أن يصدر منهم ظلم أو أن يجد الحيف أو الاستبداد إليهم سبيلاً ، لأنهم ماقاموا بالثورة إلا للقضاء على الظلم والاستبداد ، فكيف يقارفون ماقاموا هم للقضاء عليه ؟.

ولكى لاتقع تصوراتهم هذه على القارىء موقع الاستغراب والدهشة ، ينبغى أن يستحضر القارىء فى خاطره صورة مجموعة من الشباب لم يجاوز أكثرهم العقد الثالث من العمر ، لاخبرة لهم بالحياة ، وليسوا على نصيب يذكر من الدراسة العميقة أو الثقافة المستوعبة ، وفى أحناء صدورهم قلوب نابضة بحب بلادهم .. ومع ذلك لانبرئهم من نفثة شيطان نفخها فى نفوسهم غرور السلطة المفاجئة التى وجدوا مقاليدها قد ألقيت إليهم مطلقة دون قيد أو شرط ودون محاسب ودون معقب .

وبهذا الصدد ننقل للقارىء الكريم ماجاء على لسان أحد هذه المجموعة فى خطبة ألقاها فى هيئة التحرير بكفر الشيخ فى ١٩٥٣/٤/١٨ فيقول حسين الشافعى عن نفسه وعن زملائه « إن الذين بايعوا الله وباعوه أرواحهم يوم ٢٣ يوليو لن يتغيروا حتى يصلوا بالبلاد إلى ماعقدوا العزم عليه . بل إنهم سيعودون إلى أماكنهم بمجرد إتمام رسالتهم ، وعندما يتأكدون من أن الشعب أصبح قادراً بحق على تولى زمام نفسه على أساس من الديمقراطية الحقة » .

هكذا كان اعتقاد حسين الشافعى واعتقاد زملائه أنهم لن يتغيروا .. ولا أدرى هل كان جمال عبد الناصر يعتقد أيضاً هذا الاعتقاد ؟.

أخذت هذه القضية فترة غير قصيرة من الزمن ، كان خلالها مناقشات ومراجعات بين أعضاء المجلس بعضهم وبعض ، وبينهم وبين رئيسهم جمال . واعتبر جمال إثارة هذه القضية عقبة كبرى ، عليه أن يجتازها قبل كل شىء ؛ فمخططه الذى رسمه فى خاطره متوقف على تفاديها .. وقد راح ضحية تفادى هذه العقبة اثنان من أعضاء المجلس كان لابد من إبعادهما حتى يكون المجلس منسجماً مع تصور جمال وأفكاره .

ولا عجب فى إبعاد هذين العضوين ، فقد كانا أكبر الأعضاء سناً ورتبة ؛ وبالتالى كانا أكثرهم خبرة ، وأنضجهم تفكيراً ، وأبعدهم نظراً .. وكانا هما العضوين اللذين اقتنعا بما عرضه المرشد العام من قضية ، ولم يستبعدا على هذا المجلس العسكرى الذى يدير شئون البلاد باعتبارهم بشراً كسائر البشر أن تطغى عليهم موجة الغرور بالسلطة المطلقة فتنسيهم الغرض السامى الذى دفعهم إلى القيام بالثورة ، ويصير همهم الحرص على استبقاء هذه السلطة مهما اقتضى ذلك اللجوء إلى وسائل من الظلم لن يعدموا من يبررها لهم .. وكان هذان العضوان هما القائمقام أحمد شوقى والقائمقام يوسف صديق .

وفاتنى أن أذكر أن المرشد العام حين عرض هذه القضية جعل لهم أحد خيارين : أحدهما أن يتخلوا عن كراسى الحكم لمن يختارهم الشعب ويرجعوا هم إلى صفوف الجيش مشكورين .. أما إذا اختاروا الاستمرار فى كراسى الحكم فعليهم فى هذه الحالة أن يستقيلوا من الجيش ، ويقطعوا صلتهم به ويصيروا مدنيين .. وفى هذه الحالة أيضاً يرجع الجيش إلى وظيفته حارساً لحدود البلاد ، لاحارساً لهم فى مناصب الحكم .

غير أن هذا كله لم يجد معهم نفعا فقد رفضوا الخيارين معاً ، وقرروا أن يظلوا حاكمين وأن يظلوا فى الجيش ، واقتضى ذلك أن يجعلوا من الجيش آلة طيعة لهم فأخلوه من كل ذى رأى أو شخصية ، وجعلوا مناصبه القيادية فى أيديهم . وكان هذا هو الخلاف الجوهرى الأول الذى تخطى جمال عبد الناصر عقبته بقوة شخصيته أمام زملائه بمجلس الثورة وطغيان نفوذه الروحى عليهم .

* * *

الفصل الثالث

المدى الذى يصل إليه الإصلاح الزراعى

مشروع الإصلاح الزراعى من المشاريع التى دار الحديث عنها قبيل الثورة ، وتناولها أعضاء المجلس النيابى فى ذلك الوقت بالمناقشة وإن كانوا لم يتخذوا فيها قراراً — ولما قامت الثورة وجهت جل اهتمامها لوضع هذا المشروع موضع التنفيذ . كما أن هذا المشروع كان من المشاريع التى تمت دراستها فى اللجان المختصة بالمركز العام للإخوان المسلمين .

ولما طلب رأى الإخوان فى المشروع وأبدوا رأيهم فيه ، تبين أن هناك نقطة معينة يختلف الإخوان مع الحكومة حولها ؛ وهى مقدار الحد الأعلى للملكية،فالحكومة تراه مائتى فدان والإخوان يرونه خمسمائة فدان . ورأى الإخوان فى ذلك كان يقوم على الأسس التالية :

١ — تجنب ما تحدثه الطفرة من آثار ؛ فالانتقال من الملكيات الضخمة إلى خمسمائة فدان أخف وقعاً على النفوس من انتقالها إلى مائتين .

٢ — أن وضع ملكيات من خمسمائه فدان فى أيدى أشخاص قادرين على الصرف عليها يعود بالخير على البلاد . أما تفتيت الملكيات ووضعها فى أيدى معدمين فسيحرم البلاد من إنتاج هذه الملكيات ويحرم من آلت إليهم كذلك .

٣ — أن نظام الميراث الإسلامى سوف يتكفل بتفتيت هذه الملكيات ذوات الخمسمائة فدان ولكن بطريقة غير متعجلة وتدريجية وليس فيها مصادمة للنفوس ، وسيرفع عن كاهل الدولة عبء المساعدات المالية التى يجب أن تقدمها للمعدمين حتى يستطيعوازراعة ماآل إليهم .

* * *

ولعل كثيرين من ذوى الخبرة فى الشئون الزراعة والاقتصادية يرون فى نظرية الإخوان هذه مايقنعهم ويقنع كل من يتناول الأمور بالعقل والبصيرة .. ولكن إخواننا هؤلاء من رجال الثورة رفضوا هذا الرأى ولم يروا فيما يسنده من حجج إلا نكوصاً وتخلفاً وميلاً إلى الإقطاعيين ..

ولسائل أن يسأل فيقول : إذا سلمنا بأن أعضاء مجلس الثورة فى ذلك الوقت كانوا حديثى السن ولا خبرة لهم بهذه الشئون ؛ أفلم يكن لديهم مستشارون متخصصون ذوو خبرة ودراية ؟.. ولهذا السائل نقول : كان لديهم الخبراء ، ولكن هؤلاء الخبراء لم يكونوا يجرءون على إبداء رأى يخالف رأى سادتهم لما كان لهؤلاء السادة من سلطات تجعل من يخالف لهم رأياً عرضة لأن يلقى به فى أعماق السجون أو على الأقل فى الشارع . ولهذا كان هؤلاء الخبراء يفهمون أن مهمتهم تقتصر على تلقى آراء هؤلاء السادة وتبنيها وتقنينها وإيجاد مبررات لها .. كما أن هؤلاء السادة كانوا عادة يتخيرون مستشاريهم من هذا الطراز من الناس ذوى الميل الطبيعى لمجاراة الحاكم فى ارائه مهما كانت هذه الآراء .

ولاندرى حتى اليوم لماذا أسند جمال عبد الناصر تنفيذ هذا المشروع إلى عضو منهم كلهم يعرفون عنه أنه أشدهم تطرفاً ، وأخفهم حلماً ، وتصرفاته أقرب إلى النزق والهوس منها إلى العقل والحكمة مع خطورة هذا المشروع وجسامة ماينتظر أن يكون له من آثار .. لقد أسند هذا المشروع إلى جمال سالم .

* * *

أنموذج من آراء الخبراء العظام

على أن البلاد فى ذلك الوقت لم تكن قد خلت من علماء أحرار . رأوا فى هذا المشروع بالصورة التى عرض بها عيوباً خطيرة لاينبغى السكوت عليها ، كما أن الصحافة كانت لاتزال حرة ؛ صفحاتها متاحة لذوى الخبرة فى مختلف الميادين .. فأدلى بعض هؤلاء إلى الصحف ببحوث ضافية تتناول مناقشة هذه العيوب وأساليب علاجها .. ومن هؤلاء العلماء الدكتور عبد العزيز أحمد الذى كان يعد فى ذلك الوقت أعظم الخبراء المختصين ، وكانت له مكانة عالمية .. كتب فى هذا الصدد بحثاً قيماً فى هذا المشروع فى جريدة « أخبار اليوم » فى عددها الصادر فى ٢٣ / ٨/ ١٩٥٢ بعنوان :

الخطوة الأولى ... والخطوة الثانية
يجب أن يقترن تحديد الملكية بالتوسع الزراعى

نقتطف منه الفقرات التالية :

« وأخيراً قد خطت الحكومة خطوتها الكبرى فى سبيل الإصلاح الاقتصادى والاجتماعى بتقريرها مبدأ تحديد الملكية لإزالة الفوارق بين الطبقات .

العدالة الاجتماعية :

يعرف كل إنسان أن العدالة الاجتماعية تتحقق بأمرين : الأول تحديد الملكية الذى ينظم توزيع الثروة الحالية على السكان توزيعاً عادلًا . وهذا من شأنه أن يرفع مستوى المعيشة بين الطبقات الفقيرة على حساب الطبقات الموسرة — والثانى التوسع الزراعى لزيادة الثروة القومية لرفع مستوى المعيشة بين جميع الطبقات على السواء .

الحد الأقصى لتحديد الملكية :

وتحديد الملكية أسرع فى التنفيذ لأنه لا يحتاج إلا إلى إصدار القوانين اللازمة — غير أن اختيار الحد الأقصى للملكية أمر من الصعوبة بمكان ؛ لما قد يترتب عليه فى الأوضاع القائمة ، وما قد يترتب على ذلك من تغيير فى النظام الاقتصادى ، ليس من الميسور التنبؤ به نظراً لتعدد العوامل المختلفة المتداخلة فيه . من ذلك ما قد يحدثه من الأثر فى مجموع الإنتاج الزراعى بالزيادة أو النقصان وهو من المسائل الجدلية . وكذلك ما يتصل به من مسائل الديون والرهونات القائمة ، وغير ذلك مما لاشك أنه لم يغب عن القائمين بوضع ذلك القانون الآن .

غير أنى أريد أن أتناول موضوع تحديد الملكية من ناحية التنفيذ . وأبادر إلى القول بأن الحرص والحذر يقتضيان بالتدرج فى تحديد الملكية على الأقل فى اللائحة التنفيذية إن لم يكن فى صلب التشريع . وذلك بجعل الحد الأقصى مرتفعاً بحيث لا يقل عن ٥٠٠ فدان ؛ حتى تستبين الحكومة أثره الفعلى فى اقتصاديات البلاد بصفة عامة . لاسيما أن تخفيضه فيما بعد ممكن دائماً بخلاف ما إذا بدىء بالحد المنخفض وأصاب البلاد منه ضرر فإن معالجته تصبح متعذرة .

ويتبين من الإحصاءات أنه إذا حددت الملكية بألف فدان فإن مساحة الأرض التى تكون تحت تصرف الحكومة تبلغ (٢٥٠ ألف فدان) . وإذا خفض الحد إلى ٥٠٠ فدان ارتفعت هذه المساحة إلى (٤١٠ ألف فدان) . وإذا خفض الحد إلى ٢٠٠ فدان كانت المساحة التى تئول إلى الحكومة (٧٤٠ ألف فدان) .

والسؤال المهم هو : كيف تتصرف الحكومة فى هذه الأراضى متى أصبح من حقها أن تستولى عليها بمقتضى القانون ؟ وماهى الالتزامات التى تقع عليها من جراء ذلك وكيف يمكن مواجهتها ؟

التزامات الحكومة إزاء التحديد

أولاً ــ سيكون على الحكومة أن تدفع أرباح السندات التى تعطى للملاك الأصليين على اعتبار أن للملكية حرمة مقررة فى جميع الأديان ، ومكفولة فى كل دساتير العالم ومنها الدستور المصرى الذى نص فى المادة التاسعة على أن للملكية حرمة فلا ينزع من أحد ملكه إلا بسبب المنفعة العامة وبشرط تعويضه عنه تعويضاً عادلاً .

ثانياً ــ سيكون على الحكومة أن توزع الأراضى على صغار المزارعين .

ثالثاً ــ سيكون عليها أن تعاونهم بالسلفيات التى تساعدهم على الوقوف على أقدامهم فى ملكياتهم الجديدة .

والأمر الأول والثالث ماليان ويتوقفان على مقدرة الدولة على الاستجابه لتلك المطالب .

أما الأمر الثانى الخاص بتوزيع الأراضى فهو أشدهم تعقيداً ويحتاج إلى مزيد من العناية والدراسة الدقيقة . إذ أن السواد الأعظم من صغار المزارعين لايتعدى تفكيرهم تدبير شئونهم الخاصة فى الدائرة الضيقة التى يعيشون فيها ؛ ولابد من مرور وقت طويل قبل أن يعتادوا على إدارة الملكيات التى سوف تصبح فى حيازتهم نتيجة لتحديد الملكية ــ بل إن كثيراً من المستأجرين الحاليين يعتمدون على الملاك سواء فى جلب البذور أو السماد أو غير ذلك من مطالب الزراعة . وقد يصاب الإنتاج فينقص فيعجز المزارع عن الوفاء بسداد أقساط الأرض والسلفيات . كما أن بعض الأراضى غير كاملة الإصلاح ويتولى الملاك الأصليون إصلاحها الآن .

الصعوبات فى توزيع الأراضى :

على أن الصعوبة الكبرى التى تواجه الحكومة عند التوزيع هى اختيار المزارع الصالح لتمليكه تلك الأراضى بسبب تفشى الرشوة والمحسوبية فى الإدارة الحكومية . ومن تعتمد عليهم الحكومة فى ذلك من العمد والمشايخ وغيرهم مما تعانيه الحكومة الآن فى جباية الضرائب وتوزيع أموال الضمان الاجتماعى وماحصل فيه من اختيار أشخاص لاحق لهم فيه . وتكون النتيجة إيثار الأقارب والأنصار وربما بعض الأشقياء الذين يخشى العمد والمشايخ بأسهم . والواقع أن مسألة إحكام توزيع تلك الأراضى أمر يتعلق بالأخلاق

العامة ، وهى لم تبلغ بعد المستوى اللائق وتدعو إلى المزيد من المراقبة والإشراف الدقيق . وأمامنا لجان التحقيق فى توزيع أراضى مصلحة الأملاك فى ضواحى مصر والإسكندرية ، وقد قضت المصلحة شهوراً طويلة فى اختيار الملاك لتوزيع بضعة آلاف من الأفدنة على صغار الفلاحين فى كفر سعد وغيره . وهذا فى مساحات محدودة ــ فكيف بمئات الألاف من الأفدنة مما لاتستطيع الحكومة تنفيذه الآن إلا بالاستعانة بموظفين جدد ترهق بها ميزانية الدولة فوق إرهاقها .

التدرج فى تحديد الملكية :

نخلص مماتقدم أن الحرص على أموال الدولة ، وتحقيق العدالة فى توزيع الأراضى ، والمحافظة على مستوى الإنتاج الزراعى حتى لايصاب بالنقص ــ كل ذلك يقضى بالتدرج فى تحديد الملكية عند التنفيذ إن لم يكن فى صلب التشريع كما سبق القول ــ فإذا جعل الحد الأعلى ٥٠٠ فدان فى بادىء الأمر فإن الحكومة تحصل على (٤١٠ ألف فدان)، يمكن توزيعها على ١٤٠ ألف أسرة ــ وناهيك بما يتطلبه اختيار هذا العدد من وقت وعناية ، ومايستلزمه فى تحديد الملكيات الصغيرة وتحرير عقودها وجمع أقساطها ، وماتتحمله الدولة من أرباح للملاك الأصليين ، ومن سلفيات للزراع تتجدد فى مواعيد زراعة المحصولات المختلفة ــ حتى إذا ما أسفرت هذه التجربة عن نتائج مرضية أمكننا بعد ذلك أن نخطو الخطوة التالية بتخفيض الحد الأقصى إلى ٢٠٠ فدان تحصل الحكومة منها على (٣٣٠ ألف فدان) أخرى ، وتسير فى توزيعها بنفس الطريقة على ضوء الخبرة والتجارب التى قد تكون اكتسبتها من التوزيع الأول ــ ولعله من الخير أن يتضمن التشريع ذاته هذا التدرج فى تحديد الملكية بحيث يصل فى النهاية إلى ٢٠٠ فدان .

أما إذا رأت الحكومة أن يكون الحد الأقصى للملكية من الآن ٢٠٠ فدان مخافة أن يتصرف الملاك فيما زاد عند هذا الحد لوأنها بدأت ب٥٠٠ فدان فيمكن أن يتضمن التشريع نصاً يحظر على الملاك التصرف فى الأراضى التى تزيد على ٢٠٠ فدان ؛ على أن يكون لهم الحق فى استغلالها إلى أن تحدد الحكومة فى الوقت المناسب التاريخ الذى يتعين عليهم فيه تسليمها إليها بعد أن تكون قد انتهت من التوزيع الأول وأصبحت مستعدة لمباشرة عملية التوزيع الثانى ــ وإذا توفى المالك فى تلك الفترة جاز أن يطبق على ورثته حد المائتى فدان .

تخفيض الإيجارات ورفع أجور العمال :

وفضلا عما تقدم يمكن أيضا إصدار تشريعات بتخفيض الإيجارات أوربطها بالمحصول بحيث يقتسم المستأجر مع المالك الإيراد بطريقة مناسبة . وكذلك يمكن رفع

أجور عمال الزراعة . وهذه كلها وسائل تهدف إلى رفع مستوى الطبقات العاملة بالإضافة إلى تحديد الملكية .

مشروعات التوسع الزراعى :

بعد بيان ما تقدم نتناول بإيجاز الوسائل التى تؤدى إلى التوسع الزراعى — إذا نظرنا إلى خريطة مجسمة للملكة المصرية نرى أن جميع الأراضى المزروعة تقع فى مناطق منخفضة تحيط بها أراض صحراوية مرتفعة . وكانت سياسة الرى تقوم على الرى بالراحة بحيث لاتزرع الأراضى المرتفعة إلانادرا نظراً لما يتطلبه رى الأراضى المرتفعة من تفقات لرفع المياه إليها ، وهى نفقات باهظة بسبب ارتفاع أثمان الوقود اللازم لتوليد القوة المحركة . وقد تبين لى أن رى الصحارى لايمكن أن يتم على مقياس واسع إلا إذاتوافرت القوة الكهربائية بمقادير كبيرة وبأسعار رخيصة .

وهذه الشروط لاتتحقق إلابتوليد الكهرباء من مساقط المياه الكبرى . ولهذا وضعت مشروع كهربة خزان أسوان فى سنة ١٩٣٢ على أساس توليد الكهرباء فى أنحاء المملكة المصرية بحيث يمكن رى الأراضى الصحراوية فى جميع المساحات الممكنة .

ولما قررت الحكومة تنفيذ هذا المشروع عرضته على اللجنة الدولية فى سنة ١٩٤٧ فوافقت على نقل الكهرباء إلى الوجه البحرى على أن يبدأ توزيعها فى مديريتى أسوان وقنا حتى نجع حمادى .

تعميم رى الصحارى :

وقد وضعتُ بعد ذلك مشروعاً بتعميم رى الصحارى فى مصر وسياسة محددة وضمنته رسالة ألقيتها فى المؤتمر الدولى الذى عقد فى مصر فى مارس ١٩٤٩ تحت عنوان « التوسع الزراعى والصناعى المستقبل فى وادى النيل » على اعتبار أن مصر والسودان يكونان وحدة اقتصادية كاملة وذلك على أساس الرى المستديم .

وقد ثبت من التجارب التى أجرتها الجمعية الزراعية أخيراً فى بهتيم أن المقررات الحالية من مياه الرى تزيد على الحاجة ، وأن تقليلها عن المعدل الحالى قد أنتج فعلًا زيادة فى المحصول ؛ فقد ارتفع محصول الذرة من ستة أرادب إلى أحد عشر إردباً بتقليل مياه الرى بمقدار ٣٠٪ عن المعدل الحالى . وحصل مثل هذه الزيادة فى محصول القطن . وقد وصلت إلى مثل هذه النتيجة فى فى التجارب التى أجريتها فى ليبيا عندما انتدبتنى هيئة الأمم المتحدة لوضع مشروعات الرى وتعميم استخدام القوة الكهربائية فيها .

ولهذا فقد يؤدى إعادة النظر فى توزيع المياه إلى زيادة عاجلة فى مساحة الزراعة الصيفية ريثما يتم إقامة مشروعات أعالى النيل وغيرها .

الرى بالآبار الارتوازية :

وقد دلتنى خبرتى فى ليبيا على أنه من المحتمل تعميم الزراعة فى المناطق الممتدة من الإسكندرية إلى مرسى مطروح فالسلوم على الآبار الارتوازية بوساطة التيار الكهربائى الذى يولد من محطة رئيسية تنشأ فى مرسى مطروح فإن جميع بلاد المغرب الأقصى تقوم الزراعة فيها على الآبار الارتوازية ، وبعضها مناطق تجرى تحتها الأنهار فعلًا متجهة إلى البحر الابيض المتوسط . وتتراوح أعماق الآبار فيها من ٢٠ إلى ٤٠٠ متر وبعضها تتدفق منه المياه بقوة وغزارة على طول السنة ،

وأنهى الدكتور عبد العزيز أحمد بحثه بقوله :

هذه بعض وسائل التوسع الزراعى ذكرناها إجمالاً ، ولايتسع المقام للحديث عن التوسع الصناعى وهى تهدف جميعاً إلى زيادة الثروة فى البلاد ورفع مستوى المعيشة فيها متى صحت النية على تحقيقها » .

* * *

هذا أنموذج للبحوث والدراسات التى قدمت بين يدى المسؤلين عن هذا المشروع الخطير . وقد قدمه رجل يدل سياق حديثه على أنه لم يكن خبرة مصرية ولا عالماً مصرياً فحسب ، بل كان خبيراً عالمياً تلجأ إليه هيئة الأمم المتحدة فى مثل هذه الدراسات فى أى مكان فى العالم . ومع ذلك فقد طرح بحثه جانباً .

من واقع الحياة :

وقد يكون واقع الحياة وحده فى هذا الموضوع حكماً بعد أن وضع هذا التشريع موضع التنفيذ ؛ بالأسلوب والصيغة التى وضعتها هذه الحكومة ـــ وقد لايكون للذين يعيشون خارج الريف ولا للذين يزاولون أعمالاً لاتتصل بطبيعتها بمحاصيل البلاد أن يدلوا بآرائهم فى هذا الأمر ـــ ولذا فعلينا أن نسأل الذين عاشوا تطبيق هذا التشريع ولمسوا بأيديهم نتائجه ومارسوا خيره وشره .

وقد يكون كاتب هذه السطور أحد هؤلاء الذين لمسوا بطبيعة عملهم هذه النتائج والآثار ، فباعتبار أن عملى كان الخبرة فى القطن ، وكنت أحد أفراد هيئة تعد أعلى مستويات الخبرة فى الدولة ؛ حيث يمر تحت عينيها كل محصول البلاد ، ثم كان علىّ أن أزور أراضى

الإصلاح الزراعى فى الوجهين البحرى والقبلى لمعاينة إنتاجها القطنى كماً ونوعاً ... أستطيع أن أصدر حكماً نتيجة هذه التجربة .. ولكننى مع ذلك لاأسمح لنفسى — مهما كان اعتدادى بنفسى فى مهنتى — أن يكون حكمى الحكم القاطع فى هذا الشأن .

ولذا فإنى أحيل الباحثين فى هذا الشأن إلى التقارير السنوية ، التى كانت تصدرها هيئة خبراء الاستئناف التى كنت أحد أعضائها عن حالة محصول القطن .. فسيقرأون فى هذه التقارير مدى تدهور هذا المحصول الرئيسى فى رتبه تدهوراً كبَّد البلاد خسائر جسيمة — وقد يكون معلوماً أن قيمة القطن المصرى الاقتصادية ليست فى كميته وإنما فى نوعيته ورتبته فمحصول القطن المصرى كماً لايعدو ٦ ٪ من المحصول العالمى .

أما أسباب التدهور فليس هنا مجال تفصيلها . ولكننى أستطيع أن أضع بين يدى القارىء تجربة معينة قد يفهم منها بعض هذه الأسباب :

عهد إلىّ فى أواخر الخمسينيات القيام ببحث عن أسباب وجود بقع سوداء فى القطن المصرى تظهر آثارها فى النسيج ؛ فاقتضى ذلك أن أمكث شهراً فى منطقة زراعية معينة فى زمام مركز أبوحمص من مناطق الإصلاح الزراعى .

وكان من دأبى إذا باشرت عملًا من الأعمال أن أمتزج بالعاملين فيه على اختلاف مستوياتهم حتى يكون الشعور السائد بينى وبينهم الحب والاطمئنان .

وكان يعمل فى هذه الأرض « باشخولى » رجل ذكى كبير السن ذوخبرة وحنكة ، وكان يعاوننى فى بحثى . وهو بطبيعة الحال موظف فى الإصلاح الزراعى — وقد كنت أتمنى أن تجمعنى الظروف برجل منصف مجرب عاش طول حياته فى الزراعات وباشرها بنفسه قبل الإصلاح الزراعى وبعده لألقى عليه السؤال الذى يتلجلج فى خاطرى عن أثر قانون الإصلاح الزراعى فى الإنتاج الزراعى — على أن يجيبنى إجابة صريحة دون خوف ولاوجل — وقلّ فى تلك الأيام التى نتحدث عنها من كان يجرؤ على المصارحة بحقيقة مايعلمه عن ذلك إن كان فيما يعلم مايمس هذا القانون من قريب أو من بعيد .

انتهزت الفرصة وألقيت هذا السؤال على هذا الرجل الخبير المحنك الذى أحبنى واطمأن إلىّ كل الاطمئنان .

فكانت إجابته الآتى :

« المزارع الثرى الذى أخذ أرضاً من الإصلاح الزراعى استطاع أن يصرف عليها من جيبه فأعطاها حقها من الخدمة والتقاوى والسماد فأنتجت إنتاجاً طيباً — أما المزارع الفقير المعدم الذى أخذ أرضاً من الإصلاح الزراعى والذى يعتمد على ما تمده به هيئة الإصلاح الزراعى من لوازم الزراعة فإنه ازداد فقراً لأن هيئة الإصلاح الزراعى لاتمده

إلابجزء ضئيل من لوازم الزراعة ؛ ولما كانت الأرض فى حاجة إلى استكمال حقها من هذه اللوازم وليس عنده ما يشترى به فإن أرضه لاتكاد تنتج مايكفيه شخصياً لطعامه ولايستطيع أن يسدد شيئا مما عليه لهيئة الإصلاح فتتراكم عليه الديون ــ ولما كانت الكثرة الغالبة من المنتفعين بالإصلاح الزراعى من الصنف الأخير فإن الإنتاج الزراعى فى مجموعه قد تدهور كماً وصنفاً ».

* * *

وقد سُقت هذه الواقعة لألفت النظر إلى أن الإخوان المسلمين حين حددوا الخمسمائة فدان حداً أعلى للملكية الزراعية لم يكونوا رافضين للإصلاح الزراعى ولا أعداء للحكومة ولا معوقين لمشاريعها ؛ وإنما كانو يريدون أن يجنبوا البلاد ماكان لابد أن يحيق بها من خسائر مادية واجتماعية نتيجة الأخذ بمشروع الحكومة دون تعديل .

ولكن رجال الثورة بالرغم من ضآلة إلمامهم بالعلوم الزراعية والاجتماعية وعدم خبرتهم فى هذه الشئون أصروا على أن يؤخذ بمشروعهم دون تعديل كأنما أنزل من لدن حكيم حميد .. وقد كان هذا الإصرار السبب فى إقصاء على ماهر عن رياسة الوزارة لأنه لم يكن يرى أن يؤخذ بهذا المشروع دون تعديل .

ولما كان هذا الإصرار من أمثال هؤلاء الرجال غير المختصين مثاراً للاستغراب ومدعاة للدهشة فقد رأيت استقصاء هذا الأمر بحثاً عن الدوافع القوية التى لابد أنها كانت وراء هذا الإصرار حتى سلبت هؤلاء الرجال القدرة على الاستماع لآراء المختصين أوالتفاهم مع أصحاب الرأى الآخر .. ولا أكتم القارىء إذا قلت له إن بحثى عن هذه الدوافع هو الذى جعلنى أخص هذا المعلم بالذات من معالم الخلاف باهتمام كبير وأن أوسع له من الصفحات .. ذلك أن الدافع الذى عثرت عليه لايلقى بظلال من الريبة والشك على المشروع فحسب بل إن هذه الظلال قد تمتد وتمتد إلى ماهو أبعد من ذلك ..

وقد انتهى بى الاستقصاء إلى أن هذا المشروع مستوحى من جهة أجنبية ولم تكن هذه الجهة الأجنبية إلاوزارة الخارجية الأمريكية .

* * *

المشروع الامريكى للإصلاح الزراعى
بمصـــر

جاء فى « أخبار اليوم » يوم ٦ /٩ /١٩٥٢ تحت العنوان الآتى :

وزارة الخارجية الأمريكية تضع تقريراً عن الملكية الزراعة فى مصر .
إذا وزعت الملكية توزيعاً عادلًا تغير تكوين البرلمان والأحزاب المصرية
رجال الأحزاب ينسون خلافاتهم ويتحدون ضد إصلاح أحوال الفلاح

نيويورك ــ من عبد الحميد الكاتب :

وضعت وزارة الخارجية الأمريكية بحثاً مفصلًا عن مشكلة إصلاح الملكية الزراعة فى مصر تناول سوء توزيع هذه الملكية وأثره فى حياة مصر السياسية .

والتقرير من وضع « مكتب **الأبحاث السرية** بوزارة الخارجية » وقد أحيط بالسرية التامةفطبع منه على الرونيو بضع نسخ لم تصل إلا إلى أيدى المختصين بشئون مصر من المسئولين فى الوزارة ــ وقد استطاع مراسل « أخبار اليوم » أن يحصل على نسخة من التقرير يلخصها فى المقال التالى :

يبدأ تقرير وزارة الخارجية الأمريكية بذكر الحقيقة التى يعرفها العالم كله عن مصر وهى : « برغم أن الزراعة تسيطر على الاقتصاد المصرى إلا أن الغالبية الكبرى من السكان الزراعيين يعيشون فى مستوى من الحياة غير ملائم ؛ وبالتالى ليس لهم نفوذ سياسى فى أمر بلادهم . بينما استأثر عدد قليل نسبياً من كبار الملاك ، بفضل مالهم من ثروة ومن قوة اقتصادية بزمام القوة السياسية التى يستغلونها لحماية مصالحهم الذاتية ..

ويضرب التقرير مثلا على هذه الحقيقه تكوين مجلس النواب الأخير ومقدار ما يملك أعضاؤه من الثروة الزراعية التى ظفروا عن طريقها بمقاعد النيابة عن الشعب الذى يعيش على الزراعة،ومع ذلك لايملك زهاء أربعة عشر مليوناً منه سهماً واحداً من الأرض .

فمن أعضاء هذا المجلس خمسة يملك كل منهم أكثر من ألف فدان ــ وأربعون يملك الواحد. منهم أكثر من خمسمائة فدان ــ وستون تزيد ملكية الواحد منهم على مائة فدان ــ وثلاثة وسبعون يديرون تفاتيش زراعية واسعة .

نعم كان فى هذا المجلس حوالى مائة عضو لايعدون من الملاك الزارعيين ، ولكن منهم

عددا من كبار الصناعيين وكبار الرأسماليين ، كما أن منهم عددا من أصحاب المهن الحرة ذات الأرباح الجزيلة كالمحاماة والطب والصحافة .

وعلى هذا النسق يتألف مجلس الشيوخ ، مع فارق واحد هو أن أعضاءه أوسع أملاكا وأكثر ثراء .

ومعنى هذا أن البرلمان الذى يمثل بلداً غالب سكانه من العاملين بأيديهم فى الزراعة ، لايضم أحدا من هؤلاء الفلاحين ، وإنما تتألف غالبية مجلسيْه ممن يستغلون هؤلاء الفلاحين .

ولو كانت الأراضى الزراعية موزعة على العاملين فيها توزيعاً يقارب أوضاع العدالة الاجتماعية ولو إلى حد ما ، لتغير تكوين البرلمان المصرى وتكوين الأحزاب السياسية المصرية ، بل لتغير الوضع السياسى الداخلى فى مصر تغيرا تاما .. ذلك أن هؤلاء الفلاحين ؛ ملاكاً صغاراً ومستأجرين وأجراء يكونون الغالبية الكبرى من الشعب المصرى ؛ فبعض الإحصاءات تقدرهم بنسبة ٦٩٪ من مجموع السكان ، وبعضها تقدرهم بأكثر من ٧٥٪ من هذا المجموع .. وهم ليسوا بالجزء الأكبر من السكان فحسب ، بل هم أيضاً مصدر أكبر جزء من الدخل الأهلى — فإليهم وحدهم يعود ٤٥ ٪ من الدخل الأهلى فى مصر كلها .

التقدم و الفقر :

ومما يزيد الأمر خطورة أن شؤن الفلاحين لاتنصلح ولا تتحسن بتقدم الحياة فى مصر بوجه عام . بل هى على النقيض من ذلك تزداد على الأيام سوءاً وتأخراً . ونظرية المفكر الاجتماعى هنرى جورج عن « التقدم والفقر » تنطبق انطباقاً حرفياً على مصر ، فكلما تقدمت فيها الحياة العامة ازدادت الغالبية الكبرى من أهلها فقراً وتأخراً .

والأرقام تبرز هذه الحقيقة : ففى خلال السنين الخمسين الأخيرة زاد عدد سكان مصر بنسبة ٩٧ ٪ وثلاثة أرباع هؤلاء الزائدين من الفلاحين . أما الأرض التى يزرعونها فلم تزد إلابنسبة ١٢ ٪ فبينما كان نصيب الفرد من الأرض الزراعية فى سنة ١٨٩٧ أكثر من نصف فدان صار نصيبه فى سنة ١٩٤٧ أقل من سبعة قراريط .. وفضلاً عن ذلك فإن الجزء الأكبر من الأرض التى أصلحت خلال نصف القرن الأخير أضيفت إلى أراضى كبار الملاك الذين استطاعوا بفضل مالديهم من مال أن يشتروا بثمن لايكاد يذكر مساحات واسعة من الأراضى البور ويستصلحوها أو استطاعوا بفضل مالديهم من نفوذ سياسى أن يشتروا بأزهد الأثمان ما أصلحته الحكومة من الأراضى البور ... ومعنى هذا بعبارة مختصرة أن تقدم الحياة فى مصر وزيادة أراضيها المزروعة يزيد الغنى غنى والفقير فقراً .

ومثل هذا يقال أيضاً عما طرأ خلال فترة الحرب وماأعقبها من ارتفاع فى أسعار المحصولات الزراعية ؛ فإن أكثر الغنم من هذه الزيادة عاد على المالك لاعلى المستأجر أو الأجير . فمثلاً فى سنة ٣٨ / ١٩٣٩ كان متوسط إيجار الفدان ثمانية جنيهات وفى سنة ٤٢ / ١٩٤٣ زاد إلى ١٥ جنيها وفى ٤٤ / ٤٥ زاد إلى ١٩ جنيها وفى ٥٠ /٥١ زاد دفعة واحدة إلى أكثر من ثلاثين جنيهاً — حدثت هذه الزيادة المطردة السريعة الضخمة فى إيجارات الأراضى فاستغرقت أكثر ماطرأ من زيادة على أسعار القطن وغيره من المحصولات الزراعية . وبذلك بقى المستأجر على حاله بينما ازداد دخل أصحاب الأراضى زيادة هائلة .

وفى كثير من الحالات لايحدد المالك إيجار أرضه ، بل يفرض له حداً أدنى على المستأجر أن يدفعه مهما كانت غلة الأرض ومهما كان سعر المحصول . أما إن جاءت الغلة سخية وكان السعر مرتفعاً قاسم المستأجر مازاد على الحد الأدنى .

ولو كانت هناك قوانين تعطى المستأجر نصيباً معتدلاً مما يطرأ على أسعار محصولاته من زيادة وتحميه عندما يصاب المحصول فى كميته أو فى ثمنه لتحسن حال هذه الطبقة الكبيرة بفضل ماطرأ على أسعار المحصولات الزراعية من زيادة خلال الحرب وبعدها . ولكن انعدام هذه القوانين أدى إلى بقاء طبقة المستأجرين — وهم على أى حال أقل سوءاً من طبقة الأجراء — تعيش مثلما كانت تعيش قبل الحرب ؛ فى حين أن خزائن كبار الزراعيين تكدست بالأموال التى يشترون بها أملاكاً جديدة يضيفونها إلى أملاكهم الحالية ، أويستغلونها فى مشروعات صناعية تعود عليهم بدخل جديد .. وهذا وذاك يؤديان إلى تركيز الملكيات الكبيرة فى أيد قليلة ، وكذلك سيطرة الملاك الزراعيين تدريجياً على الحياة الصناعية .

الأحزاب السياسية ونظرتها إلى الفلاح :

ويعرض تقرير الحكومة الأمريكية لموقف الأحزاب السياسية المصرية من مشكلة الفلاح المصرى ؛ وكيف أن هذه الحالة المؤسفة لم تثر اهتمام هذه الأحزاب اهتماماً حقيقاً عملياً بما تعانيه الغالبية الكبرى من الشعب المصرى .

فالفلاح المصرى لايكاد يسمع من رجال هذه الأحزاب كلمة عطف واهتمام إلا فى أيام المعارك الانتخابية ، ولكنه أدرك بالتجربة المتكررة خلال السنين الأخيرة أن ما يبذل له من وعود أثناء الانتخابات لاتغنيه من فقره وبؤسه شيئاً ، وأن صلته بنائب دائرته وبالتالى بالحزب السياسى الذى انتخب مرشحه تنقطع ساعة يغادر مقر لجنة الإنتخاب .

ونظرة سريعة إلى برامج الأحزاب السياسية المهمة فى مصر من حيث إصلاح الريف وتحسين حال الفلاح ترينا أنها عبارات غامضة جوفاء لايمكن أن تكون برنامجاً أو أساساً لعمل أو حتى مجرد دليل على أن حال الفلاحين المصريين شغل من أذهان واضعى هذه البرامج

والمشرفين عليها جانباً حقيقياً من الاهتمام .

فحزب الوفد مثلاً يقول برفع مستوى الحياة ..! وحزب الأحرار الدستوريين يقول بتخليص الشعب من شبح الفقر والجهل والمرض ..! وحزب الكتلة يقول بالضمانات اللازمة للتحرر من العوز ..!

وهكذا وهكذا .. ولا توجد أحزاب سياسية فى بلد يسير على نظام برلمانى صحيح بلغت برامجها فى الشؤن الداخلية من الغموض والسطحيَّة مبلغ برامج هذه الأحزاب المصرية .

ولكن للمسألة جانبا آخر هو أن هذه الأحزاب لم تجعل برامجها غامضة وسطحية هكذا من باب الجهل بما يجب عمله للفلاح والريف ، وإنما لأن من مصلحة القائمين على أمرها والموجهين لسياستها أن يبقى الفلاح على ماهو عليه فقراً ومرضاً وجهلاً .. ومظهر ذلك أن هذه الأحزاب تحتدم بينها الخصومة والعداوة ماتحتدم ، وينال بعضها من بعض بالتهم والسباب ماينال ؛ حتى إذا عرضت لأمر خاص بتحسين حال الفلاح تحسيناً جوهرياً ملموساً ؛ تنسيت مابينها من خلاف ووقفت جميعاً صفاً واحداً فى البرلمان ..

كان هذا هو شأنها عندما عرض على مجلس الشيوخ منذ سنين مشروع بأن لايسمح لمن يملك مائة فدان فأكثر أن يستزيد من الأرض الزراعية (مشروع محمد خطاب) وكذلك المشروعات التى كان يتقدم بها أحمد حسين عندما كان وزيراً للشئون الاجتماعية أو موظفاً بوزارتها لإدخال بعض الإصلاحات فى الريف المصرى عن طريق المراكز الاجتماعية الريفية ؛ فإنها كانت تقابل بكثير من المعارضة ؛ يشترك فيها متضامنين متآزرين كبار الملاك من أعضاء هذه الأحزاب السياسية المتخاصمة التنافرة .

التصنيع وحده لايحل المشكلة :

ويعرض تقرير الحكومة الأمريكية إلى ماتدور به أقلام الكتاب ، وما يقال أحياناً على منصة البرلمان ، من مقترحات لتحسين حال الفلاح المصرى . وأهمها أمران :

زيادة الأراضى الصالحة للزراعة ، والشروع فى تصنيع البلاد .

ويرى التقرير أن كلا من الأمرين لايحل المشكلة .. فأما الأراضى الصالحة للزراعة فإن أقصى ما يمكن زيادته منها — وفق أكثر الدراسات تفاؤلاً — هو مليون وثلث مليون فدان . تشمل الأراضى البور فى شمال الدلتا وعلى جانبيها ، كما تشمل تحويل مناطق الصعيد الأقصى من رى حياض إلى رى دائم .

فإذا تم هذا على مايقتضيه من أموال ضخمة تنفق فى شق الترع وحفر المصارف

وإنشاء شبكات كهربائية وتنفيذ مشروع منخفض القطارة ، وتعلية خزان اسوان وإنشاء خزانات أخرى على النيل ، إذا تم هذا صارت الأرض الزراعية فى مصر أكثر قليلاً من سبعة ملايين فدان فى حين أن عدد سكانها الذين يتزايدون بنسبة ٥ , ١ ٪ سنوياً سيبلغ فى سنة ١٩٦٠ اثنين وعشرين مليون من البشر .

وبذلك سيظل مستوى الحياة على ماهو عليه الآن برغم هذه الزيادة فى مساحة الأرض — حقيقة إن إصلاح هذه الأرضى البور ، وزيادة الأراضى الصالحة للزراعة قدر الإمكان أمر محتوم حتى لاتهبط حياة الفلاح عما هى علية الآن من مستوى منخفض إلا أن هذا ليس هو الحل لتحسين حال الفلاح ورفع مستوى حياته .

وكذلك التصنيع.. فمع أن هذا أمر ميسور من حيث اليد العاملة ومن حيث القوة المحركة ؛ لأن العامل المصرى أثبت خلال عمله بمصانع قوات الحلفاء أثناء الحرب أنه يستطيع أن يصبح عاملاً صناعياً ماهراً ، ولأن من الممكن توليد قوة كهربائية ضخمة من خزان أسوان وغيره من مساقط المياه ؛ فضلاً عما فى مصر من منابع للبترول — إلا أن هذا التصنيع لن يؤدى مع الوضع الاقتصادى الراهن فى مصر إلا إلى خلق مشكلة جديدة.. ذلك أن أى بلد ناشىء فى الصناعة لايستطيع أن يعتمد فى تصريف منتجاته الصناعيه على الأسواق العالمية التى احتكرتها البلاد المتقدمة فى الصناعة ، إنما يعتمد على السوق المحلية وحدها . فإذا ظل مستوى الغالبية الساحقة من الشعب المصرى منخفضاً ، وظل دخلها ضئيلاً فإن الاستهلاك المحلى سيكون من القلة ، والسوق المحلية ستكون من الكساد بحيث لاتستطيع هذه الصناعات التى تنشأ فى مصر أن تعيش وتزدهر . وبالتالى تخلق مصر لنفسها مشكلة جديدة حين يصبح إنتاجها الصناعى بلاسوق تستهلكة لافى الداخل ولا فى الخارج .

لابد من تحديد الملكية الزراعية .

« إن أى إصلاح ريفى فى مصر يراد أن يكون له أثر حقيقى لايمكن أن يتجنب موضوع إعادة توزيع الأراضى الزراعية توزيعاً عادلاً ».

هذه هى النتيجة التى ينتهى إليها تقرير الحكومة الأمريكية . كما يرى أن زيادة الأراضى الصالحة للزراعة ، وإنشاء المشروعات الصناعية والتوسع فيها ، يجب أن يسبقه توزيع الملكية الزراعية من جديد توزيعاً يقترب من أوضاع العدالة الاجتماعية .

وليس توزيع الملكية الزراعية على أكبر عدد من العاملين فى الزراعة بشىء جديد يراد تجربته فى مصر ، فقد سبقتها فى ذلك عشرات من الدول فى أوربا وآسيا وأمريكا الجنوبية ، وكانت هذه هى الطريق الوحيدة لتخرج بها هذه الدول الزراعية من ظلمة العصور الوسطى التى يفرضها النظام الإقطاعى إلى نور العصر الحديث الذى يتميز عن .

سواه من العصور بمبادىء العدل الاجتماعى والتقارب بين طبقات المجتمع .. وقد لجأت بعض هذه الدول إلى تحديد الملكية الزراعية فيها تحديداً تقشعر له أبدان كبار الملاك فى مصر لو سمعوا به ..

ويتناول تقرير الحكومة الأمريكية مايوجه من اعتراضات إلى مبدأ توزيع الملكيات الكبيرة على صغار المزارعين فى مصر، وأهمها الاعتراض بأن تفتيت الملكيات الكبيرة سيحول دون استخدام الوسائل الفنية الحديثة التى يمكن أن تستغل فى الملكيات الكبيرة وحدها . ويرد على هذا الاعتراض بأن واقع الأمر فى مصر أن أكثر الملكيات الكبيرة لاتزرع بالوسائل الحديثة .. وإنما وفق الوسائل القديمة التى ألفها الفلاحون .. ذلك أن العزب والتفاتيش الكبيرة إنما تؤجر قطعا صغيرة للفلاحين يزرعونها بوسائلهم العتيقة ، ثم يأخذ المالك أقصى مايستطيع من المحصول أو الإيجار . وقليل جداً من هذه المزارع الكبيرة مايزرع بوسائل حديثة بالمعنى الصحيح ، وهى وسائل يمكن الأخذ بها فى المزارع الصغيرة إذا أنشىء لها نظام تعاونى دقيق ..

وفضلاً عن ذلك فإن من المشكوك فيه أن الوسائل الفنية الحديثة أجدى فى زراعة الأرض المصرية من الوسائل القديمة . والدليل على ذلك أن محصول الفدان المصرى من القطن ومن الذرة هو أعلى محصول منهما فى العالم كله ، بما فيه البلاد التى تزرع بأحدث الوسائل العلمية مثل أمريكا . ويرى بعض الخبراء الزراعيين أن التربة المصرية ذاتها وقرب المياه من سطح الأرض وقلة الأمطار أو انعدامها تجعل الأدوات القديمة كالمحراث أصلح من الأدوات الحديثة التى تتعمق فى الأرض وتقلب تربتها بطناً لظهر فتعرضها للجفاف الشديد.

وسواء كان من الصالح اتباع الطرق الحديثة أو الإبقاء على الطرق القديمة ، فإن تكوين أكبر عدد ممكن من الملكيات الصغيرة التى يعود دخلها على من يزرعونها بأنفسهم لن يخلق مشكلة فى مصر .. وإنما المشكلة الحقيقية هى هذه الطبقة من كبار الملاك الذين يسيطرون على البرلمان المصرى وعلى الأحزاب المصرية — وبذلك يفرضون على مصر من الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية مايتفق ومصالحهم الخاصة ، ويتنافى مع مبادىء العدالة الاجتماعية وأوضاع الاقتصاد الزراعى السليم .

* * *

ملاحظات حول هذا المشروع الأمريكى.
أو حول هذا التقرير الأمريكى.

بعد أن نقلنا إلى القارىء تقرير وزارة الخارجية الأمريكية عن الملكية الزراعية فى مصر ، ينبغى أن يكون لنا بعض الملاحظات :

١ ـ كان المفروض فى مشروع زراعى وفى بحث زراعى أن يكون وضعه من اختصاص وزارة الزراعة الأمريكية إن كان للحكومة الأمريكية حق التصدى له ـ ولكن التقرير كان من وضع وزارة الخارجية ومن وضع مكتب الأبحاث السرية فيها ..

٢ ـ أن هذا التقرير باعتباره بحثاً سرياً سمح بنشره فى هذا التاريخ ، يوحى ذلك بأن سريته لم يعد لها داع فقد أدت سريته دورها بتبنى حكومة مصر له بحذافيره . وكأن الذين قاموا بتبنيه كانوا على علم سابق به وبالجهة التى وضعته .

٣ ـ ماهى الدواعى والدوافع وراء اهتمام دولة عظمى مثل امريكا حتى إنها أتعبت باحثيها السريين لو ضع هذا التقرير عن مصر .. ولابد أنها عملت على إيجاد من يتبناه وإلا لما أجهدت نفسها وأتعبت باحثيها فى وضعه ، وإلا لكان أليق به أن يكون بحثاً أكاديمياً من وضع وزارة الزراعة الأمريكية أو أحدى الجامعات الأمريكية . أما وزارة الخارجية فإنها لاتضع التقارير والبحوث إشباعاً للناحية الأكاديمية ولا بدافع من الشغف العلمى ؟؟

٤ ـ المقصود من بحث وزارة الخارجية الأمريكية هذا هو أن يؤدى إلى تغيير الوضع السياسى الداخلى فى مصر تغييراً تاماً ـ كما جاء ذلك صراحة فى صلب التقرير ـ فهل كان هذا التغيير يهم حكومة الولايات المتحدة إلى هذا الحد ؟ وهل هى من الغيرة على مصر وعلى فلاحيها بهذه الدرجة من الغيرة حتى إنك لتلمح فى التقرير وعباراتة ملامح التلهف والإلحاح ؟

٥ ـ لما استعرض التقرير برنامج الأحزاب السياسية فى مصر فيما يتعلق بإصلاح الريف وتحسين حال الفلاح ذكر أحزاباً مصرية لايكاد يكون لها نصيب يذكر

من القاعدة الشعبية ـ وأغفل عن عمد القوة السياسية الكبرى وهى « الإخوان المسلمون » مع أن مركز الأبحاث السرية بوزارة الخارجية الأمريكية يعلم تمام العلم بأن لهذه القوة السياسية برنامجاً محدداً وجهوداً عملية فيما يتصل بالإصلاح الريفى وغير الريفى وتحسين أحوال الفلاحين وغير الفلاحين ، وأن هذه الهيئة تضم أكبرعدد من الفلاحين والعمال .

٦ ــ فى تلك الحقبة الدقيقة من الزمن كانت وزارة الخارجية الأمريكية ومركز أبحاثها يعلمان ، كما كان كل المراقبين السياسيين فى أنحاء العالم يعلمون أن الجو فى مصر صار مهيأ تماماً لتغيير جذرى فى الحكم ، وأن النظام القائم بها قد استنفد أغراضه واستوفى أيامه ، وأن الجميع ينتظرون الحكم الإسلامى الخالص .

فهل رأت وزارة الخارجية الأمريكية أنها أصبحت أمام الواقع من أن التغيير واقع فى مصر لامحالة ؛ فلتتدارك الأمر ، وليكن هذا التغيير لحساب أى شيء ، ولولحساب الشيطان ، قبل أن يكون لحساب الحكم الإسلامى الذى هو العائق الأكبر لأطماعها.. فكان هذا البحث أحد مقدمات لابد منها لإنجاح تكتيكاتها .

وإلا فلننظر إلى شعوب الكاريبى وشعوب أمريكا الجنوبية وأمريكا الوسطى وكلها شعوب تعيش فى ظل سياسة الولايات المتحدة منذ أكثر من خمسين عاماً وتسيطر على اقتصادها الشركات الأمريكية . ومع ذلك فهذه الشعوب تعانى أسوأ مستوى معيشة فى العالم .. أفلم تكن هذه الشعوب أولى بهذا العطف الأمريكى ؟

٧ ــ إن التركيز على الناحية السياسية فى هذا التقرير مع التوصية باستبعاد كل وسيلة أخرى للإصلاح يوحى بأن وزارة الخارجية الأمريكية وضعت خطة جديدة للتعامل مع شعوب الشرق الأوسط والعالم الإسلامى ؛ فبدلًا من التحدث مع حكومات تستمد سلطتها من قواعد شعبية ذات نفوذ لا تستطيع إبرام أمر دون موافقة هذه القواعد ، فإنها إذا فتتت هذه القواعد وحطمتها تستطيع أن تمهد أسباب الحكم لرجل واحد توجهه فيتوجه دون أن يكون فى البلاد من يحاسبه أو يراجعه .

* * *

الفصل الرابع

الحكم الدستورى

مطالبة الحاكم بالحكم الدستورى معناه أن يتنازل هذا الحاكم عن سلطات حكم الفرد إلى حكم يقوم على الشورى ينبع من الشعب بحيث لايبت فيه بأمر إلا بموافقة ممثلين للشعب يختارهم بنفسه .

وتوضيحاً لهذا نقول : إذا فرضنا أن جمال عبد الناصر وافق الإخوان وأصدر أمراً بالحكم بالشريعة الإسلامية،فهل كان الإخوان يكتفون بذلك دون مطالبته بالحكم الدستورى؟ والإجابة على ذلك هى أن الإخوان كانوا سيطالبونه أيضاً بالحكم الدستورى ؛ لأن فى الاكتفاء بذلك دون هذه المطالبة خطورة .. فالذى أصدر أمراً بشىء ، قادر — إذا هو تغير مزاجه أو وجد فى ذلك ما يتعارض مع مصالحه — أن يصدر أمراً بإلغاء هذا الشىء أو بتعديله أو بالانتقاص منه أو الزيادة عليه .

أما مطالبة الإخوان بالحكم الدستورى فمعناها تقليم أظفار الحاكم ، والحد من سلطته ، ونقل هذه السلطة إلى الشعب ، ونقل الحاكم من دائرة شعوره بأنه القيّم على الشعب ، القاهر فوقه ، المتصرف فى شئونه كما يشاء — إلى دائرة شعوره بأنه خادم للشعب وأجير عنده ، مرهون وجوده فى الحكم برضا هذا الشعب عنه .

نعم إن الحكم بالشريعة الإسلامية يتضمن فيما يتضمن معنى هذا التعبير الاصطلاحى « الحكم الدستورى » وإن كان يعبر عنه بالشورى ، غير أن الناس فى عصرنا هذا حين يرون الحاكم قد أقام الحدود اعتقدوا أنه قد حكم بالشريعة الإسلامية متناسين أن إقامة الحدود ليست إلاجزءاً يسيرا من الشريعة الإسلامية . ويلجأ بعض حكام البلاد الإسلامية إلى استغلال هذا الفهم الناقص فى شعوبهم ويقيمون الحدود ويقفون من الحكم الإسلامى عند هذا الحد ، وينطلقون فيما سوى ذلك فى الحكم بأهوائهم .. وهذا هو الذى دعا الإخوان المسلمين إلى المطالبة بالحكم الدستورى باعتباره المقدمة التى لابد منها والضمان الذى لاغنى عنه فى إرساء سياج متين حول الحاكم يحول بينه وبين الانحدار مع أهوائه ، فإذا ضَمِنّا إحاطة هذا السياج بالحاكم رجونا من وراء هذا الحاكم كل خير .

وقلما يستجيب الحكام لهذا المطلب لما فيه من قيود عليهم . وإن كان هو فى حقيقة

الأمر فى صالحهم لأنه يعينهم على أنفسهم . ولكن شهوة السلطة ، وحب السيطرة ، وجموح الآمال تتغلب فى أكثر الأحوال وتستبد بالحاكم حتى لايكاد يتألق بين عينيه غيرها .. وهذا هو ما كان من أمر جمال عبد الناصر .. ولكن جمالا كأى حاكم لايحب أن يعرف عنه ذلك ، فيحاول عادة أن يتستر وراء شعارات يطلقها ويحيط شخصيته بهالاتها ، ووعود يعلل بها المطالبين ريثما تتاح له فرص لتأجيلها أو للتخلص منها .. وإلى القراء مثالاً من هذه الأساليب :

فى أول اجتماع لمجلس الثورة بعد ٢٣ يوليو سنة ٥٢ عرض جمال عبد الناصر على المجلس اقتراحاً للاتفاق على نظام الحكم وهل يكون حكماً استبدادياً بالمفهوم الدستورى أم يكون حكماً نيابيا ؟

وعند أخذ الأصوات وقف جميع الأعضاء إلى جانب النظام الاستبدادى — ووقف جمال عبد الناصر وحده إلى جانب الرأى الآخر .

وبإعادة أخذ الأصوات مرة أخرى تكرر الوضع !! وعندئذ غادر جمال المجلس معلناً استقالته من جميع مناصبه ، وذهب إلى منزله — فذهب الجميع إليه فى منزله معلنين نزولهم عند رأيه .

وردت هذه الواقعة فى كتاب « البحث عن الذات » للسادات ، وقد علق عليها بأنها لم تكن إلا مناورة من جانب جمال — كما أوردها « البغدادى » فى مذكراته وعلق عليها بنفس التعليق .

لما ذهب زملاؤه إليه فى منزله لاسترضائه ونزلوا عند رأيه — ماالذى تم عليه الاتفاق ؟ هل تمسك بالحكم النيابى مباشرة كما كان منتظراً من رجل فضل الاستقالة على الحكم الاستبدادى ؟

لقد تم الاتفاق على إجراء انتخابات نيابية بعد ستة أشهر وتعليق ذلك على شرط أن تقوم الأحزاب بتطهير نفسها .

وهل تم إجراء الانتخابات بعد ستة أشهر ؟

لم يتم شيء من ذلك .. ولكن أعلن عن تكوين لجنة من ثلاثين عضواً لوضع مشروع دستور جديد .. ثم أعلن بعد ذلك عن اقتراح بتكوين لجنة من مائة عضو يؤخذون من النقابات والهيئات لوضع الدستور وإقراره .

وقد كان الشعب يتلقى هذه الاقتراحات والوعود على أنها وعود صادقه . ويأخذها مأخذ الجد ويعلق عليها فى الصحف ، ونقتطف تعليقاً للأستاذ محمد زكى عبد القادر فى

« أخبار اليوم » فى ٢٩ / ١١ / ١٩٥٢ تحت عنوان « لامائة ولا ألف » يقول فيه :

« أجل .. لالجنة من مائة أو من ألف . بل لابد من جمعية وطنية تنتخب انتخاباً حراً ، إذا أريد وضع دستور جديد . وقد وضعت الدستور الحالى لجنة من ثلاثين عضواً وصدر على أنه منحه من الملك للشعب .. والمانح يستطيع أن يسترد إذا أراد .

وما معنى اقتراح لجنة من مائة يؤخذون من النقابات والهيئات ؟ وفضلا عن ذلك فليست النقابات فى مصر هيئات رأى، ولكنها جماعات للدفاع عن المصالح المادية لطوائفها ، ثم إن ثلاثة أرباع الشعب ليست له نقابات تمثله ».

وهكذا ظل جمال عبد الناصر فى إذاعة اقتراحات بلجان تجتمع وتنفض ، وإنجازاتها من مشاريع لدستور مجرد حبر على ورق ، وفى إطلاق وعود ومواعيد حتى استطاع أن يمد فترة الانتقال التى كان حددها بستة أشهر إلى ثلاث سنوات تبدأ من يناير ١٩٥٣ .

حساسية جمال لهذا المطلب :

فى الوقت الذى كان الشعب فيه فى أشد الشوق إلى حكم دستورى ثمرة لهذه الثورة ، كان جمال عبد الناصر حريصاً كل الحرص على شغل الشعب عن إثارة هذا المطلب بكل وسيلة ممكنة . وقد استطاع خلق ظروف شغلت الشعب فعلاً فترات من الزمن بما أسماه تطهير الأحزاب ثم باعتقال زعماء هذه الأحزاب ثم تقديم هؤلاء الزعماء إلى محاكمات طال أمدها .. ولكن جهات ثلاثاً عجز جمال عن شغلها بشيءعن مطالبته بالحكم الدستورى ، وهذه الجهات الثلاث هم بعض زملائه من أعضاء مجلس الثورة الذين رفضوا مجاراته فى أسلوبه هذا الذى يعتبر نكثا لعهود الثورة — والإخوان المسلمون الذين أصروا على هذا المطلب وجعلوه أساس كل تعاون بينهم وبين مجلس الثورة — والصحافة الحرة لتى تمثلها جريدة« المصرى » .

ويعرض الأستاذ أحمد أبو الفتح فى كتابه « جمال عبد الناصر » مثالاً يدل على مدى حساسية جمال عندما يثار هذا المطلب فيقول « اتصل بى البكباشى يوسف صديق — وكان لايزال عضواً بمجلس الثورة — ذات يوم وطلب منى الحضور إلى نادى ضباط الجيش بعد الظهر للتشاور فى أمر هام — ذهبت إلى النادى فوجدت بعض الصحفيين ويوسف صديق واليوزباشى حمروش وبعض المدنيين ، واجتمعنا جميعاً حول مائدة فى إحدى غرف النادى — وتحدث البكباشى صديق فقال : إننا فكرنا فى إنشاء مجلة اسمها « التحرير » .

ودهشت لهذا الذى بقوله صديق ، ولم أتمالك أن قلت « مجلة .. مجلة يملكها الجيش .. هل ستستقيل من الجيش وتنشر المجلة ؟».

فقال : صبراً .. صبراً .. لن أستقيل من الجيش .

ودارت المناقشة وقتاً غير قصير وانتقلنا من الحجرة إلى حديقة النادى فانتحى بى صديق جانباً وقال : إنه لابد من صدور هذه المجلة .. إنك لاتفهم ماأقصد من إصدارها .. إننا نريد أن نربط الجيش بالأهداف التى أعلناها صباح قيام الحركة فى البيان الذى أذاعه محمد نجيب ليلة ٢٣ يوليو — لاتنس أننا بشر .. وأن الجيش الآن هو الذى يحكم مصر .. وأن استمرار الحال على هذا المنوال ستكون نتيجته أن الأمور ستنتهى بأن لايعود الجيش إلى ثكناته .. وبأن لايقوم فى مصر برلمان .. لابد من صدور هذه المجلة لنربط الجيش بأهدافه .. وليس ذلك فحسب ، بل إنى كلفت أحد الرسامين بعمل رسم يرمز إلى أن الجيش قام بالحركة لحماية الديمقرطية .. وها هو ذا الرسم ..

وأطلعنى على اللوحة فإذا بها مبنى البرلمان وقد رفرف على قبته العلم المصرى ، ووقف إلى جوار المبنى جندى جيش شاهراً سلاحه . وقد كتب تحت الرسم (نحن نحمى الدستور) .

كان هذا فى الأسابيع الأولى بعد بدء الحركة (الثورة) . ورغم عدم اقتناعى بعمل من شأنه أن يصدر الجيش مجلة توزع فى الأسواق ، وتباع كعمل صحفى تجارى ؛ إلا أنى أمام الحجج التى ذكرها لم يسعنى إلا السكوت فلم أبد موافقة أو معارضة للأمر .

ونفذ البكباشى صديق خطته .. وذات صباح كانت كل شوارع القاهرة بل والمدن الكبرى بالقطر المصرى قد لصق عليها لوحات (نحن نحمى الدستور) .

ورأيت أن أنشر صورة اللوحة بالصفحة الأولى من جريدة « المصرى » ولكن فوجئت بأن التعليمات التى كانت تبلغ للصحف من مركز قيادة الحركة (الثورة) قد نصت على منع نشر صورة لوحة (نحن نحمى الدستور) .

وبعد يومين زارنى عبد الناصر وعامر فى مكتبى — وكثيراً ماكانا يفعلان ذلك لعدة شهور بعد قيام الحركة — فناقشت عبد الناصر فى سبب عدم السماح بنشر لوحة (نحن نحمى الدستور) فوجدته برماً بها وقال : ألا يكفى أنها أصبحت معلقة على جميع شوارع مدن مصر ؟ فقلت : فإذا كانت قد ألصقت على جدران جميع شوارع مصر فما السبب فى عدم السماح بنشرها ؟.. واستمر الجدل بيننا بعض الوقت .. وفى النهاية سمح عن غير رضا بنشرها ..

وصدرت مجلة « التحرير » ورئيس تحريرها اليوزباشى حمروش فإذا بها دعوة صريحة للدستور ولأهداف الثورة .. وبعد العدد الثالث سحبت المجلة من إشراف البكباشى صديق ونحى عن تحريرها اليوزباشى حمروش

وبدأ يوسف صديق الذى كان عضواً بمجلس القيادة (الثورة) يضيق ذرعاً بانحراف

الحركة (الثورة) عن الارتباطات التى ارتبطت بها أمام الشعب يوم ٢٣ يوليو . وبدأ يثير مناقشات ومحاولات داخل مجلس القيادة ، وينتقد تدخل العسكريين فى كل صغيرة وكبيرة من شؤن البلاد ..

أصبح يوسف صديق شوكة فى حلق جمال عبد الناصر يثير له المتاعب كل يوم . فما كان من جمال عبد الناصر إلا أن وضعه تحت المراقبة الشديدة..وعرفت هذا عندما استدعانى جمال وأخذ يشكو إلىّ أمر يوسف صديق ــ ولم يثر فى شكواه أى شىء بخصوص دفاع صديق عن الدستور ووجوب عدم تدخل الجيش فى شؤن الحكم ــ بل جعلها شكوى شخصية ، وطلب منى أن أقنع صديق بأن يبعد عن هذه المتاعب التى يثيرها كل يوم وما إن عدت إلى مكتبى حتى وجدت أحد أقارب صديق ينتظرنى فطلبت منه أن يتوجه إلى منزل صديق ويخبره بما دار بينى وبين عبد الناصر من حديث .

واستأجر الرجل سيارة أجرة من تلك التى تقف إلى جوار مبنى « المصرى » وذهب ــ وفى اليوم التالى جاءنى سائق سيارة أجرة من نفس الموقف وقال لى : إن رجلاً خرج فى العاشرة والنصف مساء أمس من دار « المصرى » واستقل سيارة أجرة . وبعد أن عاد السائق إلى الموقف جاءت قوة من رجال الجيش واعتقلته وحتى الآن لم يعد .: ورجانى أن أحاول الإفراج عنه لأن زوجته تبكى هى وأولادها .

واتصلت تليفونيا بعبد الناصر ، وأخبرته بالقصة فضحك وقال : إذن أنت الذى أرسلت من استأجر السيارة ؟ إننا نحقق مع السائق طوال الليل لنعرف شخصية من ركب معه .. وزاد صوت ضحكه ارتفاعاً ثم قال : سنفرج عنه . سنفرج عنه .

وبعد بضعة أيام من سعى البكباشى صديق إلى جميع زعماء مصر على اختلاف مذاهبهم السياسية ليتوجهوا إلى مركز القيادة ويقدموا مذكرة مشتركة يطالبون فيها اللواء محمد نجيب بإعادة الحياة النيابية ؛ وبينما هو يواصل جهوده لإقناع الزعماء بذلك ؛ قام جمال عبد الناصر باعتقاله وتحديد إقامته بالمنزل . وبعد أيام أرسله إلى سويسرا بحجة العلاج من مرض يشكو منه ، وفصله من مجلس القيادة (الثورة) » .

هذا مانقلته من كتاب « جمال عبد الناصر » للأستاذ أحمد أبو الفتح ليلمس فى ثناياه القراء مدى حساسية جمال عبد الناصر إزاء من يتجرأ على إثارة هذا المطلب مهما كانت شخصية هذا المثير .

وقد أسوق مثالًا آخر عن هذه الحساسية ، ففى خلال شهر إبريل عام ١٩٥٣ كان الأستاذ أحمد أبو الفتح يكتب مقالات فى « المصرى » تحت عنون « مصرع النفاق » يطالب فيها بنفس المطلب ــ وجمال عبد الناصر تمشياً مع خطته فى التستر فى مثل هذه

الحالات وراء آخرين دفع للرد عليه أحد وزرائه محمد فؤاد جلال فرد عليه أحمد أبو الفتح بمقال جاء فى ختامه :

« ومن هنا ياحضرة المواطن — (لأن الوزير في رده قال إنه لايرد باعتباره وزيرا وإنما باعتباره مجرد مواطن)— إنه لاسبيل إلى القضاء على النفاق إلا بفتح أبواب الحريات على مصاريعها ، وإلا برفع القيود عن الصحافة حتى تنطلق الأقلام حرة تنقد ماتراه جديراً بالنقد وتوجه حرة إلى خير وجهه . ويكون من ذلك مجال للمناقشات العلنية حول الآراء يشترك فيه الرأى العام بالمطالعة والمساهمة الفعالة والتوجيه — ولن تكون لنا الحريات موفورة ولا مكفولة إلا بقيام النظام البرلمانى حيث تتلاحم الآراء وتتصادم وتتباعد وتتقارب ليخرج منها فى النهاية رأى تقره الأغلبية فتقوم بتنفيذه الأدوات التنفيذية .

ولا ينبغى أن يرتفع الاعتذار بأن الحياة البرلمانية كانت تشوبها الفساد ، وبأن الأعمال الصحفية كانت تخالطها الأخطاء ؛ فليس ذلك عيب النظام البرلمانى ولا مبدأ حرية الصحافة . فلن يكون علاج إلابالتربية السياسية ولن تتيسر هذه التربية إلا فى وجود جو ديمقراطى متحرر من كافة القيود ».

وفى خلال شهر مايو من نفس العام واصل أحمد أبو الفتح كتاباته فى هذا المطلب نفسه فكتب سلسلة مقالات تحت عنوان « الدستور الدستور » فدفع جمال هذه المرة للتصدى له زميله صلاح سالم عضو مجلس الثورة ووزير الإرشاد القومى فكتب مقالات بعنوان « الباكون والمتباكون » فرد عليه أحمد أبو الفتح بمقال عنوانه« نعم — الدستور » جاء فيه :

« وأعتقد ياسيدى أن الحرية هي أغلى شيء يذود عنه الإنسان — ولذلك أرى واجبا علىّ أن ألفت نظرك إلى الأشياء الآتيه :

١— أن مصر الآن — وقد انقضى على الحركة قرابة عشرة أشهر — لاتزال دون دستور .

٢— أن الأحكام العرفية التى فرضت فى عهد فاروق لاتزال مفروضة إلى اليوم .

٣— أن المعتقلات التى كانت مفتوحة منذ ٢٦ يناير لاتزال مفتوحة حتى الآن .

٤— أن الرقابة على الصحف مفروضة عليها .

إنى ألفت نظرك إلى كل هذا لا لأتهمك بأنك تحد حريات الشعب ، ولكن لأقول لك إن هذه الحريات لم تتحقق حتى اليوم ، ولأقول لك أكثر من ذلك إن الحريات هى التى تدفع الإنسان إلى مزيد من الحرية ، وإن تكبيل الحرية لايمكن إلا أن يدفع إلى حركات خفية .

وإنى لأعجب ياسيدى لماذا تغضب حين أطلب للشعب دستوراًوأطلب للشعب توفير

الحقوق ؟ــ ألم تكن هذه أهدافكم ؟ ألم تعلنوا عنها أكثر من مرة ؟ــ فإذا ماقمت أطالب بسرعة التحقيق ثرت واتهمتنى بالتباكى ــ إنى أستحثكم فلا يقوم داعية استعمارى مثل تشرشل ويتهمكم بالفاشية والدكتاتورية والحكم المطلق » .

ومعذرة إلى السادة القراء فى استقائى أكثر مقتبساتى من جريدة « المصرى » فإن هذه الجريدة كانت فى تلك الحقبة من الزمن المتنفس الوحيد للأحرار وذوى الضمائر ، لأن أصحابها ــ آل أبى الفتح ــ كانوا قد نذروها للدفاع عن الحق حتى أيام كانت لسان حزب الوفد فإنها لم تجاره فى كل ما أرادها عليه ؛ كما أننى أختار دائما كتابات أحمد أبو الفتح لأنه كان من أصدق أصدقاء جمال عبد الناصر ومن القلائل الذين كانوا على صلة بالثورة قبل قيامها .

وقد يمت إلى هذا الفصل الذى نحن بصدده بسبب ؛ سؤال وجهه مندوب « المصرى » إلى الأستاذ المرشد العام فى سياق حديث أجراه معه . وكان مجلس الثورة قد قرر إلغاء النظام الملكى وإعلان الجمهوريه فسأله المندوب عن رأى الإخوان فى ذلك فأجاب :

« إن الذى يعنينا أن يكون الحكم صالحاً محققاً الأهداف التى تسعى إليها البلاد والتى أعلنها رجال الثورة منذ قيامها أكثر من مرة ، قاضياً على الفساد الذى استشرى فى كل مرافق الحياة ».

حتى من زملاء عبد الناصر :

استعرضنا فى هذا الفصل حتى الآن أمثلة لمطالبة الرأى العام بهذا المطلب عن طريق جريدة « المصرى » وهى إحدى الجهات الثلاث التى أشرنا إليها والتى لم يكن جمال عبد الناصر قد استطاع بعد إسكاتها .. أما الجهة الثانية وهى الإخوان المسلمون فقد كانت مطالبتهم بهذا المطلب لاتفتر خلال اتصالات مستمرة بينهم وبين عبد الناصر . بقى بعد ذلك الجهة الثالثة وهى زملاء عبد الناصر فى مجلس الثورة ومن حق التاريخ أن نثبت للرجلين العظيمين اللذين صدقا ما عاهدا عليه، وآثرا التضحية بالجاه والسلطة المطلقة وما يحيط بهمامن المتعة والأبهة ورضيا أن يعيشا فى غمار الشعب بل وفى المعتقلات والسجون على أن يجاريا زميلهما جمال عبد الناصر فيما جنح إليه من الدكتاتورية والاستبداد .

ونبدأ باقتطاف فقرات من خطاب مفتوح من القائمقام أحمد شوقى إلى أعضاء مجلس الثورة نشره فى نفس هذه الحقبة الزمنية : جاء فيه :

« لعل زملائى وإخوانى أعضاء مجلس قيادة الثورة يعلمون أننى حر الرأى ، لايمنعنى

عائق من الإدلاء برأى مادمت مؤمناً به .. ولعلهم لاينسون أننى كنت أكبر الضباط رتبة بعد قائدى اللواء محمد نجيب عندما قمت معهم بتنفيذ الحركة . ولعلهم لاينسون أيضاً أننى كنت معرضاً معهم ولا أقول قبلهم لجميع المخاطر لولم يقدر الله سبحانه وتعالى بنجاح الحركة . ولا أقول ذلك منًّا عليهم فأنا أعتقد أن ما فعلته ليس سوى تأدية واجبى الأكمل نحو مصر . ولذلك فإن من حقى أن أسأل زملائى وإخوانى أعضاء مجلس الثورة ومن حقى عليهم أن انال جواباً على أسئلتى هذه :

أولاً ـــ هل كان من أهداف الثورة أن نحكم البلاد ؟

ثانيا ـــ هل كان من اهداف الثورة أن يزج بالمواطنين الجانى منهم والبرىء فى السجون وأن تملأ المعتقلات ؟.

ثالثاـــ هل كان من أهداف الثورة أن نكمم الأفواه ونقيد الحريات ؟

رابعاـــ هل كان من اهداف الثورة أن يقحم الجيش نفسه فى السياسة وفى كل مرفق من مرافق البلاد ؟

وأليس من أبناء مصر من يقوم بالأعمال المعهود بها الآن لبعض ضباط الجيش حتى يتفرغ هؤلاء الضباط للنهوض بجيشنا المفدى لكي يتمكن من القيام برسالته السامية من طرد المستعمر وحماية البلاد ؟.

أعتقد أن إخوانى وزملائى أعضاء مجلس قيادة الثورة سيجيبون على هذه الأسئلة بأن الثورة كانت لها أهداف أسمى من هذا وأنبل » .

ويختم القائمقام أحمد شوقى خطابه بالمطلبين التاليين :

أولاً ـــ إلغاء الأحكام العرفية قبل التفكير فى أى إجراء آخر ، وما يتبع ذلك من الإفراج فوراً عن المعتقلين أياً كانت ميولهم السياسية .

ثانيا ـــ أن تجرى الانتخابات وزارة مدنية يرأسها محايد يطمئن إليه الكافة ويثق الجميع فى نزاهته . ولتحقيق هذين الهدفين الأساسيين ، وبالتالى لتوفير الضمان أرى أن أسأل زملائى وإخوانى أعضاء مجلس الثورة عن مآلهم .. هل سيعودون إلى الجيش أم ياترى هل سيدخلون المعترك السياسى كأفراد ؟ ـــ وإذا كان لى أن أقترح فإنى أطالب اليوم بحق الزمالة فى الجهاد ـــ قبل أن أطالب فى الغد باسم الشعب ـــ أن يحققوا رغبته التى تتلخص فى أن تبعدوا أنفسكم عن كل نشاط سياسى بأن تعودوا إلى صفوفكم فى الجيش ، وتضربوا المثل فى التضحية من أجل الوطن .

وختم الخطاب بهذه العبارة « ألا هل بلغت اللهم فاشهد ».

أما الزميل الآخر لجمال عبد الناصر الذى كان مثال الرجولة الكاملة، والوفاء النادر لمبادئه؛

فهو البكباشي يوسف صديق .. وإذا كان القائمقام أحمد شوقي قد اكتفى فى معارضته لخطة جمال بالاستقالة من مجلس الثورة تخلصاً من تبعة الردة عن مبادئهم فإن يوسف صديق كان له نشاط أشرنا إلى طرف منه فيما نقلناه عن كتاب الأستاذ أحمد أبو الفتح .. وقد أشعل هذا النشاط نيران الغيظ فى صدر جمال عبد الناصر فاتبع معه أساليب المراقبة وتحديد الإقامة والنفى إلى الخارج ثم الاعتقال ثم أتبع ذلك كله بأسلوب أشد فتكا من كل ذلك وهو أسلوب تشويه السمعة وإلصاق التهم فبث عن طريق أبواق دعايته أنه شيوعى .

وقد وجه يوسف صديق إلى زملائه بمجلس الثورة خطاباً مفتوحاً يدور حول نفس المواضيع التى تضمنها خطاب زميله القائمقام أحمد شوقى ، ولذا فقد نكتفى بهذه الإشارة إلى خطابه المفتوح ولكننا ننقل من جريدة المصرى حديثا أجراه مندوبها مع يوسف صديق بمناسبة نشر خطابه المفتوح لما فى هذا الحديث من إشارات ذات مغزى يحسن الالتفات إليها :

سأله المندوب : من أنت وما هى مبادئك ؟ هل أنت من الإخوان أم شيوعى أم وفدى أم اشتراكى ؟.

وهل صحيح أنك كتبت رسالتك إلى الرئيس نجيب بمداد أحمر على ورق أحمر ؟.

فاجاب : إن صح لى أن أتحدث عن نفسى فإنى أقول لهؤلاء إننى ضابط مصرى قمت على رأس الضباط الأحرار يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بالدور الرئيسى الذى مكن للضباط الأحرار من تنفيذ سياستهم . وأما مبادئى فهى مبادىء كل وطنى حر مستقل يؤمن بربه وبوطنه ، وأن وحدة مصر هى السلاح الأول الذى تتحقق به جميع أهدافها ، وأن الطمأنينة والأوضاع الطبيعية والاستقرار السياسى والاقتصادى وشعور الناس بأنهم سينامون فى بيوتهم ، وأنهم غير مهددين إذا قالوا كلمة للصالح العام بالمبيت فى السجون والمعتقلات ، أو باتهامهم إذا كانوا من الإخوان بأنهم عملاء لندن ، وإذا كانوا من الأحرار الوطنيين بأنهم من عملاء موسكو . كل هذه هى مبادئى .

لقد أصبحت هذه البضاعة بضاعة الاتهامات التى تلقى جزافاً بائرة لاتروج عند الشعب ؛ فقد أصبح الشعب المصرى كامل الوعى ، مرهف الحس ، يميز بين الغث والسمين .. وإذا كان الهضيبى زعيم الإخوان المسلمين فى مصر حقاً من عملاء إنجلترا ، فأنا لايهمنى بعد ذلك أن أتهم بأنى من عملاء موسكو أو غير موسكو — **ومن هم عملاء واشنطن ؟ لماذا لايسمع أى أحاديث عنهم أو تحديد لهم ؟**

وقال : إننى لاأدين بشىء إلا بحبى لبلادى ولكنى أرى أن الشيوعيين الموجودين بمصر الآن قوة لايمكن إنكارها إلا إذا أردنا الهرب من الواقع ، وأنهم كمصريين لهم الحق فى مناقشة آرائهم كغيرهم من المواطنين . وانجلترا وأمريكا فيها شيوعيون وفى الأولى حزب معترف به ..

ولقد صرح الهضيبى ــ وهو الذى يمثل أكبر معسكر إسلامى فى الشرق ــ أن الشيوعية لاتقاوم بالقوة ولا بالقوانين وأنه لامانع لديه من أن يكون لهم حزب ظاهر ، وأن الإسلام كفيل بضمان سلامة الطريق التى تسلكها البلاد .

وقال : أما أنى كنت عضواً فى مجلس قيادة الثورة ؛ فهذا أمر يعلمه كل من تتبع أحداث الثورة فى أوائل الحركة . وأما أن المصريين لايعرفون عنى الكثير أو القليل ؛ فذلك يرجع إلى أن سياسة مجلس الثورة فى أوائل الحركة كانت مبنية على نكران الذات ــ وأما عن دورى فى يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فسأتركه للتاريخ ؛ وإن كان الرئيس محمد نجيب لم يبخل على الحق فى مذكراته التى نشرها على الناس حين قال : إننى كنت الشرارة الأولى التى اندلعت فى هذا التاريخ ، وإننى أفضل أن يسأل أيضاً البكباشى جمال عبد الناصر عن هذا الدور وأنا راض بتقريره فى ذلك .

وأما بشأن ميولى الحمراء ؛ فإن هذه الميول تلصق دائما بكل حر ؛ فقد ألصقت أخيراً وبشكل مفاجىء بالصاغ خالد محيى الدين . وأستطيع أن أقرر أن هذه التهمة قد وجهت فى وقت من الأوقات إلى البكباشى جمال عبد الناصر نفسه كما وجهت للثورة كلها فى يوم ما .. ومهما وجهوا إلينا من تهم فنحن سائرون فى طريقنا نضحك ملء أشداقنا من هذه الاتهامات .

وأما أسباب استقالتى من مجلس الثورة فإن التاريخ الذى استقلت فيه من المجلس وهو فبراير سنة ١٩٥٣ يستطيع أن يحدد أسباب هذه الاستقالة لكل من فى رأسه عين ترى وفى قلبه بصيرة تبصر » .

وبمناسبة حديثنا هذا عن يوسف صديق أذكر أن الاخ الأستاذ عباس السيسى أخبرنى بأن ظروف الاعتقال جمعته فترة طويلة بيوسف صديق فى السجن الحربى ، وقد أتاحت له هذه الفرصة التى كان فيها اللقاء مباحاً أن يكتشف فى هذا الرجل بجانب شجاعته وجرأته أنه أديب وشاعر ؛ فقد كان يوسف ينشد من شعره قصائد رائعة تتناول الحياة السياسية فى مصر ، وتتناول شخصية زميله جمال عبد الناصر الذى كان جزاؤه منه جزاء سنمار ، إذ فصله من الجيش ، وألقاه فى غياهب السجن الحربى فلبث فيه بضع سنين . وأعتقد أن الأخ الحاج عباس لايزال يحتفظ ببعض هذه القصائد التى تسجل أحداث فترة حالكة من تاريخ مصر .

* * *

وقبل أن نصل بالحديث فى هذا الباب إلى نهايته يجمل بنا أن نلفت السادة القراء إلى أن المعالم الأربعة التى قام عليها هذا الباب وكانت هى نفسها مثار الخلاف بين الإخوان وبين الثورة كان المعلم الأخير منها وهو الحكم الدستورى أخطرها وأشدها إغضاباً لجمال عبد الناصر وأعظمها استفزازاً له . وذلك للأسباب الآتية :

١ ـ أن المطالب الثلاثة الأولى ، تستغرق طبيعة تنفيذها وقتا غير قصير ـ لاحتياجها إلى إجراءات مطولة ؛ مما يفسح الوقت ويعطى الفرصة لمن يريد أن يتعلل بالإعداد والتجهيز ـ ولكن المطلب الرابع وهو الحكم الدستورى من طبيعته أنه مطلب فورى التنفيذ ذو إجراءات محددة ولا تحتاج إلى وقت .

٢ ـ أن المطالب الثلاثة الأولى فيها من النواحى الفنية ما يجعل المناقشة حولها تحتاج إلى طبيعة معينة من المتخصصين؛ وبذلك تكون هذه المناقشة حولها محصورة فى نطاق محدود ـ ولكن المطلب الرابع مطلب شائع ومشهور ومفهوم لكل المستويات ، ويعرف كل فرد من الشعب تفاصيل إجراءاته ويستطيع أن يتناقش حوله ؛ حتى إنه تحوّل إلى شعار لكل من يريد من الحكام أن يخطب ود الشعب ـ وقد جعلته الثورة أحد شعاراتها .. فالنكوص عنه يحس به كل فرد من أفراد الشعب ويعتبر فضيحة سياسية .

٣ ـ لما كان هذا المطلب فورى التنفيذ ولا يحتاج تنفيذه إلى وقت ، وكان الأخذ به معناه أن الحاكم الذى يأخذ به حصر نفسه فى دائرة سلطة محدودة ، وهو ما يتعارض مع ما أسره جمال عبد الناصر فى نفسه من خطة لايستطيع تنفيذها إلا إذا لم يكن مقيداً بأى قيد .. لهذا اعتبر جمال أن كل من يطالبه بهذا النوع من الحكم عدو له ويجب التخلص منه حتى يخلو له الميدان .

* * *

الباب الثالث

الإخوان فى موقف الناصح الأمين

الفصل الأول : نصح ممزوج بتأييد

الفصل الثانى : تأييد ودعم فى أحرج المواقف

مقدمة

لابد أن الجيل الجديد الذى لم يشهد الثورة فى أعوامها الأولى حين يبلغه — بوسيلة من وسائل الإبلاغ — مافعلته الثورة بالإخوان المسلمين .. لابد أنه قائل فى قرارة نفسه : لايمكن أن يحدث هذا من الثورة إلا أن يكون رد فعل لتجد صارخ وهجوم عنيف وشغب مدمر قابل الإخوان به الثورة حتى إنها دفاعاً عن نفسها، وإبقاء على وجودها. قد فعلت مافعلت.

وقد يكون هذا الذى يدور بخلد الجيل الجديد هو ما يجب أن يكون منطق كل من يفكر فى القضية بعقله المجرد ؛ بل إن طبيعة الأحداث التاريخية تؤيد هذا الظن وتستبعد ماسواه .. ولكن الذى كان بين الإخوان والثورة كان غير هذا تماماً ؛ فمواقف الإخوان من الثورة مازالت مسجلة فى الصحف ، محفوظة فى الأضابير،لاشىء فيها يدين الإخوان بمثل هذا الذى يخطر بالبال ، فلا اعتداء على الثورة ولا تطاول ولا تحدٍ ولا تزيد ولو بكلمة نابية .

بل إن كل ما سجله التاريخ يشهد بأن الإخوان كانوا من وراء الثورة قبل قيامها وبعد قيامها ، حتى لقد بلغ حرص المرشد علــى نجاح الثورة حداً لايكاد يصدقه عقـل ولـولا أنه سجل فى الصحف لما صدقناه فبالرغم من أن الثورة قد ثبت تاريخاً وبشهادة الذين ظهروا على المسرح من رجالها بعد أن انقشعت سحائب الغرور عن نفوسهم أنها إنما انبثقت عن الإخوان المسلمين وقامت فى كنفهم وبحياطتهم فإن المرشد العام — خوفاً من تكالب الدول الاستعمارية للقضاء عليها إذا علموا ذلك عنها — راح ينفى علاقتها بالإخوان .

ففى ٢٣ / ٨ / ١٩٥٢ ظهرت جريدة « المصرى » وفيها العنوان الآتى بخط كبير :

« **المرشد العام يقول: ليست هناك صلات سابقة بين الجيش والإخوان** » .

وكان ذلك فى سياق حديث طويل أجراه مندوب الجريدة مع المرشد العام، يقول المندوب فيه بهذا الصدد : « وحدثنى المرشد العام فى الساعة التى مكثتها بصحبته عن حركة الجيش فقال : ليست هناك صلات سابقة بين الإخوان والجيش . وما يقال عن اتفاق مشترك بيننا وبين الجيش فى حركته الأخيرة أمر غير صحيح » إلى هذا الحد بلغ بالإخوان الحرص على نجاح الثورة وحياطتها — وليس معنى هذا أن ننفى ما حدث بعد ذلك من خلاف بين الإخوان والثورة وقد عرضنا لشىء من ذلك فى الصفحات السابقة ، ولكن هذا الخلاف لم يحمل الإخوان على موقف يؤاخذون به أو يلامون عليه ، بل ظل موقفهم حتى آخر لحظة هو

موقف الناصح الأمين .. الذى يريد لها الخير ؛ يسدد خطاها ، ويقبل عثراتها ، وينير السبيل بين يديها . حتى إذا ادلهمتْ الأمور ، وضاقت أمامها السبيل ، وعز وجود النصير ؛ خف الإخوان إليها يسندون ظهرها ويشدون أزرها ويؤيدون كلمتها ويؤازرون أمام العدو موقفها .

وقد خصصنا هذا الباب لتجلية هذا المعنى للسادة القراء لبالغ أهميته ولأنه يأتى على غير ماهو متوقع فى أذهان الكثيرين فإثباته من الضرورة بمكان .

* * *

الفصل الأول

نصح ممزوج بتأييد

فى هذا الفصل نستعرض موقف الإخوان من الثورة فى أول أيامها وفى أوقات رخائها . أما فى أول أيامها فبالرغم مما سمعه المرشد العام من جمال عبد الناصر فى أول لقاء به بعد قيام الثورة فإن أحداً خارج نطاق أخص الأخصاء من الإخوان لم يعلم بذلك . وظل سراً مصوناً ، وسار التعامل مع الثورة تعامل الأشقاء ، وليس أدل على ذلك من بيان أصدره الإخوان بعد أسبوع واحد من قيام الثورة ونشر بالصحف يوم ٢ / ٨ / ١٩٥٢ وإليك هذا البيان :

« الآن وقد وفق الله جيش مصر العظيم لهذه الحركة المباركة ، وفتح بجهاده المظفر أبواب الأمل فى بعث هذه الأمة وإحياء مجدها التليد . وأزال عقبة كانت تصد عن سبيل الله والحق وتعوق المصلحين ، ويستند إليها المفسدون والمغرضون من كبراء هذه الأمة وحكامها فى العهود الغابرة المختلفة ..

الآن ينبغى أن ننظر إلى الأمام ، وأن لايأخذنا الزهو بهذه الانتصارات عما يجب من استئناف العمل فى مرافق الإصلاح الشامل ، حتى تشعر الأمة بأنها انتقلت نقلة كلية من عهد إلى عهد .

وإلاَّ نفعل فقد ضاعت ثمرة هذه الحركة ، وأصابتنا نكسة لاتؤمن عواقبها . وهذا يفرض على كل ذى رأى فى الأمة أن يتقدم إلى الأمة وإلى أولى الأمر فيها بمشورته ، خالصة لله ، بريئة من الهوى ـــ عما ينبغى أن يتجه إليه الإصلاح المنشود ببعث هذه الأمة من جديد .

وسنة الإخوان المسلمين أن يتقدموا إلى الأمة وإلى أولى الأمر فيها ـــ فى مثل هذه المراحل المتميزة من تاريخها ـــ بالرأى يستقونه من كتاب الله الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى سوى بين المسلمين وغير المسلمين فى حقوقهم وواجباتهم العامة ، ولا يفرق بين جنس وجنس ولا بين لون ولون .

أولاً — التطهير الشامل

إلا أن أول ما ينبغى الالتفات إليه من ضروب الإصلاح ، ومالا تظهر ثمرة العمل إلا به — أن يؤخذ كل من أعان الملك السابق على الشر ، ويسر له سبل الفساد والطغيان — بما أخذ به الملك نفسه وما ينبغى أن يؤخذ به .. فلا يستقيم فى ميدان العدالة ، ولا فى حماية المصالح العامة ، ورعاية المثل العليا ؛ أن يكون أمر التطهير مقصوراً على الملك . ثم يترك أعوانه وأدواته آمنين لاتمتد إليهم يد القصاص .

إن دستور البلاد الذى أقسم جميع وزراء الدولة على احترامه ، تنتهى نصوصه وروحه إلى إلقاء المسئولية كلها على كاهل الوزراء، والوزراء حين يحملون هذه المسئولية يعتبرون مؤتمنين عليها من قبل الأمة . فإذا فرطوا فى رعاية هذه الأمانة فقداً استوجبوا أشد أنواع المؤاخذة .

وإن الدستور ليقرر أن أوامر الملك شفهية كانت أو كتابية لاتعفى الوزير من المسئولية فى الحكومة حتى يجعل رئيسها مسؤلاً عن أحاديث الملك الشخصية — فكيف يقبل بعد هذا عذر وزير مهد للملك سبيل الإفساد ، ويسر له استغلال أموال الدولة واغتصاب أراضيها وإضاعة مصالحها ، وأعانه على إهدار الحريات وسفك دماء أبنائها الأبرار ، وسن له من التشريعات والقوانين الاستثنائية مايحميه من رقابة الشعب ويدفعه إلى التمادى فى طريق البغى ؟

ولكن رجال الحكم قد جاوزوا كل حد فى التفريط وتضييع الأمانة . ورأوا أن الاحتفاظ بمقعد الحكم — وهو أقصى مايستطيع الملك حرمانهم منه — أعز عليهم من الوطن والشعب جميعا — فضلاً عما شاركوا فيه من الغنم الحرام والاستغلال السيء الآثم لمقومات البلاد .

لقد أصبح لزاماً أن تمتد يد التطهير إلى هؤلاء الحكام فتبادر إلى تنحيتهم عن الحياة العامة وحرمانهم من مزاولة النشاط السياسى حتى يقدموا للمحاكمة عن كل ما يوجه للملك السابق من اتهامات ، وما يعاب عليه من تصرفات ، وما تظهره الملفات الحكومية اليوم وبعد اليوم من مظاهر البغى وسوء الاستغلال ؛ حتى يكونوا عبرة لكل من يلى أمور هذه البلاد ، إذ يوقنون أن عقاب الشعب المتربص أحق بأن يتقى من نقمة الملك المتسلط .

ولا يبلغ التطهير غايته حتى تشمل المؤاخذة كل من عبث بمصلحة الدولة ، أو أجرم فى حق البلاد فى عهود الحكم المختلفة .. وهذا يتقاضانا أن نبادر إلى تنفيذ قانون الكسب الحرام دون هوادة ولا محاباة . وأن نقدم للمحاكمة بلا تردد ولا تمييز كل من أساء استخدام السلطة

بمصادرة الحريات وترويع الآمنين ، وتعذيب أبناء الأمة الأحرار . وأن يعاد التحقيق نزيهاً صارماً فى القضايا التى غَلَّ الطغيان عنها يد العدالة من قبل — كقضايا الجيش واغتيال الشخصيات التى كان لبعض المسؤلين فيها دور معروف .

كما ينبغى إلغاء الأحكام العرفية وسائر القوانين الرجعية المنافية للحرية .

ويستطرد بيان الإخوان فيطالب :

ثانيا — الإصلاح الخلقى

١ — إعداد جيل جديد عن طريق التربية الدينية والخلقية والوطنية . وإعادة كتابة التاريخ الإسلامى والمصرى ، وتوفير التعليم للمواطنيين جميعاً ، وتدعيم معاهد العلم والجامعات على اختلافها ، وتزويدها بما تحتاج إليه من المكتبات والمعامل وأدوات البحث حتى تقوم بمصر نهضة علمية جديدة تساهم فى بناء نهضتنا الاجتماعية والاقتصادية . ولاشك أن التشريع مهما أحكمت صياغته ، واستقامت أهدافه وأصوله .. لايبلغ غايته حتى يقوم على تنفيذه الفرد الصالح ، الذى لايتم إعداده إلا عن طريق التربية الدينية ؛ إذ تغرس فى نفسه من معانى الإنسانية السامية ما يعصمه من اتباع الهوى ، ويهديه إلى أن يحب للناس ما يحب لنفسه . فإذا وُلِّى أمراً أو تقلّد سلطاناً كان المؤمن بربه الذى لايزل ولا يتزلف ، المستقيم فى خلقه الذى لايتكبر ولا يتغطرس ، الرضى فى أمانته ، الذى لايختلس ولا يرتشى، والذى لايقصى الفضيلة عن حياتة الشخصية أو حياته العامة ؛ فهو فى بيته القدوة الصالحة وفى مكتبه المثل الطيب : ﴿**قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها**﴾ .

٢ — ومن تمام هذا الباب أن تعمل الحكومة على تحريم ما حرم الله ، وإلغاء مظاهر الحياة التى تخالف ذلك، مثل القمار والخمر ودور اللهو والمراقص والأفلام والمجلات المثيرة للغرائز الدنيا . وإن العاطفة الدينية لاتكفى وحدها لضمان التخلق بأخلاق الإسلام ؛ فينبغى أن يقترن غرسها وإنماؤها بمحاسبة الفرد حساباً دقيقاً على اتخاذ الآداب والأخلاق القرآنية منهاجاً له فى حياته الخاصة والعامة .

ثالثا — الإصلاح الدستورى

إن الفرد الصالح لاتطيب له الحياة فى ظل دستور تم وضعه فى عهد الاستعمار الإنجليزى أولا، والطغيان السياسى ثانيا . وقد نشأ عن ذلك وجود ثغرات فى نصوص الدستور

سمحت بإحداث اضطرابات فى حياتنا العامة . واستطاع الاحتلال أن ينفذ منها بين حين وآخر ، كما سولت للملك التدخل المستمر وتجاوز حدود المبادىء الدستورية الأساسية . ولقد كان المظهر البارز لهذه الملابسات أن يجيء الدستور منحة من الملك لانابعاً من إرادة الأمة .

ولما كان تصرف الحكام قد أهدر الدستور المصرى نصا ومعنى،وكان من طبيعة الثورات الناجحة أن تسقط الدساتير التى تحكم الأوضاع السابقة عليها،فإن الدستور المصرى .. يكون قد أصبح لاوجود له من ناحية الواقع ومن ناحية الفقة ؛ مما يقتضنى المسارعة إلى عقد جمعية تأسيسية لوضع دستور جديد ؛ على أساس أنه تعبير عن عقيدة الأمة وإرادتها ورغبتها ، وسياج لحماية مصالحها — لاعلى أنه منحة من الملك ..

وسيترتب على إعادة إصدار الدستور بطبيعة الحال اختفاء جميع نصوصه التى تصدر عن طبيعة كونه منحة ؛ ويستمد مبادئه من مبادىء الإسلام الرشيدة فى كافة شؤون الحياة .

وفى ظل هذه المبادىء تختفى من الدستور أسطورة الحكام الذين فوق القانون أو فوق المسؤلية الجنائية ؛ فالمبدأ الأساسى الذى يقره الإسلام أن المسؤلية بمقدار السلطة ، وأن الكل سواء أمام القانون .

هذا وينبغى أيضاً أن نستفيد من التجارب الدستورية السابقة ليكون اتجاهنا إلى الإصلاح مؤسساً على قواعد واقعية ملموسة . والذى يستقرىء هذه التجارب منذ بدء الحياة النيابية إلى اليوم ؛ يجد أنها لم تقدم نيابة صالحة ولا تمثيلاً صحيحاً . وليس أدل على ذلك من شيوع المفاسد وانتشار الأخطاء التى تعترف بها الأحزاب السياسية اليوم وتقول إن الملك كان هو الآمر بها — لم يفلح برلمان واحد فى إسقاط حكومة ، أو مناقشة مخصصات الملك ، أو تغيير وزير ، أو توجيه اللوم إلى وزارة ، ولم ينته أى مجلس من مناقشة أى استجواب إلا بالانتقال إلى جدول الأعمال .

وفوق ذلك ، فما من قانون جاء ضاراً بالحريات إلا وقد أقرته وخضعت لمشيئة الحكومات فيه البرلمانات المتلاحقة ، تلك البرلمانات التى طالما يسرت للحكومات اعتماد الأموال الضخمة المرهقة للميزانيات فى أوجه البذخ والترف وتحقيق شهوات الحكم الفردى بحيث عجزت الميزانية فى مواجهة مطالب النهضة وضرورات الإصلاح فى مرافق الحياة .

وهكذا انتهت الحياة البرلمانية فى كافة العهود الحزبية إلى أن أصبحت أداة تعطى شهوات الحكام ومظالم السلطان صيغة قانونية — فلا مناص إذن من النظر فى إعادة بناءالحياة النيابية والقوانين الانتخابية على أصول سليمة حتى تؤدى رسالتها على الوجه المنشود .

رابعا ــ الإصلاح الاجتماعى

إن الأمة تعانى تفاوتاً احتماعياً خطيراً ، فهى بين قلة أطغاها الغنى ، وكثرة أتلفها الفقر . وهذه حال لايرضى عنها الإسلام . فالإسلام يكره أن يكون المال دولة بين الأغنياءوحدهم . والإسلام يقضى بأن يكون لكل فرد فى الدولة ــ مسلماً كان أو غير مسلم ــ كحد أدنى : مسكن يقيه حر الصيف وبرد الشتاء . وملبس للصيف والشتاء . ومطعم يقى جسمه ويجعله قادراً على العمل . وعلاج بالمجان إن كان غير قادر . وتعليم بالمجان ذلك كله له ولزوجه ومن يعول .

وسبيل الإسلام إلى تحقيق هذه المزايا :

أولاً ــ العمل : فالعمل فرض على القادر عليه ، ولا يجوز له أن يتخلى عنه ولا تجوز إعانة رجل لايعمل وهو قادر ، بل يحمل على العمل حملاً . ويجب على ولى الأمر أن يساعد على إيجاد عمل له ، ويهىء له وسائله ويتعهده حتى يتحقق أنه مستريح فيه .

ثانيا ــ التكافل الاجتماعى : فإذا لم يجد عملاً أصلاً أو كان عمله لايكفيه أو كان غير قادر عليه ، وجب على ولى الأمر أن يتدخل ليحقق له ضرورات الحياة المذكورة آنفاً بالزكاة ، وهى فريضة مقررة مقدرة وليست صدقة يدفعها الغنى متفضلاً . وهى حق للفقراء ، وتصرف حيث تجبى ولا تنقل لمكان آخر حتى يستوفى أهل كل جهة بفقرائها الذين يعرفونهم ويعرفون حاجتهم ، فيشعر الأغنياء والفقراء بأنهم متكافلون متراحمون .

فإن لم تكف الزكاة لتوفير تلك الحاجات الضرورية ، وجب على من عنده فضل مال أن يرده على الفقراء حتى يستوفوا حاجاتهم . فإن لم يفعلوا أجبرتهم الحكومة على ذلك ، واتخذت من التشريعات ما يكفل إصلاح حال المجتمع بقدر ظهور الحاجات وبروز الضروريات .

وقبل توفير هذه الضروريات الأساسية لكل فرد لايوقع الإسلام حد السرقة على السارق.

* * *

وبناء على هذه المبادىء يجب النظر فى عدة إجراءات يلزم أن تتخذها الدولة لتحقيق تلك الغايات نلخص أهمها فيما يلى :

١ ــ تحديد الملكيات الزراعية : فإن الملكيات الكبيرة قد أضرت أبلغ الضرر بالفلاحين والعمال ، وسدت فى وجوههم فرص التملك ، وصيرتهم إلى حال أشبه بحال الأرقاء . فلا سبيل إلى إصلاح جدى فى هذا الميدان إلا بتقرير حد أعلى للملكية ، وبيع الزائد عنه إلى المعدمين وصغار الملاك بأسعار معقولة تؤدى على آجال طويلة . كما يتعين توزيع جميع الأطيان الأميرية المستصلحة والتى تستصلح على صغار الملاك والمعدمين خاصة .

٢ ــ تحديد العلاقة بين المالك والمستأجر : فمن الواضح أن عدداً كبيراً من المشتغلين بالزراعة لن تتوفر له ملكية حتى بعد التحديد ، وذلك نظراً إلى قلة الأراضى الصالحة للزراعة بالقياس إلى المشتغلين بها . ولقد جرت العادة أن يلزم المستأجر بأداء مبلغ نقدى أو قدر عينى من المحصول لقاء انتفاعه بكل فدان دون مراعاة للقصد والاعتدال ؛ الأمر الذى يترتب عليه أن يحرم الفلاح ثمرة عمله طوال العام ، بل يخرج فى أكثر الأحيان مثقلاً بدين لايستطيع أداءه . ولا علاج لهذه الحال بعد تحديد الملكية إلا بإصدار تشريع يقصر التأجير على المزارعة ؛ بمعنى انقسام المحصول بنسبة يتفق عليها كالنصف مثلاً ؛ لأنها أقرب الصور إلى العدالة .

٣ ــ استكمال التشريعات العمالية : بإعادة النظر فى التشريعات العمالية الحالية لتشمل جميع فئات العمال بما فيهم العمال والزراعيون ولتكفل للعامل وأسرته التأمينات الكافية ضد البطالة والإصابات والعجز والمرض والشيخوخة والوفاة ــ مع مراعاة جعل الانتساب إلى النقابات إجبارياً . وإباحة تكوين الاتحادات النقابية ، وتحديد أجور العمال وفق المبادىء الإسلامية على اسس اقتصادية سليمة ، مع ضمان حصول العمال على نصيبهم من غلة الإنتاج . وإلغاء مكافآت أعضاء مجالس إدارة الشركات ــ على أن يكون تقرير هذه الحقوق وحمايتها بنصوص قانونية صريحة .

٤ ــ إصلاح نظم التوظيف : على أساس تقريب الفوارق بين الحد الأعلى والحد الأدنى للمرتبات والأجور ، وكفالة الضمانات القانونية والمالية فى الخدمة والمعاش ، وتأمين المرءوسين ضد أهواء الرؤساء واستبدادهم ، وتحديد التبعات ، وتبسيط الإجراءات ، وإلغاء المركزية .

٥ ــ إلغاء النياشين : وذلك تكملة لما تم من إلغاء الرتب ، وتحقيقاً للمساواة الكاملة بين أبناء الوطن الواحد ، وحتى تكون الأعمال خالصة لله . وكذلك العمل على القضاء على مظاهر البذخ والترف .

٦ ــ جعل المسجد مركزاً دينياً وثقافياً واجتماعياً : وقد كانت هذه وظيفة المسجد

الرئيسية منذ نشأته ، ولا يتم هذا إلا بتعيين رجال متدينين مثقفين للإشراف على المساجد،لايكتفون بإقامة الصلوات ، بل يحولون المسجد ، وبخاصة فى القرى ، إلى ندوة حافلة بضروب النشاط والإصلاح ومكافحة الأمية .

خامسا ـــ الإصلاح الاقتصادى

إن موارد الثروة فى مصر بوضعها الحالى ، لاتكفى أن يعيش المواطنون معيشة طيبة . ولابد من فتح أبواب جديدة للثروة ، وإصلاح الأوضاع القائمة على أسس سليمة . ونقترح لذلك أموراً منها :

١ ـــ تحريم الربا ، وتنظيم المصارف تنظيماً يؤدى إلى هذه الغاية . وتكون الحكومة قدوة فى ذلك بالتنازل عن الفوائد فى مشروعاتها الخاصة .

٢ ـــ تمصير البنك الأهلى وإنشاء مطبعة للإصدار فى مصر ، واستعجال إنشاء سك النقود المعدنية .

٣ ـــ إلغاء بورصة العقود التى أدت المضاربات فيها إلى زعزعة الاقتصاد القومى . والعمل على إصلاح السياسة القطنية بما يحقق مصالح البلاد .

٤ ـــ استكمال إصلاح الأراضى البور . والعناية باستغلال الصحارى المصرية زراعياً ومعدنياً .

٥ ـــ تصنيع البلاد مع العناية بالصناعات المعتمدة على المواد الأولية المحلية والصناعات الحربية .

سادساً ـــ التربية العسكرية

إن رجال الجيش البواسل هم أولى الناس بإصلاحه . ويجب على الدولة أن لاتبخل عليه بالمال الذى يهيئه لتأدية واجباته . وأن تعتبر ذلك فريضة لايؤخرها غيرها من الفرائض ، ولو اقتضى الأمر الجور على أبواب الميزانية الأخرى . ونود أن نشير إلى أمور فى التربية العسكرية نجملها فيما يلى :

١ ـــ أن تراعى الآداب والشعائر الدينية فى الجيش ، وأن تقوم العلاقة بين أفراده على أساس الأخوة .

٢ ـــ أن يوسع نطاق التجنيد بحيث لايبقى فى الأمة بعد فترة محدودة من يستطيع حمل

السلاح دون أن يحمله ؛ حتى يصبح الشعب كله جيشاً كامل الأهبة والعتاد ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ﴾ .

٣ — أن تضاعف العناية بالتدريب العسكرى فى المدارس والجامعات ، وأن تتسم بالجد والإنتاج فيقرر إجبارياً فى مناهج التعليم ويشمل فنون الحرب وأساليب القتال الصحيح .

٤ — إنشاء جيش إقليمى يتكون من كل من فاته الانتظام فى الجيش العامل .

٥ — أن تبادر الحكومة إلى إنشاء مصانع الأسلحة والذخيرة لإمداد الجيش بحاجته منها حتى يستطيع الجيش أن يحقق غاياته فى العدد والعدة ومستوى التدريب .

سابعاً — البوليس

إن رجال البوليس هم حفظة الأمن الداخلى . وهم جزء من الأمة يجب أن تكون علاقاتهم معاً علاقة آخوية وقائمة على أساس من الخلق الفاضل الكريم .

لذلك ينبغى أن يطهر البوليس من العناصر الفاسدة التى عاونت الطغاة على إذلال الأمة ، ومهدت السبيل لزج أبنائها الأبرياء فى ظلمات السجون والمعتقلات ، وأشاعت فى البلاد جواً من الفزع والإرهاب مازالت آثاره حية بيننا — وأن ينزه البوليس عن أن يكون أداة فى يد الأحزاب تسخره فى مآربها السياسية ، مستغلة سيطرتها عليه حين تكون فى الحكم .

ويجب إلغاء نظام البوليس السياسى الذى أساء إلى سمعة البوليس ، ومد نفوذه بغير حق إلى كثير من مرافق الحياة . وهو فى حقيقته أثر من آثار الاستعمار البغيضة . ويجب أن يرفع مستوى رجال البوليس وأن يأمنوا فى حياتهم ، وتوثيق روابط الود بينهم وبين رؤسائهم من ناحية وأفراد الأمة من الناحية الأخرى .

خاتمة

هذه خطوط رئيسية فى الإصلاح يحتاج كل منها إلى بيان . وإن المشكلة التى تقابلنا الآن ذات ثلاثة أطراف : مظلومون وظالمون وأوضاع مكنت الظالم من أن يظلم — ولابد لكى يستقيم أمر هذه الأمة مما يأتى:

١ — أن ترد المظالم إلى أهلها وأن يعاد إلى كل ذى حق حقه ؛ فترد إلى المسجونين

السياسيين حريتهم . ولقد كانت هذه الصفوة من الشباب الطليعة الأولى التى ثارت فى وجه الظلم والطغيان . ولا زالت ترسف فى أغلالها بينما يتمتع المترفون والجلادون بأهوائهم — كما ترد الأموال والأرض المغصوبة إلى أهلها ، وأن تتوفر للمواطنين حياة يتحررون فيها من أغلال الإلحاد والفقر وطغيان الطبقة الحاكمة وتجار السياسة .

٢ — أن يقتص من الظالمين . وأن يبعد من الميدان السياسى هؤلاء الذين استباحوا الحرمات ، واعتدوا على الحريات وداسوا على مقدسات الأمة ، وجعلوا البلاد مزرعة لشهواتهم ، واتخذوا العبث بمصالحها مادة للكسب الحرام لأنفسهم وأهلهم وأنصارهم .

٣ — أن تغير الأوضاع التى مكنت الظالم من أن يظلم ، وأن يكون التغيير شاملاً لكل مرافق الحياة التى استطاع الطغاة أن ينفذوا منها إلى مآربهم .

أما قضية الاستقلال فليس لها إلا حل واحد ، هو أن يخرج الإنجليز من مصر والسودان ، وأن يخرج كل مستعمر من بلاد الإسلام ﴿ **ويقولون متى هو ، قل عسى أن يكون قريباً** ﴾ . وإن الإخوان المسلمين حين يتقدمون بهذه الخطوط الرئيسية إنما يستوحونها من كتاب الله الذى يأمر بالعدل والإحسان ، ويحض على الإخاء ورعاية أهل الذمة ﴿ **لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين** ﴾ ويدعون الله جلت قدرته أن يجمع القلوب على الهدى ، وأن يحقق للأمة أهدافها ، وأن يهدينا سواء السبيل والله أكبر ولله الحمد .

* * *

نقلنا إلى القراء هذا البيان ليلمسوا فيه المعانى التى توخينا إبرازها فى العلاقة بين طرفين ، ونترك للقراء الكرام تقدير هذه العلاقة .

* * *

الفصل الثانى

تأييد ودعم فى أحرج المواقف

قدمنا فى الفصل السابق ما ينطق بروح التعاون والإخاء من ناحية الإخوان المسلمين إزاء الثورة حيث قدموا لها برنامجا كاملاً شاملاً صريحاً واضحاً ، ولا يقدم مثل هذا البيان إلا قوم يرون فى القائمين بالحكم إخوة لهم يعقدون عليهم الآمال ، وينتظرون من ورائهم الخير والإصلاح .. ولا يقرأ هذا البيان مراقب سياسى إلا قرر أن أصحابه إخوة وأصدقاء وحلفاء لهذه الحكومة .. وهو ما كان فعلا شعور واضعى البيان وهم الطبقة المسئولة فى الدعوة والممثلة للإخوان المسلمين أعضاء الهيئة التأسيسة .

ولكن المراقبين السياسيين لاسيما الأجانب منهم لايكتفون بمثل هذا البيان دليلاً على روح التعاون والتكاتف بين هيئة وحكومة ، فإبداء هذه الروح فى وقت الرخاء قد يكون وراءه ما وراءه من الدوافع والآمال .. وينتظر هؤلاء المراقبون حتى تقع هذه الحكومة فى أزمة خانقة تكون فيها أحوج ما تكون إلى من يمد لها يد العون . ويرقبون هذا الحليف الذى تقدم للتأييد فى وقت الرخاء هل يجدون له أثراً وقت الأزمة الذى يكون التأييد فيه مكلفاً وذا ثمن فادح ؟

وهذا ما نستقرىء عنه الأحداث لعلها تنبئنا بشىء فيه يقنعنا ويقنع هؤلاء المراقبين :

استمرت المفاوضات بين حكومة الثورة وبين الحكومة البريطانية منذ قامت الثورة فى يوليو ١٩٥٢ حتى آخر مايو ١٩٥٣ فى محاولات لإقناع انجلترا بسحب جيوشها من منطقة قناة السويس .. وفى نهاية مايو ١٩٥٣ يئست الحكومة ووجدت نفسها أمام طريق مسدود من تعنت الحكومة البريطانية فأعلنت قطع المفاوضات ـــ

ومعنى إعلان الحكومة المصرية قطع المفاوضات هو أنها قد استنفدت كل وسائل التفاهم والإقناع ولم يبق أمامها بعد ذلك إلا طريق المقاومة .

فماذا كان موقف الإخوان المسلمين إزاء هذا الموقف الجديد ؟

فى ٢٩ / ٥ / ١٩٥٣ أى عقب إعلان الحكومة هذا الموقف مباشرة ، أقام الإخوان حفلاً بشعبة العباسية بالقاهرة بمناسبة ذكرى غزوة بدر ألقيت فيه كلمة المرشد العام التى

نشرت فى الصحف فى اليوم التالى جاء فيها :

« والإخوان المسلمون يضعون كل إمكاناتهم رهن وصول مصر إلى حقها الكامل ، لايضنون فى سبيل ذلك بدمائهم ولا بأموالهم ولا بمجهودهم . وإن لهم من إيمانهم وصدق وطنيتهم وقوة تربيتهم ؛ مايجعلهم قادرين على تحمل الأعباء الجسيمة فى معركة مصر المقبلة — وإذا كان غيرهم يعتبر القيام بهذا الواجب مما تفرضه عليه الوطنية ، فإن الإخوان المسلمين يرون قيامهم بنصيبهم فى تلك المعركة عبادة يتقربون بها إلى الله ، ويشترون بها الجنة .

وإننا مع هذا نتابع جهودنا فى ميدان الإصلاح الداخلى ، متعاونين مع كل من يريد الإصلاح والخير لهذا الوطن ، **مؤيدين رجال العهد الحاضر** فى ذلك تأييد الكريم للكريم ، لايألون عوناً إن أصاب ولا نصحاً خالصاً إن أخطأ .. معرضين عن كل مايحاوله أعداء الإصلاح فى عهده الجديد من إيغار الصدور ، وتفريق الصفوف .. وموقفنا هذا مما يفرضه حق الأمة والوطن على جماعة تدعو إلى الإصلاح ، لاتبتغى من الناس جزاء ولا شكوراً » .

ومع أن كلمة المرشد العام هذه لم يلقها بنفسه حيث كان فى ذلك الوقت خارج القاهرة ، وقد ألقاها نيابة عنه الأخ الأستاذ محمود عبد اللطيف .. فقد كان لما جاء بها صدى بعيد المدى فى الأوساط البريطانية والغربية .. حتى إن وكالة أسوسيتدبرس كلفت مراسلها فى القاهرة مستر إدوارد بولاك بمقابلة المرشد العام وإجراء حديث معه .

حديث المرشد العام مع وكالة الأسوستيدبرس :

وقد تمت المقابلة فى ٤ / ٦ / ١٩٥٣ ونشرت فى الصحف فى اليوم التالى .. ونورد نص هذه الأسئلة والأجوبة عليها كما نشرت :

س — ماهو رأى الإخوان المسلمين فى المرحلة الحالية للنزاع المصرى الإنجليزى بشأن الجلاء عن منطقة قناة السويس ؟.

جـ — لقد كان الإخوان يرغبون أن لاتصل العلاقات السياسية بين مصر وبريطانيا إلى المرحلة الحرجة الحالية . وكنا نأمل أن تقبل بريطانيا الحل الوحيد العادل والمعقول ؛ وهو الجلاء عن منطقة قناة السويس . وإذا كانوا قد فعلوا ذلك لكسبوا صداقة المصريين . ولكن أملنا لم يتحقق ؛ فلقد سيطرت العقلية الاستعمارية على وجهة النظر البريطانية ، وجعلتهم يذهبون إلى حد وضع شروط غير معقولة لإتمام الجلاء الذى تريده مصر — وإن هذا سيجعل المصريين جميعاً أعداء لبريطانيا حتى تسترد مصر حقوقها .

س — هل الإخوان المسلمون على استعداد للتعاون مع الحكومة فى أى إجراء تقرره

لتحقيق الجلاء عن القناة مهما يكن هذا الاجراء ؟ .

جـ— إن أحداً لايشك فى ذلك — ولو لم نكن موقنين بأن صبر الحكومة الحالى وانتظارها فى مصلحة مصر لسبقناها وخطونا الخطوات الضرورية التى يجب على مصر اتخاذها بشأن هذا النضال بجميع الوسائل الممكنة ضد القوات البريطانية . وعندما تقرر الحكومة أن الوقت قد آن للتحرك فستجد الإخوان المسلمين على استعداد للتجاوب بكل الإجراءات والعمليات الضرورية لتحقيق آمال مصر وحقوقها .

س — من المعلوم أن الإخوان المسلمين لديهم عدد من الأعضاء المدربين للقيام بشن حرب العصابات أو أى عمليات أخرى ضد القوات البريطانية فى منطقة القناة . وتقول الأنباء إن هذه التشكيلات ستتحرك إذا قررت الحكومة ذلك وفى الوقت الذى تقرره الحكومة . فهل تؤكد هذه الأنباء ؟ وإذا كان هذا صحيحاً فهل تستطيع أن ترسم الهيكل الخارجى لتفاصيل هذه التشكيلات واستعداداتها ؟ .

جـ— إن كل ما أستطيع الإفضاء به إليك هو أن الإخوان المسلمين مستعدون لأداء واجبهم . وإنى أفضل عدم الكشف عن تفصيلات أعتبر أن الموقف الحالى غير مناسب للكشف عنها .

س— هل تستطيع أن تفضى إلىّ ببعض المعلومات عن حالة الإخوان المسلمين الحاضرة مثل عدد الأعضاء المنتمين إليهم ، وعدد الشعب فى مصر وفى البلاد العربية الأخرى ؟ وهل ستشترك تشكيلات الدول العربية الأخرى فى القتال من أجل تحرير مصر إذا ما تقرر نشوب القتال ؟.

جـ— لم يعد اسم الإخوان المسلمين يعنى أنها منظمة وطنية أو قومية . فإنها الآن تقوم كرمز للمسلمين فى جميع أنحاء العالم ، تدعوهم أن يفيقوا ويتقدموا فى طريق نهضة قوامها التعاليم الإسلامية . وهذه التعاليم تهدف إلى حياة كريمة ؛ بما فى ذلك نشر التعليم والأخلاق الحسنة والمعيشية اللائقة فى مجتمع حسن التنظيم . وكذلك تنادى هذه التعاليم بوضع حد أدنى لمستوى المعيشة . وفى النهاية تطالب هذه التعاليم باستغلال منابع الثروة القومية ، والمحافظة على الاستقلال الوطنى قبل كل شيء — ونحن لانهتم بعدد الأعضاء المقيدين فى السجلات اهتمامنا برؤية مبادئنا تفهم على الوجه الصحيح ، ويتبعها أكبر عدد من الشعب فى مصر وفى الخارج .

أما عن الإخوان فى مصر فإنى أحب أن أؤكد أنهم منبثون فى جميع أنحاء القطر . وقد أنشئت المراكز فى جميع البلاد والقرى . ويعتبر الإخوان المسلمون الآن قادة الرأى العام

المستنير لشعب يدرك حقوقه وواجباته . وإن هدفنا الأساسى هو أن نرفع من مستوى أتباعنا وندفع بهم فى طريق الحق ؛ وبذلك نعينهم على تحمل مسؤلياتهم فى الوقت الحاضر .

وأما عن الإخوان المسلمين فى البلاد الأخرى فإنى لأود أن أقول أى شىء عنهم بسبب الظروف المختلفة القائمة فى كل من هذه البلاد . وكذلك فإنى أفضل أن لا أقيد نفسى بما إذا كانوا سيشاركوننا فى معركة القنال أم لا .. إلا أنى فى مركز يسمح لى أن أؤكد أنهم سيؤيدوننا بجماع قلوبهم ؛ هذا إذا لم يستطيعوا أن يشتركوا فى المعركة نفسها .

وإنى أود أن ألفت الأنظار إلى محاولات خبيثة تقوم بها بعض العناصر الغربية لإعطاء صورة كاذبة عن الإخوان المسلمين .. وهذه المحاولات تهدف إلى خلق شعور عدائى بين الإخوان والغرب

وإنى أعتقد أن العالم الغربى سيجنى أعظم الفوائد بمحاولته فهم مبادئنا فهما جيداً ، وبدراستها فى ضوء من العدل وعدم التحيز . وإنى لمتأكد أن العالم الغربى عند ذلك سيقتنع تمام الاقتناع بعظم الفائدة التى سيجنيها وسيقلع عن تصور الإخوان المسلمين فى صورة « شبح مخيف » تلك الصورة التى حاول البعض رسمها عن الإخوان .

وإنى لمتأكد أن الغرب سيجد فى الإخوان المسلمين أكثر العوامل كفاءة للعمل فى سبيل تقدم الإنسانية وتحقيق الرفاهية للشعوب ، واستقرار السلام بين الأمم المختلفة » .

* * *

وغير خاف عن القارىء — بعد أن قرأ هذا الاستجواب الدقيق — مدى اهتمام الحكومة البريطانية فى هذا الظرف الحرج باستطلاع رأى الإخوان المسلمين فى الموقف ، وفى القدر الذى قرروا بذله من التأييد للحكومة المصرية . وحسب القارىء أن يعلم أن المفاوضات قد قطعت فى نهاية مايو ، وأن هذا الاستطلاع تم فى الرابع من يونيو ، وأن لندن أعلنت تراجعها عن التعنت وتقدمت بخطوة إيجابية فى المحادثات فى ١٥ يونية .

* * *

الباب الرابع

تأثير قيام الثورة
فى التفاعلات الداخلية
فى الدعوة

مقدمــة

مقدمة

كان المفروض والمعتقد بل والذى يخطر ببال كل إنسان . وخطر فعلاً ؛ أن قيام الثورة ما هو إلا دعم للإخوان المسلمين وتقوية وإمداد جديد . وإذا كان من طبيعة الأشياء أن لا يخلو شىء من نقاط ضعف أو مواطن خلل ؛ فكان المنتظر أن يكون قيام الثورة علاجاً شافياً لهذه النقاط وتلك المواطن فى المجتمع الإخوانى ﴿ **كزرع أخرج شطأه فآزره** ﴾ .. فهل تحقق هذا الذى كان مفروضاً ؟.

أوردنا فى فصل سابق بياناً موجزاً عن التفاعلات الرئيسية التى كانت تنتاب الدعوة عندما تولى الأستاذ حسن الهضيبى منصبه فيها .. وقد أوجزناها فى تفاعلين اثنين هما : تمرد أولى القربى وتمرد أولى القوة . وألمحنا إلى أنهما كادا يعوقان الدعوة عن السير .. ولكن جهود الإخوان تمكنت بعون الله أن توقف هذين التيارين عند حد .. بل إنهما أمام الإجماع الإخوانى الدفّاق فى تأييد المرشد الجديد ، لم يكن فى استطاعتهما إلا أن يحنيا رأسيهما خضوعا وإذعانا .

وسارت الدعوة تشق طريقها ، وتألقت فى سماء مصر ، وشدت جميع الأنظار إليها ؛ تتطلع إليها فى شوق وتلهّف ؛ أنه قد حانت ساعة الخلاص ، وتحقق للناس ماطال انتظارهم له .. فقد قامت الثورة .. ولم يكن أحد يشك فى أن هذه الثورة هى ثمرة جهود ربع قرن واصلت فيه هذه الدعوة الليل بالنهار فى إيقاظ الشعب وتربيته وتثقيفه وتنظيمه .. وكان الأمر فعلاً كما اعتقد الناس .. ولكن ..

ولكن — وما أشق هذا الاستدراك على النفس — لم يكن أحد يعلم أن هؤلاء الذين ظهروا على المسرح كانوا يكنون فى قرارة نفوسهم غدراً بالدعوة التى تربوا فى أحضانها ، وقامت حركتهم فى كنفها وحمايتها .. وسرعان ما وضح الخلاف أو افتعل الخلاف بين هؤلاء وبين قيادة دعوتهم ..

أما نقاط الخلاف فقد أفردنا لها باباً تم فيه تمحيصها .. ولكن الخلاف فى الرأى لايفسد للود قضية ، وبهذا المعنى وعلى هذا الأساس سار الإخوان مع وجود هذا الخلاف على أسلوب النصح والتسديد والدعم والتأييد سواء فى أوقات الرخاء أو فى ساعات العسرة والحرج كما بينا ذلك فى الباب السابق .. آملين أن يتكفل الزمن بالتقريب بين الآراء ورجوع المخطىء إلى

الرشد والصواب .. ولكن هل وقف الأمر عند هذا الحد ؟

يبدو أن النفوس البشرية ذات تلافيف وسراديب وذات أعماق بعيدة ؛ بحيث لايعلم حقيقة ما فى أعماقها إلا الله وحده .. لقد سار الجميع مع الركب الإخوانى الهادر يحرز كل يوم نصراً ، ويجنى كل يوم ثمراً ، ويدكدك بأقدامه كل يوم صرحاً من صروح الظلم والاستبداد .. حتى أتى عليها جميعاً .. وتأهب سكانها للفرار مخلين للركب الهادر الميدان ، تاركين بين يديه الزمام .. وتقدم — فى حماية الركب الهادر — ثلة من رجال فتسلموا الزمام .. فلما تسلموا الزمام ماذا فعلوا ؟.

إنهم تنكروا أولاً للركب الهادر الذى رباهم وحمى ظهرهم .. فلم يتقيدوا بما كانوا قد عاهدوا الله عليه .. ثم إنهم بعد ذلك أرادوا أن يتخذوا منه مطية لأطماعهم .

إن الإنسان لايملك لإنسان ارتبط معه برباط شيئاً إذا تحلل هذا الإنسان من ارتباطه حتى ولو كان قد وثق هذا الارتباط بيمين .. ولذا فإن المرشد العام لم يقابل تحلل جمال عبد الناصر من بيعته وعهده بشيء سوى التفويض لله ولم يعتبرها المرشد العام كارثة الكوارث .. لأن الوصول إلى الحكم لم يكن هدفه .. فإذا كان نفر من أفراد هذه الدعوة قد خرجوا عن الجادة وجعلوا الوصول إلى الحكم هو هدفهم .. فليهنئوا بهذا الحكم ، ولتسر الدعوة فى طريقها المرسوم ، مؤيدة كل صواب ، محذرة من الجنوح إلى الأخطاء .. ولعل هؤلاء فى يوم من الأيام يفيئون إلى رشدهم ، ويرجعون إلى صوابهم .

لقد خرج على هذه الدعوة من قبل آخرون .. وتنكروا لها ، وحملوا عليها ، وافتروا عليها .. فلم يضرها ذلك فى كثير ولا قليل .. واستطاعت أن تواصل مسيرتها .. كان هذا هو شعور المرشد العام حين صارحه كبيرهم بالتحلل من العهد والبيعة .

ولكن كبيرهم هذا لم يكتف بالتحلل من العهد والبيعة ، بل أسر فى نفسه وطوى أحناءه على أطماع بالغة الخطورة لم تخطر على بال طائفة من التى خرجت على هذه الدعوة من قبل؛ إنه جعل خطوته التالية أن يسخر الدعوة لأطماعه .

إنه كان يفهم — من ثقافته التى تلقاها فى المحيط الإخوانى ، ومن احتكاكه بمختلف الهيئات — أن لابد للحاكم لكى يكون ثابتا فى حكمه — من قاعدة شعبية يستند إليها ، ويعتمد على تأييدها ، ويستمد سلطته من نفوذها الشعبى .. ويعلم كذلك أن الإخوان المسلمين هى الهيئة الشعبية ذات الجذور فى أعماق الشعب ، إنها الهيئة الشعبية المنظمة الغنية بشبابها ورجالها ونسائها ، وأنها الهيئة الوحيدة نظيفةالصفحة التى لم تثر حولها شبه من غش أو فساد أو استغلال ..

أية هيئة هذه التى لايحلم أى حاكم واسع الآمال إلا بها سنداً له ، ودرعاً يحميه ، وطوداً

يتسنم ذروته فلا تتطاول إليه الأيام ولا ترق إليه الأحداث !!؟.

إن جمال عبد الناصر دار بخلده كل هذا ، وطاردته نفس هذه الأحلام .. وما كان لإنسان فى مثل موقف عبد الناصر إلا ويدور بخلده كل هذا وتطارده هذه الأحلام .

وكل ما دار بخلد جمال ، وكل ما حلم به كان ممكناً تحقيقه فى عالم الواقع ، وبدون أدنى جهد ؛ لو أنه حفظ عهده وتمسك ببيعته .. لأن الإخوان أزهد الناس فى مظاهر الحكم .. ولو أرادوه ـــ كما قدمنا ـــ لسعى إليهم قبل ذلك بسنوات . ولقد سعى الهضيبى للقاء جمال عبد الناصر يوم ٢٨ يوليو ١٩٥٢ فى منزل صالح أبو رقيق ليقول له هذه الكلمات ، ويطمئنه على أن الإخوان المسلمين جميعاً من ورائه .

ولكن جمال عبد الناصر كانت له آمال أخرى وأحلام أخرى ـــ **وارتباطات أخرى** ـــ كان حريصاً على إخفائها .. وكان ولاؤه لهذه الارتباطات الأخرى يقتضيه أن يفوه للمرشد العام بهذه الكلمات .. وهذا كلام ربما جاء بيانه فيما بعد إن شاء الله .. والمهمة التى كان جمال يريد الإخوان لها قد تمت ونجحت الثورة ولم يعد له بهم حاجة ، وعليهم أن يخلوا له الميدان وحده لأنه لايستطيع أن يجمع بين الضدين .. واعتماداً على مايعلم من صدق وفاء الإخوان **لمبدئهم** ولوطنهم فإنه كان موقناً أنه إذا ماوقع فى مأزق فإنه سيجدهم ـــ رغم كل ذلك ـــ من ورائه .

لقد كان معه طوال الوقت وعلى مدى الأيام السابقة صلاح شادى وحسن العشماوى وعبد القادر حلمى وفريد عبد الخلق وصالح أبو رقيق .. ولكنه لم يفه بهذه الكلمة لهم .. لأن التوقيت المرسوم كان أن يفوه بها للمرشد العام نفسه فى الوقت الذى فاه بها له ؛ ولو أنه استطاع أن يفوه بها له دون أن يسمعها هؤلاء لكان أفضل له ، ولكن الظروف لم تكن لتسمح بذلك .

* * *

الفصل الأول

حاجة ملحة للعمل على «تميز الدعوة» من جديد

هدمت هذه الكلمات القصار فى هذا اللقاء صروح الآمال التى كان المرشد العام بناها على هذه الثورة والتى كانت جميعها تدور حول حكم خالص فى ظلال الوحى الربانى الهادى المبين .. كما لمح الرجل ماوراء هذه الكلمات التى سمعها من أطماع حول تطويع هذه الدعوة وتذليل عنقها لتكون فى خدمة هذه الأطماع .. وما كان للمرشد العام ـــ والوضع أضحى كما رأى ـــ إلا أن يكرس كل جهوده على أن لايختلط الحق بالباطل ، وعلى أن يظل للدعوة « تميزها » الذى اكتسبته وعاشت به حتى تسلم هو قيادتها .. وأحب هنا أن ألفت نظر السادة القراء إلى أن المحافظة على تميز الدعوة ليس بالأمر السهل القريب المنال ، وإنما هو أمر خطير ، ومهمة بالغة الصعوبة .. ولقد سبق لنا أن أفردنا باباً من قبل فى الجزء الأول من هذه المذكرات لمحاولة حسن البنا إبراز الإخوان المسلمين باعتبارهم فئة متميزة من الفئات الأساسية فى المجتمع المصرى ، وأشرنا فيه إلى طرف من الجهود الجبارة التى بذلها فى سبيل ذلك ، وما اعترض طريقه فى ذلك من مشقـات .. ومع ذلك فقد كان يريد أن يميز دعوته من دعوات وهيئات وجماعات كانت كلها موجودة معه على الصعيد الشعبى ؛ كما كان متاحاً له ما كان متاحاً لهذه الجماعات من وسائل .. ومع ذلك لاقى مالا قاه من مشقـات ، وخاض فى سبيل ذلك الغمرات ، وخرج عليه من خرج ..

ودارت الأيام .. وبعد أن بذلت الدعوة فى خلال عشرين عاماً أغلى ما تملك حتى تم تميزها .. واجه مرشدها الجديد موقفاً خطيراً يكاد يقوض البناء من أساسه .. إنه يراد للدعوة أن تميع وأن تطمس قسمات وجهها المشرق ، وأن تلعب أصابع « المكياج » فى هذه القسمات حتى تبدو فى الشكل الذى يريده الحاكم ..

والدعوة الإسلامية ـــ على مدى العصور ـــ لم تُنل إلا بهذا الأسلوب ؛ أسلوب التمييع والتحوير والتزييف .. لأن الدعوة الإسلامية هى فكرة قبل أن تكون دعوة ، وهذه الفكرة محددة المعالم .. فإذا أريد تطويع الدعوة فلابد من العبث أولا بالفكرة ؛ ومحاولة إفراغها من مضمونها أو تحريف هذا المضمون بالإضافة إليه أو الحذف منه أو التأويل السقيم لمعانيه .. ولا نقصد بالدعوة الإسلامية فى هذا الصدد الدعوة المحمدية فحسب ، وإنما هى الدعوة من لدن

إبراهيم عليه السلام حتى عيسى ومحمد عليهما السلام .. هذا كان دأب الذين أرادوا الكسب الحرام لأنفسهم سواء كان هذا الكسب مادة أو جاهاً أو سلطة .

أحس حسن الهضيبي كل هذه المعانى لحظة فاجأه جمال عبد الناصر يوم ٢٨ يوليو ١٩٥٢ بهذه الكلمات القصار التى أعلن له فيها تحلله من بيعته .. أحس بأن جهده كله يجب أن ينصب منذ تلك اللحظة على تحصين دعوته ، والإبقاء عليها متميزة واضحة المعالم ، ذات جدار عال شاهق يعيا كل جبار دون اجتيازه .. ولهذا أجاب جمالاً بهذه الكلمات التى تؤدى نفس المعنى تماماً « اسمع ياجمال .. ما حصلش اتفاق .. وسنعتبركم حركة إصلاحية .. إن أحسنتم فأنتم تحسنون للبلد . وإن أخطأتم فسنوجه لكم النصيحة بما يرضى الله » :: وفهم جمال نفس هذا المعنى الذى يقصده المرشد العام .

وقال المرشد العام عقب ذلك للذين حضروا هذه المقابلة من الإخوان هذه الكلمات : « الراجل ده ما فهش خير ويجب الاحتراس منه » ولم يكن هذا التعقيب منه إلا صدى لقوله تعالى ﴿ **والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض ؛ أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار** ﴾ .

والناظر فى هذه الآية والست التى سبقتها قد يرى فيها روعة وعجباً .. فقد بدأت بقوله تعالى ﴿ **أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟** ﴾ ثم يذكر عشر صفات لأولئك الذين علموا أنما أنزل من الله هو الحق ؛ جعل فى مقدمتها ﴿ **الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق** ﴾ ثم أتبع ذلك بقية الصفات ـــ ولكنه فى الآية السابعة التى نحن بصددها وهى التى تعرض لصفات النقيض لاتذكر إلا صفات ثلاثاً ليس غير وهى نقض العهد والميثاق ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ، ثم الإفساد فى الأرض ـــ وقد تومىء الآية بذلك إلى أن نقض العهد ـــ عادة ـــ إنما ينبعث من حصول الناقض على متاع من متاع الدنيا كمال أو سلطة كان يرنو إليهما ؛ فلما تحققا له دفعه الحرص عليهما إلى نقض العهد والميثاق ، وإلى قطع الصلات بينه وبين الذين كان قد تعاهد معهم وهم أصحاب الفضل عليه ، وكانوا أولى الناس بأن يعترف بفضلهم ويصل حبله بحبلهم ـــ ولما كان الحق لايتعدد ، وليس بعد الحق إلا الضلال . ومن تنكب طريق الحق لم يجد أمامه إلا طريق الفساد .. ولما كان هذا الناقض ذا قوة اكتسبها كما قدمنا فسلوكه طريق الفساد لايعود عليه وحده بالضرر بل يعود الضرر عليه وعلى غيره ممن تابعوه أو ممن ابتلوا به .

ومعنى أن حسن الهضيبى واجه فى ذلك اليوم موقفاً ألزمه أن يوجه كل جهوده للحفاظ على « تميز » الدعوة ، هو أن الدعوة رجعت إلى سابق عهدها فى عهد حسن البنا فاتخذت موقف الدفاع عن نفسها ، والذود عن كيانها .. ولكن الموقف فى هذه المرة أصعب من ذى قبل للأسباب الآتية :

١ ــ أن حسن البنا كان يدافع عن كيان دعوته ، ويعمل على تميزها ، ويحدد معالمها ــ وهو قائدها غير منازع ، وصاحب الكلمة المطاع ؛ لايخرج عن طاعته أحد من أتباعه .

٢ ــ أن حسن البنا كان يعمل على تميز دعوته ــ كما قدمنا ــ عن هيئات وجماعات كانت كلها معه فى المستوى الشعبى وأنه كان متاحاً له ما كان متاحاً لهم من وسائل .

٣ ــ أن الحكومات التى كانت تختلف معه أو تعاديه كان بينها وبين دعوته خط فاصل واضح المعالم يراه القريب والبعيد ؛ فصحف هذه الحكومات ترمى بصريح العبارة دعاة الحكم الإسلامى بالتأخر والرجعية .

٤ ــ أن وجود جيوش المستعمر على أرض الوطن مع وجود حكومات من المصريين تتعاون معه ، كان عاملاً من عوامل إبراز هذا الخط الفاصل الذى يراه الشعب بين الإخوان المسلمين وبين هذه الحكومات .

ولكن حسن الهضيبى هذه المرة واجه هذا الموقف وهو فى وضع نجمله فى الآتى :

١ ــ أنه دخل هذا الميدان وهو لا يزال قريب عهد بحرب شعواء شنها عليه عنصران من عناصر هذه الدعوة عنصر أولى القربى وعنصر أولى القوة .. وإذا كانت الظروف التى واجهت هذين العنصرين لم تكن مواتية لهما فخفت صوتهما ، وتواريا عن الأنظار .. فمن يدرى كيف يكون لهما من موقف إذا تغيرت الظروف ؟

٢ ــ أنه يريد المحافظة على « تميز » دعوته لاعن هيئات وجماعات شعبية وحسب ؛ وإنما يريد أن يحفظ لها تميزها أيضاً عن حكومة لايملك هو من الوسائل مثلما تملك .

٣ ــ أنه ليس هناك خط فاصل واضح بين هذه الحكومة وبين الدعوة بحيث يراه الشعب ، ويكون هذا أول ما يلفت النظر إلى التميز ؛ بل إن الشعب مستقر فى خاطره أن هذه الحكومة هى وليدة دعوة الإخوان المسلمين . بل الأدهى من ذلك أن الإخوان المسلمين أنفسهم مستقر فى خاطرهم هذا المعنى نفسه .

٤ ــ أن هذه الحكومة لم تعلن على الشعب ما يشتم منه ما يناقض الدعوة الإسلامية ، بل إنها تصرفت فى أول عهدها تصرفات توحى كأن أصحابها يمثلون هذه الدعوة ؛ مثل رفضهم ركوب السيارات المخصصة للوزراء والاكتفاء بركوب

سياراتهم الخاصة ، حتى إن بعضهم كان يركب الترام ، ومثل اكتفائهم فى الاجتماعات التى تطول لمجلس الوزراء أو لمجلس الثورة بتناول السندوتشات .. وما إلى ذلك من تصرفات طبعت فى أذهان الناس صورة عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد والرعيل الأول ، ثم اجتماعات لهم تتم فى بيوت الإخوان المسلمين .

كان هذا تصويراً مقرباً لموقف الأستاذ حسن الهضيبى المرشد العام للإخوان المسلمين فى الأيام الأولى لقيام الثورة ، ومع أنه موقف لايحسد عليه ، فإن مرور الأيام لم تزده إلا حرجاً ، ولم تخلع عليه إلا التفاقم والتعقيد .

* * *

الفصل الثانى

مواقف محرجة

الأستاذ عبد القادر عودة

قدمنا أن الثورة حين قامت ؛ أحس كل أخ من الإخوان المسلمين أن هذه الثورة ثورته ؛ لأنها أولا: كانت الخطوة المتوقعة التى لابد من حدوثها بعد أن وصل الإخوان بالشعب إلى هذه الدرجة العالية من الوعى والنضج والقوة ، وبعد أن أحاط الشعب بأعدائه الداخليين والخارجيين من كل جانب .. وكانت أشبه بالحمل الذى استوفى أشهره التسعة ، والكل فى انتظار لحظة المخاض ليسعدوا بالمولود الذى طال انتظاره . ـــ وثانياً لأن زملاء الأشخاص الذين ظهروا على المسرح من النظام الخاص أشاعوا فى مختلف أوساط الإخوان هذه الحقيقة ليطمئنوا إخوانهم فى كل مكان إلى أنهم حققوا لهم ما كانوا يأملون من حكم إسلامى كريم .. وقدمنا أن ذلك أشاع السرور والابتهاج فى نفوس الإخوان ؛ فأقبل بعضهم على بعض يتعانقون كما أقبل الكثيرون من إخوان القاهرة على « إخوانهم » من أعضاء مجلس الثورة يقبلونهم ويعانقونهم .

كان هذا شعور عامة الإخوان من أقصى البلاد إلى أقصاها .. ولم يكن أحد قد عرف بعد بانتكاس جمال عبد الناصر إلا المرشد العام وهذا العدد القليل من الإخوان الذين كانوا معه حين حضر المرشد العام من الإسكندرية يوم ٢٨ يوليو ١٩٥٢ والتقى بجمال فى منزل صالح أبو قيق .

كان موقف المرشد العام بعد هذه المفاجأة فى غاية الحرج .. كيف يواجه هذا الشعور الإخوانى الغامر وكل منهم يزف إلى الآخر التهانى .. والناس عموماً تشرئب أعناقهم إلى المركز العام للإخوان المسلمين يترقبون خطوته التالية من إعلان الحكم الإسلامى المرتقب ؟!.

كان على المرشد العام أن يرجع فى هذا أول ما يرجع إلى الهيئة التأسيسية للإخوان .. واجتمعت الهيئة فى جلسة غير عادية .. وبدأ المرشد العام ينقل إلى المجتمعين ـــ مترفقاً ـــ

صورة الانتكاسة التى فاجأته .. فماذا كان وقع حديثه ؟.

كان لحديثه وقع مختلف ؛ طائفة كانت تربطهم بجمال وزملائه صداقة شخصية من قبل قيام الثورة .. وهؤلاء رأوا أن صداقتهم الشخصية تلزمهم أن يكونوا فى صف جمال وأن يدافعوا عنه دفاعاً منبعثاً من هذه الصداقة — وطائفة استبعدوا حدوث مثل هذا ، وحملوا الحديث على محمل المبالغة ، وطلبوا أن يمنحوا فرصة للتحقق من ذلك — وطائفة صدمتهم هذه الصورة ولكنهم تذكروا أن قلب العبد بين إصبعين من أصابع الرحمن ، وأن للسلطة فتنتها ، فليس بغريب أن يقع ماحدث .

ونحمد الله أن كانت الأغلبية الساحقة من الأعضاء من الطائفة الأخيرة .. ولكن الذى جعل للطائفتين الأخريين — على قلة عددهما — وزناً أن كان على رأس الطائفة الثانية أخ من أكرم الإخوان ومن أقربهم إلى نفوسنا جميعاً ، وكان منصبه فى الدعوة يعطى للخلاف وزناً آخر ؛ ذلك هو الأخ الكريم الأستاذ عبد القادر عودة وكيل الإخوان المسلمين.

راح الأستاذ عبد القادر يتصل بجمال ويسأله عن هذه القضية الخطيرة .. وجمال ينكر ما قاله للمرشد العام ويقول : كيف أقول هذا وأنا رجل من الإخوان المسلمين .. إننى قلت إننا سنحكم بالقرآن ولكن الظروف الآن لاتسمح بذلك ، ولابد من تذليل العقبات وتهيئة الجو للحكم بالقرآن ولابد من فترة نستطيع خلالها أن نحقق ذلك .

وتعقد جلسات غير عادية متقاربة للهيئة التأسيسية لمعالجة هذا الخلاف الخطير — وفى كل اجتماع يقف الأستاذ عبد القادر ناقلاً لنا ماسمعه من جمال عبد الناصر ومدافعاً عنه ومطالباً بتأييده تأييداً مطلقاً ، وكيف لانؤيده تأييداً مطلقاً وهو أخ لنا — ويحاول المرشد العام أن يوضح للأستاذ عبد القادر حقيقة الموقف ، ويحذره من مغبة التأييد المطلق ، ومن الإسراف فى حسن الظن ، ومن الانخداع بالألفاظ .. ويجد الأستاذ عبد القادر أصوات التأييد لكلامه من الطائفة الأولى .. ويحاول غير قليل من الطائفة الثالثة معه أن يخففوا من اندفاعه وأن لايشتط فى لهجته .. ولا يزيده ذلك إلا إصرارا .. حتى صارت جلسات الهيئة صراعاً حاداً بين طائفتين اثنتين : الطائفة الأولى وعلى رأسها الأستاذ عبد القادر والطائفة الثالثة وعلى رأسها المرشد العام ؛ وقد تلاشت الطائفة الثانية حيث اقتنعت وانضمت إلى الطائفة الثالثة — وصرنا نخرج من هذه الجلسات وقد عصر الغم قلوبنا ولا ندرى كيف الخروج من هذا المأزق الخطير الذى يهدد بتدمير الدعوة من داخلها .

كنا نعلم من أول الأمر أن بيننا عدداً قليلاً من أعضاء الهيئة يرتبطون بجمال ارتباطاً شخصياً — ومع ذلك لم نكن نعتبر ذلك انشقاقاً حيث لاخطر لهم ..

ولكن الأستاذ عبد القادر وكيل الإخوان يكون على رأس هؤلاء ، ويتحدى المرشد العام على رؤوس الأشهاد .. إنها الداهية الدهياء والفتنة العمياء والطامة الكبرى .

لقد كان الأستاذ عبد القادر بموقفه هذا خسارة فادحة للدعوة ، وكسباً عظيماً للطرف المناوىء للخط الذى عرضه المرشد العام واعتمدته الهيئة التأسيسية فى تعاملها مع الثورة ـــ ولم يكن المرشد العام يطلب من الهيئة معاداة الثورة ولا مناوأتها وإنما يطالب بتأييدها فيما تحسن وبتوجيه النصح لها فى غير ذلك .. وهو كلام ليس بالجديد فهو نص ماقاله المرشد العام لجمال عبد الناصر .

استحداث منصب جديد .

كان أعضاء الهيئة التأسيسية حريصين كل الحرص على أن يكون هذا الخلاف محصوراً بين جدران أربعة هى التى تضم جلسات الهيئة ، وأن لايخرج عن حدود هذه الجدران فيكون مثاراً للخلاف فى جماهير الإخوان فيحدث تفرقاً وتحزباً وتمزقاً .. وقد استطاع أعضاء الهيئة ـــ إلى حد كبير ـــ تحقيق ذلك .. ولكن جمال عبد الناصر كان ينقل إليه كل مادار فى هذه الجلسات عن طريق أصدقائه الشخصيين من أعضاء الهيئة .. ولم يكونوا يرون فى ذلك خروجاً على توصية الهيئة بحجة أنهم يرون أن جمال عبد الناصر أخ من كبار الإخوان ومن حقه أن يعلم بمثل ما يعلم به عضو الهيئة .

ولما كان الأستاذ عبد القادر ـــ وهو من لايشك فى حسن نيته ـــ أثيراً لدى أعضاء الهيئة وغيرهم من سائر الإخوان . وكان على الأخص أثيراً لدى المرشد العام ؛ فقد كان هو الذى رشحه وكيلًا للإخوان المسلمين ـــ وكان انحيازه إلى هذا الموقف بل تزعمه له ؛ عائقا يحول بينه وبين تأدية وظيفته فى النيابة عن المرشد العام فى تمثيل الدعوة أمام مختلف الجهات لاسيما أمام الحكومة .. وقد عز على المرشد العام وعلى أعضاء الهيئة أن ينزعوا عنه هذا المنصب ـــ فقد رؤى إبقاؤه فى منصبه وإنشاء منصب جديد هو منصب « نائب المرشد » واختارت الهيئة لهذا المنصب الأخ الدكتور خميس حميده على أن يتفرغ لهذا المنصب .

وواضح تمام الوضوح أن إنشاء هذا المنصب وإسناده إلى الأخ الدكتور خميس متفرغا له ، قد حجب الأستاذ عبد القادر عوده عن أن يكون ممثلًا للدعوة نيابة عن المرشد العام ـــ فى الوقت الذى لم يبد أمام جمهور الإخوان ما يشعرهم بانتقاص من مكانة الأستاذ عبد القادر أو المساس بكرامته .

قضية :

أحس وأنا أسطر هذه السطور ـــ متوخياً الأمانة التاريخية ـــ أنى أصادم عاطفة

متأججة فى صدور الكثرة الغالبة من قراء هذه السطور .. فلا شك فى أن الأستاذ عبد القادر عوده يحتل فى قلوبهم سويداءها حباً واحتراماً وتقديراً . ولعلى أكون أكثرهم حباً واحتراماً وتقديراً ؛ فقد كان لى الأخ الحبيب ، والصديق الصدوق .. وهو من أقرب الإخوان الى قلبى ، وأحظاهم باعجابى وحبى .. ولكن هذا لايمنعنى وأنا أسطر مذكرات للتاريخ أن أثبت ماله وما عليه ؛ ولن ينقص ذلك من قدره عندى .. وبهذه النظرة المتجردة من كل هوى أرجو أن يتقبل القارىء ما أسطر فى هذه المذكرات التى لاأرجو من ورائها إلا رضا الله ونفع الناس ﴿ **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾ .

لقد كان الأستاذ عبد القادر من أحب الإخوان إلى الأستاذ الإمام . وكثيراً ما كان يذكره لنا بالفخر والاعتزاز . وظل ـــ رحمه الله طيلة أيام الإمام يشغل منصبه فى القضاء .. فلما تولى الأستاذ الهضيبى منصب المرشد العام كان الأستاذ عبد القادر أقرب الإخوان الى قلبه ؛ ولعله هو الذى أوحى إليه أن يترك منصبه فى القضاء ليكون بجانبه .. وهنا بدأ الاختبار ..

والاختبار هنا ليس اختبار الإيمان ، ولا إختبار الإخلاص ، ولا اختبار الفهم والعلم والإحاطة ، ولا اختبار المقدرة الكتابية والخطابية ولا اختبار التفانى فى الدعوة .. فكل ذلك كان قد إجتازه من قبل وبذ فيه وتفوق... ولكن الاختبار هنا كان اختيار المقدرة الإدارية ومدى فهم المواقف وقراءة ما بين السطور وما وراء الألفاظ ، والتعامل مع الأحداث المرتقبة كأنما حدثت ، والقدرة على الاحتفاظ دائما بخط رجعة يرجع إليه إذا ما أخلفت الظنون ورحم الله الذى وصف مثل هذا الرجل فقال :

الألمعى الذى يظن بك الظـ ـــن كأن قد رأى وقد سمعا

ولا أكتم القارىء سراً فى هذا المقام فأذكره بالحديث الذى كان قد دار بين المرشد العام حسن الهضيبى وبينى قبل الثورة فى دمنهور والذى أثبته فى الجزء الثانى من هذه المذكرات ، وجاء فيه على لسان المرشد العام فى سياق تقييمه لمن حوله من الرجال فذكر شخصية أغفلت ذكر اسمها آنذاك واكتفيت بنعتى لها بأنها شخصية هامة فى الدعوة فوصفها بالإيمان والإخلاص والعلم،ولكنه لم ير فيها الدقة التى كان يأملها فى التعامل مع المواقف،وأشار بكلمة فرنسية تعبر عن هذا المعنى ـــ لاأكتم القارىء سراً إذا قلت الآن إن هذه الشخصية كانت الأستاذ عبد القادر عوده .

لم يطعن الأستاذ الهضيبى فى إيمان الرجل ولا فى إخلاصه ولا فى علمه ولا فى تفانيه ، وإنما قيمه فى هذه الناحية التى نتحدث عنها والتى جربه فيها .

ولسائل أن يسأل : لما كان تقييم المرشد العام للأستاذ عبد القادر هو هذا التقييم فلم لم يعمل على تغييره ؟ ونجيب على هذا السؤال فنقول : إن الأحداث فى ذلك الوقت لم

تكن من التشابك والتعقيد بحيث يلحق من تعوزه هذه الصفات ضرراً بالدعوة . كما أن المرشد العام كان هو الذى يقوم بالاتصالات بنفسه ، ولم تكن الظروف تحتاج لأكثر من ذلك؛ بل إنها لم تكن تسمح بغير ذلك .. يضاف إلى هذا أن قلقلة هذا الوضع بغير دليل ملموس قد يثير الخواطر ، ويبعث على الشكوك ، ويزعزع الثقة .

ونصل بذلك إلى لب القضية وتتلخص فى سؤال يقول : هل اجتماع العلم والفضل والإخلاص والتفانى والورع فى رجل كاف وحده لإسناد منصب الإدارة والقيادة إليه أم لابد من صفات أخرى يشترط توفرها فيه حتى يكون لائقاً لهذا المنصب ، منتجاً فيه؟.

ولعل كلمة عمر رضى الله عنه المأثورة تومىء إلى شىء مما نحن بصدده حين قال : « أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوى » ـــ وتحت كلمتى الأمين والقوى تندرج كل المؤهلات المطلوب توافرها فيمن يرشح لمنصب قيادى ـــ كما قد يومىء إلى شىء من ذلك أيضاً ترشيح عمر رضى الله عنه ستة من كبار الصحابة ليختار أهل الرأى أحدهم خليفة له،ولم يكن من بينهم ولده عبد الله بل جعله مجرد شاهد عليهم مع علو كعب عبدِ الله فى العلم والصحبة والفضل والورع .

وقد يكون من ألزم لوازم من يتولى منصباً قيادياً أن لايكون سريع التأثر سريع الاندفاع ، وأن يكون قادراً على إلزام نفسه بحدود لايتعداها فى الحب والبغض .. وهذا ما أشار إليه الحديث الشريف من قول رسول الله ﷺ « أحبب حبيبك هوناً ما ، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما وأبغض بغيضك هوناً ما ، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما » .

على أن التجربة هى أساس الحكم على إنسان من حيث جدارته لما أسند إليه من منصب ـــ ولقد كان من كبار الصحابة رضى الله عنهم من كانوا من أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ ، ومع ذلك لم يستعملهم فى مناصب القيادة أو مناصب الحكم والإمارة ، واستعمل من هم دونهم مكانة لديه وقدراً .. ولم يكن هذا مطعناً فى هؤلاء الصحابة الكبار بل ظلوا مع ذلك موضع حب رسول الله ﷺ وتقديره وتقدير إخوانهم وتقدير الأجيال إلى يومنا هذا وإلى ما شاء الله .

ونرجع إلى السياق فنقول إن موقف الأخ الأستاذ عبد القادر كان مفاجأة غير سارة ، وكان عائقاً جديداً أضيف إلى عوائق أخرى لم يكن حدوثها مفاجأة لأنها كانت ذيولاً لمواقف سابقة .. وقد تلقى المرشد العام مفاجأة الأستاذ عبد القادر بصبر وأناة وجلد ، وترك للزمن بما يتمخض عنه من أحداث أن يكشف له ما عجز عن كشفه من حقائق فى ذلك الوقت :

ستبدى لك الأيام ماكنت جاهلاً ويأتيك بالأنباء من لم تزود .

ونستطيع الآن أن نقول : إن الأيام قد أبدت للأستاذ عبد القادر ما كان يجهله ؛ ولكن بعد فوات الوقت المناسب — وندع بيان ذلك إلى مواضع أخرى من هذه المذكرات إن شاء الله .

* * *

الفصل الثالث

مواقف محرجة
الشيخ الباقورى

كانت المفاجأة الثانية التى تلقاها الرجل الصابر المحتسب المرشد العام ، وكانت بتعبير آخر : اللطمة الثانية .. وهى مفاجأة ولطمة لأنها أصابته فى أقرب الإخوان إليه .. فالأولى كانت فى الأخ الذى اختاره ليكون وكيله ، والثانية كانت فى الأخ الذى تحدثت عنه فى الجزء الثانى من هذه المذكرات حين التقيت به فى دمنهور ، ووجدته فى صحبة المرشد العام الجديد ، وعلمت بعد ذلك أنه رفيقه فى رحلته فى الوجهين البحرى والقبلى ورأيت كل من أراد أن يستفسر من المرشد العام عن شىء من تفاصيل الرحلة يحيله إلى هذا الأخ الذى تفرغ لمرافقته .

وإذا أراد قارىء أن يعرف مدى مصيبة المرشد العام فى هذا الأخ فليقرأ ماكتبت عنه فى الجزء الثانى من هذه المذكرات ومارأيته ومادار بينى و بينه من حديث .

ولكننى أنا شخصياً ـــ حين علمت بما كان من أمر الشيخ الباقورى ، ومما كان مفاجأة للكثير من الإخوان ـــ لم يقع منى ذلك موقع المفاجأة ؛ ذلك أننى سبق أن حللت شخصيته بعد طول صحبة وصداقة ومعاشرة ، فرأيت فى أعماقه شخصية الشاعر الذى تحكمه العواطف وتسيره حيث شاءت ، وإن كانت على كل حال لا تجنح به إلى الحرام ، ولا تقوده إلى منكر ـــ ولهذا فإننى بالرغم من كل ما وقع منه لاأفقد حبى له مع علمى بأن هذا يغضب الكثيرين ، ولكنى لاأبالى مادمت أقرر حقيقة أحسها ـــ وأعتقد أيضاً أن الأستاذ حسن الهضيبى المرشد العام ـــ مع كل ما حدث من الشيخ الباقورى ـــ فإنه لم يفقد حبه له ؛ لأن الرجل ـــ حسن الهضيبى ـــ كان مرهف الحس ، عميق النظرة ، سرعان ماتسعفه بصيرته بحكم صادق دقيق على من يتعاملون معه ، ويحتكون به ؛ فهو قد عرف عن الباقورى ما عرفت ، فأصدر فى شأنه حكمين فى وقت واحد : حكم أعلنه على الملأ حفظاً لكيان الدعوة وإبقاء على تميزها وتنفيذاً لقانونها الأساسى ، وحكما آخر لم يعلنه واحتفظ به لنفسه .

أما الحكم الذى أعلنه فيقضى بتبرئة الدعوة من تصرف تصرفه دون الرجوع إلى الهيئة التى ينتسب إليها ؛ فقد استجاب لطلب الحكومة فى تقلد منصب الوزارة فى الوقت الذى هو يعلم أن استجابته الشخصية هذه تجرده من أن يكون فى منصبه هذا ممثلا للدعوة ؛ فكان الإجراء الطبيعى أن يعلن المرشد العام فصله من الإخوان المسلمين — ولكن المرشد العام — ترفقاً به لما يعلم من طبيعته — طلب منه أن يستقيل فامتثل وأعلن ذلك فى الصحف ؛ فقد جاء فى « أخبار اليوم » فى ١٣ / ٩ / ١٩٥٢ مانصه : « اتصل الأستاذ حسن الهضيبى رئيس جماعة الإخوان المسلمين بجميع الصحف ليلة تأليف وزارة محمد نجيب ، وطلب إليها أن تنشر على لسانه أن الأستاذ أحمد حسن الباقورى قد استقال من الإخوان قبل قبوله المنصب الوزارى .» .

وأما الحكم الذى لم يعلنه المرشد العام فتستطيع أن تراه فى ثنايا ما حدث مما انتهى إلى هذه النهاية ثم ماحدث بعد ذلك فقد، جاء فى كتاب «الصامتون يتكلمون» من رواية الأستاذ صالح أبو رقيق نقلاً عما سمعه من المرشد العام إذ يقول: جلس المرشد فى صالون منزله حزيناً لخروج الباقورى على إجماع مكتب الإرشاد — وقرب منتصف الليل وصل الشيخ الباقورى إلى منزل المرشد وصافحه وقبل يده وقال : أنا تصرفت .. وأتحمل نتيجة تصرفى . وأنا مستعد أن أستقيل من مكتب الإرشاد .

ورد الهضيبى : لسه؟! وقال الباقورى : ومن الهيئة التأسيسية .

ورد الهضيبى : لسه. وقال الباقورى : ومن جماعة الإخوان المسلمين .

ورد الهضيبى : هكذا يجب .

وطلب الشيخ الباقورى ورقة وكتب استقالة من جماعة الإخوان المسلمين .. وانصرف.

وفى صباح اليوم التالى توجه المرشد إليه فى مكتبه بوزارة الأوقاف مهنئاً له . فقال له الباقورى : اعذرنى يامولاى .. إنها شهوة نفس .

فرد المرشد تمتع بها كما تشاء .. اشبع بها .

وهنا أقول : لاأعتقد أن هناك ما يدعو إلى تعليق على هذا الذى حدث لزيادة بيان و إلقاء أضواء على ما تنم عنه كل حركة وكل كلمة من حب دفين لم يستطع المرشد العام أن يتخلص من ربقته — ومن حب وتقدير لم يستطع الباقورى أن يخفيهما.

آمال الباقورى فى الإصلاح عن طريق منصبه :

على أننى أعتقد أن الباقورى قد أقدم على هذه الخطوة وفى ظنه أنه بتقلده هذا المنصب قد يستطيع أن يفعل شيئاً فى سبيل الدعوة أو يقدم خدمات للمجتمع . وأذكر بهذه المناسبة واقعة قد تؤيد ذلك فأقول :

كان من الطبيعى بعد الاستقالة أن لايحضر الباقورى إلى المركز العام ، غير أنه كان من عادته ومن عادتى أن نتردد على صيدلية الصليبة فى حى الخليفة وهى صيدلية كان يملكها الأخ الدكتور جمال عامر عضو الهيئة التأسيسة والذى كانت تربطنى وتربط الباقورى به صداقة قديمة .. وقد ظننت أن تقلد الباقورى منصب الوزارة ــ وكان لمنصب الوزارة حتى ذلك الوقت جلال ومهابة ــ سيحول بينه وبين تلك الجلسة التى كنا نجلسها مع الدكتور جمال عامر فى صيدليته التى تقع فى شارع عتيق ، والصيدلية نفسها كانت من الطراز العتيق .

وحبستنى ظروف العمل الشخصى والعمل فى الدعوة فى تلك الفترة عن زيارة الصيدلية مدة طويلة . ثم حملنى الشوق على زيارتها . فلما التقيت بالأخ الدكتور جمال قال لى : إن الشيخ الباقورى يريد أن يقابلك . فقلت له : وكيف اتصل بك ؟ قال : إنه يحضر هنا كالمعتاد وإن كانت ظروف عمله قللت من حضوره .. فسألته لماذا يريدنى ؟ فقال : لاأدرى ــ ومع أننى كنت فعلاً أتحاشى لقائى معه لما قد يكون فى ذلك من حرج ، فقد حدد الدكتور جمال موعداً والتقينا فيه عنده بالصيدلية . ودار الحديث بيننا على الوجه الآتى : بدأ الباقورى حديثه بأنه يعلم أنه بتصرفه الذى تصرفه لم يعد له من حق فى إلزام الإخوان بشىء ولا مطالبتهم بشىء ، ولكن ذلك لايحرمه الاستمتاع بحقوق الصداقة بينه وبين من تربى معهم من الإخوان ــ وقد بادلته هذا الشعور . ثم قال : وبحق ما بيننا من صداقة سأعرض عليك عرضاً . إننى توليت وزارة الأوقاف وأحب أن أبذل كل جهدى فى إصلاح شؤن هذه الوزارة وأنقيها من الفساد حتى يعم نفعها المجتمع الإسلامى .. وقد وجدت مرفقاً عظيم الأهمية فى هذه الوزارة لاخبرة لى به ، ولكنى علمت أنه لايدر على الوزارة ما كان ينتظر منه من ريع .. وفى اللحظات التى كنت أستعرض فيها شؤن هذا المرفق خطرتَ فى بالى ؛ فأنت رجل زراعى ، وخير من يؤتمن على إدارة الشؤن الزراعية فى وزارة الأوقاف . فما رأيك ؟ فقلت له : ياأخى والله إن عرضك هذا علىّ يقع من نفسى أجمل موقع لأنه نابع من حب وتقدير وثقه وأمل فى الإصلاح ــ وهو ما نشأنا عليه وتربينا عليه وأشربناه . ولكن الظروف المحيطة بالموضوع ظروف غير

مواتية لأستجيب لعرضك آسفاً ؛ فليس كل الناس يعلمون نبل دوافعك فى العرض ، ولا شرف مقاصدى فى الاستجابة ، وسيتقولون ، ولهم أن يتقولوا ؛ ومن سلك مسالك التهم أتهم ولا أجر له . فاعذرنى يا أخى إذا أنا تخلفت عنك فيما طلبت . وشكر الله لك ، وأسأل الله أن يعينك فيما تبغى من إصلاح .

واقتنع الباقورى وفى عينيه معانى التأثر وقال :يا أخى.. إنك قد تحتاج إلىّ فى أمر من الأمور ، فخذ هذا الرقم وهو رقم سرى لتليفونى الخاص بالوزارة .. فلما أبديت شيئاً من الممانعة فى ذلك ، فهم ماأقصد فقال : ماخطر ببالى أن مثلك يطلبنى فى أمر يعود عليه بمنفعة شخصية ، ولكنى أقصد أن هناك مظالم قد لاأعلمها وتعلمها أنت فيكون لك فضل توصيلها إلىّ .. وهنا أخذت الرقم .. ومع أننى فى تلك الفترة كنت مقيماً بالقاهرة فأذكر أننى لم أتصل به عن طريق هذا الرقم إلا مرتين . ولما كان الموضوعان اللذان اتصلت به من أجلهما موضوعين خطيرين ، ولكل منهما دلالة على عمق الفساد فى مجتمعنا كما أن لهما دلالة أيضاً على عقم وسائل الإصلاح التى لجأ هذا العهد إلى سلوكها فى مكافحة الفساد ؛ لهذا رأيت ــ معتذراً إلى السادة القراء ــ أن أستطرد فأعرضهما فيما أعرض :

المظلمة الأولى :

تلقيت خطاباً من والدى برشيد يطلب إلىّ الحضور فوراً . وما كان لى أن أتخلف . فلما وصلت إلى منزلنا وجدت عند والدتى جيرانا لنا منزلهم أمام منزلنا يبكون . وهم جيران طيبون وصالحون وأميون يعملون بالزراعة ، وقد أقاموا منزلهم هذا منذ أكثر من عشرين سنة . فسألت عن سبب البكاء فقالوا : إنهم بنوا منزلهم هذا على أرض حكر تابع للأوقاف ــ ورشيد مليئة بالأحكار ــ وقد حددت الأوقاف لهم إيجاراً سنوياً يحضر إليهم ساع من مكتب الأوقاف برشيد كل سنة بالإيصال ويدفعون له الإيجار .

ولكن ساعى الأوقاف تخلف عن الحضور سنة .. ولما كانت قيمة الإيجار زهيدة فقد عزموا على أن يدفعوا له إيجار السنتين معاً .. وفى منتصف السنة التالية فوجئوا بمحضر المحكمة يبلغهم بصدور حكم غيابى عليهم بهدم المنزل لتخلفهم عن الإيجار بالرغم من إنذارهم كتابياً مرتين وبالرغم من إخطارهم بموعد جلسة المحكمة وإعلانهم به مرتين ولم يحضروا .. وأخبرهم المحضر بأن هذا القرار قرار نهائى ..

إنها مصيبة حقاً تستحق أن أدعى لها من القاهرة لعلى أستطيع أن أفعل شيئاً أغيث به هؤلاء الجيران الطيبين ؛ حتى ولو بإعطائهم فرصة للبحث عن سكن لهم وهم عائلتان كبيرتان .. وقد علمت منهم أن شيئاً من هذه الإنذارات ومن هذه الإعلانات لم يصلهم ؛ ولو كان وصلهم لما تخلفوا عن تسديد هذه القروش ، ولو علموا أن هناك جلسة

فى المحكمة لما تخلفوا عن حضورها .. ولكن لابد أن هناك خطة مبيته دبرت بإحكام.

وبالتقصى وراء هذه الواقعة علمت بأن الأحكار المقام عليها مساكن فى رشيد كثيرة ، وأن هناك شبه عصابة متواطئة مع موظفى مكتب الأوقاف ومع الساعى بالذات على أن يختاروا الحكر الذى يسكنه ناس أميون طيبون ، ويمتنع الساعى عن تذكيرهم بدفع الإيجار ، وفى السنة التالية يرسل مكتب الأقاف إنداراً مرة أو مرتين وفى كل مرة يعمل على أن لايصلهم هذا الإنذار مع التوقيع على صورته بتوقيع مزور — وبمرور المدة المقررة ترفع دعوى من الأوقاف فى المحكة تطلب الحكم بالهدم لامتناع المستأجر عن دفع إيجار الحكر ، وتحدد المحكمة جلسة ويقوم المحضر المكلف بإعلانهم بالجلسة ويصنع المحضر ما صنع بالإنذار .. وتعقد الجلسة وتؤجل لجلسة أخرى ولا يحضرون فيحكم حكما غيابيا بالهدم ويكون الحكم فى هذه الحالة حكما نهائياً — ويهدم المنزل فعلاً وتسلم الأرض لمكتب الأوقاف الذى يقوم بإجراءات بيعها وترسو على هذه العصابة بثمن بخس .

فلما ألممت بالموضوع من جميع أطرافه ، وعلمت أنها ليست مصيبة هؤلاء الجيران وحدهم ، بل هى مؤامرة عامة أصابت غيرهم قبلهم وستصيب آخرين بعدهم ، وأن هذه المؤامرة لن تقتصر على رشيد بل تتكرر فى كل بلد فيه أحكار .. لما علمت ذلك رجعت فى أقرب وقت إلى القاهرة .

ومع أن معى رقم التليفون السرى للباقورى ، فقد حاولت أن أجد لهذه المعضلة حلاً عند غيره ، فذهبت إلى الوزارة ، وكان بها عدد من كبار موظفيها من الإخوان ، فاتصلت بهم وعرضت عليهم ، فأقنعونى بأن حكم المحكمة فى هذه الحالة لايستطيع أن يوقفه إلا الوزير شخصياً ، وحثونى على المسارعة بمقابلة الوزير قبل أن تنتهى المهلة التى أوشكت على الانتهاء لإجراء الهدم .. وهنا لم أر مناصاً من استعمال الرقم السرى وحددت المقابلة فى الحال .. وشرحت الموضوع للوزير فماذا فعل ؟.

أول شىء فعله أنه كال لى الشكر على أن أتحت له فرصة إنقاذ أسرة مظلومة من الضياع .

ثم طلب مدير الأحكار بالوزارة أمامى ، فلما حضر عرض عليه المظلمة التى كنت قد قدمتها إليه ، وسأله عن الإجراء الذى يتخذ لمنع الهدم فقال له إن الإجراء الوحيد أن تأمر فضيلتك شخصياً وكتابياً يوقف تنفيذ قرار المحكمة . فكتب فعلا ماأملاه عليه المدير . فلما هم المدير بالانصراف استبقاه وقال له :

هذه المظلمة وجدت من يوصلها إلىّ ، فما ذنب أصحاب المظالم المماثلة الذين لايجدون من يوصلها إلىّ ؟ هل يشرد الناس من مساكنهم ولا يجدون من يدافع عنهم ونحن

المسؤلون عن ذلك بين يدى الله ؟! خذ هذاالقرار : وكتب بيده القرار الوزارى التالى :

« ممنوع منعاً باتاً هدم أى مسكن مقام على أرض حكر للوزارة » ووقع بإمضائه على القرار ، وسلمه للمدير وصار بذلك قرار رسمياً أنقذ كثيراً من ضعفاء الناس .

المظلمة الثانية :

لم تكن المظلمة الثانية أقل شأناً ولا أدنى خطراً من المظلمة السابقة . وهى تتصل بموضوع التطهير. وقد سبق أن أشرنا فى الجزء الثانى من هذه المذكرات إلى مشروع للتطهير لجأت إليه وزارة الهلالى فى أواخر العهد الملكى ، وعلقنا عليه بما ملخصه أن التطهير بهذا الأسلوب غير مجد ولا يحقق الغرض منه . ولكن الحكومات تلجأ إليه باعتباره أسهل الأساليب لأنه لايكلفها أكثر من سن قانون تصدره دون مشقة — وإذا كان هذا الأسلوب يصلح فى مجتمعات الأصل فيها هو النقاء ، والفساد طارىء عليها ؛ فإنها لاتجدى فى مجتمعات صار الفساد فيها هو الأصل وصار النقاء هو الطارىء ، وأصبح الصالح فيها كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود .

وقدلجأت حكومة الثورة فى سبيل تطهير الأداة الحكومية من الفساد إلى إصدار قانون بإنشاء لجان فى كل وزارة للتطهير وإنشاء محاكم للتطهير تكون أحكامها نهائية .. وكم جَنَتْ هذه اللجان ومن بعدها هذه المحاكم على بقية من العناصر الطاهرة كانت لاتزال منبثة فى كثير من المصالح الحكومية — وإذا كانت هذه اللجان وهذه المحاكم قد أخرجت من الجهاز الحكومى عشرة فاسدين فقد قضت بجانبهم على مئة من الصالحين .. فهذه اللجان التى تكون فى الوزارات والمصالح الحكومية ممن تتكون ؟ أليست تتكون من العناصر ذات المناصب الرئيسية بها ؟ وهل أساس الفساد إلا هؤلاء ؟ فما الذى تنتظر من لجانٍ هؤلاء أعضاؤها إلا انتهاز هذه الفرصة للتخاص من كل من يعوق طريقهم إلى العيش الحرام ؟.

بينما كنت بمقر عملى فى القناطر الخيرية دخل علىّ الأخ ا . ع . ر. الذى غاب عنى عدة سنوات . والأخ «أ» مهندس زراعى من دفعتى وهو من الإخوان الخلص الذين تربوا فى أحضان الدعوة ، وكان مسكنه فى الجيزة ونحن طلبة فى الجامعة يعد شعبة للإخوان بالجيزة — ولما تخرجنا كان حظه أن يعمل فى وزارة الأوقاف فى تفاتيشها الزراعية .. وتدرج فى وظائفها حتى صار مفتش أوقافها بدمياط .. ولما كانت وظيفته تمكنه من اتخاذ قرارات ، فقد بدأ يعيد النظر فى الأوضاع التى ورثها عن سابقيه ؛ فلاحظ فيها أن الذين يئول إليهم استئجار أراضى الأوقاف كل عام هم أشخاص معينون لايتغيرون ، ولاحظ أن الإيجار يكاد يكون ثابتامنذ عشرات السنين ؛ مع أن هذا يتم — كما هو مفروض قانوناً — عن طريق مزاد أو ممارسة — فأخذ فى تنفيذ القانون .. وحاول معه هؤلاء

المستأجرون الدائمون بمختلف الأساليب ترغيباً وترهيباً واستعانة برؤسائه فى الوزارة ، ولكن شيئاً من ذلك لم يفلح فى ثنيه عن عزمه ـــ وآلت الأراضى لمستأجرين جدد وتضاعف الإيجار .

وأنشأت حكومة الثورة لجان التطهير ؛ ففوجىء صاحبنا بأنه مطلوب للمثول أمام لجنة من رؤسائه الذين ضارهم ماتم على يديه فى أراضى الأوقاف .. وَوُوجِهَ باتهامات غاية فى الغرابة ؛ اتهم بالسكر والعربدة ، واتهم بأنه طلب رشوة من المستأجرين القدماء فى مقابل إرساء المزاد عليهم .

ولما كانت هذه التهم مفتراة فقد اعتقد أنه سيفندها أمام المحكمة ، ولكنه أمام محكمة التطهير فوجىء بشهود زور شهدوا على كل واقعة افتريت عليه ، وبتقارير من رؤسائه تؤيد هذا الافتراء ـــ فذكر للمحكمة الحقائق كما وقعت ولكنه لم يجد من يشهد معه .. وإذا بقرار المحكمة يصدر بفصله من العمل .

وقد هالنى ماسمعت منه، فقمت لتوى وطلبت الباقورى فى التليفون، ووضعت أمامه المظلمة . وكنت أظن أنه يعرف هذا الأخ فتبين لى أنه لايعرفه ولكنه سألنى : هل تعرفه أنت ؟ فقلت نعم . قال : هل تثق فى خلقه ودينه ؟ قلت : إننى أثق فيه أكثر من ثقتى فى نفسى.. فقال: هذا يكفينى كما لو كنت أعرفه تماماً.. واستمهلنى لحظة حتى أحضروا له ملفه .. فلما جاءوا بالملف أخذ يقرأ لى التهم الموجهة إليه مما تشمئز منه الأسماع كما قرأ علىّ قرار المحكمة ـــ ثم أعاد علىّ السؤال عن مدى ثقتى فى هذا المحكوم عليه فأكدت له مازاده اطمئناناً وقال لى : إذن اسمع ماأكتبه وأخذ كلما كتب عبارة قرأها علىّ حتى ختمها ووقعها وشكرته .

وبهذا رفع الظلم عن هذا الأخ الكريم ، ولوأنه تأخر عن إبلاغى يوماً واحداً لما كان ممكناً تدارك الأمر .. ويستطيع القارىء الكريم أن يتصور كم من المظلومين راحوا ضحية هذا « التطهير » ممن لم يكونوا يملكون من الوسائل ماأتيح لهذا الأخ الحبيب .

استطراد داخل الاستطراد :

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر ، وإن كان هذا الشيء لايتصل بالأستاذ الباقورى فإنه يتصل بموضوع التطهير وما جنى هذا التطهير فى عهد الثورة فى أوائل أيامها على الشرفاء الأتقياء الأنقياء ، وما أتاح من فرص لرءوس الضلال والقذارة للتنكيل بالأطهار الذين كان وجودهم معهم فى العمل شوكة فى حلوقهم ، وعقبة فى طريق مطامعهم وكسبهم الحرام .

كان لى زميل وصديق من الإخوان المسلمين . دخلنا كلية الزراعة معاً وتخرجنا فيها معاً هو الأخ م . ع . ب ــ وقد عمل أول ماعمل فى مصلحة الفلاح وكان مقر عمله فى الصعيد . ولما كانت القاهرة هى مقر أهله وبها منزل أسرته فقد كان يتمنى أن يجد فرصة للعمل بالقاهرة .. وجاءت الفرصة حين أراد مدير مصلحة الفلاح أن ينقل قريباً له من مصلحة التنظيم بالقاهرة إلى مصلحة الفلاح ، ولم يكن ذلك ممكناً إلا عن طريق التبادل .. وتم التبادل وتسلم الأخ م . ع . ب عمله بمصلحة التنظيم مساعد مدير أعمال لحدائق مصر الجديدة ــ وكانت مصلحة التنظيم تقوم فى ذلك الوقت بعمل مجلس بلدى القاهرة حيث لم يكن قد أنشىء هذا المجلس بعد ــ وكان لهذه المصلحة سمعة سيئة لما كان معروفاً عنها من انتشار الرشوة فيها .

وبعد انقضاء فترة قصيرة على التحاقه بهذا العمل الجديد ، حان ميعاد تُكسى فيه أرض هذه الحدائق بطبقة من الطمى لتجديد حيويتها ــ ولم يكن السد العالى قد بدىء فيه بعد ــ وأعلنت المصلحة ــ كالمعتاد ــ فى الصحف عن مناقصة لتوريد عينات للطمى .. وقدمت العينات .. وكلها كانت من طمى جيد ، واختارت اللجنة ــ وكان هو عضوا فيها ــ أنسبها من ناحية المواصفات والثمن ، وسلمت العينة المختارة إلى صاحبنا محرزة مختومه بخاتم المصلحة .. وكان عليه باعتباره المسئول عن هذه المنطقة أن يتسلم التوريد نفسه أى كمية الطمى المطلوبة ..

فلما جاء التوريد فعلا وفحصه أخونا وقاس مواصفاته بمواصفات العينة لم يجد فيه شيئاً مطلقاً من مواصفات العينة ؛ فالعينة طمى صاف والتوريد تراب من تراب الشوارع ومن ناتج هدم البيوت القديمة ، وليس فيه طمى .. فما كان من صاحبنا بحسن نية إلا أن رفض التوريد .

وجاء صاحب التوريد وحاول معه بكل الأساليب المعروفة فلم تجد معه ، فاتصل به رئيسه تليفونيا فلم يقبل ، فاتصل به المدير العام للمصلحة فلم يقبل . وبحسن نية قال للمدير العام كيف ترجونى أن أقبل توريداً ليس به أى صفة من صفات العينة المقدمة ؟ فقال المدير : سأبعث إليك بلجنة تعاين التوريد . وجاءت اللجنة التى كانت مهمتها أن تقرر أن التوريد مطابق للعينة ، وقد أدت مهمتها شر أداء .

وتفاقم الوضع .. حيث صار على أخينا بعد قرار اللجنة أن يدافع عن نفسه وأن يثبت خطأ رأى اللجنة وإلا دمغ هو بأن رأيه خاطىء واستحق بذلك أن يجازى على هذا الخطأ .. وبلغ من تفاقم هذا الموضوع أن وصل إلى وزير الشؤن البلدية والقروية فى ذلك الوقت الأستاذ عبد العزيز على وكان من كبار رجال الحزب الوطنى القديم وله سجل حافل فى مقاومة الاستعمار ؛ فقام الرجل بنفسه وعاين التوريد وضاهاه بالعينة وكتب

بنفسه : إن الأمر لم يكن يحتاج إلى عينة لأن التوريد فعلًا ماهو إلاتراب من تراب الشوارع ومن هدم البيوت القديمة وليس فيه طمى .. فطعنت المصلحة فى رأى الوزير بحجة أن الوزير ليس فنياً .

واستمر الصراع فترة طويلة .. غير أن المصلحة لم تستطع أن تنال من أخينا إلا بمحاولات من رؤسائه ومرؤسيه لمضايقته .. حتى أتيحت للمصلحة فرصة الانتقام بإصدار حكومة الثورة تشريعاً بإنشاء لجان التطهير ومحاكم التطهير . فقدمته المصلحة إلى لجنة التطهير بقائمة من اتهامات مفتراة أقرتها اللجنة فى الحال ثم أحالته إلى محكمة التطهير ..

وكان الإخوان فى المركز العام متابعين هذا الموضوع بكل خطواته ؛ فلما وصل إلى هذه الخطوة قام الأخ الأستاذ منير الدلة المستشار فى ذلك الوقت بمجلس الدولة بلقاء زميله المستشار الذى يرأس محكمة التطهير وشرح له الموضوع بحذافيره ـــ فلما مثل أخونا أمام المحكمة وقدمت إليها الاتهامات مشفوعة بتقارير من الرؤساء مدعومة بشهود زور من عمال وموظفى المصلحة ومن المتعاملين معهم .. ولما انتهى عرض القضية قرر رئيس المحكمة النطق بالحكم بعد المداولة ـــ وفى أثناء المداولة طلب رئيس المحكمة أخانا المتهم وجلس معه فى حجرة وحدهما وقال له : ياأستاذ م . لعلك خدعت بالشعارات التى يطلقها هذا العهد فظننت أن الأمر جد لاهزل ، فرحت تتعامل مع هذا العهد على هذا الأساس فكان أن رأيت نفسك فى هذا الموقف .. ولولا أنى عرفت هذا الموضوع من صديقى الأستاذ منير لما كان بوسعى إلا أن أصدر حكمى بإدانتك وفصلك من العمل ، لأن الأدلة المقدمة إلى المحكمة مستوفية الشروط القانونية ومؤيدة بالشهود .. ولكننى سأعتمد فى حكمى فى هذه القضية على ضميرى لإنقاذك، على أن لاتسرف بعد ذلك فى حسن الظن .

أكرر معذرتى إلى القارىء الكريم فى هذا الاستطراد الذى كاد ينسينا الموضوع الأصلى الذى كنا نعالجه وهو مايتصل بالمفاجأة الثانية التى نشأت من تأثير قيام الثورة فى التفاعلات الداخلية فى الدعوة ، وكانت هذه المرة خروج الأخ الباقورى على قرار مكتب الإرشاد ، واشتراكه وزيراً للأوقاف فى وزارة الرئيس محمد نجيب .

وقد هيأ لنا الاستطراد ماكنا بصدده من إيراد الأدلة على أن هذه المفاجأة المؤلمة والتى انتهت بفقد الدعوة لأحد أبنائها الكبار لم تفقد المرشد العام ـــ من ناحية ـــ حبه الشخصى لهذا الأخ ، كما أنها ـــ من الناحية الأخرى ـــ لم تفقد هذا الأخ الكبير حبه وتقديره للمرشد العام .. ثم قررت بدورى أنها لم تفقدنى حبه .. وأوردت أمثلة لتصرفات تومىء إلى أن هذا الاخ وإن فقد موقعه فى الدعوة ، فإنه حاول جاهداً أن يعمل للمبادىء

التى تعلمها فى الدعوة ، والمثل التى أشربها فى موقعه الجديد .

وقد أضيف إلى هذه الأدلة دليلًا آخر أضعه بين يدى القارىء الكريم . ففى جريدة المصرى الصادرة فى ١١ / ٩ / ١٩٥٢ مايأتى :

سأل مندوب « المصرى » الشيخ الباقورى وزير الأوقاف عن أسباب استقالته من الإخوان فقال : « هى أسباب أحب أن أوثر بها نفسى . وليس من بينها سبب واحد يمس احترامى لإخوانى واعتزازى بهم ، فكل واحد منهم صغيراً كان أو كبيراً فى أعمق مكان من قلبى » .

عقوبة معجلة .

على أننى مع هذا لاأعفى الباقورى من خطأ استشراف نفسه إلى المناصب . وقلما تجد من لايستشرف إليها ؛ ولكن استشراف نفس رجل تربى فى أحضان دعوة تبلغ فى تربية أبنائها درجة يقربون فيها من صفوف الملائكة .. مثل هذه النفس هى أعز على الله من أن يدعها ترتع فى غيها فتضل وتشقى ، ولكنه لايلبث حتى يقدعها قدعاً يرد إليها رشدها فلا تجد لها ملجأ من الله إلا إليه .

لقد دفع الباقورى ثمن ماجارى نفسه فيه من الاستشراف إلى المنصب ؛ فلقد رفعوه إلى حيث كان يتمنى ويحلم .. ثم رفعوه أعلى من ذلك .. حتى كان عندهم فى يوم من الأيام عماد البيت وقطب الرحى .. ثم .. وبغير مقدمات .. ألقوا به من شاهق فلم ينزل على الأرض بل نزل إلى هاوية فتحطم .. وحسبك أن تعلم أن أعظم مصيبة تصيب إنساناً هى الفقد بعد العطاء .. ولم أقل نزل إلى الأرض ، وقلت نزل إلى هاوية لأن مصيبته تجاوزت مصيبة الفقد بعد العطاء إلى ماهو أشد منها وأفدح ؛ إذ لم يكتفوا بذلك بل تقولوا عليه الأقاويل ، وافتروا عليه الفرى ، وأغروا كلاب الناس به تلوك سيرته وتنهش عرضه .

وأعتقد أن ما أصاب الباقورى فى خلال تلك الفترة كان أشد إيلاماً مما أصاب الإخوان فى معتقلاتهم وسجونهم من ظلم وتعذيب .. لأن تعذيب هؤلاء لم ينل إلا البدن ولم يمس جوهر النفس التى كان رضاها عن نفسها . واقتناعها بأنها على الحق كان يهون عليها ما تلقى من آلام البدن .. أما من كان عذابه من داخل نفسه فإنه أشد العذاب .

ويوم استجاب الباقورى لدعوة هؤلاء الناس كان غائباً عنه . كما كان غائبا عن كثيرين غيره ؛ حقيقة لم أسمعها فى تلك الأيام الباكرة من أيام الثورة ؛ إلا من الرجل الصامت الرزين الثاقب الفكر البعيد النظر حسن الهضيبى ؛ فقد كان يقول لى ويقول لمن

يأنس فيهم كتمان السر : « إن هؤلاء الناس لايؤمن جانبهم .. فلنعاملهم بحذر » .. ولكن الباقورى نسى هذا التحذير أو تناساه أو اعتقدَ أنه ــ بحصافته ــ وهو حصيف ــ يستطيع أن يرقب بوادر الخطر فيتفاداه .. ولكن حصافته وشدة حذره لم تعصمه من انقلاب مفاجىء دون مقدمات ولا بوادر .

ولم تكن هذه العواصف الفجائية الغادرة من نصيب الباقورى وحده ، وإنما أصابت غيره كما أصابته ممن ذاقوا فى يوم من الأيام حلاوة الإيمان . وهو مانعرض له فى العنوان التالى .

من سياسة احتضان الخارجين :

هذه سياسة توخاها جمال عبد الناصر فى تنفيذ مخططه ضد الإخوان المسلمين ، فكان يقرب إليه من يرى فيه استعداداً لمناوأة الدعوة أو التمرد على قيادتها .. ولكننا فى هذا المقام لانعرض لذلك بمزيد بيان ، ونكتفى سيراً مع السياق باحتضانه الخارجين على الدعوة . ونورد المثال التالى فنقول :

سبق لى أن ذكرت أن صيدلية الأخ المرحوم الدكتور جمال عامر كانت مثابة لكثير من قدامى الإخوان ، حيث كان الدكتور جمال من أقدم الإخوان صلة بالدعوة ؛ فكان يأوى إليه هؤلاء الإخوان حتى الذين خرجوا منهم على الدعوة فى ظروف مختلفة ــ وكانت صيدلية الدكتور جمال وبيته ملاذى ومأواى ومبيتى بعد أن بعدت عن القاهرة مما يأتى تفصيله فيما بعد إن شاء الله .

ولعل القارىء الكريم يذكر ماجاء بالجزء الأول من هذه المذكرات من خروج الأخ ع.س.ا فى الفتنة الثانية ؛ وكان إذ ذاك لايزال طالبا بكلية الآداب .. ولكنه فى الأيام التى نتكلم عن أحداثها الآن كان قد تخرج فى الكلية وصار « دكتور ع.س.ا. الأستاذ المساعد بكلية الآداب .

غبت عن الأخ الدكتور جمال عامر سنتين فى المعتقل ، فلما خرجت كان الدكتور جمال من أوائل من كنت حريصاً على لقائهم .. وأخذ الدكتور يقص علىّ ــ فى ليلة بتها عنده ــ ماكان من أحداث وقعت فى غيابى .. وكان مما حدثنى به قصة هذا الأخ الدكتور ع.س.ا.

قال : مر علىّ بالصيدلية هذا الأخ منذ أيام ، وكان قد انقطع عنى بضعة أشهر . فلما سألته عن سبب انقطاعه قال : طبعاً أنت تعرف أن جمال عبد الناصر كان قد عيننى مستشاره السياسى الخاص . قلت نعم وقد أخبرتنى بذلك من قبل ..

قال : والذى لم أقله لك هو أنه كان لايقطع فى أمر دونى . وكان حريصاً على أن لا أفارقه لحظه ، لدرجة أننى كنت أذهب إلى منزلى فى فترة الغداء ، فإذا غبت قليلا طلبنى فى التليفون يستعجلنى .. وظل هذا دأبه معى أكثر من عام .. وفى يوم كذا (ذكر لى الدكتور جمال التاريخ الذى ذكره محدثه ولكنى نسيته) ظللنا نعمل سوياً حتى حان ميعاد الغداء ، فاستأذنت وأذن لى راجياً أن لاأتأخر لإتمام مابقى من العمل .

فلما ذهبت إلى منزلى ، وما كدت أرفع يدى من الطعام حتى سمعت جرس الباب يدق ففتحت الباب فإذا بعدد من ضباط البوليس الحربى .. فتعجبت وسألتهم عن سبب حضورهم فى هذا الوقت وماذا يريدون ؟ فأجابنى رئيسهم إجابة أذهلتنى وخلعت لبى ، وكدت أكذب سمعى ؛ إذ كانت إجابته هى هذه . الكلمات : مطلوب منك الآن أن تغادر البلاد .

فقلت : ومن الذى أمر بهذا وما السبب ؟ قالوا : هذا أمر الرئيس . وليس من حقك أن تسأل عن السبب .

فقلت : اسمحوا لى إذن أن أتصل به فى التلفيون .

قالوا : أمره يتضمن عدم السماح لك بالاتصال به .

قلت : وإلى أين أذهب ؟.

قالوا : لك أن تختار البلد التى تغادر إليها ، على أن يكون ذلك الآن . ونحن معك وسنقوم بتسفيرك اليوم .

قال الدكتور ع للدكتور جمال ؛ ولما كانت لبنان هى أقرب البلاد إلى مصر فقد اخترت لبنان . فأخذونى بحقيبة ملابسى من المنزل إلى الطائرة ، التى نقلتنى إلى بيروت وأنا ذاهل عن نفسى لهذه المفاجأة التى وقعت علىّ وقوع الصاعقة من السماء ؛ لاأعرف لها سبباً ، ولا أستطيع لها دفعاً .. ومكثت ببيروت سبعة أشهر رهين الفندق الذى نزلت فيه ، لاأستطيع الكلام مع أحد ولا حتى الالتفات يميناً ولا شمالاً .. حتى تمنيت أن لو كنت مت قبل هذا ، أو لو أننى كنت اعتقلت مع المعتقلين ، أو أودعت سجناً مع المسجونيين .

وأخيراً جاءنى من يحمل إذناً من الحكومة المصرية بدخولى مصر .. وأحاول الآن الرجوع إلى عملى بالجامعة . يقول الدكتور جمال : وقد سألته .. وبعد أن أنهيت فترة النفى ورجعت إلى مصر هل أمكنك أن تعرف سبب ذلك : قال : لا .

أوردنا موضوع هذا الأخ رحمه الله مع مانحن بصدده من موضوع الباقورى .. ليرى

القارىء مافعل الله بهما .. لقد عجل لهما العقوبة ، وأذاقهما مغبة استشراف نفسيهما إلى المناصب وركونهما إلى الظالم .. ولعله ــ جلت قدرته وهو المطلع على السرائر ــ هكذا فعل بهما لما يعلم مما هو واقر فى قرارة نفسيهما من بقية غطى على بشاشتها مااتبعاه من هوى .. وتعجيل المؤاخذة فى الدنيا دليل على سلامة جوهر النفس وصفائه ؛ وقد جاءت المؤاخذة لتذهب عن هذا الجوهر ماغشيه من ضباب حجب صفاءه.

بعد هذه الفصول الثلاثة فى هذا الباب باب تأثير قيام الثورة فى التفاعلات الداخلية فى الدعوة يأتى فصل رابع يتصل اتصالاً وثيقاً بهذا التأثير ولكن نظراً لخطورة هذا التأثير الرابع وفداحة نتائجه سنفرد له بابا مستقلاً إن شاء الله ، ذلك هو « العمل على احتواء قيادات النظام الخاص » .

* * *

الباب الخامس

مساجـد ضـرار

خطط للدوران حول الدعوة لتخريبها من الخلف

مقدمة

مقدمــة

إذا كانت نتائج الأمور تؤخذ من مقدماتها؛ فقد كان المتوقع إزاء موقف الإخوان المسلمين المسالم والمبالغ فى المسالمة ، حتى وصل إلى حد الثناء على الطرف الآخر واطرائه ووضعه موضع الآمال فى تحقيق الخير للأمة .. كان المتوقع أن يقابل ذلك بمثله من التجاوب، وإبداء روح التعاون والتواثق ؛ حتى ولو كان ذلك على سبيل المجاملة .

ولكن الذى حدث كان غير ذلك تماماً ؛ فقد سلك الطرف الآخر مسلكا مناقضا لما كان متوقعاً .. وإذا قلنا الطرف الآخر فإنما نقصد جمال عبد الناصر؛ لآن جمالاً قد استطاع ــ بتأثير نفوذه الشخصى ــ أن يحول بين زملائه فى مجلس الثورة وبين الاتصال بالإخوان ــ وقصر ذلك على نفسه وحده ، فكانت المقابلات تتم بين الإخوان وبينه ، وكان هو يقوم بنقل مايتم فى هذه المقابلات إليهم بالأسلوب الذى يراه .. ينقل إليهم مايرى نقله ، ويحجب عنهم مايشاء ، ويحور مايرى تحويره .. كل ذلك .. ليلقى فى روعهم أن الإخوان يريدون أن يكونوا أوصياء عليهم .. وماأعظم الفرق بين الناصح الخبير الأمين الذى يتمنى الخير لمن ينصحه ، وبين من يريد أن يفرض وصايته على إنسان فيحجر على تصرفاته ويتولى هو تصريف شؤنه .

على العموم .. استطاع جمال بهذه الأساليب أن يشحن إخوانه بشعور عدائى نحو الإخوان . ولم يكن الإخوان ــ بطبيعة الحال ــ يعرفون الطريقة التى كان جمال ينقل بها إلى زملائه المحادثات التى تتم فى مقابلاته ؛ولكنهم استطاعوا أن يلمسوا ذلك فيما كان يأتى على ألسنة زملائه فى كلمات كانوا يلقونها فى لقاءات جماهيرية لهم فى مختلف البلاد ـ ـ كما استطاعوا أن يلمسوا ذلك من مواقف نضرب لها مثلا فنقول :

فى أوائل أيام الثورة أهابت بالمواطنين فى أنحاء القطر أن يتقدموا لتلقى قسط من التدريب العسكرى الجاد . وأنشأت لذلك مراكز للتدريب فى مختلف الحواضر ، وزودتها بضباط من الجيش ــ ولما كان اختيار الأماكن المناسبة لهذا التدريب ليس ميسوراً لضباط غرباء عن هذه الحواضر ، فقد هب الإخوان فى كل حاضرة من هذه الحواضر للتعاون مع الضباط الموفدين واختاروا الأماكن المناسبة وأعدوها للغرض المطلوب ــ ثم كانوا هم أول من تطوع لتلقى التدريب ــ وكان هؤلاء الضباط من أسعد الناس بهذا التعاون .

وقام الإخوان فى كل حاضرة فيها مركز تدريب بنشر الدعوة بين جماهير الناس يحثونهم على التقدم لتلقى التدريب . ولما كان موضوع التدريب هذا أمراً جديداً على الناس ولا عهد لهم به ، فإنهم لم يسارعوا المسارعة الكافية بحيث تتكون منهم دفع كاملة ؛ فكان الإخوان يأخذون العدد الذى استجاب ويكملون الدفعة من شباب الإخوان .

وتوالت الدفع تلو الدفع ، والضباط المدربون فخورون بهذه الروح العالية ، وكادت هذه الروح تأخذ طريقها إلى نفوس الأهالى فى مختلف البلاد ؛ حيث يحتاج الناس لكى يتعودوا على أمر جديد عليهم إلى من يتقدمهم ليثير فيهم العزم ، ويبعث فيهم الرغبة .

وبينما الأمور تسير فى طريقها هذا الطيب المستقيم ، إذا بالإخوان يفاجأون بهؤلاء الضباط يتهربون منهم ، وإذا التقوا بهم قابلوهم بجفاء .. ووقع هذا التغير فى المعاملة أول الأمر من الإخوان موقع الدهشة والاستغراب ، وظن الإخوان فى كل بلد من هذه البلاد أن هذا الأسلوب الجديد هو سوء تفاهم خاص ببلدهم دون غيرها من البلاد .. ولكن وصول شكاوى إلى المركز العام للإخوان المسلمين فى القاهرة من جميع البلاد فى وقت واحد ، جعل الجميع يشعرون أن هناك تعليمات صدرت من مركز القيادة فى القاهرة بهذا المعنى .. ثم تأكد المركز العام بعد ذلك أن هذه تعليمات صدرت فعلاً .

وماذا كان للإخوان من موقف إزاء هذا الأسلوب المجافى للإخوة والود — لقد فهم الإخوان أن قيادة الثورة لاتريد أن ترى الإخوان بالذات يتدربون ، فصدر أمر من المرشد العام بتنفيذ هذه الرغبة وترك المجال لغيرهم .. وصدع الإخوان بالأمر وتركوا هذه المراكز لتتعامل مع الشعب مباشرة وأفسح الإخوان الطريق .. فماذا كان من أمر هذه المراكز ؟

إنها صارت مراكز شكلية .. صارت تتضاءل وينفق عليها ولا عمل لها حتى تلاشت .

كان هذا أول تصرف لفت نظر عامة الإخوان المسلمين إلى أن رجال الثورة بدأوا يغارون من الإخوان ويحقدون عليهم هذا التكتل الشعبى المنظم وإلا لما رفضوا من الإخوان هذا التعاون فى مشروع من مشاريعهم دون مقابل ..

ولقد كان الإخوان على حق حين قيموا الموقف على هذه الصورة فلقد تلا هذا التصرف تصرفات أخرى تؤكد هذا التقييم وتبرزه بأوضح صورة .. وهو مانتناوله فى هذا الباب إن شاءالله .

* * *

الفصل الأول

جمعية الفلاح
إصبع أمريكية من وراء ستار

فى جريدة أخبار اليوم الصادرة فى ١٣ / ٩ / ١٩٥٢ ورد بمناسبة استقالة الباقورى مايشبه أن يكون تحقيقاً صحفياً فيما حول هذه الاستقالة من ظروف وملابسات فقالت :

بدأ الخلاف عندما قام الدكتور أحمد حسين بإنشاء جمعية الفلاح .. ويقول الدكتور أحمد حسين : عندما بدأت فى تكوين جمعية الفلاح نمى إلى علمى أن الإخوان المسلمين يتوجسون خيفة من جمعية الفلاح ، وسيعملون على إفشالها ، مع أننى كنت أعتمد على عدد كبير من شباب الإخوان فى الجامعات . وكنت لاأرى أن فكرة جمعية الفلاح تتعارض مع فكرة الإخوان .. فالأولى تدعو إلى تكوين المواطن الصالح فى المجتمع الصالح ، والثانية تدعو إلى تربية المواطن الصالح تربية دينية تنمى فيه روح المواطن الصالح .. فأردت أن تتعاون الجمعيتان — كل بوسيلتها — نحو الهدف المتفق عليه لصالح المجموع .

فاتصلت بالشيخ الباقورى على غير تعارف سابق ، ودعوته إلى منزلى ، وشرحت له فكرة الجمعية وأهدافها — وبعد اجتماع استمر أكثر من خمس ساعات أبدى الباقورى استعداده للتعاون معى قائلاً : إننى كمواطن مصرى أؤيد جمعية الفلاح ، وأدعو لهابالتوفيق ، وعلى استعداد كامل أن أقوم بأى عمل لها يوكل إلىّ فى سبيل الخدمة العامة .. ولا أرى تعارضاً مطلقاً بين فكرة الإخوان وفكرة جمعية الفلاح .. ولاأظن أن فضيلة المرشد العام حسن الهضيبى يرى غير ذلك ، فالكل يجب أن يتعاون فى سبيل صالح المجموع .

تقول الجريدة : وافترق الرجلان على أن يرتب الأستاذ الباقورى اجتماعاً عائلياً يلتقى فيه الدكتور أحمد حسين بالأستاذ حسن الهضيبى — وتم هذا الاجتماع العائلى على مائدة الإفطار فى الأيام الأولى من شهر رمضان فى منزل الأستـاذ الباقـورى بحلوان ، وحضره الأستاذ حسين أبوزيد وزير المواصلات آنذاك والأستاذ جلال الدين الحمامصى رئيس تحرير « أخبار اليوم » .

وبعد الإفطار .. بدأت مناقشة طويلة بين الدكتور أحمد حسين والأستاذ الهضيبي . بدأت هادئة ، وتوسطتها حدة وعنف ، وانتهت كما بدأت إلى غير اتفاق — وكان الأستاذ الهضيبي واضحاً فى أنه بوجود جماعة الإخوان المسلمين لاداعى لتكوين جمعية الفلاح .

وقد حاول الأستاذ الباقورى أن يتدخل فى المناقشة أكثر من مرة ، لتلطيف حدتها ، وإعطاء فرصة للأستاذ الهضيبى لتقريب وجهات النظر ، ولكن مرشد الإخوان لم يتزحزح عن موقفه .

ولكى يكون القارىء قريباً من الصورة التى كان عليها النقاش نورد فقرة منه :

الدكتور أحمد حسين : إن التشريعات الاجتماعية الحديثة فى أرقى الدول تتفق وروح الدين الإسلامى، وإن كانت تقوم على أسس علمية وفقاً لتطورات البشرية .. فمشروعات الضمان الاجتماعى والتأمين الاجتماعى هى فى أساسها فكرة إسلامية — وقد عرف الإسلام مشروع « من أين لك هذا ؟ » قبل أن تصدره فرنسا بمئات السنين . والدين ينمى الصلات الروحية بين الناس . ولن ينجح عمل إذا لم يعتمد على قوة الروح . وهذا هو الفرق بين النظم الاجتماعية الحديثة وبين الشيوعية التى تعتمد على المادية فقط .

المرشد العام : إذا كان الأمر كذلك فلماذا لانطبق أحكام الإسلام بحذافيرها ..؟.

أحمد حسين — إننا نطبق أحكام الإسلام فى أصولها — ولكن يجب أن تتطور التفصيلات طبقاً لتطورات العصر . ففكرة الضمان الاجتماعى هى فكرة الزكاة ، ولكن طريقة التوزيع والتنفيذ تختلف باختلاف نظم الدولة الحديثة .

ثم دار نقاش طويل بين الرجلين على نص فى قانون جمعية الفلاح جاء فيه : تشترط الجمعية لعضويتها أن يكون العضو مواطناً صالحاً ولا تتدخل فى الخلافات الدينية أو الحزبية .

وبعد انتهاء الاجتماع قال المرشد العام للشيخ الباقورى : إنى سمعت أن الدكتور أحمد حسين له صلات بالأمريكان . ولم يستطيع الباقورى تكذيب ذلك » .

نقف إلى هنا مما جاء بصحيفة أخبار اليوم . ومن سياق هذه القصة ومن بين ثناياها نستطيع أن نخرج بملاحظات منها :

أولاً — أن الدكتور أحمد حسين فى الوقت الذى يعترف فيه بأن فى الإسلام كل ما فى النظم الحديثة بل إنه سبقها ؛ نرى فهمه لأصول الإسلام فهماً خاطئاً ؛ فهو يرى أن مصر فى ذلك الوقت محكومة بالأحكام الإسلامية ، ويرى الزكاة مجرد مساعدات مسقطاً بذلك كل أحكامها وحدودها ، معتبراً هذه الأحكام والحدود إنما

شرعت لعهد معين وقد انتهى العهد ، ولسنا الآن مقيدين بشيء من هذه الحدود والأحكام .

ثانياً ــ بعدأن اعترف بأن فى الإسلام كل ما فى النظم الحديثة بل إنه سبقها ؛ نراه يناقض نفسه ويريد أن يقصر مهمة الإسلام فى جمعيته على الناحية الروحية . أما التشريعات الجنائية والمدنية فإنه يستمدها من النظم الأوربية والأمريكية .. وهى نفس النظرة التى ينظرها الغربيون ــ ولهم عذرهم فى ذلك ــ إلى المسيحية .

ثالثاً ــ أن المتتبع لهذا النقاش حين يحلل ما قاله الدكتور أحمد حسين ، ويراجع ماوصل إليه التحليل من نتائج يكاد يجد نفسه أمام صورة جديدة من صورة جمعيات الماسونية وأخواتها مثل الروتارى واللونيز والتسلح الخلقى وإخوان الحرية ومايستجد من أسماء ؛ تلك الجمعيات ذات المبادىء البراقة فى مظهرها ، الهدامة في حقيقتها ، التى أنشأها اليهود ليصرفوا بها المسلمين عن دينهم ، ويحطموا عقيدتهم فى نفوسهم ؛ ويحلوا محلها عقيدة العالمية والإنسانية ــ كأن الإسلام قد خلا من هذين المعنيين الساميين ؛ مع أنه يقررهما ويدعو إليهما ، ويشيد بهما .. ولكن هناك فرقاً بين أن يعتنقهما فرد مدفوعاً إليهما بعقيدة تتصل بالسماء ، ترتب على اعتناقهما الثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة .. وبين أن يعتنقهما فرد مدفوعاً إليهما بمجرد آمال تكتنفها المطامع ، وتنبعث منها رائحة التمويه والتزوير .. أليس كتاب الله هو الذى يقول : ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾ أيّةُ عالمية هذه تلك التى يدعو لها القرآن ؟! أليس الخطاب هنا موجها للبشر جميعاً ؟!.

وهذا هو السبب الذى من أجله رفض المرشد العام الموافقة على قيام مثل هذه الجمعية ولا أشك فى أن الشيخ الباقورى فهم ما فهم المرشد العام . ولكن الاستشراف إلى منصب متوقع من وراء جمعية يرأسها ويدعو إليها رجل معروف عنه أنه يعمل لحساب أمريكا ، ويشترك فى عضويتها الوزراء أمر متوقع ــ ويبدو أن فشل الدكتور أحمد حسين فى التمويه على المرشد العام جعل الباقورى يحجم عن أن يكون عضواً من أعضائها ؛ فقد جاء فى نهاية ماأوردته الجريدة «أخبار اليوم» عن هذه القصة أن جمعية الفلاح تكونت وضمت عدداً من الوزراء واختير الباقورى مستشاراً لها .

أمريكا تحتضن ابنها المدلل :

هذا كل ما جاء بصحيفة « أخبار اليوم » عن هذه القصة .. وإكمالا للقصة نقول :

إن ملاحظة المرشد العام التى أسرّ بها إلى الباقورى فى شبه استفهام عما يشاع من صلات للدكتور أحمد حسين بالأمريكان ولم يستطيع الباقورى نفيها . هذه الملاحظة تحتاج إلى تجلية وبيان :

لما كان للولايات المتحدة الأمريكية وزن كبير فى السياسة العالمية، سيما مايتصل منها بالعالم العربى والإسلامى ؛ فقد كانت حكومات مصر على اختلافها تتخير لتمثيلها الدبلوماسى فيها أحسن العناصر وأقدرها وأقواها شخصية .. وفى أواخر الأربعينيات وقع الاختيار على الأستاذ كامل عبد الرحيم ليكون سفيراً لمصر فى واشنطن ، بعد أن تمرس بالعمل فى وزارة الخارجية المصرية حتى صار وكيلا لها ، وهو الذى نصح فى عام ١٩٤٨ بأن لاتتدخل الحكومة المصرية بجيشها فى فلسطين ، وكتب مذكرة بين فيها خطورة هذا التصرف وأضراره البالغة بمصر وبالقضية الفلسطينية .

ولما تحقق ماحذر منه من هزائم لمصر وغيرها من الدول العربية ؛ لجأوا إليه ليكون سفيراً فى الولايات المتحدة ، لعله يستطيع أن يتلافى بعض ماحاق بمصر وبالدول العربية وبالقضية الفلسطينية من أضرار ـــ فقام هناك بأعمال جليلة ننقل إشارة إليها مماذكرته جريدة « المصرى » حيث تقول عنه :

« إنه كان شديد الإيمان بضرورة تضامن العرب فى المشاكل الدولية العامة، وكان لجهوده أعظم الأثر فى ظهورهم كتلة واحدة فى كل معركة كبيرة داخل الأمم المتحدة وخارجها من أجل الشرق الأوسط .

وقد استطاع أن يحول السفارة المصرية فى واشنطن إلى بيت للعرب جميعاً ؛ ولاسيما أنه كان يكثر من المؤتمرات الصحفية والمحاضرات التى يشرح فيها وجهة نظره هو والعرب فى المسائل التى تتولى الكتلة العربية الأسيوية الدفاع عنها .

وكان الأستاذ كامل عبد الرحيم يلقى بياناً أو حديثاً أو خطاباً مرة على الأقل كل أسبوع ، وكان أكثر هذه الأحاديث والرسائل أمام جامعات أو غرف تجارية أو هيئات عليا مؤلفة من رجالِ الأعمال ـــ وكان أول من نظم قسم الصحافة فى السفارة المصرية فى واشنطن أعظم تنظيم ـــ وفى كل أسبوع كانت السفارة تصدر نشرة توزع على خمسة آلاف من السياسيين ورجال الفكر والتجارة والأعمال العامة ، حاوية أهم وأدق الأخبار التى كانت الصحف الأمريكية الممالئة لبريطانيا أو أسرائيل تتعمد إغفالها وتتجنب نشرها .

ومنذ عام ١٩٥٠ كان الأستاذ كامل عبد الرحيم يقيم مأدبة غداء فى يوم الاثنين من كل أسبوع ويدعو إليها رجال الصحافة وكتاب المقالات فى أمريكا ، وكان يشرح لهم فى أثناء المأدبة المسائل المتعلقةبمصر ـــ وقد ساعد ذلك على فهم حقيقة الموقف عندما حدثت

الثورة العسكرية الحالية — وكثيراً ماكان يتحدث قبل الانقلاب عن مساوىء فاروق والضرر الذى يعود على سمعة مصر ومصالحها فى الخارج من وراء ذلك .

وكان الأستاذ كامل عبد الرحيم منتظماً فى صلواته اليومية الخمس ، لايترك منها ركعة واحدة ، ولا يغفل عن أداء فريضة » .

هذا شىء مما ذكرت « المصرى » من صفات هذا الرجل وأعماله .. فإذا علم القارىء بعد ذلك أن رجلاً بمثل هذه الخبرة النادرة ، والقدرات الفائقة ، والأعمال الإيجابية المؤثرة ، والتاريخ الناصع الفريد ، ومصر فى عهد جديد يحتاج أول مايحتاج إلى الرجال الأكفاء ، الأقوياء الأمناء .. ثم يفاجأ هذا الرجل من العهد الجديد بالتغاضى عن كل ماقدم وما يستطيع أن يقدم ؛ يفاجأ بالنقل الى منصب هو أدنى من منصبه سفيراً فى بون .

وليت هذا النقل كان لأن العهد الجديد قد وجد من هو أكفأ منه ، ومن هو أكثر منه خبره ، ومن هو أقوى منه شخصية ، وأنصع منه تاريخاً ؛ إذن لكان لمصر فى ذلك عزاء .. ولكن الذى كان وراء هذا الغمط ومن خلف هذا الظلم أن العهد الجديد أراد أن يكون سفيره إلى الولايات المتحدة الدكتور أحمد حسين ..

ولكى لانغمط نحن الآخرين الدكتور أحمد حسين حقه فينبغى أن نسلم جدلاً بأن هذا الرجل قد يكون كفاءة فى الناحية التى تخصص فيها واشتغل بها وصار خبيراً فيها ؛ غير أن ذلك لايؤهله أن يقدم على من قضى حياته كلها فى الخبرة السياسية الخارجية وعمل فيها وأنتج أعظم إنتاج فى حين أن الدكتور أحمد حسين لم يعمل فى هذه الناحية يوماً واحداً .

إذن ماالدافع إلى اتخاذ هذه الخطوة الغريبة وما الداعى إلى الإقدام على هذا التصرف الذى كان موضع نقد من جميع المحللين السياسيين فى ذلك الوقت غير أن أحداً لم يجرؤ على الجهر بهذا النقد سوى جريدة « المصرى » التى أبرزت نقدها فى صورة ذكر طرف من صفات الرجل وأعماله . ثم نشرت بعد ذلك نص استقالته .. وكان هذا الأسلوب من جريدة « المصرى » فى التصدى لهذا التصرف الخاطىء ألذع نقد يمكن أن يوجه إلى الحكومة .. ولهذا نرى أن نضع نص هذه الاستقالة بين يدى القراء.

حضرة وزير الخارجية .

منذ واحد وثلاثين عاماً ، وأنا مكرس حياتى لخدمة الوطن العزيز عن طريق العمل الحكومى . وأشهد الله أننى كنت ومازلت خلال هذه السنين الطوال غير مدخر جهداً أو مالاً فى سبيل خدمة الوطن بالقدر الذى أنار الله به بصيرتى ويسّر . وقد سلخت فى خدمة

وزارة الخارجية من هذه السنين الطوال زهاء عشرين عاماً ؛ أغلبها فى وظائف رئيسة بالخارج وبديون الوزارة — عملت خلالها جاهداً لأحتفظ بالأمانة وأؤدى الواجب ماوسعنى الأداء . حتى توليت وكالة الخارجية فبذلت الجهد فى خدمة الوطن عن طريق هذه الوزارة — إلى أن هبت على مصر كارثة فلسطين ، ورأيت أن مصر ستتردى فى حرب ستجنى منها الويل والخسار ، فبادرت قبل نشوب هذه الحرب بأسبوعين إلى توجيه نظر أولى الأمر إلى خطر الدخول فى هذه الحرب ، منذراً بأسوأ النتائج . ودونت رأيى فى مذكرة رسمية مازالت فى محفوظات الحكومة .. ولما لم يؤبه برأيى ، وتجسم الخطر أمام عينى داهما ؛ طلبت ترك خدمة وزارة الخارجية وقتئذ ؛ فاقترح علىّ تولى سفارة وشنطن فقبلتها .

ويعلم الله مالاقيت فى هذه السفارة من صعاب وأزمات ؛ صمدت لها قوى الجنان ثابت الإيمان ؛ فمن أخبار انهزام الجيوش المصرية فى فلسطين تملأ أعمدة الصحف الأمريكية ، إلى غير ذلك من أحداث وتصرفات معيبة ؛ تضافرت الدعايتان الصهيونية والبريطانية على استغلالها استغلالاً واسع النطاق للحط من مصر وكرامتها ، والنيل منها ومن مصالحها .. حتى مرت بنا ونحن فى هذه البلاد أيام من أحلك الأيام ، ضاقت فيها الدنيا أمامنا ، لولا رحمة من الله وفضل . لكننا صمدنا وتذرعنا بالعمل الدائب والإخلاص للوطن والدعاية الصالحة له، واكتساب الأصدقاء فى الحكومة الأمريكية وخارجها وفى الكونجرس وفى دائرة الصحافة . وأرسينا بذلك أساساً متيناً ، بدأنا نقيم عليه بنياناً وطيداً .. وهو مجهود ليس بالهين ؛ يستلزم عادة من كل سفير جديد فى هذه البلاد المتشعبة النواحى المترامية الأطراف سنين طوالاً . وعندما أشرقت على مصر شمس عهد جديد من الحرية والكرامة إذ بهذا الأساس يزداد قوة ومتانة ، وإذا بأصدقاء مصر يعتزون بصداقتها ، ويتسابقون فى خدمتها وشد أزرها ، وأصبح الطريق اليوم ممهداً لمستقبل باسم مجيد ، وبناء شامخ وطيد .

والآن .. ولما يتكامل البناء ، وأوشك الغرس أن يؤتى ثمره ؛ رؤى أن أتولى منصباً آخر . غير أننى بعد تفكير طويل رأيت أن أختم حياتى فى الخدمة العامة عن طريق العمل الحكومى بعد هذه الفترة الطويلة من الخدمة الخالصة لوجه مصر ، راضى الضمير بما أديت للوطن من جهد المقل ، ولكنه جهد المخلص المتفانى فى خدمته .

وقد تفضلت الوزارة فعرضت علىّ سفارة بون . غير أنه نظراً للأسباب المتقدمة ، ورغبة فى العناية بعض الوقت بصحتى التى أضرها العمل المتواصل .. أستميحكم العذر فى عدم قبول هذا المنصب ، خصوصاً وإننى أرى الخير كل الخير أن يسند إلى غيرى ممن هم أقدر منى على الخدمة . راجياً قبول استقالتى ، شاكراً للحكومة ثقتها الغالية ولزملائى

بوزارة الخارجية كريم تعاونهم معى طوال مدة خدمتى .

وإنى إذ أعتزل الآن العمل الحكومى ، فلست بحال معتزلاً أداء الواجب للوطن فى ميدان أفسح وأوسع مجالاً ؛ ألا وهو ميدان الخدمة العامة ، مستأنفاً الجهاد فيه كما كنت فى الماضى غير مبتغ جزاءً ولا شكوراً . عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ، متضرعاً إلى الله تعالى أن يحفظ الوطن ، ويسدد خطى أولى الأمر فيه ويهيىء لنا من أمرنا رشدا . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

لاأدرى لم أجهدت نفسى هذا الجهد وأجهدت معى القارىء فى هذه النقطة بالذات وفى هذا الفصل بالذات وهل استطعت مع هذا كله أن يلمح القارىء من وراء كل هذا السرد والتحليل الإصبع الأمريكية .

لقد تربى أحمد حسين فى أحضان الرعاية الأمريكية ــ وهو من أسرة ذات ثراء وتمت إلى عبود باشا بصلة نسب حتى إذا أشرب حب أمريكا وصبوا فى رأسه أفكاراً جعلته أمريكى العقل والقلب مصرى الشكل والهيئة ، أوفد إلى مصر ليؤدى رسالة محددة .. فقام الرجل بمهمته خير قيام .

ولكن هل كانت مهمته حقاً انتشال الفلاح من وهدة الفقر والجهل والمرض كما ادعى .. ومتى كان إنقاذ الفلاحين من مهمة الأثرياء المترفين ؟ ومتى كانت أمريكا التى تقيم كل شىء بالدولار حتى الرجال تقيمهم بالدولار وحتى لو طلب منها إسداء معروف لم تتطوع بإسدائه إلا بعد أن تقيمه بالدولار فإذا لم تجد من حصيلته دولارات تكسبها لم تتطوع بإسدائه .

إن دور الدكتور أحمد حسين الذى انتدبته له أمريكا فى مصر كان أشبه بدور الهلالى حين أسند إليه الملك فاروق الوزارة .. كان دورهما تخريب الإخوان المسلمين من الخلف ؛ هذا يجرهم إلى الانتخابات ضد الوفد ليفنى كل منهما الآخر ــ وذاك كان بتنويمهم وسحب شبابهم إلى هاوية جمعية الفلاح وما يلقونه فيها من إغداق أمريكى ومتع تنسيهم مبادئهم وتحطم نفوسهم .. ولكن الفرق بين الاثنين أن الهلالى حين فشل فى جر الإخوان أسقطوه . ولكن الثانى حين فشل نقلوه إلى دور آخر . ولكن مصر خسرت فى سبيل إنفاذ الإرادة الأمريكية فى النقل رجلاً نادر الوجود لايعوض . وأعتقد أن الإرادة الأمريكية لم تكن إرادة أمريكية فى ذلك بقدر ماهى فى حقيقتها إرادة صهيونية لبست الثوب الأمريكى .

ثم إن دور الدكتور أحمد حسين فى مصر لم يكن إلا تكملة لمشروع الإصلاح الزراعى فى مصر الذى أعدته لجنة البحوث السرية بوزارة الخارجية الأمريكية .. والدور والتكملة كلا هما يمثلان علامة استفهام كبيرة فى تقييم الثورة المصرية ومدى براءتها .

الفصل الثانى

المؤتمر الإسلامى وهيئة التحرير

جاء فى سياق حديثنا عن جهود الإخوان فى نشر الفكرة الإسلامية أن استجاب لهذه الجهود شعوب الأمة الإسلامية فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى . وكان من ثمارها عقد مؤتمر إسلامى عالمى فى كراتشى بالباكستان . وقد نوهنا عنه فى الجزء الثانى من هذه المذكرات . ثم انتهى الرأى إلى إنشاء مؤسسة إسلامية دائمة فى القاهرة يطلق عليها « المؤتمر الإسلامى » واختير الأخ الأستاذ سعيد رمضان أميناً عاماً لها . وتكون مهمتها العمل على توثيق الصلات بين البلاد الإسلامية ، وعلى حل ماينشأ من خلافات فيما بينها ، وتنظيم مؤتمرات سنوية تعقد فى عواصم البلاد الإسلامية لمناقشة القضايا التى تمس كيان العالم الإسلامى والأقليات الإسلامية فى كل مكان .

وقام هذا المؤتمر الإسلامى بما عهد إليه من مهام ؛ فلما قامت الثورة رأينا جمال عبد الناصر ينشىء مؤسسة أخرى فى القاهرة تحمل نفس الاسم وعهد بشؤنها إلى أنور السادات ..

ومع مافى هذا الإجراء من تحد ، فإن الإخوان لم يثيروا هذا الموضوع ، ولم يعيروه اهتماماً بل تجاهلوه تماماً أملاً فى تضييق دائرة الخلاف .

هيئة التحرير

فى ديسمبر من عام ١٩٥٢ تمخضت أفكار جمال عبد الناصر عن إنشاء هيئة تسمى هيئة التحرير ، وصيغت مبادئها بحيث تتصل بالإيمان بالله من بعيد .. وأسند رياستها إلى اللواء محمد نجيب باعتباره الشخصية المحببة إلى الشعب فى ذلك الوقت ـــ ثم أخذ يحاول جر الإخوان إليها بأساليب مختلفة ؛ فعرض أمانتها العامة على الأخ الأستاذ صلاح شادى فلما رفض تولى هو أمانتها وجعل مساعده فيها الصاغ إبراهيم الطحاوى ..

ولما يئس أن يجر إليها الإخوان باعتبارهم هيئة تندمج فى هيئة التحرير ، حاول أن يجرهم فرادى .. وبدأ بالإخوان الدعاة ـــ وأحس الإخوان بأن هذه الهيئة ليست إلا المسجد الضرار ؛ أنشأه جمال ليخدع الناس به ، وليوقع البلبلة فى صفوف الإخوان ،

وليفض الناس به عنهم .. وأيقن كثيرون من الإخوان ــ ممن لم يكونوا موقنين من قبل ــ بأن جمالاً إنما يبيت لدعوة الإخوان شراً .. وإلا فلم ينشيء هيئة لاتخرج مبادؤها وأهدافها ــ كما يدعى ــ عن مبادىء الإخوان وأهدافهم ؟.

وظل جمال عبد الناصر يدعو الإخوان إلى هذه الهيئة ، ولم يصدر من قيادة الإخوان مايحجر على الإخوان أن يتحركوا كما يشاءون ، فقام عدد من دعاة الإخوان بزيارة مقر قيادة الهيئة ، والالتقاء بطبقة الموجهين فيها ، والفلاسفة الذين صاغوا مبادئها ، وحددوا أهدافها ، وهم من أساتذة الجامعة وكبار الكتاب .. فلما التقوا بهم واستطلعوا منهم ما صاغوه من مبادىء وأهداف ؛ سمعوا منهم كلاماً خطيراً؛ سمعوا منهم أن الهيئة أوسع أفقاً من الإخوان المسلمين ، فمثلها العليا لا تقتصر على محمد وعمر وخالد بل تتسع لتشمل لينين وماركس وفرويد ــ رجع إلينا هؤلاء الإخوة الدعاة رافضين آسفين .. وكان منهم الأخ الأستاذ البهى الخولى الذى قص علىّ مارأى وما سمع . وأخبرنى فيما أخبرنى بأن فلاسفة التحرير أخبروه أن خزائن الدولة مفتوحة للدعاة على مصاريعها وكذلك مناصبها . وقد كان هناك تركيز من جمال عبد الناصر على جر شخصيتين إخوانيتين بالذات إلى الهيئة وهما الأخوان البهى الخولى وسيد قطب، حتى نشرت بعض الصحف فى تنبؤاتها مثل « أخبار اليوم » أن الأستاذ سيد قطب مرشح لمنصب هام وشاع فى الأوساط الإخوانية أنه مرشح وزيراً للمعارف وأن الأستاذ البهى مرشح لمنصب كبير فى وزارة الأوقاف .

ويبدو فى تلك الأيام أن الأستاذ سيد قطب قد سارع بإعلان قطع صلته بهذه الهيئة ، ولكن الأستاذ البهى قد تريث طويلاً يتردد على الهيئة ، وساء هذا التريث كثيرين من الإخوان حتى تحدثوا إليه فى ذلك ، ووصلت القضية إلى مسامع المرشد العام فأوجدت جفوة بينه وبين الأستاذ البهى ..

ولما طالت الجفوة جاءنى الأستاذ البهى ــ لصلة الأخوة الخاصة التى كان قد أنشأها بينى وبينه الأستاذ الإمام وأشرت إليها من قبل ــ وشكا إلىّ ما يلقى من جفوة المرشد العام .. وشرح لى فى تلك الليلة زياراته لهيئة التحرير وما رأى فيها وما سمع وأن ذلك كله لم يكن إلا للاستطلاع ، وطلب إلىّ أن أعالج مانشأ بينه وبين المرشد العام من جفوة ، فتحدثت فى ذلك إلى الأستاذ المرشد حتى طابت نفسه ثم جمعت بينهما فى جلسة كانت من أمتع الجلسات كشفت لى عن صفاء نفس هذا الرجل وسموها وقدرتها على التجاوز واكتساب الأصدقاء ، وكان من ثمرات هذه الجلسة أن كلف المرشد العام الأستاذ البهى بوضع كتاب عن « المرأة فى الإسلام » .

وقد بلغ من إيهام فلاسفة هيئة التحرير لجمال عبد الناصر أنهم أوهموه بأن المبادىء التى وضعوها لها مستقاة من مصادر عالمية شرقية وغربية قد أصبحت أوسع الهيئات فى

مصر أفقاً وأشملها أهدافاً حتى إن جمال عبد الناصر يخاطب الإخوان باعتبارهم إنما يمثلون جزءاً من مبادئها . وقد تصور أنها ــ وهى مدعومة بسلطة الحكومة وخزائنها ، مؤازرة بفلاسفة البلاد وكتابها ، مهرولاً إليها من البارزين من تجار البلاد وأعيانها ــ يجب أن تضم الإخوان المسلمين تحت جناحها .. وتحدث فى ذلك ــ كما جاء فى حديثه مع مجموعة الاخوة الاستاذ صلاح شادى وزملائه فى أول هذا الجزء من الكتاب .. وقد اعتبر رفضهم عصياناً .

ثم استدار إلى شعب الإخوان فى أنحاء البلاد يجس نبضها ، ويتحسس ناحية ضعف ينفذ منها إليها لعله يجد فى هذه الشعب استجابة لما لم يجد له استجابة فى القاهرة ، غير أنه لم يفز بطائل .

إنه أراد أن يجعل من هيئة التحرير حزباً يستمد منه تفويضاً شعبياً يكسبه صفة الزعامة الحقة غير المدعاة ؛ فكرس جهوده لإنشاء هذه الهيئة وتثبيت أركانها ، وسخّر من أوهمهم أنهم زملاؤه فى مجلس قيادة الثورة ليجوبوا معه البلاد شرقاً وغرباً يجمعون الناس لها ، ويشرحون لهم مبادئها وأغراضها ، ويوضحون لهم أهدافها ؛ مقتفين فى ذلك أثر الإخوان : فللهيئة مركز عام فى القاهرة وفروع وشعب فى الأقاليم .. وإذا كان الإخوان قد أنشأوا مركزهم العام وشعبهم فى عشرين عاماً ؛ فقد أنشأوا هم مركز الهيئة وشعبها فى كل بلاد القطر فى أقل من ستة أشهر ، وأصبح أعضاؤها أكثر من أعضاء الإخوان عدداً .. ومن الطرائف أن هذه الهيئة أنشئت فى ٢٣ / ١ / ١٩٥٣ وبعد أن أنشأوا لها فروعا فى جميع بلاد مصر .. تحولوا إلى خارج مصر فأنشأوا لها مركزاً عاماً فى دمشق افتتحوه فى ١٤/ ٢/ ١٩٥٣ برياسة سفير مصر فى سوريا وسكرتارية الصاغ جمال حماد .

وننظر الآن لنرى شيئاً من هذا فى داخل مصر أو خارجها فلا نجد.. أين ذهب كل هذا وأين ذهبت هذه الدور ومنشئوها وعمارها ؟ صدق الله العظيم ﴿ **كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض** ﴾ .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا — أنيس ولم يسمر بمكة سامر

والعجيب والمؤلم معاً أن الحاكم حين يرى إقبال الناس عليه فى العاصمتين والأقاليم يخدع نفسه ، ويعتقد أن أسماعهم مرهفة لما يشرح لهم من مبادىء وشعارات وأن أعينهم متجهة إلى مايفوه به من عبارات ، وينسى أن هذه الأسماع والعيون إنما هى متجهة ومرهفة لما هو وراء شخصه من مغانم وما حوله من مكاسب، وما يأملون من تحقيق لأنفسهم فى ظل سلطانه من مآرب .. ينسى هذا أو يتناساه ولا يراه إلا فى حال من حالين : إما حين يفقد سلطته فيجد هؤلاء قد أدبروا عنه بأسرع مما أقبلوا عليه ، وإما حين تفوح رائحة الفضائح

فيبدأ أن يرى نفسه فوق تلال من العفن والقذارات .

نصح الإخوان جمال عبد الناصر بهذه المعانى التى هى من طبيعة البشر ، وأخلصوا له النصح ، ولكنه أبى أن يتقبل النصح ، وظن أنه قادر على تغيير طبيعة البشر ، وأنشأ هيئة التحرير ، وعقد سكرتيرها العام المساعد الصاغ إبراهيم الطحاوى مؤتمراً صحفياً يوم ٩ / ٢ / ١٩٥٣ يشرح فيه نشاط الهيئة ويقول : إن الشعب أجمع على زعامة نجيب وتوليه رياسة التحرير ، وإن نظام هيئة التحرير هو أعدل نظام ديمقراطى فى العالم .

* * *

الفصل الثالث

وزارة إخوانية

لما فشلت حيلة جمال عبد الناصر فى ضم الإخوان إلى هيئة التحرير أو جر عدد من دعاتهم إليها ، ولم يعد عنده أمل فى إثارة هذا الموضوع مرة أخرى ؛ فكر فى حيلة جديدة. وحاولها هذه المرة مع الأخ الأستاذ عبد الحكيم عابدين السكرتير العام للإخوان ؛ أملاً فى أن يجد فيه مغمزا بعد أن يئس من المرشد العام .

فقد أخبرنى الأستاذ عبد الحكيم ــ رحمه الله ــ فى يوم من أيام هذه الفترة أن الصاغ صلاح سالم اتصل به تليفونياً وسأله عما إذا كان ممكناً أن يجتمع معه الليلة فى بيته فرحب به ــ وقابلنى الأستاذ عبد الحكيم صبيحة تلك الليلة وحدثنى بما دار فى اجتماعهما فقال :

إن صلاح سالم أخبره أنه موفد من قبل جمال ، ومفوض تفويضاً كاملاً فيما سيعرضه من أمور ، وأنه يرجو أن يرى من عبد الحكيم تجاوباً وروحاً متعاونة ؛ حتى ترجع روح الوئام بين الإخوان والثورة . فرد عليه الاستاذ عبد الحكيم مطمئناً من هذه الناحية ، وأكد له أن الإخوان يتمنون ذلك .

فقال صلاح : إن جمالاً ــ تدليلاً على حسن نيته وأنه لايكن للإخوان إلا كل خير ــ فإنه يعرض عليهم أن يؤلفوا حكومة كاملة من الإخوان؛ رئيسها من الإخوان وجميع وزارئها من الإخوان .

قال لى عبد الحكيم : فتبسمت تبسماً أثار دهشة صلاح الذى سألنى لم قابلت كلامه بهذا الابتسام الذى يوحى بالسخرية ؟.

فقال له : ياصلاح .. هذا عرض ماكر نحن نرفضه كل الرفض .

فأثار هذا الرد صلاحاً ــ كأنه رحمه الله ــ لم يكن يعرف الهدف الحقيقى لجمال من هذا العرض ؛ فقد كان طيب القلب ، ومن القلائل فى مجلس الثورة الذين كانوا يتمنون أن يسود الوئام والتعاون علاقة الثورة بالإخوان .. وقال : إذن ماذا تريدون من تنازلات لكم من جمال أكثر من هذا ؟ ستكون الحكومة إخوانية صرفه .

فقال له : هوّن عليك يا أخى صلاح . أنت رجل لانشك فى حسن نيتاه ، ولكن العرض الذى حملته إلينا عرض خطير ، يخفى فى طياته الدمار والهلاك للإخوان المسلمين مادام هناك مجلس قيادة الثورة .

إن قيام مجلس وزارء بجانب مجلس الثورة لن يكون إلا شماعة تعلق عليها الثورة أخطاءها ، وتحمله أوزارها لأن حقوق السيادة ستكون لمجلس الثورة دون مجلس الوزراء .

ستكون مهمة مجلس الوزراء مواجهة الشعب بما يتخذ من قرارات تمس مصالحه ، ولابد أن تدور هذه القرارات فى فلك السياسة التى يضعها مجلس الثورة . فإذا كانت هذه السياسة خاطئة ؛ لم يلمس الشعب هذا الخطأ إلا فى القرارت التنفيذية التى تتخذها الوزارة فيما يتصل بقوت الشعب وملبسه وتعليمه وتربيته وخلقه وثقافته ودينه وقضائه ومختلف مصالحه .. وهنا تنصب لعنات الشعب لا على مجلس الثورة بل على الوزارة التى تواجهه .

إن جمالاً رأى أن حل الإخوان لم يقض على دعوتهم لأنه لايمس جوهرها ؛ بل إنه زادها قوة ، وزاد الشعب فيها حباً ؛ فأراد أن يحلها بطريقة أخرى تقضى عليها فعلاً قضاءً مبرماً ، وتستأصلها من جذورها بإحلال الكراهية والمقت لها فى قلوب الشعب محل الحب والثقة والإعجاب .

إن الحل مهما طال أمده ، فإن دعوة الإخوان سترجع فى يوم من الأيام وستجد قلوب الشعب فى انتظارها ، مفتوحة لاستقبالها ــ أما العرض الذى تعرضونه فإنه سيصرف الناس عن الدعوة وسيشيعونها باللعنات فلا تقوم لها بعد ذلك قائمة .
يا أخى صلاح ...

هذا عرض نرفضه شكلاً وموضوعاً .. ولا نقبله إلا بشرط واحد .. هو أن يحل أولا مجلس الثورة ويكون حق السيادة لمجلس الوزراء ؛ فنستوحى قراراتنا من كتاب الله وسنة رسوله لامن وحى مجلس الثورة .

هذا ملخص ماحدثنى به الأخ عبد الحكيم ــ رحمه الله ــ فى صبيحة ليلة الاجتماع . وكان الحديث أطول من هذا بكثير وتطرق إلى نواح مختلفة ، ولكن لم يبق فى خاطرى منه بعد هذه المدة الطويلة إلا ماذكرت . وحسبك أن تعلم أن هذا الاجتماع استغرق الليل كله حتى صلى الاثنان الفجر معاً ــ ويقول عبد الحكيم :

وكأن صلاحاً قد اقتنع أو يئس من قبولنا هذا العرض فسألنى : إذن من ترشحونه من غير الإخوان لرياسة الوزارة ؟ فقلت له : (وذكر لى عبد الحكيم أسماء اقترحها لكننى نسيتها الآن تماماً) .

الفصل الرابع

زيارتان لقبر الإمام

فى ١٢ / ٢ / ١٩٥٣ أبدى أعضاء مجلس الثورة عزمهم على زيارة قبر الإمام حسن البنا فى ذكرى استشهاده ؛ فرحب الإخوان . وكان فى استقبالهم عند القبر جم غفير من الإخوان على رأسهم المرشد العام .. وألقى الرئيس محمد نجيب الكلمة التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم . أيها المواطنون .

من الناس من يعيش لنفسه ، لايفكر إلا فيها ، ولا يعمل إلا لها . فإذا مات لم يشعر به أحد ، ولم يحس بحرارة فقده مواطن .. ومن الناس من يعيش لأمته واهباً حياته ، حاصراً فيها آماله ، مضحياً فى سبيلها بكل غال عزيز .. وهؤلاء إذا ماتوا خلت منهم العيون ، وامتلأت بذكراهم القلوب .

والإمام الشهيد حسن البنا أحد الذين لايدرك البلى ذكراهم ، ولا يرقى النسيان إلى منازلهم .. لأنه — رحمه الله — لم يعش لنفسه ، بل عاش للناس ، ولم يعمل لشخصه عاش للصالح العام .. لقد كان حسن البنا صاحب عقيدة أخذت بزمام نفسه ، وملكت عليه منافذ حسه .. فعاش من أجلها أشق عيشة وأقساها ، ومات فى سبيلها أشرف ميتة وأسماها .. وكان يؤمن بأن الدين هو الكفيل بإيجاد الأخلاق القويمة فى نفوس أبناء الوطن العزيز ، وهو الوسيلة إلى حمل النفوس على الفداء والبذل من أجل الكرامة .

ولست أنسى ماحييت هذا الشباب . المؤمن القوى فى معارك فلسطين ، يقتحم على العدو أقوى الحصون ، ويسلك إلى قتاله أعصى السبل ، ويتربص بقواته وجحافله كل طريق .

ولقد كان حسن البنا — على قوة دينه وشدة إيمانه — يتحدث عن الإسلام فى أفق واسع وفهم سمح كريم .. حتى انتفع به العالم والجاهل ، وكسب لدين الله أنصاراً كانوا

أبعد مايكونون عن الدين .. وكان الجميع يحبونه أخلص الحب ، ويحترمونه أشد الاحترام ـــ ولذلك لم تكن الفجيعة فيه فاجعة جماعة ، ولا فجيعة طائفة ـــ ولكنها كانت فجيعة أمة بل أمم غزا قلوبها ، وجمع على الأخوة أرواحها .

وكان ـــ رحمه الله ـــ حرباً عواناً على الفساد والانحلال ، على قدر ماكان حرباً على الغصب والاحتلال . وكان سلاحه الذى اعتمد عليه سلاحاً ذا ثلاث شعب : الأولى مكانة فى نفوس الناس لايبلغها غيره . والثانية بيان رائع قوى يحرك ويوجه ويثير ، والثالثة قدرة على التجميع والتنظيم لم يصل إليها إلا الأقلون ممن تصدوا لقيادة الأمم .

وقد أدرك أعداؤه وأعداء الوطن أن هذا السلاح فى يده لايفل حديده ولا يبلى جديده ، ثم هو سلاح لايقاوم .. ولذلك أجمع المجرمون أمرهم على قتله وحيداً لاحارس له ، وأعزل لاسلاح معه ـــ وكانت القوة التى دبرت قتله ونفذته وأشرفت عليه .. هى القوة التى يلوذ بها الخائف فتمنحه الطمأنينة والأمن ، ويحتمى بها المطارد فتسبغ عليه ظلال السكينة والسلام » .

وقد حضر مع الرئيس محمد نجيب فى هذه الزيارة الوزراء سليمان حافظ وفؤاد جلال والباقورى وفتحى رضوان كما حضرها الصاغ عبد الحكيم عامر والصاغ صلاح سالم .

وأشهد لقد كان لهذه الزيارة معنى كنا نحسه جميعاً ونشعر بحرارته .. وكان الذين قاموا بها والذين حضروها بل وكان الناس جميعاً يشعرون أنها رمز كان لابد منه أداء لحق الوفاء لرجل عاش حياته ليهيىء أسباب النجاح لثورة تقضى على الظلم ، وتعيد للشعب حقوقه وكرامته .

ويقال إن جمال عبد الناصر كان هو صاحب فكرة زيارة قبر الإمام ، وإنه هيأ نفسه للقيام بها ولكنه فوجىء بأن اللواء محمد نجيب قد سبقه إليها .

على أى حال فإن الزيارة كانت تجاوباً لما يدور فى خواطر أكثر الناس ، وقد رفعت من أسهم رجال الثورة عند الجمهور وزادتهم ثقة بهم وحبا لهم ؛ ولهذا كان التسابق بين جمال ونجيب .

ومرت سنة بعد هذه الزيارة وقعت خلالها أحداث خطيرة ، وظهر فيها من دفائن النفوس ماأزكم الأنوف . وتحطمت القيم ، ونقضت العهود ، واستبيح الكذب ، وديست

الكرامات ــ وبعد كل هذا جاء جمال عبد الناصر فى ١٢ / ٢ / ١٩٥٤ لزيارة قبر الإمام حسن البنا.. جاء لزيارة قبر حسن البنا بعد أن اقترف نحو الإخوان المسلمين مايلى.

١ ــ أصدر ــ هذا الذى جاء يزور قبر حسن البنا ــ قراراً بحل الإخوان المسلمين.

٢ ــ أصدر ــ هذا الذى جاء يزور قبر حسن البنا ــ أمراً باعتقال المرشد العام وقيادات الإخوان وإيداعهم السجن الحربى.

٣ ــ أصدر بياناً باتهام الإخوان المسلمين بالخيانة.

ليت شعرى بأى وجه جاء هذا الرجل بعد كل الذى فعله ليزور قبر حسن البنا ــ ومتى كان حسن البنا يرى نفسه شيئاً غير دعوته ؟

صحيح أنه وجد فى استقباله هناك والد الإمام وإخوته وولده ومعهم الأستاذ عبد القادر عودة والأساتذة صالح عشماوى وعبد الرحمن السندى وسيد سابق وعبده قاسم والشيخ الغزالى وحلمى المنياوى.. ولكن هل هؤلاء يمثلون الإخوان المسلمين وهم يستقبلون من حل هيئتهم واعتقل مرشدهم ومئات من إخوانهم واتهمهم علنا وعلى صفحات الصحف بالخيانة ؟.

مستحيل أن تكون هذه الزيارة قضاءً لحق الوفاء أو حتى مجرد عمل يمت إلى الخلق والإنسانية بسبب لابد أنها كانت أسلوباً ماكراً لشق هذه الدعوة وتفريق صفوفها، واحتواء طائفة منها بإثارة نعرة أولى القربى فى هذه الطائفة.. ولهذا كانت الكلمة التى ألقاها كلمة لاطعم لها لأنها مقطوعة الصلة بواقع الحياة فلقد كنا جميعاً غائبين وراء الأسوار؛ ويقسم فيها على أشياء يعلم هو أنه كاذب فى ادعائها وقد ثبت كذبه فعلاً فيها.. وإليك نص هذه الكلمة كما قرأناها بعد ذلك فى الصحف حيث تقول:

ألقى كلمة حيا فيها إخوانه المحتفلين بذكرى الشهيد حسن البنا فى هذا اليوم الذى يذكرنا بالماضى القريب لاالماضى البعيد. ثم قال: إننى أذكر هذه السنين والآمال التى كنا نعمل من أجل تحقيقها. أذكرها وأرى منكم من يستطيع أن يذكر معى هذا التاريخ وهذه الأيام، ويذكر فى نفس الوقت الآمال العظام التى كنا نتوخاها، ونعتبرها أحلاماً بعيدة.

ثم أذكر هذا الوقت وفى هذا المكان كيف كان حسن البنا يلتقى مع الجميع فى سبيل المبادىء العالية والأهداف السامية، لا فى سبيل الأشخاص ولا الأفراد ولا الدنيا.. ثم قال فى نهاية كلمته:

وأشهد الله أنى أعمل ــ إن كنت أعمل ــ لتنفيذ هذه المبادىء وأفنى فيها وأجاهد

فى سبيلها — ثم ألقى صلاح سالم كلمة ثم ألقى كل من الأستاذ عبد القادر عودة والأستاذ عبد الرحمن البنا كلمة

ولكن هل نجحت هذه الزيارة ، وهل حققت المقصود منها ؟ نقول : نعم نجحت وحققت المقصود منها ولكن ساعة من نهار .. حتى كشفت الأيام للجميع حقيقة النيات .. ولم تتكرر هذه الزيارة بعد ذلك على مر السنين وقام هذا الزائر الوفى الكريم بمهاجمة حسن البنا بنفس الأسلوب الذى هاجمه به عهد الملكية بل أشد .

* * *

الفصل الخامس

أسلوب مخادعة بارع
يصرف أصدقاء الإخوان عنهم

كان هناك فريق من رجالات الأمة الإسلامية وزعمائها ممن جمع بينهم وبين الإخوان فى الماضى ميادين العمل الجاد والجهاد الصابر المتصل .. عاشوا العهدين فى مصر ، ولما قامت الثورة — ولم يكونوا بعيدين عن مقدماتها وأحداثها — طاب لهم المقام فى مصر فى كنف هذه الثورة التى ساهموا فى التمهيد لها ؛ لينعموا بالمعيشة مابقى لهم من حياة فى ظل الدولة الإسلامية التى كانوا يحلمون بها .

وهذا الفريق من رجالات الأمة الإسلامية كانوا أعرف الناس بالثورة وعلاقة الإخوان المسلمين بها فهم يعلمون أنها ثورة الإخوان المسلمين وأن جمال عبد الناصر وزملاءه ليسوا إلا الفرقة التى عهد إليها بالظهور على المسرح .

فلما أحس هؤلاء بنشوء خلاف بين الإخوان وبين جمال عبد الناصر ، خفوا للاتصال بالطرفين لمعرفه كنه هذا الخلاف وأسبابه ودواعيه .. فكانوا يتصلون بجمال فيسمعون منه كلاماً ويتصلون بالمرشد العام فيسمعون منه كلاماً .. ولكن حصيلة مايسمعون كان يدين الإخوان ويجعلهم الطرف المعتدى .

وهكذا عاش هؤلاء الرجال فى حيرة من أمرهم .. أوجد هذه الحيرة أن جمال عبد الناصر كان حريصاً فى أسلوبه معهم ، وفى تصوير المواقف لهم ، على إبراز أمور معينة ، وإخفاء أمور أخرى ، وبتر الأحاديث ، والانتهاء من ذلك كله بحيث يبدو أن الإخوان هم المعتدون وأنه هو الجانب المعتدى عليه .. حتى ظن هؤلاء الرجال بالإخوان الظنون . وجاءوا إلى المرشد العام فى ذلك يعتبون عليه .

وهذا الأسلوب كان من البراعة والتفنن بحيث لم يؤثر فى هؤلاء الرجال فحسب بل خدع الكثير من كبار الإخوان وعلى رأسهم الأستاذ عبد القادر عوده مع أنه كان يعيش كل وقته فى الوسط الإخوانى فما بالك برجال يعيشون فى جوهم الخاص ولا يحتكون بالإخوان إلا بمجرد مقابلات واتصالات ..

ومن الذين استطاع جمال عبد الناصر أن يخدعهم بهذا الأسلوب فى ذلك الوقت: السيد أمين الحسينى ـــ رحمه الله ـــ مفتى فلسطين .. وكان مقيما بالقاهرة .. وكان الرجل يعتقد فى إقامته فى مصر فى ذلك الوقت أنه يقيم لأول مرة فى ظل حكومة إسلامية هى حكومة الإخوان المسلمين .

لما بدأ الخلاف يتطور حاول السيد أمين الوصول إلى الأسباب الحقيقية لهذا التفاهم السيء.. ولما وجد أن طريقة تبادل الاتصال مرة بهذا الطرف وأخرى بالطرف الآخر لم تجد ولم تصل به إلى نتيجة وصارح المرشد العام آخر الأمر بأن اتصالاته التنقلية بين الطرفين لم تسفر فى نظره وفى نظر كثيرين من الساعين بين الطرفين إلا بأن الإخوان هم المتعنتون .. وعرض الرجل على المرشد العام اقتراحاً بأن تعقد جلسة يحضرها الطرفان جمال والمرشد العام ويكون هو (السيد أمين) وبعض الساعين فى الصلح من كبار رجالات مصر والعالم الإسلامى حكماً بينهما .. وقد رحب المرشد العام بهذا الاقتراح .

وكان الأخ الأستاذ عمر الأميرى عضو الهيئة التأسيسية ومن كبار رجال الإخوان فى سوريا وسفيرها السابق فى باكستان منفياً فى ذلك الوقت ومقيماً بالقاهرة ـــ واتخذ له سكنا فى مصر الجديدة ـــ وقد اختار هو الآخر القاهرة مقاماً له اعتقاداً منه بأنه سيقيم فى ظل حكم إسلامى . وكان الأستاذ عمر هو الآخر ممن يحسنون الظن بجمال ، ومن المقربين إليه ، وممن يختصهم جمال برعاية واهتمام ، وكان الأستاذ عمر يتمنى لو أحسن الإخوان الظن بجمال ـــ وقد كانت لى مع الأستاذ عمر جلسات طويلة فى سكنه هذا طالما دارت فيها المناقشة حول هذا الموضوع ـــ فلما علم الأستاذ عمر بهذا الاجتماع المزمع عقده، طلب أن يكون فى بيته .

وكان الاجتماع فى مسكن الأستاذ عمر ـــ وقد أنسيت أسماء الشخصيات التى اشتركت فيه ولم يعد فى خاطرى منهم إلا السيد / أمين الحسينى صاحب الاقتراح والأستاذ عمر الأميرى صاحب البيت ـــ وطالت الجلسة واحتدمت المناقشة ـــ وكان الإخوان والسادة الساعون فى الصلح يأملون من ورائها خيراً كثيراً .. وبسط المرشد العام كل ما عند الإخوان من وجهات نظر .. وحاول جمال أن يتفادى كعادته نقاطاً معينه ، ولكن المرشد أصر على سماع إجابته عنها محتكماً إلى الحاضرين .. فلما أجاب عليها ـــ مضطراً ـــ اتضح للوسطاء أن لاعيب فى مسلك الإخوان ، وأن سوء النية ملموس فى تصرفات الجانب الآخر .

فلما انتهى الاجتماع إلى هذه النتيجة التى لم تسعد جمالاً ، أسر فى نفسه نية سوء للسيد أمين الحسينى وللأستاذ عمر الأميرى ـــ تكشف فيما بعد قليل بطرد الأستاذ عمر من مصر ، وبإعلان حرب شعواء على السيد أمين بتشويه سمعته ثم طرده هو الآخر من مصر

هذه بعض أمثلة من أساليب الدوران حول الدعوة لتخريبها من الخلف ، وإن كانت قد أحبطت جميعاً لابفعل الإخوان ولا بتهجمهم وإنما بفضل الله وثبات الإخوان واعتصامهم بإيمانهم .. غير أنها شتتت شمل الأمة ردحاً من الزمن كان الأولى أن يستغل فى مصلحتها .

والكاتب حين يتقدم للكتابة فى مثل هذا الباب ؛ يتقدم متوجساً خائفاً .. لأنه حين يغريه بالتقدم مايتراءى أمامه من طريق سوى لاعقبة فيه .. لايلبث أن يفاجأ أنه على شفا جرف هار يكاد ينهار به فيظن أنه النهايه ولكنه يفاجأ باستواء جديد وهكذا .. طريق لأمان فيه ولا أطمئنان .. طرفان يتعاملان معاً ؛ أحدهما كل تصرفاته محكومة بحدود مستمدة من عقيدة ثابتة .. والآخر حدوده هوى نفس لاتعرف لها مستقراً ..

* * *

الباب السادس

التشكيلات الإخوانية

التشكيلات المـوروثـة
تشكيلات جديدة

التشكيلات الموروثة

ورث المرشد العام الجديد يوم تولى هذا المنصب التشكيلات الإخوانية التى تركها له سلفه الإمام الشهيد؛ سواء منها مايتصل بالشئون الإدارية كمكتب الإرشاد العام ولجنة تحقيق العضوية والهيئة التأسيسية والمركز العام لجمعيات البر والخدمة الاجتماعية.. سواء منها مايتصل بذلك وما يتصل منها بالنظام الخاص..

وقد رأى المرشد العام الجديد أن يبقى كل شيء على ماهو عليه؛ بالرغم مما اتخذته قيادات بعضها مما كان يستوجب التغيير.

وإذا كان فى حديثنا فى فصول سابقة مايوحى بأن تشكيلين اثنين على الأقل من هذه التشكيلات كان يجب أن يتناولهما التغيير؛ فإن هذا التغيير لو أجرى فى هذين التشكيلين لاقتضى ذلك تغييراً فى جميع التشكيلات الأخرى؛ حيث كانت هناك صلات وارتباطات بين قيادة هذين الجهازين وبين قيادات التشكيلات الأخرى؛ فهناك من أعضاء هذين التشكيلين من هم فى نفس الوقت أعضاء فى التشكيلات الأخرى، كما أن من بين أعضاء التشكيلات الأخرى أعضاء متعاطفين مع أعضاء هذين التشكيلين.

ولعل هذا كان من الأسباب الرئيسية التى جعلت المرشد العام الجديد يبقى على كل شيء على ماكان عليه؛ لاسيما وقد آنس من قيادة هذين التشكيلين أخيراً تسليماً بالأمر الواقع، ومسايرة للركب الإخوانى.. فآثر الأستاذ جمع الشمل، خصوصاً والإخوان خارجون لتوهم من محنة قاسية.

وقد أثبتت الأيام براعة هذه السياسة؛ فقد استطاع الإخوان فى ظلها أن يلموا شعثهم، وأن يستردوا مكانتهم.. ثم أن يحظوا من استجابة الشعب لدعوتهم ماجعلها تتبوأ أعلى مكان فى الحياة الاجتماعية والحياة السياسية فى البلاد.

بعد قيام الثورة:

فلما قامت الثورة، وبدأت بوارق السلطة تلمع فى سماء الإخوان.. أخذت هذه البوارق بألباب قيادات كانت قد استسلمت من قبل تحت تأثير الأمر الواقع الذى لم يكن

آنذاك بديل منه.. ولكنها الآن وجدت أمامها طريقاً مفتوحاً وعلى رأسه داع يلوّح لها بأعلام السلطة، ويفتح لها ذراعيه.. فمن هذه القيادات من هرولت إليه، وألقت بنفسها بين ذراعيه.. ومنها من بادلته ابتسامة على حياء.. وهذه كان أمرها مع الدعوة غير عسير ــ أما الأخرى فكان أمرها عسيراً، وكانت هى رأس الفتنة العمياء التى تمخضت عن أعظم كارثة نزلت بالإخوان المسلمين، وانتهت بتدمير مصر والبلاد العربية تدميراً لازال أصحاب العقول حتى اليوم فى حيرة كيف يخلصون البلاد من لعنته، وكيف يتلافون آثاره.

أما الذين ابتسموا وكان خطرهم قليلاً؛ فهم أصحاب نظرية أولى القربى، والذين يعتقدون أنهم قد سلبوا حقهم فى خلافة الأستاذ الإمام فى منصبه بالدعوة.

وأما الآخرون الذين باعوا بإثمها، وتولوا كبرها، ولعبوا بالنار وهم يضحكون ويمرحون.. وكانوا كالأطفال يحطمون أثمن مايملكه آباؤهم ويشعلون النار فيها وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.. فإنهم قيادات النظام الخاص.

رأت هذه القيادة فى تلويح جمال لها فرصة سانحة لتحقيق ماعجزوا عن تحقيقه من قبل؛ ألا وهو إخضاع قيادة الدعوة لأهوائهم، وأن تكون هذه القيادة ألعوبة فى أيديهم.. وبذلك يفرضون سلطانهم على الدعوة، ويوجهونها حيث يشاءون.

تشكيلات جديدة

فى خلال تلك الفترة حل الموعد الدورى لتجديد انتخاب الهيئات الإدارية العليا للإخوان.. ورأى المرشد العام أن الدعوة مقبلة على أيام حافلة بالمتاعب.. وأحَسَّ أعضاء الهيئة التأسيسية بالأحداث التى تجرى فى القاهرة، فرأى أكثرهم أن يستطلعوا رأى المرشد العام فى هذا الشأن.. فأبدى رأيه فيما عرضوه عليه..

وكان اتجاه المرشد العام فى هذا الشأن أن يعمل على تكوين جديد على ضوء مامر بالدعوة من أحداث.. وطلب إلىّ أن أكون عضواً بمكتب الإرشاد فاعتذرت شاكراً ومؤثراً أن أظل عضواً فى لجنة تحقيق العضوية التى كنت عضواً بها منذ أنشئت..

وأجرى الانتخاب وأسفر عن التشكيلين الآتيين:

١ ــ مكتب الإرشاد العام:

الإخوة الأساتذة الدكتور محمد خميس حميدة والبهى الخولى والشيخ محمد فرغلى ومحمد حامد أبو النصر والشيخ أحمد شريت والدكتور حسين كمال الدين والدكتور كمال خليفة وعبد الرحمن البنا وعمر التلمسانى وعبد القادر عودة وعبد

العزيز عطية وعبد الحكيم عابدين وعبد المعز عبد الستار.

٢ ــ لجنة تحقيق العضوية:

الإخوة الأساتذة عبد العزيز كامل وحسنى عبد الباقى وعبد الله عامر وحامد شريت وسعد الدين الوليلى ومحمد الغزالى ومحمود عبد الحليم.

وأحب هنا أن أقف وقفة قصيرة عند اعتذارى عن عضوية مكتب الإرشاد العام؛ فقد يذهب الظن ببعض القراء أن هذا كان تهرباً منى من المسئولية؛ وينبغى أن يعرف السادة القراء أن عضوية مكتب الإرشاد فى تلك الحقبة من الزمن كان لها من المكانة الأدبية على مستوى مصر والبلاد العربية والإسلامية ماتهون أمامه أضخم المسئوليات.. ومع ذلك فقد شاء القدر أن أزهد فى هذه المكانة الأدبية ــ بعداً عما يلازمها حتما من الأضواء وتمشياً مع طبيعتى وطبيعة مسئولياتى فى الدعوة ــ فيأبى القدر إلا أن تلاحقنى هذه الأضواء فى ثنايا الزاوية التى اخترتها لنفسى فى لجنة العضوية.. فلقد تطورت الأحداث تطوراً حملنى ــ رغم أنفى ــ أخطر مسئولية، ونقلنى مكرها إلى دائرة الأضواء بل إلى مركز بؤرتها مما يأتى إن شاء الله تفصيله فى صفحات قادمة، ومما كان له آثار بعيدة المدى فى تطور الأحداث.

قضيــة:

وقبل أن أنتقل إلى نقاط أخرى، ينبغى أن أوضح للقارىء أن إبداء المرشد العام رأيه للهيئة التأسيسية فى أمر من الأمور أو فى أشخاص يراد اختيارهم لعمل من الأعمال.. هذا الإبداء ليس فيه مايعد اعتداءً على حق الهيئة فى اختيار ماتريد أو من تريد.. ذلك أن من حق المرشد العام ــ وهو الذى يباشر كل المسئوليات بنفسه وبمن حوله من القيادات ــ أن يقدم للهيئة تقريراً عن كل فرد من هذه القيادات، وعن مدى بلائه فى الدعوة أو تقصيره فى حقها أو تعويقه لمسيرتها. كما أن من حقه كذلك أن يستعين بمن يشاء من سائر الإخوان خارج نطاق هذه القيادات الرسمية:

مجموعة الروضة:

وهذه قضية كانت مثار جدل أثاره بعض أعضاء مكتب الإرشاد الموروث والذى اقتضت ظروف الدعوة فى ذلك الوقت الإبقاء عليه دون تغيير ولا تبديل؛ فرأى المرشد العام أن يستعين بجانب هذا المكتب بمجموعة من الإخوان يطمئن إليها ويثق فيها؛ فكان يكل إليها بعض المهام. وهذه المجموعة هم الإخوة الذين جاء ذكرهم فيما نقلناه من كتاب «الصامتون يتكلمون» ــ وكان بعض هؤلاء المعترضين يطلقون عليهم «مجموعة الروضة» لأن أكثرهم كان يسكن فى حى الروضة حيث يسكن المرشد العام.. يريدون بذلك أن

يقولوا إن المرشد العام قد اختار هؤلاء الإخوان باعتبارهم جيرانه فى السكن.. وهو مالم يخطر على بال الرجل؛ فقد كنت أسكن فى القناطر الخيرية خارج القاهرة ومع ذلك كان كثيراً مايستشيرنى ويكل إلىّ من مهام الأمور ـــ كما أنه فى التشكيل الجديد لمكتب الإرشاد اختار الأخ الأستاذ عمر التلمسانى وهو يسكن فى شبين القناطر وأسند إليه منصب السكرتير العام المساعد، كما استقدم الأخ الدكتور محمد خميس حميّدة من المنصورة وأسند إليه منصب نائب المرشد العام.

إذن لم تكن المسألة مسألة جيرة، ولا مسألة صداقة شخصية، ولا مسألة استلطاف، ولا مسألة قرب ولا بعد؛ وإنما كان الرجل يريد أن يتعاون مع إخوة لايضعون فى طريقه العراقيل؛ ولا يتعاملون معه وفى نفوسهم أشياء، ولا يوزعون ولاءهم له ولغيره باعتبار الولاء الت...ه هو الولاء للدعوة.

ولقد أثبتت الأحداث أن المرشد العام كان فى تصرفه هذا بعيد النظر، ثاقب الفكر، نافذ البصيرة.. إذ كشفت هذه الأحداث عن حقائق مذهلة كان يتوقعها، وكان بتصرفه هذا يحاول تفاديها، أو على الأقل التخفيف من أخطارها؛ فخطأ الجندى وهو فرد من أفراد الجيش أهون وأقل ضرراً من خطئه وهو فى هيئة القيادة.

وليس معنى ماأسوق من حديث فى هذا الشأن أن أبرىء هذه المجموعة من العيوب أو أن أنزهها عن الخطأ.. والخطأ والصواب أمران من طبيعة البشر.. ولكننى عرضت بالحديث لقضية طالما اتخذها فى ذلك الوقت بعض الموتورين مثاراً للتشنيع على المرشد العام، وجعلوها محوراً يدورون حوله فى شغبهم عليه.

طريقة الانتخاب:

وعلى العموم فقد اجتمعت الهيئة التأسيسية لتباشر حقها فى اختيار أعضاء مكتب الإرشاد العام وأعضاء لجنة تحقيق العضوية.. وقد أشرت من قبل إلى أن هذا الاختيار يجرى على أساس فريد؛ فهو انتخاب سرى كتابى على أن يختار كل عضو فى الهيئة العدد المطلوب لمكتب الإرشاد والعدد المطلوب للجنة تحقيق العضوية دون أن يرشح أحد نفسه.

ولعل فى هذا الأسلوب مغالاة فى الحرية من ناحية، ومن ناحية أخرى إبعاداً عن تزكية النفس فى مجتمع هو أقرب المجتمعات إلى المثالية.. وأذكر بهذه المناسبة حادثة توضح هذا المعنى، وإن كانت تمسنى شخصياً؛ إلا أن فى إيرادها مايكشف عن مقومات المجتمع الإخوانى، ويبين إلى أى مدى وصل هذا المجتمع فى الأخذ بالأسلوب الإسلامى فى التربية الروحية والصقل النفسى.

فى أثناء إجراء عمليات الانتخاب ــ وكانت تجرى على سطح المركز العام ــ كان يجلس بجانبى أخ كريم من إخوان الأقاليم هو الأخ الشيخ عبد الغفار الديب ــ رحمه الله ــ وكان من العلماء وعمدة قرية صفط العنب بمحافظة البحيرة.. وكنت بحكم وجودى فى لجنة تحقيق العضوية منذ أنشئت الهيئة التأسيسية ــ أعرفه كما أعرف جميع أعضاء الهيئة إلا أنه وإن كان يعرفنى شكلاً فإنه لايعرف اسمى.. وكان أعضاء الهيئة يعرفون أن عملية الانتخابات التى دعوا هذه المرة لأدائها عملية خطيرة لها مابعدها ــ فرأيت هذا الأخ الكريم يميل علىّ ويسألنى: هل تعرف الأخ محمود عبد الحليم؟

فقلت: نعم أعرفه. قال: وما رأيك فيه؟

قلت: إنه ليس بذاك.

قال: إن رأيك هذا عجيب. فأنا لاأعرفه ولكن جميع الإخوان الذين أعرفهم يزكونه

قلت: لابأس.. لكل إنسان رأيه ــ وقد سألتنى وهذا هو رأيى فيه. وأنا لن أنتخبه.

وتمت عملية الانتخاب. وفرزت الأصوات. وأعلنت النتيجة.. وأحمد الله أن فزت بما يشبه الإجماع.. وهى نتيجة طمأنتنى على أعز ماأحرص عليه، وهو ماتكنه قلوب إخوانى لى من حب.. وعرف الأخ الشيخ عبد الغفار من الذى كان يبدى له الرأى فى محمود عبد الحليم، فأقبل علىّ معانقاً هو وإخوانه الذين قص عليهم ماكان بينى وبينه.

وكانت نتيجة الانتخاب بمثابة تجديد إجماعى للثقة بقيادة المرشد العام؛ لأنها جاءت مطابقة تماماً لما كان يأمله؛ فقد أقصى عن مكتب الإرشاد أعضاء منهم الأخ الأستاذ صالح عشماوى وأدخل فيه إخوان آخرون.

ومن أروع مالفت نظرى فى الإخوة الذين دخلوا المكتب هذه المرة أن يكون منهم الأخ الأستاذ عمر التلمسانى. وللأخ الأستاذ عمر قصة.. فهو المحامى الوحيد الذى دخلت الدعوة فى عام ١٩٣٦ فوجدته من الأعضاء السابقين.. وكان من أحب الإخوان إلى الأستاذ الإمام، وكان يربطه به رباط روحى صوفى أشبه بالعشق الروحى.. وكان الأستاذ عمر من سكان شبين القناطر، ولا يكاد يشترك معنا إلا فى المناسبات وزيارات خاصة للأستاذ الإمام، وبمقالات يكتبها فى مجلة الإخوان ــ وكنا نعتبره إذ ذاك الأخ المحب المدلل.. ثم كانت المفاجأة أن يترك هذا الأخ منتجعه، ويأتى إلى المركز العام يضع نفسه ووقته وجهده تحت أمر الدعوة فى أحرج وقت مر بها، حيث الفتن على أشدها، والحكومة مكشرة عن أنيابها، والمرشد العام فى أمس الحاجة إلى من يقف بجانبه.

الانتخابات الداخلية:

وقبل أن نختتم الحديث عن التشكيلات، يحسن بى أن أذكر نتيجة الانتخاب الداخلى

فى هذين التشكيلين حيث تم الآتى :

١ ــ فى مكتب الإرشاد العام : أسفر الانتخاب الداخلى عن انتخاب : الدكتور محمد خميس حميدة نائباً للمرشد العام والأستاذ عبد القادر عودة وكيلاً عاماً والأستاذ عبد الحكيم عابدين سكرتيراً عاماً والأستاذ عمر التلمسانى سكرتيراً عاماً مساعداً.

٢ ــ فى لجنة تحقيق العضوية :

عند إجراء الانتخاب الداخلى رأيت اتجاها من أعضائها إلى انتخابى رئيساً للجنة باعتبارى حائزاً أكثر الأصوات فى الهيئة التأسيسية ، ولكننى أشرت عليهم بانتخاب الأخ عبد العزيز كامل وكان هدفى من ذلك أن أضعه أمام المسئوليات الجسام المقبلة ، وقد تم ماأشرت به . كما انتخب الأخ الأستاذ سعد الدين الوليلى سكرتيراً للجنة .

* * *

الباب السابع

التقاء إرادتين على التخريب

الفصل الأول

لقاءات مشبوهة

وقفنا فى باب سابق فى موضوع النظام الخاص عند إذعان قيادته لما أجمع عليه الإخوان من اختيار المرشد العام الجديد الأستاذ حسن الهضيبى ــ وقد وقع هذا الإذعان أحسن موقع من الجميع. واعتبر ذلك نصراً كبيراً للدعوة، وعقبة كأداء انزاحت من طريقها.. وقلنا إن الدعوة بتحررها من هذا العائق انطلقت انطلاقاً فاق ماكان منتظراً، وراح الجميع يخطبون ودها، وينثرون الورود فى طريقها؛ تقرباً إليها، وتمسحاً بها.. حتى الملك أراد أن يلوذ بحماها.. ولكنها ركلته برجلها.. وتطلعت الأنظار إليها مترقبة التغيير المأمول..

ووقع التغيير المنتظر، الذى كان أشبه بالتغيير الذى أنهى دولة بنى أمية.. كان الأمويون يلعنون العلويين على المنابر طيلة مائة عام تولوا الحكم فيها.. وكان العداء مستحكما بين طائفتين طائفة الأمويين وطائفة العلويين.. وظل العلويون هم الأعداء المطاردين طيلة المائة عام.. فلما وقع التغيير باسم العلويين.. وكانت الأنظار معلقة بهم.. فإذا الذين ظهروا على المسرح أبناء عمومتهم من بنى العباس؛ فلم يخطر ببال أحد أن الدولة شيء غير دولة العلويين.. ولكن الأحداث المؤسفة أخلفت الظنون، ورأوا بنى العباس قد استقلوا بالحكم وناصبوا أبناء عمومتهم الذين وصلوا إلى الحكم عن طريقهم أشد العداء.

كان جمال عبد الناصر على علم بما كان من موقف لقيادة النظام الخاص. كما أن الفترة التى قضاها فى كنف هذه القيادة قد كشفت له كثيراً من نواحى الضعف فى نفوسها.. ولما كان دائب البحث عن وسائل تمكنه من احتواء هذه الدعوة المترامية الأطراف؛ بحيث يوجهها حيث يشاء؛ فيكون بذلك قد تربع على عرش أعظم قاعدة شعبية.. وقد لمس أن الرجل الذى اعتلى صهوة هذه القاعدة هو من الصلابة والقوة بحيث لايقتحم من أمامه.. ولا بد لمن يريد اقتحامه أن يبحث عن وسيلة يقتحم بها من خلفه.. وقد هداه تفكيره، وأرشدته خبرته إلى هذا النظام الخاص الذى سبق له أن تمرد، ولم تذعن قيادته إلا مغلوبة على أمرها.

ومع أنه هو شخصياً لايثق فى هذه القيادة، فقد سبق له أنْ طعن فى كفاءتها؛ فإنه

لايعنيه الآن شيء من ذلك، وكل الذى يعنيه هو أن يحتضن هذه القيادة، ويوليها اهتماماً خاصاً، ويوسع لها من مجلسه ـــ مجلس رئيس الحكومة ـــ ويشعرها بأنها شريكة فى الحكم.. وأنه وإياها «الإخوان القدماء» ولابد من العمل معاً على التخلص من هذا الرجل «الدخيل» الذى جاءوا به من خارج الدعوة ووضعوه على رأسها متجاهلين فى ذلك أصحاب الدعوة الأصليين من الإخوان القدامى الذين بنوا صرح هذه الدعوة بعرقهم ودمائهم.

وحسب القارىء أن يتصور موظفاً صغيراً بوزارة الزراعة، مؤهله الثانوية العامة يجد رئيس الحكومة يطلبه فيستقبله فى مكتبه استقبال الند للند أمام رجال الحكم، ثم يجلسه إلى جانبه، ويمضى ساعات فى الحديث إليه منفردين، لايسمح لأحد مهما علا شأنه بالدخول عليهما ـــ وقد تنتهى الجلسة الطويلة بأن يصحبه إلى منزله فيتغديان معاً.. وأصبح الاتصال بينهما تليفونياً وشخصياً مقدماً لدى رئيس الحكومة على كل اتصال.. أى شعور يتصوره القارىء من الزهو والغرور والاستعلاء يستولى على لب هذا الموظف الصغير بحيث قد ينسيه حقيقة نفسه.

ولم يكن هذا أسلوب جمال فى التعامل مع رئيس النظام الخاص وحده، بل إنه كان يستعمل نفس الأسلوب مع كثيرين من أفراد هذا النظام حتى الطلبة منهم.. فلقد كان من إخوان النظام فى ذلك الوقت أخ اسمه حسن عبد الغنى وكان إذ ذاك طالباً بكلية الحقوق وكان على درجة عالية من الإخلاص، وكنت أحبه لهذا؛ فكان يقابلنى بالمركز العام فى المساء ويحدثنى عن جلسات له مع جمال وعما تم بها من حديث.

أما من ناحية رئيس النظام الخاص فى ذلك الوقت؛ فإنه لم يكن بحاجة إلى كل هذه المظاهر من الاحتفاء والتقريب ليسلك المسلك الذى يريده جمال. بل إنه كان يتمنى أن يجد أى سند يستند إليه ليظهر ماكان يتكتمه مما كان يعتمل فى نفسه نحو المرشد العام.. ولو أن جمالاً اكتفى بأن أومأ إليه مجرد إيماء من بعيد بما يشعره بالتأييد لفعل كل الذى فعل مما كان يريده جمال أن يفعل.. فلقد كان رئيس هذا النظام يعتقد أن المرشد العام قد سلبه سلطة لاحدود لها ولا قيود عليها، كان يستمتع بها، ويظن أنها صارت تفويضاً إلهياً له.

ومن هذا المنطلق كان سلوكه الشائن المخرب الذى تمت جولاته بتدبير أثيم فى كنف جمال عبد الناصر وتحت مظلة من تأييده وتوجيهه ومباركته.

كان الإخوان ـــ لاسيما فى القاهرة ـــ يشعرون بهذا التحرك المشبوه الذى يتم بين جمال عبد الناصر وبين عناصر كثيرة من إخوان النظام الخاص. وبدأ الإخوان ـــ سواء منهم من كان من النظام الخاص أو من غيره ـــ الذين يتأثرون بتوجيهات جمال عبد الناصر يتكتلون، وأخذوا يبحثون عن مكان يلتقون فيه معاً؛ فوجدوا ذراعين مفتوحتين ترحبان

بهم، وكان هذان الذراعان ذراعى الأخ الحاج حلمى المنياوى ــ وهذا الأخ إذ ذاك كان تاجراً كبيراً من تجار الورق بالقاهرة، له محل تجارى فسيح بشارع الجيش، ويتصل بهذا المحل مكتب كبير مؤثث وبه تليفون ويصلح لعقد الاجتماعات.. ومنذ ذلك الوقت صار هذا المكان ملاذ كل من تحدثه نفسه بالشغب على دعوة الإخوان المسلمين أو المساهمة فى الكيد لها.. ولست أدرى حتى الساعة ماالذى دفع الحاج حلمى إلى اتخاذ هذا الموقف الذى كان أشبه بمسجد الضرار.. هل هى مجاملة منه لهؤلاء الإخوان المتمردين؟ أم كانت وسيلة منه للتقرب إلى جمال عبد الناصر وسلطة الحكم أملاً فى الانتفاع من وراء ذلك لتجارته؟ والذى أعرفه فى هذه الناحية أن جمالا فيما بعد حطمه فيما حطم؟!!!

والعجيب فى شأن هذا الأخ أنك سوف تقرأ فى كثير مما سوف تقرأ عن التمرد والمتمردين وما كان منهم وما اتخذ بشأنهم، وستقرأ اسم محل هذا الأخ قرين كل حدث وكل خطوة وكل مؤامرة.. ولكنك لن تجد اسمه هو نفسه فى شىء من ذلك.

وبالرغم من أن جمال عبد الناصر كان حريصاً على أن تكون اجتماعاته بإخوان النظام الخاص فى نطاق السرية؛ فإن كثرة تعدد هذه الاجتماعات، وتدخل أكثر من فرد من رجال جمال فيها ــ أملاً فى سرعة إنجاز المقصود منها وهو تأليب هذا الجهاز على المرشد العام ــ كل ذلك نقل هذا الأسلوب إلى مايشبه العلانية. وصار معروفاً أن هناك جبهة يُسهَر على إعدادها لإجراء هذا التخريب، وأن كل خيوطها فى يد رئيس هذا النظام، وأن خيوط هذه المؤامرة تحاك فيما بين يدى جمال وهذا الرئيس.

* * *

الفصل الثانى

عبد الرحمن السندى مرة أخرى

دعانى المرشد العام ذات يوم، وأخذ يقص علىّ من أنباء عبد الرحمن السندى ومن اتصالاته بجمال عبد الناصر، ومن اجتماعاته بأفراد النظام الخاص وما يبثه فيهم من روح العداء لقيادة الدعوة — وسمى لى أفراداً أبلغوه كل ماقاله عبد الرحمن.. وأخبرنى بأن عبد الرحمن يجد آذانا صاغية من بعض كبار الإخوان.. وقال لى: إننى لم أدعك إلا بعد أن بذل كثير من الإخوان جهوداً مشكورة ولكنها لم تثمر، ومع ذلك لم أكتف بهذه الجهود بل استدعيته وتحدثت إليه وحاولت إقناعه بأن تصرفاته تسىء إلى الدعوة وتعود عليها بضرر بالغ ولكنه أصر على موقفه.

ثم قال لى: إننى لامانع فى الاستقالة إذا رأى الإخوان أن ذلك فى صالح الدعوة.. وقد استدعيتك باعتبارك الورقة الأخيرة لأنك أنت الذى عالجت هذه الفتنة من قبل وأنت أقرب الإخوان إلى نفوس أعضاء هذا النظام.

وبدأت بالاتصال بالأخ أحمد زكى باعتباره التالى لعبد الرحمن فى القيادة ولأن له محلاً تجارياً يتيسر اللقاء به فيه، وأثرت معه الموضوع، فلم ينكر مايبذلونه من جهود فى سبيل تغيير قيادة الدعوة، ولم يخف ثقتهم فى تحقيق أمنيتهم هذه المرة، وحجتهم فى ذلك أن الأستاذ الهضيبى رجل دخيل على الدعوة وهو عقبة فى سبيل التفاهم مع الثورة، وأن التفاهم مع الثورة أمر ضرورى لتحقيق مبادىء الدعوة، وأن الثورة مستعدة للتفاهم مع الإخوان ولكن الهضيبى هو الذى يرفض.. وحاولت التفاهم مع الأخ أحمد ولكنه اعتذر إلىّ وطلب منى هذه المرة أن أتفاهم مع عبد الرحمن.

وترقبت حضور عبد الرحمن إلى المركز العام.. ولم أشأ أن أقابله فى أول مرة محاولاً أن أراقب تحركاته؛ فرأيته يحضر فى الليالى التى يكثر فيها حضور الإخوان، ويندس بينهم، ويتخير منهم أشخاصاً يتحدث إلى كل منهم على حدة. ويتنقل من مكان إلى مكان ليلتقى بأفراد آخرين... وبعثت فى طلب بعض هؤلاء الأشخاص من الذين تحدث إليهم عبد الرحمن وسألتهم عما دار بين عبد الرحمن وبينهم من حديث؛ فوجدت أنه يمهد للقيام بانقلاب فى المركز العام.

وشعرت بأن ترك الفرصة له ينفث سمومه بين إخوان برءاء هو تفريط فى حق الدعوة وغفلة — وإذا كان قد استطاع فى غفلة منا أن يستحوذ على أفكار عدد من كبار الإخوان الذين بهر عيونهم بريق السلطة ويطمعون فى غنائمها؛ فما ذنب غيرهم من خلاة الأذهان، سليمى الطوية الذين لامطمع لهم إلا نصرة الإسلام.. كيف نتركهم فريسة لأفكار هى تخريب لدعائم الدعوة، وتقدم لهم على أنها الوسيلة الوحيدة لتثبيت دعائمها.

قررت فى نفسى أن لابد من وضع حد لهذا الأسلوب السرى الخطير، ولا يكون ذلك إلا بنقله من السرية إلى العلن.

التقيت بعبد الرحمن — الذى كان يستحيى أن يرفع نظره إلىّ — فرأيته يتكلم معى بأسلوب جديد فيه جرأة وفيه مايشبه التوقح وفيه إصرار وفيه عناد.. وعبثاً حاولت صابراً على أسلوبه هذا أن أقنعه بخطورة محاولاته وإضرارها بالدعوة بل تعريضها للزوال.. فلما يئست تركته منذراً.

انتقلت إلى مرحلة أخرى مؤداها أن أشعره بتيار مضاد تقوم به مجموعات من إخوان النظام الخاص.. وبذلك لايجد الطريق أمامه مفتوحاً كما كان يجده من قبل.. والتقيت بمجموعات كبيرة من هؤلاء الإخوة فى القاهرة والأقاليم — وكان الذى يربطنى بهم الحب والثقة التى مردها الإيثار وإنكار الذات — وأفضيت إليهم بما فى نفسى، وتبادلنا الرأى، وأجمعوا على الوقوف صفاً واحداً فى وجه عبد الرحمن.. ونظموا أنفسهم بحيث يحضر عدد منهم كل ليلة إلى المركز العام وتكون مهمتهم تحذير الإخوان خلاة الذهن من عبد الرحمن وأفكاره المسمومة.

ونجحت الفكرة.. وكان يجيء عبد الرحمن فيجد الطريق أمامه مسدوداً.. وحاول أن يستخدم سلطته على أعضاء النظام فوجد منهم خروجاً على طاعته وعصياناً لأول مرة — وتكرر حضوره إلى المركز العام لعله يجد ثلمة بين هؤلاء الإخوان ينفذ منها، فلم يظفر بطائل.. فانقطع عن المركز العام.

دار الندوة:

صحيح أن هذه الخطة حرمت عبد الرحمن فرصة اصطياد أفراد جدد يضمهم إلى صفه.. وصحيح أن هذا الأسلوب حرمه منتدى يلتقى فيه بأفواج بعد أفواج.. ولم يعد يجد فى هذا المنتدى وجهاً واحداً يبتسم له أو يرحب به — ولكن ذلك لم يمنعه أن يجد منتدى آخر نذره صاحبه لاستقبال المتمردين والترحيب بالمتآمرين — وأكرر هنا أيضاً ماقلته من قبل إننى لاأدرى حتى الساعة أية مصلحة كان ينتظرها صاحب هذا المنتدى من وراء ذلك.. فإنك كنت إذا جلست إليه شخصياً لم تشعر فى حديثه بأدنى مايشعر بالتمرد.

عكف عبد الرحمن على الالتقاء فى «دار الندوة» هذه بأقطاب التمرد، وبالحفنة من إخوان النظام الخاص التى كان قد استقطبها واستحوذ عليها من قبل.. والتى كان يرتب لها لقاءات مع جمال عبد الناصر ثم عرف كيف يحشو عقولها بأخبار كاذبة، وأفكار سوداء، ويصور لها المواقف على غير حقيقتها، ثم عرف كيف يعزلها عن المجتمع الإخوانى خشية أن تلتقى بمن يصحح لها الأفكار، ويشرح لها حقيقة الأمور.. وإذا كنا قد طاردنا عبد الرحمن فى المركز العام فليس من حقنا أن نطارده فى أماكن لاسلطان لنا عليها.

عزل رئيس النظام:

لم يكن هناك بد من اتخاذ إجراء يحرم أولاً هذا الرئيس المتواطىء من الصفة التى تخوله حق توجيه أعضاء هذا النظام الوجهة التى يريدها — وتحرر ثانياً أعضاء هذا النظام من الالتزام بطاعة هذا الرئيس.

وهذا الإجراء لايتطلب عرض الأمر على مكتب الإرشاد ولا على ماسواه من مؤسسات الدعوة؛ بل هو من حق المرشد العام وحده — لأن هذا الإجراء ليس معناه فصل هذا الرئيس من جماعة الإخوان المسلمين وإنما هو مجرد نقل عضو فى الجماعة — من عمل عهد به إليه فوجد أنه لم ينتج فيه الإنتاج المطلوب — إلى عمل فى مجالات أخرى فى الدعوة قد يكون فى واحد منها أحسن إنتاجاً — ولهذا كان الذى أصدر هذا الأمر هو المرشد العام — كما أن هذا الأمر بطبيعة اتصاله بالنظام الخاص فإنه لم يصدر مكتوباً ولا منشوراً بل كانت وسيلته التبليغ الشفوى عن طريق تسلسل القيادة.

وغنى عن الذكر أن نقول إن هذاالأمر لم يصدره المرشد العام فجأة، وَلَا مِنْ تلقاء نفسه — مع أن هذا من حقه — وإنما صدر بعد اتصال المرشد العام بالكثيرين من العاملين بهذا النظام والمتصلين به.. بل إنه لم يصدر إلا بعد إلحاح من هؤلاء العاملين بعد أن تقدموا إليه بوقائع ثابتة لها خطورتها وتنذر بشر مستطير.. ونعرض على القارىء واحدة منها حتى يكون معنا فى تقدير ماكان يكتنف الموقف من خطر داهم:

جاء أحد إخوان النظام الخاص وأخبر المرشد العام بالتالى: فى أثناء اجتماعنا العادى أخبرنا الأخ صلاح عبد المعطى أنه بتكليف من رئيس النظام الخاص دعا بعض شباب النظام إلى حضور اجتماع فى منزل أحد أعضاء النظام الخاص اسمه الأخ جمال النهرى؛ وحضر هذا الاجتماع الإخوة عز الدين مالك وعلى صديق وحسن عبد الغنى وغيرهم.. ثم حضر إليهم حازم النهرى شقيق الأخ الذى يجتمعون عنده، وهو من تشكيلات الضباط الأحرار ومخابراتهم، وأخذهم إلى منزل عبد الحكيم عامر الذى اجتمع معهم وحضر الاجتماع جمال عبد الناصر وصلاح سالم — وأخذوا يسيئون إلى المرشد العام وجماعة منير

دلة، ويصورون لهم الخلاف بين الثورة وبين المرشد العام على أنه خلاف شخصى وليس خلافاً على مبادىء أو سياسة.

* * *

الفصل الثالث

جريمة غدر مجنونة

من هذا يتضح أن إجراء المرشد العام بتنحية رئيس النظام عن رياسة النظام ليست إلا إجراءً عادياً؛ كان يجب أن يقابل من أخ بايع على السمع والطاعة بالتسليم والرضا، وتوجيه جهوده لميدان آخر من ميادين الدعوة الفسيحة.. ولكن الذى حدث كان عكس هذا تماماً .. اعتبر هذا الأخ هذا الإجراء اعتداء عليه ، وسلباً لسلطان يرى أنه حق أيدى له .. وإذا كان قد ناوأ المرشد العام من قبل فى خفاء، فإنه أصبح الآن فى حل من إعلان الحرب عليه؛ مستحلاً فى سبيل ذلك كل وسيلة تتاح له.. أتدرى أيها القارىء ماذا فعل؟

كان يعلم أن المهندس سيد فايز — وهو من كبار المسئولين فى النظام الخاص — من أشد الناقمين على تصرفاته، وأنه وضع نفسه تحت إمرة المرشد العام لتحرير هذا النظام فى القاهرة على الأقل من سلطته، وأنه قطع فى ذلك شوطاً بعيداً باتصاله بأعضاء النظام بالقاهرة وإقناعهم بذلك.. وإذن فالخطوة الأولى فى إعلان الحرب.. وكذلك سولت له نفسه.. أن يتخلص من سيد فايز.. فكيف تخلص منه؟

إنه تخلص منه بأسلوب فقد فيه دينه وإنسانيته ورجولته وعقله.. انتهز فرصة حلول ذكرى المولد النبوى الشريف، وأرسل إليه فى منزله هدية علبة مغلقة عن طريق أحد عملائه ولم يكن الأخ سيد فى ذلك الوقت موجوداً بالمنزل؛ فلما حضر وفتح العلبة انفجرت فيه وقتلته وقتلت معه شقيقا له وجرحت بقية الأسرة وهدمت جانبا من جدار الحجرة.

وقد ثبت ثبوتاً قاطعاً أن هذه الجريمة الأثيمة الغادرة، كانت بتدبير هذا الرئيس.. وقد قامت مجموعة من كبار المسئولين فى هذا النظام بتقصى الأمور فى شأن هذه الجريمة، وأخذوا فى تضييق الخناق حول هذا الرئيس حتى صدر منه اعتراف ضمنى.

ولكن الذى يلفت النظر أن الحكومة حين باشرت التحقيق فى هذه الجريمة البشعة باشرته بتثاقل مريب. وبدا كأنما باشرته لمجرد «سد خانة» حتى لايقول الناس لماذا لم تقم الحكومة بالتحقيق.. وقد أقفل المحضر دون توجيه اتهام لأحد.

الفصل الرابع

فصل أربعة من الإخوان المسلمين

أمام هذا الغدر المجرم والاعتداء الآثم، الذى وصل إلى حد استحلال الدم، لم يكن بد من اتخاذ إجراء عاجل، فى حدود مايخول قانون الإخوان المسلمين الجهة المسئولة فى الهيئة، وكان أقصى مايمكن اتخاذه من إجراء هو فصل هذا الرئيس والضالعين معه من هيئة الإخوان.

اجتمع مكتب الإرشاد فى ٢٢ نوفمبر ١٩٥٣ وتداول فى هذا الموضوع الخطير، وبحثه من جميع جوانبه، وانتهى إلى قرار إجماعى بفصل رئيس هذا النظام الخاص وثلاثة من معاونيه هم أحمد عادل كمال ومحمود الصباغ وأحمد زكى.. وأعلن هذا القرار.

وبديهى أن هذا القرار وقد تم إعلانه ــ كان لابد من احتفاظ مكتب الإرشاد العام لنفسه بالأسباب التفصيلية التى دعت إليه.. لأن فى إعلان هذه الأسباب ماقد يزيد علاقة الإخوان بالحكومة سوءاً؛ إذ فيها مايمس جمال عبد الناصر شخصياً.. وكان ــ حتى ذلك الوقت ــ مايزال مأمولا تفادى المواجهة لعل جمالا يفىء إلى الرشد..

وكان موقف الإخوان حيال هذا الوضع الخطير كمثل الذى رأى نفسه فى مثل هذا الموقف فقال:

البغل فى الإبريق لكن أين لى بفم يقول البغل فى الإبريق

رفع قميص عثمان:

كان مفروضاً بصدور قرار إجماعى من مكتب الإرشاد العام أن يقابل بالرضا والتسليم من كل فرد من أفراد الإخوان المسلمين مهما خلا هذا القرار من ذكر الأسباب التفصيلية التى بنى عليها وذلك للأسباب الآتيه:

١ ــ أن هذا القرار قد صدر من الجهة المختصة، وصدر بالإجماع لا بالأغلبية.

٢ ــ أن علاقة الإخوان المسلمين فى كل مكان بمرشدهم العام وبما يعاونه من هيئات منتخبة علاقة تقوم على الثقة التى لايداخلها شك.

٣ ــ أن هذا القرار ــ وإن كان قد صدر دون إعلان أسبابه ــ فإن هذه الأسباب كانت معروفة لجمهور الإخوان بل لكثيرين من غير الإخوان.

ومع ذلك فقد بدأ هذا الرئيس المفصول فى تنفيذ تمثيلية جديدة، وضعت وأخرجت «فى مكان ما» ولم تكن مهمته إلا أداء أدوارها على المسرح.. وكانت الفصول التالية للمسرحية قائمة هذه المرة على «رفع قميص عثمان».

كان هؤلاء المفصولون يعرفون أسباب فصلهم، وكان الذين يمدونهم فى الغى يعرفون هذه الأسباب، وكان الإخوان جميعاً يعرفون هذه الأسباب؛ لاسيما أولئك الذين كانوا يجتمعون معهم كل ليلة فى «دار الندوة».

ولكن لأن هؤلاء المفصولين ومن يلوذبهم ويباركون جرائمهم يعلمون أن مكتب الإرشاد لايستطيع أن يعلن هذه الأسباب للظروف التى أشرنا إليها.. أرادوا إحراج المكتب وإحراج المرشد العام بالذات.. ونظموا حملة يطالبون فيها بإعلان أسباب الفصل.. وقد اتخذت هذه الحملة صوراً منها:

١ ــ تقدم بعضهم إلى المكتب بتظلمات كتابية، ووعد المكتب بالنظر فيها ــ وتبين فيما بعد أن هذا من جانب المتظلمين كان أسلوباً من أساليب التنويم.

٢ ــ بدت الأمور بعد ذلك كأنما استقرت. وتفرغ الإخوان لأعمالهم الخاصة، كما تفرغ كل ذى مسئولية فى الدعوة للعمل فى موقعه ــ ولم يدر بخلد أحد أن هذا الهدوء والاستقرار لم يكن إلا ستاراً لمؤامرة تحاك من خلفه؛ على أن تكون هى المؤامرة القاضية ولا قبل لأحد بمواجهتها؛ فقد حيكت بإحكام وبراعة دقيقين، بتكتيك ماهر توفرت عليه عقول متخصصة، ووضعت فى خدمته كل الوسائل؛ فكانت بذلك أخطر مؤامرة واجهها الإخوان المسلمون.

* * *

الباب الثامن

المؤامرة الخسيسة
أو
الضربة المسددة إلى القلب من الخلف

حول هذه المؤامرة

كل المؤامرات التى حيكت لدعوة الإخوان من داخلها؛ وقد عرضنا لها فى هذه المذكرات ــ كانت ــ على اختلاف دوافعها ــ من نوع واحد.. ولكن المؤامرة التى تزعمها عبد الرحمن هذه المرة كانت وحدها نوعاً آخر.. إنها اختلفت عن سوابقها فى أمرين:

الأول: أن سوابقها لم تكن من الخسة بحيث تستحل حرمة البيوت ولا حرمة الدماء؛ فلم تفكر واحدة منها فى اقتحام بيت، مهما بلغت درجة الخصومة بين القائمين بها وبين زميل، وكانوا يرون فى ذلك خسة ونذالة يَرْبَأُونَ بأنفسهم عنها.. ولكن مؤامرة عبد الرحمن استحلت حرمة البيوت فاقتحمت على المرشد العام بيته، واستحلت دم أخ مخالف لهم فى الرأى.

الثانى: أن هذه المؤامرة استعانت بسلطة الحكومة القائمة ضد الهيئة التى نشأوا فيها، وتربوا فى أحضانها؛ وقد يكون التعبير الأدق أن نقول: إنها تواطأت مع السلطة، وتحالفت وأسندت ظهرها إلى ماتملك هذه السلطة من قدرات لاتملك مثلها هيئة شعبية.. بل إنها فى الحقيقة جعلت من نفسها أداة منفذة لخطط وضعتها هذه السلطة.

مجمل تخطيطى للمؤامرة:

خطط لهذه المؤامرة بحيث يكون هجومها ذا شعبتين؛ فقد قسموا أنفسهم قسمين أو فريقين:

فريق كله من الشباب وكل إليه أن يقتحم على المرشد العام بيته لإرغامه على كتابة استقالة.. ويقوم هذا الفريق بمهمته فى الوقت الذى يكون فيه الفريق الآخر قد اقتحم دار المركز العام واحتله.. وكان هذا الفريق أيضاً من الشباب ولكن كان على رأسه ثلاثة من كبار الإخوان هم الأساتذة صالح عشماوى ومحمد الغزالى وأحمد عبد العزيز جلال من أعضاء الهيئة التأسيسية.

وقد أدى الفريق الأول مهمته فى اقتحام منزل المرشد العام ــ وهو أمر ميسور لكل

من أراده — وصحيح أنهم تطاولوا على الرجل وأساءوا إليه، لكنهم لم يستطيعوا أن يستكتبوه الاستقالة.. وكان المفروض فى التخطيط أن يكون الفريق الآخر قد أتم احتلال المركز العام، على أن يوافيه الفريق الأول باستقالة المرشد العام المكتوبة، ليعلنها الثلاثة الكبار فى الصحف، ويختاروا بعد ذلك مرشداً عاماً لابد أنهم كانوا قد أعدوه فيما بينهم.. ولكن الفريق الآخر — وقد قام بمهمته — فاحتل المركز العام — وكان احتلاله ميسوراً لأى أحد فاليوم يوم جمعة والمركز خال من الرواد — وقام الثلاثة الكبار باحتلال مكتب المرشد العام، وقام الشبان بحراسة بوابة المركز حتى لايدخله إلا المشايعون ولكن الجزء الهام من الخطة لم يتحقق إذ لم يتم الحصول على الاستقالة.. وإن كان المسئولون عن المؤامرة قد أسنوها فنصحف ثقة منهم فى أن إحكام المؤامرة جعل هذه الاستقالة.. فى قبضة أيديهم.

هذا من ناحية القائمين على تنفيذ مخطط المؤامرة، أما إدارة المؤامرة، فكان يديرها عبد الرحمن وأركان حربه من منزل قريب من جريدة الأهرام.

مواقف ذات دلالات هامة فى المؤامرة:

ولما كان دورى فى نقل صورة عن هذه المؤامرة إلى السادة القراء دور الناقل عن غيره ممن شهدوها، فأرى — كما قدمت أن أجمل القول فيها؛ محيلا إياهم إلى كتاب «صفحات من التاريخ» للأستاذ صلاح شادى مجتزئا هنا بملاحظات استميحه عذراً إذا أنا نقلتها عنه لشدة أهميتها، ولبالغ دلالاتها؛ حرصاً منى على أن تكون بين يدى قراء قد لايتاح لهم — فى وقت قريب — الاطلاع على كتاب الأخ الأستاذ صلاح.

وإليك هذه الملاحظات:

الأولى : كان أكثر هذا الشباب الذى ضلع فى هذه الفتنة مضللين ومخدوعين؛ حتى إنه لم تمض هذه الليلة حتى تقدم اثنان كانا من قادتها معتذرين وآسفين وهما الأخوان على صديق وفتحى البوز.

الثانية : أن اثنين كانا من أكبر المسئولين فى النظام الخاص فى القاهرة؛ أحدهما الأخ صلاح العطار وكان مسئولاً عن النظام الخاص فى شبرا، وكان يعد أقرب شخصية إلى السندى، وقد جعله السندى أركان حربه فى إدارة المؤامرة. والآخر الأخ سيد عيد وكان مسئولاً عن النظام الخاص فى شبرا الخيمة — كان هذان الأخوان — بإخلاص كانا قد طويا عليه أحناء ضلوعهما ولم يكن يعلمه إلا الله — كانا من العوامل التى أعدتها القدرة الإلهية لتقويض البناء الذى سهر على بنائه واضعو الخطة ومنفذوها.

الثالثة : كان معروفاً لدى منفذى الخطة أن الأخ صلاح العطار هو الناطق باسم

السندى وممثله وناقل تعليماته، حتى إنه لما توجه هو والاخ سيد عيد إلى المركز العام بعد منتصف الليل وجدا أن السندى قد اتصل بالمعتصمين تليفونيا وقال لهم اسمعوا وأطيعوا لصلاح العطار.. وبذلك استطاع صلاح أن يرسل إلى السندى من ألقى فى نفسه اليأس؛ حتى إنه اضطر أن يتصل بالمعتصمين بإنهاء الاعتصام.

الرابعة : لما علم الأستاذ صالح عشماوى بتعليمات السندى بإنهاء الاعتصام، غضب وهم بالاتصال به تليفونيا ولكن صلاح العطار منعه.

الخامسة: لما قابل الأخ سيد عيد الأخ صلاح العطار فى يوم المؤامرة فى مكان عينه له الأخ صلاح قرب جريدة الأهرام، وجد الأخ صلاح الأخ سيد منخرطاً فى البكاء لخطورة الحالة.. هدأه الأخ صلاح وقال له: هناك ماهو أخطر من هذا: إن سيد سابق قادم الآن من عند عبد الناصر ليبلغ السندى بموافقته على الانقلاب داخل الإخوان وأنه لن يتدخل إلى أن يتم الأمر؛ لأن تدخله سوف يقلب الأمور، وأن التعاون مع عبد الناصر سيتم بعد نجاح الانقلاب.

السادسة: فى يوم المؤامرة أرسل المرشد العام الأخ سعيد رمضان إلى صلاح سالم وزير الإرشاد يرجوه عدم نشر هذه الأنباء فى الصحف. ووافق صلاح سالم إلا أن عبد الناصر قال له: إن الصحف حرة فيما تكتب ولا نتدخل فى شئونها للتأثير عليها.

ويبدو أن عبد الناصر خوفاً من أن يكون قد وصل إلى بعض الصحف من صلاح سالم مايمنعها من النشر سارع بدعوة الأستاذ أحمد أبو الفتح صاحب جريدة المصرى أوسع الصحف انتشاراً فى ذلك الوقت ليلقى إليه بنفسه هذه الأخبار بطريقته الخاصة لينشرها أحمد أبو الفتح.

وقد جاء فى صفحة ١٩٧ من كتاب «جمال عبد الناصر» لأحمد أبو الفتح يقول: إن عبد الناصر دعاه إلى منزله فى تلك الليلة حوالى الساعة التاسعة مساءً فوجد أنور السادات عنده وأثار عبد الناصر فجأة الكلام عن الإخوان المسلمين.. ثم دق جرس التليفون فلاحظ أحمد أبو الفتح أن المحادثة نقلت إليه أخباراً سارة أشاعت البهجة والفرح فى نفسه. وأنهى عبد الناصر المحادثة قائلاً «إن الفريق المعارض للهضيبى قد احتل المركز العام للإخوان وطرد من الدار أنصار الهضيبى وأعلنوا أنهم وحدهم الذين يمثلون الإخوان المسلمين، وأعلنوا أنهم أجبروا الهضيبى على الاستقالة من منصبه كمرشد عام.. وسمح عبد الناصر لأحمد أبو الفتح بنشر هذه التفاصيل.

السابعة : يقول الأخ سيد عيد : فى أثناء انتظارنا فى ذلك المساء قرب منزل المرشد العام التقينا بالأخ الأستاذ سيد قطب وكان غاضباً ويردد : يافرحة الصهيونية والصليبية العالمية.

يقول الأخ سيد عيد : وعندما أتيحت لى فرصة للالتقاء بالأستاذ سيد قطب فى السجن سألته : مادخل الصهيونية والصليبية العالمية بخلاف داخلى بين الإخوان ؟

فقال لى : لقد اتصل بى الأستاذ على أمين فى الساعة الثانية ظهر يوم الحادث وقال لى : أين حاسة الصحفى عندك ؟.. الإخوان قايمين على بعض بالسلاح وانت قاعد فى البيت؟!

فقمت فى الحال وأخذت سيارة تاكسى وذهبت إلى بيت المرشد فلم أجد شيئاً غير عادى.. وذهبت إلى المركز العام فلم أجد شيئاً ملفتاً للنظر كذلك.. ثم تحدث بعدها كل الأمور التى حدثت.. هذا ماجعلنى أقطع بأن الأمر مدبر من أكثر من جهة.

وبعد أن أوردت هذه الملاحظات ذات الدلالة، ووضعتها بين يدى القراء ليستنتجوا منها مايشاءون ــ يجدر بى أن أذكر أن هذه الخطة ظلت مسيطرة أمسية ذلك اليوم، وهزيعاً من الليل.. حتى أفاق بعض المخدوعين، وبتدخل من بعض الإخوان منهم الأخ الأستاذ عبد العزيز كامل الذى لازم المعتصمين معظم الوقت..وبحسن تصرف الأخوين الكريمين الأستاذين صلاح العطار وسيد عيد اللذين ذكرنى دورهما فى هذه المؤامرة بدور الصحابى الجليل نعيم بن مسعود الذى كان أثيراً لدى اليهود.. وقد وكل إليه الرسول ﷺ فى غزوة الأحزاب أمر التخذيل عن المسلمين فكان عاملاً من أهم العوامل التى فككت الحلف بين اليهود والمشركين وأدت إلى فشل خطة الحصار المحكم حول المسلمين وغيرت بذلك وجه المعركة فصار فى صالح المسلمين.

أقول.. بهذه الجهود المخلصة أمكن إفشال الخطة وفض الاعتصام.. وكان الخبر وقد انتصف الليل قد وصل إلى أسماع بعض إخوان القاهرة؛ فخف فى الحال الأخ الأستاذ صلاح شادى رئيس قسم الوحدات فى ذلك الوقت ومعه مجموعة من إخوان الوحدات إلى دار المركز العام، ولم ينتظروا حتى يفتح لهم الباب، وتسلقوا السور ودخلوا المبنى، ولم يكن قد بقى أحد من المعتصمين سوى الثلاثة الكبار ومعهم الأخ صلاح العطار، وقد رفضوا الخروج ــ لاتمنعاً ولا تعنتاً كما رفضوا من قبل، وإنما رفضوا خوفاً على حياتهم.. فلما أمّنُوا من هذه الناحية خرجوا.

الفصل الأول

فى أعقاب فشل المؤامرة الخسيسة

بعد عرض المؤامرة فى مجملها، يأتى ابتداءً من هذا الفصل دور بسطها بسطا يتناسب مع خطورتها وفداحة آثارها؛ ولما كان الرأى العام شاهداً عليها إذ نقلها المتآمرون إلى صفحات الجرائد فقد وجب أن نبدأ باستقراء صداها فى صحافة تلك الأيام فنرى من خلال ذلك تطور أحداثها.. ونبدأ فى ذلك من اليوم التالى للمؤامرة فنقول:

(١) وقعت هذه المؤامرة فى يوم الجمعة ٢٧ / ١١ /١٩٥٣ ــ ونشرت الصحف ــ المصرى ــ فى صبيحة السبت ٢٨ / ١١ تحت عنوان: «انقسام خطير فى صفوف الإخوان المسلمين ــ بعض الأعضاء يحتلون المركز العام ويغلقونه».

«اتصل الأربعة المفصولون بأنصارهم، وفى الساعة الخامسة مساءً أمس ذهبوا ومعهم نحو خمسين عضواً إلى منزل الأستاذ الهضيبى طالبين استقالته فرفض. فذهبوا إلى دار المركز العام ــ وكان اليوم يوم جمعة، والمركز هادىء تماماً ــ ففتحوه بالقوة واحتلوه، ونادوا بالسيد سابق مرشداً وصالح عشماوى وكيلاً؛ حيث كانا معهم فى المظاهرة، وأعلنوا مبايعتهما. ووصلت الأنباء إلى الأستاذ عبد الحكيم عابدين فذهب إلى المركز العام وبصحبته الشيخ محمد فرغلى وعمر الأميرى، وحاولوا تهدئة الموجودين الذين أصروا على أن يطلعوا على أسباب فصل الأربعة، فرفض هؤلاء الإدلاء بشىء واتصلوا بالأساتذة عبد القادر عوده وعبد الرحمن البنا وعبده قاسم الذين حضروا وحاولوا محاولة أخرى مع المتظاهرين».

(٢) وفى نفس اليوم نشرت المصرى بياناً من صالح عشماوى وأحمد عبد العزيز جلال ومحمد الغزالى ومحمد سليمان هذا نصه:

«فوجىء الإخوان والرأى العام بقرار أصدره مكتب الإرشاد العام حرص على نشره فى جميع الصحف صباح الاثنين الماضى يقضى بفصل أربعة من أعضاء الجماعة دون أن يجرى معهم أى تحقيق أو توجه إليهم أية تهمة، ودون إبداء الأسباب التى أدت إلى اتخاذ هذا القرار الخطير.. وقد نتج عن ذلك بلبلة فى نفوس الإخوان، واضطراب فى صفوفهم، وانتظروا إلى يوم الثلاثاء الماضى، وسأل بعضهم المرشد العام عن أسباب الفصل فرفض أن

يدلى بالأسباب، وأكد أن المكتب يصدر قراراته، وليس لأحد أن يسأله عما يفعل.

ثم تطورت الأمور تطوراً سريعاً مساء الجمعة (أمس) إذ تجمع عدد كبير من الإخوان وطالبوا المرشد بإعادة النظر فى قرار المكتب الذى يجمع بين طابع الاستبداد والتحدى، ولكن فضيلته أعلن استقالته على الملأ. ثم تجمع الإخوان فى المركز العام من مختلف الشعب وتدارسوا الأمر حتى ساعة متأخرة من الليل، واستقر رأيهم على:

أولاً ـــ اعتبار الإخوان عبد الرحمن السندى وأحمد زكى ومحمود الصباغ وأحمد عادل كمال موقوفين إلى أن تحدد موقفهم لجنة خاصة تعرض تقريرها على الهيئة التأسيسية.

ثانياً ـــ لاعتبار مكتب الإرشاد موقوفاً حتى تبت الهيئة فى مصيره.

ثالثاً ـــ تأليف هيئة لتصريف شئون الدعوة وإدارة المركز العام لحين اجتماع الهيئة التأسيسية ـــ تتكون من: الدكتور محمد سليمان والأستاذ محمد الغزالى والأستاذ أحمد عبد العزيز جلال والأستاذ صالح عشماوى.

(٣) وفى نفس اليوم نشرت الصحف مايأتى:

فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل جاءنا البيان التالى من مكتب الإرشاد العام المجتمع فى منزل المرشد:

«علم مكتب الإرشاد العام الليلة أن نفراً من الشباب اجتمعوا فى دار المركز العام فى عطلته الأسبوعية وبحثوا فى جو من الشغب بعض قرارات المكتب.

وإن مكتب الإرشاد العام للإخوان المسلمين يستنكر هذا العبث الذى تأباه طبيعة الدعوة ونظام الإخوان وآداب الإسلام. وهو إذ ينصح هؤلاء الشباب بأن يثوبوا إلى الحق، ويأخذوا أنفسهم بنظام دعوتهم؛ يدعو الإخوان كافة أن يتلقوا هذه المحاولة العابثة وكل مايذاع عنها؛ بما ألفوا أن يواجهوا به كل تقول على الدعوة، ومحاولة للتفرقة؛ من الثقة بتأييد الله ووحدة الصف؛ مطمئنين إلى أن للإخوان من نظمهم وسلامة أوضاعهم مايضمن وحدتهم والله أكبر ولله الحمد».

ثم قال الأستاذ عبد الحكيم عابدين: «إن مكتب الإرشاد فى سبيله لتصفية الموقف، ونفى استقالة المرشد العام».

(٤) تخلل هذه الأحداث مأدبة عشاء أقامها المرشد العام فى منزله لأعضاء مجلس الثورة، حضرها جمال عبد الناصر وزكريا محيى الدين وعبد الحكيم عامر وعبد اللطيف البغدادى وكمال الدين حسين ـــ ونشرت الصحف هذا النبأ وقالت: إن الضيوف تناولوا طعام العشاء، وظلوا يتحدثون مع المرشد العام ومع أعضاء مكتب الإرشاد حتى منتصف

الليل... ونشرت الصحف صورة لجمال عبد الناصر والمرشد العام يتصافحان.

(٥) فى ٢٩/١١/٥٣ أى فى اليوم التالى وهو يوم الأحد نشرت الصحف ــ المصرى ــ مايلى:

«حضرت وفود ضخمة من مختلف شعب القطر إلى المركز العام ــ وكان المتظاهرون قد انفضوا قبل الساعة الرابعة من صباح السبت، ولم يبق إلا صالح عشماوى وأحمد عبد العزيز جلال اللذان غادرا المركز العام حين حضرت الوفود. وبلغ المصرى» أن عبد العزيز كامل كان ممن حاولوا التوفيق بين الفريقين.

وكان مكتب الإرشاد قد قرر الاجتماع بالمركز العام الساعة الثانية بعد الظهر ــ وقبل الاجتماع كان قد حضر الطرفان، فخطب عبد الحكيم عابدين مؤيداً المرشد، ثم تلاه الأساتذة سيد قطب رئيس قسم نشر الدعوة، وحسن دوح عن الطلبة. وعز الدين إبراهيم عن مكتب إدارى القاهرة وسعيد رمضان والدكتور خميس ثم تكلم المرشد فقال:

«إننى لأملك فى هذا المجال التعبير عما يجول فى نفسى ولا عما يجول فى نفوسكم. ولعل هذا الاجتماع خير دليل نقدمه على أن الإخوان لايزالون قوة متحدة.. ثم قال: وإذا كان الذين فصلوا يطلبون منا دليلاً على إدانتهم، فإن الدليل الذى قدموه أمس كان كافياً. وإذا كنا قد سكتنا عنهم وأبينا أن نتكلم فى أخطائهم فإن ذلك كان ترفقاً بهم.. وختم كلامه قائلاً:

««إن الإخوان الذين زارونى أمس دون إذن منى أعلن أنى قد سامحتهم. أما الذين أخطأوا فى حق الدعوة فليس لها أن تتسامح فى أخطاء تمسها»».

ثم بدأ مكتب الإرشاد اجتماعه بالتحقيق فى حادث الأمس، والاستماع إلى من كانوا بالمركز العام ومنهم صالح عشماوى وعبد العزيز جلال ومن أرسلهم المكتب للتفاهم وهم عبد القادر عوده وعبد الحفيظ الصيفى وعبد العزيز كامل ــ ثم أذاع المرشد العام البيان التالى إلى رؤساء المكاتب الإدارية الذين كانوا بالمركز العام واجتمع بهم:

«أرجو أن تبلغوا جميع الإخوان فى محيط المكتب الإدارى أن مكتب الإرشاد العام قرر بجلسته العادية المنعقدة فى مساء يوم الأحد ١٥ ربيع الأول ١٣٧٣ الموافق ٢٢ نوفمبر ١٩٥٣ فصل السادة أحمد زكى حسن وأحمد عادل كمال وعبد الرحمن السندى ومحمود الصباغ .

ولقد صدر هذا القرار بعد الاستماع إلى البيانات المتعددة التى عرضت على المكتب عن أخطائهم المتلاحقة فى حق الدعوة والجماعة خلال العامين الماضيين، والتى ثبت منها أنهم سلكوا مسلكا لايتفق وأغراض الجماعة وأنهم نقضوا البيعة وخرجوا على الدعوة.

ولما كان مكتب الإرشاد وهو الجهة المهيمنة على دعوة الإخوان المسلمين، ويحمل أماناتها؛ فليس للإخوان أن يسترسلوا فى السؤال عن تفاصيل أسباب هذا القرار. كما يأمل المكتب الذى اتخذ هذا القرار ـــ لصالح الدعوة المحض ـــ أن يكتفى الإخوان بالعلم به، وتنفيذ مقتضاه بكل دقة، وأن لايجعل هذا القرار موضع بحث أو مناقشة بينهم بأية حال من الأحوال ـــ وليعكفوا على دعوتهم وينشطوا فى أداء تبعاتهم فى مراقبة الله والإقبال على طاعته حرصاً على الآخرة.»

وقد سأل مندوب «المصرى» الأستاذ عبد الحكيم عابدين والشيخ محمد فرغلى عما إذا كان المكتب قد اتخذ قرارات فقررا أنه لم يتخذ ولا تزال الجلسة مستمرة فى يوم تال.. كما علم مندوب «المصرى» أن محمد مالك لم يكن ضمن المجموعة التى تظاهرت فى منزل المرشد مع أنه تربطه رابطة مصاهرة مع أحد المفصولين وهو أحمد زكى.. وجاء «للمصرى» بيان تأييد للأستاذ المرشد من طلبة جامعة الإسكندرية.

(٦) فى نفس اليوم نشرت الصحف ـــ المصرى ـــ بياناً جاءها من صالح عشماوى وزملائه الثلاثة هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم. إن حرصنا على سلامة الدعوة ووحدة الجماعة هو ماحدا بنا إلى التدخل بين الإخوان لتقريب وجهات النظر وحسم النزاع، ودفع الأمور لتأخذ مجراها الصحيح.. أما وقد اتفقت الآراء على تأليف لجنة يحتكم إليها الإخوان المتظلمون، فإننا نرجو أن تجتاز الدعوة هذه المرحلة بسلام. وما زلنا عند موقفنا فى تحرى الحق وإقرار العدل والعمل على إصلاح ذات البين. ونحن نهيب بالإخوان أن يقدروا الموقف، وأن يرعوا مسئولياتهم ومصلحة الدعوة قبل كل شىء والله المستعان.

(٧) فى اليوم التالى وهو ٥٣/١١/٣٠ نشرت الصحف البيان التالى:

استأنف مكتب الإرشاد اجتماعه مساء أمس حتى الواحدة صباح اليوم. وأذاع الأستاذ عبد الحكيم عابدين على الصحفيين هذه القرارات وهى:

أولاً: وقف كل من الأستاذين صالح عشماوى ومحمد الغزالى عضوى الهيئة التأسيسية وإحالتهما إلى لجنة تحقيق العضوية للفصل فى أمرهما.

ثانياً: وقف الشيخ سيد سابق وإحالته إلى اللجنة التى أمر المكتب بتشكيلها فيما نسب إليه.

ثالثاً: إحالة الأستاذ أحمد عبد العزيز جلال إلى لجنة تحقيق العضوية للفصل فيما نسب إليه.

رابعاً: اعتبار موقف الدكتور محمد سليمان منتهياً بالبيان الذى كتبه وقرر فيه ثقته بالمرشد العام واستنكاره لموقف الخارجين على الجماعة.

وقد سأل مندوب «المصرى» الأستاذ عبد الحكيم عابدين عن الحكمة فى التفريق بين الذين تقرر وقفهم فى قرار المكتب؟ فقال: لأن الأولين عضوان فى الهيئة التأسيسية أما السيد سابق فليس عضوا فيها.

(٨) فى نفس اليوم نشرت الصحف — المصرى — البيان التالى من صالح عشماوى وزملائه:

بسم الله الرحمن الرحيم — نعتقد أن من حق الإخوان المسلمين جميعاً معرفة الحقيقة المجردة عن الأحداث المؤسفة.. لقد أبرأنا ذمتنا، وقمنا بالحق المفروض علينا؛ عندما تدخلنا مسرعين لتهدئة النفوس وإنقاذ الدعوة من الخطر بعد تطور الأمور هذا التطور الخطير الذى لم يسبق له مثيل فى تاريخ الدعوة؛ نتيجة لتصرفات مكتب الإرشاد التى ثبت من الأحداث أنها لم تبن على أساس من التحرى الدقيق وتبين الأمور. ولكن المسعى الذى بذلناه لم يلق التقدير الذى يستحق من بعض أعضاء المكتب، الذين ظلوا بعيدين عن مواجهة الموقف، حتى بعد أن استدعيناهم لحسم الأمور؛ بحجة أن قراراتهم لاتناقش وأن حكمهم لامعقب عليه — وعلم الله أنه لولا مواجهتنا للإخوان الذين لجأوا للمركز العام بعد أن تخلى عن هذه المواجهة أعضاء المكتب — وهى مسئوليتهم الأولى — ولولا مابذلناه من جهود لتهدئة الحالة لحدثت مآس تضيق بها ضمائر المؤمنين.

وكان ممن عاون على تهدئة الحالة، واشترك فى مواجهة الموقف الأخ الأستاذ عبد العزيز كامل الذى وعد الإخوان بحل المشكلة كما يأمل وكما يأملون هم، من توحيد صفوف الجماعة، وتصحيح أى وضع خاطىء، متعهداً بالقيام بهذا العمل — ثم انصرف الإخوان بعد أن تركوا الأمانة فى أعناق إخوانهم أعضاء الهيئة التأسيسية، الذين واجهوا الموقف وتحملوا تبعاته كاملة — وفى الوقت الذى كان يعالج فيه الموقف فى المركز العام توجه الإخوان محمد سليمان وطاهر الخشاب وعبد القادر عوده ومحمد الغزالى وعبد العزيز جلال لمنزل المرشد لإطلاعه على الحقائق وبحث الموقف، ولكنه لم يكنْ للأسف موجوداً فى ذلك الوقت — وفى اليوم التالى — السبت — تطورت الأمور كالتالى:

١ — دعانى البكباشى جمال عبد الناصر إلى منزله فتوجه عن اللجنة الأستاذ صالح عشماوى ومعه الشيخ سيد سابق حيث وجدا البكباشى زكريا محيى الدين وزير الداخلية والصاغ صلاح سالم وزير الإرشاد والشيخ محمد فرغلى مندوباً عن مكتب الإرشاد. ثم بحث الموقف برمته فى هذا الاجتماع. واتفق على تكوين لجنة للتحقيق مع الإخوان المفصولين وتحديد موقفهم، وعلى تهدئة الخواطر فى الاجتماع الذى يعقد بعد العصر فى المركز العام.

٢ — وفى الوقت نفسه اتصل بنا الأستاذ عبد العزيز كامل وأبلغنا أنه أفلح فى إقناع

أعضاء المكتب للموافقة على تكوين لجنة للتحقيق.

٣ــ وعلى هذا حضرنا الحفل المذكور للمساعدة فى تهدئة النفوس، فى الوقت الذى كان فيه بعض خطباء الحفل يحاولون زيادة الفتنة اشتعالاً.

٤ــ وقد اجتمع منا الأخوان محمد الغزالى وأحمد عبد العزيز جلال مع أعضاء المكتب وشرحا لهم خطورة التهاون فى معالجة الموقف وضرورة سرعة البت فى الأمور.

٥ــ وفى ساعة متأخرة من الليل اتصل خمسة من أعضاء المكتب هم: الدكتور خميس حميدة والأساتذة عمر التلمسانى وعبد الرحمن البنا وعبد القادر عوده والسيد محمد حامد أبو النصر وأبلغونا أنهم وافقوا على تأليف لجنة للتحقيق.

٦ــ على هذا الأساس نشر بيان الأمس وفيه ذكرنا تكوين لجنة التحقيق، ولكننا فوجئنا فى الصباح بقرار بوقف ٢١ عضواً وتأليف لجنة للتحقيق لامع الإخوان المفصولين حسب الاتفاق ولكن مع الإخوان الذين احتجوا على قرار الفصل.. وأعجب من ذلك أن ينشر تصريح للأستاذ عبد الحكيم عابدين بأن التحقيق لايزال جارياً معنا بواسطة مكتب الإرشاد، مع أن هذا لم يحدث إطلاقاً، ولا يجوز بنص قانون الجماعة الذى يجعل المكتب مسئولاً أمام الهيئة التأسيسية لاالعكس. ونحن ماضون فى خدمة الدعوة وفق تعاليم الإسلام وآدابه لاتصرفنا عن هذه الوجهة الكريمة أى تصرفات، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون.

يقول صاحب المذكرات:

على السادة القراء أن يلاحظوا أن الإخوان بلجوئهم إلى جمال عبد الناصر هذه المرة إنما حاولوا معالجة الأحداث من منبعها.

(٩) وفى ١/١٢/٥٣ وهو اليوم التالى نشرت الصحف نداءً من المرشد العام إلى جميع الإخوان هذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم» ﴿**قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم**﴾.

أيها الإخوان. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

فيسرنى أن أبلغكم صادق تقديرى وخالص إعجابى بما أبديتم من الغيرة على دعوتكم، والوفاء لبيعتكم، والصدق والمحافظة على وحدة صفوفكم؛ سواء فى الحشد الجامع الذى زخرت به دار المركز العام يوم السبت أو فى الوفود التى تلاحقت من كافة الشعب والأقاليم إلى الدار تزيدنى ثقة بإخلاصكم، واطمئناناً إلى قوة إيمانكم. كما أهنئكم بما وفقتم إليه من ضبط ومتانة الخلق حتى مرت هذه النبوة بسلام والحمد لله.

وإنه لمن فضل الله على الدعوة، وأصالة الخير فى نفوس أبنائها؛ أن كثيراً من الشباب الذين ألموا بهذه الزلة، أظهروا الندم والتوبة؛ حتى لقد فرض بعضهم على نفسه عقوبات يتطهر بها من أثر مااقترفوا ، وأقبلوا يعبرون عن بالغ أسفهم لما فرط منهم، مستغفرين الله تعالى، معتذرين إلى الإخوان ومجددين العهد.

ولقد أعلنت من قبل أنى سامحتهم، وأحب أن يكون لذلك صداه فى نفوس الإخوان كافة فلا يغلظوا للمخطئين القول، ولا يعاملوهم بجفوة؛ وإنما يحسنون النظر إليهم، ويسعونهم بسماحة الأخوة، حتى يستأنس الإخوان بإخوانهم، وتمهد العواطف الكريمه السبيل إلى حسن التفاهم، وإحلال الأخوة النبيلة محل الإعراض والتنافر.. وهذا مالا يليق بأصحاب الدعوة التى تقوم على تربية الفضائل فى النفوس، وتدعيم المثل العليا فى الناس **﴿ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير﴾**.

يقول صاحب المذكرات: ينبغى أن يلاحظ القارىء أن كلمة المرشد العام هذه مقصود بها الإخوان الذين غرر بهم رءوس الفتنة، والذين قرر المكتب فصل واحد وعشرين منهم.. وقد تنبه هؤلاء أخيراً إلى أن الحقائق قد زيفت عليهم فتابوا وندموا ــ أما رءوس الفتنة فإنهم ظلوا سادرين فى غيهم. ولذا فإنهم غير مقصودين بهذه الكلمة.

* * *

الفصل الثانى

التحقيق
مع الثلاثة الكبار الموقوفين

(١٠) أحالى مكتب الإرشاد العام إلى لجنة تحقيق العضوية السادة صالح عشماوى وأحمد عبد العزيز جلال ومحمد الغزالى أعضاء الهيئة التأسيسية للتحقيق معهم، بكتاب تضمن الاتهامات الموجهة إليهم.

(١١) اجتمعت لجنة تحقيق العضوية لمناقشة كتاب مكتب الإرشاد ودراسته وتحديد الخطوات التى تتبع لإجراء التحقيق فكان أول شيء واجه اللجنة أن الأخ عبد العزيز كامل رئيس اللجنة قال إنه يتنحى عن الاشتراك فى هذا التحقيق بدعوى أنه كان ممن حاولوا الإصلاح بين الطرفين وهذا يحجبه عن أن يكون محققاً فيما هو منسوب لأحد الطرفين. وقد حاولت أن أقنعه بأن ذلك لايطعن فى تحقيقه؛ إلا أنه أصر على رأيه، ثم حاولت أن أقنعه بأن يشترك فى التحقيق على أنه مجرد عضو باللجنة فرفض هذا أيضاً. وقد ذهب بعض الإخوان فى تعليل هذا الموقف فى ذلك الوقت بعض المذاهب.

كما أن اللجنة استبعدت أحد أعضائها وهو الشيخ محمد الغزالى حتى يتم التحقيق معه وأجرت انتخاب رئيس آخر وقد وقع اختيارهم علىّ.

(١٢) قامت اللجنة بالتحقيق فى الموضوع، وأصدرت قرارها الذى نشر بالصحف فى أبرز مكان وهذا هو نص مانشر يوم ١٠/١٢/١٩٥٣:

إزالة صفة العضوية من الإخوان المسلمين
عن صالح عشماوى والغزالى وأحمد عبد العزيز
تطبيق ٣ مواد ــ جواز استئناف القرار ــ رد صالح عشماوى

عقدت لجنة العضوية لجمعية الإخوان المسلمين اجتماعاً مساء أمس قررت فى نهايته بالإجماع إزالة صفة العضوية عن الأساتذة صالح عشماوى ومحمد الغزالى وأحمد عبد

العزيز جلال. وكان مكتب الإرشاد مجتمعاً عند صدور هذا القرار وقد عرض عليه فاعتمده.

حيثيات القرار: وقد قالت لجنة العضوية فى حيثيات قرارها مايلى:

عمدتنا من القانون فى هذا التطبيق المواد الثلاث الآتية:

المادة ٤ ــ عضو الهيئة هو كل مسلم عرف مقاصد الدعوة ووسائلها، وتعهد بأن يناصرها ويحترم نظامها، وينهض بواجبات عضويتها، ويعمل على تحقيق أغراضها، ثم وافقت إدارة الشعبة التى ينتمى إليها على قبوله وبايع على ذلك وأقسم عليه ونص البيعة «أعاهد الله العلى العظيم على التمسك بدعوة الإخوان المسلمين والجهاد فى سبيلها والقيام بشرائط عضويتها، والثقة التامة بقيادتها، والسمع والطاعة فى المنشط والمكره، وأقسم بالله العظيم على ذلك وأبايع عليه والله على ماأقول وكيل».

المادة ٣٦ ــ لهذه الهيئة «التأسيسية» أن تقرر فى أى اجتماع منح بعض الإخوان حق العضوية للهيئة التأسيسية بشرط أن تتوفر فيمن يراد منحه إياها هذه الشروط:

أ ــ أن يكون من الأعضاء المثبتين.

ب ــ أن لاتقل سنه عن ٢٥ سنة هلالية.

جـ ــ أن يكون قد مضى على اتصاله بالدعوة خمس سنوات على الأقل.

د ــ أن يكون متصفاً بالصفات الخلقية والثقافية والعملية التى تؤهله لذلك.

المادة ٣٩ ــ تزول صفة العضوية عن عضو الهيئة التأسيسية بالاستعفاء، وبفقدانه أحد الشروط التى تؤهله للعضوية، أو بقرار من اللجنة المنصوص عليها فى المادة ٣٧ بالشروط الواردة فيها أو بقرار من الهيئة نفسها.. وفى كل الأحوال يجوز للمرشد العام أن يأمر بوقف العضو على أن يعرض أمره فوراً على الهيئة المختصة بالنظر فى أمره.

* * *

واللجنة بعد أن ناقشت قرار الاتهام على ضوء مااقتنعت به من أدلة مادية وقرائن مضيئة، تستخلص أن المدعى عليهم قد ارتكبوا الأخطاء الآتية:

أولاً ــ أنهم اعتصموا فى دار المركز العام، وظاهروا الشباب المعتصمين وجرءوهم على ذلك؛ وبذلك حرضوا على الخروج على القانون.

ثانياً ــ أنهم ادعوا كذباً أن المرشد العام أعلن استقالته على الملأ.

ثالثاً ــ أنهم أصدروا قرارات لايخولهم إياها قانون الإخوان المسلمين؛ حيث وقفوا مكتب الإرشاد، وألغوا قرار المكتب بفصل الأربعة وبذلك يكونون قد خرجوا على القانون ونقضوا العهد ونكثوا البيعة.

رابعاً ــ أنهم افتاتوا على هيئة الإخوان المسلمين بتنصيبهم أنفسهم أوصياء عليها دون الرجوع إليها أو أخذ تفويض منها بذلك.

خامساً ــ أنهم متصلون فى شئون الدعوة بأحد الأربعة الذين فصلوا خصوصاً ليلة الاعتصام وفى الأيام التالية وفى هذا خروج على قرار الفصل الذى أصدرته هيئة شرعية.

سادساً ــ أنهم أساءوا سمعة الدعوة، وحطوا من كرامتها أمام الرأى العام الداخلى والخارجى باتخاذهم الصحف السيارة لنشر هذه القرارات.

وبناءً على ذلك قررت اللجنة بالإجماع إزالة صفة العضوية العامة فى الدعوة عن السادة صالح عشماوى ومحمد الغزالى وأحمد عبد العزيز جلال.

كما قررت اللجنة إحالة هذا القرار إلى فضيلة المرشد العام لاعتماده والله ولى التوفيق.

٣ من شهر ربيع الآخر ١٣٧٣	رئيس اللجنة	محمود عبد الحليم
١٩٥٣/١٢/٩	السكرتير	سعد الدين الوليلى

* * *

(١٣) وقد أرسلت لجنة العضوية بقرارها إلى المرشد العام. وكان المفروض أن يعتمده مباشرة إذا وافق عليه.. إلا أنه إمعاناً فى تلمس أسباب العدالة تنازل عن حقه هذا وعرضه على مكتب الإرشاد الذى كان مجتمعاً بكامل أعضائه فوافق عليه بالإجماع؛ وحينئذ وقعه المرشد العام..

وقد أرسل القرار إلى الثلاثة مبيناً فيه أن لهم الحق فى استئناف هذا القرار إلى الهيئة التأسيسية بطلب كتابى منهم يرسل إلى المرشد العام، الذى عليه أن يعرضه على مكتب الإرشاد أولاً ــ ولكن المكتب فوض الأستاذ المرشد فى تلقى الطلب الكتابى وعرضه على الهيئة التأسيسية فى اجتماعها على وجه السرعة؛ تمكيناً لهم من تيسير إجراءات التقاضى والانتفاع بكل الفرص التى أعطاهم إياها قانون الإخوان.

(١٤) قدم الثلاثة طلباتهم. وبالرغم من أنهم لم يذكروا كلمة الاستئناف فى طلبهم وإصرار بعض أعضاء الهيئة التأسيسية على رفض الاستئناف شكلاً حيث قدموه على وجه خاطىء يتضمن المضى فى الخروج على أوضاع الجماعة؛ فقد رأى المرشد العام أن تعتبر الهيئة هذا الطلب الكتابى استئنافاً قانونياً وتنظر فيه.

(١٥) انعقدت جلسة الهيئة التأسيسية فى مساء يوم الخميس ١٠ ديسمبر ١٩٥٣ وأذن للثلاثة بالحضور. وقرأ رئيس لجنة العضوية قرار اللجنة وتقريرها التفصيلى الذى سنثبت نصه إن شاء الله بعد قليل ــ ومكنت الهيئة بعد ذلك الثلاثة من أن يسردوا

قصتهم، ويشرحوا موقفهم ثلاث ساعات كاملة لم تعترضهم فى خلالها أدنى مقاطعة.

(١٦) بعد استيضاحات ومناقشات هادئة ظهر من روح الهيئة التأسيسية الإجماع على إدانتهم وإن بدت رغبات محدودة فى تمييز بعضهم عن بعض وفى الرأفة ببعضهم مع وجوب العقوبة.. وأخيراً أصدرت الهيئة قرارها بتأييد قرار لجنة العضوية بأغلبية ٩٢ صوتاً ضد ٢٣ كانت مخالفتهم منصبة على نوع العقوبة.

(١٧) فى أثناء شرح هؤلاء الإخوة لمواقفهم فى أثناء الجلسة، تناولنى بعضهم بألسنة حداد، لاسيما الأخ الشيخ محمد الغزالى — وقد طلب إلىّ بعض إخوان الهيئة أن أرد عليهم فى هذا الجانب الشخصى؛ ولكننى رفضت أن أرد قائلاً: إنهم فى موقف لايحسدون عليه، وأنا عاذرهم ومسامح ومقدر ماهم فيه من حرج.. وآمل أن يفيئوا إلى الصواب فى يوم من الأيام..

ولعل تسامحى هذا فى حقى الشخصى قد أثر فى نفس بعضهم؛ فبعد نحو ثلاثة أيام من هذه الجلسة كنت سائراً فى ميدان العتبة ظهراً، فإذا بى أفاجأ بمن يقبل نحوى ويلقى إلىّ بالتحية ويعانقنى معتذراً عما بدر منه فى أثناء الجلسة.. وكان هذا هو الأخ الشيخ محمد الغزالى الذى بادلته وداً بود وحباً بحب وكررت عليه ماقلته فى أثناء الجلسة من أن اختلاف الرأى لايفسد للود قضية.

* * *

ملاحظة هامة

ترجع أهمية هذه الملاحظة إلى أن أحداثاً بالغة الأهمية وقعت فيما بعد؛ وكانت هذه الملاحظة أصلاً للمحور الذى دارت عليه هذه الأحداث.

كان نشر هذا القرار مذيلاً باسمى فى الصحف مفاجأة لى.. لا لأنه كان معروفاً فى ذلك الوقت أن هذا القرار؛ الإدانة فيه ليست موجهة للثلاثة المذكورة أسماؤهم وإنما هى موجهة إلى الشخصية صاحبة السلطة التى وراءهم — وإنما كان مفاجأة لى وصدمة لأنى بطبيعتى التى نشأت عليها أوثر دائما أن أعمل مستخفياً خشية الافتتان وانتقاص الأجر والمثوبة، التى هى هدف كل مؤمن من العمل..

ولقد تحاشيت من قبل أسباب الظهور حين اعتذرت عن عضوية مكتب الإرشاد يوم عرضها علىّ المرشد العام الأستاذ الهضيبى.. ولكن شاءت إرادة الله أن يتخلى الأخ عبد العزيز كامل عن رياسة لجنة العضوية فى أحرج موقف وأعصب ظروف.. فتكون النتيجة

أن ينشر اسمى فى الصحف تحت أخطر قرار فى حينه، مع أننى أرسلت بالقرار بهذه الصورة الرسمية إلى المرشد العام وكان اعتقادى أن المرشد العام لن يرسله إلى الصحف بنصه كما وصله بل بملخص له يمليه على مندوبى الصحف بنفسه.

وأرجع فأكرر ماأشرت إليه أن هذه الملاحظة التى تبدو وكأنها مقحمة إقحاماً الآن حيث لايدعو المقام إلى إثارة مثل هذا الشعور وهذه الأحاسيس— إنما لفت النظر إليها تمهيداً فى ذهن القارىء لأحداث خطيرة قادمة.

* * *

الفصل الثالث
أضـــواء
على أحداث المؤامرة
فى التقرير الكامل للجنة العضوية

عقب جلسة الهيئة التأسيسية قام المركز العام — قسم نشر الدعوة — بطبع رسالة بعنوان : « حتى يعلم الإخوان — القول الفصل » فى نحو أربعين صفحة من القطع الصغير ، تضم قرار الاتهام الذى قدّم به مكتب الإرشاد الثلاثة المطلوب التحقيق معهم ، والتقرير التفصيلى للجنة تحقيق العضوية فى هذه القضية .

وكان الهدف من طبع هذه الرسالة وتوزيعها فيما يبدو إحاطة الإخوان فى مختلف البلاد علماً بالحقائق المفصلة لهذه الفتنة .. ونظراً لندرة وجود هذه الرسالة فى أيامنا هذه ، ولما تشتمل عليه من حقائق وأحداث تاريخية ذات دلالات على ماتلاها من أحداث .. رأيت أن أثبت فى هذا الفصل نص هذه الرسالة التى استعرتها من الأخ الكريم الأستاذ عباس السيسى .

إلى الإخوان المسلمين
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه .

أيها الإخوان الفضلاء

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. ولعلكم فى خير وعافية فى دينكم ودنياكم، قائمين بالحق لايضركم من خالفكم حتى يأتى وعد الله وبعد :

فقد حملت إليكم الصحف بين الحين والحين أنباءً متفرقة عن تفاصيل الأحداث الأخيرة التي مرت بها الجماعة . وحرصاً منا على إيضاح الحقائق وطمأنينة القلوب ؛ فنحن نضع تحت أنظار الإخوان تطورات هذه الأحداث ، ونلحقها بقرار لجنة العضوية مصحوباً بالأسباب ، حتى يزداد المؤمنون إيماناً مع إيمانهم ولا يرتاب أحد من الإخوان .

أولاً: موقف مكتب الإرشاد

فوجىء الإخوان بما حدث من شغب فى المركز العام، وما صدر من بيان خلال هذا الشغب يحمل توقيعات الأساتذة صالح عشماوى وأحمد عبد العزيز جلال ومحمد الغزالى والدكتور محمد سليمان.

زاعمين أنهم غضبوا لأربعة من الإخوان فصلهم المكتب دون تحقيق مخالفاً بذلك ـــ كما أرجفوا ـــ قانون الجماعة ومبادىء الإسلام. وهم يعلمون كما يعلم المفصولون أن المكتب اتخذ قراره هذا فى حدود ماخوله القانون من اختصاص صريح فى مادته السابعة. كما يعلمون أن المكتب لم يلجأ إلى ذلك إلا بعد معاناة الدعوة ثلاث سنوات لأخطائهم التى كانت أداة تفرقة ومثار خلل فى الصفوف. وبعد أن فشلت جميع المحاولات التى اتخذها لإلزامهم نظم الجماعة وأوضاعها. ومع كل ذلك فقد تحرى المكتب صحة الأدلة دون أقل إخلال بواجب التبين والتحقيق. بل زاد أمر هؤلاء الأربعة رعاية واهتماماً فتلقى بالقبول أول ظلامة وردت من أحدهم فى اليوم التالى لقرار المكتب ووضعها موضع النظر، وكذلك الظلامة الثانية. ولم يكن ليأبى مثل هذه الرعاية سائر المفصولين لو تقدموا إليه متظلمين ـــ ولا تزال اللجنة المشكلة من الأساتذة محمد فرغلى وعمر التلمسانى ومحمد حامد أبو النصر توالى بحث هذه الظلامات بجانب عملها فى تحقيق الأحداث الأخيرة وما أعقب من مسئوليات.

ورغم وضوح الخطأ وثبوت التبعة؛ فقد رأى مكتب الإرشاد أن يطيل الحبل ويفسح الصدر؛ فأوضح استعداده لأن يقيل هذه العثرة، مكتفياً بأن يصدر الموقعون على البيان بياناً آخر يدفعون فيه عن أنفسهم إثم الخروج على آداب الإسلام ونظام الجماعة ـــ وما كاد الأخ الدكتور محمد سليمان يصدر بيانه فى هذا الصدد حتى قبل عذره، ولم يقدم للجنة العضوية اكتفاءً بهذا البيان.

كذلك لم يشأ مكتب الإرشاد أن يعامل الأستاذ أحمد عبد العزيز جلال كما عامل زميليه، لأنه وعد بإصدار بيان يوضح فيه موقفه.

وهكذا لم يستعمل المرشد العام حقه فى إيقاف الخارجين على أنظمة الجماعة إلا فى أضيق نطاق، وهو الحق المخول له بمقتضى المادة ٣٩ من القانون الأساسى. ولم يستعمله إلا بعد الاستئناس برأى مكتب الإرشاد العام.

ولم يكن مناص من تحويل المخطئين، من أوقف منهم لإصراره، ومن لم يوقف اعتماداً على إبداء رغبته فى تصحيح موقفه وحملاً لأمره على أحسن الوجوه ـــ إحالة هؤلاء جميعاً للجنة العضوية لتتولى تحقيق القضية.

ثانياً: لجنة العضوية

ولجنة العضوية كما تعلمون المشكلة بمقتضى المادة ٣٧ من القانون الأساسى، والمختارة من بين أعضاء الهيئة التأسيسية وتنتخبها الهيئة كما تنتخب مكتب الإرشاد، فهى لجنة مستقلة لاولاية للمكتب عليها، وهى المختصة بمحاكمة أعضاء الهيئة التأسيسية بمقتضى المادة ٣٧ نفسها.

وقد أحال المكتب إليها الأمر مبيناً وجهة نظره، ومستعداً لتقبل قضائها فى هذا الأمر. ولكن الموقعين على البيان رفضوا أن يتحاكموا إلى اللجنة، زاعمين فى بيان نشروه بالصحف أن مكتب الإرشاد الذى أحالهم إليها يعتبر طرف خصومة، مدعين فى مكابرة عجيبة أنه لايملك الفصل فى القضية على هذا الوجه إلا الهيئة التأسيسية ولو أخذ بما زعموا لأدى هذا إلى إبطال عمل لجنة العضوية؛ لأن هذه اللجنة لاتحقق إلا مايحال إليها من المكتب، وبذلك لايملك المكتب أن يؤدى أمانته فى إحالة مايراه للتحقيق، ولا تملك اللجنة أن تباشر اختصاصها فى التحقيق على نحو ماأشارت إليه فى تقريرها الفياض وبعد أن استمعت إلى شهادة الشهود ومنهم الأستاذ عبد العزيز كامل والأستاذ الشيخ محمد فرغلى. ولذلك مضت اللجنة فى عملها فرأت أن التهمة بالنسبة لهؤلاء ثابتة، والأدلة قائمة. وقد أصدرت حكمها بعد أن يسرت لهم كل أسباب الدفاع عن أنفسهم فأبوا إلا الرفض والإعراض، وهو مرفق بهذا مع أسبابه وحيثياته.. وقد شاء فضيلة المرشد العام أن لايستعمل حقه المقرر فى القانون باعتماد هذا القرار إلا بعد الاستئناس برأى مكتب الإرشاد. وقد انعقد المكتب وحضر الجلسة جميع أعضائه ماعدا الأستاذ الشيخ عبد المعز عبد الستار لغيابه فى الحجاز. أما الحاضرون وعددهم اثنا عشر عضوا فهم الإخوان الأساتذة محمد خميس والبهى الخولى ومحمد فرغلى ومحمد حامد أبو النصر وأحمد شريت وحسين كمال الدين وكمال خليفة وعبد الرحمن البنا وعمر التلمسانى وعبد القادر عوده وعبد العزيز عطية وعبد الحكيم عابدين.

وقد قرىء عليه تقرير لجنة العضوية القاضى بإزالة صفة العضوية فى الدعوة عن ثلاثتهم وطلب فضيلة المرشد العام رأيهم فى اعتماده فوافقوا بالإجماع عليه، وعندئذ وقع فضيلته باعتماد القرار.

وقد بالغ المكتب فى إعطائهم كل فرصة للدفاع عن أنفسهم فعرض فضيلة المرشد العام أن يعرض أى استئناف يقدم منهم على الهيئة التأسيسية فى اجتماعها القادم دون رجوع إلى المكتب، وأبلغهم السكرتير العام ذلك مع قرار اللجنة المعتمد فى مساء الأربعاء السابق لجلسة الهيئة التأسيسية ليوجه نظرهم إلى حقهم فى الاستئناف أمامها.

ثالثاً: الاستئناف للهيئة التأسيسية

ثم كان أن عقد اجتماع الهيئة التأسيسية الذى كان مقرراً عقده منذ الجلسة الماضية لاستكمال بعض ماورد فى جدول أعمالها مما لم يتسع له الوقت. ورأى هؤلاء الثلاثة أن يتقدموا للهيئة التأسيسية يطلبون عرض الأمر عليها. وهنا نسجل للإخوان الحقائق الآتية:

١ ــ أن مكتب الإرشاد قرر تفويض المرشد العام فى تلقى الطلب الكتابى من هؤلاء المفصولين وعرضه على الهيئة فى اجتماعها على وجه السرعة دون الحاجة إلى نظر هذا الطلب أمام المكتب مجتمعاً فى جلسة قانونية طبقاً للمادة ٣٧ من القانون؛ تمكيناً لهؤلاء من تيسير إجراءات التقاضى، والانتفاع بكل الفرص التى أعطاهم إياها قانون الإخوان.

٢ ــ ورغم أنهم لم يذكروا كلمة الاستئناف فى طلبهم وإصرار بعض أعضاء الهيئة التأسيسية على رفض الاستئناف شكلاً لتقديمه على وجه خاطىء يتضمن المضى فى الخروج على أوضاع الجماعة؛ فقد رأى المرشد العام أن تعتبر الهيئة هذا الطلب الكتابى استئنافاً قانونياً وتنظر فيه.

٣ ــ وهكذا أذن لهم بالحضور، ومكنتهم الهيئة أن يسردوا موقفهم ثلاث ساعات كاملة لم يجدوا خلالها أدنى معارضة أو مقاطعة.

٤ ــ وبعد استيضاحات ومناقشات هادئة ظهر من روح الهيئة التأسيسية الإجماع على إدانتهم، وإن بدت رغبات محددة فى تمييز بعضهم عن بعض وفى الرأفة ببعضهم مع وجوب العقوبة ــ وأخيراً أصدرت الهيئة التأسيسية قرارها بتأييد قرار لجنة العضوية بأغلبية ٩٢ صوتاً ضد ٢٣ كانت مخالفتهم منصبة على نوع العقوبة.

أيها الإخوة الفضلاء:

هذه هى صحائف تلك الأحداث جلية واضحة؛ لتتبينوا مدى الدقة والأمانة اللتين تحراهما فضيلة المرشد العام ومكتب الإرشاد فى تطبيق قانوننا الأساسى، بل مافوق الدقة من سماحة فى بعض الأحيان، رغم ماأبداه هؤلاء من جنوح عن النظام أولاً وأخيراً.

ونحن نختم هذا البيان بما صرح به فضيلة المرشد العام غداة نشر القرار وتعقيباً على رد هؤلاء.. عليه حيث قال:

«إن الإخوان المسلمين كانوا ولا زالوا صفاً واحداً، ولا يستطيعون أن يعملوا إلا وهذا شأنهم. وينبغى أن يأخذ كل أخ مسلم نفسه بهذا المعنى، ويروضها على احترام أنظمة الجماعة ومقرراتها ــ فإذا خرج أى إنسان على ذلك علمنا أنه لايستطيع أن يلائم بين نفسه وبين هذه الأنظمة، واضطررنا إلى اقصائه. عنا، داعين له بحسن التوفيق فى خدمة الإسلام والمسلمين.

وهذا هو شأن إخواننا الذين أزيلت عنهم عضوية الجماعة، وفيما عدا هذا المعنى الذى أسلفنا فليس لنا بهم شأن، لانطعن على إيمانهم ولا على سلوكهم. والله يتولانا جميعاً بالمعونة والسداد».

وإننا لنرجو أن تحيطوا علماً بهذه التفاصيل، وأن تذيعوها مع قرار لجنة تحقيق العضوية بأسبابه على كافة الإخوان، تمكيناً لهم من فهم الحقائق، ووقاية من الاستماع إلى أقوال أو بيانات تخالف الحق وتند عن الصدق والأمانة.

كما نرجو أن يكتفى الإخوان من الموقف بالعلم بهذه الحقائق، وأن لايجعلوها فيما بينهم محل جدل أو نقاش.. وأن يجعلوا موقفهم وحديثهم عمن أعفتهم الهيئة من عضوية فى حدود الأدب الكامل والسماحة الإسلامية التى تمثلت فى تصريح المرشد العام. والله يقول الحق وهو يهدى السبيل والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

السكرتير العام

عبد الحكيم عابدين

من مكتب الإرشاد **إلى لجنة العضوية**

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الأخ الكريم رئيس لجنة تحقيق العضوية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

تنفيذاً لقرار مكتب الإرشاد العام بتاريخ ٢٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٣ والموافق ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٥٣؛ نحيل إليكم الأساتذة صالح عشماوى ومحمد الغزالى وأحمد عبد العزيز جلال، للفصل فى أمرهم، مع العلم بأن المكتب وقف الأول والثانى.

أما التهم التى من أجلها أحيلوا للجنة؛ من وقف منهم ومن لم يوقف فهى:

أولاً: أنهم ظاهروا فكرة التمرد على النظم والأوضاع بوقوفهم إلى جانب الشبان المتمردين على المرشد العام ومكتب الإرشاد واعتصامهم معهم فى دار المركز العام مساء يوم الجمعة بتاريخ ٢٠ من ربيع الأول ١٣٧٣ الموافق ٢٧ ديسمبر ١٩٥٣.

ثانياً: أنهم أكدوا وقوفهم أنصاراً لهذا التمرد بل زادوه اندفاعاً وأغروهم بالاسترسال إلى أسوأ الحدود، ببيانهم الذى نشرته الصحف صباح السبت وما فيه من الإرجاف بالدعوة والافتراء على قيادتها، بما زعموا من أن المرشد العام أعلن استقالته على الملأ، وبما اصطنعوا لأنفسهم من حقوق ليست لهم فى:

أ ـــ إلغاء قرار مكتب الإرشاد السابق صدوره بفصل أربعة من أعضاء الجماعة.

ب ـــ ادعاء وقف مكتب الإرشاد العام . مع أن هذا الحق لاتملكه أية سلطة فى الدعوة ، فضلاً عن أفراد من أعضاء الهيئة التأسيسية ليست لهم أية صفة فى وقف عضو واحد فى أية شعبة من شعب الإخوان .

ثالثاً : أنهم أسفروا عما فى نفوسهم من أهواء ومآرب شخصية بما اجترأوا عليه من إعلان أنفسهم أوصياء على الجماعة ، وقوّاماً على شئون الدعوة حيث لاأثارة من صفة تخولهم مايدعون .

رابعاً : أنهم عمدوا إلى إذاعة السوء ، وإشاعة أنباء التفرقة بين الصفوف بما أقدموا عليه من نشر قراراتهم الواهمة فى الصحف بل إن إصدار البيان بتوقيعهم هو الذى خلق كياناً لهذه الهفوة التى وقع فيها شبان أبرياء ؛ إذ لولا وقوف نفر من كبار الإخوان بجانبهم لما تشجع المتمردون ، ولا عنيت الصحف بإصدار بيان لنفر أكثرهم من النشء المخدوعين .

خامساً : أنهم أعطوا الفرصة لتبين مافى نفوسهم لتوضيح موقفهم باستجواب بعضهم أمام مكتب الإرشاد ؛ فظهر إصرارهم على ماصنعوا رغم إبراز المكتب لهم مافى تصرفاتهم من خطأ جسيم وخروج عن الدعوة .

سادساً : أن الأستاذ صالح عشماوى لم يمثل أمام المكتب رغم تبليغه رغبة المكتب فى سماع أقواله مساء يوم السبت وتبليغ كل مطان وجوده يوم الأحد لضرورة حضوره وأنه قد استبان موقفه من المعلومات التى أدلى بها الأستاذ محمد فرغلى عضو المكتب والأستاذ عبد العزيز كامل عضو الهيئة التأسيسية ويمكن سؤالهما عن تفاصيل مايعلمان .

سابعاً : أن الأستاذ أحمد عبد العزيز جلال أبدى أمام المكتب استعداده للعودة إلى الحق ، ووعد بإصدار بيان يقرر فيه التزامه بأوضاع الجماعة وثقته فى المرشد والمكتب . ثم فوجئنا فى صباح الأحد ببيان جديد اشترك فى توقيعه يدل على تمسكه وزملائه بموقفهم السابق إزاء الجماعة .

ثامناً : أنهم مجتمعين قد اشتركوا فى إصدار بيان نشر صباح الأحد بالصحف ادعوا فيه تكوين لجنة تحكيم بين الإخوان بفريقيهم كما يزعمون ، وأنهم فى هذا البيان نفسه أكدوا تمسكهم بمضمون البيان الأول بقولهم ـــ وما زلنا عند موقفنا فى تحرى الحق وإقرار العدل وإصلاح ذات البين ـــ فضلاً عما فى ذلك من إشعار الرأى العام بوجود خصومة ضخمة فى موقف لايعدو أن يكون قياماً من الجماعة بواجبها فى مؤاخذة بعض المخطئين من أعضائها .

تاسعاً : أنهم أصدروا بياناً نشرته الصحف صباح الاثنين ٢٣ ربيع الأول ١٣٧٣ الموافق ٣٠ ديسمبر ١٩٥٣ ضمنوه كثيراً من الانحراف عن الحق والمغالطات التى تزيد فى

توضيح اعتدائهم على مكتب الإرشاد ، وهو السلطة الشرعية فى الدعوة؛ من مثل قولهم «وعلم الله لولا مواجهتنا الإخوان الذين لجأوا للمركز العام بعد أن تخلى عن هذه المواجهة أعضاء مكتب الإرشاد» فى حين أنهم يعلمون أن الأمر دبر خلسة من مكتب الإرشاد وفى ليلة عطلة الدار ، وأنهم وحدهم هم الذين علموا من قبل أو من بعد بأمر هذا التجمع ، وكانوا وحدهم موضع الرضا من هؤلاء الشبان ، كما يعلمون أنه مامن عضو من أعضاء المكتب وصله النبأ إلا وحضر على الفور وحاول علاج الموقف ولكنه لم يستطع لأسباب يعلمها الشبان المتجمعون وهؤلاء المظاهرون أو المدبرون ، بل بلغ الأمر بهؤلاء الشبان أن منعوا السكرتير العام من البقاء معهم ورفضوا الاستماع إلى الأستاذ عبد القادر عوده رغم الجهد الذى بذله لإبلاغهم كلمة الحق . بينما كانت كلمات أصحاب هذا البيان تقابل بالارتياح كأنهم لها فى انتظار أو كأنهم معهم على اتفاق .

عاشراً : أنهم بهذا البيان الأخير أكدوا بكل مظاهر التأكيد إصرارهم على موقف الخروج الذى اختاروه لأنفسهم رغم بذل النصح لهم ، وضرب المثل الذى ضربه لهم زميلهم الدكتور محمد سليمان برجوعه إلى الحق وعدوله عن موقفه .

حادى عشر : أن الموقعين على البيان كانوا المستشارين الحقيقيين للشباب المعتصمين ، وأن الأستاذين صالح عشماوى وسيد سابق كانا فى خلوة معهم طوال الوقت ، وكانوا يستمدونهما الرأى فى كل خطوة كما يشهد بذلك الأخ محمد هارون المجددى . فإذا أضيف إلى ذلك أن الشبان رفضوا إدخال العقلاء من الإخوان إلى الدار بعد وقت قضاه الحراس فى الاستئذان من الداخل ؛ أمكن القول بأن رفض دخول العقلاء كالأستاذ سيد قطب كان ثمرة الاستشارة التى تيلقاها الشبان من الأستاذ صالح وزملائه .

ثانى عشر : أن الأستاذ صالح عشماوى كان عقبة فى سبيل المسعى الرشيد الذى قام به الأخ عبد العزيز كامل لإخلاء الدار من هؤلاء الشبان وذلك بإصرار الحاج صالح شخصياً على ضرورة البقاء فى الدار والمبيت فيها حتى رغم خروج الثائرين أنفسهم . وإن تمسكه علناً بالبقاء وطول مجادلته فى ذلك للأستاذ عبد العزيز كامل أمام بعض الشبان كان دليلاً قاطعاً على أن فكرة الاعتصام بالدار وليدة رسمه أو على الأقل موضع ارتياحه وتأييده .

ويكفى أن تعلموا أن الأستاذ صالح بقى بالدار بعد خلوها من الجميع متشبثاً أن لايغادرها ، وأن أقصى ماأمكن الوصول إليه مع صالح هو أن يغادرها بعد الأخ عبد العزيز كامل بنحو ساعة ريثما تعود سيارته من توصيل الأخ عبد العزيز كامل لمنزل المرشد العام .

ومن البداهة بمكان أن مبيت الأستاذ صالح بالدار لايثير شيئاً من الاهتمام ولكن له دلالته على مظاهرته لفكرة الاعتصام بالدار .

ثالث عشر : أن الأستاذ عبد القادر عوده طلب من الأستاذ صالح عشماوى الحضور إلى منزل المرشد العام فأبى الاستجابة له، وكذلك رغب إليه الأستاذ عمر التلمسانى فى هذا فلم يسمع لرجائه.

رابع عشر : أن الأستاذ صالح عشماوى وزملاءه لايزالون مع المفصولين على صلة خاصة لايمكن تفسيرها مع هذه الملابسات إلا بأنها مشاركة لهم فى التآمر الذى ظهرت ثمرته مساء الجمعة. وقد ثبتت هذه الصلة من رؤية الأستاذ عبد العزيز كامل للأستاذين صالح عشماوى وسيد سابق فى خلوة مع الأستاذ عبد الرحمن السندى بدار الكتاب العربى يوم السبت ومن اعتراف الأستاذ أحمد جلال أمام المكتب.

خامس عشر : أن مجلة الأستاذ صالح المسماة «مجلة الدعوة» نشرت بجوار مقالة رئيس التحرير خبراً مكذوباً زعم فيه استقالة الأخوين عبد العزيز كامل ومحمد سليمان بقصد بلبلة الخواطر والإيهام بأن الإخوان لازالوا على خلاف مع القيادة ومكتب الإرشاد.

سادس عشر : أن مقاله الافتتاحى فى نفس المجلة وتصوير المجلة للحادث ينطوى على أكذب المغالطات والمهاجمة لقيادة الإخوان ومكتب الإرشاد، ويعتبر إصراراً على التمادى فى موقف النكث والخروج.

ياحضرات أعضاء اللجنة : ـــ

أ ـــ ومن جملة الاتهامات يرى مكتب الإرشاد العام أن أصحاب البيان الثلاثة، قد عرضوا أنفسهم لزوال صفة عضوية الهيئة التأسيسية عنهم وفقاً للمادة ٣٩ من قانون النظام الأساسى لهيئة الإخوان المسلمين لفقدانهم أحد الشروط التى تؤهلهم للعضوية والمنصوص عليها فى البند «د» من المادة ٣٦ من هذا القانون. إذ أن ماصنعوه لايتفق بحال من الأحوال مع الصفات الخلقية والعملية التى تؤهل الرجل لعضوية الهيئة التأسيسية.

ب ـــ أنهم قد فقدوا بهذه التصرفات أهلية العضوية العادية فى جماعة الإخوان المسلمين والمنصوص عليها فى المادة «٤» من القانون وفيها اشتراط أن يتعهد العضو باحترام نظام الدعوة ـــ ولا ريب أن ماإجترحوه ليس من احترام الدعوة ولا النهوض بواجبات عضويتها وتحقيق أغراضها فى قليل أو كثير.

جـ ـــ أنهم حنثوا باليمين التى يعطيها العضو العادى فى أى شعبة والموضحة بالفقرة الثانية من المادة «٤» من هذا القانون وفيها القيام بشرائط عضويتها والثقة التامة بقيادتها، والسمع والطاعة فى المنشط والمكره. ومن البداهة بمكان أن مااقترف الموقعون على البيان من تصرفات.. بمنأى عن رعاية هذا القسم الغليظ.

ياحضرت أعضاء اللجنة:

هذه هى الوقائع التى تدين أصحاب البيانات الطائشة والتى تستوجب بأدلتها المعروضة تطبيق المادة «٣٩» بزوال صفة عضوية الهيئة التأسيسية والمادة «٤» بزوال صفة العضوية العادية كما حددتها النصوص القانونية.

أما الأضرار البليغة التى ترتبت على تصرفات هؤلاء الإخوان، والبلبلة التى شاركوا فى إيجادها فى الصفوف، والفجيعة التى كانوا من أكبر عوامل سوقها إلى نفوس المسلمين فى أنحاء العالم.. بما أوهموا من انشقاق الجماعة؛ فذلك أمر من الخطورة وجسامة الخطأ والتبعة بحيث يلمسها كل أخ مسلم أكثر مما تحدده النصوص القانونية.

والمكتب يرجو أن تسرع اللجنة فى اتخاذ إجراءات المحاكمة فى أقرب وقت ممكن، حسماً للموقف وإنقاذاً للدعوة من كثرة التخرصات والأقاويل.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

السكرتير العام المرشد العام

تحريراً فى

٢٤/ ٣/ ١٣٧٣
١/ ١٢/ ١٩٥٣

التقرير التفصيلي للجنة تحقيق العضوية

فى قضية الأساتذة صالح عشماوى والشيخ محمد الغزالى
وأحمد عبد العزيز جلال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. اللهم ألهمنا الصواب، وجنبنا مزالق القول ونوازع الهوى.

* * *

١٦ اتهاماً:

فى يوم الأربعاء ٢٥ من شهر ربيع الأول ١٣٧٣ الموافق ٢ من ديسمبر ١٩٥٣ أحال إلينا مكتب الإرشاد العام تقرير اتهام موجه إلى الإخوان الأساتذة صالح عشماوى ومحمد الغزالى وأحمد عبد العزيز جلال للفصل فى أمرهم؛ باعتبارهم موضع اختصاص اللجنة لأنهم أعضاء فى الهيئة التأسيسية.

وفى أول جلسة عقدتها اللجنة فى مساء اليوم المذكور، تقدم الأخ الأستاذ عبد العزيز كامل رئيس اللجنة برغبته إلينا فى التنحى عنها خلال فترة نظر هذه القضية لأنه شاهد فيها؛ فأقرت اللجنة رغبته وانتخبت الأخ الأستاذ محمود عبد الحليم رئيساً لها خلال هذه الفترة.

وبعد أن قرأت اللجنة قائمة الاتهام وهى تتضمن ستة عشر اتهاماً؛ رأت استدعاء بعض من وردت أسماؤهم فى التقرير لتسمع شهادتهم. فاستدعت الإخوان الأستاذ عبد العزيز كامل الذى اكتفت اللجنة منه بتقديم تقرير مكتوب بشهادته ثم الأستاذ محمد فرغلى فالأستاذ هارون المجددى اللذين أدليابشهادتيهما. ثم استدعت اللجنة الأخ الأستاذ نجيب جويفل واستمعت إلى شهادته فى واقعة معينة ورد ذكر اسمه فيها فى شهادة الأستاذ الشيخ محمد فرغلى.

٨ جلسات:

وقد استغرقت شهادة هؤلاء ومناقشتهم ثمانى جلسات عقدتها اللجنة بحجرة نائية فى

دار المكتب الإدارى للقاهرة، وأخذت من الزمن أربعاً وثلاثين ساعة.

وبعد أن رأت اللجنة الاكتفاء بهذه الشهادات قررت دعوة الإخوان الموجه إليهم الاتهام لتستمع إلى ماالديهم من دفاع؛ فكتبت إلى كل منهم خطاباً تدعوه فيه إلى المثول أمامها للاستماع إلى ماعنده، وحددت اليوم والساعة.. وحرصاً من اللجنة على الاطمئنان إلى وصول الدعوة إليهم كلف الأخ محمد هاشم الموظف بالمركز العام بتوصيلها بنفسه إلى مظان وجودهم.. وفى اليوم المحدد لم يحضر منهم إلا الأخ الأستاذ أحمد عبد العزيز جلال الذى طلب أولاً الاستماع إلى نص قرار الاتهام فقرىء عليه فكان رده هو هذه الكلمات بنصها: «أولا هذا البيان مليان أكاذيب» ثم أخرج من حقيبته خطاباً موقعاً منه ومن زميليه الأستاذين محمد الغزالى وصالح عشماوى هذا نصه:

حضرة الأخ الكريم الأستاذ سعد الدين الوليلى

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته وبعد:

فقد وصلنا خطابكم للحضور أمام لجنة تحقيق العضوية مساء اليوم (الأحد) للتحقيق فى شأن ماورد خاصاً بكم فى تقرير مكتب الإرشاد العام.... الخ.

ونحب أن نؤكد لكم أن لجنة تحقيق العضوية لاتملك الصلاحية للتحقيق معنا فيما ورد فى تقرير مكتب الإرشاد العام، لأن موضوع التحقيق هو خلاف بيننا وبين أعضاء مكتب الإرشاد العام. ولجنة العضوية ليس من حقها ولا من سلطتها التحقيق مع أعضاء المكتب ــ وهم أحد طرفى الخلاف ــ ولذلك يجب أن يرد الأمر كله إلى الهيئة التأسيسية نفسها، وستنعقد فى يوم الخميس القادم، فهى اللجنة المختصة لمحاسبة المكتب ومحاسبتنا أيضاً. ويمكن عرض الخلاف عليها لتفصل فيه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

توقيعــات

أحمد عبد العزيز جلال　　　محمد الغزالى　　　صالح عشماوى

حرص اللجنة على مصلحة المدعى عليهم

فشرعت اللجنة فى مناقشته فى هذا المبدأ الخطير على نحو يلمس المطلع على محضر تسجيله مقدار حرص اللجنة على مصلحة هؤلاء الإخوان المدعى عليهم. غير أن ساعتين كاملتين لم تزحزحاه عما قرره خطابهم من سابقة خطيرة.

وإمعاناً من اللجنة فى الحرص على مصلحة المدعى عليهم، قررت أن تتيح لهم فرصة أخرى بتوجيه الدعوة إليهم للحضور ثانية فى اليوم التالى، وأشارت فى كتاب الدعوة إلى ملخص المناقشة التى جرت بين اللجنة وبين الأستاذ أحمد عبد العزيز جلال، وأكدت فيه

أن اللجنة هى وحدها موضع الاختصاص، وأنها مستقلة تماماً عن مكتب الإرشاد، وأن المكتب لاسلطان له عليها، وأن لامرجع لها إلا ضمائرها.. ثم حددت لهم الموعد باليوم والساعة كما حددت المكان. وكلفت الأخ محمد هاشم بتوصيل هذه الخطابات فسلمها إليهم بنفسه..

وانعقدت اللجنة قبل الموعد المحدد بنصف ساعة وظلت منعقدة حتى الساعة العاشرة دون أن يحضر منهم أحد ودون أن يصل منهم اعتذار.

هذا هو القانون الأساسى للإخوان:

وقبل أن نبدأ فى النظر فى وقائع القضية نرى أن نناقش أولاً المبدأ الذى بنى عليه المدعى عليهم اعتراضهم على صلاحية اللجنة للتحقيق معهم فيما ورد فى تقرير مكتب الإرشاد. ومرجعنا بطبيعة الحال هو قانون النظام الأساسى لهيئة الإخوان المسلمين فنثبت منه هنا المواد الآتية:

مادة ٣٦ — لهذه الهيئة — الهيئة التأسيسية — أن تقرر فى أى اجتماع، أو بناءً على ترشيحات اللجنة المنصوص عليها فى المادة التالية منح بعض الإخوان حق العضوية للهيئة التأسيسية بشرط أن تتوفر فيمن يراد منحه إياها هذه الشروط (وذكرت الشروط).

مادة ٣٧ — تنتخب الهيئة التأسيسية من أعضائها (ومن غير الأعضاء المنتخبين لمكتب الإرشاد) لجنة من سبعة أعضاء، ويفضل غير القاهريين وذوو الإلمام والصلات بالفقه الإسلامى والإجراءات القانونية.

(مهمتها تحقيق مايحال عليها من المرشد العام أو مكتب الإرشاد أو الهيئة نفسها خاصاً بما يمس الأعضاء فى سلوكهم أو الثقة بهم أو أمر آخر. ولهذه اللجنة أن توقع ماتشاء من الجزاءات حتى الإعفاء من العضوية على أن تعتمد ذلك من المرشد العام).

وعند اختيار هؤلاء الأعضاء يقسمون أمام الهيئة «بالله على أن يؤدوا ماعليهم بالذمة والصدق والأمانة». وتختار اللجنة رئيسها وسكرتيرها من بين أعضائها عقب اختيارها مباشرة، وتدون قراراتها ومحاضرها فى سجل خاص بها — ويكون اجتماعها صحيحاً بحضور خمسة من أعضائها متى كان فيهم الرئيس — وتكون قراراتها صحيحة إذا صدرت عن الأغلبية المطلقة للمجتمعين — ويتجدد اختيارها مع اختيار المكتب. ولا مانع من اختيارها كلها أو بعضها لأكثر من مرة. وتجتمع بدعوة من رئيسها — وللعضو الذى يتقرر فصله أن يستأنف هذا القرار بطلب كتابى يرفع إلى مكتب الإرشاد العام ليعرض على الهيئة التأسيسية فى أول اجتماع لها، ورأيها فيه حاسم.

مادة ٣٨ — إذا قصر واحد من أعضاء الهيئة التأسيسية فى الواجبات الملقاة عليه نصحه المرشد العام. فإذا تكرر التقصير أحاله على اللجنة المنوه عنها فى المادة السابقة، إلا إذا كان عضواً بالمكتب فيتخذ فى شأنه مانص عليه فى المادة ٢٥ .

وهذه المواد تتضمن القواعد الآتية:

أولاً — أن الهيئة التأسيسية وهى السلطة العليا فى الجماعة فوضت هذه اللجنة فى مباشرة حق التحقيق مع أعضائها فيما ينسب إليهم، وناطت بها الاضطلاع بأعباء هذه الناحية من سلطتها، ومنحتها الصلاحية له ولإصدار قرار بالعقوبة حتى الفصل من العضوية .

ثانيـاً : حصرت الهيئة الشروط التى متى توفرت مجتمعة قبل عضو من أعضائها كان للجنة الصلاحية فى مباشرة حق التحقيق معه وتوقيع الجزاءات عليه فى شرطين لاثالث لهما وهما:

١ — أن يكون الأخ المنسوب إليه الاتهام عضواً فى الهيئة التأسيسية.

٢ — أن يحال هذا الاتهام إلى اللجنة من المرشد العام أو من مكتب الإرشاد أو من الهيئة نفسها .

ثالثـاً : لم تستثن المادة (٣٨) أحداً من أعضاء الهيئة التأسيسية الذين توفر قبلهم الشرطان السابقان من وجوب المثول أمام اللجنة لمباشرة حقها معه إلا أعضاء مكتب الإرشاد مادامو متمتعين بهذه الصفة؛ أما إذا زالت عنهم هذه الصفة سواء أكان ذلك بعدم تجديد انتخابهم أو بقرار من المكتب نفسه على الصورة التى وضحتها المادة (٢٥) — فمردهم كذلك إلى اللجنة.

رابعـاً : أن الهيئة التأسيسية حين جعلت للجنة مهمتين أولاهما تختص بإدخال أعضاء فى الهيئة (المادة ٣٦) والأخرى تختص بالتحقيق مع أعضائها وتقرير العقوبات عليهم (المادة ٣٧) قيدت اختصاص اللجنة فى الإدخال بقصره على مجرد الترشيح، فى حين أنها فى المهمة الأخرى وهى التحقيق والعقوبة حتى الفصل من العضوية أطلقت للجنة الحق فى ذلك وجعلت قرارها نهائياً بعد اعتماده من المرشد العام، ولم تجعل لنفسها الحق فى إعادة النظر فى القرار بعد صدوره وإعلان العضو به إلا فى حالة واحدة هى أن يكون القرار فصلاً من العضوية وتقدم العضو المفصول بطلب كتابى فيه إلى مكتب الإرشاد عرض طلبه باستئناف القرار على الهيئة التأسيسية فى أول اجتماع لها ورأيها فيه حاسم.

خامساً : تقديراً من الهيئة لخطورة السلطة المخولة لهذه اللجنة أحاطتها بشروط وضمانات بينتها

المادة (٣٧) فى الصفات الواجب توفرها فى عضوها وفى تحديد أغلبية خاصة لجلساتها وفى القسم الذى يؤديه أعضاؤها أمام الهيئة عند اختيارهم وفى اعتماد قراراتها من المرشد العام.

سادساً: ليس لمكتب الإرشاد العام سلطة من قريب ولا من بعيد على هذه اللجنة فقد اشترطت المادة (٣٧) أن يكون أعضاؤها من غير المنتخبين للمكتب. كما أن المادة نفسها جعلت انتخابها من حق الهيئة التأسيسية نفسها التى تنتخب المكتب — وبذلك قسمت الهيئة سلطتها بين لجنتين؛ فعهدت بسلطتها التنفيذية إلى المكتب وعهدت بسلطاتها القضائية إلى لجنة العضوية.

ويتضح ذلك جلياً فيما يقرره القانون من أن أى قرار يمس كيان الجماعة يصدر من أية إدارة من إدارات الدعوة لايكتسب صفته الشرعية إلا إذا اعتمده مكتب الإرشاد، ماعدا قرارات هذه اللجنة فإنها تكتسب صفتها الشرعية دون عرضها على المكتب أو اعتمادها منه.

من الناحية الشكلية:

وعلى ضوء هذه القواعد المستقاة من قانون الجماعة نحب أن نناقش موقف هؤلاء الأعضاء الثلاثة من اللجنة من ناحية الشكل على الوجه الآتى:

أ — صفاتهم:

أولاً: أعضاء فى الهيئة التأسيسية

ثانيــاً: ليسوا أعضاء فى مكتب الإرشاد العام

ب — شكل اللجنة:

أولاً: أخطرت اللجنة أحد أعضائها وهو الشيخ محمد الغزالى أحد المدعى عليهم بخطاب مسجل بأن قرار وقفه قد نحاه عن عضوية اللجنة حتى يفصل فى أمره.

ثانيــاً: التقى قرارها برغبة رئيسها الأستاذ عبد العزيز كامل فى تنحيته عن رياسة اللجنة وعضويتها خلال نظرها هذه القضية لاعتباره شاهداً فيها.

ثالثــاً: انتخبت اللجنة الأستاذ محمود عبد الحليم رئيساً لها خلال نظر هذه القضية.

رابعــاً: أخطرت بذلك فضيلة المرشد العام.

خامساً: حافظت طوال جلساتها على العدد القانونى لأعضائها فكانوا خمسة دائماً منهم الرئيس.

جـ ــ الإجراءات:

أولاً ــ أحال مكتب الإرشاد العام إلى اللجنة تقرير اتهام ضد هؤلاء الاعضاء الثلاثة

ثانيــاً: سمعت اللجنة شهادة من وردت أسماؤهم فى قرار الاتهام وبعض من ورد ذكرهم فى شهادة هؤلاء الشهود واستجوبتهم وناقشتهم.

ثالثــاً: حددت اللجنة الموعد والمكان لحضور هؤلاء الأعضاء المدعى عليهم أمامها وأخطرتهم بذلك. ولما تخلفوا أتاحت لهم فرصة أخرى بالكتابة إليهم كذلك.

رابعــاً: لم يرد المدعى عليهم أعضاء اللجنة كلهم أو بعضهم لمآخذ عليهم.

ومن ذلك يرى الناظر بعين القانون المجرد عن الهوى أن جميع الشروط والضمانات والإجراءات التى تضمنها قانون النظام الأساسى للجماعة لإلزام هؤلاء الأعضاء الثلاثة بالمثول أمام اللجنة لإجراء التحقيق معهم قد توفرت كاملة. وكان يجب على هؤلاء الأعضاء الذين لم يعتذروا عن الحضور بعذر شرعى أن يحضروا فى الموعد والمكان المحددين لهم لدفع التهم الموجهة إليهم بما عسى أن يكون لديهم من أدلة.

أوضحنا لهم كل الحقائق:

وبالاطلاع على محضر تحقيق مع الأستاذ أحمد عبد العزيز جلال، وعلى كتاب الدعوة الذى وجهته إلى الأعضاء الثلاثة المدعى عليهم للحضور فى المرة الأخيرة؛ يتبين أن اللجنة لم تدخر وسعاً فى تجلية حقائق القانون لهم، وفى مجاراتهم إلى أبعد الحدود فى سبيل إدخال الطمأنينة إلى نفوسهم حتى يفيئوا إلى الحق ويستجيبوا لصوت القانون.

والإنسان بطبيعته إذا وجه إليه اتهام، وعلق سمعته شيء تواق ــ إذا كان لديه دليل براءته ــ أن يتلقف أول من يقابله، ويتلمس من يسأله ليفضى إليه بأدلة براءته، ليدحض هذا الاتهام، ويخلص سمعته مما علق بها؛ لاسيما إذا علم أن إفضاءه بذلك لأول سائل لن يمنعه من الإفضاء لغيره.

القانون يبطل الادعاء:

والواقع أن الاحتجاج بوجود خلاف بين عضو الهيئة المدعى عليه وبين أعضاء المكتب يعد باطلاً. لأن من السهل على كل عضو محال إلى اللجنة أن يدعى هذا الخلاف

ليفلت من المثول أمام اللجنة . خصوصاً إذا علم أن أكثر الحالات تحول إلى اللجنة عن هذا الطريق وهو المكتب — وبذلك يكون مثار الخلاف ممكناً وجوده بطبيعة الإ .براءات — ويمكن إثارة هذا الاحتجاج نفسه بنفس الصورة إذا ماكان التحويل إلى اللجنة عن طريق المرشد العام .. وبذلك يبطل عمل اللجنة ، ويبطل بالتالى ماقصد إليه القانون من إيراده إحدى مواده وهى المادة (٣٧) . والتحايل على إبطال إحدى مواد قانون مقرر يعتبر باطلاً .

وإذا فرضنا جدلاً أن الذى يمنعهم من الوقوف أمام اللجنة أن بينهم وبين أعضاء المكتب خلافاً كما ادعوا فى كتابهم ، فهل هذا يمنعهم — لو كانوا جادين — أن يبرئوا أنفسهم أولاً أمام اللجنة مما هو منسوب إليهم ثم يرفعوا شكواهم بعد ذلك ضد أعضاء المكتب إلى الجهة التى يرونها موضع اختصاص؟

كما أننا لو أخذنا بنظرية المدعى عليهم وقام خلاف بين عضوين أحدهما عضو فى الهيئة التأسيسية والآخر ليس عضواً فيها إذن لما وجد المختلفان لجنة تحقيق يحتكمان إليها .. وبذلك تضيع الحقوق وتتبدد دون مراجع .

وبعد أن يئست اللجنة من حضورهم أو إذعانهم إلى القانون بعد أن أعذرت إلى الله وإليهم ؛ رأت أن من حقها أن تسير فى القضية ، وأن تحاكمهم غيابياً مكتفية بما تضمه محاضر تحقيقاتها .

وهنا ننتقل إلى الموضوع فنرى مايأتى :

أولاً : كانوا مع المعتصمين ولم يستنكروا عملهم :

فى أول بيان أصدروه بتوقيعاتهم ونشروه فى الصحف الصادرة يوم ٢٨ نوفمبر ١٩٥٣ ثبت أن المدعى عليهم الثلاثة كانوا مع المعتصمين بدار المركز العام يوم الجمعة الموافق ٢٠ من شهر ربيع الأول ١٣٧٣ الموافق ٢٧ نوفمبر ١٩٥٣ ، وأنهم لم يواجهوا تصرفات هؤلاء المعتصمين بالاستنكار ، مع أنهم كانوا منهم موضع الرضا والقيادة — وكان ينبغى لمثلهم ممن يحسن النية والتصرف — وقد حازوا هذه المكانة فى نفوس هؤلاء الشبان — أن يطمئنوهم إلى أنهم سيقومون عنهم بالتفاهم مع فضيلة المرشد أو مع مكتب الإرشاد ، ويطلبوا إليهم الانصراف ؛ فإذا أبوا كان عليهم هم أن ينصرفوا — وما كان يضيرهم شيئاً فى الدعوة ولا فى أنفسهم أن يفعلوا ذلك لو كانوا حسنى النية والتصرف .. أما فى الدعوة فما كان فى طوق هؤلاء الشبان المعتصمين أن يفعلوا أسوأ مما فعلوا ، وأما فى أنفسهم فقد وقف كثير من أعضاء المكتب والهيئة التأسيسية من هذا الشباب الموقف الذى

أشرنا إليه وما ضارهم فى أنفسهم شىء أمثال الإخوان الأساتذة عمر التلمسانى وعبد القادر عوده وعبد الحكيم عابدين وعمر الأميرى والشيخ محمد فرغلى وعبد العزيز كامل. والأخير لم يكتف بالموقف السلبى بل ظل معهم طيلة الليل يحاول إخراجهم من المركز العام.

وفى هذا تفنيد لادعاء الشيخ محمد الغزالى والأستاذ أحمد عبد العزيز جلال حين ادعيا للأستاذ عبد العزيز كامل بعد أن وقعا بيانهم الذى نشر بالصحف يوم ٢٨ نوفمبر انهما إنما فعلا ذلك تهدئة للثائرين وتخليصاً للدعوة من هذا المأزق.

ثانياً ــ هذه بياناتهم تحكم عليهم:

أصدر المدعى عليهم بياناً موقعاً منهم نشروه بالصحف الصادرة يوم ٢٨ نوفمبر ١٩٥٣ ضمنوه النقاط الآتية:

١ ــ ادعاءهم أن الأستاذ المرشد العام أعلن استقالته على الملأ.

٢ ــ إلغاءهم قرار مكتب الإرشاد العام بفصل الأربعة المفصولين، واعتبارهم إياهم موقوفين فقط حتى تحدد موقفهم لجنة خاصة تعرض تقريرها على الهيئة التأسيسية.

٣ ــ إصدارهم قراراً من ثلاثتهم مع الرابع بوقف مكتب الإرشاد العام حتى تبت الهيئة فى مصيره.

٤ ــ اعتبارهم أنفسهم هيئة تقوم بتصريف شئون الدعوة وإدارة المركز العام لحين اجتماع الهيئة التأسيسية.

وبتحقيق النقطة الأولى ثبت أن الأستاذ المرشد العام لم يستقل؛ فالمكتب وهو الجهة المختصة نفى ذلك. والمدعى عليهم لم يقدموا دليلاً مادياً ولا معنوياً على ادعائهم ــ وتبين بذلك أنهم ارتكبوا خطأين: الأول الكذب والافتراء والآخر إشاعة الذعر والارتباك بين صفوف الإخوان بنشر هذا الكذب فى الصحف.

وبتحقيق النقطة الثانية تبين أن مكتب الإرشاد لم يلغ قرار الفصل الذى أصدره ضد الأربعة المفصولين. وأن مكتب الإرشاد لايجعله القانون الأساسى مسئولاً أمام أية سلطة فى الجماعة إلا أمام الهيئة التأسيسية ــ وبذلك يكون المدعى عليهم قد انتحلوا لأنفسهم شخصية الهيئة التأسيسية مجتمعة، وبذلك يكونون قد خرجوا على القانون الذى بايعوا عليه وعلى الهيئة التى هم مجرد أفراد منها.

وبتحقيق النقطة الثالثة تبين أن وقف مكتب الإرشاد ليس من حق أية سلطة فى الجماعة إلا هذه الهيئة كما ذكرنا، وبذلك يكون المدعى عليهم قد خرجوا مرة أخرى على

القانون الذى أقسموا على احترامه والخضوع لأحكامه.

وبتحقيق النقطة الرابعة تبين أن فى تنصيبهم أنفسهم أوصياء على الجماعة لاخروجاً على القانون فحسب بل ابتداعاً لسابقة خطيرة تركت آثارها فى كيان الدعوة الداخلى ومركزها الخارجى، ومكنت أعداء الدعوة من الإرجاف بالسوء، وتهوين أمر الجماعة وبالتالى أمر العاملين للإسلام.. ذلك أنهم نصبوا أنفسهم أوصياء ومنحوا أنفسهم جميع السلطات فوق الجماعة دون أن يرجعوا إليها، أو يأخذوا بذلك تفويضاً منها.

وأمام هذا الافتيات على الحقوق تقصر قوانين الهيئات الشعبية عن أخذ حقها من هؤلاء المفتاتين لأنها لاتملك عقوبة أشد من الإعفاء من العضوية.

هذه أخطاء اشترك ثلاثتهم فيها، ولا سبيل إلى إنكارها أو التملص منها؛ لأنهم نشروها فى الصحف ممهورة بتوقيعاتهم، ولم يلحقوها بعد أن ظهرت على صفحات الصحف بتكذيب؛ بل إنهم استمروا فى إصدار البيانات المماثلة فى الصحف أيضاً.

وقد لاحظت اللجنة أن المدعى عليهم كثيراً مايذكرون فى بياناتهم أنهم سيلجأون إلى الهيئة التأسيسية متظلمين من قرار الفصل الذى أصدره المكتب ضد الأربعة الأعضاء — فمن أى نص فى قانون الإخوان المسلمين الذى أقسموا على الخضوع له فهموا أن وسيلة عرض تظلم على الهيئة من قرار للمكتب هى أن يعتصبوا بدار المركز العام وأن يتخذوا قرارات بوقف المكتب وإحلال أنفسهم محله، والمسارعة بنشر هذه القرارات الضارة بسمعة الجماعة فى الصحف، واستباحة الكذب العلنى بنشر خبر كاذب باستقالة المرشد العام.

ثم هم لايعلنون لجوءهم إلى الهيئة التأسيسية إلا بعد اتخاذ هذه الخطوات غير المسبوقة فى تاريخ الجماعة، مع العلم بأن الفرصة كانت متاحة لهم منذ صدور قرار الفصل لدعوة الهيئة بالطريق القانونى دون الوقوع فى هذا الخطأ الجسيم، أو الانتظار حتى تجتمع الهيئة فى ميعادها المحدد وما كان بالبعيد.

وقبل أن تنتهى اللجنة من تحليل نقاط هذا البيان وتحقيقها، نحب أن نلفت النظر إلى أن قرارها فى هذه القضية — والمنسوب إلى المدعى عليهم كثير سواء فى قائمة الادعاء أو فى شهادة الشهود — سيعتمد أعظم الاعتماد على ماجاء فى هذا البيان، لأن مجموعة من الوقائع المادية سجلوها بتوقيعاتهم على أنفسهم؛ وبذلك لايكون هناك مجال للتظلم من القرار بدعوى أنهم لم يحضروا أمام اللجنة.

ثالثاً: النشر بالصحف:

ومما أكد للجنة سوء نية المدعى عليهم وسوء تصرفهم أنهم اتخذوا الصحف وسيلة

لنشر كل مايصدر عنهم، حتى كتابهم الذى أرسلوه إلى اللجنة يذكرون فيه أنهم لم يمثلوا أمامها.. وهذه وسيلة للتشهير تتنافى مع الخلق الإسلامى ومع تقاليد الدعوة، ولا يقدم عليها ذو نية حسنة. والضرر الذى سببه هذا النشر لايخفى على أحد.

رابعاً:

«نشر المدعى عليهم بالصحف الصادرة يوم ١٩٥٣/١١/٢٩ بياناً ادعوا فيه أن الأخ الشيخ محمد فرغلى فى الاجتماع الذى عقد فى منزل نائب رئيس الوزراء اتفق معهم على تكوين لجنة للتحقيق مع الإخوان المفصولين وبسؤال الأستاذ الشيخ محمد فرغلى قرر أنه عندما طلب منه الأستاذ صالح تكوين لجنة للتحقيق مع المفصولين سأله قائلاً: أية لجنة تقوم بهذا التحقيق الذى تريد؟ فقال الأستاذ صالح: لجنتنا — يقصد تلك التى تتكون منه ومن زملائه الثلاثة — فقال له الأستاذ فرغلى: إن مكتب الإرشاد هو الهيئة الإدارية العليا للجماعة، وهو صاحب الحق المطلق فى قبول الأعضاء وفصلهم، وهو مؤتمن على أمور الجماعة، وليس لأحد أن ينازعه فى هذا الاختصاص؛ ومع ذلك فإن مكتب الإرشاد حينما أصدر قرار فصل هؤلاء الشبان الأربعة أعطاهم حق التظلم، فمن أراد أن يتظلم فمن الطبيعى أن ينتدب مكتب الإرشاد لجنة تتولى التحقيق معه».

«ونشر المدعى عليهم فى نفس البيان أن الأستاذ عبد العزيز كامل أبلغهم أنه أفلح فى إقناع أعضاء المكتب للموافقة على تكوين لجنة للتحقيق — ثم قالوا: وفى ساعة متأخرة من الليل اتصل خمسة من أعضاء مكتب الإرشاد هم: الدكتور خميس حميدة والأساتذة عمر التلمسانى وعبد الرحمن البنا وعبد القادر عوده والسيد محمد حامد أبو النصر وأبلغونا أنهم وافقوا على تأليف لجنة للتحقيق. ثم قالوا: وعلى هذا الأساس نشر بيان الأمس وفيه ذكرنا تكوين لجنة للتحقيق ولكننا فوجئنا فى الصباح بقرار بوقف ٢١ عضواً وتأليف لجنة للتحقيق لامع الإخوان المفصولين حسب الاتفاق، ولكن مع الإخوان الذين احتجوا على قرار الفصل».

ماذا قال الشهود؟

وبسؤال الأخ الأستاذ عبد العزيز كامل فى هذا الصدد قرر أن كل ماوعدهم به هو أن يتوسط فى الأمر دون أن يقيد نفسه بحل معين.

وبسؤال الأخ الأستاذ عمر التلمسانى قرر: أن الذى دار بيننا فى حضور الإخوة الأربعة من أعضاء المكتب؛ أن المكتب قرر تكوين لجنة من الشيخ محمد فرغلى والسيد محمد حامد أبو النصر وعمر التلمسانى لتحقيق ماحدث مساء الجمعة من الشبان الذين

اعتصموا بعد أن ذهبوا إلى منزل فضيلة المرشد، ونظر كل تظلم يقدم من الأربعة المفصولين؛ إذ كان قد قدم إلينا تظلم من أحمد عادل كمال. كما أن المكتب أحال إلى هذه اللجنة التحقيق مع الشيخ سيد سابق الذى صدر قرار بإيقافه.

«ولم نقل أبداً إن هذه اللجنة للتحقيق مع المفصولين».

ويقرر كذلك فيقول: وأحب أن أقول إن الأستاذ صالح عشماوى قرر لنا ونحن فى دار الكتاب العربى ــ ليلاً ــ أنه علم تليفونياً بأن المكتب الإدارى أوقف واحداً وعشرين من الإخوان؛ فهو إذن لم يفاجأ فى صباح اليوم التالى بشىء لأن مايقرر أنه فوجىء به فى الصباح كان يعلمه قبل أن تصدر جرائد الصباح.

وبسؤال الأخوين الأستاذين محمد حامد أبو النصر وعبد القادر عوده؛ قررا نفس الذى قرره الأستاذ عمر التلمسانى. وذكر الأستاذ عبد القادر عوده أنهم قالوا ذلك فى دار الكتاب العربى للمدعى عليهم وكان معهم آخرون ذكر منهم عبد الرحمن السندى والشيخ سيد سابق.

وترى اللجنة أن الفرق بين مانشره المدعى عليهم بالصحف يوم ٣٠/١١ عن لجنة التحقيق وبين ماقرره الشهود الذين أوردنا ملخص ماقرروه فرق شاسع. فالمنشور بالصحف لايشعر بأن المكتب متمسك بقراره ولا بأن اللجنة المنوه عنها إن هى إلا لجنة للتحقيق مع الذين أحدثوا الشغب يوم الجمعة وللتحقيق فى تظلم من يتظلم من المفصولين

ولجنة العضوية وإن كانت تؤثر أن تمسك عن القطع برأى فى هذه النقطة، إلا أنها تضع بجانب هذا أن الأستاذ صالح عشماوى اجترا على نشر خبر بمجلة الدعوة باستقالة الأخوين الأستاذ عبد العزيز كامل من لجنة العضوية والدكتور محمد سليمان من الهيئة التأسيسية ــ وثابت أن إيراد مايتصل بالأستاذ عبد العزيز كامل فيه تحريف ظاهر، وأن الدكتور محمد سليمان لم يستقل من الهيئة التأسيسية.

فإذا وضعنا هذه الوقائع من الأستاذ صالح عشماوى بجانب مانشره عن لجنة التحقيق استطعنا أن نحكم على روايته ونحن مطمئنون.

خامساً:

قرر الأستاذ عبد العزيز كامل فى شهادته أنه حاول ليلة الحادث أن يحمل الأستاذ صالح عشماوى على مغادرة المركز العام بعد أن غادره كل المعتصمين تقريباً فلم يفلح، وظل فى محاولاته هذه معه حتى قرب الفجر. ولما سأله الأستاذ عبد العزيز كامل: ماالذى أقحمك فى هذا الأمر وقد خرج المعتصمون أنفسهم؟ قال الأستاذ صالح «اعتبرنى طرفاً فى

هذا الأمر » .

كما قرر الأستاذ عبد العزيز كامل أنه فى ساعة متأخرة من الليل دخل على الأستاذ صالح عشماوى فى الحجرة المعتصم بها ليرجوه الخروج من المركز العام فوجده يتكلم بالتليفون مع آخر فى الخارج ثم التفت إليه والسماعة فى يده سائلاً الأستاذ عبد العزيز كامل: ماهى شروط جلائه عن المركز العام؟ كأن المتكلم معه فى التليفون ينتظر من الأستاذ صالح جواباً على هذا السؤال ــ فغضب الأستاذ عبد العزيز وأبى أن يجيبه إلا إذا أخبره باسم الشخص الذى يتصل به بالتليفون ويريد أن ينقل إليه هذه الشروط . فرفض الأستاذ صالح أن يذكر اسم الشخص.

من الذى يوجه المؤامرة؟!

بعد ذلك يقرر الأستاذ عبد العزيز كامل أنه ذهب فى اليوم التالى إلى دار الكتاب العربى، فوجد بإحدى الحجرات اجتماعاً يضم الأساتذة صالح عشماوى وعبد الرحمن السندى والشيخ سيد سابق. وأخذوا يتحدثون معه فى شأن وساطته بأسلوب عرف منه الأستاذ عبد العزيز من هو الشخص الذى كان يكلم الأستاذ صالح أمس فى التليفون ورفض ذكر اسمه.

ويقرر الأستاذ عبد القادر عوده فى شهادته أنه لما ذهب إلى دار الكتاب العربى لمقابلة المدعى عليهم مع بعض أعضاء المكتب فى شأن التفاهم؛ وجد مع المدعى عليهم أشخاصاً آخرين منهم عبد الرحمن السندى والشيخ سيد سابق.

كما أن الأخ محمد هاشم الموظف بالمركز العام قرر فى شهادته التى قدمها إلى اللجنة مكتوبة ــ وكان موجوداً بالمركز العام ساعة اقتحامه ــ أنه كان جالساً بجوار مكتب المراقب وأمامه التليفون، فدق جرسه، فإذا المتكلم الأستاذ عبد الرحمن السندى.. يقول الشاهد «فتكلمت معه فطلب الأخ على صديق فجاء وكان رده كالآتى «الحمد لله. كويس الحمد لله. كل حاجة كويسة».. وبعد قليل دق التليفون مرة أخرى فأمسكت بالسماعة فإذا به عبد الرحمن السندى وطلب على صديق أيضاً.. وجاء على صديق.. وفى أثناء هذه المكالمة أحسست بوجود سيارات على باب المركز العام فوقفت لانتظار من بها بجوار على صديق فدخل الحاج حلمى المنياوى وكان على يقول فى التليفون «جه الحاج حلمى والحاج صالح والشيخ الغزالى والشيخ سيد سابق والحاج جوده والحاج عبده قاسم ومحمد شريف.. إن شاء الله وعليكم السلام ورحمة الله.. ووضع السماعة ودخل حضرات المدعوين».

من مجموع هذه الشهادات يتضح أن هذه الحركة وعلى رأسها المدعى عليهم كانت

على اتصال بأحد المفصولين اتصالاً منتظماً طول الليل.. وقرار مكتب الإرشاد بفصل هؤلاء الأربعة يقتضى أن يقطع الإخوان صلتهم فى شئون الدعوة بهؤلاء المفصولين. فالاتصال بهم بل التلقى منهم فيه خروج على القرار وتجد له ويشم منه رائحة التآمر.

سادساً:

تبينت اللجنة من مراجعة البيان الأول الذى أذاعه المدعى عليهم بالصحف أن الحرص على تصديره بإعلانهم استقالة المرشد العام يرتبط بسابقة للأستاذ صالح عشماوى تقرر من أجلها وقفه شهراً فى العام الماضى. هذه السابقة هى مخاطرته بإذاعة أمر قرر المكتب اعتباره سراً. وكان هذا السر الذى حرص الأستاذ صالح على نقله بعد منتصف الليل إلى جريدة «المصرى» هو إعلان استقالة المرشد العام أيضاً.. كأن فى نفس الأستاذ صالح عقدة إزاء هذا الرجل الذى يشغل هذا المنصب ويقود هذه الجماعة.. مع أنه بايعه أمام الهيئة التأسيسية من قبل.

واللجنة ترى فى تصرفات الأستاذ صالح هذه إزاء الأستاذ المرشد، وتكرر هذه التصرفات نفسها بالرغم من وقفه شهراً من قبل بسببها، نقضاً للبيعة ونكثاً للعهد، وترى فى زميليه اللذين وقعا معه على البيان الذى تضمن ذلك نفس الرأى الذى تراه فيه.

وقبل أن تختم اللجنة هذه الحيثيات لابد لها أن تشير إلى أن هناك أسماء جاءت على ألسنة الشهود فى مواقف غامضة، ستطلب اللجنة فيما بعد إحالتها إليها لاستجلاء هذه المواقف وتحديدها.

إمضاءات

حسنى عبد الباقى — عبد الله عامر — حامد شريت —
سعد الدين الوليلى — محمود عبد الحليم

* * *

الفصل الرابع

تعقيـب

معذرة إلى القارىء فى إيراد هذا الفصل الدامى، الذى ماكتبت حرفاً فيه إلا وهو يعتصر قلبى، ويدمى فؤادى.. وإنه لينبغى علىّ أن لاأكتم القارىء حقيقة دفينة فى داخل نفسى؛ هى أن هذا الفصل — مع أننى عانيت جانباً كبيراً من أحداثه، وأننى الذى كتبت بنفسى مقدمته ونهايته، وسجلت بقلمى كل أطواره — إلا أننى حين بدأت أكتب عنه فى هذه المذكرات وجدتنى قد أنسيته إنساءً يكاد يكون تاماً حتى أكثر أسماء أشخاصه.. مع أننى أذكر أحداثاً سابقة عليه وأخرى تالية له.. وما كان ذلك فيما أعتقد إلا لأننى كنت أرى هذا الحدث إبان وقوعه أعظم كارثة أصابت الدعوة؛ لأنها كانت انفجاراً داخلياً. وهو أخطر مايصيب الدعوات، بل هو الخطر الداهم الذى ينسف الدعوات فلا ترى فيها عوجاً ولا أمتا، فيمحوها من الوجود محواً؛ بحيث لايبقى لها فى الوجود ولا فى التاريخ أثراً ولا ذكراً..

ومثل هذا الخطر الداهم الذى تنفطر له النفوس؛ لاسيما نفوس من واجهوه وكافحوه وناضلوا ضده، وابتلعوا مرارته — إذا واتتهم الظروف فاستطاعوا دفعه، وتمكنوا من وقف تياره واحتوائه؛ تحاول ذاكرتهم — بدافع كراهية اجترار المرارة — أن تلقى به فى غياهب النسيان.. ولولا ماأمدنى به الأخ الأستاذ عباس السيسى من صورة من المذكرة التى كنت سطرتها بيدى فى ذلك الأوان لما استطعت أن أكتب فى هذا الفصل إلا إشارات عابرة لاتسمن ولا تغنى من جوع.

وإيراد هذا الفصل على مافى إيراده من إيلام للنفس ولذع للقلب؛ أمر ضرورى لامندوحة عنه ولا مفر منه. لأنه حلقة فى سلسلة الأحداث التى صنعها جمال عبد الناصر بيده، وأحكم وصل بعضها ببعض. فلولا الارتباط الوشيج بين هذا الفصل وبين الأحداث السابقة عليه والأحداث اللاحقة له لأغفلت ذكره، ولتغاضيت عنه إعفاءً لنفسى من ألم ممض لازمها طيلة تسجيل أحداثه.. ولكن تسلسل الأحداث، وأمانة التسجيل، والوفاء بحق التاريخ وحق الأجيال الجديدة — ألزمنى بإيراد ماكنت أوثر أن لاأورده.

ولا أعتقد أن شعور الصد عن تذكر هذا الفصل ليس مستولياً على نفسى وحدى؛ وإنما هو بغير شك مستول على نفوس كل الإخوة الذين عاصروا هذه الأحداث، ومن هذه النفوس نفوس الإخوة الذين كانوا وقود هذه الأحداث، والذين زجت بهم فى أتونها اليد الأثيمة التى كانوا إذ ذاك يحسنون بها ظناً.

ولم يكن الإخوان غافلين عن حقيقة أحداث هذا الفصل، ولا عن صانعها ومحركها، ولكنهم كانوا يتغاضون عن هذه الحقيقة؛ لأنهم لايملكون لمحركها شيئاً وهو مستخف عن الأنظار، ويريدون أن يحسموا الظاهرة التى بدت بين صفوفهم حسماً داخلياً، وهو حدود مايستطيعون، وأهم مايأملون من حفظ الكيان الروحى لدعوتهم سليماً معافىً غير مريض ولا مقطع ولا معلول؛ إذ هو الأساس الذى يهون كل شىء دونه. ولقد كانوا يعملون على ذلك، ويبذلون الجهد فى تحقيقه، وهم يعلمون أن كل نجاح يحرزونه فى هذا السبيل هو بمثابة طعنة فى قلب صانع هذه الأحداث ومحركها. ويعلمون أن هذه الطعنة لن توقظ ضمير هذا الصانع، بل إنها تزيد نار حقده اشتعالاً، وتدفعه إلى حياكة مؤامرة أخرى.

ويبدو أنه كان يعتقد أن المؤامرة الأخيرة التى نحن بصددها، والتى حاكها أحكم حياكة، واستطاع أن يجمع جميع خيوطها فى يده.. أنها مضمونة النجاح، وأن لاقبل للإخوان بمواجهتها.. ولقد كان تقديره صحيحاً فإنسان كان فى داخل الدعوة وفى صميمها، يعلم من أسرارها مالا يعلمه إلا القليل، ثم هيأت له الظروف أن تلقى إليه مقاليد الحكم فى مصر؛ يتصرف فى مقدراتها كما يشاء، لامعقب لحكمه.. ثم يتلقف رئيس النظام الخاص للإخوان، الذى لم يتعود مرءوسوه وأتباعه أن يعصوا له أمراً، ومن حول هذا الرئيس مئات من قيادات الإخوان بعضهم مفتون به، وبعضهم الآخر موتور يرى فى مؤازرة هذا الرئيس شفاء صدره وتحقيق أمله؛ لاسيما وقد صار هذا الرئيس يجمع إلى سلطته الروحية تأييد سلطة الحكم بما لديها من مغانم، وما يحوطها من هيبة.. إنسان جمع فى قبضته كل ذلك مما قد لايجتمع لإنسان.. وكل ذلك إزاء دعوة لايملك أصحابها إلا إيمانهم بها وثقتهم فى قيادتها، واعتزازهم بأخوّة كل أطرافها من عامة الناس بل من ضعفاء الناس وفقرائهم.. يذكرنا هذا الوضع بوضع وصفه القرآن فقال ﴿**أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون. أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين. فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين**﴾.

كان صانع المؤامرة ومحركها على حق فى تصوره أن المؤامرة مضمونة النجاح لايقف فى سبيل سهمها إلى الهدف عائق، ولا يعترض طريقه مانع.. كل أسباب النجاح قد

توفرت فلابد من النجاح.

وكان أمل جمال عبد الناصر الذى طالما تمناه هو أن يجد هذه الهيئة العتيدة طوع أمره ورهن إشارته وفى قبضة يده؛ حتى يستطيع أن يحكم مصر، ويبسط حكمه على البلاد العربية والإسلامية، ويستطيع بحق أن يكون إمبراطوراً، حيث يكون مؤيداً بقاعدة شعبية تمتد فى طول البلاد المصرية وعرضها وفروعها تغمر الشرق العربى كله، وتتجاوب معها تكوينات شعبية فى البلاد الإسلامية فى أنحاء العالم.. وهو أمل واسع عريض، وحلم باذخ لذيذ.. ولكنه اصطدم بشخصية الأستاذ حسن الهضيبى المرشد العام للإخوان المسلمين الذى أظهر استعداده أن يسلم جمال عبد الناصر مفتاح المركز العام، ولكنه لن يسلمه الإخوان المسلمين، فالإخوان المسلمون بغير مركز عام وبغير دور للشعب هم الإخوان المسلمون لاينقصهم شيء.. ورفض جمال عبد الناصر هذا العرض وأبى إلا أن يتسلم زمام الإخوان المسلمين.. وإذن فلابد لذلك من خلع هذا المرشد العنيد.. وتحت يد جمال عبد الناصر أكثر من واحد يطمع فى هذا المنصب ويسيل لعابه لمجرد الحلم به.. وإذن فلتوضع خطة، ولتدبر مؤامرة، وكل عناصر نجاحها فى متناول يده.. وإن هى إلا أيام ويخلو له الطريق بعد أن يخلع الإخوان مرشدهم ليضع بنفسه على رأس الهيئة صنيعة من صنائعه لتكون الهيئة بمرشدها الجديد فى ركابه.. مهمتها أن تطلق البخور بين يديه، وتسبح صباح مساء بحمده بل وتغسل على قدميه.

إن الخطة كانت سليمة، والمؤامرة كانت محكمة، والظروف كانت مواتية، والنجاح كان مضموناً. لولا إرادة الله التى شاءت أن تبقى فى هذا البلد هيئة واحدة تعمل لوجهه ومرضاة لأمره بين عشرات الهيئات التى مردت على الغش والختل والخداع. إرادة الله تدخلت، وخيبت ظن الحاسبين الذين جمعوا عناصر الجانب الأيمن فى المعادلة فأسفر حاصل الجمع عن شيء واحد لاشيء غيره وهذا الشيء هو النجاح التام الكامل فاطمأنوا وساروا فى خطواتهم بأقدام ثابتة لثقتهم فى النجاح.. ولكنهم نسوا حين كانوا يحسبون إدخال عنصر هام فى حسابهم هو عنصر «الله» وهو الفعال لما يريد؛ فانقلب نجاحهم فشلاً.

استند إخواننا هؤلاء إلى السلطة الكبرى فى البلاد، وظنوا فى القائم عليها أحسن الظن، وقالوا لأنفسهم: إذا أسندت الدعوة قيادتها إلى أخ قديم بها آلت إليه السلطة فإن ذلك أجدى على الدعوة وأنفع من إبقاء قيادتها فى يد رجل من عامة الناس ليس له من الأمر شيء، ولا يسند ظهره إلى سلطة ما.. ونسى إخواننا هؤلاء أو تناسوا ماأظهره هذا الأخ صاحب السلطة من مواقف وما أقدم عليه من تصرفات بتنكره لهذه الدعوة وتنصله من تبعاتها، وما يكن لها من عداء وتربصه بها الشر؛ فقد تنكر للحكم بما أنزل الله وأنشأ مسجداً ضراراً سماه هيئة التحرير وأراد أن يمحو شخصية الدعوة بإلزامها بالاندماج

والذوبان فى هذه الهيئة، فلما عجز عن حمل الإخوان على ماأراد لجأ إلى محاولة أخر إخواننا هؤلاء لأنفسهم أن يكونوا عدته فيها.

أما نحن فاستندنا إلى الله وحده، وواجهنا إخواننا هؤلاء ونحن نعلم أننا فى الحقيقة لانواجههم وإنما نواجه هذا الحاكم وهذه السلطة التى تربع على قمتها، وما كانت مواجهتنا اعتداءً عليه، ولا تنديداً به؛ بل كانت مجرد دفاع عن دعوتنا وعن كياننا؛ حتى إنك لتلمس هذا المعنى فى كل كلمة كتبناها فيما أجريناه من تحقيق وما اصدرناه من بيانات؛ لم نمس السلطة بحرف واحد، ولم نشر إليها بكلمة واحدة.. بل إننا حاولنا إشعارها بأملنا فيها — تقرباً لقلبها وفثأً لما انطوت عليه جوانحها من حقد — فلجأنا إليها طالبين إليها أن تكون واسطة خير بيننا وبين إخواننا؛ وليس أدل على مسالمتنا وحسن نياتنا من ذلك..

فماذا كان رد الفعل لهذه المسالمة وقد فشلت المؤامرة وانتهت إلى عكس ماكانوا يتوقعون إذ انتهت بنبذ المتآمرين وبضم الصفوف ضماً صارت الدعوة به أقوى مما كانت؟

ماذا كان رد الفعل؟

* * *

الباب التاسع

فشلت الأقنعة كلها فى إخفـاء وجه مدبر المؤامرة

مقدمـة

الفصل الأول : جمال عبد الناصر يسفر عن وجهه لأول مرة فيصدر قراراً بحل الإخوان المسلمين

الفصل الثانى: الاعتقـال الأول

الفصل الثالث: قمة التهاب المشاعر الشعبية- إذعان جمال عبد الناصر

مقدمـة

يبدو أن هذه المؤامرة كانت آخر ماكان فى جعبة جمال عبد الناصر، وأن القناع الذى كان يخفى به وجهه فى أثنائها كان آخر قناع فى حوزته..

وكان فى كل مرة يجد بين يديه من يزج بهم على المسرح ويجد فى حوزته قناعاً يخفى به عن المشاهدين وجهه؛ فلما كانت هذه التمثيلية الدرامية المفزعة الأخيرة.. وانتهت بالفشل غير المتوقع.. بحث عن قناع آخر ــ استعداداً لتمثيلية جديدة بعدها ــ فوجدها قد نفدت.

ولم يكن بد حينئذ من أن يخرج من وراء الكواليس.. وبدلاً من أن يقتصر دوره ــ كما كان فى كل مرة ــ على التلقين أصبح عليه أن يغادر المكان الخفى للملقن وأن يظهر على المسرح وحده ــ بعد أن فقد الممثلون جميعاً شخصياتهم ولم يعودوا يصلحون لأى دور من الأدوار ــ كان عليه أن يظهر على المسرح سافراً ليؤدى بنفسه دوراً جديداً.. ولكن الدور هذه المرة كان دوراً طائشاً عنيفاً.

وقد كان هو فى كل مرة المؤلف والملقن والمخرج وبين يديه الممثلون يختار منهم من يشاء لما يشاء؛ فكان وجود الممثلين بين يديه يتيح له فرصة من الوقت ليؤلف التمثيلية من واقع الحياة.. ولكن غياب الممثلين عن المسرح هذه المرة فجأة لم يتح له فرصة التأليف من واقع الحياة فلجأ إلى الخيال واستمد منه تمثيلية هذه المرة.

ثم إن بروزه على المسرح هذه المرة وحده كان ملفتاً للنظر؛ فلم يتعود المشاهدون أن يروه بشخصه ممثلاً ــ فلما رأوه فى هذا الموقف ذهبت بهم الظنون كل مذهب، وشرعوا يراجعون الأدوار التى شاهدوها فى المسرحيات السابقة على ضوء هذا المشهد الجديد.. وقرروا فى أنفسهم أنه لابد أن يكون هو صاحب الوجه المقنع الذى كان يطل من وراء ولا يرون إلا قناعه.

وواضعو خطط المؤامرات حين تفشل مؤامراتهم أكثر من مرة يفضلون دائماً أن يتخلوا عن التآمر ليعيشوا بقية حياتهم عيشة طاهرة؛ متعظين بما أصابهم من فشل لكن شهوة جمال عبد الناصر إلى ارتقاء متن الزعامة الشعبية ــ التى يراها وهو محق ــ أعظم من رياسة الدولة ــ حالت بينه وبين الاتعاظ، وآثر أنَ يخاطر بنفسه هذه المخاطرة.

صدر القرار بفصل الثلاثة الكبار يوم ٩ ديسمبر ١٩٥٣ وصودق عليه من الهيئة التأسيسية مستأنفاً فى اليوم التالى.. وطبعت الرسالة التى تضمنت قرار الاتهام والتقرير المفصل للجنة العضوية يوم ١٥ ديسمبر واستغرق توزيعها على شعب الإخوان بقية الشهر وتمت دراستها.. وبدأت تمثيلية عبد الناصر الجديدة فى أوائل العام الجديد ١٩٥٤.

ولا شك فى أن مسارعة قسم نشر الدعوة بالمركز العام إلى طبع هذه الرسالة وتوزيعها كان إجراءً حاسماً، فلقد كان هناك من وراء الكواليس سباق لاهث.. فقيادة الإخوان تريد أن يصل إلى مسامع الإخوان فى كل مكان تفاصيل الحقائق فى هذه المؤامرة التى يغشاها الغموض.. وجمال عبد الناصر يريد أن يباغت الإخوان بإجراء جديد من طبيعته أنه يحول بين القيادة وبين توصيل هذه الحقائق إلى الإخوان حتى تكون أذهانهم خالية فتتقبل أنباء يختلقها فى خطة إجراءه الجديد ــ وقد لايكون سراً أن أذكر فى هذا المقام أنه لما تم طبع هذه الرسالة وقدّم لى قسم نشر الدعوة نسخة منها، ذهلت وسألتهم: كيف استطعتم أن تطبعوها بهذه السرعة؟ فقالوا لى: بل إنها أرسلت أيضاً إلى المكاتب الإدارية ــ كان وصول هذه الرسالة إلى الإخوان فى جميع أنحاء مصر وخارج مصر بهذه السرعة من أعظم مكاسب الإخوان المسلمين. وقد يأتى بيان ذلك إن شاء الله.

ومع ذلك فإن جمال عبد الناصر ــ وقد كان يعلم مدى أهمية السرعة فى إنجاز إجرائه الذى قرر اتخاذه ــ لم يقصر ولم يضيع دقيقة واحدة.. ولكن إنجاز الإخوان ــ والحمد لله ــ كان أسرع.

* * *

الفصل الأول

جمال عبد الناصر يسفر عن وجهه لأول مرة فيصدر قراراً بحل الإخوان المسلمين

كان آخر ماأنهينا به الباب الماضى سؤال يقول:

ماذا كان رد فعل جمال عبد الناصر على موقف الإخوان منه موقف الناصح الأمين؟

وقد خصصنا هذا الفصل لنص رد جمال عبد الناصر الذى ظهر فى صدر الصحف يوم ١٥ يناير ١٩٥٤ تحت العنوان التالى:

بيان خطير من مجلس قيادة الثورة عن الإخوان المسلمين
لاتصالهم بالإنجليز، وإقامة منظمات سرية فى الجيش والبوليس
ومحاولة قلب نظام الحكم القائم تحت ستار من الدين
اعتقال ٤٥٠ والإفراج عن ٢٠

أصدر مجلس قيادة الثورة فى الساعة الواحدة إلا ربعاً من صباح اليوم قراراً باعتبار جماعة الإخوان المسلمين حزباً سياسياً يطبق عليها أمر المجلس الخاص بحل الأحزاب السياسية وفيما يلى نص البيان:

(ملاحظة ــ المؤسسات الاجتماعية تمارس نشاطها ــ صرح البكباشى أنور السادات بأن المؤسسات الاجتماعية لجماعة الإخوان المسلمين المنحلة كالمدارس والمستوصفات والمستشفيات وغيرها ستظل تمارس نشاطها تحت اسم جديدة يحدده وزير الداخلية ــ ولا ينطبق على هذه المؤسسات قرار المصادرة الذى يقضى به أمر حل الأحزاب ومصادرة أموالها وممتلكاتها).

إن كانت الثورة قد قامت فى ٢٣ يوليو، فقد ظل تنظيم الضباط الأحرار ينتظر من يتقدم الصفوف مخلصاً ليغير المنكر الذى كنا نعيش فيه، ويثبت بعمله جدية صدقه وإخلاصه لدينه ووطنه.. وكنا على استعداد أن نتبعه فى صف واحد كالبنيان المرصوص؛ حتى نحقق لوطننا العزيز عزتـه وكرامته وتحرراً من الاستعباد والعبودية.

ولما طال انتظارنا عقدنا العزم على القيام بالثورة، وكنا جادين ولا هدف لنا إلا حرية الأمة وكرامتها وإن الله تعالى لن يكتفى بإيمان الناس إذا لم يتبعوا هذا الإيمان بالعمل وبالعمل الصالح فيقول الله عز وجل ﴿**إلا الذين آمنوا وعمل الصالحات فلهم أجر غير ممنون**﴾.

ومن يوم قيام الثورة ونحن فى معركة لم تنته بعد، معركة ضد الاستعمار لاضد المواطنين، وهذه المعركة لاتحتمل المطامع والأهواء التى نفذ الاستعمار من خلالها ليحطم وحدة الأمة وتماسكها فلا تقوى على تحقيق أهدافها.

وقد بدأت الثورة فعلا بتوحيد الصفوف إلى أن حلت الأحزاب ولم تحل الإخوان إبقاءً عليهم وأملاً فيهم وانتظاراً لجهودهم وجهادهم فى معركة التحرير، ولأنهم لم يتلوثوا بمطامع الحكم كما تلوثت الأحزاب السياسية الأخرى، ولأن لهم رسالة دينية تعين على إصلاح الخلق وتهذيب النفوس.

ولكن نفراً من الصفوف الأولى فى هيئة الإخوان أرادوا أن يسخروا هذه الهيئة لمنافع شخصية وأطماع ذاتية مستغلين سلطان الدين على النفوس، وبراءة وحماسة الشبان المسلمين، ولم يكونوا فى هذا مخلصين لوطن أو لدين.

ولقد أثبت تسلسل الحوادث أن هذا النفر من الطامعين استغلوا هيئة الإخوان والنظم التى تقوم عليها هذه الهيئة لإحداث انقلاب فى نظام الحكم القائم تحت ستار الدين.

وقد سارت الحوادث بين الثورة وهيئة الإخوان بالستلسل الآتى:

١ — فى صباح يوم الثورة استدعى الأستاذ حسن العشماوى لسان حال المرشد العام إلى مقر القيادة العامة بكوبرى القبة، وأبلغ إليه أن يطلب من المرشد العام إصدار بيان لتأييد الثورة، ولكن المرشد بقى فى مصيفه بالإسكندرية لائذاً بالصمت فلم يحضر إلى القاهرة إلا بعد عزل الملك ثم أصدر بياناً مقتضباً طلب بعده أن يقابل أحد رجال الثورة فقابل البكباشى جمال عبد الناصر فى منزل الأستاذ صالح أبو رقيق الموظف بالجامعة العربية. وقد بدأ المرشد حديثه مطالباً بتطبيق أحكام القرآن فى الحال، فرد عليه البكباشى جمال عبد الناصر أن هذه الثورة قامت حرباً على الظلم الاجتماعى والاستبداد السياسى والاستعمار البريطانى وهى بذلك ليست إلا تطبيقاً لتعاليم القرآن الكريم.

فانتقل المرشد إلى تحديد الملكية وقال إن رأية أن يكون الحد الأقصى ٥٠٠ فدان، فرد عليه البكباشى جمال عبد الناصر إن الثورة رأت التحديد بمائتى فدان فقط وهى مصممة على ذلك.

فانتقل المرشد بالحديث قائلاً إنه لكى تؤيد هيئة الإخوان الثورة أن يعرض عليه أى تصرف للثورة قبل إقراره. فرد عليه البكباشى جمال عبد الناصر قائلاً إن هذه الثورة قامت بدون وصاية أحد عليها وهى لن تقبل بحال أن توضع تحت وصاية أحد، وإن كان هذا لايمنع القائمين على الثورة من التشاور فى السياسة العامة مع كل المخلصين من أهل الرأى دون التقيد بهيئة من الهيئات. ولم يلق هذا الحديث قبولاً من المرشد.

٢ — سارعت الثورة بعد نجاحها فى إعادة الحق إلى نصابه. وكان من أول أعمالها أن أعادت التحقيق فى مقتل الشهيد حسن البنا؛ فقبضت على المتهمين فى الوقت الذى كان المرشد لايزال فى مصيفه بالإسكندرية.

٣ — طالبت الثورة الرئيس السابق على ماهر بمجرد توليه الوزارة أن يصدر عفواً شاملاً عن المعتقلين والمسجونين السياسيين وفى مقدمتهم الإخوان. وقد نفذ هذا فعلاً بمجرد تولى الرئيس نجيب رياسة الوزارة.

٤ — حينما تقرر إسناد الوزارة إلى الرئيس نجيب تقرر أن يشترك فيها الإخوان بثلاثة أعضاء على أن يكون أحدهم الأستاذ الشيخ أحمد حسن الباقورى — وقد تم اتصال تليفونى بين اللواء عبد الحكيم عامر والمرشد ظهر يوم ٧ سبتمبر ١٩٥٢ فوافق على هذا الرأى قائلاً إنه سيبلغ القيادة بالأسمين الآخرين. ثم حضر الأستاذ حسن العشماوى إلى القيادة فى كوبرى القبة وأبلغ البكباشى جمال عبد الناصر أن المرشد يرشح للوزارة الأستاذ منير دلة الموظف بمجلس الدولة والأستاذ حسن العشماوى المحامى.

وقد عرض هذا الترشيح على مجلس الثورة فلم يوافق عليهما، وطلب البكباشى جمال عبد الناصر من الأستاذ حسن العشماوى أن يبلغ ذلك للمرشد ليرشح غيرهما — وفى الوقت نفسه اتصل البكباشى جمال بالمرشد فقال الأخير إنه سيجمع مكتب الإرشاد فى الساعة السادسة ويرد عليه بعد الاجتماع. وقد أعاد البكباشى جمال الاتصال مرة أخرى بالمرشد فرد عليه أن مكتب الإرشاد قرر عدم الاشتراك فى الوزارة، فلما قال له: لقد أخطرنا الشيخ الباقورى بموافقتك وطلبنا منه أن يتقابل مع الوزراء فى الساعة السابعة لحلف اليمين أجابه بأنه يرشح بعض أصدقاء الإخوان للاشتراك فى الوزارة ولا يوافق على ترشيح أحد من الإخوان.

وفى اليوم التالى صدر قرار من مكتب الإرشاد بفصل الشيخ الباقورى من هيئة

الإخوان فاستدعى البكباشى جمال عبد الناصر الأستاذ حسن العشماوى وعاتبه على هذا التصرف الذى يظهر الإخوان بمظهر الممتنع عن تأييد وزارة الرئيس نجيب وهدد بنشر جميع التفاصيل التى لازمت تشكيل الوزارة؛ فكان رد العشماوى أن هذا النشر يحدث فرقة فى صفوف الإخوان وليس لموقف المرشد العام ورجا عدم النشر.

٥ ـــ عندما طلب من الأحزاب أن تقدم إخطارات عن تكوينها قدم الإخوان إخطاراً باعتبارهم حزباً سياسياً. وقد نصحت الثورة رجال الإخوان بأن لايترددوا فى الحزبية، ويكفى أن يمارسوا دعوتهم الإسلامية بعيداً عن غبار المعارك السياسية والشهوات الحزبية. وقد ترددوا بادىء الأمر ثم استجابوا قبل انتهاء موعد تقديم الإخطارات وطلبوا اعتبارهم هيئة. وطلبوا من البكباشى جمال عبد الناصر أن يساعدهم فى تصحيح الإخطار، فذهب إلى وزارة الداخلية حيث تقابل مع المرشد فى مكتب الأستاذ سليمان حافظ وزير الداخلية وقتئذ وتم الاتفاق على أن تطلب وزارة الداخلية من الإخوان تفسيراً عما إذا كانت أهدافهم سيعمل على تحقيقها عن طريق أسباب الحكم كالانتخابات وأن يكون رد الإخوان بالنفى لاينطبق عليهم القانون.

٦ ـــ وفى صبيحة يوم صدور قرار الأحزاب فى يناير ١٩٥٣ حضر إلى مكتب البكباشى جمال عبد الناصر الصاغ صلاح شادى والأستاذ منير الدلة وقالا له: الآن وبعد حل الأحزاب لم يبق من مؤيد للثورة إلا هيئة الإخوان، ولهذا فإنهم يجب أن يكونوا فى وضع يمكنهم من أن يردوا على كل أسباب التساؤل. فلما سألهم ماهو هذا الوضع المطلوب أجابا بأنهم يريدون الاشتراك فى الوزارة. فقال لهما: إننا لسنا فى محنة، وإذا كنتم تعتقدون أن هذا الظرف هو ظرف المطالب وفرض الشروط فأنتم مخطئون. فقالوا له: إذا لم توافق على هذا فإننا نطالب بتكوين لجنة من هيئة الإخوان تعرض عليها القوانين قبل صدورها للموافقة عليها، وهذا هو سبيلنا لتأييدكم إن أردتم التأييد فقال لهم البكباشى جمال عبد الناصر: لقد قلت للمرشد سابقاً إننا لن نقبل الوصاية، وإننى أكررها اليوم مرة أخرى فى عزم وإصرار.

وكانت هذه الحادثة هى نقطة التحول فى موقف الإخوان من الثورة وحكومة الثورة؛ إذ دأب المرشد بعد هذا على إعطاء تصريحات صحفية مهاجماً فيها الثورة وحكومتها فى الصحافة الخارجية والداخلية، كما كانت تصدر الأوامر شفوياً إلى هيئات الإخوان بأن يظهروا دائماً فى المناسبات التى يعقدها رجال الثورة بمظهر الخصم المتحدى.

٧ ـــ لما علم المرشد بتكوين هيئة التحرير تقابل مع البكباشى جمال عبد الناصر فى مبنى القيادة بكوبرى القبة وقال له: إنه لالزوم لإنشاء هيئة التحرير مادام الإخوان قائمين. فرد عليه البكباشى جمال: إن فى البلاد من لايرغب فى الانضمام إلى الإخوان،

وإن مجال الإصلاح متسع أمام الهيئتين. فقال المرشد: لن أؤيد هذه الهيئة. وبدأ منذ ذلك اليوم فى محاربة هيئة التحرير وإصدار أوامره بإثارة الشغب واختلاق المناسبات لإيجاد جو من الخصومة بين أبناء البلد الواحد.

٨ ـــ وفى شهر مايو ١٩٥٣ ثبت لرجال الثورة أن هناك اتصالاً بين بعض الإخوان المحيطين بالمرشد وبين الإنجليز عن طريق الدكتور محمد سالم الموظف فى شركة النقل والهندسة ـــ وقد عرف البكباشى جمال من حديثه مع الأستاذ حسن العشماوى فى هذا الخصوص أنه حدث اتصال فعلاً بين الأستاذ منير الدلة والأستاذ صالح أبو رقيق ممثلين عن الإخوان وبين مستر إيفانز المستشار الشرقى للسفارة البريطانية وأن هذا الحديث سيعرض حينما يتقابل البكباشى جمال مع المرشد. وعندما التقى البكباشى جمال مع المرشد أظهر له استياءه من اتصال الإخوان مع الإنجليز والتحدث معهم فى القضية الوطنية؛ الأمر الذى يدعو إلى التضارب فى القول وإظهار البلاد بمظهر الانقسام.

ولما استجوب الدكتور محمد سالم عن موضوع اتصال الإنجليز بالمرشد ومن حوله قال: إن القضية تبتدىء وقت أن كان وفد المباحثات المصرى جالساً يتباحث رسمياً مع الوفد البريطانى.

وفى إبريل سنة ١٩٥٣ اتصل به القاضى جراهام بالسفارة البريطانية وطلب منه أن يمهد مقابلة بين مستر إيفانز المستشار الشرقى بالسفارة وبعض قادة الإخوان، وأنه أى محمد سالم أمكنه ترتيب هذه المقابلة فى منزله بالمعادى بين منير دلة وصالح أبو رقيق عن الإخوان ومستر إيفانز، وتناول الحديث موقف الإخوان من الحكومة، وتباحثوا فى تفاصيل القضية المصرية ورأى الإخوان وموقفهم من هذه القضية ـــ ثم قال الدكتور سالم إنه جاء فى رأى قادة الإخوان أن عودة الإنجليز إلى القاعدة تكون بناء على رأى لجنة مشكلة من المصريين والإنجليز وأن الذى يقرر خطر الحرب هى هيئة الأمم المتحدة.

ولعل هذا هو السبب فى تمسك الإنجليز بهذا الرأى الذى لم يوافق عليه الجانب المصرى للمفاوضات حتى اليوم. ثم قال الدكتور سالم فى اجتماع آخر مماثل فى منزله أيضاً حيث طلب مستر إيفانز مقابلة المرشد فوعد منير دلة بترتيب هذا الاجتماع. وفعلاً تم فى منزل المرشد. ودار فى هذا الاجتماع الحديث عن القضية المصرية وموقف الإخوان منها. وذكر الدكتور محمد سالم أن مستر إيفانز دعا منير دلة وصالح أبو رقيق لتناول الشاى فى منزله وقد أجابا دعوته مرتين.

٩ ـــ وفى أوائل شهر يونيه ١٩٥٣ ثبت لإدارة المخابرات أن خطة الإخوان قد تحولت لبث نشاطها داخل قوات الجيش والبوليس. وكانت خطتهم فى الجيش تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: يهدف إلى عمل تنظيم سرى تابع الإخوان بين صفوف الجيش. ودعوا فيما دعوا عدداً من الضباط وهم لايعلمون أنهم من الضباط الاحرار فسايرهم وساروا فى خططهم، وكانوا يجتمعون بهم اجتماعات أسبوعية، وكانوا يتحدثون فى هذه الاجتماعات عن الإعداد لحكم الإخوان المسلمين والدعوة إلى ضم أكبر عدد من الضباط ليعملوا تحت إمرة الإخوان. وكانوا يأخذون عليهم عهداً وميثاقاً وقسماً أن يطيعوا مايصدر إليهم من أوامر المرشد.

أما القسم الثانى: فكان ينحصر نشاطه فى عمل تشكيلات من ضباط البوليس. وكان الغرض منها هو إخضاع نسبة كبيرة من ضباط البوليس لأوامر المرشد أيضاً. وكانوا يجتمعون فى اجتماعات دورية أسبوعية، وينحصر حديثهم فيها فى بث الحقد والكراهية بين ضباط البوليس بأنهم أحق من رجال الجيش بالحكم نظراً لاتصالهم بالشعب. وكانوا يمنونهم بالترقيات والمناصب بعد أن يتم لهم هدفهم. وكان يتزعمهم الصاغ صلاح شادى الذى طالما ردد فى اجتماعاتهم أنه وزير الداخلية المقبل.

وقسم ثالث: أطلق عليه قسم الوحدات. وكان الغرض منه هو جمع أكبر عد ممكن من ضباط الصف فى الجيش تحت إمرة المرشد أيضاً. وكانوا يجتمعون بهم فى اجتماعات سرية أسبوعية. وكان الحديث يشتمل على بث الكراهية للضباط فى نفوس ضباط الصف وإشعارهم بأنهم هم القوة الحقيقة فى وحدات الجيش، وأنهم إذا مانجح الإخوان فى الوصول إلى الحكم فسيعاملون معاملة كريمة — كما كان هذا القسم يقوم ببث الدعوة لجمع أكبر عدد من صف ضباط وجنود ليكون تحت إمرة المرشد.

ولما تجمعت هذه المعلومات لإدارة المخابرات اتصل البكباشى جمال بالأستاذ حسن العشماوى باعتباره ممثلاً للمرشد وصارحه بموقف الإخوان العام ثم بموقف الإخوان فى داخل الجيش ومايدبرونه فى الخفاء بين قوات الجيش والبوليس وقال له: لقد أمنا لكم ولكن هذه الحوادث تظهر أنكم تدبرون أمراً سيجنى على مصير البلاد، ولن يستفيد منه إلا المستعمر، وإننى أنذر أننا لن نقف مكتوفى الأيدى أمام هذه التصرفات التى يجب أن توقف إيقافاً كاملاً، ويجب أن يعلم الإخوان أن الثورة إنما أبقت عليهم بعد أن حلت جميع الأحزاب لاعتقادها أن فى بقائهم مصلحة وطنية، فإذا ماظهر أن فى بقائهم مايعرض البلاد للخطر فإننا لن نتردد فى اتخاذ ماتمليه مصلحة البلاد مهما كانت النتائج. فوعد أن يتصل بالمرشد فى هذا الأمر ولم يعد حتى الآن.

وفى اليوم التالى استدعى البكباشى جمال عبد الناصر الأستاذ خميس حميده نائب المرشد والأستاذ الشيخ سيد سابق وأبلغهما ماقاله لحسن العشماوى فى اليوم السابق فأظهرا الاستياء الشديد وقالا إنهما لايعلمان شيئاً عن هذا وأنهما سيبحثان الأمر ويعملان

على إيقاف هذا النشاط الضار.

ورغم هذا التحذير وهذا الإنذار استمر العمل حثيثاً فى صفوف الجيش والبوليس، وأصبح الكلام فى الاجتماعات الدورية يأخذ طابع الصراحة وطابع الحقد؛ فكانوا يقلبون الخطط فى هذه الاجتماعات بحثاً عن أسلم الطرق لقلب نظام الحكم. وكان الأحرار المنبثون فى هذه التشكيلات يبلغون أولاً بأول عما يدور فى كل اجتماع.

١٠ ــ بعد أن تعين الأستاذ الهضيبى مرشداً للإخوان لم يأمن إلى أفراد الجهاز السرى الذى كان موجوداً فى وقت الشهيد حسن البنا برياسة السيد/ عبد الرحمن السندى. فعمل على إبعاده معلناً بأنه لايوافق على التنظيمات السرية لأنه لاسرية فى الدين. ولكنه فى الوقت نفسه بدأ فى تكوين تنظيمات سرية جديدة تدين له بالولاء والطاعة. بل عمد إلى التفرقة بين أفراد النظام السرى القديم ليأخذ منه إلى صفه أكبر عدد ليضمهم إلى جهازه السرى الجديد ــ وفى هذه الظروف المريبة قتل المرحوم المهندس السيد فايز عبد المطلب بواسطة صندوق من الديناميت وصل إلى منزله على أنه هدية من الحلوى لمناسبة عيد المولد النبوى، وقد قتل معه بسبب الحادث شقيقه الصغير البالغ من العمر تسع سنوات وطفلة صغيرة كانت تسير تحت الشرفة التى انهارت نتيجة الانفجار.

وكانت المعلومات ترد إلى المخابرات أن المقربين من المرشد يسيرون سيراً سريعاً فى سبيل تكوين جهاز سرى قوى، ويسعون فى نفس الوقت إلى التخلص من المناوئين لهم من أفراد الجهاز السرى القديم.

١١ ــ وكانت نتيجة ذلك أن حدث الانقسام الأخير بين الإخوان، واحتل فريق منهم دار المركز العام. وقد حضر إلى منزل البكباشى جمال عبد الناصر بعد منتصف ليل ذلك اليوم الشيخ محمد فرغلى والأستاذ السعيد رمضان مطالبين بالتدخل ضد الفريق الآخر ومنع نشر الحادث. فقال لهم البكباشى جمال: إنه لن يستطيع منع النشر حتى لايؤول الحادث تأويلاً ضاراً بمصلحة البلاد ــ أما من جهة التدخل فهو لايستطيع التدخل بالقوة حتى لاتتضاعف النتائج، وحتى لايشعر الإخوان أن الثورة تنصر فريقاً على فريق، وأنه يرى أن يتصالح الفريقان وأن يعملا على تصفية مابينهما ــ فطلب منه الشيخ فرغلى أن يكون واسطة بين الفريقين وأن يجمعه مع الأستاذ صالح عشماوى ــ فطلب منه البكباشى جمال أن يعود فى اليوم التالى فى الساعة العاشرة صباحاً وأنه سيعمل على أن يكون الأستاذ صالح موجوداً ــ وفى الموعد المحدد حضر الشيخ فرغلى ولم يمكن الاتصال بالأستاذ صالح عشماوى، وكان الشيخ فرغلى متلهفاً على وجود الأستاذ صالح عشماوى مما دعا البكباشى جمال أن يطلب من البوليس الحربى البحث عن الأستاذ صالح وإحضاره إلى المنزل. وتمكن البوليس الحربى فى الساعة الثانية عشرة من العثور على الأستاذ صالح فحضر

هو والشيخ سيد سابق إلى منزل البكباشى جمال وبدأ الطرفان يتعاتبان.. وأخيراً اتفقا على أن تشكل لجنة يوافق على أعضائها الأستاذ صالح للبحث فيما نسب إلى لإخوان الأربعة المفصولين على أن لايعتبروا مفصولين وإنما يعتبرون تحت التحقيق، والعمل على أن يسود السلام المؤتمر الذى كان مزمعاً عقده فى دار المركز العام فى عصر ذلك اليوم. ولكن لم ينفذ هذا الاتفاق.

١٢ـ وفى يوم الأحد ١٠ يناير ١٩٥٤ ذهب الأستاذ حسن العشماوى العضو العامل بجماعة الإخوان وأخو حرم منير الدلة إلى منزل مستر كروزويل الوزير المفوض بالسفارة البريطانية ببولاق الدكرور الساعة السابعة صباحاً ثم عاد لزيارته أيضاً فى نفس اليوم فى مقابلة دامت من الساعة الرابعة بعد الظهر إلى الساعة الحادية عشرة من مساء نفس اليوم. وهذه الحلقة من الاتصالات بالإنجليز تكمل الحلقة الأولى التى روى تفاصيلها الدكتور محمد سالم.

١٣ـ وكان آخر مظهر من مظاهر النشاط المعادى الذى قامت به جماعة الإخوان هو الاتفاق على إقامة احتفال بذكرى المنيسى وشاهين يوم ١٢ الجارى فى جامعتى القاهرة والإسكندرية فى وقت واحد، وأن يعملوا جهدهم لكى يظهروا بكل قوتهم فى هذا اليوم، وأن يستغلوا هذه المناسبة استغلالاً سياسياً فى صالحهم، ويثبتوا للمسئولين أنهم قوة وأن زمام الجامعة فى أيديهم وحدهم ـ وفعلاً تم اجتماع لهذا الغرض برياسة عبد الحكيم عابدين حضره الأستاذ حسن دوح المحامى ومحمود أبو شلوع ومصطفى البساطى من الطلبة، واتفقوا على أن يطلبوا من الطلبة الإخوان الاستعداد لمواجهة أى احتمال يطرأ على الموقف خلال المؤتمر حتى يظهروا بمظهر القوة، وحتى لايظهر فى الجامعة أى صوت آخر غير صوتهم. وفى سبيل تحقيق هذا الغرض اتصلوا بالطلبة الشيوعيين رغم قلتهم وتباين وجهات النظر وعقدوا معهم اتفاقاً ودياً يعمل به خلال المؤتمر.

وفى صباح ١٢ الجارى عقد المؤتمر وتكتل الإخوان فى حرم الجامعة وسيطروا على الميكرفون، ووصل إلى الجامعة أفراد منظمات الشباب من طلبة المدارس الثانوية ومعهم ميكروفون مثبت فى عربة للاحتفال بذكرى الشهداء. فتحرش بعض الطلبة الإخوان وطلبوا إخراج ميكروفون منظمات الشباب. وانتظم الحفل وألقيت كلمات من مدير الجامعة والطلبة. وفجأة إذا ببعض الطلبة من الإخوان يحضرون إلى الاجتماع ومعهم نواب صفوى زعيم فدائيان إسلام فى إيران حاملينه على الأكتاف، وصعد إلى المنصة وألقى كلمة، وإذا بطلبة الإخوان يقابلونه بهتافهم التقليدى «الله وأكبر ولله الحمد» وهنا هتف طلبة منظمة الشباب «الله أكبر والعزة لمصر» فساء طلبة الإخوان أن يظهر صوت فى الجامعة مع صوتهم فهاجموا الهاتفين بالكرابيج والعصى وقلبوا عربة الميكروفون وأحرقوها وأصيب البعض إصابات مختلفة ثم تفرق الجميع إلى منازلهم.

حدث كل هذا فى الظلام. وظن المرشد وأعوانه أن المسئولين غافلون عن أمرهم — لذلك فنحن نعلن باسم هذه الثورة التى تحمل أمانة أهداف هذا الشعب أن مرشد الإخوان ومن حوله قد وجهوا نشاط هذه الهيئة توجيهاً يضر بكيان الوطن ويعتدى على حرمة الدين.

ولن تسمح الثورة أن تتكرر فى مصر مأساة رجعية باسم الدين. ولن تسمح لأحد أن يتلاعب بمصائر هذا البلد بشهوات خاصة مهما كانت دعواها، ولا أن يستغل الدين فى خدمة الأغراض والشهوات وستكون إجراءات الثورة حاسمة وفى ضوء النهار وأمام المصريين جميعاً والله ولى التوفيق.

* * *

الفصل الثانى

الاعتقال الأول

سأرجىء التعليق على بيان مجلس الثورة الذى أوردته فى الفصل السابق لأتحدث عن عملية الاعتقال التى لابست هذا البيان فحدثت قبيله بأيام أو معه أو بعده بأيام.

أما من ناحيتى فقد حضر إلىّ فى نحو الساعة العاشرة صباحاً يوم ١٥ يناير ١٩٥٤ فى مقر عملى بمجلح القناطر الخيرية ضابط بالملابس المدنية، وأخبرنى أنه مكلف باعتقالى وأنه تابع لمحافظة القليوبية التى تتبعها القناطر الخيرية. فسألته عما إذا كان من حقى أن أذهب إلى منزلى ـــ وكان منزلى مجاوراً للمحلج ـــ فأبدى الرجل استعداداً كريماً، وصعد معى إلى حيث أسكن، وأحضرت حقيبتى وبها بعض الملابس وأخذت معى كتاباً كنت أحبه هو شرح الحكم ابن عطاء الله السكندرى، ونزلت معه فركبنا سيارة المحافظة إلى القاهرة حيث سلمنى إلى مقر قيادة البوليس الحربى الذى قام بنقلى إلى السجن الحربى.

وكنا هذه المرة فى مبنى صغير من مبانى السجن الحربى حيث وجدت مجموعة قليلة العدد من الإخوان. وكانت الأوامر تقضى بحبسنا حبساً انفرادياً. وكان جارى فى الزنزانة التى تلى زنزانتى الأخ الشيخ محمد فرغلى، وكان من أحب الإخوان إلى نفسى، لأنه كان من أحب الإخوان إلى الأستاذ الإمام، وأعتقد أنه كان من أقرب الإخوان إلى نفوس جميع الإخوان.. لأنه كان مع تفانيه فى دعوته لايتكلف ولا يتصنع ولا يتشدق.. وأذكر بهذه المناسبة أنه ـــ وهو واعظ صناعته الكلام ـــ كان إذا دعاه الأستاذ الإمام فى اجتماع من الاجتماعات إلى الكلام للتعليق على رأى أبداه الأستاذ فى اجتماع للهيئة التأسيسية؛ فإنه كان يقف ولا يتكلم كأنما ارتج عليه؛ حياءً من أن يعقب على كلام أستاذه.. فيبتسم الأستاذ ابتسامة الإعجاب بحياء العلماء وأدب الفضلاء.

وكنا محبوسين حبساً انفرادياً، ولكن كل زنزانة كانت مزودة بسرير عليه مرتبة نظيفة ومخدة وبطانية وبمنضدة وبكرسى. وكان الطعام الذى يقدم إلينا طعاماً نظيفاً ومتقن الطهى، وفى أوان من الصينى، ومع الطعام ملعقة، وشوكة أيضاً فى بعض الأحيان.. ولكن الحبس الانفرادى على كل حال ثقيل على النفس ومحطم للأعصاب.. وكانت

الزنازين تفتح لنا أبوابها مرة أو مرتين فى اليوم حيث نجدد وضوءنا.. وكانت هذه هى فرصة تلاقينا معاً. ومع أن تبادل الحديث فيما بيننا كان ممنوعاً إلا أننا كنا نتمكن من ذلك.

وفى أول مرة فتحت الزنازين التقيت بالأخ الشيخ فرغلى فشكا إلىّ ضيقه بهذا الحبس الانفرادى دون أن يكون معه شيء يتسلى فيه ـ ويبدو أن الضابط الذى اعتقله لم يسمح له باصطحاب شيء معه ـ وسألنى: هل أحضرت معك كتباً؟ فقلت له: أحضرت معى كتاب شرح حكم ابن عطاء الله السكندرى ومعى المصحف فقال: إنك طبعاً لاتستغنى عن المصحف فأعطنى كتاب ابن عطاء فأعطيته إياه.

وفى يوم آخر تقابلنا كالمعتاد فى دورة المياة فأخبرنا الأخ الأستاذ حسن العشماوى أنه نودى عليه فى الصباح. فإذا به يجد فى مكتب السجن الحربى فى انتظاره وكيل نيابة كان زميلاً له، وتبين له أنه جاء لإجراء تحقيق معه، فرحب حسن، وفتح محضر التحقيق.. ويقول حسن: كانت أكبر مفاجأة لى أن يقول لى وكيل النيابة رسمياً:

التهمة الموجهة إليك أنك تحرز أسلحة وذخيرة قدرها كذا ـ وحددها ـ فى مخبأ فى عزبتكم بجهة كذا فى المكان الفلانى ـ بالتحديد ـ على عمق كذا ـ ووصف المكان وصفاً دقيقاً..

وبعد أن أتم وكيل النيابة توجيه التهمة قال موجها الكلام للأخ حسن: فما أقوالك؟ قال حسن: أنا ممتنع عن الإدلاء بأية أقوال وعن الإجابة على أى سؤال حتى يحضر هنا فى التحقيق جمال عبد الناصر لأنه هو الذى يعرف كل شيء عن هذه الأسلحة ويعلم قصة وجودها فى هذا المكان لأنها أسلحته.

يقول صاحب هذه المذكرات إنه قد تبين لنا فيما بعد أن الصحف فى يوم ١٨ يناير ١٩٥٤ نشرت صفحاتها الأولى بخط كبير:

ضبط ١٠٠ كيلو جلجانيت، ١٥ ألف طلقة

مستودع ملىء بالأسلحة والمواد الناسفة ـ العثور عليه فى أملاك حسن العشماوى بالشرقية

فتشت عزبة حسن العشماوى تبع ناحية العطيف مركز ههيا شرقية فاتضح أن بها جراجاً أرضيته من التراب، وتحت التراب ضفيرة طوب تحتها اسمنت مسلح، وبها فتحة توصل إلى باب سرداب كانت مغطاة بالمشمع. ووجد بداخلها أسلحة وذخائر قدروها

بنحو ٢٠ ألف جنيه».

دلالة بعيدة المدى لهذه الواقعة:

أنا لم أكن ممن يحسنون الظن بجمال عبد الناصر، وكنت أعلم أنه يحاول احتواء الدعوة، وأنه فى سبيل ذلك يحيك المؤامرات ضدها وضد قيادتها — ولكن الذى لم يكن يخطر لى ببال أو حتى يلوح لى فى الخيال أن يبلغ فى استباحته الكذب حداً تترفع الدناءة عن أن تكون وصفاً له.

لقد قص علينا حسن العشماوى ونحن فى دورة المياة قصة هذه الأسلحة وكيف أنها هى أسلحة يملكها جمال عبد الناصر. ولما وقع حريق القاهرة خشى أن تصل إليها أيدى السلطات إذا فتشت مدرسة الأسلحة الخفيفة المخبأة بها؛ وطلب من حسن العشماوى إخفاءها عنده فى عزبتهم وقام جمال عبد الناصر بنفسه برسم كيفية تشييد المخزن تحت الأرض بعمق ثلاثة أمتار، وأشرف بنفسه على تشييد المخزن ووضع الأسلحة فيه — مما سبق تفصيله فيما نقلناه من كتاب «الصامتون يتكلمون» على لسان الأخ الأستاذ صلاح شادى.

إن هذه القصة دلتنى — لأول مرة — على أن هناك رذائل تخرج عن حدود ماعهد الناس من رذائل؛ فهى رذيلة تطوى بين جوانحها كل الرذائل. كما دلتنى على أن هذا الرجل جمال عبد الناصر لايقيم وزناً لخلق ولا لدين ولا لشرف ولا لعرف ولا لأية قيمة من القيم؛ ولا يبعد عليه ولا يستغرب منه أن يقتل أباه إذا وجد فى ذلك مايحقق مطامعه.. وقد ذكرتنى هذه القصة بالمثل العربى الذى يقول: رمتنى بدائها وانسلت.

ولقد كنت حين أقرأ حديث رسول الله ﷺ «إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة. وإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار» فأقف عند لفظ الفجور ولا أتصور العلاقة بين الفجور وبين الكذب، حتى حدثنا حسن العشماوى بقصة الأسلحة هذه فلمست فى الحال هذه العلاقة لأننى وجدتنى أنطق تلقائياً حين سمعت القصة قائلاً: أما إنه حقاً فاجر.. وبدأت منذ ذلك اليوم أعلم أن الفجور هو الدرك الأسفل من الكذب.

كما أن هذه القصة قد وضحت لى غموضاً فى قصة أخرى كنت قرأتها منذ زمن بعيد فى كتاب من أمهات كتب الأدب لاأذكر اسمه الآن، ولكن القصة تحكى عن الحجاج بن يوسف الثقفى أنه خرج مرة إلى البادية مستخفياً فقابل أعرابياً فسأله عما يعرفه عن الحجاج بن يوسف فارتاب الرجل وأمسك عن الكلام فكشف الحجاج له عن شخصيته وقال له: نشدتك الله إلا صدقتنى بما تعرفه عنى وقد أمنتك.

فقال الأعرابى: أمّا وقد أمنتنى فوالله إنك لظلوم سفاك قتال كذاب.
فقال الحجاج: أما إنى حقاً ظلوم سفاك قتال ولكننى لست بكذاب وما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين أهله.
ولقد كنت أعجب كيف أن الحجاج رضى لنفسه ولم يأنف أن يوصف بالظلم والسفك والقتل ولكنه ربأ بنفسه أن يوصف بالكذب.

نعم إن التحقيق قد حفظ بأمر جمال عبد الناصر. وهذا الحفظ فى ذاته إحدى الفضائح التى لو وقع مثله فى بلاد كانجلترا أو فرنسا أو أمريكا لما اكتفوا بإسقاط هذا الرئيس بل لحاكموه وأودعوه السجن؛ لأنه غرر بالشعب وكذب عليه، واستهزأ بعقوله.

فكيف يلصق تهمة خطيرة بإنسان وتمتلىء الصحف بصور المخبأ الدفين وصور الأسلحة التى وجدت فيه، وعدد قطع كل نوع منها.. ثم يحفظ التحقيق بعد ذلك دون أى مبرر.

إن حفظ التحقيق فى هذا الأمر الخطير معناه أن الادعاء باطل، وأن رد المتهم على النيابة بأن هذه الأسلحة والذخائر هى ملك جمال عبد الناصر وهو الذى أخفاها عنده هو الصحيح.. وفى هذه الحالة كان على النيابة أن تحقق مع جمال عبد الناصر الذى هو ليس فوق القانون.. فإذا ثبتت صحة أقوال المتهم وجبت تبرئته ووضع جمال عبد الناصر فى قفص الاتهام بأكثر من تهمة أخفها إحراز الأسلحة؛ لأن إحراز الأسلحة بغير تصريح وإن حرمه القانون إلا أنه فى ذاته لايلحق عاراً بصاحبه، ولكن التهمة التى تلحق بصاحبها العار هى تهمة الكذب والافتراء واستغلال النفوذ لاتهام الناس بالباطل.. لاسيما إذا كان الذى ألقى عليه الاتهام هو صاحب الفضل على الذى اتهمه، وهو الذى آواه يوم كان مطارداً، وجاءه مستغيثاً، فأخفاه عن أعين السلطة وستر عورته.. وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به برئياً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبينا﴾ وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «ثلاثة لايقبل الله لهم توبة: شيخ زان، وفقير متكبر، وملك كذاب». المهم.. أننى خرجت من هذه القصة التى وقعت أحداثها أمامى؛ بأن جمال عبد الناصر شخص خطر لاأمان له؛ لأنه لامبدأ له ولا خلق ولا دين؛ وأنه يستبيح كل شىء فى سبيل تحقيق أغراضه الشخصية. وأن التعامل معه يجب أن يكون بحذر، وبأسلوب ماكر، فلا يفل الحديد إلا الحديد. كما أننى أقدمها للقراء مقياساً يقيسون به مدى صدق التهم التى كالها للإخوان كيلاً فى قراره بحل الإخوان.

معتقل العامرية:

بعد أسبوع من إقامتى بالسجن الحربى افتتحت الحكومة معتقلاً فى العامرية. وهو

معتقل فى وسط الصحراء كان فى الأصل معسكراً أقامه الإنجليز فى أثناء الحرب العالمية الثانية، ثم تركوه فامتدت إليه يد التخريب ولم يبق منه إلا مايشبه الهياكل من نحو أربعة جمالونات لاتكاد تمنع المطر عن ساكنيها.. وملحق به دورة مياه وحوله سور من الأسلاك الشائكة.

ويكاد يكون هذا المعتقل فى مستوى السجن الحربى الذى كنا فيه من حيث النوم على سراير ومن حيث الطعام، ولكنه يختلف عنه فى أنه أولا تحت إدارة البوليس أو بالأدق تحت إدارة المباحث العامة حيث كان الضابط ممدوح سالم أحد ضباط المباحث المشرفين عليه ـــ وفى أنه لم يكن الحبس فيه انفرادياً لأن العنبر كان يتسع لنحو مائة.

وكانت أيامنا فى هذا المعتقل أياماً مباركة. لأن هذا الجو الصحراوى مع وجود عدد من أكرم الإخوان يناهز الخمسمائة أتاح لهم الفرص للعبادة ومناجاة الله ودراسة القرآن. كما أتاح لهم تبادل الآراء وتبادل المعلومات؛ بل أفادهم صحياً فهو جو نقى تمام النقاء، وكان الأخ سعد العراقى ـــ وكان إذ ذاك طالباً فى إحدى كليات الأزهر ـــ يقوم بتمرينات رياضية مع بعض الإخوان كما كان الإخوان يقومون بتنظيم محاضرات تتناول مختلف المواضيع التى تتصل بالدعوة.

ومع أن الخروج فى وقت الفجر من عنابر النوم إلى دورة المياه التى تبعد عن العنابر بأكثر من مائة متر فى العراء كان كافياً لإصابة أفراد المعتقل جميعاً بأمراض خطيرة من أمراض البرد، إلا أن أحداً منا لم يصب بشىء من ذلك طيلة فترة إقامتنا به.

وكانت صلاة الفجر تقام جماعة وبعد أداء الصلاة كان الإخوان يستمتعون بالاستماع إلى تلاوة مشجية من القرآن الكريم من الأخ صلاح أبو إسماعيل ـــ الطالب إذ ذاك ـــ ذى الصوت الرخيم فتكون هذه الجرعة القرآنية فاتحة العمل فى اليوم الجديد.

الجو السياسى للبلاد فى أثناء هذه الفترة:

لم يكن بد من إدخالنا المعتقلات بعد أن وجد جمال عبد الناصر أن مؤامرته التى حاكها ضد قيادة الدعوة قد فشلت فشلاً تاماً.. ولكن يبدو أن هذه الخطوة جاءت متأخرة عن موعدها المناسب بعض الوقت، فقد دخل الإخوان المعتقلات بعد أن فهموا تفسير كل ماحدث فهماً دقيقاً وحددت المواقف أمامهم تحديداً واضحاً؛ كما أن الوعى السياسى فى البلاد قد نضج نضجاً كاملاً، ولم يعد إعتقال الإخوان يعوق سريان أفكارهم فى شرق البلاد وغربها وسيطرتها على أحاسيس الناس ومشاعرهم؛ بحيث أصبحت جميع فئات الشعب تهتف من صميم قلوبها للحرية، وتطالب القائمين على الحكم بإفساح الطريق لحكم نيابى حر يشعر الشعب بأنه يحكم نفسه بنفسه، ويمنح كل مواطن حق

التعبير عن رأيه والمطالبة بحقوقه..

وكان المثقفون من رجال الجامعة ورجال القضاء والقانون ــ وهم المعبرون عادة عن أمانى الشعب بمختلف طبقاته وقطاعاته ــ يدبجون المقالات فى المطالبة بحكم نيابى حر، ويطالبون رجال الثورة أن يتخلوا عن مكانهم فى حكم الشعب مشكورين بعد أن أدوا مهمتهم وقاموا بدورهم.. وكانت جريدة «المصرى» ــ باعتبارها جريدة رأى وفكرة ــ المجال الطبيعى لنشر هذه المقالات، وإعلان هذه المطالبات؛ وكانت كما قدمت قد صارت فى ذلك الوقت أوسع الصحف انتشاراً لتجاوبها مع رغبات الشعب.

وجاء اعتقال الإخوان وحلهم فى هذه الأثناء ــ وهم قادة الشعب فى هذه المطالب ــ فكان وقوداً زادت به هذه المشاعر الشعبية اشتعالاً؛ فكانت تصل إلينا ونحن بالمعتقل ماتفيض به أنهار الصحف ــ لاسيما جريدة المصرى ــ من مقالات تعبر عن هذه المطالب ــ كما وصلت إلينا أنباء خلاف دب بين جمال عبد الناصر ومحمد نجيب لأن محمد نجيب أيد مطالب الشعب حتى إن جمال عبد الناصر اتهمه بأنه متواطىء ضده مع الإخوان.

وفى هذه الأثناء كان الأستاذ عبد القادر عوده لايزال على وفاق مع جمال عبد الناصر ولذا فإنه لم يعتقل بل إن جمال عبد الناصر أعطاه حق دخول المعتقل وزيارة المعتقلين والتحدث إليهم. وقد حضر عندنا أكثر من مرة ــ لاسيما فى الفترة الأولى من أيام الاعتقال ــ وتحدث مع بعض الإخوان ــ ولم أكن منهم لأنه كان يائساً من إقناعى بآرائه.. ولكن الأحداث التى وقعت بعد ذلك أخذت شيئاً فشيئاً تهز ثقته بجمال حتى أقنعته أخيراً بأنه كان مسرفاً فى حسن الظن وبأنه كان على خطأ فى آرائه وتصوراته.

فهو ماكان يتصور أن جمال عبد الناصر يعادى الحرية والحكم النيابى ويعتبر المنادين بذلك أعداءه؛ حتى ولو كان المنادى بها محمد نجيب نفسه؛ فينسى كل مواقف نجيب ويعلن عزله من مناصبه لمجرد أنه أيد الشعب فى هذا المطلب.

ثم إن مارآه أو ماقرأه من اتهامات وجهت إلى الإخوان من جمال عبد الناصر فى قرار الحل وبعد هذا القرار؛ كل ذلك ماهو إلا اختلاق لاأصل له، وفهم أن جمال عبد الناصر ــ اعتماداً على أنه هو وحده دون زملائه يعلم الحقائق ــ استباح أن يزور عليهم هذه الحقائق ويصدر هذا التزوير فى بيان رسمى باسمهم.. ثم موضوع الأسلحة التى رمى بها حسن العشماوى ثم يتبين أنه هو صاحبها.. كل ذلك حمل الأستاذ عبد القادر عوده على تغيير آرائه والاستقامة مع إخوانه على رأى سواء.

مناورة مكشوفة:

فى أثناء وجودنا فى الاعتقال، وفى الوقت الذى أطلق جمال ألسنة رجاله من الضباط

فى سب الإخوان؛ فيخطب حسين الشافعى فى ٦/٢/١٩٥٤ فى المحلة الكبرى وأسيوط فينسب إلى الإخوان كل نقيصة؛ يخطب الصاغ وحيد رمضان فى هيئة التحرير بالإسكندرية فيقول:

إن الهضيبى ورجاله لم يكونوا من الإخوان فى يوم من الأيام، بل كانوا يعيشون حياتهم الماسونية فى أحضان الإنجليز. ويطلب الرجوع إلى تعاليم حسن البنا.

فى نفس الوقت وفى ١٣/١٢/١٩٥٤ تنشر الصحف صورة كبيرة تضم جمال عبد الناصر وصلاح سالم والباقورى وعبد الرحمن البنا وصالح عشماوى تحت عنوان «رجال الثورة يشاركون فى الاحتفال بالذكرى الخامسة للشهيد حسن البنا».

ولا داعى للتعليق على هذه المناورة المكشوفة لانها لاتحتاج إلى تعليق.

* * *

الفصل الثالث

قمة التهاب المشاعر الشعبية
إذعان جمال عبد الناصر

كانت قمة التهاب المشاعر التى أشرنا إليها آنفاً هى مواجهة جمال عبد الناصر بما لم يكن فى حسبانه من وقوف رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الثورة اللواء محمد نجيب بجانب الشعب فى مطالبته بإفساح المجال لمجلس نيابى تحكم البلاد عن طريقه.

ولما كان هذا المطلب هو الوتر الحساس الذى إذا ضرب عليه ضارب ثارت أعصاب جمال عبد الناصر حتى يكاد يفقد توازنه ويختل كيانه، فقد واجه هذا الموقف بأسلوب هو أقرب إلى الطيش منه إلى الصواب والحكمة؛ فقد استصدر قراراً من مجلس الثورة بتجريد محمد نجيب من جميع مناصبه.. وليس يعنينا هنا فى هذه المذكرات تفاصيل هذا القرار ولا ماانتحل من أسباب بعيدة عن الواقع بنى عليها اتخاذ هذا القرار.. ولكن الذى يعنينا أن هذا القرار قد اتخذ وأن جمال عبد الناصر اعتقد أنه هو الحل للازمة التى يواجهها.

ولا نشك فى أن الذى شجع جمال عبد الناصر على اتخاذ هذا القرار هو اعتقاده بأنه بهزه كيان الإخوان بالمؤامرات التى حاكها وبثها فى داخل هذا الكيان، ثم بإصداره بيان الحل ووصمهم فيه بالخيانة، وباعتقال مرشدهم وقادتهم ونحو ألف من أبرز أعضائهم. اعتقد أنه بذلك قد تم له القضاء على الإخوان المسلمين ولم يعد بذلك فى البلاد عرق ينبض؛ فليتخذ إذن مايشاء من قرارات وليرفع من يشاء وليخفض من يشاء وليفعل مايشاء، فلن يجد من يرفع بذلك رأساً.

مظاهرة أول مارس ١٩٥٤:

ولكن الذى حدث كان غير الذى دار بخلد جمال عبد الناصر.. فقد أقال محمد نجيب من مناصبه فى ٢٥ فبراير.. وإذا به فى أول مارس يواجه مظاهرة ضخمة ففى ذلك اليوم توجه جم غفير من طلبة الجامعة ــ وأنا أكتب هذا ناقلاً من الصحف فقد كنت لاأزال فى

المعتقل — إلى ميدان الجمهورية معهم ألوف من الأهالى، يهتفون مطالبين برجوع محمد نجيب. ولم يبرحوا مكانهم إلا بعد أن أطل عليهم محمد نجيب من شرفة قصر عابدين وبجانبه جمال عبد الناصر يضحك. وخطب فيهم محمد نجيب خطبة طمأنهم فيها على الحكم النيابى.

ولابد هنا من الاعتراف بأن هذه المظاهرة التى كانت من أكبر المظاهرات التى شهدتها العاصمة المصرية فى تاريخها، فقد كان ميدان الجمهورية وهو أوسع ميادين القاهرة بحراً متلاطماً بأمواج البشر — كانت هذه المظاهرة بقيادة الإخوان المسلمين. وقد أشارت الصحف إلى بعض شخصيات إخوانية كانت بارزة فيها؛ ومن هذه الشخصيات إبراهيم كروم وكان من أشهر «فتوات» — القاهرة، وقد هداه الله وصار من أتقى الإخوان، وكان ممتطياً جواداً يتقدم المتظاهرين ويطلق أعيرة نارية فى الهواء. وعز الدين مالك كان يتزعم المتظاهرين راكباً سيارة جيب مركباً عليها ميكروفون يردد الهتافات ويوزع المنشورات.

ومما يجدر ذكره، وينبغى الالتفات إليه أن هذه المظاهرة الضخمة التى قامت بهذه القوة الجارفة؛ كانت قادرة على تغيير كل شىء تريد تغييره.. وكان ذلك كله فى غيبة قيادات الإخوان وراء أسوار المعتقلات — ولابد أن جمال عبد الناصر تصور وهو ينظر إليهم من الشرفة بجانب نجيب أنهم قادرون — لو شاءوا — على النفوذ إليه وإلقاء القبض عليه؛ ولا تستطيع قوة أن توقف زحفهم.. ولذا فإنه أوعز إلى نجيب بعد أن أنهى كلمته أن يطلب إليهم الانصراف.. غير أنهم لم ينصرفوا.. فحاول نجيب ذلك مرات دون جدوى. فأسعفته سرعة بديهته — وقد رأى وسط المتظاهرين الأستاذ عبد القادر عوده — فدعاه للوقوف معهما فى الشرفة وطلب إليه أن يأمر المتظاهرين بالانصراف فما كاد يأمرهم حتى انصرفوا فى التو واللحظة.

ومع أن تصرف عبد القادر عوده جاء إنقاذاً لجمال عبد الناصر — وهو يعلم ذلك بيقين — إلا أن جمال عبد الناصر نظر إلى الموضوع من ناحية أخرى فتصور أن الذى استطاع فض هذه الجموع فى لحظة هو قادر على جمعها فى لحظة.. إذن هو قوة يجب التخلص منها.

هذا ماعلق به الكثيرون على ماكان من أمر هذه المظاهرة، ولكننى أرى أن عزم عبد الناصر على التخلص من عبد القادر عودة لم يكن وليد مارآه من قدرته على فض المظاهرة أو جمعها، وإنما كان وليد تحول عبد القادر عوده من الولاء له والانحياز لجانبه إلى الولاء للمرشد العام.. لاسيما والأستاذ عبد القادر رحمه الله كان من الرجال الصرحاء الواضحين الذين إذا اتجهوا إلى ناحية اتجهوا إليها بكل مافيهم، وإذا أعرضوا عنها أعرضوا

بكل مافيهم ؛ لايعرف التوسط فى الأمور ولا أخذها برفق .. وليس هذا ــ كما قدمنا ــ عيباً فى الخلق ، ولكنه ليس الأسلوب الأمثل فى تناول القادة لما ينشأ بين أيديهم من مواقف وقد كان رسول الله ﷺ يقول : «إنا لَنَبَشُّ فى وجوه قوم وقلوبنا تكرههم» . وربما تناولنا هذا الموضوع فيما بعد إن شاء الله بمزيد بيان .

ثم إن المقدرة على جمع المظاهرة وفضها لم تكن تشغل بال عبد الناصر باعتبارها مقدرة خارقة فهو كان من الإخوان ويعرف أن الطاعة التامة من خصائص المجتمع الإخوانى .. ولكن الذى شغل باله هو : كيف تم جمع هذه المظاهرة فى حين أن جميع قادة الإخوان تحت يديه فى السجون؟ إذن هذا الأسلوب الذى اتبعه من اعتقال القادة والأعضاء البارزين فقط معتقداً أن ذلك يشل الأتباع الباقين عن الحركة أسلوب خاطىء إن جاز فى حق مختلف الهيئات فقد ثبت أنه لايجوز فى حق الإخوان المسلمين .. وإذن فلابد من أسلوب آخر ...

أما الأسلوب الآخر الذى بيته جمال عبد الناصر ولم يفصح عنه لأحد حتى لزملائه فى مجلس الثورة فهو موضوع فصول قادمة إن شاء الله .. وقد يكون هذا الفصل أولها .

من نتائج هذه المظاهرة :

١ ــ رجوع محمد نجيب إلى جميع مناصبه .
٢ ــ خضوع جمال عبد الناصر لمطلب الشعب فى حكم دستورى .
٣ ــ عملية إفراج واعتقال جزئية .
٤ ــ تجاوب جميع المثقفين مع الاتجاه الجديد .
٥ ــ الإفراج عن جميع الإخوان المسلمين .

ونتناول فى هذا الفصل النتيجتين الأوليين فنقول :

رجوع محمد نجيب إلى جميع مناصبه :

صحيح أن أول نتائج هذه المظاهرة رجوع محمد نجيب إلى جميع مناصبه التى كان يباشرها فرجع إلى منصب رئيس الجمهورية ورجع إلى منصب رئيس مجلس الثورة والوزارة . سلم بذلك كله جمال عبد الناصر ولكنه حرص فى أثناء تسليم السلطة إلى نجيب على أن يحتفظ لنفسه بمنصب الحاكم العسكرى ..

وقد نشرت الصحف فى يومى ٨ ، ٩ مارس ٥٤ الآتى :

يعود اللواء محمد نجيب رئيساً للجمهورية والوزارة والثورة . وأذيع المرسوم التالى :

« ..ل للسيد البكباشى جمال عبد الناصر حسين السلطة فى اتخاذ التدابير المنصوص

عليها بدلاً من السيد اللواء محمد نجيب، ويرخص له علاوة على ذلك باتخاذ أى إجراء آخر لازم للمحافظة على الأمن والنظام العام فى جميع نواحى جمهورية مصر أو فى جهات معينة فيها».

وإذا علمنا أن محمد نجيب ــ نتيجة هذه الأحداث ــ كان أقوى رجل فى مصر؛ كما أن جمال عبد الناصر كان فى نفس الوقت فى أضعف مركز مر به.. تعجبنا ــ بعدما فعله عبد الناصر بنجيب من أفاعيل ــ كيف ينخدع نجيب ويجيب عبد الناصر إلى مطلبه فيتنازل له عن سلطة الحاكم العسكرى بل يرخص له علاوة على هذه السلطة فى اتخاذ أى إجراء آخر لازم للمحافظة على الأمن والنظام العام فى....

ولا شك أن موافقة نجيب على هذا التنازل كان خطأً فادحاً. وكان كالذى اصطادوا له فهداً كاسراً وقيدوه وسلموه له مقيداً. فبكل سذاجة حرره من قيوده وأطلقه فكان هو نفسه أول فريسه من فرائسه.. لقد منح نجيب عبد الناصر سلاح الحاكم العسكرى فأشهر عبد الناصر هذا السلاح أول ماأشهر فى وجه مانحه..

خضوع عبد الناصر لمطلب الحكم الدستورى:

كان إذعان عبد الناصر لمطلب الحكم الدستورى أمراً لابد منه أمام الإجماع الشامل للأمة بحيث لم يعد مفر من الإذعان والخضوع.. أما أن هذا الإذعان كان عن اقتناع فهذا مالم يكن فى استطاعة أحد أن يفتح عن قلب عبد الناصر ليرى فيه حقيقة هذا الأمر. ولكن التصرفات الظاهرية كانت تشعر بوجود هذا الإذعان إلى حد تحس معه الجدية ففى نفس التاريخ ١٩٥٤/٣/٩ سأل مندوب «المصرى» البكباشى جمال عبد الناصر عن التطورات التى أعلنت أمس فقال:

«لقد بدأنا منذ شهرين نبحث الطريقة التى يمكن بها تكوين هيئة وطنية تمثل البلاد، على أن يكون هذا كفترة انتقال لتنتقل البلاد إلى الحكم النيابى السليم الذى نعتبره هدفاً أساسياً من أهداف الثورة ــ وقد كلف مجلس الثورة الأستاذ سليمان حافظ ليتصل بالشخصيات المختلفة للبحث معهم فى الأسس التى ينفذ على أساسها هذا المشروع. وقد أعدت جملة مشروعات أحدها من الأستاذ سليمان حافظ وآخر من الدكتور أحمد فكرى الأستاذ بجامعة الإسكندرية. وكانت هذه الموضوعات قيد البحث حتى يمكن الوصول إلى أصلح مشروع يوافق حالة البلاد. وكان السبب فى هذا هو الشعور بالفراغ بعد تحطيم جميع الأسس القديمة التى بنيت عليها الحياة السياسية البائدة فى هذه البلاد، وكان الجميع يشعرون أنه لابد من القيام بعمل لملء هذا الفراغ».

وفى غضون هذا التاريخ كتب أحمد أبو الفتح فى «المصرى» كلمة جاء فيها:

«أعلن المسئولون عن إطلاق حرية الصحافة ورفع الرقابة عن الصحف. وأعلن المسئولون عن انتخاب جمعية تأسيسية تراجع الدستور وتعتمده. وأعلن المسئولون أن أعضاء الجمعية التأسيسية سيختارون بالانتخاب الحر المباشر. وأعلنوا أن الأحزاب السياسية ستعود. وأعلن المسئولون أن رجال الجيش الذين سيعملون فى الحقل السياسى سيستقيلون من الجيش ويعملون كمدنيين لاعسكريين.. وهذه بواكير الحرية هبت على البلاد».

وفى نفس هذا التاريخ يعقد صلاح سالم عضو مجلس الثورة ووزير الإرشاد مؤتمراً صحفياً يعلن فيه:

«الرأى متفق على اختيار أعضاء الجمعية التأسيسية بالانتخاب لابالتعيين — لن يقوم حزب من الأحزاب قبل إقرار الدستور الجديد — مجلس الثورة يمارس سلطة السيادة ولا يشترك فى الحكم بعد قيام الجمعية التأسيسية — فترة الانتقال بدأت فى أول يناير ١٩٥٣ وتنتهى بانتخاب الجمعية التأسيسية — الإخوان كهيئة دينية — سيفرج عن جميع المعتقلين وتلغى الأحكام العرفية عند إعلان الجمعية التأسيسية — أعضاء مجلس الثورة لن يعودوا إلى مناصبهم فى الجيش، وسيخوضون المعركة السياسية كمواطنين مدنيين».

تجاوب جميع المثقفين مع الاتجاه الجديد:

وإذا طالعت الصحف الصادرة فى هذا التاريخ وحوله شعرت بأن الشعب كله كان من وراء هذا المطلب فنقابة الصحفيين تؤيد هذا المطلب وتطالب بإلغاء الأحكام العرفية، والصحفيون يدلون بآرائهم فى تفاصيل الإجراءات التى تؤدى إلى الحكم الدستورى؛ فبينما بعضهم يرى البدء بتكوين جمعية تأسيسية تضع الدستور وتعتمده، يرى آخرون منهم رأياً آخر كالأستاذ إحسان عبد القدوس فقد كتب مقالاً بجريدة «المصرى تحت عنوان «برلمان.. لاجمعية تأسيسية» يطالب فيه بانتخاب برلمان تكون مهمته الأولى وضع الدستور. ويقول فيه: وإذا قيل إن البرلمان لايقوم إلا بعد وضع الدستور، فإننا فى ظروف شاذة ولن يضيرنا بعد كل هذا الشذوذ الذى عشنا فيه أن ننتخب برلمانا يضع الدستور. ثم يقول: وأكتب هذا لأننى تبينت تردداً من أغلبية المواطنين فى التقدم للترشيح لجمعية لن تدوم مهمتها أكثر من شهر أو شهرين. ولأنى أريد أن أتعجل الاستقرار لمصر وأتجنب المزيد من الشذوذ».

وبمناسبة ذكر الأستاذ إحسان عبد القدوس أذكر أنه اعتقل وأودع السجن الحربى مع الإخوان بعد أن نقلت منه إلى معتقل العامرية. وأخبرنى الإخوان الذين بقوا فى السجن الحربى أن الأستاذ إحسان بعد أن فهم دعوة الإخوان أعلن توبته وعاهدهم على أن يكون لساناً لهذه الدعوة.

ثم إنك تقرأ فى الصحف مثل هذه العناوين:

إن البلاد كلها ترحب بإعادة الحياة النيابية ــ مجلس نقابة المحامين يطلب زوال كل القيود التى تحد من الحريات ــ نقابة الصحفيين تشكر رجال الثورة على إلغاء الرقابة على الصحف ــ هيئة التدريس بجامعة الإسكندرية ترحب بالقرارات الجديدة ــ جامعة القاهرة تحذو حذو جامعة الإسكندرية.

كانت البلاد فى حالة نشوة أو صحوة على حلم لذيذ وجدت فى اليقظة بشائرة فطارت فرحاً تتعجل له التمام.

عملية إفراج واعتقال جزئية:

لم يكن منتظراً أن يكون فى أعقاب مظاهرة ٢٨ فبراير ٥٤ اعتقالات، ولكن جمال عبد الناصر قرر فى نفسه الانتقام من أشخاص معينين بعضهم من الإخوان وبعض آخر من غير الإخوان من معارضيه.. فستراً للإجراء الذى انتواه من اعتقال هؤلاء الأشخاص، ألحقه بالإفراج عن عدد من المعتقلين. ففى ٣ مارس ١٩٥٤ اعتقل باعتباره حاكماً عسكرياً ١١٨ شخصاً بينهم ٤٥ من الإخوان ، ٢٠ من الاشتراكيين ، ٥ وفديين ، ٤ شيوعيين .

وفى ٧ مارس أفرج عن الإخوان الأساتذة البهى الخولى وعبد المنعم خلاف وإسماعيل الداعور وحلمى عبد المجيد وعبد العزيز الشابورى ومحمد محمد عصفور.

وكان المقصود من بين الخمسة والأربعين الذين اعتقلوا بعد مظاهرة ميدان الجمهورية اثنين بالذات هما الأستاذ عبد القادر عودة والأستاذ عمر التلمسانى لأنه كان قد أبقى عليهما دون اعتقال فى حركة يناير ١٩٥٤ أملاً فى أن يحتويهما فلما وجد أنه فشل فى ذلك قرر الانتقام منهما فاعتقلهما ولما كان انقلاب الأستاذ عبد القادر عوده عليه انقلاباً مفاجئاً بعد أن كان يعده أقرب الإخوان إليه أراد أن يصب جام غضبه عليه فقد كلف من كلابه الآدميين من سامه هو والأستاذ عمر التلمسانى ومجموعة معهما ألوان الإهانة والعذاب ثم خص الأستاذ عبد القادر بلون آخر من القهر تمهيداً لخطة شيطانية رتبها بينه وبين نفسه؛ فقد لفق له قضية اتهمه فيها هو ومعه ثلاثة من الإخوان هم الأساتذة محمود الفوّال وعز الدين مالك والشيخ وهبه الفرماوى بالعمل على قلب نظام الحكم فى حوادث مظاهرة ٢٨ فبراير.

* * *

الباب العاشر

الخدعة الكبرى

الفصل الأول : هبوط إلى الدرك الأسفل.هل الغاية تبرر الوسيلـــــــة ؟

الفصل الثانى : الإفراج عن الإخوان وقد عادت الأمور كلها فى أيديهم .

الفصل الثالث : الفتـــرة الحرجـــة والفرصة المضيعة .

الفصل الرابع : مفاجـــأة أجـــهضت مكاسب الشعب .

الفصل الأول

هبوط إلى الدرك الأسفل
هل الغاية تبرر الوسيلة؟

يبدو أن مظاهرة ٢٨ فبراير ١٩٥٤ بميدان الجمهورية كانت طعنة نجلاء أصابت عبد الناصر فى مقتل لأنها قلبت كل حساباته، وجعلته يدور حول نفسه. يبحث عن مخرج، وكلما لجأ إلى طريق وجده مسدوداً وليس أمامه من طريق مفتوح إلا طريق واحد هو طريق الاستجابة للرغبة الشعبية الجارفة فى حكم نيابى دستورى حر.. ومع أن سلوك هذا الطريق هو الذى يمليه العقل والواجب فإنه يتعارض تعارضاً كاملاً مع الخط الذى رسمه لنفسه.

ولقد كنا نحن - الإخوان المسلمين - نتحدث بهذا فيما بيننا ونحن فى المعتقل مقدرين ما يعانيه من حيرة بين ما نعرف من آماله الديكتاتورية الواسعة، وبين ما أطبق عليه من ضغط شعبى لايقاوم. وقد لمسنا فعلاً هذه الحيرة فى الرسل الذين كان يرسلهم إلينا فى المعتقلين بالسجن الحربى والعامرية يتوسطون فى المصالحة.

وإذا كان هذا الذى كنا نتحدث به فيما بيننا فى المعتقل كان مجرد تصور قد يكون مطابقاً للحقيقة أو مبالغاً فى التعبير عنها لأن الحقائق الدفينة لم تكن غائبة عنا وحدنا لوجودنا بالمعتقل بل كانت غائبة عن غيرنا ممن يعيشون الحياة الحرة ويقرأون الصحف ويستمعون إلى الأخبار.

ولقد مرت الأيام وتغيرت الظروف وأتاحت لنا أن نعرف حقيقة ماكان عبد الناصر يعانيه فعلاً من جراء هذا الموقف من أزمة نفسية خانقة حملته على ارتكاب حماقات وجرائم لايكاد سامعها أن يصدقها لولا أن الذى يرويها أحد زملائه فى مجلس الثورة وشهودها بقية هؤلاء الأعضاء؛ فقد جاء فى مذكرات عبد اللطيف البغدادى فى صفحة ١١٩ من الجزء الأول، أنه فى جلسة مجلس الثورة المنعقدة فى ٤ مارس ١٩٥٤ اقترح جمال عبد الناصر حل المجلس وأن يعمل كل فرد من أعضائه على تكوين فريق Team مكون من

عشرة أفراد مهمته التخلص من العناصر الرجعية من الذين يناهضون الثورة وعلى رأسهم الإخوان المسلمون.

ويقول البغدادى فى صفحة ٩٨ من مذكراته فى نفس الجزء:

«فى اجتماع مشترك بين مجلس الثورة وأعضاء الوزارة فى ٢٠ مارس ١٩٥٤ أبلغ جمال عبد الناصر الاجتماع بوقوع ستة انفجارات نسف فى مبنى السكة الحديد وفى الجامعة وفى محل جروبى فى وقت واحد- وعلل لهم ذلك بسياسة اللين فى موقف الحكومة، وأن خطوة العودة إلى الحكم النيابى لاتصلح فى هذا الوقت».

ثم يقول البغدادى فى صفحة ١٤٦ من نفس الجزء:

«إن جمال عبد الناصر اعترف بأنه هو الذى قام بهذه الانفجارات. وذلك فى اليوم التالى لوقوعها. واعترف بذلك للبغدادى وحسن إبراهيم وكمال حسين. وعزا السبب فى قيامه بهذه الحوادث إلى أنه كان يرغب فى إثارة البلبلة فى نفوس الناس ويجعلهم يشعرون بعدم الطمأنينة حتى يتذكروا الماضى أيام نسف السينمات ويشعروا أنهم فى حاجة إلى من يحميهم».

وهذه الأنباء المرعبة التى لم نعلم بها إلا بعد أن أتاحت الظروف لزملاء عبد الناصر هؤلاء أن يبوحوا بها.. هذه الأنباء لفظاعة بشاعتها لانملك تعليقاً عليها وندع ذلك للقراء الكرام.. ومع ذلك فنتناولها من ناحية مدلولها فقط وهو أن عبد الناصر كان فى أضعف موقف.. ولكن الشرفاء من الحكام مهما بلغ موقفهم من الضعف كل مبلغ وأحاطت بهم أحرج الظروف من كل جانب لايفكرون مجرد تفكير فى مثل مافكر فيه جمال عبد الناصر وما فعله فعلاً.

* * *

الفصل الثانى

الإفراج عن الإخوان وقد عادت الأمور كلها فى أيديهم

من حق السادة القراء أن أكاشفهم بما ينتابنى من شعور مما يتصل بتسطير هذه المذكرات باعتبار هذا الشعور وهذه الأحاسيس جزءاً لايتجزأ من المذكرات.. وقد أغفل ذلك فى بعض الأحيان حين لايكون انفعالى الشعورى شديداً، فكثير من الأحداث ينساب التعبير عنها من قلم الكاتب وتمر تحت عين القارىء ولا يرى كلاهما أن انفعالاً ذا بال يستوقفه عندها فهى أحداث عادية أو قريبة من العادية أو هى أحداث متوقعة.. أما الحدث الغريب أو غير المتوقع كما لو نبئت بأم قتلت ابنها فإنك لابد من انفعال يهز كيانك واندفاع نحو التعبير عن هذا الانفعال.

ولقد كنت أكتب هذه الفصول وما يتصل فيها بجمال عبد الناصر وفى مخيلتى صورة عن هذا الرجل تكونت فى خاطرى نتيجة أحداث مختلفة،مر حتى الآن فى هذه المذكرات بعضها وآت إن شاء الله بعض آخر منها، ولهذه الصورة فى مخيلتى معالم كثيرة لاأرى داعياً لذكرها الآن، ولكن أذكر منها معلماً واحداً هو الخسة، ولكن هذه الخسة لم أنفعل بها انفعالاً يستوقفنى أمامها لأنها صفة شائعة فى كثير من أصحاب السلطة والحكام.

ولكن الذى قرأته مما سجله البغدادى فى مذكراته عن موقفين من مواقف الخسة لعبد الناصر وجدتنى قد انفعلت بهما انفعالاً كاد يحطم فؤادى.. كيف أن إنساناً ينحط إلى هذا الدرك الأسفل من الخسة والنذالة ثم يسمح لنفسه بعد ذلك أن يمشى بين الناس بله أن يكون حاكماً؟!

أقسم.. لقد شعرت حين قرأت هذين الموقفين بما يعبر عنه فى اللغة الدارجة «بالقرف» وهممت بأن أنقطع عن الكتابة استقذاراً لهذه الشخصية.. وتوقفت فعلاً فترة حتى هدأت مشاعرى.. وتذكرت أننى لاأكتب عن هذه الشخصية وإنما أكتب عن الإخوان المسلمين.. ودار فى خاطرى مما يتصل بموقفى أن الذين سطروا أحداث السيرة

النبوية العطرة لم يمنعهم من تسطيرها ماااتصل ببعض أحداثها من أشخاص أخساء.. ولا أقصد بالأخساء أعداء الإسلام من المشركين أمثال أبى جهل والوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة فهؤلاء كانوا أعداءً ولكنهم لم يكونوا أخساء لأنهم كانوا يصارحون بالعداء، وإنما أقصد أقيال اليهود من أمثال مالك بن الصلت ووليد بن الأعصم وكعب بن الأشرف وشاس بن قيس الذى مر يوماً على الأنصار ـ الأوس والخزرج ـ وهم مجتمعون فساءه مارأى من ألفتهم بعد ماكان بينهم من العداوة، فأمر شاباً من اليهود وقال: اجلس بينهم ثم أذكر يوم بعاث - حرب كانت بينهم فى الجاهلية - ففعل فأذكى ذلك بينهم روح عداء خمدت وكادوا يقتتلون لولا حضور النبى ﷺ.

ولهذا شرعت أواصل الكتابة مستعيناً بالله ملتزماً أن أبرز الأحداث وأجلى المواقف مهما كان فى ذلك من مرارة.. فأقول:

إن جمال عبد الناصر بعد أن ارتكب جريمة النسف وعرض اقتراحه بارتكاب جرائم الاغتيال وحاول أن يثير بها زملاءه بمجلس الثورة ووزراءه ولم يجد لذلك أثراً فى إيقاف المد الشعبى المتزايد.. لم ييأس وعزم على تدبير خطة أخرى فادعى المرض واعتكف فى بيته خمسة أيام ولا أحد كان يعلم ماالذى انتهى إليه من خطة فى خلال هذا الاعتكاف، ولكننا عرفنا الخطة وعرفها غيرنا بعد أن نفذها.. وتفصيل الخطة الجديدة هو مايأتى فى هذا الفصل وفى الفصول القادمة إن شاء الله.

إفراجات ووسطاء:

فى خلال تلك الفترة كانت تتوالى إفراجات عن أعداد قليلة من الإخوان؛ فبين يوم وآخر يأتى ضابط من المسئولين عن المعتقل وينادى على عدة أسماء يطلب إلى أصحابها إعداد أنفسهم ومهماتهم للإفراج عنهم. ولما قارب شهر مارس على الانتصاف رأينا دفع الإفراجات تكبر وتتقارب حتى صار فى كل يوم إفراج عن مجموعة كبيرة.

وقد بلغنا ونحن فى معتقل العامرية أن هناك وساطات يرسلها عبد الناصر إلى المرشد العام فى السجن الحربى يعرضون عليه الصلح.. وكان المرشد فى ذلك الوقت قد تمكن من تهريب خطاب وجهه إلى مجلس الثورة الذى أصدر بيان حل الإخوان طالبهم فيه بالمباهلة فيما نسبوه إلى الإخوان فى هذا البيان من تهم، والمباهلة أسلوب قرآنى يتحدى المكذوب عليه الكاذب بأن يطلب الطرفان ـ وقد جمع كل منهما أهله وذويه ـ أن ينزل الله لعنته على الكاذب.. ولا يطلب المباهلة بطبيعة الحال إلا الطرف الواثق كل الثقة من براءته ولا يهرب منها إلا الكاذبون المفترون.

وتردد الوسطاء بين عبد الناصر والمرشد العام، والمرشد مصمم على أن لايغادر

السجن حتى تثبت براءة الإخوان مما نسب إليهم وأن يرد إليهم اعتبارهم..

وقد بلغنا ونحن بالعامرية حيث كنا آخر من غادرها أنه تم الاتفاق على أن يخرج المرشد العام وجميع المعتقلين، وأن يقوم جمال عبد الناصر - رداً لاعتبار الإخوان - فى نفس اليوم بزيارة المرشد العام فى منزله. على أن يكون للإخوان أن يزاولوا نشاطهم كاملاً وأن ترد إليهم ممتلكاتهم ودورهم وكل ماأخذ منهم. وأن يصدر مجلس الثورة بياناً يوضح فيه حقيقة الأسباب للحل على أن يكون هذا البيان مسك الختام فى هذه المعادلة.

والذى أذكره يوم خرجت من المعتقل مع المجموعة التى كانت معى يوم ٢٥ مارس ١٩٥٤، وأركبنا سيارة نقل حكومية أننا طيلة الطريق كنا نهتف بهتافات الإخوان ونهتف للحرية وللحكم الدستورى والحكم بالشريعة الإسلامية وكان الناس الذين نمر بهم فى كل مكان يصفقون لنا ويشيعوننا بعبارات التشجيع والتأييد.

يوم ٢٥ مارس هذا الذى أفرج فيه عن آخر دفعة من المعتقلين هو نفس اليوم الذى اجتمع فيه مجلس الثورة اجتماعاً استمر خمس ساعات بحث خلالها الموقف الداخلى. وبعد انتهاء الاجتماع خرج الصاغ كمال الدين حسين إلى الصحفيين وأذاع عليهم القرار التاريخى وهذا نصه:

قرر مجلس الثورة بجلسته اليوم ٢٥/٣/١٩٥٤:

أولاً - يسمح بقيام أحزاب.

ثانياً - المجلس لايؤلف حزبا.

ثالثاً - لاحرمان من الحقوق السياسية حتى لايكون هناك تأثير على الانتخابات.

رابعاً - تنتخب الجمعية التأسيسية انتخاباً حراً مباشراً بدون أن يعين أى فرد وتكون لها السيادة الكاملة والسلطة الكاملة، وتكون لها سلطة البرلمان كاملة، وتكون الانتخابات حرة.

خامساً -حل مجلس الثورة فى ٢٤ يوليو المقبل باعتبار الثورة قد انتهت وتسلم البلاد لممثلى الأمة.

سادساً - تنتخب الجمعية التأسيسية رئيس الجمهورية بمجرد انعقادها.

ملحوظة: يقول صاحب المذكرات: فى الصحف التى نشرت هذه القرارات صورة واضحة لجمال عبد الناصر وبجانبه صلاح سالم؛ يبدو فيها عبد الناصر فى هيئة المغلوب على أمره والذى يفكر فى مخرج من هذا المأزق الذى وضع فيه.

وبعد أن نشرت الصحف هذه القرارات نشرت مايأتى:

«تم الإفراج أمس عن الأستاذ حسن الهضيبى من السجن الحربى كما أفرج عن باقى أعضاء جماعة الإخوان المعتقلين. وقد تم اتصال أمس بين المسئولين وبين السيد/ حسن

الهضيبى المرشد العام قبل الإفراج عنه بشأن عودة جماعة الإخوان المسلمين إلى نشاطها السابق.

وقد تم الاتفاق معهم على ثلاث نقط:

أولاً — أن تعود الجماعة إلى سابق نشاطها وكيانها بدون أى حد من حرياتها، وإعادة أموالها المصادرة وشعبها ومركزها العام.

ثانياً — الإفراج فوراً عن جميع الإخوان مدنيين أو عسكريين مع إعادة من فصل منهم إلى الخدمة العسكرية.

ثالثاً — أن يصدر مجلس الثورة بياناً يوضح فيه حقيقة الأسباب التى اعتبرها داعية إلى حل الإخوان. ويكون هذا البيان بمثابة الختام فى هذه المسألة المؤسفة.

وقد صرح السيد حسن الهضيبى للمسئولين بأن الإخوان سيكونون بعد عودتهم عوناً للحكومة على طرد الانجليز من منطقة قناة السويس ورد اعتداءاتهم الوحشية — وفى منتصف ليلة أمس توجه البكباشى جمال عبد الناصر إلى منزل الأستاذ الهضيبى حيث اجتمع به فى منزله.

* * *

الفصل الثالث

الفترة الحرجة والفرصة المضيعة

خرج الإخوان من هذا الاعتقال وهم سادة الموقف. لم يكونوا فى يوم من الأيام أقوى مما كانوا عليه فى ذلك اليوم. فالحكومة أفرجت عنهم وهى راغمة، بل إنها كانت فى إفراجها عنهم متوسلة إليهم، ملتمسة الرضا والصفح عنها والتجاوز عن سيئاتها معهم؛ حتى إنهم اشترطوا على الوسطاء الذين أرسلتهم الحكومة إليهم فى المعتقل أن لايخرجوا من المعتقل إلا إذا ردت الحكومة اعتبارهم بأن تصدر تكذيباً لنفسها فيما افترته عليهم — وانتهوا إلى حل وسط بأن يخرجوا ويقوم جمال عبد الناصر بزيارة المرشد العام فى بيته وقد فعل.

كما أن جميع أهل الرأى من صحافة وقانون، وجامعات أساتذة وطلبة، وقطاعات الشعب جميعاً حتى الجيش.. كلها تعج بالهتاف والدعوة إلى رأى الإخوان وفكرتهم، ويشيرون إليهم بأصابعهم، ويرمقونهم بأنظارهم وينتظرون خروجهم من المعتقلات ليقودوا الأمة إلى تحقيق أمانيها فى الحرية والحكم النيابى الصالح السليم.

بل إن الأجانب — وما كان أكثرهم فى تلك الأيام — كانوا فى نفس موقف الأهالى، ويسيطر عليهم نفس الشعور فى ترقب مايقرره الإخوان من خطوات.. حيث جاء مراسلو الصحف الأجنبية إلى المرشد العام يوجهون إليه الأسئلة عن معاملة الحكومة الإسلامية للأجانب ولغير المسلمين ويرد عليهم بالنصوص القرآنية والنبوية فيطمئنون.

وقد لمست هذا الشعور بنفسى حين خرجت من المعتقل وذهبت إلى عملى بمحلج القناطر الخيرية — وكان أكثر المتعاملين فيه تجاراً أجانب كما أن إدارته كانت من الأجانب.. ماكادوا يعلمون بحضورى إلى المحلج حتى أقبلوا علىّ والتفوا حولى يمطروننى بنفس النوع من الأسئلة التى وجهت إلى المرشد العام — ولأنهم علموا — ولا أدرى كيف علموا — بأننى من المسئولين فى دعوة الإخوان المسلمين؛ أحسست كأنهم يريدون أن يحصلوا منى على مايشبه الحماية لأنفسهم وأموالهم.. وقد أجبتهم إلى ماطلبوا مؤكداً لهم أن الإخوان المسلمين مضطرون إلى حمايتهم لابحكم صداقة شخصية وإنما بحكم القرآن نفسه؛ الأمر

الذى جعلهم يرحبون بالحكومة الإسلامية.

دليل آخر على أن الإخوان كسبوا الجولة:

ولا إخال القارىء محتاجاً إلى أدلة أخرى على أن الإخوان قد كسبوا الجولة وخرجوا من المعتقلات وهم فى أقوى المواقف، ولكنى مع ذلك أسوق دليلاً آخر؛ ذلك أن إخواننا الثلاثة الكبار الذين فصلوا يوم ٩ ديسمبر ١٩٥٣، واعتمدت الهيئة التأسيسية فصلهم يوم ١٠ ديسمبر، وقد قابلوا هذا الفصل بالهزء والسخرية، وذهبوا إلى أحضان محركهم يلتمسون فى ظل سلطته الحماية. هؤلاء الثلاثة لما رأوا الأوضاع قد انقلبت وأن الكفة التى قبعوا فيها وراء محركهم قد شالت وأن كفة الإخوان رجحت أيقظت فيهم قرارات ٢٥ مارس ١٩٥٤ عاطفة الأخوة الإسلامية التى كانت خابية فى نفوسهم منذ ١٥ يناير ٥٤ فأصدروا بياناً فى الصحف فى نفس يوم إعلان قرارات مارس ممهورا بتوقيعاتهم وتوقيع الأربعة الذين فصلوا قبلهم إليك نصه:

«رجال من الإخوان يطالبون الحكومة بعودة الإخوان بأوضاعها وقيادتها ومرشدها بتوقيع صالح عشماوى وعبد الرحمن السندى، وأحمد عبد العزيز جلال ومحمد الغزالى وأحمد زكى حسن وأحمد عادل كمال ومحمود الصباغ».

بسم الله الرحمن الرحيم— لقد أثبتت الحوادث أن قرار حل الإخوان المسلمين كان خطأ بالغاً من مجلس قيادة الثورة وانتكاساً أصيبت به البلاد— أما الخطأ فلأن المراقبين لتطور الحوادث الداخلية فى مصر فى السنين الأخيرة يعلمون تماماً أن هذه الثورة ماكانت إلا وليدة لكفاح دموى شاق قام به الإخوان المسلمون ضد الطغيان الملكى وضد الأوضاع التى كانت قائمة— وكان ثمن هذا الكفاح الشعبى خيرة شباب الإخوان المسلمين وفى مقدمتهم إمامهم ومرشدهم حسن البنا— وأما الانتكاس فلأن حل الإخوان المسلمين هو الفرصة الوحيدة التى كان يتطلع إليها الاستعمار، ويعمل لها أذنابه.. فكانت النتيجة أن برزت المؤامرات والفتن، وأسفر الاستعمار عن نواياه فى مصر والسودان والعالم الإسلامى.

ولا عجب أن يحدث هذا الخطأ وهذا الانتكاس وفى مصر نفر من عجائز السياسة الذين كانوا من عمد عهد الملكية السابق يتظاهرون بالالتفاف حول الثورة ورجالها، فى الوقت الذى يتربصون بهم الدوائر، وينصبون الشباك والأحابيل ويدفعونهم إليها دفعاً.

ونحن إذ نرى هذه السياسة التى تورط فيها رجال الثورة، وما نتج عنها من تحرش الإنجليز واعتداءاتهم المتكررة على المواطنين العزل، وتصريحات ساستهم— ونرى أيضاً استغلال اليهود لهذه الفرصة، وحشد قواهم على حدود الأردن وسوريا، ونرى كذلك أن

الأمة ــ كما يقال ــ مقبلة على انتخاب نواب عنها يقررون نظام الحكم فيها. فلذلك رأينا أن نوضح هذه الحقائق:

فالحقيقة الأولى، أن الإخوان المسلمين كتلة واحدة يعملون صفاً واحداً، وما كان لهم أن يعملوا إلا كذلك. وقد حاولنا منذ اللحظة الأولى لقرار الحل أن نوضح للحكومة هذه الحقيقة عملياً حينما وضعنا أنفسنا تحت تصرف قيادة الإخوان دون اعتبار لأى وضع سابق لنا فى تنظيمات الجماعة.

والحقيقة الثانية أن مصلحة الاستقرار الداخلية فى عودة الإخوان كهيئة إسلامية جامعة، وليس هذا العود فى صالح الإخوان فحسب كما يبدو للسطحيين، فقد أثبتت المحن السابقة أن مثل هذه القرارات بحقهم لم تصبهم بقدر ماتصيب أعداءهم ولكن المصلحة فى الاستقرار الداخلى والاستقرار وحده.

والحقيقة الثالثة أن الإخوان المسلمين سيقفون طبيعياً بالمرصاد لأى خطوة رجعية تعود بالبلاد نحو أوضاع استعمارية قديمة بعد أن دمرها جهادهم المرير وتضحياتهم الدموية الغالية. ولن يتخلى الإخوان المسلمون اليوم عن تاريخ الأمس؛ فليحذر أولئك الذين داعبهم الأمل ظناً منهم أن الإخوان قد غفلوا عن أسلحتهم، وما هى إلا الصبر والجهاد المستمر حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً.

والحقيقة الرابعة أن العود للحياة الطبيعة ليس معناه تمثيلية يخرجها عجائز السياسة حتى يخدع بها الشعب فالحياة الطبيعة فى عرف الإخوان المسلمين هى فى أوضاع سليمة تتفق ومبادئنا التى هى مبادىء شعب وادى النيل ويقف من ورائها أربعمائة مليون مسلم.

أما الحقيقة الخامسة فهى أنه يجب على الحكومة أن لاتستمر فى تورطها فى هذا الخطأ البالغ فى حق الوطن والإسلام خصوصاً بعد أن أنذرتها الحوادث والنذر بسوء العاقبة. ولن يكون ذلك إلا بأن تسرع بإعادة الإخوان المسلمين فوراً كاملة متكاملة. وبعبارة أوضح أن تعود الجماعة بأوضاعها وقيادتها ومرشدها. وأن ترد إليها جميع دورها وأموالها وأن يفرج فوراً عن جميع المعتقلين مدنيين وعسكريين، وأن يصفى الموقف بأجمعه بحفظ جميع القضايا التى نتجت عن هذا الوضع.

وهذه المطالب يقف جميع الإخوان من خلفها صفاً واحداً لايعرفون ولا يستسيغون فيها اشتراطات أو مساومات لايقبلها الأعزة المؤمنون. والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

توقيعات

أوردت هذا البيان على طوله الذى صدر من هؤلاء الإخوان الذين كانوا سوطاً يلهب به جمال عبد الناصر ظهور الإخوان المسلمين.. أصدروا بيانهم هذا ى نفس يوم إذعان جمال عبد الناصر بصدور قرارات ٢٥ مارس.. وأين كان هذا البيان طيلة الفترة من ١٥ يناير حتى ٢٤ مارس وما قبلها؟!

ولم يقتصر هؤلاء الإخوان على إصدار هذا البيان بل كانوا من أوائل من زاروا المرشد العام فى بيته وطلبوا منه الصفح وأن يرجعوا إلى أماكنهم فى الدعوة، ولا أدرى ماذا قضى مكتب الإرشاد فى أمر الأربعة الذين كان قد فصلهم، ولكن الذى حدث أن سألنى المرشد العام عما إذا كنت أوافق على إلغاء فصل الثلاثة الذين فصلوا وقد جاءوا معتذرين وطلبوا تجديد البيعة فقلت له: إنما كان قرار الفصل إشعاراً لهم بخطئهم فإذا كانوا قد جاءوا معتذرين فكأنهم بذلك قد اعترفوا بخطئهم وأنا أول من يرحب برجوعهم إلى الصف.

ولكن المعنى الذى هدفت إليه من إيراد كل هذه القصة الطويلة التى لم يكن كل ماجاء فيها من مطالب إلا تحصيل حاصل جاء واضحاً فى قرارات مارس.. المعنى فى ذلك أن هؤلاء الإخوة شعروا بأن الدعوة التى خاصموها قد قهرت أعداءها فلم يكن أمامهم من سبيل إلا طلب الصفح منها.. وهذا وحده دليل على أن الإخوان قد كسبوا الجولة كسباً جعلهم سادة الموقف.

فرصة الفرص أضعناها

كانت الفكرة التى فى رأسى منذ أواخر أيام الاعتقال هى أن الإجراء الوحيد الذى علينا أن نتخذه فى اليوم التالى لخروجنا هو أن نضع يدنا على مرافق البلاد، ونتخذ لنا وضعاً فى حكومة انتقالية يشل حركة جمال عبد الناصر شللاً تاماً حتى نستطيع تنفيذ ماتخذه مجلس الثورة من قرارات رغم أنف جمال عبد الناصر.. ولعل القارىء يرى معى أنه فى ظل الظروف التى سردتها لم يكن أحد يستطيع أن يقف فى طريق الإخوان إذا هم تقدموا لاحتلال مكانهم.

ومن حق التاريخ أن أقرر هنا أن الإخوان لم يوفوا هذا الموقف حقه من الحركة؛ فقد كان الموقف يقتضيهم أن لايضيعوا ساعة واحدة بل دقيقة واحدة منذ خرجوا هذا الخروج المنتصر من المعتقل إلا استغلوها أكمل استغلال؛ لاسيما وهم قد جربوا أنهم يتعاملون مع ثعلب ماكر وشخص مجرد من الأخلاق والدين والضمير والإنسانية ــ والتعامل مع مثل هذا الثعلب يوجب الحذر، ويتطلب المكر والحيلة والخديعة ولا يفل الحديد إلا الحديد.

كان على الإخوان أن ينتهزوا هذه الفرصة من أول لحظة خرجوا فيها من المعتقل

ليعملوا عملاً إيجابياً يحقق أمال الأمة التى تنتظر منهم هذا العمل مهما أدي هذا العمل السريع إلى تضحيات إذا ماتصدى لهم جمال مع فلوله إن كان بقى له فلول.

ولكن الذى حدث كان غير ذلك. ظن الإخوان أنهم وصلوا بالأمور إلى نهايتها، وأن الرقاب قد دانت لهم، وأن الظروف قد خضعت لمشيئتهم.. فخرجوا من المعتقلات مستسلمين إلى حالة من الاسترخاء والاستجمام أثارت غضبى.

فلقد كانت الفكرة التى أشرت إليها مسيطرة على رأسى تمام السيطرة. فذهبت فى مساء اليوم التالى لخروجنا إلى المركز العام كعادتى على أمل أن ألقى الأستاذ المرشد والإخوة المسئولين؛ لم أجد أحداً منهم. فسألت الأخ الأستاذ محمد الطوبجى مراقب المركز العام عنهم فقال لى:

إنهم فى بيت الأستاذ المرشد يستقبلون المهنئين بالخروج من المعتقلات.

وجئت فى اليوم الثانى فلم أجد أحداً.. وقيل لى إنهم لايزالون يستقبلون المهنئين.. فاستشطت غضباً. بل إن أعصابى كادت تحترق من الغضب. وأنا أعلم أن جمالاً لن يمهلنا حتى نستجم ونستوفى حقنا من تهانى المهنئين.

وذهبت إلى المركز العام فى اليوم الثالث فالتقيت بالأخ الأستاذ عبد الحكيم عابدين الذى بادرنى بقوله: إن الأستاذ المرشد عاتب عليك.

قلت: لماذا؟

قال: لأن جميع الإخوان المسئولين وغير المسئولين زاروه مهنئين حتى صالح عشماوى والغزالى والسندى وزملاؤه المفصولون. وأنت الوحيد الذى لم تزره.

فقلت له: إننى لم أزره ولن أزوره — وصببت عليه — رحمه الله — جام غضبى وقلت له أبلغ الأستاذ المرشد أن بقاءه فى بيته يستقبل المهنئين ليس هو العمل الإيجابى الذى ينتظره الشعب من الإخوان المسلمين فى هذا الظرف الدقيق. وإن الذى جربناه فوجدناه يستبيح الكذب والاختلاق والافتراء والغدر لن يمهلنا حتى نتم استقبال وفود المهنئين.

ولم يكن عبد الحكيم فيما يبدو ى يرى ماأرى، كدأب الإخوان عامة يغلب عليهم حسن الظن الذى جرَّ عليهم وعلى الأمة ماجر من مصائب وأهوال.

ولم ألتق بالأستاذ المرشد والإخوة المسئولين إلا فى اليوم التالى فى حفل شاى دعيت إليه فى منزل الأخ الأستاذ منير الدلة.. وقد أفضيت إلى الأستاذ المرشد بما عندى؛ فاعتذر إلىّ بأنه لم يستطع أن يغادر بيته لحظة لتدفق وفود المهنئين التى لم تدع له فرصة للراحة ولا حتى للاختلاء بنفسه ولو لحظة من ليل أو نهار.

وقد ساءنى أن وجدت الحديث الدائر بين كبار الإخوان فى هذا الحفل منصباً فى

أكثره على موضوع الانتخابات القادمة وموقف الإخوان منها، والتفاهم مع جمال على كيفية إجرائها.. مما جعلنى أتخلص من هذا الحديث وأنتحى جانباً مع الأخ الأستاذ الشيخ محمد فرغلى الذى كان دائماً يتفق معى فى الرأى. وقد كاشفته بما فى نفسى.. وخرجت وإياه من هذا الحفل غير منشرحى الصدر كأنما نتوقع شراً، ولكن لاندرى كيف يكون.

وقد حضر فى خلال تلك الفترة إلى مصر الملك سعود بن عبد العزيز لمحاولة التوفيق بين جمال عبد الناصر والرئيس محمد نجيب.. وقد استقبل الملك وفداً من الإخوان برياسة المرشد العام مرحبين بمقدمه وقد أعرب لهم عن سروره بأن يرى الإخوان يستأنفون نشاطهم ورسالتهم.

وفى أول يوم حضر فيه المرشد العام إلى دار المركز العام أدى صلاة الشكر بالفناء الخارجى للدار وأم المصلين ــ وفى جموع زاخرة من الإخوان قام الأخ الأستاذ عبد القادر عوده محمولاً على الأعناق وألقى الكلمة التالية:

«الحمد لله الذى أرجعنا إلى هذا المكان بعد أن غيبتنا غياهب السجون فترة من الزمن.. ثم أوصى الإخوان بأن يكونوا صفاً واحداً، تحت قيادة واحدة وقال: إن الله قد اختار لنا الخير كل الخير بهذا الحل. لأن القلوب قد تلاقت، والأقدار قد اتحدت ــ ثم قال: إن الدعوة الإسلامية الأولى لم تتحقق بأكثر من هذا العدد الموجود فى فناء المركز العام الليلة. وثقوا أنه مامن قوة تستطيع أن تقضى على هذه الدعوة بحديدها وتارها؛ مادمتم متمسكين بحبل الله المتين والحب القوى الذى يربط بين قلوبكم».

ثم تكلم الدكتور خميس والأستاذ عمر التلمسانى. ثم نهض المرشد فقال:

«إننا نؤثر دائماً المصلحة العامة. وإننا ندع الماضى فلن نتحدث فيه لنعمل جاهدين على طرد المستعمر الغاصب. وإن الإخوان المسلمين هم القوة التى تستطيع أن تدوخ المستعمر ــ وطلب بجمع الصفوف بين أفراد الأمة ليتحقق الغرض المأمول».

وفى خلال هذه الفترة قرر مكتب الإرشاد تكوين لجنة للاتصال بالحكومة ومجلس الثورة من الدكتور كمال خليفة والشيخ محمد فرغلى والأستاذ صالح أبو رقيق والدكتور عبد القادر سرور للتفاهم على المسائل المتعلقة بالجماعة.. وكان من أول ماطالب به الإخوان الإفراج فوراً عن باقى المسجونين ومن بينهم. الإخوة: الصاغ أمح معروف الحضرى وقائد اللواء الجوى عبد المنعم عبد الرءوف والبكباش أمح. أبو المكارم عبد الحى، والصاغ أمح حسين حمودة وغيرهم من الضباط الذين كانوا لايزالون محبوسين بسجن الأجانب وغيره من المعتقلات.

الفصل الرابع

مفاجأة أجهضت مكاسب الشعب

فى اليوم التاسع والعشرين من مارس ١٩٥٤ بينما كنت أباشر عملى بمحلج القناطر الخيرية — ويقع هذا المحلج على الطريق الرئيسى الموصل إلى القاهرة والمحاذى لشاطىء النيل — فوجئت بهتافات متواصلة، وبأصوات مرتفعة. فخرجت إلى بوابة المحلج فرأيت سيارات نقل ممتلئة بعمال، تبين لى أنهم من عمال وزارة الزراعة جاءهم أمر من الوزارة بترك أعمالهم وركوب هذه السيارات الحكومية — سيارات نقل — ومع كل سيارة شخص يحسن القراءة والكتابة، يقرأ الهتافات المكتوبة فى ورقة ويرددها خلفه ركاب السيارة دون أن يعرفوا معناها. وكانت هذه الهتافات متعددة، ولكن أبرزها وأكثرها ترديداً قولهم «لاأحزاب ولا حزبية ولا جمعية تأسيسية». ثم بلغنى أن جميع وسائل المواصلات معطلة فى شبة إضراب.

فتعجبت وتعجب الناس كيف استطاع العمال العاملون فى وسائل النقل المختلفة من ترام إلى أوتوبيس إلى مترو إلى سيارات الأجرة أن تلتقى إراداتهم المختلفة، وظروفهم المتباينة، وأماكنهم المتباعدة على هذا الإضراب المفاجىء، الذى شل حركة العاصمة شللاً تاماً — ثم كيف التقت إرادات عمال الحكومة من مختلف وزاراتها، وعلى تباعد أماكن العمل لكل نوع منها.. كيف التقت إراداتهم رغم ذلك كله؛ فخرجوا فى وقت واحد مضربين متجهين جميعاً إلى قلب القاهرة هاتفين بهتاف واحد وبصيغ واحدة ذات معان سياسية فوق مستوى إدراكهم وثقافتهم..

وكيف يقدم هؤلاء العمال على الإضراب وهم قد رأوا بأعينهم منذ قليل أن عمال شركة واحدة هى شركة كفر الدوار للغزل والنسيج أضربوا مرة واحدة فى عهد الثورة فشنقت الثورة اثنين من زعمائهم علناً..؟!

تحير الناس فى تعليل مارأوا وما فوجئوا به.. ولكن انكشف بعض هذا الغموض حين اتصل بعض من كان معنا بالمحلج ببعض هؤلاء العمال المحملين فى سيارات الحكومة فأخبروهم بأنهم مكلفون بهذا الإضراب من رؤسائهم بناءً على تعليمات من جهات عليا

وأنهم ستصرف لهم أجورهم عن هذا اليوم كاملة.

وصف المفاجأة

سأنقل من جريدة «المصرى» التى صدرت فى اليوم التالى وصفاً لما حدث فى خلال هذا اليوم العجيب حيث كتبت تقول:

«سيطر على القاهرة أمس جو غريب رهيب لم يكن فى يوم من الأيام مسرحاً لما يماثله.. فقد نزلت إلى الميدان عدة «فرق» معينة مكونة من بعض الأشخاص. نزلت هذه «الفرق» إلى القاهرة أمس فأدت إلى تكوين جماعات متعددة أخذت تطوف بمختلف أحياء العاصمة وطرقاتها الرئيسية — وعلى الرغم من أن هذه الجماعات كانت قليلة العدد إلا أنها كانت كثيرة العدة.

فلقد رددت هذه الجماعات الضئيلة العدد، العالية الضوضاء، هتافات غريبة، وكانت هذه «الجماعات» وتلك «الفرق» المعينة تهتف هتافات عدائية، وتندد بالحياة الديمقراطية وقيام الأحزاب.

تعطل المواصلات:

ولقد أدت هذه المظاهرات إلى تعطل جميع وسائل النقل فى مختلف أنحاء العاصمة؛ فتوقفت سيارات الأتوبيس ومركبات الترام والمترو.. حتى سيارات الأجرة التى ظل سائقوها فى عملهم حتى ساعة مبكرة من صباح اليوم سيتوقفون توقفاً تاماً.

مطالبة الموظفين بالتوقف:

ولم تقف موجة المظاهرات عند هذا الحد، فقد ظلت «جماعاتها» تطوف بدواوين الحكومة مطالبين موظفيها بترك أعمالهم. وهكذا تعطلت العاصمة وشلت حركتها تماماً، وانعدمت فيها كل مظاهر الحياة.

مظاهرة ضد «المصرى»:

وقد تجمعت بعض هذه «الفرق» أمام دار جريدة «المصرى» فى حوالى الساعة الثانية والنصف بعد ظهر أمس وهى تردد هتافات «تسقط المصرى العاهرة وتعيش الجمهورية الحرة».

ولما كانت الأوامر قد صدرت إلى رجال البوليس بعدم التعرض لهذه «الجماعات» أو تفريقها فقد اعترض طريقها إلى «المصرى» رجال البوليس الحربى. ولكن هذه «الجماعات» لم يرضها من البوليس الحربى ذلك فتراجعت إلى الوراء فى شارع القصر العينى وأفرادها يقذفون الحجارة ليحطموا بها زجاج نوافذ الدار وقد تحطم بعض زجاج غرفة رئيس التحرير. وقد أصابت حجارتهم فضلاً عن تحطيم النوافذ أربعة من رجال البوليس الحربى فى رؤسهم فأصابتهم بإصابات مختلفة ـ ثم انصرفت هذه «الجماعات» من أمام دار جريدة «المصرى» متجهة إلى جهات أخرى.

وخطب الصاغ صلاح سالم فى المتظاهرين أمام رياسة مجلس الوزراء أمس فقال: إن الثورة ستستمر فى طريقها، وإن الوجوه القديمة من الشيوخ والنواب السابقين لن تعود إلى الوجود.

ويلاحظ أنه بعد يوم واحد من اتخاذ القرارات المشار إليها أخذت الأزمة تشتد حتى بلغت ذروتها عقب عودة الرئيس نجيب من زيارته للإسكندرية يصحبه جلالة الملك سعود إذ فوجىء بمطالب تتعارض تماماً مع مااتخذه مجلس الثورة من قرارات. **وقال البكباشى جمال عبد الناصر إنها رغبة الجيش بجميع وحداته.**

ووجد الملك سعود أن من الواجب السعى لتقريب وجهتى النظر فدعاهما إلى قصر الطاهرة لبحث هذا الأمر. وأجل الملك العربى سفره أمس إلى اليوم أملاً فى حل الموقف ـ وفى صباح أمس زار جمال عبد الناصر الرئيس نجيب فى داره للتباحث فى هذا الشأن ـ وقبل ظهر أمس اجتمع المؤتمر المشترك لبحث المبادىء التى يمكن أن يتم الاتفاق عليها حلاً للموقف. وقد انتهى المؤتمر من إقرار هذه المبادىء على أن يتم بحث تفاصيلها اليوم. والمفهوم أنها لن تعترف بالأحزاب، وسيكون لمجلس الثورة السيادة، كما يدور البحث حول شكل الجمعية الوطنية وسلطة رئيس الجمهورية.

وعند اجتماع مجلس الثورة مع الوزراء حضر الرئيس نجيب، ولم يستطع الدخول إلا من الباب الخلفى لدار مجلس الوزراء؛ لأن المتظاهرين سدوا الباب الأصلى ـ ولما حضر جمال وصلاح وعامر حضروا فى سيارة واحدة هتفت لهم هذه المظاهرات. وقد ألقى جمال عبد الناصر كلمة فى المتظاهرين جاء فيها: «وسنسير حتى نحقق أهداف الثورة. وهذه الثورة ليست ثورة فرد أو أفراد، ولكنها ثورتكم ياشعب مصر. وليس جمال أو صلاح إلا أبناء هذه الثورة. وسنسير مع الشعب لتحقيق أهداف هذا الشعب. وقد غرروا بنا فى الماضى واستغلونا واستباحوا كرامتنا، أما اليوم فأنتم ياشعب مصر لن تمكنوا أى فرد من أن يخدعكم أو يضلل بكم، فأنتم الأمناء عليها. **ولن تكون هناك ديكتاتورية إلا ديكتاتورية الشعب**

أوامر من قيادة الحرس الوطنى بترحيل أفراده من الإسكندرية والأقاليم إلى القاهرة :

نشرت جريدة «القاهرة» أمس رسالة تلقتها من مكتبها بالإسكندرية قالت فيها : طلبت قيادة الحرس الوطنى بالإسكندرية إعداد قطار خاص مكون من سبع مركبات لنقل ٨٠٠ من قوات الحرس الوطنى الذين سيغادرون الإسكندرية فى طريقهم إلى القاهرة صباح الاثنين «اليوم».

وقالت الجريدة : وتلقينا أيضاً من مراسلنا فى مدينة الواسطى رسالة تليفونية عاجلة يقول فيها : وردت إشارة اليوم من الفيوم لمحطة الواسطى ونصها : رقم ٤٦ — إلى حركة القطارات بمصر ومفتش حركة الفيوم والواسطى مستعجل جداً :— مطلوب ترحيل ١٥٠ حرس وطنى لمصر بصفة عاجلة جداً بقطر رقم ٧٣٥ لقطر رقم ٧٧٧ اليوم— الواسطى تستعد بعربتين لإضافتهما إلى قطار رقم ٧٧٧ ويلاحظ ركوبهم والمختصون للتأكيد والإفادة للتنبيه باللازم— وقد نفذت محطة الوسطى هذه التعليمات.

وقالت جريدة القاهرة أيضاً فى عددها مساء أمس : إن مندوبها علم أن المسئولين عن منظمات الشباب برياسة الصاغ وحيد رمضان يقومون الآن بالتمهيد لتنظيم مظاهرة سلمية صامتة كبرى، تمر فى أنحاء شوارع القاهرة، وتهدف إلى مطالبة المسئولين بالسلاح للكفاح ضد الاحتلال— ومن المنتظر أن تخطر محافظة القاهرة بخط سير هذه المظاهرة السليمة.

وأدلى الصاغ خالد محيى الدين لمندوب «المصرى» بالإسكندرية أمس حين قال له المندوب إن بعض مدارس الإسكندرية قد أضربت فقال «عساهم أن لايكونوا قد هتفوا بسقوط الحرية والبرلمان والحياة النيابية».

الاعتداء على مجلس الدولة :

استقال الأستاذ سليمان حافظ الذى كان يمثل القانون فى الثورة.. وقد هاجمت هذه «الفرق» مجلس الدولة، واعتدوا على الدكتور عبد الرازق السنهورى رئيس المجلس الذى أصيب بجراح، وقد استغاث بجمال عبد الناصر فأرسل إليه صلاح سالم وصحبه إلى منزله.

الحياة الطبيعية تستأنف اليوم :

على أثر إعلان القرارات الجديدة لمجلس الثورة عادت الحياة إلى طبيعتها— وفى المساء قصد جمال وصلاح وكمال حسين إلى مقر اتحاد عمال النقل المشترك وحثوهم على

العمل ــ ثم صدر بيان من وزارة الداخلية بمنع المظاهرات».

هذا هو وصف جريدة «المصرى» لما حدث فى ذلك اليوم.. ولقد قلت حين رأيت هذه المفاجأة: لقد سبقنا جمال عبد الناصر، وبقدر مامنحه سبقه فرصة يعمل فيها ويدبر؛ سلبنا تخلفنا الفرصة للتفكير والتدبير. ولم يعد أمامنا بعد ذلك إلا أن نحاول أن نكف عن وجوهنا مايوجهه إليها جمال عبد الناصر من لطمات؛ فليس لجمال عدو إلا نحن، وليس له منافسون سوانا؛ فلقد اختفت الأحزاب كأن لم تكن، ودار أكثر رجالها واستداروا ورضوا أن يكونوا أذناباً له فى هيئة التحرير.. إن الرجل يريد أن يحكم البلاد بنفسه وبرأيه وبتفكيره وحده؛ يضغط على زر فتقوم ويضغط على زر فتقعد.. أين هذا مما يريده الإخوان عليه من أن يدع البلاد تحكم نفسها بنفسها بدستور مستمد من القرآن الذى يقدس الشورى، ويندد بالأنانية والاستبداد؟!

ويلاحظ أن هذه الحركة المفاجئة التى باغتت الناس جميعاً، قام بها عبد الناصر فى الوقت الذى لم يكن له سند من الجيش بدليل أن «مجموعات» عمال النقل المشترك حين هاجمت جريدة «المصرى» تصدى لها البوليس الحربى، ولكن جمال عبد الناصر لجأ إلى طبيعته فى الكذب حين سأله الرئيس نجيب عن هذا الانقلاب المفاجىء فقال: إنها رغبة الجيش بجميع وحداته.

لقد استباح جمال عبد الناصر ــ لتثبيت نفسه وإجهاض كل ماأجمعت عليه طوائف الأمة ــ جرائم جساماً لن يتغاضى التاريخ عن الحكم عليها وتجريمها.. رجل ائتمنته الأمة على أموالها فيأخذ من هذا المال ويرشو به رئيس اتحاد نقابات عمال النقل المشترك واسمه «الصاوى» ليعلن إضراباً شاملاً لمطالب خاصة.. ثم يسخر وسائل الإعلام من إذاعة وصحافة لإذاعة أنباء هذا الإضراب.. ثم يوعز إلى الوزراء بإرسال العمال التابعين لوزاراتهم بسيارات الحكومة إلى القاهرة هاتفين ضد الحياة النيابة، ونظرا لعدم وجود نصير له فى الجيش يلجأ إلى الحرس الوطنى التابع لكمال الدين حسين فيسخر السكة الحديد لنقل شباب الحرس الوطنى من الإسكندرية والصعيد إلى القاهرة لتأييد حركة العمال المفتعلة المرشوة من خزانة الدولة.. ثم يسلط هؤلاء وهؤلاء على الجريدة الحرة الوحيدة فى مصر ليحطموا زجاجها ولولا دفاع البوليس الحربى عنها لحطموها وقتلوا من فيها ــ ثم يسلطهم على حرم القضاء فيهاجموا رئيس مجلس الدولة وكادوا يفتكون به.

هذه جرائم لن يغفرها التاريخ. ولئن حاول الذين انتفعوا من وراء هذه الجرائم وآل إليهم الأمر من بعده أن يتستروا على هذه الجرائم ويبسطوا عليها بساط النسيان ــ وإذا أحرجهم ذو جرأة وشجاعة لجأوا إلى وسائل ممقوتة من التبرير واختلاق الأعذار التى هى وحدها جريمة يحاول بها ستر جريمة.. لئن واتت الظروف هؤلاء ردحاً من الزمن، فإن

ذلك لن يطول بإذن الله.. ومهما طال فلن يمحى من صفحات التاريخ وسوف يأتى اليوم الذى ينشر فيه ويقول التاريخ فيه كلمته.

ولم نكن نحن وحدنا الذين ساءهم ماارتكبه جمال عبد الناصر من جريمة فى ذلك اليوم؛ بل إن زميله وصديقه فى مجلس الثورة عبد اللطيف البغدادى ذهل لما فعله جمال وكان يظن هو وزملاؤه أن هؤلاء العمال تحركوا من تلقاء أنفسهم، فلما علموا بأن جمالا دفع أربعة آلاف جنية من أموال الدولة رشوة للصاوى رئيس نقابة هؤلاء العمال «عاتبه» البغدادى فى هذا التصرف فرد عليه جمال بقوله: ماهو كان لازم ندفع لهم، لأن خالد محيى الدين ويوسف صديق كانوا حيدفعوا أيضاً لتحقيق غرضهم.

ومن هنا نستمد دليلاً جديداً على أن جمال عبد الناصر كان يتعامل مع من سماهم أعضاء مجلس الثورة لاتعامل الزملاء كما أوهمهم وأوهم الناس، بل تعامل صاحب الهدف الشخصى يحجبه فى طيات نفسه، ويستعين فى كل خطوة يخطوها نحو هذا الهدف بمن يراه صالحاً للاستعانة به من هؤلاء.. ويبدو أن البغدادى لم يكن صالحاً للاستعانة به فى هذه الخطوة فركنه جانباً وراح يستعين بمن هم أسلس منه قياداً وأكثر سذاجة ومن لايفهمون أنهم يشتركون بذلك فى ارتكاب جريمة.

ولكن الجريمة ارتكبت بكل جرأة وبكل صفاقة، وتم نجاحها، وخرج جمال عبد الناصر ظافراً على أنقاض أمة فقدت كل آمالها فى الحرية والأمن والاستقرار.. وظن السذج الذين أعانوه على هذه الجريمة أنهم ــ كما ألقى فى روعهم ــ أسدوا إلى أمتهم جميلاً عظيماً وصدق الله العظيم **﴿قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً؟ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾**.

* * *

الباب الحادى عشر

مابعد إفلات الفرصة

أيام سوداء

الفصل الأول : عبد الناصر والإخوان يتبادلان المواقف

الفصل الثانى : تحرش مقدمة لخطوة سياسية مريبة

الفصل الثالث : التحرش لم يمنع الإخوان من انتقاد الاتفاقية

الفصل الرابع : عبد الناصر يقابل نقد الاتفاقية بخطه تنكيل وإبادة

الفصل الأول

عبد الناصر والإخوان يتبادلان المواقف

لأدرى هل كنت منصفاً فيما حمّلت قيادة الإخوان وزره من تباطئها عن احتلال مكانها الذى كان شاغراً فى انتظارها لقيادة الشعب إلى حريته؟.. ولقد بسطت الظروف التى أحاطت باعتقال الإخوان ثم بالإفراج عنهم، قبل أن أحمل هذه القيادة الوزر حتى لاأكون متجنياً فى هذا التحميل.

وينبغى أن يكون معلوماً أن نقد القيادة نقداً مباشراً لامن وراء ظهرها فى موقف من المواقف لايقدح فى تقديرها والإخلاص لها.. هكذا علّم الإسلام أبناءه؛ حتى المرأة نقدت عمر بن الخطاب وهو على المنبر وأذعن عمر.

وقد يقوم عذراً للقيادة فى هذا الصدد أنها تعتصم فى كل تصرفاتها بالقيم الإسلامية.. ولكن هذه القيم لها موقف معروف ومحدد إزاء من جُرب عليه الكذب ونكث العهد.

وقد أثرت هذا الموضوع فى فصل سابق وما كان من حديث حوله بينى وبين الأخ الأستاذ عبد الحكيم عابدين ثم بينى وبين الأستاذ المرشد العام.

غير أن جديداً جد فى هذا الموضوع وإن كان هذا الجديد جديداً علىّ أنا شخصياً حيث لم يكن لى به سابق علم ولم أعلم به إلا بعد أن قرأت كتاب «صفحات من التاريخ» للأخ الأستاذ صلاح شادى، فقرأت فيه فى صفحة ٣٢٦ مايأتى:

«حتى بعد وضوح غدرته بنا فى سنة ١٩٥٤، ودخولنا السجن وخروجنا منه، وزيارته (جمال عبد الناصر) للمرشد فى منزله على سبيل الاعتذار، حيث طلب من المرشد أن لانهدده بإخراج مظاهرات تنادى بشجبه ووعده المرشد بذلك. ودعا المرشد فى بيان عام جموع الشعب إلى الإخلاد إلى الهدوء بغرض تهيئة الجو للإصلاح بين نجيب وعبد الناصر ــ فلما خرجت مظاهرات مارس المزيفة توجه الأخوان هارون المجددى وتوفيق الشاوى إلى المرشد حسن الهضيبى وطالباه بإخراج مظاهرات مضادة، فأبى أن يجيبهما إلى ماسبق أن دعا الشعب إلى نقيضه فلا يتسق سره وعلانيته».

وقد طرق سمعى لأول مرة من هذه الفقرة التى اجتزأتها من كتاب الأخ الأستاذ صلاح شادى أنه كان هناك طلب من جانب جمال عبد الناصر أن لايخرج الإخوان مظاهرات تهدده، وأنه كان قد وعد من جانب المرشد العام بذلك.

وإن كنت ألفت النظر إلى بقية ماجاء بهذه الفقرة مما يتصل ببيان المرشد العام الذى يطلب من جموع الشعب الإخلاد إلى الهدوء، فأقول إن هذا البيان لم يصدر أو على الأقل لم ينشر إلا بعد وقوع المظاهرات المزيفة. وإنه لم يكن من الصواب إخراج مظاهرات مضادة لأن جمال عبد الناصر فى ذلك الوقت كان قد صار فى موقع القوة.

ثم قرأت فى مذكرات معدة للنشر إن شاء الله للأخ الأستاذ عبد الحفيظ الصيفى مايلى: «عندما اضطر جمال عبد الناصر إلى إخراج الإخوان من المعتقل الأول كانت هناك لجنة وساطة من الأستاذ فؤاد جلال والدكتور عبد القادر سرور. ووضع الطرفان شروطاً: أن يزور جمال المرشد فى بيته معتذراً — وأما من جانب جمال فاشترط أن يلتزم الإخوان الصمت لفترة معينة.

فى خلال هذه الفترة تحركت المظاهرات العمالية المدفوعة الأجر — ويقول الأخ هارون المجددى إنه توجه مع الأخ الدكتور توفيق الشاوى — كما توجه غيرهما — لمقابلة الأستاذ الهضيبى يطلبون منه أن تتحرك الجماعة لمواجهة مايجرى فى البلد، والعمل على إيقاف هذه المهزلة فكانت إجابته: لقد أعطيت كلمة ولمدة ثلاثة أيام ويجب أن أكون عند كلمتى.

لكن، وبعد صحوة من الغفوة..

يقول الأخ الدكتور كمال خليفة: إن الأستاذ الهضيبى اتصل به، وطلب منه الاتصال بجمال ليحدد موعداً معه للمقابلة. وتم ذلك بالفعل. وتوجه المرشد مع الدكتور كمال وتحدث فضيلته مع جمال عن هذا الذى يجرى فى شوارع القاهرة، وطلب منه العمل على إيقافه لأنه يعرض البلاد إلى عدم الاستقرار — ولكن عبد الناصر لم يأبه لهذا القول. بل نظر إلى المرشد غير مكترث بما يسمع — ويقول الدكتور كمال إنه نظر إليهما نظرات ذات معنى واحد؛ أنه نجح فى تحقيق مايريد ولا يهمه بعد ذلك مايقال».

قرأت هذا وكان نبأ جديداً علىّ، وفيه تفصيل لما جاء بكتاب الأخ الأستاذ صلاح شادى، فذكرنى ذلك بقصة التحكيم التى تروى فى بعض الكتب — وإن كنت قرأت تحقيقاً تاريخياً أثبت أنها لم تحدث — ولكنها لازالت تروى على الصورة الآتية:

لما اشتد الخلاف بين علىّ ومعاوية اتفق الطرفان على التحكيم بينهما فاختار طرف علىّ أبا موسى الأشعرى واختار طرف معاوية عمرو بن العاص.. واختلى الحكمان معاً

ليتفقا على رأى فاتفقا على أن يخلع كل منهما صاحبه، ويتركا الأمر بعد ذلك للمسلمين يختارون إماماً آخر.

ولما كان على كل منهما أن يعلن هذا الرأى على المنبر، اختلفا من يصعد المنبر أولاً؟ فتأخر عمرو ابن العاص مدعياً أنه ليس من حقه أن يتقدم على أبى موسى وأبو موسى يفضله بسابقته فى الإسلام وعلمه وفضله؛ فتقدم أبو موسى وأعلن قائلاً: إننى أعلن أننى أخلع علياً كما أخلع خاتمى هذا وخلع خاتمه ـــ فلما جاء دور عمرو بن العاص صعد المنبر وأعلن قائلاً إننى أثبت معاوية كما أثبت خاتمى هذا وثبت خاتمه فى إصبعه.

ويستدل رواة هذه القصة بها على طيبة أبى موسى ومكر عمرو بن العاص.. وإذا فرضنا أن هذه الواقعة حدثت فإن أبا موسى لايلام على طيبته وحسن ظنه فإنه لم يجرب على عمرو بن العاص كذباً ولا نكثاً للعهد.. ولكننا جربنا على جمال عبد الناصر الكذب وآنسنا منه نكث العهد؛ فما كان ينبغى لنا أن نلدغ من جحر مرتين.

وأنا لازلت أكرر أن الفرصة التى كان يجب أن تستغل، وأن لانضيع ساعة واحدة منها هى فرصة الثلاثة الأيام التى أخذ بها جمال عهداً من المرشد العام فاطمأن بذلك أنه ضمن ثلاثة أيام تشل فيها حركة الإخوان وتكون له فرصة للتفكير والتدبير، وناهيك بثلاثة أيام للتفكير والتدبير من شخص لايحد تفكيره قانون ولا يقيد تدبيره دين ولا شرف ولا يرقب فى مؤمن إلاً ولا ذمة.

على العموم.. قد كان ماكان ولم يعد أمام الإخوان بعد أن أفلتت منهم الفرصة، وبعد أن سبقهم إليها جمال عبد الناصر، إلا أن يتلقوا منه ـــ كما قلت من قبل ـــ اللطمات، وكل مايملكه الإخوان أن يفكروا كيف يتفادون هذه اللطمات؛ إن استطاعوا أن يتفادوها.. وهيهات.

وكان للإخوان مجموعة خصصوها للاتصال بالحكومة أو بمعنى أصح بجمال عبد الناصر للتفاهم فى مختلف الشئون. وقامت هذه المجموعة بالاتصال مرة ومرات، ولكنها لم تأت بنتيجة ذات قيمة، لأن جمال عبد الناصر كان فى تلك الأثناء يتكلم من موقع القوة؟ فلقد آلت إليه مقاليد الأمور بعد أن أصبح محمد نجيب مجرد رمز وصورة يحركها كيفما شاء. ولا ننسى أن محمد نجيب هو الذى أجابه على طلبه فمنحه سلطة الحاكم العسكرى ـــ التى كان يتمتع هو بها ـــ وزاده عليها بسلطات لم يمنحها الحكام العسكريون من قبل ولو كانوا فى ميادين القتال.. ولقد كان عبد الناصر حريصاً على أن يخول هذه السلطة بطريقة قانونية؛ ولا يعنيه بعد ذلك أن يشغل أعلى المناصب أو أدناها؛ فإن كل هذه المناصب بغير هذه السلطة مناصب جوفاء ـــ أما هذه السلطة فهى السيف الذى يستطيع به أن يذل الرقاب، ويطيح الرءوس، ويخضع الصغير والكبير، ويتحكم به فى أصحاب المناصب

حتى فى أولئك الذين منحوه إياها.

ولقد كنت أشرت من قبل إلى أن المرشد العام كان قد رفع دعوى أمام مجلس الدولة يطلب فيها الحكم ببطلان قرار الحل الذى أصدره مجلس الثورة؟ وإلى أن مجلس الدولة قرر نظر الدعوى يوم ٣١ مارس ١٩٥٤ — ولكن يوم ٣١ مارس جاء بعد يوم ٢٩ مارس الذى حدث فيه انقلاب جمال عبد الناصر.. وكان ضمن حلقات هذا الانقلاب اقتحام الرجال الذين استأجرهم عبد الناصر بمال الشعب لمبنى مجلس الدولة، والهجوم على رئيسه الدكتور السنهورى ومحاولة قتله.. ولذا فقد حاولت أن أجد إشارة فى يوم ٣١ مارس ومايلاه من أيام لموضوع دعوى الإخوان فلم أقف لها على أثر.. لقد قضى انقلاب عبد الناصر فيما قضى عليه على هيبة القضاء بعد أن ديس أكبر رجل فيه بنعال أبطال يوم ٢٩ مارس ١٩٥٤.

وأستطيع أن أختصر القول فأقول إنه مامن يوم جاء بعد ذلك إلا كان أسوأ مما قبله لاسيما فى العلاقات بين الإخوان وبين عبد الناصر، فضلاً عما حاق بالبلاد من دمار خلقى ومادى— ولكن الإخوان بالرغم من فقدهم موقع القوة الذى كانوا فيه، فإنهم لم يقفوا موقف المتفرج، بل تقدموا فى كل موقف بما يجب عليهم من النصح والإرشاد.. وهاكم خطاب المرشد العام إلى عبد الناصر فى غرة شهر رمضان ١٣٧٣ الموافق ٤ مايو ١٩٥٤: السيد رئيس مجلس الوزراء.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

فإنكم دون شك تذكرون أنكم اتفقتم معنا على إنهاء الوضع الشاذ الذى أوجده حل جماعة الإخوان المسلمين يوم دعوتم الإخوان إلى تناسى الماضى والتعفية على آثاره، ورأيتم أن خير البلاد ومصلحتها فى أن يبدأ الإخوان ورجال القيادة عهداً جديداً من التعاون.

وقد سلمتم يومئذ بوجوب إلغاء قرار الحل الخاص بجماعة الإخوان المسلمين وبالإفراج عن جميع المعتقلين، وبرفع الأثر الذى ترتب على بيان الحل رفعاً صريحاً يغنينا عن التعرض لمناقشة البيان.

وبصرف النظر عن أن المسائل الخاصة بالجماعة لم ينته الرأى فيها إلى مااتفق عليه، فإن مصلحة الوطن تقتضينا أن نبذل لكم من الرأى فى مشاكله مانرى أنه يدعو إلى اطمئنان الناس كافة، ويحقق الاستقرار الذى لايمكن بدونه أن يتم شىء من إصلاح الأمور الاجتماعية والاقتصادية وغيرها من الشئون على وجهه الصحيح. والدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم— كما قال رسول الله ﷺ— ومن حقنا أن نؤدى لكم الواجب علينا.

من ذلك؛ أن مصر اليوم تجتاز مرحلة من أدق المراحل التى مرت بها. فنحن جميعاً نهدف إلى تحرير البلاد وإخراج الإنجليز منها. ولن تخرجهم الخطب والبيانات، وإنما يخرجهم كفاح شاق طويل ليس هذا موضع بيانه. ونحن لانريد الدفاع عن أنفسنا فحسب ضد إسرائيل التى استأسدت علينا فى الأونة الأخيرة، بل نريد إخراجها من فلسطين، ولا تزال الحرب بيننا وبينها قائمة، وإن كنا فى هدنة.

وأول مايجب علينا؛ أن نتخذ العدة لذلك، وأن نعد جيشاً لمهمته الأصلية وواجبه الأول. فإن مصر لتحتاج إلى الاستقرار. وهو أمر لاينال بالكلام، ولا يدرك بالشدة؛ ولكنه ينال حينما يشعر الناس شعوراً حقيقياً بأنهم حماة الثورة. وحماة ماإتجهت إليه من ضروب الإصلاح. والثورة لابد للمحافظة عليها من أن تحوطها القلوب وتذود عنها. أما القوة وحدها فإنها لاتحقق الغاية المقصودة. ويدرك الاستقرار كذلك بالعدل والإصلاح والرفق. وإنه لا يغنى واحد من هذه عن آخر — وإن للاستقرار وسائل أحب أن أضع تحت نظركم منها ما يأتى:

١ — إعادة الحياة النيابية

لاريب أن الحياة النيابية هى الأساس السليم لكل حكم فى العصر الحاضر. وإذا كانت تجارب الماضى قد أظهرتنا على بعض العيوب؛ فمن واجبنا أن نخلى حياتنا النيابية من العيوب، وأن نجعلها أقرب ماتكون إلى الكمال. والأمة لاتتعلم بإلغاء الحياة النيابية فى فترة الانتقال، وإنما تتعلم بممارسة الحياة النيابية بالفعل؛ فلنشرع فوراً فيما يؤدى بنا إليها فى أقرب وقت.

٢ — إلغاء الإجراءات الاستثنائية (الأحكام العرفية)

فإن الإجراءات الاستثنائية إذا أفادت الهدوء المؤقت، والاستقرار الظاهر؛ فإنها تخلق حالة من الغليان، وتذكى النار تحت الرماد. ولن يؤمن على مستقبل الوطن إذا اشتعلت النيران.

٣ — إطلاق الحريات

وأود أن تطلقوا الحريات جميعاً، وعلى الأخص حرية الصحافة؛ فإن فى ذلك خير مصر وأمنها وسلامتها. ولقد رأيتكم تأخذون على الناس أنهم لم يقولوا لفاروق «لا» حيث يجب أن تقال؛ وأنتم الآن بفرض الرقابة على الصحف تمنعون الناس أن يقولوا لكم «لا» حيث يجب أن تقال — وما هكذا تربى الأمة

على نصرة الحق وخذلان الباطل.

ونحن لانسلم بأن تتجاوز الصحافة حدودها، ولا أن يطلق لها العنان لتلبس الحق بالباطل؛ وإنما نحب أن تترك لتقول الحق فى حدود القانون، فإذا تجاوزته حق عليها العقاب ــ وقد تجدون فى معارضة الصحف لكم خيراً كثيراً:

وغنى عن القول أن إطلاق حريات المعتقلين وبعض المحكوم عليهم من المحاكم الاستثنائية أمر توحى به ضرورة جمع الشمل وتوحيد الكلمة، ويوجبه الحق والعدل.

أما الإصلاح فمجاله واسع. وفى رأينا أن إصلاح النفوس أولى من كل إصلاح لأنه أساس كل إصلاح. والله نسأل أن يرزقنا الصدق فى القول والعمل، وأن يعصمنا من الزلل وأن يهدينا جميعاً سواء السبيل، إنه سميع مجيب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

* * *

الفصل الثانى

تحـــرش
مقدمة لخطوة سياسية مريبة

لايستطيع أحد أن ينكر أن جمال عبد الناصر ــ بعد خديعته التى حاكها ــ صار فى المركز الأقوى داخلياً؛ بحيث صارت شئون البلاد الداخلية فى قبضة يده، ومقدراتها طوع يمينه.. وصار يأمر فيطاع، ويشير فيتسابق الناس إلى حيث يشير.. ويعلن عن حفل فى مناسبة من المناسبات يخطب فيه، فيجد فيه الألوف، وتقاطع خطبته بالتصفيق والهتاف.. إنه أصبح يسيطر على قوات الشرطة عن طريق وزير داخليته، ويسيطر على الجيش عن طريق زميله وصديقه المقرب عبد الحكيم عامر.. وأصبح يسيطر على موظفى الدولة وعمالها فأرزاقهم فى يده.. ماذا بقى من أسباب القوة لم تعد فى قبضته؟! أليس هذا هو الأمل الذى كان يراوده من أول يوم من أيام الثورة وأفضى به إلى أصدقائه من الإخوان شادى ومجموعته؟ إنه أضحى إذا ضغط على زر قامت البلاد، وإذا ضغط على زر آخر قعدت البلاد..

إنه رأى ذلك كله بنفسه يتحقق.. ولكنه فى قرارة نفسه لم يجد له طعماً، مثل أفخر طعام وأشهى غذاء يقدم إليك ولكن دون ملح، يحسدك عليه الناس ولا يعلمون أنك لاتجد له طعما.. إنه كان يحدث نفسه كلما رأى نفسه محاطاً بهالات من التوقير والاحترام من كل من يلوذبه.. كان يحدث نفسه ويقول: هل هذه هى القوة حقاً؟.. هل إذا أنا فقدت هذا المنصب أجد كل هؤلاء الذين يتزلفون إلىّ ويحيطون بى..؟

أما المنصب فالجيش والشرطة يحميانه فأنا ثابت فى منصبى، ولكن المشكلة ليست هى إخضاع الشعب فقد أخضعته، ولكن المشكلة هى مابين هذه البلاد وبين الإنجليز؛ وهى القضية الأساسية التى كم من حكومات تهاوت لعجزها عن حلها، وقمنا بالثورة وآزرنا الشعب آملاً أن يكون حلها على أيدينا.. وقد ضحى الشعب من أجل هذه القضية بالكثير وينتظر منا مواصلة النضال.. إننى أستطيع أن أوهم الشعب بأنى قوى، ولكن هذا

العدو الجاثم فوق صدرنا ليس بالأبله الذى يمكن التمويه عليه، فهو يعرف تماماً مدى شعبيتى.. نعم أنا أنشأت هيئة التحرير، وأصبح لها فرع ومقر فى كل مركز من مراكز القطر، وأصبحت تضم مئات الآلاف من الأعضاء ولكن الإنجليز رأونى بأعينهم حين ضيق مثقفو الشعب على الخناق لإلزامى بدستور وحكم نيابى، وأخذت أبحث لى عن معين يعيننى أو أسند إليه ظهرى أمام هؤلاء، فلم أجد من مئات الآلاف الأعضاء فى هيئة التحرير عشرة أشخاص يقفون بجانبى، واضطررت للخضوع حتى استأجرت عمال النقل المشترك.. لقد رأى الإنجليز كل هذا بأعينهم وعرفوا أن هيئة التحرير إن هى إلا وهم كبير، وأننى لاأستند إلى سند شعبى ــ وكان خزياً لى أنه فى الوقت الذى عجزت أنا ورجالى من الضباط أن نجمع عشرة أشخاص من هيئة التحرير يقفون بجانبنا؛ استطاع الإخوان المسلمون ــ وقادتهم فى السجون ــ أن يجمعوا أكبر مظاهرة حدثت فى مصر فى يوم واحد..

ولكن هل كنت أجهل كل هذه الحقائق ولم أعرفها إلا اليوم؟ لا.. لقد كنت أعرفها ولكننى وضعت خطتى على أساس أن القاعدة الشعبية جاهزة، وأنا أحد أعضائها من قديم، وكل مهمتى أن أحاول بكل الوسائل أن أتولى زمامها.. ولقد كان الإنجليز يعرفون أين القوة الشعبية منذ قامت الثورة فلما بدأت أنا وزملائى فى المفاوضة مع الانجليز، اتجه الانجليز مباشرة إلى المرشد العام ليعرفوا أدنى طلبات القوة الشعبية.

والآن أرانى أقف موقفاً لاأحسد عليه؛ فالهيئة الشعبية وقد استنفدتُ ماكان لدى من وسائل ولكنها فشلت جميعاً، ومع ذلك فما زال الباب مفتوحاً أمامى للتصالح معها لتكون لى سنداً يرهب الإنجليز حين أتفاوض معهم.. ولكنهم يشترطون للتصالح شروطاً لاأقبلها؛ من حكم دستورى نيابى قائم على الشريعة الإسلامية. ومعنى ذلك أننى أكون قد حطمت كل آمالى بنفسى،فأنا أريد حكماً لايشاركنى فيه أحد.. إذن الصلح مستحيل..

وإذا كان الصلح مستحيلاً فمعنى ذلك أننى سأواجه مفاوضاً يعرف المدى الحقيقى لشعبيتى، وإذن لابد من التساهل معه والتنازل عن بعض حقوق البلاد.. وفى هذه الحالة ــ وفى يدى كل وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وأحكام عرفية ــ أستطيع أن أوهم الشعب بأننى حصلت له على اتفاقية حققت كل أمانيه فى التحرر والاستقلال..

أما الإخوان فقد حرمتهم من جريدتهم وأصدرت أمراً إلى جميع الصحف بعدم نشر أى شىء عنهم أو منهم وبذلك لن يصل إلى مسامع الشعب إلا مايصدر عنى.. وسأضيق عليهم الخناق بمختلف الوسائل حتى يشغلوا بأنفسهم.. وعلى العموم فحسابى معهم لابد من تصفيته مالم يذعنوا ويلقوا إلىّ السلم.

معنى تبادل المواقف:

جعلت عنوان الفصل السابق «عبد الناصر والإخوان يتبادلان المواقف» وأحب أن أوضح هذا العنوان فأقول إن معنى ذلك أن الإخوان كانوا قبل خديعة ٢٩ مارس فى موقف القوة، وكان عبد الناصر فى موقف الضعف ثم انقلب الوضع بعد الخديعة فصار عبد الناصر فى موقف القوة وصار الإخوان فى موقف الضعف..

وهذا لايعنى أن الإخوان كانوا أقوياء فضعفوا وأن عبد الناصر كان ضعيفاً فصار قوياً، ولتقريب هذا المعنى أضرب مثلاً بطفل رأى رجلاً يطل من سطح منزل فاستفزه الطفل بشتائم دفعته إلى النزول إليه فى الشارع ليقتص منه، فانتهز الطفل فرصة الوقت الذى يستغرقه الرجل فى النزول وصعد هو إلى سطح المنزل من سلم خلفى، فلما صار الرجل فى الشارع والطفل على السطح أخذ الطفل يقذفه بالحجارة ولا يستطيع الرجل أن يقذفه من الأرض إلى أعلى.. فالطفل صار فى موقف القوة فى الوقت الذى قوته لازالت قوة طفل — والرجل صار فى موقف الضعف فى الوقت الذى قوته لازالت قوة رجل.

أما ضعف عبد الناصر وإن كان قد صار فى موقف قوة فقد شرحناه فى السطور السابقة، وأما الإخوان فلم يفقدوا شيئاً من مقومات قوتهم وإن كانوا قد صاروا فى موقف الضعف.

حرب النشرات:

هذا تعبير جمال عبد الناصر شخصياً. ولكن الموضوع يتلخص فى أن عبد الناصر وقد صار صاحب جميع السلطات أغلق للإخوان مجلتهم وفى الوقت نفسه سلبهم حق إصدار مجلة أخرى تعبر عن آرائهم ومنع الصحف من نشر أى شىء عنهم أو منهم.

صحيح أن الإخوان لم يعجزوا مع ذلك عن نقل آراء قيادتهم وشرحها إلى سائر الإخوان فى شعبهم عن طريقين:

طريق الانتقال؛ فقد كانت توزع محافظات القطر على مجموعة من القيادات الإخوانية بالمركز العام وتسافر هذه القيادات إلى عواصم المحافظات حيث يجدون فى انتظارهم ممثلين لجميع الشعب الرئيسية التابعة للمحافظة، فينقلون إليهم آراء القيادة ويشرحونها لهم ويتناقشون فيها معهم.. وبطريقة التسلسل تصل هذه التعليمات والآراء والتوجيهات إلى كل فرد من الإخوان فى المحافظة.. وعيب هذه الطريقة البطء فهى تستغرق وقتاً طويلاً ومجهوداً جسمياً وتضحيات مادية.

ولهذا استعانوا بطريق آخر وهو الطريق الذى سماه عبد الناصر حرب النشرات.. ولا

يخفى على القارىء أن ظروف طبع هذه النشرات تجعل نشرها محدوداً مهما بذل فى سبيل ذلك من جهد.. ولهذا كان الذين يقومون على إعداد هذه النشرات آراء وطبعاً وتوزيعاً هم أفراد النظام الخاص الذى كان شبه معطل فتقدم إلى حمل هذا العبء؛ فما كان لهيئة ذات كيان ضخم كالإخوان المسلمين أن يحجر عليها دون مبرر من قانون فتوصد فى وجهها أبواب الصحافة وتمنع من إصدار صحيفة، ثم يحال بينها وبين إبراز رأيها فى وريقة تبعث بها إلى أعضائها حتى يتبينوا الأمور ويتضح لهم الطريق.

مدى إزعاج النشرات لعبد الناصر:

وهذه النشرات لم تزد على أن تكون وريقة مطوياً بعضها على بعض حتى صارت أربع وريقات كل منها فى مساحة الكف، مطبوعة طبعاً رديئاً.. ومع ذلك كانت هذه النشرات فى نظر جمال عبد الناصر إحدى الكبائر، وكانت مثيرة له حتى إنها طيرت النوم من عينيه.. وفى الوقت الذى كنا نحن الإخوان لانكاد نقيم لها وزناً كان عبد الناصر يرى الواحدة منها كأنها صاعقة نزلت عليه من السماء، أو زلزال يكاد يقوض أركان سلطانه.

وقيام النظام الخاص بإصدار هذه النشرات وتفننه فى إخفاء المكان الذى تعد فيه؛ جعل يد عبد الناصر أقصر من أن تصل إليها، وكاد عقله يذهب هلعاً منها.. حتى إنه — وقد عجز عن منعها — حاول أن يخفف من حملتها عليه — وقد جاءنى مرة الأخ محمد جوده عضو الهيئة التأسيسية ومن أصدقاء جمال عبد الناصر من قبل الثورة، ويرتبط بى برباط المواطنة؛ فهو من أبناء رشيد وكان زميلاً لى فى المدرسة الابتدائية بها.. جاءنى مرة وأبلغنى شكوى جمال عبد الناصر من أن النشرة الأخيرة نسبت إليه أنه عقد معاهدة سرية بينه وبين الإسرائيليين.. وقد رأى الأخ محمد جوده أن يبلغنى هذه الشكوى لما يعلم من صلتى بأعضاء هذا النظام وبقيادته.

وقد تقابلت فعلاً مع الأخ يوسف طلعت رحمه الله ومع بعض الإخوة من قادة الجهاز وكلمتهم فى هذا الشأن. وقد احتدمت المناقشة بينى وبينهم لأننى.. وإن كنت أرى جمال عبد الناصر أسوأ مما يرون — فإننى لاأرضى لنفسى ولا لدينى أن أرميه بواقعة معينة ليس معى دليل عليها سوى مايشيعه زملاء له كانوا محاصرين معه فى الفالوجا.. وإذا كان هو قد رضى لنفسه أن يختلق علينا الأكاذيب فإن ذلك لايحملنا على نسيان أننا أصحاب دعوة ودين.. ومثل هذا الاتهام لايأتى استنتاجاً مهما تجمعت قرائن الاتهام.

وقد سقت هذا الحديث عن النشرات ليعلم القارىء مدى فزع جمال عبد الناصر من «الكلمة» المكتوبة مهما ضاق نطاق نشرها.. ولعل هذا هو الذى أوحى إليه بعد ذلك بوضع الأغلال فى أيدى الكتاب والصحفيين، ووضع الكمامات على أفواه رجال الفكر

مما أطلق عليه فيما بعد «حرية الصحافة».. ولنا عودة إن شاء الله إلى موضوع النشرات عودة يستبين منها القارىء أكثر مما استبان الآن مدى هلع عبد الناصر منها.

* * *

الفصل الثالث

التحـــرش
لم يمنع الإخوان من انتقاد الاتفاقية

قلنا فى الفصل السابق إن عبد الناصر ــ فى تهيئه لإنجاز اتفاقية للجلاء يحرز بها نصراً يكون له رصيداً سياسياً يقربه إلى نفوس الشعب ــ وضع خطة يضمن بها تقليم أظافر الإخوان فحال بينهم وبين جميع وسائل التعبير عن الرأى،وأخذ يتحرش بهم فيعتقل بين يوم وآخر عدداً من شبابهم من النظام الخاص ذوى النشاط فى القاهرة، ويسلط عليهم جهازه الإجرامى ــ البوليس الحربى ــ الذى يرأسه أحمد أنور، وصار كل يوم يزيد من عدد المعتقلين من هذا النوع من الشباب ويزيد من ألوان التعذيب.. كل هذا أملاً فى أن يشغل الإخوان بأنفسهم فلا يجدون جهداً ولا وقتاً للنظر فيما سوى ذلك من الأمور السياسية..

وكان فى هذه الأثناء جاداً فى أسباب الوصول مع الإنجليز إلى اتفاقية. وكلما قطعت المفاوضات مرحلة من المراحل زاد من ضغطه على الإخوان وتحرشه بهم، وكان فى حسبانه أنه حتى تصل هذه المفاوضات إلى نهايتها وتنجز الاتفاقية يكون الضغط والتحرش قد قطع أنفاسهم فلا يقوون على نقد هذه المعاهدة إلا همساً وأين لهم من وسائل إعلام تنشر همسهم.

وقد يكون من الطرائف أن نذكر أن عبد الناصر وقد عجز بدون الإخوان عن أن يشعر الإنجليز فى أثناء المفاوضات معهم بمقاومة شعبية لجأ إلى استئجار عصابات الإجرام للسطو على المعسكرات البريطانية؛ فلما أبرمت المعاهدة اعتقلهم فى السجن الحربى مدة ثم أفرج عنهم.

وشاءت الظروف أن يقوم المرشد العام فى أثناء إجراء المفاوضات برحلة فى البلاد العربية استجابة لدعوات وصلته من الإخوان فيها، فغادر مصر فى النصف الأخير من شهر يونية ١٩٥٤ وزار فلسطين وتناول طعام الغداء على مائدة الأنبا ياكوريوس مطران النصارى.

وفى أثناء تجواله فى لبنان وسورية وفى ٢٧ يوليه سنة ١٩٥٤ أعلنت حكومتا مصر وبريطانيا موافقتهما على رءوس موضوعات اتفاق لمعاهدة جديدة تسوى النزاع الانجليزى المصرى.

المرشد العام ينقد الاتفاقية:

وفى ٣١ يولية نشرت صحيفة بيروتية بأحرف ضخمة وعناوين بارزة رأى المرشد العام فى الاتفاقية.. والنقاط الرئيسية فى هذا النقد هى مايلى:

١ ـ كان المفروض أن ينتهى أجل معاهدة ١٩٣٦ بعد أقل من عامين. وإذ ذاك كان على بريطانيا أن تجلو عن القاعدة، وأن تتركها دون أساس قانونى يمكنها من العودة إليها فيما بعد ـ أما المعاهدة الجديدة فتمنحها هذا الحق باشتمالها على مادة تسمح بإعادة تشغيل القاعدة فى حالة حدوث أى اعتداء على أى دولة عربية أو على تركيا.

٢ ـ المادة التى تسمح بإعادة تنشيط القاعدة فى حالة الاعتداء على تركيا تربط مصر والدول العربية بتركيا وبالتالى تربطهم جميعاً بالمعسكر الغربى.

٣ ـ الفقرة التى تسمح لبريطانيا بصيانة القواعد الجوية تمثل تهديداً لمصر. وهى على المدى الطويل أداة لدوام السيطرة.

٤ ـ المدنيون الذين سيناط بهم المساعدة فى تشغيل المعدات هم بطبيعة الحال شخصيات عسكرية فى ثياب مدنية.

٥ ـ جددت الاتفاقية أجل معاهدة ١٩٣٦ لفترة خمس سنوات أخرى، وسمحت بإجراء تشاور لمراجعة الموقف عند انتهاء فترة العمل بها، وهو نفس النوع من البنود التى تكفل فى الواقع الاستمرار الدائم لمعاهدة ١٩٣٦.

وقد طلب المرشد العام أن أى اتفاقية بين مصر وحكومة أجنبية ينبغى أن تعرض على برلمان منتخب بإرادة حرة يمثل إرادة الشعب المصرى، وعلى صحافة متحررة من الرقابة وتملك حرية المناقشة.

هذا مانشرته الصحيفة البيروتية ـ ولا أعتقد أن نقد اتفاقية يراد إبرامها بين دولة وأخرى، هذا النقد الموضوعى مما يثير شجناً أو يبعث ضغنا أو يعتبر انتهاكاً لكرامة حكومة.. فالمفروض أن الحكومات ليست معصومة من الخطأ، وأن النقد الموضوعى من حق أى مواطن إن لم يكن من واجباته، ولكن الذى حدث هو أن عبد الناصر اعتبر هذا النقد كبيرة الكبائر، وهجوماً عليه بسلاح بتار فى مقتل. وقد يكون لعبد الناصر بعض

العذر من وجهة نظره فهو حاكم لارصيد له من قاعدة شعبية ولا من إنجاز سياسى، وهذا هو العمل السياسى الوحيد الذى يريد أن يكون له رصيداً، فمهاجمته فيه يعتبرها بمثابة القضاء عليه سياسياً.

هذا من وجهة نظره ولكن هذه الوجهة مرفوضة شكلاً وموضوعاً لأن الاتفاقيات تمس كل فرد من أفراد الشعب فلكل فرد أن ينقدها وأن يعلن عن وجهة نظره فيها — ولا أنسى أيام تم الاتفاق على أسس معاهدة ١٩٣٦ ولم يكن الذى قام بالمفاوضة فى شأنها فرد ولا حزب بل مجموعة من الزعماء.. ومع ذلك فقد امتلأت الصحف بمقالات ضافية فى نقدها واستمر هذا النقد فترة طويلة، ومع ذلك لم يغضب الحكام ولا المفاوضون بل انتفعوا بكثير مما جاء فى هذا النقد وكان ذلك سبباً فى تعديل بعض بنودها حتى صارت أقل إضراراً بالبلاد.

فماذا كان يضير عبد الناصر أن يتقبل هذا النقد كما تقبله سابقوه وأن يطلق للصحافة الحرية فى نقدها هى الأخرى ويستخرج من هذا النقد مايواجه به الإنجليز لتعديل الاتفاقية كما فعل سابقوه؟.. ولكن يبدو أنه كان متفهما موقفه فهو ليس كسابقيه فهو لايمثل حزباً ولا كتلة شعبية ويعرف أن الإنجليز يعرفون ذلك.. فلا بد أن يرضى بالقليل ولا بد أن يوهم الشعب بأن هذا القليل هو الكثير الذى يريده المواطنون.

وسيلة أخرى فى التحرش:

لم يقلع عبد الناصر عن وسائله التى كان يضايق بها الإخوان بل ضاعفها ثم استحدث وسيلة أخرى هى تشويه سمعة الإخوان المسلمين بنشر أكاذيب عنهم، وقلب حقائق تاريخية، واختلاق أخبار لاأصل لها ينسبها إليهم، ولم يكن يعجز عن ذلك؛ فالصحف كلها والإذاعة خاضعة له ومؤتمرة بأمره. وسأضرب لذلك الأسلوب الحقير، مثلاً مانشرته هذه الصحف عن اللقاء الذى تم بين الملك فاروق والمرشد العام، فلقد أبرزته صحف جمال عبد الناصر بأنه كان استجداءً للملك وتذللا له وتآمرا معه على الأمة.. ويكفى للرد على هذا التزييف خطة الإخوان بعد هذا اللقاء، وحملة الملك فاروق فى الصحف الأجنبية — بعد قيام الثورة وخروجه من مصر — على الإخوان وتحميلهم مسئولية قيام هذه الثورة.. وقد تعرضت لهذا اللقاء بشىء من التوضيح فى الجزء الثانى من هذه المذكرات فليرجع إليه من شاء من القراء.

ولم يكتف عبد الناصر بهذه الوسائل بل لجأ إلى وسائل أخرى سوف أتناولها إن شاء الله بالحديث، ولكن هذه الوسيلة بالذات كانت أخطر الوسائل جميعاً فهى أخطر من الاعتقال والسجن بل والتعذيب أيضاً لأن هذا كله حين يصيب يصيب أفراداً بعينهم —

أما تسخير وسائل الإعلام لنشر أنباء مكذوبة وحقائق مقلوبة فإنه يصيب الدعوة أو الهيئة كلها فى مقتل لاسيما وليس لدى المكذوب عليه وسيلة لبيان الحقيقة — ثم إن هذا الأسلوب هو من أخطر الأساليب للإثارة والاستفزاز ، ولذا فإن ردود فعل لهذا الأسلوب كان يستغلها عبد الناصر للتنكيل بالإخوان.

هل كان الإخوان متجنين فى انتقادهم الاتفاقية؟

هذا سؤال أعتقد أنه قد يساور بعض قراء من الأجيال الحديثة الذين لم يعاصروا عقد هذه الاتفاقية ولكنهم يقرأون التاريخ الحديث لمصر فلا يجدون فيه آثاراً ولا مضاعفات نشأت من عيوب هذه الاتفاقية .. ولهؤلاء نقول:

إن هذه الاتفاقية قد عقدت ولم يكن فى خاطر إنسان — لا من الذين عقدوها ولا من الذين نقدوها ولا من الذين عاصروها داخل مصر وخارجها — أن أحداثاً فى طى الغيب ستحدث بعد ذلك بسنتين ستغطى على عيوب هذه الاتفاقية وتجعل الاتفاقية نفسها كأن لم تكن..

وأية اتفاقية توضع موضع النقد؛ يصدر الناقدون نقدهم لها غير مفترضين ظروفاً شاذة قد تحدث فى المستقبل — وهكذا كان نقد الإخوان للاتفاقية.

على أن الإخوان لم يكونوا هم وحدهم الذين نقدوا هذه الاتفاقية، وإنما نقدها غيرهم؛ غير أن الآخرين كان نقدهم همساً ولكن نقد الإخوان كان جهراً آملين أن يكون فى هذا الجهر مايشعر الشعب بخطورة أخطاء هذه الاتفاقية حتى يهبوا للمطالبة بتعديلها. ولكن سياسة عبد الناصر القمعية ألجمت الألسنة .

نقد آخرين للاتفاقية

وقد قرأنا فى كتاب محمد نجيب «كلمتى للتاريخ» أن محمد نجيب نقد الاتفاقية فيقول فى صفحة ١٥٨ :

«ثم استؤنفت المباحثات للمرة الثالثة فى يوليو ١٩٥٤ ولم أعد رئيساً لوفد مصر .. كانت أحداث فبراير ومارس قد أدت إلى هذه النتيجة .. وتولى جمال الذى كان قد أصبح رئيساً للوزراء رياسة الوفد المصرى فى المباحثات التى وقعت اتفاقيتها الأولى بسرعة مذهلة بعد أيام فقط من بدايتها أى فى يوم ٢٧ يوليو ١٩٥٤ ثم عقد الاتفاق النهائى التفصيلى فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٤.

ولم أكن قد قابلت جمال بعد أحداث مارس إلا مرة واحدة .. وفى هذه المرة الوحيدة طلبت منه أن لايبرم اتفاقاً مع الإنجليز قبل أن يستمع إلى ملاحظاتى .. ولذا كانت مفاجأتى شديدة عندما وقع الاتفاق الأول دون أن يتيح لى فرصة إبداء الرأى .

وأعددت ملاحظاتى على الاتفاق فى كتاب بعثت به إليه مع رسول خاص وكانت ملاحظاتى فى إيجاز هى :

أولاً وجود الفنيين الإنجليز غير خاضعين لسلطة الحكومة المصرية يضعف من سيادتنا ، ويحد من سيطرتنا على أرضنا .

ثانياً : قبول عودة القوات البريطانية فى حالة الهجوم على تركيا أمر يورطنا فى مشاريع الدفاع الغربية ؛ حيث كانت تركيا مرتبطة بحلف الأطلنطى ، وقد سبق ورفضت ذلك أثناء مفاوضاتى مع الإنجليز .

ثالثاً : طالبت بضرورة عرض الاتفاقية على الشعب فى استفتاء عام على أن تلغى الأحكام العرفية .

وكنت قد عقدت العزم على رفض التصديق على الاتفاقية باعتبارى رئيساً للجمهورية ، ولكن الدستور المؤقت لم يرد فيه نص بالتصديق . وطلبت سليمان حافظ ــ الذى كان قد استقال من منصبه كمستشار لرئيس الجمورية بعد أزمة مارس والاعتداء على مجلس الدولة ؛ إذ آثر الابتعاد عن الحياة السياسية ــ لأستشيره فيما يمكننى أن أفعله لوقف فرض هذه الاتفاقية على شعب مصر .

وعلمت منه أن الوزراء الذين أعلنت موافقتهم على الاتفاقية بالإجماع لم تتح لهم فرصة إبداء الرأى .. وأن جمال كان يقرأ بنود الاتفاقية عندما لمح ظواهر المعارضة على فتحى رضوان ، فقال جمال : لعل الأخ فتحى معارض .. فرد عليه بأنه كذلك ولكنه ينتظر الفراغ من التلاوة ، التى استمر فيها جمال حتى انقطعت بدخول إسماعيل الأزهرى وبعض زملائه من وزراء السودان إلى قاعة الاجتماع وما دار بين الفريقين من مظاهر الابتهاج وتبادل التهانى بالاتفاق ، ثم انصراف جمال معهم إلى مكتبه الخاص ، وعودته مرة أخرى لينهى الجلسة قبل إتمام تلاوة الاتفاق .

وصدرت الصحف فى اليوم التالى بأن مجلس الوزراء قد وافق على الاتفاق بإجماع الآراء ــ وكانت نصيحة سليمان حافظ لى هى أن أرفض التصديق ، فإن صدرت الاتفاقية فليس أمامى إلا أن أستقيل » .

كما قرأنا أن خالد محيى الدين يقول فى هذا الصدد إن صحفياً فرنسيا اسمه «روجيه استفانو» من مجلة «نوفيل أو بزرفاتير» قد أخبره أنه قد عرف بحكم صلته الوثيقة

بالسفارات الأمريكية والفرنسية والإنجليزية أن جمال عبد الناصر وبعض رفاقه قد أعطوا للأمريكان إشارة بالتساهل فى توقيع اتفاقية الجلاء وإدخال تركيا فى حالة العودة إلى القاعدة، وذلك ثمناً لتأييدهم فى المعركة ضد نجيب.

وقد تبينت صحة ذلك فيما بعد، إذ لم تستغرق محادثات الجلاء بين جمال والإنجليز إلا أياماً معدودة من شهر يوليو ١٩٥٤ وقع بعدها الطرفان بالأحرف الأولى اتفاقية الجلاء. وهى التى تعثرت عشرات السنين فى مفاوضات مرهقة.. ووافق جمال على عودة الإنجليز للقاعدة فى حالة الهجوم على تركيا.

مذكرة الإخوان المسلمين فى نقد الاتفاقية

وسط هذا الجحيم الذى كان يعانيه الإخوان المسلمون من كتم للأنفاس، ومن حملات الاستفزاز بما تزخر به أنهار الصحف من أكاذيب وافتراءات، ومن هجمات مسعورة لاعتقال أنضر شباب الدعوة من النظام الخاص — وسط ذلك كله رأوا من حق هذا الوطن عليهم أن يعلنوا برأيهم فى هذه الاتفاقية فكونوا لجنة من الإخوان المتخصصين؛ عكفوا على دراسة الخطوط الرئيسية لهذه الاتفاقية وخرجوا من هذه الدراسة بمذكرة شاملة تقدموا بها إلى رياسة مجلس الوزراء حيث أودعت الرياسة فى الثانى من شهر أغسطس ١٩٥٤ .. ويلاحظ أنه قد تم هذا فى غيبة المرشد العام الذى لم يعد من رحلته إلا يوم ٢٢ من أغسطس.. وننقل فيما يلى نص هذه المذكرة:

السيد رئيس مجلس الوزراء

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

فقياماً بواجب الشورى فى الأمر، والتواصى بالحق والصبر، والتعاون على البر والتقوى — قد اطلع مكتب الإرشاد العام على الخطوط الرئيسية للاتفاق المقترح عقده بين مصر وانجلترا، والذى وقعه رئيس وزراء مصر ووزير حربية انجلترا فى يوم ٢٧/٧/١٩٥٤ . كما اطلع المكتب على الملحق رقم (١) الذى نشر مع الخطوط الرئيسية فى اليوم التالى للتوقيع. وقد تبين المكتب من دراسة الخطوط الرئيسية والملحق أموراً خطيرة يعرضها فيما يلى عليكم، ويتقدم بالرأى والنصيحة فيها إليكم — وهو إذ يفعل ذلك يقدر كل التقدير مابذله المفاوضون المصريون من مجهود كبير ومن محاولات ضخمة للوصول إلى حقوق الأمة.

أولاً — الخطوط الرئيسية:

(١) — تحدد المادة الثانية مدة الاتفاق بسبع سنوات من تاريخ توقيعه، كما أنها تلزم الحكومتين المصرية والبريطانية بالتشاور خلال السنة السابعة فيما يتخذ من تدابير عند انتهاء المدة — ولما كان الجلاء سيتم كما اتفق فى ظرف عشرين شهراً فلا محل لجعل مدة الاتفاقية سبع سنوات إلا إذا كانت الاتفاقية تستهدف شيئاً آخر غير تنظيم الجلاء وهو ربط مصر بانجلترا طيلة السبع سنوات بنوع من التحالف أو الارتباط قد يمتد إلى مابعد السبع سنوات، كما يدل على ذلك التزام مصر بالتشاور مع انجلترا فيما يتخذ من تدابير عند انتهاء السبع سنوات.

(٢) — وتعطى المادة الرابعة الحق لانجلترا فى العودة إلى قاعدة القنال إذا هوجمت مصر أو أى دولة من دولة الجامعة العربية والتى وقعت معاهدة الدفاع المشترك أو إذا هوجمت تركيا. وتوجب المادة على مصر أن تقدم لانجلترا كل التسهيلات اللازمة لتهيئة القاعدة للحرب وإدارتها إدارة فعالة ويدخل فى ذلك استخدام الموانىء المصرية.

وسنبين فيما يلى وجوه الخطر فى هذه المادة: —

أ — أعطت لانجلترا الحق المطلق فى العودة إلى القنال واحتلال القاعدة بجنودها لمجرد حدوث هجوم على مصر أو دولة عربية أو تركيا. ولانجلترا الحق فى العودة إلى القنال دون استشارة مصر ودون الحصول على موافقتها بل ودون رضاها؛ ولو كانت الدولة المعتدى عليها قادرة على رد الاعتداء وحدها.. والدول المستقلة لاتقبل أن يفرض عليها العون فرضاً، ولا تعرض أرضها للاحتلال بهذه السهولة، ولا تجعل دخول الأجانب بلادها راجعاً لمشيئة الأجنبى.

ب — وإذا كان الاعتداء على تركيا أمراً يقلق راحة المسلم، وكان الدفاع عن كل بلد إسلامى واجباً إسلامياً؛ فإننا لانفهم كيف أن الاعتداء على تركيا يعطى انجلترا الحق المطلق فى احتلال القنال ويلزم مصر التزامات مادية وأدبية قبل انجلترا لاقبل تركيا المعتدى عليها — إلا إذا كان المقصود تدعيم السياسة الإنجليزية وحماية الإمبراطورية.

جـ — ولقد انتقدت مصر حلف باكستان — وتركيا، ورفضت من قبل أن تدخل حلفاً بلقانياً أو فى حلف الإطلنطى؛ ولكنها طبقاً للمادة الرابعة دخلت فى كل هذه الأحلاف بطريق غير مباشر لأن تركيا حليفة باكستان وحليفة لبعض دول البلقان، كما أنها مرتبطة بحلف الإطلنطى؛ فإذا هوجمت أى دولة محالفة لتركيا ودخلت تركيا الحرب فقد حق

لانجلترا أن تحتل القنال بحجة مهاجمة تركيا، ووجب على انجلترا أن تدخل الحرب فى صف تركيا طبقاً لما بينهما من معاهدات. وإذا دخلت انجلترا الحرب وهى محتلة للقنال فقد اشتركت مصر اشتراكا فعلياً فى الحرب بسماحها باستخدام أراضيها ومطاراتها وموانيها، وبما تقدمه من معونة وتسهيلات لانجلترا. ولا شك أن هذه النتيجة التى وصلت إليها انجلترا عن طريق التحالف الواقعى الذى فرضته المادة الرابعة هى نفس النتيجة التى طالما حرصت انجلترا على الوصول إليها فى المفاوضات السابقة عن طريق التحالف الاتفاقى والدفاع المشترك.

ولعل هذا التحالف الواقعى الذى أقامته المادة الرابعة ولم تصرح به ألفاظها هو الذى دعا رئيس وزراء مصر ووزير حربية انجلترا إلى أن يعلنا فى البلاغ المشترك أنه ليس له غرض عدوانى، وأنهما يعتقدان أنه سيفضى إلى المحافظة على السلم والأمن.

د ــ أعطت المادة الرابعة لانجلترا الحق فى استعمال جميع الموانى المصرية. ويترتب على ذلك أن يكون لها الحق فى نقل جنودها وعتادها على الطرق البرية والمائية والسكك الحديدية المصرية التى تصل مختلف الموانى بالقاعدة، وأن يكون لها مندوبون فى كل ميناء. وما كانت انجلترا تستطيع أن تصل لشىء من هذا قبل أن تقرره لها المادة الرابعة.

(٣) ــ والفقرة الثانية من المادة الرابعة تلزم مصر أن تتشاور مع انجلترا فى حالة قيام تهديد بهجوم على أى بلد من البلاد التى سلف ذكرها فى الفقرة الأولى ــ ولم تبين هذه الفقرة حالة التهديد بالهجوم ــ تلك الحالة التى لاتكاد تختلف فى مدلولها عن عبارة «خطر الحرب» التى طالما حاولت انجلترا إلزامنا بالاتفاق عليها ولم تقابل إلا بالرفض.

(٤) ــ وتنص المادة السابعة على جلاء القوات الإنجليزية جلاء تاماً عن الأراضى المصرية فى مدة لاتزيد عن عشرين شهراً من تاريخ توقيع الاتفاق.

والجلاء التام الناجز غير المشروط بشرط هو حق الشعب الذى أجمع على المطالبة به، وهو مااستهدفته الحركة وصرح به رجالاتها، ولكن الجلاء الذى جاءت به المادة السابعة جاء مع الأسف مسبوقاً بالتزامات ومعلقاً على شروط تجعله حلاً مشروطاً وغير تام ولا ناجز.

وسنرى أن الملحق رقم (١) استبدل بالجنود الإنجليز فنيين وموظفين من الإنجليز يديرون القاعدة، ويحافظون عليها. وهذا يجعل الجلاء صورياً، ويحل محل الإنجليز الذين يلبسون الملابس العسكرية إنجليزاً يرتدون الملابس المدنية

ومهمة الفريقين واحدة.. ولذلك رأينا أن المادة الرابعة تعطى انجلترا حق إعادة جيشها للقاعدة بمجرد مهاجمة دولة من الدول التى عينتها المادة، كما تفرض على مصر محالفة واقعية مع انجلترا وحلفائها.

وإذا كانت مدة الاتفاقية سبع سنوات من تاريخ توقيعها، فمعنى ذلك أن تظل القاعدة محتلة بالمدنيين من الإنجليز ومعرضة لدخول الجيش الإنجليزى فيها طيلة سبع سنوات — وإذا كان هذا هو الجلاء الذى جاءت به المادة السابعة فلن يستطيع منصف أن يقول عنه إنه جلاء ناجز أو جلاء غير مشروط.

(٥) — وتنص المادة الثامنة على اعتبار قناة السويس ممراً مائياً له أهميته الدولية. هو تقرير للواقع، ودليل على بطلان ماكانت تدعيه انجلترا من أهمية القنال لها وحدها — لكن النص على احترام اتفاقية سنة ١٨٨٨ التى تكفل حرية الملاحة كان يقتضى النص على حق مصر فى تعطيل هذه الملاحة فى حالة الدفاع عن النفس. والمادة الثامنة بهذا الوضع الناقص لن يستفيد منها سوى إسرائيل.

(٦) — وتلزم المادة التاسعة مصر بأن تقدم التسهيلات الخاصة بالطيران والنزول والصيانة لكل طائرة تابعة لسلاح الطيران الإنجليزى بمجرد الإخطار عنها — وهذا النص يحمل مصر بالتزامات خطيرة: —

أ — فهو يلزم مصر قبول أى طائرة أخطرت عنها دون أن يكون لمصر حق الاعتراض أو الرفض.

ب — يلزم مصر أن تنشىء مطارات لنزول الطائرات الإنجليزية، وأن تنشىء محطات لإصلاح وصيانة هذه الطائرات، كما يلزم مصر أن تضع مطاراتها الحالية ومحطات الإصلاح والصيانة تحت تصرف الطيران الإنجليزى.

جـ — ويلزم مصر أن تقدم التسهيلات السابقة فى أى مكان من القطر المصرى لافى منطقة القنال وحدها — ويكمل هذا الالتزام الجوى التزام بحرى هو حق انجلترا فى استخدام جميع الموانى المصرية المنصوص عليه فى المادة الرابعة — ويترتب على هذين الالتزامين التزام برى ينقل الأشخاص والمهمات فيما بين بعض المطارات والموانى وبعضها الآخر، وفيما بين المطارات والموانى وبين القاعدة.

ثانياً — الملحق رقم (١):

(١) — أعطت الفقرة الثالثة لشركة إنجليزية تجارية أو أكثر حق حفظ المنشآت

البريطانية وإدارتها وأباحت لهذه الشركات أن تستخدم فنيين وموظفين من البريطانيين على أن لايزيد عدد الفنيين عن حد معين سيتفق عليه. وهذا النص إذا كان قد قيد عدد الفنيين فإنه لايقيد عدد الموظفين، ويسمح للشركة أن توظف عدداً كبيراً من الإنجليز، وهم جميعاً مجندون؛ فيكون هناك جيش من هؤلاء فى القنال تحت اسم الموظفين.. ويستطيع هذا الجيش الأجنبى فى أى وقت أن يكون خطراً على مصر خصوصاً وتحت يده العتاد الكثير، ولديه العدد الكافى من الفنيين. ولا يغير هذا المعنى ماقد توهم به عبارة الشركة جواز أن تكون الشركة مصرية وبين جواز استخدام المصريين مع البريطانيين؛ فإن حق اختيار الشركة أو الشركات متروك لانجلترا ولا يعقل أن تختار شركات مصرية، وحق اختيار الفنيين والموظفين متروك للشركة. ولا يعقل أن تختار الشركة الإنجليزية فنيين أو موظفين مصريين إلا إذا كانت أعمالهم تافهة، ولم يكن لديهم من يقوم مقامهم من الإنجليز.

ولو صح أن انجلترا لايهمها أن يشرف على القاعدة مصريون لما كان هناك دافع لهذا اللف والدوران ولسلمت القاعدة للحكومة المصرية وتركت مسئوليتها.وعلى كل حال فإن وضع إدارة القاعدة فى يد شركة يشرف عليها موظفون بريطانيون ملحقون بالسفارة البريطانية يدل على روح الحكومة البريطانية واتجاهها وحرصها على أن تكون أمور القاعدة فى أيد إنجليزية.

(٢)ـــ وتلزم الفقرة الرابعة الحكومة المصرية أن تقدم المعونة الكاملة للشركة التجارية. وتعبير المعونة الكاملة تعبير واسع ومن شأنه أن يرتب على مصر التزامات غير محددة تنفرد الحكومة البريطانية بتقديرها.

(٣)ـــ والفقرتان الأولى والخامسة معاً يفيدان أن معظم المنشآت الإنجليزية فى القنال ستسلم للشركات التجارية لإدارتها وحفظها وصيانتها. وأن منشآت من نوع خاص كالكبارى والمواصلات وأيضاً أنابيب البترول قد تسلم للحكومة المصرية ـــ ولكن الحكومة المصرية مع تسلمها هذه المنشآت لن تديرها إلا بواسطة الشركات التجارية.

ولا ندرى ماالحكمة التى تدعو لتسليم الحكومة المصرية بعض المنشآت وإلزامها بأن تديرها.

(٤)ـــ وتجعل الفقرة السادسة للحكومة الإنجليزية حق التفتيش على جميع المنشآت مايسلم منها للحكومة المصرية وما يسلم منها للشركات. ويتم التفتيش بواسطة موظفين من الإنجليز يلحقون بالسفارة البريطانية فى القاهرة.

وبمقتضى هذه الفقرة: ــ

أ ــ أن يكون التفتيش على جميع المنشآت ماسلم منها للحكومة المصرية وما سلم للشركات.

ب ــ أن يقوم بالتفتيش عسكريون من الإنجليز، ولا يمكن إلا أن يكونوا عسكريين لأنهم سيفتشون على منشآت وأعمال عسكرية.

جـ ــ أن يمنح هؤلاء المفتشون الحصانة الدبلوماسية بحكم إلحاقهم موظفين بالسفارة البريطانية.

د ــ أن يكون لهؤلاء العسكريين حق الإقامة فى القاهرة بعد أن جلا العسكريون عنها منذ عام ١٩٤٦.

هـ ــ وأخيراً فإن قيام شركات إنجليزية بإدارة القاعدة، واستخدامها فنيين وموظفين من الإنجليز، وجعل التفتيش على أعمال هؤلاء العسكريين بواسطة موظفين ملحقين بالسفارة البريطانية.. كل ذلك معناه أن انجلترا هى التى تدير القاعدة وتحافظ عليها وتصونها، وتتصرف فيها، وأن الوضع السابق على هذه الاتفاقية لم يتغير فى حقيقته وإن تغير فى مظهره.

المعانى التى قامت عليها الاتفاقية:

يستفاد من دراسة الخطوط الرئيسية والملحق رقم (١) أن الاتفاقية تقوم على المعانى الآتية: ــ

الأول ــ ربط مصر بالكتلة الغربية ربطاً فعلياً وذلك بإدخال تركيا فى الاتفاق. وهذا الرباط يجعل مصر حليفة لدول الكتلة الغربية وإن لم تذكر كلمة «التحالف»، ويعرض مصر لويلات حروب لامصلحة لها فيها، ولا فائدة تعود منها عليها، ويجعلها تنفق أموالاً هى أحق بأن تنفقها فى محاربة الاستعمار وتدعيم استقلالها.

الثانى ــ تقرير الجلاء المشروط بإدخال تركيا فى الاتفاق واعتبار هذا الدخول شرطاً للجلاء وثمناً له ــ وهذا هو الجلاء المشروط الذى يحرص الإنجليز منذ سنة ١٩٤٥ على أن يتمسكوا به فى كل مفاوضة، وليس الجلاء التام الناجز غير المشروط الذى نادت به الأمة المصرية وتعاهدت عليه واستشهد أبناؤها فى سبيله.

الثالث ــ استبدال الاحتلال المدنى بالاحتلال العسكرى طول مدة الاتفاقية. الأمر الذى يجعل الجلاء غير تام وغير ناجز؛ لأن المدنيين الإنجليز لافرق بينهم وبين العسكريين إلا الملابس.

الرابع ــ إعطاء انجلترا الحق فى إعادة الاحتلال العسكرى إذا هوجمت مصر أو أى بلد من بلاد الجامعة العربية أو تركيا، وهذا المعنى مع سابقه يجعلان الجلاء جزئياً لاكلياً ومؤقتاً لانهائياً، وصورياً لاحقيقياً ــ وقد يقال إن تقديم مصر التسهيلات لانجلترا لايجعل مصر حليفة لها، ويستدل القائلون بما حدث فى الحرب الماضية. وهؤلاء يجب أن يعلموا أن مصر بتقديمها التسهيلات فى أراضيها لدولة محاربة تعتبر مشتركة فى الحرب فعلاً، وإن ماحدث من إيطاليا وألمانيا فى الحرب الماضية لن يحدث من روسيا مثلاً؛ ذلك أن ألمانيا وإيطاليا كانتا على علم بشعور الشعب المصرى نحو الإنجليز، وكانتا تطمعان فى الاستفادة من هذا الشعور لزعزعة مركز الإنجليز؛ ومع ذلك فإن حرصهما على عدم استثارة الشعب المصرى لم يمنع من غارات طائراتها على المدن المصرية مما أدى إلى تخريب المنشآت وهلاك الأنفس

علاج الموقف:

إن أول علاج للموقف فى رأينا هو أن توقف المفاوضات الدائرة بين الحكومة المصرية والحكومة البريطانية، وأن يعتبر ماتم منها كأن لم يكن مادامت المفاوضات أساسها المساومة على الجلاء. حتى إذا مااعترف الإنجليز بجلاء غير مقيد بقيد ولا مشروط بشرط ولا مرتبط باتفاق على أمر آخر، جاز للحكومة المصرية أن تدخل معهم فى محادثات لاتتعدى تنظيم الجلاء، فإذا تم الجلاء وانتهت عوامل الضغط وأسباب المساومة؛ فإن لمصر أن تفاوض انجلترا وأن تتفق معها على ماتراه فى صالحها.

والخطوة الثانية فى علاج الموقف هى تحقيق ماأعلنته الحكومة الحالية من إعداد الشعب وتربيته تربية عسكرية وبث روح الجهاد فيه، وتجميع صفوفه، وتنظيمها لجهاد كريم هو السبيل الطبيعى لاستخلاص الحقوق وإجلاء الغاصبين والمستعمرين ــ ويوم تفعل الحكومة هذا فسيكون الإخوان فى الصف الأول، وسترى الحكومة كيف سيبيعون أنفسهم وأفراد هذا الشعب الكريم فى سبيل الله وتحرير وطنهم. وإن ذلك الاتجاه لقمين أن يوصلنا إلى الجلاء التام الناجز فى أقرب وقت وأقل كلفة، ولن نبذل من التضحيات والخسائر فى سبيل ذلك بعض مايصيب البلاد من إتمام الاتفاق المقترح بيننا وبين الإنجليز.

ولا نحب أن نلزم الحكومة الأخذ برأينا فى علاج الموقف.. ويكفينا أن تعلم الحكومة المصرية أن مشروع الاتفاق ضار بمصر للأسباب التى ذكرناها، وأن الأمة لاترضاه ولا تقبله، ولن تسمح بأن تقيد نفسها به، وأن على الحكومة أن تراجع موقفها من الاتفاق، وأن تتخذ منه الموقف اللائق بوعى الأمة وجهادها الطويل بأهداف الثورة وما أعلنته منذ قيامها بأنها لاتقبل إلا الجلاء الناجز الطليق من كل شرط وقيد.

هذا مايرى الإخوان المسلمون التقدم به إلى الحكومة آملين أن تستجيب لهم؛ فإن أبت إلا المضى فيما بدأته من مفاوضات فإن الأمانة الوطنية تحتم عليها أن تتبين رأى الأمة فى هذا الأمر الخطير، الذى لايجوز أن تستأثر به حكومة دون شعب. وإذا كان قد فات الحكومة أن تتبين رأى الأمة فى المفاوضات قبل البدء فيها فلا يفوتن الحكومة أن تتبين رأى الأمة فى اتفاق الخطوط الرئيسية؛ ولن يكون ذلك إلا بإطلاق حرية القول والاجتماع، وتوفر الحرية للصحف لتنشر كل مايصل إليها عن الاتفاق.

ولا يغنى عن تبين رأى الأمة فى اتفاق الخطوط الرئيسية أن يعرض الاتفاق النهائى بعد إتمامه على ممثلى الأمة لإقراره والتصديق عليه؛ فإن تبين رأى الأمة فى الاتفاق قبل المضى فيه يوفر على الأمة وقتها وجهدها. ويجعل الحكومة على بصيرة من أمرها فيما تأخذ وما تدع. وهذا ماجرى به العمل فى كل مشروعات الاتفاقات السابقة فقد عرضت على الأمة لاستطلاع الرأى فيها ونوقشت فى الصحف وفى الاجتماعات العامة مناقشة حرة لاقيد عليها ولا تثريب على المشتركين فيها.

وما تقدمنا للحكومة فى هذا كله إلا للنصيحة التى يفرضها علينا الإسلام — والدين النصيحة — وما نريد إلا الخير للأمة والحكومة؛ إن أريد إلا الإصلاح مااستطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الوكيل العام للإخوان المسلمين

ذى الحجة ١٣٧٣
٢ أغسطس ١٩٥٤

* * *

الفصل الرابع

عبد الناصر يقابل نقد الاتفاقية بخطه تنكيل وإبادة

ماكنت أتصور ولا أحد كان يتصور أن تتطور الأمور هذا التطور الخطير فيعتبر جمال عبد الناصر نقد الإخوان لاتفاقية الجلاء بمثابة إعلان حرب عليه؛ فى حين كان نقد هذه الاتفاقية واجباً قومياً على الإخوان المسلمين باعتبارهم الهيئة الوحيدة التى بقيت فى مصر بعد قيام الثورة، وعليها وحدها يقع العبء فى كل خطوة سياسية أو اجتماعية تمس كيان البلاد.. ولو أنها سكتت فى مثل هذا الموقف لكان سكوتها خيانة وطنية لايغفرها التاريخ..

ثم إن الاتفاقية فى ذاتها فيها من العيوب الكبيرة مالا يمكن السكوت عليه، وقد أوردت نص نقد الإخوان للاتفاقية ليرى القراء بأعينهم فداحة هذه العيوب. وأكرر هنا مرة أخرى أن عدم شعور المصريين بما كان سيحيق بمصر وقضيتها الوطنية من أضرار جسيمة نتيجة تنفيذ بنود هذه الاتفاقية إنما يرجع لحدث خارج عن إرادة الجميع لابسته تطورات شاذة كان من شأنه أنه أسقط هذه الاتفاقية قبل أن تظهر أضرارها، ذلك هو مايسمى بالعدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ وموقف أمريكا منه موقف التحدى لامراعاة لمصلحتنا وإنما ثأراً لكرامتها لأن المعتدين لم يستشيروها قبل اعتدائهم؛ فجاءت مصلحتنا عرضاً فى أثناء هذا الثأر. وتأديباً لهم أسقطت أمريكا حقوقهم التى كانوا قد اكتسبوها.

على أن ماارتكبه جمال عبد الناصر من مآثم لاينساها التاريخ ضد الإخوان متذرعاً فى ذلك بنقد الإخوان للاتفاقية كما كان يردد ذلك.. لايتناسب ولا يكون الجزاء الوفاق لنقد اتفاقية حتى لو فرضنا أنها اتفاقية مثالية وخالية من العيوب؛ فما بالك بها وعيوبها ظاهرة ملموسة.. ولكن يبدو أنه ــ مع إفلاسه السياسى فى ذلك الوقت ــ شعر بأن نقد الاتفاقية ــ وهى كل ماأراد أن يجعله رصيداً سياسياً له ــ إن هو إلا محاصرة له فى آخر

موقع بقى فى يده، وأنه القضاء المبرم عليه.. ولكن هذا كله لم يكن ليدفع الإخوان إلى التفريط فى حق الوطن مراعاة لخاطر حاكم أو خوفاً من غضبه وبطشه

وكان جمال عبد الناصر كلما أبدى له بعض من يتصل به ممن يعتبرهم محايدين استغرابهم لثورته على الإخوان لأنهم نقدوا الاتفاقية مع أن هذا حق مقرر لكل مصرى؛ يتهرب من حصارهم له بهذا الاستغراب بقوله إنه إنما يثور عليهم لأنهم أعلنوا نقدهم فى الصحف قبل أن يتقدموا إليه به.. والرد على هذا أولاً أن نقد خطوط رئيسية معلنة لاتفاق لايحط من قدر الحاكم فى شيء لأن إعلان هذه الخطوط قبل إعلان الاتفاقية لايكون له معنى مالم يكن قد قام بهذا الإعلان ليقول فيه كل ذى رأى رأيه، حتى يجرى فيه التعديل الممكن.. والرد الثانى على هذا الادعاء هو ماجاء فى كتاب اللواء محمد نجيب ونقلناه فى الفصل السابق من قوله «وتولى جمال الذى كان قد أصبح رئيساً للوزراء رياسة الوفد المصرى فى المباحثات التى **وقعت اتفاقيتها الأولى بسرعة مذهلة بعد أيام فقط من بدايتها أى فى يوم ٢٧ يوليو ١٩٥٤** ــ فاتفاقية لوحظت فيها العجلة إلى هذا الحد هل كان يريد عبد الناصر أن يرجأ نقدها حتى يرجع المرشد العام من رحلته وقد رجع يوم ٢٢ أغسطس بعد أن تفوت الفرصة المناسبة، وهل كان عبد الناصر يريد من المرشد العام وقد سأله الصحفيون فى لبنان عن رأيه فى خطوط رئيسية نشرت أن يمتنع عن إبداء رأيه، وبأى حجة كان يحتج أمامهم إذا هو امتنع عن الإجابة عن أسئلتهم.. إن موقف جمال عبد الناصر يذكرنا بقول الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا

هذا نقاش أدرناه ليتضح منه أن الإخوان لم يكن أمامهم إلا طريق واحد إزاء مفاجأة الشعب بما أعلنه عبد الناصر من الاتفاقية إلا أن يعلنوه ويعلنوا الشعب برأيهم فيها لعل ذلك يؤدى إلى تدارك عيوبها أو حتى بعض هذه العيوب قبل فوات الأوان.

أساليب تنكيل جديدة:

غنى عن الذكر أن أقول إن مابدأه جمال عبد الناصر من خطط اعتقال شباب الإخوان من النظام الخاص وتعذيبهم ونشر الأكاذيب والافتراءات على الإخوان فى الصحف كل يوم لم تقف عند حد بل ضاعفها وشدد فى الحملة على الإخوان بكل وسائل حكومة فى يدها كل الوسائل مع حرمان الإخوان من الرد.. كل ذلك لم يتوقف ساعة من ليل أو نهار بل إن الإخوان كل يوم كان يتفقد بعضهم بعضاً فيجدون أن المترددين على المركز العام من الشباب ينقصون عدداً فإذا سئل عنهم عرف أنهم قد اعتقلوا حتى كاد المركز العام يخلو من الشباب.

فلما اطمأن جمال عبد الناصر إلى وصول المركز العام إلى هذه الحالة بدأ فى خطة أخرى ماكرة وخطيرة ومؤثرة، تلك هى خطة نقل الموظفين.. وقد كنت من أوائل من جرب فيه هذا السلاح الجديد.. وإذ كان فى هذه التجربة معى من مرارة خالطها بعض اللطائف والمصادفات والمفارقات التى تبرز خصائص هذا المجتمع المصرى من النبل والمروءة والفطنة والذكاء.. فقد رأيت أن أعرضها بين يدى القراء أنموذجاً لما نال الإخوان من هذا الأسلوب فى التنكيل. واستميح السادة القراء عذراً إذا بسطت فى هذا العرض بعض البسط فأقول:

أمر بنقلى إلى قنا:

أ ــ وصلنى فجأة وبدون مقدمات ولا أسباب من الجهة التى أتبعها وهى مصلحة القطن **برقية** هذا نصها: «بأمر السيد وزير المالية تقرر نقلكم **فوراً** إلى مصلحة الأموال المقررة.

ب ــ كان مدير مراقبة القطن الذى يرأسنى صديقاً حميماً لى وكان من الاتقياء الصالحين وهو الأستاذ حسين الخضرى رحمه الله، وقد اتصلت به مستفسراً عن هذه المفاجأة؛ فأسر إلىّ بأن وزير المالية وكان السيد/ عبد الحميد الشريف وكانت مصلحة القطن تابعة له ــ اتصل به وطلب منه نقل محمود عبد الحليم فوراً إلى قنا؛ فقال له يامعالى الوزير إن آخر حدود مصلحة القطن هى سوهاج. فقال: إذن ننقله إلى مصلحة أخرى ــ وبعد قليل اتصل به وأمره أن يرسل البرقية التى وصلتنى.
وأفهمنى الاستاذ حسين معتذراً أن الوقوف أمام هذا الأمر فوق طاقته لأنه أمر ليس صادراً من وزير المالية وإنما هو صادر من جهات عليا لأهداف سياسية. ولكنه قال لى: اكتب لى مذكرة تذكر فيها حاجة هذه المصلحة إلى الخبراء وأن الحكومة شعوراً منها بهذه الحاجة قررت استثناءها هى ومصلحة الجمارك من قرارها الذى منعت به التعيين فى الحكومة، وأن التضحية بخبير لم يكتسب خبرته إلا بعد ممارسة طويلة ليباشر عملا لاخبرة له به يضر الجهتين المنقول منها والمنقول إليها.. وكتبت المذكرة وسلمتها إليه. فأشر عليها بإقراره لكل ماجاء بها وأنه لامانع إذا رؤى نقله إلى مكان بعيد أن ينقل إلى أنأى بلد فى المصلحة وهى جرجا» ثم رفع المذكرة إلى الوزير.

جـ ــ لما علمت أننى منقول إلى قنا أحببت أن آخذ فرصة من الوقت استعد فيها لهذا السفر الطويل، وأرتب أمور أسرتى وأولادى فى فترة غيابى عنها الغياب الذى لاأعرف له كنها ولا مدى ــ وقد أفهمنى الأستاذ حسين فيما أفهمنى أن الوزير

أمرهم بعدم منحى أية إجازة من أى نوع — وكان مفتش صحة القناطر الخيرية التى أقيم فيها صديقاً لى. فذهبت إليه وعرضت له الموضوع وسألته عما إذا كان من الممكن أن يمنحنى إجازة مرضية لبضعة أيام.. فما كان منه إلا أن أخرج من مكتبه ورقة قدمها إلىّ فقرأتها فإذا هى إشارة تليفونية سرية من مفتش صحة محافظة القليوبية يحذر فيها مفتش صحة القناطر الخيرية من إعطاء فلان أية إجازة مرضية مهما كانت الأسباب — فعذرت الرجل وغادرته وهو يكاد يبكى من حرج موقفه.

د — ذهبت فى المساء إلى دار المركز العام، وأطلعت الأستاذ المرشد على البرقية وعلى المحاولات التى بذلتها. فقال لى: لامناص من التنفيذ. وإنهم يريدون أن يجردونا من أعز إخواننا. وهى خطوة من خطواتهم فى سبيل إخلاء المركز العام من القيادات بعد أن أخلوه من الشباب؛ ليتمكنوا من الإقدام على فعل شىء أسروه فى قرارة نفوسهم. وقال لى: إن هذا الإجراء الذى اتبعوه معك اتبعوه فى نفس الوقت مع الأخ طاهر عبد المحسن فقد نقلوه إلى سوهاج. ومع عدد آخر من أعضاء الهيئة التأسيسية البارزين والذين لهم مواقف تسوؤهم.
وقد لاحظت أن الأستاذ المرشد كان فى ذلك المساء فى حالة نفسية سيئة — وقد فهمت أن خطة تجريد المرشد العام من خلصائه ومعاونيه ومن أكرم مجموعة من الشباب حوله إنما هى خطة أعدها جمال عبد الناصر ليتمكن من اصطياد المرشد العام كما اصطاد إبراهيم عبد الهادى الأستاذ الإمام.. وبذلك يقضى على الدعوة من أقرب طريق.

هـ — أرسلت إلى والدى — رحمه الله — فى رشيد ليحضر إلى القناطر الخيرية ليتولى شئون أسرتى فى مدة غيابى وسافرت — وكلى قلق لاعلى أولادى وأسرتى — يعلم الله — وإنما على الدعوة الإسلامية المهددة، والمسخر للقضاء عليها كل إمكانات الدولة، وبطرق بعيدة كل البعد عن الشرف والمروءة والإنسانية — ووصلت إلى قنا على ماأذكر فى أواخر أغسطس، ونزلت بها لأول مرة فى حياتى فى فندق الجبلاوى.

وفى الصباح سألت عن مقر تفتيش الأموال المقررة، فعلمت أن مقره فى مبنى المحافظة، فذهبت إليه وسألت عن المفتش فقيل لى إنه فى إجازة، والقائم بعمله هو الأستاذ النبوى وكيل التفتيش — وكان للقائى بهذا الرجل أجمل الأثر فى نفسى؛ فقد وجدته رجلاً واسع الأفق، طيب القلب، صالحاً فاهما للظروف كريماً ذا أدب وذا مروءة؛ رحب الرجل بى وأكرم وفادتى وظللت طيلة يومى الأول جالساً عنده فى مكتبه — وفى خلال جلوسى

فى ذلك اليوم استعرضت أكثر موظفى التفتيش كباراً وصغاراً، وكان الأستاذ النبوى حريصاً على تقديمى إليهم بأسلوب يفهمون منه ظروف نقلى عندهم ـــ وقد فهمت فى ذلك اليوم أن رياسة تفتيش الأموال المقررة فى كل محافظة ليست للمفتش وإنما رئيس التفتيش هو المحافظ نفسه لأن كل القرارات والجزاءات والإجازات لابد أن توقع من المحافظ نفسه ـــ كما فهمت حقيقة مزعجة لى هى أن محافظ قنا هو الأميرالاى محمد أبو السعود.

والمزعج لى فى هذه الحقيقة هو أن الأمير الاى محمد أبو السعود هذا هو نفسه اليوزباشى محمد أبو السعود الذى كان فى سنة ١٩٤١ معاون بوليس بندر دمنهور، والذى كانت بينى وبينه مواقع أيام كان يغير بنفسه على دار شعبه الإخوان فى دمنهور، ويحاول منع إلقاء المحاضرة الأسبوعية بها، كما أنه أغلق الشعبة بنفسه فى حين لم تغلق أية شعبة أخرى فى القطر، وكنت أنا دائماً الذى أتعرض له وأصطدم به، وهو يكن لى كراهية شخصية ـــ وقد دارت الأيام بهذا الرجل حيث نقل إلى أسيوط فى وقت من الأوقات، واستطاع أن يقضى على عصابة خطيرة كان لها شهرة فى أنحاء البلاد كلها وتسمى عصابة «الخط» ونشرت الصحف فى ذلك الوقت صورة محمد أبو السعود وتحدثت عن شجاعته.. وبسبب ذلك فتح أمامه باب الترقى حتى وصل إلى هذا المنصب الرفيع فى سنة ١٩٥٤ الذى قلما كان يحظى به ضابط مثله.

وكانت خطتى حين علمت بذلك هى أن أتحاشى لقاءه، بل أن أتحاشى حتى مجرد أن يعلم بوصولى إلى قنا ـــ وقد كان الأستاذ النبوى ـــ من باب التكريم ـــ يريد أن يقابلنى به فأفهمته بأسلوب ما أننى لا أرغب فى ذلك.. ففهم الرجل واكتفى بأن اتصل بالمدير العام لمصلحة الأموال المقررة فى وزارة المالية بالقاهرة وأبلغه بوصولى.

وفى مساء ذلك اليوم سألت عن مقر شعبة الإخوان المسلمين بقنا وقصدت إليه، وتعرفت بالإخوان فيه، وكانوا حفنة من الشباب الغض المؤمن فأحببتهم وأحبونى ـــ وكان ممن تعرفت به منهم الأخ محمد الرشيدى الكاتب بتفتيش صحة بندر قنا ـــ وقد فرح الإخوان بنقلى عندهم واستبشروا خيراً أن شعبتهم ستنهض؛ ولكننى أسررت بالظروف التى أواجهها وتواجهها الدعوة إلى الأخ محمد الرشيدى، وقلت له إننى سأحتاج إلى معونته فأبدى أتم الاستعداد.

وفى اليوم التالى ذهبت إلى عملى الجديد وجلست عند الأستاذ النبوى واستعرضت الموظفين الذين استعرضتهم بالأمس. ولكننى فى خلال هذا اليوم أحسست بأن تفاهماً قلبياً، وتجاوباً نفسياً، قد توطد بينى وبينهم. وأخذوا يبادلوننى التحية ممزوجة بعواطف الود والمحبة؛ وكانت العيون تنطق بما حالت الظروف دون أن تنطق به الألسنة.

وفى أثناء ذلك اليوم قلت للأستاذ النبوى سائلاً: ماهوالعمل المطلوب منى تأديته؟ فرد الرجل وكأنما كان يتحاشى أن أوجه إليه هذا السؤال وقال: هذا هو مايحيرنى.. وأنت بمؤهلك ومدة خدمتك جدير أن تتولى أعلى منصب فى التفتيش ولكن كل الأعمال عندنا مشغولة بموظفيها.. وبعد نقاش أخوى حول هذا الموضوع حاول الرجل بأدب وكياسة أن يقنعنى بأن أقضى وقتى معه فى مكتبه ولا داعى لتسلم عمل.

ومن طرائف مايشار إليه إشارة عابرة أن ظروفى كانت تستدعى أن أتصل بمصلحة القطن بالقاهرة وبالأخ الكريم الأستاذ أحمد عبد اللطيف مدير المستخدمين، ونوهت بذلك أمام الأستاذ النبوى فقال: هذا أمر ميسور نطلبه لك بالتليفون وكانت الساعة حوالى الثانية عشرة ظهراً؛ فقلت له إن الوقت الباقى على موعد انتهاء العمل بالمصالح الحكومية لايكفى لتوفير هذه المكالمة؛ فقال: إننا نستطيع الحصول عليها فى دقائق.. وأمسك بالتليفون وما هى إلا دقائق لاتزيد على خمس حتى رأيتنى أتكلم مع الاستاذ أحمد عبد اللطيف رحمه الله.. وقد أردت من ذكر هذه الواقعة لنوازن بين ذلك وبين ماآلت إليه حالة مرفق التليفونات عندنا فى هذه الأيام.

وفى أثناء جلوسى مع الأستاذ النبوى فى اليوم الثالث وجهت إليه سؤالاً وأنا لاأدرى ماذا يكون جوابه عليه. غير أنى ماكدت أوجه إليه السؤال حتى بادرنى بموافقة ممزوجة بما يشبه الرجاء والتمنى. وكأنما أخرجت الرجل بسؤالى هذا من حرج كبير كان لايدرى كيف يخرج منه..

وكان هذا السؤال هو قولى له: ياسيدى الأخ الأستاذ نبوى هل عندك مانع من الموافقة على إحالتى إلى الكشف الطبى؟

سرتنى إجابة الرجل، وأذهبت عنى غماً كبيراً وهماً مقيماً.. إلا أن عقبة كئوداً فى الطريق كانت تعترض آمالى فى إنجاز هذا الأمر؛ وهو أن أسرق إجازة مرضية من بين براثن الوحش الكاسر الرابض على عرشه فى القاهرة، والذى وضعنا فى دائرة ضيقة بين براثنه فلا نستطيع حراكاً إلا أن يكون هذا الحراك إلى أنيابه.

حاولت التحرك فى القناطر الخيرية فوجدت مخالبه محيطة بى فى صورة إغلاق باب التحرك عن طريق الإجازات المرضية.. وهأنذا أجىء إلى قنا.. وهو يريد بذلك أن يعزلنى عن القاهرة التى هى فى ذلك الوقت فى أمس الحاجة إلى وجودى ووجود أمثالى من المبعدين.. وإذا لم أستطع الحصول على إجازة فلا مناص أمامى من ترك العمل والهروب إلى القاهرة، ويفعل الله ما يشاء، فأنا لا أستطيع أن أنام وأنا أعلم أن الأحداث فى القاهرة تتفاقم لا كل يوم بل كل ساعة.

أجيء إلى قنا لأجد عدوًّا قديماً لى ولدعوة الإخوان المسلمين هو محافظ الإقليم والرئيس المباشر لى ، ولا أستطيع أن أحصل على إجازة أو على تحويل إلى الكشف الطبى إلا عن طريقه وبموافقته شخصياً .. وكانت الخطة التى وضعتها تقتضى أولاً أن لايعلم هذا الرجل بحضورى ، كما تقتضى ثانياً أن أنجز عملية الإجازة المرضية فى أسرع وقت ممكن قبل أن تحدث اتصالات بين القاهرة وبين هذا الرجل فى شأنى — ولقد أخذت وعداً من الأخ الأستاذ محمد الرشيدى الكاتب بتفتيش صحة بندر قنا أننى إذا استطعت أن أحصل من مصلحة الأموال المقررة على إذن بتحويلى إلى تفتيش الصحة فعليه هو أن يحصل لى على إجازة بل على أطول إجازة يمنحها القانون .. ولكن أنى لى بالحصول على هذا التحويل وهو لابد أن يكون بأمر السيد المحافظ وبتوقيعه شخصياً .. ولم يكن أمامى إلا الاتكال على الله والمخاطرة .

وتوارد الموظفون الذين اعتدت أن أراهم كل يوم ؛ يعرضون عمل التفتيش على الأستاذ النبوى .. وكان منهم موظف شاب مهمته أن يحمل كل يوم الأوراق من التفتيش ويقدمها إلى السيد المحافظ ليوقعها ثم يرتد بها موقعة إلى التفتيش لتأخذ كل ورقة منها طريقها إلى التنفيذ .. وكان هذا الشاب من أهل قنا وذا قلب كبير ، ونفس شفافة ، وبصيرة نافذة .. وكان من أكثر الموظفين مبادلة ود ومحبة معى — فتعمدت أن أثير موضوع طلب الإحالة إلى الكشف الطبى معه بسؤالى إياه عن إجراءاته .. فكأنما كان يعرف مافى نفسى فرأيته يقترب منى ويقول : اكتب الطلب ووقعه وأعطنيه ولا عليك بعد ذلك .

قلت : ولكن المحافظ هو الذى يوقعه بنفسه ؟!

قال : نعم هو الذى يوقعه بنفسه ، ودعنى أقم بهذا العمل فأنا أعرف ماتريد أن تقول .

واختار الشاب ورقة صغيرة أعطانيها وكتبت عليها الطلب ووقعتها ثم أخذها واستكتب عليها موافقة مبدئية من الأستاذ النبوى ثم أخذها بعدما وقعها الأستاذ النبوى وكتب تحت توقيعه كلمة « أوافق » وكتب تحتها كلمتى محافظ قنا والتاريخ ، ثم فتح ملف الأوراق التى ستعرض على المحافظ ووضع الورقة وسط مجموعة من الأوراق الروتينية التى اعتاد المحافظ أن يوقعها كل يوم دون استفسار أو قراءة لتفاهتها وتكررها كل يوم . وأخذ الملف ونزل للسيد المحافظ ..

وكانت اللحظات التى غابها هذا الشاب عند المحافظ لحظات استغرقت فى خلالها مع الله الذى بيده كل شيء وهو الرحيم بعباده وهو على كل شيء قدير . وقد توقعت كل شيء ، ولكننى كنت أحسن الظن بالله عز وجل — وبعد نصف ساعة حضر الشاب الذى

أسرنى بحبه وبنبله وبفضله، وقدّم لى الطلب موقعاً عليه من المحافظ وقعه دون أن يدرى.. ثم قال لى: إن الإجراءات تقضى بأن نرسل هذا الطلب مع أمثاله من الطلبات إلى تفتيش الصحة. وهذا يستغرق عدة ساعات. وغالباً مايؤجل الكشف الطبى إلى اليوم التالى— ولذا فإنى سأرسل هذا الطلب وحده مع عامل يرافقك ليسلمه إلى تفتيش الصحة ويحصل منهم على توقيع بتسلمه حتى تتاح لك الفرصة التى تساعدك على إنجاز ماتريد.

وهنا.. علىّ أن أقف وقفة أمام «الفرد» الفرد المسلم الكريم المعدن؛ الذى يبدو كرم معدنه فى المواقف الساخنة الملتهبة التى تحترق فى لهبها المعادن الخسيسة وتذهب هباءً حتى لايبقى منها إلا الرماد.. إن هذا الموظف الشاب الذى فهم بسليقته الصافية مالأعانيه من حرج؛ فتطوع بأداء دور ليس بالهين؛ لم يكن يربطنى به رباط قرابة ولا مصلحة ولا صداقة ولا حتى معرفة.. ولكنه رأى رجلاً ينكل به من أجل دينه؛ فعزم على أن يقدم إليه أقصى مايستطيع أن يقدمه، غير منتظر جزاءً ولا شكوراً؛ بل قد يتوقع إذا انكشفت الخدعة عقاباً شديداً. لم يكن هذا الموظف من الإخوان المسلمين الرسميين—وما أكثر أمثاله فى صفوف المسلمين— ولعل فى هذا رداً على من يظنون حين يضعون أيديهم على من سجلت أسماؤهم فى عضوية الإخوان المسلمين أنهم قد وضعوا أيديهم على كل العاملين للإسلام.

... وما هى إلا دقائق.. حتى كنت فى تفتيش الصحة.. وكان فى انتظارى الأخ محمد الرشيدى الذى رافقنى إلى الطبيب— وكان مسيحياً— وكنت قد عرفت أن الأطباء يحبون الأخ محمد لتفانيه فى عمله ولأنه يقدم إليهم خدمات تعود عليهم بالنفع؛ ولذا فإنهم يتمنون أن يردوا إليه بعض الجميل.. وكان من نتيجة ذلك أن منحنى الطبيب أطول إجازة ممكنة فى ذلك الوقت وهى سبعة أيام على أن يتاح لى مدها بعد ذلك عن طريق القومسيون الطبى. وتركت الأخ الأستاذ محمد الرشيدى مودعاً، واتجهت إلى محطة السكة الحديد وأخذت أول قطار إلى القاهرة وأنا أتلفت حولى كأنما أنا هارب من جريمة اقترفتها.

* * *

الباب الثانى عشر

إلى القاهرة فى أحلك الأيام

الفصل الأول : محاولة للإنقاذ

الفصل الثانى : المفاجأة المذهلة

الفصل الثالث : تكتيك جديد

الفصل الرابع : هل كان اختفاء المرشد العام فى ذلك الوقت إجراءً سليماً؟

الفصل الأول

محاولة للإنقاذ

وصلت إلى القاهرة، واتجهت فوراً إلى دار المركز العام. فراعنى مارأيت. رأيت داراً غاب عنها أهلها، ولم يبق بها إلا عدد ضئيل. وهذا العدد الضئيل هم الإخوة الذين أطلق عليهم «مجموعة الروضة». ورأيت بجانبهم الدكتور محمد خميس حميده رحمه الله — وما كان بى من حاجة للسؤال عن الغائبين فأنا أعرف أين غابوا ولم غابوا؛ فبعضهم غيبته المعتقلات والبعض الآخر عرفوا أنهم متعقبون فحاولوا الاستخفاء حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً.

ولكن الذى سألت عنه هو الأستاذ المرشد العام، لأننى كنت حريصاً على الالتقاء به لأتبادل معه الرأى، وأستنير بتوجيهه، وأبثه ماعندى — سألت عنه الدكتور خميس فقال لى إنه مختف. فسألته عن سبب اختفائه فقال لى: إنه مهدد بالاغتيال.. فسألته عما إذا كانت الاتصالات مستمرة بيننا وبين جمال، فقال لى: إنها انقطعت تماماً.. ووجدت الرجل فى حال من الأسى والحزن كما رأيت ذلك مرتسماً على وجوه العدد القليل الموجود بالمركز العام.

وقد جلست إلى الإخوة «مجموعة الروضة» وحدثتهم عما كان من أمرى حتى استطعت أن أحضر إلى القاهرة، لأننى أحسست أن الحالة فى تفاقم مستمر — وقد وجدتها كذلك — فالحالة تتلخص فى أن الإخوان فى القاهرة والمركز العام يعيشون فى ظل سلطة إرهاب لاحدود لها.

وقد وجدت أن الإخوان بالمركز العام يغذون إخوان الأقاليم بسيل من المنشورات؛ منها خطابات موجهة إليهم من المرشد العام من مخبئه. ولاحظت أن هذه المنشورات والخطابات مما يرفع من حرارة الالتهاب فى أعصاب الإخوان ضد الحكومة حتى إن بعض هذه المنشورات رمت رجال الثورة بما تستباح به الدماء؛ كما وجدت حملة الصحف المصرية قد وصلت فى إثارتها للإخوان بنشر الأكاذيب واختلاق التهم، وقلب الحقائق، واستعداء الشعب عليهم إلى الحد الذى لايستطيع الإخوان أن يملكوا أعصابهم معه.

وهنا وجدتنى مطالباً — أمام ضميرى ومن أجل دعوتى وإخوانى — بالقيام بعمل مايضع حداً لهذا التفاقم المستمر ، والغليان الذى لن يملك أحد أن يسيطر عليه بعد ذلك.

* * *

كان لابد لى من الإقدام على ماكنت أنفر منه من قبل ؛ وهو أن أقوم بلقاء مع الطرف الآخر لإجراء تفاهم بعد أن انقطعت الاتصالات. وأنا أعلم أننى شخص غير مقبول عند رجال الثورة ؛ بل إنهم يعتبروننى من ألد أعدائهم ولكن لابد مما ليس منه بد.

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له مامن صداقته بد

لقد كنت أرى صداماً عنيفاً مدمراً يوشك أن تسيل الدماء فيه أنهاراً ؛ تتجمع سحبه فى سماء مصر. ولن تكون أرواح الألوف وحدها ضحية هذا الصدام ؛ وإنما سيأتى هذا الصدام على الأخضر واليابس ويحيل هذا البلد الطيب إلى حطام — فحكومة الثورة وراءها الجيش المصرى بكل إمكاناته بعد أن أخرجت منه كل الأحرار وذوى المبادىء.. وأنا فى نفس الوقت أعرف قوة الإخوان الروحية والمادية ؛ ولاحظت أن جمهور الإخوان يشحنون شحناً مضاعفاً ؛ ففى نفس الوقت الذى تقوم النشرات السرية التى يصدرها المركز العام بالشحن ، تقوم الحملة الصحفية الاستفزازية بمضاعفة هذا الشحن.. فكان لزاماً على كل من يستطيع أن يصنع شيئاً لتخفيف هذا التوتر أن يتقدم دون توان ولا تأخر ؛ فإن كل ساعة لاتزيد النار إلا اشتعالاً.. وقد رشحت نفسى لهذا الأمر دون أن يرشحنى أحد ، ورأيتنى مسئولاً أمام نفسى وأمام الله عز وجل إذا تخلفت عن هذا الموقف..

ولكننى فكرت ؛ كيف يتم لى ماأريد ؟! وأطلت التفكير حتى كاد ينتهى بى إلى مايشبه اليأس.. ولكن بريقاً من الأمل لاح فى الأفق حين تذكرت صديقاً من أعضاء الهيئة التأسيسية هو الأخ الحاج محمد جوده. وهو الأخ الذى سبق لى ذكره فى الصفحات القليلة الماضية ، وقلت إنه كان زميلاً لى فى المدرسة الإبتدائية فى رشيد ، وإنه صديق شخصى حميم لجمال عبد الناصر وزملائه الضباط من قبل قيام الثورة لأنهم كانوا عملاءه فى محله لتجارة الأرز الرشيدى فى شارع الموسكى ، وقد ظلت صلتهم به بعد قيام الثورة على ماكانت عليه قبلها — وقد رأيت فيه خير سفير بينى وبينهم.

وكانت حاشية جمال عبد الناصر التى لاتكاد تفارقه حيث كان حتى وهو فى بيته مكونة من ثلاثة ضباط هم الصاغ إبراهيم الطحاوى والصاغ أحمد طعيمة واليوزباشى عبد الرحمن نصير. وهذا الأخير كانت مهمته مهمة حراسة ، أما الآخران فكانت مهمتهما مهمة سياسية.

* * *

وتحدثت مع الأخ محمد جودة فى العلاقات بين الثورة والإخوان وما آلت إليه من تدهور، وأبديت رأيى فى أننا يجب أن نعمل على تلافى هذا الأمر. فقال لى: هذا واجب ولكن من الذى يقوم بهذا من الإخوان بعد أن امتنع المكلفون منهم بهذا الاتصال عن الاتصال؟ فقلت له: إن جمال عبد الناصر هو الذى رفض مقابلتهم. فقال: نعم لقد رفض مقابلتهم لأنه وجد أعضاء اللجنة المختصة بالاتصال سيئى النية ولا يريدون الإصلاح بل هدفهم هو زيادة العلاقات سوءاً؛ لأنهم لاينقلون مايتفق عليه بأمانة؛ يقصد إيغار صدور الإخوان.

قلت له: إن الأستاذ المرشد ــ توخياً لتحسين العلاقات ــ نحى هذه اللجنة وكلف الدكتور خميس نائب المرشد بالقيام بمهمتها. فلما قام الرجل بالمهمة مرة ومرتين رفض جمال مقابلته بعد ذلك فما السبب؟ قال: السبب أن جمال كان يعتقد أن الدكتور خميس وهو نائب المرشد العام يستطيع أن ينفذ مايتفق عليه فى هذه الاتصالات. ولكنه تبين أنه مجرد لقب بدليل أنه لم يستطع أن ينفذ شيئاً مما اتفق عليه؛ فلقد تعهد فى أحد الاتصالات لجمال بأن يوقف إصدار النشرة السرية فترة من الزمن اتفق عليها.. ولكن النشرة صدرت فى مواعيدها.

ومن حق التاريخ أن أقف هنا لأقرر صحة هذه الواقعة فلقد شكا إلىّ الأخ الدكتور خميس من هذا التصرف مر الشكوى. وقد تحدثت فى ذلك مع المسئولين من أعضاء النظام الخاص معاتباً، وذكرتهم يقول رسول الله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم» وقلت لهم: إذا كنا مطالبين بأن ننفذ عهداً قطعه لأعدائنا أدنانا منصباً ومكانة فى مجتمعنا فكيف إذا كان الذى أعطى العهد من أعلانا منصباً ومكانة. كما ذكرتهم بموقف أبى عبيد أحد قواد جيش المسلمين فى فتح فارس حين كان جيش المسلمين محاصراً أحد المواقع؛ وكان «جابان» قائد جيش الفرس فاجرا عنيداً تمنى المسلمون أن يظفروا به ليقتلوه. وكان أن أسره أحد صغار الجند ثم أمّنه فرآه المسلمون فأخذوه إلى قائدهم أبى عبيد ليقتله. فلما علم أن أحد صغار جنده مطر بن فضة أمنه أبى أن يقتله وقال: لاأغدر. وتركه.

ــ وأنا حين أذكر هذا الذى أذكره لاأدعى أن تنفيذنا لما تعهد به الأخ الدكتور خميس كان سيغير الوضع ــ فهذا شيء كان فى قبضة القدر ــ ولكننى كنت حريصاً على أن لانتصرف تصرفاً يتعارض مع مبادىء ديننا ودعوتنا، ونضع فى يد خصمنا حجة يشهرها فى وجوهنا، ويستطيع أن يذيع بها على أنها دليل على تخبطنا واضطراب أمرنا.

* * *

قلت للأخ محمد جوده: هل هناك مانع من أن أقوم أنا بمهمة الاتصال؟

فإذا به يتلقى هذا السؤال بدهشة كأنها مفاجأة.. وسكت لحظة ثم اتجه إليّ كأنه كذّب سمعه قائلاً: أنت تقوم بهذه المهمة؟! قلت: نعم أنا. قال: هذا شيء لم يكن يتوقع قلت: ياأخ محمد.. ليس فى هذا غرابة؛ إننا جميعاً جنود فى هذه الدعوة؛ نستجيب لندائها فى أى لحظة، ومن حقها عليّ فى هذا الموقف ــ وقد انقطعت الاتصالات بيننا وبين رجال الثورة وتأزمت الأمور ــ أن نحاول معالجة الأمور، ونضع حداً لهذا التفاقم الذى لايعلم إلا الله مدى مايخلفه من آثار على البلاد.

قال الأخ محمد: إننى أرحب بهذه الخطوة. ولكن ماالذى تقترح عليّ أن أفعله؟

قلت: تهيىء لى فى محلك اجتماعاً لى مع الطحاوى وطعيمة.

جاءنى الأخ محمد جودة فى اليوم التالى وأخبرنى بأن الطحاوى وطعيمة تلقيا نبأ رغبتك فى الاجتماع بهما بدهشة واستغراب وقالا: إننا نعتبر فلاناً هذا أشد من الهضيبى نفسه. ولكنهما رحباً بالاجتماع. وسيكونان عندى مساء اليوم فى الساعة السادسة إن شاء الله فى انتظارك.

رتبت فى خاطرى الطريقة التى أدير بها المناقشة بينى وبينهما؛ وكانت تدور على محورين؛ أولهما أن أشعرهما أننىَ أتكلم من موقع قوة. والآخر أننا نحن الإخوان مع مانملك من قوة نؤثر السلام على أن يقوم على دعائم أخوية متكافئة.

* * *

الفصل الثانى

المفاجأة المذهلة

ذهبت فى الموعد المحدد إلى محل الأخ الحاج محمد جودة والتقيت بالرجلين ـــ وكان أول لقاء لى معهما ـــ فتلقيانى بترحيب وود ـــ وما إن تبادلنا عبارات التحية والترحيب حتى ألقيا فى وجهى بقنبلة مدوية، أذهلتنى وأذهبت صوابى، ونسفت كل ماكنت أعددته فى خاطرى، وغشت على عينى فظللت برهة لاأكاد أرى شيئاً أمامى.. لهول الصدمة، وفظاعة المفاجأة.. لقد تبددت أفكارى، وانعقد لسانى، وأرتجَ علىّ.. ولولا بقية من إيمان لجأت بها إلى ربى لما استطعت أن أواصل جلستى معهما.. ولكننى استلهمت ربى الذى عودنى أن يكون بجانبى فى لحظات تدلهم فيهاالأمور وتنقطع أسباب الرجاء.

وكانت المفاجأة هى أنهما فى أثناء ماأزجياً لى من عبارات الترحيب قال أحدهما ـــ ولا أذكر من منهما ـــ موجها السؤال إلىّ: ولكن يافلان لماذا لم تقبل المنصب (الفلانى) الذى عرضه عليك الأستاذ الهضيبى يوم كذا عندما اجتمعتما على انفراد بمكتبه بالمركز العام؟

ولا أعتقد أن القارىء يجد فى هذا السؤال معنى من معانى المفاجأة التى تزلزل أركان من يوجه إليه.. ولهذا يكون لزاماً علىّ أن ألقى شعاعاً من ضوء على مايكتنف هذا السؤال من ظروف توضح مدى خطورته:

أولاً : لعل القارىء يتذكر الفتنة التى كادت تطيح بالدعوة من أساسها والتى ابتدأت بتمرد قيادة النظام الخاص وعلى رأسها عبد الرحمن السندى، وانتهت بفصله وثلاثة معه وبفصل ثلاثة من أعضاء الهيئة التأسيسية.

ثانياً : كان الاجتماع الذى ضمنى والأستاذ المرشد على حدتنا لاثالث معنا إلا الله فى حجرة مكتبه بالمركز العام، وأبواب المكتب كانت مغلقة ـــ كان هذا الاجتماع عقب انتهائنا من معاناة هذه الفتنة، وخروج الدعوة منها سالمة فى أتم عافية.

ثالثاً : طلب إلىّ الأستاذ المرشد فى هذه الجلسة الثنائية طلباً يتصل بموضوع يعد فى

دعوة الإخوان المسلمين هو أدق أسرارها؛ ذلك أنه طلب إلىّ أن أتولى قيادة النظام الخاص. فلم أتوان عن الاعتذار عن إجابة هذا الطلب. فقال لى: أنت موضع ثقتى، ولك صلة قديمة بهذا النظام، والعاملون فيه يكنون لك الحب والثقة والاحترام، وأراك خير من يصلح لهذا المنصب. فقلت له: إننى أعتز بثقتك فى، ولعلك تحس بأننى أبادلك هذه الثقة، وإننى على استعداد أن أكون حيث تريد فى هذه الدعوة.. ولكن الظروف التى وضعت فيها أصبحت تحول بينى وبين هذا المنصب.. لقد كنت طيلة حياتى أتحاشى الظهور والشهرة؛ ولقد اعتذرت لهذا السبب عن عضوية مكتب الإرشاد حين عرضتها علىّ من قبل — ولكن الظروف والاستجابة لنداء الدعوة فى أحرج مواقفها أجبرتنى أن أتولى عملاً — لم يكن لى خيار فى تفاديه — كان سبباً فى توجيه أنظار الجميع إلىّ فى أنحاء البلاد أعداءً وأحباء؛ وذلك بنشر اسمى تحت قرارات خطيرة فى جميع الصحف — ورجل أصبح اسمه على كل لسان لايجوز أن يتولى عملاً طبيعته السرية.

رابعاً: اقتنع الأستاذ المرشد برأيى ثم استشارنى حول أسماء أخرى. وانتهى هذا الاجتماع الثنائى — وكان الأستاذ المرشد طيلة هذه الجلسة يجلس بجانبى على أريكة بجوار مكتبه.

خامساً: الأستاذ حسن الهضيبى من الشخصيات ذات الخبرة بالأمور السرية، وذات المقدرة على كتمان الأسرار ولا يمكن أن يكون قد باح بما دار بينى وبينه من حديث لأى إنسان.

* * *

إذن فكيف وصل نبأ هذا السر الدفين — الذى لايعرفه أقرب الناس إلىّ ولا أقرب الناس إلى المرشد العام — إلى هذين الضابطين، حتى وجها إلىّ هذا السؤال المحدد بالتاريخ والمكان على سبيل التحدى بل على سبيل التهكم؟.. إنهما أرادا أن يفجعانى فى أعز مانعتز به؛ وهو مقدرتنا على حفظ أسرارنا.. إنهما بإشارة واحدة، وكلمات وجيزة، أرادا أن يقولا لى: ابدأ كلامك معنا كما تشاء بعد أن تعلم أن كل أسراركم عندنا.

لقد ضاقت الدنيا فى وجهى، واسودت أمام عينى، وكاد يغشى علىّ من هول المفاجأة وهما يطلقان نحوى هذه القنبلة مبتسمين؛ زيادة فى التهكم والتحدى والسخرية.. موقف عدو ملك من أمرك كل شىء، وأصبحت بكل إمكاناتك فى قبضة يده أو بين فكيه، وصدق القائل:

أحـذر عـدوك مـرة ... واحذر صديقك ألف مرة
فلربمـا انقلـب الصديـق ... فكـان أعلـم بالمضـرة

إن وجود جمال عبد الناصر فى تشكيلات الإخوان ، وإلمامه بأدق أسرارها ، جعله على علم بأمضى سلاح فيها ، وأعظم رصيد من القوة بها .. فوجه كل إمكانات مايملك من مقدرات الدولة للإحاطة بهذا الرصيد ، ووضع أهم مافيه تحت رقابة فعالة تجعله على علم بأدق تفاصيله ، وأعمق أسراره .

ولكن كيف استطاع أن يصل إلى أسرارنا ؟ وأهم من هذا السؤال سؤال آخر وهو :

كيف وصل إلى هذا السر بالذات الذى كان بينى وبين الأستاذ المرشد فى حجرة مغلقة ليس معنا ثالث ، ولشدة حرص الأستاذ المرشد على سرية الحديث ترك مكتبه وجلس بجانبى على الأريكة المجاورة للمكتب .. ومن ناحيتى فأنا أثق فى نفسى والحمد لله إلى حد أن أسراراً أقل من هذا السر أهمية يبلغ بى الحرص على كتمانها درجة تجعلنى أنساها ، ولا تقل ثقتى فى هذه الناحية فى الأستاذ المرشد . عن ثقتى فيها فى نفسى .. إذن فكيف وصلوا إلى هذا السر ؟

لم أجد لهذا السؤال إجابة إلا إجابة واحدة هى أن يكون ذلك عن طريق جهاز من أجهزة التسمع ولكن كيف استطاعوا أن يضعوا فى حجرات المركز العام أجهزة التسمع ؟.. وهذا سؤال تجيب عليه الفصول السابقة من هذه المذكرات التى تكشف للقارىء عن مدى تغلغل جمال عبد الناصر بنفوذه وبإغراءاته فى صفوف الإخوان فى القاهرة .

قرائن مذهلة عن التصنت لم
نعرفها إلا أخيراً

قرأت فى كتاب « جمال عبد الناصر » للأستاذ أحمد أبو الفتح فى صفحة ٥٩ فى هذا الصدد مايلى :

« وفى إحدى زياراتى لعبد الناصر التفت إلىّ وهو يضحك : هل سمعت بالمؤامرة الجديدة ؟ فقلت : أية مؤامرة ؟ ونظر عبد الناصر إلى حسن إبراهيم وجمال سالم الضابطين بسلاح الطيران وعضوى مجلس الحركة . وقال : لقد اكتشفنا أن أحد صولات الجيش يعد انقلاباً » فقلت : صول بالجيش ؟ فرد عبد الناصر : نعم صول بالجيش . فقلت : إنك لاشك تهزل فمن غير المعقول أن يقدم صول على عمل انقلاب ؛ إذ ماهى القوة التى يملكها هذا الصول حتى يستطيع القيام بانقلاب ، ثم ماهى سلطاته على الجيش التى

ستمكنه من القيام بتدبير انقلاب ضدكم؟

ورد جمال عبد الناصر بقوله: لقد اتصل ببعض صولات الجيش وقال لهم لماذا ينفرد الضباط بأمر البلاد؟ إننا نستطيع أن نقوم بما قاموا به.

وأمسك عن الكلام لحظة ثم استمر قائلاً: وقد استطاع بعض الضباط دخول مسكنه ووضع آلات تسجيل داخل المنزل، وسجلوا بذلك كل ماكان يدور داخل المنزل من اجتماعات، وقد كان بين هذه التسجيلات بيان أعده ليذيعه عن طريق الإذاعة على الشعب المصرى.

وعندئذ أشار إلى حسن إبراهيم الذى أحضر جهاز تسجيل وأدار الشريط فإذا بصوت رجل يقول: «نحن رأفت شلبى رئيس الحركة الجديدة».

كان عبد الناصر فخوراً بالعمل الذى قام به ضباطه الذين دخلوا مسكن رأفت شلبى وأن يضعوا آلات تسجيل داخل المنزل.. وكانت هذه الحادثة هى بدء تطور جديد فى الحياة المصرية؛ إذ أصبح من المستطاع بل من المباح لضباط الجيش وعملائهم أن يتسللوا داخل المنازل للتجسس على حياة الناس..

وكانت هذه الحادثة بدء دخول أدوات التجسس على الناس؛ ألا وهى آلات التسجيل. ومنذ هذه الحادثة بدأ عبد الناصر يهتم بآلات التسجيل، فأرسل يشترى منها كل ماهو حديث. وكان من أهم هذه المسجلات الساعات المسجلة. وهى عبارة عن جهاز تسجيل صغير يوضع فى الجيب الداخلى للجاكتة وتتصل بسلك رفيع بساعة اليد. فإذا ماتحدث إنسان إلى من يحمل آلة التسجيل سجلت الآلة كل مايقول.

وقد انتشرت الساعات المسجلة انتشاراً غريباً بين خدم الفنادق الكبرى والنوادى الهامة وعملاء وجواسيس مجلس السيادة فى المصانع وفى دور الحكومة وبين الطلبة؛ وقد عرف الشعب المصرى بأمرها حتى بات كل إنسان يتجنب الحديث مع آخر فى السياسة، ويوجه نظره إلى يد زميله، وحركتها خشية أن يكون زميله أو صديقه حاملاً لها.

ومنذ الأسابيع الأولى اهتم جمال عبد الناصر بتكوين شبكة ضخمة من رجال المخابرات، وأسند مهمة تنظيم هذه الشبكة والإشراف على أعمالها ورياستها إلى البكباشى زكريا محيى الدين عضو مجلس الحركة ــ وتخصص زكريا بهذا العمل فنظمه تنظيماً واسعاً داخل الجيش، ثم مد نطاقه إلى المدنيين، وأصبحت مصر تعيش فى جو من الجاسوسية التى نمت وازدادت إحكاماً يوماً بعد يوم.

ونمت شبكة الجاسوسية نمواً خطيراً فى الشهور الأولى لقيام الحركة. وكان أهم

الوسائل التى لجأ إليها زكريا فى تنظيم جاسوسيته الاعتماد على طبقة الخدم فى المنازل والفنادق والنوادى وسائقى السيارات وماسحى الأحذية.

وروعت مصر ذات يوم؛ إذ علمت أن مجلس قيادة الحركة قد قبض على وكيل وزارة سابق وعلى لواء سابق بالجيش بتهمة التحدث ضد الحركة. وبإحالة الموظفين الكبيرين إلى محكمة الثورة، وكانت أدلة الاتهام جميعها تنحصر فى أجهزة مسجلة لأحاديث دارت على لسان المتهمين.

وأثناء نظر القضية تبين أن وكيل الوزارة السابق كانت قد جرت عادته على أن يشترى السجاير من تاجر مجاور، وأنه كثيراً ماكان يقابل صديقه اللواء عند هذا البائع فتدور بينهما بعض الأحاديث عن تطور الأحوال. وبطبيعة الحال كانت ترد فى سياق الحديث بعض ألفاظ تحمل نوعاً من عدم الرضا على مايقوم به الضباط ـــ وكان يقف إلى جوار دكان بائع السجاير رجل رقيق الحال فى ملابس فقيرة، وقد أحاط ساعده بجبيرة. وفى بعض الأحيان كان يعطف وكيل الوزارة أو اللواء السابق على هذا الرجل فيمنحانه بعض المال أو يسمحان له بتنظيف حذاءيهما مقابل بعض المال.

واتضح بعد ذلك أن هذا الرجل لم يكن مكسور الساعد كما كان يدعى، بل قد خبأ فى ساعده آله لتسجيل العبارات التى يفوه بها الناس عند شراء السجاير.

وعلى ضوء هذه «البينة» وحدها قدم مجلس قيادة الحركة (الثورة) وكيل الوزارة السابق واللواء السابق للمحاكمة وحكمت عليهما المحكمة العسكرية بخمسة عشر عاماً أشغالاً شاقة.

هذا ماصادفنى من قرائن مذهلة عن التصنت وأنا أقرأ فى كتاب «جمال عبد الناصر» للأستاذ أحمد أبو الفتح وقد نقلت ماقرأته فى صفحة ٥٩.. ومعذرة للقراء إذا ماأنا استطردت فى هذا الموضوع بعض الاستطراد لما له من دلالات خطيرة بعيدة المدى فنقلت سطوراً أخرى من هذا الكتاب قرأتها فى صفحة ٢٢٨ حيث يقول الأستاذ أحمد أبو الفتح نقلاً عن صديقه جمال عبد الناصر:

«وعلى الرغم من أن إدارة المخابرات كانت تخضع لوزير الداخلية، فإن عبد الناصر قد كون لنفسه إدارة مخابرات أخرى تخضع له شخصياً. وكانت مهمة هذه المخابرات أن تجمع له تقارير عن أعضاء القيادة. ولم تكن فى بادىء الأمر إدارة بالمعنى الصحيح بل كانت عبارة عن عدد من الضباط يعمل كل واحد منهم فى مكتب عضو من أعضاء القيادة، ثم توسعت شبكة الجاسوسية على أعضاء مجلس القيادة فضم إليها عبد الناصر جواسيس آخرين يراقبون حياة زملائه الخاصة.

وقد تجمع لدى عبد الناصر فى السنة الأولى مئات التقارير عن جميع حركات وتصرفات زملائه. وقد أفاد منها فائدة كبرى فى إخضاع هؤلاء الزملاء لسلطانه، فكان يشهر ماتحويه تلك التقارير من تصرفات غير كريمة فى وجه العضو الذى تبدو منه أية بادرة لمعارضته. وساعده على ذلك أن حياته الخاصة كانت خالية من الفضائح والمغامرات لتحفظه فى حياته الاجتماعية الخاصة.

ومن القصص التى رواها لى وتأكدت من صحتها قصة عن أحد أعضاء مجلس القيادة (الثورة) الذى زار أحد الباشوات فى مدينة الإسكندرية، وكان قد أشيع عن هذا الباشا أنه سيقدم إلى إحدى محاكم الغدر بتهمة التلاعب فى الماضى بسوق القطن. وذكر عبد الناصر القصة مستهجناً زيارة عضو مجلس القيادة لشخص متهم. وذكر لى التفاصيل الكاملة لما حدث فى تلك السهرة؛ حتى الكلمات التى تبادلها زميله مع إحدى السيدات بعد أن لعبت برأسه الخمر، تلك الكلمات التى ضايقت السيدة فدفعتها إلى قذف الويسكى الذى كان فى كأسها فى وجهه.

وقد تحريت هذه الواقعة فعلمت أن هذه السهرة لم يحضرها من الضباط سوى عضو مجلس القيادة سالف الذكر؛ الأمر الذى جعلنى أفهم أن عبد الناصر لايقتصر فى تجسسه على زملائه من أعضاء مجلس القيادة على الضباط فقط بل يستعمل فى ذلك المدنيين أيضاً وخصوصاً السيدات.

وجمال عبد الناصر لايكتفى بتطبيق هذه القواعد على الأمور الداخلية بل إنه ليستغل الحياة الخاصة لأعضاء البعثات الدبلوماسية فى تحقيق أغراضه إلى أقصى حد. وللأسف فإن بعض الدول لاتدقق تدقيقاً واجبا فى اختيار أعضاء بعثاتها الدبلوماسية خصوصاً رؤساء هذه البعثات؛ فقد حدث أن كان على رأس بعثتين دبلوماسيتين لدولتين من أكبر دول الغرب سفيران مصابان بالشذوذ الجنسى. وقد حدث بالنسبة لأحد السفيرين الذى لم يكن كزميله مشهوراً بهذا الداء، حدث أن اكتشفت إدارة المخابرات أن هذا السفير يستأجر شقة خاصة لممارسة الشذوذ فيها.

وبينما كان السفير يمارس شذوذه فى هذه الشقة إذا ببوليس الآداب يداهم الشقة ويقبض على من فيها. وقد حرص البوليس على أن لايشعر السفير بأنه قد اكتشف شخصيته بل قاده إلى مركز البوليس هو ومن معه على اعتبار أنهما قد استأجرا شقة لأغراض مخلة بالآداب العامة. وحول السفير بادىء الأمر أن يخفى شخصيته ولكن بعد أن فتح ضابط البوليس المحضر للتحقيق أحس السفير بأنه لامفر من الفضيحة، وأبدى ضابط البوليس المحقق بادىء الأمر شكه فى ادعاء السفير بأنه سفير لدولة كبرى. وبعد أن أثبت الرجل حقيقة ماادعاه بادر الضابط إلى الاعتذار وقفل المحضر وأطلق سراح السفير.

وفى اليوم التالى وصل إلى السفير محضر التحقيق مع اعتذار الحكومة عما قام به البوليس. وبطبيعة الحال أخذت الحكومة صوراً لهذا المحضر قبل إرساله إلى السفير. وكان من نتائج ذلك أن تقارير هذا السفير وزميله الآخر المشهور بشذوذه الجنسى تحمل لحكومتيهما كل مايماشى رغبات عبد الناصر».

* * *

الفصل الثالث

تكتيك جديد

إن وقوف أصحاب الدعوات أمام المفاجآت ـ التى لم تكن فى حسبانهم ـ مشدوهين جامدين هو نوع من الغفلة والبله.. لابد لهم من أن يتصرفوا ويغيروا من خططهم تواؤماً مع هذه المفاجآت.. ولا أقصد من هذا أن يتناول التغيير مبادئهم ولا أهدافهم، وإنما أقصد أن يكون التغيير فى وسائلهم وأسلوبهم.

فإذا وضعت خطتك للقاء عدوك فى ساحة القتال ومعلوماتك عنه أنه غير كامل العدة والعتاد، ثم تبين لك فى آخر لحظة قبل اللقاء خطأ معلوماتك عنه وأنه كامل العدة والعتاد؛ فمن الخطأ الفادح أن تتمسك بخطتك دون تعديل..

وهذا هو ماألهمته بعد أن أفقت من صدمة المفاجأة؛ فلقد كنت معداً نفسى على أساس أنى سأتحدث من موقع القوة إلى قوم هم فى رهبة منى لأنهم لايعرفون ماورائى ـ ولكننى فوجئت بأن أدق أسرارى عندهم.. فعلىّ إذن أن أغير أسلوب حديثى معهم.

وقد فعلت.. إذ قلت لهما: دعونا نتكلم فيما جئنا من أجله. إنى رأيت الخلاف بيننا وبينكم قد تفاقم أمره مع أننا جميعاً إخوة، وقد علمت أنكم تتهمون لجنة الاتصال التى بيننا وبينكم بأنها مغرضة وليست أمينة على نقل مايقال فى الاتصالات. ولما كنت حريصاً على أن لايأخذ الاختلاف هذا الوضع الخطير، فقد رأيت أن أقوم أنا بهذا الدور؛ آملاً أن أوفق فيما لم يوفق فيه غيرى، وأنا ليس لى من هدف شخصى كما تعلمون.. فما رأيكم؟

قال الرجلان: إننا نرحب بكل مايقرب بين وجهات النظر.

قلت: أما وقد وافقتما على هذا المبدأ، وعلى أن أقوم بهذه الوساطة، فالخطوة التالية هى أن أعرض عليكم مذكرة أعددتها ولكننى آثرت قبل أن أعرضها عليكم أن أعرف مدى استعدادكم للتفاهم.. فإلى موعد آخر قريب إن شاء الله فى بيت الأخ الحاج محمد جوده.

المذكرة :

لم أكن أعددت مذكرة كما ذكرت ، وإنما هي إحدى الأفكار التى نشأت فى خاطرى حين أفقت من المباغتة التى واجهنى بها الضابطان ، وكان علىّ إذن أن أعد هذه المذكرة فى أقرب وقت . فذهبت إلى المركز العام ؛ الذى كان فى ذلك الوقت شبه مهجور ؛ .. فكل حجراته خالية ما عدا الحجرة التى يجلس فيها الدكتور خميس والإخوة المسمون « بمجموعة الروضه » . . وعكفت فى إحدى حجراته على كتابة المذكرة .

وقد شغلت المذكرة نحو ثلاث صفحات من الفولسكاب ، وكانت على صورة خطاب موجه منى إلى الأستاذ المرشد العام . ولم تكن هذه المذكرة متعددة الصور بل كانت من صورة واحدة ؛ ولذا فإنها فقدت أو أحرقت ضمن ماعبث بإحراقه مأجورو جمال عبد الناصر فيما بعد بالمركز العام — ومع طول المدة التى كانت كفيلة بإنسائى ماكتبته بها ، إلا أنها كانت ذات أهمية خاصة عندى فعلق فى خاطرى مابنيت عليه من أفكار .. وتدور هذه الأفكار على النحو الآتى :

بدأتها بالتنوية برباط الأخوة الإسلامية الذى يربط بين رجال الثورة وبين الإخوان المسلمين ، ثم أشرت إلى دخول شياطين الإنس والجن بين الطائفتين ؛ مما نشأ عنه اختلافات بدأت صغيرة ، وأخذت فى الكبر حتى تفاقمت ، وكادت تنذر بشر مستطير . ولا أعفى طائفة من الطائفتين من ملام على انسياقها لداعى التباعد وتوسيع شقة الخلاف ؛ حتى وصل الأمر إلى حد لايليق أن يصل إليه طائفتان من المسلمين ؛ فإحداهما استباحت إلصاق التهم بالأخرى وعاملتها معاملة العدو ، والأخرى رمت أختها بالكفر لأنها نكلت عن الحكم بكتاب الله وما يستتبع ذلك من استباحة الدم .

ثم قلت : إننى أرى أن الانسياق مع داعى الخلاف قد خرج بكلتا الطائفتين عن الجادة ، وعلى كل منهما أن تعيد النظر فى موقفها وفى حكمها على الأخرى ، لتصل إلى حكم صحيح غير ناشىء عن ثورة الغضب . فعلى الإخوان أن ينظروا إلى رجال الثورة على أنهم إخوان لهم ﴿ **خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم** ﴾ .. وسردت الأعمال الطيبة التى قاموا بها من الإفراج عن الإخوان المسجونين ، وإعادة التحقيق فى قضية اغتيال الإمام ، وعزمهم على إقامة السد العالى وغيرها مما لاأذكره الآن — وقلت إنهم لم يرفضوا الحكم بكتاب الله صراحة ؛ ومثل هؤلاء لاينبغى رميهم بالكفر ، وهناك مندوحة ..

ثم نعيت على الطرف الآخر إلصاق التهم بالإخوان واعتبارهم أعداءً ينالون بما ينال به الأعداء ، وقلت : إن على رجال الثورة أن لايستجيبوا لدواعى الغضب فينسوا أن الإخوان هم الذين تحملوا ماتحملوا فى سبيل التمهيد لقيام هذه الثورة ، وهم الذين آزروها ووقفوا

بجانبها، وهم وحدهم الذين يستطيعون أن يبثوا روح الإيمان والجهاد فى نفوس هذه الأمة، وهو مالا غنى عنه لثورة تريد أن تنقذ هذه البلاد من وهدتها.

ثم قلت: إننى أرى أن يراجع كل طرف من الطرفين نفسه، وينظر إلى الآخر النظرة التى صورتها متجرداً من سورة الغضب وهياج الانفعال. ثم نبحث عن طريقة للتقريب بين الطائفتين وإصلاح ذات بينهما.

واقترحت لذلك الإعداد لاجتماع بين الطرفين لايكون فى المركز العام ولا فى دار من دور الحكومة، بل يكون فى مكان يرضاه الطرفان. ورشحت لذلك منزل الأخ الحاج محمد جوده على سبيل المثال — على أن يحضر هذا الاجتماع ممثلون عن الإخوان المسلمين لامن القاهرة وحدها ولكن من جميع محافظات القطر، واقترحت أن يمثل كل محافظة اثنان من الإخوان — يجتمع هؤلاء الإخوان بالبكباشى جمال عبد الناصر ومعه من يشاء من رجاله.. ويقوم كل طرف بعرض وجهة نظره — ويتناقش الطرفان فى جو من التفاهم والرغبة فى الوصول إلى نقطة التقاء.. وبذلك لايدعى أحد الطرفين أن رسل الطرف الآخر أساءت فهم ماصدر عنه أو حرفت فى نقله بحسن نية أو بسوء نية.. وبذلك نقطع الشك باليقين، ونكون قد وضعنا ممثلى الطرفين وجهاً لوجه.. والوصول إلى نتيجة طيبة شيء مأمول بإذن الله.

أضواء على المذكرة:

هذا هو ملخص ماجاء فى هذه المذكرة، ويحسن أن ألقى بعض الضوء على ظروف أحاطت بهذه المذكرة أوجزها فيما يلى:

١ — كان صدور هذه المذكرة منى شيئاً مفاجئاً للجميع، أما مفاجأته للطرف الآخر أى رجال الثورة فقد أومأت إلى ماصدر منهم من عبارات التعجب والدهشة لاللمذكرة فحسب بل لمجرد تعرضى للوساطة.. وقد وضحت الظروف المؤلمة التى رأيتها فى المركز العام بعد رجوعى من قنا، مع اختفاء المرشد العام خشية اغتياله — وأما مفاجأته لطرفنا نحن الإخوان فكانت أشد.. لأننى كنت دائماً أنأى بنفسى عن الاتصال بالطرف الآخر لعدم ثقتى فيه.

٢ — كان الإخوان لاسيما إخوان الأقاليم فى موقف لايحسدون عليه؛ فقد وقعوا تحت تأثير شحن متواصل لاينقطع من جميع الجهات؛ فالحملة الصحفية المضللة المستفزة تحملها الصحف وتنقلها الإذاعة كل صباح ومساء إلى أعينهم وأسماعهم؛ فتلتهب لها صدورهم، وتشتعل مشاعرهم ثم يذكى هذه النار ويؤججها مايصدر عن المرشد العام من مخبئة بين يوم وآخر من منشورات

لاهبة .

٣ ــ لمست الأسلوب النارى الذى يصدر به المرشد العام منشوراته .أنه يصدرها بإحساس الذى يشعر أنه فى موقع قوة .. وهو ماكنت أنا شخصياً أعتقد أنه موقفنا جميعاً نحن الإخوان قبل أن تتكشف لى الحقيقة المرة عند لقائى بالضابطين ــ وقد وجدت لزاماً علىّ أن أتصل بالأستاذ المرشد لإحاطته علماً بهذه الحقيقة .. فطلبت من الإخوة «مجموعة الروضة» أن يسهلوا لى مهمة الوصول إلى المرشد فى مخبئه لإحاطته علماً بتطورات هى غاية فى الخطورة تتصل بسر بينى وبينه ؛ فكان ردهم علىّ رداً لم أكن أتوقعه من مثلهم لمثلى، وهم يعلمون مدى ماأدين به من إخلاص للدعوة ولقائدها . ولكنهم كانوا يتصورون فى ذلك الوقت أن مجرد اتصال أخ أياً كان بالطرف الآخر ــ بعد انقطاع الاتصال الذى أشرت إليه ــ يعد انحرافاً بل خروجاً على الدعوة وقيادتها .. ولذا فإننى مع شدة تأثرى من ردهم علىّ بإنكارهم معرفة مكان المرشد ؛ فإننى التمست لهم العذر لأنهم لايعلمون ماأعلم .. ولولا بقية ثقة منهم فىّ لرمونى بما كانوا يرمون به أى أخ غيرى من الخروج على الدعوة والقيادة .

٤ ــ من العجيب أن الدكتور خميس ــ وهو نائب المرشد العام ــ لم يكن يعرف مكان المرشد . وقد طلبت منه قبل أن أطلب من إخوة الروضة أن يصلنى بالمرشد فأقسم لى أنه لايعرف مكانه . ولم يكن رده مفاجأة لى بل كنت أتوقعه ؛ فقد سبق أن ذكرت أنه حين كان مفوضاً فى الاتصال بجمال عبد الناصر تعهد لجمال بتعهدات خذله فيها الإخوان .

ومع ذلك فقد ظل الرجل مرابطاً بدار المركز العام ليل نهار تاركاً بلده ــ المنصورة ــ وأسرته ومصدر رزقه ــ صيدليته ــ على أمل أن يستطيع أداء خدمة لدعوته وإخوانه فى أحرج الأوقات وأعقد الظروف .

٥ ــ سلمت المذكرة التى أعددتها للدكتور خميس باعتباره نائب المرشد وطلبت إليه أن يقرأها ويبدى لى رأيه فيها ، كما طلبت إليه أن يطلع عليها الإخوة «الروضيين» باعتبارهم المسئولين الفعليين عن الدعوة فى غياب المرشد . وقد فعل وقال لى إنه يؤيد كل ماجاء فيها . فطلبت إليه عرضها على أعضاء الهيئة التأسيسية فى جلسة الهيئة المقرر عقدها فى ٢٤ سبتمبر ١٩٥٤ والتى ستعقد بعد أيام قلائل .

لقاء عاصف مع حبيب :

٦ ــ فى صبيحة اليوم التالى حضر إلى المركز العام ــ حيث كنت أقضى أكثر وقتى

فيه — الأخ الأستاذ عبد القادر عوده.. وكانت تربطني به غير الأخوة العامة صداقة وحب متبادل.. وبعد أن صافحني طلب إليّ أن نجلس معاً جلسة على انفراد، فجلسنا فى إحدى حجر المركز العام التى كانت كلها خالية وأغلقنا علينا الباب.. ثم سألنى عن الدافع الذى دفعنى إلى كتابة هذه المذكرة، فقلت له إن الذى دفعنى إلى ذلك هو الآتى:

أولاً: انتقالنا من مركز القوة إلى مركز الضعف بتضييعنا الفرصة بعد خروجنا من المعتقل فى مارس ١٩٥٤، حيث أضعنا الوقت فى تبادل التهانى بخروجنا منتصرين حيث استطاع جمال عبد الناصر أن ينتهز هذه الفرصة ويعد مظاهرات الحكومة — سواء بالرشوة أو غيرها — مما أحبط كل الجهود، وقضى على كل الآمال؛ فقد أمكنه بذلك تبادل المواقف؛ فاحتل موقعنا الذى هو مركز القوة، ونقلنا إلى موقعه الذى كان مركز الضعف — وبذلك انتقلنا منذ ذلك اليوم من موقف المهاجم إلى موقف المدافع.
وهذا التغير الذى طرأ على موقعنا هو وحده كان يقتضى أن نغير فى أسلوب تعاملنا مع الطرف الآخر، والتغيير فى الأسلوب لايمس أفكارنا ولا أهدافنا، ولكنه يتيح لهذه الأهداف وهذه الأفكار الفرصة.

ثانياً: أن استمرار شحن الإخوان عن طريق منشورات المرشد الملتهبة — وهو بعيد عن مجريات الأحداث — وعن طريق حملات الاستفزاز التى تطفح بها جميع الصحف كل يوم لابد أن ينتهى بكارثة — فى الوقت الذى أرى فيه المركز العام خالياً من الإخوان؛ فالمرشد غائب خشية أن يغتال، وصفوة الإخوان بين معتقل وهارب من السلطة.. هذا وضع لاينبغى السكوت عليه، ولا تركه يزداد كل يوم تفاقماً دون وضع حد له يتيح لهذه الجموع الضخمة اللاهثة من الإخوان أن تتنفس بحرية، وتدرس الموقف دراسة متأنية مستبصرة، قبل أن تقدم على معركة لايقدّر أحد مدى ماتنتهى إليه، ولا ماتتمخض عنه — لاسيما إخوان الأقاليم الذين لايعرفون الكثير مما يعرفه إخوان القاهرة من ظروف وتطورات.

ثالثاً: أن التقائى بالضابطين الطحاوى وطعيمة كشف لى عن حقيقة ماكنت أتصورها هى أن أدق أسرارنا عندهم بتفاصيلها؛ فلقد واجهانى بأسرار خطيرة تتصل بى شخصياً لايعرفها إلا المرشد، وأنهم متمكنون منا تمكناً يلزمنا أن نعيد النظر فى جميع خططنا. ولن نستطيع ذلك إلا إذا عملنا على

إيجاد فرصة نتخلص فى خلالها من حالة التشنج والثورة العصبية التى صرنا فريسة لها.. وهذا هو ماأسعى إليه.

فلما أنهيت كلامى اتجه إلىّ الأخ الأستاذ عبد القادر وقال لى: أطمئنك بأننا لسنا فى مركز ضعف، بل إننا فى مركز قوة وهم فى مركز ضعف، وستظهر الأيام ذلك إن شاء الله، وسيعلمون أن الإخوان قوة لاتقاوم.. وعلى ذلك فلا داعى لهذه المذكرة التى تطلب عرضها على الهيئة التأسيسية ولا لهذه الجهود التى تبذلها.

فقلت له: ياأخى عبد القادر.. أنت صادق فيما تطمئننى به مما يعده الإخوان من قوة، وأنا لاأجهل ماتشير إليه من هذه القوة.. ولكن الجديد فى الأمر أننى اكتشفت أن القوم ــ بكل الوسائل التى أتيحت لهم من خزائن الدولة، وولاء بعض إخوان لهم، ووسائل التسمع الحديثة ــ استطاعوا أن يعرفوا أسرارنا مما يتصل بهذه القوة؛ فلا ينبغى لنا بعد ذلك أن نتعامى عن هذه الحقيقة المرة، ونكون كالنعامة التى تظن حين تدفن رأسها فى الرمال فلا ترى الصائد أن الصائد لايراها.. أنا لاأطالب بأكثر من أن نعطى لأنفسنا فرصة نتنفس فيها الصعداء، ونعيد فيها ترتيب بيتنا.

لما يئس الأخ عبد القادر رحمه الله من استجابتى لأسلوب المناقشة والإقناع، لجأ إلى أسلوب آخر كريم؛ فهو يعرف مكانته فى نفسى ومدى مايربطنى به من صداقة وحب فقال لى:

من أجل خاطرى، وبحق مابينى وبينك من أخوة وحب وصداقة أستحلفك بالله إلا عدلت عن هذه المذكرة وعن جهود الوساطة التى تقوم بها؛ فإن هذه المذكرة ستعوق خطة الإخوان، وستكون عقبة فى طريقها.. ثم قال كلمة أبكتنى هى قوله: إننى على استعداد أن أقبل قدمك..

ولقد أدت هذه الكلمات الأخيرة إلى انفجارى قائلاً.

ياأخى عبد القادر.. أنت أعز علىّ من هذا الذى تقول، وآثر عندى من أن ألجئك إلى هذا الأسلوب إن الموضوع الذى نعالجه ليس موضوعاً شخصياً حتى ترجونى فيه. إنه موضوع يتعلق بألوف الإخوان فى الأقاليم. إنه يتعلق بألوف الأسر والنساء والأطفال.. إنه يتعلق بدماء هؤلاء الألوف التى ستهدر دون ترو ولا تبصر ودون إحكام خطط.. إن دماء هؤلاء أمانة فى أعناقنا نحن الذين اختارونا قادة لهم، يتلقون منا دون مناقشة ولا مراجعة.. فمن حقهم علينا أن نطلعهم على ماعندنا، وأن نظهرهم على ماجد مما كشفته لنا الظروف. أو على الأقل أن لانخاطر بدمائهم مادام قد جد من الأمور مايلقى على خططنا ولو بظلال باهتة من الشك ــ لأن هذه الدماء أعز من أن تهدر دون أن تكون على

بينة من الأمر لايخالطها شائبة من شك.

ياأخي عبد القادر .. إنني كنت حريصاً على لقاء الأستاذ المرشد فى مخبئه لأطلعه على ماعندى وأنا موقن أن الرجل ـــ بثقته فىّ وبما أعرضه عليه من ظروف كشفتها تتصل بأسرار بينى وبينه ـــ سيغير من خطته كما عودنى؛ لأنه ليس بالرجل المستبد ـــ ولكن الإخوة الذين يستطيعون ذلك حالوا بينى وبين لقائه .. فلا أقل من أن أعرض رأيى على الهيئة التأسيسية فى أقرب اجتماع لها، حتى أكون قد أرضيت ضميرى، وأعذرت إلى الله، وبرئت من أبرياء ستهدر دماؤهم.

وأقسم لك بالله ياأخى عبد القادر إننى لن أتراجع عن تقديم هذه المذكرة، ولا عن مواصلة وساطتى؛ ولو كان فى ذلك سفك دمى .. لأننى إذا لم أفعل فسأظل طول حياتى مؤرق النفس تحت تأنيب ضميرى.

وهنا لم يكن بد من إنهاء الجلسة، وخرج كل منا وهو فى حالة من الثورة النفسية تكاد تعصف بقلبه.

* * *

وجلست بعد ذلك إلى نفسى ساعة .. حتى هدأت العاصفة النفسية التى استبدت بى . وأخذت فى مراجعة ماكان من أمر هذه الجلسة العاصفة .. وكيف تمت؟ .. ولم تمت؟ ومن الذى اختار الأستاذ عبد القادر ورشحه للقيام بهذا الدور معى؟.. ولِم اختير هو بالذات دون غيره؟

وقد وضح أمامى أن الإخوة «الروضيين» هم الذين اختاروا الأخ الأستاذ عبد القادر للقيام بهذا الدور. وقد اختاروه دون غيره لما يعرفون من حسن صلتى به أولاً، ولأنه كذلك بعد تحول اتجاهه ـــ إثر أحداث شهر مارس ١٩٥٤ ـــ كان متوائماً فى أفكاره ـــ رحمه الله ـــ مع أفكارهم ـــ وينبغى هنا أن أعيد ماسبق لى الإشارة إليه من أن الأستاذ عبد القادر رحمه الله كان على علو كعبه فى العلم، وسمو نفسه فى الخلق، وعمق عقيدته فى الإيمان .. كان إذا أحب أفرط فى الحب، وإذا أبغض أفرط فى البغض .. وليس من السهل عليه إلزام نفسه بالموقف الوسط الذى حث عليه الحديث النبوى الشريف «أحبب حبيبك هوناً ما؛ عسى أن يكون بغيضك يوماً ما. وأبغض بغيضك هوناً ما؛ عسى أن يكون حبيبك يوماً ما».

ويجب علىّ أن أقرر هنا قبل أن أغادر هذه النقطة، أننى مع اختلافى فى وجهة النظر فى تلك الأونة فى وسيلة معالجة الموقف الذى كانت تعانيه الدعوة بعد توالى الأحداث

المناوئة لها والمواتية لأعدائها .. مع اختلافى مع الإخوة «الروضيين» فإننى لم أشك لحظة فى إخلاصهم بل فى تفانيهم فى عملهم للدعوة، كما لم يتطرق إلى نفسى أثارة من شك فى ذلك حتى بعد أن تفاقمت الأحداث نتيجة أخذ الإخوان بسياستهم، وبعد أن ضربت الدعوة فى مقاتلها، وبعد أن نصبت المشانق، وسفكت الدماء، ومثل بالجثث .. وقد كانوا هم من أوائل من ذاق هذه المرارات وتجرع هذه الغصص، وعانى أهوال التنكيل.

أما ظنهم بى، واعتقادهم فىّ؛ فمما لاأدريه، ومما لم أكن أحسب له حساباً .. فلقد عاصرت هذه الدعوة منذ لم تكن شيئاً مذكوراً .. وعملت لها فى ذلك العهد كما عملت لها بعد أن صارت أعلى الهيئات صوتاً .. وأغلظها ساقاً، وبعد أن صارت مجالاً لذوى الأطماع، ووسيلة للبروز والظهور .. وما راعيت فى عملى لها فى كلتا الحالين غير وجه الله، لاأبغى سواه، ولا أحفل بغيره ممتثلاً أمر الله تعالى ﴿**قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون**﴾.

ولو كان التماس رضا المخلوقين يشغل خاطرى، أو هو شيئاً من أهدافى؛ لكان سكوتى على الأقل، ومسايرتى لآراء الإخوة «الروضيين» محققاً لذلك كل التحقيق؛ فلقد كنت أعلم أن رأيهم هو رأى الإخوان لاسيما إخوان الأقاليم وهم الأكثرية ـــ ولكننى والحمد لله لم يكن يعنينى رضاهم عنى، ولا غضبهم منى هم أو سواهم؛ وإنما كان الذى يعنينى هو أن أعمل على حقن دمائهم، وأن أتفادى جرهم إلى حرب غير متكافئة تبين لى أن العدو كاشف أغلظ عوراتهم وهم لايشعرون.

* * *

الفصل الرابع

هل كان اختفاء المرشد العام فى ذلك الوقت إجراءً سليماً؟

هذا موضوع تجب مناقشته قبل المضى فى سرد ماتوالى من الأحداث. لأن له من الدلالات ومن المقدمات ومن النتائج مالا بد للقارىء أن يلم به حتى ينظر إلى الأحداث التى وقعت فى تلك الحقبة من الزمن نظرة كاملة.

كانت الأحداث تتوالى، وكلها فى غير صالح الإخوان، وكان جمال فى كل يوم يكسب أرضاً على حساب الإخوان؛ بما سيطر عليه من وسائل الإعلام، وسلطة الحكم، وخزائن الدولة. وكان الإخوان يتلقون الضربات الظالمة صابرين، كاظمين غيظاً يكاد شرره يقفز من عيونهم.. ولكن حتى نفذت أمر النقل وسافرت إلى قنا، لم يدر فى خلد أحد من الإخوان أن يختفى المرشد العام.

فلما رجعت من قنا أنبئت بأن الأستاذ المرشد العام مختف لأن الإخوان علموا أن هناك تدبيراً لاغتياله.. ولكن كيف وصل نبأ عزم الحكومة على اغتيال المرشد إلى الإخوان؟

لقد كان الإخوان فى تلك الفترة واقعين تحت تأثير ثورة نفسية عارمة، وتوتر عصبى قد بلغ أقصى حدوده ـــ وهو مارتب جمال عبد الناصر خططه بحيث يوقع الإخوان فيه، ويحيطهم به حتى يستطيع بعد ذلك استغلال هذه الحالة فى جر الإخوان إلى اتخاذ مواقف معينة، تزيدهم ارتباكاً، وتفقدهم السيطرة على مقدرات دعوتهم، وتقذف بهم فى صحراء التيه والضياع أو تلقى بهم فى هاوية التخبط والظلام.

وما من شك فى أن وجود المرشد العام بشخصه بين الإخوان هو فى ذاته أقوى عوامل الأمان فى نفوسهم أو هو مايسمونه صمام الأمان. وقلما تتمكن قوة معادية للدعوة مهما توفر لها من وسائل أن تنال من الدعوة نيلا مؤثراً فى وجود شخصية قائدها بين ظهرانيها، وعلى رأس أجهزتها، وفى مركز إدارتها.. ولهذا كان هدف من رأوا فى دعوة

الإخوان خطراً يهدد نفودهم؛ أن يختصروا الطريق فى القضاء عليها بحرمانها من قائدها بأية وسيلة من وسائل الحرمان.

ويخيل إلىّ أن هذه الأفكار دارت فى خلد عبد الناصر، وأنه استعرض وسائل الحرمان التى يستطيعها — وإخاله كان يستطيعها جميعا — لكنه استبعد وسيلة الاغتيال — لاتعففاً ولا نبلاً — وإنما لأنه إذ ذاك لم يبرح خاطره بعد كيف اغتالت دولة فاروق المرشد السابق حسن البنا، وكيف استغلت جميع إمكانات الحكومة فى التستر على هذه الجريمة حتى إن سلطات التحقيق والقضاء لم تجد إلى إثباتها دليلاً فنفضت يدها منها.. ولكن ذلك لم يدم طويلاً فقد تطورت الأمور تطوراً كشف ماطمس من معالمها، وأوضح ماكان خافياً من حقائقها.. ووضع القضاء يده على الجناة، وأشار إلى المحرضين عليها حتى يأخذ الحكام الجدد — وكان منهم جمال عبد الناصر — بتلابيبهم، وأن يصموهم بالخزى والعار.

كل هذا لابد أنه دار فى خلده فاستبعد هذه الوسيلة، وبحث عن وسيلة أخرى.. فكانت الوسيلة أن يعمل على أن يحجب شخص المرشد عن الإخوان بطريقة طواعية بحيث تبدو وكأن المرشد نفسه هو الذى احتجب، وهو الذى قرر الاحتجاب.. ولا أعتقد أن عبد الناصر قد تحمل كبير عناء فى تحقيق هدفه هذا؛ فالحالة التوترية التى أوجدها فى أعصاب الإخوان لم تكن فى حاجة — لإتمام تحقيق ذلك — إلى أكثر من بث شائعة فى أوساط الإخوان المحيطين بالمرشد بأن الحكومة عازمة على اغتياله.. فسارع هؤلاء الإخوة إلى إخفائه بعيداً عن متناول الحكومة وبالتالى عن أوساط الإخوان.

ومن المعروف أن شخصاً ماإذا قرر اغتيال عدو له؛ فإنه لايكتفى بتجنب التنويه بعزمه هذا، بل إنه يتظاهر بنسيان العداء، ويتقرب إلى عدوه بعبارات الود؛ أملاً أن تتم الجريمة فى يسر وشُبَهُ الاتهام بعيدة عنه منصرفة إلى غيره.

وأنا لاأبرىء نفسى بهذا التحليل من أننى كنت كغيرى من الإخوان واقعاً تحت نفس التأثير التوترى العصبى، وأننى لم أكن أرى فى اختفاء المرشد العام مايعد خلاف الأولى؛ لأن أى بشر تستهدفه حملة استفزازية مسعورة كتلك التى سلطها جمال عبد الناصر فى تلك الآونة على الإخوان.. لايملك إلا أن يقع فريسة لها، وأن تكون استجاباته فى التفكير والتصرف فى حدود ماتمليه حالته العصبية.

* * *

ولكن هدفى من هذا التحليل هو أن أوضح مدى ارتباط تصرفات وقعت فى ظل هذا الاختفاء، حتى يكون الحكم عليها حكماً أقرب إلى الصواب، وأدنى إلى العدل، وأدخل فى نطاق النتائج منها فى حدود التصرفات القائمة بذاتها.

وأضرب لذلك مثلاً؛ مااتخذته شخصياً من خطوات بعد رجوعي من قنا، تحدثت عن بعضها وسأتحدث إن شاء الله عن البعض التالى لها.. فالذى أملى علىّ اتخاذ هذه الخطوات أننى لم أجد أمامي المرشد العام لأتحدث إليه، وأتبادل معه الرأى، وأفضى إليه بكشف الطرف الآخر للسر الذى لم يكن يعلمه بعد الله سواى وسواه- وأعتقد لو أن الحديث جرى بينى وبينه لتغير وجه التاريخ، ولسارت الأمور فى مجرى غير الذى جرت فيه، ولحقنت دماء، ولتجنبت البلاد ويلات لايعلم إلا الله متى تخرج منها.. ولكن عدم وجود المرشد العام ألزمنى أن أتابع طريقاً هو- فى الوقت الذى رأيته هو الأسلم للدعوة- رآه غيرى غير ذلك، وظن أن تصرفى إنما أملاه خوف ألم بى أو فزع خلع قلبى.. وهذا الغير بلا شك معذور فيما يرى وفيما يظن؛ فإن الشخص الوحيد فى الدعوة المحيط بكل جوانبها، والذى تلتقى فى نفسه أفكار كل ذى فكر، والذى تجتمع كل أسرار الدعوة عنده هو المرشد العام.. ولذا فإن التفاهم معه هو التفاهم المجدى والمثمر.. أما من سواه من الإخوان؛ فتغيب كثير من زوايا الدعوة وأسرارها عن خاطره، فلا يكون التفاهم معه سهلا ولا مثمرا.. ولعل هذا هو ماهدف إليه جمال عبد الناصر من حجب المرشد العام عن الإخوان.

والمثل الآخر الذى أضربه، أو قل هو إحدى أخطر نتائج اختفاء المرشد العام فى ذلك الوقت أن هذا الاختفاء مع توالى الأحداث وتفاقمها، جعل تقييم هذه الأحداث خاضعاً لتقدير شخصى؛ مما كان سبباً فى تشتت أفكار الإخوان وتشعب آرائهم، مما أفضى إلى إشاعة الفرقة والانقسام بينهم- وكان الذى يحسم هذا دائماً هو وجود المرشد العام بينهم؛ تمر عليه الأحداث كما تمر عليهم، ويحس بآثارها كما يحسون.. وبمناقشته كل ذى وجهة نظر منهم تجتمع عنده كل الآراء؛ فيصل فى نهاية الأمر إلى قرار مبنى على إحاطة كاملة يخضع له الجميع غير راغمين ولا متحرجين.

* * *

كما أن غياب المرشد العام عن موقع الأحداث مع ظهور منشورات صادرة منه بين الفنية والفينة عن طريق غير شرعى- والطريق الشرعى أن تكون عن طريق نائب المرشد- جعل بعض الإخوان يتشككون فى هذه المنشورات، كما هز إيمانهم وضعضع ثقتهم بكفاءة البناء الإخوانى، وجعل الكثيرين منهم يتهامسون لم هذا التخطى؟ وما المقصود منه؟ وما الداعى إليه؟.. وهل توجيهات المرشد العام التى تتضمنها المنشورات الصادرة عنه صدرت عن إحاطة بكل الظروف والملابسات أم صدرت عنه بناء على ماوصل إليه عن طريق الفئة التى تتصل به فى مخبئه وحدها؟.. فإذا كان الأمر كذلك فإن هذه التوجيهات لم تبن على إحاطة كاملة؛ فهى إذن توضع موضع المناقشة وهى غير ملزمة.

ونتائج احتجاب المرشد العام فى ذلك الوقت كانت كثيرة وخطيرة، وتعدت فى خطورتها ماذكرنا من أمثلة مما يأتى إن شاء الله فى سياق الحديث ــ وقد قصدت من ذكر بعض الأمثلة هنا أن أقرر أن الأمر الواقع الذى حدث من اختفاء الأستاذ المرشد كان سببا فى وقوع تصرفات، واتخاذ أوضاع، بل واقتراف أخطاء فى صفوف الإخوان لم يكن بد من قوعها؛ وأن النظر إلى هذه التصرفات والأوضاع والأخطاء نظرة مجردة هو بمثابة الاقتصار على نظر إلى رد الفعل دون النظر إلى الفعل الذى أنتجة وأدى إليه.

سؤال آخر:

وبعد ذلك كله نعود إلى السؤال الذى وجهناه فى أول هذا البحث الذى يقول: هل كان اختفاء المرشد العام فى ذلك الوقت إجراءً سليماً؟.. ونقول إن الإجابة على هذا السؤال قد وردت فى سياق ماذكرنا تحت هذا العنوان.

ولكن ــ إحقاقاً للحق، وإنصافاً للتاريخ ــ يجب أن نلحق هذا السؤال بسؤال آخر يقول: هل كانت هناك مندوحة لتفادى هذا الإجراء الذى وقع؟

والإجابة على هذا السؤال يقررها الجو النفسى الذى أحاط بهذا الإجراء ــ فالذين حضروا هذه الملحمة، وعاشوا فى جوها، واكتووا بنارها، يقررون أن هذا الذى حدث إنما كان خطأ لابد منه وتجاوزاً لامعدى عنه.

وقد يقول قائل اليوم إنه كان على المرشد أن يثبت فى مكانه ليقارع الأحداث وهو بين إخوانه مهما طاردته أساليب التهديد، حتى ولو بلغ التهديد مبلغ التنفيذ ــ فإن اغتياله وسط إخوانه كان سيجنب الدعوة كثيراً مما أصابها فيما بعد.. قد يقول اليوم قائل هذا الكلام؛ ولكن قوله هذا مبنى على علم بما وقع فعلاً بعد الاختفاء من أحداث، وما حاق بالدعوة فعلاً وبالبلاد من ويلات؛ مما لم يكن المرشد العام ولا أحد من الإخوان ولا أحد أيا كان يعلم أنه سيحدث «ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء» ومن هنا جاء قول رسول الله ﷺ «من اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد».

وعلى ضوء هذا التفصيل الحكيم ينبغى أن يكون نظرنا إلى ماكان من إجراءات وتصرفات وقعت فى تلك الظروف.. وهى نصيحة أقدمها إلى كل من أراد أن يقيِّم أحداث تلك الفترة وما وقع فيها من تصرفات ليصدر حكما عليها.

* * *

الباب الثالث عشر

خطوات عملية للإنقاذ

الـفصل الأول : حشد إخوانى يتبنى المذكرة

الفصل الثانى : إجتماع تاريخى جلسة طويلة مع عبدالناصر فى منزله

الفصل الأول

حشد إخوانى يتبنى المذكرة

حاولت مع الإخوة «الروضيين» أن يوصلوا هذه المذكرة إلى الأستاذ المرشد فى مخبئه؛ ولكنهم أصروا على ماأعلنوني به من قبل من أنهم لايعرفون مكانه .

أخذ نبأ المذكرة يطرق أسماع عدد من قادة الدعوة فى القاهرة، وأعطيت المذكرة للأخ الحاج محمد جودة ليسلمها إلى السيدين الطحاوى وطعيمة لعرضها على جمال عبد الناصر لإبداء رأيه فى الاقتراح الذى تضمنته؛ على أن نلتقى فى مساء اليوم بهما فى بيته أى فى بيت الأخ جودة .

ذهبت مساء ذلك اليوم إلى منزل الأخ الحاج محمد جوده بالموسكى، فوجدت فى انتظارى به مجموعة من قادة الدعوة فى القاهرة تبلغ نحو الأربعين بعضهم أعضاء بمكتب الإرشاد والباقون من أعضاء الهيئة التأسيسية ــ وهذه المجموعة فيما أرى تمثل أعلى المستويات فى الدعوة ثقافة وعلماً وفكراً وتاريخاً وسابقة فيها، كما أنها ــ بحكم وجودها الدائم فى القاهرة ــ أكثر الإخوان القياديين اتصالا بالأحداث، وأدقهم فهماً لها، وأشدهم إحساساً بوقعها، وألمسهم لآثارها، وأوسعهم إحاطة بظروفها، وأحسنهم تقديراً لقيمتها .. ولا أرى داعياً لذكر أسمائهم، وحسبى أن أذكر أن منهم من كان أستاذاً لى فى أيام الطلب، وسيأتى فى سياق الحديث إن شاء الله أسماء بعضهم مما يستطيع القارىء أن يرى فى ضوئه قدر هذا المستوى الذى وصفت .

كان لقاءً رائعاً أن ألتقى بهذا العدد الكبير من عيون الدعوة وأئمتها فى هذا البيت الرحب الفسيح الذى كانت الحجرة الواحدة منه تتسع لضعف هذا العدد جلوساً على أرائكها الدائرة مع جدرانها الأربعة والملتصقة بهذه الجدران من الطراز الفاره القديم .. فكان لهذا اللقاء حلاوة مسحت من حلوقنا ــ ولو إلى حين ــ ماتجرعناه من مرارة طيلة شهرين كاملين ..

تعانقنا طويلا، وبث كل لكل شوقه وحزنه وآلامه .. وأخبرنى هؤلاء الإخوة أنهم لما سمعوا بنبأ تعرضى لمحاولة الإصلاح هشوا لهذا النبأ لأنه جاء فى أحرج الأوقات، وفى

موقف كادت فيه السماء تنقض على الأرض بعد أن أظلمت وأبرقت وأرعدت، ولزم كل داره.. ثم جئنا للقائك لتسمعنا نص ماحوته مذكرتك لنناقشها ثم نصل بعد ذلك إلى قرار؛ لعله ينقذ الدعوة مما هو محيط بها من أخطار؛ نتيجة البلبلة والتشتت الذى نعيشه لاسيما بعد غياب المرشد العام.

وأحب أن أنبه هنا قبل أن أسترسل فى الحديث إلى أن الدافع الحقيقى الذى دفعنى إلى انتهاج طريق الإصلاح هذا، قد احتفظت به لنفسى، ولم أبح به لإخوانى هؤلاء ولا لغيرهم، وظل ذلك حبيس أحناء ضلوعى حتى بحت به لهذه المذكرات؛ لأن هذا الدافع كان سراً بينى وبين المرشد العام لم يكن من حق أحد سواه أن أطلعه عليه أو أبوح له به.. ولقد شاءت الظروف منذ ذلك الحين أن لاتجمعنى به رحمه الله إلا فى مواقف المصائب والأهوال؛ حيث لامجال حتى لمجرد التقاء النظر بالنظر ولو من بعيد.

* * *

اقتراح بخلع المرشد:

وحضر الضابطان الطحاوى وطعيمة، وأخبرانا بأنهما أطلعا جمال عبد الناصر على المذكرة، فقرأها ووافق على ماجاء بها موافقة مبدئية، على أن يلتقى غداً صباحاً فى منزله بوفد يمثل الإخوان للتباحث معه فى هذا الموضوع.

وقرأت المذكرة على الاجتماع فنالت منهم موافقة إجماعية، وأمضينا معظم الليل فى مناقشات حول الموقف وتقدم بعض الإخوان بمقترحات كان أهمها وأخطرها اقتراح للأخ الأستاذ البهى الخولى بإعلان الإخوان خلع الأستاذ الهضيبى من منصب المرشد العام. وقد استغرقت مناقشة هذا الاقتراح أكثر الوقت وكان الأستاذ البهى جادا أشد الجد فى عرض اقتراحه هذا، وجمع توقيعات أكبر عدد من إخوان الهيئة التأسيسية بالموافقة عليه، حتى إنه بعد أن طالت المناقشة فى شأن اقتراحه، طلب إلىّ أن ننتحى معاً ناحية فى حجرة أخرى، وطلب إلىّ التوقيع بعد أن شرح لى وجهة نظره؛ وهى تتلخص فى أنه يرى أن الأحداث تتفاقم يوماً بعد يوم، وقد بلغت حداً لم يعد فى طاقة الإخوان تحمله، وأن كيان الدعوة أضحى فى خطر لاسيما بعد اختفاء المرشد العام ــ الذى يعده الأستاذ البهى هروباً من المسئولية، ودليلاً على أن الأحداث قد وصلت فى تفاقمها إلى الحد الذى لايستطيع هو شخصياً (يقصد المرشد) الثبات أمامها.. ويقول الأستاذ البهى إن المسئول عن وصول الحالة إلى هذا الحد هو الأستاذ المرشد.. وإذا كنا نريد إنقاذ الإخوان مما ينتظرهم من أهوال فعلينا أن ننحى المرشد العام لننهج نهجاً جديداً..

كانت هذه وجهة نظر الأستاذ البهى ــ وهو من الأشخاص القلائل فى دعوة الإخوان

الذين تربطنى بهم صلات خاصة من الحب والاحترام منذ جمع الأستاذ الإمام بينى وبينه وآخى بيننا، وكان إذ ذاك مدرساً بمعهد طنطا الدينى ومقيماً بها، وكنت وإياه منذ ذلك العهد على وئام دائم فى الرأى، يأنس كل منا إلى صاحبه ويفضى إليه بما فى نفسه، ويلجأ إليه فيما يعترضه من عقبات — وأظننى قد أشرت فى فصول سابقة إلى ماقمت به من تقريب بينه وبين الأستاذ الهضيبى فى وجهات نظر قد تباعدت حتى أدت إلى جفوة بينهما.. وهكذا كنا معاً يداً واحدة، وقلباً واحداً..

ومثل الأستاذ البهى لاتحوم حوله أثارة من شك حول حسن نيته وبراءة قصده.. ولم يشب اختلافى معه فى هذا الموضوع ثقتى فيه بأدنى شائبة من الشك؛ وإنما هى وجهات نظر فى محاولة الوصول بالدعوة إلى بر السلام..

قلت له: ياأخى إن تنحية المرشد العام فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ الدعوة سيكون لها من الأخطار والأضرار مايتضاءل أمامه أشد مانخشاه على الدعوة من أخطار وأضرار.. لأنها ستشقق الإخوان شيعاً وأحزاباً يقاتل بعضها بعضاً حتى يقضوا بأنفسهم على دعوتهم، ويوفروا بذلك على غيرهم الجهد فى محاولة ذلك.. قلت له: إن محاسبة القائد على أخطاء يرى بعض الجنود أنه مسئول عنها لاتكون وسط المعركة وهى تدور رحاها، وإنما يجب أن نتماسك حتى تنتهى المعركة؛ فإن كان حساب فليكن حينئذ.. وقلت له إن علاج مانعانيه لايكون بهذا الأسلوب. والذى أراه — وأختلف معك فيه — هو أن هذا الرجل لاعيب فيه، وهو قائد كفء وله فى أعناقنا بيعة. ودعنى أواصل طريقتى فى الإصلاح التى عرضتها عليكم وحظيت منكم جميعاً بالقبول.

ورجعنا بعد ذلك إلى الاجتماع فطلبت إلى الإخوة الحاضرين أن يختاروا من بينهم وفداً يمثلهم فى مقابلة جمال عبد الناصر — رئيس الحكومة آنذاك — فى بيته فى صباح الغد فاختاروا من بينهم الأخوة: الدكتور خميس والأستاذ عمر التلمسانى والدكتور عثمان نجاتى والأستاذ محمد حلمى نور الدين والشيخ أحمد شريت ومحمود عبد الحليم.

وبتنا جميعاً تلك الليلة عند الأخ الحاج محمد جوده.. وأصبحنا حيث وافانا السيدان الطحاوى وطعيمة وتناولا معنا طعام الإفطار. ثم اتجه الوفد فى رفقتهما إلى منزل جمال عبد الناصر فى منشية البكرى حيث التقينا به فى الساعة التاسعة صباحاً.

* * *

الفصل الثانى

إجتماع تاريخى
جلسة طويلة مع عبد الناصر فى منزله

كانت هذه أول مرة ألتقى فيها بجمال عبد الناصر. وكنت حريصاً فى هذا اللقاء أن استكشف الكثير عن شخصية هذا الرجل ــ وكان إذ ذاك فى ربيع عمره، لم تتعقد أمامه الحياة بعد، ولم تأخذ منه الأيام، فهو أقرب أن يكون على طبيعته ــ رأيت شاباً فارع الطول، عريض المنكبين؛ وهى إحدى مؤهلات من يرشح نفسه للزعامة؛ فالجسم القوى المتين البنيان مطلوب لمقارعة الخطوب وسهر الليالى وتلقى الضربات.. وكان حتى ذلك الحين منتسباً إلى منصبه العسكرى فهو مرتد بزته العسكرية.

وكان مجلسنا فى حجرة صغيرة فى الدور الأرضى على يسار الداخل من باب المنزل، مؤثثة بأثاث كأثاث بيوتنا لايزيد عنه شيئاً. وقد شغلنا نحن الستة ومعنا الطحاوى وطعيمة كل مقاعد هذه الغرفة إلا مقعداً قرب الباب جلس عليه جمال. وجىء بكرسى من خارجها ووضع بجانب جمال وعلى يساره جلس عليه الضابط عبد الرحمن نصير الذى كان حارسه الذى لايفارقه.. وجاء ولداه الصغيران خالد وعبد الحكيم وجلسا بجانبه بعض الوقت.

وبدأ هو الحديث فقال: أنا قرأت مذكرة فلان وأرى فيها روحاً طيبة، ولهذا طلبت أن ألتقى بوفد يمثل الإخوان لمناقشة أسباب الخلاف بينى وبين الإخوان..

فقلنا له: أليس من الممكن أن نتجاوز أسباب الخلاف ونتجه إلى وسائل الإصلاح؟

فقال: إن هذا ليس بالطريق السليم لمعالجة الخلاف. لابد أولاً من معرفة أسباب الخلاف حتى نبحث بعد ذلك عن وسائل تلافى هذه الأسباب.

فقلنا: إذن ماهى أسباب الخلاف؟

أخذ جمال عبد الناصر يشرح أسباب الخلاف فى حديث طويل لم يبق فى خاطرى منه

بعد هذا الأمد الطويل إلا نقاط وإن كانت قليلة إلا أنها تعد رءوس مواضيع لأهم ماجاء فى حديثه أسوقها فيما يلى:

أسباب الخلاف كما يرويها عبد الناصر:

أولاً : بدأ حديثه بالإشارة إلى اتصاله بالجهاز السرى للإخوان (النظام الخاص) وإلى تعاونه معهم وذكر فى سياق هذا التعاون أنه كان يسرق لهم السلاح والذخائر من الجيش — ثم ذكر أنه فى آخر مرة أعطاه الإخوان ٢٥٠٠ جنية لهذا الغرض فاتصل بالمسئولين عن مخازن السلاح (وذكر الجهة التى بها هذه المخازن ولكنى نسيتها) وأعطاهم هذا المبلغ كاملاً، وملأوا له عربة قطار بالأسلحة والذخائر أوصلها إلى الإخوان.. ثم قال: والآن تصدر نشرة الجهاز السرى للإخوان تتهمنى بأننى استوليت على هذا المبلغ لنفسى ولم أحصل لهم على أسلحة إلا بجزء يسير منه..

ثانياً : تكلم بعد ذلك عن اتصالاته بالمرشد العام فقال: إننى كنت حريصاً منذ قيام الثورة على أن أتشاور مع المرشد العام فى الشئون الهامة للدولة (وشرح المناقشات التى دارت خلال بعض هذه الاجتماعات) ولكننى لاحظت أن المرشد العام لايهتم بلقائى وزملائى معه بل ينظر إلينا نظرات لاتشعرنا بالتقدير؛ حتى إننى عقب كل اجتماع لنا معه كنت أشكو هذا الشعور إلى صلاح سالم الذى كان يرافقنى فى أكثر هذه الاجتماعات، وكان صلاح يهوّن علىّ الأمر ملتمساً الأعذار للرجل ولطبيعته. ولكننى عقب إحدى هذه الاجتماعات التى كانت تتم عادة فى بيت المرشد شعرت بمهانة وعدم مبالاة بى لم أتعودها فى حياتى؛ إلى حد أننى قررت أن أقطع اتصالاتى بهذا الرجل. وقلت لصلاح إن الاجتماع القادم تذهب إليه وحدك؛ لأننى لم أعد أطيق هذه المعاملة.. ولكن صلاح رجانى أن أحضر معه الاجتماع القادم على أن تكون هذه آخر مرة إذا حدث فيها مايحدث عادة فلن أرغمك بعد ذلك.

قال جمال: وذهبنا أنا وصلاح إلى منزل المرشد، وجلسنا فى حجرة الصالون حتى دخل علينا وألقى السلام وجلس دون أن يتكلم، وطال صمتنا وصمت الرجل الذى كنا ننتظر أن يبتدرنا بالكلام كما هو معتاد باعتباره صاحب البيت ونحن ضيوفه؛ إلا أن الرجل اعتصم بالصمت حتى تصبب العرق من وجوهنا خجلاً؛ لأننا شعرنا كأنما نحن دخلاء اقتحمنا على الرجل بيته دون رغبته مع أننا كنا على موعد..

قال جمال: فإنقاذاً لموقفنا، وحفظاً لماء وجوهنا بدأت أنا بالكلام فقلت:

يافضيلة المرشد جئنا اليوم لنناقش موضوع كذا (وحدد الموضوع ولكنى نسيته) فما رأيك؟

قال جمال: وبعد أن ألقيت السؤال انتظرنا أن يتكلم الرجل ولكنه لم يتكلم فقلت إننا نرى فى هذا الموضوع كذا وكذا. ولم يرد الرجل بأكثر من كلمة «لامانع» ممزوجة بنظرات معناها أنه غير مبال بنا. وهكذا مر الاجتماع ونحن نعانى هذا الشعور، وأنا أنتزع من الرجل الألفاظ القلائل انتزاعاً حتى استطعت إنهاء الاجتماع وخرجت أنا وصلاح عازمين على أن لانضع أنفسنا بعد اليوم هذا الموضع المزرى بالالتقاء مع هذا الرجل.

ثالثاً : ثم تكلم مرة أخرى عن الجهاز السرى للإخوان (النظام الخاص) وقال: كان وجود هذا الجهاز للإخوان المسلمين فيما قبل الثورة ضرورة لاغنى عنها، لمقاومة الظلم، ولحماية الدعوة من ظلم الملك وظلم أذنابه الحكام. أما وقد قامت الثورة فلم يعد هناك داع لوجوده؛ حيث إن الإخوان والثورة شىء واحد — وقال إننى سبق أن تحدثت مع المرشد العام فى هذا الشأن وقلت له إن الواجب يقتضى من الإخوان أن يحلوا تشكيلاتهم التى فى الجيش ويحلوا الجهاز السرى حيث لامبرر لوجودهما الآن بعد أن قامت الثورة، فكان رد المرشد قوله: إننا ليس لنا تشكيلات فى الجيش ونحن بصدد حل الجهاز السرى فقلت له يافضيلة المرشد أنا أعرف أن تشكيلات الإخوان فى الجيش لازالت موجودة ولكنه أصر على الإنكار.

رابعاً : وتحدث عن اتفاقية الجلاء وقال إن هذه الاتفاقية تضمنت كل مانريد وهى تضمن لنا الجلاء. وإن معارضة الإخوان لها هى نوع من التحدى لاأقبله. وأخذ فى شرح محاسن الاتفاقية ووجهة نظره، متجاوزاً النقاط التى تولاها الإخوان بالنقد — وشدد على أن تحدى الإخوان له فى هذه الاتفاقية أمر خطير لن يسكت عليه.

خامساً: ثم أثار مايطالب به الإخوان من إجراء انتخابات. وقال: إن إجراء انتخابات الآن معناه أن يحصل الإخوان على أغلبية مقاعد المجلس المنتخب إن لم يحصلوا على جميعها — لأن الإخوان تستطيع بتشكيلاتها العلنية والسرية أن تحصل على ذلك — ولذا فإننى لن أسمح بإجراء انتخابات تحت تأثير التشكيلات الإخوانية، لأن هذا يتعارض مع مناخ الحرية الذى يجب توفيره لإجراء هذه الانتخابات — وسمى جمال إجراء الانتخابات الفورية انتخابات فى ظل الإرهاب الإخوانى.

سادساً: وتكلم عن حركة مارس ٥٤ وأثرها فى الجيش. وألقى مسئولية حدوثها على

عاتق الإخوان. وقال: إنها كانت لعبة خطرة، ولن أسمح بتكرارها مرة أخرى. وقال فى معرض حديثه عن تفصيلات هذه الحركة .. «وحين ذهبت إلى سلاح الفرسان جاءنى الولد الشيوعى (وذكر فى وصفه لفظاً يعف القلم عن كتابته) خالد محيى الدين يطالبنى بالاستقالة» ـ ثم أعاد عدة مرات أنه لن يسمح بإعطاء الفرصة للإخوان لإثارة مثل هذا الذى حدث فى مارس ولذا فإنه مصمم على أن يصفى الإخوان تشكيلاتهم فى الجيش وفى خارج الجيش إما من تلقاء أنفسهم وإما رغماً عنهم.

سابعاً: وتحدث عن تسلط الإخوان على الجامعات وقال: إننى لن أقف مكتوفاً أمام هذا التسلط؛ فسأعتقل كل من يقف فى وجهنا من الطلبة. وقد كلفت كمال الدين حسين (كان وزير التعليم فى ذلك الوقت) بفصل الأساتذة الذين يعارضوننا مهما كان عددهم. وقد أعددت لهم معتقلات من نوع جديد.. إن المعتقلات التى تكلف الدولة إطعامهم وإسكانهم وكسوتهم لن نلجأ إليها، وإنما ستعد لهم معتقلات فى الوادى الجديد يعملون فيها فى إصلاح الأرض وفلاحتها، ويأكلون ويلبسون من عرق جبينهم. وقد أمرت فعلاً بإعداد هذه المعتقلات ـ أما أعضاء الجهاز السرى والتشكيلات العسكرية فهؤلاء سيحاكمون بتهمة الإعداد لقلب نظام الحكم.

وقال: إن الإخوان ينظرون إلى الثورة على أنها جمال عبد الناصر الذى يعرفونه ويعرفهم، ويظنون أن الضباط الأحرار من الإخوان كجمال عبد الناصر.... هذا ظن خاطىء.. إن أكثر الضباط الأحرار ليسوا من الطراز الذى يتوهمه الإخوان.. إن أكثرهم ليسوا على دين ولا على خلق.. ولولا كبحى جماحهم لانطلقوا كالكلاب على الإخوان بلا رحمة.. وقد حاولوا مراراً أن ينطلقوا عليكم ولكننى كنت فى كل مرة أكبح جماحهم وأقول لهم: اتركوا لى التعامل مع الإخوان. ولكن إلى متى أكبح جماحهم وأقول لهم ذلك؟ لن أستطيع ذلك إلى الأبد.. إننى ألقى أشد المقاومة منهم فى منع شرهم عنكم.. وإذا انطلقوا فسيكونون كالكلاب الهائجة.

هذا هو تلخيص لما بقى فى خاطرى الآن من حديث جمال عبد الناصر فى هذه الجلسة ـ أما نص الحديث فكان من التفصيل والاتساع بحيث شغل قرابة ست ساعات متصلة من الساعة التاسعة صباحاً حتى الساعة الثالثة بعد الظهر، لم يقطعه إلا أداء صلاة الظهر حيث أديناها نحن الإخوان جماعة فى حديقة المنزل وكنا جميعاً على وضوء، وإلا مكالمة أو مكالمتان فى التليفون أجراهما جمال وهو جالس معنا مع نائبه فى رياسة الوزارة جمال سالم لم يستغرقا إلا دقائق، وإلا بضعة أسئلة وجهناها إليه فى أثناء الحديث.

وكان مما وجهناه إليه فى أثناء الحديث حين تحدث بعنف عن الجهاز السرى للإخوان ومزج هذا العنف بالتهديد والتوعد إذا لم يوقفوا أعمالهم العدوانية ضده من إصدار النشرات وغيرها أن قلت له: إنك تعلم أن هؤلاء الأفراد من الجهاز السرى شباب، ومن صفات الشباب الاندفاع، ولا يمكن وقف هذا الاندفاع فجأة، وأنت أعرف الناس بهم — فيجب أن تعطى لنا فرصة كافية لإقناعهم.

وقلت له: إنك تقول فى حديثك إنك لاتطاوع من وراءك من الضباط فيما يريدون أن يواجهوا به الإخوان من عنف، ولكننى أرى أن السياسة المتبعة فى مواجهة الإخوان هى سياسة العنف والإثارة.. فكيف نستطيع أن نقنع هؤلاء الإخوان بوقف مايواجهون به هذا العنف والإثارة..؟.. فقال لى جمال: وكيف كان ذلك؟ إن تعليماتى كانت بغير ذلك.

فقلت له: لازالت سياسة الاعتقال سارية، فكل يوم يعتقل عدد من الأفراد. ولا زالت سياسة تشتيت الموظفين سارية.

فقال لى: هذا شيء لايمكن أن يحدث وقد تكون مبالغاً.

فتذكرت أن برقية نقلى إلى قنا لازالت فى جيبى فأبرزتها له وقلت له: لن أقول لك إن فلاناً وفلاناً نقل ولكن مارأيك فى هذه البرقية؟

فأخذها وقرأها.. وأبدى مايشعر بالاستغراب. ومال على من كان بجانبه من الضباط كأنما يطلب إليهم مراجعة هذه الأمور.

ملامح فى شخصية جمال عبد الناصر:

لم أكن قد التقيت بجمال عبد الناصر من قبل؛ حيث كانت هذه الجلسة هى أول لقاء لى معه كما قدمت وكنت حريصاً على أن أحدد ملامح هذه الشخصية؛ لأن أول مايجب أن يتوفر لك للتعامل مع أى إنسان تعاملاً مثمراً هو أن تحدد ملامح شخصيته؛ لأن التعامل مع إنسان هو فى الحقيقة التعامل مع مابنى عليه من طبائع وصفات وأخلاق.. وكان قد وقر فى صدرى حين رأيت الاتصالات التى تتم بيننا وبين جمال لاتثمر دائماً إلا تباعداً وتفاقماً أن إخواننا الذين يقومون بهذه الاتصالات؛ إما أنهم لم يعرفوا مابنيت عليه شخصيته من طبائع وخصائص، وإما أنهم يعرفون ذلك ولكنهم لايحفلون بمراعاتها ولا يجعلونها عنصراً أساسياً يقيمون على دعامة منه تعاملهم معه.. ولذا كان همى الأكبر أن أعرف مقومات هذه الشخصية حيث هى مفتاح التعامل معه.

وقد وضحت لى هذه الجلسة كثيراً من الملامح الأساسية لشخصية جمال مع أنها

جلسة واحدة وهى اللقاء الأول للأسباب الآتية:

١ ـــ أن الجلسة كانت من الطول بحيث لايستطيع متحدث فيها أن يسيطر على أحاسيسه سواء منها السطحى والعميق طول هذا الوقت.

٢ ـــ أن جمال شغل بحديثه أكثر من تسعة أعشار هذا الوقت.

٣ ـــ أن حديثه كان متصلاً لايكاد يقطعه إلا أقل القليل.

٤ ـــ أن موضوع الحديث كان بطبيعته مثيراً للعواطف لأنه يدور حول محاور كلها تعتمد على أسس من الارتباط النفسى والامتزاج الروحى.

٥ ـــ أن الحديث يمس شخصية المتحدث والمتحدث إليه فى الماضى والحاضر والمستقبل؛ فهو يعالج أموراً قد يتوقف عليها مستقبله.

٦ ـــ حكمة الإمام على كرم الله وجهه حيث يقول «من كثر كلامه كثر خطؤه» أفهم منها فضلاً عما يفهم من ظاهرها أن الإنسان قد يستطيع تحضير كلام يحدث به قوماً، فيتحكم فى عواطفه ليبرز منها فى أثناء الكلام مايريد ويخفى منها مايريد.. ولكنه إذا طال به الحديث فإن عواطفه التى أراد أن يخفيها ستطل فى أثناء حديثه بأعناقها رغم أنفه ودون إرادته..

أما الملامح التى وضحتها هذه الجلسة فى شخصيته فهى:

أولاً :ـ أنه يتمتع بشخصية قيادية بدليل تزعمه لمجموعات متباينة من الضباط وكلها تدين بالخضوع له والائتمار بأمره.

ثانياً : ـــ أنه يتمتع بذاكرة وحافظة قويتين؛ فقد كان فى سرده للأحداث التى كانت بينه وبين الإخوان يذكر كل حدث منها بتاريخه محدداً مع أن منها أحداثاً كان قد مضى عليها أكثر من خمسة أعوام.. وإذا فرضنا أنه كان قد عكف على تحضير هذا الحديث الذى تضمن عشرات الأحداث قبل أن نلتقى به، فإن حفظ تواريخ هذه الأحداث وإلقاءها إلينا دون خلط أو خطأ؛ ينهض دليلاً على قوة ذاكرته ومتانة حافظته.

ثالثاً : ـــ أنه ذو شخصية متماسكة ذات أعصاب قوية ثابتة، لاتكاد تستجيب للمؤثرات الخارجية مهما قويت هذه المؤثرات ـــ وقد شعرت بذلك فى أثناء إلقائه حديثه الطويل دون أن يجرفه الموقف المثير جرفاً يخرج به عن سياق حديثه أو ينسيه مارتب فى ذهنه من نقاط.. كما شعرت بذلك حين كنا نتحدث إليه ونحن مجموعة لها وزنها فى الإخوان، وكان حديثنا فى ذلك اليوم حديثاً عاطفياً فياضاً تثور له وتستجيب له عاطفة كل سامع.. ومع ذلك فإن ذلك لم يحرك عواطفه حركة توائم مانغمره به من عواطف؛ بل كانت إجاباته تتمشى مع المنطق الذى

اختاره لنفسه ـــ وتماسك الشخصية قد يكون نتيجة الثقة بالنفس أو قد تكون الثقة بالنفس وليدة تماسك الشخصية، أو قد يكون التعبيران لصفة واحدة.

رابعاً: ـــ هناك ملمح من ملامح شخصيته كشف لى عنه حديثه الممتزج بالمرارة حين كان يتحدث عن لقاءاته مع الأستاذ المرشد العام. وهذا الملمح لازلت فى حيرة من تسميته، ولكننى أشير إليه بما كان يبعث هذا الحديث فى ملامح جمال وفى قسمات وجهه، وفى تقطيب جبينه، وفى توقد عينيه مايكاد يخيل إلينا أن لو كان الأستاذ المرشد أمامه لأطاح برأسه شفاءً لما يتأجج فى صدره من غضب منه وحقد عليه...

وهو يرمى المرشد العام بصفات لم نعهدها فيه، ولم نسمع أن أحداً نسبها إليه ـــ وفحواها أنه يتجاهل جليسه ويحقر ضيفه ـــ ولست أدرى لماذا يشكو جمال وحده دون غيره ـــ على كثرة من قابل المرشد العام من جميع المستويات ـــ ويشكو صفة لم يشك منها غيره من هؤلاء المتعاملين سواء منهم العدو والصديق.. وأرانى إزاء هذه الشكوى أمام أحد هذه الافتراضات:

١ ـــ أن يكون احتفال الأستاذ المرشد به وبزملائه كاحتفاله بسائر الأفراد من الإخوان فى حين أن جمال يرى نفسه أعظم من أن يقتصر المرشد فى احتفاله به على القدر الذى يبذله فى الاحتفال بسائر الإخوان ـــ وحينئذ يرى هذا القدر من الاحتفال به نوعاً من الإهانة لأنه ليس كسائر الإخوان ولا حتى كسائر الناس؛ بل هو القابض بيديه على مقاليد السلطة فى البلاد. ويرى نفسه متفضلاً فى زيارته للمرشد فى بيته.
ونحن نرى فيمن نخالط من الناس أشخاصاً فى بعض المناصب يرون فى عدم مثول مرءوسيهم أو ذوى المصالح عندهم قياماً إذا مروا إهانة لهم تستحق أن يجأروا بالشكوى منها وتستحق أن يوقعوا على من صدرت منهم هذه الإهانة العقوبة.. فكيف بمن يرى نفسه رئيس البلاد والمتصرف فى مقدراتها؟!

٢ ـــ أن لايكون احتفال المرشد به أقل مما يتناسب مع منصبه، ولكن شيئاً فى نفس جمال جعله لايرى إلا المساوىء، أما المحاسن فإنه لايراها.. وهذا داء شائع بين الناس فى كل زمان ومكان، ولا ينجو منه إلا الأقلون ممن صفت نفوسهم، وطهرت قلوبهم، وهذا الداء هو الذى أشار إليه الشاعر الحكيم الذى ذكرناه من قبل ونعيده الآن:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدى المساويا

٣ـ أن يكون المرشد العام قد تجهمه فعلاً أو تجاهله.. ولكن هذا التجهم الذى هو ليس من طبيعة الرجل لابد أن يكون حلقة فى سلسلة أحداث أغفل المتحدث ــ جمال ــ ذكرها لأنه يعلم أن ذكرها فى غير صالحه ــ وفى هذا الصدد يُتمثل بالقول المأثور: قبل أن تقول للباكى لاتبك قل للضارب كف عن الضرب ــ والقول الآخر: إذا جاءك أحد الخصمين يشكو فقء إحدى عينيه فلا تعجل بالحكم، فقد يكون المشكو قد فقئت كلتا عينيه.. وقد يكون فى سياق مانقلناه فى أول هذا الجزء عن الإخوة صالح وصلاح وفريد مايلقى أضواء على خلفيات هذه الشكوى إن كان لهذه الشكوى من أساس.

هذه أوضاع ثلاثة لاأعتقد أن تعليل هذه الظاهرة المشكو منها يخرج عن أن يكون واحداً منها. وقد يكون خليطاً منها؛ لأن النفس البشرية بطبيعتها متشعبة المسالك، قد تستوعب الأوضاع الثلاثة معا، بالرغم مما يبدو فيها من تعارض فى بعض أجزائها.

وإذا كنت قد أجهدت نفسى فى البحث عن تعليل لشكوى جمال من المرشد، فإنما أردت بذلك أن أجد تفسيراً لحالة نفسية استبدت بجمال نحو هذا الرجل الذى يشغل منصب المرشد العام ــ وكنت أعرف من قبل أن عنده هذه الحالة، ولكننى لم أكن أعتقد أنها قد بلغت به إلى الحد الذى لم يعد يستطيع معه السيطرة عليها أو إخفاءها.. ولقد تحدثت عن تماسك شخصية جمال وثبات أعصابه؛ فقد كانت هذه الصفة واضحة ملموسة فى حديثه الطويل المتنوع الذى مس الكثير من الأمور الشديدة الحساسية التى من طبيعتها أن تثير الأعصاب؛ ومع ذلك كان فى أثناء الحديث عنها والمناقشة حولها ثابت الأعصاب، ولكنه كان حين يتكلم عن المرشد العام ولقاءاته معه تتغير حاله بالوصف الذى أوردته فيما يبدو فى لهجة حديثه، ونبرات صوته، وتقاطيع وجهه وبريق عينيه.

ولقد شعرت أننى وصلت إلى ماكنت أسعى إلى الوصول إليه من معرفة العقدة الأصيلة التى انبثق منها هذا الخلاف المتشعب بين جمال وبين الإخوان، وهو الخلاف الذى لايزداد على الأيام إلا تشعباً، ولا يثمر أمام المعالجة إلا تفاقماً ــ لقد فهمت أن كل ألوان الخلاف إن هى إلا مظاهر وأعراض لداء واحد متغلغل فى نفس جمال عبد الناصر هو كراهيته لهذا الرجل وحقده عليه.. ولكن التخلص من هذا الرجل فى ذلك الوقت هو هدم لكيان الدعوة، وتقويضها من أساسها، والخروج بها عن دائرة الدعوة الإسلامية، وتحويلها إلى لعبة فى أيدى الحكام.. وهو مالا نستطيع أن نسمح به.. **﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾**.

وإذن فليس أمامنا إلا المصابرة، ومحاولة كسب الوقت للخروج من المأزق القاتل الذى حصرنا فيه حتى نسترد أنفاسنا، ونتصرف فى ظل جو تسيطر فيه على أعصابنا فيكون تصرفنا

سليماً ومنتجاً .

خامساً : والملمح الخامس والأخير فى شخصية جمال هو عدم مبالاته بالقيم ولا بالعلاقات وهو مايعبر عنه بمبدأ «الغاية تبرر الوسيلة». وهذا المبدأ يستبيح الدم والعرض مادام ذلك يحقق هدف الشخص. والهدف فى هذه الحالة عادة يكون هو السيطرة والاستئثار بالسلطة. وصاحب هذا المبدأ مادام يملك القوة فإنه لايرحم ولا يرعى إلاً ولا ذمة.

ولقد وضح هذا الملمح حين كان جمال يتكلم عن طلبة الجامعة وأساتذتها وما أعده لهم من معتقلات أخذ يصف بشاعتها.. كما وضح حين كان يتكلم - وهو يشعر أنه فى مركز القوة - فتراه يرفض عروضنا عليه، وهى عروض كان هو يتمناها من قبل، وطالما سعى هو إليها. وحين سعى وجد منا قلوباً مفتوحة، وعواطف فياضة، وتغاضياً عن الإساءة.. وناهيك ماكان منا عقب خروجنا من المعتقلات فى مارس ١٩٥٤ ونحن فى أوج القوة وهو فى حضيض الضعف، وطلب أن يزور المرشد فى بيته، فرحب المرشد بلقائه ونسينا ماكان من إساءاته التى بسطنا الحديث عنها من قبل.

وعلى كل فإن هذا الملمح الذى بدا لنا منه مابدا فى هذا الاجتماع وكان مجرد كلام وتهديد؛ مما جعلنى أتشكك فى أصالة هذه الصفة المرذولة فى نفسه، وأحسن الظن فأتصورها مجرد عارض نفسى تنزع إليه بعض النفوس فى أثناء الحديث لتظهر أمام مستمعيها بمظهر يتسم بالقوة والبطش.. ولكن الأحداث بعد ذلك أبانت عن أن حسن ظننا لم يكن فى موضعه، وأثبتت أصالة هذه الصفة فى نفسه، بل وضحت أنها الصفة المسيطرة عليه، والتى تتحكم فى جميع تصرفاته وخطواته.

القرارات التى اتخذت :

فى نهاية هذه الجلسة الطويلة المضنية كان لابد لنا من الوصول إلى اتفاق محدد، وكان أملنا جميعاً - نحن الإخوان - أن يكون اقتراحى الذى ذيلت به مذكرتى هو الذى يتم عليه الاتفاق. وتكون مهمتنا - نحن المجتمعين - أن نبحث تفاصيل تنفيذه - ولكن جمال فاجأنا فى نهاية الجلسة برفضه هذا الاقتراح بل برفضه أى اقتراح للصلح قائلاً :

«إن الدعوة إلى إجراء صلح بينى وبينكم فات أوانها. ولم تعد الثقة التى هى أساس الصلح موجودة». وتناقشنا معه حول هذه النقطة نقاشاً طويلاً غير أنه أصر على الرفض.. وماكنا نملك شيئاً بعد أن صار هو يملك جميع أوراق اللعب فى يده ونحن لانكاد نملك منها شيئاً.

قلنا: إذن لم كان هذا الاجتماع؟ ولو علمنا أنك ترفض الصلح لما أتعبنا أنفسنا. ولكن الأستاذ الطحاوى والأستاذ طعيمة أبلغانا أنك قرأت المذكرة ووافقت على ماجاء بها.. وعلى هذا حضرنا، فقال: أنا وافقت على المذكرة كمبدأ. فالصلح هدف. ولكنه الآن ليس الهدف المباشر. لكن الهدف المباشر الآن سيكون مقدمة للصلح؛ وإذا استطعتم أن تقوموا بأعباء الهدف المباشر انتقلنا إلى الصلح.

قلنا: وما هو الهدف المباشر؟

قال: كل الذى أستطيع أن أبذله لكم الآن أن أعقد معكم هدنة؛ فإذا نجحتم فيها كان لكم أن تطالبوا بصلح.

قلنا: وما شروط هذه الهدنة؟

قال: هما شرطان:

١ ــ أن توقفوا حملتكم على اتفاقية الجلاء.

٢ ــ أن توقفوا إصدار النشرات.

قلنا: ولنا شرطان مقابلان هما:

١ ــ أن توقف الاعتقالات والتشريد.

٢ ــ أن توقف الحملة الصحفية.

قال: أنا موافق على شروطكم إذا وافقتم على شروطى.

قلنا: إننا موافقون.

قال: إذا نفذتم الشروط فلنا اجتماع آخر بعد اجتماع الهيئة التأسيسية ــ أما إذا لم تستطيعوا تنفيذ الشروط فلا اجتماع ولا تلومونى بعد ذلك.

وهنا اختتمت الجلسة وخرجنا وكلنا أمل فى الوفاء بما اشترط علينا لنخرج بالدعوة من هذا المأزق الخطير الذى وضعت فيه.

* * *

كان مبيتى عادة حين أكون فى القاهرة عند الأخ الحبيب ــ رحمه الله ــ الدكتور جمال عامر زميلى القديم فى الدعوة وعضو الهيئة التأسيسية وصاحب صيدلية الصليبة بالقاهرة.. فلما ذهبنا فى تلك الليلة إلى البيت وجدنا فى انتظارنا الأخ الأستاذ عبد العزيز كامل؛ الذى ابتدرنى قائلاً: إننى كنت فى انتظارك على أحر من الجمر، لأننى أقدر أهمية هذه الجلسة وأؤمل فيها خيراً للدعوة، وقد قدمت لأعرف منك ماتم فيها وأعرف رأيك شخصياً فى جمال عبد الناصر فحدثته بكل ماتم فى الجلسة كما شرحت له وجهة نظرى فى شخصية جمال عبد الناصر على الوجه الذى أجملته فى هذه المذكرات، ولكننى أقرر أن ماحدثت به الأخ عبد العزيز لابد أنه كان أوفى وأشمل لاسيما وأنا أثبت ماأثبته فى هذه

المذكرات بعد مرور اثنين وعشرين عاماً على هذه الأحداث.. وأذكر أننى أنهيت حديثى إلى الأخ عبد العزيز بقولى: إننى أرى أن شخصية جمال عبد الناصر كانت تستحق منا دراسة أكثر وعناية فى التعامل معها أكثر مما كنا نوليها.

الباب الرابع عشر

اللغم الذى دمّر واضعيه ودمّر الجميع

الفصل الأول : اجتماع الهيئة التأسيسية المرتقب

الفصل الثانى : فى انتظار الكارثة

الفصل الثالث : فى أعقاب حادث المنشية

الفصل الأول

اجتماع الهيئة التأسيسية المرتقــب

لم يعد باقياً فى خاطرى التاريخ الذى انعقدت فيه الهيئة التأسيسية، ولكننى أقرأ فى الكتب التى تصدر فى أيامنا هذه أن تاريخ هذا الاجتماع كان فى الرابع والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٩٥٤.

وعلى العموم فالذى أذكره أن اجتماعنا بجمال عبد الناصر كان قبل اجتماع الهيئة التأسيسية بيومين أو ثلاثة على الأكثر. وكنت متفائلاً بعد خروجنا من بيت جمال لثقتى فى أن يؤدى اجتماع الهيئة إلى معاونتنا فى تحسين الموقف أو فى التخفيف من حدته للأسباب الآتية:

أولاً ــ أن الوفد الذى مثل الإخوان فى الاجتماع بجمال كان فوق الشبهات إذ يضم أعرق الإخوان فى الدعوة، وأعلاهم ثقافة، وأشدهم غيرة، وأقدرهم على تقدير المواقف، وهم موضع احترام الجميع.

ثانياً ــ أن الذى سيرأس الجلسة ويدير النقاش فيها هو الدكتور خميس حميدة نائب المرشد وهو أحد أعضاء الوفد.

ثالثاً ــ أننى اتفقت مع الدكتور خميس فى ترتيب بنود جدول أعمال الجلسة أن يكون عرض مذكرتى أول هذه البنود، وأن يتيح لى فرصة قراءة هذه المذكرة وشرحها ــ وكان هو واثقاً بأن قيامى شخصياً بهذا الدور كافٍ أن يقنع إخوان الأقاليم وهم الكثرة الغالبة من أعضاء الهيئة، وكانت ثقة الدكتور خميس هذه مبنية على ماكان يعرف من حب هؤلاء الإخوان لى، وتقديرهم لآرائى، لحسن ظنهم بى فى عزوفى عن المناصب، وإيثارى البعد عن مواطن الشهرة، ولأنهم يعلمون أننى ملم من أسرار الدعوة بما لايلم به أكثر قادتها.

هذا هو ماكان يبعث فى نفسى التفاؤل بما قد يتمخض عنه هذا الاجتماع.أما العقبات التى كانت ماثلة أمامى ولا بد من اقتحامها لإنجاح الاجتماع فهى:

أولاً — أن إخوان الأقاليم من أعضاء الهيئة التأسيسية يكادون أن يكونوا فى عزلة عن حقائق مايجرى فى القاهرة فهم خالو الأذهان عنها، وكل مايصل إلى أسماعهم هو نشرات تشحنهم شحناً يعدهم لدخول معركة فاصلة.

ثانياً — أن الظروف لم تتح لنا فرصة للمرور على هؤلاء الإخوان فى الأقاليم لشرح حقائق الموقف لهم حتى يحضروا الجلسة وهم ملمون بكل أطراف الموضوع. وكان هذا الإجراء ضروزياً لولا أن ماوصلنا إليه من نتائج لم نصل إليه إلا قبل يومين فقط من موعد انعقاد الهيئة المحدد من قبل.

ثالثاً — أن المرشد العام مستمر فى إصدار النشرات والبيانات من مخبئه لتزيد النار اشتعالاً ومعلوماته ناقصة عن حقائق الموقف وما استجد بعد اختفائه من معلومات تدل على أننا مكشوفون للطرف الآخر دون أن ندرى.

رابعاً — أن الإخوة المسيطرين على المركز العام والمتصلين بالمرشد فى مخبئه لايريدون أن يقتنعوا بوجهة نظرنا؛ بل إنهم يرون فى تحركنا تخاذلاً وانحرافاً، وإن كانوا لايبدون به، ولكن تصرفاتهم إزاءنا كانت توحى بذلك. كما توحى بانعقاد عزمهم على أن يخوض الإخوان المعركة على أساس من معلوماتهم القاصرة، ولا قبل لهم بسماع آراء أخرى، ولا بالسماح بتوصيل هذه الآراء إلى المرشد العام؛ اعتقاداً منهم بأن هذه الآراء تفت فى عضد الإخوان، وتعوق الخطة التى وضعوها لشحن الإخوان وإعدادهم لخوض المعركة.

مفاجأة المفاجآت أو انفجار اللغم

كنا قد أبلغنا إخواننا المسئولين بالمركز العام بنص ماتم الاتفاق عليه من قرارات فى اجتماعنا بجمال عبد الناصر فور انتهائنا من هذا الاجتماع. وكان أملنا أن يعاوننا إخواننا هؤلاء فى النهوض بما يخصنا نحن الإخوان من هذه الشروط أو القرارات، وأهم مافيها إيقاف النشرات، وهم وحدهم القادرون على تنفيذ هذه‌الشروط؛ لأنهم هم المتصلون بالأستاذ المرشد.

ولكن الذى حدث كان عكس ماتوقعناه؛ ففى الليلة المقرر عقد جلسة الهيئة التأسيسية فيها وفى أثناء توارد وفود إخوان الأقاليم، وقبل موعد الاجتماع بنحو ساعة؛ فوجئنا بمنشور صادر عن المرشد العام يوزع على هؤلاء الإخوان، يحرضهم فيه على

مواجهة رجال الثورة ويرميهم بما يشبه الكفر..

ومع أن هذا المنشور كافٍ أن يقوض كل مابنيناه؛ فإننا لم نيأس لأن آمالنا كانت معقودة على جلسة الهيئة التأسيسية التى نشرح للأعضاء فيها الموقف شرحاً يبصرهم بما خفى عنهم من جوانبه ونواحيه، ثم نكلهم بعد ذلك إلى عقولهم وضمائرهم.. وهم نعم الأكفاء.

وصعدنا إلى الدور العلوى من المركز العام. وأخذ كل عضو من أعضاء الهيئة مجلسة فى مكان الاجتماع. وافتتحت الجلسة حيث صعد الأخ الدكتور محمد خميس حميدة نائب المرشد العام إلى المنصة ليدير الجلسة.. وما كاد يبدأ حتى رأينا منظراً عجيباً لم نصدق أبصارنا حين رأيناه، ولا أعتقد أن أحداً كان يتصوره..

رأينا الأخ الأستاذ عبد القادر عوده يصعد هو الآخر إلى المنصة، وينحى الأخ الدكتور خميس — رحمهما الله — فى غير رفق ويقول له: أنا أحق منك بإدارة الجلسة.

ولشدة المفاجأة، وهول المباغتة، وخشية أن يُؤَوَّلَ الموقف على أن الإخوان يتنازعون المناصب؛ تنحى الدكتور خميس.. وسكتنا — نحن الحاضرين — ونحن فى ذهول من هذا التصرف المفاجىء وما فيه من تعد على الحقوق وخروج على النظام.

وقلنا فى أنفسنا: ربما كانت فى نفس الأخ الأستاذ عبد القادر بقية من تأثر لما اتخذه الأستاذ المرشد إزاءه حين كان مفتوناً برجال الثورة.. فلعل تبوأه منصب رياسة هذه الجلسة يمحو من نفسه هذه البقية.

خطة مدبرة:

ولكن مالبثنا بعد برهة أن فهمنا أننا قد تورطنا بحسن الظن، وعلمنا أن المسألة لم تأت عفواً، ولا جاءت بدافع شخصى، وإنما هى خطة مدبرة..

تكشف لنا أن إخواننا المسئولين فى ذلك الوقت عن المركز العام لما يئسوا من أن أسحب مذكرتى أو أن أتراجع عن خطتى؛ رتبوا خطة أخرى لإحباط جهودى وجهود من معى.. وكما كان الأخ الأستاذ عبد القادر — رحمه الله — هو رسولهم إلىّ فى محاولتهم الأولى؛ فقد اتخذوا منه هو نفسه الأداة المنفذة للخطة الجديدة..

وهى خطة مضمون لها النجاح؛ لاسيما وقد احتفظوا لها بالسرية التامة، وأحاطوها بستار كثيف من الكتمان — كما أنهم كانوا واثقين من أننا مهما قلبنا الأمور، واستعرضنا مختلف الاحتمالات — لأننا فى استعراضنا للاحتمالات لم ولن نخرج بها عن حدود مايمكن أن

يحدث فى المجتمع الإخوانى القائم على المثل العليا والخلق الرفيع ــ فلن يخطر ببالنا هذا الذى بيتوه.

ولكن يبدو أن إخواننا هؤلاء فى هذه المرة ــ وإنى أعدها منهم سقطة ــ قد استباحوا القاعدة الميكيافيلية التى تقول: إن الغاية تبرر الوسيلة.. فأمام مااعتقدوا أنهم على الحق، وأن طريقهم هو الطريق الأمثل لمصلحة الدعوة، وعلى أساس أن التيار المضاد لهم صار من القوة بحيث لايستطيعون التصدى له بالأساليب المشروعة.. لجأوا إلى أسلوب وإن كان غير كريم إلا أنه يضمن لهم تحقيق مايأملون.

تفاصيل الخطة:

والذى أكد لنا أن هذا الذى فوجئنا به إنما هو خطة مدبرة، وخطوات مدروسة، وأسلوب تمخض عن بحث مستفيض؛ هو أن الأستاذ عبد القادر حين استوى على المنصة تناول من الدكتور خميس الورقة المكتوب فيها جدول الأعمال، وكان أول بند فيها عرض مذكرتى وقيامى بشرح الموضوع من جميع جوانبه، ويلى هذا البند بنود أخرى عادية.. فإذا بالأستاذ عبد القادر يبدأ مخاطبة أعضاء الهيئة بقوله:

«يشتمل جدول الأعمال على البنود الآتية: «بند بموضوع العلاقات بيننا وبين رجال الثورة. وهناك لجنة وكل إليها أمر الاتصال بهم منذ قامت الثورة ويجب أن نسمع منها ماتم فى هذا الصدد.

فقام بعض أعضاء الهيئة القاهريين الذين يعلمون أهمية قراءة مذكرتى وقالوا: نسمع أعضاء اللجنة، ولكن يجب أن نسمع مذكرة فلان أيضاً لأنها فى غاية الأهمية.

فقام آخرون قاهريون ــ وهم من الإخوة المسئولين عن المركز العام فى ذلك الوقت ــ وقالوا: لاداعى لقراءة مذكرة فلان.. وكانت نبرات صوتهم تشعر بأن زمام المبادرة أضحى فى أيديهم.

ويبدو أن اتصالاً كان قد تم بين هؤلاء وبين إخوان الأقاليم ألقى فى روعهم أن مذكرتى ومن يؤيدها ليست فى مصلحة الدعوة.. وإذا لم يكن قد تم هذا الاتصال فيكفى لإثارة شعورهم ولإشعال حماسهم ضد كل مافيه معنى تقريب وجهات النظر ماتلقوه صادراً عن الأستاذ المرشد ساعة حضروا إلى المركز لحضور الاجتماع.

وطال الخلاف بين أعضاء الهيئة، واحتدم النقاش، وتعالت الأصوات حول موضوع المذكرة.. وكان الفصل الأخير من المسرحية التى وضعت بدقة، وأخرجت بإحكام أن قال الأستاذ عبد القادر واثقاً:

«حسماً للخلاف نلجأ إلى الهيئة ونأخذ الأصوات هل تقرأ مذكرة فلان أم لاتقرأ» وأخذت الأصوات فكانت الأغلبية فى جانبهم؛ وهو ماكانوا واثقين منه. وإلا لما لجأوا إلى هذا الأسلوب.

تم إجهاض جهودنا:

وبذلك تم إجهاض جهودنا، وبدأ اليأس يدب إلى نفوسنا، وفكرنا فى مغادرة الاجتماع، ولكننا خشينا أن يؤخذ ذلك على أنه نوع من التمزق فى صفوف الإخوان.

ومع أننا نحن وحدنا دون بقية إخوان الهيئة الذين كنا نعلم ماسوف يحيق بالإخوان من التنكيل بعد إهدار آخر سهم فى جعبتنا لإنقاذ الموقف؛ فإننا قررنا أن لاننجو دونهم من أن نكون معهم حطاماً لنيران أو قدوها أو ساعدوا على إيقادها ثم حالوا بيننا وبين محاولة إطفائها.

وقد يسأل سائل ماالذى قيل فى الاجتماع وما القرارات التى انتهى إليها؟ ونجيب هذا السائل فنقول: إنك تستطيع أن تستنتج كل ذلك من اجتماع كانت مقدماته ماعرفت..

الأسلوب الحكيم:

لما تم الفصل الأول من المسرحية، وانتقلت إلى فصلها الثانى وعنوانه التهاتر بين الممثلين والمشاهدين ــ الذى لم يخرج عن كونه تراشقاً بالألفاظ، وإن كانت الصحف ظهرت فى صبيحة اليوم التالى تصوره على أنه كان تماسكاً بالأيدى ــ اقترح علىّ بعض إخواننا أن أطلب الكلمة وأعرض فكرتنا ولكننى رفضت وكان رفضى يقوم على الحجة التالية:

كان الجو فى أعلى درجة من درجات التوتر.. وفى مثل هذا الجو لاينبغى لصاحب رأى معارض أن يعرض رأيه ارتجالاً، وإنما لابد من أن يكون العرض عن طريق مذكرة مكتوبة.. وهو ماقصدت إليه من كتابة مذكرة، ومن أن أبدأ عرضى لرأيى بقراءتها عليهم؛ لأن المذكرة حين كتبتها راعيت فيها تنظيم الأفكار وتسلسلها، ومراعياً فيها مخاطبة العواطف تارة، ومخاطبة العقول تارة أخرى، كما راعيت أن تكون موجهة منى للمرشد العام وفى هذا طمأنة للسامعين..

ويبدو أن هذه المعانى كانت بعض مادفع إخواننا هؤلاء إلى الحيلولة دون سماع إخوان الهيئة هذه المذكرة منى؛ فلا يكون أمام إخواننا المناصرين لفكرتنا فى الإصلاح إلا الارتجال الذى ــ فى هذا الجو ــ لايكاد يبين.. وقد تنبهت لهذا فرفضت أن أتكلم فى هذا الجو

مرتجلا.

القرار:

وخلاصة ماكان؛ أن ظل الاجتماع ماظل لاتسمع إلا تهاتراً؛ هذا يطلب محاولة الإصلاح، وآخرون يردون عليه بصوت أعلى يرفضون الإصلاح ثم كان القرار وهو:

«تكليف اللجنة التى كان موكولا إليها الاتصال برئيس الحكومة، وإخطار الهيئة بنتائج هذا الاتصال فى اجتماع الهيئة التأسيسية القادم» ولا أذكر التاريخ الذى حدد له.

معنى هذا القرار:

ومعنى هذا القرار هو أنك تريد أن ترغم الجانب الذى أضحى بيده زمام المبادأة على التحدث مع لجنة أعلن رفضه الاتصال بها من قبل، متهماً أعضاءها بتهم مختلفة منها سوء النية ومنها عدم الأمانة فى نقل الأحاديث.. تريد أن ترغمه على استقبالها والتحدث معها وإلا فلا كلام معه.

وأنا أعود هنا وأقرر أننى شخصياً لايخامرنى شك فى هؤلاء الإخوة أعضاء لجنة الاتصال فى حسن نيتهم وفى أمانتهم فى النقل؛ ولكننى مع ذلك أرى أن هناك بواعث نفسية لايمكن إغفالها، تتدخل فى العلاقات بين الناس بعضهم مع بعض؛ فتجعل إنساناً من الناس مقبولاً عند شخص من الأشخاص، ولا تجعله هو نفسه مقبولاً لدى شخص آخر.. وكل من الشخصين ينتحل أسباباً يبرر بها مسلكه نحو هذا الإنسان.. وقد لاتمت هذه المبررات إلى الواقع بصلة.

أما فى الصلات الفردية؛ فقطع الفرد صلته بفرد آخر لايقبله أمر سهل، فقد يجد الفرد عشرات من الأفراد آخرين يقبلون ويرحبون؛ وفى هذا يقول الشاعر:

كلانا غنى عن أخيه حياته ... ونحن إذا متنا أشد تغانيا

أما أصحاب الدعوات فى علاقاتهم مع الحاكم- إذا ماأريد تحسين العلاقات أو التخفيف من التوتر أو تفادى أزمة- فعليهم أن يكونوا من المرونة بحيث لايصرون فى جميع الظروف ومختلف الأحوال على أن يكون الاتصال مقصوراً على أشخاص معينين؛ مهما أظهر الحاكم ضيقه بهؤلاء الأشخاص- بل عليهم أن يبادروا من تلقاء أنفسهم باختيار آخرين وآخرين حتى يصادف وفد منهم قبولاً نفسياً من الحاكم فيصل معه إلى حلول للمشاكل المستعصية.

وأذكر فى هذا المقام ماسبق لى قوله فى الجزء الثانى من هذه المذكرات حين كنت

أتحدث عن حسن البنا فقلت إنه كان من المرونة وسعة الأفق بحيث كان لديه لكل موقف الكثير من البدائل، وحسبك أن تعلم أنه أمام محنة عام ١٩٤٨ لم يكتف بتوسيط الأحباب والأصدقاء بينه وبين الحكومة بل لجأ فى بعض الأحيان إلى الأعداء متغاضياً عن سابق مواقفهم — وأعتقد أن المرشد العام حسن الهضيبى لو أن الظروف أتاحت له أن يلم بما جد من تطورات لما وافق على سياسة الجمود التى مثلها قرار الهيئة ولوجد فى سياسة البدائل مايعين على الخروج من المأزق.

أخطر المشاكل سببها العقد النفسية:

وتبرئة لإخواننا هؤلاء من أعضاء لجنة الاتصال مما رماهم به جمال عبد الناصر من تهم أقول: إن بعض هؤلاء كان من الإخوان الذين شاءت الأقدار أن يتصلوا بجمال عبد الناصر، ويتعرفوا عليه، ويتعرف عليهم قبل الثورة.. وهم الذين شهدوه وهو فى أضعف أحواله، وهم الذين يشعرون أنهم أصحاب الفضل عليه، ويشعر هو نفسه حين يلقاهم أنه يتكلم مع أشخاص يشعرون نحوه بهذا الشعور.. وجمال عبد الناصر إنسان لايطيق — وقد ملك — أن يرى إنساناً تذكره رؤيته بسابق فضل له عليه، لأن طبيعته تأبى أن يرى إنساناً أعظم منه، ولعل هذا كان الدافع الحقيقى الذى دفعه إلى:

١ — إخراج القائمقام أحمد شوقى والقائمقام يوسف صديق من مجلس الثورة لأنهما أعلى منه رتبة عسكرية، وللثانى فضل إنجاح الثورة بالقائه بالقبض على هيئة قيادة الجيش ليلة الثورة.

٢ — إخراج اللواء محمد نجيب من مجلس الثورة ومن جميع المناصب واعتقاله لأنه أعلى منه رتبة وأكثر منه شعبية.

٣ — إخراج جميع الضباط تقريباً — الذين تعلو رتبهم العسكرية رتبته — من الجيش وإلحاقهم بأعمال مدنية.

٤ — وضع خطة لإخراج بقية زملائه فى مجلس الثورة إذا مابدا من أحدهم مايشعر معه أن له كياناً بجانبه.

.. ومن أصدق مايعبر عن هذه الحالة النفسية فى جمال عبد الناصر ماجاء فى كتاب: «صفحات من التاريخ» للأخ الأستاذ صلاح شادى فى صفحتى ١٩٦، ١٩٧ حيث يقول:

«عجيبة هذه النفس البشرية إذا أصابها الكبر، ولم تعوزها الحاجة إلى الله، وكنت أعلم أنه (يقصد جمال عبد الناصر) لايحب منى أن أبدو أمام الناس معه على المستوى الذى

تنهض عليه علائقنا الحقيقية؛ فالناس من حوله يقومون ولا يقعدون، وترتعد فرائصهم ولا تسكن، وتنحنى جباههم ولا تنهض، وتسره هذه الانحناءة لشخصه فيضفى على صاحبها حينئذ رضاه. وعلى العكس كان يرى فى كل من يرفع رأسه عدواً ولا يسأل بعد ذلك ماذا يقدم، فكل مايقدمه مرفوض لأن رأسه المرفوعة كانت تعنى عنده عدم الولاء.

وكنت أسمع شعاره الذى أطلقه «ارفع رأسك ياأخى» فأوقن أنه شعار بلا مضمون، بل انفعالة معكوسة لحقيقة مايضمر من كبر.

ولم يغب عنى أننى أستطيع أن أكسب وده بقليل من الإغضاء ومزيد من الإطراء.. ولكن لاأكون فى هذه الحال متسقاً مع نفسى وكرامتى وفضائلى».

.. وأرجع إلى السياق فأقول: لذا لم يكن غريباً من جمال عبد الناصر أن يضيق ذرعاً بلقاء إخواننا هؤلاء باعتبارهم الممثلين الدائمين للإخوان فى التفاهم معه. وهو طبعاً لايستطيع أن يذكر السبب الحقيقى لضيقه بهم، فيبرر ذلك باختلاق أسباب هو نفسه ينكر صحتها فى قرارة نفسه.

كل هذه المعانى كنت أحب أن أشرحها للأستاذ المرشد العام الذى حيل بينى وبين الالتقاء به، وهو وحده كان القادر على استيعاب مثل هذه المعانى لأنه رجل دقيق الفهم، حسن التقدير، يعرف كيف ينتفع بما يسمع.. لاسيما إذا كان يسمع من إنسان لم يجرب عليه انحرافاً مع هوى أو جرياً وراء منفعة شخصية... ومن حق التاريخ علىّ أن أذكر لهذا الرجل أننى ماأشرت عليه برأى إلا درسه معى دراسة انتهت بالأخذ به، مع أننى كنت إذ ذاك أكاد أكون فى سن أبنائه؛ فهو لم يكن رحمه الله بالرجل المستكبر ولا بالمستبد بل يتوخى دائما الرأى الأصوب عن طريق المناقشة والمشورة.

* * *

الفصل الثانى

فى انتظار الكارثة

لم يكن إخواننا هؤلاء ولا إخوان الأقاليم يتوقعون ماكنا نتوقعه من أهوال ستنصب على رءوسنا صباً؛ لأنهم حجبوا أنفسهم عن الحقائق، ورضوا أن يعيشوا سابحين فى الأوهام، ولم يصدقوا ماأنذرتهم به من أن أسرارنا مكشوفة لهؤلاء الناس.. وأرادوا أن يفرضوا على الواقع ماتخيلوه من أوهام.

والتضحية بالنفس والمال لاتغلو على الدعوة، بل إنها أمنية ترنو إليها نفوسنا جميعاً — ولكن ليس معنى هذا أن يطالب الإخوان بتقديم تضحيات دون مبرر؛ فإذا كانت هناك مندوحة لإرجاء هذه التضحيات أو لتقليص حجمها فيجب أن نضن بكل قطرة دم بل وبالخدش مجرد الخدش يصيب أخا من الإخوان؛ مالم يكن الضن به عقوقاً لدعوة، وتضييعاً لحقها وفى الحديث «ماخُيِّرَ رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثماً».

ولقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على حقن دماء أصحابه؛ فلم يقاتل بهم مكشوفين للعدو، ولم يقدهم إلى زحف إلا بعد أن يتحسس لهم الطريق، ويرسل السرايا لتعرف له قوة العدو، ومواضع الضعف فيه؛ وقد يبعث إليهم من يعطيهم معلومات مضللة عن جيش المسلمين.. فإذا اطمأن بعد كل ذلك باغت العدو بالزحف باذلاً من جيش المسلمين أدنى حد من التضحية محققاً أعظم قدر من النصر.

وهكذا كان يفعل الإمام الشهيد.. وسبق أن أوضحت فى أبواب سابقة إلى أى حد كان حرصه على دماء الإخوان وعلى مالهم ووقتهم — وما إخال المرشد العام حسن الهضيبى إلا كان فاعلاً مثلما فعل الإمام — إلا أن اختفاءه حال دون تزويده بمعلومات لو أنه علمها لما اتخذ من الإجراءات مااتخذ.

* * *

غادرنا اجتماع الهيئة التأسيسية ونحن نقول: وداعاً أيتها الدار.. كنا نعرف مانحن

مقبلون عليه، وما ينتظر الإخوان فى كل مكان من ظلم وعسف وتنكيل ــ ولكننا أو أقول عن نفسى بالذات إننى كنت مرتاح الضمير لأننى بذلت آخر مافى وسعى لدفع النكبة عن إخوان لى فى القاهرة والأقاليم ولكنهم رفضوا فكنت وإياهم كما قال الشاعر العربى:

أبتغى إصلاح سعدى بجهدى وهى تسعى جهدها فى فسادى

وقد أيقنت أن لن يكون هناك اجتماع بعد اليوم.. فقررت أن أترك عملى وأسافر إلى بلدتى رشيد أطلب إجازات حتى أستنفدها ثم أظل بها حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا.

وسافرت إلى رشيد أنتظر ماتتمخض عنه جهود إخواننا الذين نجحوا فى إجهاض مساعينا ــ فكان أول خطوة قاموا بها أنهم ذهبوا يطلبون مقابلة جمال عبد الناصر، ولكنهم انصرفوا حين جاءهم رسول منه يقول لهم: إن الرئيس يرفض مقابلتكم.

فــى رشيــد:

كانت إقامتى فى رشيد إقامة الثاكل المحزون.. كلما انتهت إجازة مرضية طلبت أخرى فى انتظار حلول الكارثة التى لاأعرف كنهها ولا أعرف مداها.. ولكننى كنت ألمح مقدماتها فى الحملة الصحفية المكثفة التى كنت أعتبرها أمضى سلاح يشهر فى وجه الإخوان؛ لاسيما ووسائل الإعلام كلها محتكرة للحكومة ومحرمة على الإخوان.. وقد كان هدفى من جهودى كلها هو إتاحة فرصة للإخوان يفلتون فيها من براثن هذه الحملة الظالمة الشديدة التأثير، فى النفوس والعقول، والتى تهىء النفوس والعقول لتصورات خاطئة.

والكلمة المقروءة والمسموعة أشد تأثيراً فى العقول، كما أنها أشد فتكاً للنفوس؛ من الجيوش الجرارة والبندقية والمدفع.. وإذا كان جمال عبد الناصر قد ضج واستغاث من نشرة صغيرة يصدرها الإخوان سراً كل شهر.. فكيف بالإخوان وثلاث صحف تصدر كل يوم تسيل أنهارها بفيض زاخر من الأكاذيب والافتراءات ضدهم ومقالات بأقلام مشاهير الكتاب؛ فضلاً عن الإذاعة المسخرة لنفس المهمة، ثم مجلات وكتيبات تطبع مزينة بالصور وتوزع عن طريق الحكومة وعن هيئة التحرير؛ كل مابين دفتيها سم ناقع.. حتى المساجد سخرت للنيل من الإخوان وسبهم وتشويه سمعتهم فى خطب الجمعة.

فإذا علمت أن هذه الحملة يواكبها حملة استفزازية أخرى من الاعتقالات والتعذيب والتشريد والإهانة التى لاتقيم للإنسانية وزناً.. فى الوقت الذى انقطعت فيه الصلات بين شباب الإخوان وبين القيادة التى خطط لها أن تختفى فى أحوج الأوقات إلى وجودها..

إذا وضعت كل هذه الظروف المستفزة كلها معاً.. وتصورت أعصاب شباب

وصلت من التوتر إلى أقصى حالات التوتر مع الضرب القاسى المستمر عليها.. إذا فعلت ذلك تصورت ما لابد أن يؤدى إليه هذا الاستفزاز من أخطر النتائج.. وهو ماكنت أتوقعه وهو أيضاً ماكان جمال عبد الناصر يسعى إليه ويهدف له.

شر متوقع:

خلاصة ماأريد أن أقول: إننى ذهبت للإقامة فى رشيد وأنا أتوقع شراً مستطيراً. ولكنى لاأدرى كيف يقع ولا كيف يكون.

فالحملة الاستفزازية الجائحة التى دأبت على شنها وسائل الإعلام على الإخوان ليل نهار ودون انقطاع، يقابلها أن للإخوان رصيداً ضخماً من الأعمال المجيدة والسمعة التى لاتطاول يعتز بها الشعب فى مصر وفى خارج مصر.

وكان اعتقادى أن جمال عبد الناصر بالرغم من تملكه خزائن مصر وجميع وسائل الإعلام، كما أن طوع أمره وزارة الداخلية بما فيها من أساليب القهر والاستبداد، فإنه لن يستطيع مهما استعمل من أساليب الإرهاب مع الإخوان فلن يصل بذلك إلى قهرهم القهر الذى يتمناه والذى يقضى به عليهم، ولقد جرب ذلك معهم من قبل ففشل.

ولكننى لاأنسى أنه هذه المرة فى موقف أقوى مما كان عليه فى المرة الأولى؛ فقد استطاع هذه المرة أن يسيطر على الصحافة بالذات سيطرة تامة، باستيلائه على جريدة «المصرى» التى كانت الصوت الصحفى الوحيد المتحرر من أسر السلطة، والتى كانت عاملاً لايمكن إغفاله فى تأييد المطالبين بالحرية.. كما أنه فى هذه المرة سيكون أشد حذراً منه فى المرة السابقة؛ فقد تعلم من فشله فى المرة السابقة الكثير مما لابد أن سيتجنبه هذه المرة؛ فهو مثلاً تعلم أن إلصاق تهم مفتراة على الإخوان لايهز ثقة الشعب بهم، كما تعلم أيضاً أن قرارات الحل التى تصدرها الحكومة لاقيمة لها ولا تنال من البناء الإخوانى فى قليل ولا كثير.

لهذا كنت فى حيرة من الأسلوب الذى سيتخذه جمال عبد الناصر هذه المرة بحيث يتجنب أخطاءه التى ارتكبها فى المرة السابقة.. ولكن الذى كنت واثقاً منه أن الأسلوب أو نوع الشر المتوقع لابد أن تكون حملة الاستفزاز الجائحة التى شنها منذ حوالى الثلاثة الأشهر مقدمة له.. وأنه لابد أن يستثمر هذه الحملة أسوأ استثمار.

الأسلوب المبتكر أو حادث المنشية

مع كل ماذهبت إليه تصوراتى كل مذهب، ومع إطلاق مخيلتى للسبح فى أجواز

الخيال لاقتناص افظع صورة فيه من صور الهول والفزع، فإننى لم أصادف الصورة التى أعدها جمال عبد الناصر ولا حتى ماهو قريب منها.. ولا أدرى حتى اليوم هل هذه الصورة التى انتهت إليها خطته هى نفسها التى كان يعد لها ثم التقى تخطيطه مع الواقع، أم أنها كانت رمية من غير رام؟

وقد يبدو هذا التساؤل غريباً. ولكن القارىء إذا علم أن لكل مقدمة نتيجة لتبددت هذه الغرابة. ولقد سبق لى أن ذكرت أن أهم هدف لى فى حملتى الإصلاحية كان إراحة أعصاب الإخوان من الحملة الإعلامية المستفزة التى يشنها جمال عبد الناصر عليهم ليل نهار ــ ذلك أننى أعلم أن لهذه الأعصاب حداً من التجمل لاتستطيع أن تتعداه، ولا تطيق أكثر منه ــ دأب البشر جميعاً مهما بلغوا من الإيمان والصبر ــ فإذا تعدى الاستفزاز هذا الحد، فقد الإنسان السيطرة على أعصابه.. ومن فقد أعصابه كان مهيئاً أن يكون ألعوبة فى يد عواطفه، وفى يد من يستغل عواطفه.

وقد كان خوفى أن تصل الإثارة بالإخوان إلى هذا الحد فى الوقت الذى كانت فيه سيطرة القيادة غائبة عن الساحة.. وهذا هو الذى دفعنى أن أقول لجمال عبد الناصر بالحرف الواحد عن إخوان النظام الخاص حين حمل عليهم «أنت أدرى الناس بنفسيات هؤلاء الشبان وأنها لاتتحمل كل هذه الإثارة، فاعطنى فرصة لأهدىء من روعهم، وأنا أستطيع ذلك بإذن الله».. ولكنه فيما يبدو كان حريصاً على أن لايعطى هذه الفرصة لغرض فى قرارة نفسه؛ فهو يريد أن يصل بالإثارة إلى منتهاها...

ولا يخفى على أحد أن محاولة تهدئة هؤلاء الإخوان فى خلال هذا الجو الصاخب محاولة فاشلة ولا يقدم عليها عاقل.. وهذا أسلوب لم يكن يجهله جمال عبد الناصر ومن حوله من المخططين؛ ولذا فإنه أصر على أن لايتيح لنا الفرصة. وحين اضطر قيدها بشروط كان يعلم مسبقاً أننا سنعجز عن إنفاذها.

* * *

فى مساء يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤ وضح أن خطة جمال عبد الناصر قد وصلت إلى الهدف الذى كانت تسعى إليه وتوجه الأحداث نحوه.. ذلك أن إذاعة مصر وإذاعات العالم نقلت إلى الناس نبأ مفاجئاً بأن جمال عبد الناصر نجا من محاولة لاغتياله، وهو يخطب فى دار هيئة التحرير بالإسكندرية، وأنه قد تم القبض على الجانى.

كان هذا النبأ مفاجأة للناس جميعاً، ولكنه كان بالنسبة لى لم يبلغ مستوى المفاجأة؛ لأننى كنت أتوقع حدوث شىء.. وإن كان الذى أتوقعه شيئاً أقل من ذلك مثل تفجير قنابل أو نحوها.

تحليل هذا الحادث:

وإذا كان ينبغى لمن يستعرض الأحداث أن لايدع هذا الحدث دون تحليل؛ فإننى أرى الغناء كل الغناء فيما ورد من تحليل فى مدخل هذا الجزء من الكتاب على لسان الإخوة صلاح وصالح وفريد.. وإذا كان لى أن أضيف شيئاً إلى ذلك فإننى أقول:

١ ــ إذا كان الإخوان يريدون إتيان عمل كهذا، أفلم يكن الأولى بالقيام به إخوان الإسكندرية، والمثل يقول «أصحاب الدار أدرى بمسالكها» والمفروض فيمن يرشح نفسه لمثل هذا العمل أن يرتب لنفسه خطة الهرب؛ ولا يستطيع هذا إلا من له دراية كاملة بمعالم هذا البلد وأدق تفاصيل مسالكه.

٢ ــ لاشك فى أن جمال عبد الناصر ومن حوله من حرس حكومى يدخل فيه المباحث العامة والمباحث الجنائية والشرطة العسكرية والمخابرات العسكرية والمخابرات العامة وغيرهم ــ كانوا يتوقعون كل شيء من ناحية الإخوان لاسيما النظام الخاص كرد فعل لحملاتهم الاستفزازية؛ وهم فى نفس الوقت ملمون إلماماً تاماً بجميع شعب الإخوان فى القطر كله وبأفراد «النظام الخاص» على وجه الخصوص؛ بدليل أنهم بعد حادث المنشية مباشرة ألقوا القبض على جميع أفراد هذا النظام فضلاً عن اعتقال غيرهم من الإخوان.. فلو أنهم أرادوا منع محمود عبد اللطيف ــ وهو معروف لهم بالذات ومعروف لجمال نفسه ــ من السفر إلى الإسكندرية فى ذلك اليوم لفعلوا ــ فعدم منعهم إياه يشتم منه رائحة التواطؤ أو على الأقل التغافل لحاجة فى نفس يعقوب.. قد كان يعلمها محمود وقد لا يعلمها هو ويعلمها من يرأسه فى النظام الخاص.

٣ ــ لو كان الإخوان يريدون اغتيال جمال عبد الناصر، فقد كانت أمامهم عشرات الفرص لتنفيذ ذلك دون مخاطرة تذكر ــ ولو فرضنا أن كل الفرص فاتتهم وأرادوا أن ينفذوها بعد ذلك لما وقع اختيارهم على تنفيذها فى حفل عام يضم هذا العدد الضخم وهم يعلمون أن رجال المباحث مندسون وسط كل صف من صفوف الجالسين والواقفين، ولما اختاروا أن يصوبوا إليه مسدساً من أسفل إلى أعلى على بعد لايقل عن عشرين متراً.. ولكان تصرفهم غير هذا التصرف الذى هو أشبه أن يكون عملاً استعراضياً منه بأن يكون عملاً جاداً.

٤ ــ إذا افترضنا جدلاً أن هذا العمل قام به أفراد من الإخوان، فإن إتيانهم إياه بهذه الطريقة يدل على أنه ليس من تدبير هيئة كهيئة الإخوان المسلمين فيها من العقول ومن الخبرة مالا يتمخض عن مثل هذه الخطة الصبيانية.. وبهذا كان ينبغى اعتباره عملاً فردياً لاعلاقة له بدعوة الإخوان المسلمين، ولا بهذه الهيئة المترامية

الأطراف؛ وما كان ينبغي أن تؤخذ هذه الهيئة بجريرة فعل فردي، بل يؤخذ هؤلاء الأفراد وحدهم بجريرة مافعلوا.. ولكن يبدو أن الهدف كان مبيتا لدى أصحاب السلطة.

* * *

الفصل الثالث

فى أعقاب حادث المنشية

كان حادث المنشية ذروة الحملة الجائحة التى شنها جمال عبد الناصر على الإخوان المسلمين، وكانت من وجهة النظر المجردة ذروة انتصاره على الإخوان المسلمين الذين كانوا المنافسين الوحيدين له، والفئة الأخيرة التى تقف عقبة أمام آماله وأطماعه التى لم يكن قد تكشف منها للشعب شيء بعد...

وافتتان الشعب به غشى على أعين الناس فى مصر وخارج مصر، حتى إنهم حملوا ماتدفقت به أبواق الدعاية المصرية من تجريم الإخوان المسلمين على محمل الصدق، ولم يحاولوا أن يعرضوا على عقولهم ظروف الحادث وما أحاط به من ملابسات.. وأنشئت المحكمة التى كانت محاكمتها للمتهمين بأكبر جريمة أقصر محاكمة فى التاريخ وأشدها غموضاً، ونفذت الأحكام فور صدورها مما يشعر بأنهم يتسترون على أسرار يخشون أن تتسرب إلى الشعب لو أن هؤلاء المتهمين طال بقاؤهم أحياء.

قضية من الواقع تعرض نفسها على العقل:

وبدأت فى نفس الوقت بل فى نفس الساعة بل فى نفس اللحظة حركة مجنونة للقبض على الإخوان فى كل مكان، بطريقة توحى هى وحدها بأن حادث المنشية كان حادثاً مدبراً، رسمه واضعو خطته، ووضعوا معه خطة القبض، وأعدوا أسماء من يقبض عليهم، وسلموا القوائم إلى المسئولين عن الأمن؛ حتى إذاجاءت ساعة الصفر ألقوا القبض على الأشخاص الذين تضمنت أسماءهم القوائم.

وإلاّ فبأى تعليل يمكنك أن تعلل الآتى:

«تقابلت صدفة فى السجن الحربى بعد بضعة أشهر من اعتقالى مع الأخ الأستاذ محمد سالم عضو الهيئة التأسيسية وهو من أهالى سوهاج وكان مفتش وزارة التربية والتعليم بها فقال لى: إن حادثة المنشية إذيعت على الهواء فى الساعة الثامنة مساءً.. وفى الساعة الثامنة

والنصف وصل إلى بيتى مفتش المباحث العامة بسوهاج وفى يده كشف به اسمى واسمك واسم الأخ الأستاذ طاهر عبد المحسن ـــ وثلاثتنا أعضاء بالهيئة التأسيسية ـــ وقال لى مفتش المباحث إنه قد اعتقل الأستاذ طاهر عبد المحسن، وجاء لاعتقالى، وقال إنه لايعرف عنوان إقامة محمود عبد الحليم فأين هو يقيم؟ فقلت له: إننى لاأعلم أنه جاء إلى سوهاج لأنه لو كان وصل إلى سوهاج لزارنى أو على الأقل لعلمت بوصوله».

ولموضوع اعتقالى ظروف معينة سأعرض لها بعد ذلك إن شاء الله ـــ ولكننى أوردت هذه المناقشة ليعلم القارىء أن كشوف الاعتقال كانت معدة من قبل، ولكن تنفيذها كان مرهوناً بوقوع حادث المنشية أو قل موقوتاً بها أو مرجأً حتى تتم إجراءات وقوعه.

وهنا يجب أن نوضح ماأشرنا إليه من قبل من أن اعتقال الحكومة للإخوان فى يناير ١٩٥٤ بعد حل هيئتهم، وما تكشف بعد ذلك من براءتهم مما نسب إليهم من تهم؛ جعلت الشعب لايتقبل اعتقالهم مرة أخرى إلا إذا اقترفوا جريمة يراها الشعب بعينيه ـــ ومن هنا كان لابد من ترتيبات محكمة لوقوع حادث المنشية بهذه الطريقة المسرحية المثيرة التى يراها الشعب كله بعينيه فقد كان الجميع فى أنحاء البلاد فى تلك الليلة أمام أجهزة الراديو مرهفين آذانهم لسماع خطبة الزعيم التى روجت وسائل الإعلام لها طيلة أيام قبلها.

حتى تم اعتقالى

قدمت فى فصل سابق أننى بعد ماتم فى اجتماع الهيئة التأسيسية من إجهاض خطتنا لتفادى الصدام أو تأجيله، قررت أن لاأتخلى عن إخوانى وإن كنت أراهم قد تنكبوا طريق الصواب، حيث أديت واجبى وأرضيت ضميرى. وما كان لى بعد ذلك أن أتخلف عن الركب وإن كنت أعتقد أنه متجه إلى ملاقاة المصائب والأهوال، وقديما قال علىّ كرم الله وجهه «كدر الجماعة خير من صفو الفرد» وكنت وإياهم كما تمثل فى مثل هذا الموقف على كرم الله وجهه مع أصحابه بقول أخى هوازن:

أمرتهمو أمرى بمنعرج اللوى   فلم يستبينوا النضح إلا ضحى الغد

ماكان لى أن أتخلف عن الركب وألاقى مايلاقى راضى النفس مستريح الضمير، موقناً على كل حال بوعد الله الذى لايتخلف حين قال ﴿والعاقبة للمتقين﴾ والإخوان مهما أخطأوا فإن أخطاءهم لاتمس صميم دعوتهم، ولا تنال من صلابة مبادئهم، ولا من عمق إيمانهم، ولا من جلال إخلاصهم؛ وإنما هى وسائل تختلف حولها وجهات النظر؛ فطريقان كلاهما يوصل إلى الهدف أحدهما سالك والآخر شائك، فإذا اختلفنا حول أيهما نسلك، واتفق الأكثرون على الطريق الشائك فلابد أن نسلكه جميعاً ونصل إلى الهدف أخيراً ولكن

بعد أن تتمطع أقدامنا وتتمزق ثيابنا وتدمى وجوهنا وجلودنا.. وهكذا سرنا مع الركب ونحن نعرف ماوراء هذا السير من أهوال.. وهكذا كان سفرى إلى موطنى الأصلى رشيد.

الصداقات فى الريف:

الصداقات عموماً عامل مؤثر فى حياة الناس، ولكن تأثيرها فى الريف أبعد مدى منه فى العواصم والمدن الكبيرة.. وحين رأيت بعد اجتماع الهيئة التأسيسية الأخير أن آوى إلى رأسي رشيد، شعرت بالتأثير العميق للصداقات بين الناس من أهالى الريف.. وقد تجلى هذا التأثير العميق خلال فترة إقامتى فى رشيد على الوجة الآتى:

أولاً : مع احتجابى معظم الوقت فى البيت فإننى فى الفترات القليلة التى كنت أقضيها خارج البيت كنت أشعر بتعاطف كبير ممن ألقى من أهل بلدى— ولعل ذلك نابع من أنهم يعرفون عنا أننا أهل بيت عريق فى التدين والتعليم الدينى، ومن الخطب والأحاديث التى كنت ألقيها عليهم فى مقتبل أيامى فى دعوة الإخوان المسلمين.

ثانيــاً : أن الصداقات التى كانت تربط بين والدى وعمى وبين رجال الإدارة فى مركز رشيد؛ جعلت هؤلاء الناس يحاولون التستر على وجودى فى رشيد ويحاولون أن يدفعوا عنى كل خطر يستطيعون دفعه.. وقد قاموا فى هذا الصدد بمجهود كبير لاأنساه وأسأل الله أن يحسن جزاءهم عليه؛ فكم كتبوا ردوداً على المسئولين عند استفسارهم عنى.

ثالثــاً : صداقة عمى مع مفتش صحة المركز أتاحت لى فرصة إجازة مرضية امتدت نحو خمسة وأربعين يوماً. ولولا ظروف طرأت سأذكرها إن شاء الله لامتدت أكثر من ذلك. ولولا هذه الإجازات لتغير الوضع بالنسبة لى.

رابعــاً : على أثر وقوع حادث المنشية جاءنى أحد أقربائى موفداً من رجال الإدارة بالمركز— الذين كانوا حريصين على عدم الاتصال المباشر بى إيثاراً لمصلحتى ومصلحتهم— وقال لى: إن رجال الإدارة يطلبون منك أن تستنكر حادث المنشية وتعلن تبرؤك ممن دبروها.. وقال لى: اكتب هذا الاستنكار وسيصل إلى الصحف عن طريقهم دون أن تعرف الصحف المكان الذى جاءهم منه..

ولما كنت فى جميع مواقفى منذ عرفت دعوة الإخوان المسلمين أوثر التجاوب دائماً مع العقل والمنطق دون العاطفة؛ فقد وجدت ماطلب إلىّ وإن كان يلذع قلبى ويتجافى مع عواطفى فإنه يتجاوب مع العقل ويتمشى مع المنطق.. فالحادثة

وإن كان لها من الظروف مايوحى بأنها مسرحية حكومية؛ إلا أن الشعب فى مصر وفى خارج مصر خالى الذهن عن هذه الظروف، ولا يعرف إلا أن الذى حدث هو اعتداء غاشم على رجل لايزالون يرون فيه تحقيق آمالهم.. فعدم استنكارى للحادث وتبرئى من مدبريه لايغير من فهم الشعب للحادثة على الصورة التى تصوروها وإنما سيحرجنى ويحرج هؤلاء الرجال الذين يحاولون أن يدفعوا عنى خطراً هو فى نظرهم عظيم؛ ولكننى كنت أعلم أنه خطر أعظم مما يتصورون؛ لأننى أعلم أننى أطوى أحناء ضلوعى على أسرار كنت أبتهل إلى الله أن يعفينى من موقف اضطر فيه إلى إفشائها لاحرصاً منى على نفسى فحسب بل حرصاً على هذه الدعوة.. ولهذا استجبت لما طلبوا وكتبت الاستنكار ونشر فى الصحف، ولا أدرى كيف وصل إلى الصحف.

خامساً: إشاعة هروب الأخ يوسف طلعت إلى رشيد:

بصدد تأثير الصلات أرانى مديناً بدين كبير إلى زملاء لى كراماً بمصلحة القطن التى كنت أعمل بها ولا سيما للأستاذ حسين الخضرى مدير مراقبة القطن وإلى الأخ العزيز الأستاذ أحمد عبد اللطيف نجيب مدير المستخدمين بالمصلحة فقد عملا أولا على تعديل نقلى وإرجاعى من مصلحة الأموال المقررة بقنا إلى مصلحة القطن بجرجا وقد قاما بابلاغى هذا النبأ عن غير الطريق الرسمى — عن طريق صديق — حتى لاتستدل وزارة الداخلية على مكان وجودى.

وقد تبين لى فيما بعد أن وزارة الداخلية حين أرسلت إلى رجالها فى سوهاج.. حيث كان يجب أن أكون — لاعتقالى ليلة حادث المنشية وردوا عليها بأننى غير موجود — اتجهت وزارة الداخلية إلى مصلحة القطن تسألها عنى وعن مقر إقامتى، وأرسلت إليها أكثر من خطاب فى هذا الشأن؛ فكان الأخ الأستاذ أحمد عبد اللطيف باعتباره المسئول عن المستخدمين بالاتفاق مع الأستاذ حسين الخضرى يرد عليهم فى كل مرة بقوله: إن هذا الشخص ليس بالمصلحة.. ومع أن هذا الإجراء خطير ومجازفة من هذين الرجلين الكريمين إلا أن الله الذى كان إرضاؤه هدفهما قد سلّم، وقد ساعد على ذلك طبيعة الروتين الحكومى الذى يخفى كثيراً مما يراد إخفاؤه. وقد نجح هذا الأسلوب نجاحاً كبيراً فيما يختص بى؛ فقد ظللت مجهول المكان قرابة شهر ونصف شهر حتى حدثت الحادثة التالية:

كان مأمور مركز رشيد حين قدمت إليها الأستاذ الحبال وكان رجلاً فيما بلغنى طيباً، وإن كانت الخدمات التى قدمت إلىّ فى أيامه لم تأت عن طريقه مباشرة، بل كانت تأتى عن طريق مرءوسيه من رجال الإدارة وهو قد لايدرى عن وجودى برشيد؛ حتى طرأ على الموقف طارىء لم يكن يخطر على البال.. اضطرب معه حبل الصلات، بل

تقطعت تحت عنف شدته وسائل الصداقات، واكفهر الجو فجأة حتى صار كالليل البهيم، ذلك أن القبض على الأخ يوسف طلعت باعتباره رئيس النظام الخاص كان هدفاً أساسياً من أهداف حملة الإرهاب التى شنتها الحكومة على الإخوان عقب حادث المنشية.. وقد قبضوا عليه فعلاً من الإسماعيلية- كما شاع- وأركبوه القطار المتجه إلى القاهرة مع حرسه. ثم قالوا إنه غافل الحرس وقفز من شباك القطار فى أثناء سيره وهرب. ثم قالوا: إن بعض الأشخاص أبلغوا وزارة الداخلية أنهم رأوا شخصاً تنطبق عليه أوصافه فى ناحية رشيد.

وهنا قامت قيامة وزارة الداخلية على رشيد.. وحينئذ تذكروا أن رشيد هى مسقط رأس محمود عبد الحليم ومقر أسرته. فطلبوا فى حالة هيستيرية من مأمور مركز رشيد التحرى عما إذا كان محمود عبد الحليم موجوداً فى رشيد.. وأمام هذه الحالة الهستيرية لم يكن بد من أن يبلغ رجال المباحث رغم أنفهم عن وجودى برشيد ولكنهم قالوا: إنه كان فى رشيد وغادرها منذ فترة.

وكان من أثر ذلك أن اعتبروا هذا إهمالاً من مأمور المركز ونقلوه فى الحال وطلبوا من محافظ البحيرة انتداب موظف كبير للقيام بمهام مركز رشيد فى خلال تلك الفترة العصيبة؛ فانتدب المحافظ لهذه المهمة مأمور ضبط المحافظة الذى قدم فى الحال وتولى مهمته.

ولقد كانت مصادفة طيبة أن اختير لهذه المهمة هذا الرجل بالذات؛ فإن الأستاذ عبد العزيز منصور مأمور ضبط المحافظة كان قبل ذلك بسنوات طويلة معاون إدارة مركز رشيد وكان صديقاً حميماً لوالدى وعمى وكانت بيننا وبينه صلة عائلية، وهو يعرفنى شخصياً أيام كنت صغيراً.. وما كادت تطأ قدمه رشيد حتى أرسل فى طلب والدى وعمى وأسرّ إليهما الحديث التالى:

قال: إن وزارة الداخلية فى حالة هستيرية لما بلغها من أن يوسف طلعت رؤى فى ناحية رشيد، وقالت الوزارة لمحافظ البحيرة إنها تعتقد أن يوسف طلعت اختار رشيد لأنها بلد محمود عبد الحليم، ولابد أنه يعلم أن محمود عبد الحليم فى رشيد، ولهذا جاء إليه ليختفى عنده.. ولهذا فإننا نطلب إليك انتداب موظف كبير ليذهب إلى رشيد ويلقى القبض على محمود عبد الحليم فى الحال.. ثم قال الأستاذ عبد العزيز: لما بلغنى هذا الموضوع سارعت إلى ماطلبه إلىّ المحافظ من القيام بهذه المهمة لانقاذ ماأستطيع إنقاذه.. ثم قال: أنتم إخوتى ومحمود ابنى. وأنا لاأستطيع أن أقبض عليه لسببين:

أولهما: عاطفتى نحوكم ونحوه.. وثانياً: لأنه إذا قبض عليه فى رشيد فستوجه إليه تهمة إيواء يوسف طلعت ويعتبر حينئذ شريكاً له.

ثم قال: ولهذا فرجائى أن يسافر محمود اليوم إن أمكن أو صباح غد على الأكثر إلى مقر عمله فى جرجا ليعتقل من هناك ــ لأننى سأبلغ الداخلية أنه ليس موجوداً فى رشيد وأنه بمقر عمله بجرجا، وسأرتب مع المباحث تقريراً بأنه غادر رشيد إلى مقر عمله قبل أن يشاع أن يوسف طلعت رؤى فى رشيد.

وجاء والدى وعمى، وأبلغانى ماقاله الأستاذ عبد العزيز منصور، فقمت فى الحال وأعددت حقيبتى للسفر إلى جرجا وسافرت فى الحال.

فـى جرجـا:

وصلت إلى جرجا. وكانت أول مرة أنزل فيها ذلك البلد الذى كان فى يوم من الأيام عاصمة المحافظة وكان لى فى جرجا ابن خالة من أبر وأكرم أقاربى، هو الحاج سيد أحمد عثمان تاجر الحبوب. ولكننى كنت حريصاً على أن لاأنزل فى بيته. فنزلت فى أحد الفنادق. وذهبت فى المساء لزيارته فاستقبلنى بما طبع عليه من كرم وحسن وفادة وأقسم لأنزلن عنده، ولكننى أصررت على الاعتذار وشرحت له الظروف وقلت له فى صراحة: إننى قدمت إلى جرجا لاعتقل، وأنا فى انتظار ذلك بين لحظة وأخرى، ولا أحب أن يعرف أننى اعتقلت من بيتك فأسبب لك متاعب بدون داع ولا مبرر..

وبعد بضعة أيام لاأذكر عددها الآن ولكنها لاتعدو الثلاثة حضر إلى المحلج حيث هو مقر وظيفتى مأمور المركز وطلب مقابلتى فقابلته فعرفنى بشخصيته وقال لى إنه يأسف لأنه كلف بالقبض على.. وكان الرجل يعتقد أنها مفاجأة لى.

ركبت السيارة مع مأمور المركز. وقد سألنى عن محل إقامتى فأخبرته بالفندق الذى أقيم فيه فصعد معى إلى حجرتى، ولم يكن لى متاع سوى حقيبتى ففتشها ثم ذهبت معه إلى مبنى المركز حيث قدمنى إلى نائب المأمور حيث بقيت معه فى حجرة مكتبه وجلست على «كنبة عربى» فى هذا المكتب فى انتظار وصول أول قطار يصل إلى القاهرة.. وقد أمضيت فى مكتب نائب المأمور ساعتين قدم فى خلالهما بعض من تعرفت عليهم من العاملين بالمحلج فغمرونى بعواطفهم التى لاأنساها حتى اليوم لأن المجاملة فى موقف كالذى كنت فيه تعد شجاعة أصيلة وكرماً بل ومجازفة.. وشعبنا ــ بالرغم مما رزح تحته من كلاكل الظلم والاستبداد ــ فإنه لايزال كثيرون منه محتفظين بما طبعوا عليه من نبل ووفاء.. أما ابن خالتى الحاج سيد فأكل إلى الله وحده حسن جزائه على ماقدّم لى فى هذه الفترة العصيبة فقد أرسل إلىّ نجله الأستاذ محمد رحمه الله بطعام فاخر وفاكهة، وظل بجانبى حتى تحرك القطار بل وقد حاول أن يرافقنى إلى القاهرة لولا أن أقسمت عليه أن لايفعل.

ويحق لى هنا أن أسجل موقفاً يدل على أن نفوس الكثيرين من هذا الشعب الأصيل

هي كالذهب الذى انهال عليه التراب والأقذار حتى طمست معالمه، وخبا تحت ظلامها نوره.. بينما كنت جالساً عند نائب المأمور أدخل عنده مجموعة من الناس تمثل فريقين بينهما خصومة، وقد اعتاد هؤلاء الناس على الكذب والاختلاق لنفى تهم موجهة إليهم.. وأخذ الرجل يستجوبهم بالحسنى ولكنهم لجوا فى أساليبهم الملتوية مما جعله يلجأ هو الآخر إلى معاملتهم بأسلوب خشن استعمل فيه بعض الألفاظ النابية والسباب مع التهديد..

لم يكن فى كل ماحدث أمامى شىء يستوقف النظر لأنه التصرف المألوف فى مثل هذه الحالات ولكن الذى استوقف نظرى أننى رأيت نائب المأمور يلتفت إلىّ قائلاً: «ياأستاذ لاتؤاخذنى فى هذه الألفاظ التى لايليق أن أتفوه بها فى وجودك، وليست هى من طبيعتى، ولكن معذرة؛ فكثرة احتكاكنا بالأشرار علمتنا ألفاظاً كهذه.. وسأل الرجل الله أن يتوب عليه من هذا العمل الذى يؤدى به إلى التفوه بمثل هذه الألفاظ».

كان لهذه الواقعة أثر عميق فى نفسى لأن لها دلالتين:

الأولى: أن الدنيا لازالت بخير، وأن فى هذا الشعب معادن نفيسة تتمنى أن ترفع عن نفسها ماتراكم عليها من أقذار.

الثانية: أن المجهود الذى بذله جمال عبد الناصر لتلويث سمعتنا ـــ نحن الإخوان ـــ سيضيع هباءً بإذن الله.. فنحن فى ذلك الوقت كنا تحت نير حملة التلويث، وكانت هذه الحملة قد وصلت إلى ذروتها، ثم إننى مقبوض علىّ باعتبارى من أئمة الفساد ورءوس الضلال كما كان مكتوباً فى الصحف؛ ومع ذلك فالمكلف بالقبض علىّ ينظر إلىّ نظرة الإجلال والاحترام، ويعتبرنى ممثلاً للطهر والنقاء إلى الحد الذى جعله يعتذر إلىّ من ألفاظ وجهها لغيرى أمامى.

الباب الخامس عشر

فى السجن الحربى

الـفصل الأول : إلى السجن الحربى

الفصل الثانى : مآثم لاتنســى

الفصل الثالث : طغيان الأقـزام

الفصل الرابع : دراســات

الفصل الأول

إلى السجن الحربى

لما جاء القطار الذاهب إلى القاهرة، ودعنى قريبى وعدد من العاملين بالمحلج حتى قام القطار. وكنت فى صحبة معاون بوليس جرجا. وكان إنساناً لايقل نبلاً عن زملائه ورؤسائه فى المركز ــ وكان المعتاد فى تلك الأيام ــ مظهراً من مظاهر الإهانة والتنكيل ــ أن توضع القيود فى يدى المعتقل حتى يسلم إلى السلطات فى القاهرة؛ ولكن هذا الرجل ورؤساءه رفضوا أن يعاملونى هذه المعاملة.. حتى وصل القطار بنا إلى محطة القاهرة، فكان فى انتظارنا سيارة من سيارات البوليس أوصلتنا إلى وزارة الداخلية؛ حيث سلمنى هذا الضابط الكريم إلى المسئولين فيها الذين سلمونى بدورهم إلى إدارة المعتقل الذى كان هو السجن الحربى بالعباسية.

(١) الاستقبال

والاستقبال فى السجن الحربى كان مفاجأة؛ لأنه كان شيئاً غير الذى سمعناه من جمال عبد الناصر وهو يتوعدنا وظنناه يومئذ أنه قد تخطى بوعيده هذا حدود اللائق والمعقول.. ولكن الذى استقبلنا به فى السجن الحربى كان شيئاً جديداً فى تاريخ مصر.. وكان عاراً لطخ سمعة هذه البلاد تلطيخاً لن يمحى على مر الزمن؛ لأنه كان إهداراً للإنسانية والآدمية.

عند دخول باب السجن الحربى يقابل المعتقل بعاصفة من الصفع بالأيدى والركل بالأقدام والضرب بالعصى فى كل مكان من جسمه، ثم تحلق رأسه حلقاً يكاد يزيل كل مابها من شعر، ثم يؤمر بحمل أمتعته والجرى بها إلى زنزانته تحت عاصفة أخرى من الصفع والركل حتى يدخل باب زنزانته وتغلق عليه ــ أما السباب والألفاظ البذيئة فقد نغفلها لأنها لاتعد إهانة إذا قيست بما سواها من الإهانات.

(٢) الزنزانة

أما الزنزانة فهى حجرة صغيرة تقل مساحتها عن ثلاثة أمتار فى مترين. أرضيتها من

الإسفلت. وبابها قطعة واحدة من الحديد ليس به إلا ثقب صغير فى مساحة العين يمكن إغلاقه من الخارج. ومزلاج الباب من الخارج. وليس بهذه الحجرة نوافذ إلا طاقة صغيرة قرب سقفها مساحتها نحو ٦٠ سم× ٣٠ سم شبه مسدودة بأعواد من الحديد. وبالزنزانة جردلان أحدهما للتبول والآخر للشرب ونظراً لضيق الزنزانة بنزلائها من المعتقلين رفع جردل شرب الماء منها وأعطى لكل معتقل قلة من الفخار؛ فقد وصل عدد المعتقلين فى الزنزانة إلى ثمانية أفراد.

ومصروف لكل معتقل بطانيتان سوداوان من بطانيات الجيش وعليه أن يدبر لنفسه وسادة يضعها فى النوم تحت رأسه، وكانت الوسادة عادة هى الحذاء مغطى بجزء من إحدى البطانيتين ــ وهذه الزنازين كانت مجردة من أى شيء ينام عليه، فليس بها أسرة طبعاً، ولا ألواح من الخشب ولا حتى «البرش» الذى اعتاد الناس أن يتندروا به رمزاً لمعنى الإهانة، هذا البرش لم يكن موجوداً بل كان النوم على الأسفلت مباشرة فكنا ننام على إحدى البطانيتين ونتغطى بالأخرى.

وتظل الزنازين مغلقة طول اليوم والليلة ولا يفتح بابها إلا خمس مرات: فى الثالثة صباحاً أى بعد منتصف الليل وقبل الفجر وفى الساعة السابعة صباحاً لتقديم الإفطار وفى الواحدة بعد الظهر لتقديم الغداء وفى الخامسة مساء لتقديم العشاء، وتفتح وقت الضحى للخروج إلى الطابور اليومى.

وإذا تصورت ثمانية أشخاص نائمين فى هذه الحجرة الصغيرة المغلقة والمحكمة الإغلاق ولا منفذ لها إلا الطاقة الصغيرة قرب سقفها فإنك لاشك تعتبرهم غارقين فى عرقهم.. يأتى العسكرى فيفتح باب الزنزانة فى الساعة الثالثة صباحاً سواء فى الصيف أو فى الشتاء، فإذا كان الوقت شتاءً فإن الفرق بين الحرارة فى داخل الزنزانة وفى خارجها كاف أن يصيب أى إنسان بمرض يقضى عليه إذا تعرض فجأة لهذا الفرق مرة واحدة.. فما بالك إذا تعرض له كل يوم.. وإذا فتح الباب فالويل لمن أبطأ فى الخروج إلى العراء حيث السقف هو السماء.. يجب أن يكون الجميع فى خارج الزنزانة وفى يد كل منهم قلته وفى قدميه قبقابه فيما لايتجاوز دقيقة واحدة.. والجميع يهبطون السلم فى أسرع جرى حيث يقفون مصطفين أمام دورة المياه؛ حيث لايسمح للشخص أن يمكث داخل المرحاض أكثر من دقيقتين ثم يخرج.. والمسموح له بعد ذلك أن يغسل وجهه ويملأ قلته ثم يصعد إلى زنزانته، ولكننا كنا نتوضأ وضوءاً سريعاً خاطفاً.

وكان علينا أيضاً فى هذه المرة من الفتح أن نصحب معنا جردل البول لصبه فى دورة المياه فكنا نتناوب هذه المهمة ــ وكان مسموحاً لنا بالاستحمام فى هذه الفترة قبل الفجر مرة كل أسبوعين تقريباً ولكن بدش بارد تكاد تصل برودته فى ليالى الشتاء إلى مايقرب

من التجمد؛ على أن لايستغرق الاستحمام أكثر من ثلاث دقائق .

والعجيب فى هذا أننا قضينا فى هذا السجن ماقضينا تحت هذه الظروف القاتلة التى أشرت إلى القليل منها؛ ومع ذلك لم يمت أحد منا بل ولم يمرض والحمد لله، وكان منا الشيوخ والشباب .

وصف السجن الحربى

وينبغى قبل أن أسترسل فى شرح الأسلوب الذى كنا نعامل به أن أصف السجن الحربى حتى يستطيع القارىء أن يتصوره.

هذا السجن مبنى على ربوة فى منطقة العباسية. وهو معد لاستقبال المحكوم عليهم من جنود الجيش وضباطه فى جرائم عسكرية خطيرة. وظل منذ إنشائه لايدخله إلا العسكريون حتى جاء جمال عبد الناصر فجعله لأول مرة معتقلاً للمدنيين.

والسجن مكون من عدة أبنية، كل بناء منها مستقل عن غيره. ويسمى كل بناء منها سجناً، ويميز كل سجن عن الآخر إما برقم وإما بصفة معينة؛ فهذا سجن (٤) وهذا السجن الكبير، وهذه الشفخانة أى المستشفى— وهناك سجون من دور واحد كالشفخانة وسجون أخرى من عدة أدوار وكان الإخوان يشغلون سجن (٤) والسجن الكبير. وبين بعض السجون وبعض أرض فضاء واسعة جداً. كما أن داخل كل سجن فناء تتناسب سعته مع سعة السجن. وبجانب البوابة العمومية للسجن الحربى توجد المكاتب وهى عبارة عن عدة حجرات متلاصقة من دور واحد بها القائمون على إدارة السجن، وهم مجموعة من الضباط كان على رأسهم فى ذلك الوقت ضابط برتبة بكباشى (مقدم) اسمه حمزة البسيونى هو قائد السجن الحربى.

والسجن الكبير الذى كنت نزيله هو مبنى على أرض مربعة الشكل ومقام على كل ضلع من أضلاع المربع بناء من ثلاثة أدوار، كل دور عبارة عن صف من الزنازين المتلاصقة أمامها ردهة بعرض متر تقريباً تفتح عليها أبواب الزنازين، وللردهة سور يطل على فناء السجن. وبهذا السجن ثلاثمائة زنزانة وبالدور الأرضى توجد دورتان للمياه كما توجد عدة مكاتب— وسجن (٤) الذى يشغله الإخوان أيضاً هو على نسق السجن الكبير وصورة مصغرة منه.

وأما فتح الساعة السابعة صباحاً فهو لتقديم طعام الإفطار، وقد نسيت ماكانوا يقدمونه لنا فى الإفطار ولكن الذى أذكره أنهم كانوا يقدمون لنا الشاى فى أقداح من الألومنيوم القذر، وإنى أذكر هذا الشاى دون غيره لأننى لم أكن أشربه لالأنه فى إناء قذر

وإنما لأننى أقاطع الشاى من قبل أن أدخل السجن الحربى بسنين طويلة لأسباب ذكرتها فى الجزء الأول من هذه المذكرات.

وأما فتح الساعة الواحدة بعد الظهر فلتقديم طعام الغداء ويتكون عادة من رغيف وحلاوة طحينية وتكاد تكون الحلاوة الطحينية هى أحسن ماكان يقدم لنا من طعام — وفتح الساعة الخامسة مساء كان لتقديم وجبة العشاء وهى عادة عدس أو خضار مطبوخ مع رغيف وأرز وقطعة من اللحم.

وعلى العموم فإن الطعام الذى كان يقدم لنا كان هو نفسه الطعام الذى كان يقدم للجنود مع ملاحظة أن الجنود هم الذين كانوا يتولون طهى الطعام وتقسيمه وتوزيعه فكانوا بطبيعة الحال يؤثرون أنفسهم علينا مستبيحين ذلك نحو قوم يرون فى اضطهادهم زلفى إلى رؤسائهم وسادتهم.. وقد رأوا بأعينهم رؤساءهم وسادتهم يرغمون هؤلاء المعتقلين على أكل الطعام ممزوجاً بالتراب، ولا يجد هؤلاء المعتقلون بداً من تناوله وابتلاعه. كما أن هؤلاء الرؤساء والسادة قد أفهموا هؤلاء الجنود أن هؤلاء المعتقلين خونة للوطن وسفاكون للدماء.

وقد علمنا بعد أن ألقى بنا فى غياهب السجن الحربى أن الجنود الذين يختارون للعمل بالسجن الحربى يختارون عادة من المشهود لهم بالغلظة والفظاظة والقسوة والجهل، مع المقدرة على كيل السباب وبذاءة اللسان. ويميزون على زملائهم الذين لم يصلحوا للعمل بالسجن الحربى بعلاوة يمنحونها تسمى علاوة الإجرام.

وطعام العشاء — والمفروض أنه الوجبة الرئيسية فى اليوم لأنه طعام مطهو — لم يكن طهيه أكثر من إلقاء الخضار كما هو تقريباً فى ماء مغلى ولا تستطيع أن تميز أى نوع من الخضار هو، لأنه لاطعم له.. ومع ذلك كنا نقبل عليه بشهية.

نسمة وسط الضيق:

ولا يفوتنى أن أذكر أننا عند دخولنا هذا السجن عندما استقبلونا بعواصف الإجرام، كان هؤلاء الجنود حريصين على سؤال كل منا عن بلده؛ فلما ذكرت بلدى تقدم جندى منهم نحوى وأسر فى أذنى أنه «بلدياتى» أى من رشيد وأنه سيحاول الاتصال بى بطريقة غير مكشوفة.. وقد فعل.. وكان هذا الجندى «محمود» تخفيفاً من الله عنى فى هذا الجحيم الملتهب.. وكثيراً ماكان يحمل منى خطابات لأسرتى ومنها إلىّ حتى نقل من السجن بعد بضعة أشهر — ولقد كان هذا الجندى معرضاً لأخطر العقوبات فى مجازفته بحمل خطابات منى وإلىّ. ومع ذلك فقد كان يجازف هذه المجازفة بغير مقابل.. وفى هذا دلالة واضحة على أن أبناء هذه البلاد تنطوى جوانحهم على مشاعر من النبل تختفى تحت

ظواهر ــ قضت بها الظروف السيئة ــ تتنافى مع النبل والكرم والمروءة.

فتح الضحى والأغنية المشئومة:

أخرت الكلام عن فتح الضحى وتكلمت عما قبله وعما بعده؛ لأن فتح الضحى هذا كان له وضع خاص؛ إذ كان هو الهوان الذى مابعده من هوان؛ فإن الكريم يصبر على الجوع والعطش وعلى العرى وعلى النوم على التراب، ولكنه قد لايصبر على أن توجه إليه كلمات تطعن شرفه وتمتهن كرامته.. فما بالك إذا أرغم على أن يوجه إلى نفسه بنفسه هذه الكلمات..

لقد كان فتح الضحى سحقاً لكرامتنا وتحطيماً لنفوسنا.. لقد كان السجن أحب إلى نفوسنا من الخروج من ظلام الزنازين وقارس جوها إلى هذا الفناء المترامى الأطراف حيث الهواء النقى والشمس الساطعة والجو الدافىء المطلق الذى هو أعز أمنية يتمناها مسجون.

كنا فى السجن الكبير نحواً من ثلاثة آلاف. وربع هذا العدد كان فى سجن (٤).. كانت تخرج فى فتح الضحى هذه الآلاف وتصطف صفوفاً.. وتحت سياط الجلادين كان على طائفة منا أن تنشد بأعلى صوت نشيداً أو أغنية كانت تغنيها أم كلثوم بعد حادثة المنشية تمجيداً لجمال عبد الناصر وتحقيراً للإخوان المسلمين.. وعلى بقية هذه الآلاف المصطفة أن تردد فاصلة واحدة معينة بعد كل فاصلة تنشدها الطائفة الأولى. وكل هذا بنغمة الأغنية؛ ويظل هذا الإنشاد أكثر من ساعة وقد يصل إلى ساعتين ــ يتخلله تحول هذه الصفوف إلى طوابير جرى سريع تحت وطأة السياط المنتهبة.

وكان أشد مايمزق قلبى أن يقع نظرى فى أثناء هذه الطوابير على الأستاذ المرشد العام وهو يجرى فى الصف كما يجرى أصغر الشباب منا، مع أن سنه فى ذلك الوقت كان نيفا وستين عاماً.. ودع عنك أمر السن، وانظر إلى مكانة هذا الرجل الذى يجرى وهو يلهث ويناديه الجلاد فى أثناء الجرى باسمه المجرد فى استهزاء وسخرية.

* * *

واستمر فتح الضحى على هذا الأسلوب المهين المتهتك فى فنون الإهانة حتى انتهت محاكمات ماسموه محكمة الشعب ونفذوا حكم الإعدام فى الإخوة الأعزاء الشيخ محمد فرغلى والأستاذ عبد القادر عوده والأستاذ يوسف طلعت والأستاذ إبراهيم الطيب.

وفى هذا الصدد أنقل من كتاب «جمال عبد الناصر» للأستاذ أحمد أبو الفتح فقرة يتحدث فيها عن صفة حب الانتقام المتأصلة فى نفس جمال عبد الناصر إلى حد شاذ جاء فى صفحة ٢٣٨: «وقد حدث بعد ذلك حوادث كثيرة تثبت هذا الشذوذ لدى عبد

الناصر؛ فقد حدث فى فترة شهر مارس ١٩٥٤ أن اشترك أثنان من المحامين فى المطالبة بالحريات؛ وكان أولهما المغفور له عبد القادر عوده الذى انضم للمتظاهرين ترحيباً بعودة نجيب بعد إبعاده وخطب فى الجماهير، والثانى هو أحمد حسين المحامى وكان قد أرسل برقية شديدة اللهجة إلى عبد الناصر يطالب بتحقيق الحريات. وأمر عبد الناصر باعتقالهما.

وفى اليوم التالى للاعتقال طلبت عبد الناصر تليفونياً فرد علىّ بقوله: أهلاً أحمد.. تعرف العساكر عملوا إيه بعبد القادر عوده وأحمد حسين فى السجن؟.. فلما سألته عما فعلوا بهما قال: ضربوهما بالأحذية حتى كان صراخهما يسمعه جميع من فى السجن.

لقد كان جمال يروى لى القصة وصوته يحمل كل معانى الفرح والنشوة والسرور.

وفى مقابلة لى معه بعد ذلك عاد إلى ذكر المغفور له عبد القادر عوده فقال إنه لن يستريح حتى يسفك دمه «يسيح دمه» وفعلاً عقب حادث المنشية اعتقله عبد الناصر ضمن من اعتقل من الإخوان المسلمين، وقدمه للمحكمة العسكرية التى شكلها من أعضاء مجلس قيادته وسماها «محكمة الشعب» وأصدرت المحكمة حكمها بإعدامه.. ورغم تدخل جميع رؤساء الدول العربية لمنع تنفيذ أحكام الإعدام، أصر عبد الناصر على التنفيذ ونفذ حكم الإعدام».

أما المرشد العام والأستاذ عبد العزيز عطية فقد خفف عنهما حكم الإعدام إلى الأشغال الشاقة المؤبدة لتخطيهما سن المعاش — وسحب هؤلاء الإخوة هم ومن حكم عليهم بأحكام مختلفة إلى السجون المدنية.. وحينئذ بدأوا فى تغيير أسلوب فتح الضحى بأن جعلوه طابوراً يجمع نزلاء كل سجن فى فنائه على الجرى السريع الممتزج بالإهانة اللفظية والمادية الجسدية.

هل اجتاز عبد الناصر امتحان الأصالة أم سقط؟

ولقد كنت أتحدث مع نفسى وأنا واقف فى طابور الضحى قبل تنفيذ هذه الأحكام وأقول: إن جمال عبد الناصر قد ظفر بنا بعد المعركة التى دارت رحاها بيننا وبينه، وهاهو ذا قد أخذنا أسرى تحت يده. فهل يلهم هذا الرجل مايلهم الكرام فيسجل لنفسه مجداً يخلده الزمن؟ .

إن الكرام إذاما أيسروا ذكروا   من كان يألفهم فى الموطن الخشن

فلا زالت الدنيا بأسرها منذ أربعة عشر قرناً وستظل إلى الأبد تقرأ تمجيد محمد بن عبد الله حين دخل مكة منتصراً وجىء بأعدائه الذين أخرجوه من مكة بعد أن حاولوا قتله.. جىء بهم إليه ليفعل بهم مايشاء، ولينتقم منهم انتقاماً يشفى صدره.. فقال لهم:

ماتظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم.. فكان رده عليهم أن قال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

كنت كل يوم أتحدث مع نفسى وأسائل نفسى هذا السؤال: هل يلهم هذا الرجل مايلهم الكرام؟ هذه فرصة ذهبية قلما تتاح للرجال، وهى فرصة إذا أفلتت فلن تعود.

إنه امتحان ينصهر فى أتونه النفوس لتظهر على حقيقتها.. فنفوس معدنها الذهب، والذهب سيد المعادن فهو لايخشى من معدن آخر أن يتفوق عليه فيسلبه السيادة؛ فهو إذن فى غير حاجة إلى إظهار تفوقه بسحقه المعادن الأخرى؛ بل إنه قد يدعوها، ويوسع لها بجانبه.. فيكون فى ذلك تجلٍّ لمزاياه، وتلألؤ لجماله، وسطوع لرونقه، وتوهج لبريقه يزيد الناس إعجاباً به وإقراراً بسيادته.

ونفوسُ معدنها الحديد فهو دائب الغيره مما حوله من معادن، يحاول أن يطفىء كل لمعان يبدو منها، بل إنه يتمنى لو تتاح له الفرصة ليوريها التراب ويهيل عليها من تلاله مايحجبها عن العيون فلا يبقى أمام عيون الناس غيره.. وحينئذ يستطيع أن يدعى أنه ليس حديداً وإنما هو ذهب.. وإذا فقدت العيون كل معدن نفيس، لم يعد أمامها إلا أن تقنع بالحديد.

ولكن البلاد إذا اقشعرت   وصوّح نبتها رعى الهشيم

كل هذا كان حديث نفسي مع إقرارها بالهزيمة. كانت تتوق إلى أن ترى من انتصر عليها وعلى زملائها قد انتصر على نفسه.. كانت تتوق بل كانت تتحاشى أن تتحول هزيمتها إلى هزيمة لهذا الشعب أمام نفس تعالت عن الخضوع للمثل العليا والمروءة، وغلبت عليها خستها فأعمتها عن سلوك طريق الكرام الذين إذا قدروا عفوا، وإذا ملكوا أسجحوا.. وكان من وصية خلفاء الإسلام لقوادهم «وأن لاتجهزوا على جريح» لأن الإجهاز على الجريح لاينبىء إلا عن خسة نفس المجهز ولؤم طبعه ووضاعة أصله؛ لأنه يعلم أن الجريح لايستطيع أن يدفع عن نفسه، وهذه من صفات اللئام.. وقديماً قال الشاعر المسلم:

ملكنا فكان العفو منا سجية   فلما ملكتم سال بالدم أبطح

وكثيراً ماينشب بينك وبين صديق لك من أسباب العداء مايؤدى إلى القطيعة، وإلى نيل كل منكما من أخيه؛ ولكن حين يتدخل بينكما القضاء، ويقضى لك على أخيك فتظفر به ويصير فى قبضتك وتشعر بأنه قد سقط فى يدك.. حينئذ تنضح عليك أصالتك فتتعفف عن أن ترغم أنفه وهو ملقى بين يديك. وبدلاً من أن تمد يدك إلى وجهه بصفعة؛ تمد يدك إلى وجهه تمسح عنه التراب، ثم تمد يدك مرة أخرى تأخذ بيده لينتصب واقفاً، وتجلسه بجانبك.. وتطفر الدموع من عيونكما تغسل قلبيكما من آثار مادب بينكما من

شقاق .. ويعتبر الذى كسب الجولة هو الذى فتح ذراعيه لعدوه القديم بعد أن انتصر عليه وأحاط به وملكته الظروف أمره .. ولكن هذا الموقف لايقفه إلا الكرام الأصلاء وهم الأقلون «ذوو القلوب الكبيرة» ﴿**وما يلقاها إلا الصابرون**﴾.

كل هذه الأحاديث كانت تدور فى خاطرى وأقول لنفسى: لو أن بجانب هذا الرجل ناساً مخلصين وذوى بصائر لما فاتهم أن يسدوا إليه النصيحة بأن يقتنص هذه الفرصة السانحة التى إن فاتت فلن تعود، وأن يمديده وهو منتصر فيسجل لنفسه مجداً خالداً، ويجنب البلاد أخطاراً لايعلم مداها إلا الله.

ولكن يوم أعلنوا أمامنا فخورين أحكام الإعدام بعد تنفيذها أيقنت أن لاأحد حول هذا الرجل إلا جاهل أو منافق، وأن الرجل ذاته رجل قصير النظر غلب كبره على عقله، والتهمت آماله دينه وخلقه.

سبكناه ونحسبه لجيناً فأبدى الكير عن خبث الحديد

وصدق الله العظيم ﴿**قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا**﴾.

* * *

الفصل الثانى

مآثم لاتنسى

١ ـ أول الآثام ابتداع أن يكون السجن مكاناً للاعتقال :

إن مجرد إيداع المعتقلين فى سجن هو خروج على العرف والقانون. فإذا كان هذا السجن سجناً حربياً مخصصاً لمن صدر ضده حكم فى جريمة بالغة الخطورة من العسكرين فإنه اعتداء آخر على القانون.. وكان معروفاً أن العسكرى الذى كتب عليه أن يقضى مدة سجن فى السجن الحربى هو إنسان كتب عليه الشقاء لأنه سيقضى مدة سجنه فى جهنم الدنيا.

ومحال أن ينسى معتقل دخل هذا السجن ماقوبل به لحظة دخوله مما أشرنا إليه من قبل ـ وقد يلقى داخله بعد ذلك أشد مما لقى فى هذه اللحظة، ولكن الذى لقيه فى هذه اللحظة لاينسى مهما نسي مابعدها؛ لأن المفاجأة المذهلة، والمفارقة المزلزلة جرحت فى القلب جرحاً عميقاً غائراً لايندمل.

وقد يتبادر إلى الذهن أن هذا الاستقبال إن هو إلا نوع من التعذيب، ولكن الواقع ليس كذلك؛ فالتعذيب أمر شائع فى كل عهود الظلام؛ يطلب من الرجل الاعتراف بأمور معينة لمصلحة الحاكم، ويكون الحاكم نفسه أو معاونوه هم الذين يتفاوضون مع هذا الرجل؛ فإذا لم يعترف أمروا بضربه أو تعذيبه بمختلف ألوان التعذيب.. فيكون التعذيب حينئذ نتيجة لمقدمات مهدت النفس لما سوف ينتابها من عنت وإرهاق وإهانة، ويشعر الذى يحيق به ذلك أنه إنما يحيق به لقاء ثمن هو استمساكه بالحق وصبره عليه.. ثم إن الذين فاوضوه وأمروا بتعذيبه هم أفراد من مستواه الثقافى والاجتماعى؛ أما الاستقبال فهو إهانة مفاجئة بغير مقدمات، وصادرة من أدنى المستويات إلى أعلى المستويات؛ أدنى المستويات سناً وثقافة ومكانة فى المجتمع إلى أعلاها فى كل ذلك.. وقديماً قالوا «لو ذات سوار لطمتنى؟!».

٢ ــ طوابير الإهانة:

أشرت إلى هذه الطوابير التى كانت فى أوائل أيامنا بالسجن الحربى، وقد أعتبرها امتداداً لإهانة الاستقبال. وأحب أن أزيد على ماقلت أننى حتى بعد أن انتهت مدة اعتقالى وخرجت إلى الحياة كنت لاأطيق أن تطرق سمعى هذه الأغنية اللعينة لأم كلثوم.. إنها كانت تشعل فى صدرى ناراً لأنها كانت تذكرنى بالإهانة التى لحقت بنا فى الأيام السوداء التى أومات إليها.

٣ ــ طوابير الإرهاب:

لقد كانوا فى كل يوم وقت الضحى يفتحون لنا الزنازين ويأمروننا بالنزول فى أسرع جرى إلى فناء السجن حيث نصطف طوابير؛ ولفظاعة ماكان ينتابنا فى هذه الطوابير من إرهاب وإجرام كنا نخرج من زنازيننا ولا نعرف هل نعود إليها أحياء أم لانعود حيث نضرب بالرصاص وندفن فى سفح الجبل.

إننى لاأزال أذكر أننا بعد أن نستمر ساعة على الأقل فى جرى مستمر تحت وابل من السياط التى لاتبالى على أى جزء من أجسامنا تقع؛ نؤمر بالوقوف فى ثبات كثبات التماثيل ثم يوجه إلينا كلام فحواه أننا لم يعد لنا قيمة، وأن الأوامر صدرت باستئصالنا من الوجود، وأن علينا أن نظل فى هذه الوقفة حتى تأتى إلى هذا القائد (وهو باشجاويش) الأوامر بما يفعله فينا. ونظل فى هذه الوقفة ونحن نتوقع أن نضرب بالنار من خلفنا أو أن يأتينا الموت من كل مكان.

لقد كنت فى هذه الوقفة أتذكر وقفة يوم القيامة، لقد جعلتنى هذه الوقفة أقدر فظاعة وقفة يوم القيامة حق التقدير، وأقدر كيف أن الناس من شدة الموقف يتمنون أن يصرفوا ولو إلى جهنم. وهنا كنا نتمنى أن ينهوا حياتنا مرة واحدة فينقذونا من هذا الانتظار الذى هو أشد ألف مرة من الموت، لقد حببت إلينا هذه الطوابير الإرهابية الموت، بل إنه صار لنا أمنية من أعظم أمانينا.

كنت فى تلك الأثناء فى سن تناهز الأربعين أو تطل عليها، وكان أكثر من معنا فى المعتقل فى أسنان تقارب هذا السن. ولكن كان معنا عدد لايستهان به ممن هم فى سن آبائنا ممن تخطوا الستين؛ ومع ذلك فإن زبانية السجن الحربى لم يكونوا يرحمون هؤلاء الشيوخ فيعفوهم من الاشتراك معنا فى هذه الطوابير؛ بل إنهم كانوا يتعمدون أن يسوقوهم بالسياط فيجروا كما تجرى تماماً.. ولا أدرى كيف نجا هؤلاء من الموت؛ فلقد كنت أتوقع فى كل طابور أن يقعوا صرعى ولكن عناية الله كانت أعظم من كيد الظالمين.. ولا أنسى بهذه المناسبة أن أذكر أن شاباً من إخوان قنا كان إذ ذاك طالباً أزهرياً بالقسم الثانوى

ويحضرنى من اسمه الآن لقبه «العنانى» أجريت له عملية استئصال الزائدة الدودية وجىء به بعد ثلاثة أيام فلم يرحموه من هذه الطوابير اللعينة وكان يجرى معنا تحت وابل من السياط وجرحه يدمى.. ولا أدرى كيف نجا هذا الشاب من الموت.

٤ ــ مهزلة المحاكمات:

إذا أردنا الحديث عن المحاكمات فى السجن الحربى فلا يمكن فصل الكلام عنها عن التعذيب؛ لأنهما كانا متلازمين تمام التلازم ولا ينفصلان أبداً. وإذا كان تصور الفصل بينهما جائزاً فى خاطر الذين كانوا يعيشون خارج السجن الحربى ولم تلق بهم المقادير يوماً داخل أسواره؛ فإن الذين عاشوا داخل هذه الأسوار وكانوا يرون مايجرى فيها، ويسمعون ماينبعث من حجرات التحقيق من صراخ واستغاثات تفتت الأكباد، وتقطع نياط القلوب.. هؤلاء لايعرفون المحاكمات إلا أنها الفصل الأخير من مسرحية التفنن فى انتهاك آدمية الإنسان، والتوحش الذى انحدر إليه العاملون بهذا السجن وسادتهم حتى أتوا من الوحشية ماتعاف أن تأتيه الكلاب والذئاب.

وهؤلاء الذين كانوا يعيشون معـ ـب زنزانة واحدة مغلقة عليهم.. فيأتى ناعق البوم ويفتح الباب فى هدأة الليل فيهبوا من نومهم واقفين، فينادى على أحدهم فيتقدم إليه وهو صحيح معافى فيأخذه ويغلق الباب ويمضى به.. وفى غسق الفجر يفتح الباب مرة أخرى فيهبون من نومهم واقفين مذعورين فإذا بصاحبهم الذى خرج ماشياً على قدميه أتى به محمولاً على نقالة والدماء تنزف من كل مكان من جسمه وهو فاقد الوعى، لايدرى أين هو ولا من هم الذين حوله..

ولن أثير موضوع جيران هؤلاء الذين يعيشون فى الزنزانة المجاورة؛ والذين أخذ واحد منهم بنفس الأسلوب وفى نفس الوقت من الليل؛ ثم جاء الفجر ولم يجيئوا به، وطلع النهار وأقبل الليل التالى وتوالت الأيام ولم يجيئوا به.. ثم أعلنوا أنه هرب من السجن.. وهم يعلمون وكل من دخل السجن الحربى فى أيامنا يعلم أن الهروب من السنجن الحربى نوع من المحال بل هو المحال نفسه.. فلهؤلاء قضية أخرى لن يحكم فيها إلا الزمن.

قصدت من هذا الذى ذكرت أن أوضح أن محاكمات السجن الحربى لم يكن التعذيب منفصلاً عنها بل كان جزءاً منها وهى جزء منه.. وأنا لازلت أعجب من قوم فى بلادنا هذه إذا أرادوا أن يستشهدوا على ماارتكب فى حق الإنسان من ظلم، وعلى تجريد الذين قدموا للمحاكمة من حق الدفاع عن أنفسهم ومن ضمانات العدالة؛ استشهدوا بمحاكم التفتيش التى جرت فى القرون الوسطى بأوروبا؛ مع أن محاكم التفتيش هذه لم تعد فى ميزان الظلم فى حق الإنسان شيئاً يذكر بجانب محاكمات السجن الحربى عامى ١٩٥٤، ١٩٥٥.. ولكننى مع ذلك ألتمس عذراً لهؤلاء الذين لم يزالوا يستشهدون بمحاكم التفتيش؛ فمحاكم

التفتيش مع ماكان فيها من مآثم فإنها كانت محاكات علنية سجلها التاريخ بل سجل كل ماقيل فيها كما سجل أحكامها..

لقد أبقت محاكم التفتيش على بعض ضمانات لم تبق عليها محاكم السجن الحربى.. أبقت محاكم التفتيش على العلانية وعلى إعلان مكان المحاكمة وزمانها، فكان الذى سيحاكم يعلن بمكان المحاكمة وزمانه كما كان يعلن ذلك لغيره من الناس.. أما محاكم السجن الحربى فإنها لم تبق على شيء؛ جعلت المحاكمة سرية؛ فالمتهم لايعلم أنه سيحاكم إلا قبل موعد المحاكمة بساعات، كما جعلت مكان المحاكمة وزمانها سراً لايعرفه لاالذى سيحاكم ولا أهله ولا أى أحد داخل البلاد ولا خارجها. ثم إنها جعلت الدفاع محرماً كما جعلت إصدار حكمها على المتهم سراً.. كأنما يحس هذا الحاكم وزبانيته الذين جعلهم قضاة أنهم لايجرون محاكمة بل يدبرون مؤامرة، ويأتون أمراً إداً، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً.. وصدق رسول الله ﷺ: «الإثم ماحاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس».

ولكن الناس حتى يومنا هذا لازال أكثرهم يجهلون حقيقة ماكان يجرى فى هذا السجن بالرغم مما كتب فى هذا الشأن من كتب؛ لأن المسيطرين على وسائل الإعلام فى بلادنا لازالوا يعملون جاهدين على ستر مآثم ذلك العهد وحجب حقيقته.. ولا أدرى ماالذى يدفعهم إلى ذلك؛ فإن كانوا من الضالعين فى هذه المآثم فقد تابوا ﴿**إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً**﴾ وإن كانوا برءاء من هذه المآثم فماذا يضيرهم من كشف النقاب عن الحقيقة.. ومهما يكن من أمر فإن الأيام كفيلة بإماطة اللثام عما يراد إخفاؤه.

ومهما يكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

٥ ــ التعذيب على نغمات أم كلثوم:

ومن تغالى المشرفين على هذا السجن فى التهتك أنهم كانوا يبدأون عمليات التعذيب الذى يسمونه التحقيق بعد عشاء كل يوم. وكنا نعرف أنهم بدأوه حين كانت تنطلق ميكروفونات السجن بأعلى صوتها الذى كان يصم الآذان بأغانى أم كلثوم، وتظل على هذا الضجيج حتى الفجر.

والناس الذين يمرون بجانب السجن الحربى أو الذين يسكنون قريباً منه؛ معذورون حين يسمعون هذه الأغانى تذاع أن يحسنوا الظن بإدارة هذا السجن ويعتقدوا أنهم من الرحماء الذين يريدون أن يخففوا عن السجناء مرارة السجن فلجأوا إلى إذاعة هذه الأغانى ترفيها عنهم وشفقة بهم. وما علم هؤلاء أن هذا الذى يسمعون إن هو إلا تمويه ليستروا فى ضجيجه صراخ من يسامون ألوان العذاب.. وهى حيلة شيطانية ماكرة، وأسلوب فاجر

مبتكر، ونسيان تام لوجود إله يسمع ويرى.

ويجدر بي في هذا السياق أن أسجل ظاهرة عجيبة انتابتني طيلة فترة التحقيقات، تلك هي ماكان الله تعالى يلقيه عليّ من النوم الذي لاأستطيع مغالبته في كل ليلة بعد انطلاق المكبرات فلا أكاد أسمع منها نصف ساعة حتى أكون مستغرقاً في نوم عميق لاأستيقظ منه إلا حين تفتح الزنازين علينا قبل الفجر.. وكلما تذكرت هذه الظاهرة تعجبت لرائع صنع الله وسابغ فضله عليّ.. فأنا الذي كنت لاأستطيع أن أنام إلا في هدوء وفي أمان؛ أنام في مكانٍ النوم في غابة الذئاب والنمور والضباع والثعابين آمن منه، وأنام ومكبر الصوت موجّه إلى أذنيّ يكاد ،يخرقهما ويصمهما. وكأن شيئا مما حولي لايحدث.. هذا فضل من الله عليّ لاأنساه.. ولولا هذا الفضل لاأقول لتحطمت أعصابي بل أقول لفقدت أعصابي ولفقدت نفسي.

٦ ـــ لجنة حقوق الإنسان:

في كل يوم كان يرسل إلى قاعة المحاكمة ـــ التي لايعرف مكانها أحد حتى المتهمين ـــ عدد يتراوح بين العشرة والعشرين ممن تم التحقيق معهم بالأسلوب الذي أشرنا إليه. وكانت المحكمة السرية تحكم عليهم جميعاً بأحكام تتراوح بين خمسة أعوام وخمسة وعشرين عاماً؛ حتى إنه في يوم من الأيام تقابلت في دورة المياه ـــ وكانت الفرصة الوحيدة للمقابلة ـــ مع الأخ الأستاذ محمود عبده؛ وكان إذ ذاك ناظر مدرسة ثانوية ومن الإخوان الذين أبلوا بلاءً حسناً في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ـــ فقال لي: تصور يافلان أن الأحكام التي أصدرتها هذه المحكمة ضد الإخوان بلغت حتى الآن كذا ألف عام (ولا أذكر الآن عدد الآلاف الذي قاله) ـــ قال: إن هؤلاء الناس لايعلمون أن العالم ينظر إلى هذه الأحكام باعتبارها مقياساً لمدى استقرار الحكم فكلما زاد عددها نقصت ثقة الدول في الحكومة التي أصدرتها.

وبالرغم من الحجاب الحديدي الذي كان يعيش الإخوان في السجن الحربي من ورائه والرقابة الصارمة حتى على أنفاسهم، فإن الإخوان استطاعوا أن يتصلوا بمن يعيشون خلف الأسوار من الإخوان المستخفين.. وعن طريق هذا الاتصال استطاع إخوان السجن أن يعرفوا أن إخوانهم في الخارج أرسلوا إلى هيئة الأمم المتحدة وإلى لجنة حقوق الإنسان بها برقية يشرحون فيها عمليات التعذيب التي يقع الإخوان فريسة لها في السجن الحربي، والمحاكمات السرية التي تعقد لمحاكمتهم؛ فاستجابت لجنة حقوق الإنسان وقررت إرسال مندوب عنها إلى القاهرة. وقد طلب هذا المندوب من الحكومة المصرية أن يحدد له يوم يحضر فيه المحاكمة، واضطرت الحكومة أن تحدد له اليوم.. وقد أمكن تبليغ اليوم المحدد

إلى الإخوان فى السجن الحربى.

الخطوات المتبعة فى المحاكمات:

وكانت الخطوات المتبعة فى المحاكمات هى:

أولاً — يسحب المطلوب محاكمته من زنزانته سراً بعد العشاء ويقاد إلى المكاتب.

ثانيـاً — يكون المحققون قد كتبوا محضراً كاملاً للتحقيق مع هذا الشخص قبل حضوره بما فيه من أسئلة وأجوبة كما يريدون.

ثالثـاً — يقدم الأخ المطلوب إلى المحقق الذى يجلس بجانبه قائد السجن الحربى وضباط المخابرات وضابط على الأقل من رجال جمال عبد الناصر الشخصيين — ويقرأ المحقق على الأخ التهمة المطلوب اعترافه بها فينفيها الأخ لعدم معرفته بها ولا بالأشخاص الواردة أسماؤهم فيها.

رابعـاً — يأمر الزبانية عساكر التعذيب بخلع ملابس الأخ عن جسمه فيفعلون.

خامساً — يبدأ بضربه بالكرابيج على جميع أجزاء جسمه وهو طبعاً يصرخ ويستغيث.

سادساً — يؤمر بإيقاف الضرب ويطلب منه الاعتراف بالتهمة فيقول لهم كيف أعترف بشىء لم يحصل ولا علاقة لى به.

سابعاً — يؤمر بمعاودة تعذيبه فتستعمل طرق أخرى من التعذيب غير الضرب لأن جسمه لم يعد فيه سنتيمتر واحد خال من آثار الكرابيج — فتستعمل وسائل أخرى كالإحراق بأعقاب السجاير والكى بالنار فى أماكن متباينة وحساسة من جسمه — أو يعلق منكساً مع ضربه وهو فى هذا الوضع — أو يضرب مرة أخرى حتى يلتهب جسمه كله وينزف من جميع أجزائه ثم يلقى وهو فى هذا الالتهاب فى زنزانة مجهزة تجهيزاً خاصاً ومملوءة بالماء المثلج بحيث يغمر الشخص حتى رقبته — أو يلجأ إلى أحط الوسائل بإحضار زوجته أو بناته أو أخواته وتهديده بهتك أعراضهن أمامه أو وسائل أخرى لاتقل انحطاطاً ووحشية عن هذه الوسائل.

وهكذا يجرب معه من هذه الوسائل حتى يضطر إلى التوقيع على المحضر الذى عرضوه عليه من أول الأمر إنقاذاً لحياته وعرضه.

ثامنـاً — تضمد جراحه النازفة، ويلقى به فى زنزانته.. حتى إذا توقف النزف واستطاع المشى على قدميه؛ اعتبروه صالحاً للتقديم إلى المحكمة.

تاسعاً — ينادى عليه وعلى زملائه الذين مروا بكل مامر به. وتكون المناداة ليلاً؛ فيقابلهم قائد السجن الحربى أو من ينيبه ممن هم على شاكلته، ويخبرهم بأنهم

سيذهبون غداً إلى المحكمة فى الصباح، ويحذرهم من أن ينكر أحد منهم شيئاً مما هو متهم به أو أن يشكو أى نوع من التعذيب وإلا عادوا إلى تعذيب أشد.

عاشراً — يذهب بهذه المجموعة إلى المحكمة التى لايعرفون مكانها ولا زمانها ولا أشخاصها، فيجدون أنفسهم أمام حجرة داخل ثكنات الجيش ليس فيها أحد مطلقاً إلا ثلاثة ضباط ممن يسمون الضباط الأحرار، فيشعر هؤلاء المتهمون أنهم — بوقوفهم أمام هؤلاء — لم يخرجوا عن حدود السجن الحربى، وأن هؤلاء ليسوا إلا فصلاً من المسرحية المجرمة الهازلة — ويسأل رئيس هذه المحكمة الهازلة كل واحد من المتهمين: أهذا توقيعك؟ فيقول: نعم فيحكم عليه بما طلب إليه الحكم به. ثم يرجعون إلى زنازينهم بالسجن الحربى كما كانوا.

هذه خطوات المحاكمة — فلما علم الإخوان بالسجن الحربى باليوم الذى سيحضر فيه مندوب الأمم المتحدة جلسة المحاكمة أخبروا الإخوان الذين سيقدمون إلى المحاكمة فى ذلك اليوم بهذا النبأ وطلبوا إليهم أن يكشفوا للمحكمة أمام الحاضرين فيها عن شىء من آثار التعذيب فى أجسامهم.

ودعى هؤلاء الإخوان فعلاً للذهاب إلى المحكمة حيث وجدوا — على غير المعتاد — أشخاصاً حاضرين منهم مندوب الأمم المتحدة.. ونودى على أول المتهمين فسأله رئيس المحكمة كالمعتاد:

هل هذا توقيعك؟

قال: نعم ولكننى لم أرتكب التهم المكتوبة.

قال: فلم إذن وقعت عليها؟

قال: سأريك لماذا وقعت عليها.. وخلع ملابسه التى كشفت عن ظهره فرأى جميع الحاضرين ظهره مشرحاً بطريقة مثيرة.. وقال لهم إن هذا الأثر هو أثر تعذيب مضى عليه الآن خمسة أشهر.

فتنبه «القاضى» إلى الترتيب الذى وضعه الإخوان فى غفلة من «آلهتهم» الذين ظنوا أنهم قد أحاطوا بكل شىء علماً. فأوقف المحاكمة مدعياً تأجيلها لتحقيق مازعمه المتهمون من التعذيب. وأمر برجوع هؤلاء المتهمين إلى المعتقل.

أنا القانون:

وفى مساء ذلك اليوم حين أرخى الليل سدوله، فتحت الزنازين كلها فجأة وعلى غير المعتاد وبطريقة هستيرية. وصدر أمر فى مكبر الصوت بخروج المعتقلين جميعاً من زنازينهم والوقوف أمامها فى الطرقة مطلين من السور الحديدى الذى أمامها، فخرجنا وهالنا

مارأينا .. رأينا حول السارية العالية التى تتوسط فناء السجن ناراً تتأجج وقد علا لهيبها حتى كان أعلى من سقف الدور الثالث فى السجن، وحولها عساكر السجن يمدونها بقطع ضخمة من جذوع الأشجار لتزداد تأججاً ــ فأحسسنا بأن شراً مستطيراً يقترب منا وأننا على وشك خطر داهم. ورأينا بجانب السارية قائد السجن حمزة البسيونى بشاربه المتهدل الذى تصل ذؤابته إلى ماتحت ذقنه، وبشعر رأسه المشعث، وكرباجه تحت إبطه .. رأينا أمام حمزة البسيونى طابوراً من المعتقلين ــ هم الذين كانوا يحاكمون صباح هذا اليوم .. ثم انطلق حمزة يقول بصوت المغضب الحانق المتغطرس:

اسمعوا .. إن كنتم تريدون القانون فأنا القانون .. انظروا إلى هؤلاء الكلاب (وأشار إلى الطابور الذى أمامه) لقد ظنوا أنهم يستطيعون أن يشكونى .. ولكن هيهات .. لقد رجعوا إلىّ وهاهم أولاء فى قبضتى وتحت قدمى وسأسحقهم حتى لايفكر أحد منكم أن يتجرأ ويفعل مثلما فعلوا.

أنا أحيى وأميت:

ثم أخذ يتوعد بألفاظ وعبارات لم يفه بأخطر منها قارون، ولكنها تشبه ماقاله النمروذ لإبراهيم حين كان يحاجه إذ قال «أنا أحيى وأميت» .. والنمروذ كان ملكاً لامعقب لحكمه كما زين له غروره، ولكن هذا الحمزة البسيونى كان إذذاك «مقدماً» يرأسه من الضباط العقداء فالعمداء فالألوية فالفرقاء فالمشير؛ هذا فى قطاع الجيش، ثم هناك رياسات أخرى فى أبنية الدولة الأخرى .. فإذا وصل الغرور بمثل هذا الصعلوك إلى حد ادعاء مااستأثر الخالق جل وعلا به لنفسه من خصائص الإحياء والإماتة؛ فإنه يكون بذلك قد جاوز غروره غرور النمروذ.

أما ادعاؤه أنه هو القانون؛ فهذه قضية لم تكن موضع خلاف بيننا وبينه؛ فإننا كنا نعلم علم اليقين أن لاقانون فى البلاد منذ تمكن جمال عبد الناصر من السلطة. ومعنى عدم وجود قانون فى البلاد هو أن يدعى كل من بيده أى قدر من السلطة أنه هو القانون. وإذا أردت توضيحاً لهذا المعنى يصل بك إلى لبه؛ فإن القانون فى هذه الحالة يكون هو الأهواء.

وإذا كان النمروذ ملكاً ادعى خصائص الألوهية، فإن هذا الصعلوك ادعى خصائص الألوهية فى الوقت الذى اتخذ له إلهاً من البشر هو جمال عبد الناصر .. ولقد كنا نعجب أشد العجب لهؤلاء الناس .. كيف يظنون بأنفسهم هذا الظن وهم يعلمون أنهم سوف يموتون؟ ﴿**ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون، ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين**﴾.

أربعمائه كرباج:

وبعد أن هدد وتوعد وأفاض فى تأليه نفسه ناسياً خالقه وبارئه؛ قرر تأديب هؤلاء

الإخوة الكرام . فدعا بأولهم فتقدم إليه ، فأمر بربطه فى السارية . فربطوه ربطاً قاسياً وكان ظهره عارياً . ثم قرر بصوت جهورى هز السجن بمن فيه أنه صرف له أربعمائة كرباج — ومعذرة فى استعارتى هذا اللفظ « صرف » فإنه كان هو الاصطلاح المعمول به فى السجن الحربى — كما أنه قرر — شفاءً لنفسه — أنه سيقوم هو بنفسه بضربه .

واستل المغرور الكرباج من تحت إبطه ، واعتدل منتفخاً ، وأخذ يضرب الأخ بكل ماأوتى من عزم وقوة .. وقد سالت دموعنا من هول الضرب الذى لايعرف الرحمة . ولكن كانت مفاجأة .....

المفاجأة هى أن المغرور قبل أن يوفى على المائة الأولى رأيناه قد انهار ، وكاد يسقط السوط من يده ؛ فى حين أن الأخ الكريم لم يصدر منه مايشعرنا ولا مايشعر من حوله من الزبانية بالألم فلا صراخ ولا استغاثة ولا حتى مجرد تأوه .. بل ثبات وصمت .. وكل الذى سمعناه فى هذه اللحظة قول المغرور له : ياابن الكلب (بمد الكاف للتعجب الشديد) كل ده وانت لاتحس دا أنا فرهدت ..

وأعطى المغرور السوط لأمين — وأمين هذا هو الآدمى الذى وكلت إليه الآلهة المغرورة تدريب المعتقلين تدريب الإذلال والإهانة والإشراف على التنكيل بهم داخل السجن الكبير . كما كانت مهمته تنفيذ ماتقرره هذه الآلهة من وسائل التعذيب لمن يحقق معهم فى المكاتب . وهو شاب نحيل لا يجاوز الثلاثين ورتبته باشجاويش بأربعة أشرطة على ذراعه . وأمين هذا شخصية وإن كانت ضئيلة القدر إلا أنها تستحق مع ذلك أن يتحدث عنها فيما بعد إن شاء الله .. وتسلم أمين السوط واستأنف ماانهار دونه سيده ، ولكنه بدا عليه علائم الانهيار وهو فى أواسط المائة الثانية .

ولقد رأيت بنفسى آثار التعذيب فى ظهر أحد الإخوة الذين كشفوا ظهورهم فى المحكمة ، فقد استطاع الأخ نصار أن يتسلل إلى زنزانتنا ، وكشف لنا عن ظهره فرأينا آثار الضرب فى ظهره بعد خمسة أشهر من شفائه ، ومع ذلك فلا زالت آثار السياط متلاصقة زرقاء .

ومع أن مندوب لجنة حقوق الإنسان بالأمم المتحدة رأى بعينه آثار التعذيب الوحشى .. فماذا فعل ؟ إنه لم يفعل شيئاً .. وهذه اللجان ماهى إلا أسماء سماها رؤساء أمريكا والدول الكبرى ليضحكوا بها على الناس ويوهموهم بوجود شىء هو فى الحقيقة غير موجود .

ومما يذكر أن جمال عبد الناصر اعتبر حضور مندوب الأمم المتحدة المحاكمات اعتداءً على كرامته وتدخلاً فى شئونه الداخلية فلم يستطع منعه من الحضور ولكنه أراد أن يعاقب

أمريكا فأعدم اثنين من اليهود.

٧ـ ضرب الأخ محمد مؤمن:

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر؛ فلنعرض هنا لأخ كريم كان إذ ذاك فى مقتبل شبابه. وقد هاله مايلقاه كرام الإخوان على يد هذه الوحوش الآدمية التى تسمى العساكر.. رأى الأخ محمد مؤمن وهو من إخوان دمياط منظراً حز فى نفسه، ولذع كبده.. وكثر تكرر هذا المنظر أمامه فهانت عليه الحياة، وأسر فى نفسه أن يمنع تكرار هذا المنظر أو يموت دونه.

والمنظر المثير يتلخص فى أن يأمر العساكر أن يصفع الإخوان بعضهم وجوه بعض وبطريقة قاسية وإلا أذاقهم هؤلاء العساكر ألوان العذاب.

وطوى الأخ محمد جوانحه على هذا العزم. وطرأ طارىء جديد زاد نار هذا العزم اشتعالاً، ذلك أن إدارة السجن منعت الماء عن الإخوان، واتخذت من الإجراءات التعسفية مايكاد يصل إلى حد منعهم من قضاء حاجتهم فى دورة المياه..

وفى خلال هذه المأساة استطاع أحد الإخوان وهو الأخ حسن عبد الفتاح من إخوان كرداسه وأحد زملاء الأخ محمد مؤمن فى الزنزانة أن يحصل على قليل من الماء، وبينما هو فى دورة المياه ضبطه أحد العساكر فأخذ منه الماء، وأخرج زملاءه فى الزنزانة وأمرهم بصفعه على وجهه. وتصادف أن كان الأخ محمد مؤمن هو أول الصف، فامتنع عن تنفيذ الأمر.. فهجم عليه العسكرى ليصفعه ويضربه كالمعتاد، فقاومه الأخ محمد مقاومة شديدة انتهت بوقوع العسكرى على الأرض.. وكان فى نية الأخ محمد أن يقتل العسكرى دفاعاً عن كرامة الإنسانية أو حتى الآدمية، ولكن الإخوان حالوا بينه وبين العسكرى.. فما كان من العساكر الآخرين إلا أن اجتمعوا على الأخ محمد لينتقموا منه؛ فجاءوا به إلى السارية وأرادوا أن يربطوه إليها بحبل فرفض الأخ محمد وقال لهم إننى سأحتضن السارية دون حبل واضربونى كما تشاءون.

واحتضن الأخ محمد مؤمن السارية، وجاء كل عسكرى بكل مايضرب به من كرابيج وقطع من الخشب وعصى، وظلوا يضربونه حتى تعبوا جميعاً.. فألقوا مابأيديهم متعجبين ذاهلين.. والذى أذهلهم وأدخل اليأس فى نفوسهم هو أن الأخ محمد مع كل هذا الضرب القاتل لم يتأوه ولم ينبس ببنت شفة وهو أمر لاعهد لهم به.. بل إننا نحن الإخوان كنا فى دهشة من هذا الصبر العجيب.. حتى إننا سألنا الأخ محمد بعد ذلك كيف استطاع أن يصبر على هذا الضرب المميت دون أن يصرخ أو يتأوه؟ فقال: إن الذى أقدم على ماأقدم عليه وهو ينتظر الموت؛ فإذا جاء ماهو دون الموت فإنه لايكاد يحس

له بألم.

واعتقد هؤلاء العساكر ــ بسذاجتهم ــ أن الأخ محمد وليّ من أولياء الله؛ ولهذا لم يحس بألم الضرب واعتقدوا أنهم إذا لم يعتذروا إليه، ويطلبوا منه الصفح عنهم فسيصيبهم شر مستطير. فذهبوا إليه فى الزنزانة التى كان ملقى بها يتشحط فى دمه، واعتذروا إليه، وأحضروا له الأخوين الدكتور أحمد الملط والدكتور كامل سليم فضمدا له جروحه..

٨ــ قانون الحرمان:

سميت هذا البند بقانون الحرمان؛ لأن القائمين على إدارة السجن الحربى ــ بوحى من سادتهم ــ قرروا حرمان المعتقلين بهذا السجن من كل الحقوق الطبيعية التى يتمتع بها المسجونون حتى المحكوم عليهم بالإعدام:

أولاً: نصيب الحيوان الناطق من المكان للإقامة:

من المعروف أن الزنزانه فى السجون المصرية لايزيد عدد نزلائها على ثلاثة أفراد. علماً بأن نزلاء السجون هم عادة من المجرمين والعوام.. أما نزلاء السجن الحربى فى خلال تلك الفترة فكانوا من أعلى طبقة فى الشعب ثقافة وعلماً ومكانة اجتماعية ومع ذلك فإن المسئولين استباحوا أن يحشروا فى كل زنزانة عدداً وصل إلى ثمانية أفراد. وظل هؤلاء الثمانية فى الزنزانة مغلقة عليهم أكثر من عام.

نعم كان العدد فى أول الأمر أقل من هذا، ثم وصل إلى هذا الرقم ثم نقص ثم عاد ثم نقص ثم عاد ثم استمر على ذلك أكثر من عام. وتفسيراً لذلك أقول: إن الأفواج كانت تأتى تباعاً فيكثر العدد، ثم يطلب إلى المحاكمة بعض أفراد ويحاكمون ويحكم عليهم فينتقلون إلى السجون المدنية كسجن مصر وسجن طره وغيرهما فيقل العدد، ثم تأتى أفواج أخرى فيرتفع العدد مرة أخرى. ثم يحاكم آخرون وينقلون إلى السجون المدنية فيقل العدد ثم......

الدرك الأسفل:

حين قال تعالى: ﴿**إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار**﴾ فهمنا أن فى النار دروكاً كلها سافلة وأن هذا الدرك الذى فيه المنافقون هو أسفلها جميعاً.. وقياساً على ذلك نقول: إن أساليب جمال عبد الناصر التى عامل بها الإخوان كلها أساليب سافلة ولكن أسفل أسلوب اتبعه هو الأسلوب الذى يأتى بعد كلمة «ثم» التى انهنيا بها الفقرة الماضية، وهو ماتكمل به الفقرة السابقة فنقول:

ثم تأتى أفواج أكثرهم ليسوا من الإخوان، وإنما هم قوم هزتهم المروءة حين رأوا أبناء المعتقلين يتضورون جوعاً وعرياً فمدوا إليهم يد المساعدة.. فاعتبرت الحكومة حكومة الثورة ذلك جريمة يعتقل صاحبها ويعذب ويحاكم ويحكم عليه بعشر سنوات.

وننقل فى هذا الصدد فقرة من كتاب «جمال عبد الناصر» للأستاذ أحمد أبو الفتح فى صفحة ٢٣٨ يقول: «ولعل المثل الصارخ على حب جمال للانتقام وشذوذ مزاجه فى التنكيل بخصومه؛ هو الإجراء الشاذ الذى اتبعه مع أسر المعتقلين من الإخوان المسلمين؛ ذلك أنه حرم على أى إنسان أن يمد يد المعونة إلى هذه الأسر.

ولما كان الإخوان المسلمون من الطبقات الشعبية التى لاتملك رأس مال مدخر، فقد أحدث اعتقالهم وانقطاع المال عن أسرهم مصائب لاحصر لها. فأخذت الشفقة بعض المصريين الذين راحوا يتبرعون ببضع دراهم لهذه الآلاف من الأسر التى نكبت إما بإعدام أو سجن أو اعتقال عائليها، ونكبت بانقطاع المال عنها. فلم يرق هذا التبرع لعبد الناصر فأمر بتصيد كل من تسول له نفسه مساعدة أية أسرة ممن أسر المعتقلين من الإخوان.

وفعلاً استطاع أعوانه من رجال المخابرات إلقاء القبض عليهم— وقد لايصدق القارىء أن هؤلاء الناس قد قدموا لمحاكمات عسكرية سرية دون حضور محامين أو شهود أو ممثلى الصحافة وصدرت ضدهم جميعاً أحكام تتفاوت بين الأشغال الشاقة المؤبدة والسجن مع الشغل خمس سنوات— والأعجب من ذلك أن تصدر هذه المحاكم أحكامها بمصادرة المبالغ المضبوطة مع هؤلاء، وينص الحكم على أن المصادرة «لصالح الشعب».

ثم نرجع بعدُ ذلك إلى السياق فنقول: فلما جاءت هذه الأفواج من الناس أهل المروءة ضاقت بهم الزنازين فأسرعوا فى محاكمتهم ونقلهم إلى السجون المدنية. فاستقرت الزنازين بعدهم على هذا العدد.

ولقد كان وجود هذا العدد فى الزنزانة الواحدة هو وحده تعذيباً ومأساة. ففى الزنزانة ثمانية أفراد معهم بطاطينهم ومتاعهم وجردل الماء وجردل البول وثمانية قباقيب وثمانى قلل، ثم إنهم يتناولون الطعام ثلاث مرات فى اليوم داخل الزنزانة.

جيــوش البــق:

ولن أتعرض لآثار هذا الوضع الشاذ على الصحة ولكنى سأعرض على القارىء شيئاً بلوته بنفسى: فى خلال هذه الفترة، وفى أواخر السنة التى استقر هذا الوضع عليها؛ فتحت حقيبة ملابسى وكانت حقيبة كبيرة من الجلد وأخرجت الملابس منها، وبدأت لأول مرة أنظر فيها فهالنى مارأيت.

رأيت أسراباً من البق تجرى هنا وهناك فى جوانبها، فتعجبت لكثرتها وأخذت أتصيدها فى قطعة من الورق حتى اصطدت منها عدة مئات، ولكن بعضها كان سريع الجرى بحيث يسبق أصابعى ورأيته يدخل تحت الكرتون الذى يبطن الحقيبة من الداخل. فتتبعت الأفراد التى اختفت تحت البطانة، واضطررت إلى أن أفصل حروف البطانة التى كانت ملصقة بجدر الحقيبة؛ فذهلت لما رأيت.

رأيت البطانة شبه مفصولة عن الجلد وقد رصت رصاً تاماً بالبق — فاضطررت إلى نزع البطانة كلها حيث قتلت مايزيد على بضعة آلاف من البق غير الذى هرب دون أن أدركه، واضطررت إلى أن ألقى بالبطانة بعيداً. وظلت الحقيبة بغير بطانة حتى أفرج عنى.. ولا زلت أحتفظ بهذه الحقيبة بهذه الحالة ذكرى لهذه الأوضاع الشائنة التى كنا نعيشها.

ولا يفوتنى هنا أن أقول: إن وجود هذا الازدحام داخل الزنزانة كان وحده كافيا — إذا كان نزلاؤها من غير الإخوان المسلمين — أن يثير المتاعب بين هؤلاء النزلاء بعضهم وبعض، وأن يخلق مشاكل لانهاية لها؛ بل قد يؤدى إلى جرائم.. لكن هذا الازدحام مع مافيه من مضايقات تفوق كل تصور؛ لم يثر فى الإخوان إلا أسمى المعانى وأنبل العواطف.. فلقد أنشأت هذه الزنازين تعارفاً بين إخوة لم يكونوا متعارفين من قبل، وأوجدت تعاوناً على البر والتقوى؛ فكانت مجالاً لتلاوة القرآن الكريم وحفظه؛ وكانت فرصة انتهزها الإخوان للاستزادة من العلم؛ فالمتعلم علّم الأمى، والحاصل على الشهادات الجامعية أخذ بيد المبتدىء الذى استطاع بعد الإفراج عنه أن يحصل على شهادات أعلى مما كان بيده — وكان بعض الوقت يقضى فى مناقشات علمية وأدبية نافعة.

ثانياً: حق المراسلة والزيارة:

وأعنى بذلك حق المعتقل فى الاتصال بأهله بأن يزوروه ويراسلوه — وهذا حق مقرر فى جميع سجون الدنيا وفى سجون مصر. ولكن إدارة السجن الحربى بوحى من سادتهم حرموا المعتقلين من هذا الحق فمنعوا زيارة أهليهم لهم كما منعوا المراسلة فيما بينهم وبين أهليهم.. وفى هذا من التعنت والإرهاق النفسى مافيه، ولكن هذا الحرمان لم يتعب الإخوان كما يتعب غيرهم؛ لأن كل واحد كان يشعر وهو بين إخوانه أنه بين أهله وذويه. كما أنهم بفضل مايستمتعون به من ثقة فى الله وإيمان به كانوا مطمئنين على أهليهم لأنهم قد نزعوا من بينهم وتركوهم وديعة فى يد الكريم الرحمن.

ثالثاً: منع الطرود:

وكان هذا النوع من الحرمان هو أقسى أنواع الحرمان.. وقد يعجب القارىء حين

أعد منع الطرود أقسى أنواع الحرمان ويقول فى نفسه: لابد أن المعتقلين كانوا مترفين إذ يعدون حرمانهم من الطرود بهذا القدر من القسوة.. ظناً من القارىء أن الطرود إنما تطلب لما فيها من ألوان الطعام والحلوى.. وهذا الظن فى محله إذ اعتاد الأهلون أن تكون الطرود التى يرسلونها لذويهم فى السجون لوناً من ألوان الترفيه..

ولكن الطرود التى منعوها فى السجن الحربى لم تكن طروداً من هذا النوع المألوف وإنما هى طرود تحتوى على مايطلبه المعتقل من أهله أو مايرسلونه إليه من ضروريات الحياة؛ فهى طرود لاتحتوى عادة إلى على الملابس الداخلية والبيجامات والبلوفرات التى يستعان بها على تحمل برد الشتاء.

بيجامتى بها ست وثلاثون رقعة:

ولم يكن أحد حتى ذلك العهد يتصور أو يخطر بباله أن يعتقل إنسان ليمكث فى الاعتقال أكثر من بضعة أشهر. ولذا فإن أحداً من المعتقلين لم يصحب معه يوم اعتقل أكثر من غيارين.. ولكن الموكول إليهم أمر التنكيل بعباد الله وقد رأوا كل معتقل يبادل بين هذين الغيارين يغسل هذا ويلبس الآخر.. زين لهم الشيطان أن يحولوا بين المعتقلين وبين أن تصلهم ملابس من أهليهم؛ فلا يكون لهم إلا هذان الغياران.. وتطول المدة فيهلك الغياران، فلا يجدون منهما بديلاً فيرقعونهما.. ثم يستعرضونهم بهذه الملابس المرقعة فتهنأ بذلك نفوسهم، وتشفى من الغل صدورهم، ويضحكون منهم ملء أشداقهم، ويطلبون من سادتهم الحضور لمشاهدة هذا المنظر المضحك المبكى، فتسخوا أكفهم لهم من مال الدولة بالعطاء، ويجزلون لهم الجزاء؛ لقاء ماابتكروا من أساليب الإهانة والسخرية والتنكيل.

وكان لهم ماأرادوا؛ فجاء الوقت بعد أن طال الزمن؛ حيث هلكت الملابس، وأعطى من كان عنده فضل من الملابس إخوانه المحتاجين.. ولكن لم يثبت أمام طول الوقت وقذارة المكان، وشدة الحر، وكثرة الجرى، وغزارة العرق.. فتهلهلت الملابس. وكنت ترى كرام الناس من الإخوة الفضلاء ذوى المكانة العالية فى المجتمع المصرى والعربى العلمى والأدبى والمادى تراهم يلبسون أسمالاً بالية، تناثرت فيها الرقع من كل شكل وكل لون. ولازلت أحتفظ حتى الآن ببجامة كنت أرتديها وبها ست وثلاثون رقعة.. ومع ذلك كانت تعد من أسلم مايلبسه الإخوان من البيجامات.. ولا أنسى أن أشيد بمجهود إخواننا الخياطين فى عملية الترقيع التى كانت إسعافاً لاغنى عنه لكل أخ فى هذا المعتقل.

وهلكت كذلك البلوفرات الصوف وتهلهلت، وهى مما لايصلح معه الترقيع، ولكنها كانت ترتق من كل ناحية حتى لم تعد صالحة للرتق. ولما كان الإخوان حريصين على أن

ينتفعوا بكل شيء لأنهم يعلمون أن لن يعوض فلم يلقوا بهذه البلوفرات كما كان منتظراً؛ بل تخصص عدد منهم فى فك خيوطها ونسجوا منها بأيديهم الماهرة طاقيات رائعة تضاهى أحسن مايعرض من طرازاتها فى السوق؛ حتى إن بعض المشرفين على إدارة المعتقل كلفوا هؤلاء الإخوة بصنع عدد منها لهم. ولازال عندى إلى اليوم طاقية من هذا الطراز صنعت لى فى خلال هذه الفترة.

مسنا وأهلنا الضر:

ولقد تجسم لى معنى التعبير القرآنى الدقيق فى قوله تعالى: ﴿**مسنا وأهلنا الضر**﴾ فكنت كلما نظرت إلى إخوانى فى هذه الملابس المهلهلة والرقع المتصلة رأيت هيأتى فى هيآتهم، ومنظرى فى منظرهم فيهتف فى نفسى القول الكريم ﴿**مسنا وأهلنا الضر**﴾.

إن إخواننا فى السجون يلبسون ملابس السجون وهى ملابس على كل حال سليمة ليس بها خدش واحد، تستر أجسامهم.. ولكن هنا.. كثيراً ماكانت فى أثناء الجرى فى الطوابير تنهتك بعض الرقع فيظهر من تحتها جسم بعض الإخوان فيكاد هؤلاء الإخوة يبكون ونكاد نحن الذين رأينا أجسامهم تنكشف تطفر دموعنا بل كثيراً ماطفرت..

كان الإخوة الذين تصدر عليهم أحكام من المحاكم السرية، وينادى عليهم ليرحلوا إلى السجون المدنية، كنا نهنئهم، وكانوا يتقبلون هذا الترحيل بفرحة ويعدونه إفراجاً؛ لأنهم سيذهبون إلى سجون تحكمها قوانين، وكانوا يتركون لنا ملابسهم المهلهلة لعلها تعيننا فى ترقيع ملابسنا بقطع منها.

رابعاً: منع الحلاقة وإزالة الشعر:

كان أمرا مألوفاً أن تجرد إدارات السجون المسجونين من الأمواس والآلات الحادة، خوفاً عليهم من أن يستعملوها فى ذبح أنفسهم للتخلص من الحياة.. فإذا عاملونا هذه المعاملة فلا تثريب عليهم. وقد فعلوا.. ولكن الدافع لهم لم يكن الخوف منها على حياتنا؛ لأنهم يعلمون أننا معتصمون بإيمان تتزلزل دونه الجبال.. أما الدافع الحقيقى لهم فهو نفس الدافع الذى يدفعهم إلى كل إجراء يتخذونه حيالنا؛ وهو الإهانة والإيذاء والتنكيل بصور مختلفة يتبارون فى ابتكارها تزلفاً إلى سادتهم، وتقرباً إلى من يعتقدون أن بيده مفاتيح الخير فمن تقرب إليه ضمن الخير الذى لاينفد ولا يزول.

إن إدارات السجون تفعل ذلك وتأمر فى نفس الوقت الحلاقين التابعين لها بقص شعر المسجونين وحلق ذقونهم؛ ولكن السادة المشرفين على السجن الحربى سلبونا الأمواس وأمروا الحلاقين بحلق رءوسنا وترك لحانا لتستطيل وتتشعب وتتشعث كل تشعث حيث

لأمشاط ولا حتى ماء لتنظيفها.. واستطالت لحانا بطريقة غير مهذبة وغير نظيفة وصارت فى مناظر منفرة.. وكان يلذ لهم بين يوم وآخر أن يستعرضونا فى زنازيننا ليمتعوا أنظارهم بثمار غرس أيديهم من وسائل الإهانة.

وأذكر بهذه المناسبة أننا فى يوم من هذه الأيام نودى علينا بالوقوف «انتباه» فى الزنازين لأن لجنة منن كبار المسئولين سيمرون علينا. ووقفنا وفتحت الزنازين ومرت اللجنة ولما مروا بزنزانتنا تقدم كبيرهم يستعرضنا فرداً فرداً ثم تقدم نحوى وقال: ألا تعرفنى؟ فقلت: لا، قال: ألست محمود عبد الحليم؟ قلت: بلى. قال: ألم تكن طالباً بالمدرسة العباسية الثانوية بالإسكندرية؟ قلت: بلى. قال: أنا حسن طلعت الذى كنت أجلس بجانبك فى السنة الثالثة بالمدرسة.. فرحبت به ثم انصرف مع اللجنة لإتمام مروره على بقية الزنازين.

وقد فهمت من هذه الواقعة أن تشويه هيئتنا باللحى القذرة المشعثة ليس الأمر به صادراً من المشرفين المحليين، بل هو صادر من السادة الكبار.. وإلا لكان لمثل حسن طلعت أن يتصرف نحوى تصرفاً يخفف من هذا المنظر الشاذ، ولو بالإذن لى بفرصة أغسل فيها هذه اللحية بالماء والصابون، وقد كان هذا يحتاج إلى نحو عشر دقائق على الأقل حتى أزيل ماتحمله هذه اللحية من قذارة ودهون وبقايا طعام.

ولما وصلت اللحى إلى طول لاتكاد تطول بعده، نودى علينا بالنزول إلى فناء السجن ثبات ثبات، نجلس على الأرض، ثم ينادى على كل فرد منا ليقف أمام كاميرا تلتقط له صورة بهذه اللحية.. وقد سمعت أحد ضباط المباحث المشرفين على تصويرنا يقول: إن هذه الصور أخذناها لكم بلحاكم حتى إذا هرب واحد منكم وهام على وجهه، وأراد أن يغير من منظره بترك لحيته؛ فسنعرفه من هذه الصورة التى نأخذها لكم الآن.. وقد قلت فى نفسى حين سمعت ذلك: ياعجباً.. إن هؤلاء الناس اعتقدوا أننا قد وضعنا فى أيديهم ولا مفر لنا منهم إلا إليهم. ألم يقرأوا قول الله تعالى ﴿**ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين**﴾؟، وليتهم قرأوا قول الشاعر:

تصفو الحياة لجاهل أو غافل	**عما مضى منها وما يتوقع**
ولمن يغالط فى الحقائق نفسه	**ويسومها طلب المحال فتطمع**

خامساً: جمع المصاحف:

فاتنى أن أذكر أننا كنا محرومين من أول يوم فى هذا السجن من الكتب.. ولم يبق مع المعتقلين بعد ذلك إلا مصاحفهم، التى كانت خير مؤنس لهم ومعلم وهاد، وخير ملجأ يلتجأون إليه حين تدلهم الخطوب، وما أكثر ماتدلهم داخل أسوار هذا السجن الرهيب..

وقد استطاع الإخوان أن يجنوا ثمرات طيبة من وجود المصاحف الكريمة معهم؛ فقد تفقهوا وأحسنوا التلاوة وحفظوا؛ ولقد من الله تعالى علىّ فى هذه الفترة فحفظت القرآن كله.

ويجدر بى فى هذا الصدد أن أذكر أن مداومة الإخوان على مصاحفهم تلاوة وحفظاً وتفقهاً مع طول المدة قد أوهن من تماسك أوراقها، كما أدى إلى بلى أغلفتها؛ فتفصصت المصاحف وكادت تتبدد أوراقها.. وفى نفس الوقت كانت حقائب بعض الإخوان المصنوعة من الكرتون أو الفبر قد أصابها بطول الأمد أيضاً مع الاستعمال اليومى ومع الاحتكاك بالأرض الاسفلت والحوائط الخشنة حيث هى الوعاء الوحيد لمتاعنا، أصابها البلى كذلك ــ فقام إخواننا الذين مهنتهم التجليد والطباعة، وأخذوا على عاتقهم إصلاح المصاحف؛ فكانوا يعيدون خياطة أوراقها، ويصنعون لها من كرتون الحقائب البالية وفبرها أغلفة؛ حتى إنها صارت أشد تماسكاً مما كانت عليه، كما صارت أجمل شكلاً. ولا زال عندى مصحفى الذى كان معى فى تلك الأيام وأجرى عليه هؤلاء الإخوة الكرام هذا الإصلاح شاهداً على تضامن الإخوان وبراعتهم.

أحس السادة المسئولون الذين يرفع إليهم المشرفون على إدارة السجن كل مايحدث بالسجن حتى الهمسات، أحسوا بحقد حين علموا أن الإخوان يجدون فى الكتاب الكريم سلوى من كل مايلقون من عنت وظلم وإهانة فقرروا حرماننا من الأنيس الوحيد. وجاء ناعق البوم ينادى فى ساحة السجن:

جاء أمر بسحب المصاحف من المعتقلين. وعلى كل معتقل أن يسلم مصحفه لإدارة السجن. ومن يعثر معه بعد ذلك على مصحف سيقدم للتحقيق.. وما أدراك ماالتحقيق.

جمعت المصاحف.. وكان هذا الإجراء أشد إجراءات الحرمان التى اتبعت إيلاماً لنفوسنا.. وكان الواحد منا وهو يسلم مصحفه ويرجع كأنما وتر أهله وفقد كل أحبابه ورجع وحيداً لاأنيس له ولا جليس، لا معين يعينه على نوائب الزمن.

ولم يبق للإخوان إلا مايحفظون من هذا الكتاب الكريم. فصار كل يستعيد مايحفظه، ويحاول أن يتصل بأخ يكون أوثق حفظاً ليراجع عليه مايحفظ.. وكان هذا متعذراً لندرة الفرص التى يتلاقى فيها الإخوان.. وعلى العموم فقد كانت هذه الفترة هى أشد الفترات وأشقها علينا، وقد كنا نحس خلالها بأننا أصبحنا يتامى نستحق الرثاء والمواساة.

سادساً: منع العلاج:

كان بالسجن الحربى كسائر السجون طبيب معهود إليه الإشراف على علاج المرضى من نزلاء هذا السجن كما كان بالسجن الحربى بناء منعزل من دور واحد يسمى

«الشفخانة» وهى كلمة تركية معناها بالعربية المستشفى. وبالرغم مما عليه هذه الشفخانة من تواضع فى حجراتها ووسائل الراحة بها فإنها كانت تعد متعة وترفهاً حين تقاس بزنازين السجن الحربى.

وكانت هذه الشفخانة فى أكثر الوقت الذى قضيناه بالسجن الحربى شبه محرمة على الإخوان مهما اشتد بهم المرض، لأنها كانت معدة لذوى الحظوة لدى حكام البلاد؛ فكان يقيم فيها أفراد من اليهود الذين كانوا يظهرون نحونا ــ حين يرون مانسامه من ألوان العذاب ــ شعوراً من الإشفاق والله أعلم بالسرائر.

كما أن العلاج كان محرماً على من يمرض من الإخوان، ومحظور على طبيب السجن أن يمد أى مريض منهم بدواء، فى الوقت الذى حظروا فيه ورود أدوية على حساب المرضى من خارج السجن لأن الطرود ممنوعة.

وهذا أسلوب لايقف عند حد الإذلال والتنكيل، وإنما يتعدى ذلك إلى تأديته بهذه الجموع الغفيرة من المعتقلين إلى الموت. وحينئذ لايقال إن المشرفين على السجن قتلوهم بل يقال إنهم مرضوا فماتوا شأن كل إنسان.

ولقد لمست يد الله تمتد إلينا حين انقطعت بنا جميع الوسائل؛ فالمريض الذى أثخنه المرض، ويعجز الطب فى الحياة الحرة الطليقة عن علاجه؛ تمتد إليه هذه اليد الكريمة القادرة وتمسح على موضع الألم فيصبح معافى سليماً. كأنما نشط من عقال دون طبيب ولا علاج ولا دواء؛ اللهم إلا مايلجأ إليه إخواننا الأطباء المعتقلون معنا من أسلوب الطمأنة والدعوة إلى الصبر والتهوين من شأن المرض، وهو مالا يملكون سواه.

أما الإخوان ذوو الأمراض المزمنة من أمثالى؛ حيث كانت نوبات الربو قبل دخولى المعتقل تنتابنى طيلة الشتاء وعند انتقال الفصول، ولا أفيق منها إلا بدواء منفث معين كان لايبرح منزلى طيلة أيام السنة.. أما هؤلاء فقد تولاهم الرحمن الرحيم فحال بينهم وبين المرض؛ فلقد مكثت طيلة العشرين شهراً التى مكثتها فى هذا السجن لم يمسسنى ضر هذا المرض المزمن قط.

فإذا أضفت إلى أنواع الحرمان هذه التى ألحت إليها الحرمان من الأمن والحرمان من الغذاء تصورت أن الهدف الذى كان يرمى إليه جمال عبد الناصر وأعوانه إنما هو القضاء على هذه الجموع باعتبارها حملة الفكرة الإسلامية: فإذا قضى عليهم قضى على هذه الفكرة واستراحوا منها إلى الأبد.

ولقد كانت هذه الخطة قمينة أن تؤدى إلى ماهدفوا إليه لولا أن التحدى كان موجها هذه المرة إلى الله صاحب الفكرة التى آمن بها هؤلاء الناس وعاهدوا على الدفاع عنها ﴿**إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لايحب كل خوان كفور**﴾.

الفصل الثالث

طغيان الأقزام

لم يقتصر الطغيان على جمال عبد الناصر باعتباره قد احتل الموقع الذى قال صاحبه من قبل ﴿أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون﴾ وإنما سرت روح الطغيان منه إلى كل من هم تحته حتى تلبست بأصغر جندى من جنوده. وسنعرض فى هذا الفصل لوناً من طغيان قزم من الأقزام بلغ به الطغيان أن نسى نفسه وظن أنه مارد اخترق بقدميه الأرض ونطح برأسه السماء.

الحبس الانفرادى وبدائع صنع الله

فى أحد أيام هذه الفترة العصيبة نعق ناعق البوم بأن تفتح الزنازين ويصطف المعتقلون وقوفاً بداخلها لأن القائد ــ قائد السجن الحربى ــ سيمر. وفتحت الزنازين وامتثلنا للأمر، وأخذ حمزة البسيونى ومعه كلبه الذى قد يبلغ ارتفاعه قامة الرجل والذى يعتبره حمزة البسيونى أشرس وسائل التعذيب حين يطلقه على معتقل لينهش لحمه، وهو يكاد لضخامته أن يكون فى قوة الأسد وبطشه.

ومر الرجل. ولا أدرى كما لم يكن أحد يدرى لماذا كان يمر، ولانزال حتى هذه اللحظة لاندرى لم كان يمر.. ذلك أن مروره هذا قد أسفر عن شيء عجيب لايفهم له معني، ولا يدرك له مغزى، ولا يقوم على أية قاعدة..

أما الذى يخصنى فى هذا الشيء العجيب أنه حين مر على زنزانتنا وهى فى الدور الثالث من السجن، وكنا فى الزنزانة ثمانية أفراد.. فإنه نظر فى وجوهنا ثم أشار إلىّ فتقدمت إليه، فأمر أحد الجنود الذين معه بمصاحبتى إلى فناء السجن؛ حيث وجدت ستة من الإخوان لاأذكر منهم الآن إلا أخاً واحداً هو الدكتور مصطفى عبد الله.. وكان الدكتور مصطفى عبد الله إذ ذاك إما أنه بالمعاش وإما أنه كان قد شارفه. وكان آخر منصب له قبل الاعتقال مفتش صحة محافظة القليوبية.

وكانت لى صلة قديمة بالدكتور مصطفى ترجع إلى الفترة مابين عامى ١٦٣٧، ١٩٣٩ حيث كنت لاأزال طالباً وكنت أقضى أكثر إجازة الصيف فى ربوع محافظة البحيرة لنشر الدعوة ولجمع الأسلحة لمجاهدى فلسطين. وكان الدكتور مصطفى فى ذلك الوقت مفتش صحة مركز كفر الدوار، وكان من الإخوان العاملين بشعبة كفر الدوار وكان ممن لايدخرون شيئاً دون دعوتهم؛ ولذا فإنه كان من أوائل من اختيروا أعضاء للهيئة التأسيسية عند تكوينها، وظل الرجل على ولائه وتفانيه للدعوة دون صخب ولا جعجعة؛ لأنه كان يعتبر أن المسلم لكى يكون باراً بإسلامه يجب أن يكون جندياً فى دعوة الإخوان المسلمين.. والرجل فى ذاته رجل تقى صالح ورع ممن قال رسول الله ﷺ فيهم «لو لم يطع الله لم يعصه».

وخصصت لنا سبع زنازين متجاورة فى أحد أضلاع الدور الثانى من السجن أخليت من سكانها حيث وزعوا على عدد آخر من الزنازين، حشروا فيها حشراً مع من تزخر بهم من سكانها الأصليين. وأدخل كل واحد منا ــ نحن السبعة ــ زنزانة وحده أغلقت عليه. وليس بالزنزانة إلا بطانيتان رقيقتان وجردل الماء وجردل البول..

لم توجه إلينا تهم، ولم نؤخذ بذنب ولا جريرة. ومع ذلك كان لابد لنا من الأمتثال لأوامر من يعتبر نفسه إلهاً فى هذا السجن. وقد فهمنا أنه قرر لنا سبعة أيام فى هذا السجن الانفرادى.. وفى حالتنا هذه بلغ الفجور بهذا الرجل حداً لايعبر عنه إلا بأنه تحد مباشر لذات الله سبحانه وتعالى؛ ذلك أنه لم يكتف بحبسنا حبساً انفرادياً بغير جرم ولا مبرر؛ بل إنه اختار أضعفنا جسماً، وأكبرنا سناً، وأقربنا إلى الشيخوخة، وأمر أن يوضع معه فى الزنزانة كلبه المتوحش؛ وكان هذا الأخ هو الدكتور مصطفى عبد الله.. وكان معنى هذا الأمر الفاجر أن لايصبح الصباح على الدكتور مصطفى عبد الله إلا وقد فتك به، ومزق إرباً إرباً.. وما كنا نملك له ولا لأنفسنا شيئاً.

واختير لحراستنا حارس يبدو أن الذى اختاره ليس هو ذلك الفاجر لأنه كان الحارس الوحيد الذى كنا نلمس فى تصرفاته معنا الأدب والرحمة وقد نسيت اسمه ولابد أن بعض من زاملونا فى خلال تلك الفترة فى هذا السجن من الإخوان يذكر اسمه.

وقضينا الليلة الأولى ونحن أقرب مانكون من الله حيث كان التجرد كاملاً.. ولم أكن فى تلك الليلة مشغولاً بنفسى وإنما كنت مشغولاً بالدكتور مصطفى ذلك الشيخ الضعيف الذى حكم عليه بأن يعيش مع الكلب الكاسر فى زنزانة مغلقة وكنت أتذكر فى تلك الليلة قول الشاعر:

من جاور الشر لم يأمن عواقبه ... كيف الحياة مع الحيّات فى سفط

وكان قلبى يهلع كلما تذكرت فى أثناء تلك الليلة كيف أتلقى فى الصباح حين يفتح

الحارس الزنزانة ليلقى إلىّ بلقيمات الإفطار نبأ وفاة الدكتور مصطفى ممزقاً كل ممزق.. وأصبح الصباح، وفتح الحارس باب زنزانتى ليقدم لى اللقيمات فابتدرته سائلاً عما إذا كان قد فتح زنزانة الدكتور مصطفى فأجابنى بالإيجاب؛ وفهمت منه أنه لازال على قيد الحياة.. فتعجبت وقلت: لعل الكلب لازال شبعان، ولكنه بعد انقضاء يوم وليلة لابد أنه سيجوع، وإذا جاع كلب كهذا دون أن يقدم له طعام فلن يجد غذاءً له إلا لحم الإنسان الوحيد المسجون معه.

ويبدو أن هذا المعنى الذى دار بخاطرى كان هو نفسه المعنى الذى دار بخاطر الفاجر صاحب الكلب، كما أنه هو ماكان يتوقعه الحارس المكلف بشئوننا.

وأحب فى هذه المناسبة أن أقرر حالة شعورية كانت مستحوذة علينا ــ نحن نزلاء هذا السجن فى تلك الأيام ــ تلك هى أن استقبال الموت كان من الأمور المتوقعة فى كل لحظة، ثم إنه من الأمور العادية بل أكاد أكون أصرّحَ فأقول إنه كان من الأمور المحببة؛ لأننا وجدنا أنفسنا قد وضعنا فى أيدى قوم متخلين عن الدين والخلق والإنسانية والحياء، غير مقيدين بعرف ولا أدب ولا قانون. ولا فرق فى ذلك بين أكبرهم رئيس الجمهورية وبين أصغرهم وهو جندى الحراسة فى هذا السجن.. ولذا فقد كان كل منا يتوقع الموت فى كل لحظة، ولكنه يجهل الطريقة التى يزهقون بها روحه.

وقضينا الليلة الثانية فى الحبس الانفرادى. وفى الصباح فتح باب الزنزانة وجاء الحارس ليلقى إلىّ بلقيمات الإفطار. وهممت أن أسأله عن الدكتور مصطفى ولكنه بادرنى بقوله:

ألا تعرف ماحدث للدكتور مصطفى؟

قال: لقد كنا جميعاً متوقعين أن يصرعه الكلب، وينهش لحمه وعظمه. ولذا كان همى طول الليل أن أنظر إليه من ثقب الباب بين لحظة وأخرى.

قلت: فماذا رأيت؟

قال الحارس: لقد رأيت عجباً.. لعلك لاتعلم أن الباشا (قائد السجن الحربى هكذا كانوا يلقبونه) كان قد أمر بأن لانقدم طعاماً للكلب طول الأسبوع.. فلما أدخلت للدكتور طعام العشاء أمس ثم نظرت من ثقب الباب فرأيت الكلب جاثياً أمام الباب ووجهه نحو الباب، لايتحرك كأنه يحرس الزنزانة من داخلها.. ورأيت الدكتور يقدم الطعام للكلب والكلب لايقربه، والدكتور يكلم الكلب كأنه إنسان، ويعزم عليه أن يأكل والكلب يرفض ــ ويأكل الدكتور ثم يقدم للكلب بقية الطعام فيأكله الكلب.. ويقدم له الماء فلا يمد فمه فى الجردل، وينتظر حتى يتوضأ الدكتور فيلحس الكلب الماء الذى وقع فى أثناء الوضوء على الأرض. ويقضى الدكتور الليل يصلى والكلب جاثم أمام الباب

يحرسه.. والدكتور حين يغلبه النوم فيضع جنبه أنظر فأرى الكلب فى حالة تحفز نحو الباب، كالحارس الذى يخشى أن يقتحم عدو الباب على صاحبه وهو نائم.. وكنت أرى الدكتور فى بعض الأوقات يكلم الكلب كأنه إنسان، ويضع يده على ظهره فينيخ الكلب ويبسط أقدامه بجانب الدكتور كأنه ولده الصغير.

ملاحظة:

(ماذكرته هنا على لسان الحارس ليست هى ألفاظه التى حدثنى بها لأنه رجل أمى ولكننى عبرت عنها بألفاظ عربية وعبارات عربية فصحى).

وما من شك فى أن الذى أدهش هذا الحارس قمين أن يدهش كل إنسان.. ولكن لايلبث صاحب القرآن أن يجد فيه مايرد هذا الأمر المثير للدهشة إلى قواعد قررها فى قوله: **﴿أليس الله بكاف عبده، ويخوفونك بالذين من دونه، ومن يضلل الله فما له من هاد، ومن يهد الله فما له من مضل، أليس الله بعزيز ذى انتقام﴾** وقوله **﴿قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾** وقوله **﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾**.

وجاء الحارس بعد انتهاء الليلة الثالثة ليقول لنا: إن الباشا (قائد السجن) سألنى عما كان من شأن الدكتور مصطفى فأخبرته بما رأيت فاغتاظ ثم أمر بإنهاء الحبس الانفرادى لكم.

وقد يعجب القارىء حين يعلم أن هذا الفاجر بعد أن رأى كيف رد الله كيده إلى نحره، وكيف تحطمت وحشيته الدنيئة على صخرة إيمان رجل ضعيف لايملك إلا الإيمان.. كيف لايفيق من غفلته، ويفيء إلى رشده، وينحنى ساجداً أمام عظمة الله وقدرته، ويكفر بمن دونه من المخلوقين؟

وقد تكون إجابة هذا السؤال التعجبى فى قوله تعالى: **﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله؟ أفلا تذكرون؟﴾** وفى قوله تعالى **﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم. أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها. إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم. ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مانزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم. فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون**

وجوههم وأدبارهم. ذلك بأنهم اتبعوا ماأسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم﴾

وفى قوله تعالى ﴿كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون. كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم﴾.

وإلى الذين فتنهم العلم المادى وبهر عيونهم بما حقق من تقدم ومخترعات وازدهار، فوقفوا عند حدوده وظنوا أنها آخر الحدود، وأن ليس وراءها شىء، فإذا قيل لهم إن وراءها أشياء لاشىء واحد قالوا: هى خرافات.. إليهم نسوق هذه الواقعة التى عشناها وعاشها معنا آلاف على أنها ثقب فى الجدار المادى الذى حجب عنهم ماوراءه، لعلهم ينظرون منه فيرون أنهم ليسوا على شىء وأن عالمهم المادى بكل مافيه ليس إلا ذرة من بحر علم الله ومحيط قدرته، وأعيد هنا ماأردده دائماً وما كان يكثر من ترديده إمامنا حسن البنا من تائية ابن الفارض حيث يقول:

ولا تك ممن طيشته طروسه — بحيث استقلت عقله واستبدتِ
فإن وراء العقل علماً يجل عن — مدارك غايات العقول السليمةِ

ثم أرجع إلى السياق فأقول: وكان خروجنا من السجن الانفرادى إلى زنازيننا بعد هذا الحدث الإيمانى العظيم خروج المنتصرين. وقد كنا فرحين برجوعنا إلى إخواننا فى زنازيننا كما يفرح المسجون بالإفراج عند رجوعه إلى أهله.

وقبل أن أصل فى هذه الواقعة إلى نهاية الحديث عنها أحب أن ألفت النظر إلى أن القدرة الإلهية لاتتدخل فى شئون البشر إلا بالقدر الضرورى الذى لاغنى عنه؛ حتى تدع للسنن الكونية أن تأخذ مجراها فى حياة الناس.. فهذا الكلب الذى وقف حارساً للدكتور مصطفى هو نفسه الذى سلطه صاحبه على بعض من حقق معهم من الإخوان فنهشهم.. فإذا سأل سائل لم هذا الاختلاف فى سلوك الكلب بين الحالتين ؟ فنقول إن هذا الاختلاف فى سلوك الكلب لم يكن لأن من حقق معهم كانوا أضعف إيماناً من الدكتور مصطفى ولا أقل إخلاصاً، وإنما السبب أن الذين كان يجرى معهم التحقيق كانت لاتزال أمامهم فرصة ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ فالاعتراف بما هو مطلوب أن يعترفوا به ينجيهم من فتك الكلب بهم.. أما الدكتور مصطفى فكان فى وضع انقطعت فيه كل الأسباب فهو مجردٌ من كل سلاح والكلب معه والباب مغلق من خارجه عليهما، فكان تدخل القدرة الإلهية ضرورياً لاغنى عنه..

ويشبه هذا الموقف موقف إبراهيم عليه السلام حين قالوا ﴿حرقوه وانصروا آلهتكم

إن كنتم فاعلين. قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم﴾.. ويشبه موقف يوسف وامرأة العزيز وهو غلام مشترى بالمال ليس له حق التصرف حتى فى نفسه وليس أمامه طريق للهروب من بيت يعتبر هو فيه من متاع البيت، وقد استطاعت امرأة العزيز أن تنال تأييداً من مؤتمر النسوة اللاتى كن يلمنها فقالت **﴿فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ماآمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين﴾** حينئذ بعد أن سدت أمامه جميع السبل لجأ إلى السبيل الأخير حين قال **﴿رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾** وهنا كان تدخل القدرة الإلهية ضرورياً لاغنى عنه **﴿فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم﴾** وينبغى التنبه إلى أن المشكلة المستعصية التى كان يعانيها يوسف عليه السلام لم تكن أن يلقى به فى السجن أو لايلقى، وإنما كانت المشكلة أنه وضع وسط فتنة لايمكن مقاومتها ولا يمكنه الهرب منها، فكان صرف كيدهن عنه بالسجن هو الحل الوحيد.

التكدير والتنكيل بالكرام:

لست أدرى على أية قاعدة قانونية أو عرفية أو عقلية بنى هؤلاء العسكريون تصرفهم المسمى «بالتكدير».. ونظريتهم فى ذلك أنه إذا أخطأ فرد ينتمى إلى جماعة أخذوا الجماعة بجريرة الفرد، حتى بعد أن يستوفى الفرد جزاء جريرته.

والسجن الكبير الذى كنا نزلاءه يضم نحو ثلاثمائة زنزانة، والزنزانة وحدة مستقلة ومعزولة عزلاً كاملاً عن بقية الزنازين بفضل الإغلاق المستمر، والتعليمات الصارمة التى كانت تعتبر اتصال فرد من زنزانة بفرد من زنزانة أخرى جريمة يعاقب عليها باعتبارها تآمراً على الدولة وإعداداً لقلب نظام الحكم، وتهديداً خطيراً للأمن العام.. مع أن هذا الفرد وزنزانته والسجن كله معزول عزلاً تاماً لاعن المجتمع المصرى وحده بل عن العالم كله.

هذا السجن بنزلائه المقاربين الثلاثة آلاف كانوا يعاقبون جميعاً إذا مابدر من فرد واحد منهم مايعتبره السادة المشرفون على السجن خطأ ـــ ولست بصدد مناقشة هذا التصرف الذى اعتبروه خطأ وجريمة هل هو حقا جريمة أم أنه مجرد الحصول على أدنى حقوق الإنسان؛ من محاولة دخول دورة المياه فى حالة مغص شديد، أو ملء قلة بالماء لإسعاف مريض أو ماشابه ذلك.. لست بصدد هذه المناقشة وسأفترض أن الذى بدر من الفرد جريمة؛ فما ذنب ثلاثة آلاف لم يرتكبوا الجريمة ولم يشتركوا فيها، ولم يعلموا بها؟ لم يحشد هؤلاء الآلاف فى صعيد واحد، ويعاقبون عقاباً تهدر فيه كرامتهم، وتؤذى أجسامهم؟

ألم يقل خالق الخلق ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ كما أن القوانين على اختلاف نزعاتها لم تخرج عن القاعدة التى قررها خالق الخلق؛ لأنها هى العدالة وهى مالا يقول العقل بغيره.

ولقد كانت حياتنا فى هذا السجن سلسلة من حلقات التكدير؛ لانكاد نخلص من تكدير حتى يبدأ تكدير.. وناهيك بمجتمع من ثلاثة آلاف هل يمكن أن تمر أيام دون أن يرتكب فرد منهم جريمة؟ باعتبار الجريمة عندهم هى مخالفة أهواء صعاليك جهال موكول إليهم الإشراف على أرقى مجتمع لأقول فى مصر بل فى العالم كله.

وإذا كنت قد تحدثت فى سياق ماقدمت عن ألوان من التنكيل التى تناولوا بها المجتمع الإخوانى؛ فإنى أخص بالذكر الآن لوناً معيناً هو التنكيل بالكرام كبار السن والمقام الذين تواضع الناس على احترامهم وتوقيرهم.

الأخ الحاج حامد الطحان؛ رجل من كرام الناس، مرموق فى المجتمع؛ بسط الله تعالى له فى الرزق؛ فبسط كفه فى الإنفاق على كل ذى حاجة وعلى الدعوة الإسلامية.. لأقول لايتخلف عن سد ثغرة بل إنه سباق إلى البذل فوقته وجهده وماله لله..

لاأنسى أننى زرته فى بلدته «كفر بولين» مركز كوم حماده فى عام ١٩٣٧ وكنت إذ ذاك لاأزال طالباً فى كلية الزراعة؛ فسألته بسذاجة الطالب عن مقر شعبة الإخوان المسلمين فى كفر بولين، فأخذنى إلى مبنى مكون من ست عشرة غرفة وقال لى: هل يعجبك هذا المبنى ليكون مقراً للشعبة؟.. وقال لى: إننا جميعاً هنا رجالاً ونساءً وأطفالاً من الإخوان المسلمين، وبيوتنا كلها دور للدعوة وكلنا ملك لها..

وأذكر أننى فى أواخر الثلاثينيات بعد أن فتحنا شعباً كثيرة فى محافظة البحيرة اقترحت على الأستاذ الإمام أن يزور شعب الإخوان فى المحافظة. وكانت البحيرة فى ذلك الوقت من أعسر بلاد القطر مواصلات؛ فإذا بالحاج حامد يأتى بسيارته ويقضى بها أكثر من أسبوعين يسوقها بنفسه مع أن عنده أكثر من سائق، لكنه كان حريصاً أولاً على أن يغبر وجهه فى سبيل الله، وثانياً على أن يكون بجانب الأستاذ الإمام ليفديه بنفسه عند الخطر وثالثاً لتتسع لراكب آخر من الإخوان يأخذ مكان السائق.

والحديث عن الحاج حامد وعن كرمه ونبله وبذله يطول ويتشعب. وخلاصة القول فيه أنه كان عثمان هذه الدعوة.

لم يستطيعوا أن يلفقوا للرجل تهمة يأخذونه بها فاعتقلوه، وجرى عليه ماجرى على إخوانه من المعتقلين مما أشرنا إلى طرف منه من التنكيل العام والإهانات العامة — ولكنهم لم يكتفوا بذلك فأرادوا أن يخصوه بتنكيل يشفى غلهم ويرضى حقد قلوبهم؛ فرأينا الرجل

الفاجر (حمزة البسيونى) الذى طوق فضل الحاج حامد جيده وجيد أسرته يأمر به أن يحمل جردلاً ليفرغ به ماء بركة الماء التى فجرها لنا إلهنا جل شأنه— وهى باعتبارها عينا لاتفرغ— ووكل به سفهاء السجن ليوالى العمل دون هوادة.

ولو كان نزح هذه البركة أمراً مطلوباً إنجازه، فإن مئات من الإخوان الشبان كانوا على أتم استعداد لإنجازه.. ومع أن هذا النزح كما قلت من قبل لاداعى له لأن أخذ الإخوان حاجتهم من هذا الماء يجدده، فإن كل شباب الإخوان فى السجن كانوا على استعداد أيضاً لنزحه بدلاً من أخيهم الكبير الحاج حامد.. ولكن الأمر صدر لا لإنجاز عمل وإنما لإهانة شخص معين وإذلاله وإرهاقه.

وبهذه المناسبة أذكر أن أخوين كريمين قد رضيا أن يقوما بعمل قد يأنف الكثيرون من مزاولته؛ ذلك هو تنظيف دورات المياه.. وكان بالسجن الكبير هذا دورتان متقابلتان يفصلهما فناء السجن.. عهد بإحداهما إلى الأخ الكريم الشيخ منصور وهو جواهرجى من إخوان القاهرة وكانت ورشته فى شارع الموسكى وعهد بالأخرى إلى الأخ الكريم حسنى كوتش من كرام إخوان الإسكندرية..

ولقد كان لهذين الأخوين— فضلاً عن مهمة التنظيف— أعمال جليلة فى خدمة المجتمع الإخوانى فى هذا السجن فقد استطاعا بمهارة ولباقة أن يستغلا وجودهما خارج الزنازين أحسن استغلال بحكم اتصالهما بجنود السجن. فعن طريقهما كان الإخوان يعرف بعضهم أخبار بعض. وعن طريقهما أرسلت رسائل هامة إلى خارج السجن، وعن طريقهما وردت رسائل هامة إلى الإخوان فى السجن. وعن طريقهما خفف تنفيذ كثير من الأوامر الإجرامية.

ويلحق بهذين الأخوين عدد آخر من الإخوان ممن يتقنون أعمال الرسم والزخرفة. كانوا يطلبون لإعداد أعمال فنية لحساب السيد القائد.. فكان خروجهم خارج الزنازين وخارج السجن الكبير يعود على المجتمع الإخوانى بمنافع مختلفة— كما كان إخواننا الطباخون الذين يشتركون مع العساكر الطباخين فى إعداد الطعام يقومون هم الآخرون بدور كبير فى تحسين الطعام وفى إتاحة الفرصة للاتصال بخارج السجن فى بعض الأحيان— ولقد قام إخواننا الفنانون هؤلاء بإنجاز أعمال فنية رائعة استحل هذا الرجل الفاجر أن يستغل جهودهم فيها أسوأ استغلال، وأن يزود بيته وبيوت آلهته بها سحتاً دون مقابل.

الواعظ:

ومن أساليب التخبط والهزل التى تمخضت عنها عقولهم التافهة أنهم فى خلال إقامتنا

بهذا السجن أرسلوا إلينا واعظاً من وعاظ الأزهر. ومن حسن الحظ أن هذا الواعظ واسمه الشيخ محمد عثمان كان رجلاً عاقلاً. فقد فهم الرجل أنه رشح لمخاطبة أعلى المستويات، كما أنه فهم الظروف المحيطة بهذه المهمة؛ فكان الرجل فى حديثه فى غاية الحذر. وبالرغم من شدة حذره ومحاولته تفادى مواطن الحرج؛ فإن سفالة حرس السجن أوقعته فى حرج كبير. ولذا فإن أيامه لم تطل معنا، مما يشعر بأنه استطاع أن يفلت من مهمة قد تنتهى به إلى أن يصبح هو الآخر نزيلاً معنا.

فمهما كان الإنسان ثابت الجنان، مالكاً لأزمة شعوره، مسيطراً على أعصابه.. فقد تجدُّ مواقف لايستطيع أقوى الناس سيطرة على نفسه إلا أن ينفجر غضبه بكلمات لايجد من يعذره عليها من هؤلاء الأوغاد الذين يلتمسون للبرءاء العيب.

ولا أنسى بهذه المناسبة موقفاً لهذا الرجل — وهو من أهل إسنا — عندما وجه الحديث إلى الأخ البكباشى معروف الحضرى إجابة عن سؤال وجهه.. والبكباشى معروف الحضرى ضابط له شهرة فى مختلف الأوساط المصرية والعربية لمواقفه التى طيرتها وكالات الأنباء فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ — فاستعمل الرجل الكريم فى الإجابة عن السؤال أسلوباً يشعر باحترام الأخ معروف.. فما كان من الحراس السفهاء إلا أن اعترضوا على هذا الأسلوب بطريقة مجرمة، جعلت الرجل لايعرف ماذا يقول وماذا يفعل وكيف يخرج من هذا المأزق.. وأذكر أن الرجل قد انقطع عنا بعد هذه الحادثة.

* * *

الفصل الرابع

دراســات

وسط هذا الجو الخانق الذى كان الإخوان يعانون وطأته فى هذا السجن الذى انعدمت فيه القيم الإنسانية وديست فيه بالنعال الكرامة الآدمية، ولم يعد لإنسان فيه عاصم يعصمه أو يحتكم إليه أو يحتمى فيه من عرف أو قانون، وكان كل فرد فيه مهدداً بفقد كرامته ورزقه بل وحياته فى كل لحظة تمر عليه.. وسط هذا الجو لم يفقد الإخوان ثقتهم بأنفسهم، ولا إيمانهم بفكرتهم؛ فكانوا لايفتأون يتدارسون كل جديد يصل إليهم نبأه مما يتصل بشئون أمتهم؛ ناسين ماهم فيه من كروب وآلام، وما يسامون من ظلم وعذاب. فكانت اللحظات النادرة التى تتيح للأخ منهم أن يلقى أخاه لايستغلها فى استعانة به على تخفيف عبء عنه من أعباء الحياة القاسية التى يعيشها؛ بل يستغلها فى مناقشة أمر من أمور الأمة وصل إليه نبأه؛ هادفين من ذلك إلى أن يكون المجتمع الإخوانى دائماً إزاء كل جديد، على رأى سواء فى ضوء الفكر الإسلامى.

كسر احتكار السلاح

جرياً على أسلوب الطغمة الحاكمة فى محاولة عزل المجتمع الإخوانى عن الحياة؛ كان محرماً دخول الصحف إلى السجن، كما كان محرماً وجود الراديو.. إلا أننا فوجئنا فى يوم من الأيام بفتح الزنازين ووجود جهاز للراديو بمكبر للصوت فى فناء السجن. وسمعنا الإذاعة المصرية لأول مرة منذ وصولنا إلى عتبة هذا السجن.. وقد توقعنا من هذا الإجراء المفاجىء أنهم يريدون أن يسمعونا خبراً ذا بال.

وكان ماتوقعناه؛ فسمعنا المذيع يلقى إلى المستمعين فى أسلوب ينم عن الزهو والتفاخر أن الرئيس جمال عبد الناصر استطاع أن يكسر احتكار السلاح.

وموضوع احتكار السلاح موضوع قديم. وكان دائماً إحدى الدعائم الأساسية التى يقوم عليها صرح السياسة الغربية؛ حيث كانت صلاتنا مقصورة على الكتلة الغربية دون الكتلة الشرقية التى لم نكن نعترف بها اعترافاً رسمياً، ولم نعترف بها إلا قبيل الثورة..

وكانت سياسة الدول الغربية أن لاتبيعنا من السلاح إلا ماتشاء لامانريد حتى تضمن أن نكون فى حدود معينة من القوة لانتعداها لنظل دائماً دائرين فى فلكها.

وقبل إذاعة هذا النبأ علينا كان قد تسربت إلينا أنباء عقد مؤتمر باندونج. وقد نوقشت أنباء هذا المؤتمر على أساس ماوصل إلينا من قصاصات من الصحف تحمل بعض أنبائه. ولم تكن صورة هذا المؤتمر واضحة فى أذهاننا لأن الدول التى اشتركت فيه لم تكن تبلورت مواقف كثير منها بعد. ولكننا مع ذلك لم نحسن الظن به؛ لأن الدول الشيوعية الكبرى كانت مشتركة فيه.. وقد لاحظنا أن رئيس وزراء الصين شواين لاى - وهو أحد دهاقين السياسة - كان محتفياً بجمال عبد الناصر احتفاءً أحسسنا أن له مغزى، وأن له هدفاً. وكانت الصين لاتزال بعد حليفة لروسيا وكانت يدها اليمنى كما يقولون.

ويبدو أننا كنا على صواب فى نظرتنا إلى هذا المؤتمر.. فقد تمخض هذا المؤتمر عن قرارات رائعة، ولكنها جميعاً كانت حبراً على ورق مثل وثيقة حقوق الإنسان التى أصدرتها هيئة الأمم المتحدة - أما النتائج العملية المحسوسة التى أسفر عنها فكانت فتح أبواب كانت مغلقة فى وجه الشيوعية الدولية.

وجاءت خطوة كسر احتكار السلاح مفاجأة لنا وللعالم كله. وبدا بها جمال عبد الناصر بطلاً تاريخياً حيث صار أول حاكم لمصر استطاع أن يخرج ببلده من النطاق المضروب عليها من الغرب؛ إذ وصل السلاح الذى تريده مصر إليها من تشيكوسلوفاكيا أولاً ثم من روسيا بعد ذلك. ولا شك فى أن هذه الخطوة أغضبت دوائر الغرب قاطبة باعتبارها إفلاتا من قبضتها.

ووقف الإخوان فى السجن حائرين أمام هذه الخطوة يريدون أن يصلوا فيها إلى رأى. وكثرت المناقشات حولها، واختلفت الآراء.. ولاحظت أن أكثر الاختلاف كان ناشئاً من تحكيم العاطفة بدلا من تحكيم العقل والمنطق.

وجاءنى فريق من الإخوان يسألوننى الرأى فى الموضوع فكانت إجابتى على الصورة التالية:

أولاً: نحن الإخوان المسلمين كنا أول من دعا منذ عام ١٩٣٧ إلى تسليح الجيش وتسليح الأمة بأحدث الأسلحة مُتَحَدِّينَ فى ذلك إرادة الحكومة المصرية والقصر والإنجليز؛ مثيرين بذلك الدهشة والاستغراب فى أوساط الأحزاب المصرية بما فيها حزب الوفد.. وقد نشرت جريدة «المصرى» حديث المرشد العام حسن البنا فى ذلك الموضوع على أنه إحدى المفاجآت والأعاجيب. (وقد أشرنا إلى ذلك فى الجزء الأول من هذه المذكرات).

ثانياً : كراهيتنا لجمال عبد الناصر أمر مقرر ومفروغ منه وأسباب ذلك كلها تتصل بالله ، ولكن هذه الكراهية لاتمنعنا من الثناء على عمل نافع إذا صدر عنه . فكراهيتنا لشخصه لاتحملنا على الغض من كل مايصدر عنه من عمل ؛ لأن المسلم يجب أن يكون متخلقاً بخلق القرآن الذى يقول ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ .

ثالثاً : إذا نظرنا إلى العمل فى ذاته وجدناه عملاً نافعاً ؛ لأنه إخراج للبلاد من الدائرة المفرغة التى تدور فيها منذ بدء الاحتلال البريطانى — وتقوية الجيش بتسليحه بأسلحة حديثة أمر مطلوب شرعاً وهو مطلبنا من قديم نحن الإخوان .

وهنا توجه إلىّ هؤلاء الإخوة بسؤال آخر فقالوا : أما وهذه الخطوة خطوة نافعة فلماذا لم يقدم عليها أحد من حكام مصر السابقين وأقدم عليها جمال عبد الناصر ؟

فكانت إجابتى على سؤالهم هذا كما يلى :

جمال عبد الناصر بالرغم من أننا بلونا منه النفاق والكذب والغدر والخديعة والتجرد من الشرف والأخلاق ، فلا نستطيع أن ننكر أن فيه لمحة من عبقرية ، وأن له طموحاً يفوق كل تصور . وهو يعلم أن الذى منع سابقيه من الإقدام على هذه الخطوة ، هو خوفهم من الفشل دون إتمامها لأنهم سيواجهون العالم الغربى كله .. والرجل إذا كان له مجد شعبى يحرص عليه ؛ يحسب ألف حساب لكل خطوة يقدم عليها ؛ لأن مخاطرته إذا لم يكتب لها النجاح فلن تودى به وحده ، بل ستودى به وبمن وراءه ومن هو مرتبط بهم .. أما إذا لم يكن له مجد شعبى فعلى أى شىء يخشى إذا هو فشل ؟

وتوضيح ذلك أن الذين حكموا مصر قبل جمال عبد الناصر أحد رجلين ؛ إما رجل ارتبط بالشعب وهو الوفد ، وإما رجل ارتبط بالملك وهم الأحزاب الأخرى — أما الوفد فإنه كان يمثل تراثاً شعبياً ضخماً تم بناؤه فى عشرات السنين ، وتحت وطأة ظروف قاسية .. فإقدامه على مثل هذه الخطوة مخاطرة ؛ إذا قدر لها الفشل تحطم هذا البناء الشامخ وضاع هذا التراث العزيز — وأما الأحزاب الأخرى فما كان لها أن تقدم على خطوة فيها إغضاب للمستعمر الذى هو سند القصر الذى هم سدنته وخدمه .

لهذا رأى جمال عبد الناصر أمامه فرصة سانحة ؛ إذا أقدم عليها ففشل فلن يخسر شيئاً ؛ لأنه هو نفسه لم يكن شيئاً حتى يقال إنه فقد شيئاً ؛ كالمفلس إذا قامر يقامر وهو مطمئن لأنه إما أن يكسب فيغتنى من العدم ، وإما أن يخسر فلا تضيره الخسارة . والمثل العربى يقول : أنا الغريق فما خوفى من البلل ؟!

كان هذا هو ملخص رأيى الذى أدليت به إلى الإخوة الذين جاءوا يسألوننى . ويبدو أن هؤلاء الإخوة أذاعوا هذا الرأى فى أنحاء المعتقل حتى وصل إلى أسماع جبهة إخواننا

الكبار، الذين ساءهم أن يصدر هذا الرأى عنى، فأرسلوا إلىّ يطلبون الالتقاء بى، وتم الالتقاء بهم، وكان الأخ البكباشى معروف الحضرى أشدهم غضباً.

ولم أكن من قبل على صلة بالأخ معروف، فكانت هذه أول مرة نلتقى فيها ونتعارف. وفهمت من إخواننا هؤلاء أنهم كانوا يريدون أن لايصدر عنى مافيه إطراء لعمل يأتيه رجل فعل بنا مافعل مهما كان العمل فى ذاته جليلاً — وقد رددت عليهم بأن هذا يتعارض مع الخلق الإسلامى الذى قرره القرآن الكريم. وقرره عمر بن الخطاب حين التقى بالرجل الذى قتل أخاه ضراراً — وكان الرجل قد أسلم فقال له عمر: والله لاأحبك حتى تحب الأرض الدم. فقال له الرجل: وهل يمنعك هذا أن تؤدى إلىّ حقى؟ قال عمر: لا. قال الرجل: فلا عليك إذن فإنما يبكى على الحب.. النساء.

أما الأخ معروف فكان اعتراضه منصباً على ماوصفت به عبد الناصر فى هذا التصرف من أنه عبقرى. وقد غضب أشد الغضب من وصفى جمالا بالعبقرية فى هذا التصرف، وقال: كيف تصف بالعبقرية رجلاً لاوفاء عنده ولا خلق ولا شرف.. ولم يستطع الأخ معروف أن يستسيغ أن يكون إنسان موصوفاً بالذكاء والتفوق الفكرى والنضج العقلى وهو فى نفس الوقت فاقد كل مايتعلق بالنفس من صفات خلقية كالصدق والوفاء والمروءة والشرف.. ثم أخذ يدلل لى على صواب رأيه وخطأ رأيى فقص علىّ القصة التالية:

قال: «بايعنا الأستاذ الإمام حسن البنا على المصحف والمسدس باعتبارنا عسكريين فى عام ١٩٤١ وكان معنا فى المبايعة جمال عبد الناصر. وكانت تربطنى بجمال صداقة شخصية وعائلية، كما كانت تربط كلينا رابطة صداقة من نفس الدرجة بالأخ عبد المنعم عبد الرءوف الذى اختير مسئولاً عن تنظيم الإخوان فى الجيش.. ثم علمنا أن جمال أنشأ تنظيماً آخر خاصاً به لايتقيد بمقاييس الإخوان.. وحاول استغلال صداقته لى فى جذبى إلى تنظيمه فرفضت. وحاول إغرائى بكل وسائل الإغراء ولكنه فشل.. فلجأ إلى أسلوب الإحراج بأن انتهز فرصة مناسبة من المناسبات فدعانى إلى حفلة فى منزله فوجئت بأنها تضم أعضاء تنظيمه، وقدمت المرطبات. ثم وقف جمال ليتكلم فرحب بالذين لبوا الدعوة وشكرهم ثم خصنى بالشكر وقال: وأبشركم بانضمام الأخ معروف الحضرى إلى تنظيمنا.. ففهمت فى الحال أن الحفل إنما أقيم وافتعلت له المناسبة وكان المقصود منه إحراجى ووضعى أمام أمر واقع.. ولكننى بالرغم من المفاجأة ومن الإحراج الذى أحكمت حلقاته حولى تمالكت أعصابى وشكرت جمالا على تقديره لى وشعوره نحوى، وأبديت اعتذارى بأننى لاأستطيع أن أتخلى عن تنظيمى، ولا أستطيع أن أعمل فى تنظيمين معاً.. وكانت هذه آخر محاولة لجأ إليها لجذبى إلى تنظيمه.. ولكننى عرفت بعد ذلك أنها

لم تكن آخر مافى جعبته من أساليب.

«جاءنى جمال بعد ذلك فى منزلى، وأفهمنى أنه يريد أن يسر إلىّ بحديث خاص دفعه حبه لى إلى الإفضاء به إلىّ؛ قال لى: يامعروف: هل بينك وبين عبد المنعم سوء تفاهم؟ قلت: لا ــ فأبدى تعجبه وقال: إذن فلم هذا الكلام الذى يقوله عنك؟ يبدو أنه يخشى على منصبه فى التنظيم من وجودك فيه.. لقد كنا معاً بالأمس، وجاءت سيرتك فقال: أنا لأستجف دم هذا الشخص لأنه يعمل فى هذا التنظيم لشخصه، وسأحاول بتره من التنظيم.

«يقول معروف: وقد وقع منى كلام جمال موقع المفاجأة وكدت أشك فيه لولا أننى فى أول لقاء لى مع عبد المنعم لاحظت أنه معرض عنى، وينظر إلىّ شزراً، مما أكد لى صدق جمال فيما نقله إلىّ. فما كان منى ــ وأنا بشر ــ إلا أن قابلت إعراضه بإعراض وتجاهله لى بتجاهلى له. واستمر الخصام بينى وبين عبد المنعم لاأكلمه ولا يكلمنى حتى قامت الثورة، وجمعنى وإياه السجن الحربى حيث اعتقلنا جمال، فأخذنا نستعيد الأحداث ونتعاتب.. وفى هذه اللحظة فقط فهمنا أن جمالا استطاع أن يوقع بيننا بأن أسر إلى كل منا على انفراد حديثاً مختلفاً يوغر صدر كل منا على أخيه. وقد نجحت حيلته فى شل حركتنا بعد أن يئس من اجتذابنا إلى تنظيمه».

وهنا قال لى معروف: فهل مثل هذا الرجل الذى يستبيح الكذب ويوقع بين الناس ويسعى بينهم بالنميمة يقال إنه عبقرى؟

فقلت له: ياأخى معروف: العبقرية صفة تتصل بسرعة الخاطر، وإحكام التدبير، وبعد النظر، وبراعة التخطيط للوصول إلى الأهداف التى يسعى صاحبها للوصول إليها، ولا تتصل بالأخلاق والنبل والوفاء والمروءة والضمير.. فقد يكون الرجل عبقرياً وليس على شىء من الخلق والضمير، وقد يكون الرجل وفياً صادقاً نبيلاً ولا نصيب له من العبقرية ــ وقد يجمع بعض الناس بين العبقرية والخلق وهؤلاء هم الذين جمعوا أطراف الكمال الإنسانى وهم القلة دائماً.

وأنا حين وصفت جمال بالعبقرية وصفته وأنا أعلم أنه من الصنف الأول الذى ليس له نصيب من خلق ولا دين ولا شرف ولا ضمير ــ واسمح لى ياأخى معروف أن أقول لك إنك بما قصصته الآن علىّ؛ قد أضفت برهاناً آخر على عبقرية جمال كما أضفت برهاناً جديداً على سذاجتنا ورسول الله ﷺ يقول «المؤمن كيس فطن» وعمر بن الخطاب يصف نفسه فيقول «لست بالخب ولكن الخب لايخدعنى».

* * *

هـذه قضية عرضت لنا فى أثناء وجودنا بهذا السجن أردت بإيرادها أن أثبت أولاً أن حيوية الإخوان لم تستطع كل أساليب القهر والكبت والإذلال أن تحتويها ولا أن تنال منها ولا أن تحد منها، ثم إننى قصدت عرضها على جمهور القراء لينا قشوها وهم متمتعون بالحرية كما ناقشناها ونحن تحت وطأة ظروف قاسية ربما كان لها بعض التأثير فى حكمنا على الأمور.

وقد قرأت فى هذه الأيام فى كتاب «جمال عبد الناصر» للأستاذ أحمد أبو الفتح فى صفحة ٢٦٢ مما يمس هذا الموضوع حيث يقول: «إن صفقة الأسلحة فى الحقيقة كانت بمثابة العصا السحرية التى مست قلوب الشعوب العربية فحولتها بسرعة فائقة إلى حب وتقدير بل تقديس لشخص جمال عبد الناصر ـ لقد كانت الأسلحة الروسية نقطة تحويل حاسمة فى سياسة عبد الناصر؛ فقد أوضحت له معنى لم يكن يعرفه من قبل، ورسمت له الطريق نحو زعامة لم يصل إليها أى زعيم عربى من قبل ـ لقد أوضحت له معنى وهو أن مشاعر العرب يمكن إثارتها وكسبها عن طريق مناهضة الغرب والوقوف فى وجهه».

وقد رأيت أن أنقل رأى الأستاذ أحمد أبو الفتح فى هذا الموضوع. لأن الأستاذ أحمد أبو الفتح وإن كان ليس من الإخوان المسلمين فإنه من الكتاب المنصفين، وقد ناله من ظلم جمال عبد الناصر وغدره مثلما نالنا.

على أن هذه القضية لم تكن القضية الوحيدة التى دار حولها نقاش فى خلال وجودنا فى السجن، وإنما كانت هناك أكثر من قضية، ولكننى اخترت هذه القضية لأنها كانت أهم القضايا، وكانت مناقشتها على أوسع نطاق. كما أننى لم أكن وحدى الذى يُستطلع رأيه بل كان هناك غيرى من الإخوة تستطلع آراؤهم. وقد أكون أنا أضيقهم نطاقاً فى إسماع رأيه؛ فقد كان غيرى حريصاً على إسماع رأيه فكان ينتقل من زنزانة إلى أخرى مع مافى ذلك من مجازفة. أما أنا فكنت معتصماً بزنزانتى لاأغادرها إلى غيرها ولا أبدى رأيى إلا لمن ينتقل إلىّ.. لأننى كنت أعتقد أن وقتنا فى هذا السجن متجردين التجرد التام لاينبغى أن يستغل أى جزء منه فى غير العكوف على كتاب الله. وقد وفقنى الله عز وجل كما أشرت من قبل فحفظت القرآن كله والحمد لله من قبل ومن بعد.

الثمانية عشر شهراً:

قضى الإخوان فى هذا السجن ثمانية عشر شهراً تحت وطأة لاتحتمل من الضنك والضيق والإرهاق لايكاد الواحد منهم يستطيع حتى التنفس؛ فكل همسة معدودة عليه، وكل لفتة محاسب عليها، بل إنه يكال له العذاب على مالم تجن يداه، ولم يفه به فمه بل ولم يخطر على باله..

وقد أثبت الإخوان فى خلال هذه الفترة جدارتهم باعتبارهم المجتمع الفاضل الذى تحدث عنه الفلاسفة وتخيله المثاليون؛ فقد اعتصموا بجميع الفضائل فى الوقت الذى كان الاعتصام فيه بفضيلة واحدة يكلف صاحبها حياته.

ففضيلة الصدق كلفت الكثيرين من الإخوان حياتهم نفسها. ومنهم من كلفته من الصبر على الأذى ماكان الموت أهون منه. ولقد كانت لهم رخصة فى مثل قوله تعالى ﴿**من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾ ولكنهم اختاروا العزيمة خوفاً من أن يوقعوا ظلماً ببرىء، فآثروا إخوانهم على أنفسهم، ورضوا بأن يموتوا تحت تأثير العذاب فى سبيل إنقاذ إخوانهم مما يريد الطغاة أن يلصقوه بهم من تهم.

وفضيلة الوفاء لدعوتهم التى عاهدوا الله عليها؛ هان عليهم فى سبيلها مفارقة الأهل والزوجة والأبناء وهجر التجارة وانقطاع موارد الرزق؛ فلقد كان أكثر من نصف نزلاء هذا السجن من ذوى المهن الحرة من صناع وزراع وتجار.. وهؤلاء انقطعت مواردهم من أول يوم اعتقلوا فيه. ولم تقف حقارة الطغاة عند هذا الحد بل إنهم اعتقلوا من هزتهم الأريحية من كرام الناس ـ الذين ليسوا من الإخوان ـ فمدوا يد المعونة إلى أسر هؤلاء المعتقلين الذين انقطعت مواردهم. واعتبر الطغاة هذه المعونة جريمة يعاقب عليها القانون وأوقفوهم أمام المحاكم المستخفية التى حكمت عليهم بعشر سنين.

وقد حقق الإخوان بذلك قول الله تعالى ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين**﴾ وقوله تعالى ﴿**من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا**﴾.

ولقد التقيت بعد خروجنا من هذا السجن بأخ كان معنا وكان عنده منحل كبير يدر عليه ربحاً عظيماً، وسألته عن منحله فقال لى: إننى خرجت فلم أجد للمنحل أثراً، لا النحل ولا العسل ولا الخلايا حتى الأرض التى كانت خضراء حوله وجدتها **جرداء**.

وفضيلة التعاون والإيثار جعلت الشاب يحمل العبء عن الشيخ، والقادر على الشىء يمد به غير القادر سواء كان هذا الشىء مالاً أو علماً أو فناً أو فضل قوة، ولا يرى القادر لنفسه فضلاً على أخيه بل يشعر بسعادة أنه يحقق معانى الإسلام التى آمن بها ودعا الناس إليها.

* * *

الأشهر الستة الأخيرة:

استفرغ الطغاة كل مافى طاقتهم من وسائل الظلم والقهر والإرهاب.. وأخيراً تنبهوا فوجدوا أن سمعتهم وصلت إلى الحضيض سواء فى داخل البلاد وخارجها.. فأخذوا فى تعديل أسلوب تعاملهم فأمروا بما يسمونه «تحسين المعاملة».

وكان مظهر تحسين المعاملة فتح الزنازين وترك الحرية للمعتقلين للتنقل فيما بينها، والسماح بالمراسلات وإرسال الطرود والزيارات والسماح بالعلاج — كما بدأوا فى تنظيم عملية الإفراج؛ حيث قسموا المعتقلين أقساماً أو أفواجاً يفرج عنهم تباعاً على أن يتم الإفراج عن آخر فوج فى شهر يونيه ١٩٥٦.

والظاهرة العجيبة التى أسجلها هى أن أبرز ماكان من شأن المعتقلين فى خلال هذه الفترة ظهور الأمراض بينهم، وهذا مصداق للمعادلة المعروفة التى يمثلها القول الشائع «إن الله يعطى البرد على قدر الغطاء»، وكنت أنا شخصياً أحد الذين مرضوا فى هذه الفترة وعولجوا.

استغلال الحرية داخل السجن:

وقد رأينا أن نستغل هذه الفترة بما فيها من حرية التنقل داخل السجن فى عمل نافع. فقسم الإخوان أنفسهم جماعات، تضم كل جماعة المشتغلين بمهنة واحدة؛ فهذه جماعة الأطباء، وهذه جماعة الصيادلة، وهذه جماعة التجار وهذه جماعة العاملين فى صناعة الطباعة، وهذه جماعة العاملين فى الزراعة وهكذا.. وعلى كل جماعة أن تنظم لنفسها اجتماعات دورية تناقش فيها شئون مهنتها من الوجهة العلمية والوجهة العملية.

ولقد كان لهذه الدراسات المهنية نتائج طيبة فى إيجاد فرصة للتعارف الشخصى فيما بين الإخوان المشتغلين بمهنة واحدة، وفى تزويد كل ذى مهنة بما ليس عنده من شئونها ووسائلها مما عند الآخرين.

وأستطيع أن أجزم بأن الإخوان المهنيين قد أفادوا إفادة كبيرة من هذه الندوات. وقد كنت المسئول عن ندوة الزراعيين وكان عددنا نحو العشرين، وكان منا الزراعيون ذوو المؤهلات الزراعية، وزراعيون غير ذوى مؤهلات زراعية ولكنهم يباشرون العمل الزراعى. وقد تقدم كل منا بالمشروع الذى باشره بنفسه وما كلفه القيام به، وما أنتجه وما اعترضه من عقبات، وكيف تغلب عليها، وكيف كان يسوّق إنتاجه؛ وكل ذلك من واقع التجربة.

فخرجنا بمحصول لابأس به من المشاريع المدروسة فى زراعة المحاصيل وزراعة الخضر

والفاكهة والأشجار، وفى تربية النحل وتربية دودة القز وفى الألبان وفى إصلاح الأراضى وفى تربية الماشية وفى الدواجن. خرجنا من هذه الندوة بمعلومات علمية وعملية وخلاصات تجارب قلما تجتمع لدارس. وكان من نتيجة هذه الندوة أن خرج عدد من هؤلاء الإخوان فأسسوا أعمالاً على أساس من هذه المشاريع فرادى ومتشاركين ونجحت أعمالهم نجاحاً كبيراً.

* * *

ولما قارب المعتقل على الانتهاء اجتمع إخوان الهيئة التأسيسية الذين بالمعتقل وناقشوا قضية كان لابد من مناقشتها؛ تلك هى أنهم حين يخرجون إلى الحياة سيجدون مجتمعاً ذا صبغة معينة، وسيجدون حكومة هى وليدة الصراع الذى كان بينهم وبين الثورة.. فما موقفهم منها ومن هذا المجتمع؟ هل يقفون منها موقف المقاومة أم موقفاً سلبياً أم يتجاوبون معها؟

وقد تمخض نقاشهم عن قرار مؤداه: أننا مهما كان رأينا فى الحكومة فإن الشعب الذى تحكمه هو شعبنا، ومسئوليتنا عن مصالحه لاتقل عن مسئوليتها؛ فعلينا أن نتعاون معها فيما يعود على هذا الشعب بالخير؛ منحين جانباً مابيننا وبينها من خلاف سياسى، وبذلك نكون فى كل أحوالنا متجاوبين فيما عدا الاتجاه السياسى.

وتوالت الإفراجات.. وكلما غادرتنا دفعة أفرج عنها تخلخل المجتمع الذى عشنا فيه سنتين وأحسسنا بلوعة الفراق.. حتى أَهَلَّ علينا شهر يونيه ١٩٥٦ ولم يبق بالمعتقل إلا مائتان وخمسون من الإخوان وكنا الدفعة الأخيرة التى خلا السجن بعدها من المعتقلين.. وانتقلنا من السجن الحربى إلى سجن القلعة حيث مكثنا أسبوعين تم بعدهما الإفراج عنا.

بعد الإفراج:

لم تعد القاهرة فى نظرى بعد الذى حدث مكاناً تهوى إليه النفس، بل إنها صارت من أبغض البلاد إلىّ بقدر ماكانت أحبها إلى نفسى وصدق الشاعر الذى يقول:

وما حب الديار شغفن قلبى ... ولكن حب من سكن الديارا

ورأيت أن أقطع آخر خيط من صلة لى بها حيث كانت لى حقيبة تركتها قبل أن أعتقل عند الأخ الكريم الدكتور جمال الدين عامر رحمه الله فسافرت إلى القاهرة وأخذتها.

وكان المقر الرسمى لوظيفتى هو مدينة جرجا، ولكننى رأيت أن لاأذهب إلى البلد الذى اعتقلت منه، وعزمت على أن أسلم نفسى إلى الرياسة العليا للقطن بالإسكندرية

حيث على رأسها الزميل العزيز والصديق الوفى والأخ الحبيب الأستاذ حسين الخضرى رحمه الله.

وصلت إلى الإسكندرية وسلمت نفسى للرياسة فتلقتنى بالعناق كما تلقانى بقية الزملاء. وكانت قد أنشئت بكلية الزراعة بالإسكندرية قبل عام من خروجى من المعتقل دراسات عليا فى القطن فرأيت أن أتزود بها وتقرر نقلى إلى الإسكندرية التى رأيت أن أجعلها لى مستقراً بعد الرحلة الطويلة التى جبت خلالها القطر من أقصاه إلى أقصاه.

وفوجئت حين تسلمت عملى بأن زملائى جميعاً السابقين لى واللاحقين بى قد رقوا إلى الدرجة الرابعة دفعة واحدة سواى. وأسرّ إلىّ الأخ العزيز الأستاذ أحمد عبد اللطيف رحمه الله مدير المستخدمين بأن أعضاء لجنة شئون الموظفين جبنوا جميعاً عن الموافقة على ترقيتى مع أن اسمى مثبت فى الكشف المقدم لهم وسط الدفعة ظناً منهم أن فى هذا إغضاباً لرئيس الدولة فآثروا إرضاءه بهضم حقى.. ولكننى عن طريق الأخ الأستاذ أحمد عبد اللطيف والتهديد برفع الأمر إلى القضاء استرددت حقى.

ومعذرة فى ذكر أمر يعد من أشد خصوصياتى ولكننى أردت أن أعرض للقارىء صورة من جو الإرهاب والرعب الذى كان الشعب فى مصر يعيشه ويعانيه.

* * *

الباب السادس عشر

بين المعتقلَيْن

الفصل الاول : مسئولية الأسير أمام العواطف الثائرة

الفصل الثانى : فصائل الإخوان.. إلى أين ؟

الفصل الأول

مسئولية الأسير
أمام العواطف الثائرة

خرجنا من المعتقل فى ٢٦ يونية ١٩٥٦. وكان المقصود من إخراجنا أن تكون مظاهرة سياسية تبدو بها حكومة مصر أمام العالم فى صورة حكومة ديمقراطية؛ بدليل أنها أفرجت عن عدة آلاف من المعتقلين، ولم تبق فى داخل السجون إلا من صدرت ضدهم أحكام من محاكم.

وقد اعتمدت الحكومة على جهل من يعيشون خارج مصر بل وأكثر من بداخلها بحقيقة هذه المحاكم وبحقيقة الإفراج الذى تتباهى به هذه الحكومة.. أما المحاكم فقد عرضنا لها بإشارات فى فصل سابق تكشف عن شىء من حقيقتها البشعة.. وأما الإفراج فإنه لون من الخداع لأن هؤلاء المفرج عنهم خرجوا من سجن إلى سجن، ومن معتقل إلى معتقل، ومن قيد إلى قيد؛ ولكن القيد الجديد يجمع إلى القيد قيداً آخر هو الحرج.

ففى المعتقل الرسمى كنا متخففين من المسئولية، وكان الذى نسامه من العذاب محجوباً عن أعين الناس؛ أما المعتقل الجديد الذى انتقلنا إليه ويسمونه إفراجاً فإن المسئولية التى كنا متخففين منها عادت إلينا بثقلها، كما قيدت حركتنا بقيود ثقال، وأصبحنا ملاحقين فى كل لحظة وفى كل مكان.

ثم أنشأت الحكومة نظاماً مستحدثاً فى صورة قانون، سرعان ماأقره مجلس الأمة سموه «قانون العزل السياسى». هذا القانون يحرم من أفرج عنهم من المعتقلين من الحقوق السياسية؛ فلا يكون من حقه أن يرشح نفسه للانتخابات ولا أن يدلى بصوته لانتخاب غيره، ولا أن ينتسب إلى الحزب السياسى الوحيد وهو الاتحاد الاشتراكى.. ثم جعلوا عضوية الاتحاد الاشتراكى شرطاً لتولى أى شخص منصباً قياديا فى العمل الحكومى مهما بلغ هذا الشخص من الكفاءة والأمانة والإخلاص وحسن الأداء والمقدرة الإدارية..

ومع مافى قانون العزل السياسى هذا من الغبن والإجحاف؛ فقد كنت سعيداً به لأنه حرمنى من الانتساب إلى الاتحاد الاشتراكى الذى لو فتحوا بابه لى لما ولجته، ولو أرغمونى على الدخول فيه لحاولت الفرار منه. وأرجو أن لايفوتنى فى فصل قادم أن أتعرض لهذا الموضوع بشرح مسهب إن شاء الله.

وإجمالاً أستطيع أن أقول: إن هذه الفترة التى بدأت بخروجنا من السجن الحربى كانت من أحرج الفترات التى مررنا بها؛ لأن أشد المواقف إحراجاً للرجل أن يعيش فى مجتمع يعتقد أنه حر كغيره من الأفراد وهو فى حقيقة أمره مقيد ولا يستطيع أن يقول إنه مقيد.. وكثيراً ماثارت النفس وتمنت أن لو كان اعتقال أعفاها من ذلك الحرج.

مسئولية الأسير:

لعل فى هذه المقدمة من إشارات من بعيد إلى بعض معاناتنا بعد الإفراج مايعين القارىء على تقييم الوضع الذى وضعنا فيه، والذى سلبنا فيه حرية التحرك حتى فى شئوننا الخاصة؛ التحرك الذى تتطلبه هذه الشئون.

ولكن مجموعة من الإخوة الكرام كانوا فى خلال هذه الفترة فى حيرة من أمرهم؛ فهم يرون حكومة لاترعى للإسلام حرمة ولا كرامة، ولا تبالى باقتراف أضعاف سيئات العهد الملكى من الإباحية والتهتك تقتحم بها على الناس فى بيوتهم عن طريق وسائل الإعلام، وتشيع الفاحشة فى المجتمع بتشجيعها المتفحشين ومطاردتها أصحاب الفضائل والمتدينين.. ويرون الحال لايزداد كل يوم إلا سوءاً.. ولا يرون مع ذلك أحداً يقف فى وجهها أو يرفع صوتاً بمعارضتها.

وكان أكثر هؤلاء الإخوة من الشباب الغض الذى كان فى أوائل الخمسينيات لايزال نبتاً ثم ترعرع واستوى فى أواخر الخمسينيات وفتح عينيه على الصورة التى أومأت إليها، فهاله مارأى، وذهب يتلمس الطريق.. كما أن قليلاً منهم كانوا من الإخوة الأكبر سنا والذين حجبتهم ظروف أقرب إلى الصدفة عن أعين الظالمين فنجوا من ظلمهم.. وسار هؤلاء فى ثورة نفسية يبحثون عن قيادة ترشدهم إلى الطريق الأقوم لإصلاح هذا الفساد؛ فلا يجدون؛ لأن القيادات تعيش وراء القضبان حتى من كان منهم فى مظهره خارج القضبان كان مضروباً عليه حصار من كل جانب.

أما الذين كانوا لايزالون وراء القضبان فقد التمس هؤلاء الإخوة لهم العذر، وأما الذين كان مضروباً عليهم الحصار ــ وهو حصار فى الخفاء ــ فلم يلتمس لهم هؤلاء الإخوة العذر وحمّلوهم المسئولية كاملة وطالبوهم بقيادتهم إلى ميدان العمل..

جاءنى نفر من هؤلاء الإخوة، وبثونى مافى صدورهم من حرج، وما فى نفوسهم من

ضيق، وطالبونى بعمل إيجابى. فقلت لهم: إن الذى بين حنايا ضلوعكم من ألم ولوعة وحزن هو بعض ماعندى. لأنكم غاضبون وليس فى أيديكم قيود ولا فى أرجلكم أصفاد؛ بدليل أنكم جئتمونى وتتحركون كما تشاءون. أما أنا وأمثالى فنحس ماتحسون؛ ولكن الأغلال جعلت فى أيدينا وأرجلنا، وإذا كنتم لاترون السور المضروب من حولنا فإننا نراه محيطاً بنا، والسجانون يلاحقوننا فى كل مكان وفى كل وقت. وكانوا فى السجن الحربى بملبسهم العسكرى ظاهرين ولكنهم هنا بالملابس العادية غير معروفين.. إننا أسرى معركة، والأسير غير مطالب بما يطالب به الجندى الحر، وقد أعفاه الله وأعفته القوانين لأن أمره لم يعد بيده بل صار بيد آسريه.

فقالوا: إذن نقعد ونستكين ويستمر الظالمون فى ظلمهم ولا يجد الشعب المسكين من ينقذه؟! قلت: إننى لم أنهكم عن العمل، ولم آمركم بالاستكانة.. فالمسلم مطالب بالعمل فى كل الظروف ولكن فى حدود استطاعته.. وأدنى درجات العمل أن يعكف المسلم على القرآن عكوفاً يربط قلبه به ويأخذ نفسه وذويه بأحكامه وآدابه، وأن ينشر مبادىء هذا الكتاب الكريم وهى ماسماه الناس مبادىء الإخوان المسلمين عن طريق القدوة؛ وهى أقرب طريق إلى قلوب الناس.. وهذا هو القدر المطالب به أسرى المعارك من أمثالنا...

وليس فى هذا القدر من العمل مايمت إلى الاستكانة بسبب؛ فالقلب العاكف على القرآن لاتبرحه الحياة ولا تجتمع الحيوية والاستكانة فى قلب فإحداهما تطرد الأخرى.

والتاريخ يحدثنا ــ وهو صادق. والتاريخ ليس إلا سنة الله فى خلقه.. يحدثنا أن الدنيا دول ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾.. فدولة تدوم إلى الأبد أمر محال.. تبدأ الدولة بدءاً صالحاً ثم يدب الغرور فى نفوس حكامها فيظلمون فتدول دولتهم ﴿**وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً**﴾.

والذى يكاد يدخل اليأس إلى نفوسكم أنكم تظنون أن هزيمة هؤلاء الظالمين لابد أن تكون بأيديكم وإلا فلا أمل فى الإنقاذ. وهذا الظن يبين خطؤه حين ترجعون إلى صفحات التاريخ؛ وليكن تاريخ أمتنا؛ فسترون بنى أمية قد انتزعوا السلطة من بنى هاشم، ودانت لهم الدنيا من أدناها إلى أدناها، وظل يهتف لهم بالدعاء على منابر الدولة الإسلامية مائة عام؛ فتكوا فى خلالها بكل من رفع رأسه من بنى هاشم؛ فقتلوا الحسين بن علىّ، كما أعملوا القتل فى أنصاره، وقضوا على عبد الله بن الزبير ومن كان معه.. ولم يعد فى جزيرة العرب ولا فى خارجها من لايدين لهم بالولاء.. فظنوا أنهم قد استأصلوا شأفة منافسيهم وقضوا عليهم إلى الأبد.. وطابت لهم الحياة، واستقرت الدولة، وباتوا آمنين.. ولكن بعد مائة عام قام من بنى هاشم ــ الذين استؤصلوا ــ من انتزع السلطة منهم، وشتت شملهم، وأسس الدولة العباسية التى تتبعت الأمويين تتبعاً اعتقدوا معه أنهم لم يبقوا

لهم فى الدنيا على أثر.

وتوطد الأمر لبنى العباس، ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا أن يخضعوا الأيام لإرادتهم، فمالبث الأمويون ــ الذين أبيدوا فى ظنهم ــ أن أنشأوا دولة فى الأندلس تضارع دولة العباسيين وظلوا يحكمونها سبعة قرون.

وإذا كانت السنة ذات الثلاثمائة والستين يوماً فى حياتنا زمناً ذا بال، فإن عشرات السنين فى حياة الأمم وفى حركات التاريخ لاتعد زمناً يذكر. وأصحاب الدعوات الذين يريدون أن يلووا عنق الزمان، لايلبثون أن تدكدكهم الأيام بأقدامها الثقال.. أما الذين يفهمون التاريخ فإنهم يخطون بخطى وئيدة ثابته؛ لايدعون يوماً يمر دون أن يملأوه بعمل يناسبه، لايحاولون أن يثبوا عليه وثباً.. يفعلون ذلك وهم واثقون من أن الغد غدهم، وأن اليوم الذى يأملون أن يأتى سوف يأتى؛ ولكنه قد يكون من أيام حياتهم وقد يكون من حياة جيل يأتى بعدهم وسنة الله لاتتخلف.

إننى واثق كل الثقة أن دعوتنا التى حيكت لها المؤامرات ودبرت لها المكايد، وحوصرت من كل مكان، وعمل الحاقدون الظالمون على إطفاء جذوتها واستئصال شأفتها؛ ستنتصر آخر الأمر، وستعود لها الكلمة العليا والصوت الأعلى والصدى المستجاب.. ولكن كيف يتم ذلك ومتى يتم؟ هذا هو مالا أعلم، وهذا هو مااستأثر به علم الغيب..

نعم إن الظروف التى نعيشها الآن لاتوحى بذلك، ولا تسلمنا إلا إلى اليأس.. ولكن الله تعالى شأنه وجلت قدرته صاحب هذه الدعوة أخبرنا أنه ﴿**يخلق مالا تعلمون**﴾ فهو الذى يخلق فيما يخلق مالا نعلم، ومالا يدور فى خلدنا، ومالا يدخل فى حساباتنا ولا فى حسابات أعدائنا من الظروف والأحوال.. وهذا النوع من الظروف التى تعجز الحسابات البشرية عن الإحاطة به هو الذى يفاجأ به الطغاة، وتدول من هوله الدول.

ومجرد إيماننا بالله وبدعوتنا يطرد كل خاطرة من خواطر اليأس من نفوسنا، ويملؤها بالثقة المطلقة بحيث يكون يقيننا بنصر الله كيقيننا بوجوده سبحانه.. وإذا كان للإنسان أن يلجأ إلى عقله ومواهبه فى استغلال الظروف؛ فإنه عاجز عن أن يخلق الظروف؛ لأنه هو نفسه ليس إلا بعض هذه الظروف التى تفرد الخلاق العليم بخلقها.

وإذا كنا نقول ذلك ونؤمن به ونثق فى تحقيقه؛ فلسنا نقوله كما يقوله الموتى القاعدون، الذين آثروا متع الحياة وتمنوا على الله الأمانى؛ وإنما نقوله الآن بعد أن قدمنا لدعوتنا كل مافى وسعنا؛ فمنا من قضى نحبه ومنا من ينتظر.. ولكن الكَرَّةَ كانت هذه المرة علينا لالنا فوقعنا فى أسر العدو.. وليس أمامنا الآن إلا أحد أمرين؛ إما أن نقدم أعناقنا

لمقاصلهم دون مقابل؛ وإما أن ننتظر وعد الله تعالى وما سوف يخلق من ظروف واثقين فى وعده آملين فى نصره ﴿**قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معم متربصون**﴾.

وتحضرنى الآن صورة المسلمين فى المدينة وقد بوغتوا بمالا قبل لهم به من قدوم جميع قبائل الجزيرة العربية حيث ضربوا حصاراً خانقاً حول المدينة فى تحالف سرى بينهم وبين يهود المدينة، وما عاد هناك مايمنعهم من أن يمسكوا المسلمين بالأيدى دون أن يجد واحد منهم لنفسه مهرباً.. ورأى المسلمون الموقف على هذه الصورة فماذا فعلوا.. إنهم فعلوا مافى طاقتهم وتركوا مافوق طاقتهم للقدرة الإلهية.. كل الذى فعلوه أنهم حفروا الخندق حول المدينة ولجأوا إلى حيلة فصمت عرى التحالف المعقود بين العرب واليهود.. ولم يكن فى استطاعتهم أن يفعلوا أكثر من ذلك.. ولكن هل كان الذى استطاعوا أن يفعلوه كافياً لرد هذا البحر المتلاطم من قبائل العرب.. لا.. ولا هذه يقولها كل من له عقل؛ فالتكافؤ مفقود فى كل مقومات الحرب ولكن الذى ﴿**يخلق مالا تعلمون**﴾ لايطالب المدافعين عن دعوته بأكثر من أن يراهم قد بذلوا مافى استطاعتهم وعليه هو أن يتولى الأمر.. فماذا خلق مما لايعلمون؟ خلق ريحاً نسفت المهاجمين نسفاً وأنزل جنوداً لاتراها أعين البشر — وهذا الموقف من المواقف البالغة الدقة التى لايمكن التعبير عنها إلا بالنص القرآنى نفسه ﴿**ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً. إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً**﴾ ﴿**ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً. من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً**﴾ ﴿**ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً**﴾.

كانت هذه صورة من صور النقاش الذى دار بينى وبين بعض الإخوة الشباب المتعجلين الذين هالهم وأفزعهم مايسام الشعب من هوان، وما تنتهك له من حرمات، باسم الشعب وباسم الحرية وباسم الكرامة، والشعب فى حال من الذهول.

وإذا كانت حججى قد أقنعت عقول هذا الشباب، فإنها لم تتجاوب مع عواطفهم الثائرة، التى لم يستطيعوا لسيلها الدفاق دفعاً؛ فذهب كثير منه ليعمل عملاً يرضى هذه العواطف، ولكنهم كانوا كالفأر الذى يبيت خطة الهرب ولم يدر أن جدران المصيدة تحيط به من كل جانب؛ فالبلد لم تكن إلا سجناً كبيراً سجانه هو حاكم البلد، وقد وزع زبانيته على الأبواب والأسوار.. فلم يشعر هؤلاء الإخوة بعد قليل إلا وهم فى قبضته ليفعل بهم الأفاعيل.

الفصل الثانى

فصائل الإخوان.. إلى أين؟

فصائل الإخوان:

عزلنا الحديث عن السجن الحربى ومصائبه ومآسيه عن متابعة الحديث عن الآثار المدمرة لمؤامرات جمال عبد الناصر فى صفوف الإخوان وما انتهت به من انقسام الإخوان إلى فصائل يمكن إجمالها فى ثلاث فصائل؛ فصيلة انتمت إلى عبد الناصر وعلى رأسها قيادة النظام الخاص والمفصولون من أعضاء الهيئة التأسيسية، وفصيلة رأت آخر الأمر فى عزل المرشد العام إنقاذاً للدعوة، وفصيلة رأت فى تماسك الدعوة بمرشدها هذا الإنقاذ.

أما ثالثة الفصائل فتضم سواد الإخوان المسلمين وإن كانت قيادتها قد انقسمت فى أول الأمر قسمين اختلفت وجهة نظر كل منهما عن الأخرى؛ فقسم وكنت منه اكتشف مالم يكتشفه القسم الآخر من اطلاع جمال على أدق أسرارنا فرغب فى تعديل خطتنا لتتواءم مع الوضع الذى اكتشف؛ والقسم الآخر رفض إجراء تعديل. وقد صاحب عملية هذا الرفض بعض تجاوزات.. وساد رأى هذا القسم الآخر، فكان أن تخلى أصحاب فكرة التعديل عن فكرتهم وساروا فى الركب عملاً بقول علىّ كرم الله وجهه «كدر الجماعة خير من صفو الفرد».

وهذه الفصيلة هى التى اعتبرها عبد الناصر أعداءه الألداء ورسم خطة لإبادتهم، وعرضنا فى فصول سابقة نماذج من هذه الخطة.

وأما الفصيلة الثانية التى رأت فى عزل المرشد العام إنقاذاً للدعوة، ففى اعتقادى أنها قد تلحق بالفصيلة الثالثة لسببين: أولهما أن أعضاءها هم من خيرة الإخوان ولم يؤثر عنهم من قبل انحراف عن الدعوة ولا ارتياب فى القيادة. والسبب الآخر أن إعلانهم بهذا الرأى كان وليد ظروف قاسية ألمت بالدعوة أشرنا من قبل إلى طرف منها، وصار كل غيور على الدعوة يتلمس أى وسيلة للخروج بها من المأزق القاتل الذى وضعت فيه.. وحين يكفهر الجو، ويسود الظلام، تتعذر الرؤية الصحيحة لاسيما والقائد غير موجود فكانت هذه

الرؤية التي لاأشك فى صدورها عن حسن نية، وإن كان الطرف الآخر قد استغلها لصالحه.

وأما الفصيلة الأولى فقد طال الحديث عنها فى هذه المذكرات لأنها هى أصل البلاء وسر الداء، ولكن الذى يعنينا فى هذا التلخيص للمواقف أن نلم بمواقفها إزاء التطورات التى حدثت. ونستطيع أن نجمل هذه المواقف فيما يلى:

١ ــ كان لهم موقف عدائى عند اختيار المرشد العام، ثم تراجعوا عن هذا الموقف وساروا مع الركب.

٢ ــ بعد قيام الثورة وبدأ الخلاف بينها وبين الإخوان اتخذوا مرة أخرى موقفاً عدائياً من دعوتهم وظاهروا عبد الناصر على إخوانهم.

٣ ــ لما حل عبد الناصر الإخوان واعتقلهم فى يناير سنة ١٩٥٤ وفشلت خطته وخرج الإخوان من المعتقل منتصرين وصاروا سادة الموقف وصار عبد الناصر فى أضعف حالاته؛ جاءوا مرة أخرى إلى دعوتهم تائبين.

٤ ــ لما غدر عبد الناصر بما أعلنه مجلس الثورة من قرارات فى ٢٥ مارس ١٩٥٤ ودبر المظاهرات المأجورة وتبادل المواقف مع الإخوان ثمرة هذا الغدر فصار هو فى الموقف الأقوى والإخوان فى الموقف الأضعف اتخذ إخواننا هؤلاء موقف السكون والانتظار.

٥ ــ لما أعلن عبد الناصر الأسس التى قامت عليها اتفاقية الجلاء التى عقدها وحده مع انجلترا دون الرجوع إلى الشعب وجاءت مخيبة للآمال؛ فقام الإخوان بنقدها؛ وكان عبد الناصر يريد أن يجعل منها تراثاً شعبياً لنفسه.. وكان تساهله فى شروطها المجحفة بحقوق الأمة ثمناً لقبول الإنجليز التفاوض معه مما يكسب حكومته صفة تمثيل الشعب ويضفى عليها معنى من معانى الشرعية والقوة.. لأن الإنجليز كانوا حريصين دائماً فى عقد معاهداتهم مع مصر أن لايتفاوضوا وأن لايوقعوا على اتفاق إلا مع من يمثلون الأمة حتى تكون لاتفاقياتهم قوة وثبات.

وقد اعتبر عبد لناصر كما قدمنا نقد اتفاقيته بمثابة إعلان الحرب عليه فعزم على إبادتهم، ووضع كل إمكانات الدولة فى خدمة خطط هذه الإبادة.. وبدأت الحرب غير المتكافئة وأشرنا فى الفصول السابقة إلى أقل القليل مما ارتكب فيها من مظالم وما اقترف فيها من إجرام وما اندفعوا فيه من فجور.. فماذا كان موقف إخواننا هؤلاء؟

هذا ماكنت أجهله ولكننى قرأت فى مذكرات للأخ الكريم الأستاذ عبد الحفيظ الصيفى يعدها للطبع نبأ استميحه عذراً فى نقله للقراء لعله يلقى شعاعاً من الضوء نستبين

معه إجابة لهذا السؤال:

«يقول الأستاذ عبد الحفيظ فى مذكراته: سألت الأستاذ أحمد عادل كمال ـــ وكان من قيادة النظام الخاص التى فصلها مكتب الإرشاد ـــ سألته: لماذا اعتقلت مع أنك كنت أحد المفصولين؟

فرد قائلاً إنه هو أيضاً كان فى حيرة من هذا الأمر.. لماذا..؟ إلى أن عرف أخيراً السر فى ذلك.. يقول الأخ أحمد عادل كمال إنه كان فى زيارة لأقارب له ليقوم بواجب عزاء، والتقى عندهم بضيف يقوم بنفس الواجب. وعندما قام بعض أقاربه بتقديمه لهذا الضيف فوجئت بأنه يقول لهم: إننى أعرفه ـــ وعرض علىّ أن يكشف لى عن موضوع ربما يكون خافياً علىّ دون أن يعرفنى بشخصيته. وعندما سألته عن الموضوع أجابنى: هل تعرف السر فى اعتقالك بعد أن فصلت مع آخرين من الإخوان؟

فقلت: إننى فى حيرة من هذا الأمر بالفعل.

فقال: هل تذكر يوم اجتماع الهيئة التأسيسية الأخيرة؟ وحضرت إلى دار المركز العام. وفى الميدان قابلك أحد الإخوة من النظام الخاص، وعرفت منه أن هناك مجموعة من النظام فى بيت فى القلعة ـــ وهم مسلحون ـــ وفى النية مهاجمة أعضاء الهيئة التأسيسية فى حالة صدور قرارات منها لاتؤيد الجماعات المعارضة للمرشد العام الأستاذ الهضيبى والقيادة الشرعية للجماعة.. وبعد أن استمعت للأخ الذى تحدث معك سارعت متوجهاً إلى المنزل المجتمع فيه بعض إخوة النظام المسلحين وطلبت منهم إنهاء اجتماعهم وفض هذا التجمع المسلح، وقلت لهم: كفاية مانحن فيه.. وفى الحال بلغ جمال عبد الناصر ماقمت به فقرر يومها أن تكون فى قائمة المعتقلين بل فى قائمة من ينالهم التعذيب فى السجون والمعتقلات وكان ذلك بالفعل».

ويقول الأستاذ عبد الحفيظ: ويظهر أن عبد الناصر قد وضع تحت تصرف هؤلاء المنشقين كثيراً من إمكانات الحكومة وأجهزة مخابراتها وإشاعاتها ووسائلها بل صحافتها التى كانت فى ذلك الوقت أكبر أداة فى يد مجلس الثورة لتسميم الأفكار وتضليل الرأى العام.

* * *

الباب السابع عشر

اعتقالات سنة ١٩٦٥

الفصل الأول : فى سجن أبى زعبل

الفصل الثانى : أحداث وملاحظات وخواطر فى هذا السجن

الفصل الثالث : فى سجن مزرعة طـره

الفصل الرابع : أحداث وملاحظات وخواطر فى هذا السجن

الفصل الأول

فى سجن أبى زعبل

لعل التوقيت الذى اختير لهذه الحملة قد بنى على أساس حسابى بسيط؛ فالإخوان الذين اعتقلوا عام ١٩٥٤ أنشىء لهم قانون يجردهم من حقوقهم السياسية، ويجعل لأجهزة الأمن حق مراقبتهم وتقييد حريتهم، ورصد كل مايصدر عنهم، ومحاسبتهم على ذلك بوسائل لاتخضع لسلطة القضاء- وخلاصة القول: يجعلهم ألعوبة فى أيدى هذه الأجهزة. ولما كان هذا القانون أو القرار الجمهورى صادراً على أساس استثنائى فإنه كان لابد من تحديد فترة لسريانه. وقد حددت هذه الفترة بعشر سنوات ابتداءً من عام ١٩٥٦ .. ومعنى هذا أن القانون تنتهى فترة سريانه فى عام ١٩٦٥ .

فخوفاً من إفلات الإخوان من قبضتهم رأوا أن ينشئوا ملحمة جديدة يضمنون عن طريقها تجديد هذه الفترة تجديداً إلى أجل غير مسمى؛ بحيث يظل الإخوان فى قبضتهم، وتحت رحمتهم حتى تفنيهم الأيام، وتعفى على آثارهم، وتطمس معالم تاريخهم.

وقد رأوا أن يجعلوا الفترة عشر سنوات؛ على أساس أن هذه الفترة كافية أن تعدم أية هيئة مهما عظم شأنها إذا ماوجهت الدولة كل إمكاناتها للقضاء عليها.

أسلوب جديد:

كان الأسلوب الذى اتبعه جمال عبد الناصر مع الإخوان فى سنة ١٩٥٤ أسلوباً إجرامياً، ولكنه كان بدائياً أو كما يعبرون عنه بالعامية «أسلوب فلاحى». فهو باعتباره ضابطاً يعرف أن السجن الحربى هو أشد السجون معاملة، ويعرف أن القائمين على إدارته أفراد من الجيش، وطبيعة عملهم السرية؛ فارتكاب جرائم التعذيب فى ظل هذه السرية يحقق المطلوب .. ثم إنه سبق أن أجرى فى الجيش حركة تطهير ضمن معها أن الباقين فيه على ولاء تام له؛ لاسيما بعد أن أخرج منه كل ذى مبدأ أو شخصية.

ثم إن أسلوب التعذيب يتلخص فى عدة طرق مألوفة من الحبس فى الزنازين والحبس الانفرادى والإجاعة والضرب بالكرباج والحرق بأعقاب السجاير والنفح والتعليق والإلقاء بعد الجلد فى ماء مثلج، ثم التعذيب الجماعى بالطوابير المرهقة ومنع الملابس وما إلى ذلك مما أشرنا إليها آنفاً.

أما فى حملة ١٩٦٥ فقد تغير الأسلوب حيث كان التقارب المصرى السوفييتى، الذى أخذ فى التطور السريع حتى صار تحالفاً ثم صار تلاحماً.. وإذا كان الغرب قد سبق السوفييت فى تكنولوجيا الحضارة الحديثة؛ فإن السوفييت قد سبقوا الغرب فى نوع من التكنولوجيا التى لم يفكر فيها الغرب حتى الآن؛ وهى تكنولوجيا إهدار الكرامة الإنسانية والتعذيب، التى قامت عليها الفكرة الشيوعية سواء فى داخل روسيا أو خارجها من عمليات الإفناء والتدمير الجماعى والفردى بأساليب متطورة حديثة.

وقد أفاد جمال عبد الناصر من التقدم التكنولوجى للروس فى هذه الناحية أعظم إفادة ــ فقد استورد من روسيا أجهزة للتعذيب تعمل بالكهرباء واللاسلكى والخلايا الضوئية والالكترونية، ومنها أجهزة للتعذيب البدنى، وأخرى للتعذيب النفسى وتحطيم الأعصاب. وأجهزة تحطيم الأعصاب منها مايسلط على شخص واحد ومنها مايسلط على جماعة.

وصف سجن «أبو زعبل»:

هو سجن بنى حديثاً بجانب سجن «أبو زعبل» القديم. وقد بناه جمال عبد الناصر على طراز السجون الحديثة؛ فهو يشبه السجن الحربى فى كونه ذا أربعة أضلاع تحصر بينها فناءً واسعاً لاسقف له. إلا أنه يختلف عن السجن الحربى فى كون فنائه ببلاط اسمنتى مضلع. وهو وإن كان مكوناً من ثلاثة طوابق كالسجن الحربى إلا أن الطابقين الثانى والثالث مكونان من عنابر واسعة يزيد طول العنبر منها على عشرة أمتار وعرضه نحو ستة أمتار، والعنابر مبلطة وذات نوافذ واسعة وإن كانت مرتفعة، ولكل عنبر باب ليس من الحديد المصمت كأبواب زنازين السجن الحربى بل مصنوعة من عيدان من الحديد بين العود والآخر نحو عشرة سنتيمترات. والسقوف عالية، والتهوية صحية، وملحق بكل عنبر دورة مياه على طراز حديث.

فهذا السجن من طراز آخر غير السجون المصرية قديمها وحديثها؛ بحيث يصلح أن يكون منتجعاً للسياح الذين يفدون إلى بلادنا جماعات يرتبط بعضها ببعض؛ فكل وسائل الراحة متوفرة فيه. وقد أنشىء فى منطقة رائعة الجو، بعيدة عن المدن وضجيجها، وهو

مطلق الهواء من جميع نواحيه الأربع لاتحجب عنه الشمس والهواء حواجب من أبنية أو غيرها .

فإذا زود كل عنبر بعشرة أسرة ودولابين للملابس وبعض الأدوات اللازمة للمعيشة فإن المقيمين به من السياح يشعرون بالمتعة والسعادة؛ لاسيما وتصميم المبنى يسمح بوصول الموسيقى الهادئة إلى جميع الحجرات إذا ماأذيعت من الدور الأرضى فكأنها مذاعة من داخل الحجرة.. كما أن المقيمين فى هذه الحجرات إذاماأطلوا من الطرقات الممتدة أمام الأضلاع الأربعة فإنهم يستطيعون أن يشاهدوا عروض التسلية التى تعرض فى الفناء.

لماذا استغل عبد الناصر هذا السجن معتقلاً للإخوان؟

من الوصف الموجز الذى قدمته لهذا السجن يتبين للقارىء أن مثل هذا السجن ماكان ينبغى لحاقد مثل جمال عبد الناصر أن يستعمله معتقلاً لأعدائه.. فلم استعمله وكيف استعمله؟ وقد تفهم الإجابة على هذه الأسئلة مما يلى:

١ ـــ هذاالسجن بعيد عن العمران. ويمكن اعتباره منعزلاً عن البلاد. فالذى يجرى بين جدرانه لايسمع به أحد ولا يدرى به أحد. وهذا يحقق هدفاً أساسياً فى العملية.

٢ ـــ استعمال هذا السجن فيه إرضاء لمشاعر العاملين بوزارة الداخلية الذين يريدون أن يثبتوا ولاءهم للحاكم، ليغترفوا من الخزانة التى فتحت من قبل على مصراعيها للذين أثبتوا ولاءهم من العاملين بالجيش فى سنة ١٩٥٤ ـــ والحكم فى ذلك الوقت قد أيقن أنه لايقوم على سند من الشعب بعد فشل هيئة التحرير والاتحاد القومى والاتحاد الاشتراكى، ولم يعد له سند إلا من الجيش الذى صنعه على يده وإلا من رجال الشرطة الذين كان عليه أن يستميلهم بالوسائل التى ترضيهم.. ومعروف طبعاً أن السجن الحربى تابع للجيش وأن السجون الأخرى تابعة لوزارة الداخلية.

٣ ـــ يبدو أنه بعد أن ساءت العلاقات بين جمال عبد الناصر وأمريكا، وأصبح الروس حلفاءه الوحيدين؛ تبادل معهم البعثات فأوفد إليهم واستوفد منهم، وكانت أكثر البعثات الموفدة من مصر بعثات من رجال القوات المسلحة ومن رجال وزارة الداخلية، كما أن بعثاتهم إلى مصر كانت من نفس النوع.. وقد بلغنا أن بعثات من رجال وزارة الداخلية اطلعوا هناك على أجهزة الكترونية للتعذيب أذهلت هؤلاء الرجال، وأظهرتهم على مدى تقدم تكنولوجيا

التعذيب فى هذه البلاد وعلى مدى تخلفنا فى هذا المضمار؛ فقرروا اللحاق بهم مهما كلفنا ذلك من جهد ومال.. واشتريت الأجهزة وقدمت إلينا كما قدم معها وفود من الأخصائيين فى التعذيب.. وقد وقع اختيارهم على سجن «أبو زعبل» لتركيب هذه الأجهزة فيه لميزات رأوها فيه قد تتضح للقارىء فى سطور تالية.

٤ ــ إذا صرفنا النظر عن كل ذلك فإن استعمال هذا السجن كان أمراً لامفر منه، لأن الخطة التى وضعت هذه المرة كانت تقضى باعتقال عدد كبير جداً من الإخوان قد يفوق أضعاف من اعتقل فى المرة السابقة.

٥ ــ مكاتب هذا السجن مكاتب فسيحة جميلة صحية مزودة بوسائل الراحة والترفيه مما يرغب المحققين المطلوب منهم هذه المرة أن ينشئوا من القضايا مايكفى للقضاء التام على البقية الباقية من هذه الدعوة.. وكان فى جمال هذه المكاتب مايغرى المحققين بطول البقاء فيها بخلاف مكاتب السجن الحربى التى كانت تشبه الزنازين أو تقاربها.

٦ ــ الدور الأرضى ــ باعتبار هذا المبنى سجناً ــ مجهز بعدد لابأس به من الزنازين كان المفروض أنها معدة لينقل إليها من سكان العنابر من المسجونين من تمرد منهم على لوائح السجن ونظمه والذين انحرفوا انحرافاً يستحق التأديب العنيف بأن يحبسوا فى زنزانة من هذه الزنازين لمدة محددة..

وقد وجد علماء تكنولوجيا التعذيب من السوفييت وتلاميذهم المصريين فى هذه الزنازين وفى بعض الصالات والمنشآت فى الدور الأرضى مكاناً مناسباً لتثبيت بعض آلات التعذيب أو لوضعها بدلاً من آلات الموسيقى التى أنشئت هذه الأماكن من أجلها.. وعن طريق استغلال هذه الأماكن استطاعوا أن يصدروا من آلات وضعوها بها أصواتاً تبعث الرعب فى نفوس سكان هذا السجن جميعاً؛ تبعث ليلاً وتخترق سمع كل فرد فيه بطريقة معينة تخلع القلوب، وتصوّر للسامع أن قوة ضخمة من الهمجيين من جلادى السجن منطلقة نحوه بالكرابيج والبنادق لإبادة ساكنى السجن دون رحمة ولا تمييز.. ولا يملك معتقل مؤمن بالله وأعزل من كل سلاح فى هذه الحالة إلا أن يبتهل إلى الله أن يقبض روحه التى قد تفيض بعد لحظات على الإيمان..

ولم نتنبه إلى أن هذه الأصوات مجرد خداع من آلة إلاّ بعد عشرات المرات فى عشرات الليالى وكنا نعتقد أنها تجريدة حقيقية، وأنها تجتاح كل ليلة عدداً من إخواننا، وأننا ــ نحن نزلاء الدور الثالث ــ لابد أن يأتى دورنا إن عاجلاً وإن

آجلاً.. ومع علمنا بعد ذلك بأنها آلة فإنها كانت بأصواتها المنكرة تبعث فينا الكآبة والخوف والانقباض.

٧ ــ يبدو أنه كان من أهداف استعمال هذه الآلة أيضاً أن تغطى بصوتها على مايصدر فعلاً من تأوهات الإخوة الذين يعذبون بآلات أخرى.. فكان سماعنا صوتها فى كل ليلة نذيراً ببدء عمليات التعذيب التى تستمر طول الليل حتى الفجر.. وقد تناول التعذيب فى هذا السجن عدداً كبيراً جداً يفوق عدد الذين عذبوا فى عام ١٩٥٤.

٨ ــ لم يقتصر الاعتقال هذه المرة على الإخوان المسلمين بل تناول معهم كل الذين يعملون فى الحقل الإسلامى وكل من ينتسب إلى الدين الإسلامى بصلة؛ فالجمعيات الإسلامية حتى تلك التى لم يكن أسلوبها يمس الحكام من قريب ولا من بعيد كالجمعية الشرعية وجمعية أنصار السنة وجمعية التبليغ الإسلامى؛ كل هؤلاء اعتقلوا وكلهم عذبوا وكلهم نكل بهم وكلهم ووجهوا بتهمة التدين. ولقد سمعنا فى بطون الليالى أنات زعماء هذه الجمعيات وهم يتقلبون على جمر آلات التعذيب الإلكترونية وكلما استغاثوا قائلين يارب قال لهم الجلادون: أين هذا الرب؟ لو كان موجوداً لجاء لينقذكم من أيدينا.. ثم يوضعون على آلات تصدر مايشبه الصواعق الكهربائية فتسمع صراخاً شديداً متصلاً ثم يخفت مرة واحدة.

٩ ــ أما العنابر الفسيحة التى أشرت إليها فقد استغلت أسوأ استغلال، ومسخت كل المسخ حتى فقدت كل مزاياها وصارت لوناً من ألوان العذاب؛ ذلك أن العنبر الذى كان مفروضاً أن يسكنه عشرة أشخاص حشر فيه مائة صارت بعد ذلك مائة وعشرين يصرف لكل منهم بطانية واحدة يفترش نصفها على البلاط ويتغطى بالنصف الآخر، ولا يكاد يجد الفرد منا مكاناً يضع فيه جنبه ومع ذلك فلا يستطيع أن يغير وضعه طول الليل.
أما الأبواب شبه المفتوحة التى نعمت بها هذه العنابر فقد تمنينا من أول ليلة نمناها أن لو كانت سداً مصمتاً لاينفذ منه حتى الهواء؛ لأنها استغلت أسوأ استغلال فى توصيل أصوات الإرهاب وصرخات المعذبين التى كانوا يريدوننا أن نسمعها وأن تخترق آذاننا حتى لانحظى بفرصة تغفو فيها عيوننا طول الليل.. كما أنهم كانوا حريصين على تسليط الأضواء الباهرة علينا طول الليل.

١٠ ــ كنا نعامل فى السجن الحربى معاملة جنود الجيش فى الطعام فكان لنا مثل تعيين (نصيب من الطعام) الجنود تماماً. أما فى هذا السجن فكان طعامنا طعام

المشاجين.. وفرق شاسع بين الطعامين سواء فى النوع أو فى التجهيز أو فى الكمية، حتى الخبز.. ولم يكن مسموحاً لنا بشراء طعام آخر أو الحصول عليه بأية وسيلة أخرى. وأذكر أن الخبز الذى كان يصرف لنا لم يكن إلا قطعاً من العجين أدخلت النار ثم أخرجت فى الحال لدرجة أن بعض الإخوان كانوا يصنعون منه قطع الشطرنج ويتركونها أمام الهواء حتى تتماسك وتجمد.

١١ ــ كان هذا السجن يدار بجهاز من رجال الشرطة. وكنا نعتقد أن عملاً تديره الشرطة لابد أن يكون فى ظل القانون والنظام؛ فرجال الشرطة يدرسون القانون ومهمتهم المحافظة على القانون.. ولكن تجربتنا فى هذا السجن أثبتت لنا أن التربية التى يتلقاها الفرد فى منزله هي وحدها التى تميزه فى كل موقع يكون فيه فى المجتمع.. فلقد رأينا ضباطاً شباباً فى هذا السجن كانوا كالملائكة وزملاء لهم كانوا شياطين؛ وكلاهما يتلقى أوامر واحدة، ولكن منهم من يزعه إيمانه، ويحجزه حياؤه عن أن يكون أداة بطش وتنكيل، فى حين ترى زميله يلذله أن يكون كذلك، ولا يجد لديه من إيمان ولا حياء ولا تربية تكفه عن ذلك أو تحجزه عنه.. وكنا إزاء النوعين فى حيرة؛ ماذا يبغى هذا المتجبر السفيه من وراء هذا التجبر والسفه والبذاءة؟ وليست هذه المفارقات بين الضباط فحسب بل إنها كانت موجودة بين الجنود أيضاً.. والواقع هو أن الموظف أياً كانت وظيفته مدنية أو عسكرية، وأياً كان موقعه فى سجن أو فى مدرسة، يستطيع أن يكون كما يشاء أن يكون؛ فهؤلاء الذين نراهم فى المدارس معاول إفساد للخلق، هم أنفسهم الذين نراهم فى السجون أدوات البطش بالأبرياء.. قلوب خاوية، ونفوس دنسة حاقدة.. وادعاء هؤلاء أنهم كانوا مكرهين أو مسلوبى الإرادة ادعاء باطل ومحض افتراء ﴿**ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام. وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد. وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد. ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد**﴾.

أسلوب جديد مستورد

كما استورد السادة الحكام من حليفتهم روسيا آلات التعذيب، استوردوا منها أسلوباً جديداً إذا لم يعدّ من أساليب التعذيب فإنه من أساليب الإرهاب التى لم يكن لنا بها عهد.. فلقد عاشرنا هؤلاء الحكام سنوات ١٩٥٤، ١٩٥٥ وردحاً من ١٩٥٦ استعرضوا

خلالها كل ماف حوزتهم من أساليب الإرهاب وطرق التعذيب، ولكن هذا الأسلوب لم يكن من بينها. ونستطيع أن نجزم بأنه لم يدر بخلدهم ولم يخطر ببالهم، ولو خطر لاستعرضوه أمامنا ولاستعملوه معنا فهم لم يتورعوا عن شيء عرفوه أو سمعوا عنه — وكما أننا جزمنا بعدم خطوره على بالهم فإننا نقرر أنه لم يخطر ببالنا نحن أيضاً مع أننا كنا نتوقع منهم أسوأ مايخطر على بال.

بدىء بالحملة الجديدة فى شهر يوليو ١٩٦٥ حين اعتقلت السلطات عدداً محدوداً من الإخوان من بلاد متفرقة. وقد عرفنا فيما بعد أنهم كانوا يرسلون إلى السجن الحربى فى القاهرة. ولم تكن الصحف تشير إلى هذه الاعتقالات ولا إلى أسبابها أو دواعيها، كما أن أهل هؤلاء المعتقلين لم يعرفوا شيئاً عن سبب اعتقالهم ولا عن المكان الذى يوجدون فيه — ثم قامت حملات بمهاجمة منازل عدد آخر من الإخوان فى بلاد متفرقة وتفتيشها تفتيشاً دقيقاً بعد منتصف الليل، وكان منها بيتى الذى أقيم فيه بالإسكندرية، وقد سألت الضابط الذى كان على رأس القوة إن كان هناك أمر بالاعتقال — وكنت أعرف هذا الضابط — فقال لى: إن أمراً بالاعتقال لم يصدر، ولكن التفتيش إجراء لابد منه.. وأخذت القوة كمية ضخمة من المجلات والرسائل والصور والكتب.

وفى أواخر أغسطس وأوائل سبتمبر بدأت حملة مركزة من الدعاية الصحفية المنظمة ضد الإخوان المسلمين، ناسبين إليهم تهماً لاتكاد تختلف فى كثير ولا قليل عن تلك التى نسبوها إليهم فى ١٩٥٤ ولا عن تلك التى نسبت إليهم فى ١٩٤٨، ١٩٤٩؛ وهى تهم تحتفظ بها وزارة الداخلية فى أرشيفها، وتخرجها عند الطلب وتوزع نسخاً منها على الصحف والإذاعة التى عليها أن تخصص أكثر صفحاتها ومعظم وقتها لتكون أبواقاً لهذه الوزارة.

وشعبنا المصرى شعب أمى مغلوب على أمره، دأب على تقبل مايصل إلى سمعه دون تمحيص، كما أن القارئين منهم أميون دينياً وسياسياً يصدقون مايقرأون ناسين أو متناسين أن الذى يسمعون أو يقرأون إنما هو صادر من طرف واحد، وأن الطرف الآخر مَحُولٌ بينه وبين الكلام.

والعنصر الجديد الذى أدخلوه هذه المرة من عناصر الاتهام كتاب أصدره الأخ الشهيد الأستاذ سيد قطب بعنوان «معالم فى الطريق» ضمنه آراءه وأفكاره فيما يعتقده من المعانى الإسلامية العليا والمقاييس التى تقاس بها المجتمعات المختلفة. ومع أن الكتاب هو مجرد أفكار وآراء فإنهم اعتبروا هذه الآراء جريمة، وهو مالم يحدث فى أى مجتمع متمدين.

ومع الحملة الصحفية والهجوم الإذاعى بدأت الاعتقالات الجماعية فى جميع بلاد القطر بتخطيط منظم وأسلوب موحد. ففى الساعة الثالثة صباحاً بعد منتصف الليل

يطرق الباب طارق عنيف، يستيقظ على طرقته أهل البيت مذعورين، فيرون وراء الطارق قوة مدججة بالسلاح كأنما جاءوا يفتحون عكا كما يقولون ــ وتقتحم القوة البيت وتعيث فيه فساداً يبعثرون محتوياته.. ثم يصحبون معهم رب البيت إلى حيث لايدرى ــ ثم يلقى بمعتقلى كل مركز أو قسم فى حجرة من حجر مركز الشرطة أو قسم الشرطة. وتزدحم الحجرة حتى لايجد الفرد مكاناً يجلس فيه فضلاً عن أن ينام فيه. وتطول الإقامة فى هذا المكان حتى تصل إلى أسبوع.. ثم تصدر الأوامر بجمع معتقلى كل محافظة فى مقر مديرية الأمن حيث يعبأون فى سيارات نقل مغلقة تنقلهم جميعاً إلى مكان مجهول فى حراسة مشددة من جنود الشرطة.

المفاجأة:

بعد انتقال رتل السيارات المغلقة تمام الإغلاق على من فيها من المعتقلين بحيث لايرون شيئاً من الطريق الذى تنطلق فيه.. وبعد أكثر من ساعة توقفت السيارات وفتحت أبوابها، وأمر المعتقلون بالهبوط منها، وهبطوا ومع كل منهم قليل من المتاع يحمله، ثم أدخلوا إلى مبنى قديم مهدم حيث أوقفوا طوابير، وتقدم شخص مجهول ومعه مجموعة مما يشبه المناديل الكبيرة، وبدأ بالمعتقل الذى يقف فى أول الصف فعصب عينيه بمنديل من هذه المناديل، ثم أخذ فى عصب عينى الذى يليه والذى يليه وهكذا حتى عصب عيون الجميع.

ووقفنا بعد ذلك فى هذا المكان تحت شمس محرقة حاملين أمتعتنا معصوبى العيون، وطال الوقوف. ولم نكن ندرى أنهم يأخذون عدداً من المعصوبين يقودونهم إلى حيث لايعرفون ثم يجدون أنفسهم أمام شخص يسألهم عن أسمائهم وألقابهم ومهنهم وعناوينهم وسنهم. ثم يأمر بهم فيقادون إلى مكان آخر حيث ترفع عن أعينهم العصابات فيرون فى هذا المكان زملاء لهم من الإخوان سبقوهم إليه بعد أن عوملوا نفس المعاملة. وتبين بعد ذلك أن هذا المكان هو سجن «أبو زعبل» الذى تحدثنا عنه آنفاً.

كانت المفاجأة هى هذا الأسلوب الجديد المستورد من عصب العيون، والذى لم يقتصر استعماله على دخول المعتقلين السجن، بل كان كل انتقال لفرد أو مجموعة من المعتقلين من مكان لآخر داخل السجن أو خارجه لايتم إلا بعد عصب العيون.. وكان كل تحقيق يجرى مع معتقل لايتم إلا بعد أن تعصب عيناه؛ فلا يعرف أين يحقق معه ولا من الذى يحقق معه ولا من الذين يوجدون فى المكان الذى يجرى فيه التحقيق، كما أنه لايعرف ماذا يحدث له بعد لحظة أو ماذا ينزل به أو ينزل عليه.

كانت عملية عصب العيون هذه كارثة وحدها تهون أمامها كل كوارث التنكيل

والتعذيب. لأنها كانت تفقد المعصوب كل عناصر الأمن من أول لحظة يؤخذ فيها من عنبره؛ فهو يتوقع الموت فى كل لحظة، ويتوقع أن يلقى به من علٍ ليصل إلى الأرض محطماً، ويتوقع أن تضرب عنقه، ويتوقع أن تصيبه رصاصة تأتيه من أية ناحية، ويتوقع أن تنهال عليه الكرابيج ولا يدرى من أية ناحية تأتيه، ولا إلى أى موضع من بدنه توجه. ثم هو لايعرف من الذى يحقق معه. وإذا واجهوه بشخص لايعرف إن كان هذا الشخص هو صاحب الأسم الذى أطلقوه عليه أم هو شخص آخر قصد به التضليل.

ماالذى دفعهم إلى هذا الأسلوب؟

ولجوؤهم هذه المرة إلى هذا الأسلوب يثير التساؤل. هل دفعهم إليه محاولتهم حجب شخصية المحققين والجلادين عن المعتقلين؟ إن الذين يحرصون على عدم الكشيف عن شخصياتهم للمعتقلين لابد أن يكونوا غير واثقين فى مركز الحكومة التى يعملون لحسابها، فهم يؤدون المهمات الموكولة إليهم على وجل، ويحتفظون لأنفسهم بخط رجعة يلجأون إليه حين تتغير الظروف وتتبدل الأحوال.

ولكن يرد على هذا بأن جمال عبد الناصر لم يكن فى يوم من الأيام يشعر بالقوة والثبات والتمكن كما كان فى تلك الفترة. كما أن جميع من كانوا يعملون معه كانوا يشعرون بأضعاف هذا الشعور من الثقة والتمكن. بل إنهم وصلوا فى هذه الثقة إلى الحد الذى جعلهم فى أثناء إجرائهم التحقيقات يفوهون بألفاظ تشعر بعدم إيمانهم بوجود إله، غير خاطر ببالهم أن هذا الحكم معرض أن تتزلزل أركانه لأنه — فى نظرهم — قد استكمل كل أسباب البقاء؛ فهو حكم قوى مسيطر، استطاع أن يسيطر على الناس حتى فى بيوتهم، وعلى الألسنة فى أفواه أصحابها، وعلى الكلمة التى تقال أو تكتب، ثم استطاع أن يسيطر على أرزاق الناس؛ فلا عمل لعامل إلا فى مصانعه أو أرضه أو دواوينه.. فكل ذلك صار ملكاً خالصاً له. ثم إن أحداً لايستطيع أن يدخل البلاد أو يخرج منها إلا بإذنه؛ فمفاتيح أبوابها صارت كلها تحت يده.. وبعد كل هذا هو مستند إلى دولة كبرى تسنده بجيوشها وأساطيلها وطيرانها.. فكيف ينال هذا الحكم؟ ومن الذى يقوى على النيل منه أو حتى على التصويب نحوه؟

هكذا كانت نظرتهم إلى الأمور. وكانت هى أيضاً النظرة التى ينظرها سائر الناس.. ولم يكن يشذ فى نظرته إلى الأمور فى ذلك الوقت عن ذلك إلا قلة من المؤمنين الذين يؤمنون بقول الله عز وجل ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾ وبقوله ﴿**ويخلق مالا تعلمون**﴾ وهى النظرة التى شرحت فى صفحات سابقة بعض نواحيها.

فكيف إذن يكون الخوف هو دافع هؤلاء العملاء إلى اللجوء إلى هذا الأسلوب

الجديد أسلوب عصب العينين ؟.. لابد أن يكون الدافع أشياء أخرى.. إنه أسلوب الحليف الذى نتتلمذ على يديه فى مبتكراته التكنولوجية التى يعتبرها أسراراً لايفضى بها إلا للحليف المقرب الذى يريد أن يبنى حكمه بنفس الأساليب التى بنت بها الدولة الأم دعائم حكمها، ولا زالت تثبت هذه الدعائم وتحميها بنفس الأساليب.

إن هذا الأسلوب فى ظاهره هو أسلوب عصب العينين. ولكنه فى حقيقته هو أسلوب محق الشخصية؛ لأنه الأسلوب الذى يجعل المتهم ألعوبة فى يد المحققين الذين يريدون أن يحصلوا منه على اعترافات بما يشاءون، مهما أدت اعترافاته هذه إلى الإعدام؛ لأن مواجهة الموت أخف وطأة من توقعه لاتدرى من أى ناحية يأتيك ولا فى أى لحظة يأتى.

وكانوا لايتورعون عن استعمال هذا الأسلوب ليلاً أو نهاراً، حتى أصبح من الأمور العادية أن يأتى مبعوث من قبل مجهولين ينادى على أحد الإخوان فيتقدم إليه فيخرج المبعوث من جيبه عصابة يعصب بها عينيه قبل أن يغادر باب العنبر، ثم يقوده معصوباً إلى هؤلاء المجهولين. وقد يرجع بعد ساعة، وقد يرجع بعد يوم، وقد يرجع بعد أيام، وقد لايرجع.

* * *

الفصل الثانى

أحداث وملاحظات وخواطر فى هذا السجن

كان اعتقالنا فى عام ١٩٥٤ أمراً طبيعياً متوقعاً؛ حيث كان معركة بين طرفين — مهما قيل فيها فإنها معركة — وقد انجلت عن انتصار طرف وانهزام الطرف الآخر؛ فكان من حق المنتصر أن يأسر المهزومين.. ولهذا فإننى فى خلال اعتقال ١٩٥٤ لم أكن أشعر بمرارة الاعتقال فى ذاته، وإنما كنت أشعر بمرارة الهزيمة. وكنت طيلة مدة الاعتقال أفكر فى أخطائنا فى المعركة ومن أين أتت الهزيمة، ولا أفكر فى الطرف الآخر واعتدائه علينا؛ لأننا كنا حتى آخر لحظة ندين متكافئين، وكنا كفرسى رهان.

أما اعتقال ١٩٦٥ فكان طرازاً آخر ولوناً جديداً لم تسبقه معركة فتكسب منتصراً حقاً على مهزوم، بل كان اعتداءً على أسير، وإجهازاً على جريح — لقد وصفت فى صفحات سابقة كيف كان الفرد منا يعيش محاصراً فى بيته محاصراً فى عمله محاصراً فى طريقه، محصياً عليه كل لفظ ينطق به، معدوداً عليه أنفاسه... فإذا أتى بعد ذلك آسرك مشهراً نحوك سلاحه وأنت أعزل، لابل وأنت فى قبضته؛ فإن ذلك لايكون منه اعتداءً فحسب بل يكون خسة ونذالة.

إننى فى ١٩٥٤ وفى أثناء اعتقالنا لم أكن أوافق من كان حولى من الإخوان حين كانوا يعدون مجرد اعتقال جمال عبد الناصر إيانا اعتداء؛ للمعنى الذى أشرت إليه الآن؛ وقد كان هذا يغضب بعض الإخوان.. أما فى ١٩٦٥ فقد أحسست فى جمال عبد الناصر الخسة التى يحسها كل إنسان فى حارس مدجج بالسلاح يريد أن يتفاخر بقوته، ويزهى بسلاحه؛ فلم ير سبيلا إلى ذلك إلا أن يغمد سلاحه فى ظهر أسير أعزل مريض مقيد اليدين والرجلين. ولذا فقد استقبلت هذا الاعتقال بشعور مخالف تماماً للشعور الذى استقبلت به اعتقال ١٩٥٤.. استقبلته بغضب عارم، وثورة نفسية مضطرمة، وحزن شديد لازمنى طيلة مدة اعتقالى، ولم يفارقنى بعدها ساعة من نهار.. حتى قضى الله أمراً

كان مفعولاً.

وقد يحسن بى أن أثبت هنا بعض مامر بنا فى فترة إقامتى بهذا السجن مما لايزال عالقاً بالخاطر، ومما يجلى للقارىء صورة لهذه الفترة:

١ — فى هذا السجن رأيت إخواناً لم أكن رأيتهم من زمن بعيد. كما رأيت إخواناً ماكان يخطر ببالى أن يعتقلوا فى يوم من الأيام، فعجبت أشد العجب. وأكد لى ذلك المعنى الذى أحسسته نحو جمال عبد الناصر من النذالة والخسة؛ إذ لم تكن الاعتقالات عادة تتناول إلا قادة الإخوان فى القاهرة والإسكندرية وبعض العواصم، أما هذه المرة فقد امتدت إلى المراكز والقرى وإلى إخوان يعدون من أطراف الإخوان.

إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى:

٢ — كان قد مر على قرار حل الإخوان حتى ذلك الوقت اثنتا عشرة سنة انقطعت خلالها الصلة بين هذا الشعب وبين دعوة الإخوان المسلمين تمام الانقطاع. وسلط خلالها تيار جارف مستمر من الأكاذيب والأراجيف والافتراءات على الإخوان لاقتلاع الدعوة من جذورها، وإحلال شعارات جديدة فى نفوس النشء تقدس شخصية القائد الملهم، وتغرس أفكاره، وتفرش طريق المستقبل بالورود والرياحين لمن يتبنى هذه الأفكار، كما تفرش هذا الطريق بالشوك لمن يحاول اعتناق أفكار أخرى.

فى خلال هذه الاثنتى عشرة سنة نشأ جيل جديد، فتح عينيه فلم يجد أمامه إلا القيم المقلوبة، والأفكار المسمومة، والشعارات الزائفة التى عرضها عليه جمال عبد الناصر وزبانيته الذين احتكروا وسائل الإعلام والتعليم وحجبوا ماعداهم.. وما كان لجيل كهذا إلا أن ينشأ كما شاء له هؤلاء أن ينشأ؛ فمن أين له أن يعلم الحقيقة وأصحابها مكممة أفواههم، ومعزولون عزلاً كاملاً عن المجتمع؟!

وكانت المفاجأة أن رأينا معنا فى هذا السجن صبية فى سن الخامسة عشرة والسادسة عشرة لايعدون ذلك. وهذه المفاجأة لم تكن مفاجأة لنا وحدنا بل كانت مفاجأة أيضاً لعبد الناصر الذى وجد هذه الدعوة قد نبتت من جديد بعد أن أحرق كل أشجارها، واقتلع كل جذورها.. فكيف نبتت، ومتى وضعت بذورها، ومن الذى تعهدها؟.. كل هذه أسئلة سألها عبد الناصر لنفسه ووجهها لمن حوله وسألناها نحن لأنفسنا ولمن معنا ولكن سرعان ماعرفنا الجواب حين تذكرنا أنها دعوة الله الذى قرر من قبل خلق السموات والأرض قراراً لارجعة فيه **﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾**.. وأروع الروعة حين تعلم أن هؤلاء الإخوة النابتين كانوا أصبر على البلاء من كثير ممن يكبرونهم سناً.

التلاعب بمشاعر المعتقلين:

٣ — لما كان عدد المعتقلين من الإخوان الذين ضمتهم المعتقلات هذه المرة كبيراً يكاد يفوق الحصر، وكان أكثرهم ممن لم يجربوا الاعتقال من قبل، فقد شاعت بينهم شائعة أن الحكومة ستفرج عنهم بعد أسبوع — وكان اعتمادهم فى ذلك على ماتنشره الصحف — التى كانت تظهر فى يد بعض الضباط — كل يوم مما يفهم منه ذلك، ولم يتصور إخواننا هؤلاء أن هذه خديعة تلجأ إليها الحكومة لتخدير الرأى العام وإقناعه بأنها لاتبغى من الاعتقال إلا مجرد التحفظ حتى تجرى تحقيقاتها الأمنية العادلة..

وقد تعلق هؤلاء الإخوة بهذه الشائعة واعتبروها حقيقة لامرية فيها.. فلما انقضى الأسبوع الأول دون تحقيق الأمل؛ وجدوا فى الصحف ماأقنعهم بأن الإفراج تأجل إلى أسبوع آخر وهكذا.. وقد حاولت عبثاً أن أصرف بعضهم عن التعلق بمثل هذه الأساليب الخادعة.. ومع ذلك فقد أظلمهم إذا قلت إنهم فى هذا التعلق لم يكونوا على شىء من الواقعية؛ فالإنسان الذى يحس فى نفسه البراءة، ولم يجرب الخداع من قبل جدير أن يصدق من يقول له: سيفرج عنك..

ولما كان جميع المعتقلين هذه المرة — سواء منهم من سبق اعتقاله ومن لم يسبق — قد اخذوا بغير جريرة، وكلهم يحسون فى أنفسهم البراءة؛ فقد سرت شائعة الإفراج إليهم جميعاً لكثرة ماسمعوا من إخوانهم الجدد عنها؛ فلقد جاء وقت لم يكن لإخواننا هؤلاء حديث ولا شاغل يشغلهم إلا الحديث عن الإفراج وتوقعه فى صباح كل يوم وظهره ومسائه.

رؤيـــا:

٤ — ولقد بلبلت كثرة الحديث عن الإفراج أفكارى؛ حتى صار هذا الموضوع عبئاً على نفسى، ولجأت إلى الله عز وجل أن يرفعه عنى، ونمت بعد اللجوء؛ فرأيت فيما يرى النائم أن والدى رحمه الله — وكان إذ ذاك على قيد الحياة — قد أرسل إلىّ خطاباً. ففتحت الخطاب فوجدت فيه قصاصة من الورق عرضها نحو ثلاثة سنتيمترات وطولها نحو اثنى عشر سنتيمتراً وقد كتب لى فيها هذه العبارة بخطه الذى أعرفه:

«الإفراج ٢٧ ديسمبر / نوفمبر سنة ١٩٦٥».

فلما قرأت ذلك سرى عنى، واستيقظت من النوم فوجدتنا قبيل الفجر. وتذكرت نص ماكان مكتوباً فوجدتنى أذكر كل مافيه إلا شيئاً واحداً وجدتنى لاأذكره؛ ذلك أن العبارة جاء بها اسم الشهر مشطوباً ومكتوباً فوقه اسم الشهر الآخر فأيهما المشطوب

وأيهما المكتوب فوقه هذا ماوجدتنى مرتاباً فيه هل هو «٢٧ ديسمبر» أم «٢٧ نوفمبر؟».

كنا إذ ذاك فى أوائل العشرة الأخيرة من سبتمبر، ووجدت أننى إذا أخبرت إخواننا الذين معنا فى العنبر والذين يبيتون على اعتقاد أن الإفراج فى الصباح. ويصبحون على اعتقاد أن الإفراج فى المساء.. إذا أنا أخبرتهم بالرؤيا التى رأيتها فإنها ستكون صدمة عنيفة لهم، فعزمت على كتمانها عنهم رأفة بهم وإشفاقاً عليهم.

أعظم منن الله علىّ:

٥ــ قدمت من قبل أن السنوات العشر التى مضت منذ الإفراج عنا فى عام ١٩٥٦ قد أنستنى ماكان قد أكرمنى الله به من حفظ القرآن كله خلال إقامتى بالسجن الحربى. فلما جاء هذا الاعتقال عزمت على أن أسترد أثمن مافقد منى وهو الكتاب الكريم، فعكفت على حفظه من جديد. وقد تضاعف نشاطى فى الحفظ بعد أن رأيت فى الرؤيا أن إقامتى فى الاعتقال قد حددت إما بثلاثة أشهر وإما بأربعة.. وقد ساعدنى على الحفظ وجود أخوين كريمين معى فى العنبر هما الأخ مصطفى عنانى من إخوان فوة ــ الأوفياءــ والأخ الشيخ محمد (نسيت لقبه) من إخوان قلين ومن الحفاظ المجيدين؛ فكنت كلما حفظت قدراً سمعه منى الأخ مصطفى ثم قرأته مع الأخ الشيخ محمد قراءة متناوبة مجودةــ وأقرأ كل يوم الجديد على الأخ مصطفى ثم أقرأ الجديد والقديم مع الأخ الشيخ محمدــ ولم أزل كذلك حتى حفظت أو استعدت حفظ العشرين جزءاً الأولى حفظاً مثبتاً والحمد لله. ثم افترقنا وأنا عازم أن أجعل هذه العشرين جزءاً وردي لاأنقطع عنه يوماً حتى ألقى الله آملاً أن يعيننى على ذلك.

وقد يكون مستغرباً أن أقول: إنه بالرغم مما كنا نقاسيه فى هذا السجن من عنت وإرهاب لاينقطع ليلاً ولا نهاراً؛ فإننى يوم فوجئت بانتهاء أيامى بهذا السجن وجدتنى متألماً متمنياً أن لو طالت أيامى به حتى أتم استعادة حفظ القرآن كله.. وإذا كان هذا الشعور يقع من القارىء موقع الاستغراب؛ فربما زال هذا الاستغراب حين يعلم أننى مع ماأتقلب فيه من فضل الله فى هذه الحياة؛ فإننى أشعر أن أعظم نعمة لله علىّ هى نعمة توفيقه إياى لحفظ ماحفظت من كتابه، ولا زلت أسأله وألح فى السؤال أن يحفظ علىّ هذه النعمة حتى ألقاه بها غير مفرط ولا مبدل.

ونصيحة أقدمها إلى من يريدون أن يحتفظوا بما وفقهم الله إليه من حفظ القرآن كله أو بعضه هي أن وسيلة ذلك أن يرتبوا لأنفسهم ورداً يومياً دون انقطاع مما يحفظون يقرأونه على أنفسهم. وهذه هي الوسيلة الوحيدة وإلا تعرضوا لمثل ماتعرضت له فيما بين

معتقلى ١٩٥٤، ١٩٦٥ وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «تعهدوا هذا القرآن فوالذى نفسى بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل فى عقلها».

٦ ـ وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإن هذا الحديث الذى سقناه عن التجرد يذكرنا بأخ كريم كان معنا فى العنبر وكان أكبرنا سناً، وأعظمنا بلاءً، وأجملنا صبراً.. كان الرجل إذ ذاك قد جاوز العقد السابع من عمره، وكان مع ذلك أكثرنا نشاطاً، وأوسعنا أملاً، وأنشطنا فى العبادة.. ذلك هو الأخ الكريم الدكتور أحمد القاضى.

ومع أن الطعام الذى كان يقدم إلينا لايقيم أوداً؛ فإن هذا الرجل ظل طول مدة اعتقاله فى هذا السجن صائماً لايفطر. حتى إن بعض زملائنا من الشبان فى العنبر أخذوا يقتدون به ويصومون معه، ولكنهم لم يستطيعوا المواصلة فى حين أنه لم ينقطع.

أما أنا فقد وجدت الصيام مع هذا الطعام التافه سيحول بينى وبين إتمام مقصدى الأسمى من التوفر على حفظ الكتاب الكريم؛ فلم أشترك مع إخواننا هؤلاء إلا قليلاً. ولكننى عزمت على أن آخذ نفسى بشيء من هذه العبادة بعد الإفراج عنى، وكان هذا الشيء أن أصوم يوماً واحداً فى الأسبوع لاأزيد عليه ولا أنقص عنه اهتداء بقول رسول الله ﷺ «خير الأعمال أدومها وإن قل» وقد وفق الله عز وجل إلى تحقيق هذه العزيمة وأسأله أن يعيننى على المواظبة حتى ألقاه.

٧ ـ المباحث والمخابرات:

أشرت فى صفحات قريبة إلى أننى قبل أن أعتقل هذه المرة بفترة قصيرة، حضر إلى منزلى ضابط المباحث المرحوم الأستاذ عبد العزيز الصوابى وفتش المنزل وأخذ كميات كبيرة من الصحف والكتب والمجلات. وقد سألته فى تلك الليلة عما إذا كان هذاالتفتيش مقدمة لاعتقالى حتى أستعد وأحضّر حقيبتى فنفى ذلك وقال لى: إننى قمت بهذا التفتيش حتى لاأجعل للمخابرات حجة علينا؛ فلا يصح أن تقوم المخابرات باعتقال زوج أختك الأستاذ مصطفى كال من منزلكم برشيد ثم لايفتش منزلك بالإسكندرية. فقلت له: إننى كنت معتقداً أن الأستاذ مصطفى اعتقل بواسطة رجال المباحث العامة فى دمنهور فقال: لا.. إن المخابرات العامة أرسلت عدداً من رجالها من القاهرة إلى رشيد لاعتقال الأستاذ مصطفى دون أن نعلم أو نتدخل.. كل دورنا أنهم سألونا عن مقر الأستاذ مصطفى فأجبناهم بأنه فى منزل أنسبائه فى رشيد.

كانت هذه المناقشة التى دارت بينى وبين المرحوم الأستاذ عبد العزيز الصوابى أول شيء لفت نظرى إلى أن للمخابرات هذه المرة ضلعاً فى الاعتقالات. وتعجبت من قوله إنهم لم يكونوا يعلمون شيئاً عن اعتقال الأستاذ مصطفى. ثم جاء اعتقالى شخصياً بعد

ذلك — وقد نفى الأستاذ الصوابى حدوثه — مفسراً لما جاء بحديثه.

ولما نقلنا إلى سجن «أبو زعبل» وأقمنا به فترة من الزمن؛ جاء إلى عنبرنا موظف مدنى يبدو أنه كان مرموقاً لأنه كان يمشى خلفه جندى من جنود السجن مما يشعر بأنه ذو حيثية ومكانة، ثم تقدم الجندى إلى باب العنبر وسأل عن اسم أحد المعتقلين فأجابه الأخ فإذا بهذا الموظف يتقدم نحوه ويصافحه ويعانقه ثم رأيت عدداً من «بلديات» هذا الأخ من زملائنا بالعنبر يتقدمون ويصافحون الموظف ثم طلبوا إلىّ أن أصافحه وأجروا التعارف بينى وبينه؛ فتبين لى أنه من أسرة كريمة من أسر هذا البلد وأنه موظف بمخابرات رياسة الجمهورية.. وقد تحدث إلى مواطنيه حديثاً طويلاً ولكننى كنت حريصاً على أن أتحقق مما فهمته من مناقشتى للأستاذ الصوابى.

ولم يكتمنى هذا الشاب ماعرف أننى أتوق إلى معرفته؛ فقصّ علىّ القصة التى مؤداها أن المخابرات اتهمت المباحث العامة بالكسل والتراخى فى أداء مهمتها، وكادت تتهمها بالتغافل عما يدبر من مؤامرات ضد الدولة. واقتنعت الجهات العليا بصحة هذا الاتهام بالرغم من دفاع المباحث عن نفسها.. ونقلت قيادة الكشف عن المؤامرات من يد المباحث العامة إلى يد المخابرات العامة، ثم نقلت إلى فرع أساسى من فروعها هو مخابرات رياسة الجمهورية..

ثم قال: إن دور المباحث العامة هذه المرة هو الدور التنفيذى الذى ترسمه لها مخابرات رياسة الجمهورية، لأن هذه المخابرات هى التى كان لها الفضل فى كشف المؤامرات التى كانت تدبر ضد الدولة، وهى التى أمرت باعتقال كل من اعتقل هذه المرة.

وقال: إننى موفد من قبل مخابرات رياسة الجمهورية لإعداد العدة لعقد اجتماعات لجميع المعتقلين بهذا السجن تقدم إليهم فيها أسئلة مكتوبة ويطلب إليهم الإجابة عليها كتابة.

وكان فعلاً ماقال هذا الشاب.. فبعد حديثه هذا ببضعة أيام عقدت هذه الاجتماعات وقدمت الأسئلة وأجبنا عليها. والأسئلة تدور حول صلة المعتقل بالإخوان المسلمين. وأسباب اعتقاله، وتاريخ الاعتقال، وتاريخه فى الإخوان المسلمين، والأماكن التى يغشاها بعد الإفراج عنه، ونحو ذلك.

وكان واضحاً مما يجرى فى هذا السجن أن الجهة المسيطرة عليه جهة أعلى مركزاً وأقوى نفوذاً من المباحث العامة ومن أدلة ذلك أنه فى أثناء وجودنا فى هذا السجن جىء بشخصيات لم يكونوا ممن يدخلون فى أفق المباحث العامة وعذبوا وشرحت أجسامهم بالسياط وسمعنا صراخهم كصراخ النساء ومنهم صلاح الدسوقى الذى كان أحد عتاولة

الثورة المتصدرين فى سنة ١٩٥٤ لتعذيب الإخوان بالنفخ والكى، والذى كان منذ استقرت الثورة محافظاً للقاهرة، منحوه هذا المنصب نكاية فى زميله الأخ الضابط صلاح شادى.

٨ ــ قضية سنفا:

كتبت تحت هذا العنوان لأن العنبر الملاصق لعنبرنا كان يطلق عليه «عنبر سنفا ــ وكان لسنفا هذه ضجة فى عام ١٩٦٥. وقد تابع الرأى العام اتساع نطاق الاعتقالات على ذمة هذه القضية باعتبارها قضية خطيرة لقلب نظام الحكم بالقوة. ويكفى لتصور مدى اتساع الاعتقالات لحساب هذه القضية أن العنبر الملاصق لعنبرنا وعدد نزلائه أكثر من مائة كلهم اعتقلوا على ذمة هذه القضية. ومع ذلك فهناك عدد آخر أودعوا السجن الحربى.

أما نحن ــ نزلاء سجن «أبو زعبل» فقد كان لكل عنبر شأن يغنيه عن الالتفات إلى من يجاوره.. ولكن وجود أبواب العنابر بالوصف الذى وصفته هو الذى لفت نظرنا إلى هذا العنبر المجاور لنا بالذات.. لأنه لم يكن يمضى يوم تقريباً حتى تقوم إدارة السجن بتكدير هذا العنبر. وإحدى صور هذا التكدير التى لابد منها عادة هى إخراج نزلاء هذا العنبر فى طابور جرى بالخطوة السريعة فى الطرقة الممتدة أمام عنابر الدور الثالث الذى نسكنه وملاحقتهم بلذعات من سوط أو ضربات بعصا.. وقد كنا نعتقد أن تخصيص هذا العنبر بالذات بهذا التكدير المستمر يرجع إلى أن نزلاءه متهمون على ذمة القضية المسماة بقضية سنفا.

وقد لفت نظرى والطابور يجرى أمام بابنا أن لمحت زوج شقيقتى الأستاذ مصطفى كمال بينهم.. وكان قد اعتقل قبلنا بفترة حيث اعتقل فى أواخر يوليو ١٩٦٥.. ومع أننى رأيته والعنبر ملاصق لعنبرنا فإننى لم أستطع أن أتصل به طيلة الفترة التى قضيتها فى هذا السجن؛ لما كان فى ذلك من مخاطرة فضلا عن الاستحالة. ولكننى كنت فى حيرة ماالذى جاء به فى هذا العنبر، وما علاقته بقضية سنفا، وسنفا هذه قرية من قرى محافظة الدقهلية؛ بعيدة كل البعد عن القاهرة التى هى موطنه وعن رشيد التى هى موطن زوجته.. ولم أستطع أن أصل إلى حل لهذا اللغز حتى التقينا بعد أن انقشع ظلام الإرهاب الحكومى فسألته.

وقبل أن أنقل للقراء حل هذا اللغز أذكرهم بما كان قد دار بينى وبين المرحوم الأستاذ عبد العزيز الصوابى ضابط المباحث العامة حين حضر لتفتيش منزلى بالإسكندرية وأخبرنى أنه يفعل ذلك لأن زوج شقيقتى اعتقل من منزلنا برشيد. فلما سألته عن سبب اعتقاله

أخبرنى بأنه لايعرف عن هذا الموضوع شيئاً لأن الذين اعتقلوه أرسلتهم المخابرات العامة من القاهرة إلى رشيد لاعتقاله.

ثم أرجع بعد ذلك إلى ماكنت بصدده من استفسارى من الأستاذ مصطفى كمال عن سبب اعتقاله حيث أجابنى بقوله:

كنت بمنزلكم برشيد فى إجازتى الصيفية أستمع إلى خطاب جمال عبد الناصر بالراديو فى ذكرى ٢٦ يوليو ١٩٦٥ وكان يتوعد فى خطابه أعداء الشعب. ولم أكن أتصور وقتها أنه يقصد الإخوان.. ولم يمر يومان حتى حضر إلينا زبانيته إلى رشيد ليلقوا القبض علىّ دون أن أعرف لذلك سبباً. وفوراً رحّلت إلى مديرية أمن دمنهور حيث قضيت الليل.. وفى أول قطار صباحاً رحّلت إلى القاهرة وإلى إدارة المباحث العامة. وبقيت مع حارسى على باب اللواء حسن طلعت حوالى ثلاث ساعات كان يخرج من مكتبه كل فترة ليتفرس فى وجهى ثم يدخل مغيظاً دون أى سؤال.. وبعد ذلك أحضر حارس آخر شخصين لاأعرفهما ــ وحوالى الظهر رحلنا ثلاثتنا إلى السجن الحربى واستقبلنا بما هو معروف عن هذا المكان البغيض.

وقد نال أكبرنا سناً أشد الإهانة فى الاستقبال من الصول صفوت الروبى وبأمر من اللواء حمزة البسيونى. وكان ذنب هذا الرجل أنه لم يكن يعرف نظام وأدب الدخول.. ثم ساقونا نحن الثلاثة إلى سجن رقم ٤ حيث أودع كل واحد منا فى زنزانة ــ سجناً انفرادياً، وبقينا هكذا حوالى ٢٥ يوماً.. وكانت الزنزانة المجاورة لزنزانتى معدة لاستقبال الذين يحقق معهم بوجبات من الضرب بالكرابيج مابين ٢٠٠، ٣٠٠ كرباج ثم يلقى بالمتهم جثة تنزف دماً من جميع أجزائها وتئن أنيناً موجعاً.. وكل يوم كان يمر أتوقع أن دورى قد قرب. ولم أستطع فى هذا الجو أن أتبين شخصية أحد من نزلاء سجن رقم ٤.

وبعد ٢٥ يوماً أخرجونا من الزنازين وساقونا إلى مبنى السجن الكبير حيث حبسنا حبساً انفرادياً لمدة أسبوع ــ ثم نودى علىّ ضمن مجموعة من الأفراد حيث ساقونا مجتمعين إلى مخزن كبير فى مدخل السجن الكبير وجدت به عدداً كبيراً من الأشخاص تبينت منهم بعض الإخوة أصحاب وموظفى شركة التوكيلات التجارية للنقل، والأخ سعد كمال والأخ محمد الجريسى أما الأشخاص الآخرون فكانوا كثيرين وعرفت أنهم من قرية سنفا بجوار ميت غمر دقهلية.

وقد أخبرنى هؤلاء الأشخاص أنهم عذبوا عذاباً شديداً خلال الأيام الماضية وأنهم كانوا يسألونهم عن أشياء لاعلم لهم بها ولا يعرفون عنها شيئاً. وبالتحدث معهم وجدت أنهم مجموعة من الشباب منهم فلاحون أميون ومنهم مدرسون ومنهم طلبة فى الجامعة كانوا

يقضون إجازاتهم فى قريتهم كما كنت أنا الآخر أقضى إجازتى فى رشيد.. وقد فوجئت بأن رأيت فى وسطهم الرجل الكبير الذى دخل معى السجن الحربى فى يومه الأول وعرفت منه أنه ناظر مدرسة وكان قد حضر من القرية إلى القاهرة لزيارة ولده الطالب بكلية العلوم. ولما جاء الزبانية فى ذلك اليوم للقبض على ولده فلم يكن موجوداً فى ذلك الوقت فأخذوا الوالد ولقى مالقى من عذاب وإهانة.

وبعد حوالى أسبوع فى هذا المخزن جاءوا ليقولوا لنا: ليس ضدكم تهم وقد صدر أمر الإفراج عنكم. فاعتقدنا أنه إفراج حقاً، وأركبونا أوتوبيس ومعنا الحرس وأنزلونا فى مبنى وزارة الداخلية.. وبعد عدة إجراءات ركبنا ثانية وإذا بنا نرى أنفسنا فى سجن «أبو زعبل».

وحشرنا حشراً داخل إحدى الحجرات التى لاتتسع لأكثر من ٣٠ شخصاً حيث بلغ عددنا أكثر من مائة.. ولأن معظم الموجودين بالحجرة من قرية سنفا، ولأنهم ليسوا من الإخوان المسلمين ولم تكن تجمعهم فكرة أو مبدأ، وكل الذى يجمعهم أنهم أبناء قرية واحدة؛ فقد كانوا كثيرى العراك بعضهم مع بعض وترتفع أصواتهم مما أثار ضباط السجن فكانوا يخرجوننا يومياً ليذيقونا من ألوان الإيذاء والإهانة.

ولم أكن قد عرفت لماذا اعتقلت، وما هى قضية سنفا بالذات.. حتى جمعتنى الظروف أخيراً بأحد الذين كان قد وجه إليهم الاتهام وهو الأخ يحيى القللى وكان موظفاً فى شركة التوكيلات التجارية للنقل.. وعرفت سر اعتقال موظفى هذه الشركة؛ فقد عرفت منه أنه كان ينقل بضاعة بسيارة من سيارات الشركة لأحد الأشخاص — ولا أذكر اسمه الآن — وكان لهذا الشخص معاملات مع بعض أشخاص فى قرية سنفا — وتخيلت أجهزة المخابرات أن هذه الصلة مقصود منها العمل على قلب نظام الحكم بالقوة لاسيما وأن من البضاعة التى كنا ننقلها لعب أطفال وتحتوى على مايلعب به الأطفال من بمب وصواريخ ومسدسات ونحوها.

يقول الأستاذ مصطفى كمال: ودارت القضية حول نشاط يحيى القللى مع بعض من تعامل معهم فى قرية سنفا من التجار ومن حولهم. وكان من نصيبى أن اعتقل لالشىء إلا لأننى كنت متهماً مع يحيى فى القضية التى لفقت ضدنا فى عام ١٩٥٤. كما اعتقلوا جميع من كان يعمل فى شركة التوكيلات من أول مديرها إلى أصغر سائق فيها وتباع.

ثم يقول: كان الذين قاموا باعتقال المجموعات الأولى فى عام ١٩٦٥ هم رجال المخابرات، وكانوا يتفاخرون على رجال المباحث العامة بأنهم أصحاب السبق فى كشف الكثير من القضايا والمؤامرات — فى زعمهم — ضد نظام الحكم.. ومع ذلك لم تسفر جهودهم عن شىء رغم مالقى الناس فى السجن الحربى والمعتقلات من ظلم وعذاب

وآلام.

قضية كرداسة:

ويمكن أن يكون هذا العنوان «مذبحة كرداسة» كما يمكن أن يكون «مهزلة كرداسة» أما العنوان الأخير فإنما يقصد به وصف للعهد، وقد حدثت هذه المهزلة وصهرى الأستاذ مصطفى فى السجن الحربى وقد راعه مارأى حين جاءوا إلى السجن بأهل كرداسة وفعلوا بهم الأفاعيل.. وقد قصَّ علىّ الأستاذ مصطفى مارآه بعينيه ثم ماسمعه منهم وقد وجدته مطابقاً لما قرأته فى كتاب «الموتى يتكلمون» فرأيت أن أنقله إتماماً للفائدة:

كان من بين الأسماء التى ذكرها على عشماوى (أحد المتهمين فى قضية قادة التنظيم سنة ١٩٦٥) اسم «السيد نزيلى» على أنه مسئول عن مجموعة الإخوان فى إمبابة.. ويقيم فى كرداسة.. وتوجهت مع غروب الشمس يوم ٢١ أغسطس مجموعة من زبانية المباحث الجنائية العسكرية بملابسهم المدنية إلى القرية الهادئة فى إمبابة.. كان عددهم ثمانية.. وسألوا عن منزل السيد نزيلى.. واعتقد أهالى القرية أنهم أصدقاء له حضروا لتهنئته بزفافه فقد كان زفافه تم قبل ذلك بأيام.. وتوجهوا إلى المنزل.. واقتحموه عنوة.. ولم يكن السيد نزيلى موجوداً.. كانت عروسه فقط هى التى بالمنزل مع شقيقه عبد الحميد.. وسألوا عن السيد، ولما علموا بعدم وجوده تفرقوا فى غرف المنزل يفتشون وينهبون.. وكانت هذه عادتهم بجانب البحث عن أى أدلة، يبحثون عن المال والمصوغات.. يقدمون الأدلة إن وجدت وأغلبها الكتب الدينية إلى رؤسائهم، ويخفون فى جيوبهم المال والمصوغات..

واعتقد عبد الحميد أن الثمانية عصابة من اللصوص.. خرج إلى الشرفة يستغيث، وتجمع أهالى القرية.. وأراد الثمانية اصطحاب عبد الحميد وعروس شقيقه إلى السجن الحربى ليضطر السيد نزيلى إلى تسليم نفسه.. واعتقد الأهالى أن الثمانية يخطفون ابن قريتهم وعروس شقيقه.. وتصدى كل أهالى القرية للثمانية.. ونشبت معركة رهيبة انتهت بهروب سبعة من الثمانية أما الثامن فقد سقط قتيلاً..

وبعد ساعة.. تحرك موكب من المصفحات إلى القرية الساكنة وأكثر من ألفى جندى من جنود الجيش فى حملة تأديبية للقرية وأهلها الذين تجرأوا على «ضرب الحكومة» وكانت أوامر الحملة صادرة من شمس بدران (الذى استطاع الهرب حالياً إلى انجلترا لينعم بالملايين التى سرقها من مال الشعب وتمكن من تهريبها..) وتحولت القرية إلى ساحة معركة.. واستمر دوى الرصاص طول الليل.. والصرخات.. صرخات الرجال والنساء والأطفال تنطلق إلى السماء تحمل الأنين والشكوى إلى الخالق العظيم..

وتم تفتيش كل منازل القرية.. ونهب كل قرش فى كل بيت.. ثم تم جمع الرجال وربطهم بالحبال كقطيع ماشية، واقتادوهم إلى اللوريات لتنقلهم إلى السجن الحربى.. وفى لوريات أخرى تم تجميع الزوجات والأمهات واقتدن أيضاً إلى السجن الحربى..

وفى فناء السجن.. جمعوا الرجال.. ووقف الفريق محمد فوزى يستعرض «السبايا» وكأنه قائد جيش يستعرض أسرى جيش الأعداء.. وكان الرجال وقوفاً.. وصرخ فيهم مايسترو التعذيب صفوت الروبى أن يركعوا أمام القائد ويسجدوا.. وانهالت الكرابيج على ظهورهم..

ثم صدرت الأوامر أن تمتطى كل امرأة من كرداسة ظهر زوجها أو أبيها أو جارها.. وأن يحبو الرجال ــ والنساء فوق ظهورهم ــ فى الفناء.. بينما اصطف عدد آخر من أهالى كرداسة على هيئة دائرة وصدرت إليهم الأوامر أن يصفع كل منهم جاره، ويبصق فى وجهه.. ولاحظ السجانون أن بعض الصفعات ضعيفة.. فكانوا يلهبون أصحابها بالكرابيج..

وكانت تلك صورة ماتعرض له أهالى كرداسة الذين اقتيدوا إلى السجن الحربى ليبقوا بداخله تسعة وعشرين يوماً يكررون فيها المشاهد السابقة.. أما نفس القرية فقد احتلتها قوات من المباحث الجنائية العسكرية وأصدرت أوامرها أن يلزم الكل منزله لايغادره أبداً.. وأغلقت المساجد وأمرت بتعطيل الصلاة.. وتصادف أن مات أحد شيوخ القرية وهو محمد عبد العزيز حيدر.. ورفض رجال المباحث الجنائية العسكرية دفنه.. وبقى فى فراشه ثلاثة أيام حتى تعفنت جثته.. وعندما صدرت الأوامر بأن يتم دفنه خرج نعش الرجل يحمله أربعة رجال فقط ولا يتبعه أحد إلى المقابر.

٩ ــ إفراجات:

فى خلال فترة إقامتنا فى «أبو زعبل» نودى مرتين؛ كل مرة على عدد من الإخوان نحو الخمسين أو الستين من الإخوان الكرام الذين ذكرت أنهم لم يكونوا فى يوم من الأيام هدفاً لاعتقال.. وسلموا أماناتهم وهنأناهم بالإفراج.

وفى منتصف أكتوبر نودى على عدد كبير من الإخوان يبلغ بضع مئات، أكثرهم من الإخوان ذوى النشاط وفيهم مجموعة كبيرة من إخوان الإسكندرية وكنت منهم، كما كان منهم الإخوة الأساتذة نجيب عبد العزيز ومحمود السعدونى ومحمد فهمى القراقصى وغيرهم من خيرة إخوان الإسكندرية والقاهرة وبعض الأقاليم.. وأمرنا بتحضير حقائبنا، وسلمتنا إدارة السجن أماناتنا وقدمت لنا التهنئة بالإفراج كما فعلوا مع المجموعات السابقة. وجلسنا فى فناء السجن ننتظر حضور السيارات التى تقلنا. وجلس الإخوان من حولى يتحدثون

وبحات السرور على وجوههم وفى ثنايا حديثهم للإفراج الذى جاء مبكراً.

وجلست أنا شارد الذهن، أحدث نفسى حديثاً لاأجرؤ أن أبوح به؛ لأنه يعكر صفو إخواننا المسرورين بالإفراج. وحديثى لنفسى دار على نحو قريب من هذه المعانى: هل صحيح أن هذا إفراج؟ إن هذا يتعارض مع سياسة الحكومة نحونا.. إذا كانوا يريدون الإفراج عنا بعد نحو شهر فلم إذن كان الاعتقال؟ وهل هناك ضغط على الحكومة؟ ممن يكون الضغط وكل حلفاء الحكومة أعداء لنا يتربصون بنا الدوائر؟... وإذا كانوا يريدون بالإفراج الدعاية لكسب الرأى العام فقد حصلوا على هذا الكسب بالإفراج عن الذين ليس لهم معهم تاريخ.. أما هذه الدفعة فأكثرها ممن كان لهم دور معهم.. إننى عقلاً لاأتصور أن يكون هذا إفراجاً.

ثم إن هناك الرؤيا. والرؤيا كما يقول رسول الله ﷺ «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».. هذه الرؤيا حددت تاريخ الإفراج باليوم والشهر والسنة، والشك الوحيد فى تفاصيلها محصور فى اسم الشهر الذى يقع فيه الإفراج فهو إما نوفمبر وإما ديسمبر ونحن الآن فى أكتوبر.. وإذن فلن يكون هذا إفراجاً بحال.. إذن فماذا يكون؟ هذا ماأقف أمامه حائراً.

* * *

ومضت الساعة تلو الساعة ونحن فى انتظار السيارات.. حتى جاءت فتهللت وجوه إخواننا. ولكننى كنت حائراً لايرتسم على وجهى شعور إلا شعور الريبة والشك والحيرة، وشعور آخر هو شعور الحرج من المكاشفة بما يدور فى داخل نفسى..

وركبنا السيارات.. وكانت بضع سيارات. وكان معنا عدد لابأس به من الطلبة والشباب الذين لايستطيعون فى كل موقف إلا أن يظهروا شعورهم. ولما كانوا يشعرون بالسرور، فقد أظهروا ذلك فى عدة أساليب من المرح المباح.. وبقدر ماكانت هذه الأساليب تثير البهجة فى نفوس زملائنا من الإخوان الكبار وتشيع المتعة فى جميع السامعين؛ كانت تثير الألم فى نفسى لإشفاقى على هؤلاء الإخوة الكرام حين لايتحقق لهم ماينتظرون، وحين يفاجأون بمالم يكونوا يحتسبون.

وسارت السيارات، وواصلت السير، وقطعت بنا وقتاً طويلاً، ومسافات شاسعة. والإخوان مستغرقون فى لهو برىء.. حتى تنبه بعضهم فجأة فنظر فى ساعته فوجد أن الوقت الذى مضى كان ينبغى أن يوصلنا إلى طريق كذا وإلى بلدة كذا، ولكن معالم الطريق الذى نحن فيه تختلف عن ذلك كل الاختلاف فما هذا الالتواء فى السير وإلى أين نحن سائرون؟

وهنا بدأت عقارب الشك تدب إلى نفوس الإخوان.. وخفتت أصوات الشباب المبتهج، وأخذ الجميع يتهامسون. وبدأت أدعو الله أن يربط على قلوب إخوانى حتى يتحملوا هذه الصدمة.

ابتكار شيطانى جديد:

ويبدو أن السادة الجدد الذين ألقى إليهم بقياد الحملة الجديدة على الإخوان من رجال مخابرات رياسة الجمهورية— تهتكاً منهم فى فنون الإيذاء والتنكيل— أرادوا أن يبهروا سيدهم الكبير بابتكارات يعجز الشيطان عن مثلها.. وكان من ابتكاراتهم التلاعب بالنفس الإنسانية، وإيصال الإيذاء إلى صميم هذه النفس مباشرة بدلاً من توقيع الأذى على البدن فلا يصل هذا الأذى إلى النفس أذى، وإنما يصل إليها مجرد شعور بالألم؛ فإذا طاب البدن— وسرعان مايطيب— برئت النفس من شعورها بالألم واستوت على ماكانت عليه.. أما إذا وقع الأذى على النفس توقيعاً مباشراً فإن النفس تمرض.. وإذا مرضت النفس فقلما تبرأ، وقلما ترجع إلى ماكانت عليه.. ومن هنا كان الفرد من الإخوان الكرام يعذب بمختلف ألوان التعذيب بإيذائه فى بدنه بكل وسائل الإيذاء حتى يتقطع لحمه ويتناثر هنا وهناك، ويعلق مقلوباً.. فيتحمل كل هذا ولا يعترف بما يريدون.. فإذا يئسوا من الوصول معه إلى مايريدون لجأوا إلى التعذيب النفسى؛ بأن يحضروا زوجته ويهددونه بهتك عرضها؛ فترى هذا الذى تحمل من التعذيب البدنى ماتنوء به الجبال لم يقو على تحمل مجرد التهديد بهذا اللون من التعذيب النفسى؛ فيذعن فى الحال ويوقع مايشاءون من اعترافات تؤدى به إلى الإعدام.

ومن هذا الباب قولهم «إن أعظم مصيبة تصيب الإنسان هى الفقد بعد العطاء؛ فالفقير مهما طال به الفقر حتى لو قضى حياته فقيراً؛ فإن نشرءه فى الفقر وتقلبه فى رغامه، وإلفه معاشرته لايكاد يشعره بمرارة.. أما إذا افتقر الموسر فإنه يحس لهذا الضيف الذى حل بساحته بمرارة قد تقضى عليه.. وكذلك المسجون مهما طالت أيامه فى السجن فإنه لايكاد يحس بمرارة سجن ألفه وعرف أنه ممس فيه ومصبح.. أما إذا مُنّى بالحرية، وأوهم بالإفراج، وطلب إليه أن يعد نفسه للذهاب إلى بيته، وانهال عليه المهنئون حتى قدم إليه التهانى هيئة إدارة السجن.. فإذا تبين له فجأة أن كل هذا لم يكن إلا خدعة؛ فإن ذلك يجرح نفسه جرحاً عميقاً يعز على البرء، ويستعصى على الشفاء، ويولد فى نفسه حسرة تستقر فى سويداء قلبه، وتكسو نظرته إلى الأمور لوناً أسود قاتماً. وحين يستولى عليه اليأس فيرى الدنيا كلها سوادا؛ يسلمه هذا الشعور إلى التخلص من الحياة بأسلوب أو بآخر.

هذا ماأراده السادة الجدد وما هدفوا إليه من أسلوبهم هذا المستحدث.. ولكنهم نسوا

أنهم إنما يتعاملون مع مؤمنين وصفهم ربهم بقوله ﴿**إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون**﴾.

ظل الإخوان فى سياراتهم فى حيرة من أمرهم وهم لايكادون يصدقون أن الوعود التى وعدوها كانت برقاً خُلَّباً وخداعاً ماكراً إلا بعد أن رأوا السيارات تدخل بهم فى بناء متهالك قديم، وطلب منهم أن ينزلوا من السيارات ومعهم متاعهم. ففعلوا وهم لايعرفون أين نزلوا وما هذا البناء القديم. وبعد نحو ساعة من نزولهم والحسرة تقطع قلوبهم علموا أن هذا البناء القديم هو سجن مزرعة طره.

وهنا ازددت بالله إيماناً حيث سارت الأمور حتى ذلك اليوم مصدقة الرؤيا التى قال عنها النبى ﷺ إنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة.

* * *

الفصل الثالث

فى سجن مزرعة طـره

دخل الإخوان هذا المبنى وهم لايكادون يستطيعون الوقوف على أقدامهم من شدة هول المفاجأة ؛ لاسيما بعد أن علموا أن المبنى سجن آخر .. كادت تتمزق نفوسهم ، وتطير قلوبهم شعاعاً لولا بقية من إيمان بالله تتبدد على عتبته سحائب اليأس، وتتحطم على صخرته جيوش الهموم.

بدأوا المشوار من جديد.. أُخذت بياناتهم، وتسلمت أماناتهم، وقيدت أسماؤهم، وقسموا أقساما فى عنابر، على أن يشغل كل عنبر مجموعة اعتقلت من محافظة واحدة، وكان نصيبى هذه المرة أن أكون فى عنبر إخوان الإسكندرية وإن كان إخوان الإسكندرية قد شغلوا أكثر من عنبر، والعنبر يضم مائة معتقل.

ولست أدرى هل كان العاملون فى إدارة السجن ملمين بظروف هؤلاء النزلاء الجدد الذين وردوا إليهم فى تلك الليلة أم أنهم ألموا بها من أفواه هؤلاء النزلاء حين واجهوهم لأول مرة فلاحظوا أنهم فى حالة هى أقرب إلى أن تكون انهياراً عصبياً، وبالتفاهم معهم ألموا بما حاق بهم من كيد وما دبر لهم من صدمة.. على أى حال لقد كان الضباط المسئولون عن إدارة هذا السجن يتحدثون معنا حديث المقدرين لما أصابنا والمواسين فى المصيبة التى نزلت بنا.. وقد يكون هذا إلهاماً من الله لهؤلاء الناس حتى يخففوا من وطأة الصدمة، وما أضيق العيش لولا فسحة الأمل.

ألقى الضباط فى روعنا أننا إنما أحضرنا إلى هذا المكان لقضاء أسبوع واحد تمهيداً للإفراج النهائى.. وفى الوقت الذى وقع كلام الضباط على أعصاب إخواننا برداً وسلاماً فاستطاعوا أن يخلدوا إلى النوم بعد أن كان قد طار من عيونهم ؛ تلقيت هذا الكلام على أنه نوع من المواساة يستحق عليها الضباط كل ثناء لأن الرؤيا عندى هى الأصدق وهى قد حددت الميعاد أدق تحديد.. ولكننى مع ذلك ظللت حريصاً على أن لاأكاشف الإخوان بها حتى لاأدخل اليأس فى قلوبهم، لاسيما والميعاد المحدد ليس بالقريب وأكثرهم لم يعد

يستطيع أن يتحمل أن يسمع عن تأجيل الإفراج يوماً واحداً.

معالم هذا السجن

وهل اختير للإخوان عفوا ؟

وقبل أن أسترسل فى حديث الترجمة عن مشاعر الإخوان التى كانت هى الوتر الحساس الذى يضرب عليه عازفو قطع العذاب بدون رحمة؛ يحسن بى أن أتحدث عن معالم هذا السجن حتى تكون صورته واضحة فى مخيلة القارىء. لاسيما وفى هذا السجن من المعالم مالا يتصوره قارىء يعيش فى القرن العشرين، بل ماقد لايصدقه القارىء إذا ماصورته له ولا يحمله إلا على أنه نوع من الأساطير.

صورة هذا السجن مغايرة تمام المغايرة لسجن «أبو زعبل» ومضادة له كل التضاد.. فهذا سجن قديم مضى على بنائه مايربو على مائة عام؛ أرض فسيحة شاسعة من الأراضى الزراعية، مبنى عليها صف طويل من دور واحد من العنابر المتلاصقة العالية السقوف ذات النوافذ القريبة من السقوف — وأمام هذه العنابر صف من حجر مختلفة المساحات منها مايشبه العنابر ومنها مايشبه الزنزانات. وفى بعض هذه الحجر مكاتب لإدارة السجن وبجانبها شفخانة السجن، كما يوجد قريباً منها المطبخ — ويحيط بهذه المبانى أرض شاسعة مزروعة يبدو أن السجن قد اكتسب اسمه منها.. وفى جانب من هذه المزارع ترى مبان جديدة تشبه أن تكون صالات.

وعنابر هذا السجن فى سعة عنابر سجن «أبو زعبل» إلا أنها بناء عتيق من طبيعته أن لايكون نظيفاً: جدراناً وسقوفاً وأرضاً. فإذا علمت أن وسائل التنظيف منعدمة لاوجود لها فلك أن تتصور مدى قذارتها — وأرضية العنابر من الإسفلت الخشن — ولا داعى لتكرار ماقلته من قبل من سعة مثيلاتها فى سجن «أبو زعبل» وما حملته أكثر من سعتها من النزلاء؛ حيث كان هذا هو العيب الوحيد فيها؛ ولكن عنابر هذا السجن لاتصلح حتى أن تكون اصطبلات للخيل والحمير؛ ولا داعى بعد ذلك إلى القول بأن الواحد منها يصلح لسكنى عشرين مسجوناً ولكننا حشرنا فيه مائة.. والضوء فى هذه العنابر شديد الخفوت مهما كانت الشمس مشرقة لأنها دور أرضى ويخيل إلىّ أن السجن فى مجموعه منخفض عن أرض الطريق العام. وباب العنبر صغير ومن الخشب المصمت، وهو مغلق دائماً إلا فى لحظات معينة. وكان الباب فى «أبو زعبل» يلعب دوراً هاماً فى التهوية حيث ينطلق الهواء من النوافذ إليه فى تيار متجدد.

ومهما يكن من أمر فإننا نحن الإخوان المسلمين قد أخذنا أنفسنا من أول أيامنا فى

هذه الدعوة على أن نعيش فى مختلف الظروف والبيئات؛ ننام على الأرض وعلى البلاط وعلى الأسفلت بدون فراش ولا وسادة ولا غطاء، كما ننام على الأسرة الوثيرة الفراش الدافئة الغطاء؛ لانكاد نحس للتغير مايحسه المترفون. ولذا فإن السطور التى أومأت فيها لوصف المكان الذى انتقلنا إليه لم يكن الهدف منها أن أشعر القارىء بأن شيئاً من الامتعاض قد ألم بنا، وإنما قصدت أن أقدم إليه صورة المكان الذى انتقلنا إليه حتى يتمشى بمخيلته معنا فى كل خطوة تمهيداً لسماع ماأشرت إليه فى السطور الأولى من هذا العنوان مما قد لايتصوره ولا يخطر له ببال.

إذلال مهيـن:

قدمت أن الإخوان لايضيقون ذرعاً بضيق المكان ولا بسعته، ولا بخشونة العيش ولا بنعومته، ولا بقلة الطعام ولا بكثرته، ولا برداءته ولا بحسنه. كما لايضيقون ذرعاً بالجوع ولا بالعرى ولا بالحر ولا بالبرد؛ فإن هذه أمور أخذوا أنفسهم بها من قبل واستطاعوا أن يوطنوا أنفسهم على كل الأحوال فى معسكرات الجوالة وفى ليالى الكتائب وفى رحلات الدعوة وغيرها من الأساليب التى عالجوا بها نفوسهم حتى أسلمت لهم قيادها.

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا ترد إلى قليل تقنع

وأعداء الإسلام من الحكام القدامى والجدد جربوا ذلك فى الإخوان وأيأسهم صبرهم وجلدهم على كل ماتعرضوا له من سهل وصعب وحلو ومر.. فلجأ فريق المتخصصين فى فنون التنكيل والتعذيب إلى ابتداع أسلوب جديد؛ ليس فيه ضجة التعذيب بالضرب والكى بالنار والنفخ بالمنفاخ، ولا يبذل القائم بالتعذيب فيه جهداً ولا وقتاً ولا انفعالاً، ولا يتكلف حتى فى الآلات التكنولوجية الحديثة ثمناً لكهرباء ولا إهلاكاً للآلات؛ كما أنه لايترك فى أجسام المعذبين آثاراً تشهد فى يوم من الأيام على التعذيب وتفضح الطغاة.

لقد لقينا فى السجن الحربى مالقينا، ولقينا فى سجن «أبو زعبل» مالقينا، ووصل التعذيب إلى الموت أو مايقارب الموت.. ولكن حاجات الطبيعة البشرية كانت ميسرة باعتبار ذلك أمراً متفقاً عليه يخرج من دائرة العداء بين الأطراف المتنازعة.

كان بالسجن الحربى دورات مياه صحية كتلك التى فى بيوتنا، وكان فى سجن «أبو زعبل» دورات مياه صحية تفوق مثيلاتها فى السجن الحربى إعداداً ونظاماً ونظافة، فهى على نظام أحدث.. والمقصود بدورة المياه الصحية أن يكون لها تهوية خاصة تفصل هواءها عن مكان المعيشة وتصله بالجو الخارجى المطلق، كما أن فضلات الإنسان التى يتخلص منها فى هذه الدورات تنصرف بنظام خاص له طرق مختلفة تختلف باختلاف درجة العمران.

وحتى قبل انتشار العمران وتقدم فن البناء؛ كان مراعى فى مايسمى الآن دورات المياه توفر الشرطين الضروريين المشار إليهما؛ فلقد كانت أماكن قضاء الحاجة بعيدة عن المساكن حيث يقضى الناس حاجتهم ويتخلصون من فضلاتهم فى الخلاء؛ حتى سمى قضاء الحاجة «الذهاب إلى الخلاء» وفى الخلاء المنفصل تماماً عن المساكن التهوية الكاملة التى تتكفل أيضاً بما فيها من رياح وأتربة بمواراة هذه الفضلات حيث تتحلل ولا يبقى لها أثر.

وليس الإنسان وحده هو الذى إذا تخلص من فضلاته لم يعد مسئولاً عنها ولا مطالباً بشيء نحوها، بل إن الحيوان أيضاً اكتسب هذا الحق.. حتى القائمون على عملية الصرف الصحى وهم عمال المجارى لايتعاملون مع هذه الفضلات إلا بعد تحللها وتحولها إلى مادة أخرى تختلف عن الفضلات فى اللون والقوام والرائحة.. ولن يقبل عامل من هؤلاء العمال مهما أجزلت له الأجر أن يتعامل مع فضلات أى إنسان وهى فى حالتها الأصلية ولا حتى مع فضلات نفسه.

أما فى سجن مزرعة طره فإنهم اقتطعوا من كل عنبر من عنابره جزءاً فى أحد أركانه، وأقاموا حائطاً بارتفاع قامة الإنسان وجعلوا هذا المكان لقضاء الحاجة دون باب ولا نافذة ولا سقف ــ وليس بالعنابر مياه إلا مايحضره المعتقلون فى صباح كل يوم من مياه فى جرادل من حنفية فى فناء السجن.

وعلى من يريد قضاء حاجته أن يأخذ معه قدراً من هذا الماء ويدخل هذا المكان وهو لايكاد يستطيع التنفس كما أن عدم وجود تهوية إلى خارج العنبر تجعل ماينبعث منه من روائح تنتشر فى أرجاء العنبر.. وكان الإخوان فى أول الأمر يعانون مشقة استنشاق هذه الروائح؛ ولكنهم ــ بطبيعة حاسة الشم وباستمرار هذه الروائح ــ فقدوا الإحساس بها.. وهذا من تخفيف الله عن الناس الذين لامتنفس لهم.

ثم يأتى بعد ذلك الدور الخطير.. أين تذهب هذه الفضلات؟ هل لها نظام للتصريف كما يوجد فى كل مكان فى الدنيا حتى ولو كان هذا النظام بدائياً؟

لا.. ليس لها من تصريف. وليس لها خزان كبير أو صغير يتشربها ويحللها.. ليس لها شيء من ذلك.. تحيرنا فى أول يوم وسألنا السادة مديرى السجن. فقالوا: عليكم أن تحملوها كل يوم وتنقلوها إلى أرض خالية فى آخر السجن.

فى هذه اللحظة فقط فطنا إلى السبب الذى من أجله اختاروا لنا هذا السجن بعد سجن «أبو زعبل» لمن كانوا فى «أبو زعبل» وبعد السجن الحربى لمن كانوا بالسجن الحربى.

هذا هو الإذلال الذى لم تتفتق عنه أذهان الذين سبقوا بالإساءة والظلم، وتفتقت عنه

أذهان أخلافهم الذين ظنوا أن الدنيا دانت لهم، فاستباحوا مالم يستبحه الظالمون من قبلهم.

هل كانت الدولة عاجزة عن توصيل هذه الدورات بالمجارى العمومية أو عن إنشاء نظام صرف خاص بها؟ إن هذا لن يعجز عنه فرد واحد لو كان يملك هذه المبانى، ولكن الدولة أبقت عامدة على هذا الوضع القذر الوقح كما تبقى عصابات اللصوص ومحترفو الإجرام على إظلام الشوارع لتسهيل سطوهم على بيوت الآمنين.. أبقت عليها لإذلال رقاب لم يستطيعوا إذلالها بكل وسائل العنف والقهر والإرهاب.

إن الأخ المسلم وقد مر بمختلف وسائل القهر والتنكيل والتعذيب طيلة شهور وسنين؛ قد ينسى على مر الأيام كل مامر به من ذلك.. ولكنه لاينسى هذا الإذلال الذى يحنى له رأسه كل صباح، والذى يعانى طول يومه وليلته من العيش فى جواره وفى الجو المشبع به، والباب مغلق عليه ثلاثاً وعشرين ساعة أو يزيد.

لقد كان مقصوداً بجانب الإذلال القضاء على هذه الفئة المؤمنة، بالأوبئة والأمراض التى هى النتيجة المنتظرة لهذا الأسلوب من المعيشة الملوثة بكل أوبئة الموت والهلاك.. ولكن كان من عناية الله بأهل دينه وبالمدافعين عن كلمته أن حال بين هذه الأوبئة ــ المحيطة بهم ــ وبينهم كما فعل مع جدهم إبراهيم عليه السلام ﴿**وقلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم. وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين**﴾.

كان المقصود بعد الإذلال أن تموت هذه الجموع فلا يقال إنها ماتت من الضرب ولا من التعذيب، ولكن شاء الطغاة وشاء الله فكانت مشيئة الله هى الغالبة ﴿**ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين**﴾.

إن الإخوان المسلمين الذين سيموا الخسف وعذبوا ونكل بهم؛ إذا سألهم سائل عما لاقوا من مشقات سواء أكان هذا السائل صديقاً أو قريباً أو محققاً بعد انتهاء عهد الظلام؛ قد يقولون الكثير والقليل عما لاقوا.. ولكنهم يستحيون أن يشيروا إلى هذا اللون من الإذلال ولو مجرد إشارة، لأن ألسنتهم لاتستطيع النطق به، ولأن حياءهم يمنعهم من الحديث عنه. وهذه مشقة نفسية قاتلة قد لايقدرها حق قدرها إلا من عاشها وعاناها.

وصل ماانقطع من الحديث:

مضى الأسبوع الأول الذى علل ضباط السجن به الإخوان حين رأوهم فى حالة انهيار نفسى خطير. واشرأبت أعناق الإخوان يسألون هؤلاء الضباط وعدهم الذى وعدوهم، فقالوا لهم: إن الجهات العليا رأت قبل الإفراج عنكم أن تحضروا محاضرات

توعية تستغرق أسبوعاً.. فتقبل الإخوان هذا الوعد الجديد على مضض ضائقين ذرعاً بهذا التأجيل.

محاضرات التوعية :

تحقق ماقاله ضباط السجن، فقد دعيت مجموعتنا الموجودة بهذا السجن فى ذلك التاريخ إلى الاستماع إلى ثلاثة محاضرين يلقى كل منهم ثلاث محاضرات. وكان إلقاء المحاضرات فى قاعة المحاضرات التى بنيت حديثاً بالسجن، وكان الإخوان خلالها يجلسون على الأرض والمحاضر يلقى محاضرته من فوق منصة.

وكان المحاضر الأول هو الأستاذ كمال رفعت. وكان إذ ذاك إما وزيراً فى الوزارة وإما رئيساً للجنة الفكر فى الاتحاد الاشتراكى. وكان هذا الرجل من عتاولة التعذيب فى عام ١٩٥٤، ولكن قد يعجب القارىء حين أقرر مبتغياً وجه الحقيقة أن الرجل خلال محاضراته كان ملتزماً حدود الأدب فى حديثه الموجه إلينا، وكان حريصاً على أن يشعرنا بأنه لايخاطبنا من علٍ. كما كان حريصاً حين يتكلم عن دعوة الإخوان أن لايمسها بكلمة نابية أو يجرحها بأسلوب من أساليب التجريح.. وكان كل اهتمامه موجهاً إلى أن يظهر فكر رجال الثورة على أنه فكر إسلامى ولا داعى إذن لوجود شقاق بين إخوة أفكارهم كلها نابعة من مصدر واحد هو الإسلام.

وكان المحاضر الثانى مفاجأة لنا إذ وجدنا المحاضر هو الأخ الدكتور عبد العزيز كامل. وكانت محاضراته تدور على محورين؛ المحور الأول «الميثاق» وإثبات أن نصوصه مستقاة من الفكر الإسلامى. والمحور الآخر هو نقد كتاب «معالم فى الطريق» للأخ الأستاذ سيد قطب رحمه الله نقداً يبرزه منافياً للفكر الإسلامى خارجاً على حدود الدعوة الإسلامية.

ويجدر بى فى هذا المقام أن أذكر أن أكثر الإخوان أصيبوا بصدمة عنيفة حين سمعوا عبد العزيز فى هذا الموقف وأساءوا به الظن. إلا أننى كنت أتصوره مكرها يظله قول الله تعالى **﴿إلاَّ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾**.

وكان المحاضر الثالث والأخير هو الدكتور الشيخ محمد سعاد جلال وكان أستاذاً بجامعة الأزهر ومن العلماء الذين يساهمون بلسانهم وقلمهم فى الحياة الاجتماعية ومن ذوى الشخصية والرأى.. ولعله اختير لهذه الميزات.

وقد تكلم الرجل فى محاضرته الأولى فأحسن الكلام، وتحدث حديثاً مثيراً عن الإسلام وعما آلت إليه حال الأمة الإسلامية مما هاج الشجن فى نفوسنا؛ فاشترك عدد منا فى الحديث إليه فى صورة أسئلة فى نهاية المحاضرة.. وكان ممن ساهموا فى توجيه الأسئلة إليه

الأخ الكريم الأستاذ الشيخ صلاح أبو إسماعيل.. وكان منظره وهو يوجه السؤال منظراً مؤثراً؛ فقد كان إذ ذاك شاباً طوالاً وسيماً، وكان الجو بارداً ولم يكن معه مايحتمى به من غوائل البرد فارتدى ماقد يسمى جاكتة السجن وهى نوع من الخيش أو اللباد السميك الشديد القذارة فهى فى منظرها أشبه ببرذعة الحمار، ولم يكن هو وحده الذى يرتديها وإنما كان أكثر الإخوان يرتدونها كارهين.. فوقف يوجه السؤال إلى الشيخ وهو فى هذا المنظر المثير، ثم كان السؤال على سبيل الاستفهام الاستنكارى:

فضيلتك تشكو إلينا حال المسلمين، وتطالب كل ذى جهد أن يبذل جهده فى سبيل إنقاذهم.. فهل ترى أن هذا الوضع الذى وضع فيه أكرم رجال الأمة وصفوة شبابها المثقف الواعى مما يعمل على الإنقاذ؟!

وهنا لم يملك الرجل سوابق دمعه التى انهمرت على خديه لايملك لها دفعاً، ولا يستطيع لها منعاً.. بكى الشيخ محمد سعاد جلال فكشف بكاؤه عن أصالة نفسه وكرم محتده وقوة إيمانه. ورد إلينا ماكنا قد فقدناه من ثقة فى الأزهر ورجاله، وعممنا أن هذه الأمة بخير مهما طفا على سطحها من شر، وأن الإيمان الذى غرس فى النفوس منذ ثلاثمائة وألف عام هو منها فى مكان أمين، لايصل إليه بطش الجبارين ولا إغراء الذين ملكوا خزائن الأرض من المغرورين والظالمين.

الفصل الرابع

أحداث وملاحظات وخواطر في هذا السجن

انتفاعي بشعور الاستقرار :

كان إخواننا يستمعون إلى محاضرات التوعية كما سميت وعيونهم معلقة بآخر يوم من أيامها حيث وعدوا بالإفراج بعده.. ولما كان هذا المعنى الذى شغلهم غير وارد على خاطرى؛ فقد شعرت بالاستقرار الذى فى ظله يستطيع الإنسان أن ينتفع بالوقت أكمل انتفاع..

كان الذى يشغل بالى ويملأ خاطرى هو أن لاأضيع لحظة من لحظات وجودى فى هذا السجن دون أن أشغلها بالقرآن.. لقد حفظت أو استعدت فى «أبو زعبل» حفظ عشرين جزءاً؛ فعلىّ إذن فى هذا السجن أن أثبت هذه العشرين جزءاً.. جعلت هذه الأجزاء العشرين وردى أقرأه على نفسى ليلاً ونهاراً، وعلى غيرى إن وجد من يسمع منى وقلما يوجد. كنت أقرأ هذا الورد ابتداءً من وقت السحر قائماً فى الصلاة ثم أقرأ بعد الفجر وأنا فى هيئة النائم، ثم أقرأ بقية النهار حتى النوم فى كل وقت فراغ.. لازلت أذكر أننى كنت فى فترة اضطجاعى بعد صلاة الفجر وَصَلَ ماكنت أقرأه على نفسى خلالها فى بعض الأيام إلى تسعة أجزاء.

كنت حريصاً على أن لاأشغل نفسى بغير القرآن. وكان الإخوان ــ أكرمهم الله ــ قد لاحظوا ذلك علىّ فكانوا يعينوننى عليه، ولا يتحدثون إلىّ إلا الحديث الضرورى الذى لامناص منه..

أما إخواننا الذين يتعلقون بوعود الإفراج فقد انتظروا بعد انتهاء أسبوع المحاضرات أياماً دون أن يتم إفراج، فراحوا يسألون ضباط السجن الذين وعدوهم فلم يجدوا عندهم

إجابة، فتولتهم الحيرة من جديد وطفقوا يضيقون بهذه الحياة ذرعا

زائر يبعث الأمل:

وبينما إخواننا فى هذا الضيق القاتل طلب أحدهم للخروج من العنبر لمقابلة زائر حضر لزيارته وكان معروفاً أن الزيارات والمراسلات ممنوعة سواء فى «أبو زعبل» أو فى هذا السجن.. وإذن فلن يسمح بزيارة نزيل منا إلا إذا كان الزائر شخصية كبيرة من الشخصيات ذات الصلة بدوائر الجهات العليا فى الحكومة.. وكان مفهوماً كذلك أن مثل هذا الزائر لابد أن تكون رابطة قرابة تربطه بالمزور، وأنه لايقوم بالزيارة إلا إذا كان لإبلاغ قريبه بأمر ذى بال.

وتعلقت آمال إخواننا بهذا الزائر، وقعدوا على أحر من الجمر فى انتظار زميلهم بعد انتهاء الزيارة ليسمعوا منه الأنباء الهامة.. ورجع الأخ الكريم من الزيارة مبتهجاً؛ فتهللت وجوه إخواننا والتفوا حوله ينصتون إليه.. وبعد قليل هتفوا مسرورين.. وجاءوا يخبرونني بأن الزائر أخبر الأخ الكريم بأنه قد تقرر الإفراج يوم ٢٥ نوفمبر؛ فقلت فى نفسى: إذن المشطوب هو ديسمبر والمكتوب فوقه هو نوفمبر.. وكنا إذ ذاك على مقربة من هذا اليوم فقضى إخواننا هذه الفترة الباقية فى سرور ومرح.

وأقبل يوم ٢٥ نوفمبر وترقب الإخوان من يناديهم مناداة الإفراج الموعود. ومرت ساعات النهار الساعة تلو الساعة وهم ينتظرون الفرج فى كل ساعة حتى مضى اليوم بطوله وهم حيث هم مما أعقبهم هماً وحزناً.. وكان نبأ هذا اليوم قد وصل إلى أسماع ضباط السجن، وهم يعرفون أن مصدر النبأ من المصادر العليمة المطلعة فتعجبوا لعدم وصول الأمر المعهود بالإفراج والذى كانوا هم الآخرون يترقبون وصوله إليهم لحظة بعد أخرى.

ولشدة ثقة ضباط السجن فى مصدر النبأ طلبوا من الإخوان أن يستعدوا للإفراج ويحزموا أمتعتهم حتى إذا ورد الأمر بالإفراج لم يستغرقوا وقتاً فى حزم المتاع. وقد فعل الإخوان.

ومضى يوم ٢٦ ويوم ٢٧ وأقبل يوم ٢٨ نوفمبر وقد سقط فى أيديهم، ولكن ضباط السجن لم يفقدوا الأمل، وطلبوا من الإخوان أن يظلوا على أهبة الاستعداد.. ولم يكن هؤلاء الضباط هازلين ولا مغررين بالإخوان بل كانوا واثقين وتواقين أن يتم الإفراج على أيديهم فكانوا فعلاً يتناوبون الوجود أمام التليفون ليلاً ونهاراً لاستقبال إشارة الإفراج.

مكاشفة الإخوان بالرؤيا:

ولما رأيت يوم ٢٨ نوفمبر قد مضى دون إفراج، ورأيت الإخوان فى حرج شديد

أمام مايعدهم به ضباط السجن يوماً بعد يوم، وأمام مايعانون من فقد الاستقرار النفسي؛ طلبت الأخ الحاج نجيب عبد العزيز باعتباره قائداً للعنبر وقلت له: ياأخي مادام قد فات يوم ٢٧ نوفمبر دون إفراج فنبيء الإخوان بأن الإفراج سيكون بإذن الله يوم ٢٧ ديسمبر. فسألني عن السبب فقصصت عليه الرؤيا وما دعاني إلى كتمانها طيلة المدة السابقة حتى لاأدخل اليأس على نفوس كانت تترقب الإفراج في كل يوم.

ولا أدري هل أبلغ الحاج نجيب إخوانه بما سمع مني أم تصرف بأسلوب رآه أنسب لحالتهم. ولكنني لاحظت أنهم حلوا أمتعتهمُ ورجعوا إلى متكئهم وزاولوا أعمالهم اليومية كعادتهم.

وأذكر بهذه المناسبة أن الحاج نجيب قص علي رؤيا رآها أيضاً إلا أنها لم تتحقق إلا في عام ١٩٧٠ حين بارح جمال عبد الناصر بآثامه هذه الدنيا.

إحاطة اليأس بالنفوس:

لم أر اليأس أحاط بالنفوس كما رأيته، وقد غلب على أكثر المجموعة التي كانت معنا في هذا العنبر لاسيما بعد مرور يوم ٢٥ نوفمبر الذي كانوا قد أعدوا أنفسهم للإفراج فيه.. رأيت هؤلاء الإخوة وقد أنهكت نفوسهم من كثرة الوعود وخلفها ومن كثرة الجذب والإرخاء التي تعرضوا لها؛ فبدأوا يكلمون أنفسهم ويكلم بعضهم بعضاً.

ومما زاد الطين بلة أن فوجئنا بشيء لم يكن في الحسبان، فقد ظللنا طيلة مدة وجودنا في هذا السجن وفي سابقه منقطعين عن العالم الخارجي، فلا صحف ولا راديو ولا زوار ولا خطابات.. وفي مساء يوم ٢٠ ديسمبر إذا بصوت مذياع مزود بميكروفون يذيع، فتعجبنا من هذه المفاجأة، ولكن لاندري لم اختاروا هذا اليوم بالذات؛ ولم يكن بد من الاستماع فالصوت قوي يخترق الآذان.. وبعد قليل فهمنا أن الحكومة قررت إذاعة جلسة تعقد هذا المساء لمجلس الأمة.. فقلنا لعل الحكومة فاءت إلى رشدها ورأت أنها قد ضلت الطريق فأرادت أن تتلافى أخطاءها إزاء الإخوان، فوسطت مجلس الأمة في القيام بهذا الدور ولا سيما أن الإجراءات التعسفية التي اتخذتها ضد الإخوان هذه المرة لامبرر لها، وتبدو مفتعلة لاأصل لها.. وأنصتنا إلى المذياع لعلنا نسمع خبراً يعود على البلاد بالنفع ويجمع الكلمة على الإصلاح.

قانون فرعون

وكان الذي سمعناه عجباً.. خيب الظنون لمن يحسنون الظن، وقطع خط الرجعة على

من قد تحدثهم نفوسهم بالدخول بين الطوائف بالإصلاح، وأعلن الحرب قاطعاً كل أسباب المودة.

سمعنا هذا المجلس يتبارى أعضاؤه فى النهش فى عرض جماعة لاتملك أن تدافع عن نفسها، ولا أن تذود عن عرضها، ولا أن تعلن حجتها.. وهذا لون من المجالس النيابية يسجل على نفسه دون أن يدرى الضعة والحقارة والخسة؛ لأنه يرتع فى غير مرتع، ويعب من دماء جريح مثخن.. كل عضو من أعضائه ينظر إلى مايعود على نفسه من نفع من توطيد للصلة بينه وبين من يعتقد أنه هو وحده المانع المانح المذل المعز؛ فيفرح بذلك ويسعد ظناً منه أنه حقق الفوز وحاز النصر ولا يدرى أن يد التاريخ تسطر عليه وعلى زملائه سطور الخزى والعار والفضيحة؛ سيذهب هو وزملاؤه وسيدهم وتبقى هذه السطور لاتمحى ولا تنسى على مر الأيام والأعوام والدهور:

كان رئيس الجمهورية قد أصدر قانوناً فى غفلة من مجلس الرياسة فى ٢٤ مارس ١٩٦٤ وهو القانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦٤ وقد زوره على هذا المجلس الذى كان إذ ذاك بحكم الدستور هو صاحب الحق فى إصدار القرارات والقوانين، فانتحل جمال عبد الناصر شخصية هذا المجلس فى غيبته ـــ مع أن أعضاءه موجودون ـــ وأصدر هذا القانون باسم المجلس.

«وهذا القانون يخول رئيس الجمهورية فى غير الحالات الاستثنائية والطارئة المقررة فى قانون الطوارىء، وبدون إبداء الأسباب، أن يقبض على المواطنين، وأن يحتجزهم فيما أسماه بمكان أمين. وأن يفرض الحراسة على أموالهم وممتلكاتهم، وأن يكون للنيابة العامة لدى تحقيقها سلطات مطلقة وغير مقيدة بما ورد فى قانون الإجراءات الجنائية من قيود وضمانات للأفراد.

كما يخول رئيس الجمهورية الحق فى أن يأمر بتشكيل محاكم استثنائية من العنصر العسكرى الخالص لمحاكمة المواطنين عما هو منسوب إليهم من جرائم، بل وإنه أعفى هذه المحاكم من أى تقييد إلا بما ينص عليه فى أمر تشكيلها من إجراءات.. وحظر فى النهاية الطعن بأى وجه من الوجوه فى أحكامها».

لم يكتف جمال عبد الناصر بهذا القانون الفاجر الذى تبرأ منه أعضاء مجلس الرياسة، والذى كان مخالفاً لوثيقة إعلان حقوق الإنسان وكافة المبادىء الدستورية بل وللقوانين العادية.. بل أصدر وحده أيضاً قانوناً آخر فى ٩ نوفمبر ١٩٦٥ خص به الإخوان المسلمين وكان هذا القانون مكوناً من ثلاث مواد:

المادة الأولى: لرئيس الجمهورية أن يستخدم الحق المخول له بمقتضى المادة الأولى من القانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦٤ المشار إليه بالنسبة إلى أى شخص من الأشخاص الذين

سبق لسلطات الضبط والتحقيق ضبطهم أو التحفظ عليهم.. وذلك فى جرائم التآمر ضد أمن الدولة والجرائم المرتبطة بها والتى تم اكتشافها فى الفترة مابين مايو ١٩٦٥ وآخر سبتمبر ١٩٦٥. وله أن يطبق فى شأنهم التدابير الخاصة بوضع أموالهم وممتلكاتهم تحت الحراسة. ولا يقبل الطعن بأى وجه من الوجوه فى الأوامر أو القرارات التى أصدرتها سلطات الضبط والتحقيق قبل العمل بهذا القانون.

المادة الثانية: تنص على أنه لايجوز الطعن بأى وجه من الوجوه أمام أية جهة كانت فى قرارات رئيس الجمهورية الصادرة وفقاً لأحكام هذا القانون.

المادة الثالثة: هى المادة التقليدية وتنص على نشر هذا القانون فى الجريدة الرسمية ويعمل به من تاريخ نشره.

ولكى يقطع خط الرجعة على زملائه أعضاء مجلس الرياسة الذين شغبوا عليه حين تجاهلهم وأصدر القانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦٤؛ لجأ بقانونه الجديد إلى صنائعه وعبيد إحساناته الذين أطلق عليهم أعضاء مجلس الأمة للموافقة عليه وإصداره.. فلم يكتفوا بمجرد الموافقة عليه بل أصدروه مجللا بالعار المتمثل فيما يسمى بتقرير اللجنة التشريعية. ذلك التقرير الذى يندى له الجبين خجلاً مما تضمن من إفك وكذب وافتراء.

وعلى من يريد أن يطلع على هذا التقرير أو يرغب فى مزيد من التفصيل فى هذا الموضوع أن يرجع إلى كتاب «الموتى يتكلمون» للأستاذ سامى جوهر، الذى استطاع أن يجمع فى كتابه هذا نصوصاً لقوانين وتقارير ومحاضر تحقيقات ومحاكمات قبل أن تتمكن الأيدى الآثمة من سحبها من مظانها لطمس معالمها وإخفاء جرائمها.. وهذا الكتاب فى مجموعه وثيقة تاريخية سوف يرجع إليها فى يوم من الأيام حين تحين ساعة المحاسبة.

* * *

وقعت إذاعة هذه الجلسة على إخواننا موقع الضربة القاضية التى قضت على البقية الباقية من آمالهم وأسلمتهم إلى يأس عميق. وبدا ذلك جلياً فى قسمات وجوههم وفى حركاتهم وسكناتهم وفى أثناء أحاديثهم. وكأنما كان بينهم وبين الحرية مائة باب مفتوح فجاءت هذه الجلسة فأغلقتها جميعاً دون رحمة ولا هوادة.. فزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وظنوا بالله الظنونا.

أما موقع هذه الإذاعة علىّ فقد كان غير موقعها على إخواننا. فلقد كنت كلما سمعت عبارة من عبارات القانون تضع قيداً جديداً على حرية الإخوان أشعر كأن هذه العبارة فكت قيداً عنا، وكلما سمعت الحاكم يضيق الخناق حول رقابنا أشعر كأنما ينقله من

رقابنا إلى رقبته. وكلما جرفه الغرور فانزلق إلى مهوى جديد من مهاوى الاستبداد شعرت أنه إنما ينزلق إلى مافيه نهايته.

كنت أسمعه وقصة فرعون مع بنى إسرائيل ماثلة فى خاطرى. فكلما قال كلمة مما قاله فرعون أقول فى نفسى ليته يقول الكلمة التالية فيقولها، فأتمنى أن يتبعها بالتالية لها وهكذا حتى إذا قال الكلمة الأخيرة التى قالها فرعون كدت أصفق فرحاً لأنه أصبح أمام نهايته **﴿فهل ينظرون إلا سنة الأولين؟ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾**.

كلمتى الوحيدة إلى إخوان العنبر:

كان إخواننا فى العنبر يقضون الكثير من الليالى فى شبه ندوات تلقى فيها الكلمات النافعة. وكنت محجماً عن الاشتراك معهم عازفاً عن التحدث إليهم.. ولكننى فى الليلة التالية لهذه الإذاعة وجدت أن لهؤلاء الإخوة حقاً فى أن أتحدث إليهم وأن أبثهم مافى نفسى لعلى أرفع عن قلوبهم ماأحاط بها من أسداف اليأس؛ فما كدت أدعى للكلام حتى سارعت، وقلت لهم كلاماً لاأنساه لأن معانيه كانت ممتزجة بدمى ولا زالت تجرى فى عروقى، فهى مستمدة من سنن الكون التى سجلها القرآن فصارت جزءاً من إيماننا.. تضمنت كلمتى المعانى الآتية:

أولاً : أننى حين اعتقلت هذه المرة كنت حزين القلب خلافاً لما كنت عليه فى اعتقالات ١٩٥٤.. لأن اعتقالنا هذه المرة كان أشبه بالاعتداء بالسلاح الآثم على أسير أعزل مقيد اليدين والرجلين. وهذه حال تمثل أحط معانى الخسة والنذالة؛ فهى اعتداء بلا مبرر، لايدفع إليه إلا غريزة الاستعلاء والغرور وغرائز نابعة من حقارة النفس ودناءتها.

ثانياً : إن قصة فرعون مع بنى إسرائيل لم تبرح خاطرى منذ نشب الخلاف بين الإخوان وبين جمال عبد الناصر عندما استوى على ملك مصر وصارت هذه الأنهار تجرى من تحته.. كلما خطا خطوة رأيت لها مثيلاً فى قصة فرعون.

ثالثاً : كان اعتقالنا هذه المرة بهذا الأسلوب المتعسف الغاشم خطوة فى طريق القصة ولكنها لم تكن الخطوة الأخيرة.. ولما كانت رحمة الله تسبق غضبه فقد أحسنت الظن بالحاكم وقلت لعل الله ــ من أجل إنقاذه وإنقاذ البلاد ــ يوفقه لتوبة تمحو حوبة ماارتكب من مظالم؛ ولاعجب فى ذلك فقد قال الله تعالى فى سورة البروج **﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾** فكأن الذين ألهموا التوبة ممن فتنوا المؤمنين والمؤمنات تشملهم

رحمة الله وعفوه ومغفرته.. وظللت أنتظر منه مايشعر بهذه التوبة حتى كانت الليلة الماضية.

رابعــاً: تسمعت إلى المذياع لأول مرة منذ ألقى بنا فى هذه السجون آملاً أن أسمع منه ماأتمناه له.. فكان كما يقول المثل: سكت دهراً ونطق كفراً.

خامساً: إنه قبل الذى سمعناه أمس كان على مفترق طريقين؛ طريقة التوبة وطريق التردى إلى الهاوية بالخطوة الأخيرة. وقد اختار الخطوة الأخيرة ليتم بها خطوات فرعون مع بنى إسرائيل حين قال له الملأ من قومه ﴿**أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك؟ قال: سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون**﴾ والقانون الذى سنه هذا الحاكم لنفسه واستخف قومه فأطاعوه وأصدروه وسمعناه بالمذياع أمس هو ترجمة باللغة العصرية وبالأسلوب الركيك لهذه الآية الكريمة التى سجلها القرآن الكريم على فرعون حين استبد به الغرور فختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة.

سادساً: أقسم لكم أيها الإخوة: إننى لم أشعر بسعادة وسرور منذ شملنا هذا الظلم الأخير إلا بعد أن سمعت ماسمعت فى الليلة الماضية؛ فلقد أتم الحاكم الخطوات ولم يعد أمامه إلا النهاية ﴿**وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين. فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون**﴾.

لقد أراد فرعون — وقد أحس بأن نواصى الشعب أصبحت فى يده — أن يستأصل شأفة بنى إسرائيل من الوجود؛ فأصدر قانوناً تقتل الدولة بمقتضاه كل رجالهم وتستبقى رهن الأسر النساء، ويظل هذا الشعب من بنى إسرائيل دائماً تحت سطوة قانون الإرهاب هذا حتى يفنى عن آخره.

أليس المعنى واحدا، والهدف واحدا بين ماسنه فرعون للقضاء على بنى إسرائيل، وبين ماسنه حاكمنا للقضاء على الإخوان المسلمين، واستئصال شأفتهم وإفنائهم؟!

﴿**إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين. ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون**﴾.

سابعاً: وأخيراً فإنى أصارحكم بشعور يغمرنى، وكأنما كشف الله حجب الغيب فرأيت هذا الحاكم على حقيقته، رأيته مسكيناً قضى الله عليه ــ جزاء ماشارك الله عز وجل فى كبريائه وجبروته ــ أن ينكل به فسخره للإيذاء والشر ﴿**وأما من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فسنيسره للعسرى**﴾ فهو يعمل مايعمل ويظن ــ وهو سادر فى ظلمه مخدوع فى نفسه ــ أنه فعال لما يريد.. وهو فى حقيقة أمره أداة يسرت للشر؛ لأنه لم يعد يستحق عند الله ــ بعد الذى اكتسب من الإثم ــ إلا أن يضعه هذا الموضع حتى إذا أخذه لم يفلته.. لقد حددت المواعيد، ولن يستطيع هو إلا أن يدور فيما حدد له من دائرة حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً.. وإنى والله أيها الإخوة لأنظر إليه نظرة الرحمة والإشفاق وأتمنى لو استطاع أن يعرف حقيقة نفسه حتى يتدارك أمره.. ولكن أنى له ذلك وقد خطا الخطوة الأخيرة؟!

أما نحن.. ففى كنف الله وعنايته.. مظلومون مجردون من جميع وسائل الدفاع.. ماالذى يقلقنا؟ ماالذى يقض مضاجعنا؟ ماالذى يخيفنا؟ هل ارتكبنا جرماً؟ هل اقترفنا ظلماً؟ هل اجترحنا إثماً؟ هل باشرنا اعتداءً؟

مادمنا نشعر بأننا برءاء من ذلك كله فلنهنأ بالاً، ولنقر عيناً، ولنطمئن قلباً.. هل يؤلمنا أننا مظلومون؟ إذن فلتبكوا على الظالمين ﴿**فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**﴾.

وإذا كنا نخاف على أبنائنا وأهلينا؛ فلسنا رازقى أنفسنا حتى نرزقهم، ولسنا كالئى شئوننا حتى نكلأهم ﴿**قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون**﴾ ﴿**إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين**﴾ ﴿**قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم**﴾.

إننى أيها الإخوة أصبحت أنعم بشعور فياض من السعادة والاستبشار؛ فالظلم هذه المرة بينّ وكله فى جانب، والبراءة البيضاء البيّنة كلها فى الجانب الآخر، وليس بينهما اختلاط ولا تداخل ولقد بلغ الظلم منتهاه بما سمعنا بالأمس. وسنة الله لاتتخلف.. فاصبروا أيها الإخوة وكونوا على بينة من أمركم وانتظروا وعد الله الذى لايتخلف وترقبوا الخير وتجلدوا ﴿ **اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾.

شعرت بعد إلقائى هذه الكلمة براحة ضمير؛ كأنما هى أمانة كانت فى عنقى أديتها إلى أصحابها.. ولاحظت ولله الحمد من قبل ومن بعد أن قلوب إخوانى قد استراحت كأنها ألقت عن نفسها أحمالاً ثقالاً من الهموم. وساد العنبر جو من الراحة النفسية والاطمئنان؛ فقد استردوا الثقة فى أنفسهم بعد أن ازدادوا ثقة فى الله ﴿**إن الذين اتقوا إذا مسهم**

طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ وما أبلغ الكلام وأعمقه تأثيراً فى النفس إذا ماكان شعوراً صادقاً يبث، وأحاسيس يضطرم بها القلب، ويجيش بها الصدر.

هل هى إشاعة؟:

وقبل أن نبلغ بالكلام فى موضوع هذا القانون إلى نهايته، ينبغى أن أسجل قالة سرت بين الإخوان عند مقدمنا إلى سجن مزرعة طره، وتناقلتها الألسنة، ولكننى كنت أحملها على محمل الإشاعة التى تختلق من عدم، ثم تثار فتسرى. إلا أننى حين سمعت نصوص هذا القانون أيقنت أنها لم تكن كما ظننت إشاعة وإنما هى خبر أصيل تسرب إلينا وإن كنت لأدرى كيف تسرب.. وكانت هذه القالة هى أن الحكومة فى هذه المرة قررت اعتقال جميع من كانت له صلة فى يوم من الأيام بالإخوان، حتى إنها اعتقلت الباقورى وعبد العزيز كامل فى هذا السجن أياماً قبل مجيئنا إليه.

ولست أدرى حتى هذه اللحظة هل اعتقل الباقورى وعبد العزيز كامل اللذان خصوهما بالذكر أم لا. ولكن الذى أعلمه ورأيته بعينى أنهم جمعوا فى هذه المرة كل من وصل إلى علمهم أنه كان من الإخوان فى يوم من الأيام. وكنت فى دهشة من هذا التصرف الذى حملته على النزق..

ولكن بعد أن سمعت نصوص هذا القانون فهمت أنه لم يكن نزقاً من الطغمة الحاكمة بل كان ترتيباً منطقياً متمشياً مع ماأعدوه من خطة وتدبير. فالمادة الأولى من القانون تبدأ بهذا النص:

«لرئيس الجمهورية أن يستخدم الحق المخول له بمقتضى المادة الأولى من القانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦٤ المشار إليه **بالنسبة إلى أى شخص من الأشخاص الذين سبق لسلطات الضبط والتحقيق ضبطهم أو التحفظ عليهم**، وذلك فى جرائم التآمر ضد أمن الدولة والجرائم المرتبطة بها والتى تم اكتشافها فى الفترة مابين مايو ١٩٦٥ وآخر سبتمبر ١٩٦٥».

وإذن فيجب أن يسبق هذا القانون ضبط لأكبر عدد ممكن من هذه الفئة حتى يستطيع رئيس الجمهورية أن يستعمل حقه القانونى معهم، الحق الذى لايخضع لقانون ولا يحده دستور، ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.. وهذا لعمرى إجراء لايقدم عليه إلا إنسان اتخذ إلهه هواه، والحاكم إذا اتخذ إلهه هواه جره ذلك إلى أن يجعل من نفسه إلهاً.

فى شهر رمضان

أقبل علينا شهر رمضان ونحن فى سجن مزرعه طره، ويبدو أنهم أرادوا أن يشعرونا

بأنهم يقدرون هذا الشهر . ولما كانوا حريصين على أن لايدخلوا على الطعام تحسيناً فى النوع أو فى الكم أو فى الطهى ؛ فقد رأوا أن يجعلوا ميزة الشهر فى أن يفتتحوا فى السجن « كنتيناً » ويسمحوا لنا بالشراء منه .

ومع أن الظروف كانت لاتسمح لنا بالاستمتاع بهذا الكنتين فإننا هششنا لنبأ افتتاحه . أما هذه الظروف فكان منها مايتصل بالكنتين نفسه فإنه لم يكن مسموحاً للعاملين فيه بأن يحضروا فيه إلا بضاعة معينة . وأما مايتصل بنا نحن النزلاء فجيوبنا كانت خاوية ، ولم يكن مسموحاً حتى ذلك الوقت بالكتابة لأهلينا حتى يرسلوا إلينا نقوداً ..

كان الذين معهم بعض النقود فى العنبر عدداً قليلاً ، ومع كل منهم النزر اليسير وكنت من هذا العدد — وكانت إدارة العنبر — الإدارة الداخلية من الإخوان — قد قسمت الإخوان فيه إلى مجموعات كل مجموعة تضم أربعة أو خمسة . ويوزع الطعام على هذه المجموعات ، وتقوم كل مجموعة بالأكل معاً ، وتتكفل بتنظيف الأطباق الخاصة بها وما إلى ذلك .

إلى المترفين والمتبطرين :

كان الطعام خشناً ورديئا وقليلاً كما قدمت من قبل ، ولم يحاولوا أن يقللوا من رداءته ولا أن يزيدوا من كميته ولا أن يغيروا من أنواعه . وجاء الشهر المبارك وافتتحوا الكنتين وجاءوا فيه بالبرتقال ، وقرروا بيعه بالثمن الذى أرادوا . ولم نكن نعترض على الثمن ولكن الذى بأيدينا من النقود قليل ، وأكثر المجموعات فى العنبر خاوية الوفاض من النقود ؛ فكانت المجموعة التى مع أفراد منها نقود لاتستطيع أن تشترى إلا ثمرة واحدة من البرتقال أو ثمرتين ؛ وعليها أن تقسم ماحصلت عليه على نفسها وعلى من حولها من الإخوان ؛ ومع ذلك فإن مجموعات من العنبر لايصل إليها شيء .. ولم يكن امتلاك النقود دليلاً على أن الذى يمتلك أثرى من أخيه الذى لايمتلك ، وإنما امتلك الذى يمتلك لأنه تصادف حين ألقى القبض عليه أن كان فى جيبه نقود ، فى حين أن أخاه لم يكن حين القبض عليه فى جيبه نقود .

ونظراً لشدة خشونة الطعام وخلوه من الطعم أراد الإخوان أن يبتكروا شيئاً يخففون به من هذه الخشونة ولو كان هذا عن طريق الإيحاء والإيهام .. تمنوا أن لو كان لديهم طماطم أو أى نوع من الخضرة ليصنعوا منه « سلاطة » .. ولكن شيئاً من ذلك لم يكن من سبيل إلى الوصول إليه .. وانتهى تفكير بعضهم إلى هذه البرتقالة .. إن الذى يؤكل منها هو مابداخل قشرتها ، أما القشرة فيلقى بها بعيداً .. ولكن هنا يجب أن ننتفع بكل شيء .. إن هذا القشر يصلح أن تصنع منه : « السلاطة » .

ومن أول يوم حصلنا فيه من الكانتين على البرتقال قام الإخوان بإعداد السلاطة من قشر البرتقال أما كيف يصنعون هذه السلاطة؟ فشيء فى غاية البساطة؛ يقطعون القشر قطعاً صغيرة ثم يخلطونها بقليل من الملح.. أما لماذا لايخلطونها بأشياء أخرى؟ فلأنهم لايملكون إلا هذا.

وفى يوم من أيام الشهر المبارك، وكنا قبيل أذان المغرب، وكنا جالسين ننتظر الأذان وكان أحد إخوان مجموعتنا ينزع القشر عن جزء من البرتقالة التى نملكها، ونزع قطعتين من القشر فعلاً، وأخذ فى تقطيع القطعة الأولى.. أقبل فى هذه اللحظة أخ كريم من مجموعة أخرى ـــ وكان هذا الأخ مهندساً كبيراً فى أحد مصانع الإسكندرية وإن كنت الآن قد أنسيت أسمه ـــ وطلب من الأخ الذى كان يصنع السلاطة لنا القطعة الأخرى من القشرة التى لم تقطّع بعد.. ويبدو أن صاحبنا الذى بيده القشرة رفض إجابة طلبه قائلاً إننا محتاجون إليها.. هنا التفت إلىّ الأخ المهندس فرأيت الدموع تترقرق فى عينيه وقفل راجعاً إلى مجموعته فناديته وأعطيته قطعة القشر التى طلبها.. فإذا بالفرح يتهلل فى وجهه، وذهب إلى مجموعته فتلقت منه قطعة القشر وكأنها قطعة من الشواء الشهى.

عيد النصر

كانت الليلة الثانية أو المرة الثانية التى شنفوا آذاننا فيها بصوت المذياع هى ليلة ٢٦ ديسمبر التى تسمى عيد النصر. سمعنا الحاكم يتكلم فى عيد النصر. ويبدو أنه نسى المناسبة التى دعى للحديث عنها فقد قصر كلامه على الحديث عن الإخوان وأخذ يكيل لهم التهم ويصب عليهم الشتائم واللعنات كما أخذ فى الاستهزاء بمرشدهم.. وكرر نظريته التى يحاول بها التملص من المسئولية عما انحدر إليه الشعب من انحلال خلقى؛ فيقول إن مسئولية هذا الانحلال تقع على كاهل رب الأسرة والحكومة غير مسئولة عن ذلك وغير مطالبة بالتدخل لوضع حد له ـــ يقول هذا وهو يعلم أن الحكومة ضالعة فى إفساد الشعب والأسرة والفرد بما تطلقه عليهم فى مسارحها وسينماتها وصحفها وإذاعتها من تيارات الإلحاد والفسق والفجور.

وأخذ يكرر ماسمعنا سماعه من أن المرشد العام الأستاذ الهضيبى الذى طالب بحجاب المرأة. ابنته تعمل أستاذة فى معهد التربية، وأخذ يشنع على الرجل المحتجز وراء القضبان بذلك وهو يعلم أن ابنة المرشد العام تعمل أستاذة فى معهد التربية وهى متحجبة الحجاب الإسلامى. وأن الحجاب الإسلامى لايمنع المرأة من أن تتعلم وتعلم، وأن تباشر الأعمال التى تناسبها موفورة الكرامة.

كانت كلمته فى تلك الليلة تحاملاً على الإخوان، وتملصاً من المسئولية عن الفساد الذى استشرى فى الشعب وقد ذكرتنى كلمته هذه بالمثل العربى الذى يقول «رمتنى بدائها وانسلت» .

الإفراج:

لم يكن الإخوان فى عنبرنا مشغولين بما كانوا مشغولين به من قبل من التعلق بالإفراج والتفكير فيه، بل كانوا ينعمون باستقرار واطمئنان.. ولكن الذى كان يشغلنى ويشغل مجموعة من الإخوان معى تصديق الرؤيا؛ لاتوقاً إلى الإفراج ولكن لأن فى تصديق الرؤيا تثبيتاً للإيمان فى قلوبنا، وبرهاناً جديداً على استئثاره سبحانه وحده بعلم الغيب ﴿**لايظهر على غيبه أحداً؛ إلاَّ مَنْ ارتضى من رسول فإنه يَسْلُك مِنْ بَيْنِ يديه ومن خَلْفِهِ رَصَداً**﴾.

لاأنكر أننى شخصياً قد تولانى كثير من القلق فأنا بشر ولم تكن هناك دلائل ولا قرائن ولا علامات ولا إشارات أن سيكون إفراج قريب.. بل إن إذاعة كلمة رئيس الجمهورية علينا فى ليلة ٢٦ ديسمبر قد باعدت بين تفكير كل إنسان وبين الأمل فى إفراج.. ولم يكن هذا القلق عدم ثقة فى وعد الله، ولكن البشرية تفتقر دائماً إلى ما يشبه علاقة بين المادة والروح لتبث الاطمئنان فى قلبها؛ كما كان من شأن أبينا إبراهيم عليه السلام حين قال ﴿**رب أرنى كيف تحيى الموتى**﴾ ﴿**قال أولم تؤمن؟**﴾ ﴿**قال بلى ولكن ليطمئن قلبى**﴾ ﴿**قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم**﴾.

ولا أنسى فى تلك الليلة أن الأخ الكريم الأستاذ محمود إبراهيم وكان جارى فى العنبر، كان بين الفينة والفينة يعيد علىّ هذا السؤال:

هل أنت متأكد من المعلومات التى أخبرتنا عنها فى هذه الرؤيا؟

فأقول له: نعم.. فيبتسم وكأنه يريد أن يقول لى: ولكن الظروف التى نعيشها لاتوحى بشىء من ذلك.

وانبلج الصباح.. وما كادت تشرق الشمس حتى سمعنا مكبراً للصوت ينادى على أسماء ويصمت فترة ثم ينادى على عدد آخر من الأسماء.. وهكذا حتى سمعنا أسماءنا ينادى عليها. وفتح باب العنبر، وجاء من يقول لنا: حضروا أمتعتكم فإنه الإفراج.

إيمان باللمس:

حين جاء بشير الإفراج حمدت الله أعظم الحمد لاعلى الإفراج فى ذاته ــ فقد كان

شوقى إلى إتمام استعادة حفظ مابقى من القرآن يجعل بقائى فى السجن أحب إلىّ من الخروج منه — بل على مامنحنى الله عز وجل من برهان جديد على الإيمان بوجوده، وعلى الثقة بإحاطة علمه، وعلى قدرته على إتمام مشيئته. وقد سميت هذا النوع من الإيمان بالإيمان باللمس؛ لأنه جل شأنه قرّب الإيمان الذى هو روح منه إلى عقولنا وقلوبنا بما يشبه المزج بين روحانيته تعالى وماديتنا؛ فالأرقام والمواعيد مادة، وإحاطته جل شأنه بالغيب روح **﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون﴾ ﴿ماكنت تدرى ماالكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم. صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾**.

أشهد أننى خرجت من هذه المحنة بكسبين لا يعدلهما كسب كسبته فى حياتى، ولا أعتقد أن يعدلهما كسب أكسبه ماحييت؛ ذانكم هما حفظ مااستعدت حفظه من القرآن، وتجديد إيمانى بالله عز وجل إيماناً باللمس.. والإيمان باللمس لايزعزعه مايزعزع الجبال، ولا تنال منه المصائب والأهوال. وأحمد الله على ماأكرم به وأسأله الثبات عليه والمزيد منه حتى ألقاه عليه إنه على مايشاء قدير وهو بعباده خبير بصير.

* * *

الباب الثامن عشر

بعد الإفراج

الفصل الأول : حالة المجتمع المصرى وقتئذ

الفصل الثانى : إن الرواية لم تتم فصولا

الفصل الثالث : اليوم الموعود.. جاء مبكراً

الفصل الأول

حالة المجتمع المصرى وقتئذ

خرجنا إلى مايسمونه الإفراج. فلما جربناه تمنينا أن لو عدنا إلى السجن؛ فهو أهنأ بالاً من هذا الإفراج الذى قصد منه إفراغ أماكن فى السجون لاستقبال أفواج أخرى ثم اعتبار المساكن التي يسكنها المفرج عنهم سجوناً، ومقار أعمالهم سجوناً، والشوارع التى يمشون فيها سجوناً؛ فأينا كنت ترى من يتبعك، وحيثما استقر بك القرار تجد من يطرق الباب عليك ويجرى معك تحقيقاً. وإذا زارك زائر استدعيت للمثول بين يدى ضابط المباحث للاستفسار منك عن أسباب الزيارة وعما دار فيها.. ثم يقدم إليك نصيحة فى صورة إنذار أو إنذاراً فى صورة نصيحة أن لاتستقبل زواراً.

وأنت حين كنت بين جدران سجن من السجون فأنت آمن أن تؤخذ بجريرة لم تجنها، لأنك فى مكان مغلق؛ أما فى حالة الإفراج المدعاة فإنك معرض أن تؤخذ بجرائر لم ترتكبها، وبتصرفات لم تصدر منك، ولكن المكلفين بمتابعتك قد يحلو لبعضهم أن يخترع قصة من محض خياله ينسبها إليك أملاً فى أن ينال عند سيده الضابط حظوة، ولا يبالى مايصيبك ويصيب أهلك من جرائها من قلق وعنت وإهانة.

وقد تقابل صديقاً عزيزاً عليك أثيراً عندك وأنت مشتاق إليه؛ فتحاول أن تتفادى اللقاء به وأنت فى شوق إليه؛ وقد يلاحظ ذلك فيسىء بك الظن وهو لايعلم أنك تفعل ذلك خشية أن يكون لقاؤك به سبباً فى إثارة المتاعب له— وقد تلتقى بمثل هذا الصديق مصادفة وجهاً لوجه فلا تملك إلا أن تصافحه وتعانقه وتتحدث معه، ثم يطالبك فى نهاية الحديث بزيارة له فى منزله، فتعتذر بأعذار تلفقها، فيعدك هو بزيارة منه، فيسقط فى يدك.. فإذا استطعت أن تجمع كل ماتملك من شجاعة رأيت نفسك توجه إليه النصح بأن لايفعل.. والله وحده يعلم وقع هذه النصيحة فى نفسه، وعلى أى محمل حملها.. وهكذا تجد نفسك محاصراً حيثما كنت ولا تضمن فى كل مرة أن يكون محاصروك ممن لايزالون يحتفظون ببقية من ضمير.

أذكر بهذه المناسبة واقعة حدثت لى؛ وإن كانت قد وقعت بعد انتهاء عام ١٩٧٠ حين أتيح للناس أن تتكلم.. كنت فى انتظار الترام صباحاً للذهاب إلى مقر عملى، فوجدت أخاً عزيزاً لى على محطة الترام، وكان هذا الأخ قد قدم حديثاً من بلد عربى غاب فيه بضع سنوات فكنت مشوقاً إليه، فأقبلت عليه مصافحاً ومعانقاً.. وماكدت أبدأ حديث الشوق إليه حتى قدم الترام الذى كان فى انتظاره فاستأذن منى واستقله. ووقفت أنتظر ترامى متمنياً أن لو كان ترامه تأخر حتى أروى غلة الشوق من لقائه الذى لم يستمر إلا دقيقتين.

وفى مساء اليوم التالى استدعيت لمقابلة ضابط المباحث الذى بدأ حديثه بتوجيه هذا السؤال إلىّ: هل قابلت بالأمس صباحاً السيد (فلان) وقرأ لى اسمه من ورقه بيده اسماً رباعياً أى اسمه واسم أبيه واسم جده واسم والد جده — ثم قال: واستمرت المقابلة بينكما ساعتين؟

فأجبته: نعم قابلته.. ولكن المقابلة لم تستمر إلا دقيقتين، وكنت أتمنى لو طالت إلى أكثر من ذلك.

ثم قلت له: من الذى جاءك بنبأ هذه المقابلة.

قال: هو أحد رجالنا المكلفين بمراقبتكم. قلت: إذن فلتسمح لى بمواجهته؟

قال: لماذا؟ قلت: لأننى مصمم أن أصفعه لأنه مجرم وكذاب..

فلما رآنى مغضباً قال: لاداعى لكل هذا. قلت: إن صفع مثل هذا الكذاب قد يكون رادعاً له وقد يكون عبرة لغيره.. ثم قلت للضابط: إذا كنتم تستقون أخبار الناس من أمثال هذا الكذاب المختلق الذى لاضمير له فيكف تستقيم الأمور؟! قال: لاتهتم بالأمر إلى هذا الحد.

قلت: كيف لاأهتم وأنت قد بلغ من اهتمامك بهذا التقرير أنك استدعيتنى، ثم إنك تقرأه لى كأنه مستند خطير تعتز به؛ فتقرأ اسم الصديق الذى قابلته اسماً رباعياً، أنا شخصياً والله لاأعرف كل أجداده كما تعرفون.. وكنا إذ ذاك فى أوائل عهد جديد بعد العهد الذى طال ظلامه.. فما كان من الضابط الفاضل وأقول الفاضل — لأنه رجع إلى الحق،والرجوع إلى الحق فضيلة — إلا أن اعتذر لى ووعدنى بأن لايتكرر هذا الازعاج.

السجل أو الدليل وما يرمز إليه:

كنت قد تحدثت — كما قدمت — إلى إخوانى فى العنبر بسجن مزرعة طره عقب صدور القانون الذى أسمعونا موافقة مجلس الأمة عليه — حديثاً مستفيضاً أثبت لهم فيه أن هذا الحاكم قد استكمل بهذا القانون آخر حلقات القهر والجبروت التى أحكم بها سلسلة

الغل حول أعناقنا ليطبق على هذه الأعناق فى أى لحظة يشاء فتفارق الحياة.. وقلت إننى بذلك أتربص به ماحل بفرعون.. قلت ذلك ولم أكن أعلم بأن هذا الشعور نفسه كان هو شعور السيد كمال الدين حسين حتى إنه أطلق على هذا القانون «قانون فرعون» ولم أعلم بهذه التسمية إلا من كتاب «الموتى يتكلمون» للأستاذ سامى جوهر الذى أشرت إليه من قبل والذى صدر فى عام ١٩٧٧.

وقد استلزمت المادة الأولى من هذا القانون لتنفيذها إعداد سجل أو دليل يثبت فيه أسماء كل الذين تناولهم الاعتقال عام ١٩٦٥ حتى ولو كان الاعتقال ليوم واحد.. مع بيانات مستفيضة عن كل معتقل. ولم يكتفوا بالبيانات التى تطلبّ من أى مواطن حتى فى أخطر الظروف بل تعدوها إلى بيانات لاتخطر على البال، وقد لايعرف الغرض من ورائها إلا من درس هؤلاء القوم وألم بأهدافهم ومراميهم.

وكان معنى هذا أنه قد استقر فى خاطرهم أننا نحن الإخوان المسلمين قد أحيط بنا، وقد وضعنا فى أيديهم، ولم يعد لنا من مفر إلا لهم، ولا من مهرب إلا إليهم.. واعتبروا ذلك حقيقة مادية تمخضت عنها جهودهم طيلة اثنى عشر عاماً؛ فلما وصلوا إلى هذه الحقيقة المادية اطمأنت قلوبهم، وأمنوا بذلك صروف الزمان، وما كان لهم بعد ذلك إلا أن يرتقوا فى الأسباب..وما كان علينا نحن إلا أن ننتظر ألوان الكوارث وأسباب الفناء..

الحال التى آل إليها المجتمع :

ولا ينبغى أن نخدع الناس ونخدع أنفسنا فندعى أن اليأس لم يحوّم على قلوبنا.. فالإخوان صاروا فى ذلك الوقت بين غائب وراء أسوار السجون، وبين حاضر محاصر يشتهى أن يلحق بإخوانه الغائبين، والكل بأهله وأقاربه وذويه فى سجل حافل بين يدى الجلادين-الذين لايرحمون.. الأنفاس تعد، والنظرات ترصد، والكلمات يحاسب عليها.. ويوم يرى إله الجلادين أن اجمعوا جمعت هذه الألوف المثبتة فى السجل فى أقل من ساعة.. وله حينئذ أن يلصق بهم من التهم مايشاء، وأن يحكم عليهم بما يشاء ولا معقب لحكمه.. لم يعد فى البلاد من يستطيع أن يرفع رأسه أو أن ينبس ببنت شفة إلا أن يكون مادحاً أو منافقاً.

حالة يعذر من يغلبه اليأس فيها. وأقسم لقد كنت أجلس إلى نفسى فأتمنى أن أغيب مع إخوانى وراء الأسوار؛ لأن الله تعالى وإن ابتلاهم بالسجن فقد أعفاهم من كثير مما لو رأوه وشاهدوه لتفطرت نفوسهم حزناً وأسى.. فمرافق البلاد تحولت إلى الصورة التالية:

المدارس: لم تعد المدارس هى تلك الأماكن التى يتلقى فيها أبناؤنا أصول التربية ومكارم الأخلاق. فالقدوة انعدمت؛ لأن المدرس رأى بعينيه أن أهل الدين والفضيلة

يداسون بالنعال؛ فكيف يتمسك بما لو تمسك به لوضع فى نفس الموضع، ورأى بعينيه أن أهل النفاق والمتزلفين هم الذين يرفعون إلى أعلى المناصب. فصار همه أن يبحث عن وسائل الزلفى ليتقرب.

ومن هذا الطريق تسربت إلى مناهج الدراسة أشياء مسخت عقول التلاميذ ونفوسهم.. امتدت يد الزيف إلى التاريخ الوطنى فحقرت من شأن كل ذى شأن لتظهر أن الفترة الوحيدة المشرقة فى تاريخ البلاد هى الفترة التى سعدت البلاد فيها بأعظم رجل فى التاريخ.. حتى اللغات التى اعتاد واضعو مناهجها أن يتخيروا النصوص ومواضيع القراءة لها من أبلغ التراث العربى لفصحاء العرب؛ مسخوها فاتخذوا خطب الحاكم وبياناته ــ وهو أمى من الناحية اللغوية ــ نصوصاً ومواضيع للقراءة.. فنشأ الشباب معوج اللسان سوقى العبارة، ضعيف الأسلوب.. وسرى هذا المسخ إلى الصحف وإلى الكتب.. ولم ينج من هذا الطوفان الغث من الكتاب إلا القليل الذى اعتصم بكتاب الله وحديث الرسول وروائع المراجع الأدبية.

ونشأ الشباب غير ذى عهد بقيم؛ فرأيناه يملأ الشوارع يلعب بالكرة لايبالى من أصابته الكرة من المشاة رجالاً ونساءً، ورأينا الطلبة يضربون مدرسيهم، ويضربون آباءهم، ويتبادلون الشتائم على قارعة الطرق بألفاظ نابية.. ورأينا الشباب يطاردون الفتيات، والفتيات كاسيات عاريات. قلما تجد من يحترم كبيراً أو يعين عاجزاً.. كل همهم المظهر حتى لم تعد تميز الولد من البنت.

وسائل الإعلام:

لاعمل لها إلا أمران: إطراء الحاكم بنسبة كل المحاسن إليه، وإلقاء المساوىء جميعاً على من سواه ــ ونفث السموم فى عقول الشباب من فتيان وفتيات بما تعرض من مقالة وتمثيلية وفيلم وأغنية.. فمن نجا من مسخ المدارس لأفكاره ونفسيته لم ينج من وسائل الإعلام التى تلاحقه حيثما كان.

المجتمعات:

أما المجتمعات التى لابد لكل فرد أن يساهم فيها؛ كالأعمال فى دور الحكومة والمصانع والشركات والنوادى والمقاهى والجمعيات والنقابات ودور العلاج وغيرها؛ فإن الناس أصبحوا لايأمن أحدهم على نفسه إذا هو تكلم أن يجد نفسه فى مكان سحيق حيث لايصل إليه قريب ولا صديق.. لأن الحاكم قد بث فى كل مجتمع مهما صغر أو كبر أذناً من آذانه، لاتنقل إليه جرائم المجرمين بل تنقل إليه كلام أصحاب الفكر على أنه اعتداء عليه ومؤامرة تعد للإطاحة به.

أذكر بهذه المناسبة أن أحد الإخوان بالإسكندرية تعود فى خلال تلك الحقبة أن يؤدى صلاة المغرب فى زاوية صغيرة بجانب منزله ثم يلقى درساً بين المغرب والعشاء. وفى أحد هذه الدروس تكلم عن عدالة عمر بن الخطاب.. وفى اليوم التالى جاءه استدعاء لمقابلة ضابط المباحث الذى سأله: هل ألقيت درساً أمس فى زاوية كذا؟ قال: نعم. قال: ماذا كان موضوعه؟ قال: كان موضوعه عدالة عمر بن الخطاب. قال الضابط: إذن فتقرير المخبر فى محله.. أنا أنذرك هذه المرة وبعدها أنا غير مسئول عما يحدث لك. قال الأخ: ولم هذا الإنذار؟ قال الضابط: ألا تعلم أن حديثك عن عدالة عمر بن الخطاب معناه أنك تشير بذلك إلى ظلم جمال عبد الناصر؟

يقول لى الأخ وهو يروى لى هذه القصة: فضحكت فى نفسى وتذكرت حكاية العسكرى الذى سمع رجلاً يسب الحكومة (الكذا) فأمسك به وقال له: أنت تسب حكومتنا. قال الرجل: وما أدراك أننى أسب حكومتنا؟ قال العسكرى: وهل هناك حكومة (كذا) إلا حكومتنا.. وقد جاءنى هذا الأخ عقب مساءلته فى ذلك الوقت فعجبت لهذه الحساسية.

وكان أعوان الحاكم ينتدبون شباباً غضاً للقيام بهذه المهمة فى مختلف المجتمعات. ولما كان هذا الشباب قد نشأ فى جو خال من القيم فإنه كان يسارع إلى الاستجابة ويرى فى ذلك شرفاً، ويظنه — كما علموه — جهاداً ووطنية.. وأذكر أن شاباً يافعاً جاء فى تلك الحقبة يزور أصدقاء له وزملاء فى مقر العمل الذى كنت فيه. فلما جلس إليهم وأخذ يتحدث صارحهم متفاخراً أنه إذا سمع أحداً منهم يذكر الحكومة بسوء أو ينقد عملاً من أعمالها فإنه سيرفع إلى الجهات المسئولة تقريراً بذلك. فقال له بعضهم: ألا ترى فى مثل هذا العمل خيانة لزملائك ونذالة؟ قال: لا.. هذه هى الوطنية.. فما كان منهم إلا أن أمسكوا عن الكلام حتى غادرهم.

وأذكر أن كان لى صديق رئيساً لشركة من الشركات الكبيرة، وكنت فى زيارته فى تلك الأيام، فدخل عليه شاب صغير من موظفى الشركة فرأيته قد أولاه من الاهتمام، وحباه بألوان من الاحترام، مما لايتناسب مع سنة ولا مع وظيفته — وكان صديقى هذا مشهورا بجده فى عمله وبأنه لايبالى بمن يتعامل معه من موظفى شركته مهما علت وظيفته فهو رئيس والكل مرءوس.. فلفت نظرى هذا التصرف الغريب منه مع هذا الموظف الصغير.. وقد عزمت على أن أسأله فى ذلك بعد خروج الشاب.. ولكنه كان أسرع منى؛ فما كاد الشاب يخرج حتى قرب من أذنى وقال لى: لعلك استغربت ماكان من مبالغتى فى الاحترام لهذا الشاب؟! فقلت له: لقد سبقتنى فقد كنت عازماً على سؤالك فى هذا الشأن. قال: لاأستطيع أن أفعل إلا مافعلت.. ألا تعلم أن هذا الشاب يستطيع بتقرير يكتبه عنى أن

أفصل من وظيفتى ؟! إنهما شابان فى شركتنا اختيرا ليكونا عينا علينا .. لم أعد استطيع أن أقطع فى أمر من أمور الشركة إلا بعد أن أرجع إليهما ؛ فإن أقراه أمضيته وإن رفضاه ألغيته.

قلت : وهل هما من سعة العلم وطول التجربة بحيث يستطيعان أن يعرفا النافع من الضار فى كل أمر من أمور الشركة؟ قال: لا . قلت : إذن فقد يكون رأيهما فى كثير من الأحيان خاطئاً. قال: نعم. قلت: وتمضى مع ذلك مايريان؟ قال: نعم. قلت: وقد يودى ذلك بمصالح الشركة. قال: نعم ولكن هكذا أرادت الحكومة.

وقد يلحق بهذا الذى سقناه لبيان ماآلت إليه حال المجتمعات أن أذكر واقعة تتصل بى شخصياً ففى يوم من أيام تلك الحقبة كنت فى منزلى فطرق الباب طارق ففتحت فرأيت شخصاً أمامى لاأعرفه فقال: سيادتك (فلان)؟ قلت : نعم. قال: معى موضوع أحب أن أعرضه عليك فهل تسمح لى بالدخول؟ فأذنت ــ قال: إننى من رجال المخابرات، وقد بلغنا أنك من أهل الرأى فى أوساط الإخوان ونحب أن نتبادل معك الرأى، أستغفر الله لابل أن نسألك الرأى فى بعض الأمور التى تهم الدولة فهل لديك مايمنع؟ قلت: إذا كانت الأسئلة تتعلق بالإخوان فليس عندى ماأجيب به لأننى منقطع عن الإخوان ولا أعرف عنهم شيئاً. قال: لا .. إننا نريد رأيك فى أمور أخرى. قلت: أجيبكم إذن على ماأعرف .

وتكرر ترددهم، وما كان فى وسعى أن أعرض عنهم، ولكننى سألت الله تعالى أن يعيننى عليهم، وأن يخلصنى من شرهم.. وسألوا عن رأيى فى الأعمال الحكومية التى نباشرها وعن العيوب التى أراها فيها. فأجبتهم وأبرزت لهم عيوباً ملموسة زعموا أنهم سيعملون على إصلاحها..

وكان مما سألونى فى شأنه وأظهروا اهتماماً كبيراً به موضوع الطرق الصوفية وهل من الصالح للدولة إلغاؤها وقالوا إن الدولة الآن فى سبيل إلغائها؛ فإن كنت ترى رأياً آخر فادعمه بالحجج واكتبه لنا.

وقد رأيتنى بصدد هذا السؤال فى حرج؛ فأنا أعلم أن أكثر الطرق الصوفية الآن ليست على الصورة التى كانت عليها فى صدر الإسلام، وأنها فى أمس الحاجة إلى من يردها إلى الطريق السوى، وأن المآخذ عليها كثيرة، وأن من المسلمين من يراها جديرة أن تحارب .. كل هذا علمته، ولكننى رأيت هذه الحكومة قد قضت على كل مايمت إلى الإسلام بصلة؛ حتى صار النشء الجديد تائها وسط بحر مائج من الترهات والأكاذيب الملبسة ثياب المبادىء والقيم وكلها تؤدى إلى الانحلال الخلقى والإلحاد، ولا يجد هذا النشء من يأخذ بيده إلى طريق أسلم ومبادىء أقوم. وأحسست بأن وراء الخطوة المعدة لإلغاء الطرق الصوفية قوة لاتبغى الإصلاح كما تتعمد أن تبدو، بل هى قوة ملحدة.. بعد أن قضت على القوة العاملة بلب الإسلام أرادت أن تمحو كل أثر إسلامى؛ فلم يبق أمامها إلا المتزيين

بمظاهر الإسلام المتشبثين منه بالقشور.

فقلت قد يكون فى الإبقاء على هذه المظاهر والقشور مايذكر الناس بالإسلام وسط هذا الليل الحالك البهيم المخيم على البلاد.. فكتبت لهم عن الصوفية وتاريخها ماجعلهم يعدلون عن قرار إلغائها .

* * *

الفصل الثانى

إن الرواية لم تتم فصولا

خرجنا من المعتقل وكنت شخصياً فى حال من أسمى مراتب الروحانية؛ وإن كنت ـــ جسماً ـــ قد نقص وزنى سبع كيلوجرامات حتى لم تعد كل ملابسى تصلح لى. ولكننى لبستها غير مبال بشيء فقد كنت فى الحال التى قال فيها رسول الله ﷺ لصاحبه «قد عرفت فالزم»؛ فلقد آمنت بالله إيماناً باللمس واطمأننت إلى وعد الله الذى سجله فى كتابه حين قال ﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**﴾ وحين قال ﴿**وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا، ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون**﴾ وحين قال ﴿**ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون**﴾)

كنت موقنا أن النهاية آتية لاريب فيها. ولكن كيف تأتى ومتى تأتى؟ فهذا مااستأثر به علم الله. ويبدو أن نهاية الظالم لاتأتى إلا بعد أن يصل إلى الغايات.. فما دام يرى على وجه الأرض من أعدائه ومنافسيه من لايزال فيه بقية من عرق ينبض؛ فإنه يعتقد أن سلطانه الذى يريد أن يبسطه على كل شيء لايزال مهدداً.. فعليه إذن أن يقطع هذا العرق النابض لتكتمل له أسباب السلطان، ولينعم بسلطة لم ينعم بمثلها أحد سبقه فى حكم مصر..

المحاكمات :

وبوحى من الحساسية التى سيطرت على أعصابه، والتى وصلت به وبمن حوله إلى الحد الذى صورته الآية الكريمة ﴿**يحسبون كل صيحة عليهم**﴾ أخذ يجمع من خيالات الوهم المحيط به خيوطاً تكفى لنسج مؤامرة جديدة للإطاحة به، واستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين.. كانت مهمتهم أن يوجدوا من بين منافسيه ومخالفيه فى الرأى أشخاصاً يلبسونهم ثياب المتآمرين، ويوقعون بهم من الأذى والتعذيب مايرغمهم على

الاعتراف بما أسند إليهم من أدوار فى المؤامرة .

وقد استمدت خيوط المؤامرة المتوهمة من سطور كتاب ألفه رجل من الإخوان تزخر المكتبة الإسلامية بالكثير من مؤلفاته .. ولم يفكر عهد من عهود الدولة الإسلامية أن يعتبر الآراء جريمة يعاقب عليها .. وإذا كان القرآن نفسه قد سجل حرية الرأى وقدسها حتى إذا بلغ الخلاف فى الرأى مبلغاً يتناول العقيدة نفسها قال ﴿لا إكراه فى الدين﴾ فكيف تحاكم حكومة تدعى الانتساب إلى الإسلام وتدعى بلغة العصر أنها حكومة ديمقراطية إنساناً على آراء ضمنها كتاباً وهو لا يرغم أحداً على انتحالها؟! ولكن «الملأ» كانوا يملكون الوسائل التى يحولون بها هذه الآراء إلى مؤامرة يعترف أصحاب هذه الآراء بتدبيرها.

كان صاحب هذه الآراء هو الأخ الكريم الأستاذ سيد قطب وكان كتابه بعنوان «معالم فى الطريق» وينبغى هنا أن أذكّر بأن العداء قديم بين الأستاذ سيد قطب وبين جمال عبد الناصر ، منذ أنشأ هذا الأخير هيئة التحرير وطلب من الأستاذ سيد قطب أن يرعى هذه الهيئة وشاع فى ذلك الوقت أنه يرشحه وزيراً للتربية والتعليم .. فرفض الأستاذ سيد هذا العرض مؤثراً أن يبقى حيث هو وفياً لدعوته .. والأستاذ سيد قطب رحمه الله من العلماء الصرحاء الذين ينبذون إلى مخالفيهم بآرائه على سواء .

ولن أتعرض للمحاكمات التى تمت فى خلال هذه الفترة بشرح ولا تفصيل فقد أفردت لها كتب ، وسالت فى التنديد بها أنهار الصحف . ولازال هذا كله قليلاً من كثير مما سيتناول هذه المحاكمات من شرح وتفصيل — لأن هذه المحاكمات ليست مجرد قضايا نظرت مما تزخر به ملفات المحاكم فانتهت بانتهاء وقتها ، وكان إصدار الحكم فيها هو خاتمة المطاف ، وإنما هى قضية التاريخ التى يصدر الحكم فيها من التاريخ نفسه لا من الذين انتحلوا فيها شخصية القضاة .. وبصدور حكم التاريخ فيها يتحدد مصير هذا البلد ومستقبله .

نعم هناك قوى ذات شأن تعمل بكل جهدها على طمس معالم هذه الفترة العصيبة من تاريخ البلاد ، وتحاول بذلك مصادرة التاريخ حتى لا يصدر حكمه ، ولكن هذه الجهود ذاهبة سدى لأن التاريخ أقوى من أن يصادر ، وتياره أعتى من أن تعترض طريقه عقبات .. ولكن التاريخ قد يؤجل نطقه بالحكم حتى تصل الأمور إلى مداها.

إن محكمة «الدجوى» — التى حاكمت الأستاذ سيد قطب وزملاءه — وأمثالها مما سميت زوراً محاكم ، ستحاكم هى نفسها أمام محكمة التاريخ ، وستجر هذه «المحاكم» من كان وراءها من المجرمين الذين تواروا خلفها فى أثواب حكام ؛ ويومئذ يأخذ هذا الشعب جلاديه بالنواصى والأقدام .

لقد أعدموا فى المرة الأولى سنة ١٩٥٤ ستة من أكرم الإخوان ، وأعدموا فى هذه

المرة سنة ١٩٦٥ ثلاثة آخرين من أكرم الإخوان، وفعلوا ببقية الإخوان مافعلوا وهم يحسبون أنهم أضحوا بذلك فى مأمن من تقلبات الأيام، وحسبوا أنهم قد آن لهم بعد ذلك أن ينعموا بهدوء لاتقطع سكونه الفواجع، وبنوم لاتؤرقه الأحلام.

إزالة الآثار أو المحو من التاريخ:

والعجيب فى تصرفات هذا الرجل هو أنه قد حقق لنفسه من السلطان كل ماكان يحلم به؛ ومع ذلك فإنه كان يعيش فى خوف دائم لايفارقه من ليل ولا نهار.. وأبرز مظاهر خوفه أنه يتصرف كأنه متهم هارب من العدالة؛ فأول شيء يحرص عليه هو أن يحرق الأوراق التى يعتقد أن فيها دلائل اتهامه. فكل تفتيش كان رجاله يقومون به فى دور الإخوان وفى بيوتهم كانوا حريصين فيه أن لايدعوا كتاباً ولا كراساً ولا ورقة فيها كتابة إلا استولوا عليها ونقلوها إلى مقرهم وأحرقوها حتى لايبقى منها إلا الرماد.

وتجلى هذا الشعور واضحاً فيما يتصل بالأخ الكريم الأستاذ سيد قطب وكان رجلاً كاتباً وأديباً. فكان جمال عبد الناصر حريصاً قبل كل شيء على التخلص من كل ماكتبه الشهيد.. وقد أخبرنى أحد الإخوة الكرماء ــ وكن مدرساً إذ ذاك فى مدرسة بنات إعدادية ــ أنه قرأ بنفسه الأمر الصادر إلى جميع المدارس والمعاهد والجامعات بتكوين لجنة فى كل مدرسة وكل معهد وكل كليه مهمتها جمع كل ماكتب الأستاذ سيد قطب ثم حرق ماجمعته على أن تحرر محضراً بذلك موقعاً من أعضائها جميعاً. وقال لى الأخ الكريم: إن اللجنة الخاصة بمدرسته قد صدعت بالأمر. وأخبرنى أيضاً أن هذه اللجان فى المدارس الإبتدائية كانوا يجمعون كتب القراءة المقررة وفى الكتاب ورقة واحدة فيها نشيد وطنى من تأليف الأستاذ سيد فكانوا يقطعون هذه الورقة من كل كتاب ويحرقونها بمحضر.

وقد ذكرنى هذا التصرف البالغ الوقاحة والخوف معاً بقول الله تعالى فى كتابه العزيز **﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾**.

* * *

الفصل الثالث

اليوم الموعود

سيطر على الإخوان فى تلك الحقبة الكئيبة مايشبه اليأس وكادوا يظنون بالله الظنون؛ فقد رأوا الظالم يبطش بأهل الحق وبالداعين إلى الله سنة ١٩٥٤ فتربصوا به أن يصيبه الله بعذاب من عنده فلم يصبه بشيء بل زاده سعة فى الملك، وثباتاً فى الحكم، وتمكيناً فى الأرض.. فلما سولت له نفسه أن يعيد الكرة مع المثخنين الذين باتوا كلهم فى أسره منذ عام ١٩٥٤ أعادها بوحشية تعافها الوحوش الكاسرة، وتأنف منها الذئاب الجائعة.. وفى الوقت الذى يطأ بنعاله جثث القتلى والجرحى ممن طوح بهم ظلمه؛ رأوه يعلو فتنحنى لجبروته رءوس الشعب، وتخطب وده — اتقاء شره — ملوك العرب؛ فيزداد علواً فى الأرض، وعتواً فى الحكم، واستهانة بالقيم.

ولقد طالما صارحنى بعض كرام الإخوة الفضلاء بما يوصف بأنه ليل لافجر له.. فالرجل لايزيد كل يوم إلا علواً، ولا يكتسب مع كل ظلم إلا تمكيناً.. فهل تبدلت كلمات الله، ونسخت سنن الخالق؟ وكنت أرد عليهم — واثقاً من سنن الله التى لاتتبدل؛ مستنداً إلى الإيمان باللمس الذى مَنَّ الله به علىّ — فأقول: إن اليوم والله لآت لاريب فيه. ولكن متى يأتى وكيف يأتى؟ فهذا ماإستأثر به علم الله ولكنه أشار إليه بقوله ﴿**ويخلق مالا تعلمون**﴾ وبقوله ﴿**وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم**﴾.. وأقول لهم: لاتظنوا أن نهاية الظالم لابد أن تأتى على أيديكم فإذا عجزتم عن ذلك كان عجزكم هو نهاية المطاف؛ فعند الله من القوى مالا يخطر على بال ولا يجول بحسبان، وتذكروا أن الله تعالى قال ﴿**ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا**﴾ فإذا عجزت أيدينا فالله عز وجل يتولى الأمر بنفسه. وناهيك بأمر يتولاه الله بنفسه.. ولقد كنت مع ثقتى التامة بالعاقبة التى وعد الله بها لاأتعجل هذه العاقبة فقد تطول الأيام، ويوم التاريخ طويل؛ فكنت أقول لهم قد لانرى هذه العاقبة وقد يراها أبناؤنا ولكنها لامحالة واقعة.

جاء اليوم مبكراً:

ماكنت أحسب أن اليوم المرتقب سيأتى قريبا إلى الحد من القرب الذى جاء به.. بل

إنه جاء مفاجأة لنا وللظالم نفسه ولكل الناس؛ حتى إن الإنسان لم يكد يصدق ماسمع.. لما جاء النبأ المفاجيء المزلزل شخصت الأبصار، وسهمت الوجوه، وفغرت الأفواه.. لو قيل لك إن الهرم الأكبر قد اندك فلم يعد له أثر، أو أن جبال المقطم قد ابتلعتها الأرض لكان ذلك أقرب إلى التصديق من هذا النبأ.

إن الرجل قد أضحى في عنفوان قوته.. ولما وجد نفسه قد أخضع العرب لسطوته؛ راح يتطاول على حكام الغرب وأساطينه ودهاقينه.. فعقد مؤتمراً صحفياً اجتمع فيه صحافيو العالم كله في مساء يوم ٢٨ مايو ١٩٦٧ وسمعنا في الإذاعة صحفياً اسمه ستيفن هاربر محرر الديلي اكسبريس البريطانية يوجه إليه سؤالاً عجيباً يقول له فيه:

«لقد مررتم كإنسان بمرحلة ضغط كبيرة في أثناء أزمة مشابهة تقريباً للأزمة الحالية في خلال صيف عام ١٩٥٦ — فهل تجدون من السهولة بمكان تحمل أعبائها كإنسان أكبر سناً مما كان عليه من قبل بأحد عشر عاماً؛ أم أنكم تجدونها أصعب شأناً.. وكيف تستريحون من مشاكلكم؟» فيجيبه المارد الجبار بقوله: بالنسبة للسن أنا ماعجزتش، وأنا لسه مابلغتش الخمسين وأنا مش خرع زي المستر إيدين أبداً بأي شكل من الأشكال. يعني لازم تفهموا هذا الكلام وطمنهم في انجلترا إني أنا ماكملتش الخمسين وقاعد لسه مدة طويلة موجود هنا في هذه البلد وفي هذه المنطقة من العالم.

وأنا في هذه الأزمة بالذات وفي هذه الأيام باصحى بدري وصحتي كويسه. والأزمة صحتي بتبقى فيها أحسن. وبأنام وخري، وأظن شايف إن صحتي كويسة وقادر إني استمر في هذه المعركة وفي معارك أخرى».

إجابة ليس لله فيها نصيب، بل كلها غرور وإعجاب بالنفس، واعتقاد صارخ بأنه القادر الفعال.. هذا الكلام سمعناه بألفاظه ومعانيه منذ أسبوع واحد بآذاننا.. فهل يعقل أن مثل هذا الرجل يقال لنا إنه محي من الوجود؛ وإنه أضحى يحمل عار الهزيمة والذل والضياع، وإنه قد سجل على نفسه وعلى أمته خزي الأبد وذل الدهر؟!

لقد ابتغى الرجل بهذه الحرب ضد إسرائيل أن يمد رواق مجده وسلطانه على مابعد أرض العرب ليرضي كبرياءه الذي يلح عليه فلا يقنعه شيء ملكه حتى يملك غيره.. فكيف تكون هذه الحرب هي قاصمة ظهره وآكلة كبده، وماحية أثره؟!

إذا كان غير الله للمرء عدة   أتته الرزايا من وجوه الفوائد

وصدق الله العظيم **﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون. إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رءوسهم لايرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾..** ليس هذا وصف الظالمين يوم القيامة فحسب؛ بل هو وصفهم أيضاً يوم يأتيهم العذاب في

الدنيا من حيث لايحتسبون، وتنزل بهم القواصم وهم منها بسلطانهم معتصمون .

لقد كان غاية مايرجوه من ذاقوا العذاب على يديه أن يهديه الله إلى الحق أو أن يقبضه إليه فيريح الناس من ظلمه.. ولكن الله وهو مطلع على ماارتكب من جرائم فى حق الناس، وعلى ماانتهك من حرماتهم؛ أبى أن يهديه لأنه قرر فى محكم كتابه أن لايهدى من رأى آياته فلم يؤمن بها **﴿إن الذين لايؤمنون بآيات الله لايهديهم الله ولهم عذاب أليم﴾** والذى رأى وقرأ وسمع عن آيات الله فى كونه وفى عباده فعلم نهاية الظالمين؛ مثل هذا لايقدم على ظلم، ولا يستبيح تعذيب الناس وقتلهم.. فأنى يهديه الله إذا هو أعرض عن هذه الآيات وظلم وتمادى فى الظلم.. أليس هو الله تعالى الذى قال: **﴿والله لايهدى القوم الظالمين﴾**

كما أن الله تعالى أبى أن يقبضه إليه فيذهب رجال دولته، وسدنة عرشه، فى تمجيد أيامه كل مذهب؛ فيكون موته أشد فتنة للناس من حياته.. واقتضت حكمته تعالى وسابغ عدله أن لايقبضه إلا بعد أن يمحو تاريخه بيده،وإلا بعد أن يشهده أهله وذووه، ويشهده العالم كله وهو يسطر وثيقة الذل والهوان لنفسه ولبلده،وإلا بعد أن ينطق بلسانه أمام شعبه وأمام العالم كله أنه هو وحده الذى يحمل تبعة هذا العار والخزى والهزيمة وأنه لايستحق أن يبقى فى دست الحكم بعد ذلك ساعة من نهار.. وإلا بعد أن يمد أكف الضراعة إلى الرجل الذى طالما تهكم عليه وهاجمه لأنه أراد أن يجمع كلمة المسلمين وذلكم هو الملك فيصل بن عبد العزيز .

لقد أراد الظالم أن ينتصر بجيش هو حقاً كان جيشاً جراراً مدججاً بأحدث سلاح؛ ولكنه كان قد أخرج منه كل ذى دين وكل ذى مبدأ وكل ذى كرامة، وحال بين هؤلاء وبين أن يتسربوا إليه؛ فلم يعد فى الجيش إلا أخشاب مسندة من أهل ثقته الذين كانت سمتهم المميزة الاستهتار بالدين، والاستخفاف بالقيم؛ فلم تغن هذه الحشود المدججة يوم الجد عنه شيئاً، وفى أول لقاء فرّوا هاربين، وتركوا أسلحتهم للعدو .

أسد علىّ وفى الحروب نعامة   فتخاء تنفر من صفير الصافر

ليت الظالمين يعتبرون؛ فإن حرب يونيو ١٩٦٧ ستظل إلى الأبد عظة وعبرة لكل متكبر لايؤمن بيوم الحساب، ليس الظالم فى حاجة إلى من يحفر له قبره؛ فإن من تنكيل الله العلى القادر به أن يسخره هو نفسه لحفر هذا القبر لاليدفن فيه جثته وحدها وإنما ليدفن فيه مع جثته تاريخه وأمجاده التى كان يتيه بها على الناس؛ ولا يبقى له بعد ذلك إلا الخزى والهزيمة والذل والعار .

أراد الظالم بهذه الحرب لاأن يستخلص فلسطين من أيدى اليهود، وإنما أراد أن يحقق فيها نصراً يتيه به على منافسيه، ويستكمل به عدة التسلط والجبروت، ويستعيد به مكانة

فقدها بانسلاخ سورية عنه وليكون فى الموقع من القمة الذى يَفْتِكُ فيه بالحفنة من الرجال فى هذه الأمة الذين— بالرغم مما يرسفون فيه من أغلال— لازالت فى صدورهم قلوب تنبض، وألسنة تنطق ولكنها تأبى أن تقدس غير الله، وترفض أن تقر بالذل لغير الله.

وتقدرون وتضحك الأقدار

وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿**قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون. ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم قال الذين أوتوا العلم إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين. الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقوا السلم ماكنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون. فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين**﴾.

حقاً ﴿**إن بطش ربك لشديد**﴾ إنه لايأخذ الظالم إلا من علٍ. حتى إذا وقع كان لوقوعه ضجة وصخب يلفت الأنظار، ويوقظ النائمين، وينبه الغافلين، ويقرع أقفاء السادرين فى الضلال والموغلين فى الظلم والظلام.. إنه إذا أراد أخذهم لم يهدم بنيانهم— كما عهد الناس الهدم— من فوق حتى يهوى به إلى تحت؛ فإن هذه الطريقة فى الهدم تستغرق وقتاً طويلاً تضيع فيه قيمة المباغتة، وتترك فرصة للظالم ومن معه أن يهربوا أو حتى أن يفيئوا إلى رشدهم، ثم إنها قد تترك قواعده وأسسه باقية مما يغرى ظالماً آخر برفع هذه القواعد مرة أخرى.. وإنما اقتضت إرادته أن يبدأ فى هدم البناء بنسف أساسه وقواعده فيخر البنيان كله دفعة واحدة على من فيه فلا يجدون لهم مفراً ولا منجىً، ويكون فى هذا النسف الفورى معنى الأخذ والمباغتة التى يريد بها التنكيل للظالمين والثأر للمظلومين والعبرة للناس أجمعين.

بعد حرب يونية ١٩٦٧ :

لن أتعرض هنا أيضاً للمهازل التى تلت الهزيمة التاريخية والتى انتهت بالإبقاء على جمال عبد الناصر فى رياسة الدولة؛ فهذا موضوع سالت به أنهار الصحف، وزخرت بمناقشته بطون الكتب، وسيظل على مر الزمن موضوع مناقشة حتى يستطيع المصريون جيلاً بعد جيل فك رموز هذه المعادلة الصعبة المستعصية على الفهم والتى تقول بأن هزيمة ٥ يونيه الماحقة تساوى النصر الذى يستحق الإشادة به والفخر.. نعم ظل عبد الناصر فى موضعه ولكنه رجع مصدوع القلب، مفرى الكبد، محطم الفؤاد. وكأنما أحس بنهايته— وقد اعتبر كتاب الغرب يوم ٥ يونيه يوم وفاته— تقترب، وبجرائمه تطبق على عنقه فأراد أن

يتوب.. وكأنى برب العزة يرد عليه قائلاً ﴿**آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين. فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون**﴾ فلقد تقدم إلى الشعب ببيان مارس ٦٨ ولا أعده إلا بمثابة توبة فقد اشتمل على مبادىء طيبة لإصلاح المجتمع.. فاستبشر الناس وما كادوا يفعلون..

كأن رب الناس أبى أن يجرى خيراً على يدين ملطختين بدماء الأبرياء.. غلبت على الرجل طبيعته فابتلع كل ماجاء ببيان مارس ورجع إلى حكم الفرد.. ولكن بقلب كسير، وجناح مهيض.. فالحكم بوليسى إرهابى كما كان، ولكن اليد التى تعودت البطش تبطش وقد نزعت مخالبها.

* * *

الباب التاسع عشر

الدعوة المستهدفة بأمكر الأساليب

الفصل الأول : مراجعة عامة

الفصل الثانى : كبح مؤامرة اشرأبت بعنقها مرة أخرى

الفصل الثالث : إلى هذا الحد يزيف التاريخ

الفصل الأول

مراجعة عامة

من حق القارىء عليّ بعد استيعابه هذه الصفحات التى كان جل همى فيها منصباً على تسجيل الأحداث بطريق أقرب إلى السرد منها إلى الإفاضة والتحليل؛ أن أتناول فى هذه الخاتمة بعض مامر من أحداث بشيء من التعليل والتحليل والتعليق والإفاضة حتى تتألق الحقائق الهامة تألقاً يبدد كل إبهام:

أولاً — قامت دعوة الإخوان المسلمين منذ أول يوم على أساس فكرة شاملة واضحة محددة. وإن هذه الفكرة ظلت كما هى تماماً لم يطرأ عليها أى تغيير بنقص أو زيادة مع تغير القيادات وتطور الأيام وتباين الظروف.

ثانياً — قد يقال إن هذا يعزى إلى أنها دعوة منزلة من عند الله. ولكن هذا ليس السبب؛ فإن الذى تكفل الله تعالى بحفظه هو القرآن الكريم وحده إذ يقول ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ أما الفكرة الإسلامية المستنبطة من الكتاب والسنة فهى وإن كانت محددة المعالم بمقتضى هذين المرجعين إلا أن الناس من أتباعها ذهبوا فى تصورها كل مذهب؛ إذ دخلت عناصر أخرى من الطبائع والأهواء.. فهؤلاء قعدت بهم الهمم فحصروها فى نطاق ضيق حدوده جدران المساجد وصوامع العبادة، وآخرون اعتبروها نظريات فلسفية ميدانها حلقات الجدل، ومستودعها مابين دفات الكتب؛ فهى لون من الرياضات الفكرية، وضرب فسيح من المتع العقلية — وطائفة شط بهم الخيال فنأى بهم عن واقع الحياة فارتفعوا بها — غلوا فيها — ثم انقضوا بها على هذا الواقع كما ينقض الصقر على فريسته، ونسوا أن هذه الفكرة لم تنزل من سمائها لتبيد من هم على الأرض، وإنما نزلت للأخذ بيدهم وإسعادهم.

وهكذا تناول أتباع الفكرة الإسلامية فكرتهم بالنقص تارة وبالزيادة تارة أخرى، وأخذ كل فريق يُلَوِّنُها بلون نفسه وهواه.. ولم تكن هذه الفكرة — فيما تناولها من تغيير وتبديل — بدعاً من الفكر المنزلة من السماء؛ فمن قبل كان ذلك شأن الناس مع ما نزل على موسى وعيسى.. والقرآن مترع بالآيات الفاضحة لأتباع موسى وعيسى فيما غيروه

وبدلوه، وفيما اختلقوه، وفيما أخفوه من حقائق، وفيما نسبوه إلى الفكرة الإسلامية زوراً وبهتاناً ﴿يأأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير﴾ ﴿يأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم. وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ ﴿يأهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾.

وفكرتنا الإسلامية الشاملة الخاتمة التى جاء بها خاتم الرسل محمد ﷺ لم تسلم من تغيير وتبديل؛ إلا أن ماتناولها من تغيير وتبديل لم يصل إلى أغوارها؛ لأن جوهرها وهو القرآن الكريم تكفل الله بحفظه.. ولذا فإن التحريف الذى استطاعه المحرفون والمغرضون والقاعدون والمتغالون لم يزد عن أن يكون اعتسافاً فى التفسير منشؤه فى كثير من الأحيان حمل الأسلوب القرآنى العربى على مالا يحتمله من الأساليب الأعجمية الدخيلة؛ حيث يفضى هذا الاعتساف إلى خلق ألوان من التعقيد ماأنزل الله بها من سلطان، وما كانت لتخطر على بال قارىء يقرأ القرآن بسجيته العربية.. وأضرب لذلك مثلاً بما فسره بعض المفسرين الأعاجم لقول الله تعالى: ﴿ليس كمثله شىء﴾ فالقارىء العربى سواء كان أمياً أو فى أعلى درجات الثقافة والعلم يفهم من الآية نفى وجود شريك لله تعالى أو مثيل.. ولكن المفسر الأعجمى يحمِّل الآية مالا تحتمل فيدعى أن الكاف حرف تشبيه؛ وبذلك فإن الآية تنفى وجود شبيه لمثل الله.. ثم يبدأ فى مناقشة فلسفية يحاول أن يدحض بها أن لله مثلاً، ويبحث عن تأويل للآية لتفادى ماتشعر به من أن لله مثلاً.

وعن طريق هذا الاعتساف نشأت نظريات تناولت عدة قضايا تتصل بصفات الله وأعمال العباد وشروط الإمامة وغيرها أدت إلى تشتيت شمل الأمة الإسلامية ومقاتلة بعضها لبعض.. وانتهت إلى كوارث لازال العالم الإسلامى حتى اليوم يلعق جراحه من آثارها.

كما نشأ التحريف من فهم سقيم لبعض أحاديث النبى ﷺ، ومن التذرع بأحاديث تحتاج فى سبيل استنباط حكم شرعى منها إلى الإلمام الواسع المتبحر بعلوم عميقة الغور كعلم تاريخ الرجال وعلم أصول الحديث وعلم أصول الفقة وعلوم اللغة مع قاعدة راسخة فى علوم القرآن.. مع أساس من عقلية خصبة قادرة على الاستنباط ومقارعة الحجة بالحجة والدليل بالدليل.

وقد يصلح أن يكون مثالاً لهذا ماسبق أن أوردته فى سياق هذه المذكرات من حديث رسول الله ﷺ «من رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً فإن الشيطان لايتمثل بى» فعن طريق فهم هذا الحديث فهما سطحياً نشأ فى هذه الأمة ضلال كثير؛ واستطاع جاهلون ومغرضون أن يبطلوا من الإسلام ماشاءوا من شرائعه وأحكامه، وأن يحملوا أتباعهم على شرائع وأحكام ابتدعوها.. ولكن بالفهم المستنير القائم على علم متبحر فى العلوم مع عقلية ناضجة مستنيرة؛ استطاع الإمام الشاطبى رحمه الله أن يفسر هذا الحديث ــ فى ضوء ذلك ــ التفسير الصحيح الذى لاتضل معه العقول، ولا تزيغ به الأهواء حيث قال: إن هذا الحديث موجه إلى فئة معينة هى فئة الصحابة الذين عاشوا مع الرسول ﷺ ورأوه بأعينهم؛ وبذلك صارت له صورة محدده واضحة فى خواطرهم؛ فإذا رأوه فى المنام على الصورة التى رأوها بأعينهم فإنه سيكون هو نفسه حقاً لأن الشيطان لايتمثل به.. أما من عدا هؤلاء ممن لم يروا النبى ﷺ رأى العين فأنى لهم إذا رأوا فى المنام من يدعى أنه النبى أن يعرفوا إن كان هذا الادعاء حقاً أم باطلاً.. لاسيما إذا علمنا أن من آيات الله عز وجل أنه لم يخلق اثنين من خلقه على صورة واحدة ﴿**ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين**﴾.

فقد يتشابه اثنان حتى إذا دقق الناظر فيهما وأجال نظره فى خلقتهما وجد اختلافاً لاتدركه النظرة العابرة من لون فى البشرة، أو طول فى القامة، أو قصر أو لون فى العينين أو طول فى الأنف أو اختلاف فى شكل الأصابع أو فيما عدا ذلك مما يدركه من ينعم النظر.. ومن عاشر إنساناً وأطال عشرته انطبعت صورته بكامل تفاصيلها فى نفسه وعقله حتى لايمكن التلبيس عليه.. فهذه الفئة التى عاشت مع النبى ﷺ وامتزجت به، ولم تكن تصبر على مفارقته ساعة من زمان؛ هى التى تستطيع أن تميز صورته إذا رأتها فى صحو أو منام.. أما غيرهم فإن ادعاءهم رؤيته فى المنام، وأن الصورة التى رأوها هى صورته ﷺ هو ادعاء مردود، وكل ماترتب على هذا الادعاء من أمر أو نهى مردود. وبذلك تسلم الأمة من غائلة ادعاءات قد تنحرف بها عن شريعة الله، وتنزلق بها إلى متاهات من الضلال والإفك والبهتان.

ثالثاً ــ الوسطية والقيمية:

هما سمتان من السمات المميزة للفكرة الإسلامية.. وسمة الوسطية هى التى أشار إليها القرآن الكريم فى قوله ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً**﴾ وسمة القيمية هى التى أشار إليها الكتاب الكريم فى قوله ﴿**قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيماً**﴾.

وقد لفت نظرى إلى علو شأن الوسطية فى الإسلام أن رأيت الإسلام يلتزم الوسطية فى نظرته إلى المجتمعات حتى فى ناحية العقيدة.. فأقرأ فى السيرة النبوية الشريفة أنه لما

نشبت الحرب بين الفرس والروم وانتهت بهزيمة الروم؛ حزن المسلمون بمكة لهذا النبأ، وتمنوا لو أن النصر كان حليف الروم باعتبار الفرس مجوساً يعبدون النار، والروم أهل كتاب— وإن حرفوا فيه— فهم على كل حال أقرب إلى المسلمين من عبدة النار.

ولو أن الأمر وقف عند هذا الحد من العواطف، لجاز لنا أن نتشكك فى صدق هذه العواطف من مسلمى مكة، وفى سلامة اتجاهها.. ولكننا رأينا الوحى يتنزل على رسول الله ﷺ مزكياً هذه العواطف، ومؤيداً هذا الشعور، ومبشراً بتحقيق أمنيات مسلمى مكة بنصر للروم قريب.. وقد افتتح سورة الروم بذلك فقال ﴿**ألم. غلبت الروم. فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون. بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم**﴾.

وإذا كان للوسطية هذا القدر فى الإسلام حتى فى تصنيف الناس عقدياً والتعامل معهم على أساس هذا التصنيف الرحب الفسيح؛ فلا شك فى حرص الإسلام على الوسطية وسيلة فى تعامله مع ماهو دون العقيدة قدراً وأهمية.

ومقتضى ذلك أن لايقف المسلمون أمام من يعيشون معهم فى المجتمع موقف الجمود الذى ينظر فلا يرى أمامه إلا الأبيض والأسود، وإنما عليهم أن يوسعوا معهم من مجال نظراتهم ليجدوا حلولاً مابين هذين اللونين.. وقد يتبدى ذلك واضحاً فى صلح الحديبية وما تضمن من شروط رأى فيها عمر بن الخطاب وأمثاله من الصحابة تنازلات جعلت عمر يعترض ويقول «لماذا نعطى الدنية فى ديننا؟».. وتمتد الأيام وتثبت آخر الأمر أن هذا الصلح بشروطه كان خيراً عظيماً.

ومن هذا يتبين أن نظرة بعض المنتسبين إلى الإسلام إلى المجتمع فيصنفونه صنفين ليس غير— إن هى إلا نظرة ضيقة بعيدة عن سمة الوسطية التى من طبيعتها أنها تترك الباب دائماً مفتوحاً أمام التفاهم والتقارب والاتصال، وتنتهى دائماً بإثراء الفكرة الإسلامية بوفود متلاحقة ممن يقتنعون بها نتيجة لهذا التفاهم والتقارب والاتصال.

والقيمية وإن كانت من سمات الفكرة الإسلامية فإنها كذلك سمة كل فكرة نزلت من السماء أو تمخض عنها فكر بشرى سوى؛ فما من فكرة إلا ودعت إلى الصدق والوفاء والكرم والشجاعة والمروءة والرفق والصبر وما إليها من القيم— ولكن الذى اختصت به الفكرة الإسلامية دون سواها من الفكر هو امتزاج الوسطية بالقيمية؛ فالقيم فى ميزان الفكر الإسلامى إذا أفلت زمامها من يد الوسطية فإنها لاتُعَدّ من القيم فى شىء وصار الفكر الإسلامى براءً منها.

فالصدق دون أن تحكمه الوسطية قد يكون وقاحة، والشجاعة قد تتحول إلى تهور،

والكرم قد يصل إلى إسراف ونزق، والصبر قد ينتهي بصاحبه إلى الاستكانة.. وهكذا يتغير وجه القيم إلى وجه آخر كريه مرذول، لايقبله الطبع السليم، ولا يستقيم مع ميزان العقول.

وقد جعل القرآن الكريم القيمية صفة للفكرة الإسلامية فى ذاتها ﴿**ديناً قيماً**﴾ ولكنه جعل الوسطية صفة للقائمين على هذه الفكرة الحاملين للوائها ﴿**أمة وسطاً**﴾؛ لأن الاحتفاظ بقيم الفكرة فى حدود الوسطية يحتاج إلى العامل البشرى.

ومن هنا كان العنصر البشرى هو فى ذاته جزءاً من الدعوة الإسلامية لايمكن فصله عنها، إذ بدونه تفقد قيمها، وإلى هذا يشير قوله تعالى ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون. ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم**﴾ وقوله ﴿**إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون**﴾.. ومن هنا نفهم لماذا قضى رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة فى مكة فى تربية أصحابه ليكونوا أهلاً لحمل أعباء الدعوة الإسلامية دون أن ينحرفوا بها عن الوسط إلى يمين أو شمال.

وقد يكون من أعظم إنجاز الإخوان المسلمين، أنهم استطاعوا أن يحفظوا للفكرة الإسلامية وسطيتها دون انحراف أو انجراف وسط تيارات عاتية من طبائع شائهة، وأهواء جامحة، وظروف قاسية.

رابعاً: الداعية البصير:

فالفكرة إذن ليست شيئاً جديداً؛ بل إنها فكرة قديمة قدم رسالات السماء. ولكن الجديد هو إيجاد الأمة التى تؤمن بالفكرة، وتعمل لها، وتصوغ نفسها فى قالبها.. هذا هو الجديد الذى تطلبه الفكرة فى كل زمان ومكان، وتلح فى طلبه من كل جيل.. تريد أن ترى أمة تنادى بها، وتقوم بأعبائها، وتكون هى المتحكمة فى حياتها.. وبديهى أن أمة لن توجد؛ إلا بعد أن يوجد الداعية الذى يرفع اللواء ويدعو الناس إلى الالتفاف حوله.. ودون وجود الداعية فلن تكون أمة.

وقام دعاة اتخذ كل منهم وسائل لنشر دعوته، ثم جاء حسن البنا فاتفق فى الفكرة والهدف مع سابقيه ولكنه اختط فى نشرها أسلوبا آخر.. كان هدفه أن تكون دعوته عالمية، ولكنه رأى أن يخاطب بهذه الفكرة أول مايخاطب عامة المسلمين وجماهيرهم؛ بادئاً بأطراف البلاد وسكان القرى، ثم قرر أن يكون له مركز فى القاهرة لاليتصل بالذين تتركز السلطات فى أيديهم، وإنما ليتصل بفئة أخرى من جماهير الشعب هم فئة الناشئة من

طلبة المدارس والجامعة؛ فقسم وقته وجهده بين هؤلاء فى القاهرة وبين جماهير الشعب فى بطون الريف، ونشر هذه الفئة من الناشئة بعد صقلهم وتربيتهم دعاة بين جماهير الريف؛ فكون من هؤلاء جميعاً قاعدة عريضة آمنت بالفكرة، وعاهدت على العمل لها، والبذل فى سبيلها.

فلما جاء دور مخاطبة علية القوم وأصحاب السلطة بالفكرة الإسلامية ــ وهم بطبيعة تربيتهم وحكم مناصبهم يرون فى هذه الفكرة منافساً لهم، ينتقص من سلطتهم، ويحد من ترفهم.. فأرادوا ــ كَدَأْبِهِم مع دعاة سابقين ــ أن يعصفوا بأصحابها، ولكنهم وجدوا أنفسهم هذه المرة أمام مدٍّ عَارِمٍ هم عاجزون عن مواجهته؛ من هذه القاعدة الشعبية الراسخة المتشعبة فى قلوب أمة كاملة فاستعانوا بشياطين الإنس فى داخل البلاد وخارجها؛ غير أن ذلك كله لم يتمخض عن شيء يذكر.. فالفكرة هى الفكرة والدعاة هم الدعاة، والمؤمنون بها فى نمو على مر الأيام وازدياد.

وقد يكون هذا هو السر فى ثبات هذه الدعوة دعوة الإخوان المسلمين واستمرارها؛ ذلك أن حسن البنا بذر بذور هذه الفكرة فى أصلح بيئة لها، فنبتت نباتاً حسناً، تعهدها فيه عاكفاً على تعهدها حتى أينعت وأثمرت وملأت الربى والوديان، ضاربةً بجذورها إلى أعماق الأعماق **﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير﴾**.

خامساً: الغلطة الكبرى لجمال عبد الناصر:

إذا استبعدنا سوء النية وحب الاستئثار بالسلطة، فقد تكون الغلطة الكبرى لعبد الناصر هى أنه ــ تحدياً للإخوان المسلمين ــ أراد أن يثبت لهم أنه يستطيع أن يرسى دعائم حكمه دون الحاجة إليهم؛ ظناً منه أن الإخوان المسلمين هى مجرد فكرة ليس من الصعب على حاكم أن ينتحل مضمونها فتستقيم له الأمور كما لو كان الإخوان المسلمون هم القائمين بأعباء الحكم.

واستطاع فعلاً ــ عن طريق خزانة الدولة ــ أن يملأ مناصب الحكومة بأعظم الخبرات وأعلى المؤهلات. ولكنه مالبث أن رأى الخلل والفساد يهز أركان الدولة، ويهد فى كيانها.. فأخذ بتلابيب هؤلاء الخبراء وذوى أعلى المؤهلات.. فقدمهم إلى المحاكم التى دمغتهم بفساد الذمة وموت الضمير.

وكان المنطق يقضى ــ والحالة هذه ــ أن يقر الحاكم بخطئه، ويفيء إلى رشده.. ولكن حاكمنا ماكان يستطيع أن يفعل؛ فهو بحكم حقده أسير هذا الحقد؛ ثم إنه كان قد

قطع على نفسه خط الرجعة؛ بما ارتكب من فظائع ضد الإخوان، وبما سفك من دمائهم وصار كما يقول المثل السائر «ليس بعد حرق الزرع جيره».

وهكذا لم يجد الحاكم الحقود أمامه إلا طريقاً واحداً ليس غير، هو الطريق الذى سلكه من قبل ووجد فيه الأفاعى والشياطين.. وظن أنه إذا لجأ إلى العسكريين الذين اعتادوا أن تحكم تصرفاتهم الأوامر والعقوبات، فسيجد فيهم طلبته التى تدير شئون الدولة كما تدور الساعة؛ فملأ المرافق والإدارات والشركات والمؤسسات بهم فماذا كان من شأنهم؟

كل الذى حققوه هو إحكام الشكليات لهذه الأعمال. فمواعيد الحضور ومواعيد الانصراف أصبحت تراعى بكل الدقة، والعقوبات توقع على من يتأخر عن الحضور دقائق، كما أن التقارير والمذكرات تكتب ببراعة وإسهاب، يضرب فيها على الوتر الذى يطرب الرئيس العسكرى.. وكل الذى يطربه أن تكتب هذه التقارير بأسلوب يقربه إلى سيده الحاكم؛ الذى- بحكم رغبته فى الاستئثار بكل شيء- أضحى لايعرف شيئا اللهم إلا مايصله من هذه التقارير التى لاتمت إلى الواقع بصلة.. فإذا جاءت مناسبة من المناسبات يلقى فيها على الشعب بياناً؛ ضمنه ماجاء بهذه التقارير.. والشعب يسمع ويضحك، ويرسل النكات؛ لأنه يسمع من الحاكم بيانات وأرقاماً ليس لها فى واقع حياتهم أثر؛ إذ هى مختلقة لاأصل لها.

وأخيراً اكتشف الحاكم أن هؤلاء العسكريين ضللوه، وأنهم أفسدوا مرافق البلاد. وتعجب كيف يقع هذا الإفساد من رجاله الضباط الأحرار؟.. ونسى الحاكم أن الضباط الأحرار- كما يسميهم- ليسوا إلا ناساً كسائر الناس.. إن كانوا قد أدوا ماوكل إليهم من أعمال فى الجيش على الوجه الأكمل؛ فإنما فعلوا ذلك تحت سوط القانون العسكرى الذى لايرحم. أما وقد زفع عنهم هذا السوط- بعد أن انخرطوا فى سلك الحياة المدنية والوظائف المدنية- فلم يعد من رقيب عليهم إلا ضمائرهم إن كانت لهم ضمائر.. وأنى يكون لإنسان ضمير وهو لايعرف الله، ولا يخطر بباله أن هناك حساباً على كل صغيرة وكبيرة بين يدى إله مطلع على القلوب يعلم السر وأخفى.

قلة قليلة من هؤلاء الضباط الأحرار هى التى كانت تطوى على قلوب عامرة بالإيمان.. وهؤلاء ممن تربوا فى أحضان الإخوان المسلمين ثم أحسنوا الظن «بالحاكم» وانضموا إليه.. أما غير هذه القلة من الضباط الأحرار فالجميع- إذا أحسنا بهم الظن- قلنا إنهم ناس كسائر الناس؛ ولكن الحاكم وصفهم لنا يوم كنا فى بيته بمنشية البكرى فى ١٩٥٤ فقال «إنهم كالكلاب المتوحشة إذا أنا أطلقتهم نهشوكم» وقال «إنهم غير متدينين ومنهم شيوعيون» فهل يستغرب من أمثال هؤلاء- وقد أطلقوا على الشعب- أن ينهشوه ويمزقوه ويمتصوا دمه؟

من الذى ربى هؤلاء حتى صقل نفوسهم، وملأ قلوبهم من خشية الله، وتعهدهم بالصقل والتذكير باللفظ والعمل والقدوة؟ أهو «الحاكم» قبل الثورة وبعدها؟ إن القول المأثور يقول «فاقد الشيء لايعطيه».. إن الحاكم قال لنا فى منزله إنه جمع هؤلاء الضباط من مختلف المشارب والاتجاهات والآراء والأهداف، لايبالى بخلق ولا دين.. كل الذى يهمه أن يكون الضابط مغامراً.. فأين التربية؟!

إن المصائب التى تعانيها بلادنا حتى اليوم، وقد تظل تعانيها عشرات السنين بعد اليوم؛ هى حصاد هذا الغرس النكد الذى غرسه «الحاكم» بغطرسته وكبريائه وصلفه، وبتمرده على القواعد التى يقوم عليها الكون: «إنك لاتجنى من الشوك العنب» ولكنه يستنكر هذه الحقيقة ويصر على جنى العنب من الشوك، فتتقطع يداه، ويدمى جسده ولا يجنى من الشوك العنب.. «متى يستقيم الظل والعود أعوج».. هو يجحد هذه الحقيقة ويصر على أنه يستطيع أن يحصل على ظل مستقيم من أعواد عوجاء — فيضيع وقته ووقت الأمة ويتحطم وتتحطم الأعواد، وتتحطم الأمة.. ولا يستقيم الظل والعود أعوج.

ترى.. لو كان النبى ﷺ اكتفى بنصف المدة التى قضاها بمكة بعد البعثة ثم هاجر إلى المدينة.. هل كانت دعوته تقوم وتثمر على الصورة التى رواها التاريخ، ونراها اليوم باعيننا وسيراها أبناؤنا وأحفادنا إلى يوم القيامة؟!

لاإخال ذلك كان يكون.. لقد كانت سنى تكوين وتربية وصهر وصياغة للنفوس، حتى تقوم الدعوة على أقوى دعامة وأمتن أساس.. وهذا الرعيل الأول الذى صهرته الأحداث فى مكة هو الذى حمل لواء الدعوة حتى ركزه على قمم جبال الصين شرقاً، وعلى ضفاف الأطلس غرباً. وكان فى كل مكان يحل فيه صورة حية من دعوته، وقدوة تتوق النفوس إلى الاقتداء بها.. تجبى إليه الثمرات، وتجمع عنده كنوز الأرض؛ فتعف نفسه عن مسها، ويؤثر أن يعيش كما يعيش عامة الناس.. ولولا هؤلاء، ولولا السنوات الثلاث عشرة التى قضوها فى طور التربية فى مكة لما ظهر الإسلام، ولما عم نوره بقاع الدنيا.

هل ترك مجالاً لسماع نصيحة؟ يقول رسول الله ﷺ «الدين النصيحة. قالوا لمن يارسول الله؟ قال «لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

يفهم من هذا الحديث أن النصيحة واجبة، وأن هذا الوجوب على الطرفين معاً؛ على الناصح والمنصوح، فعلى الناصح أن يؤدى النصيحة، وعلى المنصوح أن يستمع إليها.. وبهذا يستقر المجتمع ويسعد.. فما من إنسان يستطيع أن يرى وحده الوجه الصحيح فى كل شيء، ومن هذا النقص فى العلم وجبت النصيحة حيث يكمل الناس بعضهم بعضاً ولذا كان على الحاكم أن يفسح المجال أمام الناصحين.

ولهذا كان حكام المسلمين حين يشعرون — وهم فى أوج خيلاء السلطة — أن موجات الغرور كادت تجرفهم لاينتظرون حتى يفد إليهم من ينصحهم بل كانوا يبعثون فى طلبهم، ويجلسون إليهم مجلس التلميذ من أستاذه:

«بعث الرشيد فى طلب ابن السماك فدخل عليه وكان الرشيد قد طلب كوباً من الماء فأتى به، فقال له ابن السماك: على رسلك ياأمير المؤمنين.. لو منعت هذه الشربة بكم تشتريها؟ قال: بنصف ملكي. قال: اشرب هنأك الله بها. فلما شربها قال: أسألك لو منعت خروجها بماذا كنت تشترى خروجها؟ قال: بملكى.. قال: إن ملكا قيمته (كذا) و (كذا) لجدير أن لاينافس فيه.. فبكى الرشيد.

وقال الرشيد يوماً لشيبان: عظنى -

قال: «لأن تصحب من يخيفك حتى يدركك الأمن، خير لك من أن تصحب من يؤمنك حتى يدركك الخوف» فقال الرشيد: فسر لى هذا.. قال: من يقول لك إنك مسئول عن الرعية فاتق الله، أنصح لك ممن يقول: أنتم أهل بيت مغفور لكم وأنتم قرابة نبيكم ﷺ».

وما من أمة إلا وهى تزخر بأهل الرأي والحكماء، ولكن الحاكم الذى يرى فى نفسه أنه قد أحاط بكل شيء علماً لايرى أنه فى حاجة إلى مثل هؤلاء، ولذا فقد أوصد بابه دونهم، واعتبر من تجرأ منهم فتقدم له بنصح اعتبره مجرماً جزاؤه السجن والتعذيب.

سارت البلاد خمسة عشر عاماً برأى رجل واحد، وبفكر رجل واحد، وببصر رجل واحد.. وكان حريصاً خلالها على تحصين هذه الوحدانية بكل وسائل التحصين: كمم الأفواه، واعتقل الأفكار فى رءوس المفكرين وغيَّبَ كل ذى رأى خلف أسوار السجون فأمن بذلك أن يكون فى الشعب من ينقده. ثم أراد أن يفى بما تعهد به أمامنا فى بيته؛ فحال بين الإخوان المسلمين وبين الوظائف القيادية فى الدولة وأخلى الجيش من ضباط يمتون إلى الإخوان المسلمين بصلة ولو من بعيد، بل إنه حرم على أبناء الإخوان المسلمين أن يلتحقوا بالكليات العسكرية حتى يضمن أن جيشه منسجم تماماً مع آرائه واتجاهاته.. فماذا كان من أثر لهذا كله؟

أما فى الحياة المدنية فكان الذى أشرنا إلى طرف منه من الفساد والعفن. وأما فى الحياة العسكرية فكان خزى الأبد وعار الدهر.. لخصها رجل أمى أمامى فقال: تسلم عبد الناصر البلاد وأرضها محتلة من أعظم دول العالم وتركها وأرضها محتلة من أحقر دول العالم.

* * *

إن هؤلاء الحكام الذين يظنون أن سلطان الحكم، وخزائن الدولة، تختصر لهم الطريق ليكونوا قاعدة شعبية ببضع خطب يلقونها فى ظل أبهة الحكم وهيلمان السلطة.. هم واهمون.. ولن يلبثوا أن يواجهوا الحقيقة المرة حين يزول سلطانهم، فلا يجدون حولهم أحداً. وقبل أن يزول سلطانهم لن يجدوا حولهم إلا الأفاقين والمنافقين والمخادعين والكذابين الذين يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم.

وهذا مع الأسف ماواجهه «الحاكم» بعد سنوات من حكمه، فإنه لم ير من حوله إلا لصوصاً ومخادعين؛ ثم رأى جهاز الدولة فى جميع المرافق خرباً دَبَّ فيه السوس والعفن.. ولكن الظالم حين يصل ظلمه إلى أن تتدنس يداه بدماء الأبرياء والمجاهدين.. حينئذ ييسره الله تعالى للعسرى، ويغلق دونه أبواب الخير حتى يأخذه وليس له حسنة تشفع له.

* * *

سادساً: الأمة المسلمة هى المعضلة :

يخطىء إذن من يظن أن مجرد المناداة بالفكرة الإسلامية وجعل الشريعة الإسلامية الأساس الذى تستمد منه الأحكام هو نفسه الأخذ بنظام الإسلام.. فالنظام الإسلامى كل لايتجزأ، والأمة المسلمة جزء منه لاينفصل عنه ــ والأمة المسلمة هى الأمة التى صيغت فى بوتقه التربية القرآنية صياغة أنشأت من كل فرد منها صورة حية لهذا الدين بما فيه من خلق وآداب وعبادات ومعاملة، وبحيث يكون هذا الفرد أداة إيجابية لها أثرها فى الحياة وتترك طابعها على كل من تخالطه أو تحتك به.

ومن هنا كان تركيز الطغاة والمخططين لهم لاعلى القضاء على الفكرة الإسلامية فى ذاتها، وإنما كان تركيزهم دائماً على القضاء على هذه الأمة التى أوجدها حسن البنا فى هذا العصر، والتى هى وحدها القادرة على جعل الفكرة الإسلامية حياة سارية فى أوصال الأمة، ونبضاً دفاقاً فى قلبها الواهن المخدر.

وإذا كان تحديد الفكرة الإسلامية، وتوضيح معالمها قد تناوله القرآن الكريم بعشرات من آياته؛ فإن آلاف الآيات خصصت لبيان خصائص الأمة المسلمة، وكيفية تكوينها والحث على إيجادها، والتحذير من آفات تفت فى عضدها أو تهدد كيانها أو تقضى عليها.. وترى هذا واضحاً فى سور القرآن الكريم طوالها وقصارها على السواء؛ ففى الوقت الذى تفتتح فيه سورة البقرة.. ببيان أخص خصائص هذه الأمة فتقول **﴿آلَمَ. ذلك الكتاب لاريب فيه. هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾** ثم تأخذ فى بيان آفات الأمم والتحذير

منها.. نرى آخر سورة فى القرآن تعلم هذه الأمة كيف تأخذ حذرها من وساوس شياطين الجن ودسائس الإنس فى قوله تعالى ﴿**قل أعوذ برب الناس. ملك الناس. إله الناس من شر الوسواس الخناس. الذى يوسوس فى صدور الناس. من الجنة والناس**﴾.

وحسبك أن تقرأ سورة كاملة كسورة التوبة لترى الروعة الأخاذة فى كشف وسائل المخربين، ودخائل المنافقين؛ فضلاً عما جاء فى صدر سورة البقرة فى مفتتح الكتاب الكريم من اجمال مافسرته سورة التوبة وسورة النساء وأكثر سور القرآن.. مما يدل دلالة واضحة على أن المعضلة الكبرى ليست فى مجرد تحديد الفكرة وتوضيحها، وإنما هى فى العمل على إيجاد الأمة التى تحمل لواء هذه الفكرة، وتأخذ على عاتقها نشرها بالقول والقدوة والعمل وما يقتضيه ذلك من حكمة وجهاد وصبر.

فالفكرة إذن بغير أمة متشربة لمعانيها، قائمة على إبرازها وصيانتها، متصدية لكل من يعتدى عليها، ساهرة على أطرافها وحدودها.. لاتكون شيئاً مذكوراً حيث تفقد كيانها، وينعدم أثرها فى الحياة.

لقد سمعنا من عبد الناصر فى بيته فى سبتمبر ١٩٥٤ حين كان يقص علينا ماعده رغبة من الإخوان فى الوصاية عليه قوله: إن المرشد أرسل إلىّ فلاناً وفلاناً (وذكر اسمين من الإخوان) يطلبان أن أعرض على الإخوان كل قرار للحكومة قبل صدوره لكى أضمن تأييد الإخوان للثورة ــ وأنا لاأقبل هذه الوصاية وسأستغنى عن الإخوان، وسترون كيف سأحكم البلد بغير الإخوان.. وفى كفاءات البلد مايغنى عن الإخوان.

وقد غاب عن الرجل أن المعضلة ليس حلها أن تجد الكفاءات وحسب، وإنما المعضلة أن تجد الذين يجمعون إلى الكفاءات الأمانة والإخلاص ــ وهما ثمرة الخوف من الله ــ ولا زالت كلمة عمر بن الخطاب دستوراً لمن يبغون الإصلاح «أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوى». ورحم الله ابنة يوشع حين قالت لأبيها بعد تجربتها مع موسى ﴿**ياأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين**﴾.

ويبدو ــ بوجه عام ــ أن الحاكم إذا كان كل همه أن يمكن لنفسه فى الحكم استئثاراً بالسلطة وحباً فى السيطرة؛ نفرت منه هذه الأمة المسلمة ونفر هو منها.. ونشأت عن ذلك سلسلة من الأخطاء، لايكاد ينتهى من إحدى حلقاتها حتى يقع فى أخرى، وتتفاقم الأمور وتحل الكوارث به وبشعبه فيتحطم تاركاً وراءه تركة مثقلة بالمصائب والهموم.

* * *

سابعاً ــ تكاليف الوسطية:

التزام الإخوان حد الوسط فى فكرتهم وسلوكهم كلفهم كثيراً من المشقات والآلام

والتضحيات. فلقد نكبت الإخوان بسبع فتن عمياء. وقد تحدثنا عن هذه الفتن فى ثنايا الحديث الذى مضى فى هذه المذكرات ونكتفى هنا بالإشارة إليها فيما يلى لحصرها:

١ ــ فتنة رفعت وصديق
٢ ــ فتنة زواج عبد الحكيم عابدين من شقيقة الإمام
٣ــ فتنة شباب سيدنا محمد
٤ ــ فتنة حسين عبد الرازق وأحمد السكرى
٥ــ فتنة مابين الوفد والإخوان
٦ ــ فتنة تمرد رياسة النظام الخاص
٧ــ فتنة مابين الثورة والإخوان

وليس معنى حصرنا الفتن فى هذه السبع أن الإخوان كانوا يعيشون فيما بين كل فتنة وأخرى من هذه الفتن فى هدوء واطمئنان، ولكننا قصرنا الإشارة على الفتن الجائحة التى كادت كل واحدة منها أن تطيح بالدعوة.

وما دام التطرف والحقد والأنانية والغرور من الغرائز المتأصلة فى الإنسان، فلا مناص فى أى مجتمع من ظهور آثارها، وهذه الآثار هى مانسميه الفتن.. إذ يريد أصحابها أن يكتسحوا كل مايعترض طريقهم فيجدون فى قبالتهم دائماً «الأمة الوسط» التى التزمت بتعاليم الإسلام وآدابه دون مغالاة ولا تقصير. ومن هنا يكون صدام. يتخلف عنه حطام، كانت هذه المجتمعات أحوج ماتكون إليه لو أنه قاوم فى نفسه هذه الغرائز والتزم حد الوسط.

ولست هنا بصدد إحصاء الحطام الذى تخلف من وراء هذه الفتن فى دعوة الإخوان المسلمين؛ فحسبى ماقدمت من إلقاء الضوء عليها فى سياق الحديث.. ولكنى أقرر أن الذين أوقدوا نار هذه الفتن كانوا هم حطامها.. فبعضهم جنى على نفسه وذهب ضحية باردة بغير مبرر ولا ثمن، وبعضهم صار رماداً تذروه الرياح، وبعضهم ظن أنه سيقيم الدنيا ويقعدها، فلما واجه واقع الحياة تخاذل وتراجع وتضاءل حتى تقوقع وصار اسماً بغير مسمى.

أما الذين بقوا من هؤلاء جميعاً على قيد الحياة، ورأوا بأنفسهم أن الهيئة التى رموها بالضعف والتخاذل لأنها لم تطاوعهم فى آرائهم بالنبذ إلى الأعداء على سواء وهى بعد بادرة غضة الإهاب.. رأوها فى الوقت المناسب ــ وقد اشتد عودها ــ قد صارت العقبة الكبرى أمام قوى الشر من طغاة ومستبدين ومستعمرين.. ووجدوا أن إخوانهم القدامى ــ الذين طالما رموهم بالضعف والخور ــ هم الذين يتصدون بصدورهم لسهام هؤلاء الطغاة لايهابون ولا يخافون ــ.. ورأوا بأعينهم أن صلابة البناء الذى علا بجدرانه حسن البنا فى غفلة من قوى الشر هو الذى ثبت أمام الغارات الشرسة المتواصلة التى شنها العدو ولا زال يشنها دون هوادة.. ورأوا بأعينهم أخيراً أن الفكرة التى كانوا يتسارون بها لغرابتها على المجتمع فى ذلك الوقت؛ قد صارت فكرة عالمية وأصبحت الهيئة التى تنادى بها

هيئة عالمية، حتى من غير دور أو لافتات أو كيان رسمى.

ويُخَيَّلُ إلىّ أن كل الذين خرجوا على خط هذه الدعوة فى يوم من الأيام فى أعقاب فتنة من هذه الفتن، قد آمنوا الآن بأن قيادة هذه الدعوة كانت أبعد نظراً منهم، وأبصر بالعواقب؛ وأنهم كانوا على خطأ فيما كان منهم.. ولذا فلا أراهم اليوم إلا قد رجعوا إلى الصف الذى ليس بالغريب عليهم وليسوا هم غرباء عنه، وما أحوجهم إلى الصف وما أحوج الصف إليهم ﴿وإن فاءوا فإن الله غفور رحيم﴾.

ويبدو أن شعور الإخوان بوجود قيادة قوية موهوبة شامخة راسخة كالجبل الأشم كان يبعث فى نفوس بعضهم لوناً من الاسترخاء يجعلهم يسرحون بأفكارهم فى جو خيالى بعيد عن واقع الحياة، يتمخض عن أفكار جوفاء، وآراء فلسفية غامضة.. فإذا صادفت هذه الأفكار مسترخين آخرين تجاوبوا معها فنشأت فتنة؛ لايبالى القائمون بها ماتسفر عنه من نتائج؛ لأن عقلهم الباطن مستقر فيه شعور بأن الدعوة الإسلامية فى أمن وأمان مادامت قيادتها هذا الجبل الراسخ الأشم.. وبتعبير آخر أقول: إن كثيراً من هذه الفتن كانت نوعاً مما يشبه تدلل الأطفال على والديهم. والطفل يرى والديه قمة القوة والرحمة معاً.. وقد يتقبل الوالدان تدلل أطفالهما إلى حد، فإذا تعدوه كبحوا جماحهم فى عنف ممتزج بالرحمة والرفق.

وعندما تفقد الدعوة قائدها ومؤسسها، ويشب الأطفال عن الطوق؛ ينسون أيام التدلل، ويهرعون إلى حمل العبء، والنهوض بالمسئولية، فيسدون فراغ القيادة الشاغر باتحاد كلمتهم وائتلاف قلوبهم وتناسى أشخاصهم.

* * *

ثامناً: كيف نؤمن بالقيادة؟

قد يلاحظ قراء هذه المذكرات أننى لم أفرد باباً أو فصلاً أسرد فيه صفات قائد هذه الدعوة سرداً. وهو ماعتاد مسجلو تواريخ الدعوات أن يفعلوه — ومع تقديرى لهذا الأسلوب فى كتابة تاريخ الدعوات فإننى آثرت العدول عنه لسببين:

أولها أن صفات القيادة — مهما اختلفت الدعوات والفكر — صفات معينة. وجه الاختلاف بين قائد وآخر فيها منحصر فى مقدار حظه من كل من هذه الصفات؛ فإفراد باب أو فصل لسرد صفات القائد — والحالة هذه — لن يعدو أن يكون شيئاً مألوفاً وكلاماً معاداً.. والسبب الآخر هو أننى أرى قائد الدعوة والدعوة شيئاً واحداً أو قل هما شيئان ممتزجان معا لاتكاد تميز واحداً منهما عن الآخر، أو قل هما شيئان متكاملان يكمل

كل منهما الآخر؛ وتاريخ الدعوات مواقف؛ والموقف هو طريقة فى معالجة معضلة بأسلوب يحل هذه المعضلة دون مساس بالدعوة.. وطرق معالجة هذه المعضلات هى عرض تفصيلى وتطبيقى لمواهب قائد الدعوة ومقدار حظه من صفات القيادة.

ولأن أترك للقارىء التعرف على صفات القائد ومواهبه ومقدرته وخصائصه من أعماله ومواقفه؛ خير من أن ألقنه هذه الصفات بسردها.

كما لايفوتنى أن أقرر أننى لم أومن بقيادة الدعوة إلا بعد أن خضت معها المواقف، وقد أحببت أن يكون قرائى على شاكلتى فى تعرفهم على القائد.. وهذا هو أسلوب فى نظرى يجنب المؤمنين بالدعوات والفكر غوائل التطرف الذى يعبرون عنه فى أيامنا هذه بعبادة الأشخاص وهو من أخطر مايصيب مجتمعاً من المجتمعات لأنه يعمى أتباع القيادة عن أخطائها، فتنحرف بهم هذه القيادة انحرافاً غير مأمون العواقب وهم لايشعرون.

ولست أنكر أن الإيمان بالقيادة جزء لايتجزأ من الإيمان بالفكرة. ولكن هناك فرق بين الإيمان المطلق بالقيادة مهما انحرفت بالفكرة عن طبيعتها، وبين الإيمان المقيد بالتزام فكرة محددة المعالم، وأضحة الأسارير.. ولقد كان إيماننا بقيادتنا من هذا النوع المقيد.. وإذا كان النوع المطلق هو الإيمان الأعمى، فإن الإيمان المقيد هو الإيمان البصير.

ومن هنا كان الإيمان بالفكرة أساساً للإيمان بالقيادة. فإذا لم تكن الفكرة واضحة محددة، وارتضت فئة من الناس لنفسها أن تؤمن بها على هذا الوضع الغائم الباهت المائع؛ فإن المؤمنين بالقيادة على أساس فكرة كهذه لن يشعروا فى يوم من الأيام مهما انحرفت قيادتهم أن قيادتهم قد انحرفت.. لأن فى ميوعة الفكرة التى آمنوا بها متسعاً لكل انحراف.. ولعل هذا بعض ماتعانى منه بلادنا فى هذه الأيام.

فلقد ادعت قيادة هذه البلاد منذ ربع قرن من الزمان أنها ابتدعت فكرة إصلاحية سمتها أول الأمر اشتراكية تعاونية، ثم دعتها بعد ذلك ديمقراطية اشتراكية، ثم اشتراكية عربية.. وفى خلال ذلك كله لم تستطع أن تحدد معالم لهذه الفكرة تميزها عن غيرها؛ بل تركتها غائمة هلامية، تشكلها حسب الأهواء والظروف، وتزيد عليها، وتنقص منها.. ولما كان سلاح السلطة فى يد هذه القيادة، فقد استطاعت أن تحجب عن الجيل الناشىء كل الفكر والمبادىء والدعوات؛ فلم ير أمامه إلا هذه الفكرة الهلامية، فآمن بها وآمن بصاحبها.. واعتماداً على هلامية الفكرة، استطاع صاحبها أن ينحرف بها كما شاءت له أهواؤه وحكمت عليه ظروفه.. حتى صارت فى يوم من الأيام أقرب إلى الفكر الشيوعى بل وجدنا أنفسنا ندور مع الدائرين فى فلك الفكر الشيوعى.

وهكذا جنت هلامية الفكرة على من ارتضوا اعتناقها؛ حيث ظل إيمانهم بقيادتها على

نفس المستوى ، فى حين انحرفت الفكرة وانحرفت القياده وهم لايشعرون.

وهنا تكمن خطورة أشخاص اختصتهم القدرة الإلهية بحظ لابأس به من مواهب القيادة، فاستعملوا هذا الحظ الذى أنعم الله به عليهم فى غير ماشرع الله.. استغلوه فى تحقيق أغراض شخصية، وبناء زعامة لأنفسهم تثبت أقدامهم فى أسباب السلطة، مهما اقتضى ذلك من إغفال لمصالح الشعوب التى ائتمنتهم على مصالحها.. فضلوا وأضلوا وانتهوا إلى كوارث حاقت بهم وببلادهم.. وإخال أن هؤلاء هم الذين أشارت إليهم الآية الكريمة **﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار﴾**.

* * *

تاسعاً ـــ معايير للإيمان عند البلاء:

أصحاب الدعوات الجادة معرضون لألوان مختلفة من المشاق عليهم أن يخوضوها ويصبروا عليها. والقرآن الكريم يزخز بفيض من الآيات التى لاتدع لمؤمن عذراً أن يهرب من الميدان، بدعوى أنه بوغت بهذه المشاق التى كان خالى الذهن عنها؛ فمثل هؤلاء يفضح كذبهمماافتتحت به سورة العنكبوت **﴿الٓمٓ. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾** ويصدعهم قوله تعالى **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾**.. ولو شئنا أن نأتى بعشرات الآيات فى هذا الصدد لما بذلنا أى جهد، ولكننا نكتفى بهذه الإشارة، وننتقل إلى السنة المطهرة فنقتطف من بستانها الوارف زهرة واحدة؛ فهى بمثابة شرح ماأجمله القرآن: يقول الإمام أحمد بن حنبل:

حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إنى قد كبرت سنى وحضر أجلى، فادفع إلىّ غلاماً لأعلمه السحر. فدفع إليه غلاماً فكان يعلمه السحر. وكان بين الساحر وبين الملك راهب، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه، فأعجبه نحوه وكلامه ـــ وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال: ماحبسك؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا: ماحبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقل: حبسنى أهلى. وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسنى الساحر.

قال: فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة، قد حبست الناس فلا

يستطيعون أن يجوزوا فقال: اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر. قال: فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر السا ر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس. ورماها فقتلها ومضى الناس.. فأخبر الراهب بذلك فقال: أى بنى، أنت أفضل منى. وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل علىّ فكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم.. وكان جليس للملك فعمى فسمع به،فأتاه بهدايا كثيرة فقال: اشفنى ولك ماهاهنا أجمع. فقال ماأنا أشفى أحداً، إنما يشفى الله عز وجل، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك. فآمن فدعا الله فشفاه.

ثم أتى الملك فجلس منه نحو ماكان يجلس. فقال له الملك: يافلان، من رد عليك بصرك؟ فقال: ربى.. فقال: أنا؟ قال: لا، ربى وربك الله. قال: أولك رب غيرى؟ قال: نعم، ربى وربك الله.. فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام.

فبعث إليه فقال: أى بنى، بلغ من سحرك أن تبرىء الأكمه والأبرص وهذه الأدواء؟ قال: ماأشفى أنا أحداً، إنما يشفى الله عز وجل. قال: أنا؟ قال: لا. قال: أولك رب غيرى؟ قال: ربى وربك الله. فأخذه أيضاً بالعذاب، فلم يزل به حتى دل على الراهب، فأتى بالراهب فقال: ارجع عن دينك. فأبى فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه. وقال للأعمى: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض.

وقال للغلام: ارجع عن دينك. فأبى. فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا وقال: إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه من فوقه. فذهبوا به فلما علوا به الجبل قال: اللهم اكفنيهم بما شئت. فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون.. وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال: مافعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله.. فبعث به مع نفر فى قرقور (سفينة صغيرة) فقال: إذا لججتم به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فغرقوه فى البحر. فلججوا به البحر. فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت. فغرقوا أجمعون. وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال: ماذا فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله.

ثم قال للملك: إنك لست بقاتلى حتى تفعل ماآمرك به، فإن أنت فعلت ماآمرك به قتلتنى، وإلا فإنك لاتستطيع قتلى. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس فى صعيد واحد، ثم تصلبنى على جذع، وتأخذ سهماً من كنانتى ثم قل «باسم الله رب الغلام» فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى. ففعل ووضع السهم فى كبد قوسه ثم رماه وقال «باسم الله رب الغلام» فوقع السهم فى صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات.. فقال الناس: آمنا برب الغلام. فقيل للملك: أرأيت ماكنت تحذر؟ فقد والله نزل بك، قد آمن الناس كلهم. فأمر بأفواه السكك فخدت فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران. وقال: من

رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها. قال: فكان الناس يتعادون فيها ويتدافعون. فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعست أن تقع فى النار، فقال الصبى، اصبرى ياأماه، فإنك على الحق».

وتعليقاً على هذا الحديث الشريف نقول:

١ ــ هذا الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده، ورواه الإمام مسلم فى صحيحه، كما رواه النسائى، وقد جوّده الإمام الترمذى.

٢ ــ قرر هذا الحديث أن الحق والباطل لايجتمعان فى مكان واحد، وأنهما إذا وجدا فى مكان واحد فلابد من صدام، يبدأه الباطل بالاعتداء، بعد أن تعوزه الحجة فلا يجد أمامه من سلاح إلا البطش والظلم والتنكيل.

٣ ــ يظن أهل الباطل أنهم يستطيعون بما أوتوا من وسائل القهر والبطش والتعذيب والإبادة أن يستأصلوا شأفة الحق ويمحوه من الوجود؛ ولكن واقع التاريخ ينبئنا بغير ذلك، فالعاقبة تكون دائماً للحق وأهله **﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾**.

٤ ــ ليس شرطاً على الله عز وجل أن يخرق العادات لينجي أهل الحق من بين براثن المبطلين فقد يترك سنن الكون تأخذ مجراها امتحاناً لأهل الحق وإملاءً لأهل الباطل؛ حتى يأخذهم بجريرتين جريرة اعتناقهم الباطل، وجريرة اعتدائهم على أهل الحق، وحتى يسجل عليهم الخزى فى الحياة الدنيا.. فلا تزال الأجيال المتعاقبة تدرس ممارستهم للظلم، واعتداءهم على العزل من أهل الحق؛ فتلحقهم بذلك لعنة هذه الأجيال حتى يرث الله الأرض ومن عليها **﴿وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة. ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾**.

٥ ــ من أخطر أضرار السلطة، أنها تبعث فى نفس صاحبها أسباب الغرور. ولا يزال هذا الغرور يستبد بصاحبه حتى ينسى أنه مخلوق حقير، فيدعى الألوهية. ويظل يعيش فى هذا الوهم ضالاً هائماً لايوقظه إلا قارعة تصيبه أو تحل قريباً من داره.. وليته يفيء إلى الحق، وقد امتلأ صدره بكبر ماهو ببالغه.

٦ ــ هؤلاء المغرورون من أصحاب السلطة لن يعدموا أن يجدوا بطانة تؤمن بباطلهم، وتقدس أشخاصهم، وتضع نفسها فى خدمة ظلمهم، وتزين لهم أعمالهم، وتجد سعادتها فى مشاركتهم فى البطش والإرهاب. وهؤلاء هم الذين يقولون يوم القيامة **﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا. ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾** فيرد عليهم الله عز وجل بقوله

﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ ولكن لاتعلمون﴾.

٧ ــ حين يخرق الله تعالى العادات لإنسان مقرب إليه، لايفعل ذلك تكريماً لهذا الإنسان، بقدر مايفعله تحقيقاً لأمر عظيم يتغير معه مجرى الأحداث ويتبدل به وجه التاريخ. فلم يكن خرق العادات للغلام مجرد تكريم له، وإنما كان وسيلة لدخول أهل المملكة بقضهم وقضيضهم فى الإيمان بعد أن كانوا كافرين.

٨ ــ للإيمان باللمس حلاوة تهون أمامها كل المرارات؛ مرارة الإيذاء والإهانة، ومرارة التنكيل والتعذيب وحتى مرارة الموت، وهذا كان حال الراهب وحال الغلام وحال جليس الملك الأعمى وحال أهل المملكة الذين احتشدوا ليشهدوا قتل الغلام.. ولذا فإنهم كانوا يتسابقون إلى النار التى أججها الملك فى الأخاديد غير هيابين ولا مترددين ولا جزعين.

والإيمان باللمس هو النوع من الإيمان الذى لايتطرق إليه الشك، ولا يطرأ عليه الضعف، ولا يتسرب إليه الوهن، وهو النوع الذى طلبه إبراهيم من ربه سبحانه حين قال: **﴿رب أرنى كيف تحيى الموتى﴾ ﴿قال أولم تؤمن؟﴾ ﴿قال بلى ولكن ليطمئن قلبى﴾ ﴿قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً، واعلم أن الله عزيز حكيم﴾.**

٩ ــ حكم العقل والمنطق كان يقضى ــ وقد رأى الملك بنفسه صدق الغلام ــ أن يكون هو أول المؤمنين برب الغلام، ولكن الذى حدث كان عكس ذلك. فقد جحد وتغطرس، وازداد إمعاناً فى الظلم والعسف فهل كان الملك فاقداً عقله؟ والرد على ذلك يقرره القرآن فى قوله تعالى **﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله﴾** .

وفى قوله **﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا. أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾.**

فالإنسان ليس مسيراً بعقله وحده، وإنما تسيره مع العقل عواطفه وهواجس نفسه والظروف المحيطة به. وهواجس النفس وعواطفها إذا وجدت من البيئة المحيطة بها مايستجيب لها ويفسح المجال أمامها، تنطلق متضخمة مغربدة حتى تكون لها السيطرة على صاحبها، فيقول العقل كلمته، ولكن هذه تقذف بهذه الكلمة بعيداً لتكون هى وحدها القاضية الحاكمة.. وأولئك الذين بوأتهم

الظروف دست السلطة يجدون ممن حولهم عادة من ينفخون فى أوداجهم، وينفثون فى روعهم ماينسيهم — كما قدمنا — حقيقة أنفسهم، وتستبد بهم الأوهام يوماً بعد يوم حتى يحملوا الناس على عبادتهم — وقليل من الحكام من استطاع النجاة من هذا الأخطبوط اللعين.

١٠ — طلب الراهب من الغلام إذا هو امتحن أن لايدل عليه. ولا شك فى أن الغلام قد تعهد للراهب بذلك.. ثم جاء الامتحان، وأمر الملك بتعذيب الغلام حتى يدل على الذى علمه.. وظلوا يعذبون الغلام حتى دل على الراهب. وأتى بالراهب فقتل.

وهنا قضية ينبغى تمحيصها وتتلخص فى هذا السؤال:

هل إخلال الغلام بعهده للراهب، وإفضاؤه باسمه تحت تأثير التعذيب، وكشفه لهم عن مكانه.. هل فى هذا جريمة خلقية تمس الإيمان وتجرحه؟

لاشك فى أن الغلام كان يعلم أن ظفرهم بالراهب معناه قتله، فهل باء الغلام بذنب مقتل الراهب؟ إن الحكم فى هذه القضية يهمنا نحن الإخوان المسلمين باعتبارنا أصحاب دعوة تعرضنا لما تعرض له هذا الغلام، وكان من بعضنا ماكان منه، وتسبب إفضاء بعضنا بأسماء آخرين فى القبض عليهم وإرهاقهم وسجنهم وتعذيبهم وقتلهم.. واعتقد الكثيرون من الإخوان أن هؤلاء الإخوة الذين دلوا على غيرهم تحت سوط التعذيب ناكثون بعهدهم، مفرطون فى حق دعوتهم، واعتبروهم قد وهنوا واستكانوا. وأخذوا يغضون عنهم الطرف حتى شعروا بأنهم منبوذون.

إن قصة الغلام تقضى بأن على الإخوة اللائمين أن يعيدوا النظر على ضوء هذا الحديث.. فلو كان الإدلاء بشىء مما يرضىَ الأعداء تحت تأثير التعذيب يجرح الإيمان، لرفع الله تعالى يده عن هذا الغلام الذى دل على الراهب، ولما أبقاه فى كنفه، وأجرى على يديه خوارق العادات حتى أسلم شعب المملكة بأسره على يديه.

على أن ذلك لايتناقض مع صريح القرآن حيث يقول تعالى **﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان. ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾**

* * *

عاشراً — بعد كل الذى حدث أين الإخوان المسلمون الآن؟

والآن وقد وضعت التجربة بين يدى القراء الكرام بحذافيرها، نريد — ونحن نطل

الآن على منتصف الثمانينيات ــ أن نعيد النظر فى هذه التجربة ونحيله فيها من أول يوم فيها حتى آخر يوم. ولقد استغرقت التجربة ربع قرن أو يزيد، وأمكن عرضها فى هذه الصفحات، ويمكن إجمالها فى النقاط التالية:

١ ــ نشأة فى أحضان الإخوان المسلمين.
٢ ــ قيام «بالثورة» فى حماية الإخوان المسلمين بعد التعهد بجعلها لحساب الإسلام.
٣ ــ نجاح «الثورة» والتملص من العهد.
٤ ــ محاولات لاحتواء هيئة الإخوان المسلمين وتطويعها لإرادة عبد الناصر وأهوائه بوسائل منها:
أ ــ باللف والدوران حولها.
ب ــ بإنشاء هيئات ضرار بجانبها.
حـ ــ باستغلال قيادة النظام الخاص فى افتعال فتن داخلية.
د ــ بإصدار قرار بحل الهيئة واعتقال المرشد العام وقيادات الهيئة مع تسوىء سمعتها باللجوء إلى الكذب.

٥ ــ فشل كل هذه الجهود، واضطرار عبد الناصر للتظاهر بالإذعان مع تنويم الإخوان مستغلاً فى ذلك ماهو معروف عنهم من تمسكهم بعهودهم ــ حيث دبر فى ظل ذلك مظاهرات مأجورة قلبت الوضع وجعلته فى موقف القوة وجعلت الإخوان فى موقف الضعف.

٦ ــ محاولة لتدارك الموقف بعد أن أخذ فى التدهور السريع؛ فى محاولة للحصول على هدنة يسترد الإخوان فيها أنفاسهم ويراجعون فيها خططهم على ضوء واقع جديد ــ وفشل هذه المحاولة.

٧ ــ محاولة عبد الناصر خلع المرشد العام، وتسخير وسائل الإعلام لنشر الأكاذيب عن الإخوان مع حرمان الإخوان من جميع وسائل النشر.

٨ ــ فشل هذه المحاولة وظهوره بنفسه على المسرح.
٩ ــ استخدامه جميع وسائل البطش والإرهاب عام ١٩٥٤، مما لم يسبق له مثيل بقصد إبادة الهيئة مع تسخير جميع وسائل الدولة وإمكاناتها فى ذلك.

١٠ ــ أحكام بالإعدام والسجن المؤبد وبآلاف السنين على مختلف أفراد الإخوان مع استعمال كل أساليب التعذيب حتى الموت.

١١ ــ إعادة الكرة مرة أخرى فى عام ١٩٦٥. وكانت الأولى لحساب الغرب أما هذه المرة فكانت لحساب السوفييت ــ وهذه المرة كانت على أوسع نطاق

وبوسائل تعذيب وإبادة مستحدثة للقضاء هذه المرة لاعلى الإخوان المسلمين فقط بل على كل من يمتون إلى الفكرة الإسلامية بسبب من قريب أو من بعيد.

* * *

هذه هى خطوات التجربة مجملة غاية الإجمال. وقد قصدنا بجمعها فى هذه السطور بعد أن قرأ القراء تفاصيلها لنوجه إليهم بعد ذلك سؤالاً:

هل نجح عبد الناصر فيما كان يريد تحقيقه فيما يتصل بهيئة الإخوان المسلمين؟ــ ولتوضيح هذا السؤال نقول: إن عبد الناصر كان يريد فى أول الأمر أن يطوع هذه الهيئة لإرادته، فلما فشل فى ذلك نتيجة وجود حسن الهضيبى حول كل جهوده إلى إزاحة هذا الرجل من مكانه، فلما فشل فى ذلك قرر القضاء على هذه الهيئة قضاء مبرماً لاقيام لها بعده، وفعل فى سبيل ذلك مالا يخطر ببال إنسان من البطش والقتل والتعذيب والإرهاب. ومات عبد الناصر والمرشد وآلاف الإخوان فى السجون.. فهل حقق عبد الناصر هدفه فى إبادة الإخوان؟

والإجابة على هذا السؤال ليست فى حاجة إلى إعمال فكر، ولا الغوص وراء حسابات ولا إلى الحدس والتخمين، وإنما هو مجرد النظر إلى الواقع الذى نعيشه ويعيشه الناس.

هل انقرض الإخوان المسلمون؟ سؤال يجيب عليه الواقع فيقول:

إن هؤلاء الذى ادعى عبد الناصر أنه أبادهم أصدروا مجلة الدعوة فكان توزيعها يفوق الثمانين ألف نسخة من العدد الواحد.. إن هؤلاء الذى ادعى عبد الناصر أنه أبادهم هم الذين رشحوا فرداً منهم فى إحدى دوائر الإسكندرية ضد خمسة عشر مرشحاً أكثرهم من وزرائه فى أول انتخابات حرة لمجلس الشعب فنجح هذا الفرد وسقط الباقون.

هؤلاء الذين اعتقد عبد الناصر أنه أبادهم هم الذين تشهد المناسبات التى تتبارى فيها كل الأحزاب والهيئات فى إظهار مدى نفوذها الشعبى.. فتشهد هذه المناسبات بأن جموع المستجيبين لنداء الإخوان أضعاف المستجيبين للحكومة وحزبها مع مافى الاستجابة لحزب الحكومة من مغريات وما يرجى من حوله من مغانم ــ بل إن اجتماعاتهم الأسبوعية فى بيوت الله ــ دون دعوة ولا تحضير ــ تفوق اجتماعات أنصار الحكومة التى تعد لها بكل

وسائل الإعداد والإغراء.

لازال الإخوان يحتلون مكانهم المرموق فى الحياة الاجتماعية والحياة السياسية فى مصر ، ولا زالت تتحرك بإشارتهم عشرات الألوف فى كل موقع من مواقع الحياة فى مصر ــ ولازالت فكرتهم عالية شامخة ، ولا زال تيارهم دفاقاً قوياً يشق طريقه وسط كل التيارات لايتوقف لحظة واحدة مهما ووجه مده بمعوقات وعقبات.

لاننكر أن الإخوان فقدوا الكثير من الأرواح والأجسام، ولكنهم لم يفقدوا ذاتهم التى أحاطوها بأرواحهم وأجسامهم فنال البطش كثيراً من هذه الأرواح والأجسام ولكن ذاتهم لم تمس، ولم تصل إليها اليد الباطشة ، مع أن الذات كانت هى المقصودة .. لقد كانت ذاتهم فى ذلك الوقت متمثلة فى مرشدهم؛ فلو أنهم فرطوا فيه أو سلموا بتنحيته لذابت فكرتهم فى محيط أهواء عبد الناصر ، ولخرجت آخر الأمر شيئاً آخر اسماً على غير مسمى ، ولفظاً بلا معنى؛ كأحزاب الحكومة معالم فكرتها ماتحدده لها أهواء رئيسها .. وإذن لحفر التاريخ بيده قبراً يوارى فيه رفاتها ، ولكانت لافتاتها بعد ذلك عند الشعب بمثابة شواهد لهذا القبر كتب عليها اسم صاحبه.

ولكن صبر عشرين عاماً على أشد مايخطر ببال من القهر والعذاب والإذلال حفظ لهذه الفكرة تميزها. فلا زال يهتف بها اليوم بنفس الصيغة وبنفس الألفاظ التى هتف بها حسن البنا فى أول هتاف له بها ــ ولا زالت تزهى بطهرها وبراءتها ونقائها مثل صرة من الجواهر النفيسة ألقيت فى القذارات .. وأهيل عليها جبل من هذه القذارات. فلما رفعت هذه القاذورات إذا بالجواهر النفيسة محفوظة داخل صرتها ، محتفظة بلمعانها وبريقها ونفاستها ﴿**الذين استجابوا لله والرسول من بعد ماأصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم. الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم**﴾.

إنك لتقابل الأخ المسلم الذى قضى زهرة شبابه فى أتون البلاء .. فماذا تقرأ فى ملامح وجهه؟ وماذا تسمع من بنات لسانه؟ .. إنك لاتلمح إلا الرضا ، وكأن هذا الوجه لم تسل دماؤه تحت أسواط العذاب ، وكأنه لم يضرج بدمائه فى الرغام .. ثم إنك لاتسمع منه إلا حمد الله وشكره لاعلى أنه نجا من أيدى الظالمين ، وإنما على أن دعوته خرجت من المعركة سالمة لم تستطع يد الظلم والإرهاب ــ التى نالت من أصحابها ــ أن تنال منها ولا أقل القليل!. حقا صدق رسول الله ﷺ «ألا إن سلعة الله غالية».

لقد فشل عبد الناصر فيما قيض لتحقيقه كل جهوده، وبذل للوصول إليه كل حياته.. فراح إلى حيث يروح كل جبار عنيد.. راح تلحق به مظالمه.. ولكن دعوة الإخوان المسلمين بقيت كما كانت عزيزة شامخة.

ومثل ماكان من أمر الإخوان المسلمين مع عبد الناصر، كمثل رجل آلت إليه عن أبويه وثيقة يمتلك بها داراً فارهة عظيمة. فجاء أحد أقاربه — وقد نفس عليه أن يمتلك مثل هذه الدار — طامعاً فى أن يضع يده عليها، وحاول ذلك بوسائل وحيل ماكرة ففشل.. فألب عليه خاصة أهله الأقربين ملوحاً لهم بأنه إذا آلت إليه الدار فسيكونون شركاءه فيها — ولكن هذه المحاولة فشلت كذلك.. فراح واستأجر عصابة من المجرمين، وهاجموا الرجل محاولين استخلاص الوثيقة منه، ولكنهم وقد استفرغوا كل جهدهم معه وأذاقوه ألوان العذاب حتى شرحوا جسده ضرباً وتجريحاً.. ومع ذلك ظل مستمسكا بالوثيقة.. وخارت قواهم ومات مستأجرهم ففروا هاربين.. وقام الرجل مثخنا بالجراح ولكن الوثيقة فى قبضة يده.

وعند هذا الحد من الكتابة فى هذا الفصل فكرت فى عبارات أختمه بها، وأرجأت ذلك بعض الوقت حتى قرأت فى ٨٤/٧/٢٩ بجريدة الأهرام تحت عنوان «ثرثرة مع الحكيم على فراش المرض» وهو نقاش يديره الأستاذ صلاح منتصر مع الأستاذ توفيق الحكيم ينشره فى حلقات أسبوعية بمناسبة ذكرى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ — وكان دور هذه الحلقة الرابعة من النقاش يدور حول كتاب «عودة الوعى» الذى أصدره توفيق الحكيم بعد وفاة عبد الناصر، فرأيت أن أنقل منه فقرات تكون خاتمة لهذا الفصل:

يقدم الأستاذ صلاح منتصر لنقاشه مع الحكيم بهذه المقدمة: لماذا كتب توفيق الحكيم «عودة الوعى»؟ لماذا قال عن عبد الناصر ماقاله بعد أن مات، وهو الذى منحه حياً أرفع الأوسمة وأعلاها؟ ماذا يقول لعبد الناصر عندما يلتقى به فى الآخرة؟ ثم وجه إليه السؤال:

سؤال: ماالذى بهذا المفهوم أردت أن تقوله فى «عودة الوعى»؟

الحكيم: أن تفتح الملفات.. أن يكون هناك نقد موضوعى للنظام الذى استقبلته بالحماسة، والذى تحول شيئاً فشيئاً إلى نظام بوليسى، وأدى إلى هزيمة منكرة من عدو صغير.

هزيمة أى دولة عسكرياً ليست مصيبة. ولكن المصيبة الأعظم والأكبر والأخطر فى هزيمتنا من إسرائيل هى أن البرلمان المفروض فيه أن الشعب اختاره ليسأل ويستجوب؛ لم يجرؤ نائب واحد من أفراده أن يقف ويقول: إنه مع حبنا وإجلالنا العميق لزعيمنا، فإننا فى إطار حبنا له وإخلاصنا له وللثورة فإننا نريد أن يوضح لنا أمراً واحداً.. هو كيف وقعت الهزيمة.

مجرد سؤال يلقيه نائب واحد بكل الاحترام.. لم نسمعه.. وبدلاً من ذلك فإن الذى حدث فى مجلس الشعب عندنا بعد الهزيمة هو الرقص؟! نعم.. نائب يرقص!!

إذن كنا وكان نوابنا فى حالة وعى غائب، أو فى نظام جعل الناس يعتادون الهتاف والتصفيق. وغاب عنهم الوعى بضرورة السؤال والمناقشة.

سؤال: ماذا تقول لعبد الناصر عندما تلتقى به فى الآخرة؟ لو سألك فى هذا اللقاء عن أخطائه فى الحكم فماذا سوف تقوله له؟

الحكيم: سأقول له: إنك حاولت أن تكون أباً يفعل مالا يجوز أن يفعله الأب؛ عندما يحدد لابنه كل خطواته؛ ماذا يأكل وماذا يشرب، ومن يحب ومن يكره، ومن يتزوج، وماذا يقرأ، وماذا يقول، وأين يسهر، ومن يصادق ومن يعادى.

سأقول له: إنك جعلت البلد فى إطار من صنع عبد الناصر. وهذا أدى بنا إلى فقد شخصيتنا، ووصل بنا إلى فقد وعينا. وعندما وقعت الهزيمة لم يجرؤ واحد على الوقوف وتوجيه مجرد سؤال بسيط عن سبب ماحدث.

سأقول له أيضاً: إنك حجبت قراءة تاريخ مصر عن الشعب، وإنك أمسكت تاريخ مصر وضغطته ووضعته فى جيب الثورة؛ وهذا أضعف شخصية مصر، بينما كانت مسئوليتك أن تثقف الشعب وتعلمه وتجعله يختار الطريق الذى يريده».

هذا.. وهناك نقطة هامة لايفوتنى أن أنبه إليها وأعدها غاية فى الأهمية؛ تلك هى أن الخطة التى وضعت بإحكام للقضاء على الإخوان المسلمين — والله يعلم أين وضعت هذه الخطة هل فى مصر أم فى خارج مصر — كانت أن يقضى الإخوان المسلمون بأنفسهم على أنفسهم حتى يكون القضاء بذلك قضاء مبرماً لاقيام بعده.

ولكن الذى حدث أن كل الأساليب التى خطط لها ليكون القضاء عن طريقها بهذه الطريقة — باءت جميعاً بالفشل.. فلم يبق أمام المخططين والمنفذين إلا الطريق الوحيد الذى حاولوا تفاديه من قبل وهو طريق المواجهة، وهو طريق بالرغم من كل مافيه من قسوة وفجور ووحشية، فإنه لايؤدى فى النهاية إلى القضاء على هيئة تقوم على أسس راسخة من المبادىء السامية، والتربية الروحية الصافية والارتباط القلبى بخالق الكون.. وهم كانوا يعلمون ذلك ولكن لم يكن أمامهم من سبيل آخر بعد أن جربوا كل وسائل التفجير من الداخل.

وهكذا تفادى الإخوان المسلمون — بتوفيق من الله وحده — قفزة الموت التى حوصروا من كل مكان حتى يقفزوها، ولكن الحق تبارك وتعالى عصمهم وأبقى عليهم.

ولما وصلت إلى هذا القدر فى المذكرات التى أنقلها من مسوداتها، وجدتنى كنت فى هذه

المسودات قد تجاوزت هذا القدر وكتبت عن عهد السادات إلى أواخر عام ١٩٧١. ويبدو أنني حين كتبت ماكتبت عن هذا العهد إلى هذا التاريخ قد خطر لى آنذاك أن أضمن هذا القدر من عهد السادات الجزء الثالث هذا ولكن خطر لى فى نفس الوقت خاطرة أخرى جعلتنى أذيّل ماكتبت بالعبارة الآتية التى أنقلها للقراء من المسودات: «ولابد أن القارىء واجد نفسه مشغوفاً إلى مواصلة قراءة التعليق على ماجد من أحداث بعد ذلك ولكننا نقف فى هذهِ المذكرات عند هذا الحد، لأن الحكم الصحيح لاينبغى أن يجتزى فترة من عهد من العهود فيحللها ويصدر حكمه عليها، بل ينبغى أن يتريث المراقب حتى يتم العهد كاملاً بما فيه من سلب وإيجاب، فينظر فيه نظرة شاملة تستوعبه جميعا، فإذا أصدر حكمه حينئذ كان أقرب إلى العدالة والصواب.

* * *

الفصل الثانى

كبح مؤامرة اشرأبت بعنقها مرة أخرى

فى الفصل الخامس من الباب الرابع من الجزء الثانى من هذه المذكرات، وفى صدر الحديث عن «حسن البنا وكبار الدعاة فى العالم الإسلامى فى العصر الحديث» بعد أن استعرضت عدداً من أبرز هؤلاء الدعاة، وألمحت بلمحة سريعة مجملة عن معالم أسلوب كل منهم فى الدعوة، وعقبت على ذلك ببيان عن موقف حسن البنا من هؤلاء الدعاة.. وفى صفحة ٤٠٢ كتبت نحو خمس صفحات تحت عنوان قصدت أن يكون بارزاً يلفت النظر نصه: **«مزيد بيان وتحذير من تدبير خطير ـ تجريح قادة الدعوة الإسلامية أسلوب خبيث لهدم هذه الدعوة فى نفوس المسلمين»**.

والمطالعون لهذا الجزء من الكتاب قد يحسون ـ حين يقرأون هذه الصفحات الخمس ـ أن هذه الصفحات قد أقحمت على السياق إقحاماً.. ولمن أحس بهذا الشعور من القراء العذر؛ فلقد كان هذا الجزء من الكتاب معداً للطبع دون أن يكون فيه هذا الموضوع.. ولكن موقفاً طرأ فى آخر لحظة ألزمنى أن أقحم هذه الصفحات.

ومن حق القراء أن يحيطوا بهذا الموقف علماً؛ لاسيما وقد أثبتت الأحداث بعد ذلك أننى كنت محقاً فى المسارعة إلى الكتابة فيه والتحذير من أخطاره.

ذلك أنه بعد أن نشر الجزء الأول من هذه المذكرات جاءنى أحد الأحباب يستأذننى فى أن يزورنى أربعة من الإخوان ليعرضوا بعض ملاحظات لهم فيما يتصل بنقاط معينة فيه؛ فرحبت وحضر الأربعة الذين لم أكن بعد قد شرفت بمعرفتهم ومعهم أخوان وثيقا الصلة بى.. والإخوة الأربعة من الجيل الإخوانى الحديث المثقف المتطلع إلى المعرفة، ويشغلون مناصب تعليمية مرموقة.

وكانت أكثر ملاحظاتهم استفساراً قمت ببيانه.. حتى داهمونى آخر الأمر بملاحظة أذهلتنى. وقد استغرقت ملاحظتهم هذه أكثر الوقت. وتبين لى أن هذه الملاحظة ليست

مجرد ملاحظة، بل هى اعتراض منهم على نقطة معينة كانت هى بيت القصيد والغرض الأصيل من زيارتهم.. لأننى لاحظت فى عرضهم لحججهم فى هذا الاعتراض أنهم كانوا فى أكثر الوقت يرجعون إلى ورقة بأيديهم يقرأون منها بعض نصوص كأنما نقلوها من مرجع من المراجع.

وقد صبرت حتى أنهوا ماعندهم.. فسألتهم عن هذا المرجع الذى استقوا منه هذه المعلومات، فلما علمته تكاملت صورة الموضوع فى خاطرى، ووضح لى أن هؤلاء الإخوة الأربعة إن هم إلا ضحية مؤامرة محبوكة الأطراف للقضاء على الدعوة الإسلامية، وهدمها فى نفوس المسلمين بطريقة ماكرة مبتكرة. وإذا كان هؤلاء إخواناً مسلمين ووقعوا فى حبائل هذه المؤامرة فما بالك بعامة المسلمين ؟!

وكان الذى أتم صورة المؤامرة فى خاطرى أننى أعرف عن مؤلف المرجع الذى يرجعون إليه مالا يعرفه غيرى وغير أربعة أو خمسة من قادة الإخوان المسلمين حين كنا طلبة بالجامعة وكان هذا المؤلف زميلاً لنا طالباً فى كلية الآداب.

والعجيب فى الأمر أن موضع الاعتراض الذى استغرق منهم فى مواجهتى به أكثر الوقت وأطول الحديث — وكان الحديث كله من جانبهم فقد كنت فى موقف المستمع — عبارة وردت فى صفحة ١٤٣ من الجزء الأول فى صدد حديثى عن مقال لى كنت كتبته فى مجلة الإخوان المسلمين فقلت :

«وقد تحدثت فى هذا المقال عن تسلسل قيادات الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث ومنها جمال الدين الأفغانى ثم الإخوان المسلمون، ووازنت بين هذه الأطوار للدعوة الإسلامية، وأثبت أن دعوة الإخوان استوعبت الدعوتين (دعوة جمال الدين ودعوة السنوسية) وزادت عليهما بنظام أشمل، وقيادة أشد إحكاماً وأبعد نظراً».

فكان اعتراضهم منصباً على ذكر جمال الدين الأفغانى باعتباره أحد قادة الدعوة الإسلامية.. وأخذوا يكيلون له التهم، ويصمونه بالماسونية، ويتهمونه بالعمالة للمستعمرين، ويشككون فى إيمانه؛ مستقين كل هذه التهم من المرجع الذى أشرت إليه، والذى كان صاحبه يشغل فى ذلك الوقت منصباً مرموقاً فى جامعة الإسكندرية.

ولما أنهى إخواننا هؤلاء كل ماعندهم من «معلومات» فى تحطيم شخصية جمال الدين الأفغانى، اتجهوا إلىّ ينتظرون منى جواباً.. غير أنى اعتصمت بالصمت لحظة وفى صدرى مرجل من الغضب يغلى ويتأجج.. فلما ألحوا فى سماع جوابى انفجرت قائلاً :

أيها الإخوة.. صدقونى إذا قلت لكم إن هذه الليلة هى من أسوأ مامر بى فى حياتى من ليال.. إن ماسمعته منكم الآن هصر قلبى وفتت كبدى.. إنكم أربعة من خيار

الإخوان المسلمين وقد وقعتم مع ذلك فى حبائل مؤامرة خبيثة حيكت بدهاء ومهارة للقضاء على الدعوة الإسلامية بتشكيك المسلمين فى قياداتهم، وبإفقادهم الثقة فيهم.. وإذا كنتم لاتعرفون مؤلف المرجع الذى ترجعون إليه فأنا أعرفه..

وصدر الجزء الثانى من هذه المذكرات فى أول يناير من عام ١٩٨١ وقد أقحمت فيه الصفحات الخمس.. وكنت أعتقد أن المؤامرة قاصرة على هذا المرجع الذى يرجع إليه أصحابنا؛ وقد ألمحت فى الصفحات الخمس إلى تاريخ مؤلفه وعلاقاته بالجهات المشبوهة مما قد يضىء الطريق أمام الباحثين والمطالعين فلا يأخذوا الكلام على عواهنه دون أن يعرفوا ماوراءه وما حوله.. وقلت إنها مؤامرة دست علينا سمومها فى هذا المرجع، وحمدت الله أن أتاح لنا فرصة لقاء هؤلاء الإخوة فتنبهنا لها ووضعنا علامة الخطر على رأس الطريق فلم يعد خطر يخشى بعد ذلك على أحد.

وإذا الرواية لم تتم فصولاً!!

ولكن تبين أننا كنا مسرفين فى حسن الظن، حين ظننا أننا قد لممنا بساط الفتنة من جميع أطرافه، وأحطنا بوميض نارها من جميع جهاته.. فلقد فوجئنا بالفتنة تشرئب أعناقها من جديد، وتنطلق ألسنة لهيبها من بعيد — وإن كان البعيد لم يعد فى زماننا هذا ببعيد — فقد قصرت وسائل الإعلام الحديثة المسافات بل ألغتها؛ فالكلمة تلقى فى آخر الدنيا فتقتحم عليك فى نفس اللحظة وأنت هادىء فى بيتك فى أول الدنيا.. ولم تعد لإنسان حصانة أمام وسائل إعلام اليوم إلا التحصن بوسائل إعلام مماثلة تدفع عنك غوائل أخواتها.

جاء شهر إبريل من عام ١٩٨٣ فرأينا الدكتور لويس عوض الكاتب المصرى يكتب «بحثا» فى مجلة «التضامن» التى تصدر فى لندن باللغة العربية تحت عنوان «الإيرانى الغامض فى مصر» ويقود فى بحثه نفس الحملة الشعواء التى كنا قد تصدينا لها فى الجزء الثانى من كتابنا.. ولكن الحملة هذه المرة كانت أشد خطراً لأنها ليست بين دفتى كتاب قلّ من يفكر فى اقتنائه، وإنما تصدر هذه المرة فى مجلة سيارة دورية تصدر فى عاصمة من أعظم عواصم العالم، تصل بكل سهولة إلى يد كل قارىء؛ فتجد من يقرأها وتجد من ينقل عنها ومن فاته قراءتها هذا الأسبوع فسيقرأها فى الأسبوع التالى «والبحث» مسلسل.

ومهما قيل عن تقطع أوصال المسلمين، وتشتت جماعتهم، وغفلتهم عن دينهم، وتفريطهم فى حق تاريخهم؛ فإن هناك ومضات تنبعث بين الحين والحين فى ظلمات ليل هذه الأمة الطويل؛ تضىء فتبعث الأمل من جديد.. ومن هذه الومضات ومضة انبعثت فسطعت على بحث الدكتور لويس عوض فى مجلة «التضامن» فبددت ضباباً اصطنع حول

هذا البحث فكشفت عن حقيقته، وانعكست هذه الومضة فى صورة سلسلة من مقالات ضافية دبجتها أقلام أعلام فى الأدب والعلم والتاريخ أجهضت مؤامرة الدكتور لويس عوض، وأظهرت زيفها، وكشفت عن سوء النوايا من ورائها، ونبهت الأذهان إلى خطورتها، وحذرت ـ كما حذرنا ـ من الانخداع بأباطيلها.

ولما كان الرد الذى تولته جريدة الأهرام لم يكن رداً على مجرد مقال، وإنما هو التصدى لمؤامرة عالمية لم يكن الدكتور لويس عوض أكثر من اسم لكاتب رضى لنفسه أن يتخذه المتآمرون ستاراً يلعبون من ورائه فقد نشرت «الأهرام» عشرات المقالات، وقد استغرق نشرها نحو ستة أشهر؛ بدأت فى أواخر أغسطس ١٩٨٣ بافتتاحية للأستاذ أحمد بهجت وختمت بمقال له فى ١٧ سبتمبر ١٩٨٣ ثم عاد فى الشهرين الأوليين من عام ١٩٨٤ إلى الموضوع بتقديم كتاب للدكتور محمد عمارة عنوانه «حقيقة جمال الدين الأفغانى».

ولما كانت هذه المقالات جزءاً من صميم تاريخ الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث؛ فقد وجب على أصحاب هذه الدعوة أن يلموا بها وأن يسجلوها باعتبارها ذخيرة من ذخائرهم. وقد رأيت من جانبى أن أقوم ببعض هذا الواجب إكمالاً وتوضيحاً للصفحات الخمس فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

ولما كان التسجيل الكامل لهذه المقالات يقتضى أن يفرد له كتاب مستقل فقد رأيت أن أجتزىء هنا بنماذج من هذه المقالات مما هو فى صميم موضوعنا.

الأفغانى.. بين الحقيقة والافتراء

هذا هو العنوان العام لجميع المقالات التى كتبت فى هذا الصدد فى «الأهرام» وقد افتتحها الأستاذ أحمد بهجت فى ١٩٨٤/٨/٢٩ بالكلمة التالية:

أيها السادة المثقفون؛ لقد كنا ضحية خديعة فاجعة. كنا جميعاً مخطئين حين تصورنا أن السيد جمال الدين الأفغانى رجل يوزع السعوط بيمناه، وينشر الثورة بيسراه.

كنا مخدوعين حين تصورنا أن جمال الدين الأفغانى ثائر إسلامى، ومصلح اجتماعى، ورجل عظيم أيقظ الشرق من سباته.. إن جمال الدين الأفغانى هو عكس ما كنا نتصور.. إن اسمه ليس هو اسمه.. إن اسمه الأفغانى بينما هو إيرانى. وليته كان إيرانياً فحسب.. إنما هو الإيرانى الغامض.. وهو غامض لأنه أفاق مغامر متلون..

هذا الاكتشاف «الهزلى» الجديد يدين بوجوده للدكتور لويس عوض. كشف عنه فى سلسلة المقالات التى يكتبها لمجلة عربية تصدر فى لندن.. ويسمى الدكتور لويس

ماينشره «بحثاً جريئاً».. والأصل فى البحث أن يتحرى الحقيقة، ويحلل الأحداث والمواقف، ويضيء جوانب كانت غامضة؛ بهدف نهائى هو اكتشاف الحقيقة.. أما بحث الدكتور لويس ليس كالبحوث. فهو بحث جرىء. ومن ثم فهو لايلتزم بأصول البحث، ولا يرجع إلى المراجع المحترمة أو المعتمدة؛ وإنما يستند إلى مراجع تشبه تقارير المخبرين السريين التى يكتبونها عن ثائر؛ فيصفونه بكل رذيلة وشر، ويسندون إليه كل نقيصة وبلية.. وشر البلية مايضحك.

ويبذل الدكتور لويس عوض جهداً كبيراً فى بحثه المزعوم، بينما الحقيقة أنه يرسم صورة كاريكاتورية للأفغانى، صورة تفتقر إلى الفن وإن كان هدفها السخرية والتشويه وإسقاط الاحترام.

ويبدو عبث المحاولة فى الجهد الشديد الذى يبذله الدكتور وهو يلوى عنق الأحداث ويستشف منها مايحاول به تشويه صورة الأفغانى.. فهو فى البداية والنهاية إيرانى غامض يتسلل وسط الظلام مدججاً بالمؤامرات.. ولست أعرف كيف فات على الباحث الجرىء أن يحدثنا عن العلاقة بين الأفغانى والخمينى. ولعله يفرد لنا بحثاً فى بحثه الجرىء يربط بينهما ولو بأى رباط. لايهم هنا أن يكون الأفغانى قد مات قبل ميلاد الخمينى. فإن الدكتور لويس يكتب بحثه وفى ظنه أن الناس لاتقرأ ولا تكتب ولا تفهم.

إن تحطيم صور الثائرين المسلمين فى تاريخنا يستهدف عزلنا عن الماضى، ومحاصرتنا فى الحاضر، وتجريدنا من ثروتنا فى الأبطال والزعماء، حتى نصير إلى الفقر والوحدة؛ فيسهل إقناعنا بأى هراء يصبه أصحاب المصالح فى عقولنا.. هذا هو الهدف. وهو هدف كما نرى يصعب السكوت عليه. ومن هنا جاء جهد «الأهرام» فى الرد.

وبعد هذه الكلمة الافتتاحية ننقل مقالين للدكتور جابر قميحه بجامعة عين شمس نشرا فى يومين متتاليين يومى ٥/٩/٨٣، ٦/٩/٨٣؛ الأول تحت عنوان:

قصور البحث.. وغياب المنهج

ولد جمال الدين الأفغانى فى قرية «أسد أباد» بالقرب من مدينة همدان فى غرب إيران. وليس فى قرية «أسعد أباد» الأفغانية. ونشأ نشأة شيعية. وتلقى التعليم على أيدى الشيعة والبهائيين «مجلة التضامن العدد الأول».. ومعروف أن الشيعة يؤمنون بالتقية أى كتمان الآراء والمعتقدات وإظهار الإنسان خلاف مايبطن.. وقد نشأ الأفغانى فى هذه التقاليد الشيعية التى جعلت منه إنساناً مزدوج الشخصية بل ومتعددها، يفصل الكلام والتعاليم بحسب من يخاطبه، وبحسب ظروف الزمان والمكان حتى بدت تعاليمه وأقواله المأثورة

ومواقفه وتحركاته جملة من المتناقضات التى يصعب نسبتها إلى رجل واحد (التضامن العدد الثانى)

ولم يكن الأفغانى متديناً بالمعنى المفهوم. ولكنه كان ينظر إلى الدين كمجرد دافع للجماهير الجاهلة لتحصيل الاستقلال السياسى أو بناء الإمبراطوريات (التضامن العدد الثالث).

وفى شبابه كان متفرنجاً، لايعيش كالمسلمين ولكن يعيش كالأوربيين. وفيما يبدو لايتبع دينا معينا (التضامن العدد الرابع)ـ وكان يجاهر بعصيان الدين أثناء إقامته فى كابول فكان يفطر علناً فى رمضان (التضامن العدد السادس) فلما جاء إلى مصر شدد عليه رياض باشا أن يهتم بشعائر الدين حتى تقبله بيئة الأزهر (التضامن العدد السابق).

وقد ظهر فى مصر لافى صورة المفكر والسياسى فحسب، بل فى صورة زعيم إرهابى يمكن أن ينظم الجمعيات السرية للاغتيال السياسى على غرار ماكان يفعله الفوضويون فى أوروبا (التضامن العدد الثامن).

* * *

عنوان البحث يبرز أمامنا ثلاث نقاط مهمة هى:

١ ـ منطوق العنوان هو «الإيرانى الغامض فى مصر». وهو بذلك يعد حكماً قاطعاً ـ من ناحية ـ بأن جمال الدين إيرانى الجنسية. مع أن الراجح كما سنرى أنه أفغانى المولد. وهو من ناحية أخرى يقطع بأن شخصيته «غامضة» ذات دروب خفية وخبايا. وذلك يعنى أن ماكتبته عنه أقلام أخرى من صراحة وجرأة ووضوح وتدين ليس بشىء.
والعنوان بهذا المنطوق المثير يذكرنا بعناوين القصص والأفلام البوليسية المثيرة مثل «القاتل المجهول» «والرجل الخفى».

٢ ـ يأتى نشر حلقات البحث بهذا العنوان المثير فى وقت أصبح فيه لكلمة «الإيرانى» انطباع سىء فى نفس القارىء العربى وخصوصاً المصرى، فهو لايطرق سمعه الآن عن الثورة الإيرانية وزعيمها إلا مايحزن ويؤلم ويثير الأسى والنقمة فما بالك إذا كان هذا «الإيرانى» إيرانياً غامضاً. وكأنى بهذا التوقيت الزمنى يهدف إلى خلق لون من «اللقاء أو الربط النفسى» بين الحاضر والماضى القريب الذى عاشه جمال الدين «الإيرانى»، وأن يقرأ العربى عن جمال الدين وطيف الخمينى لايفارق خاطره، وأن يتابع حركات جمال الدين وهو أسير الانطباعات التى تثقل كاهله عن الثورة الإيرانية.

٣ــ إن مجلة التضامن دأبت على تصدير كل حلقة من حلقات البحث بعبارة «بحث جرىء عن جمال الدين الأفغانى» وهو وصف يعكس إيحاءً قوياً بأن هذه الحلقات فيها خروج وتمرد على ماكتبه الكتاب وعرفه الناس عن جمال الدين مع أن البحوث ــ وخصوصاً الأكاديمى منها ــ لاتوصف عادة بالجرأة أو الجبن، ولكنها توصف عادة بالموضوعية والتجرد أو بالهوى والتحيز.

وأعتقد أن القارىء يشهد بالبراعة والتوفيق للمجلة والكاتب فى نطاق هذه الثلاثية التى ذكرتها: فمنطوق العنوان: حكم جازم بالإدانة المسبقة على شخصية «يعتقد» أنها قمة من قمم الشرق فكراً وديناً وخلقاً ــ وتوقيت النشر: أصاب المحز ــ كما يقولون ــ إذ جاء مع جو نفسى مهيأ لتقبل أى مذبحة فكرية ــ مهما كانت ضراوتها ــ لكل ماهو إيرانى. والوصف بالجرأة بعد ذلك يعضد من قيمة البحث ــ ويمنح البحث وصاحبه شهادة بالتجديد والتحرر الفكرى.

* * *

ولكن دعك من هذا العنوان ولننظر إلى طبيعة الأحكام التى «خلعها» الدكتور لويس ــ بكرم فياض ــ على جمال الدين الأفغانى. إنها فى إيجاز ــ تقف على طرف مناقض تماماً لما كتبه علماء غربيون عرفوا بسعة الثقافة والقدرة على التعمق والتحليل والتمحيص من أمثال: رينان وبراون وجولدزيهر ولوثر ستوردارد. ونكتفى بسطور قليلة مما قال براون عنه: «كان جمال الدين فيلسوفاً وكاتباً وخطيباً معاً. وكان يرمى إلى تحرير هذه الدول (الشرقية) من النفوذ الأوربى واستغلال الأوربيين، والنهوض بها نهوضاً ذاتياً من الداخل».

وحتى أرنست رينان الذى هاجم الإسلام فى إحدى محاضراته بالسربون. وتصدى له جمال الدين ناقضاً ماذهب إليه فى مقال نشره جمال الدين فى الجريدة الباريسية «جورنال دى ديبا» ــ يقول رينان عن جمال الدين فى رده على مقاله: «تعرفت بالشيخ جمال الدين من شهرين، فوقع فى نفسى منه مالم يقع إلا من القليلين، وأثر فىّ تأثيراً قوياً. وقد جرى بيننا حديث عقدت من أجله النية على أن تكون علاقة العلم بالإسلام هى موضوع محاضراتى فى السربون.. والشيخ جمال الدين نفسه خير دليل يمكن أن نسوقه على تلك النظرية العظيمة التى طالما أعلناها، وهى أن قيمة الأديان بقيمة من يعتنقها من الأجناس. وقد خيل إلىّ من حرية فكره ونبالة شيمه وصراحته ــ وأنا أتحدث إليه ــ أننى أشهد ابن سينا أو ابن رشد...».

كذلك جاء ماكتبه الدكتور لويس مناقضاً تماماً لما كتبه علماء شرقيون عدول من

أمثال محمد عبده ورشيد رضا ومحمد باشا المخزومى وأحمد أمين وعبد الرحمن الرافعى والدكتور عثمان أمين والدكتور محمود قاسم وكذلك سليم العنحورى الشامى المسيحى المهاجر الذى اتهم جمال الدين بالإلحاد ثم تبين له وجه الصواب؛ فكتب معترفاً بخطئه فيما رمى به الرجل العظيم، ولم تأخذه العزة بالإثم.

وأعتقد أن أعدى أعداء جمال الدين وأعدى أعداء الشرق الذين نقدوا جمال الدين وشوهوا بعض جوانب شخصيته لم يبلغوا بعض مابلغه الدكتور لويس فى حلقات بحثه «الأكاديمى» من سلب جمال الدين كل محمدة من محامده، وقذفه بكل هذا الفيض الغامر من النقائص والمثالب. حتى يظن من يجهل تاريخ الرجل أنه كان «مسخاً» فى فكره ودينه وغاياته ووسائله.

ولا أدعى أن جمال الدين فوق النقد، فهو بشر يخطىء ويصيب، ويخفق وينجح. كما أن أقوال السابقين وشهاداتهم للرجل لاتلزم الباحث أن يتبع نفس النهج، ويستقى من نفس المشرب، فمن حقه أن يرفض بعض ماقيل عن جمال الدين بل كل ماقيل عنه، ومن حقه أن يفجع الأمة الإسلامية والفكر الإسلامى الناهض فى شخصية كان لها أثرها البالغ العميق فى البحث الفكرى والنهوض السياسى والدينى.

من حق الدكتور عوض أن يفعل كل أولئك. ولكن من حقنا — وقد صدرنا مقالنا بأحكامه — أن نبحث عن ركائزه العلمية التى اعتمد عليها، ومصادره التى استقى منها، ومنهجه فى التعامل مع المعطيات التاريخية التى أثرت فى مجريات السياسة والفكر، وتفاعلت مع شخصية جمال الدين تأثراً وتأثيراً.

* * *

وحتى أكون أميناً مع نفسى وقارئى أعترف بأنه كان ثمة سؤال يلح علىّ أثناء قراءتى مقالات الدكتور لويس وبعد انتهائى منها وهو: ماحكمنا على من يكتب تاريخ السيد المسيح عليه السلام — معتمداً اعتماداً كلياً أو شبه كلى — على أقوال الفريسيين واليهود «أبناء الأفاعى» و «خراف إسرائيل الضالة» كما كان يصفهم السيد المسيح عليه السلام؟» وما حكمنا على من يكتب تاريخ النبى محمد — عليه السلام — اعتماداً على تصورات الكفرة من أمثال أبى جهل والمنافقين من أمثال عبد الله بن سلول واليهود من أمثال حيى بن أخطب وكعب بن الأشرف؟

اعتقد أن السؤال فى غنى عن جواب. وأعتقد أنه ماخطر لى أو مافرض نفسه على إلا لأنى رأيت الدكتور لويس يجعل ركيزته الكبرى فى بحثه الجرىء «الوثائق البريطانية» —

وهو حين يتحدث عن هذه الوثائق يتحدث عنها بتقدير وإجلال وثقة كاملة بعبارات تجرى مع النسق التالى: «وقد أثبتت الوثائق البريطانية..» «وأكدت الوثائق البريطانية» وكأن الدكتور لويس يجهل أن هذه الوثائق إنما هى وثائق الرجال الذين عاش الأفغانى يحارب إمبراطوريتهم فى كل مكان يحل به، ويؤلب عليهم الشعوب، ويلهب ضدهم المشاعر.

وما يقوله كبار المسئولين الإنجليز من أمثال السير فرانك لاسيز قنصل انجلترا العام فى مصر عن جمال الدين من وصفه بالعمل على نشر مبادىء الفوضى. وما يقوله مراسل التيمز فى رسالة يصف فيها الأفغانى بأنه «ذو ماض مريب» (التضامن العدد الأول). كل هذه الأقوال لها عند الدكتور لويس احترامها وقدسيتها.

بل إن الدكتور لويس يفتح صدره فى سماحة وكرم لتقارير الجواسيس فيكتب (فى العدد الأول من التضامن) بالحرف الواحد: «انظر إلى هذا التقرير الذى كتبه موظف فى حكومة كابول سنة ١٨٦٨ كان يعمل جاسوساً لحساب الإنجليز. والتقرير بعنوان: سجل بأوصاف السيد الرومى فى كابول (يقصد جمال الدين) يشتبه أن يكون عميلاً روسياً يخدم فى دوبارة (بلاط) كابول.».

وتنتهى كل هذه التقارير والوثائق إلى أن الأفغانى كان عميلاً روسياً مأجورا بل وأكثر من ذلك كان عميلاً مزدوجاً، وهذا مايرجحه الدكتور لويس عوض ويطمئن إليه (التضامن العدد الرابع).

أما مايقوله جمال الدين عن نفسه تعبيراً عن فكره ومعتقده فهو مرفوض عند الدكتور لويس عوض. أما شهادة طلابه ومريديه ومعايشيه من أمثال محمد عبده ورشيد رضا والمخزومى فموضع شك كبير عند الدكتور لويس عوض.

* * *

وإلى هنا انتهى المقال الأول للدكتور جابر قميحه ونبدأ فى نقل الثانى له بعنوان **«التزوير.. وأمانة الكلمة»**.

* * *

استعرضنا بالأمس الصورة الممسوخة التى رسمها الدكتور لويس وتحدثنا عن الطبيعة العامة لأحكامه، وكيف كانت فى مجموعها متناقضة مع ماقاله غربيون وشرقيون أعمق فكراً وأوسع ثقافة.. ورأينا كيف جعل الكاتب مصدره الأساسى تقارير الجواسيس ووثائق الحكومة البريطانية التى عاش الأفغانى حرباً عليها فى كل مكان يحل به واليوم نرى مع قرائنا كيف تعامل الأستاذ الأكاديمى مع النصوص وأحداث التاريخ.

فلنسر مع هذا «الخط المنهجى» — إلى حين — ولننظر فى نصوص الدكتور لويس ووثائقه ووقائعه، وسنكتشف أنه — فيما يستخلصه ويستنبطه من نتائج وأحكام — يحملها — لاأقول أكثر مما تحتمل فحسب — بل يحملها — فى كثير من الأحيان — مالا يمكن أن تحتمله إطلاقاً. ولنعايش بعض الأمثلة:

١ — أغلب الأحيان شرقيها وغربيها — تؤكد أن جمال الدين أفغانى المولد، سنى المذهب، وأنه ولد فى أسعد أباد وهى إحدى القرى التابعة لخطة كنر بالأفغان — ويرتقى نسبه إلى الحسين بن على. وممن حقق ذلك بدقة واستفاضة المؤرخ العظيم عبد الرحمن الرافعى فى كتابه القيم عن جمال الدين.

ولكن بعض الإيرانيين يزعم أنه ولد فى قرية «أسد أباد» الإيرانية وهو قول لادليل على صحته. وإن كان هذا التنافس على نسبة جمال الدين يعد فى ذاته شهادة بعظمة الرجل وعلو مكانته.

وجمال الدين نفسه قد حسم هذه القضية بما نقله عنه أقرب الناس إليه مثل محمد عبده وشكيب أرسلان وعبد القادر المغربى فمن أقوال جمال الدين: «ونظرت إلى الشرق وأهله فاستوقفتنى الأفغان، وهى أول أرض مس جسمى ترابها». وقوله مرة أخرى: «.. وقد اضطررت لترك بلادى الأفغان».

٢ — ويذهب الدكتور لويس إلى أنه كان يؤمن بالقضية ويظهر خلاف مايبطن — مع أن التاريخ يقطع بأن حياة الأفغانى كلها كانت سلسلة متصلة الحلقات من الجرأة والشجاعة والصراحة.. وقد كلفه ذلك من جهده وصحته واستقراره الشىء الكثير. وكثيراً ماكانت شجاعته تتحول إلى حدة وهياج فى مواجهة القادة والزعماء يقول عنه محمد عبده: «وهو شجاع مقدام لايهاب الموت كأنه لايعرفه. إلا أنه حديد المزاج، وكثيراً ماهدمت الحدة مارفعته الفطنة» — وحينما كتب محمد عبده من مصر كتاباً لجمال الدين وهو فى الآستانة كتاباً غفلا من «الإمضاء» ويظهر أن ذلك كان خوفاً من الرقابة — أرسل إليه يؤنبه فى ذلك التصرف قائلاً: «.. تكتب ولا تمضى؟؟.. أمامك الموت ولا ينجيك الخوف، فكن فيلسوفاً يرى العالم «ألعوبة» ولا تكن صبياً هلوعاً».

وبسبب صراحته وجرأته «جرد» عليه شاه إيران ناصر الدين حملة من خمسمائة جندى وسحبوه مسلسلاً فى الحديد وألقوا به خارج البلاد وهو مريض فى يوم جليدى شديد البرد؛ فأخذ يهيج مشاعر الناس على الشاه فى كل بلد يحل به.. ولما استقر به المقام فى الآستانة طلب منه السلطان عبد الحميد أن يكف عن مهاجمة الشاه، فقال جمال الدين: «إنى لأجلك قد عفوت عنه».

وكان يحدث السلطان وهو يلعب بحبات مسبحته فلما طلب منه بعض الحاشية

أن يكف عن ذلك قال: «إن السلطان يلعب بمستقبل الملايين من الأمة أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بسبحته كما يشاء؟؟».

ويطول بنا المقام لو رحنا نعدد الشواهد والوقائع التى تنفى عن الرجل القول بالجبن والتقية وإظهار خلاف مايبطن؛ فكم جابه الحكام فى صراحة لامواربة فيها وخاصة بدعوته إلى الشورى والحكم النيابى، ومن هؤلاء الخديوى توفيق وقيصر روسيا.

والغريب أن الدكتور لويس نفسه عاد فنقض ماذهب إليه من القول بتقية الأفغانى حيث يقول: «.. وكان الأفغانى يتحرك بوضوح فى مرحلته المصرية فى سنة ١٨٧١ إلى سنة ١٨٧٩ أساساً بين صفوف المجددين والديمقراطيين والدستوريين والعرابيين ودعاة مصر للمصريين..».. «.. وفى سيرة الأفغانى لأديب اسحق: «فأجرت له الحكومة الخديوية رزقاً على أن يكون من المدرسين فجرت بينه وبين علماء الأزهر مناظرة أفضت إلى المنافرة. فانقطع إلى منزله وصار له فيه حلقة تدريس (التضامن العدد السادس).

فالوضوح والمواجهة الصريحة لايتفقان مع منطق القضية التى تعتمد على التورية والمجاراة وإظهار خلاف الباطن.

٣ــ ويذهب الدكتور لويس إلى أن جمال الدين طرد من المحفل الماسونى (التضامن العدد الرابع عشر). والثابت أن جمال الدين الأفغانى اشترك فى المحفل الماسونى الإنجليزى مشدوداً على حد قوله بشعارهم الكبير الخطير «حرية مساواة إخاء..» وكان المحفل يضم أشراف الناس وكبراءهم. وصدم جمال الدين حين رأى أن هذا الشعار لاوجود له فى واقع هؤلاء الأعضاء، بل لم يجد منهم إلا الجبن والسلبية والتزاحم على المناصب. فاستقال. وأنشأ محفلاً آخر تابعاً للشرق الفرنسى ونجح فى تنظيمه حتى بلغ عدد أعضائه ثلاثمائة عضو ــ وكان يبغى من ذلك إيصال دعوته الإصلاحية إلى كبار الناس وعظمائهم.

٤ــ ولم يكن الأفغانى يستحل لنفسه اتباع الوسائل الخسيسة فى سبيل تحقيق غاياته النبيلة أو غير النبيلة.. فيكفى للرد على ذلك ماجاء على لسان محمد عبده إذ قال: «ماذا كان يضر السيد» الأفغانى «لو مهد لإصلاحه ــ وهو فى الآستانة ــ بالسعى عند السلطان فى إعطاء أبى الهدى الصيادى خمسمائة جنيه ونيشاناً لابنه أو لأخيه. فإذا رأى أبو الهدى أن السيد يخدمه؛ فإما أن يواتيه وإما أن لايناوئه؟؟!!

ولكن ما كان للسيد الأفغانى أن يسلك مثل هذه الخطة حتى لو حققت من النفع العام الكثير الكثير.. ولما دس له أبو الهدى الصيادى عند السلطان قال له

عبدالله النديم: ليتك ذكرت للسلطان دسائسه وضرره. فغضب جمال الدين وقال: «أعوذ بالله أن أكون من المنافقين، أو أن أفعل ماأنكره على الغير، أو أن أكون همازاً مشاءً بنميم».
فالغاية عنده لاتبرر الوسيلة. والنفس الكبيرة لاتستشرف إلا الغايات العلية، ولا تتبع إليها إلا الوسائل الشريفة النبيلة.

٥ـ وهل كان جمال الدين متعصباً دينياً.. داعياً إلى التعصب الدينى فى مرحلة «العروة الوثقى» التى عاشها فى باريس؟ (التضامن العدد التاسع عشر).

إن واقع «العروة الوثقى» يفند هذا الادعاء.. فمما كتبه فى إحدى مقالاته «بالعروة الوثقى» «لايظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحياناً ومدافعتها عن حقوقهم ــ تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم فى أوطانهم ويتفق معهم فى مصالح بلادهم، ويشاركهم فى المنافع من أجيال طويلة؛ فليس هذا من شأننا ولا مما ندعو إليه، ولا مما يبيحه ديننا..».

فمن أين جاءت تهمة التعصب التى خلعها الدكتور لويس على الأفغانى فى مرحلة «العروة الوثقى»؟ أعتقد أنها جاءت من إلحاح الأفغانى ــ بعد أن رأى مارأى من انكسار الثورة العرابية والاضطهاد الواقع على المسلمين من حكامهم ومن المستعمرين ــ على ضرورة التجمع فى دولة واحدة أو دول متوحدة فى شكل كومنولث إسلامى مع التمسك بدينهم والالتفاف حول كتابهم والاعتزاز بالعصبية الدينية «وهى غير التعصب المقيت» الذى يقوم على الشقاق والتطاحن بين أصحاب الديانات المختلفة، والذى تبرأ منه جمال الدين فى صفحات «العروة الوثقى».

وتاريخ جمال الدين يشهد أن من تلاميذه النجباء وأصدقائه المخلصين كثيراً من غير المسلمين مثل أديب إسحق المسيحى الدمشقى ويعقوب صنوح اليهودى. وقد شجع الأول على إنشاء جريدتى مصر والتجارة، وكان جمال الدين يكتب فيهما بنفسه. وشجع الثانى على إنشاء مجلته الهزلية «أبو [illegible]ارة».

لقد عاش جمال الدين لفكره وعقيدته. ولم يتعيش بفكره وعقيدته ــ عاش عمره يضرب فى أنحاء الأرض ينثر بذور الإصلاح، ويلهب المشاعر، وينتصر للعقل فى وضوح دون مواربة، ولو تنازل عن قليل من كرامته، ولو باع ضميره ونو لحظة واحدة لو جد آلافاً يغلونه الثمن.. بل كم ثمن أمراء وحكام كانوا على استعداد أن يشتروا سكوته. مجرد سكوته.. بثروات باهظة.. ولكنه آثر عذاب الجهاد.. وجوع الليالى.. ومفارقة الأوطان.. على استكانة الدعة وسلام الإذلال.. فعاش فقيراً.. وقضى فقيراً.. وظل قبره تائها مطموساً بين القبور بلا معالم تدل على صاحبه.. إلى أن جاء أمريكى ــ صديق

للعرب ـــ فتبنى القبر وبناه وأظهر ماانطمس من معالمه .. ولن يضير جمال الدين أن تتطاول عليه ألسنة وأقلام .. فالبقاء للأصلح .. للأصلح دائماً.

وبعد أن نقلنا هذين المقالين للدكتور جابر قميحة ننقل مقالاً نشر فى ٤ / ١٠ / ١٩٨٣ للأستاذ عبد المنعم شميس عنوانه «**تجريح التاريخ**» :

عندما أراد المليونير الأمريكى عضو الكونجرس المستر كراين إقامة ضريح لجمال الدين الأفغانى على نفقته، اعتزازاً بشخصيته حدث نزاع بين إيران وأفغانستان. وادعت كل دولة منهما انتساب جمال الدين إليها وإقامة ضريح فى عاصمتها بعد نقل رفاته من مقبرة المشايخ فى اسطنبول حيث دفن.

وقد أقام المستر كراين ضريحاً لأبى العلاء المعرى أيضاً فى النعمان بسورية على مشارف حلب، وعلى واجهة الضريح لوحة رخامية مكتوب عليها اسم منشئه ـــ فقد أعجب هذا الرجل الأمريكى بعظيمين من عظماء الشرق هما الأفغانى والمعرى وتبرع بإقامة ضريحين لهما على نفقته.

ولما ثارت مشكلة جنسية جمال الدين وادعى كل من الفرس والأفغان انتسابه إليهما تشرفاً بهذا النسب، انتظر مستر كراين حتى يتم الاتفاق على هذه المسألة ثم يقام الضريح فى «طهران» أو «كابول» بعد أن يقدم الطرفان الوثائق والبراهين على جنسيته .. وأخيراً ثبت أنه أفغانى وأقيم الضريح فى كابول أمام مبنى جامعتها كما أخبرنى السيد محمد مرسى شفيق سفير أفغانستان الأسبق فى القاهرة. وأقيم احتفال بنقل رفات الأفغانى من اسطنبول ومر موكبه بالعراق وإيران وسط الاحترام والتبجيل حتى عبر ممر خيبر إلى كابول حيث استقبله الملك محمد ظاهر شاه ملك أفغانستان الذى يعيش الآن فى المنفى فى إيطاليا.

ولذلك فإن قضية جنسية الافغانى التى أثارها الدكتور لويس عوض ورد عليها كثيرون من الكتاب على صفحات «الأهرام» ليست جديدة، وقد وصلت إلى حد المشاكل الدولية التى تقدم فيها الدول كل المستندات والوثائق والدراسات. وقد تم حل المشكلة على هذا المستوى الدولى، واستقر الرأى أن جمال الدين أفغانى الجنسية، ولم تعد هناك حاجة إلى مناقشة هذه القضية بالذات. لأن أى باحث أو دارس أو مؤرخ لايستطيع الوصول إلى وثائق وصلت إليها حكومة وافقت عليها حكومة أخرى، ثم أقام الطرف الثالث أى مستر كراين ضريح الأفغانى فى كابول بناء على هذا الاتفاق.

ولكن المشكلة فى جوهرها ليست هى محاولة الوصول إلى الحقائق التاريخية فى حياة رجل مثل الأفغانى اعترف كل الدارسين من أهل المشرق وأهل المغرب بأنه فيلسوف الشرق فى العصر الحديث، ومفجر النهضات والثورات فى أرجائه .. المشكلة هى محاولة

تجريح التاريخ وإسقاط قيمة أعلام الرجال الذين كان لهم دور فى يقظة الشرق.

وقد لاحظت على ماكتبه الدكتور لويس عوض عن الأفغانى ومن الردود التى كتبت فى الرد على مزاعمه أنه على عادته — لم يتحر أى منهج علمى فى كتاباته. ولذلك تصبح كلها كتابات ساقطة لاقيمة لها من الناحية العلمية.. وقد اعتمد على تقارير لبعض الجواسيس ورجال المخابرات والمخبرين السريين، واستخدام أساليب الإثارة والكذب والتضليل والتزوير المشهور عند هذه الطائفة من العملاء.

ولذلك فإن كتابات الدكتور لويس مطعون فيها منذ البداية. وهو لم يستطع التعرض للقضايا الكبرى فى حياة الأفغانى بل استخدام التهويش وإلقاء ألفاظ المهاترة والسباب على الرجل الذى تعرض فى حياته إلى أكثر منها، ثم خرج من الحياة ذاتها طاهر الذيل نقى الصفحة.

وقد ذكر الأفغانى نفسه ملاحقة الجواسيس له فى كل مكان، حتى إنه قال للسلطان عبد الحميد فى اسطنبول إن نفقات هؤلاء الجواسيس لاداعى لها، وأنه سيخبره بكل شيء يريد معرفته عنه، لأن هذا خير من التقارير المكذوبة التى ترفع إليه ولكن الغموض الذى كان يسود كواليس السياسة انعكس على حياة الأفغانى نفسه وهذا أمر طبيعى .. هذا الرجل لايقال عنه إنه جاسوس لأن الجاسوس كما يعلم الدكتور لويس يتقاضى الثمن ذهباًوهاجاً، ولايكون ثمن جاسوسيته طباعة مصحف القرآن.. وأنا لاأحاول الدفاع عن الأفغانى لأنه أكبر من أن يدافع عنه أحد بعد أن وضع فى مكانه الصحيح من تاريخ الإسلام. وكذلك لاينقصه أن يهاجمه الدكتور لويس فقد هاجمه من قبل كثيرون وذهبت كلماتهم أدراج الرياح، ومنهم واحد اسمه سليم العنحورى قال إن الشيخ جمال الدين يحب شرب الكونياك. وهوجم أيضاً الشيخ محمد عبده تلميذ الأفغانى بمثل هذه الأسلحة الفاسدة حتى وصل الأمر إلى اتهامه بالكفر والزندقة.

* * *

ليس الأمر هو تفنيد أقوال الدكتور لويس عن الأفغانى، لأنها فى جملتها لاتستحق هذا العناء، بل لاتستحق ثمن المداد الذى كتبت به — إن الأمر أخطر من ذلك كثيراً؛ لأنه يتعلق بالمحاولات الدائمة لتجريح التاريخ الإسلامى والمصرى منه على وجه الخصوص — طبقاً لخطة محكمة وموضوعة تهدف إلى تشكيك الناس فى كل القيم؛ حتى يصبحوا فى شك دائم من أمر قادتهم وزعمائهم فتنهار نفوسهم، وتتمزق عقولهم، ويأكل الوهم الخلايا الحية فى أجسادهم.

ولا يكتفى أصحاب هذا المخطط بما وصلت إليه حالة العالم الإسلامى العربى من تمزق

وانهيار؛ فيمسكون بمعاولهم لهدم الشخصيات الناصعة فى هذا العالم الإسلامى العربى مستغلين ظروف الضعف والاستكانة والذل التى وصلت إليها هذه البلاد للإجهاز على البقية الباقية من تاريخ ناصع وقوى ومشرف.

وليس الدكتور لويس وحده هو الذى يتولى هذه المهمة، ولو أنه له دور قيادى فيها؛ فقد كتب أحد تلاميذه هذا الكلام عن الأفغانى منذ سنوات فى جريدة الجمهورية القاهرية وكتبت رداً عليه أسكته. ولكن أستاذه الدكتور لويس لم يسكت.

وما قولكم فى كاتب شهير جهير ومثقف عظيم مثل الدكتور لويس يزعم فيما كتب أن الجنرال يعقوب الذى انضم إلى حملة بونابرت على مصر، وجند حوالى ألف شاب من الأقباط، وألبسهم ملابس عساكر الفرنساوية، وحارب بهم أهله من الأقباط والمسلمين.. كان بطلاً قومياً مصرياً فى رأى الدكتور لويس.

وهذا الجنرال يعقوب تبرأ منه أعيان الأقباط وأعلنوا أنه ومن معه ليسوا منهم. وعندما هزمت الحملة الفرنسية وغادرت مصر، سافر معها يعقوب إلى فرنسا. ولكن الجنرال عبد الله جاك مينو لم يتركه يكمل رحلة الخيانة من الإسكندرية إلى طولون؟ حتى لايدنس أرض فرنسا وألقاه فى البحر الأبيض المتوسط حياً حتى يصبح طعاماً للأسماك.. هذا الجنرال يعقوب بطل قومى مصرى وجمال الدين الأفغانى جاسوس سكير خائن؟؟!! هكذا يكتب التاريخ على طريقة الدكتور لويس عوض.. فهل يجوز الرد على كلامه؟! لاأعتقد.

* * *

ولكن القضية كما قلت أكبر من الرد. لأنها قضية تجريح التاريخ. ولذلك فإن الدخول فى تفصيلات مايكتب الدكتور لويس عن هذه الموضوعات وغيرها يدخل فى هذا النطاق ــ ونحن لانحجر على حرية الدكتور لويس ككاتب، بل نرفض هذا الحجر رفضاً قاطعاً. ولكننا نجد أنفسنا أمام ظاهرة فكرية مريضة تحاول دائماً إحداث فرقعات مثل بمب الأطفال لتلفت الأنظار أو تزعج المارة فى طريق الحياة. وقد يمتد لهب هذا البمب فيحرق أطراف ثيابهم أو يعفر جبينهم بالتراب الذى ينبعث منه.

إن كل مايقال عن هذه الكتابات هو أنها فاسدة ومغشوشة، ويجب النظر على أنها فاسدة ومغشوشة، مثل الأطعمة المسمومة التى كثرت وراجت أخيراً ثم عرفها الناس بعد ذلك فابتعدوا عنها عندما تبينوا حقيقتها، وقد كانت هذه الأطعمة الفاسدة المسمومة المستوردة توضع فى أجمل غلاف شأنها شأن هذه الكتابات.

* * *

ثم نختم هذه القطوف بالمقال الأخير فى هذا الموضوع للأستاذ أحمد بهجت تحت عنوان :

كلمة أخيرة عن جمال الدين الأفغانى

لو كان الخديو توفيق حياً لقرعيناً بما يكتبه الأستاذ الدكتور لويس عوض من مقالات عن الأفغانى .. ولو كانت اللجنة المغرضة التى كتبت أسباب نفى الأفغانى من مصر قائمة وموجودة لقرت عيناً هى الأخرى بما يكتبه الدكتور لويس عوض عن الأفغانى ..

إنه يبرر لها قرار الطرد بعد مائة سنة من صدوره ــ لقد رفعت هذه اللجنة قراراً رسمياً لمجلس الوزراء المصرى حينئذ قالت فى مبررات طرد الأفغانى إنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش، مجتمعة على فساد الدين والدنيا.

وها هو الدكتور لويس عوض يحدثنا أن الأفغانى كان مجتمعاً على فساد الدين والدنيا، وكان عميلاً وجاسوساً وزنديقاً وكان .. وكان .. هل هى محاولة جديدة لطرد الأفغانى من قلوب الشباب اليوم كما فشلت محاولات طرده من قلوب معاصريه ..؟ هل هو خط واحد .. من خطوط مؤامرة هدفها تحطيم النماذج الثائرة فى تاريخنا حتى نتوجه إلى أثداء أوروبا لنرضع عسلاً أذيب فيه السم .. لست أعرف .. كل ماأعرفه أن محاولات نفى الأفغانى مازالت مستمرة، ولقد اكتشفوا أن أفكاره لم تزل حية، وبالتالى فإنهم مازالوا يحاولون نفيه .. ولم يكن النفى هو الشىء الوحيد الذى تعرض له الأفغانى ..

كان القبض عليه والسجن والتشريد ومصادرة الكتب أحداثاً يومية فى حياته .. سئل ذات يوم من سلطات الأمن ــ أين كتبك ؟.. أشار إلى قلبه وقال : إنها هنا .. سئل عن ملابسه وحقائبه فأشار إلى جبته التى يرتديها وقال : كنت أول عهدى بالنفى أستصحب جبة ثانية وسراويل، ولكن لما توالى النفى صرت أستثقل الجبة الثانية. فآثرت أن أترك هذه حتى تبلى فأغيرها ..

كان الأفغانى يرى أن السجن لمن يطلب الحق من الظالمين رياضة، والنفى فى سبيل الإسلام سياحة. أما القتل فى سبيل الله فهو شهادة وهذه أسمى مراتب الجهاد .. كان الأفغانى مجاهداً مسلماً .. كان روحاً إسلامية تجوب الأرض، وتوزع الثورة الواعية على الناس، كان يشبه أبطال الأساطير الحقيقية. لم يكن ــ لحسن الحظ ــ من أبطال الأساطير اليونانية الذين يسترضون «زيوس» ويشركون بديانا ؛ ولو فعل لاستحق رضاء الدكتور لويس عوض .

كان الأفغانى حنيفاً موحداً.. لايريد سوى وجه الله وحده.. من هذا كان ضرام الحملة ضده.. ومن هنا استمرت هذه الحملة حتى موته.. بل إن الأفغانى بسبب جهاده.. صار رمزاً للثائر المسلم. ومن هنا فإن كل السهام التى توجه للإسلام لابد أن تمر على صدره. وكل المؤامرات التى تستهدف تشويه الأبطال المسلمين لابد أن تعبر على جسده أولاً.. وهكذا لم يسلم الأفغانى طوال حياته من الكيد؛ يستوى فى ذلك كيد اللجان الرسمية أو كيد البصاصين أو كيد أذناب الاستعمار من الحكام أو كيد الكارهين لانتشار الإسلام، ثم هاهو كيد المثقفين أخيراً.

* * *

ماالذى فعله الأفغانى واستحق عليه هذا كله؟ لقد كرس الأفغانى حياته لإيقاظ الروح الكامنة فى الإنسان الشرقى. وكرس حياته لمحاربة اليأس والنفوذ الأجنبى. وكرس حياته لالتماس المنهج القرآنى فى بناء الأفراد والجماعات. وكان يرى أن هذا هو الحل الوحيد أمام المسلمين. كما استهدف الأفغانى فى حياته تنبيه الأمة الإسلامية إلى ذاتها الأصيلة التى أنشأت الحضارة. كما كان وجوده فى الحياة حرباً على الاستعمار والتبعية ومقاومة لذوبان الفكر الإسلامى فى الفكر العالمى.

باختصار كانت حياة الأفغانى مصداقاً للحديث النبوى الشريف «إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة لأمتى من يجدد لها أمر دينها» هذا هو عندنا وعند التاريخ.. لكنه عند الدكتور لويس عوض إيرانى غامض عميل وجاسوس وزنديق يجوب الآفاق..

إن الشيخ الإمام محمد عبده تلميذ الأفغانى يفسر لنا اختلاف الناس فيه بكلمة دقيقة تعبر بإيجاز عن حقيقة الأفغانى.

قال الشيخ محمد عبده ــ إن الناس قد اختلفوا فى الأفغانى؛ حتى لكأنه حقيقة كلية تجلت فى كل ذهن بما يلائمه، أو قوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله.

أشيع عنه فى حياته قوله: إن الشرق يحتاج إلى مستبد عادل.. وكان الذين أشاعوا هذه المقولة عن الأفغانى يحاولون تبرير الاستبداد بإضافة العدل إليه ونسبة العبارة كلها إلى السيد جمال الدين الأفغانى ــ سأل محمد باشا المخزومى السيد جمال الدين يوماً: إن المتداول بين الناس على لسانك قولك: يحتاج الشرق إلى مستبد عادل».. قال الأفغانى: هذا من قبيل جمع الأضداد. كيف يجتمع العدل والاستبداد ــ وهكذا نفى الأفغانى مانشره أعداؤه عنه زوراً.. ومثلما لم تسلم أفكاره لم يسلم شخصه.

كان من الصعب على العملاء والجواسيس والبصاصين الذين يقتفون أثره ويرصدون تحركاته أن يفسروا النبل والإيثار اللذين يصدران عنه بشكل طبيعى كما يصدر الدفء عن

الشمس.. ومن هنا كان تفسير كل شيء بعكس الواقع: إذا رفض الأفغانى الجاه فإنما يرفضه كخطة لاتعففا. وإذا عرض عليه الملك ورفضه فإنما يفعل ذلك لأنه يريد الخلافة. وإذا أفطر فى رمضان بعد المغرب قال البصاص الذى يتبعه كظله إنه رآه يفطر قبل المغرب.. وهكذا تمضى الحلقة.

ولقد كان الرجل يدرك أنه يحمل دعوة لها أعداء كثيرون.. وكان يعرف أن الابتلاء قدر مقدور على حملة الدعوات العظيمة.. ومن ثم مضى فى طريقه غير عابىء بما تثيره أفكاره أو تصرفاته ـــ كان وجه الله هو غايته.. ومن كانت هذه غايته لم يلتفت إلى حملة الأحجار والغوغاء والكائدين.

كانت مشكلة الأفغانى أنه منحاز إلى الإسلام والعروبة والعدالة الاجتماعية والشورى وحرية الإنسان وكرامة الخلائق.. كان الاستعمار قوة من قوى الظلام المؤثر فى عصر الأفغانى، ومن هنا تحدد موقف الأفغانى بالوقوف ضد الاستعمار.. حين دخل الهند وجد الاستعمار الإنجليزى يحتضن طائفة من المثقفين ـــ كعادته ـــ وكانت دعوى هؤلاء طرح الفكر الإسلامى والدعوة للثقافة المدنية.. وقف الأفغانى ضدهم وكتب لهم «رسالة الرد على الدهريين».

وحين جاء الأفغانى إلى مصر أقام فيها أباً روحياً وموقظاً لحركة البعث والإحياء والثورة.. كانت الثورة العرابية شرارة من شرارات فكره.. كانت ثورة ١٩١٩ نتيجة من نتائج أفكاره.. كان كل رجالات مصر من المثقفين والمتعلمين والصحفيين والدعاة فى عصره من أصدقائه وجلسائه وتلاميذه ـــ وحين خشى البعض فى مصر من غضب الخديو توفيق وآثر السلامة وتنكب طريق النضال قال الأفغانى كلمته عن توفيق: توفيق فى غضبه ورضاه تابع لما يلقى إليه.

وبهذه الجملة لخص الأفغانى حقيقة الموقف السياسى فى مصر، وكشف عن تبعيته للاستعمار الغربى.. ولقد كان هذا كله يبلغ توفيق بشكل أو بآخر؛ ومن هنا أصدرت اللجنة قرارها الشهير بزعامته لطائفة من الشبان هدفهم فساد الدين والدنيا.

وطرد الأفغانى من مصر.. وحين ذهب إلى إيران وأبصر المظالم التى يجترحها الشاه ناصر فى شعبه، قاد ضده حركة شجاعة، ووقف بالإسلام ضد احتكار الإنجليز أصدقاء الشاه «للدخان» وأوحى الأفغانى إلى الشيرازى وكان مفتياً أن يصدر فتوى يحرم فيها على المسلمين شرب «الدخان» ـــ وهكذا تراجعت شركة الدخان عن مشروعاتها الضارة بالبلاد، واضطر الشاه إلى تعويضها عن الامتياز.. وبعث الشاه بخمسمائه من فرسانه ليقتحموا فراش جمال الدين وهو مريض يشكو من الحمى؛ وقاده الفرسان وهو مريض إلى حدود إيران وأمروه أن يمضى ولا يلتفت أبداً لإيران.

ويذهب الأفغانى إلى تركيا فيخوض معركته الشهيرة ضد الجمود، ويستمر فى خوض معاركه ضد الاستعمار ــ ويذهب إلى باريس ويصدر هناك جريدة «العروة الوثقى» وهي جريدة تجاوزت أن تكون عملاً صحفياً تجارياً إلى صيرورتها مشروعاً دينياً سياسياً ثورياً.. وتقض الجريدة مضجع الاستعمار. ويصدر نوبار باشا رئيس نظارة النظار فى مصر قراراً بتغريم كل من يقرأ «العروة الوثقى» ٢٥ جنيهاً واعتبار قراءتها جنحة..

ولقد تغير فكر الأفغانى كما كشفت الدراسة المتأنية التى قام بها الدكتور محمد عماره خلال تحقيقه لأعمال الأفغانى. تغير فكره فى نهاية حياته عن فكره فى بدايتها.. كان التغيير نحو النضج والثورة والتقدم؛ لقد وقف الرجل مع العدالة الاجتماعية وقف مع التعليم الوطنى، وقف مع الجامعة الإسلامية. وقف مع الشورى. وقف ضد الاستبداد. تغيرت بعض مواقفه كموقفه من النشوء والارتقاء والقومية والاشتراكية.. فى بداية حياته كان ينظر إليها بارتياب، فلما تقدمت به السن وزادت خبرته أعاد النظر فى مواقفة السابقة وصححها بما تراءى له من قراءة وسياحة وحكمة..

كانت هناك متغيرات وثوابت فى حياته.. كان الأمر الثابت أنه يتحرك كفارس من فرسان الدعوة الإسلامية.. وثائر عظيم من ثوار الحياة.. إن هدفه هو العدل والرحمة والحق والخير والجمال.. لقد أيقظ الشرق من سباته.

ولقد لبس البحث الجرىء الذى كتبه الدكتور لويس عوض عن الأفغانى ثوب البحث، ولكنه لم يكن بحثاً.. إلا أن يكون بحثاً من قبيل أبحاث المباحث العثمانية أو الخديوية أو الإيرانية أو الإنجليزية. إن مصادر بحث الدكتور تكشف عن تهافتها، ومعظم ماينيه الدكتور حول الأفغانى رغم فخامته مزور ــ ولا أظن أن أحداً ممن اشتركوا فى الرد على الدكتور لويس كان يريد تفنيد أقواله عن الأفغانى، لأن أقواله فى جملتها لاتستحق هذا العناء..

إنما تصدينا بالرد حتى ننبه إلى محاولة تجريح التاريخ الإسلامى وتحطيم النماذج الرفيعة الثائرة فيه.. حتى إذا تلوث تاريخنا وصار أبطاله عملاء وثواره جواسيس ونماذجه الرفيعة أقزاماً ومسوخاً.. حتى إذا وقع هذا تحولنا إلى الغرب وطرحنا ماضينا، وقطعنا الصلة بجذورنا وتاريخنا.. وصرنا رجالاً جوفاً لاماضى لهم ولا وجدان ولا عقيدة.

عندئذ ترضى عنا مراجع أبحاث الدكتور لويس عوض ويرضى هو عنا.. لقد تصدى «الأهرام» بجملة من الأساتذة المتخصصين البارزين للرد تصحيحاً لهذه الفكرة، انبعاثاً من الأمانة الدينية والموضوعية العلمية.

إن طبق الطعام الذى قدمه الطاهى الشهير لويس عوض عن الأفغانى كان طبقا من الطعام الفاسد المغشوش . إن الطبخة كلها بغير ملح .. بغير صدق ..

* * *

الفصل الثالث

إلى هذا الحد يزيف التاريخ

جاءنى صديق منذ نحو عام بنسخة من كتاب يسمى «الإخوان المسلمون والتنظيم السرى» للدكتور عبد العظيم رمضان. وطلب إلىّ الصديق أن أطالع هذا الكتاب وأتناوله بالرد.

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى أناقش فيها آراء لهذا الكاتب، فقد ناقشت له فى الجزء الأول من هذه المذكرات رأياً كان قد نشره فى جريدة الأهرام فيما يتصل بترشيح الأستاذ البنا لمجلس النواب فى عهد وزارة النحاس باشا عام ١٩٤٢.. ويؤخذ على هذا الكاتب أنه يصر فى كتاباته على أنه مؤرخ ثم يتناسى ذلك ويخلط بين صفة المؤرخ وصفة الكاتب المتحيز، صاحب الفكرة المعينة، يتصيد لها القرائن والمبررات لدعمها، ثم يقدمها للناس على أنها تاريخ.. وهذا الوصف الغالب عليه ينزلق به فى كثير من الأحيان إلى الخلط وإلى تأويل النصوص وبترها وإلى تجاهل الأحداث وتسلسلها، بل يصل فى بعض الأحيان إلى قلب الحقائق.

وقد طالعت الكتاب، ولا أرانى فى حاجة إلى تناوله بالرد؛ لأن الرجل فعلاً — كما نصحه الأخ الأستاذ صلاح شادى وعملاً بالتوجيه القرآنى الحكيم ﴿**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون**﴾ — كان عليه قبل أن يبدأ الكتابة عن الإخوان المسلمين أن يطلع على ماكتبه الذين عاشوا أحداث الإخوان المسلمين من داخلها، ومارسوها وكانوا من صانعيها ومن حصادها.. لاأن يأخذ معلوماته عنهم من تصورات له وتخيلات أو من كتابات لذوى قلوب مريضة يرون فى الإخوان المسلمين السد المنيع دون نجاح مخططات غربية وضعوا أقلامهم فى خدمتها.

ثم إن الرجل بتجرئه على ارتياد طريق يجهله دون دليل من أهله؛ أخذ يخلط ويخبط خبط عشواء؛ حتى إنه أخذ من أقوال لمجلة الدعوة — بعد فصل صاحبها من الإخوان — ماعتبره حجة على قيادة الإخوان كأنما قد صدرت هذه الأقوال عن هذه القيادة.

هذا كله إذا أحسنا الظن بالرجل؛ وإلا فإن فى كتاباته مايشعر القارىء الخبير بأن

وراء هذه الكتابات إغراضاً يلح عليه إلحاحاً بإبراز الإخوان المسلمين فى صورة معينة، مهما كانت هذه الصورة مخالفة للواقع.

وسنكتفى بمناقشة قسمتين من قسمات الصورة المشوهة التى أراد هذا الكاتب أن يضع الإخوان المسلمين فى إطارها؛ تاركين للسادة القراء الحكم من خلال هذه المناقشة على قيمة المعلومات التى أوردها الكاتب فى كتابه، وعلى النتائج التى توصل إليها من خلال هذه المعلومات:

القسمة الأولى

أورد الأستاذ المؤرخ فى صفحة ١١٥ من كتابه مايلى:
«وبالنسبة للمفاوضات بين الإنجليز والإخوان، فكما هى العادة فى كل مفاوضات لاتستند إلى جبهة داخلية قوية، فإن الصراع المكتوم بين الثورة والإخوان كان له تأثيره فى موقف الاعتدال الذى وقفته الجماعة أثناء المفاوضات خوفاً من الحرب فى جبهتين: جبهة الثورة وجبهة الإنجليز. **فقد وافقت الجماعة على ماقبله عبد الناصر فى اتفاقية الجلاء بعد ذلك بعام**؛ وهو بقاء خبراء إنجليز فى قاعدة قناة السويس، وحق عودة القوات البريطانية إلى القناة، واستخدام القاعدة فى حالة وقوع هجوم مسلح من دولة من الخارج على أى بلد يكون طرفاً فى معاهدة الدفاع المشترك بين دول الجامعة العربية أو على تركيا. والتشاور على العودة فى حالة خطر الحرب (١٨٤).

* * *

وتعليقاً على هذا النبأ الذى أورده من يقرر فى مقدمة كتابه أنه مؤرخ يبحث بجد عن الوثائق ليستقى منها أنباءه التاريخية أقول:

١ ــ لما كان هذا النبأ مغايراً بل مناقضاً للواقع التاريخى الثابت الذى نعرفه والذى كنا حضوره ومشاركين فى صناعته؛ قلت: لعل هناك مصدراً آخر لانعرفه يكون أوثق من صانعى النبأ أنفسهم؛ ونظرت فوجدت المؤلف قد ذيل هذه العبارة التى تضمنت النبأ بهذا الرقم (١٨٤)؛ فنظرت فى هامش الصفحة وبحثت عن هذا الرقم فوجدت المصدر هو (عبد العظيم رمضان: المرجع المذكور ص ١٣٠ ــ ١٣٦).. فعجبت للمؤلف يورد النبأ المناقض للتاريخ ويجعل الوثيقة التى استقاه منها هى المؤلف نفسه.

٢ ــ ونعتقد أن السيد «المؤرخ» قد استقى نبأه هذا من قرار جمال عبد الناصر الذى

أصدره فى ١٢ يناير ١٩٥٤ بحل الإخوان المسلمين، واتهم الإخوان فيه بالاتصال بالإنجليز من وراء ظهره؛ وقد تبين للناس جميعاً بعد صدور هذا القرار أن عبد الناصر كان كاذباً فيما جاء فى القرار من اتهامات، بعد أن تحداه المرشد العام فى ذلك وهو فى السجن على صفحات جريدة «المصرى» — أوسع الجرائد المصرية اليومية انتشاراً فى ذلك الوقت — ودعاه إلى المباهلة حتى تنزل لعنة الله على الكاذبين.. فتراجع عبد الناصر فى الحال.. ورداً لاعتبار الإخوان أفرج عنهم وقام بزيارة المرشد العام فى منزله ونشر ذلك فى الصحف.

ولجوء هذا « المؤرخ » إلى أمثال هذه المصادر المشبوهة والمدموغة بالكذب أمر قد ارتضاه لنفسه من قبل؛ فلقد ناقشنا له فى الجزء الأول من هذه المذكرات أنباء عن الإخوان المسلمين استقاها من البوليس السياسى ولم يخجل من نشرها فى جريدة الأهرام منسوبة إلى هذا المصدر وإلى تقارير المستعمرين.

فجل هم هذا «المؤرخ» هو أن يتسقط الأنباء من أى مصدر من المصادر — دون مبالاة بصدقها أو كذبها — مادام يجد فى هذه الأنباء مايبرر به محاولاته المستميتة فى التهجم على الإخوان والنيل منهم والانتقاص من مكانتهم وتشويه سمعتهم؛ معتمداً فى ذلك على خلو أذهان الأجيال الناشئة وما شاع فى هذه الأيام من الأمية السياسية بين المواطنين نتيجة ربع قرن عاشوه تحت نير حكم يتسم بالقهر والاستبداد وحجب الحقائق.

وهذا الأسلوب من أساليب التأريخ قد أشرنا إليه فى الجزء الأول من هذه المذكرات فى الفصل الثالث من الباب الرابع عند حديثنا عن خطط التآمر العالمى للقضاء على الدعوة.. ومن شاء فليرجع إليه.

القسمة الثانية

ويواصل الأستاذ المؤرخ تأريخه فيقول فى صفحة ١١٦:

«وقد أدرك الإنجليز من خلال هذه المفاوضات أن الإخوان ليسوا بالتطرف الذى كانوا يخشون، فقد قبلوا التفاوض معهم — كما قبلوا الأسس السالفة الذكر للاتفاق. وأثبتوا بذلك أنهم أكثر اعتدالاً من الوفد الذى ألغى معاهدة ١٩٣٦ ونص فى برنامجه عقب قيام الثورة على نبذ المفاوضة نبذ النواة، ونبذ الدفاع المشترك ومشروع قيادة الشرق الأوسط (١٨٥).

وكان الإخوان يسعون فى الحقيقة إلى ترك هذا الانطباع لدى الإنجليز. فقد ذكرنا أن موقف قيادتهم أثناء معركة القناة سنة ١٩٥١ — ١٩٥٢ كان موقفاً متخاذلاً. قد

تبرأت تماماً من كل شبهة تتعلق بالاشتراك فى العمل الوطنى، وتبرأت من دعوة شباب الإخوان إلى مقاطعة الإنجليز، وتبرأت من استخدام القوة أونية استخدامها، وتبرأت من مجلة «الدعوة» حين هاجمت تعيين حافظ عفيفى لضرب الحركة الوطنية. وفى الفترة التى أباح فيها بعض علماء الدين مثل الشيخ أبو العيون سكرتير عام الأزهر والشيخ على الخفيف دماء الإنجليز علناً فى الصحف — كانت قيادة الإخوان المسلمين ترفض علناً العنف كوسيلة لإخراج الإنجليز — وقد كان قبول الإخوان المسلمين لأسس الاتفاق السالفة الذكر مقصوداً به إقناع الإنجليز بمزايا الإخوان. وقد عبر الهضيبى عن ذلك فى صراحة تامة قائلاً: «أنا على ثقة من أن الغرب سيقتنع بمزايا الإخوان المسلمين، وسيكف عن اعتبارهم شبحاً مفزعاً كما حاول البعض أن يصورهم».

* * *

ويكفى للرد على ادعاءات السيد المؤرخ أن نسأله سؤالاً واحداً فنقول:
جاء فى سياق حديثك فى هذه الفقرة ذكر ثلاث هيئات هى التى كانت فى الساحة فى ذلك الوقت: الإخوان المسلمون وحزب الوفد وعلماء الدين.. فما هى التضحيات التى قدمتها كل هيئة من هذه الهيئات فى مقاومة الإنجليز فى الفترة من ١٩٥١ — ١٩٥٢؟

وإذا كان السيد المؤرخ لايسعفه أسلوبه الذى ارتضاه لنفسه ولا يرتضيه التاريخ أن يجيب على هذا السؤال، فإننا نتطوع بالإجابة عليه.. ونحيله فى ذلك إلى الصحف اليومية وإلى جريدة «المصرى» بالذات صحيفة حزب الوفد الذى كان الحزب الحاكم فى ذلك الوقت؛ فسيجد أن الجهة الوحيدة التى قدمت ضحايا هى هيئة الإخوان المسلمين؛ فقد شيع الإخوان المسلمون فى خلال الخمسة عشر يوما الأولى من شهر يناير ١٩٥٢ ثلاثة شهداء من طلبة الجامعات هم عادل محمد غانم الطالب بكلية طب عين شمس وعمر شاهين الطالب بآداب القاهرة، وأحمد المنيسى الطالب بطب القاهرة — وكان تشييع جنازة الشهيدين الآخيرين فى مدينة الزقازيق.. وقد وصفت جريدة المصرى روعة الجنازة واشتراك جميع الطوائف فيها، ونشرت فى صدر صفحتها الأولى صورة للمشيعين يتقدمهم المرشد العام للإخوان المسلمين.

ثم نحيل السيد المؤرخ أيضاً إلى كتاب صديقه الأستاذ صلاح شادى «صفحات من التاريخ» الجزء الأول فى صفحات من ١٥٠ إلى ١٥٩ ليقرأ قصة جهاد الإخوان المسلمين فى خلال هذه الفترة التى حلا «للمؤرخ» أن يرمى الإخوان فيها بالتخاذل، وليقرأ عن قصة اللغم الذى أعده الأستاذ صلاح شادى لسد القنال به بناءً على أمر المرشد العام..

ونقتطف نحن فقرات من هذه الصفحات لا لإقناع السيد المؤرخ وإنما لتطمئن بها

قلوب القراء الذين لم يجحدوا هذه الجهود.. يقول الأخ الكريم الأستاذ صلاح شادى:

جرت أحداث هذا اللغم البحرى الذى حاول الإخوان المسلمون تفجيره مرتين فى قناة السويس ضمن سلسلة النشاط الفدائى الذى قامت به الجماعة ضد الإنجليز فى أثناء تولى فؤاد سراج الدين شئون وزارة الداخلية فى وزارة الوفد بعد إعلانه إلغاء معاهدة ١٩٣٦ فى أكتوبر عام ١٩٥١ .

وكان الجو الذى تعيشه مصر آنذاك مشحوناً بكراهية الإنجليز وخاصة إعلان حظر تشغيل العمال المصريين بالقاعدة البريطانية ومنع تموينها من داخل مصر. وبدأ الشباب يدرك واجبه فى العمل الفدائى لإخراج الإنجليز بإقناعهم بأن حجتهم فى البقاء فى مصر للمحافظة على قناة السويس حجة داحضة؛ لأنهم لايستطيعون حماية أنفسهم فيها إزاء سخط الشعب فكيف يحمون القناة؟ ولذلك كان مسرح الأعمال الفدائية الإنجليز أنفسهم ومؤسساتهم فى قناة السويس.

وسرت الحماسة فى الأجهزة الحاكمة التى دعت إلى ائتلاف قومى يضم أصحاب الرأى فى مصر لتنسيق النشاط الفدائى. وكان عبء العمل الحقيقى الفعال يقع على كاهل الإخوان المسلمين؛ فقد قامت المعسكرات فى الجماعة لتدريب الشبان على استعمال السلاح والمواد المتفجرة والقنابل الحارقة والألغام؛ بمباشرة الأخ محمد عاكف فى جامعة القاهرة وغيره من الإخوان فى الجامعات الأخرى، وأعطتهم الجامعات مايؤهلهم لهذا الدور.. وقام الضابط مجدى حسنين الذى بايع الإخوان من قبل بتدريب الإخوان على استعمال الأسلحة وقذف (قنبلة الأنرجا).. وسقط كثير من الشهداء وكان لكل منهم قصص بطولة تذكرنا بالسلف الصالح.

وفى هذا الجو المشحون بالرغبة فى التحرك ضد المحتلين بالصورة المتاحة، فكر الإخوان المسلمون فى صنع لغم بحرى لنسف إحدى المراكب الإنجليزية المحملة بالبترول فى داخل القناة.

وفكرت فى الأمر ملياً بعد تكليفى من الأستاذ حسن الهضيبى مرشد الإخوان المسلمين بصنع هذا اللغم وتفجيره، ووجدت أن الاستعداد لصنع هذا اللغم لايتوافر فى إمكاناته العلمية فضلاً عن التصنيع إلا بمعاونة قسم الأبحاث فى الجيش الذى كان يعمل فيه الضابط صلاح هدايت.

وذهبت إلى جمال عبد الناصر وعرضت عليه الفكرة، وقام من فوره معى وذهبنا إلى صلاح هدايت وتحدثنا فى الأمر، فكان رده مشجعاً لنا فى المضى لإكمال هذا التخطيط، ووعد بصنع لغم على شكل كرة كبيرة مجوفة على نصفين قطرها ، نحواً من متر ، من

معدن خفيف يسمح لها بالطفو داخل المياه وبداخلها مادة T. N. T المتفجرة بكمية مناسبة، ويعلق بها ثقل محسوب الوزن لتبقى على ارتفاع معقول أسفل سطح الماء بحيث تلاصق أسفل المركب المقصودة ويجرى تفجيره فى الوقت المناسب لمرور مركب «الأسترنة» حاملة الغاز المراد تفجيرها.

وبعد إتمام صنعه كان لابد من نقل هذا اللغم بأجزائه كلها إلى منطقة القنطرة شرق، ورؤى تجزئته فوضع الثقل الحديد الذى لايؤدى كشفه إلى مخاطر، فوضع فى صناديق أوصلها السيد/ مجدى حسنين إلىّ بمحطة القاهرة لشحنها بالسكة الحديد إلى القنطرة شرق، حيث استقبلنى فى محطة القاهرة السيد/ وجيه أباظه ليعرفنى بمأمور جمرك السبتية الذى سيصحبنى فى القطار إلى القنطرة شرق ليسهل لى استلام صناديق الشحنة باعتبار أنها متفجرات.

والذى علمته من وجيه أباظه أن فؤاد سراج الدين سيسهل نقل اللغم — وكان وقتئذٍ وزيراً للداخلية — وأنه وعد بتسهيل الشحن، وبإيفاد مندوب الجمرك معى لهذا الخصوص. وطبعاً لم يعلم أحد وربما وجيه أباظه نفسه أن الموجود فى الصناديق لايعدو أن يكون «ثقل حديد». ولكن مع ذلك أردت أن أختبر مدى الأمن فى الشحن بالسكة الحديد إذا دعت الضرورة إليه بعد ذلك، **مع عدم التعرض لمخاطر افتضاح الأمر فى أول تجربة لنا مع الحكومة الوفدية التى أثبتت الأحداث بعد ذلك صدقها فى المضى مع الشعب فى جهاده.**

وهنا يتوقف صاحب المذكرات لحظة عن نقل ماينقله من فقرات من كتاب الأخ الأستاذ صلاح شادى ليلفت نظر السيد المؤرخ إلى أمانة التاريخ وأدب التعامل مع أحداثه وهيئاته ورجاله؛ فالوفد الذى كان بيننا وبينه من التنافس ماأدى إلى احتكاك شديد لم يمنعنا ذلك أن نسجل له الثناء فى موقف يستحق الثناء..

ثم نرجع إلى ماننقله من كتاب الأخ الأستاذ صلاح شادى حيث يقول:

أما بقية أجزاء اللغم بما يحمله من متفجرات فقد نقلت بالطائرة إلى العريش ومنها بالسيارة إلى القنطرة شرق حيث قدم بها السيد/ صلاح هدايت، وأودعناها بمنزل الأخ عبد الفتاح غنيم مأمور القنطرة شرق — الذى احتمل كثيراً من المخاطر بسبب النشاط الفدائى فى منطقته — لحين ربط أجزاء اللغم وتجهيزه للعمل من داخل هذا المكان.

ثم أخذ الأخ الأستاذ صلاح شادى يصف كيف سهر هو وعدد من الرجال الكرام على تركيب أجزاء اللغم ثم نقله إلى الضفة الشرقية للقناة، ثم تحرى التوقيت المطلوب، ثم وصولهم إلى مكان يبعد نحو ثلاثة كيلو مترات عن كوبرى الفردان الذى تقوم عليه نقطة حراسة إنجليزية. ثم استعانوا بالضابط حسن التهامى لتفادى قوة خفر السواحل ثم يقول:

«واخترنا الليلة والمكان والساعة. ووضعنا اللغم فى سيارة جيب، واتجهنا بالسيارة إلى المكان المقصود تحرسنا سيارة من سيارات الجيش بقيادة الرائد حلمى السوده الضابط بالمعسكر المصرى فى الضفة الشرقية ومعنا الضابط حسن التهامى والإخوة رشاد المنيسى وإبراهيم بركات ويوسف عبد المعطى وصلاح عبد المتعال وآخرون نهضوا معنا بمسئولية تنفيذ هذه العملية.

وكان وقت التنفيذ بعد منتصف الليل، وحملت السيارة الجيب اللغم يستره غطاء السيارة. ومضت القافلة برجالها إلى المكان المتفق عليه يحرسنا السيد/ حسن التهامى ويساند ظهرنا من أى عدوان يقع علينا.

وكان المتفق عليه قيامى بتفجير اللغم من مكان على الشاطىء الشرقى يشبه الكهف الصغير، ويبعد عن مكان الانفجار نحواً من مائتى ياردة.

ولكن..

قبل وصول السيارة إلى المكان المعد للتنفيذ ساخت فى رمال الضفة الشرقية، وتوقف الموتور، ولم نتمكن من تحريكها.. وغير بعيد منا تقع نقطة الحراسة الإنجليزية!!

وتركنا السيارة، وحملنا اللغم من «الشفة» التى تربط النصف العلوى منه بالنصف السفلى ومضينا إلى مكان الالتقاء ننتظر القارب القادم (بالثقل الحديد) من الضفة الغربية.

ومضت نصف ساعة متثاقلة الدقائق والثوانى. وبدأنا نسمع أصواتاً تتصاعد من بعيد من الجهة التى ننتظر قدوم القارب منها. وكأن شجاراً نشب بين أشخاص على الضفة الغربية. ولم نتبين تفاصيل الحديث. فأرسلنا من يتحرى الأمر فوجد أن القارب فى مكانه من الضفة الغربية لم يتحرك، وعلى الشاطىء جنود من حرس الحدود فأدركنا أنهم منعوا القارب من التحرك مخافة استعماله فى تهريب مخدرات أو نحوها.. وكنا حريصين فى الخطة على إخلاء الشاطىء من أى دوريات حتى لانواجه بهذه المفاجآت، وعلمت من حسن التهامى الذى كان مكلفاً بهذا الدور أنه أبلغ القائد العسكرى لهذه المنطقة بإخلائها من الدوريات، ولكن يبدو أن قائد المنطقة تخوف من احتمال الإيذاء الذى يلحق به من الإنجليز إذا تم التفجير فأخرج الدورية فى نفس المنطقة التى رغبنا فى إخلائها وأوقفت القارب عن العبور إلى الضفة الشرقية لوضع الكرة التى تحمل المادة المتفجرة T. N. T وربطها (بالثقل) الذى بداخل القارب ثم إنزال الثقل بعد ذلك فى جوف المياه مثبتاً به الكرة المتصلة بسلك ممتد إلى مائتى ياردة فى العمق حتى أول الشاطىء إلى حيث مكان الكهف الذى يعتبر ساتراً لمن يقوم بمهمة التفجير.

وأسقط فى أيدينا.. إذ لاشك أن تفجير اللغم لو حدث على سطح الماء فلن ينتج شيئاً له أثره، وفى نفس الوقت يجعله ظاهراً للعيان ولا يمكن تثبيته فى الماء، لأنه سيسبح مع

التيار ونعجز بالتالى عن ملاحقته.. وشهدت الألم والقنوط على وجه حسن التهامى، بل عجز عن حبس دموعه.. وجدت أن هذا الأمر يستقيم ومشاعرنا جميعاً فلم يشغل بالى.. ولكنه أصر على تنفيذ العملية برغم ذلك.. وأصر على تفجير اللغم فى السفينة القادمة أى سفينة.. ورفضت بصورة قاطعة، فلم يكن هدفى إحداث أصوات تفجير فى الهواء لاوزن لها..

ولما يئس حسن التهامى أخبرنا أن جريدة «المصرى» قد جهزت مانشيت بالخط العريض تحكى تفاصيل هذه العملية وأنها كانت تنتظر منه الإشارة بالتنفيذ لطبع المانشيت.. فما هو الموقف الآن؟!

فقلت: لاشىء. لايكتب شىء عن هذا الحادث على الإطلاق، ولا علم لى بذلك أصلاً: وإذا كان عبد الناصر قد رتب الإعلان عن هذا الحادث فى جريدة المصرى بدون أن يخبرنى فعليه وحده علاج هذا الأمر مع الجريدة.

ونكتفى بهذا القدر من قصة اللغم، وقد أوردناها بالذات لأن شهودها لازال عدد منهم على قيد الحياة ونهديها إلى أولئك المؤرخين العظام الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون.

* * *

هذا.. وإذا كان المرشد العام حين يسأله مندوبو الصحف فلا يرى أن الإخوان ــ مع كل هذا ــ قدموا شيئاً للقضية؛ فإنما هو التواضع الذى يلتزم به القائد المسلم ــ أما الجعجعة وإصدار الفتاوى والتصريحات وإطلاق الشعارات والتهديدات فهذه ليست بضاعه الإخوان المسلمين، وقد تركوها لغيرهم يتاجرون فيها.. والقائد فى حرب مع الأعداء عليه أن لايكشف خططه مهما أحرجه السائلون بأسئلتهم والحرب خدعة.

وإذا كان الكاتب قد اعتمد طريقة الوقوف عند «ويل للمصلين» فاقتطع من كلام المرشد العام فقرات تناسب هذه الطريقة، فقد نقلنا لقرائنا فى هذه المذكرات نص الحديث الذى دار بين المرشد العام وبين وكالة يونيتدبرس كاملاً دون بتر ولا تقطيع أوصال حتى يتبينوا الحق من الباطل.

ولا أعتقد أن «مؤرخاً» كهذا المؤرخ ــ هذا مدى تجنيه على التاريخ، وجرأته فى قلب الحقائق، واستخفافه بعقول مواطنيه يستحق فى نقده أكثر من هذه السطور.

* * *

الباب العشرون

أضواء على هذه الحقبة من الزمن

الفصل الأول : وشهد شاهد من أهلها ـ تصديق على ملاحظاتنا

الفصل الثاني : شاهد على العهد

الفصل الأول

وشهد شاهد من أهلها
تصديق على ملاحظاتنا

فى البابين الثانى والخامس من هذا الجزء فى الحديث مما يتصل بمشروع الإصلاح الزراعى وجمعية الفلاح، وفى الباب الحادى عشر فيما يتصل بمشروع اتفاقية الجلاء؛ داخلنى شعور ببعض شكوك حول اهتمامات أمريكية ملفتة للنظر وجدت صداها بارزاً فى تصرفات الحكومة المصرية .. ولم أكتم فى نفسى هذا الشعور بل صارحت القارىء به؛ غير أنى فى نفس الوقت لم أجرؤ أن أنقل هذا الشعور من دائرة الشكوك إلى دائرة الحقائق.

ولكننى بعد أن أنهيت مسودة هذا الجزء، وقع لى كتاب أعارنيه صديق، فلما قرأت هذا الكتاب وجدت من الأمانة العلمية أن أعود على هذا الشعور الذى بثثته القراء بمزيد من البسط وبشىء من المناقشة على ضوء ماتضمنه هذا الكتاب من معلومات؛ تاركاً للقراء بعد هذا البسط وهذه المناقشة أن يعيدوا تقييم هذا الشعور فيبقوا عليه فى دائرة الشكوك أو ينقلوه إلى دائرة الحقائق.

والكتاب الذى وقع لى هو كتاب وضعه الدكتور محمد صادق دراسة وتحليلا حول كتاب «لعبة الشعوب» وقد أحسست وأنا أقرأ هذا الكتاب بأن الدكتور محمد صادق قد بذل مجهوداً مضنياً فى تقصى نصوص كتاب «لعبة الشعوب» ودراستها وتحليلها دراسة العالم الخبير، كما أنه كان من دقة الأمانة العلمية إلى حد أنه فى نقله نصوص الكتاب من طبعته الإنجليزية كان حريصاً على إلحاق كل نص برقم الصفحة ورقم السطر. ولكننا فيما ننقل عنه للقارىء من هذه النصوص فسنكتفى بذكر الصفحة دون رقم السطر.

ومع ذلك فلن نلجأ إلى تحليلات الدكتور محمد صادق إلا فى القليل وسيكون همنا منصباً على نقل نصوص كتاب «لعبة الشعوب» نفسه ووضعها للقراء تحت عناوين، ذلك أن مؤلف هذا الكتاب «مايلز كوبلاند» أحد الذين قاموا بدور هام فى تأسيس المخابرات الأمريكية وفى نشاطها السرى بمنطقة الشرق الأوسط منذ عام ١٩٤٧، وكان يعمل

بالمخابرات المركزية الأمريكية فى مصر فى بداية عهد عبد الناصر ـــ يذكر ذلك عن نفسه ويقول إنه قام بدور هام فى العلاقة بين المخابرات المركزية وحكام مصر العسكريين. ويروى فى هذا الكتاب ذكرياته عن الفترة من عام ١٩٤٧ إلى عام ١٩٦٧ ويضيف إليها آراءه وتعليقاته ـــ وإن كانت وجهة نظره فى هذه التعليقات تصور التدخل الأمريكى على أنه حتمية تاريخية، وتصور نظم الحكم «الناصرية» على أنها ثمرة هذا التدخل، وأنها فى نظره أحسن نظم الحكم التى تحقق أهداف السياسة الأمريكية، وتلائم المصالح الغربية فى الدول الناشئة فى آسيا وأفريقيا.

وهذا التصوير الذى يصوره للتدخل الأمريكى فى بلادنا هو من حقه باعتباره أمريكياً مسئولاً عن تقديم أعظم خدمات لبلاده، وعن تهيئة الظروف حيث كان لإنجاز مصالحها.. ولا يعنيه بطبيعة الحال إن كانت تهيئة الظروف هذه هى فى مصلحة البلاد التى تهيأ فيها هذه الظروف أم هى فى غير مصلحتها لأنه يعمل فى هذه البلاد لحساب بلاده وحلفائها الغربيين.

وهو يقرر أن سياسة الولايات المتحدة ذات وجهين؛ وجه تمارسه الحكومة الأمريكية ووزارة الخارجية، وهذا الوجه يتقيد بالمبادىء الدبلوماسية والأخلاقية. والوجه الآخر فيما يراه «كوبلاند» ويسميه «السياسة الخلفية» يرى أن السياسة الأمريكية يجب أن يكون هدفها الأول مصالح أمريكا ذاتها، وأنها يجب أن تعمل لحماية مصالحها «الجوهرية» بجميع الوسائل والأساليب؛ حتى ولو لم تكن متفقة مع القواعد الخلقية ولا مع المبادىء الديمقراطية.. وهذا هو الاتجاه «الميكيافيلى» ويمارس هذا الوجه «إدارة المخابرات المركزية».

وبعد أن يذكر «كوبلاند» فى كتابه مبررات هذه الاستراتيجية «ذات الوجهين» ويبين الأسباب التى دعت الولايات المتحدة إلى السير فيها بالنسبة لشعوب الشرق الأوسط خاصة، وشعوب العالم الثالث عامة؛ ولا يخفى شعوره بما فى هذه السياسة المزدوجة من نفاق وخداع يتعارض مع المبادىء الأخلاقية والمثل الأمريكية.. بعد ذلك أخذ يبرىء نفسه من الدفاع عنها، وإن كان يقررها كحقيقة واقعة بقوله فى صفحة ٢١:

«من الطبيعى أننى لا أدافع عن هذه الازدواجية، إننى لا أشعر بميل إليها ولا نفور منها؛ إنما أكتفى بالقول إن هذا هو الواقع، وإن عملنا (سواء فى «مركز اللعب» أو فى عالم الواقع الذى تقوم به دبلوماسيتنا وقواتنا المسلحة) أساسه وجود هذه «السياسة المزدوجة».»

ويلاحظ أن «كوبلاند» مؤلف هذا الكتاب عاش فى المنطقة منذ عام ١٩٤٧ وشارك بصفته أحد رجال المخابرات الأمريكية فى «بعض» العمليات التى نفذتها فى سوريا

وفى مصر بصفة خاصة، وقد رأى بعد كارثة عام ١٩٦٧ أن ينشر فى كتابه «بعض» معلوماته عن تلك العمليات التى شارك فيها.

وهو يصرح بأنه كان من خلصاء جمال عبد الناصر فيقول فى صفحة ٧٧:
«من الراجح أننى رأيت عبد الناصر أكثر من أى «غربى» آخر حتى هذه اللحظة. ولو أنه لم يعد من الممكن لى أن أفاجئه بدون رسميات وأن أجلس للغداء معه؛ فإننى أحرص على أن تكون لى معه جلسة وحديث كل شهر أو شهرين على الأكثر، وذلك فى ظروف يرتفع فيها التكليف، وينطلق هو فيها على سجيته وفطرته إلى أقصى حد ممكن — لقد كنت أذهب لهذه الأحاديث فى بعض الأحيان لمجرد المودة الشخصية كصديق. ولكن فى بعض الأحيان كنت أكلف بمهمة يكلفنى بها أحد شركائى. وكان يسبق الزيارة فى بعض الأحيان درس كامل يعطيه لى أحد «الأطباء» أو «المحللين النفسيين» أو مسئول عادى فى المخابرات؛ ويمكننى هذا الدرس من كشف الأعراض التى قد تدل على انهيار صحى أو فى القوى العقلية»

كما أن «كوبلاند» يقرر بأنه صديق لعبد الناصر وأنه يحبه شخصياً، يقرر ذلك فى صفحة ٢٣٩ ويذكر لنا صفاته الشخصية وأهمها فى نظره أنه «شجاع ولا مبدأ له».

ورغم أن كتابه قد أحدث ضجة كبرى فى الأوساط العربية التى اطلعت عليه، إلا أنه مع ذلك لم يفض بكل ماعنده فقد قال فى صفحة ١٤ من كتابه:
«عندما قررت ماذا أكتب وماذا أحتفظ به، فإننى قد راعيت أن الهدف من كتابى هو.. ثم يقول «لقد حذفت المعلومات التى تمنع نشرها قواعد الأمن الحكومى سواء بالنسبة للحكومة الأمريكية والبريطانية» ويذكر فى صفحة ٢٣٨ أنه هرب من مصر فى أواخر مايوم ١٩٦٧ قبل الهجوم الإسرائيلى على مصر بأيام معدودة.. ولعل لهذا التوقيت مغزى لدى بعض القراء.

لماذا قرر «كوبلاند» نشر كثير من الوقائع السرية؟

أما لماذا قرر «كوبلاند» نشر كثير من الوقائع السرية الخاصة بالمخابرات المركزية والعلاقات الديبلوماسية الأمريكية رغم أنه من المفروض أنه مازالت له صلات بأوساط المخابرات، فتجيب عليه جريدتا الكريستيان سيتس مونيتور ولوس أنجلوس تيمز فيقولان: إن كوبلاند يقول إن الصحفى الجاسوس الإنجليزى «كيم فلبى» كان يعلم أغلب هذه التفصيلات السرية، وإن الروس الآن أصبحوا يعرفونها (بعد أن هرب فلبى إلى روسيا).

ولكن يوجد سبب آخر ظهر فيما بعد؛ ذلك أن اثنين من المؤلفين كانا يعدان كتباً

تثبت أن عبد الناصر كان عميلاً فعلياً للمخابرات المركزية الأمريكية أثناء صعوده سلم السلطة؛ وأن المخابرات المركزية وجدت أن نشر وجهة النظر هذه سيضر بالمصالح الأمريكية. لذلك قررت أن تكشف بعض ملفاتها السرية على أمل أن تظهر عبد الناصر على أنه وطنى مستقل حاول أن يستغل الولايات المتحدة من أجل تحقيق مصالح مصر الوطنية.

«لعبة الشعوب» أو «مركز اللعب»:

يقول «كوبلاند» فى صفحة ٢٣ من كتابه إنه كان يلعب دور عبد الناصر فى «مركز اللعب» ابتداءً من صيف عام ١٩٥٥ إلى ربيع عام ١٩٥٧. ويصف هذا المركز بأنه فى الطابق الثانى عشر من إحدى ناطحات السحاب بواشنطن، وأن اجتماعاته تبدأ من الخامسة بعد الظهر حتى الثانية عشرة ليلاً، وأن هدفه هو إعداد التنبؤات بردود الفعل أو المواقف التى قد تتخذها بعض الشخصيات السياسية الأجنبية فى ظروف معينة تقترحها إدارة المخابرات حتى تعرف مقدماً ماذا ستفعله هذه الشخصيات عندما تتوفر تلك الظروف لها فى الواقع العملى مستقبلاً».

ويشرح الدكتور محمد صادق دور هذا المركز فيقول: إن هذا المركز الذى صنعته المخابرات الأمريكية يقوم بدور مسرح صغير تجرى فيه «بروفات» وتجارب ينوب فيها خبراؤها عن الشخصيات الأجنبية التى يمثلونها ــ ويتصرفون كما يعتقدون أنها سوف تتصرف إذا وجدت فى الظروف المفروضة عليهم، والتى يحتمل أو يتوقع أن تتحقق فى يوم من الأيام فى عالم السياسة الدولية فى «المسرح الكبير» مسرح العلاقات الدولية والأحداث السياسية الذى تقوم فيه هذه الشخصيات الأجنبية فعلاً بأدوارها التى تنبأت بها المخابرات الأمريكية قبل وقوعها عن طريق تجاربها فى المسرح الصغير.

بهذه الوسيلة التمثيلية الدراسية تستطيع أجهزة المخابرات ومخططو السياسة الأمريكية أن يعرفوا الظروف التى يمكن إذا تحققت أن تدفع زعيماً معيناً أو سياسياً معيناً (كعبد الناصر مثلاً) لاتخاذ قرار معين أو موقف معين (مثل قرار تأميم قناة السويس أو قطع العلاقات مع بريطانيا أو ألمانيا الغربية أو إعلان الحرب على إسرائيل أو صفقة الأسلحة التشيكية ألخ) فإذا أرادوا بعد ذلك أن يدفعوه نحو اتخاذ مثل هذا القرار دون أن يظهروا ذلك عملوا على خلق الظروف والأساليب التى يعلمون مقدماً ــ من دراستهم فى مركز اللعبة ــ أنها تدفعه إلى اتخاذ القرار المطلوب. وهكذا يحققون غرضهم فى الوقت الذى يعلنون «معارضتهم» أو «احتجاجهم» على ماوقع بتدبيرهم المبنى على التنبؤ «برد الفعل المعاكس» تماماً كما يفعل لاعب البليارد حين يدفع كرته لتصل إلى كرة أخرى، ولكنه

لايوجهها نحوها، بل يوجهها نحو موقع مغاير يعلم أنه سيصدمها ويدفعها بعد ذلك فى الاتجاه المعاكس للاتجاه الذى كانت متجهة إليه.

ونجاح المخابرات الأمريكية فى هذه «العمليات» يتوقف على دراسة الشخصيات التى تتعامل معها، وفهم العوامل والاعتبارات التى تؤثر فيها، وعلى مدى سيطرتها الفعلية على «العوامل المؤثرة» فى الشخصيات السياسية الأجنبية التى تتعاون معها أو تتعامل معها — وهذه العوامل المؤثرة هى «مفاتيح» شخصية الرجل السياسى التى تحركه. ومتى عرفتها المخابرات، ووضعت يدها عليها، أصبح فى يدها الخيوط التى تحركه وتدفعه فى اتجاهات معينة. تماماً كما يمسك اللاعب المستتر فى «مسرح العرائس» بالخيوط التى توجه الدمى وتحركها هنا وهناك، لتقوم بأدوارها المرسومة لها أمام النظارة والمتفرجين كما لو كانت تتحرك وتتصرف من «تلقاء نفسها».

وقد أشار* كوبلاند من غير قصد فى صفحة ٢٤ إلى حالة من هذا النوع حين قال: «أسبوع واحد قبل أزمة السويس (تأميم القناة) سألنى «فرانك فزتر» نائب مدير وكالة الاستخبارات الأمريكية عما إذا كنت أعتقد أن عبد الناصر سوف يؤمم شركة قناة السويس فيما لو سحبت الحكومة الأمريكية معاونتها المالية لمشروع السد العالى (فضلاً عن قيامه بإجراءات أخرى)؟ — فأجبته:

«حقاً، إننى فى مكانه وأثناء قيامى بدوره فى «اللعب» قد قررت تأميم شركة قناة السويس منذ شهر سابق — ولكنه لم يفعل ذلك حتى الآن — ولذلك لاأعرف ماذا سيفعل الآن».

يقول الدكتور محمد صادق: إن المؤلف «كوبلاند» يستشهد بذلك على أن مواقف عبد الناصر كانت دائماً أقل ضرراً على المصالح الغربية مما كان يتوقعه هو عندما كان يقوم بتمثيل دوره فى «مركز اللعب» ولكن جوابه يؤكد أنه كان يعلم بأن العوامل التى تدفع عبد الناصر للتأميم قد توفرت منذ شهر (وإن كان لم يذكر هذه العوامل) وأنه كان مندهشاً لعدم إقدامه على ذلك، حتى إنه سأل عبد الناصر بعد ذلك عن السر فى هذا «التأخير» غير المتوقع — ففهم أنه كان يخشى أن يكون رد الفعل الإنجليزى الأمريكى أعنف مما حدث — بسبب جهله ببعض «المعلومات» التى كانت لدى كوبلاند. (لاشك أنها معلومات تدل على عدم عنف المعارضة الأمريكية للتأميم ولكنه لم يذكرها أيضاً).

هذه القصة تؤكد أن الحكومة الأمريكية عندما سحبت معاونتها للسد العالى كانت تتوقع أن يكون تأميم القناة أحد ردود الفعل التى سيتخذها عبد الناصر. وأن ماأظهرته من دهشة واعتراض على التأميم عند صدور قراره لم يكن يتفق مع الواقع — بل إن القارىء يستطيع أن يتساءل هل كانت السياسة الأمريكية تهدف إلى دفع عبد الناصر لهذا القرار، وأنها أوجدت الظروف التى تدفعه لذلك قبل سحب إعانة السد العالى بشهر كامل،

ولكنه تردد ولم يقدم، فزادت عليها بعد ذلك قرارها سحب الإعانة وهى تتوقع أن يقدم على التأميم هذه المرة ـــ وقد كان.. وتم لها ماأرادت رغم ظهورها بمظهر الاعتراض؟!

لماذا تحولت الخارجية الأمريكية عن الاتجاه المثالى؟

يربط «كوبلاند» بين تحول السياسة الأمريكية إلى الاتجاه الميكيافيلى وبين التمهيد للانقلاب العسكرى فى مصر فى أواخر عام ١٩٥١ وأوائل عام ١٩٥٢، وهى الفترة التى وصلت فيها الأزمة بين مصر وبريطانيا أقصى درجاتها بتزايد العمل الفدائى الشعبى ضد القواعد الإنجليزية بالقنال ـــ وضغط الرأى العام المصرى على الحكومة وعلى الملك فاروق لدرجة أدت إلى إعلان إلغاء معاهدة عام ١٩٣٦ التى كان يعتمد عليها الوجود العسكرى البريطانى فى القنال فى أكتوبر عام ١٩٥١ ـــ فأصبح وجود القواعد العسكرية الإنجليزية بغير «أساس» وأصبح العمل الفدائى واجباً وطنياً وكفاحاً شعبياً مجيداً.

كان وزير خارجية أمريكا فى ذلك الوقت هو المستر دين أتشيسون ـــ ويظهر أنه تعرض لضغوط دولية لم يذكر لنا المؤلف كوبلاند مصدرها ـــ وإن كان من المفهوم أنها آتية من ناحية بريطانيا أولاً ثم من ناحية إسرائيل أيضاً لأنها كانت تعتبر الجيش البريطانى فى القنال هو خط دفاعها الأول ضد الحركات الفدائية المصرية.

ويصف كوبلاند موقف المستر أتشيسون فى عام ١٩٥١ فى صفحة ٤٨ فيقول: «يظهر أن وزير الخارجية المستر دين أتشيسون فى عام ١٩٥١ لم يكن على كل حال ذائقة تامة فى (الأساليب الديمقراطية) إنه عندما كان يتكلم علناً لم يكن يذكر سوى أساليب «الدبلوماسية التقليدية» ولكن فى أحاديثه الخاصة كان يبدى اعتقاده أن احتمال الالتجاء إلى بعض «النشاطات غير التقليدية» (المخالفة للمبادىء الديمقراطية والأخلاقية كتدبير الانقلابات والمؤامرات.. ألخ) ـــ هو أمر يستحق الدراسة على الأقل لمساعدة بعض «القوى الطبيعية» على الظهور.

ونتيجة لذلك فإنه فى نهاية عام ١٩٥١ قرّر تشكيل «لجنة خبراء» سرية لدراسة العالم العربى فيما يتعلق على الخصوص بالنزاع العربى الإسرائيلى لاستعراض المشاكل، واقتراح الحلول سواء كانت تتفق مع أساليب العمل الحكومى «النظيف.. أم لا».

وقد استعار وزير الخارجية من الهيئة المركزية للمخابرات الأمريكية المستر «كيرميت روزفلت» ليرأس هذه اللجنة، التى كانت تضم بعض رجال وزارة الخارجية وبعضاً آخر من وزارة الدفاع وبعض المستشارين من دوائر رجال المال ومن الجامعات. ولم يكن فيها من المخابرات إلا رئيسها.

ماالذى قررته لجنة الخبراء؟

يقول «كوبلاند» إن أهمية هذه اللجنة هى أنها قد بحثت عن الوسائل التى تستخدمها مخابرات الولايات المتحدة لتمكين العناصر الموالية لها من الوصول إلى الحكم — وقد قررت اللجنة بصراحة أن لها أن تستعمل كل الوسائل دون تقيد بقواعد «الديبلوماسية التقليدية» أى لاتتقيد بالمبادىء الأخلاقية أو الديمقراطية — ويقول «كوبلاند» إن قرارات هذه اللجنة هى نقطة التحول من المرحلة التى استخدمت فيها الوسائل التقليدية من عام ١٩٤٧ إلى عام ١٩٥١ وبين المرحلة التالية التى قررت السياسة الأمريكية فيها توسيع نشاط مخابراتها ليمتد إلى الوسائل الانقلابية والميكيافيلية.

ويشرح كوبلاند ذلك معبراً عن وجهة نظره فى صفحة ٢١ فيقول: «هناك حدود لما تفعله حكومة بلد ديمقراطى فى شئونها الداخلية — ولكن لاتوجد حدود لما نستطيع أن نعمله «فى البلاد الأخرى» — أو على الأصح، فإن حكومتنا عندما تقرر ماذا ستفعل بالنسبة لبلد آخر؛ فإن الحدود الوحيدة لذلك العمل هى استطاعتنا له وإمكانية تنفيذه — فكل مانستطيع أن نفعله نفعله — أما الاعتبارات الأخلاقية فإنها إذا ظهرت فكل مايترتب عليها هو أننا لانسأل أنفسنا فقط «هل نستطيع أن نفعل ذلك؟» بل يجب أن نتساءل «هل نستطيع أن نخفيه ونهرب به؟»».

ويقول كوبلاند: إن اللجنة قررت أن «المشكلة المصرية» كانت قد حظيت بالأولوية على ماسواها، وأن اللجنة رأت وجوب تدخل الولايات المتحدة فى «هذه المشكلة» بسرعة. وسمى هذا التدخل فى مصر: «العملية الكبرى».

لماذا اختارت اللجنة مصر لتنفيذ العملية الكبرى؟

يتجاهل كوبلاند عامداً السبب الحقيقى مع أنه قد ذكره من قبل وهو «نجاح الشعب المصرى والحركة الفدائية المصرية فى إلغاء معاهدة عام ١٩٣٦، ووقوف الشعب والحكومة الوفدية، وخضوع الملك للإرادة الشعبية». ومع أن كوبلاند تجاهل هذا السبب فإن كتاباً فى نفس الموضوع ظهر قبل كتابه هو كتاب «هيئة المخابرات المركزية الأمريكية» الذى ألفه «أندرو كوللى» تكلم بكل صراحة ووضوح فى صفحة ٦٨ عن اتفاق بريطانيا مع أمريكا على إبعاد فاروق بعد ٢٦ يناير ١٩٥٢ — مما يفهم منه أن مبدأ التدخل الأمريكى كان متفقاً عليه من قبل، وأن حريق القاهرة جعل الدولتين تتفقان على أن يصل التدخل إلى حد تغيير نظام الحكم الملكى أو إقصاء فاروق على الأقل.

ومع تجاهل كوبلاند لكل هذا فإننا نسايره فنجده يقول فى صفحة ٤٩ : «إن اختيار مصر لأنها بلد يتمتع بأولوية ممتازة بسبب مزاياها الخاصة، وبسبب نفوذها فى الدول

العربية الأخرى لدرجة تجعل كل اتجاه للتحسن فيها مؤثراً فى العالم العربى » ثم يقول : « ومن ناحية أخرى أى ناحية « تنفيذ العملية » كان من المعتقد أن ذلك سهل ، ليس فقط بسبب طبيعة شعبها وطبيعة ساستها ، بل أيضاً بسبب أن عندنا منفذين مشهود لهم بالمهارة ، يعرفون البلاد معرفة جيدة ، ومن بينهم « كيرميت روزفلت » نفسه رئيس اللجنة » .

هل كانت هناك جهود بذلها روزفلت فى مصر من قبل؟

يقول كوبلاند إن روزفلت كانت له اتصالات فى مصر أثناء الحرب العالمية الثانية ، وأنه اتصل بالملك فاروق إذ ذاك ، وأن فاروق كان يميل إليه . ويقول فى صفحة ٥١ : « إن الملك فاروق قد توفر لديه ميل إلى روزفلت خلال الحرب أثناء الأزمة التى أجبره فيها الإنجليز بقوة السلاح على إبعاد العناصر التى تعطف على « المحور » من الحكم ، وأن يضع مكانها أشخاصاً تختارهم بريطانيا (يقصد أزمة ٤ فبراير ١٩٤٢) .

« فى تلك الفترة كان فاروق يحترق غيظاً فى قصره ، لاحول له ولا قوة . وكان روزفلت يزوره يومياً تقريباً ليهدئه ويوحى إليه بأنه بعد انتهاء الحرب يحتمل أن توضع خطة جديدة لتتمتع مصر بسيادتها الكاملة ، وليكون فاروق أول حاكم لمصر المتحررة بعد ألفى عام » .

ويعلق الدكتور محمد صادق تعليقاً له دلالاته على عبارة « بعد ألفى عام » التى جاءت فى كلام روزفلت لفاروق حيث يقول فى تعليقه : لاندرى من أين جاء روزفلت بهذا الرقم؟ وأهم مافيه أنه يفترض أن مصر لم تكن مستقلة طوال العصور الإسلامية كلها (٢٠٠٠ سنة) حتى إن عبد الناصر رددها فى خطبة له فى عهد قريب سنة ١٩٦٦ فى عيد الجلاء إذ قال : « منذ أكثر من ألفى عام ووطننا يحكمه الغرباء — أى المسلمون — والحلم الضائع لأبنائه أن يعود وطنهم إليهم .. وبعد عام واحد من هذه الخطبة وقعت الهزيمة والنكسة سنة ١٩٦٧ .

ثم نرجع إلى السياق فنقول : إن كوبلاند لايذكر لنا شيئاً عن اتصالات روزفلت أو غيره من خبراء المخابرات الأمريكية مع فاروق أثناء أزمة القنال قبل نهاية عام ١٩٥١ — وإنما ينقلنا مباشرة من عام ١٩٤٢ إلى عام ١٩٥٢ فيقول فى صفحة ٥٢ :

« بقى روزفلت فى القاهرة الشهرين الأولين من عام ١٩٥٢ (يناير وفبراير ١٩٥٢) ثم يقول ما ملخصه أن روزفلت حاول مع فاروق تنظيم « ثورة سلمية » بإجراء حملة تطهير فى الأجهزة الحكومية ، ولكن فاروق أبعد العناصر المعروفة بفسادها ثم وضع بدلاً منها رجالاً أكثر منهم فساداً اختارهم هو » .

ثم يقول كوبلاند فى نفس الصفحة بعد ذلك : « فى شهر مايو ١٩٥٢ رفع روزفلت

يديه علامة على اليأس من فاروق. ووافق على رأى سفير أميركا فى ذلك الوقت «جيفرسون كافرى» **وهو أن الجيش وحده هو الذى يستطيع أن يواجه الوضع «الفاسد» وإقامة حكومة تستطيع الدول الغربية أن تتفاهم معها».**

يقول الدكتور محمد صادق: هنا فقط، وبصفة عارضة، وعلى لسان السفير الأمريكى فى القاهرة، اضطر كوبلاند إلى ذكر المشكلة الرئيسية التى تفادى ذكرها طوال الوقت وهى مشكلة «التفاهم مع الدول الغربية». ومعنى هذا أن عناد فاروق وإصراره الذى ذكره كوبلاند لم يكن خاصاً بموضوع الرشوة والفساد كما يحاول أن يوهمنا بل امتد العناد إلى أكثر من ذلك وهو موضوع «التفاهم مع الدولة الغربية».

الأهم من ذلك أن هذا العناد من جانب فاروق ومن جانب جميع السياسيين التقليديين لم يكن اختياراً منهم وإنما فرض عليهم فرضاً من التيار الشعبى الجارف المعادى للغرب ــ فلابد من وسيلة لتحطيم هذه «المقاومة الشعبية» وكان رأى كافرى أن الجيش هو وحده الذى يستطيع أن يقوم بهذه المهمة.

لكن هذه الفكرة لم تكن مرتجلة، ولا بنت ساعتها.. لقد سبقتها دراسات وأبحاث فى أوساط الجيش، واتصالات بمجموعات من الضباط الذين أظهروا استعدادهم للتفاهم.

ماسبب استعجال المخابرات الأمريكية لحل مشكلة «التفاهم مع الدول الغربية؟

يقول «أندرو تولى» الذى أشرنا إليه من قبل وكتابه «هيئة المخابرات الأمريكية» الذى نشر عام ١٩٦٢ وطبع عدة طبعات. يقول فى صفحة ٨٦:

«وصلت موجة العداء للغرب إلى أقصاها فى أكتوبر عام ١٩٥١ عندما أعلنت حكومة فاروق (حكومة الوفد برياسة مصطفى النحاس) إلغاء معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا، وطرد البريطانيين من القنال والسودان المصرى الإنجليزى.

وفى يناير عام ١٩٥٢ (٢٦ يناير) قامت مظاهرات عنيفة ضد الغرب وضد بريطانيا، وسارت وسط القاهرة، وأحرقت فندق شبرد المعروف، وكذلك أحرقت ممتلكات مصرية وأجنبية أخرى. ولقد كان من الظاهر أن فاروق شجع هذه المظاهرات، ولكن عندما خرجت عن السيطرة، وتحولت إلى نهب ممتلكات أصدقائه (الغربيين) استدعى الجيش لإعادة النظام.. **والراجح أن هذا هو الوقت الذى قررت فيه الولايات المتحدة وبريطانيا ضرورة التخلص من فاروق».**

أما تحول موجة العداء للغرب إلى ثورة شعبية فقد أشار إليه كوبلاند نفسه فى كتابه صفحة ٥٤ حيث يوضح أن خطورة هذه الثورة الشعبية كانت ترجع إلى أن المسيطر عليها هم الإخوان المسلمون فيقول:

«إن الحركتين الثوريتين فى ذلك الوقت هما «الإخوان المسلمون» «والحزب الشيوعى» كانتا تعتقدان أن الشعب المصرى بما فيه الفلاحون والعمال والموظفون فى المدن، بل وذوو المهن الحرة أيضاً ـــ كان قد وصل سخطه إلى درجة الغليان، وأنه يمكن أن ينفجر إذا وجد التوجيه الصحيح».

يقول الدكتور محمد صادق: إن صاحب «لعبة الشعوب» مصر على أن لايشير إلى الجهة التى تهددها هذه «الثورة الشعبية»، ولكن يتضح مما ذكره سلفه «تولى» أن الثورة كانت موجهة ضد الغرب عموماً، وضد بريطانيا ومصالحها خاصة وإسرائيل من ورائها.

فما هو العلاج الذى كانت تفكر فيه السياسة الأمريكية لمواجهة هذه «الثورة الشعبية»؟!

اتفاق المخابرات الأمريكية مع «الناصريين»:

يقول كوبلاند فى صفحة ٥٣: «كان روزفلت غير واثق من «الانقلابات العسكرية» بعد أن رأى ماأدت إليه فى سوريا من فوضى. ولكنه «وافق» على أن يقابل الضباط الذين قدمتهم له «المخابرات المركزية الأمريكية» على اعتبار أنهم زعماء التنظيم السرى العسكرى الذى يدبر «انقلاباً عسكرياً» إنه فعل ذلك فى مارس عام ١٩٥٢ أى قبل أربعة شهور قبل «الانقلاب الناصرى». إن عبد الناصر قد علم (بأى طريق؟) بالمحاولات الاستطلاعية التى قامت بها المخابرات الأمريكية لمنظمته، وكان على استعداد للاتصال، ودبر الأمر لكى يجد روزفلت فى طريقه عدداً من الضباط البعيدين عن مركز الحركة ليصرفهم كما يشاء، والذين يثق فى أنه يمكن أن يعتمد على أنهم سوف يقولون «مايجب قوله ويحتفظون بأسرار الضباط الأحرار» ـــ لقد تمت ثلاث لقاءات. وكان يحضر ثالثها أقرب المقربين لعبد الناصر. وقد توصل روزفلت مع هذا الضابط الذى كان يتكلم باسم عبد الناصر شخصياً إلى «اتفاق» واسع النطاق يستحق أن نذكره:

هناك ثلاث مسائل عامة تم الاتفاق عليها فوراً. وهى..».

يقول الدكتور محمد صادق: لقد استطرد كوبلاند فى شرحه لنقاط الاتفاق الذى تم بين روزفلت وبين جماعة عبد الناصر فى شهر مارس ١٩٥٢ بإفاضة وإسهاب مسود بهاست صفحات من مؤلفه (من صفحة ٥٤ ـــ ٥٩) نكتفى هنا بتلخيصها فنقول:

على حد قول كوبلاند كانت **النقطة الأولى** هى: أن جماهير الشعب المصرى لايمكن أن تثور بسبب الحالة الاقتصادية.

أما **النقطة الثانية**: فهى أن المصريين لن يثوروا لأى سبب من الأسباب، وبالتالى فلا داعى لتخوف الأمريكيين من ازدياد نفوذ الحركة الثورية للإخوان المسلمين، ولن تكون

هناك ثورة شعبية ديمقراطية فى مصر. **أما النقطة الثالثة**: التى تمهد لها وتؤدى إليها النقطتان السابقتان فهى مايلى (ص ٥٥ وما بعدها): «أخيراً اتفق على أنه فى مستقبل العلاقات بين الحكومة المصرية «الجديدة» (الطبقة الجديدة) سيكون استعمال عبارات «إعادة الحياة الديمقراطية» أو «إقامة حكم نيابى صحيح» ــ مثل هذه العبارات ستكون مقصورة على البيانات التى يطلع عليها الرأى العام ــ أما فيما بيننا فسوف يوجد تفاهم سرى بأن الشروط اللازمة لقيام حكم ديمقراطى لم تتوفر ولن تتوفر لسنين عديدة».

بعد هذه النقاط الثلاث العامة التى تم الاتفاق عليها ــ يشير كوبلاند إلى أن هناك «نقاطاً أخرى» يدعى أنه لم يتفق عليها صراحة، ولكنها كانت موضوع «تفاهم متبادل بين الطرفين».

أول هذه النقاط «الخاصة» وأهمها فى نظر كوبلاند هى: موقف عبد الناصر من إسرائيل ــ ويليها الموضوع الشائك وهو موضوع «القومية العربية» ثم «مرونة» موقفهم تجاه البريطانيين ــ وعندما يصل كوبلاند إلى هذه النقطة الأخيرة وهى موقف الضباط من البريطانيين ومدى مرونته، يختم حديثه بهذه العبارات (ص ٥٨، ٥٩): «لقد فهم روزفلت هذه النقطة. وعندما عاد من القاهرة إلى واشنطن شهرين قبل الانقلاب (أى فى شهر مايو) قدم تقريره إلى دين أتشيسون وزير الخارجية. والنقطة التى فهمها روزفلت هى أن هؤلاء الضباط وإن كانوا يكرهون الإنجليز إلا أنهم يحترمونهم احتراماً شديداً؛ فعداؤهم للإنجليز ليس عميقاً ولا ثابتاً ولا دائماً كعدائهم للكبار المصريين من ضباط وسياسيين».

يقول الدكتور محمد صادق: معنى ذلك أن تحليل موقف الضباط من الإنجليز كان نقطة حاسمة فى إقناع روزفلت بأن الانقلاب العسكرى بواسطة هذه الجماعة من الضباط هو أفضل وسيلة للوصول إلى اتفاق بين مصر وبريطانيا ــ وقد أشار لذلك روزفلت فى تقريره كما أورده كوبلاند فى صفحة ٥٩:

«هؤلاء الضباط الذين سيقودون الانقلاب.. سيزدادون تعقلاً ومرونة فى «المفاوضات» متى وصلوا للحكم.».

ماذا فى الاتفاق عن إسرائيل؟

يقول كوبلاند فى صفحة ٥٦: «إن عبد الناصر قرر لروزفلت بكل صراحة أنه هو وزملاؤه الضباط رغم مالحقهم من مهانة الهزيمة على يد الإسرائيليين ــ إلا أنه أكد أن حقدهم موجه إلى رؤسائهم، ثم إلى العرب الآخرين، ثم إلى البريطانيين، ثم إلى الإسرائيليين، بهذا الترتيب».

ويعقب كوبلاند على ذلك قائلاً فى نفس الصفحة :

« نتيجة لمحادثات روزفلت مع شخصيات مدنية كبيرة فى مصر بما فيهم الملك فاروق — فإنه وصل إلى نتيجة أقنعته بالاتفاق مع عبد الناصر » .

وعندما أورد كوبلاند خلاصة تقرير روزفلت الذى قدمه لوزير الخارجية عقب عودته لواشنطن اكتفى بما يعتقد أنه يهم وزارة الخارجية فى الدرجة الأولى وهو « موقفهم من إسرائيل » فأكد كوبلاند فى البند رقم (٦) الذى أورده فى صفحة ٥٩ مايلى :

« (٦) فيما يخص كل هذه اللقاءات التآمرية (هذه هى كلمات كوبلاند) السابقة على الانقلاب .. ففيما يخص « العدو » الذى يخشونه فلن يكون إسرائيل ، بل الطبقات العليا فى مصر ، والإنجليز .. » .

شعور الضباط الناصريين نحو الشعب المصرى :

فى صفحة ٥٤ يقول كوبلاند « إن المتحدث باسم جماعة الناصريين ، فى لقائهم مع مندوب المخابرات الأمريكية روزفلت ؛ مضى يقول : إن أغلبية المصريين عاشت عيشة الكفاف آلاف السنين . ويمكن أن تستمر على ذلك ألف سنة أخرى . إنهم لاتوجد عندهم دوافع للثورة . وليست عندهم دوافع تحركهم للطموح نحو التمتع بحياة أفضل حتى بعد الثورة .

ويعلق على ذلك كوبلاند فى صفحة ٥٨ فيقول :

« وهناك انحراف فكرى يتميز به ناصر وضباطه — وتميز به النموذج الناصرى من الحكام وأعوانهم على العموم — فبينما يتكلمون بأعلى صوت ضد « العدو » الأجنبى (كالبريطانيين فى هذه الحالة) نجد أن العداء الحقيقى المملوء بالمغزى والمعانى والذى يحركهم ويدفعهم للعمل هو العداء الذى يكنونه لأبناء شعبهم » .

يقول الدكتور محمد صادق تعقيباً على ذلك : إننا لانظن أن الأمريكيين قد صدقوا ماقاله لهم هؤلاء الضباط عن الشعب المصرى ، أو أن ذلك شجعهم على الاستخفاف والاستهتار بمقاومته ، بل على العكس من ذلك ؛ فإن الذى استحق منهم الاستخفاف والتحقير هم هؤلاء الضباط الأحرار » المتزلفين لهم الساعين إلى استجداء تأييدهم ومساعدتهم وتدخلهم فى شئون شعبهم — ويكفى لبيان درجة استخفاف الأمريكيين بهم أن نورد وصف كوبلاند لهم على لسان الكولونيل « ميد » صفحة ٦٥ الذى كتب إلى روزفلت يقول عنهم مايلى :

« هؤلاء الصبيان » يظنون أنفسهم عصابة « روبن هود » المرحة — ويعجبهم أن يوصفوا بأنهم « أبطال الثورة » — إنهم لاتهمهم السياسة — ومن حسن حظنا وحظ عبد الناصر أنهم

يحتاجون إلى من يعلمهم كيف يفكرون وماذا يفعلون».

ويواصل الدكتور محمد صادق تعليقه فيقول: هذا هو النوع الذى يشهر بأمته، ويحقر تاريخها ومجدها. وهو الذى يصلح «للتعاون» مع القوى الأجنبية ذات المطامع والأهداف المناقضة لمطامح أمتهم وآمالها — وهذا يفسر لنا إسراع روزفلت إلى «الاتفاق» معهم وإصرار كوبلاند على قوله بأن هذا النوع هو أحسن نوع من الحكام لمصالح الغرب.

تحويل أنظار الشعب عن أعدائه الحقيقيين:

يقول الدكتور محمد صادق: إن وصول الطبقة الجديدة «الضباط الناصريين» للحكم معناه فتح الباب أمام معارك داخلية تحول أنظار الشعب عن المعارك الحقيقية — وبذلك تتم عملية «التحويل».

إن عملية «التحويل» ستجعل الشعب ينسى الإنجليز المرابطين فى القنال، والإسرائيليين الذين وراءهم يحتلون فلسطين. وبدلاً من محاربة هؤلاء الأعداء الخارجيين سوف تسير الجماهير تحت لواء «الطبقة الجديدة» فى حروب داخلية ضد أعداء داخليين وهميين أو حقيقيين بحجة محاربة الفساد والرشوة أو الرجعية أو أى حجة أخرى.

خلاصة نتائج تجارب المخابرات الأمريكية فى سوريا:

لقد أطال كوبلاند فى دراسة أسباب فشل حسنى الزعيم وفشل العمليات المحدودة التى قاموا بها من سوريا — ليستخلص منها الشروط التى يجب أن تتوفر فى «اللاعب» أى الحاكم الذى يعتبره مثالياً من وجهة نظر المصالح الأمريكية — والذى يجب أن يحثوا عنه للقيام «بالعملية الكبرى» التى كانوا ينوون الإقدام عليها.

ويشير المؤلف (كوبلاند) إلى الدروس التى استفادوها من ذلك فيقول فى صفحة ٤٥:

«ولعلنا نستوعب جميع الدروس التى كان يجب أن نتعلمها من تجربة حسنى الزعيم — ومع ذلك فبالرجوع بذاكرتنا إلى الوراء نجد أن النتائج التى اتضحت منها بشكل كاف هى:.. وعقب ذلك يشير إلى ثلاث نتائج هى فى الحقيقة الخصائص الأساسية المميزة للنظام «الناصرى» وملخصها مايلى:

١ — لايكفى وقوع الانقلاب وتغير الحكومة، بل الأهم هو بقاء الحكم الانقلابى إلى النهاية رغم إرادة الشعب ومعارضته.

٢ — لابد من وجود «مجموعة» أو «طبقة» حاكمه وليس شخصاً فقط، لأن هذا

أضمن لاستمرار «النظام» المفروض.

٣ــ أن يكون لدى الحاكم صفات تبعد عنه تهمة كونه عميلاً لنا؛ بأن يتصرف بأسلوب لايساير مصالحنا وأهواءنا بصورة كاملة، ولا مانع من أن نتحمل منه «مبادرات سيئة ضدنا» متى كان وجوده فى الحكم ضرورياً لحماية مصالحنا الأساسية، وكانت هذه المبادرات ضرورية لبقائه فى الحكم.

وفى صفحة ٤٤ يوضح كوبلاند أن وجود المجموعة أو الطبقة الحاكمة ليس معناه عدم وجود زعيم؛ بل على العكس من ذلك يجب أن يجمع الزعيم حوله جماعة أو طبقة «لاتستطيع أن تعيش بدونه» بأى حال من الأحوال فيقول:

«إن حسنى الزعيم لم يتعلم نظريات «الزعامة الحديثة» وهى أن مهمة الزعيم الرئيسية هى أن يوجد الظروف التى تجعل معاونيه وأتباعه لايجدون أمامهم أى حل بديل إلا التمسك به والتشبث ببقائه..».

ويقول فى صفحة ٥٠: «وهكذا تبين لنا (أى للجنة) أنه إلى جانب دراسة احتمالات وجود زعيم محتمل ــ يجب أيضاً أن ندرس المجموعات المتعاونة المتدرجة التى تعمل تحت أمره ــ الطبقة الممتازة التى تليه، ثم الطبقة التى تحتها، والطبقة التى فى القاعدة ــ لنتأكد من أنهم جميعاً يمكن أن يكونوا معاً كتلة واحدة منسجمة يربط بينها وحدة المصالح ووحدة الأغراض ــ».

ثم يبين بعد ذلك أن أحسن طريقة لجعل هذه المجموعة متماسكة مرتبطة هو وجود خطر مشترك على حد ماقاله الفيلسوف الإنجليزى «برتراندرسل» ــ ولم تقصر اللجنة فى دراسة ماهو «الخطر المشترك» الذى يجب أن يستغل لبقاء هذه المجموعة المتعاونة متماسكة تربط بينها وحدة المصالح ووحدة الهدف ــ ومن الغريب الذى سيدهش له الكثيرون أنه يؤكد أن اللجنة انتهت إلى أنه لامفر من استخدام قضية النزاع العربى الإسرائيلى لهذا الغرض فيقول فى نفس صفحة ٥٠ مايلى:

«فى هذا الجزء من العالم، لابد من تطبيق ملاحظات الفيلسوف «برتراندرسل» وهى «أن وجود خطر مشترك» ــ هو أسهل طريقة لإيجاد التجانس والوحدة» ــ فى خارج مصر يستعمل القادة العرب الخوف من إسرائيل لإيجاد نوع من الوحدة الوطنية فى بلادهم. ونحن لم نجد طريقة نتفادى بها استعمال نفس الوسيلة فى مصر (بعد الانقلاب المرتقب) بشرط أن يكون ذلك فى نطاق الحد الأدنى لكى تتفادى خطر إثارة العواطف التى يمكن أن تخرج عن سيطرة الحكام. وكان احتمال هذا الخطر يظهر ضئيلاً نظراً لفداحة الهزيمة التى أصابت الجيش المصرى أمام القوات الإسرائيلية فى حرب عام ١٩٤٨ ــ ومن ناحية أخرى لم تكن هناك فرصة محتملة لإمكان إيجاد زعيم لايستغل الخطر الإسرائيلى..».

الاتفاق مع المخابرات الأمريكية قبل الانقلاب يشمل برنامج السياسة الداخلية:

ذكر كوبلاند عدداً من النقاط التى تم الاتفاق عليها والتى تكون فى نظر الطرفين برنامج السياسة الداخلية الذى وافقت عليه أمريكا لكى يسير بمقتضاه الحكم العسكرى بعد تنفيذ الانقلاب. وهذه هى أهمها ــ بعبارات كوبلاند نفسه:

١ ــ «إن حكومة الولايات المتحدة سوف تقبل خلع الملك فاروق، وربما إلغاء الملكية تماماً ــ ومع ذلك فلا مانع من أن تقدم احتجاجاً معتدلاً لإرضاء ذوى النفوس الطيبة. وسيكون من المناسب أن يظهر السفير كافرى بعض الاهتمام لتأمين سلامة شخص الملك فاروق» (صفحة ٥٩).

٢ ــ «بعد تنفيذ الانقلاب تمتنع حكومتنا (الأمريكيه) عن أية محاولة ــ فيما عدا المحاولات الكلامية ــ لإقناع الحكام الانقلابيين بإجراء انتخابات أو بإقامة حكومة دستورية وما أشبه ذلك ــ وسوف تقوم علاقاتها مع الحكومة الجديدة (العسكرية) على أساس أن النظم الديمقراطية يجب أن تبدأ من نقطة الصفر (صفحة ٥٩).

٣ ــ تم الاتفاق•على أنه فى مستقبل العلاقات بين الحكومة المصرية الجديدة (بعد الانقلاب) وبين حكومة الولايات المتحدة الأمريكية فإن استعمال عبارات «إعادة الحياة النيابية» أو «إقامة حكم نيابى صحيح» سوف يكون مقصوراً على البيانات التى تعلن للرأى العام ــ أما فيما بيننا فسيكون هناك تفاهم (سرى) بأن شروط الحكم الديمقراطى لم تتوفر وأنها لن توجد لسنوات طويلة» (صفحة ٥٥).

٤ ــ ستكون مهمة الحكومة الجديدة هى إيجاد هذه الظروف وهى:

أ ــ محو الأمية وإيجاد طبقة مثقفة.

ب ــ إيجاد طبقة متوسطة مستقرة وواسعة.

جـ ــ إشعار الجماهير بأن هذه الحكومة منهم ــ وأنها لم تفرض من جانب الفرنسيين ولا الأتراك ولا البريطانيين ولا الطبقة العليا فى مصر.

د ــ تجسيم القيم والأهداف «المحلية» حتى يمكن إيجاد نظم ديمقراطية من نوع خاص (كالاتحاد الاشتراكى) مثلا وتنميتها بدلاً من النظم المماثلة للديمقراطية الأمريكية أو البريطانية» (صفحة ٥٥).

٥ ــ إن الثورة الشعبية التى تنبأت بها وزارة الخارجية الأمريكية والتى يسعى لها بجد

الإخوان المسلمون ـــ أو الشيوعيون ـــ يجب استبعادها (صفحة ٥٩).

يقول الدكتور محمد صادق معقباً على بنود هذا الاتفاق:

ظاهر أن محور هذا البرنامج وهدفه (الموضح فى الفقرة (٥).. هو استبعاد الثورة الشعبية التى إن نجحت ستكون نتيجتها حكماً ديمقراطياً نيابياً ـــ وقد أوضحت الفقرة (٤) أن الحكم الديمقراطى المماثل للديمقراطية الأمريكية والغربية مستبعد بصفة نهائية فى المستقبل القريب والمستقبل البعيد ـــ وبدلاً من ذلك سوف يكتفى فى المستقبل (بعد سنوات طويلة حسب الفقرة (٣) بنوع آخر سموه «ديمقراطية من نوع خاص (الفقرة ٤ / ٤ كالديمقراطيات الشعبية.

من أسباب اختيار المخابرات الأمريكية لعبد الناصر:

قبل أن يقدم لنا كوبلاند فى كتابه ملخص التقرير الذى قدمه روزفلت فى عام ١٩٥٢ إلى وزارة الخارجية الأمريكية عن نتائج اتصالاته ولقاءاته فى مصر ـــ قدم لهذا التقرير بالكلمة الآتية (صفحة ٦١):

«إن التقرير المكتوب عن رحلة روزفلت إلى مصر وضع بأسلوب لايفزع بعض لجان «الكونجرس» التى قد تكلف بالتحقيق فى المستقبل. ولهذا لم يكن فيه تفسير صريح كامل لما بذلناه من مجهودات **لكى نجد «زعيماً» يقتله تعطشه للسلطة من ذوى الأسلوب البونابرتى، له قدرة على أن يجمع الشعب بالخوف**.. «أما التقارير الشفهية التى قدمها روزفلت فكانت أكثر صراحة ـــ إذ قال للمسئولين: إن شخصاً مايتحرق فى تطلعه للسلطة، وليس فى حاجة للدبلوماسيين السريين الأمريكيين لتحريضه أو إلهاب حماسته للاستيلاء عليها».

ثم يقول فى صفحتى ٤٩، ٥٠:

«إن سبب فشل حسنى الزعيم أنه لم يكن يريد الحكم إلا من أجل مظاهره. وكان يكفيه أن نناديه بصاحب الفخامة لكى نفعل مانريده ويبقى عميلاً لنا.. إن هذا لم يكن يكفى لنجاح خطتنا؛ لأننا نريد أن نوصل للحكم شخصاً لديه عقدة حب السلطة التى تدفعه ذاتياً لكى يرتكب كل شيء، ويعمل كل شيء ليبقى فى السلطة بحكم حبه لها ـــ ولا نكون نحن مسئولين عما يفعله ويرتكبه فى سبيل بقائه فى الحكم.

كنا نريد شخصاً يكون سعيه للسلطة أقل مظهرية ـــ لأننا كنا متأكدين بأننا متى ساعدنا مثل هذا الشخص للوصول للحكم، فسوف نتخلص من كل مسئولية أدبية تزعج أنفسنا بسبب عقدة حب السلطة لديه ـــ ومع ذلك فقد نضطر فى يوم من الأيام طبعاً أن نفعل ذلك (أى نظهر الانزعاج) لأسباب تكتيكية (مثل تهدئة الرأى العام

الأمريكى) . . » .

وفى الفصل الأخير من كتابه يؤكد كوبلاند فى صفحة ٢٣٢ «أن عبد الناصر هو من ذلك النوع الذى يهتم بسلطته الشخصية، وإلا لما وصل للحكم ولما تمسك به».

ثم يبين لنا أول النتائج التى يؤدى إليها هذا التعطش للسلطة؛ وهى الاعتماد على قاعدة البطش وصرف أموال كثيرة على أجهزة البطش والعنف فيقول فى نفس الصفحة:
«من المنطقى أن هذا النوع من القادة يجعل حكمه قائماً على قاعدة البطش والعنف. وهذه القاعدة الباطشة تحتاج إلى جهاز بيروقراطى وجيش تتجاوز تكاليفه طاقة مصر فى الظروف العادية. وهذه النفقات الباهظة تجعله أكثر احتياجاً إلى العون الخارجى».

موقف الحكومة الأمريكية من قوانين البطش والاضطهاد الناصرية:

يقول كوبلاند فى صفحة ٧٩: «لاشك فى أن الصحافة الأجنبية فى خارج مصر انتقدت أساليب الحكم الناصرى، وكثير من السفارات الغربية أبدت فى تقاريرها ظهور ماسموه (دكتاتورية عسكرية فاشستية فى مصر) على حد تعبير بعضهم. أما السفارة الأمريكية فكان لها رأى آخر يختلف عن السفارات الغربية الأخرى، فإنها وإن وجهت بعض الانتقادات، فلم يكن سبب ذلك بغضها لهذه الاعتقالات والمصادرات والحراسات والقيود على الصحافة ـــ كلا ـــ بل بسبب الطريقة غير المناسبة التى فسرت بها الحكومة المصرية هذه الإجراءات للرأى العام ـــ أى بسبب سوء الدعاية بمعنى أدق..».

ثم يتحدث ـــ فى صدد البطش ـــ عن الشرطة المصرية فيقول فى صفحة ٨٠:
«بالنسبة لوزارة الداخلية؛ فإن رجال الأمن المصريين هم كرجال الأمن فى غير مصر من البلاد، ليسوا من أحسن طبقات الشعب ـــ وإنما من الطبقة التى تلتحق عادة بإدارة الشرطة ـــ لقد قال لى أحد كبار رؤسائهم مرة: إننا نسير على اعتبار أن الناس جميعاً يخضعون للحكومة؛ طالما فهموا أننا سوف نحطم رأس كل من يخرج على طاعتها.

«ربما يجىء يوم يستطيع فيه بعض الناس أن يجدوا طريقة تجعل ضباط الأمن أكثر تهذيباً ورقياً من ذلك ـــ ولكن من المؤكد أن هذه الطريقة لم تكن موجودة فى ذلك الوقت ولا معروفة لدى عبد الناصر ولا لدى مستشاريه الأمريكيين».

وفى صدد تعداد أنواع التعاون الأمريكى الناصرى فى توفير أحدث أساليب البطش والإرهاب يقول كوبلاند فى صفحة ٨٢:
«إن حكام مصر اشتروا أجهزة آلية ضخمة للرقابة. واشتروا مجموعة كاملة من الأجهزة الألكترونية من أحدث ماوصلت إليه صناعة التجسس ومقاومة التجسس الأمريكية؛

حتى إنه فى عام ١٩٦٠ أصبحت لديهم مسجلات سريعة وسهلة التركيب موضوعة تقريباً فى جميع غرف الفنادق وميسات الضباط والمنازل الخاصة والسفارات فى القاهرة والإسكندرية.. تمكنهم من أن يستمعوا أو يسجلوا المحادثات التى تجرى فى الشوارع من مسافة بعيدة، فضلاً عن آلات تصوير بعيدة المدى تستطيع أن تصور فى ظلام الليل وكانت هذه المعدات من الكثرة لدرجة أن رجال مصلحة السياحة بسبب ضروروات عملية اكتفوا باستعمالها فى حالات دون أخرى».

وفى صفحة ٨٩ يعرض لرأى المراقبين الغربيين فى أساليب البطش الناصرية ثم يعقب عليه برأيه الشخصى باعتباره المسئول الأمريكى لتوجيه عبد الناصر فيقول:

«لقد كان بغيضاً للمراقبين الغربيين أن يروا الملكية تصادر أو توضع تحت الحراسة بهذه الطريقة المرتجلة، وأن يروا الأفراد يسجنون ويعتقلون بناءً على مجرد الشكوك والظنون، والصحافة مقيدة والمراسلين الصحفيين الأجانب يعاملون بخشونة فى بعض الأحيان».

«ولكن من الناحية الأخرى، ومهما تكن الصورة التى عرضت بها أساليب البطش الناصرية على العالم الخارجى، فإن أعمال البطش الناصرية لم تنفذ بطريقة عشوائية، وإنما رسمت وحسب حسابها بكل برود (يظهر أن المؤلف يتكلم باعتباره قد اشترك بنفسه فى عملية الحساب أو عملية التخطيط إلى جانب بعض المستشارين الآخرين) ومعنى هذا أنه كان ضحيتها عناصر وأشخاص قليلون (لم يذكر العدد) ومن السهل تمييزهم (يقصد المعارضين للحكم العسكرى) عن عامة الشعب».

«إن عبد الناصر يبرر تصرفاته الدكتاتورية بحجة المحافظة على نفسه وحب البقاء فى الحكم، وهى تشبه الحجة التى استعملها الإسرائيليون للقضاء على الطوائف غير اليهودية فى بلادهم».

ثم يزيد هذا الموقف إيضاحاً فيقول فى صفحة ٩٠:

رغم أن الرسميين الغربيين الذين يكرهون عبد الناصر طالما رفعوا أصواتهم من وقت لآخر ليصفوه بالدكتاتورية والفاشية — رغم هذا — فالواقع الذى حدث هو أن الحكومة الأمريكية وإلى حد ما الحكومة البريطانية كانا يرقبان بكل انتباه عبد الناصر وهو يبنى قوته الباطشة (ضد أبناء وطنه) ويتغافلون عن ذلك.

تقرير إيخلبرجر اليهودى الأمريكى الذى اعتمده عبد الناصر دستوراً له:

استقدمت الحكومة الأمريكية الخبير «إيخلبرجر» ليشير على عبد الناصر فى كيفية «التجاوز» عن النظام النيابى (إلا مايلزم للتمويه) وكيفية إقامة دكتاتورية عسكرية. لذلك اهتم هذا الخبير أول كل شىء بتوجيه عبد الناصر وجماعته إلى عدم المسالمة مع القوى

الداخلية فى مصر، وإلى عدم الاعتدال فى السياسة الداخلية، وإلى وجوب الاعتماد على قوة رادعة باطشة يكون الجيش أول أداة لها.. وكون الجيش عاملاً أساسياً فى سياسة البطش التى يتبعها الحكم الثورى معناه أنه لايكون صالحاً للحرب والدفاع عن الوطن. وقد أوضح كوبلاند أنه كان من المتفق عليه دائماً بينهم وبين عبد الناصر أن الجيش المصرى يعد فقط لأغراض داخلية — لا للحرب — وفى ذلك يقول فى صفحة ٨٥:

«فيما يخص الموقف الأمريكى نحو استخدام عبد الناصر للجيش كقوة باطشة يجب أن نذكر مايلى:

من أول يوم عندما كان عبد الناصر يطلب مساعدات عسكرية لم يكن هناك احتمال لأن يستعمل الجيش فى أغراض عسكرية تقليدية، ولم يكن الموضوع متعلقاً بمواد عسكرية كبيرة؛ إن الموضوع كان مقصوراً على حاجته لأغراض الأمن الداخلى وحدها لقد أوضح عبد الناصر لسفرائنا أن نظامه يعتمد على العسكريين لحمايته، وأنه يعتقد أن الجيش إذا كان فى حالة سيئة فإنه سيفقد ولاءه له».

وفى صفحتى ٧٤، ٧٥ يقول: «إن الظهور بمظهر «الاعتدال والمسالمة» من جانب عبد الناصر لم يكن سببه أنه لم يكن يعرف هدفه (أى الدكتاتورية) ولم يكن معناه أنه سيتخلى عن الدكتاتورية أو أنه سيتجه نحو نظام ديمقراطى، كما ظن فى ذلك الوقت كثير من المراقبين الغربيين — بل سبب التردد أنه لم يكن يعرف كيف يصل إلى هدفه وهو «تجاوز النظام النيابى».

وبعد أن يعرض كوبلاند تقرير إيخلبرجر يقول فى صفحة ٧٧:
«لقد كانت نقطة الانطلاق (فى السياسة الناصرية) هى ضرورة وجود قاعدة للبطش (أى الدكتاتورية والإرهاب) حسب الخطوط التى رسمت لذلك فى تقرير إيخلبرجر».

وفى صفحة ٩١ يقول كوبلاند «يجب أن نذكر دائماً فى تعاملنا مع عبد الناصر أن قاعدة «البطش الداخلى» هى أهم شىء عنده. ولذلك لاتعجب إذا رأينا أنه — بعد أكبر هزيمة ساحقة فى التاريخ العسكرى الحديث — يجلس عبد الناصر وأعوانه لاليبحثوا كيف ينقذون مصر وبنوها، بل ليبحثوا كيف يستعيدون سيطرتهم على الجيش. وسيبقى هذا هو الشغل الأول لهم..».

ثم يختتم الفصل الذى خصصه فى كتابه لتبرير إرهاب عبد الناصر بقوله فى صفحة ١٧٦:

«إننا — نحن الأمريكيين — نستفيد من نفوذ عبد الناصر لتنفيذ بعض مشروعاتنا مثل مشروع «أريك جونستون» الخاص بمياه نهر الأردن؛ وهو مشروع لايمكن تنفيذه — كما

يقول جونستون نفسه — إلا بنفوذ من هذا النوع «الناصرى» ومثال آخر: محاولاتنا المتكررة لجعل عبد الناصر يتولى زعامة «تهدئة التوتر» بين العرب وإسرائيل.. وإن حكومتنا قد بدأت عملية (على الأقل) تضمنت تأييدنا لزعامة عبد الناصر تمكينه من تنفيذ ذلك».

ويظهر أن هذا — فى نظر كوبلاند — هو فصل الخطاب؛ فمن أجل إسرائيل ومصلحة إسرائيل يباح كل شيء، ويستباح كل شيء حتى «الإرهاب»...

القاعدة الغوغائية لنظام عبد الناصر:

فى ختام الفصل السادس من كتابه يقول كوبلاند:

«إن استعمال عبد الناصر للعناصر المكونة لقاعدته الفوغائية مثل الدعاية والإعلام، والحزب أو التنظيم السياسى، والتضخم الحكومى — إنما قصد بها إبقاء زعامته. وإذا كنا سنرى فى الفصل التالى كيف اتجه إلى «البونابرتية» إلا أن وجهة النظر الناصرية هذه كانت وستبقى أحسن شيء لخدمة أهدافنا، طالما عملنا حسابنا للاستفادة من محاولاته للاحتفاظ بالتأييد الشعبى وتأثير ذلك على تحركاته فى لعبة الشعوب».

صفقة الأسلحة السوفييتية كنموذج «للعبة الشعوب»:

يقول كوبلاند فى صفحة ٤٦ «إن الزعيم أو الزعماء الذين يستطيعون القيام بانقلاب للاستيلاء على الحكم، ويريدون أن يضمنوا البقاء فيه والقيام بدور «إيجابى» (من وجهة النظر الأجنبية طبعاً) يتحتم عليهم أن يكونوا من «نوع» يبعد عنهم شبهة كونهم عملاء لنا، ويبعدهم عن التصرف بطريقة توافق مزاجنا بصفة كاملة. وبالاختصار، فإننا عندما نساعد زعيما للوصول إلى الحكم لكى يحقق لنا «الخير» الذى نتطلع إليه، يجب أن نستعد لمواجهة بعض المبادرات «السيئة» ضدنا التى يضطر إليها من أجل بقائه فى الحكم بعد وصوله إليه. إن الجهاز السياسى الذى يكون تحت سيطرته إذا كان طبيعياً (يجب أن يكون كذلك ليضمن البقاء) سوف يكون بداخله عناصر معادية لمصالحنا.

«إن النقطة الأساسية فى هذا الكتاب هى أن «استراتيجيتنا» على الأقل فى علاقتنا بالدول غير الغربية، يجب أن تفترض أن مائدة «اللعب» عليها عدد من اللاعبين، الذين يتحتم عليهم أن لايكونوا دائماً على مزاجنا، ومع ذلك نكسب منهم بواسطة تكتيك يختلف عما نستعمله مع خصومنا فى اللعبة، مثل السوفييت والصينيين — وكذلك يختلف عما نستعمله مع أصدقائنا الذين نلعب معهم «لعبة تعاون»..».

يقول الدكتور محمد صادق: ولكى نعطى القارىء صورة عن كيفية حبك مثل هذه

المبادرات المسرحية وكيفية إخراجها بتعاون الطرفين اللذين يتقاسمان أدوارها حتى تؤدى إلى غرضها «الديماجوجى» المطلوب (زيادة شعبية الحاكم الناصرى) بموافقة القوى الأجنبية وتواطئها وتشجيعها ومساعدتها — ننقل له قصة «صفقة الأسلحة السوفيتية» التى عقدها عبد الناصر فى سبتمبر ١٩٥٥، واستغلت أحسن استغلال فى الإعلام فى داخل مصر وخارجها فى جميع أنحاء العالم لإظهار عبد الناصر أنه أكثر زعماء آسيا وأفريقيا استقلالاً، وأكثرهم جرأة وتحدياً للسياسة الأمريكية.

ولكن الجماهير لاتعرف أن سبب هذه الجرأة وهذا الإقدام هو حصوله مقدماً على موافقه أمريكا وتأييدها لهذه العملية — بل إن الكاتب «كوبلاند» يشرح لنا كيف أن الأمريكيين قاموا بالدور الرئيسى فى إخراج العملية بهذه الصورة لمصلحتهم هم أولاً، وعبد الناصر معهم.

ونستعرض الآن الكيفية التى أخرجت بها «المبادرة المسرحية» وعرضت عرضاً مثيراً بتدبير المخابرات الأمريكية حسبما أوضح لنا المؤلف «كوبلاند» بإسهاب وتفصيل فى كتابه:

١ — أول شيء يكشفه لنا «كوبلاند» أن المخابرات الأمريكية كانت على علم بالمفاوضات الجارية بين عبد الناصر وبين موسكو لعقد هذه الصفقة، وذلك قبل شهر أغسطس عام ١٩٥٥. إنه يقول لنا إنه وصل واشنطن عائداً من مصر فى أواخر أغسطس (صفحة ١٣٢)، وهناك اطلع بوزارة الخارجية على برقية من السفير «بايرود» عن العرض السوفيتى تضمنت مايلى حسب روايته:
«إننا (الأمريكيين) يحسن أن نراجع أفكارنا عن إعطاء الروس مساعدات عسكرية لمصر — إننا إذا لم نقدم بعض المساعدات العسكرية بسرعة، فإن عبد الناصر سوف يقبل عرضاً روسياً ذكرت المخابرات الأمريكية أنهم قدموه له.. وأنه إذا حدث ذلك فإنه يعتقد أن النفوذ الروسى سيزداد فى المنطقة كما حدث فعلاً بعد ذلك (صفحة ١٣٣).
ويقول كوبلاند تعليقاً على هذه الرسالة إنها رغم أهميتها فإنها لم تكن مثيرة (لعله يقصد أنها لم تكن مفاجأة له أو لوزارة الخارجية — صفحة ١٣٢) وإن الموضوع عرض على اللجنة التى كان يشترك فيها، وأخذ طريقاً روتينياً لايشير إلى أى اهتمام من جانبهم له (صفحة ١٣٣).
معنى ذلك أن الأمريكيين أهملوا الموضوع ولم يفكروا قط فى منع المفاوضات بين عبد الناصر والروس، ولم يطلبوا منه عدم الاستمرار فيها طول هذه المدة — من أغسطس إلى منتصف سبتمبر.

٢ ــ الأمر الثانى الذى كشفه أن عبد الناصر نفسه قبل أن يتمم الصفقة، وقبل أن يوقعها بعث لهم «يستأذنهم» فى ذلك ويطلب من روزفلت إن كان لديه أى اعتراض عليها فهو على استعداد للترحيب به (صفحة ١٣٣): «وفى منتصف سبتمبر (أيول) عام ١٩٥٥، تلقى كيم روزفلت رسالة شخصية من عبد الناصر قال فيها إنه على وشك أن يوقع اتفاقاً مع الروس بشأن هذه الصفقة، وأنه إذا كان روزفلت يريد أن يعترض على ذلك فإنه يرحب بهذا الاعتراض».

٣ ــ إن هذا «الاستئذان» لم يحدث أى اضطراب أو مناقشات أو دراسات، كأن الأمر كان مدروساً وكان الجواب حاضراً معداً ــ إذ قرر روزفلت وكوبلاند أن يسافرا إلى القاهرة، وسافرا فعلاً فى اليوم التالى لوصول رسالة عبد الناصر.

٤ ــ إن الجواب الذى حمله الاثنان إلى عبد الناصر كان مفاجأة له ــ لأنه لم يكن لديهم أى اعتراض.. هكذا قال (صفحة ١٣٣):

«استقبلنا فى المطار أحد أعوان عبد الناصر وأخذنا رأساً إلى مسكنه فى الطابق الأعلى من مبنى مجلس قيادة الثورة، فوجدناه فى انتظارنا على غاية السرور، وكان يتوقع أن يناقشه روزفلت ويسمع حججه، ولكنه فوجىء لأن روزفلت بدلاً من أن يناقشه ويحاول أن يقنعه بالعدول عن الصفقة، لم يعترض عليها».

٥ ــ إن السبب الذى ذكره روزفلت لتأييد إتمام الصفقة يتضمن شقين: أولهما أن يستفيد عبد الناصر من الشعبية الناتجة عنها، أما الثانى فهو المقابل الخفى له وهو إعلانه بأنه على استعداد للقيام بمجهود «مشترك» مع إسرائيل لإقامة سلم دائم فى المنطقة.. وهذه هى عبارته (صفحة ١٣٣):

«قال روزفلت: إذا كانت الصفقة بهذه الضخامة فقد تزعج البعض (من الأمريكيين والغربيين)، ولكنها على العموم ستجعل منك بطلاً عظيماً ــ فلماذا لاتستفيد (أنت) من هذه الشعبية المفاجئة لتقوم بعمل يليق بسياسى محنك (لصالحنا نحن)، إنه لن يقلل من شعبيتك شيئاً إذا قلت على سبيل المثال: ــ «لقد حصلنا على هذه الأسلحة لأغراض دفاعية فقط، وإذا أراد الإسرائيليون أن ينضموا إلينا فى مجهود مشترك لقيام سلم دائم فى المنطقة فستجدوننى على استعداد لذلك».. أو شيئاً من «هذا القبيل».

٦ ــ طبعاً لم يقل لنا المؤلف (كوبلاند) شيئاً عن موقف إسرائيل، ولكننا نفترض أن الإجابة التى فاجأ بها روزفلت عبد الناصر لايمكن أن تكون قد أعدت إلا بعد مشاورات مع إسرائيل.. أغلب الظن أنه كان من مصلحة إسرائيل قطعاً أن يتجه عبد الناصر والعرب إلى التسلح من الكتلة الشرقية لتستأثر هى وحدها

بالتزود بالأسلحة من الدول الغربية — وهذا هو التعليل الوحيد لموافقة المخابرات الأمريكيه على الصفقه ومواجهتها بهذا البرود وعدم إبداء أى محاولة لإيقافها أو الاعتراض عليها، بل إن إعداد الخطة للاستفادة منها وتوزيع الفائدةبينهم وبين صديقهم عبد الناصر وصديقتهم إسرائيل فينال هو الشهرة، وينالوا هم خطوة عملية للصلح مع إسرائيل؛ وتنال إسرائيل أسلحة أمريكية تفرض بها الصلح عند الضرورة بطريقتها الخاصة.

٧ — لقد ربط روزفلت بين تطمين إسرائيل، وبين فرصة الحصول على شعبية مفاجئة، ثم ربط بين الأمرين وبين ناحية ثالثة هى تدعيم مركز عبد الناصر فى أوساط الدول المحايدة أو الدول الأسيوية والأفريقية — لإتمام دوره الذى بدأه فى باندونج.. هكذا قال لنا (صفحة ١٣٣ الفقرة الأخيرة):
«لقد ناقشنا الفكرة (التى عرضها روزفلت وهى تطمين إسرائيل بإعلان الاستعداد للسلم الدائم..) حتى منتصف الليل، ورأينا أن يكون «تصريح» عبد الناصر بهذا الصدد بأسلوب سياسى راق يكسبه هتاف الجميع؛ ليس فقط الثوريين بل المحافظين أيضاً من أبناء وطنه بل من البلاد الأخرى وخاصة الكتلة الشرقية — ثم يتبع ذلك بتزعم حملة تدعو للحياد فى السياسة الدولية تكون مؤيدة من جميع الجهات (الغربية والشرقية وغير المنحازه)».

٨ — أضاف روزفلت بأنه إذا تم ذلك فإن عبد الناصر فوق رضاء أمريكا وموافقتها سيحصل منها على مساعدات مالية واقتصادية (صفحة ١٣٣):
«إلى جانب هذا يستمر عبد الناصر فى إصلاحاته الاجتماعية والاقتصادية فى الداخل بمساعدة أمريكا».

٩ — اتفق على أن يقوم الكاتب نفسه (كوبلاند) بتحضير مسودة للفقرة التى اقترحها روزفلت متضمنة التصريح الخاص بالسلم مع إسرائيل (نهاية صفحة ١٣٣ وأول صفحة ١٣٤) — وفى مساء اليوم التالى عرضت المسودة على عبد الناصر فوافق عليها مع تغيير عبارة «السلم مع إسرائيل» بأن وضع بدلها «تخفيف التوتر بين العرب وإسرائيل» (صفحة ١٣٤).

١٠ — إن ذلك كله كان على درجة كبيرة من السرية والتكتم فى الأوساط الأمريكية ذاتها؛ حتى إن أحداً فى وزارة الخارجية لم يعلم به سوى وزير الخارجية المستر «دلاس»، بل إن السفير الأمريكى نفسه المستر «بايرود» لم يعلم بوصولهم ولا بماتم بينهم وبين عبد الناصر وأصحابه، وفوجىء برؤيتهم فى مساء اليوم التالى أثناء حفلة عشاء (صفحة ١٣٧).

١١ ـــ فى مساء اليوم التالى أثناء اجتماعهم فى مسكن عبد الناصر فوجئوا بزيارة السفير البريطانى له. وقد قص المؤلف (كوبلاند) علينا قصة هذه الزيارة ليبين لنا كيف جاء السفير وقابل عبد الناصر وخرج وهم فى الغرفة المجاورة دون أن يعرف (لاهو ولا السفير الأمريكى) شيئاً عن وجودهم ولا عما تم بينهم وبين عبد الناصر ــ وكانوا هم يتناولون الويسكى من زجاجة من نوع «الاسكوتش» يحتفظ بها عبد الناصر عادة بمنزله للزوار الممتازين (صفحة ١٣٤)».

ويصف لنا المؤلف (كوبلاند) مشهد حضور السفير البريطانى وخروجه وهم يرقبونه ويتضاحكون ساخرين منه فيقول فى (صفحة ١٣٥):

«كنا نرقب الأنوار المضاءة تشع على مبنى السفارة البريطانية فى الجانب المواجه لنا من شاطىء نهر النيل.. وشاهدنا سيارة السفير البريطانى وهى تخرج به من السفارة إلى الشارع الرئيسى (الكورنيش) ثم تعبر الجسر (قصر النيل) ونحن نتحدث مع عبد الناصر فى الموقف الذى يتخذه من السفير البريطانى (عندما يسأله عن صفقه الأسلحة) الذى كان مثل سفيرنا بايرود لايعلم بوجودنا فى القاهرة (ومن باب أولى لايعلم برأيهم فى الموافقة على الصفقة وتشجيع عبد الناصر عليها)، ذلك أن وزير خارجيتنا المستر فوستر دلاس لم يخبر أحداً فى وزارة الخارجية (لابسفرنا ولا بالغرض منه طبعاً)، وكذلك لم يخبر البريطانيين وكذلك لم يخبر سفيره بالقاهرة لاعن دعوة عبد الناصر لنا ولا عن أننا حضرنا إلى القاهرة بناء على هذه الدعوة لإقناعه بإتمام الصفقة صفقة الأسلحة التى تعد خطوة جريئة تؤدى إلى افتتاح مرحلة جديدة من الصداقة (معنا أو مع إسرائيل؟) ومن التطور الاقتصادى (لاحظ كل هذه الاحتياطات لسرية الموضوع).. لقد كنا نحن نبحث ماذا سوف يقول (رئيس جمهورية مصر) للسفير البريطانى فى هذه الظروف (ظروف السرية المطلقة)، فقال روزفلت لكى تكسب الوقت إلى مساء الغد (حينما يعلن نبأ الصفقة فى خطبة له) قل له إن الأسلحة من تشيكوسلوفاكيا. وبهذا يكون تأثيرها أقل عنفاً حيث إن التشيكيين هم مصدر رئيسى للأسلحة بالنسبة لإسرائيل..».

ولم تستمر زيارة السفير البريطانى أكثر من خمس دقائق، ولكنها كانت موضوع تعليقات ونكات طول الليل بين الأصدقاء وخاصة بين المؤلف (كوبلاند) وصديقه «زكريا محيى الدين» الذى سأله أن يتصور دهشة السفير البريطانى لو علم بأنكم هنا فى غرفة مجاورة للغرفة التى قابل فيها عبد الناصر، وكيف تكون ملامحه لو أن روزفلت أو كوبلاند دخل عليهما فجأة وبيده كأس الويسكى. وقال لعبد الناصر:

عفواً.. صديقى جمال.. لقد انتهت الصودا.. فمن أين نحصل على مزيد منها..!!

يقول الدكتور محمد صادق:

إن الذين عاشوا ظروف هذه المسرحية وعاصروها لم يسمعوا شيئاً مما ذكره المؤلف. ولم يعرفوا إلا مانقلته وكالات الأنباء من أخبارها، وهم يذكرون أن الصورة التى عرضت بها فى الصحافة المصرية والصحافة الأمريكية والصحافة العالمية كانت تقنع الرأى العام ورجال السياسة فى كثير من الدول بأن هذه الصفقة كانت تحدياً للسياسة الأمريكية، وأن عبد الناصر دخل بسببها فى مجابهة مع أمريكا وفى مشكلة مع العالم الغربى، وخرج منها منتصراً، وبذلك أصبح بطلاً فى نظر الشعوب الأفريقية والأسيوية، وبصفة أخص الشعوب العربية التى تكره الغرب بسبب موقفه المؤيد لإسرائيل. ولم يكن ذلك كله إلا نتيجة لاستعمال أساليب التمويه والخداع وبتعاون وتواطؤ من الجانبين اللذين أقنعا العالم بأنهما على خلاف كبير فى الوقت الذى كان الاتفاق بينهما على أتمه.

هل كان إنشاء هيئة التحرير وأخواتها توجيهاً أمريكياً أيضاً؟

يسمى كوبلاند هذه الهيئات التى تنشئها الحكومة «قاعدة غوغائية». وإذا رجعنا إلى تقرير «إيخلبرجر» سنرى كيف أن هذه «القاعدة الغوغائية» إنما هى وسيلة من وسائل التمويه لتمكين النظام الدكتاتورى من استعمال الألفاظ والمصطلحات التى يستعملها النظام الديمقراطى استعمالاً زائفاً مضللاً يصرف الجماهير عن المطالبة بحقوقها الديمقراطية وحرياتها السياسية، كما يمكنه من استعمال وسائل البطش والعنف وراء هذا الستار الغوغائى اللفظى.

وقد ألحق كوبلاند فى آخر كتابه نص تقرير إيخلبرجر فنرى هذا التقرير يقول فى صفحة ٢٥٢:

«كل هذه المخاطر (مخاطر وجود منافس للحاكم الثورى أو شريك فى السلطة) يمكن إبعادها إذا قامت الحكومة الثورية خلال الفترة التى تتمتع فيها باحتكار السلطة والنشاط السياسى (القانونى)ــ باستغلال الامتيازات التى تنفرد بها دون غيرها، لتضع الأسس لنظام دستورى» يقوم على سيطرة الحزب الواحدــ وهذا الحزب هو الذى يرث «الثورة»ــ ثم يرسم للحكام الناصريين كيف ينشئون مثل هذا «الحزب» ويعلمهم كيف يموهون ويداهنون ويتحايلون فيقول فى نفس الصفحة وما بعدها:

«فى فترة حل الأحزاب وتعطيل الانتخابات، يجب أن لاتسمى هذه «المنظمة» حزباً سياسياً، ولكن يجب أن تنظم فى الواقع تنظيماً حزبياً حقيقياً، فيكون لها «وحدها» مركز رئيسى ومراكز بالأقاليم وفى المدن والقرى، ويكون لها ممثلون ومسيرون إداريون ذوو سلطات سياسية وإدارية، ويكون لها سكرتاريات من أشخاص متفرغين تدفع لهم مرتبات، ويكون لها أجهزة إعلامية ومطبوعات ونشرات.. ألخ ــ وزيادة فى التمويه يكون لهذه المنظمة غرض علنى غير غرضها الحقيقى».

«إن الغرض «العلنى» لهذه المنظمة هو خلق مجتمع «أخوى» يضم المؤيدين لأهداف «الثورة». ولكن الغرض «الحقيقى» هو إيجاد واجهة دعائية للحكومة لكى تنشىء حزباً سياسياً فى المستقبل باجتذاب طوائف من الشعب للنشاط السياسى الموجه من الحكومة وتدريبهم على هذا العمل..».

ويواصل إيخلبرجر عرضه لأساليب إنشاء هذا الحزب الحكومى فيقول فى صفحة ٢٥٣:

«كيف تصل إلى هذه الأهداف؟ (أى إنشاء حزب حكومى «ثورى») إن السر فى نجاح هذه المنظمة هو ارتباطها الوثيق بالحكومة «الثورية» نفسها — على أن تبقى هذه الصلة غير رسمية — إنها ستكون فقط منظمة «تسمح» بها الحكومة؛ على أن يكون قادتها هم ذاتهم قادة الحكومة فى الغالب — وعندما يكون الوضع هكذا، فإن «جماهير» الناس الذين استفادوا من «الثورة» والذين يدينون بالولاء لقادتها، سوف تجذبهم عضويتها «أوتوماتيكياً» ويمكن أن يتوفر عدد من المسيرين من بين موظفى الحكومة — لأن جميع موظفى الحكومة يمكن **بل يجب أن ينضموا لها ويكون ذلك شرطاً لبقائهم فى الوظيفة**.

«وزيادة على ذلك، فإن السلطة المطلقة الواسعة التى تتمتع بها الحكومة فى الإدارة، وفى الأشغال العامة، يجب أن توضع فى خدمة هذه المنظمة. ففى حدود صلاحيات الإدارة والسياسة «الوطنية» تصبح مراكز المنظمة «وكالات أعمال» لخدمة الأفراد والطوائف الذين لهم مصالح عند الحكومة وموظفيها، أو يريدون الوصول إلى المسئولين (عن طريق الانضمام إلى المنظمة الحكومية).. يجب أن يصبح واضحاً للجميع **أن التعاون مع هذه المنظمة هو السبيل المؤكد لقضاء المصالح من الجهات الحكومية** — على أن لايعلن ذلك بصفة رسمية. ومقابل هذه «المصالح» تحصل المنظمة على انضمام كثير من الأفراد، الذين قد يبقون بدون ذلك غير مهتمين بها — ويمكنها أيضاً أن تحصل منهم بسهولة على اشتراكات أو معاونات لها فى نشاطها (كالاستخبارات مثلاً)..».

ويشير كوبلاند إلى نتيجة تنفيذ عبد الناصر لما جاء فى تقرير إيخلبرجر فى هذه الناحية فيقول فى صفحة ١٠٨:

«فى أوائل عام ١٩٦٧، كان عند عبد الناصر مليون من الموظفين المدنيين تقريباً — فضلاً عن القوات المسلحة نصف مليون، وموظفى الشركات المؤممة — فى حين أن مؤسسة «ألن بوزوهاملتن» التى يتوفر لها أعظم الخبراء فى الإدارة العامة فى العالم كله، قررت أن الحكومة المصرية لايمكن أن تستخدم أكثر من مائتى ألف موظف (الخمس)، وكل زيادة على ذلك تعطل عمل الإدارة الحكومية.

وهكذا فإن عبد الناصر يحصل على مليون من الأعضاء فى حزبه من طبقة الموظفين

المتوسطة لتدعيم سلطته ــ وأغلبهم مقيم فى القاهرة والإسكندرية؛ مقابل ذلك يلقى بالإدارة الحكومية فى الفوضى..».

مدى مساعدة أمريكا عبد الناصر فى الدعاية ضد الإخوان المسلمين:

لكى نعرف مدى اهتمام القوى الخارجية بمساعدة عبد الناصر فى توجيه أجهزة الإعلام لتحطيم الإخوان المسلمين نرجع إلى ماقاله كوبلاند فى صفحتى ٨٣، ٨٤ حيث يقول:

«إن الدعاية الحكومية قد استخدمت على كل حالٍ بطريقة ناجحة كوسيلة لمحاربة خصوم النظام الناصرى، وإظهارهم بصورة بغيضة تبرر استخدام العنف والبطش ضدهم.. **وهذا الاتجاه قد حظى بمباركة الأمريكيين وتأييدهم الكامل**؛ فإن السفير «كافرى» عمل الترتيب اللازم مع عبد الناصر **لكى تستعير الحكومة المصرية أكبر الخبراء فى العالم الغربى كله للدعاية «السوداء»** (أى التشهير بالخصوم) **والدعاية «السمراء» أو «الرمادية»** (أى التشهير بالخصوم عن طريق مدحهم والثناء عليهم) ــ هذا الخبير اسمه «بول لاينبرجر».. الذى علم المصريين الذين يعملون بالإعلام الحكومى كيف يحطمون الشخصيات التى تحيطها الجماهير بالقداسة والإعجاب (مثل اللواء نجيب مثلاً) عن طريق التظاهر بالثناء عليهم ــ وهو أسلوب مازال المصريون إلى اليوم يستعملونه ضد خصومهم فى العالم العربى».

يقول الدكتور محمد صادق: ويظهر أن المعاونة الخارجية للنظام الناصرى فى هذا المجال لم تقتصر على المساعدة «الفنية» البحته بل إنها تجاوزت ذلك إلى حد التنسيق بين أجهزة الإعلام الناصرية والأجهزة الإعلامية الأجنبية ــ ذلك التنسيق الذى يقوم على أساس عملية توزيع «الأدوار» التى تقوم بها هذه الأجهزة للوصول إلى هدف واحد ــ ضد «عدو مشترك»».

ومن أطرف نماذج هذا التعاون الأمريكى الناصرى فى ميدان الدعاية «السوداء» والدعاية «السمراء» هو ماذكره كوبلاند عن الدور الذى قام به الأمريكيون بواسطة مخابراتهم لمعاونة الإعلام الناصرى فى مهاجمة «الإخوان المسلمين» والتشهير بهم.

يظهر أن مهمة التشهير بالإخوان المسلمين التى كانت تقوم بها أجهزة الإعلام الناصرى بطريق الدعاية «السوداء» كانت صعبة جداً بسبب ماكانت تتمتع به حركة الإخوان المسلمين فى ذلك الوقت من هالة البطولة بسبب أعمالها الفدائية ضد القواعد الإنجليزية فى القنال، وضد الإسرائيليين فى فلسطين قبل ذلك ــ فضلاً عن مقاومتهم للشيوعية ــ ولم تجد الدعاية الناصرية «المواد» التى تستند إليها فى اتهامهم والتشهير بهم ــ

وكوبلاند قدم لنا الدليل على أن المخابرات الأمريكية خفت لنجدة النظام الناصرى فى هذا الصدد. إنه يذكر لنا كيف أن «المخابرات المركزية الأمريكية» تدخلت لدى المسئولين فى واشنطن وطلبت منهم أن يتصلوا بالمسئولين فى إسرائيل، لكى تتولى الدعاية الصهيونية نفسها «معاونة» الدعاية الناصرية بطريقة غير مباشرة وغير ملحوظة ـ باستعمال الأسلوب الذى سماه المؤلف بالدعاية «السمراء» ـ والتى كان أكبر خبير فيها هو «لاينبرجر» الذى استعارته الحكومة المصرية، والذى عرفنا به المؤلف وقدم له فى صفحه ٨٤ بقوله:

«إن «بول لاينبرجر» أكبر خبير فى العالم الغربى للدعاية السوداء والدعاية السمراء، وكان يعمل أثناء الحرب العالمية الثانية بأجهزة الإعلام الأمريكية، وكان يذيع باللغة الألمانية مايظنه الألمان العاديون فى مصلحة ألمانيا، ولكن كان هدفه الحقيقى تحطيم الروح المعنوية للشعب الألمانى».

والغريب أن المؤلف (كوبلاند) يؤكد أن الدعاية الشيوعية قد سبقت الأمريكيين فى استعمال هذا الأسلوب ضد الإخوان المسلمين عن طريق توجيه إذاعة موسكو للثناء على الإخوان المسلمين وذلك لمعاونة عبد الناصر على توجيه تهمة «التحالف» مع الشيوعيين إلى الإخوان المسلمين مما يترتب عليه أن يفقدوا أنصارهم (الذين يؤيدونهم لأنهم أكبر أعداء الشيوعية) ـ وعند ذلك سارعت المخابرات الأمريكية ووسطت «واشنطن» لإقناع إذاعة إسرائيل بأن تدخل العملية وتقتدى بإذاعة موسكو فى استعمال هذا الأسلوب بالثناء على الإخوان وإظهارهم بأنهم أكبر قوة شعبية فى مصر وأنهم سوف يحطمون الحكم الناصرى بما لديهم من قوة ونفوذ ـ وبذلك استطاعت أجهزة الإعلام الناصرية أن تستغل دفاع الإذاعة الإسرائيلية عن الإخوان المسلمين لكى تزعزع معنويات أنصارهم (الذين يؤيدونهم على اعتبار أنهم أكبر أعداء إسرائيل) فيفقدوهم ـ كما فقدوا أنصارهم الذين يؤيدونهم لأنهم أكبر أعداء الشيوعية.

هذه هى الصورة التى يقدمها لنا المؤلف «كوبلاند» فى كتابه صفحة ١٥٦ وما بعدها ننقلها للقارىء لكى يرى مدى الميكيافيلية التى تصل إليها أجهزة الإعلام ـ وأجهزة المخابرات التى توجهها ـ وكيف تصل إلى تنسيق الأدوار فيما بينها إذا كان العدو الذى يريدون القضاء عليه فى نظرهم «عدواً مشتركاً» وكان خطره على مصالحهم جميعاً يبرر تعاونهم فى التشهير بهذا «العدو» رغم ماقد يبدو بينهم من منافسات وعداوات فى شئون أخرى:

«فجأة (فى عام ١٩٥٤) هاجمت الصحافة الروسية فاشية عبد الناصر، ومدحت «الإخوان المسلمين» باعتبارهم أكبر قوة معادية للإمبريالية فى مصر.. «حينذاك أرسل»

رئيس المخابرات الأمريكية إلى وشنطن يطلب منها (أى من وزارة الخارجية أو المخابرات المركزية) أن تقنع إسرائيل **بأن تسير دعايتها فى نفس هذا الخط الذى سارت عليه الدعاية السوفيتية** (خط مدح الإخوان المسلمين، بقصد التشهير بهم لدى أنصارهم فى الرأى العام المصرى والعربى). على أنه يجب أن تركز (الدعاية الإسرائيلية) على تضخيم قوة الإخوان وقدرتهم على القضاء على عبد الناصر. وهكذا تعاون السوفيتيون والإسرائيليون (بتحريض من المخابرات الأمريكية باعترافه) على «مدح» الإخوان المسلمين. وهى العملية التى تنتج عما يسمى بأسلوب «مدح العدو» (للقضاء عليه وتشويه سمعته لدى أنصاره)..».

وهكذا يعترف لنا المؤلف «كوبلاند» الأميركى بأن «المخابرات المركزية» كانت تعتبر «الإخوان المسلمين» عدواً لها ــ فى حين أن معارضة الإخوان للحاكم الناصرى كانت مسألة داخلية بحته فى مصر ــ فضلاً عن ذلك فإنها كانت تعلم أن إسرائيل أيضاً كانت تعتبرهم كذلك «عدواً» لها، وكذلك الشيوعيون ــ إنه يؤكد لنا أن المخابرات الأمريكية قامت بدور التنسيق والوساطة بين أجهزة الإعلام الناصرية والإسرائيلية فى هذا الموضوع ــ فضلاً عن أجهزة الإعلام السوفيتية ــ التى لانعرف للآن من قام بدور الوسيط بينها وبين الأجهزة المصرية.

كيف استغلت قضية فلسطين فى الديماجوجية الإعلامية؟

يقول الدكتور محمد صادق: ليس قراؤنا بحاجة إلى من يشرح لهم كيف استغلت قضية فلسطين فى الدعاية للزعيم الناصرى وإظهاره بمظهر البطولة الأسطورية، بترديد أناشيد الحرب ضد إسرائيل «ومن وراء إسرائيل» وغير ذلك وأمثاله من «الهجومات اللفظية التى يقصد بها الاستهلاك الداخلى». ولكن الغريب الذى يتحير أمامه القراء هو مايدعيه «كوبلاند» من أن عملية الاستغلال الديماجوجى لقضية فلسطين نوقشت ودرست فى بعض الأوساط التى تخطط للسياسة الأمريكية، وتقرر أن يسمح بها للزعيم المنتظر الذى يتعاون معهم فى الخطوات العملية المؤدية إلى «الاعتدال» فى الوقت الذى يكون كلامه مؤدياً إلى الإثارة والاستفزاز والتهييج لعواطف الجماهير الساذجة. ويؤكد لنا كوبلاند أن ذلك كان من ضمن المسائل التى قررتها «لجنة الخبراء» فى نهاية عام ١٩٥١، والتى أعدت الخطوط العريضة للعملية الكبرى، عملية الانقلاب الناصرى.

وقد أورد «كوبلاند» فى (صفحة ١٣٠) توضيحاً لهذه السياسة رأى السفير الأمريكى فى مصر «بايرود» حيث يقول للخارجية الأمريكية: «إنه يرى إمداد عبد الناصر بالمساعدات العسكرية لأنه من زعماء العرب الذين يمكن للدبلوماسيين الغربيين أن

يتفاهموا معهم وأنه يمكن له أن يتناقش معه أى موضوع بما فى ذلك احتمالات الصلح مع إسرائيل.. وإنه لذلك يرى ضرورة بقاء عبد الناصر فى الحكم».

هذا الأسلوب الناصرى يحقق للحاكم هدفه الشخصى بالبقاء فى الحكم معتمداً على **قاعدتين متعارضتين**ـــ مساعدة خارجية من أعداء قضية فلسطين، وحماس شعبى من شعبه الذى يصدق أنه سوف يسترد له فلسطين ـــ ولكن الأخطر من ذلك هو كما قدمنا **أن القوى الخارجية لاتترك الحاكم الناصرى ينفرد وحده بثمار هذه الديماجوجية الاستغلالية لقضية فلسطين؛ فإن لها أيضاً أهدافها الخاصة وخططها التى بنيت لاستغلال هذه الديماجوجيه لصالحها فعلاً، وإن كانت هى ضدها قولاً وظاهراً.**

إن الهدف الميكيافيلى للقوى الخارجية من الديماجوجية الناصرية وصفه «كوبلاند» ولمح إليه دون أن يوضحه ـــ ولكن الكتاب كله فى جميع فصوله وعباراته يكشف عنه، إن هذا الهدف لايخرج عن تصفية النزاع العربى الإسرائيلى ـــ ولكن على الصورة التى يريدها الطرف الأقوى (وهو أكبر دولة على ظهر الأرض)، والوسيلة الميكياڤيلية الخطيرة لتحقيق هذا الهدف ليس مقاومة الحماس الشعبى العربى ضد إسرائيل ـــ بل على العكس من ذلك قد أصبحت الوسيلة هى **استغلال هذا الحماس لتمكين إسرائيل من تحقيق انتصاراتها وأهدافها** ـــ إن التطرف فى استثارة الشعوب وتضليلها لم يعد يخيف إسرائيل وحلفاءها، لأن عملية بسيطة يمكن أن تحول هذه الاستثارة لمصلحة إسرائيل إذا ترتب عليها استفزاز الشعوب ودفعها إلى عمل أهوج يترتب عليه صدمة عنيفة **«تجهض» المقاومة العربية وتقتلها** .

إن مما أسفرت عنه تجارب «الخبراء» فى الحرب النفسية، وفى الأسلحة السيكولوجية هو أن القضاء على حركات المقاومة يتم بصورة أتم وأكمل عن طريق «الإجهاض» الذى ينتج عنه تحطيم معنويات الجماهير، وزعزعة إيمانها بقضاياها وعقائدها ومبادئها، وتحطيم ثقتها بنفسها. إنه يكفى لذلك استثارتها بالوسائل الديماجوجية، واستفزازها بالأساليب الغوغائية، ودفعها بذلك إلى العمل قبل أوانه، أو إلى التطرف والعنف فى غير موضعه، أو فى غير وقته ـــ وبذلك يأخذ حماسها للقضية صورة ارتجالية فوضوية همجية؛ تؤدى إلى نتائج وخيمة وإلى «نكسات» وكوارث، تصبح الجماهير أمامها **مهيئة نفسياً للعملية الجراحية التى يقصد بها (استئصال «القضية» أو «العقيدة» من نفوس الجماهير)** عن طريق إقناعها التدريجى بأن الخطأ ليس من جانبها، وليس من جانب قادتها (الذين دفعوها إلى العمل قبل أوانه أو يسيرون على خطط خاطئة فاسدة) وإنما الخطأ فى أصل القضية، والعيب فى جوهر العقيدة، وما عليها إذا كانت تريد «علاج» القضية إلا أن تتخلص منها أو تدير ظهرها لها؛ وبذلك تتم عملية «الإجهاض» وتؤدى إلى استئصال القضية ودفنها.

وهكذا نرى أن استغلال الديماجوجية هو من أخطر الأسلحة المعروفة فى باب «الميكيافيلية» السياسية.. ومما لاشك فيه أنه إذا كان مجرد فهم هذه «العمليات» الميكيافيلية صعباً على الشخص العادى، فإن التخطيط لها وإعدادها وتنفيذها أصعب من ذلك، ويحتاج من المدبر والمخطط إلى أجهزة ضخمة من الخبراء والباحثين وذوى التجربة، التى لاتتوفر عادة إلا فى أجهزة تغذيها دول عظمى أو مايماثلها من قوى عالمية.

ولا شك فى أن دراسة علمية لكارثة عام ١٩٦٧ هى الكفيلة بأن تثبت لنا إلى أى حد كانت الشعوب العربية ضحية مخطط ميكيافيلى من هذا القبيل..

ماذا يقول «كوبلاند» عن كارثة ١٩٦٧؟:

فى صفحة ١١ فى مقدمة كتابه يوجه هذه الأسئلة للقراء:

- ما الذى جعل المصرين والبريطانيين يتخلون عن مواقفهم المتطرفة فى مشكلة قواعد السويس عام ١٩٥٤؟
- وما الذى أسقط حكومة «مصدق» فى إيران عام ١٩٥٣؟
- وما الذى جعل «الناصريين» يتسلقون إلى القمة فى الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٩٥٨، فى الوقت الذى كانت فيه جنود البحرية الأمريكية هناك ينظرون إليهم ولا يحركون ساكناً؟
- ولماذا امتنع عبد الناصر عن الدخول فى حرب مع إسرائيل فى أوقات كثيرة عندما كانت أمامه فرص للانتصار ثم يدفع بلاده إلى حرب خاسرة فى مايو عام ١٩٦٧ فى وقت كان فيه غير مستعد لها على الإطلاق؟

وإجابه عما يخص عبد الناصر من هذه الأسئلة يجيب كوبلاند فى صفحة ٢٣٩ من كتابه فيقول: «إن عبد الناصر لايعمل كما يظن كثيرون نتيجة استثارة أو نزوة أو أى دافع من البواعث السطحية إننا (نحن رجال المخابرات الأميركية، قد رسمنا الطريق أمام عبد الناصر، فسار فيه وقد تكون النتائج غير ذلك لو أنه أعد إعدادا من نوع آخر».

إن «كوبلاند» يقول ذلك دفاعاً عن عبد الناصر أمام الأمريكيين، وهو فى سبيل هذا الدفاع لايجد غضاضة فى أن يصرح لقرائه بأن عبد الناصر لم يدفع شعبه للهزيمة والكارثة نتيجة نزوة أو استثارة عارضة، ولا بسبب تطورات مفاجئة وغير متوقعة— بل إنه سار نحوها خطوة خطوة، فى طريق مرسوم ممهد ومعد إعداداً محكماً، وأن الذى أعد الطريق وهيأه له هى جهة خارجية، وهى رجال المخابرات الأمريكية، وقد تكون هناك جهات أخرى تعاونت معهم فى ذلك— بل إن المؤلف لايتورع عن أن يؤكد لنا أنهم لم يعدوا الطريق ويرسموه له فقط، بل إنهم «أعدوا» عبد الناصر نفسه إعداداً جعله يسير فى هذا

الطريق، وأنهم لو كانوا «أعدوه» إعداداً آخر لكانت النتائج غير ذلك.

ثم يومىء «كوبلاند» إلى أن «لعبة الشعوب» اقتضت آخر الأمر رفع يدها عن عبد الناصر والتنازل عنه طائعة مختارة للاتحاد السوفيتى فيقول فى صفحة ٢٣٢ وأوائل ٢٣٣:

«إنه، فى النهاية، بعد أن يكون المحللون الدقيقون فى واشنطن ولندن وموسكو أيضاً قد فهموا كل ذلك المسلك المنطقى (الذى يسير عليه عبد الناصر)، وتكون بقية العالم قد تعبت منه ـــ فإن إحدى الدول العظمى على الأقل، التى كانت تتنافس على رضائه، توقف هذه المنافسة وتقول: «يمكن لغيرى من الآخرين أن يحظى به». عند ذلك يصبح بإمكان الطرف الآخر أن يستولى عليه بثمن رخيص».

ثم فى صفحة ٢٣٥ يوضح لنا كوبلاند بصراحة أن الطرف الذى تخلى عن المنافسة وأوقفها هو أمريكا، وأن الذى استولى على عبد الناصر بثمن بخس هو الاتحاد السوفيتى فيقول:

«فى هذه المرة (أوائل عام ١٩٦٧)، على كل حال، كان من الواضح أن «الجمهورية العربية المتحدة» قد وصلت إلى قاع الهاوية (أصبحت مفلسة فعليا)، ونظراً لأن الغرب لايقدم أى مساعدة، وكان الاتحاد السوفيتى يعلم بأنه لم تعد هناك منافسة من جانب الغرب، فقد اكتفى بتقديم مبالغ ضئيلة تافهة، بالقدر الذى يراه هو (أى الاتحاد السوفيتى) مناسباً».

رأى «كوبلاند» فى عبد الناصر أهو مدح أم ذم؟

بعد حرب يونية ١٩٦٧ أو كارثة ١٩٦٧ وفى صدد تقييم الربح والخسارة فى نتائجها نرى «كوبلاند» يصر على أن عبد الناصر لم يخسر هذه الحرب التى وصفها هو نفسه من قبل فى صفحة ٩١ من كتابه بأنها «أشنع هزيمة عسكرية فى العصر الحديث» ولكنه مع ذلك يصر على القول بأن الانتصار الإسرائيلى لم يكن انتصاراً على عبد الناصر لأنه لم يخسر بل إنه ربح وبنص عبارته وتفسيراته فى صفحة ٢٣٨ يقول:

«بحسب هذا التعريف، فإن أى شخص يراقب النزاع العربى الإسرائيلى بعد هذه الحرب (أى حرب يونية ١٩٦٧) لابد أن يوافق على أن الإسرائيليين لم «يربحوا» حرب الأيام الستة ضد عبد الناصر، لأنه بعد أن انتهى كل شىء (بعد أن خسر العرب كل شىء) ظهر عبد الناصر وقد قويت شوكته كحاكم لمصر بصورة أكبر، وبدرجة أقوى مما لو كان قد تفادى الكارثة».

ثم يوضح كوبلاند رأيه هذا ويذهب إلى أبعد من ذلك فيقول بعد ذلك فى نفس

الصفحة: «هذا هو جوابنا للسؤال الذى يتبادر إلى الذهن: ماذا لو أن عبد الناصر واجه ظروفاً مماثلة (لحرب يونية عام ١٩٦٧) فى المستقبل. فماذا يفعل؟.. إن جوابى على هذا السؤال واضح وضوحاً تاماً لكل من يقرأ هذا الكتاب بعناية».

وصدق كوبلاند فعلاً فقد وضح هذا الجواب توضيحاً تاماً فى صفحة ٦٧ من كتابه حيث قال: «من حين لآخر، وخلال سنوات عديدة، كان هناك من يسألنى السؤال الآتى:

إذا واجه عبد الناصر ظروفاً تحتم عليه أن يختار بين التخلى عن سلطته من أجل إنقاذ بلاده، وبين أن يدفعها إلى الدمار من أجل أن يبقى هو فى الحكم، فأى الطريقين يختار؟

«إن جوابى هو أنه فى التعامل مع عبد الناصر، ومع أى حاكم لديه مانعرفه لدى عبد الناصر من حب السلطة من أجل السلطة لذاتها؛ فإننا يجب أن نفترض أنه سيعمل أى شىء من أجل البقاء فى الحكم، حتى ولو كان معنى ذلك خراب مصر الاقتصادى، أو حرباً خاسرة مستمرة مع إسرائيل..».

* * *

النموذج الناصرى

بعد أن نقلنا إلى القراء من كتاب «لعبة الشعوب» لما يلز كوبلاند فقرات ذات دلالات معينة، نحب أن نلفت الأنظار إلى هذا العنوان «النموذج الناصرى» الذى أولاه المؤلف عناية خاصة ــ لأنه أساس كتابه ــ فجعله فى الصفحات الأولى من الكتاب.. غير أننا ــ ولنفس السبب ولنفس درجته من الأهمية والخطورة ــ رأينا أن نجعله فى خاتمة مانتقله من فقرات: ذلك أن أهميته بالنسبة لنا نحن ــ العرب والمسلمين ــ تأتى من كوننا قد أصبحنا حقل تجارب لصناع السياسة الأمريكية الخلفية.. وقد جربوا فينا أول تجربة وثبت لهم نجاحها؛ فهم إذن مواصلون خططهم معنا لاسيما والأرض بعد التجربة الأولى قد مهدت ولم تعد تحتاج منهم إلى جهد كبير..

كان إذن لابد من تحذير بعد أن كشف مايلز كوبلاند ــ مضطراً بعد انكشاف هذه الخطط لمنافسيهم الروس على يد الجاسوس فلبى ــ كيف بحثوا عن شخصية ذات صفات معينة حتى وجدوها فى عبد الناصر، وكيف مهدوا له الطريق إلى الحكم، وكيف رسموا له الطريق ووجهوه إليه طريقاً انتهى إلى تثبيت أركان حكمه وإلى تحقيق جميع مصالح أمريكا وإلى وصول مصر إلى الدمار التام فى كل نواحى الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.. وإذا كان كوبلاند والأمريكيون لايقيسون شيئاً إلا بالمادة فإننا نورد وصفاً دقيقاً للحالة

الاقتصادية التى انتهت إليها مصر مما ذكره كوبلاند فى صفحة ٢٣٥ من كتابه إذ يقول:

«فى أول تلك السنة (١٩٦٧) درس فريق من الخبراء العاملين بالمؤسسة التى كنت أعمل بها أهم المصادر الرسمية عن رصيد مصر من العملة الصعبة ومن الذهب الذى كانت تملكه فى عام ١٩٥٢ قبل الانقلاب العسكرى. ثم أضافت إليه مجموع المساعدات الخارجية المالية (من قروض وهبات) التى حصلت عليها الحكومة، وكذلك أضافت إليها مجموع ماحصلت عليه البلاد من صادراتها منذ منتصف عام ١٩٥٢ إلى نهاية عام ١٩٦٦ — ومن مجموع ذلك كله خصمت النفقات—.

«وقد أظهرت النتيجة أن العجز فى تجارة مصر الذى كان يقارب أربعمائه مليون دولار سنوياً قد استهلك كل هذه المبالغ، بما فى ذلك القروض التى أصبحت الحكومة عاجزة عن سدادها. وعلى حسب قول الأستاذ «لاكور» لقد وصل احتياطى مصر من الذهب إلى أربعين مليوناً فقط، ومن العملة الصعبة إلى ست وأربعين مليونا من الدولارات. ولكن أى شخص يبحث فى القاهرة لايمكن أن يعثر على هذه الملايين فى مارس عام ١٩٦٧ ولا يمكنه أن يعثر على أكثر من مليونين أو ثلاثة ملايين من الدولارات يمكن استخدامها للمشتريات الضرورية العاجلة.

«لقد كانت هناك مصانع مغلقة بسبب عدم توفر قطع غيار لاتتكلف أكثر من بضعة آلاف من الدولارات. وكانت شركة الخطوط الجوية العربية المتحدة التى هى مورد رئيسى للعملة الصعبة لديها فى بعض الأحيان أربع طائرات من طائراتها «آلكوميت» (التى لايزيد عددها عن سبع فقط) معطلة بسبب عدم توفر المال اللازم لشراء قطع غياراتها... وحتى لو باعت الحكومة كل مالديها من ذهب فإنه لم يكن يكفى الاستيراد المطلوب فى العادة لمدة شهر واحد. إن التقرير ربع السنوى للسفارة الأمريكية قد تنبأ بأنه خلال مدة لاتزيد على سنة ستكون مصر فى حالة إفلاس فعلى..».

هذا هو وصف الحالة التى انتهت إليها مصر فى أوائل عام ١٩٦٧ والتى واجهت بها الحرب مع إسرائيل فى يونية ١٩٦٧ تلك الحرب التى أدت إلى أعظم كارثة فى التاريخ الحديث كما يقرر ذلك كوبلاند الذى كشف لنا فى كتابه عن أنها كانت ضمن «لعبة الشعوب» التى أعدوها وأعدوا عبد الناصر لها فى «مركز اللعب» فى الطابق الثانى عشر فى إحدى ناطحات السحاب بوشنطن— ولم يقصر كوبلاند فى كتابه فى توضيح الهدف الأسمى الذى حققته السياسة الأمريكية من وراء هذه الكارثة وهو «إجهاض» المقاومة العربية وقتلها. وتهيئة الجماهير لحالة نفسية يسهل معها إجراء عملية استئصال «القضية» من نفوسهم.

والذى نحذر منه هو أن السياسة الأمريكية الخلفية كما يسميها كوبلاند حين عثرت فى

بحثها على «جمال عبد الناصر» لم تكن تبحث عن عبد الناصر بالذات وإنما كانت تبحث عن شخصية ذات صفات معينة وجدتها هذه المرة فى جمال عبد الناصر ولكنها دائبة البحث عن أشخاص آخرين تتوفر فيهم هذه الصفات، وقد كان كوبلاند حريصاً فى الصفحات الأولى من كتابه على إبراز هذا المعنى، وتثبيته فى أدمغة القراء فيقول فى صفحة ٢٦ :

«لابد أن أبعد كل فكرة بأن هذا الكتاب عن «عبد الناصر» — إنها مرحلة تاريخية تفتح الباب لدروس عامة فى العلاقة بين الولايات المتحدة وبين «نوع خاص» من الزعماء غير الغربيين، أعتقد أنهم سيزداد نفوذهم فى العلاقات الدولية فى المستقبل».

«ورغم أننى تكلمت كثيراً عن «عبد الناصر» إلا أننى حاولت التركيز على نواحى سلوكه التى يتوقع أن تصدر من زعماء أسيويين وأفريقيين آخرين — لدرجة أننى اعتبرت أن هناك «نموذجاً ناصرياً» من الحكام...».

ويقول فى صفحة ٢١ مؤكداً نفس المعنى :

«إن صورة هذا النموذج ارتسمت لديه هو وزملاؤه من رجال المخابرات الأمريكية من خلال تجاربهم فى سوريا وغيرها من البلاد العربية فى الفترة من عام ١٩٤٧ إلى ١٩٥١، أى قبل أن يلتقوا بعبد الناصر وقبل أن يعرفوه، إنهم افترضوا أنهم حددوا أصول النظام الناصرى، ووضعوا خصائصه وشروطه وخططوا له ورسموا صورة الحاكم الذى يلعب دوره قبل الانقلاب الناصرى» ثم يقول «إن عبد الناصر لو لم يوجد، فإن لعبتنا كان يتحتم عليها أن تخلقه خلقاً ليوجد لديها «النوع» الضرورى من الحكام الذى تحتاجه طبيعة «اللعبة» اليوم أو غداً».

يقول الدكتور محمد صادق فى تقديمه التعليق على كتاب «لعبة الشعوب»:

إن الدراسة التى نقدمها للقارىء سوف تساعد القارىء العربى على أن يستقرىء الحوادث الماضية، والأحداث المقبلة كذلك، ليعرف نوع «المصالح» التى استلزمت «النموذج» الناصرى فى نظر كوبلاند، وليعرف من خلال اهتمام الكاتب الأمريكى وحماسته، إن كانت هذه «المصالح» التى تحركه هى مصالح المصريين أو العرب أو المسلمين — أم أنها مصالح «جهات أخرى».

إن تحديد هذه «المصالح» يفسر لنا السبب فى حرص كوبلاند على التمييز بين الشخص والنموذج. ذلك أن المصالح التى تهمه هى بلاشك مصالح بعيدة المدى، واسعة النطاق، متعددة الأهداف، إنها تتجاوز حياة الأشخاص أيا كانوا، سواء حياة عبد الناصر أو حياة كوبلاند وروزفلت أو أى إنسان آخر.. إن الأشخاص والحكام كغيرهم يمكن أن يموتوا، أما النموذج الذى تحتاج له المصالح التى يتحدث عنها كوبلاند فهو باق مابقيت هذه

المصالح. وعلى ذلك يؤكد لنا المؤلف الأمريكى أن الذين رسموا «النموذج» الناصرى كانوا يعرفون هذا الأمر ويحسبون حسابه مقدماً. فهو يروى لنا أن روزفلت فى تقريره لوزارة الخارجية الأمريكية بعد عودته من مصر قبل الانقلاب العسكرى بأربعة أشهر قال: إن «الشخص» الذى اتفقوا معه — يقصد عبد الناصر — إذا لم يحقق لهم أهدافهم، فلسوف يكون هناك آخرون من نفس «النموذج».

فالتفرقة بين النموذج الثابت والأشخاص الذين يتغيرون كانت واضحة فى ذهن روزفلت قبل الانقلاب الناصرى. وكان واضحاً أيضاً أن «النموذج» سيطبق لا فى مصر وحدها، بل فى دول أخرى كثيرة. وعلى ذلك فإن القارىء سيرى أن الغرض هو **الكشف عن نموذج وعن خطة وعن أسلوب دعا إليه كوبلاند فى كتابه وأعلن أنه تكرر وسوف يتكرر فى مصر وفى غير مصر.**

وإن ماقاله كوبلاند يفسر لنا كثيراً مما لاحظناه عقب وفاة عبد الناصر؛ ففى الوقت الذى كانت جماهير غفيرة من المصريين والعرب ذاهلة أمام رهبة الموت، حائرة أمام القدر المفاجىء — عجب الكثيرون مما رأوه فى موقف القوى الخارجية التى لم يبد عليها أعراض الدهشة أو المفاجأة. لقد كانت هناك جهات تتصرف بمنتهى الدقة والإحكام، وتعمل بكل اطمئنان، تنفيذاً لخطط أعدت من قبل. وكانت هناك جهات تقف بكل هدوء وبرود موقف المترقب الذى لايرى فى الوفاة إلا أنها نهاية فصل من فصول اللعبة سيتبعه فصل آخر مكمل له، وأن المسرح خلا من لاعب لكى يحل محله لاعب أو لاعبون آخرون، وكأن الستار قد أسدل على مشهد لكى يرتفع بعد ذلك عن مشهد آخر.

ولكن عملاء هذه الجهات كلها سارعوا فوضعوا أنفسهم فى مقدمة مواكب البكاء والرثاء، يرددون الأناشيد والألحان والشعارات؛ إلا أن أناشيدهم وشعاراتهم وألحانهم كانت تدور حول أسطورة البقاء والخلود للنموذج «المقدس»؛ قائلين إن «الرجل» هو الذى مات، أما «النظام والنموذج» فهو «حى لايموت».

إن هذا النوع من الرثاء ليس إلا جزءاً من «اللعبة» وأسلوباً من أساليب الميكيافيلية الخادعة الماكرة؛ إنهم يتخذون رثاء الميت وسيلة لإعطاء الدروس لمن يريدون أن يخلفوه، إنهم يذكرون للأحياء أهدافهم هم بأسلوب مدح الميت والإشادة به لينسبوها إليه؛ فيصدق الطامعون والطامحون فى وراثته بأن هذا هو الطريق الذى يجب أن يسيروا فيه ليحصلوا منهم كما حصل هو على شهادات «عالمية» بالبطولة والشهرة والخلود.

* * *

واكتفى بهذا القدر مما نقلته من تعليق الدكتور محمد صادق مما جاء فى تقديمه كتابه

لأقول: إن النسخة التى أعيرت إلىّ من كتاب الدكتور محمد صادق «الدبلوماسية والميكيافيلية فى العلاقات العربية الأمريكية خلال عشرين عاماً ١٩٤٧ ــ ١٩٦٧ دراسة وتحليل حول كتاب «لعبة الشعوب».. هذه النسخة نظرت فوجدت أنها الطبعة الأولى لهذا الكتاب وقد أرخ طبعها فى عام ١٩٧١.

وأصدق القارىء فأقول إننى لم أعن بالبحث وراء معرفة تاريخ طبع هذه النسخة إلا بعد أن قرأت ماكتبه الدكتور محمد صادق فى مقدمة الكتاب مما نقلت منه هذه الفقرات للقراء.. لأن هذا التحليل الذى تضمنته المقدمة يوحى لقارئه بأن كاتبه قد كتبه بعد أن عاش أحداث مابعد اكتوبر ١٩٧٣ إلى مابعد أكتوبر ١٩٨١.

وإنى إذ أهنىء الكاتب على نفاذ بصيرته، .وبراعة تحليله، وصدق تنبؤاته، واستبطانه أعماق الأحداث وسبقها.. أرجو أن نكون قد أفدنا أعظم فائدة من هذه الدراسة العميقة المستوعبة وهذا التحليل البارع الدقيق.

* * *

الفصل الثانى

شاهد على العهد

ذكرت فى مقدمة هذا الجزء من المذكرات أننى تركت الحديث عن التعذيب إلى مظانه التى تخصصت فى الحديث عنه ونقل وقائعه وصارت بين أيدى القراء، وقد وصل بعضها إلى القضاء الذى أصدر حكمه بدمغ هذا العهد بأبشع الجرائم ضد الإنسانية.. ولكننى رأيت قبل أن أنهى الحديث عن هذا العهد أن أنقل إلى القراء الكرام أنموذجاً واحداً من نماذج التعذيب ليكون شاهداً ناطقاً حياً على هذا العهد البغيض.. وقد نقلت هذا الانموذج من كتاب «الموتى يتكلمون» للأستاذ الصحفى سامى جوهر رحمه الله يقول فى صفحة ٦٥ وما بعدها:

«ولعل أصدق صورة لألوان التعذيب هى التى يرويها واحد ممن تعرضوا لها.. وفى الصفحات القادمة يروى العقيد متقاعد نصر الدين محمد الإمام كيفية تعذيبه حتى يعترف أنه وتسعة من زملائه كانوا يدبرون انقلاباً لنظام الحكم..

وكان نصر واحداً من المتهمين فيما أسموه مؤامرة مدرسة المشاة. وزملاؤه فى الاتهام هم العقداء إبراهيم طه إبراهيم وبهى الدين مرتضى وعلى إبراهيم أبو ليمون ومصطفى كمال المساح وفاروق جمعة مناف وجمال الإتربى وإبراهيم الجندى والمقدم مهندس عادل المنياوى والملازم أول عبد الملاك ميخائيل غطاس.. والمتهم الأخير وهو مسيحى وضع لإبعاد الشبهة عن حقيقة تدبير السوفييت للإحاطة ببقية المتهمين.. فقد كان المتهمون التسعة من المعروفين بشدة تمسكهم بتعاليم الدين، وتأدية الصلاة فى مواعيدها حتى وهم فى مكاتبهم.. وكان ذلك يثير الخبراء السوفييت الذين انتشروا فى مختلف وحدات الجيش بحجة تدريب قواتنا على السلاح السوفيتى.

واستطاع هؤلاء الخبراء السوفييت أن يحركوا أعوانهم فى مكتب المشير وفى سكرتارية عبد الناصر ضد تلك المجموعة، وخاصة بعد أن كان بعضهم بدأ يناقش حرب اليمن، وهل من يموت فيها يعتبر شهيداً أم لا؛ لأنها حرب ليست لنشر العقيدة الإسلامية، وإنما حرب يقاتل فيها المسلم أخاه المسلم..

وكانت تلك هى الحقيقة التى كان يتناقش فيها المتهمون عندما فوجئوا بالقبض عليهم بتهمة تدبير انقلاب عسكرى للإطاحة بالحكم .. ويروى العقيد نصر الدين محمد الإمام تفاصيل القبض عليه .. قال إنه فوجىء برجال المباحث الجنائية العسكرية يقتحمون مسكنه برياسة تلميذ له هو الرائد حسن كفافى .. كان الوقت بعد منتصف الليل .. أيقظوا أطفاله وزوجته وأمه المريضة التى لقيت ربها بعد ذلك بأسبوعين .. حبسوا الجميع فى غرفة .. وبدأوا يفتشون مسكنه .. وعثر حسن كفافى على مبلغ ألف وخمسمائة جنيه كان نصر قد ادخرها لشراء تاكسى يعاونه إيراده فى مجابهة تكاليف المعيشة .. وأخذ حسن لنفسه المبلغ مدعياً أنه سيعيده عندما يتأكد من مصدره .. وطبعاً اختفى المبلغ إلى الأبد .. وبعد أن مزقوا المراتب بالمطاوى بحثاً عن أدلة، ولم يجدوا شيئاً اصطحبوه إلى السجن الحربى ..

ويقول العقيد متقاعد نصر الدين محمد الإمام:

ولم أكن أعلم لماذا قبضوا علىّ .. حاولت أن أسأل حسن كفافى عن السر وراء ذلك .. لم يجبنى بشىء إلا بأنه تلقى الأوامر بذلك، وأن زملاءه تلقوا أوامر مماثلة للقبض على آخرين من الضباط .. حاولت أن أعرف منه أسماء زملائى الذين قبض عليهم ولكنه لم يكن يعرف شيئاً ..

ودخلت السجن الحربى .. كنت أرتدى ملابسى المدنية .. وقبل أن يغلق باب السجن .. وجدت مايسترو التعذيب فى السجن الحربى صفوت الروبى .. وكان برتبة رقيب أول ثم رقى فى خلال عام ١٩٦٦ ترقية استثنائية إلى رتبة مساعد .. وفى عام ١٩٦٧ رقى ترقية استثنائية إلى رتبة الملازم لمهارته فى تعذيب من يوقعه سوء حظه ويدخل السجن الحربى .. كان صفوت يقف ممسكاً بكرباج وحوله ثلاثة أشبه بعمالقة القرون الوسطى .. ولكل منهم اسم مستعار .. أحدهم يطلقون عليه «الديزل» والثانى «سامبو» والثالث «الأسود» .. وانهال الأربعة علىّ بالكرابيج .. وكنت كلما جريت ناحية واجهنى أحدهم بكرباجه .. أحاطوا بى فى شبه دائرة .. وسقطت من شدة الإعياء بعد أن تلقيت مايزيد على مائتى كرباج.

وأسعفونى .. وكان الذى يقوم بعمليات الإسعاف العقيد طبيب حاليا ماجد حماده وكان برتبة الرائد .. ثم حملونى إلى زنزانة مظلمة تماماً .. ليس بها أى منفذ ضوء .. وألقونى داخلها .. وارتميت على الأرض ورفعت عينى إلى سقف الزنزانة وصرخت «يارب».

وفتح باب الزنزانة بعنف ودخل «الديزل» وانهال على جسدى المكوم فى ركن الزنزانة بالكرباج وهو يردد «مستنكراً» إنت بتقول يارب .. ياابن .. هنا مفيش ربنا .. وإن جه حنحطه جنبك فى الزنزانة .. ثم أمرنى بالجلوس القرفصاء ووجهى إلى الحائط وأن

أرفع ذارعىّ إلى أعلى.. وامتثلت لأوامره.. ولا أعرف كم من الوقت مضى علىّ وأنا فى هذا الوضع.. ولكننى أفقت على الكرابيج تلهب جسدى، ويبدو أننى من شدة الإرهاق غلبنى النعاس فارتميت على جانبى..

وأمرنى صفوت الروبى أن أخلع ملابسى.. وتوقفت عند ملابسى الداخلية فانهالوا علىّ بالكرابيج.. وأصبحت عارياً تماماً.. وألقوا لى بأوفرول أزرق ممزق به آثار دماء ممن سبقونى فى ارتدائه.. واقتادونى إلى خارج الزنزانة إلى الفناء.. وعلى غرفة مدير السجن قال لى صفوت:

— حتقابل دلوقت شخصية كبيرة.. عايزك تجيب قدامه كل اللى فى بطنك.. ماتخبيش حاجة ووجدتنى وأنا العقيد أقول للرقيب أول: حاضر يابك..

ودخلت الغرفة.. وكان شمس بدران يتصدر الغرفة جالساً وراء مكتب.. وعن يمينه مختار صالح رئيس المخابرات الحربية، وعن يساره سعد زغلول عبد الكريم مدير المباحث الجنائية العسكرية، وإلى جواره جلال الديب نائب الأحكام.. بادرنى شمس قائلاً:

— اتكلم يانصر عن كل حاجة.. زملاءك اعترفوا وما تحاولش تنكر.

وتساءلت بصدق:

عن إيه ياافندم أتكلم.. أنا ماأعرفش حاجة.. أنا مخلص لبلدى وجيشى.. أنا.. ولم أكمل جملتى فقد شعرت بثقل جبل يسقط فوق رأسى فارتميت على الأرض.. وفى ثوان كنت معلقاً من يدىّ وقدمى.. رأسى إلى أسفل وقدمى إلى أعلى.. أشبه بالذبيحة فى محل الجزار.. وصوت شمس يأمر قائلاً:

— ألف..

وانهالت الكرابيج على قدمى.. وصوت يعد واحد.. اثنين.. وأغمى علىّ ولم أسمع شيئاً بعد رقم ٢٩٧.. وعندما أفقت وجدت نفسى ملقى فى نفس الزنزانة وأمامى الدكتور ماجد حمادة يضمد جروحى..

وبقيت فى الزنزانة ثانى يوم.. بدون طعام أو شراب حتى الليل.. عندما فتح باب الزنزانة مرة أخرى كنت فى حالة من الإنهاك والانهيار التام.. وسحبونى إلى خارجها.. إلى فناء السجن حيث يوجد تمثال كبير لجندى ممسكا ببندقيته.. وحول التمثال على شكل دائرة ستة جنود.. ثلاثة منهم ممسكون بالكرابيج وثلاثة ممسكون بسلاسل مقيد بها ثلاثة من كلاب الحرب.. والكلب منهم فى حجم الحمار الصغير وفى منتهى الشراسة.. وأمرنى صفوت أن أجرى حول التمثال.. وحاولت أن أنفذ الأمر ولكن قدمى لم تستجيبا للأمر.. كانتا متورمتين.. وبدأت أمشى بخطوة سريعة.. وعندما أصل فى دورتى إلى أحد الجنود

الممسكين بالكرابيج يلهب ظهرى أو صدرى أو وجهى بكرباجه، وعندما أصل إلى أحد الممسكين بالكلاب يطلق كلبه لينهش فى جسدى بعد أن مزق مابقى من الأفرول الأزرق..

وبعد عدة جولات حول التمثال سقطت من شدة الإعياء فأطلقوا الكلاب لتنهش فى جسدى.. ولم أشعر بشىء..

وعندما فتحت عينى.. ولا أعرف بعدَ كم من الأيام أو الساعات.. وجدت أننى لست بمفردى فى الزنزانة.. وضعوا معى الكلب «عنتر» وهو كلب أعرج من أشرس الكلاب وموجود حالياً فى معرض الطب البيطرى بالعباسية.. ولكن قدرة الله سبحانه وتعالى حولت ذلك الكلب الشرس.. كلباً وديعاً جداً معى.. بل كان أشد رحمة بى من الإنسان فى السجن الحربى..

ويصمت العقيد نصر الإمام للحظة وقد اختنق صوته بالبكاء.. وهو يتذكر تلك الأيام الحالكة السواد ليست فى حياته فحسب بل وفى حياة الأمة بأكملها ويقول:

شعر الكلب بما أقاسيه وكان يأتى يتمسح فى جسدى.. يلعق بلسانه جراحى.. وعندما كان يفتح باب الزنزانة لتقديم وجبات الطعام له وكانت فى الصباح آنية بها لبن، وفى الظهر آنية بها شوربة بجوارها لحم نىء.. وفى المساء.. وكان يشرب من الآنية بعض اللبن ثم يدفعها بأرجله ناحيتى.. وكنت أشرب ماتبقى منه من لبن..

ومرت أيام وأنا على تلك الحال.. ثم اصطحبونى إلى التحقيق مرة أخرى.. وقبل أن أدخل غرفة التحقيق سألنى صفوت الروبى: تعرف عفت؟

قلت له: إن هذا اسم زوجتى.

فقال لى ناصحاً: إنهم أحضروها وسيهتكون عرضها إن لم ترح شمس بك وتوافقه وتحكى له كل شىء..

ولم أصدق أن النذالة تبلغ بهم تلك الدرجة.. ودخلت غرفة التحقيق وقد قررت أن أستغل بطولتى السابقة فى المصارعة فى إحداث عاهة لأى شخص يقترب منى محاولاً تعذيبى.. وكنت قد استرددت بعض قواى فى الأيام السابقة التى تركونى فيها داخل الزنزانة مع الكلب عنتر..

وبدأ شمس بدران يسألنى عن صلتى بالعقيد إبراهيم طه.. وقلت له إننى لم أره منذ عام وكان من تلاميذى فى مدرسة المشاة.. ولم تعجب إجابتى شمس.. فانهال بالشتائم.. وفى لحظات وجدت نفسى ملقى فوق الأرض.. وفى لحظات معلقاً كالذبيحة والكرابيج تنهال علىّ حتى فقدت الوعى..

وأفقت بعد يوم أو أيام.. لأجد نفسي فى نفس الزنزانة.. والكلب عنتر يلعق بلسانه جراحي.. ثم أخذونى إلى الخارج.. ووقف خلفى العسكرى سعد درويش— وهو حالياً عسكرى مطافى بشركة الغزل والنسيج بكفر الدوار ومحبوس على ذمة قضايا التعذيب.. وكان سعد يقوم بنفس دور «العسكرى الأسود» الذى استخدمه إبراهيم عبد الهادى أحد رؤساء وزراء مصر فى عهد الملك السابق فاروق لتعذيب الإخوان المسلمين.. ووقف صفوت الروبى أمامى.. وسأل سعد:

ــ هل اعتديت عليه ياسعد؟ وأجاب سعد: لسه ياافندم.

ورد صفوت: طيب خذه.

ودفعنى سعد أمامه.. فارتميت على يد صفوت الروبى أقبلها معلنا استعدادى أن أقول أى شيء.. وأمره صفوت أن يتركنى.. وأخذنى إلى غرفة التحقيق.. وسألنى شمس:

ــ إيه الاتفاق اللى تم بينك وبين محمد نجيب؟

وأجبته صادقاً: محمد نجيب لم أره منذ عام ١٩٥٩ .. رأيته مصادفة آخر مرة وكانت معه حراسة فى محل يشترى أطباقاً.. ورد شمس: أنت كذاب.. أنتم كنتم حتجيبوه رئيس للجمهورية لما تنجح حركتكم مع الإخوان المسلمين..

وأجبته صادقاً: أنا ماليش دعوة بالإخوان أو بمحمد نجيب.

ووقف شمس ثائراً وتقدم منه صفوت سائلاً: أعمل له مولد ياافندم؟ وأجاب شمس باقتضاب: طيب..

وفى ثوان كنت معلقاً كالذبيحة.. ثم وضعوا بين أصابع قدمى ورق كرتون: واعتقدت أن الرحمة نزلت فى قلوبهم وأرادوا إبعاد أصابعى عن بعضها حتى لاتحتك الجروح التى بها.. ولكنى فوجئت بهم يشعلون النار فى الكرتون وتحترق أصابعى بالنار وهم ينهالون علىّ ضرباً بالكرابيج.. حتى فقدت الوعى..

وعندما أفقت.. بعد يوم أو أيام لاأدرى.. وجدت نفسى فى الزنزانة، وشعر الحراس بأننى أتحرك.. وجاء لى صفوت الروبى واقتادونى إلى الخارج، وأعلننى أنه صدر الحكم بإعدامى رمياً بالرصاص.. ولكن شمس بك قرر أن أدفن حياً.. وفعلاً اقتادونى إلى حفرة كبيرة وألقوا بى بداخلها، ثم بدأوا يهيلون الرمال فوقى حتى غطتنى تماماً ماعدا رأسى.. وأغمضت عينى بعد أن رددت الشهادتين.. وفجأة دوى صوت أعتقد أنه صوت شمس بدران أو حمزة البسيونى يأمر بإخراجى.. وأزاحوا الرمال وأخرجونى..

ووقفت أمام حمزة البسيونى وشمس بدران.. وقال حمزة: إزاى نبعته لربنا وفيه فى جسمه حته سليمة؟ وقاموا بخلع ملابسى.. ووقفت عارياً تماماً.. وكانت آثار السياط

والجروح تغطى كل صدرى وظهرى وذراعى وقدمى.. ونظر حمزة البسيونى إلى عضوى التناسلى وأشار ضاحكاً:

ده لسه سليم ليه؟ احرقوه..

وعلى الفور أحضروا سيجارة مشتعلة وبدأوا يحرقون العضو التناسلى فى عدة مواضع ثم قيدونى وبدأ حمزة البسيونى بنفسه بوأسطة آلة فى يده ينزع أظافر أصابعى العشرين.. أصابع يدى ورجلى..

ونقلونى هذه المرة إلى المستشفى.. مستشفى السجن، وعندما أفقت وجدت ذراعى وفيها «إبرة الجلوكوز» وجاءنى جلال الديب نائب الأحكام ـ الذى استطاع الهرب هو الآخر حالياً إلى الخارج.. وتصحنى أن أعترف بكل شىء.. وطلبت منه أن يكتب أى شىء وأنا مستعد للتوقيع عليه..

وتحسنت معاملتى.. وأحضروا لى طعاماً فاخراً.. ولكننى لم أكن أستطيع أن أمضغ أى طعام لتورم شفتى وتهشم أسنانى.. وكانوا يساعدوننى فى وضع كوب العصير فى ناحية من فمى لأرتشف نقطة أو اثنتين وأتوقف من شدة الآلام عندما أحرك شفتى..

ثم جاءنى جلال الديب بإقرار يتضمن قصة خيالية عن مؤامرة كنا ندبرها للقيام بانقلاب عسكرى للإطاحة بالرئيس السابق.. ووقعت على الإقرار.. ودخلنا السجن.. حتى جاءت النكسة وصدر قرار جمهورى بالعفو عنا وشطب القضية وكأنها لم تكن وأفرج عنا.. ولكننا عدنا إلى السجن مرة أخرى بعد ٤٣ يوماً حتى أفرج عنا فى أيام السادات.

* * *

ولما كان الأنموذج الذى نقلناه إلى القراء اختص بتعذيب رجل عسكرى، وخشية أن يظن القراء أن هذا اللون من التعذيب كان من نصيب العسكريين وحدهم، رأينا أن نورد أنموذجاً آخر يتناول التعذيب فيه أحد المدنيين، وننقله هذه المرة من كتاب «محاكمات الدجوى» للأستاذ شوكت التونى من صفحة ٣٩٢ وما بعدها، يتكلم فيه الأستاذ محمد شمس الدين الشناوى المحامى عن الطريقة التى عذب بها فى عام ١٩٦٥، ١٩٦٦ فيقول:

«خلعت ملابسى أمام شمس بدران وبحجرته التى كان يجلس فيها والتى كانت مخصصة من قبل لجلاد السجن الحربى حمزة البسيونى ثم تركها لما حل بدران بهذه السجون لطبخ التحقيقات والقضايا».

وبهذه المناسبة فهناك أمر مهما كان سيئاً فهو ظريف؛ فقد كان المتبع فى خلع ملابس

من يراد استنطاقة أن تخلع ملابسه قهراً بتمزيقها.. ولكن عين الجلاد صفوت الروبى قد زاغت فى القميص الذى كنت أرتديه، فإذا به يمنع الجندى المكلف بتمزيق الملابس ويقوم هو بنفسه بفك الزراير برفق وأناة ــ وهذا شرف كبير لم يحظ به أحد ــ ثم وضعه فى جانب الغرفة بعيداً عن الدم والأعين ثم استصفاه لنفسه غنيمة سائغة.. ولم يكن ذلك غريباً علينا فقد كانت دماؤنا وأموالنا وحريتنا مباحة لهم دون معقب ولا اعتراض.

وبدأ التحقيق بأن قيدت يداى ورجلاى ثم مرر قضيب الحديد فوق يدى المقيدتين وتحت ركبتى، ورفعت من قضيب الحديد، وأسندت نهايتاه على ظهرى كرسيين وضعا وسط غرفة «التحقيق».

وكان رأسى مدلى إلى الخلف وعيناى إلى أعلى، وتم السؤال وأنا على هذا الوضع. وكان أول سؤال وجهه شمس بدران إلىّ هو الآتى:

ــ أنت الآن بالسجن الحربى ولست بالمباحث العامة أو النيابة العامة، وليس هنا قانون أو حقوق، ونحن نفعل مانشاء دون رقيب، ومطلوب منك أن تقدر ذلك وتقول كل ماتعرفه.

فأجبته بأننى لاأعرف مايسأل عنه، فإذا كان عنده سؤال محدد فأنا على استعداد للإجابة عليه.. فانهال علىّ بالسباب الفاجر والقول البذىء، ثم وجه كلامه إلى صفوت وقال: ياصفوت ده من العتاولة ومصروف له ألف كرباج.

فإذا بهذا الجلاد وأعوانه ينهالون علىّ بالسياط فى وحشية وإجرام وأنا معلق على الوضع الذى ذكرته كالذبيحة فى حانوت الجزار لاأملك إلا أن أدعو الله أن يلهمنى الصبر، ويثبتنى على الحق، وأن ينتقم من الظلمة.. ولما استمر الجلد وسال الدم وتهتك اللحم وتناثر؛ لم أتمالك نفسى فانطلقت بسب بدران وسيده، ووصفتهما بالكفر والجحود، وبأنهما حطب جهنم خالدين فيها.. وظللت أردد ذلك حتى غبت عن الوعى. ولما أفقت بعد برهة صغيرة وجدتنى فى المياه حيث أنزلت من تعليقى وألقى بى فى نافورة مياه قذرة أمام غرفة بدران.. ثم أخذت ثانية داخل الغرفة ليكرر نفس السؤال: «قل كل ماتعرف عن أى شىء وعن أى شخص».

ولما أعدت عليه نفس الجواب: اسأل عن أى شىء وأنا أجيب.. تكرر نفس الجلد بالسياط، وزاد عليه الكى بالنار، وإطفاء السجاير حول عنقى، ورأسى مدلاة إلى الخلف.. ثم كان صفوت ينتزع اللحم المتهتك من جسمى نتيجة ضرب السياط ويجمعه ثم يفتح فمى عنوه ويضع فيه هذا اللحم ويقول: ذق لحمك النجس.. ولما يعمل أسباخ الحديد المحمى والسجاير فى جسمى يقول: شم رائحة الكباب فأنت جائع..

وهكذا استمر الحال حتى فقدت الوعى أكثر من مرة، ووصلنا إلى مطلع الفجر، فإذا به ينهض واقفاً لينصرف حتى ينال قسطاً من الراحة ليستأنف نشاطه الإجرامى فى «التحقيق» فى اليوم التالى.. وكان آخر أمر وجهه إلى صفوت: خليه معلق حتى الصباح لحين حضورى.

وبعد انصرافه هو وكاتباً التحقيق جلال الديب ومصطفى الجنزورى نائباً الأحكام اللذان كانا يجلسان معه فى نفس غرفته على مكتبين جانبين.. حضر شخص أسمر ضخم الجثة أجش الصوت وقال لصفوت: ماهذا الذى تفعلونه.. ألا تدرى من هذا.. دا راجل كبير وله مكانته فكيف تعمل معه ذلك؟ فقال له: هذه أوامر سيادة العميد شمس وقد أمرنى أن لاأنزله حتى يحضر فى الصباح.. فقال له ذلك الشخص ــ الذى علمت فيما بعد أنه سعد عبد الكريم مدير المباحث الجنائية العسكرية ــ نزله وأنا المسئول أمام سيادة العميد وسأضمن أنه سيقول كل مايطلب منه فى الصباح..

وأنزلت من التعليقة وألقيت على الأرض حيث كانت قواى خائرة ورجلاى ممزقة متهتكة.. وأمر سعد عبد الكريم بإحضار كوب عصير ليمون من البوفية المجاور لحجرته، شربته وأنا لاأحس بالحياة.. وإذا بهذا الكوب كأنه أكسير الحياة، فقد كان كالسحر، سرى فى جسدى سريان الروح، وكنت أحس بإسترداد الحياة مع كل رشفة من هذا الكوب. ولازلت أذكر هذه اللحظة حتى اليوم وما أظن أننى سأنساها ماحييت فقد كان ألذ كوب مشروب فى حياتى..

عودة إلى الحياة: ثم حملت بعد ذلك إلى حجرة كانت تعرف باسم مخزن رقم ٢، كنت غادرتها مع العشاء ماشياً على رجلى حافى القدمين ــ وهذه هى الأوامر ــ ثم عدت إليها مع الفجر محمولاً على محفة بين الحياة والموت.

وقد علمت بعد ذلك من طبيب كان معنا فى نفس الغرفة ــ بعد انقضاء هذه الفترة بثمانى سنوات أننى أصبت بصدمة عصبية فى تلك الليلة وأننى أسلمت الروح وأنه أسبل عينى وجذب الغطاء على وجهى فى الساعة السابعة صباحاً.. وفى تلك اللحظة ألهمه الله أن يطلب من بعض الإخوان أن يحملونى من رجلى لتكون رأسى إلى أسفل، وليقوم هو ببعض إسعافات لتنشيط القلب؛ فإذا بى بعد لحظات أستعيد الحياة وأفتح عينى. وكان هذا الطبيب هو الدكتور فؤاد عبد المجيد الذى يعمل بمستشفى كفر الشيخ.. ولما سألنى منذ مدة قريبة أثناء زيارته لى فى شهر رمضان ١٩٧٣ إن كنت أذكر ذلك فنفيت له علمى حيث لم أشعر بشىء من ذلك على الإطلاق ولم يخبرنى به أحد حتى هذه اللحظة.

وقد حضر طبيب السجن الحربى كما هى العادة ــ وهو الرائد ماجد حمادة ــ ولما

رأى حالتى بدا عليه التأثر الشديد وكتب لى حقن «ريفرين» ولأول مرة أسمع هذا الأسم، وقد كانت هذه الحقن خير ضمان لعدم تلوث الجراح ولعدم حصول مضاعفات فى هذا المكان القذر الذى كنا نعيش فيه فجزاه الله عنى خيراً.

ثم تركت ملقى مع غيرى فى هذا المكان أعانى من الجراح والضيق حيث كان المكان الذى يتسع لخمسة يوضع به ثلاثون مثخنون بالجراح يئنون مما بهم من سوء المعاملة والجوع والعطش ورائحة القيح والصديد والبول والبراز وجرادل الكوتش فى الجو القائظ فقد كانت لها رائحة لايمكن أن توصف أو تعرف لغير من شم رائحتها المنتنة.

وانتهت «التحقيقات» التى كان يجريها بدران وأعوانه فى شهر أكتوبر ١٩٦٥ أى أنها استمرت أربعة أشهر كاملة — وذكرت الصحف المأجورة أن التحقيقات انتهت وأن المتهمين سيقدمون إلى محاكم خاصة تشكل لذلك — وصدر قرار جمهورى بتشكيل أربع دوائر جنايات أمن دولة عليا؛ الأولى يرأسها الفريق أول الدجوى، والثلاثة برياسة على جمال الدين والتميمى.

وقد علمت أن «التحقيق» الذى أجرى ثبت منه عدم صحة رواية عبد الفتاح شريف. وبذلك فلن يعاد الكلام بشأنه، وخصوصاً وأن التحقيق كان قد انتهى وانفض سامره.

ولكننى كنت واهماً فى ذلك؛ فإن الحقد والضغينة التى ملأت قلب شمس بدران على الشيخ محمد الأودن جعلته يصمم على قتله وافتعال الأقوال التى يستند عليها لتنفيذ جريمته ضد هذا الشيخ الفانى الذى كان يبلغ الثمانين من عمره فى ذلك الوقت.

وفى حوالى الساعة ١٠ مساءً يوم ١٩٦٥/١٢/٦ إذا بباب الزنزانة ٥٥ التى كنت أنزل بها يفتح مزلاجه الضخم فيحدث صريراً تقشعر له الأبدان، ثم يقف جندى كريه الصورة والصوت ينادى على «الواد شمس الدين الشناوى».. ثم أخذنى خارج السجن الكبير إلى الحوش الذى نصبت فيه خيام النيابة، وكانت جراحى لاتزال ناغرة، وعليها ضمادات عليها الدم والصديد، ولم أكن أستطيع أن ألبس الحذاء لتضخم قدمى وتهتك لحمها ووجود الضمادات عليهما. فخرجت حافى القدمين أتحسس الأرض ولا أستطيع أن أطأها إلا همساً، ولم أكن أستطيع الجرى كما تقضى بذلك تعليمات بدران حيث يمتنع على أى شخص يسير إلا بالخطوة السريعة وكأننا مجندون فى عنفوان الشباب — وكان سنى حينئذ ٤٣ سنة وأعانى من الآلام والجروح والجوع والعطش ماأنقص وزنى أكثر من ثلاثين كيلو جرام.. فكان الجندى ينهال علىّ بالسوط لعجزى عن الجرى.

وأدخلت إحدى الخيام المنصوبة بحوش السجن الحربى فوجدت شاباً فى مقتبل العمر

يجلس إلى مكتب متواضع وأخبرنى أنه وجيه قناوى وكيل نيابة أمن الدولة، وقد أكرمنى وقدم إلىّ مشروباً ثم بدأ يسألنى فى بلاغ تقدم به شمس بدران ضدى وأطلعنى على البلاغ وكان يتضمن أننى اصطحبت محمد عبد الفتاح شريف إلى منزل الشيخ محمد الأودن — فقلت له: وما الجريمة فى ذلك؟ فقال: لاجريمة ولكنه أصر على أن يحقق معك.. فقلت له: طالما أنك غير مقتنع بوجود جريمة وأرغمت على الحضور والتحقيق؛ فمعنى ذلك أنك إذا قررت حفظ التحقيق وأصر بدران على تقديمى للمحاكمة فإنه ينفذ كلامه.. ولكن السيد المحقق تحمس عندئذ لإنفاذ رأى النيابة.. وبعد إتمام الاستجواب أخبرنى أنه سيكتب مذكرة بحفظ التحقيق ويطلب الإفراج عنى فوراً.. ولكننى أوضحت له أن الأمر ليس بهذه السهولة التى يظنها.. وأصر على قوله وقال: سوف ترى.. وعدت إلى مكانى بالزنزانة رقم ٥٥.

وبعد خمسة عشر يوماً وفى صباح يوم ٢١ / ١٢ / ١٩٦٥ حضر إلىّ صف الضابط «سمير المسئول عن السجن الكبير» وقال: أنت مطلوب لإتمام إجراءات الإفراج عنك.

ولما ذهبت إلى المكاتب وجدت عدداً من المعتقلين منهم أولاد الشيخ محمد الأودن الأربعة وتجرى مراسم الإفراج ومنها حلق اللحى التى طالت حتى وصلت إلى الوسط واستلام الأمانات وكتابة إقرارات بأننا لم نعذب وليست بنا آثار تعذيب.. وهلم جراً.

وأثناء إتمام الإجراءات حضر شمس بدران وكان ذلك حوالى الساعة العاشرة صباحاً، ونظر إلينا ثم وجه الكلام إلىّ «رايح فين ياولد» فقلت له: بيقولوا مروحين.. فقال «هاته».. وذهب إلى مكتبه وقال لى: إذا كنت تريد أن تخرج مثلهم فعليك أن تقول ماأطلبه منك عن الشيخ الأودن ثم تخرج.. فقلت له: مادام ذلك لم يحصل فلن أقوله.. فكرر كلامه وكررت ردى.. فاستدعى الأخ محمد عبد الفتاح شريف وقال له إنه يطلب إليه أن يذكر رواية ضدى وضد الشيخ الأودن.. ولما قال له إن ذلك لم يحصل؛ قال أنا لم أسألك إن كان حصل أم لا إنما أطلب منك أن تقول ذلك وإلا أعدنا عليك كرة التعذيب.. ثم أذن له بالانصراف.

وقال لى: لابد أن تقول هذه الأقوال عن الأودن حتى تخرج.. ولما رفضت اتصل تليفونياً بجمال عبد الناصر واستأذنه فى عدم الإفراج عنى ووعده أنه سيحصل منى فى تلك الليلة على اعترافات تدين الأودن — ففوضه فى ذلك وأمر بأن أجلس على باب الغرفة ووجهى للحائط لحين عودته مساءً، وسيعرف إن كنت سأوافق أن أقول مايطلب.. وقضيت اليوم كله هكذا جالساً على الأرض ووجهى إلى الحائط فى انتظار حضوره مساءً.. وقد حضر فى حالة غير طبيعية، وأدخلت إليه فقال: «شاورت عقلك عشان تقول ماطلبت منك، وتذهب إلى بيتك.. فقلت له: ليس عندى ماأقوله.

فأمر صفوت الروبى بإحضار العدة وهى الحبال والسياط وقضيب الحديد وأمره أن يقوم بعمله ففعل وكان بالحجرة مع بدران جلال الدين ومصطفى الجنزورى نائباً الأحكام ــ وباشر صفوت ومن معه من الجنود عملهم بالقيد والتعليق والجلد فى وحشية لامثيل لها، وكنت فى هذه الحالة أدعو الله أن يثبتنى وأن يعيننى عليهم أو أن يريحنى بالموت .. واستجاب الله الدعاء؛ فلم أكن أحس بما يفعلون إلا قليلا .. وزاد ذلك من غيظ بدران وحقده فأمر بإحضار الكلاب الشرسة المدربة؛ فلم آبه لذلك ولم أحفل به؛ فقد كان ماأنا فيه أشد من نهش الكلاب، وكنت صادق النية فى لقاء الله؛ فأرانى هذا الجبار بدران فى صورة فأر صغير لايرهب ولا يخيف، وأرانى الله من آياته فى تلك الليلة اشياء كثيرة لاأستطيع وصفها ولا التعبير عنها..

وكان بدران يرغب فى أن يسمع عبد الناصر الأقوال التى تدين الشيخ الأودن فأحضر معه شخصاً يحمل فى كتفه جهاز تسجيل، وقرب المايك من فمى ليسجل، لكنه لم يسجل إلا أزيز السياط واللعنات التى كنت أصبها عليهم؛ فغضب وطرد حامل جهاز التسجيل من الغرفة، ووقع فى حرج شديد؛ نظراً لأنه رأى إصرارى على موقفى رغم إشرافى على الموت وكان يقول «**أقول للراجل إيه وأودى وشى فين**» وكان ذلك يزيده ضراوة وشراسة، ويزيد الجلادين قسوة ووحشية .. وبعد مدة من العذاب والتنزيف غبت عن الوعى ولم أعد أحس شيئاً، وكانوا يفوقوننى بالكى بالنار، وإطفاء السجاير فى جسدى، والالقاء بى فى حوض الماء القذر الموجود أمام غرفة بدران .. فإذا أفقت بدأت المساومات والوعود والأمانى التى لم تكن لتثنينى عن موقفى، وعزمت صادقاً فى تلك الليلة أن ألقى ربى لاتخلص من عذابهم ولا أفترى على هذا الشيخ الكبير الصالح الشيخ الأودن ..

وكان الليل قد فات منتصفه، ورأى بدران أن لا فائدة ترجى من التعذيب، فإذا به ينهض واقفاً فى عصبية وغيظ، ويقذف بسلسلة مفاتيحه الذهبية، وينهال بالسباب والشتم البذىء ويردد «**كسفتنى ياابن ..**» **أقول للراجل إيه بعد ماوعدته ..**» ثم قال لجلال الديب ومصطفى الجنزورى: كملوا معاه .. يايقول مايطلب منه يايموت ونخلص منه، ثم انصرف غاضباً حانقا أو لعله كان نادماً على هذا الوعد الذى بذله لسيده دون أن يستشيرنى فيه .. ولو استشارنى لما أشرت عليه بذلك إذ الموت أهون بكثير مما يدعوننى إليه .. وكيف لا وهو يدعونى إلى شهادة الزور يقتل بها رجلاً فاضلاً وشيخاً كبيراً .. وكان يحضرنى فى ذلك الوقت الحديث الشريف «شاهداك قاتلاك».

وبعد انصراف بدران غاضباً ألان لى الديب والجنزورى القول وأظهرا لى العطف والشفقة وقالا: ارحم نفسك مما أنت فيه ونحن نعرف مكانتك وقدرك، ولكننا لانملك إلا

تنفيذ الأوامر، وهذه أوامر عليا سمعتها بنفسك فأرحنا وأنقذ نفسك حرصاً على حياتك ومصالح أسرتك.. ولما تمسكت بموقفى إذا بهذا الود واللين ينقلب قسوة وضراوة، وإذا بهما يقومان بما طلب منهما بهمة ونشاط فيأمران صفوت بإتمام المأمورية حتى الرضوخ أو القتل.. وكأنهم جميعاً أصيبوا بجنون القسوة، وكأنما عز عليهم أن لايستطيعوا إملاء رغبتهم الأثيمة على شخص ضعيف أعزل خائر القوة، متهتك اللحم، يقف وقد غطى دمه أرض الغرفة حتى استحالت بركة حمراء قانية.

ولما استمر الضرب والنزيف، فقدت كل أثر للحياة، وخفتت أنفاسى، وهدأت نفسى، واستمروا فى الضرب على الجثة الهامدة التى هى جثتى.. وقد دعا ذلك أحد جنود العيادة أن يسرع إلى طبيب السجن الذى تصادف وجوده بالسجن فى أواخر الليل لحكمة يعلمها الله وتخفى على الناس، فما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ـــ وأخبر هذا الجندى الرائد طبيب ماجد حمادة أنهم يضربون شخصا مات منذ وقت طويل..

فحضر الطبيب وجس النبض والقلب وأنا معلق ثم قال لهم: ماتصنعون؟ إنكم تضربون جثة والضرب فى الميت حرام.. فقالوا له: هذه هى الأوامر.. فقال: أنزلوه وسأحاول إسعافه لإعادة الحياة إليه إن استطعت.. ففعلوا. وقال لهم الطبيب: احملوه إلى مستشفى السجن وكانت المسافة بين غرفة بدران وبين المستشفى حوالى نصف كيلو متر فإذا بصفوت يأمر الجنود أن يجرونى على الأرض حتى المستشفى. فثار الطبيب وأمر صفوت بإحضار السيارة الجيب لنقلى إلى المستشفى. فقال صفوت: السواق غير موجود ياافندم.. فطلب الطبيب من جندى العيادة إحضار النقالة والجنود لنقلى عليها.. وتم ذلك، ووضعت على سرير المستشفى، وظل الطبيب إلى جانبى يحاول إعادة الحياة بالحقن والأدوية والتدفئة حتى أفقت وفتحت عينى فى الصباح فقال لى: الحمد لله على السلامة. فقلت له: لماذا تقول لى ذلك؟ قال: لأنك عدت من سفر بعيد..

ولست أدرى إن كان الطبيب يذكر ذلك أم أن طول العهد وكثرة ماشاهد من أحداث وأشخاص قد أنساه.. ولما أفقت قلت للطبيب: أريد أن أعود إلى زنزانتى بالسجن الكبير. فلما استفهم عن سبب ذلك أخبرته أننى أريد أن أكون مع إخوانى بها يساعدوننى على حاجتى ويسهرون على صحتى.. وقد كانت العيادة مقسمة إلى زنازين كل واحدة لاتتسع إلا لشخص واحد.. وكنت لاأستطيع الحركة أو الكلام بسهولة..

ولكن الطبيب رأى أن يستبقينى بالعيادة لأنه علم أن التحقيق معى لم ينته بعد. وطالما بقيت فى العيادة فإنه سيخبرهم أن حالتى لاتسمح بالتعذيب مرة أخرى.

* * *

وفى الصباح حضر مصطفى الجنزوى، وفتح باب الزنزانة بالمستشفى وسألنى إذا كنت قد غيرت رأيى أم لازلت مصراً عليه.. ولوح لى أن الدولة من مصلحتها أن تتخلص من هذا الرجل المجرم (الأودن) وأننى إذا ساعدتها فى ذلك فإنها ستكافئنى وهى لاتنسى من يخدمها.. فقلت له إننى عاجز عن خدمة دولتكم، وحسبى ماأنا فيه.. وقلت له: قل لبدران الذى أرسلك إننى لم أمت ولن أموت إلا بإذن الله..

فلوح بتهديد من نوع جديد. وقال فيه ناس مايهمهومش الضرب ولكن فيه طرق أخرى تنفع معاهم.. وفهمت مايرمى إليه؛ فقد كان يريد أن يفهمنى أنهم سيحضرون زوجتى لإكراهى على مايطلبون.. ولما كنت قد وطنت نفسى صادقاً على الموت، فلم يفزعنى هذا التهديد واعتبرته لوناً من البلاء المبين الذى كتب علينا.. وقد طمأننى ربى بأمور رأيتها زادتنى إيماناً ويقيناً بأن الله معى ولن يخذلنى أو يتخلى عنى أبداً.

وفى اليوم التالى أحضر سيدة ووقف يكلمها أمام باب زنزانتى بالمستشفى والباب مغلق، وهو يتكلم بصوته الأجش وهى تتكلم بصوت خافت حتى لاأستطيع أن أميز الصوت.. ثم أمر جندياً باصطحابها إلى سجن رقم ٤.. وفعلاً أخذها الجندى خارج المستشفى.. فساورنى القلق، وأردت أن أستقصى الأمر فأرسلت أحد جنود العيادة ليراها ويصفها لى، فذهب ووصفها لى فوجدتها سيدة أخرى ساقتها الأقدار إلى براثن هؤلاء الوحوش فأراد أن يوهمنى أنها زوجتى. ولكن الله من ورائهم محيط.

* * *

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣	١٦	المسلون	المسلمون
٨	١٩	منشوه	منشؤه
١٦	١٨	صدَق	صدَّق
٢١	٦	يتكلون	يتكلمون
٢٢	٨	المستشا	المستشار
٢٤	٢ من تحت	منا	لاغية
٢٤	٢ من تحت	تراكنا	أو اشتراكنا
٢٤	الأخير	مرشد	المرشد
٢٥	٦	الأرشاد	الإرشاد
٢٧	٨	عصاه	عصاة
٢٧	١٠	عصاه	عصاة
٣٠	٧	الأرشاد	إرشاد
٣٠	١١	الأرشاد	الإرشاد
٣٠	١٣	سمعه	سمعة
٣١	١١	أن أن	أن
٣١	٢١	السطات	السلطات
٣٢	٩	الآف	آلاف
٣٥	الأخير	بذأت	بدأت
٣٧	٢	اتفامية	اتفاقية
٣٨	٩	الأوى	الأولى
٣٨	١٠	م يكد الجانى الأثيم	لم يكد الجانى الأثيم
٤٠	٥	المجتمعه	المجتمعة

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤٢	٤	المحكمه	المحكمة
٤٣	١	الحقيقه	الحقيقة
٤٧	٤	إحداى	إحدى
٥٢	٦	للإ	للإخوان
٥٣	٥	فاستسصدر	فاستصدر
٥٤	١٦	موضوع	موضع
٥٤	١٨	فلجئوا	فلجأوا
٥٨	٧	يولّد	يولّد
٨٥	٨	ام	أمر
٨٨	٢ من تحت	فى فى	فى
٨٩	١	تويع	توزيع
٩٢	٤	الزراعة	الزراعية
٩٢	٨	الزراعة	الزراعية
٩٦	٤	مليون	مليونا
٩٦	٧	علية	عليه
٩٦	١٩	تستهلكة	تستهلكه
١٠٦	١٠	تشوبها	يشوبها
١١٨	١٤	القوانيين	القوانين
١١٩	١٦	حياتة	حياته
١١٩	٢١	الدنبا	الدنيا
١٢٠	٦	الفقة	الفقه
١٢٠	٦	يقتضنى	يقتضى
١٢٢	٦ من تحت	اهواء	أهواء
١٢٣	٨ من تحت	ساسا	أسادسا
١٢٤	١١	آخوية	أخوية
١٢٧	٨	التأسيسة	التأسيسية

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢٩	٦ من تحت	المعيشية	المعيشة
١٣٥	٤ من تحت	الخلق	الخالق
١٤١	٧ من تحت	أبو قيق	أبو رقيق
١٤١	٦ من تحت	يواحه	يواجه
١٤٢	١١ من تحت	بأبيده	بتأييده
١٤٨	٤	اا	المرشد
١٤٨	٦	الاستاد	الاستاذ
١٤٨	١٢	حرينا	حزينا
١٤٩	٧	التأسية	التأسيسية
١٥٠	٦ من تحت	المحكة	المحكمة
١٥٢	٣	قرار	قرارا
١٥٣	٥	وَوْجَة	وَووجه
١٥٥	٩ من تحت	ينسبنا	ينسينا
١٦٣	٧	لآن	لأن
١٦٣	١٤	شؤنه	شئونه
١٦٨	٤ من تحت	أسرائيل	إسرائيل
١٦٩	٥	علـ	علـم
١٦٩	١٢	خبره	خبرة
١٧٠	١	رئيسة	رئيسية
١٧٤	٧	أستاتذة	أساتذة
١٧٤	٨ من تحت	اللية	الليلة
١٧٤	٧ من تحت	يكر	يكـن
١٧٥	١٠	شعيبا	شعبيا
١٧٧	٤	آخرى	أخرى
١٧٩	٩	إذ	إذا
١٨٠	٣	وحمع	وجمع

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٩٠	٤	تمحضت	تمخضت
١٩٢	١٠	القـ	القيادة
٢١١	٨	ذك	ذلك
٢١٢	٩	أسوها لصحف	أبلغوها للصحف
٢٣٣	٦ من تحت	ديمسبر	ديسمبر
٢٣٤	١٥	مطان	مظان
٢٣٥	١٩	تيلقاها	يتلقاها
٢٣٧	١	ياحضرت	ياحضرات
٣٤٣	٧ من تحت	سمعته	بسمعته
٢٤٥	٦ من تحت	سطة	سلطة
٢٥٣	٢ من تحت	تبعائها	تبعاتها
٢٥٤	١	محاولة أخر	?
٢٥٩	٣ من تحت	جديدة	جديد
٢٦٠	٩ من تحت	بالستلسل	بالتسلسل
٢٦٤	١٦	الحقيقة	الحقيقية
٢٦٦	٢	لإخوان	الإخوان
٢٨٢	٦	بشائرة	بشائره
٢٩٣	١٦	الطبيعة	الطبيعية
٢٩٣	١٧	الطبيعة	الطبيعية
٢٩٦	٨ من تحت	بجمع	جمع
٢٩٧	١١	شبة	شبه
٢٩٧	١٤	المتبانية	المتباينة
٢٩٧	١٦	التفت	التقت
٣٠٠	١٦	السليمة	السلمية
٣٠١	١٠ من تحت	النيابة	النيابية
٣٠٨	٨	ومائلاه	وما تلاه

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٠٩	١	تجناز	تجتاز
٣١٠	٦	ويوجيه	ويوجبه
٣١٨	١٧	عسكر	عسكرية
٣٢٧	٥	عسكرين	عسكريين
٣٣١	٣	بخطه	بخطة
٣٤٨	٣ من تحت	ثم طاقه	ثم مدَّ نطاقه
٣٤٨	٧ من تحت	زميلة	زميله
٣٤٩	١٥	آله	آلة
٣٥٠	٤ من تحت	حول	حاول
٣٥٤	١٢	بالتنوية	بالتنويه
٣٥٤	١٤	نفاقمت	تفاقمت
٣٧٤	٢	حديثة	حديثه
٣٧٤	٥ من تحت	شعل	شغل
٣٨٨	٥	الد.وة	الدعوة
٣٨٨	٦	تصدى	التصدى
٣٩٢	٩	لدا	لذا
٤١٦	٩	ذا	هذا
٤١٦	١٢	أنبئكم	ننبئكم
٤١٧	٥	العسكرين	العسكريين
٤١٧	١٣	يثبادر	يتبادر
٤٣١	٣	ءدارة	إدارة
٤٣٢	٥	منن	من
٤٤٢	آخر	تمحصت	تمخضت
٤٤٧	٤	على أن تعدلوا	على أن لاتعدلوا
٤٥٢	٣	الحضيص	الحضيض
٤٥٤	٢	حمه	رحمه

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤٦١	٣	إنا معم	إنا معكم
٤٧٥	١	الإزهاب	الإرهاب
٤٩٧	١٥	وقلنا	قلنا
٤٩٨	١	بهدا	بهذا
٥٠٧	٥	طريقة	طريق
٥١٨	١٩	فيكف	فكيف
٥٣٩	٧	تزيع	تزيغ
٥٥٠	١٣	وأضحة	واضحة
٥٧١	١٦	يرحجه	يرجحه
٥٧١	١٦	مزذوحا	مزدوجا
٥٧٤	٨ من تحت	أبو...رة	أبو نضارة ؟
٦١٢	٩	الفوغائية	الغوغائية
٦١٢	٩	ولاعلام	والإعلام
٦٢٣	٥	عطمى	عظمى
٦٣٨	١٦	حيت	حييت
٦٥٥	٢	بعنفها	بعنقها

* * *